

لطائف الإشارات

تفسير صوفي كامل للقرآن الكريم

للإمام القشيري

المجلد الأول

الطبعة الثالثة

قدم له وحققه وعلق عليه

الدكتور / إبراهيم بسيوني

الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٠

الهيئة المصرية العامة للكتاب

إدارة التراث

رئيس مجلس الإدارة

د. سمير سرحان

المشرف على إدارة التراث ورئيس التحرير

سعيد عبد الفتاح

سكرتير التحرير

أهيمه على أحمد

الغلاف

جمال قطب

مدخل

ترجع أهمية نشر هذا الكتاب إلى ثلاثة عوامل رئيسية :

أولاً : أنه من الناحية الموضوعية يعالج قضية هامة وهي تفسير القرآن الكريم على طريقة أرباب المجاهدات والأحوال ، وهذا منهج في التفسير نادر في المكتبة العربية ، فأنت تستطيع أن تجد عدداً غير قليل من التفسير التي تتناول النص القرآني في ضوء اللغة العربية أو الإعراب أو البلاغة أو الفقه أو أسباب النزول أو التشريع أو القصص والأخبار أو نحو ذلك مما هو مألوف ومعروف منذ نزل القرآن ومنذ ظهرت الاتجاهات المختلفة في دراسته ، ويمكن أن تجد عدة مصنفات لعدة شخصيات في كل لون من هذه الألوان بحيث يفتيك واحد أو اثنان منها عما سواهما .

فإذا بحثت عن التفسير الصوفي ألفيته — على العكس من ذلك — نادراً ، وألفت الإنتاج فيه غير شافٍ ، فإما أن يكون مقتضباً « كتفسير القرآن العظيم » لسهل بن عبد الله الشَّشْرِي (المتوفى سنة ٢٨٣ هـ) وقد طبعته السعادة في عام ١٩٠٨ م فيما لا يزيد على مائتي صفحة ، ويستطيع القارىء أن يتصور كيف يمكن لمائتي صفحة أن تعنى بدراسة القرآن على نحو مرضٍ .

وإما أن يكون مطعوناً فيه كما هو الشأن في « حقائق التفسير » لأبي عبد الرحمن السُّلَمِي (المتوفى سنة ٤١٢ هـ) الذي يقول في وصفه — ونحن نقطف منه هذه الفقرة لنوضح ما قلناه آنفاً عن ندرة التفسير الصوفي : « لما رأيت التوسمين بعلوم الظاهر قد سبقوا في أنواع فرائد القرآن من قراءات وتفسير ومشكلات وأحكام وإعراب ولغة ومجل ومفضل ، وناسخ ، ومنسوخ ، ولم يشتغل أحدٌ منهم بفهم الخطاب على لسان الحقيقة إلا آيات متفرقة أحببت أن أجمع حروفاً أستحسنها من ذلك وأضم أقوال مشايخ أهل الحقيقة إلى ذلك وأرتبه على السور حسب وسعى وطاقتي » [حقائق التفسير للسلمي مخطوطة ١٥٠ تفسير دار الكتب ص ٢٢١] .

وعندما ظهر حقائق التفسير ، أحدث ضجة كبرى ، فقد لقي معارضة شديدة من معاصريه
ومن أتوا بعده ، فاتهم بالابتداع والتحريف والقرمطة والتشيع ووضع الأحاديث على الصوفية
يقول ابن الصلاح : (وجدت عن الإمام الواحدى أنه قد صنّف أبو عبد الرحمن السلى
حقائق التفسير ، فإن كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر)

وقال الذهبي في « تذكرته » : أتى السلى في « حقائقه » بمصائب وتأويلات للباطنية
نسأل الله العافية تذكراً للحفاظ ج ٣ ص ٢٤٩ .

ووصفه ابن تيمية بالكذب : (منهاج السنة ج ٤ ص ١٥٥) .

وعد السيوطي تفسيره ضمن التفاسير المبتدعة معللاً لذلك بقوله : « » وإنما أوردته
في هذا القسم لأنه غير محمود (طبقات المفسرين للسيوطي ط ليدن سنة ١٨٣٩ ص ٣١) .

أما إخوان الصفا الذين يحشرهم جولد تسهر ضمن مفسري الصوفية في كتابه (مذاهب
التفسير الإسلامى) ، فهم أولاً غير صوفية وإنما هم جماعة من المشتغلين بالفلسفة ذوى أغراض
بعيدة خبيثة ، ضمت صفوفهم لفيقاً من الناس مختلفى النزعات والثقافات حتى كان من بينهم
ملاحدة ، فأحالتهم على الصوفية تبحر على الحقيقة وعلى التاريخ وعلى التصوف ، ولنا نبرىء
جولد تسهر من ذلك — مع تقديرنا لكتابته القيم .

وحتى القرن الخامس الهجرى لا نجد كما يقول صاحب (تاريخ أدبيات در ايران) : « أم
من حقائق السلى ولطائف الإشارات للقشيري وتفسير سورة الإخلاص للغزالي » [تاريخ
أدبيات در ايران للدكتور ذبيح الله صفا (مكتوب بالفارسية) فصل التفسير
صفحة ٢٥٦ ، ٢٥٧] .

وبعد ذلك بنحو قرن نلتقى بتفسير ابن عربى الذى هو قبل كل شيء مطعون فى سبته
إليه ، وفى ذلك يقول الشيخ محمد عبده (اشتبه على الناس فيه كلام الباطنية بكلام الصوفية ،
وينسبونه للشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى ، وإنما هو للقاشانى الباطنى الشهير) ويضيف
الأسناذ الإمام (وفيه من التزعات ما يبرأ منه دين الله وكتابه العزيز) تفسير المنار
ج ١ ص ١٨) .

نعم صدق الأستاذ الإمام ، فالكتاب مملوء بدعاوى وحدة الوجود ، وما جرّه هذا المذهب من ويلات ، ولسنا هنا بصدد دراسة تفصيلية له ، ولكننا نشعر بالحاجة إلى أن نسوق شواهد قليلة تثبت مجانبة هذا التفسير للحق ، وكيف أنه لا يصح أن يكون نموذجاً للاتجاه الصوفي السديد — كما حلا لجولد تسبهر أن يظهره ويتحمس له ، ليخرج من ذلك بأحكام عامة يصدرها عن التصوف الإسلامى — كما نرى بروى غليله .

ففى سورة الزمل عند قوله تعالى (واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً ، يقول : (واذكر اسم ربك الذى هو أنت . . .) ١١ ص ٢ ص ٣٥٢ .

وفى سورة الواقعة عند قوله تعالى (نحن خلقناكم فلولا تصدقون) ، يقول : نحن خلقناكم بإظهاركم بوجودنا ، وظهورنا فى صوركم) ج ٢ ص ٢٩١ وليس هذا التصور بمستغرب على من يقول إن عجل بنى إسرائيل أحد المظاهر التى اتخذها الله وحلاً فيها ١١

وليس من الإنصاف أن يقال للناس هذا هو رأى الصوفية المسلمين ولا رأى بعده ، بل يجب أن نضع فى اعتبارنا أن مذهب وحدة الوجود مذهب فلسفى يتعدى عن المنهج القلبي العرفاني الذى اختطه أرباب المجاهدات والأحوال للوصول إلى وجهة الشهود ، وفى وحدة الشهود — ومهما قيل عنها من كلام ظاهره مستشنع وباطنه سليم على حدّ تعريف أبي نصر السراج الطوسى للشطح — يبقى دائماً شىء هام قوى ناصع أن العبد عبد والرب رب ولا تداخل ولا امتزاج ولا حلول ولا اتحاد ، بل بمقدار ما يصل العبد إلى تحقيق عبوديته يصل إلى التحقق من ربوبيته الرب وتنزيهه عن كل إفك وباطل . . . تعالى الله علواً كبيراً .

ولا ينبغي لنا أن نغض الطرف عن قيمة التفاسير المبعثرة فى المراجع الصوفية الكبرى لآيات بعضها من القرآن الكريم ، فإن تبثر هذه التفاسير لا يحول دون تقديرها حق قدرها ، ذلك لأنها غالباً ما سبقت لتدعيم موقف أو لتشهد على استمداد فكرة أو لفظة ، فهى من هذه الناحية لا تخرج عن كونها تفسيراً صوفياً غير مجموع .

وفبعدها ذلك يمكن القول إن أبرز التفاسير الصوفية التى نعرفها كتابان أولهما « عرائس البيان فى حقائق القرآن » لأبى محمد روزبهان بن أبى النصر البقلى الشيرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ [كشف الظنون ج ٢ ص ٢١]

وثانيهما التأويلات النجمية « لنجم الدين داود المتوفى سنة ٦٥٤ هـ وقد مات قبل أن يكمله فأكله علاء الدولة السمناني المتوفى ٧٣٦ هـ (كشف الظنون ج ١ ص ٢٣٨) .

* * *

لأجل هذا كله نحتفل « بلطائف الإشارات » فأغلب ما سقناه من تفاسير صوفية لا يسلم من النقد ، ولا يصح أن يكون نموذجاً صالحاً لتمثيل الصوفية والتصوف بأمانة وصدق . « لطائف الإشارات » سفر نفيس كتبه صاحبه محاولاً أن يوفق بين علوم الحقيقة وعلوم الشريعة ، وقاصداً إلى هدف بعيد أنه لا تعارض بين هذه وتلك ، وأن أى كلام يناقض ذلك خروج على أى منهما وعلى كليهما (فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول ، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محصول ، الشريعة أن تعبد والحقيقة أن تشهد) الرسالة القشيرية ص ٤٦ .

وهذا ما حدث فعلاً . . فأنت خلال قراءة « اللطائف » تشعر أن كل صغيرة وكبيرة في علوم الصوفية لها أصل من القرآن ، ويتجلى ذلك بصفة خاصة حيناً ورد المصطلح الصوفي صريحاً في النص القرآني كالذكر والتوكل والرضا ، والولى والولاية والحق والظاهر والباطن ، والقبض والبسط . . الخ فلا تملك إلا أن تحكم أن الصوفية قد استمدوا أصولهم وفروعهم من كتاب الله الكريم ، وأن علومهم ليست غريبة ولا مستوردة كما يحلو لبعض الباحثين حين يتهمون التصوف الإسلامى بالتأثر بالتيارات الأجنبية : اليونانية والفارسية والهندية والمسيحية ونحوها .

كذلك تلحظ عبقرية القشيري إزاء اللفظة أو الآية حيناً لا يكون فيها اصطلاح صوفى ، فإنه يستخرج لك من آيات الطلاق إشارات في الصحبة والصاحب ، ومن علاقة النبي بأصحابه إشارات عن الشيخ ومريديه ، ومن مظاهر الطبيعة كالشمس والقمر والمطر والجبال إشارات رائعة تتصل اتصالاً وثيقاً بالرياضيات والمجاهدات أو بالمواصلات والكشوفات .

وربما قيل إن صنيع القشيري مسبوق وملحوق ، ولكن هانحن منذ قليل أوضحنا مقدار ما أصاب التفاسير الصوفية من سهام النقد ، وبقي أن نتعرف الأسباب التى جعلتنا نحكم بأن لطائف الإشارات ، خير مناضل عن التفسير الصوفى بعامة ، بل بأنه من أفضل الأعمال

التي أنتجتها قرائح الصوفية في شتى العصور ، وربما يبدو في ذلك بعض التعميم مع أن الأحكام العلمية ينبغي ألا تخضع للتعيم لأننا لا نستطيع أن ندعى المعرفة الشاملة بكل التراث الصوفي ، ونعترف أن عشرتنا مع الكتاب وصاحبه عشر سنوات كاملة أثناء إعداد بحثي الماجستير والدكتوراه في الموضوعات الصوفية ، ونعترف أن حماسنا لما نلاحظه من الاعتدال عند القشيري دون سائر الباحثين ، ونعترف أن ما كنا نشعر به من وجوه النقص في سائر المصنفات التي نهض بها غيره في هذا الخصوص — كل ذلك ربما كان الدافع إلى لجوئنا إلى هذا الحكم الذي سقناه .

ومن أعجب الأمور أن القشيري يشتهر « بالرسالة » التي لا تخرج عن كونها مجموعة من الأسانيد المنسوبة إلى الشيوخ في موضوعات معينة ، ومجموعة من التراجم لأبرز الشيوخ الذين ظهروا منذ نهاية القرن الثاني الهجري حتى بداية القرن الخامس في صفحات قليلة ربما أغنت عنها الكتب المطولة التي وضعت خصيصاً لهذا الغرض مثل تذكرة العطار أو طبقات السلي أو طبقات الشعرائي ونحوها . ومع تقديرنا « للرسالة » إلا أننا لا نعتبرها بحال من الأحوال أفضل أعمال القشيري ، وأنها ظلمته حين شهرته ، وحين أوقفت اسمه عليها ، وأصبح حتماً منذ الآن أن يقول الناس « القشيري صاحب اللطائف » لا صاحب « الرسالة » . فاللطائف هي أبلغ أعماله التي تزيد على العشرين — في نقل صورة واضحة لشخصيته ، ولست أدري لماذا لم يجد هذا الكتاب ما هو جدير به من الاهتمام في العصور الماضية ؟ لماذا حكم عليه دائماً أن يبقى في منطقة الظل ؟ حتى صار ما نعرفه عن نسخته كما نفهم من « تذكرة النوادر » وكما يقول بروكلمان — محدوداً ومبعثراً بين روما وبرلين واسطنبول وتونس والهند والقاهرة ، ومعظمها كما سندكر بعد قليل غير كامل .

ولكي ندرك أهمية هذا الكتاب في تصحيح كثير من المقاييس العلمية عن التصوف والتفسير الصوفي لا بُدُّ لنا أن نلم بشيء من سيرة صاحبه ، ونكتفي من معالم هذه السيرة بما يمكن أن يتبرر به وصول هذا العمل الجليل بتلك الأوصاف وإلى تلك النتائج . وذلك هو العامل الثاني لأهمية نشر هذا الكتاب :

ثانياً : صاحب هذا الكتاب هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد القشيري ، ولقبه زين الإسلام ، وشهرته القشيري .

ولد في ربيع الأول عام ٣٧٦ هـ الموافق يوليو ٩٨٦ م .

وتوفي في يوم الأحد السادس عشر من ربيع الآخر عام ٤٦٥ هـ وهو عربي النسب من جهة أبيه فهو من قبيلة قشير العدنانية المتصلة بهوازن ، ويذكر ابن حزم أن سلالات من قشير اتجهت إلى المغرب نحو الأندلس إبان الفتح الإسلامي زمن الأمويين ، واتجه بعضها إلى المشرق وكان منها ولاية وقواد على خراسان ونيسابور . (جهرة الأنساب ٢٧٣ و ٤٥٩) كذلك فإن القشيري عربي النسب من جهة أمه فهي سلمية وأخوها أبو عقيل السلمي من وجوه دهاقين أستورا ، واستورا هي الناحية التي ولد فيها القشيري وتلقى بها تعليمه الأولي .

وحدث أن اجتاحت المنطقة ضائقة اقتصادية ، ففكر الأهالي في إرسال ليف من أبنائهم إلى نيسابور لكي يتلقوا من دروس الحساب ما يمكنهم — بعد عودتهم — من المشاركة في تنظيم الأمور الاقتصادية ، وكان القشيري أحد هؤلاء الأبناء .

وبدأ القشيري في نيسابور يتعمق في هذا اللون من الدراسة ، ولكنه ما لبث أن انصرف عنها عندما اجتذبه مجالس الفقه والكلام والحديث والتفسير والأدب ، ولم تبخل نيسابور عليه يزاد ، فلقد كانت في ذلك الوقت تعج بالنشاط الفكري ، وتحفل بكبار الشيوخ أمثال ابن فورك ، ومحمد بن أبي بكر الطوسي ، وأبي إسحق الاسفراييني ، وقد ظفر القشيري في كنف هؤلاء الأئمة برعاية خاصة حينما أتيح له الاتصال بهم ، وأتيح لهم معرفته عن قرب ، ووضح لهم فيه حسن الاستعداد ، والدأب ، واستقامة الخلق .

ولم يكن القشيري يضيع فترة ما بعد الدرس هباء ، بل كان ينكب على القراءة والاستذكار وكان شديد الوأج بالعلوم العقلية ، وبخاصة تلك التي تتناول المسائل التي طالما اشتجر الخلاف حولها بين الأشاعرة وأهل الاعتزال ، واستوعب في هذه الفترة معظم ما صنف الباقلاني .

وجاء يوم سأل فيه الإمام الاسفراييني تلميذه القشيري — حين وجده لا يكتب كما يكتب سائر الطلاب : أما علمت يا بني أن هذا العلم لا يحصل بالسماع ؟

(ولكن القشيري أعاد عليه كل ما سمعه ، وقرره أحسن تقرير ، من غير إخلال بشيء فتعجب منه وأكرمه ، وقال له ما كنت أدري يا بني أنك بلغت هذا المحل ، فلست تحتاج إلى درس يكفيك أن تطالع مصنفاً ، وتنظر في طريقي ، وإن أشكل عليك شيء طالعني به .

فعل ذلك ، وجمع بين طريقة الاسفرايينى وطريقة ابن فورك (طبقات الشافعية للسبكي ج ٣ ص ٢٤٣ وما بعدها .

وبينا كان القشيري منصرفاً بكل همه إلى هذا اللون من الدراسة ، دائب الاتصال بهذا الطراز من الشيوخ ساقه القَدَرُ ذات يوم إلى مجلس من لون آخر يتصدره شيخ من طراز آخر . استمع القشيري إلى أبي على الدقاق وهو يعظ على طريقة الصوفية ؛ ويتحدث في الرياضات والمجاهدات ، والأحوال والكشوفات ، والأذواق والمواجيد ، والمعارف العليا التى تنال من الحق على عباده الذين اصطفاهم ، وإذا بالرجل والحديث يستوليان عليه ، ويملكان فيه كل ذرة ، وإذا القشيري يحادث نفسه صامتاً : إني لهذا خلقت !

وعندما كان ينهياً ليغشى ما اعتاد من مجالس كانت أقدامه تسوقه نحو الدقاق ومجلسه ، فكان أول من يجلس وآخر من ينهض .

ولمحه الشيخ ، ورأى فيه إصغاء ملفتاً للنظر ، فقربه منه ، وحباه بمعطفه .

و ذات يوم تقدم الطالب — فى استحياء — من شيخه ، فشكا إليه أمراً حَزَبَهُ ، إنه لا يستطيع أن يجمع بين المواظبة على ما اعتاد من مجالس وبين مجلس الدقاق ، وهو يؤثر أن ينصرف بكل همه وعزيمته إلى علم القلوب ، وابتم الشيخ للشاب ، وتطلع إلى وجهه ، وربت على كتفه قائلاً :

— إنما ينبغي لك أولاً أن تتقن دراستك بقدر طاقتك !

ومضى الشاب الطموح يجمع بين الدراستين ، وساعده ذلك على أن يكون تكويناً عقلياً ووجدانياً فى مرحلة من أدق مراحل العمر ، كما ساعده على أن يتجنب كثيراً من المشاكل النفسية التى تلم بأمثاله نتيجة الاغتراب عن بلده ، ونتيجة للذل .

وأعجب الدقاق بمثابرته وطموحه واستقامته وتواضعه (فاختاره لكريمته فاطمة مؤزراً إياه على سائر أقربائها الذين تقدموا لخطبتها) ، وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٧٥ .

وهكذا توثقت الصلة بين الشيخ والشاب ، وصار الدقاق رائده وملهمه الذى أمانه على مواجهة مشكلات الحياة ، وبصره بأفات النفس وأدوائها ، وكشف له عن الكثير من الخفايا والدقائق .

فكان هذا الاتصال عاملاً جديداً من عوامل الاستقرار النفسى ، وبداية لمرحلة جديدة من النضج الفكرى ، لأنه أتاح له أن يجد فى صهره شيخاً ورائداً وصديقاً ، وسهّل عليه أن يرجع إليه يستنصحه إزاء كل مسألة تعرض له أو أمر ينبهم عليه ، فلم يقع تحت تأثير بلبلة ، ولم يخضع لأزمة ، ولم تتجاذبه ضغوط أو صراعات .

كل ذلك ترك أثره فى شخصيته ، فلسنا نجد فى مؤلفاته اضطراباً أو جموحاً أو غموضاً ، ولسنا نشعر فيما وراء السطور بعقدة من العقد ، ولسنا نحس بميل إلى ابتداع ، إنما نجد أنفسنا أمام شخصية سوية ، يتميز الخط الفكرى لها بالاستقامة والاعتدال ، والوضوح والصدق ، والإخلاص والبذل .

ولعل أبسط دليل على وفاء القشيري لشيخه أنك لو تصفحت « رسالته » لما غاب اسم الدقاق عن عينك ، وهو يذكر اسمه دائماً مقروناً بالنكريم والترحم ، ويكفيك أن تقرأ هذه الفقرة لتوضح لك أولاً شيئاً عن مسلك القشيري خلال حياته العلمية وتوضح لك ثانياً مدى ما ينبغى أن تكون عليه علاقة المريد بشيخه ، فهذه وتلك تصور ما نرمى إليه من بعيد عن كشف جوانب فى سيرة الرجل الذى تقدم لك كتابه .

يقول القشيري : « لم أدخل على الأستاذ أبي على — رحمه الله — فى وقت بدايتي إلا صائماً ، وكنت أغتسل قبله ، وكنت أحضر باب مدرسته غير مرة فأرجع من الباب احتشاماً من أن أدخل عليه ، فإذا تجاسرت مرة ودخلت ، كنت إذا بلغت وسط المدرسة يصحبنى شبه خدر حتى لو غرّز فى إبرة مثلاً لعلّى كنت لا أحس بها . ثم إذا قعدت لواقعة وقعت لى لم أحتج أن أسأله بلسانى عن المسألة ، فكلما كنت أجلس كان يبتدىء بشرح واقعى ، وغير مرة رأيت منه هذا عياناً ، وكنت أفكر فى نفسى كثيراً إنه لو بعث الله عز وجلّ فى وقى رسولاً إلى الخلق هل يمكننى أن أزيد فى حشته على قلبى فوق ما كان منه رحمه الله تعالى ؟ فكان لا يتصور لى أن ذلك ممكن ، ولا أذكر أنى فى طول اختلافى إلى مجلسه ثم كونى معه بعد حصول الوصلة أن جرى فى قلبى أو خطر ببالى عليه قط اعتراض إلى أن خرج — رحمه الله تعالى — من الدنيا (الرسالة ص ١٤٧) .

وليس استطراداً أن نذكر لك كلمة موجزة عن رأى عبد الرؤوف المناوى فى الدقاق ،

لأن هذه الكلمة على إيجازها لا تكشف لك عن سمات الدقائق وحسب إنما هي سمات ،
القشيري ذاته في أدق التفاصيل .

يقول المناوي « هو أبو علي الحسن الدقاق النيسابوري الشافعي ، كان لسان وقته وإمام
عصره ، فارها في العلم ، محمود السيرة ، مجهود السريرة ، جنيدى الطريقة ، سرى الحقيقة ،
أخذ مذهب الشافعي عن القفال والحصري وغيرهما ، وبرع في الأصول وفي الفقه وفي العربية
حتى شذت إليه الرجال في ذلك ، ثم أخذ في العمل ، وسلك طريق التصوف ، وأخذ عن
النصراباذي ، قال ابن شهبه : وزاد عليه حالاً ومقاماً . . . وقد أخذ عنه القشيري صاحب
« الرسالة » وله كرامات ظاهرة ومكاشفات باهرة ١٠٤ هـ كلام المناوي بعد أن أخذ يضرب
أمثله لأقواله المنشورة والمنظومة [السكواكب الدرية في تراجم الصوفية ترجمة الدقاق] .

أمّا في مجال الصداقة فلعلّ أوثق من عرف اتصالاً به صديقه أبو عبد الرحمن السلمي
وصديقه أبو المعالي الجويني إمام الحرمين .

وترجع أهمية السلمي في حياة القشيري إلى أنه غزير الإنتاج في العلوم الصوفية ، وأن
القشيري استفاد من علمه ، وآية ذلك أنك تجد السلمي في « الرسالة » حلقة اتصال بارزة
في العديد من الأسانيد والأخبار التي عليها يعتمد القشيري موصولة بالدارقطني والسراج
والنصراباذي وغيرهم ، ولكن الأهم من ذلك — في تقديرنا — أن القشيري استفاد من السلمي
فائدة أبعد أثراً ، ذلك أنه تجنب التورط في المزالق التي أدت بصديقه إلى أن يُنهم وأن يكون
موضع نقد معاصريه ومن جاء بعده ، وقد نوّهنا بشيء من ذلك عند كلامنا عن « حقائقه » .

أمّا الجويني فقد كان — كالقشيري — شافعيّاً من حيث المذهب الفقهي ، أشعريّاً من
حيث العقيدة الكلامية ، وقد تعرّض — كالقشيري — لآلام المحنة التي اكتوى بناوها
الأشاعرة ، والتي سنتحدث عنها بعد قليل ، وهاجر البلاد وجاور الحرمين ، ولم يعد إلى وطنه
إلا بعد انجلاء الغمة .

وإذا كان السلمي صديقاً أقرب إلى الاستاذ فإن الجويني كان صديقاً أقرب إلى التلميذ ،
فقد استفاد من علم القشيري ، فإذا تذكرنا أن الجويني أستاذ الغزالي أمكن أن نقول إن

القشيري موصول بالغزالي لا بطريق المصنفات التي خلفها وحسب بل بطريق السند الذي يمثلها الجويني .

وفي مجال الحياة العملية نجد القشيري يضطلع بأعمال تتفق واستعداده وثقافته ، فقد اشتغل بالتدريس في مسجد المطرز وهو في الثلاثين من عمره ويتضح ذلك من هذا النص : « كنت في ابتداء وصلي بالامتاز أبي علي » — رضى الله عنه — عقد لي المجلس في مسجد المطرز ، فاستأذنته وقتاً للخروج إلى « لسا » ، فكنت أمشي معه يوماً في طريق مجلسه ، فخطر ببالي : لينه ينوب عني في مجالس أيام غيبيتي . . . الخ » الرسالة ص ١١٦ .

وإلى جوار ذلك كان القشيري يعكف على التأليف دون انقطاع فانهى من التفسير الكبير المعروف (بالتيسير في التفسير) قبل عام ٤١٠ هـ ، ومن اللطائف عام ٤٣٤ ، ومن الرسالة عام ٤٣٧ واستمر يمارس هذا النشاط في دأب لا يعرف الكلال حتى وصلت كتبه إلى خمسة وعشرين كتاباً أو نحوها ، ومن أهمها إلى جوار ما سبق : ترتيب السلوك ، والتجوير في التذكير ، والأربعون حديثاً ، وشكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة ، واستفادات المرادات ، والقصيدة الصوفية ، والتوحيد النبوي ، واللمع ، والفصول ، والفتوة ، ونحو القلوب الصغير ، والكبير ، والمقامات الثلاثة ، وفتوى ، والمعراج .

ولم يطبع من هذه الكتب إلا النذر اليسير ، وفي النية أن تقوم — بعون من الله — بإخراج ما وقع لنا منها خلال رحلات طويلة عديدة ، حتى يزداد الناس علماً به وتقديراً له .

ولم يسلم القشيري خلال حياته من المحن والآلام ، وربما كانت أشدها جميعاً ما حدث له إبّان حكم السلطان طغرل ووزيره اللعين الكندري .

كان السلطان طغرل سنياً حنفياً ، ووزيره أبو نصر الكندري معتزلياً رافضياً ، خبيث العقيدة ، ذا آراء مسرفة في التشبيه وخلق الأفعال ، والقدر ، وكان متعصباً في ذلك أشد التعصب .

وفي هذا الوقت كان بنيسابور شخصية فذة لها في أوساط العامة والخاصة نفوذ كبير ، ومحبة فائقة ، ذلكم هو الاستاذ أبو سهل بن الموفق أحد رجال الطبقة الرابعة الشافعية ،

وكان كثير للمال جواداً ، وكان مرموقاً بالوزارة ، وداره مجتمع العلماء ، وملئى الأئمة ، ونظراً لما عرف عنه من تعلق بالمذهب الأشعرى ، وذود عنه ، وسعى حيث لنشره فقد ألهب ذلك حقد الكندرى ، خاصة وقد كان يخشى أن يقع اختيار السلطان عليه للوزارة من دونه ، فضى يلفق — لدى السلطان — عنه التهم . ولم يكتف بذلك بل لجأ إلى حيلة دنيئة حين حصل من السلطان على تفويض بسبِّ المبتدعة على للنابر ، فلم يجد السلطان فى ذلك بأساً ، فوافق عليه ، ولكن الكندرى استغل هذه الموافقة فأقحم اسم أبى الحسن الأشعرى ضمن المبتدعة الواجب سبهم ، وكل من كان يرفض الانصياع لذلك من الوعاظ والخطباء يفصل من عمله ، ويطرده من البلاد ، فنجم عن ذلك شر خطير ، وفتنة كبرى امتد شررها إلى سائر المشرق ، وبات الأشاعرة فى حزن مقيم .

وفى وسط هذه المحنة ، وذات يوم كتيب أسود جاء الأمر من قبل السلطان بالقبض على القشيرى وإمام الحرمين والرئيس الفراتى وأبى سهل الموفق ، ونفيهم ، ومنعهم من المحافل ، وحين قرئ الكتاب هجم جماعة من الأوباش على الاستاذ الفراتى وعلى القشيرى وأخذوا يجرونهما فى الطرقات ، ويكيلون لهما أقذع أنواع التهم والاستخفاف حتى وصل الشرطة بهما إلى محبس القهندر .

أمّا إمام الحرمين فقد هرب من البلاد على طريق كرمان ، واتجه إلى الحجاز ، وهناك جاور ، وأمّا أبو سهل . فقد كان لحسن الحظ غائباً فى بعض النواحي .

وبقى السجينان الجليلان فى المحبس ، وقامت جماعات كبيرة من الناس لإنقاذهما ، وحدثت حرب دامية بينهم وبين رجال السلطان انتهت بهزيمة رجال السلطان ، وأخرج السجينان الجليلان من سجنهما ، ولكن كبار الأشاعرة اجتمعوا وقرروا أن جهاز الحكم لن يهدأ له قرار ، وأن الخير فى رحيل أئمة المذهب إلى أما كن نائية عن المشرق .

فترك القشيرى وطنه وبيته وأهله وعشيرته ، ومضى يضرب فى الأرض الواسعة عشر سنوات كاملة ، كان خلالها موضع التكریم والتبجيل ، وأقبل الناس عليه وعلى دروسه إقبالاً عظيماً ، حتى لقد خصص الخليفة العباسى — القائم بأمر الله — له مجلساً خاصاً فى مسجد قصره ، وكان يواظب على شهود وعظه ومجلس حديثه ، ويكرمه ، ويحظى ببركته .

وقد وصف الخطيب البغدادي (صاحب تاريخ بغداد) مقدار إعجاب الناس بالقشيري ،
وكان هو نفسه أحد تلاميذه حيث يقول (حدثنا وكتبنا عنه وكان ثقة) .

(تاريخ بغداد ج ١٠ ص ٨٣) .

وذهب القشيري للحج ، وهناك التقى بصديقه الجويني وبعدد كبير من الأئمة الذين شردتهم
المحنة طوال سنوات عديدة ، فاجتمعوا وتدارسوا أحوالهم ومستقبلهم ، واستقر رأيهم على أن
يطيعوا كلمة واحد منهم مهما كانت هذه الكلمة حتى يتم الاتفاق على مبدأ ثابت يسرى عليهم
جميعاً ، ولم يكن ذلك الذي وقع عليه اختيار الجمع غير عبد الكريم القشيري .

فصعد للنبر ، وظل يتكلم ، وهم يجدون لسكلامه وقعاً مؤثراً على قلوبهم وعقولهم ، ثم مرت
لحظات صمت ، بعدها شخص القشيري ببصره إلى السماء ضارِعاً ثم أطرق ، والناس من حوله
يتابعون أمره ، وينفرون ملاحظه . . . ثم قبض على لحيته وصاح بصوت عالٍ :

« يا أهل خراسان . . بلادكم بلادكم ، إن السكندري غريمكم يُقَطِّعُ الآن إرباً إرباً ،
وإني أشاهده الساعة وقد تمزقت أعضاؤه ثم أُلشِدَ :

عميد الملك ساعدك الليالي على ماشئت من درك المعالي
فلم يكُ منك شيء غير أمرٍ بلعن المسلمين على التوالى
فقابلك البلاء بما تلاقى فذُق ما تستحق من الوبال

(تبين كذب المفترى لابن عساكر ليدن ص ٩٣)

ويقول السبكي في طبقاته : (وضبط التاريخ فكان ذلك اليوم بعينه وتلك الساعة بعينها
قد أمر السلطان بأن يقطع الكندري إرباً إرباً . وأن يرسل عضو منه إلى كل مكان)
السبكي في « طبقات الشافعية » ج ٢ ص ٢٧٢ .

وهكذا عاد القشيري بعد هذه السنوات العشر الثقيلة (من ٤٤٥ إلى ٤٥٥) إلى بلاده ،
وهي وإن كانت أقصى فترات عمره ، وأشدها آلاماً إلا أنها كانت حافلة بالتجارب ، وأعطته
على زيادة خبرته بالحياة والأحياء ، وبساعدت على توثيق الصلة بينه وبين الأوساط العلمية
والأدبية خارج المشرق ، ودفعته إلى أن يصنّف العديد من المصنفات المتصلة بالمذهب الأشعري

وبخاصة كتابه الجليل القدر «شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة» ، وهي قبل كل شيء وبعد كل شيء آية ثباته على مبدئه ، وأنه خليف أن يتصدّر المفكرين الأحرار في جيله . وجاء السلطان ألب أرسلان خَلَفًا لعمه طغرل ، وبمجيء أرسلان ووزيره الهمام الغزنوي نظام الملك استقبل العالم الإسلامي كله والأشاعرة بوجه خاص والقشيري بوجه أخص عهداً زاهراً آمناً ، وعاد القشيري إلى مدينته الحبيبة نيسابور حيث قضى بها بقية عمره ، وقضى بها عشر سنوات (كان فيها مرفهاً محترماً ، ومطاعاً معظماً ، وأكثر صفوه في آخر أيامه التي شاهدها فيها آخراً ، وازداد من يقرأ عليه كنبه وتصانيفه والأحاديث المسبوعة له ، وما يؤول إليه من نصرة المذهب حتى بلغ المنتمون إليه آلافاً ، فأملوا تذكيره وتصانيفه أطراف) « تاريخ نيسابور لعبد الغافر الفارسي حفيد القشيري » .

وكان نظام الملك أحد تلاميذه والمقربين إليه ، وأعاد الوزير - بفضل توجيه القشيري - للأشاعرة وللزهاد وللعلماء كل ما فقدوه إبان المحنة الأليمة من كرامة وحظوة .

أما أبناء القشيري فلا نعرف له إلا بنتاً واحدة هي أمة الرحيم أم عبد الغافر الفارسي (قاموس الأعلام باللغة الأوزبكية ط اسطانبول سنة ١٣١٤ ص ٣٠٨٠) .

ونعرف له ستة أبناء كلهم عبادلة وكلهم أئمة ، سلكوا مسلك أبيهم وقد ترجم لهم السبكي في طبقاته كما تحدث عنهم ابن عساكر وابن خلكان .

ولهذا ينبغي أن نتحفظ في نسبة الأقوال المنسوبة إلى القشيري في بعض المراجع فقد تكون هذه الأقوال صادرة عن أحد أبنائه فهم جميعاً أشاعرة وهم جميعاً شافعية وهم جميعاً سلكوا طريق الإرادة .

لبث القشيري في نيسابور في أخريات حياته لم يكد يبرحها إلا لزيارة أقاربه في البلاد المجاورة مثل نسا وأبيورد ، ولكنه كان يعود مسرعاً إلى نيسابور بعد كل زيارة .

وقبل أن تبرز شمس السادس عشر من ربيع الآخر من عام ٤٦٥ هـ ، كانت روحه الطاهرة قد عادت إلى بارئها . فووري جثمانه إلى جوار صهره وشيخه وملهمه وصديقه أبي علي الدقاق في مقبرة خاصة بالأسرة ما زالت قائمة حتى وقتنا الحاضر يزورها الناس للتبرك .

* * *

من خلال هذه السيرة التي حاولنا إيجازها نستطيع أن ندرك أهمية الكتاب الذي تقدم له .
فصاحب الكتاب رجل أوتي حظاً وفيراً من العلوم العقلية والنقلية قبل أن يلج
باب الصوفية ، وهذه في حد ذاتها ظاهرة لها أهميتها ، وقد رأينا كيف نصح الشيخ الدقاق
له بالتمق في هذه الدراسات قبل البدء بالسير في دروب الإرادة ، وفي ذلك أبلغ رد
على من يتخوضون الاتهامات عن الصوفية فيقولون إنهم قوم يجانبون العقل ، ويحتقرون العلم
ويأمرون تلامذتهم بكسر معابرهم — كما يدعى ابن الجوزي غفر الله له .

والقشيري بعد ذلك كله أديبه ينظم الشعر ويتذوق الأسلوب العربي تذوقاً يعتمد
على أسس قوية ، وقد أوضحنا ذلك بتفصيل كبير في الأطروحة التي أعدناها عنه ونلنا بها
درجة الدكتوراه .

فاذا جاء بعد ذلك ليدرس الأسلوب القرآني ، وليستخرج منه إشارات لطيفة فهو معدّ
لذلك أحسن إعداد ، وهو قمين بالوصول إلى نتائج باهرة ، بقدر ما لديه من نهو صالح مكتمل .
ثم هو شافعي أشعري ، وهو سني متحفظ ، وهو بهذه الأوصاف باحث متعمق منصف ،
لا يأخذ — وهو يستخرج إشارة من العبارة — إلا جانب الحذر والحيطه والاعتدال ،
وهو من أجل ذلك لم يخرج قيد أنملة عن هذا الخط ، فلم ينصر الحقيقة على حساب الشريعة ،
ولم ينصر الشريعة على حساب الحقيقة ، ولذلك لا نعجب إذا لم نجد عنده جهوحاً أو ميلاً
إلى جهوح ، ولا نعجب إذا ألفينا لا يُسَخِّطُ أوساطَ أهل السنة حتى من تعصّب منهم ضدّ
التصوف وأهله ، فقد كان رائده دائماً نصرة الحق ، فليس غريباً أن يجيء «لطائف الإشارات»
تعبيراً صادقاً عن التصوف في أفضل درجات الاعتدال ، وأنقى صور التناول . فليس عند
القشيري ما عند غيره من مساس بالألوهية ، بل هو طالب يعلنها حرباً لا هوادة فيها
على المبتدعين والمضللين الذين أساءوا إلى التصوف وأهله تارة نحت ستار الثوب ،
وتارة بدعوى الفناء المفرق ، ونحو ذلك من الأباطيل .

والتصوف عند القشيري ليس ثوباً مرقعاً ، أو خرقة بالية تفرد صاحبها عن سواه ،
وتكون علماً على تقواه ، إنما هو صفاء النفس من كروراتها . وإن كان صادقاً في طويته
ونيتيه سيكون محفوظاً في حالة انمحاءه ، سوف يُردّ في حالة الجمع إلى حالة الفرق الثاني

ليؤدى الفرائض الواجبة عليه ثم يعود إلى حالة الجمع مرة أخرى ، ويكون في كل أحواله مُصَرَّفًا بإرادة مولاه . كذلك فإن من كان صادقاً في بدايته ووسيلته وغايته كان محفوظاً — من قبل الحق — في كل كلمة ينطق بها أو كل حركة تصدر عنه ، فإذا نطق بنطق بالله ، وإذا تحرك تحرك بالله . ومثل هذا العبد لا يُنتظر منه — وهو في يد الله على هذا النحو — أن يكون قريب الأقوال أو غريب الأفعال . فالصدق هو عمدة الأمر في هذا السبيل — كما يرى هذا الإمام الجليل .

ثالثاً : ننتقل بعد ذلك إلى العامل الثالث في أهمية إخراج هذا الكتاب ، وهو في هذه المرة يعود إلى النسخة أو النسختين اللتين نعتمد عليهما في التحقيق .

النسخ الكاملة من « اللطائف » نادرة فهي حسبما تقول تذكرة النواذر لا تزيد على خمس إحداها في خزانة بانسكى بور مكتوبة في القرن التاسع ، والثانية في المكتبة الحبيبية تاريخ كتابتها عام ٨٤٤ هـ وهي ناقصة من أولها ، والثالثة في الخزانة الأصفية بخط قديم جداً ، والرابعة في مكتبة الجامعة العثمانية بحيدر آباد مكتوبة بخطوط مختلفة سنة ٧٢٦ والخامسة في مكتبة محمد باشا باسطنبول .

غير أننا نعتقد أن هناك عدداً أكبر من النسخ يزيد عما ذكرت التذكرة وأنها منبثة في أنحاء متفرقة من العالم ، ونرجح أن النسخ الكاملة نادرة جداً كما يشير بروكلمان . وإنه لمن دواعي التوفيق أن يتاح لنا أن نحصل — لأول مرة — على الكتاب كاملاً ، فقد وجدنا في مدينة طشقند عاصمة جمهوريات أوزبكستان السوفيتية في المركز الدينى لمسلمى آسيا الوسطى وقازاخستان نسخة شبه كاملة تحت رقم ١٣٠٢ تفسير تبدأ بمقدمة بقلم القشيري — وهي على جانب كبير من الأهمية — لأنها تكشف عن منهجه في الدراسة ، ثم بعدها الفاتحة والبقرة و حتى سورة قريش ، ومعنى ذلك أنها تنقص فقط سور الماعون والكوثر والكافرون والنصر والمسد والإخلاص والفلق والناس . وهذه السور القصيرة موجودة في النسخة الأخرى التي عندنا في مصر ورقها ٢٦٦ تفسير (أنظر فهرس الخزانة التيمورية ط تفسير ص ٢٣٠) والتي تبدأ بالآية (إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل . . .) في سورة الأنبياء وقد قمنا بنسخ هذه المخطوطة ، كما قمنا بالنقاط صورة بالميكرو فيلم للنسخة الطشقندية ثم أجرينا تصويرها

وتكبيرها بحيث تسهل قراءتها وكانت النسختان المادة الأساسية التي اعتمدنا عليها أثناء إعداد الدكتوراه عند كلامنا عن القشيري المفسر .

النسختان إذاً متكاملتان ، ويصبح هذا السفر النفيس كاملاً ، ويقع في نحو ألف ومائتين صفحة ، اخترنا أن نقسمها إلى أربعة أجزاء تصدر متلاحقة في مدى عام أو عامين حسبما تساعدنا الظروف ويرزقنا الله العافية .

وصف عام للنسخة السوفيتية

تبلغ أوراقها ٥٩٧ ورقة ، والأرقام التي كتبها الناسخ مطموسة في كثير من الأحيان ولذا حرصنا عند تكبير الميكروفيلم والتصوير والطبع أن نرقمها نحن من خلف حتى لا تضطرب الأمور عند القراءة والدراسة .

وعلى الورقة الأولى توجد تعليقة مكتبة الإدارة الدينية هكذا :

تفسير

أبو القاسم القشيري

200 = ص ١

1302 = II

٣٥

أما الورقة الثانية فيبدو أنها كانت خالية فلأها أحد القراء بأحاديث وشواهد شعرية وكتابة باللغة الفارسية .

ثم تبدأ مقدمة الكتاب بقلم القشيري منذ الورقة الثالثة .

وقد وقع خطأ في ترقيم الصفحات ، فبينما نجد الحديث متصلاً غير منقطع بعد الورقة ٢١٤ نجد رقم الورقة التالية هو ٢٢٥ بدلاً من ٢١٥ ، وهناك خطأ آخر ربما حدث قبل تغليف الكتاب : فالأوراق من ٣٩٤ إلى ٤٠١ كلها موجودة عقب الورقة ٤٣١ دون أن يحدث خلل أو سقوط ، ومعنى هذا أن الكتاب رغم هذا — كامل لم يضع منه شيء .

كذلك يقع تفسير أواخر طه وأوائل الأنبياء — خطأ — ضمن تفسير الفرقان . وقد صححنا هذا الوضع .

ونظراً لعدم اكتمال النسخة من آخرها — كما قلنا من قبل — فلقد كنا نخشى أن يغيب عنا التذييل الذى يذكر فيه الناسخ اسم وتاريخ انتهائه من عمله كما جرت العادة ، ولكن لحسن الحظ وجدناه قد قسم الكتاب قسمين كبيرين ينتهى القسم الأول بنهاية تفسير سورة الكهف ورقة ٢٧٨ ، وعندها كتب هذه العبارة باللغة الفارسية المختلفة بالعربية :

(تم بعون الله وحسن توفيقه نصف أول إز تفسير محقق إمام أبو قاسم القشيري رحمة الله عليه بتاريخ شهر شوال سنة ١٢٢٤) .

ومن هذه العبارة يتضح أن الناسخ غير عربى ، وأنه ربما كان فارسياً أو أفغانياً أو أوزبكياً أو أذربيجانياً ، فكثرة من سكان أفغانستان وأوزبكستان وأذربيجان يعتبرون الفارسية لغة اتصالهم بالعلوم الإسلامية حتى اليوم .

وقد نجم عن كون الناسخ فارسياً جنساً أو لغة أن كتابته ومراعاته للإملاء لم تكونا جيدتين ، وكان علينا أن نقرأ الكتاب قراءة متفحصة لنحاول أن نحدد الطريقة التى اتبعها ، لأنها — بما فيها من خطأ أحياناً أو خروج على المؤلف فى الرسم أحياناً أخرى — هى التى جرى عليها عند نقله من النسخة الأخرى التى يحتمل أنها تجرى على هذا النحو ، وربما كان الناسخ ينقل على نحو يكون مفهوماً لديه ، وميسور القراءة له وحده .

وهو لا يهتم بضبط الكلمات ، ولا بترقيم العبارات فليس هناك ضبط أو فاصلة أو علامات استفهام أو أقواس أو علامات تعجب أو نحو ذلك . وقد وقع الناسخ فى أخطاء عديدة أثناء النسخ ، وربما كان مسئولاً عن ذلك أو يحتمل أن النسخة التى نقل عنها بهذا الوصف .

وهامش النسخة وبخاصة فى القسم الأول من الكتاب حافلة بالتعليقات ، بعضها مكتوب بالفارسية قصد منها شرح المفردات وترجمتها .

وهناك عناوين جزئية مكتوبة باللغة العربية بخط حسن تشير إلى موضوعات متنوعة ربما قصد بعض القراء إلى أن يجمعها ليستفيد منها ، وليحدد موقف المصنف إزاءها مثل (الروح — حقوق الوالدين — الدعاء — النفس ... إلخ) .

وعندما كانت تسقط بعض الكلمات أو العبارات من الناسخ أثناء النقل كان يستدرك

فيضع علامة مميزة على آخر كلمة في المتن بدأ بعدها السقوط ويضع العلامة نفسها في الهامش فوق الكلمة أو العبارة الساقطة ، فإذا تكرر السقوط في الصفحة الواحدة مئز كل موضع وكل مستدرك بعلامة مبيانة . كذلك فإنه كان يضع علامة خاصة عندما يعيد كتابة كلمة أو عبارة أو سطر بدون داعٍ حتى يلفت نظر القارىء إلى ما وقع فيه من سهو .
ولم يحدث أن وضع الناسخ ترجمة فارسية لكلمة داخل المتن بل كان يكتب الترجمة أسفل نظيرها ، اللهم إلا في حالة واحدة داخل شاهد شعري :

أنكّه شاد شود در عطا دادن

ومعناها : أصبح حينئذ مسروراً بالمطاء .

ولستبعد أن القشيري يفعل ذلك ، فعلى الرغم من إتقانه للغة الفارسية إلا أنه حرص فيما نعرف له من مصنفات أن يكتب بالعربية خالصة .

ويبدو أن النسخة أتيح لها أن تراجع ذات مرة ، فهناك تصحيحات مختلفة في رسم الكتابة موجودة في الهامش في أماكن مقابلة لموضع التصحيح في المتن . ومن أمثلة ذلك ما جاء في الورقة ٣٥٠ أول سورة الإسراء (وتوحد بعلو قمونه) تصحح في المراجعة (وتوحد بعلو نعوته) .

وفي الورقة ٣٦١ (لبلاء أو شدة يقالها) تصحح في الهامش (لبلاء أو شدة يقاسيها) .
وفي الورقة ٣٧٢ جاء في سياق وصف الدنيا (نعمها مشوقة بنقمتها تصحح في المراجعة (نعمها مشوبة بنقمها) .

وقد كنا نحكم الدقة عند الاستفادة من هذه المراجعة لأننا نفترض أنها قد تكون نوعاً من الاجتهاد الشخصي وليست تصويماً على نسخه أفضل .

بقي شيء هام جداً ، وهو توضيح موقفنا من أخطاء الناسخ ، ويمكن أن نقول إننا أخذنا منها ثلاثة مواقف .

(١) موقفاً نجد فيه الخطأ مؤكداً ويتجلى ذلك عند كتابة بعض الآيات الكريمة حيث تسقط كلمة أو حرف أو تزيد كلمة أو حرف ، فنصلح هذا الخطأ .

(ب) موقفاً فيه انطأ شبه مؤكد وعند ذلك نكتب في المتن ما نراه صواباً دون أن نترك الأمر على عواهنه بل نثبت في الهامش ما جاء في النسخة ، موضحين أسباب رفضنا لما كتبه الناسخ حتى نضع أمام القارئ صورة أمينة لما تقوم به من عمل ، وكان المفروض أن نكتب كل ما كتب الناسخ في المتن وأن نصوب ما نراه في الهامش ولكن هذه الأخطاء كثيرة جداً بحيث تعوق القراءة ، ونشقى على الدارس .

(ج) موقفاً فيه خطأ الناسخ محتمل ، وعند ذلك نقل عن الناسخ ما كتب في المتن ، ونشير إلى موقفنا إزاءه في الهامش قائلين (ونرجح كذا ... أو لا نستبعد أنها في الأصل كذا) تاركين الرأي للقارئ والدارس في أن يختارا ما يريانه أقرب إلى الصواب .

أمّا المشتبهات فنضع مكانها قطعاً بين أقواس ونشير إليها في الهامش ، وليس لنا فيها حيلة إلا إذا ظهرت لنا نسخة من الكتاب أكثر وضوحاً .

وإذا تطلب السياق كلمة أو حرفاً ليتأكد ويتضح وضعها من عندنا بين قوسين مشيرين إليها في الهامش .

ونحب ملاحظة أننا لا نقيم أنفسنا في تكلمة أو ترجيح إلا بناء على معرفة بأسلوب القشيري الذي ترجع معاشرتنا له إلى سنوات تزيد على العشر ، كذلك كثيراً ما نرجع إلى مصنفاته الأخرى لنبين رأيه في موضع مناظر ومع كل ذلك فإننا دائماً نضع الأمر بين يدي القارئ لنترك له أن يشاركنا ، وله أن يقتنع بما نقول أو يتقبل ما نقلناه عن الناسخ بهذا فيه حسبما يحلو له ، وله أن يرفض .

ومع أن الهوامش لا تخلو من تعليقات وشروح وتخریجات للحديث الشريف إلا أننا نشعر أنها مقتضبة وغير كافية ، فحرصنا على تزويد الناس بالمتن كان رائدنا الأول في هذه المرحلة ، على أننا نعيد — إن أعاننا الله — أن نتم هذا العمل بشروح أكثر بسطة ، فليس «اللطائف» بأقل حاجة إلى الشروح من «الرسالة» التي حظيت باهتمام الدارسين والباحثين طوال أجيال متعاقبة .

النسخة المصرية

تبدأ هذه النسخة كما قلنا من قبل بالآية (إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل . . .) حتى نهاية الكتاب ، وترجع أهمية هذه النسخة إلى أنها أولاً أكملت ما ينقص النسخة السوفينية من قصار السور ، كما أنها ساعدت — نظراً لوضوح كتابتها أكثر من زميلتها — على التقليل من المشتبهات ، وتتجلى أهمية ذلك في المجلد الثانى .

ولسنا ندرى شيئاً عن الناسخ الذى اضطلع بها ولا عن تاريخ نسخها نظراً لأنها ناقصة من بدايتها كما أن الناسخ لم يترك شيئاً عنه فى نهايتها ، ونرجح أنها أحدث عهداً من النسخة السابقة اعتماداً على دسم الكتابة وقواعد الإملاء .

منهج القشيري فى تأليف الكتاب وأهميته

صدر القشيري كتابه بمقدمة مفيدة أوضحت خطته فى تناول الأسلوب القرآنى ، وهذه المقدمة لا تلقى ضوءاً على الكتاب وحده إنما تقف بنا على المقصود بالتفسير الإشارى للقرآن ، وسأله وغايته .

أطلق القشيري على كتابه اسم « لطائف الإشارات » وإذا فالتسمية التى زعمها صاحب كتاب (تاريخ أدبيات در ايران) ج ٢ ص ٢٥٧ ط ٣ ثالثة سنة ١٣٣٩ غير صحيحة حيث يقول : « لطائف الإشارات فى حقائق العبارات » .

ومن المقدمة نفهم أن هذا اللون من التفسير يعتمد على استبطان خفايا الألفاظ — مفردة أو مركبة — دون التوقف عند حدود ظواهرها المألوفة ومعانيها القاموسية ، وإنما يُنظر إلى اللفظة القرآنية على أنها ذات جوهر يدق على الفهم العادى ، وأهل التجريد وخدمهم الذين يتاح لهم — بفضل من الله — العلم الذى يكشفون به عن هذا الجوهر .

وهناك رباط وثيق بين هذا العلم وبين العمل ؛ إذ لا يحظى به إلا من جرد قلبه من كل سائجة ، وصفى نفسه من كل كدورة ، ونهى بكل الهمة لهذه المهمة الجليلة : دراسة كلام الحق جل ذكره ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وفي ذلك يقول القشيري في مقدمته : « أكرم الأصفياء من عباده بفهم ما أودعه من لطائف أسرارهِ وأنواره لاستبصار ماضيه من دقيق إشاراته وخفي رموزه ، بما لوَّح لأسرارهم من مكنونات ، فوقفوا بما خصوا به من أنوار الغيب على ما استتر عن أغيارهم ، ثم نطقوا على مراتبهم وأقدارهم ، والحق — سبحانه وتعالى — يلهمهم بما به يكرمهم ، فهم به عنه فاطنون ، وعن لطائفه مخبرون ، وإليه يشيرون ، وعنه يفصحون ، والحكم إليه في جميع ما يأتون به وينزون » .

ويتضح — بادي ذي بدء — أن هذا اللون من الدراسة يفترق عن سائر ألوان الفكر الإسلامي في أمور كثيرة ، لعل أهمها عنصر الاصطفاء من قبل الله ، فليس يُمكن لغير من اختصهم الله بفضله أن يخوضوا فيه . فأنْتَ تستطيع أن تكون متكلماً أو فيلسوفاً أو نحوياً أو أديباً إذا توفرت لذلك ، وكان لديك استعداد ملائم ، وخصصته بعنايتك ، أمّا أن تكون مستنبطاً للإشارة من العبارة فهذه خصوصية فريدة لا بد أن يسبقها اجتناء إلهي . كذلك يمكنك أن تكون عالماً في أي فرع من فروع المعرفة دون أن يصحب ذلك عمل ، أمّا أن تقبل على القرآن الكريم لتستشف الجواهر من وراء الظواهر فهذه مسألة ينبغي أن تقترن بجهود مضيئة في تصفية النفس والقلب من كل العلائق ، وتخليتهما عن كل الشواغل الدنية ، وتحليتهما بكل الأوصاف السنية .

وربما كانت هذه الشروط المتصلة بالاجتناء المسبوق ، والعمل المقترن بالعلم من أسباب ندرة ما وصلنا من هذا اللون من التفسير ، كما أنها قد تكون أسباب خروج بعض ما يحشر في نطاقه — زوراً أو خطأ — عن التفسير الإشاري السديد .

فرق آخر يفرق هذا اللون من التفسير عن غيره أنه لا يعتمد اعتماداً كلياً أو مسرفاً على العقل ، إنما هو يعني بالأمور العقلية بالقدر الذي يُعني به الصوفية بالعقل ، ونعني به أن الذهن آلة لتصحيح الإيمان في مراحل البداية ، أمّا فيما فوق ذلك وفيما هو حيث الخطو نحو المعارف العليا فهناك ملكات أخرى يناط بها حمل هذا العبء ، وهي في مذهب القشيري تتدرج صعوداً من القلب إلى الروح إلى السر ثم إلى السر أو عين السر . معنى هذا أن استنباط الإشارات اللطيفة من النص القرآني ليس عملية عقلية صرفة إلا في الحدود التي تضمن عدم

افتيات الإشارة على العبارة ، فلا تخرج بها عن مألوف ما ينسجم مع الأسلوب العربي سواء من حيث اللغة أو النحو أو الاشتقاق أو الفنون الأدبية ، ولا تخرج بها عن الدلالات التي توافق أسباب النزول والأخبار الموثوقة وعلوم الحديث والأصول والفقه ، فكأن الإشارة ليست انبعاثاً تلقائياً محضاً ولكنها مقيدة — منذ البداية — بالكثير من العلوم العقلية والنقلية فما أشبه موقف اللفظة القرآنية في هذا المجال بموقف من يتبها لارتداد الطريق الصوفي فكلاهما يتعزى عن ظاهره ، وكلاهما يخضع لما تتطلبه المعارف العقلية والنقلية من شرائط البداية ، وكلاهما يصبح صافياً رائقاً يشف درجة بعد درجة كلما زاد الصعود وارتقى القصور . . فاللفظة القرآنية فيها حياة وفيها نمو ، وفيها عوالم مضيئة متألفة تشبه تلك العوالم التي يتدرج فيها العابد الزاهد المريد العارف المحب .

قد يقال وأى فرق إذاً بين التفسير الإشاري وغيره من التفاسير مادام يعنى بالأمور العقلية والنقلية ؟ والجواب على ذلك أنه لا يعنى بهذه الأمور لذاتها ، ولا يوقف نفسه داخل أسوارها ، ولا يقطع العمر في حزازاتها وخلافاتها ، إنما هي وسيلة في الابتداء يلجأ إليها المفسر بمقدار ما يسعفه حظه منها لكي يفيض الأغلفة الظاهرية . وهذه العناية إن التزمت بذلك صارت وسيلة من وسائل إقناعنا بأن التفسير الإشاري ليس عشوائياً يخب فيه كل من هب ودب ولكن خاضع لنواميس وقواعد .

ونستطيع بعد ذلك أن نميز بين تفسير القشيري في « لطائفه » وبين أولئك الذين تنسب تفاسيرهم إلى التصوف وأهله ، أولئك الذين أسرفوا حين حملوا النص القرآني فوق ما يحتمل ، وبدلاً من أن يخضعوا للنص القرآني أخضعوا النص القرآني لنصرة مذاهبهم ، وساروا في الدروب العقلية حتى جمحوا ، وابتعدوا عن الخط الأصيل حتى صارت تفاسيرهم جديرة بالدرس في مجالس الفلسفة والكلام لا في مجالس الرياضات والمجاهدات والأحوال . أمّا عند القشيري فليس هناك مذهب عقلي خبيء ، ولا عقيدة باطنية مستورة ، كل ما عنده من قصد أن يتم لقاء كامل بين الشريعة والحقيقة في ظلال كلمات الله — جل ذكره ، لأنه إذا لم يتم هذا اللقاء في كنف كلام الله فأين يمكن أن يتم ؟

وهنا تلتقي هذه المحاولة التي بذلها في « اللطائف » مع المحاولة التي بذلها في « الرسالة »

فهو منذ الصفحة الأولى في « رسالته » يحاول أن يُعرِّف بأن عقيدة الشيوخ « الذين بهم اقتداء » عقيدة سليمة لا تخرج في قليل أو كثير عن عقيدة التوحيد الرائقة الصافية ، ثم يسير في تراجم الشيوخ ليختار لك من أقوالهم وأخبارهم وأفعالهم ما يؤيد ذلك ، ثم ييؤب رسالته إلى التوبة والزهد والتوكل والرضا والمحبة . . . الخ . ولا ينتهي عند استفتاح كل باب عن ذكر آيات من كتاب الله الكريم بعدها أحاديث وأخبار عن الرسول صلوات الله عليه . . لماذا كل ذلك ؟ لكي يثبت أن هناك لقاء بين الشريعة والحقيقة ، وأنهما وجهان لشيء واحد . . تلك هي الغاية القصوى التي يطمح إليها هذا الإمام الجليل ، والتي من أجلها نذر عمره ، وخصص جهده ، ولم يرضن عليها بشيء في استنطاعته ، ولم يفارقه الطموح إليها في مصنف من مصنفاته . . . وما أعظمها وما أشرفها من غاية !

فإذا كنّا أخرجنا من نطاق التفسير الإشاري هذه التفاسير المنسوبة لبعض المنتسبين للتصوف فأولى أن نخرج من هذه التأويلات الاعتزالية والشيوعية والبدعية والإلحادية وغيرها مما تعتمد في مباحثها على أن القرآن ظاهراً وباطناً ، ذلك لأن قضية الظاهر والباطن استغلت استغلالاً سيئاً لخدمة الكثير من العقائد الهدامة ، وارتكبت في حق الظاهر القرآني جرائم خطيرة حين أريد له أن يؤول لنصرة الأغراض المريضة والدعوات الجامحة ، وفي ذلك يقول التفنازاني في شرح العقائد النسفية : « سميت للملاحدة باطنية لادعائهم أن النصوص ليست على ظواهرها بل لها معاني باطنة لا يعرفها إلا المعلم ، وقصدهم بذلك نفي الشريعة بالكلية » ، ويستدرك التفنازاني قائلاً : « وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها ومع ذلك فيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة فهو من كمال العرفان ومحض الإيمان » (شرح العقائد النسفية ط الحلبي سنة ١٣٢٢ هـ) .

والذي نحمده للقشيري وينبغي أن نشيد به في هذا التقديم أنه حرص أشد الحرص على النص القرآني ، وأنه التزم بالنظر إليه نظرة اعتبار وتقديس ، وكان عمله أشبه بمن يقبس قطرات من الضوء من مشكاة كبيرة ينير بها الطريق أمام الزهاد والعارفين ، دون أن يتورط في تعسف أو يتزلق في درب من دروب الشطط ، والسبب الهام الذي يعود إليه هذا المنهج

أنه سني^١ حريص على سنننه بقدر ما هو صوفي حريص على صوفيته ، فكان عليه أن يرضى
أوساط أهل السنة في الوقت الذي كان عليه أن ينفع الصوفية ، وأن يوضح لكلا الطرفين
أن الأصول والفروع في الحالين مستمدة من كتاب الله الكريم .

ولقد أعان القشيري في عمله أنه صنف قبل « اللطائف » كتاباً كاملاً في تفسير القرآن
على نحو تقليدي هو « التيسير في التفسير » — الذي حصلنا على ميسورة للجزء الخامس منه
من أكاديمية العلوم السوفيتية — ونجده في « التيسير » يعنى أشد العناية باللغة والاشتقاق
والنحو وأسباب النزول والأخبار والقصص . وقد صنفه قبل أن يلتقى بشيخه الدقاق أى قبل
أن يسلك المسلك الصوفي ، فأعانه ذلك على أن يفقه العبارة من معظم زواياها المتصلة بالظاهر ،
حتى إذا بدأ يكتب « اللطائف » كان طريقه إلى الإشارة وإلى فقه الباطن ممهداً ،
ومناله ميسوراً ، وآفاقه مفتحة .

* * *

سار القشيري في « اللطائف » على خطة واضحة محددة التزم بها من أول الكتاب
إلى آخره ، فهو يبدأ بتفسير البسملة كلمة كلمة ، وأحياناً حرفاً حرفاً ، والبسملة تتكرر بلفظها
في مفتتح كل سورة ، ومع ذلك فإننا نجد أنه يلجأ إلى تفسير كل بسملة على نحو ملفت للنظر ؛
إذ هي تختلف وتتنوع ولا تكاد تتشابه ، ويزداد إعجابنا بالقشيري كلما وجدنا تفسير البسملة
يتماشى مع السياق العام للسورة كلها ، فالله والرحمن والرحيم لها دلالات خاصة في سورة
القارعة ، ولها دلالات أخرى في سورة النساء ولها دلالات خاصة في الأنفال وهكذا . . .

ولستنتج من ذلك عدة نتائج :

أولاً : أنه يعتبر البسملة قرآناً ؛ وليست كما يقول البعض — شيئاً يُستفتح به للتبرك ،
شأن ما نصنع في بداية أقوالنا وأفعالنا (انظر « المغني » للقاضي عبد الجبار المتوفى سنة ٤١٥ هـ
ج ١١ ط وزارة الثقافة (تراثنا) ص ١٦١) .

ثانياً : أنه ما دام يعتبر البسملة قرآناً ، وما دام يجد لها مقاصد متجددة ، فكأنه
لا يؤمن بفكرة التكرار في القرآن ، وفي ذلك يقول في الورقة الثالثة من

اللطائف : « فلما أعاد الله - سبحانه وتعالى - هذه الآية - أعنى بسم الله الرحمن الرحيم - في كل سورة ، وثبت أنها منها أردنا أن نذكر في كل سورة من إشارات هذه الآية كلمات غير مكررة وإشارات غير معادة » .

ثالثاً : أن لدى القشيري قدرة غير عادية ونفساً طويلاً عند استبطان الظاهر ، لأننا نجد أمام أربع كلمات تتكرر بلفظها ومعناها من بداية القرآن إلى نهايته ، فإذا أضفنا إلى ذلك أنه سار على هذه السنته في « التيسير » ازداد إعجابنا به وعجبنا له .

ومن الخير أن نضرب هنا مثلين لما صنع في بسملة « اللطائف » لنستوضح مقاصده من هذا الاتجاه .

يقول في بسملة سورة « الحجر » : « سقطت ألف الوصل من كتابة بسم الله وليس لإسقاطها علة ، وزيد في شكل الباء من بسم الله وليس لزيادتها علة ، ليعلم أن الإثبات والإسقاط بلا علة ؛ فلا يقبل من قبل لاستحقاق علة ، ولا رد من رد لاستيجاب (= لاستحقاق) علة . فإن قيل العلة في إسقاط الألف من بسم الله كثرة الاستعمال في كتابتها أشكل بأن الباء في بسم الله زيد في كتابتها وكثرة الاستعمال موجودة . فإن قيل العلة في زيادة شكل الباء بركة أفضالها بسم الله أشكل بحذف ألف الوصل لأن الاتصال فيها موجود . فلم يبق إلا أن الإثبات والنفي ليس لهما علة ؛ يرفع من يشاء ويمنع من يشاء » .

ويتضح من هذا أن استنباط الإشارة ليس — كما قلنا من قبل — مسألة عشوائية إنما هو خاضع لقواعد وأصول ، وإلى تفنيد لمختلف الآراء ، ومحاولة للإقناع .

وليس هذا فقط . . بل إنك لو تعمقت داخل السورة لأدهشك — كما أدهشني — أن هناك صلة وثيقة محكمة بين هذا الذي فسرت به البسملة وبين كلام في داخل السورة عن رفع الخلق بلا علة ، وخفضهم بلا علة ، وذلك كما ورد في قصة خلق آدم ، وكيف أن الملائكة (كانوا في حال سترهم لأنهم نظروا إلى القوالب مع أن الاعتبار بالمعاني التي يودعها ، فالملائكة استصغروا قدر آدم وحاله وتمعّبوا من الأمر لم بالسجود فكشف لهم شظية مما اختصه فسجدوا للأمر وكذا حال من ادّعى الخيرية) أما إبليس فلم يفتن للمشيئة الإلهية

العليا ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون (بعدما لاحت لهم المعرفة) وبقي هو على عناده متأبياً
أن يسجد لبشر مخلوق من صلصال من حمأ مسنون (لأنه لا يعرف أن مشيئة الله تجري
على غير علة) .

وفي سورة براءة — التي نعرف أنها السورة الفريدة في القرآن الكريم التي تبدأ بدون
بِسْمِ اللَّهِ — نجد الأمر يستوقف نظر القشيري فلا يتركه كي يمر دون استنباط إشارة ، اسنمغ إليه
يقول : « الحق — سبحانه — جرّد هذه السورة عن ذكر البسمة لِيُعْلَمَ أَنَّهُ يَخْصُ مِنْ يَشَاءُ
وما يشاء بما يشاء ، ويفرد من يشاء بما يشاء ، لا لِصُنْعِهِ سبب ، ولا في أفعاله غرض
ولا أَرَب . ومن قال إنه لم يذكرها لأن السورة مفتوحة بالبراءة عن الكفار فهو — وإن كان
وجهاً في الإشارة — إلا أنه ضعيف ، وفي التحقيق كالبعيد ، لأنه افتتح سوراً من القرآن
بذكر الكفار مثل قوله : « الذين كفروا . . » ومثل قوله « ويل لكل همزة لمزة »
وقوله : « تبت يدا أبي لهب وتب » وقوله : « قل يا أيها الكافرون . . . » فهذه كلها مفاع
السور ، والبسمة مثبتة في أوائلها ، وهي متضمنة ذكر الكفار .

وقد يقال إنها تضمنت ذكر الكفار دون ذكر صريح للبراءة ، وإن تضمنته تلويحاً
وهذه البراءة هنا في ذكر البراءة من الكفار قطعاً فلم تصدر بذلك الرحمة ، وإذا كان تجرد
السورة عن هذه الآية يشير إلى أنها لذكر الفراق فبالحرى أن يخشى أن تجرد الصلاة عنها
يمنع كمال الوصلة والاستحقاق .

... .. وبعد أن ينتهي القشيري من بسط مذهبه في كل بسمة على هذا النحو الطريف
للمنع يبدأ في تفسير السورة آية آية ، ولم يتخلّ عن آية إلا في مواضع نادرة ، بل ربما تكون
الآية طويلة نسبياً ومع ذلك لا يتركها دون إشارة حتى ولو كانت سريعة مقتضبة « على سبيل
الإقلال خشية الملل » كما يقول في مقدمته .

ولا بد أن القارى يتوقع أن تسوق إليه موقف القشيري من الحروف المقطعة التي تلي
البسمة في عديد من السور نظراً لما دار حول هذه الحروف من جدل كثير ، ونظراً لأنها
لبعدها عن مألوف الكلام العادي أقرب ما تكون إلى الرموز وبمعنى آخر أقرب ما تكون
إلى الإشارات أى أدخل في عمل القشيري في « لطائف الإشارات » . وربما كان أفضل

ما ورد هنا قول القشيري في (الم) التي افتتحت بها سورة البقرة لأنها كانت أول حروف مقطعة يقابلها أثناء عمله . يقول : « هذه الحروف المقطعة في أوائل السور من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله عند قوم . ولكل كتاب سر ، وسر الله في القرآن هذه الحروف للمقطعة . وعند قوم أنها مفاتيح أسمائه ؛ فالألف من اسم « الله » واللام يدل على اسم « اللطيف » ، والميم يدل على اسم « المجيد » و « الملك » .

وقيل أقسم الله بهذه الحروف لشرفها لأنها بسائط أسمائه وخطابه ، وقيل إنها أسماء السور ، وقيل الألف تدل على اسم « الله » واللام على اسم « جبريل » والميم تدل على اسم « محمد » صلى الله عليه وسلم ؛ فهذا الكتاب نزل من الله على لسان جبريل إلى محمد (ص) . والألف من بين سائر الحروف انفردت عن أشكالها بأنها لا تتصل بحرف في الخط ، وسائر الحروف يتصل بها إلا أحرف بسيرة ، فلينتبه العبد عند تأمل هذه الصفة لاحتياج الخلق بجملتهم إليه واستغناؤه عن الجميع .

ويقال (١) يتذكر العبد المخلص من حالة الألف تقدُّس الحق — سبحانه وتعالى — عن التخصص ؛ ذلك أن سائر الحروف لها محل من الخلق والشفة واللسان إلى غيرها من الخارج ، غير الألف فإنها هويته لا تضاف إلى محل .

ويقال الإشارة منها إلى أفراد العبد لله سبحانه ؛ فيكون كالألف لا يتصل بحرف ، ولا يزول عن حالة الاستقامة والانتصاب بين يديه .

ويقال يطالب العبد في سره عند مخاطبته بالألف بانفراد القلب إلى الله تعالى ، وعند مخاطبته باللام بدين الجانب ، وعند سماع الميم بموافقة أمره فيها يكلفه . وقد اختص كل حرف بصفة مخصوصة ، وانفردت الألف باستواء القامة والتميز عن الاتصال بشيء من أضرابها من الحروف فجعل لها صدر الكتاب إشارة إلى أن من تجرَّد عن الاتصال بالأمثال والأشغال حظى بالمرتبة العليا ، وفاز بالدرجة القصوى ، وصلَّحَ للتخاطب بالحروف المنفردة التي هي غير

(١) عندما يقول القشيري « ويقال ... » فليس معنى ذلك دائماً أن يورد بعدئذ رأياً لغيره فربما — وهذا هو الغالب — أنه يقصد إلى توضيح وجهة نظره من زوايا مختلفة .

مركبة على سُنَّةِ الأحباب في ستر الحال ، وإخفاء الأمر على الأجنبي من هذه القصة ، قال شاعرهم :

قلت لها قفى قالت قاف

ولم يقل وقفتُ سترًا عن الرقيب ، ومراعاةً لقلب الحبيب ، وهكذا تكثر العبارات للعموم ، والرموز والإشارات للخصوص ؛ أشجع موسى كلامه في ألف موطن ، وقال نبيُّنا صلى الله عليه وسلم : « أوتيت جوامع الكلم فاختُصِرَ لي الكلام اختصاراً » وقال بعضهم : قال لي مولاي ما هذا الدنف قلتُ نهواني قال : لام ألف

... .. ويمضى القشيري بعد ذلك فيستخرج للصوفية إشارات ثمينة مما يصادفه في الآية من حكم تشريعي يتصل بالقتال والغنيمة والأسر والكيل والليزان والدين والشهادة ونحو ذلك أو كلام في العبادات كالصوم والصلاة والحج والزكاة أو ما يعود بالآية إلى أسباب زولها والأخبار والقصص التي رويت من حولها ، أو ما تحتوى من مظاهر قدرة المولى - جل وعلا - في خلق الإنسان والكون .

وينبني ألا ننتظر من القشيري إسهاباً في الأحكام الفقهية والقواعد التعبدية والأسانيد ونحو ذلك فما لهذا ألف كتابه ، ولا يصح للقارى أن يتوقع منه ذلك فهناك تفاسير مخصوصة وضعت للوفاء بهذه الأمور ، إنما قصد القشيري إلى استمداد شيء نافع للصوفية يتدعم به رأى من آرائهم أو عمل من أعمالهم ، فهذا هو مقصوده ، وتلك مراميه ، ونحن من أجل ذلك نقول بلا تحفظ إن « لطائف الإشارات » يمثل تمثيلاً صادقاً مذهب القشيري في النصوص أكثر مما تمثله « الرسالة » فهو يغنى عنها وهي لا تغنى عنه .

وعلينا الآن أن نسوق أمثلة قليلة توضح موقف القشيري في تلك الأمور حتى يعرف القارى منذ البداية أى نوع من التفسير ذلك الذى نضعه بين يديه . ففيما يختص بالأحكام التشريعية نراه مثلاً عند الآية الكريمة « واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه » يقول : الغنيمة ما يحصل عليه المؤمنون من أموال الكفار إذا ظفروا عند الجهاد والقتال . ولما كان الجهاد قسامين : جهاد الظاهر مع الكفار وجهاد الباطن مع النفس والشیطان ، وكما أن للجهاد

الأصغر غنيمة عند الظفر كذلك للجهاد الأكبر غنيمة وهو أن يملك نفسه التي كانت في يد عدوّه: الهوى والشيطان ، وبعد أن كانت ظواهره مفرّجاً للأعمال الذميمة وباطنه مُستقرّاً للأحوال الدنيئة يصير محلّ الهوى مسكن الرضا ، ومقرّ الشهوات والمنى محلاً لما يرد عليه من مطالبات المولى ، وتصير النفسُ مستلبة من إصرار الشهوات ، والقلبُ مختطفاً من وصف الغفلات ، والروح منزوعة من أيدي العلاقات ، والسرُّ مصوناً من الملاحظات . وكما أن من جملة الغنيمة سهم الله والرسول وهو الخمس فما هو غنيمة — على لسان الإشارة — سهم خالص لله وهو مالا يكون للعبد فيه نصيب لا من كرائم العقبي ولا من ثمرات التقريب ولا من خصائص الإقبال ، فيكون العبد عند ذلك محرراً عن رقّ كل نصيب ، خالصاً لله بالله ، يمحو ما سوى الله .

ونلفت نظر القارىء إلى ما ورد في هذا النص من ترتيب الملكات الباطنة للإنسان من أسفل إلى أعلى ، وهى : النفس ثم القلب ثم الروح ثم السر ، ولكل منها وظيفة ولكل وظيفة غاية ، كما أن لكل منها آفات ولكن لكل علاج . . . والكلام في ذلك كله موزع في الكتاب حسب السياق الذى توحى به آيات الكتاب الكريم . والقشيري مشكور أعظم الشكر حين التزم بهذا الترتيب ، ولم يتخلّ عنه لا في اللطائف وحده بل في كل ما بين أيدينا من مصنفاته ، حتى صار له مذهب واضح السمات بارز القسمات في المراجح الروحية ، وتفصيل ذلك موضح في كتابنا عن « مذهب في التصوف » الذى هو القسم الأول من بحثنا للدكتوراه .

وبطابق القشيري بين ما يحدث من نسخ لبعض الأحكام وبين ما يحدث من نسخ في السلوك الصوفي حيث يقول عند قوله تعالى : « يأيتها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل . . . » « حكم هذه الآية كان ثابتاً في الشرع ، ولكنه نسخ بعده . والنسخ هو الإزالة ، ومعنى النسخ في سلوك المريدين أنهم في الابتداء فرضهم القيام بالظاهر من حيث المجاهدات ، فإذا لاح لهم من أحوال القلوب شيء آلت أحوالهم إلى مراعاة القلوب فتسقط عنهم أوراد الظاهر . »

أما فيما يختص بالعبادات فإننا نلاحظ أن القشيري يفتنم كل فرصة كي يوضح ضرورة التزام العبد بأدائها مهما أوغل في الفناء عن نفسه ، فليس ثمة عذر لسقوطها عنه أو إعفائه

منها ، كذلك نراه يهتم اهتماماً ملحوظاً بالحث على التغلغل في بواطنها ، ومعرفة جواهرها ، فهي ليست رسوماً ظاهرية يؤديها البدن وحسب ولكنها ذات مقاصد بعيدة .

فامتقبال القبلة عند الصلاة له عند القشيري إشارة : (لتكن القبلة مقصود نفسك ، وسبحانه مقصود مشهود قلبك ؛ لا تعلق قلبك بأحجار وآثار ، وأفرّد قلبك لي) وعند قوله تعالى « وآتموا الحج والعمرة لله » يقول : « إتمام الحج على لسان العلم القيام بأركانه وسننه وهيئته ، وإراقة الدماء التي تجب فيه ، وعلى لسان أهل الإشارة الحج هو القصد ، فقصد إلى بيت الحق وقصد إلى الحق ، فالأول حج العوام والثاني حج الخواص ، وكما أن الذي يحج بنفسه يحرم ويقف ثم يطوف بالبيت ويسمى ثم يخلق ، فكذلك من يحج بقلبه فأحرامه بعقد صحيح على قصد صحيح ، ثم يتجرد عن لباس مخالفاته وشهواته ثم باشتماله بثوب صبره وفقره ، وإمساكه عن متابعة حظوظه من اتباع الهوى وإطلاق خواطر المني ، وما في هذا المعنى ، ثم الحاج أشعث أغبر تظهر عليه آثار الخشوع والخضوع والتلبية ، وأفضل الحج الشجّ والعجّ ؛ فالشج صب الدم والعج رفع الصوت بالتلبية فكذلك سفك دم النفس بسكاكين مخالفتها ، ورفع أصوات السر بدوام الاستغاثة وحسن الالتجاء والوقوف بساحات القربة باسكمال أوصاف الهيبة . وموقف النفوس عرفات وموقف القلوب الأسامي والصفات (= أسماء الله الحسنى وصفاته) ، وطواف القلوب حول مشاهد العز ، والسعي بالأسرار بين صفي كشف الجلال ولطف الجمال ، ثم التحلل بقطع أسباب الرغائب والاختيار والمني والمعارضات بكل وجه . »

ونسبع القشيري عند : « كتب عليكم الصيام . . . » يقول : « الصوم على ضربين : صوم ظاهر وهو الإمساك عن المفطرات مصحوباً بالنية ، وصوم باطن وهو صون القلب عن الآفات ، ثم صون الروح عن المساكنات ، ثم صون السر عن الملاحظات . . . »

ونهاية الصوم إذا هجم الليل ، ولكن من أمسك عن الأغيار فصومه نهايته أن يشهد الحق . والصوم لرؤية الهلال والإفطار لرؤيته كما يقول عليه السلام فالرؤية عائدة على الهلال ، وعند أهل التحقيق فالرؤية عائدة إلى الحق ؛ فصومهم لله حتى شهودهم ، وفطرمهم لله ، وإقبالهم على الله ، والغالب عليهم الله . »

هذا عن العبادات أما عن أسباب النزول فينظر إليها القشيري كما ينظر إلى مورد المثل ومضربه ، فالآية « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله » يقول عندها القشيري : « نزلت حين أمر الله رسوله بقطع بعضها فقالت اليهود : أى فائدة فى هذا ؟ أمّن الصلاح قطع النخل وعقر الشجر ؟

فوجد المسلمون فى أنفسهم من قولهم ، فأنزل الله تعالى الآية ، وأن ذلك بإذن الله ، وانقطع الكلام ؛ وفى هذا دليل على أن الشريعة غير مُعلّلة ، وأنه إذا جاء الأمر الشرعى بطل طلب التعليل ، وسكنت الألسنة عن المطالبة : يلم ؟ وهكذا من قال لأستاذه وشيخه : لِمَ ؟ لم يفلح ، وكل مريد يكون لأمثال هذه الخواطر فى قلبه جوكأن لا يجىء منه شيء ، ومن لم يتجرد قلبه عن طلب الاعلال ولم يباشر حسن الرضا لكل ما يجرى ، واستحسان ما يبدو من الغيب من الله — بسرّه وقلبه — فليس من الله فى شيء .

وفى قوله تعالى : « إنا بلوناكم كما بلونا أصحاب الجنة » يقول : « نزلت هذه الآية فى أهل رجل من اليمن ترك لهم بنة ممترة ، وكان يتصدق منها للمساكين ، فلما ورثه أهله قالوا : لن نفعل فعله ، وأقسموا ألا يعطوا شيئاً ، فأهلك الله جنّتهم . وندموا وتابوا » وهذه حال من له بداية حسنة ، ويجد التوفيق على التوالى ، ويجنب المعاصى ، فيعوضه الله فى الوقت نشاطاً ، وتلوح فى باطنه أحوال فإذا بدّر منه سوء دعوى ، وترك أدباً من آداب الخدمة تنسّد عليه تلك الأحوال ، ويقع فى فترة ، فإذا حصل منه بالعبادات والفرائض إخلال انقلب حاله ، ورُدّ عن الوصال إلى البعاد ، ومن الاقتراب إلى الاغتراب عن الباب ، وصارت صفوته قسوة ، فإن كان له بعد ذلك توبة على ماسلف ، وندامة على ما فات من أمره ، فقلما يصل إلى حاله ، ولكن لا يبعد أن ينظر إليه الحق بأفضاله ، فيقبله بعد ذلك ، رعاية لما سلف منه فى البداية من أحواله ، فإن الله تعالى رءوف بعباده .

من مظاهر القدرة الإلهية فى الكون والحياة والإنسان لا ينبى عن القشيري أن يستمد إشارات مناسبة يوجهها نحو الموضوعات الصوفية فيقول مثلاً عند « ألم تخلقكم من ماء مهين » : « مهين أى حقير ذكّرهم أصل خلقتهم لتلا يعجبوا بأحوالهم ، فإنه لا جنس من المخلوقات والمخلوقين أشد دعوى من بنى آدم ، ومن الواجب أن يتفكر الإنسان فى أصله ،

كان نقطة وفي انتهائه إلى جيفة ، وفي وسائط حاله كنيف في قيص ، فبالحرى ألا يدل ولا يفخر . . . ثم صورته فأحسن صورته ؛ فهو قادر على أن يرقيك من الأحوال الخسيسة إلى المنازل الشريفة النفيسة .

والإنسان أفضل من الجان لأن الجان من نار ، والنار بالماء تنطفئ وتصبح رماداً ولا يجيء منها شيء . أمّا الطين (الإنسان) فإذا انكسر عاد به الماء إلى ما كان عليه ، ولذلك العدو (إبليس) انطلقاً ما كان يلوح عليه من سراج الطاعة ، ولكن آدم عليه السلام لما اغترّ بجبرته ماء العناية فقال تعالى : ثم اجتباه ربه .

« خلق الإنسان من طين ولكنه تعالى » يحبهم ويحبونه « خلق الإنسان من طين ولكنه تعالى » رضى الله عنهم ورضوا عنه « خلق الإنسان من طين ولكنه يقول » اذكروني أذكركم « خلق الإنسان من طين ولكن :

فكم أبصرت من حُسنٍ ولكن عليك من الورى وقع اختيارى

* * *

وبعد . . . فهذه أمثلة سريعة أردنا أن تقدمها للتدليل على المواقف التي يتخذها القشيري في ظلال القرآن من زوايا مختلفة وفي ظروف متنوعة ، ومن مجموع هذه المواقف يتحصل مذهبه في التصوف فضلاً عن مذهبه في الكلام ، وهنا تجدر الإشارة إلى أنه حاول أن يحل بطريق العلم الصوفي ما عجز المتكلمون عن حله ، فحين حلّ القلب محلّ العقل ليصعد ويقصد نحو الملائ الأعلى، وأصبح الحق مناط الأمل لم يعد هناك معنى لأى حديث في الجبر والاختيار والحسن والقبيح والثواب والعقاب — على النحو الذى اشتجر من حوله الخلاف بين المتكلمين . الله — فى عرف هذا الصوفي وفي عرف الصوفية الخُلُص — مشهود ومحجوب لا معبود فقط ، وكلّ كلام عن جبر الحب وعذاب الحب يسمُج ويسخف ، وهل هناك أجل من أن يتعذب الإنسان فى حبه حتى يهلك ؟ ألا ما أروعها من غاية ! وما أجدر من أن يضيع العمر بين فقد ووجد ! وما أعظم أن يكون الحق خُلفاً لك عن كل حطام الدنيا وأن تكون مشاهدته بديلاً لك عن كل نعيم الجنان !

* * *

بقيت مسألة هامة لا أحب أن أنهى هذا التقديم دون أن أوضحها ، وهى قيمة هذا الكتاب من الناحية الأدبية .

والواقع أن المسألة أكثر شمولاً وأوسع أبعاداً من أن تنصرف إلى « لطائف الإشارات » وحده أو حتى إلى أعمال القشيري كلها ، إنها تنصل بقضية أعظم هى الطريقة التى يؤخذ بها الإنتاج الصوفى عموماً ، فما زلنا حتى الآن نكتفى بدراسة الأعمال الصوفية ضمن الدراسات الفلسفية والعقلية ، فالنصوف فى جامعاتنا يدرس فى أقسام الفلسفة بينما لا يدرس فى أقسام اللغة العربية وآدابها ، وإذا حدث شئ من ذلك فهو ينتقل إليها بطريق أساتذة الفلسفة .

وإنى لأسألك : إلى متى يظل الحال هكذا ؟ إن الوضع مقلوب ، فالمشتغلون بالأدب أولى باحتضان التصوف ، لأن الإنتاج الصوفى — فى كثير من الأحوال — درر من المنظوم والمنثور ، والصوفية أنفسهم قوم يصرحون أن مذهبهم لا يعنى بالعقل إلا فى مراحل البداية من أجل تصحيح الإيمان ، أما طريقهم بعد ذلك فوثيق الصلة بالقلب والوجدان ، فهم بذلك يقتربون من أهل الفن وينأون عن أهل العقل ، هم فى حاجة إلى من يتذوق أقوالهم أكثر مما هم فى حاجة إلى من يتفكر فيها ، وتجربتهم فى الفناء تذو من تجربة الإلهام فى الفن ، ومصطلحاتهم التى وضعوها لأنفسهم تم عن بصر نافذ فى الأسلوب العربى والاشتقاق ، وهكذا يفرض الإنتاج الصوفى نفسه على الدراسات الأدبية ، بينما المشتغلون بهذه الدراسات لا يكادون يحركون ساكناً .

وليس بمقول أن أقنع القارئ بمجدى دراسة « اللطائف » من الناحية الأدبية بواسطة هذه السطور القليلة ، فهذا له مكان آخر ، إنما قصدت لأثير قضية عامة قد يؤدى الأخذ بها إلى تصحيح كثير من المقاييس التى تتصل بالنصوف والأدب على حد سواء .

وفى تقديرنا أن منهج القشيري فى استخراج الإشارة من العبارة منهج أدبى ، لأنه يعتمد على تذوق اللفظة — مفردة ومركبة — تذوقاً ينبى على أصول من اللغة والاشتقاق والإعراب والبلاغة ، ثم إن التعبير الذى يفصح به القشيري تعبير أدبى له خصائص الأسلوب الأدبى والصياغة الفنية ، ومعنى هذا أنه نظر للقرآن بمنظار أدبى وعبر عن نظره بطريقة أدبية ، وليس أدخل فى التفسير الأدبى من منهج كهذا ، حيث استكمل ناحيتين : أدب المفسر وأدب المفسر .

حقاً إن القرآن كتاب دين وهداية وتشريع وعلم وغير ذلك مما يمكن أن نحتاج إليه للتعاقد الإنسانية تلتبس فيه زاداً ينمي المعارف ، ويثري العلوم ، ويفتح مغاليق الأمور . ولكنه قبل كل ذلك معجزة فنية بهرت سامعيها أول ما بهرتهم بالبيان ، والنظم ، والقول ، فوجدوا لذلك حلاوة ، وعليه طلاوة ، وهم أهل لسنٍ وفصاحة ، فنحن نعلم أن المعجزة تكون من جنس معجزات المخاطبين ولسكنها من حيث الدرجة أعلى قدراً وأصعب دركاً وأعز مثلاً .

نخرج من هذا إلى أن دراسة إعجاز القرآن إن أغفلت تفسيراً كاللطائف — راعي فيه صاحبه أدب المفسر وأدب المفسر — إنما تنقل عن رافد غني من روافد الدراسات القرآنية . ويمكن أن نضرب أمثلة سريعة توضح طريقة القشيري عندما ينصدي لبعض الجوانب في الأسلوب القرآني .

فمن اللفظة المفردة تنبعث إيماءات جميلة مؤثرة تزيد للمعنى قوة وتأكيذاً ؛ كأن يقول عند قوله تعالى : « بل هم في شك يلعبون » : اللعب فعل يجري على غير ترتيب ، تشبيهاً باللعب الذي يسيل لا على نظام مخصوص ، فوصف المنافق باللعب تصويراً لتردده وتغيره وشكه في عقيدته .

والتسبيح عنده مرتبط « بالسباحة في بحار التوحيد بلا شاطئ » ، فبعدما حصلوا فيها فلا خروج ولا براح فخازت أيديهم جواهر التفريد ، نظموها في عقود الإيمان ورصعوها في أطواق الوصلة .

والفجر « انفجار الصبح كما يتفجر الماء من الصخر » .

ومن القصة تنبعث إيماءات ممتعة ؛ فريم حين خطبت « وهزى إليك بجذع النخلة » : كان ذلك الجذع يابساً أخرج الله سبحانه في الوقت الرطب الجنى ، وكان ذلك آية ودلالة على أن الذي قدر على فعل هذا قادر على خلق عيسى عليه السلام من غير أب ، وقد أمرت بهز النخلة اليابسة حينما جاءت علاقة الولد بعد أن كانت لا تتكلف السعى إذ كان زكريا يدخل عليها المحراب فيجد عندها رزقا ، أمرت بهز النخلة وهي في أضعف حالها زمان قرب عهدها ؛ بوضع الولد ليعلم أن العلاقة توجب المشقة والعناء ، أمرت بهز النخلة اليابسة وأمكنها ذلك وهي في حال ضعفها وفي ذلك أوضح دلالة على صدقها

وإذا ضرب القرآن مثلاً بالكلب أو الذبابة أو البعوضة أو التي تقضت غزلها من بعد قوة ، فإن هذا التصوير القرآني الأخاذ له على وجاهان القشيري الأديب وقع مؤثر ، يقول مثلاً (. . . .) وضرب المثل بالبعوضة لأنها إذا جاعت فرت وطار ، وإذا شبعت تشقت وتلفت ، كذلك الإنسان ليطغى أن رآه استغنى . « وما فوقها » أي الذباب ، وجهة الإشارة في أن للذباب وقاحة حيث يعود عند البلاغ في الذب ، والله سبحانه خلق القوة في الأسد ولكنه خلق فيه النفود من الناس ، وخلق الضعف في الذباب ، ولكنه خلق فيه الوقاحة ، وتلك حكمة الله) .

والمظاهر الكونية في القرآن مصادر إشارات لا تنتهى وهى من أقوى الوسائل التي استغلها القشيري لتوضيح حقائق العلم الصوفي فالشمس والقمر ، والليل والنهار ، والجبال والبحار ، والسحب والأمطار كلها توحى بعمان كثيرة لتوضيح الفروق الدقيقة بين الطوابع والوابع واللوائح ، وعلم اليقين وحق اليقين ، وعلوم الإنسان العقلية والمعارف الدنية إلى آخره .

يقول عند « كلا والقمر » : أثمار العلوم إذا أخذ هلالها في الزيادة بزيادة البراهين فإنها تزداد حتى إذا صارت إلى حد التمام وبلغت الغاية تبدو أعلام المعرفة ، ثم تأخذ علوم البراهين في النقصان حين تطلع شمس المعرفة ، وكما أن القمر كلما قرب من الشمس يزداد نقصانه حتى يصير محاقاً كذلك إذا ظهر سلطان المرفان تأخذ أثمار العلوم في النقصان بزيادة المعارف كالسراج في ضوء الشمس) .

وتوقف القشيري طويلاً عند المواقف النفسية وعند الاستدلالات الوجدانية في الأسلوب القرآني فكشف الكثير من أسرار الإعجاز القرآني كما أبان عن عبقريته في التذوق الفني ، وليس ذلك غريباً بالنسبة لصوفي ذي بصيرة كاشفة ، وشاعر له حس دقيق مرهف ، وباحث متعمق في أغوار النفس البشرية ، وأديب يحسن التعبير عما يذوق ويمجد .

نفعا الله بعلمه وبركته ما

دكتور إبراهيم بسيوني

نرمز للنسخة السوفيتية المصورة بالحرف (ص)
ونرمز للنسخة المصرية بالحرف (م)
ونرمز للرسالة القشيرية ط الحلبي سنة ١٩٥٩ (بالرسالة)

[illegible]

۱۰۰
 ۱۰۱
 ۱۰۲
 ۱۰۳
 ۱۰۴
 ۱۰۵
 ۱۰۶
 ۱۰۷
 ۱۰۸
 ۱۰۹
 ۱۱۰
 ۱۱۱
 ۱۱۲
 ۱۱۳
 ۱۱۴
 ۱۱۵
 ۱۱۶
 ۱۱۷
 ۱۱۸
 ۱۱۹
 ۱۲۰
 ۱۲۱
 ۱۲۲
 ۱۲۳
 ۱۲۴
 ۱۲۵
 ۱۲۶
 ۱۲۷
 ۱۲۸
 ۱۲۹
 ۱۳۰
 ۱۳۱
 ۱۳۲
 ۱۳۳
 ۱۳۴
 ۱۳۵
 ۱۳۶
 ۱۳۷
 ۱۳۸
 ۱۳۹
 ۱۴۰
 ۱۴۱
 ۱۴۲
 ۱۴۳
 ۱۴۴
 ۱۴۵
 ۱۴۶
 ۱۴۷
 ۱۴۸
 ۱۴۹
 ۱۵۰
 ۱۵۱
 ۱۵۲
 ۱۵۳
 ۱۵۴
 ۱۵۵
 ۱۵۶
 ۱۵۷
 ۱۵۸
 ۱۵۹
 ۱۶۰
 ۱۶۱
 ۱۶۲
 ۱۶۳
 ۱۶۴
 ۱۶۵
 ۱۶۶
 ۱۶۷
 ۱۶۸
 ۱۶۹
 ۱۷۰
 ۱۷۱
 ۱۷۲
 ۱۷۳
 ۱۷۴
 ۱۷۵
 ۱۷۶
 ۱۷۷
 ۱۷۸
 ۱۷۹
 ۱۸۰
 ۱۸۱
 ۱۸۲
 ۱۸۳
 ۱۸۴
 ۱۸۵
 ۱۸۶
 ۱۸۷
 ۱۸۸
 ۱۸۹
 ۱۹۰
 ۱۹۱
 ۱۹۲
 ۱۹۳
 ۱۹۴
 ۱۹۵
 ۱۹۶
 ۱۹۷
 ۱۹۸
 ۱۹۹
 ۲۰۰
 ۲۰۱
 ۲۰۲
 ۲۰۳
 ۲۰۴
 ۲۰۵
 ۲۰۶
 ۲۰۷
 ۲۰۸
 ۲۰۹
 ۲۱۰
 ۲۱۱
 ۲۱۲
 ۲۱۳
 ۲۱۴
 ۲۱۵
 ۲۱۶
 ۲۱۷
 ۲۱۸
 ۲۱۹
 ۲۲۰
 ۲۲۱
 ۲۲۲
 ۲۲۳
 ۲۲۴
 ۲۲۵
 ۲۲۶
 ۲۲۷
 ۲۲۸
 ۲۲۹
 ۲۳۰
 ۲۳۱
 ۲۳۲
 ۲۳۳
 ۲۳۴
 ۲۳۵
 ۲۳۶
 ۲۳۷
 ۲۳۸
 ۲۳۹
 ۲۴۰
 ۲۴۱
 ۲۴۲
 ۲۴۳
 ۲۴۴
 ۲۴۵
 ۲۴۶
 ۲۴۷
 ۲۴۸
 ۲۴۹
 ۲۵۰
 ۲۵۱
 ۲۵۲
 ۲۵۳
 ۲۵۴
 ۲۵۵
 ۲۵۶
 ۲۵۷
 ۲۵۸
 ۲۵۹
 ۲۶۰
 ۲۶۱
 ۲۶۲
 ۲۶۳
 ۲۶۴
 ۲۶۵
 ۲۶۶
 ۲۶۷
 ۲۶۸
 ۲۶۹
 ۲۷۰
 ۲۷۱
 ۲۷۲
 ۲۷۳
 ۲۷۴
 ۲۷۵
 ۲۷۶
 ۲۷۷
 ۲۷۸
 ۲۷۹
 ۲۸۰
 ۲۸۱
 ۲۸۲
 ۲۸۳
 ۲۸۴
 ۲۸۵
 ۲۸۶
 ۲۸۷
 ۲۸۸
 ۲۸۹
 ۲۹۰
 ۲۹۱
 ۲۹۲
 ۲۹۳
 ۲۹۴
 ۲۹۵
 ۲۹۶
 ۲۹۷
 ۲۹۸
 ۲۹۹
 ۳۰۰
 ۳۰۱
 ۳۰۲
 ۳۰۳
 ۳۰۴
 ۳۰۵
 ۳۰۶
 ۳۰۷
 ۳۰۸
 ۳۰۹
 ۳۱۰
 ۳۱۱
 ۳۱۲
 ۳۱۳
 ۳۱۴
 ۳۱۵
 ۳۱۶
 ۳۱۷
 ۳۱۸
 ۳۱۹
 ۳۲۰
 ۳۲۱
 ۳۲۲
 ۳۲۳
 ۳۲۴
 ۳۲۵
 ۳۲۶
 ۳۲۷
 ۳۲۸
 ۳۲۹
 ۳۳۰
 ۳۳۱
 ۳۳۲
 ۳۳۳
 ۳۳۴
 ۳۳۵
 ۳۳۶
 ۳۳۷
 ۳۳۸
 ۳۳۹
 ۳۴۰
 ۳۴۱
 ۳۴۲
 ۳۴۳
 ۳۴۴
 ۳۴۵
 ۳۴۶
 ۳۴۷
 ۳۴۸
 ۳۴۹
 ۳۵۰
 ۳۵۱
 ۳۵۲
 ۳۵۳
 ۳۵۴
 ۳۵۵
 ۳۵۶
 ۳۵۷
 ۳۵۸
 ۳۵۹
 ۳۶۰
 ۳۶۱
 ۳۶۲
 ۳۶۳
 ۳۶۴
 ۳۶۵
 ۳۶۶
 ۳۶۷
 ۳۶۸
 ۳۶۹
 ۳۷۰
 ۳۷۱
 ۳۷۲
 ۳۷۳
 ۳۷۴
 ۳۷۵
 ۳۷۶
 ۳۷۷
 ۳۷۸
 ۳۷۹
 ۳۸۰
 ۳۸۱
 ۳۸۲
 ۳۸۳
 ۳۸۴
 ۳۸۵
 ۳۸۶
 ۳۸۷
 ۳۸۸
 ۳۸۹
 ۳۹۰
 ۳۹۱
 ۳۹۲
 ۳۹۳
 ۳۹۴
 ۳۹۵
 ۳۹۶
 ۳۹۷
 ۳۹۸
 ۳۹۹
 ۴۰۰
 ۴۰۱
 ۴۰۲
 ۴۰۳
 ۴۰۴
 ۴۰۵
 ۴۰۶
 ۴۰۷
 ۴۰۸
 ۴۰۹
 ۴۱۰
 ۴۱۱
 ۴۱۲
 ۴۱۳
 ۴۱۴
 ۴۱۵
 ۴۱۶
 ۴۱۷
 ۴۱۸
 ۴۱۹
 ۴۲۰
 ۴۲۱
 ۴۲۲
 ۴۲۳
 ۴۲۴
 ۴۲۵
 ۴۲۶
 ۴۲۷
 ۴۲۸
 ۴۲۹
 ۴۳۰
 ۴۳۱
 ۴۳۲
 ۴۳۳
 ۴۳۴
 ۴۳۵
 ۴۳۶
 ۴۳۷
 ۴۳۸
 ۴۳۹
 ۴۴۰
 ۴۴۱
 ۴۴۲
 ۴۴۳
 ۴۴۴
 ۴۴۵
 ۴۴۶
 ۴۴۷
 ۴۴۸
 ۴۴۹
 ۴۵۰
 ۴۵۱
 ۴۵۲
 ۴۵۳
 ۴۵۴
 ۴۵۵
 ۴۵۶
 ۴۵۷
 ۴۵۸
 ۴۵۹
 ۴۶۰
 ۴۶۱
 ۴۶۲
 ۴۶۳
 ۴۶۴
 ۴۶۵
 ۴۶۶
 ۴۶۷
 ۴۶۸
 ۴۶۹
 ۴۷۰
 ۴۷۱

رَبِّ يَسِّرْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي شرح قلوب أوليائه بعرفانه ، وأوضح نهج الحق بلائحه برهانه ، لمن أراد طريقه ، وأتاح البصيرة لمن ابتغى تحقيقه ، وأزل الفرقان هدى وتبانا ، على صفته محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله — معجزة وبياناً ، وأودع صدور العلماء معرفته وتأويله ، وأكرمهم بعلم قصصه ونزوله ، ورزقهم الإيمان بحُكْمِهِ ومتشابهه وناسخه ، ووعدوه ووعدده ، وأكرم الأصفياء من عباده بفهم ما أودعه من لطائف أسرارهِ وأز (واره) لاستبصار ماضيه من دقيق إشاراته ، وخفي رموزه ، بما لوَّح لأسرارهم من مكنونات ، فوقفوا بما خُصُّوا به من أنوار الغيب على ما استتر عن أغيارهم ، ثم نطقوا على مراتبهم وأقدارهم ، والحق سبحانه وتعالى يلهمهم بما به يكرمهم ، فهم به عنه ناطقون وعن لطائفه مخبرون^(١) وإليه يشيرون ، وعنه يفصحون ، والحكمُ إليه في جميع ما يأتون به ويذرون .

قال الإمام جمال الإسلام أبو القاسم القشيري رحمه الله : وكتابتنا هذا يأتي على ذكر طرف من إشارات القرآن^(٢) على لسان أهل المعرفة ، إما من معاني مقولهم ، أو قضايا أصولهم ، سلكتنا فيه طريق الإقلا (ل) خشية الملل ، مستمدين من الله تعالى عوائد المنة ، متبرئين من الحول والمنة^(٣) مستعصين من الخطأ والخلل ، مستوفقين لأصوب القول والعمل ، ملتزمين أن يصلوا على سيدنا محمد صلى الله عليه و (سلم) ، لينتقم لنا بالحسنى بمنه وأفضاله . وتيسر الأخذ

(١) وردت في من (مخبرون) والسباق لا يتطلبها .

(٢) ما تحت خط هو تنكئة اعتمدنا في إثباتها هنا على ما جاء في (تذكرة النوادر) التي اقتبست بضع

فقرات رجوعاً إلى نسخة أخرى .

(٣) المنّة بضم الميم القوة .

في ابتداء هذا الكتاب في شهور سنة أربع وثلاثين وأربعمائة^(١) ، وعلى الله إتمامه .
إن شاء الله تعالى عز وجل .

سورة فاتحة الكتاب .

هذه السورة بدا (ية) الكتاب ، ومفاتيح الأحياب بالخطاب والكتاب منه أجل النعمى ، وأكرم الحسنى إذ هي (. . .)^(٢) وابتداء وفي مناه قيل .

أفديك بل أيام دهرى كلها تفدين أياماً (. . . .)
سقياً لمعهدك الذى لو لم يكن ما كان قلبى للصبابة معهداً^(٣)

ولقد كان صلى الله عليه وسلم غير مُرتقب لهذا الشأن ، وما كان هذا الحديث منه على بال ، وحينما نزل عليه جبريل صلوات الله عليه وسلامه أخذ في الفرار ، وآثر التباعد لهذا الأمر آوى (. . .) قائلاً : دثرونى دثرونى ، زملونى زملونى ، وكان يتحنث في حراء ، ويخلو هنالك (. . .) فجأة ، وصادفته القصة بغنة كما قيل :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبى فارغاً فتمكناً^(٤)

وكان صلوات الله عليه وسلم رضى بأن يقال له أجير خديجة ولكن (الحق سبحانه وتعالى أراد أن) ^(٥) يكون سيد الأولين والآخرين حيث قال . «يس والقرآن الحكيم» (رفعه إلى) أشرف النازل وإن لم يسم إليه بطرف التأمل سنة منه تعالى وتقدس (. . .) إلا عند من تقاصرت الأوهام عن استحقاقه ، ولذلك ما قصوا العجب من شأنه (. . .) ينم أبى طالب

(١) اهتمدنا في استكمال رقى الأحاد والمشرات من السنة على (تذكرة النوادر) حيث سقطا في م .
وبهذا يبطل قول صاحب كشف الظنون (المجلد الثانى م ١٥٥١) بأن القشيري ألف اللطائف قبل عام ٤١٠ ، ويبدو أن الأمر قد التبس على حاجي خليفة فظن تاريخ تأليف « التيسير في التفسير » هو تاريخ تأليف « اللطائف » .

(٢) ما بين الأقواس المفرغة ساقط في م ومن حسن الحظ أن السقوط الكثير على هذا النحو لا يتكرر بعد الورقتين الأولى والثانية من (م) .

(٣) اهتمدنا في نكلة البيت على هذا النحو على وروده في (م) كاملاً عند تفسير سورة الحديد .

(٤) الشطر الثانى من البيت ناقص في (م) ومكمل في (م) عند تفسير آية : علم القرآن من سورة الرحمن

(٥) زيادة أضافتها ليستقيم المعنى .

من بين البرية ، ولقد كان صلوات الله عليه وسلم في سابق (علمه) سبحانه وتعالى مقدماً
على الكافة من أشكاله وأضرابه ، وفي معناه قيل :

هَذَا (. . .) أطار وكان في فقر من السيار
آثرُ عندي (بالإكبار) من أخى (ومن) جارى
وصاحب الدرهم (والدينار) فإن صاحب الأمر مع الإكثار^(١)

ولقد كان صلى الله عليه وسلم قبل النبوة حميد الشأن ، (محمود) الذكر ، ممدوح الإسم ،
أميناً لكل واحد . وكانوا يسمونه محمداً الأمين ، ولكن (الكافرين) (. . .) حالته ،
بدلوا اسمه ، وحرّفوا وصفه ، وهجّنوا ذكره ، فواحد كان يقول ساحر وآخر يقول (. . .)
وثالث يقول كاذب ، ورابع يقول شاعر :

أشاعوا لنا في الحى أشنع قصة وكانوا لنا سلباً فصاروا لنا حرباً

وهكذا صفة المُحبِّ ، لا ينفك عن اللام ولكن كما قيل
أجد الملامة في هواك لذينة حباً لذكرك فليكني اللوم^(٢)

وماذا عليه من قبيح قاله (من) يقول ، (والحق سبحانه يقول) : « ولقد نعلم أنك
يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك » أى استمع إلى ما يقال فيك بحسن الثناء علينا .
[فصل] وتسمى هذه السورة أيضاً أم الكتاب ، وأم الشيء أصله ، وإمام كل شيء
مقدمه . وهذه السورة لما تشتمل عليه من الأمر بالعبودية ، والثناء على الله بجمال الربوبية ،
ثم^(٣) كمالها من الفضائل — لا تصح الفرائض إلا بها . وقوله صلى الله عليه وسلم مخبراً عنه
سبحانه وتعالى : « قسمت الصلاة بيني وبين عبدى نصفين » يعنى قراءة هذه السورة ،
فصارت أم الكتاب ، وأصلاً لما تنبئ عليه من لطائف الكرامات وبدائع التقريب والإيجاب .

(١) أضع البياض الذى فى الصورة كثيراً من ألفاظ هذه الآيات فحاولنا إضافة بعض الألفاظ .
وإن كان وزن الشعر ما زال غير سليم .
(٢) وردت خطأ فى (ص) : فليكني اللوم .
(٣) لا نسلمد أن نكون فى الأصل (ثم) كمالها ...

قوله جل ذكره : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الباء في « بسم الله » محرف التضمين ؛ أي بالله ظهرت الحادثات ، وبه وجدت المخلوقات ، فما من حادث مخلوق ، وحاصل منسوق ، من عين وأثر وغير ، وغير من حجر ومدر ، ونجم وشجر ، ورسم وطلل ، وحكم وعال — إلا بالحق وجوده ، والحق ملكه ، ومن الحق بدؤه ، وإلى الحق عوده ، فيه وجد من وحد ، وبه جمعد من ألد^(١) ، وبه عرف من اعترف ، وبه تخلف من اقترف .

وقال « بسم الله » ولم يقل بالله على وجه التبرك بذكر اسمه عند قوم ، وللفرق بين هذا وبين القسم عند الآخرين ، ولأن الاسم هو المسمى عند العلماء ، ولاستصفاء القلوب من العلائق ولاستخلاص الأسرار عن العوائق عند أهل العرفان ، ليكون ورود قوله « الله » على قلب مُتَّقٍ وسِرٍّ مُصَفَّى . وقوم عند ذكر هذه الآية يتذكرون من الباء (بره)^(٢) بأوليائه ومن السنين سره مع أصفياه ومن الميم منته على أهل ولايته ، فيعلمون أنهم ببه عرفوا سره ، وبمنته عليهم حفظوا أسرهم ، وبه سبحانه وتعالى عرفوا قدره . وقوم عند سماع بسم الله تذكروا بالباء براءة الله سبحانه وتعالى من كل سوء ، وبالسين^(٣) سلامته سبحانه عن كل عيب ، وبالميم مجده سبحانه بجز وصفه ، وآخرون يذكرون عند الباء بهاءه ، وعند السين سنائه ، وعند الميم ملكه ، فلما أعاد الله سبحانه وتعالى هذه الآية أعنى بسم الله الرحمن الرحيم في كل سورة وثبت أنها منها أردنا أن نذكر في كل سورة من إشارات هذه الآية^(٤) كلمات غير مكررة^(٥) ، وإشارات غير معادة ، فلذلك نستقصي القول ها هنا وبه الثقة .

(١) وردت في من (اللحد) .

(٢) سقطت في من وأثبتناها لأن ما بعدها يدل عليها .

(٣) وردت في من (بالسين) .

(٤) من هنا ندرك أن القشيري يعتبر السمة قرآناً خلافاً لمن يمدونها من قبيل الاستفتاح والتبرك . فتبدأ بها القراءة كما يفعل في سائر الأعمال (أنظر المعنى للقاضي عبد الجبار ج ١١ ط وزارة الثقافة سلسلة تراثنا ص ١٦١) .

(٥) من هنا وما نعلم من مذهب القشيري نراه لا يعتد في فكرة التكرار في القرآن لأن التكرار أليق بالمخلوقين ولأسباب أخرى لا محل لها هنا .

حقيقة الحمد الثناء على المحمود ، بذكر نعوته الجليلة وأفعاله الجميلة ، واللام هنا للجنس ، ومقتضاها الاستغراق ؛ فجميع المحامد لله سبحانه إمّا وصفاً وإمّا خلقاً ، فله الحمد لظهور سلطانه ، وله الشكر لوفور إحسانه . والحمد لله لاستحقاقه لجلاله وجماله ، والشكر لله لجزيل نواله وعزيز أفضاله ، فحمده سبحانه له هو من صفات كماله وحوله ، وحمد الخلق له على إنعامه وطوله ، وجلاله وجماله استحقاقه لصفات العلو ، واستيجابه لنعوت العز والسمو ، فله الوجود (قدرة)^(١) القديم ، وله الجود الكريم ، وله الثبوت الأبدى ، والكون الصمدى ، والبقاء الأزلى ، والبهاء الأبدى ، والثناء الديمومى ، وله السمع والبصر ، والقضاء والقدر ، والكلام والقول ، والعزة والطول ، والرحمة والجود ، والعين والوجه والجمال ، والقدرة والجلال ، وهو الواحد للتمتع ، كبرياؤه رذاؤه ، وعلاؤه سناؤه ، وبجده عزه ، وكونه ذاته ، وأزله أبده ، وقدمه سرمده ، وحقه يقينه ، وثبوتة عينه ، ودوامه بقاءه ، وقدره قضاؤه ، وجلاله جماله ، ونهيه أمره ، وغضبه رحمته ، وإرادته مشيئته ، وهو الملك يجبروته ، والأحد فى ملكوته . تبارك الله سبحانه ۱ ۱ فسبحانه ما أعظم شأنه ۱

[فصل] نعلم الحق سبحانه وتعالى شدة إرادته أوليائه بحمده وثنائه ، وعجزهم عن القيام بحق مدحه على مقتضى عزه وسنائه فأخبرهم أنه حمّد نفسه بما افتتح به خطابه بقوله : « الحمد لله » فانتعشوا بعد الذلة ، وعاشوا بعد الخمود ، واستقلت أسرارهم بكال التعرز حيث سمعوا ثناء الحق عن الحق بخطاب الحق ، فنطقوا ببيان الرمز على قضية الأشكال . وقالوا :

ولوجهها من وجهها قمر ولعينها من عينها كحل

هذا خطيب الأولين والآخرين ، سيد الفصحاء ، وإمام البلغاء ، لما سمع حمده لنفسه ، ومدحه سبحانه لحقه ، علم النبي أن تقاصر اللسان أليق به فى هذه الحالة فقال : « لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

داوود لو سمعت أذناه قالتها لما ترنم بالألحان داوود
غنت سعاد بصوتها فتخاذلت ألحان داوود من الخجل

(١) هذه كلمة زائدة يمكن الاستغناء عنها ، ويرجح ذلك نظم الأسلوب وسياق المعنى ، أو ربما كانت (قدّمه) .

[فصل] وتفاوت طبقات الحامدين لتباينهم في أحوالهم ؛ فطائفة حمدوه على ما نالوا من إنعامه وإكرامه من نوعى صفة نفعه ودفعه ، وإزاحته وإتاحتها ، وما عقلوا عنه من إحسانه بهم أكثره ما عرفوا من أفضاله معهم قال جل ذكره : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » ، وطائفة حمدوه على ملاح لقلوبهم من عجائب لطائفه ، وأودع سرائرهم من مكنونات بره ، وكشف أسرارهم به من خفى غيبه ، وأفرد أرواحهم به من بواده مواجده . وقوم حمدوه عند شهود ما كشفهم به من صفات القدم ، ولم يردوا من ملاحظة العز والكرم إلى تصفح أقسام النعم ، وتأمل خصائص القسم ، و (فرق بين)^(١) من يمدحه بعز جلاله وبين من يشكره على وجود أفضاله ، كما قال قائلهم :

وما الفقر عن أرض المشيرة ساقنا ولكننا جئنا بقلياك نسعد

وقوم حمدوه مُستهلكين عنهم فيما استنطقوا من عبارات تحميده ، بما اصطلم أسرارهم من حقائق توحيده ، فهم به منه يعبرون ، ومنه إليه يشيرون ، يُجري عليهم أحكام التصريف ، وظواهرهم^(٢) بنمت التفرقة مرعية ، وأسرارهم مأخوذة بحكم جمع^(٣) الجمع ، كما قالوا :

بيان بيان الحق أنت بيانه وكل معانى الغيب أنت لسانه

قوله جل ذكره : ﴿ رب العالمين ﴾

الرب هو السيد ، والعالمون جميع المخلوقات ، واختصاص هذا الجمع بلفظ العالمين لاشتماله على العقلاء والجمادات فهو مالك الأعيان ومنشئها ، وموجد الرسوم والديار بما فيها . ويدل اسم الرب أيضاً على تربية الخلق ، فهو مُرب نفوس العابدين بالتأييد ومرب قلوب الطالبين بالتسديد ، ومرب أرواح العارفين بالتوحيد ، وهو مرب الأشباح بوجود النعم ، ومرب الأرواح بشهود الكرم .

ويدل اسم الرب أيضاً على إصلاحه لأمر عباده من ربيت العديم أربه ؛ فهو مصلح أمور الزاهدين بجميل رعايته ، ومصلح أمور العابدين بحسن كفايته ، ومصلح أمور الواجدين

(١) وردت (وفر ...) ثم بعدها بياض فأكلناها على هذا النحو ليم المعنى .

(٢) وردت (وظاهرهم) ولكن السياق يقتضى ما أثبتناه .

(٣) وردت (جميع الجمع) ولكن الاصطلاح الصوى هو جمع الجمع وهو درجة فوق الجمع وجمع الجمع هو الاستهلاك بالسكية وفناء الإحساس بما سوى الله (رسالة القشيري ط سنة ١٩٥٩ م ص ٣٩) .

بقديم عنايته ، أصلح أمور قوم فاستغنوا بعبائهم ، وأصلح أمور آخرين فاشتاقوا للقاءه ،
وثالث أصلح أمورهم فاستقاموا للقاءه ، قال قائلهم :

مادام عزك مسعوداً طواله فلا أبالي أعاش الناس أم فقدوا

قوله جل ذكره : ﴿الرحمن الرحيم﴾

اسمان مشتقان من الرحمة ، والرحمة صفة أزلية وهي إرادة النعمة وهما اسمان موضوعان
للمبالغة ولا فضل بينهما عند أهل التحقيق .

وقيل الرحمن أشد مبالغة وأتم في الإفادة ، وغير الحق سبحانه لا يسمى بالرحمن على الإطلاق ،
والرحيم ينعت به غيره ، وبرحمته عرف المبدأ أنه الرحمن ، ولولا رحمته لما عرف أحد أنه الرحمن ،
وإذا كانت الرحمة إرادة النعمة ، أو نفس النعمة كما هي (عند قوم فالنعم في أنفسها مختلفة ،
ومراتبها متفاوتة فنعمة هي)^(١) نعمة الأشباح والظواهر ، ونعمة هي نعمة الأرواح والسرائر .

وعلى طريقة من فرق بينهما فالرحمن خاص الاسم عام للمعنى ، والرحيم عام الاسم خاص
للمعنى ؛ فلأنه الرحمن رزق الجميع ما فيه راحة ظواهرهم ، ولأنه الرحيم وفق المؤمنين لما به
حياة سرائرهم ، فالرحمن بما روح ، والرحيم بما لوح ؛ فالترويح بالسيار ، والتلويح بالأنوار ؛
والرحمن بكشف تجليته والرحيم بلطف توليته ، والرحمن بما أولى من الإيمان والرحيم
بما أسدى^(٢) من العرفان ، والرحمن بما أعطى من العرفان والرحيم بما تولى من الغفران ،
بل الرحمن بما ينعم به من الغفران والرحيم بما يمن به من الرضوان ، بل الرحمن بما يكتم به
والرحيم بما ينعم به من الرؤية والبيان ، بل الرحمن بما يوفق ، والرحيم بما يحقق ، والتوفيق
للمعاملات ، والتحقيق للمواصلات ، فالمعاملات للقاصدين ، والمواصلات للواجدين ، والرحمن
بما يصنع لهم والرحيم بما يدفع عنهم ؛ فالصنع بجميل الرعاية والدفع بحسن العناية .

قوله جل ذكره : ﴿مالك يوم الدين﴾

المالك من له الملك ، ومالك الحق سبحانه وتعالى قدرته على الإبداع ،
فالملك مبالغة من المالك وهو سبحانه الملك المالك ، وله الملك . وكما لا إله إلا هو
فلا قادر على الإبداع إلا هو ، فهو بإلهيته متوحد ، وبملكه متفرد ، ملك نفوس
العابدين فصرفها في خدمته ، وملك قلوب العارفين فشرّفها بعرفته ، وملك نفوس القاصدين

(١) تسكلة في الهامش استدرك بها النسخ فأثبتتها في موضعها .

(٢) وردت (أسرى) والأصح (أسدى) .

فتيسبها ، وملك قلوب الواجدین فيهمبها . ملك أشباح من عبده فلاتفها بنواله وأفضاله ، وملك أرواح من أحبهم (. . .)^(١) فكاشفها بنعت جلاله ، ووصف جماله . ملك زمام أرباب التوحيد فصرفهم حيث شاء على ماشاء ووقفهم حيث شاء على ماشاء كما شاء ، ولم يكلّمهم إليهم لحظة ، ولا ملكهم من أمرهم سنة ولا خطرة ، وكان لهم عنهم ، وأفناؤهم له منهم^(٢) .

[فصل] ملك قلوب العابدین إحسانه فطعموا في عطائه ، وملك قلوب الموحدين سلطانه فقنعوا ببقائه . عرف أرباب التوحيد أنه مالكم فسقط عنهم اختيارهم ، علموا أن العبد لا ملك له ، ومن لا ملك له لا حكم له ، ومن لا حكم له لا اختيار له ، فلا لهم عن طاعته إعراض ولا على حكمه اعتراض ، ولا في اختياره معارضة ، ولا لخالفته تعريض ، « ويوم الدين » . يوم الجزاء والنشر ، ويوم الحساب والحشر — الحق سبحانه وتعالى يجزى كلاً بما يريد ، فمن بين مقبول يوم الحشر بفضل سبحانه وتعالى لا بفعلهم ، ومن بين مردود بحكمه سبحانه وتعالى لا بجورهم . فأما الأعداء فيحاسبهم ثم يعذبهم وأما الأولياء فيعاتبهم ثم يقربهم :

قوم إذا ظفروا بنا جادوا بعنق رقابنا

قوله جل ذكره : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾

معناه نعبدك ونستعين بك . والابتداء بذكر المعبود أتم من الابتداء بذكر صفته — التي هي عبادته واستعانتة ، وهذه الصيغة أجزل في اللفظ ، وأعذب في السمع . والعبادة الإتيان بغاية مافي (بابها)^(٣) من الخضوع ، ويكون ذلك بموافقة الأمر ، والوقوف حيثما وقف الشرع . والاستعانة طلب الإعانة من الحق .

والعبادة تشير إلى بذل الجهد والمثنة ، والاستعانة تخبر عن استجلاب الطول والمثنة ، فبالعبادة يظهر شرف العبد ، وبالاستعانة يحصل اللطف للعبد . في العبادة وجود شرفه ، وبالاستعانة أمان تلفه . والعبادة ظاهرها تذلل ، وحقيقتها تعزّز وتحمل :

وإذا تنلّت الرقاب تقرباً منّا إليك ، فعزّها في ذلّها

(١) مشتبه في من ، وربما كانت (وأحبوه)
(٢) (له) هنا معناها لأجله أي أنه أفنام من أنفسهم لأجله ليقوا به ، وكان الأسلم أن تكون العبارة :
وأفناؤم منهم له ولكن حرم المصنف على مراعاة الانسجام بين عنهم ومنهم .
(٣) وردت (بابها)

وفي معناه :

حين أسلمتني لذالٍ ولام ألقينى فى عينٍ وزاى^(١)

[فصل] العبادة نزهة القاصدين^(٢) ، ومستروح المريدين ، ومربع الألس للمعجبين ، ومرتع البهجة للعارفين . بها قرّة أعينهم ، وفيها مسرة قلوبهم ، ومنها راحة أرواحهم . وإليه^(٣) أشار صلى الله عليه وسلم بقوله : أرحنا بها يا بلال . ولقد قال مخلوق فى مخلوق :

يا قوم ثارى عند أسمائى يعرفه السامع والرائى
لا تدعنى إلا يساعدها فإنه أصدق أسمائى

والاستعانة إجلالك لنعوت كرمه ، ونزلك بساحة جوده ، وتسليك إلى يد حكمه ، فتقصده بأمل فسيح ، وتخطو إليه بخطو وسيع ، وتأمل فيه برجاه قوى^(٤) ، وتشق بكرم أذلى ، وتشكل على اختيار سابق ، وتعتصم بسبب جوده (غير ضعف)^(٥) .

قوله جل ذكره : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾

الهداية الإرشاد ، وأصلها الإمالة ، والمهدى من عرف الحق سبحانه ، وآثر رضاه ، وآمن به . والأمر فى هذه الآية مضمّر ، فمعنا . اهدنا بنا^(٦) — والمؤمنون على الهداية فى الحال — فعنى السؤال الاستدانة والاستزادة . والصراط المستقيم الطريق الحق وهو ماعليه أهل التوحيد . ومعنى اهدنا أى مل بنا إليك ، وخذنا لك ، وكن علينا دليلنا ، ويسرنا إليك سبيلنا ، وأقم لنا هممنا ، واجمع بك همومنا .

[فصل] اقطع أسرارنا عن شهود الأغيار ، ولوّح فى قلوبنا طوابع الأنوار ، وأفرّد

(١) وردت و (زار) (٢) وردت (القاصرين) (٣) أى وإلى ذلك أشار

(٤) وردت (قوى) وهى غير مناسبة للمعنى .

(٥) إما أن تكون زائدة أو ينقصها حرف الجر فى فتكون (فى غير ضعف) أو تكون (غير ضعيف) (أساس البلاغة ص ٥٦٣) أى غير متكرر بالأسباب لجلب المسأل .

(٦) ويكون المعنى على هذا أقم فينا ما يجعلنا نهتدى به إليك ، ولكن ترجح أن يكون قد وقع خطأ من الناسخ وأن الأصل (اهدنا بك) لأن ذلك يتفق مع مذهب التشيرى وغيره من الصوفية حيث يعتبرون كل شيء يقع من المبد مرده إلى الحق سبحانه ، فلا قدرة للمبد — وحده — على معرفة الله ، ولا على الاهتداء إليه ، وتدل الدلائل فيما بعد على ذلك مثل قوله (فتجدك بك) . وإما أن يكون الأصل (اهد بنا) أى — كما جاء فيها بعد — مل بنا .

قصودنا إليك عن دَئس الآثار ، ورقنا عن منازل الطلب والاستدلال إلى تجمع ساحات القرب والوصال .

[فصل] حُلّ بيننا وبين مساكنة^(١) الأمثال والأشكال ، بما تلافينا به من وجود الوصال ، وتكاشفنا به من شهود الجلال والجمال .

[فصل] أرشدنا إلى الحق لثلاث تنكّل على وسائط المعاملات ، ويقع على وجه التوحيد غبار الظنون وحسبان الإعلال .

« اهدنا الصراط المستقيم » أي : أزل عنا ظلمات أحوالنا لتستضيء^(٢) بأنوار قدسك عن التفيؤ بظلال طلبنا ، وارفع عنا ظل جهلنا لتستبصر بنجوم جودك ، فنجدك بك .

[فصل] اهدنا الصراط المستقيم حتى لا يصحبنا قرين من نزغات الشيطان ووساوسه ، ورفيق من خطرات النفوس وهواجسها ، أو يصدنا عن الوصول تعريج في أوطان التقليد ، أو يحول بيننا وبين الاستبصار ركون لى معتاد من التلقين ، وتستهوينا آفة من نشو أو هوادة ، وظن أو عادة ، وكلل أو ضعف إرادة ، وطمع مالي أو استزادة .

[فصل] الصراط المستقيم ما عليه من الكتاب والسنة دليل ، وليس للبدعة عليه سلطان ولا إليه سبيل . الصراط المستقيم ما شهدت بصحته دلائل التوحيد ، ونهت عليه شواهد التحقيق . الصراط المستقيم ما درجَ عليه سلف الأمة ، ونطقت بصوابه دلائل العبرة . الصراط المستقيم ما باين الحظوظ سالكه ، وفارق^(٣) الحقوق قاصده . الصراط المستقيم ما يُفيض بسالكة إلى ساحة التوحيد ، ويُشهد صاحبه أثر العناية والجود ، لثلاث يظنه موجب (ببذل)^(٤) المجهود .

(١) وردت (ساكنة) والأصح بالميم فقد جاءت كذلك في مواضع كثيرة أخرى .

(٢) وردت خطأ (لتستضيء) .

(٣) وردت (وفارن) في ص ، والأصح أن تكون بالقاف ، فالخطوط للعبد والحقوق للحق .

(٤) وردت (بذل) بدون ياء والأقوى في رأينا أن تكون بالباء وأن نقرأ موجب بفتح الجيم أي مستحق ، وبذلك يتضح موقف القشيري من قضية هامة وهي : هل يجب على الله أن ينيب المطيع ؟ ولا يرى القشيري هذا الوجوب لأنه يربط كل عمل للعبد بالعناية الإلهية لا بالمجهود الإنساني . وقد صدق الرسول (ص) حين قال : « ما منكم من أحد ينجي عمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتخمدني الله برحمته » .

قوله جل ذكره : ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾

يعنى طريق من أنعمت عليهم بالهداية إلى الصراط المستقيم ، وهم الأولياء والأصفياء .
ويقال طريق من (أفينهم)^(١) عنهم ، وأقنهم بك لك ، حتى لم يقفوا في الطريق ، ولم تصدهم
عنك خفايا المكر . ويقال صراط من أنعمت عليهم بالقياس بحقوقك دون التعرّيج على
استجلاب حظوظهم .

ويقال صراط من (طهرنهم)^(٢) عن آثارهم حتى وصلوا إليك بك .

ويقال صراط من أنعمت عليهم حتى تحرروا من مكائد الشيطان ، ومغاليل^(٣) النفوس
ومخايل الظنون ، وحسابات الوصول قبل خمود آثار البشر (ية) .

ويقال صراط من أنعمت عليهم بالنظر والاستعانة بك ، والتبرّى من الحول والقوة ،
وشهود ماسبق لهم من السعادة في سابق الاختيار ، والعلم بتوحيده فيما تمضيه من المسار والمضار .

ويقال صراط الذين أنعمت عليهم بحفظ الأدب في أوقات الخدمة ، واستشعار نعت الهيبة .

ويقال صراط الذين أنعمت عليهم بأن حفظت عليهم آداب الشريعة وأحكامها عند
غلبات (بواده)^(٤) الحقائق حتى لم يخرجوا عن حد العلم ، ولم يُخَلُّوا بشيء من أحكام الشريعة .
ويقال صراط الذين أنعمت عليهم حتى لم تطفئ شمس معارفهم أنوار ورعهم ولم يُضَيِّعُوا شيئاً
من أحكام الشرع^(٥) .

ويقال صراط الذين أنعمت عليهم بالعبودية عند ظهور سلطان الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾

(١) وردت (أفنهم) في س

(٢) وردت (طهرنهم) في س

(٣) وردت (مغاليل) في س

(٤) وردت (بواد)

(٥) نلاحظ أن التشيرى يلح كثيراً على التزام آداب الشريعة مهما طلبت على العبد سطوة الانحاء ،
واستلبه سلطان الفناء ، ويحسن هنا أن نشير إلى اصطلاح في مذهب التشيرى وهو الفرق الثانى ومى حالة
مريضة يرد عندها العبد إلى الصحو لكن يؤدي ما يجب عليه من الفرائض في أوقاتها ، ويكون رجوعه لله
بالله (انظر الرسالة التشريعية ص ٣٩) .

المغضوب عليهم الذين صدمتهم هواجم الخلدان^(١) ، وأدركتهم مصائب الحرمان ،
وركبهم سطوة الرد ، وغلبتهم بؤآده الصد والطرْد .

ويقال هم الذين لحقهم ذل الهوان ، وأصابهم^(٢) سوء الخسران ، فشغلوا في الحال باجتلاب
الحلوظ — وهو في التحقيق (شقاء) ؛ إذ يحسبون أنهم على شيء ، وللحق في شقاؤهم سر .

ويقال هم الذين أنسوا بنفحات التقريب زماناً ثم أظهر الحق صبحانه في بابهم شائناً ؛ بُدِّلوا
بالوصول بعبادا ، وطعموا في القرب فلم يجدوا مراداً ، أولئك الذين ضلّ سعيهم ، وخاب ظنهم .

ويقال غير المغضوب عليهم بنسيان التوفيق ، والتعاضى عن رؤية التأييد . ولا الضالين
عن شهود سابق الاختيار ، وجريان التصاريف والأقدار .

ويقال غير المغضوب عليهم بتضييعهم آداب الخدمة ، وتقصيرهم في أداء شروط الطاعة .
ويقال غير المغضوب عليهم هم الذين تقطعوا في مفاوز الغيبة ، وتفرقت بهم المهوم
في أودية وجوه الحسبان .

[فصل] ويقول العبد عند قراءة هذه السورة آمين ، والتأمين سنة ، ومعناه يارب افعل
واستجب ، وكأنه يستدعى بهذه القالة التوفيق للأعمال ، والتحقيق للآمال ، وتخط رجله
بساحات الافتقار ، ويناجى حضرة الكرم بلسان الابتهال ، ويتوسل (بتبريه)^(٣) عن الحول
والطاقة والمثنة والاستطاعة إلى حضرة الجود . وإن أقوى وسيلة للفقير تعلقه بدوام الاستعانة
لتحققه بصدق الاستغاثة .

السورة التي تذكر فيها البقرة . . قوله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

الاسم مشتق من السمو والسمة ، فسبيل من يذكر هذا الاسم أن يتسم بظاهره بأنواع
المجاهدات ، ويسمو بهيمته إلى تحالّ المشاهدات . فمن عديم سمة المعاملات على ظاهرة ، وفقد

(١) يقول الفشيري في الرسالة (ومنهم من تفرم البواده ونصرفه الهواجم ، ومنهم من يكون فوق
ما يفجؤه حالا ووقتاً . . أولئك هم سادات الوقت) ص ٤٤ .

(٢) وردت (أحبائهم) . (٣) وردت (ببريته) والصواب (بتبريه) .

سُوُّ الهَيْبَةِ لِلْمَوَاصِلَاتِ بِسَرَائِرِهِ لَمْ يَجِدْ لَطَائِفَ الذِّكْرِ عِنْدَ قَالَتِهِ ، وَلَا كِرَامَ القُرْبِ فِي صِفَاءِ حَالَتِهِ .

[فصل] معنى الله : الذى له الإلهية ، والإلهية استحقاق نعوت الجلال . فعنى بسم الله : باسم من تفرَّد بالقوة والقدرة . الرحمن الرحيم من تَوَحَّدَ في ابتداء الفضل والنصرة . فسماع الإلهية يُوجِبُ الهَيْبَةَ والاصْطِلَامَ ، وسماع الرحمة يُوجِبُ القُرْبَةَ والإِكْرَامَ . وَكُلُّ مَنْ لَاطَفَهُ الحق سبحانه عند سماع هذه الآية رَدَّهُ بين محو ومحو ، وبقاء وفناء ، فإذا كاشَفَهُ بنعت الإلهية أشْهَدَهُ جلاله ، فحاله محو . وإذا كاشَفَهُ بنعت الرحمة أشْهَدَهُ جماله فحاله محو :

أَغْيِبْ إِذَا شَهِدْتُكَ ثُمَّ أَحْيَا فَكَمْ أَحْيَا لَدَيْكَ وَكَمْ أُبَيِّدُ

قوله جل ذكره : ﴿ الم ﴾

هذه الحروف المقطعة في أوائل السورة من التشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله — عند قوم ، ويقولون لكل كتاب سر ، وسر الله في القرآن هذه الحروف المقطعة . وعند قوم إنها مفاتيح أسمائه ، فالألف من اسم « الله » ، واللام يدل على اسمه « اللطيف » ، والليم يدل على اسمه « المجيد » و « الملك » .

وقيل أقسم الله بهذه الحروف لشرفها لأنها بسائط أسمائه وخطابه .

وقيل إنها أسماء السور .

وقيل الألف تدل على اسم « الله » واللام تدل على اسم « جبريل » والليم تدل على اسم « محمد » صلى عليه وسلم ، فهذا الكتاب نزل من الله على لسان جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

والألف من بين سائر الحروف انفردت عن أشكالها بأنها لا تتصل بحرف في الخط وسائر الحروف يتصل بها إلا حروف يسيرة ، فينتبه العبد عند تأمل هذه الصفة إلى احتياج الخلق بجملتهم إليه ، واستغناؤه عن الجميع .

ويقال يتذكر العبد المخلص ^(١) مِنْ حَالَةِ الألف تَقْدُّسَ الحق سبحانه وتعالى عن النخص

(١) وردت في س (المخلص) وهي خطأ من الناسخ .

بالمكان ؛ فإن سائر الحروف لها محل من الخلق^(١) أو الشفة^(٢) أو اللسان إلى غيره من المدارج^(٣) غير الألف فإنها هويته ، لا تضاف إلى محل .

ويقال الإشارة منها إلى أفراد العبد لله سبحانه وتعالى فيكون كالألف لا يتصل بحرف ، ولا يزول عن حالة الاستقامة والاتصاف بين يديه .

ويقال يطالب العبد في سره عند مخاطبته بالألف بانفراد القلب إلى الله تعالى ، وعند مخاطبته باللام بلين جانبه في (مراعاة) حقه ، وعند سماع الميم بموافقة أمره فيها يكلفه .

ويقال اختص كل حرف بصيغة مخصوصة وانفردت الألف باسنواء القامة ، والتميز عن الاتصال بشيء من أضرابها من الحروف ، فجعل لها صدر الكتاب إشارة إلى أن من تجرد عن الاتصال بالأمثال والأشغال حظى بالرتبة العليا ، وفاز بالدرجة القصوى ، وصلاح للتخاطب بالحروف المنفردة التي هي غير مركبة ، على سنة الأحياء في ستر الحال ، وإخفاء الأمر على الأجنبي من القصة — قال شاعرهم :

قلت لها قفينا قالت . قاف

لا تحسبي أننا نسينا لا يخاف

ولم يقل وفتت ستراً على الرقيب ولم يقل لا أقف مراعاة لقلب الحبيب بل : « قالت قاف » .
ويقال تكثر العبارات^(٤) للعموم والرموز والإشارات للخصوص ، أسمع موسى كلامه في ألف موطن ، وقال لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم : أَلِفٌ . . . وقال عليه السلام : أوتيت جوامع الكلم^(٥) فاختصر لي الكلام اختصاراً ، وقال بعضهم : قال لي مولاي : ما هذا الدنف ؟

قلت : نهراي ؟ قال : لام الف

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾

(١) وردت في ص (الشفق) وهي خطأ من الناسخ .

(٢) معناها الخارج — كما جاء في الهامش .

(٣) وردت في ص (العبادات) والأصح بالراء لأن القشيري في مواضع كثيرة يقابل بين العبارة والإشارة

(٤) وردت في ص (التلم) وهي خطأ من النسخ . وسبأني تحريج الحديث في هامش قريب .

قيل ذلك الكتاب أى هذا الكتاب ، وقيل إشارة إلى ما تقدم إنزاله من الخطاب ،
وقيل ذلك الكتاب الذى وعدتُك إنزاله عليك يوم الميثاق .

لا ريب فيه ، فهذا وقت إنزاله . وقيل ذلك الكتاب الذى كتبتُ فيه الرحمة على نفسى
لامتك — لا شك فيه ، فتحقق بقولى .

وقيل الكتاب الذى هو سابق حكى ، وقديم قضائى لمن حكمت له بالسعادة ، أو خضعت
عليه بالشقاوة لا شك فيه .

وقيل (حكى الذى أخبرت أن رحمتى سبقت على غضبى لا شك فيه^(١)) .

وقيل إشارة إلى ما كتب فى قلوب أوليائه من الإيمان والعرفان ، والمحبة والإحسان ، وإن
كتاب الأحباب عزيز على الأحباب ، لا سيما عند اللقاء ، وبكتاب الأحباب سلوتهم
وأنسهم ، وفيه شفاؤهم ورووحهم ، وفى معناه أنشدوا :

وكتبك حولى لا تفارق مضجعى وفيها شفاء للذى أنا كاتم

وأنشدوا :

ورد الكتاب بما أقر عيوننا وشفى القلوب فنلن غايات المنى
وتقاسم الناس السريرة بينهم قسماً وكان أجلم حطاً أنا^(٢)

قوله جل ذكره : ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾

أى بياناً وحجة ، وضياء ومحجة ، لمن وقاه الحق سبحانه وتعالى من ظلمات الجهل ، وبصره
بأنوار العقل ، واستخلصه بحقائق الوصل . وهذا الكتاب للأولياء شفاء ، وعلى الأعداء
عنى وبلاء . المتقى من اتقى رؤية تقواه ، ولم يستند إلى تقواه ، ولم ير نجاته إلا بفضل مولاه .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾

(١) ما بين القوسين نسخة استدرج بها الناسخ فأنبتها فى هامش الصفحة .

(٢) لم يكن الناصح يظهر اهتماماً بأبيات الشعر فوصلتنا رديئة الخط كثيرة الأخطاء فقمنا بتصحيحها
بقدر الإمكان حتى تبدو ذات معنى ، وذلك استناداً إلى حالة لها أكثر ضبطاً إما فى مواضع أخرى من هذا
الكتاب أو من كتب القشيري الأخرى .

حقيقة الإيمان التصديق ثم التحقيق ، وموجب الأمرين التوفيق . والتصديق بالعقل والتحقيق ببذل الجهد ، في حفظ العهد ، ومراعاة الحد . فالؤمنون هم الذين صدّقوا باعتقادهم ثم الذين صدّقوا في اجتهادهم .

وأما الغيب فما يعلمه^(١) العبد مما خرج عن حد الاضطرار ؛ فكل أمر ديني أدركه العبد بضرب استدلال ، ونوع فكر واستشهاد بالإيمان به غيبي . فالرب سبحانه وتعالى غيب . وما أخبر الحق عنه من الحشر والنشر ، والثواب والمآب ، والحساب والعذاب — غيب .

وقيل إنما يؤمن بالغيب من كان معه سراج الغيب ، وأن من أيّدوا ببرهان العقول آمنوا بدلالة العلم وإشارة اليقين ، فأورّدهم صدق الاستدلال ساحات الاستبصار ، وأوصلهم صائب الاستشهاد إلى مراتب السكون ؛ فإيمانهم بالغيب بمزاحة علومهم دواعي الريب . ومن كوشف بأنواع التعريف أسبل عليهم سجوف الأنوار ، فأغناهم بلوائح البيان عن كل فكر وروية ، وطلب بخواطر ذكية ، وردّ وردع لدواعٍ رديّة ، فطلعت شمس أسرارهم فاستغنوا عن مصاييح استدلالهم ، وفي معناه أنشدوا :

كَيْلِيَّ مِنْ وَجْهِكَ شَمْسُ الضُّحَا وَظِلَامُهُ فِي النَّاسِ سَارِي
وَالنَّاسُ فِي سِدْفِ الظَّلَامِ وَنَحْنُ فِي ضَوْءِ النَّهَارِ
وَأَلْشَدُّوا :

طلعت شمس من أحبك ليلاً فاستضاءت وما لها من غروب
إن شمس النهار تغرب بالليل وشمس القلوب ليست تغيب^(٢)
ومن آمن بالغيب بشهود الغيب غاب في شهود الغيب فصار غيباً يغيب .
وأما إقامة الصلاة فالقيام بأركانها وسننها ثم الغيبة^(٣) عن شهودها بروية من يُصَلِّي له^(٤)

(١) وردت (يعلمه) والأرجح أن تكون (يعلمه) حتى تتلاءم مع طبيعة الغيب .
(٢) وردت (مما لها) ، (وتغيب بالليل) ، (ليت تغيب) وقد سمعنا ذلك بما يتلاءم مع الوزن والمعنى
(٣) وردت (ثم الغيب) وهي خطأ من الناسخ والأصح (الغيبة) كما سنجد في الهامش التالي .
(٤) القشيري هنا متأثر بفكرة الواسطي حينما دخل نيسابور وسأل أصحاب أبي هيثم : بماذا كان يأمركم شيخكم ؟ فقالوا : كان يأمرنا بالتزام الطاعات ورؤية التقصير فيها . فقال « ... هلا أمركم بالغبية عنها بروية ملشئها وبجرها » الرسالة ص ٣٤ .

فيحفظ عليه أحكام الأمر بما يجرى عليه منه ، وهو عن ملاحظتها نحو ، فنفسهم مستقبلية
القبلة ، وقلوبهم مستغرقة في حقائق الوصلة :

أراني إذا صليت يَمَّتْ نحوها بوجهي وإن كان المصلي ورائيا
أصلي فلا أدري إذا ما قضيتها أثنين صليت الضحا أم ثمانيا ؟

وإن أصحاب العموم يجتهدون عند افتتاح الصلاة ليردوا قلوبهم إلى معرفة ما يؤدون من
الفرض ، ولكن عن أودية الغفلة ما يرجعون . أما أهل الخصوص فيردون قلوبهم إلى معرفة
ما يؤدون ولكن عن حقائق الوصلة ما يرجعون ؛ فشتان بين غائب يحضر أحكام الشرع
ولكن عند أوطان الغفلة ، وبين غائب يرجع إلى أحكام الشرع ولكن عند حقائق الوصلة .

قوله جل ذكره : ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾

الرزق ما تمكن الإنسان من الانتفاع به ، وعلى لسان التفسير أنهم ينفقون أموالهم
إمّا نفلاً وإمّا فرضاً على موجب تفصيل^(١) العلم . وبيان الإشارة أنهم لا يدخرون عن الله
سبحانه وتعالى شيئاً من ميسورهم ؛ فينفقون نفوسهم في آداب العبودية ، وينفقون قلوبهم
على دوام مشاهدة الربوبية . فإنفاق أصحاب الشريعة من حيث الأموال ، وإنفاق أرباب
الحقيقة من حيث الأحوال ، فهؤلاء يكتفي منهم عشرين بنصف ومن المائتين بخمس^(٢) ، وعلى
هذا السنن جميع الأموال يعتبر فيه النصاب . وأما أهل الحقائق فلو جعلوا من جميع أحوالهم
- لأنفسهم ولخطوطهم - لحظة قامت عليهم القيامة .

[فصل] الزاهدون أنفقوا في طريقة متابعة هوام ، فأثروا رضا الله على مناهم ، والعابدون
أنفقوا في سبيل الله وسعهم وقوام ، فإلزموا سرّاً وعلناً نفوسهم . وليريدون أنفقوا في سبيله
ما يشغلهم عن ذكر مولاهم فلم يلتفتوا إلى شيء من دنياهم وعقباهم . والعارفون أنفقوا في سبيل
الله ما هو سوى مولاهم فقرّبهم الحق سبحانه وأجزاهم ، وبحكم الأفراد به لقاهم .

(١) وردت (تفصيل) ولا يرجعها السياق فالتعمود ما يفصله العلم من مقادير زكاة المال .

(٢) إشارة إلى أن زكاة الأموال مقدارها ربع العشر .

[فصل] الأغنياء أنفقوا من نعمهم على عاقبتهم . والفقراء أنفقوا من همهم على منابستهم ^(١) .
 ويقال العبد بقلبه وببدنه وبماله ، فبإيمانهم بالغيب قاموا بقاوتهم ، وبصلاتهم قاموا بنفوسهم ،
 وبإفنائهم قاموا بأموالهم ، فاستحقوا خصائص القربة من معبودهم ، وحين قاموا ليحقه بالكلية
 استوجبوا كمال الخصوصية .

قوله جلّ ذكره : ﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، وبالأخرة هم يوقنون﴾

إيمانهم بالغيب اقتضى إيمانهم بالقرآن ، وبما أنزل الله من الكتب قبل القرآن ، ولكنه
 أعاد ذكر الإيمان هنا على جهة التخصيص والتأكيد ، وتصديق الواسطة صلى الله عليه وسلم
 في بعض ما أخبر يوجب تصديقه في جميع ما أخبر ، فإن دلالة صِدِّقه تشهد على الإطلاق دون
 التخصيص ، وإنما أيقنوا بالأخرة لأنهم شهدوا على الغيب فإن حارثة لما قال له رسول الله
 صلى الله عليه وسلم كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت مؤمناً بالله حقاً ، وكأني بأهل الجنة
 يتزاورون وكأني بأهل النار يتعاوون ^(٢) وكأني بعرش ربي بارزاً فقال رسول الله صلى الله
 عليه وسلم : أصبتَ فالزَمْ .

وهذا عامر بن عبد القيس يقول : « لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً » . وحقيقة اليقين
 التخلص عن تردد التخمين ، والتقضى عن مجوزات الظنون .

قوله جلّ ذكره : ﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ يعني على بيان

(١) من (اناب) وعند القشيري : التوبة بداية والأوبة نهاية والإنابة واسطتهما ، فكل من تاب
 لخوف عقوبة فهو صاحب توبة ؛ ومن تاب طمعاً في الثواب فهو صاحب إنابة ، ومن تاب مراعاة للأمر
 لرغبة في الثواب ، أو رهبة من العقاب فهو صاحب أوبة (الرسالة ص ٥٠) .

(٢) وردت (وكأني بأهل النار يتعاوون) ووردت في موضع آخر من الكتاب عند تفسير الآية ٤٩
 من سورة البقرة (يتعاوون) . وبالرجوع إلى مصادر الحديث وجدناه على النحو التالي : « سأل النبي
 (ص) حارثة فقال : لعل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي ،
 واطمأت نهارى ، وكأني انظر إلى عرش ربي بارزاً ، وكأني انظر إلى أهل الجنة يتزاورون ، وإلى أهل
 النار في النار كيف يتعاوون . فقال له النبي (ص) : عرفت ظالم . » .

البراز بسند ضعيف عن انس ، والطبراني في الكبير من حديث الحارث بن مالك ، وسنده ضعيف أيضاً

من ربهم و يقين وكشف وتحقيق ، وذلك أنه تجلّى لقلوبهم أولاً بآياته ثم تجلّى لها بصفاته
ثم تجلّى لها بحقه وذاته .

وقوم « على هدى من ربهم » بدلائل العقول ؛ وضعوها في موضعها فوصلوا إلى حقائق
العلوم ، وقوم على بصيرة ملاطفت التقريب فيمشاهدة الرحمة والكرم وصلوا إلى بيان اليقين ،
وآخرون ظهرت الحقيقة لأسرارهم فشهدوا بالغييب حقيقة الصدية ، فوصلوا بحكم العرفان
إلى عين الاستبصار .

« وأولئك هم المفلحون » الفلاح الظفر بالبُغية^(١) ، والفوز بالطلبية ، ولقد نال القوم
البقاء في مشهد اللقاء فظفروا بغير الأعداء ، وهي غائبة^(٢) النفوس من هواجسها ، ثم زلات
القلوب من خواطرها^(٣) ، فوقفوا بالحق للحق بلا واسطة من عقل ، أو رجوع
إلى ذكر وفكر .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم
أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾

من كان في غطاء وصفه محجوباً عن شهود حقه فالإشارة لنعته أنه سيان عنده قول من
دّله على الحق ، وقول من أعانته على استجلاب الحظ ، بل هو إلى دواعي الغفلة أميل ،
وفي الإصغاء إليها أرغب . كيف لا ؟ وهو بكى الفرقة موسوم ، وفي سجن الغيبة محبوس ،
وعن محل القرية ممنوع ، لا يحصل منهم إيمان ، لأنه ليس لهم من الحق أمان ؛ فلما لم يؤمنوا
لم يؤمنوا . حكم سبق من الله حتم ، وقول له فصل ، وإن القدرة لا تعارض ، ومن زاحم الحق
في القضية^(٤) كبسته سطوات العزة ، وقصمته بواده^(٥) الحكم .

ويقال إن الكافر لا يرعوى عن ضلّالته لما سبق من شقاوته ، وكذلك المربوط بأغلال
نفسه محجوب عن شهود غيبه وحقه ، فهو لا يبصر رشده ، ولا يسلك قصده . ويقال إن

(١) وردت في س (بالفتة) وهي خطأ من الناسخ .

(٢) الفاغة مرعى البهائم .

(٣) يقول القشيري في رسالته : إن الهاجس خاص بالنفس والخطر خاص بالقلب ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٤) القضية هنا معناها القضاء .

(٥) البواده ما يفجأ القلب من الغيب على سبيل الوهلة (الرسالة ص ٤٤) .

الذى بقى فى ظلمات رعونته سواء عنده نصيح المرشدين وتسويلات المبطلين ، لأن الله سبحانه وتعالى نزع عن أحواله بركات الإنصاف ، فلا يدرك بسمع القبول ، ولا يُصْنَى إلى داعى الرشاد ، كما قيل :

وعلى النصوح نصيحتي وعلى عصيات النصوح

ويقال من ضلَّ عن شهود المِنَّة عليه فى سابق القسمة توهم أن الأمر من حركاته وسكناته فاتسكل على أعماله ، وتعامى عن شهود أفضاله .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾^(١)
انختم على الشئ يمنع ما ليس فيه أن يدخله وما فيه أن يخرج منه ، وكذلك حكم الحق سبحانه ألا يفارق قلوب أعدائه ما فيها من الجهالة والضلالة ، ولا يدخلها شئ من البصيرة والهداية . على أسماع قلوبهم غطاء الخذلان ، سدَّت تلك المسامع عن إدراك خطاب الحق من حيث الإيمان ، فوساوس الشيطان وهواجس النفوس شغلتها عن استماع خواطر الحق . وأما الخواص فخواطر العلوم وجولان تحقيقات المسائل فى قلوبهم شغلت قلوبهم عن ورود أسرار الحق عليهم بلا واسطة ، وإنما ذلك لخاوص الخاوص ، لذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد كان فى الأمم محدثون فإن يكن فى أمتى فعمر »^(٢) فهذا المحدث مخصوص من الخواص كما أن صاحب العلوم مخصوص من بين العوام . وعلى بصائر الأجانب غشاوة فلا يشهدون لا ببصر العلوم ولا ببصيرة الحقائق ، ولهم عذاب عظيم لحساباتهم أنهم على شئ ، وغفلتهم عما مُنُوا من المحنة (و...)^(٣) فى الحال والمآل^(٤) ، فى العاجل فرقتهم ، وفى الآجل حرقتهم .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾

(١) للحديث صيغة أخرى « إن من أمتى مكلفين ومحدثين وإن عمر منهم » .

(٢) مشبهة فى م .

(٣) والأرجح أنها (فى الحال والمآل) حتى تلسجهم مع العاجل والآجل .

ثبتوا على نفاقهم ، ودأبوا على أن يلبسوا على المسلمين ، فهتك الله أستارهم بقوله : وما هم بمؤمنين كذا قيل :

من تحلى بغير ما هو فيه فضح الامتحان ما يدعيه

ولما تجردت أقوالهم عن المعاني كان وبال ما حصلوه منها أكثر من النفع الذي توهموه فيها ، لأنه تعالى قال : « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار » ولولا نفاقهم لم يزد عذابهم .

ويقال لما عديموا صدق الأحوال لم ينفعهم صدق الأقوال ، فإن الله تعالى قال : « والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » فكانوا يقولون نشهد إنك رسول الله ، وكذلك من أظهر من نفسه ما لم يتحقق به افتضح عند أرباب التحقيق في الحال ، وقيل :

أيها المدعى سليمى هواها لست منها ولا قلامة ظفر

إنما أنت في هواها كواي أُلصقت في الهجاء ظلما بعمرو

قوله جلّ ذكره : ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾

عاد وبال خداعهم والعقوبة عليه^(١) إلى أنفسهم فصاروا في التحقيق كأنهم خادعوا أنفسهم ، فما استهانوا إلا بأقذارهم ، وما استخفوا إلا بأنفسهم ، وما ذاق وبال فعلهم سواهم ، وما قطعوا إلا وتينهم . ومن كان عالماً بحقائق المعلومات فن رام خداعه إنما يخدع نفسه .

والإشارة في هذه الآية أن من تناسى لطفه السابق وقال لى ربى ومنى وأنا يقع في وهمه وظنه لك وبك ومنك وأنت ، وهذا التوهم أصعب العقوبات^(٢) لأنه يرى سرايا فيظنه سرايا حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ،

ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾

في قلوب المنافقين مرض الشك ، ويزيدهم الله مرضاً بتوهمهم أنهم نجوا بما لبسوا

(١) وردت لى س (عليها) والأسح أن تكون عليه لأن الضمير يعود على الخداع وربما قصد التشبى بعودة الضمير على مفهوم ، وهو جرعة الخداع .

(٢) جاء في رسالة القشيري « التوحيد إسقاط الباءات فلا تقول لى وبى ومنى وإلى » ص ١٤٩

على المسلمين ، ثم لهم عذاب أليم مؤلم ، يَخْلُص وجهه إليهم في المآل . (وفي) الإشارة يحصل لمن خلط قصده بحظه ، وشاب إرادته بهواه (أن) يتقدم في الإرادة بقدِّم ، ويتأخر بالحفظ ومتابعة النفس بأخرى ، فهو لا يريد صادق ولا عاقل متثبت . ولو أن المناقذين أخلصوا في عقائدهم لآمنوا^(١) في الآخرة من العقوبة كما آمنوا في الدنيا من نحو بذل الجزية وغير ذلك مما هو صفة أهل الشرك والذمة^(٢) ، كذلك لو صدق المريد في إرادته لوصل بقلبه إلى حقائق الوصلة ، ولأدركته بركات الصديق فيها رامه من الظفر بالبغية ، ولكن حاله كما قيل :

فما ثبتنا فيثبت لنا عدل بلا حنف ولو خلصنا تخلصنا من المحن^(٣)

وإن من سقمت عبادته حيل بينه وبين درجات الجنات ، ومن سقمت إرادته حيل بينه وبين مواصلات القرب والمناجاة . وأما من ركن إلى الدنيا واتبع الهوى فسكونهم^(٤) إلى دار الغرور سقم لقلوبهم ، والزيادة في علمهم تكون بزيادة حرصهم ، كلما وجدوا منها شيئاً — تجلّ لهم العقوبة عليه — يتضاعف حرصهم على ما لم يجدوه .

ثم من العقوبات العاجلة لهم تشتت همومهم ثم تنغص عيشهم فيبغون بها عن مولاهم ، ولم يكن لهم استمتاع ولا راحة فيما آثروه من متابعة هوائهم ، وهذا جزاء من أعرض عن صحبة مولاه ، وفي معناه قيل :

تبدلت فتبدلنا واحسرتنا لمن ابتغى عوضاً ليس له فلم يجد^(٥)

والإشارة في العذاب الأليم بما كانوا يكذبون إنما هي الحسرة يوم الكشف إذا رأوا أشكالهم الذين صدقوا كيف وصلوا ، ورأوا أنفسهم كيف خسروا .

(١) وردت (لآمنوا) وهي خطأ من الناسخ .

(٢) وردت (والذمة) ، هي خطأ من الكتابة .

(٣) أصلنا قليلاً في البيت لكي يؤدي معنى ، لأن ما في البيت من أخطاء كدائية تقدم على قبة ، ونرجح أنها (خوف) لا (حنف) وإن كان الحنف معناه الميل إلا أن الحنف وهو الظلم أقرب .

(٤) ويحتمل أيضاً أنها في الأصل (فركونهم) حتى تتلاءم مع (ومن ركن) ، وتلاهما مبدول .

(٥) وزن البيت غير سليم وقد ورد فيه (واخسرانا) و (ليلي) ويبدو أن الناسخ قد وقع في أخطاء

أخرى عند النقل

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ

قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ

الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

الإشارة منها : أنه إذا دغاهم واعظ في قلوبهم من خفي خواطرهم إلى ما فيه رشدهم تتبعوا رخص التأويل ، ولبسوا على أنفسهم ما يشهد بقساوة قلوبهم ، وحين جحدوا يرهان الحق من خواطر قلوبهم نزع الله البركة من أحوالهم ، وأبدلهم تصامماً عن الحق ، وابتلاهم بالاعتراض على الطريقة^(١) وسلبهم الإيمان بها .

وكما أن المرتد أشد على المسلمين عداوة كذلك من رجع عن الإرادة إلى الدنيا والعبادة فهو أشد الناس إنكاراً لهذه الطريقة ، وأبعد من أهلها ، وفي المثل : من اخترق كُدُّه^(٢) نَمَى أن يقع بجميع الناس ما أصابه .

وإرفاق المرتدين عن طريق الإرادة — عند الصادقين منهم — غير مقبول كما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقبل زكاة ثعلبة .

ويقال كفى لصاحب الكذب فضيحة بأن يقال له في وجهه كذبت ، فهم لما قالوا إنما نحن مصلحون ، أ كذبهم الحق سبحانه فقال : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ : إِنَّا نَعْلَمُهُمْ فَتَفْضَحُهُمْ .

قوله عز ذكره : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ

قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ

هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

الإشارة منها أن المنافقين لما دُعوا إلى الحق وصفوا المسلمين بالسُّفَهَاءُ ، وكذلك أصحاب الغنى إذا أُمرُوا بِتَرْكِ الدُّنْيَا وصفوا أهل الرشد بالكسل والعجز ، ويقولون إن الفقراء ليسوا على شيء ، لأنه لا مال لهم ولا جاه ولا راحة ولا عيش ، وفي الحقيقة هم الفقراء وهم أصحاب المحنة ، وقعوا في الذل مخافة الذل ، ومارسوا الهوان خشية الهوان ، شيدوا القصور ولكن

(١) يقصد القشيري طريقة الصوفية .

(٢) الكُدُّ بضم الكاف وتسكين الدال : المجتمع من كل شيء كالخب المحمود والتمر والدرام والرمل

والجمع اكُداس (الوسيط والسان) .

سكنوا القبور ، زينوا المهد ولكن أدرجوا اللحد ، ركضوا في ميدان الغفلة ولكن عثروا
في أودية الحسرة ، وعن قريب سيعلمون ، ولكن حين لا ينفعهم علمهم ، ولا ينفي
عنهم شيء .

سوف ترى إذا انجلى الغبارُ أفرسُ تحتك أم حارُ

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا

خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ

إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ . الله يستهزئ

بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ﴿

أراد المناقون أن يجمعوا بين عشرة الكفار وصحبة المسلمين ، فإذا برزوا للمسلمين
قالوا نحن معكم ، وإذا خلّوا بأضرابهم من الكفار أظهرُوا الإخلاص لهم ، فأرادوا الجمع بين
الأمريّن فنّفوا عنهما . قال الله تعالى : « مذّبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » ،
وكذلك من رام أن يجمع بين طريق الإرادة وما عليه أهل العادة لا يلتئم ذلك ، فالضدان
لا يجتمعان ، و « المُكَاتَّبُ عَبْدٌ مَا بَقِيَ عَلَيْهِ دَرَمٌ » ، وإذا ادّلم الليل من هاهنا أدبر النهار
من هاهنا ، ومن كان له في كل ناحية خليط ، وفي زاوية من قلبه ربيط كان نهياً للطوارق ،
ينتابه كل قوم ، وينزل في قلبه كل (. . .) (١) ، فقلبه أبداً خراب ، لا يهناً بعيش ، ولا له
في التحقيق رزق من قلبه ، قال قائلهم :

أراك بقية من قوم موسى فهم لا يصبرون على طعام

ولما قال المناقون إنما نحن مستهزئون قال الله تعالى : « الله يستهزئ بهم » أي يجازيهم
على استهزائهم ، كذلك لما ألقى القوم أزمّتهم في أيدي الشهوات استهوتهم في أودية التفرقة ،
فلم يستقر لهم قدم على مقام فتطرحوا في متاهات الغيبة ، وكما يمد المناقون في طغيانهم يعمهون
يطيل مدة (٢) هؤلاء في مخايل الأمل فيكونون عند اقتراب آجالهم أطول ما كانوا أملاً ، وأسوأ
ما كانوا عملاً ، ذلك جزاء ما عملوا ، ووبال ما صنعوا . وتحسين أعمالهم القبيحة في أعينهم من

(١) مشبهة في ص .

(٢) وربما كانت بطيل (مد) والسياق يقبل كليهما .

أشد العقوبات لهم ، ورضاؤهم بما فيه من الفترة^(١) أَجَلٌ مصيبة لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى
فما ربحت تجارتهم ، وما كانوا مهتدين ﴾

الإشارة منها أن من بقى عن الحقوق بالبقاء في أوطان الحفظ خسر صفتهم .
وما ربحت تجارتهم . والذي رضى بالدنيا عن العقبى لى خسران ظاهر .

ومن آثر الدنيا أو العقبى على الحق تعالى لأشد خسرانا .

وإذا كان للصاب^(٢) بفوات النعيم مغبونا فالذى مُنِيَ بالبعد عن المناجاة وأنجاز^(٣) بقلبه
عن مولاه ، وبقي في أسر الشهوات ، لا إلى قلبه رسول ، ولا لروحه وصول ، ولا معه مناجاة ،
ولا عليه إقبال ، ولا في سره شهود — فهذا هو المصاب والمُتَحَن .

وإن من فاته وقت فقد فاته ربه ، فالأوقات لا تخلف عنها ولا تبدل منها ، ولقد قال بعضهم :

كنت السواد لمقلتي فبكى عليك الناظر
من شاء بعدك فليست فعليك كنت أخاذر

قوله جل ذكره : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما
أضأت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم
في ظلمات لا يبصرون ﴾

هذا مثل ضربه الله سبحانه للنافقين بمن استوقد نارا^(٤) في ابتداء ليلته ثم أطفئت
النيران فبقى صاحبها في الظلمة ، كذلك المنافق ظهر عليه شيء من العوافى في الدنيا بظاهره
ثم امتحنوا في الآخرة بأليم العقوبة ، أو لاح شيء من إقرارهم ثم بقوا في ظلمة إنكارهم .

والإشارة من هذه الآية لمن له بداية جميلة ، يسلك طريق الإرادة ، ويتعني مدة ، ويقاسي
بعد الشدة شدة ، ثم يرجع إلى الدنيا قبل الوصول إلى الحقيقة ، ويعود إلى ما كان فيه من
ظلمات البشرية . أوزق عودهم ثم لم يشمر ، وأزهر غصنه ثم لم يدركه ، وعجل كسوف الفترة على

(١) الفترة رجوع عن الإرادة وخروج منها ، والوقفه سكون عن السير باستحلاء حالات الكسل ،
ووقفه المرید شر من فقرته (الرسالة ص ١٩٩) .

(٢) وردت (المصاب) في ص وهي غير ملائمة .

(٣) وردت (وأنجاز) والأرجح ما اخترنا .

(٤) وردت (ناري) والأرجح ما اخترنا .

أقمار حضوره ، وردته يد القهر بعد ما أحضره لسان اللطف ، فوطن عن القرب قلبه ، وغلّ من الطالبين نفسه ، فكان كما قيل .

حين قرّ الهوى وقلنا سررنا وحسبنا من الفراق أمينا

بعث البين رسله في خفاء فأبادوا من شملنا ما جمعنا

وكذلك تحصل الإشارة في هذه الآية لمن له أدنى شيء من المعاني فيظهر الدعاوى فوق ماهو به ، فإذا انقطع عنه (. . .)^(١) ماله من أحواله بقي في ظلمة دعاواه .

وكذلك الذي يركن إلى حطام الدنيا وزخرفها ، فإذا استتبّت الأحوال وساعد الأمل وارتفع المراد — برز عليه الموت من مكان المكر فيترك الكل ويحمل الكل .

قوله جل ذكره : ﴿ صُمُّ بَكْمٌ عُمَى فَمَ لَا يَرْجِعُونَ ﴾

صم عن سماع دواعي الحق بأذان قلوبهم ، بكم عن مناجاة الحق باللسنة أسرارهم ، عمى عن شهود جريان المقادير بعيون بصائرهم ، فهم لا يرجعون عن تماديهم في تهتكهم ، ولا يرددون عن انهماكهم في ضلالتهم

ويقال صم عن السماع بالحق ، بكم عن النطق بالحق ، وعمى عن مطالعة الخلق بالحق . لم يسبق لهم الحكم بالاقلاع ، ولم تساعدهم القسمة بالارتداع .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ

وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ

حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾

معنى قوله أو لإباحته ضرب مثلهم إما بهذا وإما بذلك شبه القرآن بمطر ينزل من السماء ، وشبه ما في القرآن من الوعد والوعيد بما في المطر من الرعد والبرق ، وشبه التجاءهم إلى الفرار عند سماع أصوات الرعد . كذلك الإشارة لأصحاب الغفلات إذا طرق أسماعهم وعظ الواعظين ، أو لاحت لقلوبهم أنوار السعادة ؛ ولو أقبلوا عما هم فيه من الغفلة لسعدوا ، لكنهم ركنوا إلى التشاغل بآمالهم الكاذبة ، وأصرروا على طريقهم الفاسدة ، وتعللوا بأعذار واهية ،

(١) هنا كلمات زائدة وضع الناسخ عليها علامات مميزة نوضح ضرورة الاستغناء عنها .

ويحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون أنفسهم ، ويسعون في الخطر بآيائهم^(١) :

إن الكريم إذا حباك بوذّه سترّ القبيح وأظهر الإحسانا
وكذا الملول^(٢) إذا أراد قطيعةً مل^(٣) الرصال وقال كان وكانا

قوله جل ذكره : ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم ﴾

كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم
قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمهم
وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير ﴿

من تمام مثل المنافقين — كذلك أصحاب الغفلات — إذا حضروا مشاهد الوعظ ،
أو جنحت^(٤) قلوبهم إلى الرقة ، أو داخلهم شيء من الوهلة تقرب أجوالهم من التوبة ،
وتقوى رغبتهم في الإنابة حتى إذا رجعوا إلى تدبرهم ، وشاوروا إلى قرنائهم ، أشار الأهل
والولد عليهم بالعود إلى دنياهم ، وبسطوا فيهم لسان النصيح ، وهدّوهم بالضعف والعجز ،
فيضعف قصودهم ، وتسقط إرادتهم ، وصاروا كما قيل :

إذا ارعوى ، عاد إلى جهله كذى الضنى عاد إلى نكسة

وقال : « ولو شاء الله لذهب بسمهم وأبصارهم » يعني سمع المنافقين الظاهر وأبصارهم
الظاهرة ، كما أصمهم وأعماهم بالسر ، فكذلك أرباب الغفلة ، والقانعون من الإسلام بالظواهر —
فالله تعالى قادر على سلبهم التوفيق فيما يستعملونه من ظاهر الطاعات ، كما سلبهم التحقيق
فما يستنبطونه من صفاء الحالات .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى ﴾

خلقكم والذين من قبلكم لعلكم
تتقون ﴿

العبادة موافقة الأمر ، وهى استفراغ الطاقة فى مطالبات تحقيق الغيب ، ويدخل فيه
التوحيد بالقلب ، والتجريد بالسر ، والتفريد بالقصد ، والخضوع بالنفس ، والاستسلام للحكم .
ويقال اعبدوه بالتجرد عن المحظورات ، والتجلى فى أداء الطاعات ، ومقابلة الواجبات

(١) جمع عين ومما هنا البعد .
(٢) وردت (ملا) وهى خطأ فى النسخ .
(٣) وردت (الملوك) وهى خطأ فى النسخ .
(٤) وردت فى س (جنهت) وهى خطأ فى النسخ .

بالخشوع والاستكاشة ، والتجافي عن التعرّيج في منازل الكسل والاستهانة .
قوله : « لعلكم تتقون » : تقريب الأمر عليهم وتسهيله ، ولقد وقفهم بهذه الكلمة
— أعني لعل — على حد الخوف والرجاء .
وحقيقة التقوى التحرز والوفاء (بالطاعة)^(١) عن متوعدات العقاب .

قوله جل ذكره : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا ،
وَالسَّمَاءَ بَنَاءً ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ
فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

تعرف إليهم بذكر ما من به عليهم من خلق السماء لهم سقفا^(٢) مرفوعاً ، وإنشاء الأرض
لهم فرشاً موضوعاً ، وإخراج النبات لهم بالمطر رزقاً مجموعاً . ويقال اعتقهم عن مينة الأمثال
بما أراح لهم من العلة فيها لا بد منه ، فكافئهم السماء لهم غطاءً ، والأرض وطاءً ، والمباحات
رزقاً ، والطاعة حرفة ، والعبادة شغلاً ، والذكر مؤسداً ، والرب وكيلًا — فلا تجعلوا لله
أنداداً ، ولا تعلقوا قلوبكم بالأغيار في طلب ما تحتاجون إليه ؛ فإن الحق سبحانه وتعالى
مُتَوَحِّدٌ بالإبداع ، لا يُحْدِثُ سواه ، فإذا توهمتم أن شيئاً من الحادثات من نفع أو ضرر ،
أو خير أو شر يحدث من مخلوق كان ذلك — في التحقيق شيراً كآ .

وقوله عز وجل : « وأنتم تعلمون » أن من له حاجة في نفسه لا يصلح أن ترفع حاجتك إليه .
وتعلق المحتاج بالمحتاج ، واعتماد الضعيف على الضعيف يزيد في الفقر ، ولا يزيل هواجس الضرر .

قوله جل ذكره : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا
فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا
شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا
فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ
وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾

(١) هذه كلمة احتاجها السياق فأضفناها مستفيدين من أقوال القشيري في موقف مماثل في الرسالة ص ٥٦ .
(وحقيقة الاتقاء التحرز ...) .
(٢) وردت (شقفا) وهي خطأ في النسخ .

لبس على بصائر الأجانب حتى لم يشهدوا حبيبه صلوات الله عليه ، فتأهوا في أودية
الظنون لما قدسوا نور العناية ، فلم يزد الرسول عليهم إتيانا بالآيات ، وإظهاراً من المعجزات
إلا ازدادوا ريباً على ريب وشكاً على شك ، وهكذا سبيل من أعرض عن الحق سبحانه ؛
لا يزيده ضياء الحجج إلا عَمَى عن الحقيقة ؛ قال الله تعالى : « وما تُغْنِي الآيات والنُّذُر عن قوم
لا يؤمنون » ، وليبلغ عليهم في إزام الحجة عرفتهم عجزهم عن معارضة ما آتاهم من معجزة القرآن
الذي قهر الأنام من أولهم إلى آخرهم ، وقدّر عليهم أنهم لو تظاهروا فيما بينهم ، واعتضدوا
بأشكالهم ، واستفروغوا كُنْه طاقاتهم واحتياهم لم يقدروا على الإتيان بسورة مثل سورة
القرآن . ثم قال فإن لم تفعلوا — وأخبر أنهم قطعاً لا يقدرُونَ على ذلك ولا يفعلون فقال :
« ولن تفعلوا » ، فكان كما قال — فانظروا لأنفسكم ، واحذروا الشُّركَ الذي يوجب
لكم عقوبة النار التي من (سطوتها)^(١) بحيث وقودها الناس والحجارة ، فإذا كانت تلك
النار التي لا تثبت لها الحجارة مع صلابتها ()^(٢) فكيف يطيقها الناس مع ضعفهم ،
وحين أشرفت^(٣) قلوب المؤمنين على غاية الإشفاق من سماع ذكر النار تداركها بحكم
التثبیت فقال : « أُعِدَّتْ للكافرين ، ففي ذلك بشارة للمؤمنين . وهذه سُنَّةٌ من الحق
سبحانه : إذا خوف أعداءه^(٤) بَشَّرَ مع ذلك أوليائه .

وكما أن كيد الكافرين يضمحل في مقابلة معجزات الرسل عليهم السلام فكذلك دعاوى
المُلْبِسِينَ تتلاشى عند ظهور أنوار الصديقين ، وأمارَةُ المُبْطِلِ في دعواه رجوعُ الزجر منه
إلى القلوب ، وعلامة الصادق في معناه وقوع القهر^(٥) منه على القلوب . وعزيزٌ من فصل
وميزٌ بين رجوع الزجر وبين وقوع القهر .

قوله جل ذكره : ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا

الصلالحات أن لهم جنات تجري من
تحتها الأنهار ﴾ .

(١) وردت بالمعاد وعند ذلك يكون الخطأ من الناسخ ، وربما كانت في الأصل (صفتها) ، وقد نخبنا
(سطوتها) لأنها أقرب إلى الشكل الوارد ولتلاؤمها مع المعنى والسياق .

(٢) هنا كلمة زائدة وضع الناسخ عليها علامة مميزة .

(٣) وردت باللفاف وهي خطأ في النسخ .

(٤) وردت هكذا (أعداويه) وهي خطأ في النسخ .

(٥) وردت (التهم) ولكن ما جاء بعدها يثبت خطأ الناسخ ، فضلاً عن أنها غير ذات معنى هنا .

هذه البشارة بالجنان تتضمن تعريفاً بنعم مؤجلة لعبود المؤمنين على الوصف الذى يُشْرَح بلسان التفسير . ويشير إلى البشارة للخواص بنعم مُعَجَّلَة مضافة إلى تلك النعم يتيح(ها) الله لهم على التخصيص ، فتلك المؤجلة^(١) جنان المثوبة وهذه جنان القربة ، وتلك رياض النزهة وهذه رياض الزلفة ، بل تلك حدائق الأفضال وهذه حدائق الوصال ، وتلك رفع الدرجات وهذه رَوْح المناجاة ، وتلك قضية جوده ، هذه الاشتغال بوجوده ، وتلك راحة الأبرار وهذه نزهة الأسرار ، وتلك لطف العطاء للظواهر وهذه كشف الغطاء عن السرائر ، وتلك لطف نواله وأفضاله وهذه كشف جماله وجلاله .

قوله جل ذكره : ﴿ كَلِمَاتُ رُزْقٍ قَوَّاهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

كما أن أهل الجنة تتجدد^(٢) عليهم النعم فى كل وقت ، فالثانى عندهم — على ما يظنون — كالأول ، فإذا ذاقوه وجدوه فوق ما تقدم — فكذلك أهل الحقائق : أحوالهم فى السرائر أبداً فى الترقى ، فإذا رُقِّ أحدهم عن محله توهم أن الذى سيلقاه فى هذا النفس مثل ما تقدم فإذا ذاقه وجدته فوق ذلك بأضعاف ، كما قال قائلهم :

ما زلت أنزل من ودادك منزلاً تنحيرُ الأبواب دون نزوله

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يَسْتَحْيِ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ .

الاستحياء من الله تعالى بمعنى التُّرْك ، فإذا وصف نفسه بأنه يستحي من شيء فعناه أنه لا يفعل ذلك وإذا قيل لا يستحي فعناه لا يبالي بفعل ذلك .

والخلقُ فى التحقيق — بالإضافة إلى وجود الحق — أقلُّ من ذرةٍ من الهباء فى الهواء ،

(١) وقع النسخ فى خطأ فسكتها (المعجلة) والسياق يرفضها لأن الإشارة للبعيد بتلك وللتقريب بهذه .

(٢) وردت (يحدد) والسياق يرفضها ويقبل (تتجدد) وربما كانت (يحدد) أى الحق سبحانه وتعالى يحدد .

لأن هذا استهلاك محدود في محدود . فسيان — في قدرته^(٣) — العرش والبعوضة ، فلا يخلق العرش أشق وأعسر ، ولا يخلق البعوضة أخف عليه وأيسر ، فإنه سبحانه مُتَقَدِّسٌ عن حقوق العُسر والبُسر .

فإذا كان الأمر بذلك الوصف ، فلا يستحي أن يضرب بالبعوضة مثلاً كما لا يستحي أن يضرب بالعرش — فمادونه — مثلاً .

وقيل إن جهة ضرب المثل بالبعوضة أنها إذا جاءت فَرَّتْ^(١) وطارت ، وإذا شبت تشققت فَنَلَفَتْ كذاك (إن الإلسان ليطغى أن رآه استغني) .

وقيل ما فوقها يعنى الذباب ، وجهة الإشارة فيه إلى وقاحته ، حتى إنه ليعود عند البلاغ في الذب ، ولو كان ذلك في الأسد لم ينبج منه أحد من الخلق ، ولكنه لما خلق القوة في الأسد خلق فيه تنافراً من الناس ، ولما خلق الوقاحة في الذباب خلق فيه الضعف ، تنبيهاً منه سبحانه على كمال حكمته ، ونفاذ قدرته .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۖ ﴾ .

فأما من فتحت أبصار سرائره فلا ينظر إلى الأغيار والآثار إلا بنظر الاعتبار ، ولا يزداد إلا نفاذاً لاستبصار . وأما الذين سكرت أبصارهم بحكم الغفلة فلا يزيدهم ضرب الأمثال إلا زيادة الجهل والإشكال والأنكال .

قوله جل ذكره : ﴿ يُضِلُّهُ بِكَثِيرٍ وَيَهْدِيهِ بِكَثِيرٍ وَمَا يُضِلُّهُ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ۖ ﴾ .

هذا الكتاب لقوم شفاء ورحمة ، ولآخرين شقاء وفتنة . فمن تعرّف إليه يوم الميثاق بأنوار العناية حين سمعوا قوله : « أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ » تذكروا عند ورود الواسطة — صلوات الله عليه وعلى آله — قديم عهده ، وسابق وُدّه فازدادوا بصيرة على بصيرة ، ومن رَمَمَهُ بِذُلِّ القطيعة ، وأنطقه ذلك اليوم عن الحسبان والرهبة ما ازدادوا عند حصول الدعوة

(١) وردت (فريت) وهي خطأ في النسخ . (٣) وردت (قدرة) .

النبوية إلا جُهداً على جُهد ، وما خفى عليهم اليوم صادق الدلالة ، إلا لما تقدم لهم سابق الضلالة . لذلك قال الله تعالى : « وما يضل به إلا الفاسقين » .

قوله جل ذكره : ﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون﴾ .

الإشارة فيه إلى حال من سلك طريق الإرادة ، ثم رجع إلى ما هو عليه أهل العادة ، قال بتركة نفسه ثم لم يصدق حين عزم الأمر ، ونزل من إشارة الحقيقة إلى رخص الشريعة^(١) ، وكما أن من سلك الطريق بنفسه — مادام يبقى درهم في كيسه — فغير محمود رجوعه فكذلك من قصد بقلبه — مادام يبقى نفس من روحه — فغير مرضى رجوعه : إن الألى ماتوا على دين الهدى وجدوا المنية منهلاً معلولاً^(٢) .

ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل : وصل أسباب الحق بقطع أسباب الخلق ، ولا يتم وصل ماله إلا بقطع مالك ، فإذا كان الأمر بالعكس كان الحال بالضد .

ومما أمر العبد بوصله : حفظه ذمام أهل هذه الطريقة ، والإنفاق على تحصيل ذلك بصدق الهم لا ببذل النعم ، فهمهم على اتصال أسباب هذه الطريقة وانتظام أحوالها موقوفة ، وقلوبهم إلى توقع الحراسة من الله تعالى لأهلها مصروفة . وفساد هذه الطريقة في الأرض : أما من لم حواشي أحوالهم ، وإطراق أمورهم فيتشغلون عن إرشاد مريد بكلامهم ، وإشحاد قاصد بهمهم ، وذلك مما لا يرضى به الحق سبحانه منهم .

ومن نقض العهد أيضاً أن يحيد سيرك لحظة عن شهوده ، ومن قطع ما أمرت بوصله

(١) من عناصر المذهب الصوفي عند القشيري إلحاحه الدائم على ألا يلجأ الصوفي إلى الاسترخاس ، ذلك لأن الرخصة — وإن كانت محتاجة بأمر الشريعة — إلا أنها — أي التريفة — للعموم ، وفيها يؤخذ في الاعتبار أمر المستضعفين وأصحاب الأشغال والحوائج أما « هؤلاء الطائفة فليس لهم شغل سوى القيام بحقه سبحانه ، فإذا انحط الفقير عن درجة الحقيقة إلى رخصة الشريعة فقد فسخ عهده مع الله تعالى » . الرسالة ص ١٩٩ .

(٢) وردت (الهوى) وفي موضع آخر من اللطائف (و ١٦٥) وردت : (منهلاً معلولاً) .

أن يتخلل أوقاتك نفس لحظك دون القيام بحقه ، ومن فسادك في الأرض ساعة تجري عليك ولم تره فيها . ألا إن ذلك هو الخسران المبين ، والمحنة العظيمة ، والرزية الكبرى .

قوله جل ذكره : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ﴾ .

هذه كلمة تعجيب وتعظيم لما فيه العبد ، أى لا ينبغي مع ظهور الآيات أن ينجح إلى الكفر قلبه .

ويقال تعرف إلى الخلق بلوائح دلالاته ، ولوامع آياته . فقال : « وكنتم أمواتاً » يعنى نطفة ، أجزاءها متساوية ، « فأحياكم » : بشراً اختص بعض أجزاء النطفة بكونه عظماً ، وبعضها بكونه لحماً ، وبعضها بكونه شعراً ، وبعضها بكونه جلداً . . . إلى غير ذلك .

« ثم يميتكم » بأن يجعلكم عظاماً ورفاتا ، « ثم يحييكم » بأن يحشركم بعدما صرتم أمواتاً ، « ثم إليه ترجعون » أى إلى ما سبق به حكم من السعادة والشقاوة .

ويقال « كنتم أمواتاً » بجهلكم عنّا ، ثم « أحياكم » بمعرفتكم بنا ، « ثم يميتكم » عن شواهدكم ، « ثم يحييكم » به بأن يأخذكم عنكم ، « ثم إليه ترجعون » أى يحفظ أحكام الشرع بإجراء الحق^(١) .

ويقال « كنتم أمواتاً » لبقاء نفوسكم فأحياكم بفناء نفوسكم ثم يميتكم عنكم عن شهود ذلك لئلا تلاحظوه فيفسد عليكم ، ثم يحييكم بأن يأخذكم عنكم ثم إليه ترجعون بتقليبكم في قبضته سبحانه وتعالى .

ويقال يحبس عليهم الأحوال ؛ فلا حياة بالدوام ولا فناء بالكلية ، كلما قالوا هذه حياة — وبيناهم كذلك — إذ أدال عليهم فأفناهم ، فإذا صاروا إلى الفناء أثبتهم وأبقاهم ، فهم أبدأ بين نفي وإثبات ، وبين بقاء وفناء ، وبين صحو ومحو . . . كذلك جرت سنته سبحانه معهم .

(١) وردت (بأجزاء) وهى خطأ قطعاً .

والمقصود بإجراء الحق هنا هو ما سبق أن فوّطنا به في هامش سابق من حالة الفرق الثاني حيث « يرد العبد إلى الصحو عند اوقات أداء الفرائض ليجرى عليه الفرائض في أوقاتها فيكون رجوعاً لله بالله . فالحق يجرى أفعاله وأحواله عليه » الرسالة ص ٣٩ .

قوله جل ذكره : ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ .
سخر لهم جميع المخلوقات على معنى حصول انتفاعهم بكل شيء منها ، فعلى الأرض يستقرون
وتحت السماء يسكنون ، وبالنجم يهتدون ، وبكل مخلوق بوجه آخر ينتفعون . لا بل ما من عين
وأثر فكروا فيه إلا وكمال قدرته وظهور ربوبيته به يعرفون .

ويقال مهَّد لهم سبيل العرفان ، ونهَّهم إلى ما خصَّهم به من الإحسان ، ثم علمهم علوَّ الهمة
حيث استخلص لنفسه أعمالهم وأحوالهم فقال « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر » .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع
سماوات ، وهو بكل شيء عليم ﴾
فالأكوان بقدرته استوت ، لا أن الحق سبحانه بذاته — على مخلوق — استوى ، وأنَّى
بذلك ! والأحدية والصمدية حقه وما توهموه من جواز التخصيص بمكان فحال ما توهموه ،
إذ المسكان به استوى ، لا الحق سبحانه على مكان بذاته استوى .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل
في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من
يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن
نسبح بحمدك وتقديسك قال إني أعلم
ما لا تعلمون ﴾ .

هذا ابتداء إظهار سيره في آدم وذريته . أمرَ حتى سلَّ من كل بقعة طينة ثم أمرَ بأن يخر
طينه أربعين صباحاً ، وكل واحد من الملائكة ينفى^(١) العَجَب : ما حكم هذه الطينة ؟ فلما
ركب صورته لم يكونوا رأوا مثلها في بديع الصنعة وعجيب الحكمة ، فحين قال « إني جاعل
في الأرض . . . » تَرَجَّجتِ الظنون ، وتقسَّمتِ القلوب ، وتجنَّتِ الأقاويل ، وكان كما قيل :

وكم أبصرتُ من حسن ولكن عليك من الورى وقع اختياري
ويقال إن الله سبحانه وتعالى خلق ما خلق من الأشياء ولم يقل في شأن شيء منه ما قال
في حديث آدم حيث قال : « إني جاعل في الأرض خليفة » ، فظاهر هذا الخطاب يشبه المشاورة

(١) وردت في ص (ينفى) بالغاف والصواب أن تكون (ينفى) بالغاء .

لو كان من المخلوقين . والحق سبحانه وتعالى خلق الجنان بما فيها ، والعرش بما هو عليه من انتظام الأجزاء وكمال الصورة ، ولم يقل إني خالق عرشاً أو جنة أو ملكاً ، وإنما قال تشریفاً وتخصيصاً لآدم إني جاعل في الأرض خليفة .

[فصل] ولم يكن قول الملائكة : « أتجعل فيها من يفسد فيها » على وجه الاعتراض على التقدير ولكن على جهة الاستفهام ، فإن حَمَلَ الخطاب على ما يُوجب تنزيه الملائكة أولى لأنهم معصومون . . قال تعالى « لا يعصون الله ما أمرهم » .

ويقال استخرج الحق سبحانه منهم ما استكن في قلوبهم من استعظام طاعتهم والملاحظة إلى أفعالهم بهذا الخطاب ؛ فأفصحوا عن خفايا أسرارهم بقولهم : « ونحن نسبح بحمدك » . ثم إن الحق سبحانه عرفهم أن الفضيلة بالعلم أنهم من الفضيلة بالفعل ، فهم كانوا أكثر فعلاً وأقدمه ، وآدم كان أكثر علماً وأوفره ، فظهرت فضيلته ومرتبته .

ويقال لم يقل الحق سبحانه أنتم لا تفسدون فيها ولا تسفكون الدماء بل قال : « إني أعلم ما لا تعلمون » ، من غفراني لهم .

ويقال : في تسبيحهم إظهار فعلهم واشتهار خصائصهم وفضلهم^(١) ، ومن غفرانه لمعاصي بني آدم إظهار كرمه سبحانه ورحمته ، والحق سبحانه غنى عن طاعات كل مطيع ، فلئن ظهر بتسبيحهم استحقاق تمدحهم ثبت بالغفران استحقاق تمدح الخالق سبحانه .

ويقال إني أعلم ما لا تعلمون من صفاء عقائد المؤمنين منهم في محبتنا ، وذكاه أسرارهم في حفظ عهودنا وإن تدس بالعصيان ظاهرهم ، كما قيل :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءته محاسنه بألف^(٢) شفيح

ويقال إني أعلم ما لا تعلمون من محبتي لهم ، وأنتم تظهرون أحوالكم ، وأنا أخفي عليهم أسرارى فيهم ، وفي معناه أنشدوا :

ما حطك الواشون عن رتبة عندي ولا ضرك مغتاب

كأنهم أثنوا — ولم يعلموا — عليك عندي بالذي عابوا^(٣)

(١) نلاحظ هنا تأثير التشبیه بفكرة الملامة النيسابورية التي ظهرت في موطنه ، والتي من أصولها عدم إظهار الفعل ، لأن في ذلك ملاحظة واستجلاب ، ملاحظة لفعل الإنسان وهو مهابا بلغ تافه حقير ، واستجلاب لرضاء الناس والاشتهار بينهم ، وكلا الأمرين - في نظر الملامية - شرك خفي .
(٢) وردت (بألف) وبها ينكسر الوزن .
(٣) وردت أخطاء كثيرة في البيتين مثل (ضربك) ولم (يملوا عليك) .

ويقال إنى أعلم ما تعلمون من انكسار قلوبهم وإن ارتكبوا قبيح أفعالهم ، وصولاً
قلوبكم عند إظهار تسبيحكم وتقديسكم ، فأنتم فى رتبة وفاقكم وفى عصمة أفعالكم ، وفى تجميل
تسبيحكم ، وهم منكرون عن شواهدهم ، متذللون بقلوبهم ، وإن لانكسار قلوب العباد عندنا
لذما ما قويا .

ويقال أى خطر لتسبيحكم لولا فضلى ، وأى ضرر من ذنوبهم إذا كان عفوى ؟ ويقال
لبسنتكم طاعتكم ولبستهم رحمتى ، فأنتم فى صدار^(١) طاعتكم وفى حلة تقديسكم وتسبيحكم ،
وهم فى تغمد عفوى وفى ستر رحمتى ألبستهم ثوب كرمى ، وجللتهم رداء عفوى .

ويقال: إن أسعدتكم عصمتى فلقد أدركتهم رحمتى .
وإيصال عصمتى بكم عنده وجودكم وتعلق رحمتى بهم فى أزلى .
ويقال : لئن كان مُحسنُكم عتيقَ العصمة فإن مجرمهم غريق الرحمة
ويقال : اتسكلم على زكى أحوالهم فأجلألم إلى الاعتراف بالجهالة حتى يتبرأوا عن المعارف
إلا بمقدار ما من به الحق عليهم فقالوا : « سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى
الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

عموم قوله الأسماء يقتضى الاستغراق ، واقتران قوله سبحانه بكلها يوجب الشمول
والتحقيق ، وكما علمه أسماء المخلوقات كلها — على ما نطق به تفسير ابن عباس وغيره — علمه
أسماء الحق سبحانه ، ولكن إنما أظهر لهم^(٢) محل تخصصه فى علمه أسماء المخلوقات وبذلك
المقدار بان رجحانه عليهم ، فأما انفراده بمعرفة أسمائه — سبحانه — فذلك سر لم يطلع عليه
ملك مقرب . ومن ليس له رتبة مساواة آدم فى معرفة أسماء المخلوقات فأى طمع فى مداناته
فى أسماء الحق ، ووقوفه على أسرار الغيب ؟

وإذا كان التخصيص بمعرفة أسماء المخلوقات يتقضى أن يصح^(٣) (به سجود) الملائكة

(١) الصدار قميص صغير يلى الجسد ، ولاحظ مقابلة الشيرى بين الصدار للملائكة وبين الثوب والرداء

للإنسان لتدرك مقاصده البعيدة .

(٢) أى للملائكة .

(٣) وردت لى من (بسجود) ورجح أنها كما أثبتنا .

فما العن بالتخصيص بمعرفة أسماء الحق سبحانه ؟ ما الذي يُوجب لمن أكرم به ؟

ويقال خصوصية الملائكة بالتسبيح والتقديس وهذه طاعات تليق بالخلقين ؛ فإن الطاعة سعة العبيد ولا تنعدم ، والعلم في الجملة صفة مدح يجب في نعمت الحق سبحانه وإيجاباً لا يصح لغيره ، فالذي يُكرمه بما يتصف هو سبحانه (بيانه وإن كان للمساواة أتم من الكرام بما يكون مخلوقاً على جنس المخلوقات)^(١) .

ويقال أكرمه في السر بما علمه ثم بين تخصيصه يوم الجهر وقدمه . ويقال قوله : « ثم عرضهم » ثم : حرف تراخ ومهلة . « إِمَّا على آدم ؛ فإنه أمهله من الوقت ما تقرر ذلك في قلبه ، وتحقق المعلوم له بحقه ثم حينئذ استخبره عما تحقق به واستيقنه . وإِمَّا على الملائكة ؛ فقال لهم على وجه الوهلة : « أنبئوني » فلما لم يتقدم لهم تعريف تحيروا ، ولما تقدم لآدم التعليم أجاب وأخبر ، ونطق وأفلح ، إظهاراً لعنايته السابقة — سبحانه — بشأنه .

وقوله : « إن كنتم صادقين » فيه إشارة إلى أنهم تعرّضوا لدعوى الخصوصية ، والفضيلة والمزية على آدم ، فعرّفهم أن الفضل ليس بتقديم تسبيحهم لكنه في قديم تخصيصه . ولما علم الحق سبحانه تقاصر علومهم عن معرفة أسماء المخلوقات ثم كلّفهم الإنباء عنها صار فيه أوضح دلالة على أن الأمر أمره ، والحكم حكمه ، فله تكليف المستطيع ، ردّاً على من توهم أن أحكام الحق سبحانه مُعلّلة باستحسان أرباب الغفلة بما يدعونه من قضايا العقول ، لا بل له أن يلزم ما يشاء لمن يشاء ، الحسن ما حكم بتحسينه والقبيح ما حكم بتقبيحه^(٢) .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا

إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ .

قدّموا الثناء على ذكر ما اعتذروا به ، ونزهوا حقيقة حكمه عن أن يكون يعرض وهم المعارضون^(٣) ، يعني لا علم لنا بما سألتنا عنه ، ولا يتوجه عليك لوم في تكليف العاجز

(١) هكذا جاءت العبارة في م وهي لا تخلو من غموض ولسكننا آثرنا عدم التدخل في إصلاحها نظراً

لخطورة الموقف الذي تصفه ، ونرجح أن النسخ مخطئ ، في نقله .

(٢) يشير التشبيري هنا بالاعتزلة الذين يقيسون الأفعال الإلهية بمقاييس إنسانية عقلية (ولسكنهم نزهوا

الله من حيث العقل فأخطأوا ونزهه الصوفية من حيث العلم فأصابوا) الرسالة ص ٢٩ .

(٣) وردت (المعارضين) ، ويمرض هنا مضارع عرض في الآية السابقة .

بما علمت أنه غير مستطيع له ، إنك أنت العليم الحكيم أى ما تفعله فهو حقٌ صِدْقٌ ليس لأحد عليك حكمٌ ، ولا منك سَفَهٌ وقبح .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ .

من آثار العناية بآدم عليه السلام أنه لما قال للملائكة : « أَنْبِئُونِي » دَاخِلَهُمْ مِنْ هَيْبَةِ الْخُطَابِ مَا أَخَذَهُمْ عَنْهُمْ ، لَا سِوَا حِينَ طَالَبَهُمْ بِأَنْبِئِهِمْ إِيَّاهُ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ عُلُومُهُمْ . ولما كان حديث آدم عليه السلام ردّه في الإنباء إليهم فقال : « أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ » ومخاطبة آدم عليه السلام للملائكة لم يوجب له الاستغراق في الهيبة . فلما أخبرهم آدم عليه السلام بأسماء ما تقاصرت عنها علومهم ظهرت فضيلته عليهم فقال : « أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » يعنى ما تقاصرت عنه علوم الخلق ، وأعلم ما تبدون من الطاعات ، وتكتمون من اعتقاد الخيرية على آدم عليه السلام والصلاة .

[فصل] ولما أراد الحق سبحانه أن يُنَجِّىَ (١) آدَمَ عَصِيهِ ، وَعَلَّمَهُ ، وَأَظْهَرَ عَلَيْهِ آثَارَ الرِّعَايَةِ حَتَّى أَخْبَرَ بِمَا أَخْبَرَ بِهِ ، وَحِينَ أَرَادَ إِمْضَاءَ حُكْمِهِ فِيهِ أَدْخَلَ عَلَيْهِ النِّسْيَانَ حَتَّى نَسِيَ فِي الْحَضْرَةِ عَهْدَهُ ، وَجَاوَزَ حَدَّهُ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عِزْمًا » فالوقت الذى ساعدته العناية تقدم على الجملة بالعلم والإحسان ، والوقت الذى أمضى عليه الحكم ردّه إلى حال النسيان والعصيان ، كذا أحكام الحق سبحانه فيها تجرى وتمضى ، ذلّ بحكمه العبيد ، وهو فعّال لما يريد .

[فصل] ولما توهّموا حصول تفضيلهم بتسبيحهم وتقديسهم عرفهم أن بساط العز مقدس عن النجمل بطاعة مطيع أو التدنس بزلة جاحد عنيد ، فردّهم إلى السجود لآدم أظهر الغناء عن كل وفاق وخلاف (٢) .

(١) وردت (ينجب) وهى بلا ريب خطأ فى النسخ ويمكن أن تكون ينبجى آدم - نها أثبتنا - أو ينبجو آدم ، والأرجح ما اخترناه .

(٢) وردت (وخلاق) وهى خطأ فى النسخ ، وقد اخترنا ما يلائم السياق .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ

فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ

وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝ ﴾ .

السجود لا يكون عبادة لِعَيْنِهِ^(١) ولكن لموافقة أمره سبحانه ، فكان سجودهم لآدم عبادة لله ؛ لأنه كان بأمره ، وتعظيماً لآدم لأنه أمرهم به تشریفاً لشأنه ، فكان ذلك النوع خضوع له ولكن لا يسمى عبادة ، لأن حقيقة العبادة نهاية الخضوع وذلك لا يصح لغيره سبحانه .

ويقال بَيَّنَّ أَنْ تَقْدُسَ — سبحانه — بجلاله لا بأفعاله ، وَأَنْ تَجْمَلَ بِتَقْدِيرِهِمْ وَتُسَبِّحَهُمْ عَائِدُهُ إِلَيْهِمْ ، فهو الذي يجل من أَجَلِّهِ بجلاله لا بأفعاله ، ويعز من أعزّ قدره سبحانه بإعزازه ، جَلُّ عَنْ إِجْلَالِ الْخَلْقِ قَدْرُهُ ، وعزّ عن إعزاز الْخَلْقِ ذِكْرُهُ .

قوله تعالى : ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ۝ أَبَى بِقَلْبِهِ ، وَاسْتَكْبَرَ عَنِ السَّجْدِ بِنَفْسِهِ ، وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ فِي سَابِقِ حُكْمِهِ وَعِلْمِهِ . وَلَقَدْ كَانَ إِبْلِيسَ مَدَّةً فِي دَلَالِ طَاعَتِهِ يَخْتَالُ فِي صَدَارِ مَوَاقِفِهِ ، سَلَّمُوا لَهُ رُتَبَةَ التَّقَدُّمِ ، وَاعْتَقَدُوا فِيهِ اسْتِحْقَاقَ الْإِخْصَاصِ ، فَصَارَ أَمْرُهُ كَمَا قِيلَ :

وَكَانَ سَرَاجُ الْوَصْلِ أَزْهَرَ بَيْنَنَا فَهَبَّتْ بِهِ رِيحٌ مِنَ الْبَيْنِ فَانْطَفَأَ

كَانَ يَحْسِبُ لِنَفْسِهِ اسْتِجَابَ الْخَيْرِيَّةِ ، وَيَحْسِبُ اسْتِحْقَاقَ الزُّلْفَةِ وَالْإِخْصَاصِ :

فَبَاتَ بِخَيْرِ وَالِدِنِي^(٢) مَطْمَئِنَّةً وَأَصْبَحَ يَوْمًا وَالزَّمَانُ تَقَلُّبًا

فَلَا سَالِفَ طَاعَةٍ نَفَعَهُ ، وَلَا آفَ رَجْعَةٍ رَفَعَهُ ، وَلَا شَفَاعَةَ شَفِيعٍ أَدْرَكَتْهُ ، وَلَا سَابِقَ عَنَافَةٍ أَمْسَكَتْهُ . وَمِنْ غَلَبَةِ الْقَضَاءِ لَا يَنْفَعُهُ الْعَنَاءُ .

ولقد حصلت من آدم هفوة بشرية ، فتداركتها رحمةٌ أحذية ، وأما إبليس فأدركتها شقوةٌ أزلية ، وغلبته قسمة وقضية . خاب رجاؤه ، وضلّ عناؤه .

(١) الضمير عائد على آدم أي ليس السجود لآدم عينه ، ويحتمل أنها (لغيره) بدليل قوله فيما بعد (وذلك لا يصح لغيره سبحانه)

(٢) وردت (الزمان) وقد صححنا البيت طبقاً لما ورد في عيون الأخبار لابن قتيبة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ
الْجَنَّةَ وَكُلَا^(١) مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا
وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا
مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

أَسْكَنَهُ الْجَنَّةَ وَلَكِنْ أَثْبَتَ مَعَ دُخُولِهِ شَجَرَةَ الْمَحَنَةِ ، وَلَوْ لَا سَابِقُ التَّقْدِيرِ لَكَانَ يُبَدَّلُ
تِلْكَ الشَّجَرَةُ بِالنُّضَارَةِ ذُبُولًا ، وَبِالْخَضِرَةِ يَبْسًا ، وَبِالْوُجُودِ فَقْدًا ، وَكَانَتْ لَا تَصِلُ يَدُ آدَمَ
إِلَى الْأَوْرَاقِ لِيَخْصِفَهَا عَلَى نَفْسِهِ — وَيَقَعُ مِنْهُ مَا يَقَعُ .

وَلَوْ تَطَاوَلَتْ تِلْكَ الشَّجَرَةُ حَتَّى كَانَتْ لَا تَصِلُ إِلَيْهَا يَدُهُ حِينَ مَدَّهَا لَمْ يَقَعْ فِي شَأْنِهِ كُلُّ ذَلِكَ
التَّشْوِيشِ وَلَكِنْ بَدَأَ مِنَ التَّقْدِيرِ مَا سَبَقَ بِهِ الْحُكْمُ .

وَلَا مَكَانَ أَفْضَلَ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَلَا بَشَرًا أَكْيَسَ مِنْ آدَمَ ، وَلَا نَاصِحَ يَقَابِلُ قَوْلَهُ إِشَارَةَ الْحَقِّ
عَلَيْهِ ، وَلَا غَرِيبَةً (مِنْهُ) قَبْلَ ارْتِكَابِهِ مَا ارْتَكَبَ ، وَلَا عَزِيمَةً أَشَدَّ مِنْ عَزِيمَتِهِ — وَلَكِنْ
الْقُدْرَةُ لَا تُكَابَرُ ، وَالْحُكْمُ لَا يُعَارَضُ .

وَيَقَالُ لَمَّا قَالَ لَهُ : « اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا » كَانَ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ
الَّذِي يَلِيقُ بِالْخَلْقِ السَّكُونُ إِلَى الْخَلْقِ ، وَالْقِيَامُ بِاسْتِجْلَابِ الْحِظِّ ، وَآدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَحْدَهُ
كَانَ بِكُلِّ خَيْرٍ وَكُلِّ عَافِيَةٍ ، فَلَمَّا جَاءَ الشَّكْلُ وَالزَّوْجُ ظَهَرَتْ أُنْيَابُ الْفِتْنَةِ ، وَانْفَتَحَ بَابُ الْمَحَنَةِ ،
فَإِنْ سَاكَنَ حَوَاءَ أَطَاعَهَا فِيهَا أَشَارَتْ عَلَيْهِ بِالْأَكْلِ ، فَوَقَعَ فِيهَا وَقَعَ ، وَلَقَدْ قِيلَ :

دَاءٌ قَدِيمٌ فِي بَنِي آدَمَ صَبْرُهُ لِبَلْسَانِ

[فَصَلْ] وَكُلُّ مَا مُنِعَ^(٢) مِنْهُ ابْنُ آدَمَ تَوَفَّرَتْ دَوَاعِيهِ إِلَى الْإِقْتِرَابِ مِنْهُ .

فَهَذَا آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَيْبَحَتْ لَهُ الْجَنَّةُ بِجَمَلَتِهَا وَنَهَتْ عَنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَلَيْسَ فِي الْمَنْقُولِ
أَنَّهُ مَدَّ يَدَهُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ جَمَلَةٍ مَا أُبْيَحَ ، وَكَانَ عِيْلَ صَبْرِهِ حَتَّى وَقَعَ مَا نَهَتْ عَنْهُ — هَكَذَا صِفَةُ الْخَلْقِ .

[فَصَلْ] وَإِنَّمَا نَبَّهَ عَلَى عَاقِبَةِ دُخُولِ آدَمَ الْجَنَّةَ مِنْ ارْتِكَابِهِ مَا يُوجِبُ خُرُوجَهُ مِنْهَا حِينَ
قَالَ : « إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » فَإِذَا أَخْبَرَ أَنَّهُ جَاعِلُهُ خَلِيفَتَهُ فِي الْأَرْضِ كَيْفَ يُمْكِنُ بَقَاؤُهُ فِي الْجَنَّةِ ؟

(١) وَرَدَتْ خَطَأً (فَسْكَالًا) ، وَالْمُصَحِّحُ (وَكَلَا) الْبَقَرَةُ : ٣٥ .

(٢) وَرَدَتْ (اِمْتَنَعَ) ثُمَّ اسْتَدْرَكَ النَّاسِخُ فَصَحَّحَهَا عَلَى هَذَا النُّعْوَى فِي الْهَامِشِ .

ويقال أصبح آدم عليه السلام محمود الملائكة ، مسجود الكافة ، على رأسه تاج الوصلة ، وعلى وسطه نطق القرية ، وفي جيبه (. . .) (١) الزلفة ، لا أحد فوقه في الرتبة ، ولا شخص مثله في الرفعة ، يتوالى عليه النداء في كل لحظة يا آدم يا آدم . فلم يُنْسِ حتى نُزِعَ عنه لباسه ، وسُلبَ استناسه ، والملائكة يدفعونه بعنف أن يخرج بغير مكث :

وَأَمِنَتْهُ فَاتَّاحَ لِي مِنْ مَّأْمَنِي مَكْرًا ، كَذَا مِنْ يَأْمَنِ الْأَحْبَابِ

ولما تاه آدم عليه السلام في مشيته لم يلبث إلا ساعة حتى خرج بألف ألف عتاب ، وكان كما قيل :

لِلَّهِ دَرُّهُمْ مِنْ فِتْنَةٍ بَكَرُوا مِثْلَ الْمُلُوكِ وَرَاحُوا كَالسَّاكِينِ

[فصل] نهاه عن قرب الشجرة بأمره ، وألقاه فيما نهاه عنه بقهره ، ولبس عليه ما أخفاه فيه من سيرة .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَزَلُّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ .

أزلهما أى تحلّهما على الزلة ، وفي التحقيق : ما صرفتَهُمَا إلا القدرة (٢) ، وما كان تقلبهما إلا في القضية ، أخرجهما عما كانا فيه من الرتبة والدرجة جبراً ، ولكن ما ازداد — في حكم الحق سبحانه — شأنهما إلا رفعة وقدرًا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ .
أوقع العداوة بينهما وبين الشيطان ، ولكن كان سبحانه مع آدم (وحرب وهو معهم محالهم بالظفر (٣)) .

[فصل] لم يكن للشيطان من الخطر ما يكون لعداوته إثبات ، فإن خصوصية الحق سبحانه عزيزة قال تعالى : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » .

[فصل] لو كان لإبليس سلطان على غواية غيره لكان له إمكان في هداية نفسه ،

(١) مشتبه ولكن يحتمل أنها (نُضَار) فهي قرية من ذلك في الرسم .

(٢) هذا رأى على جانب كبير من الأهمية .

(٣) هكذا وردت العبارة في س وقد أثبتناها كما هي دون تصرف حتى في رسم الحروف .

وكيف يكون ذلك ؟ والتفرد بالإبداع لسكل شيء من خصائص نعته سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ .

مشهد الأشباح ومآلفها أقطار الأرض ، ومعه الأرواح ومرتعها رداء العرش ، ولفظ الرداء استعارة وتوسع فكيف يكون اللهم بالحدثان تعلّق ، ولصعود القصود إلى الحقائق على الأغيار وقوع .

قوله جل ذكره : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾

إنه هو التواب الرحيم .

جرت على لسان آدم مع الحق — سبحانه — كلمات ، وأسمع الحق — سبحانه — آدم كلمات ، وأنشدوا :

وإذا يخفنا من الرقباء عينا تكلمت السرائر في القلوب

وأجل الحق سبحانه القول في ذلك إجمالاً ليبقى القصة مستورة ، أو ليكون للاحتمال والظنون مساغ ، ولما يحتمله الحال من التأويل مطرح^(١) .

ويحتمل أن تكون كلمات آدم عليه السلام اعتذاراً وتنصلاً ، وكلمات الحق سبحانه قبولاً وتفضلاً . وعلى لسان التفسير أن قوله تعالى له : أفراراً منا يا آدم ؟ كذلك قوله عليه السلام : ربنا ظلمنا أنفسنا . وقوله : أخرجني أنت من الجنة ؟ فقال : نعم ، فقال أنزدي إليها ؟ فقال : نعم .

ويقال حين أمر بخروجه من الجنة جعل ما أسمعه إياه من عزيز خطابه زاداً ، ليكون له تذكرة وعتاداً :

وأذكر أيام الحى ثم انثنى على على كبدى^(٢) من خشية أن تقطعا

ومخاطبات الأحاب لا تحتمل الشرح ، ولا يحيط الأجانب بها علماً ، وعلى طريق الإشارة لا على معنى التفسير والتأويل ، والحكم على الغيب بأنه كان كذلك وأراد به الحق سبحانه

(١) مطرح أى موضع .

(٢) وردت على (كبد) . (والأصل في البيت) (تصدعا) بدلا من (تقطعا) .

ذلك يحتمل في حال الأحباب عند المفارقة ، وأوقات الوداع أن يقال إذا خرجت من عندي فلا تنس عهدي ، وإن تقاصر عنك يوماً خبري فأياك أن تؤثر عليّ غيري ، ومن المحتمل أيضاً أن يقال إن فائتي وصولك فلا يتأخرنّ عني رسولك .

قوله جل ذكره : ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

سوء الأدب على البساط يوجب الرد إلى الباب ، فلما أساء آدم عليه السلام الأدب في عين القرية قال الله تعالى : « اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ، بعد أن كان لكم في محل القرية قرار ومتاع إلى حين ، يستمتعون يسيراً ولكن (في) آخرهم يعودون إلى الفقر ، وأنشدوا :

إذا افتقروا عادوا إلى الفقر حسبة^(١) وإن أسروا عادوا سراعا إلى الفقر

وحين أخرجه من الجنة وأنزله إلى الأرض بشره بأنه يردّه إلى حاله لو جنح بقلبه إلى الرجوع فقال : « فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾

والذين قابلوا النعمة بغير الشكر ، وغفلوا عن التصديق والتحقيق فلهم عذاب أليم مؤجل ، وفراق معجل .

قوله جل ذكره : ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴾ .

حقيقة النعمة على لسان العلماء^(٢) لذة خالصة عن الشوائب ، وما يوجب مثلها فهي أيضاً عندهم نعمة ، وعند أهل الحقيقة النعمة ما أشهدك المنعم أو ما ذكرتك بالمنعم أو ما أوصلك إلى إلى المنعم أو ما لم يحجبك عن المنعم .

(١) حسبة أي احتساباً - هكذا في الماشي .

(٢) واضح أن مقصود التفسير من (لسان العلماء) و (لسان التفسير) هو التفسير المادي ، أما (عند أهل الحقيقة) و (الإشارة منه) ونحو ذلك فهو التفسير الصوفي .

وتنقسم إلى نعمة إنبشار وظواهر ، ونعمة أرواح وسرائر ، فالأولى وجوء الرابات والثانية صنوف المشاهدات والمكاشفات . فمن النعم الباطنة عرفان القلوب ومحاب الأرواح ومشاهدات السرائر^(١) .

[فصل] ويقال أمرَ بنى إسرائيل بذكر النعم وأمرَ أمةً محمد صلى الله عليه وسلم بذكر المنعم ، وفرق بين من يقال له اذكر نعمتى وبين من يقال له : فاذكرونى اذكركم .

قوله جل ذكره : ﴿ وأوفوا بعهدى أوفى بعهدى وإياى فارهبون ﴾
عهده — سبحانه — حفظ المعرفة وعهدنا اتصال المغفرة ، عهده حفظ محابه وعهدنا لطف ثوابه ، عهده حضور الباب وعهدنا جزيل المآب .

أوفوا بعهدى بحفظ السر أوفى بعهدى بحجميل البر ، أوفوا بعهدى الذى قبلتم يوم الميثاق أوفى بعهدى الذى ضمنتم لكم يوم التلاق ، أوفوا بعهدى فى ألا تؤثروا على غيرى أوفى بعهدى فى ألا أمتع عنكم لطفى وخيرى ، أوفوا بعهدى برعاية ما أثبت فىكم من الودائع أوفى بعهدى بما أديم لكم من شوارق اللوامع وزواهر الطوالع^(٢) ، أوفوا بعهدى بحفظ أسرارى أوفى بعهدى بحجميل مَبَارَى ، أوفوا بعهدى باستدامة عرفائى أوفى بعهدى فى إدامة إحسانى ، أوفوا بعهدى فى القيام بخدمتى أوفى بعهدى فى المنّة عليكم بقبولها منكم ، أوفوا بعهدى فى القيام بحسن المجاهدة والمعاملة أوفى بعهدى بدوام المواصلة والمشاهدة ، أوفوا بعهدى بالنبرى عن الحول والمنّة أوفى بعهدى بالإكرام بالطول والمنّة ، أوفوا بعهدى بالتفضيل والتوكل أوفى بعهدى بالكفاية والتفضل ، أوفوا بعهدى بصدق المحبة أوفى بعهدى بكمال القربة ، أوفوا بعهدى اكتبوا منى بى أوفى بعهدى أرضى بكم عنكم ، أوفوا بعهدى فى دار الغيبة على بساط الخدمة بشدّ نطق الطاعة ، وبذل الوسع والاستطاعة أوفى بعهدى فى دار القربة على بساط الوصلة بإدامة الأُنس والرؤية وسماع الخطاب وتمام الزلفة ، أوفوا بعهدى فى المطالبات بترك

(١) نعرف من هذا ان الملكات الباطنة عند القشبرى هى فضلا عن النفس التى هى محل المحظورات والمعلولات ، والمقل الذى به تصحيح الإيمان فى البداية — القلب وهو مستودع المعرفة والروح وهى مستودع المحبة ثم السر وهو الذى يشاهد الحقائق ، وله فوق ذلك ملكة أخرى هى سر السر أو عين السر لا يطلع عليها سوى الحق .

(٢) اللوامع تسبق الطوالع فى الظهور ، والطوالع ابقى وقتاً وأقوم سلطاناً وأدوم مكنأ وأذهب لاطنة واننى للثمة (الرسالة ص ٤٣ ، ٤٤) .

الشهوات أوفِ بعهديكم بكفائتكم تلك المطالبات ، أوفوا بعهدي بأن تقولوا أبداً : ربى ربى
أوفِ بعهديكم بأن أقول لكم عهدي عهدي . وإياي فارهبون ، أى أفرّدوني بالخشية لانفرادي
بالقدرة على الإيجاد فلا تصح الخشية من ليس له ذرة ولا منة .

قوله جل ذكره : ﴿وَأْمَنُوا بَمَا نَزَلَتْ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ
وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا
بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّاي فَاتَّقُونَ﴾ .

الإشارة أن يقرن (العبد) إيمانه من حيث البيان بإيمانه من حيث البرهان ، وجمهور
المؤمنين لهم إيمان برهان بشرط الاستدلال ، وخواص المؤمنين لهم إيمان من حيث البيان بحق
الإقبال ، وأقبل الحق سبحانه عليهم فأمنوا بالله ، وآخر أجوالهم الإيمان من حيث العيان ،
وذلك لخواص الخواص .

ولا تكونوا أول كافرٍ به ، ولا تسئوا^(١) الكفر سنةً فإن وزرَ المبتدئ فيها يسُنُّ أعظم
من وزر المقتدى فيها يتابع .

«ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً» لا تؤثروا على عظيم حق خسيس حظكم . «وإياي فاتقون»
كثير^(٢) من يتقى عقوبته وعزيز من يهاب اطلاعه ورؤيته .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَا تَلْبِسُوا^(٣) الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا
الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .

لا تتوهموا أن يلتئم لكم جمع الضدين ، والكون في حالة واحدة في محلين^(٤) ، (فالعبد)
إما مبسوط بحق أو مربوط بحظ ، وأما حصول الأمرين فمحال من الظن .
«ولا تلبسوا الحق بالباطل» تدليس ، «وتكتموا الحق» تليس ، «وأنتم تعلمون» أن
حق الحق تقديس ، وأنشدوا :

أيها المنكح الثريا سهيلاً عمرك الله ، كيف يلتقيان ؟
هي شامية إذا ما استهلّت وسهيلٌ إذا استهل يمانى !

(١) وردت (ولا تلبسوا) وهي خطأ في النسخ .

(٢) وردت (كثيراً) وهي خطأ حيث يجب الرفع على تقدير (من يتقى عقوبته كثير) .

(٣) أخطأ الناسخ إذ كتبها . (ولا تلبس) والصحيح ولا تلبسوا (البقرة : ٤١) .

(٤) وردت في (محلي) وهي خطأ في النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة

واركعوا مع الراكعين ﴾

احفظوا آداب الحضرة ، فحفظ الآداب أتم في الخدمة من الخدمة ، والإشارة في إيتاء الزكاة إلى زكاة الهِمَم كما تؤدي زكاة النعم ، قال قائلهم :

كلُّ شيء له زكاةٌ تؤدي زكاةُ الجبال رحمةً مثلي

فيفيض من زوائده همه ولطائف نظره على المتبعين والمربين بما ينتعشون به و (...) (١) ،
« واركعوا مع الراكعين » : تقتدى بآثار السلف في الأحوال ، وتجتنب سنن الانفراد فإن
الكون في غمار الجمع أسلم من الامتياز من الكفاة (٢) .

قوله جل ذكره : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون

أنفسكم وأنتم تملكون الكتاب
أفلا تعقلون » .

أتحرضون الناس على البدار (٣) وترضون بالتخلف ؟ ويقال أتعون الخلق إلينا وتعدون
عنا ؟ أترحون الوفود وتقصرون في الورود (٤) ؟ أتنافسون الخلق (٥) وتنافرونهم بدقائق
الأحوال وترضون بإفلاسكم عن ظواهرها ؟

ويقال أتبصرون من الحق مثقال الذر ومقياس الحب وتساهمون لأنفسكم أمثال الرمال
والجبال ؟ قال قائلهم :

وتبصر في العين مني القذى وفي عينك الجذع لا تبصر ؟ !

ويقال أفسقون بالنجب (٦) ولا تشربون بالنوب ؟

(١) هنا لفظتان. مشتبهتان وفيهما شطب .

(٢) الإشارة وإن كانت لصلاة الجماعة إلا أنها توضح أيضا حرص القشيري على الاهتمام بالاجماع كمصدر
من مصادر الشريعة .

(٣) وردت بالياء وهي خطأ في النسخ .

(٤) من ورد الماء أي ذهب ليستغنى .

(٥) وردت أتنافسون (الحق) ووضح أنها خطأ في النسخ .

(٦) نجب الأشياء ومجاهاها كبها وخالصها ، وربما كانت النخب (بالخاء) ج نخب وهو الشربة العظيمة

الوسيط ص ٩١٥ .

« وأنتم تناون الكتاب » ثم تعاندون بخفايا الدعاوى وتجدون بما شام قلوبكم من فضيحات الخواطر وصريحات الزواجر .

« أفلا تعقلون » إن ذلك ذمٌّ من الخصال وقبيحٌ من الفعال .

قوله جل ذكره : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ .

الصبر فطم النفس عن المألوفات ، والصلاة التعرُّض لحصول المواصلات ، فالصبر يشير إلى هجران الغير ، والصلاة تشير إلى دوام الوقوف بحضرة الغيب ، وإن الاستعانة بهما لخصلة شديدة إلا على من تجلَّى الحق لسِرِّه فإن في الخبر المنقول : « إن الله تعالى إذا تجلَّى لشيء ^(١) خضع له » . وإذا تجلَّى الحق ، خَفَّ وسَهِّلَ ما توقَّى الخلق ؛ لأن التوالت للطاعات يوجب التكليف بموجب مقاساة الكلفة ، والتجلَّى بالمشاهدات — بحكم التحقيق — يوجب تمام الوصلة ودوام الزلفة .

ويقال استعينوا بي على الصبر معي ، واستعينوا بحفظي لكم على صلاتكم لي ، حتى لا تستفرقكم واردات الكشف والهيبة ، فلا تقدرّون على إقامة الخدمة .
وإن تخفيف سطوات الوجود على القلب في أوان الكشف حتى يقوى ^(٢) العبد على القيام بأحكام الفرق لينة عظيمة من الحق ^(٣) .

وأقسام الصبر كلها محمودة الصبر في الله ، والصبر لله ، والصبر بالله والصبر مع الله إلا صبراً واحداً وهو الصبر عن ^(٤) الله :

والصبر يحنن في المواطن كلها إلا عليك فإنه مذموم ^(٥)

قوله جل ذكره : ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾ .

(١) وردت بدون اللام ، والأصح بها .

(٢) وردت حتى (يقول) وهي خطأ في النسخ .

(٣) يشير التشيرى بذلك إلى الفرق الثانی ، ويعتبر أن من علامة قبول العبد عند ربه أن يساعده على الرجوع إلى هذا الفرق حتى يستطيع أداء ما عليه من فريضة

(٤) الأرجح أنها (على) بدليل ورودها في البيت الشاهد ، كذا في « الرسالة » في سياق مماثل .

(٥) ورد البيت في الرسالة هكذا (والصبر يجهل) و (فإنه لا يجهل) ص ٩٣ .

الظن يُدَكَّر ، ويقال المراد به اليقين ، وهو الأظهر ها هنا .
ويذكر ويراد به الحسابان فمن ظن ظن يقين فصاحب وصلة .
ومن ظن ظن تخمين فصاحب فرقة . وملاقو ربهم ، صيغة تصلح لماضي الزمان والحاضر
وهم ملاقون ربهم في المستقبل . ولكن القوم^(١) لتحققهم بما يكون من أحكام الغيب صاروا
كأن الوعد لهم تقرر ، والغيب لهم حضور .

قوله جل ذكره : ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي
أنعمت عليكم وأني فضلتكم على
العالمين ﴾ .

أشهد بني إسرائيل فضل أنفسهم فقال : « وأني فضلتكم على العالمين »
وأشهد المسلمين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فضل نفسه فقال : « قل بفضل الله وبرحمته
فبذلك فليفرحوا »^(٢) .

فشتان بين من مشهوده فضل نفسه ، وبين من مشهوده فضل ربه ، فشهود العبد فضل
نفسه يوجب له الشكر وهو خطر الإعجاب ، وشهود العبد فضل الحق — الذي هو جلاله
في وصفه وجماله في استحقاق نعته — يقتضي الثناء وهو يوجب الإعجاب^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس
شيئاً ولا يقبل منها شفاعاة ولا يؤخذ
منها عدل ولا هم ينصرون ﴾

العوام خوفهم بأفعاله فقال : « واتقوا يوماً » « واتقوا النار » .
والخواص خوفهم بصفاته فقال : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » وقال :
« وما تكون في شأن . . . إلى قوله إلا كنا عليكم شهودا »^(٤) .
وخاص الخواص خوفهم بنفسه فقال : « ويحذركم الله نفسه »

(١) يقصد الصوفية .

(٢) سورة يونس آية ٥٨ .

(٣) الإعجاب = الاستحقاق والقبول .

(٤) يونس آية ٦١ .

ويوم القيامة لا تسمع الشفاعة إلا لمن أمر الحق بالشفاعة له ، وأذن فيه ، فهو الشفيع الأكبر — على التحقيق — وإن كان لا يطلق عليه لفظ الشفيع لعدم التوقيف^(١) .
وفي معناه قيل :

الحمد لله شكراً فكل خيرٍ لديه
صار الحبيب شفيعاً إلى شفيعٍ إليه
والذين أصابتهُم نكبة القسمة لا تنفعهم شفاعة الشافعين ، ومالهم من ناصرين ، فلا يقبلُ
منهم فداء ، ولو افتدوا بملء السموات وملء الأرضين .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون

يسومونكم سوء العذاب ، يذبحون
أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفي ذلكم
بلاء من ربكم عظيم ﴾ .

من صبر في الله على بلاء أعدائه عوضه الله صحبة أوليائه ، وأتاح^(٢) له جميل عطائه ؛
فهؤلاء بنو إسرائيل صبروا على مقاساة الضر من فرعون وقومه فجعل منهم أنبياءهم ، وجعلهم
ملوكاً ، وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين . « وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم » : قيل نعمة
عظيمة وقيل محنة شديدة . وفي الحقيقة ما كان من الله — في الظاهر — محنةً فهو
— في الحقيقة لمن عرفه — نعمةٌ ومِنَّةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم

وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾ .

تقاصرت بصائر بني إسرائيل فأراهم المعجزات عياناً ، وفقدت بصائر هذه الأمة فكاشفهم
بآياته سرّاً ، وبذلك جرت سُنُّه سبحانه ، وكل من كان أشدَّ بصيرةً كان الأمر عليه أغمض ،

(١) وردت (التوفيق) وهي خطأ في النسخ ، والقشيري — كغيره من الباحثين — يرى أنه لا ينبغي
إضافة أسماء وصفات لما ورد في الحديث المروي عن أبي هريرة والذي أبلغها تسعة وتسعين ، فلا يصح
أن يسمى الله عاقلاً ولا ذكياً ونحو ذلك .
(٢) وردت (بالخاء) وهي خطأ في النسخ .

والإشارات معه أوفر ، قال صلى الله عليه وسلم : « أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً »^(١) .

وحين شاهدوا ظاهر تلك الآيات من فلق البحر وإغراق آل فرعون — ذآخَلَهُمْ رَبُّهُ فَقَالُوا : إِنَّهُ لَمْ يَفْرُقْ^(٢) حتى قذفهم البحر ، فنظر بنو إسرائيل إليهم وهم مفرقون . وهذه الأمة لفظ تصديقه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، وقوة بصائرهم (أن) قال واحد من أفتاء^(٣) الناس : « كَأَنِّي بِأَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ وَكَأَنِّي بِأَهْلِ النَّارِ يَتَعَاوَنُونَ وَكَأَنِّي أَنظُرُ عَرْشَ رَبِّي بَارِزاً »^(٤) فشتان بين من يُعَايِنُ فَيَرْتَابُ مع عيانه ، وبين من يسمع فكالمعيان حاله من قوة إيمانه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ وَاغَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ .

شتان بين أمة وأمة ؛ فأمة موسى عليه السلام — غاب نبئهم عليه السلام أربعين يوماً فانخذوا العجلَ معبودهم ، ورضوا بأن يكون لهم بمثل العجل معبوداً ، فقالوا : « هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ »^(٥) وأمة محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم مضى من وقت نبئهم سنون كثيرة فلو سمعوا واحداً يذكر في وصف معبودهم ما يوجب تشبيها لما أبقوا على حشاشتهم ولو كان في ذلك ذهاب أرواحهم^(٦) .

(١) « إِنَّمَا بَشَتْ فَاتْحَا وَخَانِمَا وَأَعْطَيْتُ جَوَامِعَ الْكَلَامِ وَفَوَانِحَهُ وَاخْتَصَرْتُ الْحَدِيثَ اخْتِصَاراً فَلَا يَهْلِكُكُمْ التَّهْوُكُونَ » البيهقي في شعب الإيمان عن أبي قتادة مرسلاً (المنتخب من كنز العمال ٣٠٢ ص ٤) .

والتهوك = الاضطراب في القول وأن يكون على غير استقامة .

(٢) الفعل بالمفرد هنا لأنه عائد على لفظ آل أو على فرعون ، ثم تحدث بعد ذلك بالجمع حين أعاده على المعنى

(٣) افتاء وفتاء جمع فتى وهو الشاب من إنسان أو حيوان الوسيط ص ٦١٠ .

(٤) أخرجهنا هذا الحديث المروي عن حارثة في هامش سبق .

(٥) سورة طه آية ٨٨ .

(٦) يغمز القشيري هنا بالمشبهة ، فيلحق من يقول بالتشبيه بعبدة العجل ، فكلاماً توقح ونسب

للالوهية ما يلغى أن تتزه عنه . وأهل السنة يرفضون رفضاً قاطعاً كل ما يشين الذات الإلهية من تصورات مادية .

ويقال إن موسى — صلوات الله عليه — سلم أمته إلى أخيه فقال : اخلفني في قومي ،
 وحين رجع وجدهم وقعوا في الفتنة ، ونبينا — صلوات الله عليه — توكل على الله فلم
 يُشِرْ على أحدٍ في أمر الأمة وكان يقول في آخر حاله : الرفيق الأعلى . فانظر كيف تولى الحق
 رعاية أمته في حفظ التوحيد عليهم . لعمرى يُضَيِّعون حدودهم ولكن لا ينقضون^(١) توحيدهم .
 قوله جل ذكره : ﴿ ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم
 تشكرون ﴾

سرعة العفو على عظيم الجرم تدل على حقارة قدر المعفو عنه ، يشهد لذلك قوله تعالى
 (مخاطباً أمهات المسلمين) : « من يأت منك بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين » ،
 هؤلاء بنو إسرائيل عبدوا العجل فقال الله تعالى : « ثم عفونا عنكم من بعد ذلك » ،
 وقال لهذه الأمة (يقصد أمة محمد صلى الله عليه وسلم) : « ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »
 قوله جل ذكره : ﴿ وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان
 لعلكم تهتدون ﴾ .

فرقان هذه الأمة الذي اختصوا به نور في قلوبهم ، به يفرقون بين الحق والباطل ،
 قال النبي صلى الله عليه وسلم لو ابصرة : « استفت قلبك »^(٢) .
 وقال : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله »^(٣) .
 وقال الله تعالى : « إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » وذلك الفرقان ميراث ما قدموه
 من الإحسان .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم
 ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ﴾ .
 أى ما أضررتم إلا بأنفسكم فيما ارتكبتم من ذنوبكم ، فأما الحق سبحانه فعزیز الوصف ،
 لا يعود إلى عزه من ظلم الظالمين شيء ، ومن وافق هواه واتبع مناه فعجله ما علق به همه ،
 وأفرد له قصده .

(١) وردت (ينقضون) بالصاد والأقوى أن تكون بالضاد لأن المقصود هو تمك أمة محمد (ص) بعدم
 (نقض) التوحيد .
 (٢) هكذا رواه أحمد في مسنده والبخارى في تاريخه والدارمي في سننه وحسنه النووي في رياض
 الصالحين بلفظ « استفت نفسك وإن أفتاك المفتون » .
 (٣) الترمذي والطبراني من حديث أبي أمامة والترمذي من حديث أبي سعد والطبراني وابونعيم عن أس

قوله جل ذكره : ﴿ فتوبوا إلى بارئكم ﴾ .

الإشارة إلى حقيقة التوبة بالخروج إلى الله بالسكينة .

قوله جل ذكره : ﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾

التوبة بقتل النفوس غير (. . .) (١) إلا أن بني إسرائيل كان لهم قتل أنفسهم جبراً ، وهذه الأمة توبتهم بقتل أنفسهم سرّاً ، فأول قَدَمٍ في القصد إلى الله الخروجُ عن النفس .

[فصل] ولقد توهم الناس أن توبة بني إسرائيل كانت أشق ، ولا كما توهموا ؛ فإن ذلك كان مقاساة القتل مرة واحدة ، وأما أهل الخصوص من هذه (الأمة) (٢) ففي كل لحظة قتل ، ولهذا :

ليس من مات فاستراح بميتٍ إنما الميت ميت الأحياء
وقتل النفس في الحقيقة التبري عن حويلها وقوتها أو شهود شيء منها ، ورد دعواها إليها ، وتشويش تدبيرها عليها ، وتسليم الأمور إلى الحق — سبحانه — بجملتها ، وانسلاخها من اختيارها وإرادتها ، وانمحاء آثار البشرية عنها ، فأما بقاء الرسوم والهياكل فلا خطر له ولا عبرة به .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب

عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾

كونه لكم عنكم أتم من كونكم لأنفسكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نبشركك

حتى نرى الله جهرة فأخذناكم الساعة

وأنتم تنظرون ﴾ .

التعرض بمطالعة الذات على غير نعمة إلهية إفصاحٌ بترك الحرمة ، وذلك من أمارات

البعد والشقوة .

(١) هنا كلمة 'مشفقة' .

(٢) بقصد أمة المصطفى صلوات الله عليه وسلامه .

وإثبات نعمت التولى بمكاشفات العزة مقرونا بملاطفات القربة من علامات الوصلة ،
دلالات السعادة .

فَلَا جَرَمَ لِمَا أَطْلَقُوا لِسَانَ الْجَهْلِ بِتَقْوِيَةِ تَرْكِ الْحَشْمَةِ أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ وَالصَّعْقَةُ .

قوله جل ذكره : ﴿نم بشتاكم من بعد موتكم لعلكم
تشكرون﴾

أعادهم إلى حال الإحساس بعد ما استوقفهم سطوات العذاب إملأهم بمقتضى الحكم ، وإجراء للسنة في الصفح عن الجرم ، ومن قضايا الكرم إسبال السر على هنأت الخدم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّالْوَى ، كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

لَمَّا طَرَحَهُمْ فِي مَتَاهَاتِ الْغُرْبَةِ لَمْ يَرْضَ إِلَّا بِأَنْ ظَلَّلَهُمْ ، وَبَلْبَسَهُ الْكَفَايَاتِ جَلَّلَهُمْ ،
وَعَنْ تَكْلِفِ التَّكْسِبِ أَغْنَاهُمْ ، وَبِجَمِيلِ صِنْعِهِ فِيهَا احْتَاجُوا إِلَيْهِ تَوَلَّاهُمْ ؛ فَلَا شَعُورُهُمْ
كَانَتْ تَطُولُ ، وَلَا أَظْفَارُهُمْ كَانَتْ تَنْبُتُ ، وَلَا ثِيَابُهُمْ كَانَتْ تَنْسَخُ ، وَلَا شَعَاعُ الشَّمْسِ عَلَيْهِمْ
كَانَ يَنْبَسِطُ . وَكَذَلِكَ سُنَّتُهُ لِمَنْ حَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اخْتِيَارِهِ ، يَكُونُ مَا يَخْتَارُهُ سَبْحَانَهُ لَهُ خَيْرًا
مِمَّا يَخْتَارُهُ لِنَفْسِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ، وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ، وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ، وَسَبِّحُوا الْحَمْدَ لِلَّهِ فِي الْبُكُورِ وَالْآخِرِ وَالْأُولَى ﴾ .

(١) بنو إسرائيل على تضييع ما كانوا يؤمرون ، حتى قالوا أوصوا بحفظها فبدلوها ، وحالة من السجود أمروا بأن يدخلوا عليها فحولوها ، وعرضوا أنفسهم لسهام الغيب ، ثم لم يطبقوا الإصابة بقرعها (٢) ، وتعرضوا لمفاجآت العقوبة فلم يشبوا عند صدمات وقعها .

(١) كلمة مشبهة في ص . (٢) وردت بدون الباء في ص وقد أضفناها ليستقيم المعنى .

قوله جل ذكره : ﴿ قَبِدَلِ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي

قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا

مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ .

لم يمكنهم أن يردوا باب السماء باحتيالهم ، أو يصدوا من دونهم أسباب البلاء بما ركنوا إليه من أحوالهم ، فزعوا من الندم لما عضهم ناب^(١) الألم ، وهيهات أن ينفعهم ذلك لأنه محال من الحساب .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ

بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ

عَيْنًا ، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ،

كَلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ ،

وَلَا تَعْلُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ .

إن الذي قدر على إخراج الماء من الصخرة الصماء كان قادراً على إدوائهم بغير ماء ولكن لإظهار أثر المعجزة فيه ، وإيصال محل الاستغاثة إليه ، وليكون على موسى عليه السلام — أيضاً في نقل الحجر — مع نفسه شغل ، ولتكليفه أن يضرب بالعصا مقاساة نوع من معالجة ما أمضى حكمه عند استسقائه لقومه^(٢) .

ثم أراد الحق سبحانه أن يكون كل قوم جاريًا على سُنَّةٍ ، ملازمًا لحَدِّه ، غير مُزَاحِمٍ لصاحبه فأفرد لكل سبطة علامة يعرفون بها مشربهم ، فهؤلاء لا يَرِدُونَ مشرب الآخرين ، والآخرون لا يَرِدُونَ مشرب الأولين .

وحين كفاهم ما طلبوا أمرهم بالشكر ، وحفظ الأمر ، وترك اختيار الوزر ، فقال :
وَلَا تَعْلُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ .

والمناهل مختلفة ، والمشارب متفاوتة ، وكلُّ يَرِدُ مشربه ، فمشرب عَذْبُ فُرَاتٍ ، ومشربٌ مَلْحٌ أَجَاجٍ ، ومشربٌ صَافٍ زَلَالٍ ، ومشرب رَتَقٌ أَوْ شَالٌ^(٣) . وسائقُ كلِّ قومٍ

(١) زردت (ناب) بالتاء وهي خطأ في النسخ .

(٢) لاحظ هنا مذهب القشيري في التوكل ، وكيف أنه لا يتعارض مع السعي .

(٣) أَوْ شَال : جمع وشال = وهو الماء القليل يتعلَّب من جبل أو صخرة ولا يتصل قطره الوسيط من ١٠٤٧ .

يقودهم ، ورائد كُلِّ طائفة يسوقهم ؛ فالنفوس تَرِدُ مناهل المني والشهوات ، والقلوب تَرِدُ
مشارب التقوى والطاعات ، والأرواح تَرِدُ مناهل الكشف والمشاهدات ، والأسرار تَرِدُ
مناهل الحقائق بالاختطاف عن الكون والمسمومات ، ثم عن الإحساس والصفات ثم بالاستهلاك
في حقيقة الوجود والذات .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ
وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا
مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا
وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصَلِهَا . قَالَ
أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ
أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِنْهَا مَا يُبَالِغُونَ
فَضْلًا وَكُنْتُمْ عَلَى الْعَذَابِ مُقْتَضِينَ
فَكَفَرُوا بِالْآيَاتِ اللَّهُ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ
بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا
يَعْتَدُونَ ﴾ .

لم يرضوا بحسن اختياره لهم ، ولم يصبروا على قيامه بتولى ما كان يهمهم من كفاية
ما كולם وملبوسهم ، ففزلوا في التحير إلى ما جرت ^(١) عليه عاداتهم من أكل الخسيس من
الطعام ، والرضا بالدون من الحال ، فردّهم إلى مقاساة الهوان ، وربطهم بإدامة الخذلان ، حتى
سفكوا دماء الأنبياء وهتكوا حرمة الأمر بِقِلَّةِ الاستحياء ، وترك الاروَاع ، فعاقبهم على
قبيح فعلهم ، وردّهم إلى ما اختاره لأنفسهم من خسائس أحوالهم ، وحين لم تنجح فيهم ^(٢)
النصيحة ، أدركتهم النقمة والفضيحة . ويقال كان بنو إسرائيل متفرقي الهموم مُشْتَتِي القصود ؛
لم يرضوا لأنفسهم بطعام واحد ، ولم يكتفوا في تدينهم بعبود واحد ، حتى قالوا لموسى
عليه السلام — لِمَا رَأَوْا قَوْمًا يَعْبُدُونَ الصَّنَمَ ^(٣) — يا موسى : اجعل لنا إلهًا كما لهم إله ،

(١) وردت في ص (مرت) وهي بالجيم أصوب . (٢) وردت (فهم) وهي خطأ في النسخ .

(٣) وردت (الفم) وهي خطأ في النسخ .

وهكذا صفة أرباب التفرقة . والصبر مع الواحد شديد ، قال تعالى : « وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا » .

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى

وَالصَّابِقِينَ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ

وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

اختلاف الطريق مع اتحاد الأصل لا يمنع من حسن القبول ، فمن صدق الحق سبحانه

في آياته ، وآمن بما أخبر من حقه وصفاته ، فتباين الشرع واختلاف وقوع الاسم غير قادح

في استحقاق الرضوان، لذلك^(١) قال : «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا» ثم قال : « من آمن منهم ،

أى إذا اتفقوا في المعارف فالكل لهم حسن المكاب ، وجزيل الثواب . والمؤمن من كان في أمان

الحق سبحانه ، ومن كان في أمانه - سبحانه وتعالى - فبالحرى ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا

فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ

وَإِذْ كَرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ، ثم توليت

من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم

ورحمته لكنتم من الخاسرين ﴾

أخذ سبحانه ميثاق جميع المكلفين ، ولكن قوماً أجابوا طوعاً لأنه تعرف إليهم فوحدوه

وقوماً أجابوه كرهاً لأنه ستر عليهم فجدوه ، ولا حجة أقوى من عيان ما رفع فوقهم من

الطور - وهو الجبل - ولكن عديموا نور البصيرة ، فلا ينفعهم عيان البصر . قال الله تعالى

« ثم توليت من بعد ذلك » ، أى رجعت إلى العصيان بعد ما شاهدتم تلك الآيات بالعيان ، ولولا

حكمه بإمهاله ، وحلمه بأفضاله لعاجلكم بالعقوبة ، وأحل عليكم عظيم المصيبة ونخسرت

صفتكم بالكلفة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي

السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ .

(١) وردت (كذلك)

مُسَخَّ هذه الأمة حصل على القلوب ، فكما أنهم لما تركوا الأمر واستهانوا بما ألزموا به من الشرع — عجبت عقوبتهم بالخسف والمسوخ وغير ذلك من ضروب ما ورد به النص ، فهذه الأمة من نقض العهد ورفض الحد عوقبت بمسوخ القلوب ، وتبديل الأحوال ، قال تعالى : « وَتُغْلِبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَ الْأُولَ »^(١) وعقوبات القلوب أنكى من عقوبات النفوس ، وفي معناه أنشدوا :

يا سائلي : كيف كنت بعده ؟ لقيت ما ساءني وسره
ما زلت أختال في وصالي حتى أمنت من الزمان مكره^(٢)
طال على الصدود حتى لم يُبقر مما شهدت ذره

قوله جل ذكره : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّأَيِّ يَدِيهَا
وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .

هكذا من منى بالمهجران ، ووهم بالخذلان ، صارت أحواله عبرة ، وتجرع — من ملاحظته لحاله — عليه الحسرة ، وصار المسكين — بعد عزه لكل خسيس سخرة . هكذا آثار سُخْطِ الملوك وإعراض السادة عن الأصاغر :

وقد أحرق الصبيان بي وتجمعوا على وأشلوا بالكلاب ورائيا
قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ
أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ .

كان الواجب عليهم استقبال الأمر بالاعتناق ولكنهم تعللوا ببقاء الأشكال توهمًا بأن يكون لهم (. . .)^(٣) تفضي بالإخلاد إلى الاعتدال^(٤) عن عهدة الإلزام فتضاعفت عليهم للشقة وحل بهم^(٥) ما حذرّوه من الانفضاح .

[فصل] ولما قال إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ، أي ليست بفتية ولا مسنة بل هي بين السنتين . حصلت الإشارة أن الذي يصلح لهذه الطريقة من لا يستهويه

(١) سورة الأنعام آية ١١٠ .

(٢) ورد في البيت (أختال) و (وجال) و (أمنت) من الزمان وقد أصلحنا ليستقيم المعنى والوزن .

(٣) سقطت هنا لفظة من الناسخ وهو ينتقل من ورقة إلى أخرى ؟

(٤) الاعتدال هنا بمعنى المدول من الشيء .

(٥) وردت (وجلبهم) وهي غير ملائمة للمعنى والسياق .

نَزَقُ الشَّبَابِ وَنُكْرُهُ ، وَلَمْ يُعْطَلْهُ عَجْزُ الْمَشِيبِ وَضَعْفُهُ ، بَلْ هُوَ صَاحِبُ اسْتِفَاقٍ عَنْ سُكْرِهِ ، وَبَقِيَتْ لَهُ — بَعْدُ^(١) — نَضَارَةٌ مِنْ عَمْرِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿صَفراءُ فاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ قالوا
 آدَعُ لَنَا رَبُّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَ
 تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿١﴾
 كما كان يأخذ لونها الأبصار فالإشارة منها أن من كان من أهل القصة^(٢) يستغرق شاهده
 القلوبَ لِمَا أُلْبِسَ من رداء الجبروت ، وأقيم به من شاهد الغيب^(٣) حتى أن من لآخِظَه تناسى
 أحوال البشرية ، واستولى عليه ذكر الحق ، كذا في الخبر المنقول : أولياء الله الذين
 إذا رأوا ذكر الله (. . .)^(٤)

قوله جل ذكره : ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ
 تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ
 لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ قالوا^(٥) الآن جِئْتَ بِالْحَقِّ
 فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴿٢﴾ .

كما أن تلك البقرة لم يدلِّلها العملُ ، ولم تُبَشِّرْ في المكاسب ، لا لونَ فيها يخالف عِظَمَ
 لَوْنِهَا فالإشارة منه أن أهل الولاية^(٦) الذين لم يقبلوا بالأغيار لتحصيل ما طلبوا من الأسباب ،
 ولم يركنوا بقلوبهم إلى الأشكال والأمثال ، ولم يتسكَّلوا على الاختيار والاحتيال ، وليسوا
 نهبا لمطالبات المني ، ولا صيدا في مَخْلَبِ الدنيا ، ولا حَكَمَ للشهوات عليهم ، ولا سلطان
 للبشرية تَمَلِّسَهم ، ولم يسعوا قط في تحصيل مرادهم ، ولم يشقوا لدرك بُغْيَتِهِمْ ، وليس عليهم
 رقم الأغيار ، ولا سِجَّةُ الأسباب — فَهُمْ قَائِمُونَ بِاللَّهِ ، قانون عما سوى الله ، بل هم محو ،
 مُصَرَّفُهُمُ اللَّهُ . والغالب — على قلوبهم — الله .
 وكما أن معبودهم الله كذلك مقصودهم الله .

(١) ربما صحت عل هذا ويكون المعنى ما زالت فيه بقية من نضارة عمره ، ويحتمل أن تكون في الأصل
 (بعض) ويكون المعنى وبقيت له بعض نضارة من عمره . (٢) يقصد أهل التصوف .
 (٣) وردت (الغير) ولا معنى لها هنا لأن شهود الغيب هو الذي يحدث ذلك الأثر .
 (٤) في (س) علامات تدل على أن الكلام مبتور ، ونرجح أن (ذاكر) بدل (ذكر) .
 (٥) أخطأ الناسخ عند كتابة هذه اللفظة من الآية الكريمة حيث وردت (قال) الآية ٧٠ من سورة البقرة .
 (٦) في (س) ولاية (بدون تعريف والأصح بها) .

وكما أن مقصودهم الله كذلك مشهودهم الله ، وموجودهم الله ، بل هم محو بالله و (.....)^(١) عنهم الله ، وأشد قائلهم .

إذا شئت أن أرضي وترضى وتملكي زمامي — ماعشنا معاً — وعنائى
إذن فارمقي الدنيا بعيني واسمعي بأذنى وانطقي بلسانى
قوله جل ذكره : ﴿ قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها
وما كادوا يفعلون ﴾ .

طلبوا الحيلة ما أمكنهم فلما ضاقت بهم الحيل استسلموا للحكم فتخلصوا من شدائد
المطالبات ، ولو أنهم فعلوا ما أمرُوا به لما تضاعفت عليهم المشاق .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا قتلتم نفساً فادّار أثم فيها والله
مُخرج ما كنتم تكتمون ﴾ .

الخائن خائف ، ولخشية أن يظهر سره يركن إلى التلبيس والتدليس ، والإنكار والجحرد
ولا محالة ينكشف عوارده ، وتتضح أسرارُه ، وتهتك عن شين فعله أstarه . قال الله تعالى :
« والله مُخرج ما كنتم تكتمون » .

قوله جل ذكره : ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها كذلك
يحيى الله الموتى ويرىكم آياته لعلمكم تعقلون ﴾ .

أراد الله سبحانه أن يحيى ميتهم ليفضح بالشهادة على قاتله فأمر بقتل حيوان لهم فجعل
سبب حياة مقتولهم قتل حيوان لهم ، صارت الإشارة منه :

أن من أراد حياة قلبه لا يصل إليه إلا بذبح نفسه ؛ فمن ذبح نفسه بالمجاهدات حي قلبه بأنوار
المشاهدات ، وكذلك من أراد الله حياة ذكوره في الأبدال^(٢) أمات في الدنيا ذكره بالحمول^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ،

فهي كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من

الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها

لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها

لما يهبط من خشية الله وما الله بغافلٍ

عما تعملون ﴾ .

(٢) ربما كانت في الأصل (الأبد)

(١) مشقبة لى ص .

(٣) أى منع عنه الاشتهار بين الخلق لأن المهم مرتبته لدى الخلق .

بَيِّنْ أَنَّهُمْ — وإن شاهدوا عظيم الآيات وطالعوا واضح البينات — فحين لم تساعدهم العناية ولم يخلق الله (لهم) الهداية ، لم تزدكم كثرة الآيات إلا قسوة ، ولم تبرز لهم من مكان التقدير إلا شقوة (على شقوة ، وشبه قلوبهم بالحجارة لأنها لا تنبت ولا تزكو ، وكذلك قلوبهم لا تفهم^(١) ، ولا تفنى^(٢) . ثم بَيِّنْ أنها أشد (.)^(٣) من الحجارة ، فإن من الحجارة لما ينفجر منه الأنهار ، ومنها ما تظهر عليه آثار خشية الله^(٤) ، وأما قلوبهم فخالية عن كل خير ، وكيف لا وفد منيت باعراض الحق عنها ، وخُصَّتْ بانتزاع الخيرات منها .

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَتَعْطُمُونَ أَنْ يُوْرِئُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرُفُوْنَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوْهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

أنبأهم عن إيمانهم ، وذكر أنهم بعد سماع الخطاب من الله — سبحانه — حرّفوا وبدّلوا فكيف يؤمنون لكم وإنما يسمعون بواسطة الرسالة ، ومن لم يَبْقَ على الإيمان بعد العيان فكيف يؤمن بالبرهان ، والذي لم يصلح للحق لا يصلح لكم ، ومن لم (يحقق من الحق) فكيف يحقق منكم؟ . قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضِبِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ .

تواصوا فيما بينهم بإنكار الحق ، وإخفاء الحال على المسلمين ، ولم يعلموا أن الله يُطْلِعُ رِيسُولَهُ عَلَيْهِ السَّلَامَ عَلَى أَسْرَارِهِمْ ، وأن نوراً أظهره الغيب لا ينطفى بمزاولة الأغيار . وموافقة اللسان مع مخالفة العقيدة لا يزيد إلا زيادة الفرقة . قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ . قَوْلُ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ . قَوْلُ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ .

(١) بكلمة في الهامش استدرك بها الناسخ اثبتناها في موضعها .
(٢) أى لا تفنى عنهم من الله شيئاً ، وربما آتت في الأصل (ولا تنى) حتى تتلاءم مع (لا تفهم) .
(٣) زيادة ميزها الناسخ — لا لزوم لها .
(٤) إشارة إلى قوله تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله »

أخبر أنهم متفاوتون في نقائص كفرهم ، فقومٌ منهم أخسُّ درجةً وأكثرُ جهلاً ركنوا إلى التقليد ، ولم يملكهم استيلاء شبهة بل اغتروا بظنٍّ وتخمين ، فهم الذين لا نصيب لهم من كتبهم إلا قراءتها ، دون معرفة معانيها . ومنهم مَنْ أكثرُ شأنه ما يسمناه في نفسه ، ولا يساعده إمكان ، ولا لظنونه قط تحقيق . ثم أخبر عن سوء عاقبتهم بقوله جل ذكره :
« فويل لهم مما كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوِيلَ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ » ..

أى خَسِرُوا في الحال والمآل ، والإشارة في هذه الآية لمن عَدِمَ الإخلاص في الصحبة في طريق الحق ؛ يَنْضُمُ إلى الأولياء ظاهراً ثم لا تصدِّقُ له إرادة فهو مع أهل الغفلة مُصَاحِبٌ ، وله مع هذه الطريقة جانب ، كلما دَعَتْهُ هواتف الحظوظ تَسَارِعَ إلى الإجابة طوعاً ، وإذا قادته دواعي الحق — سبحانه — يتكلف شيئاً ، فَبَيَّسَتْ الحالة حين لم يخلص ، وما أشد ندمه فيما ادَّخَرَ عن الله اثم لا يُفْلَحُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً ، قُلْ أَتَتَّخِذُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

الإشارة في هذه الآية لمن مرت على قلبه دعاواه العريضة ، وغلب عليه حسباته ، فحكم لنفسه — لفرط غفلته — بأنه من أهل القصة^(١) ، وَيَخْلُدُ إلى هواجس مناه ، فيحكم على الغيب بأنه يَتَجَاوَزُ عنه ؛ لَسِيَ قَبَائِحَ ما أسلفه ، ويذكر مغاليط ما ظنَّه ، فهو عَبْدٌ نَفْسِهِ ، يغلب عليه حسن ظنه ، وفي الحقيقة تعذريه نتائج غفلته ومكره ، قال تعالى : « وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

قوله جل ذكره : ﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

الذي أحاطت به خطيئته هو الكافر — على لسان العلم^(٢) .

(١) أى من أهل الطريق الصول .

(٢) أى على لسان التفسير المادى أى غير الاشارى

ولكن الإشارة منه إلى مَنْ سكن قلبه على استغاثاته على وجه الدوام ، فإن أصحاب الحقائق كالحب^(١) على المقلّى - في أوقات صحوهم ، فمن سَكَنَ فَلِفِرَ طِعِزَّتِهِ - لا يَفْتُرُونَ^(٢) .
ومن استند إلى طاعة يتوسلُ بها ويظن أنه يقرب بها ينبغي أن يتباعد عن السكون إليها ومن تَحَقَّقَ بالتوحيد عِلْمَ ألا وسيلة إليه إلا به . . .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك

أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾

في الحال جنان الوصل

(.)

(.)

(.)^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون

فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون

عليهم بالإثم والعدوان ﴾ .

... أضرابكم وقرنائكم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ، الإشارة فيه أن نصرتكم

لإخوانكم على ما فيه بلاؤهم نصرة عليهم بما فيه شقاؤهم ، فالأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن يأتوكم أسارى^(٤) تفادوهم ،

وهو مُحَرَّمٌ عليكم إخراجهم ،

أفتؤمنون ببعض الكتاب

وتكفرون ببعض ﴾

أى كما تراعون - بالفداء عنهم - حقوقهم ، فكذلك يُفْتَرَضُ عليكم كفُّ

أيديكم عنهم ، وتركُ إخراجهم عن أوطانهم ، فإذا قُتِمَ ببعض ما يجب عليكم فما الذى يقدمكم

(١) وردت (كالحسب) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) من الفترة ، وقد أوضحنا وأى المصنف فى الفترة والوقف فى هامش سبق .

(٣) حدث سقوط فيما بين (الوصل) و ... (أضرابكم) وبذلك لم يصلنا تفسير الآيات الكريمة

من رقم ٨٢ إلى ٨٤ .

(٤) يستخرج القشبرى من لفظة أسارى إشارات معينة بعد قليل .

عن الباقي ، حتى تقوموا به كما أمرتم ؟ أما علمتم أن من فرق بين ما أمر به فأمن ببعض وكفر ببعض فقد حبط — بما ضيعه — أجر ما عمله .

قوله جل ذكره : ﴿ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون ﴾ .

أى ظنوا أن ما فعلوه نفهم ، فأنكشف لهم في الآخرة أن جميع ما فعلوه — لما مزجوه بالآفات وجردوه عن الصدق والإخلاص — غير مقبول منهم .

والأسراء أصناف : فمن أسير غرق في بحار الهوى فإقاده بأن تدله على الهدى . ومن أسير بقي في أيدي الوساوس فافتداؤه أن ترشده إلى اليقين بلوائح البراهين لتنقذه من الشك والتخمين ، ونخرجه عن ظلمات التقليد فيما تقوده إلى اليقين . ومن أسير تجده في أسر هواجسه استأسرته غاغة نفسه ، فكأن أسره بأن تدله على شهود المن ، بتبرئه عن حساب كل حول يخلق وغير . ومن أسير تجده في ربيعة ذاته فكأن أسره إنشاده^(١) إلى إقلاعه ، وإنجاده على ارتداعه . ومن أسير تجده في أسر صفاته فكأن أسره أن تدله على الحق بما يحل عليه من وثائق الكون^(٢) ، ومن أسير تجده في قبضة الحق فتخبره أنه ليس لأسرائهم فداء ، ولا لقتلاهم عود ، ولا لربيطهم خلاص ، ولا عنهم بد ، ولا إليهم سبيل ، ولا من دونهم حيلة ، ولا مع سواهم راحة ، ولا لحكمهم رد .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ﴾ .

إن الذين آثروا عليه شيئاً خسروا في الدنيا والآخرة كما قالوا :

(١) إنشاده إلى إقلاعه أى مطالبته والنصح له .

(٢) دددت (المكون) والأصوب الكون لأن المصمود يقتضى ذلك .

أُناسٌ أَعْرَضُوا عَنَّا بِلا جُرْمٍ وَلَا مَعْنَى
فَإِنْ كَانُوا^(١) قَدْ اسْتَعْنَوْا . فَإِنَّا عَنْهُمْ أَغْنَى

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا

مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ، وَآتَيْنَا عِيسَى
ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ
الْقُدُسِ ، أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا
لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِقْنَا
كَذِبْتُمْ وَفَرِقًا تَقْتُلُونَ ﴾ .

الإشارة : أَوْصَلْنَا لَهُمُ الْخُطَابَ ، وَأَرَدْنَا رَسُولًا بَعْدَ رَسُولٍ ، وَالْجَمِيعَ دَعَوًا إِلَى وَاحِدٍ .
وَلَكِنْهُمْ أَصْغَوْا إِلَى دَعَاءِ الدَّاعِينَ بِسَمْعِ الْهَوَى ، فَمَا اسْتَلْذَتِ النُّفُوسُ قَبْلُوهَ ، وَمَا اسْتَثْقَلَتْهُ^(٢)
أَهْوَاؤُهُمْ جَهْدُوهَ^(٣) ، فَإِذَا كَانَ الْهَوَى^(٤) صِفَتَهُمْ ثُمَّ عَبْدُوهُ ، صَارَتْ لِلْمَعْبُودِ^(٥) صِفَاتُ الْعَابِدِ ،
فَلَا جَرَمَ الْوَيْلَ لَهُمْ ثُمَّ الْوَيْلَ !

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ
بِكُفْرِهِمْ فَكَفِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

لَوْ كَانَ مِنْهُمْ شَيْءٌ بِمَجْرَدِ الدَّعْوَى لَهَانَ وَجُودُ الْمَعَانِي ، وَلَكِنْ عِنْدَ مَطَالِبَاتِ التَّحْقِيقِ تَفَتَّرُ
أَنْيَابُ الْمُتَكَبِّسِينَ عَنْ أَسْنَانٍ شَاخِذَةٍ بَلْ (. . . .)^(٦) وَقِيلَ :

إِذَا انْسَكَبَتْ دُمُوعٌ فِي خُدُودٍ تَبَيَّنَ مَنْ بَسَكَ مِنْ تَبَاكِي

(١) اللفظة ناقصة في المتن ومصححة في الهامش على اليسار .

(٢) وردت (استثقلته) وهي خطأ في النسخ .

(٣) وردت (جهدوه) ثم تصحیح لها في الهامش (جهدوه) ولا يستبعد أنها : (جحدوه) على
أساس نكرانهم للتوحيد .

(٤) وردت (الهوا) والمصحح (الهوى) .

(٥) وردت (المعبود) وهي خطأ في النسخ .

(٦) هنا كلمة مشبهة .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

الإشارة فيه لمن عزم على الصفاء ، ووعد من نفسه لتحقيق الوفاء ، ونشر أعلام النشاط عند البروز^(١) إلى القتال ، تنادى بالثُرَال وصدق القتال — انهدم عند التفات^(٢) الصفوف ، وانجزل عن الجملة خشية هجوم المهدور ، قال تعالى : « فَإِذَا عَزَمُوا الْأَمْرَ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ » .

قوله جل ذكره : ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ .

أنزلهم التحاسد عن مقر العز^(٣) إلى حضيض الخزي ، وسامهم ذل الصفر حين لم يرضوا بمقتضى الحكم ، فأضافوا استيجاب مقت آف إلى استحقاق مقت سالف .
قوله جل ذكره : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْحَنٌ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا ، وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ، قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » .

(١) وردت (البرود) وهي خطأ في النسخ .

(٢) وردت هكذا في (م) ، وربما كانت في الأصل (التفاء) الصفوف أو (التفاف) كذلك بمحتمل (انهزم) بدلا من (انهدم) .

(٣) وردت (العير) وهي خطأ في النسخ .

الإشارة فيه : إذا قيل لهم حَقِّقُوا ما أظهرتم من حكم الوفاق بتحقيق الحال وإقامة البرهان سَمَحَتْ نفوسُهم ببعض ما التبس عندهم لما يوافق أهواءهم ، ثم يكفرون بما وراء حظوظهم ، (. . .) ^(١) بُدَأَ عن زمرة الخواص ، غير معدودين في جملة أرباب الاختصاص .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد جاءكم ^(٢) موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾ .

أى دعاكم إلى التوحيد ، وإفراد المعبود عن كل معبود ومحدود ، ولكنكم لم تبحجوا إلا إلى عبادة ما يليق بكم من عجل اتخذتموه ، وصنم تعبدتموه . فرفع ذلك من بين أيديهم ، لكن بقيت آثاره في قلوبهم وقلوب أعقابهم ، ولذلك يقول أكثر اليهود بالتشبيه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا ، قالوا سمعنا وعصينا وأشرىوا في قلوبهم العجل بكفرهم ، قل يئسا يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾ .

كرّر الإخبار عن غلوهم في حب العجل ، ونُبؤهم عن قبول الحق ، و (.) ^(٣) وتعريفهم معاجلتهم بالعقوبة على ما يسيثون من العمل ، فلا النصح نجح فيهم ، ولا العقوبة أوجبت إقلاعهم عن معاصيهم ، ولا بالذم فيهم احتفلوا ^(٤) ، ولا بموجب الأمر عملوا .

(١) هنا لفظة مشتبهة .

(٢) أخطأ الناسخ حين كتبها (جاءكم) فصححناها طبقاً للآية ٩٢ .

(٣) هنا عبارة غامضة كتابة وبالنسبة معنى .

(٤) ردت (اختلفوا ، والملائم للسياق) (اختلفوا) أى اظهروا الاهتمام .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ
عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ
فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾
ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم
والله عليم بالظالمين ﴾ .

من علامات الاشتياق تمنى الموت على بساط العوافي ؛ فمن وثق بأن له الجنة قطعاً
— فلا محالة — يشتاق إليها ، ولما لم يتمنوا الموت^(١) — وأخبر الله سبحانه أنهم لن يتمنوه
أبداً — صار هذا التعريف معجزة للرسول صلوات الله عليه وعلى آله إذ كان كما قال .
وفي هذا بشارة^(٢) للمؤمنين الذين يشتاقون إلى الموت أنهم مغفور لهم ، ولا يرزقهم
الاشتياق إلا وتحقق لهم الوصول إلى الجنة ، وقديماً قيل : كفى للمقصر الحياء يوم اللقاء .
قال الله تعالى : « ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ،
وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ
لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزٍ لَهُ
مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ
بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾^(٣) .

حُبُّ الحياة في الدنيا نتيجة الغفلة عن الله ، وأشد منه غفلة أحبيهم للبقاء في الدنيا . وحالُ
المؤمن من هذا على الضد . وأما أهل الغفلة وأصحاب التهلكة فإنما حرصهم على الحياة لعلمهم
بما فقدوا فيها من طاعتهم ؛ فالعبد الآبق لا يريد رجوعاً إلى سيِّده . والانتقال إلى مَنْ هو
خيرُهُ مَرَجُوْهُ خَيْرٌ للمؤمنين من البقاء مع مَنْ شَرُّهُ غَيْرُ مَأْمُونٍ ، ثم إن امتداد العمر مع يقين

(١) في النسخة (الجنة) ولكن الآية الكريمة والسياق يشيران إلى تمنى الموت ثم إن الضمير فيها
جدي (لن يتمنوه أبداً) ضمير مذكر وليس ضمير مؤنث .
(٢) وردت (وفي هذا إشارة) والمعنى يتطلب (بشارة) مما يرجح هذه على تلك .
(٣) أسقط الناسخ من الآية من أول (وما هو) إلى (أن يسر) فأثبتناه .

الموت (لا قيمة له) إذا فَاتَجَا الأمرُ وانقطع العُمُرُ . وكلُّ ما هو آتٍ فقريب ، وإذا انتقضت
المدَّةُ فلا مردُّ لهجوم الأجل على أكتاف الأمل .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ
نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا
لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ .
مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ
وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ
اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ .

زعمت اليهود أن جبريل لا يأتي بالخير ، وأنهم لا يحبونه ، ولو كان ميكائيل لكانوا
آمَنُوا به ، فأكذبهم الحقُّ سبحانه فقال : مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ لَأَنَّهُ لَا يَأْتِي بِالْخَيْرِ فَأَيُّ خَيْرٍ
أَعْظَمُ مما نزل به من القرآن ؟

ثم قال إن مَنْ عَادَى^(١) جبريلَ وميكائيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لَهُ ، فَإِنَّ رَسُولَ الْحَبِيبِ إِلَى
الْحَبِيبِ الْعَزِيزِ الْمَوْرِدِ — كَرِيمُ الْمَنْزِلَةِ ، عَظِيمُ الشَّرَفِ . وما ضُرَّتْ جِبْرِيلَ — عَلَيْهِ السَّلَامُ —
— عداوةُ الكفار ، والحقُّ سبحانه وتعالى وليُّه ، وَمَنْ عَادَى جِبْرِيلَ فَالْحَقُّ عَدُوُّهُ ،
وما أَعَزَزَ^(٢) بهذا الشرف وما أَجَلَّهُ ! وما أَكْبَرَ علوه !

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا
يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ . أَوْ كَلَّمَا
عَاهَدُوا عَهْدًا تُبَدِّلُهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَل
أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

لم يكفر بواضح آياته إلا من سُدَّتْ عن الإدراك بصائرُه ، وسبقت من الله بالشقاوة

(١) وردت (عبادى) وهى خطأ فى النسخ ، فعادى مناسبة لعدم محبتهم لجبريل كما سبق .
(٢) الصحيح ان يقال وأعزز بهذا الشرف أو : ما أعز هذا الشرف فليس فى التعجب ما أفعل به
فما حدث هو خطأ من الناسخ لأن القشيري — كما نعلم من سيرته — حريص أشد الحرص على قواعد النحر .

رَقِيبَتُهُ ، وَلَا عَقْلَ لِمَنْ يَجْحَدُ أَنَّ النَّهَارَ نَهَارٌ ، وَكَذَلِكَ لَا وَصْلَ لِمَنْ لَمْ تَسَاعِدْهُ مِنَ الْحَقِّ أَوْ رِ
وَاسْتَبْصَارَ . أَوْ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا سَابِقُ التَّقْدِيرِ لَهُمْ كَانَ يَشُوْشُ عَلَيْهِمْ ، وَيَنْقُضُ عَهْدَهُمْ
لَا حَقَّ التَّدْبِيرِ مِنْهُمْ ، وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
مُصَدِّقٌ^(١) لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ
وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

جحدوا رسل الحق إلى قلوبهم من حيث الخواطر ، وكذبوا رسلهم الذين أتوهم في
الظاهر ، فيما جهلاً ما فيه شظية من العرفان ! ويا حرماناً قَارَنَهُ خِذْلَان !

قوله جل ذكره : ﴿ وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ
سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ،
وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ
النَّاسَ السَّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى
الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ
وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا
إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ
مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ
وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ
إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ
وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ
مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ ﴾ .

مَنْ فَرَّقَتْهُ الْأَهْوَاءُ وَقَعَ فِي كُلِّ مَطْرَحٍ مِنْ مَطَارِحِ الْغَفْلَةِ ، فَيَسْتَقْبِلُهُ كُلُّ جِنْسٍ مِنْ قَضَايَا

(١) أَخْطَأَ النَّاسُخَ فَكَتَبَهَا (مُصَدِّقًا) وَالْمُصَحِّحُ (مُصَدِّقٌ) الْآيَةُ ١٠١ .

الجهالة ، ثم إن مَنْ طالت به الغيبة صار للناس عِبرة ، وَلِمَنْ سلك طريقه فتنة ، فمن اقتدى به في غيئه انخرط في سِلْكِهِ ، والتحق بجنسه ، هكذا صفة هاروت وماروت فيما استقبلهما ، صارا للخلق فتنة بل عِبرة ، فمن أصرى إلى قيلهما ، ولم يعتبر بحملهما تعلق به بلاؤهما ، وأصابه في الآخرة عناؤهما .

والإشارة من قصتهما إلى مَنْ مَالَ في هذه الطريقة إلى تمويه وتلبيس ، وإظهار دعوى بتدليس ، فهو يستهوى مَنْ اتَّبَعَهُ^(١) ، ويلقيه في جهنم بباطله ، (.....) ^(٢) ومن تهتك بالجنوح إلى أباطيله تهتك أستاذه ، وظهر لذوى البصائر عوارده . وإن هاروت وماروت لما اغتريا بحاصل ما اعتاده من المعصية بَطْطاً لسان الملامة في عصاة بني آدم ، فلياً رُكِّبَ فيهما من نوازع الشهوات ، ودواعي الفتن والآفات ، اقتحما في المصيان ، وظهر منهما ما انتشر ذكره على ألسنة القصاص ، وهما مُنْكَسَّان إلى يوم القيامة ولولا الفرق بهما وبشأنهما لما انتهى في القيامة عذابهما ، ولكن لطف الله مع الكافة كثير . ولما قال الله تعالى : « ويتعلمون ما يضرُّهم ولا ينفعهم » عليم أهل التحصيل أن العلم بكل معلوم — وإن كان صفة مدح — ففيه غير مرغوب فيه ، بل هو مستعاذ منه قال النبي صلى الله عليه وسلم : أعوذ بك من علم لا ينفع .

قوله جل ذكره : ﴿ ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾

لو علم المغبون ماذا أبقي وماذا أبلى لتقطعت أحشاؤه حسراته ، ولكن سيعلم — يوم تبلى السرائر — الذي فاتته من الكرائم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبةٍ من عند الله خير لو كانوا يعلمون ﴾

ولو آثروا الإقبال على الله على اشتغالهم عن الله ، لحصلوا ذخراً الدارين ، ووصلوا إلى

(١) وردت (التبعة) وهي خطأ في النسخ .

(٢) هنا عبارة غامضة ككتابة ومعنى ، ويرجح أن الناسخ قد وقع في أخطاء نقلية .

عِزُّ الْكَوْنَيْنِ ، وَلَكِنْ كَبَسَتْهُمْ سَطَوَاتُ الْقَهْرِ ، فَأُثْبِتَتْهُمْ فِي مَوَاطِنِ الْهَجْرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

قصودُ الأعداء في جميع أحوالهم — من أعمالهم وأقوالهم — قصودٌ خبيثة ؛ فهم — على مناهجهم — يبنون فيما يأتون ويدَّرون . فسيلُ الأولياء التَّحرُّزُ عن مشابهِتهم ، والأخذ في طريق غير طريقهم .

قوله جل ذكره : ﴿ مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمَشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

كراهيةُ الأعداء لانتظام صلاح الأولياء متصلةٌ مُستدامةٌ ، ولكن الحسود لا يسود ، ولا يحصل له مقصود وخصائص الرحمة للأولياء كافية — وإن زعمَ من الأعداء أفاك أنه انهدمت من أوطان فرحهم أكناف وأطراف .

قوله جل ذكره : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

النسخُ الإزالةُ أي ما ينقلك من حال إلى ما هي فوقها وأعلى منها ، فنُسخَ وَصْلُكَ أَبَدًا ناضرًا ، ونجمُ عِزِّكَ أَبَدًا ظاهرًا ، فلا ننسخُ من آثار العبادَةِ شيئًا إلا وأبدلنا عنه أشياء من أنوار العبودية ، ولا لسخنا من أنوار العبودية أشياء إلا أقمنا مكانها أشياء من أبقار العبودية^(١) .

(١) وردت (من أبقار العبودية) وهي خطأ من الناسخ ، لأن السياق هنا يتطلب (العبودية) =

فأبدًا^(١) سِرُّكَ في الترقى ، وقدرِكَ في الزيادة بحسن التَّوَلَّى
وقيل مارقًاكَ عن محل العبودية إلا سَلَكَكَ بساجات الحرية ، وما رَفَعَ عَنْكَ شيئًا من
صفات^(٢) البشرية إلا أقامَكَ بشاهدٍ من شواهد الألوهية .
قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

سُنَّتُهُ — سبحانه — أن يجذب أوليائه عن شهود مُلْكِهِ إلى رؤية مُلْكِهِ^(٣) ، ثم
يأخذهم من مُطالعة مُلْكِهِ إلى شهود حَقِّهِ ، فيأخذهم من رؤية آيَاتِهِ إلى رؤية صفاته ، ومن
رؤية صفاته إلى شهود ذاته .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ
كَما سُئِلَ موسى من قبل . وَمَنْ
يَنْبَدِلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ
سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ .

إنَّ بنى إسرائيل آذَوْا موسى عليه السلام ، فَتَهَيَّأَ المسلمون عن فِعْلِ ما أسلفوه ، وأَمَرُوا

== فنحن نعرف من مذهب القشيري أن العبادة للعوام من المؤمنين ، والعبودية للخواص ، والعبادة
للخاص الخاص .

العبادة لأصحاب المجاهدات ، والعبودية لأرباب المكابذات ، والعبودية صفة أهل المشاهدات . . .
وهكذا — ومن أسانيد كثيرة في باب العبودية في « الرسالة » — نلاحظ أن الدرجة القصوى في الأمر
هي (العبادة) ، والترتيب هنا يمشي هكذا آثار العبادة ، انوار العبودية ، أقمار العبادة ، وهو
ترتيب في غاية الدقة ، يعطى كل درجة قدرها .

() وردت (فأبد) بدون تنوين .
(٢) نقلت النظر هنا إلى أهمية كلمة صفات البشرية ، أى أن المقصود — حسب مذهب القشيري — ليس
سقوط البشرية في حد ذاتها ، وإنما صفاتها الملوثة ، وينبغي أن يكون واضحاً تمام الوضوح أن التصوف
الإسلامي الحق — والقشيري من أفضل المعبرين عنه — لا يقول بأدنى تداخل بين البشرية والألوهية
فالعبد عبد والرب رب .

(٣) ضبطنا ملك وملك مستفيدين من كلام القشيري في كتابه « التعبير » ضمن اسم « الملك » .

بمراعاة أن حشمة الرسول صلى الله عليه وسلم بغاية ما يقسم في الإمكان . فكانوا بحضرة كأن
على رؤوسهم الطير . قال تعالى : « تعزروه وتوقروه » وحسن الأدب — في الظاهر — عنوان
حسن الأدب مع الله في الباطن .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
لَوْ يَرُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا
حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ
مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا
حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

مَنْ لَحِقَهُ خسران الفهم من أصحاب الغفلة ودَّ ألاَّ يطلعَ لأحدٍ بالسلامة نجمٌ ، ومن اعتراه
الحسد أراد ألاَّ تنبسط على محسوده شمسٌ .

وكذلك كانت صفات الكفار ، فأرغم الله أنفهم ، وكبهم على (١) وجوهم .

والإشارة من هذا إلى حال أصحاب الإرادة في البداية إذا رغبوا في السلوك ، فمن لم يساعده
التوفيق (في الصلابة ، وعاشر أناساً مترسبين بالظواهر) (٢) فإنهم يمنعون هؤلاء من السلوك
ولا يزالون يخاطبونهم بلسان النصيح ، والتخويف بالعجز والتهديد بالفقر حتى ينقلوهم إلى سبيل
الغفلة ، ويقطعوا عليهم طريق الإرادة ، أولئك أعداء الله حقاً ، أدركهم مقت الوقت .
وعقوبتهم حرمانهم من أن يشموا شيئاً من روائح الصدق .

« فاعفوا واصفحوا . . . » فسبيل المريد أن يحفظ عن الأغيار سره ، ويستعمل مع كل
أحد ضلة (٣) ، ويبدل في الطلب رفعة (٤) ، فعن قريب يفتح الحق عليه طريقه .

(١) في النسخة ص (وكبهم لوجوهم) وقد آثرنا عليها (على وجوهم) .
(٢) أصلها في هذه العبارة قليلاً لكي يتضح معناها طبقاً لوصايا القشيري للمريدين في « رسالته »
(٣) هكذا وردت في (ص) وقد نقلناها كما جاءت ، وربما كانت في الأصل (خلّة) بمعنى الصفة
أي أن يحافظ على سره مع ربه عن طريق اتصافه مع صحبته بصفات ملائمة . تضمن أن يكون سره محفوظاً
(٤) ربما كانت في الأصل (ويبدل في الطلب وسعه) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ،

وَمَا تَقْدُمُوا لَأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ

عِنْدَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

الواجب على المرید إقامة المواصلات ، وإدامة التوسل بفنون^(١) القربات ، واثقاً بأن ما يقدمه من صدق المجاهدات تُدْرِكُ^(٢) ثمرته في أواخر الحالات .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ^(٣) الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ

كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ، تِلْكَ

أَمَانَتُهُمْ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ، إِنْ

كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

كلُّ حِزْبٍ يُمَهِّدُ الْأَمَلَ لِنَفْسِهِ ، وَيُظَنُّ النِّجَاةَ لِحَالِهِ ، وَيَدْعِي الْوَسْلَ^(٤) مِنْ سَهْمِهِ .

ولكنَّ مجرد الحسبان دون تحقق البرهان لا يأتي بحاصل ، ولا يجوز بطائل .

قوله جل ذكره : ﴿ بَلَى^(٥) مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ

مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

أسلم وجهه أى أخلص لله قصده ، وأفرد الله وجهه ، وطهر عن الشوائب عقله .

« وهو محسن » . عالمٌ بحقيقة ما يفعله وحقيقة ما يستعمله : وهو محسن في المآل كما أنه

مسلم في الحال .

ويقال الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فتكون مستسلماً بظاهرك ، مشاهداً بسرائرك ،

في الظاهر جهد وسجود وفي الباطن كشف ووجود .

(١) جاءت هكذا في ص (يقنون) ثم صححها الناسخ في الهامش .

(٢) جاءت في ص (تدركوا) .

(٣) أخطأ الناسخ إذ كتبها (يدخلوا) والصحيح (يدخل) الآية ١١١ .

(٤) الوسل والوسيلة والواسطة = الوصلة والقرب من الله (الوسيط ص ١٠٤٤)

(٥) أسقط الناسخ (بلى) والصحيح وجودها الآية ١١٢ .

ويقال « أسلم وجهه » بالترام الطاعات ، « وهو محسن » قائمٌ بآداب الخدمة بحسن آداب الحضور ، فهو لا ليس عليهم خوف المعجر ، ولا يلحقهم خفيُّ المكر ، فلا الدنيا تشغلهم عن المشاهدة ولا الآخرة تشغلهم غداً عن الرؤية .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَلُونِ الْكِتَابِ ، كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

الإشارة في هذه الآية على العكس من حكم الظاهر ؛ فالأعداء يتبرأ بعضهم من بعضٍ اليوم ، والأولياء من وجه كذلك ، ولذا قالوا : لا زالت الصوفية بخير ما تنافروا ، ولا يقبل بعضهم بعضاً لأنه لو قبل بعضهم بعضاً بقي بعضهم مع بعض .

لكن الأعداء كلهم على الباطل . عند تَبَرُّي بعضهم من بعض أما الأولياء فكلُّهم على الحق — وهذه ما ذكرنا من حكم العكس .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ . لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

الإشارة فيه أن الظالم مَنْ خَرَّبَ أوطان العبادة بالشهوات ، وأوطان العبادة نفوس العابدين . وخَرَّبَ أوطان المعرفة بالثني والعلاقات ، وأوطان المعرفة قلوب العارفين . وخَرَّبَ أوطان المحبة بالمحظوظ والمساكنات ، وهي أرواح الواجدين . وخَرَّبَ أوطان

المشاهدات بالالتفات إلى القربات وهي أسرار الموحدين^(١)

قوله جل ذكره : ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

لأهل الإشارة خزي الدنيا بذل الحجاب، وعذاب الآخرة الامتناع بالدرجات .

قوله جل ذكره : ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ .

الإشارة منها إلى مشارق القلوب ومغاربها . وللقلوب شوارق وطوارق . وطوارقها هواجس النفوس تطرق في ظلمات المنى والشهوات .

وشوارقها نجوم العلوم وأقمار الحضور وشموس المعارف .

فما دامت الشوارق طالعة فِقِبْلَةُ الْقُلُوبِ ، واضحة ظاهرة ، فإذا استولت^(٢) الحقائق خفي سلطان الشوارق ، كالنجوم تستتر عند طلوع الشمس ، كذلك عند ظهور الحق يحصل اصطلام وقهر ، فلا شهود رسم ، ولا بقاء حس وفهم ، ولا سلطان عقل وعلم ، ولا ضياء عرفان . فإن وجدان^(٣) هذه الجملة صفات لا تقة ببقاء البشرية ، وإذا صار الموصوف محوًّا فأنى لهم ببقاء الصفة !

قال تعالى : « فَأَيُّسَّمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ » مادام يبقى من الإحساس والتمييز بقية — ولو شظية — فالقِبْلَةُ مقصودة ، فإن لم تكن معلومة تكون مطلوبة . وعلى لسان العلم إذا اشتبهت الدلائل بكلِّ وجهة ، ولا معرفة بالقِبْلَةِ تَسَاوَتْ الجهاتُ في جواز الصلاة إلى كل واحدٍ منها إذا لم يكن للنية ترجيح .

(١) نعرف من مذهب القشيري أن الأسرار (للموحدين) ولذا ترجح أن الناسخ أخطأ حينما كتبها (الواجدين) وقد أثبتناها هنا على هذا الترجيح .
(٢) وردت (سوت) وهي خطأ في النسخ .
(٣) وجدان ، ووجود مصدران لوجد ، غير أن القشيري يؤثر استعمال لفظة (الوجود) بمعناها الاصطلاحي الدقيق في موضعها للملائم (التواجد بداية الوجود واسطة الوجود نهاية) .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه ﴾ .

مَكْرَهُمْ لَمْ يُفْنِهِمْ — من الإفناء — في الحال ، بل جعل موجب اغترارهم طول الإمهال ، فنطقوا بعظيم الغرئية على الله ، واستنبطوا عجيب المرئية في وصف الله ، فوصفوه بالولد ! وأثني بالولد وهو إحدى الذات ١٢ لاحد لذاته ، ولا تجوز الشهوة في صفاته .

قوله جل ذكره : ﴿ بل له ما في السموات والأرض كلّ له قانتون ﴾ .

أى ليس في الكون شيء من الآثار المنقورة أو الأعيان المستقلة إلا وتنادى عليه آثار الخلق ، وتفصح منه شواهد الفطرة ، وكل صامت منها ناطق ، وعلى وحدانيته — سبحانه — دليل وشاهد .

قوله جل ذكره : ﴿ بديع السموات والأرض وإذا قضي أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ .

البديع عند العلماء مُوجِد العَيْن لا على مِثْل ، وعند أهل الإشارة الذى ليس له شيء مثله . فهذا الاسم يشير إلى نفي المثل عن ذاته ، ونفي المثل عن أفعاله ، فهو الأحد الذى لا عدد يجمعه ، والصمد الذى لا أمدّ يقطعه ، والحق الذى لا وهم يصوره ، والموجود الذى لا فهم يقدره . وإذا قضي أمراً فلا يعارض^(١) عليه مقدور ، ولا ينفك من حكمه محذور .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا^(٢) الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين

من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم
قد بينّا^(٣) الآيات لقوم يوقنون ﴾ .

(١) الصواب أن تكون (فلا يعارض) ، فهكذا يعبر القشيري في مثل هذا السياق .

(٢) وردت (لولا يكلمهم) وهي خطأ ، وقد صححناها طلباً للآية ١١٧ .

(٣) وردت خطأ (بين) والصحيح (بينا) الآية ١١٧ .

كلام الله سبحانه متعلق بجميع المخلوقات بأعيانها وآثارها ، وأمر التكوين (يتناول المكلفين وأفعال المكلفين)^(١) ، لكن من عديم سمع الفهم تصام^(٢) عن استماع الحق ، فإنه — سبحانه — خاطب قوماً من أهل الكتاب ، وأسمعهم خطابه^(٣) ، فلم يطيقوا سماعه ، وبعد ما رأوا من عظيم الآيات حرّفوا وبدّلوا . وفي الآيات التي أظهرها ما يزيح العلة من الأغيار ، ويشفي العلة من الاخيار ، ولكن ما تُغني الدلائل — وإن وضحت — عن حُجَّتْ لهم الشقارة وسبقت ؟

قوله جل ذكره : ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً
ولا تسأل عن أصحاب الجحيم ﴾ .

أفردناك بخصائص لم نُظهِرْها على غيرك ؛ فالجمهور والسكافة تحت لوائك ، والمقبول من وافقك ، والمردود من خالفك ، وليس عليك من أحوال الأغيار سؤال ، ولا عنك لأحد (. . .)^(٤) .

قوله جل ذكره : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى
حتى تتبع ملّتهم قل إن هدى الله
هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد
الذي جاءك من العلم مآلك من
الله من ولى ولا نصير ﴾ .

لا تبال برضاء الأعداء بعد ما حصل لك رضانا ، فإنهم لا يرضون عنك إلا بمتابعة أديانهم ، ودون ذلك لم حظ القتال فأعلن^(٥) التبري منهم ، وأظهر الخلاف معهم ، وانصب العداوة

(١) العبارة التي في (ص) مضطربة في الخط والمعنى ، وقد صبحناها طبقاً لما نعرف من آراء القشيري الكلامية : إن الله خالق العباد وأفعال العباد (فأنه خالق كل شيء ، أما الانسان فليس له أن يوصف بذلك لأن كل من خلقه وصف التكوين لا يصح منه الإيجاد) .

(٢) وردت (تصام) وهي خطأ في النسخ .

(٣) وردت أسمعهم (خاطبهم) والأرجح أنها في الأصل أسمعهم (خطابه) .

(٤) مشبهة .

(٥) وردت (ما علف) وهي خطأ في النسخ ، وقد جعلناها (فأعلن) لتلائم (وأظهر) بعدها .

لهم ، وأعلم أن مساكنهم إلى ما يرضون سبب الشقاوة المؤبدة ، فاحرص ألا يخطر ذلك
ببإلك^(١) ، وادعُ — إلى البراءة عنهم وعن طريقهم — أمتك ، وكن بنا لنا ، متبرياً
عن سوانا ، واثقاً بنصرتنا ، فإنك بنا ولنا .

قوله جل ذكره : ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حقّ
تلاوته أولئك يؤمنون به ، ومن
يكفر به فأولئك هم الخاسرون ﴾ .

الذين فتحنا أبصارهم بشهود حقنا وكنّا أسمع قلوبهم بسماع خطابنا ، وخصصناهم
بإسبال نور العناية عليهم ، وأيدناهم بتحقيق التعريف في أسرارهم ، يقومون بحق التلاوة ،
ويتصفون بخصائص الإيمان والمعرفة فهم أهل التخصيص ، ومن سواهم أصحاب الرد .

قوله جل ذكره : ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي
التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم
على العالمين ﴾

جرت سنته — سبحانه — في الخطاب مع قوم موسى عليه السلام أن يناديهم بنداء
العلامة فيقول : يا بني إسرائيل اذكروا ، أي يا بني يعقوب ، ومع هذه الأمة^(٢) أن يخاطبهم
بنداء الكرامة فيقول : « يا أيها الذين آمنوا »

قوله جل ذكره : ﴿واقتوا يوماً لا تجزي نفس عن
نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ،
ولا تنفعها شفاع ولا هم ينصرون ﴾

أما الأعداء فلا يقبل منهم شيئاً ، وأما الأولياء فقال صلى الله عليه وسلم : « اقتوا النار
ولو يشق شقاً ، والكفار لا تنفعهم شفاعة الشافعين فهذا حكم كل أمة مع نبيها ،
وأما المؤمنون — فعلى التخصيص — تنفعهم شفاعة نبيهم صلى الله عليه وسلم .

(١) جاءت الجملة في ص هكذا (فاحرس عن أخطار ذلك بإلك) ومعنا لأنفسنا بشيء من التصرف
يلبغ فهم المعنى ، وربما كان أقرب إلى الأصل .
(٢) يقصد أمة المصطفى صلوات الله عليه وسلامه .

وكلُّ أحدٍ يقول يومئذٍ نفسى نفسى ونبيُّنا صلى الله عليه وسلم يقول: أمتى أمتى^(١) .
قوله جل ذكره: ﴿وإِذَا بَتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ بِكَلِمَاتٍ فَاتَمَمْنَ﴾

البلاء تحقيق الولاء ، فأصدقهم ولاء أشدُّهم بلاء .

ولقد ابتلى الحق — سبحانه — خليله عليه السلام بما فرض عليه وشرع له ، فقام بشرط وجوبها ، ووفى بحكم مقتضاها ، فاثني عليه سبحانه بقوله : « وإبراهيم الذى وفى » — من التوفية — أى لم يقصِّر بوجه ألبتة .

يقال حمَّله أعباء النبوة ، وطالبه بأحكام الخلَّة ، وأشدُّ بلاء له كان قيامه بشرائط الخلَّة ، والانفراد له بالتجافى عن كل واحد وكل شيء ، فقام بتصحيح ذلك مخفياً عن جميع ما سواه ، سراً وعَلَنًا .^(٢)

كذلك لم يلاحظ جبريل عليه السلام حين تعرض له وهو يُقذف فى لجَّة الهلاك ، فقال : هل من حاجة ؟ فقال : أمَّا إليك . . . فلا .

ومن كمال بلائه تعرض جبريل عليه السلام فى تلك الحالة ، وأى بقية كانت بقيت له منه حتى يكون المخلوق فيه مساغ كائنًا من كان ؟

(١) أخطأ الناسخ حين نقلها « كل عهد يقول . . . والصواب » كل أحد . . . وقد سمع القشيري هذه العبارة من أستاذه الدقاق — كما يقول فى رسالته فى باب الفتوة .

(٢) هذا هو رأى القشيري فى « الخلَّة » ، ونرى لازماً علينا أن ننبه إلى بعض الآراء الأخرى فيها . فالمعتزلة — الذين يتعدون عن كل ما يحمل على التشبيه — يذلون جهدم فى الاستمانة باللغة للحصول على تأويلات للنص القرآنى تخدم هذه الغاية ، فلما لم يرضهم تحل لفظة الخليل على ظاهرها فى الآية « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » (النساء : ١٢٥) استشهدوا ببيت من الشعر القديم زهير وهو :
ولأن اتاه خليل يوم مسألة يقول لا غائب مالى ولا حرم

(ديوان زهير نشر دار الكتب ص ١٥٣) وفيه خليل بمعنى محتاج ، وقد أورد القشيري هذا الرأى ضمن تفسيره للآية ١٢٤ النساء ، أى أنه لا يعارض أن تحتل اللفظة هذا المعنى .

ويفسر دكتور عبد الرحمن بدوى قول أبى طالب المكي (إن رابعة قد ارتفعت إلى وصف معنى الخلَّة) بما يلى : (على أن مقام الخلَّة هذا يمكن أن يُفسر على أساس أنه شعور بتجاوز الخير والشر ، ذلك أن القيم الأخلاقية لا اعتبار لها إلا بالنسبة إلى بنى الإنسان والدنيا . أما — رابعة ورباح — فقد تجاوزا نطاق البشرية وصارا يلوذان بمجوار الألوهية واطرحا الناسوت وشاع فيهما اللاهوت » .

شهيدة المشق الالهى ص ٦٣ ، ٦٤

وفى هذا إشارة دقيقة إلى الفرق بين حال نبيِّنا صلى الله عليه وسلم وحال إبراهيم عليه السلام ، لأنه تعرض جبريل للخليل وعرض عليه نفسه :
فقال : أمّا إليك . . فلا . ولم يُطَقْ جبريل صحبة النبي صلى الله عليه وسلم فنطق بلسان المعجز وقال :

لو دنوتُ أنملة لاحتُرقتُ^(١) .

وشتان بين حالة يكون فيها جبريل عليه السلام من قُوَّتِهِ بحيث يعرض للخليل عليه السلام نفسه ، وبين حالة يعترف للحبيب — صلوات الله عليه — فيها بمعجزه .

قوله جل ذكره : ﴿ إني جاعلك للناس إماماً ﴾ ، قال
ومن ذريتي قال : لا ينال عهدي
الظالمين . وإذ جعلنا البيت مثابةً
للناس وأمناً ﴿

الإمام مَنْ يُقْتَدَى بِهِ ، وقد حَقَّقَ له هذا حتى خاطب جميع الخلائق إلى يوم القيامة بالافتداء به فقال : « ملة أبيكم إبراهيم » أى اتبعوا ملة إبراهيم يعنى التوحيد ، وقال : « واتخذوا من مقام إبراهيم مُصَلًّى » .

هذا هو تحقيق الإمامة . ورتبة الإمامة أن يفهم عن الحق ثم يفهم الخلق ؛ فيكون واسطة بين الحق والخلق ، يكون بظاهره مع الخلق لا يفتر عن تبليغ الرسالة ، وبباطنه مشاهداً للحق ، لا يتغير له صفاء الحالة ، ويقول للخلق ما يقوله له الحق .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن ذريتي ﴾
نطق بمقتضى الشفقة عليهم ، فطلب لهم ما أكرم به . فأخبره أن ذلك ليس باستحقاق لَسَبٍ ، أو باستيجاب سبب ، وإنما هى أقسام مضت بها أحكام فقال له : « لا ينال عهدي

(١) يشير بهذا إلى ما حدث ليلة الاسراء والمعراج فى الملأ الأعلى (انظر كتاب المعراج) للقشبرى نشره دكتور هلى عبد القادر . ط . (الكتب الحديثة) سنة ١٩٦٤ .

الظالمين » وليس هذا كنعم الدنيا وسعة الأرزاق فيها ، فهي لا ادُّخَّار لها عن أحد وإن كان كافراً ، ولذلك :

قال جلّ ذكره : ﴿ وارزق أهله من الثمرات من آمن

منهم بالله واليوم الآخر ﴾
فقال الله تعالى : ﴿ ومن كفر
فأمتعهُ قليلاً ﴾

يعنى ليس للدنيا من الخطر ما يمنعها عن الكفار ، ولكن عهدي لا يناله إلا من اخترته
من خواص عبادى .

أمّا الطعام والشراب فغير ممنوع من أحد .

أمّا الإسلام والحجاب فغير مبذول لكل أحد .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وإجعلنا البيت مثابة للناس وأمناً ﴾

واذكر يا محمد حين جعلنا البيت — يعنى الكعبة — مثابة للناس إليه يثوبون ،
وأمناً لهم إليه يرجعون ، وإياه من كل نحو يقصدون .

هو بيت خلقته من الحجر ولكن أضفته إلى الأزل ؛ فمن نظر إلى البيت بعين الخلق
انفصل ، ومن نظر إليه بعين الإضافة وصل واتصل^(١) ، وكل من التجأ إلى ذلك البيت آمن
من عقوبة الآخرة إذا كان التجاؤه على جهة الإعظام والاحترام ، والتوبة عن الآثام .

ويقال بُنيَ البيتُ من الحجر لكنه حجر يجذب القلوب كحجر المغناطيس
يجذب الحديد .

بيت من وقع عليه ظلُّه أناج بعقوة^(٢) الأمن .

(١) قارن رأى القشيري الصوى الحريم بآراء بعض الصوفية الذين أوتوا حظاً من الجرأة في التعبير .
عن هذا الموضوع ، من ذلك مثلاً قول رابعة « لا أريد الكعبة بل رب الكعبة أما الكعبة فإذا أفعل
بها ... ولم تشأ أن تنظر إليها (تذكرة الأولياء . المطار ج ١ ص ٦١) .

وقول الحلّاج : « إن شوقنا إلى الله يجب أن يمحوعقلياً في نفوسنا صورة الكعبة ، كما نجد من أقامها
« شخصيات قلقة في الاسلام . د . بدوى ص ٦٨ .

(٢) المَعْقُوَّة = الموضع المتسع أمام الدار أو الحلة أو حولها (الوسيط ص ٦٢٤) .

بيتٌ مَنْ وقع عليه طَرَفُهُ بُشِّرَ بتحقيق الغفران .
بيتٌ مَنْ طاف حَوْلَهُ طافت اللطائف بقلبه ، فطَوَّفَتْهُ بطوفة ، وشَوَّطَتْهُ بشوطة وهل جزاء
الإحسان إلا الإحسان .

بيتٌ ما خَسِرَ مَنْ أنفق على الوصول ^(١) إليه مَالَهُ .
بيتٌ ما ربحَ مَنْ ضَنَّ عليه بشيءٍ ، مَنْ زاره نَسِيَ مزارَهُ ، وهجر ديارَهُ .
بيتٌ لا تُسْتَبَعْدُ إليه المسافة ، بيتٌ لا تُتْرَكُ زيارته لحصول مخافة ، أو هجوم آفة ، بيتٌ
ليس له بمهجة الفقراء آفة .

بيتٌ من قعد عن زيارته فَلَعَدَمَ فُتُوَّتِهِ ، أو لقلّة محبته .
بيتٌ من صَيَّرَ عنه فقلبه أَوْسَى من الحجارة . بيتٌ من وقع عليه شعاعُ أنواره تَسَكَّى عن
شمسه وأقماره .

بيتٌ ليس العَجَبُ ممن بقى (عنه) ^(٢) كيف يصبر ، إنما العَجَبُ ممن حضره
كيف يرجع !

قوله جل ذكره : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ .
عَبْدُ رَفَعَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ قَدَمًا فَإِلَى الْقِيَامَةِ جَعَلَ أَثَرَ قَدَمِهِ قِبْلَةً لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ إِكْرَامًا
لامدى له .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَهْدُنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ
طَهِّرَا بَيْتَنَا لِلطَّائِفِينَ وَالْمَاكِفِينَ
وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ . وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ
رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَارْزُقْ
أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مِنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ

(١) وردت (الوصول) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) (عنه) تكملة جاءت فى هامش الصفحة ؛ وهى تكملة ضرورية .

قليلاً ، ثم أضطره إلى عذاب النار
وبئس المصير * .

الأمس في الظاهر بتطهير البيت ، والإشارة من الآية إلى تطهير القلب .
وتطهير البيت بصوّته عن الأدناس والأوضار ، وتطهير القلب بحفظه عن ملاحظة
الأجناس والأغيار .

وطوافُ الحجاج حول البيت معلومٌ بلسان الشرع ، وطوافُ المعاني معلومٌ لأهل الحق ؛
فقلوب العارفين المعاني فيها طائفة ، وقلوب الموحدين الحقائق فيها عاكفة ، فهؤلاء أصحاب
التلوين^(١) وهؤلاء أرباب التمكين .

وقلوبُ القاصدين بملازمة الخضوع على باب الجود أبداً واقفة .
وقلوب الموحدين على بساط الوصل أبداً راکفة .
وقلوب الواجدین على بساط القرب أبداً ساجدة .

ويقال صواعد نوازع الطالبين بباب الكرم أبداً واقفة ، وسواحي قصود المريدين بمشهد
الجود أبداً طائفة ، ووفود همم العارفين بحضرة العزّ أبداً عاكفة .

قوله جل ذكره : * وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا
بلداً آمناً * .

السؤال إذا لم يكن مشوباً بحفظ العبد كان مستجاباً ، ولم يكن سؤال إبراهيم هذا لحفظ
نفسه ، وإنما كان لحقّ ربه عزّ وجلّ .

ولمّا حفظ شرط الأدب طلب الرزق لمن آمن منهم على الخصوص أجيب فيهم

(١) وردت (التكوين) وهي خطأ من الناسخ ، والصحيح أنها (التلوين) .
والتلوين والتمكين لفظان اصطلاحيان : (التلوين صفة أرباب الأحوال والتمكين صفة أهل الحقائق ،
فما دام العبد في الطريق فهو صاحب تلوين لأنه يرتقى من حالٍ إلى حال ، وينتقل من وصف إلى وصف ،
وهو أبداً في الزيادة أما صاحب التمكين فوصل ثم اتصل ، وأما أنه انصل أنه بالكلية عن كليته بطل .
والتغير بما يرد على العبد إما لقوة الوارد أو لضعف صاحبه ، والسكون إما لقوته أو لضعف الوارد عليه)
الرسالة ص ٤٤

وفي الذين لم يؤمنوا . ولما قال في حديث الإمامة : «ومن ذُرِّيَّتِي» من غير إذن مُسَمَّع وقيل له :
«لا ينال عهدى الظالمين» .

قوله جل ذكره : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ
وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ .

نَجِّحُ السُّؤال في صدق الابتهاال ؛ فلما فزعا إلى الخضوع في الدعاء أتاها المدد ،
ونحقيق السُّؤال .

« إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ » لأقوالنا « العليم » بأحوالنا .

قوله جل ذكره . ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ ، وَمِنْ
ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ، وَأَرْسِلْ
مِنَّا سَكَنًا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ .

« مسلمين » : متقادين لحكمك حتى لا يتحرك مِنَّا عِرْقٌ بغير رضاك ، واجعل من
ذريتنا أمة مسلمة لك لتقوم بعدنا مقامنا في القيام بحقوقك ، وشتان بين من يطلب وارثاً
للماله ، وبين من يطلب نائباً بعده يقوم بطاعته في أحواله .

« وَأَرْسِلْ مِنَّا سَكَنًا » إذ لا سبيل إلى معرفة المواقفات إلا بطريق التوفيق والإعلام .
« وتب علينا » : بعد قيامنا بجميع ما أَمَرْتَنَا حتى لا نلاحظ حركاتنا وسكناتنا ،
ونرجع إليك عن شهود أفعالنا لئلا يكونَ خطرُ الشُّرك الخفيِّ في توهُّمِ شَيْءٍ مِنَّا بِنَا .

قوله جل ذكره : ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا
عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ﴾ .

إن الواجبات لما كانت من قبيل الرسل دون مجرد المعقول سأل ألا يتركهم سُدىً ،
وألا يخليهم عن رسول وشرع . وطلب في ذلك الموقف أن يكون الرسول « منهم »
ليكونوا أشكناً إليه وأسهلَ عليهم ، ويصحُّ أن يكون معناه أنه لما عرَّفَهُ — سبحانه —
حالَ نبيِّنا صلى الله عليه وسلم سأل إنجاز ما وعده على الوجه الذي به (أمره ^(١)) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا
وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

أخبر أنه آثر الخليل صلوات الله عليه على البرية ، فجعل الدينَ دينَه ، والتوحيدَ شعارَه
والمعرفةَ صفته ؛ فمن رَغِبَ عن دينه أو حاد عن سُنَّتِهِ فالباطل مطرحه ، والكفر مهواه ؛
إذ ليست الأنوار بجملتها إلا مقتبسة من نوره .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ
لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

الإسلام هو الإخلاص وهو الاستسلام ، وحقيقته الخروج عن أحوال البشرية بالكلية من
منازعات الاختيار ومعارضات النفس ، قال : « أسلمت لرب العالمين » : قابلت الأمر بالسمع
والطاعة ، واعتنقت الحكم على حسب الاستطاعة . ولم يدخر شيئاً من ماله وبدنه وولده ،
وحين أمرَ بذيبح الولد قصد الذبح ، وحين قال له خلّه من الأسر (عمل) ^(٢) ما أمرَ به ، فلم
يكن له في الحالين « اختيار » ولا تدبير .

ويقال إن قوله : « أسلمت » : ليس بدعوى من قبيله لأن حقيقة الإسلام إنما هو التبري من
الحول والقوة ، فإذا قال : « أسلمت » فكأنه قال أقمني فيما كلفتنى ، وحقق مني ما به
أمرتني . فهو أحال الأمر عليه ، لا لإظهار معنى أو ضمان شيء من قبيل نفسه .
ويقال أمره بأن يستأثر بمطالبات القدرة ؛ فإن من حلَّ في الخلَّة محلّه يحل به — لا محالة —
ما حلَّ به .

(١) ترجح أنها في الأصل (أخبره) حتى تتلاءم مع السياق وبذا يكون الناسخ مخطئاً في نقلها .
(٢) في ص (فَعَسَلِمَ) ويمكن أن يحتملها المعنى ، ولكن ترجيح (عمل) أقوى في الدلالة على الامتثال

وَيُسْأَلُ هَاهُنَا سُؤَالٌ فَيَقَالُ : كَيْفَ قَالَ إِبْرَاهِيمُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ : « أَسْلَمْتُ » وَلَمْ يَقُلْ نَبِيْنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جِيْنًا قِيْلَ لَهُ إِعْلَمْ « عَلِمْتُ » ؟ .

وَالْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ وَجْهِ : مِنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ « أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ »^(١) ، وَلَكِنْ لَمْ يَرِدْ بَعْدَهُ شَرْعٌ فَكَانَ يُخْبِرُ عَنْهُ بِأَنَّهُ قَالَ عَلِمْتُ .

وَيَقَالُ : إِنْ اللَّهُ سَبْحَانَهُ أَخْبَرَ عَنِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ : « آمَنَ الرَّسُولُ » لِأَنَّ الْإِيْمَانَ هُوَ الْعِلْمُ بِاللَّهِ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَقَوْلُ الْحَقِّ وَإِخْبَارُهُ عَنْهُ أَتَمُّ مِنْ إِخْبَارِهِ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — عَنْ نَفْسِهِ .

وَالْآخِرُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمَّا أَخْبَرَ بِقَوْلِهِ : « أَسْلَمْتُ » اقْتَرَنَتْ بِهِ الْبَلَوَى ، وَنَبِيْنَا — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — يَتَحَرَّزُ عَمَّا هُوَ صُوْرَةُ الدَّعْوَى فَحُفِظَ وَكُفِّيَ .

وَالْآخِرُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَرَ بِمَا يَجْرِي بِجَرَى الْأَفْعَالِ ، فَإِنَّ الْأَسْتِسْلَامَ بِهِ إِلَيْهِ بِشِيرٍ . وَنَبِيْنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ بِالْعِلْمِ ، (وَلَطَائِفُ الْعِلْمِ أَقْسَامٌ)^(٢) .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَوَصَّيْ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيَهُ ، وَيَعْقُوبُ : يَا بَنِيَّ إِنْ اللَّهُ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ .

أَخْبَرَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَصَّى بَنِيَهُ ، وَكَذَلِكَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِبَنِيهِ لَا يَصِيْبُنْكُمْ الْمَوْتُ إِلَّا وَأَنْتُمْ بِوَصْفِ الْإِسْلَامِ . فَشَرَائِعُهُمْ — وَإِنْ اخْتَلَفَتْ فِي الْأَفْعَالِ — فَلْأَصْلُ وَاحِدٌ ، وَمَشْرَبُ التَّوْحِيدِ لَا ثَانِي — لَهُ فِي التَّقْسِيمِ — وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « إِنْ اللَّهُ اصْطَفَى

(١) « أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ وَأَخْشَاكُمْ اللَّهُ » .

الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ « وَاللَّهُ إِنِّي لِأَخْشَاكُمْ وَأَتَقَاكُمْ لَهُ » .

وَالشَّيْخَانُ عَنْ عَائِشَةَ « وَاللَّهُ إِنِّي لِأَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً » .

(٢) هُنَا وَضَعَ النَّاسِخَ عَلَامَةً تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَخْطَأَ فِي النِّقْلِ ، وَلِهَذَا فَإِنَّ الْمُبَارَةَ الَّتِي وَرَدَتْ فِي (ص)

مُضْطَرِبَةً وَقَدْ آتَرْنَا أَنْ نَلْتَقِطَ مِنْهَا مَا نَرْجِيحُ أَنَّهُ مَلَأْتُمْ لِلْمَعْنَى . فَالْقَصْدُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامَ عَبَّرَ بِقَوْلِهِ

« أَسْلَمْتُ » وَهَذَا فِعْلٌ لِنَسَائِي بَيْنَمَا لَمْ يَقُلْ الرَّسُولُ (ص) « عَلِمْتُ » لِأَنَّ الْعِلْمَ لَيْسَ كَسِبًا لِلْعَبْدِ وَإِنَّمَا هُوَ

قِسْمٌ لَهُ أَيْ أَنَّهُ مِنْ عَيْنِ الْجُودِ لَا مِنْ قَبِيلِ الْمَجْهُودِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ

لكم الدين « إشارة بما تقوى به دواعيهم على الرغبة فيما يكلفهم من الإسلام ، لأنهم إذا تحققوا أن الله سبحانه اصطفى لهم ذلك علموا أنه لا محالة يعينهم فيسهل عليهم القيام بحق الإسلام .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ ﴾ .

جروا كلهم — صلوات الله عليهم — على منهاج واحد في التوحيد والإسلام ، وتوارثوا ذلك خلفاً عن سلف ، فهم أهل بيت الزلفة ، ومستحقو القرية ، والمطهرون من قبل الله — على الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِلَهُ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ .
لم يقولوا إلهاً مراعاة لخصوصية قدره ، حيث سلموا له المزية ، ورأوا أنفسهم ملحقين بمقامه ، ثم أخبروا عن أنفسهم أنهم طيع^(١) له بقولهم « ونحن له مسلمون » .
قوله جل ذكره : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مِمَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

أنزل الحق — سبحانه — كلاً بمحلّه ، وأفرد لكل واحدٍ قدرًا بموجب حكمه ، فلا لهؤلاء عن أشكالهم خبر ، ولا بما خصّ به كل طائفة إلى آخرين أثر ، وكل في إقليمه ملك ، ولكل يدور بالسعادة فلك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ، قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

(١) وردت (طبع لهم) ونرجح أن النسخ قد أخطأ في النقل لأن « ونحن له مسلمون » ، معناه (ونحن طيع له) و« طيع » جمع طائع مثل رُكّع وسجّد من راكع وساجد .

معناه إذا تجاذبتك الفرق ، واختلفت عليك المطالبات بالموافقة ، فاحكم بتقابل دعاوهم ، وأزِد من توجهك إلينا ، جارياً على منهاج الخليل عليه السلام في اعتزال الجملة ، سواء كان أباه ، أو كان ممن لا يوافق مولاه ، ولذا قال « وأعتزلكم وما تدعون من دون الله » للحق بالحق .

قوله جل ذكره : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا

وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل

وإسحاق ويعقوب والأسباط ،

وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى

النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحدٍ

منهم ونحن له مسلمون ﴾ .

لما آمن نبيُّنا صلى الله عليه وسلم بجميع ما أنزل من قبله أكرمَ بجميع ما أكرمَه من قبله ، فلما أظهر موافقة الجميع أمرَ الكلَّ بالسكون تحت لوائه فقال : « آدمُ ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة »^(١) .

ولما آمنت أُمَّتُه بجميع ما أنزل الله على رسله^(٢) ، ولم يفرقوا بين أحدٍ فهم ضربوا في التكريم بالسهم الأعلى فتقدموا على كافة الأمم .

قوله جل ذكره : ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا

وإن تولوا فإنا هم في شقاق فسيكفيكم

الله وهو السميع العليم ﴾ .

إن سلكوا طريقكم ، وأخذوا بسيلكم ، أكرموا بما أكرمتم ، ووصلوا إلى ما وصلتم ، وإن أبوا إلا امتيازاً أبينا إلا هوانهم . فإن نظرنا لمن خدمك يا محمد بالوصلة ،

(١) « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا غر ، ويبدى لواء الحمد ولا غر ، وماني يومئذ آدم فن سواء إلا تحت لوائي » .

من أحاديث الشفاعة رواه الترمذي (٧٩ / ٦ منتخب كنز العمال) .

(٢) وردت رسوله ، والأولى أن تكون رسله لأن السياق يقتضي ذلك .

وإعراضنا عن بآيتك وخالفك (. . .)^(١) ، من خالفك فهو في شق الأعداء ، ومن خدك
فهو في شق^(٢) الأولياء .

« فسيكشفكم الله وهو السميع العليم » : كفاية الله متحققة لأن عناية الله بكم متعلقة ،
فمن نأبذكم قصته أيادى النصره ، ومن خالفكم قهرته قضايا القسمة ، وهو السميع لمناجاة
أسراركم معنا على وصف الدوام ، العليم باستحقاقكم (منا)^(٣) خصائص اللطف والإكرام .

قوله جل ذكره : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ .

معناه الزموا صبغة الله ، فهو نصب بإضمار فعل .

والإشارة أن العبرة بما وضع الحق لا بما جمع العبد ، فما يتكلفه الخلق فإلى الزوال
مآله ، وما أثبت الحق عليه الفطرة فبإثباته العبرة .

وللقلوب صبغة وللأرواح صبغة وللأسرار صبغة وللظواهر صبغة . صبغة الأشباح والظواهر
بآثار التوفيق ، وصبغة الأرواح والسرائر بأنوار التحقيق .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا
وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ
وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾^(٤) .

كيف تصحُّ حاجة الأجانب^(٥) وهم تحت غطاء النبية ، وفي ظلال الحجة . والأولياء في ضياء
الكشف وظهور الشهود ؟

(١) هنا كلمة (بالواجب) ونظن أنها في الأصل (بالفرقة) أو ما في معناها لتقابل (الوصلة) .
(٢) وردت (سك) والمعنى يرفضها تماماً مما يدل على أنها خطأ من الناسخ وربما كانت (سلك) .
(٣) وردت (من) وهي مقبولة ، ولكن الأجل أن تكون (منا) حتى تنسجم الموسيقى الداخلية
— وهذه خصيصة في أسلوب القشيري — مع (معنا) في الجملة السابقة عليها ، فضلاً عن أن فيها إطادة
كل فضل إلى الله .

(٤) أخطأ الناسخ وكتبها (مخلصون) وصحة الآية (١٣٨) (. . . مخلصون) .

(٥) وردت (الأجابة) وهي خطأ من الناسخ .

ومتى يستوى حال من هو بنعت الإفلاس بِفَيْبَتِهِ مع حال من هو في حكم الاختصاص والإخلاص لانفراقه في قُرْبَتِهِ ؟ هيهات لا سواء !

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ ، وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عِنْدَهُ مِنْ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

مَنْ نَظَرَ مِنْ نَفْسِهِ إِلَى اتِّخَالِفِ يَتَخَيَّلُ كَلًّا بِرَقِهِ ، وَيَحْسِبُ الْجَمِيعَ بِنَعْتِ مِثْلِهِ ؛ فَلَمَّا كَانُوا بِحُكْمِ الْأَجْنِبِيَّةِ حَكَمَ الْأَنْبِيَاءُ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - بِمِثْلِ حَالَتِهِمْ ، فَرَدَّ الْحَقُّ - سُبْحَانَهُ - عَلَيْهِمْ ظَنَّهُمْ وَ (. . .) ^(١) فِيهِمْ رَأْيُهُمْ . وَهَلْ يَكُونُ الْمَجْدُوبُ عَنْ شَاهِدِهِ كَالْمَحْجُوبِ فِي شَاهِدِهِ ؟ وَهَلْ يَتَسَاوَى الْمُخْتَلَفُ ^(٢) عَنْ كَلِّهِ بِالْمَرْدُودِ إِلَى مِثْلِهِ ؟

ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَتَمَسَّ ^(٣) لَهُمْ !

قوله جل ذكره : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

حَالَتِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ حَوَاجِزٌ مِنَ الْقِسْمَةِ ؛ فَهَمَّ عَلَى الْفُرْقَةِ وَالْفَقْلَةِ أَسْهَوْا بَنِيَانَهُمْ ، وَأَتَمَّ عَلَى الزَّلْفَةِ وَالْوَصْلَةِ ضَرْبَتَهُمْ خِيَامَهُمْ . وَعَتِيقُ فَضْلِنَا لَا يَشْبَهُ طَرِيدَ قَهْرِنَا ^(٤) ..

(١) مشبهة في (ص) .

(٢) وردت (المختلف) وهي خطأ من الناسخ ، فن معرفتنا بأسلوب القشيري نجزم أنها (المختطف) عن كَلِّهِ خَذَ مِثْلًا قَوْلَهُ فِي مَسْتَهْلِ رِسَالَتِهِ مَبْرَأً عَنِ الْفِكْرَةِ ذَاتِهَا ... وَاخْتَلَفُوا عَنْهُمْ بِالْكَلْبَةِ .

(٣) وردت (فتماساً) والصحيح (فتمساً) .

(٤) أخطأ أحد قراء اللسخة (ص) حينما فهِمَ (عَتِيق) هنا على معنى قديم والمقصود هنا - حسب السياق العام - أنها بمعنى حر ، فعنى العبارة : لَنْ مِنْ يَتَحَرَّرُ فِي اكْتِنَافِ فَضْلِ اللَّهِ لَيْسَ كَمَنْ يَشْرُدُ فِي مَتَاهَاتِ قَهْرِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ سيقول السفهاء من الناس ماولاهم
عن قبلتهم التي كانوا عليها ﴾ .

سقت بصائر الكفار فلم يُلح لهم وجه الصواب في جميع أحوال المؤمنين ، فطالعوها بعين
الاستبجاح ، وانطلقت ألسنتهم بالاعتراض^(١) في كل ما كان ويكون منهم ، فلم يروا شيئاً
جديداً إلا أتوا عليه باعتراض جديد .

فمن ذلك تغير أمر القبلة حينما حُوِّلَتْ إلى الكعبة قالوا إن كانت قبلتهم حقاً فما الذي
ولاهم^(٢) عنها ؟ فقال جل ذكره :

﴿ قُلْ لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾
يتعبد العباد إلى أى قطرٍ و (. . .) ونحو شاءوا ، وكذلك أصحاب الغيبة والحجبة —
عن شهود تصريف الحق لأوليائه — يطلبون وجوهاً من الأمر ، يحملون عليها أحوالهم ،
ولو طالعوا الجميع من عين واحدة لتخلصوا عن ألم توزع الفكر ، وشغل ترجم الخاطر ،
ومطالبات تقسم الظنون ، ولكن الله يهدي لنوره من شاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا
شهداء على الناس ويكون الرسول
عليكم شهيداً ﴾ .

الوسط الخيار ، فجعل هذه الأمة خيار الأمم ، وجعل هذه الطائفة^(٣) خيار هذه الأمة فهم
خيار الخيار . فكما أن هذه الأمة شهداء على الأمم في القيامة فهذه الطائفة هم الأصول ، وعليهم
المدار ، وهم القطب ، وبهم يحفظ الله جميع الأمة ، وكل من قبلته قلوبهم فهو المقبول ، ومن
ردته^(٤) قلوبهم فهو المردود . فالحكم الصادق لفراستهم ، والصحيح حكمهم ، والصائب نظرهم

(١) وردت (بالأمراض) وربما يقبلها المعنى ، ولكن النطق (بالاعتراض) أكثر ملاءمة ، خصوصاً
وقد جاءت (الاعتراض) بعد قليل .
(٢) وردت (وليهم) وهى خطأ في الكتابة .
(٣) يقصد أهل الحقائق .
(٤) فى النسخة (روية) ومصححة فى الهامش (ردته) وهى الصجبة .

عصم جميع الأمة (عن) ^(١) الاجتماع على الخطأ ، وعصم هذه الطائفة عن الخطأ في النظر والحكم ، والقبول والرد ، ثم إن بناء أمرهم مُسْتَنَدٌ إلى سُنَّةِ الرسول صلى الله عليه وسلم . وكل ما لا يكون فيه اقتداء بالرسول ^(٢) عليه السلام فهو عليه رد ^(٣) ، وصاحبه على لا شيء .

قوله جل ذكره : ﴿ وما جعلنا القبلة التي كنت عليها

إلا لنعلم من يتبع الرسول مِمَّنْ ينقلب على عقبيه ، وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ، وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ .

يُبين أن الحكم في تقرير أمر القبلة إلى وقت التحويل ، ونحويلها من وقت التبديل كان اختباراً لهم من الحق لتمييز الصادق من المارق ^(٤) ، وَمَنْ نَظَرَ إِلَى الْأَمْرِ بَيْنَ الْفَرْقَةِ لِكَبْرِ عَلَيْهِ أَمْرَ التَّحْوِيلِ ، وَمَنْ نَظَرَ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ ظَهَرَتْ لِبَصِيرَتِهِ وَجْهُ الصَّوَابِ . ثم قال : « وما كان الله ليضيع إيمانكم » أي من كان مع الله في جميع الأحوال على قلب واحد فالخلافات من الأحوال له واحدة ، فسواء غيّر أو قرّر ، وأثبت أو بدّل ، وحقق أو حوّل فَهَمُّ يَدِهِ لَهُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ، قَالَ قَائِلُهُمْ :

كيفما دارت الزجاجة دُرْنَا يحسب الجاهلون أننا جُنُنًا
فإن قابلوا شرقاً أو واجهوا غرباً ، وإن استقبلوا حجراً أو قاربوا مدرأ ، فقصود قلوبهم واحد ، وما كان للواحد فحكم الجميع فيه واحد .

قوله جل ذكره : ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء

فلنولينك قبلة ترضاها ، قَوْلٌ

وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما

كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ .

(١) وردت (على) والصحيح عصم (عن) وقد استعملت (عن) في الجملة التالية في المعنى نفسه .

(٢) أخطأ الناسخ فكتبها (بالوصل) .

(٣) جاءت (فهو عليهم رد) والصواب أن تكون (فهو عليه رد) .

(٤) وردت (المارن) وقد جعلناها (المارق) لئلا يمتلأ المعنى . ونرجح أنها كذلك في الأصل .

حَفِظْ — صلوات الله عليه — الآدابَ حيث سكت بلسانه عن سؤال ما تمتناه من أمر القبله بقلبه ، فَلَا حَظَّ السَّاءَ لأنها طريق جبريل عليه السلام ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ » أَيْ عَلِمْنَا سَوَّاءَ عَمَّا لَمْ تُفْصِحْ عَنْهُ بِلِسَانِ الدَّعَاءِ ، فَلَقَدْ غَيَّرْنَا الْقِبْلَةَ لِأَجْلِكَ ، وَهَذِهِ غَايَةُ مَا يَفْعَلُ الْحَبِيبُ لِأَجْلِ الْحَبِيبِ .

كُلُّ الْعَبِيدِ يَجْتَهِدُونَ فِي طَلَبِ رِضَائِي وَأَنَا أَطْلُبُ رِضَاكَ : فَلَنُؤَلِّقَ قِبْلَتَكَ رِضَاها .
« فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » : وَلَكِنْ لَا تُعَلِّقْ قَلْبَكَ بِالْأَحْجَارِ وَالْآثَارِ ، وَأَفْرِدْ قَلْبَكَ لِي ، وَلِتَكُنِ الْقِبْلَةُ مَقْصُودَ نَفْسِكَ ، وَالْحَقُّ مَشْهُودَ قَلْبِكَ ، وَحَيْثَا كُنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ، وَلَكِنْ أَخْلِصُوا قُلُوبَكُمْ لِي وَأَفْرِدُوا شَهُودَكُمْ بِي .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ .

وَلَكِنَّهُ عِلْمٌ لَا يَكُونُ عَلَيْهِمْ حِجَّةٌ ، وَلَا تَكُونُ لَهُمْ رَاحَةٌ أَوْ مِنْهُ زِيَادَةٌ ، « وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ » تَهْوِيلًا عَلَى الْأَعْدَاءِ ، وَتَأْمِيلًا عَلَى الْأَوْلِيَاءِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ . وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(١) .

سبق لكم من قديم الحكم (. . .) ^(٢) انفرادٌ بطريق الحق ، ووقوعُ أعدائكم في شق

(١) وقع الناسخ في الخطأ حين وضع مكان (إنك إذا لمن الظالمين) مالك من الله من ولي ولا نصير ، فأصلحناه .

(٢) هنا كلمة (القرب) ثم استبعدنا الناسخ لزيادتها .

البعد ، فينكح برزخ لا يبغيان ، فإم يتابعي قبلكم وإن أريتهم من الآثار ما هو أظهر من الشمس والأقمار ، ولا أنت — يتابع قبلكم وإن أتوا بكل احتيال ، حكماً من الله — سبحانه — بذلك في سابق الأزل .

قوله جل ذكره : ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكنتمون الحق وهم يعلمون﴾ .

حكمتهم مشتكنات الحسد على مكابرة ما علموه بالاضطرار ، فكذلك المغلوب في ظلمات نفسه ، ألقى^(١) جلباب الحياء فلم ينبج فيه ملام ، ولم يردعه عن انهماكه كلام .

قوله جل ذكره : ﴿الحق من ربك فلا تكونن من المتأخرين﴾ .

أى بعدما طلعت لك شمس اليقين فلا تدعن^(٢) إلى مجوزات التخمين^(٣) . والخطاب له والمراد به الأمة .

قوله جل ذكره : ﴿ولكل وجه هو موليها فاستبقوا الخيرات ، أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير﴾ .

الإشارة منه : أن كل قوم اشتغلوا عنا بشيء حال بينهم وبيننا ، فكونوا أنتم أيها المؤمنون لنا وبنا ، وأنشد بعضهم :

إذا الأشغال ألموتني عنك بشغلهم جعلتك أشغالي فأنسيتني شغلي

(١) وردت (تلقى) وهي خطأ من الناسخ .

(٢) وردت (فلا ترعن) . والصواب أن تكون (فلا تدعن) بالذال .

(٣) يفسر القشيري هنا بما بين علوم أرباب الأحوال وبين العلوم العقلية ، لأننا نعرف من مذهبه أنه مع احترامه للعقل في البداية إلا أنه محتمل للإصابة بالتجوز والتخمين وغيرها من الآفات التي لا تجعله جديراً — وحده — بالوصول إلى المعارف العليا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ .

كما تستقبلون أينما كنتم القبلة — قَرُبْتُمْ مِنْهَا أَمْ بَعُدْتُمْ — فكذلك أَقْبِلُوا عَلَيْنَا بقلوبكم كيفما كنتم ؛ حَظَّيْتُمْ مِنَّا أَوْ مُنِّيْتُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ .

إذا أردت ألا يكون لأحد عليك سبيلٌ ، ولا يقع لمخلوق عليك ظلٌ ، ولا تصل إليك بالسوء يدٌ ، فحيثما كنت وأينما كنت وكيفما كنت كُنْ لَنَا وَكُنْ مِنَّا ، فَإِنَّ مِنْ انْقِطَعِ إِلَيْنَا لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ حَدَثَانٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ﴾ .

إذا كانوا يحووا عن كونهم رسوماً تجري عليهم أحكامنا — فَأَنْتَ بِالْخَشْيَةِ مِنْهُمْ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تُنِمُّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

إتمام النعمة إضافة الكشف إلى اللطف ، فَإِنَّ مِنْ كَفَاهُ بِمَقْتَضَى جُودِهِ دُونَ مَنْ أَغْنَاهُ بِحَقِّ جُودِهِ ، وَفِي مَعْنَاهُ أَشْدُّوا :

نَحْنُ فِي أَكْمَلِ السَّرُورِ وَلَكِنْ لَيْسَ إِلَّا بِكُمْ يَتِمُّ السَّرُورُ
عَيْبُ مَا نَحْنُ فِيهِ — يَا أَهْلَ وَدْدِي — أَنْكُمْ غُيِّبُ وَنَحْنُ الْحُضُورُ

قوله جل ذكره : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو^(١)

عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ
تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ .

(١) أخطأ الناسخ حين كتبها (يتلون) .

إرسال الرسول مفاتيح لأبواب الوصول ، فكان في سابق علمه — سبحانه — أن قلوب أوليائه متعطشة إلى لقاءه . ولا سبيل لأحد إليه إلا بواسطة الرسل ، فأقوام ألزمهم — بإرسال الرسل إليهم السكف ، وآخرون أكرمهم — بإرسال الرسل إليهم — بفنون القرب والزلف ، وشتان بين قوم وقوم !

قوله جل ذكره : ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ .

الذكر استغراق الذاكر في شهود المذكور ، ثم استهلاكه في وجود المذكور ، حتى لا يبقى منك أثر يذكر ، فيقال قد كان مرة فلان .

« فاذكروني أذكركم » أي كونوا مستهلكين في وجودنا ، نذكركم بعد فنائكم عنكم ، قال الله تعالى : « إنهم كانوا قبل ذلك محسنين » كانوا وقتاً ولكنهم بانوا دائماً^(١) :

اناس حديث حسن فكن حديثاً حسناً لمن وعنى^(٢)

وطريقة أهل العبارة^(٣) (فاذكروني) بالموافقات (أذكركم) بالكرامات ، وطريقة أهل الإشارة (فاذكروني) بترك كل حظ (أذكركم) بأن أقيمكم بحقي بعد فنائكم عنكم .
(فاذكروني) مكتفين بي^(٤) عن عطائي وأفضالي (أذكركم) راضياً بكم دون أفعالكم .
(فاذكروني) بذكرى لكم ما تذكرون ، ولولا سابق ذكرى لما كان لايحق ذكركم .
(فاذكروني) بقطع العلائق (أذكركم) بنعوت الحقائق .

ويقال اذكروني لكل من لقيته أذكرك لمن خاطبته ، فمن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ

خير منهم .

(١) يقول يحيى بن معاذ : العارف كائن بائن . ومرة قال : للعارف كان بيان (الرسالة ص ١٥٧) .

(٢) البيت منقول كما جاء في ص ، لم نحاول أن نبدل في كتابته وهو مضطرب وزناً ومعنى .

(٣) وردت (العبادة) والأصوب أن يكون احتمال ورودها في الأصل (العبارة) لتعبير عن درجة أدنى من درجة أهل (الإشارة) .

(٤) وردت (مكتفياً لي) والأقرب إلى المعنى أن نجعلها في صورة الجمع وأن يكون حرف الباء أولى من اللام حيث يقال اكتفيت بالله عن عطاء الله .

ويقال (واشكروني) على عظيم المنّة عليكم بأن قلْتُ : (فاذكروني أذكركم) .
ويقال الشكر من قبيل الذكر ، وقوله (ولا تكفرون) النهي عن الكفران أمرٌ بالشكر ،
الشكر ذكر ، فكرر عليك الأمر بالذكر ، والثلاث أول حدّ الكثرة ، والأمر بالذكر
الكثير أمرٌ بالمحبة لأنّ في الخبر : « من أحب شيئاً أكثر ذكره » فهذا — في الحقيقة —
أمرٌ بالمحبة أي أحببني أحبك ؛ « فاذكروني أذكركم » أي أحبوني أحببكم .

ويقال : (فاذكروني) بالتذلل (أذكركم) بالتفضل .

(فاذكروني) بالانكسار (أذكركم) بالمبار .

(فاذكروني) باللسان (أذكركم) بالجنان .

(فاذكروني) بقلوبكم (أذكركم) بتحقيق مطلوبكم .

(فاذكروني) على الباب من حيث الخدمة (أذكركم) بالإيجاب على بساط القرية
بإكمال النعمة .

(فاذكروني) بتصفية السرّ (أذكركم) بتوفية البرّ .

(فاذكروني) بالجهد والعناء (أذكركم) بالجود والعطاء .

(فاذكروني) بوصف السلامة (أذكركم) بيوم القيامة يوم لا تنفع الندامة .

(فاذكروني) بالرهبة (أذكركم) بتحقيق الرغبة .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ

وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

استعينوا بالصبر على الصلاة أي بصبركم — عند جريان أحكام الحق عليكم —
استحقاقكم صلاة ربكم عليكم ، ولذا فإنه تعالى بعد « وبشّر الصابرين » يقول : « أولئك
عليهم صلوات من ربهم » .

ويقال استوجب الصابرون نهاية الذخر ، وعلو القدر حيث نالوا معيّة الله قال تعالى :
« إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحياءٌ ، وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ .
فاتهم الحياة في الدنيا ولكن وصلوا إلى الحياة الأبدية في العقبى ، فهم في الحقيقة أحياء ،
يمجدون من الله فنون الكرامات .
ويقال هم أحياء لأن الخلف عنهم الله ومن كان الخلف عنه الله لا يكون ميتاً ، قال قائلهم
في مخلوق :

إن يكن عنا مضي بسيله فما مات من يبقى له مثل خاله
ويقال هم أحياء بذكر الله لهم ، والذي هو مذكور الحق بالجميل بذكره السرمدى
ليس بميت .

ويقال إن أشباحهم وإن كانت متفرقة ، فإن أرواحهم - بالحق سبحانه - متحققة .
ولئن فنيت بالله أشباحهم فلقد بقيت بالله أرواحهم لأن من كان فناؤه بالله كان بقاؤه بالله .
ويقال هم أحياء بشواهد التعظيم ، عليهم رداء الهيبة وهم في ظلال الأنس ، يسطهم
بجالة مرة ، ويستغرقهم جلاله أخرى^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ
وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ
وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا
أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ
رَاجِعُونَ ﴾ .

ابتلاءم بالنعمة ليظهر شكرهم ، وابتلاءم بالمحنة ليظهر صبرهم ، فلما أدخل المعلوم من
حالم في الوجود ، ودرسمهم بالرقم الذي قسّمه ، وأثبتهم على الوصف الذي علمه ، (ابتلاءم)

(١) شبيه بذلك ما يقوله القشيري في كتابه « التعبير في التذكير » حينما شرح « المحيى الميت »
و « الجليل الجليل » : « من كاشفه بجلاله أفناء ، ومن كاشفه بجباله أحياء ، فكشف الجلال يوجب محواً
وغيبة ، وكشف الجلال يوجب مسحاً وقربة » .

بالخوف وفيه تصفية لصدورهم ، وبالجوع وفيه تنقية لأبدانهم ، وبنقص من الأموال تزكو به نفوسهم ، وبمصائب النفوس يعظم بها عند الله أجرهم ، وبآفة الثمرات يتضاعف من الله خلفهم .

« وبشّر الصابرين » يعنى الذين لا اعتراض لهم على تقديره فيما أمضاه .

ويقال طالبهم بالخوف (ابتعاداً) عن عقوبته ثم بمقاساة الجوع ابتغاء قربته وكرامته ، ونقص من الأموال بتصدق الأموال والخروج عنها طلباً للخير منه بمحصول معرفته .

« والأنفس » تسلياً لها إلى عبادته . « والثمرات » القول بترك ما يملونه من الزوائد في نعمته « وبشّر الصابرين » على استحسان قضيته ، والالتقياد لجريان قدرته .

ومطالبات الغيب إما أن تكون بالمال أو بالنفس أو بالأقارب ؛ فمن أوقف المال لله فله النجاة^(١) ، ومن بذل لحكه النفس فله الدرجات ، ومن صبر عند مصائب الأقارب فله الخلف والقرابات ، ومن لم يدخر عنه الروح فله دوام المواصلات .

قوله جل ذكره : ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة ﴾ ... الآية .

قابلوا الأمر بالصبر لا بل بالشكر لا بل بالفرح والفخر .

ومن طالع الأشياء ملكاً للحق رأى نفسه أجنبياً بينه وبين حكمة ؛ فمُنشئ الخلق أولى بالخلق من الخلق .

ويقال من شهد المصائب شهد نفسه لله وإلى الله ، ومن شاهد المبلى عليم أن ما يكون من الله فهو عبد الله ، وشتان بين من كان لله وبين من كان بالله ؛ الذى كان لله فصابراً واقفاً ، والذى هو بالله فساقط الاختيار والحكم ، إن أثبتته ثبتت ، وإن محاه انمحي ، وإن حرّكه تحرك ، وإن سكّنه سكّن ، فهو عن اختياراته قائم ، وفي القبضه مُصرف .

قوله جل ذكره : ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة

وأولئك هم المهتدون ﴾ .

(١) ربما كانت في الأمل (الجنات) .

بصلواته^(١) عليهم ابتداء وصلوا إلى صبرهم ووقوفهم عند مطالبات التقدير ، لا بصبرهم ووقوفهم وصلوا إلى صلواته ، فلولا رحمته الأزلية لما حصلت طاعتهم بشرط العبودية ، فعنايته السابقة أوجبت لهم هداية خالصة^(٢) .

قال تعالى : « وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ » لما رحمهم في البداية اهتدوا في النهاية .

قوله جل ذكره : ﴿إِنْ الصِّفَا وَالْمَرُوءَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ .

تلك المشاهد والرسوم ، وتلك الأطلال والرقوم ، تُعْظَمُ^(٣) وتُزَارُ ، وتُشَدُّ إليها الرحال^(٤) لأنها أطلال الأحباب ، وهناك تلوح الآثار :

أهوى الديار لمن قد كان ساكنها وليس في الدارهم ولا طرب^(٥)

وإن لُتْرَابِ طريقهم بل لنبار آثارهم — عند حاجة الأحباب — أقداراً عظيمة ، وكل غبرة تقع على (حافظات طريقهم)^(٦) لأعزُّ من المسك الأذفر :

وما ذاك إلا أن مشيت عليه أُميمةٌ في تربها وجرت به يردا

قوله جل ذكره : ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ

عليه أن يطوفَ بهما ومن تطوع

خيراً فإنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ .

حَطَى الصفا والمروة بجوار البيت فَشَرَعَ السعى بينهما كما شرع للبيت الطواف ، فكما أن الطواف ركن في النسك فالسعى أيضاً ركن ، والجار يُكْرَمُ لأجل الجار .

(١) وردت (بصلواتهم) وهي خطأ من النسخ لأن السياق يؤدي إلى (صلاته) سبحانه عليهم في سابق الأزل ، كذلك تشير الآية الكريمة إلى صلاته لا إلى صلواتهم .

(٢) لاحظ هنا معارضة القشيري لفكرة وجوب إثابة المطيع على الله . فأنه في رأى القشيري تنزهه عن أن يجب عليه شيء ، لأن طاعة المطيع أولاً فضل من الله ، وليست بفضل العبد .

(٣) وردت (تعظيم) وهي خطأ في النسخ .

(٤) وردت (الرجال) وهي خطأ في النسخ .

(٥) إما أن تكون (هم) صميحة ، أي لا حزن ولا فرح ، وإما أنها في الأصل (همس) لتناسب

الطرب ، وليناسبها مع خلو الدار من أقل أثر للحياة .

(٦) هكذا وردت في (ص) .

قوله جل ذكره : ﴿ إِن الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ
الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِهَا يَنَاءَ
لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ
. وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ .

الإشارة في هذه الآية لمن كاشفه الحق سبحانه بعلم من آداب السلوك ثم ضمن^(١) بإظهاره
للمريدين على وجه النصيحة والإرشاد استوجب للقت في الوقت ، ويخشى عليه نزع البركة
عن علمه متى قصر فيه لما أخر من تعليم للمستحق .

قوله جل ذكره : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا
فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ ﴾ .

تداركوا ما سلف من تقصيرهم بحسن الرجعى ، والقيام للمريدين على وجه النصيحة ،
وبيَّنوا لهم — بجميل البيان وإقامة البرهان على ما يقولون — حسن قيامهم بمعاملاتهم .
فإن أظهر الحجج لبيان أفعالك وأصدق الشهادة لتصحيح ما تدعوه به الخلق إلى الله —
ألا يُخَالِفَ بِمَعَامِلَتِكَ مَا تُشِيرُ إِلَيْهِ بِمَقَالَتِكَ ، قال الله تعالى : « وما أريد أن أخالفكم
إلى ما أنهاكم عنه » .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ
أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ
وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ . خَالِدِينَ فِيهَا
لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ .

الإشارة فيه أن الذين بدا لهم بعدما سلكوا طريق الإزادة (أن) يرجعوا إلى أحوال
العادة ، ثم في تلك الوحشة قبضوا ، وعلى تلك الحالة من الدنيا خرجوا ، أولئك أصحاب الفرقة ،

(١) وردت (ضمن) وهي خطأ من الناسخ وقد استندنا في الوصول إلى أنها (ضمن) من كلمة (بخل)
التي سجلها الناسخ تحته . والسياق يؤيدها .

فلا على أرواحهم إقبال ولا لمصيبتهم جبران ، ولا لأحد عليهم ترحم ، خسروا في الدنيا والآخرة ، يلعنهم البق في الهواء والنقع على الماء .

« خالدين » أى مقيمين أبداً في هوانهم وصغرهم ، لا تخفيف ولا إسعاف ، ولا رفق ولا ألطاف .

قوله جل ذكره : ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ .

شرفهم غاية التشريف بقوله وإلهكم . وإن شيوخ هذه الطائفة قالوا : علامة من يعبد من خاص الخواص أن يقول له : عبدى ، وذلك أنهم من هذا بكثير لأن قوله : « وإلهكم » : وإضافة نعمته أنهم من إضافته إياك إلى نفسه لأن إلهيته لك بلا علة ، وكونك له عبد يعرض كل نقصك وأفتك . ومتى قال لكم « وإلهكم » ؟

حين كانت طاعتك وحركاتك وسكناتك أو ذاتك وصفاتك لا بل قبل ذلك أزل الأزل حين لا حين ولا أوآن ، ولا رسم ولا حدثان .

و « الواحد » من لا مثل له يدانيه ، ولا شكل يلاقيه . لا قسم يجانسه ولا ديم يؤانسه . لا شريك يعاضده ولا معين يساعده ولا منازع يعانده .

أحدى الحق صمدى العين ديموشى البقاء أبدى العز أزل الذات .

واحد في عز سنائه فرد في جلال بهائه ، وتر في جبروت كبريائه ، قديم في سلطان عزه ، مجيد في جمال ملكوته . وكل من أطنب في وصفه أصبح منسوباً إلى المعنى^(١) (ذ) لولا أنه الرحمن الرحيم لتلاشى العبد إذا تعرض لعرفانه عند أول ساطع من باديات عزه .

قوله جل ذكره : ﴿ إن في خلق السموات والأرض

واختلاف الليل والنهار والفلك

التي تجري في البحر بما ينفع الناس ،

وما أنزل الله من السماء من ماء

(١) وردت (الأسمى) في م ويمكن قبولها على أنها اسم جلس .

فأحيا به الأرض بعد موتها
وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ
الرياح ، والسحابِ المُسَخَّرِ بين
السماء والأرضِ لآياتٍ لقومٍ يَعْقِلُونَ ﴿١﴾ .

تعرّف إلى قلوب الطالبين من أصحاب الاستدلال وأرباب العقول بدلالات قدرته ، وأمارات
وجوده ، وسمات ربوبيته التي هي أقسام أفعاله . ونبههم على وجود الحكمة ودلالات الوجدانية
بما أثبت فيها من براهين تُلطِّفُ عن العبارة ، ووجود من الدلالات تدقُّ عن الإشارة ،
فما من عينٍ من العدم محصورة — من شخصٍ أو طللٍ ، أو رسمٍ أو أثرٍ ، أو سماءٍ أو فضاء (١) ،
أو هواءٍ أو ماءٍ ، أو شمسٍ أو قر ، أو قطرٍ أو مطر ، أو رملٍ أو حجرٍ ، أو نجمٍ أو شجرٍ —
إلا وهو على الوجدانية دليل ، ولِمَنْ يقصد وجوده سبيل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ
أنداداً يحبونهم كَحُبِّ اللَّهِ ﴾

هؤلاء قوم لم يجعلهم الحق سبحانه أهل المحبة ، فشغلهم بمحبة الأغيار حتى رضوا لأنفسهم
أن يحبوا كل ما هو كونه أنفسهم ، فرضوا بمعمولٍ لهم أن يعبدوه ، ومنحوت — من دونه —
أن يحبوه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى
الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ
لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ .

ليس المقصود من هذا ذكر محبة الأغيار للأصنام ، ولكن المراد منه مدح المؤمنين على
محبتهم ، ولا تحتاج إلى كثير محبة حتى تزيد على محبة الكفار للأصنام ، ولكن من أحب
حيباً استكثر ذكره ، بل استحسن كل شيء منه .

ويقال وجه رجحان محبة المؤمنين لله على محبة الكفار لأصنامهم أن (هذه) محبة الجنس

(١) وردت (قضاء) في ص .

للجنس ، وقد يميل الجنس إلى الجنس ، وتلك محبة من ليس بجنس لهم فذلك أعز وأحق .
ويقال إنهم أحبوا ما شاهدوه ، وليس بمعجيب محبة ما هو لك مشهود ، وأما المؤمنون
فإنهم أحبوا من حال بينهم وبين (شهوده) رداء الكبرياء على وجهه .
ويقال الذين آمنوا أشد حبا لله لأنهم لا يتبرأون من الله سبحانه وإن عذَّبهم . والكافر
تبرأ من الصنم والصنم من الكافر كما قال تعالى : «إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ
اتَّبَعُوا . . . الآية» .

ويقال محبة المؤمنين حاصلة من محبة الله لهم فهي أتم ، قال تعالى : «يحبهم ويحبونه» .
ومحبتهم للأصنام من قضايا هوام .

ويقال محبة المؤمنين أتم وأشد لأنها على موافقة الأمر ، ومحبة الكفار على موافقة الهوى
والطبع ، ويقال إنهم كانوا إذا صلحت أحوالهم ، واتسعت ذات يدهم اتخذوا أصناماً أحسن
من التي كانوا يعبدونها قبل ذلك في حال فقرهم ، فكانوا يتخذون من الفضة — عند غنائم —
أصناماً ويهجرون ما كان من الحديد . . . وعلى هذا القياس ! وأما المؤمنون فأشد حبا لله
لأنهم عبدوا إلهاً واحداً في السراء والضراء .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ
الَّذِينَ اتَّبَعُوا ورأوا العذاب وتقطعت
بهم الأسباب ﴾ .

إذا بدت لهم أوائل العذاب اتضح أنهم لم يقفوا من الصدق على قدم ، وأما المؤمنون
فيسلبهم أرواحهم وأملاكهم وأزواجهم وأولادهم ، ويسكن (أولئك)^(١) في القبور سنين
ثم ينزلهم في القيامة بطول الآجال^(٢) وسوء الأعمال ثم يلقيهم في النار .

(١) أضفنا (أولئك) ليمتنع اللبس .

(٢) في ص (طول الأحوال) ونرجح أنها في الأصل (الآجال) لأن وصف الأحوال بالطول غير ملائم
فضلا عن أننا نفترض أن القشيري لا يستعمل الأحوال إلا لأرباب الأحوال . وطول الآجال في جهنم منناه
تأيد العذاب .

(أما المؤمنون) ^(١) فيأتي عليهم طول الأيام والأعمال فلا يزدادون إلا محبة (على محبة) ^(٢) ولذلك قال : والذين آمنوا أشد حبا لله .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبراؤا منّا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾ .

عند ^(٣) ذلك يعرفون مرارة طعم صحبة المخلوقين ولكن لا يحصلون إلا على حسرات .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الناس كُفُوا عما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ .

الحرام — وإن استلذ في الحال — فهو وبيء في المآل ، والحلال — وإن اشتكره في الحال — فهو مريء في المآل .

والحلال الصافي ما لم ينس مُكْتَسِبُهُ الحق في حال اكتسابه ^(٤) .

ويقال الحلال ما حصله الجامع له والمبكتسب على شهود الحق في كل حال .

وكل ما يحملك على نسيان الحق أو عصيان الحق فهو من خطوات الشيطان .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ .

لا جترأئه على الله يدعوك به إلى افتراءك على الله .

(١) أضفناها ليستقيم السياق إذ يبدو أنها سقطت أثناء النسخ .

(٢) في الهامش مستدركة وعليها علامة بموضعها .

(٣) وردت (من) والأصح (عند) .

(٤) التثنية هنا مستفيدة من تعريف سهل من عبد الله التستري للحلال الصافي (الرسالة ص ٥٩) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا

بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُ مَا كَانَ

آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾

لا ترفع أبصارهم عن أشكالم وأصنافهم ، من أضرابهم وأسلافهم ، فَبَنَوْا عَلَىٰ مَنَاجِمِهِمْ ،

فَلَا جُرْمَ أَنخَرَطُوا فِي النَّارِ ، وانسلخوا في سلكهم ، ولو عَلِمُوا أَنَّ أسلافهم لا عقل يردعهم ،

ولا رشد يجمعهم لنايذوم مناصيين ، وعاندوم مخالفين ، ولكن سلبوا أنوار البصيرة ،

وَحَرِّمُوا دَلَائِلَ الْيَقِينِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي

يُنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءًا وَنِدَاءً صُمُّ

بِكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

عدموا سمع الفهم والقبول ، فلم ينفعهم سمع الظاهر ، فنزلوا منزلة البهائم في الخلوِّ

عن التحصيل ، وَمَنْ رَضِيَ أَنْ يَكُونَ كَالْبَهِيمَةِ لَمْ يَقَعْ عَلَيْهِ كَثِيرٌ قِيَمَةٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ

مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ

إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ .

الحلال ما لا تَبِعَةَ عَلَيْهِ ، والطيب الذي ليس لمخلوقٍ فِيهِ مِثَّةٌ ، وإذا وجد العبد

(طعاما) يجتمع فِيهِ الوصفان فهو الحلال الطيب .

وحقيقة الشكر عليه ألا تتنفس في غير رضاء الحق ما دام تبقى فيك القوة لذلك الطعام .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ

الْخَنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ،

فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ

عَلَيْهِ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

حرّم على الظواهر هذه المعدادات وهى ما أهل به لغير الله ، وحرّم على السرائر صمجة .
غير الله بل شهود غير الله ، فمن اضطر — أى لم يجد إلى الاستهلاك فى حقائق الحق
وصولاً — فلا يَسْلُكَنَّ غير سبيل الشرع سبيلاً ، فإما أن يكون محوّاً فى الله ، أو يكون
قائماً بالله ، أو عاملاً لله ، والرابع همج لا خطر له .

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ
وَلَا يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

العلماء مُطَالِبُونَ بنشر دلائل العلم ، والأولياء مأمورون بحفظ ودائع السر فإن كتم
هؤلاء براهين العلوم أجموا بلجام من النار ، وإن أظهر هؤلاء شظية من السر عوجوا ببعاد
الأسرار ، وسكّب ما أوتوا^(١) من الأنوار . ولكلٍ حدٌّ ، وعلى كل أمرٍ قطيعة .

قوله جل ذكره : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى
وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ .
ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ
وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ
لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ .

إن الذين آثروا الغيّر على الغيب ، والخلق على الحق ، والنفس على الأنس ، ما أقسى
قلوبهم ، وما أوقع محبوبيهم ومطلوبهم ، وما أخس^(٢) قدرهم ، وما أفصح^(٣) لذوى الأبصار
أمرهم ، ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ، وأمضى القضاء والحكم فيه بالصدق ، وأوصلهم
إلى مآله أهلهم ، وأثبتهم على الوجه الذى عليه جبلتهم .

(١) وردت (أوتوا) والصواب (أوتوا) لتناسب المعنى .

(٢) وردت (أخص) والصواب أخس لتناسب المعنى .

(٣) وردت ما (أفصح) ورجح أنها فى الأصل ما (أفصح) .

قوله جل ذكره : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل
المشرق والمغرب ولكن البر من
آمن بالله واليوم الآخر والملائكة
والكتاب والنبين وآتى للمال
على حبه ذوى القربى واليتامى
والمساكين وابن السبيل والسائلين
وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى
الزكاة ^(١) وللفوفون بمعهدهم إذا عاهدوا
والصابرين فى البأساء والضراء وحين
البأس ، أولئك الذين صدقوا
وأولئك هم المتقون ﴾ .

والإشارة أن الظواهر ليس لها كثير اعتبار إنما الخبر عن الله عزيز .

وكثرة الأوراد — وإن جلّت — فخرقة المعجزات ، وإخلاص الطاعات — وإن عزّت — فصفة
العوام ، ووصل الليل بالنهار فى وظائف كثيرة ومجاهدات غزيرة عظيم الخطر فى استحقاق
الثواب ، ولكن معرفة الحق عزيزة .

وما ذكر فى هذه الآية من فنون الإحسان ، ووجوه قضايا الإيمان ، وإيتاء المال ،
وتصفية الأعمال ، وصلة الرحم ، والتمسك بفنون الذم والعصم ، والوفاء بالعهود ، ومراعاة
الحدود — عظيم الأثر ، كثير الخطر ، محبوب الحق شرعاً ، ومطلوبه أمراً لكن قيام الحق
عنك بعد فنائك ، وامتحائك من شأهيك ، واستهلاكك فى وجود القدام ، وتعطل رسومك
عن مساكنات إحساسك — أتم وأعلى فى المعنى ؛ لأن التوحيد لا يبقى رسماً ولا أنراً ،
ولا ينادر غيراً ولا غيراً ^(٢)

(١) اخطأ الناسخ فكتبا (وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة) .

(٢) الغير = السوى أما (الغير) فعروف .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْثُ بِالْحَرْثِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ، ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بِكُمْ ذَلِكَ فَهُوَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

حق القصاص مشروع ، والعفو خير ، فمن جنح إلى استيفاء حقه فمُسَلَّمٌ له ، ومن نزل عن ابتغاء حقه فمُحْسَنٌ ، فالأول صاحب عبادة بل عبودية ، والثاني صاحب فتوة بل حرية والدم المراق يجري فيه القصاص على لسان أهل العلم ، وأما على لسان الإشارة لأهل القصة^(١) فدماؤهم مطلولة وأرواحهم هدرية قال :

وإن فؤداً رعته لكَّ حامدٌ وإن دماً أجريته بكَّ فإِخْرُ

وسفك دماء الأحياب (فوق)^(٢) بساط^(٣) القرب خلوف أهل الوصال ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اللون لونُ الدم والريح ريح المسك »

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

في استيفاء القصاص حياة لأنه إذا عَلِمَ أنه إذا قُتِلَ قُتِلَ أَمْسَكَ عن القتل وفي ذلك حياة القاتل والمقتول .

ولكن ترك القصاص — على بيان الإشارة — فيه أعظم الحياة لأنه إذا تَلَفَ فيه (سبحانه)

(١) أهل القصة هم أرباب الأحوال .

(٢) وردت (في) والأصوب فوق .

(٣) وردت (سباط) وقد رجحنا (بساط) القرب لورودها في مواضع أخرى هكذا .

فهو الخلفُ عنه ، وحياته عنه أتم له من بقائه بنفسه ، وإذا كان الوارث عنهم الله والخلفُ عنهم الله فبقاء الخلفِ (١) أعزُّ من حياة مَنْ ورد عليه التلف .

قوله جل ذكره : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ .

مَنْ تَرَكَ مَالًا فَالْوَصِيَّةُ لَهُ فِي مَالِهِ مُسْتَحَبَّةٌ ، وَمَنْ لَمْ يَتَرَكَ شَيْئًا فَأَتَى بِالْوَصِيَّةِ ! ! فِي حَالَةِ الْأَغْنِيَاءِ يَوْصُونَ فِي آخِرِ أَعْمَارِهِمْ بِالثَلَاثِ ، أُمَّا الْأَوْلِيَاءُ فَيُخْرِجُونَ فِي حَيَاتِهِمْ عَنِ الْكُلِّ ، فَلَا تَبْقَى مِنْهُمْ إِلَّا هِمَّةٌ أَنْفَصَلَتْ عَنْهُمْ وَلَمْ تَتَّصِلْ بِشَيْءٍ ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ لَا سَبِيلَ لِلْهِمَّةِ إِلَيْهِ ، وَالْهِمَّةُ لَا تَعْلُقُ لَهَا بِمَخْلُوقٍ ، فَبَقِيَتْ وَحِيدَةً مَنْفَصَلَةً غَيْرَ مَنْصَلَةٍ ، وَأَنْشَدُوا :

أَحْبَبُّكُمْ مَا دُمْتُ حَيًّا فَإِنْ أُمْتُ يَجِبُكُمْ عَظْمِي فِي التَّرَابِ رَمِيمٌ .

هذه وصيتهم : وقال بعضهم :

(.) (٢)

لا بل كما قال قائلهم :

وَأَتَى الرَّسُولَ فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ رَحَطُوا قَرِيبًا

رَجَعُوا إِلَى أَوْطَانِهِمْ فَجَرَى لَهُ دَمْعٌ صَبِيبًا

قوله جل ذكره : ﴿ قَمِنَ بَدَأَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ

عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

مَنْ حَرَفَ نُطْقًا جَرَى بِحَقِّهِ لِحَقِّهِ شَوْمٌ ذَلِكَ وَوَبَالَهُ .

وعقوبته أَنْ يُحَرَّمَ رَأْسُ الصَّدَقِ أَنْ يَشْمَهُ . فَمَنْ أَعَانَ الدِّينَ أَعَانَهُ اللَّهُ ، وَمَنْ أَعَانَ عَلَى

الدِّينِ خَذَلَهُ اللَّهُ .

(١) وردت (الخلق) والصواب (الخلف) .

(٢) هنا شاهد شمرى عجزنا تماماً عن قراءته أو إصلاحه ... وما أكثر خطأ الناسخ في نقل شواهد

الشمر ! !

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا
فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

الإشارة فيه : أن من تفرّس^(١) في بعض المريدين ضعفاً ، أو رأى في بعض^(٢) أهل البداية
رخاوة قصدير أو وجد بعض الناصحين يتكلم بالصدق المحض على من لم يحتمله — فرأى أن يرفق
بذلك المريد بما يكون ترخيصاً له أو استمالة له أو مداراة أو رضا بتعاطي مباح — فلا بأس به
فإن حَمَلَ الناس على الصدق المحض مما لم يثبت له كثيرٌ أجر . فالرفق بأهل البداية —
إذا لم يكن لهم صارم عزم ، ولا صادق جهد — ركنٌ في ابتغاء الصلاح عظيم .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ
الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

الصوم على ضربين : صوم ظاهر وهو الإمساك عن المفطرات مصحوباً بالنية ، وصوم
باطن وهو صَوْنُ القلب عن الآفات ، ثم صون الروح عن المساكنات ، ثم صون السرِّ
عن الملاحظات .

ويقال صوم العابدين شرطه — حتى يَكْمُلَ — صَوْنُ اللسان عن الغيبة ، وصون الطرفِ عن
النظر بالريبة كما في الخبر : (مَنْ صَامَ فَلْيَصُمْ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ . . .) . . . الخبر^(٣) ، وأما صوم
العارفين فهو حفظ السر عن شهود كل غيره .

وإن من أمسك عن المفطرات فنهاية صومه إذا هجم الليل ، ومن أمسك عن الأغيار فنهاية
صومه أن يشهد الحق ، قال صلى الله عليه وسلم : « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته » : الهاء في قوله

(١) وردت بالصاد وهي خطأ من الناسخ .

(٢) وردت (في أهل بعض البداية) وواضح أنها خطأ من الناسخ .

(٣) (إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك ويدك : معناه من لم يدع قول الزور والعمل به فليس
لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه) .

رواه البخاري وأصحاب السنن عن أبي هريرة .

عليه السلام — لرؤيته — عادة عند أهل التحقيق إلى الحق سبحانه ، فالعلماء يقولون معناه
عندهم صوموا إذا رأيتم هلال رمضان وأفطروا لرؤية هلال شوال ، وأما الخواص فصومهم لله
لأن شهودهم الله وفطرم بالله وإقبالهم على الله والغالب عليهم الله ، والذي^(١) هم به
محو — الله .

قوله جل ذكره : ﴿ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ
مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ
أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ .

من شهد الشهر صام لله ، ومن شهد خالق الشهر صام بالله ، فالصوم لله يوجب المثوبة ،
والصوم بالله يوجب القربة . الصوم لله تحقيق العبادة والصوم بالله تصحيح الإرادة . الصوم لله
صفة كل عابد والصوم بالله نعت كل قاصد . الصوم لله قيام بالظواهر والصوم بالله
قيام بالضمائر . الصوم لله إمساك من حيث عبادات الشريعة والصوم بالله إمساك
بإشارات الحقيقة .

من شهد الشهر أمسك عن المفطرات ومن شهد الحق أمسك في جميع أوقاته عن
شهود المخلوقات .

من صام بنفسه سُقِيَ شراب السلسيل والزنجبيل ، ومن صام بقلبه سُقِيَ شراب المحاب
بنعمة الإيجاب .

ومن صام بِسِرِّهِ فهم الذين قال فيهم الله تعالى : « وَسَقَامُ رَبِّهِمْ شَرَابًا طَهُورًا » .
شراب ياله من شراب !! شراب لا يُدَار على الكف لكنه يبدو له من اللطف .
شراب استثناس لا شراب كاس .

قوله تعالى : « فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ » أى من أفطر لهذه
الأعذار فعليه صوم عدة أيام بعدد ما أفطر قضاء لذلك . الإشارة لمن سقمت إرادته عن الصحة
فيرجع إلى غيره إما لرخصة تأويل أو لقلّة قوة واحتمال ، أو عجز للقيام بأعباء أحكام الحقيقة

(١) وردت (والذين) وهو خطأ من الناسخ .

فليُسهّل حقّ تقوى عزيمته وتشدّد إرادته ، فعند ذلك يُستدرك منه ما رُخص له بالأخذ بالتأويل ، وتلك منّة الله سبحانه وتعالى في التسهيل على أهل البداية ، ثم استيفاء ذلك منهم واجبٌ في آخر الحال .

قوله جل ذكره : ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية ^(١) ﴾

..... طعام

مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له
وأن تصوموا خير لكم إن كنتم
تعلمون .

الإشارة منه أنّ مَنْ فيه بقية من القوة للوقوف لمطالبات الحقيقة ويرجع إلى تسهيل الشريعة وينحط إلى رخصة التأويل فعليه الغرامة بواجب الحال وهو الخروج عما بقى له من معلوم مال أو مرسوم حال ويبقى مجرداً للواحد .

[فصل] ويقال إنه لما علم أن التكليف يقتضى المشقة خففه عليك ذلك بأن قلّل أيام الصوم في قلبك فقال : « أياماً معدودات » أى مدة هذا الصوم أيام قليلة فلا يهولنكم سماع ذكره ، وهذا كقوله تعالى : وجاهدوا في الله حق جهاده . ثم قال : « وما جعل عليكم في الدين من حرج أى لا يلحقكم كثير مشقة في القيام بحق جهاده .

قوله جل ذكره : ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن

هدى للناس وبينات من الهدى

والفرقان فمن شهد منكم الشهر

فليصمه ، ومن كان مريضاً أو على

سفر فعدة من أيام أخر .

رمضان يُرمضُ ذنوب قوم ويرمض رسوم قوم ، وشتان بين من تحرق ذنوبه رحمة وبين من تحرق رسومه حقيقته .

(١) وقع النسخ في سهو حين أعاد ثلاثة أسطر مما سبق له أن كتبه ، ووقعت هذه الأسطر المعادة بين كلمتي (فدية ، وطعام) في الآية السكرية .

شهر رمضان شهر مفاتيح الخطاب ، شهر إنزال الكتاب ، شهر حصول الثواب ، شهر التقريب والإيجاب . شهر تخفيف الكلفة ، شهر تحقيق الزلفة . شهر نزول الرحمة ، شهر وفور النعمة . شهر النجاة ، شهر المناجاة .

قوله جل ذكره : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ .

أراد بك اليسر (وأنت تظن) أنه أراد بك العسر .
ومن أمارات أنه أراد بعبدية اليسر أنه (أقامه)^(١) بطلب اليسر ؛ ولو لم يُردَّ به اليسر لما جعله راغباً في اليسر ، قال قائلهم :
لو لم تُردَّ نيل ما أرجو وأطلبه من فيض جودك ما علمتني الطلب
حقق الرجاء وأكد الطمع وأوجب التحقيق حيث قال : « ولا يريد بكم العسر » لينفي عن حقيقة التخصيص مجوزات الظنون .

قوله جل ذكره : ﴿ ولتكلوا العدة ﴾ .

على لسان العلم تكلوا مدة الصوم .
وعلى لسان الإشارة لتقرنوا بصفاء الحال (وفاء)^(٢) (المال)^(٣)
ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون « في النفس الأخير ، وتخرجوا من مدة عمركم بسلامة إيمانكم . والتوفيق في أن تكمل صوم شهرك عظيم لكن تحقيق أنه يختم عمرك بالسعادة — أعظم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ﴾

(١) جاءت (أقام) وقد جعلناها (أقامه) ليزداد وضوح المعنى .
(٢) جاءت (وفاء) ونظن أن الواو الأولى زائدة من الناسخ .
(٣) جاءت (المال) وقد اعتاد الناسخ أن يكتب المال مثل المال أي بدون علامة على المد ، وآثرنا هنا أن نضعها ، فالمقصود الإعداد لليوم الآخر بالطاعات والمبادات ، وغاية التمام أن نجتمع بين الحقيقة والشرعية . هذا فضلاً عن أن الإشارة للصوفية ، والصوفية قوم لا مال لهم .

سؤال كل أحد يدل على حاله ؛ لم يسألوا عن حكم ولا عن مخلوق ولا عن دين^(١) ولا عن دنيا ولا عن عقي بل سألوا عنه فقال تعالى : « وإذا سألك عبادي عني » . وليس هؤلاء من جملة من قال : « ويسألونك عن الجبال » ، ولا من جملة من قال : « ويسألونك عن الينابيع » ، ولا من جملة من قال : « ويسألونك عن المحيض » ، ولا من جملة من قال : « ويسألونك عن الروح » ، ولا من جملة من قال : « ويسألونك عن الخمر والميسر » ، « ويسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه » .

هؤلاء قوم مخصوصون : « وإذا سألك^(٢) عبادي عني » .

أى إذا سألك عبادي عني فبماذا تجيبهم ؟ ليس هذا الجواب بلسانك يا محمد ، فأنت وإن كنت السفير بيننا وبين الخلق فهذا الجواب أنا أتولاه « فأني قريب » (رفع الواسطة من الأغيار عن القربة فلم يقل قل لهم إني قريب بل قال جل شأنه : فأني قريب)^(٣) .

ثم بين أن تلك القربة ما هي : حيث تقدس الحق سبحانه عن كل اقتراب بجهة أو ابتعاد بجهة أو اختصاص ببقعة فقال : « أجيب دعوة الداع » وإن الحق سبحانه قريب — من الجملة والكافة — بالعلم والقدرة والسمع والرؤية ، وهو قريب من المؤمنين على وجه التبرية والنصرة وإجابة الدعوة ، وجل وتقدس عن أن يكون قريباً من أحد بالذات والبقعة ؛ فإنه أحدي لا يتجه في الأقطار ، وعزيز لا يتصف بالكُنْهِ والمقدار .

قوله جل ذكره : « أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون » .

لم يعد إجابة من كان باستحقاق زهد أو في زمان عبادة بل قال دعوة الداعي متى دعاني وكيفما دعاني وحينما دعاني ثم قال : « فليستجيبوا لي » هذا تكليف ، وقوله : « أجيب دعوة

(١) تكررت كلمة (دنيا) مرتين فرجعنا أن تكون الأولى (دين) وتركنا الثانية (دنيا) لتقابل مع (عقي) .

(٢) وضع الناسخ علامة نشر بوجود كلمات زائدة بين (سألك) . . . (وعبادي) لحذفنا الزائدة .

(٣) ما بين القوسين تكملة من الهامش استدركها الناسخ فوضعناها في موضعها .

الداع « تعريف وتخفيف ، قدّم التخفيف على التكليف ، وكأنه قال : إذا دعوتني - عبدي - أجبتك ، فأجبتني أيضاً إذا دعوتك ، أنا لا أرضى برّد دعائك فلا ترّض - عبدي - برّدني من نفسك . إجابتي لك بالخير تحملك - عبدي - على دعائي ، ولا دعاؤك يحملني على إجابتك . « فليستجيبوا لي ، وليؤمنوا بي » : وليتقوا في ، فإني أجيب من دعائي ، قال قائلهم :

ياعزُّ أقسم بالذي أنا عبده وله الحجيج وما حوت عرفات^(١)
لا أبغى بدلاً سواك خليفة فثقي بقولي والكراهُ ثقات

ثم قال في آخر الآية : « لعلهم يرشدون » أي ليس القصد من تكليفك ودعائك إلا وصولك إلى إرشادك .

قوله جل ذكره : ﴿ أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ الصِّيَامِ الرِّفْتُ
إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ
لِبَاسٌ لَّهُنَّ ، عَلَّمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ
تُخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا
عَنْكُمْ ، فَالآن بَاشِرُوهُنَّ ، وَابْتَغُوا
مَّا كَسَبَ اللَّهُ لَكُمْ ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا
حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ
الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتَمُوا
الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ .

أخبر أنه — في الحقيقة — لا يعود إليه عائد من أوصاف الخلق ؛ إن كنت في العبادة التي هي حق الحق أو في أحكام العادة من صحة جنسك التي هي غاية النفس والحظ ، فسيان في حالك إذا أورد فيه الإذن .

(١) جاءت (عرفان) وهي خطأ في النسخ .

نزلت الآية في زلّة بدّرت من الفاروق^(١) ، فجعل ذلك سبباً رخصته لجميع^(٢) المسلمين إلى القيامة . وهكذا أحكام العناية .

ويقال علم أنه لا بدّ للعبد عن الحفظ فقسم الليل والنهار في هذا الشهر بين حقه وحفظك ، فقال أما حتى « فأتّموا الصيام إلى الليل » ، وأما حفظك « فكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ .

أخبر أن محل القدرة مقدّس عن اجتلاب الحفظ ، وقال إذا كنتم مشاغل بنفوسكم كنتم محجوبين بكم فيكم ، وإذا كنتم قائمين بناً فلا تعودوا منّا إليكم .
ويقال غيره الحق سبحانه على الأوقات أن يمزج الجِدُّ بالهزل ، قالت عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله إني أحبك وأحب قربك فقال عليه السلام : ذرني يا ابنة أبي أبكر أتعبد ربّي . وقال صلى الله عليه وسلم لي وقت لا يسعني غير ربّي^(٣)

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْخُلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

(١) أي عمر بن الخطاب . قال هشام عن حصين بن عبد الرحمن عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال قام عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فقال : يا رسول الله إني أردت أهلي البارحة على ما يربد الرجل أهله فقالت إنها قد نامت فظننتها تمتل فواقعتها فتزل في عمر (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) وهكذا روى عن مجاهد وعطاء وعكرمة وقتادة (تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ١ ص ٢٢٠ ، ٢٢١ ط الحلبي) .
(٢) وردت (جميع) .

(٣) للحديث صورة أخرى « لي مع الله وقت لا يسعني فيه شيء غير الله عز وجل » والمعنى صحيح ولكن سنده غير معروف .

إذا تحاكنهم إلى المخلوقين فاعلموا أن الله مطلع عليكم ، وعلمه محيط بكم ، فراقبوا موضع الاستحياء من الحق سبحانه ، ولئن كان المخلوقون^(١) عالمين بالظهور فالحق - سبحانه وتعالى - متولى السرائر .

قوله جل ذكره : ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ﴾ .

الأهلة - جمع هلال - مواقيت للناس ؛ لأشغالهم ومحاسباتهم .
وهي مواقيت لأهل القصة في تفاوت أحوالهم ؛ فللزاهدين مواقيت أورادهم ، وأما أقوام مخصوصون فهي لهم مواقيت لحالاتهم ، قال قائلهم .
أعد الليالي ليلة بعد ليلة وقد كنت قدما لا أعد الليالي
وقال آخر :

ثمان قد مضين بلا تلاقٍ وما في الصبر فضل عن ثمانٍ
وقال آخر :

شهورٌ يَنْقُضِينَ وما شعرنا بأنصافٍ لهن ولا سِرارٍ^(٢)
قوله جل ذكره : ﴿ وليس البرُّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البرُّ من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لکم تفلحون ﴾ .

يعنى ليس البر مراعاة الأمور الظاهرة ، بل البر تصفية السرائر وتنقية الضمائر .

قوله جل ذكره : ﴿ وقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ .

تسكن نفوسكم عندكم ودائع الحق ؛ إن أمر بأمساكها أمسكوها وصونوها ، وإن أمر

(١) وردت (المخلوقين) وهي خطأ من الناسخ لأن اسم كان مرفوع بالواو .

(٢) سِرار النهر وسراره (بالكسر والفتح) آخر ليلة فيه (الوسيط ص ٤٢٨) .

بتسليمها إلى القتل فلا تدخروها عن أمره ، وهذا معنى قوله : « وَلَا تَعْتَدُوا » وهو أن تقف حينما أوقفت ، وتفعل ما به أمرت .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾

يعنى عليكم بنصب العداوة مع أعدائى — كما أن عليكم إثبات الولاية والموالاتة مع أوليائى — فلا تُشَفِّقُوا^(١) عليهم وإن كان بينكم واصلد^(٢) الرحم وشائج القرابة .

« وأخرجوهم من حيث أخرجوكم » . أولاً أخرجوا جثثهم ومواليهم من قلوبكم ، ثم (. . .)^(٣) عن أوطان الإسلام ليكون الصغار جاريًا عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾

والإشارة : أن المحنة التى ترِدُ على القلوب من طوارق الحجب أشد من المحنة التى ترِدُ على النفوس من بذل الروح ، لأن فوات حياة القلب أشد من فوات حياة النفس ، إذ النفوس حياتها بمآلوفاتها ، ولكن حياة القلب لا تكون إلا بالله .

ويقال الفتننة أشد من القتل : أن^(٤) تنأى عن الله أعظم من أن تنأى عن روحك وحياتك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى تَخْرُجُوا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ »

حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم

كذلك جزاء الكافرين ﴿

الإشارة منه : لا تشوش وقتك^(٥) مع الله إذا كان بوصف الصفات بما تدخله على نفسك

(١) ووردت (فلا تشفوا) والمعنى والسياق يرفضانها رفضاً قاطعاً وقد صوبناها بما يتلاءم .

(٢) الواصد والأصد = العهد . مثل الورث والإرث والوحد والأحد وربما كانت أواصر .

(٣) مشبهة فى ص وربما كانت : ثم (أخرجوهم) .

(٤) وردت (تنفى) والمعنى والسياق يرفضانها رفضاً قاطعاً وقد صوبناها بما يتلاءم .

(٥) قال الدقاق — شيخ القشبرى — فى تعريف الوقت : الوقت ما أنت فيه فإن كنت بالدنيا فوقتك

الدنيا ، وإن كنت بالعقب فوقتك العقب ، وإن كنت بالسرور فوقتك السرور ، وإن كنت بالحزن فوقتك الحزن .

ويعلق القشبرى على رأى أستاذه قائلاً : يريد بهذا أن الوقت ما كان هو الغالب على الإنسان . ويقولون الصوفى ابن وقته يريدون بذلك أنه مشغول بما هو أولى به فى الحال ، قائم بما هو مطالب به فى الحين . ويلبى ألا يفرط المبد فيها يقتضيه حق الشرع .

وإن كانت نوافل من الطاعات ، فإن زاحم مزاحم يشغلك عن الله فاقطع مادة ذلك عن نفسك بكل ما أمكنك لئلا تبقى لك علاقة تصدك^(١) عن الله .

قوله جل ذكره : ﴿فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

الإشارة منه : إذا انقطعت عنك غاغة خواطرك وأعداء نفسك ، مما يخرجك عنه وزاحمك ، فلم حديث النفس ودع مجاهداتها ؛ فإن من طوب بحفظ الأسرار لا يتفرغ إلى مجاهدات النفوس بفنون المخالفات^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ

الدِّينُ لِلَّهِ ، فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ

إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ .

الإشارة من الآية إلى مجاهدات النفوس ؛ فإن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك .
أى استوف أحكام الرياضات حتى لا يبقى للآثار البشرية شيء ، وتسليم النفس والقلب لله ، فلا يكون معارض ولا منازعٌ مثلك لا بالتوقى ولا بالتلقى ، لا بالتدبير ولا بالاختيار — بحالٍ من الأحوال ؛ تجري عليك صروفه^(٣) كما يريد ، وتكون^(٤) محوًّا عن الاختيارات ، بخلاف ما يرد به الحكم ، فاذا استسلمت النفس فلا عدوان إلا على أرباب التقصير ، فأما من قام بحق الأمر تقصى عن عهدة الإلزام .

قوله جل ذكره : ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ

وَالْحَرَمَاتِ قِسَاصٌ ، فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ

فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

(١) وردت (تصدق) والمعنى والسياق يرفضانها رفضاً قاطعاً وقد صوبناها بما يتلاءم :

(٢) يريد القشيري بهذه الفقرة أن تنزل على حكم المرحلة التي وصلت إليها ، فإذا اجتاز بك فضل الله مرحلة جهادك مع نفسك إلى ما فوقها فلا تشغلن وقتك إلا بما صرت عليه ، بمعنى أن تنزل على حكم الوقت .

(٣) وردت (حروفه) والصواب صروفه ، وقد جاء في الرسالة هذا الشاهد :

(٤) وردت (يكون) وهى خطأ من الناسخ .
تجربى عليك صروفه وهموم سرك مطرقة (الرسالة ص ٦٣)

الإشارة فيه : إذا تقابل حقان كلاهما لله فَسَلَّمَ الوقت بحكم الوقت ، ودلّ مع إشارات الوقت ، وإياك أن ترجح أحدهما على الآخر بمالك من حظ -- وإن قلَّ -- فتُحجَّب عن شهود الحق ، وتَعْنَى بصيرة قلبك . وكلُّ ما كان إلى خلاف هواك أقرب ، وعن استعجابك وسكونك إليه أبعد -- كان ذلك في نفسه أصوب .

« واعلموا أن الله مع المتقين » : الذين اتقوا إيثار هواهم على ما فيه رضاه ، فإذا قاموا لله -- فيما يأتون -- لا لهُمْ فإن الله تعالى بالنصرة معهم ، قال تعالى : « إن تنصروا الله ينصركم » . قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

إنفاق الأغنياء من أموالهم ، وإنفاق العابدين بنفوسهم لا يدخرونها عن العبادات والوظائف ، وإنفاق العارفين بقلوبهم لا يدخرونها عن أحكامه ، وإنفاق المحبين بأرواحهم لا يدخرونها عن حبه .

إنفاق الأغنياء من النعم وإنفاق الفقراء من الهمم .
إنفاق الأغنياء إخراج المال من الكيس ، وإنفاق الفقراء إخراج الروح عن أنفس النفيس ، وإنفاق الموحِّدين إخراج الخلق من السر .
قوله تعالى : « وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » الإشارة فيه إلى إمساك يدك عن البذل ، فمن أمسك يده وأدّخر شيئاً لنفسه فقد ألقى يده إلى التهلكة . ويقال : إلى إيثار هواك على رضاه .

ويقال « وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » أي الغفلة عنه بالاختيار .

ويقال تَوَهَّمُ أَنَّكَ تعيش من دون لطفه وإقباله لحظَةً .

ويقال الرضا بما أنت فيه من الفترة والحجاب .

ويقال إمساك اللسان عن دوام الاستغاثة في كل نفس .

قوله تعالى : « وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » الإحسان أن ترفق مع كل أحد

إلا معك ؛ فأحسنك إلى نفسك في صورة إساءتك إليها في ظن الاعتماد ، وذلك لارتكابك كل شديدة ، ومقاساتك فيه كل عظمة . والإحسان أيضاً ترك جميع حظوظك من غير بقية ، والإحسان أيضاً تفرغك إلى قضاء حق كل أحد علق عليك حديثه . والإحسان أن تعبدته على غير غفلة . والإحسان أن تعبدته وأنت بوصف المشاهدة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾

إتمام الحج على لسان العلم القيام بأركانه وسننه وهيئته ، وإراقة الدماء التي تجب فيها (دون) التفصيل في بعض أحوالها .

وفي التفسير أن تحرم بهما من دويرة أهلك^(١) .

وعلى لسان الإشارة الحج هو القصد ؛ فقصد إلى بيت الحق وقصد إلى الحق ، فالأول حج العوام والثاني حج الخواص .

وكما أن الذي يحج بنفسه يُحْرِمُ وَيَقِفُ ثم يطوف بالبيت ويسعى ثم يحلق ، فكذلك من يحج بقلبه ؛ فأحرامه بعقد صحيح على قصد صريح ، ثم يتجرد عن لباس مخالقاته وشهواته ، ثم باشتاله بشوي صبره وفقره ، وإمساكه عن متابعة حظوظه من اتباع الهوى ، وإطلاق خواطر المني ، وما في هذا المعنى . ثم الحاج أشعث أغبر تظهر عليه آثار الخشوع والخضوع ، ثم تلبية الأسرار باستجابة كل جزء منك .

وأفضل الحج الشَّجُّ والعَجُّ ؛ الشَّجُّ صَبُّ الدَّمِّ والعَجُّ رفع الصوت بالتلبية ، فكذلك سفك دم النفس بسكاكين الخلاف^(٢) ، ورفع أصوات السر بدوام الاستغاثة ، وحسن الاستجابة ثم الوقوف بساحات القربة باستكمال أوصاف الهيبة . وموقف النفوس عرفات وموقف

(١) قال شعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن سلة عن علي أنه قال في هذه الآية (وأتموا الحج والعمرة لله) قال أن تحرم من دويرة أهلك ، وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير وطاوس .

(تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ١ ص ٢٣٠ ط الحلبي) .

(٢) الخلاف هنا معناها (المخالفة) أي مخالفة النفس وأهوائها .

القلوب الأسمى والصفات لعزّ الذات (عند) ^(١) للمواصلات . ثم طواف القلوب حول (مشاهدة) ^(٢) العز ، والسعى بالأسرار بين صفّي كشف الجلال ولطف الجمال .

ثم التحلل بقطع أسباب الرغائب والاختيارات ، والمنى والمعارضات . . بكل وجه .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ أَحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾

الحصر بأمرين بعدو أو مرض .

والإشارة فيه إن استولى عدو النفس فلم تجد بداً من الإناخة بعقوة الرخص وتأويلات العلم فعند ذلك تتحلل بموجب العذر والاضطرار إذ لا مزاحمة مع الحكم . « والهدى » الذى يهذى به عند التحلل بالعذر ، والخروج عن المعلوم ، وتسليمه للفقراء ، وانتظار أن يزول الحصر فيستأنف الأمر . وإن مرضت الواردات وسقطت القصود وآل الأمر إلى التكليف فليجتهد ألا ينصرف كما أنه فى الحج الظاهر يجتهد ألا ينصرف لكل مرض أو إن احتاج إلى اللبس والخلق وغير ذلك — بشرط الفدية .

ثم إن عجز ، أشرط أن محله حيث حسبه فكذلك يقوم ويقعد فى أوصاف القصد وأحكام الإرادة ، فإن رجع — والعباد بالله — لم يُقَابَلْ إلا بالردّ والصد ، وقيل :

فلا عن قَلْبٍ كَانَ التَّقَرُّبُ بَيْنَنَا وَلَكِنَّ دَهْرَ يُشِيتُ وَيَجْمَعُ

وقال الآخر :

ولستُ — وَإِنْ أَحْبَبْتُ مَنْ يَسْكُنُ الْفَضَا بِأَوَّلُ رَاجٍ حَاجَةٌ لَا يَنَالُهَا

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ

مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ

أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفَدِيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ

أَوْ نُسُكٍ * .

(١) وردت (عن) فى س ، والأسمى والصفات مقصود بها أسماء الله الحسن وصفاته .

(٢) ترجح أنها فى الأصل (مشاهد) جمع مشهد لتناظر (مشاهد) الحج .

يَبْذُلُ مَا أَمْكَنَهُ ، وَيُخْرِجُ عَنْ جَمِيعِ مَا يَمْلِكُهُ ، وَعَلَيْهِ آثَارُ الْخُسْرَةِ ، وَاسْتِشْعَارُ
أَحْزَانِ الْحُجْبَةِ .

« فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا . . . الْحَجَّ : الْإِشَارَةُ مِنْهُ أَنْ يَبْتَهِلَ وَيَجْتَهِدَ بِالطَّوَافِ عَلَى الْأَوْلِيَاءِ ،
وَالْخِدْمَةِ لِلْفُقَرَاءِ ، وَالتَّقَرُّبِ بِمَا أَمْكَنَهُ مِنْ وَجُودِ الْاِحْتِيَالِ وَالِدَعَاءِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِذَا أُمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ ﴾
إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ،
فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ
وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ، تِلْكَ عَشْرَةٌ
كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي
لِلْمَسْجِدِ الْحَرَامِ . وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

فَإِذَا تَجَلَّتْ أَقْمَارُ الْقَصُودِ عَنْ كَشُوفِ التَّعَزُّزِ ، وَانْجَلَّتْ غِيَابَةُ الْحُجْبَةِ عَنْ شَمُوسِ الْوَصْلَةِ
وَأَشْرَقَ نُورُ الْإِقْبَالِ فِي تَضَاعِيفِ أَيَّامِ الْوُقْفَةِ ، فَلَيْسَتْ أَنْفُ لِلْوَصْلَةِ وَقْتًا ، وَلِيَفْرَشَ لِلْقُرْبَةِ بِسَاطًا ،
وَلِيَجِدَّ لِلْقِيَامِ بِحَقِّ السَّرُورِ نَشَاطًا ، وَلِيَقُلَّ : حَتَّى عَلَى الْبَهْجَةِ ! فَقَدْ مَضَتْ أَيَّامُ الْمَحَنَةِ .

وَلِيُكْمِلِ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ ، وَلِيَسْتَدِيمَ الْقِيَامَ بِأَحْكَامِ الصَّحْبَةِ وَالْخِدْمَةِ .

« وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » بِالْحُجَابِ لِمَنْ لَمْ يَرِهِ أَهْلَةُ الْوَصْلَةِ وَالْإِقْتِرَابِ .

قوله جل ذكره : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ﴾ .

كَأَنَّ الْحَجَّ بِالنَّفُوسِ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ لَا يَنْعَقِدُ الْإِحْرَامُ بِهِ إِلَّا فِيهَا ، وَلَا يَجُوزُ فِعْلُ
الْحَجِّ فِي جَمِيعِ السَّنَةِ إِلَّا فِي وَقْتٍ مُخْصٍ ، مِنْ فَاتِهِ ذَلِكَ الْوَقْتُ فَاتِهِ الْحَجِّ — فَكَذَلِكَ حُجَّ
الْقُلُوبِ لَهُ أَوْقَاتٌ مَعْلُومَةٌ لَا يَصِحُّ إِلَّا فِيهَا ، وَهِيَ أَيَّامُ الشَّبَابِ ؛ فَمَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ إِرَادَةٌ فِي حَالِ
شَبَابِهِ فَلَيْسَتْ لَهُ وَصْلَةٌ فِي حَالِ مَشْيَبِهِ ، وَكَذَلِكَ مِنْ فَاتِهِ وَقْتُ قَصْدِهِ وَحَالِ إِرَادَتِهِ فَلَا يَصْلِحُ
إِلَّا لِلْعِبَادَةِ الَّتِي آخَرَهَا الْجَنَّةُ ، فَأَمَّا الْإِرَادَةُ الَّتِي آخَرَهَا الْوَصْلَةُ . . فَلَا .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ

وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ .

كذلك الإشارة لمن سلك طريق الإرادة ألا يُعرج على شيء في الطريق ، ولا يمزج إرادته بشيء . فمن نازعه أو عارضه أو زاحه — سلم الكل للكل ، فلا لأجل الدنيا مع أحدٍ يخاصم ، ولا لشيء من حظوظ النفس والجاه مع أحد يزاحم ، قال تعالى : « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾ .
تكتفى بعلمه وحكمه عن شهود خلقه وحكم خلقه وعلم خلقه .

قوله جل ذكره : ﴿ وتزودوا فإن خيرَ آ زاد التقوى
واقنونا يا أولى الألباب ﴾ .

تقوى العامة مجانبة الزلات ، وتقوى الخواص مجانبة الأغيار بالسرائر .

قوله جل ذكره : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا
فضلاً من ربكم ﴾ .

الإشارة فيه أن ما تبتغي من فضل الله مما يُعينك على قضاء حقّه ، ويكون فيه نصيب للمسلمين أو قوة للدين — فهو محمود . وما تطلبه لاستيفاء حظك أو لما فيه نصيب لنفسك — فهو معول .

قوله جل ذكره : ﴿ فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا
الله عندَ المشعر الحرام واذكروه
كما هداكم وإن كنتم من قبله
لن الضالين ﴾ .

الإشارة فيه إذا وقفت حتى قمت بحق طلبه فاذكر فضله معك ؛ فلو لا أنه أرادك لما أردته ، ولو لا أنه اختارك لما آثرت رضاه .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس
واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾

الإشارة فيه ألا تعلم نفسك بما تمتاز عن أشكالك في الظاهر ؛ لا بلبسة ولا بخرقه ولا بصفة ،

بل تكون كواحد من الناس ، وإذا خطر ببالك أنك فعلت شيئاً ، أو بك أو لك أو معك شيء فاستغفر الله ، وجدد إيمانك فإنه شركٌ خفيٌ خامرٌ قلبك .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾

« قضيتُم مناسِككم » إشارة إلى القيام بحق العبودية .

« فاذكروا الله كذكركم آباءكم » إشارة إلى القيام بحق المحبة .

قضاء المناسك قيامٌ بالنفس .

« فاذكروا الله كذكركم آباءكم » قيامٌ له بالقلب على استدامة الوقت واستغراق العمر .

ويقال كما أن الأغيار يفتخرون بأبائهم ، ويستبشرون بأسلافهم فليكن افتخاركم بنا

واستبشاركم بنا .

ويقال إن كان لأبائكم عليكم حقٌ التربية فحقناً عليكم أوجب ، وأفضلنا عليكم أتم .

ويقال إن كان لأسلافكم مآثر ومناقب^(١) ، فاستحقاقنا لنعوت الجلال فوق ما لأبائكم

من حسن الحال .

ويقال إنك لا تملُ ذكر أبيك ولا تنساه على غالب أحوالك ، فاستدِمْ ذِكْرنا ،

ولا تُعْترِضْكَ ملالة أو سآمة^(٢) أو نسيان .

ويقال إن طعنَ في نسبِكَ طاعِنٌ لم ترضَ فكذلك ما تسمع من أقاويل أهل الضلال

والبدعِ فذُبْ عَنَّا .

ويقال الأبُ يُذكرُ بالحرمة والحشمة فكذلك اذكرونا بالهيبة مع ذكر لطيف القربة

بحسن التربية .

وقال « كذكركم آباءكم » ولم يقل أمهاتكم لأن الأب يُذكر احتراماً والأم تُذكر شفقةً

عليها ، والله يَرْحَمُ ولا يَرْحَمُ .

(١) وردت (مناقب) وهي خطأ في النسخ .

(٢) وردت (مسامة) وهي خطأ في النسخ .

« أو أشد ذكرا » لأن الحق أحق ، ولأنك قد تستوحش كثيراً عن أبيك ، والحق سبحانه مُنزّه عن أن يخطر ببال من يعرفه أنه بخلاف ما يقتضى الواجب حتى إن كان ذرة .
وقوله « كذكركم آباءكم » الأب على ما يستحقه والرب على ما يستحقه .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا ^(١) وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلَقٍ ﴾ .

خطاب لوقاله مخلوق لك كان شاكرًا ^(٢) ، ولو أنه شكامتك كما شكاك إليك لساءت الحالة ، ولكن بفضلله أحلك محل أن يشكو إليك فقال : من الناس من لا يجنج قلبه إلينا ، ويرضى بدوننا عنا ، فلا يبصر غير نفسه وحظه ، ولا يمكن إيمان له بربه وحقه .

قوله جل ذكره : ﴿ ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ .

إنما أراد بها حسنة تنتظم بوجودها جميع الحسنات ، والحسنة التي بها تحصل جميع الحسنات في الدنيا — حفظ الإيمان عليهم في المال ؛ فإن من خرج من الدنيا مؤمنا لا يخلد في النار ، وبفوات هذا لا يحصل شيء . والحسنة التي تنتظم بها حسنات الآخرة — المغفرة ، فإذا غفر فبعدها ليس إلا كل خير .

ويقال الحسنة في الدنيا العزوف عنها ، والحسنة في الآخرة الصون عن مساكنتها . والوقاية من النار ونيران الفرقه إذ اللام في قوله « النار » لام جنس فتحصل الاستعاذة عن نيران الحرقة ونيران الفرقه جميعاً .

ويقال الحسنة في الدنيا شهود بالأسرار وفي الآخرة رؤية بالآبصار .

ويقال حسنة الدنيا ألا يغنيك عنك وحسنة الآخرة ألا يردك إليك .

(١) التبس على الناسخ نقل هذه الآية بالآية التي تليها فوضع هنا (حسنة) وهي زائدة .

(٢) ترجيح أنها (شاكر) في الأصل .

ويقال حسنة الدنيا توفيق الخدمة وحسنة الآخرة تحقيق الوصلة .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك لهم نصيب مما كسبوا ﴾ .
إن كان خيراً فخير وإن كان غيراً فغير . « والله سريع الحساب » للعوام في الفرصة ،
واللخواص في كل نفس .

ويقال ذكر فريقين : منهم من يقول ربنا آتينا في الدنيا ، والثاني يقول في الدنيا والعقبى ،
وثالث لم يذكرهم وهم الراضون بقضائه ، المستسلمون لأمره ، الساكنون عن كل دعاء واقتضاء .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكروا الله في أيام معدوداتٍ
فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ،
وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى ،
وَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴾ .

هذه صفة أواخر النفس ، وهو الرمي في أيام مني لما قدموا بأركان الحج خفف عنهم
بأن يحرم في المقام والإفاضة والتعجيل في التفريق
والإشارة منه أن من خدت نفسه ، وحَيَّ قلبه ، وامتمداد بحقائق الشهود (سره)^(١)
— فَإِنْ سَقَطَ عَنْهُ شَيْءٌ مِنْ فُرُوعِ الْأُورَادِ ففيا هو له مستديم من آداب الحضور عَوْضٌ
عن الذي يفوت .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْجِبُكَ قَوْلُهُ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى
مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ .

أخبر أن قوماً أعرض الحق سبحانه وتعالى عن قلوبهم فأعطاهم في الظاهر بسطةً في اللسان
ولكن ربط على قلوبهم أسباب الحرمان ؛ فهم في غطاء جهلهم ، ليس وراءهم معنى ، ولا على
قولهم اعتماد ، ولا على إيمانهم اتكال ، ولا بهم ثقة بوجه .

(١) نعلم من مذهب القشيري أن حقائق الشهود متصلة بالسر ، وما دام قد ذكر النفس والقلب فقد
وجدنا من الضروري للتوضيح ذكر (سره) حيث نرجح أنها سقطت من النسخ .

والإشارة إلى أهل الظاهر الذين لم تساعدهم أنوار البصيرة فهم مربوطون بأحكام الظاهر ؛
لا لهم بهذا الحديث إيمان ، ولا بهذه الجملة استبصار ، فالواجب صون الأسرار عنهم فإنهم
لا يقابلون هذا الحديث إلا بالإنكار^(١) ، وإن أهل الوداعة^(٢) من العوام الذين في قلوبهم
تعظيم لهذه الطريقة ، ولهم إيمان على الجملة بهذا الحديث لأقرب إلى هذه الطريقة من كثير
من عدّة نفسه من الخواص وهو بمنزل عن الإيمان بهذا الأمر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ
فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ
لَا يَحِبُّ الْفُسَادَ ﴾ .

الإشارة لمن سعيه مقصور على استجلاب حظوظه ، فهو لا يبالي بما يتحلّ من عرى
الدين ، وبهي من أسباب الإسلام ، بعدما تشتد حبال دنياهم ، وتتنظم أسباب مناهم ، من حرام
جمعوه ، وحطام حصّاه . فإذا تخلّوا لوساوسهم وقصودهم الرديّة سعّوا بالفساد بأحكام أسباب
الدنيا ، واستعملهم من يستعينون بهم في تمشية أمورهم من القوم الذين نزع الله البصيرة
من قلوبهم .

« والله لا يحب الفساد » : ما كان فيه خراب الأمور الدينية ونظام الأحوال الدنيوية
فهو الفساد الظاهر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ
الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ
وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ .

هؤلاء أقوام استولى عليهم التكبر ، وزال عنهم خضوع الإنصاف ؛ فشمت آناهم
عن قبول الحق فإذا أمرته بمعروف قال : ألمثلّي يقال هذا ١٩

(١) هنا نلاحظ أن القشيري يرى عدم البوح بأسرار الطريقة وأن الكتبان خير - وهذا موقف هام
في مسألة على جانب عظيم من الخطورة .

(٢) وردت (الوداعة) وترجح أنها الوداعة لأنها أقرب إلى السياق .

وأنا كذا وكذا ! ثم يكبر عليك (...)^(١) فيقول : وأنت أولى بأن تؤمر بالمعروف وتُنهى عن المنكر فإن من حالك وقصتك كذا وكذا .

أو لو ساعده التوفيق وأدركته الرحمة ، وتقلد المنة بمن هداه إلى رؤية خطئه ، ونبيه على سوء^(٢) وصفه ، لم يطوّر على نصيحة جنبيه وتبقى في القلب — إلى سنين — آثارها .

قال تعالى « فحسبه جهنم » يعني ما هو فيه في الحال من الوحشة وظلمات النفس وضيق الاختيار حتى لا يسعى في شيء غير مراده ، فيقع في كل لحظة غير مرة في العقوبة والمحنة ، ثم إنه منقول من هذا العذاب إلى العذاب الأكبر ، قال الله تعالى : « ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر » .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد ﴾ .

أولئك الذين أدركتهم خصائص الرحمة ، ونعتهم سوابق القسمة ، فأثروا رضاء الحق على أنفسهم ، واستسلموا بالكلية لمولاهم ، والله رءوف بالعباد : ولأفقه بهم وصلوا إلى هذه الأحوال ، لا بهذه الأحوال استوجبوا رأفته .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ .

كَلَّفَ الْمُؤْمِنَ أَنْ يُسَلِّمَ كُلَّ أَحَدٍ إِلَّا نَفْسَهُ فَإِنَّهَا لَا تَتَحَرَّكُ إِلَّا بِمُخَالَفَةِ سَيِّدِهِ ؛ فَإِنْ مَنَّ سَلَّمَ نَفْسَهُ قَتَرَ عَنْ مُجَاهِدَاتِهِ ، وَذَلِكَ سَبَبُ انْقِطَاعِ كُلِّ قَاصِدٍ ، وَمَوْجِبُ فِتْرَةِ كُلِّ مُرِيدٍ .
و « خطوات الشيطان » ما يوسوس إليك من عجزك عن القيام باستيفاء أحكام المعاملة ، وترك نزعات لا عبرة بها ، ولا ينبغي أن يلتفت إليها ، بل كما قال الله تعالى : « فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ » ثم أَبْصِرْ ما الذي فعل به حين أَلْقَتْهُ ، وكيف دَدَّه إليها بعدما نَجَّاه .

(١) مثلية .

(٢) وردت (سواء) وهي خطأ في النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ زَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ

الْبَيِّنَاتِ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

الزَّلَّةُ الواحدةُ بعد كشف البرهان أقبحُ من كثيرٍ منها قبل ذلك ، وَمَنْ عُرِفَ فِي الْحَيَاةِ لَا يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي الْأَمَانَةِ . وعنة الأكابر^(١) إذا حُلَّتْ بِهَا استتصالح بالكلية .

قوله جل ذكره : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ

فِي ظُلُمٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاللَّائِكَةُ ﴾ .

استبطأ القومُ قيامَ الساعةِ فأخبروا عن شدة الأمر إذا قامت الساعة بتفصيل ما ذكر .

وتلك أفعال في معنى الأحوال ، يظهرها الله سبحانه بما يزيل عنهم الإشكال في علو شأنه سبحانه وتعالى ، ونفاذ قدرته فيما يريد . « وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور » أي انتهت ستر الغيب عن صريح التقدير السابق . ولقد استغنت قلوب اللوحدين لما فيها من أنوار البصائر عن طلب التأويل لهذه الآية وأمثالها إذ الحق سبحانه مُتَزَّهٌ عن كل انتقال وزوال ، واختصاص بمكان أو زمان ، تقدس عن كل حركة وإتيان^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ سَلِّ بْنِ إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ

آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ

بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

فائدة السؤال ليقرر عليهم بالسؤال الحجة ، لا ليقرّر للرسول صلى الله عليه وسلم بسؤالهم ما أشكل عليهم من واضح المحبة .

« ومن يبدل نعمة الله من بعدما جاءته فإن الله شديد العقاب » بزوال تلك النعمة . وعند ذلك يعرفون قدرها ، ثُمَّ يَنْدُبُونَهَا وَلَا يَصِلُونَ إِلَيْهَا قَطْ ، قال قائلهم :

سَهَجَرْنِي وَتَرَكْنِي فَتَطْلُبْنِي فَلَا تَجِدُ

(١) عنة الأكابر المقصود بها هنا زلات الأكابر ، وعقوبتها اشد ، وقد استدلل القشيري على ذلك في موضع سابق بأن من ترتكب فاحشة من أمهات المسلمين يضاعف لها العذاب ضعفين .

(٢) إشارة إلى ما في الآية الكريمة (يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ) .

قوله جل ذكره : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ
اتَّقُوا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَاللَّهُ يَرْزُقُ
مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

مكروا^(١) فلم يشعروا ، وحملهم اشتداد الظلمة على بصائرهم على الوقعة في أوليائه سبحانه ،
والسخرية منهم ، وحين تقشعت غواية الجهل عن قلوبهم (.....)^(٢) علموا من الخاسر
منهم من الذي كان في ضلال بعيد .

قوله جل ذكره ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ
النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأُنْزِلَ
مَعَهُمُ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ
النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَمَا اخْتَلَفَ
فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ
الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهْدَى اللَّهُ الَّذِينَ
آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ
بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

يعنى الغيبة عن الحق جمعهم ، فلما أُنْزِلَ عليهم الرسل تباينوا على حسب ما رزقوا من أنوار
البصيرة وحرِّموها . ويقال كانوا على ما سبق لهم من الاختيار القديم ، وبمجيء الرسل تهود قوم
وتنصر قوم ، ثم في العاقبة يردُّ كل واحد إلى ما سبق له من التقدير ، وإن الناس اجتمعوا
كلهم في علمه سبحانه ثم تفرقوا في حكمه ، فقوم هدام وقوم أغواهم ، وقوم حجهم وقوم

(١) ربما كانت في الأصل ('مكروا') فلم يشعروا ، فالآية تقول (زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) فهم لم يشعروا
بأن زين الدنيا لهم مكر من الله والله خير الماكرين .
(٢) زائدة .

جذبهم ، وقوم ربطهم بالخلاص وقوم بسطهم بالإحسان ، فلا من المقبولين أمر مكتسب ، ولا لردّ الردودين سبب ، بل هو حكمٌ بتّ وقضاء جُزم .

« قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَكْبِرِينَ الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ۝ ﴾ .

خلق الله الجنة وصفها بالمصاعب ، وخلق النار وصفها بالشهوات والرغائب ، فمن احتشم ركوب الأهوال بقى عن إدراك الآمال . ثم إن الحق سبحانه ابتلى الأولين بفنونٍ من مقاساة الشدائد ، وكلٌّ من أُلْحِقَ بهم من خلف الأولياء أدخلهم في سلكهم ، وأدرجهم في غمارهم ، فمن ظنَّ غير ذلك فَسَرَّابٌ ظَنَّهُ ماءً ، وحكم لم يحصل على ما ظنه تأويلاً . ولقد مضت سنة الله سبحانه مع الأولياء أنهم لا يُنِيعُونَ بعقوة الظفر إلا بعد إشرافهم على عرصات اليأس ، فحين طال بهم الترقُّبُ صادفهم اللطفُ بغنةٍ وتحقق لهم المبتغى فجأة . قال تعالى « أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ » .

قوله جل ذكره : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ۝ ﴾ .

علموا أن العبد غير منفردٍ بالفاعلية أن يفعل ، فإنَّ العبد ليس له فعل شيء إلا بإذن مولاه فتوقفوا في الإنفاق على ما يشير إليه تفصيل الإذن ، لأنَّ العبودية الوقوفُ حينما أوقفك الأمر .

ويقال لم ينفقوا على إشارات الهوى . وإن ما طالعوه تفاصيل الأمر وإشارات الشرع والواو في هذه الآية في قوله : « والأقربين واليتامى » تشير إلى نوع من الترتيب ؛ فالأولى بمعرفتك والداك ثم أقاربك ثم على الترتيب الذى قاله .

قوله جل ذكره : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

صعبت على النفوس مباشرة القتال ، فبين أن راحت النفوس مؤجلة لأنها في حكم التأديب ، وبالعكس من هذا راحت القلوب فإنها معجلة إذ هي في وصف التقريب ، فالسعادة في مخالفة النفوس ؛ فمن وافقها حاد عن المحبة المثلئ ، كما أن السعادة في موافقة القلوب فمن خالفها زاع عن السنة العليا .

وبشرى ضمان الحق بالبشرى أولى أن تقبل من محذرات هواجس النفوس في حلول العسر وحصول الضرر .

قوله جل ذكره : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ .

من المعاصى ما يكون أشد من غيره وأصعب في المعنى ، فسوء الأدب على الباب لا يُوجب ما يُوجب على البساط ؛ فإذا حصلت الزلة بالنفس فآثرها بالعقوبة المؤجلة وهى الاحتراق ، وإذا زل^(١) القلب بالعقوبة معجلة وهى بالفراق ، وأثر الغفلة على القلوب أعظم من ضرر الزلة

(١) وردت (زال) وهى قطعاً خطأ فى النسخ .

على النفوس ، فإن النفس عن الحظ تبقى ، والقلب عن الحق يبقى

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ
عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ، وَمَنْ يَرْتَدِدْ
مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ
فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

الإشارة من هذا أن أهل الغفلة إذا راودوك أرادوا صَرْفَكَ إلى ما هم عليه من الغفلة ،
فلا يرضون إلا بأن تفسخ عقد إرادتك بما تعود إليه من سابق حالتك ، ومن فسخ مع الله
عهده مَسَخَ قلبه .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا
وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ
رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

إن الذين صدقوا في قصدهم ، وأخلصوا في عهدهم ، ولم يرتدوا في الإرادة على أعقابهم ،
أولئك الذين عاشوا في رَوْحِ الرجاء إلى أن يصلوا إلى كمال البقاء ودار اللقاء .

قوله جل ذكره : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا
إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا
أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ .

الخمر ما خامر العقل ، وكما أن الخمر حرام بعينها فالسُّكْر حرام بقوله صلى الله عليه وسلم :
« حُرِّمَتِ الْخَمْرُ بِعَيْنِهَا ، وَالسُّكْرُ مِنْ كُلِّ شَرَابٍ » ، فمن سَكِرَ من شراب الغفلة استحق
ما يستحق شارب الخمر من حيث الإشارات ، فكما أن السكران ممنوع من الصلاة فصاحب
السُّكْر بالغفلة محجوب عن المواصلات وأوضح شواهد الوجود ، فمن لم يَصْدُقْ فَلْيُجَرِّبْ .

ومعنى القمار موجود في أكثر معاملات أهل الغفلة إذا سلكوا طريق الخيل والجداع
والكذب في المقال . وبذل الصدق والإنصاف عزيز .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ
كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ
لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾

قل الغفو ما فضل عن حاجتك ، وهذا للخواص يخرجون من فاضل أموالهم عن قدر
كفايتهم ، فأما خواص الخواص فطريقتهم الإيثار وهو أن يؤثر به غيره على نفسه وبه فاقه
إلى ما يخرج وإن كان صاحبه الذي يؤثر به غيباً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ
خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾

إصلاح حالهم بما يكون فيه تأديبهم أتم من إصلاح مالهم ، ثم الصبر على الاحتمال عنهم مع
بذل النصيح ، و (مفارقة المال من من أرشادهم خير من الترخص بأن يقول إنه لا يتوجه
على فرضيهم)^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمَصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ
اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

فيعامل كلاً على سوا كن قلبه من القصد لا على ظواهر كسبه من جميع الفنون .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ
وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ
وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ
حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ
مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ، أُولَئِكَ يَدْعُونَ

(١) فيها بين قوسين غموض ربما نتج عن خطأ في النقل .

إلى النار والله يدهو إلى الجنة
والمغفرة بإذنه ، وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ
لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٠﴾ .

صلة حبل الدين والتمسك بعصمة المسلمين أتم من الرضا بأن تنتهي إلى أحد يسلك
إلى الكفر ، ولئن كانت رخصة الشريعة حاصلة في فعله فأشارة الحقيقة مانعة من حيث التبرئة
عن اختياره ، هذا في الكتائيات اللاتي يجوز مواسلتهم ، فأما أهل الشرك فحرام مواسلتهم
قطعا ، وأوجه مباينتهم في هذا الباب حُكْمُ جَزْمٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى
فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ
وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا
طَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾

ليس كل ما يكون موجب الاستحياء والنفور مما هو باختيار العبد ، فقد يكون من
النقائص ما ليس للعبد فيه كسب ، وهو ابتداء حكم الحق ، فمن ذلك ما كتب الله على بنات آدم
من تلك الحالة ، ثم أُمِرْنَ باعتزال المُصَلِّي في أوان تلك الحالة ، فالمصلي مناجي ربه ، فنُحِيتُ
عن محل المناجاة حكما من الله لا جرما له . وفي هذا إشارة فيقال : إلهن — وإن مُعِنَ عن
الصلاة التي هي حضور بالبدن فلم يحجب عن استدامة الذكر بالقلب واللسان ، وذلك تعرض
بساط القرب ، قال صلى الله عليه وسلم مخبرا عنه تعالى : « أنا جليس من ذكرني » .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ اللَّهُ يَجِبُ التَّوَابِينَ وَيَجِبُ
الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ .

يقال يجب التوابين من الذنوب ، والمتطهرين من العيوب .

ويقال التوابين من الزلة ، والمتطهرين من التوهم أن نجاتهم بالتوبة .

ويقال التوابين من ارتكاب المحظورات ، والمتطهرين من المساكنات والملاحظات .

ويقال التوابين بماء الاستغفار والمتطهرين بصوب ماء الخجل بنعت الانكسار .

ويقال التوَّابين من الزلة ، والمتطهرين من الغفلة .

ويقال التوَّابين من شهود التوبة ، والمتطهرين من توهم أن شيئاً بالزلة بل الحكم ابتداء من الله تعالى .

قوله جل ذكره : ﴿ نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لَأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مَلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

لما كانت النفوس بوصف الغيبة عن الحقيقة أباح لها السكون إلى أشكائها إذا كان على وصف الإذن ، فلما كانت القلوب في محل الحضور حرم عليها المساكنة إلى جميع الأغيار والمخلوقات .

« وَقَدِّمُوا لَأَنفُسِكُمْ » من الأعمال الصالحة ما ينفعكم يوم إفلاسكم ، لذلك قال :

« وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مَلَاقُوهُ » فانظروا لأنفسكم بتقديم ما يسركم وجدانه عند ربكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

نزُّهوا ذِكْرَ ربكم عن ابتدائه بأي حظ من الحفظ .

ويقال لا تجعلوا ذكر الله شَرَكاً كَأَيُّ صُطَّادٍ بِهِ حَطَامُ الدُّنْيَا .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا يَأْخُذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يَأْخُذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

ما جرت به اللسان على مقتضى السهو فليس له كثير خطرٍ في الخير والشر ، ولكن ما انطوت عليه الضمائر ، واحتوت عليه السرائر ، من قصود صحيحة ، وعزائم قوية فذلك الذي يؤخذ به إن كان خيراً فجزاءه جميل ، وإن كان شراً فعناؤه طويل .

قوله جل ذكره : ﴿لِلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِنْ نَسَائِهِمْ تَرَبُّصُ
أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾

إذا كان حق صحبة الأشكال محفوظاً عليك — حتى لو أخللت به — وأخذك بحكمه :
فحق الحق أحق بأن تجب مراعاته . « فإن فاءوا » أى رجعوا إلى إحياء ما أماتوا ، واستدراك
ما ضيعوا « فإن الله غفور رحيم » فلما تقاصر لسان الزوجة — لكونها أسيراً في يد الزوج —
توكل الله — سبحانه — الأمر بمراعاة حقها فأمر الزوج بالرجوع إليها أو تسريحها .

قوله جل ذكره : ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

إن مل حق صحبتها ، وأكّد العزم على مفارقتها فإن الله مطلع على حاله وسره ، فإن بدا
له باد من ندم فلا يلبس بأركان الطلاق فإن الله سبحانه عليم أنه طلقها .
ولما كان الفراق شديداً عزى المرأة بأن قال إنه « سميع » أى سمعنا موحش تلك القالة ،
فهذا تعزية لها من الحق سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ
ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ .

أمر المطلقات بالعدة احتراماً لصحبة الأزواج ، يعنى إن انقطعت العلاقة بينكما فأقيموا
على شرط الوفاء لما سلف من الصحبة ، ولا تقيموا غيره مقامه بهذه السرعة ؛ فاصبروا حتى
يمضى مقدار من المدة . ألا ترى أن غير المدخول بها لم تؤمر بالعدة حيث لم تقم
بينهما صحبة ؟

ثم قال جل ذكره : ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ
اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ .

يعنى إن انقطع بينكما السبب فلا تقطعوا ما أثبت الله من النسب .

ثم قال جل ذكره : ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ .

يعنى مَنْ سَبَقَ له الصَّحبة فهو أحق بالرجعة لما وقع في النكاح من الثلثة
﴿ في ذلك إن أرادوا إصلاحاً ﴾ .

يعنى أن يكون القصد بالرجعة استدراك ما حصل من الجفاء لا تطويل العدة عليها بأن
يعزم على طلاقها بعدما أرجعها .

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾

يعنى إن كان له عليها حق ما أنفق من المال فلها حق الخدمة لما سلف من الحال .

﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴾ .

في الفضيلة ، ولهن مزية في الضعف وعجز البشرية .

قوله جل ذكره : ﴿ الطلاق مرتان ﴾ .

ندب إلى تفريق الطلاق لثلاث تسارع إلى إتمام الفراق ، وقيل في معناه :

إِنْ تَبَيَّنْتُ أَنَّ عَزْمَكَ قَتْلِي فَدِرْبِي أَضْيَ قَلِيلًا قَلِيلًا

ثم قال جل ذكره : ﴿ فَإِذَا سَأَلَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ
بِإِحْسَانٍ ﴾ .

إما صحبة جميلة أو فرقة جميلة . فأما سوء العشرة وإذهاب لذة العيش بالأخلاق الذميمة
تغيير مرضي في الطريقة ، ولا محمود في الشريعة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا
بِمَا آتَيْنَاهُمْ شَيْئاً ﴾ .

فإن في الخبر « العائد في هبته كالعائد في قَيْئِهِ » والرجوع فيها خرجت عنه خِسة .

ثم قال جل ذكره : ﴿ إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ
فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾ .

يعنى إن أردت المرأة أن تتخلص من زوجها فلا جناح عليها فيما تبذل من مال ، فإن النفس تساوى لصاحبها كل شيء ، والرجل إذا فاتته محبة المرأة فلو اعتاض عنها شيئاً فلا أقل من ذلك ، حتى إذا فاتته راحة الحال يصل إلى يده شيء من المال .

قوله جل ذكره : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾^(١)
هذه آداب يعلمكمها الله ويُسَنُّها لكم ، فحافظوا على حدوده ، وداوموا على معرفة حقوقه .
قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ ﴾^(٢)

الرجل يشق عليه أن ينكح زوجته غيره فنهى عن اختيار الفراق بغاية الفراق بُغْيَةِ المنع^(١) لما بين أنها لا تحل له إن فارقها إلا بأن تفعل^(٢) غاية ما يشق عليه وهو الزواج الثانى ليحذر الطلاق ما أمكنه . ثم قال « فَإِنْ طَلَّقَهَا » يعنى الزوج « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا » يعنى تتزوج بالزوج الأول

والإشارة فيه أن استيلاء المحبة على القلب يهون مقاساة كل شديدة ، فلو انطوى الزوجان بعد الفرقة على التحسر على ما فاتهما من الوصلة ، وبندما على ذلك غاية الندامة فلا جناح عليهما أن يتراجعا ، والمرأة فى هذه الحالة كأنها (. . .)^(٣) من الزوج الأول بمكان الزوج الثانى والزوج كالآنى على نفسه فى احتمال ذلك .

ثم قال جل ذكره ﴿ إِنْ ظَنَنْتُمْ أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾^(٤)

يعنى لا يعودان بعد ذلك إلى الفراق ثانياً إذا علما حاجة أحدهما إلى صاحبه ، قال قائلهم :
ولقد حلفت لئن لقيتك مرةً ألا أعود إلى فراقك ثانية

(١) وردت (بغاية المنع) والأرجح أنها (مغبية المنع) فإن السياق يتطلب ذلك .
(٢) وردت (يفعل) والأصوب أن تعود على المرأة لأنها هى التى ستتزوج ثانية وهذا هو ما يشق على الزوج الأول .
(٣) هنا كلمة رسمها هكذا (الميشور) وربما كانت (المبتور) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾

فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سِرِّحُوهُنَّ
بِمَعْرُوفٍ وَلَا تَمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا
وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ
وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَادْكُرُوا
نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ
الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا
اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿

تضمنت الآية الأمر بحسن العشرة ، وترك المغايظة مع الزوجة ، والمحك على وجه العجاج ؛
فإنما تخلية سبيل من غير جفاء أو قيام بحق الصحبة على شرط الوفاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾

فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكَحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ
إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ
يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ
وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿

تضمنت الآية نهى الأولياء^(١) عن مضارتهن ، وترك حية الجاهلية ، والانقياد لحكم الله
في تزويج النساء إن أردن النكاح من دون استشعار الأنفة والحية .

بل إذا رضيت بكفوي يخطبها فحرام عليكم ظلمها . والتدويب عن أوصاف البشرية بقهر
النفس أشد مجاهدة وأصدق معاملة لله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ ﴾

كاملين لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرِّضَاعَةَ ﴿

(١) الأولياء هنا من ولاية الرجل على المرأة وليست من الولاية في باب التصوف .

غاية الرحمة التي يُضرب بها المثلُ رحمةُ الأمهات ؛ فأمرَ الله سبحانه الأمهاتِ بإكمال الرحمة بإرضاع المولود حَوْلَيْنِ كاملين ، وقطعُ الرضاعة عنه قبل الحولين إشارةً إلى أن رحمة الله بالعبد أتمُّ من رحمة الأمهات .

ثم قال جل ذكره : ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ .

يعنى الأب عليه رزقهن وكسوتهن — أى المرضعات — بالمعروف . لَمَّا يَنْبَغُ عَنْكَ وَجَبَ حَقُّهُنَّ عَلَيْكَ ، فَإِنَّ مَنْ لَكَ كُلُّهُ فَعَلَيْكَ كُلُّهُ .

ثم قال جل ذكره : ﴿ لَا تَكْلَفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ إدخارُ المستطاع بِنَحْلٍ ، والوقوفُ — عند العجز — عنذر . ثم قال جل ذكره : ﴿ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا ﴾ .

فى الإرضاع وما يجب عليه .

﴿ وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ ﴾ .

يعنى الوالد^(١) بولده يعنى فيما يلزم من النفقة والشفقة . فكما يجب حق المولود على الوالدين يجب حق الوالدين على المولود .

ثم قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا

وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

يعنى فطاماً قبل الحولين ، فلا جناح بعدما كان القصد الصلاح . اشتملت الآية على تعهيد طريق الصحبة ، وتعليم محاسن الأخلاق فى أحكام العسرة وإن من لا يَرْحَمَ لا يَرْحَمَ . وقال صلى الله عليه وسلم لمن ذكر أنه لم يُقَبَّلْ أولاده : « إِنْ اللَّهَ لَا يَنْزِعُ الرَّحْمَةَ إِلَّا مِنْ قَلْبِ شَقِيٍّ » .

(١) وردت (الولد) والسباق يقتضى أن تكون (الوالد) بعد أن تحدث عن (الوالدة) .

قوله جل ذكره : ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً
يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر
وعشراً فإذا بلغن أجلهن فلا جناح
عليكم فيها فعلن في أنفسهن بالمعروف
والله بما تعملون خبير﴾

لما كان حق الميت أعظم لأن فراقه لم يكن بالاختيار كانت مدة الوفاء له أطول . وكانت
عدة الوفاة في ابتداء الإسلام سنة ، ثم رُدَّت إلى أربعة أشهر وعشرة أيام لتتحق براءة الرحم
عن ماء الزوج ، ثم إذا انقضت العدة أبيح لها التزوج بزوج آخر . والميت لا يستديم وفاءه
إلى آخر العمر أحد كما قيل :

وكما تبلى وجوه في الثرى فكذا يبلى عليهن الحزن

قوله جل ذكره : ﴿ولا جناح عليكم فيها عرضتم به من
خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم
علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن
لا تواعدوهن سراً إلا أن تقولوا
قولاً معروفاً﴾

أبيح من ذلك ما كان فيه استجلاب للمودة ، وتأسيس لحال الوصلة . وحرّم منه ما فيه
ارتكاب المحظورات من إلمام بذنوب أو عدة مجرم^(١).

قوله جل ذكره : ﴿ولا تعزموا عقدة النكاح حتى
يبلغ الكتاب أجله ، واعلموا أن الله
يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا
أن الله غفور حلِيم﴾

(١) وردت بالحاء والصحيح أن تكون بالجيم .

أى تنقضى عدة الأول فإن حرمة الماضى لا تضع .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ
مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً
وَمَتَّبِعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ ،
وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرَهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ
حَقًّا عَلَى الْحَسَنِينَ ﴾

إن ابتلاء تم بوصيلة^(١) أشكالكم ثم بدالكُم فلا جناح^(٢) عليكم فى اختيار الفرقة
— إذا أردتم — فإن الذى لا يجوز اختيار فرقته — واحد ؛ فأما صحبة الخلق بعضهم
مع بعض فليس بواجب ، بل غاية وصفه أنه جائز .

ولما وقع عليهن اسمكم فنصف المسمى يجب لهن ، فإن الفراق — كيفما كان — فهو شديد ،
فجعل ما يستحق من العوض كالخلف لها عند تجرع كأس الفرقة .

فإن لم يكن مسمى فلا يخلو العقد من متعة ؛ فإن تجرع الفرقة — مجرداً عن الراحة —
بلاء عظيم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ
وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصَفْ
مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِى
بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ، وَأَنْ تَعْفُوا
أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾

ثم ذكر أن العفو أتم وأحسن ، إما من جهة المرأة فى النصف المستحق لها ، أو من قبل
الزوج فى النصف العائد إليه .

(١) وردت (بوصيلة) وربما كانت الباء زائدة وأنها (بوصلة) أشكالكم .

(٢) وردت (فلا جناح) وهى خطأ من الناسخ ، وقد صححتها (فلا جناح) طبقاً للآية ، ويحتمل
أيضاً أنها فى الأصل (فلا مجرم) .

ثم قال جل ذكره : ﴿ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ

بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

يقال من أخذ بالفضل واقتصر على الفرض فمن قريب بخل^(١) بالفرض .

ويقال لسيان الفضل يقرب صاحبه من البخل ، وإن من سُنَّةِ الكرام إذا خفيت عليهم مواضع الكرم أن يشجعوا بصائر الجود لتطالع لطائف الكرم فتتوفر دواعيهم في اقتناء أسباب الفضل .

قوله جل ذكره : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى

وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ .

المحافظة على الصلاة أن يدخلها بالهية ، ويخرج بالتعظيم ، ويستديم بدوام الشهود بنعت الأدب ، والصلاة الوسطى (أيهم ذكرها على البيت)^(٢) لتراعى الجميع اعتقاداً منك لكل واحدة أنها هي لثلا يقع منك تقصير في شيء منها .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا

فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ

مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ .

أي لا تُخَلَّوْا بمناجيات لأوقاتها على الوصف الذي أمكنكم فإن ما تحسونه^(٣) من أعدائكم أنا سلطتهم عليكم ، فإذا خلوتهم بي بقلوبكم قصرت أيديهم عنكم ، وجعلت لكم الظفر عليهم ، ثم إذا زال عنكم الخوف وأمنتم فعودوا إلى استقراركم باستفراغ أوقاتكم في الاعتكاف بحضرتي سرّاً وجهرّاً .

(١) يحتمل أنها (بخل) و (مبخل) ، فإذا عرفنا أن الصوفية عموماً يتشددون في التبعد ويتفوقون فيه على الكافة أمكن القول أن المعنى ممكن أن ينصرف إلى بخل بمعنى أن القشيري يحذر من أن الاكتفاء بالفرض قد يؤدي إلى البخل به ، وهذا بدوره يؤدي إلى أن يبخل بشأنه وقد وردت بخل وبخل في السياق فيما بعد - والله أعلم .

(٢) وردت هكذا وقد نقلناها من النص دون تعديل وربما كانت (أيهم ذكرها عن البيت) .

(٣) يحتمل أن تكون (تخشونه) من أعدائكم وكلاماً مقبول ، وإن كنا نؤثر (تخشونه) لتناسب « فَإِنْ خِفْتُمْ » في الآية .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَقَّؤْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ
أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى
الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ
مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

كانت عِدَّةُ الوفاة في ابتداء الإسلام سَنَةً مستديمة كقول العرب وفعلهم ذلك حيث
يقول قائلهم :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكم ومن لبَّاك حولاً كاملاً فقد اعتذر
ثم نُسِحَ ذلك إلى أربعة أشهر وعشرة أيام إذ لا بد من انتهاء مدة الحداد ولقد قال قائلهم :
قال : لو ريت لم أعيش قلت : نافقت فأسكت
أى حى رأيته مات وجداً بميت^(١)

قوله جل ذكره : ﴿ وَالْمُطَلَّقاتُ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا
عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ .

الإشارة ألا تجمعوا عليهن الفراق والحرمان فيتضاعف عليهن البلاء .
﴿ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم
تعقلون ﴾ .

الدلائل ، فتأدبوا بما أشير عليكم ، وتفلحوا بما تعقلون من إشارات حكى .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ
وَهُمْ أَلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ
مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى
النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

(١) في الشعر أخطاء كثيرة وقع فيها الناسخ لحاولنا إصلاحها بقدر الممكن ليعكون مفهوماً .

لما استبعدوا قدرة الله في الإعادة أراهم في أنفسهم عياناً ، ثم لم ينفع إظهار ذلك لمن لم يشهد بصيرته في التوحيد . ومن قويت بصيرته لم يضره عدم تلك المشاهدات فإنهم تحققوا بما أخبروا ، لياً آمنوا به بالغيب .

قوله جل ذكره : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله

سميع عليم ﴾ .

يعنى إن مسكم ألم فتصاعد^(١) منكم أنين فاعلموا أن الله سميع لا ينكم ، عليم بأحوالكم ، بصير بأموركم . والآية توجب تسهيل ما يقاسونه من الألم ، وقالوا :

إذا ما تمنى الناس روحاً وراحةً تمنيت أن أشكو إليك فتسمع

قوله جل ذكره : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً

فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ .

يُسمى القرض قرضاً لأنه يقطع^(٢) من ماله شيئاً ليعطيه للمقرض ، والمتصدق لما يقطع الصدقة من ماله سميت صدقته قرضاً ، فالقرض القطع ، ولكن هذه التسمية لحفظ قلوب الأحاب حيث خاطبك في باب الصدقة باسم القرض ولفظه .

ويقال دلت الآية على عظم رتبة الغنى حيث سأل منه القرض ، ولكن رتبة الفقير في هذا أعظم لأنه سأل لأجله القرض ، وقد يسأل القرض من^(٣) كل أحد ولكن لا يسأل لأجل كل أحد . وفي الخبر « مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند أبي شحمة اليهودى على شعير أخذه لقوت عياله^(٤) أبصر ممن اقترض ولأجل من اقترض !

ويقال القرض الحسن ما لا تتطلع عليه لجزاء ولا تطلب بسببه العوض .

(١) وردت (فتصاعد) وواضح أنها خطأ في النسخ .

(٢) أخطأ الناسخ فجاءت (يقطع) وقد اخترنا (يقطع) لتناسب القرض ... القطع كما سيذكر بعد .

(٣) وردت (عن) والصحيح والملائم للسباق أن يقال (من) .

(٤) للحديث بقية (... ولم يترك ديناراً ولا درهماً ، ولم يقسم له ميراث ولم يوجد له بيت أثاث) البخارى ومسلم والترمذى عن عائشة (تولى ودرعه مرهونة عند يهودى بثلاثين) ، وعن البيهقى بثلاثين صاعاً من الشعير ، والترمذى والنسائى والبيهقى عن ابن عباس بعشرين صاعاً من طعام أخذه لأهله . وسنده حسن ، ولم يترك ولا درهماً ، مسلم عن عائشة .

ويقال القرض الحسن ألا يعطى على الغفلة ، وإنما يعطى عن شهود .

ويقال القرض الحسن من العلماء ^(١) إذا كان عند ظهر الغنى ، ومن الأكابر إذا كان بشرط الإيثار يعطى ما لا بد منه .

ويقال القرض الحسن من العلماء عن مائتين خمسة ^(٢) ، وعلى لسان القوم بذل الكل ، وزيادة الروح على ما يبذل .

قوله جل ذكره ﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

يقبض الصدقة من الأغنياء قبض قبوله ، ويبسط عليهم بسط خلفه .

ويقال يقبض الرزق أى يضيق ، يبسط الرزق أى يوسع ؛ يقبض على الفقراء ليمتنحهم بالصبر ، ويبسط على الأغنياء ليطالبهم بالشكر .

ويقال يقبض تسلياً للفقراء ليطالبهم حتى لا يروا من الأغنياء ، ويبسط لثلاث يتقلدوا المية من الأغنياء .

ويقال قال للأغنياء : إذا أنا قبضت الرزق على الفقراء فلا تدرهم ، وإذا أنا بسطت عليكم فلا تروا ذلك لفضيلة لكم .

ويقال قبض القلوب بإعراضه وبسطها بإقباله .

ويقال القبض لما غلب القلوب من الخوف ، والبسط لما يغلب عليها من الرجاء .

ويقال القبض لقهره والبسط لبره .

ويقال القبض لسره والبسط لكشفه .

ويقال القبض للمريدين والبسط للمُرادين .

ويقال القبض للمتسابقين ^(٣) والبسط للعارفين .

ويقال يقبضك عنك ثم يبسطك به ،

(١) يقصد القشيري بالعلماء - على لسان الشريعة ، وبالأكابر - على لسان الحقيقة .

(٢) يشير بذلك إلى مقدار زكاة المال وهى ربع العشر .

(٣) ربما كانت « السابقين » إشارة إلى قوله تعالى : « السابقون السابقون أم لك المقربون » .

ويقال القبض حقه ، والبسط حظك .

ويقال القبض لمن تولى عن الحق ، والبسط لمن تجلّى له الحق .

ويقال يقبض إذا أشهدك فَعَلَكَ ، ويبسط إذا أشهدك فضله .

ويقال يقبض بذكر العذاب ويبسط بذكر الإيجاب .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ

بعد موسى إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّهِمْ ابعث

لَنَا مَلِكًا نَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

قال هل عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ

الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ؟ ۞

استقبلوا الأمر بالاختيار ، واقرحوا على نبيهم بسؤال الإذن لهم في القتال ، فلما أُجيبوا

إلى ما ضمنوه من أنفسهم ركنوا إلى التسكسل ، وعرجوا في أوطان التجادل والتغافل . ويقال

إنهم أظهروا التصلب والجد في القتال ذَبًّا عَنْ أَمْوَالِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ حَيْثُ :

﴿ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا

فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا

إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۞

فلذلك لم يتم قصدهم لأنه لم يَخْلُصْ — لحقُّ الله — عزمهم ، ولو أنهم قالوا وما لنا أَلَّا نُقَاتِلَ

فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَأنَّهُ قَدْ أَمَرْنَا ، وَأَوْجِبَ عَلَيْنَا ، فَإِنَّهُ سَيَدَنَا وَمَوْلَانَا ، وَيَجِبُ عَلَيْنَا أَمْرُهُ —

لَعَلَّهُمْ وَفَّقُوا لِإِتْمَامِ مَا قَصَدُوهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ

طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ

الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ

يُؤْتِ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ

عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم
والله يُؤتي مُلكه من يشاء والله
واسع عليم ﴿

نسوا حق الاختيار فنظروا إلى الحال بعين الظاهر فاستبعدوا أن يكون طالوت ملكاً
لأنه (١) كان فقيراً لا مال له ، فبين لهم أن الفضيلة باختيار الحق ، وأنه وإن عديم المال فقد
زاده الله علماً ففضلكم بعلمه وجسمه ، وقيل أراد أنه محمود خصال النفس ولم يرد عظيم البنية
فإن في المثل : « فلان اسم بلا جسم » أي ذكر بلا معنى .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن

يأتبكم التابوت فيه سكينة من ربكم
وبقية مما ترك آل موسى وآل
هارون تحمله الملائكة إن في ذلك
لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾

إن الله سبحانه إذا أظهر نوراً أمدّه بتأييد من قبله ، فلما ملك طالوت عليهم أزال الإشكال
عن صفته بما أظهر من آياته الدالة على صدق قول نبيهم في اختياره ، فردّ عليهم التابوت
الذي فيه السكينة ، فاتضح لهم آية ملكه ، وأن نبيهم عليه السلام صدّقهم فيما أخبرهم .
ويقال إن الله تعالى جعل سكينة بني إسرائيل في التابوت الذي رَضُوا عن الألواح ،
وعصا موسى عليه السلام ، وآثار صاحب نبوتهم . وجعل سكينة هذه الأمة (٢) في قلوبهم ،
فقال : « هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين » ثم إن التابوت كان تتداوله أيدي الأعداء
وغيرهم ؛ فمرة كان يُدفن ومرة كان يُغلب عليه فيُجمل ، ومرة يرد ومرة ومرة . . .
وأما قلوب المؤمنين فحال بين أربابها وبينها ، ولم يستودعها ملكاً ولا نبياً ، ولا سماء
ولا هواء ، ولا مكاناً ولا شخصاً ، وقال صلى الله عليه وسلم :

(١) وردت (كأنه) وهي خطأ في النسخ .

(٢) يقصد أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

« قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » يعنى فى قبضة الحق سبحانه ،
وتحت تغليبهِ وتصريفهِ ، والمراد منه « القدرة » ، وشتان بين أمة سكينتهم فيما للأعداء
عليه تسكُّط وأمة سكينتهم فيما ليس لخلق عليه سلطان .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ
إِنَّ اللَّهَ مَبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ
مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ
مِنِي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾

الإشارة من هذه الآية أن الله سبحانه ابتلى الخلق بصحبة الخلق وبالذنيا والنفس ،
ومن كانت صحبته مع هذه الأشياء على حدِّ الاضطراب بمقدار القوام ، وما لا يد منه نجا
وسلِّم^(١) ، ومن جاوز حد الاضطراب وانبسط فى صحبته مع شيء من ذلك من الدنيا والنفس
وانخلق بموجب الشهادة^(٢) والاختيار — فليس من الله فى شيء إن كان ارتكاب محظور ،
وليس من هذه الطريقة فى شيء إن كان على جهة الفضيلة وماله منه بُدُّ .

ثم قال جل ذكره : ﴿ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾

كذلك الخواص فى كل وقت يقل عددهم ولكن يجل قدرهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ
قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ
وَجُنُودِهِ ﴾

فنظروا إلى الحال بعين الظاهر فدَاخَلَهُمْ شَيْءٌ من رعب البشرية ، فربط الله على قلوبهم
بما ذكَّروهم من نصرة الحق سبحانه لأولياته إذا شاء .

(١) هذه درجة فى الاعتدال يقسم بها مذهب القشيري ، يوفق بها بين الشريعة والحقيقة فى النظر إلى
الدنيا والنفس والناس فى عرف أرباب القلوب .
(٢) أى أن يشهد الدنيا والنفس والخلق فى شيء من الأشياء والواجب أن يشهد الله فى كل شيء ، غير
أننا لا نستبعد أنها ربما كانت فى الأصل (الشهوة) أى أنه ليس من الله فى شيء من ينظر إلى هذه الأمور
بشهوة واختيار .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهَ كَمْ مِنْ

فِتْنَةٍ قَلِيلَةٌ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ

اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

لا بهم ولكن بإذن الله ، بمشيئته وعونه ونصرته ، والله مع الصابرين بالنصرة والتأييد والقوة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا

أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ، وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا

وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾

كان أهم أمورهم الصبر والوقوف للعدو ، ثم بعده النصر عليهم ، فإن الصبر حق الحق ، والنصرة نصيبهم ، فقدّموا تحقيق حقه — سبحانه — وتوفيقه لهم ، ثم وجود حظهم من النصر ، ثم أشاروا إلى أنهم يطلبون النصر عليهم — لا للانتقام منهم لأجل ما فاتهم من نصيبهم — ولكن لكونهم كافرين ، أعداء الله .

فقاموا بكل وجهٍ لله بالله ؛ فلذلك نصروا ووجدوا الظفر .

قوله جل ذكره : ﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ

جَالُوتَ ، وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ

وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ ﴾

هيب الله الأعداء بطالوت لما زاده من البسطة في الجسم ولكن عند القتال جعل الظفر على يدي داود . وكان كما في القصة ربع القامة غير عظيم الجثة ، مختصر الشخص ، ولم يكن معه من السلاح إلا مقلاع ، ولكن الظفر كان له لأن نصرته الله سبحانه كانت معه .

قوله جل ذكره : ﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

فلم يبق منهم أثر ولا عين ، وقتل داود جالوت . وداود بالإضافة إلى جالوت في الضخامة والجسامة كان بحيث لا تتوهم غلبته إياه ولكن كما قال قائلهم .

استقبلني وسيفه مسلول وقال لي واحدنا معذول^(١)

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ .

لو تظاهر الخلق وتوافقوا بأجمعهم لهلك المستضعفون لغلبة الأقوياء ولكن شغل بعضهم ببعض ليدفع بشاغلهم شرهم عن قوم .

قوله جل ذكره : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

لم يكن في علمك ولا في وسع احتيالك الوقوف على هذه الغائبات من الكائنات التي سلفت ، وإنما وقفت عليها بتعريف من قبل الله سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُم عَلَى بَعْضٍ ، مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ، وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ، وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾

جمعهم الرسالة ولكن تباينوا في خصائص التفضيل ، لكل واحد منهم أنوار ، ولأنوارهم مطارج ، فمنهم من هو أعلى نورا ، وأتم من الرفعة وفورا . فلم تكن فضائلهم استحقاقهم على أفعالهم وأحوالهم ، بل حكم بالحسنى أدركهم ، وعاقبة بالجميل تداركهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتُلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتُلُوا ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ .

(١) ربما كانت (معذول) .

ولكنهم مُصَرَّفُونَ بالمشيئة الأزلية ، ومسلوبون من الاختيار الذى عليه المدار
وبه الاعتبار . والعبودية شُدَّ نطاق الخدمة وشهود سابق القسمة .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ
مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ
وَلَا شَفَاعَةٌ ، وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

يعنى اغتنموا مساعدة الإمكان فى تقديم الإحسان قبل فتور الجَلَدِ واقتضاء الأمل .

قوله جل ذكره : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَى الْقَيُّومُ ﴾ .

« الله » اسم تفرّد به الحق — سبحانه فلا سميّ له فيه . قال الله تعالى : « هل تعلم له سمياً »
أى هل تعرف أحداً غيره تسمّى « الله » ؟

من اعتبر فى هذا الاسم الاشتقاق فهو كالمعارض ، فهذا اسم يدل على استحقاق صفات
الجلال لا على اشتقاق الألفاظ ، فلا يعارض ما لا يعارض فيه من الأقوال .

قوله « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » : إخبار عن نفى النظير والشبيه ، بما استوجب من التقديس
والتنزيه . ومن تحقق هذه القالة لا يرى ذرّةً من الإثبات بغيره أو من غيره ؛ فلا يرفع إلى
غيره حاجته ، ولا يشهد من غيره ذرة ، فَيَصْدُقُ إليه انقطاعه ، ويدم لوجوده انفرادَه ،
فلا يسمع إلا من الله وبالله ، ولا يشهد إلا بالله ، ولا يُقْبَلُ إلا على الله ، ولا يشتغل إلا بالله ،
فهو محورُ عما سوى الله ، فمآله شكوى ولا دعوى ، ولا يتحرك منه لغيره عرقٌ ، فاذا استوفى
الحق عبداً لم يَبْقَ للحفظ — ألبتة — مساع .

ثم إن هذه القالة تقتضى التحقق بها ، والفناء عن الموسومات بجملتها ، والتحقق بأنه
لا سبيل للمخلوق إلى وجود الحق — سبحانه ، فلا وصل ولا فصل ولا قُرْبَ ولا بُعْدَ ،
فإن ذلك أجمع آفاتٌ لا تليق بالقدم .

وقوله « الْحَى الْقَيُّومُ » : التولى لأمر عباده ، القائم بكل حركة ، و (المحوى)^(١) ،
لكل عين وأثر .

(١) وردت هكذا ويحتمل أن تكون فى الأصل إما (الحى) لتلازم مع (الحى) أو أن تكون
(المحوى) أى القائم أو (القيوم) على ملكه :

« لا تأخذه سنة ولا نوم » لأنه أحدي لا ترهقه غفلة ، وصمد لا تمسه علة ، وعزيز لا تقاربه قلة ، وجبار لا تميزه عزلة ، وفرد لا تضيه جثة ، ووتر لا تحده جهة ، وقديم لا تلحقه آفة ، وعظيم لا تدركه مسافة .

تَقَدَّسَ مِنْ جِوَاهِرِ جَلَالِهِ ، وَجَلَالُهُ جِوَاهِرُهُ ، وَسَنَاؤُهُ بَهَاؤُهُ ، وَبَهَاؤُهُ سَنَاؤُهُ ، وَأَزَلُهُ أَبَدُهُ ، وَأَبَدُهُ سَرْمَدُهُ ، وَسَرْمَدُهُ قَدَمُهُ ، وَقَدَمُهُ وَجُودُهُ

قوله جل ذكره : ﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾
مَلِكًا وَإِبْدَاعًا ، وَخَلْقًا ، اخْتِرَاعًا .

﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾
من ذا الذي يتنفس بنفس (. م .)^(١) إلا بإجرائه ، أو يتوسل إليه من دون إذنه وإبدائه . ومن ظن أنه يتوسل إليه باستحقاق أو عمل ، أو تذلل أو أمل ، أو قرينة أو نسب ، أو علة أو سبب — فالظنُّ وطنه والجهل مآلفه والغلط غايته والبعد قصاره .

قوله جل ذكره : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ .
لأنه لا يخرج عن علمه معلوم ، ولا يلتبس عليه موجود ولا معدوم .

﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ .

يعنى من معلوماته ، أى تقاصرت العلوم عن الإحاطة بمعلوماته إلا بإذنه .
فأى طمع لما فى الإحاطة بذاته وحقه ؟ وأنى تجوز الإحاطة عليه وهو لا يقطعه فى عزه أمد ، ولا يدركه حد ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ .
خطاب لهم على قدر فهمهم . وإلا فأى خطرٍ للأكوان عند صفاته ؟
جلَّ قَدْرُهُ عَنِ التَّعَزُّزِ بِعَرْشٍ أَوْ كُرْسَى ، وَالتَّجَمُّلِ بِجَنٍّ أَوْ إِنْسَى .

(١) مشتبهة فى (ص) ويحتمل أن تكون منطوية لزيادتها فهناك شبه علامة على ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يثوده حفظهما وهو العلي العظيم ﴾
كيف تُتَعَبُ المخلوقاتُ مَنْ خَلَقَ الذرة والكونَ بِجملته — له سواء ؛ فلا من القليل له
نَيْسَرٌ ، ولا من الكثير عليه تَعَسَّرٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ لا إكراه في الدين ﴾

فإن الحجج لأئمة ، والبراهين ظاهرة واضحة .

﴿ قد تبين الرشد من الغي ﴾

وامتاز الليل بظلامه عن النهار بضياءه ، والحقوق الأزلية معلومة ، والحدود الأولية معلولة
فهذا بنعت القدم وهذا بوصف العدم .

﴿ فمن يكفر بالطاغوت ﴾

وطاغوت كل واحد ما يشغله عن ربه

﴿ ويؤمن بالله ﴾

والإيمان حياة القلب بالله

﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾

الاستمساك بالعروة الوثقى الوقوف عند الأمر والنهي ، وهو سلوك طريق المصطفى
صلى الله عليه وسلم وعلى آله .

﴿ لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾

فمن تحقق بها سرّاً ، وتعلّق بها جهرّاً فاز في الدارين وسعد في السكونين .

قوله جل ذكره : ﴿ الله ولي الذين آمنوا ﴾

الولي بمعنى المتولى لأموالهم ، والمتفرد بإصلاح شئونهم ، ويصح أن يكون الولي على وزن
فعليل في معنى للمفعول فالمؤمنون يقولون^(١) طاعته . وكلاهما حق : فالأول جمع والثاني فرق ،

(١) أخطأ الناسخ فكتبها (يقولون) بالقاف ورجح أنها (يتولون) بالتاء .

وكلُّ جمعٍ لا يكون مقيداً بفرقٍ وكلُّ فرقٍ لا يكون مؤيداً بجمعٍ فذلك خطأ وصاحبه مبطل^(١)
والآية تُفكّلُ عليهما جميعاً .

﴿يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾
يعنى بحكمه الأزلى صانهم عن الظلمات التى هى الضلال والبدع ، لأنهم^(٢) ما كانوا فى الظلمات
فقط فى سابق علمه .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ﴾

ما استهوواهم من دواعى الكفر

﴿يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ
أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾
بإسنيلاء الشُّبَّةِ على قلوبهم ، فيجحدون الربوبية ، أولئك الذين بقوا عن الحق بقاء أبدياً .
ويقال يُخرجهم من ظلمات تدبيرهم إلى سعة شهود تقديره .
ويقال يُخرجهم من ظلمات ظنونهم أنهم يتوسلون أو يصلون إليه بشيء من
سكناتهم وحركاتهم .
ويقال يُخرجهم من ظلماتهم بأن يرفع عنهم ظلّ أنفسهم ويدخلهم فى ظلّ عنايته .
ويقال يخلصهم عن حسابان النجاة بهم .
ويقال يحول بينهم وبين الاعتماد على أعمالهم والاستناد إلى أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ
أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ
رَبِّىَ الَّذِى يَحْبِبُّ وَيَمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي
وَأَمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى

(١) يقصد القشيري من ذلك أن الفرقى ضرورى وهام ، إذ ينسق للعبد خلاله أن يؤدى ماعليه من
فرائض ، وهذا ركن أساسى فى مذهب القشيري وغيره من الشيوخ الثقات .
(٢) سقطت (ما) والمعنى يتطلبها .

بالشمس من المشرق قَاتِرِهَا مِنْ
المغرب فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ *

عَجَّلَ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ لِأَعْدَائِهِ عَقُوبَةَ الْفِرْقَةِ قَبْلَ أَنْ يَعْاقِبَهُمْ بِالْحَرْقَةِ ، وَهَذِهِ الْعَقُوبَةُ أَشَدُّ
أَثَرًا فِي التَّحْقِيقِ — لَوْ كَانَتْ لَمْ عَيْنِ الْبَصِيرَةِ . وَإِنَّ الْحَقَّ سَبْحَانَهُ أَخْبَرَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
انْتَقَلَ مَعَ الْعَدُوِّ الْعَيْنِ مِنَ الْحُجَّةِ الصَّحِيحَةِ إِلَى أُخْرَى ، أَوْضَحَ مِنْهَا — لَا لِخَلْقٍ فِي الْحُجَّةِ —
وَلَكِنْ لِقَصُورٍ فِي فَهْمِ الْكَافِرِ ، وَمَحْكُوثٍ مَنْ سُدَّتْ بَصَائِرُهُ عَنِ التَّحْقِيقِ تَضْيِيعُ الْوَقْتِ بِلَا فَائِدَةٍ
تُجْدِي ، لَا بِمَقْدَارٍ مَا يَكُونُ مِنَ الْحَاجَةِ لِأَمْرٍ لَا بُدَّ مِنْهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ

عَلَى غُرُوشِهَا قَالَ : أَتَىٰ يَمْحِي هَذِهِ
اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ؟ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ
عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ : كَمْ لَبِثْتَ ؟ قَالَ :
لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ : بَلْ
لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ
وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ
وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ، وَانْظُرْ إِلَىٰ
الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا
لَحْمًا ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ : أَعْلَمُ أَنَّ
اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *

لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ سَوْأَلِ جَحْدٍ ، وَلَا قَضِيَّةَ جَهْلِ ، وَلَا دَلَالَةَ شَكٍّ فِي الْقُدْرَةِ ، فَإِنَّ هَذَا الْخَبَرَ
عَنْ عَزِيزِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَالْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِمُ الشُّكُّ وَالْجَهْلُ ، وَلَكِنَّهُ
كَانَ سَوْأَلِ تَعْجُوبٍ ، وَأَرَادَ بِهَذِهِ الْمَقَالَةَ زِيَادَةَ الْيَقِينِ ، فَأَرَاهُ اللَّهُ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ ، بِأَنَّ أَمَاتَهُ

ثم أحياء ثم بعث حماره وهو ينظر إليه ، فازداد يقيناً على يقين . وسؤالُ اليقين من الله ، والحيلةُ في ردِّ الخواطر المشككة ، دَيِّنَ المتعرفين ، ولذلك (. . . .) ^(١) الله سبحانه عزيراً في هذه المقالة حتى قدَّر عليه ما طلب من زيادة اليقين فيه . ثم قال « واعلم أن الله على كل شيء قدير » من الإحياء والإماتة أى ازدادت معرفة بذلك ، وأراني من عظيم الآيات ما ازداد به يقيناً ، فإنَّ طعامه وشرابه لم يتغيرا في طول تلك المدة ، وحماره مات بلا عظام . والطعام والشراب بالتغير أولى .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ : بلى ، ولكن ليطمئن قلبي . قال : فخذ أربعة من الطير فصرهنَّ إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهنَّ يأتينك سعيّاً ، واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ .

قليل كان في طلب في زيادة اليقين ، فأراد أن يقرن حق اليقين بما كان له حاصلًا من عين اليقين ^(٢) .

وقيل استجلب خطابه بهذه المقالة إلى قوله سبحانه : « أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قال بلى » كنت أومن ولكنني اشتقتُ إل قولك لي أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ، فإن بقولك لي « أَوَلَمْ تُؤْمِنْ » تطميناً لقلبي . والمحِبُّ أبداً يجتهد في أن يجد خطاب حبيبه على أى وجه أمكنه . .

(١) مشقبة .

(٢) من أقوال القشيري التي تتناثر في كتبه نجد أنه ينظر للمعرفة على أنها ثلاث درجات .

١ — عقلية ونورها البرهان أو علم اليقين .

٢ — قلبية ونورها البيان أو عين اليقين :

٣ — كشفية ونورها العرفان أو حق اليقين ،

ويقول : (علم اليقين كالنجوم يطلع عليها بدر عين اليقين ، ولكن كل الأنوار تنبهد أمام شمس

حق اليقين) .

اللطائف — التعبير في التذكير ص ٧٠ — الرسالة ص ٤٣ ؛ ٤٤ والواقع أن القشيري ألزم بهذا

الترتيب التزاماً دقيقاً ولم يتغل عنه في كل ما كتب .

وقيل إنه طلب رؤية الحق سبحانه ولكن بالرمز والإشارة فَمُنِعَ منها بالإشارة بقوله «واعلم أن الله عزيز حكيم» . وإن موسى — عليه السلام — لما سأل الرؤية جهرًا وقال : «رب أرني أنظر إليك» فرُدَّ بالجهر صريحًا وقيل له «لن تراني» .

وقيل إنما طلب حياة قلبه فأشير إليه بأن ذلك بذبح هذه الطيور ، وفي الطيور الأربعة طاووس ، والإشارة إلى ذبحه تعنى زينة الدنيا ، وزهرتها ، والغراب لحرصه ، والديك لمشيته ، والبط لطلبه لرزقه .

ولما قال إبراهيم عليه السلام : أرني كيف تمحي الموتى ؟ قيل له : وأرني كيف تدبج الحي ؟ يعنى إسماعيل ، مطالبة بمطالبة . فلما وفى بما طوب به وفى الحق سبحانه بحكم ما طلب .
وقيل كان تحت ميعاد من الحق — سبحانه — أن يتخذ خليلاً ، وأما ذلك إحياء الموتى على يده ، فخرى ما جرى .

ووصل بين^(١) قصة الخليل صلى الله عليه وسلم فيما أراه وأظهره على يده من إحياء الموتى وبين عزير إذ أراه فى نفسه ؛ لأن الخليل يرجح على عزير فى السؤال وفى الحال ، فإن إبراهيم — عليه السلام — لم يرد عليه فى شيء ولكنه تَلَطَّفَ فى السؤال ، وعزير كلمه كلام من يشبه قوله قول المستبعد ، فأراد الحق أن يظهر له أقوى معجزة وأتم دلالة حيث أظهر إحياء الموتى على يده حين التبس على نمرود ما قال إبراهيم — عليه السلام — ربى الذى يحيى ويميت ، فقال «أنا أحيى وأميت» أراد إبراهيم أن يرى الله سبحانه إحياء الموتى ليعلم أنه ليس هو الذى ادعى .

وفى هاتين الآيتين رخصة لمن طلب زيادة اليقين من الله سبحانه وتعالى فى حال النظر^(٢) .

ويقال إن إبراهيم أراد إحياء القلب بنور الوصلة بحكم التمام ، فقيل له : «أو لم تؤمن» يعنى أما تذكر حال طلبك إيانا حين كنت تقول لكل شيء رأيت «هذا ربى» فلم تدّر كيف بلغناك إلى هذه الغاية ، فكذلك يوصلك إلى ما سمت إليه همتك .

(١) جميل من القشدي أن يوضح التماسك والالتصاف فى السياق القرآنى بين قصة وقصة .

(٢) خصوصاً فى مرحلة البداية من أجل تصحيح الإيمان .

والإشارة من هذا أن حياة القلب لا تكون إلا بذبح هذه الأشياء يعنى النفس ؛ فمن لم يذبح نفسه بالمجاهدات لم يحى قلبه بالله .

وفيه إشارة أيضاً وهو أنه قال قطع بيدك هذه الطيور ، وفرق أجزاءها ، ثم ادعهن يأتينك سعيًا ، فما كان مذبحاً بيد صاحب الخلعة ، مقطعاً مفرقاً بيده — فإذا ناداه استجاب له كل جزء مفرق . . كذلك الذى فرق الحق وشتته فإذا ناداه استجاب :

ولو أن فوق تربة ودعوتني لأجبت صوتك ، والعظام رفأت

قوله جل ذكره : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل

الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل

فى كل سنبل مائة حبة والله يضاعف

لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ .

فالخلف لهم الجنة ، والذين ينفقون أرواحهم فى سبيل الله فالخلف عنهم الحق سبحانه ،

وشتان بين خلف من أنفق ماله فوجد مثوبته ، ومن أنفق حاله فوجد قربته ؛ فالإنفاق المال

فى سبيله بالصدقة ، والإنفاق الأحوال فى سبيله بملازمة الصدق ، وبنى كل حظ ونصيب ، فترضى

لجريان حكمه عليك من غير تعيس القلب ، قال قائلهم :

أريد وصاله ويريد هجرى فأتى ما أريد لما يريد

والإنفاق على ضربين : إنفاق العابدين وإنفاق الواجدين . أما العابدون فإذا أنفقوا

حبة ضاعف لهم سبعين إلى ما ليس فيه حساب ، وأما الواجدون فكما قيل :

فلا حسن نأتى به يقبلونه ولا إن أسأنا كان عندهم محو

قوله جل ذكره : ﴿ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله

ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى

لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف

عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

المن شهود ما تفعله ، والأذى تذكره — لمن أحسنت إليه — إحسانك .

ويقال ينفقون ما ينفقون ثم لا يشهدون ألبتة أفعالهم ولا أعمالهم .

ويقال كيف يمنون بشيء تستعذرونه وتستحقونه .

ويقال لا يمنون بفعلهم بل يشهدون المنّة لله بتوفيق ذلك عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قولٌ معروفٌ ومغفِرٌ خيّرٌ من

صدقةٍ يتبعها أذىً والله غنيٌ حلِيمٌ ﴾

يعنى قولٌ — للفقير المجرد — يرد به من تعرض له بإظهار العذر خير وأتم من صدقة المعجب بفعله ، وما يتبع من إلزام المنّة فيه .

ويقال إقرار منك مع الله بعجزك وجُرمك ، وغفران الله لك على تلك القالة — خيرٌ من صدقةٍ بالمنّ مشوبة ، وبالأذى مصحوبة .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم

بالمنّ والأذى كالذى ينفق ماله رِثاء

الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر

فمَثَلُهُ كمثلِ صفوانٍ عليه ترابٌ

فأصابه وابلٌ فتركه صلداً لا يقدرون

على شيءٍ مما كسبوا والله لا يهدي

القوم الكافرين ﴾ .

إنما يُحمَلُ جميلُ المنّة من الحق سبحانه ، فأما من الخلق فليس لأحد على غيره منّة ، فإنّ تحلّ المنّ من المخلوقين أعظم محنة ، وشهود المنّة من الله أعظم نعمة ، قال قائلهم :

ليس إجلالك الكبار بذلٌّ إنما الذلُّ أن تُجِلَّ الصغارا

ويقال أفقر الخلق مَنْ ظنَّ نفسه مويراً فيبين له إفلاسه ، كذلك أقل الخلق قدراً مَنْ ظنَّ أنه على شيءٍ فيبدو له من الله ما لم يكن يحسبه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ
 مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ
 كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ
 فَآتَتْ أُكُوفَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا
 وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *
 أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ
 مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
 الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ
 وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضُعْفَاءُ
 فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ،
 كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ
 لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

هذه آيات كثيرة ذكرها الله تعالى على جهة ضرب المثل للمخلص والمنافق : لمن أنفق
 في سبيل الله ، ولمن أنفق ماله في الباطل ؛ فهؤلاء يحصل لهم الشرف والخلف ، وهؤلاء
 لا يحصل لهم في الحال إلا الرد ، وفي المال^(١) إلا التلف . وهؤلاء ظلّ سعيهم مشكوراً ،
 وهؤلاء يدعون ثبورا ويصنّون سعيّاً هؤلاء تزكو أعمالهم وتنمو أموالهم وتعلو عند الله
 أحوالهم وتكون الوصلة مآلهم ، وهؤلاء حبّطت أعمالهم وخسرت أحوالهم وختم بالسوء آمالهم
 ويضاعف عليهم وبآلهم .

ويقال مثلاً هؤلاء كالذي أنبت زرعاً فزكا أصله ونما^(٢) فصله ، وعلا فرعُه وكثر
 نفعُه . ومثلاً هؤلاء كالذي خسرت صفقته وسرقت بضاعته وضاعت — على كبره^(٣) —

(١) وردت (المال) والصحيح أنها (المآل) على عادة القشيري في المقابلة بين ما يحدث في الدنيا
 وفي الآخرة ؛ بين الحال والمآل .

(٢) وردت (نماء) والصحيح أنها قل (نما) ليسجم التركيب الداخلي للأسلوب .

(٣) إشارة إلى ما في الآية : (وأصابه الكبر) .

حيلته وتواترت من كل وجه وفي كل وقت محنته هل يستويان مثلاً ؟ وهل يتقاربان شَبَهاً ؟

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ، وَلَا تَيَسَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْنِصُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

لينظر كل واحدٍ ما الذي ينفقه لأجل نفسه ، وما الذي يخرج به بأمر ربه . والذي يخرج عليك من ديوانك : فما كان لحظك فنفاث ملكك ، وما كان لربك فخصائص مالك الذي لله (فاللَّيْمَةُ لِقَمَّتِهِ)^(١) ، والذي لأجلك فأكثرها قيمة وأكملها نعمة .

ثم أبصر كيف يستر عليك بل كيف يقبله منك بل أبصر كيف يعوضك عليه ، بل أبصر كيف يقبله منك ، بل أبصر كيف يمدحك بل أبصر كيف ينسبه إليك ، الكل منه فضلاً لكنه ينسبه إليك فعلاً^(٢) ، ثم يؤني عليك عطاءه ويسمى العطاء جزاءً ، يوصحك بتوفيقه برّاً ، ثم يملأ العالم منك شكرياً .

قوله جل ذكره : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

يَعِدُ الشَّيْطَانُ الْفَقْرَ لَفَقْرِهِ ، وَاللَّهُ يَعِدُ الْمَغْفِرَةَ لِكَرَمِهِ .

(١) وردت هكذا (فلقيته لقمته) ويحتمل ان تكون كما أثبتنا ، أو أن تكون فالقيمة لقيته بدليل ما بعدها .

(٢) تأمل كيف يرى القشيري قيمة العمل الإنساني : إنه على الحقيقة فضل من الله ولكن من الناحية النسبية فعل للانسان . . . وهذه مسألة هامة تتفرع عنها قضايا كلامية كثيرة يختلف فيها عن المعتزلة .

الشیطانُ یعدمُ الفقرَ فیشیرُ علیکم بإحرازِ المعلوم ، ویقالُ یشیرُ علیکم — بطاعته — بالحرص ؛ ولا فقرَ فوقه .

یعدمُ الفقرُ بالإحالة علی تدبیرکم واختیارکم .

یعدمُ الفقرُ بنسیانِ ما تَعَوَّدْتُمُوهُ من فضله — سبحانه^(١) .

ویقالُ یعدمُ الفقرُ بأنه لا یزیدُ شکایتک .

ویقالُ یعدمُ الفقرُ بتعلیقِ قلبک بما لا محتاجُ إلیه .

ویقالُ بالنلیسِ علیک رؤیة کفایته .

« ویأمرکم بالفحشاء » أی الرغبة فی الدنیا ، ویقالُ بالأسباب التي تقوی الحرص ، ویقالُ بكثرة الأمل ونسیانِ القناعة ، ویقالُ بمنابعة الشهوات ، ویقالُ بإیثار الحظوظ ، ویقالُ بالنظر إلی غیره ، ویقالُ بإخطار شیءٍ سواه ببالك .

ویقالُ بالانحطاط إلی أوطان الرُّخص والتأویلات بعد وضوح الحق .

ویقالُ بالرجوع إلی ما ترکته لله

« والله یعدمُ مغفرة منه وفضلاً » : الفضل الموعود — فی العاجل — القناعة ، وفی الآجل الثواب والجنان والرؤیة والرضوان و (. . . .)^(٢) والغفران .

ویقالُ فی العاجل الظفر بالنفس ، ویقالُ فتح باب العرفان ، ونشر بساط القرب ، والتلقى لمكاشفات الأُنس .

قوله جل ذكره : ﴿ یؤتی الحکمة من یشاء ومن یؤتِ

الحکمة فقد أوتی خیراً کثیراً

وما ینذکر إلا أولوا الألباب ﴾

(١) أضفنا (سبحانه) لیمتنع اللبس وهی غیر موجودة فی (س) .

(٢) هنا لفظة مشتبهة أقرب ما تكون إلی (العفو) ولکننا آثرنا عدم إثباتها فی النص لعدم التأکید .

الحكمة : يحكم عليكم خاطرُ الحقِّ لا داعى النفس ، ونحكم عليكم قواهر الحق لا زواجر الشيطان .

ويقال الحكمة صواب الأمور .

ويقال هي ألا تحكم عليك رعونات البشرية .

(ومن لا حكم له على نفسه لا حكم له على غيره)^(١) .

ويقال الحكمة موافقة أمر الله تعالى ، والسفّة مخالفة أمره .

ويقال الحكمة شهود الحق والسفّة شهود الغير

قوله جل ذكره : ﴿ وما أنفقتم من نفقةٍ أو نذرتم من

نذرٍ فإن الله يعلمه وما للظالمين

من أنصارٍ ﴾

قوم توعّدتم بعقوبته ، وآخرون توعدهم بعثوبته .. وآخرون توعدهم بعلمه ، فهؤلاء العوام^(٢)

وهؤلاء الخواص . قال تعالى : « واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا » فلا شيء يوجب سقوط

العبد من عين الله كمخالفته لهوذه معه بقلبه ، فليحذر المرید من إزلال^(٣) نفسه في ذلك

غاية الحذر .

قوله جل ذكره : ﴿ إن تبدوا الصدقات فنعىّا هي ،

وإن تُخفوها وتؤتوها الفقراء فهو

خيرٌ لكم ، ويكفر عنكم من

سيئاتكم ، والله بما تعملون خبير ﴾

(١) ربما وقع الناسخ في خطأ حين وضع هذه الجملة في هذا المكان ، والأقرب أن تكون بعد كلمة

(زواجر الشيطان) فنحن نعرف من مذهب القشيري أنه يرى أن الشيطان لا يملك أن يفرى الخلق

(لأنه لو كان قادراً على ذلك لكان يمسك على الهداية نفسه ، ومن عجز أن يحافظ على نفسه كان في إغراء غيره أشد عجزاً) قال تعالى : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان » .

(٢) العوام هنا تنصرف إلى الموعودين بالثوبة والمتوعدين بالعقوبة .

(٣) (إزلال) بالزاي معناها الايقاع في الزلة والتسبب في ارتكابها ، أوضحناها حتى لا نلتبس

(بإذلال) ومع ذلك فيمكن قبول (إذلال) بالذال إذا فهمنا أن سقوط العبد من عين الله هو (ذلة) لنفسه .

إِنْ أَظْهَرْتَ صَحْبَتَكَ معنا وأعلنتَ فلقد جَوَّدْتَ وأحسنْتَ ، وإنْ حَفَظْتَ سِرَّنَا عن دخول الوسائط بيننا صُنِّتْ شروط الوِزَاد ، وشيَّدت من بناء الوصلة العَهاد .

قوله جل ذكره : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ ، وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾

لَكَ المَقَامُ المحمود ، والوَاءُ المعقود ، والرتب الشريفة ، والمنازل العلية ، والسنن للرضية . وأنت سيد الأولين والآخرين ، ولا يدانيك أحدٌ — فضلاً عن أن يساميك ، ولكن ليس عليك هدام فالهداية من خصائص حقنا ، وليس للأغيار منه شظية . يا محمد : أنت تدعوهم ولكن نحن نهديهم^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ ، يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعْفِفِ ، تَعْرِفُهُمْ بِسَبَاهِمَ ، لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْلَافًا ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾

أخذ عليهم سلطان الحقيقة كل طريقٍ ، فلا هم في الشرق مذهب ، ولا هم في الغرب مضرب . كيفما نظروا رأوا سرادقات التوحيد محدقة بهم :

كَأَنَّ فُجَاجَ الْأَرْضِ ضَاقَتْ بِرَحْبِهَا عَلَيْهِمْ فَمَا تَزْدَادُ طَوْلًا وَلَا عَرْضًا

(١) من هذه الفقرة يتضح موقف التصوف الإسلامى الحق في نظرتة إلى الرسول صلوات الله عليه وليس في الأمر - كما نرى - جوحٌ أو شطط (قارن ذلك بنظرة ابن عربى وثلامية) .

ولا يسلم لهم نفس مع الخلق ، وأننى بذلك ولا خلق ١١ وإذا لم يكن فإثبات ما ليس
شركاً (سقا) (١) في التوحيد .

والفقير الصادق واقف مع الله بالله ، لا إشراف للأجانب عليه ، ولا سبيل لمخلوق إليه
تنظره عين الأغيار في لبسة سوى ما هو به ، قال تعالى : « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » ،
فأما من كان ذا بصيرة فلا إشكال عليه في شيء من أحوالهم . تعرفهم يا محمد — أنت —
بسيامهم ، فليست تلك السياء مما يلوح للبصر ولكنها سياء تدركها البصيرة . لا إشراف عليهم
إلا بنور الأحدية .

ويقال « تعرفهم بسيامهم » : استبشار قلوبهم عند انكسار نفوسهم ، وصياح أسرارهم إلى
العرش (نشاطاً عنه) عند قبول ظاهرهم عن الانتعاش (٢) .

ويقال تكسر الظاهر عند تكسر الباطن وبالعكس من هذه لا يسألون الناس إلحافاً ،
فإن جرى منهم من الخلق بدون الإلحاف سؤال — لما يشير إليه دليل الخطاب — فذلك
صيانة لهم وأسر قصتهم ، لئلا يلاحظهم الخلق بعين السؤال ، وليس على سرهم ذرة من
الإثبات للأغيار (٣) .

ويقال : « أخصروا في سبيل الله » : وقفوا على حكم الله ، وأخصروا نفوسهم على طاعته
وقلوبهم على معرفته ، وأرواحهم على محبته ، وأسرارهم على رؤيته .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار
سراً وعلانية فلم أجزم عند ربهم
ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾

مادام لهم مال لا يفترون ساعة عن إنفاقه ليلاً ونهاراً ، فإذا نفذ المال لا يفترون عن شهوده
لحظة ليلاً ونهاراً .

(١) مشتبهة وقد أثرنا أن ننقلها كما هي وربما كانت (سقا) أى علة في التوحيد .

(٢) العبارة فيها شيء من غموض نتيجة اشتباه ما بين القوسين ولكن المراد — والله أعلم — أنه بينما
يبدو ظواهرهم ذابلة بحكم التواضع والانكسار فإن أسرارهم جادة في التسبيح من حول العرش .

(٣) هنا يبدو التفسير متأثراً بتعاليم أهل الملامة النيسابورية .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ

إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ

مِنَ الْمَسِّ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ

مِثْلُ الرِّبَا ، وَأَحْلَ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ

الرِّبَا ، فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ

فَاتَّهَىٰ فَهُوَ مَاسِلٌ ، وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ

وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ

هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿

مَنْ أَعْرَضَ عَنِ الْأَمْرِ ، وَرَخَّصَ لِنَفْسِهِ بِمَا يَسُوْلُهُ لَهُ خَاطِرُهُ مِنَ التَّأْوِيلِ فَلَا اسْتِقْلَالَ لَهُمْ
فِي الْحَالِ وَلَا اتِّعَاشَ فِي الْمَالِ ، خَسِرُوا فِي عَاجِلِهِمْ وَلَمْ يَرْجِعُوا فِي آجِلِهِمْ .

وَمَنْ اتَّبَعَ بِزَوَاجِرِ الْوَعْظِ ، وَكَبَّحَ لِحَاوِسِّ الْهَوَى ، وَلَمْ يُطْلِقْ عَنَانَ الْإِصْرَانِ فَلَهُ الْإِمْهَالُ
فِي الْحَالِ ، فَإِنْ عَادَ إِلَى مَذْمُومِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ فَلْيَنْتَظِرْ وَأَوْشَكَ الْاسْتِصْالَ وَفَجَاءَهُ النَّكَالُ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَتَحَقَّقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرَبِّي الصَّدَقَاتِ

وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿

مَا كَانَ بِإِذْنٍ مِنْهُ —سُبْحَانَهُ— مِنَ التَّنَصُّفَاتِ فَفَقِرُوا بِالْخَيْرَاتِ ، وَمَصْحُوبٌ بِالْبَرَكَاتِ .

وَمَا كَانَ بِمُتَابَعَةِ الْهَوَى يُسَلِّطَ عَلَيْهِ الْحَقَّ ، وَكَانَتْ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ الْخُسْرَانُ

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرٌ

عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ ﴿

إِنَّ الَّذِينَ كَانُوا لَنَا يَكْفِيهِمْ مَا يَجِدُونَ مِنَّا ، لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا

مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿

الاكتفاء بموعد الرب خيرٌ للمسلم من تعليق قلبه بمقصود نفسه .

ومقصودك من تسويات النفس ، وموعدك مما ضمنه الحق .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ

اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ

أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾

إن صاحب الإصرار ليس له عندنا وزن ولا مقدار ، ولا قدرٌ ولا أخطار .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى

مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ

إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

إذا تقرر عند القاضي إفلاس المحبوس فلا تحل له استدامة حبسه ، وإن ظهرت لدى الحق

حجة المفلس فذلك مرتين بحق خصمه ، ولكنه في إهمال وإنظار . والرب لا يحكم بهذا علينا ،

فعلمه بإعسارنا وعجزنا ، وصدق افتقارنا إليه وانقطاعنا له — يرحمنا .

قوله « إلى ميسرة » : ليس للفقير المفلس وجه يحصل له منه شيء إلا من حيث ما جعل

الله سبحانه من سهم الغارمين ، فأما من جهة الغلات فالغلة تدخل من رقاب الأموال والعقود ..

وأنتى للمفلس به ١٩

وأما الربح في التجارة من تقليب رأس المال والتصرف فيه .. فأنتى للمفلس به ١٩

ما بقي للمفلس إلا قول من قال من الفقهاء (.)^(١) وإن كان ضيقاً ،

فذلك لمن بقيت له مئة الحراك أما للمفلس عن قوته — كما هو مفلس عن ماله — ما بقي له وجه

إلا ما يسبب له مولاه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ

ثُمَّ تُوفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ

لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

(١) هنا عبارة مطبوعة .

الرجوع على ضربين : بالأبشار والنفوس غداً عند التوفى ، وبالأسرار والقلوب فى كل نفسٍ محاسبة ؛ نقدٌ ووعد ، فنقدُ مطالبته أحقُّ مما سيكون فى القيامة من وعده .

وقال للموام : « واتقوا يوماً » وقال للخواص : « وإياى فاتقون »

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدِينٍ

إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ

بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ

أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ

وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ

رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ

كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ ضَعِيفًا

أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلَ

فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ، وَاسْتَشْهِدُوا

شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا

رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ إِمَّا تَرْضَوْنَ

مِنَ الشَّهَادَةِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ

إِحْدَاهُمَا الْآخَرَى وَلَا يَأْبَ الشَّهَادَةُ

إِذَا مَا دُعُوا ، وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ

تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ

ذَلِكَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ

وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ

تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُوتَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ

عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ،

وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ، وَلَا يُضَارَّ

كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ إِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ

فُسُوقٌ بَكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ

الله ، والله بكل شيء عليم * وإن
كنتم على سفرٍ ولم تجدوا كاتباً
فرهانٍ مقبوضة فإن أمن بعضكم
بعضاً فليؤد الذي آؤنن أمانته
وليتق الله ربه ولا تكتبوا
الشهادة ومن يكتبها فإنه آثم
قلبه والله بما تعملون عليم .

أمر الله سبحانه الخلق بالقيام بالصدق ، وعلمهم كيفية معاملاتهم فيما بينهم ، والأخذ
بالاحتياط والاستشهاد لئلا يجزى — بعضهم على بعض — حيفاً ، وذلك من مقتضى رحمته
سبحانه عليهم ، وموجب رفقته بهم كيلا يتخاصموا . فأمر بتحصين الحقوق بالكتابة
والإشهاد ، وأمر الشهود بالتحمل ثم بالإقامة .

ومن شرع اليوم ما يقطع الخصومة بينهم فبالحرى أن يجزى ما يرفع في الآخرة آثار
الخصومة^(١) بينهم ، وفي الخبر المنقول : تواهبا فيما بينكم فقد وهبت منكم مالى عليكم ،
فإن الكريم إذا قدر غفر .

وفما شرع من الدين^(٢) رفق بأرباب الحاجات ، لأن الحاجة تمس فيحمله الحال على
الاحتياط ، ويضيق به الصدر عن الاحتمال ، ويمنعه حفظ التجميل عن الكدية والسؤال ، فأذن
له في الاستدانة ليَجْبُرَ أمره في الحال ، وينتظر فضل الله في المال ، وقد وعد على الإداة
الثواب الكثير ، وذلك من لطفه تعالى .

قوله جل ذكره : ﴿لله ما في السموات وما في الأرض
وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه
يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء

(١) وردت (الحكومة) ونظن أنها خطأ في النسخ وأن الأصل (الخصومة) .

(٢) ضبطناها هكذا وذلك هو الملائم للسياق .

ويعذب من يشاء والله على كل شيء
قدير .

من للمعاني والدعاوى ، ويقال من القصور والرغائب ، وفنون الحوائج والمطالب .

ويقال ما « تبديه » : العبادة ، « وما تخفيه » : الإرادة .

ويقال ما « تخفيه » : الخطرات و « ماتبديه » : « العبارات » .

ويقال ما « تخفيه » : السكنات والحركات^(١)

ويقال الإشارة فيه إلى استدامة المراقبة واستصحاب المحاسبة ، فلا تغفل^(٢) خطرة
ولا تحمل وقتك نفسك^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ
وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ
وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا
غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ .

هذه شهادة الحق — سبحانه — لنبية — صلى الله عليه وسلم وعلى آله — بالإيمان ،
وذلك أتم له من إخباره عن نفسه بشهادته .

ويقال آمَنَ الخلق كلهم من حيث البرهان وآمن الرسول — عليه السلام —
من حيث العيان .

ويقال آمَنَ الخلق بالوسائط وآمن محمد — صلى الله عليه وسلم — بغير واسطة .

(١) ربما كانت في الأصل « تخفيه » السكنات « وتبديه » الحركات وسقطت تبديه من النسخ .
(٢) وردت (تغفل) وربما صحت على أساس أن تغفل (بمعنى تجلس) أو بمعنى استخدام العقل ، وهو
في هذه الحالة آفة تعترض الفناء الكامل .
(٣) ضبطناها هكذا لأن الانتباه إلى (النفس) أمانة عدم اكتمال الفناء .

ويقال هذا خطاب الحق معه ليلة المعراج على جهة تعظيم القدر فقال « آمن الرسول » ،
ولم يقل آمنت ، كما تقول لعظيم الشأن من الناس : قال الشيخ ، وأنت تريد قلت .
ويقال آمن الرسول والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، ولكن شتان بين
إيمان وإيمان ، الكل آمنوا استدلالاً ، وأنت يا محمد آمنت وصلاً .

قوله جل ذكره ﴿ لَا يَكْفِيكَ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾
لكمال رحمته بهم وقهم على حد وسعهم ودون ذلك بكثير ، كل ذلك رفق منه وفضل .
﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾

من الخيرات .

﴿ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾

ما تكسبه من التوبة التي تنجى من كسب (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ
عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا
مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾

كان إذا وقعت حاجة كلموه بلسان الوسطة . قالوا « يا موسى ادع لنا ربك » وهذه
الامة قال لهم : « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم » .

وكانت الامم (السالفة) (٢) إذا أذنبوا احتاجوا إلى مضي مدة لقبول التوبة ، وفي هذه
الامة قال صلى الله عليه وسلم : « الندم توبة » .

وكانت الامم السالفة منهم من قال اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة ، وهذه الامة اختصت بإشراق
أنوار توحيدهم ، وخصائضهم أكثر من أن يأتي عليه الشرح .

(١) قد يبدو للوهلة الأولى ان القشيري في استخراج إشارته من (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت)
يتجه إنجازاً بخالفاً للتفسير التقليدي ، ولكن الواقع ان إشارة القشيري مرتبطة بمذهبه في أن الله خالق
كل شيء حتى أفعال العباد ، فهو خالق التوبة وحين يتقبلها تعود (على) العبد ، انظر مثلاً تفسيره (ويتوب
عليكم) من سورة النساء .. من هذا الكتاب) .

(٢) (السالفة) موجودة في الهوامش فأنتنناها في موضعها من المتن .

قوله جل ذكره : ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾

في الحال

﴿وَاعْفِرْ لَنَا﴾

في المآل

﴿وَارْحَمْنَا ، أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا

عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

في جميع الأحوال إذ ليس لنا أحد سواك ، فأنت مولانا فاجعل النصر لنا على ما يشغلنا عنك .

ولما قالوا « ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا » خَسَفَ الله ذنوبهم بدل خسف المتقدمين ، فأبدل ذنوبهم حسنات بدل مسخهم ، وأمطر عليهم الرحمة بدل ما أمطر على المتقدمين من الحجارة .

والحمد لله رب العالمين .

السورة التي بذكر فيها آل عمران

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

اختلف أهل التحقيق في اسم « الله » هل هو مشتق من معنى أم لا ؟ فكثير منهم قالوا إنه ليس بمشتق من معنى ، وهو له سبحانه على جهة الاختصاص^(١) ، يجري في وضعه مجرى أسماء الأعلام في صفة غيره ، فاذا قرع بهذا اللفظ أسماء أهل المعرفة لم تذهب فهمهم ولا علومهم إلى معنى غير وجوده سبحانه وحقه . وحق هذه القالة أن تكون مقرونة بشهود القلب فاذا قال بلسانه « الله » أو سمع بأذانه شهد بقلبه « الله » .

وكما لا تدل هذه الكلمة على معنى سوى « الله » لا يكون مشهوداً قائلها إلا « الله » فيقول بلسانه « الله » ، ويعلم بفؤاده « الله » ، ويعرف بقلبه « الله » ، ويحب بروحه « الله » ،

(١) وردت (الاقتصاص) .

وبشهاد بسره « الله » ، وينملق^(١) بظاهره بين يدي الله ، ويتحقق بسرّه الله ، ويخلو بأحواله الله وفي الله ؛ فلا يكون فيه نصيب لغير الله ، وإذا أشرف على أن يصير محوّا في الله بالله تداركه الحق سبحانه برحمته فيكاشفه بقوله^(٢) الرحمن الرحيم استبقاء لمهجّتهم أن تتلف ، وإرادة في قلوبهم أن تنق ؛ فالتلف سنة منه سبحانه لثلاثي أولىة بالسكينة .

قوله جل ذكره : ﴿الم * الله﴾

أشار بقوله ألف إلى قيامه بكفايتك على عموم أحوالك ، فأنت في أسر الغفلة لا تهتدي إلى صلاحك ورشدك ، وهو بحر ما يجبرك ، وكاف بما ينصرّك ، فبغير سؤالك — بل بغير علمك بحالك — يكفيك من حيث لا تشعّر ، ويعطيك من غير أن تطلب .

والإشارة من اللام إلى لطفه بك في خفي السرّ حتى أنه لا يظهر عليك محل المنة فيما يشبك فيه . والإشارة من الميم لمواقفة جريان التقدير بمنعقات الطلّبة من الأولياء ، فلا يتحرك في العالم شيء ، ولا تظهر ذرة إلا وهو بمحل الرضا منهم حتى أن قائلاً لو قال في قوله : « كل يوم هو في شأن » إن ذلك الشأن تحقيق مراد الأولياء — لم يكن ذلك بعيد .

ويقال تفرّق عن القلوب — باستماع هذه الحروف المقطعة التي هي خلاف عادة الناس في التخاطب — كل معلوم ومرسوم ، ومعتاد وموهوم ، من ضرورة أو حسن أو اجتهاد ، حتى إذا خلت القلوب عن الموهومات والمعلومات ، وصنّى الأسرار عن المعنادات والمعهودات يرّد هذا الاسم وهو قوله : « الله » على قلب مقدّس من كل غدير ، وسير مصنّى عن كل كيف ؛ فقال « الم الله لا إله إلا هو الحى القيوم » .

فهو الذى لا يلهو فيشتغل عنك ، ولا يسهو فتبقى عنه ، فهو على عموم أحوالك رقيب سرّك ؛ إن خلوت فهو رقيبك ، وإن توسّطت انخلّق فهو رقيبك^(٣) ، وفي الجملة — كيفادارت بك الأحوال — فهو حبيبك .

(١) إستخدم القشيري هذا الفعل في موضع بمائل عند قوله (تذكير ماسلف من الإنعام فتح لباب التلق في اقتضاء امثاله في المستقبل) وفي موضع آخر (فيحمله صدق الإرادة على التلق والتضرع من ٢٤٨ من هذا الجزء .

(٢) وردت (بقو) .

(٣) وردت فهو (قريبك) والمعنى يحتملها ولكن الانسجام في الأسلوب يتطلب (رقيبك) مكررة

قوله جل ذكره : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ .

وما كنت يا محمد تدري ما الكتاب ، ولا قصة الأحباب ، ولكنما صادفك اختيار أزل
فألقاك في أمر عجيب شأنه ، جلي برهانه ، عزيز محله ومكانه .

﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ .

أى محققاً لموعوده لك في الكتاب على ألسنة الرسل عليهم السلام .

﴿ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ من قبل

هتدى للناس وأنزل الفرقان .

أى إنا وإن أنزلنا قبلك كُتُبَنَا على المرسلين فما أخلينا كتاباً من ذكرك ، قال قائلهم :

وعندي لأحبابنا الغائبين صحائف ذكرك عنوانها

وكما أتمنا بك أنوار الأنبياء زيناً بذكرك جميع ما أنزلنا من الأذكار .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ

شديد ﴾ .

وهو ذلُّ الحجاب ، ولكنهم لا يشعرون .

« والله عزيز » على أوليائه « ذو انتقام » من أعدائه ، عزيز يطلبه كل أحد ، ولكن

لا يجده — كثيراً — أحد .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ

وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ .

لا يتنفس عبداً نفساً إلا والله سبحانه وتعالى مُحْصِيهِ^(١) ، ولا تحصل في السماء والأرض

ذرة لا وهو سبحانه مُحَدِّثُهُ ومُبْدِيهِ ، ولا يكون أحد بوصف ولا نعت إلا هو متوليهِ .

هذا على العموم ، فأما على الخصوص : فلا رَفَعَ أحدٌ إليه حاجةً إلا وهو قاضيها ،

ولا رجع أحدٌ إليه في نازلة إلا وهو كافيها .

(١) وردت (محببة) وهي خطأ من الناسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ هو الذى يُصَوِّرُكُمْ فى الأرحام
كيف يشاء ﴾ .

هذا فيما لا يزال من حيث الخلقه ، وهو الذى قدّر أحوالكم فى الأزل كيف شاء ،
وهذا فيما لم يزل من حيث القضاء والقسمه .

﴿ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾

فلا يُعَقَّبُ حكمه بالنقض ، أو يُعَارَضُ تقديره بالإهمال والرفض .

قوله جل ذكره : ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه

آيات محكمات هن أم الكتاب

وأخر متشابهات فأما الذين

فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه

منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ،

وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون

فى العلم يقولون آمنا به ، كل ثمين

عند ربنا ، وما يذكروا إلا أولوا

الألباب ﴾

جنس عليهم الخطاب ؛ فمن ظاهر واضح تنزيهه ، ومن غامض مشكل تأويله . القسم

الأول لبسط الشرع واهتداء أهل الظاهر ، والقسم الثانى لصيانة الأسرار عن اطلاع الأجانب

عليها ، فسبيل العلماء الرسوخ فى طلب معناه على ما يوافق الأصول ، فما حصل عليه للموقوف

فمقابل بالقبول ، وما امتنع من التأثير فيه بمحاول الفكر سلّوه إلى عالم الغيب .

وسبيل أهل الإشارة والفهم إلقاء السمع بحضور القلب ، فاستنح لفهومهم من لائح

التعريفات بنوا (عليه)^(١) إشارات الكشف .

(١) فى ص (بنوا على) والأصوب (بنوا عليه) حتى تناسك العبارة لأن الإشارة تلبنى على التعريف .

إِنْ (طولبوا)^(١) باستدامة الستروطي السّر تخارصوا عن النطق ، وإن أمروا بالإظهار والنشر أطلقوا بيان الحق ، ونطقوا عن تعريفات الغيبة ، فأما الذين أيدوا بأنوار البصائر فستضيئون بشعاع شمس الفهم ، وأما الذين ألبسوا غطاء الريب ، وحرموا لطائف التحقيق ، فتتقسم بهم الأحوال وتترجم بهم الظنون ، ويطيحون في أودية الريب والتليس ، فلا يزدادون إلا جهلاً على جهل ، ونفوراً على شك .

قوله جل ذكره : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾

ومن وجد علمه من الله فيكون إيمانهم بلا احتمال جولان خواطر التجويز بل عن صريحات الظهور ، وصافيات اليقين . وأما أصحاب العقول الصاحية ففي صحبة التذكر ، لظهور البراهين و (. . .)^(٢) أحكام التحصيل .

قوله جل ذكره : ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾

ما ازدادوا قرباً إلا ازدادوا أدباً ، واللياذ إلى التباعد أقوى أسباب رعاية الأدب^(٣) .
ويقال حين صدقوا في حسن الاستغاة أميدوا بأنوار الكفاية .

قوله جل ذكره : ﴿ ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد ﴾

اليوم جمع الأحباب على بساط الاقتراب ، وغداً جمع الكافة لحل الثواب والعقاب ،

(١) في ص (طالبوا) والأوفق أن تبنى للمجهول مثل (أميروا) التي بعدها ، لأن فاعليتهم جيلند مفتودة .

(٢) مشبهة .

(٣) ربما يقصد القشيري من هذه العبارة أنهم أبدأ طامعون في الهداية محتاجون - لا لأعمالهم - بل لفضل الله ، ومهما أسبغ عليهم يشعرون بأنهم ما زالوا بعيدين عن التمام ، وعلى هذا التفسير تنسجم هذه العبارة مع سابقتها « ما ازدادوا قرباً إلا ازدادوا أدباً » .

اليوم جمع الأسرار لكشف الجلال والجمال ، وغداً جمع الأبرار لشهود الأحوال ، ومقاساة ما أخبر عنه من تلك الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ إِن الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾

فلا فداء ينفعهم ، ولا غناء يدفعهم ، ولا مال يُقبلُ منهم ، ولا حجاب يُرفع عنهم ، ولا مقال يسمع فيهم ، بهم يُسعرُ الجحيم ، ولم الطرد الأليم ، والبعد والحميم .

قوله جل ذكره : ﴿ كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

أصرُّوا في العتوِّ على سننهم ، وأدمنَّا لهم في الانتقام سنننا ، فلا عن الإصرار أقلموا ، ولا في الميار طمعوا ، ولعمري إنهم هم الذين ندموا ونحسروا على ما قدَّموا — ولكن حينما وجدوا الباب مسدوداً ، والندم عليهم مردوداً .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُنْحَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾

أخبرهم أنهم يفوتهم حديث الحق في الآجل^(١) ، ولا تكون لهم لذة عيش في العاجل ، والذي يلقونه في الآخرة من شدة العقوبة بالحرقة فوق ما يصيبهم في الدنيا من الغيبة عن الله والفرقة^(٢) ، ولكن سقيمت البصائر فلم يحسوا بأليم العقاب .

(١) يشير القشيري بهذا إلى الآية الكريمة « لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكهم » .
(٢) أما الخواص فيرون رؤية الله منتهى آمالهم ، وصداء عنهم أشد عليهم من عذاب السعير ، يقول البسطامي : « لله خواص من عباده لو حجبتهم في الجنة عن رؤيته ساعة لاستفاثوا بالخروج من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار »

قوله جل ذكره : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنِىَ التَّقَاتِ فَمَا تَقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأًى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنْ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِى الْأَبْصَارِ ﴾

إذا أراد الله إِمضاء أمرٍ قَلَّ الكثیر فى أعین قوم ، وكَثُرَ القلیل فى أعین قوم ، وإذا لبَّس على بصيرة قوم لم ینفعمهم نفاذ أبصارهم ، وإذا فتح أسرار آخِرین فلا یضرهم انسداد بصارهم (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾

یذكر بعض الشهوات على ما سواها مما هو فى معناها ، وفى الجملة ما یحببك عن الشهود فهو من جملة ما . وأصعب العوائق فى هذه الطريق الشهوة الخفية . وأداء الطاعات على وجه الاستحلاء معدودٌ عندم فى جملة الشهوة الخفية . ومن المقاطع المشكلة السكون إلى ما یلقاك به من فنون تقرييبك ، وكأنه فى حال ما یناجيك یناغيك ، فإنه بكل لطيفة یصفك (فیطريك) (٢) وتحتها خُدْعٌ خافية . ومن أدركته السعادة كاشفه بشهود جلاله وجماله (لا) (٣) بإثباته فى لطيف أحواله وما یخصه به من أفضاله وإقباله .

(١) من هذا نفهم أن ترتيب ملكات الاطلاع عند التشیرى هو على هذا النحو : البصر ثم البصيرة ثم السر (٢) مستدركة فى الهامش فأثبتناها فى موضعها .
(٣) نظن أن (لا) زائدة لأن السعادة التى تدرك العبد لا تتم إلا (بإثباته فى . .) .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَنبِئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِلَّذِينَ
اتَّقُوا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ
مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ
بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾

بَيْنَ فَضِيلَةِ أَهْلِ التَّقْوَى عَلَى أَرْبَابِ الدُّنْيَا ، فَقَالَ : هَؤُلَاءِ لَهُمْ مُتَابَعَةٌ لِلنَّبِيِّ وَمُوَافَقَةٌ لَهُوَ
وَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ؛ أَنْزَلَ كُلَّ قَوْمٍ مَنَزِلَهُ ، وَأَوْصَلَهُ
إِلَى مَا لَهُ أَهْلُهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا فَاغْفِرْ لَنَا
ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾
أَيُّ يَنْقُطِعُونَ إِلَيْنَا بِالْكَلِيَّةِ ، وَيَتَضَرَّعُونَ بَيْنَ أَيْدِينَا بِذِكْرِ الْحَمْنِ وَالرِّزْيَةِ ، أُولَئِكَ
يُنَالُونَ مِنَ الْقُرْبَةِ وَالْخُصُوصِيَّةِ ، وَالْدَّرَجَاتِ الْعُلَى ، وَالْقِسْمِ الْمَرْضِيَّةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ
وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾
الصَّبْرُ حَبْسُ النَّفْسِ ، وَذَلِكَ عَلَى ثَلَاثِ مَرَاتِبٍ :

صَبْرٌ عَلَى مَا أُمِرَ بِهِ الْعَبْدُ ، وَصَبْرٌ عَمَّا نَهِيَ عَنْهُ وَصَبْرٌ هُوَ الْوُقُوفُ تَحْتَ جَرِيَانِ حَكْمِهِ
عَلَى مَا يَرِيدُ ، إِمَّا فِي فَوَاتِ مَحْبُوبِكَ أَوْ هَجُومِ مَا لَا تَسْتَطِيعُهُ ^(١) .

فَإِذَا تَرَقَّيْتَ عَنْ هَذِهِ الصِّفَةِ - بِالْأَلَا تَصِيبُكَ مَشَقَّةٌ أَوْ تَنَالُ رَاحَةً - فَذَلِكَ رِضًا لَا صَبْرًا ^(٢) .
وَيُقَالُ الصَّابِرِينَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ ، وَالصَّادِقِينَ ، فِيمَا عَاهَدُوا اللَّهَ .
وَالْقَانِتِينَ ، بِنَفْسِهِمْ بِالْإِسْتِقَامَةِ فِي مَحَبَّةِ اللَّهِ .

(١) فَوَاتِ الْمَحْبُوبِ صَدُّهُ عَنْكَ وَهَجْرُهُ لَكَ ، وَالْهَجُومُ الَّذِي لَا تَسْتَطِيعُهُ هُوَ الَّذِي (يَرُدُّ عَلَى الْقَلْبِ بِقُوَّةِ
الْوَقْتِ مِنْ غَيْرِ تَصْنَعٍ مِنْكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَصَرَّفَهُ الْهَوَاجِمُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ فَوْقَ مَا يَفْجُوهُ حَالًا وَقُوَّةً ، أُولَئِكَ
سَادَاتُ الْوَقْتِ) الرِّسَالَةُ ص ٤٤ .
(٢) لَاحِظِ الْفَرْقَ بَيْنَ الرِّضَا وَالصَّبْرِ .

و « المستغفرين » عن جميع ما فعلوه لرؤية تقصيرهم في الله^(١)

ويقال : « الصابرين » بقلوبهم و « الصادقين » بأرواحهم و « القانتين » بنفوسهم ، و « المستغفرين » بالسنتهم .

ويقال « الصابرين » على صدق القصود و « الصادقين » في العهود و « القانتين » بحفظ الحدود و « المستغفرين » عن أعمالهم وأحوالهم بمجد استيلاء سلطان التوحيد .

ويقال « الصابرين » الذين صبروا على الطلب ولم يتعللوا بالهرب ولم يحتشموا من التعب ، وهجروا كل راحة وطلب . وصبروا على البلوى ، ورفضوا الشكوى ، حتى وصلوا إلى المولى ، ولم يقطعهم^(٢) شيء من الدنيا والعنى .

و « الصادقين » الذين صدقوا في الطلب فقصدوا ، ثم صدقوا حتى وردوا ، ثم صدقوا حتى شهدوا ، ثم صدقوا حتى وجدوا ، ثم صدقوا حتى فقدوا . . فترتيبهم قصود ثم ورود ثم شهود ثم وجود ثم خمود^(٣) .

و « القانتين » الذين لازموا الباب ، وداوموا على تجميع الاكتساب ، وتركوا المحاب ، ورفضوا الأصحاب إلى أن تحققوا بالاقتراب .

و « المنفقين » الذين جادوا بنفوسهم من حيث الأعمال ، (ثم جادوا بميسورهم من الأموال)^(٤) ، ثم جادوا بقلوبهم بصدق الأحوال ، ثم جادوا بترك كل حظ لهم في العاجل الآجل ، استهلاكاً عند القرب والوصال بما لقوا من الاضطلام والاستئصال^(٥) .

و « المستغفرين » عن جميع ذلك إذا رجعوا إلى الصحو عند الاسحار يعني ظهور الإسفار ، وهو فجر القلوب لا فجر يظهر في الأقطار .

(١) قارن ذلك بما يحكيه المناوي في (طبقاته) وابن الجوزي في (صفة الصفوة) عن رابعة أنها كانت تردد : (استغفارنا يحتاج إلى استغفار لعدم الصدق فيه) .

(٢) قواطع الدنيا معروفة أما قواطع العقبى فهي تعليق العمل المبدول بالاجر ، إما الطمع في المثوبة أو الخوف من العقوبة .

(٣) هذا تلخيص دقيق للمعراج الروحي ينبغي أن نتحمل عنده لحسن فهمه واستيعابه .

(٤) مشتركة فيما بين السطور فأثبتناها في موضعها .

(٥) الاستئصال هو الذي عبر عنه القشيري في رسالته بقوله : (كأس تصطبهم منهم ونفسيهم ونختطفهم ولا تبقيهم ، كأس لا تبقى ولا نذر ، نعوذ بالكلية ، ولا تبقى شظية من آثار البشرية) الرسالة ص ٤٣

قوله جل ذكره : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾

أَيَّ عِلْمِ اللَّهِ وَأَخْبَرَ اللَّهُ وَحَكَّمَ اللَّهُ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فهو شهادة الحق للحق بأنه الحق ، وأَوَّلُ مَنْ شَهِدَ بِأَنَّهُ اللَّهُ — اللَّهُ ، فشَهِدَ فِي آزَالِهِ بِقَوْلِهِ وَكَلَامِهِ وَخُطَابِهِ الْأَزَلِيِّ ، وَأَخْبَرَ عَنْ وجوده الأحدى ، وكونه الصمدى ، وعونه القيومى ، وذاته الديمومى ، وجلاله السرمدى ، وجلاله الأبدى . فقال : « شهد الله » ثم فى آبابه ، « شهد الله » أى بَيَّنَّ اللَّهُ بِمَا نَصَبَ مِنَ البراهين ، وأثبت من دلائل اليقين ، وأوضح من الآيات ، وأبدى من اليينات . فكل جزء من جميع ما خلق وفطر ، ومن كتم العدم أظهر ، وعلى ما شاء من الصفة الذاتية حصل ، من أعيان مستقلة ، وآثار فى (ثانى)^(١) وجودها مضمحلة ، وذوات للملافة قابلة ، وصفات فى المَحَالِّ متعاقبة — فهو لوجوده مُفْصِّحٌ ، ولربوبيته مَوْضِحٌ ، وعلى قِدَمِهِ شاهد ، وللعقول مُخْبِرٌ بأنه واحد ، عزيز ، ماجد ، شهد سبحانه بجلال قدره ، وكال عزه ، حين لا يجد ولا جهود^(٢) ولا عرفان لخلق ولا عقل ، ولا وفاق ، ولا كفر ، ولا حدثان ، ولا غير ، ولا إلحاد ، ولا شرك ، ولا فهم ولا فكر ، ولا سماء ولا فضاء ، ولا ظلام ولا ضياء ، ولا وصول للمزدوجات^(٣) ، ولا فضول باختلاف الآفات .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾

لم يؤيد شهادته بوحدانيته بشهادة الملائكة بل أسعدهم وأيدتهم ، حين وفقهم بشهادته وسددهم ، وإلى معرفة وحدانيته أرشدهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأُولُوا الْعِلْمِ ﴾

وهم أولياء بنى آدم إذ علموا جلال قدرته ، وعرفوا نعت عزته فأكرمهم حيث قرن شهادته بشهادتهم ، فشهدوا عن شهود وتعيين ، لا عن ظن وتخمين ، إن لم يدركوه — اليوم —

(١) ربما كانت فى الأصل فى (شان) وجودها ... بتخفيف الهمز .

(٢) ربما كانت فى الأصل (جعود) ، ويحتمل أنها (جهود) فيكون المقصود الجهود الإنسانية الكسبية .

(٣) ربما قصد منها كل شيء وضده ، وربما كانت (للدرجات) .

ضرورة وحسباً ، لم يعتقدوه ظناً وحدساً ؛ تعرّف إليهم فعرفوه ، وأشهدهم فلذلك شهدوا ، ولو لم يقل لهم إنه من هو لَمَّا عرفوا من هو .

ولكن العلماء يشهدون بصحة عقولهم ، والمؤحّدون يشهدون بعد خلودهم ؛ فهم كما قيل :

مُسْتَهْلَكُونَ بَقَرِ الْحَقِّ قَدْ هَمَدُوا وَاسْتَنْطَقُوا بَعْدَ افْتِنَائِهِمْ بِتَوْحِيدِ

فَالْمُجَرِّى عَلَيْهِمْ مَا يَبْدُو مِنْهُمْ — سَوَاهُمْ ، وَالْقَائِمُ عَنْهُمْ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ وَبِهِ — غَيْرُهُمْ ، وَلَقَدْ كَانُوا لَكُنْهِم بَانُوا ، قَالَ قَائِلُهُمْ :

كِتَابِي إِلَيْكُمْ بَعْدَ مَوْتِي بِمِلَّةٍ وَلَمْ أَدْرِ أَنِّي بَعْدَ مَوْتِي أَكْتُبُ

وأولو العلم على مراتب : فَمِنْ عُلُومٍ نَعْتُهُ وَفَاقَ وَرَهْبَانِيَّةَ ، وَمِنْ عَالَمٍ وَصَفَهُ فَنَاءَ وَرَبَّانِيَّةَ ، وَعَالَمٍ يَعْرِفُ أَحْكَامَ حَلَالِهِ وَحَرَامِهِ ، وَعَالَمٍ يَعْلَمُ أَخْبَارَهُ وَسُنَنَهُ وَأَثَرَهُ ، وَعَالَمٍ يَعْلَمُ كِتَابَهُ وَيَعْرِفُ تَفْسِيرَهُ وَتَأْوِيلَهُ ، وَمَحْكَمَهُ وَتَنْزِيلَهُ ، وَعَالَمٍ يَعْلَمُ صِفَاتِهِ وَنَعْوَتَهُ وَيَسْتَقْوِي حُجَجَهُ وَتَوْحِيدَهُ بِمُحَدِّثٍ يَخْرُجُهُ (. . .)^(١) ، وَعَالَمٍ لَاطِفُهُ حَتَّى أَحْضَرَهُ ثُمَّ كَا شَفَهُ فَقَهَرَهُ ، فَالْأَسْمَ بَاقٍ ، وَالْعَيْنَ مَحْوٍ ، وَالْحَكْمَ طَارِقَ وَالْعَبْدَ مُحَقَّقَ ، قَالَ قَائِلُهُمْ .

بَنُو حَقٍّ غَدَوْا بِالْحَقِّ صِرَافًا فَنَعْتَ الْخَلْقَ فِيهِمْ مُسْتَوْرٌ

وليست الإشارة من هذا إلا إلى فنائهم عن إحساسهم ، وعند علمهم بأنفسهم ، فأما أعمالهم^(٢) أعيانهم فمخلوقة ، وما يفهم بذواتهم من أحوالهم فمبسوقة ، وذات الحق لا توصف بقبول حدثان ، وصفات ذاته لا تقبل اتصالاً بالغير ولا انفصالاً عن الذات ، تقدّس الحق عن كل ضدّ وندّ ، ووصل وفصل ، وجمع وفرق ، وعين وخلق ، وملك وفلك ، ورسم وأثر ، وعبد وبشر ، وشمس وقر ، وشخص وغَير .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ .

(١) مشبهة .

(٢) ترجح أنه في الأصل (وأعيانهم) وأن الواو سقطت من النسخ أي أنهم وما يصنعون — من خلق الله ، وذلك الأصل من الأصول الكلامية عند القشيري .

الدينُ الذي يرتضيه ، والذي حكم لصاحبه بأنه يجازيه ويمليه ، وبالفضل يُلْقِيهِ — هو الإسلام .

والإسلام هو الإخلاص والاستسلام ، وما سواه فردود ، وطريق النجاة على صاحبه مسدود .

قوله جل ذكره : ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب ﴾ .

جاءهم العلم الذي عليهم حجة ، لا للمعرفة التي لها بيان ومحجة ، فأصروا على الجحود ، لأنهم حُجِبُوا عن محل الشهود

قوله جل ذكره : ﴿ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والأمين أسلمتم ، فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد ﴾ .

طَالِعُهُمُ بعين التصريف كيلا يفترق بك الحال في شهود اختلافهم وتباين أطوارهم ؛ فَإِنَّ مَنْ طَالَعَ الكائنات بعين القدرة علم أن المُشْتَدَّ للكل — على ما اختص به كل واحد من الكل — واحد .

فَأَذَعُهُمْ جهراً بجهر ، واشهد تصريفنا لإيهم سراً بسر ، واشغل لسانك بنصحهم ، وفرغ قلبك عن حديثهم ، وأفرد سرك عن شهودهم ، فليس الذي كلفناك من أمورهم إلا البلاغ ، والمُجْرَى للأمور والمبدي — نحن .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ، ويقتلون الذين

يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم
بعذاب أليم .

إن الذين ربطناهم بالخلدان ووسعناهم بوصف الحرمان — أخبرهم بأن إعراضنا عنهم
مؤبد ، وأن حكمنا سبق بنقلهم عن دار الجنان إلى دار الهوان ، من الخلدان والحرمان
إلى العقوبة والنيران .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين حبّطت أعمالهم
في الدنيا والآخرة وما لهم من
ناصرين ﴾

أولئك الذين ليس لهم — اليوم — توفيق بأعمالهم ، ولا غداً لتحقيق لأمالهم ، وما ذلك
إلا لأنهم فقدوا في الدارين نصرتنا ، ولم يشهدوا عزّاًنا وقدرتنا .

قوله جل ذكره : ﴿ ألم ترّ إلى الذين أوتوا نصيباً من
الكتاب يُدْعَوْنَ إلى كتاب الله
ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم
وهم معرضون ﴾

امتحناك بدعوة من سبق علمنا بأنهم لا يستجيبون ، فاصبر على ما أمرت فيهم ، واعلم
سوء أحوالهم ، فإنهم أهل التولى عن الإجابة ، لأنهم فقدوا منا حسن التجلي بسابق الإرادة .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك بأنهم قالوا لن تمسّ النار
إلا أياماً معدودات ، وغرّم في دينهم
ما كانوا يفترون ﴾

عاقبناهم في الدنيا بالاستدراج حتى حكموا لأنفسهم بالنجاة وتخفيف العقاب ، وسوف
يعلمون تضاعف البلاء عليهم ، ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون .
ظن المخطئون حكماً . . .

﴿ فكيف إذا جعناهم ليومٍ لا ريب
فيه ووفيت كل نفسٍ ما كسبت
وهم لا يُظلمون ﴾

هذه كلمة تعجب لما أخبر به عن تعظيم الأمر ، وتفخيم الشأن عند بهتة عقولهم ودهشة
أسرارهم ، وانقطاع دواعيهم ، وانخلاع قلوبهم من مكانها ، وتراقبها إلى تراقبهم ، ثم ما يلقونه
من الحساب والعقاب ، والعذاب والعقاب ، وعدم الإكرام والإيجاب ، وما في هذا الباب .
وقيامة الكفار يوم الحشر ، وقيامه الأحياء في الوقت ، ولشرح هذا تفسير طويل ^(١)
قوله جل ذكره : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ ﴾

«اللهم» معناها يا الله والميم في آخرها بدل عن حرف النداء وهو يا . فهذا تعليم الحق كيفية
الثناء على الحق ، أى صفنى بما أستحقه من جلال القدر فقل : يا مالك الملك لا شريك لك
ولا معين ، ولا ظهير ولا قرين ، ولا مقاسم لك في الذات ، ولا مساهم في الملك ،
ولا معارض في الإبداع .

﴿ تَوْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ
الملك من تشاء ﴾

حتى نعلم أن الملك لك ، والملِكُ من المخلوقين مَنْ تَدُلُّ له ، ومزوعُ الملكُ ممن تكبر
عليه ، فتَجَلُّ اتلحق في تذللهم للحق ، وعزُّهم في محوهم فيه ، وبقاؤهم في فناهم به
﴿ وتُعِزُّ من تشاء ﴾

بعز ذاتك .

﴿ وَتُذِلُّ من تشاء ﴾

بخذلانك

وتعز من تشاء بأن تهديه ليشهدك ويوحده ، وتذل من تشاء بأن يجحدك ويفقدك . وتعزُّ

(١) من كلام القشيري في هذا الخصوص في موضع آخر من هذا الكتاب :
(والقيامة عند هؤلاء تقوم كل يوم غير مرة بالهجر والنوى والفراق ، وليس لها كاشف غيره سبحانه)

من تشاء بيئن إقبالك ، وتذل من تشاء بوحشة إعراضك . وتعز من تشاء بأن تولسه بك ،
وتذل من تشاء بأن توحشه عنك . وتعز من تشاء بأن تشغله بك ، وتذل من تشاء بأن تشغله
عنك . وتعز من تشاء بسقوط أحكام نفسه ، وتذل من تشاء بغلبة غاغة نفسه . وتعز من تشاء
بطوالع ألسه وتذل من تشاء بطوارق^(١) نفسه . وتعز من تشاء ببسطه بك ، وتذل من تشاء
بقبضه عنك .

وتؤتى الملك من تشاء بشد نطاق خدمتك ، وتترزع الملك ممن تشاء بنفيه عن بساط
عبادتك^(٢) . تؤتى الملك من تشاء بإفراذ سره لك وتترزع الملك ممن تشاء بأن تربط قلبه
بمخلوق ، وتعز من تشاء بإقامته بالإرادة ، وتذل من تشاء برده إلى ما عليه أهل العادة .

﴿ بيدك الخير ﴾

ولم يذكر الشر حفظاً لأداب الخطاب ، وتفاوتاً بذكر الجميل ، وتطيراً من ذكر السوء .
﴿ إنك على كل شيء قدير ﴾

من الحجب والجذب ، (والنصرة)^(٣) والخذلان ، والأخذ والرد ، والفرق والجمع ،
والقبض والبسط .

قوله جل ذكره : ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُوجِلُ النَّهَارَ
فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ
وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَتَرْزُقُ مِنْ
تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(١) الطوارق في اللفظ ما يطرق بالليل ، وروى عن النبي (ص) أنه كلن يدعو : « وأعوذ بك من شر
طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير » .
وعن بعض المشايخ : يطرق سمي علم من علوم أهل الحقائق فلا أدعه أن يدخل قلبي إلا بعد أن أعرضه
على الكتاب والسنة . (المبع للطومى ص ٤٢٢) .
(٢) وردت (عبادك) والأصوب أن يقال (عبادتك) لأن العبودية لا تلتقي عن مخلوق ، أما العبادة
فهي حالة مخصوصة يمان عليها المبدأ أو لا يمان ، فالمبدأ إما في العبادة أو في العادة :
(٣) أضفنا هذه الكلمة من عندنا حتى يتم الانسجام الداخلي للأسلوب ويكون المعنى أوضح ، ونحن
في هذه الإضافة - كدأبتنا دائماً - متمثلين النهج القدي يسلكه القشيري في مثل هذا الموضع .

توَلَجَ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ حَتَّى يَغْلِبَ سُلْطَانُ ضِيَاءِ التَّوْحِيدِ فَلَا يَبْقَى مِنْ آثَارِ النَّفْسِ وَظُلُمَاتِهَا شَيْءٌ ، وَتَوَلَجَ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ حَتَّى كَانَ شَمْسُ الْقُلُوبِ كُشِفَتْ ، أَوْ كَانَ اللَّيْلُ دَامَ ، وَكَانَ الصَّبِيحُ فَقْدَ .

وَتَخْرُجُ الْحَيُّ مِنَ الْمَيِّتِ حَتَّى كَانَ الْفِتْرَةُ لَمْ تَكُنْ ، وَعَهْدُ الْوَصَالِ رَجَعَ فَنِيًّا ، وَعُودُ الْقُلُوبِ صَارَ غَضًّا طَرِيًّا .

وَتَخْرُجُ لِلْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ حَتَّى كَانَ شَجَرَةُ الْبَرِّمِ أَوْرَقَتْ شَوْكًا وَأَزْهَرَتْ شَوْكًا ، وَكَانَ الْيَأْسُ لَمْ يَجِدْ خَيْرًا ، وَلَمْ يَشْمِ رِيحًا ، وَتَقْلِبُ أَفْئِدَتُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ .

﴿ وَتَرْزُقُ مِنْ تَشَاءِ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

حَتَّى لَا (كَدْرٌ) ^(١) وَلَا جُهْدٌ وَلَا عَرَقٌ جَبِينٍ ، وَلَا تَعَبٌ يَمِينٍ . لَيْلُهُ رَوْحٌ وَرَاحَةٌ ، وَنَهَارُهُ طَرِبٌ وَبَهْجَةٌ ، وَسَاعَاتُهُ كَرَامَاتٌ ، وَلَحْظَاتُهُ قُرْبَاتٌ ، وَأَجْناسُ أَعْمَالِهِ عَلَى التَّفْصِيلِ لَا يَحْصُرُهَا لِسَانٌ ، وَلَا يَأْتِي عَلَى اسْتِنْصَاءِ كُنْهَيْهَا عِبَارَةٌ وَلَا بَيَانٌ .

وَفِيهَا لَوْحُنَا مِنْ ذَلِكَ تَقْيِيهِ عَلَى طَرِيقِ كَيْفِيَةِ الْإِفْصَاحِ عَنْهُ .

وَيُقَالُ لِمَا قَالُ : « وَتَنْزِعُ لِلْمَلِكِ مِنْ تَشَاءِ أَنْ كَسَرَ خَمَارُ كُلِّ ظَنٍّ أَنَّهُ مَلِكٌ لِأَنَّهُ شَاهِدٌ مَلِكُهُ يَرْضُ لِلزَّوَالِ فَعَلِمَ أَنَّ التَّنْذِلَ إِلَيْهِ فِي اسْتِبْقَاءِ مَلِكِهِ أَوَّلَى بِهِ مِنَ الْإِعْجَابِ وَالْإِدْلَالِ .

وَيُقَالُ الْمَلِكُ فِي الْحَقِيقَةِ — مَنْ لَا يَشْغَلُهُ شَيْءٌ بِالْإِلْتِفَاتِ إِلَيْهِ عَنْ شُهُودِ مَنْ هُوَ لِلْمَلِكِ عَلَى الْحَقِيقَةِ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

مِنْ حَقَائِقِ الْإِيمَانِ لِلْوَالَاةِ فِي اللَّهِ وَالْمَعَادَاةِ فِي اللَّهِ .

وَأَوَّلَى مَنْ تَسُوْمُهُ الْمُهْجَرَانِ وَالْإِعْرَاضَ عَنِ الْكُفَّارِ — نَفْسُكَ ؛ فَإِنَّهَا بِمَجْبُولَةٍ عَلَى

(١) رُجِّحَ أَنَّهَا (كَدْرٌ) بِدُونِ رَاءٍ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَالْمَعْنَى يَتَقَبَّلُ كُلُّيْهِمَا .

المجوسية حيث تقول : لى ومنى وبى^(١) ، وقال الله تعالى . « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ^(٢) » .

وإن الإيمان فى هذه الطريقة عزيز ، ومن لا إيمان له بهذه الطريقة من العوام — وإن كانوا قد بلغوا من الزهد والجهد مبلغاً عظيماً — فليسوا بأهل لموالاةك ، والشكل بالشكل أليق .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾^(١) ويحذركم الله نفسه ، وإلى الله المصير ﴿

صحبة الحق سبحانه وقربته لا تكون مقرونة بصحبة الأضداد وقربتهم — ألبتة .
« ويحذركم الله نفسه » : هذا خطاب للخواص من أهل المعرفة ، فأما الذين نزلت رُبَّتْهُمْ
عن هذا فقال لهم : « واتقوا النار التى . . . » وقال : « واتقوا يوماً ترجعون . . . » إلى غير ذلك من الآيات .

ويقال : « يحذركم الله نفسه » أن يكون عندهم أنكم وصلتم ؛ فإن خفايا المكر تغترى
الأكابر ، قال قائلهم :

وَأَمِنْهُ فَاتَّحَ لِي مِنْ مَأْمَنِ مَكْرًا ، كَذَا مَنْ يَأْمَنِ الْأَحْبَابَا

ويقال « يحذركم الله نفسه » لأن يجرى فى وهم أحد أنه يصل إليه مخلوق ، أو يطاء بساطاً
العزِّ قَدَمُ همة بشر ، جلَّتْ الأحدية وعزَّتْ !
وإن من ظن أنه أقربهم إليه فى الحقيقة أنه أبعدهم عنه .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إِنْ تَحْفُوا مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تَبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِى السَّمَوَاتِ ﴾

(١) وإلى هذا يشيرون حين يقولون (التوحيد إسقاط الیاءات) الرسالة من ١٤٩ . لأن التوحيد الحق لا يقتضى عمورك بما سوى الموحَّد ، ولكن النفس مجبولة على الدعوى . وهذا شرك خفى .
(٢) سورة التوبة آية ١٢٣ .

وما في الأرض والله على كل شيء
قدير *

لا يَمُزُّبُ معلوم عن علمه ، فلا تَحْكُمُ من نازلة بك تسوءك ، فمن قريب سيأتيك الغوث
والإجابة ، وعن قريب سيزول البلاء والمحنة ، وَيُعْجِلُ المدد والكفاية .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ
خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ
لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ .

وَدَّ أهل الطاعات أَنْ لو استكثروا منها ، وَدَّ أهل المخالفات أَنْ لو كبجوا لجأهم عن
الركض في مباديهم ، قال قائلهم :

ولو انني أُعْطِيتُ من دهرى المني وما كلُّ مَنْ يُعْطَى المني بِمُسَدَّدٍ
لَعَلْتُ لَأَيَّامٍ مَضَيْنَ : ألا ارجى وقلتُ لَأَيَّامٍ أُتَيْنَ ألا ابعدى

قوله جل ذكره : ﴿ ويحذركم الله نفسه والله رءوف
بالعباد ﴾ .

الإشارة من قوله : « ويحذركم الله نفسه » للعارفين ، ومن قوله « والله رءوف بالعباد »
للمستأنفين ، فهؤلاء أصحاب العنف والعنوة ، وهؤلاء أصحاب التخفيف والسهولة .

ويقال لما قال : « ويحذركم الله نفسه » اقتضى أسمع هذا الخطاب تحويلهم^(١) فقال
مقرونًا به « والله رءوف بالعباد » لتحقيق تأميلهم ، وكذلك سُنَّته يطعمهم^(٢) في
عين ما يروعههم .

ويقال أفنهم بقوله « ويحذركم الله نفسه » ثم أحيهم وأبقاهم بقوله « والله رءوف بالعباد »

(١) ربما يقصد القشيري تحويلهم من الخوف إلى الرجاء ، فيمد أن خوفهم نفسه أطمعهم في رافته .

(٢) وردت (يطعمهم) وواضح أنها خطأ في النسخ فأصلعناه بما يلائم السياق .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي
يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

« تحبون الله » فرق ، و « يحببكم الله » جمع .
« تحبون الله » مشوب بالعلة ، و « يحببكم الله » بلا علة ، بل هو حقيقة الوصلة .
ومحبة العبد لله حالة لطيفة يجدها من نفسه ، وتحمله تلك الحالة على موافقة أمره على الرضا دون
الكراهية ، وتقتضى منه تلك الحالة إثاره — سبحانه — على كل شيء وعلى كل أحد .
وشرط المحبة ألا يكون فيها حظٌ بحال ، فمن لم يَفَنَّ عن حظوظه بالكلية فليس له من
المحبة شظية .

ومحبة الحق للعبد إرادته إحسانه إليه ولطفه به ، وهى إرادة فضلٍ مخصوص ، وتكون
بمعنى ثنائه سبحانه عليه ومدحه له ، وتكون بمعنى فضله الخصوص معه ، فعلى هذا تكون
من صفات فعله .

ويقال شرط المحبة امتحاء كليتك عنك لاستهلاكك فى محبوبك ، قال قائلهم .
وما الحب حتى تنزف العين بالبكا وتخرس حتى لا تجيب للناديا
وهذا فرق^(١) بين الحبيب والخليل ؛ قال الخليل : « فمن تبعنى فإنه منى » .
وقال الحبيب : « فاتبعنى يحببكم الله » .
فإن كان مُتَّبِعُ الخليل « منه » إفضالاً فإن متابع الحبيب محبوب الحق سبحانه ،
وكفى بذلك قرينة وحالا .

ويقال قطع أطعام الكافة أن يسلم لأحد نفس إلا ومقتداهم وإمامهم سيد الأولين والآخرين
محمد صلى الله عليه وسلم .

ويقال فى هذه الآية إشارة إلى أن المحبة غير معلولة وليست باجتلاب طاعة ، أو التجرد

(١) وردت (فراق) وهى خطأ من الناسخ ، إذ المراد التفرقة بين موقف المصطفى (من) وإبراهيم
عليه السلام .

عن آفة لأنه قال يحبكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، بين أنه يجوز أن يكون عبد له فنون كثيرة
ثم يحب الله ويحبّه الله .

ويقال قال أولاً : « يحبكم الله » ثم قال : « ويغفر لكم ذنوبكم » والوار يقتضى الترتيب
ليُعلم أن المحبة سابقة على الغفران ؛ أولاً يحبهم ويحبونه (وبعده) يغفر لهم ويستغفرونه ،
فالمحبة توجب الغفران لأن العفو يوجب المحبة .

والمحبة تشير إلى صفاء الأحوال ومنه حبّ الأسنان^(١) وهو صفاؤها .

والمحبة توجب الاعتكاف بحضرة المحبوب في السر .

ويقال أحب البعير إذا استناخ فلا يبرح بالضرب .

والحب حرقان حاء وباء ، والإشارة من الحاء إلى الروح ومن الباء إلى البدن ، فالحب
لا يدّخر عن محبوبه لا قلبه ولا بدنه .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ .

أمرهم بالطاعة ثم قال : « فإن تولوا » أى قصّروا فى الطاعة بأن خالفوا ، ثم قال : « فإن الله
لا يحب الكافرين » لم يقل العاصين بل قال الكافرين ، ودليل الخطاب أنه يحب المؤمنين
وإن كانوا عصاة^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ اللَّهُ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ
إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾
ذرية بعضها من بعض والله
سميع عليم

اتفق آدم وذريته فى الطينة ، وإنما الخصوصية بالاصطفاء الذى هو من قبيله ، لا بالنسب
ولا بالسبب .

(١) وردت (الإنسان) وهى خطأ من النسخ (أنظر الرسالة ص ١٥٨) .

(٢) فالؤمن العاصى منزلة بين المنزلتين : الإيمان والكفر - لى نظر القشبرى المتكلم .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ قَالَت امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ ، وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ، وَإِنِّي نَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ .

المحرَّرُ الذي ليس في رِقٍّ شيء من المخلوقات ، حرَّره الحق سبحانه في سابق حكمه عن رق الاشتغال بجميع الوجوه والأحوال . فلما نذرت أم مريم ذلك ، ووضعتها أنثى خجلت ، فلما رأتها قالت « ربِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ » وهي لا تصلح أن تكون محرراً فقال تعالى : « وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ » ولعمري ليس الذكر كالأنثى في الظاهر ، ولكن إذا تقبَّلها الحق — سبحانه وتعالى — طلع عنها كل أعجوبة .

ولما قالت « إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا » قالت « فَتَقَبَّلْ مِنِّي » باستعجاب ، وظهرت آثار القبول عليها وعلى ابنها ، ونجا بحديثها عالمٌ وهلك بسببها عالمٌ ، ووقعت الفتنة لأجلهما في عالم .

قالت : « وَإِنِّي نَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » استجارت بالله من أن يكون للشيطان في حديثها شيء بما هو الأسهل ، لتنام ما هم به من أحكام القلوب .

قوله جل ذكره : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾

حيث بلغها فوق ما تَمَنَّتْ أمها ، ويقال تقبَّلها بقبول حسنٍ حتى أفرد لها لطاعته ، وتولَّاهَا بما تولَّى به أوليائه ، حتى أفضى جميع مَنْ في عصرها العَجَبَ من حُسْن توليه أمرها ، وإن كانت بنتاً .

ويقال القبولُ الحسنُ حُسْنُ تربيته لها مع علمه — سبحانه — بأنه يُقال فيه بسببها ما يُقال ، فلم يُبالِ بِقُبْحِ مقال الأعداء .

أجد الملامة في هوالكِ لذيذةً حُبًّا لذكرك فليلمني اللومُ
وكما قيل :

ليقل من شاء ما شاء فإني لا أبالي

ويقال القبول الحسن أن ربَّها على نعت العصمة حتى كانت تقول : « إني أعود بالرحمن منك إن كنت تقياً » .

« وأنبأها نباتاً حسناً » حتى استقامت على الطاعة ، وآثرت رضاه — سبحانه — في جميع الأوقات ، وحتى كانت الثمرة منها مثل عيسى عليه السلام ، وهذا هو النبات الحسن ، وكفلها زكريا . ومن القبول الحسن والنبات الحسن أن جعل كافلها والقيِّمَ بأمورها وحفظها نبياً من الأنبياء مثل زكريا عليه السلام ، وقد أوحى الله إلى داود عليه السلام : إن رأيتَ لى طالباً فكنْ له خادماً .

قوله جل ذكره : ﴿ كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ، قَالَ : يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا ؟ قَالَتْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

من أمارات القبول الحسن أنها لم تكن توجد إلا في المحراب ، ومن كان مسكنه وموضعه الذي يتعبَّد فيه وهناك يوجد المحراب — فذلك عبْدٌ عزيز .

ويقال من القبول الحسن أنه لم يطرح أمرها كُلَّهُ وشغلها على زكريا عليه السلام ؛ فكان إذا دخل عليها زكريا ليتعهد لها بطعام وجدَّ عندها رزقاً ليعلِّمَ العاملون أن الله — سبحانه — لا يُلقِي شُغْلَ أوليائه على غير^(١) ، ومن خدم ولياً من أوليائه كان هو في رفق الولي لا إله

(١) وردت على (عين) وهي خطأ في النسخ .

تكون عليه مشقة لأجل الأولياء . وفي هذا إشارة لمن يخدم الفقراء أن يعلم أنه في رفق الفقراء .
ثم كان زكريا عليه السلام يقول : **أَتَى لَكَ هَذَا ؟** لأنه لم يكن يعتقد فيها امتحاق تلك
للمنزلة ، وكان يخاف أن غيره يغلبه وينتهز فرصة تعهدها ويسبقه بكفاية شغلها ، فكان يسأل
ويقول : **أَتَى لَكَ هَذَا ؟ ومن أتاك به ؟**

وكانت مريم تقول : **هو من عند الله** لا من عند مخلوق ، فيكون لزكريا فيه راحتان :
إحداها شهود مقامها وكرامتها عند الله تعالى ، والثانية أنه لم يغلبه أحد على تعهدها ، ولم يسبق
به . قوله « **كلما دخل عليها زكريا المحراب** » فلفظة **كلما** للتكرار ^(١) وفي هذا إشارة : وهو أن
زكريا عليه السلام لم يَدَّرْ **تَعَهَّدَهَا** — وإن وجد عندها رزقا — بل كل يوم وكل وقت كان
يتفقد حالها لأن كرامات الأولياء ليست مما يجب أن يدوم ذلك قطعاً ، فيجوز أن يظهر الله
ذلك عليهم دائماً ، ويجوز ألا يظهر ، فما كان زكريا عليه السلام يعتمد على ذلك فيترك تفقد
حالها ، ثم كان يُجَدِّدُ السؤال عنها بقوله : **« يا مريم أَتَى لَكَ هَذَا ؟ »** لجواز أن يكون الذي
هو اليوم لا على الوجه الذي كان بالأمس ، فإنه لا واجب على الله سبحانه ^(٢)

وقوله : **« إن الله يرزق من يشاء بغير حساب »** إيضاح عن عين التوحيد ، وأن رزقه
للعباد ، وإحسانه إليهم بمقتضى مشيئته ، دون أن يكون مُعَلَّلاً بطاعتهم ووسيلة عباداتهم .

قوله جل ذكره : **﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾**

أى لما رأى كرامة الله سبحانه معها ازداد يقيناً على يقين ، ورجاء على رجاء ، فسأل الولد
على كبر سنه ، وإجابته إلى ذلك كانت تقضاً للعادة .

(١) أى لتكرار زيارة زكريا لها مرة بعد مرة .

(٢) هنا إشارة دقيقة تتصل بمذهب القشيري — الذى يخالف المعتزلة — أنه لا وجوب على الله فى إجابة
المطيع ، لأن طاعة المطيع ليست زينة لله ، ومعصيته ليست شيئاً لله ، وإنما المعول عليه فضل الله وهذا
لا علاقة له ، ولا وجوب على الله فيه .

ويقال إن زكريا عليه السلام سأل الولدَ ليكونَ عوناً له على الطاعة ، ووارثاً من نسله في النبوة ، ليكون قائماً بحق الله ، فلذلك استحق الإجابة ؛ فإن السؤال إذا كان لحق الحق — لا لحظ النفس — لا يكون له الرد^(١) .

وكان زكريا عليه السلام يرى الفاكهة الصيفية عند مريم في الشتاء ، وفاكهة الشتاء عندها في الصيف ، فسأل الولد في حال الكبر ليكون آية ومعجزة .

قوله جل ذكره : ﴿ فَنَادَتْهُ لِّلْمَلَائِكَةِ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ ﴾ .

لما سأل السؤال ، ولأزم الباب أتته الإجابة .

وفيه إشارة إلى أن من له إلى الملوك حاجة فعليه بملازمة الباب إلى وقت الإجابة .

ويقال حكم الله — سبحانه — أنه إنما يقبل بالإجابة على من هو مُعَانِقٌ لخدمته ، فأما مَنْ أَعْرَضَ عن الطاعة ألقاه في ذلِّ الوحشة .

قوله جل ذكره : ﴿ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

قيل سمَّاه يحيى لحياة قلبه بالله ، ولسان التفسير أنه حي به غفر أمه .

ويقال إنه سبب حياة من آمن به بقلبه .

قوله : مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ : أن تصديقه بكلمة « الله » فيما تعبد به أو هو مكوّن بكلمة الله .

وقوله « وسيداً » : السيد من ليس في رق مخلوق ، تحرّر عن أسر هواه وعن كل مخلوق ، ويقال السيد من تحقق بعلوّيته سبحانه ، ويقال السيد من فاق أهل عصره ، وكذلك كان يحيى عليه السلام .

(١) الرد هنا معناها الرفض .

ويقال سيد لأنه لم يطلب لنفسه مقاما ، ولا شاهدًا لنفسه قَدْرًا . ولما أخلص في تواضعه
للَّهِ بكل وجه رَقَّاه على الجملة ، وجعله سيدا للجميع .

وقوله « وحسورا » أى مُعْتَقًا من الشهوات ، مكفيا أحكام البشرية مع كونه من جملة
البشر . ويقال متوقيا عن المطالبات ، مانعا نفسه عن ذلك تعززا وتقربا ، وقيل منعه
استتصالات بواده الحقائق عليه فلم يبق فيه فضلٌ لحظٌّ .

« ونبيا من الصالحين » أى مستحقا لبلوغ رتبهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ رَبِّ اُنِّى يَكُون لى غلام
وقد بلغنى الكِبَرُ وامراتى عاقِرٌ
قال كذلك الله يفعل ما يشاء ﴾ .

قيل كان بين سؤاله وبين الإجابة مدة طويلة ولذلك قال : اُنِّى يكون لى غلام ؟

ويحتمل أنه قال : بأى استحقاقٍ منى تكون لى هذه الإجابة لولا فضلك ؟

ويحتمل أنه قال اُنِّى يكون هذا : أعلى وجه التبنى أم على وجه التناسل ؟

ويحتمل أنه يكون من امرأة أخرى سوى هذه التى طغنت فى السن أو من جهة
التسرى بمملوكة ؟ أم من هذه ؟

فقيل له : لا بل من هذه ؛ فإنكما قاسيتما وحشة الافراد معا ، فكذلك تكون بشارة
الولد لكما جميعا .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لى آية قال آيتك

أَلَا تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلا رَمَزًا ﴾

طلب الآية ليعلم الوقت الذى هو وقت الإجابة على التعيين لا لشكٍ له فى أصل الإجابة .

وجعل آية ولايته^(١) فى إمساك لسانه عن المخلوقين مع انطلاقها مع الله بالتسبيح ، أى
لا تمتنع عن خطابى فإننى لا أمنع أوليائى من مناجاتى .

(١) وردت (دلالتة) وقد تكون مقبولة فى المعنى أيضا .

قوله جل ذكره : ﴿واذكر ربك كثيرا﴾ .

بقلبك ولسانك في جميع أوقاتك .

﴿وسبح بالعشي والإبكار﴾ .

في الصلاة الدائمة .

قوله جل ذكره : ﴿واذ قالت الملائكة يا مريم إن الله

اصطفاك وطهرتك واصطفاك على

نساء العالمين﴾ .

يجوز أن يكون هذا ابتداء خطاب من الملائكة على مريم من قبلهم رفعا بشأنها ، ويجوز أن تكون قد سمعت كلامهم وشاهدتهم ، ويجوز أنها لم تشاهدهم وأنهم هتفوا بها : إن الله اصطفاك بتفضيلك ، وإفرادك من أشكالك وأندادك ، وطهرتك من الفحشاء والمعاصي بحميل العصاة ، وعن مباشرة الخلق^(١) ، واصطفاك على نساء العالمين في وقتك .

وفائدة تكرار^(٢) ذكر الاصطفاء : الأول اصطفاك بالكرامة والمنزلة وعلو الحالة والثاني اصطفاك بأن تحملي بعيسى عليه السلام من غير أب ، ولم تشبهك امرأة — ولن تشبهك — إلى يوم القيامة ، ولذلك قال « على نساء العالمين » .

قوله جل ذكره : ﴿يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي

مع الراكعين﴾ .

لازمي بساط العبادة ، وداومي على الطاعة ، ولا تقصري في استدامة الخدمة ، فكما أفردك الحق بمقامك ، كوني في عبادته أو حد زمانك .

قوله جل ذكره : ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك﴾

(١) ربما يقصد القشيري من ذلك أنه أبعدا عن أن يباشرها الزوج شأن نساء العالمين .
(٢) لاحظ كيف يلتبس القشيري معنى متجدداً لكلمة تتكرر بلفظها — لأنه لا يرى أن في القرآن تكراراً إلا لداع متجدد .

وما كنتَ لديهم إذ يُلقون
أقلامهم أيهم يكفلُ مريمَ وما كنتَ
لديهم إذ يختصمون ﴿١﴾

أى هذه القصص نحن عرفنا كهاو (خا) طبنالك بمعانيها ، وإن قصصنا نحن عليك
هذا — فعزيزُ خطابنا ، وأعزُّ وأتمُّ من أن لو كنتَ مشاهداً لها .

قوله جل ذكره : ﴿١﴾ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله
يُبشِّرُكِ بكلمةٍ منه اسمُه المسيح
عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا
والآخرة ومن المقربين . وَيُكَلِّمُ
الناسَ في المهدِ وكهلاً ومن
الصالحين ﴿٢﴾

لم يُبشِّرْها بنصيب لها في الدنيا ولا في الآخرة من حيث الحفظ ، ولكن بشَّرها
بما أثبت في ذلك من عظيم الآية ، وكونه نبياً لله مؤيداً بالمعجزة .

ويقال عرِّفها أن مَنْ وقع في تغليب القدرة ، وانتهى عند حكمه يلقى من عجائب القدرة
ما لا عهد به لأحد . ولقد عاشت مريم مدةً بحميل الصيت ، والاشتهار بالعفة ، فشوش
عليها ظاهر تلك الحال بما كان عند الناس بسبب استحقاق ملام ، ولكن — في التحقيق —
ليس كما ظنَّه الأغبياء^(١) الذين سكرت أبصارهم من شهود جريان التقدير .

وقيل إنه (.)^(٢) عرِّفها ذلك بالتدرج والتفصيل ، فأخبرها أن ذلك
الولد يعيش حتى يُكَلِّمَ الناسَ صبيّاً وكهلاً ، وأن كيد الأعداء لا يؤثر فيه .
وقيل كهلاً بعد نزوله من السماء .

ويقال ربط على قلبها بما عرِّفها أنه إذا لم ينطق لسانها بذكر براءة ساحنها يُنطقُ اللهُ
عيسى عليه السلام بما يكون دلالة على صدقها وجلالتها .

(١) وردت (الأغبياء) والمعنى والبقا يرفضاتها .

(٢) مشبهة .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ
وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ۚ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ
يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾

كما شاهدت ظهور أشياء ناقضة للعادة في رزقنا فكذلك ننقض العادة في خلق ولدٍ من
غير مسيس بشر .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا ﴾

أى أراد إمضاء حكم .

﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

فلا يتعسر عليه إبداء ولا إنشاء .

ولما بسطوا فيها لسان الملامة أنطق الله عيسى عليه السلام وهو ابن يومٍ حتى قال :

﴿ أَنَّىٰ قَدْ جِئْتُكُمْ بآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

قوله جل ذكره : ﴿ وَيُعَلِّمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ

وَالْإِنْجِيلَ * وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي

إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بآيَةٍ مِنْ

رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ

كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ

طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ

وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ

وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ

فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ

إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾

وتلك آياته الظاهرة ، ودلالاته القاهرة الباهرة من إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه

والأبرص ، والإخبار عما عملوه مسيرين به ، إلى غير ذلك من معجزاته . وأخبر أنه

مصدق لما تقدمه من الشرائع ، ومختص بشريعة تنسخ بعض ما تقدمه ، وأقرم على البعض — على ما نطق به تفصيل القرآن .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ ﴾ الآية .

حين بلغهم الرسالة واختلفوا — فمنهم من صدقه ومنهم من كذبه وهم الأكثرون — علم أن النبوة لا تنفك عن البلاء وتسليط الأعداء ، فقطع عنهم قلبه ، وصدق إلى الله قصده ، وقال لقومه : مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ لِيَسَاعِدُونِي عَلَى التَّجَرُّدِ لِحَقِّهِ وَانْخِلَاصِي فِي قَصْدِهِ ؟ فقال مَنْ ابسطت عليهم آثار العناية ، واستخلصوا بآثار التخصيص : نحن أنصار الله ، آمنا بالله ، واشهد علينا بالصدق ، وليس يشك عليك^(١) شيء مما نحن فيه .

﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبِعْنَا الرُّسُولَ
فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾

وأما الباقون فجدوا في الشقاق ، وبالغوا في العداوة ، ودشوا له المكائد ، ومكروا ولكن أذاقهم الله وبال مكرهم ، فتوهموا أنهم صلبوا عيسى عليه السلام وقتلوه ، وذلك جهل منهم ، ولَبِئْسَ عَلَيْهِمْ . فَاَللَّهُ — سبحانه — رفع عيسى عليه السلام نبياً وولياً ، وحَقُّ الطَّرْدِ وَاللَّعْنُ عَلَى أَعْدَائِهِ ، وهذا مَكْرُهُ بِهِمْ :
﴿ وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ
الْمَاكِرِينَ ﴾

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْ هَذِهِ الصَّلَافَ فِي يَمِينِكَ ﴾^(٢) فيه إني متوفيك عنك ، وقابضك منك ، ورافعتك من نعوت البشرية ، ومطهرتك من إرادتك بالكلية ، حتى تكون مُصَرِّقاً بِنَا لَنَا ، ولا يكون عليك من

(١) ترجح أنها في الأصل : « يشكلك (علينا) شيء مما نحن فيه » ، لأن هذا الترجيح يقوى المعنى ، إذ يفصح عن مدى صحة إيمانهم ، أما إذا كانت (عليك) فيكون المعنى أن أنصاره طمأنوه عن أنفسهم ، وطلبوا إليه ألا يستشكل (عليه) أمر من أمورهم ، بدليل ما أفصحوا عنه في الآية التالية .
(٢) نخدم هذه الإشارة في إبراز وتدعيم واحدة من أخطر قضايا الفكر الديني .

اختيارك شيء ، ويكون إسبال التولى عليك قائماً عليك . وبهذا الوصف كان يظهر على يده إحياء الموتى ، وما كانت تلك الأحداث حاصلة إلا بالقدره — جَلَّتْ .
ويقال طَهَّرَ قلبه عن مطالعة الأغيار ، ومشاهدة الأمثال والآثار ، في جميع الأحوال والأطوار .

﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ
كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾

بالنصرة والقهر والحجة .

ومتبعوه مَنْ لَمْ يَبْدُلْ دِينَهُ وَمَنْ هُوَ عَلَى عَقِيدَتِهِ فِي التَّوْحِيدِ — وهم المؤمنون ، فَبِهِمْ
على الحق ، إلى يوم القيامة لهم النصرة ، ثم إن الله سبحانه يحكم — يوم القيامة — بينه وبين
أعدائه . فَأَمَّا الْكُفَّارُ فِي الْحَجِيمِ وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فِي النِّعَمِ .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكَ تَلَوَّهَ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ
وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾

ذلك تلوَّه عليك يا محمد ، نعرفك معانيه بما نوحى إليك ، لا بتكلفك ما تصل إلى عليه ،
أو بتعلُّك من الأمثال ، أو استنباطك ما تنزع من الاستدلال .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ
آدَمَ . . . ﴾ الآية

خَصَّهْمَا^(١) بتطهير الروح عن التناسخ في الأصلاب وأفرد آدم بصفة البدء ، وعيسى
عليه السلام بتخصيص نفخ الروح فيه على وجه الإعزاز ، وهما وإن كانا كبيرى الشأن فنقص
الحدثان والمخلوقية لازم لهما :

﴿ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

قوله جل ذكره : ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ . . . ﴾ الآية

(١) وردت (خصها) والصحيح خصهما لعودة الفعل على آدم وعيسى عليهما السلام .

الحق من ربك يا محمد ، فلا تُشكَّنْ في أنه — سبحانه — لا يماثل في الإيجاد أحدٌ ،
ولا على إثبات بينه لمخلوق قدرة . والموجودات التي (. . .)^(١) وجودها عن كتم
العدم — من الله مبدؤها وإليه عودها .

قوله جل ذكره ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ ﴾ الآية
يعنى بعدما ظهرت على صديق ما يقال لك ، وتَحَقَّقَتْ بقلبك معرفة ما خاطبك ،
فلا تحشم من حملهم على المباهلة ، وثق بأن لك القهر والنصرة ، وأنا توليناك ، وفي كنف
قربنا آويناك ، ولو أنهم رغبوا في هذه المباهلة لأحرقت الأودية عليهم نيراناً مؤججة ،
ولكن أخر الله — سبحانه — ذلك عنهم لعله بمن في أصلابهم من المؤمنين^(٢) .
والإشارة في هذه الآية لمن نزلت حاكه عن أحوال الصديقين ، فإنه إذا ظهرت أنوارهم
انخفضت آثار هؤلاء فلا إقرار ، ولا عنهم آثار .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾
لا يتسلط على شواهد التوحيد غبار شبهة ، ولا يدرك سر حكمه وهم^(٣) مخلوق ، ولا بدانيه
معلوم بحصره الوجود ، أو موهوم يصوره التقدير^(٤) .

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾
فإن تولوا — يا محمد — فإنه لا ثبات عند شعاع أنوارك لشبهة مبطل .
« فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ » إماً يحتاجهم^(٥) ، أو يحلم^(٦) حتى إذا استمكن ظنونهم
بأخذهم بفتنة وهم لا ينصرون .

(١) مشبهة .

(٢) هذا تعليل ممتنع لإمهال المخالفين .

(٣) وردت (وهو) وهي خطأ من الناسخ ، ونظن أن الأصل (وم) وهي مناسبة للسياق .

(٤) للقشيري عبارة في نفس الموضوع وردت في مستهل رسالته : « وكل ما تصوره الأوهام فأنه

بخلاف ذلك » .

(٥) وردت (يحتاجهم) وهي خطأ من الناسخ .

(٦) وردت (ويحكم) والملائم للمعنى (أو يحلم) من الحلم ، ويكون المعنى على هذا الأساس أنه إما أن

يمجل بانتقامه فيحتاجهم أو يمهلهم بحله ثم يفتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ
سواء بيننا وبينكم ﴾ الآية

هي كلمة التوحيد وإفراد الحق سبحانه في إنشاء الأشياء بالشهود .
وقوله : « ألا نعبد إلا الله » : لا تطالع بسرك مخلوقاً . وكما لا يكون غيره معبودك
فينبغي ألا يكون غيره مقصودك ولا مشهودك ، وهذا هو اتقاء الشرك ، وأنت أول الأغيار
الذين يجب ألا تشهدهم .

« ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً » ويظهر صدق هذا بترك المدح والذم لهم .
ونفى الشكوى والشك عنهم ، وتنظيف السر عن حسابان ذرة من الحور والإثبات منهم
قال صلى الله عليه وسلم « أصدق كلمة قالتها العرب قول لبيد » .

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل^(١)
فإن الذي على قلوبهم من المشاق أشد . وأما أهل البداية فالأمر مضيق عليهم في الوعظ
والأوراد ، فسيلهم الأخذ بما هو الأشق والأصعب ، لفرغهم بقلوبهم من المعاني^(٢) ، فمن
ظن بخلاف هذا فقد غلط .

والإشارة من هذه الآية أيضاً في قوله جل ذكره :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ
فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ . . . الآية .

ضرب على خليله — صلوات الله — تقاب الضئنة وحجاب الغيرة ، فقطع سببه عن
جميعهم بعد ادعاء الكل فيه ، وحكم بتعارض شبهاتهم ، وكيف يكون إبراهيم — عليه السلام —
على دين من أتى بعده ١٩ إن هذا تناقض من الظن .
ثم قال :

﴿ هَآؤُنَا نَحْمِلُ الْوَلَاءَ حَاجَجُمْ فَبِأَيِّ لَكُم

(١) رواه الشيخان عن أبي هريرة .

(٢) المتصود من (المعاني) هنا كل ما تميل إليه النفس ، والنفس محل المطولات .

به عِلْمٌ ، فَلَيْمَ تُحَاجُّونَ فِيهَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ
عِلْمٌ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾

يعنى ما كان فى كتابكم له بيان ، ويصح أن يكون لكم عليه برهان ، فخصَّهم فى ذلك
إمّا بحق وإمّا بباطل ، فالذى ليس لكم البتة عليه دليل ولا لكم إلى معرفته سبيل فكيف
تصدِّقون للحكم فيه ، وادَّعاء الإحاطة به ١٤

قوله جل ذكره : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا
وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا ﴾

الحنيف المستقيم على الحق ، والأحنف هو المستقيم فى حلقة الرُّجُل ، ويسمى مائل القدم
بذلك على التفاضل (١) . وإبراهيم عليه السلام كان حنيفاً لا مائلاً عن الحق ، ولا زائغاً عن الشرع ،
ولا مُعَرَّجاً على شئ فيه نصيب للنفس ، فقد سلَّم ماله ونفسه وولده ، وما كان له به جملة —
إلى حكم الله وانتظار أمره .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ
اتَّبَعُوهُ ، وَهَذَا النَّبِيُّ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا ،
وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

لما تفرقت الأهواء والبدع وصار كل حزب إلى خطأ آخر ، بقى أهل الحق فى كل عصر
وكل حين ووقت على الحجة المثلى ، فكانوا حزباً واحداً ، فبعضهم أولى ببعض . وإبراهيم
صاحب الحق ، ومن دان بدينه — كمثل رسولنا صلى الله عليه وسلم وأُمته — على الدين الذى
كان عليه إبراهيم عليه السلام وهو توحيد الله سبحانه وتعالى .

« وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ » لأنهم تولَّوا دينه ، ووافقوا توحيده ، وولاية الله إنما تكون
بالمؤمن والنصرة والتخصيص والقربة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
لَوْ يَضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ﴾

من حلت به فتنة ، وأصابته محنة ، واستهوته غواية — رضى لجميع الناس ما حلَّ به ،

(١) فكلية حنيف من الأضداد = مستقيم ومائل .

قَآهل الكُتاب يرِيدون بالمُؤمِنين أَن يزيغوا عَن الحق ، وَلَكن أَبي الله إِلا أَن يَم نوره ،
وَأَن يَعودَ إِلَهِم وبالُ فَعَلِهِم .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ
بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾

قِيلَ^(١) بعثه — صلى الله عليه وسلم — على صحبة نبوته^(٢) ، فما الذى يحملكم على غيكم
حتى جحدتم ما علمتم ؟

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ
بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴾

تكتُمون الحق فى شأن محمد عليه السلام وأنتم تعلمون أَنه النبي الصادق ، وهل هذا
إلا حكم الخذلان وقضية الحرمان ، ثم أخبر أَن منهم من يناقق فى حالته ، فيريد أَن يدفع عنه أذى
المسلمين ، ولا يخالف إخوانه من الكافرين ، فتواصوا فيما بينهم بموافقة الرسول عليه السلام
والمسلمين جهراً ، والخلوص فى عقائدهم الفاسدة بعضهم مع بعض سراً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا
وَجْهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ ﴾

فبين الله سبحانه أَن نفاقهم كُشِفَ للمسلمين ، وَأَن ذلك لا ينفعهم أمّا فى الدنيا فلا إطلاع
الله نبيه عليه السلام والمؤمنين — عليه ، وأمّا فى الآخرة فَلَفَقْدِ إِخْلَاصِهِمْ فِيهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَوَمِّنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ الآية .

(١) فى ص (قيل) وهى خطأ فى النسخ ، ويكون المعنى أَنتم — يا أهل الكتاب — تشهدون قبل بعثه
على صحبة نبوته ...

(٢) فى ص (نبوة) وهى خطأ فى النسخ .

يحتمل أن يكون هذا ابتداء أمر من الله سبحانه للمسلمين ، والإشارة فيه ألا تعاشرُوا الأضداد ، ولا تفشوا أسراركم للأجانب .

﴿ قُلْ إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ ﴾

فهو الذى يختص من يشاء بأتوار التعريف ، ويختص من يشاء بالخذلان والحرمان .

قوله جل ذكره : ﴿ يختص برحمته من يشاء والله

ذو الفضل العظيم ﴾

يختص من يشاء بفتون إنعامه ، فالرحمة على هذا سبب لتخصيص النعمة لمن أرادها . ولا بد من إضمار فيحتمل أن يختص بالرحمة من يشاء فلا تجرى الرحمة مجرى السبب فالرحمة على هذا التأويل تكون بمعنى النبوة وتكون بمعنى الولاية .

وبمعنى العصمة وجميع أقسام الخيرات التى يختص — بشيء منها — عبداً من عباده ، فيدخل تحت قوله : يختص برحمته ، أى بنعمته .

فقوم اختصهم بنعمة الأخلاق وقوم اختصهم بنعمة الأرزاق ، وقوم اختصهم بنعمة العبادة وآخرين بنعمة الإرادة ، وآخرين بتوفيق الظواهر وآخرين بمطاء الأبدان ، وآخرين ببقاء الأسرار ، قال تعالى : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » .

ويقال لما سمعوا قوله : « يختص برحمته من يشاء » ، علموا أن الوسائل ليست بهادية^(١) ، وإنما الأمر بالابتداء والمشية .

ويقال يختص برحمته من يشاء بالفهم عنه فيما يكشفه به من الأسرار ويلقيه إليه من فنون التعريفات .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ

بِقَنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ . وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ

تَأْمَنَهُ بَدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾ .. الآية

(١) وصدق الرسول الكريم حين قال : « إنه لن يدخل أحدكم الجنة عمله » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا . إلا أن يتغمدني الله برحمته » رواه الشيخان عن عائشة

أخبر أنهم — مع ضلالتهم وكفرهم — متفاوتون في أخلاقهم ، فكُلُّهم خَوَنَةٌ في أمانة الدِّين ، ولكنَّ منهم من يرجع إلى سداد للمعاملة ؛ ثم وإن كانت معاملتهم بالصدق فلا ينفعهم ذلك في إيجاب الثواب ولكن ينفعهم من حيث تخفيف العذاب ؛ إذ الكفار مُطَالَبُونَ بتفصيل الشرائع ، فإذا كانوا في كفرهم أقلَّ ذنباً كانوا بالإضافة إلى الأخسرين أقلَّ عذاباً ، وإن كانت عقوبتهم أيضاً مؤبَّدة .

ثم بيَّن أنه ليس الحكم إليهم حتى إذا :

﴿ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنَ سَبِيلٌ ﴾

فلا تجرى عليهم هذه الحالة ، أو تنفعهم هذه القالة ، بل الحكم لله تعالى .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَدْوِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ

ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي
الْآخِرَةِ وَلَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ
إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَزَكِّيهِمْ ، وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

الذين آثروا هوامهم على عُقْبَاهُمْ ، وقدَّموا مناهم على موافقة مولاهم أولئك لا نصيب لهم في الآخرة ؛ فللاستمتاع بما اختاروا من العاجل خسروا في الدارين .

بقوا عن الحق ، وما استمتعوا بحظٍّ ، جَمَعَ عليهم فنون اليمْحَن ولكنهم لا يدرون ما أصابهم : لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكِّيهم ، ثم مع هذا يَخْلُدُهم في العقوبة الأبدية .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُمُ
بِالْكِتَابِ لِيُخَسِبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ ،
وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ ، وَيَقُولُونَ
هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ
اللَّهِ ، وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبُ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

الإشارة من هذه الآية إلى المبطلين في الدعاوى في هذه الطريقة .

يزينون العبارات ، ويطلقون ألسنتهم بما لا خبرَ في قلوبهم منه ، ولا لهم بذلك تحقيق ،
تلييناً على الأغبياء والعوام وأهل البداية ، يوهمون أن لهم تحقيق ما يقولونه بألسنتهم .
قال تعالى في صفة هؤلاء « لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب » ، كذلك أرباب
التليس والتدليس ، يروّجون قائلهم على المستضعفين ، فأما أهل الحقائق فأسرارهم عندهم
مكشوفة .

قال الله تعالى « ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » ، أى يعلمون أنهم كاذبون ،
كذلك أهل الباطل والتليس في هذه الطريقة يتكلمون عن قلوب خربة ، وأسرار محجوبة ،
نعوذ بالله من استحقاق المقت !

قوله جل ذكره : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ
وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ ، ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ
كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ،
وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ
تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ
تَدْرُسُونَ ﴾ .

أى ليس من صفة مَنْ اخترناه للنبوة واصطفيناه للولاية أن يدعو الخلق إلى نفسه ،
أو يقول بإثبات نفسه وحظه ، لأن اختياره — سبحانه — إياهم للنبوة يتضمن عصمتهم عما
لا يجوز ، فتجوز ذلك في وصفهم متأفٍ لحالم ، وإنما دعاء الرسل والأولياء — للخلق —
إلى الله سبحانه وتعالى ، وهو معنى قوله تعالى : « ولكن كونوا ربانيين » أى إنما أشار بهم
على الخلق بأن يكونوا ربانيين ، والرباني منسوبٌ إلى الرب كما يقال فلان دقيانى ولحيانى
... وبابه .

وهم العلماء بالله العلماء في الله القائمون بفنائهم عن غير الله ، المستهلكة حظوظهم ،
المستغرقون في حقائق وجوده عن إحساسهم بأحوال أنفسهم ، ينطقون بالله ويسمعون بالله ،
وينظرون بالله ، فهم بالله محوٌ عما سوى الله .

ويقال الرباني من ارتفع عنه ظلُّ نفسه ، وعاش في كنف ظلِّه — سبحانه .
ويقال الرباني الذي لا يُشَبَّهُ غيرُ ربِّه مَوْحِدًا ، ولا يشهد ذرة من المحو والإثبات لغيره .
أو من غيره .

ويقال الرباني من هو بحَقُّ في وجوده — سبحانه — ومحو عن شهوده ، فالقائم عنه
غَيْرُهُ ، والمُجَرِّى لِمَا عليه سواه .

ويقال الرباني الذي لا تُؤَثَّرُ فيه تصاريِفُ الأقدار على اختلافها .
ويقال الرباني الذي لا تُغَيِّرُهُ محنة ولا تُضَرُّهُ نعمة — فهو على حالة واحدة
في اختلاف الطوارق .

ويقال الرباني الذي لا يتأثر بورود واردٍ عليه ، فَمَنْ استنظفته رقة قلبٍ ، أو استماله
هجومُ أمرٍ ، أو تفاوتت عنده أخطارُ حادث — فليس برباني .

ويقال إنَّ الرباني هو الذي لا يبالي بشيء من الحوادث بقلبه وسِرِّه ، ومن كان لا يقصر
في شيء من الشرع بفعله .

« بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » من توالى إحسانى إليكم ، وتضاعف
نعمتى لديكم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة
والنبيين أربابا أيا أمركم بالكفر بعد
إذ أنتم مسلمون ﴾ .

أى لا تنسبون إليهم ذرة من الإثبات في الخير والشر .

ويقال يعرفكم حدَّ البشرية وحقَّ الربوبية .

ويقال يأمركم بتوقيهم من حيث الأمر والشرعية ، وتحقير قدر الخلق — بالإضافة^(١)
إلى الربوبية . « أيا أمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون » أيا أمركم بإثبات الخلق بعد
شهود الحق ؟

(١) وتحقير قدر الخلق (بالإضافة إلى الربوبية) معناها (بالنسبة إلى) جلال الربوبية وعظمتها .

ويقال «أيامكم بمطالعة الأشكال، ونسبة المحدثان إلى الأمثال، بعد أن لاحت في أسراركم أنوار التوحيد، وطلعت في قلوبكم شمس التفريد».

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ...﴾ الآية

أخذ الله ميثاق محمد صلى الله عليه وسلم على جميع الأنبياء عليهم السلام، كما أخذ ميثاقهم في الإقرار بربوبيته — سبحانه، وهذا غاية التشريف للرسول عليه السلام، فقد قرّن اسمه باسم نفسه، وأثبت قدره كما أثبت قدر نفسه، فهو أوجد الكفاة في الرتبة، ثم سهل سبيل الكفاة في معرفة جلاله بما أظهر عليه من المعجزات.

﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

الإشارة فيه: فمن حاد عن سنته، أو زاغ عن اتباع طريقته بعد ظهور دليله، ووضح معجزته فأولئك هم الذين خبثت درجاتهم، ووجب المقت عليهم لجحدهم، وسقوطهم عن تعلق العناية بهم.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ...﴾ أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً...﴾

من لاحظ على غير الحقيقة، أو طالع سواه في توم الأهلية^(١) كراء السراب ظنه ماء فلما أتاه وجده هباء. ومغالط الحسابات مقطعية مشككة فمن حلّ بها نزل بوادٍ قفر.

«وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً، لإجراء حكم الإلهية على وجه القهر عليهم».

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا،

(١) الأهلية معناها الاستحقاق، استحقاق كل تقديس، ولا نستبعد أنها في الأصل الألوهية لأن السياق يسير متحدثاً عن البشر الذين يقولون للناس كونوا عباداً لنا، وعن الملائكة والنبیین ووجوب عدم اتخاذهم أرباباً.

وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل
وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي
موسى وعيسى والنبيون من ربهم
لا نفرّق بين أحدٍ منهم ونحن
له مُسلّمون *

آمنّا بالله لا بنفوسنا أو حولنا أو قوتنا .

وآمنّا بما أنزل علينا بالله ، وأنّا لا نفرّق بين أحدٍ منهم — بالله سبحانه — لا بحولنا
واختيارنا ، وجهدنا^(١) واكتسابنا ، ولولا أنه عرفّنا أنه من هو ما عرفنا وإلا فمتى
علّمنا ذلك ؟^(٢) .

قوله جل ذكره : * ومن يتنغ غير الإسلام ديناً قلن
يُقبَل منه وهو في الآخرة من
الخالسين * .

من سلّك غير الخمود تحت جريان حكمه سيلاً زلّت قدّمه في وهدة^(٣) من المغاليط
لا مدى لقرها .

ويقال من توّسل إليه شيء دون الاعتصام به فخُسرانه أكثر من رنجِه .
ويقال من لم يَفْض عن شهود الكل لم يصل إلى من به الكل .
ويقال من لم يَمْش تحت راية المصطفى صلى الله عليه وسلم المُعظّم في قدره ، المُعلّى في وصفه ،
لم يُقبَل منه شيء ولا ذرة .

قوله جل ذكره : * كيف يهدي الله قومًا كفروا بعد

(١) وردت (وجهدنا) وهي خطأ من الناسخ .

(٢) قارن ذلك بعبارة ذي النون المصري : عرفت ربي بربي ولولا ربي ما عرفت ربي . (الرسالة

ص ١٥٦) .

(٣) أنخطأ الناسخ حين كتبها (وحدة) بالحاء .

إيمانهم وشهدوا أن الرسول حقٌ
.....، الآية ﴿

مَنْ أبعده عن استحقاق الوصلة في سابق حكمه فحق يقربه من بساط الخدمة بفعله في وقته ؟
ويقال : الذي أقصاه^(١) حكم (الأول)^(٢) متى أدناه صدق العمل ؟ والله غالبٌ على أمره .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله
والملائكة والناس أجمعين ﴾

أولئك قصارى حالهم ما سبق لهم من حكمه في ابتداء أمرهم ، ابتداءؤهم ردُّ القسمة ،
ووسائطهم الصدُّ عن الخدمة ، ونهايتهم المصير إلى الطرد والمنلة .

﴿ خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب
ولا هم يُنظرون ﴾

خالدين في تلك المنلة لا يفتر عنهم العذاب لحظة ، ولا يخفف دونهم الفراق ساعة .

﴿ إلا الذين تابوا من بعد ذلك
وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ﴾

أولئك هم الذين تداركتهم الرحمة ، ولم يكونوا في شق السبق من تلك الجملة ، وإن كانوا
في توهم الخلق من تلك الزمرة .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الذين كفروا بعد إيمانهم
نم ازدادوا كفراً لن نقبل توبتهم
وأولئك هم الضالون ﴾

الإشارة منه : أن الذين رجعوا إلى أحوال أهل العادة بعد سلوكهم طريق الإرادة ،

(١) وردت (أقصاه) ونحن نرجح أن تكون (أقصاه) بالصاد حتى تتلاءم مع (أدناه) التي جاءت
بعدها — فذلك أقرب إلى طبيعة أسلوب القشيري في هذا السياق .
(٢) هكنا كتبها الناسخ ، ونحن نميل إلى أنها في الأصل (الأزل) .
فالقشيري يعتقد أن الأقسام سبقت في الأزل وأن قيمة الإنسان مرتبته بذلك ،

وآثروا الدنيا ومطاوعة الهوى على طلب الحق سبحانه وتعالى ، ثم أنكروا على أهل الطريقة ، وازدادوا في وحشة ظلماتهم — لن تُقبلَ توبتهم ، « وأولئك هم الضالون » عن طريق الحق فإنه لا يقبل الأمانة بعد ظهور الخيابة . وعقوبتهم أنهم على ممر الأيام لا يزدادون إلا نفرة قلب عن الطريقة ، ولا يتحسرون على ما فاتهم من صفاء الحالة . ولو أنهم رجعوا عن إصرارهم لها لُقبِلت توبتهم ، ولكن الحق سبحانه أجرى سنته مع أصحاب الفترة في هذه الطريقة إذا رجعوا إلى أصول العادة ألا يتأبفوا على ما مضى من أوقاتهم .

قال تعالى : « ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة » وإن المرتد عن الإسلام لأشدَّ عداوة للمسلمين من الكافر الأصلي ، فكذلك الراجع عن هذه الطريقة لأشدَّ إنكاراً لها وأكثر إعرافاً عن أهلها من الأجنبي عنها .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنِّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَئِنْ يُقْبَلَنَّ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ مِنَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَالِهِمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ .

الإشارة منه : لمن مات بعد فترته — وإن كانت له بداية حسنة — فلا يحشر في الآخرة مع أهل هذه القصة ، ولو تشفع له ألف عارف ، بل من كمال السكر به أنه يلقي شبهه في الآخرة على غيره حتى يتوهم معارفه من أهل المعرفة أنه هو — فلا يخطر ببال أحد أنه ينبغي أن يشفع له .

قوله جل ذكره : ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمِمَّا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾

لما كان وجود البر مطلوباً ذكر فيه « مِنْ » التي للتبويض فقال : « مما تحبون » ، فمن أراد البر فلينفق مما يحبه أى البعض ، ومن أراد البار فلينفق جميع ما يحبه . ومن أنفق محبوبه من الدنيا وجد مطلوبه من الحق تعالى ، ومن كان مربوطاً بحظوظ نفسه لم يحفظ بقرب ربه . ويقال إذا كنت لاتصل إلى البر إلا بإففاق محبوبك فتى تصل إلى البار وأنت تؤثر عليه حظوظك . « وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم » منهم من ينفق على ملاحظة الجزاء

والعوض ، ومنهم من ينفق على مراقبة دفع البلاء والحزن ، ومنهم من ينفق اكتفاء بعلمه ،
قال قائلهم :

ويتهز للمعروف في طلب العلى لتذكر يوماً — عند سلمى — شمائله
قوله جل ذكره : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ
إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ
قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ، قُلْ فَأَتُوا
بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *
فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ
بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

الأصل في الأشياء ألا يشرع فيها بالتحليل والتحريم ، فالأ يوجد فيه حدٌ فذلك من
الحق — سبحانه — توسعة ورفقة إلى أن يحصل فيه أمر وشرع ؛ فإنَّ الله — سبحانه —
وسَّعَ أحكام التكليف على أهل النهاية^(١) ، فسبيلهم الأخذ بما هو الأسهل لتمام ما هم به من أحكام
القلوب ، فإن الذي على قلوبهم من المشاق أشد . وأما أهل البداية فالأمر مضيقٌ عليهم في
الوظائف والأوراد ؛ فسبيلهم الأخذ بما هو الأشق والأصعب لفراغهم بقلوبهم من المعاني ،
فمن ظنَّ بخلاف هذا فقد غلط .

والإشارة من هذه الآية أيضاً في قوله : « فمن افتري على الله الكذب » إلى أحوال
أهل الدعاوى والمغاليط ؛ فإنهم يخلون بنفوسهم فينسبون إلى الله — سبحانه — هواجسها ،
والله يرى عنها . وعزيزٌ عبدٌ يفرق بين الخواطر والهواجس .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ
حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ الخروج إلى الله بالكلية ، والتسليم لحكمه من غير أن تبقى بقية ؛ فأثبت
فرة في الحساب من الحدثان شركاً — في التحقيق .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي

(١) أهل النهاية هم العوام ، وأهل البداية هم الخواص .

بِسْكَ مُبَارَكًا وَهَدَى الْعَالَمِينَ •
 فِيهِ آيَاتٌ يَنْتَظِرُ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ
 دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ، وَهُدًى عَلَى النَّاسِ
 حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ،
 وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيرٌ
 عَنِ الْعَالَمِينَ

البيت حَجَرَةٌ والعبد مَدْرَةٌ ، فَرَبَطَ المَدْرَةَ بالحِجْرَةِ ، فالمدبر مع الحجر .
 وتَعَزَّزَ وتَقَدَّسَ من لم يزل .

ويقال البيت مطاف النفوس ، والحق سبحانه مقصود القلوب !

البيت أطلال وآثار وإنما هي رسوم وأحجار ولكن :
 تلك آثارنا تدلُّ علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

ويقال البيت حجر ، ولكن ليس كل حجر كالذي يجانسه من الحجر .
 حَجَرٌ ولكن لقلوب الأحباب مزعج بل لأكباد الفقراء منفع (١) ، لا بل لقلوب قوم
 مُثَلِّجٌ مبهج ، ولقلوب الآخرين منفع مزعج .
 وهم على أصناف : بيت هو مقصد الأحباب ومزارهم ، وعنده يسمع أخبارهم
 ويشهد آثارهم .

بيت من طالعه بعين التفرقة عاد بسمر خراب ، ومن لاحظته بعين الإضافة حظى بكل تقريب
 وإيجاب ، كما قيل :

إِنْ الدِّيارَ — وَإِنْ صَتَّتْ — فَإِنَّهَا — عَهْدًا بِأَحْبَابِنَا إِذْ عِنْدَهَا نَزَلُوا

بيت من زاره بنفسه وجد أُلطافه ، ومن شاهده بقلبه نال كشوفاته .

(١) نفع الأربء أناره والناجفة الريح الشديدة ، فيكون معنى منفع شديد الإنارة .

ويقال قال سبحانه : « وطهر بيتي » وأضافه إلى نفسه ، وقال هاهنا : « إن أول بيت وضع للناس » وفي هذا طرف من الإشارة إلى عين الجمع ^(١) .

وسميت (بكة) لازدحام الناس ، فالكل يتناجزون على البدار إليه ، ويزدحمون في الطواف حوالية ، ويبدلون المهج في الطريق لوصولوا إليه .

والبيت لم يخاطب أحداً منذ بُنِيَ بُنْيَةً ، ولم يستقبل أحداً بخطوة ، ولا راسل أحداً بسطر في رسالة ، فإذا كان البيت الذي خلقه من حجر — هذا وصفه في التمزز ^(٢) — فما ظنك بمن البيت له . قال صلى الله عليه وسلم مخبراً عنه سبحانه : « الكبرياء ردائي والعظمة إزاري » .

ويقال إذا كان البيت المنسوب إليه لا تصل إليه من ناحية من نواحيه إلا بقطع للمفاوز والمتاهات فكيف تطمع أن تصل إلى رب البيت بالهويني دون تحمل المشقات ومفارقة الراحة ؟

ويقال لا تعلق قلبك بأول بيت وضع لك ولكن أفرّد سيرك لأول حبيب آثرك .
ويقال شتان بين عبد اعتكف عند أول بيت وضع له وبين عبد لازم حضرة أول عزيز كان له .

ويقال ازدحام الفقراء بهمهم حول البيت ليس بأقل من ازدحام الطائفين بقدمهم ، فالأغنياء يزورون البيت ، ويطوفون بقدمهم ، والفقراء يبقون عنه فيطوفون حوله بهمهم .
ويقال الكعبة بيت الحق سبحانه في الحجر ، والقلب بيت الحق سبحانه في السر ، قال قائلهم :

لست من جملة المحبين إن لم أجعل القلب بينه والمقام
وطوافي إجمالة السر فيه وهو ركني إذا أردت استلاما
فالطائف تطوف بقلوب العارفين ، والحقائق تعتكف في قلوب الموحدين ، والكعبة مقصود العبد بالحج ، والقلب مقصود الحق بإفراده إياه بالتوحيد والوجد .

(١) ربما كان في الأصل (... الإشارة إلى عين الجمع ، « وأول بيت وضع للناس » إشارة إلى الفرق) في الأول نسب البيت إلى نفسه ، وفي الثاني أشار إلى وضعه للناس .
وسقطت هذه العبارة الأخيرة من النسخ .
(٢) وردت (التمزز) والسياق يتطلب (التمزز) .

قوله جل ذكره : ﴿مباركاً مهدى للعالمين﴾

بركاته اتصال الألفاظ والكشوفات ، فمن قصده بهمة ، ونزل عليه بقصده هداً إلى طريق رُشديه .

قوله جل ذكره : ﴿فيه آيات بينات﴾

ولكن لا تدرك تلك الآيات بأبصار الرءوس ولكن ببصائر القلوب ، ومقام إبراهيم — في الظاهر — متأثر بقدمه ، وفي الإشارة : ما وقف الخليل عليه السلام بهمة .
ويقال إن شرف مقام إبراهيم لأنه أثر الخليل ، ولأثر الخليل خطر عظيم .

قوله جل ذكره : ﴿ومن دخله كان آمناً﴾

يقال من دخل مقام إبراهيم كان آمناً ، ومقام إبراهيم التسليم ، ومن كان مسلماً أموره إلى الله لم يبق له اختيار ، وكان آمناً ؛ فالأمن ضده الخوف ، والخوف إنما يكون على ألا يحصل مرادك على ما تريد ، فإذا لم تكن للعبد إرادة واختيار فأى مسأغ للخوف في وصفه ؟

ويقال إن الكناية^(١) بقوله (دخله) راجعة إلى البيت ، فمن دخل بيته — على الحقيقة — كان آمناً ، وذلك بأن يكون دخوله على وصف الأدب ، ولا محالة أدب دخول البيت تسليم الأمور إلى رب البيت ، فإن من لم يكن صاحب تسليم فهو معارض للتقدير . ودخول البيت إنما الأدب فيه أن يكون دخولاً على التسليم دون المعارضة والنزاع فيؤول إلى المعنى المتقدم .

وإن جعلت الإشارة من البيت إلى القلب فمن دخل قلبه سلطان الحقيقة أمين من نوازع البشرية وهو اجس غافة النفس ، فإن من التجأ إلى ظل الملك لم يمتط إليه محنورا .

ويقال لا يكون دخول البيت — على الحقيقة — إلا بخروجك عنك ، فإذا خرجت عنك صح دخولك في البيت ، وإذا خرجت عنك أمنت .

ويقال دخول بيته لا يصح مع تعريضك في أوطانك ومماهدك ، فإن الشخص الواحد

(١) يعتمد بها ضمير الغائب في (دخله) .

لا يكون في حالة واحدة في مكانين ؛ فمن دخل بيت ربّه فبالحرى أن يخرج عن معاهد^(١) نفسه .

قوله جل ذكره : ﴿وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ

اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾

شرط الغنى ألا يدخر عن البيت شيئاً من ماله ، وشرط الفقير ألا يدخر عن الوصول إلى بيته نفساً من روحه .

ويقال الاستطاعة فنون ؛ فستطيع بنفسه وماله وهو الصحيح السليم ، ومستطيع بغيره وهو الزمّن للعصوب ، وثالث غفل الكثيرون عنه وهو مستطيع بربه وهذا نمت كل مخلص مستحق فإن بلاياه لا تحملها إلا مطاياها .

ويقال حج البيت قرضٌ على أصحاب الأموال ، ورب البيت قرضٌ على الفقراء فرض حتم ؛ فقد ينسدّ الطريق إلى البيت ولكن لا ينسدّ الطريق إلى رب البيت ، ولا يُمنع الفقير عن رب البيت .

ويقال الحج هو القصد إلى من تعظّمه : فقاصدٌ بنفسه إلى زيارة البيت ، وقاصد بقلبه إلى شهود رب البيت ، فشتان بين حج وحج ، هؤلاء تحلّهم عن إحرامهم عند قضاء منسكهم وأداء فريضهم ، وهؤلاء تحلّهم عن إحرامهم عند^(٢) شهود ربهم ، فأما القاصدون بنفوسهم فأحرموا عن المعبودات من محرمات الإحرام ، وأما القاصدون بقلوبهم فإنهم أحرموا عن المساكنات وشهود الغير وجميع الأنام .

قوله جل ذكره : ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾

ضرب رقم الكفر على من ترك حج البيت ، ووقعت بسبب هذا القول قلوب العلماء في كدّ التأويل ، ثم قال : « فإن الله غني عن العالمين » وهذا زيادة تهديد تدل على زيادة تخصيص .

ويقال إن سبيل من حج البيت أن يقوم بأداب الحج ، فإذا عقد بقلبه الإحرام يجب أن

(١) أى مألوفات نفسه .

(٢) وردت (عن) والصحيح (عند) .

يفسخ كل عقد يصدّه عن هذا الطريق ، وينقض كل عزم يردّه عن هذا التحقيق ، وإذا طهرّ
تَطَهَّرَ عن كل دنسٍ من آثار الأغيار بماء الخجل ثم بماء الحياء ثم بماء الوفاء ثم بماء الصفاء ،
فإذا تجرّد عن ثيابه تجرّد عن كل ملبوسٍ له من الأخلاق الذميمة ، وإذا لبّي بلسانه وجب
ألا تبقى شعرةٌ من بدنه إلا وقد استجابت لله . فإذا بلغ الموقف وقف بقلبه وسيره حيث
وقفه الحق بلا اختيار مقام ، ولا تعرض لتخصيص ؛ فإذا وقف بعرفات عرف الحق سبحانه ،
وعرف له تعالى حقّه على نفسه ، ويتعرّف إلى الله تعالى بتبرّيه عن مُنْتَه (١) وحوّله ،
والحق سبحانه يتعرّف إليه بِمَنْتَه وطوّله ، فإذا بلغ المشعر الحرام يذكر مولاه بنسيان نفسه ،
ولا يصحّ ذكره لربه مع ذكره لنفسه ، فإذا بلغ مني نقي عن قلبه كل طلبٍ ومُنَى ، وكلّ
شهوةٍ وهوى .

وإذا رمى الجمار رمى عن قلبه وقذف عن سره كل علاقة في الدنيا والعقبى .
وإذا ذبح ذبح هواه بالكلية ، وتقرّب به إلى الحق سبحانه ، فإذا دخل الحرم عزّم
على التباعد عن كل مُحَرَّم على لسان الشريعة وإشارة الحقيقة .
وإذا وقع طَرَفُهُ على البيت شهد بقلبه ربّ البيت ، فإذا طاف بالبيت أخذ سيره بالجولان
في اللسكوت

فإذا سعى بين الصفا والمروة صوّى عنه كل كدورة بشرية وكل آفة إنسانية .
فإذا حلق قطع كل علاقة بقيت له .
وإذا تحلل من إحرام نفسه وقصده إلى بيت ربه استأنف إحراماً جديداً بقلبه ، فكما
خرج من بيت نفسه إلى بيت ربه يخرج من بيت ربه إلى ربه تعالى .
فمن أكل نسكاً فإنما عمل لنفسه ، ومن تكاسل فإن الله غنى عن العالمين وقال صلى الله
عليه وسلم : « الحاج أشعث أغبر » ، فمن لم يتحقق بكمال الخضوع والذوبان عن كليته فليس
بأشعث ولا أغبر .

(١) ضبطناها هكذا لأن القشيري يميز بين (المينة) للحق و (المنة) للبد .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ

بآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴾

الخطاب بهذه الآية لنا كيد الحجة عليهم ، ومن حيث الحقيقة والقهر يسد الحجة عليهم ،
فهم مدعوون — شرعاً وأمرأ ، مطرودون — حكماً وقهراً .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ

عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُؤْهَا

عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ

عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

كيف يصد غيره مَنْ هو مصدودٌ في نفسه ؟ إنَّ في هذا لَـسِيراً للربوبية .

قوله جل ذكره ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا فَرِيقًا

مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ

بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾

الوحشة ليست بلازمة لأصحابها ، بل هي متعدية إلى كل من يحوم حول أهلها ، فمن أطاع

عدو الله إلى شؤم صحبة (الأعداء)^(١) ألقاه في هدمته .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ

آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ، وَمَنْ

يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ ﴾

لا ينبغي لمن أشرقت في قلبه شمسُ العرفان أن يوقع الكفرُ عليه ظلاً ، فإنه إذا أقبل

النهارُ من هاهنا أدبر الليلُ من هاهنا .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَعْتَصِم . . . ﴾ الآية إنما يعتصم بالله مَنْ وَجَدَ العصمة من الله ، فأما

(١) مكتوبة (إلا) وسقطت بقية الكلمة فأكلناها (الأعداء) وربما (الأجانب) أو ماني معانها

طبقاً لما نعرفه عن اتجاه القشيري في مواضع مماثلة .

مَنْ لَمْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَتَى يَعْتَصِمُ بِاللَّهِ ؟ فَالْهُدَايَةُ مِنْهُ فِي الْبِدَايَةِ تَوْجِبُ اعْتِصَامَكَ فِي النِّهَايَةِ ، لَا الْاعْتِصَامُ مِنْكَ يَوْجِبُ الْهُدَايَةَ .

وَحَقِيقَةُ الْاعْتِصَامِ صِدْقُ اللَّجْوِ إِلَيْهِ ، وَدَوَامُ الْفِرَارِ إِلَيْهِ ، وَاسْتِصْحَابُ الْاسْتِغَاثَةِ إِلَيْهِ . وَمَنْ كَشَفَ عَنْ سِرِّهِ غِطَاءَ التَّفَرُّقَةِ تَحَقَّقَ بِأَنَّهُ لَا لِغَيْرِ اللَّهِ خَزَاةٌ أَوْ مِنْهُ سَيْنَةٌ ، فَهَذَا الْإِلْسَانُ يَعْتَصِمُ بِهِ مِمَّنْ يُعْتَصَمُ بِهِ ؛ قَالَ سَيِّدُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ : « أَعُوذُ بِكَ مِنْكَ » .

وَمَنْ اعْتَصِمَ بِنَفْسِهِ دُونَ أَنْ يَكُونَ مُحَوَّاً عَنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ فِي اعْتِصَامِهِ — فَالشِّرْكُ وَطَنُهُ وَلَيْسَ بِشَعْرٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ .

حَقُّ التَّقْوَى أَنْ يَكُونَ عَلَى وَفْقِ الْأَمْرِ لَا يَزِيدُ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ وَلَا يَنْقُصُ .

هَذَا هُوَ الْمُعْتَمِدُ مِنَ الْأَقَاوِيلِ فِيهِ ، وَأَمْرُهُ عَلَى وَجْهَيْنِ : عَلَى وَجْهِ الْحَتْمِ وَعَلَى وَجْهِ النَّدْبِ وَكَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي النَّهْيِ عَلَى قَسَمَيْنِ : تَحْرِيمٍ وَتَنْزِيهِ ، فَيَدْخُلُ فِي جُمْلَةٍ هَذَا أَنْ يَكُونَ حَقُّ تَقَاتِهِ أَوَّلًا اجْتِنَابَ الزَّلَّةِ ثُمَّ اجْتِنَابَ الْغَفْلَةِ ثُمَّ التَّوَقُّي عَنْ كُلِّ خَلَةٍ ثُمَّ التَّنَقُّي مِنْ كُلِّ عِلَّةٍ ، فَإِذَا تَقَيَّيْتُمْ عَنْ شُهُودِ تَقْوَاكَ بَعْدَ اتِّصَافِكَ بِتَقْوَاكَ فَقَدْ اتَّقَيْتُمْ حَقَّ تَقْوَاكَ .

وَحَقُّ التَّقْوَى رَفْضُ الْعَصْيَانِ وَنَقْيُ النِّسْيَانِ ، وَصَوْنُ الْمَهْرُودِ ، وَحِفْظُ الْحُدُودِ ، وَشُهُودُ الْإِلَهِيَّةِ ، وَالْإِسْلَاحُ عَنْ أَحْكَامِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَالْحَمْدُ نَحْتِ جَرِيَانِ الْحُكْمِ بَعْدَ اجْتِنَابِ كُلِّ جُرْمٍ وَظَلَمٍ ، وَاسْتِشْعَارُ الْآفَةِ عَنْ التَّوَسُّلِ إِلَيْهِ بِشَيْءٍ مِنْ طَاعِنِكَ دُونَ صَرْفِ كَرَمِهِ ، وَالتَّحَقُّقُ بِأَنَّهُ لَا يَقْبَلُ أَحَدًا بِعِلَّةٍ وَلَا يَرُدُّ أَحَدًا بِعِلَّةٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْنَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ .

لَا تُصَادِقَنَّكَ الْوَفَاةُ إِلَّا وَأَنْتُمْ بِشَرَطِ الْوَفَاءِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ .

واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم
أعداء فآلف بين قلوبكم فأصبحتم
بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا
حفرة من النار فأنقذكم منها ،
كذلك يُبَيِّنُ الله لكم آياته
لعلكم تهتدون * .

الاعتصامُ بحبله — سبحانه — التمسك بآثار الواسطة — العزيز صلوات الله عليه —
وذلك بالتحقق والتعلق بالكتاب والسنة .

ويصح أن يقال : الخواص يُقال لهم « اعتصموا بحبل الله » ، وخاص الخاص قيل لهم
« واعتصموا بالله » ، ولَمِنْ رَجَعَ عند سوانحه إلى اختياره واحتياله ، أو فكرته وامتلأه ،
أو معارفه وأشكاله ، والتجأ إلى ظل تدبيره ، واستضاء بنور عقله وتفكيره^(١) — فرفوع عنه
ظل العناية ، وموكل إلى سوء حاله .

وقوله : « ولا تفرقوا » : التفرقة أشد العقوبات وهي قرينة الشرك .

وقوله : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء » . وكانوا أعداء حين كانوا قاطعين
بمخطوئهم ، مُعْرِجِينَ على ضيق البشرية ، متزاحمين بمقتضى شُحِّ النفوس .
« قَالَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ » : بالخلاص من أسْرِ المكنونات ، ودَفَعَ الأخطار عن أسرارهم ،
فصار مقصودهم جميعاً واحداً ؛ فلو أَلَفَ أَلَفَ شخص في طلبٍ واحدٍ — فهم في الحقيقة واحد .
« فأصبحتم بنعمته إخوانا » نعمته التي هي عصمته إياكم ، إخواناً مُتَّفِقِي القصد والهمة ،
متفانين عن حظوظ النفس وخبايا البخل والشح .
« وكنتم على شفا حفرة من النار » : بكونكم نحت أسْرِ مُنَاكَم ، وورباط
حظوظكم وهواكم .

(١) واضح أن القشيري يرى أن الالتجاء إلى العقل والفكر كوسيلة للوصول يمد قاطعا من القواطع ،
لأن العقل آفات — ذكرها القشيري في مواضع مختلفة — تجعله غير جدير بأن يعتمد عليه العبد في معرفة
الحقائق العليا ؛ إن مهمة العقل عند هذا الباحث لا تتجاوز منطقة البداية — عند نصحيح الإيمان .

هـ فأتقذكم منها : بنور الرضاء ، والحدود عند جريان القضاء ، وتلك حقاً هي المكاة
المعطى والدرجة الكبرى ، ويدخل في هذه الجملة ترك السكون إلى ما منك من المناقب
والثقى ، ولعل والحجا ، والتحصيل والنهى ، والفرار إلى الله - عز وجل - عن كل
غير وسوى .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى
الخير وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾
هذه إشارة إلى أقوام قاموا بالله لله ، لا تأخذهم لومة لائم ، ولا تقطعهم عن الله
استقامة إلى علة ، وقفوا بجلتهم على دلالات أمره ، وقصروا أنفاسهم واستغرقوا أعمارهم
على تحصيل رضاء ، عملوا لله ، ونصحوا الدين لله ، ودعوا خلق الله إلى الله ، قريحت
تجارهم ، وما خسرت صفتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا
وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ
وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾
هؤلاء أقوام أظهر عليهم في الابتداء رقوم الطلب ، ثم وسهم^(١) في الانتهاء بكى
الفرقة ، فباتوا في شق الأحباب ، وأصبحوا في زمرة الأجانب^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ
وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ
وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ
فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ
* وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وَجُوهُهُمْ
فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

(١) الرقم نعت يجرى في الابتداء والوسم نعت يجرى في الأبد بما جرى في الأزل .
(٢) تأمل الدقة في استعمال (باتوا) وكيف تعبر عن البداية ؛ ثم (أصبحوا) لتعبر عن النهاية .

أرباب الدَّعَاوَى تسودُّ وجوههم ، وأصحاب المعانى تبيض وجوههم ، وأهل
الكشوفات غداً تبيضُ بالإشراق وجوههم ، وأصحاب الحجاب تسودُّ بالحجبة وجوههم ،
فتعلوها غبرة ، وترهقها قنطرة .

ويقال من ابيض — اليوم — قلبه ابيض — غداً — وجهه ، ومن كان بالضد
فحالته العكس .

ويقال من أعرض عن الخلق — عند سوانحه — ابيض وجهه بروح التفويض ،
ومن علق بالأغيار قلبه عند الحوائج اسودَّ عيَّاه بغبار الطمع ، فأما الذين ابيضت وجوههم
ففى أنس وروح ، وأما الذين اسودَّت وجوههم ففى عن ونوح .

قوله جل ذكره : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تُلَوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ
وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴾
والله ما فى السموات وما فى الأرض
والى الله ترجع الأمور ﴿

نُديمُ مخاطبتنا معك على دوام الأوقات فى كل قليل وكثير ، عمارة لسبيل الوداد :
﴿ وما الله يريد ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴾ وأنى يجوز الظلم فى وصفه تقديراً ووجوداً — والخلق
كلهم خلقه — والحكم عليهم حكمه ؟

والله ما فى السموات وما فى الأرض ملكاً ، والى الله ترجع الأمور حكماً .

قوله جل ذكره : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ
تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾

لما كان المصطفى صلوات الله عليه أشرف الأنبياء كانت أمته — عليه السلام —
خير الأمم . ولما كانوا خير الأمم كانوا أشرف الأمم ، ولما كانوا أشرف الأمم كانوا
أشوق الأمم ، فلما كانوا أشوق الأمم كانت أعمارهم أقصر الأعمار ، وخلقهم آخر
الخلق لئلا يطول مكثهم تحت الأرض . وما حصلت خيريتهم بكثرة صلواتهم

وعباداتهم ، ولكن بزيادة إقبالهم ، وتخصيصه لإياهم . ولقد طال وقوف المتقدمين بالباب ولكن لما خرج الإذن بالدخول تقدم المتأخرون .

وكم - باسطين إلى وُصِّلنا أَكْفَهُمْ لم ينالوا نصيباً

قوله جل ذكره : ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾

المعروف خدسه الحق ، والمنكر صحبة النفس .

المعروف إثارة حق الحق ، والمنكر اختيار حظ النفس .

المعروف ما يُزِيلُكَ إليه ، والمنكر ما يحجبك عنه .

وشرط الأمر بالمعروف أن يكون متصفاً بالمعروف ، وحق النأي عن المنكر أن يكون منصرفاً عن المنكر .

﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

لو دَخَلَ الكَافَّةُ نَحْتِ أَمْرِنَا لَوَصَلُوا إِلَى حَقِيقَةِ الْعِزِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَلَكِنْ بَعُدُوا عَنِ الْقَبُولِ فِي سَابِقِ الْإِخْتِيَارِ فَصَارَ أَكْثَرُهُمْ مُوسِمًا بِالشَّرِّكَ .

قوله جل ذكره : ﴿ كَلَّا يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلَكُمُ يُولَوْكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴾

إن الحق سبحانه وتعالى لا يسلط على أوليائه إلا بمقدار ما يصدق إلى الله فرارهم ، فإذا حق فرارهم أكرم لديه قرارهم ، وإن استظالوا على الأولياء بموجب حسابهم انعكس الحال عليهم بالصغار والمهوان .

قال جل ذكره : ﴿ ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ أَيْنَا تُقِفُوا ﴾

إلا بِحَبْلٍ من الله وَحَبْلٍ من
الناسِ وباءوا بغضبٍ من الله *
وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكِ
بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ،
وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍ ، ذَلِكِ
بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ *

عَلَّمَ الْهَجْرَانِ لَا يَنْكُتُمْ ، وَصَحَّةُ الْبُعْدِ لَا تَنْخَفِي ، ودليل القطيعة لا يستتر ، فهم في صغار
الطرد ، وذُلُّ الرد ، يعتبر بهم أولو الأبصار ، ويفتر بهم أضرابهم من الكفار الفجار .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيَسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ
وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ
وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ *

كما غَايَرَ بين النور والظلام مغايرة تضاد فكذلك أثبت منافاة بين أحوال الأولياء
وأحوال الأعداء ، ومتى يستوى الضياء والظلمة ، واليقين والتهمة ، والوصلة والفرقة ، والعباد
والألفة ، والمعتكف على البساط والمنصرف عن الباب ، والمتصف بالولاء والمنحرف عن
الوفاء ؟ هيهات يلتقيان ! فكيف يتفقان أو يستويان ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾

لن يخيبَ عن بابه قاصد ، ولم يخسرْ عليه (تاجر)^(١) ، ولم يستوحشْ معه مصاحب ،
ولم يذلْ له طالب .

(١) هكذا في ص ، وربما استوحاها القشيري من الآية (اشترى الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم)
فيكون المعنى — والله أعلم — من أثر الله على كل شيء فقد ربحت تجارتته وما خسر .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ
أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ،
وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴾

لا في الحال لم بدل ولا في المال عنهم خلف . في عاجلهم خسروا ، وفي آجلهم في قطع
وهجر ، وبلاء وخسر ، وعذاب ونكر :

تبدلت وتبدلنا واحسرة لمن ابتغى عوضاً لسلبي فلم يجد

قوله جل ذكره : ﴿ مَثَلُ مَا يَنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ
حَرَثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ
وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ
يَظْلَمُونَ ﴾

ما وجدوا ميراث ما بذلوا لغير الله إلا حسرات متتابعة ، وما حصلوا من حساباتهم إلا على
محن مترادفة ، وذلك جزاء من أعرض وتولى

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً
مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ،
وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ، قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ
مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، وَمَا تُخْفِي صدورُهُمْ
أَكْبَرُ ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ
كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

الركون إلى الضد — بعد تبين للشاق — إغاة على الحال بما لا يبلغه كيد العدو ، فأشار
الحق — سبحانه — على المسلمين بالتحرز عن الاعتراض ، وإظهار البراءة عن كل غير ،
ودوام الخلو للحق — سبحانه — بالقلب والسر . وأخير أن مضادات القوم للرسول

صلى الله عليه وسلم أصلية غير طارئة عليهم ، وكيف لا ؟ وهو صلوات الله عليه محل الإقبال
ومحل الإعراض ، ومتى يجتمع الليل والنهار ؟

قوله جل ذكره : ﴿ هَآأَنَّمْ أَوْلَآءُ نَحْبُونَهُمْ وَلَا يَجْبُونَكُمْ ،
وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ، وَإِذَا
لَقَوْكُمْ قَالُوا : آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا
عَصَوْا عَلَيْكُمْ إِلَّا نَآمِلَ مِنَ الْغِيْظِ ﴾

أنتم بقضية كرمكم تصفون — عن الكدورات — قلوبكم ؛ فتغلبكم الشقة عليهم ،
وهم — لعتوهم وخلفهم — يكيدون لكم ما استطاعوا ، وفرط وحشهم لا ترشح منهم
إلا قطرات غيظهم . ففرغ — يا محمد — قلبك منهم .

﴿ قل موتوا بغيظكم إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
بذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

دَعَهُمْ يَتَفَرَّدُوا بِمِقَاسَةِ مَا نَدَاخِلُهُمْ مِنَ الْغِيْظِ ، وَاسْتَرِيحُوا بِقُلُوبِكُمْ عَمَّا يَحِلُّ بِهِمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ
أَوَّلَىٰ بِعِبَادِهِ ؛ يُوَصِّلُ إِلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مَا يَشَاءُ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ،
وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ،
وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ،
وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ
كَيْدُهُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ
مَحِيطٌ ﴾

الإشارة من هذه الآية إلى المنصرفين عن طريق الإرادة ، الراجعين إلى أحوال أهل
العادة ؛ لا يعجبهم^(١) أن يكون لمريد نفاذ ، وإذا رأوا فترةً لقاصد استراحوا إلى ذلك . وإنَّ
الله — بفضله ومنتَه — يُتِمُّ نوره على أهل عنايته ، وَيَدْرُ الظَّالِمِينَ الزَّائِعِينَ^(٢) عن سبيله
في عقوبة بعادهم ، لا يبالى بما يستقبلهم .

(١) أخطأ الناسخ إذ كتبها (لا يعجبكم) والسياق والمعنى يرفضانها .

(٢) وردت (الدائمين) بالثاقف وهي خطأ من الناسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ

الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ، وَاللَّهُ

سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

أَقَامَهُ — صلى الله عليه وسلم — بتبويئه الأماكن للقتال ، فانتدب لذلك بأمره ثم أظهر في ذلك الباب مكنونات سيره ، فالمدار على قضائه وقدره ، والاعتبار بإجرائه واختياره .

قوله جلَّت قدرته : ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا

وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يُتَرَدُّ الجميع في صدار الاختيار ؛ كأنَّ الأمر إليهم في نفهم وإثباتهم ، وفعلهم وتركهم ، وفي الحقيقة لا يتقلبون إلا بتصرف القبض ، وتقليب القدرة ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ

فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ ﴾ .

تذكير ماسلف من الإِنْعَام فتح لباب التملق في اقتضاء أمثاله في المُسْتَأْنَف ^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ

أَنْ يُبَدِّلَ كُمْ رَبُّكُمْ ثَلَاثَةَ آلَافٍ

مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُتَرَلِّينَ * بَلَى ، إِنْ

تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فَوْرِهِمْ هَذَا

يُبَدِّلْ كُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ

الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾

كان تسكين الحق سبحانه لقلب المصطفى — صلى الله عليه وسلم — بلا واسطة من الله

(١) خلاصة معنى هذه العبارة التي قد تبدوا غامضة — أن التعبير القرآني ظاهره نسبة الأفعال للإنسان — وهذا من وجهة نظر الصوفي تعبیر بالفرق ، والحقيقة أن كل شيء مرجعه إلى الله حيث يكون التعبير عنه بالجمع ، وقد تقدم معنى الجمع والفرق في هامش آخر .

(٢) المُسْتَأْنَف = المستقبل .

— سبحانه ، والربط على قلوب المؤمنين بواسطة الرسول صلى الله عليه وسلم — فلو لا بقية بقيت عليهم ملودهم في حديث النصرة إلى إنزال الملك ، وأننى بحديث الملك — والأمر كله بيد الملك ١٢ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ ، وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ .

أجرى الله — سبحانه — سنته مع أوليائه أنه إذا ضعفت نيّاتهم ، أو تناقضت (١) إرادتهم أو أشرفت (٢) قلوبهم على بعض فترة — أراهم من الألفاف ، وفنون الكرامات ما يقوّى به أسباب عرفاتهم ، وتناكد به حقائق يقينهم .

فعلى هذه السّنة أنزل هذا الخطاب . ثم قطع قلوبهم وأسرارهم عن الأغيار بالكلية فقال : « وما النصر إلا من عند الله » .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴾ .

إن الله لا يُشْمِتُ بأوليائه عدوّاً ، فالؤمن وإن أصابته نكبة ، فعدوه لا محالة يكبته (٣) الله في الفتنه والعقوبة .

قوله جل ذكره : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، أَوْ يُعَذِّبُهُمْ ، فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ .
وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ .
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

(١) وردت (تناقضت) ولا يمنع أن تكون بالصاد حتى ينسجم النقص مع الضعف .

(٢) وردت بالفاء وهي خطأ في النسخ .

(٣) هكذا في (س) وهي صحيحة ولكننا لا نستبعد أن تكون في الأصل (يكبته) حيث جاء هذا الفعل في الآية الكريمة التي نحن بصدد ما .

الإله من له الأمر والنهي ، فلما لم يكن له في الإلهية نظير لم يكن له — (صلى الله عليه وسلم)^(١) — من الأمر والنهي شيء .

ويقال جرّده — بما عرفه وخاطبه — عن كل غير ونصيب ودعوى ، حيث أخبر أنه ليس له من الأمر شيء ، فإذا لم يجوز أن يكون لسيد الأولين والآخرين شيء من الأمر فمن نزلت رتبته عن منزلته فمتى يكون له شيء من الأمر ؟

ويقال استأثر (بستر عبادته في حكمه^(٢)) فقال أنا الذي أتوب على من أشاء من عبادي وأعذب من أشاء ، والعواقب عليك مستورة ، وإنك — يا محمد — لا تدري سرى فيهم .

ويقال أقامه في وقت مقاماً فقال : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » رمى بقبضة من التراب فأصاب جميع الوجوه ، وقال له في وقت آخر : « ليس لك من الأمر شيء » ثم زاد في البيان فقال : « والله ما في السموات وما في الأرض » . فإذا كان الملك ملكه ، والأمر أمره ، والحكم حكمه — فمن شاء عذبه ، ومن شاء قرّبه ، ومن شاء هداه ، ومن شاء أغواه .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا

أضعافاً مضاعفةً واتقوا الله لعلكم
تفلحون ﴾ واتقوا النار التي أعدت
للكافرين ﴾ .

حرّم الربا على العباد ومنه إقراض الواحد باثنين تستردّهما ، وسأل منك القرض الواحد بسبعائة إلى مالا نهاية له ، والإشارة فيه أن الكرم لا يليق بالخلق وإنما هو صفة الحق سبحانه .
« واتقوا النار التي أعدت للكافرين » : دليل الخطاب أن المؤمنين لا يعذب بها ، وإن عذب بها مدّة فلا يخلد فيها .

قوله جل ذكره : ﴿ وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون ﴾

(١) أضفناها لتوضيح المعنى .

(٢) ربما كانت في الأصل هكذا (بسر حكمه في عبادته) لأنه بعد قليل يقول (لا تدري سرى فيهم) أى أن المستأثر به هو السر ، وكذلك كلمة (ستر عبادته) مرفوضة فالأولى أنه يستر الحكم ، أو العواقب كما جاء بعد قليل .

قَرَنَ طاعة الرسول صلوات الله عليه بطاعة نفسه تشریفاً لِقَدْرِهِ ، ونخفياً على الأمة حيث ردُّهم إلى صحبة شخص من أنفسهم ، فإنَّ الجنسَ إلى الجنسِ أسكنُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وسارعوا إلى مغفرةٍ من ربِّكم وجنَّةٍ عرضُها السمواتُ والأرضُ .

أُعِدَّتْ للمتقين ﴾ * الذين ينفقون
في السَّراءِ والضَّراءِ والكافلين
الفيظ والعافين عن الناسِ والله
يحبُّ المحسنين ﴾

معناه سارعوا إلى عملٍ يوجب لكم المغفرة ، فتقسمت القلوب وتوهمت أن ذلك أمرٌ شديد فقال صلى الله عليه وسلم : « الندم توبة » وإنما توجب المغفرة التوبةُ لأن العاصي هو الذي يحتاج إلى الغفران .

والناس في المسارعة على أقسام : فالعابدون يسارعون بقدَمِهِم في الطاعات ، والعارفون يسارعون بهممهم في القربات ، والعاصون يسارعون بندمهم بتجرُّع الحسرات . فَمَنْ سارعَ بقدَمِهِ وجدَ مثوبته ، ومن سارعَ بهممه وجدَ قربته ، ومن سارعَ بندمه وجدَ رحمته .

ولما ذكر الجنة وصفها بسعة العرض ، وفيه تنبيه على طولها لأن الطول في مقابلة العرض ، وحين ذكر المغفرة لم يذكر الطول والعرض ، فقوموا قالوا : المغفرة من صفات الذات وهي بمعنى الرحمة فعلى هذا فمغفرته حُكْمُهُ بالتجاوز عن العبد وهو كلامه ، وصفة الذات تنقدس عن الطول والعرض .

ومن قال : مغفرته من صفاتِ فعلِهِ قال لكثرة الذنوب لم يصف الغفران بالنهاية ، إشارةً إلى استغراقه جميع الذنوب .

قوله جل ذكره . ﴿ الذين ينفقون في السَّراءِ والضَّراءِ ﴾

لا يدخرون عن الله شيئاً ، ويؤثرونه على جميع الأشياء ، ينفقون أبدانهم على الطاعات وفنون الأوراد والاجتهاد ، وأموالهم في إفشاء الخيرات وابتغاء القربات بوجوه الصدقات ،

وقلوبهم في الطلب ثم دوام المراجعة ، وأرواحهم على صفاء المحبّات والوفاء على عموم الحالات ،
وينفقون أسرارهم على المشاهدات في جميع الأوقات^(١) ، ينتظرون إشارات المطالبات ،
متشمرين للبدار إلى دقيق المطالعات^(٢)

قوله : « والكاظمين الغيظ » : يتجاوزون عن الخلق لملاحظاتهم إياهم بعين النسبة ،
وأقوام يحلمون على الخلق علماً بأن ذلك بسبب جرّهم فيشهدونهم بعين التسلط ، وآخرون
يكظمون الغيظ تحقّقاً بأن الحق سبحانه يعلم ما يقاسون فيهنّ عليهم التحمل ، وآخرون فنوا
عن أحكام البشرية فوجدوا صافي الدرجات في الذلّ لأن نفوسهم ساقطة فانية ، وآخرون
لم يشهدوا ذرة من الأغيار في الإنشاء والإجراء ، فعلّموا أن النشئ الله ؛ فزالت خصوماتهم
ومنازعاتهم مع غير الله لأنهم لمّا أفردوه بالإبداع اتقادوا لحكمه ؛ فلم يروا معه وجهاً غير
التسليم لحكمه ، فأكرمهم الحق سبحانه ببرد الرضاء ، فقاموا له بشرط الموافقة .
قوله « والعافين عن الناس » فرضاً^(٣) رأوه على أنفسهم لا فضلاً منهم على الناس ،
قال قائلهم :

رُبَّ رَايِمٍ لِي بِأَحْجَارِ الْأَذَى لَمْ أَجِدْ بُدّاً مِنَ الْعُطْفِ عَلَيْهِ

« والله يحب المحسنين » والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه .. هذا في معاملة الحق ،
وأما في معاملة الخلق فالإحسان أن تدعّ جميع حقك بالكلية كم كان على من كان ، وتقبل
(. . .)^(٤) منه ولا تقلده في ذلك منة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا
أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا
لذُنُوبِهِمْ ، وَمَنْ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ،

(١) سقطت الواو فأثبتناها .

(٢) أخطأ الناسخ إذ كتبها (المطالبات) أيضاً ، ونظراً لأن المطالعة مرتبطة بالكشف والكشف
مرحلة متأخرة . فقد تركنا الأولى (المطالبات) وصوبنا الثانية (المطالعات) .

(٣) وردت (قرضاً) والصواب بالفاء فهكذا يرشدنا السياق ، والشاهد الشرعي بعده .

(٤) مثلية .

ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون *
أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم
وجنات تجري من تحتها الأنهار
خالدين فيها ونعيم أجراً العاملين ﴿١﴾

أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام « قُلْ لِلظَّالِمَةِ حَقٌّ لَا يَذْكُرُونِي فَإِنِّي أُوجِبْتُ أَنْ
أَذْكُرَ مَنْ ذَكَرَنِي ، وَذِكْرِي لِلظَّالِمَةِ بِالْعَنَةِ » . وقال لظَّالِمَةِ هذه الأمة :

« أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله » ثم قال في آخر الآية : « ومن يغفر الذنوب إلا الله » .
ويقال فاحشة كلُّ أحد على حسب حاله ومقامه ، وكذلك ظلمهم . وإن خطوط المخالفات
ببéal الأكبر كيف فعلها من الأغيار ، قال قائمهم :

أنت عيني وليس من حق عيني فضُّ أجفانها على الأقداء^(١)

فليس الجرم على البساط كالذنب على الباب .

ويقال فعلوا فاحشة بركونهم إلى أفعالهم ، أو ظلموا أنفسهم بملاحقة أحوالهم ، فاستغفروا
لذنوبهم بالتبري عن حركاتهم وسكناتهم علماً منهم بأنه لا وسيلة إليه إلا به ، فخلصهم
من ظلمات نفوسهم . وإن رؤية الأحوال والأفعال لظلمات عند ظهور الحقائق ، ومن طهره
الله بنور العناية صانه عن التورط في المغاليط البشرية^(٢) .

« أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم » برؤهم إلى شهود الربوبية ، وما سبق لهم من الحسنی
في سابق القصة .

« وجنات تجري من تحتها الأنهار » مؤجلاً من الفرديس ، ومُعجلاً في روح المباحات
وتمام الأنس .

قوله جل ذكره : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا ﴾

(١) البيت لابن الرومي يجانب صديقه أبا القاسم التوذي الشطرنجي .

(٢) القشيري في هذه الفقرة متأثر بتعاليم أهل الملامة النيسابورية الذين يعلنون حرباً لا هوادة فيها
على كل دهنى للنفس حتى لينعزلون ستر حياتهم الباطنية بفعل ما يوجب ملامة الناس ، وكل ذلك في سبيل
كسر النفس وعدم استشعار العبد لأي فضل منه :

في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة
المكذبين * هذا بيان للناس وهدى
وموعظة للمتقين *

يعنى اعتبروا بمن سلف ، وانظروا كيف فعلنا بمن وآلى وكيف انتقمنا من عادى ،
وقوله تعالى « هذا بيان للناس » : بيان لقوم من حيث أدلة العقول ، ولآخرين من حيث
مكاشفات القلوب ، ولآخرين من حيث تجلى الحق فى الأسرار .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

يعنى إذا قلتم بالله (ووصلتم^(١)) بالله فلا ينبغي أن تخافوا من غير الله ، ولا تهنوا
ولا تضعفوا فإن النصره من عند الله ، والغالب الله ، وما سوى الله فليس منهم ذرة
لا منهم سينة .

قوله : « إن كنتم مؤمنين » أى ينبغي للمؤمن ألا تظله مهابة من غير الله .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ
قَرْحٌ مِثْلُهُ ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ
النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
الظَّالِمِينَ ﴾

إن نالكم فينا مشقة فالذين تقدموكم لقوا مثل ما لقيتم ، ومثوا بمثل ما به منيتم ، فمن صبر
منهم ظفر ، ومن ضجر من حبل ما لقي خسر ، والأيام نوب والحالات دُول ، ولا يخفى
على الحق شيء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ
الْكَافِرِينَ ﴾ .

(١) لا نستبعد أنها (وصلتم) من صال يصول ، ويدعم ذلك حرف الجر بعده ، وكذلك السياق .

اختبارات الغيب سبك^(١) للبعد فباختلاف الأطوار يخلصه من المشائب فيصير كالذهب الخالص لا خبث فيه ، كذلك يصفو عن العلل فيتخلص لله .

« ويمحق الكافرين » في أودية التفرقة . (وأما الزبد فيذهب جفاء)^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ ﴾

من ظن أنه يصل إلى محل عظيم من دون مقاساة الشدائد ألقته أمانيه في مهواة الهلاك ، وإن من عرف قدر مطلوبه سهل عليه بذل مجهوده : (.....) وهو بلذاته على من يظن بخلق العذار^(٣) وقال قائلهم :

إذا شام الفتي برق الممانى فاهون فائت طيب الرقاد

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾

طوارق التمني بعد الصبر على احتمال المشاق ولكن :

إذا انسكبت دموع في خدود تبين من بكى^(٤) من تباكى

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَقْلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى أَعْقَابِهِ يَنْقَلِبْ عَلَى عَاقِبَتِهِ يَخْلُجُ اللَّهُ مِنْ شَأْنِهِ مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

(١) وودت (شبك) وترجح أنها (سبك) فالسباق يدهم ذلك .

(٢) ترجح أن هذه الآية موضوعة هنا خطأ وأن مكانها عقب (لا خبث فيه) ليتناسك المعنى .

(٣) هكذا في (ص) والصحيح أنه :

وما جاد دهر بلذاته على من يظن بخلق العذار

وهو لأبي نواس في ملاحاة له مع مسلم بن الوليد .

(٤) جاءت في الشطر (تبين من بكى) وهي خطأ في النسخ .

على حقيقه فلن يضر الله شيئا
وسيجزي الله الشاكرين ﴿

إن الرسل موقوفون حيناً وقِفُوا ، ونخبِرون عما عُرِفُوا بمقدار ما عَرَفُوا ؛ فإذا أُيدُوا
بأنوار البصائر أطلعوا على مكنونات السرائر بطلائف التلويح بمقدار ما أُعْطُوا من الإشراف
بوظائف البلوغ .

« أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ » لما تَوَفَّى للمصطفى - صلى الله عليه وسلم -
سقطت البصائر إلا بصيرة الصديق رضى الله عنه فأمدَّه الله بقوة السكينة ، وأفرغ عليه قوة
التولى فقال . « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات » فصار الكلُّ مقهورين تحت سلطان
قائه لما انبسط عليهم من نور حالته ، كالشمس بطلوعها تندرج في شمعها أنوار الكواكب
فيستتر فيها مقادير مطارح شعاع كل نجم .

وإنما قال : « أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ » لأنه صلى الله عليه وسلم مات . وقيل أيضاً لأنه قال :
« ما زالت أسكلة خيبر تعاودنى فهذا أوان قطعت أبهرى »^(١)

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ
إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ
ثَوَابَ الدُّنْيَا نَفْثَ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ
ثَوَابَ الْآخِرَةِ نَزَّهَ مِنْهَا وَسَيَجْزِي اللَّهُ^(٢)
الشاكرين ﴾ .

الأنفاس محصورة ؛ لازيادة فيها ، ولا نقصان منها .

« ومن يرد ثواب الدنيا نفثه منها » : للصالحين العاقبة وللآخرين الغفلة .

« ومن يرد ثواب الآخرة نفثه منها » : وثواب الآخرة أوله الغفران ثم الجنان ثم الرضوان .

(١) وفي البخارى بلفظ « ما أزال أجد ألم الطعام الذى أكلت بخيبر فهذا أوان وجدت انقطاع
أبهرى من ذلك السم » قال المقرئى : « وهذا قاله فى مرض موته » .

(٢) أخطأ الناسخ إذ أضاف (وسيجزى الله) وقد التبس عليها ختام الآية السابقة .

« وسيجزي الله الشاكرين » : وجزاء الشكر الشكر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ
كَثِيرًا قَاتًا وَهَنُوا لَمَّا أَصَابَهُمْ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا
وَاللَّهُ يَحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ .

إن الذين درجوا على الوفاء ، وقاموا بحق الصفاء ، ولم يرجعوا عن الطريق ، وطالبوا
نفوسهم بالتحقيق ، وأخذوا عليها بالتضييق والتدقيق — وجدوا محبة الحق سبحانه ميراث
صبرهم ، وكان الخلف عنهم الحق عند نهاية أمرهم ، فما^(١) زاغوا عن شرط الجهد ، ولا زاغوا
في حفظ العهد ، وسلموا تسلياً ، وخرجوا عن الدنيا وكان كل منهم للعهد مقبلاً مستديماً ، وعلى
شرط الخدمة والوداد مستقبلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلُكُمْ إِلَّا أَنْ تَقُولُوا رَبَّنَا
اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ،
وَنَبِّتْ أقدامنا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
الكَافِرِينَ ﴾ .

تحققوا بحقائق المعنى فخرسوا^(٢) عن إظهار الدعوى ، ثم نطقوا بلسان الاستغفار ،
ووقفوا في موقف الاستحياء ، كما قيل :

يَتَجَنَّبُ الْآثَامَ ثُمَّ يَخَافُهَا فَكَأَنَّمَا حَسَنَاتُهُ آثَامُ

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَنَامَ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا ﴾

وأقل ذلك القناعة ثم الرضا ثم العيش معه ثم الألس في الجلوس بين يديه ثم كمال الفرح
بلقائه ، ثم استقلال السر بوجوده .

(١) أخطأ الناسخ إذ نقلها (فلما زاغوا) وهذا بخلاف المعنى المراد ، والصحيح (فما)

(٢) وردت بالخاء والصواب أن تكون بالخاء ، فالمعنى يتطلب ذلك ويتقوى به .

﴿وَحَسَنُ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ ، وَاللَّهُ بِحَبِّ
الْمَحْسِنِينَ ﴿١﴾ .

يعنى دخولهم الجنة وهم محررون عنها ، غير داخلين في أسرها .

ويقال ثواب الدنيا والآخرة الغيبة عن الدارين برؤية خالقها^(١) .

ولما قال « ثواب الدنيا » قال في الآخرة « وحسن ثواب الآخرة » فوجب أن يكون
لثواب الآخرة مزية على ثواب الدنيا حيث خصه بوصف الحسن ، وتلك المزية دوامها وتماها
وثمارها ، وأنها لا يشوبها ما ينافيها ، ويوقع آفة فيها .

قوله جل ذكره : ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ
كَفَرُوا يردُّوكُم عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا
خَاسِرِينَ﴾ * بل الله مولاكم وهو خير
الناصرين ﴿٢﴾ .

يعنى إن طاعتم الأضداد جرّوكم إلى أحوالهم^(٢) ، فالقوكم في ظلماتهم ، بل الله مولاكم :
نصركم ومعينكم وسيدكم ومصلح أموركم ، « وهو خير الناصرين » : لأنه يعينكم على أنفسكم
ليكفئكم شرّها ، ومن سواه يزيد في بلائكم إذا ناصروكم لأنهم يعينون أنفسكم عليكم .
« وهو خير الناصرين » لأن من سواه يمن عليك بنصرته إياك ، وهو يجازيك على
استنصارك به .

ويقال كل من استنصرت به احتجت إلى أن تُعطيه شيئاً من كرائمك ثم قد
ينصرك وقد لا ينصرك ، فإذا استنصرتَه — سبحانه — يعطيك كل لطيفة ، ولا يرضى
بالأ ينصرك .

قوله جل ذكره : ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا

(١) الغيبة في المصطلح الصوفي من مقوماتها ألا يحس العبد بوارد من تذكر ثواب أو تفكر
في عقاب ، وعلى حسب الغيبة عن الخلق يكون (حضور) العبد بالحق .
(٢) وردت (أحوالكم) وهذا خطأ في النسخ .

الرعبَ بما أشركوا بالله ما لم ينزل
به سلطاناً ومأواهم النار وبئس
مئوى الظالمين *

إنَّ الله سبحانه خصَّ نبيَّنا — صلى الله عليه وسلم — بإلقاء الرعبِ منه في قلوب
أعدائه ، قال عليه السلام : « نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ » . فكذلك أجرى هذه السُّنة مع أوليائه ؛
يطرح الهيبة منهم في القلوب ، فلا يكاد يكون محق إلا ومنه — على المبطلين وأصحاب
الدعوى والتمويه — هيبةٌ في القلوب وقهرٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ
تَحْسَبُونَهُمْ بِأَذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَتِلْتَمَ
وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ
مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ﴾

(إنه سبحانه يجازيك على استنصارك به ، ويقال كل من استنصرت به احتجت إلى أن
عطيه شيئاً من كرائمك ثم قد ينصرك وقد لا ينصرك ، فاذا استنصرت به — سبحانه —
يعطيك كل لطيفة ، ولا يرضى ألا ينصرك) . (١)

الإشارة من هذه الآية إلى أن الحق سبحانه أقام أوليائه بحق حقه ، وأقدمهم عن تحصيل
حظوظهم ، وقام سبحانه بكفائتهم بكل وجه ، فمن لازم طريق الاستقامة ، ولم يزغ عن حده
ولم يزغ في عهده ، فإنه سبحانه يصدق وعده له بجميل الكفاية ودوامها ، ومن ضلَّ عن
الاستقامة — ولو خطوة — عثر في مشيته ، واضطربت عليه — بمقدار جرِّمه — حاله
وكفايته ، فمن زَادَ زَيْدَ لَهْ ، ومن نَقَصَ نَقْصَ لَهْ .

قوله جل ذكره : ﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾

(١) ما بين القوسين سبق وروده عند تفسير « وهو خير الناصرين » في ختام الآية قبل السابقة ،
ولا ندري هل أعادها القشيري هنا لتفسير « ولقد صدقكم الله وعده » أم أن الناسخ قد وقع في التكرار
سهواً أثناء الكتابة ؟

يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم
ليبتليكم ولقد عفا عنكم ، والله
ذو فضل على المؤمنين ﴿٢٨٦﴾

قيمة كل أحد إرادته ؛ فمن كانت همته الدنيا فقيمتُه خسيصة حقيرة كاللدينا ،
ومن كانت همته الآخرة فشريفٌ خطره ، ومن كانت همه ربانية فهو سيد وقته .

ويقال من صفا عن إرادته وصل إليه ، ومن وصل إليه أقبل — بلطفه — عليه ،
وأزلفه بمحل الخصوصية لديه .

قوله : « ثم صرفكم عنهم » : الإشارة منه أنه صرف قوماً عنه فشغلهم بغيره عنه ،
وآخرون صرفهم عن كل غير فأفردهم له ؛ فالزاهدون صرفهم عن الدنيا ، والماعبدون
صرفهم عن اتباع الهوى ، والمريدون صرفهم عن المني ، والموحّدون صرفهم عما هو
غيرٌ وسوى .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلَوْنِ عَلَى أَحَدٍ
وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ
غَمًّا بِغَمٍّ لَّنْكِلا تَعْمُرُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ
وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ
* ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ
أَمْنَةً نُعَاسًا يَفْشِي طَائِفَةً مِنْكُمْ ،
وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ
بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةُ يَقُولُونَ
هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ، قُلْ إِنْ
الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ؛ يَخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ
مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا
مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا ، قُلْ

لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين
كُتِبَ عليهم القتلُ إلى مضاجعهم
وليبتلي الله ما في صدوركم ،
وليُمحص ما في قلوبكم ، والله عليم
بذات الصدور * .

قوله : « إذ تصعدون » الإشارة من هذه الآية لأقوام تقع لهم فترة ، ودواعي الحق سبحانه — من أنفسهم ، ومن جميع الأقطار حتى كأن الأحجار من الشوارع والذين من الجدران — تناديه : لا تفعل يا عبد الله ! وهو مُصِرٌّ في ليه ، مقيمٌ على غيئه ، جاحدٌ لما يعلم أنه هو الأحقُّ والأولى من حاله ، فإذا قضى وطره واستوفى بهيمته ، فلا محالة يمسك من إرسال عنانه ، ويقف عن ركضه في ميدانه ، فلا يحصل إلا على أنفاسٍ منصاعدة ، وحسراتٍ متواترة ؛ فأورثه الحق — سبحانه — وحشةً على وحشة . حتى إذا طال في التحسر مقامه تداركه الحق — سبحانه — بجميل لطفه ، وأقبل عليه بحسن عطفه ، وأنقذه من ضيق أسره ، ونقله إلى سعة عفوه وفضله ، وكثيرٌ من هؤلاء يصلون إلى محل الأكابر ثم يقفون بالله لله (.)^(١) ويقومون بالله لله بلا انتظار تقريب ولا ملاحظة ترحيب .

قال تعالى : « ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنةً نعاساً يغشى طائفةً منكم وطائفةً قد أهمتهم أنفسهم ، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية » : فأهل التحقيق والتوحيد يصلون بعد فتراتهم^(٢) إلى القول بترك أنفسهم ، وغسل أيديهم منهم ، ورفع قلوبهم عنهم فيعيشون بالله لله ، بلا ملاحظة طمع وطلبة ، بل على عقيدة اليأس عن كل شيء . عليه أكّدوا العهد ، وبدّلوا اللفظ^(٣) ، وتركوا كل نصيب وحظ ، وهذه صفة من أنزل عليه الأمانة .

فأما الطائفة التي أهمتهم أنفسهم — فبقوا في وحشة نفوسهم ، ومن عاجل عقوبتهم سوء

(١) مشتبه .

(٢) وردت (فتراتهم) بالطاء والأصوب أن تكون بالياء لأن الفترة وقت مقاساة ومعاناة فهي تتلاءم مع (وتجرع حسراتهم) .

(٣) اللفظ هنا معناها الملاحظة ، ملاحظة النفس أو ملاحظة الموضع .

عقيدتهم في الطريقة بعد إيمانهم بها ، قال تعالى : « وَتَقَلُّبُ أَعْيُنِهِمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَالَّذِينَ يَزِيدُهُمْ سِلْحًا بِسِلْحٍ مُّثْقَلِينَ » .

والإشارة في قوله تعالى : « هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ » لهؤلاء أنهم يتحيرون في أمرهم فلا إقبال لهم على الصواب بالحقيقة ، ولا إعراض بالسكينة ، يحيلون قدرتهم على سوء اختيارهم ، ويضيفون صفوة - لو كانت لقلوبهم - إلى اجتهدهم ، وينسون ربهم في الحالين ، فلا يبصرون تقدير الحق سبحانه . قال تعالى :

« قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ » : فَمَنْ عَرَفَ أَنَّ الْمُنْشَأَ اللَّهُ اسْلَخَ عَنْ اخْتِيَارِهِ وَأَحْوَالِهِ كَالسَّلَاحِ الشَّعْرَ عَنِ الْعَجِينَ ، وَسَلَّمْ أُمُورَهُ إِلَى اللَّهِ بِالسَّكِينَةِ . وَأَمَارَةٌ مَنْ تَحَقَّقَ بِذَلِكَ أَنَّ يَسْتَرْجِعُ مِنْ كَدِّ تَدْبِيرِهِ ، وَيَعِيشُ فِي سَعَةِ شُهُودِ تَقْدِيرِهِ .

وقوله : « يَخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ » : لَمْ يُخْلَصُوا فِي عَقَائِدِهِمْ ، وَأَضْمَرُوا خِلَافَ مَا أَظْهَرُوا ، وَأَعْلَنُوا غَيْرَ مَا سَتَرُوا ، وَأَحَالُوا السَّكَائِنَاتِ عَلَى أَسْبَابِ تَوَهُمِهَا .

قال تعالى : « قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِلَى مِصْرَاجِهِمْ » :
أخبر أن التقدير لا يزاحم^(١) ، والقدر لا يكابر ، وأن السكائنات محتومة ، وأن الله غالب على أمره .

وقوله : « وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ » : فَأَمَّا أَهْلُ الْحَقَائِقِ فَإِنَّهُ تَعَالَى يَنْتَزِعُ مِنْ قُلُوبِهِمْ كُلَّ آفَةٍ وَحُجْبَةٍ ، وَيَسْتَخْلَصُ أَسْرَارَهُمْ بِالْإِقْبَالِ وَالزَّلْفَةِ ، فَتَصْبِحُ قُلُوبُهُمْ خَالِصَةً مِنَ الشَّوَابِ ، صَافِيَةً عَنِ الْعَلَائِقِ ، مَنْفَرِدَةً لِلْحَقِّ ، بِجَرْدَةٍ عَنِ الْخَلْقِ ، مُحَرَّرَةً عَنِ الْهَفْظِ وَالنَّفْسِ ، ظَاهِرَةً عَلَيْهَا آثَارُ الْإِقْبَالِ ، غَالِبًا عَلَيْهَا حُسْنُ التَّوَلَّى ، بَادِيَةً فِيهَا أَنْوَارُ التَّجَلَّى .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى

الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ
بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ
عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ »

(١) وردت بالهاء والصواب أن تكون بالهاء .

الإشارة من هذه الآية إلى أحوال من سَقِمَتْ إِرَادَتُهُمْ ، وَضَعَفَتْ نِيَّتُهُمْ ، وَقَادَمَ الْهَوَى ، وَمَلَكَتْهُمْ الْفَتْرَةُ .

قَابَلَهُمْ نَصْحُ النَّاصِحِينَ ، وَدَعْوَةُ الْمُنَى ، وَوَسَاوَسَ الشَّيَاطِينُ فَرَكَنُوا إِلَى الْغِيْبَةِ ، وَآثَرُوا الْهَوَى عَلَى التَّقَى فَبَقُوا عَنْهُ ، وَلَمْ يَتَنَبَّهُوا بِمَا آثَرُوهُ عَلَيْهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى ، لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْمَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحِبُّ وَيُمِيتُ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

مَنْ تَعَوَّدَ أَنْ يَتَلَهَّفَ عَلَى مَاضِيهِ وَسَالَفِهِ ، أَوْ يَتَدَبَّرَ فِي مُسْتَقْبَلِهِ وَآئِفِهِ ، فَأَقْلَبَ عَقُوبَةً لَهُ ضَيْقَ قَلْبِهِ فِي تَفْرِيقَةِ الْهَمُومِ ، وَامْتِحَاءِ نَعْتِ الْحَيَاةِ ^(١) عَنْ قَلْبِهِ لِفُغْلَتِهِ وَقَالَتْهُ لَيْتَ كَذَا وَلَعَلَّ كَذَا ، وَثَمَرَةُ الْفِكْرَةِ فِي لَيْتَ وَلَعَلَّ — الْوَحْشَةُ وَالْحَسْرَةُ وَضَيْقُ الْقَلْبِ وَالتَّفْرِيقَةُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَنَغْفِرَ اللَّهُ مِنْكُمْ وَلَنَجْزِيَنَّكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ إِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿

بِذَلِكَ الرُّوحُ فِي اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الْحَيَاةِ بِغَيْرِ اللَّهِ ، وَالرَّجُوعُ إِلَى اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ عَرَفَ اللَّهَ مِنَ الْبَقَاءِ مَعَ غَيْرِ اللَّهِ ، وَمَا يُؤْثَرُهُ الْعَبْدُ عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ مَبَارَكٍ ، إِنْ شِئْتَ : وَالدُّنْيَا ، وَإِنْ شِئْتَ : وَالْعَقْبَى .

قوله ﴿ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ إِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ : إِذَا كَانَ لِلصَّائِرِ إِلَى اللَّهِ طَلَبُ الْمَسِيرِ

(١) حَيَاةُ الْقَلْبِ عِمَارَتُهُ بِاللَّهِ وَقَدْ وَرَدَتْ فِي مَطْلَعِ الْإِشَارَةِ التَّالِيَةِ ، وَلَا يَسْتَعِيدُ أَنَّهَا (الْحَيَاءُ) فِيهِ مَقْبُولُهُ أَيْضًا .

إلى الله : وإنَّ سَفَرَهُ إِلَيْهِ بَعْدَهَا نَحْطُ رَحَالَنَا لِمُقَاسَاتِهَا أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ ۱
 قوله جل ذكره . ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ
 فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ
 حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ،
 وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ
 فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
 الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

جرَّده عن أو صاف البشرية ، وأفرده بما ألبسه من نعت الربوبية ، وأخبر أن ما يلوح
 إليه فن أنوار التولى ، لا من آثار الوفاق والتبري ، ولولا أنه استخلصه بما ألبسه وإلا متى
 كان بتلك الصفة ؟ ۱

ويقال إن من خصائص رحمته — سبحانه — عليه أن قَوَاهُ حَتَّى صَحْبِهِمْ ، وصبر
 على تبليغ الرسالة إليهم ، وعلى ما كان يقاسيه من اختلافهم — مع سلطان ما كان مستغرقا له
 وجميع أوقاته من استيلاء الحق عليه ، فلولا قوة إلهية استأثره الحق بها وإلا متى أطاق صحبتهم ؟ ۱
 ألا ترى إلى موسى عليه السلام لما كان قريب العهد بسماع كلامه كيف لم يصبر على
 مخاطبة أخيه فأخذ برأس أخيه يجره إليه ؟

ويقال لولا أنه صلى الله عليه وسلم شاهدتهم محوًّا فيما كان يجزى عليهم من أحكام
 التصريف ، وتحقق أن منشأها الله — لما أطاق صحبتهم .

قوله تعالى : « وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ » : لو سَقَيْتَهُمْ صِرْفَ
 شراب التوحيد غير ممزوج بما فيه لهم حظًّا لتفرقوا عنك ، هائمين على وجوههم ، غير
 مطيقين للوقوف لحظة ، « فاعفُ عنهم » فيما يكون تقصيرا منهم في حقك وتوقيرك ،
 وما عثرت عليه من تفريطهم في خدمتنا وطاعتنا — فانتصِبْ لَهُمْ شَفِيعًا إِلَيْنَا .

ويقال « فاعفُ عنهم » فاعف — أنت — عنهم فإن حكمت حكمتنا ، فانت لا تغفر
 إلا وقد عَفَوْنَا . ثم رده عن هذه الصفة بما أثبتته في مقام العبودية ، ونقله إلى وصف التفرقة

فقال : ثم قِفْ في محل التبدل مبتهلاً إلينا في استغفارهم . وكذا سُنَّتُهُ — سبحانه — مع أنبيائه عليهم السلام وأوليائه ، يردُّهم من جمع إلى فرقي ومن فرقي إلى جمع ، فقوله : « فاعف عنهم » جمع ، وقوله : « واستغفر لهم » فرق .

ويقال « فاعف عنهم » ونجاوز عنهم في حقوقك ، ولا تكتفِ بذلك ما لم تستغفر لهم إكمالاً للكرم ، ولهذا كان يقول : « اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » .

ويقال ما يُقَصِّرُون في حقك تعلق به حقان : حقك وحقى ، فاذا عفوت أنت فلا يكفي هذا القدر بل إن لم أتجاوز عنهم في حقى كانوا مستوجبين للعقوبة ، فمن أَرْضَى خصمه لا يَنْجِرْ حاله ما لم يغفر الله له فيما ترك من أمره .

وقوله « واستغفر لهم وشاورهم في الأمر » أى أثبت لهم محلاً ؛ فإنَّ المعفو عنه في صدور الخجلة لا يرى لنفسه مقام الكرامة ، فاذا شاورهم أزلت عنهم انكسارهم ، وطيبَّتْ لهم قلوبهم .

ويقال تَجَسَّسُوا في أحوالهم : فَمِنْ مُقَصِّرٍ في حقه أَمْرٌ بِالْعَفْوِ عنه ، ومن مرتكب لذنوبه أَمْرٌ بِالِاسْتِغْفَارِ له ، ومن مطيع غير مقصر أَمْرٌ بِمُشَاوَرَتِهِ .

ثم قال : « فاذا عازمت فتوكل على الله » أى لا^(١) تتكل على رأى مخلوق وِكل الأمور إلى ، فإننا لا نخليك عن تصريف القبضة بحال .

وحقيقة التوكل شهود التقدير ، واستراحة القلوب عن كد التدبير .

« إن الله يحب المتوكلين » يذيقهم برِّد الكفاية ليزول عنهم كل لُغْبٍ^(٢) وَنَصَبٍ ، وإنه يعامل كلاً بما يستوجبه ؛ فقوم يغنيهم — عند توكلهم — بعطائه ، وآخرون يكفيهم — عند توكلهم — ببلقائه ، وقوم يرضيهم في عموم أحوالهم حتى يكتفون ببقائه ، ويقفون معه به له — على تلوينات^(٣) قدره وقضائه .

(١) سقطت (لا) من النسخ .

(٢) وردت (لقب) بالثقاف والصواب أن تكون (لغب) بالفين ، وربما كانت في الأصل (تعب)

(٣) اللفظة رديئة الخط ، ويحتمل أنها (تقلبات) ، وتلوين الأحوال مصحوب — حسب الاصطلاح

الصوى — يتقلب الأحوال ، ولهذا فالمنى يتقبل كلا اللفظين .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ،
وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرُّكُمْ
مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

المؤمنون نصرته لم بالتوفيق للأشباح ثم بالتحقيق للأرواح .

ويقال ينصركم الله بتأييد الظواهر وتسديد^(١) السرائر .

ويقال للنصرة إنما تكون على العدو ، وأعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك .
والنصرة على النفس بأن تهزم دواعي مُنتهاها بعواصم رحمته حتى تنقُضَ جنود الشهوات بهجوم
وفود المنازلات فتبقى الولاية لله خالصةً من شبهات الدواعي التي هي أوصاف البشرية ،
وشهوات النفوس وأمانيتها ، التي هي آثار الحجة وموانع القربة .

« إِنْ يَخْذُلْكُمْ » الخذلان التخلية مع المعاصي ، فَمَنْ نَصَرَهُ قَبْضٌ عَلَى يَدَيْهِ عَنْ تَعَاطِي
المكروه ، وَمَنْ خَذَلَهُ أَلْقَى حَبْلَهُ عَلَى غَارِبِهِ ، وَوَكَّلَهُ إِلَى سُوءِ اخْتِيَارِهِ ، فَيَفْتَرِقُ عَلَيْهِ الْحَالُ
فِي أَوْدِيَةِ الشَّهَوَاتِ ، فَمَرَّةٌ يُشْرِقُ غَيْرُ مُحْتَشِمٍ ، وَتَارَةً يُغْرِبُ غَيْرُ مُحْتَرِمٍ ، أَلَا وَمِنْ سَبَبَةِ الْحَقِّ
فَلَا آخِذٌ بِيَدِهِ ، وَمِنْ أَسْلَمِهِ^(٢) فَلَا مُجِيرَ لَهُ .

« وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » : فِي وَجْدَانِ الْأَمَانِ عِنْدَ صَدَقِ الْإِبْتِهَالِ ، وَإِسْبَالِ
ثَوْبِ^(٣) الْعَفْوِ عَلَى هِنَاةِ الْجُرْمِ عِنْدَ خُلُوصِ الْإِلْتِجَاءِ ، بِالتَّبَرُّيِّ مِنَ الْمُنَّةِ وَالْحَوْلِ .

ويقال لما كان حديث النصره قال : « فَلَا غَالِبَ لَكُمْ » ، وَلَمَّا كَانَ حَدِيثُ الْخِذْلَانِ
لَمْ يَقُلْ « فَلَا نَاصِرَ لَكُمْ » بَلْ قَالَ بِالتَّلْوِيجِ وَالرَّمْزِ : « فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرُّكُمْ مِنْ بَعْدِهِ » :
وَفِي هَذَا لَطِيفَةٌ فِي مِرَاعَاةِ دَقَائِقِ أَحْكَامِ الْخُطَابِ .

(١) مِنَ السَّدَادِ .

(٢) أَيْ أَسْلَمَهُ إِلَى نَفْسِهِ :

(٣) وَرَدَتْ (ثَوَاب) ، وَالْمَلَأْتُ لِلْإِسْبَالِ : (ثَوْب) وَلِذَلِكَ آثَرْنَاهَا .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان لنبي أن يغل ومن يغل يغل
 يأت بما غل يوم القيامة ، ثم توفى
 كل نفس ما كسبت وهم
 لا يظلمون ﴾

نزهة^(١) أحوال الأنبياء عن الدّس بالخلفيات ، فمن حملناه من الرصالة إلى عبادنا بوصليها
 إلى مستحقها واجباً ، ولا يعنى بشأن حميم له من دون أمرنا ، ولا يمنع نصيب أحدهم أمرناه
 بإيصاله إليه ، بمقد ينطوى عليه . ألا ترى كيف قال : « اذهب فواره » لأبي طالب
 لما قال له أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه : مات عمك^(٢) الضال . وكيف قبل الوحش قاتل
 حمزة لما أسلم ؟

ويقال ما كان لنبي من الأنبياء صلوات الله عليهم أن يضع أسرارنا في غير أهلها ،
 بل يُنزّلون كل أحدهم عند ما يستوجه ، وفي الأثر « أمرنا أن ننزل الناس منازلهم »

قوله جل ذكره : ﴿ أفمن اتبع رضوان الله كمن باء
 بسخط من الله وماواه جهنم وبئس
 المصير ﴾ هم درجآت عند الله ،
 والله بصير بما يعملون ﴾

لا يستوى من رضى عنه في آزاله ومن سخط عليه فخذله في أحواله ، وجعله منكلاً
 على أعماله ، ناسياً لشهود أفضاله ، واتباع الرضوان بمفارقة ما رُجر عنه ، ومعاقة ما أمر به ،
 فمن تجرد عن المزجور ، وتجلّد في اعتناق الأمور فقد اتبع الرضوان ، واستوجب الجنان .

(١) أخطأ الناسخ فكتبها (نزح) بالخاء :

(٢) « اذهب فواره وكفته وواره غفر الله له ورحمه » هكذا أخرجه ابن سعد وابن عساكر عن علي
 رضي الله عنه :

وفي السيرة الحلبية : إن هذا الحديث أخرجه أيضاً أبو داود والنسائي وابن الجارود وابن خزيمة
 عن علي قال : لما مات أبو طالب أخبرني النبي (ص) بموته فبكى وقال :

« اذهب ففسله وكفته وواره غفر الله له ورحمه » .

وانظر أيضاً « أسنى المطالب في نجات أبي طالب » لزيني دحلان ط طهران سنة ١٣٨٢ (ص ٤١) .

« هم درجات عند الله » : أى هم أصحاب درجات فى حكم الله ، فمن سعيدٍ مُقَرَّب ، ومن شقيٍّ مُبْعَد .

قوله جل ذكره : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

أَجَزَلُ لديهم العارفة ، وأَحْسَنُ إليهم النعم حيث أُرْسِلَ إليهم مثل المصطفى سيد الورى صلوات الله عليه وعلى آله ، وعَرَّفَهُم دِينَهُمْ ، وَأَوْضَحَ لَهُمْ بَرَاهِينَهُمْ ، وَكَانَ لَهُمْ بِكُلِّ وَجْهٍ فَلَا نِعَمَ شُكْرُوا ، وَلَا حَقَّ قُرُّوا ، وَلَا بِمَا أُرْشِدُهُمْ اسْتَبْصَرُوا ، وَلَا عَنْ ضَلَالَتِهِمْ أَقْصَرُوا .. هذا وصف أعدائه الذين جحدوا واستكبروا . وأما المؤمنون فتَقَلَّدُوا الْمِنَّةَ فى الاختيار ، وَقَابَلُوا الْأَمْرَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ عَنْ كُنْهِ الْأَقْتِدَارِ ، فَسَعِدُوا فى الدنيا والعُقبى ، واستوجبوا من الله الكرامة والزُّلْفَى .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّنِىْ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

عادة الخلق نسيان ما منهم من الخطأ والعصيان ، والرجوع إلى الله بالهمة فيما يتصل بهم من المحن والخسران ، وفنون المسكاره والافتتان ، وَإِنَّ مَنْ تَعَاطَى (. . .) (١) الإِجْرَامَ فحقيق بالآلى ينسى حلول الانتقام .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ

(١) مشبهة .

الله وليعلم المؤمنين • وليعلم الذين
ناققوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا
في سبيل الله أو اذفَعُوا قاتلوا : لو نعلم
قتالاً لا تتبعناكم ، هم لكفر
يومئذٍ أقرب منهم للإيمان ، يقولون
بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، والله
أعلم بما يكتُمون *

هوّن على المؤمنين وأصحاب البصائر ما لقوا من عظيم الفتنّة يوم أحد ، بأن قال إن ذلك
أجمع كان بإذن الله ، وإنّ بلاء يصيب بإذن الله لمن العسل أحلى ، ومن كل نعيم أشهى .
ثم أخبر أن الذين لم يكن لهم في الصحبة خلوص كيف تعللوا وكيف تكسلوا :
وكذا للؤلؤ إذا أراد قطيعةً ملّ الوصال وقال كان وكانا

قوله تعالى : « يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم » فلا جرّم (سَقُوا الْعَسْلَ وَدَسَّوْهُ
فيه الحنظل) ^(١) ، ومكروا ومكر الله والله خبر الماكرين .

قوله جل ذكره : ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِلْإِخْوَانِ هُمْ وَفَعَدُوا
لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلُوبًا فَادْرَمُوا عَنْ
أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

الذين ركنوا إلى ما سوّلت لهم نفوسهم من إيشار الهوى ، ثم اعترضوا على من يصرف
أحكام القضاء وقالوا لو تحرّزنا عن البروز للقتال لم يسقطوا عن درجة السلامة . . كَذُومَةٌ
تلك الظنون ، وَلَذَاهِبَةٌ عن شهود التحقيق تلك القلوب .

(١) هكذا يمكن أن تقرأ هذه العبارة لو بنى الفعلان فيها للمعلوم ، أما لو بنىا للمجهول فإن الجزء الثاني
منها يكون (ودس لهم فيه الحنظل) . فالفاعل في الحالة الأولى يكون ضميراً يعود على المنافقين ، ونائب
الفاعل في الحالة الثانية يكون المولى عز وجل وما جاء في النسخة (س) يرجح الثانية ، وإن كنا
نعيل للأولى .

قُلْ لَمْ — يا محمد — استديموا لأنفسكم الحياة ، وادفعوا عنها هجوم الوفاة !

ومتى تقدرون على ذلك ؟ هيهات هيهات !

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

أَمْوَاتًا بَلْ أحياء عند ربهم يرزقون

فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ

مَنْ خَلْفَهُمْ إِلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ

وَلَأَهِمْ يَحْزَنُونَ ﴾

الحياة بذكر الحق بعد ما تشلف النفوس في رضاه الحق أتم من البقاء بنعمة الخلق مع

الخفية عن الحق .

ويقال إن الذي وارثه الحى الذى لم يزل فليس يميت — وإن قُتِلَ :

وإن كانت العبدان للموت أنشئت فقتل أمرى في الله — لاشك — أفضل

قوله : « وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ » : مَنْ علم أن أحياءه ينتظرونه

وهم في الرقة والنعمة لا يهنأ بعيش دون التأهب والإلمام بهم والنزول عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِ

وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

حيلة استبشارهم وموجبه فضل من الله ونعمة منه ، أى لولا فضله ونعمته بهم وإلا متى

استبشروا ؟ فليس استبشارهم بالنعمة إنما استبشارهم بأنهم عبادُه وأنه مولاهم^(١) ، ولولا فضله

ونعمته عليهم لما كانت لهم هذه الحالة .

(١) يقول الدقاق — شيخ القشيري وصهره — ليس أشرف من العبودية ، ولا اسم أتم للمؤمن من الاسم له بالعبودية ، وقد وصف بها الرسول (ص) في أشرف أوقاته في الدنيا ، قال تعالى « فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى » .

لا تدعى إلا بيا عبدا فإنه أشرف أسمائى (الرسالة ص ١٠٠)

قوله جل ذكره : ﴿الذين استجابوا لله والرسول من

بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا

منهم واتقوا أجر عظيم﴾

للاستجابة مزية وفضيلة على الإجابة من حيث الإشارة لا من مقتضى العريية^(١) وهو أنه يستجيب طوعاً لا كرهاً ، فهم استجابوا لله من غير انطواء على تحمل مشقة بل بإشارة القلب ومحبة الفؤاد واختيار الروح واستجلاء^(٢) تحمل الحكم . فالاستجابة للحق بوجوده ، والاستجابة للرسول — عليه السلام — بالتخلق بما شرع من حدوده .

استجابة الحق بالتحقق بالصفاء في حق الربوبية ، واستجابة الرسول عليه السلام بالوفاء في إقامة العبودية .

« من بعد ما أصابهم القرح » : في ابتداء معاملتهم قبل ظهور أنوار التجلي على قلوبهم ، وابتسام الحقائق في أسرارهم .

« للذين أحسنوا منهم » : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه . . . — وهو للشاهدة والتقوى — . . . فإن لم تكن تراه فإنه يراك »^(٣) — وهو المراقبة في حال المجاهدة .
« أجر عظيم » لأهل البداية مؤجلاً ، ولأهل النهاية مُعجلاً .

قوله جل ذكره : ﴿الذين قال لم الناس إن الناس

قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً

وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾

لم يلتبس على ظواهرهم شيء من أحوال الدنيا إلا انفتحت لهم — في أسرارهم — طوابع من الكشوفات ، فازدادوا يقيناً على يقين .

(١) أى على مقتضى صيغ الاشتقاق في اللغة .

(٢) في من (استجلاء) والصواب أن تكون بالخاء .

(٣) « أعبد الله كأنك تراه . . . » رواه الطبراني عن أبي الدرداء ، وحسن البيهقي مسنده ، وضعفه المنذرى . قال الحافظ العراقي : رجاله ثقات وفيه انقطاع « أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ، واحسب نفسك في الموتى ، واتق دهوة المظلوم ، وفي الحلية عن زيد بن أرقم .

ومن أمارات اليقين استقلالُ القلوب بالله عند انقطاع الثمني من الخلق في توهم
الإنجاد والإعانة .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاتَّقِلْبُوا نِعْمَةً مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ
لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ، وَاتَّبِعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ
وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾

كنا سنة الحق — سبحانه — مع مَنْ صدَّق في التجائه إليه أن يهد مقلبه في ظل كفايته ،
فلا البلاء يمسّه ، ولا العناء يصيبه ، ولا النصب ^(١) يُظِلُّه .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكَ ^(٢) الشَّيْطَانُ يَخُوفُ
أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ ، وَخَافُونِ إِنْ
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

الإشارة في تسليط دواعي الشيطان على قلوب الأولياء صدق فرارهم إلى الله ؛ كالصبي الذي
يخوف بشيء يفرغ الصبيان ، فإذا خاف لم يهتد إلى غير أمه ، فإذا أتى إليها آوته إلى نفسها ،
وضمته إلى تحرها ، وألصقت بخدمته خدّها .

كذلك العبد إذا صدق في ابتاله إلى الله ، ورجوعه إليه عن مخالفته ، آواه إلى كنف
قربته ، وتداركه بحسن لطفه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي
الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُوا اللَّهَ شَيْئًا ،
يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِظًّا فِي
الْآخِرَةِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

زاد في قوة قلبه بما جدّ له من تأكيد العهد ، بأنه لا يُشْمِتُ به عدواً ، ولا يوصل
إليه من رقبيلهم سوءاً .

(١) في من (النصيب) والصواب (النصب) فالعنى يتطلب ذلك .

(٢) هنا أضلّف الناصخ — سهواً — لفظة (الله) لحذفها .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ
لَنْ يَضُرُوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴾ .

إِنْ أَضَرُّوا فَمَا أَضَرُّوا إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَإِنْ أَصَرُّوا فَمَا أَصَرُّوا إِلَّا عَلَى خَسْرَانِهِمْ :
فَمَا نَحْنُ عَذْبُنَا بِجَعْدِ دِيَارِهِمْ وَلَا نَحْنُ سَاقِتُنَا إِلَيْهِمْ نَوَازِعُ
قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ مَا نُمَلِّئُ
لَهُمْ خَيْرًا لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّئُ لَهُمْ لِيُزْدَادُوا
إِنَّمَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ .

من تمام المكر بهم ، وللبالغة في عقوبتهم أننا نعدّ بهم وهم لا يشعرون ، نستدرجهم من
حيث لا يعلمون ؛ نملئ لهم فيظنون ذلك إنعاماً ، ولا يحسبون انتقاماً ، فإذا برزت لهم كوامنُ
التقدير عند مغاراتها علموا أنهم لفي خسران ، وقد اتضح لكل ذي بصيرة أن ما يكون
سببَ العصيان وموجبَ النسيان غيرُ معدودٍ من جملة الإنعام .

قوله جل ذكره : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى
مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ
الطَّيِّبِ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ
عَلَى الْغَيْبِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ
رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ
وَرُسُلِهِ ، وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ
أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

جمعهم اليوم من حيث الأشخاص والمباني ، ولكنه فرقهم في الحقائق والمعاني ؛ فبين
طَيِّبَةٍ سَجِيئَةٍ ، ومن خبيثةٍ طَيِّبَةٍ . وهم وإن كانوا مشائب^(١) في بصيرة الخواص هم ممتازون^(٢) .

(١) مشائب = أخلاط .

(٢) ممتازون هنا مرتبطة بالفعل (يميز) الذي في الآية الكريمة أي لأنهم معروفون عندنا ؛ يميز
طبيهم مهما كانوا أخلاطاً .

« وما كان الله ليطلعكم على الغيب » : فإن أسرار الغيب لا تظهر للمتوكلين بأدناس البشرية ، وإن الحق سبحانه مستأثر بعلم ما جلّ وقلّ ، فيختص من يشاء من أنبيائه بمعرفة بعض أسرارهِ :

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمْ

الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شرٌّ لهم ، سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا به يوم القيامة ، والله ميراث السموات والأرض ، والله بما تعملون خبير ﴾

من آثر شيئاً على الله لم يبارك له فيه ، فلا يدوم له — في الدنيا — بذلك استمتاع ، ولا للعقوبة عليه — في الآخرة — عنه دفاع .

والبخل — على لسان العلماء — منع الواجب ، وعلى مقتضى الإشارة إبقاء شيء ولو ذرة من المال أو نفساً من الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ

الله فقير ونحن أغنياء ، سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ، ونقول ذوقوا عذاب الحريق ﴾ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلامٍ للعبيد ﴾

هذا الخطاب لو كان بين المخلوقين لكان شكوى . والشكوى إلى الأولياء من الأعداء سنةٌ الأحباب .

ويقال علم أن في المؤمنين من يغتاب الناس ، وذلك قبيح من قائلهم ، فأظهر قُبْحاً فوق ذلك ليتصاغر قبح قول المؤمنين بالإضافة إلى قبح قول الكفار ، فكأنه قال : لئن قبحت قائلهم في الاغتياب فأقبح من قولهم قول الكفار حيث قالوا في وصفنا ما لا يليق بنعمتنا .

وفيه أيضاً إشارة إلى الداء إلى الخلق ، والنجاة من الخضم ، فإن الله — سبحانه —
لم يسلبهم ما أولام مع قبيح ما ارتكبوه من التقصير في حقوقه .

قوله : « سنكتب ما قالوا » : هذه الكلمة من موجبات الخجلة لأهل التقصير بأدق
إشارة ؛ بمعنى أنهم وإن نسوا أحوالهم وأقوالهم فإننا ننشر لهم ما كتبنا عليهم قال قائلهم :

صحائفٌ عندى للعناب طويتها ستُنشَرُ يوماً والعناب يطولُ
سأصبر حتى يجمع الله بيننا فإن نلتق يوماً فسوف أقول

قوله : « ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد » هذا لو كان من مخلوق
مع مخلوق / لأشبه العذر مما عمله به ، فكأنه — سبحانه — يقول : « عبيد : هذا الذى تلقاه
— اليوم — من العقوبة لأن الذنب لك ، ولولم تفعله لما عذبتك » .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين قالوا إن الله عهد إلبنا
ألا نؤمن لرسولٍ حتى يأتينا بقربان
تأكله النارُ قل قد جاءكم رسلٌ من
قبلى بالبينات وبالذى قُلتُم ، فلم
تلتزموا إن كنتم صادقين ﴾

تقوُّوا على الله — سبحانه — فيما تعلوا به من ترك الإيمان ، فقالوا : لقد أمرنا ألا نصدق
أحدًا إلا لو أتانا بقربان يتقرب به إلى السماء ، وتنزل نار من السماء ، فتأخذ القربان عياناً ببصر ،
فقال تعالى : قل لم إن من تقدمنى من الأنبياء عليهم السلام أتوكم بما اقترحتم على من القربان ،
ثم لم تؤمنوا ، فلو أجبتمكم إليه لن تؤمنوا بى أيضاً ؛ فإن من أقصته السوابق — فلو خاطبته
الشمسُ بلسان فصيح ، أو سجدت له الجبالُ فرآها بلعظه صحيح — لم يبلغ العرفان فى قلبه ،
وما ازداد إلا شكاً على شك .

قوله جل ذكره : ﴿ فإن كذبوك فقد كذب رسلٌ من
قبلك جاءوا بالبينات والزُّبر
والكتاب المنير ﴾ .

أى عادة الكفار تكذيب الرسل : وعلى هذا النحو درج سلفهم ، وبهديهم
اقتدى خلفهم .

قوله جل ذكره : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ
أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحِرَ
عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ،
وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾

أى كأس الموت توضع على كف كل حي فمن تحلها طيبة نفسه أوزنته سكر الوجد ،
ومن تجرّعها على وجه التعبس ، وقع في وهدة الرد ، ووسم بكى الصد ، ثم يوم القيامة :
فمن أجبر من النار وصل إلى الراحة الكبرى ، ومن صلى بالسعير وقع في المحنة الكبرى .
« وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » : لأن ما هو آتٍ فقريب .

قوله جل ذكره : ﴿ لَتَبْلُوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ
وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى
كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ
مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ .

كفاهم أكثر أسباب الضرر بما أخبرهم عن حلولها بهم قبل الهجوم ، وعرفهم أن خير
الأمرين لهم إثبات الصبر واختيار السكون تحت مجارى الأقدار .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ
وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ
وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّسَ
مَا يَشْتَرُونَ ﴾

أخبر أنهم أبرموا عهدهم أن لا يزولوا^(١) عن وفائه ، ولكم تقضوا أسباب الذمائم بما صاروا إليه من الكفران ، ثم تبين أن ما اعتاضوا من ذهاب الدين من أعراض يسيرة لم يُبارك لهم فيه .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ، فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

إن من باشر رؤية الخلق قلبه ، ولا حظهم بسره فلا تظن أن عقوبتهم مؤخره إلى يوم القيامة ، بل ليسوا من العذاب — في الحال — بمفازة ، وأي عذاب أشد من الرد إلى الخلق والحجاب عن الحق ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَقَدْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

الإشارة من هذه الآية هاهنا إلى غناه — سبحانه — عما في الكون ، وكيف يحتاج إليهم ؟ ! ولكنهم لا يجدون عنه خلفاً ، ولا عليه بدلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ .

الآيات التي تعرف الحق سبحانه وتعالى بها إلى العوام هي التي في الأقطار من العبر والآثار ، والآيات التي تعرف بها إلى الخواص فالتى في أنفسهم . قال سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ

(١) وردت (ان لا يزالوا) وترجح انها في الأصل (ان لا يزولوا) لأن هذه مناسبة للمراد من الآية ، ومن سياق المعنى ، ولو كان حرف الجر (على) بعدها لتبنا (لا يزالوا) .

آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ، فالآيات الظاهرة توجب علم اليقين ، والآيات الباطنة توجب عين اليقين .

والإشارة من اختلاف الليل والنهار إلى اختلاف ليالي العباد ؛ فليالي أهل الوصلة قصيرة ، وليالي أهل الفراق طويلة ؛ فهذا يقول :

شهور ينقضين وما شعرنا بأنصافٍ لمن ولا سرار
ويقول :

صباحك مكر والمساء خمار فمت وأيام السرور قصار
والثاني يقول :

ليالي اقر الظاعنين (. . . .) شَكَّوْتَ وَلَيْلُ الْعَاشِقِينَ طَوِيلُ
وثالث ليس له خبر عن طول الليل ولا عن قصره فهو لَمَّا غَلَبَ عَلَيْهِ يقول :
لستُ أُدرى أطلالَ لَيْلِي أَمْ لَا ؟ كيف يدري بذاك من يَتَقَلَّى ؟
لو تَفَرَّغْتُ لاسْتَطَالَةَ لَيْلِي وَرَعَيْتُ النُّجُومَ كُنْتُ مُحِلًّا

قوله تعالى : « لأولى الألباب » : أولو الألباب هم الذين صَحَّتْ عقولهم عن سُكْرِ الغفلة .
وأَمارة مَنْ كان كذلك أن يكون نظره بالحق ؛ فإذا نظر من الحق إلى الحق استقام نظره ،
وإذا نظر من الخلق إلى الحق انتكست نعمته ، وانقلبت أفكاره مُورِثةً للشبهة .
قوله تعالى : « الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً . . . » الآية :

استغرق الذكرُ جميعَ أوقاتهم ؛ فإن قاموا فبذكركه ، وإن قعدوا أو ناموا أو سجدوا
فجملة أحوالهم مستهلكة في حقائق الذكر ، فيقومون بحق ذكره ويقعدون عن إخلاف أمره ،
ويقومون بصفاء الأحوال ويقعدون عن ملاحظتها والدعوى فيها ^(١) .

ويذكرون الله قياماً على بساط الخدمة ثم يقعدون على بساط القرية .

ومن لم يَسَلِّمْ في بداية قيامه عن التقصير لم يسلم له قعودٌ في نهايته بوصف الحضور .

(١) القشيري هنا مستفيد من رأى استاذَه الإمام ابن فورك في « قياماً وقعوداً » في الآية الكريمة
(الرسالة ص ١١١) .

والذكر طريق الحق — سبحانه — لنا سلك المريدون طريقاً أصح وأوضح من طريق
الذكر ، وإن لم يكن فيه سوى قوله : « أنا جليس من ذكرني » لكان ذلك كافياً .

والذاكرون على أقسام ، وذلك لتباين أحوالهم : فذكر يوجب قبض الذاكر لما يذكره
من نقص سلف له ، أو قبض حصل منه ، فيمنعه خجله عن ذكره ، فذلك ذكر قبض .

وذكر يوجب بسط الذاكر لما يجد من لذائذ الذكر ثم من تقرب الحق إياه بمجمل
إقباله عليه .

وذاكر هو محو في شهود مذكوره ، فالذكر يجري على لسانه عادة ، وقلبه مضطرب
فيما بداله .

وذاكر هو محل الإجلال يأتي من ذكره ويستقدر وصفه^(١) ، فكأنه لتصاغره عنه
لا يريد أن يكون له في الدنيا والآخرة (ثناء)^(٢) ولا بقاء ، ولا كون ولا بهاء ، قال قائلهم :

ما إن ذكرتك إلا هم يلعنني قلبي وروحي وسرى عند ذكركا
حتى كأن رقيباً منك يهتف بي إياك ويحك والتذكرك إياكا

والذكر عنوان الولاية ، وبيان الوصلة ، وتحقيق الإرادة ، وعلامة صحة البداية ، ودلالة
صفاء النهاية ، فليس وراء الذكر شيء ، وجميع الخصال المحمودة راجعة إلى الذكر ، ومُنشأة
عن الذكر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا ﴾

التفكير نعمة كل طالب ، وثمرته الوصال بشرط العلم ، فإذا سلم الذكر عن الشوائب

(١) هذا النوع من الذكر يلتقي بتعاليم أهل الملامة النيسابورية الذين لا ينظرون لأي عمل إلا من
حيث رؤية التقصير فيه .

(٢) ربما كانت (فناء) وإن كان المعنى يتقبل كليهما .

ورد صاحبه على مناهل التحقيق ، وإذا حصل الشهود والحضور مما صاحبه عن الفكر إلى حدود الذكر ، فالذكر سرمد^(١) .

ثم فكر الزاهدين في فناء الدنيا وقلة وفائها لطلابها فيزدادون بالفكرة زهداً فيها .
وفكر العابدين في جيل الثواب فيزدادون نشاطاً عليه ورغبة فيه .
وفكر العارفين في الآلاء والنعم فيزدادون محبة للحق سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾

التفسير يشير إلى مباح الأسرار في بحار التعظيم .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخُلُ النَّارَ فَقَدْ

أُخْزِيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾

مَنْ ابْتَلَيْتَهُ فِي الْآجِلِ بِالْحَرَقَةِ فَقَدْ أُخْزِيْتَهُ ، وَمَنْ ابْتَلَيْتَهُ بِالْفِرْقَةِ فِي الْعَاجِلِ فَقَدْ أَشْقَيْتَهُ ،
وَمَنْ أَوْلَيْتَهُ يَمُنُّ الْوَصْلَةَ فَقَدْ آوَيْتَهُ وَأَذْنَبْتَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ

أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ

لَنَا ذُنُوبَنَا ، وَكُفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا

مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾

يعنى أجبنا الداعي ولكن أنت الهادي ، فلا تَكِلْنَا إلينا ، ولا ترفع ظل عنايتك عنا .

والإيمان الدخول في مَوجِبَاتِ الْأَمَانِ ، وإنما يؤمن بالحق من أَمْنَهُ الْحَقِّ ، فَأَمَانٌ

الحق للعبد — الذى هو إجارته — يوجب إيمان العبد بالحق الذى هو تصديقه ومعرفته .

(١) [سأل أبو عبد الرحمن السلمي الشيخ الدقاق . أذكر أم أم الفكر ؟

فقال الدقاق : ما الذى يقع لك منه ؟

فأجاب السلمي : عندي الذكر أم من الفكر لأن الحق سبحانه يوصف بالذكر ولا يوصف بالفكر

وبما وصف به الحق سبحانه أم مما اختص به الخلق فاستحسنه الدقاق [الرسالة ص ١١١ .

وقد ذكرنا هذه الرواية هنا : أولا لتوضح الفرق بين الذكر والفكر وثانياً لتبرز قول القشيري :

﴿ الذكر سرمد ﴾ أى مستدام .

« وتوفنا مع الأبرار » : وهم المختصون بحقائق التوحيد ، القائمون لله بشرائط
التفريد ، الواقفون مع الله بخصائص التجريد .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رِسَالِكَ
وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ
لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾

حَقَّقْ لَنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى ألسنة الوسائط^(١) من إكمال النعمى (.....)^(٢) وغفران
كل ماسبق منا من منابعات الهوى .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاسْتَجِبْ لَهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ
عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى
بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا
وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا
فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأَكْفِرَنَّ
عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا
مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ
الثَّوَابِ ﴾

كيف لا يستجيب لهم وهو الذى لَقَّيْنَهُمُ الدَّعَاءَ ، وهو الذى ضمن لهم الإجابة ، ووَعَدَهُ
جميل الثواب على الدعاء زائداً على ما يدعون لِأَجْلِ الْحَوَائِجِ .

« فالذين هاجروا » : يعنى الديار والمزار ، وجميع المخالفين والواقفين من الأغيار .
« وأخرجوا من ديارهم » : إلى مفارقة معاheim من مألوفاتهم .
« وأودوا فى سبيلى » : عُيِّرُوا بالفقر والملام ، وفتنوا بفنون المحن والآلام .

(١) يقصد الرسل عليهم السلام .

(٢) مشقبة .

« وَقَاتِلُوا وَقُتِلُوا » : ذاقوا من اختلاف الأطوار الحلو والمر .
« لَا كُفِرَ عَنْهُمْ سِيئاتُهُمْ » : يعنى لنعطيتهم فوق آمالهم وأكثر ، مما استوجبوه
بأعمالهم وأحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا يَغْرُنْكَ تَلَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي
الْبِلَادِ . مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ بِهِمْ
وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾

لا تتداخلك تهمة بأن لهم عندنا قدراً وقيمة إنما هي أيام قلائل وأنفاس معدودة ،
ثم بعدها حسرات مترادفة ، وأحزان متضاعفة .

قوله جل ذكره : ﴿ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتُ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ
خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾

الذين وسمناهم بذل الفرقة بنست حالتهم ، والذين زفوا قدماً لأجلنا فنعمت الحالة
والزلفة ؛ وصلوا إلى الثواب المقيم ، وبقوا في الوصلة والنعيم ، وما عند الله مما ادخرنا لهم
خير مما آملوه باختيارهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ
إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ اللَّهُ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ
اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِنْدَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ
الْحِسَابِ ﴾

يريد من ساعدتهم القسمة بالحسنى فهم مع أولياء الله نعمة كما كانوا معهم قسمة .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا

وَرَابِطُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴿١﴾

الصبر فيما تفرد به العبد ، والمصابرة مع العدو .

والرباط نوع من الصبر ولكن على وجه مخصوص .

ويقال أول الصبر التصبر ، ثم الصبر ثم المصابرة ثم الاضطبار وهو نهاية^(١) .

ويقال اصبروا على الطاعات وعن المخالفات ، وتصابروا في ترك الهوى والشهوات ،
وقطع المنى والعلاقات ، ورابطوا بالاستقامة في الصعبة في عموم الأوقات والحالات .

ويقال اصبروا بنفوسكم وصابروا بقلوبكم ، ورابطوا بأسراركم .

ويقال اصبروا على ملاحظة الثواب ، وصابروا على ابتغاء القربة ، ورابطوا في محل
الدنو والزلفة — على شهود الجمال والعزة .

والصبر مُرٌّ مَذَاقُهُ إِذَا كَانَ الْعَبْدُ يَتَحَسَّاهُ عَلَى الْغَيْبَةِ ، وَهُوَ لَذِيذٌ طَعْمُهُ إِذَا شَرِبَهُ عَلَى
الشهود والرؤية .

« وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » : الْفَلَاحُ الظَّفَرُ بِالْبُغْيَةِ ، وَهِمَّتُهُمُ الْيَوْمُ الظَّفَرُ
بِنَفْسِهِمْ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَتِمُّ خَلَاصُهُمْ ، وَإِذَا ظَفَرُوا بِنَفْسِهِمْ ذَبَحُوهَا بِسِوْفِ الْمَجَاهِدَةِ ،
وَصَلَبُوهَا عَلَى عِيدَانِ الْمَكَابِدَةِ ، وَبَعْدَ فَنَائِهِمْ عَنْهَا يَحْصُلُ بِقَاؤُهُمْ بِاللَّهِ .

(١) يمكن أن يجد القارئ في صفيح القشيري حول مادة (س ب ر) انه — وهذا شأنه دائماً —
يحاول أن يؤسس المصطلح الصوفي على دعائم لغوية تعتمد على الفروق الدقيقة بين صيغ الاشتقاق المختلفة
من المادة الواحدة ؛ فصيغة المفاعلة فيها المشاركة ، وصيغة التفعّل فيها تكلف يلائم البداية وهكذا .

السورة التي يذكر فيها النساء

بسم الله الرحمن الرحيم.

اختلفوا في الاسم عن ماذا اشتق ؛ فمنهم من قال إنه مشتق من السمو وهو العلو . ومنهم من قال إنه مشتق من السمة وهي الكفة .

وكلاهما في الإشارة : فمن قال إنه مشتق من السمو فهو اسم من ذكره سمت رتبته ، ومن عرفه سمت حالته ، ومن صحبه سمت همته ؛ فسمو الرتبة يوجب وفور المثوبات والبركات ، وسمو الحالة يوجب ظهور الأنوار في الأسرار ، وسمو الهمة يوجب التحرز عن رِقِّ الأغيار .

ومن قال أصله من السمة فهو اسم من قصده وسم بسمه العبادة^(١) ، ومن صحبه وسم بسمه الإرادة ، ومن أحبه وسم بسمه الخواص ، ومن عرفه وسم بسمه الاختصاص . فسمه العبادة توجب هيبة النار أن ترمى صاحبها بشررها ، وسمه الإرادة توجب حشمة الجنان أن تطمع في استرقاق صاحبها - مع شرف خطرها ، وسمه الخواص توجب سقوط العُجب من استحقاق القربة للماء والطينة على الجملة^(٢) ، وسمه الاختصاص توجب امتحاء الحكم عند استيلاء سلطان الحقيقة .

ويقال اسم من أصله سما عنده (عن) الأوهام قدره (سبحانه)^(٣) . ومن فاصله وسم بكي الفرقة قلبه .

(١) هنا حدث اضطراب من الناسخ فإخطأ في النقل وقد رتبنا الكلام في النصف الأول من الفقرة حسب الترتيب الوارد في النصف الثاني منها والذي يبدأ « فسمه العبادة توجب الخ » . ذلك الترتيب الذي يتماشى مع المذهب العام للتشيرى في كل مصنفاته .

(٢) يقصد تشريف الإنسان على جملة المخلوقات ، فالإنسان وحده - دون سائر الكائنات - هو الذي خوطب بلبادل الذكر والمحبة مع الحق جل شأنه .

(٣) وضعنا (عن) و (سبحانه) ليتنوع اللبس ، وما غير موجودين في النص (يقول التشيرى في رسالته : ما يصوره وهما فاقه بخلاف ذلك) .

وعلى هذه الجملة يدل اسمه .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ .

الناس اسم جنس ، والاشتقاق فيه غير قوى . وقيل معى الإنس إنساً لظهوره ^(١) فعلى هذه الإشارة : يَأْمَنُ ظَهْرُكَ عَنْ كَتَمِ الْعَدَمِ بِحَكْمِ تَكْلِيفِي ، ثُمَّ خَصَصْتُ مَنْ شِئْتُ مِنْكُمْ بِتَشْرِيفِي ، وَحَرَمْتُ مَنْ شِئْتُ مِنْكُمْ هِدَايَتِي وَتَعْرِيفِي : وَتَقَلَّتْكُمْ إِلَى مَا شِئْتُ بَلْ أَوْصَلْتُكُمْ إِلَى مَا شِئْتُ بِحَكْمِ تَصْرِيفِي .

ويقال لم أظهِرْ مَنْ الْعَدَمِ أَمْثَالَكُمْ ، وَلَمْ أظْهِرْ عَلَى أَحَدٍ مَا أظْهِرْتُ عَلَيْكُمْ مِنْ أَحْوَالِكُمْ .
ويقال سُمِّيَتْ إِنْسَانًا لِنِسَابِكَ ، فَإِنْ نَسِيتْنِي فَلَا تُشِيْ أَخْسَ ^(٢) مِنْكَ ، وَإِنْ نَسِيتَ ذِكْرِي فَلَا أَحَدَ أَحَطُّ ^(٣) مِنْكَ

ويقال مَنْ نَسِيَ الْحَقَّ فَلَا غَايَةَ لِمُحِبَّتِهِ ، وَمَنْ نَسِيَ الْخَلْقَ فَلَا نَهَايَةَ لِمَلُوكِ حَالَتِهِ

ويقال يقول المذنبين : يَأْمَنُ أَلْسِيَّتَ عَهْدِي ، وَرَفَضْتُ وَدِي ، وَتَجَاوَزْتُ حَدِّي حَانَ لَكَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى بَابِي ، لِنَسْتَحِقُّ لَطْفِي وَإِحْسَانِي . ويقول للعارفين ، يَأْمَنُ نَسِيَّتَ فِينَا حَقَّكَ ، وَصُتَّ عَنْ غَيْرِنَا لِحَقِّكَ وَلِلْفُطْرَتِ — لَقَدْ عَظَّمْ عَلَيْنَا حَقَّكَ ، وَوَجَبَ لَدَيْنَا نَصْرُكَ ^(٤) ، وَجَلَّ عِنْدَنَا قَدْرُكَ . .

(١) حتى يقابل (الجن) لاختلافه . وربما كان قصد القشيري إلى ذلك .

(٢) وردت (أخس) بالصاد ، وربما يقبلها على أساس أن الله يعاتب عبده : إِنْ نَسِيتْنِي فَأَنْتَ رَهِيمُ ذَلِكَ (أخس الكائنات بمحبي) .

(٣) وردت (أحسن) بالضاد وربما كانت أحسن .

(٤) وجب واستوجب والابحباب عند القشيري ترد بمعنى الاستحقاق ، وعليها أن نتأمل الدقة في استعمال (لدينا) ولم يقل (علينا) فلا وجوب على الله — بخلاف المترلة .

ويقال يا من أُرِست^(١) بنسيم قرني ، واستروحت إلى شهود وجهي ، واعتززت بجلال قدرى — فأنت أجلُّ عبادى عندي .

قوله : « اتقوا ربكم » : التقوى جماع الطاعات ، وأوله ترك الشرك وآخره اتقاء كل غير ، وأول الأغيار لك نفسك ، ومن اتقى نفسه وقف مع الله بلا مقام ولا شهود حال ، و (وقف) لله . . لا لشهود حظ في الدنيا والعقبى .

قوله : « الذى خلقكم من نفس واحدة » : وهو آدم عليه السلام ، وإذا كنا مخلوقين منه وهو مخلوق باليد فنحن أيضا كذلك ، لما ظهرت مزية آدم عليه السلام به على جميع المخلوقين والمخلوقات فكذلك وصفنا ، قال تعالى : « أولئك هم خير البرية » .

ولفظ « النفس » للعموم والعموم يوجب الاستغراق .

قوله : « وخلق منها زوجها » : حكم الحق — سبحانه — بمساكنة الخلق مع الخلق لبقاء النسل ، ولرد المثل إلى المثل فربط الشكل بالشكل .

قوله . « وبثَّ منهما رجالا كثيرا ونساء » : تعرف إلى العقلاء على كمال القدرة بما ألاح من براهين الربوبية ودلالات الحكمة ، حيث خلق جميع هذا الخلق من نسل شخص واحد ، على اختلاف هيتهم ، وتفاوت صورهم ، وتباين أخلاقهم ، وإن اثنين منهم لا يتشابهان ، فلكل وجه في الصورة والخلق ، والهمة والحالة ، فسبحان من لا حد لمقدوراته ولا غاية لمعلوماته .
ثم قال : « واتقوا الله » تكرير الأمر بالتقوى يدل على تأكيد حكمه .

وقوله : « نساء لون به والأرحام » : أى اتقوا الأرحام أن تقطعوها ، فمن قطع الرحم قطع ، ومن وصلها وصل .

« إن الله كان عليكم رقيبا » : مطلعا شهيدا ، يعد عليك أنفاسك ، ويرى حواسك ، وهو متولٍ خطراتك ، ومنشئ حركاتك وسكناتك . ومن علم أنه رقيب عليه فبالحرى أن يستحي منه .

(١) لاحظ كيف يربط القشيري بين الناس (والأنسر) بعد أن ربطها (بالإنس) فدار الكلام كله على لفظة (الناس) التي وردت في الآية الكريمة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدِلُوا

الْخَيْثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ

إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾

مَنْ أَقِيمَ بِمَحَلِّ الرِّعَايَةِ فِجَاءً عَلَى رِعِيَّتِهِ فَخَصَّهُ رَبُّهُ ؛ فَإِنَّهُ — سُبْحَانَهُ — يَنْتَقِمُ لِعِبَادِهِ مَا لَا يَنْتَقِمُ لِنَفْسِهِ . فَوَلِّ الْيَتِيمَ إِنْ أَنْصَفَ وَأَحْسَنَ لِحَقِّهِ عَلَى اللَّهِ ، وَإِنْ أَسَاءَ وَتَعَدَّى فَخَصَّهُ اللَّهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ

فَانْكَحُوا مَا طَلَبَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ

مَنْثًى وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ ، فَإِنْ خِفْتُمْ

أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ

أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أُدْنَىٰ أَلَّا تَعْرُلُوا *

وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾

أَبَاحَ اللَّهُ لِلرِّجَالِ الْأَحْرَارِ التَّزْوِجَ بِأَرْبَعٍ فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَأَوْجَبَ الْعَدْلَ بَيْنَهُنَّ ، فَيَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَرَاعِيَ الْوَاجِبَ فَإِنْ عَلِمَ أَنَّهُ يَقُومُ بِحَقِّ هَذَا الْوَاجِبِ آثَرُ هَذَا الْمُبَاحِ ، وَإِنْ عَلِمَ أَنَّهُ يَقْصُرُ فِي الْوَاجِبِ فَلَا يَتَعَرَّضُ لِهَذَا الْمُبَاحِ ، فَإِنَّ الْوَاجِبَ مُسْتَوْلٍ عَنْهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا

فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾

دَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ طَعَامَ الْفَتَيَانِ ^(١) وَالْأَسْخِيَاءَ مَرِيءٌ لَأَنَّهُمْ لَا يُطْعِمُونَ إِلَّا عَنْ طَيِّبِ نَفْسٍ ،

وَطَعَامُ الْبَخْلَاءِ رَدِيءٌ ^(٢) لَأَنَّهُمْ يَرُونَ أَنْفُسَهُمْ ، وَإِنَّمَا يُطْعِمُونَ عَنْ تَكَلُّفٍ لَا عَنْ طَيِّبِ نَفْسٍ .

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « طَعَامُ السَّخِيِّ دَوَاءٌ وَطَعَامُ الْبَخِيلِ دَاءٌ » .

(١) الْفَتَيَانُ جَمْعُ فَتًى . وَالْفَتْوَةُ أَصْلٌ مِنْ أَصُولِ الصُّوفِيَّةِ عِمَادُهُ الْإِثَارُ وَالْبَذَلُ وَالصَّفْحُ وَالْبَقْوُ ، وَالْأَنْفَاءُ عَمَّا فِي الْكَوْنِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَحَاسِنِ السُّلُوكِ الَّتِي يَنْبَغِي لِلنَّفْسِ أَنْ تَرْضَاهَا ، وَأَنْ تَتَعَلَّى بِهَا حَتَّى يَنْهَبُ الْعَبْدُ لَهَا هُوَ أَجَلٌ وَأَعْظَمُ ، وَأَنْ يَكُونَ إِثَارُهُ لِلَّهِ وَبَذْلُهُ لِلَّهِ وَرُوحُهُ لِلَّهِ ، لِأَنَّ مِنْ يَوْمَرِ بِالْإِثَامِ ذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ لِلْمَخْلُوقِ لَا يَضُنُّ بِأَضْعَافِهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْحَقِّ .

(٢) مُشْتَبِهَةٌ وَلَكِنَّا أَقْرَبُ مَا تَكُونُ إِلَى (رَدِيءٍ) وَتَدْرُجُ فِيهَا مَعَ التَّحَفُّظِ ، وَالْمَعْنَى بِتَقْبَلُهَا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ
اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ، وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا
وَأَكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾

السُّفَهَاءُ من ينعك عن الحق ، ويشغلك عن الرب .

والسُّفَهَاءُ من العيال والأولاد من تؤثر حظوظهم على حقوق الله تعالى .

قوله : « الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا » : حفظ التجمل في الحال أجدى عليكم من التعرض
للتبذل والسؤال ، والكذبة والاحتيال . وإنما يكون البذل خيراً من الإمساك عند تحوُّر
القلب والثقة بالصبر . فأما على نية الكذبة وأن تجعل نفسك وعيالك كلاً على الناس فحفظك
ما جعله الله كفايةً لنفسك أولى ، ثم الجود بفاضل كفايتك .

قوله : « وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَأَكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا » : إذا كان ذات يدك يتسع
لكفاية يومهم ويفضل^(١) فلا تدخره عما تدعو إليه حاجتهم معلومك خشية فقر في الغد ،
فإن ضاقت يدك عن الإنفاق فلا يتسعين^(٢) لسانك بالقبيح من المقال .

ويقال إذا دعتك نفسك إلى الإنفاق في الباطل فأنت أسفه السفهاء فلا تطيع نفسك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَابْتَاعُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا
النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا
فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَأْكُلُوهَا
إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ، وَمَنْ
كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَنْ كَانَ
فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ
إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ
بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾

(١) يفضل وفاضل هنا بمعنى يزيد وزيادة .

(٢) لاحظ المقابلة الجلية في تعبير العشري بين (ضاقت يدك) و (ويتع لسانك)

إيناس الرشيد العفة والديانة ، والسخاء والصيانة ، وصحبة الشيوخ ، والحرص على مشاهدة الخير ، وأداء العبادات على قضية الأمر .

ويقال الرشيد من أهدى إلى ربه ، وعندنا نسخ له (حاجة) من حوائج لا يسأل على حوله وقوته ، وتديره واختياره .

قوله جل ذكره : ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان

والأقربون وللنساء نصيب مما ترك

الوالدان والأقربون مما قلّ منه

أو كثر نصيباً مفروضاً ﴾

حكم الميراث لا يختلف بالفضل والمنقبة ، ولا يتفاوت بالعيب والنقص والذنب ؛ فلو مات رجل وخلف ابنين تساويا في الاستحقاق وإن كان أحدهما برّاً تقيّاً والآخر فاجراً عصياً ، فلا للثقي زيادة لتقواه ، ولا للفاجر بخس لفسوره ، والمعنى فيه أن الميراث ابتداء عطية من قبل الله ، فيتساوى فيه البر والفاجر . كذلك حكم الإيمان ابتداء عطية للمسلمين : قال الله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » ، ثم قال : « فمنهم ظالم لنفسه ومنهم ... » الآية .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا حضر القسمة أولو القربى

واليتامى والمساكين فارزقوهم منه

وقولوا لهم قولاً معروفاً ﴾

يريد إذا حضر قسمة الميراث ذوو السهمان^(١) والمستحقون ، وحضر من لا نصيب لهم في الميراث من المساكين فلا تحرمهم من ذلك . فإن كان المستحق مؤلّياً عليه ، فعِدوهم وعداً جميلاً وقولوا : « إذا بلغ الصبي قلنا له حتى يعطيك شيئاً » وهذا معنى قوله : « وقولوا لهم قولاً معروفاً » . وفي هذا إشارة لطيفة للمذنبين إذا حضروا لمرسته غداً ، والحق سبحانه يفر للمطيعين ويعطيهم ثواب أعمالهم ، فمن كان منكم من فقراء المسلمين لا يحرمهم الفقران

(١) السهمان ج سهم .

إن شاء الله بعدما كانوا من أهل الإيمان ، وكذلك يوم القسمة لم تكن حاضراً ، ولا لك استحقاق سابق فبفضله ما أهلك لمعرفته مع علمه بما يحصل منك في مستأنف أحوالك من ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ

خلفهم ذرية ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ

فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً ﴾

بَيِّنَ في هذه الآية أن الذي ينبغي للمسلم أن يدخره لعياله ^(١) التقوى والصالح لا المال ، لأنه

لم يقل فليجمعوا المال وليكثروا لهم العقار وليخلفوا الأثاث بل قال : « فليتقوا الله »
فانه يتولى الصالحين

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى

ظُلُمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا

وَيَصِلُونَ سَعِيرًا ﴾

إنما تولى الحق سبحانه خصمية اليتيم ، لأنه لا أحد لليتيم غيره ، وكل من وكل أمره إليه فتبرأ من حوله وقوته فالحق سبحانه ينتقم له بما لا ينتقم لنفسه ^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ يُوَصِّيكَمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرُ مِثْلُ

حَظِّ الْأُنثَى إِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ

اِثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلَاثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ

وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ

وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ

لَهُ وَلَدٌ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتْهُ

أَبَوَاهُ فَلَأُمُّهُ الثُّلَاثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ

فَلَأُمُّهُ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي

بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾

(١) وردت (العبارة) وهي خطأ في النسخ .

(٢) هذه إشارة موجبة إلى الأولياء ، فهم لا سند لهم من جاء أو سلطان أو مخلوق فإذا تعرضوا

للأذى تولى الله عنهم خصومة المؤذى .

الوصية هاهنا بمعنى الأمر ، فانه سبحانه جعل الميراث بين الورثة مستحقاً بوجهين :

١. — الفرض ٢ — التعصيب ، والتعصيب أقوى من الفرض لأن العَصْبَةَ قد تستغرق جميع المال أما أكثر الفروض فلا يزيد على الثلثين ، ثم إن القسمة تبدأ بأصحاب الفروض وهم أضعف استحقاقاً ، ثم العَصْبَةُ وهم أقوى استحقاقاً . قال صلى الله عليه وسلم :

« مَا أَبَقْتُ الْفَرَائِضَ فَلِأُولَى عَصْبَةٍ ذَكَرَ »^(١) كذلك أبدأً منته ، كما في قوله تعالى :

« ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا » أعطاهم الكتاب بلفظ الميراث ثم قدم الظالم على السابق ، وهو أضعف استحقاقاً إظهاراً للكرم مع الظالم لأنه مُنْكَسِر القلب ولا يحتمل وقته طول المدافعة .

وقوله « للذكر مثل حظ الأنثيين » . لو كان الأمر بالقياس لكانت الأنثى بالتفضيل أولى لضعفها ، ولعجزها عن الحراك ، ولكن حُكْمَهُ — سبحانه — غيرُ معلل^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنْ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَلِيظًا حَكِيمًا ﴾

الآباء ينفعونكم بالخدمة ، والآباء بالرحمة ، والآباء في حال ضعفك في بداية عمرك ، والآباء في حال ضعفك في نهاية عمرك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرَّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يَوْصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ، وَلَهُنَّ الرِّبْعُ

(١) صحيح البخارى ٨ ص ٢٦٩ « أَلْحَقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا فَإِنْ بَقِيَ فَهُوَ لِأُولَى رَجُلٍ ذَكَرَ »
(٢) تحتاج هذه العبارة إلى بعض توضيح . وربما كان أفضل تحديد لها ما يذكره ذو النون المصرى :
« علة كل شيء صنعه ، ولا علة له » ثم ما يوضحه أبو نصر السراج في اللمع حيث يقول : « معنى هذا القول — والله أعلم — أن وجود النقصان في كل شيء مصنوع كائن ، لأنه لم يكن مكاناً ، وليس في صنع المصانع لمصنوعات ، علة ، وقال بعضهم :
يا شغافى عن السفاهة وإن كنت علقى (اللمع ص ١٤٠)

مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ ،
 فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّنُنُ
 مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا
 أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً
 أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ
 وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا
 أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ
 مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ
 غَيْرِ مُضَارٍّ ، وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ

عَلِيمٌ حَلِيمٌ *

الإشارة في ثبوت الميراث للأقربين من الورثة بالنسب؛ والسبب أن الميت إذا مات تحمل
 القريب أحزانه فموضع الله الوارث على ما يقاسيه ويخامر قلبه من التوجع مال الموروث . .
 وكذا سُنَّته — سبحانه — التعويض على مقاساة الأذى — جوداً منه لا وجوباً عليه (١) —
 كما توهم قوم . وكلُّ مَنْ كَانَ أَقْرَبَ نَسَبًا أَوْ أَقْوَى سَبَبًا مِنَ الْمَيِّتِ كَانَ أَكْثَرَ اسْتِحْقَاقًا
 لِمِيرَاثِهِ ، وَفِي مَعْنَاهُ أَنْشَدُوا :

وما بات مطويًا على أريحية (. . . .)

(. . .) عقب النوى * موت القتي ظل مغرماً (٢)

قوله جل ذكره : * تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ

(١) يلح التشيرى دائماً في نبي كل وجوب على الله ، كما لاحظنا ذلك في مواضع شتى بينما لا يمنع المعتزلة من
 وجوب للتوبة للمطيع — عليه ، ووجوب العقوبة للعاصي — عليه .
 (٢) توجد في البيت كلمات فارسية (انكه شاد شود در عطاء ادن) =
 أصبح حينئذ مسروراً بالعطاء . ومعنى البيت غير واضح .

على إتمام العباد ، فإن إقامة الشهود — على الوجه الذى فى الشرع لإثبات تلك الحالة — كالمستعذر^(١) .

وفى قوله — صلى الله عليه وسلم — لما عز لما قال له : يا رسول الله — صلوات الله عليك — إننى زنت فطهرنى . فقال : لعلك قبلت .. ثم قال فى بعض المرات : « استنكهوه »^(٢) .
فى هذا أقوى دليل لما ذكرت من إسبالة السر على الأعمال القبيحة .

قوله جل ذكره : ﴿ واللذان يأتياها منكم فآتوها
فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنها
إن الله كان تواباً رحماً ﴾

الأمر بفنون العقوبات لهم على فعل ذلك أبلغ^(٣) شىء فى الردع والمنع منه بالرفع ، لعل العبد يحذر ذلك فلا يستحق التعذيب الأعظم .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون
السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب
فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله
عليها حكماً ﴾^(٤) .

لأستغفار مع الإصرار^(٥) ؛ فإن التوبة مع غير إقلاع سمه الكذابين .

وقوله : « السوء بجهالة » : يعنى عمل عمل الجهال .

(١) يدل هذا رأى — فى نظرنا — أولاً على فهم صائب لما وراء الحدود الشرعية من مرام بعيدة ، ويدل ثانياً على سعة صدر الصوفية فى الصفح عن أرباب الخطايا ، وستر معائب الخلائق ، ولقد أحسن الحسن البصرى حين قال : النصيحة على الملأ فضيحة .

(٢) وفى صحيح البخارى ج ٨ ص ٢٩٨ عن ابن عباس : لما أتى معاذ بن مالك النبی (ص) قال له لعلك قبلت أو غمزت أو نظرت... الخ قال نعم فعند ذلك أمر برجمه (ومعنى استنكهوه : أى ابحثوا فى فقه عن نكبة الجرم فربما يكون ثملاً) .

(٣) وردت (بلغ) وهى خطأ فى النسخ

(٤) أخطأ الناسخ فى كتابة الآية فجاءت (من قربة) ، (السوء بجهالة) .

(٥) أخطأ الناسخ فكتبها (الاسرار) بالسین والمعنى يرفضها .

وذنب كل أحدٍ يليق بحاله ، فالخواص ذنوبهم حسباتهم أنهم بطاعتهم يستوجبون محلاً وكرامة ، وهذا وَهْنٌ في المكاة ؛ إذ لا وسيلة إليه إلا به .

قوله « ثم يتوبون من قريب » : على لسان أهل العلم : قبل الموت ، وعلى لسان المعاملة : قبل أن تنعود النفس ذلك فيصير لها عادة ، قال قائلهم :

قلتُ للنَّفْسِ إنْ أردتِ رجوعاً فارجعي قبل أن يُسدَّ الطريقُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون

السيئات حتى إذا حضر أحدهم

الموت قال إني تبتُ الآن

ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك

أُعذِّبُنا لهم عذاباً أليماً ﴾

يعني إذا كُشِفَ الغطاء وصارت المعارف ضرورية^(١) أُغْلِقَ بابُ التوبة ؛ فإن من شرط التكليف أن يكون الإيمان غيبياً . ثم إن في هذه الطريقة إذا عُرِفَ بالخيانة لا يشم بعده حقيقة الصدق . قال داوود — عليه السلام — في آخر بكائه لما قال الله تعالى لِمَ تَبْكِي يا داوود ، وقد غفرت لك وأرضيت خصمك^(٢) وقبلت توبتك ؟

فقال : إلهي ، الوقت الذي كان بي رُدُّه إلى

فقال : هيهات يا داوود ، ذاك وُدُّ قد مضى !!

وفي معناه أنشدوا :

فَخَلَّ سَبِيلَ الْعَيْنِ بِعَدِّكَ لِلْبُكَاءِ فَلَيْسَ لِأَيَّامِ الصَّفَاءِ رَجُوعُ

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَجِلُّ لَكُمْ

(١) المعرفة الضرورية — عند القشيري — هي التي تنال في الانتهاء أما في الابتداء فهي معرفة كسبية والأولى تشبه الشمس والثانية تشبه السراج ، فإذا طلعت الشمس انبسط شعاعها على السراج (الرسالة ص ١٤٩)

(٢) وردت (خصمك) ولكن الإرضاء حسبنا نعلم من قصة داود كان لخصمه ، لذلك رجحنا أن نكون (خصمك) فأرضاء الخصم ملائم لقبول التوبة والغفران

أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَمْنُوا هُنَّ
 لَتَنْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا
 أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ،
 وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ
 فَمَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ
 فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿

التلبيسُ على المستضعفين ، والتدليسُ على أهل السلامة والوداعة من المسلمين — غيرُ
 محودينَ عند الله . فمن تعاطى ذلك انتقم الله منه ، ولم يبارك له فيها يَخْزَلْ من أموال الناس
 بالباطل والاحتيال . ومن استصغر خصمه في الله فأهون ما يعاقبه الله به أَنْ يَحْرِمَهُ الوصولَ
 إلى ما يأمل من محبوبه .

وقوله : « وعاشروهن بالمعروف » : أى بتعاليم الدين والتأديب بأخلاق المسلمين وحُسنِ
 الصحبة على كراهة النفس ، وأن تحتمل أذاهن ولا تحملن كلف خدمتك ، وتتغامى عن
 مواضع خجلتهن .

قوله : « فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا . . . » كل ما كان على نفسك أشقُّ
 كانت عاقبته أهنأ وأمرأ .

واعلم أن الحقَّ سبحانه لم يُطْلِعْ أحداً على غَيْبِهِ ، فأكثر ما يعافه الإنسان قد تكون
 الخيرة فيه أتم . وقد حكم الله — سبحانه — بأن مخالفة النفس توصل صاحبها إلى أعلى
 المنازل ، وبالعكس ذلك موافقتها ، كما أن مخالفة القلوب توجب عمى البصيرة ، وبالعكس ذلك
 موافقتها .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ
 زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا ،
 فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ
 بِهِتَانًا وَإِنَّمَا مِيقَاتُكُمْ * وكيف تأخذونه

وقد أفضى بعضكم إلى بعض
وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً *

يملهم حسن العهد ونعت الكرم في العشرة ، فيقول لا نجتمع الفرقة واسترداد المال عليها ، فإن ذلك ترك الكرم ؛ فإن خولت واحدة مالا كثيراً ثم جفوتها بالفراق فما آتيتها يسيراً في جنب ما أذقتها من الفراق .

قوله : « وكيف تأخذونه . . . » : يعنى أن للصحبة السالفة حرمة أكيدة ، فقفوا عند مراعاة الذمام ، وأوفوا بموجب الميثاق .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِمَّنِ الْنِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ۚ ﴾

تشير الآية إلى حفظ الذمام ، والوقوف على حد الاحترام ، فإن السجية تتداخلها الأنفة من أن ينكح فراشه غيره ، فهي الأبناء عن تخطى حقوق الآباء في استغراق منكوحة الأب .

قوله جل ذكره : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ ، وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ ، وَأُمَّهَاتُ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ ، وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرِبَائِيكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَ ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ، وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ، وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ

الأختين إلا ما قد سلف إن الله
كان غفوراً رحيماً ﴿١﴾

تكلّف انتزاع المعاني التي لأجلها حصل هذا التحريم محالٌ من الأمر ؛ لأن الشرعَ
غيرُ مُعَلَّلٍ ^(١) ، بل الحق تعالى حرّم ما شاء على من شاء ، وكذلك الإباحة ، ولا عِلَّةٌ
للشرائع بحال ، ولو كانت المحرّماتُ من هؤلاء محلّلاتٍ [محرمات] ^(٢) لكان ذلك سافهاً .

قوله جل ذكره : ﴿ والمحصّنات من النساء إلا ما ملكتُ

أيما نكم كتاب الله عليكم ، وأحلّ
لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا
بأموالكم مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ
فما استمتعتم به منهن فآتوهن
أجورهن فريضةً ولا جناح عليكم
فيما تراضيتن به من بعد الفريضة ،
إن الله كان عليماً حكيماً ﴿٢﴾ .

إذا حافظت الحدود ، وراعت العهود ، وحصل التراضى بين النساء بحكم الشرع فلا يكون
فيه للخلق خصيصة ، ولا من الحق سبحانه منه تبعيّة ، فذلك مباحٌ طلقٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن لم يستطع منكم طَوْلاً أن

يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمَنَاتِ فَمَنْ
مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَاكُمْ
الْمُؤْمَنَاتِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ
بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ
أَهْلِهِنَّ ، وَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ
مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَخَدَّاتٍ

(١) نطن أن هذه النظرة التي يأخذ بها التشيرى أمور التشريع قابلة للنقاش .

(٢) هذه كلمة زائدة ولم ينبه الناسخ إلى زيادتها ، وربما كانت في الأصل : « والمحللات محرمات » وحدث سقوط

أُخْدَانُ فَإِذَا أُخْصِنَ فَإِنْ أَتَيْنَ
بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَ نَصْفُ مَا عَلَى
الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِأَنَّهُنَّ خَشِينَ
الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرَ لَكُمْ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *

الرخص جعلت للمستضعفين ، فأما الأقوياء فأمرهم الجِدَّة ، والأخذ بالاحتياط والتضييق ؛
إذ لا شغل لهم سوى القيام بحق الحق ، فإن كان أمر الظاهر يشغلهم عن مراعاة القلوب فالأخذ
في الأمور الظاهرة بالسهولة والأخف أولى من الاستقصاء فيما يمنع من مراعاة السر ، لأنه ترك
بعض الأمور لما هو الآثم والأجل ، فمن نزلت درجته عن الأخذ بالأوثق والأحوط فبإباح له
الانحدار إلى وصف الترخص^(١) .

ثم قال في آخر الآية : « وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرَ لَكُمْ » : يعني على مقاساة ما فيه الشدة ، وفي
هذا نوع استمالة للعبيد حيث لم يقل اصبروا بل قال : « وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرَ لَكُمْ » .

قوله جل ذكره : ﴿ يَرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

لما عرف النبي — صلى الله عليه وسلم — وأمنته أخباراً من مضي من الأمم ، وما عملوا ،
وما عاملهم به انتظروا ما الذي يفعل بهم ؛ فإن فيهم أيضاً من ارتكب مالا يجوز ، فقالوا : ليت
يشعرنا بأى نوع يعاملنا ... أبا نخسف أو بالمسخ أو بالعذاب أو بماذا ؟

فقال تعالى : « وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ » نمرؤكم ما الذي عملنا بهم .

(١) القاعدة « أَنْ اللَّهُ يَجِبُ أَنْ تُوْنِي رُخْصَةً كَمَا تُوْنِي عَزَائِمَةً » ولكن التفسير يرى بالنسبة لأرباب
الأحوال أن (الرخصة في الشريعة للمستضعفين وأصحاب الحوائج والأشغال ، وهؤلاء الطائفة (= الصوفية)
ليس لهم شغل سوى القيام بحقه سبحانه ، ولهذا قيل إذا انحط الفقير من درجة الحقيقة إلى رخصة الشريعة
فقد فسخ عهده مع الله تعالى ، ونقض عهده فيما بينه وبينه سبحانه) الرسالة ص ١٩٩ .

« ويتوب عليكم » أما أنتم فأتوب عليكم ، أما من تقدم فلقد دمرت عليهم .
ويقال « يريد الله ليبين لكم » : أى يكشفكم بأسراره فيظهر لكم ماخفى على غيركم .
ويقال يريد الله ليبين لكم انفرادَه — سبحانه — بالإيجاد والإبداع ، وأنه ليس
لأحد شيء .

« ويهديكم سنن الذين من قبلكم » طريقة الأنبياء والأولياء وهو التفويض والرضاء ،
والاستسلام للحكم والقضاء .

وقيل « ويتوب عليكم » أى يتقبل توبتكم بعدما خلق توبتكم ، ثم يُثيبكم على ما خلق
لكم من توبتكم ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد
الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا
ميلاً عظيماً ﴾ يريد الله أن يخفف
عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴿ .

عزل بهذا الحديث حديث الأولين والآخرين .

ومن أراد الله توبته فلا يُشمت به عدواً ، ولا يناله فى الدارين سوء .

« ويريد الذين يتبعون الشهوات . . . » : إرادتهم منكوسة ، وهى عند إرادة الحق
— سبحانه — ضائعة مردودة .

« ويريد الله أن يخفف عنكم » : يعنى ثقل الأوزار بمواترة الأوراد إلى قلوبكم ، ويقال
يريد الله أن يخفف عنكم مقاساة المجاهدات بما يلج لقلوبكم من أنوار المشاهدات .

ويقال يريد الله أن يخفف عنكم أتعاب الخدمة بحلاوة الطاعات .

ويقال يخفف عنكم كلف الأمانة بحملها عنكم .

(١) واضح من هذا الكلام أن الفضل كله لله ، هو الذى يخلق توبة العبد وهو الذى يليه على توبته ،
وقد ربطنا بين هذا وبين ما ذكره القشيري عند (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) التى جاء ذكرها
فيما سبق (من هذا الكتاب ص ٢١٦)

ويقال يخفف عنكم أتعاب الطلب بروح الوصول .

« وخلق الإنسان ضعيفاً » : وصف بهذا فقرهم وضُرَّهم ، و (. . .)^(١) بها عذرهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ

بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً

عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ

إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ

ذَلِكَ عَدُوًّا غَدًّا وَظَلَمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ

نَارًا ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * .

كل نفقة كانت لغير الله فهي أكل مالٍ بالباطل .

ويقال القبض إذا كان على غفلة ، والبذل إذا لم يكن بمشهد الحقيقة^(٢) ، فكل ذلك

باطل ، « وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » : يعنى بارتكاب الذنوب ، ويقال تعريضها لمساخطته سبحانه .

ويقال بنظركم إليها وملاحظتكم إياها .

ويقال باسئحسانكم شيئاً منها بإيثارها دون رضاء الحق .

ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فإننا لا نُخلِّيه من عقوبة شديدة ، وهو أن نكلها إلى

صاحبها ، ونلقى حبلاً على غاربها .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ

نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ

مُدْخَلًا كَرِيمًا * .

الكبائر — على لسان العلم — هاهنا الشرك بالله ، وعلى بيان الإشارة أيضاً الشركُ

(١) مثلية .

(٢) والبذل إذا لم يكن بمشهد الحقيقة ، أى لو كان ما تبدله وأنت تشهد نفسك دون أن تشهد الحق ،

فهو عمل ضائع ، لأنك حينئذ ستحسب قدراً لنفسك .

الْخَفِيِّ . ومن جملة ذلك ملاحظة الخلق ، واستحلاء قبولهم ، والتودد إليهم ، والإغماض على حق الله بسببهم ^(١) .

ويقال إذا سلم العهد فما حصل من مجاوزة ^(٢) الحد فهو بعيد عن التكفير .
ويقال أكبر الكبائر إثباتك نفسك فإذا شاهدت نفسك ^(٣) تَخَلَّصْتَ ^(٤) من أسر المحن . « وندخلكم » في أموركم « مدخلا كريماً » إدخالاً حسناً لا ترون منكم دخولكم ولا خروجكم وإنما ترون المَصْرَفَ لكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَسْتَنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ

عَلَى بَعْضٍ ، لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا
اَكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا
اَكْتَسَبْنَ ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ،
إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ .

لسان المعاملة أن الأمر بالتعنى لا بالنفى ، ولسان التوحيد أن الأمر بالحكم والقضاء لا بالإرادة والمنى . ويقال اسلكوا سبيل من تقدمكم في قيامكم بحق الله ، ولا تتعرضوا لنيل ما خُصَّوا به من فضل الله . قوموا بحق مولاكم ولا تقوموا بمتابعة هواكم واختيار مناكم .
ويقال لا تمنوا ^(٥) مقام السادة دون أن تسلكوا سُبُلَهُمْ ، وتلازموا سيرهم ، وتعملوا عملهم .. فإن ذلك جورٌ من الظن .

ويقال كن طالب حقوقه لا طالب نصيبك على أى وجه شئت : دنيا وآخرة (وإلاً) ^(٦)
أشركت في توحيديك من حيث لم تشعر .

(١) ربما يشترك كثير من الباحثين في هذا الرأي مع القشيري ولكنه عند أهل الملامة عنصر أساسى وخطير في تعاليمهم ، حيث يزيد إلى درجة استجلاب سخط الناس ولومهم للعبد .
(٢) وردت (بالراء) وهى خطأ في النسخ ، ويكون المعنى إن الله ينفّر بمجاوزة الحد على شرط سلامة العهد وعدم الشرك .

(٣) وردت (ففيها) وهى خطأ في النسخ .
(٤) وردت بالتاء المربوطة لا المفتوحة وهى خطأ في النسخ .
(٥) وردت بالهاء لا بالميم والصحيح أنها بالميم ويتأيد ذلك بقوله بعد قليل (لا تمنّ مقامات الرجال) .
(٦) إضافة من يستقيم المعنى ، إذ واضح أنها سقطت من النسخ .

ويقال لا تفتنَّ مقامات الرجال فإنَّ لكل مقام أهلاً عند الله ، وهم معدودون ؛ فما لم يمت واحد منهم لا يورث مكانه غيره ، قال تعالى : « جعلكم خلائف » والخليفة من يخلف من تقدّمه ، فإذا تَمَنَّيْتَ مقام وليٍّ من الأولياء فكأنَّكَ استعجلت وفاته ؛ على الجملة تمنيت أو على التفصيل ، وذلك غير مُسَلَّم .

ويقال خوذك تحت جريان حكمه — على ما سبق به اختياره — أخطى لك من تعرضك لوجود مناك ، إذ قد يكون خفتك في مُنيتك .

ويقال مَنْ لم يؤدِّب ظاهره بفنون المعاملات ، ولم يهذِّب باطنه بوجوه^(١) المنازلات فلا ينبغي أن يتصدَّى لنيل المواصلات ، وهيئات هيات متى يكون ذلك !

« واسألوا الله من فضله » : الفرق^(٢) بين التمني وبين السؤال من فضله من وجوه : يكون التمني للشيء مع غفلتك عن ربك ؛ فتتضمن بقلبك وجود ذلك الشيء من غير توقعه من الله ، فإذا سألت الله فلا محالة تذكره ، والآخر أن السائل لا يرى استحقاق نفسه فيحمله صدقُ الإرادة على التملُّق والتضرع ، والتمنى يخلو عن هذه الجملة .

والآخر أن الله نهى عن تمنى ما فضل الله به غيرك إذ معناه أن يسلب صاحبك ما أعطاه ويعطيك إياه ، وأباح السؤال من فضله بأن يعطيك مثل ما أعطى صاحبك .

ويقال لا تمنن العطاء وسلَّ الله أن يعطيك من فضله الرضا بفقد العطاء وذلك أتمُّ من العطاء ، فإنَّ التحرُّر من رِقِّ الأشياء أتمُّ من تملكها .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ

الوالدان والأقربون والذين عَقَدْتَ

إِيمَانُكُمْ فَأَتَوْمُ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ

كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۝

جعل للعاقدة في ابتداء الإسلام نظيرة النسب في ثبوت لليراث بها فنسخ حكم الميراث

(١) وردت (بوجوده) والصواب أن الدال زائدة لبئلاء المعنى مع (فتون) كذلك فإن (بوجوده المنازلات) غير مستقيمة .

(٢) لاحظ كيف تدرى بحوث القشيري التي من هذا القبيل علوم اللفظ والبلاغة .

وبقي حكم الاحترام ، فإذا كانت للمعاقدة بين الناس بهذه الثابتة فما ظنك بالمعاهدة مع الله ؟ .
قال الله تعالى : « رجالٌ صدَقُوا ما عاهدوا الله عليه » وأنشدوا :

إنَّ الألى ماتوا على دين الهوى وجدوا المنيةَ منهلاً معسولاً

قوله جل ذكره : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله

بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم ، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، واللاتي يخافون نشوزهن فمظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً » .

خص^(١) الرجال بالقوة فزيد بالمثل عليهم ؛ فالمثل على حسب القوة . والعبرة بالقلوب والهم لا بالنفوس والجثث .

قوله : « واللاتي يخافون نشوزهن فمظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن » : أى ارتقوا في تهذيبهن بالتدريج والرفق ، وإن صلح الأمر بالوعظ فلا تستعمل العصا بالضرب ، فالآية تتضمن آداب العشرة .

ثم قال : « فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً » : يعنى إن وقفت في الحال عن سوء العشرة (.....)^(٢) ورجعت إلى الطاعة فلا تنتقم منها عما سلف ، ولا تمتنع من قبول عذرهما والتأني عليها .

يقال : « فلا تبغوا عليهن سبيلاً » بمجاوزتك عن مقدار ما تستوجب^(٣) من قمتك .

(١) جاءت (حشر) أى أخطأ الناس فتنقل نقطة الحاء إلى الضاد .

(٢) هنا ثلاث كلمات زائدة وضع الناسخ علامة مميزة للتنبيه على ضرورة حذفها لتكرارها بدون داع .

(٣) أى تستحق المرأة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا
حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا
إِنْ يَرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ،
إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ .

يقال لك عليها الطاعة بالبدن ، فأما المحبة والميل إليك بالقلب فذلك إلى الله ،
فلا تكلفها مالا يرزقك الله منها ، فإن القلوب بقدره الله ، يُحِبُّ إِلَيْهَا مَنْ يَشَاءُ ، وَيُبْغِضُ
إِلَيْهَا مَنْ يَشَاءُ .

ويقال « فَإِنْ أَطَعْتُمْكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا » أى لا تنسَ وفاءها فى الماضى بنادر^(١)
جفاء يبدو فى الحال فربما يعود الأمر إلى الجليل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى
وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ
ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ
بِالْجُنُبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ . إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ
كَانَ مُخْتَلًا فُخْرًا ﴾ الذين يبخلون
ويأمرؤن الناس بالبخل ويكتمون
ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا
للكافرين عَذَابًا مُهِينًا ﴾

قوله « وَاعْبُدُوا اللَّهَ » : العبودية معاقبة الأمر ومفارقة الزجر^(٢) .

« وَلَا تَشْرِكُوا » الشُّرْكُ تَجْلِيهِ اعتقادُ معبودٍ سواه ، وَخَفِيهِ : ملاحظةُ موجودٍ سواه ،

(١) لا نستبعد أنها وبما كانت فى الأصل (ببادر) والمعنى يتقبل (نادر) و (بادر) فكلاما يدل على قدر
من الحفاء لا يستحق الاهتمام ويستوجب العفو .
(٢) أى طاعة ما أمرك به وترك ما نهاك عنه .

والتوحيد أن تعرف أن الحادثات كلها حاصلة بالله ، قائمة به ، فهو مجربها ومنشئها ومبقيها ،
وليس لأحد قوة ولا شظية ولا سينة ولا شمة من الإيجاد والإبداع .

ودقائق الرياء وخفايا المصانعات وكوامن الإعجاب والعمل على رؤية الخلق ، واستحلاء
مدحهم والذبول تحت رذم وذمهم — كل ذلك من الشريك الخلقى .

قوله : « وبالوالدين » الإحسان إلى الوالدين على وجه التدرج إلى محبة فإنك أمرت
أولاً بحقوقهما لأنها من جنسك ومنهما تربيتك ، ومنهما تصل إلى استحقاق زيادتك وتتحقق
بمعرفتك . وإذا صلحت للصحبة والعشرة مع ذوى القربى والفقراء والمساكين واليتامى
ومن فى طبقتهم — رقيت عن ذلك إلى استيجاب محبته — سبحانه .

قوله : « والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب . . . الآية » من جيرانك
(. . .)^(١) فلا تؤذهما بعصيانك ، وراعى حقهما بما تولى عليهما من إحسانك .

فإذا كان جار دارك مستوجباً للإحسان إليه ومراعاة حقه فجار نفسك — وهو قلبك —
أولى بالأفضلية ولا تغفل عنه ، ولا تمكن حلول الخواطر الرديئة به .

وإذا كان جار نفسك هذا حكمة فجار قلبك — وهو روحك — أولى أن تحامى على
حقها ، ولا تمكن لما يخالفها من مساكنتها ومجاورتها . وجار روحك — وهو سرك —
أولى أن ترعى حقه ، فلا تمكنه من الغيبة عن أوطان الشهود على دوام الساعات .

قوله : « وهو معكم أينما كنتم » الإشارة منه غير ملتبسة على قلوب ذوى التحقيق .

قوله : « الذين يبخلون . . . الآية » : البخل على لسان العلم منع الواجب ، وعلى بيان
الإشارة ترك الإيثار فى زمان الاضطراب . وأمر الناس بالبخل معناه منعهم عن مطالبات
الحقائق فى معرض الشفقة عليهم بموجب الشرع ، وبيان هذا أن يقع بلسانك الانسلاخ عن
الملائق وحذف فضولات الحالة فمن نصحه بأن يقول : « ربما لا تقوى على هذا ، ولأن تكون
مع معلومك الحلال أولى بأن تصير مكدياً ، وربما تخرج إلى سؤال الناس وأن تكون كلاً على

(١) مشبهة .

المسلمين — ويرَوِي له في هذا الباب الأخبار والآثار أمثال هذا « فلولا بخله ^(١) المستكن في قلبه لأعانه بهيمته فيما يسبح لقلبه ^(٢) بَدَلْ أَنْ يَمْنَع عَنْهُ مَا (يَجِبُ أَنْ) يَقُولُ فِي مَعْرِضِ النَّصِيحَةِ . وَمِنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتُهُ أَدْرَكَهُ عَاجِلُ الْمَقْتِ حَيْثُ أَطْلَفَا شَرَّ إِرَادَةِ ذَلِكَ الْمُسْتَفْضَعِ بِمَا هُوَ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّهُ نَصِيحَةٌ وَشَفَقَةٌ فِي الشَّرْعِ .

وقوله : « وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » : إِنْ كَانَ اللَّهُ أَغْنَاهُمْ عَنْ طَلَبِ الْفَضِيلَةِ بِمَا خَوَّلَهُمْ وَأَتَاهُمْ كَتَمُوا ذَلِكَ طَمَعًا فِي الزِّيَادَةِ عَلَى غَيْرِ وَجْهِ الْإِذْنِ .
وَيُقَالُ يَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِذَا سَأَلَهُمْ مَرِيدٌ شَيْئًا عِنْدَهُمْ فِيهِ نَجَاتُهُ ، وَضَنُوا عَلَيْهِ بِإِرْشَادِهِ .

وَيُقَالُ يَخْلُ الْأَغْنِيَاءُ بِمَنْعِ النِّعْمَةِ ، وَيَخْلُ الْفُقَرَاءُ بِمَنْعِ الْهَمَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾

أَدْخَلَ هَؤُلَاءَ أَيْضًا تَحْتَ قَوْلِهِ : « إِنْ كَانَ اللَّهُ لَا يَجِبُ مِنْ كَانَ مُخْتَلًا فُخُورًا » فَعَقُوبَتُهُمْ فِي الْعَاجِلِ أَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْ جِهَةِ مُجِيبِيهِ ، وَكَفَى بِذَلِكَ مَحْنَةً .

وَالْمُخْتَالُ الَّذِي يَنْظُرُ إِلَى نَفْسِهِ وَالْمَرَاتِي الَّذِي يَنْظُرُ إِلَى أَبْنَاءِ جِنْسِهِ ، وَكِلَاهُمَا مُسَوِّمَانُ بِالشَّرْكِ الْخَفِيِّ وَاللَّهُ لَا يَجِبُ الْمُشْرِكِينَ . وَالْفُخُورُ مِنَ الْإِبْلِ كَالْمَصْرَاةِ مِنَ الْغَنَمِ وَهُوَ الَّذِي سُدَّتْ أَخْلَافُهُ لِيَجْتَمَعَ فِيهَا الدَّرُّ ^(٣) فَيَتَوَهَّمُ الْمُشْتَرِي أَنْ جَمِيعَ ذَلِكَ مَعْتَادُهَا وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، فَكَذَلِكَ الَّذِي يَرَى مِنْ نَفْسِهِ حَالًا وَرَتَبَةً وَهُوَ فِي ذَلِكَ مَدْعٍ وَهُوَ الْفُخُورُ ، وَاللَّهُ لَا يَجِبُهُ ، وَكَذَلِكَ الْمَرَاتِي الَّذِي يَنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ .

(١) حَاولَ بَعْضُهُمْ أَنْ يَصَحِّحَهَا فِي الْهَامِشِ فُطِنَ أَنَّ سَوَابِهَا (تَجَمُّلُهُ) وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا (يَخْلُهُ) .
(٢) يَسْتَعْمِلُ الْقَشِيرِيُّ الْفِعْلَ (يَسْبَحُ) لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَا يَرِدُ الْقَلْبَ مِنْ خَوَاطِرٍ قَدْ تَصَبَّحَ هَوَاجِسُ فَنَشَدَهُ نَحْوُ الْمَلَاتِقِ وَالْحَلَاتِقِ ، وَقَدْ تَسْكُونُ الْهَامَا مِنْ قَبْلِ الْحَقِّ سَبْعَانَهُ فَتَهْدِيهِ السَّبِيلَ .
(٣) الدَّرُّ = الْإِبْنُ الْغَزِيرُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم
الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان
الله بهم عليماً ﴾

ليس في إيمانهم بالله عليهم مشقة ، بل لو آمنوا وصلوا إلى عز الدنيا والآخرة ، ولا يحملهم
على الإعراض عنه إلا قلة الوفاء والحرمة .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْلِبُ مُثْقَلُ خَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ
حَسَنَةٌ يضاعفها وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

لا ينقص من ثوابهم شيئاً بل يبتدئهم — من غير استحقاقهم — بفضله ، ويضاعف
أجورهم على أعمالهم ؛ فأما الظلم فمحالٌ تقديره في وصفه لأن الخلق خلقه ، والمُلك ملكه .
والظالم من يعتدى حداً رُسيمَ له — وهو في وصفه محالٌ لعزّه في جلال قدره .

قوله جل ذكره : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ
بشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا *
يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا
الرَّسُولَ لو تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ
وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾

إذا كان الرسول — صلى الله عليه وسلم — الشهيد على أمته ، وهو الشفيع لهم ، فإنما
يشهد بما يُبغى للشفاعة موضعها .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا . . . ﴾ الآية : يحصلون على ندم ثم لا ينفعهم ،
ويعضون على أناملهم ثم لا يسكن عنهم جزعهم ، فيتقنمون بخمار الذل ، وينقلبون إلى أوطان
المحن ^(١) والضر .

(١) وردت (المحسن) والسين زيادة من الناسخ والصواب (المحن) .

قوله جل ذكره : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ
وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ
وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى
تَغْتَسِلُوا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى
سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ
أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً
فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا
بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا
غَفُورًا ۝﴾

النَّهْيُ عَنْ مَوْجِبِ السُّكْرِ مِنَ الشَّرَابِ لَا مِنَ الصَّلَاةِ ، أَيْ لَا تَصَادِفُكُمْ الصَّلَاةُ وَأَنْتُمْ
بِصِفَةِ السُّكْرِ ، أَيْ امْتَنِعُوا عَنْ شُرْبِ مَا يُسْكِرُ فَإِنَّكُمْ إِنْ شَرَبْتُمْ مَكْرَمًا ، ثُمَّ إِذَا صَادَفُكُمْ
الصَّلَاةُ عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ لَا تُقْبَلُ مِنْكُمْ صَلَاتُكُمْ .
وَالسُّكْرُ ذَهَابُ الْعَقْلِ وَالْإِسْتِشْعَارِ ، وَلَا تَصَحُّ مَعَهُ لِلنَّجَاةِ مَعَ الْحَقِّ .
الْمُصَلِّيُ يَنَاجِي رَبَّهُ ، فَكُلُّ مَا أَوْجِبَ لِلْقَلْبِ الذَّهُولُ عَنِ اللَّهِ فَهُوَ مُلْحَقٌ بِهَذَا مِنْ حَيْثُ
الْإِشَارَةُ ، وَلِأَجْلِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ حَصَلَ ، وَالسُّكْرُ عَلَى أَقْسَامٍ :
فَسُكْرٌ مِنَ الْخَمْرِ وَسُكْرٌ مِنَ الْغَفْلَةِ لَاسْتِيْلَاءِ حُبِّ الدُّنْيَا .

وَأَصْعَبُ السُّكْرِ مَسْكْرُكَ مِنْ نَفْسِكَ فَهُوَ الَّذِي يَلْقِيكَ فِي الْفِرْقَةِ عَنْهُ ، فَإِنَّ مَنْ مَسَكَ مِنَ الْخَمْرِ
فَقَصَارَاهُ الْفِرْقَةُ — إِنْ لَمْ يُفْقَرْ لَهُ . وَمَنْ سَكَرَ مِنْ نَفْسِهِ فَخَالَه الْفِرْقَةُ — فِي الْوَقْتِ — عَنِ الْحَقِيقَةِ .
فَأَمَّا السُّكْرُ الَّذِي يُشِيرُ إِلَيْهِ الْقَوْمُ ^(١) فَصَاحِبُهُ مُحْفُوظٌ عَلَيْهِ وَقْتُهُ حَتَّى يَصِلَى وَالْأَمْرُ
مُخَفَّفٌ عَلَيْهِ : (فَإِذَا خَرَجَ عَنِ الصَّلَاةِ هَجَمَ عَلَيْهِ غَالِبُهُ فَاخْتَلَفَهُ عَنْهُ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مُحْفُوظًا) ^(٢)
عَلَيْهِ أَحْكَامُ الشَّرْعِ (فَشَوْبٌ بِحِظٍّ) ^(٣) .

(١) أَيْ السُّكْرُ عِنْدَ الصُّوْفِيَّةِ .

(٢) هَذَا الَّذِي بَيْنَ قَوْسَيْنِ مُسْتَدْرِكٌ فِي هَامِشِ الصَّفْحَةِ وَضَعْنَاهُ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ النَّصِّ .

(٣) (فَشَوْبٌ بِحِظٍّ) وَضَعْنَاهُ هَاتَيْنِ اللَّفْظَتَيْنِ هُنَا مُسْتَفِيدِينَ مِنْ أَقْوَالِ الْقَشِيرِيِّ فِي مَوَاضِعٍ مُنَاطِرَةٍ =

وقوله تعالى : « ولا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ . . . الآية » : أذن للمضطر أن يترخص في عبور المسجد وهو على وصف الجنابة ، فإذا عرج زائداً على قدر الضرورة فمُعَاتَبٌ غيرُ معذور ، وكذلك فيما يحصل من معاذير الوقت في القيام بشرائط الوقت فرفوعةٌ عن صاحبه المطالبة به .

ثم إنه — سبحانه — بفضله جعل التيمم بدلاً من الطهارة بالماء عند عَوَزِ الماء كذلك النزولُ إلى ساحات الفرقِ عن ارتقاء ذرة^(١) الجمع — بِقَدَرِ ما يحصل من الضعف — بِدَلِّ لأهل الحقائق .

ثم إن التيمم — الذي هو بَدَلُ الماء — أعمُّ وجوداً من الماء ، وأقلُّ استعمالاً من الأصل ، فإن كل من كان أقرب كانت المطالبات عليه أصعب .

ثم في الظاهر أمرنا باستعمال التراب وفي الباطن باستشعار الخضوع واستدامة الذبول^(٢) . وردَّ التيمم إلى التقليل ، وراعى فيه صيانةً لرأسك عن التراب ولقدَمَكَ ؛ فإنَّ العزَّ بالمؤمن — ومولاه باستحقاق الجلال — أولى من الذلِّ لما هو مفلس فيه من الحلال ، ولئن كان إفلاسه عن أعماله يوجب له التذللُ فعرفانهُ بجلال سيِّده يوجب كلَّ تعزُّزٍ وتَجَمُّلٍ .

قوله جل ذكره ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنْ

الْكِتَابِ يَشْكُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ

أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ

بَأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى

بِاللَّهِ نَصِيرًا * مِنَ الَّذِينَ هَادُوا

يُحَوِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ

وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ

غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لِيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ

== في مصنفاته الأخرى ، وذلك نظراً لانبهام الكلمتين هنا لرداءة خط الناسخ (انظر حديث القشيري عن السكر في الرسالة ص ٤١) .

(١) ترجع أنها في الأصل (ذروة الجمع) وأن الواو قد سقطت من الناسخ .

(٢) لأن فيه تذكيراً للانسان بأصله .

وَمَعْنًا فِي الدِّينِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا
سَيِّئًا وَأَطَعْنَا وَاسْتَعِمْ وَانْظُرْنَا
لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ
لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ
إِلَّا قَلِيلًا ﴿١﴾

ومكروا مكرًا ولم يشعروا وجهة مكرم أن أعطوا الكتاب ثم حرّموا بركات الفهم
حتى حرفوا وأصرّوا .

قوله : « من الذين هادوا . . . » الآية : تركوا حشمة الرسول — صلى الله عليه وسلم —
ورفضوا حرمة ، فعوقبوا بالشك في أمره ، ولذلك لم يترك أحد حشمة (محشم)^(١) إلا حيل
بينه وبين نيل بركات محبته وزوائد خدمته . ولو أنهم عاجلوا في نفي ما دأخلهم من الحسد
وقابلوا حاله بالتبجيل والإعظام لوجدوا بركات متابعته ، فاستعدوا به في الدارين ، وكيف
لم يكونوا كذلك وقد أقصتهم السوابق فأقعدتهم القسمة عن بساط الخدمة ؟ وإن من قعدت
به الأقدار لم ينهض به الاحتيال .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا
بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ
أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى
أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ
السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾

مصرف القلوب عن الإرادة إلى أحوال أهل العادة حتى كانت دواعيه يتوفر في رفض
الدنيا فعاد لا يصبر عن جميعها^(٢) ومنعها .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرَ

(١) ترجح أن هذه الكلمة زائدة من النسخ ، أو ربما كان الأصل (حشمةٌ مُحْتَشَمٌ) .

(٢) وردت (جميعها) وهي خطأ في النسخ .

مادون ذلك لمن يشاء ، ومن
يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً *

العوام طولبوا بترك الشرك الجلي ، والخواص طولبوا بترك الشرك الخفي ، فمن توسل إليه بعمله ويظنه منه ، أو توهم أن أحكامه — سبحانه — معلولة بحركاته وسكناته ، أو راعى خلقاً أو لاحظ نفساً فوطنه الشرك عند أهل الحقائق ^(١) .

والله لا يغفر أن يُشرك به وكذلك من توهم أن مخالفته حصلت من غير تقديره فهو ملحق به .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ
بِاللَّهِ يَزْكُونَ مِنْ شَاءٍ وَلَا يُظْلَمُونَ
شَيْئاً ﴾ انظر كيف يفترون على
الله الكذب ، وكفى به إثماً
مبيناً *

من ركن إلى تزكية الناس له ، واستحلى قبول الخواص له — فضلاً عن العوام — فهو من زكى نفسه ، ورؤية النفس أعظم حجاب ، ومن توهم أنه يتكلفه يزكى نفسه : بأوراده أو اجتهاده ، بحركاته أو سكناته — فهو في غطاء جهله .

قوله : « انظر كيف يفترون . . . » الآية : الإشارة إلى من أطلق لسان الدعوى من غير تحقيق ، والمفتري — في قائلته في هذا الأمر — لا ينطق بشيء إلا أجبه الآذان وانزجرت له القلوب ، فإذا سكت عاد إلى قلب خراب .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً
مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَبْتِ
وَالطَّاغُوتِ ، وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا
هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا

(١) يقول زكريا الأنصاري شارح الرسالة : (من كانت أفعاله لله تعالى وشاهدتها طاعة له تعالى فهو في التفرقة ومن شاهدتها جارية عليه فضلاً من الله فقد شاهدتها بالله فهو في الجمع) هامش (٣٩) .

سبيلاً * أولئك الذين لَعَنَهُمُ اللهُ ،
وَمَنْ يَلْعَنُ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ
نَصيراً ﴿

طاغوتُ كُلِّ أَحَدِ نَفْسُهُ وهواه وَجِبْتُهُ و (. . . .) (١) مفصوده من الأغيار ، فمن
لاحظ شخصاً أو طالع سبياً أو عرجَ على عِلَّةٍ أو أطاع هوىً ، فذلك جِبْتُهُ و طاغوته . وأصحاب
الجبب و الطاغوت يستوجبون اللعن ؛ وهو الطرد عن بساط العبودية ، والحجاب عن
شهود الربوبية .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ لَمْ نَصِيبْ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا
لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا * أَمْ
يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ
مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا
عَظِيمًا * فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ
مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكُفِيَ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿

مَنْ جُبِلَ عَلَى الشُّحِّ لَا يَزْدَادُ بِسَعَةِ يَدِهِ إِلَّا تَأْسَفًا عَلَى رَاحَةٍ يَنَالُهَا الْخَلْقُ ، كَأَنَّ مَنْ شَرِبَ
قَطْرَةَ مَاءٍ قَدْ تَحَسَّى بِلِ رَشَفٍ مِنْ مَاءِ حَيَاتِهِ !

قوله : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ » : بل ينكرون تخصيص الحق سبحانه لأوليائه
بما يشاء حسداً من عند أنفسهم فلا يقابلونهم بالإجلال ، وَبِئْسَ اللهُ سبحانه مع أوليائه مضت
بالتعزير والتوقير لهم . ودأبُ الكافرين جرى بالارتباب في القدرة ؛ فمنهم من آمن بهم ،
ومنهم من ردَّ ذلك وجحد ، وكفى بعقوبة الله منتقماً عنهم .

قوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا » : الْمُلْكُ العظيم معرفة الْمَلِكِ ، ويقال هو الْمُلْكُ
على النَّفس .

(١) مشتبهة .

ويقال الإشراف على أسرار المملكة حتى لا يخفى عليه شيء .

ويقال الاطلاع على أسرار الخلق .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ

نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ

بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا

العَذَابَ * إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا

حَكِيمًا ﴾

الإشارة منه إلى الجاحدين لآيات الأولياء ؛ يُقيمهم بوصف الصغار ويبقيهم في وحشة

الإنكار^(١) ؛ كلاً لاح لقلوبهم شيء من هذه القصة^(٢) جرّهم إنكارهم إلى ترك الإيمان بها

والإضرار بأهلها على وجه الاستبعاد ، فهم مؤبدة عقوبتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَمْ يَكُنْ فِيهَا

أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا

ظَلِيلًا ﴾

هم اليوم في ظل الرعاية ، وغداً في ظل الحماية والكفاية ، بل هم في الدنيا والعقبى

في ظل العناية .

والناس في هذه الدنيا متفاوتون : فمنهم من هو في ظل رحمته ، ومنهم من هو

في ظل رعايته ، ومنهم من هو في ظل كرامته ، ومنهم من هو في ظل عنايته ، ومنهم من

هو في ظل قربته .

(١) وردت (الأفكار) بالفاء والصواب — حسب المعنى والسياق — وكما جاء بعد قليل في (وجرم إنكارهم) أن تكون (الإنكار) .

(٢) يقصد من (القصة) : التصوف وأهله .

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا
الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ
بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ *
إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾

ردُّ الأمانات إلى أهلها تسليم أموال^(١) الخلق لهم بعد إشرافك عليها بحيث
لا تفسد عليهم .

ويقال لله — سبحانه وتعالى — أماناتٌ وُضِعَتْ عِنْدَكَ ؛ فردُّ الأمانة إلى أهلها
تسليمها إلى الله — سبحانه — سالمةٌ مِنْ خِيَانَتِكَ فِيهَا ؛ فالخيانة في أمانة القلب ادعاؤك
فيها ، والخيانة في أمانة السرِّ ملاحظتك إياها .

والْحُكْمُ بَيْنَ النَّاسِ بِالْعَدْلِ تَسْوِيَةُ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ فِي الْعَطَاءِ وَالْبَذْلِ ، وَأَلَّا تَحْمِلَكَ مَخَافَةُ
حَقِّهِ عَلَى انتقامِ لِنَفْسٍ .

قوله جل ذكره : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ
فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى
اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ
تَأْوِيلًا﴾ .

قَرَنَ طَاعَتَهُ بِطَاعَةِ الرَّسُولِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — تَفْخِيمًا لَشَأْنِهِ وَرَفْعًا لِقَدْرِهِ .
وَأَمَّا أُولُو الْأَمْرِ — فَعَلَى لِسَانِ الْعِلْمِ — السُّلْطَانُ ، وَعَلَى بَيَانِ الْمَعْرِفَةِ الْعَارِفُ ذُو الْأَمْرِ
عَلَى الْمُسْتَأْنَفِ ، وَالشَّيْخُ أُولُو الْأَمْرِ عَلَى الْمُرِيدِ ، وَإِمَامُ كُلِّ طَائِفَةٍ ذُو الْأَمْرِ عَلَيْهِمْ .

(١) وردت (أحوال) والصواب أنها (أموال) لأن الأحوال لا تكون ودائع للناس عندك بل أموالهم

ويقال الولي أولى بالمريد (من المريد) ^(١) للمريد .

قوله : « فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله » على لسان العلم — إلى الكتاب والسنة ، وعلى بيان التوحيد فوض ذلك ووكلَ علمه إلى الله سبحانه ، وإذا اختلف الخاطران في قلب المؤمن فإن كان له اجتهد العلماء تأمل ما يسنح لخاطره بإشارة فهمه ، ومن كان صاحب قلب ووكلَ ذلك إلى الحق — سبحانه — وراعى ما خوطب به في سرائره ، وألقى — بلا واسطة ^(٢) — في قلبه .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ .

أظهروا الإخلاص ، وناققوا في السر ، ففضحهم — سبحانه — على لسان جبريل عليه السلام بقوله : « يريدون أن يتحاكوا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به » أى برفضه . فمن حاد عن طريقه ورجع إلى غير أستاذه استوجب الحرمان والدم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَى مَا أُنْزِلَ اللَّهُ إِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴾ .

كل شئ سوى كلمة الحق فهو خفيف على المنافقين ، فأما التوحيد فلا يسمع كلمته إلا مخلص ، وأهل الفترة في الله وأصحاب النفرة لا يسمعون ما هو الحق ؛ لأن خلاف الهوى يشق على غير الصديقين . وكما أن ناظر الخلق ^(٣) لا يقوى على مقابلة الشمس فكذلك

(١) هذا استدراك موجود في هامش الصفحة أثبتناه في موضعه من النص .

(٢) تأمل جيدا (بلا واسطة) فهذا وصف هام للمعرفة عند الصوفية ، يميزها ويكشف جوهرها .

(٣) أى العين .

المنافقون لم يطبقوا الثبات له — صلى الله عليه وسلم — فلذلك كان صدودهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فكيف إذا أصابهم مُصِيبَةٌ بما

قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ ثُمَّ جَاءُوكَ بِحِلْفُونَ

بِاللهِ إِنَّ أَرْضَنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ۝ ﴾ .

تَضَرَّعُ غير المخلص عند هجوم الضر^(١) لا أصل له ، فلا ينبغي أن يكون به اعتبار لأن

بقاءه إلى زوال المحنة ، والمصيبة العظمى ترك المبالاة (بما يحصل من التقصير)^(٢) .

ويقال من المصيبة أن يمحّك وقتك فيما لا يجدى عليك^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم

فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَعَظَّمَ قُلُوبَهُمْ لَمْ يَفْهَمُوا

أَنفُسَهُمْ قَوْلًا بَلِيغًا ۝ ﴾ .

أَبْطَأَ لَمْ لِسَانَ الْوَعْظِ بِمَقْتَضَى الشُّقَّةِ عَلَيْهِمْ ، ولكن انْقِصُصْ بقلبك عن المبالاة بهم

والسكون إليهم ، واعلم^(٤) أن من لا نكون نحن له لا يفي عنه أن تعينه^(٥) شيئاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أَرْسَلْنَا مِنْ رِسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ

اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ

فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ

لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ۝ ﴾ .

ما أَمَرْنَا الرِّسْلَ إِلَّا بِدَعْوَةِ الْخَلْقِ إِلَيْنَا .

(١) وردت (الضرورة) والصواب (الضر) فالمعنى يقتضى ذلك ويؤيد أن الخطأ في النسخ .

(٢) ما بين قوسين تسكلة وجدناها ضرورة لتوضيح المعنى فاستفدنا مما جاء في موقف مشابه في الرسالة

من ٣٤ حيث يقول (وترك المبالاة بما يحصل منك من التقصير خروج عن الدين) .

(٣) من أقوالهم في الوقت : الوقت مبرد يسحقك ولا يمحّك ، والوقت سيف فكما أن السيف قاطع

فلوقت بما يعضبه الحق ويجره غالب .

(٤) وردت (ما علم) وهي خطأ في النسخ ، وربما كانت (فاعلم) في الأصل واشتبهت على الناسخ .

(٥) (أن تعينه) المصدر المؤول من ان والفعل (أى عونك له) يقع فاعلا للفعل (يفي) .

وقوله : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك » . لو جعلوك ذريعتهم لوصلوا إلينا ، ويقال
لو لازموا التذلل والافتقار وركبوا مطية الاستغفار لأناخوا بعقوة المبار .

قوله جل ذكره : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك

فيما شجرَ بينهم ثم لا يجدوا في
أنفسهم حرجاً مما قضيت ،
ويسلكوا تسليماً ﴾ .

سدَّ الطريق — إلى نفسه — على الكفاة إلا بعد الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ،
فمن لم يمش تحت رايته فليس له من الله نفس .

ثم جعل من شرط الإيمان زوال المعارضات بالكلية بقلبك .

قوله : « ثم لا يجدوا . . . » : فلا بُدَّ لك من (. . .)^(١) تلك المهالك بوجه ضاحك ،
كما قال بعضهم :

وحبيب إن لم يكن منصفاً كنت منصفاً أتحمسى له الأمر وأسقيه ما صفا
إن يقل لي إن شقَّ اخترتُ رضا لا تكلفاً .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ

أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه
إلا قليلٌ منهم ، ولو أنهم فعلوا
ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدَّ
تثيتاً * وإذا لا تينا من لدنا أجرٌ
عظيماً * ولهديناهم صراطاً مستقيماً ﴾

أخبر عن سُقم إخلاصهم وقوة إفلاسهم ، ثم أخبر الله بعلمه بتقصيرهم .

خلام عن كثير من الامتحانات ثم قال ولو أنهم جنحوا إلى الخدمة، وشدوا نطاق الطاعة

(١) هنا كلمة ناقصة ربما كانت (مواجهة) أو (مقابلة) تلك المهالك بوجه ضاحك .

لكن ذلك خيراً لهم من إصرارهم على كفرهم واستكبارهم . ولو أنهم فعلوا ذلك لآتيناهم من عندنا ثواباً عظيماً ، ولأرشدناهم صراطاً مستقيماً ولأوليناهم عطاءً مقبلاً .

والأمر — على بيان الإشارة — يرجع إلى مخالفة الهوى وذبح النفوس بمنعها عن المألوفات ، والخروج من ديار (تَقْبِلُ النَّفْسُ)^(١) ، ومفارقة أوطان (إرادة)^(٢) الدنيا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ

مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين
والصديقين والشهداء والصالحين
وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ
من الله وكفى بالله عليماً ﴾

جعل طاعة المصطفى — صلى الله عليه وسلم — مفتاح الوصول إلى مقامات النبيين
والصديقين والشهداء على الوجه الذي يصح للأمة وكفى له عليه السلام بذلك شرفاً .

ثم قال : « ذلك الفضل من الله » : جرد عليهم محلهم عن كل علة واستحقاق وسبب ؛
فإن ملاح لهم وأصابهم صرف فضله وابتداء كرمه .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خذُوا حِذْرَكُمْ

فَإِنْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ وَفِرُوا جَمِيعًا *
وإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُبَدِّلَنَّهُ فَاِنْ أَصَابَكُمْ
مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ
مَعَهُمْ شُهَدَاءَ * وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ
مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَأْلَتْنِي كُنْتُ مَعَهُمْ
فَأَفُوزُ فَوْزًا عَظِيمًا *

(١) وضع الناسخ (تقبل النفس) في مكان خاطيء . يهيم المعنى إذ وضعها قبل (على بيان الإشارة)
والصواب أن تكون في مكانها الذي اخترناه حتى يستقيم السياق .

(٢) وودت (اراد) بدون همز للألف وبدون ناء مربوطة فاخترنا (إرادة) للاءمتها للسباق .

الفرار إلى الله من صفات القاصدين ، والفرار مع الله من صفات الواصلين ؛ فلا يجد الفرار مع الله إلا من صدق في الفرار إلى الله . والفرار من كل غير شأن كل مؤحد .
قوله تعالى : « وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِبَطْنٍ ... » الآية : أى لم تستقر عقائدهم على وصف واحد ، فكانوا مرتبطين بالخطوط ؛ فإذا رأوا مكروهاً بطل المسلمين شكروا وقالوا : الحمد لله الذى حفظنا من متابعتهم فكان يصيبنا ما أصابهم ، وإن كانت لكم نعمة وخير سكنوا إليكم ، وتمنوا أن لو كانوا معكم ، خسروا فى الدنيا والآخرة : فهم لا كافر قبيح ولا مؤمن مخلص .

قوله : « كَانَ لَمْ نَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ » : يعنى طرحوا حشمة الحياة فلم يراعوا حرمتكم .
قوله جل ذكره : ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ، وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

مَنْ لَمْ يَقْتُلْ نَفْسَهُ فِي نَفْسِهِ لَا يَصِحُّ جِهَادُهُ بِنَفْسِهِ ؛ فأولا (إخراج خطر الروح) ^(١) من القلب ثم تسليم النفس للقتل .

وقوله « فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » يعنى بقاؤنا بعده خير له من حياته بنفسه لنفسه ، قال قائلهم :

ألست لى عوضاً منى ؟ كفى شراً فما وراءك لى قصدٌ ومطلوب

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾

(١) هكذا فى النسخة (ص) وربما كان المقصود أنك لا تستطيع أن تبذل نفسك إلا إذا قويت على قهرها والتهوين من خطرهما .

أى شىء يمنعكم عن القتال فى سبيل الله ؟ وما الذى لا يرغّبكم فى بذل للمهجة (١) لله ؟ وماذا عليكم لو بذلتم أرواحكم فى الله والله ؟ أتخافون أن نخسروا على الله ؟ أم لا تعلمون أنكم تُحسرون إلى الله ؟ فلم لا تكتفون ببقائه بعد فنائكم فى الله ؟

قوله جل ذكره : ﴿ والذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾

المخلصون لله لا يؤثرون شيئاً على الله ، ولا يضمنون بشىء عن الله ، فهم أبدأ على نفوسهم لأجل الله ، والذين كفروا على العكس من أحوال المؤمنين . ثم قوامهم وشجعهم بقوله : « فقاتلوا أولياء الشيطان » أى لا تُضمرُوا لم مخافة ، فإنى متوليكم وكافيكم على أعدائكم .

قوله جل ذكره : ﴿ ألم تر إلى الذين قبل لهم كُفُوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصلوة وآتُوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ﴾

أخرجوا أيديكم عن أموركم ، وكلوها إلى معبودكم .

ويقال اقصروها عن أخذ الحرام والنصرف فيه .

ويقال امتنعوا عن الشهوات .

ويقال « كفوا أيديكم » إلا عن رَفْعِها إلى الله فى السؤال بوصف الابتهاال .

(١) وردت (المهجة) بالحاء وهذا خطأ فى النسخ وصوابها (المهجة) لملأمتها للسياق .

فلما كتب عليهم القتال استنقلوا أمره ، واستعجلوا لطفه . والعبودية في ترك الاستئصال ،
ونفي الاستعجال ، والتباعد عن التبرم والاستئصال .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ

خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾

مَكَّنَكَ مِنَ الدُّنْيَا ثُمَّ قَالَ : « قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ » ، فلم يعدّها شيئاً لك ثم لو تصدّقتَ منها
بِشَقِّ تَمْرَةٍ لَتَخَلَّصْتَ مِنَ النَّارِ ، وحظيت بالجنة ، وهذا غاية الكرم .

واستقلال الكثير من نفسك — لأجل حبيبك — أقوى أمارات مُحِبِّكَ .

ويقال لما زهدّهم في الدنيا قلّلها في أعينهم ليهون (عليها ^(١)) تركها .

ويقال قل متاع الدنيا بجملتها قليل ، والذي هو نصيبك منها أقلُّ من القليل ، فحق
يناقشك لأجلها (بالتحليل) ^(٢) ، لو سلّم عهدك من التبديل ؟

وإذا كانت قيمة الدنيا قليلة فأخس من الخسيس من رضى بالخسيس بدلاً عن النفيس .

وقد اختلف المؤمن من الكون بالتدرّج . فقال أولاً : « قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ

خَيْرٌ » (فأحفظهم) ^(٣) عن الدنيا بالعقبى ، ثم سلّمهم عن الكونين بقوله : « وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى » .

قوله جل ذكره : ﴿ أَيُّهَا تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ

وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بَرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ، وَإِنْ

تُصِيبُهُمْ حَسَفَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ

عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا

هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

فَمَا لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادِبُونَ

بِفَقْهِهِمْ حَدِيثًا ﴾

(١) الضمير في (عليها) يعود على أعينهم ، وربما كانت في الأصل (عليهم) فيعود الضمير على الزهاد .

(٢) ترجح أنها في الأصل (التحليل) إشارة إلى قوله (ص) حلالها حساب وحرامها عقاب .

(٣) ترجح أنها في الأصل (فاختطفهم) عن الدنيا بالعقبى ثم سلّمهم . . . فهذا أقرب إلى مراحل تدرّج
الفناء الصوفي .

للموت فرح للمؤمن ، فالتعبير عن قُرْبِهِ بِشَارَةٍ لَهُ ، لأنه سببٌ يوصله إلى الحق ، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه .

ويقال إذا كان الموت لا بد منه فلا استسلام لحكمه طوعاً خيراً من أن يحمل كرها .

ثم أخبر أنهم — لضعفِ بصرهم ومرض عقائدهم — إذا أصابهم حسنةٌ فرحوا بها ، وأظهروا الشكر ، وإن أصابهم سيئة لم يهتدوا إلى الله فجري فيهم العرق المجوسي^(١) فأضافوه^(٢) إلى المخلوق ، فرد عليهم وقال : قل لم يا محمد كل من عند الله خلقاً وإبداعاً ، وإنشاء واختراعاً ، وتقديراً وتيسيراً .

قوله جل ذكره : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾

ما أصابك من حسنة فمن الله فضلاً ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك كسباً وكلاهما من الله سبحانه خلقاً^(٣)

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا ﴾

هذه الآية تشير إلى الجمع لحال الرسول — صلى الله عليه وسلم — فقال سبحانه طاعته طاعتنا ، فمن تقرب منه تقرب منا ، ومقبوله مقبولنا ، ومردوده مردودنا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ

(١) لعل القسري يقصد بذلك إلى أنهم بنسبتهم شيئاً لغير الله يشركون ، ويتأولون عن التوحيد .

(٢) أخطأ الناسخ فنقلها (فأذاقوه) فصور بناها بما يلائم السياق .

(٣) هذا تلخيص دقيق لرأى القسري فيها يصيب العباد .

عندك بَيَّتَ طائفةٌ منهم غير الذي
تقولُ ، والله يكتب ما يُبَيِّتُونَ ،
فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ،
وَكُنْ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١﴾

يعنى إذا حضروك ^(١) استسلموا في مشاهدتك ، فإذا خرجوا انقطع عنهم نور إقبالك ،
فمادوا إلى ظلمات ، كما قالوا :

إذا ارعوى عاد إلى جهله كذى الضنى عاد إلى نكسة

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ
عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا
كَثِيرًا ﴾ وإذا جاءهم أمرٌ من الأمن
أو الخوف أذاعوا به ولو ردُّوه
إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم
لَعَلَّهِ الَّذِينَ يَسْتَبِطُونَهُ مِنْهُمْ ،
وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ
لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾

تدبيرُ إشارة المعاني بغوص الأفكار ، واستخراجُ جواهر المعاني بدقائق الاستنباط .

قوله : « وإذا جاءهم أمرٌ . . . » : لما كانوا غافلين عن الحق لم يكن لهم من ينقل إليه
أسرارهم فأظهروا السرَّ بعضهم لبعض . فأما المؤمنون فعالمُ أسرارهم مولاهم ، وما يسنح لهم
خاطبُوه فيه فلم يحتاجوا إلى إذاعة السرِّ لمخلوق ؛ فسامعُ نجواهم الله ، وعالمُ خطابهم الله .

قوله تعالى : « ولو ردُّوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم . . . » أى لو بثوا ^(٢)

(١) أخطأ الناسخ فنقلها (حفروك) فصوبناها بما يلائم السياق .

(٢) كتبها الناسخ (بثوا) فصوبناها بما يلائم السياق : (بثوا أسرارهم) .

أسرارهم عند من هو (. . .)^(١) ومن هو من أهل القصد لأزالوا عنهم الإشكال ، وأمدوم بنور الهداية والإرشاد^(٢) .

« ولولا فضل الله » مع أوليائه لهموا في كل وادٍ من التفرقة كأشكالهم في الوقت .
قوله جل ذكره : ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾

إِسْتَقِيمَ معنا بتسليم الكل منك إلى أمرنا ؛ فإنك — كما لا يقارنك أحدٌ في رتبك لعلوك على الكل — فنحن لا نكلف غيرك بمثل ما تكلفت ، ولا نُحْمِلُ غيرك ما نَحْمِلُ لا نفرادك عن أشكالك في القدوة^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا ، وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا ﴾

الشفيع يخلص المشفوع له خاله . ويستوجب الشفيع — من الله سبحانه على شفاعته — عظيم الرتبة ، ومن سعى في أمرنا بالفساد نُحْمِلُ الوزرَ واحتقبت الآثم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِنَحِيَةٍ فَمُجِبُوا بِأَحْسَنَ

(١) مشقة ، وما بعدها قد يكفي عنها .

(٢) في هذا الخصوص بحث القشوي في إحدى وصاياه على ألا يفضي المرید بذات نفسه إلا لأواب الطريقة من الشيوخ ؛ إذ يقبح بالمريد أن ينتسب إلى مذهب غير هذه الطريقة . فحجج أهلها — في مسائلهم — أظهر من حجج كل أحد ، وقواعد مذاهبهم أقوى من قواعد كل مذهب ، والذي للناس غيب فهو لهم ظهور فهم من أهل الوصال ، والناس أهل استدلال الرسالة ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٣) لا نستبعد أيضاً أنها في الأصل (القدرة) لتلائم التكليف والتحمل ؛ والمعنى يتحمل (القدوة) و (القدرة) .

منها أوردوها إن الله كان على كل
شئ حسيباً *

تعليم لهم حسن العشرة وآداب الصحبة . وإن من حملك فضلاً صار ذلك — في ذمتك —
له قرضاً ، فأما زدت على فعله وإلا فلا تنقص عن مثله .

قوله جل ذكره : ﴿ الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم
القيامة لا ريب فيه ومن أصدق
من الله حديثاً ﴾

هذا الخطاب يتضمن نفياً وإثباتاً ، فالنفي يعود إلى الأغيار ويستحيل لغيره ما نفاه ،
والإثبات له بالإلهية ويستحيل له النفي فيما أثبتته .

قوله جل ذكره : ﴿ فما لكم في المناقين فيتنين والله
أرؤسهم بما كسبوا أثر يدون
أن تهتدوا من أضل الله ، ومن
يضل الله فلن نجد له سبيلاً ﴾

(. . . .) (١) العهد فيهم أنهم أعدائي ، لا ينالون مني في الدنيا والعقبى رضائي ، وإنكم
لا تنقذون بهمكم من أقمته بقسمتي (٢) فإن المدار على القسم دون (. . . .) (٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ وادّوا لو تكفرون كما كفروا
فكونون سوءاً فلا تتخذوا منهم
أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله
فإن تولوا فخذوهم واقتلوا حيث
وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً
ولا نصيراً * إلا الذين يصلون

(١) مشبهة .

(٢) أي ما قسمته له في سابق الأزال لا قدرة للمخلوق على تغييره .

(٣) سقطت كلمة من الناسخ ربما كانت (الاحتيال) وربما كانت (الهمم) فكلاماً يفيد أنه لا منجاة
لإنسان بعمله وحده بل المدار على القسمة .

إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق
أو جاءوكم حصرت صدورهم أن
يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء
الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن
اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم
السلم فما جعل الله لكم عليهم
سبيلاً ﴿

الإشارة إلى أرباب التخليط والأحوال السقيمة يتمنون أن يكون الصديقون منهم ،
وهيات أن يكون لئناهم تحقيق ١ ومادام المخالفون لكم غير موافقين فبائنوهم وخالفوهم
ولا تطابقوهم بحال ، ولا تعاشرهم ، ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً ؛ وموافقك لك
في قصدك خير لك من مخالف على الكره تعاشره .

قوله : « إلا الذين يصلون إلى قوم . . . » الإشارة من هذه الآية أن عند الاعتذار
أذن في معاشره في الظاهر ^(١) رفقاً بالمستضعفين .

« فإن اعتزلوكم . . » الإشارة منه أنه إذا عاشركم من ليس من أهل القصة معرجين
في أوطان نصيبهم فلا تدعوهم إلى طريقكم وسلّموا لهم أحوالهم . فإن أمكنكم أن تلاحظوهم
بعين الرحمة بحيث تؤثر فيهم همتكم ^(٢) وإلا فسلّموا لهم أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ستجدون آخرين يريدون أن
يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلّا رُدُّوا
إلى الفتنّة أَرَأَيْتُمْ كَيْسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ
يَعْتَزِلُوا بِكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا
أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ

(١) أي أن الصحبة والمعاشره ينبغي ألا يصل أمرها إلى حد المساكنة ، لأن صحبة الحق أولى من كل
غير . . . وهذا ميّداً نادى به القشيري وطبقه على نفسه إبان محنته الأليمه .
(٢) وردت (همتهم) وهي خطأ من الناسخ لأن المعنى يتطلب (همتكم)

تَقِفُسُوهُمْ وَأُولِئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ
عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١﴾

إن من وام الجمع بين الضدين خاب سعيه ، ولم يرتفع عزمه ، فكما لا يكون شخص واحد منافقاً ومسلماً لا يكون شخص واحد مريداً للحق ومقياً على أحكام أهل العادة . فإن الإرادة والعادة ضدان^(١) ، والواجب مباينة الأضداد ، ومجانبة الأجانب .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا
إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً
فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ
إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ
مِنْ قَوْمٍ عَدُوٌّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ
قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ
مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ
فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ
تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

خفف أمر الخطأ على فاعله حتى حُلَّ موجب قتل الخطأ على العاقلة ؛ فالخواص عاقلة
المستضعفين من الأمة ، وأهل المعرفة عاقلة المريرين ، والشيوخ عاقلة الفقراء ؛ فسبيلهم أن
يُحِيلُوا أَثْقَالَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِيهَا يَنْوِيهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ
جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ
وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ .

كما يُحَرِّمُ قَتْلُ غَيْرِكَ عَلَيْكَ يُحَرِّمُ قَتْلُ نَفْسِكَ عَلَيْكَ ، وَمَنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ سَعَى فِي دَمِ
نَفْسِهِ ، وَمَنْ لَمْ يَنْصَحْ مَرِيدًا بِحَسَنِ وَعَظِهِ وَلَمْ يُعِنِهِ بِهَمَّتِهِ فَقَدْ سَعَى فِي دَمِهِ ، وَهُوَ مَاخُذٌ بِحَالِهِ

(١) الناس — عند القشيري — إما أهل العادة أو أهل الإرادة .

وخلق^(١) بأن تكون له عقوبة الأذية بالألا يتمتع بما ضنّ به على المریدین من أحواله : ولقد قال — سبحانه — : يادّود إذا رأيت لی طالباً فكن له (خادماً)^(٢)

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا^(٣) إذا ضربتم في سبيل الله فتبَيَّنُوا ولا تقولوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لستَ مؤمناً تبغون عرضَ الحياة الدنيا فعندَ الله مغانمٌ كثيرة ، كذلك كنتم مِن قبل فَمَنْ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبيراً ﴾ .

عاشِرُوا الناسَ على ما يُظهِرون من أحوالهم ، ولا تتفرَّسوا فيهم بالبطلان ؛ فإنَّ متَّوَلَّى الأسرارِ اللهُ^(٤) . هذا إذا كان غرضٌ فاسدٌ يحملكم عليه من أحكام النفس ، فأما من كان نظره بالله ولم ينسِرْ عليه شيءٌ ، فليحفظ سِرَّ الله فيما كُشِفَ به ، ولا يظهر لصاحبه ما أراد الله فيه .

قوله جل ذكره : ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غيرُ أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضلُ الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلاً وَعَدَ اللهُ الحسنى ، وفضلَ اللهُ المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴾ درجاتٍ

(١) وردت (وحقيقة بأن) وصوابها وحقيق بان ولكنا آثرنا (وخلق بأن) حتى يتمتع اللبس .

(٢) مشبهة هنا ولكنها واضحة في موضع سبق (انظر تفسير آية وأنبتها نباتاً حسناً ص ٢٢٧)

(٣) سقطت (آمنوا) من الناسخ فأثبتناها .

(٤) تدل هذه النظرة على ساحة الصوفية واتساع صدورهم ، فالأصل عندهم أن كل الناس طيبون ، ويجب أن نحسن الظن بهم جميعاً ، ونتقبل ظواهرهم ناركين أسرارهم للمولى سبحانه .

منه وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ
غَفُورًا رَحِيمًا * .

الحقُّ سبحانه جمع جميع أوليائه في أفضاله لكنه غَايَرَ بينهم في الدرجات ، فَمِنْ غَفِيٍّ
ومن عبدٍ هو أغنى منه ^(١) ، ومنٌ كبيرٍ ومن هو أكبر منه ، هذه الكواكب دُرِّيَّةٌ ولكن
القمرَ فوقها ، وإذا طلعت الشمسُ بهرت الجميع بنورها ١

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي
أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا
مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ
تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا
فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ
مَصِيرًا * .

الإشارة منه إلى من أدركه الأجل وهو في أسرِ نفسه وفي رِقِّ شهواته — ليس له عذر
حيث لم يهاجر إلى ظلِّ قربته ليتخلصَ مِنْ هوى نفسه ^(٢) إذ لا حجابَ بينك وبين هذا
الحديث إلا هواك .

قوله جل ذكره : ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ
وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ
سَبِيلًا * فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ
عَنَّهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا * .

الإشارة منه إلى الذين مَلَكَتْهُمُ المعاني فأفنتهم عنهم ، فَبَقُوا مُضْرِّفِينَ لَهُ ، لا لهم حَوْلٌ
ولا قوة ، يبدو عليهم ما يُجْرِيه — سبحانه — عليهم ، فهم بعد عود نفوسهم بحق الحق يحوُّ
عَنَّهُمْ ، فلا يهتدون إلى غيره سبيلاً ، ولا يتنقَّسون لغيره نفساً .

(١) واضح أن القشيري يقصد الغنى في الأحوال لا الغنى في الأموال فليس لهذه كبير قيمة .

(٢) وردت هكذا (هو انقسه) فصوبناها .

ويقال على موجب ظاهر الآية إن الذين أقعدتهم الأعذار عن الاختيار فمضى أن يفضل الحق — سبحانه — عليهم بالعفو .

قوله جل ذكره : ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَآغًا كَثِيرًا وَسَعَةً ، وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

مَنْ هَاجَرَ فِي اللَّهِ عَمَّا سِوَى اللَّهِ ، وَصَحَّ قَصْدُهُ إِلَى اللَّهِ وَجَدَ فَسْحَةً فِي عَفْوَةِ الْكَرَمِ ، وَمَقِيلًا فِي ذَرَى الْقَبُولِ ، وَحَيَاةً وَسَعَةً فِي كَنَفِ الْقَرَبِ .

والمهاجر — في الحقيقة — من هجر نفسه وهواه ، ولا يصح ذلك إلا بانسلاخه عن جميع مراداته ، وَمَنْ قَصَدَهُ ثُمَّ أَدْرَكَهُ الْأَجَلُ قَبْلَ وَصُولِهِ فَلَا يَنْزِلُ إِلَّا بِسَاحَاتِ وَصْلِهِ ، وَلَا يَكُونُ مُحِطًا رُوحَهُ إِلَّا أَوْطَانُ قَرْبِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾

الْقَصْرُ فِي الصَّلَاةِ سُنَّةٌ فِي السَّفَرِ ، وَكَانَ فِي ابْتِدَاءِ الشَّرْعِ عِنْدَ الْخُوفِ (١) ، فَأَقْرَبَ ذَلِكَ مَعَ زَوَالِ الْخُوفِ رَفَقًا بِالْعِبَادِ ، فَلَمَّا دَخَلَ الْفَرْصُ الْقَصْرُ لِأَجْلِ السَّفَرِ عَوَضُوا بِإِبَاحَةِ النَّفْلِ فِي السَّفَرِ عَلَى الرَّاحِلَةِ أَيْنَمَا تَوَجَّهَتْ بِهِ دَابَّتُهُ مِنْ غَيْرِ اسْتِقْبَالٍ ، فَكَذَلِكَ الْمَاشِي ؛ لِيَعْلَمَ أَنَّ الْإِذْنَ

(١) لَأَنَّ فِي مَبْدَأِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ الْهَجْرَةِ كَانَ غَالِبُ أَسْفَارِهِمْ خُوفًا . بَلْ مَا كَانُوا يَنْهَضُونَ إِلَّا إِلَى غَزْوٍ أَوْ فِي سَرِيَةٍ خَاصَةٍ ، وَسَائِرُ الْأَحْيَانِ حَرْبٌ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ . . . وَيُرَى أَنَّ عَمْرَ بْنَ أَنَسٍ هُنَاكَ فَرَقًا بَيْنَ صَلَاةِ السَّفَرِ وَصَلَاةِ الْخُوفِ ، وَهُوَ يَحْتَجُّ عَلَى قَصْرِ الصَّلَاةِ فِي السَّفَرِ وَيَرَاهُ فِي صَلَاةِ الْخُوفِ .
(تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٥٤٦) لابن كثير .

في المناجاة مستديمٌ في كل وقت ؛ فإن أردتَ الدخولَ فتي شئت ، وإن أردتَ التباعدَ مترخصاً
فلك ما شئت ، وهذا غاية الكرم ، وحفظ سُنَّة الوفاء ، وتحقيق معنى الولاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقِمْ لَهُمُ الصَّلَاةَ
فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا
أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا
مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى
لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا
حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ، وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ
فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ،
وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى
مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا
أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ
أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾

تدل هذه الآية على أن الصلاة لا ترتفع عن العبد ما دام فيه نفسٌ من الاختيار لا في الخوف
ولا في الأمن ، ولا عند غلبات أحكام الشرع إذا كنت بوصف التفرقة ، ولا عند استيلاء
سلطان الحقيقة إذا كنت بعين الجمع :

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا
وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ
فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾

الوظائف الظاهرة موقته^(١) ، وحضور القلب بالذكر سرمد غير منقطع ؛ أمّا بالرسوم

(١) أي حسب ميقات .

فوقنا دون وقت ، وأما بالقلوب فأياكم والقيبة عن الحقيقة لحظة كيفما اختلفت بكم الأحوال ..
الذكرُ كيفما كنتم وكما كنتم ، وأما الصلاةُ فإذا اطمأنتم .

قوله جل ذكره : « ولا تنهوا في ابتغاء القوم . إن
تكونوا تآلمون فإنهم يآلمون كما
تآلمون وترجون من الله ما لا يرجون
وكان الله عليماً حكيماً » :

قوموا بالله وليكن^(١) استنادكم في جهادكم إلى الله .

« إن تكونوا تآلمون فإنهم يآلمون » : القومُ شاركوكم في إحساس الألم ، ولكن خالفوكم
في شهود القلب ، وأنتم تشهدون ما لا يشهدون ، وتجدون لقلوبكم ما لا يجدون ، فلا ينبغي
أن تستأخروا عنهم في الجد والجهد .

قوله جل ذكره : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق
لنحكم بين الناس بما أراك الله
ولا تكن للخائنين خصيماً *
واستغفر^(٢) الله إن الله كان غفوراً
رحيماً » .

لم يأمر^(٣) بالحكم بينهم على عني ولكن بما أراك الله^(٤) أي كاشفك به من أنوار
البصيرة حتى وقفت عليه بتعريفنا إياك وتسديدنا لك ، وكذلك من يحكم بالحق من أمتك .
قوله : « ولا تكن للخائنين خصيماً » : أي لا تناضل عن أرباب الحظوظ ولكن مع

(١) أخطأ الناسخ إذ كتبها (ولا يكن) .

(٢) أخطأ الناسخ إذ كتبها واستغفروا .

(٣) وردت (لم يأمركم) والصواب (لم يأمرك) لأن الخطاب كله موجه إلى الرسول (ص) .

(٤) يحتاج من ذهب من علماء الأصول بهذه الآية على أنه صلى الله عليه وسلم كان له أن يحكم بالاجتهاد ،
وفيما رواه أبو داود من حديث أسامة بن زيد عن رجلين من الأنصار اختصما إلى الرسول (ص)
في موارث بينهما قد درست وليس عندهما بينة . . . ينتهي الحديث على النحو التالي .

« إني إنما أتقى بينكما برأي فيما لم ينزل عليّ فيه » .

أبناء الحقوق ، ومن جنح إلى الهوى خان فيما أودع نفسه من التقوى ، ومن ركن إلى أنواع نوزاع المني خان فيما طولب به من الحياء لا اطلاع للمولى^(١) .

« واستغفر الله » لأمتك ؛ فإننا قد كفييناك حديثك بقولنا : ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَالًا يَرَوْنَ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ .

هم المؤثرون حظوظهم على حقوقه ، والراضون بالتعريض في أوطان هواهم دون النقلة إلى منازل الرضا ، إن الله لا يحب أهل الخيانة فيندلم — لا جرم — ولا يكرمهم .
قوله : « يستخفون من الناس » الغالب على قلوبهم رؤية الخلق ولا يشعرون أن الحق مُطْلِعٌ على قلوبهم أولئك الذين وَسَمَّ الله قلوبهم بوسم الفرقة .

قوله جل ذكره : ﴿ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ .

أي تدفع عنهم — بحرمتك — لأنك فيهم ، فكيف حالهم يوم القيامة إذ زالت عنهم بركاتكم أيها المؤمنون ١٩

(٢) (يقال إن سبب نزول هذه الآية أن رجلا شك أن طعمة بن أبيرق سرق درعه ، فلما رأى السارق ذلك ألقى الدرع في بيت رجل برىء ، وقال لنفر من عشيرته إني غيبت الدرع في بيت فلان ، فانطلقوا إلى النبي (ص) ليلا فقالوا : يا نبي الله إن صاحبنا برىء . وإن صاحب الدرع فلان وقد أحطنا بذلك علما فاعذر صاحبنا على رءوس الناس وجادل عنه ، فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك . فقام رسول الله (ص) فبراه وعذره على رءوس الناس ، فأنزل الله هذه الآية) وقد حرصنا على إثبات سبب نزولها لأن ما بعدها من الآي مرتبط بهذه الواقعة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

« ثم » : حرفٌ يدل على التراخي ؛ أى يزجون^(١) عمرهم فى البطالات والمخالفات ثم فى آخر أعمارهم يستغفرون الله .

وقوله « يجد الله » : الوجود غاية الحديث^(٢) ، والعاصى لا يطلب غير الغفران ، ولكن الله — سبحانه يوصله إلى النهاية بفضله — إذا شاء ، فَسُنَّتُهُ تحقيق ما فوق المأمول لمن رجاه .

قوله جل ذكره . ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

الحق غفي^٣ عن طاعة المطيعين ، وزلة^(٣) العاصين ، فمن أطاع فحظه حصل ، ومن عصى فحظه أخذ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيثًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ .

من نسب إلى برىء ما هو صفته من المخازى عكس الله عليه الحال ، وألبس ذلك البرىء ثواب محاسن راميهِ ، وسحب ذيل العفو على مساويه ، وقلبَ الحال على للمتعدى بما يفضحه بين أشكالهِ ، فى عامة أحواله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ

(١) وردت (يرجون) بالراء والصواب بالزاي

(٢) (التواجد بداية والوجود نهاية والوجد واسطة ، وسمت الأستاذ أبا على الدقاق يقول :

التواجد يوجد استيعاب المبد ، والوجد يوجب استغراق المبد ، والوجود يوجب استهلاك المبد فهو كمن شهد البحر ثم ركب البحر ثم فرق فى البحر) الرسالة ص ٣٧ .

(٣) وردت (ذلة) بالذال والصواب أن تكون بالزاي لأن المناسب للسياق لفظ ضد الطاعة .

لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ
وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ
مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ
وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١﴾ .

الفضلُ إحسانٌ غيرُ مستحقٍّ^(١) ، والإشارة ههنا — من الفضل — إلى عصيته إياه ، فالحقُّ — سبحانه — عَصَمَهُ تَخْصِيصًا لَهُ بِتِلْكَ الْعَصَةِ ، وَكَأَيْ عَصَمَهُ عَنْ تَرْكِ حَقِّهِ — سُبْحَانَهُ — عَصَمَهُ بِأَنْ كَفَّ عَنْهُ كَيْدَ خَلْقِهِ فَقَالَ : « وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ .. » الْآيَةُ .
كَلَّا ، لَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ سَبِيلٌ إِلَى إِضْلَالِكَ فَأَنْتَ فِي قَبْضَةِ الْعِزَّةِ ، وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ، وَمَا يَضُرُّونَكَ بِشَيْءٍ ، إِذَا الْمَحْفُوظُ مَنَاحِرُوسٌ عَنْ كُلِّ غَيْرٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ اخْتَصَّكَ بِإِنْزَالِ الْكِتَابِ ، وَاسْتَخْلَصَكَ بِوُجُوهِ الْاِخْتِصَاصِ وَالْإِيجَابِ ، وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ، وَلَمْ يَمْنِ عَلَيْكَ بِشَيْءٍ بِمِثْلِ مَا مَنَّ بِهِ عَلَى مَنْ خَصَّهُ بِهِ مِنَ الْعِلْمِ . وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ أَرَادَ بِهِ عِلْمَهُ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ — بِاللَّهِ بِجَلَالِهِ ، وَعِلْمَهُ بِعِبُودِيَّةِ نَفْسِهِ ، وَمَقْدَارِ حَالِهِ فِي اسْتِحْقَاقِ عِزِّهِ وَجَمَالِهِ .

وَيَقَالُ عَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ مِنْ آدَابِ الْخِدْمَةِ إِذْ لَمْ تَكُن مُلْتَبِسًا عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ الْحَقِيقَةِ .
وَيَقَالُ أَغْنَاكَ عَنْ تَعْلِيمِ الْأَغْيَارِ حَتَّى لَا يَكُونَ لِأَحَدٍ نُورٌ إِلَّا مُقْتَبَسًا مِنْ نُورِكَ ، وَمَنْ لَمْ يَمْشِ تَحْتَ رَايَتِكَ لَا يَصِلْ إِلَى جَمِيعِ بَرٍّ نَا ، وَلَا يَحْظِيَ بِقُرْبِنَا وَوَصْلِنَا .

« وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا » : فِي الْآبَادِ ؛ أَنْكَ كُنْتَ — لَنَا بِشَرَفِ الْعِزِّ وَكَرَمِ الرَّبُوبِيَّةِ فِي الْأَزَالِ — مَعْلُومًا . وَيَقَالُ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ مِنْ عُلُوقِ رُتْبَتِكَ عَلَى الْكَافَةِ .
وَيَقَالُ « عَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ » أَنَّ أَحَدًا لَا يَقْدَرُ قَدْرُنَا إِلَّا بِمَقْدَارِ مُوَافَقَتِهِ لِأَمْرِنَا
قَوْلُهُ جَلْ ذَكَرَهُ : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ ﴾

(١) لَأَنَّ الْفَضْلَ مَعْنَاهُ الزِّيَادَةُ ، فَرُبَّمَا يَرْمَى الْقَشِيرَى إِلَى أَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَحَقٍّ بِسَبَبِ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ يَفُوقُ الْمُسْتَحَقَّ

إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ
أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ
ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ
نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١﴾

أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ مَا كَانَتْ بَرَكَاتُهُ تَتَعَدَّى صَاحِبَهُ إِلَى غَيْرِهِ ؛ فَفَضِيلَةُ الصَّدَقَةِ يَتَعَدَّى نَفْعُهَا
إِلَى مَنْ تَصَلَّى إِلَيْهِ ، وَالْفُتُوَّةُ أَنْ يَكُونَ سَعِيكَ لغيرِكَ ، فِي الْخَيْرِ : « شَرُّ النَّاسِ مَنْ أَكَلَ وَحْدَهُ »
وَكُلُّ أَصْنَافِ الْإِحْسَانِ يَنْطَبِقُ عَلَيْهَا لَفْظُ الصَّدَقَةِ .

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَصْرِ الصَّلَاةِ فِي السَّفَرِ : « هَذِهِ صَدَقَةٌ تَصَدَّقُهَا اللَّهُ عَلَيْكُمْ
فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ » (١)

وَالصَّدَقَةُ عَلَى أَقْسَامٍ : صَدَقَتُكَ عَلَى نَفْسِكَ ، وَصَدَقَتُكَ عَلَى غَيْرِكَ ؛ فَأَمَّا صَدَقَتُكَ (عَلَى
نَفْسِكَ فَخَمَلُهَا عَلَى آدَاءِ حَقِّهِ تَعَالَى ، وَمَنْعُهَا عَنْ مَخَالَفَةِ أَمْرِهِ ، وَقَصْرُ يَدِهَا عَنْ أَذِيَةِ الْخَلْقِ ،
وَصَوْنُ خَوَاطِرِهَا وَعَقَائِدِهَا عَنِ السُّوءِ . وَأَمَّا صَدَقَتُكَ (٢) عَلَى الْغَيْرِ فَصَدَقَةٌ بِالْمَالِ وَصَدَقَةٌ
بِالْقَلْبِ وَصَدَقَةٌ بِالْبَدَنِ .

فَصَدَقَةٌ بِالْمَالِ بِإِنْفَاقِ النِّعَةِ ، وَصَدَقَةٌ بِالْبَدَنِ بِالْقِيَامِ بِالْخِدْمَةِ ، وَصَدَقَةٌ بِالْقَلْبِ بِحَسَنِ
النِّيَّةِ وَتَوْكِيدِ الْهَمَةِ .

وَالصَّدَقَةُ عَلَى الْقُرَاءِ ظَاهِرَةٌ لَا إِشْكَالَ فِيهَا ، أَمَّا الصَّدَقَةُ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ فَتَكُونُ بِأَنْ نَجُودَ
عَلَيْهِمْ بِهِمْ ، فَتَقْطَعُ رَجَاءَكَ عَنْهُمْ فَلَا تَطْمَعُ فِيهِمْ .

وَأَمَّا لِلْمَعْرُوفِ : فَكُلُّ حَسَنٍ فِي الشَّرْعِ فَهُوَ مَعْرُوفٌ ، وَمِنْ ذَلِكَ إِنْجَادُ الْمُسْلِمِينَ وَإِسْعَادُهُمْ
فَبِمَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ ، وَزَلْفَى عِنْدَهُ ، وَإِعْلَاءُ النَّوَاصِي بِالطَّاعَةِ .

(١) هَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَهْلُ السُّنَنِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ جُرَيْجٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي عَمَارٍ .
وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ هَذَا جَدِيدٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ . وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ
الْخَطَّابِ ، وَلَا يَحْفَظُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ وَرِجَالُهُ مَعْرُوفُونَ .

(٢) مَا بَيْنَ الْقَوْسَيْنِ اسْتِدْرَاكٌ لِي الْهَامِشِ وَضَعْنَاهُ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ النَّصِّ حَسَبِ الْعَلَامَةِ الْمُبْتَزَّةِ .

ومن تصدَّق بنفسه على طاعة ربه ، وتصدَّق بقلبه على الرضا بحكمه ، ولم يخرج بالانتقام لنفسه ، وحثَّ الناس على ما فيه نجاتهم بالهداية إلى ربه ، وأصلح بين الناس بِصِدْقِهِ في حاله . — فَإِنَّ لِسَانَ فَعْلِهِ أَبْلَغُ فِي الْوَعْظِ مِنْ لِسَانِ نَطْقِهِ ، فَهُوَ الصَّدِّيقُ فِي وَقْتِهِ . ومن لم يؤدِّبْ نفسه لم يتأدِّبْ به غيره ، وكذلك من لم يهذِّبْ حاله لم يهذِّبْ به غيره .

« ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله » غيرَ مائلٍ به مائلاً أوحائزٍ لنفسه به حالاً فعن قريب يبلغ رتبة الإمامة في طريق الله ، وهذا هو الأجر الموعود في هذه الآية (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ

مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ
الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ
وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾

خواطر الحق سفراؤه تعالى إلى العبد ، فمن خالف إشارات ما طولب به من طريق الباطن استوجب عقوبات القلوب ، ومنها أن يعقَى عن إِبْصَارِ رَشْدِهِ . وكما أن يخالف الإجماع عن الدين خارجٌ فخالف ما عرف من الحقيقة بعد ما تبين له الطريق — ماقط .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرَ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرَ

مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ
بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ إِنْ
يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ
يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴾ لَعَنَهُ
اللَّهُ وَقَالَ لَا تُخَدِّعُنِي مِنْ عِبَادِكِ نَصِيبًا
مُفْرُوضًا ﴾ وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا مَنِيَّتْهُمْ
وَلَا مَرَّتْهُمْ فَلْيُبَيِّنْ لَكُمْ آذَانَ الْإِنْعَامِ
وَلَا مَرَّتْهُمْ فَلْيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ،

(١) نلاحظ في هذه الفقرة أن القشيري يوجه — بطريق غير مباشر — لومه إلى بعض الوعاظ المخترفين الذين ظهروا في عصره وقبل عصره .

وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ
اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مِّينًا ﴿١﴾

قوله «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ» : إثبات الغير في توهم ذرة من الإبداع عين
الشرك ، فلا للعفو فيه مسامح . وما دون الشرك فللعفو فيه مسامح ، ومن توهم إلى سبحانه
بما توهم من نفسه فقد أشرك من حيث لم يعلم . كلاً ، بل هو الله الواحد .

قوله : «إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا» : أوقعوا على الجمادات تسميات^(١) ، وانخرطوا
في سلك التوهم ، وركنوا إلى مغاليط الحسبان ، فضّلوا عن الحقيقة .

«وَأِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا لَّعَنَهُ اللَّهُ» ، أى ما يدعون إلا إبليس الذى أبعد
الحق عن رحمته ، وأسحقه^(٢) ببُعده ، وما إبليس إلا مُقَلَّبٌ في القبضة على ما يريد المنشئ ،
ولو كان به ذرة من الإثبات لكان به شريكاً في الإلهية . كلاً ، إنما يُجْرَى الحق
— سبحانه — على الخلق أحوالاً ، ويخلق^(٣) عقيب وساوسه للخلق ضلالاً ، فهو الهادى
والمُضِلُّ ، وهو — سبحانه — المُصَرِّفُ للكل ، فيخلق (. . .)^(٤) في قلوبهم عُقَيْبًا
وساوسه إليهم طول الآمال ، ويُحَسِّنُ في أعينهم قبس الأفعال ، ثم لا يجعل لأمانيتهم تحقيقاً ،
ولا يعقب لما أمّلوه تصديقاً ، فهو تعالى مُوجِدُ تلك الآثار جملةً ، ويضيفها إلى الشيطان مرةً ،
وإلى الكافر مرةً ، وهذا معنى قوله : «وَلَا ضَلَالَتُهُمْ وَلَا مَنِيَّتُهُمْ» . . . الآية ومعنى قوله تعالى
«يَعْدَمُ وَيَمْنِيهِمْ»

قوله جل ذكره : ﴿يَعْدُهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ
إِلَّا غُرُورًا﴾ أولئك مأواهم جهنم
ولا يجدون عنها محيصاً ﴿٢﴾

(١) واضح من كلام القشيري أنه يفهم الإناث على أنها الأوثان ، وهكذا عن عائشة . وروى عن
بعض الصحابة أنها الملائكة إشارة إلى قوله تعالى في موضع آخر (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن
إناثاً) . وعن الحسن : الإناث كل شيء ميت ليس فيه روح .

(٢) في النسخة ص (استحقه) وهي خطأ في النسخ .

(٣) يؤكد القشيري نسبة خلق كل شيء لله ، ونجريد الشيطان من كل سلطان .

(٤) مشبهة .

الذين قسم لهم الضلالة في الحال حكم عليهم بالعقوبة في المال^(١) ، ولولا أنه أظهر ما أظهر بقدرته وإلا مئى كانت شظية من الضلالة والهداية لأربابها ١٩ والوقوف على صدق التوحيد عزيز ، وأرباب التوحيد قليل .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات

سندخلهم جنات تجري من تحتها
الأنهار خالدين فيها أبداً وعد الله
حقاً ومن أصدق من الله قيلاً ﴾

الذين أسعدناهم حكماً وقولاً ، أنجدناهم حين أوجدناهم كرماً وطولاً ، ثم إننا نحقق لهم
الموعود من الثواب ، بما نكرمهم به من حسن المآب .

قوله جل ذكره : ﴿ ليس بآمانئكم ولا أمانئ أهل

الكتاب من يعمل سوءاً يجز به
ولا يجز له من دون الله ولياً
ولا نصيراً * ومن يعمل من
الصالحات من ذكر أو أنثى وهو
مؤمن فاولئك يدخلون الجنة
ولا يظلمون شيئاً ﴾

من ذرع الخنظل لم يجتن الورد والعبر^(٢) ، ومن شرب السم الزعاف لم يجد طعم العسل ،
كذلك من ضيع حق الخدمة لم يستمكن على بساط القربة ، ومن وسم بالشقوة لم يرزق
الصفوة ، ومن نفتت القضية^(٣) فلا ناصر له من البرية .

قوله : ﴿ ومن يعمل من الصالحات . . . الآية . من تعني في خدمتنا لم يبق عن نيل

(١) وردت (المال) وصوابها (المآل) .

(٢) العبر - الياسين وقيل النرجس (لسان العرب ج ٢٠ ص ٥٣٦) ط بيروت .

(٣) القضية مقصود بها القضاء ، قضاء الله .

نعمتنا ، بل من أغنيائه^(١) في طلبنا أكرمناه بوجودنا ، بل من جرّ عناه كأس اشتياقنا أنلناه
أنس لقائنا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ
لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ
حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾
والله ما في السموات وما في الأرض
وكان الله بكل شيء محيطاً

لا أحد أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله ، يعني أفرد قصده إلى الله ، وأخلص عقده لله
عنا سوى الله ، ثم استسلم في عموم أحواله لله بالله ، ولم يدخر شيئاً عن الله ، لا من ماله
ولا من جسده ، ولا من روحه ولا من جلده ، ولا من أهله ولا من ولده ، وكذلك كان حال
إبراهيم عليه السلام .

وقوله « وهو محسن » : الإحسان — بشهادة الشرع — أن تعبد الله كأنك تراه ،
ولا بد للعبد من بقية^(٢) من عين الفرق حتى يصح قيامه بحقوقه . — سبحانه — لأنه إذا حصل
(مستوفى)^(٣) بالحقيقة لم يصح إسلامه ولا إحسانه ، وهذا أتباع إبراهيم عليه السلام الحنيف
الذي لم يبق منه شيء على صف الدوام .

وقوله « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » : جرّد الحديث عن كل سعي وكدي وطلب وجهي
حيث قال : « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » ، فَعَلِمَ أَنَّ الْخَلَّةَ لُبْسَةٌ يُلْبِسُهَا الْحَقُّ لَا صِفَةٌ
يَكْتَسِبُهَا الْعَبْدُ .

(١) ربما كانت (عنيائه) بالعين أي من احتمال العناء في سبيلنا لتلائم (جرّ عناه كأس) أما (أغنيائه)
بالعين فيكون معناها أوجدنا فيه الفناء عما سوانا .

(٢) أي لا بد أن يرد إلى الفرق الثاني حتى يستطيع أن يقوم بالفرائض الواجبة عليه في أوقاتها .

(٣) هكذا جاءت في النسخة ص وربما كانت في الأصل (مساس) بالحقيقة ، فنحن نعرف عن مذنب
القشيري في هذا الخصوص أن العبد ينبغي أن يحافظ على الشريعة مهما كانت الظروف ، وأي مساس
بالشريعة بدعوى الاصطلام أو الفناء — فردود ، وهو آية تقص في صدق صاحبه .

ويقال التحليل المحتاج^(١) بالسكينة إلى الحق في كل نفس ليس له شيء منه بل هو بالله الله في جميع أنفاسه وأحواله ، اشتقاقاً من الخلّة (التي هي انحصاصة وهي الحاجة)^(٢) .

ويقال إنه من الخلّة التي هي المحبة ، والخلّة أن تباشير المحبة جميع أجزائه ، وتتخلل سيره حتى لا يكون فيه مساع للغير .

فلما صفاه الله — سبحانه — (عليه السلام) عنه ، وأخلاه منه نصبة للقيام بحقه بعد امتحائه^(٣) عن كل شيء ليس الله سبحانه .

ثم قال : « وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا ... »^(٤) : لا يلبي الحاج إلا الله ، وهذه إشارة إلى جمع الجمع^(٥) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ

يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ

فِي الْكِتَابِ فِي نِسَاءِ النَّسَاءِ

الَّذِينَ لَا تُؤْتَوْنَ مَا كُتِبَ لَهُنَّ

وَتَرْغِبُونَ أَنْ تُنَكَّهْنَ

وَالْمُسْتَضَعِّفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ

تَقُومُوا لِلنِّسَاءِ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا

مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ۝

نهام عن الطمع الذي يحملهم على الخيف والظلم على المستضعفين من النسوان واليتامى ، وبَيِّنَ أَنَّ الْمُنْتَقِمَ بِهِ لَمْ يَنْصَرِفْ ، فَمَنْ رَاقِبَ اللَّهَ فِيهِمْ لَمْ يَخْسَرْ عَلَى اللَّهِ بَلْ يَجِدُ جَمِيلَ الْجَزَاءِ ، وَمَنْ تَجَاسَرَ عَلَيْهِمْ قَاسَىٰ لِذَلِكَ أَلِيمَ الْبَلَاءِ .

(١) يشير التفسيرى بذلك إلى محاولة فريق من المعتزلة صرف الخلّة عن كل ما يتطرق إليها من دلالة حية ، والنماسة ذلك في الشعر القديم وقد نبهنا إلى ذلك في هامش سبق .

(٢) هذه العبارة مكررة خطأ من النسخ .

(٣) وردت (بعد امتحائه) بالنون وقد صوبناها إلى (امتحائه) أى بعد وصوله إلى المحو .

(٤) آية ٢٧ سورة الحج

(٥) وردت (جميع الجمع) والصواب (جمع الجمع)

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا
 أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ
 يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ، وَالصُّلْحُ
 خَيْرٌ ، وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ،
 وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ
 بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

محبة الخلق بعضهم مع بعض إن تجردت عن حديث الحق فإنها تتعرض للوحشة والملامة ،
 وممازجة النفرة والسامة . فمن أعرض عن الله بقلبه أعرض الخلق عن مراعاة حقه ، وخرج
 الكافة عليه باستصغار أمره . واستحقار قدره . ومن رجع إلى الله بقلبه ، استوى له
 — في الجملة والتفصيل — أمره ، واتسع^(١) لاحتلال ما يستقبل من سوء خلق الخلق صدره
 فهو يسحب^(٢) ذيل العفو على هتات جميعهم ، ويؤثر الصلح بترك نصيبه وتسليم نصيبهم
 قال الله تعالى : « والصلح خير » .

واتضاعك في نفسك عن منافرة من بخاصتك أجدى عليك ، وأخرى لك من تطاولك
 على خصمك باغياً الانتقام ، وشهود مالك في مزنة المقام . وأكثر المناقذين في أسرى
 هذه المحنة .

قوله تعالى : « وأحضرت الأنفس الشح . . . » : وشح النفس قيام العبد بحظه .
 فلا محالة من حجب عن شهود الحق رد إلى شهود النفس .
 قوله تعالى : « وإن تحسنوا » : يعني يكن ذلك خيراً لكم . والإحسان أن تعبد الله
 كأنك تراه .

« وتتقوا » : يعني عن رؤيتكم مقام أنفسكم ، وشهود قدركم ، يعني وأن تروا ربكم ،
 وتنفوا برؤيته عن رؤية قدركم .

(١) وردت (والتسع) وهي خطأ في النسخ

(٢) وردت (ويستحب) وهي خطأ النسخ .

« إن الله كان بما تعملون خبيراً » : يعنى إذا فتنتم عنكم وعن عملكم ، فكفى بالله
علماً بعد فنائكم ، وكفى به موجداً عقب امتحانكم^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَنْ تُسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ

النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ، فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ

الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْعَلَقَةِ وَإِنْ

تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ

غَفوراً رحيماً ﴾

يعنى أنكم إذا (. . . .)^(٢) فى أموركم انعكس الحال عليكم ، وانعكس صلاح ذات
بينكم فساداً لكم ، فإذا قتم بالله فى أموركم استوى العيش لكم ، وصفا عن الكدر وقتكم .

ويقال من حكم الله بنقصان عقله فى حاله^(٤) فلا تقندرون أن تجبروا نقصانهم بكفايتكم .

قوله تعالى « فلا تميلوا كل الميل » : يعنى لا تزيغوا عن نهج الأمر . تفوقوا حيناً وقتم ،
وأفقدوا فيما أمرتم .

وقوله : « فتدروها كالعلقة » يعنى أنكم إذا منعتموهن عن صحبة أغياركم ثم قطعتم
عنهن ما هو حظوظهن منكم أضررتن من الوجهين ؛ لا منكم نصيب ، ولا إلى غيركم سبيل ،
وإن هذا الحيف عظيم . والإشارة^(٥) من هذا أنه إذا انسد عليك طريق حظوظك فتح
— سبحانه — عليك شهود حقه ، ووجود لطفه ؛ فإن من كان فى الله تلفه فالحق
— سبحانه — خلفه ، وإن تصلحوا ما بينكم وبين الخلق ، وتشقوا فيما بينكم وبين الحق
فإن الله غفور لعيوبكم ، رحيم بالعفو عن ذنوبكم .

(١) وردت (امتحانكم) وهى خطأ فى النسخ فالامتحان يرادف الفناء .

(٢) وردت (وإن) وهى خطأ فى النسخ .

(٣) مشبهة ، وزجج أنها كلمة تساوى فى المعنى (قتم بأنفسكم) لتقابل ما جاء بعد (فإذا قتم بالله) .

(٤) يشير القشيري بذلك الى النساء .

(٥) أسلوب القشيري فى هذه الإشارة فى حاجة منا الى وهى وتبقيظ ، فالحظوظ للعبد ، والحقوق للحق ،
والشهود للحق والوجود يكون للطف . والمفردة — بمعنى التغطية — تكون لليب ، والعفو — الإزالة — يكون
للذنوب ؛ واليب قدييق مغطى ولكن الذب يزول .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ
سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾ .

الصعبة التي لا بُدَّ منها صحبة القلب مع دوام افتقار إلى الله ؛ إذ الحقُّ لا بُدَّ منه . فأما
الأغيار فلا حاجة لبعضهم إلى بعض إلا من حيث الظاهر ، وذلك في ظنون أصحاب التفرقة ،
فأما أهل التحقيق فلا تجرية لهم أن حاجة الخلق بجملتها إلى الله سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ مَافِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ،
وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَافِي السَّمَاوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا
حَمِيدًا ﴾ .

كَلَّفَ الكَافَّةَ بِالرَّجُوعِ إِلَيْهِ ، وَبِجَانِبَةِ مَنْ سِوَاهُ ، وَالْوُقُوفَ عَلَى أَمْرِهِ ، وَلَكِنْ فَرِيقًا وُفِّقَ
وَفَرِيقًا خُذِلَ . ثُمَّ عَرَّفَ أَهْلَ التَّحْقِيقِ أَنَّهُ غَفِيٌّ عَنْ طَاعَةِ كُلِّ وَلِيٍّ ، وَبَرَاءٍ عَنْ ^(١) زَلَّةٍ ^(٢)
كُلِّ غَوِيٍّ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ مَافِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

قَطَعَ الْأَسْرَارَ عَنِ التَّعَلُّقِ بِالْأَغْيَارِ بِأَنْ عَرَّفَهُمْ انْفِرَادَهُ بِمُلْكِ مَافِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، ثُمَّ
أَطْمَعَهُمْ فِي حَسَنِ تَوَلَّيْهِ ، وَقِيَامِهِ بِمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ بِجَمِيلِ اللَّطْفِ وَحَسَنِ الْكَفَايَةِ بِقَوْلِهِ :
« وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا » يَصْلَحُ بِمُلْكِ حَالِكَ وَلَا يَخْتَزِلُ مَالِكَ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ
وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى
ذَلِكَ قَدِيرًا ﴾ .

(١) قبل (عن) واو زائدة مخذفتاها

(٢) وردت (ذلة) بالذال والصواب أن تكون هنا بالزاي .

من احتجنى عنه في آزاله فلا حاجة له إليه في آباده . ويقال لا يحتاج إلى أحدٍ والعبد لا يستغنى عنه في نفسه .

ويقال لانهاية التقديرات فإن لم يكن عمرو قزياً ، وإن لم يكن عبدٌ فعييد ، والذي لا يترك عنه ولا خلف فهو الواحد الأحد .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ شَهِيدًا بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ .

لما علقوا قلوبهم بالعاجل من الدنيا ذكرهم حديث الآخرة ، فقال « فعند الله ثواب الدنيا والآخرة » تعريفاً لهم أن فوق همهم من هذه الخسيسة^(١) ما هو أعلى منها من نعيم الآخرة ، فلما مسّت إلى الآخرة قصودهم قطعهم عن كل مرسوم^(٢) ومخلوق بقوله : « والله خير وأبقى »^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا . فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ .

(١) يقصد الدنيا بهذا الوصف

(٢) الرسم - كما يقول أبو نصر السراج في لمعه - هو ما رسم به ظاهر الخلق برسم العلم ورسم الخلق فيمتحن بإظهار سلطان الحق عليه .

سئل الجنيد عن رجل غاب اسمه وذهب وصفه وامتنحى رسمه فقال : نعم عند مشاهدته قيام الحق له بنفسه لنفسه في ملكه ، فيكون ذلك معنى قوله امتنحى رسومه يعني علمه وفعله المضاف إليه بنظره إلى قيام الله له في قيامه (اللع ص ٤٢٧) .

(٣) آية ٧٣ سورة طه

القسط العدل ، والقيام بالله العدل بإيفاء حقوقه من نفسك ، واستيفاء حقوقه من كل من هو لك عليه أمر ، وإلى تحصيل ذلك الحق سبيل إما أمر بمعروف أو زجر عن مكروه أو وعظ بنصح أو إرشاد إلى شرع أو هداية إلى حق .

ومن بقي لله عليه حق لم يباشر خلاصة التحقيق سره الله .

وأصل الدين^(١) إثبات حق الحق على حق الخلق ، فمن أثر على الله — سبحانه أحداً إما والدّاً أو أمّاً أو ولداً أو قريباً أو نسبياً ، أو ادّخر عنه نصيباً فهو بمنزل عن القيام بالقسط .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ

وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ،

وَمَنْ يَكْفُر بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ

وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا

بَعِيدًا ۝

يأيها الذين آمنوا من حيث البرهان آمنوا من حيث البيان إلى أن تؤمنوا من حيث الكشف والعيان .

ويقال يأيها الذين آمنوا تصديقاً آمنوا بتحقيقاً بأن نجاتكم بفضله لا بإيمانكم .

ويقال يأيها الذين آمنوا في الحال آمنوا باستدامة الإيمان إلى المآل^(٢)

ويقال يأيها الذين آمنوا آمنوا وراء كل وصل وفصل^(٣) ووجد وققد .

(١) بهذا نستطيع أن نجد صلة رحم بين لفظي (الدين) و (الدين) إذ يكون لكل منهما ارتباط على نحو ما — بالحق وصاحب الحق .

(٢) وردت (المال) وهي خطأ في النسخ ، فالمقصود بالحال : الدنيا ، والمآل : العقبى

(٣) الوصل منناه لحوق الغائب . وقال بجي بن معاذ : « من لم يعم عينيه عن النظر إلى ما تحت العرش لم يصل إلى ما فوق العرش » . يعني لم يلحق ما فاتته من مرآة الذي خلق العرش . وقال الشبلي : من زعم أنه واصل فليس له حاصل .

والفصل فوت الشيء المرجو من المحبوب .

قال بعضهم فرح الاتصال ممزوج بترح الاتصال (المع من ٤٣٣)

ويقال يأياها الدين آمنوا باستعمال أدلة العقول آمنوا إذا أنتمم بعقوة الوصول ، واستمكنت
منكم حيرة البديهة^(١) وغلبات الذهول^(٢) ثم أفقتم عن تلك الغيبة فآمنوا أن الذي كان غالباً
عليكم كان شاهد الحق لا حقيقة الذات^(٣) فإن الصمدية منزهة متقدسة عن كل قرب وبعد ،
ووصل وفصل .

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ

كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ
اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا *
بَشِّرِ الْمُنَاقِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * .

الذين تبدلت بهم الأحوال فقاموا وسقطوا ثم انتعشوا ثم ختم بالسوء أحوالهم ، أولئك
الذين قصصهم^(٤) سطوة العزة حكماً ، وأدركتهم شقاوة القسمة خاتمة وحالاً — فالحق سبحانه
لا يهديهم لقصد ، ولا يدهم على رشد ، فبشّرهم بالفرقة الأبدية ، وأخبرهم بالعقوبة السرمدية .

قوله جل ذكره : ﴿الَّذِينَ يَتَخَذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ

دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أِيْتِنُونَ عِنْدَ الْعِزَّةِ
فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا * وَقَدْ نَزَّلَ
عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا تَحَمَّصْتُمْ
آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا
فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي
حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ ،

(١) الحيرة بديهة ترد على قلوب العارفين عند تأملهم وحضورهم وتفكيرهم تحجبهم عن التأمل والفكرة ،
وقال الواسطي : حيرة البديهة أجل من سكون التولي عن الحيرة (اللمع ص ٤٢١) .

(٢) الغلبات عند قوة الرغبة والانفلات من دواعي الهوى والنفوس ، عند قوة رغبة الطالب إذا لاح له
أعلام المزيد في حال طلبه المطلوب ، فلوطن أن مطلوبه وراء بحر سبعه أو في نيه سلكه بالهجوم عند غلبات
الإرادة وقوة سلطان المطالبة عليه (اللمع ص ٤١٧) .

(٣) هذا تنبيه هام وخطير يدحض به المضللين والأدعياء ، أولئك الذين شن عليهم القشيري هجومه العنيف
في مستهل « رسالته » والذين أساءوا إلى التصوف وأهله .

(٤) القصص : الكسر . حكى عن الرقاق أنه قال : لو أن المعاصي كانت شيئاً اخترته لنفسي ما أجزئي
ذلك لأن ذلك يشبهني ، وإنما قصم ظهري حين سبق لي منه ذلك . (اللمع ص ٤٣٤) .

إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ النَّاقِثِينَ وَالْكَافِرِينَ
فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا * .

من اعتصم بمخلوق فقد التجأ إلى غير مجير ، واستند إلى غير كفٍ ، وسقط في مهواة
من الغلط بعيد قعرها ، شديد مكرها . أيتقنون العِزَّ عند الذي أصابه ذل التكوين ١٩ متى
يكون له عزٌّ على التحقيق ؟ ومن لا عزٌّ له يلزمه فكيف يكون له عز يتعدى إلى غيره ؟

ويقال لاندري أى حالتهم أقبح : طلب العز وهم في ذل القهر وأسر القبض أم حسابان
ذلك وتوهمه من غير الله ؟

ويقال مَنْ طَلَبَ الشَّيْءَ مِنْ غَيْرِ وَجْهِهِ فَالْإِخْفَاقُ^(١) غاية جهده ، ومن رام الغنى^(٢) في
مواطن الفاقة فالإملاق قصارى كده .

ويقال لو هُدُّوا بوجدان العِزِّ لما صُرِفَتْ قُصُودُهُمْ إِلَى مَنْ لَيْسَ بِيَدِهِ شَيْءٌ مِنَ الْأَمْرِ .
قوله : « فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا » العِزُّ على قسمين : عزٌّ قديمٌ فهو لله وصفًا ، وعزٌّ حادثٌ
يختص به سبحانه من يشاء فهو له — تعالى — مِلْكًا ومنه لطفًا^(٣) .

قوله « وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ » الآية : لا تجاوروا أرباب الوحشة فإن
ظلمات أنفسهم تعدى إلى قلوبكم عند استنشاطكم ما يرُدُّون من أنفاسهم ، فمن كان بوصفٍ ما
متحققًا شاركه حاضروه فيه ؛ فجليسٌ مَنْ هو في أنسٍ مستأنسٍ^(٤) ، وجليسٌ مَنْ هو في ظلمةٍ
مستوحشٍ .

ويقال هجران أعداء الحق فرضٌ ، ومخالفة الأضداد ومفارقتهم دين ، والركون إلى
أصحاب الغفلة قرعٌ بابِ الفرقة

(١) وردت (الأحقاف) وهي خطأ في النسخ إذ المقصود الحية والإخفاق .

(٢) أخطأ الناسخ فكتبها بالالف هكذا : (الفنا) .

(٣) يتساءل القشيري في كتابه « التعبير في التذكير » تحت اسم « العِزُّ » : فإن قيل كيف الجمع
بين قوله تعالى : « مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا » وقوله تعالى « وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ »
ثم يجيب : لا تنافي بينهما فإن العِزَّ الذي للرسول وللمؤمنين هو لله تعالى ملكًا وخلقًا ، وهزه — سبحانه
وتعالى — له وصفًا ، فإذا المراد كله لله تعالى .

(٤) أخطأ الناسخ إذ كتبها (مستأنف) ولا معنى لها هنا والصواب (مستأنس) لتقابل (مستوحش)

قوله : « إنكم إذن مثلهم » : أوضح برهانٍ على سريرة (. . .) (١) صحيحة من يقارنه (٢) وعشرة من يخادنه ؛ فالشكل مقيد بشكله ، والفرع منتشرٌ عن أصله .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين يتربصون بكم : فإن كان لکم فتحٌ من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ، فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ﴾

لَا عَدَمُوا الإخلاص في الحقيقة ، وما ذقوا فيما استشعروا من العقيدة ، امتازوا (٣) عن المسلمين في الحكم ، وباينوا الكافرين في الاسم ، وواجبٌ على أهل الحق التحرزُ عنهم والتحفُّظُ منهم ، ثم ضمن لهم — سبحانه — جميل الكفاية بقوله : « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً » (٤) وهذا على العموم ؛ فإن وبال كيدهم إليهم مصروف ، وجزاء مكرهم عليهم موقوف ، والحق — من قبل الحق سبحانه — منصورٌ أهلُه ، والباطل — بنصر الحق سبحانه — يُجَنَّبُ أصلُه .

قوله جل ذكره : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادِعُهُمْ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس

(١) مشبهة ولا بد أنها كلمة بمعنى (المرء) أو (الشخص) . . . ونحوها

(٢) يقارنه هنا معناها أن يكون له قرين .

(٣) امتازوا هنا معناها افترقوا بعلامات مخصوصة

(٤) قال على رضى الله عنه لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً يوم القيامة حين يحكم الله بينهم ، فلا يكون للكافرين سبيل إلى حجة . ويرى غيره أن الله لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً في الدنيا فلن يستطيعوا عليهم نصراً بالكلية ، ولكن قد يحصل لهم ظفر في بعض الأحيان على بعض الناس ولكن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة . (ابن كثير ص ٥٦٧)

ولا يذكرون الله إلا قليلاً •
 مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ
 وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ
 تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا •

خداع المنافقين : إظهار الوفاق في الطريقة واستشعار الشرك في العقيدة .

وخداع الحق إياهم : ما توهموه من الخلاص ، وحكموا به لأنفسهم من استحقاق الاختصاص ،
 فإذا كُشِفَ الغطاء أيقنوا أن الذي ظنوه شراباً كان سراباً ، قال تعالى : « وبدا لهم من الله
 ما لم يكونوا يحتسبون » (١) .

وقوله : « وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا . . . » الآية : علامة النفاق وجود النشاط عند
 شهود الخلق ، وفور العزم عند فوات رؤية الخلق .

وقوله : « مذبذبين بين ذلك . . . » الآية : أخس الخلق من يدع (٢) صدار العبودية ،
 ولم يجد سبيلاً إلى حقيقة الحرية (٣) ، فلله من العز شظية ، ولا في الغفلة عيشة هنية .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا
 الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ،
 أُرِيدُونَ أَنْ يُبْعِلُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ
 سُلْطَانًا مُبِينًا • ﴾

(١) آية : ٤٧ سورة الزمر .

(٢) وردت (تدع) والصواب (يدع) لأن الكلام ليس خطاباً ، ومعناها ترك .

(٣) حقيقة الحرية إشارة إلى نهاية التحقق بالعبودية لله تعالى ، وهو ألا يملكك شيء من المكنونات
 وغيرها ، فتكون حراً إذا كنت لله عبداً ، كما قال بشر الحافي لمرى السقطي رحمهما الله فيما حكى عنه أنه قال :
 إن الله تعالى خلقك حراً فكن كما خلقك ، لا تزأر أهلك في الحضر ، ولا وقتك في السفر ، اعمل لله ،
 ودع الناس عنك .

وقال الجنيد : آخر مقام العارف الحرية .

وقال بعضهم : لا يكون العبد عبداً حقاً ويكون لما سوى الله مسترقاً (المص من ٤٥٠) .

كُرِّرَ^(١) عليهم الوعظ ، وأكَّدَ بمباينة الأعداء عليهم الأمر ، إبلاغاً في الإنذار ، وتغليظاً في الزجر ، وإلزاماً للحجة (. . . .)^(٢) موضع العذر .

قوله : « أتريدون أن تجعلوا الله عليكم سلطاناً مبیناً » : توعدّهم على موالاتهم للكفار بما لم يتوعدّ على غيره من المخالفات ، لما فيه من إيثار الغير على المعبود ؛ وإيثار النير على المحبوب من أعظم الكبائر في أحكام الوداد . فإذا شغل من قلبه محلاً — كان للمؤمنين — بالأغيار استوجب ذلك العقوبة فكيف إذا شغل محلاً من قلبه — هو للحق — بالغير ؟ !
والعقوبة التي توعدّهم بها أن يكلمهم وما اختاروه من موالات الكفار ، ويثس البديل !
كذلك مَنْ بَقِيَ (عن)^(٣) الحق تركه مع الخلق ؛ فيتضاعف عليه البلاء للبقاء عن الحق والبقاء مع الخلق ، وكلاهما شديدٌ مِنَ العقوبة .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ نصيراً » .

دلّت الآية على أن المنافق ليس بمُسْتَأْمِنٍ لَأَنَّ الإيمان ما يوجب الأمان ، فالؤمن يتخلص بإيمانه من النار ، فما يكون سبب وقوعه في الدرك الأسفل من النار لا يكون إيماناً ، ويقال هذا تحقيق قوله : « والله خير الماكرين » أي مكره فوق كل مكر . لما أظهر للمنافق ما هو مكر مع المؤمنين كانت عقوبتهم أشد من عقوبة من جاهر^(٤) بكفره .

ويقال تقلبهم^(٥) في آجلهم^(٦) إلى أشد ما هم عليه في عاجلهم ، لما في الخبر : « من كان

(١) نعرف من مذهب القشيري أنه لا يميل إلى القول بالتكرار في القرآن الكريم ، ولعل أبسط نتائج هذا المذهب أنه لا يرى في البسلة التي تأتي في مستهل كل سورة بلفظها — أي شيء من التكرار ، يل هي عنده متجددة بما يتلاءم والسورة ، لأجل هذا تستوقفنا هنا كلمة : « كرر » وتندبر الأسباب القوية التي أرجع إليها التكرار .
(٢) مشبهة .

(٣) وردت (من) ولكن المعنى يرفضها قطعاً ويؤيد (عن) خصوصاً وقد جاءت (عن) في العبارة التالية التي هي بمثابة نتيجة للجزء الأول من الكلام .

(٤) وردت (جاهد) بالدال والصواب ان تكون (جاهر) بالراء فالمعنى يقتضيه ذلك .
(٥) وردت هكذا (مثلهم) بتقطعة محذوفة فوق الحرف الأول ثم ثلاث نقط فوق القاف وربما أراد الناسخ أن يحذف النقطة الثالثة فأخطأ وحذف النقطة التي فوق النون .
(٦) وردت (آجلهم) والصواب (آجلهم) .

بجالة لقي الله بها ، فالمنافق — اليوم — في الدرك الأسفل من الحجر^(١) فكذلك ينقلون إلى الدرك الأسفل من النار . والدرك الأسفل من الحجر — اليوم — لهم ما عليهم من اسم الإيمان وليس لهم من الله شظية وهذا هو البلاء الأكبر .

ويقال استوجبوا الدرك الأسفل من النار لأنهم صحبوا اليوم اسم الله الأعظم لا على طريقة الحرمة . ويقال استوجبوا ذلك لأنهم أساءوا الأدب في حال حضورهم بالسنتهم ، وسوء الأدب يوجب الطرد .

قوله جل ذكره ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأُصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ .

لم يشترط كل هذه الشرائط في رجوع أحدٍ عن جُرمِهِ ما اشترط في رجوع المنافقين عن نفاقهم لصعوبة حالهم في كفرهم . وبعد تحصيلهم هذه الشروط قال لهم : « فأولئك مع المؤمنين » ولم يقل من المؤمنين ، وفي هذا إشارة أيضاً إلى نقصان رتبهم وإن تداركوا بإخلاصهم ما سبق من آقهم ، وفي معناه أنشدوا :

والعُذر مبسوطٌ ولكنما شتان بين العذر والشكر

ويقال إن حرف (مع) للمصاحبة ، فإذا كانوا مع المؤمنين استوجبوا ما يستوجب جماعة المؤمنين ، فالتوبة هنا أى رجعوا عن نفاقهم ، وأصلحوا — بصدقهم في إيمانهم ، واعتصموا بالله بالتبرؤ من حولهم وقوتهم ، وشاهدوا المِنَّةَ لله عليهم حيث هداهم ، وعن نفاقهم نجاتهم . قوله : « وأخلصوا دينهم لله » : ونجاتهم بفضل ربهم لا بإيمانهم في الحال ، ورجوعهم عن نفاقهم فيما مضى عليهم من الأحوال .

ويقال أخلصوا دينهم لله وهو دوام الاستعانة بالله في أن يثبتهم على الإيمان ، ويمصهم عن الرجوع إلى ما كانوا عليه من النفاق .

(١) ترجح أنها (الحجر) بالهاء ويتأيد ذلك بقوله فيما بعد (ليس لهم من الله شظية) .

ويقال تابوا عن النفاق ، وأصلحوا بالإخلاص في الاعتقاد ، واعتصموا بالله باستدعاء التوفيق وأخلصوا دينهم لله في أن نجاتهم بفضل الله ولطفه لا بإتيانهم بهذه الأشياء — في التحقيق .

قوله جل ذكره : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ .

هذه الآية من الآيات التي توجب حُسن الرجاء وقوة الأمل ، لأنه جعل من أمارات الأمان من العقوبات شيئين اثنين : الشكر والإيمان ، وهما خصلتان يسيرتان خفيفتان ؛ فإن الشكر قالة ، والإيمان حالة ، ولقد هوّن السبيل على العبد حين^(١) رضى منه بقالته وحالته . والشكر لا يصح إلا من المؤمنين فأما الكافر فلا يصح منه الشكر ؛ لأن الشكر طاعة والطاعة لا تصح من غير المؤمن .

وقوله : ﴿ وَآمَنْتُمْ ﴾ يعني في المال ؛ فكأنه بين أن النجاة إنما تكون لمن كانت عاقبته على الإيمان ، فمعنى الآية لا يعذبكم الله عذاب التخليد^(٢) إِنْ شَكَرْتُمْ فِي الْحَالِ وَآمَنْتُمْ فِي الْمَالِ . ويقال إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ صدقتم بأن نجاتكم بالله لا بشركم وبإيمانكم .

ويقال الشكر شهود النعمة من الله والإيمان رؤية الله في النعمة ، فكأنه قال : إِنْ شَاهَدْتُمْ النِّعْمَةَ مِنْ اللَّهِ فَلَا يَقْطَعَنَّكُمْ شُهُودُهَا عَنْ شُهُودِ الْمُنْعِمِ

وقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ أى والله شاكر عليم ، ومعنى كونه شاكرًا أنه مَدَحٌ للعبد ومُشْهِدٌ عليه فيما يفعله لأن حقيقة الشكر وحده الثناء على المُحْسِنِ بذكر إحسانه ؛ فالعبد يشكر الله أى يثنى عليه بذكر إحسانه إليه الذى هو نعمته عليه ، والربُّ يشكر للعبد أن يثنى عليه بذكر إحسانه الذى هو طاعته له ، فإن الله يثنى عليه بما يفعله من الطاعة مع علمه بأن له ذنوبًا كثيرة .

ويقال بشكره — وَإِنْ عَلِمَ أَنَّهُ سِيرَجٌ فِي الْمُسْتَأْنَفِ إِلَى قَبِيحِ أَعْمَالِهِ .

(١) وردت (من) و ترجع أنها في الأصل (حين)

(٢) وردت (التخليد) و ترجع أنها (التخليد) فهو وصف عذاب جهنم .

ويقال يشكره لأنه يعلم ضعفه ، ويقال يشكره لأنه يعلم أنه لا يعصى وقصده مخالفة ربه
ولكنه يُذنبُ لاستيلاء أحوال البشرية عليه من شهوات غالبية .
ويقال يشكره لأن العبد يعلم في حالة ذنوبه أن له رباً يغفر له .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا يَحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ
إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً ﴾

قول المظلوم في ظلمه — على وجه الإذن له — ليس بسوء في الحقيقة ، لكنه يصح
وقوع لفظة السوء عليه كقوله تعالى : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » ^(١) والجزاء ليس بسبئية .

ويقال مَنْ عَلِمَ أَنْ مَوْلَاهُ يَسْمَعُ اسْتِجِيَا مِنَ النُّطْقِ بِكَثِيرٍ مِمَّا تَدْعُو نَفْسَهُ إِلَيْهِ .

ويقال الجهر بالسوء هو ما تسمعه نفسك منك فيما تُحدثُ في نفسك من مساءة الخلق ؛
فإن الخواص يحاسبون على ما يتحدثون في أنفسهم ^(٢) بما (يعد) ^(٣) لا يطالب به كثير من
العوام فيما يسمع منهم الناس .

قوله : « إِلَّا مَنْ ظَلَمَ » : قيل ولا من ظلم . وقيل معناه ولكن مَنْ ظلمَ فله أن يذكر
ظلمه بالسوء ^(٤) .

ويقال من لم يُؤثر مدح الحق على القسح في الخلق فهو المغبون في الحال .

ويقال من طالع الخلق بعين الإضافة إلى الحق بأنهم عبيد الله لم ينسط فيهم لسان اللوم ؛

(١) الآية ٤٠ سورة الشورى .

(٢) من ذلك ما يحكيه القشيري في كتابه « التعبير في التذكير » عن الشبلي حيث يقول : « قال بعضهم كنت مع الشبلي — رحمه الله — ففتح له بمنديل حسن فربك بمت فقال لي : كفن هذا الكلب بهذا المنديل . وعدت إليه فقال لي فعلت ما أمرتك به ؟ فقلت : لا . فلم يقل لي شيئاً فقلت له : ما سبب ذلك الذي أمرتني به ؟ فقال : عندما مروت به استقدرته واستقبهته ، فتوديت في سرى : ألسنا نحن خلقناه ؟ فأمرتك بذلك كفارة لما خطر لي » .

(٣) ربما كانت هذه اللفظة (يعد) زائدة ، أو سقطت (لا) قبلها فيكون معنى (لا يعد) لا يحسب ولا يعتبر

(٤) من ابن عباس : إن الله لا يحب أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً فإنه قد أُرخص له .
وعن الحسن البصري يكنى أن يقول المظلوم « اللهم أعني عليه واستخرج حق منه » وفي رواية عنه أنه قد أُرخص له أن يدعو على من ظلمه من غير أن يعتدي عليه .

يقول الرجل لصاحبه : « أنا أحتَمِلُ من (. . . .) »^(١) خدمتك حرمة لك مالا أحتمله من ولدي ، فاذا كان مثل هذا معهوداً بين الخلق فالعبد بمرعاة هذا الأدب — بينه وبين مولاه — أولى .

ويقال لا يحب الله الجهر بالسوء من القول من العوام ، ولا يحب ذلك بخطوره^(٢) من الخواص .

ويقال الجهر بالسوء من القول من العوام أن يقول في صفة الله ما لم يَرِدْ به الإذن والتوفيق . والجهر بالسوء من القول في صفة الخلق أن تقول ما ورد الشرع بالمنع منه ، وتقول في صفة الحق ما لا يتصف به فإنك تكون فيه كاذباً ، وفي صفة الخلق عن الخواص ما اتصفوا به من النقصان — وإن كنت فيه صادقاً .

قوله « وكان الله سميعاً علماً » : سميعاً لأقوالكم ، علماً بعيوبكم ، يعني لا تقولوا للأغيار ما تعلمون أنكم بمثابهم .

ويقال سميعاً لأقوالكم علماً ببراءة ساحة من تقولتم عليه ، فيكون فيه تهديد للقاتل — لبرئ الساحة — بما يتقول عليه .

ويقال سميعاً : أيها الظالم ، علماً : أيها المظلوم ، تهديد لهؤلاء وتبشير لهؤلاء .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ تَبْدُوا خيراً أَوْ تُخْفُوا ، أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾

« إِنْ تَبْدُوا خيراً » نخلقاً بأداب الشريعة ، ونخفوه تحقفاً بأحكام الحقيقة .

« أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ » أخذاً من الله ما ندبكم إليه من محاسن الخلق .

« فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا » لميوبكم « قَدِيرًا » على تحصيل محبوبكم وتحقيق مطلوبكم .

ويقال إِنْ تَبْدُوا خيراً لتكونوا للناس قدوة فيما تُسْنُون وما تعينون غيركم على ما يهدون به من سلوك سننكم ، وإِنْ تَخْفُوا اكتفاءً بعلمه ، وصيانة لنفوسكم عن آفات التصنع ، وثقة

(١) مثبته .

(٢) أي (بأن يخطر عليهم خاطر) فعقوبة العوام على النطق والقول وعقوبة الخواص على (الخاطر)

بأن^(١) من تعملون^(٢) له يرى ذلك ويعلمه منكم ، وإن تغفوا عن سوء أى تتركوا ما تدعوكم إليه نفوسكم^(٣) فالله يجازيكم بعفوه على ما تفعلون ، وهو قادر على أن يبتليكم بما ابتلى به الظالم ، فيكون تحذيراً لهم من أن يغفلوا عن شهود المنة ، وتنبهاً على أن يستعينوا أن يسلبوا العصمة ، وأن يُحذَروا حتى يقعوا فى الفتنة والمحنة .

ويقال إن تبدوا خيراً فتحسنوا إلى الناس ، أو تخفوه بأن تدعوا لهم فى السر ، أو تغفوا عن سوء إن ظلمتم .

ويقال من أحسن إليك فأبد معه خيراً جبراً ، ومن كفاك شره فأخلص بالولاء والدعاء له سراً ، ومن أساء إليك فاعف عنه كرمًا وفضلاً ؛ تجد من الله عفوَه عنك عما ارتكبت ، فإن ذنوبك أكثر ، وهو قادر على أن يعطيك من الفضل والإتمام ما لا تصل إليه بالانتصاف من خصمك ، وما تجده بالانتقام^(٤) .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ
وَيَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضِ وَنَكْفُرُ
بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا
بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ أولئك هم
الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين
عذاباً مهيناً ﴾

أفسر عنهم أنهم أضافوا إلى قبيح كفرهم ما عُدَّ من ذمهم فعلهم ، ثم بين أنه

(١) أخطأ الناسخ فكتبتها (باب)

(٢) مستدركة فى الهامش (تعملون) لأنها فى المتن (تعملون) والصواب ما جاء فى الهامش

(٣) إشارة القشيري هنا فى حاجة منا إلى تدبر ، فهو يبدأ أولاً بالنفس ، ثم ينتقل إلى الناس ، ذلك لأنه حسب ما نعرف عنه يعتبر صراعك مع نفسك هو الميدان الأول الذى ينبغى أن يسلط فيه أهواءك وأطماعك ودعواك ؛ هى أعدى أعدائك ، ثم تأتى من بعد ذلك علاقاتك خارج نفسك أى مع الناس .
(٤) واضح من هذا مقدار ما يتمتع به الصوفية من رحابة الصدر ولين الجانب وسماحة الطبع .

ضاعف^(١) من عذابهم ما كان جزاء جرمهم ، لِنَعْلَمَ أَنَّهُ لَأَهْلُ الْفَسَادِ بِالْمُرْصَادِ .
 قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا
 بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ
 أَجُورُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

لما آمنوا بجميع الرسل ، وصَدَقُوا في جميع ما أمروا به استوجبوا القبول وحسن الجزاء .
 وتقاصر الإيمان عن بعض الأعيان كتقاصره عن بعض الأزمان ، فكما أنه لا يقبل إيمان من
 لم يستغرق إيمانه جميع (. . . .)^(٢) إلى آخر ما له — كذلك لا يقبل إيمان من لم يستغرق
 إيمانه جميع (من)^(٣) أمرًا بالإيمان به ؛ إذ جعل ذلك شرط تحقيقه وكماله . فالإشارة في هذا أن
 من لم يخرج عن عهدة الإلزام بالكلية فليس له من حقيقة الوصل شظية ، قال صلى الله عليه
 وسلم : « الحج عرفة »^(٤) فمن قطع المسافة — وإن كان من فج عميق — ثم بقي عن عرفات
 بأدنى بقية لم يُدرك الحج .

وقال صلى الله عليه وسلم : « المَكْتَابُ عَبْدٌ ما بقي عليه درهم »^(٥)
 قوله جل ذكره : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنِزَّلَ
 عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا
 مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا

(١) وردت (أضعف) وهي خطأ من الناسخ ، ولا بد أن تكون (ضاعف) العذاب لأن جزاء الكافرين
 عذاب مبين وهو الذل الدنيوي الموصول بالذل الأخروي .

(٢) مشبهة .

(٣) ترجح أنها في الأصل (ما) أمر بالإيمان به منعاً للبس ، ويمكن أن تقبل (من) على أنها
 مرتبطة بالرسل .

(٤) « الحج عرفه من جاء قبل طلوع الفجر من ليلة فُتِدَ أدرك الحج أيام منى ثلاثة فمن تعجل في يومين
 فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه (الامام أحمد في مسنده وأبو عدي في الكامل والحاكم في مستدركه
 والبيهقي في السنن) ٢/٣٥٨ منتخب كثر العيال .

(٥) « المَكْتَابُ عَبْدٌ ما بقي عليه من كتابته شيء » .

مفتاح كنوز السنة (مادة العتق) للدكتور ا . فسنك ط لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية ، ومراجعته
 سنن أبي داود كتاب ٢٨ باب ١ وسنن ابن ماجه كتاب ١٩ باب ٣ وموطأ مالك كتاب ٣٩ ومسنند أحمد
 ٢ ص ١٧٨ ، ١٨٤ .

اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ
بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ
مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ
وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا *

اشتملت الآية على جنسين من قبيح ما فعلوه : أحدهما سؤالهم الرؤية والثاني عبادة العجل
بعد ما ظهرت لهم الآيات الباهرة .

فأما سؤالهم الرؤية فذموا عليه لأنهم اقترحوا عليه ذلك بعد ما قطع عندهم بإقامة
المعجزات ، ثم طلبوا الرؤية لا على وجه التعليم ، أو على موجب التصديق به ، أو على ما يحملهم
عليه شدة الاشتياق ، وكل ذلك سوء أدب .

الإشارة فيه أيضاً أن مَنْ يكتفى بأن يكون العجلُ معبودَه — متى — يسلم له أن يكون
الحقُّ مشهودَه ؟

ويقال القومُ لم يباشروا العرفانُ أسرارهم فلذلك عكفوا بمقولهم^(١) على ما يليق بهم من
محدودٍ جوزوا أن يكون معبودهم .

قوله جل ذكره : * وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا *

حجة ظاهرة ، بل تفرداً صانته من التمثيل والتعطيل .

والسلطان المبين التحصيل والتنزيه المانع من التعطيل والتشبيه .

ويقال السلطان المبين القوة بسماع الخطاب من غير واسطة .

(١) هذا كلام له أهمية قصوى في تحديد مدى تقدير القشيري لقيمة العقل .
فتحن نعرف من مذهبه في المعرفة أن العقل يعول عليه فقط في البداية ، يقول في رسالته ص ١٩٧
(نحب البداءة بتصحيح اعتقاد بين العبد وبين الله تعالى صاف عن الظنون والشبه خال من الضلال والبدع
صادر عن البراهين والحجج) ولكن العقل بعدئذ غير جذير بمواصلة الصعود إلى ما هو أعلى من ذلك لأنه
يصاب بأفات (التجويز والتحير والتوم والتعدد) ويناط بغير العقل من الملكات الأخرى وهي القلب والروح
والسر وعين السر أو سر السر أن نواصل القصود نحو الدرر العليا . فإشبه الذين يريدون تطبيق الوسائل
العقلية على الربوبية بمن عبدوا العجل ! وعكفوا بمقولهم على المحدود !

ويقال السلطان المبين لهذه الأمة غداً ، وهو بقاؤهم في حال لقائهم — قال صلى الله عليه وسلم : « لا تضامون في رؤيته »^(١) — في خبر الرؤية .

قوله جل ذكره : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾

ما زادم في الظاهر آية إلا زادوا في قلوبهم جحداً ونكراً ، فلم تنفعهم زيادة نصيب الإعلام ؛ لما لم تنفتح لشهودها بصائر قلوبهم ، قال تعالى : « وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون »^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغْيًا حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

معناه لارتكابهم هذه المناهي ، ولا تصافهم بهذه المخازي ، أحللتناهم منازل الهوان ، وأنزلنا بهم من العقوبة فنون الألوان .

ويقال لحقهم شؤم المخالفات حالة بعد حالة ، لأن من عقوبات المعاصي الخذلان لغيرها من ارتكاب المناهي ؛ فبنقضهم الميثاق ، ثم لم يتوبوا ، جرهم إلى كفرهم بالآيات ، ثم لشؤم كفرهم خذلوا حتى قتلوا أنبياءهم — عليهم السلام — بغير حق ، ثم لشؤم ذلك تجاسروا حتى ادعوا شدة نفهم ، وقالوا : قلوبنا أوعية العلوم ، فرد الله عليهم وقال : « بل طبع الله عليها بكفرهم » فحجبهم عن محل العرفان ، فعمهوا في ضلالتهم .

(١) « ... إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر »

البخاري كتاب ٩ باب ١٥ و ٢٦ وكتاب ٦٥ سورة ٤ مفتاح كنوز السنة ص ٥٧

(٢) آية ١٠١ سورة يونس

قوله جل ذكره : ﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبهة لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا * بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً *

مجاوزه الحدّ ضلالٌ ، كما أن النقصان والتقصير عن الحقّ ضلالٌ ، فقوم^(١) تقوّلوا على مريم ورموها بالزنا ، وآخرون جاؤوا الحدّ في تعظيمها فقالوا : ابنها ابنُ الله ، وكلا الطائفتين وقعوا في الضلال .

ويقال مريم — رضى الله عنها — كانت وليّة الله ، فشقي بها فرقتان : أهل الإفراط وأهل التفريط . وكذلك كان أولياؤه — سبحانه — فمُسكِرُهُمْ يَشْقَى بِتَرْكِ احترامهم ، والذين يعتقدون فيهم مالا يستوجبونه يَشْقَوْنَ بالزيادة في إعظامهم ، وعلى هذه الجملة درج الأَكْذَرُونَ من الأكابر .

قوله تعالى : ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه... يقيناً بل رفعه الله﴾ .

قوله تعالى : ﴿وما صلبوه ولكن شبهة لهم... عزيزاً حكيماً﴾ قبل أوقع الله شبهة^(٢) على الساعى به فقتل وصليب مكانه ، وقد قيل : مَنْ حَفَرَ بئراً لِأَخِيهِ وَقَعَ فِيهَا^(٣)

(١) أخطأ الناسخ فكتبها (فقوموا) .

(٢) وردت (شبهة) بالناء المربوطة والصواب (شبهه) .

(٣) اختار ابن جرير أن شبه عيسى أنى على جميع أصحابه ، وكانوا اثني عشر رجلاً (ذكر أسماء) ومنهم ليودس دكريا يوطا ، ويقول ابن اسحق (نقلا عن رواية نصرانية) أن ليودس مقابل ثلاثين درهماً هو الذي دل الأعداء على عيسى بأن قبّله ساعة دخولهم فأخذوه فصلبوه . انتهت الرواية .
تعليق : هذه الرواية التي اعتمد عليها ابن اسحق تنفق مع ما جاء في الأناجيل الأربعة وليودس هذا هو يهوذا الاسخريوطي .

وقيل إن عيسى عليه السلام قال : مَنْ رَضِيَ بَأَن يُلْقَى عَلَيْهِ شَبْهِي فَيُقْتَلَ دُونِي فَلَهُ الْجَنَّةُ ،
فرضى به بعضُ أصحابه^(١) ، فيقال لما صبر على مقاساة التلف لم يعدم من الله الخلف^(٢) ،
قال الله تعالى : « إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا »^(٣) .

ويقال لما صَحَّتْ صَحْبَةُ الرَّجُلِ مَعَ عِيسَى — عَلَيْهِ السَّلَام — بِنَفْسِهِ صَحْبَةً بِرُوحِهِ ، فَلَمَّا
رُفِعَ عِيسَى — عَلَيْهِ السَّلَام — إِلَى مَحَلِّ الزَّلْفَةِ ، رَفَعَ رُوحَ هَذَا الَّذِي فَدَاهُ بِنَفْسِهِ
إِلَى مَحَلِّ الْقُرْبَةِ^(٤) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ ﴾
به قبل موته ، ويوم القيامة يكون
عليهم شهيدا ﴿

لما حكم بأن لا أمانَ لهم في وقت اليأس لم ينفعهم الإيمان في تلك الحالة ، فَعُلِمَ أَنَّ الْعِبْرَةَ
بأمان الحق لا بإيمان العبد .

قال جل ذكره : ﴿ قَبِظْهُمْ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا
عَلَيْهِمْ طُيُبَاتٍ أَحَلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّمْ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ وَأَخَذَهُمُ
الرُّبَا وَقَدْ نُهِوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ
النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ
مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿

(١) عن ابن اسحق عن رجل كان نصرانياً وأسلم أنه ذكر له أن عيسى حين جاءه من الله إني رافعتك
قال يا معشر الحواريين : أيكم يحب أن يكون رفيق في الجنة حتى يشبه للقوم في صورتي فيقتلوه في مكان
فقال أحدم واسمه سرجس : أنا يا روح الله . قال : فاجلس لي مجلسي فجلس فيه ، ورفع عيسى (عم)
فدخلوا على سرجس وصلبوه .

وفي رواية لسعيد بن جبير عن ابن عباس اتفاق كبير مع ذلك دون ذكر اسم (سرجس) .

(٢) أخطأ الناسخ إذ نقلها (الخلق) بالقاف .

(٣) آية ٣٠ سورة الكهف .

(٤) في تعبير القشيري ذكاء ، ففي حالة عيسى قال (رفع) دون أن يحدد كيفية الرفع ، أبا الجسد أم بالروح
أم بهما معاً ، وفي حالة الثاني قال (رفع روحه) ، ونفهم — من حيث المصطلح — أن الزلفة أقوى من القرية .

يقال ارتكاب المحظورات يوجب تحريم اللبّاحات .

فَمَنْ رَكِبَ مُحْظُورًا بظاهره حُرْمٌ^(١) ما كان يجده من الأحوال للباحة ، والألطف الحاصلة في سرائره .

قوله جل ذكره : ﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ
وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ
وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، وَالْمُقِيمِينَ
الصَّلَاةَ ، وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَالْمُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

الراسخ في العلم هو ألا يكون في الدليل مُقْلَدًا ، كما لا يكون في الحكم مُقْلَدًا ، بل يضع
النظر موضعه إلى أن ينتهي إلى حد لا يكون: للشك في عقله مساغ .

ويقال الراسخ في العلم من يرتقى عن حد تأمل البرهان^(٢) ويصل إلى حقائق البيان .

ويقال الراسخ في العلم أن يكون بعلمه عاملاً حتى يفيد عمله عِلْمٌ ماخفٍ على غيره ، ففي الخبر :
« من عمل بما علمه ورثه الله علم ما لم يعلم »^(٣) .

وخص « المقيمِينَ الصلاة » في الإعراب فنَصَبَ اللفظ بإضمار أعني على المدح لما للصلاة
من التخصيص من بين العبادات لأنها تالية الإيمان في أكثر المواضع في القرآن ، ولأن الله

(١) أخطأ الناسخ حين كتبها (جرم) بالجيم والصواب أن تكون بالخاء لا ارتباطها بتحريم المباحات
فيما سبق .

(٢) أي ينبغي ألا يكف الإنسان على العقل وحده بل عليه أن يرتقى عن هذا الحد .
(راجع الهامش الذي يتناول هذه القضية من هذا الكتاب)

(٣) أورده أبو نعيم في حلية الأولياء عن أنس بن مالك .
ويرى أبو نصر السراج أن هذا العلم الموروث هو علم الإشارة ، فيكشف الله سبحانه لقلوب أصفياه المعاني
المنخورة ، واللطائف والأسرار المحزونة وغرائب العلوم وطرائف الحكم في معاني القرآن ... اللع ص ١٤٧
(كتاب المستنبطات) .

— سبحانه — أمر الرسول صلى الله عليه وسلم (بها) ^(١) ليلة المراج بغير واسطة جبريل عليه السلام . . . وغير هذا من الوجوه .

قوله تعالى « أجرًا عظيمًا » : الأجر العظيم هو الذي يزيد على قدر الاستحقاق بالعمل .

قال جل ذكره : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا

إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا

إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ

ويعقوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ

وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ، وَآتَيْنَا

دَاوُدَ زَبُورًا ﴿

إفراد النبي صلى الله عليه وسلم من الأنبياء بالإيمان لإفرادهم بالتخصيص والفضيلة ؛ فأفرد نوحاً على ما استحقه من المقام وأفرد رسولنا عليه السلام على ما استحقه هو ، فاشتركا في الإفراد لكنهما تباينا في الفضيلة على حسب المقام ، فتفرّد واحد من بين أشكاله بغير فضائل ، وتفرّد آخر من بين أضرابه ^(٢) بألف فضيلة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ

وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ

مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿

سنة الله في أوليائه ستر قوم ، وشهر قوم ، وبذلك جرت سنة أيضاً في الأنبياء عليهم السلام — أظهر أسماء قوم وأجل تفصيل آخرين . والإيمان واجب بجميع الأنبياء جملة وتفصيلاً ، كما أن الاحترام واجب لجميع الأولياء جملة وتفصيلاً ، وكذلك أحوال العباد ستر عليهم بعضاً وأظهر لهم بعضها ، فما أظهرها لهم — طالبهم بالإخلاص فيها ، وما سترها

(١) إضافة وضعناها ليناسك المعنى .

(٢) وردت (أخرايه) بالحاء وهي خطأ في النسخ والصواب (أضرابه) أي (أشكاله) التي سبقت ، والفقرة كلها غير واضحة ، وقد أثبتناها كما هي .

عليهم — فلا نه غار^(١) على قلوبهم من ملاحظة أحوالهم تأهيلاً لهم للاختصاص بمقائق أفردهم بمعانيها .

« وكلم الله موسى تكليماً » : إخبار عن تخصيصه إياه باستماع كلامه بلا واسطة .

قوله جل ذكره : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾

وقف الخلق عند مقاديرهم ؛ وبين أنه أرسل إليهم الرسل فتفردوا عليهم إلى اجتناب ثوابهم ، واجتناب ما فيه استحقاق عذابهم ، وأنه ليس للخلق سبيل إلى راحة يطلبونها ولا إلى آفة يجتنبونها إما في الحال أو في المال .

قوله جل ذكره : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ سَأَلْتَهُ الظَّالِمِينَ ﴾

الرسول وكان الله عزيزاً حكماً ﴿

أنى يكون لمن له إلى الله حاجة على الله حجة ؟ ولكن الله خاطبهم على حسب عقولهم .

قوله جل ذكره : ﴿ لَكِنَّا نَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ أَنْزَلْنَاهُ

بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى

بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾

سأله الله عن تكذيب الخلق إياه بما ذكره من علم الله بصدقه ، ولذلك قال : « وكفى

بِاللَّهِ شَهِيداً » .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيداً ﴾ إِنَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ

لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً ﴿

إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ،

وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِسِيراً ﴾

(١) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (ص) : إن الله يغار وإن المؤمن يغار وغيره الله تعالى أن يأتي العبد المؤمن ما حرّم الله تعالى عليه ، الرسالة ص ١٢٦ وقال القشيري : إذا وصف الحق سبحانه بالغيرة فعناء أنه لا يرضى بمشاركة الغير معه فيها هو حق له من طاعة عبده . (الرسالة نفس الصفحة) .

جعل صدم المؤمنين (من) ^(١) اتباع الحق نظير كفرهم بالله ، والله تعالى عظم حقوق أوليائه كتعظيم حق نفسه ، ثم قال : « إن الذين كفروا وظلموا » جعل ظلمهم سبيل كفرهم ، فعَلَّقَ استحقاق العقوبة المؤبدة عليها جميعاً . والظلم — وإن لم يكن كالكفر في استحقاق وعيد الأبد — فَلِشُرِّمِ الظلم لا يبعد أن يخذله الله حتى يُوَافِيَ رَبَّهُ على الكفر .

قوله جل ذكره ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرِّسَالُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

«يا أهل الكتاب» : أخبر أنه سبحانه غنى عنهم ، فإن آمنوا فحفظوا أنفسهم اكنسبوها وإن كفروا ^(٢) فبلايائهم لأنفسهم اجتلبوها . والحق — تعالى — مُنَزَّه الوصف عن (الجهل) ^(٣) لوافق أحدي ، والنقص لخلاف أحد .

قوله : « وإن تكفروا فإن لله ما في السموات والأرض » يعني إن خرجوا عن استعمال العبودية — فعلاً ، لم يخرجوا عن حقيقة كونهم عبيده — خلقاً ، قال تعالى : « إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً » ^(٤)

قوله جل ذكره : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمْنَاهُ آتَيْنَاهُ إِلَهًا مَرْيَمَ وَرُوحًا مِنْهُ﴾

(١) ربما كانت (عن) فهكذا في الآية الكريمة .

(٢) في النسخة (وإن لم تكفروا) ولكنها مصححة باستدراك في الهامش (وإن كفروا) وهو الأصوب .

(٣) نظن أن الناسخ قد أخطأ في نقل هذه الكلمة فإن من عادة القشيري في مثل هذا السياق أن يذكر أن طاعة المطيع ليست زينة للحق ، ومعصية العاصي ليست شيناً له ، لأجل هذا رجح أن العبارة هنا تستقيم لو كانت (والحق تعالى منزّه الوصف عن الكمال لوافق أحد وعن النقص لخلاف أحد) .

(٤) آية ٩٣ سورة مريم .

فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً
 انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ
 سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ، لَهُ مَا فِي
 السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ
 وَكِيلًا * .

غُلُّوْهُمْ فِي دِينِهِمْ جَرِيْهُمُ عَلَى مَقْتَضَى حِسَابِهِمْ ؛ حَيْثُ وَصَفُوا — بِمِثَابَةِ الْخَلْقِ —
 مَعْبُودَهُمْ ، ثُمَّ مَنَاقَضْتَهُمْ ؛ حَيْثُ قَالُوا الْوَاحِدَ ثَلَاثَةً وَالثَّلَاثَةَ وَاحِدًا^(١) ، وَالتَّمَادَى فِي الْبَاطِلِ لَا يَزِيدُ
 غَيْرَ الْبَاطِلِ .

قوله جل ذكره : * لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ
 عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ
 وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ
 فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا * فَأَمَّا الَّذِينَ
 آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ
 أَجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ *

كيف يستنكف عن عبوديته وبالعبودية شرفه ، وكيف يستكبر عن التذلل
 وفي استكباره تكلفه ، ولهذا الشأن نطق المسيح أول ما نطق بقوله : إني عبد الله ، ونجمل العبيد
 في التذلل للسادة ، هذا معلوم لا ندخله رتبة^(٢) .

وقوله : « وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ » لا يدل على أنهم أفضل من المسيح ، لأنه إنما خاطبهم
 على حسب عقائدهم ، والقوم اعتقدوا تفضيل الملائكة على بني آدم .

(١) الثلاثة إما أن يكون مقصوداً منها : الله والمسيح ومريم ، وإما — كما ورد في الأنجيل — الأب
 والابن والروح القدس ، وسواء انصرف إلى هؤلاء أم إلى أولئك فإنه شرك محض تولى القرآن الكريم
 تنفيده في مواضع شتى .
 (٢) وردت (رتبة) ولا نحسب أن لها معنى هنا ، ونرجح أنها في الأصل (رتبة) أي هذا معلوم
 لا شك فيه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكَبرُوا

فيعذبهم عذاباً أليماً ، ولا يجدون لهم

من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾

العذاب الأليم ألا يصلوا إليه ^(١) أبداً بعدما عرفوا جلاله ، فإذا صارت معارفهم ضرورية ^(٢) فإنهم يعرفون أنهم عنه بقوا ^(٣) ، فحسراتهم حينئذ على ما فاتهم أشد عقوبة لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

البرهان ما لاج في سرائرهم من شواهد الحق .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مبيناً ﴾

وهو خطابه الذي في تأملهم معانيه حصول استبصارهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ ^(٤) واعتصموا به

فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ﴾

« سيدخلهم في رحمته » : والسين للاستقبال أى يحفظ عليهم إيمانهم في المال ^(٥) عند

التوفى ، كما أكرمهم بالعرفان والإيمان في الحال .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

(١) أى يقطع بينهم وبين رؤيته سبحانه ، وفي هذا يقول ذو النون (خوف النار إذا قيس إلى خوف القطع عن المحبوب كقطرة الماء تنذف في أعظم المحيطات .

ويقول بعضهم : إلهى إذا شئت أن تعذبني فألقني إلى النار ولا تعذبني بهذا الحجاب .

(٢) قلنا من قبل في هامش سابق - نقلا عن مذهب القشيري : إن المعرفة في البداية كسبية

وفي الانتهاء ضرورية ، ومعنى الكلام هنا أنهم يحرمون من أعظم الأشياء متعة بعد ما لاحت لهم بعض المعارف . . وذلك غاية في التعذيب .

(٣) (عنه بقوا) البقاء عن الله سبحانه أشد أنواع العقاب .

(٤) سقطت (بالله) من النسخ فأثبتناها في موضعها .

(٥) وردت (المال) ويلزم وضع المد على الألف لتكون (المال) وقد تكرر هذا في مواضع

كثيرة فيما سبق .

هذه الهداية هي إكرامهم بأن عرفوا أن هذه الهداية من الله لهم فضل لا لأنهم استوجبوها بطلبهم وجهدهم ، ولا بتعبهم وكدهم^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ
إِنْ أَمْرٌ هَلْكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ
فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ بِرِثُهَا
إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ
فَلَهُمَا الشُّلْثَانُ مِمَّا تَرَكَ ، وَإِنْ كَانُوا
إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ
حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ، يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ
تَقْضُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

قطع الخصومة بينهم في قسمة^(٢) الميراث فيما أظهر لهم من النص على الحكم ، فإن المال محبب إلى الإنسان ، وجبكت النفوس على الشح ؛ فلو لم ينص على مقادير الاستحقاق (لقابلة الاشياء)^(٣) في الاجتهاد ، فكان يؤدي ذلك إلى التجاذب والتواشب ؛ فحسم تلك الجملة بما نص على المقادير في الميراث قطعاً للخصام . ولتوريثه للنسوان — وإن لم يوجد منهن الذب عن العشيعة — دلالة على النظر لضعفهن . وفي تفضيل الذكور عليهن لما عليهم من حمل^(٤) المؤن وكذا السعي في تحصيل المال ، والقيام عليهن .

-
- (١) يهدف القشيري دائماً إلى أن يعود بكل شيء إلى فضل الله ، وأن يشعر العبد دائماً بأن عمله ليس وحده كافياً للنجاة ، فإذا طالع العبد نفسه في شيء ما ففي ذلك وبال عليه .
(٢) وردت (بالصاد) والصواب أن تكون بالسين ، وربما كانت (قضية) في الأصل .
(٣) هكذا في النسخة (م) ونرجح أنها في الأصل (لقابلة الاشتباه) في الاجتهاد أي ان النص على المواريث ازال كل اشتباه ينجم من الاجتهاد .
(٤) وردت (بحمل) ونرجح أنها في الأصل : (حل) فقبلها جار .
(حاشية) لم يتعرض القشيري لمعنى (الكلاله) ولقد كنا نود لو أوضح الرأي فيها ، خصوصاً وأن موضوعها منهم ، وتسمى هذه الآية الأخيرة من سورة النساء بآية الصيف ، قال الإمام أحمد : حدثنا أبو نعيم حدثنا مالك يعني ابن مقل يقول سمعت الفضل بن عمرو عن إبراهيم عن عمر بن الخطاب قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكلاله فقال : « بكفبك آية الصيف » فقال لأن أكون سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها أحب إلى من أن يكون لي حمر النعم .

السورة التي تذكر فيها المائدة

بسم الله الرحمن الرحيم

تسماع اسم الله يُوجبُ الهيبة ، (والهيبة) ^(١) تتضمنُ الفناء والغيبة ، وسماع الرحمن الرحيم يوجب الحضور والأوبة ، والحضور يتضمنُ البقاء والقربة .

فمن أسمعهُ « بسم الله » أدهشه في كشف جلاله ، ومن أسمعهُ « الرحمن الرحيم » غيَّشه بلطفِ أفضاله .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾

« يا » حرف نداء ، و « أى » اسم منادى ، « ها » تنبيه ، و « الذين آمنوا » صلة للنادى . ناداهم قبل أن يدام ، وسمَّاهم قبل أن يرام ، وأهلَّهم في آزاله لِمَا أوصلهم إليه في آبابه .

شَرَّفهم بقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » ، وكَلَّفهم بقوله « أوفوا » ، ولمَّا عَلِمَ أن التكليف يوجب المشقة قدَّم التشريف بالثناء على التكليف الموجب للعناء .

ويقال الإيمانُ صنفان : أحدهما يشير إلى عين الجود ، والثاني إلى بذل المجهود . فَبَذَلُ المجهودِ خِدْمَتُكَ ، وعين الجود قِسْمَتُهُ ؛ فبخدمتك عناء الأشباح ، وبقسمته ضياء الأرواح .

وحقيقة الإيمان نَحَقُّ القلب بما أخبر من الغيب .

ويقال « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » : يا مَنْ دخلوا في إيماني ، ما وصلتم إلى أمانى إلا بسابق إحساني .
ويقال يا مَنْ فتحتُ بصيرتهم لشهود حقى حتى لا يكونوا كمن أعرضتُ عنهم مِنْ خَلْقِي .

= وذكر الإمام أحمد بإسناد آخر أكثر صحة مما سبق .

ومن الأقوال التي ذكرت عن الكلالة أنها مأخوذة من الإكليل الذي يحيط بالراس من جوانبه ولهذا فسرّها أكثر العلماء بمن يموت وليس له ولد ، ومن الناس من يقول الكلالة من لا ولد له كما دلت عليه الآية (إن امرؤ هلك ليس له ولد) .

(١) أضفناها لأن السياق يستدعيها ، إذ توجب أنها سقطت في النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿أوفوا بالعقود﴾

كُلُّ مُكَلَّفٍ مُطَالَبٌ بالوفاء بعقده ، والعقد ما أُلْزِمَكَ بِسابق إيجابه ، ثم وَفَّقَكَ — بعدما أظهرَكَ عند خطابه — بجوابه ^(١) ، فأنبرم العقد بمحصول الخطاب ، والقبول بالجواب .
ويدخل في ذلك — بل يلتحق به — ما عَقَدَ القلبُ معه سِرًّا بَسْرًا ؛ من خلوص له أضمره ، أو شيء تبينه ، أو معنى كوشف به أو طولب به فقبِله .

ويقال الوفاء بالعهد بصفاء القصد ، ولا يكون ذلك إلا بالتبرُّى من اللئنة ، والتحقق بتولى الحق — سبحانه — بلطائف المنة ^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَيْمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُنْتَلَى

عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾

تحليل بعض الحيوانات وإباحتها من غير جُرْمٍ سَبَقَ منها ، وتحريم بعضها وللعن من ذبحها من غير طاعة حصلت منها — دليلٌ على ألاَّ عِلَّةَ لِمَنْعِهِ .

وحرَّم الصيد على الْمُحْرَمِ خصوصاً لأنَّ الْمُحْرَمَ متجرِّدٌ عن نصيب نفسه بقصده إليه ، فالأليق بصفاته كُفُّ الأذى عن كل حيوان .

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾

لا حَجَرَ عَلَيْهِ في أفعاله ، فيخصُّ من يشاء بالتعصُّ ، ويفرد من يشاء باليلوى ؛ فهو يُعْضِي الأمور في آباده على حسب ما أراد وأخبر وقضى في آزاله .

قوله جل ذكره : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾

الشعائر معالم الدين ؛ وتعظيم ذلك وإجلاله خلاصة الدين ، ولا يكون ذلك إلا بالامتثال عند هجوم التقدير ، والتزام الأمر بجميل الاعتناق ، وإخلال الشعائر (يكون) بالإخلال بالأوامر .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ

وَلَا الْقُلَائِدَ﴾

(١) يشير القشيري إلى قوله تعالى يوم النذر : « أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا بَلَى . »

(٢) يفرِّق القشيري بين لئنة العبد واللئنة للحق .

تعظيم المكان الذي عظمه الله ، وإكرامُ الزمان الذي أكرمه الله . وتشريف الإعلام على ما أمر به الله — هو المطلوب من العبيد أمراً ، والمحجوب منه حالاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا آمِنُ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَتَفَوَّنُوا فَضلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً ﴾

وبالحرى لمن يقصد البيت ألا يخالف رب البيت .

والابتغاء للفضل والرضوان بتوقُّي موجبات السخط ، ومجانبة العصيان .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوا عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا ﴾

وإذا خرجتم عن أمر حقوقنا فارجموا إلى استجلاب حظوظكم ، فأما ما دمنتم تحت قهر بطشنا فلا نصيب لكم منكم ، وإنكم لنا .

قوله « وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ . . . » أي لا يحملكم بغض قومٍ لأنهم صدوكم عن المسجد الحرام على ألا تجاوزوا حدَّ الإذن في الانتقام ، أي كونوا قاتمين بنا ، منجدين عن كل نصيب وحظٍ لكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ .

البرُّ فعلٌ ما أُمِرْتُ به ، والتقوى تركُ ما زُجِرَتْ عنه .

ويقال البرُّ إثبات حقه — سبحانه ، والتقوى تركُ حظِّك .

ويقال البرُّ موافقة الشرع ، والتقوى مخالفة النفس .

ويقال المعاونة على البرِّ بحُسن النصيحة وجيل الإشارة للمؤمنين ، والمعاونة على التقوى بالتبض على أيدي الخطائين بما يقتضيه الحال من جميل الوعظ ، وبلغ الزجر ، وتمام المنع على ما يقتضيه شرط العلم .

والمعاونة على الإثم والعدوان بأن تعمل شيئاً مما يقتدى بك لا يرضاه الدين ، فيكون قولك الذي تفعله ويقتدى بك (فيه) سُنَّةً تظهرها و(عليك) نبؤٌ وزرّها . وكذلك المعاونة

على البر والتقوى أى الانصاف بحميل الخصال على الوجه الذى يُقْتَدَى بك فيه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

العقوبة ما تعقب الجرم بما يسوء صاحبه . وأشد العقوبة حجاب المُعَاقِبِ عن شهود المُعَاقِبِ ؛ فَإِنَّ تَجَرُّعَ كَاسَاتِ الْبَلَاءِ بِشُهودِ الْمُبْلِي أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَالشَّهْدِ .

قوله جل ذكره : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكَ الْمَيْتَةُ وَاللَّهُمُّ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ ﴾ .

وأكل الميتة أن تتناول من عَرَضَ أخيك على وجه الغيبة^(١) ، وليس ذلك مما فيه رخصةٌ بحالٍ لا بالاضطرارٍ ولا بالاختيارٍ ، وغير هذا من المَيْتَةِ مباحٌ في حالِ الضرورة .

ويقال كما أنَّ في الحيوان ما يكون المزكى منه مباحاً والميتة منه حراماً فكذلك من ذبح نفسه بسكاكين المجاهدات وطهرَ نفسه — مباحٌ قربه ، حلال صحبته . ومن ماتت نفسه في ظلمة غفلته حتى لا إحساس له بالأمور الدينية فخيثةٌ نفسه ، محظورٌ قربه ، حرام معاشرته ، غيرُ مباركةٍ صحبته .

وإنَّ السلف سموا الدنيا خنزيرةً ، ورأوا أنَّ ما يُلْهِى قربه ، ويُنْسِي المعبودَ ركوته ، ويحمل على العصيان جنوحه — فهو مُحَرَّمٌ على القلوب ؛ ففي طريقة القوم حبُّ الدنيا حرامٌ على القلوب ، وإن كان إمساكُ بعضها حلالاً على الأبدان والنفوس .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ ﴾ .

كما أنَّ للذبوح على غير اسمه ليس بطيبٍ قَمَنْ بِذَلِكَ رُوحَهُ فِيهِ وَجَدَ رُوحَهُ مِنْهُ ، ومن تهاشته كلاب الدنيا ، وقلته مخالف الأطماع ، وأسْرَتْهُ مطالبُ الأغراض والأعراض — فحرامُ ماله على أهل الحقائق في مذهب التعرز ، فلشريعةِ الظرف والتقدير .

وأما المنخنقة فالإشارة منه إلى الذى ارتبك في حبال المنى والرغائب ، وأخذته خناقٌ

(١) يشير القشيري بذلك إلى قوله تعالى : « أَيْحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ... » .

الطمع ، وخنقته سلاسل (الحرص) ^(١) فحرامٌ على السالكين سلوك خطتهم ، ومحذور على المريدين متابعة مذهبهم .

وأما الموقوفة فالإشارة منها إلى نفوس جُبلت على طلب الحسائس حتى استملكها كلها فهي التي ذهبت بلا عوض حصل منها ، وأمثال ذلك حرامٌ على أهل هذه القصة .

والإشارة من المتردية إلى من هلك في أودية التفرقة ، وعى عن استبصار رشد الحقيقة ، فهو يهيم في مفاوز الظنون ، وينهك في مناهات المنى .

والإشارة من النطيحة إلى من صارَعَ الأمثال ، وقارع الأشكال ، وناطح كلاب الدنيا فخطموه بكلب حرصهم ، وهزموه بزيادة تكلمهم ، وكذلك الإشارة من :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وما أكل السبع إلا ما ذكّيت ﴾ .
وأكلة السبع ماولنت فيه كلاب الدنيا ، فإن الدنيا جيفة ، وأكلة الجيف الكلاب ويستثنى منه الزكي وهو ما تقرر من متاع الدنيا لله ؛ لأن زاد المؤمنين من الدنيا : ما كان لله فهو محمود ، وما كان للنفس فهو مذموم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وما ذُبحَ على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ﴾ .

فهو ما أُرصدَ لغير الله ، ومقصودٌ كلّ حريصٍ — بموجب شرعه — معبوده من حيث هواه قال الله تعالى . « أفرايت من اتخذ إلهه هواه » يعنى اتخذ هواه إلهه .

« وأن تستقسموا بالأزلام » ، الإشارة منه إلى كل معاملة ومُصاحبة يُنيت على استجلاب الحظوظ الدنيوية — لا على وجه الإذن — إذ القمار ذلك معناه . وقلّت المعاملات المجردة عن هذه الصفة فيما نحن فيه من الوقت .

قوله جلّ ذكره : ﴿ ذلِكُمْ فَسْقٌ ﴾

أى إيثار هذه الأشياء انسلاخ عن الدين .

(١) وردت (الحرس) وهي خطأ في النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ اليوم يئس الذين كفروا من

دينكم فلا تخشوهم واخشون ﴾

أى بعدما أزمحتم عن قلوبكم آثار الحسبان ، وتحققتم بأن المتفرد بالإبداع نحن ، فلا تلاحظوا سواي ، ولا يظللن قلوبكم إشتاق من غيري .

ويقال إذا كانت البصائر متحققة بأن النفع والضرر ، والخير والشر لا تحصل شظية منها إلا بقدرة الحق — سبحانه ، فمن المحال أن تنطوي — من مخلوق — على رغب أو رهب .

قوله جل ذكره : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾

إكمال الدين — وقد أضافه إلى نفسه — صوته العقيدة عن النقصان ؛ وهو أنه لما أزعج قلوب المتعرفين لطلب توحيد أملاكها بأنوار تأييده وتسديده ، حتى وضعوا النظر موضعه من غير تقصير ، وحتى وصلوا إلى كمال العرفان من غير قصور .

ويقال إكمال الدين تحقيق القبول في المال ، كما أن ابتداء الدين توفيق الحصول في الحال ؛ فلولا توفيقه لم يكن للدين حصول ، ولولا تحقيقه لم يكن للدين قبول .

ويقال إكمال الدين أنه لم يبق شيء يعلمه الحق — سبحانه — من أوصافه وقد علمك .

ويقال إكمال الدين أن ما تقاصر عنه عقلك من تعيين صفاته — على التفصيل — أكرمك بأن عرفك ذلك من جهة الإخبار .

ولما أراد بذكر « اليوم » وقت نزول الآية . وتقييد الوقت في الخطاب بقوله « اليوم » لا يعود إلى عين إكمال الدين ، ولكن إلى تعريفنا ذلك الوقت .

والدين موهوب ومطلوب ؛ فالمطلوب ما أمكن تحصيله ، والموهوب ما سبق منه حصوله .

قوله جل ذكره : ﴿ وأنعمت عليكم نعمتي ﴾

النعمة — على الحقيقة — ما لا يقطعك عن المنعم بل يوصلك إليه ، والنعمة المذكورة

ها هباتمة الدين ، وإتمامها وفاء المال ، واقتران الغفران وحصوله . فأكمال الدين تحقيق المعرفة ، وإتمام النعمة تحصيل المغفرة . وهذا خطاب لجماعة المسلمين ، ولا شك في مغفرة جميع المؤمنين ، وإنما الشك يعتري في الآحاد والأفراد هل يبقى على الإيمان ؟

قوله جل ذكره : ﴿ ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾

وذلك لما قسم للخلق أديانهم ؛ فخصّ قوماً باليهودية ، وقوماً بالنصرانية ، إلى غير ذلك من النحل والملل ، وأفرد المسلمين بالتوحيد والغفران .

وقدّم قوم الإكمال على الإتمام ، فقالوا : الإتمام يقبل الزيادة ، فلذلك وصف به النعمة لقبول النعم للزيادة ، ولا رتبة بعد الكمال فلذلك وصف به الدين .

ويقال لا فرق بين الدين والنعمة المذكورة ها هنا ، وإنما ذكر بلفظين على جهة التأكيد ، ثم أضافه إلى نفسه فقال : « نعمتي » وإلى العبد فقال : « دينكم » . فوجه إضافته إلى العبد من حيث الاكتساب ، ووجه إضافته إلى نفسه من حيث الخلق . فالدين من الله عطاء ، ومن العبد عناء^(١) ، وحقيقة الإسلام الإخلاص والالتقياد والخضوع لجريان الحكم بلا نزاع في السر .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَن اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ

لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

الإشارة من هذه الآية أنه لو وقع لسالك فترة ، أو لمريد في السلوك وقفة ، ثم تنبه لمعظم واقعه فبادر إلى جميع الرجعة باستشعار التحسر على ما جرى تداركت الرحمة ، ونظر الله — سبحانه — إليه بقبول الرجعة .

والإشارة من قوله « غير متجانف لإثم » أي غير معرج على الفترة ، ولا مستديم لعقدة الإصرار ، وبمحتمل أن يكون معناه من نزل عن مطالبات الحقائق إلى رخص العلم لضعف وجده في الحال فربما تجرى معه مساهلة إذا لم يفسخ عقد الإرادة .

(١) هذه العبارة تساوي في المعنى ما سبق ذكره ان « الدين موهوب ومطلوب » والمقصود بالعناء أن الدين معاناة وممارسة من جانب العبد .

قوله جل ذكره : ﴿ يسألونك ماذا أحلّ لهم قل
أحلّ لكم الطيبات وما علمتم من
الجوارح مكلّين تعلّونهم مما علمكم
الله ، فكلوا مما أمسكن عليكم ،
واذكروا اسم الله عليه ، واتقوا الله
إن الله سريع الحساب ﴾

لما علموا أن الحسن من أفعالهم ما ورد به الأمر وحصل فيه الإذن تعرّفوا ذلك من
تفصيل الشرع ، فقال : « يسألونك ماذا أحلّ لهم » ثم قال :
« قل أحلّ لكم الطيبات » وهو الحلال الذي تحصل من تناوله طيبة القلوب فإن أكل
الحرام يُوجب قسوة القلب ، والوحشة مقرونة بقسوة القلب ، وضياء القلوب وطيب
الأوقات متصل بصون الخلق عن تناول الحرام والشبهات .
وقوله : « وما علمتم من الجوارح مكلّين » : ولما كان الكلب المُعلّم ترك حظه ،
وأمسك ما اصطاده على صاحبه حلت فريسته ، وجاز اقتناؤه ، واستغرق في ذلك حكم خسامته
فكذلك من كانت أعماله وأحواله لله — سبحانه — مختصة ، ولا يشوبها حظ تجلّ رتبته
وتعلو حالته .

ويقال حسنُ الأدب يُلحقُ الأخسة برتبة الأكابر ، وسوء الأدب يرُدُّ الأعزة
إلى حالة الأصاغر .

ثم قال : « واذكروا اسم الله عليه » : بين أن الأكل — على الغفلة — غير مرضي
عنه (في القصة)^(١)

« واتقوا الله إن الله سريع الحساب » بحيث لا يشغله شأن عن شأن ، وسريع الحساب
— اليوم — مع الأحاب والأولياء ، فهم لا يسأمحون في (الخطوة)^(٢) ولا في اللحظة ،
معجل حسابهم ، مضاعف — في الوقت — نوابهم وعقابهم .

(١) وضعت (في القصة خطأ) بعد سريع الحساب وقد أثبتناها في موضعها الصحيح .

(٢) وبما كانت في الأصل (الخطرة) بالراء فالأكابر يحاسبون على أدق شاطر يخطر على قلوبهم .

قوله جل ذكره ﴿اليوم أُحِلُّ لَكُمْ الطيباتُ وطعامُ
الذين أوتوا الكتابَ حِلٌّ لَكُمْ
وطعامكم حِلٌّ لَهُم وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ
الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا
آتَيْنَهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ
مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَخَدِّينَ أَخْدَانٍ ،
وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ
وهو في الآخرة مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿

ليس الطَّيِّبُ ما تستطيبه النفوس، ولكن الطيب ما يوجد فيه رضا الحق — سبحانه —
فتوجد عند ذلك راحة القلوب .

« وطعام الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم » : القَدَرُ الذي بيننا وبينهم من الوفاق في إثبات
الربوبية لم يَعرَّ من أثرٍ في القربة فقال الله تعالى : « ولتجدنَّ أقربهم مودةً للذين آمنوا الذين
قالوا إنا نصارى » ^(١)

وكذلك الأمر في المحصنات من نسائهم . وأُحِلَّ الطعامُ والذبيحةُ بيننا وبينهم من الوجهين
فيحلُّ لنا أكل ذبائحهم ، ويجوز لنا أن نطعمهم من ذبائحنا ، ولكن التزوج بنسائهم يجوز لنا ،
ولا يجوز تزوجهم بنسائنا لأن الإسلام يعلو ولا يُعْلَى .

ثم قال « محصنين غير مسافحين » يعني إناهم وإن كانوا كفاراً فلا تجب صحتهم بغير
نكاح تعظيماً ^(٢) لأمر السفاح ، وتنبيهاً على وجوب مراعاة الأمر من الحق . وكذلك
« ولا متخذي أخدان » لأنه إذا لم يجر تعلق قلبك بالمؤمنين على وجه المخادنة فتى يسلم ذلك
مع الكفار الذين هم الأعداء ؟

قوله جل ذكره : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ

(١) آية ٨٢ سورة المائدة .

(٢) تعظيماً هنا معناها تهويلاً واستبشاعاً .

فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق
وامسحوا برءوسكم وأرجلكم
إلى السكبين *

كما أن في الشريعة لا تصح الصلاة بغير الطهور فلا تصح — في الحقيقة — بغير طهور .
وكما أن للظاهر طهارة فللسرائر أيضاً طهارة ، وطهارة الأبدان بماء السماء أى للطر ، وطهارة
القلوب بماء الندم والخجل ، ثم بماء الحياء والوجل .

وكما يجب غسل الوجه عند القيام إلى الصلاة يجب — في بيان الإشارة — صيانة الوجه
عن التبذل للأشكال عن طلب خسائس الأعراض .

وكما يجب غسل اليدين في اليدين في الطهارة يجب قصرهما عن الحرام والشبهة .

وكما يجب مسح الرأس يجب صونه عن التواضع والتخفيض لكل أحد .

وكما يجب غسل الرجلين في الطهارة يجب صونهما في الطهارة الباطنة عن التنقل فيما لا يجوز

قوله جل ذكره : * وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطْبُروا وَإِنْ كُنْتُمْ

مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ

مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لِمَسَمَسِ النِّسَاءِ فَلَمْ

تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا

فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ *

كما يقتضى غسل جميع البدن في الطهارة . كذلك في الطهارة الباطنة ما يوجب الاستقصاء ،
وذلك عندما تقع للمريد فترة فيقوم بتجديد عقده ، وبأكيد عهده ، والتزام عزامة ، وتسليم
وقت ، واستدامة ندامة ، واستشعار خجل .

وكما أنه إذا لم يجد المتطهر الماء ففرضه التيمم فكذلك إذا لم يجد المريد من يفيض عليه
صوب همة ، ويغسله بركات إشارته ، ويعينه بما يثوب به من زيادة حالته — اشتغل
بما تيسر له من اقتفاء آثارهم ، والاستراحة إلى ما يجد من سالف سيرهم ، وما ورد
من حكاياتهم

وكأن فرض التيمم على الشطر والنقصان فكذلك المطالبات على إصفاء هذه الحالة تكون أخف لأنه وقت الفترة وزمان الضعف .

قوله جل ذكره : ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ﴾
وتلوح من هذه الجملة الإشارة إلى أنه إذا بقي المريد عن أحكام الإرادة فليحطط رجليه بساحات العبادة ، فإذا عديم اللطائف في سرائره فليستدِم الوظائف على ظاهره ، وإذا لم يتحقق بأحكام الحقيقة فليستخلق بآداب الشريعة ، وإن لم يتخرج عن تركه الفضيلة فلا يدنس تصرفه بالحرام والشبهة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولكن يريد ليظهركم ﴾

أى يظهر ظواهركم عن الزلة بعصته ، ويظهر قلوبكم عن الغفلة برحمته .
ويقال يظهر سرائركم عن ملاحظة الأشكال ، ويظهر ظواهركم عن الوقوع في شباك الأشغال .

ويقال يظهر عقائدكم عن أن تتوهموا تدثس المقادير بالأعلال .

قوله جل ذكره : ﴿ وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ﴾

إتمام النعمة على قوم بنجاة نفوسهم ، وعلى آخرين بنجاتهم عن نفوسهم ، وشتان بين قوم وقوم .

ويقال إتمام النعمة في وفاء العاقبة ؛ فإذا خرج من الدنيا على وصف العرفان والإيمان فقد تمت سعادته ، وصفت نعمته .

ويقال إتمام النعمة في شهود المنعم ؛ فإن وجود النعمة لكل أحد ولكن إتمامها في شهود المنعم .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه

الذى واتاكم به ﴾

الإشارة منه إلى التعريف السابق الذى لولاه ما علمت أنه من هو .

ويقال أمرهم بتذكّر ما سبق لهم من القسم وهم في كتم العدم ، فلا للأغيار عنهم خبر ،

ولا لهم عين ولا أثر ، ولا وقع عليهم بصيرة ، وقد (سحاهم)^(١) بالإيمان ، وحكم لهم بالنفرا
قبل حصول العصيان ، ثم لما أظهرهم وأحياهم عرفهم التوحيد قبل أن كلفهم الحدود ، وعرض
عليهم بعد ذلك الأمانة وحذرهم الحياة ، فقابلوا قوله بالتصديق ، ووعدوا من أنفسهم الوفاء
بشرط التحقيق ، فأمدتهم بحسن التوفيق ، وثبتتهم على الطريق ، ثم شكرهم حيث أخبر عنهم
بقوله جل ذكره : « إذ قلتم سمعنا وأطعنا » .

ثم قال : « واتقوا الله » : يعنى فى تقضى ما أبرمت من العقود ، والرجوع عما قدمتم من
العهد ، « إن الله عليم بذات الصدور » لا يخفى عليه من خطرات قلوبكم ونيات صدوركم .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ
شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ﴾

لا يُعَوِّقُكُمْ حُصُولُ نَصِيبٍ لَكُمْ فِي شَيْءٍ عَنِ الْوَفَاءِ لَنَا ، وَالْقِيَامِ بِمَا يَتَوَجَّبُ عَلَيْكُمْ
من حقنا .

ويقال من لم يقسط عنه مواعد رغائبه ، ولم يحج عنه نواجم شهواته ومطالبه لم يقم لله بحق
ولم يفِ لواجباته بشرط .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى
أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

أى لا تحملكم ضغائن صدوركم على الحلول بجنابات الخيف فإن مرتفع العلم وبه ،
ومواضع الزيف مهلكة .

ثم صرح بالأمر بالعدل فقال : « اعدلوا » ولا تكون حقيقة العدل إلا (بالعدل)^(٢)
عن كل حظ ونصيب .

(١) ترجح أنها فى الأصل (وسمهم) فالوسم فى الاصطلاح تتعلق بالأذى وهذا يتفق مع السياق .

(٢) وردت (بالدوان) والصواب أن تكون (بالعدل) كما هو واضح .

والعدلُ أقربُ إلى التقوى ، وألحوزُ أقربُ من الردى ، ويوقعُ عن قريبٍ
في عظيمِ البلوى .

قوله جل ذكره : ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا
الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾

والمغفرة لا تكون إلا للذنوب ، فوصفهم بالأعمال الصالحات ، ثم وعدهم المغفرة ليُعلم أن
العبد تكون له أعمال صالحة وإن كانت له ذنوب تحتاج إلى غفرانها ، بخلاف ما توهم من قال
إن المعاصي تحبط الطاعات .

ويقال بين أن العبد وإن كانت له أعمال صالحة فإنه يحتاج إلى عفوهِ وغفرانه ،
ولولا ذلك لهلك ، خلافاً لمن قال إنه لا يجوز أن يعذبَ البريء ، ويجب أن يشيب
المحسنين^(١) .

ويقال لو كان ثوابُ المحسنين واجباً ، وعقوبةُ البريء غيرَ حسنة لكان التجاوزُ عنه
واجباً عليه ، ولم يكن حينئذ فضل يمن به عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا
أولئك أصحاب الجحيم ﴾ .

لهم عقوبتان : معجلة وهي الفراق ، ومؤجلة وهي الاحتراق .

قوله جل ذكره : ﴿ يأياها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله
عليكم إذ هم قومٌ أن يبسطوا إليكم
أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا
الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ .

يذكّرهم ماسلف لهم من نعم الدفع^(٢) وهو ما قصر عنهم أيدي الأعداء ، وذلك من أمارات

(١) يشير القشيري بذلك إلى أقوال المعتزلة بوجوب إثابة المطيع ومعاقبة العاصي — على الله . فلا وجوب —
في نظره — على الله ، وإنما كل شيء منه فضل ، ولا قيمة لعمل العبد بجانب هذا الفضل .

(٢) يميز القشيري بين نعمتين : نعمة دفع ونعمة نفع .

العناية . ولقد بالغ في الإحسان إليك مَنْ كان يُظْهر لك الغيبَ من غير التماسٍ أو سبقِ شفاعَةٍ فيكَ ، أو رجاءٍ نفعٍ من المستأنف^(١) منك ، أو حصولِ ربحٍ في الحالِ عليك ، أو وجودِ حقٍ في المستأنف لك .

ثم قال : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » يعني كما أحسنت إليكم في السالف من غير استحقاق فانتظروا جميل إحسانى في (الغابر)^(٢) من غير (استيجاب)^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أخذ الله ميثاقَ بني إسرائيلَ وبعثنا منهم اثنيَ عشرَ نقيباً وقال الله لاني معكم ﴾ .

يذكرهم حُسْنَ أفضاله معهم ، وقبح (فعلهم)^(٤) في مقابلة إحسانه بنقضهم عهدهم . وعرف المؤمنين — تحذيراً لهم — ألا ينزلوا منزلتهم فيستوجبوا مثل ما استوجبوه من عقوبتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزّرتُموم ﴾ .

أى لئن قمتم بحقي لأوصلن إليكم حظوظكم ، ولئن أجزلتكم أمرى في العاجل لأجلن قدركم في الآجل .

وإقامة الصلاة أن تشهد مَنْ تعبد به ، ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اعبد الله كأنك تراه » .

ويقال إقامة الصلاة شرطها أن تقبلَ على مَنْ تناجيه بأن تستقبل القطرَ الذى الكعبة فيه . وأما إيتاء الزكاة فحَقُّه أن تكسب المال من وجهه ، وتصرفه في حقه ، ولا تمنع الحق

(١) أى ما يمكن أن تقدمه من طاعات في المستقبل ، فالله فى عنه .

(٢) نرجح أنها (الحاضر) حتى ينسجم السياق فإن (الغابر) و (السالف) بمعنى (الماضى) .

(٣) يعنى استحقاق .

(٤) وردت (فعلهم) بضم زائدة من الناسخ .

الواجب فيه عن أهله ، ولا تؤخر الإيتاء عن وقته ، ولا تحوج الفقير إلى طلبه فإنَّ الواجب عليك أن توصل ذلك إلى مستحقه .

وتعزير^(١) الرسل الإيمان بهم على وجه الإجلال ، واعتناق أمرهم بتمام الجِد والاستقلال ، وإيثارهم عليك في جميع الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ وأقرضتم الله قرضاً حسناً ﴾ .

الأغنياء ينفقون أموالهم في سبيل الله ، والفقراء يبذلون مهجتهم وأرواحهم في طلب الله ، (فأولئك)^(٢) عن مائتي درهم يُخْرِجُونَ خَمْسَةً ، وهؤلاء لا يدخرون عن أمره نفساً ولا ذرة .

قوله جل ذكره : ﴿ لا كِفْرَ عَنْكُمْ مِثْنَاتِكُمْ وَلَدْخَلْنَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ .

التكفير هو الستر والتغطية ، وإنه يستر الذنوب حتى عن (العاصي)^(٣) فيمحو من ديوانه ، وينسى الحَقْظَةَ سِوَالف عَصِيَانِهِ . وينفي عن قلبه تذكر ما أسلفه ، ولا يوقفه في العرصة على ما قدَّم من ذنبه ، ثم بعد ذلك يدخله الجنة بفضلِه كما قال : « ولَدْخَلْنَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » ، كما قيل :

ولمنا رضوا بالعفو عن ذى زلة حتى أنالوا كفه وازدادوا

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾

فَمَنْ جَحَدَ هَذِهِ الْأَيَادِي بَعْدَ اتِّضَاحِهَا فَقَدْ عَدَلَ عَنْ تَهْتِجِ أَهْلِ الْوَفَاءِ ، وَحَادَ عَنْ سَنَنِ أَصْحَابِ الْوَلَاءِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَبِمَا تَقَضُّهُمْ مِثْقَاتِهِمْ لَعْنَاهُمْ ﴾

جعل جزاء العصيان الخذلان للزيادة في العصيان .

(١) وردت (ونزوم) والصحيح (وتعزير) والنور في اللغة الرد ومعناها هنا رددتهم عنهم أعداءهم ونصرتهم .

(٢) وردت (فهؤلاء) وقد جعلناها أولئك إشارة إلى البعيد لتمييز كل فريق .

(٣) وردت (العاصي) بالميم والصواب بدونها فهكذا يتطلب السياق .

قوله جل ذكره : ﴿وجعلنا قلوبهم قاسيةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ
عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾

وتحريفهم الكلم عن مواضعه نوعٌ عصيان منهم ، وإنما حرّفوا لتساوة قلوبهم . وقسوة
القلب عقوبة لهم من قِبَلِ اللَّهِ تعالى على ما تقضوه من العهود ، وتقض العهد أعظمُ وزرٍ يلم به
العبد ، والعقوبة عليه أشدُّ عقوبة يُعاقَبُ بها العبد ، وقسوة القلب عدم التوجع مما يُمتَحَنُ به
من الصدِّ ، وعن قريبٍ يُمتَحَنُ بِمَحَنَةِ الرَّدِّ بعد الصدِّ^(١) ، وذلك غايةُ الفراق ، ونهايةُ البعد .
ويقال قسوة القلب أولها فَقْدُ الصِّفَةِ ثم استيلاء الشهوة ثم جريان الهفوة ثم استحكام
القسوة ، فإن لم يتفق إقلاع عن هذه الجملة فهو تمام الشقوة .

ومن تحريف الكلم — على بيان الإشارة — حَمَلُ الكلم على وجوهٍ من التأويل مما تسوّل
لصاحبه نفسه ، ولا تشهد له دلائلُ العلم ولا أصله^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾

أَوَّلُ آفَاتِهِمْ نسيانهم ، وما عصوا ربهم إلا بعد ما نسيوا ، فالنسيان أول العصيان ،
والنسيان حاصلٌ من الخذلان .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ
إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾

الخيانة أمرها شديد وهي من الكبار أبعد ، وعليهم أشدُّ وأصعب . ومن تعود اتباع
الشهوات ، وأُشْرِبَ في قلبه حُبُّ الخيانة فلا يزال يعيش بذلك الخُلُقَ إلى آخر عمره ،
اللهم إلا أن يجودَ الحقُّ — سبحانه — عليه بجبيل اللطف .

قوله جل ذكره : ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ
الْحَسَنِينَ﴾

قد يكون موجب العفو حقارة قدر المعفو عنه إذ ليس كلُّ أحدٍ أهلاً للعقاب . وللصفح

(١) من هذا نفهم أن (الرَّدِّ) عند القشيري أقرب وأشدُّ وقفاً من (الصدِّ) ،
(٢) هذا أصل من أصول التأويل المقبول في نظر القشيري ، وهو في الوقت نفسه . يوضح صفة
في التفسير الإشاري .

على العفو مزية وهي أن في العفو رفع الجناح ، وفي الصفح إخراج ذكر الإثارة من القلب ،
فمن تجاوز عن الجاني ، ولم يلاحظه — بعد التجاوز — بعين الاستحقار والازدراء
فهو صاحب الصفح .

والإحسان تعميمٌ — للجمهور — بإسداء الفضل .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا
ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به
فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى
يوم القيامة وسوف ينبئهم الله
بما كانوا يصنعون ﴾

الإشارة في هذه الآية أن النصارى أثبت لهم الاسم بدعواهم فقال : « قالوا إنا نصارى »
وسموا نصارى لتناصرهم ، وبدعواهم حرقوا وبدلوا ، وأما المسلمون فقال : « هو ستماكم
المسلمين »^(١) .

كما قال : « ورضيت لكم الإسلام ديناً »^(٢) فلا جرم ألا يسموا بالنصار . ولما ستماكم
الحق بالإسلام ورضي لهم به ضانهم عن التبديل فقصصوا .

ولما استمكن منهم النسيان أبدلوا بالعداوة فيما بينهم ، وفساد ذات البين ، فأرباب
الفيلة لا ألفة بينهم . وأهل الوفاء لا مباينة لبعضهم من بعض ، قال صلى الله عليه وسلم :
« المؤمنون كنفس واحدة »^(٣) ، وقال تعالى في صفة أهل الجنة : « إخواناً على سرر
مقابلين »^(٤) .

(١) آية ٧٨ سورة الحج ،

(٢) آية ٢ سورة المائدة .

(٣) في رواية الإمام مسلم عن النعمان بن بشير .

المؤمنون كرجل واحد إن اشتكى رأسه اشتكى كله ، وإن اشتكى عينه اشتكى كله . . . » صحيح

مسلم ج ٤ ص ٢٧١ .

(٤) آية ٤٤ سورة الصافات .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا
يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ
مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾

وصف الرسول — صلى الله عليه وسلم — بإظهار بعض ما أخفوه ، وذلك علامة على صدقه ؛
إذ لولا صدقه لما عرّف ذلك . ووصفه بالعفو عن كثير من أفعالهم ، وذلك من أمارات خلقه ؛
إذ لولا خلقه لما فعل ذلك ؛ فأظهر ما أبداه دليل علمه ، والعفو عما أخفى برهانه حله .

قوله جل ذكره : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ
مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ
رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ
الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِم
إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

أنوار التوحيد ظاهرة لكنها لا تغني عن البصيرة ، فمن استخلصه بتقديم العناية
أخرجه من ظلمات التفرقة إلى ساحات الجمع فامتحن عن سره شواهد الأغيار ، وذلك نعت
كل من وقف على الحجة المثلى .

قوله جل ذكره : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ
الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ
اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ
ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ،
وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، وَاللَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

من اشتملت عليه أرحام الطوامث متى يفارقه نقص الخلقة ؟
ومن لاحت عليه شواهد التغير أنى يليق به نعت الربوبية ؟

ولو قَطَعَ البقاء عن جميع ما أوجد فأى نقص يعود إلى العبد ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ

اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ

بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِر لِمَن يَشَاءُ

وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ مَلِكُ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ

الْمَصِيرُ ﴿

النبوة (١) تقتضى المجانسة ، والحقُّ عنها مُنَزَّهٌ ، والمحبةُ بين المتجانسين تقتضى الاحتفاظ والمؤانسة ، والحق سبحانه عن ذلك مُقَدَّسٌ .

فردُّ الله — سبحانه — عليهم فقال تعالى : « بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ » .

وال مخلوق لا يصلح أن يكون بعضاً للقديم ؛ فالقديم لا بعض له لأن الأحدية حقه ، فإذا لم يكن له عدد لم يجز أن يكون له ولد . وإذا لم يجز له ولد لم يجز — على الوجه الذى اعتقدوه — بينهم وبينه محبة .

ويقال فى الآية إشارة لأهل المحبة بالأمان من العذاب والعقوبة به لأنه قال : « قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ » .

ويقال بين فى هذه الآية أن قصارى الخلق إمّا عذاب وإمّا غفران ولا سبيل إلى شيء وراء ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا

يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى قَتَرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ

تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ،

فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿

(١) وردت (النبوة) وهى خطأ فى النسخ لأن الإشارة عائدة إلى ما جاء فى الآية :
« نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ »

يقال في : كل زمان تقع فترة في سبيل الله ثم تتجدد الحال ، ويُعَمُّ الطريق بإبداء السالكين من كتم العدم ، ولقد كان زمان الرسول - صلى الله عليه وسلم - أكثر الأزمنة بركة ، فأحيا بظهوره ما اندرس من السيل ، وأضاء بنوره ما انطمس من الدليل ، وبذلك من عليهم ، وذكركم عظيم نعمته فيهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ ﴾

كان الأمر لبني إسرائيل - على لسان نبيهم - بأن يتذكروا نعمة الله عليهم ، وكان الأمر لهذه الأمة ^(١) - بخطاب الله لا على لسان مخلوق - بأن يذكروه فقال : « فاذكروني أذكركم » ^(٢) وشتان بين من أمره بذكره - سبحانه - وبين من أمره بذكر نعمته ! ثم جعل جزاء من ثوابه الذي هو فضله ، وجعل جزاء هذه الأمة خطابه الذي هو قوله تعالى : « فاذكروني أذكركم » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَعَلَكُمْ مَلُوكًا ﴾

الْمَلِكُ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ مَنْ عَبَدَ الْمَلِكَ الْحَقِيقِي .

ويقال الْمَلِكُ مَنْ مَلَكَ هَوَاهُ ، والعبد من هو في رِقٍّ شهواته .

ويقال « جعلكم ملوكا » : لم يخرجكم إلى أمثالكُم ، ولم يحجبكم عن نفسه بأشغالكم ، وسَهَّلَ إليه سبيلكم في عموم أحوالكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَتَاكُمْ مَالٌ يَؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾

لئن آتى بني إسرائيل بمقتضى جوده فقد أغنى عن الإتياء هذه الأمة فاستقلوا بوجوده ، والاستقلال بوجوده أتم من الاستغناء بمقتضى جوده .

(١) يقصد أمة المصطفى صلى الله عليه وسلم .

(٢) آية ١٥٢ سورة البقرة .

قوله جل ذكره : ﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة
التي كتب الله لكم ﴾

من الفرق بين هذه الأمة وبين بني إسرائيل أنه أباح لهم دخول الأرض المقدسة على الخصوص
فقال : « يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم » ثم إنهم لم يدخلوها إلا بعد مدة ،
وبعد جهد وشدة ، وقال في شأن هذه الأمة « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض
يرثها عبادي الصالحون » (١) فأولئك كتب لهم دخول الأرض كتابة تكليف ثم قصرُوا ،
وهذه الأمة كتب لهم جميع الأرض على جهة التّشريف ، ثم وصلوا إلى ما كتب لهم وما قصرُوا .
وقال : « ادخلوا الأرض المقدسة » وقال لهذه الأمة : « هو الذي جعل لكم
الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » (٢) فهؤلاء ذلّل لهم وسهل عليهم ،
وأولئك صعب عليهم الوصول إلى ما أمرهم فيها أنزل الله عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تتردوا على أديباركم فتنقلبوا
خاسرين ﴾

الارتداد على قسمين : عن الشريعة وإقامة العبودية وذلك يوجب عقوبة النفوس بالقتل ،
وعن الإرادة وذلك يوجب الشّقوة — التي هي الفراق — على القلوب .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين
وإننا لن ندخلها حتى يخرجوا منها
فإن يخرجوا منها فإننا داخلون ﴾

لاحظوا الأغيار بعين الحسبان فتوهموا أن شيئاً من الحدثان ، وداخلتهم هواجم الرعب
فأصروا على ترك الأمر . ومن طالع الأغيار بأنوار البصائر شاهدتهم في أسر التقدير قوالب
متعربة عن إمكان الإيجاد ، ولم يقع على قلبه ظل النّوهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قال رجالان من الذين يخافون أنعم

(١) آية ١٠٥ سورة الأنبياء .

(٢) آية ١٥ سورة الملك .

اللهُ عليهما ادخلوا عليهم الباب

فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ﴿١﴾

أنعم الله (عليهما) ^(١) بأنوار العرفان فلم يجتثما من المخلوقين ، وعلمنا أن من رجع إليه
بنعت الاستكفاء تداركته عواجل الكفاية ثم قال :

(وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين)

أى من شأن المؤمنين أن يتوكلوا ، وينبغى للمؤمن أن يتوكل .

ويحتمل أن يقال التوكل من شرط الإيمان . وظاهر التوكل الذى لعوام المؤمنين العلم بأن
قضاؤه لا رادَّ له ، وحقائق التوكل ولطائفه التى لخوَص المؤمنين شهود الحادثات بالله ومن الله
ولله ، فإنَّ مَنْ فَقَدَ ذلك انتفى عنه اسم الإيمان .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً

ماداموا فيها ﴾

مَنْ أَقْصَتْهُ سَوَابِقُ التَّقْدِيرِ لَمْ يَزِدْهُ تَوَاتُرُ (العظة) ^(٢) إلا نفوراً وجحوداً .

قوله جل ذكره . ﴿ فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا

قاعدون ﴾

تركوا آداب الخطابِ فصرَّحوا ببيان الجحد ولم يجتشموا من مجاهرة الرد .

قوله جل ذكره ﴿ قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي

فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾

لما ادَّعى أَنَّهُ يملك نفسه عرف عجزه عن مِلْكِهِ لنفسه حيث أخذ رأس أخيه
يجرُّه إليه .

ويقال . لا أملك إلا نفسي أى لا أدخرها عن البذل فى أمرى . لا أملك إلا أخى فإنه
لا يؤثر نفسه عن الذى أكلفه مِنْ قَبِيلِكَ .

(١) (عليهما) زيادة أضفناها ليتضح المعنى .

(٢) وردت (العظة) والمعنى يرفضها ويتطلب (العظة) التى وردت فى الآيات السابقة .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُخِرمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً
يَتِيهِونَ فِي الْأَرْضِ ، فَلَا تَأْسَ عَلَى
الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

مجاهرة الرد تمجّل العقوبة ؛ فإن من ما كَرَّ الحقيقة أبدت الحقيقة له من مكان التقدير
ما يُلجئُهُ إلى التطوُّح في أوطان الذلِّ .

ويقال حيرهم في مفاوزهم حتى عموا عن القصد ؛ فصاروا يبيتون حيث يصبحون ، بعد
طول التعب وإدانة السير ، وكذلك من حيرَهُ اللهُ في مفاوز القلب يتقلب ليلاً ونهاراً في مطارح
الظنون ثم لا يحصل إلا على مناهل الخيرة ، فيحطون بحيث يرحلون عنها ، فلا وجه للرأى
الصائب يلوح لهم ، ولا خلاص من بعده للتجويز يساعدهم ، والذي التجأ إلى شهود الصمدية
استراح عن نقلة فكره ، ووقع في رُوح الاستبصار بعد أتعاب التوهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ
قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ
يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾ .

كانت الدنيا مجذافيرها في أيديهما فحسد أحدهما صاحبه ، فلم يصبر حتى أسرع في شيء
بإتلافه ، وحين لم يُقبَلْ قربانه اشتد حسده على صاحبه ، ورأى ذلك منه فهدّده بالقتل .
فأجابه بنطق التوحيد .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ .
يعنى إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ الْقُرْبَانَ مِنْ^(١) طالع في القربان مساعدة القدرة ، وألقى توهم كونه
باستحقاقه واستيجابه .

قوله جل ذكره : ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَى يَدِّكَ لَتَقْتُلَنِي مَا أَنَا
بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي
أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

(١) وردت (من) وهي خطأ في النسخ .

لئن بدأتني بالإثارة^(١) لم أقابلك كأوصاف أهل الجهل بل أكلُ أمرى إلى من بيده
مقاليد الأمور .

قوله جل ذكره : ﴿إني أريد أن تبوءاً بإثمي وإثمك
فتكون من أصحاب النار وذلك
جزاء الظالمين﴾ .

تحقق بأن العقوبة لا حجة به على ما يسلفه من الذنب فرضى بانتقام الله دون
انتقامه لنفسه .

وقوله : « أن تبوء بإثمي وإثمك » الذي تستوجه بسبب قتلك إياي ، فأضافه إلى نفسه ،
وإذا رأى المظلوم ما يحل بالظالم من أليم البلاء يهون عليه ما يقاسيه ويطيب قلبه .

قوله جل ذكره : ﴿فطوَّعتُ له نفسه قتل أخيه فقتله
فأصبح من الخاسرين﴾ .

لا تستولى هواجس النفوس على صاحبها إلا بعد استتار مواعظ الحق ، فإذا توالى
العزائم الرديئة ، واستحكمت القصود الفاسدة من العبد صارت دواعي الحق خفية مغمورة .
والنفس لا تدعو إلا (إلى)^(٢) اتباع الشهوات ومتابعة المعصية^(٣) ، وهي مجبولة
على الأخلاق المجوسية . فمن تابع الشهوات لا يلبث أن ينزل بساحات الندم ثم لا ينفعه ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض
ليريه كيف يوارى سوءة أخيه قال
يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا
الغراب فأواري سوءة أخى فأصبح
من النادمين﴾ .

١ . وردت (الإشارة) والملائم أن تكون (الإثارة) .

٢ . سقطت (إل) من الناسخ والمعنى يستلزمها .

٣ . وردت (المعصية) ولا معنى لها هنا وإنما الملائم (المعصية) .

إرادة الحق — سبحانه — وصولُ الخلقِ إلى لطف الاحتياط في أسباب التعيش ، فإذا أشكل عليهم وجهٌ من لطائف الحيلة سبَّب الله شيئاً يُعرِّفهم ذلك به .

قوله جل ذكره ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لُمْسِرُونَ ﴾ .

هذا قريب مما قال النبي صلى الله عليه وسلم :

« من سنَّ حسنةً فله أجرُها وأجرُ من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سنَّ سيئةً فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة »^(١) .

قوله جل ذكره : « إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

السعي في الفساد على ضربين : بالظاهر وعقوبته معلومة في مسائل الفقه بلسان العلم ، وفي الباطن وعقوبته واردة على الأسرار ، وذلك بقطع ما كان متصلاً من واردات الحق ، وكسوف شمس العرفان ، والستر بعد الكشف ، والحجاب بعد البسط . والحجاب استشعار

(١) في رواية مسلم عن جرير بن عبد الله : (. . من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فعمل بها كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورم شيئاً ، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعدد كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارم شيئاً) ٤٠ ص ٢٠٥٩ طبع الحلبي .

الوحشة بعد الأُنس ، وتبديل توالي التوفيق بصنوف الخذلان ، والنفي على بساط العبادة^(١) .
والإخراج إلى متابعة النفوس ، وذلك — والله — خِزْيٌ عظيم وعذابٌ أليم .

قوله جل ذكره : ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا

عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

من أقلع عن معاصيه ، وارتدع عن ارتكاب مساويه ، قبل أن يهتك عنه ستر السداد
لا تقام عليه — في الظاهر — حدودُ الشريعة لاشتباهاها على الإمام ، ولا يؤاخذ الحق سبحانه
بقضايا إجرامه أخذاً بظاهر ما يثبت من حاله مآله في استيجاب السداد ، فإذا بدا للإمام^(٢)
جُرْمُهُ أُقيم عليه الحدُّ وإنْ تَقَنَّعَ بنقاب التقوى .

وكذلك إذا سقط العبد عن عين الله لم يصل بعده إلى ما كان عليه من معارضة تقرب
الحق — سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا

إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ

لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾

ابتغاء الوسيلة التبري عن الحول والقوة ، والتحقق بشهود الطول والمنّة .

ويقال ابتغاء الوسيلة هو التقريب إليه بما سبق لك من إحسانه .

ويقال الوسيلة ما سبق لك من العناية القديمة .

ويقال الوسيلة اختياره لك بالجميل .

ويقال الوسيلة خلوص (العقد)^(٣) عن الشك .

ويقال ابتغاء الوسيلة استدامة الصدق في الولاء إلى آخر العمر .

ويقال ابتغاء الوسيلة تجريد الأعمال عن الرياء ، وتجريد الأحوال عن الأعجاب ، وتخليص

النفس عن الحفظ .

(١) أي الإخراج من نطاق الارادة إلى نطاق العبادة .

(٢) وردت (للإيمان) وهي خطأ في النسخ إذ الامام هو الذي يقيم الحد .

(٣) وردت (العقد) وربما كانت (العقل) فهو الذي يصاب بأفة الشك ، وكلاما مقبول في الحديث .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ
يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

اليوم — يقبل من الأحباب مثقال ذرة ، وغداً — لا يقبل من الأعداء ملء الأرض
ذهباً ، كذا يكون الأمر .

ويقال إفراط العدو في التقرب موجب للعنت ، وتستر الولي^(١) في التودد إحكام
لأسباب الحب .

قوله جل ذكره : ﴿ يَرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا
يُخَارَجُونَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

كما أن الأعداء لا يخلص لهم من النار كذلك المبعثون عن التوفيق كلما أرادوا إقلاعاً
عن التهنك أدركهم — من فجأة الخذلان — ما يركسهم في وهدة العناء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا
جِزَاءً بِمَا كَسَبَا ، نَكَالًا مِنْ اللَّهِ ،
وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

لو أن ولياً من الأولياء سرق نصاباً من جرّة ، ووجد فيه استحقاق القطع ، أقيم عليه
الحد كما يقام على المتهتك ، ولا يسقط الحد لصلاحه . والإشارة فيه أن أمر الملك مقابل
بالتمظيم ، بل كل من كان أعلى رتبة فخطرُه أتم وأخفى ، والمطالبة عليه أشد^(٢) . فلا يستخفن
أحد الإمام بزلة « ونحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم » .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ

(١) وردت (المولى والصواب أن تكون (المولى) ضد (العدو) حسبما نعرف من أسلوب القشيري

(٢) لأن أصحاب الرتبة الكبيرة بهم اقتداء ؛ فطبيهم وزرم ووزر من تبعهم .

فإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنْ اللَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ *

من استوفى أحكام التوبة فتدارك ما ضيعه ، وندم على ما صنعه ، وأصلح من أمره
ما أفسده — أقبل الله عليه بفضله فغفره ^(١) ، وعاد إليه باللطف فجبره .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ
لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

بَيَّنَّ أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ مَنْ يَعْذِّبُ بَعْلَةً ، وَلَا يَرْحَمُ مَنْ يَرْحَمُ بَعْلَةً ، وَإِنَّمَا يَتَصَرَّفُ فِي عِبْدِهِ
بِحَقِّ مُلْكِهِ ، وَأَنَّ الْحُكْمَ حُكْمُهُ ، وَالْأَمْرَ أَمْرُهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ
يَسَارِعُونَ فِي الْكَفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا
آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ
الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ
لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ بِحَرْفٍ فَوْنٍ لِلْكَلِمِ
مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ
هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ،
وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ
مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾

مَنْ أَقْصَاهُ الْحَقُّ عَنْ مَحَلِّ التَّقَرُّيبِ ، وَأَرْخَى لَهُ عَنَانَ الْإِمْهَالِ وَكَلَّهُ إِلَى مَكْرِهِ ، وَلَبَسَ
عَلَيْهِ حَالَهُ وَسِرَّهُ ، فَهُوَ يَنهَمِكُ فِي أُودِيَةِ حَسْبَانِهِ ، وَإِنَّمَا يَسْعَى فِي أَمْرِ نَفْسِهِ فَيَعْمَلُ بِمَا يَعُودُ
إِلَيْهِ وَبِإِلَهِهِ ، فَأَمَرَ نَبِيِّهِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — بِتَرْكِ الْمَبَالَاةِ بِأَمْثَلِهِمْ ، وَقَلَّةِ الْإِهْتِمَامِ
بِأَحْوَالِهِمْ ، وَعَرَّفَهُ أَنَّهُمْ بِمَعْزِلٍ عَنْ رَحْمَتِهِ ؛ وَإِنَّ مَنْ رَدَّتْهُ الْقَسَمَةُ الْأَزَلِيَّةُ لَا تَنْفَعُهُ الْأَعْلَالُ

(١) هفزه أى غطاء وستر خطاياهم .

في الاستقبال ، فقال : « ومن يرد الله فتنه فلن تملك له من الله شيئاً » يعنى إن أهله الله للحرمان ، وقيده بشباك الخلدان فشفاعة الأغيار فيه غير مقبولة ، ولطائف القبول إليه غير موصولة .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ﴾

أولئك الذين لم تعجن طينتهم بما، السعادة فحببوا على نجاسة الشرك فإن عدم الطهارة الأصلية لا يتنقى بفنون المعاملات .

ويقال : « من يرد الله فتنه » : من أرسل عليه غاغة الهوى ، وسلط عليه نوازع المني ، وأذله (. . .)^(١) القضاء ، فليس يلقى عليه غير الشقاء .

قوله جل ذكره : ﴿ لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾

ورددوا من الهوان إلى الهوان ، ووعدوا بالفراق ، وردوا إلى الاحتراق ، فلا تدرى أى حالهم أقرب من استيعاب النل ؟ بدايتهم في الرد أم نهايتهم في الشرك والجحد ؟

قوله جل ذكره : ﴿ سماعون للكذب أكالون للسحت

فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض

عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك

شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم

بالقسط إن الله يحب المقسطين ﴾

يعنى إنهم طرحوا حشمة الدين ، وقنعوا بالحفظ الحسيسة واكتفوا (بالأعواض)^(٢)

(النذرة)^(٣) ، فإذا تحاكموا إليك فأحلهم من حلك على ما يستحق أمثالهم من (الأزال)^(٤) ،

(١) مشتبه .

(٢) الأعواض جمع عوض وربما كانت في الأصل (الأعراض) جمع محراض ، وكلاماً مقبول .

(٣) (النذرة) أى القليلة الهينة ولا نستبعد أنها (العذلة) أى الحسيسة وعند ذلك تكون الكلمة

التالية رقم (٤) الأبدال جمع نذل ، وليس بمستبعد أن تكون الأبدال أى الاحلال فيكون السياق

(فأحلهم من حلك على ما يستحق أمثالهم من الاحلال = الأزال . من قولهم خللت بالمكان أى نزلت به) .

وربما كان المقصود بالأزال ما سبق لهم من القسمة .

وَأَنْتَ مُخَيِّرٌ فِيمَا تُرِيدُ ؛ فَسَوَاءٌ أَقْبَلْتَ عَلَيْهِمْ فَحَكَمْتَ أَوْ أَعْرَضْتَ فَرَدَدْتَ فَلَاخْتِيَارِكَ .
قوله : « إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الْمَقْسُطِينَ » : الإِقْسَاطُ الوقوف على حَدٍّ الأمر من غير
(خَنْفٍ)^(١) إِلَى الْحِظِّ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ
فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾

يعنى أنهم قارفوا الجحد ، وأصرُّوا على الغي ، وتعودوا الإعراض عن الإيمان ،
فحتى تؤثر فيهم دعوتك ، وقد سُدَّتْ مسامعهم عن القبول ، وطُبِعَ على قلوبهم
سابقُ الحكم ؟

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ
يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ
هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا
اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا
عَلَيْهِ شُهَدَاءً ﴾ .

يخبر أنه استحفِظ بنى إسرائيل التوراة فخرَّفوها ، فلما وَكَلَّ إليهم حفظها ضيَعوها .
وأما هذه الأمة فخصَّهم بالقرآن ، وتولَّى — سبحانه — حفظه عليهم فقال : « إِنَّا نَحْنُ
نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »^(٢) فلا جرم لو غيرَ واحدٍ حركة أو سكوناً من القرآن لنادى
الصبيان بتخطيئه .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَخَشَوْنَ ﴾ .
إِنَّ الْخُلُقَ تَجْرَى عَلَيْهِمْ أَحْكَامُ الْقُدْرَةِ وَأَقْسَامُ التَّصْرِيفِ ؛ فَالْخَشْيَةُ مِنْهُمْ فَرَعٌ مِنَ الْحَالِ ،
فَإِنْ مِنْ لَيْسَ لَهُ شُغْلِيَّةٌ مِنَ الْإِيجَادِ فَأَتَى تَصَحُّهُ مِنْهُ الْخَشْيَةُ ؟ ١

(١) خنف — ميل وليس بمستبعد أن تكون في الأصل (حيف) إلى الحظ وكلاماً مقبول .

(٢) آية ٩ سورة الحجر

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ
يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ
هُم الْكَافِرُونَ ﴾ .

لَا تَأْخُذُوا عَلَى جَعْدٍ^(١) أُولِيَاءِي وَالرُّكُونَ إِلَى مَا فِيهِ رِضَاءُ أَعْدَائِي عِوَضًا يَسِيرًا فَتَبَقُوا
بِذَلِكَ عَفَى ، وَلَا يُبَارَكُ لَكُمْ فِيهَا تَأْخُذُونَ مِنَ الْعِوَضِ .

« وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ . . . » فَمَنْ أَخَذَ بِغَيْرِهِ حَكْمًا ، وَلَمْ يَجِدْ — نَحْتِ جَرِيَانِ حَكْمِهِ —
رِضَى وَاسْتِسْلَامًا^(٢) فِي شِرْكِهِ خَامِرًا قَلِيلَةً ، وَكَفَرٍ قَارَنَ سِرِّهِ . وَهِيَئَاتِ أَنْ يَكُونَ عَلَى سَوَاءٍ !
قوله جل ذكره : ﴿ وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ

وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ
بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ
بِقِصَاصٍ ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ
لَهُ ، وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ
فَأُولَئِكَ هُم الظَّالِمُونَ ﴾ .

بَيِّنُ أَنْ اعْتِبَارَ الْعَدَالَةِ كَانَ حَتْمًا فِي شَرْعِهِمْ ، وَلَمَّا جَنَحُوا إِلَى التَّضْيِيعِ اسْتَوْجِبُوا الْمَلَامَ .
« فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ » ، يَعْنِي فَمَنْ أَثَرَ تَرْكِ مَالِهِ بِاعْتِنَاقِ الْعُقُولِ لَمْ يَخْسِرْ عَلَيْنَا بِاسْتِجَابِ
الشُّكْرِ ، وَمَنْ أَبَى إِلَّا تَعَادِيًّا فِي إِجَابَةِ دَوَاعِي الْهَوَى فَمَنْ الَّذِينَ وَضَعُوا الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ،
أَيَّ اسْتَبَدَلُوا بِلِزُومِ الْحَقَائِقِ مُتَابِعَةً الْحُظُوظِ ، وَبِإِثَارِ الْفِتْوَةِ مُوَافَقَةً الْبُشْرِيَّةِ^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ
مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ

(١) وَرَدَتْ (جَعْد) بِالْهَاءِ وَالْمَلَامُ أَنْ تَكُونَ (جَعْد) فَهَكَذَا تَشِيرُ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ ، وَكَذَلِكَ السِّيَاقُ ؛
إِنْ رِضَاءُ الْأَعْدَاءِ يُقَابِلُهُ جَعْدُ الْأَوْلِيَاءِ .

(٢) وَرَدَتْ (وَاسْتِسْلَامًا) وَالصَّوَابُ (اسْتِسْلَامًا) أَيَّ أَيِّ انْقِبَادًا وَطَاعَةً .

(٣) لِأَنَّ مِنْ عَنَاصِرِ الْفِتْوَةِ — عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ — الْبُذْلَ وَالْإِثَارَ وَالتَّضَحِّيَّةَ

وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ
وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ
وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾ .

يعنى أتبعناهم بعيسى ابن مريم ، وخصصناه بالإنجيل ، وفى الإنجيل تصديق لما تقدمه ،
وتحقيق لما أوجب الله وألزمه ، فلا الدينَ قضوا حقه ، ولا الإنجيلَ عرفوا فرضه ، ولا الرسولَ
حفظوا أمره ؛ ففسقوا وضلوا ، وظلموا وزلوا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَنَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ
فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ
هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ .

قال الله تعالى فى هذه السورة^(١) : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون »
وقال فى موضع آخر « ... فأولئك هم الظالمون » وقال فى هذه الآية « ... فأولئك هم الفاسقون »
أما فى الأول فقال : « ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً . . . فأولئك هم الكافرون » لأن من لم
يحكم بما أنزل الله فهو جاحد والجاحد كافر .

وفى الثانى قال : « وكتبنا عليهم أن النفس بالنفس فأولئك هم الظالمون »
لأن من جاوز حد القصاص واعتبار المائلة ، وتعدى على خصمه فهو ظالم لأنه ظلم بعضهم
على بعض .

وأما ها هنا فقال : « وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون »
أراد به معصية دون الكفر والجحد^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأُنْزِلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ
وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ ﴾

(١) وردت فى هذه (الآية) والصواب أن تكون (السورة) لأن القشيري ألقى نظرة شاملة على آية
واحدة ذات نهايات شتى فى السورة كلها .
(٢) وهذه هى المنزلة بين الكفر والإيمان — كما يسميها بعض علماء الكلام .

قدّم تعريفه — صلى الله عليه وسلم — قصص الأولين على تكليفه باتباع ما أنزل الله عليه لئلا يسلك سبيل من تقدّمه فيستوجب ما استوجبوه .

قوله جل ذكره : ﴿ فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً ، ولو شاء الله لجمعكم أمةً واحدةً ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ﴾

لا تملكك مودة قريب أو حميم ، واعتنق ملازمة أمر الله — تبارك وتعالى — بترك كل نصيب لك .

ثم قال : « لكل جعلنا شرعةً ومنهاجاً » ، يعني طريقةً وسنةً ؛ أى أفردنا كل واحدٍ منكم — معاشير الأنبياء — بطريقة ، (وأماً^(١)) أنت فلا يدانيك في طريقتك أحد ، وأنت المقدم على الكافة ، والمفضل على الجملة ، ولو شاء الله لسنوى مراتبكم ، ولكن غير بينكم ابتلاءً ، وفصلٌ بعضكم على بعض امتحاناً .

قوله جل ذكره : ﴿ فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾

مسارعة كل أحدٍ على ما يليق بوقته ؛ فالعابدون تقدمهم من حيث الأوراد ، والعارفون همهم من حيث المواجد^(٢) .

ويقال استباق الزاهدين برفض الدنيا ، واستباق العابدين بقطع الهوى ، واستباق العارفين بنفى النفى ، واستباق الموحدين بترك الورى ، ونسيان الدنيا والعقبى .

(١) وردت (ولما) وهى خطأ فى النسخ

(٢) وقع النسخ فى تكرار عبارة (والعارفون ..) غذفناها

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ
اللَّهُ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ
أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ
اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾

قُمْ بِاللَّهِ فِيما تحكم بينهم ، وأقم حقوقه فيما تؤخر وتقدم ، ولا تلاحظ الأغيار فيما
(تؤثر) ^(١) أو تذر ، فإن الكل محووف في التحقيق .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فاعلم إنما يريد الله
أَن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإن
كثيراً من الناس لفاسقون ﴾

يعنى (عظهم) ^(٢) بلسان العلم فإن أبوا قبولاً فشاهدتهم بعين الحكم . ويقال : أشدّد
عليهم باعتناق لوازم التكليف ، فإن أعرضوا فعاينهم بعين التصريف ؛ فإن الحق
— سبحانه — بشرط التكليف يلزمهم ؛ وبحكم التصريف يؤخرهم ويقدمهم ، فالتكليف
فيما أوجب ، والتصريف فيما أوجد ، والعبرة بالإيجاد والإيجاب .

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ، وَمَنْ
أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ
يُوقِنُونَ ﴾

أيعودون في ظلمة الحجاب ووحشة الالتباس بعد ما سطع فجر العرفان ، وطلعت شمس
التحقيق ، وانهكت أستار الريب ؟

ويقال أيطلبون منك أن تمجد عن المحبة المثلى ، وقد اتضحت لك البراهين
وتجلى اليقين ؟

ويقال أيطعمون في استتار الحقائق في السرائر وقد تجلت شمس اليقين ؟

(١) وردت (تؤثر) بالشين وهى خطأ في النسخ
(٢) وردت (عظهم) بزيادة ميم وهى خطأ في النسخ .

ويقال أتُحسبون أن (. . .)^(١) ظلمة الشك لها سلطان ، وقد متّع نهار الحقائق^(٢) :
... كلاً ، فإن ذلك محال .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ
وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ
وَمَن يَتَوَلَّهمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهٗ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

لا تَجْنَحُوا إِلَى الْمَوَالَةِ مَعَ أَعْدَائِهِ — سَبْحَانَهُ — إِيثَارًا لِلسُّكُونِ إِلَى الْحِظِّ ، أَوْ احْتِشَامًا
مِن الْقِيَامِ لِلْحَقِّ ، أَوْ رُكُونًا إِلَى قَرَابَةِ نَسَبٍ ، أَوْ اسْتِحْقَاقًا لِمُودَةِ حَبِيبٍ ، أَوْ تَهَيُّبًا مِنْ اسْتِحْشَاشِ
صَدِيقٍ . بَلْ صَمَمُوا عَقُودَكُمْ عَلَى التَّبَرُّيِّ مِنْهُمْ بِكُلِّ وَجْهٍ فَهُمْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَالضَّدِيَّةُ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ قَائِمَةٌ إِلَى الدِّينِ^(٣) . « وَمَن يَتَوَلَّهمْ مِنْكُمْ » التَّحَقُّقُ بِهِمْ ، وَانْخِرَاطُ فِي سَلَكِهِمْ ،
وَعُدَّةٌ فِي جِلَّتِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
يَسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن
تَصِيَّبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ
بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا
عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾
ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين
أقسموا بالله جهنْدَ أيمانهم إنهم لكم
حبيطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين ﴾

(١) مشقبة

(٢) متوع النهار اصطلاح صوفي يتحدث القشيري عنه في مواضع أخرى من هذا الكتاب ضمن اللوائح
واللوامع والطوالع .

(٣) قائمة إلى الدين أي راجعة إلى اختلاف دينهم عنكم ، وربما سقطت من النسخ كلمة يوم قبل (الدين)
فيكون المعنى : إن العداوة بينكم وبينهم قائمة دائمة إلى يوم الدين .

يعنى إن الذين سقمت ضمائرهم ، وضعفت فى التحقيق بصائرهم تسبق إلى قلوبهم مداراة^(١) الأعداء خوفاً من معاداتهم ، وطمعاً فى المأمول من محبتهم ، ولو استيقنوا أنهم فى أسر العجز وذل الإعراض ونفى الطرد لأملوا الموعود من كفاية الحق ، والمعهود من جيل رعايته ، ولكنهم حُجِبُوا عن محل التوحيد ؛ ففترقوا فى أودية الحسبان والظنون ، وعن قريب يأتىكم الفرجُ — أيها المؤمنون ، وَتُرْزَقُونَ الفتحَ بحسن الإقبال ، والظفر بالمستول لسابق الاختيار ، فيشعرون الندم ، ويقاسون الألم ، وأنتم (تعلمون)^(٢) رءوسكم بعد الإطراق ، وتصفون لكم مَشَارِبُ الإكرام ، وتضوء بزواهر القرب مَشَارِقُ القلوب . حينئذ يقول الذين آمنوا هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم ليعينون بأبصارهم ما تحقوه بالغيب فى أسرارهم ، وَيَصِلُونَ من موعودهم إلى ما يوفى ويربو على مقصودهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ .

جمل صفة من لا يرتد عن الدين أن الله يحبه ويحب الله ، وفى ذلك بشارة عطية للمؤمنين لأنه يجب أن يُعْلَمَ أن من كان غير مرتد فإن الله يحبه . وفيه إشارة دقيقة فإن من كان مؤمناً يجب أن يكون لله محباً ، فإذا لم تكن له محبة فالخطر بصحة إيمانه . وفى الآية دليل على جواز محبة العبد لله وجواز محبة الله للعبد .

ومحبة الحق للعبد لا تخرج عن وجوه : إما أن تكون بمعنى الرحمة عليه أو بمعنى اللطف والإحسان إليه ، والمدح والثناء عليه .

أو يقال إنها بمعنى إرادته لتقريبه وتخصيص محله .

وكما أن رحمته إرادته لإنعامه فمحبتة إرادته لإكرامه ، والفرق بين المحبة والرحمة على هذا القول أن المحبة إرادة لإنعام مخصوص ، والرحمة إرادة كل نعمة فتكون المحبة أخص من الرحمة ،

(١) وردت (هرارة) ، وبالرجوع إلى كتب التفسير ساعدتنا على اختيار (مداراة) (انظر تفسير وجدى) .

(٢) وردت (تعلمون) والملائم أن تكون (تعلمون) رءوسكم بعد الإطراق .

واللفظان يعودان إلى معنى واحد فإن إرادة الله تعالى واحدة وبها يريد سائر مراداته ، وتختلف أسماء الإرادة باختلاف أوصاف المتعلق .

وأما محبة العبد لله — سبحانه — فهي حالة لطيفة يجدها في قلبه ، وتحمله تلك الحالة على إيثار^(١) موافقة أمره ، وترك حظوظ نفسه ، وإيثار حقوقه — سبحانه — بكل وجه .
وتحصل العبارة عن تلك الحالة على قدر ما تكون صفة العبد في الوقت الذي يعبر عنه ؛ فيقال المحبة ارتياح القلب لوجود المحبوب ، ويقال المحبة ذهاب الحجب الكلية في ذكر المحبوب ، ويقال المحبة خلوص الحب لمحبهه بكل وجه ، والمحبة بلاء كل كريم ، والمحبة نتيجة الهمة فمن كانت همة أعلى فحبته أصفى بل أوفى بل أعلى

ويقال المحبة سُكْرٌ لا صَحْوَ فيه ودَهَشٌ في لقاء المحبوب يوجب التعطُّل عن التمييز ، ويقال المحبة بلاء لا يُرْجَى شفاؤه ، وسقام لا يعرف دواؤه . ويقال المحبة غريمٌ يلزمك لا يبرح ، ورفيقٌ من المحبوب يستوفى له منك دقائق الحقوق في دوام الأحوال ، ويقال المحبة قضية توجب المحبة ؛ فحبة الحق أوجبت محبة العبد^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ يَجِبُهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

لولا أنه يجيبهم لما أحبوه ، ولولا أنه أخبر عن المحبة فأنى تكون للطينة ذِكْرُ المحبة ؟ ثم بين الله تعالى صفة المحبين فقال « أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ » . يبدلون المهنج في المحبوب من غير كراهة ، ويبذلون الأرواح في الذب عن المحبوب من غير ادخار شظية من اليسور .

(١) وردت خطأ (إيسار) بالسين

(٢) كلام القشيري في المحبة هنا لا يكاد يختلف كثيراً عن كلامه عنها في (الرسالة)

ثم قال تعالى في صفتهم : « يجاهدون في سبيل الله » أى يجاهدون بنفوسهم من حيث استدامة الطاعة ، ويجاهدون بقلوبهم بقطع المنى والمطالبات ، ويجاهدون بأرواحهم بحذف العلاقات ، ويجاهدون بأسرارهم بالاستقامة على الشهود في دوام الأوقات .
ثم قال : « لا يخافون لومة لائم » أى لا يلاحظون نُصَحَ حميم ، ولا يركنون إلى استقلال حكم ، ولا يمنحون إلى حظ ونصيب ، ولا يزيغون عن سَنَنِ الوفاء بحال .
ثم بين — سبحانه — أن جميع ذلك إليه لا منهم فقال : « وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسعٌ عليم » متفضلٌ عليمٌ يَمُنُّ يَخُصُّ بذلك من عبده .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾

الولى أى الناصر ، ولا موالاة بين المؤمنين وبين أعداء الحق — سبحانه — فأعداء الحق هم أعداء الدين .
و « إنما » حرفٌ يقتضى أن ما عداه بخلافه ، وأعدى عدوك نفسك — كما فى الخبر —
وَمَنْ عَادَى نَفْسَهُ لَمْ يَخْرُجْ بِالْمُخَاصَمَةِ عَنْهَا مَعَ الْخَلْقِ وبالمعارضة فيها مع الحق^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾

الفائزون على حظوظهم الذين هم خصم للحق على أنفسهم لا خصم لأنفسهم على مولاهم ، والغلبة بالحجة والبرهان دون اليد .
ويقال من قام لله بصدق انحنس دونه كلُّ مُبْطِلٍ . ويقال إذا طلعت أنوار الحق أدبر ليل أهل الباطل .

(١) أى إن من خاصم نفسه لم تقم بينه وبين الناس ولا بينه وبين الحق خصومة من أجل نفسه فقد انتفت حظوظها بالسلبية وأسلبها لربه بلا معارضة .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبَآتٍ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

نَبِّهَهُمْ عَلَى وَجوب التحيز عنهم والتميز منهم ، فَإِنِ المخالف في العقيدة لا يكون موافقاً في الحقيقة .

ويقال أمرهم بأن يلاحظوهم بعين الاستصغار كما لاحظوا دين المسلمين بعين الاستحقار .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُوءًا وَلَعِبَآةً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

الأذانُ دعاءٌ إلى محلِّ النجوى ، فَمَنْ تَحَقَّقَ بَعَاثُ الْمَحَلِّ فَسَمِعَ الْأَذَانَ يُوْجِبُ لَهُ رُوحَ الْقَلْبِ واسترواح الروح ، ومن كان محجوباً عن حقيقة الحال لاحظَ ذلك بعين اللعب وأدركه بسمع الاستهزاء ، وذلك حكمُ الله : غَيْرَ بَيْنَ عِبَادِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِبُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴾

مالنا عندكم عيبٌ إلا أننا نحققنا أننا محو في الله ، (وَأَنَّ الْكَائِنَاتِ حَاصِلَةٌ بِاللَّهِ وَلَا تَنْقُيْ أَثَرًا سِوَى اللَّهِ فِي اللَّهِ) ^(١) ، وهذا — والله — عيبٌ زائلٌ ، وتقصُّ ليس له — في التحقيق — حاصل .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هَلْ أَنْبِئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكَ مَشُوبَةٌ

(١) ما بين القوسين موجود في الهامش أُنْبِتْنَاهُ في موضعه من النص حسب العلامة الميزة .

عند الله من نعمة الله وغضب عليه
وجعل منهم القردة والخنازير وعبد
الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل
عن سواء السبيل ﴿

يعنى أحسن من المذكورين قدرًا ، وأقل منهم خطراً من سقط عن عين الله فأذله ، وأبعده
عن نعمت التخصيص فأضله ، ومنعه عن وصف التقريب وأبعده ، وحجبه عن شهود
الحقيقة وطرده .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا جاءكم قالوا آمنا وقد دخلوا
بالكفر وهم قد خرجوا به والله
أعلم بما كانوا يكتمون ﴾

أظهروا الصدق ، وفي التحقيق نافقوا ، وافتضحوا من حيث أوهموا ولبسوا ، فلا حالهم
بقيت مستورة ، ولا أسرارهم كانت عند الله مكبوتة ^(١) ، وهذا نعمت كل مبطل . وعند
أرباب الحقائق أحوالهم ظاهرة في أنوار فراستهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وترى كثيراً منهم يسارعون
في الإثم والعُدوان وأكليم السُّحرة لبئس
ما كانوا يعملون ﴾

تمسكتهم الأطماع فاستهونهم في مناهات العناء ، وذلك نعمت كل (طالع) ^(٢) في غير
مطمع ؛ ذل حاضر ، وصغار مستول .

قوله جل ذكره : ﴿ لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن
قولهم الإثم وأكليم السُّحرة لبئس
ما كانوا يصنعون ﴾

(١) وردت (مكتوبة) والعباب أن تكون مكبوتة لتلائم مستورة التي سبقت .

(٢) ربما كانت (طامع) في غير مطمئع وربما كانت (ضالع)

الرباني من كان لله وبالله ؛ لم تبق منه بقية لغير الله .

ويقال الرباني الذي ارتقى عن الحسود .

والرباني من توفى الآفات ثم ترقى إلى الساعات ، ثم تلقى ما كوشف به من زوائد القربات ،
فخلا عن نفسه ، وصفا عن وصفه ، وقام لربه وبربه .

وقد جعل الله الربانيين تالين للأنبياء الذين هم أولو الدِّين ، فهم خلفاء ينهون الخلق
بممارسة أحوالهم أكثر مما ينهونهم بأقوالهم ، فإنهم إذا أشاروا إلى الله حقق الله ما يؤمسون إليه ،
وتحقق ما علقوا همهم به .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ

أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ، بل يدها

مبسوطتان يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ

كثيْرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ

رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، وألقينا بينهم

الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

كَلَّا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ

ويسعون في الأرض فسادًا ، والله

لا يحب المفسدين .

صغر سوء قالة الموحدين — في اغتياب بعضهم لبعض بعد ما كانوا بالتوحيد قائلين

وبالشهادة ناطقين — بالإضافة إلى ما قاله الكفار من سوء القول في الله ؛ يعني أنهم وإن

أساءوا قولاً فلقد كان أسوأ قولاً منهم من نسبنا إلى ما نحن عنه مُرَّةٌ ، وأطلق في وصفنا

ما نحن عنه مُقَدَّسٌ .

ثم إن الحق — سبحانه قال : « غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا » فلا ربح الصديق يشمون ،

ولا نفساً من الحق يمجدون .

ثم أثنى على نفسه فقال : « بل يدها مبسوطتان »^(١) أى بل قدرته بالغة ومشيتته نافذة ، ونعمته سابعة وإرادته ماضية .

ويقال « بل يدها مبسوطتان » أى يرفع ويضع ، وينفع ويدفع ، ولا يخلو أحدٌ عن نعمِ النفع وإن خلا عن نعم الدفع .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴾

إنما وعدم الغفران بشرط التقوى . ودليل الخطاب يقتضى أنه لا يغفر لمن لم يتق منهم . وقال لظالمى هذه الأمة : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه »^(٢) ثم قال فى آخر الآية : « جنات عدن يدخلونها » أى أهل التقوى لأنه هو أهل المغفرة ، فإن تركتم التقوى فهو أهل لأن يغفر ويقال لو أنهم راعوا أمرنا أصلحنا لهم أمرهم ، ولكنهم وقفوا فوقفوا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ أَنَّ هُمُ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾

أى لو سلكوا سبيل الطاعة لو سّعنا عليهم أسباب المعيشة وسهلنا لهم الحال حتى إن ضربوا بيمين ما لقوا غير اليمين ، وإن ذهبوا يسرة ما وجدوا إلا اليسر .

قوله جل ذكره : ﴿ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾

المقصد الواقف على حد الأمر ؛ لا يقصر فينقص ، ولا يجاوز فيزيد .

(١) لاحظ كيف يؤول القشيري (اليد) ليبعد عنها كل دلالة حسية ويجعلها من الأوصاف الالهية .

(٢) آية ٣٢ سورة فاطر

ويقال المقتصد الذي تساوى في همته القصد والوجود في الحادثات .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ
مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ
رِسَالَتَهُ ﴾

لا تكتم شيئاً مما أوحينا إليك ملاحظاً لغيره ، إذ لا غير — في التحقيق — إلا رسوم
موضوعة ، وأحكام القدرة عليها جارية .

ويقال بين الكفاة أنك سيد ولد آدم ، وأن آدم دون لوائك .
ويقال بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنِّي أَغْفِرُ لِلْعَصَاةِ وَلَا أَبَالِي ، وَأَرُدُّ مِنَ الْمُطِيعِينَ مَنْ شِئْتُ
وَلَا أَبَالِي .^(١)

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

يحفظ ظاهرك من أن يمسك أذاهم ، فلا يتسلط بعد هذا عليك عدو ، أو يصون سرّك
عنهم حتى لا يقع عليه احتشام منهم .

ويقال يعصمك من الناس حتى لا تفرق في بحر التوهم ؛ بل تشاهدم كما هم ؛ وجوداً
بين طرفي العدم .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ
حَتَّى تَقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ
إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ
مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا
وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾

(١) يتضح من هذه الإشارة شيان : أولهما مدى إتساع صدور الصوفية للتساع ونظرتهم المتفائلة إلى سعة
الرحمة الإلهية مما يطمئن العصاة ويحمس على التوبة ، وثانيهما مدى مخالفة القشيري للمعتزلة في مسأله وجوب
المتوبة أو العقوبة على الله سبحانه ، فلا وجوب — عنده — على الله بخلافهم .

أى ليس انتعاشكم ولا نظام معاشكم ، ولا قَدْرُكم فى الدنيا والعُقبى ، ولا مقداركم
ولا منزلكم فى حال من حالاتكم إلا بمراعاة الأمر والنهى ، والمحافظة على أحكام الشرع .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا
وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَارَى مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

يَبَيِّنُ أَنَّهُمْ — وَإِنْ نَجَّسَتْ أحوالهم — فبعد ما تجمعهم أصول التوحيد فلهم الأمان من
الوعيد ، والفوز بالمزيد .

قوله جل ذكره : ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ
وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ رُسُلًا كَلَّمَا جَاءَهُمْ
رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا
كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ وَحَسِبُوا
أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ
اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ
مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

داروا مع الهوى فوقعوا فى البلاء . ومن أمارات الشقاء الإصرارُ على متابعة الهوى ،
وحسبوا ألا تكون فتنة ، فعموا وصموا . واغثروا بطول الإمهال فأصروا على قبيح الأعمال ،
فلما أخذتهم فجأة الانتقام لم ينفعهم الندم ، وبرَّح بهم الألم .

قوله جل ذكره : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ
ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ
اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ
بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ
النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾

سَقِمَتْ بصائرهم والنبت عليهم أمارات الحدوث ، فخلطوا في عقائدهم استحقاق أوصاف
القديم بنعوت الحدوث !

قوله جل ذكره : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث
ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ،
وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن
الذين كفروا منهم عذاب أليم *
أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه
والله غفور رحيم ﴾

بلغ الخذلان بهم حداً أن كبروا الضرورة فحكموا للواحد بأنه ثلاثة ، ولا يخفى فساد هذا
على مجنون . . فكيف على عاقل ١٩ .

قوله : « أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم » لم يُفلق باب التوبة عليهم
— مع قبيح أقوالهم ، وفساد عقائدهم — تضييقاً^(١) لآمال المؤمنين بخصائص رحمته .

قوله جل ذكره : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول
قد خلت من قبله الرسل وأمه
صديقة كانا يا كلان الطعام انظر
كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى
يؤفكون ﴾ .

من اشتملت عليه الأرحام ، وتناوبته الآثار المتعاقبة أنى يليق بوصف الإلهية ؟
ثم من مسته الحاجة حتى اتصف بالأكل وأصابته الضرورة إل أن يخلص من بقايا الطعام
فأنى يليق به استيجاب العبادة والتسمية بالإلهية ؟

انظر — يا محمد — كيف نزيد في إيضاح الحجة وكيف تلبس عليهم سلوك الحجة ؟

(١) تضييقاً أى جعلها مضاعفة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

تعليقُ القلوب — بدون الرب — في استدفاع الشر واستجلاب الخير بمحقيق الوقت فيها لا يُجْدِي ، وإذهابُ العمر فيها لا يُغْنِي ؛ إذ المنفردُ بالإيجاد يرى عن الأنداد .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ الْحَبِيلِ ﴾ .

التعمقُ في الباطل قطعُ آمال الرجوع ؛ فكلما كان بُعدُ المسافةِ مِنَ الْحَقِّ أَمَّ كَانَ اليأسُ من الرجعةِ أَوْجَبَ ، ومتَّبِعُ الضلالةِ شرٌّ مِنْ مُبْتَدِعِهَا ؛ لأنَّ المُبتدِعَ يَبْنِي وَالْمُتَّبِعَ يُتِمُّ البناءَ ، ومن به كمالُ الشرِّ شرٌّ مِنْ مَنْهُ ابتداءُ الشرِّ .

قوله جل ذكره : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ .

أمرُ الأنبياء — عليهم السلام — حتى ذكروا الكفار بالسوء ، وأما الأولياء فخصَّهم بذكر نفسه فقال : « هو الذي يصلي عليكم »^(١) ؛ فلعنةُ الكفار بلسان الأنبياء ، وذكرُ المؤمنين بالجميل بلسان الحق — سبحانه ، ولو كان ذلك ذِكْرًا بالسوء لكان فيه استحقاقُ فضيلةٍ ، فكيف وهو ذِكْرٌ بالجميل ؟ ولقد قال قائلهم :

لئن ساءنى أن تلقني بمساءٍ فقد سررتني أني خطرْتُ بباليكا

قوله جل ذكره : ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُسْكَرٍ

(١) آية ٤٣ سورة الأحزاب .

فَعَلَوْهُ^(١) لَيْئِسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ .

الرضا بمخالفة أمر الحبيب موافقة للمخالف ، ولا أنفة بعد تميز الخلاف . والسكوت عن جفاء تعامل به كرم ، والإغضاء عما يُقال في محبوبك دناءة .

قوله جل ذكره : ﴿ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَقُولُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْئِسَ بِمَا قَدَّمْتُمْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ .

شرُّ خِصَالِ اللّثَامِ مطابقةً مِنْ يَضَادِ الصِّدِّيقِ ، فإذا كان سخط الله في موالاته أعدائه ، فرحمته — سبحانه في معاداة أعدائه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ .

صَرَّحَ بِأَنْ مُوَافِقَ مَنْ نَاوَأَكَ^(٢) آثَرَ التَّبَاعَدِ عَنْكَ ؛ إِذْ لَوْ كَانَتْ بَيْنَكُمْ شَهْرَةٌ غَيْرُ مُنْقَطِعَةٍ لَأَخْلَصْتَ^(٣) فِي مَوَالَاتِهِ ، وَأَخْلَصَ فِي مَصَافَاتِكَ .

قوله جل ذكره : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيِينَ وَرُهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ .

بَيَّنَّ أَنَّ صِفَةَ الْعَدَاوَةِ وَإِنْ كَانَتْ تَجْمَعُهُمْ فَعَادَاةٌ بَعْضُهُمْ تَزِيدُ عَلَى بَعْضٍ ، وَبِقَدَرِ

(١) سَقَطَتْ (فَعَلَوْهُ) مِنَ النَّاسِخِ فَابْتَنَاهَا .

(٢) وَرَدَتْ (نَاوَأَكَ) وَرَبَّمَا كَانَتْ فِي الْأَصْلِ (نَاوَأَكَ) وَالتَّبَسُّتَ عَلَى النَّاسِخِ فَظَنَّا لَهَا .

(٣) أَخْطَأَ النَّاسِخُ فَكَتَبَهَا (لَأَخْلَصْتَ) .

ما للنصارى من التَّرهيب أثر فيهم (بالمقاربة) ^(١) من أهل الحق ؛ فإنهم وإن لم ينتفعوا بهم من حيث الخلاص فقد ذكروا الله سبحانه — بمقاربة أهل الاختصاص .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾

هذه صفة من نظر إليه الحق نظر القبول ، فإذا قرَّعتْ نَحْمَقُهُمْ دعوة الحق ابتسمت البصيرة في قلوبهم ، فسكنوا إلى المسوع لما وجدوا من التحقيق .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾

وأى عذر لنا في التعرُّيج في أوطان الارتياب ، وقد فُجِّلَتْ لقلوبنا الحجج ؟ ثم ما تؤمله من حُسنِ العاقبة . متى بدونه يمكن أن نطلبه ؟

قوله جل ذكره : ﴿ فَاثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾

لَمَّا صَدَّقَتْ آمالهم قابليها بالتحقيق ، سَنَّةٌ مِنْهُ — سبحانه — ألا ينجيب راجيه ، ولا يرد مؤمله ^(٢) ، وإنما علَّق الثواب على قول القلب الذى هو شهادة عن شهوده ، فأما النظر المنفرد عن البصيرة فلا ثواب عليه ولا إيجاب ^(٣) .

(١) وردت (بالقدرة) والعرب أن تكون (المقاربة) فقد وردت كذلك قبلها بعد إشارة إلى ما في الآية (أقربهم مودة) وربما قبلنا (بالمقارنة) على أساس مقارنة النصارى باليهود .
(٢) وردت (مؤله) وهي خطأ في النسخ .
(٣) لاحظ هنا قبة الإيمان النظرى بالقياس إلى الإيمان القنبى بمنزى فأن في التسامح الدينى .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾

(هذا) أثر الإعراض عن الأعداء في مقابلة أثر الإقبال على الأولياء معجلاً ومؤجلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا

طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ، وَلَا تَعْتَدُوا

إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

من أمارات السعادة الوقوف على حد الأمر ؛ إن أباح الحق شيئاً قبله ، وقابله

بالخشوع ، وإن حظر شيئاً وقف ولم يتعرض للجحود . .

ومما أباحه من الطيبات الاسترواح إلى نسيم القرب في أوطان الخلوة ، وتحريم ذلك : إن

استبدل تلك الحالة بالخلطة دون العزلة ؛ والعشرة دون الخلوة ، وذلك هو العدوان العظيم

والخسران المبين .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً

طَيِّباً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ

مُؤْمِنُونَ ﴾

الحلال الصافي بأن يأكل العبد ما يأكل على شهوده — سبحانه — فإن نزلت الحالة

عن هذا فعلى ذكره — سبحانه — فإن الأكل على الغفلة حرام في شريعة الإرادة .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا يَأْخُذُكُمُ اللَّهُ بِالْفُحْشِ فِي آيَمَانِكُمْ

وَلَكِنْ يَأْخُذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ

فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ

مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ

أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقِيَّةٍ ، فَمَنْ

لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ

كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا

أَيَّمَانَكُمْ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ
آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١﴾

الإشارة منه إلى وقتٍ يغلب على قلبك التعطشُ إلى شيء من إقباله أو وصاله ،
فَتُنْفِسُ عليه بجماله أو جلاله أن يرزقك شظيةً من إقباله ، فكذلك في شريعة الرضا
نوعٌ من اليمين ، فيعفو عنك رحمةً عليك لضف حالك . والأولى الذوبان والحمود بحسن
الرضا تحت ما يُجرى عليك من أحكامه في الرذ والصد ، وأن تؤثر استقامتك في أداء
حقوقه على إكرامك بحسن تربيته وإقباله ، كما قال قائلهم :

أُرِيدُ وَصَالَهُ وَيُرِيدُ هَجْرِي فَأَتْرُكُ مَا أُرِيدُ لِمَا يَرِيدُ

وَمِنَ اللَّغْوِ فِي الْيَمِينِ — عِنْدَهُمْ — مَا يَجْرِي عَلَى لِسَانِهِمْ فِي حَالِ غَلَبَاتِ الْوَجْدِ مِنْ
تَجْرِيدِ الْعَهْدِ وَتَأْكِيدِ الْعَقْدِ ، فيقول :

وَحَقُّكَ مَا نَظَرْتُ إِلَى سِوَاكَ ، وَلَا قُلْتُ بِغَيْرِكَ . . . وَلَا حُلْتُ عَنْ عَهْدِكَ ،
وَأَمْثَالُ هَذَا . . .

وَكُلُّهُ فِي حَكْمِ التَّوْحِيدِ لِنُفُو ، وَعَنْ شُهُودِ عَهْدِ الْأَخْذِيَةِ سَهْوٍ . . . وَمَنْ أَنْتَ
فِي الرَّفْعَةِ حَتَّى تَقْدِمَ نَفْسَكَ ؟ وَأَيْنَ فِي الدَّارِ دِيَارٌ حَتَّى تَقُولَ بِتَرْكِهِ أَوْ تَتَحَقَّقَ بِوَصْلِهِ
أَوْ هَجْرِهِ ؟ كَلَّا . . . بَلْ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ^(١) .

وَكَمَا أَنَّ الْكُفَّارَةَ الشَّرْعِيَّةَ إِمَّا عِثْقٌ أَوْ إِطْعَامٌ وَإِمَّا كِسُوءَةٌ فَإِنْ لَمْ تَسْنُطْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ
أَيَّامٍ : فَكُفَّارَتُهُمْ — عَلَى مَوْجِبِ الْإِشَارَةِ — إِمَّا بِذَلِ الْوَجْدِ بِحَكْمِ الْوَجْدِ ، أَوْ بِذَلِ الْقَلْبِ
بِصَحَّةِ الْقَصْدِ ، أَوْ بِذَلِ النَّفْسِ بِدَوَامِ الْجَهْدِ ، فَإِنْ عَجَزْتَ فَأَمْسَاكُ وَصِيَامٌ عَنْ
الْمُنَاهِي وَالزَّوَاجِرِ .

قوله جل ذكره : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ

(١) وشبهه بذلك قول الشبلي حين سئل عن التوحيد (من أجاب عن التوحيد بالمبارة فهو ملحد ،
ومن أشار إليه فهو ثنوي ، ومن أومأ إليه فهو عابد وثن ، ومن نطق فيه فهو غافل . . . وكل ما يميزتموه
بأوهامكم وأدركتموه بقولكم في أتم معانيكم فهو مصروف مردود إليكم ، يحدث مصنوع مثلكم »
الرسالة ص ١٤٩ .

والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل
الشیطان فاجتنبوه لعلکم تفلحون ﴿١﴾

الحمر ما خامر العقل ، والحمر حرام .

والإشارة فيه أنه يزيد نفاذ العقل بما يوجب عليه من الالتباس .

ومن شرب من خمر الغفلة فسكره أصعب ؛ فشرب الغفلة يوجب البعد عن الحقيقة .
وكما أن من سكر من خمر الدنيا ممنوع عن الصلاة فمن سكر من خمر الغفلة فهو محجوب
عن المواصلات .

وكما أن من شرب من خمر الدنيا وجب عليه الحد فكذلك من شرب شراب الغفلة
فعليه الحد إذ يضرب بسياط الخوف .

وكما أن السكران لا يُقام عليه الحد ما لم يُفق فالغافل لا ينجح فيه الوعظ ما لم ينته .
وكما أن مفتاح الكبائر شرب الحمر (فالغفلة) ^(١) أصل كل زلة ، وسبب كل ذلة وبدء
كل بُعد وحجة عن الله تعالى .

ويقال لم يحرم عليه الشراب في الدنيا إلا وأباح له شراب القلوب ؛ فشرب الكبائر
محظور (وشراب الاستئناس مبذول ، وعلى حسب المواجه حظى القوم بالشراب) ^(٢) ، وحيثما
كان الشراب كان السكر ، وفي معناه أنشدوا :

فما ملّ ساقها وما ملّ شارب عقار لحاظ كأسه يسكر اللبّا
فصحوك من لفظي هو الوصل كله وسرك من لحظي يبيح لك الشرابا

وحرّم الميسر في الشرع ، وفي شريعة الحب القوم مقهورون ؛ فمن حيث الإشارة أبدانهم
مطروحة في شوارع التقدير ، يطؤها كل عابر سبيل من الصادقين من عين المقادير ، وأرواحهم
مستباحة بحكم القهر ، عليها خرجت القرعة من (. . .) ^(٣) الحكم ، قال تعالى « فساهم
فكان من المدحضين » ^(٤) .

(١) أضفنا (الغفلة) وليست موجودة في النص ليتضح المعنى .

(٢) ما بين القوسين مثبت في الهامش نقلناه إلى موضعه حسب العلامات .

(٣) مشتبه . (٤) آية ١٤١ سورة الصافات .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ
الْمَدَاوِنَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْحَرِّ وَالْمَيْسِرِ
وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ
فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ .

طال بُعْدُكُمْ عن الحقيقة فقاموا الهوان في مطارح الغربة ، وصاروا سخرة للشيطان ؛ فبقوا
الصلاة التي هي محل النجوى وكال الراحة ، وَفَسَدَتْ ذاتُ بَيْنِهِمْ بما تولد من
الشحناء والبغضاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ
وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا إِنَّمَا عَلَى
رَسُولِنَا الْبَلَاغُ لِلْبَيِّنِ ﴾ .

كلما كان العبد أعرفَ بربه كان أخوفَ من ربه ، وإنما يفتق الحذر عن العبد عند تحقيق
الوعد بقوله : « أولئك لهم الأمن » (١) وذلك عند دخول الجنة . وحقيقة الحذر نهوض القلب
بدوام الاستغاة مع مجارى الأنفاس .

قوله جل ذكره : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا
مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ
اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ
يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

من حافظ على الأمر والنهي فليس للقة يتناولها من الخطر ما يُضَايِقُ فيها ، وإنما المقصودُ
من العبد التأدبُ بصحبة طريقه سبحانه ، فإذا اتقى الشِّركَ تعرّف ، ثم اتقى الحرامَ فما تصرف ،
ثم اتقى الشحَّ فأثر وما أسرف .

(١) آية ٨٢ سورة الأنعام .

وقوله « ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا... » يعنى اتقوا للنعم^(١) وأحسنوا للخلق — وهذا للعموم . ثم اتقوا شهود الخلق؛ فأحسن الشهود الحق ، والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه — وهذا للخواص .

والله يحب المحسنين أعمالاً والمحسنين (آمالاً)^(٢) والمحسنين أحوالاً .

قوله جل ذكره : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ

من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم *
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمَّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بِالْغُلَبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتقام *

أباح الصيد لمن كان حلالاً^(٣) ، وحرّم الصيد على المحرم الذى قصده زيارة البيت . والإشارة فيه أن من قصد بيتنا فينبغى أن يكون الصيد منه فى الأمان ، لا يتأذى منه حيوان بحال ، لذا قالوا : البرّ من لا يؤذى الذر ولا يضرّ الشر .

ويقال الإشارة فى هذا أن من قصدنا فعليه نبدّ الأطماع جملة ، ولا ينبغى أن تكون له مطالبة بحال من الأحوال .

(١) أى منع الإحسان .

(٢) نرجح أنها فى الأصل (أموالا) .

(٣) الحلال = الخارج من الإحرام (المتجدد : مادة حل) .

وكما أنَّ الصيدَ على المُحرَّم حرامٌ إلى أن يتحلل فكذلك الطلب والطمع والاختيار -
على الواجد - حرامٌ ما دام مُحَرَّمًا بقلبه .

ويقال العارفُ صيدُ الحق ، ولا يكون للصيد صيد .

وإذا قَتَلَ المُحرَّمُ الصيدَ فعليه الكفَّارة ، وإذا لاحظ العارفُ الأغيارَ ، أو طمع أو رغب
في شيءٍ أو اختار لَزِمَتَهُ الكفَّارة ، ولكن لا يُكْتَفَى منه بجزاء المثل ، ولا بأضعاف أمثال
ما تصرف فيه أو طمع ، ولكن كفَّارته تجرده - على الحقيقة - عن كل غير ، قليلٍ أو كثير ،
صغيرٍ أو كبير .

قوله جل ذكره : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ
مَتَاعًا لَكُمْ وَالسِّيَارَةِ وَحُرْمٌ عَلَيْكُمْ
صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ
الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

حُكْمُ الْبَحْرِ خِلَافُ حُكْمِ الْبَرِّ . وإذا غرق العبدُ في بحار الحقائق سَقَطَ حُكْمُهُ ، فصيد
البحر مباح له لأنه إذا غرق صار محوًّا ، فما إليه ليس به ولا منه إذ هو محوٌّ ، واللهُ
غَالِبٌ على أمره .

قوله جل ذكره : ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِبْلًا
لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ
وَالْقُلُودَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ
مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ
اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

حَكْمُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ - بأن يكون بينه - اليومَ ملجأً يلوذ به كل مؤمِّل ، وبستقيم
ببركات زيارته كلُّ مائلٍ عن نهج الاستقامة ، ويستنجح بابتهاله هنالك كلُّ ذي أَرْبٍ .

والبيتُ حَجَرٌ والعبدُ مَدَرٌ ، والحق سُبْحَانَهُ ربط للمدرب بالحجر ليُعَلِّمَ أنه الذي لم يَزَلْ
لا سبيلَ إليه للحدثان والغير .

قوله جل ذكره : ﴿اعلموا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

شديد العقاب للأعداء ، غفور رحيم للأولياء .

ويقال شديد العقاب للخواص بتمجيل الحجاب إن زاغوا عن الشهود لحظة ، غفور رحيم للعوام إن رجعوا إليه بتوبة وحسرة .

قوله جل ذكره : ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ * قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولى الأبواب لعلكم تفلحون *

للتفرّد بالإلهية الله . والرسول — وإن جلّ قدره — فليس عليه إلا البلاغ وهو أيضاً (بتسييره) ^(١) .

قوله : « قل لا يستوى الخبيث والطيب » : الخبيث ما اكتسبه الغافل عن الله تعالى في حالة اكتسابه ، والطيب ما اكتسبه على شهود الحق .

ويقال الخبيث ما لم يُخرج منه حق الله تعالى ، والطيب ما أُخرج منه حقه — سبحانه .
ويقال الخبيث ما ادخرته لنفسك ، والطيب ما قدّمته لأمره .

قوله جل ذكره : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُونَ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾

(١) لا نسبّد ايضاً انها ربما كانت في الأصل (بتسييره) ، وكلاما مقبول في السياق .

إذا أسبل عليكم ستر اللطف فلا تتعرضوا لعلم أخفى عنكم ، فيتنفص (بالتج ...)^(١)
— عليكم — عيشكم .

ويقال لا تعرضوا للوقوف على محل الأكابر — حيث لا تستوجبون ذلك — فيسوءكم
تقاصر رتبكم .

ويقال إذا بدا من الإعراض علم فاطلبوا له عندكم وجهاً من (التغال)^(٢) ولا تطلبوا
أسرار الباري ، وادكنوا إلى روح المنى في استدفاع ما (ظلكم)^(٣) ولا تبحثوا عن سر
ذلك ، وراعوا الأمر مجلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا
بها كافرين ﴾

يعنى توهم قوم أنهم محررون عن التأثير فيما يصادفهم من تجاة التقدير ، وذلك منهم ظن ،
كما يقول بعضهم :

تبين يوم البين أن اعتزامه على الصبر من إحدى الظنون الكواذب
قوله جل ذكره : ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة
ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين
كفروا يفترون على الله الكذب
وأكثرهم لا يعقلون ﴾

هذه أحكام ابتدعوها ، فردهم الحق — سبحانه — عن الابتداع ، وأمرهم بحسن
الاتباع ، وأخبر أن ما صدر من عاداتهم لا يعد من جملة عباداتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله

(١) بقية الكلمة مشتبه ولكنها أقرب ما تكون إلى (التجسس) وهي مقبولة هكذا في السياق ؛
أى لا تجملوا التجسس ومحاولة معرفة الأسرار بنفس عليكم عيشكم .
(٢) هكذا في النسخ ورجح أنها فى الأصل (التأويل) وإن كانت بعيدة فى الرسم .
(٣) أى ما غشيتكم من سحُب الإعراض .

وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا
عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم
لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ﴿١﴾

إذا هتفت بهم دواعي الحق بالجنوح إلى وصف الصديق صدّهم عن الإجابة ما مروا عليه
من سهولة (التقليد) ^(١) ، وإن أسلافهم الذين وافقوهم لم يكونوا إلا في ضلال .

قوله جل ذكره : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ
لَا يَظُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ
إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فُتَبِّحُكُمْ بِمَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

يكفى للفقير أن يمشى وقد جبر بعض (كسره) ^(٢) ، فأما إذا ادّعى التقسم أو الطمع
في إنجاده من سواء فحال من (الحدث) ^(٣) والظن .

ويقال من يفرغ إلى غيره يتشاغل عن نفسه ، ومن اشتغل بنفسه لم يفرغ إلى غيره .

قوله جل ذكره : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا
حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ
إِثْنَانُ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ
غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ
فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا
مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ
لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى
وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّكِنَ

(١) وردت (التقليد) والصواب (تقليد) آباؤهم واسلافهم كما في الآية .

(٢) وردت (كثره) بالثاء والصواب : جبر (كسره) بالسين .

(٣) ربما كانت في الأصل (الحدث) لتتمشى مع الظن .

الآمين * فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا
إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهَا مِنَ
الَّذِينَ اسْتَحَقُّ عَلَيْهِمُ الْأُولَايَانِ
فَيَقْسَمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ
شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ
الظَّالِمِينَ * ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا
بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهٍ أَوْ يَخَافُوا أَنْ
تُرَدُّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَسْمِعُوا ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْفَاسِقِينَ ﴿٢٠﴾

حكم هذه الآية كان ثابتاً في الشرع ونسخ ، وفي بيان التفسير تفصيله .

والنسخ هو الإزالة ، وذلك جائز في العبادات .

ومعنى النسخ يوجد في سلوك المرئيين ؛ فهم في الابتداء فرضهم القيام بالظواهر من
حيث المجاهدات ، فإذا لاح لهم من أحوال القلوب شيء آلت أحوالهم إلى مراعاة القلوب
فتسقط عنهم أوراد الظاهر ، فهو كالنسخ من حيث الصورة .

قال تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » (١) . واتصافهم بمراعاة
التلويح أنهم بتأديبهم بأحكام المعاملات (٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ
مَاذَا أُجِّبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ
أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾

يكشفهم بنعت الجلال فتتخس فهمهم وعلومهم حتى ينطقوا بالبراءة عن التحقيق

(١) آية ١٠٦ سورة البقرة .

(٢) أي أن مراعاة الحقيقة تتم بمراعاة الشريعة .

ويقولون : « لا علم لنا » ، وهكذا تكون الحالة غداً : مَنْ قال لشيء ، أو مَال لشيء مما يكون
نعماً بمخلوق فعند ظهور. وابل للتعزُّز تتلاشى الجملة ، فالملائكة يقولون : « ما عبدناك
حق عبادتك » والأنبياء يقولون : « لا علم لنا » .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ
نِعْمَتِيَ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَبَدْتُكَ
بِرُوحِ الْقُدُسِ تَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ
وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ
الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفَخُ فِيهَا
فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ
الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ
الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَآئِيلَ
عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنَّا هَذَا
إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

النِّدْ كِبَرُ بوجوه النعم يستخرج خلاصة الحب والهيان في المذكور^(١) ، وكلُّ وقتٍ للأحباب
بعضى يصير لهم حديثاً يتلى من بعدهم : إما عليهم وإما عنهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِيِّينَ أَنْ
آمَنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ
بِأَنفُسِنَا مَسْمُونٌ ﴾

(١) أعلى درجات الذكر أن يقضى الذَّاكِر في المذكور وفيها ينتقل العبد من مرتبة ذكر النعم
إلى ذكر المنعم . فكان القشيري يقصد بإشارته إلى أن تذكير عيسى وامي بالنعم التي وردت في الآية بحثٌ
لها على الارتقاء من مرحلة النظر إلى النعم إلى مرحلة النظر إلى صاحبها سبحانه وتعالى ، وحبّه والهيان فيه .

وإنما خصَّهم بالوحي إليهم إلهاماً وإكراماً لانبساط ضياء عيسى عليهم^(١) ، وفي الأثر :
« هم القوم لا يشقى بهم جليس » .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين ﴿

طلبوا المائدة لتسكن قلوبهم بما يشاهدونه من عظيم الآية وعجيب المعجزة ، فعذروا وأجيبوا إليها ؛ إذ كان مرادهم حصول اليقين وزيادة البصيرة .
ويقال كل يطلب سُؤله على حسب ضرورته وحالته ، فمنهم من كان سكونه في مائدة من الطعام يجدها ، ومنهم من يكون سكونه في (فائدة)^(٢) من الموارد يردُّها ، وعزيز منهم من يجد الفناء^(٣) عن برهان يتأمله ، أو بيان دليل يطلبه .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ، وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾

شَّتَان بين أمة طلب لهم نبيهم سكوناً بانزال المائدة عليهم ، وبين إمة بدأهم - سبحانه -

(١) وهذا يطابق فكرة الفشيري في الولاية وكيف انها ملحقة بالمعجزة ، فما يظهر على الولي من كرامة هو بركة النبي الذي الولي من امته وعصره .
(٢) ربما كانت (مائدة) ليم التقابل بين المائتين الحسية والمعنوية .
(٣) ربما كانت (الفناء) اي يجد الاستفناء عن كل برهان ودليل ، وتمسح (الفناء) بالفناء على معنى أن فناءه في الله لا يحوجه إلى برهان أو دليل . .

بإنزال السكينة عليهم ، من غير سؤال أحد ، قال الله تعالى : « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم »^(١)

وقال فى صفتهم « وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً »^(٢)

وفرق بين من زيادة إيمانه بآياته التى تتلى عليهم وبين من يكون سكونهم إلى كرامات وعطايا تُبَاحُ لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قال الله . إني مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾

أجابه إلى سؤاله لهم ، ولكن توعدهم^(٣) باليم العقاب لو خالفوا بعده ليعلم السالكون أنَّ المراد إذا حصل ، وأن الكرامة إذا تحققت — فالخطر أشدُّ والحال من الآفة أقرب ، وكلما كانت الرتبة أعلى كانت الآفة أخفى ، وعن الأكابر إذا حلت جلَّت .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قال اللهُ يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب ﴾

المراد من هذا السؤال إظهار براءة ساحته عما نسب إليه من الدعاء إلى القول بالتثليث ، فهذا ليس خطاب تعنيف بل هو سؤال تشریف .

(١) آية ٤ سورة الفتح .

(٢) آية ٢ سورة الأنفال .

(٣) وردت (يوعدهم) .

ثم إن عيسى — عليه السلام — حفظ أدب الخطاب فلم يُزكِّ نفسه ، بل بدأ بالثناء على الحق — سبحانه — فقال : تنزيهاً لك ! إنني أنزهك عما لا يليق بوصفك .

ثم قال : « ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق » أي إني إن كنت مخصوصاً من قبلك بالرسالة — وشرط النبوة العصمة — فكيف يجوز أن أفعل ما لا يجوز لي ؟ .

ثم إني « إن كنت قلته فقد علمته » . كان واثقاً بأن الحق — سبحانه — عليم بنزاهته من تلك القالة .

« تعلم ما في نفسي » : أي علمك محيطٌ بكل معلوم .

« ولا أعلم ما في نفسك » أي لا أطلع على غيبك إلا بقدر ما تُعرفني بإعلامك . « إنك أنت علام الغيوب » الذي لا يخرج معلوم عن علمك ، ولا مقدور عن حكمتك .

قوله جل ذكره : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أُمِرْتُ بِهِ أَنْ

اعبدوا الله ربِّي وربَّكم وكنتُ عليهم

شهيداً ما دمتُ فيهم فلما توفيتني

كنتُ أنت الرقيب عليهم وأنت

على كل شيء شهيد ﴾

مادعوهم إلا لعبادتك ، وما أمرتهم إلا بتوحيديك وتقديسك ، وما دمت حياً فيهم

كنت (. . .)^(١) على هذه الجملة ، فلما فارقتهم كان تصرفهم في قبضتك على

مقتضى مشيئتك ، فأنت أعلم بما كانوا عليه من وُضْعِي وفاقهم وخلافهم ، ولِعَمَتِي

اقتصادهم^(٢) وإسرافهم .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ تَعَذَّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ

فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

(١) مشبهة .

(٢) الاقتصاد هنا معناها الاعتدال .

بَيَّنَّ أَنَّ حَكْمَ الْمَوْلَى فِي عِبِيدِهِ نَافِذٌ بِحَكْمِ إِطْلَاقِ مُلْكِهِ ، قَالُوا : إِنْ تَعَذَّبْتَهُمْ يَحْسَنُ مِنْكَ تَعَذِّبُهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ عِبَادُكَ ، وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أَيْ الْمُعِزُّ لَمْ يَغْفِرْكَ لَهُمْ .

وَيُقَالُ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ الَّذِي لَا يَضُرُّكَ كُفْرُهُمْ .

وَيُقَالُ « الْعَزِيزُ » الْقَادِرُ عَلَى الْإِتْقَامِ مِنْهُمْ فَالْعَفْوُ (عِنْدَ) ^(١) الْقُدْرَةُ سِمَةُ الْكَرَمِ ، وَعِنْدَ الْعَجْزِ أَمَارَةُ الذُّلِّ .

وَيُقَالُ إِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَعَزُّ مِنْ أَنْ (تَتَجَبَّلَ) ^(٢) بِطَاعَةِ مُطِيعٍ أَوْ تَنْتَقِصَ ^(٣) بِزِلَّةٍ عَاصٍ . وَقَوْلُهُ « الْحَكِيمُ » رَدُّ عَلَى مَنْ قَالَ : غَفَرَانَ الشُّرْكَ لَيْسَ بِصَحِيحٍ فِي الْحِكْمَةِ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صَدَقَتُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾

مَنْ تَعَجَّلَ مِيرَاثَ صَدَقَتِهِ فِي دُنْيَاهُ مِنْ قَبُولِ حَصْلِ لَهُ مِنَ النَّاسِ ، أَوْ رِيَاسَةٍ عَقَدَتْ لَهُ ، أَوْ نَفْعٍ وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْ جَاهٍ ^(٤) أَوْ مَالٍ . فَلَا شَيْءَ لَهُ فِي آجَلِهِ مِنْ صَوَابِ صَدَقَتِهِ ، لِأَنَّ الْحَقَّ — سُبْحَانَهُ — نَصَّ بِأَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَنْفَعُ فِيهِ الصَّادِقِينَ صَدَقَتَهُمْ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

وَرِضَاؤُهُ الْحَقَّ — سُبْحَانَهُ — إِثْبَاتُ مَحَلٍّ لَهُمْ ، وَثَنَاءُ عَلَيْهِمْ وَمَدْحُهُ لَهُمْ ، وَتَخْصِيصُهُمْ بِأَفْضَالِهِ وَفَنُونِ نَوَالِهِ . وَرِضَاؤُهُمْ عَنِ الْحَقِّ — سُبْحَانَهُ — فِي الْآخِرَةِ وَصَوْلُهُمْ إِلَى مَنَامٍ ، فَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَالنَّجَاةُ الْكُبْرَى .

(١) وَرَدَتْ (هُنَّ) وَهِيَ خَطَأٌ فِي النُّسخِ .

(٢) وَرَدَتْ (تَتَجَبَّلُ) وَهِيَ خَطَأٌ فِي النُّسخِ .

(٣) وَرَدَتْ (تَنْتَقِصُ) بِالضَّادِ وَهِيَ خَطَأٌ فِي النُّسخِ .

(٤) وَرَدَتْ (جَارِهِ) وَهِيَ خَطَأٌ فِي النُّسخِ .

قوله جل ذكره : ﴿ اللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا فِيهِنَّ ﴾

تَمْدَحُ الْحَقُّ — سبحانه — بقدرته القديمة الشاملة لجميع المقدورات ، الصالحة لإيجاد
المصنوعات ، ولم يتجمل بإضافة غير إلى نفسه من اسم أو أثر ، أو عين أو طلل .
قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾
من الإبعاد والإسعاد ، والصد والرد ، والدفع والنفع ، والقمع والمنع .

السورة التي تذكر فيها الأنعام « بسم الله الرحمن الرحيم »

باسمه استنارت القلوب واستقلت ، وباسمه زالت الكروب واضمحلت ، وبرحمته عرفت
الأرواح وارتاحت ، وبا (. . .) ^(١) انْخَسَتِ الْعُقُولُ فطاحت .
ويقال بسم الله نال كل مؤمل مأموله ، وبرحمة الله وجد كل واجد وصوله .

قوله جل ذكره : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾

بدأ الله — سبحانه — بالثناء على نفسه ، فحمد نفسه بثنائه الأزلي وأخبر عن سنائه
الصمدى ، وعلائه الأحدى فقال : « الحمد لله » .

وقوله عز وجل : « الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ » : « فالذى » إشارة و « خلق
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ » عبارة . استقلت الأسرارُ بسماع « الذى » لتحقيقها بوجوده ، ودوامها
لشهوده ، واحتاجت القلوب عند سماع « الذى » إلى سماع الصلة لأن « الذى » من الأسماء
الموصولة بكون القلوب تحت ستر الغيب فقال : « خلق السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ »

(١) مشبهة .

قوله جل ذكره ﴿وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا
بهم يعدلون﴾

خَلَقَ ظِلْمَةَ اللَّيْلِ وَضِيَاءَ النَّهَارِ ، وَوَحْشَةَ الْكُفْرِ وَالشِّرْكَ ، وَنُورَ الْعِرْفَانِ وَالِاسْتِبْصَارِ .
وَيُقَالُ جَعَلَ الظُّلُمَاتِ نَصِيبَ قَوْمٍ لَا لُجْرَمٍ سَلَفَ ، وَالنُّورَ نَصِيبَ قَوْمٍ لَا لَاسْتِحْقَاقٍ
سَبْقَ ، وَلَكِنَّهُ حُكْمٌ بِهِ جَرَى قَضَاؤُهُ .

وَيُقَالُ جَعَلَ ظُلُمَاتِ الْعَصِيَانِ مُحَنَةً قَوْمٍ ، وَنُورَ الْعِرْفَانِ نِزْهَةً قَوْمٍ .

قوله جل ذكره : ﴿هو الذي خلقكم من طين ثم قضى
أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ
تَمْتَرُونَ﴾

أَثْبَتَ الْأَصْلَ مِنَ الطِّينِ وَأَوْدَعَهَا عَجَائِبَ (السِّر) ^(١) ، وَأَظْهَرَ عَلَيْهَا مَا لَمْ يَظْهَرْ عَلَى مَخْلُوقٍ ،
فَالْعِبْرَةُ بِالْوَصْلِ لَا بِالْأَصْلِ ؛ فَالْوَصْلُ قُرْبَةٌ وَالْأَصْلُ تَرْبَةٌ ، الْأَصْلُ مِنْ حَيْثُ النُّطْفَةُ وَالْقَطْرَةُ ،
وَالْوَصْلُ مِنْ حَيْثُ الْقَرْبَةُ وَالنَّصْرَةُ .

قوله « ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ » : جَعَلَ لِلْامْتِحَانِ أَجَلًا ، ثُمَّ جَعَلَ لِلْامْتِحَانِ
أَجَلًا ، فَأَجَلُ الْامْتِحَانِ فِي الدُّنْيَا ، وَأَجَلُ الْامْتِحَانِ فِي الْعُقْبَى .

وَيُقَالُ ضَرَبَ لِلطَّلَبِ أَجَلًا وَهُوَ وَقْتُ الْمَهَلَةِ ، ثُمَّ عَقِبَهُ بِأَجَلٍ بَعْدَهُ وَهُوَ وَقْتُ الْوَصْلَةِ ؛ فَالْمَهَلَةُ
لَهَا مَدًى وَمُنْتَهَى ، وَالْوَصْلَةُ بِلا مَدًى وَلَا مُنْتَهَى ؛ فَوْقَ الْوُجُودِ لَهُ ابْتِدَاءٌ وَهُوَ حِينَ تَطْلُعُ
شَمْسُ التَّوْحِيدِ ثُمَّ يَنْسَرِمُ ^(٢) فَلَا غُرُوبَ لَهَا بَعْدَ الطَّلُوعِ .

قوله جل ذكره : ﴿هو الله في السموات وفي الأرض
يعلم سرُّكم وجهركم ويعلم ما تكسبون﴾

(١) إِمَّا أَنْ تَكُونَ (السِّر) جَمْعُ سِيرَةٍ أَوْ تَكُونَ (السِّر) مَصْدَرُ سَارٍ يَسِيرُ ، وَلَا نَسْتَبْعِدُ .
أَنَّهُ فِي الْأَصْلِ (السِّر) فَالسِّرُ — كَمَا يَقُولُ صَاحِبُ اللَّحْ — هُوَ خَفَاءٌ بَيْنَ الدَّمِ وَالْوُجُودِ (اللَّحْ ص ٤٣٠)
(٢) وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الشَّيْلِيُّ :

تَسْرِمُ وَقْتِي فَيْكَ وَهُوَ مَسْرَمٌ وَافْنَيْتَنِي عَنِّي فَصَرْتُ بِمَجْرَدٍ
(اللَّحْ ص ٤٤٢)

وهو الذى هو معبودٌ مَنْ فى السماء ، مقصودٌ مَنْ فى الأرض ، وهو الموجود قبل كل سماء
وفضاء ، وظلام وضياء ، وشمس وقمر ، وعين وأثر ، وغير وغير .

قوله جل ذكره : ﴿ وما تأتيتهم من آية من آيات ربهم إلا
كانوا عنها معرضين ﴾ .

أى لا يزيدهم كشفًا ولطفًا إلا قابله جحدًا وكفرًا ، ولا يؤليهم إقبالًا إلا قابله
بإعراض ، ولا يلقاهم بسطًا إلا (. . . .)^(١) بانقباض .

قوله جل ذكره : ﴿ فقد كذبوا بالحق لما جاءهم
فسوف يأتيتهم أنباء ما كانوا به
يسهزون ﴾ .

إنهم أصرُّوا على الخلافِ مستكبرين ، وعن قريب يقاسون وبال أمرهم ، ويدوقون
غيب جحديهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من
قرن مكنَّاهم فى الأرض ما لم
نمكِّنْ لكم وأرسلنا السماء عليهم
ميدراراً فجعلنا الأنهار تجري من
تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا
من بعدهم قرناً آخرين ﴾ .

يعنى مَنْ تقدَّمهم كانوا أشدَّ تمكناً فى إيماننا ، وأكثر نصيباً - فى الظاهر - من
أقوالنا ؛ سهَّلنا لهم أسباب المعاش ، ووسَّعنا عليهم أبواب الانتعاش ، فحين وُطِّئوا على كواذب
المنى قلوبهم ، وأدركوا من الدنيا محبوبهم ومطلوبهم فتحنا عليهم من مكان التقدير ، وأبرزنا
لهم من غوامض الأمور ما فزعوا عليه من الندم ، وذاقوا دونه طعم الألم . ثم أنشأنا من بعدهم
قرناً آخرين ، وأورثناهم مساكنهم ، وأسكناهم أمانهم ، فلما انخرطوا - فى الغي - عن

(١) مشبهة .

سلكهم ، الحقنهم في الإهلاك بهم ، سُنَّةٌ منا في الانتقام قضيناها على أعدائنا ، وعادةٌ في الإكرام أجريناها لأوليائنا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ
فَلَسَوْهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا
إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ .

يُخْبِرُ عَنْ كَمَالِ قُدْرَتِهِ فِي إِبْدَاءِ مَا يَرِيدُهُ بَعْدَ مَا قَضَى لَهُمُ الضَّلَالَ ، فَلَوْ أَشْهَدَهُمْ كُلُّ دَلِيلٍ ،
وَأَوْضَحَ لَهُمْ كُلَّ سَبِيلٍ مَا ازْدَادُوا إِلَّا تَمَادِيًّا فِي الضَّلَالِ وَالنَّفَرَةِ ، وَانْهَمَاكَ فِي الْجَهْلِ وَالغَى .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ
أَنْزَلْنَا مَلَكَاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ نَحْمُ
لَا يُنْظَرُونَ ﴾ .

بَيِّنَ أَنَّ الْعِبْرَةَ بِالْقِسْمَةِ دُونَ الْاِعْتِبَارِ بِالْحُجَّةِ ، وَمَا يَفْنَى السَّرَاجُ عِنْدَ مَنْ فَقَدَ الْبَصَرَ ؟
كَذَلِكَ مَا تَفْنَى الْحُجَجُ عِنْدَ مَنْ عَدِمَ عَنَايَةَ الْأَزَلِ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا
وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَكْبِتُونَ ﴾ .

مَنْ لَمْ يُقَدِّسْ سِرَّهُ لَبَسَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَىءَ بِرِسَالِي مَنِ قَبْلِكَ
فَخَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا
بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

أَيَّ سَبَقَكَ — يَا مُحَمَّد — مَنْ كَذَّبَ بِهِ كَمَا كُذِّبْتَ ، فَخَقَّ لَهُمْ نَصْرُنَا ، فَانْتَقَمْنَا مِنْ
نَاوِهِمْ ، فَعَادَ إِلَيْهِمْ وَبَالَ كَيْدِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

قُلْ دُخُوا فِي الْأَرْضِ ، وَسَبِّحُوا فِي سُبُحِكُمْ فِيهَا مِنَ الطُّلُوعِ وَالْعُرُوضِ ، ثُمَّ انظُرُوا هَلْ أَفَلَّتْ مِنْ حَكْمِنَا أَحَدٌ ، وَهَلْ وَجَدَ مِنْ دُونِ أَمْرِنَا مُلْتَحِدًا (١) ؟ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

قُلْ لِلَّهِ كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ

لِيَجْزِيَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ

فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ

لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

سَلِّمُ هَلْ فِي الدَّارِ دِيَارٌ ؟ وَهَلْ لِلْكَوْنِ — فِي التَّحْقِيقِ — عِنْدَ الْحَقِّ مَقْدَارٌ ؟ فَإِنْ بَقُوا

عَنْ جَوَابِ يَشْفِي ، فَقُلْ : اللَّهُ فِي الرِّبُوبِيَّةِ يَكْفِي .

قوله : « كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ » : أَخْبَرَ وَحَكَّمَ وَأَرَادَ عَلَى حَسَبِ مَا عَلِمَ ، فَمَنْ تَعَلَّقَ

بِنَجَاتِهِ عِلْمُهُ سَبَقَ بِمَرَجَاتِهِ حُكْمُهُ ، وَمَنْ عَلَيْهِ فِي آزَالِهِ أَنَّهُ يَشْفَى فَيَقْدِرُ شَقَاتِهِ فِي الْبَلَاءِ يَبْقَى .

قوله جل ذكره . ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

الْحَادِثَاتُ لِلَّهِ مِلْكًا ، وَبِاللَّهِ ظُهُورًا ، وَمِنْ اللَّهِ بَدَأٌ ، وَإِلَى اللَّهِ رَجُوعًا . وَهُوَ « السَّمِيعُ ،

لَا نَيْنَ الْمُشْتَاقِينَ ، « الْعَلِيمُ » بِحَيْنِ الْوَاجِدِينَ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ اتَّخِذُوا لَنَا فَاطِرِ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

أَبَعَدَ مَا أَكْرَمَنِي بِجَمِيلِ وَلَايَتِهِ أَتَوَلَّى غَيْرَهُ ؟ وَبَعْدَ مَا وَقَعَ عَلَى ضِيَا عَنَايَتِهِ أَنْظُرُ فِي الدَّارَيْنِ

إِلَى أَحَدٍ ؟ إِنَّ هَذَا مُحَالٌ فِي الظَّنِّ وَالتَّقْدِيرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾

لَهُ نَعْتُ الْكَرَّمِ فَلِذَلِكَ يُطْعِمُ ، وَلَهُ حَقُّ الْقَدَمِ فَلِذَلِكَ لَا يُطْعَمُ .

(١) المتعدد = الملجأ لأن اللاجئ يُلجأ إليه (المنجد) .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي

عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

أى إئتى بمعجزى متحقق ، ومن عذاب ربى مُشْفِقٌ ، وبتابعة أمره مُتَخَلِّقٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَجَحَ

وَذَلِكَ الْفَوْزُ لِلْبَينِ ﴾

من أدركه سابقُ عنايته صَرَفَ عنه لِاحِقَ عقوبته .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ

إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

إِنَّهُ مَنْ يَنْجِيكَ مِنَ الْبَلَاءِ ، وَمَنْ يُلْقِيكَ فِي الْعَنَاءِ . وَإِذَا لِلتَّفَرُّدِ بِالْإِبْلَاجِ وَاحِدٌ فَلَا غِيَارُ
كُلُّهُمْ أَفْعَالُهُ ؛ وَإِنْ الْإِيْجَادُ لَا يَصْلُحُ مِنَ الْأَفْعَالِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ

الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾

عَلَتْ رُتْبَةُ الْأَحَدِيَّةِ صِفَةُ الْبَشَرِيَّةِ ، فَهَذَا لَمْ يَزَلْ وَهَذَا لَمْ يَكُنْ فَحَصْلٌ (١) . ومتى يكون

بقاء للحدثان مع وضوح سلطان التوحيد ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ

شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا

الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ

لِتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى

قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ

وَأِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾

(١) وبتعبير آخر هذا واجب الوجود وهذا ممكن الوجود — كما يقول أهل الفلسفة .

غَلَبَتْ شَهَادَةُ الْحَقِّ — سُبْحَانَهُ — فَهُمْ إِذَا أَقْبَلُوا يَشْهَدُونَ فَلَا نَحِيطُ بِحَقَائِقِ الشَّيْءِ عَلَيْهِمْ ، وَالْحَقُّ — سُبْحَانَهُ — هُوَ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ ، ثُمَّ أَخْبَرَهُ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ مَبْعُوثٌ إِلَى الْكَافَّةِ وَمَنْ مَبِیْجِدُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

أَحَاطَ عَلَيْهِمْ بِصَدَقِ الْمَصْطَفَى — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — فِي نُبُوَّتِهِ ، وَلَكِنْ أَدْرَكْتَهُمُ الشَّقَاوَةُ الْأَزَلِيَّةُ فَعَقَدَتْ أَلْسِنَتَهُمْ عَنِ الْإِقْرَارِ بِهِ ، فَجَحَدُوهُ جَهْرًا ، وَعَلِمُوا صِدْقَهُ سِرًّا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾
شَوْمُ الْخُدْلَانِ بَلَّغَ بِالنِّكَايَةِ فِيهِمْ مَا جَرَّاهُمْ إِلَى الْإِصْرَارِ عَلَى الْكُذْبِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، ثُمَّ لَمْ يَسْتَجِيبُوا مِنْ إِطْلَاعِهِ ، وَلَمْ يَخْشَوْا مِنْ عَذَابِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاءُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾

يَجْمَعُهُمْ لِيَوْمِ الْحُشْرِ وَالنَّشْرِ ، لَكِنَّهُ يَفْرَقُهُمْ فِي الْحُكْمِ وَالْأَمْرِ ، فَالْبَعْثُ بِجَمْعِهِمْ وَلَكِنَّ الْحُكْمَ يَفْرَقُهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا : وَاللَّهِ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾^(١)

هَذَا الَّذِي أَخْبَرَ عَنْهُمْ غَايَةَ التَّمَرُّدِ ، حَيْثُ جَحَدُوا مَا كَذَّبُوا فِيهِ وَأَقْسَمُوا عَلَيْهِ ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ بِاللَّهِ عِلْمٌ لَتَحَقَّقُوا بِأَنَّهُ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَوْلَاهُمْ وَعُقْبَاهُمْ ، لَكِنَّ الْجَهْلَ الْغَالِبَ عَلَيْهِمْ اسْتَنْطَقَهُمْ بِمَا فِيهِ فَضْأَتْهُمْ .

(١) أَخْطَأَ النَّاسِخُ فَكْتَبَهَا (مُشْرِكِينَ) بِالْتَّعَافِ .

قوله جل ذكره : ﴿ انظر كيف كذبوا على أنفسهم
وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ .

هذه كلمة تعجب ؛ يعنى إن قصتهم منها ما هو محل التعجب لامثالكم .

قوله جل ذكره : ﴿ ومنهم من يستمع إليك وجعلنا
على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي
آذانهم وقراً ﴾ .

بين أن السمع — فى الحقيقة — سمع القبول ، وذلك عن عين اليقين يصدر ، فأما سماع
الظاهر فلا عبرة به .

ويقال من ابتلاه الحق بقلب مطبق ، ووضع فوق بصيرته غطاء التليس لم يزد ذلك
إلا نفرة على نفرة .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن يروا آية لا يؤمنوا بها
حتى إذا جاءوك يجادلوك يجادلونك يقول
الذين كفروا إن هذا إلا أساطير
الاولين ﴾ .

يعنى من أقصته القسمة الأزلية لم تنعشه الحيلة الأبدية ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وهم ينهون عنه وينأون وإن يهلكون
إلا أنفسهم (و) ^(٢) ما يشعرون ﴾ .

فى هذه الآية إشارة صعبة (لمن) ^(٣) يدعو إلى الحق جهراً ثم لا يأتى بذلك سراً .

ويقال خالفت أحوالهم قضايا أقوالهم ، وجرى إجرامهم مجرى من ألقوا حبالهم على
غارهم ، وكذلك من أبعد عن القسمة لم يقربه فعله .

(١) تساوى هذه العبارة فى المعنى ما يأتى بعد قليل (وكذلك من أبعد عن القسمة لم يقربه فعله) .

(٢) سقطت الواو من الناسخ فأثبتناها .

(٣) وردت (لم) وهى خطأ فى النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا
يَالَيْتَنَّا زُودُوا وَلَا نُكْتَبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا
وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يعنى حين ينجز للعبد ما وعده له من القربة يشغل من شاء بنوع من العلة حتى لا يطالع أحد
على محل الأسرار .

قوله جل ذكره : ﴿ بَلْ يَدْعَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ
وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ
لَكَاذِبُونَ ﴾ وقالوا إن هي إلا حياتنا
الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ .

غداً يوم تهتك الأستار ، وتظهر الأسرار — فكم من مجلل بشوب تقواه ، ويحكم له
معارفه بانه زاهد في دنياه ، راغب في عقباه ، محب لمولاه ، مفارق لهواه ، فيكشف الأمر عن
خلاف ما فهموه ، ويفتضح عندهم بغير ما ظنوه .

وكم من مهتك ستر بما أظهر عليه ا ظن الكل أنه خليم العذار هيئ الأعلال ، مشوش
الأسرار ، فظهر لذوى البصائر جوهره ، وبدت عن خفايا الستر حقيقته (١) .

ثم قال : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ » أخبر عما علم أنه لا يكون أنه لو كان كيف
كان يكون ، فقال لو رُدَّ أهل العقوبة إلى دنياهم لعادوا إلى جحدهم وإنكارهم ، وكذلك
لو رُدَّ أهل الصفاء والوفاء إلى دنياهم لعادوا إلى أحسن أعمالهم :

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ
أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ؟ قَالُوا : بَلَىٰ وَرَبِّنَا

(١) لاحظ كيف ان التشيرى متأثر إلى حد كبير بتعاليم الملامية ، فأهل الملامية يقومون بأعمال
تستوجب ملامة الناس سراً لأسرارهم وصوناً لأحوالهم قصداً إلى محاربة دعوى النفس ، والاكتفاء بعلم
الحق بأحوالهم وحقائقهم .

قال : فدوقوا العذاب بما كنتم
تَكْفُرُونَ .

يا حسرة عليهم من موقف الخجل ، ومحل مقاساة الوجل ، وتذكر تقصير العمل !
فهم واقفون على أقدام الحسرة ، يقرعون أسنان الندم حين لا ندم ينفعهم ، ولا شكوى
تُسمع منهم ، ولا رحمة تنزل عليهم .

وحين يقول لهم : أليس هذا بالحق ؟ يُقِرُّون كارهين ، ويصرخون بالتبرى عن كل غير
قوله جل ذكره : ﴿ قد خسر الذين كذبوا بقاء الله حتى
إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا
على ما فرطنا فيها ، وهم يحملون أوزارهم
على ظهورهم ألا ساء ما يزرون ﴾
وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار
الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ؟
قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون
فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين
بآيات الله يجحدون ﴾

خسران وأى خسران ! لم يخسروا مالا ، ولا مقاماً ولا حالاً ، ولكن كما قيل :
لعمرى لئن أنزفت دمعى فإنه لفرقة من أفنيت فى ذكره عمرى
للمصيبة لهم والحسرة على غيرهم ، ومن لم يعرف جلال قدره متى تأسف على ما يفوته من
حديثه وأمره !

وقوله : « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو » : ما كان للنفس فيه حظ ونصيب اليوم فهو
من الدنيا ، وما كان من الدنيا فإنه — لا محالة — يلهيك عن مولاك ، وما يشغلك عن الحق
ركونه فغير مبارك قريبه .

قوله : « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن
الظالمين بآيات الله يجحدون » : هذه تعزية للرسول — صلى الله عليه وسلم

وتسلية . أى قد نعلم ما قالوا فيك وهم إنما قالوا ذلك بسببنا ولأجلنا . ولقد كُنْتَ عَظِيمَ الْجَاهِ
فِيهِمْ قَبْلَ أَنْ أَوْقَعْنَا عَلَيْكَ هَذَا الرَّقْمَ ؛ وَكَانُوا يَسْمُونُكَ مُحَمَّدًا الْأَمِينُ ، فَإِنْ أَصَابَكَ مَا يَصِيبُكَ
فَلِأَجْلِ حَدِيثِنَا ، وَغَيْرِ ضَائِعٍ لَكَ هَذَا عِنْدَنَا ، وَحَالُكَ فِينَا كَمَا قِيلَ :

أَشَاعُوا لَنَا فِي الْحَيِّ أَشْنَعُ قِصَةٍ وَكَانُوا لَنَا سُلْمًا فَصَارُوا لَنَا حَرْبًا

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا

عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ
نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ
جَاءَكَ مِنْ نَبَاِ الْمُرْسَلِينَ ﴿

يعنى إِنَّ مَنْ سَلَكَ سَبِيلَنَا صَبَرَ عَلَى مَا أَصَابَهُ مِنْ حَدِيثِنَا ، فَلَا خَسِرَتْ فِينَا صَفَقَتُهُ ،
وَلَا خَفِيتْ عَلَيْنَا حَالَتُهُ ، وَمَا قَابَلَ حُكْمَنَا مِنْ عَرَفْنَا إِلَّا بِالْمُهْجِ ، وَمَا حَمَلُوا مَا لَقُوا فِينَا
إِلَّا عَلَى الْحَقِّ :

إِنَّ الْأَلَى مَاتُوا عَلَى دِينِ الْهُوَى وَجَدُوا الْمَنِيَةَ مِنْهَا مَسْوَلًا

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ

اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ
أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيهِمْ بَأْيَةٌ ،
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى
فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿

لفرط شفقته — صلى الله عليه وسلم — استقصى في التماس الرحمة من الله لهم ، وحمل على
قلبه العزيز بسبب ما علم من سوء أحوالهم ما أثر فيه من فتون الأحران . فعرّفه أنهم مُبْعَدُونَ
عن التقريب ، منكوبون بسالف القسمة .

ولو أراد الحق — سبحانه — تلطفَ عنهم ، ولو شاء أن يهديهم لكان لهم مقبل في
الصدور ، ومشوى على النشاط ، ولكن مَنْ كَبَسَتْهُ الْعِزَّةُ لَمْ تُنْعِشْهُ الْحِيلَةُ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى

يُبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾

مَنْ فَقَدْ الاسْتِمَاعُ فِي سِرَائِرِهِ عَدِمَ تَوْفِيقَ الْإِتِّبَاعِ بظَاهِرِهِ ، وَالْإِخْتِيَارُ السَّابِقُ فِي مَعْلُومِهِ

— سُبْحَانَهُ — غَالِبٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ

قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً

وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

استزادوا من المعجزات وقد حصل من ذلك ما يذبح العذر ، ولم يعلموا أن الله المانع لهم

فلولا ما (. . .) (١) من بصائرهم لما تَوَاهَمُوا من عدم دلائلهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ

يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ

مَافَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ

ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾

يعنى تساوت المخلوقات ، وتمائلت المصنوعات في الحاجة إلى المنشئ : في حال الإبداع

ثم في حال البقاء ، وكذلك جميع الصفات النفسية والنعوت الذاتية توقفت عن الإيجاد

والاختيار ، فما من شيء من عينٍ وأثر ، ورسم وطلل . . . إلا وهو على وحدانيته شاهدٌ ،

وعلى كون أنه مخلوق . . . دليلٌ ظاهرٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ

وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ، مَنْ يَشَأُ اللَّهُ

يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأُ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ ﴾

الذين فاتهم العناية الأزلية سدَّ الحرمانُ أسماعهم ، وغشَّى الخذلانُ أبصارهم .

(١) مثلية وربما كانت (سد) فهي في الخط إلى ذلك أقرب .

والإرادة لا تُعارض ، والمشئنة لا تزاحم^(١) ، والحق — سبحانه — في جميع الأحوال غالب .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَرَأَيْكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ ، أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ * بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتُنسون ما تُشركون *

إذا مسكم الضر ، ونآبكم أمر فين ترومون كشفه ؟ ومن الذي تؤملون لطفه ؟ مخلوقاً شرقياً أم شخصاً غربياً ؟ أم ملكاً سماوياً أم عبداً أرضياً ؟

ثم قال : « بل إياه تدعون » : أي إنكم — إن تذللتم بنفوسكم أو فكرتم طويلاً بقلوبكم — لن تجدوا من دونه أحداً ، ولا عن حكمه ملتجداً ، فتعودون إليه في استكشاف الضر ، واستلطاف الخير والبر ، كما قيل :

ويرجى إليك — وإن تئمت ديارى عنك — معرفة الرجال

و قد تركناك للذي تريد فمضى إن خبرته أن تعودا

فإذا جربت الكل ، وذقت الخلو والمُر ، أفضى بك الضر إلى بابه ، فإذا رجعت بنعت الانكسار ، وشواهد الذل والاضطرار ، فإنه يفعل ما يريد : إن شاء أتاح البُسر وأزال العسر ، وإن شاء ضاعف الضر وعوض الأجر ، وإن شاء ترك الحال على ما (قبل)^(٢) السؤال والابتهاال .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أرسلنا إلى أممٍ من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ﴾

(١) وردت (تزاحم) بالهاء وهي خطأ في النسخ

(٢) وردت (قبل) وهي خطأ في النسخ .

يخبر عن سالف سنته في أبداء الأمم وما أوجب لمن أطاعه منهم من النعم والكرم ،
وما أحلّ بمن خالفه من الألم وفنون النعم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا
وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ
الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فلما
نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم
أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا
بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم
مبلسون ﴿

يعنى أنهم لما أظلمهم البلاء ، فلو رجعوا يجميل التضرع وحسن الابتهاال والتلق
لكشفنا عنهم المحن ، ولأفتحنا لهم المكنن ، ولكن صدمهم الخذلان عن العقبي فأصروا على
تمردهم ، فقسّت قلوبهم وتضاعفت أسباب شقوتهم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ يخبر عن خفي مكره بهم ، وكيف أنه
استدرجهم ، ثم أذاقهم وبال أمرهم فقال : لما طالت عن الحضرة غيبتهم ، ولم تنجح
مواظبتنا فيهم سهلنا لهم أسباب العوافي وصببنا عليهم عزالي^(١) النعم ، وفتحنا لهم أبواب
الرفاهية ، فلما استمكن الرجاء من قلوبهم أخذناهم بغتة وعذبناهم فجأة ، وأذقناهم حسرة
فإذا هم من الرحمة قانطون ، ولما خامر قلوبهم — من أسباب الوحشة عن الاستراحة بدوام
للنجاة — آيسون .

قوله جل ذكره : ﴿ فَقَطِّعْ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا
والحمد لله رب العالمين ﴾

فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى لم يبق منهم عين ولا أثر ، ولم يرَ حديث منهم أو خبر ،

(١) العزالي : يقال أنزلت السماء هزاليها إشارة إلى شدة وقع المطر

والله — سبحانه وتعالى — بنعت العِزِّ واستحقاق الجلال لا عن فقْدِهِم له استيعاش ،
ولا بوجودهم استرواح أو استبشار^(١)

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ
وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهُ
غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفُ
نُصَرِّفُ الْآيَاتِ نَمْ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾

عرّفهم محلّ عجزهم ، وحقيقة حاجتهم إلى القدرة القديمة لدوام فقرهم .
وحذّروهم فقال : إِنْ لَمْ يُدِمْ عَلَيْهِمْ نِعْمَةُ أَسْمَاعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، ولم يوجبْ لهم ما ألبسهم
من العوافي — بكل وجهٍ في كل لحظة — فمن الذي يهب ما سلبه ، أو يضع ما منعه ، أو يعيد
ما نفاه ، أو يرُدُّ ما أبداه ؟ كلا . . . بل هو الله تعالى .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ
بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ
الظَّالِمُونَ ﴾^(٢)

يقول إِنْ عَجَلَ مَوْعِدُهُ لَكُمْ مِنَ الْعِقَابِ أَفْتَرُونَ أَنْ غَيْرَ الْمُسْتَوْجِبِ يُبْتَلَى ؟ أو أَنْ
الْمُسْتَحِقَّ لَهُ يَجِدُ مِنْ دُونِهِ مَهْرَبًا وَمَتَجَى ؟ إِنْ هَذَا مُحَالٌ مِنَ الظَّنِّ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ
وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ
فَلَاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ *
وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يُمْسِكُهُمُ الْعَذَابُ
بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

(١) فالحق — سبحانه — لا يلحقه زين بطاعة المطيع ولا شين بمعصية العاصي .

(٢) أخطأ الناسخ فكتبها (الظالمين)

يعنى ليس أمرنا لهم إلا بالتزام ما فيه نجاتهم ، ثم بجميل الوعد لهم ، ومفارقة ما فيه هلاكهم ، ثم باليم العقوبة فى الأجل ما يحصل من خلافهم .

فَمَنْ آمَنَ وَصَدَّقَ آنَجَزْنَاهُ الْوَعْدَ ، وَمَنْ كَفَرَ وَجحدَ عَرْضنا عليه الأمر ، وأدخلنا عليه الضر .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ،

وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ، وَلَا أَقُولُ لَكُمْ

إِنِّي مَلَكٌ إِنَّا تَبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى

إِلَى قُلْ هَلْ يَسْتَوِ الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ

أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾

يعنى قل لهم إني لا أتخطئ خطئ ، ولا أتمدئ حدئ ، ولا أثبت من ذات نفسى شيئاً ، وإنما يقال لى أبلغت ؟ وأقول : أجل ، أو صلت .

ثم قال : « قل هل يستوى الأعمى والبصير » : هل يتشاكل الضوء والظلام ؟ وهل يتماثل الجحد والتوحيد ؟ كلا . . . لا يكون ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأُنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا

إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ

وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

الإنذار إعلام بمواضع الخوف ، وإنما خص الخائفين بالإنذار كما خص المتقين بإضافة

المهدي إليهم حيث قال : « هدى للمتقين » لأن الاتباع بالتقوى ، والإنذار اختص بهم .

ويقال : الخوف هاهنا العلم ، وإنما يخاف من علم ، فأما القلوب التى هى تحت غطاء الجهل

فلا تبشرها طوارق الخوف .

قوله : « من دونه من ولى ولا شفيع » يعنى كما أنه لا ناصر لهم من الأغيار فلا معتمد لهم

من أفعالهم ، ولا مستند من أحوالهم ، ولا (يؤمنون)^(١) شيئاً سوى صرف العناية

وخصائص الرحمة .

(١) الصواب أن تكون (يأمنون) لأن ما بعدها منصوب ، ولو كانت يؤمنون لكان ما بعدها مجروراً ، والسياق يقوى اختيار (يأمنون) .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردم فتكون من الظالمين ﴾

هذه وصية له — صلى الله عليه وسلم — في باب الفقراء والمستضعفين ، وذلك لما قصرُوا لسان المعارضة عن استدفاع ما كانوا يصدده من أمر إخلاء الرسول — صلوات الله عليه وسلامه — مجلسه منهم ، وسكنوا متضرعين بقلوبهم بين يدي الله أراد أن يُبين له أثرَ حُسن الابتهاال فتولى — سبحانه — خصيمتهم .

وقال : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه » : لا تنظر يا محمد إلى خرقهم على ظاهرهم وانظر إلى حرقهم في سرائرهم^(١) ويقال كانوا مستورين بحالتهم فظهرهم بأن أظهر قصتهم ، ولولا أنه — سبحانه — قال « يريدون وجهه » فشهد لهم بالإرادة وإلا فن يتجاسر أن يقول إن شخصاً مخلوقاً يريد الحق سبحانه ؟

ويقال إذا كانت الإرادة لا تتعلق — في التحقيق — إلا بالحدوث ، وحقيقة الصمدية متقدمة عن الاتصاف بالحدثان ، فمن المعلوم أن هذه الإرادة ليست بمعنى المشيئة ، ولا كاشتقاق أهل اللغة لها^(٢) .

فيقال تكلم الناس في الإرادة : وأكثر تحقيقها أنها احتياج يحصل في القلوب يسلب

(١) واضح من كلام القشيري اتصاف هذا النفر بصفات كثيرة تدنو بهم من أهل التصوف ، وهكذا نجد أن السهروردي في مقدمة « عوارفه » يوضح أن سبب نزول هذه الآية في أهل المشقة الذين كانوا يلازمون صفة مسجد المدينة وليس لهم شغل سوى العبادة وتلاوة القرآن وكان أحدهم إذا ركب قبض يديه مخافة أن تبدو هورته لتمزق ثوبه . . . الخ (عوارف المعارف ص ٤٧) .

(٢) يقول القشيري في هذا المعنى في « رسالته » : المرید — على موجب الاشتقاق — من له إرادة كالعالم من له علم ، لأنه من الأسماء المشتقة ، ولكن المرید — في عرف هذه الطائفة — من لا إرادة له ، فن لم يتجرد عن إرادته لا يكون مریداً (الرسالة ص ١٠١)

القرار من العبد حتى يصل إلى الله ؛ فصاحب الإرادة لا يهدأ^(١) ليلاً ولا نهاراً ، ولا يجد من دون وصوله إليه — سبحانه — سكناً ولا قراراً ، كما قال قائلهم :

ثم قطعتُ الليلَ في مَهْمَةٍ لا أسداً أخشى ولا ذيباً
يفلبني شوقي فأطوى السرى ولم يزلْ ذو الشوق مغلوباً

ويقال تقيَّدت دعوتهم بالغداة والعشي لأنها من الأعمال الظاهرة ، والأعمالُ الظاهرة مؤقتة ، ودامت إرادتهم فاستغرقت جميع أوقاتهم لأنها من الأحوال الباطنة ، والأحوال الباطنة سرمدة غير مؤقتة ، فقال : « يدعون ربهم بالغداة والعشي » ثم قال : « يريدون وجهه » أى مريدن وجهه فهى فى موضع الحال^(٢) .

ويقال أصبحوا ولا سؤال لهم من دنياهم ، ولا مطالبة من عقابهم ، ولا هم سوى حديث مولاهم ، فلما تجردوا لله تحضت عناية الحق لهم ، فتولَّى حديثهم وقال : ولا تطردهم — يا محمد — ثم قال : ما عليك من حسابهم من شيء ؛ فالفقير خفيف الظهر لا يكون منه على أحد كثير مشونة ؛ قال تعالى : « ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء » . لا تطالب بحسابهم ولا يطالبون بحسابك ، بل كلٌّ يتولى الحق — سبحانه — حسابَه ؛ فإن كان أمره خيراً فهو ملاقيه ، وإن كان شراً فهو مقاسيه .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾

أما الفاضل فليشكر ، وأما المفضول فليصبر .

ويقال سبيل المفضول على لسان الحجة الشكر ، ولا يتقاصر شكره عن شكر الفاضل ، قال قائلهم فى معناه :

أتانى منك سببك لى فسببى أليس جرى بفيك اسمى ؟ ففسببى

(١) وردت (ولا يهدى) والصواب أن تكتب (ولا يهدأ) مناعاً للبس .

(٢) أى لأن الجملة الفعلية (يريدون وجهه) تعرب حالا

وقال آخر :

وإنَّ فؤاداً بعثه — لك شاكراً وإنَّ دماً أجرته — لك حامداً
قوله جل ذكره : ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآيتنا فقل
سلام عليكم ﴾

أحله محل الأَكابر والسَّادة ، فإن السلام من شأن الجائي إلا في صفة الأكابر ، فإن الجائي
أو الآتي يسكت لهيبة المأتي حتى يتبدى ذلك المقصود بالسؤال ، فعند ذلك يجيب الآتي .
ويقال إذا قاسوا تعب المجيء فأزل عنهم المشقة بأن قل : « سلام عليكم » .
ويقال السلام هو السلامة أي فقل لهم سلام عليكم ؛ سَلِمْتُمْ في الحال عن الفرقة وفي المال
عن الحرقة ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾
إنَّ وَكَلَّ بك من كتب عليك الزلة فقد تولى بنفسه لك كتابة الرحمة .
ويقال كتب بمعنى حَكَمَ ، وإنه ما حكم إلا بما علم .
ويقال كتابته لك أزلية ، وكتابته عليك وقتية ، والوقتية لا تبطل الأزلية .

قوله جل ذكره : ﴿ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ
ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

يعنى مَنْ تعاطى شيئاً من أعمال الجهال ثم سوف في الرجوع والأوبة قابلناه ، يعنى مَنْ
تعاطى شيئاً بحسن الإمهال وجميل الأفضال ، فإذا عاد بتوبة وحسرة أقبلنا عليه بِكُلِّ
لطف وقبول .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك نَفِصُُّ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ
سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ .

(١) أي سلمت في الدنيا من عذاب نأبه وهجره ، وسلمت في الآخرة من عذاب جهنم ذات الحريق .

نزِيل الإِشْكَالِ ، وَنُقْصِحُ^(١) طَرِيقَ الاسْتِدْلَالِ ، وَنُطْلِعُ شُمُوسَ التَّوْحِيدِ ، وَنُعِدُّ أَهْلَهُ
بِحَسَنِ التَّأْيِيدِ ، وَنَسِمُ قُلُوبَ الْأَعْدَاءِ بِوَسْمِ الْخُذْلَانِ ، وَنَذِيقُهُمْ شَوْمَ الْحَرَمَانِ لثَلَا يَبْقَى لِأَحَدٍ
عَذْرٌ ، وَلَا فِي الطَّرِيقِ إِشْكَالٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أُعْبِدَ الَّذِينَ
تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ
أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا مَا أَنَا مِنَ
الْمُهْتَدِينَ ﴾ .

يعنى صرّح بالاعتراف بجميل ما خصصناك به من وجوه العصمة والنعمة ، وأخبرهم أنك
في كنف الإيواء مُتَقَلِّبٌ ، وفي قبضة (الصون) مُصَرَّفٌ ؛ فلا للهوى عليك سلطان ، ولالك
من محل التحقيق تباعد أو عن الحضور غيبة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ
بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ
الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِي الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ
الْفَاصِلِينَ ﴾ .

قُلْ إِنْ اللَّهَ — سبحانه — لم يغادرني في قطر الطلب والتباس التحير ، وأغنانى عن
(كَذْبُ)^(٢) الاستدلال ، وَرَوَّحْنِي بِشُمُوسِ الْحَقِيقَةِ . وَلَئِنْ بَقِيتُمْ فِي ظِلْمَةِ الْإِلْتِبَاسِ فَلَيْسَ لِي
قدرة على إزالة ما مُفْنِيتُمْ به من التحير ، ونفى ما امْتُحِنْتُمْ به من الجهالة والتردد .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ
لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ
بِالظَّالِمِينَ ﴾ * وعنده مفاتيح الغيب

(١) من الافصاح وهو الإبانة والايضاح .

(٢) وردت (قد) والقصود عناء الاستدلال وكده — حسبما نعرف من أسلوب القشيري في مثل
هذا الموضع .

لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر
والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها
ولا حبيّة في ظلمات الأرض ولا رطب
ولا يابس إلا في كتاب مبين . ﴿

لو قدرتُ على إبداء ما طلبتم من إقامة البراهين لأجبتكم إلى كل ما اقترحتم على —
شفقةً عليكم ، لكن المتفرّد بالحكم لا يعارضُ فيما يريد .

« وعنده مفاتيح الغيب » : المفتاح ما به يرتفع الغلق ، والذي يحصل مقصود كلٍّ أحد ،
وهو قدرة الحق — سبحانه ؛ فإنَّ التأثير لها في الإيجاد ، والموصوفُ بقدرة الإيجاد هو الله ؛
ويقال أراد بهذا شمول علمه ، أي هو المتفرّد بالإحاطة بكل معلوم ، وقطعاً لا يُسأل عن
شيء ، ولا يخفى عليه شيء .

ويقال عندك مفاتيح^(١) الغيب وعنده مفاتيح الغيب فإن آمنتَ بغيبه مدَّ الشمس
على غيبك .

قوله جل ذكره ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم
ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه
ليُقضى أجلٌ مسّى ثم إليه مرجعكم
ثم ينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ .

إنه يتوفى الأنفس في حال النوم وفي حال الوفاة ، وكما أنه لا يعاقبك بالليل فإنه لا يعذبك
— إذا توفّاك — على ما جرحت بالنهار مع علمه بأفعالك ، فبالحرى ألا يعذبك غداً
— إذا توفّاك — على ما علمه من قبيح أحوالك .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو القاهرُ فوق عباده ويرسلُ

(١) نسبة المفاتيح إلى الانسان — إن صحَّ — أن التشديد قائلها — يمكن تأويلها على أنها جمع مفتاح مصدر
ميمى بمعنى الفتح والفتوح وما من فضل الله ، ولكنها بالنسبة إلى المفاتيح الالهية كلنسبة ضوء المصباح
إلى ضوء الشمس ، إذا ظهر شعاع الشمس غمر ضوء المصباح . . . هكذا نفهم من السياق — والله أعلم .

عليكم حَفَظَةٌ حتى إذا جاءَ أَحَدَكُمُ
الموتُ توفَّتُهُ رُسُلُنا وهم لا يَفِرُّونَ ﴿١﴾ .

فوق عبادته بالقهر والرفعة ، وفوقهم بالقدرة على أن يُعَذِّبَهُم من فوقهم بإِزالِ العقوبة
عليهم والسخطة .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ، أَلَا
لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ ﴿٢﴾ .

رَدُّهم إِلَى نفسه . وما غابوا عن القبضة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ مَنْ يُنْجِيكُم مِّنْ ظِلْمَاتِ الْبَرِّ
وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ
أُتِيجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ
الشَّاكِرِينَ ﴾ ﴿٣﴾ .

تذكير النعمة يوجب الزيادة في المحبة ، فإنه إذا عرف جيلًا أسداه تمكن من
قلبه الحب .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ اللَّهُ يُنْجِيكُم مِّنْهَا وَمَنْ كُلِّ
كَرِيهٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ ﴿٤﴾
للمتفرِّدُ بالقدرة على إيجادكم اللهُ ، والذي هو (الْخَلْفَ) ^(١) عما يفوتكم اللهُ ، والذي
حكمَ بِنجاتكم اللهُ ، والذي يأخذ بأيديكم كلما عثرتم اللهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ
عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ
تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا ﴾ ﴿٥﴾

إذا أراد اللهُ هلاك قومٍ أمرَ البلاء حتى يحيط بهم سرادقه كما يحيط بالكفار عذاباً إذا

(١) وردت (الخلق) بالفتح وهي خطأ في النسخ .

أدركتهم العقوبة ، وخرج بعضهم على بعض ؛ حتى يتبرأ التابع من المتبوع ، والمتبوع من التابع .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ ،
انظر كيف نصرّف الآيات لعلمهم
يفقهون ﴿

لا طعم أردأ للإنسان من طعم الإنسان : إن شئت من الولاية والمحبة ، وإن شئت
في العداوة والبغضة ؛ فمن مَنِي بالبغضة مع أشكاله تنصّ عليه عيشه في الدنيا ، ومن
مَنِي بمحبة أمثاله تكدر عليه حاله مع المولى ، ومن صانه عن الخلق فهو المحفوظ
(المعاني) (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾
قل لست عليكم بوكيل * لِكُلِّ
نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿

يعنى قل لهم إنما على تبليغ الرسالة ، فأما تحقيق الوصلة بالوجود والحال فمن خصائص
القدرة وأحكام المشيئة الأزلية .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ ﴾
في آياتنا فأعرض عنهم حتى
يخوضوا في حديث غيره ﴿

لا توافقهم في الحالة ، ولا ترد عليهم ببسط القالة . ذرهم ووحشهم بحسن الإعراض
عنهم ، والبعد عن الإصغاء إلى تهاويشهم بحسن الاقتباض .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّمَا يُنِيسُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ ﴾
بعد الذكري مع القوم الظالمين ﴿

(١) المحفوظ (المعاني) أى محفوظة معانيه ، وربما كانت فى الأصل (المعاني) بالقاء المفتوحة أى
المصون عن كل أذى وعلّة .

أَيُّ إِنَّ بَدَرَ مِنْكَ تَغَافُلٌ فَتَدَارَكْتَهُ بِحَسَنِ التَّذَكُّرِ وَجَمِيلِ التَّنْبِيهِ ، فَاجْتَهِدْ أَلَا (نزل^(١))
فِي تِلْكَ الْغَلْطَةِ قَدَمُكَ ثَانِيَةً لِّثَلَا تَقَاسَى أَلِيمَ الْعُقُوبَةِ مِنَّا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ
مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرٌ لِّعَلَّهُمْ
يَتَّقُونَ ﴾

أَيُّ مَنْ كَانَ نَقِيًّا (الثوب^(٢)) عَنْ ارْتِكَابِ الْإِجْرَامِ يُعْزَلُ يَوْمَ نَشْرِهِ عَنْ مِلَاقَةِ
تِلْكَ الْأَلَامِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَمِبًا
وَلَهُوَ غُرَّتُهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرَ بِهِ
أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ
لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ،
وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ عَدْلًا لَا يُؤْخَذُ
مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا
لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ
بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾

أَيُّ كُلِّهِمْ وَمَا اخْتَارُوهُ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لَهُمْ (مِنْ خَفِيٍّ الْمَكْرُ مَا إِذَا أَحْلَلْنَاهُ بِهِمْ كَسْرَنَا
عَلَيْهِمْ) (٣) نُخَارِبُ الْوَهْمَ وَالْغِلْظَةَ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أُنَدِّعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ
مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى
أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي

(١) وردت (نذل) بالذال والصواب أن تكون بالزاي (نزل) أي تقع فهذا هو الملائم للسياق .

(٢) وردت (الثواب) والصواب أن نكون (الثوب) فهو الذي يوصف بالنقاء .

(٣) ما بين القوسين موجود في هامش الورقة أثبتناه في موضعه حسب العلامة المبصرة .

استهوته الشياطينُ في الأرض ،
حيران ، له أصحابٌ يدعونهُ إلى
الهُدَى ائْتِنَا * قُلْ إِنْ هُدَى اللَّهُ
هُوَ الْهُدَى ، وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ
لربِّ العالمين ﴿

أى كان الكفار يدعون المسلمين إلى الرجوع عن الدين والعود إلى الشرك ، فقال
لهم الله : قل لهم — يا محمد — : أَنْتُمْ الضَّالَّاءُ عَلَى الْهُدَى بعد طلوع شمس البرهان ؟
وَنَدَعُ الطَّرِيقَةَ الثَّلَاثِيَّةَ بعد ظهور البيان ؟ ونترك عِقْوَةَ الْجَنَّةِ وقد نزلناها ؟ ونطلب
الجهنم مشىء بعد ما كُفِينَاهَا ؟ إِنَّ هَذَا بَعِيدٌ مِنَ الْمَقُولِ ، مُحَالٌ مِنَ الظَّنِّ .
وكيف يساعد أتباعُ الشَّيْطَانِ مَنْ وَجَدَ الْخَلَاصَ مِنْ صِحْبَتِهِمْ ، وَأَبْصَرَ الْغَىَّ
مِنْ صِفَتِهِمْ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُواهُ وَهُوَ الَّذِي
إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .

أى أَمَرْنَا بِمِلَازِمَةِ مَحَلِّ الْمُنَاجَاةِ لِأَنَّ اللِّسَانَ إِنْ تَعَوَّدَ نَجْوَى السُّلْطَانِ مَتَى يَنْطَلِقُ
(بِمَكَالَةٍ) ^(١) الْأَخْسَرُ ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ
الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ
عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ
الْخَبِيرُ ﴾ .

يعنى أنه لا يعترض على قدرته — سبحانه — حدوث مقصود ، ولا يتقاصر حكمه عن
تصريف موجود .

(١) وردت (مكاملة) والأوفق بالنسبة للسان أن تكون (مكالة) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ
أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ
فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

الأصل منهم في الجحود ، والنَّسْلُ منصفٌ بالتوحيد ، والحقُّ — سبحانه —
يفعل ما يريد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ
مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ .

لاطفه بسابق العناية ، ثم كاشفه بإلاحق الهداية فأراه من دلالات توحيده ما لم يبق
في (قضاء)^(١) سرُّه شظية من غبار العيب ، فلما صحا من غيم التجوز^(٢) سما سرُّه فقال
بنى الأغيار جملة ، وتبرأ عن الجميع ولم يغادر منها تهمة .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ
هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ
الْأَفْلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا
قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ
يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً
قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ
قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾

(١) وبما كانت (قضاء) بالقاء فالغبار والغيم يملكان بالقضاء

(٢) المقصود من ذلك ما أصاب إبراهيم من اضطراب ، وهنا افقه دكية من القشيري حيث أراد وصف
العقل بالتجوز لانهصار دائرته في نطاق الحس ، وعدم استطاعته تجاوز هذا النطاق لأنه معتمد عليه .

يعنى أحاطت به (سجوف) ^(١) الطلب ، ولم يتجل له بعد صباح الوجود ، فطلع نجم العقول
فشاهد الحق بسره بنور البرهان ، فقال : هذا ربى ثم يزيد فى ضيائه فطلع له قمر العلم فطالعه
بشرط البيان ، « فقال هذا ربى » .

ثم (أسفر) ^(٢) الصبح وتمع النهار فطلعت شمس (العرفان) ^(٣) من برج شرفها فلم يبقَ
للطلب مكان ، ولا للتجويز حكم ، ولا للتهمة قرار فقال : « يا قوم إني برى مما تشركون »
إذ ليس بعد العيان ريب ، ولا عقيب الظهور ستر .

ويقال قوله — عند شهود الكواكب والشمس والقمر — « هذا ربى » إنه كان يلاحظ
الآثار والأغيار بالله ، ثم كان يرى الأشياء لله ومن الله ، ثم طالع الأغيار محواً فى الله .

قوله جل ذكره : ﴿ إني وجهت وجهي للذي فطر
السموات والأرض خفيّاً وما أنا
من المشركين ﴾ .

أفردت قصدى لله ، (وطهرت) ^(٤) عقدي عن غير الله ، وحفظت عهدي فى الله الله ،
وخلصت وجدى بالله ، فأبى الله بالله ، بل (محو) ^(٥) فى الله والله الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وحاجته قومه قال أحتاجونى فى الله
وقد هدأن ولا أخاف ما تشركون
به إلا أن يشاء ربى شيئاً وسع ربى
كل شيء علماً أفلا تتذكرون ﴾ .

يعنى قال لهم أترومون ستر الشمس بإسبال أكمامكم عليها أو تريدون أن تجروا ذيولكم
وأن تسدلوا سجوفكم على ضياء النهار وقد تعالى سلطانه وتوالى بيانه ؟

(١) سجوف جمع سَجَف وسَجَف وهو الستر ، وأرعى الليل سجوفه أى ظلمته .

(٢) وردت (أسفر) والصواب أن تكون (أسفر) الصبح .

(٣) لاحظ كيف طبق التشرى نظريته فى المعرفة على ندرج إبراهيم (عم) فى الوصول إلى حقيقة
الألومية من عقاية ونورها البرهان إلى قلبية ونورها البيان إلى كشفية ونورها العرفان ،

(٤) وردت (ظهت) بالطاء والصواب أن تكون بالطاء

(٥) وردت (مهو) بالهاء والصواب أن تكون بالحاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وكيف ^(١) أخاف ما أشركتم ولا تخافون

أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به
عليكم سلطاناً فأى الفريقين أحق
بالأمن إن كنتم تعلمون ﴾

يعنى وأى خوفٍ يقع على قلبى ظلّه ولم أَلِمْ بِشِرْكٍ ولم أَتَجَنَّ قطُّ إلى جحد ؟ وأنتم
ما شتمتم رائحة التوحيد فى طول عمركم ، ولا ذقم طعم الإيمان فى سالف دهركم ، ثم بسوء
ظنكم نجاسرتهم وما ارعويتم ، وخسرتم وما باليتهم . فأينما أولى أن يُعلن بسرّه ما هو بصدده
من سوء مكرّه وعاقبة أمره ؟

قوله جلّت قدرته : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم
بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾

أى الذين أشاروا إلى الله ثم لم يرجعوا إلى غير الله ؛ فإن من قال « الله » ثم رجع
بالتفضيل — عند حاجاته أو مطالباته أو شىء من حالاته إلى غير الله فخصمه — فى الدنيا
والعقبى — الله .

والظلم — فى التحقيق — وضع الشىء فى غير موضعه ، وأصعبه حساب أن من الحدثان
ما لم يكن وكان ؛ فإنّ المنشئ الله ، والمُجرى الله ، ولا إله إلا الله ، وسقط ما سوى الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع
درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ﴾

أشار إلى ترقّيه من شهود آياته إلى إثبات ذاته ، وذلك ترتيب أهل السلوك فى وصولهم
إلى الله ، فالتحقّق بالآيات التى هى أفعاله ومراعاة ذلك وهى الأولى ؛ ثم إثبات صفاته
وهى الثانية ، ثم التحقّق بوجوده وذاته وهو غاية الوصول ، فبرسومه يعرف العبد نعمته ،
وبنعوته يعرف ثبوته ^(٢) .

(١) أخطأ الناسخ إذ كتبها (فكيف)

(٢) للقشبرى كتابان (ترتيب السلوك) و (المقامات الثلاث) لم تصل بعد أيدينا إليها ، أولهما توجد
منه مخطوطة بالفاتيكان والثانى استعاره بعضهم من مكتبة جامعة القاهرة ولم يردّه ، فهل يمكن أن نحس أن
هذه الفقرة خلاصة مفتضية لوجه نظره فى ترتيب مقامات السلوك وعددها .

قوله جل ذكره : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ
وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ
وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى
وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ
﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَلُوطًا
وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ وَمِنْ
آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ
وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ ذَلِكَ
هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

ذَكَرَ عَظِيمُ الْمِنَّةِ عَلَى كَافَّةِهِمْ — صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، وَبَيَّنَّ أَنَّهُ لَوْلَا تَخْصِيصُهُ إِيَّاهُمْ
بِالتَّعْرِيفِ ، وَتَفْضِيلِهِ لَهُمْ عَلَى سِوَاهُمْ بِغَايَةِ التَّشْرِيفِ ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ اسْتِجَابٌ وَلَا اسْتِحْقَاقٌ .
ثُمَّ قَالَ : « ذَلِكَ هَدَى اللَّهُ يَعْمَلُونَ » يَعْنِي لَوْ لَا حَظُّوْا غَيْرَآ ، أَوْ شَاهَدُوا
— مِنْ دُونِنَا — شَيْئًا ، أَوْ نَسَبُوا شُظْيَةً مِنَ الْحَدَثَانِ — إِلَى غَيْرِ قُدْرَتِنَا — فِي الظُّهُورِ لِثَلَاثِي
مَا أَسْلَفُوهُ مِنْ عِرْفَانِهِمْ وَإِحْسَانِهِمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ — سُبْحَانَهُ — لَا يَغْفِرُ الشِّرْكَ بِحَالٍ ، وَإِنْ كَانَ
(يَغْفِرُ) ^(١) مَا دُونَهُ لِمَنْ أَرَادَ .

قوله جل ذكره : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا
هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَّسُوا بِهَا
بِكَاْفِرِينَ ﴾

(١) وردت (يَغْفِرُ) والصواب (يَغْفِرُ) طبقاً للآية (إِنْ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ . . . الخ) .

يعنى إن أعرض قومك — يا محمد — فليس كل من (. . . .) ^(١) على الجحود
أظهرناهم ، بل كثير من عبادنا نزلنا — عن الجحود — قلوبهم ، ونَجِّنَا بِمَاءِ السَّعَادَةِ طِينَتِهِمْ
وهم لا يحيدون عن التوحيد لحظةً ، ولا يزيغون عن التحصيل شَيْئَةً .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم

اقتَدِه قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾

أولئك الذين طهر الله عن الجحد أسرارهم ، ورفَّعَ على الكافة أقدارهم ، فاقتَفِ
— يا محمد — هداهم ، فإنَّ مَنْ سَلَكَ الْجَادَّةَ آمِنَ مِنَ الْعَنَاءِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا

مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّنْ شَيْءٍ قُلْ

مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ

مُوسَى نُورًا وَهَدَى النَّاسَ سُبُلَهُ

قِرَاطِينَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا

وَعُلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ

قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾

مَنْ تَوَهَّم أَنْ الْعُلُومَ ^(٢) تَحِيطُ بِجَلَالِهِ فَالْإِحَاطَةُ غَيْرُ سَائِفَةٍ فِي نَعْتِهِ ، كَمَا أَنَّ الْإِدْرَاكَ غَيْرُ
جَائِزٍ فِي وَصْفِهِ ، وَكَمَا أَنَّ الْإِشْرَافَ مُحَالٌ عَلَى ذَاتِهِ .

ثم قال : ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا ﴾ أى سَلَّمَهُمْ عَنْ الْأَحْوَالِ ،
وْخَاطِبِهِمْ فِي مَعَانِي أَحْكَامِ الرُّسُومِ وَالْأَطْلَالِ ، فَإِنْ بَقُوا فِي ظُلْمَةِ (الْحَيْرَةِ) ^(٣) فَقُلْ : اللَّهُ تَعَالَى ،
ثُمَّ ذَرْهُمْ . يعنى صَرَّحَ بِالْإِخْبَارِ عَنِ التَّوْحِيدِ ، وَلَا يَهْوُلُ لَكَ تَعَادِيهِمْ فِي الْبَاطِلِ ، فَإِنَّ تَمْوِيَّاتِ
الْبَاطِلِ لَا تَأْثِيرَ لَهَا فِي الْحَقَائِقِ .

(١) مشبهة .

(٢) يقصد بها علوم العقل .

(٣) وردت (الجبرة) والخطأ في النقط .

قوله جل ذكره : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه ، مباركٌ
مُصَدِّقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ
الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ
يَحَافِظُونَ ﴾

كتابُ الأحبابِ عزيزُ الخطرِ جليلُ الأثرِ ، فيه سلوة^(١) عند غلبات الوجد ، ومن بقى
عن الوصول تذلل للرسول ، وقيل :

وَكُتِبَتْ حَوْلِي لَا تَفَارِقْ مَضْجَعِي وَفِيهَا شِفَاءٌ لِلَّذِي أَنَا كَاتِمٌ
كَأَنِّي مَلْحُوظٌ مِنَ الْجِنِّ نَظَرَةً وَمِنْ حَوَالِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمُ

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا
أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ
وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ
الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ
أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ
عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى
اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ
تَسْكِبُونَ ﴾

يعنى إن الذين يَنْزِلُونَ منزلة المُحدِّثِينَ ، ولم تُلَقَ إلى أسرارهم خصائصُ الخطابِ -
فالحقُّ - سبحانه عنهم برىء . والتَّسْبِيحُ بما لم يَنْلُ كلابسِ ثوبِي زُورٍ ، وفي معناه أنشدوا .
إذا اشتبكت دموع في خدود تبين من بكى ممن تباكى

(١) وردت (سلوة) بالصاد وهي خطأ في النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ
أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ
ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُمُ الَّذِينَ
زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ
بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ
تَزْعُمُونَ ﴾

دَخَلْتَ الدُّنْيَا بِمُخْرَقَةٍ ، وَخَرَجْتَ مِنْهَا بِمُخْرَقَةٍ ، أَلَا وَتِلْكَ الْخُرْقَةُ أَيْضًا (.....) (١) ،
وما دخلت إلا بوصف التجرد ، ولا خرجت إلا بحكم التفرد . ثم الأثقال والأوزار ، والأحمال
والأوضار لا يأتى عليها حصرٌ ولا مقدار ؛ فلا مالكم أغنى عنكم ولا حالكم يرفعُ منكم ،
ولا لكم شفيعٌ يخاطبنا فيكم ؛ فقد تَقَطَّعَ بَيْنُكُمْ ، وَتَفَرَّقَ وَصْلُكُمْ ، وَتَبَدَّدَ شَمْلُكُمْ ،
وتلاشى ظنُّكم ، وخانكم — فى التحقيق — وسعُكم .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ
الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ
الْحَىِّ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾

موجد ما فى العالم من الأعيان والآثار والرسوم والأطلال يُسَلِّطُ الْعَدَمَ على ما يريد من
مصنوعاته ، ويحكم بالبقاء لما يريد من مخلوقاته ، فلا لحكمه ردٌّ ، ولا لحقه جحدٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا
وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ
الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾

وكما فَلَقَ صَبْحَ الْكَوْنِ فَأَشْرَقَتْ الْأَنْوَارُ كَذَٰلِكَ فَلَقَ صَبْحَ الْقُلُوبِ فَاسْتَنَارَتْ بِهِ
الْأَسْرَادُ ، وكما جعل اللَّيْلَ سَكَنًا لِتَسْكُنَ فِيهِ النُّفُوسُ مِنْ كَدِّ التَّصَرُّفِ عَنْ أَسْبَابِ الْمَعَاشِ

(١) مشبهة .

كذلك جعل الليل سَكَنًا للأحباب يَسْكُنُونَ فيه إلى روح المناجاة إذا هدأت العيونُ
من الأغيار .

وجعل الشمس والقمر يجريان بحسبان^(١) معلوم على حد معلوم ، فالشمس بوصفها مذ
خُلِقَتْ لم تنقص ولم تزد ، والقمر لا يبقى ليلة واحدة على حالة واحدة فأبدأ في الزيادة
والنقصان ، ولا يزال ينمو حتى يصير بدرًا ، ثم يتناقص حتى لا يرى ، ثم يأخذ في الظهور ،
وكذلك دأبه دائماً إلى أن تُنْقَضَ عليه العادة .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا
بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا
الآيات لقوم يعلمو ﴾

كما أن نجوم السماء يُهتدى بها فى الفلوات فكذلك نجوم القلوب يهتدى بها فى معرفة رب
الأرضين والسموات .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة
فستقر ومستودع قد فصلنا الآيات
لقوم يفقهون ﴾

ذكرهم وصفهم حين خلقهم من آدم عليه السلام . وكما أن النفوس والأبشار مستقرًا
ومستودعًا فللأسمار والضائر مستقر ومستودع ، فمن عبد مُسْتَقَرُّ قلبه أوطان الشهوات
والمنى ، ومن عبد مستقره موقع الزهد والتقى ، ومن عبد مستقره — حيث لا مسكن
ولا مأوى — وراء الورى^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى أنزل من السماء ماء
فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا

(١) وردت (بحسبان) بالميم والصواب أن تكون (بحسبان)
(٢) أى فى حال الفناء يتلشى فى الوجود الذى لا تحده حدود .

منه خَضِرًا نُخْرِجُ منه حَبًّا
مُتْرَاكِبًا ، وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا
قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ
وَالزَّيْتُونِ وَالرَّيَّانِ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ
مُتَشَابِهٍ ، انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ
وَيَنْبَغِي إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ *

تجاست أجزاء الأرض وتواققت أقطار الكون ، وتباين النبات في اللون والطعم
وأخلفت الأشياء ، ودل كل مخلوق بلسان فصيح ، وبيان صريح أنه بنفسه غير مُستقل .

قوله جل ذكره : * وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم
وخرقوا ^(١) له بنين وبنات بغير علم
مبجانه وتعالى عما يصفون *

سُدَّتْ بصائرهم فاكتفوا بكل منقوصٍ أن يعبدوه ، وتلك عقوبة لأرباب الغفلة عن الله
سَالَى عُجِّلَتْ .

قوله جل ذكره : * بديع السموات والأرض أنى يكون
له ولد ولم تكن له صاحبةً وخلق
كل شيء وهو بكل شيء عليم *

البديع الذى لا مثل له ، أو هو المنشئ لا على مثال ، وكلاهما في وصفه مستحق .
والواحد يستحيل له الولد لاقضائه البعضية ، والتوحيد ينافيه .

قوله جل ذكره : * ذلکم الله ربکم لا إله إلا هو

(١) خَرَقَ الْإِصْلَ = اختلفه ، أو من خرف الثوب إذا شقه فيكون المعنى : (اشتقوا له) وإشارة
إلى تفرق المعاني على المعين .

خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدْهُ وَهُوَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ *

تَعْرِفُ إِلَهُهُم بِآيَاتِهِ ، ثُمَّ تَعْرِفُ إِلَهُهُم بِصِفَاتِهِ ، ثُمَّ كَاشِفُهُم بِحَقَائِقِ ذَاتِهِ .
فَقَوْلُهُ : « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » تَعْرِيفٌ لِلْسَادَاتِ وَالْأَكْبَارِ ، وَقَوْلُهُ : « خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ »
تَعْرِيفٌ لِلْعَوَامِ وَالْأَصَاغِرِ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ
وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾

قَدَّسَ الصَّدِيقَةُ عَنْ كُلِّ لَحْوٍ وَدَرَكٍ ، فَأَتَى بِالْإِدْرَاكِ وَلَا حُدَّ لَهُ وَلَا طَرَفٌ ۚ
« وَهُوَ اللَّطِيفُ » الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ ، « الْخَبِيرُ » الَّذِي أَحَاطَ عِلْمُهُ بِكُلِّ مَعْلُومٍ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بِصَافِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ
أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا
وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ﴾

أَوْضَحَ الْبَيَانَ وَأَلَحَّ الدَّلِيلَ ، وَأَزَاحَ الْعِكْلَ وَأَنَارَ السَّبِيلَ ، وَلَكِنْ قِيلَ :
وَمَا انْتِفَاعُ أَخِي الدُّنْيَا بِمَقْلَتِهِ إِذَا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الْأَنْوَارُ وَالظُّلُمُ

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
دَرَسَتْ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

أَوْ قَعَّ الْفِتْنَةَ فِي قُلُوبِهِمْ فَخَنَسَتْ عَلَيْهِمُ الْأَحْوَالُ : فَمِنْ شُبْهَةٍ دَاخَلَتْهُمْ وَمِنْ حَبْرَةٍ مَلَكَتْهُمْ .
وَمِنْ تَحْقِيقِ أَدْرَاكِ قَوْمٍ ، وَتَعْرِيفِ تَوَقُّفٍ عَلَى آخِرِينَ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ
عَلَيْهِمْ حَفِيفًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾

الْعَجَبُ مَنْ أَقْرَبَ بِقُصُورِ حَالِهِ عَنْ اسْتِحْقَاقِ الْمَدْحِ بِبَقَائِهِ عَنْ مَرَادِهِ ، وَكَيْفَ يَعْصِفُ
مَعْبُودُهُ بِجَوَازِ الْأَيْدِي فِي مَلَكَةِ مَرَادِهِ ۚ

قوله جل ذكره : ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾

يعنى خاطبهم بلسان الحجة والتزام الدلائل ونفى الشبهة ، ولا تُكلمهم على موجب نوازع النفس والعادة ، فيُحِيلهم ذلك على ترك الإجلال لذكر الله .

ويقال لا تطابقهم على قبائح ما يفعلون فيزدادوا جرأة في غيهم ، فسيكون فعلك سبباً وعلّة لزيادة كفرهم وفسقهم .

قوله جل ذكره : ﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَى

رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

لُبّنا عليهم حقائق الأشياء حتى ظنوا القبيح جميلاً ، ولم يروا لسوء حالتهم تبديلاً ، فركنوا إلى الهوى ، ولم يميزوا بين العوافي والقبلا .

قوله جل ذكره : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ

آيَةٌ لَيُؤْمِنَنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ

عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ

لَا يُؤْمِنُونَ .

وعدوا من أنفسهم الإيمان لو شاهدوا البرهان ، ولم يعلموا أنهم تحت قهر الحكم ، وما يُغني وضوح الأدلة لمن لا تساعده سوابق الرحمة ، ولواحق الحفظ بموجبات القسمة .

قوله جل ذكره : ﴿وَقَلْبُ أَفْتَدَتْهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَانُوا بِهِ

أُولَ مَرَقَزَنْدَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

العجبُ ممن تَبَقَّى على قلبه شبهةٌ في مسألة القَدَر^(١) ، والحقُّ — سبحانه — يقول :

(١) يشير القشيري بذلك إلى القدرية الذين يقولون بخلق الأفعال ، فسموا قدرية من قبيل تسمية الشيء بضده ، بيتاسى خصومهم بالجبرية .

ويوصف القدرية بأنهم يجوزون هذه الأمة ، لأنه كما أن أتباع زرادشت يعارضون خالق الخير بمبدلٍ ثانٍ هو علة الشر كذلك هم — أى القدرية — يُخرجون أعمال الإنسان السيئة من دائرة خلق الله ، فأنه ليس هو الذى يخلق المصيبة بل إرادة الإنسان المستقلة .

« وتقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به » ، لا بل من حقائق التقلب بقاء إشكال هذا الأمر
— مع وضوحه — على قلوب مَنْ هو من جملة العقلاء ، فسبحان مَنْ يُخْفِي هذا الأمر مع
وضوحه ! هذا هو قهر القادر وحكم الواحد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ
الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا
مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ
وَلَسَكُنَّ أَكْثَرُهُمْ بِجَاهِلُونَ ﴾

لأن الآيات وإن توالى ، وشموس البرهان وإن تعالت فمن قصمته العزة وكبسته القسمة
لم يَزِدْهُ ذلك إلا حيرة وضلالا ، ولم يستنجز إلا للشقوة حالا .

قوله جل ذكره ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا
شَاطِئِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ
إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا
وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَّهُمْ
وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾

كلما كان المحلُّ أعلى كانت البلايا أوفى ، والمطالبات أقوى ، فلما كانت رتبُ الأنبياء
— عليهم السلام — أشرف كانت العداوة معهم أشد وأصعب .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِتَصْنَعَنَّ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ
وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴾

وكلت أسماع الكفار باللغو وقلوبهم بالسوء فرَضُوا لأنفسهم أخسَّ الأنصاء^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي

(١) الأنصاء جمع نصيب وهو الحصّة من الشيء (المنجد) .

أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ
آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ
مِّنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الْمُتَرَدِّينَ ﴿١﴾

قلْ لِمَ أَتُونَنِي — بعد ظهور البيان ووضوح البرهان — أَذَرُ الْيَقِينَ ، وَأَوْتِرُ التَّخْمِينَ
وَأَفَارِقُ الْحَقَّ ، وَأَقَارِنُ^(١) الْحَظَّ ؟ إِنَّ هَذَا مُحَالٌ مِنَ الظَّنِّ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا
لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾
تَقَدَّسَتْ عَنِ التَّغْيِيرِ ذَاتُهُ ، وَتَنَزَّهَتْ عَنِ التَّبْدِيلِ صِفَاتُهُ . وَالتَّامُّ يَنْفِي النِّقْصَانَ . وَكُلُّ
نَقْصَانٍ فَمِنْ الْحَدَثِ أَصْلُهُ ، وَأَنَا بِالنَّقْصِ — وَالْقِدَمِ وَصْفُهُ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنَ فِي الْأَرْضِ
يَضْلُواكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ
إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾
أَهْلُ اللَّهِ قَلِيلُونَ عِدَدًا وَإِنْ كَانُوا كَثِيرِينَ وَزَنًا وَخَطَرًا ، وَأَمَّا الْأَعْدَاءُ فَفِيهِمْ كَثْرَةٌ .
فَإِنْ لَا حَظَّنَّهُمْ — يَا مُحَمَّد — فَتَنُّوكَ ، وَإِنْ صَاحِبَتَهُمْ مَنَعُوكَ عَنِ الْحَقِّ وَقَلْبُوكَ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

تَقَاصَرَتْ عُلُومُ الْخَلْقِ عَنِ إِدْرَاكِ غَيْبِهِ إِلَّا بِقَدْرِ مَا عَرَفَهُمْ مِنْ أَمْرِهِ ، وَالَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ
شَيْءٌ فَهُوَ الْوَاحِدُ — مَبْجَاهُهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ
كُنْتُمْ بَآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾

هَذَا فِي حَكْمِ التَّفْسِيرِ مُخْتَصٍ بِالدَّبِيحَةِ ، وَفِي مَعْنَى الْإِشَارَةِ مَنَعَ الْأَكْلَ عَلَى الْغَفْلَةِ ، فَإِنْ مِنْ

(١) رَبِّمَا كَانَتْ فِي الْأَصْلِ (أَقَارِف) بِالْفَاءِ ، وَكَلَاهَا صَبِيحٌ فِي السِّيَاقِ .

أكل على الغفلة فما دامت تلك القوة باقيةً فيه فخواطره إما هواجس النفس أو وساوس الشيطان .

قوله جل ذكره : ﴿ وما لكم ألا تأكلوا مما ذُكر اسمُ

الله عليه وقد فصل لكم ما حَرَّمَ

عليكم إلا ما اضطررتم إليه وإن

كثيراً ليضاون بأهوائهم بغير علم

إن ربك هو أعلم بالمعتدين ﴾

يعنى أى شئ عليكم لو تركتم الغفلة ؟ وما الذى يضركم لو استدتمتم الذكر ؟

وقد تبين لكم الفرق بين أنس الذكر ووحشة الغفلة في الحال والوقت ، (الآ)^(١)

تعرفوا حكم الثواب والعقاب في المال .

قوله جل ذكره : ﴿ وذروا ظاهرَ الإثم وباطنه إن

الذين يكسبون الإثم سيجزّون

بما كانوا يقتربون ﴾

ظاهر الإثم ما للأغيار عليه اطلاع ، وباطن الإثم هو سرّ بينك وبين الله ، لا وقوف

لمخلوق عليه .

ويقال باطن الإثم خفيّ العقائد و (. . .)^(٢) الألفاظ .

ويقال باطن الإثم ما تملّيه عليك نفسك بنوع تأويل .

ويقال باطن الإثم — على لسان أهل المعرفة — الإغماض عمّا لك فيه حظ ، ويقال باطن

الإثم — على لسان أهل المحبة — دوام التفاضى عن مطالبات الحب ؛ وإنّ بناء مطالبات الحب

على التجنى والقهر^(٣) ، قال قائلهم :

(١) وردت (إلى) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) مشتبهة .

(٣) وفى هذا المعنى أنشدوا .

عدل المحبوب يوماً كسَمَج

عاشق بطلب تأليف الحبيب

بنى الحب على القهر فلو

ليس يستحسن في شرع الهوى

إذا قلتُ : ما أذنبْتُ ؟ قالت مجيبةٌ :

حياتُكَ ذنبٌ لا يقاسُ به ذنبُ

ويقالُ أُسبغتُ عليكم النِّعمَ ظاهراً وباطناً ، فندروا الإثمَ ظاهراً وباطناً ، فإنَّ من شرطِ الشكرِ تركُ استعمالِ النعمةِ فيما يكونُ إثمًا ومخالفةً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ .

ما كانت (....) (١) من الأحوال عاصياً ولربِّه ناسياً فتوقيه شرط عند أصحاب (....) (٢) .

ثم قال : « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم » فهذا يدل على أنَّ مَنْ توقَّى ذلك انحدرت له خواطرُه ، وانقطعت عنه خواطر الشيطان . وأصلُ كل قسوةٍ متابعة الشهوات ، ومَنْ تعود متابعتها فليودعْ صفوة القلب .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

الإيمان عند هؤلاء القوم حياة القلب بالله . وأهل الغفلة إذ لهم الذكر فقد صاروا أحياء بعد ما كانوا أمواتاً ، وأربابُ الذكر لو اعتراهم نسيانٌ فقد ماتوا بعد الحياة . والذي هو في أنوار القرب وتحت شعاع العرفان وفي روح الاستبصار لا يدانيه مَنْ هو في (أسر) (٣) الظلمات ، ولا يساويه مَنْ هو رهين الآفات .

(١) مشبهة .

(٢) مشبهة .

(٣) وردت (أصر) بالصاد وقد آثرنا (أسر) لتلائم (رهين) الآفات .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارًا
مُجْرِمِينَ لِيُكْرَها فِيهَا وَمَا يُكْرَها
إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يُشْعُرُونَ ﴾ .

لَبَّسْنَا عَلَيْهِم حَقَائِقَ التَّوْحِيدِ ، وَسَوَّلْتُ لَهُمْ ظَنُونَهُمْ أَنَّ بِهِمْ شَطِيئَةً مِنَ الْحَرِّ وَالْإِثْبَاتِ ؛
فَانْهَكُوا ظُلُمَاتِنِ أَنْهُمْ يَكْفُرُونَ ، وَهُمْ فِي التَّحْقِيقِ مُخَادِعُونَ ، وَسَيَعْلَمُونَ حِينَ لَا يَنْفَعُهُمْ عِلْمٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى
تُنْزِلَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ
أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ
الَّذِينَ أُجْرِمُوا صَعَارٌ عِنْدَ اللَّهِ
وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ .

بعد إزاحة العلة ، وبيان الحجة ، ويزوال الشبهة (فالتعلُّل)^(١) باستزادة البصيرة
(إعلَام)^(٢) عن سوء الأدب ، وذلك منهم من التعدي ؛ لمساواة مَنْ جَاءَ بِالْإِسْتِحْقَاقِ بِمَنْ
جَاءَ بِنَوْعٍ مِنْ تَسْوِيلَاتِ النَّفْسِ يوجب مقاساة الهوان . وملازمة الحدود ، وترك التعدي
على الحق قضية التوفيق .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ
صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ .

الْمُسْلِمُ لَا يَنْحَرِكُ فِي بَاطِنِهِ عِرْقٌ لِلْمَنَازَعَةِ مَعَ التَّقْدِيرِ ، فَإِنَّ الْإِسْلَامَ يَقْتَضِي تَسْلِيمَ الْكُلِّ
بِلا استثناء ، وَمَنْ اسْتَنْقَلَ شَيْئًا مِنَ التَّكْلِيفِ أَوْ بَقِيَ مِنْهُ نَفْسٌ لِكِرَاهِيَةِ شَيْءٍ فَيَعُدُّ غَيْرَ
مُسْلِمٍ مُحْكَمٍ .

ويقال نورٌ في البداية هو نور العقل ، ونورٌ في الوسائط هو نور العلم ونورٌ في النهاية هو

(١) وردت (فالتعليل) والسياق يتطلب (التعلل) فيها يقوى ويتضح .
(٢) وردت (إقلام) ولا معنى لها ، وترجح أنها في الأصل (إعلَام) أى علامة .

نور العرفان ؛ فصاحب العقل مع البرهان ، وصاحب العلم مع البيان ، وصاحب المعرفة في حكم العيان .

ويقال مَنْ وَجَدَ أنوار الغيب ظهرت له خفايا الأمور فلا يشكل عليه شيء من ذوات الصدور عند ظهور النور ، وقال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى » .

ويقال أول أثر لأنوار الغيب في العبد يُنبِّهه إلى نقائص قَدَرِهِ ومساوئ غِيَّهِ ، ثم يشغله عن شهود نفسه مما يلوح لقلبه من شهود ربه ، ثم غَلَبَتُ الأنوار على سِرِّهِ حتى لا يشهد السرَّ بعد ما كان يشهد ؛ كَالنَّاظِرِ في قُرْصِ الشمس تُسْتَهْلِكُ أنوار بصره في شعاع الشمس كذلك تستهلك أنوار البصيرة في حقائق الشهود ، فيكون العبد صاحب الوجود دون الشهود ثم بعده خمود العبد بالكلية ، وبقاء الأحدية بنعت السرمدية .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يَرِدْ أَنْ يَضِلَّهُ يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ .

وذلك حتى لا يسعى في غير مراد الحق سبحانه (١) ، وحدُّ البشرية ضيق القلب ، وصاحبه في أسْرِ الحداث والأعلال ، ولا عقوبة أشدُّ من عقوبة الغفلة عن الحق .

قوله جل ذكره : ﴿ وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون ﴾ .

الصراطُ المستقيمُ إقامة العبودية عند تحقق الربوبية فهو فرق مؤيدٌ بجمع ، وجمعٌ مقيدٌ بشرع ، وإثباتٌ للعرفان بغاية الوسع ، ونبو عن المخالفات بغاية الجهد ، والتحقق بأنَّ المُجْرَى

(١) تبدو في هذه العبارة رائحة الحبرية . . نعم ، ولكنها جبرية الحب ، فالإرادة والمريد والمراد كلها تدور في فلك الحب ، وهذا فرق بين النزعتين الكلامية البهتة والصوفية ، عند تصديهما لهذا الموضوع .

واحدٌ لا شريك له ، ثم ترك الاعتماد ونفى الاستناد ، لاعلى (حركاته)^(١) يعتمد ، ولا إلى سكناته يستند ، (بل)^(٢) ينتظر ما يفتح به التقدير ، فإن زاغ صاحب الاستقامة لحظةً ، والتفت يمنةً أو يسرةً سقط سقوطاً لا ينتعش .

قوله جل ذكره : ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ .

دار السلام أى دار السلامة ، ومن كان في رِقٍّ شئٍ من (الأغراض)^(٣) والمخلوقات لم يجد السلامة ، وإنما يجد السلامة من تحرر عن رِقِّ المَسْكُونَاتِ ، والآية تشير إلى أن التَّوَمَّ في الجنة لكنهم ليسوا في أسْرِ الجنة ، بل تحرروا من رِقِّ كل مُكُونٍ .

ويقال مَنْ لم يُسَلِّمْ — اليوم — على نفسه وروحه وكلِّ ماله من كل كريمة وعظيمة تسليم وداعٍ لا يجد — غداً — ذلك الفضل ، فمن أراد أن يُسَلِّم عليه ربُّه — غداً — فَلْيُسَلِّمْ على (الكون)^(٤) بجملته ، وأولاً على نفسه وروحه .

ويقال دار السلام غداً لمن سَلِمَ — اليوم — لسانه عن الغيبة ، وجَنَّاه عن الغيبة ، وأبشاره وظواهره من الزُّلَّةِ ، وأسراره وضائره من الغفلة ، وعقله من البدعة ، ومعاملته من الحرام والشبهة ، وأعماله من الرياء والمصانعة ، وأحواله من الإعجاب .

ويقال شرفُ قَدَرِ تلك الدار لكونها في محل الكرامة ، واختصاصها بعندية الزُّلْفَةِ ، وإلا فالأقطار كلها ديار ، ولكن قيمة الدار بالجوار ، قال قائلهم :

إِنِّي لأحسد داراً في جِوَارِكُم طوبى لمن أضحي لدارك جاراً
يا ليت جارك يعطيني من داره شبراً إذا لأعطيه بِشْبِرِ داراً^(٥)

ويقال : وإن كانت الدار منزهةً عن قبول الجار ، وليس القرب منه بتداني الأقطار ، فالإطلاقُ هذا اللفظ لقلوب الأحاب مؤنسٌ ، بل لو جاز القربُ في وصفه من حيث المسافة لم يكن لهذا

(١) وردت (حركاته) والصواب أن تكون (حركاته) لتتلاءم مع (سكناته) .

(٢) أضفنا (بل) ليتضح المعنى وهي غير موجودة في النص .

(٣) (الأغراض) جمع غرض ، وليس بمستبعد أن تكون (الأغراض) بالعين جمع غرض ، وكلاهما مقول .

(٤) وردت (السكون) وهي خطأ من الناسخ .

(٥) البيت الثاني مكسور ولكننا حرصنا على اثباته كما جاء في النسخة .

كبير أثر ، وإنما حياة القلوب بهذا ، لأن حقيقته مقدسة عن هذه الصفات ؛ فهو لِأَجْلِ قلوب
الآحباب يُطلق هذا ويقع العلماء في كد التأويل ، وهذا هو أمانة الحب ، قال قائلهم :

أنا من أَجْلِكَ حُمِلْتُ الأذى الذى لا أستطيع

قوله جل ذكره : ﴿ وهو وليهم بما كانوا يعملون ﴾^(١) .

هذا شرف قدر تلك المنازل حيث قال : « وهو وليهم » لأنه إذا كان — سبحانه —
هو وليهم فإنَّ المنازل بأسرها طابت كيفما كانت ، قال قائلهم :

أهوى هواها لمن قد كان ساكنها وليس في الدار لي همٌ ولا وطَرٌّ

هو وليهم في دنياهم ، ووليهم في عقباهم ، هو وليهم في أولاهم وفي أخراهم * وليهم الذى
استولى حديثه على قلوبهم ، فلم يدع فيها لغيره نصيباً ولا سِوى * وليهم الذى هو أولى بهم
منهم * وليهم الذى آثرهم على أضرابهم وأشكالهم فأثروه في جميع أحوالهم * وليهم الذى
تطلب رضاهم ، وليهم الذى لم (يَكْلَمْهُمْ)^(٢) إلى هوائهم ، ولا إلى دنياهم ، ولا إلى عقباهم .
وليهم الذى بأفضاله يلاطفهم ، وبجمله وجلاله يكشفهم .

وليهم الذى اختطفهم عن كل حظ ونصيب ، وحال يدهم وبين كل حميم وقريب ،
فحرَّهم عن كل موصوف ومطلوب ومحبوب ، وليهم الذى هو مؤنس أسرارهم .
مشاهده مُفَتِّكُ أبصارهم ، وحضرته مرَّتع أرواحهم .

وليهم الذى ليس لهم سواه ، وليهم الذى لا يشهدون إلا إياه ، ولا يجحدون إلا إياه ، لافى
بدايتهم يقصدون غيره ، ولا فى نهايتهم يجحدون غيره ، ولا فى وسائلهم يشهدون غيره^(٣)

قوله جل ذكره : ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجنُّ
قد استكثرتُم من الإنس وقال
أولياؤهم من الإنس ربَّنَا اسمعِ

(١) وقع النسخ في ثلاثة أخطاء كتابية ونقلية في هذه الآية إذ كتبها (فهو وليهم اليوم بما كانوا يكسبون)
إذ التبت عليه مع آية أخرى .

(٢) وردت (يكلّمهم) بزيادة ميم وهم خطأ في النسخ .

(٣) لاحظ هنا هذا الترتيب : قصود ثم شهود ثم وجود .

بعضنا ببعضٍ وبلغنا أَجَلنا الذى
أَجَلْتْ لَنَا ، قَالَ : النارُ مثواكم
خالدين فيها إلا ما شاء الله إنَّ ربَّك
حكيمٌ عليمٌ ﴿

يعتذرون فلا يسمع ، ويحتجون بما لا ينفع ، ولقد كانوا من قبل لو أتوا بأقل منه قُبِلَ
منهم ، لكن سبقت القسمة فحقَّت لهم الشقوة .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك نُؤَلِّ بعضَ الظالمين بعضاً
بما كانوا يكسبون ﴾

يعنى نجمع بين الأشكال ، فالأولياء مجموعون يستمتع بعضهم ببعض ، والأعداء مجموعون
يفرُّ بعضهم من بعض .

قوله جل ذكره : ﴿ يا معشرَ الجنِّ والإنسِ ألمْ يأتِكم رُسُلٌ
منكم يقصُّون عليكم آياتى وينذرونكم
لقاء يومِكم هذا قالوا شهدنا على
أنفسنا وغرَّبَتهم الحياةُ الدنيا وشهدوا
على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾

عرَّفهم أنه أراح لهم العِلَل من حيث التزام الحجَّة ، لكنه حكم لهم بالشقوة فى الأزل ،
(فَلَبَّسَ)^(١) عليهم الحجَّة .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك أنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى
بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا غَافِلُونَ ﴾

متى يصحُّ فى وصفه توهم الظلم والمُلْكُ مُلكه والخلْقُ خلقه ؟
ومتى يقبَح منه تصرفٌ فى شخصٍ بما أراد ، والعبد عبده والحكم حكمه ؟

(١) وردت (فلبس) وهى خطأ من الناسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رُبُّكَ

بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

المحسن في روح الثواب متنعم ، والمذنب في نوح العذاب متألم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ

يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ

كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾

« الغني » يشير إلى كشفه ، « ذو الرحمة » يشير إلى لطفه .

أخبرهم بقوله « الغني » عن جلاله ، وبقوله : « ذو الرحمة » عن أفضاله ؛ فبجلاله يكشفهم

فيقضيهم ، وبأفضاله يلاطفهم فيحييهم .

ويقال سماع غناه يوجب محوكم ، وسماع رحمته يوجب صحوهم ، فهم في سماع هذه الآية

مترددون بين بقاء وبين فناء ، وبين إكرام وبين اصطلام ، وبين تقريب وبين تدوير ،

وبين اجتياح وبين ارتياح .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ مَا تَوَعَّدُونَ لَأَتِيَنَّكُمْ وَمَا أَنْتُمْ

بِعُصْجِرِينَ ﴾

الإشارة من هذه الآية إلى قصر الأمل ، ومن قصر أمله حسن عمله ، وكل ماهوآت

ف قريب أجله .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ

إِنِّي عَامِلٌ فَمَا تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ

عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

هذا غاية الزجر لأنه تهديد وإن كان في صيغة الأمر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ

نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا

لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل

إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى
شركائهم ساء ما يحكمون *

لما بنوا قاعدة أمرهم على موجب الهوى صارت فروغهم لائقة بأصولهم ؛ فهو كما قيل .
إذا كان القضاء إلى ابن آوى فتعويل الشهود إلى القروء

قوله جل ذكره : * وكذلك زين لكثير من المشركين
قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم
وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله
ما فعلوه فذرهم وما يفترون *

وسوست إليهم شياطينهم بالباطل فقبلت نفوسهم ذلك ؛ إذ الأشكال يتناصرون ،
فالنفس لا تدعو إلا إلى الأجنبية ، لأنها مدعية تنوهم أن منها شيئاً ، وأصل كل شرك
الدعوى ، والشيطان لا يوسوس إلا بالباطل والكفر ، فهم أعوان يتناصرون .
ثم قال : « ولو شاء الله ما فعلوه » صرح بأن المراد على المشيئة ، والاعتبار
(بسابق)^(١) القضية .

قوله جل ذكره : * وقالوا هذه أنعامٌ وحرثٌ حِجْرٌ
لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم
وأنعامٌ حرمت ظهورها ، وأنعام
لا يذكرون اسم الله عليها افتراء
عليه سيجزئهم بما كانوا يفترون *
وقالوا ما في بطون هذه الأنعام
خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا
وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء ،
سيجزئهم وصفهم إنه حكيم عليم *

(١) وردت (بسائق) وهي خطأ من الناسخ إذ المقصود بما سبق من القضاء .

أخبر عن أشياء ابتدعوها على ما أرادوا ، وأمور شرعوها على الوجه الذي اعتادوا ،
ثم أضافوا ذلك إلى الحق بغير دليل ، وشرعوها بلا حجة من إذن رسول ، والاشارة فيه
أن من (نجا نجوهم)^(١) في زيادة شيء في الدين ، أو نقصان شيء من شرع المسلمين فضاير
لهم في البطلان .، ينخرط في سلكهم في الطغيان .

قوله جل ذكره : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ
سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ
اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا
وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾

فسدت عليهم طريقة الثقة بالله فحملتهم خشية الفقر على قتل الأولاد ، ولذلك قال أهل
التحقيق : من أمارات اليقين وحقايقه كثرة العيال على بساط التوكل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ
مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ
وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ
وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا
مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾

يعنى كما أنشأ في الظاهر جنات وبساتين كذلك أنشأ في السر جنات وبساتين ،
وزهرة القلوب أثم من جنات الظاهر ؛ فأزهار القلوب موفقة ، وشعوس الأسرار مشرقة ،
وأثمار المعارف زاخرة .

ويقال كما تتشابه الثمار كذلك تتماثل الأحوال ، وكما تختلف طعومها وروائحها
مع تشاكلها من وجه ، فكذلك الأحوال مختلفة القضايا ، وإن اشتركت في كونها أحوالاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾

(١) وردته (نجا نجوم) وهى خطأ من الناسخ .

حَقُّ الْوَاجِبِ يَوْمَ الْحَصَادِ إِقَامَةُ الشُّكْرِ ، فَأَمَّا إِخْرَاجُ الْبَعْضِ فَبَيَانُهُ عَلَى لِسَانِ الْعِلْمِ^(١) ،
وَشُهُودُ الْمُنْعِمِ فِي عَيْنِ النِّعْمَةِ أُنْمٌ مِنَ الشُّكْرِ عَلَى وَجُودِ النِّعْمَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

المُسْرِفِينَ ﴾

الإسراف — على لسان العلم — مجاوزة الحد .

وعلى بيان الإشارة فالإسرافُ كُلُّ مَا أَنْفَقْتَهُ فِي حِظِّ نَفْسِكَ — ولو كانت سمسة ،
وما أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِهِ — سبحانه — فليس بإسراف ، ولو أربى على الآلاف .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ﴾

يعني تسخير الحيوانات للإنسان آية مزية في الفضيلة على المخلوقات . وكما سخر الأعيان
للإنسان كذلك سخر الأزمان في تصريف الحدثان لخواص الإنسان^(٢)

قوله جل ذكره . ﴿ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا

خطواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ

مُبِينٌ * ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ

اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزَانِ اثْنِينَ ﴾

إلى قوله : ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي

الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

الرزق لا يتخصص بالمأكولات بل هو شائع في جميع ما يحصل به الانتفاع .

وينقسم الرزق إلى رزق الظواهر ورزق السرائر ، ذلك وجود النعم وهذا شهود الكرم

بل الحمد في وجود القِدَم .

وللقلب رزق وهو التحقيق من حيث العرفان ، وللروح رزق وهو المحبة بصدق التحرر

عن الأكوان ، وللسر رزق وهو الشهود الذي يكون للعبد وهو قرين العيان .

(١) أى إخراج مقدر على حسب المديون في الركعة .

(٢) يشير بذلك إلى ما يحدث على أئدى الأولياء من كرامات

قوله « ثمانية أزواج من الضأن اثنين » الإشارة من ذكر الضأن أن يتأدب العبدُ باستدامة السكون والتزام حُسن الخلق ، فإنَّ الضانية مستسلمةٌ لمن يلي عليها ، فلا بصياحها تُؤذِي^(١) ولا (ب . . . وها)^(٢) ، يعنى كذلك سبيل من وطئ ، هذا البساط .

وكذلك « فى الإبل آيات » منها اتقيادها لمن جرَّ زمامها ، واستناختها حينما تُناخ بلا نزاع ولا اختيار . ومنها ركوبها عند الحمل ، ومنها صبرها على مقاساة العطش ، وذوبانها فى السير .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِى أَوْحِىِّ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِثْلَهُ أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْفًا أُهْلًا لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

بيِّن أنَّ الشارعَ اللهُ ، والمانعَ عن الخلق هو الله ، وما كان من غيرِ الله فضائعٌ باطلٌ عند الله . بيِّن أنه إذا جاء الاضطرارُ زال حكمُ الاختيار .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾

(١) فى هذه الإشارة الدقيقة نلح أن القشيري يدعو إلى إشار الكتمان وعدم البوح بالأسرار ، وعلى ذلك كبار الشيوخ . يقول الشبلى . على أثر محنة الحلاج « كنت وابن منصور شيئاً واحداً ولكن أظهر وأنا كنت » .

(٢) مشتبهة ، وربما كانت (بعدوها) ، وعندئذ قد تكون العبارة فلا بصياحها تؤذى ولا بعدوها .

بَيَّنَ أَنَّ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ ضَيَّعُوهُ ، إِذْ لَمَّا لَمْ يَمَاقِبْهُمْ عَلَيْهِ لَمْ يَشْهَدُوا مَكْرَهُ الْعَظِيمِ فِيهَا ابْتَدَعُوهُ
مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِمْ — فَأَهْمَلُوهُ وَلَمْ يَحَافِظُوا عَلَيْهِ ، فَاسْتَوْجَبُوا عَظِيمَ الْوِزْرِ وَالْإِيمِ الْهَجْرَ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ
وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ
الْمُجْرِمِينَ ﴾

الإشارة منه ببيان تخصيص الأولياء بالرحمة ، وتخصيص الأعداء بالظرد واللعنة . والصورة
الإلسانية جامعة (لهم)^(١) ولكن القسمة الأزلية فاصلة بينهم .

قوله جل ذكره ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ
مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا
مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا ، قُلْ هَلْ
عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ؟ إِنْ
تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا
تَخْرُصُونَ ﴾

كذبت قائلهم لأنها لم تصدر عن تصديق ، قدّموا على جهالتهم وإن كانت (. . .)^(٢)
في التحقيق .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ
لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

صَرَّحَ بِأَنْ إِرَادَتَهُ — سَبْحَانَهُ — لَا تَقْصُرُ عَنْ مَرَادٍ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ اعْتِرَاضٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ
أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا ،

(١) وردت (له) والصواب أن تكون (لهم) لتشمل الأولياء والأعداء .

(٢) مشتبهة .

فلا تَشْهَدْ معهم ، ولا تتبع أهواء
الذين كذبوا بآيتنا والذين لا يؤمنون
بالآخرة وهم يربُّهم يَعْدِلُونَ ﴿١﴾

أشار إلى أَنَّ مَنْ تَجَرَّدَ عن برهانٍ يَصْرِّحُ به وبيان (يُوضِّحُهُ) ^(١) فغيرُ مقبول من فاعله .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ
أَلَّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وبالوالدين
إِحْسَانًا ، ولا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ
إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ،
ولا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا
وَمَا بَطَّنَ ، ولا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي
حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * ولا تقربوا مال
اليتيم إلا بالتي هي أحسنُ حتى يبلغَ
أشدَّهُ وأوفوا الكيل والميزانَ
بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا
وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ
وَبِعَدِّ اللَّهِ أَوفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا
صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، ولا تتبعوا
السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَلِكُمْ
وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢﴾

(١) وردت (يوضِّحه) والصواب أن تكون بالخاء ليقوى المعنى والموسيقى اللفظية ونرجح أن الناسخ
اشتق عليه شكل الخاء فظنوا عيناً

هذه أشياء عشرة تضمنتها هذه الآية أولها الشرك فإنه رأس المحرمات ، والذي لا يقبل معه شيء من الطاعات ، وينقسم ذلك إلى شرك جلي وشرك خفي ، فالجلي عبادة الأصنام ، والخفي ملاحظة الأنام ، بعين استحقاق الإعظام .

والثاني من هذه الخصال ترك العقوق ، وتوقير الوالدين بحفظ ما يجب من أكيدات الحقوق .

وبعد ذلك قتل الأولاد خشية الإملاق ، وإراقة دماءهم بغير استحقاق .

ثم ارتكاب القواحش ما ظهر منها وما بطن ، وما بدا وما استتر ، ويدخل في ذلك جميع أقسام الآثام .

ثم قتل النفس بغير الحق ، وذلك إنما يكون لفقد شفقة الخلق .

ثم مجانبة مال اليتيم والنظر إليه بعين التكريم .

ثم بذل الإنصاف في المعاملات والتوقى من جميع التبعات^(١)

ثم الصدق في القول والعدل في الفعل .

ثم متابعة السبيل بما تشير إليه لوائح الدليل .

فمن قابل هذه الأوامر بجميل الاعتناق سعد في داريه وحظى بعظائم منزلته .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا

عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ

شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّعَلَّاهُمْ بَلَقَاءَ

رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾

يهوون عليهم مشقة مقاساة التكليف بما ذكر من التعريف بأن الذين كانوا قبلنا كانوا

في الضعف والمعجز مثلنا ، ثم صبروا وظفروا ، وأخلصوا فخلصوا .

(١) أى الاحتراز عما فيه نبهة .

قوله جل ذكره : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك ﴾

فَاتَّبِعُوهُ ، وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

إنزال الكتاب عليهم تحقيق للإيجاب ، وإذا بقي العبد عن سماع الخطاب تسلي بقراءة الكتاب ، ومن لم يجد في قراءة القرآن كمال العيش والأنس فلأنه يقرأ ترميماً لا تحقيقاً (١)

قوله جل ذكره : ﴿ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب

على طائفتين من قبلنا وإن كنا

عن دراستهم لغافلين ﴾ أو تقولوا

لو أننا أنزل علينا الكتاب لكنا

أهدى منهم فقد جاءكم بينة من

ربكم وهدى ورجمة ﴾

أزاح كل علة ، وأبدى كل وصلة ، فلم يبق لك تعللاً ، ولا في آثار الالتجاء إلى العذر موضعاً .

قوله جل ذكره : ﴿ فمن أظلم ممن كذب بآيات الله

وصدّف عنها سنجزي الذين

يصدّفون عن آياتنا سوء العذاب

بما كانوا يصدّفون ﴾

عقوبة كل جرّم مؤجلة ، وعقوبة التكذيب معجلة ، وهي ما يوجب بقاءهم في أسر الشك حتى لا يستقر قلبهم على شيء .

قوله جل ذكره : ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة

أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات

ربك يوم يأتي بعض آيات ربك

(١) يمكن أن يصلح هذا الرأي لتحديد موقف القشيري من قضية « السماع » ومدى تأثير القرآن والشعر في الوجدان الصوفي . انظر قصة يوسف بن الحسين الرازي (الرسالة ص ١٧١) .

لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت
من قبلُ أو كسبت في إيمانها خيراً
قل انتظروا إننا مُنتظرون ﴿١﴾

أخبر أنه بعدما (أزاح) ^(١) لهم العلل اقترحوا ما ليس لهم ، و (اعتروا) ^(٢) بطول السلامة لهم ، ثم بين أنه إذا أمضى عقوبة عبدٍ حُكماً فلا معارضٍ لتقديره ، ولا مُناقضٍ لتديره .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا
شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ
إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾

اتفقوا بأبدانهم وافترقوا بقلوبهم ، (فكانوا) ^(٣) مجتمعين جهرًا بجهر ، متفرقين
— في التحقيق — سِرًّا بسِرٍّ .

قوله : « لست منهم في شيء » . لا تجمعك وإياهم ، يعني شِقُّ شِقِّ الحقائق ، وشِقُّهم
شِقُّ الباطل ، و (لا اجتماع) ^(٤) للضدين .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِثَالِهَا ﴾

هذه الحسنات للظاهر ؛ وأما حسنات القلوب فللواحد مائة إلى أضعاف مضاعفة .

ويقال الحسنة من فضله تعالى تصدُر ، وبلفظه تحصل ، فهو يُجْرِي ، ثم يَقْبَلُ ويثني ،
ثم يجازي ويعطي .

ويقال إحسانه — الذي هو التوفيق — يوجب إحسانك الذي هو الوفاق ، وإحسانه — الذي هو
خلق الطاعة — يوجب لك نعت الإحسان الذي هو الطاعة ؛ فالعناء منك فعله والجزاء لك فضله ^(٥) .

(١) وردت (ذبح) وذبح العلة وإزاحتها كلامها مقبول ولكننا آثرنا أزاح لأنه استعمالها في هذا
السياق قبل قليل .

(٢) وردت (اعتروا) بالعين والصواب (اعتروا) بالعين .

(٣) وردت (فكا . . .) فأكدناها .

(٤) وردت و (الاجتماع) والمعنى برفضها وقبول و (لا اجتماع) .

(٥) تعبر هذه الفقرة عن موقف التفسير بالنسبة لقضية وجوب المثوبة والعقوبة على الله بالنسبة للطبع
والعاصي ، فبينما يقول المعتزلة بهذا الوجوب ، يرفض التفسير كل وجوب على الله ، ويعود بالأمر كله إلى الفضل الإلهي .

ويقال إحسان النفوس تَوْفِيَّةٌ الخدمة ، وإحسان القلوب حفظ الحرمة ، وإحسان الأرواح مراعاة آداب الحشمة .

ويقال إحسان الظاهر يوجب إحسانه في السرائر ، فالذى منك بمجاهدتك ، والذى إليك مشاهدتك .

ويقال إحسان الزاهدين ترك الدنيا ، وإحسان المريدين رفض الهوى ، وإحسان العارفين قطع المني ، وإحسان الموحدين التخلّي عن الدنيا والعقبى ، والاكتفاء بوجود المولى .

ويقال إحسان المبتدئين الصدق في الطلب ، وإحسان أصحاب النهاية حفظ الأدب ، فشرطُ الطلب ألا يبقى ميسورٌ إلاّ بذلّته ، وشرطُ الأدب ألا تسمولك همّةٌ إلى شيءٍ إلا قطعتَه وتركته .

ويقال للزهاد والعبّاد ، وأصحاب الأوراد وأرباب الاجتهاد جزاءٌ محصورٌ معدود ، ولأهل المواجيد لقاء غير مقطوع ولا ممنوع .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

يعنى ('يُكَالُ')^(١) عليه بالكيل الذى يكيل ، ويوقفُ حيث يرضى لنفسه بأن يكون له موقفاً .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إِنِّى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قَبِىْهُ اِبْرَاهِيمُ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

أرشده إلى الطريق الصحيح . ولا يكون الإرشاد إليه إلا بانسداد الطرق أجمع إلى ماسواه . وَمَنْ وَجَدَ سَبِيلًا إلى مخلوق عرج في أو طان الحسبان لأن الأغيار ليس لها من الإبداع شظية ، ومن سلك إلى مخلوق سبيلاً وأبرم فيهم تأمياً أو قدّم عليهم تعويلاً ، فقد استشعر تسويلاً ، وجرّع تضليلاً .

(١) وردت (يقال) وهى خطأ فى النسخ .

و « الصراط المستقيم » ألا ترى من دونه مثبناً لذرة ولا سنة .
و « الدين القيم » مالا تمثيل فيه ولا تعطيل ، ولا نفى للفرق الذي يشير إلى العبودية ،
ولا رد للجمع الذي هو شهود الربوبية (١) .

والحنيف المائل إلى الحق ، الزائع عن الباطل ، الخائل عن ضد الحقيقة .
قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إِن صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾

من كوشف بحقائق التوحيد شهد أن القائم عليه والمجرى عليه والممسك له والمنقل إليه
من وصف إلى وصف ، و (. . .) (٢) عليه فنون الحدثان — واحد لا يشاركه قسيم ، وماجد
لا يضارعه نديم .

ويقال من علم أنه بالله علم أنه الله ، فإذا علم أنه الله لم يبق فيه نصيب لغير الله ، فهو مستسلم
لحكم الله ، لا معرض على تقدير الله ، ولا معارض لاختيار الله ، ولا معرض عن
اعتناق أمر الله .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ ابْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

(١) من اقوال القشيري التي توضح مقصوده هنا : ما يكون كسباً للعبد من إقامة العبودية وما يليق
باحوال البشرية فهو فرق ، وما يكون من قبل الحق من إبداء معان وإسداء لطف وإحسان فهو جمع ،
فمن أشهده الحق — سبحانه — أفعاله من طاعاته ومخالفاته فهو عبد بوصف التفرقة ، ومن أشهده الحق
— سبحانه — ما يوليه من أفعال نفسه — سبحانه — فهو عبد يشاهد الجمع ، وإثبات الخلق من باب التفرقة ،
وإثبات الحق من نعت الجمع ، ولا بد للعبد من الجمع والفرق ، فإن من لا تفرقة له لا عبودية له ، ومن
لا جمع له لا معرفة له (الرسالة ص ٣٨) .
(٢) مشبهة وهي قريبة من (المجرى) .

كيف أوثر عليه بدلاً وإنى لا أجد عن حكمه حولا ، وكيف أقول بغير أو ضد
أو شريك ؟ أو أقول بدونه معبود أو مقصود ؟ وإن لا حظت يمنة ما شاهدت إلا ملكه ،
وإن طالمت يسرة ما عاينت إلا ملكه ! بل إنى إن نظرت يمنة شهدت يمنة ، وإن نظرت
يسرة وجدت نحوى يسره (١) !

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى جعلكم خلائف فى الأرض
ورفع بعضكم فوق بعض درجات
ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع
العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾

صبر التوبة إليكم ، وقصر حكم عصركم عليكم ، فأنتم المقصودون اليوم دون من هو
سواكم . ثم إنه جعلكم أصنافا ، وخلقكم أخيافا (٢) فمن مسخر له ، مرفه ، مروح ، يتعب
لأجله كثير . ومن معني ، وذى مشقة أدير عليه رأسه . وجاء البلاء ليختبركم فيما آتاكم ،
ويمتنحكم فيما أعطاكم . إن حسابكم لكم لا حيق ، وحكمه فيكم سابق . والله أعلم .

السورة التى يذكر فيها الأعراف

« بسم الله الرحمن الرحيم »

الباء مكسورة فى نفسها وعملها الخفض لأنها من الحروف الجارة للأسماء ، وهى صغيرة
القامة فى الخط ، ونقطها الذى تتميز به عن غيرها واحد وهو نهاية القلة ، ثم موضع هذه
النقطة أسفل الحرف ، فهى تشير إلى التواضع والخضوع بكل وجه .

والسين « من بسم الله » حرف ساكن فالإشارة من الباء ألا تدرك — فى الخضوع
والندال ، والجهد والتوسل — ميسورا ، ثم تسكن منتظرا للتقدير ، فإن من القبول بفضله

(١) وردت (يمنة ويسره) بناء مربوطة والصواب أن تكونا (اليمن واليسر) مضافتين
لله — سبحانه .

(٢) يقال م إخوة أخياف : أى إن أهم واحدة والآباء شتى فهم مختلفون (المنجد)

فذلك المأمول ، وإن ردَّ بحكمِ فله الحكم ، فتوافق تقديره بالموافقة في الرضا به ، إذا المية
تشير إلى منته إن شاء ، ثم إلى موافقتك لتقديره بالرضا به إن لم يمنَّ .

ويقال الباء تشير إلى بيان قلوب أهل الحقائق بلطائف المكاشفات بما يختصهم الحق
— سبحانه — بذلك من دون الخلق ، فهم على بيانٍ مما يخفى على الخلق ، فالغيب لهم كشف ،
والخبر لهم عيان ، وما للناس علمٌ فلهم وجود .

والسين تشير إلى سرور قلوبهم عند تقريبات البسط بما (. . .)^(١) فيه من وجوه
المراعاة ؛ وصنوف لطائف المناجاة ، فهم في جنات النعيم ، وعيشٍ بسطٍ وتكريم ، ودوام
روحٍ مقيم .

والميم تشير إلى محبة الحق — سبحانه — لهم بدءاً فإنها هي الموجبة لمحببتهم ، إذ عنها
صَدَرَ كُلُّ حُبٍ فبمحبتته لهم أحبوه ، وبقصده إليهم طلبوه ، وبإرداته لهم أرادوه .
ويقال نزهة أسرار الموحدين في الإناخة بعقوة بسم الله ، فمن حلَّ تلك الساحة رَتَعَ
في حدائق القدس ، واستروح إلى نسيم الأنس .
ويقال بسم الله موقف الفقراء بقلوبهم ؛ فللأغنياء موقفهم عرفات ، وللفقراء موقفهم
المكاشفات والمشاهدات .

ويقال قالة « بسم الله » ربيع الأحابيب ؛ أزهارها لطائف الوصلة ، ونورُها زوائد القربة .
قوله جل ذكره : ﴿ المص ﴾ .

هذه الحروف من التشابه في القرآن على طريقة قومٍ من السكف ، والحق — سبحانه —
مستأثر بعلمها دون خلقه . وعلى طريقة قومٍ فلها معانٍ تُعرَف ، وفيها إشارات إلى أشياء
توصَف : فالألف تشير إلى ألفة الأرواح العطرة أصابت الشكبية مع بعض الأرواح العطرة ،
فهي — في التحقيق — في ذلك المعنى كالمتحدة ؛ فمنه تقع الألفة بين المتشاكبين ، ولأجل
اتحاد المقصود يتفق القاصدون .

ويقال أَلِفَ القلبُ حديثه فلم يحتمش من بذل روحه .

(١) مشتبه .

ويقال الألف مجرد مَنْ قَصَدَهُ عن كل غَيْرٍ فلم يتصل بشيء ، وحين استغنى عن كل شيء اتصل به كل شيء على جهة الاحتياج إليه .

ويقال صورة اللام كهصورة الألف ولكن لما اتصلت بالحروف تعاقبتها الحركات كسائر الحروف ؛ فمرة أصبحت مفتوحة ، ومرة (مسكوتة)^(١) ، ومرة مرفوعة ، وأما الألف التي هي بعيدة عن الاتصال بالعلاقات (فباقية على وصف التجرد عن تعاقب الحركات عليها فهي على سكونها الأصلي)^(٢) .

وأما الصاد فتشير إلى صديق أحوال المشتاقين في القصد ، وصدق أحوال العارفين في الوجد ، وتشير إلى صديق قلوب المريدين وأرباب الطلب ، إذ العطش نعت كل قاصد ، كما أن الدهشة وصف كل واجد .

ويقال الصاد تبدي محبة للصدور وهو بلاء الأحياب .

ويقال الصاد تطالبك بالصدق في الود ، وأمانة الصدق في الود بلوغ النهاية والكمال ، حتى لا يزيد بالبر ، ولا ينقص بالمنع .

قوله جل ذكره : ﴿ كِتَابٌ أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

كتاب الأحياب نعمة الوقت ، وشفاء لمقاساة ألم البعد ، وهو لداء الضنى مُزِيل ، وشفاء الشك مُقِيل ، وقال تعالى : « فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ » ولم يقل : في قلبك ؛ فإن قلبه — عليه السلام — في محل الشهود ، ولذلك قال : ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون^(٣) وكذلك قال موسى عليه السلام : « رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي »^(٤) . وقال للمصطفى صلوات الله

(١) وردت (مسكوتة) بسقوط النون وهي خطأ في النسخ .

(٢) ما بين القوسين موجود في الهامش ابتداء في موضعه من المتن حسب العلامة المميزة .

(٣) آية ٩٧ سورة الحجر .

(٤) آية ٢٥ سورة طه .

عليه : « ألم نشرح لك صدرك » ^(١) . فإن القلب في محل الشهود ، وهو أبداً بدوام أنس القرب ، قال صلى الله عليه وسلم : « تنام عيني ولا ينام قلبي » ^(٢) وقال : « أسألك لذة النظر » ^(٣) وصاحب اللذة لا يكون له حرج .

قوله جل ذكره : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

استنسلوا لمطالبات التقدير ، قفوا حيناً وقفتم ، وتحققوا بما عرقتهم ، وطالعوا بما كوشتم ، ولا تلاحظوا غيراً ، ولا تركزوا إلى علة ، ولا تظنوا أن لكم من دونه وسيلة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فِجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ فما كان دعواهم إذ جاءهم بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ .

يعنى كم من قرية ركنوا إلى الغفلة ، واغتروا بطول المهلة ، باتوا في (خَفَضٍ) ^(٤) الدعة وأصبحوا وقد صادقتهم البلى بقتة ، وأدركتهم القضية فجأة ، فلا بلاء كُشِفَ عنهم ، ولا دعاء يُسْمَعُ لهم ، ولا فرار نَفَعَهُمْ ، ولا صرِيحٌ أَنْقَذَهُمْ . فما زالوا يفرعون إلى الابتهاال ، ويصيحون : الويل ! ويدعون إلى كشف الضر ، ويبيكون من مسِّ السوء ؟ ! بادوا وكأنه لا عين ولا أثر ، ولا لأحد منهم (خبر) ^(٥) . تلك سُنَّةُ اللَّهِ في الذين خَلَوْا من الكافرين ، وعادته في الماضين من الماردين .

(١) آية ١ سورة الشرح .

(٢) في رواية سعيد بن منصور في سننه عن ابن سعد بن الحسن مرسل : (تنام عيني ولا ينام قلبي) ص ١٢٠ الجامع الصغير .

(٣) وردت ضمن وعاء طويل رواه النسائي في سننه والحاكم في مستدركة عن عمار بن ياسر - هكذا (. . . وأسألك لذة النظر الى وجهك) .

(٤) وردت (خفض) بالخاء والصواب أن تكون (خفض العيش) بالخاء .

(٥) وردت (خبر) بالياء والصواب أن تكون (خبر) بالباء .

قوله جل ذكره : ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾

« فلنسألن الذين أرسل إليهم » : سؤال تعنيف وتعذيب .
« ولنسأل المرسلين » : سؤال تشريف وتقريب .
« فلنسألن الذين أرسل إليهم » عن القبول فيتقننون بذل الخجل .
« ولنسألن المرسلين » عن البلاغ فينكلمون ببيان الهيبة ، فالكُلُّ بِسْمَةِ الْعُبُودِيَّةِ والتوقير ، والحقُّ بنعت الكبرياء والتقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين ﴾

فلنخبرنهم يوم الفصل ما هم عليه اليوم ، ونوقفهم على ما أسلفوه ، وتقيمهم في مقام الصغار ومحل الخزي ، وسيعلمون أنه لم يغيب عن علمنا صغير ولا كبير .
ويقال أجرى الحقُّ — سبحانه — سنَّته بتخويف العباد بعلمه مرة كما خوفهم بعقوبته تارة ؛ فقال تعالى : « واتقوا يوماً »^(١) يعني العذاب الواقع في ذلك اليوم ، وقال في موضع آخر : « ويحذركم الله نفسه »^(٢) وهذا أبلغ في التخويف ، وقال « ألم يعلم بأن الله يرى »^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴾ * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾

يَزِنُ أَعْمَالَهُمْ بِمِيزَانِ الْإِخْلَاصِ ، وَأَحْوَالَهُمْ بِمِيزَانِ الصَّدَقِ . فَمَنْ كَانَتْ أَعْمَالُهُم بِالرِّيَاءِ

(١) آية ٤٨ سورة البقرة
(٢) آية ٢٨ سورة آل عمران
(٣) آية ١٤ سورة العلق

مصحوبة لم يقبل أعمالهم ، ومن كانت أحوالهم بالاعجاب مشوبة لم يرفع أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم

فيها معاش قليلاً ما تشكرون ﴾

سهّلنا عليكم أسباب المعيشة ، ويسّرنا لكم أحوال التصرف ، ثم أراد منكم أن تتخذوا

إليه سبيلاً ، ولم يعتص عليه مراد .

« قليلاً ما تشكرون » لاستعمالكم - في الخلاف - أبدانكم ، وإلفاقكم

- بالإسراف - أحوالكم ، ولاستغراقكم - في الحظوظ - أوقاتكم . فلا نعمة الفراغ

شكرتم ، ولا من مس العقوبة شكوت خسرتم وما شعرتم !

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا

للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا

إلا إبليس لم يكن من الساجدين ﴾

ثبّتناكم على النعمت الذي أردناكم ، وأقمناكم في الشواهد التي اخترنا لكم ؛ فمن قبيح

صورته خلقاً ومن ملبح ، ومن سقيم حاله خلقاً^(١) ، ومن صحيح . ثم إنا نعرفكم سابق

آيادينا إلى أبيكم ، ثم لاحقٍ بخلافه بما بقى عروقٍ منه فيكم ، ثم ما علمنا به (من مكان

يحسدكم)^(٢) ويعاديكم .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك

قال أنا خيرٌ منه خلقتني من نارٍ

وخلقته من طين ﴾

أى لولا قهر الربوبية جرى عليك وإلا فما موجبُ امتناعك عن السجود لآدم لو كنتَ

تعظّمُ أمرى ؟ فيتحقق الموجدون أن موجب امتناعه عن السجود الخذلانُ الحاصلُ ، ولو ساعده

التوفيق لم يبرح بعد من السجود .

(١) ضبطنا خلقاً وخلقاً حسبما يتطلبه السياق

(٢) هكذا في ص ورجح أن الناسخ قد اخطأ في النقل ؛ فما بين قوسين لا معنى له ، وربما كانت

في الأصل (ثم ما علمنا بمن كان يحسدكم ويعاديكم) والمقصود إبليس كما في الآية

قال : « أنا خير منه » ادّعى الخيرية ، وكان الواجب عليه — لولا الشقوة — أن يؤثّر التذلل على التكبر ، لاسيما والخطاب الوارد عليه من الحق .

ثم إنه وإن سلك طريق القياس فلا وجه له مع النفس لأنه يحظى ، فلم يزدّه قياسه إلا في استحقاق نفيه إذ ادّعى الخيرية بجموده^(١) ، ولم يعلم أن الخيرية بحكمه — سبحانه — وقسمته .

قوله جل ذكره : ﴿ قال فاهبط منها فما يكون لك أن تنكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين ﴾ .

فارق بساط القربة : فإن التكبر والترفع على البساط ترك الأدب ، وترك الأدب يوجب الطرد .

ويقال من رأى لنفسه محلاً أو قيمة فهو متكبر ، والمتكبر بعيد عن الحق سبحانه ، ورؤية المقام قدح في الربوبية إذ لا قدر لغيره تعالى ، فمن ادّعى لنفسه محلاً فقد نازع الربوبية .

قوله جل ذكره : ﴿ قال أنظرنى إلى يوم يبعثون ﴾ قال إنك من المنظرين .

أجاب دعاءه في الحال ولكن كان ذلك مكرراً به لأنه مكّنه من مخالفة أمره إلى يوم القيامة ، فلم يزدّه بذلك التمكن إلا شقوة . ليعلم الكافة أنه ليس كل إجابة للدعاء نعمة ولطفاً بل قد تكون بلاء ومكرراً .

قوله جل ذكره : ﴿ قال فإما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ .

جأهر الحقيقة بالخلاف بعدما أظهر من نفسه غاية الخلوص في العبودية ، فعلم أن جميع ما كان منه في (سالف)^(٢) حاله لم يصدر عن الإخلاص والصدق .

(١) حيث اعتبر النار خيراً من الطين .

(٢) وردت (سالك) والصواب أن تكون (سالف) أى سابق عهده قبل عصيانه .

قوله جل ذكره : ﴿ثُمَّ لَا تَأْتِيهِمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ
أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ .

أخبر أنه يأخذ عليهم جوائنهم ، ويتسلط عليهم من جميع جهاتهم ، ولم يعلم أن الحق سبحانه قادر على حفظهم عنه ، فإن ما يكيد بهم من القدرة حصل ، وبالمشيئة يوجد ، ولو كان الأمر به أو إليه لكان أولى الخلق بأن يؤثر فيه كدحه نفسه ، وحيث لم ينفعه جهده في سالف أحواله لم يضرهم كيد بما توعدهم به من سوء أفعاله .

قوله جل ذكره : ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْهُومًا مُدْحَضًا لِمَنْ
تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ
أَجْمِينَ﴾ .

أخرجه من درجته ، ومن حالته ورتبته ، ونقله إلى ما استوجبه من طرده ولعنته ، ثم تخليده أبداً في عقوبته ، ولا يذيقه ذرة من برِّ رحمته ، فأصبح وهو مقدّم على الجملة ، وأمسى وهو أبعد الزمرة ، وهذه آثار قهر العزة . فأى كبد يسمع هذه القصة ثم لا يتفتت ؟ .

قوله جل ذكره : ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ
فَاكْلًا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا
هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ .

لما أسكن آدم الجنة خلق معه سبب الفتنة ، وهو ما أكرمه به من الزوجة . وأى نقص يكون في الجنة لو لم يخلق فيها تلك الشجرة التي هي شجرة المحنة لولا ما أخفى من سِرِّ القسمة ؟ .

قوله جل ذكره : ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ .

نسبته ما حصل منهما إلى الشيطان من أمارات العناية ، كانت الخطيئة منهما لكنه تعالى قال : «فوسوس لهما الشيطان» .

ويقال النقي آدمُ إبليس بعد ذلك فقال له : يَا شَقِيءُ ! وَسُوسَتُ إِلَى وفعلتُ ! ، فقال إبليس لآدم . يَا آدَمُ ! هَبْ أَنِّي كُنْتُ إبليسَكَ فَمَنْ كَانَ إبليسُ ؟ ! .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيُبْدِيَ لَهَا مَا وُورِيَ عَنْهَا مِنْ سَوَاءٍ لَهَا ﴾ .

وفي ذلك دلالة على عناية زائدة حيث قال : « لِيُبْدِيَ لَهَا » فلم يطلع على سوائهما غيرهما .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَ مَا نَهَا كَمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ .

فاقت أنفسهما إلى أن يكونا مَلَكَينَ — لأن رتبة الملائكة كانت أعلى من رتبة آدم عليه السلام — ولكن لا تقطاع الشهوات والتمني عنهما .

ويقال لما طبعما في الخلود وقعا في الحمود ، ووقعا في البلاء والخوف ؛ وأصلُ كُلِّ محنة الطمعُ .

ويقال إذا كان الطمع في الجنة — وهي دار الخلود — أَوْجَبَ كُلَّ تلك المحن فالطمع في الدنيا — التي هي دار الفناء — متى يسلم صاحبه من ذلك ؟ ويقال إن يكونا إنما رُكِنَا إلى الخلود فلا نصيب أنفسهما ، ولكن لأجل البقاء مع الله تعالى ، وهذا أولى لأنه يوجب تنزيه محل النبوة . وقيل ساعات الوصال قصيرة وأيام الفراق طويلة ، فما لبثا في دار الوصلة إلا بعضاً من النهار ؛ دَخَلَا ضُحْوَةَ النَّهَارِ وَخَرَجَا نِصْفَ النَّهَارِ ، ويقال إن الفراق عينٌ تصيب أهل الوصلة ، وفي معناه قال قائلهم :

إِنْ تَكُنْ عَيْنٌ أَصَابَتْكَ فَمَا إِلَّا لَأَنَّ الْعَيْنَ تُصِيبُ الْحَسَنًا

وقال حين تَمَّتْ لَهَا أسباب الوصلة ، وَوُطِّنَا نَفْسَهُمَا عَلَى دَوَامِ الْقُرْبَةِ بِدَا الْفِرَاقِ مِنْ مَكَامِنِهِ فَأَبَادَ مِنْ شَحْلِهِمَا (ما)^(١) انتظم ، كما قيل :

(١) وردت (فانتظم) والصواب (ما انتظم)

حين تم الهوى وقلنا سررنا وحسيناً من الفراق أمناً
بعث البين رسله في خفاء فأبادوا من شملنا ما جمعنا

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَنَاصِحٌ ﴾
فدلّاهما بغرور ﴿

(حُسنُ ظنِّ آدم — عليه السلام — حمله على سكون قلبه إلى بين العدو لأنه لم يخطر
بباله أن يكذب في يمينه بالله ، ثم لما بان له أنه دلّاهما بغرور تاب إلى الله بصدق الندم ،
واعترف بأنه أساء وأجرم ، فعلم — سبحانه — صدقه فيما ندم ، فتداركه بحميل
العفو والكرم) ^(١)

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لُهُمَا
سُوءَاتُهُمَا ﴾

لم يحصل استيفاء من الأكل والاستمتاع به للنفس حتى ظهرت تباشير العقاب ، وتنقص
الحال ، وكذا صفة من أثر على الحق — سبحانه — شيئاً يبقيه عنه ، فلا يكون له بما أثر
استمتاع . وكذلك من ادّخر عن الله — سبحانه — نفسه أو ماله أو شيئاً بوجه من الوجوه
— لا يبارك الله فيه ، قال تعالى في صفة الأعداء : « خسر الدنيا والآخرة » .

ويقال لما بدت سوءاتهما احتالا في الستر ، وطبقاً بخصفان عليهما من ورق الجنة فبعدما
كانت كسوتهما حلل الجنة ظلاً يستتران بورق الجنة ، كما قيل :

لله درهم من فتية بكروا مثل الملوك ، وراحوا كالساكنين
وأنشدوا : لا تعجبوا لمذلتى فأنا الذي غبت الزمان بمهجتي فأذلها

ثم إن آدم عليه السلام لم يساعده الإمكان في الاستتار بالورق إذ كانت الأشجار أجمع كلها
تنطاول وتأبى أن يأخذ آدم — عليه السلام — شيئاً من أوراقها . وقبل ذلك كان لا يلاحظ
الجنة فكان يتبه على الكون بأسره ولكنه صار كما يقال :

وكانت — على الأيام — نفسى عزيزة فلما رأت صبرى على الدلّ ذلت

(١) ما بين القوسين موجود في الهامش أثبتناه في موضعه من المتن .

ولما أخرج آدم من الجنة وأُسكن الأرض كلف العمل والسعي والزرع والغرس ، وكان لا يتجدد له حال إلا تجدد بكأؤه ، وجبريل — عليه السلام — يأتيه ويقول : « أهذا الذي قيل لك : « إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى » ؟
فلم تعرف قدره . « فذُقْ جزايا خِلافِكَ » فكان يسكن عن الجزع . ويقال بل الحكم بالخنوع كما قيل :

وجاشت إلى النفس أول مرة وزيدت على مكروهاها فاستقرت
قوله جل ذكره : ﴿ وَطَقَّأَ يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ
وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ
الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا
عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾

كانت لا تصل يده إلى الأوراق حين أراد قطافها ليخصفها على نفسه ، فلو لم تصل يده إلى تلك الشجرة — التي هي شجرة المحنة — لكان ذلك عنايةً بشأنه ، ولكن وصلت يده إلى شجرة المحنة ، تسمّةً للبلاء والفتنة ، ولو لم تصل يده إلى شجرة السر — إبلاغاً في القهر — لما خالف الأمر ، ولما حصل ما حصل .

« وناداهما ربهما ألم أنهما عن تلك الشجرة » : فكان ما دأخلهما من الخجل أشد من كل عقوبة ، لأنهما لو كانا في الغيبة عند سماع النداء فإن الحضور يوجب الهيبة ، فلما ناداهما بالعتاب حل بهما من الخجل ما حل ، وفي معناه أنشدوا :

واخجلنا من وقوف وسط دأرهم إذ قال لي مغضبا : من أنت يارجل ؟ .
قوله جل ذكره : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا
وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

اعترفا بالظلم جهراً ، وعرفا الحكم في ذلك سرّاً ، فقولهما : « ربنا ظلمنا أنفسنا » اعتراف بالظلم من حيث الشريعة ، وعرفان بأن المدار على الحكم من حيث الحقيقة ، فمن لم يعترف بظلم الخلق طوى الشريعة^(١) ، ومن لم يعرف جريان حكم الحق فقد جحد الحقيقة ،

(١) حتى يكون الشر ملبوساً للإنسان كسباً .

فلما أقرّا بالظلم قالا : « وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » نطقا على عين التوحيد حيث لم يقولوا بظلمنا خسرنا ، بل قالا : فَعَلْنَا فَإِنْ لم تغفر لنا خسرنا ، فَيَتَرَكُ غفرانك نخسر لا رتكاب ظلمنا به .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ أَهْبَطَهُمْ ، ولكنه أهبط إبليسَ عن رتبته فوقه في اللعنة ، وأهبط آدم عن بقعته فتداركته الرحمة .

ويقال لم يُخْرِجَ آدم عليه السلام من رتبة الفضيلة وإن أُخْرِجَ عن دار الكرامة ، فلذلك قال الله تعالى : « ثم اجتباه ربّه » وأما إبليس — لعنةُ الله عليه — فإنه أُخْرِجَ من الحالة والرتبة ، فلم ينتعش قط عن تلك السَّقْطَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾

« ولکم فی الأرض مستقر » هذا عامٌ « ومتاع إلى حين » : أراد به إبليسَ على الخصوص . قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾

أخبر أنه يستقبلهم اختلافُ الأحوالِ في الدنيا ، ويتعاقب عليهم تفاوتُ الأطوار ، فَمِنْ عُسْرٍ وَمِنْ يُسْرٍ ، ومن خير ومن شر ، ومن حياة ومن موت ، ومن ظفرٍ ومن فؤت . . . إلى غير ذلك من الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ النُّقَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ يَذَكَّرُونَ ﴾

سترناكم عن الأسباب الظاهرة ، ويسرنا لكم ما تدفعون به صنوف المضار عنكم بما مكنّا لكم من وجوه المنافع .

ثم قال : « ولباسُ التقوى ذلك خير » فإن اللباس الظاهر بقى آفات الدنيا ، ولباس التقوى يصون عن الآفات التي توجب سخط المولى ، ولباس التقوى بجميع أجزاء العبد وأعضائه . والنفس لباسٌ من التقوى وهو بذل الجهد والروح والقلب ، لباس من التقوى وهو صدق القصد بنفى الطمع . وللروح لباس من التقوى وهو ترك العلائق وحذف العوائق . والسر لباسٌ من التقوى وهو نفي المساكنات والتصاؤون من الملاحظات . ويقال تقوى العباد ترك الحرام ، وتقوى العارفين نفي مساكنة الأنام . ويقال للعوام التقوى ، وللخواص لباس التقوى عن شهود التقوى .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَتَزَعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ﴾

من أصفى إلى وساوس نفسه بأسماع الهوى وجد الشك بين وساوس الشيطان وهاجس النفس ، ويتناصر الوسواس والهاجس وتصير خواطر القلب وزواجر العلم مغمورةً مقهورةً — فعن قريب تشمل تلك الهواجس والوساوس صاحبها ، وينخرط في سلك موافقة الهوى فيسقط في مهواة الزلة ، فإذا لم يحصل تدارك بوشيك التوبة صارت الحالة قسوةً في القلب ، وإذا قسا للقلب فارقت الحياة وتم له البلاء .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

لا يحصل للعبد احتراس من رؤية الشيطان إياه وهو عنه غائب إلا برؤية العبد للحق — سبحانه — بقلبه ، فيستغيث إليه من كيده ، فيُدْخِلُهُ — سبحانه — في كنف عنايته فيجد الخلاص من مكر الشيطان .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ إِنْ أَلَّاهُ

لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله

ملا تعلمون ﴿

استروحوا في التعلل إلى سلوكهم نهج أسلافهم ، فاستمسكوا بجبل واهٍ فزلت بهم أقدام الغرور ، وقصوا في وهدة المحنة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾

القسط العدل ، ويقع ذلك في حق الله تعالى ، وفي حق الخلق ، وفي حق نفسك ؛ فالعدل في حق الله الوقوف على حد الأمر من غير تقصير في المأمور به أو إقدام على المنهى عنه ، ثم ألا تدخر عنه شيئاً مما خولك ، ثم لا تؤثر عليه شيئاً فيما أحل لك . وأما العدل مع الخلق — فعلى لسان العلم — بذل الإنصاف ، وعلى موجب الفتوة ترك الانتصاف . وأما العدل في حق نفسك فأدخال العتق عليها ، وسد أبواب الراحة بكل وجه عليها ، والنهوض بخلافها على عموم الأحوال في كل نفس .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَقِيمُوا وجوهكم عند كل مسجد

وادعوه مخلصين له الدين ﴾

الإشارة منه إلى إستدامة (شهوده في كل حالة ، وألا تنساه لحظة في كل ما تأتبه وتذره وتقدمه) (١) وتأخره .

قوله جل ذكره : ﴿ كما بدأكم تعودون * فريقاً هدى

وفريقاً حق عليهم الضلالة * إنهم

اتخذوا الشياطين أولياء من دون

الله ويحسبون أنهم مهتدون ﴾

من كانت قيسته — سبحانه — له بالسعادة كانت فطرته على السعادة ، وكانت حالته بنمت السعادة ، ومن كانت حالته بنمت السعادة كانت عاقبه إلى السعادة ، ومن كانت القسمة له بالعكس فالحالة بالضد ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان بحالة لقي الله بها » .

(١) ما بين القوسين موجود في الهامش أثبتناه في موضعه من النص .

وجملة العلم بالقضاء والقدر أن يتحقق أنه علم ما يكون أنه كيف يكون ، وأراد أن يكون كما علم . وما علم ألا يكون — مما جاز أن يكون أرادته ألا يكون — أخبر أنه لا يكون . وهو على وجه الذي أخبر ، وقضى على العبد وقدر أجرى عليه ما سبق به الحكم ، وعلى ما قضى عليه حصل العبد على ذلك الوصف ..

قوله جل ذكره : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾

على لسان العلم : يجب سترُ العورة في الصلاة ، وعلى موجب الإشارة : زينة العبد بحضور الحضرة ، ولزوم السَّنة ، واستدامة شهود الحقيقة .

ويقال زينة نفوس العابدين آثار السجود ، وزينة قلوب العارفين أنوار الوجود ، فالعابد على الباب بنعت العبودية ، والعارف على البساط بحكم الحرية . وشتان بين عبد وعبد !

قوله جل ذكره : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾

الإسراف ما تناولته لك ولو بقدر سمسة .

ويقال الإسراف هو التعدي عن حدِّ الاضطرار فيما يتضمن نصيباً لك أو حظاً بأى وجه كان .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

الإشارة منها إلى زينة السرائر ، فزينة العابدين آثار التوفيق ، وزينة الواجدین أنوار التحقيق ، وزينة القاصدين ترك العادة ، وزينة العابدين حسن العبادة .

ويقال زينةُ النفوسِ صدارُ الخدمة ، وزينةُ القلوبِ حفظُ الحرمة ، وزينةُ الأرواحِ الإطراقُ بالحضرةِ باستدامةِ الهيبةِ والحشمةِ .

ويقال زينةُ اللسانِ الذكرُ وزينةُ القلبِ الشكرُ .

ويقال زينةُ الظاهرِ السجودُ وزينةُ الباطنِ الشهودُ .

ويقال زينةُ النفوسِ حسنُ للعاملَةِ من حيثِ المجاهداتِ ، وزينةُ القلوبِ دوامُ المواصلةِ من حيثِ المشاهداتِ .

ومعنى قوله : « قل من حرم زينة الله التي . . . » ، يعنى إن الله لم يمنع هذه الزينة عن تعرض لوجدانها ، فمن تصدى لطلبها فهي مباحة له من غير تأخير قصود .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾

أرزاق النفوس بحكم أفضاله سبحانه ، وأرزاق القلوب بموجب إقباله تعالى .

ويقال أرزاق المرئيين إلهام ذكر الله ، وأرزاق العارفين الإكرام بنسيان ما سوى الله .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ

منها وما بطن والإثم والبغى بغير

الحقِّ وأن تشركوا بالله ما لم ينزل

به سلطاناً وأن تقولوا على الله

مالا تعلمون ﴾

ما ظهر منها الزَّلَّةُ ، وما بطن منها الغفلة .

ويقال ما ظهر منها كان بنسيان الشريعة ، وما بطن بإشارة الحقيقة .

ويقال لقوم ترك الرخص يكون علة ، والأولى بهم والأفضل لهم الأخذ به . وقوم

لو ركنوا إلى الرخص لقامت عليهم القيامة .

ويقال فاحشة الخواص تتبع ما لأنفسهم فيه نصيب ولو بذرة أو سِنَّة .

ويقال فاحشة الأحباب الصبر على المحبوب^(١)

(١) لأنهم عندئذ يستطيعون الصبر بعيداً عن رضا محبوبهم عز وجل . (الرسالة ص ١٦٢)

ويقال فاحشةُ الأحبابِ أن تبقى حياً وقد منيت بالفراق ، قال قائلهم :
لا عيشَ بعد فراقهم هذا هو الخطب الأجلُ

ويقال فاحشة قومٍ أن يلاحظوا غيراً بعين الاستحقاق ، قال قائلهم :
يا قرّة العين سلّ عيني هل اكتحلت بمنظر حسنٍ مذ غبت عن عيني ؟
ويقال فاحشة قومٍ أن تبقى لهم قطرةٌ من الدمع ولم يسكبوها للفرقة ، أو يبقى لهم نفسٌ
لم يتنفسوها في حسرة ، وفي معناه أنشدوا :
لئن بقيتُ في العين مئى دمةً فإني إذاً في العاشقين دخیلُ

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾

لكل قومٍ مدةٌ مضروبةٌ ، فإذا تناهت تلك المدة زالت تلك الحالة ؛ فلنعمةِ
الترفين مدةٌ ، فإذا زالت فليس بعدها إلا الشدة ، ولحنةِ المستضعفين مدةٌ فإذا انقضت
تلك المدة زالت تلك الشدة .

ويقال إذا سقط قرصُ الشمس زال سلطانُ النهار فلا يزداد بعده إلا تراكم الظلمة ،
فإذا ارتحلت عساكرُ الظلام بطلوع الفجر فبعد ذلك لا تبقى فيه للنهار تهمةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ
مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

إذا أتاكم الرُّسلُ فلا تركنوا إلى مجوزاتِ الظنون ، واحملوا الأمرَ على الجِدِّ فإننا
— مع استغنائنا عن الأغيار ، وتقديرنا عن المنافع والمضار — نطالبُ بالقليل والكثير ،
ونحاسبُ على النقيير والقطمير .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا
عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴾

مَنْ قَابَلَ رَبَّيْتَنَا بِالْجَحْدِ ، وَحَكَمْنَا بِالرَّدِّ ، لَقِيَ الْهَوَانَ ، وَقَلَى الْآلَامَ وَالْأَحْزَانَ ،
ثُمَّ الْعَجْزُ يُلْجِئُهُ إِلَى الْخَنُوعِ ، وَلَكِنْ بَعْدَ الْإِذَا يَنْفَعُ وَلَا يَسْمَعُ^(١)

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ
كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمُ
نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا
جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَهُمْ مَا كَانُوا
فَعَلُوا قَالُوا هَؤُلَاءِ شُهَدَاؤُنَا فَهَبْ لَهُمْ
وَصْلَتَهُمْ فَانصَرُوا عَلَيْهِمْ وَخِذَا
أَنفُسُهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾

يَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ مَا سَبَقَ لَهُمْ بِهِ الْحُكْمُ ، فَمَنْ جَرَى بِسَعَادَتِهِ الْحُكْمُ وَقَعَ عَلَيْهِ رَقْمُ
السَّعَادَةِ ، وَمَنْ سَبَقَ بِشَقَاوَتِهِ الْحُكْمُ حَقَّقَ عَلَيْهِ عِلْمُ الشَّقَاوَةِ .
وَيُقَالُ مَنْ سَبَقَتْ لَهُ قِسْمَةُ السَّعَادَةِ فَلَوْ وَقَعَ فِي قَعْرِ اللَّظَى تَدَارَكَهُ الْعَنَاءُ وَأُخْرِجَتْهُ
الرَّحْمَةُ ، وَمَنْ سَبَقَتْ لَهُ قِسْمَةُ الشَّقَاوَةِ .. فَلَوْ نَزَلَ الْفَرَادِيسُ تَدَارَكَهُ السَّخَطَةُ
وَأُخْرِجَتْهُ اللَّعْنَةُ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ
قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ
كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا
حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ

(١) توضح هذه العبارة في ضوء ما سيرد بعد قليل هكذا : (ولكن بعد الا ينفعهم بكاء
ولا يسمع لهم دعاء) .

أُخْرَامَ لَأُولَامِ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضْلُونَا
فَأَتَيْهِمْ عَذَابًا ضَعْفًا مِنَ النَّارِ ، قَالَ
لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ *
وَقَالَتْ أُولَامُ لَأَخْرَامَ فَمَا كَانَ لَكُمْ
عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ
بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ *

آثار إعراض الحق عنهم أودت لهم وحشة الوقت ؛ تبرم بعضهم ببعض ، وضاق
كل واحد منهم عن كل شيء حتى عن نفسه ، فدعا بعضهم على بعض ، وتبرأ بعضهم من
بعض ، وكذلك صفة المطرودين .

قوله جل ذكره : * إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا
وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُمُ أَبْوَابُ
السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ
الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُجْرِمِينَ * لهم من جهنم مهاد *

فلا دعاؤهم يُسَمِعَ ، ولا بكائهم يَنْفَعُ ، ولا بلاؤهم يَكْشِفُ ، ولا عناؤهم يَرْفَعُ .

قوله جل ذكره : * وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٌ وَكَذَلِكَ
نَجْزِي الظَّالِمِينَ *

كما أحاطت العقوبات بهم في الدنيا فَتَدَنَسَ بِالْغَفْلَةِ بَاطِنُهُمْ ، وَتَلَوَّثَ بِالزَّلَّةِ ظَاهِرُهُمْ (١) ،
فكَذَلِكَ أَحَاطَتْ الْعُقُوبَاتُ بِجَوَانِبِهِمْ ؛ فَمَنْ فَوْقَهُمْ عَذَابٌ وَمَنْ تَحْتَهُمْ عَذَابٌ ، وَكَذَلِكَ مِنْ
جَوَانِبِهِمْ فِي الْقَلْبِ مِنْ ضِيقِ الْعَيْشِ وَاسْتِیْلَاءِ الْوَحْشَةِ مَا يَبْقَى وَبَزِيدٍ عَلَى الْكُلِّ .

(١) نَذَكَّرُ أَنَّ الْقَشِيرَى مِنْذُ قَلِيلٍ أَوْضَحَ أَنَّ (مَا ظَهَرَ مِنَ الْفَوَاحِشِ هِيَ الزَّلَّةُ وَمَا بَطَنَ مِنْهَا هِيَ الْغَفْلَةُ)

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ
أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

رفعنا عن ظاهرهم وباطنهم كلفة العمل فبسرنا عليهم الطاعات بحسن التوفيق ، وخففنا
عنهم العبادات بتقليل التكليف .

قوله جل ذكره : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ ،
فَجَرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾

طهرنا قلوبهم من كل غش ، واستخلصنا أسرارهم عن كل آفة . وطهر قلوب العارفين
من كل حظ وعلاقة ، كما طهر قلوب الزاهدين عن كل رغبة ومنية ، وطهر قلوب العابدين
عن كل تهمة وشهوة ، وطهر قلوب المحبين عن محبة كل مخلوق وعن غل الصدر — كل واحد
على قدر رتبته .

ويقال لما خلق الجنة وَكَلَّ تَرْتِيبَهَا إِلَى رِضْوَانٍ ، والعرش ولى حفظه إلى الجملة (١) ،
والكعبة سلم مفتاحها إلى بنى شيبه ، وأما تطهير صدور المؤمنين فتولاه بنفسه .
وقال : « وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ » .

ويقال إذا كان نزع الغل من الصدور من قبلة فلا محل للغرم الذي لزمهم بسبب الخصوم
حيث كان منه سبحانه وجه أدائه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا
وَمَا كُنَّا لَنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ
لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾

في قولهم اعتراف منهم وإقرار بأنهم لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه من جزيل تلك العطيات،

(١) هل المقصود بها جملة الملائكة إشارة إلى قوله تعالى : « والملائكة من حول العرش يسبحون
بحمد ربهم . . . » ؟

وعظيم تلك الرتب والمقامات يجهدهم واستحقاق فعلهم ، وإنما ذلك أجمع ابتداء فضل منه ولطف .

قوله جل ذكره : ﴿ وَنُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةُ أَوْ رِثْمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

تسكين لقلوبهم ، وتطيب لهم ، وإلا فإذا رأوا تلك الدرجات علموا أن أعمالهم المشوية بالنقصير لم توجب لهم كل تلك الدرجات .

قوله جل ذكره : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾

اعترف أهل النار بحقيقة الدين ، وأقروا بسوء ما عملوا ، ولكن حين لم ينفعهم إقرار بحال من الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيُنْهَى حِجَابٌ ﴾ .

ذلك الحجاب الذى بينهما حصل من الحجاب السابق ؛ لما حُجِبُوا فى الابتداء^(١) فى سابق القسمة عما خُصَّ به المؤمنون من القربة والزلفة حُجِبُوا فى الانتهاء عما خُصَّ به السعداء من المغفرة والرحمة .

ويقال حجاب وأى حجاب ! لا يُرْفَعُ بِحيلة ولا تنفع معه وسيلة .
حجاب سبق به الحكم قبل الطاعة والجُرم .

(١) وردت فى (الابتداء) والصواب أن سابق القسمة فى (الابتداء) قبل الطاعة والجُرم — كما سيأتى بعد قليل ، وكما نعرف من مذهب القشيري فى هذا الخصوص .

قوله جل ذكره: ﴿وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسياهم﴾

هؤلاء الأشراف خصوا بأنوار البصائر اليوم فأشرفوا على مقادير الخلق بأسرارهم ،
ويشرفون غداً على مقامات الكل وطبقات الجميع بأبصارهم .

ويقال يعرفونهم غداً بسياهم التي وجدوهم عليها في دنياهم ؛ فأقوامٌ موسومون بأنوار
القرب ، وآخرون موسومون^(١) بأنوار الرد والحجب .

قوله جل ذكره : ﴿ ونادوا أصحاب الجنة أن سلامٌ

عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون ﴾

سَلِمُوا اليومَ عن النكرة والجحود ، وأكرموا بالعرفان والتوحيد .

وسلموا غداً من فنون الوعيد ، وسعدوا بلطائف المزيد . وتحققوا أنهم بلغوا من الرتب
مالم يَسْمُ إليه طَرَفُ تأميلهم ، ولم يُحِطْ بتقصيله كُنْهُ عقولهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا صُرفَتْ أَبصارُهم تِلْقَاءَ

أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع

القوم الظالمين ﴾ .

إنما يصرف أبصارهم اليومَ تقديرًا عليهم عظيمِ المِنَّةِ التي بها نجاؤهم ، فيزيدون في

الاستغاثة وصدق الابتهاال ، فتكمل بهم العارفة^(٢) بإدامة ملاحظتهم به من الإيواء والحفظ .

قوله جل ذكره : ﴿ ونادى أصحاب الأعراف رجالاً

يعرفونهم بسياهم قالوا ما أغنى عنكم

جمعُكم وما كنتم تستكبرون *

أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله

برحمةٍ ، ادخلوا الجنة لا خوف عليكم

ولا أنتم تحزنون ﴾

(١) قال أحمد بن عطاء : (الوسم يظهر على المقبولين والمطرودين) اللع من ٤٢٧ .

(٢) العارفة هي الفضل والمعروف والمِنَّة .

ذلك ما يرون عليهم من غبار الرد وأمارات البعد ، وهي مما لا يخفى على ذى عينين ، فيقولون لهم : هل يُغْنِي عنكم ما كنتم إليه من أباطيلكم ، وسكنتم إليه من فاسد ظنونكم ، وباطل تأويلكم ؟ فشاهدوا — اليوم — تخصيص الحق لمن ظننتم أنهم ضعفاؤكم ، وانظروا هل يغنى عنكم الذين زعمتم أنهم أولياؤكم وشركاؤكم ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ

أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ الذين اتخذوا دينهم هواً ولعباً وغرّتهم الحياة الدنيا فاليوم ننسأهم كما نسأ لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾

دلّت الآية على أن من أواخر ما يبق على الإنسان الأكل والشرب ، فإنهم في تلك العقوبات الشديدة يقع عليهم الجوع والعطش حتى يتضرعون كلّ ذلك التضرع ؛ فيطلبون شربة ماء أو لقمة طعام وهم في غاية الآلام ، والعادة — اليوم — أن من كان في ألم شديد لا يأكل ولا يشرب ، وهذا شديد .

ثم أبصر كيف لا يسقيهم قطرة — مع استغنائهم عن تعذيبهم ، وقدرته على أن يعطيهم ما يريدون ؛ ولكنه قهر الربوبية وعِزُّ الأحديّة ، وأنه فعّال لما يريد . فكالم يرزقهم — اليوم — من عرفاته ذرة ، لا يسقيهم غداً في تلك الأحوال قطرة ، وفي معناه أنشدوا :
وَأَقْسَنَ لَا يَسْقِينَا — الدهر — قطرةً ولو فُجِّرَتْ من أرضهن بحورُ

ويقال إنما يطلبون الماء ليبكوا به بعدما نفدت دموعهم ، وفي هذا المعنى قيل :

يَا نَارِحاً نَزَفْتُ دُمْعِي قَطِيعَتُهُ هَبْ لِي مِنَ الدَّمْعِ مَا أَبْكِي عَلَيْكَ بِهِ .
وفي هذا المعنى أنشدوا .

جرف البكاء دموعَ عينك فاستعِرْ عيناً لفيرك دمعها مدرار

مَنْ ذَا يُعِيرُكَ عَيْنَهُ نَبْكَى بِهَا أَرَأَيْتَ عَيْنًا لِلْبَكَاءِ تُعَارِ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا
وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ
كَأَنَّهُمْ كَانُوا
بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ .

كما تركوا أمره وضيعوه تركهم في العقوبة ، ولا (. . .) (١) فيما يشكون ، فتأتى عليهم
الأحقاب ، فلا كشف عذاب ، ولا برد شراب ، ولا حسن جواب ، ولا إكرام بخطاب
ذلك جزاء لمن لم يعرف قدر الوصلة في أوقات المهلة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَضَّلْنَاهُ عَلَى
عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

أنزلنا عليهم من الكتاب وأوحينا إليهم من الخطاب ما لو قابله بالتصديق وصاحبوه
بالتحقيق لوجدوا الشفاء من محنة البعاد ، ونالوا الضياء بقرب الوداد ، ووصلوا في الدنيا والعقبى
إلى جميل المراد ، ولكنه — سبحانه — أبى القسمة في نصيبهم إلا الشقوة .

قوله جل ذكره : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ
يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ
قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رَبُّنَا بِالْحَقِّ
فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ
فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ
قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ
مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

إذا كشف جلال الغيب ، وانتفت عن قلوبهم أغطية الريب ، فلا بكاء لهم ينفع ،
ولا دعاء منهم يُسمع ، ولا شكوى عنهم ترفع ، ولا بلوى من دونهم تقطع

(١) مشبهة .

قوله جل ذكره : ﴿ إِن رَّبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى
عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ
حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجُومُ
مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ
تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾

تعرّف إلى الخلق بآياته الظاهرة الدالة على قدرته وهى أفعاله ، وتعرّف إلى الخواص منهم
بآياته الدالة على نصرته التى هى أفضاله وإقباله ، وظهر لأسرار خواص الخواص بنعوته
الذاتية^(١) التى هى جماله وجلاله ، فشتان بين قوم وقوم !

ثم كما يدخل فى الظاهر الليل على النهار والنهار على الليل فكذلك يدخل القبض على البسط
والبسط على القبض . ومنه الإشارة إلى ليل القلوب ونهار القلوب : فَمَنْ عَبْدَ أَحْوَالِهِ أَجْمَعَ
قبض ، ومن عبدَ أَحْوَالِهِ أَجْمَعَ بَسَطٌ ، ومن عبدَ يكون مرة بعين القبض ومرة بعين البسط
كما أن بعض أقطار العالم فيها نهار بلاليل ، وفى بعضها ليل بلانهار ، وفى بعضها ليل يدخل على
نهار ونهار يدخل على ليل .

« أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ » : فمنه الخير والشر ، والنفع والضر ، فإن له الخلق والأمر .
« تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » هذه الكلمة جمع الدعاء لاشتغالها على إفادة معنى قَدَمِهِ ودوام
ثبوتها من حيث يُقال بِرَّكَ الطَّيْرِ على الماء .

وأفادت معنى جلالة الذى هو استحقاقه لنعوت العِزِّ لأنه قد تبارك أى تعظّم . وأشارت
إلى إسداد النعم وإتاحة الإحسان من حيث إن البركة هى الزيادة فهى جمع الثناء والمدح
للحق سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً

(١) لاحظ حرص القشيري الشديد حين يقرر أن أقصى حالات المشاهدة لا تكون مشاهدة
الذات — فقد جلت الصمدية أن يستشرف من عبود ذاتها عبد ، إنما هى مشاهدة نعوت الذات :
الجمال والجلال .

إنه لا يحب للعندين * ولا تفسدوا
في الأرض بعدَ إصلاحِها وادعوه
خوفاً وطمعاً *

الأمر بالدعاء إذن — في التسلي — لأرباب المحنة ، فإنهم إلى أن يصلوا إلى كشف المحنة ووجود
للمأمول استروحوا إلى روح المناجاة في حال الدعاء ؛ والدعاء نزهة لأرباب الحوائج ، وراحة
لأصحاب المطالبات ، ومعجل من الأُنس بما (. . .)^(١) إلى القلب عاجل التقريب .
وما أخلص عبداً في دعائه إلا رَوْحٌ — سبحانه — في الوقت قلبه .

ويقال علمهم آداب الدعاء حيث قال : « تضرعاً وخفية » وهذا أدب الدعاء ؛ أن يدعوا
بوصف الافتقار والانكسار ونشر الاضطراب . ومن غاية ما تقرر لديك نعت كرمه بك أنه
جعل إمساكك عن دعائه — الذي لا بد منه — اعتداءً منك .

قوله جل ذكره : * ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها
وادعوه خوفاً وطمعاً *

من الإفساد بعد الإصلاح إحمالُ النفس عن المجاهدات بنجوع عذارها حتى تتبع هواها
بعدما كَبَحَتْ لجأها مدةً عن العدو في ميدان اختلاف ، ومن ذلك إرسالُ القلب في أودية المني
بعد إمساكه على أوصاف الإرادة ، ومن ذلك الرجوعُ إلى الحفظ بعد القيام بالحقوق ،
ومن ذلك استشعارُ محبة المخلوق بعد تأكيد العقد معه بالأنجب سواء ، ومن ذلك الجنوحُ إلى
تتبع الرُّخص في طريق الطلب بعد حمل النفس على ملازمة الأولى والأشقى ، ومن ذلك
الانحطاطُ بحظٍّ إلى طلبٍ مقامٍ منه أو إكرام ، بعد القيام معه بترك كل نصيب
وفي الجملة : الرجوعُ من الأعلى إلى الأدنى إفسادٌ في الأرض بعد الإصلاح .

قوله جل ذكره : * إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْحَسَنِينَ *

يقال المحسنين عملاً والمحسنين أملاً ، فالأول العابدون والثاني العاصون^(٢)

ويقال المحسن من كان حاضراً بقلبه غير لاهٍ عن ربه ولا ناسياً لحقه .

ويقال المحسن القائم بما يلزم من الحقوق .

(١) مشبهة (٢) تأمل كيف يفسح الصوفية صدورهم ويفتحون أبواب الأمل أمام العصاة

ويقال المحسن الذي لم يخرج (....) "عن إحسانه بقدر الإمكان ولو بشر كلمة .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بُشْرِى
بين يدي رحمة ﴾

تباشير القرب تتقدم فينادي نسيمه إلى مشام الأسرار ، وكذلك آثار الإعراض تتقدم
فتوجد ظلمة القبض في الباطن ، فظل الوحشة يتقدمها ، ونسيم الوصلة بعدها ، وفي قريب
منه قال قائلهم :

ولقد تَشَمَّتُ القضاءَ لحاجتي فإذا له من راحتيك نسيم

قوله جل ذكره : ﴿ حتى إذا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا
سُقْنَاهُ لِبَلَاءٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ
فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ
نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

الإشارة منه أنه يحصل بالمهجور ما يتأذى به الصدر ويُبْرِحُ به الوجد ويفحل به الجسم ،
بل يُبْطِلُ كله البعد ، فيأتيه القرب فيعود عود وصاله بعد الذبول طرياً ، ويصير دارس حاله
عقيب السقوط ندياً ، كما قال بعضهم :

كُنَّا كَمَنْ أُلْبِسَ أَكْفَانُهُ وَقُرْبُ النُّعْشِ مِنَ اللَّحْدِ
فَجَالَتْ الرُّوحُ فِي جَسَمِهِ وَرَدَّهُ الْوَصْلُ إِلَى الْمَوْلَدِ

قوله جل ذكره : ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن
ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً
كذلك نضرب الآيات لقوم
يشكرون ﴾

إذا زكا الأصل نما الفرع ، وإن خبث الجوهر لم يطب ما تحلّل منه ، وإن طاب العنصر

فالجزء بما كي أصله ، والأسيرة تدل على السريرة ، فمن صفا باطن قلبه زكا ظاهراً فعله ،
ومن كان بالعكس فحال بالضد .

قوله جل ذكره : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ

يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ
غَيْرُهُ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ

يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿

بَلَّغَ الرِّسَالَةَ فَلَمْ يَنْجِعْ فِيهِمْ مَا أَظْهَرَ مِنَ الْآلَاءِ ، لَأَنَّ مَحْزُومَ الْقِسْمَةِ لَا يَنْفَعُهُ مَجْهُودُ الْحِيلَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ

فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ

بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ

الْعَالَمِينَ ﴿

قوله « ليس بي ضلالة » : نسبوا نوحاً — عليه السلام — إلى الضلالة ، فتولى إجابتهم

بنفسه فقال « يا قوم ليس بي ضلالة » ، ونبينا — صلى الله عليه وسلم — نُسِبَ إِلَيْهِ فتولى

الْحَقُّ — سبحانه — الرَّدَّ عَنْهُ فَقَالَ : « مَا ضَلُّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى » ^(١) فَشَتَّانَ بَيْنَ مَنْ
دَافَعَ عَنْ نَفْسِهِ ، وَبَيْنَ مَنْ دَافَعَ عَنْهُ وَتَنَّى عَنْهُ رَبُّهُ ^(٢) !

قوله جل ذكره : ﴿ أَلْبَلَّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ

وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿

إِنِّي أَعْلَمُ أَنِّي وَإِنْ بَالِغَتْ فِي تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ فَمَنْ سَبَقَتْ لَهُ الْقِسْمَةُ بِالشَّقَاوَةِ لَا يَنْفَعُهُ نَصْحِي ،

وَلَا يُؤَثِّرُ فِيهِ قَوْلِي ، فَمَنْ أَسْقَطَتْهُ الْقِسْمَةُ لَمْ تَنْعِشْهُ النَّصِيحَةُ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّنْ رَبِّكُمْ

(١) آية ٢ سورة النجم .

(٢) من عادة القشيري أن يلتبس نوحاً من المقارنة بين المصطفى صلوات الله عليه وبين سائر الأنبياء ،

عليهم السلام ليظهر علو مقامه ورفعة مرتبته بينهم .

على رجلٍ منكم لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا
وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٤﴾

عجبوا من كَوْنِ شخص رسول الله ، ولم يتعجبوا من كون الصنم شريكاً لله ، هذا قرطُ
الجهالة وغاية الغباء !

قوله جل ذكره : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَتَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ
فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا
بآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾

تسر بلوا غيبَ التكذيب لما ذاقوا طعم العقوبة ، فلم يسعدوا بما حملوه ولم يصلوا
إلى ما أملوه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ
اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ قال الملائة الذين كفروا
مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ
وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ
يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ
مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٦﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ
رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٥٧﴾
أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّنْ رَبِّكُمْ
عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴿٥٨﴾

أخبر أنهم سلكوا طريق أسلافهم وإخوانهم ، فوقعوا في وهدتهم ، ومنوا بمثل حالتهم .
فلا خيرَ فيمن آثر هواه على رضا الله ، ولا ربحَ مَنْ قَدَّمَ هواه على حقِّ الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ
قَوْمِ نُوحٍ ﴾

جعل الله الخلق بعضهم خلفاً عن بعض، فلا ينبغي فوجاً منهم من جنسٍ إلا أقام فوجاً منهم من ذلك الجنس . فأهل الغفلة إذا اقترضوا خلفاً عنهم قوم ، وأهل الوصلة إذا درجوا خلف عنهم قوم ، ولا ينبغي للعبد أن يسمو طرف^(١) تأميله إلى محل الآ كابر فإن ذلك المقام مشغول بأهله ، فما لم تنتهِ نوبة أولئك لا تنتهى النوبة إلى هؤلاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وزادكم في الخلق بسطة ﴾

كما زاد قوماً على من تقدمهم في بسطة الخلق زاد قوماً على من تقدمهم في بسطة الخلق ، وكما أوقع التفاوت بين شخص وشخص فيما يعود إلى المباني أوقع التباين بين قوم وقوم فيما يرجع إلى المعاني .

قوله جل ذكره : ﴿ فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾

النعماء عام ، والآلاء خاص ، فلكل تتضمن ترويح الظواهر ، وهذه تتضمن التلويح في السرائر ، تلك بالترويح بوجود المبار ، وهذه بالتلويح بشهود الأسرار .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا أجبنا لنعبد الله وحده ونذّر

ما كان يعبد آباؤنا فأتينا بما تعبدنا

إن كُنت من الصادقين ﴾

طاحوا في أودية التفرقة فلم يجدوا قراراً في ساحات التوحيد ، فشق عليهم الإعراض عن الأغيار ، وفي معناه قال قائلهم :

أراك بقية من قوم موسى فهم لا يصبرون على طعام

ويقال شخص لا يخرج من غش التفرقة ، وشخص لا يجيد لحظة عن سنن التوحيد

[فهو لا يعبد إلا واحداً ، وكما لا يعبد إلا واحداً لا يشهد إلا واحداً ، قال قائلهم :

لا يهتدى قلبي إلى غيركم لأنه سدّ عليه الطريق

قوله جل ذكره : ﴿ قال قد وقع عليكم من ربكم

(١) وردت (طرف) بالتعاقب وهي خطأ في النسخ .

رَجَسُ وَغَضَبُ أَتَجَادَلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ
مِمِّتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا
مِنْ بَلَطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ
الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١﴾

إذا أراد الله هوانَ عبدٍ طَرَحَهُ فِي مَنَازِلِ التَّفْرِقَةِ ؛ وَإِنَّ مِنْ عِلَامَاتِ غَضَبِهِ وَإِعْرَاضِهِ
رَدُّ الْعَبْدِ إِلَى شُهُودِ الْأَغْيَارِ ، وَتَفْرِيقَهُ إِلَيْهِ فِي بَحَارِ الظُّنُونِ ، إِذْ لَا تَحْصِيلَ لِلْأَغْيَارِ
فِي مَعْنَى الْإِثْبَاتِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأُفْجِئْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا
دَائِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا
مُؤْمِنِينَ ﴾

لأَرْتَبَةَ فَوْقَ رَتْبَةِ النَّبَوَةِ ، وَلَا دَرَجَةَ أَعْلَى مِنْ دَرَجَةِ الرِّسَالَةِ .
وَأَخْبِر — سُبْحَانَهُ — أَنَّهُ نَجَّى هُودًا بِرَحْمَتِهِ ، وَكَذَلِكَ نَجَّى الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَتِهِ ،
لِيُعْلَمَ أَنَّ النِّجَاةَ لَا تَكُونُ بِاسْتِحْقَاقِ الْعَمَلِ ، وَإِنَّمَا تَكُونُ بِإِبْتِدَاءِ فَضْلِ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ ؛
فَمَا نَجَا مَنْ نَجَا إِلَّا بِفَضْلِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ
اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ
نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ
فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ
فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴾

غَايِرُ الْحَقِّ — سُبْحَانَهُ — بَيْنَ الرُّسُلِ مِنْ حَيْثُ الشَّرَائِعُ ، وَجَمْعُ بَيْنِهِمْ فِي التَّوْحِيدِ ؛
فَالشَّرَائِعُ ^(١) [التي هي العبادات المختلفة ، وَلَكِنْ الْكُلُّ مَأْمُورُونَ بِالتَّوْحِيدِ عَلَى وَجْهِ وَاحِدٍ .

(١) كل هذه المساحة فيها بين القوسين موجودة في الهامش بخط دقيق جداً .

ثم أخبر عن إفضاء سنته تعالى بإرسال الرسل عليهم السلام ، وإمهال أممهم ريثما ينظرون في معجزات الرسل .

ثم أخبر عما درجوا عليه في مقابلتهم الرسل بالكذب نسلياً للمصطفى صلى الله عليه وسلم وعلى آله — فيما كان يقاسى من بلاء قومه .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عادٍ وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال يئوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾

أزاح عنهم في بسط الدلالة ، ووسع عليهم حالتهم بتمكينهم من العطايا على ما دعت إليه حالتهم .. فلا الدليل تأملوه ، ولا السبيل لازمونه ، ولا النعمة عرفوا قدرها ، ولا المنّة قدّموا شكرها ، فصادفهم من البلاء ما أدرك أشكالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربّه قالوا إنا بما أُرسل به مؤمنون ﴾ قال

الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون ﴾ فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ فتولّى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربّي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾

أجرى الله - سبحانه - سنته ألا يخص بأفضاله ، وجبيل صنعه وإقباله - في الغالب من عباده - إلا من يسمو إليه طرفه بالإجلال ، وألاً يوضح له قدره بين الأضراب والأشكال ؛ فأنصار كل نبي إنما هم ضعفاء وقته ، ويلاحظهم أهل الغفلة بعين الاختصار ، ولكن ليس الأمر كما تذهب إليه الأوهام ، ولا كما يعتقد فيهم الأنام ، بل الجواهر مستورة في معادتها ، وقيمة المحال بساكنها ، قال قائلهم :

وما ضرَّ نصلَ السيفِ إخلاقُ غمده إذا كان عَضْباً حيث وجهته وتراً

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كم من أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره » (١)

قوله تعالى : « ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين » الحيلة تدعو إلى وفاق الهوى ؛ فتستقل النفس قول الناصحين ، فيخرجون عليهم وكأن الناصحين هم العائبون ، قال قائلهم :

وكم سقتُ في آثاركم من نصيحةٍ وقد يستفيد البغضة المتنصح

قوله جل ذكره : ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ﴾

ما سبقكم به من أحد من العالمين *
إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون *
وما كان جواب قومه إلا أن قالوا
أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس
يتطهرون * فأنجيناه وأهله إلا امرأته
كانت من الغابرين * وأمطرنا عليهم
مطراً فانظر كيف كان عاقبة
المجرمين *

(١) في رواية الترمذي (كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء ابن مالك) . الجامع الصغير ص ٢٢٧

أَباح الحق — سبحانه — في الشرع ما أراح به العذر ، فمن تَخَطَّ هذا الأمر وجرى على مقتضى الهوى استقبل هوانه ، واستوجب إذلاله ، واستجلب — باختياره — صفه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِلَىٰ مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾

خَسَتْ هِمُّ قَوْمٍ شَعِيبٍ فَقَنَعُوا بِالتَّطْفِيفِ فِي الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ عِنْدَ مَعَامِلَاتِهِمْ ، ثُمَّ إِنَّ
الْحَقَّ — سُبْحَانَهُ — لَمْ يُسَاهِلْهُمْ فِي ذَلِكَ لِيُعْلَمَ أَنَّ الْأَقْدَارَ لَيْسَتْ مِنْ حَيْثِ الْأَخْطَارِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا نَظْرًا مِنْكُمْ عَنْ صِرَاطِ اللَّهِ فَإِذَا هُمْ عَنْ سَبِيلِهِ مُدْفَعُونَ ﴾
وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ
وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۗ

من المعاصي ما لا يكون لازماً لصاحبه وحده بل يكون متعدياً عنه إلى غيره . ثم يقدّر
الأثر في التعدي يحصل الضرر المبتدئ^(١)

قوله جل ذكره : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثُرْتُكُمْ
وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ *
وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي
أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا

(١) مثلاً يحدث في حالة البدعة ، فصاحب البدعة يحمل وزر ابتداعه ووزر من اقتدى به (انظر وأى المشيرى في كتاب التعبير تحت « البديع ») وهنا قد تكون (المبتدى) أى البادىء بالابتداع وقد تكون (المقتدى) ويقصد بها من اقتدى به ، فكلاماً يناله الضر هذا جزاء اتباعه وذلك لا ابتداعه .

فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو
خير الحاكمين ﴿

مَنْ عَلَيْهِمْ بِنَكْثِ الْعَدَدِ لَأَنِّ بِالْتَّصَارِ وَالتَّعَاوُنِ تَمْشَى الْأُمُورُ وَيَحْصُلُ لِلْفَرَادِ .
ويقال كما أن كل أمرٍ بالأعوان والأنصار (خيراً أو شراً ، فلا نعمة فوق اتفاق الأنصار
في الخير ، ولا محنة فوق اتفاق الأعوان)^(١) في الشر .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ لِلأُلَا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ
لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا
مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا
قَالَ أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾

كما أن (أهل)^(٢) الخير لا يميلون إلا إلى أشكالم فأهل الشر لا ينصرون إلا من رأوا
بأنه يساعدهم على ما هم عليه من أحوالهم ، والأوحد في بابه مَنْ بَابِنَ نَهَجَ أَضْرَابِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُوذَ فِيهَا إِلَّا أَنْ
يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ
عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ، رَبُّنَا افْتَحْ
بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ
الْفَاتِحِينَ ﴾

نطقوا عن صحة عزائمهم حيث قالوا : « قد افترينا على الله كذباً إن عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ » ،
ثم أقرروا بالشكر حيث قالوا : « بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا » ، ثم تبرأوا عن حولهم وقوتهم حيث
قالوا : « وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُوذَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا » . يعني إِنَّ يُلبِسُنَا لِبَاسَ الْخِلْدَانِ
نُرَدُّ إِلَى الصُّغَرِ وَالْهَوَانِ .

ثم اشتاقوا إلى جميل التوكل فقالوا : « عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا » أي بِهِ وَثَقْنَا ، وَمِنْهُ الْخَيْرَ أَمَلْنَا .

(١) ما بين القوسين موجود في الهامش أثبتناه في موضعه من المتن .

(٢) وضعنا (أهل) ليتضح المعنى وهي غير موجودة في المتن .

ثم فوضوا أمورهم إلى الله فقالوا : « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق » فتداركهم الحق
— سبحانه — عند ذلك بجميل العصمة وحسن الكفاية (١)

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الملأ الذين كفروا من قومه
لئن اتبعتم شعبياً إنكم إذا
لخاسرون * فأخذتهم الرجفة
فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾

تواصوا فيما بينهم بتكذيب نبيهم ، وأشار بعضهم باستشعار وقوع الفتنة بمتابعته ، وكانوا
مخطئين في حكمهم ، مبطلين في ظنهم ، فعلم أن كل نصيحة لا يجب قبولها ، وكل إشارة (٢)
لا يحسن اتباعها .

قوله تعالى : « الذين كذبوا شعبياً كأن لم يفتوا فيها » كانت لهم غلبتهم في وقتهم ،
ولكن لما اندرست أيامهم سقط صيبتهم ، و (خد) (٣) ذكرهم ، وانتشع سحب من توهم أن
منهم شيئاً .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين كذبوا شعبياً كانوا هم
الخاسرين ﴾

الحق غالب في كل أمر ، والباطل زاهق بكل وصف ، وإذا كانت العزة نعت من
هو أزل الوجود ، وكان الجلال حق من هو الملك فأى أثر للكثرة مع القدرة ؟ وأى خطر
للعمل مع الأزل ؟ ولقد ألدوا في قريب من هذا :

استقبلني وسيفه مسلول وقال لي واحدا معذول

قوله جل ذكره : ﴿ فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم

(١) لاحظ من هذه الفترة ترتيب السلوك : محبة العزم ثم الشكر ثم التبري عن الحول والقوة
ثم التوكل ثم التفويض .

(٢) إشارة هنا معناها مشورة أى نصيحة .

(٣) وردت (خد) بالراء ، وقد هوئناها (خد) ذكرهم وليس بمستبعد أن تكون (خل)
ذكرهم لعمود الذكر وخوله بمعنى متقارب .

رسالاتِ ربِّي ونصحتُ لكم فكيف
آسى^(١) على قومٍ كافرين *

يَبَيِّنُ أَنَّهُ رَاعَى حَدَّ الْأَمْرِ ؛ فَإِذَا خَرَجَ عَنْ عَهْدَةِ التَّكْلِيفِ فِي التَّبْلِيغِ فَمَا عَلَيْهِ مِنْ إِقْرَارِهِمْ
أَوْ إِنْكَارِهِمْ ، مِنْ تَوْحِيدِهِمْ أَوْ جُحُودِهِمْ ؛ إِنْ أَحْسَنُوا فَلِمِيرَاثُ الْجَلِيلِ لَهُمْ ، وَإِنْ أَسَاءُوا
فَالضَّرَرُ بِالتَّأَلُّمِ عَائِدٌ عَلَيْهِمْ ، وَمَالِكُ الْأَعْيَانِ أَوَّلَى بِهَا مِنَ الْأَغْيَارِ ، فَاتَّخَلَّقُ خَلْقَهُ وَالْمَلِكُ
مُلْكُهُ ؛ إِنْ شَاءَ هَدَاهُمْ ، وَإِنْ شَاءَ أَغْوَاهُمْ . فَلَا تَأْسُفَ عَلَى نَفْيٍ وَفَقْدٍ ، وَلَا أَثَرَ مِنْ
كَوْنٍ وَوُجُودٍ^(٢)

قوله جل ذكره : * وما أرسلنا في قريةٍ من نبيٍّ
إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ
لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا
مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا
وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءُنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ
فَأَخَذْنَاهُمْ بِقَعَّةٍ لَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ *

حَرَّكَهُمْ بِالْبَلَاءِ الْأَهْوَنِ تَحْذِيرًا مِنَ الْبَلَاءِ الْأَصْعَبِ ، فَإِذَا تَمَادَوْا فِي غِيهِمْ ،
وَلَمْ يَنْتَبِهُوا مِنْ غَفْلَتِهِمْ مَدَّ عَلَيْهِمْ ظِلَالُ الْإِسْتِدْرَاجِ ، وَوَسَّعَ عَلَيْهِمْ أَسْبَابَ التَّفَرُّقَةِ مَكْرًا
بِهِمْ فِي الْحَالِ ، فَإِذَا وَطَّنُوا — عَلَى مُسَاعَدَةِ الدُّنْيَا — قُلُوبَهُمْ ، وَرَكَنُوا إِلَى مَا سَوَّلَتْ
لَهُمْ مِنْ امْتِنَادِهَا ، أَبْرَزَ لَهُمْ مِنْ مَكَامِنِ التَّقْدِيرِ مَا تَقْصَّ عَلَيْهِمْ طَيْبُ الْحَيَاةِ ، وَانْدَقَ بِقَعَّةٍ
عُنُقُ السَّرُورِ ، وَشَرَّفُوا بِمَا كَانُوا يَنْهَلُونَ مِنْ كَاسَاتِ الْمُنَى ، فَتَبَدَّلَ ضِيَاءُ نَهَارِهِمْ بِسُدُفَةِ
الْوَحْشَةِ ، وَتَكَدَّرَ صَافِي مَشْرِبِهِمْ بِيَدِ النُّوَائِبِ ، كَمَا سَبَقَتْ بِهِ الْقِسْمَةُ .

قوله جل ذكره : * ولَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا

(١) اخْطَا النَّاسِخَ إِذَا كَتَبَهَا (عسى) بِالْعَيْنِ .

(٢) رُبَّمَا كَانَ (وَوَجَدَ) فَالْوُجْدُ يُقَابِلُ الْفَقْدَ ، وَلَكِنْ حَيْثُ هُوَ هُنَا لَا يُتَحَدَّثُ عَنْ طَائِفَةِ الصُّوْفِيَّةِ ،
وَلَكِنْ يُتَحَدَّثُ عَمُومًا ، فَالْوُجُودُ مُرَادِفٌ لِلْكَوْنِ .

لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء
والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم
عما كانوا يكسبون * أَفَأَمِنْ أَهْلُ
الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا
وهم نائمون *

لو آمنوا بالله ، واتَّقُوا الشِّرْكَ لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض بأسباب العطاء
— ولكن^(١) مَسْبِقَ بخلافه القضاء — وأبواب الرضاء ، والرضاء أتمُّ من العطاء .
ويقال ليست العبرة بالنعمة إنما العبرة بالبركة في النعمة ، ولذا لم يَقُلْ أضعفنا لهم النعمة
ولكنه قال : باركنا لهم فيما خولنا .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوْ أَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ
بَأْسُنَا نُضْحِيْهُمْ وَيْلَعْبُونَ ﴾

أكثر ما ينزل البلاء ينزل فجأةً على غفلةٍ من أهله ، ويقال مَنْ حَذَرَ البيات لم يجد
روحَ الرُّقاد .

ويقال رَبُّ لَيْلَةٍ مُّفَتِّحَةٍ بِالْفَرْحِ مَخْتَمَةٌ (بالترح)^(٢) . ويقال رَبُّ يَوْمٍ تَطْلُعُ شَمْسُهُ
من أوج السعادة قامت ظهورته على قيام الفتنة .

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يُأْمِنُ
مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

يقال مَنْ عَرَفَ علوَّ قدره — سبحانه — خَشِيَ خِفَى مكره ، وَمَنْ أَمِنَ خِفَى مكره
نَسِيَ عَظِيمَ قَدْرِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ

(١) وردت (وإن سبق . . .) وعند ذلك يضطرب السياق فوجدنا أن الأوفق أن تكون
(ولكن سبق . . .) لأنهم في الآية كذبوا . . . ، ثم وضعنا الجملة المبدوءة بـ لكن بين علامتي جلة
اعتراضية ، فانتظم السياق ، ونرجح أن ما صنعناه قريب من الأصل أو هو الأصل .
(٢) وردت (بالترح) بالطاء ، وهي خطأ من الناسخ فالترح ضد الفرح .

مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ
بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ
لَا يَسْمَعُونَ ﴿٥٥﴾

أَوْ لَا يَعْلَمُ الْغَفُورُونَ بِطُولِ سِتْرِنَا أَنْ لَوْ أَرَدْنَا لَعَجَّلْنَا لَهُمُ الْإِنْتِقَامَ ، أَوْ بَلَّغْنَا فِيهِمُ
الْإِصْطِلَامَ ، ثُمَّ لَا يَنْفَعُهُمْ نَدَمٌ ، وَلَا يُشْكِي عَنْهُمْ أَلَمٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ
أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا
بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ
اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾

سلكوا طريقاً واحداً في التمرد ، واجتمعوا في خط واحد في الجحد والتبذير ؛
فلا للإيمان جَنَحُوا ، ولا عن العدوان رجعوا ، وكذلك صفة من سَبَقَتْ بالشقاء قِسْمَتُهُ ،
وحقت بالعذاب عليه كَلِمَتُهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِّنْ عَهْدٍ
وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾

نجم في النذر طَارِقُهُمْ ، وَأَفْلَ مِنْ سَمَاءِ الْوَفَاءِ شَارِقُهُمْ ، فَعَدِمَ أَكْثَرُهُمْ رِعَايَةَ الْعَهْدِ ،
وحقت من الحق لهم قسمة الرد والصد .

ويقال : شَكَا مِنْ أَكْثَرِهِمْ إِلَى أَقْلِهِمْ ، فَالْأَكْثَرُونَ مَن رَدَّتْهُمْ الْقِسْمَةُ ، وَالْأَقْلُونَ
مَنْ قَبِلَتْهُمْ الْوَصْلَةُ .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى بِنَايَتِنَا
إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾

لَمَّا انْقَضَتْ أَيَامُهُمْ ، وَتَقَاصَّرَ عَنْ بَسَاطِ الْإِجَابَةِ إِقْدَامُهُمْ ^(١) بَعَثَ مُوسَى نَبِيَّهُ ، وَضَمَّ

(١) ويجوز أن تكون (أقدامهم) فالتشبيـر يستعمل وطاء القـدم للـبـساط كثيراً

إليه هارون صفيه ، فتوبلا بالكذيب والجهود ، فسلك بهم مسلك إخوانهم
في التعذيب والتبديد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ
مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَىٰ أَلا
أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ
بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ
بَنِي إِسْرَءِيلَ * قَالَ إِن كُنْتَ
جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ
مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

الرجوع إلى دعاء فرعون إلى الله بعد سماع كلام الله بلا واسطة صعب شديد ، ولكنه
لما ورد الأمر قابله بحسن القبول ، فلما ترك اختيار نفسه أيده الحق — سبحانه — بنور
التأييد حتى شاهد فرعون محواً في التقدير فقال : « حَقِيقٌ عَلَىٰ أَلا أقول على الله إلا الحق »
فاذا لم يصح له أن يقول على الخلق ؛ فانخلق محوً فيما هو الوجود الأزلي فأى سلطان لآثار
الفرقة في حقائق الجمع ؟

قوله : « قَالَ إِن كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » : من المعلوم
أن مجرد الدعوى لاحجة فيه ، ولكن إذا ظهر برهان لم يبق غير الاتقياد لها هو الحق ،
فمن استسلم (. . .)^(١) ، ومن جحد الحقائق بعد لوح البيان سقط سقوطاً لا ينتعش .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾
إنما أظهر له المعجزة من عصاه لطول (مقارنته)^(٢) إياها ، فالإلسان إلى ما ألفه أسكن
بقلبه . فلما رأى ما ظهر في العصا من الانقلاب أخذ موسى عليه السلام في الفرار لتحقيقه
بأن ذلك من قهر الحقائق ، وفي هذا إشارة إلى أن السكون إلى شيء غيرة وغفلة (إيش)^(٣)

(١) لا بد أن كلمة هنا سقطت من النسخ مثل (سلم) أو (نجما) أو نحوها .

(٢) (مقارنته) هنا معناها مصاحبة لها بدليل قوله فيما بعد (إلى ما ألفه) .

(٣) (إيش) هذه كلمة دارجة استعمالها القشيري كثيراً في رسالته ومعناها (أى شيء) .

ما كان ، فإنَّ قلب العبد في قبْضِ القدرة ، وهو في أمر التقلب ، وليس للطمع في الكون مسانغٌ بحال .

قوله جل ذكره : ﴿ ونزعَ يده فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾

العصا — وإن كانت معه من زمن — فيدُّه أخص به لأنها عضو له ، فكاشفَةٌ أولاً^(١) برسم من رُسمه ثم أشهده من ذاته في ذاته ما عرَّف أنه أولى به منه ، فلما رأى انقلابَ وصف في يده علم أنه ليس بشيء من أمره بيده .

قوله جل ذكره : ﴿ قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحرٌ عليم ﴾ يريد أن يُخرجكم من أرضكم فإذا تأمرون ﴿

إذا أراد الله هوان عبده لا يزيد الحق حجةً إلا ويزيد لذلك المبطل فيه شبهة ، فكلما زاد موسى — عليه السلام — في إظهار للمعجزات ازدادوا حيرة في التأويلات .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا أَرِجِه وأخاه وأُرْسِل في المدائن حاشرين ﴾ يأتوك بكل ساحرٍ عليم .

توهم الناس أنهم بالتأخير ، وتقديم التدبير ، وبذل الجهد والتشهير يُغيِّرون شيئاً من التقدير بالتقديم أو بالتأخير ، ولم يعلموا أن القضاء غالب ، وأن الحكم سابق ، وعند حلول الحكم فلا سلطان للعلم والفهم ، والتسرع^(٢) والحلم . كلا ، بل هو الله الواحد القهار العلام .

(١) في هذه الإشارة نلاحظ تأثير التشيرى بالكاشفة ، فالحق سبحانه يتجلى لعبده أولاً بنعت من نعمت صفاته ثم يتجلى له بنعت من نعمت ذاته .

(٢) وردت (التسرع) حيث التبتت علامة التضعيف التي على السين على الناسخ ، والتسرع مقبول في السياق لأنه يقابل الحلم .

قوله جل ذكره : ﴿ وجاء السحرة فرعوناً قالوا إن

لنا لأجر إن كننا نحن الغالبين *

قال نعم وإنكم لمن المقربين *

قالوا يا موسى إما أن تُلقى وإما أن

نكون نحن الملقين * قال ألقوا

فلما ألقوا سحروا أعين الناس

واستربوهم وجاءوا بسحر عظيم *

ظنوا أنهم يغلبون بما يسحرون ، ولم يعلموا أن تأثير القدرة فيهم أغلب من تأثير سحرم ،

وأنه لا يرد عنهم ما زوروه في أنفسهم من فنون مكرم فكادوا وكيد لهم ، فهو كما قيل :

ورماني بأسهم صائباتٍ ، وتعمدته بسهم فطاشا

فبيناهم في توهم أن الغلبة لهم ففتح عليهم — من مكان القدرة — جيش ، فوجدوا

أنفسهم — في فتح القدرة — مقهورين بسيف المشيئة .

قوله جل ذكره : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك

فإذا هي تلقف ما يأفكون *

فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون *

فغلبوا هنالك واتقلبوا صاغرين *

وَأَلْقَى السحرة ساجدين * قالوا

آمنّا برب العالمين * رب موسى

وهارون *

مَوْهُوا بسحرم أنهم غلبوا ، فَأَدْخَلَ اللهُ — سبحانه — على تمويهاتهم قهراً الحق

وطاشت تلك الحيل ، وخاب منهم الأمل ، وجذب الحق — سبحانه — أسرارهم على الوهلة

فأصبحوا في صدر العداوة ، وكانوا — في التحقيق — من أهل الود . فسبحان مَنْ يُبْرِزُ

العدو في نعت الولي ؛ ثم يقلب الكتاب ويظهر الولي في نعت العدو ، ثم يأتي الحال
إلا حصول المَقْضَى .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا مَسَّمُ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ
لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُمُوهُ
فِي الْمَدِينَةِ لَتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لَا قَطْعَنَ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُمْ ^(١) قَيْنَ خِلَافٍ ثُمَّ
لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمِيعِينَ ﴾

خاطبهم معتقداً أنهم هم الذين كانوا ^(٢) ، وهم يعلمون أن تلك الأسرار قد خرجت عن رِقِّ
الأشكال ، وأن قلوبهم ظهرت عن تو التفارقة ، وأن شمس العرفان طلعت في سماء أسرارهم ،
فأشبهوا الحق بنظر صحيح ، ولم يبق لتخويقات النفس فيهم سلطان ، ولا شيء من العلل
يفنهم مساع .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾
لَمَّا كَانَ مَصِيرُهُمْ إِلَى اللَّهِ سَهْلَ عَلَيْهِمْ مَا لَقُوا فِي مَسِيرِهِمْ إِلَى اللَّهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا
لَمَّا جَاءَنَا ، رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا
وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾

لَمَّا عَمِلُوا اللَّهَ ، وَأَوْذُوا فِي اللَّهِ ، صدقوا القصد إلى الله ، وطلبوا المعونة من قبل الله ،
كذا سئله من كان لله أن يكون كله على الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ
مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ
وَيَذَرُكَ وَأَهْلَكَ ، قَالَ سَنُقَتِّلُ

(١) اخطأ الناسخ إذ كتبهما (أيديهم وأرجلهم) .
(٢) نعرف من عبارات القشيري : « كانوا لسكنهم بانوا » و « العارف كائن باثن » .

أبناءهم وَنَسْتَحْيِي نساءهم وَإنا فوقهم
قاهرون ﴿١٠﴾

لما استزادوا من فرعون في التمكين من موسى وقومه استنكف أن يقر بعجزه ،
ويعترف بقصور قدرته ، فتوعد موسى وقومه بما عكس الله عليه تدبيره ، وغلب عليه تقديره .
قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ
وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ
يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

أحلم على الله فإن رجوعه إليه ، فقال لهم : إن رجوعي — عند تحيري في أموري —
إلى ربي ، فليكن رجوعكم إليه ، وتوكلكم عليه ، وتعرضوا لنفحات يسره ، فإنه حكم
لأهل الصبر بجميل العقبى .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا أَوْذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ
بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ
يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ
فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

خفي عليهم شهود الحقيقة ، وغشى على أبصارهم حتى قالوا توات علينا البلاء ، ففي حالك
بلاء ، وقبلك شقاء .. فما الفضل ؟ فأجابهم موسى — عليه السلام — بما علق رجاءهم بكشف
البلاء فقال : « عسى ربكم أن يهلك عدوكم » فوقفهم على الانتظار . ومن شهد ببصر الأسرار
شهد تصاريफ الأقدار .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ
وَنَقَصِ الثَّرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴾

شد عليهم وطأة القدرة بعدما ضاعف لديهم أسباب النعمة ، فلا الوطأة أصلحتهم شدتها
ولا النعمة نبهتهم كثرتها ، لا بل إن مسهم يسر لاحتظوه بعين الاستحقاق ، وإن مسهم عسر
حملوه على التظير بموسى — عليه السلام — بمقتضى الاغترار .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ
وَأِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى
وَمَنْ مَعَهُ ﴾

الكفور لا يرى فضل المنعم ؛ فيلاحظ الإحسان بعين الاستحقاق ، ثم إذا اتصل به شيء
مما يكرهه تَجَنَّبَ وحل الأمر على ما يتمنى :

وكذا للكلول إذا أراد قطعة ملّ الوصال وقال كان وكانا
إن الكريم إذا حبّاك بوذّه ستر القبيح وأظهر الإحسانا

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَا إِنَّمَا طَأْسُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ
أَكْثَرُكُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

المتفرد بالإيجاد هو الواحد ولكن بصائرهم مسدودة ، وعقولهم عن شهود الحقيقة
مصدودة ، وأفهامهم عن إدراك المعاني مردودة

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ^(١) آيَةٍ
لَتَسْحَرْنَا بِهَا فَمَنْ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾
جعلوا الإصرارَ على الاستكبار شعارهم ، وهتكوا بألسنتهم — في العتوّ —
أستارهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ
وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ
مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا
قَوْمًا مَجْرِمِينَ ﴾

جَنَسَ عَلَيْهِمُ الْعُقُوبَاتِ لَمَّا نُوِّعُوا وَجَنَسُوا فَنَوَّنَ الْخَالَفَاتِ ، فلا إلى التكفير
عادوا ، ولا إلى التطهير تصدوا ، وعوقبوا بِصَرْفِ قُلُوبِهِمْ عَنْ شُهُودِ الْحَقَائِقِ

(١) سقطت (من) في النسخ فأنبتناها .

وذلك أبلغ مما اتصل بظواهرهم من فنون البلايا ونعوذُ بالله من السقوط عن عين الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا

يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ

لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ

لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

لم يقولوا ادع لنا ربنا ، بل قالوا يا موسى ادع لنا ربك ، فهم ما ازدادوا بزيادة تلك

الحن إلا بعداً وأجنية..

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ

هُمْ بِالْغَوَى إِذَا هُمْ يَنْكُشُونَ *

فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم

كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾

أبرموا العهد ثم تقضوه ، وقدموا العهد ثم رفضوه ، وكما قيل :

إذا ارعوى عاد إلى جهله كذى الضنى عاد إلى نكسه

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يُواري في ثرى رmse

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا

يُسْتَضَعُّونَ مِثْلَ بَارِقِ الْآرْضِ

وَمِثْلَ بَارِقِ الْسَّمَاءِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ

كَلِمَةُ رَبِّكَ الْخَسْفَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ

بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ

فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ مَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾

من صبر على مقاساة الذل في الله وضع الله على رأسه قلنسوة العرفان ، فهو العزيز

مبجانه ، لا يُشْمِتُ بأوليائه أعداءهم ، ولا يضيع من جميل عهده جزاءهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ

فَاتَوَّأَ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى
أَصْنَامِهِمْ ، قَالُوا : يَا مُوسَى اجْعَلْ
لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ، قَالَ إِنَّكُمْ
قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبَرُّ
تَمَاهِمٍ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *

لم تَخْلُصْ فِي قُلُوبِهِمْ حَقَائِقُ التَّوْحِيدِ فتَأَقَّتْ نَفُوسُهُمْ إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ ، حَتَّى قَالَ لِنَبِيِّهِمْ
مُوسَى — عَلَيْهِ السَّلَام — : اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ . وَكَذَا صِفَةُ مَنْ لَمْ يَتَحَرَّرْ قَلْبُهُ مِنْ
إِثْبَاتِ الْأَشْغَالِ وَالْأَعْلَالِ ، وَمِنْ الْمَسَاكِنَةِ إِلَى الْأَشْكَالِ وَالْأَمْثَالِ .

وَيَقَالُ مَنْ ابْتَغَى بِالْصَّنَمِ أَنْ يَكُونَ مَعْبُودَهُ مَنِ يَتَوَهَّمُ فِي وَصْفِهِ أَنْ يُخْلَصَ إِلَى
اللَّهِ قَصُودَهُ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ أَغْيِرَ اللَّهُ أْبْنِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ
فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾

ذَكَرَ كَرَّمَ أَنْفَرَادَهُ — سُبْحَانَهُ — بِإِنْشَائِهِمْ وَإِبْدَاعِهِمْ ، وَأَنَّهُ هُوَ الْإِلَهَ الْمُتَفَرِّدُ بِالْإِبْدَادِ ،
وَتَنْبِيهِمْ أَيْضًا عَلَى عَظِيمِ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ حَقُّ إِنْعَامِ النِّعْمَةِ عَلَيْهِمْ مُقَابِلَتَهُمْ بِإِيَّاهَا
بِالتَّوَلَّى لغيره وَالْعِبَادَةَ لِمَنْ سِوَاهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ أَتَيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ
يُسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ
أَبْنَاءَكَ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكَ وَفِي
ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكَ عَظِيمٌ ﴾

مَا أَزْدَادَ مُوسَى — عَلَيْهِ السَّلَام — فِي تَعْدِيدِ إِنْعَامِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، وَتَنْبِيهِمْ عَلَى عَظِيمِ
آلَائِهِ إِلَّا أَزْدَادُوا جَهْدًا عَلَى جَهْدٍ ، وَبُعْدًا بِالْقُلُوبِ — عَنْ مَحَلِّ الْعِرْفَانِ — عَلَى بُعْدٍ ، وَهَذِهِ
أَمَارَةٌ مِنْ بَلَاءِ — سُبْحَانَهُ — فِي السَّابِقِ بِالْقَطْعِ وَالرَّدِّ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً

وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ قَرْنٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ
أَرْبَعِينَ لَيْلَةً *

عِدَّةُ الْأَحْبَابِ عَزِيزَةٌ ، فَإِذَا حَصَلَتِ الْمَوَاعِدَةُ بَيْنَ الْأَحْبَابِ ، فَهِيَ عَذْبَةٌ حُلْوَةٌ كَيْفَمَا
كَانَتْ ، وَفِي هَذَا الْمَعْنَى أَنْشَدُوا :

أَمْطَلِينَا وَسَوِّفِي وَعِدِينَا وَلَا تَنِي

وَيَقَالُ عَلَّلَ الْحَقُّ — سُبْحَانَهُ — مُوسَى بِالْوَعْدِ الَّذِي وَعَدَهُ بِأَنْ يُسَمِّعَهُ مَرَّةً أُخْرَى
كَلَامَهُ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى ابْتَلَاهُ بِالِإِسْمَاعِ مِنْ غَيْرِ وَعْدٍ ، فَلَا أَنْتَظَارَ وَلَا تَوْقِعَ
وَلَا أَمَلَ ، فَأَخَذَ سَمَاعُ الْخُطَّابِ بِمَجَامِعِ قَلْبِ مُوسَى — عَلَيْهِ السَّلَامُ — فَعَلَّقَ قَلْبَهُ بِالْمِيقَاتِ
الْمَعْلُومِ لِيَكُونَ تَأْمِيلُهُ تَعْلِيلًا لَهُ ، ثُمَّ إِنْ وَعَدَ الْحَقُّ لَا يَكُونُ إِلَّا صَدَقًا ، فَاطْمَأَنَّ قَلْبُ
مُوسَى — عَلَيْهِ السَّلَامُ — لِلْمِيعَادِ ، ثُمَّ لَمَّا مَضَتْ ثَلَاثُونَ لَيْلَةً أَتَى كَمَا سَلَفَ الْوَعْدُ فَزَادَ لَهُ
عَشْرًا فِي الْمَوْعِدِ . وَالْمَطْلُ فِي الْإِنْجَازِ غَيْرُ مَحْبُوبٍ إِلَّا فِي سُنَّةِ الْأَحْبَابِ ، فَإِنَّ الْمَطْلَ عِنْدَهُمْ
أَشْهَى مِنَ الْإِنْجَازِ ، وَفِي قَرِيبٍ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى أَنْشَدُوا :

أَقِيمِي لِعَمْرِكَ لَا تَهْجُرِينَا وَمَنْيِنَا الْمَنَى ، ثُمَّ امْطَلِينَا
عِدِينَا مَوْعِدًا مَا شِئْتِ إِنَّا نَحِبُّ وَإِنْ مَطَلْتَ تَوَاعِدِينَا
فَإِمَّا تَنْجِزِي وَعْدَكَ أَوْ فَإِنَا نَعِيشُ نَوْملَ فَيْكَ حِينَا

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ
اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ
سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾

كَانَ هَارُونَ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — حَمُولًا بِحَسَنِ الْخُلُقِ ؛ لَمَّا كَانَ الْمُرُورُ إِلَى فِرْعَوْنَ
اسْتَصْحَبَ مُوسَى — عَلَيْهِ السَّلَامُ — هَارُونَ ، فَقَالَ اللَّهُ — سُبْحَانَهُ — : « أَشْرَكَ
فِي أَمْرِي » بَعْدَ مَا قَالَ : « أَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا » . وَلَمَّا كَانَ الْمُرُورُ إِلَى سَمَاعِ
الْخُطَّابِ أَفْرَدَهُ عَنْ نَفْسِهِ ، فَقَالَ : « اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي » وَهَذَا غَايَةُ الْحَمْلِ مِنْ هَارُونَ وَنَهَايَةُ
التَّصَبُّرِ وَالرِّضَاءِ ، فَلَمْ يَقُلْ : لَا أَقِيمُ فِي قَوْمِكَ . وَلَمْ يَقُلْ : هَلَّا تَحْمِلْنِي مَعَ نَفْسِكَ كَمَا

استصحبتنى حال المرور إلى فرعون ؟ بل صبر ورضى بما لزم ، وهذه من شديديات بلاء
الأحباب ، وفى قريب منه أنشدوا :

قال لى من أحب والبين قد حلّ وفاقاً لفرقتى وشهيق
ما ترى فى الطريق تصنع بعدى قلت : أبكى عليك طول الطريق

ثم إن موسى لما رجع من سماع الخطاب ، فرأى من قومه ما رأى من عبادة العجل
أخذ برأس أخيه يجره إليه حتى استلطفه هارون — عليه السلام — فى الخطاب ، فقال :
« يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي » .

ويقال لو قال هارون — عليه السلام : إن لم تعوضنى عما فاني من الصحة فلا تعاتبنى فيما
لم أذنب فيه بحال ذرة ولا حبة .. لكان موضع هذه القالة .

ويقال الذنب كان من بنى إسرائيل ، وبالعتاب جرى مع هارون ، وكذا الحديث
والقصة ، فما كل من عصى وجنى استوجب العتاب ، فالعتاب ممنوع عن الأجانب .

قوله جل ذكره : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه
ربه قال رب أرني أنظر إليك ،
قال لن ترانى ولكن انظر إلى
الجبل فإن استقر مكانه فسوف
ترانى ، فلما تجلّى ربه للجبل جعله
دكاً وخر موسى صعقاً ﴾

جاء موسى مجيء المشتاقين مجيء المهيمين ، جاء موسى بلا موسى ، جاء موسى
ولم يبق من موسى شيء لموسى . آلاف الرجال قطعوا مسافات طويلة فلم يذكروهم أحد ،
وهذا موسى خطا خطواتٍ فإلى القيامة يقرأ الصبيان : « ولما جاء موسى »

ويقال لما جاء موسى لميقات باسطر الحق — سبحانه — سقط بسماع الخطاب ،
فلم يبالك حتى قال : « أرني أنظر إليك » ، فإن غلبت الوجد عليه استنطقته بطلب
كمال الوصلة من الشهود ، وكذا قالوا :

وأبرح ما يكونُ الشوقُ يوماً إذا دنتُ الخيامُ من الخيام
 ويقال صار موسى — عليه السلام — عند سماع الخطاب بعين الشكر فنطق ما نطق ،
 والسكران لا يؤخذ بقوله ، ألا ترى أنه ليس في نص الكتاب معه عتاب بحرف ؟
 ويقال أخذته عِزَّةُ السَّماعِ فخرج لسانه^(١) عن طاعته جرياً على مقتضى ما صحبه من
 الأريحية وبسطِ الوصلة .

ويقال جمع موسى — عليه السلام — كلماتٍ كثيرةً ينكلم بها في تلك الحالة ؛ فإن
 في القصص أنه كان يتحمل في أيام الوعد كلمات الحق ، ويقول لمعارفه : ألكم حاجة إلى الله ؟
 ألكم كلام معه ؟ فإني أريد أن أمضي إلى مناجاته .
 ثم إنه لما جاء وسمع الخطاب لم يذكر — مما دبره في نفسه ، وتحمله من قومه ، وجمعه
 في قلبه — شيئاً ولا حرفاً ، بل نطق بما صار في الوقت غالباً على قلبه ، فقال : ربُّ :
 أرني أنظر إليك ، وفي معناه أنشدوا :

فيا ليلَ كم من حاجةٍ لي مهمة إذا جئتكم ليلي فلم أدرِ ماهياً

ويقال أشدُّ الخلقِ شوقاً إلى الحبيب أقربهم من الحبيب ؛ هذا موسى عليه السلام ، وكان
 عريق الوصلة ، واقفاً في محل المناجاة ، محدقة به سجوف التولى ، غالبية عليه بوادهِ الوجود ،
 ثم في عين ذلك كان يقول : « ربُّ أرني أنظر إليك » كأنه غائبٌ عن الحقيقة .
 ولكن ما ازداد القومُ شرباً إلا ازدادوا عطشاً ، ولا ازدادوا تيباً إلا ازدادوا شوقاً ، لأنه
 لا سبيل إلى الوصلة إلا بالسكال ، والحقُّ — سبحانه — يصونُ أسرار أصفياه عن
 مداخلة الملل^(٢) .

ويقال نطق موسى عليه السلام بلسان الافتقار فقال : « ربُّ أرني أنظر إليك » ولا أقلَّ

(١) تعليل القشيري لموقف الإفصاح الذي وقفه موسى بوضوح كيف يلتبس هذا الباحث مبرراً
 لشطحات الصوفية — بطريق غير مباشر ، ويعزو ذلك تارة للسكر الروحي وتارة لوقوع العبد تحت تأثير
 العزة الإلهية ، فيخرج اللسان عن طاعته .

(٢) وفي ذلك أنشدوا :

فا مل ساقينا وما مل شارب عفار لحاظ كانه يسلب البيا

من نظرة — والعبد قتييل هذه القصة — فتقبل بالرد ، وقيل له : « لن تراني » وكذا قهر
الأحباب ولذا قال قائلهم :

جَوَزَ الهوى أحسن من عدله ويخله أعرف من بذله

ويقال لما صرح بسؤال الرؤية ، وجهر صريحاً ردّ صريحاً قبيحاً له : « لن تراني » ،
ولما قال نبينا — صلى الله عليه وسلم — بسرّه في هذا الباب ، وأشار إلى السماء منتظراً الرد
والجواب من حيث الرمز نزل قوله تعالى : « قد نرى تقلّب وجهك في السماء فلنولينك قبلة
ترضاها »^(١) فردّه إلى شهود الجهات والأطلال إشارة إلى أنه أعزّ من أن يطمح إلى شهوده
— اليوم — طرف ، بل الألاحظ مصروفة موقوفة — اليوم — على الأغيار^(٢) .

ويقال لما تمتّ همته إلى أسنى المطالب — وهي الرؤية — قبول « بلن » ، ولما رجّع إلى
الخلق وقال للخضر « هل أتبعك على أن تُعلّمني مما علمت رشداً » ، قال الخضر : « إنك لن
تستطيع معي صبراً »^(٣) فتقابل به بلن ، فصار الردّ موقوفاً على موسى — عليه السلام من الحق
ومن الخلق ، ليكون موسى بلا موسى ، ويكون موسى صافياً عن كل نصيب لموسى من موسى ،
وفي قريب منه أشدوا :

(.....) ^(٤) نحنُ أهلُ منازلٍ أبداً غرابُ البينِ فينا ينطق

ويقال طلب موسى الرؤية وهو بوصف التفرقة فقال : « رب أرني أنظر إليك » فأجيب
بلن لأن عين الجمع أتم من عين الفرق . فزع موسى حتى خرّ صمقاً ، والجبل صار دكاً .
ثم الروح بعد وقوع الصعقة على القالب مكاشفته بما هو حقائق الأحدية ، ويكون الحق — بعد
امتناع معالم موسى — خيراً لموسى من بقاء موسى لموسى ، فعلى الحقيقة : شهود الحقائق بالحق
أتم من بقاء الخلق بالخلق ، كذا قال قائلهم :

(١) آية ١٤٤ سورة البقرة .

(٢) من هذا — وبما أوصته في رسالته — نعرف أن التشبهي لا يرى بجواز رؤيه الله بالبصر
في هذه الدنيا .

(٣) آية ٦٧ سورة الكهف

(٤) هنا لفظتان مطموستان ونعرف أنهما « أبني أبيتنا ... » .

ولوجهها من وجهها قرُّ ولعينها من عينها كحل .

ويقال البلاء الذى ورد على موسى بقوله : « فإن استقر مكانه فسوف ترانى » « ولما تجلَّ ربُّه للجبل جعله دَكًّا » أتمَّ وأعظم منه قوله : « لن ترانى » لأن ذلك صريحٌ فى الرد ، وفى اليأس راحة . لكنه لما قال فسوف أطمعُه فيما مُنِعِه قلباً اشتد موقفه جعل الجبل دكًّا ، وكان قادراً على إمساك الجبل ، لكنه قهر الأحباب الذى به جرت سننهم .

ويقال فى قوله : « أنظرُ إلى الجبل » بلاءه شديد لموسى لأنه نفى عن رؤية مقصوده ومُنَى برؤية الجبل ، ولو أُذِنَ له أن يُفَضَّ جفنه فلا ينظر إلى شيء بعدما بقى عن مراده من رؤيته لكان الأمرُ أسهلَّ عليه ، ولكنه قال له : « لن ترانى ولكن أنظر إلى الجبل » .

ثم أشدُّ من ذلك أنه أعطى الجبل التجلَّى ، فالجبل رآه وموسى لم يره ، ثم أمرَ موسى بالنظر إلى الجبل الذى قدم عليه فى هذا السؤال ، وهذا — والله — لصعبٌ شديد !! ولكن موسى لم ينزع ، ولم يقل أنا أريد النظر إليك فإذا لم أرك لا أنظر إلى غيرك بل قال : لا أرفع بصرى عما أمرتنى بأن أنظر إليه ، وفى معناه أنشدوا :

أريدُ وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد

ويقال بل الحق سبحانه أراد بقوله : « ولكن انظر إلى الجبل » تداركه قلبَ موسى — عليه السلام — حيث لم يترك على صريح الرد بل علله برفق كما قيل :

فدربنى أفنى قليلاً قليلاً

ويقال لما رُدَّ موسى إلى حال الصحو وأفاق رجع إلى رأس الأمر فقال : « تَبَّتْ إِيَّكَ » يعنى إن لم تكن الرؤية هى غايه للرتبة فلا أقل من التوبة ، فَقَبِلَهُ — تعالى — لسوهمته إلى الرتبة العلية .

قوله جل ذكره : ﴿ تَبَّتْ إِيَّكَ ﴾

هذه إناخة بمقوة العبودية ، وشرط الإنصاف ألا تهرح محلَّ الخدمة وإن حيل بينك وبين وجود القرية ؛ لأن القريةَ حظُّ نفسك ، والخدمةُ حقُّ ربك ، وهى تم بالآ تكون بحظ نفسك .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ
بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ
وَكَُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾

هذا الخطاب لِتَدَارُكِ قَلْبِ مُوسَى — عليه السلام — بكل هذا الرُّفْقِ ، كأنه قال :
يا موسى ، إِنِّي مَنَعْتُكَ عَنْ شَيْءٍ وَاحِدٍ وَهُوَ الرُّؤْيَا ، وَلَكِنِّي خَصَصْتُكَ بِكَثِيرٍ مِنَ الْفَضَائِلِ ؛
اصْطَفَيْتُكَ بِالرِّسَالَةِ ، وَأَكْرَمْتُكَ بِشَرَفِ الْحَالَةِ ، فَاشْكُرْ هَذِهِ الْجَلَّةَ ، وَاعْرِفْ هَذِهِ النِّعْمَةَ ،
وَكَُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ، وَلَا تَتَعَرَّضْ لِمَقَامِ الشُّكْوَى ، وَفِي مَعْنَاهُ أُنْشِدُوا :

إِنْ أَعْرَضُوا فَهُمْ الَّذِينَ تَعَطَّفُوا وَإِنْ جَنَوْا فَاصْبِرْ لَمْ يَنْ أَخْلَفُوا

وَفِي قَوْلِهِ سَبْحَانَهُ : « وَكَنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ » إِشَارَةٌ لَطِيفَةٌ كَأَنَّهُ قَالَ : لَا تَكُنْ مِنَ
الشَّاكِرِينَ ، أَيْ إِنْ مَنَعْتُكَ عَنْ سُؤْلِكَ ، وَلَمْ أُعْطِكَ مَطْلُوبَكَ فَلَا تَشْكُنِي إِذَا انْصَرَفْتَ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾

وَفِي الْأَثَرِ : أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَسْمَعُ صَرِيرَ الْقَلَمِ ، وَفِي هَذَا نَوْعٍ لَطِيفٍ لِأَنَّهُ إِنْ
مَنَعَ مِنْهُ النَّظَرُ أَوْ مَنَعَهُ مِنَ النَّظَرِ فَقَدْ عَلَّمَهُ بِالْأَثَرِ (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾

فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْأَخْذَ يُشِيرُ إِلَى غَايَةِ الْقُرْبِ ، وَالْمُرَادُ هَاهُنَا صَفَاءُ الْحَالِ ، لِأَنَّ قُرْبَ
الْمَسْكَانِ لَا يَصِحُّ عَلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾

فَرَّقَ بَيْنَ مَا أَمَرَ بِهِ مُوسَى مِنَ الْأَخْذِ وَبَيْنَ مَا أَمَرَهُ أَنْ يَأْمُرَ بِهِ قَوْمَهُ مِنَ الْأَخْذِ ، أَخْذُ
مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْحَقِّ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ تَحْقِيقِ الزَّلْفَةِ وَتَأْكِيدِ الْوَصْلَةِ ، وَأَخْذُهُمْ أَخْذُ قَبُولٍ
مِنْ حَيْثُ التَّزَامُ الطَّاعَةِ ، وَشَتَانِ مَا هُمَا ! .

(١) نلاحظ أن القشيري كان ممتعاً أشد ما يكون الإمتاع حين استقل موقف شهود موسى استغلالاً
جيلاً أو شك أن يحيط بكل جوانب هذه اللحظات الحاسمة في الحياة الروحية ، فاجتمعت إشاراتُه لتكون
درساً في غاية الدقة والإفادة .

قوله : « بأحسنها » بمعنى بِحُسْنِهَا ، ويحتمل أن تكون الهمزة للبالغة يعنى : بأحسنها
ألا تعرج على تأويل وارجع إلى الأولى (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾
يعنى عليها غبرة العقوبة ، خاوية على عروشها ، ماقطة على سقوفها ، منهدة بنيانها ،
عليها قنطرة العقاب .

والإشارة من دار الفاسقين إلى النفوس المتابعة للشهوات ، والقلوب التى هى معادن للننى
وقاسد الخطرات ، فإنَّ الفسقَ يوجب خرابَ المحل الذى يجرى فيه ، فمن جرى على نفسه
فسقٌ خربت نفسه . وآية خراب النفوس انتفاء ما كان عليها وفيها من سكان الطاعات ،
فكما تتعطل للنازل عن قطائنها إذا نداعت للخراب فكذلك إذا خربت النفوس بعمل المعاصى
فتنتفى عنها لوازم الطاعات ومعتادها ، فبعد ما كان العبد يتيسر عليه فعل الطاعات لو ارتكب
شيئاً من المحظورات يشق عليه فعل العبادة ، حتى لو خيَّر بين ركعتى صلاة وبين مقاساة كثيرٍ
من المشاق آثر تحمل المشاق على الطاعة . . وعلى هذا النحو ظلم القلوب وفسادها فى إيجاب
خراب محالها .

قوله جل ذكره : ﴿ سَأُصْرَفُ عَنْ آيَاتِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ
فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا
كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾

سأحرِّم المتكبرين بركات الاتباع حتى لا يقابلوا الآيات التى يُكاشِفُون بها بالقبول ،
ولا يسمعون ما يُخَاطَبُونَ به بسمع الإيمان .

والتكبر جحد الحق — على لسان العلم ، فمن جحدَ حقائق الحق فجهوده تكبره
واعتراضه على التقدير مما يتحقق جهوده فى القلب .

(١) يوجه القشيري هذه الإشارة نحو موضوع الرخص ، فمن المعلوم أنه يرى ان من الأفضل الا يلجا
للمريد للرخصة ، وفعل الأولى عنده هو ترك الرخصة لأنها للمستضعفين وأرباب الحوائج والأشغال من
الكفاة ، والمريد لا حاجة له ولا شغل إلا لربه وربه .

ويقال التكبر توم استحقاق الحق لك .

ويقال من رأى لنفسه قيسة في الدنيا والآخرة فهو متكبر .

ويقال مَنْ ظَنُّ أَنْ شَيْئاً مِنْهُ أَوْ لَهُ أَوْ إِلَيْهِ — من النفي والإثبات — إِلَّا عَلَى وَجْهِ
الْاِكتِسَابِ فَهُوَ مُتَكَبِّرٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ

سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ

سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ والذين كذبوا

بآياتنا ولقاء الآخرة حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ .

هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

تبين بهذا أنه لا يكفي شهود الحق حقاً وشهود الباطل باطلاً بل لا بد من شهود الحق
من وجود التوفيق للحق ، ومنع شهود الباطل من وجود العصية من اتباع الباطل .

ويقال إن الجاحد للحق — مع تحققه به — أقبح حالة من الجاهل به المقصر في تعريفه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ

حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خَوَارٌ ﴾

لم يطهر قلوبهم — في ابتداء أحوالهم — عن توم الظنون ، ولم يتحققوا بخصائص القدم
وشروط الحدوث ، فعثرت أقدام فكرهم في وهاد المغاليط لما سلكوا المسير .

ويقال إن أقواماً رضوا بالعجل أن يكون معبودهم متى تشم أسرارهم نسيم^(١) التوحيد ؟
شبهات لا لا ولا من لاحظ جبريل وميكائيل والعرش أو الثرى ، أو الجن أو الورى .
وإن من لحقه ذلك أو وجد من قبيل ما يقبل نعوت الحدثن ، أو صح في التجويز أن ترتقى
إليه صواعد التقدير وشرائط الكيفية فغير صالح لاستحقاق الإلهية .

(١) وردت (تشيم) وهي خطأ في النسخ .

ويقال شتان بين أمة وأمة ! أمة خرج نبيهم عليه السلام من بينهم أربعين يوماً فعبدوا العجل ، وأمة خرج نبيهم — عليه السلام — من بينهم وأتى نيف وأربعمائة سنة فمن ذكر بين أيديهم أن الشمس والأقار أو شيئاً من الرسوم والأطلال تستحق الإلهية أحرقوه بهمهم

ويقال لا فصل بين الجسم والجسد ، فكما لا يصلح أن يكون المعبود جسماً لا يصلح أن يكون متصفاً بما في معناه ، ولا أن يكون له صوت فإن حقيقة الأصوات مُصَاكَّةُ الأجرام الصلبة ، والتوحيد الأزلي ينافي هذه الجملة .

ويقال أجهلُ بقوم آمنوا بأن يكون مصنوعهم معبودهم ! ولولا قهر الربوبية وأنه تعالى يفعل ما يشاء — فأى عقل يُقرُّ مثل هذا التلisis ؟

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلِمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾

جعل من استحقاقه^(١) نعوت الإلهية صحة الخطاب وأن تكون منه الهداية ، وهذا يدل على استحقاق الحق بالنعوت^(٢) بأنه متكلم في حقائق آزاله ، وأنه متفرد بهداية العبد لا هادى سواه . وفيه إشارة إلى مخاطبة الحق — سبحانه — وتكليمه مع العبد ، وإن الملوك إذا جلّت رتبهم استنكفوا أن يخاطبوا أحداً بلسانهم حتى قال قائلهم :

وما عَجَبٌ تناسى ذِكْرَ عبدٍ على المولى إذا كَثُرَ العبيدُ

وبخلاف هذا أجرى الحق — سبحانه — سنته مع عباده المؤمنين ، أما الأعداء فيقول لهم : « اخشوا فيها ولا تكلمون »^(٣) وأما المؤمنون فقال صلى الله عليه وسلم : « ما منكم إلا يكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان »^(٤) ، وأنشدوا في معناه .

وما تزدھينا الكبرياء عليهم إذا كلمونا أن نكلهم مرّداً

(١) وردت (١) حقائقهم) وهي خطأ في النسخ .

(٢) يشير القشيري بذلك إلى معارضة المعتزلة الذين ينفون الصفات الإلهية مناً للتمدد ، واقتضاء حامل ومحمول .

(٣) آية ١٠٨ سورة المؤمنون .

(٤) في رواية منسلم عن عدى بن حاتم قال رسول الله (ص) :

« ما منكم من أحد إلا سبكه الله ليس بينه وبينه ترجمان » ص ٧٠٣ ط الحلي .

قال تعالى : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً » (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَمَّا سَفَّطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا إِنَّ لَنَا رَبًّا بِنَا وَإِنَّا لَنَكُونُ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

حين تحققوا بقبوح صنيعهم تجرّعوا كأسات الأسف ندماً ، واغترفوا بأنهم خسروا إن لم يتداركهم من الله جيلٌ لطيف .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾

لو وجد موسى قومه بألف ألف وفاقٍ لكان متنفّص العيش لما منى به من حرمان سماع الخطاب والرد إلى شهود الأغيار . . فكيف وقد وجد قومه قد ضلوا وعبدوا العجل ؟ ولا يُدرى أى الحن كانت أشدّ على موسى :

أفقدان سماع الخطاب ؟ أو بقاءه عن سؤال الرؤية ؟ أو مشاهد من افتنان بنى اسرائيل ، واستيلاء الشهوة على قلوبهم فى عبادة العجل ؟ سبحان الله ! ما أشدّ بلاءه على أوليائه !

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَلْقَى الْأَوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونَنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ لِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ قال رب اغفرلى ولأخى وأدْخِلْنَا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين ﴿

(١) آية ١٠٩ سورة الكهف .

إن موسى عليه السلام وإن كان سَمِعَ من الله قَتَنَ قومه فإنه لما شَهِدَهُم أثرت فيه المشاهدة بما لم يؤثر فيه السماع ، وإن عُلِمَ قطعاً أنه تأثر بالسمع إلا أن للمعينة تأثيراً آخر .
ثم إن موسى لما أخذ برأس أخيه يحجره إليه استلطفه هارون في الخطاب .

فقال : « يا ابن أُمِّ » قَدْ كَرَّ الْأُمُّ هُنَا لِلْإِسْرَافِ وَالْإِسْتِرْحَامِ .

وكذلك قوله : « لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي » يريد بهذا أنه قد توالى المحن على فَذَرْنِي وما أنا فيه ، وَلَا تَزِدْ فِي بِلَاسِي ، خلفتني فيهم فلم يستنصحنوني . وتلك على شديدة . ولقيت بعدك منهم ما ساءتني ، ولقد علمت أنها كانت على عظمة كبيرة ، وحين رجعت أخذت في عتابي وجرد رأسي وقصدت ضربتي ، وكنت أود منك تسليتي وتعزيتي . فرفقاً بي ولا تشيت بي الأعداء ، ولا تضاعف عليّ البلاء .

وعند ذلك رق له موسى — عليه السلام ، ورجع إلى الابتهاال إلى الله والسؤال بنشر الافتقار فقال : « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ » وفي هذا إشارة إلى وجوب الاستغفار على العبد في عموم الأحوال ، والتحقق بأن له — سبحانه — تعذيب البريء ؛ إذ الخلق كلهم ملكه ، وتصرّف المالك في ملكه نافذ .

ويقال : ارتكاب الذنب كان من بني إسرائيل ، والاعتذار كان من موسى وهارون عليهما السلام ، وكذا الشرط في باب خلوص العبودية .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾

يعنى إن الذين اتخذوا العجل معبوداً سَيَنَالُهُمْ في مستقبل أحوالهم جزاء أعمالهم . والسين في قوله « سينالهم » للاستقبال ، ومن لا يضره عصيان العاصين لا يبالي بتأخير العقوبة عن الحال ، وفرق بين الإمهال والإهمال ، والحق — سبحانه — يمهل ولكنه لا يهمل ، ولا ينبغي لمن يذنب ثم لا يؤاخذ في الحال أن يغتر بالإمهال .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا ﴾

مَنْ بَعْدَهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ

بَعْدَهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾

وَصَفَّهُمْ بِالتَّوْبَةِ بَعْدَ عَمَلِ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ بِالْإِيمَانِ بَعْدَهَا ، ثُمَّ قَالَ : « مَنْ بَعْدَهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » .
وَالْإِيمَانُ الَّذِي هُوَ بَعْدَ التَّوْبَةِ يَحْتَمِلُ آمَنُوا بِأَنَّهُ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ ، أَوْ آمَنُوا بِأَنَّ الْحَقَّ سَبْحَانَهُ لَمْ يُضِرَّهُ
عَصْيَانٌ ، أَوْ آمَنُوا بِأَنَّهُمْ لَا يَنْجُونَ بِتَوْبَتِهِمْ مِنْ دُونِ فَضْلِ اللَّهِ ، أَوْ آمَنُوا أَيْ عَادُوا مَا سَبَقَ
مِنْهُمْ مِنْ قَطْعِ الْعَهْدِ شَرًّا كَأَنَّ .

وَيُقَالُ اسْتَدَامُوا لِلْإِيمَانِ فَكَانَ مَوَافَاتِهِمْ عَلَى الْإِيمَانِ .

أَوْ آمَنُوا بِأَنَّهُمْ لَوْ عَادُوا إِلَى تَرْكِ الْعَهْدِ وَتَضْيِيعِ الْأَمْرِ سَقَطُوا مِنْ عَيْنِ اللَّهِ ، إِذْ لَيْسَ
كُلُّ مَرَّةٍ نَسْلَمُ الْجُرَّةَ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضِبُ

أَخَذَ الْأَلْوَاحَ فِي لُسْخَتِهَا هُدًى

وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾

تَشِيرُ إِلَى حَسَنِ إِمْهَالِهِ — سَبْحَانَهُ — لِلْعَبْدِ إِذَا تَغَيَّرَ عَنْ حَدِّ التَّمْيِيزِ ، وَغَلَبَ عَلَيْهِ

مَا لَا يَطِيقُ رَدُّهُ مِنْ بَوَادِهِ الْغَيْبِ

وَإِذَا كَانَتْ حَالَةُ الْأَنْبِيَاءِ — عَلَيْهِمُ السَّلَامُ — أَنَّهُ يَغْلِبُهُمْ مَا يَعْطَلُهُمْ عَنِ الْإِخْتِيَارِ

فَكَيْفَ الظَّنُّ بِمَنْ دُونَهُمْ ^(١) ؟

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا

لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ

لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ

أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ؟ إِنَّ

مَعِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ

وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ، أَنْتَ وَلِيُّنَا ،

فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ

الْغَافِرِينَ ﴾

(١) يَسْتَشْفَعُ الْقَشِيرِيُّ لِلْوَالِدِ إِذَا خَرَجَ عَنْ حَدِّ التَّمْيِيزِ إِنْ كَانَ صَادِقًا وَلَهُ عَذْرُ .

شَتَّانَ بَيْنَ أُمَّةٍ وَأُمَّةٍ ؛ أُمَّةٌ يَخْتَارُهُمْ نَبِيُّهُمْ — عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَبَيْنَ أُمَّةٍ اخْتَارَهَا الْحَقُّ —
سُبْحَانَهُ ، فَقَالَ : « وَلَقَدْ اخْتَرْنَاكُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ » ^(١) .

الَّذِينَ اخْتَارَهُمُ مُوسَى قَالُوا : « أَرِنَا اللَّهُ جَهْرَةً حَتَّى أَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةُ » وَالَّذِينَ اخْتَارَهُمُ
الْحَقُّ — سُبْحَانَهُ — قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ : « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ » ^(٢) .

وَيُقَالُ إِنَّ مُوسَى — عَلَيْهِ السَّلَامُ — جَاهِرَ الْحَقَّ — سُبْحَانَهُ — بِنَعْتِ التَّحْقِيقِ وَفَارَقَ
الْحَشْمَةَ وَقَالَ صَرِيحًا : « إِنَّهُ هِيَ إِلَّا فَنَتَكَ » ثُمَّ وَكَّلَ ^(٣) الْحَكَمَ إِلَيْهِ فَقَالَ : « تُضِلُّ بِهَا مَنْ
تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ » ثُمَّ عَقَّبَهَا بِلِسَانِ التَّضَرُّعِ فَقَالَ : « فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا » ، وَلَقَدْ قَدَّمَ
الثناءَ عَلَى هَذَا الدُّعَاءِ فَقَالَ : « أَنْتَ وَلَيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا » .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾
وَفِي الْآخِرَةِ ﴿

نَطَقَ بِلِسَانِ التَّضَرُّعِ وَالْإِبْتِهَالِ حَيْثُ صَفَّى إِلَيْهِ الْحَاجَةَ ، وَأَخْلَصَ لَهُ فِي السُّؤَالِ فَقَالَ :
« وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ » أَيَّ أَهْدَانَا إِلَيْكَ .

وَفِي هَذِهِ إِشَارَةٌ إِلَى تَخْصِصِ نَبِيِّنَا — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — فِي التَّبَرُّيِّ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ
وَالرَّجُوعِ إِلَى الْحَقِّ لِأَنَّ مُوسَى — عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : « وَاكْتُبْ لَنَا فِي . . . » وَبَيْنَمَا
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « لَا تَكُنِّي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ » وَلَا أَقْلَ مِنْ ذَلِكَ ، وَقَالَ :
« وَاكْفُلْنِي كِفَالَةَ الْوَلِيدِ » ثُمَّ زَادَ فِي ذَلِكَ حَيْثُ قَالَ : « لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ » ^(٤) .

(١) آيَةُ ٣٢ سُورَةِ الدُّخَانِ وَالْقَصُودِ أُمَّةُ الصُّفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

(٢) آيَةُ ٢٢ سُورَةِ الْقِيَامَةِ

(٣) وَوَرَدَتْ (وَقُلْ) وَالصُّرُوبُ أَنْ تَكُونَ (وَكَلَّ) إِلَيْهِ الْحَكَمَ .

(٤) قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اللَّهُمَّ اكْفُلْنِي كِفَالَةَ الْوَلِيدِ ، وَلَا تَكُنِّي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ ،
وَجِهْتَ وَجْهِي إِلَيْكَ ، وَأَلْحَأْتُ طَهْرِي إِلَيْكَ ، لَا مَلْعَأُ وَلَا مَمْجِي مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ » .

اللَّهُمَّ اكْفُلْنِي كِفَالَةَ الْوَلِيدِ — عَلَيْهَا النَّبِيُّ (س) لِبَعْضِ أَصْحَاءِ الشَّيْخِينَ مِنْ حَدِيثِ الرَّاءِ . اللَّهُمَّ
امْتَنِعْ بِسَمْعِي وَبَصَرِي : الزَّمْزَمِيُّ ، وَالْحَاكِمُ عَنْ أَبِي مَرْزُوقٍ « وَلَا تَكُنِّي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ » الْحَاكِمُ
مِنْ حَدِيثِ أَبِي قَالَ : صَحِيحٌ عَلَى تَرْطِيقِ الشَّيْخِينَ ، وَعَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا بَيْتَهُ الرَّهْرَاءُ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّا هُدُّنَا إِلَيْكَ ﴾

أى مِلْنَا إِلَى دِينِكَ ، وَصِرْنَا لَكَ بِالسُّكُوتِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ تَتْرَكَ لِنَفْسِنَا بَقِيَّةً .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ

وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

وفى هذا لطيفة ؛ حيث لم يقل : عَذَابِي لَا أُخْلِي مِنْهُ أَحَدًا ، بَلْ عَلَّقَهُ عَلَى الْمَشِيئَةِ .
وفيه أيضاً إشارة ؛ أَنَّ أَعْمَالَهُ — سُبْحَانَهُ — غَيْرُ مُعَلَّاتٍ بِأَكْسَابِ الْخَلْقِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ :
عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ الْعَصَاةَ بَلْ قَالَ : « مِنْ أَشَاءُ » ؛ وَفِي ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى جَوَازِ الْغَفَرَانِ لِمَنْ أَرَادَ
لِأَنَّهُ قَالَ : « أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ » فَإِذَا شَاءَ أَلَّا يُصِيبَ بِهِ أَحَدًا كَانَ لَهُ ذَلِكَ ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ
حِينَئِذٍ مُخْتَارًا .

نَمَّا انْتَهَى إِلَى الرَّحْمَةِ قَالَ : « وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ » لَمْ يُعَلِّقْهَا بِالْمَشِيئَةِ ؛ لِأَنَّهَا
نَفْسُ الْمَشِيئَةِ وَلِأَنَّهَا قَدِيمَةٌ ، وَالْإِرَادَةُ لَا تَتَعَلَّقُ بِالْقَدِيمِ . فَلَمَّا كَانَ الْعَذَابُ مِنْ صِفَاتِ الْفِعْلِ عَلَّقَهُ
بِالْمَشِيئَةِ ، نَعَكْسَ الرَّحْمَةِ لِأَنَّهَا مِنْ صِفَاتِ الْإِهَاتِ .

وَيَقَالُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ » بِجَهْلِ لَأَمَالِ الْعَصَاةِ ؛ لِأَنَّهُمْ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا
مِنْ جَمَلَةِ الْمُطِيعِينَ وَالْعَابِدِينَ وَالْعَارِفِينَ فَهِيَ « شَيْءٌ » ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ

الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾

أى سَأَرْجِيهَا لَهُمْ ، فَيَجِبُ الثَّوَابُ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ اللَّهِ وَلَا يَجِبُ لِأَحَدٍ شَيْءٌ عَلَى اللَّهِ إِذَا لَا يَجِبُ
عَلَيْهِ شَيْءٌ لِعَزْمِهِ فِي ذَاتِهِ ^(٢) .

قوله ها هنا : « لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ » أَيْ يَجْتَنِبُونَ أَنْ يَرَوْا الرَّحْمَةَ بِاسْتِحْقَاقِهِمْ ، فَإِذَا اتَّقَوْا
هَذِهِ الظُّنُونَ ، وَتَيَقَّنُوا أَنَّ أَحْكَامَهُ لَيْسَتْ مُعَلَّاتٌ بِأَكْسَابِهِمْ — اسْتَوْجِبُوا الرَّحْمَةَ ،
وَبِحَكْمِهَا لَهُمْ .

(١) أَيْ ضَمِنَ (شَيْءٌ) الَّتِي فِي الْآيَةِ « وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ » .

(٢) أَيْ بِخِلَافِ الْمُعْتَلَّةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِالْوُجُوبِ (عَلَى) اللَّهِ ، وَشَتَّى بَيْنَ الْوُجُوبِ (مِنْ) اللَّهِ
وَالْوُجُوبِ (عَلَيْهِ) ؛ فَالْوُجُوبُ مِنْ اللَّهِ فَضْلٌ ، وَالْوُجُوبُ عَلَى اللَّهِ إِلْزَامٌ .

« والذين هم بآياتنا يؤمنون » أى بما يكشفهم به فى الأنظار مما يقفون عليه بوجوه الاستدلال ، وبما يلاطفهم به فى الأسرار مما يجدونه فى أنفسهم من فنون الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾

أظهر شرف المصطفى — صلى الله عليه وسلم — بقوله : « النبی الأمی » أى أنه لم يكن شيء من فضائله وكمال علمه وتبؤه إلى تفصيل شرعه من قبل نفسه ، أو من تعلمه وتكلفه ، أو من اجتهداه وتصرفه . . بل ظهر عليه كل ما ظهر من قبله — سبحانه — فقد كان هو أمياً غير قارئ للكتب ، ولا متتبع للسیر .

ثم قال : « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر » : والمعروف هو القيام بحق الله ، والمنكر هو البقاء بوصف الحظوظ وأحكام الهوى ، والتعريض فى أوطان النبی ، وما تصوّره للعبد تزويرات الدعوى^(١) . والفاصل بين الجسمين ، والمميز بين القسمين — الشريعة ، فأحسن من أفعال العباد ما كان بنعت الإذن من مالك الأعيان فلمهم ذلك ، والقبیح ما كان موافقاً للنهي^(٢) والزجر فليس لهم فعل ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾

الإصر الثقل ، ولا شيء أثقل من كد التدبير ، فمن ترك كد التدبير إلى روح شهود التقدير ، فقد وضع عنه كل إصر ، وكفى شكلاً وزراً وأمر والأغلال التي كانت عليهم هي ما ابتدعوه من قبل أنفسهم باختيارهم فى التزام طاعات

(١) يقصد بها دعوى النفس أنها على شيء وذلك زور وباطل .

(٢) وردت (الهنى) وهى خطأ فى النسخ .

الله ما لم يُفْتَرَضْ عليهم ، فَوَكَّلُوا إِلَىٰ حَوْلِهِمْ وَمُتَّبِعِهِمْ فِيهَا ، فَأَهْمَلُواهَا ، وَتَقَضَّوْا عَهْدَهُمْ .
وَمَنْ لَقِيَ — بِمَخَصَّائِصِ الرِّضَا — مَا تَجَرَّى بِهِ الْمَقَادِيرُ ، وَشَهِدَ الْحَقُّ فِي أَجْنَاسِ
الْأَحْدَاثِ — فَقَدْ خُصَّ بِكُلِّ نِعْمَةٍ وَفَضْلٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ
وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ
أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

اعترف لم^(١) بنصرة الرسول — صلى الله عليه وسلم — وإلا فالنبي صلى الله عليه وسلم
كان الله حسيبه ، وَمَنْ كَانَ اسْتِقْلَالَهُ بِالْحَقِّ لَمْ يَقِفْ انْتِمَاشُهُ عَلَىٰ نَصْرَةِ الْخَلْقِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ
إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ
فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ
الَّذِي يَؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ ، وَاتَّبِعُوهُ
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

صَرَّحَ بِمَا رَقَّبْنَاكَ إِلَيْهِ مِنَ الْمَقَامِ ، وَأَفْصَحَ عَمَّا لَقِينَاكَ بِهِ مِنَ الْإِكْرَامِ ، قُلْ إِنِّي إِلَىٰ
جَمَاعَتِكُمْ مُرْسَلٌ ، وَعَلَىٰ كَافَتِكُمْ مُفَضَّلٌ ، وَدِينِي — لِمَنْ نَظَرَ وَاعْتَبَرَ ، وَفَكَّرَ
وَسَبَّرَ — مُفَضَّلٌ . فَإِلَهِي الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ يَنَازِعُهُ ، وَلَا شَبِيهَ يُضَارِعُهُ لَهُ حَقُّ
التَّصَرُّفِ فِي مُلْكِهِ بِمَا يَرِيدُ مِنْ حَكْمِهِ . وَمِنْ جَمَلَةِ مَا حَكَمَ وَقَضَى ، وَنَفَذَ بِهِ التَّقْدِيرَ
وَأَمَضَى — إِدْسَالِي إِلَيْكُمْ لِتَطِيعُوهُ فِيمَا يَأْمُرُكُمْ ، وَتَحْذَرُوا مِنْ ارْتِكَابِ مَا يَزْجُرُكُمْ .
وإِنَّ مِمَّا أَمَرَكُمْ بِهِ أَنَّهُ قَالَ لَكُمْ : آمِنُوا بِالنَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ، وَاتَّبِعُوهُ لَتُفْلِحُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ،
وَتَسْتَوْجِبُوا الزُّلْفَىٰ وَالْحُسْنَىٰ ، وَتَتَخَلَّصُوا مِنَ الْبَلَاةِ وَالْهَوَىٰ .

(١) (اعترف لهم) أى عرف لهم هذا العمل وأشاد به .

قوله جل ذكره : ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْتَدُونَ
بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾

هم الذين سبقت لهم العناية ، وصدقت فيهم الولاية فبقوا على الحق من غير
تحريف ولا تحويل ، وأدركتهم الرحمة السابقة ، فلم تنطرق إليهم مفاجأة تغيير ،
ولا خفي تبديل .

قوله جل ذكره : ﴿وَقَطَعْنَا مِنْهُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا
أُتَمَّا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ
قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ
فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا
قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ
وَوَضَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ ، وَأَنْزَلْنَا
عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى كُلُوا مِنْ
طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ، وَمَا ظَلَمُونَا
وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

فرّقهم أصنافاً ، وجعلهم في التحزب أخياراً ، ثم كفاهم ما أمهم ، وأعطاهم ما لم يكن لهم
بد منه فيما نأبهم ، فظللنا عليهم ما وقاهم أذى الحر والبرد ، وأنزلنا عليهم المَنَّاءَ والسَّلْوى
مما فني عنهم تعب الجوع والجهد والسعي والكد ، وفجرنا لهم العيون عنه النزول حتى كانوا
يشاهدونهم عياناً ، وألقينا بقلوبهم من البراهين ما أوجب لهم قوة اليقين ، ولكن ليست
العبرة بأفعال الخلق ولا بأعمالهم إنما المدار على مشيئة الحق ، سبحانه وتعالى فيما يُمضي عليهم
من فتون أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا
مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةً وَادْخُلُوا
الْبَابَ سُجَّدًا نَفِّرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ
مَنْزِلُ الْمُحْسِنِينَ﴾

ينحصر عما أُلزمهم من مراعاة الحدود ، وما حصل منهم من تقض المهود . وعما أُلزمهم من التكليف ، ولقّاهم به من صنوف التعريف ، وإكرامه من (شاء)^(١) منهم بالتروفيق والتصديق ، وإذلاله من شاء منهم بالخذلان وحرمان التحقيق ، ثم ما عاقبهم به من فنون البلاء فمالقوا تعريفاً ، وأذاقهم من سوء الجزاء ، حُكماً — من الله — حماً ، وقضاء جزماً .

قوله جل ذكره : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ

الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا

مِنَ السَّمَاءِ ^(٢) بِمَا كَانُوا يَفْظِلُونَ ﴾

جاء في التفسير أنهم زادوا حرفاً في الكلمة التي قيلت لهم فقالوا : حنطة بدل « حطة » فلقوا من البلاء ما لقوا تعريفاً أن الزيادة في الدين ، والابتداع في الشرع عظيم الخطر ، ومجاوزة حد الأمر شديد الضرر .

ويقال إذا كان تغيير كلمة هي عبارة عن التوبة يوجب كل ذلك العذاب — في الظن

بتغيير ما هو خبر عن صفات المعبود ؟

ويقال إن القول أنقص من العمل بكل وجه — فإذا كان التغيير في القول يوجب

كل هذا . . فكيف بالتبديل والتغيير في الفعل ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَسَأَلُمُ عَنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ

حَاضِرَةً الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ

إِذْ تَأْتِيهِمْ حِينَتُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا

وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كُنُفٌ

تَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

كان دينهم الأخذ بالتأويل ، وذلك رَوَّعَانُ — في التحقيق^(٣) ، وإن الحقائق تأتي

(١) سقطت (شاء) وقد أثبتناها قياساً على ما حدث فيها بعد .

(٢) سقطت (من السماء) من النسخ .

(٣) تأمل مفهوم (التأويل) عند القشيري ، وكيف يفارقه إذا كان باطلاً .

إلا الصدق ، وإن التعرّيج في أوطان الحظوظ والجنوح إلى احتمالات الرخص فسح لا كيد
مواثيق الحقيقة ، ومن شاب شوب له ، ومن صفى صفى له .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ
قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا
شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ
وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

الحقائق — وإن كانت لازمة — فليست للعبد عند لوازم الشرع عاذرة^(١) بل الوجوب
يُفْتَرَضُ شرعاً ، وإن كان التقدير غالباً بكل وجه .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ
يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا
بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

إذا تمادى العبد في تهتكه ، ولم يُبالِ بطول الإمهال والستر لم يُهْمَلْ يدُ التقدير عن
امتنعاض العين ، ومحو الأثر ، وسرعة الحساب ، وتعجيل العذاب الأدنى قبل هجوم الأكبر .
ثم البرى في فضاء السلامة ، ونحت ظل الحفظ ، ودوام روح التخصيص وبرد
عيش التقريب .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا عَثَرُوا غَمًّا نُهُوا عَنْهُ قُلُوبُهُمْ
كَانُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾

إذا انتهت مدة الإمهال فليس بعده إلا حقيقة الاستئصال ، وإذا سقط العبد من عين الله
لم يقتضِ بعده أبداً ، فمن أسقطه حكم الملوك فلا قبول له بعد الرد ، وفي معناه أنشدوا :
إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تنكد إليه بوجه آخر الدهر تُقبِلُ

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَنَ عَلَيْهِمُ
إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ

(١) أي لا يبغي نصرة الحقيقة على حساب الشريعة بحال .

العذاب ، إن ربك لسريع العقاب
وإنه لغفور رحيم ﴿

إذا الحق — سبحانه — أمضى سنته بالإندار وتقديم التعريف بما يستحقه كلُّ أحد
على ما يحصل منه من الآثار إبداء للعذر — وإن جلت^(١) رتبته عن كل عذر — فإن يَنْجَعُ فيهم
القول وإلا دَمَّرَ عليهم بالعذاب .

قوله جل ذكره : ﴿ وقطعناهم في الأرض أُمَمًا منهم
الصالحون ومنهم دون ذلك ببلوانهم
بالحسناتِ والسيئاتِ لعلهم
يرجعون^(٢) ﴾

أجرامهم على ما علم أنهم يكونون عليه من صلاحٍ وسداد ، ومعاصٍ وفساد . ثم ابتلاهم
بفنون الأفعال من محنٍ أزاحها ، ومن مِنٍّ أتاحتها ، وطالبهم بالشكر على ما أسدى ، والصبر
على ما أبلى ، ليظهر للملائكة والخلائق أجمعين جواهرهم في الاخلاق والوفاق ، والإخلاص
والنفاق ، فأما الحسناتُ فهي ما يُشهدهم المُجرى ، ولا يُلهمهم عن المبدى ، وأما السيئاتُ
فالتردد بين الإنجاز والتأخير ، والإباحة والتقصير .

ويقال الحسنة أن يُنسيك نفسك ، والسيئة أن يُشهدك نفسك .

ويقال الحسنات بتيسير وقتٍ عن الغفلات خالٍ ، وتسهيل يومٍ عن الآفات بائن . والسيئاتُ
التي ابتلاهم بها خذلانٌ حاصل وحرمانٌ متواصل .

قوله جل ذكره : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا
الكتابَ يأخذونَ عَرْضَ هذا
الأدنى ويقولونَ سِغْفَرُ لَنَا ﴾

استوجبوا الذم بقوله — سبحانه : « فخلف من بعدهم خلف ، لأنهم آثروا العَرْضَ^(٣) »

(١) وردت (حلت) بالخاء وهي خطأ في النسخ .

(٢) أخطأ الناسخ إذ كتبها (لعلهم يرجعون) .

(٣) وردت (الأرض) وهي خطأ في النسخ فلنظة (عرض) مذكورة في الآية .

الأدنى ، وركنوا إلى عاجل الدنيا ، وجعلوا نصيبهم من الآخرة للمنى فقالوا : « سيففر لنا » .
ويقال من أمارات الاستدراج ارتكاب الزلة ، والاغترار بزمان المهلة ، وتحمل تأخير
العقوبة على استحقاق الوصلة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾
أخبر عن إصرارهم على الإغترار بالمنى ، وإيثار متابعة الهوى .

قوله جل ذكر : ﴿ أَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ
أَلَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾

استفهام فى معنى التقرير^(١) ، أى أمروا ألا يصِفُوا الحقَّ إلا بنعت الجلال ، واستحقاق
صفات الكمال ، وألا يتحاكوا عليه بما لم يأت منه خبر ، ولم يشهد بصحته برهان ولا نظر .
قوله جل ذكره : ﴿ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ، وَالِدَارُ الْآخِرَةِ
خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

يعنى تحققوا بمضمون الكتاب ثم جحدوا بعد لوح البيان وظهور البرهان . يعنى التعرض
لنفحات فصله — سبحانه — خيرٌ لمن أَمَلَّ جودَه من مقاساة التعب من يَدَلَّ —
فى تحصيل هواه — مجهودَه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يُسْكُونُ بِالْكِتَابِ
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ .

يسكون بالكتاب إيماناً ، وأقاموا الصلاة إحساناً ، فبالإيمان وجدوا الأمان ، وبالإحسان
وجدوا الرضوان ؛ فالأمان مُعَجَّلُ الرضوان مؤجل . ويقال « يسكون بالكتاب » سبب
النجاة ، وإقامة الصلاة تحقق النجاة . فالنجاة فى المآل والنجاة فى الحال .

ويقال أفرد الصلاة هاهنا بالذكر عن جملة الطاعات ليعلم أنها أفضل العبادات بعد معرفة
الذات والصفات .

(١) وردت (التقدير) بالدال وهى خطأ فى النسخ لأن المعنى يرفضها ، والاستفهام التقريرى مصطلح بلاغى

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾

مَنْ أَمَّلَ سَبَبَ إِنْعَامِنَا لَمْ تَخْشِرْ لَهُ صَفَقَةً ، وَلَمْ تَحْقِيقْ ^(١) لَهُ فِي الرِّجَاءِ رَفَقَةً ، وَيُقَالُ مَنْ تَقَلَّ
(. . .) ^(٢) إِلَى بَابِهِ قَدَمَهُ لَمْ يَعْدِمِ فِي الْأَجْلِ نِعَمَهُ ، وَمَنْ رَفَعَ إِلَى مَاحَاتٍ جُودَهُ هِمَّةً
نَالَ فِي الْحَالِ كَرَمَهُ

وَيُقَالُ مَنْ تَوَصَّلَ إِلَيْهِ بِجُودِهِ نَالَ فِي الدَّارِينِ شَرَفَهُ . وَمَنْ أَكْتَفَى بِجُودِهِ ^(٣) كَانَ اللَّهُ
عَنْهُ خَلْفَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ
ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا
مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ، وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

لَيْسَ مِنْ يَأْتِي طَوْعًا كَمَنْ يَأْتِي جَبْرًا ، فَإِنَّ الَّذِي يَأْتِي قَهْرًا لَا يَعْرِفُ لِلْحَقِّ — سُبْحَانَهُ —
قَدْرًا ، وَفِي مَعْنَاهُ أَنْشَدُوا :

إِذَا كَانَ لَا يَرْضِيكَ إِلَّا شَفَاعَةُ فَلَا خَيْرَ فِي وَدِّ يَكُونُ لِشَاقِعٍ
وَأَنْشَدُوا :

إِذَا أَنَا عَاتَبْتُ الْمُلُوكَ فَأَيْنَا أَخْطُ بِأَفْلَامِي عَلَى الْمَاءِ أَحْرُفًا
وَهَبْنِي أَرْعَوِي بَعْدَ الْعَتَابِ أَلَمْ يَكُنْ تُوَدِّدُهُ طَبْعًا ، فَصَارَ تَكَلُّفًا ؟
وَيُقَالُ قَصَارَى مَنْ أَتَى خَيْرًا أَنْ يَنْكُصَ عَلَى عَقْبِهِ طَوْعًا ، كَذَلِكَ لَمَّا قَابَلُوا الْكِتَابَ
بِالْإِجْبَارِ مَا لَبَسُوا حَتَّى قَابَلُوهُ بِالنَّحْرِيفِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ

(١) وردت (تحقق) وهي خطأ في النسخ لأن المعنى يرفضها .

(٢) مشبهة وربما كانت (في العاجل) .

(٣) الأصوب أن تكون هذه (بوجوده) أي من فني عن نفسه وبقي بالحق كالالحق عنه خلفه .

ظهورهم ذرئتهم وأشهدهم على
أنفسهم أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قالوا:
بلى، شهدنا أن تقولوا يوم القيامة
إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا
لِمَا أَشْرَكْنَا آبَاؤَنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا
ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
الْمُبْطِلُونَ؟ ﴿٢﴾

أخبر بهذه الآية عن سابق عهده، وصادق وعده، وتأكيده عناج^(١) ودّه، بتعريف
عبده، وفي معناه أنشدوا:

سُقِيَاً لِلَّيْلِ وَاللَّيَالِيِ التِّي كُنَّا بِلَيْلِي نَلْتَقِي فِيهَا
أَفْدِيكَ بِلْ أَيَّامُ دَهْرِي كُلِّهَا يَفْدِينْ أَيَّامًا عَرَفْتُكَ فِيهَا

ويقال فأجابهم بتحقيق العرفان قبل أن يقع لمخلوق عليهم بَصَرٌ، أو ظهر في قلوبهم
لمصنوع أثرٌ، أو كان لهم من حميمٍ أو قريب أو صديق أو شفيق خبر، وفي معناه أنشدوا:

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى وَصَادَفَ قَلْبِي فَارْغًا فَتَمَكَّنَا

ويقال جمعهم في الخطاب ولكنه فرّقهم في الحال . وطائفة خاطبهم بوصف القرية
فعرّفهم في نفس ما خاطبهم، وفرقة أبقاهم في أوطان الغيبة فأقصاهم عن نعت العرفان وحجبهم .

ويقال أقوام لا طمّهم في عين ما كاشفهم فأقروا بنعت التوحيد، وآخرون أبعدهم
في نفس ما أشهدهم فأقروا عن رأس الجحود .

ويقال وسمّ بالجهل قوماً فالزمهم بالإشهاد ببيان الحجة فأكرمهم بالتوحيد، وآخرون
أشهدهم واضح الحجة (.... .) ^(٢)

(١) العنّاج جبل يشد في أسفل الدلو العظيمة (المنجد) .

(٢) لا بد أن هنا عبارة ساقطة .

ويقال مجبلي لقوم فتولى تعريفهم فقالوا : « بلى » عن حاصل يقين ، وتمرّز عن آخرين فأثبتهم في أوطان الجحد فقالوا : « بلى » عن ظن وتخمين .

ويقال جمع المؤمنين في الأسماء ولكن غابر بينهم في الرتب ؛ فجذب قلوب قوم إلى الإقرار بما أطمعها فيه من المآر ، وأنطق آخرين بصدق الإقرار بما أشهدهم من العيان وكشفهم به من الأسرار .

ويقال فرقة ردهم إلى الهيبة فهاجوا ، وفرقة لا طغهم بالقربة فاستقاموا .
ويقال عرف الأولياء أنه من هو فتحققوا بتخليصهم ، ولبس على الأعداء فتوقفوا لحيرة عقولهم .

ويقال أسمعهم وفي نفس ما أسمعهم أحضرهم ، ثم أخذهم عنهم فيما أحضرهم ، وقام عنهم فانطقهم بحكم التعريف ، وحفظ عليهم — بحسن التولى — أحكام التكليف^(١) وكان — سبحانه — لم مكلفاً ، وعلى ما أراده مضرّفاً ، وبما استخلصهم له معرّفاً ، وبما رقام إليه مشرّفاً .

ويقال كشف قوماً — في حال الخطاب — بجماله فطوحهم في هيان حبه ، فاستمكنت محابهم في كوامن أسرارهم ؛ فإذا سمعوا — اليوم — سماعاً تجددت (تلك الأحوال ، فالانزعاج الذي يظهر فيهم لتذكّر ما سلف لهم)^(٢) من العهد المتقدم^(٣) .

ويقال أسمع قوماً بشاهد الرويية فأصحابهم عن عين الاستشهاد فأجابوا عن عين التحقيق ، وأسمع آخرين بشاهد الرويية فمحام عن التحصيل فأجابوا بوصف الجحد .

ويقال أظهر آثار العناية بدماء حين اختص بالأنوار التي رشت عليهم قوماً ، فمن حرمة تلك الأنوار لم يجعله أهلاً للوصلة ، ومن أصابته تلك الأنوار أفصح بما خص به من غير مقاسة كلفة .

(١) لاحظ مدى إلحاح التشيرى على التزام أحكام التكليف ما سنحت له مناسبة .

(٢) ما بين القوسين مذكور في الهامش أثبتناه في موضعه من النص حسب العلامات المبهزة

(٣) من هذا وما تلاه يتضح كيف ارتبطت الولاية بالفطرة والاجتهاد والخصوصية منذ يوم القدر وكذلك الشأن في مداواة .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك نفصل الآيات ولعلمهم
يرجعون ﴾

إذا سُدَّتْ (١) عيونُ البصائر فما ينفع وضوحُ الحجَّةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه
آياتنا فالسلخ منها فأتبعه الشيطانُ
فكان من الغاوين ﴾

الحقُّ — سبحانه — يظهر الأعداء في صدار الخُلَّة ثم يردُّهم إلى سابق القسمة ، ويُبرزُ
الأولياء بنعتِ الخلاف والزُّلَّة ، ثم يغلب عليهم مقسومات الوصلة .
ويقال أقامه في محل القربة ، ثم أبرز له من مكامن المكر ما أعدَّ له من سابق التقدير ؛
فأصبح والكلُّ دونه رتبة ، وأمسى والكلب فوقه — مع خساسته : وفي معناه
أشدوا :

فبينما بخيرِ والدتي مطمئنة وأصبح يوماً — والزمان تَقَلَّبَا

ويقال ليست العبرة بما يلوح في الحال ، إنما العبرة بما يتول إليه في المآل .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ﴾

لو ساعدته المشيئة بالسعادة الأزلية لم تَلَحُفْهُ الشقاوةُ الأبدية ، ولكن من قصته
الهوايق لم تنعشه اللواحق .

قوله جل ذكره : ﴿ ولكنه أخلد إلى الأرض ﴾

إذا كانت مساكنةُ آدمَ للجنةٍ وطعمه في الخلود فيها أوجبا خروجَه عنها ، فالركونُ
إلى الدنيا — متى يوجب البقاء فيها ؟

قوله جل ذكره : ﴿ واتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾

مواقفة الهوى مُنْزَلُ صاحبها من سماء العِزِّ إلى تراب الدُّل ، وتلقيه في وهدة الهوان ؛
ومن لم يُصَدِّقْ عِلْماً فعن قريبٍ يقاسيه وجوداً .

(١) وودت (شدت) والمعنى يرفضها ويبدو أن الناسخ قد حسب ضمة السين ثلاث نقط
انظر (ولولا انسداد البصائر ص ٥٨٩ من هذا المجلد) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَثَلَّ كَثَلٌ الْكَلْب ﴾

من أخلاق الكلب التعرضُ لِمَنْ لَمْ يُخَفِّهِ على جهة الابتداء ، ثم الرضاء عنه بلقمة ..
كذلك الذى ارتدَّ عن طريق الإرادة يصير ضيق الصدر ، سيء الخلق ، يبدأ بالجفاء
كُلُّ برئء ، ثم يبدأ طياشه بنيل كُلِّ عَرَضٍ خسيس .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ تَحِيلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَرَكَهْ

يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ
لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

المحجوب عن الحقيقة عنده الإمادة والإحسان (سيان) ^(١) ، فهو فى الحالين : إما
صاحب ضَجَرٍ أو صاحب بَطَرٍ ؛ لا يحمل المحنة إلا على زوال الدولة ، ولا يقابل ^(٢) النعمة إلا
بالنهمة ، فهو فى الحالين محجوبٌ عن الحقيقة .

ويقال الكلب نجاسته أصلية ، وخساسته كلية ، كذلك للردود فى الصفة له قصصان
القيمة وحرمان القسمة .

قوله جل ذكره : ﴿ سَاءَ مَثَلًا ^(٣) الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا

بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾

أى صفته أدنى من نعت من يُبَلَى بالإعراض الأزلَى ، وأى نعتٍ أعلى من وصف مَنْ
أَكْرِمَ بالقبول الأبدى ؟ وأى حيلة تنفع مع مَنْ يخلق الحيلة ؟ ^(٤) وكيف نصح الوسيلة إلا
لمن منه الوسيلة ؟

(١) (سيان) زياد أضفناها ليستقيم بها والمعنى ويقوى .

(٢) وردت (ولا يقال) وهى خطأ فى النسخ والمعنى يتطلب (ولا يقابل) .

(٣) أخطأ الناسخ إذ كتبها (مثلاً) .

(٤) نعرف من مذهب القشيري أن (الحيلة) تنصرف إلى الإنسان ، وهو هنا يقرر أن الحيلة من خلق
الحق ، وبهذا يتأكد اتجاهه الكلامي نحو جعل الله خالق كل شيء حتى أكساب العباد .

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَى

وَمَنْ يَضِلَّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

ليست الهداية من حيث السعاية ، إنما الهداية من حيث البداية ، وليست الهداية بفكر العبد ونظريه ، إنما الهداية بفضل الحق وجهيل ذكره .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ

وَالْإِنْسِ﴾

مَنْ خَلَقَهُ لْجَهَنَّمَ — متى يستوجب الجفأت ؟

وَمَنْ أَهْلَهُ لِلْسَخَطَةِ — أئني يستحق الرضوان ؟

ولولا انسداد البصائر وإلا فأى إشكال بقي بعد هذا الإيضاح ؟^(١)

ويقال هم — اليوم — في جحيم الجحود ، مقرّنين في أصفاد الخلدان ، مُتَلَبِّسِينَ ثياب

الحرمان ، طعامهم ضريع الوحشة ، وشرابهم حميم الفرقة ، وغداً هم في جحيم الحرقه^(٢) ..

كما فصّل في الكتاب شرع تلك الحالة .

قوله جل ذكره: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ

لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ

بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ

أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾

أى لا يفقهون معاني الخطاب كما يفهم المُحدِّثون^(٣) ، وليس لهم تمييز بين خواطر الحق

(١) يفتقر التشبهي هنا بمن يقول بحرية الإنسان في اختطاط مصيره باختياره وأوداته ، ويرجع الأمر كله للنسبة .

(٢) لاحظ مفهوم الجحيم ، في تصور الصوفية ، وهو جحيم الفراق — هنا في هذه الدنيا . وبعده جحيم الاحتراق في الدار الآخرة .

(٣) يقول السراج في شرح « المحدثات » التي وردت في الحديث الشريف :
« قد كان في الأمم محدثون ومكلمون فان سيك في هذه الأمة فعمر » المحدث أعلى درجة من درجات الصديقين ، ودلائل ذلك ظهرت عليه حين صاح في خطبه : ياساوية الجبل ، وكان سارية في نهاوند فسمع صوت عمر وأخذ نحو الجبل وظفر بالعدو (اللع ص ١٧٣) .

وبين هواجس النفس ووساوس الشيطان ، ولم أعيّن لا يُبْعِرُونَ بها شواهد التوحيد
وعلامات اليقين ؛ فلا ينظرون إلا من حيث الغفلة ، ولا يسمعون إلا دواهي الفتنة ،
ولا ينخرطون إلا مع من سلك ركوب الشهوة .

« أولئك كالأنعام بل هم أضل » : لأن الأنعام قد رُفِعَ عنها التكليف ، وإن لم يكن
لها وفاق الشرع فليس منها أيضاً خلاف الأمر .

والأنعام لا يَهْتَبُهَا إلا الاعتلاف ، وما تدعو الحيلة من مباشرة الجنس ، فكذلك مَنْ أقيم
بشواهد نفسه وكان من المربوطين بأحكام النفس ، وفي معناه أنشدوا :

نهارك يا مغرور سَهْوٌ وغفلةٌ وليك نومٌ والردي لك لازم
وسميك فيها سوف تكره غيبه كذلك في الدنيا تعيش البهائم

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ،
وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِهِ
سَيُجْزَوْنَ ^(١) مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

سبحان مَنْ تعرّف إلى أوليائه بنعوته وأسمائه فعرّفهم أنه مَنْ هو ، وبأى وصف هو ،
وما الواجب في وصفه ، وما الجائز في نعته ، وما الممتنع في حقه وحكمه ؛ فتجلى لقلوبهم بما يكشفهم
به من أسمائه وصفاته ، فإن القول محجوبة عن الهجوم بذواتها لما يصح إطلاقه في وصفه ،
وإن كانت واقفة على الواجب والجائز والممتنع في ذاته ، فللعقل العرفان بالجملة ، وبالشرع
الإطلاق والبيان في الإخبار ، والقول فيها وردّ به التوفيق يُطلَق ، وما سكّت عنه التوفيق
يُمْتَنَع . ويقال مَنْ كان الغالب عليه وصفٌ من صفاته ذَكَرَهُ بما يقتضيه هذا الوصف ؛
فمن كان مكاشفاً بعبّائه ^(٢) ، مربوط القلب بأفضاله فالغالب على قائله الثناء عليه بأنه الوهاب
والبار والمُعْطَى وما جرى مجراه . ومن كان مجذوباً عن شهود الإنعام ، مكاشفاً بنعت الرحمة

(١) أخطأ الناسخ إذ زاد واو قبل (ما كانوا) والصواب بدونها .

(٢) وردت (بقطائمه) بالعين والصواب أن تكون (بعبّائه) بدليل (أفضاله) و (الإنعام) فيما بعد
فضلا عن الأسماء والصفات الإلهية المختارة (الوهاب والبار والمُعْطَى) .

فالذي يَنْسَلِبُ على ذكره وصفه بأنه الرحمن والرحيم والكريم وما في معناه . ومن سَمَّيَتْ هَمَّتُهُ
عن شهود وجوده ، واستهلك في حقائق وجوده فالغالب على لسانه الحق . ولذلك فأكثر
أقوال العلماء في الإخبار عنه : « الباري » لأنهم في الترقى في شهود الفعل إلى شهود الفاعل .
وأما أهل المعرفة فالغالب على لسانهم « الحق » لأنهم ^(١) مُحْتَطِفُونَ عن شهود الآثار، متحققون
بحقائق الوجود .

ويقال إنَّ الله — سبحانه — وقف الخلق بأسمائه فهم يذكرونها قائلًا ، وتمرَّز بذاته ،
والعقول — وإن صَفَتْ — لا تهجم على حقائق الإشراف ، إذ الإدراك لا يجوز على الحق ؛
فالعقول عند بواده الحقائق متقنعة بنقاب الخيرة عند التعرض للإحاطة ، والمعارف تائهة عند
قصد الإشراف على حقيقة الذات ، والأبصار حسيرة عند طلب الإدراك في أحوال الرؤية ،
والحق سبحانه عزيز ، وباستحقاق نعوت التعالى مُتَفَرِّدٌ ^(٢) .

قوله « وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون » : الإلحاد هو الميل
عن القصد ، وذلك على وجهين بالزيادة والنقصان ؛ فأهل التمثيل زادوا فألحدوا ، وأهل التعطيل
نقصوا فألحدوا ^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنْ خَلْقِنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ
وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾

أجرى الحق — سبحانه — سُنَّتَهُ بِالْأَلَا يُخْلِي البسيطة من أهل لها هم الغياث وبهم دوام
الحق في الظهور ، وفي معناه قالوا :

إِذَا لَمْ يَكُنْ قُطْبٌ فَمِنْ ذَا يَدِيرُهَا ؟

فهذايتهم بالحق أنهم يدعون إلى الحق ، ويدلون على الحق ، ويتحركون بالحق ، ويسكنون

(١) وردت (إلهيهم) ولا معنى لها في السياق والصواب أن تكون (لأنهم) ،
(٢) يلح التشيرى على هذا المعنى دائماً فيقول في تحديد العرفان (تنزه عن الدرك والوصول ، ليس بين
الخلق إلا عرفان الحقائق بنعت التعالى في شهود أفعاله ، فاما الوقوف على حقيقة إنبيته فجئت الصمدية عن
شراف عرفان عليه) الطائف (م) ص ٣٩٨ .
(٣) (لا تمثيل ولا تعطيل) هذا أصل من أصول المذهب الكلامي عند هذا الإمام .

للحق بالحق ، وهم قائمون بالحق ؛ يصرفهم الحق بالحق أولئك هم غياث الخلق ؛ بهم يُسقون
إذا قحطوا ، ويُعطون إذا أجذبوا ، ويُجابون إذا دُعوا ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستخرجهم
من حيث لا يعلمون * وأُملى لهم
إن كيدى متين﴾

الاستدراج أن يلقى في أوهامهم أنهم من أهل الوصلة ، وفي الحقيقة : السابق لهم من القصة
حقائق الفرقة .

— ويقال الاستدراج انتشار العيب بالخير في الخلق ، والانطواء على الشر — في السر —
مع الحق .

ويقال الاستدراج ألا يزداد في المستقبل محبةً إلا ازداد في الاستحقاق نقصان رتبة .
ويقال الاستدراج الرجوع من قوم صفاء الحال إلى دكوب قبيح الأعمال ، ولو كان صادقاً
في حاله لكان معصوماً في أعماله .

ويقال الاستدراج دَعَاوى عريضة صدرت عن معانٍ مريضة .

ويقال الاستدراج إفاضة البر مع (. . . .) ^(٢) الشكر .

قوله جل ذكره : ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حِنَّةٍ
إِنْ هُوَ إِلَّا تَذِيرٌ مَبِينٌ﴾

أو لم يتأملوا بأنوار البصائر يشهدوا أخلاق آثار التقريب بجملة أحواله — عليه السلام —
ليعلموا أن ذلك الشاهد ليس بشاهد متخرص .

ويقال إن برود ^(٣) الواسطة — صلوات الله عليه وعلى آله — كانت بنسيم القرية

(١) هذه نظرة القشيري إلى الولاية والأولياء ومعنى القطب وأهميته .

(٢) مشبهة .

(٣) جمع مُبرود

معطرة^(١) ، ولكن لا يُدْرِكُ ذلك النَّشْرُ إِلَّا بِشَمِّ العِرفان ، فَمَنْ فَقَدَ ذلك — فأى خبر^(٢) له عن حقيقة حاله — صلوات الله عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾
أطلع الله — سبحانه — أقدار الآيات ، وأماط عن ضيائها سحاب الشبهات ؛ فَمَنْ استضاء
بها ترقى إلى شهود القدرة .

ويقال ألح الله تعالى — لقلوب الناظرين بعيون الفكر — حقائق التحصيل ؛ فَمَنْ لم
يعرج في أوطان التقصير أنزلته مراكب السرِّ بساحات التحقق .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ
أَجَلُهُمْ فَبَآئٍ حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾
الناس في مغاليط آمالم ناسون لو شيك آجالهم ، فكم من ناسجٍ لا كفانه ! وكم من بانٍ
لأعدائه ! وكم من زارعٍ لم يحصد زرعه !
هيهات ! الكباش يعتلف والقصابُ مُسْتَعِدٌّ له !
ويقال سرعة الأجل تنغص لذة الأمل .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ
فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾
مَنْ حَرَمَهُ أنوار التحقيق فهو في ضباب الجهل ، فهو يزلُّ عَمِيْنًا ويسقط شمالاً .

قوله جل ذكره : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا
قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا
لَوْ قَهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ ، يَسْأَلُونَكَ

(١) وردت (مطرة) بدون عين ، والسياق يتطلب (معطرة) لتناسب النسيم والشم والنشر
(٢) وردت (خبر) والمقصود فأى (خبر) أى فأى علم له عن حقيقة المصطفى (ص) .

كَأَنَّكَ حَفِيٌّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ ،
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾

السائلُ عن الساعةِ رجلان ؛ مُسَكِّرٌ يَتَفَجَّبُ لِمَرَّطِ جَهْلِهِ ، وعَارِفٌ مُشْتَاقٌ يَسْتَعْجِلُ لِمَرَّطِ شَوْقِهِ ، والمتحقق بوجوده سَاكِنٌ فِي جِلَالِهِ ؛ فسيان عنده قيام القيامة ودوام السلامة .
ويقال الحق — سبحانه — استأثر بعلم الساعة ؛ فلم يُطْلَعْ عَلَى وَقْعِهَا نَبِيًّا وَلَا صَفِيًّا ،
فَالْإِيمَانُ بِهَا غَيْبِي ، وَيَقِينُ أَهْلُ التَّوْحِيدِ صَادِقٌ ^(١) عَنْ شَوَائِبِ الرَّيْبِ . ثُمَّ مُعَجَّلُ قِيَامَتِهِمْ
يُوجِبُ الْإِيمَانَ بِمُؤَجَّلِهَا ^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا
إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ
الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ ،
وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ
وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

أَمْرُهُ بِتَصْرِيحِ الْإِقْرَارِ بِالتَّبَهُّرِ عَنْ حَوْلِهِ وَمُنْتَهَى ، وَأَنْ قِيَامَهُ وَأَمْرَهُ وَنَظَامَهُ بِطَوَّلِ رَبِّهِ
وَمُنْتَهَى ؛ وَلِذَلِكَ تَجَنَّسُ عَلَى الْأَحْوَالِ ، وَتَخْتَلِفُ الْأَطْوَارُ ؛ فَمِنْ عُسْرِ ^(٣) يَمَسَّنِي ، وَمِنْ
يُسْرٍ ^(٤) يَخْصِنِي ، وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ بِمَرَادِي ، وَلَمْ يَكُنْ يَبْدَأُ غَيْرِي قِيَادِي لِتَشَابَهَاتِ أَحْوَالِي
فِي الْيُسْرِ ، وَلِتَشَاكَلَتْ أَوْقَاتِي فِي الْبَعْدِ مِنَ الْعُسْرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ
وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾

أَخْرَجَ النَّسَمَةَ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَأَخْلَقَهُمْ مُخْتَلِفَةً ، وَهَمَمَهُمْ مُتَبَايِنَةً ، كَمَا أَنَّ الشَّخْصَ مِنْ

(١) رُبَّمَا كَانَتْ (صَافٍ) فِي الْأَصْلِ

(٢) الْقِيَامَةُ الْمَجْلَّةُ الَّتِي يُشِيرُ إِلَيْهَا هِيَ (الَّتِي تَقُومُ فِي الْيَوْمِ غَيْرِ مَرَّةٍ بِالْهَجْرِ وَالنُّوْيِ وَالْفِرَاقِ) الطَّائِفُ

(٣) ٣٥١ ، فَالْقَصْدُ مِنَ الْعِبَارَةِ إِذَا أَنَّ أَهْلَ الْخُصُوصِ يُؤْمِنُونَ بِإِيمَانٍ يَقِينٍ بِالْقِيَامَةِ الْمُؤَجَّلَةِ لِأَنَّهُمْ يَشْهَدُونَ
وَيَذُوقُونَ الْقِيَامَةَ لِلْمَجْلَّةِ ، وَقَدْ صَدَّقَ الْقَشِيرِيُّ إِذْ يَقُولُ فِي رِسَالَتِهِ : (فَالْإِنْسَانُ هَيْبٌ قَلْبُهُمْ ظُهُورُ)
الرِّسَالَةُ ص ١٩٨ .

(٤) وَرَدَتْ (هُصْر) . (٤) وَرَدَتْ (يَسْر) وَقَدْ صَوَّبْنَا مَا (عُسْرٍ وَيَسْرٍ) فِي ضَوْءِ مَا قَالَاهُمَا .

نطفة واحدة وأعضاؤه وأجزاءه مختلفة . فمن قدير على تنويع النطفة المتشاكلة أجزاؤها
فهو القادر على تنويع أخلاق الخلق الذين أخرجهم من نفس واحدة .

قوله جل ذكره : ﴿ لَيْسَ كُنْ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَفَشَّتْهَا رَحِمْتُ
حَمَلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ
دَعَا اللَّهَ رَبُّهَا لَنِ آتَيْنَا صَالِحًا
لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾

ردُّ المِثْلِ إلى المِثْلِ ، وربط الشَّكْلِ بالشَّكْلِ ، ليعلمَ العالمون أن سكون الخلق مع الحق
لا إلى الحق ، وكذلك أنسل الخلق من الخلق لا من الحق ، فالخلق تعالى قدوس ؛ منه كل حظ
للخلق خلقا ، منزه عن رجوع شيء إلى حقيقته حقاً

قوله جل ذكره ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلْنَا لَهُ شُرَكَاءَ
فِيهَا إِنَّمَا اتَّخَذَا لِنَفْسِهِمَا آلِهَةً ﴾

شرُّ الناس من يبتهل إلى الله عند هجوم البلاء بخلوص الدعاء ، وشدة التضرع والبكاء ،
فإذا أزيلت شكائته ، ودُفِعت — بيمينته — آفاته ضيعَ الوفاء ، ونسيَ البلاء ، وقابل الرُّفْدَ (١)
بنقضِ العهد ، وأبدل العقد برفض الود ، أولئك الذين أبعدهم الله في سابق الحكم ، وخرطهم
في سلك أهل الرد (٢)

قوله جل ذكره : ﴿ أَأَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾
كما لا يجوز أن يكون الربُّ مخلوقاً لا يجوز أن يكون غير الرب خالقاً ، فمن وصف الحقَّ
بخصائص وصف الخلق فقد ألحدَّ ، ومن نعت الخلق بما هو من خصائص حق الحق فقد جحدَّ .
قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لِمِ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ
يَنْصُرُونَ ﴾

من حَكَمَ بأنه ليس في مقدور الحق شيء (لو فعله اسم الجاهل طوعاً إلا فعله (٣) فقد

(١) (الرد) هو العطاء .

(٢) وردت (الود) وهي خطأ في النسخ

(٣) ما بين القوسين جاء في النسخة المصورة هكذا ، وفيه غموض ربما نشأ عن خطأ في النسخ .

وصف بأنه لا يقدر على نصره فمضاه الذي يعبد الجهاد ، ونعوذ بالله من الضلالة عن الرشاد .
 قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدْعُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾

المعبود هو القادر على هداية داعيه ، وعلم العبد بقدرة معبوده يوجب تبرّيه عن حوله وقوته ، وإفراد الحق — سبحانه — بالقدرة على قضاء حاجته ، وإزالة ضرورته فتقتصر عن قصد الخلق خطاه (١) ، وتنقطع آماله عن غير مولاه

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُمْنَالِكُمْ ، فادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

إذا قرئت الضرورة بالضرورة تضاعف البلاء ، وترادف العناء ؛ فالخلق إذا استعان بمخلوق مثله ازداد بعد مراده من النجح . وكيف تشكو لمن هو ذو شكاية ؟ هيات ١ إن ذلك خطأ من الظن ، وباطل من الحسبان .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ أَرْجُلْ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَمْ أَيْدٍ يَبِطُّشُونَ بِهَا أَمْ لَمْ أَعِينُ يُبْصِرُونَ بِهَا ، أَمْ لَمْ آذَنْ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾

بيّن بهذه الآيات أن الأصنام التي عبدوها دونهم فيما اعتقدوا فيه صفة المدح ، ثم لم يعبد بعضهم بعضاً فكيف استجازوا عبادة ما فاقهم (٢) في النقص ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ ﴾

(١) وودت (خطاؤه) والصواب أن تكون (خطاه)

(٢) وودت (فوقهم) والأرجح أنها ما (فاقهم) في النقص لأن الأصنام أقل قدراً من الإنسان ، حيث لا تملك يداً أو عيناً أو أذناً ، ولا تمشي ولا تعقل ولا تفكر ولا تنفع ، فإذا كان الإنسان مع ذلك موصوفاً بالنقص فالصنم أشد نقصاً .

صدق التوكل على الله يوجب ترك المبالاة بغير الله ، كيف لا .. والمتفرّد بالقدره —
على النفع والضرر ، والخير والشر — الله ؟

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ
وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ والذين تدعون
من دونه لا يستطيعون نصرَكم
ولا أنفُسهم ينصرون ﴿

مَنْ قام بحق الله تولى أموره على وجه الكفاية ، فلا يخرج به إلى أمثاله ، ولا يدع
شيئاً من أحواله إلا أجراه على ما يريد به يحسن أفضاله ، فإن لم يفعل ما يريد جعل العبد
راضياً بما يفعل ، وروح الرضا على الأسرار أتم من راحة العطاء على القلوب

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى
لَا يَسْمَعُوا ، وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ
وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

شاهدوه بأبصارهم لكنهم حجبوا عن رؤيته ببصائر أسرارهم وقلوبهم فلم يعتد
برؤيتهم .

ويقال رؤية الأكبر ليست بشهود أشخاصهم ، لكن بما يحصل للقلوب من مكاشفات
الغيب ، وذلك على مقادير الاحترام وحصول الإيمان .

قوله جل ذكره : ﴿ خذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ
عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾

من خصائص سنة الله في الكرم أنه أمر نبيه — صلوات الله عليه وعلى آله —
بالأخذ به ، إذ الخبر ورد بأن المؤمن أخذ من الله خلقاً حسناً . وكلما كان الجرم أكبر
كان العفو عنه أجلاً وأكمل ، وعلى قدر عظم رتبة العبد في الكرم يتوقف العفو

عن الأصغر والخادم ، قال النبي صلى الله عليه وسلم في الجراحات ^(١) التي أصابته في حرب أحد :
« اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » .

قوله « وَأُمِرُ بِالْعُرْفِ » : أفضل العرف أن يكون أكل العطاء لأكثر أهل الجفاء ،
وبذلك عامل الرسول - صلى الله عليه وعلى آله - الناس .

قوله : « وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » : الإعراض عن الأغيار بالإقبال على من ^(٢)
لم يزل ولا يزال ، وفي ذلك النجاة من الحجاب ، والتحقق بما يتقاصر عن شرحه
الخطاب :

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ
تَزْغٍ ، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴾

إن سَنَحَ في باطنك من الوماس أثرٌ فاستعِذْ بالله يدركك بحسن التوفيق ، وإن
هَجَسَ في صدرك من الحظوظ خاطر فاستعِذْ بالله يدركك بإزالة كل نصيب ، وإن
كَيْفَقَتْكَ في بذل الجهد فَتْرَةٌ فاستعِذْ بالله يدركك بإدامة آلائه ، وإن اعْتَرَتْكَ في الترقى
إلى محل الوصول وقفة فاستعِذْ بالله يدركك بإدامة التحقيق ، وإن تقاصر عنك شيء
من خصائص القرب — صيانة لك عن شهود المحل — فاستعِذْ بالله يُشِينِكَ له بدلاً
مِنْ لَكَ بِكَ ^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ
طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا
هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾

إنما يمس المتقين طيفُ الشيطان في ساعات غفلتهم عن ذكر الله ، ولو أنهم استداموا

(١) وردت (الجراحات) بالهاء وهي خطأ في النسخ

(٢) وردت (ما لم يزل) وقد آثرنا (من لم يزل) لأن (من) للعاقل

(٣) تصلح هذه الفقرة وصية للمريدين ، وتبين عن أسلوب التشيرى في الوصية من التاجين
الصوفية والأدبية .

ذكر الله بقلوبهم لما مسهم طائف الشيطان ، فإن الشيطان لا يقرب قلباً في حال شهوده الله ؛ لأنه ينخس عند ذلك . ولكن لكل صارم نبوة ، ولكل عالم هفوة ، ولكل عابد شدة ، ولكل قاصد قرة ، ولكل سائر وقفة ، ولكل عارف حجة ، قال صلى الله عليه وسلم : « إنه ليغان على قلبي . . . »^(١) أخبر أنه يعتريه ما يعتري غيره ، وقال صلى الله عليه وسلم : « الحدة تعتري خيار أمتي »^(٢) ، فأخبر أن خيار الأمة — وإن جلت رتبته — لا يتخلصون عن حدة تعتريهم في بعض أحوالهم ، فتخرجهم عن دوام الحلم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإخوانهم يمدّونهم في النى ﴾
ثم لا يفصرون ﴿

إخوان الشيطان أرباب دوام الغيبة ؛ فهم في كمال الغفلة تدوم بهم الحجة ؛ فمنهم بالزلة من لم يعلم ، أو ألم ولكن لم يصير فهم خياره^(٣) ، ومنهم من غفل واغتر ، وعلى دوام الغيبة أصر — فهم المحبوبون قطعاً ، والبعدون^(٤) — عن محل القرب — صدأ^(٥) ورداً .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا لم تأنهم بآية قالوا لولا اجتبتنا ﴾ ، قل إنما أتبع ما يوحى إلى من ربي ، هذا بصائر من

(١) « إنه ليغان على قلبي فاستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة » أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي ، وفي رواية لمسلم : « توبوا إلى ربكم فوالله إنى لأتوب إلى ربي تبارك وتعالى في اليوم مائة مرة » ويقول صاحب اللع : الذين الذين كان يتوب منه الرسول مثله مثل المرأة إذا تنفس فيها الناظر فينفس من ضوئها ثم تعود إلى حالة ضوئها (اللع ص ١٥١) .

(٢) قال (ص) (أني بشر أغضب كما يقضب البشر) الشيخان عن أبي هريرة وأحمد ومسلم عن جابر

(٣) من هذا يضح مدى انقراح الأمل أمام المصيبة ، وكيف أن باب التوبة يتسع لآمالهم .

(٤) وردت المعبودون وهي خطأ في النسخ

(٥) وردت (صمد) وهي خطأ في النسخ وقد تقدم معنى الصمد والرد

رَبُّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

مَنْ شَهِدَ الْحَقَّ مِنْ حَيْثُ انْخَلَقَ سَقَطَ فِي مَهْوَاةٍ لِلْغَالِيطِ ، فَهُوَ فِي مَنَاهَاتِ الشُّكِّ يُجِيبُ
مَنَازِلَ الرَّيِّبِ ، وَلَا يَزْدَادُ إِلَّا عَمًى عَلَى عَمًى . وَمَنْ طَالَعَ الْخَلْقَ بَعَيْنَ تَصْرِيفِ الْقُدْرَةِ
لِيَأْمَ تَحَقُّقَ بَأْنِهِمْ لَا يَظْهَرُونَ إِلَّا فِي مَعْرِضِ اخْتِيَارِ الْحَقِّ لَمْ ، فَهُوَ يَنْظُرُ بِنُورِ الْبَصِيرَةِ ،
وَيَسْتَدِيمُ شُهُودَ التَّصْرِيفِ بِوَصْفِ السَّكِينَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ
وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

اسْتَمِعُوا بِسَمْعِ الْإِيمَانِ وَالتَّصَدِيقِ ، وَأَنْصِتُوا (بِصَوْنٍ) الْخَوَاطِرَ عَنْ مَعَارِضَاتِ
الْإِعْتِرَاضِ ، وَمَطَالِبَاتِ الْاِسْتِكْشَافِ . وَمَنْ بَاشَرَ التَّحْقِيقَ سِرَّهُ لَازِمَ التَّصَدِيقِ قَلْبِيهِ .
وَالْإِنْصَاتِ — فِي الظَّاهِرِ — مِنْ آدَابِ أَهْلِ الْبَابِ ، وَالْإِنْصَاتِ — بِالسَّرَائِرِ —
مِنْ آدَابِ أَهْلِ الْبَسَاطَةِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي نِعْمَتِ تَوَاصِي الْجَنِّ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عِنْدَ شُهُودِ
الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا » ^(١) ؛ فَإِذَا كَانَ الْحُضُورُ إِلَى
الْوَاسِطَةِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُوْجِبُ هَذِهِ الْهَيْبَةَ فَلَزُومُ الْهَيْبَةِ وَحِفْظُ الْأَدَبِ عِنْدَ حُضُورِ الْقَلْبِ بِشُهُودِ
الرَّبِّ أَوْلَى وَأَحَقُّ ، قَالَ تَعَالَى : « وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا » ^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا
وَرَحِيقَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ
وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ
الْغَافِلِينَ ﴾ ^(٣) .

التَضَرُّعُ إِذَا كُوْشِفَ الْعَبْدُ بِوَصْفِ الْجَمَالِ فِي أَوَانِ الْبَسَاطَةِ ، وَالرَّحِيقَةُ إِذَا كُوْشِفَ بِنِعْمَتِ
الْجَلَالِ فِي أَحْوَالِ الْهَيْبَةِ ، وَهَذَا لِلْأَكْبَرِ .

(١) آيَةُ ٢٩ سُورَةِ الْأَحْقَافِ .

(٢) آيَةُ ١٠٨ سُورَةِ طه .

(٣) أُخْطِئَ النَّاسِخُ إِذْ كَتَبَهَا (الْغَافِلُونَ)

فَأَمَّا مَنْ دُونَهُمْ فَتَنَوْعُ أحوالهم من حيث الخوف والرجاء ، والرغبة والرهبة . ومن فوق الجميع فأصحاب البقاء والفناء ، والصحو والمحو ووراءهم أرباب الحقائق مُثَبِّتُونَ في أوطان التمكين ، فلا تَلَوْنَهُمْ ولا تَجْنِسَ لقيامهم بالحق ، وامتثالهم عن شواهدهم .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ

عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ

يَسْجُدُونَ ﴾ .

أثبت لهم عندية الكرامة ، وحفظ عليهم أحكام العبودية لثلاث ينفك حال جمعهم عن نعمت فرقتهم^(١) ، وهذه سُنَّةُ اللَّهِ تعالى مع خواص عبادِهِ ؛ يلقاهم بخصائص عين الجمع ويحفظ عليهم حقائق عين الفرق لثلاث يُخَلِّوْا بِآداب العبودية في أوان وجود الحقيقة^(٢) .

السورة التي تذكر فيها الأنفال

قال الله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله إخبار عن قدرته على الإبداع والاختراع ، الرحمن الرحيم إخبار عن تصرفه بالإقناع وحسن الدِّعَاء ؛ فبقدرته أوجد ما أوجد من مراده ، وبنصرته وَحَّدَ مَنْ وَحَّدَ

قوله جل ذكره : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ

لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ .

الأنفال ها هنا ما آل إلى المسلمين من أموال المشركين ، وكان سؤالهم عن حكمها ، فقال الله تعالى : قُلْ لَمْ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ مَلَكَاتٍ ، ورسوله — عليه السلام — الْحُكْمُ فِيهَا بما يقضى به أمراً وشرعاً .

(١) وردت فوقهم بالواو والصواب (فرقتهم) بالراء ، فالكلام عن الجمع والفرق .
(٢) لاحظ هنا كيف يلجأ التفسير دائماً على عدم الإخلال بأي شرط من شروط الشريعة مهما أوهل العبد في الفناء ، بل يعتبر حفظ الله لعبده في هذه المرحلة الحاسمة علامة صدق العهد وآية خصوصيته .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ .

أى أجيئوا لأمر الله ، ولا تطيعوا ذوائعى منكم والحكم بمقتضى أحوالكم ، وابتغوا إشاره الحق على مراد النفس ، وأصلحوا ذات بينكم ، وذلك بالانسلخ عن شح النفس ، وإشراق حق الغير على مآلكم من النصيب والحظ ، وتنقية القلوب عن خفايا الحسد والحقد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ :

أى فى الإجابة إلى ما يأتىكم من الإرشاد .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

أى سبيل المؤمن ألا يخالف هذه الجملة .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا لِلْمُتَّقِينَ إِذَا دُكِرَ اللَّهُ

وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ

آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ

يَتَوَكَّلُونَ ﴾ .

الوجل شدة الخوف ، ومعناه ها هنا أن يخرجهم الوجل عن أوطان الغفلة ، ويرجعهم عن مساكن الغيبة . فإذا انفصلوا عن أودية التفرقة وظهروا إلى مشاهد الذكر نالوا السكون إلى الله — عز وجل ؛ فيزيدهم ما يتلى عليهم من آياته تصديقاً على تصديق ، وتحقيقاً على تحقيق . فإذا طالعوا جلال قدره ، وأيقنوا قصورهم عن إدراكه ، توكلوا عليه فى إمدادهم بالرعاية فى نهايتهم ، كما استخلصهم بالعناية فى بدايتهم .

ويقال سنة الحق — سبحانه — مع أهل العرفان أن يرددهم بين كشف جلال ولطف جمال ، فإذا كشفهم بجلاله وجلت قلوبهم ، (وإذا لطفهم بجماله سكنت قلوبهم ، قال الله تعالى : « وَلَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ » . ويقال وجلت قلوبهم ^(١) بخوف فراقه ، ثم تطمئن وتسكن أسرارهم بروح وصاله . وذكر الفراق يفنيهم وذكر الوصال يضحىهم ويحييهم .

(١) ما بين القوسين مذكور فى الهامش أثبتناه فى موضعه من النص حسب العلامة المبيزة .

ويقال الطالبون في نوح رهبهم ، والواصلون في روح قربهم ، والموحدون في
محو غيبتهم ؛ استولت عليهم الحقائق فلاهم تطلع لوقت مستأنف فيستفهم خوف أو يحرفهم
طمع ، ولا لهم إحساس فتتلكهم لذة ؛ إذ لما^(١) اضطلوا ببواديه ما ملكهم فهم عنهم محو ،
والغالب عليهم سوام .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم
ينفقون ﴾ أولئك هم المؤمنون حقا
لهم درجات عند ربهم ومغفرة
ورزق كريم ﴾

لا يرضون في أعمالهم بإخلال ، ولا يتصفون بجمع مال من غير حلال ، ولا يعرجون في
أوطان التقصير بحال ، أولئك الذين صفتهم ألا يكون للشرعية عليهم نكير ، ولا لهم عن
أحكام الحقيقة مقيل .

« فهم المؤمنون حقا » أي حققوا حقا وصدقوا صدقا . ويقال حق لهم ذلك حقا .
قوله : « لهم درجات عند ربهم » على حسب ما أهّلهم له من الرتب ؛ فيسابق قسمة لهم
استوجبوها ، ثم بصادق خدمتهم — حين وفقهم لها — بلغوها .
ولهم مغفرة في المال ، والستر في الحال لأكبرهم ؛ فالمغفرة السر ، والحق سبحانه يستر
منايب العاصين ولا يفضحهم لئلا يجربوا عن مأمول أفضالهم ، ويستر مناقب العارفين عليهم
لئلا يعجبوا بأعمالهم وأحوالهم ، وفرق بين ستر وستر ، وشتان ما هما !
وأما الرزق الكريم فيحتمل أنه الذي يعطيه من حيث لا يحتسب ، ويحتمل أنه الذي
لا ينقص بإجرامهم ، ويحتمل أنه مالا يشغلهم بوجوده عن شهود الرزاق ، ويحتمل أنه رزق
الأسرار بما يكون استقلالها به من المكاشفات .

قوله جل ذكره : ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق
وإن فريقا من المؤمنين لكارهون ﴾

(١) وردت (لم) واليباق يقتضى (لما) .

بَيِّنَ — سبحانه — أن الجدالَ منهم عادةٌ وسَّجِيَّةٌ ، ففي كل شيء لهم جدال واختيار ؛ فكَرُّهُوا خروجه إلى بدرٍ ، كما جادلوا في حديث الغنيمة ، قال تعالى : « يسألونك عن الأنفال » وما يكون من خصال العبد غير منكر ويكون على وجه الندرة كان أقرب إلى الصفح عنه والتجاوز ، فأما إذا صار ذلك عادةً فهو أصعب

ويقال ما لم تبأشر خلاصة الإيمان القلب لا يوجد كمال التسليم وترك الاختيار ، وما دام يتحرك من العبد عرقٌ في الاختيار فهو بعيدٌ عن راحة الإيمان .

ولقد أجرى الله سنته مع أوليائه ، وكذلك كانت سنته مع أنبيائه ألا يفتح لهم كمال النفع إلا بعد مفارقة مألوفات الأوطان ، والتجرد عن مساكنة مافيه^(١) حظ ونصيب من كل معهود ويقال إن في هجرة الأنبياء — عليهم السلام — عن أوطانهم أماناً لهم من عادة الأعدى ، وإحياء لقلوب قوم تقاصرت أقدامهم عن المسير^(٢) إليهم .

وكذلك هجرة الأولياء من خواصه ؛ فيها لهم خلاصٌ من البلايا ، واستخلاصٌ للكثيرين من البلايا .

قوله جل ذكره : ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾

جحدُ الحق بعد وضوح برهانه علم^(٣) لاستكبار صاحبه ، وهو — في الحال — في وحشة غيبه ، مُعَاقَبٌ بِالْأُصْدِ وَتَنْفُسُ الْعَيْشِ ، يَمَلُّ حَيَاتَهُ وَيَتَمَنَّى وَفَاتَهُ ؛ « كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ »

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّكَّةِ تَكُونَ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ

(١) وردت (ما لم فيه) وربما كانت (ما لم فيه)

(٢) وردت (المصير) والمصيح (مسير) الذين لم تنح لهم فرصة الانتقال إلى أماكن الأنبياء .

(٣) ضبطنا (علم) هكذا لكي تؤدي معنى (علامة) على الاستكبار ، فهكذا يتطلب السياق .

يُحَقِّقُ الْحَقُّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعُ دَائِرَ
الْكَافِرِينَ ❊

التعريجُ في أوطان الكسل ، ومساكنة مألوفات الراحة من خصائص أحكام النفس .
فهي بطبعها تؤثر في كل حال نصيبها ، وتمجّل لذّة حفظها . ولا يصل أحدٌ إلى جلائل النعم
إلا بتجرّع كأسات الشدائد ، والاسلاح عن مهبوبات النصيب . « ويريد الله أن يُحَقِّقَ الحق
بكلماته » أي إذا أراد الله — سبحانه — تخصيصَ عبدٍ بولايته قضى على طوارق نفسه بالأفول ،
وحكم لبعض شهواته بالذبول ، وإلى طوابع الحقائق بإشراقها ، ولجوامع اللوانع باستحقاقها .
قوله جل ذكره : ❊ لِيُحَقِّقَ الْحَقُّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ
ولو كرهَ الجرمون ❊

ليحق الحق بالتوفيق فيما يحصل ببذل الجهود ، والتحقيق لما يظهر من عين الجود .
ويقال ليُحَقِّقَ الحق بنشر أعلام الوصل ، ويُبْطِلَ الباطل بقهر أقسام الهزل .

قوله جل ذكره : ❊ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ
أَنِّي مُّمِدُّكُمْ بِالْفِ من الملائكة
مُرْدِفِينَ ❊ وما جعله الله إلا بُشْرَى
ولنطمئننَّ به قلوبكم وما النصر إلا من
عند الله إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ❊

الاستغاثة على حسب شهود الفاقة وعدم المنّة والطاقة ، والتحقيق بانفراد الحق بالقدرة على
إزالة الشكّة تيسيرٌ للمستول وتحقيقٌ للأمول . فإذا صدقت الاستغاثة بتعجّل الإجابة
حَصَلَتْ الآمالُ وقُضِيَت الحاجة . . . بذلك جَرَتْ سُنَنُهُ الْكَرِيمَةُ .

ويقال بَشَّرَهم بالإمداد بالملك ، ثم رقّاهم عن هذه الحالة بإشهادهم أن الإنجاز من الملك ،
ولم يَدْرهم في المساكنة إلى الإمداد بالملك فقال : « وما النصر إلا من عند الله » ثم قال :
« إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ » فالنجاة من البلاء حاصلة ، وفنون الإنجاز والإمداد بالطاقة متواصلة ،
والدعوات مسموعة ، والإجابة غير ممنوعة ، وزوائد الإحسان متّاحة ، ولكن الله عزيز

الطالبُ واجدٌ ولكن بعطائه ، والراغب واصل ولكن إلى مباره . والسبيلُ سهلٌ
ولكن إلى وجدان لطفه ، فأما الحقُّ فهو عزيز وراء كل وصل وفصل ، وقُربٍ وبعُد ،
وما واصلَ أحدٌ إلا إلى نصيبه ، وما بقي أحدٌ إلا عن حظه ، وفي معناه أنشدوا :

وَقُلْنَا لَنَا نَحْنُ الْأَهْلَةُ إِنَّمَا نَضِيءُ لِمَنْ يَسْرِى بَلِيلٍ وَلَا نُقْرِى
فَلَا يَذَلَّ إِلَّا مَا تَزَوَّدَ نَظَرٌ وَلَا وَصَلَ إِلَّا بِالْجَمَالِ الَّذِى يَسْرِى

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ يَفْشِكُمُ النَّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ
عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ
وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ
وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ۝ ﴾

غَشِيَهُمُ النَّعَاسُ تلك الليلة فأزال عن ظواهرهم^(١) ونفوسهم كدَّ الأغيار والكلال ،
وأُنزل على قلوبهم رَوْحَ الأمان ، وأمطرت السماء فَاغْتَسَلُوا بعدما لَزِمَتْهُمْ الطهارة الكبرى بسبب
الاحتلام ، واشتدت الأرض بالمطر فلم ترمس الأقدام في رملها ، وانتفى عن قلوبهم ما كانت
الشياطين توسوس به إليهم أنه سيصيبهم العناء بسلك رملها وبالانتفاء عن الفُسل ، فلما
(. . .)^(٢) الإحساس ، واستمكن منهم النَّعَاسُ ، وتداركتهم الكفاية والنصرة
استيقنوا بأن الإعانة من قبل الله لا يسكونهم وحركتهم ، وأشهدهم صرف التأييد
وإتمام الكفاية

وكما طَهَّرَ ظواهرهم بماء السماء طَهَّرَ سرائرهم بماء التحقيق عن شهود كلِّ غير وكلِّ عِلَّة ،
وصان أسرارهم عن الإصغاء إلى الوسوس ، وربط على قلوبهم بشهودهم جريان التقدير على
حسب ما يجري الحقُّ من فنون التصريف .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيُنَبِّتُ بِهِ الْأَقْدَامَ ۝ ﴾

(١) وردت (زواهرم) والصواب أن تكون (ظواهرم) لتتلاءم مع (نفوسهم)
(٢) مشتبه وربما كانت (زایلهم)

أقدام الظاهر في مشاهد القنال ، وأقدام السرائر على هيج الاستقامة بشهود
مجارى التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي
مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا ^(١) الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلَنِي
فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ ﴾ .

عرّفنا أن الملائكة محتاجون إلى تعريف الحق إياهم قضايا التوحيد . وتثبيت الملائكة
للمؤمنين : قيل كانوا يظهرون للمسلمين في صور الرجال يخاطبونهم بالإخبار عن قلة عدد
المشركين واستيلاء المسلمين عليهم ، وهم لا يعرفون أنهم ملائكة .

وقيل تثبتهم إياهم بأن كانوا يلتقون في قلوبهم ذلك من جهة الخواطر ، ثم إن الله يخلق لهم
فيها ذلك ، فكما يوصل الحق سبحانه — وساوس الشيطان إلى القلوب يوصل خواطر الملك ،
وأيدّهم بإلقاء الخوف والرعب في قلوب الكفار .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا
مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ ذلك بأنهم شاقوا
الله ورسوله .

وذلك بأمر الله وتعريفه من جهة الوحي والكتاب ، ويكون معناه إباحة ضربهم ونيلهم
على أى وجه كان كيفما أصابوا أسافلهم وأعاليمهم . ويحتمل فاضربوا فوق الأعناق ضرباً
يوجب قتلهم ؛ لأنه لا حياة بعد ضرب العنق ، ولفظ فوق يكون صلة .

« واضربوا منهم كل بنان » أى ضرباً يعجزهم عن الضرب ومقاتلة المسلمين ؛ لأنه
لامقاتلة تحصل بعد فوات الأطراف .

« ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله » بين أنهم في مغاليط حسابهم وأكاذيب ظنونهم .
والمنشئ — بكل وجه — الله ؛ لانفراده بقدرة الإيجاد

(١) أخطأ الناسخ فكتبها (ثبت)

قوله جل ذكره : ﴿وَمَنْ يَشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ .

يُمَثِّلُ الْمَجْرِمَ^(١) أَبَاطًا ثُمَّ لَا يَهْمِلُهُ ، بَلْ يَنْدِيْقُهُ بِأَسْفَلِهِ ، وَيَزِيلُ عَنْهُ شُبُهَةَ ظَنُّهُ

قوله جل ذكره : ﴿ذَلِكَ فَدَوْقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾^(٢) ..

ذَلِكَ الْعَذَابَ فَدَوْقُوهُ — أَمَّا لِلشُّرَكَاءِ — مُعْجَلًا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُؤَجَّلًا ، فَلِلْعَاصِينَ عِقَابَانِ مُحْصَلٌ بِنَقْدٍ وَمُؤَخَّرٌ بَوَعْدٍ .

قوله جل ذكره : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا^(٣) إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دَرَبَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ .

يقول إذا لقيتم الكفار في المعركة زحفاً مجتمعين فاثبتوا لقتالهم ، ولا تنهزموا فالشجاعة ثبات القلوب ، وكما قيل الشجاعة صبر على الطاعة وفي الجهاد مع العدو ، فالواجب الثبات عند الصولة — هذا في الظاهر ، وفي الباطن جهاد مع الشيطان ، والواجب فيه الوقوف عن دواعيه إلى الزلة ؛ فَبَيْنَ وَقَفَ عَلَى حَدِّ الْإِمْسَاكِ عَنْ إِجَابَتِهِ ، بَلَا إِنْجَازٍ لِمَا يَدْعُوهُ بوساوسه فَقَدْ وَفَّى الْجِهَادَ حَقَّهُ .

وكذلك في مجاهدة النفس ، فإذا وقف العبد عن إجابة النفس فيما تدعوه به واجسها ،

(١) وردت (المجرم) بالخاء وهي خطأ في النسخ

(٢) أخطأ الناسخ إذ جعلها (عذاباً أليماً) .

(٣) سقطت (آمنوا) من الناسخ فاثبتناها

ولم يُطع^(١) شهوته فيما تحمله النفس عليه من البلاء إلى ابتغاء حفظه فقد وفى الجهاد حقّه .

والإشارة في قوله : « إلا متحرّفاً لقتال » بإيثار بعض الرخص ليتقوى على ما هو أشد ؛ كالأكل مثلاً ما يُقيم صلبه ليقوى على السهر ، وكترفعه بنفسه بإيثار بعض الراحة من إزالة عطش ، أو نفى مقاساة جوع أو برد أو غيره لئلا يبقى عن مراعاة قلبه ، ولاستدامة اتصال قلبه به ، فإن ترك بعض أوراذاً للظاهر لئلا يبقى به عن الاستقامة في أحكام واردة السرائر أخذ في حقّ الجهاد بحزم .

والإشارة في قوله : « أو متحيزاً إلى فئة » إلى اعتضاد المريد بصحبة أقرانه فيما يساعدونه في المجاهدة ، ويُبقي شهود ما هم فيه من المكابدة من إقامته على مجاهدته . ثم باستمداده من هم الشيوخ ؛ فإن المريد ربيبُهم شيخه ، فالأقوياء من الأغنياء ينفقون على خدامهم من نعمهم ، والأصفياء من الأولياء ينفقون على مريديهم من همهم ؛ يجبرون^(٢) كسرهم ، ويتوبون منهم ، ويساعدونهم بحسن إرشادهم . ومن أهل مريداً وهو يعرف صدقه ، أو خالف شيخاً وهو يعرف فضله وحقّه فقد بآء من الله بسخط ، والله تعالى حسيبه في مكافأته على ما حصل من قبيح وصفه .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾

الذى نقي عنهم من القتل هو إماتة الروح وإثبات الموت ، وهو من خصائص قدرته — سبحانه ، والذى يوصف به الخلق من القتل هو ما يفعلونه في أنفسهم ، ويحصل ذهاب الروح عقيه .

وفائدة الآية قطع دعاوهم في قول كل واحد على جهة التفاخر قتلت فلاناً ، فقال : « فلم تقتلوه » أى لم تكن أفعالكم مما انفردتم بإيجادها بل المنشأ والمبدى^(٣) هو الله عز وجل . وصانهم بهذه الآية وصان نبيه — عليه السلام — عن ملاحظة أفعالهم وأحوالهم .

(١) وردت (لم يطع) وهى خطأ فى النسخ

(٢) وردت (يجبرون) والمناسب للكسر (يجبرون)

(٣) وردت (المهدى) بالهاء وقد جعلناها (المبدى) لأن الكلام متجه إلى الإنشاء والإيجاد والإبداع والخلق .

وكذلك قال جل ذكره : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ

رَمَى ﴾

أى ما رَمَيْتَ بنفسك ولكنك رميت بنا ، فكان منه (صلوات الله عليه) ^(١) قبضُ التراب وإرساله من يده ولكن من حيث الكسب ، وكَسَبُهُ مُوجَدٌ من الله بقدرته ، وكان التبليغ والإصابة من قِبَلِ اللَّهِ خَلْقًا وإبداعًا ، وليس الذى أثبت ما نفى ولا نفى ما أثبت إلا هو ، والفعلُ فَعَلُ واحدٍ ولكن التغاير في جهة الفعل لا في عينه .

فقوله : « إذرمت » فرقٌ ، وقوله : « ولكن الله رمى » جمع . والفرق صفة العبودية ، والجمع نعت الربوبية ، وكلُّ فرقٍ لم يكن مُضْمَّنًا بجمعٍ وكلُّ جمعٍ لم يكن — في صفة العبد — مُؤَيَّدًا بفرق فصاحبه غير شديد الوتيرة .

وإن الحق — سبحانه — يَبْكِلُ الأغيار إلى ظنونهم ، فينهبون في أودية الحسبان ، ويتوهمون أنهم منفردون بإجراء ما منهم ، وذلك منه مكرٌ بهم .

قال الله تعالى : « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً » ^(٢) وأما أرباب التوحيد فيُشْهِدُهم مطالع التقدير ، ويعرفهم جريان الحكم ، ويرِيهِمْ أَنْفُسَهُمْ في أسر التصريف ، وقهر الحكم . وأما الخواص من الأولياء وأصحاب العرفان فيُجْرِي عليهم ما يُجْرِي و (ما) ^(٣) لهم إحساس بذلك ، مأخوذون يثبتهم بشواهد النظر والتقدير ، ويتولى حفظهم عن مخالفة الشرع .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا ﴾

البلاء الاختبار ^(٤) ، فيختبرهم مرة ^(٥) بالنم ليظهر شكرهم أو كفرانهم ، ويختبرهم أخرى بالحن ليظهر صبرهم ، أو ذِكْرَهُمْ أو لسانهم .

(١) أضفنا (صلوات الله عليه) ليتضح اتجاه المعنى .

(٢) آية ١٠٤ سورة الكهف .

(٣) سقطت (ما) من النسخ والمعنى يتطلبها إذ لا إحساس لهم بما يجري عليهم من حكم وتصريف .

(٤) وردت (الاختبار) بالياء وهي خطأ في النسخ .

(٥) وردت (مر) بدول تاء مربوطة والصواب أن تكون بها .

« البلاء الحسن » : توفيق الشكر في المنحة ، وتحقيق الصبر في المحنة ، وكل ما يفعله الحق فهو حسن من الحق لأن له أن يفعله . وهذه حقيقة الحسن : وهو ما للفاعل أن يفعله ^(١) ويقال حسن البلاء لأنه منه و (. . .) ^(٢) البلاء لأنه فيه .

ويقال البلاء الحسن أن تشهد المبلي في عين البلاء .

ويقال البلاء الحسن ما لا دعوى لصاحبه إن كان نعمة ، ولا شكوى إن كان محنة .

ويقال البلاء الحسن ما ليس فيه ضجر إن كان عسراً ، ولا بطر إن كان يسراً .

ويقال بلاء كل أحد على حسب حاله ومقامه ، فأصفاهم ولأء أوفاهم بلاء ، قال عليه السلام : « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمتل فالأمتل » ^(٣)

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

تنفيس لقوم وتهديد لقوم ؛ أصحاب الرفق يقول لهم إن الله « سميع » لأنينكم ؛ فبروح عليهم بهذا وقتهم ، ويحمل عنهم ولاءهم ^(٤) ، وأشدوا :

إذا ما تمنى الناس روحاً وراحةً تمنيت أن أشكو إليك فتسمعاً

وقالوا :

قل لي بالسنة النفس كيف أنت وكيف حالك ؟

وأما الأكابر فلا يؤذن لهم في التنفيس ، وتكون المطالبة متوجهة عليهم بالصبر ، والوقوف تحت جريان التقدير من غير إظهار ولا شكوى ، فيقول : لو ترشح منك ما كُلفت بشر به توجهت عليك الملامة ، فإن لم يكن منك بيان فإني سميع لقاتلك ، عليم بحالتك .

(١) لاحظ الفرق بين (وهو ما للفاعل أن يفعله) في مسألة الحسن فقد جعل فعل الحسن حقا لله وبين (عليه أن يفعله) عند المعتلة إذ جعلوه واجبا عليه .

(٢) مشتبه .

(٣) رواه الترمذي ، وقال حسن صحيح ، وابن ماجه ، والحاكم من سعد بن أبي وقاص . والإمام أحمد واللساني وابن ماجه والدارمي من حديث عاصم . والطبراني من حديث فاطمة .

(٤) ربما كانت في الأصل (بلاءهم) فذلك يناسب التنفيس والترويح والرفق .

ويقال في قوله « عليهم » تسلية لأرباب البلاء ؛ لأن من علم أن مقصوده يعلم حاله سهل عليه ما يقاسيه فيه ، قال — سبحانه — لنبيه صلى الله عليه وسلم : « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون » (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ .

موهن كيدهم : بتقوية قلوب المؤمنين بنور اليقين ، والثبات على انتظار الفضل من قبل الله ، وموهن كيدهم : بأن يأخذ الكافرين من حيث لا يشعرون ، ويظفر جند المسلمين عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾ .

قال المشركون — يوم بدر — اللهم انصر أحب الفئتين إليك ، فاستجاب دعاءهم ونصر أحب الفئتين إليه . وهم المسلمون ، فسألوا بالسنتهم هلاك أنفسهم ، وذلك لانجرارهم في مغاليط ما يعلقون من ظنونهم ، فهم توهموا استحقاق القرية ، وكانوا في عين الفرقة وحكم الشقوة ، موسومين باستيجاب اللعنة بدعائهم ، والوقوع في شقائهم ؛ فباختيارهم منوا ببوارهم . ويقال ظنوا أنهم من أهل الرحمة فزلّوا ، فلما كشف السرّ خابوا وذلّوا ، فعند ذلك علموا أنهم زاغوا في ظنهم وضلوا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ تَنْتَهُوا فهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ (٢) .

فيغفر لكم ما قد سلف من خلاف محمد صلى الله عليه وسلم .

« فهو خير لكم » ليس المراد منه المبالغة ؛ لأنه يقال هذا خير لك من هذا إذا كان الثاني ليس فيه شر ، وترك موافقتهم للرسول صلى الله عليه وسلم — بكل وجه — هو شرّ لهم ، ولكنه أراد به في الأحوال الدنيوية ، وعلى موجب ظنهم .

(١) آية ٩٧ سورة الحجر .

(٢) أخطأ الناسخ في كتابة الآية إذ جاءت هكذا « وَإِنْ تَنْتَهُوا يَغْفِرْ لَكُمْ » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نَعْدًا ﴾ .

يعنى إنَّ عُدَّتُمْ إِلَى الْجَمِيلِ مِنَ السَّيْرِ عُدَّتْنَا عَلَيْكُمْ بِجَمِيلِ الْمِنَّةِ ، وَإِنْ عَاوَدْتُمْ الْإِقْدَامَ عَلَى الشَّرِّ أَعَدَّتْنَا عَلَيْكُمْ مَا أَذَقْنَاكُمْ مِنَ الضَّرِّ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

مَنْ غَلَبَتْهُ قُدْرَةُ الْأَحَدِ لَمْ تَغْنِ عَنْهُ كَثْرَةُ الْعَدَدِ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ .

الناس في طاعة الله على أقسام : فطبيعٌ خلوفٌ عقوبيته ، ومطيعٌ طمعاً في مثوبته ، وآخر تحقّقاً بعبوديته ، وآخر تشرفاً بربوبيته .
وكم بين مطيعٍ ومطيعٍ ! وأنشدوا :

أحبك يا شمسَ النهارِ وبَدَرَهُ وإنْ لامنى فيك الشَّها والفراقُ
وذاك لأنَّ الفضلَ عندك زاخِرٌ وذاك لأنَّ العيشَ عندك باردٌ

قال تعالى : « أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ » ولم يقل أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، وفي ذلك نوع تخصيص ، وحزب تفضيل يَلْطُفُ عن العبارة وَيَبْعُدُ عن الإشارة^(١)

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾

أى تسمعون دعاءه إياكم ، وتسمعون ما أنزلَ عليه من دعائى إياكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ .

لا تكونوا ممن يشهد جهرًا ، ويجحد سِرًّا .

(١) هذا من المواضع التى يشمر فيها القارىء أن القشبرى يريد أن يقول شيئاً ولكنه يتركه لفظنة القارىء يستشف ما وراء السطور .

(٢) أخطأ الناسخ فكتبها (ولو تولوا) .

ويقال لا تُقرُّوا بلسانكم ، وتصرُّوا على كفرانكم .
ويقال مَنْ نطق بتلييسه تشهد الخبرة بتكذيبه .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ
الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

دواعي الحق بحسن البيان ناطقة ، وألسنة البرهان فيها ورد به التكليف صادقة ، وخواطر
الغيب بكشف ظلم الريب مفضحة ، وزواجر التحقيق عن متابعة التمويه للقلوب ملازمة .
فمن ضمَّ عن إدراك ماخوطف به سره ، وعيَّ عن شهود ما كوشف به قلبه ، وخرسَ
— عن إجابة ما أرشد إليه من حجة — فهُمَّ وعقله فدُون دُتْبَةِ البهائم قدره ، وفوق
كل (. . .) (١) من حكم الله ذُّلَّهُ وصغره .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ
وَلَوْ أَصْنَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ .
من أقصته سوابق القسمة لم تُدِّنه لواحق الخدمة ، ومن عليه الله بنعت الشقوة حرمة
ما يوجب عفوّه .

ويقال لو كانوا في متناولات الرحمة لألبسهم صدار العصمة ؛ ولكن سبق بالحرمان
حكمهم ، فُخِّم بالضلالة أمرهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ
وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ .

أجاب واستجاب بمعنى مثل أوقد واستوقد ، وقيل للاستجابة مزية وخصوصية (٢)
بأنها تكون طوعاً لا كرهاً ، وفرق بين من يجيب لخوف أو طمع وبين من يستجيب
لا بعوض ولا على ملاحظة غرض . وحق الاستجابة أن تجيب بالكلية من غير أن تذكر من
المستطاع بقية .

(١) مشبهة .

(٢) لاحظ كيف يتفق مذهب القشيري في المصطلح مع القاعدة اللغوية : زيادة المبنى فيها زيادة المعنى .

والمستجيبُ لربه محوٌّ عن كلِّه باستيلاء الحقيقة ، والمستجيب للرسول — صلى الله عليه وسلم وعلى آله — قائمٌ بشريعته من غير إخلال بشيء من أحكامها . وقد أمر الله سبحانه وتعالى بالاستجابة له — سبحانه ، وبلاستجابة للرسول ؛ فالعبدُ المستجيبُ — على الحقيقة — من قام بالله سرّاً ، واتصف بالشرع جهراً ، فيُفرد الحقُّ — سبحانه — بحقائق الجمع و (. . .)^(١) في مشاهدة الفرق ، فلا يكون للحدثان في مشرب حقائقه تكدير ، ولا لمطالبات الشرع على أحواله تكير .

قوله جل ذكره : ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ .

إذْ لَمَّا أَفْنَاهُمْ عَنْهُمْ أَحْيَاهُمْ بِهِ .

ويقال العابدون أحياهم بطاعته بعد ما أفنَاهُمْ عن مخالفته ، وأما العالميون فأحياهم بدلائل ربه بينته ، بعد ما أفنَاهُمْ عن الجهل وظلمته . وأما المؤمنون فأحياهم بنور موافقته بعد ما أفنَاهُمْ بسيف مجاهدتهم . وأما الموحِّدون فأحياهم بنور توحيده بعد ما أفنَاهُمْ عن الإحساس بكل غير ، والملاحظة لكل حدثان .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

يصون القلوب عن تقلب أربابها فيقلِّبها كما يشاء هو ، من بيان هداية وضلال ، وغيبة ووصال ، وحُبَّة وقُرْبَة ، ويقين ومرية ، وأنسٍ ووحشة .

ويقال صان قلوب العباد عن الجنوح إلى الكسل ، فجدُّوا في معاملاتهم ، وصان قلوب المريدين عن التعرُّيج في أوطان الفشل فصدقوا في منازلهم ، وصان قلوب العارفين — على حدِّ الاستقامة — عن الميل فتحققوا بدوام مواسلاتهم .

ويقال حال بينهم وبين قلوبهم لئلا يكون لهم رجوعٌ إلا إلى الله ، فإذا سَنَحَ لهم أمر فليس لهم إلى الأغيار سبيل ، ولا على قلوبهم تعويل . وكَمَ بين من يرجع عند سوانحه إلى قلبه وبين من لا يهتدي إلى شيء إلا إلى ربه ، كما قيل :

(١) مثبته ، ولكن حسبنا نعلم في مواضع سبقت أن المتصوِّد أن الحق (يتولى) العبد أثناء الفرق الثاني . حيث يعود بالعبد الأخوذ ليقوم بفرائض الشرع ، حتى لا يكون في تحقُّقه مقصراً في شيء من مطالبات الشريعة ، ولذا ترجح أن الكلمة الناقصة هي : (ولا ينزكه) أو ما في معناها .

لا يهتدى قلبي إلى غيركم لأنه سُدَّ عليه الطريق
ويقال العلماء هم الذين وجدوا قلوبهم ، قال تعالى : «إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ» .
والعارفون هم الذين فقدوا قلوبهم .

قوله جل ذكره : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ .

احذروا أن ترتكبوا زلةً توجب لكم عقوبة لا تخص مرتكبها ، بل يعم شؤمها من تعاطاها ومن لم يتعاطها .

وغير المجرم لا يؤخذ بجُرْم من أذنب ، ولكن قد ينفرد أحدٌ بجرمٍ فيحمل أقوامٌ من المختصين بفاعل هذا الجرم ، كأن يتعصبوا له إذا أُخذَ بحكم ذلك الجرم فبعد أن لم يكونوا ظالمين يصيرون ظالمين بمعاونتهم وتعصبهم لهذا الظالم ؛ فتكون فتنة لا تخص بمن كان ظالماً في الحال بل إنها تصيب أيضاً ظالماً في المستقبل بسبب تعصبه لهذا الظالم ومطابقته معه ، ورضاه به ، وهذا معنى التفسير من حيث الظاهر . فأما من جهة الإشارة : فإن العبد إذا باشر رلةً بنفسه عادت إلى القلب منها الفتنة وهي العقوبة المعلقة ، وتصيب النفس منها العقوبة المؤجلة ، والقلب إذا حصلت منه فتنة الزلة — عندما يهيم بما لا يجوز — تعدت فتنته إلى السر وهي الخبيثة .

والمقدم في شأنه إذا فعل ما لا يجوز انقطعت البركات التي كانت تتعدى منه إلى متبعيه وتلامذته ، وكان لهم نصيبهم من الفتنة وهم لم يعملوا ذنباً . ويقال إن الأكبر إذا سكتوا عن التنكير على الأصاغر عند تركهم الأذكار أصابته فتنة ما فعلوه ؛ فلقد قيل إن السفينة^(١) إذا لم يته مأمور . فعلى هذا تصيب فتنة الزلة مرتكبها ومن ترك النهي عن المنكر — مثل من ترك الأمر بالمعروف — يؤخذ بجُرْمه .^(٢)

(١) وردت (السفينة) وهي خطأ في النسخ .

(٢) وردت هذه العبارة حافلة بالكثير من الأخطاء التي سببت في غموض المعنى فقومناها حسبما يقتضى السياق — دون أن يكون اقتحامنا خطيراً على النص .

ويقال إنَّ الزاهد إذا انحط إلى رخص الشرع في أخذ الزيادة من الدنيا مما فوق الكفاية — وإن كان من وجهٍ حلال — تؤدي فتنه إلى من يخرج به من المبتدئين ، فبجملته ما أبدى من الرغبة في الدنيا ، وتركِ التقليل يؤدي إلى الانهماك في أودية الغفلة والأشغال الدنيوية .
والعابد إذا جَنَحَ عن الأَشَقِّ وترك الأولى^(١) تعدى ذلك إلى من كان ينشط في المجاهدة ؛ فيستوطنون الكسل ، ثم يحملهم الفراغ وترك المجاهدة على متابعة الشهوات فيصيرون كما قيل :
إن الشبابَ والفراغَ والجدة مفسدةٌ للمرء أي مفسدة
وهكذا يكون نصيبهم من الفتنة .

والعارف إذا رجع إلى ما فيه حظُّه ، نظرَ إليه المريدُ ، فتندخله فترة فيما هو به من صدق المنازلة ، ويكون ذلك نصيبه من فتنة العارف .
وفي الجملة إذا غفل المَلِكُ ، وتشاغل عن سياسة رعيته تعطلَّ الجندُ والرعية ، وعظمَ فيهم الخللُ والبليَّةُ ، وفي معناه أشدوا :

رُعَاتُكَ ضَيَّعُوا — بِالْجَهْلِ مِنْهُمْ — غَنِيَمَاتٍ فَاسَسْنَاهَا ذِئَابُ
« والله شديد العقاب » بتمجيئه ذلك ، ومن شدة عقوبته أنه إذا أخذ عبداً لِعَاقِبِهِ لا يُمكنه من تلافى موجب تلك العقوبة .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكروا إذا أنتم قليلٌ مُستَضْعَفُونَ
في الأرضِ نخافون أن يتخطفكم
الناسُ فأوَّاكم وأيدَّكم بِنَصْرِهِ ﴾

يُنذِرُهم ما كانوا فيه من القِلَّةِ والذُلِّ وصنوف (...)^(٢) ثم ما نقلهم إليه من الإمكان والبُسْطَةِ ، ووجوه الأمان والحِيطَةِ ، وقرَّبهم إلى إقامة الشكر على جزيل تلك القِسَمِ ،

(١) وردت (الأولاد) وهي خطأ في النسخ ، والجنوح عن الأَشَقِّ وترك الأولى تعبيران مألوفان عندما يتحدث القشيري عن إشار الصوفي للرخص .
(٢) مشبهة وربما كانت (الحِيطَةُ) أي نقصان المنزلة ، فإنها قريبة للسياق ، ومنسجمة مع الموسيقى اللفظية .

وإدانة الحمد على جهيل تلك النعم ، فهتد لهم في ظل أبوابه مقبلاً ، ولم يجعل للعدو إليهم
— بيمن رعايته — سيلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴾

رَزَقَ الأشباحَ والظواهرَ من طيبات الغذاء ، ورزق الأرواح والسرائر من صنوف
الضياء . وحقيقة الشكر على هذه النعم الغيبة عنها بالاستغراق في شهود النعم .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ
وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴾

الخيانة الاستبطان بخلاف ما يؤملُ منك بحق التعويل ، فخيانة الله بتضييع ما ائتمنتك
عليه ، وذلك بمخالفة النصيح في دينه ، وخیانة الرسول بالانصاف بمخالفة ما تبدى من مشايعته .
والخیانة في الأمانات بترك الإنصاف ، والانصاف بغير الصدق .

وخیانة كل أحد على حسب ما وضع عنده من الأمانة ، فمن أوتمن في مال فتصرف فيه
بغير إذن صاحبه — خیانة ، ومن أوتمن على الحرم فلاحظته إياهن — خیانة . فعلى هذا :
الخیانة في الأعمال الدعوى فيها بأنها من قبلك دون التحقيق بأن منشئها الله .

والخیانة في الأحوال ملاحظتك لها دون غيبتك عن شهودها باستغراقك في شهود الحق .
إن لم يكن استهلاكك في وجود الحق . وإذا أخللت بسنة من السنن أو أدب من آداب
الشرع فتلك خیانة الرسول صلى الله عليه وسلم .

والخیانة في الأمانات — بينك وبين الخلق — تكون بإيثار نصيب نفسك على نصيب
المسلمين ، بإرادة القلب فضلاً عن المعاملة بالفعل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ
وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

أموالكم وأولادكم سبب فتنكم لأن المرء — لأجل جمع ماله ولأجل أولاده — يرتكب ما هو خلاف الأمر ، فيورثه فتنة العقوبة .

ويقال الفتنَةُ الاختبارُ ؛ فيختبرك بالأموال .. هل تؤثرها على حق الله ؟

وبالأولاد .. هل تترك لأجلهم ما فيه رضاء الله ؟

فإن آثرتم حقه على حقكم ظهرت به فضيلتكم ، وإن اتصتم بضده عوملتم بما يوجب العكس من محبوبكم .

ويقال للمالُ فتنةٌ إذا كان عن الله يشغلكم ، والأولادُ فتنةٌ إذا لأجلهم قصرتم في حق الله أو قرءتم .

ويقال للمال — ما للكفاف والعفاف^(١) — نعمةٌ ، وما للتقاصر والتفاخر فتنةٌ ، وفي الجملة ما يشغلك عن الله فهو فتنة .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ

يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ^(٢) ۝ .

الفرقان ما به يفرق بين الحق والباطل من علم وافر وإلهام قاهر ، فالعلماء فرقانهم مجلوب برهانيهم ، والعارفون فرقانهم موهوب^(٣) عرفانهم ؛ فأولئك مع مجهود أنفسهم ، وهؤلاء بمقتضى جود ربهم .

العرفان تعريف من الله ، والتكفير^(٤) تخفيف من الله ، والعفوان تشریف للعبد من الله .

(١) وردت (والعفاف) وهي خطأ من الناسخ إذ لا تؤدي المراد ، ونظن أن (العفاف) تنسجم مع السياق ، ومع التركيب الداخلي للأسلوب .

(٢) أخطأ الناسخ إذ جمل خاتمة الآية (والله مبيع علم) .

(٣) وردت (موهوم) وهي خطأ من الناسخ ، والصواب أن تكون (موهوب) فهكذا يتطلب السياق .

(٤) (التكفير) هنا تشير إلى ما ورد في الآية : « ويكفر عنكم سيئاتكم » .

قوله جل ذكره : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ
وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ
خَبِيرٌ لِلكَارِئِينَ﴾

ذكره عظيم منيته عليه حيث خَلَّصَهُ من أعدائه حين خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة ،
وهووا بقتله ، وحاولوا أن يَمْكُرُوا به في السر ، فأعلمه الله ذلك .

والمكرُ إظهارُ الإحسانِ مع قَصْدِ الإساءة في السر ، والمكرُ من الله الجزاء على المكر ،
ويكون المكرُ بهم أن يُبْلَغَ في قلوبهم أنه مُحْسِنٌ إليهم ثم — في التحقيق — يُعَذِّبُهُمْ ، وإذا
شغلَّ قوماً بالدنيا صَرَفَ همومهم إليها حتى يَنْسُوا أمر الآخرة ، وذلك مكرٌ بهم ، إذ يُوطَّنُونَ
نفوسهم عليها ، فينح لهم من مآمنهم سوءاً ، ويأخذهم بفتنة

ومن جملة مكره اغترارُ قومٍ بما يرزقهم من الصبب الجليل بين الناس ، وإجراء كثير
من الطاعات عليهم ، فإسراهم تكون بالأغيار منوطةً ، وهم عن الله غافلون ، وعند الناس أنهم
مُكْرَمُونَ ، وفي معناه قيل :

وقد حسدوني في قرب داري منكم وكمن قريب الدار وهو بعيد

قوله جل ذكره : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا
لَوْ شَاءَ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا
إِلَّا أَصَاثِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾

فرطُ جهالهم ، وشؤم جحدهم سترَ على عقولهم قُبْحَ دعاويهم في القدرة على معارضة القرآن
فانفضحوا عند الامتحان بعدم البرهان ، والعجز عما وصفوا به أنفسهم من الفصاحة والبيان ،
وقديماً قيل :

مَنْ تَحَلَّى بِغَيْرِ مَا هُوَ فِيهِ فَضَحَ الْامْتِحَانُ^(١) مَا يَدَّعِيهِ

(١) وردت (الامتحان) بالهاء والصواب أن تكون بالحاء .

ويقال لما لاحظوا القرآن بعين الاستصغار حرموا بركات الفهم فعدوه من جملة أساطير الأولين ، وكذلك من لا يراعى حرمة الأولياء ، يماقِبُ بأن تُستَرَّ عليه أحوالهم ، فيظنهم مثله في استحقاق مثالبه ، فيطلق فيهم لسان الوقعة ، وهو بذلك أحقُّ ، كما قيل :
« رَمَتْنِي بِدَارِهَا وَانْسَلَّتْ »

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

دَلَّ سؤالهم العذابَ على تصميم عقدهم على تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم ، واستيقنوا عند أنفسهم بأنه لا يُستجابُ فيهم ما يدعونه على أنفسهم .
وفي هذا أظهر دليل على أن سكون النفس إلى الشيء ليس بعلم ؛ لأنه كما يوجد مع العلم يوجد مع الجهل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾

ما كان الله يعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله ليُعذِّبَ أسلافهم وأنت في أصلابهم ، وليس يعذبهم اليوم وأنت فيما بينهم إجلالاً لقدرِكَ ، وإكراماً لمخلُك ، وإذا خرجت من بينهم فلا يعذبهم وفيهم خدمتك الذين يستغفرون ، فالآية تدل على تشريف قدر الرسول — صلى الله عليه وسلم .

ويقال للجوارِ حرمةٌ ، فجاء الكرام في ظل إناهم ؛ فالكفار إن لم يَنعَمُوا^(١) بقرب الرسول — صلى الله عليه وسلم — منهم فقد اندفع للعذاب — بمجاورته — عنهم :

وَأَحِبُّهَا وَأُحِبُّ مَنْزِلَهَا الَّذِي نَزَلَتْ بِهِ وَأُحِبُّ أَهْلَ الْمَنْزِلِ

(١) وردت (ينعَمُوا) والملائم للمعنى (ينعَمُوا) لترتبط بالإمام الذي جاء ذكره في الجملة السابقة ، ويؤكد اختيارنا أيضاً وجود (الباء) في (بقرب الرسول) إذ يقال (نعم بكذا) ولا يقال (منع بكذا) .

ويقال إذا كان كون الرسول — صلى الله عليه وسلم — في الكفار يمنع العذاب عنهم
فكون المعرفة في القلوب أولى بدفع العذاب عنها .

ويقال إن العذاب — وإن تأخر عنهم مدة مقامهم في الدنيا مادام هو عليه السلام فيهم —
فلا محالة يصيبهم العذاب في الآخرة ، إذ الاعتبار بالمواقب لا بالأوقات والطوارق .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾

علم أنه — عليه السلام — لا يتأبد مكثه في أمة إذ قال له : « وما جعلنا لبشرٍ من قبلك الخلد »^(١) ، فقال إني لأضيق أمتي وإن قضى فيهم مدتي ، فما دامت السنن بالاستغفار
متطلعةً فصنوف العذاب عنهم مرتفعة .

قوله جل ذكره : ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله ﴾

وهم يصدون عن المسجد الحرام
وما كانوا أولياءه ﴿

نفى العذاب عنهم في آية ، وأثبتته في آية ، فالنفي في الدنيا والمثبت في الآخرة .

ثم بين إيصال العذاب إليهم في الآخرة بقوله تعالى . « وهم يصدون عن المسجد الحرام »
دليل الخطاب أن إغاثة المسلمين على ما فيه قيام بحق الدين بوجب استحقاق القربة والثواب
وفي الآية دليل على أنه لا يعذب أولياءه بقوله : « وما كانوا أولياءه » فإذا عذب
من لم يكونوا أولياءه دل على أنه لا يعذب من كان من جملة أوليائه . والمؤمنون كلهم أولياء
الله لأنه قال : « والله ولي الذين آمنوا »^(٢) . والمؤمن — وإن عذب بمقدار جرئه زماناً فإنه
لا يخلد في دار العقوبة ، فما يقاسون بالإضافة إلى تأييد الخلاص جلالاً ، وقيل :

إذا سلم العهد الذي كان بيننا فودى وإن شطّ المزار سليم

قوله جل ذكره : ﴿ إن أولياؤه إلا المتقون ولكن

أكثرهم لا يعلمون ﴾

(١) آية ٣٤ سورة الأنبياء .

(٢) آية ٢٥٧ سورة البقرة .

وليس أولياؤه إلا المتقون ، وهم الذين اتقوا الشرك .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت
إلا مُسْكًا ، وَتَصَدِيَةً ﴾ .

تجردت أعمالهم بظواهرهم عن خلوص عقائدهم ، فلم يوجد — سبحانه وتعالى — لها حسناً ،
فزكاهم القالة لا يكون إلا مع صفاء الحالة ، وعناء الظاهر لا يقبل إلا مع ضياء السرائر .

قوله جل ذكره : ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾
كان العذاب مُعْجَلاً وهو حسبانهم أنهم على شيء ، قال الله تعالى :
« وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » ، ومؤجلاً وهو كما قال الله تعالى : ﴿ ولعذاب
الآخرة أشق ﴾ ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم
ليَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَيُنفِقُونَهَا
ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾
يرومون بإفنائهم صنوف أموالهم صلاحاً ونظاماً لأحوالهم ، ثم لا يحظون إلا بخسران ،
ولا يحصلون إلا على نقصان . خسروا وهم لا يشعرون ، وخابوا وسوف يعلمون :
سوف ترى إذا انجلى الغبارُ أفرسُ نحتك أم حمارُ ؟
قوله : « والذين كفروا إلى جهنم يحشرون » إنهم وإن ألهمتهم أموالهم فألى الهوان والذلة
مآلهم ، لم تغن عنهم أموالهم ، ولم تنفعهم أعمالهم ، بل ختيت بالشقاوة أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ
وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ
فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ
أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

(١) آية ٣٤ سورة الرعد .

الخبيث ما لا يصلح لله ، والطيب ما يصلح لله .
 الخبيث ما حكم الشرع بقبحه وفساده ، والطيب ما شهد العلم بحسنه وصلاحه .
 ويقال الخبيث الكافر ، والطيب المؤمن .
 الخبيث ما شغل صاحبه عن الله ، والطيب ما أوصل صاحبه إلى الله .
 الخبيث ما يأخذه المرء وينفقه لحظ نفسه ، والطيب ما ينفقه بأمر ربه .
 الخبيث عمل الكافر يُصور له ويُعَذَّبُ بإلقائه عليه ، والطيب عمل المؤمن يُصور له
 في صورة جميلة فيحمل المؤمن عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأُولِينَ ﴾ .

إن كبحوا لجام التمرد ، وأقلعوا عن الركض في ميدان العناد والتجبر أزلنا عنهم صغار
 الهوان ، وأوجبنا لهم رَوْحَ الأمان .

ويقال إن حلوا نطاق العناد أطلقنا عنهم عقال البعاد .
 ويقال إن أبصروا قُبْحَ فِعَالِهِمْ جُدْنَا عَلَيْهِمْ بِإِصْلَاحِ أحوالهم .
 ويقال إن جنحوا للاعتذار ألقينا عليهم حالة الاعتذار .
 ويقال إن عادوا إلى التَّصَلُّ (١) أبجنا لهم حُسْنَ التَّفَضُّل :

أَنَاسُ . أَعْرَضُوا عَنَّا بَلَا جُرْئِمَ وَلَا مَعْنَى
 أَسَاءُوا ظَنَّهُمْ فِينَا فَهَلَّا أَحْسَنُوا الظَّنَّ
 فَإِنْ كَانُوا لَنَا — كُنَّا ، وَإِنْ عَادُوا لَنَا عُدْنَا
 وَإِنْ كَانُوا قَدْ اسْتَغْفَرُوا فَإِنَّا عَنْهُمْ أَغْنَى

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونََ

(١) تنصّل من ذنبه أى تَبَرَّأ

الدين كله لله فان انتهوا فان الله

بما يعملون بصير ﴿

أمرهم بمقاتلة الكفار والإبلاغ فيها حتى تستأصل شأقتهم بحيث يأمن المسلمون مضرّتهم ،
ويكفون بالكلية فتنهم . . . وحيّة الوادي لا تؤمن ما دامت تبقى فيها حركة ؛ كذلك العدو
إذا قهر فحقه أن تقتلع جميع عروقه ، وتنقذ باع الإسلام من كل شجرة (١) تنبت من الشرك .
قوله جل ذكره : ﴿ وإن تولّوا فاعلموا أن الله مولاكم

نعم المولى ونعم النصير ﴿

فإن أبوا إلا عتوا ، وعن الإيمان إلا نبوا ، فلا على قلوبكم ظل مخافة منهم ؛ فإن الله
— سبحانه — ولي نصرتكم ، ومتولى كفايتكم ؛ إن لم تكونوا بحيث نعم العبيد
فهو نعم المولى لكم ونعم الناصر لكم .

ويقال نعم المولى لكم يوم قسمة العرفان ، ونعم الناصر لكم يوم نعمة الغفران .

ويقال نعم المولى لك حين لم تكن ، ونعم الناصر لك حين كنت .

ويقال نعم للمولى بالتعريف قبل التكليف ، ونعم الناصر لكم بالتخفيف والتضعيف ؛
يخفف عنكم السيئات ويضاعف الحسنات ؛

وهو اكبر أول ما عرفت من الهوى والقلب لا ينسى الحبيب الأول

قوله جل ذكره : ﴿ واعلموا أن ما غنمتم من شيء
فإن الله خمسته والرسول ولذي
القربى واليتامى والمساكين وابن
السبيل إن كنتم آمنتم بالله
وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان
يوم التقى الجمعان ، والله على
كل شيء قدير ﴿

(١) شكرت الشجرة أى خرجت منها الشجرة وهى ما ينبت حولها من أصلها .

الغنيمة ما أخذهُ المؤمنون من أموال الكفار إذا ظفروا عند المجاهدة والقتال معهم .
فإذا لم يكن قتال — أو ما في معناه — فهو في .

والجهاد قسمان : جهاد الظاهر مع الكفار ، وجهاد الباطن مع النفس والشيطان وهو
الجهاد الأكبر — كما في الخبر^(١)

وكما أن في الجهاد الأصغر غنيمةً عند الظفر ، ففي الجهاد الأكبر غنيمة ، وهو أن
يملك العبد نفسه التي كانت في يد العدو : الهوى والشيطان . فبعد ما كانت ظواهره مقررًا
للأعمال الذميمة ، وباطنه مستقرًا للأحوال الدنيئة يصير محلُّ الهوى مسكن الرضا ،
ومقرُّ الشهوات والمشي مُسَلِّمًا لما يردُّ عليه من مطالبات المولى وتصير النفسُ
مُسْتَكْبَةً مِنْ أَسْرِ^(٢) الشهوات ، والقلبُ مُخْتَطَفًا من وصف الغفلات ، والروحُ مُنْتَزَعَةً
من أيدى العلاقات ، والسُّرُّ مُصُونًا عن الملاحظات . وتصبح غَاغَةُ النفسِ مُنْهَرَمَةً ،
ورياسَةُ الحقوقِ بالاستجابة لله خَافِقَةً .

وكما أن من جملة الغنيمة سهمًا لله وللرسول ، وهو الحُسْنُ فما هو غنيمة — على لسان
الإشارة — سهمٌ خالصٌ لله ؛ وهو ما لا يكون للعبد فيه نصيب ، لا من كرائم العقبي ،
ولا من ثمرات التقريب ، ولا من خصائص الإقبال ، فيكون العبدُ عند ذلك مُحَرَّرًا
عن رِقِّ كل نصيب ، خالصًا لله بالله ، يمحو ما سوى الله ، كما قيل :

مَنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ قَانِيًا عَنْ حِظِّهِ وَعَنِ الْهَوَى وَالْإِنْسِ وَالْأَحْبَابِ
فَكَأَنَّهُ - بَيْنَ الْمَرَاتِبِ - وَاقِفٌ لِمَنَالِ حِظٍّ أَوْ لِحُسْنِ ثَوَابِ

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ
بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ
مِنْكُمْ ، وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَقْتُمْ

(١) إشارة إلى ما قاله الرسول بعد إحدى الفزوات : « رجعتنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر
جهاد النفس » .

(٢) وردت (أسرار) وهي خطأ في النسخ .

في الميعاد ، ولكن ليقضى الله
أمراً كان مفعولاً *

يخبر — سبحانه — أن ما جرى يوم بدر من القتال ، وما حصل من فنون الأحوال
كان بحكم التقدير ، لا بما يحصل من الخلق من التدبير ، أو بحكم تقضيه روية
التفكير . بل لو كان ذلك على اختيار وتواعد ، كنتم عن تلك الجملة على استكراه
وتباعد ، فجرى على ما جرى ليقضى الله أمراً كان مقضياً ، وحصل من الأمور ما سبق
به التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ
وَيَحْيِيَ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ
لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

أى لفيض من زاغ عن الحق بعد لزومه الحجة ، ويهتدى من أقام على الحق بعد
وضوح الحجة .

ويقال الحق أوضح السبيل ونصب الدليل ، ولكن مد بصائر قوم عن شهود
الرشد ، وفتح بصائر آخرين لإدراك طرق الحق .

المالك من وقع في أودية التفرقة ، والحي من حي بنور التعريف .
ويقال المالك من كان يحظه مربوطاً ، والحي من كان من أسر كل نصيب
مستكياً مجذوباً^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا
وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَثِيرًا قَلْبُكُمُ
وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ
سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ *
وَإِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ إِذِ التَّقِيَمَ فِي أَعْيُنِكُمْ
قَلِيلًا وَيَقْلُلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى

(١) كلمة (مجذوب) بهذا الاستعمال قد تؤدي المعنى الذى تطلق به في أوساط الصوفية اليوم

اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ

تَرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿

قِيلَ أَرَأَاهُمْ فِي نَوْمِهِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — يُوَصِّفُ الْقِلَّةَ ، وَأَخِيرَ أَصْحَابِهِ بِذَلِكَ فَازْدَادُوا جَسَارَةً عَلَيْهِمْ .

وقيل أَرَاهُ فِي مَنَامِهِ أَيْ فِي مَحَلِّ نَوْمِهِ أَيْ فِي عَيْنِيهِ ، فَغَنَاهُ قَلْبُهُمْ فِي عَيْنِيهِ ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ امْتَكَثَرُوا لَفُتِلُوا فِي قِتَالِهِمْ ، وَلَانْكَسَرَتْ بِذَلِكَ قُلُوبُ الْمُسْلِمِينَ .

وَفِي الْجُمْلَةِ أَرَادَ اللَّهُ جَرِيَانًا مَا حَصَلَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْقِتَالِ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ أَمْرًا هَيِّئًا أَسْبَابَهُ ؛ فَقَلَّلَ الْكُفَّارَ فِي أَعْيُنِ الْمُسْلِمِينَ فَزَادُوا جَسَارَةً ، وَقَلَّلَ الْمُسْلِمِينَ فِي أَعْيُنِ الْكُفَّارِ فَازْدَادُوا — عِنْدَ لُشَاطِهِمْ إِلَى الْقِتَالِ — صَفْرًا فِي حَكْمِ اللَّهِ وَخُسَارَةً .

« وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » : وَكَيْفَ لَا ؟ وَمِنْهُ تَصَدُّرُ الْمَقَادِيرِ ، وَإِلَيْهِ تَرْجَعُ الْأُمُورُ . وَيُقَالُ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَصْرَةَ عَبْدٍ فَلَوْ كَادَ لَهُ جَمِيعُ الْبَشَرِ ، وَأَرَادَهُ السَّكَافَةُ بِكُلِّ ضَرَرٍ ، لَا يَنْفَعُ مَنْ شَاءَ مَضَرَّةً كَدًّا ، وَيَحْصُلُ بَيْنَهُ (١) وَبَيْنَ مَتَاعٍ لَطْفُهُ بِهِ مَدًّا .

وَإِذَا أَرَادَ بَعِيدٌ سَوَاءً فَلَيْسَ لَهُ رَدٌّ ، وَلَا يَنْفَعُهُ كَدٌّ ، وَلَا يَنْعَشُهُ بَعْدَ مَا سَقَطَ فِي حَكْمِهِ جَهْدٌ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً

فَاتَّبِعُوهَا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا

لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴿

أَرَادَ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَاتَّبِعُوهَا . وَالثَّبَاتُ إِنَّمَا يَكُونُ بِقُوَّةِ الْقَلْبِ وَشِدَّةِ الْيَقِينِ ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا لِنَفَازِ الصَّبْرِ ، وَالتَّحَقُّقِ بِاللَّهِ ، وَشُهُودِ الْحَادِثَاتِ كُلِّهَا مِنْهُ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَسْتَسْلِمُ اللَّهُ ، وَيَرْضَى بِحُكْمِهِ ، وَيَتَوَقَّعُ مِنْهُ حُسْنَ الْإِعَاةَةِ ، وَلِهَذَا أَحَالَهُمْ عَلَى الذِّكْرِ قَالًا : « وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا » .

وَيُقَالُ إِنَّ جَمِيعَ الْخَيْرَاتِ فِي ثَبَاتِ الْقَلْبِ ، وَبِهِ تَبَيُّنُ أَقْدَارِ الرِّجَالِ ، فَإِذَا وَرَدَ عَلَى الْإِنْسَانِ خَاطَرٌ يَزْعِجُهُ أَوْ هَاجِسٌ فِي نَفْسِهِ يَهَيِّجُهُ .. فَمَنْ كَانَ صَاحِبَ بَصِيرَةٍ تَوَقَّفَ رِيثًا

(١) الضمير في (بينه) يعود على الضرر أو من شاء الضرر ، والضمير في (به) يعود على المبدئ المنصور .

تَبَيَّنَ لَهُ حَقِيقَةُ الْوَارِدِ ، فَيَنْبَغُ لِكَوْنِهِ رَابِطَ الْجَاشِ ، مَا كُنَّ الْقُلُوبُ ، صَافِيَةً . .
وهذا نعت الأكابر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا
فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا
إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

الموافقة بين المسلمين أصل الدين . وأول الفساد ورأس الزلزال الاختلاف . وكما يجب
الموافقة في الدين والعقيدة يجب الموافقة في الرأي والعزيمة^(١) .

قال تعالى في صفة الكفار : « نَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى » ، وإنما تتحد عزائم المسلمين
لأنهم كلهم يجمعهم التبرؤ من جورهم وقوتهم ، ويتمحضون في رجوعهم إلى الله ، وشهودهم
التقدير ، فيتحدون في هذه الحالة الواحدة .

وأما الذين تَوَهَّمُوا الحَادِثَاتِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ فَضَلُّوا فِي سَاحَاتِ حِسَابِهِمْ ، وَأَجْرُوا الْأُمُورَ
عَلَى مَا يَسْنَحُ لِرَأْيِهِمْ ، فَكُلُّ يَدِينِي عَلَى مَا يَنْقُصُ لَهُ وَيَخْتَارُ ، فَإِذَا تَنَازَعُوا تَشَعَّبَتْ بِهِمُ الْأَرَاءُ ،
وَاقْتَرَقَتْ بِهِمُ الطَّرِيقُ ، فَيُضْعَفُونَ ، وَتُخْتَلَفُ طُرُقُهُمْ . وكما يجب في الدين طاعة رسول الله
— صلى الله عليه وسلم — يجب طاعة أولى الأمر ، ولهذا يجب في كل وقت نصب إمام
للمسلمين ، ثم لا يجوز مخالفته ، قال النبي — صلى الله عليه وسلم — : « أَطِيعُوهُ وَلَوْ كَانَ عَبْدًا
مَجْدَعًا »^(٢) وكان الرسول — صلى الله عليه وسلم — إِذَا بَعَثَ سَرِيَّةً أَمَرَ^(٣) عَلَيْهِمْ أَمِيرًا
وَقَالَ : « عَلَيْكُمُ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ » .

وإجماع المسلمين حجة ، وصلاة الجماعة سنة مؤكدة ، والاتباع محمود والابتداع ضلالة .
قوله « وَاصْبِرُوا » الصبر حبس النفس على الشيء ، والمأمور به من الصبر ما يكون
على خلاف هواك .

(١) وردت (العزيمة) والملائم للرأي ولما جاء بعد قليل تتحد : (عزائم المسلمين) كلمة (العزيمة)
(٢) في رواية مسلم وابن ماجه عن ام الحصين : « إِنْ أَمَرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ مَجْدَعٌ أَسْوَدٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ
فَاسْمُوا لَهُ وَأَطِيعُوا » ص ١٤٦ - ٢ من منتخب كثر المال .
(٣) وردت (اثر) والصواب (إسمرة) أميراً ، وربما اشتبهت علامة التضعيف على الناسخ لحسبها
تطاً لئلا .

« إن الله مع الصابرين » يتولى بالكفاية إذا حصل منهم الثبات وحسن التفويض .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِطَرَاوِرٍ إِلَى النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾

يريد أن أهل مكة لما خرجوا من مكة عام بدر لنصرة العير ملكتهم العزة ، واستمكن منهم البطر ، وداخلهم رياء الناس ، فارتبكوا في شباك غلظهم ، وحصلوا على ما لم يحتسبوه . وأما المؤمنون فنصرهم نصراً عزيزاً ، وأزال عن نبيهم — عليه السلام — ما أظله من الخوف وبصديق تربيته عن حوله ومنته — حين قال : (لا تكلن إلى نفسى)^(١) — كفاه بحسن التولي فقال (ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى) .

قوله جل ذكره : « وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب » .

الشيطان إذا زين للإنسان بوساوسه أمراً ، والنفس إذا سوت له شيئاً عميت بصائر أرباب الغفلة عن شهود صواب الرشد ، فيبقى الغافل^(٢) في قياد وساوسه ، ثم تلحقه هواجس

(١) « لا تكلن إلى نفسى طرفة عين »

الحاكم من حديث أنس قال صحیح علی شرط الشيخین . وهو في اليوم والليل ، وعله صلى الله عليه وسلم لا يلبث الزهراء رضي الله عنها .

(٢) وردت (العاقل) وهي خطأ في النسخ قال كلام عن أرباب الغفلة .

التقدير من كوامن المكر^(١) من حيث لا يرتقب ، فلا الشيطان يفي^(٢) بما يعدّه ، ولا النفس شيئاً مما تمنّاه نجاه ، وكما قال القائل :

أحسنْتَ ظَنِّكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسُنَتْ وَلَمْ تَخَفْ سَوْءَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ
وَسَأَلْتَكِ الْيَالِي فَافْتَرَرْتَ بِهَا وَعِنْدَ صَفْرِ الْيَالِي يَحْدُثُ الْكَدَرُ

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ
عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

إن أصحاب الغفلة وأرباب الغرّة إذا هبت رياح صوّلتهم في زمان غفلتهم يلاحظون أهل الحقيقة بعين الاستحقار ، ويحكمون عليهم بضمف الحال ، وينسبونهم إلى الضلال ، ويمدونهم من جملة الجهال ، وذلك في زمان الفترة ومدة مهلة أهل الغيبة .

والذين لهم قوة اليقين ونور البصيرة ساكنون تحت جريان الحكم ، يرون الغائبات من الخواص بعين البصيرة من وراء ستر رقيق ؛ فلا الطوارق تهزمهم ، ولا هواجم^(٣) الوقت تستفزهم^(٤) ، وعن قريب يلوح علم البشر ، وتنجلي سحائب العسر ، ويمحق الله كيد الكائدين .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا
الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ
وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾

يُسَلِّمُهُمْ^(٥) عندما يُقَاسُونَ من اخبارات التقدير بما يذكّرهم زوال المحنة ، وشك روح

(١) هكذا في المتن ، وفي الهامش (كوامن المنكر) ولكن الصواب ما جاء بالمتن إذ المقصود ما يهجم على الفاعل من (مكر) إله — سبحانه .

(٢) وردت (يفي) وللائم لما (يعدّه) كلمة (يفي) .

(٣) وردت (هوام) .

(٤) وردت (تستفزم) ويكون معنى الجملة بعد هذين التصويين هو ما جاء في الرسالة (ص ٤٤) [المهجوم ما يرد على القلب بقوة الوقت ، وسادات الوقت لا تصرفهم الهواجم]

(٥) وردت (يسلمهم) والمقصود (تسليته) المؤمنين في أوقات الاختبار .

اليسر ، وسرعة حصول النصر ، وحلول النقم بمرتكبي الظلم . والمؤمن كثير الظفر ، فإذا شاهد بأدباب الجرائم حلول الانتقام رقق قلبه لهم ، فلا ينخرط في ميلك الشبابة ، إذ ينجلو قلبه من شهوة الانتقام ، بل يجب أن يكون كل أحد بحسن الصفة ، وكما قيل .

قومٌ إذا ظفروا بنا جادوا بعنق رقابنا

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنْتُمْ لَيْسَ بِظُلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ .

يُعرفهم أَنَّ ما أصابهم مِنْ شِدَّةِ الوَطْأَةِ جزاء لهم على ما أسلفوه من قبيح الزُّلَّةِ ، كما قيل :

سَنَنْتَ فِينَا سِنًا قَتَفَ الْبَلَايَا عُقْبَهُ
يَصْبِرُ عَلَى أَهْوَالِهَا مَنْ بَرَّ يَوْمًا رَبَّهُ (١)

« وَأَنْتَ اللَّهُ لَيْسَ بِظُلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ » أى كيفما يعاملهم فى السَّراءِ والضرَّاءِ فذلك منه حَسَنٌ وَعَدْلٌ ، إِذِ الْمَلِكُ مُلْكُهُ ، وَالْخَلِيقُ خَلْقُهُ ، وَالْحُكْمُ حُكْمُهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

لَمَّا سَلَكُوا مَسْلَكَ أَهْلِ فِرْعَوْنَ فِي الضَّلَالِ ، سَلَكْنَاهُمْ مَسْلَكَهُمْ فِيمَا أَذَقْنَاهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَسُوءِ الْحَالِ ، وَنُتْنَهُ اللَّهُ أَلَا تَغْيِيرَ فِي الْإِنْعَامِ ، وَعَادَتُهُ أَلَا تَبْدِيلَ فِي الْإِنْتِقَامِ ، وَمَنْ لَمْ يَتَّقِرْ بِمَا يَشْهَدُ (٢) اُعْتَبَرَ بِمَا يَصْنَعُهُ بِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعَمًا أَنْعَمَ بِهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرَ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(١) فى الشعر اضطراب ، وترجح أن هناك خطأ فى النقل .
(٢) أى بما يشهده بمحدث لغيره .

إذا أنعم الحق — سبحانه — على قوم نعمة وأراد إهمالهم أكرمهم بتوفيق الشكر ،
فإذا شكروا نعمته فبقدر الشكر دامت فيهم .

وإذا أراد — سبحانه — إزالة نعمة عن عبد أذله بخذلان الكفر ، فإذا حال^(١) عن
طريق الشكر عرض النعمة للزوال . فإدام العبد يشكر النعمة مقبلاً كان الحق في إنعامه عليه
مُدبماً ، فإذا قابل النعمة بالكفران انتثر سلك نظامه ، فبقدر ما يزيد في إصراره يزول الأمر
عن قراره .

قوله جل ذكره : ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ
بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ
كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾

تنوعت من آل فرعون الذنوب فنوعت لهم العقوبة ، وكذلك هؤلاء : عُوقِبُوا بأنواع
من العقوبة لما ارتكبوا أنواعاً من الزلة .

وقاعدة تكرار ذكرهم تأكيد في التعريف أنه لا يهمل المكلف أصلاً ، وإن أهمله
حيناً ودهرآ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا
فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

« عند الله » : في سابق علمه وصادق حكمه ؛ فإذا كانوا في عليه شر الخلائق فكيف
يسعدون باختلاف السعایات وصنوف الطوارق ؟

هیهات أن تبدل الحقائق !

وإذا قال : « فهم لا يؤمنون » — وكلامه صدق وقوله حق — فلم يبق للرجاء فيهم مساع ،
ولا ينجع فيهم نصيح وإبلاغ .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ
عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مِرْقَوْهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾

(١) (حال) أى تغير مقبولة فى المعنى ، ولكن لا نستبعد أنها (حاد) فى الأصل .

أى الذين صار تقضى العهد لهم سجية ؛ فلم يذروا من استفراغ الوسع فى جهلهم بقية .
 وإن من الكبائر التى لا غفران لها فى هذه الطريق أن ينقض العبدُ عهداً ، أو يترك عقداً
 التزمه بقلبه مع الله . أولئك الذين سقطوا عن (. . .) (١) الله ، فرغ عنهم ظلُّ
 العناية والعصمة .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِمَّا تَثَقَّفْتُمْ فى الحرب فَشَرُّدْ بِهِمْ
 مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

يريد إن صادفت واحداً من هؤلاء الذين دأبهم تقضى العهد فاجعلهم عبرة لمن يأتى بعدهم
 لئلا يسلكوا طريقهم فيستوجبوا عقوبتهم .

كذلك مَنْ فسخ عقده مع (٢) الله بقلبه برجوعه إلى رخص التأويلات ، ونزوله إلى السكون
 مع العادات (٣) يجعله الله نكالا لمن بعده ، بحرمانه ما كان خوفاً له ، وتنغيصه عليه ما من حفظه
 أملاً ، فيفوته حق الله ، ولا يكون له امتناع عما آثره على حق الله :

تبدلت وتبدلنا واحسرتا لمن ابغى عوضاً لليلى فلم يجد

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِمَّا يَنْتَحِفْنِ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَاَنْذِرْ
 إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنْ أَلَّهَ لَا يَحِبُّ الْمَخَانِينَ ﴾

يريد إذا تحققت بخيانة قومٍ منهم قصرح بأنه لا عهد بينك وبينهم ، فإذا حصلت
 الخيانة زال تمت الأمانة ، وخيانة كلِّ أحدٍ على ما يلبق بحاله ، ومن صن (٤) بمسوره
 فقد خان فى عهده ، وزاغ عن جده ، وعقوبته معجلة ، فهو لا يحبُّ الله ، وتكون عقوبته
 باذلاله وإهاتته .

(١) مشبهة .

(٢) وردت (من) والصواب عقده (مع) الله .

(٣) وردت (المدالات) والصواب (العادات)

(٤) وردت (ظن) وهى خطأ فى النص .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا تَبَقُّوْا
أَنَّهُمْ لَا يُفْجِرُونَ﴾

كيف يعارض الحق أو ينازعه من في قبضته قلبه ، وبقدرة تصرفه ، وبتصرفه إياه
عدمه وثبوته .

قوله جل ذكره : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ
وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾

أعدوا لقتال الأعداء ما يبلغ وسعكم فلك من قوة ، وأتمها قوة القلب بالله ، والناس فيها
مختلفون : فواحد يقوى قلبه بموعود نصره ، وآخر يقوى قلبه بأن الحق عالم بحاله ،
وآخر يقوى قلبه لتحقيقه بأن يشهد من ربه ، قال تعالى : « واصبر لحكم ربك فانك
بأعيننا » (١) ، وآخر يقوى قلبه بإيثار رضا الله تعالى على مراد نفسه ، وآخر يقوى قلبه
برضا بما يفعله مولاه به .

ويقال أقوى محبة للعبد في مجاهدة العبد وتبريه عن حوله وقوته .

قوله جل ذكره : ﴿تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ
وآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ ،
اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ
لَا تُظْلَمُونَ﴾

الإشارة فيه أنه لا يجاهد على رجاء غنيمة ينالها ، أو لاشتفاء صدره من قضية حقد ،
بل قصده أن تكون كلمة الله هي العليا .

قوله جل ذكره : ﴿وَإِنْ جَاحَتُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا
وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

(١) آية ٤٨ سورة الطور .

بعث الله نبيه — صلى الله عليه وسلم — بالرحمة والشفقة على الخلق ، وبمسألة^(١) الكفار رجاء أن يؤمنوا في المتأنف فإن أبوا فليس يخرج أحد عن قبضة العزة .

ويقال العبودية الوقوف حينما وقفت ؛ إن أمرت بالقتال فلا تقصّر ، وإن أمرت بالمواعدة فرحبا بالمسألة ، « وتوكل على الله » في الحالين فإنه يختار لك ما فيه الخيرة ، فيوفقك لما فيه الأولى ، ويختار لك ما فيه من قيسى الأمر — في الحرب وفي الصلح — ما هو الأعلى .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * أَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

أى إن لبسوا عليك ، وراموا خداعك بطلب الصلح منك — وهم يستبطنون لك بخلاف ما يظهرونه — فإن الله كافيك ، فلا تشغل قلبك بغفلتك عن شر ما يكيدونك ؛ فإنى أعلم ما لا تعلم ، وأقدر على ما لا تقدر .

هو الذى بنصره أفردك ، وبلطيفه أيدك ، وعن كل سوء ونصيب طهرك ، وعن رق الأشياء جردك^(٢) ، وفي جميع الأحوال كان لك .

هو الذى أيدك بمن آمن بك من المؤمنين ، وهو الذى ألف بين قلوبهم المختلفة فجمعها على الدين ، وإينار رضا الحق . ولو كان ذلك بحيل^(٣) الخلق ما انتظمت هذه الجملة ، ولو أبلغت بكل ميسور من الأفعال ، وبذلت كل مستطاع من المال — لما وصلت إليه .

(١) وردت (بمسألة) وهى خطأ فى اللسخ .

(٢) وردت (حررك) بالهاء وهى خطأ فى اللسخ والصواب أن تكون بالجيم .

(٣) وردت (بحيل) بياء وهى خطأ فى اللسخ فهى (حيل) جمع حيلة .

قوله جل ذكره . ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

أحسنُ التَّأْوِيلَاتِ في هذه الآية أن تكون « مَنْ » في محل النصب ؛ أي وَمَنِ اتَّبَعَكَ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يكفهم الله .

ومن التَّأْوِيلَاتِ في العربية أن تكون « مَنْ » في محل الرفع أي حَسْبُكَ مَنْ اتَّبَعَكَ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

وقد عَلِمَ أن استقلال الرسول — صلى الله عليه وسلم — كان بالله لا بمن سوى الله ،
وكلُّ مَنْ هو سوى الله فاحتاجُ إلى نصرة الله ، كما أن رسول الله محتاج إلى نصرة الله ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾
المؤمن لا يزداد بنفسه ضعفاً إلاَّ ازداد بقلبه قوةً ، لأن الاستقلال بقوة النفس نتيجةُ
الغفلة ، وقوة القلب بالله — سبحانه — على الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ

يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ
يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ
قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ
عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ
يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا
مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا
أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

هذا لم ، فأما النبي — صلى الله عليه وسلم — فهو بتوحيده كان مؤملاً بأن يَنْبُتَ
لجميع الكفار لكمال قوته بالله تعالى ، قال عليه السلام : « بِلِكَ أُولُ » ^(٢) ، وفي تحريضه للمؤمنين

(١) لاحظ كيف تؤثر النزعة الصوفية في اختيار الفكرة النحوية .

(٢) « اللَّهُمَّ بِكَ أُولُ وَبِكَ أُولُ وَبِكَ أُولُ » .

كان هذا من دعائه صلوات الله عليه — إذا أراد سراً (الإمام أحمد والبزار عن علي كرم الله وجهه ،
وقال الحافظ البيهقي : رجاله ثقات) .

على القتال كانت لهم قوة ، وبأمر الله كانت لهم قوة ؛ ففوة الصحابة كانت بالنبي — عليه الصلاة والسلام ، وتحريضه إياهم وقوتهم بذلك كانت بالله وبأمره إياه . . . وشتان ماها !

قوله : « الآن خففَ الله عنكم وعلمَ أن فيكم ضعفاً » : والضعفُ الذي علمَ فيهم كان ضعفَ الأشباح فحُفَّت عنهم ، أما القلوب فلم يتدخلها الضعف فحِيلَ من ممارسة القتال بالعدو للذكر في الكتاب .

والعوام يحملون للشاق بنفوسهم وجسومهم ، والخواص بقلوبهم وهمهم ، وقالوا : « والقلبُ يحْمِلُ مالا يحْمِلُ البدنُ » وقال آخر .

وإن تروني أعاديا فلا عجبٌ على النفوس جنائياتُ من الهمم

قوله جل ذكره : ﴿ ما كان لِنبيٍّ أن يكونَ له أسرى ﴾

حتى يُشخِّنَ في الأرضِ يريدون عَرَضَ

الدنيا والله يريدُ الآخرة والله

عزيزٌ حكيمٌ ﴿

أى لا ينبغي لنبي من الأنبياء — عليهم السلام — أن يأخذ أسارى من أعدائه ثم يرضى بأن يأخذ منهم الفداء ، بل الواجب عليه أن يُشخِّنَ في الأرض أى يبالغ في قتل أعدائه — إذ يُقال أتخذه المرضُ إذا اشتدَّ عليه . وقد أخذ النبي — صلى الله عليه وسلم يوم بدرٍ منهم الفداء ، وكان ذلك جائزاً لوجوب القول بعصته ، ولكن لو قاتلتم كان أولى . وأراد « برضى الدنيا » أخذ الفداء ، والله جعل الفداء ، والله جعل رضاء في أن يقتلهم ، وحرمة^(١) الشرع خلاف رحمة الطبع ؛ فشرطُ العبودية أن يؤثر العبدُ الله ، وإذا كان الأمر بالغلظة فكما قال تعالى : « ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله »^(٢) .

(١) وردت (ورحمة) الشرع والصواب (وحرمة الشرع) والمعنى إن اتباع الأمر أولى من تحكيم عاطفة الرحمة بهم .
(٢) آية ٢ سورة النور .

« والله عزيز » : بالانتقام من أعدائه ، « حكيم » : في جميع ما يصنع من التملك والإملاك ، والتيسير والتدبير .

قوله جل ذكره : ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فَمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

لولا أن الله حكم في آزاله بإحلال الغنيمة لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمنه لمَسَّكُمْ — لأجل ما أخذتُم من الفداء منهم يوم بدر — عذابٌ عظيم ، ولكن الله أباح لكم الغنيمة فأزال عنكم العقوبة .

قوله جل ذكره : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنَيْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

الحلال ما كان مأذوناً فيه ، والحلال الطيب أن تعلم أن ذلك من قبل الله فضلاً ، وليس لك من قبلك استحقاقاً .

ويقال الحلال الصافي ما لم ينس صاحبُه فيه معبوده .

ويقال هو الذي لا يكون صاحبُه عن شهود ربِّه — عند أخذه — غافلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِيَكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

الذي يعطونه خيراً مما أُخِذَ منهم . ويحتمل أن يكون ما في الآخرة من حسن الثواب ، ويحتمل أن يكون ما في الدنيا من جميل العوض . ويقال هو ما بوصلهم إليه من توفيق الطاعات ، وحلاوة الإيمان ، وهو خير مما أُخِذَ منهم .

ويقال ما أعطاهم من الرضاء بما هم فيه من الفقر ، بعدما كانوا أغنياء في حال الشرك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ يَرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ

مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿٢٠﴾

يريد إن عادوا إلى قتالك بعدما مننت عليهم بالإطلاق وخانوا عهدك ، فانخيانة لم دأب
وطريقة ، ثم إننا نمكّنك منهم ثانياً كما أمكّنّاك من أسرهم أولاً ، وقيل :

إِنْ عَادَتِ الْعُقُوبُ عُودُنَا لَهَا وَكَانَتِ التُّغُلُ لَهَا حَاضِرَةً

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا

بَأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَالَّذِينَ آوَوْا وَانصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يهاجِرُوا
مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ
حَتَّى يهاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي
الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿٢١﴾

ذَكَرَ صِفَةَ الْمُهَاجِرِينَ مَعَ الرَّسُولِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — وَصَفَتُهُمْ أَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ هَاجَرُوا
مَعَ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ ، ثُمَّ « جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ » هَؤُلَاءِ هُمُ الْمُهَاجِرُونَ .
أَمَّا الَّذِينَ آوَوْا فَهُمْ الْأَنْصَارُ ؛ آوَوْا الرَّسُولَ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — وَالْمُؤْمِنِينَ .

فهذان الفريقان بعضهم أولياء بعض في النصرة والدين .

وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَلَكِنْ لَمْ يهاجِرُوا فَلَيْسَتْ لَهُمْ هَذِهِ الْمَوَالَاةُ إِلَى أَنْ يهاجِرُوا ، وَإِنْ اسْتَعَانُوا
بَكُمْ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ .

« إِلَّا عَلَى قَوْمٍ » وَهُمْ الْمُعَاهِدُونَ مَعَكُمْ .

وَكَيْلُ الْمُهْجَرَةِ مَفَارِقَةُ الْأَخْلَاقِ الدِّمِيَّةِ ، وَهَجْرَانُ النَّفْسِ فِي تَرْكِ إِجَابَتِهَا إِلَى مَا تَدْعُو

إليه من شهواتها . ومن ذلك هجران إخوان السوء ، والتباعد عن الأوطان التي باشر العبد فيها الزلة ، ثم الهجرة من أوطان الحظوظ إلى أوطان رضا الحق .^(١)

وأما قوله « والذين آووا ونصروا » فهم الذين يؤثرون إخوانهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، عوَّام هؤلاء في الأمور الدنيوية ، وخواصهم في السكائن في الآخرة ، وخاص الخاص في كل ما يصح به الإثبات من سنى الأحوال إلى ما لا يدرك الوهم .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعضٍ إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفسادٌ كبيرٌ ﴾ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرةٌ ورزقٌ كريمٌ

قطع العصاة بينهم وبين المؤمنين ، فالؤمن للأجانب مجانب ، وللأقارب مقارب . والكفار بعضهم لبعضهم ، كما قيل : « طير السماء على الألفها تقع »

قوله جل ذكره : ﴿ والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ، وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم ﴾

يريد من سلك مسلكهم في الحال ، ومن سيلحق بهم في الاستقبال وآتى الأحوال فالألفة تجمعهم ، والولاية تشملهم ، فلهم من الله في العقبى جزيل الثواب ، والنجاة من العذاب . ولهم في الدنيا الولاية والتناصر ، والمودة والتقارب ، والله أعلم

(١) القشيري من الشيوخ القائلين بأهمية السفر إذا دعت الضرورة
يشترط أن يصحب السفر عن المسكن سفر عن النفس (انظر الرسالة ص ٢٠٠) .

« تنبيه »

ذكر السيد المحقق في الصحيفة ٢٠ موقفه من أخطاء الناسخ بأنه اتخذ منها ثلاثة مواقف (١) موقفا نجد فيه الخطأ مؤكدا ، ويتجلى ذلك عند كتابة بعض الآيات الكريمة حيث تسقط كلمة أو حرف أو تزيد كلمة أو حرف ، فنصلح هذا الخطأ .

ولما كانت الطبعة الأولى كثيرة الأخطاء خاصة في الآيات القرآنية ، فقد قمت بتصويبها وتصحيحها قبل هذه الطبعة الثانية (أفسست) ..
أما ماورد في ب . ج ، فقد تركته كما هو حسب منهج السيد المحقق وسأقوم بمشقة الله تعالى بتصويب المجلدين : الثاني ، الثالث ، على هذا النحو ، وأرجوا الله التوفيق والعون .

هتولى خليل.عوض الله
الباحث الأول - مركز تحقيق التراث

فهرس

الصفحة

- ملنخل ٣
- صورة لورقة من المخطوطة السوفيتية ٣٩
- سورة فاتحة الكتاب ٤٢
- سورة البقرة ٥٢
- سورة آل عمران ٢١٧
- سورة النساء ٣١٠
- سورة المائدة ٣٩٦
- سورة الأنعام ١٥٩
- سورة الأعراف ٥١٦
- سورة الأنفال ٦٠١

تم المجلد الأول ويليه المجلد الثاني
وأوله سورة التوبة

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٢٥ / ٢٠٠٠

I.S.B.N. 977 - 01 - 6594 - 8

يسر إدارة التراث بالهيئة المصرية العامة للكتاب أن تعيد
تقديم هذا التفسير الصوفي الكبير للإمام القشيري بتحقيق العالم
الدكتور إبراهيم بسيوني.. وهذا كتاب تشعر خلال قراءته أن
كل صغيرة وكبيرة في علوم الصوفية لها أصل من القرآن،
ويتجلى ذلك بصفة خاصة حيثما ورد المصطلح الصوفي صريحا
في النص القرآني كالذكر، والثوكل، والرضا، والولى، والولاية،
والحق، والظاهر، والباطن، والقبض والبسط... وغير ذلك. فلا
تملك إلا أن تحكم أن الصوفية قد استمدوا أصولهم وفروعهم من
كتاب الله الكريم، وأن علومهم ليست غريبة ولا مستوردة كما
يحلو لبعض الباحثين حين يهتمون التصوف الإسلامى بالتأثر
بالتيارات الأجنبية - وإلى الجزء الثانى.

طائفة الأشراف

تفسير صوفي كامل للقرآن الكريم

للإمام القشيري

المجلد الثاني

الطبعة الثالثة

قدم له وحققه وعلق عليه

الدكتور/ إبراهيم بسيوني



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٠



الهيئة المصرية العامة للكتاب

إدارة التراث

رئيس مجلس الإدارة

د. سمير سرحان

المشرف على إدارة التراث ورئيس التحرير

سعيد عبد الفتاح

سكرتير التحرير

أميمة علي أحمد

الغلاف

جمال قطب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«... أهل الجنة طابت لهم حدائقها ، وأهل النار أحاط بهم سرادقها ، والحق — سبحانه — مُنَّزَّهُ عن أن تعودَ إليه من تعذيب هؤلاء عائدة ، ولا من تنعم هؤلاء فائدة .. جَلَّتْ الأحذية ، وتقدَّست الصمديات .

وَمَنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِ غَبْرَةٌ فِي طَرِيقِنَا لَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ قَتَرَةٌ فِرَاقِنَا ، وَمَنْ خَطَا خُطْوَةً إِلَيْنَا وَجَدَ خُطْوَةً لَدَيْنَا ، وَمَنْ نَقَلَ قَدَمَهُ نَحُونَا غُفِرْنَا لَهُ مَا قَدَّمَه ، وَمَنْ رَفَعَ إِلَيْنَا يَدًا أَجَزَلْنَا لَهُ رَغَدًا ، وَمَنِ انْجَا إِلَى سُدَّةِ كَرَمِنَا آوَيْنَاهُ فِي ظِلِّ نِعْمِنَا ، وَمَنِ شَكَا فِينَا غَلِيلًا ، مَهَّدْنَا لَهُ فِي دَارِ فَضْلِنَا مَقِيلًا ،

عبد الكريم القحطاني

عند

سورة الكهف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبِّ يَسَّرْ

تَبَرُّأَنَا مِمَّا مِثْلًا مِنَ الْحَوْلِ وَالْمُنَّةِ ، وَتَحَقُّقَنَا بِمَا مِنْكَ
مِنَ الطَّوْلِ وَالْمُنَّةِ ، فَلَا تَجْعَلْنَا هُرَّةً لِسَهَامِ أَحْكَامِكَ ،
وَارْمَحْنَا بِلُطْفِكَ وَإِكْرَامِكَ ، وَتَجْنُبْنَا مِمَّنْ غَضِبْتَ عَلَيْهِمْ
فَأَذَلَّ لَهُمْ ، وَبَكَى فِرَاقَكَ وَسَمَتَهُمْ .

عبد الكريم القسيري

عند

سورة يونس

السورة التي تذكر فيها التوبة

جرّد الله — سبحانه — هذه السورة عن ذكر « بسم الله الرحمن الرحيم » لِيُعْلَمَ أَنَّهُ يَخْصُّ مَنْ يَشَاءُ وما يَشَاءُ بما يَشَاءُ ، وَيُفَرِّدُ مَنْ يَشَاءُ وما يَشَاءُ بما يَشَاءُ ، ليس لِصُنْعِهِ سَبَبٌ ، وليس له في أفعاله غَرَضٌ ولا أَرَبٌ ، وَاتَّضَحَ للكافة أن هذه الآية أُثْبِتَتْ في الكتاب لأنها مُنَزَّلَةٌ ، وبالأمر هنالك مُحَصَّلَةٌ .

وَمَنْ قَالَ : إنه لم يذكر التسمية في هذه السورة لأنها مفتوحة بالبراءة عن الكفار فهو — وإن كان وجهاً في الإشارة — فضعيفٌ ، وفي التحقيق كالبعيد ، لأنه افتتح سوراً من القرآن بذكر الكفار مثل : « لم يكن الذين كفروا »^(١) وقوله : « ويل لكل همزة لمزة »^(٢) وقوله : « تبَّتْ يدا أبي لهبٍ وتب »^(٣) وقوله : « قل يا أيها الكافرون »^(٤) . . . هذه كلها مفاتيحٌ للسور . . . وبسم الله الرحمن الرحيم مُثَبَّتَةٌ في أوائلها — وإن كانت مُتَضَمِّنَةٌ ذِكْرَ الكفار . على أنه يحتمل أن يقال إنها وإن كانت في ذكر الكفار فليس ذكر البراءة فيها صريحاً وإن تَضَمَّنَتْه تلويحاً ، وهذه السورة أولها ذكر البراءة منهم قطعاً ، فلم تُصَدَّرْ بِذِكْرِ الرحمة .

ويقال إذا كان تجرّدُ السورة عن هذه الآية يشير إلى أنها لذكر الفراق فبالحرى أن يُخْشَى أَنْ تَجْرَدَ الصلاة عنها يمنع عن كمال الوصلة والاستحقاق .

قوله جل ذكره : ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

(١) آية ١ سورة البينة .

(٢) آية ١ سورة الهمة .

(٣) آية ١ سورة المسد .

(٤) آية ١ سورة الكافرون .

الفراق شديد ، وأشدّه ألا يعقبه وصال ، وفراقُ المشركين كذلك لأنه قال : « إن الله لا يفر أن يُشركَ به ويفر ما دون ذلك لمن يشاء »^(١)

ويقال من مُني بفراق أحبائه فبُست صحبته . وقد كان بين الرسول عليه السلام وبين أولئك المشركين عهد ، ولا شك أنهم كانوا قد وطّنوا نفوسهم عليه ، فنزل الخبر من الغيب بقتة ، وأتاهم الإعلام بالفرقة فجأة ، فقال : « براءة من الله ورسوله » ، أي هذه براءة من الله ورسوله ، كما قيل :

فَبِتْ بِخَيْرٍ — وَاللَّيْطُ مَطْمَئِنَةٌ وَأَصْبَحَتْ يَوْمًا وَالزَّمَانُ ثَقَلَبًا
وما أشدّ الفرقة — لاسيما إذا كانت بقتة على غير ترقب — قال تعالى : « وأنذِرْهُمْ
يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ »^(٢) وأنشدوا :

وكان سراجُ الوصلِ أزهريّننا فهِبَتْ به ريحٌ من البين فانطفأ
قوله جل ذكره : ﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ
وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ
اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾

إن قطعَ عنهم الوصلة فقد ضربَ لهم مدةً على وجه المهلة ، فأمنهم في الحال ليتأهبوا
لتَحُلِّ مقاساة البراءة فيما يستقبلونه في المآل .

والإشارة فيه : أنهم إن أقبلوا في هذه المهلة عن النى والضلال وجدوا في المآل ما فقدوا
من الوصال ، وإن أبوا إلا التماهى في تركِ الخدمة والحرمة انقطع ما بينه وبينهم من العصمة .

ثم قال : واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين ، والإشارة فيه : إن
أصررتُم على قبيح آثاركُم سعيتم إلى هلاككم بقدميكم . وندمتُم في عاجلكُم على سعيكم ،
وحصلتُم في آجلِكُم على خسرانِكُم ؛ وما خسرتم إلا في صفتكم ، وما ضرَّ جُرْمُكُمْ
سواكم وأنشدوا :

تَبَدَّلَتْ وَتَبَدَّلْنَا وَاحْصَرْتَا مَنْ ابْتَغَى عَوْضًا لِلْيَلِ فَلَمْ يَجِدْ

(١) آية ٤٨ سورة النساء (٢) آية ٣٩ سورة مريم

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ

يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ﴾

أى لِيَكُنْ إعلَامٌ من الله ورسوله للناس بنقض عهدهم ، وإعلان عنهم بأنهم ما انقطعوا عن مآلوفهم من الإهمال^(١) ومعهودهم ، وقد برح الخلفاء من اليوم بأنهم ليس لهم ولاء ، ولم يكن منهم بما عقدوا ولاء ، فَلْيَعْلَمُ الكافة أنهم أعداء ، وأنشدوا :

أشاعوا لنا فى الحى أشنع قصية وكانوا لنا سِلماً فصاروا لنا حرباً

قوله جل ذكره : ﴿ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

وَرَسُولُهُ ۖ ۝

مَنْ رَأَى مِنَ الْأَغْيَارِ — شظيةً من الآثار ، ولم يَرِ حصولها بتصرف الأقدار فقد أشرك — فى التحقيق — واستوجب هذه البراءة .

وَمَنْ لَّا حَظَّ الْخَلْقُ تَصْنَعًا ، أَوْ طَالَعَ نَفْسَهُ إعجاباً فقد جعل ما لله لغير الله ، وظنَّ ما لله لغير الله ، فهو على خطير من الشرك بالله .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ تُبَتِّمُوا بِهِ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ

تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي

اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ

أَلِيمٍ ۝

إن عادوا إلى الباب لم يقطع رجاءهم ، ومدَّ إلى حدٍّ وضوح العذر إرجاءهم . وبين أنهم إن أصرُّوا على عُتُوِّهم فإلى ما لا يُطيقون من العذاب مُنْقَلِبُهُمْ ، وفى النار مثواهم .

قوله جل ذكره : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ

لَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَهُمْ وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ

أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى

مُذَّتِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝

(١) وردت (الإهمال) والصواب أن تكون (الإهمال) لأن الإهمال لا يكون إلا من الحق ، ومآلوفهم ومعهودهم (الإهمال) .

مَنْ وَفَّى الْحَقَّ فِي عَقْدِهِ فَرِزَهُ عَلَى حِفْظِ عَهْدِهِ ؛ إِذْ لَا يَسْتَوِي مَنْ وَفَّاهُ وَمَنْ جَفَّاهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ ﴾ .

يريد إذا انسلخ الحرم فاقتلوا من لا عهد له من المشركين ، فإنهم — وإن لم يكن لهم عهد وكانوا حُرِّمًا — جعل لهم الأمان في مدة هذه المهلة ، (. . .) (١) فبكرتم أن يأمر بترك قتال مَنْ أَبِي كَيْفَ يَرْضَى بقطع وصال مَنْ أَتَى ١٩ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَوْصِدٍ ﴾ .

أمرهم بمعالجة جميع أنواع القتال مع الأعداء .

وأعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك ؛ فسيل العبيد في مباشرة الجهاد الأكبر مع النفس بالتضييق عليها بالمبالغة في جميع أنواع الرياضات ، واستفراغ الوسع (٢) في القيام بصدق المعاملات . ومن تلك الجملة ألا ينزل بساحات الرخص والتأويلات ، ويأخذ بالأثقل في جميع الحالات

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴾ .

حقيقة التوبة الرجوع بالكلية من غير أن تترك بقية . فإذا أسلم الكافر بعد شركه ، ولم يقصر في واجب عليه من قسعى فعله وتركه ، حصل الإذن في تخلية سبيله وفكه :

إِنْ وَجَدْنَا نَاسًا ادَّعَيْتَ شُهَدَاءَ لَمْ تَجِدْ عِنْدَنَا لِحَقِّ حَدُودَآ

وكذلك النفس إذا انخفضت ، وآثار البشرية إذا اندرست ، فلا حرج — في التحقيق — في المعاملات في أوان مراعاة الخطرات مع الله عند حصول المكاشفات . والجلوس مع الله

(١) مشبهة

(٢) وردت (الواسع) والصواب أن تكون الوسع .

أَوَّلَى مِنَ الْقِيَامِ يَبَابُ اللَّهُ تَعَالَى ، قَالَ تَعَالَى فِيمَا وَرَدَ بِهِ الْخَبَرُ : « أَنَا جَلِيسٌ مِّنْ ذِكْرِنِي » (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ

فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

إِذَا اسْتَجَارَ الْمُشْرِكُ — الْيَوْمَ — فَلَا يُرَدُّ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ، فَإِذَا اسْتَجَارَ الْمُؤْمِنُ طَوَّلَ عَمْرَهُ مِنَ الْفِرَاقِ — مَتَى يُنْتَعَمُ مِنْ سَمَاعِ كَلَامِ اللَّهِ ؟ وَمَتَى يَكُونُ فِي زِمْرَةٍ مِّنْ يُقَالُ لَهُمْ : « اخْشَوْا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ » (٢) .

وَإِذَا قَالَ — الْيَوْمَ — عَنْ أَعْدَائِهِ : « فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ » فَإِنْ لَمْ يَأْمَنَ بِعَدِ سَمَاعِ كَلَامِهِ تُرِي عَنْ تَعَرُّضِهِ حَيْثُ قَالَ : « ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ » — أَتَرَى أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ أَوْلِيَاءَهُ — غَدَاً — مِنْ فِرَاقِهِ ، وَقَدْ عَاشُوا الْيَوْمَ عَلَى إِيمَانِهِ وَوَفَائِهِ ؟ كَلَّا .. إِنَّهُ يَمْتَحِنُهُمْ بِذَلِكَ ، قَالَ تَعَالَى : « لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ » (٣) .

ثُمَّ قَالَ : « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ » فَإِذَا كَانَ هَذَا بِرَّهُ بِمَنْ لَا يَعْلَمُ فَكَيْفَ بِرُّهُ بِمَنْ يَعْلَمُ ؟

وَمَتَى نُضَيِّعُ مَنَ يُنْبِئُ بِيَابِنَا وَالْمُعْرِضُونَ لَهُمْ نَعِيمٌ وَافِرٌ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ

عِنْدَ اللَّهِ وَغَدَ رَسُولُهُ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

(١) جاء في الرسالة ص ١١١ قال محمد القراء سمعت الشبلي يقول : (أليس الله تعالى يقول : أنا جليس من ذكرني ؟ ما الذي استقدم من مجالسة الحق ؟) .

(٢) آية ١٠٨ سورة المؤمنون .

(٣) آية ١٠٣ سورة الأنبياء .

كيف يكون المُفْلِسُ من عرفانه كالمخلص في إيمانه ؟
 وكيف يكون المحجوبُ عن شهوده كالمستهلك في وجوده ؟
 كيف يكون مَنْ يقول « أنا » كمن يقول « أنت » ؟ وألشدوا :
 وأحبائنا شتان : وافي وناقصٌ ولا يستوى قطُّ محبٌ وباغضٌ
 قوله : « فاستقاموا لكم فاستقيموا لهم » ، إن تَمَسَّكُوا بحبل^(١) وفائنا أحللتناهم
 ولأئنا ، وإن زاغوا عن عهدنا أبليناهم بصدتنا ، ثم لم يَرْجِعُوا في بُعْدِنَا .
 « إنَّ اللهَ يحبَّ المتقين » : المُتَّبِعِي الذي يستحقُّ محبةَ مَنْ يتَّقَى ؛ وذلك حين يتقى محبةَ
 نفسه ، وذلك بِتَرْكِ حظه والقيام بحقِّ ربه .

قوله جل ذكره : ﴿ كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمةً يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرم فاسقون ﴾ .

وَصَفَّهِم بِلُؤْمِ الطَّبَعِ فقال : كيف يكونون محافظين على عهودهم مع ما أضروه لكم من
 سوء الرضاء ؟ فلو ظَفَرُوا بكم واستولوا عليكم لم يُراعوا لكم حُرْمَةً ، ولم يحفظوا لكم قرابةً
 أو ذِمَّةً .

وفي هذا إشارة إلى أنَّ الكريمَ إذا ظَفَرَ غَفَرَ ، وإذا قدر ما غَدَرَ ، فيما أسرَّ وجَهَرَ .
 قوله « يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم » أي لا عَجَبَ مِنْ طَبْعِهِمْ ؛ فإنهم في حَقِّنا
 كذلك يفعلون : يُظْهِرُونَ لباسَ الإيمان ويُضْمِرُونَ الكفر . وإنهم لذلك يعيشون معكم في زِيٍّ
 الوفاق ، ويستبطنون عين الشُّقاق وسوء السُّفاق .

قوله جل ذكره : ﴿ اشترُوا بآياتِ الله ثمنًا قليلاً فصَدُّوا

(١) وردت (الحبل) وهي خطأ في السُّجُود .

عن سبيله إنهم ساء ما كانوا
يعملون ﴿١﴾ .

مَنْ رَضِيَ مِنَ اللَّهِ بغيرِ اللَّهِ أرخصَ في صفقته ثم إنه خسر في تجارتِه ؛ فَلَالَهُ — وهو
عن اللَّهِ — أثر استمتاع ، ولالَه — في دونه سبحانه — اقتناع ؛ بَقِيَ عن اللَّهِ ، ولم يستمتع
عن اللَّهِ . وهذا هو الخسران المبين .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ .

كيف يراعى حق المؤمنين مَنْ لا يراعى حقَّ اللَّهِ في اللَّهِ ؟ أخلاقهم تشابهت في
ترك الحرمة .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا
الزَّكَاةَ فَأَخِوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَتَفَصَّلُ
الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

معناه : وإن قبلناهم وصلحوا لولائنا فلحمة النسب في الدين بينكم وبينهم وشيجة (١) ،
وإلا فليكن الأجانب منا على جانب منكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ
عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَلِئِمَّةَ
الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ
يَنْتَهُونَ ﴾ .

إذا جنحوا إلى الغدر ، ونكثوا ما قدّموه من ضمان الوفاء بالعهد ، وبسطوا ألسنتهم فيكم
باللوم فاقصدوا مَنْ راحى الفتنة عليه تدور ، وغصن الشر من أصله يتشعب ، وهم سادة
الكفار وقادتهم .

وحق القتال إعداد القوة جهراً ، والنبري عن الحول والقوة سراً .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ

(١) أى مشبكة متصلة .

وَهُمْ أَبَاحُ خَرَجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَأُكُمْ
أَوَّلَ مَرَّةٍ أَنْ تَخْشَوْهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ
أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *

حَرَّضَهُمْ عَلَى الْقِتَالِ — عَلَى مِلَاحِظَةِ أَمْرِ اللَّهِ بِذَلِكَ — لَا عَلَى مُقْتَضَى الْإِطْوَاءِ عَلَى الْحَقِّ
لِأَحَدٍ ، فَإِنَّ مَنْ غَضِبَ لِنَفْسِهِ فَمَذْمُومٌ الْوَصْفُ ، وَمَنْ غَضِبَ لِلَّهِ فَإِنَّ نَصَرَ اللَّهِ قَرِيبٌ .
وَقَالَ « أَنْتَخِشُونَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ » : فَالْخَشْيَةُ مِنَ اللَّهِ بِشِيرِ الْوَصْلَةِ ، وَالْخَشْيَةُ مِنْ
غَيْرِ اللَّهِ نَذِيرُ الْفُرْقَةِ . وَحَقِيقَةُ الْخَشْيَةِ نَفْضُ السُّرِّ عَنْ ارْتِكَابِ الزُّجْرِ وَمُخَالَفَةِ الْأَمْرِ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : * قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ
وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرُكُمُ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ
صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبُ
غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ
يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *

هُوَ عَلَيْهِمْ كَلْفَةُ الْمَخَاطَرَةِ بِالْمُهْجَةِ بِمَا وَعَدَهُمُ مِنَ الظَّفَرِ وَالنَّصْرَةِ ، فَإِنَّ شُهُودَ خِزْيِ الْعَدُوِّ
مِمَّا يَهُونُ عَلَيْهِمْ مَقَاسَاةَ السُّوءِ . وَالظَّفَرُ بِالْأَرْبِ يَذْهَبُ تَعَبَ الطَّلَبِ .
وَشَفَاءُ صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى حَسَبِ مَرَاتِبِهِمْ فِي اللَّقَامِ وَالدرجات ؛ فَفَنَّهُمْ مَنْ شَفَاءَ صَدْرِهِ
فِي قَهْرِ عَدُوِّهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ شَفَاءَ صَدْرِهِ فِي نَيْلِ مَرْجُوِّهِ . وَمِنْهُمْ مَنْ شَفَاءَ صَدْرِهِ فِي الظَّفَرِ
بِمَطْلُوبِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ شَفَاءَ صَدْرِهِ فِي لِقَاءِ مُحِبِّوهِ . وَمِنْهُمْ مَنْ شَفَاءَ صَدْرِهِ فِي دَرْكِ مَقْصُودِهِ ،
وَمِنْهُمْ مَنْ شَفَاءَ صَدْرِهِ فِي الْبَقَاءِ بِمَعْبُودِهِ .

وَكَذَلِكَ ذَهَابُ غَيْظِ قُلُوبِهِمْ تَخْتَلِفُ أَسْبَابُهُ ، وَتَبْتَنُّوعُ أَبْوَابُهُ ، وَفِيَا ذِكْرُنَا تَلْوِيحٌ
لِأَنْ تَرَكْنَا (١) .

« وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ » حَتَّى يَكُونَ اسْتِقْلَالُهُ بِمَحْوُلِ الْأَحْوَالِ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ

(١) تَوْضِيحُ هَذِهِ الْمُبَارَةِ مِيلَ الْقَشِيرَى لِلْإِقْلَالِ خَشْيَةُ الْمَلَالِ — كَمَا ذَكَرَ فِي مُقَدِّمَةِ كِتَابِهِ .

إسحاق يعقوب * قالت يا ويلنا
 أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً
 إن هذا لشيء عجيب * قالوا :
 أتعجبين من أمر الله ؟ رحمة الله
 وبركاته عليكم أهل البيت إنه
 حميد مجيد *

كانت امرأته قائمةً بخدمة الأضياف ، فضحكت تعجباً من أن يكون لملها في هذه
 السنُّ ولدٌ .

وقيل كان سرورها بالسلامة . ويحتمل أنها ضحكت تعجباً من امتناع الضيفان عن
 الأكل . أو تعجبت من كون الملائكة في صورة البشر لما علمت أنهم ملائكة . ويحتمل
 أنها ضحكت لاستبشارها بالولد وقد بُشِّرَتْ باستحقاقه ومن ورائه يعقوب ، ثم أفصحت عما
 ينطوي عليه قلبها من التعجب فقالت : « أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً ؟ إن هذا
 لشيء عجيب » ١

فأحال الملائكة خلق الولد على التقدير : « قالوا أتعجبين من أمر الله ؟ » فزال موضع
 التعجب ، وقالوا : « رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت » فبقى الدعاء في شريعتنا بآخر
 الآية حيث يقول الداعي : كما صليت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد .
 والبركة الزيادة ؛ فقد اتصل النسل من الخليل ، وبنو إسرائيل منهم — وهم خلق كثير ،
 والعرب من أولاد اسماعيل — وهم أجمع الغفير .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ
 وَجَاءَهُ الْبُشْرَى يُبَادِلُنَا فِ قَوْمِ لُوطٍ ﴾

لما كانت مراجعته مع الله في أمر قوم لوطٍ بحق الله لا لحظ نفسه سلم له الجدل ، وهذا
 يدل على علو شأنه حيث تجاوز عنه ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾

بِالْكُفْرِ أَوْلَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ،
وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١﴾

عمارة المساجد بإقامة العبادة فيها ، والعبادة لا تقبل إلا بالإخلاص ، والمشارك فاقيد
الإخلاص ، وشهادتهم على أنفسهم بالكفر دعواهم حصول بعض الحدثن بتأثير الأسباب ،
فمن أثبت في عقده جواز ذرة في العالم من غير تقديره — سبحانه — شارك أرباب الشرك
في المعنى الذي لزمهم به هذه السمة .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى
الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ
أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾

لا تكون عمارة المساجد إلا بتخريب أوطان البشرية ، فالعابد يعمرها بتخريب أوطان
شهوته ، والزاهد يعمرها بتخريب أوطان منيته ، والعارف يعمرها بتخريب أوطان علاقته ،
والموحد يعمرها بتخريب أوطان ملاحظته ومساكنته . وكل واحد منهم واقف في صفته ،
فلصاحب كل موقف منهم وصف مخصوص .

وكذلك رتبهم في الإيمان مختلفة ، فإيمان من حيث البرهان ، وإيمان من حيث البيان ،
وإيمان من حيث العيان ، وشتان ما هم ا قال قائلهم :

لَا تَعْرِضَنَّ بِذِكْرِنَا فِي ذِكْرِهِمْ لَيْسَ الصَّحِيحُ — إِذَا مَشَى — كَالْمُقْعَدِ

قوله جل ذكره : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ
عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ﴾

(١) أخطأ الناسخ إذ أنهى الآية : (م فيها خالدون)

ليس مَنْ قام بمعاملة ظاهره كمن استقام في مواصلة سريره ، ولا مَنْ اقتبس من سراج
 علومه كمن استبصر بشمس معارفه ، ولا مَنْ نُصِبَ بالباب من حيث الخدمة كمن مُكِّنَ من
 البساط من حيث القربة^(١) ، وليس نعت مَنْ تَسَكَّفَ نفاقاً كوصفِ مَنْ تَحَقَّقَ وفاقاً ، بينهما
 بونٌ بعيدٌ !

قوله جل ذكره : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ
 أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ
 الْفَائِزُونَ﴾

« آمَنُوا » أى شاهدوا بأنوار بصائرهم حتى لم يبقَ في سماء يقينهم سحابٌ رَيِّبٌ ،
 ولا في هواء^(٢) معارفهم ضبابٌ شك .

« وَهَاجَرُوا » : فلم يُعَرِّجُوا في أوطان التفرقة ؛ فَتَمَحَّضَتْ^(٣) حركاتهم وسكناتهم
 بالله لله .

« وَجَاهَدُوا » : لا على ملاحظة غرضٍ أو مطالعة عِوَضٍ ؛ فلم يَدَّخِرُوا لأنفسهم — مِنْ
 ميسورهم — شيئاً إلا آثروا الحق عليه ؛ فَظَفِرُوا بالنعمة ؛ في قيامهم بالحق بعد فنائهم
 عن الخلق .

قوله جل ذكره : ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ
 وَجَنَاتٍ لَمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾ * خالد بن
 فيها أبداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرُ
 عَظِيمٌ

(١) يتدرج الدخول عليه — حسباً نعرف من أسلوب التشيرى — من الباب إلى البساط إلى العقوة
 أو الساحة ثم السدة .

(٢) وردت (هؤلاء) وقد صوبناها (هواء) لتلائم (سماء) و (سحاب) و (ضباب) فضلاً عن أنها
 أقرب في الكتابة إليها .

(٣) تمحضت أى صارت خالصة لله

البشارة من الله تعالى على قسمين : بشارة بواسطة المَلَكِ ، عند التوفى :

« تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ » (١) .

وبشارة بلا واسطة بقول المَلَكِ ، إذ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ ، وذلك عند الحساب .
يُبَشِّرُهُمْ بلا واسطة بِحُسْنِ التَّوَلَّى ؛ فعاجِلُ بشارتهم بنعمة الله ، وآجِلُ بشارتهم برحمة الله ،
وشتان ما هما !

ويقال البشارة بالنعمة والجنة لأصحاب الإحسان ، والبشارة بالرحمة لأرباب العصيان ،
فأصحاب الإحسان صَلَحَ أمرهم للشهرة فأظهرَ أمرهم للمَلَكِ حتى بَشَّرَ وهم جَهْرًا ، وأهلُ
العصيان صَلَحَ حالهم للسرِّ فتولَّى بشارتهم — مِنْ غَيْرِ واسطة — سِرًّا .

ويقال إنَّ كانت للمطيعِ بِشارةٌ بالاختصاص فإنَّ للعاصي بِشارةٌ بالخلاص : وإن كان
للمطيع بِشارةٌ بالدرجات فإنَّ للعاصي بِشارةٌ بالنجاة .

ويقال إنَّ القلوبَ بمحبولةٌ على محبة من يُبَشِّرُ بالخير ؛ فأراد الحقُّ — سبحانه — أن تكون
محبةُ العبدِ له — سبحانه — على الخصوص ؛ فتولَّى بشارته بعزیز خطابه من غير واسطة ،
فقال : يَبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ « وفي معناه أنشدوا :

لَوْلَا تَمَتُّعُ مُقَلَّتِي بِلِقَائِهِ لَوَهَبْتُهَا بِشْرَى بِقَرَبِ إِيَابِهِ

ويقال بَشَّرَ العاصي بالرحمة ، والمطيع بالرضوان ، ثم الكافَّةُ بالجنة ؛ فَقَدَّمَ العاصي في الذكر ،
وقدَّمَ المطيع بالبرِّ ، فالَّذِي كَرَّ قَوْلُهُ وهو قديم والبرُّ طَوْلُهُ وهو عَمِيم . وقَوْلُهُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ أَعَزُّ مِنْ
طَوْلِهِ الَّذِي حَصَلَ . قَدَّمَ العصاة على المطيعين لأنَّ ضَعْفَ الضعيفِ أَوْلَى بِالرُّفْقِ مِنَ الْقَوَى .

ويقال (قدَّمَ أمرَ العاصي بالرحمة حتى إذا كان يومُ العَرْضِ وحضورُ الجمعِ
لا يفتضح العاصي) (٢) .

ويقال « يَبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَتِهِ » يُعَرِّفُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَصِلُوا إِلَى مَا وَصَلُوا إِلَيْهِ مِنْ تِلْكَ الدَّرَجَاتِ

(١) آية ٣٠ سورة فصلت

(٢) ما بين القوسين موجود في الهامش أثبتناه في موضعه من النص حسب العلامات المبينة ،
ولنتأمل مقدار انفساح صدور الصوفية بالنسبة للعصاة ، وذلك نتيجة امتلاء قلوبهم بالأمل في المحبوب .

بسمهم وطاعتهم ، ولكن برحمته — سبحانه — وصلوا إلى نعمته ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحدٍ يُنَجِّيه عمله . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمته » (١) .

قوله : « لم فيها نعيم مقيم » : قومٌ نعيمُهُم عطاء ربِّهم على وصف التمام ، وقومٌ نعيمُهُم لقاء ربِّهم على نعت الدوام ؛ فالعابدون لم تمام عطائه ، والعارفون لم دوام لقائه .

ثم قال : « خالدين فيها أبداً » والكناية في قوله « فيها » كما ترجع إلى الجنة تصلح أن ترجع إلى الحالة ، سيما وقد ذكر الأجر بعدها ؛ فكما لا يَقْطَعُ عطائه عنهم في الجنة لا يمنع عنهم لقاءه متى شاءوا في الجنة ، قال تعالى : « لا مقطوعة ولا ممنوعة » (٢) أي لا مقطوعة عنهم نعمته ، ولا ممنوعة منهم رؤيته .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا

آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا
الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ
فَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْفَلَاحَ

مَنْ لَمْ يَصْلُحْ بِطَاعَتِهِ لِرَبِّهِ لَا تَسْتَخْلِصْهُ لَصِحْبَةِ نَفْسِكَ .

ويقال من أثر على الله شيئاً يُبَارِكُ له فيه ؛ فيبقى بذلك عن الله ، ثم لا يَبْقَى ذلك معه ، فإن استبقاه بجهد — كيف يستبقى حياته إذا أذن الله في ذهاب أجله ؟ وفي معناه أنشدوا :
مَنْ لَمْ تَزَلْ نِعْمَتُهُ قَبْلَهُ زَالَ مَعَ النِّعَةِ بِالْمَوْتِ

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ

وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ
وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ
كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ

(١) الشيعان عن عائشة مرفوعاً : سددوا وقاربوا وأبشروا واعلموا أنه لن يدخل أحدكم الجنة عمله ، قالوا ... الخ
(٢) آية ٢٣ سورة الواقعة

إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ
فَقَرَّبُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠﴾

ليس هذا تخييراً لهم ، ولا إذناً في إظهار الحظوظ على الحقوق ، ولكنه غاية التحذير
والزجر عن إظهار شيء من الحظوظ على الدين ، ومرور الأيام حكم عدل يكشف في العاقبة
عن أسرار التقدير ، قال قائلهم :

سوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار ؟

ويقال علامة الصدق في التوحيد قطع العلاقات ، ومفارقة العادات ، وهجران المعهودات
والاكتفاء بالله في دوام الحالات .

ويقال مَنْ كَسَدَتْ سَوْقُ دِينِهِ كَسَدَتْ أَسْوَاقُ حَظْوْظِهِ ، وَمَا مَن تَخَلُّ مِنْكَ مَنَازِلُ
الْحَظْوْظِ لَا تَعْمُرُ بِكَ مَشَاهِدُ الْحَقِّ .

قوله جل ذكره : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾

النصرة من الله تعالى في شهود القدرة ، والمنصور مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ التَّوَهُّمِ
وَالْحِسَابِ ، وَلَمْ يَكِلْهُ إِلَى تَدْبِيرِهِ فِي الْأُمُورِ ، وَأَثْبَتَهُ الْحَقُّ — سُبْحَانَهُ — فِي مَقَامِ الْاِفْتِقَارِ
مَتَبَرِّيًّا عَنْ الْحَوْلِ وَالْمُنَّةِ ، مُتَحَقِّقًا بِشُهُودِ تَصَارِيفِ الْقُدْرَةِ ، يَأْخُذُ الْحَقُّ — سُبْحَانَهُ —
بِيَدِهِ فَيُخْرِجُهُ عَنْ مَهْوَاةِ تَدْبِيرِهِ ، وَيُوقِفُهُ عَلَى وَصْفِ التَّصَبُّرِ لِقَضَاءِ تَقْدِيرِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ

فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ
الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ
مُذَبِّبِينَ .

يعني نَصَرَ كُمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ حِينَ تَفَرَّقَ أَكْثَرُ الْأَصْحَابِ ، وَافْتَرَّتْ أُنْيَابُ الْكَرَّةِ عَنْ نِقَابِ
الْقَهْرِ فَاضْطَرَبَتِ الْقُلُوبُ ، وَخَانَتِ الْقَوَى أَصْحَابَهَا ، وَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ، فَاسْتَخْلَصَ اللَّهُ
أَسْرَارَكُمْ — عِنْدَ صَدَقِ الرَّجُوعِ إِلَيْهِ — بِحُسْنِ السَّكِينَةِ النَّازِلَةِ عَلَيْكُمْ ، فَقَلَبَ اللَّهُ الْأَمْرَ عَلَى

الأعداء ، وَخَفَّقَتْ رَايَاتُ النِّصْرَةِ ، وَوَقَعَتِ الدَّائِرَةُ عَلَى الْكَفَّارِ ، وَارْتَدَّتْ الْهَزِيمَةُ عَلَيْهِمْ
فَرَجَوْا صَاغِرِينَ .

قوله جل ذكره ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى
الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا
وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ
الْكَافِرِينَ ﴾

--السَّكِينَةُ تُلْجُ الْقَلْبَ عِنْدَ جَرِيَانِ حُكْمِ الرَّبِّ بِنَعْتِ الطَّمَأْنِينَةِ ، وَخَوْذِ آثَارِ الْبُشْرِيَّةِ
بِالْكَلِيَّةِ ، وَالرِّضَاءِ بِالْبَادِي مِنَ الْغَيْبِ مِنْ غَيْرِ مَعَارِضَةٍ اخْتِيَارٍ .

ويقال السَّكِينَةُ الْقَرَارُ عَلَى بَسَاطَةِ الشُّهُودِ بِشَوَاهِدِ الصُّحُوفِ ، وَالتَّأْدِبِ بِإِقَامَةِ صِفَاتِ الْعِبَادِيَّةِ
مِنْ غَيْرِ لِحَاقٍ مُشَقَّةٍ ، وَبِلَا تَحَرُّكِ عِرْقٍ لِمَعَارِضَةِ حُكْمِ . وَالسَّكِينَةُ ^(١) الْمُنْزَلَةُ عَلَى « الْمُؤْمِنِينَ »
خَوْذُهُمْ تَحْتَ جَرِيَانِ مَا وَرَدَ مِنَ الْغَيْبِ مِنْ غَيْرِ كَرَاهَةٍ بِنَوَازِعِ الْبُشْرِيَّةِ ، وَاخْتِطَافِ الْحَقِّ
إِيَّاهُمْ عَنْهُمْ حَتَّى لَمْ تَسْتَفْزِمِ رَهِيَّةٌ مِنْ مَخْلُوقٍ ؛ فَسَكَنَتْ عَنْهُمْ كُلُّ إِرَادَةٍ وَاخْتِيَارٍ .

« وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا » مِنْ وَفُورِ الْيَقِينِ وَزَوَائِدِ الْإِسْتِبْصَارِ .

« وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا » بِالتَّطَوُّحِ ^(٢) فِي مَنَاهَاتِ التَّفَرُّقَةِ ، وَالسَّقُوطِ فِي وَهْدَةِ ^(٣) ضَيْقِ
التَّدْبِيرِ ، وَبِحِجَةِ الْغَفْلَةِ ، وَالْغَيْبَةِ عَنْ شُهُودِ التَّقْدِيرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ
يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

رَدَّهُمْ مِنَ الْجَهْلِ إِلَى حَقَائِقِ الْعِلْمِ ، ثُمَّ نَقَلَهُمْ مِنْ تِلْكَ الْمَنَازِلِ إِلَى مَشَاهِدِ الْيَقِينِ ، ثُمَّ رَقَّاهُمْ
عَنْ تِلْكَ الْجُمْلَةِ بِمَا لَقَّاهُمْ بِهِ مِنْ عَيْنِ الْجَمْعِ .

(١) وَرَدَتْ (وَالسَّكِينِ) وَهِيَ خَطَأٌ فِي النُّسخِ

(٢) وَرَدَتْ (وَالتَّطَوُّعِ) بِالْعَيْنِ وَهِيَ خَطَأٌ فِي النُّسخِ .

(٣) جَاءَتْ الْوَاوُ فَوْقَ فَاءِ (فِي) وَاكْتَمَلَتْ بَعْدَهَا خَطَأً : (هِدَى) ، وَالصَّوَابُ أَنْ تَأْخُذَ الْوَاوُ مَكَانَهَا

بَعْدَ (فِي) وَتَصْبِحَ الْكَلِمَةُ (وَهْدَةٌ)

قوله جل ذكره ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ
فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ
عَامِهِمْ هَذَا﴾

قدّموا طهارة الأسرار بماء التوحيد ؛ فبقوا في قدورات الظنون والأوهام ، فمُنِعُوا
قُرْبَانَ المساجد التي هي مشاهد القرب . وأما المؤمنون فطهروهم عن التدنّس بشهود الأغيار ،
فطالعوا الحقَّ قَرْدًا فَيَا يُبَيِّنُهُ مِنَ الْأَمْرِ وَيُضَيِّعُهُ مِنَ الْحُكْمِ .

قوله جل ذكره ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ
فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾
تَوَقَّعُ الْأَرْزَاقِ مِنَ الْأَسْبَابِ مِنْ قَضَايَا اخْتِلَاقِ بَابِ التَّوْحِيدِ ، فَمَنْ لَمْ يَفْرُدْ مَصْبُودَهُ
بِالْقِسْمَةِ بَقِيَ فِي قَهْرٍ مُرَمَّدٍ .

ويقال مَنْ أَنَاخَ بِعُقُودِ كَرَمِ مَوْلَاهُ ، وَاسْتَمَطَرَ سَحَابَ جُودِهِ أَغْنَاهُ عَنْ كُلِّ سَبَبٍ ،
وَكَفَاهُ كُلَّ تَعَبٍ ، وَقَضَى لَهُ كُلَّ سُؤْلِ وَأَرْبٍ ، وَأَعْطَاهُ مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ .

قوله جل ذكره : ﴿وَقَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا
الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾

مَنْ اسْتَوْجِبَ الْهَوَانَ لَا يَنْجِيكَ مِنْ شَرِّهِ غَيْرُ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْإِذْلَالِ عَلَى صَفَرِهِ ، وَمَنْ
دَاهَنَ عَدُوَّهُ فَبِالْحَرِيِّ أَنْ يَلْقَى سُوءَهُ .

وَمِنْ أَشَدِّ النَّاسِ لَكَ عَدَاوَةً ، وَأَبْعَدَهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ - نَفْسُكَ الْمَجْبُولَةُ عَلَى الشَّرِّ فَلَا تُقْلِعُ إِلَّا بِذُبْحِهَا
بِعُدْيَةِ الْمُجَاهِدَاتِ . وَهِيَ لَا تَوْمِنُ بِالتَّقْدِيرِ ، وَلَا يَزُولُ شَكْهَا قَطْ ، وَكَذَلِكَ تَخْلَدُ إِلَى التَّدْبِيرِ^(١) ،

(١) أى تدبير الإنسان الناقض لتدبير الحق

ولا تسكن إلا بوجود المعلوم^(١) ، ولا تقبل منك إلا كاذب المواعيد ، ولذلك قالوا
وأَكْذِبَ النَّفْسَ إِذَا حَدَّثَتْهَا فَإِنَّ صِدْقَ الْقَوْلِ يَنْدِرُ بِالْأَمَلِ
قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ ،
وقالت النصارى المسيح ابن الله ،
ذلك قولهم بأفواههم ﴿
لو كان هذا في مخاطب المخلوقين لكان عين الشكوى ؛ والشكوى إلى الأحباب تشير
إلى تحقق الوصلة .

شكا إليهم ما حصل من قبيح أعمالهم ، وكَم بَيْنَ مَنْ تَشْكُو مِنْهُ وَبَيْنَ مَنْ تَشْكُو إِلَيْهِ ۝
قوله جل ذكره: ﴿يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
قَبْلُ﴾ ، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿
الكفار قبلهم جحدوا الربوبية ، وهؤلاء أقروا بالله ، ثم لما أثبتوا له الولد تقضوا
ما أقروا به من التوحيد ، فصاروا كالكفار قبلهم .
ويمكن أن تكون مضاهاة قولهم في وصف المعبود بأن عيسى ابنه وعزيراً ابنه كقول
الكفار قبلهم إِنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ .
ويقال لما وصفوا المعبود بما يتعالى عن قولهم لم ينفعهم صدقهم في الإقرار بربوبيته
مما أضافوا إليه من سوء القالة . وكلُّ مَنْ أَطْلُقَ فِي وَصْفِهِ مَا يَتَقَدَّسُ — سبحانه — عنه فهو
للأعداء مُشَاكِلٌ فِي اسْتِحْقَاقِ النَّدَمِ وَالتَّوْبِيخِ .

قوله جل ذكره: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَأْمُورًا
إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

(١) ربما كان المقصود بالمعلوم هنا ما يقع في نطاق الحس ؛ وتقدير الحق ههنا لا يقع تحت حس ،
الإنسان وعلم الإنسان .

كما لا تجوز مجاوزة الحد في وضع القدر لا تجوز مجاوزة الحد في رفع القدر ، وفي الخبر :
« أُمِرْنَا أَنْ نُنْزِلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ »

• فَمَنْ رَأَى مِنَ الْمَخْلُوقِينَ شَظِيئَةً مِنَ الْإِبْدَاعِ أَنْزَلَهُمْ مَنَازِلَ الْأَرْبَابِ ، وذلك - في التحقيق -
— شُرَكَاءُ ، وما أخلص في التوحيد مَنْ لَمْ يَرِ جَمِيعَ الْحَادِثَاتِ بِصِفَاتِهَا (. . . .) ^(١) من الله .
« وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً » : فَمَنْ رَفَعَ فِي عَقْدِهِ مَخْلُوقاً فَوْقَ قَدْرِهِ
فَقَدْ أَشْرَكَ بِرَبِّهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ
وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ
الْكَافِرُونَ ﴾

مَنْ رَامَ أَنْ يَسْتَرْشِقَ الشَّمْسُ بِدُخَانٍ يُوْجِهُهُ مِنْ نِيرَانِهِ ، أَوْ عَالِجٌ أَنْ يَمْنَعَ حَكْمَ السَّمَاءِ
بِحِيلَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ ، أَوْ يُسْقِطَ نَجْمٌ مِنَ الْفَلَكَ بِسَهَامٍ قَوْسِهِ — أَظْهَرَ رُغْوَتَهُ ثُمَّ لَمْ يَحْظَ بِمُرَادِهِ .
كَذَلِكَ مَنْ تَوَقَّعَ أَنْ تُنْهَى التَّوْحِيدُ بِعِلْمِهَا وَهَجَّ الشُّبُهَةَ فَقَدْ خَابَ فِي ظَنِّهِ ، وَاقْتَضَحَ فِي وَهْمِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ
الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ
وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾

أَزَاحَ الْعِلَلُ بِمَا أَلَا حَ مِنَ الْحُجَجِ ، وَأَزَالَ الشُّبُهَةَ بِمَا أَفْصَحَ مِنَ النِّهَجِ ؛ فَشَمَّسَ الْحَقُّ
طَالِبَةً ، وَأَدَلَّ الشَّرْعَ لَامِعَةً ، كَمَا قَالُوا :

هِيَ الشَّمْسُ إِلَّا أَنْ لِلشَّمْسِ غَيْبَةً وَهَذَا الَّذِي نَعْنِيهِ لَيْسَ يَغِيبُ
قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِنَ
الْأَجْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ
النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيُصْذَوْنَ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

(١) مشبهة .

العالم إذا ارتفق بأموال الناس عوضاً عما يُعلمهم زالتْ بركاتُ عليه ، ولم يَظبْ في طريق الزهد مَطْعَمُهُ .

والعارف إذا انتفع بخدمة المريد ، أو ارتفق بشيء من أحواله وأعماله زالت آثارُ همتِهِ ، ولم تُجَدِ في حكم التوحيد حالته .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

لم في الآجل عقوبة . والذين لا يؤثر على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة فلم في العاجل حجة . وقليل من عبادِهِ مَنْ سَلِمَ من الحجاب في مُحْتَضَرِهِ والعقاب في مُنْتَظَرِهِ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ يُخَيَّأُ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ .

لما طلبوا الجاه عند الخلق بما لهم ، وبخلوا بإخراج حق الله عنه شأن وجوههم . ولما أسندوا ظهورهم إلى أموالهم . قال تعالى : « فُتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ » .

ويقال : لما (عبسوا) في وجوه العفاة^(٢) وعقدوا حواجيبهم وضعت الكيئة على تلك الجباه المقبوضة عند رؤية الفقراء ، ولما طووا كُشْحَهُم دون الفقراء — إذا جالسهم — وَضَعَتِ الْمِكْوَاةَ عَلَى جُنُوبِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا

(١) محتضره أى حاضره وعاجله ، ومنتظره أى مستقبله وآجله .

(٢) العفاة هم طالبو العطاء ومستحقوه

عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ
حَرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيْمُ ﴿١﴾

لَمَّا عَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يُدَاوِمُونَ عَلَى مُلَازِمَةِ الْقُرْبِ أَفْرَدَ بَعْضَ الشُّهُورِ بِالتَّفْضِيلِ ،
لِيُخَصِّصَهَا بِاسْتِكْثَارِ الطَّاعَةِ فِيهَا . فَأَمَّا الْخَوَاصُّ مِنْ عِبَادِهِ فَجَمِيعُ الشُّهُورِ لَمْ شَعْبَانُ
وَرَمَضَانُ ، وَكَذَلِكَ جَمِيعُ الْأَيَّامِ لَمْ جُمُعَةٌ ، وَجَمِيعُ الْبَقَاعِ ^(١) لَمْ مَسْجِدٌ وَفِي مَعْنَاهُ
أَشَدُّ بَعْضُهُمْ .

يَا رَبُّ إِنِّ جَاهِدِي غَيْرُ مُنْقَطِعٍ . وَكُلُّ أَرْضٍ لِي تُغَرُّ طَرَسُوسُ

قوله جل ذكره : ﴿ فَا تَظَلُّوا فِيهِمْ أَنْفُكُمْ وَقَاتِلُوا
الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾

قال للعوام : لَا تَظَلُّوا فِي بَعْضِ الشُّهُورِ أَنْفُسَكُمْ ، يَعْنِي بَارْتِكَابِ الزُّلَّةِ . وَأَمَّا
الْخَوَاصُّ فَأَمُورُونَ أَلَا يَظَلُّوا فِي جَمِيعِ الشُّهُورِ قُلُوبَهُمْ بِاحْتِقَابِ الْغَفْلَةِ ^(٢) .

ويقال : الظلم على النفس أن يجعل العبد زمامه بيد شهواته ، فتورده مواطن
الهلاك .

ويقال : الظلم على النفس بخدمة المخلوقين بدل طاعة الحق .

ويقال : مَنْ ظَلَمَ عَلَى قَلْبِهِ بِالْمُضَاجَعَاتِ امْتَحِنَ بِعَدَمِ الصَّفْوَةِ فِي مَرُورِ الْأَوْقَاتِ .

« وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً » : وَلَا سِلَاحَ أَمْضَى عَلَى الْعَدُوِّ مِنْ تَبَرُّكِكَ عَنْ
حَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ .

(١) وردت (البقاء) وهي خطأ في النسخ

(٢) وردت (المقد) والصواب أن تكون (الغفلة) ، فالغفلة للقلب والزلة للنفس

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ ^(١) زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلِلُونَ مَا كَانَ
يُحْرَمُونَ مَا كَانَ لِيُؤْثِرُوا عِدَّةَ
مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحْلِلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ،
زَيْنَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ سِوَهُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

الدينُ ملاحظةُ الأمرِ ومجانبةُ الوزرِ وتركُ النقصِ ^(٢) بين يدي الله سبحانه — في جميع
أحكام الشرع ، فالأجلُ في الطاعاتِ مضروبة ، والتوفيقُ في عرفانه متبَع ، والصلاح
في الأمور بالإقامة على نمت العبودية ؛ فالشهرُ ما سمَّاه الله شهراً ، والعامُ والحولُ ما أعلمُ
أَخْلَقَ أَنَّهُ قَدَرُ مَا بَيْنَهُ شَرْهًا .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا
قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أَتَأْتَلُم إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ
الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ .

عَاتِبَهُمْ عَلَى تَرْكِ الْبِدَارِ عِنْدَ تَوْجِيهِ الْأَمْرِ ، وَاتِّهَازِ فُرْصَةِ الرُّخْصَةِ .
وَأَمَرَهُمْ بِالْجِدِّ فِي الْعَزْمِ ، وَالْقَصْدِ فِي الْفِعْلِ ؛ فَالْجَنُوحُ إِلَى التَّكَاسُلِ ، وَالِاسْتِرَوَاحُ إِلَى
التَّنَاقُلِ أَمَارَاتُ ضَعْفِ الْإِيمَانِ إِذَا الْإِيمَانُ غَرِيمٌ مُلَازِمٌ لَا يَرْضَى مِنَ الْعَبْدِ بِغَيْرِ مِمَارَسَةِ الْأَشَقِّ ،
وَمَلَابَسَةِ الْأَحَقِّ .

قوله « أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا » : وَهَلْ يَجْمَلُ بِالْعَابِدِ أَنْ يَخْتَارَ دُنْيَاهُ عَلَى عُقْبَاهُ ؟
وَهَلْ يَحْسُنُ بِالْعَارِفِ أَنْ يُؤْثِرَ هَوَاهُ عَلَى رِضَا مَوْلَاهُ ؟ وَأَنْشَدُوا

(١) النَّسِيءُ = تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر ، فقد كانوا إذا هل شهر حرام وم يحاربون أحلوه
وحرموا مكانه شهراً آخر
(٢) أي عدم استعجال شيء موقوف بأمر الله وشرعه .. هذا مانفهمه من السياق

أَيْجَمِلُ بِالْأَحْيَابِ مَا قَدْ فَعَلُوا مَضَوْا وَانصَرَفُوا بِالْيَنَهِمْ قَفَلُوا
إِنَّ غَيْبَةَ يَوْمٍ لِلزَّاهِدِ عَنِ الْبَابِ تَعْدِيلٌ شَهْرًا ، وَغَيْبَةُ لِحَظَةٍ لِلْعَارِفِ عَنِ الْبَسَاطِ
تَعْدِيلٌ دَهْرًا ، وَأَنْشِدُوا :

الْإِلْفُ لَا يَصْبِرُ عَنْ إِلْفِهِ أَكْثَرُ مِنْ طَرْفَةِ عَيْنٍ
وَقَدْ صَبَرْنَا عَنْكُمْ سَاعَةً مَا هَكَذَا فِعْلُ مُحِبِّينَ

قوله جل ذكره ﴿ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا
وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ
شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

الْعَذَابُ الْأَلِيمُ إِذَا أَعْرَضَ الْعَبْدُ عَنِ الطَّاعَةِ أَلَا يَبْعَثُ وَرَاءَهُ مِنْ جُنُودِ التَّوْفِيقِ
مَا يَرُدُّهُ إِلَى الْبَابِ .

الْعَذَابُ الْأَلِيمُ أَنْ يَسْلُبَهُ حَلَاوَةُ التَّجْوِي إِذَا آبَ .

الْعَذَابُ الْأَلِيمُ الصَّدُودُ يَوْمَ الْوُرُودِ ، وَقِيلَ :

وَأَعْدُونِي بِالْوَصَالِ — وَالْوَصَالُ عَذَابٌ — وَرَمَوْنِي بِالْصَّدُودِ وَالصَّدُّ صَعْبٌ

الْعَذَابُ الْأَلِيمُ الْوَعِيدُ بِالْفِرَاقِ ، فَأَمَّا نَفْسُ الْفِرَاقِ فَهُوَ تَمَامُ التَّلَفِّ ، وَأَنْشِدُوا :

وَزَعَمْتُ أَنَّ الْبَيْنَ مِنْكَ غَدَاً هَدَّدْتُ بِذَلِكَ مَنْ يَبِيشُ غَدَاً

قوله : « وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ » يَصْرِفُ مَا كَانَ مِنْ إِقْبَالِهِ عَلَيْهِ إِلَى غَيْرِهِ مِنْ أَشْكَالِهِ ،
وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ حَفَرَ بَرًّا يَشْرَبُ مِنْ مَعِينِهَا ، وَأَنْشِدُوا :

تَسْقِي رِيَّاحِينَ الْحِفَاطِ مَدَامِي وَسَوَايَ فِي رَوْضِ التَّوَاصِلِ يَرْتَعِ

قوله جل ذكره : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ

إِذْ أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنِينَ

إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ

لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ .

مِنْ عَزِيزٍ تِلْكَ النُّصْرَةُ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَأْذِنْ بِثَانِيهِ الَّذِي كَانَ مَعَهُ بَلْ رَدَّ الصَّدُوقَ إِلَى اللَّهِ ،
وَنَهَاهُ عَنْ مَسَاكِنْتِهِ إِيَّاهُ ، فَقَالَ : مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا ؟

قَالَ تَعَالَى : « إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » .

وَيُقَالُ مِنْ تِلْكَ النُّصْرَةِ إِبْقَاؤُهُ إِيَّاهُ فِي كَشُوفَاتِهِ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ ، وَلَوْلَا نَصْرَتُهُ لَتَلَاثَى تَحْتَ
سَطَوَاتِ كَشْفِهِ .

وَيُقَالُ كَانَ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — أَمَانَ أَهْلَ الْأَرْضِ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، قَالَ تَعَالَى :

« وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ » ^(١) ، وَجَعَلَهُ — فِي الظَّاهِرِ — فِي أَمَانِ الْعَنْكَبُوتِ
حِينَ نَسَحَ خَيْطَهُ عَلَى بَابِ الْغَارِ فَخَلَّصَهُ مِنْ كَيْدِهِمْ .

وَيُقَالُ لَوْ دَخَلَ هَذَا الْغَارُ لَا نَشَقُّ نَسِيجَ الْعَنْكَبُوتِ . . فَيَعْجَبُ كَيْفَ سَتَرَ قِصَّةَ حَبِيبِهِ —
صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ١٩

وَيُقَالُ صَحِيحٌ مَا قَالُوا : لِلْبَقَاعِ دَوْلٌ ، فَمَا خَطَرَ بِيَالِ أَحَدٍ أَنْ تِلْكَ الْغَارُ تُصِيرُ مَأْوَى ذَلِكَ
السَّيِّدِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — وَلَكِنَّهُ يَخْتَصُّ بِقِسْتِهِ مَا يَشَاءُ كَمَا يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ
مَنْ يَشَاءُ .

وَيُقَالُ لَيْسَتْ الْغَيْرَانِ ^(٢) كُلُّهُمَا مَأْوَى الْحَيَّاتِ ، فَفَنَهَا مَا هُوَ مَأْوَى الْأَحْبَابِ . وَيُقَالُ عَلِقَتْ
قُلُوبُ قَوْمٍ بِالْعَرْشِ فَطَلَبُوا الْحَقَّ مِنْهُ ، وَهُوَ تَعَالَى يَقُولُ :

« إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » فَهُوَ سُبْحَانَهُ — وَإِنْ تَقَدَّسَ عَنْ كُلِّ مَكَانٍ —
وَلَكِنْ فِي هَذَا الْخُطَابِ حَيَاةٌ لِأَسْرَارِ أَرْبَابِ الْمَوَاجِيدِ ، وَأَنْشَدُوا :

يَا طَالِبَ اللَّهِ فِي الْعَرْشِ الرَّفِيعِ بِهِ لَا تَطْلُبِ الْعَرْشَ إِنْ الْمَجْدُ فِي الْغَارِ

وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى تَحْقِيقِ صَحْبَةِ الصَّدِيقِ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — حَيْثُ سَمَّاهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ
صَاحِبَةً ، وَعَدَّهُ ثَانِيَهُ ، فِي الْإِيمَانِ ثَانِيَهُ ، وَفِي الْغَارِ ثَانِيَهُ ثُمَّ فِي الْقَبْرِ ضَجْبِيحَهُ ، وَفِي الْجَنَّةِ
يَكُونُ رَفِيقَهُ .

(١) آيَةُ ٣٣ سُورَةِ الْأَنْفَالِ

(٢) الْغَارُ يَجْمَعُ عَلَى أَغْوَارٍ وَغَيْرِهَا

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾

الكناية في الهاء من « عليه » تعود إلى الرسول عليه السلام ، ويحتمل أن تكون عائدة إلى الصديق رضى الله عنه ، فإن حُجِلَتْ على الصديق تكون خصوصية له من بين المؤمنين على الافراد ، فقد قال عز وجل لجميع المؤمنين : « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين » (١) .

وقال للصديق — على التخصيص — فأنزل الله سكينته عليه ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله يتجلى للناس عامة ويتجلى لأبى بكر خاصة » (٢) .

ولما كان حزن الصديق ذلك اليوم لأجل الرسول — صلى الله عليه وسلم — إشفاقاً عليه .. لا لأجل نفسه . ثم إنه — عليه السلام — نفي جزئه وسلاؤه بأن قال : « لا نحزن إن الله معنا » ، وحزن لا يذهب إلا لمحبة الحق لا يكون إلا « لحق الحق » (٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَيُّدِهِ بِمَنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

يريد به النبي صلى الله عليه وسلم . وتلك الجنود وفود زوائد اليقين على أسرارہ بتجلى الكشوفات .

« وجعل كلمة الذين كفروا السفلى » بإظهار حُجج دينه ، وتمهيد سُبُل حقه وبقينه ، فرايات الحق إلى الأبد عالية ، وتمويهات الباطل واهية ، وحزب الحق منصورون ، ووفد الباطل مقهورون .

(١) آية ٤ سورة الفتح

(٢) يتأيد كلام القشيري عن خصوصية أبى بكر بتزول السكينة على قلبه بما يروى من يوم بدر ، حينما قال النبي عليه السلام « اللهم ان تهلك هذه العصابة لم تعبد فى الأرض من بعد ذلك » قال له أبو بكر : دع منك مناشدتك ربك فإنه والله منجز لك ما وعدك وهو قوله تعالى : « إنا يوحى ربك إلى الملائكة أتى معكم فتبثوا الذين آمنوا سألنى فى قلوب الذين كفروا الرعب [مسلم والترمذى عن ابن عباس عن عمر] (٣) لأنه ليس حزناً مرتبطاً بحفظ من حظوظ النفس ولكنه لحق الحق

ويقال لما خلا الصديق بالرسول عليه السلام في الغار ، وأشرقت على سيره أنوار صحبة
الرسول عليه السلام ، ووقع عليه شعاع أنواره ، واشتاق إلى الله تعالى لفقد قراره — أزال
عنه لواجه بما أخبره من قربه — سبحانه — فاستبدل بالقلق سكوناً ، وبالشوق أنساً ،
وأنزل عليه من السكينة ما كشفه به من شهود الهيبة .

ويقال كان الرسول — صلى الله عليه وسلم — ثانياً اثنين في الظاهر بشبهه^(١) ولكن كان
مُتَهَلِّكاً الشاهد في الواحد بـسـيره .

قوله جل ذكره : ﴿ افِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا
بَأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

أمرهم بالقيام بحقه ، والبدار إلى أداء أمره في جميع أحوالهم .

« خفافا » يعنى في حال حضور قلوبكم ، فلا يحسبكم نصب الجهادات .

« وثقالا » إذا رُدِّدْتُمْ إليكم في مقاساة نصب المكابذات . فإن البيعة أُخِذَتْ عليكم
في (...) (٢) و (...) (٣) .

ويقال « خفافا » إذا تحررتهم من رِقِّ المطالبات والاختيار ، « وثقالا » إذا كان على قلوبكم
قلل الحاجات ، وأنتم تؤملون قضاء الحق ما رِبَكُم .

قوله جل ذكره : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا
لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ
الْعُشَّةُ وَبِيعِلِفُونِ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا
نَخْرُجُنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

لا تَبْعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ
الْعُشَّةُ وَبِيعِلِفُونِ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا
نَخْرُجُنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ

(١) (بشبهه) هتامنناها با انسان مثله ، أى كان أنسه — في الظاهر بصاحبه ، وعلى الحقيقة كان أنسه بالله .
(٢) ، (٣) لفظتان مشتبهتان ، وربما كانتا بمعنى (حضوركم وحييتكم) أو (قرىكم وبعديكم) أو نحو
ذلك .. فهكذا نفهم من السياق .

يريد به المتخلفين عنه في غزوة « تبوك » ، بين سبحانه أنه لو كانت للساقفة قريبة ،
والأمر هيناً لما تخلفوا عنك ؛ لأن من كان غير متحقق في قصده كان غير بالغ في جهده ،
يعيش على حرف ، ويتصرف بحرف ، فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب
على وجهه . وقال تعالى : « فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم » (١) .

فإذا رأيت للريد يتبع الرخص ويجنح إلى الكسل ، ويتعلل بالتأويلات . . فاعلم أنه
منصرف عن الطريق ، متخلف عن السلوك ، وأنشدوا :

وكذا الملول إذا أراد قطيعةً ملّ الوصال وقال : كان وكانا

ومن جدّ في الطلب لم يعرج في أوطان النشل ، ويواصل السير والسرى ، ولا يحتمش
من مقاساة الكد والعناء ، وأنشدوا :

ثم قطعت الليل في مهمة لا أسداً أخشى ولا ذيباً
يفلبنى شوقي فأطوى السرى ولم يزك ذو الشوق مظلوماً

قوله : « وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم » : يمين للتعلل
والمشاوول يمين فاجرة تشهد بكذبتها عيون الفراسة ، وتنفر منها القلوب ، فلا تجد من
القلوب محلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى
يَتَّبِعِينَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ
الكَاذِبِينَ ﴾

لم يكن منه صلى الله عليه وسلم خرقٌ حدّ أو تماطى محظور ، وإنما (نذر) (٢) منه ترك
ما هو الأولى . قدّم الله ذكر العفو على الخطاب الذي هو في صورة العتاب بقوله : « لِمَ
أذنت لهم » .

أو من جواز الزلة على الأنبياء — عليهم السلام — إذ لم يكن ذلك في تبليغ أمر

(١) آية ٢١ سورة محمد

(٢) مكذا في (س) وربما كانت (بدر) في الأصل أي صدر عنه أما (نذر) فتفيد (قل) منه ترك
ما هو الأولى ، وكلاماً لا يرفضه السياق .

أو تمهيد شرع (بقول قائله ألتشدوا بالعفو قبل أن وقف للعفر)^(١) وكذا سنة الأحاب
مع الأحاب ، قال قائلهم :

ما حطك الواشون عن رتبة عندي ولا ضرك مقتاب
كانهم أثنوا — ولم يعلموا — عليك عندي بالذي عابوا
ويقال حسنات الأعداء — وإن كانت حسنات — فكلردودة ، وسينات الأحاب
— وإن كانت سينات — فكللفنورة :

من ذا يؤاخذ من يحب بذنبه وله شفيع في الفؤاد مشفع
قوله جل ذكره : ﴿ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله
واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم
وأ أنفسهم والله عليم بالمتقين ﴾
المخلص في عقده غير مؤثر شيئاً على أمره ، ولا يدخر مستطاعاً في استنراغ وسعته ،
وبذل جهده ، ومقاساة كده ، واستعمال جده .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون
بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم
فهم في ريبهم يترددون ﴾
من رام عن عهدة الإلزام خروجاً انتهز للتأخير والتخلف فرصة لعدم إيمانه وتصديقه ،
ولا استمكان الريبة من قلبه وسيره . أولئك الذين يتقلبون في ريبهم ، ويترددون في شكهم .
قوله جل ذكره : ﴿ ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ﴾
أى لو صدقوا في الطاعة لاستجابوا ببذل الوسع والطاقة ، ولكن سقيمت إرادتهم ،
فحصلت دون الخروج بلادتهم ، وكذلك قيل :

لو صح منك الهوى أرشيت للحيل

(١) ما بين القوسين مثبت كما في (س) وفيه اضطراب ناشئ عن النسخ ، وربما كان شاهداً شعرياً
معناه : (جاد بالعفو قبل الوقوف على العذر) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ
وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾

الزَّمَّهِمُ الخروج من حيث التكليف ، ولكن ثبَّتَهُمْ في بيوتهم بالثقلان ؛ فبالإلزام
دعاهم ، وبأمر التكوين أقصاهم ..

قوله جل ذكره : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا
وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْشُخُونَكُمْ
الْفِتْنَةَ ، وَفِيكُمْ تَجَمَّاعُونَ لَهُمْ ، وَاللَّهُ
عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾

أخبر عن سابق علمه بهم ، وذكر ما علم أنه لا يكون أن لو كان كيف يكون ؛ فقال :
ولو ساعدوكم في الخروج لكان ما يلحقكم من سوء سيرتهم في الفتنة بينكم ، والنجاسة فيكم ،
والسبى فيما يسوؤكم أكثر مما نالكم بتخلُّفهم من قصاص عددكم . ومن ضرره أكثر من
نفعه فَعَدَّه خَيْرٌ مِنْ وجوده ، ومن لا يحصل منه شيء غير ضروره فتخلَّفه أنفع
من حضوره .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا
لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ
أَمْرُ اللَّهِ وَهُوَ كَرِيمٌ ﴾

لَهُمْ وَإِنْ أَظْهَرُوا وِفَاقَكُمْ قَدْ اسْتَبَطُوا نِفَاقَكُمْ ؛ أعلنوا أنهم يؤازرونكم ولكن
داموا بكيدهم تشويش أموركم ، حتى كشف الله عوراتهم ، وفضحهم ، حتى تحذروهم منهم
بما تحققت من أسرارهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِّي وَلَا تَفْتِنِّي
أَلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنْ جَهَنَّمُ
لَسُحَيْطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾

أبرزوا قبيحَ فَعَالِهِمْ فِي مَعْرِضِ التَّخْرِجِ ، وراموا أَنْ يُلبَّسُوا عَلَى الرَّسُولِ — صلى الله وسلم وعلى آله — وعلى المسلمين خُبثٌ^(١) سِيرَتُهُمْ وَسِرِيرَتُهُمْ ، فَبَيَّنَّ اللهُ أَنَّ الَّذِينَ (...) ^(٢) بزعمهم سقطوا فيه بفعلهم ، وكذلك المتجلدُ بما يهواه متطوح في وادى بلواه ، وَسَيَلَقَى فِي الآخِرَةِ مِنَ الْهَوَانِ مَا يُغْنِي عَنْ الْحَاجَةِ إِلَى الْبَرهَانِ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴾

هكذا صفة الحسود ، يتصاعد أنينُ قلبه عند شهود الحسنى ، وَلَا يَسُرُّ قَلْبَهُ غَيْرُ حُلُولِ الْبَلَاةِ ، وَلَا دَوَاءَ لَجُروحِ الحسود ؛ فإنه لَا يَرْضَى بِغَيْرِ زَوَالِ النِّعَةِ وَلِذَا قَالُوا : كُلُّ الْعِدَاوَةِ قَدْ تُرْجَى إِمَاتَتُهَا إِلَّا عِدَاوَةُ مَنْ عَادَاكَ مِنْ حَسَدٍ وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَجَلُ عِقَابِهِ الْحَاسِدَ ، وَذَلِكَ : حَزَنُ قَلْبِهِ بِسَلَامَةِ مُحْسُوْدِهِ ؛ فَالنِّعَةُ لِلْمُحْسُوْدِ نَقْدٌ وَالْوَحْشَةُ لِلْحَاسِدِ نَقْدٌ^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

الْمُؤْمِنِ لَا تَلْحَقُهُ شِمَاتُهُ عِدْوُهُ لِأَنَّهُ لَيْسَ يَرَى إِلَّا مُرَادَ وَلِيِّهِ ، فَهُوَ يَنْتَحِقُ أَنَّ مَا يَنَالُهُ مُرَادُ مَوْلَاهُ فَيَسْقُطُ عَنْ قَلْبِهِ مَا يَهْوَاهُ ، وَيَسْتَقْبِلُهُ بِرُوحِ رِضَاهُ فَيَعْتَذِبُ عَنْدهُ مَا كَانَ يَصْغَبُ مِنْ بِلَوَاهُ ، وَفِي مَعْنَاهُ أَشَدُّوا :

إِنْ كَانَ سَرٌّ كُمْ مَا قَالَ حَاسِدُنَا فَمَا لِيْجُرِّحَ — إِذَا أَرْضَاكُمْ — أَلَمْ

(١) وردت (حيث) وهي خطأ في النسخ
(٢) مشبهة .

(٣) أى جزاء معجل في هذه الدنيا ؛ فعند التشيرى اصطلاحان : نقد (هنا في الدنيا) ، ووعد (في الآخرة) والسباق يؤدي إلى أن الجزاءين نقد .

ويقال شهودُ جريانِ التقديرِ يخفف على العبدِ تعبَ كلِّ عسير .

قوله : « هو مولانا » : تعريفٌ للعبد أن له — سبحانه — أن يفعل ما يريد ، لأنه تصرفُ مالكِ الأعبانِ في مُلكِهِ ، فهو يُبَدِي وَيُجَرِي ما يريد بحقِّ حُكْمِهِ .
ثم قال : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » : وأولُ التوكلِ الثقةُ بوعده ، ثم الرضا باختياره ، ثم نسيانُ أمورك بما يغلبُ على قلبك من أذكاره .

ويقال التوكل سكونُ السرِّ عند حلول الأمر ونهاية التفويض ، وفيها يتساوى الخلوُّ والحرُّ ، والنعمةُ والمحنةُ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَتَمَحْنُ تُرَبَّصُونَ ﴾
يُكْمُ أَنْ يُصِيَكُكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا
فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿

بَيَّنَّ اللهُ في هذه الآية الفرقَ بين المؤمنين وبين الكفار ، فقال قُلْ للذين ينتظرون : أيها الكفار (إن كان^(١)) من شأن المؤمنين وقوعُ الدائرة عليهم في القتال ، أو أن القتلَ ينالهم فأى واحدٍ من الأمرين ينالهم فهو لهم من الله نعمة ؛ لأننا إن ظفَرْنَا بكم فنَصَرُ وغنِمة ، وعِزٌّ للدين ورفعة ، وإن قُتِلْنَا فشهادةٌ ورحمة ، ورضوانٌ من الله وذُلٌّ . وإن كان الذي يصيبنا في الدنيا هزيمةً ونكبةً ، فذلك مُوجِبٌ للأجرِ والثوبة ، فإذا لن يستقبلنا إلا ما هو حُسْنِي ونعمة .

وأما أنتم ، فإن ظفَرْنَا بكم فتعجيلٌ لذلِّكم ومحنة ، وإن قُتِلْتُمْ فعقوبةٌ من الله وسخطه ، وإن كانت اليد لكم في الحال فخذلانٌ من الله ، وسببُ عذابٍ وزيادةُ نقمة .

ويقال « هل ترصدون بنا إلا إحدى الحُسَيْنَيْنِ » إمَّا قيامُ بحقِّ الله في الحال فنكون بوصفِ الرضاء وهو — في التحقيق — الجنةُ الكبرى ، وإمَّا وصولٌ إلى الله تعالى في المآل بوصفِ الشهادة ، ووجدانُ الزلفي في العقبى وهي الكرامة العظمى .

(١) سقطت (إن كان) والمعنى يتطلبها.

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا
لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا
فَاسِقِينَ ﴾

المردود لا يُقبلُ منه توصل^(١) ، ولا يُغَيَّرُ حُكْمُ شِقَاوَتِهِ بِكَثِيرِ التَّكْلُفِ وَالنَّعْمَلِ .
ويقال تقربُ العدوُّ يوجبُ زيادةَ المقتله ، ونجيبُ الحبيبِ يقتضى زيادةَ العطفِ
عليه ، قال تعالى : « فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ » .^(٢)

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ
إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى
وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ » .

قدوا الإخلاصَ في أموالهم فدموا الاختصاصَ في أحوالهم ، وحرموا الاخلاصَ في عاجلهم
وفي مآلهم .

قوله : « وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى » : مَنْ أَطَاعَ مِنْ حَيْثُ الْعَادَةُ — مِنْ غَيْرِ أَنْ
تَحْمِلَهُ عَلَيْهَا لَوْعَةُ الْإِرَادَةِ — لَمْ يَجِدْ لَطَاعَتَهُ رَاحَةً وَزِيَادَةً .

ويقال مَنْ لَاحَظَ انْتِلَاقَ فِي الْجَهْرِ مِنْ أَعْمَالِهِ ، وَرَكَنَ إِلَى الْكُسَالَى فِي السِّرِّ مِنْ أَحْوَالِهِ
قَدْ وُسِّمَ بِالْخِلْدَانِ ، وَخُتِمَ بِالْحَرَمَانِ ، وَهَذِهِ هِيَ أَمَارَةُ الْفِرْقَةِ وَالْقَطِيعَةِ ، قَالَ تَعَالَى : « وَمَكْرُوهَا
وَمَكْرُ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » .^(٣)

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَا تُحِبِّكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ
إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ
كَافِرُونَ ﴾

(١) لا تسلبد أنها تكون (توصل) بدليل ما بعدها ، والمراد يحتمل كليهما .

(٢) آية ٧٠ سورة الفرقان .

(٣) آية ٤٤ سورة آل عمران

بَيِّنَ أَنْ مَا حَسَبُوهُ نِعْمَةً وَاعْتَدُوهُ مِنْ اللَّهِ نِقْمَةً فَهُوَ — فِي التَّحْقِيقِ — مِحْنَةٌ ، وَسَبَبُ شَقَاءٍ وَفُرْقَةٍ ، وَإِنَّمَا دَسَّ التَّقْدِيرُ لَهُمْ مُحْكُومَ الصَّابِ ، فِيمَا اسْتَلْذَوْهُ مِنَ الشَّرَابِ ، « أَيْحَسِبُونَ أَنْ مَا تُنْمِدُ لَهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نَسَارِعَ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ » (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَخْلَفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَكُمْ وَمَا مِنْكُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ .

التَّقَرُّبُ بِالْإِيمَانِ الْفَاجِرَةِ لَا يُوجِبُ لِلْقُلُوبِ إِلَّا بُعْدًا عَنِ الْقُبُولِ .

ويقال إِنَّ إظهارَ التَّلبِيسِ لَا (. . .) (٢) الأسرارَ بِرَدِّ السَّكُونِ ، وَلَا يَشْفِي الْبَصَائِرَ بِرَدِّ الثِّقَةِ وَالْيَقِينِ . . . فَالَا يَكُونُ فَلَا يَكُونُ بِحِيلَةٍ أَبَدًا ، وَمَا هُوَ كَأَنَّ سَيَكُونُ .

قوله جل ذكره : ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَفَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلُّوا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ .

إِنَّ الْمَذِقَ (٣) فِي الْخُلَّةِ يَنْسَلُ عَنْ سِلْكِهَا بِأُضْعَفِ خَلَّةٍ ، وَإِنْ وَجَدَ مَهْرَبًا آوَى إِلَيْهِ ، وَيَأْمُلُ أَنْ يَنَالَ فُرْصَةً مَا يَتَعَلَّلُ بِهَا عِنْدَ ذَلِكَ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴾ .

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْأَطْمَاعِ ، يَتَمَلَّقُونَ فِي الظَّاهِرِ مَا دَامَتِ الْأَرْفَاقُ وَاصِلَةً إِلَيْهِمْ ، فَإِنْ انْقَطَعَتْ انْقَلَبُوا كَأَن لَمْ يَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مَوَدَّةٌ .

ويقال مَنْ كَانَ رِضَاؤُهُ بِوُجْدَانِ سَبَبٍ ، وَسُخْطُهُ فِي عَدَمِ مَا يُوصِّلُهُ إِلَى نَصِيبِهِ فَهُوَ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْوَلَاءِ ، إِنَّمَا هُوَ قَائِمٌ بِحِظِّهِ ، غَيْرُ صَالِحٍ لِلصَّحْبَةِ ، وَأَمَّا لِلتَّحَقُّقِ فَكَمَا قِيلَ :

فَسِرْتُ إِلَيْكَ فِي طَلَبِ الْمَعَالَى وَسَارَ سِوَايَ فِي طَلَبِ الْمَعَاشِ

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾

(١) آية ٥٦ سورة المؤمنون

(٢) مشبهة .

(٣) مَذِقٌ فُلَانٌ فِي الْوَدِّ أَيْ لَمْ يَخْلُصْ ، وَالْمَذَاقُ الْكَذُوبُ الْمُلُولُ . وَالْمَقْصُودُ أَنَّ مَنْ لَمْ يَخْلُصْ لِي مَوَدَّتِهِ يَتَنَصَّلُ بِأُضْعَفِ صِفَةٍ وَلِأَقَلِّ شَيْءٍ .

وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿١٠﴾

لو وقفوا مع الله بِسِرِّ الرضا لَأَتَتْهُمْ فنونُ العطاء وتحقيقاتُ المنى ، ولحفظوا مع الله — عند الوجدان^(١) — ما لهم من الأدب ، من غير معاناة تعبٍ ، ولا مُقاساة نصَبٍ .. ولكنهم عَرَّجُوا في أوطانِ الطمعِ فوقعوا في الذلُّ والحرب .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ ﴾^(٢)

تَكَلَّمَ الفقهاء في صفةِ الفقير ، والفرقِ بينه وبين المسكين لما احتاجوا إليه في قسمة الزكاة المفروضة . . فأبو حنيفة رحمة الله عليه — يقول : المسكينُ الذي لا شيء له . والفقيرُ الذي له بُلْغَةٌ من العيش .

ويقول الشافعي رحمة الله عليه : الفقير الذي لا شيء له ، والمسكين الذي له بُلْغَةٌ من العيش — أي بالعكس .

وأهل المعرفة اختلفوا فيه ؛ فمنهم من قال بالأول ، ومنهم من قال بالقول الثاني ، واختلفهم ليس كاختلاف الفقهاء ؛ وذلك لأن كل واحدٍ منهم أشار إلى ما هو حاله ووقته ووجوده وشربه ومقامه . فَمِنْ أهل المعرفة مَنْ رأى أَنَّ أَخَذَ الزكاةَ المفروضةَ أولى ، قالوا إن الله تعالى جعل ذلك مِلْكًا للفقير ، فهو أَحَلُّ له مما يُتَطَوَّعُ به عليه .

ومنهم من قال : الزكاة المفروضة مستحقة لأقوام ، ورأوا الإيثار على الإخوان أولى من أن يزاحموا أرباب السهمان — مع احتياجهم أخذ الزكاة — وقالوا : نحن آثرنا الفقرَ اختياراً .
فَلِمَ نَأْخُذُ الزكاةَ المفروضة ؟

(١) أي عند وجود النعمة

(٢) نلفت النظر إلى أهمية موقف القشيري عند استخراج إشارات من هذه الآية الكريمة ، فقد كانت فرصة جيدة لكي يقارن بين نظرة الفقهاء ونظرة الصوفية

ثم على مقتضى أصولهم في الجملة — لا في أخذ الزكاة — للفقر مراتب :
 أولها الحاجة ثم الفقر ثم المسكنة ؛ فندو الحاجة من يرضى بدنياء وتسد الدنيا فقره ،
 والفقير من يكتفى بقباه وتجبر الجنة فقره ، والمسكين من لا يرضى بغير مولاه ؛ لا إلى
 الدنيا يلتفت ، ولا بالآخرة يشتغل ، ولا بغير مولاه يكتفى ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 « اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً ، واحشرنى في زمرة المساكين »^(١) وقال صلى الله عليه
 وسلم « أعوذ بك من الفقر » لأن عليه بقية^(٢) ؛ فهو ببقيته محبوب عن ربه .

ويمحس أن يقال إن الفقر الذى استعاذ منه ألا يكون له منه شيء ، والمسكنة المطلوبة
 أن تكون له بُلغة لينفرد بوجود تلك البلغة إلى العبادة ؛ لأنه إذا لم تكن له بلغة شغله
 فقره عن أداء حقه ، ولذلك استعاذ منه .

وقوم سمّت همهم عن هذا الاعتبار — وهذا أولى بأصولهم — فالفقير الصادق
 عندهم من لا سماء تظله ولا أرض تقله ولا معلوم يشغله ، فهو عبد بالله لله ، يرده إلى التمييز
 في أوان العبودية ، وفي غير هذا الوقت فهو مضطلم عن شواهد ، واقف بربه ، منشق
 عن جلته .

ويقال الفقير من كبرت فقاره — هذا في العريية .

والفقير — عندهم^(٣) — من سقط اختياره ، وتعطلت عنه دياره ، واندرست —
 لاستيلاء من اضطلمه — آثاره ، فكأنه لم تبق منه إلا أخباره ، وألشدوا :
 أما الرسوم فخبرت أنهم رحلوا قريباً

ويقال المسكين هو الذى أمكنه حاله بباب مقصوده ، لا يبرح عن سدته ، فهو معتكف
 بقلبه ، لا يغفل لحظة عن ربه .

(١) الترمذى ، وابن ماجه من أبي سعيد الخدرى والحاكم وقال صحيح الإسناد ، ورواه الطبرانى
 بسند رجاله ثقات عن عبادة بن الصامت .

(٢) ألفت السهروردى إلى ذلك حين ميز بين الفقير والصوفى فقال إن الفقير يتطلع إلى الأهواض ،
 أما الصوفى فيترك الأشياء لا الأهواض للعودة بل للأحوال الموجودة فإنه ابن وقته ، والفقير له إرادة
 في اختيار فقره ، أما الصوفى فلا إرادة بنفسه ولكن فيما يوقفه الحق (عوارف المعارف ص ٤٢) .
 (٣) أى عند أرباب الأحوال .

وأما « العاملون عليها » فعلى لسان العلم : مَنْ يتولى جمع الزكاة على شرائطها المعلومة .
وعلى لسان الإشارة : أوّلَى الناس بالتصاوت عن أخذ الزكاة مَنْ صدّقَ في أعماله لله ، فإنهم
لا يرجون على أعمالهم عِوَضاً ، ولا يتطلبون في مقابلة أحوالهم عِوَضاً ، وأنشدوا :

وما أنا بالباغى على الحب رشوةً قبيحٌ هوى يُرجى عليه ثواب^(١)

وأما المؤلفَةُ قلوبهم — على لسان العلم — فَمَنْ يُسْتَمَالُ قلبه بنوع إِرْطَاقٍ معه ، ليتوفّر
في الدين نشاطه ، فله من الزكاة سهمٌ استعطافاً لهم ، وبيان ذلك مشهورٌ في مسائل الفقه .
وحاشا أن يكون في القوم^(٢) مَنْ يكون حضوره بسبب طمعٍ أو لنيلِ ثوابٍ أو لرؤية
مقامٍ أو لاطلاعٍ حال . . . فذلك في صفة العوام ، فأما الخواص فكما قالوا .

من لم يكن بك ظانياً عن حظه وعن الهوى والإنس والأحباب
أوتيمته صباية جمعت له ما كان مفترقاً من الأسباب .
فلاذٌ بين المراتب واقفٌ لِمَنَالٍ حظٌّ أو لِحُسْنِ مآبٍ^(٣)

قوله جل ذكره : ﴿ وفي الرقاب ﴾

وهم على لسان العلم : المكاتبون ، وشرحه في مسائل الفقه معلوم .

وهؤلاء^(٤) لا يتحررون ولهم تعريض على سبب ، أو لهم في الدنيا والعقبى أرب ، فهم
لا يستفزّهم طلب ، فَمَنْ كان به بقية من هذه الجملة فهو عبدٌ لم يتحرر ، قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم وعلى آله : « المكاتبُ عبدٌ ما بقى عليه درهم ، وأنشد بعضهم :
أتمنى على الزمان محالاً أن ترى مقلتاى طلعةً حرّاً

قوله جل ذكره : ﴿ والغارمين ﴾

وهم على لسان العلم : مَنْ عليهم دينٌ في غير معصية .

(١) البيت للنسي من بانيته التي أولها : متى كن لي أن البياض خضاب

(٢) القوم هنا مقصود بها أرباب الأحوال .

(٣) الأبيات لأبي على الروزباري (اللمع ص ٤٣٥)

(٤) وهؤلاء هنا مقصود بها أيضاً أرباب الأحوال .

وهؤلاء القوم لا يقضى عنهم ما لزمهم امتلاك الحق^(١) ، ولهذا قيل المعرفة غريم
لا يقضى دينه .

قوله جل ذكره : ﴿ وفي سبيل الله ﴾

وعلى لسان العلم : مَنْ سلك سبيلَ الله وَجِبَ له في الزكاة سهمٌ على ما جاء بيانه
في مسائل الفقه .

وفي هذه الطريقة : مَنْ سلك سبيلَ الله تتوجبُ عليه المطالبات ؛ فيبذل أولاً ماله
ثم جاهه ثم نفسه ثم روحه . . وهذه أول قَدَمٍ في الطريق .

قوله جل ذكره : ﴿ وابن السبيل ﴾

وهو على لسان العلم : مَنْ وقع في الغربة ، وفارقَ وطنه على أوصاف مخصوصة .
وعند القوم : إذا تَغَرَّبَ العبدُ عن مألوفات أوطانه فهو في قِرَى^(٢) الحق ؛ فالجوعُ طعامه ،
والخلوةُ مجلسه ، والمحبةُ شرابه ، والأنسُ شهوده ، والحقُّ — تعالى — مشهوده .
قال تعالى : « وسقام ربهم شرابا طهوراً »^(٣) : لقومٍ وَعُدُّ في الجنة ، ولآخرين نَقْدُ
في الوقت ؛ اليومَ شرابُ المحابِّ وغداً شرابُ الثواب ، وفي معناه أنشدوا :

وَمُقَعَدٍ قَوْمٍ قَدَمْشَى مِنْ شَرَابِنَا وَأَعْمَى سَقِينَاهُ ثَلَاثًا فَأَبْصَرَا
وَأَخْرَسَ لَمْ يَنْطِقْ ثَلَاثِينَ حِجَّةً أَدْرَنَاهُ عَلَيْهِ الْكَأْسَ يَوْمًا فَأَخْبَرَا

قوله جل ذكره : ﴿ ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون
هو أذن ﴾

عين العداوة بالمساوىء مؤكَّلة ، وعين الرضا عن المعاييب كليلة .

بسطوا اللائمة في رسول الله صلى الله عليه وسلم فعابوه بما هو أمانة كرمه ، ودلالة فضله ،

(١) أى أن دينهم ليس يقضى أبداً إذ أمرم بيد مالكم .

(٢) القِرَى = الضيافة والإكرام .

(٣) آية ٢١ سورة الإنسان

فقالوا : إنه بحسن خُلُقِهِ يسمع ما يقال له ، فقال عليه السلام : « المؤمن غرٌّ كريم والمنافق خبٌّ لنيم »^(١)

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

وقيل : مَنْ العاقل ؟ قالوا : الْفَطْنُ الْمُسْتَغْفِل . وفي معناه أنشدوا :
وإذا الكريمُ أثبتته بخديعةٍ ولقيته فيما ترومُ يسارعُ
فاعلمُ بأنك لم تُخادِعْ جاهلاً إنَّ الكريمَ - بفضله - يتخادعُ

قوله جل ذكره : ﴿ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

أخبر أن من تزين للخلق ، وتقرب إليهم وأدام رضاهم ، واتبع في ذلك هواهم ، فإن الله سبحانه يُسْقِطُ به عن الخلق جاههم ، ويُشِينُهُمْ فيما توهموا أنه بزينهم ، والذي لا يَضِيعُ ما كان لله ، فأمّا ما كان لغير الله فوبالٍ لِمَنْ أصابه ، ومُحالٌ ما طَلَبَهُ .
ويقال إنَّ الخلق لا يصدقونك وإن حلفت لهم ، والحق يُقْبَلُكَ وإن تخلفت عنه ؛ فلاشتغال بالخلق محنة أنت غير مأجور عليها ، والإقبال على الحقُّ نعمة أنت مشكورٌ عليها .
والمقبون مَنْ تَرَكَ ما يُشْكِرُ عليه ويؤثر ما لا يؤجر عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُخَادِرُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَآَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴾

(١) في رواية الترمذي والحاكم من أبي هريرة « المؤمن غر كريم والفاجر خب لنيم »
(والسَّخِيبُ = السَّخِيع) وفي الحديث : « لا يدخل الجنة خب ولا خائ »

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَأَشْرَكَ فِي تَوْحِيدِهِ بِإِثْبَاتٍ مُوهومٍ اسْتَحَقَّ مَا هُوَ حَقُّهُ اللَّهُ : تَعَجَّلْ
عَقوبته في الحال بالفرقة ، وفي المال بالخلود في الحرقة .

فليس كلُّ مَنْ مُنِيَ^(١) بمصيبة يعلم ما ناله من المحنة ، وأنشدوا :

غداً يَتَفَرَّقُ أَهْلُ الْهَوَى وَيَكْثُرُ بِالكِ مُسْتَرْجِع

قوله جل ذكره : ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ
سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ،
قُلِ اسْتَهِزُّوا إِنَّا اللَّهُ مُخْرِجُ
مَا نَحْذَرُونَ﴾

ظَنُّوا أَنَّ الْحَقَّ — سبحانه — لَا يَفْضَحُهُمْ ، قَدَّسُوا عَلَيْكُمْ ، وَأُنْكِرُوا مَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ
سِرَائِرُهُمْ ، فَأَرَخِيَ^(٢) اللَّهُ — سبحانه — عَنَانَ إِمَهَالِهِمْ ، ثُمَّ هَتَكَ السُّرَّ عَنْ نِفَاقِهِمْ ، فَفَضَّحَهُمْ
عِنْدَ أَهْلِ التَّحْقِيقِ ، فَتَقَنَّمُوا بِخِيَارِ الْجَلْجَلِ ، وَكَشَفَ لِأَهْلِ التَّحْقِيقِ مَكَانَ الْعَتَبَارِ . وَنَمُوذُ
بِاللَّهِ مِنْ عَقُوبَةِ أَهْلِ الْإِغْتِرَارِ : ﴿وَمَكُرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا
نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ
وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ .

مَنْ اسْتَهَانَ بِاللِّدِّينِ ، وَلَمْ يَحْتَشِمْ مِنْ تَرْكِ حُرْمَةِ الْإِسْلَامِ جَعَلَهُ اللَّهُ فِي الْحَالِ نَكَالًا ،
وَسَامَهُ فِي الْآخِرَةِ صِفْرًا وَإِذْلَالًا ، وَالْحَقُّ — سبحانه — لَا يَرْضَى دُونَ أَنْ يَذِيقَ الْعُنَاةَ
بَأْسَهُ ، وَيُسْقَى كَلًّا — عَلَى مَا يَسْتَوْجِبُهُ — كَأْسَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بِمَا نَعْتَدُكُمْ

(١) وردت (مسى) وهي خطأ في النسخ وربما كانت (مسته)

(٢) وردت (فأرضى) وهي خطأ في النسخ .

(٣) آية ٤٤ سورة آل عمران .

إِنْ تَنفَبْ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ تُعَذَّبْ
طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مجْرِمِينَ ﴿١﴾ .

جرّد العفو والعذاب من حلة الجرم ، وسبب الفعل من حجة العبد ؛ حيث أحلّ
الأمر على الشبهة . . إذ لو كان للوجوب لعفوه أو تعذيبه صفة العبد كسوى بينهم عند تساويهم
في الوصف ، فلما اشتركوا في الكفر بعد الإيمان ، وعفا عن بعضهم وعذب بعضهم ذلك
على أنه يفعل ما يشاء ، ويختص من يشاء بما يشاء (٧) .

قوله جل ذكره : ﴿لِلنَّافِقِينَ وَالنَّافِقَاتِ﴾ بعضهم من
بعض يأمرون بالنكر ويتهنون
عن المعروف ﴿٢﴾ .

للمؤمن بالتؤمن يتقوى ، وللنافق بالنفاق يتعاضد ، وطيور السماء على الأرض تقع .
فالنفاق لصاحبه أس (٣) به قوامه ، وأصل به قيامه ، ويعينه على فساد ، ويعصى عليه
طريق رشاده .

وللمؤمن ينصر للمؤمن ويُبصره عيوبه ، ويُغضّ لديه ويُقبح — في عينه —
ذنوبه ، وهو على السداد يُنجده ، وعن الفساد يُبيده .

قوله جل ذكره : ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ .

عن طلب الخواج من الله تعالى

قوله جل ذكره : ﴿لَسَوْا اللَّهُ فَتَبَيَّهُمْ﴾ .

جازام على لسانهم ، فسئ جزاء النسيان لسياناً . . تركوا طاعته ، وآثروا مخالفته ،
فترّكهم وما اختاروه لأنفسهم ، قال تعالى : ﴿وَرَكَّكِهِمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾ .

(١) أخطأ الناسخ إذ أنهى الآية : (بأنهم كانوا مجرمين) .

(٧) هذه لفظة هامة تشير إلى المذهب الكلامي عند القشيري فيما يتعلق بوجوب الإنابة أو العقوبة

على الله وعدم وجوبها .

(٣) الأس بفتح الألف وضما وكسرها : أصل البناء .

قوله جل ذكره: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لِلنَّاقِثِينَ وَالْمُنَاقِثَاتِ
وَالْكَافِرَاتِ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا
هُنَّ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ
عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ .

وَعَدَمُ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ ، وَلَمْ الْعَذَابُ لِلْقِيَمِ فِي الْحَاضِرَةِ ، فَتَوَجَّلُ عَذَابِهِمُ الْحَرَقَةُ ، وَمُعْجَلُهُ الْفُرْقَةُ .

قوله جل ذكره : ﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ ، فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَائِقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَائِقِهِمْ ، وَخُضِعْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ، أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

يقال : سلكتم طريقَ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَأَهْلِ النِّفَاقِ وَقَدْ كَفَأْنَاكُمْ . ويقال للذين تقدموكم زادوا عليكم فكافأناهم كما نكفأه أهل الشقاق والنفاق ؛ في كثرة اللدّة وقوّة العُدّة ، والاستمتاع في الدنيا ، والاعتذار بالانخراط في سلك الهوى .. ولكن لم تدّم في الراحة مُدَّتْهُمْ ، ولم تُغن عنهم يومَ الشِّدَّةِ عُدَّتْهُمْ ، وعما قريب يُلْحَقُ بِكُمْ مَا لِحَقَ بالذين هم قبلكم .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ
نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ
وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ
رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ

لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ
يُظْلِمُونَ ﴿١٠﴾

ألم ينته إليهم خبرُ القرون الماضية ، ونباُ الأمم الخالية كيف دمرنا عليهم جمعهم ،
وكيف بددنا شملهم ؟ قضينا فيهم بالعدل ، وحكمتنا باستتصال السُّلُ ، فلم يبقَ منهم
نافعُ نار ، ولم يحصلوا إلا على عارٍ وشنار .

قوله جل ذكره : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ
بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ
وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ
اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

يُعين^(١) بعضهم بعضاً على الطاعات ، ويتواصون بينهم بترك المحظورات ؛ فتَحَابُّهم
في الله ، وقيامهم بحق الله ، وصحبته لله ، وعداوتهم لأجلِ الله ؛ تركوا مخطوئتهم لحق الله ،
وآثروا على هواهم رضاء الله . أولئك الذين عصمهم الله في الحال ، وسيرهم في المآل .

قوله جل ذكره : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
يُخَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ
عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ
هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

وَعَدَهُمْ جميعاً الجنة ، ومساكناً طيبة ، ولا يطيب المسكن إلا برؤية المحبوب ، وكلُّ
مُحِبٍّ يطيب مسكنه برؤية محبوبه ، ولكنهم يختلفون في الهمم ؛ فَمِنْ مَرْبُوطٍ بِمَحْظُودٍ
إِلَى الْخُلُقِ ، وَمِنْ مَجْدُوبٍ بِحَقِّ مُوَصُولٍ بِالْحَقِّ ، وفي الجملة الأمر كما يقال :

(١) وردت (يعني) وهي خطأ في النسخ .

أجبرائلاً ما أوحى الدارَ بعدكم إذا غيبتُم عنها ونحن حضوراً
ويقال قومٌ يطيب مسكنهم بوجود عظامه ، وقومٌ يطيب مسكنهم بشهود لقائه ،
وأنشدوا :

وإني لأهوى الدارَ لا يستترُّ لي بها الودُّ إلا أنها من دياركا
ثم قال : « ورضوانٌ من الله أكبر » : وأما رةُ أهل الرضوانِ وجدانُ طعنه ؛ فهم
في روح الأُنس ، وروح الأُنس لا يتقاصر عن راحة دار القدس بل هو أتمُّ وأعظم .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفْرَ وَالْمُنَافِقِينَ
وَاعْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَا أَمَّ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ
المصير ﴾

دعا نبينا — صلى الله عليه وسلم — كافةً اتخلق إلى حُسن الخلق .

قال لموسى عليه السلام : « قولاً له قولاً ليناً »^(١) .

وقال نبينا — صلى الله عليه وسلم — : « واعلظْ عليهم »^(٢) . ويقال إنما قال هذا بعد
إظهار الحجج ، وبعد ما أراح عذرهم بأليم المهلة ؛ ففي الأول أمره بالرفق حيث قال : « إنما
أعظكم بواحدة »^(٣) ، فلما أصروا واستكبروا أمره بالغلظة عليهم . والمجاهدة أولها اللسان
لشرح البرهان ، وإيضاح الحجج والبيان ، ثم إن حصل من العدو جُحْدٌ بعد إزاحة العذر ،
فبالوعيد والزجر ، ثم إن لم ينجع الكلام ولم ينفع الملام فالقتال والحرب وبذل الوسع
في الجهاد .

قوله جل ذكره : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ، وَلَقَدْ قَالُوا
كَلِمَةَ الْكُفْرِ ، وَكَفَرُوا بَعْدَ
إِسْلَامِهِمْ ﴾

(١) آية ٤٤ سورة طه .

(٢) آية ٩ سورة التحريم .

(٣) آية ٤٦ سورة سبأ .

تَسْتَرُوا بِأَيْمَانِهِمْ فَهَتَكَ اللَّهُ أَسْتَارَهُمْ وَكَشَفَ أَسْرَارَهُمْ .

قوله : « ولقد قالوا كلمة الكفر » : وهي طعنهم في نبوة رسول الله -- صلى الله عليه وسلم . وكلُّ مَنْ وَصَفَ المعبودَ بصفاتِ الخلق أو أضاف إلى الخلق ما هو من خصائص نعمت الحق فقد قال كلمة الكفر .

قوله جل ذكره: ﴿وَهُمْ أَعْيُنُكُمْ أَلَمْ يَخْلُقْكُمْ أَمْ لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾

أَيُّ أَظْهَرُوا مِنْ شَعَارِ الْكُفْرِ مَا دَلَّ عَلَى جُحْدِهِمْ بِقُلُوبِهِمْ بَعْدَ مَا كَانُوا يُظْهِرُونَ الْمَوَافَقَةَ وَالِاسْتِسْلَامَ ، وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا مِنْ قَتْلِ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمَا سَوَّاتْ أَنْفُسَهُمْ أَنَّهُ يُخْرِجُ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذْلُ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ .

يقال تمنوا زوال دولة الإسلام فابى الله إلا إعلاء أمرها.

ثم قال : « وما تَقْبُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ » : أى ما عابوه إلا بما هو أَجَلُ خصاله ، فلم يحصلوا من ذلك إلا على ظهور شأنهم للكفاة بما لا عندهم فيه .

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ يَتُوبَا إِلَيْكَ خَيْرٌ لَّهُمَا وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

وأقوى أركان التوبة حلُّ عقدة الإصرار عن القلب ، ثم القيام بجميع حقِّ الأمر على وجه الاستقصاء .

قوله جل ذكره ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فلما آتاهم من فضله بَخِلُوا به وتَوَلَّوْا وهم مُعْرِضُونَ ﴿

منهم مَنْ أَكَّدَ الْعَقْدَ مَعَ اللَّهِ ، ثُمَّ نَقَضَهُ ، فَلَحِقَهُ سُؤْمٌ ذَلِكَ ؛ فَبَقِيَ خَالِدًا فِي نِفَاقِهِ .
ويقال تَطَلَّبَ إِحْسَانَ رَبِّهِ ، وَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِإِيْرَامِ عَهْدِهِ فَلَمَّا حَقَّقَ اللَّهُ مَسْئُولَهُ وَاسْتَجَابَ
مَأْمُولَهُ ، فَسَخَّ مَا أَيْرَمَهُ ، وَاسْلَخَ عَمَّا التَزَمَهُ ، وَاسْتَوَلَى عَلَيْهِ الْبُخْلُ ، فَضَنَّ بِإِخْرَاجِ حَقِّهِ ،
فَلَحِقَهُ سُؤْمٌ نِفَاقِهِ ، بَانَ بَقِيَ إِلَى الْأَبَدِ فِي أَسْرِهِ .

وحدُّ البخل — على لسان العلم — مَنَعُ الْوَاجِبِ . وَبُخْلُ كُلِّ أَحَدٍ عَلَى مَا يَلِيْقُ بِمَالِهِ ،
وَكُلُّ مَنْ آثَرَ شَيْئًا مِنْ دُونِ رِضَاءِ رَبِّهِ فَقَدْ اتَّصَفَ بِبُخْلِهِ ، فَمَنْ يَبْخُلُ بِمَالِهِ تَزَلُّ عَنْهُ الْبِرْكَةُ
حَتَّى يَثُولَ إِلَى وَارِثٍ أَوْ يَزُولَ بِحَارِثٍ . وَمَنْ يَبْخُلُ بِنَفْسِهِ وَيَتَقَاعَسُ عَنْ طَاعَتِهِ تَفَارِقُهُ الصَّحَّةُ
حَتَّى لَا يَسْتَمَعَ بِحَيَاتِهِ . وَالَّذِي يَبْخُلُ بِرُوحِهِ عَنْهُ يُعَاقَبُ بِالْخُذْلَانِ حَتَّى تَكُونَ حَيَاتُهُ سَبِيلًا لَشِقَاتِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ
يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ
وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾

أَعْقَبَهُمْ يَبْخُلُهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ ، وَيُضِحُّ أَعْقَبَهُمْ اللَّهُ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ ، وَفِي الْجُمْلَةِ : مَنْ
نَقَضَ عَهْدَهُ فِي نَفْسِهِ رَفَضَ الْوَدَّ مِنْ أَصْلِهِ ، وَكُلُّ مَنْ أَظْهَرَ فِي الْجُمْلَةِ خَيْرًا وَاسْتَبْطَنَ شَرًّا فَقَدْ
نَافَقَ بِقَسْطِهِ . وَالْمُنَافِقُ فِي الصِّفِّ الْآخِرِ فِي دُنْيَاهُ ، وَفِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ فِي عَقْبَاهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ
وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾

خَوْفُهُمْ يَعْلَمُهُ كَمَا خَوْفُهُمْ يَفْعَلُهُ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ .

و « سِرُّهُمْ » مَا لَا يَطْلُعُ عَلَيْهِ غَيْرُ اللَّهِ .

و « نَجْوَاهُمْ » مَا يَتَسَارَّوْنَ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ . وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَا لِنَفْسِهِمْ عَلَيْهِ إِشْرَافٌ
مِنْ خَوَاطِرِهِمْ ^(١)

(١) يقول القشيري في رسالته في معنى « السر » هو محل المشاهدة كما ان الأرواح محل للعبة
والقلوب محل للمعارف . وقالوا السر مالك عليه لإشراف ، وسر السر ما لا اطلاع عليه لغير الحق .

(الرسالة ص ٤٨)

قوله جل ذكره : ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ
إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ
اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

عابوا الذين قَصُرَتْ أَيْدِيهِمْ عن الإكثار في الصدقة وجادوا بما وصلتْ إليه أَيْدِيهِمْ ،
فَشَكَرَ اللَّهُ سَعْيَ مَنْ أَخْلَصَ فِي صَدَقَتِهِ بعدما عَلمَ صِدْقَهُ فِيهَا . وَقَلِيلُ أَهْلِ الْإِخْلَاصِ أَفْضَلُ
مِنْ كَثِيرِ أَهْلِ النِّفَاقِ .

ولَمَّا أَوْجَدُوا (١) الْمُسْلِمِينَ بِسَخَرِيَّتِهِمْ وَصَفَ اللَّهُ — سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى — نَفْسَهُ بِمَا يَسْتَحِيلُ
فِي وَصْفِهِ — عَلَى التَّحْقِيقِ — وَهُوَ السَّخَرِيَّةُ بِأَحَدٍ . . . تَطْبِيبًا لِقُلُوبِ أَوْلِيَائِهِ ، فَقَدْ تَقَدَّسَ
عَنْ ذَلِكَ لِعِزَّةِ رَبُّوبِيَّتِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ
تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ
اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْفَاسِقِينَ﴾

خَتَمَ الْقَضَا بِأَنَّهُ لَا يَغْفِرُ لِأَهْلِ الشِّرْكِ وَالنِّفَاقِ ، فَلَا تَنْفَعُهُمُ الْوَسَائِلُ ، وَلَا يَنْتَعِشُ
مِنْهُمْ السَّاقِطُ .

وَيَقَالُ مَنْ غَلَبَتْهُ شِقْوَتُهُ لَمْ يَنْفَعِهِ (تَضَرُّعُهُ) (٢) وَدَعْوَتُهُ .

وَيَقَالُ صَرِيحُ الْقَسْرَةِ لَا يُنْعِشُهُ الْجُهْدُ وَالْحِيلَةُ .

(١) (أَوْجَدُوا) أَيْ سَبَّوْا لَهُمْ حَفِیْظَةً وَأَلْمَأُ .

(٢) وَرَدَّتْ (تَضَرُّعٌ) بَعْدَهَا عَيْنٌ مَفْلُقَةٌ وَهَاءٌ سَاقِطَةٌ وَقَدْ أُكْلِنَاهَا (تَضَرُّعُهُ) لِمَلَاءِهَا لِسِيَّاقٍ ،
وَلَا نَسْجَامَهَا مَعَ (دَعْوَتُهُ) بِمَعْنَى دَعَائِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ لَهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾

استحوذ عليهم سرورهم بتخلفهم ، ولم يعلموا أن ثبوتهم في تأخرهم وما آثروه من راحة نفوسهم على أداء حق الله ، والخروج في صحبة رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، فترع الله الراحة بما عاقبهم ، وسيصلون سعيراً في الآخرة بما قدموه من نفاقهم ، وسوف يتحسرون ولات حين تحسّر .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾
بدّل الله مسرتهم بحسرة ، وقرحتهم بترحة ، وراحتهم بعبرة ، حتى يكثر بكازم في العقبى كما كثر ضحكهم في الدنيا ، وذلك جزاء من كفر بربه .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُواكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعَدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾

يقول : بعدما ظهرت خيانتهم ، وتقرر كذبهم ونفاقهم ، لا تتخذ ع بتعلقهم ، ولا تثق بقولهم ، ولا تمكّنهم من صحبتك فيما يُظهرونه من وفاقك (١) . فإذا وهن سلك العهد فلا يحتمل بعده الشدّة ، وإذا اتسع الخرق لا ينفع بعده الرقع .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا

(١) سقطت الواو من (وفاقك) .

وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ ، وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١﴾

ليس بعد التبرّي التولى ، ولا بعد الفراق الوفاق ، ولا بعد المحبة قرينة . مضى لهم من
الزمان ما كان لأملهم فيه فسحة ، أو لرجائهم مساع ، أو لظنهم بتحقيق ، ولكن سبق لهم القضاء
بالشقاوة ، ونعوذ بالله من سوء الخاتمة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ
إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا
وَيَزَهِّقَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾

يقول لا تحسبن تمكين أهل النفاق من تنفيذ مرادهم ، وتكثير أموالهم وإسداء معروف
مينا إليهم ، أو إسباغ إنعام من لدنا عليهم ، إنما ذلك مكر بهم ، واستدراج لهم ، وإمهال
لا إهمال . وسيلقون غيبه ^(٢) عن قريب .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا
بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ
أُولُو الطُّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ
مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾

إذا توجه عليهم الأمر بالجهاد ، واشتد عليهم حكم الإلزام ، تعللوا إلى السعة ^(٣) ،
وركنوا إلى اختيار الدعة واحتالوا في موجبات التخلف ، أولئك الذين خصهم ^(٤)
بإخلاقه ، وصرف قلوبهم عن ابتغاء رضوانه .

(١) وقع النسخ في خطأ حين نقل الآية إذ كتب بعد (ورسوله) : (ولا يأتون الصلاة إلا وهم
كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون) .
وقد صوبنا حسب الآية (٨٤) .
(٢) وردت (هيه) بالياء وهي خطأ في النسخ ، والصواب (غبه) أى عاقبته .
(٣) أى إلى نفس وسعهم ومكنتهم .
(٤) اشبهت علامة التضعيف على النسخ عطف الكلمة (خصهم) بالياء وهي غير ملائمة .

قوله جل ذكره : ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ
وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾

بَعُدُوا عَنْ بَسَاطَةِ الْعِبَادَةِ فَاسْتَطَابُوا الدَّعَةَ ، وَرَضُوا بِالْتَّعْرِيجِ فِي مَنَازِلِ الْفَرَقَةِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ
رَجَعُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى يَصِدِّقِ النَّدَمَ لِقَابِلَهُمْ بِالْفَضْلِ وَالْكَرَمِ ، وَلَكِنْ الْقَضَاءُ غَالِبٌ ،
وَالْتَّكَلُّفُ سَاقِطٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ
جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ
لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

لَيْسَ مَنْ أَقْبَلَ كَمَنْ أَعْرَضَ وَصُدَّ^(١) ، وَلَا مَنْ قَبِلَ أَمْرَهُ كَمَنْ رَدَّ ، وَلَا مَنْ وَحَدَّ
كَمَنْ جَحَدَ ، وَلَا مَنْ عَبَدَ كَمَنْ عَنَدَ ، وَلَا مَنْ أَتَى كَمَنْ أَبَى فَلَا جَرَمَ رَبَّيْحَتُ تِجَارَتِهِمْ ،
وَجَلَّتْ رُتْبَتُهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ ﴾

تَشِيرُ الْآيَةُ إِلَى أَنَّ رَاحَتَهُمْ مَوْعُودَةٌ ، وَإِنْ كَانَتْ الْأَتْعَابُ^(٢) فِي الْحَالِ
مَوْجُودَةً مُشْهُودَةً .

وَيُقَالُ صَادِقٌ يَقِينُهُمُ بِالثَّوَابِ يُهَوِّنُ عَلَيْهِمْ مَقَاسَاةَ مَا يَلْقَوْنَهُ — فِي الْوَقْتِ —
مِنَ الْأَتْعَابِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ
لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ

(١) وَرَدَتْ (سَدٌ) بِالسَّيْنِ وَالصَّوَابِ (سَدٌ) لِتَلَاثِمِ أَعْرَضَ .

(٢) اشْتَبَهَتْ عَلَى النَّاسِخِ مَظْنَاهَا (الْأَلْقَابُ) وَالصَّوَابُ الْأَتْعَابُ لِتَقَابُلِ (رَاحَتِهِمْ) ، ثُمَّ لَهَا نَكَرَتْ
قَبْلَهَا بَعْدَ قَلِيلٍ .

ورسوله سيُصيب الذين كفروا منهم
عذابٌ أليمٌ ﴿١﴾

وهم أصحاب الأعداء — في قول أهل التفسير — طلبوا الإذن في التأخر عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في غزوة تبوك فسقط عنهم اللوم .
أما الذين تأخروا بغير عذر فقد توجه عليهم اللوم ، وهو لهم في المستقبل الوعيد .

قوله جل ذكره : ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرجٌ إذا نصحوا الله ورسوله ما على المحسنين من سبيلٍ والله غفورٌ رحيمٌ ﴾

قيمة القبر تظهر عند سقوط الأمر ، ولو لم يكن في القلة خيرٌ إلا هذا لكفى لها بهذا فضيلة ؛ بقوا في أوطانهم ولم يتوجه عليهم بالجهاد أمرٌ ، ولا بمفارقة المنزل امتحان . واكتفى منهم بنصيحة القلب ، واعتقاد أن لو قدروا لخرجوا .

وأصحاب الأموال امنحوا — اليوم — بجمعها ثم يحفظها ، ثم ملكتهم محنتها حتى شقت عليهم الغيبة عنها ، ثم توجه اليوم عليهم في ترك إنفاقها ، ثم ما يعقبه — غداً — من الحساب والعذاب يربو على الجميع .

وإنما رفع الحرج عن أولئك^(١) بشرطٍ وهو قوله : « إذا نصحوا الله ورسوله » فإذا لم يوجد هذا الشرط فالحرج غير مرتفع عنهم .
قوله : « ما على المحسنين من سبيل » : المحسن الذي لا تكون للشرع منه مطالبة
لا في حق الله ولا في حق الخلق^(٢) .

(١) في النسخة (هؤلاء) وقد آثرنا أن نضع (أولئك) لبصرف الكلام إل الطائفة الأولى أي الضعفاء والمرضى وأصحاب العذر .

(٢) لأنه قد استوفى جميع المطالبات ولم يتبق عليه شيء .

ويقال هو الذى يعلم أن الحادثات كلها من الله تعالى .

ويقال هو الذى يقوم بحقوق ما يربط به أمره ؛ فلو كان طير في حكه وقصر في علفه - لم يكن محسناً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أُحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعِينُهُمْ تَفِيضٌ مِّنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾

منعهم الفقر عن الحرّاك فالتمسوا من الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يحملهم معه ويهيئ أسبابهم ، ولم يكن في الحال للرسول عليه السلام سعة ليوافق مؤثّمهم ، وفي حالة ضيق صدره - صلى الله عليه وسلم - حلف إنه لا يحملهم ، ثم رآهم صلى الله عليه وسلم يتأهبون للخروج ، وقالوا في ذلك ، فقال عليه السلام : إنما يحملكم الله .

فلما ردّهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن الإجابة في أن يحملهم رجعوا عنه بوصف الخيبة كما قال تعالى : « تولوا وأعينهم تفيض من الدمع » كما قال قائلهم :

قال لى من أحبّ والبين قد حلّ ودعى مرافق لشهيق
ما ترى في الطريق تصنع بعدى ؟ قلت : أبكى عليك طول الطريق

قوله : « حزناً ألا يجدوا ما ينفقون » شقّ عليهم أن يكون على قلب الرسول - صلى الله عليه وسلم - بسببهم شغل فتأمّنوا أن لو أزيح هذا الشغل ، لا ميلاً إلى الدنيا ولكن لتلا تعود إلى قلبه - عليه السلام - من قبيلهم كراهة ، ولهذا قيل :

من عَفَّ خَفَّ على الصديق لقاءه وأخو الخواجر مُنْجِبٌ تَمْلُولُ

ثم إن الحق - سبحانه - لما علم ذلك منهم ، ونمحضت قلوبهم للتعلق بالله ، وخلت عقائدهم عن مساكنة مخلوق تدارك الله أحوالهم ؛ فأمر الله رسوله عليه السلام أن يحملهم . . . بذلك جرّت سنته ، فقال : « وهو الذى يُتَرَّلُ الغيث من بعدما قنطوا » (١)

(١) آية ٢٨ سورة الشورى .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ
وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ﴾

يريد السبيل بالعقوبة والملامة على الذين يتأخرون عنك في الخروج إلى الجهاد ولهم الأهبة
والمُكْنَةُ ، وتساعدهم على الخروج الاستطاعة والقُدرة ؛ فإذا استأذِنوك للخروج وأظهروا^(١)
لم يَصْدُقُوا ، فهم مُسْتَوْجِبُونَ للسكر عليهم ، لأنَّ مَنْ صَدَّقَ في الولاء لا يحتشم من مفاسد
العناء ، والذي هو في الولاء بمأذوق وللصدق مفارق يتعلل بما لأصل له ، لأنه حُرِّمَ الخلوص
فيما هو أهل له ، وكذا قيل :

إِنَّ الْمَوْلَ إِذَا أَرَادَ قَطِيعَةً مَكَالَ الْوَصَالِ وَقَالَ كَانَ وَكَانَا

قوله جل ذكره : ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾

قيل في التفسير : مع النساء في البيوت .

والإسلام يثني على الشجاعة ، وفي الخبر : إن الله تعالى يحب الشجاعة ، ولو على قتل
حية ، وفي معناه أنشدوا .

كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ^(٢) عَلَيْنَا وَعَلَى الْمُحْصَنَاتِ جُرْهُ الدَّيُولِ
وَمَنْ اسْتَوْطِنَ مَرْكَبَ الْكُسْلِ ، وَاسْتَوَسَّى لِبَاسَ الْفَشْلِ ، وَرَكَنَ إِلَى مَخَارِقِ الْحَيْلِ
حُرِّمَ اسْتِحْقَاقُ الْقُرْبَةِ . وَمَنْ أَرَادَ اللَّهَ — تَعَالَى — هَوَانَهُ ، وَأَذَاقَهُ خِذْلَانَهُ ، فَلَيْسَ لَهُ عَنِ
حُكْمِ اللَّهِ مَنَاصٌ ..

قوله جل ذكره : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ
قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ
قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسِيرَى
اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تَرَدُّونَ إِلَى
عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ
بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(١) ربما سقطت هنا « العذر » فهي مطلوبة للسياق .
(٢) وردت (القتل والقتال) والصواب (القتل والقتال) .

أراد إذا تَقَوُّوا بما هم فيه كاذبون ، وضلوا عما كانوا في تخلفهم به يتصفون — فأخبروهم
 أنا عرفنا الله كذبكم فيما تقولون ، وانضحت لنا فضايلكم ، وتميزت — بما أظهره الله لنا —
 سيئكم وصالحكم ، فإن الله تعالى لا يخفى عليه شيء من أحوالكم ، وستلقون غيب
 أعمالكم في آجلكم^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ
 لَتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ
 إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمُ جُزَاءً بِمَا
 كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

يريد أنهم في حليفهم بالله لكم أن يدفع السوء من قبلكم ، وليس قصدهم بذلك خلوصاً
 في اعتذارهم ، ولا ندامة على ما احتقبوه من أوزارهم ، إنما ذلك لتعريضوا عنهم ...
 فأعرضوا عنهم ؛ فإن ذلك ليس بمنجيتهم مما سيلقونه غداً من عقوبة الله لهم ، فإن الله
 يُمَهِّلُ العاصيَ حتى يتوهم أنه قد تجاوز عنه ، وما ذلك إلا مكرٌ عوِملَ به ، فإذا
 أذاقه ما يستوجبُه عَلِمَ أن الأمر بخلاف ما ظنّه ، وما ينفع ظاهرٌ مغبوطٌ ، والحال
 — في الحقيقة — يأسٌ من الرحمة وقنوطٌ ، وفي معناه قالوا :

وقد حسدوني في قُربِ داري منهم وكم من قريبِ الدارِ وهو بعيدُ

قوله جل ذكره : ﴿ يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن
 تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى
 عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾

من كان مسحوطاً الحق لا ينفعه أن يكون مرضى الخلق ، وليست العبرة بقول غير
 الله إنما المدار على ما سبق من السعادة في حكم الله .

قوله جل ذكره : ﴿ الأعرابُ أشدُّ كفراً ونفاقاً
 وأَجْدَرُ ألا يَعْلَمُوا حَدُودَ مَا أُنْزِلَ
 اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

(١) وردت (غيب أعمالكم في أعمالكم) والصواب (في آجلكم) لأن الآية تشير لذلك .

جُبِلَتْ قُلُوبُهُمْ عَلَى الْقِسْوَةِ فَلَمْ تَقْرَعْهَا هَوَاجِمُ الصَّفْوَةِ ، وَكَانُوا عَنْ أَشْكَالِهِمْ فِي الْخَلْقَةِ
مُسْتَأَخِرِينَ بِمَا (. . .)^(١) مِنْ سُوءِ الْخُلُقِ ؛ فَهُمْ مِنْ امْتِنَانَةِ الْحَقَائِقِ أَبَدٌ ، وَمِنْ
اسْتِجَابِ الْهَوَانِ أَقْرَبُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ
مَغْرَمًا وَيَدْرِئُهُ بِكُمْ الدَّوَابَّ ،
عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴾

خَبِثَتْ عَقَائِدُهُمْ فَاتَنَظَرُوا لِلْمُسْلِمِينَ مَا تَعَلَّقَتْ بِهِ مِنْهُمْ مِنْ حُلُولِ الْمَحَنِّ بِهِمْ ، فَأَبَى اللَّهُ
إِلَّا أَنْ يَحْقِيقَ بِهِمْ مَكْرَهُمْ ، وَلِهَذَا قِيلَ فِي الْمَثَلِ : إِذَا حَفَرْتَ لِأَخِيكَ فَوَسَّعْ فَرْجًا يَكُونُ
ذَلِكَ مَقِيلًا ۝

وَيَقَالُ مَنْ نَظَرَ إِلَى وَدَائِهِ يُؤَفِّقُ فِي كَثِيرٍ مِنْ تَدْبِيرِهِ وَرَأْيِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُوْمِنُ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ
قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَاتِ الرَّسُولِ
أَلَّا إِنَّمَا قُرْبَةٌ لَمْ يَدْخُلْهُمْ اللَّهُ
فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

تَوَوَّعُوا ؛ فَهُمْ مِنْ غَشٍّ وَلَمْ يَرِيحْ ، وَمِنْهُمْ مَنْ نَصَحَ فَلَمْ يَخْشِرْ ، فَأَمَّا الَّذِينَ مَذَقُوا
فَهُمْ فِي مَهْوَاةِ هَوَايِهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ صَدَّقُوا فَنَفْسُ رَوْحِ إِحْسَانِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ
وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ

(١) مشبهة .

لهم جنات تجري تحتها الأنهارُ
خالدين فيها أبداً ذلك الفوزُ
العظيم *

السابقون مختلفون ؛ فمن سابق يصدق قدمه ، ومن سابق يصدق هممه .
ويقال السابق من ساعدته القسمة بالتوفيق ، وأسعدته القضية بالتحقيق ، فسبقت
له من الله رحمته .

ويقال سبقهم بعنايته ثم سبقوا بطاعتهم له .
ويقال جمع الرضاء صفيتهم : السابق منهم واللاحق بهم ؛ قال تعالى : « والسابقون
الأولون من المهاجرين والأنصار . . . رضى الله عنهم ورضوا عنه » .
ويقال ليس اللاحق كالسابق ، فالسابق في رُوح الطلب ، واللاحق في مقاساة
التعب ، ومُعاناة النَّصَب ، وأنشدوا :

السَّابِقَ السَّابِقَ قَوْلًا وَفِعْلًا حَذَرُوا النَّفْسَ حَسْرَةَ الْمَسْبُوقِ
ويقال رضاهم عن الله قضية رضاء الله عنهم ؛ فلولا أنه رضى عنهم في آزاله . . .
ثم وصلوا إلى رضاهم عنه ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَمِّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ
مُنافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا
عَلَى النِّفَاقِ ، لَا تَعْلَمُهُمْ ، نَحْنُ
نَعْلَمُهُمْ ، سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ، ثُمَّ
يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾

تشاكل الخليص والمنافق في الصورة فلم يتميِّزا بالمباني ، وإن تنافيا في الحقائق والمعاني
. تقاصر علمهم عن العرفان فهنك الله لنبيّه أسرارهم . . فعرفهم ، وهم بإشرافه عليهم جاهلون ،
وعلى الإقامة في أوطان نفاقهم مصروفون ، فلم ينفعهم طول إمهاله لهم .

« سنعذبهم مرتين » : الأولى في الدنيا بالفضيحة فيما ينالهم من المحن والفتن والأمراض ، ولا يحصل لهم عليها في الآخرة عَوْضٌ ولا أَجْرٌ ولا مَسْرَةٌ ، والثانية عذاب القبر .
وقيل المرة الأولى بِقَبْضِ أرواحهم ، والثانية عذاب القبر ثم يوم القيامة يُنْشَحْنُون بالعذاب الأكبر .

ويقال المرة الأولى ظَنُّهم أنهم على شيء ، والمرة الثانية بخيبة آمالهم وظهور ما لم يحسبوه لهم .
قوله جل ذكره : ﴿ وَأَخْرَوْنَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾
إن اتصفوا بعيوبهم فلقد اعترفوا بذنوبهم . والإقرارُ تأكيدُ الحقوق فيما بين الخلق في مشاهد الحكم ، ولكن الإقرار بحق الله — سبحانه — يوجب إسقاط الجرم في مقتضى سُنَّةِ كَرَمِ الْحَقِّ — سبحانه ، وفي معناه أنشدوا :

قيل لى : قد أساء فيكَ فلانٌ وسكوتُ الفتى على الضيم عارٌ
قلتُ : قد جاءنى فأحسنَ عُدرا دِيَّةُ الذَّنْبِ عندنا الاعتذار

« خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً » : ففي قوله « وآخر سيئاً » بعد قوله « صالحاً » دليلٌ على أن الزُّلَّةَ لا تحيطُ ثوابُ الطاعة ؛ إذ لو أحبطته لم يكن العملُ صالحاً .
وكذلك قوله : « عسى الله أن يتوب عليهم » : وعسى تفيد أنه لا يجب على الله شيء فقد يتوب وقد لا يتوب . ولأنَّ قوله صِدْقٌ . . فإذا أخبر أنه يَجِبُ فإنه يفعل ، فيجب منه لا يجب عليه (١) .

ويقال قوله : « خلطوا عملاً صالحاً » : بمحتمل معناه أنهم يتوبون ؛ فالتوبة عملٌ صالح . وقوله : « وآخر سيئاً » : بمحتمل أنه نقضُهم التوبة ، فتكون الإشارة في قوله : « عسى الله أن يتوب عليهم » أنهم إن قضاوا توبتهم وعادوا إلى ما تركوه من زلَّتْهم فواجبٌ مِنَّا أن

(١) واضح حرص القشيري على مقاومة المعتزلة فيما يتصل بنى أى وجوب على الله فقد جلت الصمدية عن ذلك ، وإن كان يرى أنه يجب منه — سبحانه — الفضل .

توب عليهم ، ولئن بطلت — بنقضهم — توبتهم . . لَمَا اخْتَلَّتْ — بفضلنا —
توبتنا عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ
وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ
سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ :

تطهرهم من طلب الأعواض عليها ، وتزكهم عن ملاحظتهم إياها .
تطهرهم بها عن شح نفوسهم ، وتزكهم بها بالأيتسكثروا بأموالهم ؛ فَيَرَوْا عَظِيمَ
مِثْقَلِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بوجدان التجرد منها .
« وصلِّ عليهم إن صلاتك سكنٌ لهم » : إن تعاشرهم بهيئتِكَ معهم أئمنُ لهم من
استقلالهم بأموالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ
عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ
هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

تمدح — سبحانه — بقبول توبة العاصين إذ بها يظهر كرمه ، كما تمدح بجلال عِزِّهِ
ونُبِّهِمْ على أن يعرفوا به جلاله وقِدَمَهُ .

وكما توحده باستحقاق كبريائه وعظمته تفرَّد بقبول توبة العبد عن جرِّهِ وزَلَّتِهِ .
فكما لا شبهة له في جماله وجلاله لا شريك له في أفضاله وإقباله ؛ يأخذ الصدقات — قَلَّتْ
أو كَثُرَتْ ، فَقَدَّرُ الصَّدَقَةَ وَخَطَرُهَا بِأَخْذِهِ لَهَا لَا بَكْثُهَا وَقِلَّتِهَا ؛ قَلَّتْ فِي الصَّوْرَةِ
صَدَقَتَهُمْ وَلَكِنْ لَمَّا أَخَذَهَا وَقَبِلَهَا جَلَّتْ بقبوله لها ، كما قيل :

يكون أجاباً — دونكم ، فإذا انتهى إليكم تلقى طيبكم فيطيبُ

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ
وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى

عالم الغيب والشهادة فَيُنَبِّئُكُمْ
بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠﴾ .

خوفهم برؤيته — سبحانه — لأعمالهم ، فلما عَلِمَ أَنَّ فِيهِمْ مَنْ تَقَاعَصِرُ حَالَتُهُ عَنِ
الاحتشام لأطلاع الحق قال : « ورسوله » ، ثم قال لِمَنْ نَزَلَتْ رِبَّتُهُ : « وللمؤمنون » .
وقد خَسِرَ مَنْ لَا يَمْنَعُهُ الْحَيَاءُ ، وَلَا يَرُدُّهُ الْاِحْتِشَامُ ، وَسَقَطَ مِنْ عَيْنِ اللَّهِ مَنْ هَتَكَ جَلَابِ
الحياء ، كما قيل :

إِذَا قَلَّ مَاءُ الْوَجْرِ قَلَّ حَيَاؤُهُ وَلَا خَيْرَ فِي وَجْرِ إِذَا قَلَّ مَأْوُهُ
وَمَنْ لَمْ يَمْتَنِعْهُ الْحَيَاءُ عَنْ تَعَاطَى الْمَكْرُوهَاتِ فِي الْعَاجِلِ سِيلَقِي غَيْبٍ ذَلِكَ ، وَخَسِرَانُهُ عَنِ
قَرِيبٍ فِي الْآجِلِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَخْرُوتُ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ
إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

لَمْ يُبَصِّرْ بِقَبُولِ تَوْبَتِهِمْ ، وَلَمْ يَسْتَهْم بِالْيَأْسِ مِنْ غَفْرَانِهِ ، فَوَقَفُوا عَلَى قَدَمِ الْجَلْرِ ،
مَتَسِيلِينَ بَيْنَ الرَّهْبَةِ وَالرَّغْبَةِ ، مُتَرَدِّدِينَ بَيْنَ الْخُوفِ وَالرَّجَاءِ . أَخْبَرَ اللَّهُ — سبحانه —
أَنَّهُ إِنْ عَذَّبَهُمْ فَلَا اعْتِرَاضَ يَتَوَجَّهُ عَلَيْهِ ، وَإِنْ رَحِمَهُمْ فَلَا سَبِيلَ لِأَحَدٍ إِلَيْهِ ، قَالَ بَعْضُهُمْ :
وَيُشْبَعِي مِنَ الْأَمَالِ وَعِدَّةٍ وَمِنْ عَلَيَّ بِتَقْصِيرِي وَعَيْدِ

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا
وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِصَادًا
لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ
وَلَيُحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى
وَاللَّهُ يَشْهَدُ لَهُمْ لَسَاذِينَ ﴾ .

مَنْ لَمْ يَكُنْ مُخْلِصًا فِي وِلَايَتِهِ لَمْ يَأْسِ الْقَلْبُ بِكَدِّهِ وَعَنَائِهِ ، فَتَوَدَّدَهُ فِي الظَّاهِرِ يَنَادِي
عَلَيْهِ بِالنَّوَاءِ ، وَبِقَوْلِهِ بِالتَّكْلِيفِ شَهَادَةُ صِدْقٍ عَلَى عَدَمِ صِفَائِهِ :

من لم يكن للوصال أهلاً فكل إحسانه ذنوب

قوله جل ذكره: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ

على التقوى من أول يومٍ أحق

أن تقوم فيه فيه رجالٌ يُحِبُّونَ

أن يتطهروا والله يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾

للقيام في أماكن المصيان ، والتعزيج في أوطان أهل اليهود والطفيان — من علامات
للملأمة مع أربابها ، وسكاتها وقطانها .

والتباعد عن مساكنهم ، وهجران من جنح إلى مسالكهم فلم تكن أشرب
قلبه مخالفتهم ، وبأشرت سره عداوتهم .

« فيه رجال يحبون أن يتطهروا » : يتطهرون عن المعاصي وهذه سنة العابدين ،
ويتطهرون عن الشهوات والأمانى وتلك صفة الزاهدين ، ويتطهرون عن محبة المخلوقين ،
ثم من شهود أنفسهم بما يتصفون وتلك صفة العارفين .

قوله « والله يحب للمطهرين » : أسرارهم^(١) من اللساكنة إلى كل مخلوق ، أو ملاحظة
كل محدث مسبق .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَقِمْنَ أَسْسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى

من الله وريضوانٍ خَيْرٌ أَمٍّ مَنْ

أَسْسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ

فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي

القوم الظالمين﴾ .

للريد يجب أن يؤسس بنيانه على يقين صادق فيما يعتقد ، ثم على خلوص في العزيمة
ألا ينصرف قبل الوصول عن الطريق الذي يسلكه ، ثم على انسلاخه عن جميع مناه
وشهواته ، ومآربه ومطالبه ، ثم يبني أمره على دوام ذكره بحيث لا يعترضه نسيان ،
ثم على ملازمة حق للسلمين وتقديم مصالحهم . . . بالإيثار على نفسه . والذي ضيع الأصول

(١) أسرارهم مفعول به لاسم الفاعل « المطهرين » .

في ابتدائه حرّم الوصول في انتهائه ، والذي لم يُحْكَمْ الأساس في بنائه سقط السقف على جدرانه .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

عروق النفاق لا تُقْلَعُ من عَرَصَاتِ اليقين إلا بِمِنْجَلِ التَّحْقِيقِ بصحيح البرهان ؛ فمن أَيْدٍ لإدامة المسير ، وَوَقْفٌ لتأمل البرهان وَصَلَ إلى ثُلُجِ الصدر وَرَوْحِ العرفان .
ومن أقام على مُعْتَادِ التقليد لم يسترِحْ قلبه من كَدِّ التردّد ، وظلمة التجويز ، وَجَوْلَانِ الخواطر المشكلة في القلب .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ؟ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

لما كان من المؤمنين تسليم أنفسهم وأموالهم لحكم الله ، وكان من الله الجزاء والثواب ؛ أى هناك عِوَضٌ ومُعَوَّضٌ ، فليأبى ذلك وبين التجارة من مشابهة أطلق لفظ الاشتراء ، وقد قال تعالى : « هل أدلكم على تجارة ... » (١) ، وقال : « فادربحت تجارتهم » (٢) .
وفي الحقيقة لا يصح في وصف الحق — سبحانه — الاشتراء لأنه مالكٌ سِوَاهُ ، وهو مالكُ الأعيان كلها . كما أن من لم يستحدث ملكاً لا يُقال إنه — في الحقيقة — باع .

(١) آية ١٠ سورة الصف .

(٢) آية ١٦ سورة البقرة .

واللقال في هذه الآية مجال . . . فيقال : البائع لا يستحق الثمن ، إذا امتنع من تسليم المبيع ، فكذلك لا يستحق العبدُ الجزاء الموعودَ إلا بعد تسليم النفس والمال على موجب أوامر الشرع ، فمن قعد أو فرط فغير مستحق للجزاء .

ويقال لا يجوز في الشرع أن يبيع الشخصُ ويشتري شيئاً واحداً فيكون بائناً ومشترياً إلا إذا كان أباً وجداً ولكن ذلك هنا بلفظ الشقة ؛ فالحق باذنه كانت رَحْمَتُهُ بالعبد أتم ، ونظرُهُ له أبلغ ، وكان للمؤمن فيه من الغبطة ما لا يخفى ، فصَحَّ ذلك وإن كان حُكْمُهُ لا يقاس على حكم غيره .

ويقال إنما قال : « اشترى من المؤمنين أنفسهم » ولم يقل « قلوبهم » لأنَّ النَّفْسَ محلُّ الآفات فجعل الجنة في مقابلتها ، وجعل ثَمَنَ القلبِ آجلاً من الجنة ، وهو ما يخصُّ به أوليائه في الجنة من عزيز رؤيته (١) .

ويقال النَّفْسُ محلُّ العيب ، والكريم يرغب في شراء ما يزهد فيه غيره .

ويقال من اشترى شيئاً ليقتفع به اشترى خيراً ما يجده ، ومن اشترى شيئاً لِيَنْتَفِعَ به غيره يشتري نماردً على صاحبه لِيَنْفَعَهُ بشئنه .

وفي بعض الكتب المنزلة على بعض الأنبياء — عليهم السلام — : يا بني آدم ، ما خلقتكم لأرجع عليكم ولكن خلقتكم لتزبحوا عليّ .

ويقال اشترى منهم نفوسهم فرهبوا على قلوبهم شكراً له حيث اشترى نفوسهم ، وأما القلبُ فاستأثره قهراً ، والقهر في سُنةِ الأجباب أعزُّ من الفضل ، وفي معناه أشدوا :

يُنِيَّ الحُبُّ على القَهْرِ قُلُو قَدَلِ المَحبوبُ يوماً كَسُجِ
لبسُ بُسْتَحْشَنٍ في حَكمِ الهوى عاشِقُ بَطْلُبُ تاليفِ الحَجيحِ

وكان الشيخ أبو علي الدقاق (٢) رحمه الله يقول : « لم يقل اشترى قلوبهم لأن القلوبَ وَقَفٌ على محبته ، والوقف لا يُشْتَرى » .

(١) أنظر كيف يحتل الجنة المرتبة الثانية بعد رؤية الم محبوب — عند هذا الصوفي .

(٢) الدقاق هو شيخ القشيري ورائده وأستاذه ومهره . وقد أشرنا إلى شيء من سيرته في مدخل هذا الكتاب .

ويقال الطيرُ في الهواء ، والسَّمَكُ في الماء لا يصحُّ شراؤهما لأنه غير ممكن تسليهما ، كذلك القلبُ .. صاحبه لا يمكنه تسليمه ، قال تعالى :

« واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه »^(١)

وفي التوراة : « الجنةُ جنتي والمالُ مالى فاشتروا جنتي بمالى فإنَّ ربَّكم فلكم وإنَّ خسرَتم فملى »

ويقال عليمٌ سوءَ خُلُقِك فاشتراك قبل أن أوجدك ، وغالى بشفك لئلا يكون لك حقُّ الاعتراض عند بلوغك .

ويقال ليس للمؤمن أن يتعصَّبَ لنفسه بحالٍ لأنها ليست له ، والذي اشتراها أولى بها من صاحبها الذي هو أجنبيُّ عنها .

ويقال أخبر أنه اشتراها لئلا يدعى العبدُ فيها ، فلا يساكنها ولا يلاحظها ولا يُعجَبُ بها^(٢) .

قوله : « فيقتلون ويقتلون » سيان^(٣) عندهم أن يقتلوا أو يُقتلوا ، قال قائلهم :

وإنَّ دَمًا أجريته لك شاكرٌ وإنَّ فؤادًا خِرتَه لك حامدٌ

ويقال قال : « فاستبشروا ببيعكم » ولم يقل بشفن مبيعكم لأنه لم يكن منياً ببيع ، وإنما أخبر عن نفسه بقوله « إن الله اشترى من المؤمنين » فجعل بيعةً بيعتنا ، وهذا مثلما قال في صفة نبيه -- صلى الله عليه وسلم -- : « وما رميتَ إذ رميتَ ولكن الله رمى » وهذا عين الجمع الذي أشار إليه القوم .

قوله جل ذكره : ﴿ التائبون العابدون ﴾

مدحهم بعد ما أوقع عليهم سمةَ الاشتراء بقوله « التائبون العابدون . . . » ومن رضى بما اشتراه فإنَّ له حقَّ الردِّ إذا لم يعلم العيبَ وقتَ الشراء ، فأما إذا كان عالماً به

(١) آية ٢٤ سورة الأنفال .

(٢) لاحظ مدى التفاء القسرى — فيما يتصل بالنفس — بتعاليم أهل الملامة النيسابورية .

(٣) وردت (شتان) وهى — حسب ما هو واضح — خطأ فى النسخ .

فليس له حق الرد ؛ قال تعالى : « ولقد اخترناهم على علم على العالمين » (١) .

ويقال مَنْ اشترى شيئاً فوجدَ به عيباً رده على مَنْ منه اشتراه ولكنه — سبحانه — اشترى نفوسنا منه ، فإذا أراد الرد فلا يرد إلا على نفسه ؛ قال تعالى : « ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق » وكما أن الرد إليه فلو ردنا كان الرد عليه .

قوله تعالى : « التائبون » أي الراجعون إلى الله ، فمن راجع يرجع عن زلته إلى طاعته ، ومن راجع يرجع عن متابعة هواه إلى موافقة رضاه ، ومن راجع يرجع عن شهود نفسه إلى شهود لطفه ، ومن راجع يرجع عن الإحساس بنفسه وأبناء جنسه إلى الاستغراق في حقائق حقه .

ويقال تائب يرجع عن أفعاله إلى تبديل أحواله ؛ فيجد غداً فنون أفضاله ، وصنوف لطفه ونواله ، وتائب يرجع عن كل غير وضئ إلى ربه ربه ربه بمحو كل أرب ، وعدم الإحساس بكل طلب .

وتائب يرجع لحظ نفسه من جزيل ثوابه أو حذرآ — على نفسه — من أليم عذابه ، وتائب يرجع لأمره برجوعه وإيابه ، وتائب يرجع طلباً لفرح نفسه حين ينجو من أوضاره ، ويخلص من شؤم أوضاره ، وتائب يرجع لما سمع أنه قال : « إن الله أفرح بتوبة عبده من الأعرابي الذي وجد ضالته » — كما في الخبر ، وشتان ما هما ! وأنشدوا :

أيا قادمًا من سفرة الهجر مرحبًا أناديك لا أساك ما هبت الصبا

وأما قوله « العابدون » : فهم الخاضعون بكل وجه ، الذين لا تسترقهم كرائم الدنيا ، ولا تستعبدهم عظام المعصية . ولا يكون العبد عبدًا لله — على الحقيقة — إلا بعد تفرده عن كل شيء حادث . وكل أحد فهو له عبد من حيث الخلقة ؛ قال تعالى : « إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدًا » (٢) . ولكن صاحب العبودية خاص ، وهو عزيز .

(١) آية ٣٢ سورة الدخان .

(٢) آية ٩٣ سورة مريم .

قوله جل ذكره : ﴿الْحَامِدُونَ﴾

هم الشاكرون له على وجود أفضاله ، المُشْتَوْن عليه عند شهود جلاله وجماله .
ويقال الحامدون بلا اعتراضٍ على ما يحصل بقدرته ، وبلا انتقاضي عما يجب من طاعته .
ويقال الحامدون له على منعه وبلائه كما يحمونه على نفعه وعطائه .
ويقال الحامدون إذا اشتكى مَنْ لا قُوَّةَ^(١) له المادحون إذا بكى مَنْ لا مروءة له .
ويقال الشاكرون له إن أدناهم ، الحامدون له إن أقصاهم .

قوله جل ذكره : ﴿السَّائِحُونَ﴾

الصائمون ولكن عن شهود غير الله ، المتنعمون عن خدمة غير الله ، المكتفون من الله بالله .

ويقال السائحون الذين يسيحون في الأرض على جهة الاعتبار طلباً للاستبصار ، ويسيحون بقلوبهم في مشارق الأرض ومغاربها بالتفكر في جوانبها وما فيها ، والاستدلال بتغيرها على مُنشئها ، والتحقق بحكمة خالقها بما يروون من الآيات فيها ، ويسيحون بأسرارهم في الملكوت فيجدون رَوْحَ الوصال ، ويعيشون بنسيم الأنس بالتحقق بشهود الحق .

قوله جل ذكره : ﴿الرَّاكِعُونَ﴾

الخاضعون لله في جميع الأحوال بخمودهم تحت سلطان التجلّي ، وفي الخبر . « إن الله ما تجلّى لشيء إلا خضع له » .

وكما يكون — في الظاهر — راکعاً يكون في الباطن خاشعاً ، ففي الظاهر بإحسان الحق إليه يُحسن تولّيه ، وفي الباطن كالعيان للعيان للحق بأنوار تجلّيه .

قوله جل ذكره : ﴿السَّاجِدُونَ﴾

في الظاهر بنفوسهم على بساط العبودية ، وفي الباطن بقلوبهم عند شهود الربوبية .

(١) سأل شقيق البلخي جعفر بن محمد عن الفتوة فقال : ما تقول أنت ؟ فقال شقيق : إن أعطينا شكرنا وإن منعنا صبرنا ، فقال جعفر : الكلاب عندما بالمدينة كذلك تفعل ! فقال شقيق : وما الفتوة عندكم ؟ فقال : إن أعطينا آتربا ، وإن منعنا شكرنا (الرسالة ص ١١٥) .

والسجود على أقسام : سجود عند صحة القصد فيسجد بنعت التذلل على بساط الافتقار ، ولا يرفع رأسه عن السجود إلا عند تباشير الوصال . وسجود عند الشهود إذا تجلّى الحق لقلبه سجدة بقلبه ، فلم ينظر بعده إلى غيره ، وسجود في حال الوجود وذلك بخموده عن كليته ، وفنائه عن الإحساس بجميع أوصافه وجملته .

قوله جل ذكره : ﴿الآمرون بالمعروف والناهون عن

المنكر والحافظون لحدود الله

وبشّر المؤمنين﴾

هم الذين يدعون الخلق إلى الله ، ويحذرونهم عن غير الله . يتواصون بالإقبال على الله وترك الاشتغال بغير الله . يأمرون أنفسهم بالالتزام بالطاعات بحملهم إياها على سنن الاستقامة ، وينهون أنفسهم عن اتباع المني والشهوات بترك التعرّيج في أوطان الخفلة ، وما تعودوه من المساكنة والاستئمان .

والحافظون لحدود الله ، هم الواقفون حيث وقفهم^(١) الله ، الذين لا يتحركون إلا إذا حرّكهم ولا يسكنون إلا إذا سكنهم ، ويحفظون مع الله أنفاسهم^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن

يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى

قرباً من بعد ما تبين لهم أنهم

أصحاب الجحيم﴾

أصل الدين التبرّي من الأعداء ، والتولي للأولياء ، والولي لا قريب له ولا حميم ، ولا نسيب له ولا صديق ؛ إن وآلى فبأمر ، وإن عادى فلزجر .

قوله جل ذكره : ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه

(١) يكون الفعل (وقف) متعدياً مثل : وقف فلانا على الأمر أي أطلعه عليه (الوسيط)

(٢) مراعاة الأنفاس من الأمور التي تشغل بها الصوفية دائماً ، يقول الجنيد :

وما تنفست إلا كنت مع نفسي تجرى بك الروح مني في مجاريها

إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعِدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا
تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ
إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١٠﴾

لَمَّا أَمَرَ الْمُسْلِمِينَ بِالتَّبَرُّيِّ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ وَالْإِقْبَاضِ عَنِ الْإِسْتِغْفَارِ
لَهُمْ بَيَّنَّ أَنَّ هَذَا سَبِيلُ الْأَوْلِيَاءِ ، وَطَرِيقُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَأَنَّ إِبْرَاهِيمَ — عَلَيْهِ
السَّلَامُ — وَإِنْ اسْتَغْفَرَ لِأَيِّهِ فَإِنَّمَا كَانَ مِنْ قَبْلِ تَحَقُّقِهِ بِأَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ ، فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ
أَظْهَرَ الْبِرَاءَةَ مِنْهُ .

قوله جل ذكره : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ
إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ
إِنَّ اللَّهَ لَكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

إِنَّ اللَّهَ لَا يَحْكُمُ بِضَلَالِكُمْ وَذَهَابِكُمْ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ بِاسْتِغْفَارِكُمُ لِلْمُشْرِكِينَ إِلَّا بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ
لَكُمْ أَنَّكُمْ مُنْهَوُونَ عَنْهُ ، فَإِذَا عَلِمْتُمْ أَنَّكُمْ تُنْهَوُونَ عَنْ اسْتِغْفَارِكُمْ لَهُمْ فَإِنْ أَقْدَمْتُمْ عَلَى ذَلِكَ
فَخِيتَنُكُمْ ضَلَّتُمْ عَنِ الْحَقِّ بِفَعْلِكُمْ بَعْدَ مَا نُهَيْتُمْ عَنْهُ . . . هَذَا بَيَانُ التَّفْسِيرِ لِلآيَةِ ، وَالْإِشَارَةُ
فِيهَا أَنَّهُ لَا مَلَبَ لِعِطَائِهِ إِلَّا بِتَرْكِ أَدَبِ مَنْكُمْ .
وَيُقَالُ مَنْ أَحْلَاهُ بِسَاطِ الْوَصْلَةِ مَا مَنِيَّ بَعْدَهُ بِعَذَابِ الْفِرْقَةِ ، إِلَّا لِمَنْ سَلَفَ مِنْهُ
تَرْكُ حُرْمَةٍ .

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢﴾﴾

الْحَقُّ لَا يَتَجَلَّى بِوُجُودِ مَمْلُوكَاتِهِ ، وَلَا يَلْحَقُهُ نَقْصٌ بِعَدَمِ^(١) مَخْلُوقَاتِهِ ، فَقَبِلَ أَنْ أَوْجَدَ
شَيْئًا مِنَ الْحَادِثَاتِ كَانَ مَلِكًا — وَالْمَلِكُ أَكْثَرُ مِبَالِغَةً مِنَ الْمَالِكِ — وَمُلْكُهُ قُدْرَتُهُ

(١) سقطت الميم من (بعدم) فأثبتناها إذ بدونها يضطرب السياق فالمراد (وجود المملوكات وعدمها) .

على الإبداع ؛ والمعدوم مقدوره ومملوكه ، فإذا أوجدَه فهو في حال حدوثه مقدوره ومملوكه ،
فإذا أعدمه خرج عن الوجود ولم يخرج عن كونه مقدوراً له .

« يحيى ويميت » يحيى مَنْ يشاء بعرفانه وتوحيده ، ويميت من يشاء بكفرانه وجحوده .
ويقال يُحيى قلوبَ العارفين بأنوار المواصلات ، ويميتُ نفوسَ العابدين بآثار المنازلات .
ويقال يُحيى مَنْ أقبل عليه بِتَفَضُّله ، ويميت من أعرض عنه بِتَكَبُّره .

قوله جل ذكره : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ
وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ
الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ
فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ
رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾

قَبْلَ تَوْبَتِهِمْ ، وتاب على نبيه — صلى الله عليه وسلم — في إذنه للمنافقين في التخلف
عنه في غزوة تبوك ، وأماً على المهاجرين والأنصار الذين قد خرجوا معه حين هموا
بالانصراف^(١) لِمَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْعُسْرَةِ مِنَ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ وَالْإِعْيَاءِ^(٢) في غزوة تبوك ،
كما قال : « من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم » : وتوبته عليهم أنه تدارك قلوبهم حتى
لم تزعج ، وكذا سُئِلَ الحقُّ — سبحانه — مع أوليائه إذا أشرفوا على العطبِ ، وقاربوا من
التلفِ ، واستمكن اليأسُ في قلوبهم من النصر ، وَطَنُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى أَنْ يَذُوقُوا الْبَأْسَ —
يُنْطَرِقُ عَلَيْهِمْ سَحَابُ الْجُودِ ، فيعود عودُ الحياة بعد يَبْسٍ طَريئاً ، وَيُرْدُّ وَرْدُ الْإِنْسِ
عقب ذبوله غُضّاً جَنِيّاً ، وتصير أحوالهم كما قال بعضهم :

كُنَّا كَمَنْ أُلْبِسَ أَكْفَانَهُ وَقُرْبُ النَّعْشِ مِنَ اللَّحْدِ
فَجَالَ مَاءُ الرُّوحِ فِي وَحْشَةٍ وَرَدَّهُ الْوَصْلُ إِلَى الْوَرْدِ

(١) وردت (الإنصاف) وليس لها معنى فصوبناها (الانصراف) فهو التصود .

(٢) وردت (الأعباء) وهي خطأ في النسخ إذ التست الهزمة على الناسخ .

تبارك الله سبحانه ما (. . .)^(١) هو بالسرمد

قوله جل ذكره : ﴿ وعلى الثلاثة الدين خُلِفُوا حتى
إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت
وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن
لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب
عليهم ليتوبوا ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ ﴾

لَمَّا صَدَّقَ مِنْهُمْ اللُّجَاءُ نَدَارَكِهِمْ بِالشُّفَاءِ وَأَسْقَطَ عَنْهُمْ الْبَلَاءَ ، وَكَذَلِكَ الْحَقُّ يُكَوِّرُ نَهَارَ
الْبُشْرِ عَلَى لَيْلَى الْعُسْرِ ، وَيُطْلِعُ شَمْسَ الْمَحْنَةِ عَلَى نَحْوَسِ الْفِتْنَةِ ، وَيُدِيرُ فَلَكَ السَّعَادَةِ^(٢)
فِيْمَحَقُ تَأْثِيرَ طَوَارِقِ النِّكَايَةِ ؛ سُنَّةً مِنْهُ — تَعَالَى — لَا يُبَدِّلُهَا ، وَعَادَةً مِنْهُ فِي الْكَرَمِ
يُجَرِّبُهَا وَلَا يَحْوِلُهَا .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا
مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِرُؤْسُلِ اللَّهِ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ . . كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ
الْمُسْلِمِينَ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَالِ كُونُوا فِي آخِرِ أَحْوَالِكُمْ مَعَ الصَّادِقِينَ ؛ أَيْ اسْتَدِيمُوا
الْإِيمَانَ . اسْتَدِيمُوا فِي الدُّنْيَا الصَّدَقَ تَكُونُوا غَدًا مَعَ الصَّادِقِينَ فِي الْجَنَّةِ .

وَيَقَالُ الصَّادِقُونَ هُمُ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ وَهُمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمْ وَغَيْرُهُمْ .

وَيَقَالُ الصَّدَقُ نَهَايَةُ الْأَحْوَالِ ، وَهُوَ اسْتِوَاءُ السُّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، وَذَلِكَ عَزِيزٌ . وَفِي الزَّبُورِ :
« كَذَبَ مَنْ ادَّعَى مَحَبَّتِي وَإِذَا حَبَّةُ اللَّيْلِ نَامَ عَنِّي » .

(١) مشتبه ، والشطر الثاني من البيت الأخير مضطرب الوزن

(٢) ربما كانت (النِّكَايَةُ) لتلجج مع (النِّكَايَةِ) لأننا نلاحظ اهتمام العشيري بالموسيقى الداخلية
في تركيب فقرات هذه الإشارة ، وإن كانت « السَّعَادَةُ » مقبولة في السياق .

والصدق — كما يكون في الأقوال يكون في الأحوال ، وهو أنتم أقسامه .

قوله جل ذكره : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ

عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يَصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي

سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْنُونَ مَوِطًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا

إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْحَسَنِينَ *

وَلَا يَنْفَقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ، وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ

لِيَجْزِيَهمَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *

لا يجوز لهم أن يؤثروا على النبي — صلى الله عليه وسلم — شيئاً من نفسٍ وروحٍ ، ومالٍ وولدٍ وأهلٍ ، وليسوا يخسرون على الله وأتت ذلك . . ؟ وإنهم لا يرفعون لأجله خطوةً إلاَّ قَابَلَهُمْ بِأَلْفِ خُطْوَةٍ ، ولا ينقلون إليه قدماً إلاَّ لَقَّاهُمْ لُطْفًا وكرماً ، ولا يُقَاسُونَ فيه عَطَشًا إلاَّ سَقَاهُمْ مِنْ شَرَابٍ مَحَابَّةٍ كَاسًا ، ولا يتحملون لأجله مشقةً إلاَّ لَقَّاهُمْ لُطْفًا وإيناسًا ، ولا ينالون من الأعداء أذىً إلاَّ شَكَرَ اللَّهُ سَعْيَهُمْ بما يوجب لهم سعادة الدارين !

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا

كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ

طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا

قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ

يَحْذَرُونَ *

لو اشتغل الكل بالتفقه في الدين لتعطل عليهم المعاش ، ولبقى الكفاية عن ذلك ذلك المطلوب ، فجعل ذلك فرضاً على الكفاية .

ويقال جعل للمسلمين على مراتب : فعوامهم كالرعية للملك^(١) ، وكتبة الحديث كخزائن الملك ، وأهل القرآن كحفاظ الدفاتر ونفائس الأموال ، والفقهاء بمنزلة الوكلاء للملك إذ الفقيه (. . .)^(٢) عن الله ، وعلماء الأصول كالقواد وأمراء الجيوش ، والأولياء كأركان الباب ، وأرباب القلوب وأصحاب الصفاء كخواص الملك وجلّسائه .

فيشتغل قومٌ بحفظ أركان الشرع ، وآخرون بإمضاء الأحكام ، وآخرون بالرد على المخالفين ، وآخرون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقوم مقررّون بحضور القلب وهم أصحاب الشهود ، وليس لهم شغل ، يراعون مع الله أنفاسهم وهم أصحاب الفراغ ، لا يستغزهم طلب ولا يهزهم أرب ، فهم بالله لله ، وهم محو عما سوى الله^(٣) .

وأما الذين يتفقهون في الدين فهم الداعون إلى الله ، وإنما يفهم الخلق عن الله من كان يفهم عن الله .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

أقرب الأعداء إلى المسلم من الكفار ، الذي يجب عليه منازعته هو أعدى عدوه

(١) في الهامش (فالناس كلهم خدام للملك) . ولا نوجد علامة توضح أنها من المتن ، فربما كانت منه وسقطت العلامة ، وربما كانت توضيحاً من أحد القراء .

(٢) مشتبه أقرب ما تكون إلى (روع) أو (يوقع) ونرجح الثانية فقد وردت كذلك في سياق مماثل .

(٣) من هذا التصور ندرك شيئاً هاماً عند القشيري وعند الصوفية الخالص بعامه ، فهم لا يتصورون التصوف مذهباً يسود المجتمع بعامه فيكون الناس جميعاً متصوفة ، بل إن دوره المضوى الهام في كيان المجتمع محصور في طائفة مخصوصة يمتد أثرها إلى خارج نطاقها ، والمقصود (بالشغل) و (الفراغ) أن يكونوا خالصين لله ، وليس المقصود البطالة من العمل وعدم السعي للرزق .

أى نفسه . فيجب أن يبدأ بمقاتلة^(١) نفسه ثم بمجاهدة الكفار ، قال عليه السلام : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر »^(٢) .

قوله : « وليجدوا فيكم غلظة » من حابى عدوه قهره ، وكذلك المرید الذى ينزل عن مطالبات الحقيقة إلى ما يتطلبه من التأويلات فيفسخ عهدہ ، وينقض عهده ، وذلك كالرذقة^(٣) لأهل الظاهر .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فثمهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً ، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ﴾^(٤)

جعل الله — سبحانه — إنزال القرآن لقوم شفاء . ولقوم شقاء ؛ فإذا أنزلت سورة جديدة زاد شكهم وتحيرهم ، فاستعلم بعضهم حال بعض ، ثم لم يزدادوا إلا تحسراً ؛ قال تعالى : « وهو عليهم نقي »^(٥) وأما المؤمنون فزادتهم السورة إيماناً فارتقوا من حد تأمل البرهان إلى روح البيان ، ثم من روح البيان إلى العيان ، فالتجوير والتردد و (. . .)^(٦) والتحير مُنتفى بأجمعه عن قلوبهم ، وشموسُ العرفان طالعة على أسرارهم ، وأنوار التحقيق مالكة أسرارهم ، فلا لهم تعبُ الطلب ، ولا لهم حاجة إلى التدبير ،

(١) وردت (مقابلة) والملائم بالنسبة للسياق (مقاتلة) هذا العدو .

(٢) رواه الخطيب في التاريخ عن جابر (ص ٣٢٥ - ٣٢٦) منتخب كتز المال هامش مسند الإمام أحمد (هكذا :) قدمتم خير مقدم وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . مجاهدة العبد هوام .

(٣) وردت (الرد) والصواب أن تكون (الردة) ، وقد أوضح القشيري ذلك في موضع آخر من الكتاب إذ يقول (وكان المرتد أشد على المسلمين عداوة هكذا من رجع عن الإرادة إلى الدنيا والعادة ، فهو أشد الناس انكاراً لهذه الطريقة وابتعد عن أهلها) المجلد الأول : ص ٧٥ .

(٤) يلغى أن نلحق بهذه الآية الآية التي بعدها « وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم ، وماتوا وهم كافرون » لم ترد في المتن مع أن المصنف يشير إليها في شرحه .

(٥) آية ٤٤ سورة فصلت .

(٦) مشبهة ، ومصححة في الهامش بطريقة مبهمة وهي في الكتابة هكذا : (النجث) ، ولا نعرف ضمن آفات العقل كلمة للقشيري قريبة في الخط منها ، وربما كانت (الثعب) .

ولا عليهم سلطان الفكر . وأشعة شمس العرفان مستفرقة لأنوار نجوم العلم ،
يقول قائلهم :

ولما استبان الصبح أدرك ضوهه بإسفاره أنوار ضوء الكواكب
قوله جل ذكره : ﴿ أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ
عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ، ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ
وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴾

لم يُخلِ الحق — سبحانه — أرباب التكليف من دلائل التعريف ، التعريف لهم
في كل وقت بنوع من البيان ، والتكليف في كل أوان بضرب من الامتحان ، فلم يزد
لهم في إيضاح البرهان لم يتجدد لهم من الله إلا زيادة الخذلان والحجبة عن البيان .
وأما أصحاب الحقائق فما للأغيار في كل عام مرة أو مرتين فليهم في كل نفس مرة ،
لا يخليهم الحق — سبحانه — من زواجٍ توجب بصائر ، وخواطر تتضمن تكليفات
وأوامر^(٢) قال قائلهم :

كَأَنَّ رَقِيبًا مِنْكَ حَلٌّ بِمَهْجَتِي إِذَا رُمْتُ تَسْهِيلًا عَلَى تَصَعُّبًا
قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ
بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاهُمْ مِنْ
أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا ، صَرَفَ اقْضَى
قُلُوبِهِمْ بَأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾
تَقَنَّنُوا بِخِمَارِ التَّلْيِيسِ ظَانِّينَ أَنَّهُمْ يَبْقَوْنَ فِي سِرٍّ بِتَكْلِفِهِمْ ، والحق أباي إلا أن
فَضَحَّهِمْ ، وكما وَصَّيَهُمْ بِرَقْمِ النَّكْرَةِ^(١) أَطْلَعَ أَسْرَارَ الْمُؤَحِّدِينَ عَلَى أَحْوَالِهِمْ فَعَرَفُوهُمْ عَلَى
مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَوْصَافِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ

(١) النكرة اسم من الإنكار ، يقال : كان له أشد نكرة (الوسيط) .

(٢) ذلك لأنهم بقيامهم بالحق فلما تبدر منهم أشياء تستدعي الزجر أو الأمر لأنهم دائماً يختارون الأشق .

عزيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ
بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾

جاءكم رسولٌ يشاكُكم في البشرية ، فليما أفردناه به من الخصوصية ألبسناه لباسَ
الرحمة عليكم ، وأقمناه بشواهد العطف والشفقة على جملتكم ، قد وَكَلَّ هِمَمَهُ بِشَأْنِكُمْ ،
وأَكْبَرُ هِمَمُهُ إِيْمَانُكُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾
لا إله إلا هو عليه توكلتُ وهو
ربُّ العرش العظيم ﴿١١﴾

أمره أَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ إِلَى التَّوْحِيدِ ، ثم قال : فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنِ الْإِجَابَةِ فَكُنْ بِنَا
بِنِعْمَتِ التَّجْرِيدِ .

ويقال قال له : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ ، ثم أمره بأن يقول حَسْبِيَ اللَّهُ
وهذا عين الجمع ، وقوله « فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ » فَرَّقَ . . . بل هو جمع الجمع أى : قُلْ ،
ولكنك بنا تقول ، ونحن المتولى عنك وأنت مُسْتَهْلَكٌ في عين التوحيد ؛ فأنت بنا ،
ونَحْوُ عن غيرنا .

سورة يونس عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَلِمَةُ سَمَاعُهَا يُوْجِبُ شِفَاءَ كُلِّ عَابِدٍ ، وَضِيَاءَ كُلِّ قَاصِدٍ ، وَعِزَاءَ كُلِّ فَاقِدٍ ، وَبِلَاءَ كُلِّ
وَاجِدٍ ، وَهُدُوَّ كُلِّ خَائِفٍ ، وَسُلُوَّ كُلِّ عَارِفٍ . وَأَمَانَ كُلِّ تَائِبٍ ، وَبَيَانَ كُلِّ طَالِبٍ .
قُلُوبُ الْعَارِفِينَ لَا تَفْرَحُ إِلَّا بِسَمَاعِ اللَّهِ ، وَكُرُوبُ الْخَائِفِينَ لَا تَبْرَحُ إِلَّا عِنْدَ سَمَاعِ اللَّهِ .
قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْكُتُبَ الْحَكِيمَ ﴾ .
الألف مفتاح اسم « الله » ، واللام مفتاح اسم « اللطيف » والراء مفتاح اسم « الرحيم » .

أقسم بهذه الأسماء إن هذا الكتاب هو للوعود لكم يوم الميثاق . والإشارة فيه أنا حققنا لكم اليعاد ، وأطلعنا لكم عنان الوداد وانقضى زمان اليعاد ، فالعصاة مُلقاة ، والأيام بالسرور مُتَلَقاة ، فبادروا إلى شرب كاسات المحاب ، واستقيموا على نهج الأحباب .

قوله جل ذكره : ﴿ أَكَاَنَ لِلنَّاسِ عِجَابٌ أَنِ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنِ أَنْذِرِ النَّاسَ ﴾ .

تعجبوا من ثلاثة أشياء : من جواز البعث بعد الموت ، ومن إرسال الرسل إلى الخلق ، ثم من تخصيص محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة من بين الخلق . ولو عرفوا كمال مُلْكِهِ لم يُنْكروا جواز البعث ، ولو علموا كمال ملكه لم يجحدوا إرسال الرسل إلى الخلق ، ولو عرفوا أنَّ له أن يفعل ما يريد لم يتعجبوا من تخصيص محمد — صلى الله عليه وسلم — بالنبوة من بين الخلق ، ولكن سُدَّتْ بصائرهم فتأهوا في أودية الخيرة ، وعَثَرُوا — من الضلالة — في كل وَهْدَةٍ . وكان الأستاذ أبو علي الدقاق — رحمه الله — يقول : جَوَّزُوا أن يكون للنحوت من الخشب والمعمول من الصخر^(١) إلهاً معبوداً ، وتعجبوا أن يكون مثل محمد — صلى الله عليه وسلم — في جلالة قدره رسولاً هذا هو الضلال البعيد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ .

وهو ما قدموه لأنفسهم من طاعات أخلصوا فيها ، وفنون عبادات صدقوا في القيام بقضائها .

ويقال هو ما قدم الحق لهم يوم القيامة من مقتضى العناية بشأنهم ، وما حكم لهم من فنون إحسانه بهم ، وصنوف ما أفردهم به من امتنانهم .

ويقال : « قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ » : هو ما رفعوه من أقدامهم في بدايتهم في زمان

(١) وردت (الصخر) بالقاء وهي خطأ في النسخ .

إرادتهم ، فإنَّ لأقدام المریدین المرفوعة لِأجلِ اللهِ حُرْمَةً عند الله ، ولأيامهم الخالية في حالِ تردُّدِهِمْ ، ولياليهم الماضية في طلبه وهم في حُرْقَةٍ تحبُّرهم .. مقاديرَ عند الله . وقيل :

مَنْ يَنْسَ داراً قد نخونها رَيْبُ الزمان فإني لست أنساها
وقيل :

تلك العهودُ شُدُّها لِنَحْلُها عندى كما هى بعقدها لم يُحْلَلِ
قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ فى ستة أيامٍ ثُمَّ استوى
على العرشِ يُدَبِّرُ الأُمُورَ ما من
شَفِيعٍ إِلا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللهُ
رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

لا يحتاج فعله إلى مدَّة ، وكيف ذلك ومن جملة أفعاله الزمان والمدة ؟ فَخَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ فى ستة أيام ، وتلك الأيام أيضاً من جملة ما خَلَقَ اللهُ سبحانه وتعالى .

« ثم استوى على العرش » أى تَوَحَّدَ بجلال الكبرياء بوصف الملكوت . وملكنا
إذا أرادوا التجلَّى والظهورَ لِلْحَشَمِ والرعية برزوا لهم على سرير مُلْكِهِمْ فى ألوان مشاهدم .
فأخبر الحقُّ — سبحانه — بما يَقْرُبُ من فهم الخلق ما ألقى إليهم من هذه الجملة : استوى
على العرش ، ومعناه اتصافه بعر^(١) الصمدية وجلال الأحدية ، وانفراده بنعت الجبروت
وعلاء الربوبية ، تقدُّس الجبار عن الأقطار ، والمعبود عن الحدود .

« يُدَبِّرُ الأُمُورَ » : أى الحادثات صادرة عن تقديره ، وحاصلة بتدبيره ، فلا شريك
بعضده ، وما قضى فلا أحد يردُّه . « ما من شَفِيعٍ إِلا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ » : هو الذى يُنْطِقُ مَنْ
يخاطبه ، وهو الذى يخلق ما يشاء على من يشاء إذا التمس يُطالِبُهُ .

« ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ » : تعريف وقوله : « فاعبدوه » : تكليف ، فحصول التعريف
بتحقيقه ، والوصول إلى ما وَرَدَ به التكليف بتوفيقه .

(١) وردت (بنير) الصمدية وهى خطأ فى النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا

إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ

وعذابٌ أليمٌ بما كانوا يُكْفُرُونَ ﴿

الرجوع يقتضى ابتداء الأرواح قبل حصولها فى الأشباح ، فإن لها فى موطن التسبيح والتفديس إقامة ، والغائب إذا رجع إلى وطنه من سفره فلقدومه أثر عند مُحِبِّيه وذوويه ، كما قيل :

أيا قادمًا من سَفَرٍ الهجر مرحبًا أناديك لا ألساك ماهبت الصبا

ويقال المطيع إذا رجع إلى الله فله الزُّلفى ، والثواب والحسنى . والعاصى إذا رجع إلى ربه فَبَنَعَتْ الإفلاس وخسران الطريق ؛ فيتلقى لباس الغفران ، وحُلَّة الصِّفح والأمان ، فرحة مولاه خيرٌ له من نُسكِه وتقواه .

قوله : « وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا » : موعودُ المطيع الفردائسُ العُلَى . وموعودُ العاصى الرحمة والرِّضى . والجَنَّةُ لُطْفُ الحَقِّ والرَّحمةُ وصفُ الحَقِّ ؛ فاللُّطْفُ فِعْلٌ لم يكن ثم حصل ، والنَّعْتُ لم يزل (١) .

قوله . « إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ » : مَنْ كَانَ لَهُ فى جميع عمره نَفْسٌ على وصفٍ ما ابتدأ الحَقُّ سبحانه به فى الإشارة : تكون لذلك إعادة ، وأنشدوا :

كُلُّ نَهْرٍ فِيهِ مَاءٌ قَدْ جَرَى فَأِلَيْهِ الْمَاءُ يَوْمًا سَيَعُودُ

قوله جل ذكره : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ

نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لَتَعْلَمُوا عَدَدَ

النَّجْمِ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ

إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ

يَعْلَمُونَ ﴿

(١) يفرق التفهيمى فى كتابه (التعبير فى التذكير) الذى قُنا بتحقيقه بين صفات الفعل وصفات الذات .

أنوار العقول نجومٌ وهى للشياطين رجوم ، وللعلوم^(١) أثمار وهى أنوار وامتنصار ،
وللمعارف شمس ولها على أسرار العارفين طلوع ، كما قيل :

إِنَّ شَمْسَ النَّهَارِ تَغْرُبُ بِاللَّيْلِ وَشَمْسُ الْقُلُوبِ لَيْسَتْ تَغِيبُ

وكما أن فى السماء كوكبين شمساً وقرراً ؛ الشمسُ أبداً بضياؤها ، والقمرُ فى الزيادة والنقصان ؛
يُسْتَرُ بمعافه ثم يكمل حتى يصير بدرّاً بنعت إشراقه ، ثم يأخذ فى النقص إلى أن لا يبقى شئ منه
تمام انحطاطه ، ثم يعود جديداً ، وكل ليلة يجد مزيداً ، فإذا صار بدرّاً تماماً ، لم يجد أكثر من
ليلةٍ لكماله مقاماً ، ثم يأخذ فى النقصان إلى أن يَخْفَى شخصه ويتمَّ نقصه .

كذلك من الناس من هو مُتَرَدِّدٌ بين قبضه وبسطه ، وصحوه ونحوه ، وذهابه وإيابه ؛
لا فناء فيستريح ، ولا بقاء له دوامٌ صحيحٌ ، وقيل :

كَلَّمَا قُلْتُ قَدْ دَنَا حَلُّ قَيْدِي كَبَّلُونِي فَأَوْثَقُوا الْمَسْمُورَا

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
لَايَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْتَقُونَ ﴾

اختصَّ النهارُ بضياؤه ، وانفرد الليلُ بظلماته ، من غير استيجابٍ لذلك ، ومن غير
استحقاق عقاب لهذا ، وفى هذا دليلٌ على أن الردَّ والقبولَ ، والمنعَ والوصولَ ، ليست معلولةً
بسببٍ ، ولا حاصلةً بأمرٍ مُكْتَسَبٍ ؛ كلاً . إنها إرادةٌ ومشيئةٌ ، وحُكْمٌ وقضية .

النهارُ وقتُ حضور أهل الغفلة فى أوطان كسبهم ، ووقتُ أرباب القربة والوصلة لانفرادهم
بشهود ربهم ، قال قائلهم :

هو الشمس ، إلا أن للشمس غيبةً وهذا الذى نعيه ليس يغيبُ
والليل لأحدٍ شخصين : أمّا للمُحِبِّ فَوَقْتُ النَّجْوَى ، وأمّا للعاصي فَوَقْتُ الشُّكْوَى .

(١) وردت (المبروم) وهى خطأ فى النسخ إذ المقصود نوع من المتابعة بين (العلوم) والمعارف .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا

بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ

هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴾ أولئك مأواهم

النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

أنكروا جواز الرؤية فلم يرجوها ، والمؤمنون آمنوا^(١) بجواز الرؤية فأملوها .

ويقال : لا يرجون لقاءه لأنهم لم يشتاقوا إليه ، ولم يشتاقوا إليه لأنهم لم يحبوه لأنهم لم

يعرفوه ، ولم يعرفوه لأنهم لم يطلبوه ولن يطلبوه لأنه أراد ألا يطلبوه ، قال تعالى : « وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى »^(٢) .

ويقال لو أراد أن يطلبوه لطلبوه ، ولو طلبوا لعرفوا ، ولو عرفوا لأحبوا ، ولو أحبوا

لاشتاقوا ، ولو اشتاقوا لرجوا ، ولو رجوا لآملوا لقاءه ، قال تعالى : « وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هِدَايَا »^(٣)

قوله تعالى : « وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا » : أصحاب الدنيا رضوا بالحياة الدنيا

فحرموا الجنة ، واليهاد ركبوا إلى الجنة ورضوا بها فبقوا عن الوصلة ، وقد علم كل أناس مشربهم ، ولكل أحد مقام .

ويقال إذا كانوا لا يرجون لقاءه فأواهم العذاب والفرقة ، فدلّل الخطاب أن الذي يرجو

لقاءه رآه ، ومآله ومنتهاه الوصلة واللقاء والزلفة .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ

تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾

كما هدام اليوم إلى معرفته من غير ذريعة يهديهم غداً إلى جنته ومثوبته من غير نصير

من المخلوقين ولا وسيلة .

(١) من هداهم الله إلى الجنة ، أي من بجواز رؤية الله في الآخرة ، أما رؤيته في الدنيا فإنه يقول

في الرسالة ص ١٧ : (الأقوى أنه لا تجوز رؤية الله بالأبصار في الدنيا — وقد حصل الإجماع في ذلك) .

(٢) آية ٤٢ سورة النجم .

(٣) آية ١٣ سورة السجدة .

ويقال: أما المطيعون فنورهم يسعى بين أيديهم وهم على مراكب طاعتهم ، والملائكة تنلقأهم والحق ، قال تعالى : « يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً » (١) نحشرهم ، والعاصون يبقون مفردين متفرقين ، لا يقف لهم العابدون ، ويتطوحون في مطاحات (٢) القيامة .

والحق — سبحانه — يقول لهم : عبادي ، إن أصحاب الجنة — اليوم — في شغل عنكم ، إنهم في الثواب لا يتفرغون إليكم ، وأصحاب النار من شدة العذاب لا يرقبون لكم معاشر المساكين .

كيف أنتم إن كان أشكالكم وأصحابكم سبقوكم ؟ وواحد منهم لا يهديكم فأننا أهديك . لأنني إن عاملتكم بما تستوجبون . . . فأين الكرم بمحقنا إذا كنا في الجفاء مثلهم وهجرناكم كما هجروكم ؟

قوله جل ذكره : ﴿ دعواهم فيها سبحانه اللهم وتحييتهم فيها سلام وآخراً دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾

قالتهم الشناء على الله ، وذلك في حال لقائهم . وتحييتهم في تلك الحالة من الله : « سلام عليكم » « وآخراً دعواهم أن الحمد لله » : والحمد هاهنا بمعنى المدح والثناء ، فينتون عليه ويمجدونه بحمد أبدي سرمدي ، والحق — سبحانه — يحييهم بسلام أزلي وكلام أبدي ، وهو عزيز صمدى ومجيد أحدى .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو يُعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم فذروا الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون ﴾

أى لو أجنبناهم إذا دعوا على أنفسهم عند غيظهم وضجرهم لتعجلنا إهلاكهم ، ولكن

(١) آية ٨٥ سورة مريم .

(٢) المطاح والمطاحة : أما مكان من طاح ، وهو المسلك الوعر المهلك .

تَحْمَلُنَا أَلَا نُجِيبُهُمْ ، وبرحمتنا عليهم لا نسمع منهم دعاءهم . وربما يشكو العبدُ بأن الربَّ لا يجيبُ دعاءه ، ولو عَلِمَ أنه تَرَكَ إجابته لُطْفًا منه وأنَّ في ذلك بلاءٌ لو أجابه ، كما قيل :

أَناسُ أَعرضوا عَنَّا بلا جُرمٍ ولا معنى
أَساءوا ظَنُّهم فينا فهاً أَحسنوا الظنَّ

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا

لَجْنَبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا
كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا
إِلَى ضُرِّهِ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

إذا امتحنَ العبدُ وأصابه الضُّرُّ أزعجته الحالُ إلى أن يرومَ التخلصَ مما ناله ، فيعلم أن غير الله لا ينجيه ، فتحمله الضرورةُ على صدق الالتجاءِ إلى الله ، فإذا كشفَ اللهُ عنه ما يدعو لِأجلِهِ شغلته راحةُ الخلاصِ عن تلك الحالة ، وزايله ذلك الالتجاء ، وصار كأنه لم يكن في بلاءٍ قط :

كَأَنَّ الْفَتَى لَمْ يَعَرَ يَوْمًا إِذَا كَتَسَى وَلَمْ يَكُ صُلُوكًا إِذَا مَا تَمَوَّلَا

ويقال بلاءٌ يُلْجِئُكَ إلى الانتصابِ بين يَدَيِ معبودِكَ أَجْدَى لَكَ من عطاءِ ينْسِيكَ ويكفيكَ عنه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ

قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ
نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾

أخبر الحقُّ سبحانه بإهلاكِ الظالمين ، كما في الخبر : « لو كان الظلم بيننا في الجنة لسلط الله عليه الخراب » . والظلمُ وَضْعُ الشيء في غير موضعه ، فإذا وَضَعَ العبدُ قصده - عند حوائجه - في المخلوقين ، وتعلَّق قلبه بهم في الامتناعة ، وطلَّب المأمول فقد وَضَعَ الشيء في غير موضعه ،

وهو ظلم ؛ فعقوبة هذا الظلم خرابُ القلب ، وهو انسداد طريق رجوع ذلك القلب إلى الله ؛ لأنه لو رجع إلى الله لأعانه وكفاه ، ولكنه يُصِرُّ على تعليق قلبه بالخلق فيبقى عن الله ، ولا ترتفع حاجته من غيره ، وكان من فقره وحاجته في مصرة . فإن صار إلى مضرة المنلة والحاجة إلى اللئيم فتلك محنة عظيمة .

وعلى هذا القياس إذا أحبُّ مخلوقاً فقد وَضَعَ محبته في غير موضعها ، وهذا ظلم ؛ وعقوبته خرابُ روحه لِعَدَمِ صفاء ودّه ومحبته لله ، وذهاب ما كان يجده من الأنس بالله ، إذا بقي عن الله يُذيقه الحق طعمَ المخلوقين ، فلا له مع الخلق سلوة ، ولا من الحق إلا الجفوة ، وعدم الصفوة .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ

مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

عرّفناكم بغير من قبلكم ، وما أصابهم بسبب ذنوبهم ، فإذا اعتبرتم بهم نجوئهم ،

ومن لم يعتبر بما سمعه اعتبر به من تبعه .

ويقال أحلناهم من العقوبة ما يعزركم ، ومن لم يعتبر بمن سبقه اعتبر به من لحقه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا تُلِيَّ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ

قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا انْتَرِ

بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ

لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ

أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ

إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ

عظيم ﴿

إذا اقترحوا عليك بأن تأتيهم بما لم تأمرك به ، أو تريهم ما لم تُظهر عليك من الآيات ..

فأخبرهم أنك غير مُستقل بك ، ولا موكل إليك ؛ فنحن القائم عليك ، المصرف لك ،

وأنت المتبع لما نُجريه عليك غير مُبتدعٍ لِمَا يَحْصُلُ منك .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ نُوْشَاءُ اللّٰهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ
وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ
عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

قد عِشْتُ فِيكُمْ زَمَانًا ، وعِرَقْتُمْ أَحْوَالِي فِيمَا تَطْلُبُونَ مِنِّي عَلَيْهِ بُرْهَانًا^(١) ،
فَاُفَيْتُمُونِي (...) ^(٢) بل وجدتموني في السداد مستقيمًا ، وللرشد مستديماً ، فلو لا أَنَّ
الله تعالى أَرْسَلَنِي ، وَلِئَامَا حَمَلَنِي مِنْ تَكْلِيفِهِ أَهْلَنِي لِمَا كُنْتُ بِهَذَا الشَّرْعِ آتِيًا وَلَا لِهَذَا
الْكِتَابِ تَالِيًا .

« أَفَلَا تَعْقِلُونَ » مَا لَكُمْ تَعْتَرِضُونَ ؟ وَلَا لِأَنفُسِكُمْ تَنْظُرُونَ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ
كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

الْكُذِبُ فِي الشَّرْعِ قَبِيحٌ ، وَإِذَا كَانَ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ أَقْبَحُ .
وَمِنَ الْمُفْتَرِينَ عَلَى اللَّهِ : الَّذِينَ يُظْهِرُونَ مِنَ الْأَحْوَالِ مَا لَيْسَ فِيهِ صَادِقِينَ ، وَجَزَاؤُهُمْ
أَنْ يُحْرَمُوا ذَلِكَ أَبَدًا ، فَلَا يَصِلُونَ إِلَى شَيْءٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ
وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا
عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا
لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

ذَمُّهُمْ عَلَى عِبَادَةِ مَا لَيْسَ مِنْهُ ضَرٌّ وَلَا نَفْعٌ .
فَدَلِيلُ الْخُطَابِ يَقْتَضِي أَنَّ يَكُونَ الْمَعْبُودُ مِنْهُ الضَّرُّ وَالنَّفْعُ ، وَمِنْ قَرَطِ غِبَاوَتِهِمْ أَنَّهُمْ

(١) أَي لِمَاذَا تَطْلُبُونَ الْآنَ مِنِّي بُرْهَانًا عَلَى شَيْءٍ أَنْتُمْ عَرَفْتُمُوهُ عَنِّي مِنْ قَبْلٍ وَهُوَ صَدَق ؟
(٢) مُشْتَبِهَةٌ .

انتظروا في المآلِ الشقاعةَ ممن لا يوجدُ منه الضرُّ والنفعُ في الحال . ثم أخبر أنهم يخبرون عما ليس على الوجه الذي قالوا معلوماً ، ولو كان كما قالوا لعلوا أنه سبحانه لا يعزُّبُ عن علمه^(١) معلومٌ .

ومعنى قوله : « لا يعلم » : خلافه . ومن تعلق قلبه بالخلقين في استدفاع المضار واستجلاب المسار فكالسالك سبيل مَنْ عَبَدَ الأصنام ؛ إذ المنشئ والموجدُ للشيء من العدم هو الله — سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان الناسُ إلا أُمَّةً واحدةً فاختلَفُوا ، ولولا كلمة سبقت من ربِّكَ لقُضِيَ بينهم فيما فيه يختلفون ﴾ .

وذلك من زمان آدم عليه السلام إلى أن تحاربوا ، والحق — سبحانه — سبقَ قضاؤه بتأخير حسابهم إلى الآخرة ، ولذلك لا يجيبهم إلى ما يستعملونه من قيام القيامة . وإنما اختلفوا لأن الله خصَّ قوماً بعنائه وقبوله ، وآخرين بإهوانه وإبعاده ، ولولا ذلك لما كانت بينهم هذه المخالفة .

قوله جل ذكره : ﴿ ويقولون لولا أنزلَ عليه آيةٌ من ربه فقلُّ إنما الغيبُ لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ .

أخبر أنه — عليه السلام — في ستر الغيبة وخفاء الأمر عليه في الجملة لتقاصر علمه عما سيحدث ، فهو في ذلك بمنزلة منزلهم ، إلا في مواطن التخصيص بأنوار التعريف ، فكما أنهم في الانتظار لما يحدث في المستقبل فهو أيضاً في انتظار ما يوجد — سبحانه — من المقادير . والفرقُ بينه — عليه السلام — وبينهم أنه يشهد ما يحصل به — سبحانه — ومنه ، وهم مُتَعَوِّضُونَ في أودية الجهالة ؛ يُجِلُّون الأمرَ مرةً على الدهر ، ومرةً على النجم^(٢) ، ومرةً على الطبع . . . وكلُّ ذلك حَيْرَةٌ وعَمَى .

(١) وردت (عمله) وهي خطأ في النسخ .

(٢) المقصود بالنجم هنا الطالع والحظ من نحس وسعود .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ
ضُرِّهِمْ أَصَابَهُمُ الضَّرُّ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾
﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ
ضُرِّهِمْ أَصَابَهُمُ الضَّرُّ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾
﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ
ضُرِّهِمْ أَصَابَهُمُ الضَّرُّ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾

يعنى إذا أصابهم ضرٌّ ومحنة فرحناهم وكشفنا عنهم ، أحوالوا الأمر على غيرنا ، وتوهموه
مما هو سوانا مثل قولهم : مُطِرْنَا بنوء كذا ، ومثل قولهم إن هذه سعادة نعيم أو مساعدة دولة
أو تأثير فلان أو خيرات دهر .

فهذا كان مكرهم أما مكر الله — سبحانه — بهم فهو جزاؤهم على مكرهم . والإشارة
في هذا أنه ربما يكون للمريد أو الطالب حجة أو فترة .. فإذا جاء الحق بكشف
أو نجل أو إقبال فمن حقهم ألا يلاحظوها فضلاً عن أن يساكنوها^(١) ، لأنهم إذا لم يرتقوا
عن ملاحظة أحوالهم إلى الغيبة بشهود الحق مكر الله بهم بأن شتمهم في تلك الأحوال من
غير ترقٍ عنها أو وجود زيادة عليها ، وهذا مكره بخواصهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ
بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا
رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ
مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا
اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا
مِنْ هَٰذَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾

يريد أنهم يُصْبِحُونَ في النعم يَجْرُونَ أذْيَالَهُمْ ، ثم يُعْمِسُونَ ليكون لِيَا لِيَهُمْ . وقد يَبْسُتُونَ
والبهجة ملكتهم ثم يصبحون وخفايا التقدير أهلكتهم ، وأنشدوا :

(١) تفهم من هذا أن (الملاحظة) أخف من (الساكنة) وكلتاها من آفات الطريق ، يلح الفشيري
دائماً على التحذير منها ، وقد بالغ أهل الالامة في توضيح أضرارها — كما تفهد بذلك القصص التي رواها
عنهم في (رسالته) .

أَقْتَرَّ زَمَانًا وَالْعَيُونُ غَرِيرَةٌ وَأَصْبَحَتْ يَوْمًا وَالْجَنُونَ سَوَافِكُ

فَإِذَا رَجَعُوا إِلَى اللَّهِ بِإِخْلَاصِ الدِّعَاءِ بِجُودٍ عَلَيْهِمْ بِكَشْفِ الْبَلَاءِ .

فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ بِالْإِجَابَةِ لِدَعَائِهِمْ إِذَا هُمْ إِلَى غَيْرِهِ ^(١) يَرْجِعُونَ، وَعَلَى مَنَاجِبِهِمْ — فِي تَمَرُّدِهِمْ يَسْلُكُونَ.

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ

بَغِيرَ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ

عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ

إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَتَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ

تَعْمَلُونَ ﴿

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ » معناه : « تَمْتَعْتُمْ أَيَّامًا قَلِيلًا ، ثُمَّ تَلْقَوْنَ ^(٢) غَيْبٌ

ذَلِكَ وَتَبْدَأُونَ تَقَاسُونَ عَذَابًا طَوِيلًا .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ

مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ

مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا

أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ

وُظْنَ أَهْلِهَا أَتَاهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا

أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا

كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ

الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿

شَبَّهَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْمَاءِ الْمُنْزَلِ مِنَ السَّمَاءِ يَنْبُتُ بِهِ النَّبَاتُ وَتَخْضَرُّ الْأَرْضُ وَتُظْهِرُ الثَّمَارُ /

وَيُوطِنُ أَرْبَابُهَا عَلَيْهَا نَفْسَهُمْ ، فَتَصِيبُهُمْ جَائِحَةٌ مَحَاوِيَةٌ بَغْتَةً ، وَتَصِيرُ كَأَن لَّمْ تَكُنْ .

كَذَلِكَ الْإِنْسَانُ بَعْدَ كَمَالِ سِنِّهِ وَتَمَامِ قُوَّتِهِ وَاسْتِجْمَاعِ الْخِصَالِ الْمَحْمُودَةِ فِيهِ تَخْشَرُهُ الْمَنِيَّةُ ،

وَكَذَلِكَ أُمُورُهُ الْمُنْتَظَمَةُ تُبْطَلُ وَتُخْتَلُ بِوَفَاتِهِ ، كَمَا قِيلَ :

(١) وردت (هيرم) والأكثر ملاءمة للسياق أن تكون (غيره) .

(٢) وردت (يلقون) وهي خطأ في النسخ لعدم اتفاقها مع أسلوب الخطاب .

فَقَدَّ نَاهُ لَمَّا نَمَّ وَاخْتَمَ بِالْعُلَى كَذَاكَ كَسُوفُ الْبَدْرِ عِنْدَ تَمَامِهِ
وَمِنْ وَجْهِهِ تَشْبِيهِ الْأَحْوَالِ الدُّنْيَوِيَّةِ بِالْمَاءِ لِلنُّزُلِ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ الْمَطَرَ لَا يَنْزِلُ بِالْحِيلَةِ ،
كَذَلِكَ الدُّنْيَا لَا تَسَاعِدُهَا إِلَّا الْقِسْمَةُ .

نَمَّ إِنْ الْمَطَرُ إِنْ كَانَ لَا يَجِيءُ إِلَّا بِالتَّقْدِيرِ فَقَدْ يُسْتَسْقَى . . كَذَلِكَ الرِّزْقُ — وَإِنْ كَانَ
بِالْقِسْمَةِ — فَقَدْ يُلْتَمَسُ مِنَ اللَّهِ وَيُسْتَعْطَى .

وَمِنْهَا أَنَّ الْمَاءَ فِي مَوْضِعِهِ سَبَبُ حَيَاةِ النَّاسِ ، وَفِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ سَبَبُ خَرَابِ الْمَوْضِعِ ،
كَذَلِكَ الْمَالُ لِمُسْتَحَقِّهِ سَبَبُ سَلَامَتِهِ ، وَانْتِفَاعِ الْمُتَصِلِينَ بِهِ ، وَعِنْدَ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ سَبَبُ طُغْيَانِهِ ،
وَسَبَبُ بَلَاءٍ مَنْ هُوَ مُتَّصِلٌ بِهِ ، كَمَا قِيلَ : نِعَمُ اللَّهِ لَا تُعَابُ وَلَكِنَّهُ رِيماً اسْتَعْجَمَ عَلَى إِنْسَانٍ ،
وَكَمَا قِيلَ :

يَا دَوْلَةً لَيْسَ فِيهَا مِنَ الْمَعَالَى شَيْئَةٌ زُولَى فَمَا أَنْتِ إِلَّا عَلَى الْكَرَامِ بَلِيَّةٌ
وَمِنْهَا أَنَّ الْمَاءَ إِذَا كَانَ بِمَقْدَارٍ كَانَ سَبَبُ الصَّلَاحِ ، وَإِذَا جَاوَزَ الْحَدَّ كَانَ سَبَبُ الْخَرَابِ . .
كَذَلِكَ الْمَالُ إِذَا كَانَ بِقَدَرِ الْكَفَايَةِ وَالْكَفَافِ فَصَاحِبُهُ مُنْعَمٌ ، وَإِذَا زَادَ وَجَاوَزَ الْحَدَّ
أَوْجَبَ الْكُفْرَانَ وَالطُّغْيَانَ .

وَمِنْهَا أَنَّ الْمَاءَ مَا دَامَ جَارِيًّا كَانَ طَيِّبًا ، فَإِذَا طَالَ مَكْثُهُ تَغَيَّرَ . . كَذَلِكَ الْمَالُ إِذَا أَفْنَقَهُ
صَاحِبُهُ كَانَ مَحْمُودًا ، فَإِذَا ادَّخَرَهُ وَأَمْسَكَ كَانَ مَعْلُولًا مَذْمُومًا .

وَمِنْهَا أَنَّ الْمَاءَ إِذَا كَانَ طَاهِرًا كَانَ حَلَالًا يَصْلَحُ لِلشَّرْبِ وَيَصْلَحُ لِلطَّهْوِ وَلِإِزَالَةِ الْأَذَى ،
وَإِذَا كَانَ غَيْرَ طَاهِرٍ فَبِالْعَكْسِ . . كَذَلِكَ الْمَالُ إِذَا كَانَ حَلَالًا ، وَبِعَكْسِهِ لَوْ كَانَ حَرَامًا .

وَيُقَالُ كَمَا أَنَّ الرِّيحَ تَتَوَرَّدُ أَشْجَارُهُ ، وَتَظْهَرُ أَنْوَارُهُ ، وَتَخْضَرُّ رِبَاعُهُ ، وَتَزِينُ بِالنَّبَاتِ
وَهَادُهُ وَتِلَاعُهُ ، لَا يُؤْمَنُ أَنْ تُصِيبَهُ آفَةٌ مِنْ غَيْرِ ارْتِقَابٍ ، وَيَنْقَلِبُ الْحَالُ بِمَا لَمْ يَكُنْ
فِي الْحِسَابِ . كَذَلِكَ مِنَ النَّاسِ مَنْ تَكُونُ لَهُ أَحْوَالٌ صَافِيَةٌ ، وَأَعْمَالٌ بِشَرِطِ الْخُلُوصِ زَاكِيَةٌ ،
غُصُونُ أَنْفُسِهِ مُتَدَلِّيَةٌ ، وَرِيَاضُ قُرْبِهِ مُوْنِقَةٌ . . ثُمَّ تُصِيبُهُ غَيِّبٌ فَيَذِلُّ عَوْدُ وَصَالِهِ ، وَتَفْسُدُ أَبْوَابُ
عَوَائِدِ إِقْبَالِهِ ، كَمَا قِيلَ :

عَيْنٌ أَصَابَتْكَ إِنْ الْعَيْنَ صَائِبَةٌ وَالْعَيْنُ تُسْرِعُ أحيانًا إِلَى الْحَسَدِ

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي
مَنْ يَشَاءُ إِلَى سِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

دعاهم إلى دار السلام ، وفي الحقيقة دعاهم إلى ما يوجب لهم انوصول إلى دار السلام ؛ وهو
اعتناق أوامره والانتهاه عن زواجره . والدعاء من حيث التكليف ، وتخصيص الهداية
لأهلها من حيث التشريف .

ويقال الدعاء تكليف والهداية تعريف ؛ فالتكليف على العموم والتعريف على الخصوص .
ويقال التكليف بحق سلطانه ، والتعريف بحكم إحسانه .

ويقال الدعاء قوله والهداية طوره ؛ دَخَلَ الْكَلْبُ نَحْتِ قَوْلِهِ ، وانفرد الأولياء بتخصيص
طوره . دار السلام دار الله لأن السلام اسم من أسمائه .

ويكون السلام بمعنى السلامة فهي دار السلامة أي أهلها سالمون فيها ؛ سالمون من الحُرقة
وسالمون من الفُرقة ؛ سَلِمُوا من الحُرقة فحصلوا على لذة عطائه ، وسَلِمُوا من الفُرقة فوصلوا إلى
عزيز لقائه .

ويقال لا يصل إلى دار السلام إلا من سَلِمَتْ نَفْسُهُ عن السجود لِلصَّنَمِ ، وسَلِمَ قَلْبُهُ عن
الشُّرْكِ وَالظُّلْمِ .

ويقال تلك الدار درجات ؛ والذي سَلِمَ قَلْبُهُ عن محبة الأغيار درجته أعلى من درجة مَنْ
سَلِمَتْ نَفْسُهُ من الذنوب والأضرار .

ويقال قوم سلمت صدورهم من الغِلِّ والحسد والحقد ؛ وسَلِمَ الْخَلْقُ مِنْهُمْ ؛ فليس بينهم
وبين أحدٍ محاسبة ، وليس لهم على أحد شيء ؛ فالمسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده ،
والمحسرُ من سَلِمَ الْخَلْقُ بِأَجْمَعِهِمْ من قلبه .

« اسرراط المستقيم » : طريق المسلمين ، فهذا للعوام بشرط علم اليقين ، ثم طريق
المؤمنين وهو طريق الخواص بشرط عين اليقين ، ثم طريق المحسنين وهو طريق خاص
الخاص بشرط حق اليقين ؛ فهؤلاء بنور العقل أصحاب البرهان ، وهؤلاء بكشف العلم أصحاب

البيان ، وهؤلاء بضياء المعرفة بالوصف^(١) كالبيان ، وهم الذين قال صلى الله عليه وسلم فيهم :
« الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه » .

قوله جل ذكره : (الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ) .

« أحسنوا » : أى عَمِلُوا وأحسنوا إذ كانت أفعالهم على مقتضى الإذن .

ويقال « أحسنوا » : لم يَقْصُرُوا فى الواجبات ، ولم يُخِلُّوا بالمندوبات .

ويقال « أحسنوا » : أى لم يَبْقُ عَلَيْهِمْ حقٌ إلا قاموا به ؛ إن كان حقٌ الحق فَمِنْ غير تقصير ، وإن كان من حق الخلق فأداه من غير تأخير .

ويقال « أحسنوا » : فى المآل كما أحسنوا فى الحال ، فاستداموا بما فيه واستقاموا ، والحسنى التى لم هى الجنة وما فيها من صنوف النعم .

ويقال الحسنى فى الدنيا توفيق بدوام^(٢) ، وتحقيق بتمام ، وفى الآخرة غفران مُعَجَّل ، وعبان على التأييد^(٣) مُحْصَل .

قوله : « وزيادة » : فعلى موجب الخبر وإجماع السلف النظر إلى الله . ويحتمل أن تكون « الحسنى » : الرؤية ، « والزيادة » : دوامها . ويحتمل أن تكون « الحسنى » : اللقاء ، « والزيادة » : البقاء فى حال اللقاء .

ويقال الحسنى عنهم لا مقطوعة ولا ممنوعة ، والزيادة لهم لا عنهم محجوبة ولا مسلوبة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا يَرَهُمْ وَأَوْهَمُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

لا يقع عليهم غبارُ الحجاب ، وبعبكسه حديث الكفار حيث قال : « ووجوه يومئذ عليها خَبَرَةٌ » .

(١) (المعرفة بالوصف) احتراز هام جداً ، حتى لا يظن أن (البيان) يستتر من (الذات) الصمدية ، وإنما يقتصر الأمر على (عرفان الأوصاف) الإلهية كالجلال والجمال والكرم . . إلى آخره .

(٢) قال صلى الله عليه وسلم : « خير العمل أدومه وإن قل »

(٣) (التأييد) معناه إلى الأبد فهم فى الجنة خالدون أبداً ، وستأتى لفظة (التأييد) فى العقوبة أيضاً بعد قليل .

« والذلة » التي لا تصيبهم أى لا يركدوا من غير شهود إلى رؤية غيره ، فهم فيها خالدون
في فنون أفضالهم ، وفي جميع أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جِزَاءَ سَيِّئَةٍ
بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمُ مِنَ اللَّهِ
مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ
قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

والذين كسبوا السيئات وعملوا الزلات لهم جزاء سيئة مثلها ، والباء في « بمثلها » :
صلة أى للواحد واحد .

« وترهقهم ذلة » : هو تأييد العقوبة .

« ما لهم من الله من عاصم » أى ما لهم من عذابه من عاصم ، يسبوا ذل الحجاب ،
وتمنوا بتأييد العذاب ، وأصابهم هوان البعاد . وآثار الحجاب على وجوههم لأتحة فإن
الأميرة تدل على السريرة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِجَاءً ثُمَّ نَقُولُ
لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَتَمُّ
وَشَرَّكُمْ ، فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ
شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيانَا تَعْبُدُونَ *
فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن
كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ ﴾

يجمع بين الكفار والأصنام التي عبدوها من دون الله ، فتقول الأصنام : ما أمرناكم
بعبادتنا . فيدعون على الشياطين التي أطاعوها ، وعلى الأصنام التي أمرتهم أن يعبدوها ،
وتقول الأصنام : كفى بالله شهيداً ، على أننا لم نأمركم بذلك ، إذ كنا جاداً . وذلك لأن
الله يحييها يوم القيامة وينطقها .

وفي الجملة . . . يتبرأ بعضهم من بعض ، ويدوق كل وبال فعله .
 وفائدة هذا التعريف أنه ما ليس لله فهو وبال عليهم ؛ فاشتغالهم - اليوم - بذلك
 محال^(١) ، ولهم في المال - من ذلك - وبال . .

قوله جل ذكره : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ
 مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ
 الْحَقُّ ، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
 يَفْتَرُونَ ﴾

إنما يقفون على خسراتهم إذا ذاقوا طعم هوانهم ؛ فإذا رُدُّوا إلى الله لم يجدوا
 إلا البعد عن الله ، والطرْد من قبل الله ، وذلك جزاء من آثر على الله غير الله .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ
 وَالْأَرْضِ أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعَ
 وَالْأَبْصَارَ ، وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ
 مِنَ اللَّيْتِ وَيُخْرِجُ اللَّيْتَ مِنَ
 الْحَيِّ ، وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ
 اللَّهُ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾

كما توحد الحق - سبحانه - بكونه خالقاً تفرّد بكونه رازقاً ، وكما لا خالق سواه
 فلا رازق سواه .

ثم الرزق على أقسام : فلأشباح رزق : وهو لقوم توفيق الطاعات ، ولآخرين
 خذلان الزلات . وللأرواح رزق : وهو لقوم حقائق الوصلة ، ولآخرين - في الدنيا -
 الغفلة وفي الآخرة العذاب والمهلة .

« أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ » : فيكمل بعض الأبصار بالتوحيد ، وبعضها يعميها
 عن التحقيق .

(١) المحال هنا معناها ما محمّل به عن وجهه (أنظر هنا المعنى في الوسيط) .

« فسيقولون الله » : ولكن ظننا ... لا عن بصيرة ، ونطقاً ... لا عن تصديق سريرة .

ما يكون من موضوعات الحق ، ومتعلقات الإرادة ، ومتناولات المشيئة ، ومُجَنَّساتِ
التقدير ، ومُصَرِّفاتِ القدرة — فهي أشباحٌ خاوية ، وأحكامُ التقديرِ عليها جارية .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُو
الْخُلُقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؟ قُلِ اللَّهُ يَدْعُو
الْخُلُقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾

قَوْمٌ جَعَلُوا لَهُ فِي الْإِيجَادِ شُرَكَاءَ يَدْعُو الْقَدَرُ ، وَقَوْمٌ مَنَعُوا جَوَازَ قُدْرَتِهِ عَلَى الْإِعَادَةِ .
وَكُلُّ هَذَا جُنُوحٌ إِلَى الْكُفْرِ وَذَهَابٌ عَنِ الدِّينِ .

(١) أى — حسب مذهب القشيري — أحكام الله السابقة لا تخضع لعله ، غير أننا لا نستبعد أنها (الجيل) جمع حيلة ، فلنس تدبير الإنسان ينفير الحكم السابق في الأزل .

لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ
كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١﴾

الحقُّ اسمٌ من أسمائه سبحانه ، ومعناه أنه موجود ، وأنه ذو الحق ، وأنه مُحِقُّ الحق .
والحقُّ من أوصاف المخلوق ما حسنَ فعله وصحَّ اعتقاده وجازَ النطق به .
« والله يهدي للحق » : أى إلى الحق هدايته . وهداه له وهداه إليه بمعنى ؛ فَمَنْ هَدَاهُ
الْحَقُّ لِلْحَقِّ وَقَفَّهَ عَلَى الْحَقِّ ، وعزَّزْهُ مِنْ هَدَاهُ الْحَقُّ إِلَى الْحَقِّ لِلْحَقِّ ، فَالْهَ نَصِيبُ
وَمَا لَهُ حَظٌّ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ
الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ
عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾

الظَّنُّ يُدْأَى الْيَقِينَ ، فإنه ترجيح أحد طرفي الحكم على الآخر من غير قطع .
وأربابُ الحقائق على بصيرة وقطع ؛ فالظنُّ في أوصاف الحقِّ معلولٌ ، والقطع
— في أوصاف النفس — لكلِّ أحدٍ معلول . والعَبْدُ يجب أن يكون في الحال خالياً عن
الظنِّ إِذْ لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ غَيْبَ نَفْسِهِ فِي مَالِهِ .

وفي صفة الحقِّ يجب أن يكون العبدُ على قطع وبصيرة ؛ فالظنُّ في الله معلول ، والظنُّ
فيما من الله غير محمود . ولا يجوز بوجهٍ من الوجوه أن يكون أهلُ المعرفة به سبحانه — فيما
يعود إلى صفته — على الظن ، كيف وقد قال الله تعالى فيما أمر نبيه — عليه السلام — أن
يقول : « ادْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي » ^(١) ؟ وكما قلنا ^(٢) :

طَلَعَ الصَّبَاحُ فَلَاتَ حِينَ سَرَّاجٍ وَأَتَى الْيَقِينَ فَلَاتَ حِينَ حِجَّاجٍ
حَصَلَ الَّذِي كُنَّا نَوْمُلُ نَيْلَهُ مِنْ عَقْدِ أَلْوِيَةٍ وَحُلِّ رَتَاجٍ

(١) آية ١٠٨ سورة يوسف .

(٢) الشعر هنا للقشيري نفسه كما يستلاد من عبارته .

والبعد قَوْضَ بالدُّنُو خيامه والوصلُ وَكَدَّ سَجَلَه بعِجَلٍ^(١)
قَدْ حَانَ عَهْدُهُ للسُّرُورِ فخيلاً لهواجم الأحراب بالإزعاج

قوله جل ذكره . ﴿وما كان هذا القرآن أن يُفترى
من دون الله ولكن تصديق الذي
بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب
فيه من رب العالمين﴾

السدَّتْ بصائرهم فلا يزدادون بكثرة سماع القرآن إلا عَمَى على عَمَى ، كما أن أهل الحقيقة
ما ازدادوا إلا هُدَى على هدى ، فسبحان مَنْ جمل سماع خطابه لقوم سبب تخييرهم ، ولآخرين
موجب تبصيرهم

قوله جل ذكره : ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة
مِثْلِهِ وادعوا مَنْ استطعتم مِنْ دُونِ
اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صادقين﴾

كَلَّتْ القرائح ، وَتَحَدَّتْ نيرانُ الفصاحة ، واعترف كلُّ خطيب مصقعٍ بالعجز عن
معارضة هذا الكتاب ، فلم يتعرض لمعارضته إلا مَنْ افضح في قائله .

قوله جل ذكره : ﴿بل كذبوا بما لم يُحيطوا به
ولمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَبَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾

قابِلُوا الحقَّ بالكذب لِتَقْصُرَ علومهم عن التحقيق ، فَالتَّحْقِيقُ مِنْ شرطِ التصديق ،
وإِنَّمَا يُؤْمِنُ بالغيب مَنْ لَوْحٌ — سبحانه — لقلبه حقائق البرهان ، وَصَرَفَ عنه
دواعي الرِّيب .

(١) السجل = الدلو العظيمة ، والمناج = جبل يشد في أسفل الدلو العظيمة (المنجد) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾

فأما الذين آمنوا فهم الذين كحل الحق أبصار قلوبهم بنور اليقين ، والذين لم يؤمنوا فهم الذين وسم قلوبهم بالمعى فزلوا — بالضلالة — عن الهدى . . تلك سنة الله في الطائفتين ، ولن نجد لسنة الله تحويلا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

برح الغفاء ، واستبانت الحقائق ، وامتاز^(١) الطريقان ، فلا المحسن يجرم المسىء معاقب ، ولا المسىء يجرم المحسن معاتب ، كل على حدّ بما عمله وعلى ما يفعله محاسب .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ۝ ١٩ ﴾

من استمع بتكلفه ازداد في تخلفه بزيادة تصرفه ، ومن استمع الحق بتفضله — سبحانه — استغنى في إدراكه عن تعمله . والحق — سبحانه — يُسمع أوليائه ما يناجيهم به في أسرارهم ، فإذا سمعوا دعاء الواسطة^(٢) قابله بالقبول لما سبق لهم من استماع الحق . ومن عدم استماع الحق إياه من حيث التفهيم لم يزدّه سماع الخلق إلا جهداً على جهد ، ولم يحظ به إلا بعداً على بعد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُتَىٰ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ۝ ٢٠ ﴾

من سدّت بصيرته بالغفلة والغيبة لم يزدّه إدراك البصر إلا حجة على حجة ، ومن

(١) امتاز (هنا معناها اتضح الفرق بينها .

(٢) المقصود بالواسطة النبي عليه الصلاة والسلام .

لم ينظر إلى الله بالله ، ولم يسمع من الله بالله ، فتصاواه العى والصمم ، « فإنها لا تسمى الأبصار
ولكن تسمى القلوب التى فى الصدور » (١) وقال عليه السلام فيما أخبر عن الله : « فى يسمع
وبى يبصر » (٢)

وأشد قائلهم :

تأمل بعين الحق إن كنت ناظراً إلى منظرٍ منه إليه يعود
قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ
النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

تَنَى عن نفسه ما يستحيل تقديره فى نعته ، وكيف يوصف بالظلم وكل ما يُتَوَكَّمُ أَنْ
لو قَعَلَهُ كَانَ لَهُ ذَلِكَ ؟ إِذَا الْحَقُّ حَقُّهُ وَالْمَلِكُ مُلْكُهُ . وَمَنْ لَا يَصِحُّ تَقْدِيرُ قَبِيحٍ مِنْهُ
— أُنَى يوصف بالظلم جوازاً أو وجوباً ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا
إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ
قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ
وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ .

الأيام والشهور ، والأهوام والدهور بعد مُضيها فى حُكْمِ اللحظة لمن تفكَّر فيها ،
ومتى يكون لها أثر بعد تقضيها ؟ والآتى من الوقت قريب ، وكأنَّ قَدَرَ لِلْمَاضِي مِنَ الدَّهْرِ
لَمْ يُعْهَدْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّمَا تُرِيدُكَ بِمَعْضٍ الَّذِي نَعِدُهُمْ
أَوْ تُتَوَفِّيَنَّاكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ
اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

(١) آية ٤٦ سورة الحج .

(٢) « حق أحبه فلم إذا أحبته كنت عينه التى يبصر بها وسمعه الذى يسمع به ، ويده التى يبطش بها .
— حديث قدسى رواه البخارى عن أبى هريرة ، وأحمد عن عائشة .

معناه أن خبره صدق ، ووعده ووعيده حق ، وبعد النشْرِ حَشْرٌ ، وفي ذلك الوقت
مُطَالَبَةٌ وحسابٌ ، ثم على الأعمال ثواب وعقاب ، وما أسرع ما يكون للعلوم
مُشَاهِدًا موجودًا !

قوله جل ذكره : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ
رَسُولُهُمْ بُعِثَ مِنْ بَيْنِهِمْ بِالْقِسْطِ وَمِمَّنْ
لَا يَظْلَمُونَ﴾ .

لم يُخْلَ زمانًا من شَرعٍ ، ولم يُخْلَ شرعًا من حُكمٍ ، ولم يُخْلَ حُكمًا مما يَعْقُبُهُ من
ثواب وعقاب .

قوله جل ذكره : ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ .

الاستعجال بهجوم الموعود من أمارات أصحاب التكذيب ، فأما أهل التحقيق فليس
لهم لوارد يَرِدُ عليهم اشتغال قبل وجوده ، أو استعجال على حين كَوْنِهِ ، ولا إذا
وَرَدَ استقبال لما تضمنه حُكمه ، فهم مطروحون في أسر الحُكم ، لا يتحرك منهم
— باختيارهم — عِرْقٌ .

قوله جل ذكره : ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا
إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ،
إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ
سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ .

الملك متى يكون له ملك ؟

وإذا كان سيّد البرايا — عليه الصلاة والسلام — لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ..
فَمَنْ نَزَلَتْ رُتَبَتُهُ ، وتَقَاصَرَتْ حالته متى يملك ذرة أو تكون باختياره وإيثاره شمة ؟
طاح الذي لم يكن^(١) — في التحقيق ، وتفرّد الجبارُ بنعت الملكوت .

(١) (الذي لم يكن) يقصد بها الحادث من إنسان وحيوان وعين وأثر .. الخ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا

أَوْ نَهَارًا تَمَازَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ

الْمُجْرِمُونَ ﴾

مَنْ عَرَفَ كَمَالَ الْقُدْرَةِ لَمْ يَأْمَنْ نَجَاةً إِلَّا أَخَذَ بِالشَّدَةِ ، وَمَنْ خَافَ الْبَيَاتِ لَمْ يَسْتَلْذِ الشُّبَاتِ .

وَيَقَالُ مَنْ تَوَسَّدَ الْغَفْلَةَ أَيقظته نَجَاةُ الْعُقُوبَةِ ، وَمَنْ اسْتَوْطِنَ مَرْكَبَ الزَّلَّةِ حَثَرَ فِي

وَهْدَةِ الْحَنَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَأَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلَاَنَ

وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾

بعد انتهاك سِتْرِ الْغَيْبِ لَا يُقْبَلُ تَضَرُّعُ الْمَعَاذِيرِ .

وَيَقَالُ لَا حُجَّةَ بَعْدَ إِزَاحَةِ الْعَلَةِ ، وَلَا عَذْرَ بَعْدَ وَضُوحِ الْحُجَّةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ

الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ

تَكْسِبُونَ ﴾

لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا نَجْعَ مَآمِنِهَا سَقَتْ ، وَلَا يَحْصِدُ زَارِعٌ غَلَّةً إِلَّا مَآمِنَهُ زَرَعَ ، وَفِي مَعْنَاهُ قَالُوا :

سَنَنْتَ فِينَا سَنًّا قَذَفَ الْبَلَايَا عَقِبَهُ

يَصْبِرُ عَلَى أَهْوَالِهَا مَنْ بَرَّ يَوْمًا رَبَّهُ (١)

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَسْتَنْبِشُونَكَ أَهَقُ هُوَ قُلْ : إِي

رَبِّي إِنَّهُ لَخَلَقُ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾

صَرَّحَ بِالْإِخْبَارِ عِنْدَ اسْتِخْبَارِهِمْ ، وَأَعْلَمَ بِمَا يَزِيلُ الشُّبْهَةَ عَمَّا التَّبَسَّ عَلَى جُهَاِلِهِمْ ، وَأَكْثَرُ

إِخْبَارَكَ بِمَا تَذَكَّرَهُ مِنَ الْقَسَمِ وَالْيَمِينِ ، مُضَافًا ذَلِكَ إِلَى مَا تُسَلِّفُهُ مِنَ التَّبْيِينِ . عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْفَعُهُمْ

(١) الشطر الثاني من هذا البيت مطبوس غير واضح ، ولكننا أكلناه حسب ما ورد النص

في موضع سبق .

نُصْحُكَ ، ولا يُؤْتَرُ فِيهِمْ وَعُظُّكَ .. كيف لا ؟ وقد جُرِّعُوا شَرَابَ الْحُلْبَةِ ، وَوُصِّمُوا بِكَيِّ
الْفُرْقَةِ ؛ فلا بصيرة لهم ولا (...)^(١) ولا فهم ولا حصافة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَفَوَّ أَنْ لَكُمْ نَفْسٍ ظَلَمْتُمْ مَا فِي
الْأَرْضِ لَأَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ
لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

لا يُقْبَلُ مِنْهُمْ عَدْلٌ وَلَا سَرَفٌ^(٢) ، ولا يحصل فيما سَبَقَ لَهُمْ مِنَ الْوَعِيدِ خَلْفٌ .
ولاندامة تنفعهم وإنَّ صَدَقُوا ، ولا كرامة تنالهم وإنَّ طلبوها ، ولا ظلم يجرى عليهم
ولا خيف ، كلا . . . بل هو الله العَدْلُ في قضاؤه ، الْفَرْدُ في علائه بنعت كبريائه .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
أَلَا إِنَّ اللَّهَ وَعْدٌ حَقٌّ وَلَكِنْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

الحادثات بأسرها لله مِلْسَكًا ، وبه ظهوراً ، ومنه ابتداء ، وإليه انتهاء ؛ فقوله حقٌّ ،
ووعده صدقٌ ، وأمره حتمٌ ، وقضاؤه باتٌ . وهو العَلِيُّ ، وعلى ما يشاء قوى .

قوله جل ذكره : ﴿ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾
يحيي القلوبَ بأنوار المشاهدة ، ويميت النفوسَ بأنواع المجاهدة ، فنفسُ العابدين تَلْقَاهَا
فنون المجاهدات ، وقلوبُ العارفين شرفها عيون المشاهدات .
ويقال يحيي مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ ، ويميت مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ .

ويقال يحيي قلوبَ قومٍ بمجيب الرجاء ، ويميت قلوبَ قومٍ بوسم القنوط .
قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ

(١) مشبهة .

(٢) السرف هنا معناها مجاوزة الحد .

رَبُّكُمْ وَشِفَاءُ يَمَّا فِي الصُّدُورِ وَهَدًى
وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾

الموعظة للكافة . . ولكنها لا تنجع في أقوام ، وتنفع في آخرين ؛ فَمَنْ أَصْنَى إِلَيْهَا
بَسْمِ سِرِّهِ اتَّضَحَ نَوْرُ التَّحْقِيقِ فِي قَلْبِهِ ، وَمَنْ أَسْمَعَ إِلَيْهَا بَنَتْ غَيْبَتُهُ مَا تَصِفُ
إِلَّا بِدَوَامِ حُجْبَتِهِ .

ويقال الموعظة لأرباب الغيبة لِيَسْتَوْبُوا ، وَالشِّفَاءُ لِأَصْحَابِ الْحُضُورِ لِيَطِيبُوا .

ويقال « الموعظة » : للعوام ، « والشفاء » : للخواص ، « والهدى » : لخاص الخاص ،
« والرحمة » : لجميعهم ، وبرحمته وصلوا إلى ذلك .

ويقال شفاءُ كُلِّ أَحَدٍ عَلَى حَسَبِ دَائِهِ ، فشفاءُ المذنبين بوجود الرحمة ، وشفاءُ المطيعين
بوجود النعمة^(١) ، وشفاءُ العارفين بوجود القربة ، وشفاءُ الواجدين بشهود الحقيقة .

ويقال شفاءُ العاصين بوجود النجاة ، وشفاءُ المطيعين بوجود الدرجات ، وشفاءُ العارفين
بالقرب والمناجاة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ
فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا
يَجْمَعُونَ ﴾ .

« الفضل » : الإحسان الذي ليس بواجبٍ على فاعله ، « والرحمة » : إرادة النعمة وقيل
هي النعمة .

والإحسان على أقسام وكذلك النعمة ، ونِعَمُ اللَّهِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى .

ويقال الفضل ما أتاح لهم من الخيرات ، والرحمة ما أراح عنهم من الآفات .

ويقال فضل الله ما أكرمهم من إجزاء الطاعات ، ورحمته مَا عَصَمَ بِهِ مِنْ ارْتِكَابِ
الزَّلَّاتِ . ويقال فضل الله دوام التوفيق ورحمته تمام التحقيق .

(١) نعلم من مذهب القشيري أن (الرحمة) من أوصاف الذات ، و (النعمة) من أوصاف الفعل . .
فتأمل كيف يرتبط مصير (المذنبين) بوصف من أوصاف ذاته ، ولاحظ كيف يفتح الصوفية بذلك
أبواب الأمل أمام التائبين .

ويقال فضل الله ما يخصُّ به أهل الطاعات من صنوف إحسانه ، ورحمته ما يخصُّ به أهل الزلاّت من وجوه غفرانه .

ويقال فضل الله الرؤيّة ، ورحمته إبقاؤهم في حالة الرؤيّة .

ويقال فضل الله المعرفة في البداية ، ورحمته المغفرة في النهاية .

ويقال فضل الله أن أقامك بشهود الطلب ، ورحمته أن أشهدك حقّه بحكم البيان إلى أن تراه غداً بكشف العيان .

قوله : « فبذلك فليفرحوا » أي بما أهلّهم له ، لا بما ينكفّون من حرّ كآتهم وسكّاتهم ، أو يصلّون إليه بنوعٍ من تكلفهم وتعلّهم . « هو خيرٌ مما يجمعون » : أي ما تتحفّون به من الأحوال الزاكية خيرٌ مما يجمعون من الأموال الوافية .

ويقال الذي لكّ منة — في سابق القسمة — خيرٌ مما تتكلّفه من صنوف الطاعة والخدمة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ؟ ﴾ .

يعتفّهم ويفرّغهم^(١) على ما ابتدعوه من التحليل والتحرّيم ، ويظهر كذبهم فيما تقوّلوه من نسبتهم ذلك إلى إذن وشرع .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

هذا على جهة التهويل والتعظيم لما أسلفوه من الكذب .

(١) فرغ فلانا أي أوجهه باليوم والعتاب (المحيط)

ثم قال : « إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ، فِي إِهْمَالِهِ مَنْ أَجْرَمَ ، وَالْعَصَّةُ لِمَنْ لَمْ يُجْرِمَ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو

منه من قرآنٍ ولا تعملون من عملٍ

إلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ

فيه ، وما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ

مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ

وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا

فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾

خَوْفَهُمْ بما عرفهم من اطلاعه عليهم في جميع أحوالهم ، ورؤية ما سيفعلونه من فنون

أعمالهم . والعلم بأنه يراهم يوجب استحياءهم منه ، وهذه حال المراقبة ، والعبد إذا

علم أن مولاه يراه استحيى منه ، وترك متابعة هواه ، ولا يحوم حول ما نهاه ،

وفي معناه أنشدوا :

كَأَنَّ رَقِيبًا مِنْكَ حَالٌ بِمَجْتَى إِذَا رُمْتُ تَسْهِيلًا عَلَى تَصَعُّبًا

وأنشدوا :

أَعَاتِبُ عَنْكَ النَّفْسَ فِي كُلِّ خَصَلَةٍ تَعَاتِبُنِي فِيهَا وَأَنْتَ مُقِيمٌ

« وما يعزبُ عن ربك من مثقال ذرة » : وكيف يخفى ذلك عليه ، أو يتقاصر علمه عنه ،

وهو منشئه وموجدُه ؟ وبعض أحكامه الجائزة مخصصة ، وإنما قال : « إلا في كتاب مبين » :

ردَّهم إلى كتابته ذلك عليهم — لعدم اكتفائهم في الامتناع عما نهوا عنه — برؤيته وعلمه .

قوله جل ذكره : ﴿ إِلَّا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ .

الوليُّ على وزن فعيل مبالغة من الفاعل ، وهو مَنْ تَوَلَّات طاعته ، من غير أن يتخللها

عصيان .

ويجوز أن يكون فعيل بمعنى مفعول كجريح وقتيل بمعنى مجروح ومقتول ؛ فيكون الوليُّ

مَنْ يتوالى عليه إحسانُ الله وأفضاله ، ويكون بمعنى كونه محفوظًا في عامة أحواله من المحن .

وأشدُّ المحن ارتكابُ للعاصي فيعصيه الحقُّ — سبحانه — على دوام أوقاته من الزلات .
وكما أن النبي لا يكون إلا معصوماً فالولي لا يكون إلا محفوظاً .

والفرق بين المحفوظ والمعصوم أن للمعصوم لا يُلمُّ بذنب البتَّة ، والمحفوظ قد نحصل منه هنات ، وقد يكون له — في الندرة — زلاتٌ ، ولكن لا يكون له إصرار : « أولئك الذين يتوبون من قريب »^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

حسن ما قيل إنه « لا خوف عليهم » : في الدنيا ، « ولا هم يحزنون » : في العاقبة .
ولكن الأولى أن يقال إن الخواص منهم لا خوف عليهم في الحال — لأن حقيقة الخوف توقع محنور في المستقبل ، أو ترقب محبوب يزول في اللستأنف . . وهم يحكم الوقت ؛ ليس لهم تطلع إلى المستقبل . والحزن هو أن تنالهم حُرُونة في الحال ، وهم في رَوْح الرضا بكل ما يجري فلا تكون لهم حُرُونة الوقت . فالولي لا خوف عليه في الوقت ، ولا له حزن بحال ، فهو بحكم الوقت .

ولا يكون ولياً إلا إذا كان موثقاً لجميع ما يلزمه من الطاعات ، معصوماً بكل وجه عن جميع الزلات . وكل خصلة حميدة يمكن أن يُعتدَّ بها فيقال هي صفة الأولياء . ويقال الولي مَنْ فيه هذه الخصلة .

ويقال الولي مَنْ لا يَقْصُرُ في حقِّ الحق ، ولا يؤخِّرُ القيام بحق الخلق ؛ يطيع لا يخوف عتاب ، ولا على ملاحظة حسن مآب ، أو تطلع لما جل اقتراب ، ويقضى لكلٍّ أحده حقاً يراه واجباً ، ولا يقنض من أحده حقاً له ، ولا ينتقم ، ولا ينتصف^(٢) ولا يشمت ولا يحقد ، ولا يقلد أحداً مَنَةً ، ولا يرى لنفسه ولا لما يعملُه قدراً ولا قيمة .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ .

هذه صفة الأولياء ؛ آمنوا في الحال ، واتقوا الشرَّكَ في المال . ويقال « آمنوا » أي قاموا

(١) آية ١٧ سورة النساء .

(٢) أي إذا اساء إليه أحد لم يطلب من خلق إنصافاً ، وإنما صفا وتسامحاً ، تاركاً الأمر لله .

بقلوبهم من حيث المعارف . « وكانوا يتقون » : استقاموا بنفوسهم بأداء الوظائف .
ويقال « آمنوا » بتلقى التعريف . « واتقوا » : بالتقوى عن المحرمات بالتكليف .

قوله جل ذكره : ﴿ لَّهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي
الْآخِرَةِ ، لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ
ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

القيام بالأمر يدل على الصحة ؛ فإذا قاموا بما أمروا به ، واستقاموا بترك ما زجروا عنه
بشركهم الشريعة بالخروج عن عهدة الإلزام ، وبشركهم الحقيقة باستيجاب الإكرام ، بما
كوشفوا به من الإعلام .. وهذه هي البشري في عاجلهم . وأما البشري في آجلهم : فالحق
— سبحانه — يتولى ذلك التعريف ، قال تعالى : « يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان »^(١)
ويقال البشارة العظمى ما يجدون في قلوبهم من ظفرهم بنفوسهم بسقوط مآربهم ، وأى
ملك أتم من سقوط المآرب ، والرضا بالكائن^(٢) ؟ هذه هي النعمة العظمى ، ووجدان هذه
الحالة هو البشري الكبرى .

ويقال الفرق بين هذه البشارة التي لهم وبين البشارة التي للخلق أن التي للخلق عدة^(٣)
بالجمل ، والذي لهم نقد ومحصل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ
جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

العبد مادام متفرقا يضيق صدره ويستوحش قلبه بما يسمع ويشهد من الأغيار
والسكار ما تتقدس عنه صفة الحق ، فإن صار عارفا زالت عنه تلك الصفة لتحققه بأن
الحق سبحانه وراء كل طاعة وزلة ، فلا له — سبحانه — من هذا استيحاش ، ولا بذلك
استئناس .

(١) آية ٢١ سورة التوبة .

(٢) الكائن هنا معناها الواقع ، فلا يتطلعون إلى زيادة أو تغيير .

(٣) عدة = وعد ، ونذكر ما قلناه في هامش سابق عن الوعد والنقد .

ثم يتحقق العارف بأنَّ المُجْرَى لطاعةِ أربابِ الوفاق — اللهُ ، والمنشئ لأحوال أهل الشَّقَاقِ — اللهُ . لا يبالي الحقُّ بما يجري ولا يبالي العبدُ بشهود ما يجري ، كما قيل :

بنو حقٍّ قضوا بالحقِّ صِرْفًا فنَمَتُ الخَلْقِ فيهم مستعار

قوله جل ذكره ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾

لله من في السموات ومن في الأرض ملوكًا ، ويبدى عليهم ما يريد حكما جزئيا ؛ فلا لقبوله علة ، ولا موجب لردّه زلة ، كلا ... إنها أحكامٌ سابقة ، لم تُوجِبْها أجرامٌ لاحقة ، ولا طاعاتٌ وعبادتٌ صادقة .

قوله جل ذكره : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ﴾

الليل لأهل الغفلة بُعدٌ وغيبة ، ولأهل الندم^(١) توبة وأوبة ، وللمحبين زلفة وقربة ؛ فالليل بصورته غير مؤنسٍ ، لكنه وقت القربة لأهل الوصلة كما قيل :

وكم لظلام الليل عندي من يَدٍ^(٢) تُخَبِّرُ أن الماوية تكذب

قوله جل ذكره : ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

(١) وردت (القوم) وهي خطأ في النسخ إذ لا معنى لها هنا والمناسب (الندم) .

(٢) وردت (مزيد) وهي خطأ في النسخ .

الولدُ بعضُ الوالد ، والصمدية تجلُّ عن البعضية ، فَزَرَهُ اللهُ نَفْسَهُ عن ذلك بقوله « سبحانه » .

ثم إنه لم يعجل لهم العقوبة — مع قبيح قاتلهم ومع قدرته على ذلك — تنبيهاً على طريق الحكمة لعباده .

ولا تجوز في وصفه الولادة لِتَوَحُّدِهِ ، فلا قسم له ، ولا يجوز في نعته التبتُّ أيضاً لِتَفَرُّدِهِ وأنه لا شبيه له .

قوله : « هو الغني » : الغني نفي الحاجة ، وشهوة المباشرة حاجة ، ويتعالى عنها سبحانه .

قوله جل ذكره ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يَفْلِحُونَ ﴾

ليس لهم بما هم فيه استمتاع ، إنما هي أيام قليلة ثم تتبعها آلام طويلة ، فلا قدم لهم بعد ذلك ترفع ، ولا تدم ينفع .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ

لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ

مَقَامِي وَتَذَكَّرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ

تَوَكَّلْتُ فَأَجِيعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ

ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ

غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تَنْظُرُونَ ﴾

أنزل الله هذه الآية على وجه التسلية لنبئه — صلى الله عليه وسلم — لما كان يمسئ من مقاساة الشدة من قومه ، فإن أيام نوح — وإن طالَّت — فما لبثت كثيراً إلا وقد زالت ، كما قيل :

وَأَحْسَنُ شَيْءٍ فِي النَوَائِبِ أَنَّهَا إِذَا هِيَ نَابَتْ لَمْ تَكُنْ خُلَا

ثم بين أنه كان يتوكل على ربه مهما فعلوا . ولم يحتشم عبداً — ما وثق بربه — من كل ما نزل به . ثم إن نوحاً — عليه السلام — قال : إني توكلت على الله ، وهذا عين التفرقة ،

وقال نبيّه صلى الله عليه وسلم : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ » (١) وهذا عين الجمع فبانت المزية
وظهرت الخصوصية .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ أَجْرٍ
إِنْ أُنْجِرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ
أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

إذا كان عمله لله لم يطلب الأجر عليه من غير الله ، وهكذا سنته في جميع أولياء الله .

قوله جل ذكره : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَسَبَّحْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ
فِي السَّمَاءِ وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَافَةً وَأَغْرَقْنَا
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَنظَرَ بِكَيْفٍ كَانَ
عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

أغرق قومَه بأمواج القطرة ، وفي الحقيقة أغرقهم بأمواج الأحكام والقدرة ، وحفظ نوحاً
— عليه السلام — وقومه في السفينة ، وفي الحقيقة نجَّاهم في سفينة السلامة . كان نوحٌ في سابق
حكمه من المحروسين ، وكان قومُه في قديم قضائه من جملة المُغرقين ، فَجَرَّتْ الأحوال
على ما جَرَّتْ به القسمة في الأزل .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ
فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا
بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ
نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُتَكَبِّرِينَ * ثُمَّ بَعَثْنَا
مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ
وَمَلَائِكَةِ بِلَادِهِ فَاكْتَبُوا وَكَانُوا
قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾

(١) آية ٦٤ سورة الأنفال

قص عليه - صلوات الله عليه وسلامه - أنباء الأولين ، وشرح له جميع أحوال
الغابرين ، ثم فضّله على كافتهم أجمعين ، فكانوا نجوماً وهو البدر ، وكانوا أنهاراً وهو
البحر ، ثم به انتظم عقدهم ، وبنوره أشرق نهارهم ، وبظهوره ختم عددهم^(١) ، كما قيل :

يومٌ وحسبُ الدهرِ من أجله حياً غدٌ والتفت الأُمسُ

قوله جل ذكره : ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا
إن هذا لسيحِرٌ مبين ﴾

ما زادهم الحق سبحانه بياناً إلا ازدادوا طغياناً ، وذلك أنه تعالى أجرى سنته
في المردودين عن معرفته أنه لا يزيد في الحجج هدىً إلا ويزيد في قلوبهم عمىً ، ثم خفي عليهم
قصود النبيين صلوات الله عليهم أجمعين .

« يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فإذا تأمرون » : نظروا من حيث كانوا لم يعرفوا
طعماً غير ما ذاقوا ، وكذا صفة من أقصته السوابق ، وردته المشيئة .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا أجئتنا لثَلَفَتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا
عليه آباءنا وتكون لنا الكبرياء
في الأرض وما نحن لك بمؤمنين ﴾

ركنوا إلى تقليد آباءهم فيما عليه كانوا ، واستحبوا استدامة ما عليه كانوا . . . فلحقهم
شؤم العقيدة وسوء الطريقة حتى توهموا أن الأنبياء عليهم السلام إنما دعوهم إلى الله لتكون
لهم الكبرياء على عباد الله ، ولم يعلموا أنهم إنما دعوهم إلى الله بأمر الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال فرعون ائتوني بكل ساحر
عليم ﴾

لما استعان في استدفاع ما استقبله بغير الله لم يلبث إلا يسيراً حتى تبرأ منهم وتوعدهم

(١) قارن ذلك بما يقوله الحلاج في طواسينه وبما يقوله أصحاب « نظرية الانسان الكامل » عن
الحقيقة الحمديدية لتلحظ مدى اعتدال هذا الامام السني المتحفظ في نظريته لشخصية الرسول عليه صلاة
الله وسلامه .

بقوله : لأفعلن ولأصنعن ، وكذلك قصارى كل حجة وولاية إذا كانت في غير الله فإنها تقول إلى العدو والبغضة ، قال تعالى : « الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ » (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ * ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾

أمرهم أمراً يظهر به بطلانهم ليدخل الحق على ما أتوا به من التويه ، فلذلك قال موسى عليه السلام : « إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ » ؛ فلما انتقامت عصا موسى — جميع ما جاءوا به من حبايم وعصبيهم — حين قلبها الله حية .. علموا أن الله أبطل تلك الأعيان وأفناها .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيُبَيِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

من جملة ما أحق أنه السحرة كان عندهم أنهم ينصرون فرعون ويحببونه فكاتوا يقسمون بعزته حيث قالوا « بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ » وقال الحق سبحانه بعزتي إنكم مغلوبون ، فكان على ما قال تعالى دون ما قالوه ، وفي معناه قالوا :
كَمْ رَمَتْنِي بِأَسْهُمٍ صَائِبَاتٍ وَتَعَدَّتْنِي بِسَهْمٍ فُطَاشَا

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ .

أهل الحقيقة في كل وقت قليل عددهم ، كبير عند الله خطرهم .

(١) آية ٦٧ سورة الزخرف .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنْتُمْ
بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾

بَيِّنُ أَنَّ الْإِيمَانَ لَيْسَ مِنْ حَيْثُ الْأَقْوَالُ . . بل لا بد فيه من صدق الأحوال قصداً .
وحقيقة التوكل تَوَسَّلُ تَقْدِيمُهُ مُتَّصِلٌ ، ثم يعلم أنه بفضلُه — سبحانه — نَحْصُلُ نَجَاتِهِ ،
لا بما يَأْتِي به من التكلف — هذه هي حقيقة التوكل ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا
فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

تَبَرُّأْنَا مِمَّا مِنَّا مِنَ الْحَوْلِ وَالْمُنَّةِ ، وَتَحَقَّقْنَا بِمَا مِنْكَ مِنَ الطُّولِ وَالْمِئَةِ .
فَلَا تَجْعَلْنَا عَرْضَةً لِّسَهَامِ أَحْكَامِكَ فِي عَقُوبَتِكَ بِإِنْتِقَامِكَ ، وَارْحَنَا بِلَطْفِكَ وَإِكْرَامِكَ ،
وَنَجِّنَا بِمَنْ عَصَيْتَ عَلَيْهِمْ فَأَذَلَّتْهُمْ ، وَبِسَكِّي فِرَاقِكَ وَتَمَتَّتْهُمْ

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ
تَبَوَّءَا لِقَوْمِكَ بِمِصْرَ بَيْوتًا وَاجْعَلُوا
بِیُونَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِمْوا الصَّلَاةَ
وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

مَهْدٌ إِلَيْهِمْ لِعِبَادَتِنَا بِحَالٍ وَهِيَ نَفُوسُهُمْ ، وَلِمَعَارِفِنَا مَنَازِلَ وَهِيَ قُلُوبُهُمْ ، وَلِحُبَّتِنَا مَوَاضِعَ
وَهِيَ أَرْوَاحُهُمْ ، وَلِمَشَاهِدَتِنَا مَعَاهِدَ وَهِيَ أَسْرَارُهُمْ ، فَنَفُوسُ الْعَابِدِينَ بِبُيُوتِ الْخِدْمَةِ ، وَقُلُوبُ
الْعَارِفِينَ أَوْطَانُ الْحَشَمَةِ ، وَأَرْوَاحُ الْمُسْلِمِينَ مَشَاهِدُ الْحُبِّ ، وَأَسْرَارُ الْمُوَحِّدِينَ مَنَازِلُ الْهِيبَةِ ^(٢)

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ
وَمَلَآءَ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ

(١) أى يفتنى عن التوكل برؤية الوكيل . . كما يقول إبراهيم الخواص (ت ٢٩١)
(٢) هذه الفقرة هامة في توضيح الملكات الباطنية وترتيبها ووظائفها في المعراج الروحي — في مذهب
هذا الصوفي .

على أموالهم واشدد على قلوبهم
فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب
الآليم .

لما يؤس من إجابتهم حين دعاهم إلى الله دعا عليهم بإزالة السخطة وإذابة الفرقة . ومن
المعلوم أن الأنبياء — عليهم السلام — من حقهم العصاة ، فإذا دعا موسى عليهم بمثل هذه
الجملة لم يكن ذلك إلا بإذن من قبل الله تعالى في الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقْبَا
وَلَا تَتَّبِعَان سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

الاستقامة في الدعاء ترك الاستعجال في حصول المقصود ، ولا يسقط الاستعجال من
القلب إلا بوجودان السكينة فيه ، ولا تكون تلك السكينة إلا بحسن الرضاء بجميع ما يبدو
من الغيب

ويقال ينبغي للعبد أن يستقل بالله^(١) ما أمكنه ، فعند هذا يقل دعاؤه . ثم إذا دعاه
بإشارة من الغيب — في جوازه — فالواجب ألا يستعجل ، وأن يكون ساكن الجأش .

ويقال من شرط الدعاء صدق الافتقار في الابتداء ، ثم حسن الانتظار في الانتهاء ، وكال
هذا الرضاء بحريان الأقدار بما يبدو من المسار والمضار .

ويقال الاستقامة في الدعاء سقوط التقاضى^(٢) على الغيب ، والحمود عن الاستعجال بحسن
الثقة ، وجميل الظن .

ويقال في الآية تنبيه على أن للأمور أجلاً معلومة ، فإذا جاء الوقت فلا تأخير للمقسوم
في الوقت المعلوم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾

(١) الاستقلال بالله الاكتفاء به وعدم النظر إلى النفس أو الأهيار .
(٢) التقاضى على الغيب معناه النظر إلى ما يأتي من الغيب بمن التعليل أو التكثير ، البطء أو السرعة ..
في ذلك إتمام لحظوظ النفس في حقوق الحق .

فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا
وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْفَرَقُ ،
قَالَ : آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي
آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ
الْمُسْلِمِينَ ﴿١٠﴾

حَمَلَتْ الْعِزَّةُ فِرْعَوْنَ عَلَى تَقْطِحِ الْبَحْرِ عَلَى إِيْرِهِمْ ، فَلَمَّا تَحَقَّقَ الْهَلَاكُ حَمَلَتْهُ
ضَرُورَةُ الْحِيلَةِ عَلَى الْاسْتِعَاذَةِ ، فَلَمْ يَنْفَعِهِ ذَلِكَ لِفَوَاتِ وَقْتِ الْاِخْتِيَارِ .
وَيُقَالُ لِمَا شَهِدَ صَوْلَةَ التَّقْدِيرِ أَفَاقٌ مِنْ سُكْرِ الْغَلْطَةِ (١) ، لَكِنْ : « بَعْدَ شَهُودِ
الْبَاسِ لَا يَنْفَعُ التَّخَاشُعُ وَالِابْتِئَاسُ » .

قوله جل ذكره : ﴿ آ لَآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ
مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾

... أَيْ بَعْدَ طَوْلِ الْإِمْهَالِ ، وَالِإِصْرَارِ عَلَى ذَمِيمِ الْأَفْعَالِ ، وَالرُّكُضِ فِي مِيدَانِ
الْاِغْتِرَارِ ، وَانْقِضَاءِ وَقْتِ الْاِعْتِدَارِ ؛ هَيْهَاتَ ! لَقَدْ اسْتَوْجَبْتَ أَنْ تُرَدَّ فِي وَجْهِكَ ،
فَلَا لِعُذْرِكَ قَبُولٌ ، وَلَا لَكَ إِلَى مَا تَرُومُهُ وَصُولٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدْنِكَ لَتَكُونَ
لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ، وَإِنْ كَثِيرًا مِنْ
النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَفَافِلُونَ ﴾

لِنُشِيرَنَّ تَعْدِيَتَكَ ، وَنُظْهِرَنَّ — لِمَنْ اسْتَبَصَرَ — تَأْدِيبَكَ ، لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ
عِزَّةً ، وَتَزْدَادَ حِينَ أَفْقَتَ أَسْفًا وَحَسْرَةً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأً
صِدْقٍ وَرِزْقَانَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، فَمَا
اِخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ

(١) تَصِحُّ أَنْ تَكُونَ كَذَلِكَ ، وَتَصِحُّ أَنْ تَكُونَ (الْغَلْطَةُ) بِالظَّاءِ ، وَهِيَ قِسْوَةُ الْقَلْبِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ ،
وَلَا تَسْتَعْدُ أَيْضًا أَنْ تَكُونَ : أَفَاقٌ مِنْ سُكْرِ (الْمَغْلَةِ) .

يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا
فيه يختلفون ﴿

أَذَلَّلْنَا لَهُمُ الْآيَاتِ ، وَأَكْثَرْنَا لَهُمُ الْإِنْعَامَ ، وَأَكْرَمْنَا لَهُمُ الْمَقَامَ ، وَأَتَعْنَتْنَا لَهُمُ
فَنُونَ الْحَسَنَاتِ ، وَأَدَمْنَا لَهُمُ جَمِيعَ الْخَيْرَاتِ . . . فَلَمَّا قَابَلُوا النِّعْمَةَ بِالْكَفْرَانِ ،
وَأَصْرُوا عَلَى الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ أَذَقْنَاهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، وَسَدَدْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ مَا فَتَحْنَا لَهُمْ
مِنَ التَّكْرِيمِ وَالْإِيجَابِ ، وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ حَادَّ عَنْ طَرِيقِ الْوَرَفَاقِ ، وَجَنَحَ إِلَى جَانِبِ الشَّقَاقِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا

إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَهْرَوْنَ

الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

الْمُتَّخِذِينَ ﴾

ما شك — صلى الله عليه وسلم — فيما عليه أنزل ، ولا عن أحدٍ منهم ساءل ،
وإنما هذا الخطابُ على جهة التحويل ، والمقصودُ منه تنبيهُ القوم على ملازمة نهج السبيل .
ويقال صفةُ أهل الخصوص ملاحظةُ أنفسهم وأحوالهم بعين الاستصغار .

ويقال فإن تَنَزَّلَتْ منزلةُ أهلِ الأدب في تَرْكِ الملاحظات فَسَلْ عَنْ أَرْسَلَا قَبْلَكَ
فهل بَلَّغْنَا أَحَدًا مِنْكَ ؟ وهل خَصَصْنَا أَحَدًا بِمِثْلِ تَخْصِيصِكَ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَكْمُنْ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا

بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

ما كان منهيًا عنه ، وكان فيبحرًا فبالشرع كان قبيحًا ، فلا بد من ورود الأمر به
حتى تكون منه طاعة وعبادة . وإنما لم يَجْزُ في صفته — صلى الله عليه وسلم — التكذيبُ
بآيَاتِ اللَّهِ ؛ لأنه نُهيَ عنه لا لكونه قبيحًا بالعقل^(١) حتى يقال كيف نُهيَ عنه وكان ذلك
بعيدًا منه ؟

(١) يغمز القشيري هنا بقول المعزلة : إن القبيح ما رآه العقل قبيحًا والحسن ما رآه العقل حسنًا .
ويرى القشيري التعويل على الصرع في هذا الخصوص — كما هو واضح من إشارته .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

فالأعداء حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ بِالْعِقَابِ ، والأولياء حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ بِالثَّوَابِ ،
فالكَلِمَةُ أَزَلِيَّةٌ ، والأحكام سَابِقَةٌ ، والأفعال فِي الْمُسْتَأْنَفِ عَلَى مَرِّ الْأَوْقَاتِ عَلَى مُوجِبِ
الْقَضِيَّةِ لَاحِقَةٌ ، فالَّذِينَ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْقِسْمَةِ الشَّقَوَةُ لَا يُؤْمِنُونَ وَإِنْ شَاهَدُوا كُلَّ دَلَالَةٍ ،
وَعَايَنُوا كُلَّ مَعْجَزَةٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا
إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا
كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِلْيَافَةِ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَجَّيْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ .

قَوْمُ يُونُسَ تَدَارَكْتُهُمُ الرَّحْمَةُ الْأَزَلِيَّةُ فِيمَا أُجْرِيَ عَلَيْهِمْ مِنْ تَوْفِيقِ التَّضَرُّعِ ، فَكَشَفَ
عَنْهُمْ الْعَذَابَ ، وَصَرَفَ عَنْهُمْ مَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ بَعْدَمَا عَايَنُوا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ ؛
فَبَرَحْمَتِهِ وَصَلُوا إِلَى تَضَرُّعِهِمْ ، لَا بِتَضَرُّعِهِمْ وَصَلُوا إِلَى رَحْمَتِهِ (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ
كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُنْكِرُ النَّاسَ
حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ .

كَيْفَ يَتَعَصَّى عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ مَرَادٌ — وَالَّذِي يَبْقَى شَيْءٌ عَنْ مَرَادِهِ سَاهٍ أَوْ مَغْلُوبٌ ؟ وَالَّذِي
يَسْتَحِقُّ جَلَالَ الْعِزَّةِ لَا يَفُوتُهُ مَطْلُوبٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا
بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ
لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

(١) أَيْ أَنْ عَمَلَ الْإِنْسَانُ لَا يَكُنِي وَحْدَهُ لِلْوُصُولِ إِلَّا إِذَا ارْتَبَطَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ .

لا يمكن حمل^(١) الإذن في هذه الآية إلا على معنى المشبهة ؛ لأنه لكافة بالإيمان ،
والذى هو مأمورٌ بالشئ لا يقال إنه غير مأذون فيه . ولا يجوز حمل هذه الآية على معنى
أنه لا يؤمن أحدٌ إلا إذا أُلْجِأَ الحقُّ إلى الإيمان واضطره — لأنَّ موجبَ ذلك ألا يكون
أحدٌ في العالم مؤمناً بالاختبار ، وذلك خطأ ، فدلُّ على أنه أراد به إلا أن يشاء الله أن
يؤمنَ هو طوعاً . ولا يجوز بمقتضى هذا أنه يريد من أحدٍ أن يؤمن طوعاً ثم لا يؤمن ؛
لأنه يُبطلُ فائدة الآية ، فصَحَّ قولُ أهل السنة بأنَّ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ
عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

الأدلة — وإن كانت ظاهرة — فما تُغْنِي إذا كانت البصائرُ مسدودةً ، كما أن
الشمسَ — وإن كانت طالعة — فما تُغْنِي إذا كانت الأبصار عن الإدراك بالعمى
مردودة ، كما قيل :

وما انتفاعُ أخى الدنيا بمقلته إذا استوت عند الأنوار والظلم ؟

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيْلَمٍ الَّذِينَ
خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَاتَّبِعُوا
إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ .

تَنفِي الطَّافِ أَنْوَارِ الْحَقِيقَةِ تَعْنِي فِي تَسْوِيلٍ ، وَاسْتِنَادٌ إِلَى غَيْرِ تَحْصِيلٍ ، وَتَعَادٍ
فِي تَضْلِيلٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا
كَذَلِكَ حَقَّقْنَا لِنُجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

حروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض فقوله تعالى : « علينا » هاهنا معناها « منا » ،

(١) وردت (حول) وهي خطأ في النسخ .

(٢) هذا نموذج طيب لموقف الفشيري متكاملاً سلباً — بالنسبة لتفضية اختبار الإنسان .

فلا شيء يجب على الله لكونه إلهًا مَلِكًا ، فيجب الشيء من الله — لصدقه — ولا يجب عليه — لِعِزَّتِهِ (١) .

وكما لا يجوز أن يدخلَ نبيٌ من الأنبياء — عليهم السلام — في النار لا يجوز أن يُخلَّدَ واحدٌ من المؤمنين في النار لأنه أخبر أنه يُنَجَّى الرسل والمؤمنين جميعاً .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

إن كنتم في غطاء الرِّيبِ فأنا في ضياءٍ مِنَ الغيبِ ، إن كنتم في ظلمة الجهل فأنا في شمس الوصلِ ، إن كنتم في سدة الضلالة فأنا في خلعة الرسالة وعلى أنوار الدلالة .
ويقال قد تميزنا على مفرق الطريق : فأنتم وقستم في وهدة العوج ، وأنا ثابتٌ على سَوَاءٍ (٢) النهجِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

أى أخلص قلبك للدين ، وجرد قلبك عن إثبات كلِّ ما لحقه قهرُ التكوين ، وكن مائلاً عن الزيغ والبدع ، داخلاً في جملة مَنْ أخلص في الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴾

(١) تأمل هذا التخريج حتى يلسجم مذهبه الكلامي مع ظاهر النص القرآني .

(٢) وردت (سوء) وهي خطأ في النسخ .

لا تعبد ما لا تنفعك عبادته ولا تضره عبادته ، وتلك ضفة كل ما يعبد من دون الله .
واستعانة الخلق بالخلق لتحقيق الوقت بلا طائل ؛ فمن لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً كيف
يستعين به من هو في مثل حاله ؟ وإذا انضاف الضيف إلى الضيف ازداد الضيف .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ يَسْسِكِ اللَّهُ يَضُرَّ فَلَا كَاشِفَ
لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ
لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

كما تفرد بإبداع الضر واختراعه فلا شريك يعضده . . كذلك توحد بكشف الضر
وصرفه فلا نصير ينجده .

ويقال هوّن على المؤمنين الضر بقوله : ﴿ وَإِنْ يَمْسِكِ اللَّهُ يَضُرَّ ﴾ حيث أضافه إلى نفسه ،
والحنظل يستلذ من كف من نجبه .

وفرق بين الضر والخير بإضافة الضر إليه فقال : ﴿ وَإِنْ يَمْسِكِ اللَّهُ يَضُرَّ ﴾ ، ولم يقل :
﴿ وَإِنْ يُرِدْكَ يَضُرَّ ﴾ — وإن كان ذلك الضر صادراً عن إرادته — وفي ذلك من حيث
اللفظ دقة .

ويقال : عذب الضر حيث كان نفعه ؛ فلما أوجب مقاساة الضر من الحرب أبدل مكانه
السرور والطرب .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ
مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَنْتَدِي
لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا
وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾

من استبصر ربح رُشد نفسه ، ومن ضلّ فقد زاغ عن قصده ؛ فهذا بلاه اكتسب ،
وذلك ضياء وشفاء اجتلب .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يوحىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ
حَتَّىٰ يَخُصِّمَ اللَّهُ لَهُهُ خَيْرُ
الْحَاكِمِينَ ﴾

قِفْ عند جريان أحكامنا ، والنسخ عن مرادك بالكلية ، ليُجرى عليك ما يريد ،
والله أعلم بالصواب .

السورة التي يذكر فيها هود عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه كلمة استولت على عقول قوم قَبَصَتْهَا ، وعلى قلوب آخرين فَجَرَدَتْهَا ، فالتى
بَصَرَتْهَا فبنور برهانه ، والتى جَرَدَتْهَا فبقهر سلطانه .. فعالمٌ سَلَكَ سَبِيلَ بَحْثِهِ واستدلّاه
فَسَكَنَ لَمَّا طَلَعَتْ نَجْمُ عَقْلِهِ تحت ظلال إقباله ، وغارِفٌ تعرّضَ إلى وصاله فطاح لَمَّا لاحت
لَمْعَةٌ من قدس بالإعلام باستحقاق جلاله .

قوله جل ذكره : ﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كُنَّا نَحْكُمُكُمْ أَيُّهَا ثُمَّ
فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾

الألف إشارة إلى افراده بالربوبية .

واللام إشارة إلى لُطْفِهِ بأهل التوحيد .

والراء إشارة إلى رحمته بكافة البرية .

وهى فى معنى القسم : أى أقسم بانفرادى بالربوبية ولطفى بمن عرّفنى بالأحادية ،
ورحمتى على كافة البرية — إِنَّ هَذَا الْكِتَابَ أَكْثَمُ آيَاتِهِ .

ومعنى « أَكْثَمُ آيَاتِهِ » : أى حُفِظَتْ عن التبديل والتغيير ، ثم فُصِّلَتْ ببيان نعمتِ
الحقِّ فيها يتصف به من جلال الصمدية ، وتعبّد به الخلق من أحكام العبودية ، ثم ملاح لقلوب
الموحّدين والمحبين من لطائف القرية ، فى عاجلهم البشرى بما وَعَدَهُم به من عزيز لقائه
فى آجلهم ، وخصائصهم التى امتازوا بها عن سواهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ .

أى فصلت آياته بألا تعبدوا إلا الله .

ويقال معناه فى هذا الكتاب ألا تعبدوا إلا الله ، إنى لكم منه « نذير » مبین بالفرقة ، « وبشير » بدوام الوصلة ، (فالفرقة بل فى عاجله واحداً) (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ﴾ استغفروا ربكم أولاً ثم توبوا إليه بعده .

والاستغفار طلب المغفرة ، يعنى قبل أن تتوبوا اطلبوا منه للمغفرة بحسن النظرة ، وسحل الرجاء والثقة بأنه لا يُخْلَدُ العاصي فى النار ، فلا محالة يُخْرِجُهُ منها . فابشروا باستغفاركم ، ثم توبوا بترك أوزاركم ، والتنقى عن إصراركم .

ويقال استغفروا فى الحال مما سلف ، ثم إن ألمتم بزلة أخرى فتوبوا .

ويقال استغفروا فى الحال ثم لا تعودوا إلى ارتكاب الزلة فاستديموا التوبة — إلى ما ليكم — مما أسلفتم من قبيح أعمالكم .

ويقال « استغفروا » : الاستغفار هو التوبة ، والتنقى من جميع الذنوب ، ثم « توبوا » من توهم أنكم تُجَابُونَ بتوبتكم ، بل اعلموا أنه يُجِيبُكُمْ بِكَرَمِهِ لا بأعمالكم .

ويقال « الاستغفار » : طلبُ حظوظكم من عفونا . . فإذا فعلتم هذا فتوبوا عن طلب كل حظ ونصيب ، وارجعوا إلينا ، واكتفوا بنا ، راضين بما تحوزونه من التجاوز عنكم أو غير ذلك مما يخرجكم به .

قوله جل ذكره : ﴿ يَسْتَعِظُكُمْ مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾

أى نعيشكم عيشاً طيباً حسناً مباركاً .

ويقال هو إعطاء الكفاية مع زوال الحرص .

ويقال هو القناعة بالموجود .

(١) هذه عبارة لما أنها زائدة نتيجة خطأ فى النسخ ، أو أن بها اضطراباً فى الكتابة أفقدها المصنف .

ويقال هو ألا يخرجَه إلى مخلوق ، ولا يجعل لأحد عليه مِنَّةً (لا سيما للثيم^(١)) .

ويقال هو أن يوقه (لاصطناع للمعروف إلى المستحقين .

ويقال هو أن تُقضى على يديه)^(٢) حوائج الناس .

ويقال هو ألا يُلِمَّ في حال شبابه بِزَلَّةٍ ، وألا ينصفَ بأنه عن الله في غفلة .

ويقال هو أن يكون راضياً بما يجري عليه من نوعي العسر واليسر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ، وَإِنْ

تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ

يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾

من زادت حسناته على سيئاته أعطاه جزاء ما فضلَ له من الطاعات ، ومن زادت سيئاته على حسناته كافأه بما يستوجبه من زيادة السيئات . . . هذا بيان التفسير .

ويقال مَنْ فَضَّلَهُ بحسن توفيقه أوصله إلى ما يستوجبه من لطفه ويزيده . . .

ويقال هو أن يستر عليه فضله حتى لا يلاحظ حاله ومقامه ، بل ينظر إلى نفسه ، وما منه وما له . . . بعين الاستحشار والاستصغار .

ويقال هو أن يرقيه عن التعرُّيج في أوطان البشرية إلى طاعات شهود الأحدية ، ويُثَقِّيه عن (. . .)^(٣) البشرية ، والنكسر بما يبدو من مفاجآت التقدير .

ويقال هو ألا يُوحِشَه شيء بما يجري في الوقت .

ويقال هو أن يُحَقِّقَ له ما نسمو إليه هِمَّتُهُ ، ويُبَلِّغَهُ فوق ما يستوجبه محله .

قوله جل ذكره : ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(١) ما بين القوسين في أعلى الصفحة ومكتوب بخط رديء جداً .

(٢) ما بين القوسين في هامش الصفحة بخط حسن ومن هذا وذاك يتضح أن النسخة قبض لها أن تراجع بواسطة قارئين مختلفين .

(٣) مثلية .

تنقطع الدعاوى عند الرجوع إلى الله ، وتنقضي الظنون ، ويحصل اليأس من غير الله بكل وجه ، ويبقى العبدُ بنعتِ الاضطرار ، والحقُّ يُجْرِي عليه ما سَبَقَتْ به القسمة من أنواع الأقدار .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

أى يسترون ما تنطوى عليه عقائدهم ، ويضمِّرون للرسول — عليه السلام — وللمؤمنين خلافَ ما يُظهِرون ، والحقُّ — سبحانه — مُطَّلِعٌ على قلوبهم ، ويعلم خفايا صدورهم ، فتليسهُم لا يُغْنِي عنهم من الله شيئاً ، وكان الله — سبحانه — يُطَّلِعُ رسوله — عليه السلام — على ما أخفوه إماماً بتعريف الوحي ، أو بإشهاد لقوة نور ، وكذلك المؤمنون كانوا مخصوصين بالفراصة ، فكل مؤمن له بِقَدَرٍ حاله من الله هداية ، قال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فراصة المؤمن فإن المؤمن ينظر بنور الله » (١) ولقد قال قائلهم .

أَرَيْعَنِي أَرَاكَ أَمْ بِفَوَادِي ؟ كُلُّ مَا فِي الْفَوَادِي لِلْعَيْنِ بَادٍ

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾

أراح القلوب من حيرة التقسيم ، والأفكار من نصب التفكير في باب الرزق حيث قال : « إلا على الله رزقها » فَكَانَتْ القلوبُ لما تحَقَّقَتْ أَنَّ الرزقَ على الله .

ويقال إذا كان الرزق على الله فصاحبُ الحانوتِ في غَلَطٍ من حسبانهِ . ثم إن الله سبحانه

(١) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالتَّطَبَّرَاتِي .

ورَوَاهُ الْقَشِيرِيُّ فِي رِسَالَتِهِ (ص ١١٥) هَكَذَا : أَخْبَرَنَا الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ قَالَ أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ الرَّازِيُّ قَالَ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ السَّكَنِ قَالَ حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ دَاوُدَ قَالَ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ السَّكَوِيُّ قَالَ حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ قَيْسٍ عَنْ عَطِيَّةٍ عَنْ أَبِي سَمِيدَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) : « لَا وَاتَّقُوا ... » .

بَيِّنَ أَنَّ الرِّزْقَ الَّذِي « عَلَيْهِ » مَا حَالُهُ فَقَالَ : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ » ، وَمَا كَانَ فِي السَّمَاءِ لَا يُوْجَدُ فِي السُّوقِ ، وَلَا فِي التَّطَوَّافِ فِي الْغَرْبِ وَالشَّرْقِ ^(١) .

وَيُقَالُ الْأَرْزَاقُ مُخْتَلَفَةٌ فَرِزْقُ كُلِّ حَيَوَانٍ عَلَى مَا يَلِيْقُ بِصِفَتِهِ .

وَيُقَالُ لِلنَّفُوسِ رِزْقٌ هُوَ غِذَاءُ طَرِيقِهِ الْخَلْقُ ، وَلِلْقُلُوبِ رِزْقٌ هُوَ ضِيَاءُ مُوجِدِهِ الْحَقُّ .

وَيُقَالُ لَمْ يَقُلْ مَا يَشْتَبِهُهُ أَوْ مَقْدَارُ مَا يَكْفِيهِ بَلْ هُوَ مُوَكَّلٌ إِلَى مَشِيئَتِهِ ؛ فَمِنْ مُوَسَّعٍ عَلَيْهِ وَمِنْ مُقْتَرٍ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرُّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾

قِيلَ أَرَادَ بِهِ أَصْلَابَ الْأَبَاءِ وَأَرْحَامَ الْأُمَهَاتِ ، أَوْ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ . وَيُقَالُ مُسْتَقَرُّ الْمُرِيدِ بِيَابِ شَيْخِهِ كَمُسْتَقَرِّ الصَّبِيِّ بِيَابِ وَالِدِهِ . وَيُقَالُ مُسْتَقَرُّ الْعَابِدِينَ الْمَسَاجِدُ ، وَمُسْتَقَرُّ الْعَارِفِينَ الْمَشَاهِدُ ، فَالْمَسَاجِدُ مُسْتَقَرُّ نَفُوسِ الْعَابِدِينَ ، وَالْمَشَاهِدُ مُسْتَقَرُّ قُلُوبِ الْعَارِفِينَ .

وَيُقَالُ مُسْتَقَرُّ الْمَحَبِّ رَأْسُ سِكَّةٍ مَحْبُوبَةٍ لَعَلَّهُ يَشْهَدُهُ عِنْدَ عُبُورِهِ .

وَيُقَالُ الْمَسَاجِدُ لِلْعَابِدِينَ مُسْتَقَرُّ الْقَدَمِ ، وَالْمَشَاهِدُ لِلْعَارِفِينَ مُسْتَقَرُّ الْهَيْمِ ، وَالْفُقَرَاءُ مُسْتَقَرُّ سُدَّةِ الْكَرَمِ .

وَيُقَالُ الْكُلُّ لَهُ مَثْوًى وَمُسْتَقَرٌّ ، أَمَّا الْمُوْتَحِدُ فَإِنَّهُ لَا مَأْوًى لَهُ وَلَا مُسْتَقَرٌّ وَلَا مَثْوًى وَلَا مَنْزِلَ .

وَيُقَالُ النَّفُوسُ مُسْتَوْدَعُ التَّوْفِيقِ مِنْ اللَّهِ ، وَالْقُلُوبُ مُسْتَوْدَعُ التَّحْقِيقِ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ .

وَيُقَالُ الْقُلُوبُ مُسْتَوْدَعُ الْمَعْرِفَةِ ؛ فَالْمَعْرِفَةُ وَدِيعَةٌ فِيهَا . وَالْأَرْوَاحُ مُسْتَوْدَعُ الْمَحَبَّةِ فَالْمَحَابُّ وَدَائِعُ فِيهَا . وَالْأَسْرَارُ مُسْتَوْدَعُ الْمَشَاهِدَاتِ فَالْمَشَاهِدَاتُ وَدَائِعُ فِيهَا .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ

فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ

لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

(١) قَدْ يَبْدُو الْوَهْلَةُ الْأُولَى أَنَّ كَلَامَ الْقَشِيرِيِّ لَا يَنْتَظِمُ مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى : « فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ » وَلَكِنَّ الْوَاقِعَ أَنَّهُ يَقْعُدُ بِذَلِكَ رِزْقَ الرَّاثِرِ لَا رِزْقَ الظَّوَاهِرِ .

وَأَحْسَنُ الْأَعْمَالِ مُوَافَقَةُ الْأَمْرِ ، وَلَمْ يَقُلْ أَكْثَرُ عَمَلًا .

ويقال أحسن الأعمال ما كان صاحبه أشد إخلاصاً فيه .

ويقال أحسنهم عملاً أبعدهم عن ملاحظة أعماله .

ويقال أحسن الأعمال ما ينظر إليه صاحبه بعين الاستصغار .

ويقال أحسن الأعمال ما لا يطلب صاحبه عليه عوضاً .

ويقال أحسن الأعمال ما غاب عنه صاحبه لاستغراقه في شهود المعبود .

قوله : « ليلوكم » الابتلاء من قِبَلِهِ تعريفُ الملائكة حال من يتلى في الشكر عند اليُسْرِ والصبر عند العُسْرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾

استبعدوا النُّشْرَ لِتَقَاصُرِ علومهم عن التحقق بكمال قدرة الحق ، ولو عرفوا ذلك لأيقنوا أن البعث ليس بمعتصم في الإيجاد ولا بمستحيل في التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِئُهِ ؟ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

يقول : إن أمهلنا ، وأخرنا عليهم العذاب لا يرقون ، بل يستعجلون العقوبة . ولئن عجلنا لهم العقوبة لا يتوبون ولا يستغفرون . . . استولى عليهم الجهل في الحالين ، وعميت بصائرهم عن شهود التقدير والإيمان بالغيب في النوعين . ويوم يأتيهم العذاب فلا مناص ولا منجاة ولا مراح لهم منه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ ﴾

تَكْدُرُ ما صفا من النِّعم ، وَتَغْيِرُ ما أُتِيحَ من الإحسان واليَمَنِّ حالٌ معهودَةٌ وَخُطَّةٌ عامة ، فلا أَحَدَ إلا وله منها خِطَّةٌ^(١) فَمَنْ لم يرجع بالتأسُّفِ قلبه ، ولم يتضاعف في كل نفسٍ تَلَهُّفُهُ وَكَرْبُهُ في ديوان النسيان ، وأُثبت اسمه في جملة أهل الهجران . ومن استمسك بعروة النضرع ، واعتكف بعقوة التذلل ، احتسب كساتِ الحسرة عُكلاً بعد نهل طاعته للحق بنمت الرحمة ، وجَدَّدَ له ما اندرس من أحوال القربة ، وأطلَعَ عليه شمس الإقبال بعد الأفول والغيبة ، كما قيل

تَقَشَّعَ غَيْمُ الهجر عن نقر الحب . وأشرق نورُ الصبح في ظلمة الغيب

وليس للأحوال الدنيوية خَطَرٌ في التحقيق ، ولا يُعدُّ زوالها وتكدُّرها من جملة المحن عند أرباب التحصيل ، لكنَّ المحنة الكبرى والرزية العظمى ذبولُ غصن الوصال ؛ وتكدُّرُ مشرب القرب ، وأفولُ شواذق الأُسر ، ورمَدُ بصائر أرباب الشهود . . . فعند ذلك تقوم قيامتهم ، وهناك تُسَكَّبُ العِبراتُ . ويقال إذا نَقَّ في ساحاتِ هؤلاء غرابُ البين ارتفع إلى السماء نواحُ أسرارهم بالويل ، ومن جملة ما يَبْشُرُون من نحيبهم ما قلتُ .

قولا لمن سَلَبَ الفؤادَ فراقه ولقد عَدَدْنَا أن يُبَاحَ عِناقُه
بَعْدَ الفراقِ . . . فبالذي هو بيننا هَلَّا رَحِمَ مَنْ دنا إِزهاقُه ؟
عهدى بمن جحد الهوى أزمانَ كُ نأ بالصباية — لا يَضِيقُ نِطاقُه .
والآن مُدَّ بِتَحَلٍّ الزمانُ بوصلنا ضاق البسيطة . حين دام فراقُه .
هل تُرْتَجى من وصل عِزُّكَ رجعةً نَحْنُو على قمرٍ يَدُومُ محاقُه ؟
إن كان ذاك كما تروم فأخبروا أُنَى له أن يعودَ شروقه^(٢) ؟

قوله جل ذكره : وَلَنْ أَذِقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدِ

(١) (الخطة) بضم الحاء = الأمر والحالة ، و (والخطة) تكرر الحاء ما يختطه الإنسان لنفسه من قدر معلوم من الأرض ونحوها .

(٢) الأبيات في هذا النص وصلتنا مضطربة الوزن سيئة الخط ، مطبوسة السكطات في كثير من المواضع وقد تدخلنا فيها بقدر يسمح بإظهار المعنى وتناسق السياق .

ضَرَاءَ مَسْتَهْ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ
السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴿١٠﴾

إذا كشفنا الضُّرَّ عنهم رَحْمَةً مِنَّا عَادُوا إِلَىٰ مُنْهَكِهِمْ بَدَلًا مِّنْ أَن يَتَّقِبُوا إِلَيْنَا ، وَأَسَاءُوا
بِخُلُوعِ عِذَارِهِمْ بَدَلًا أَن يَقُومُوا بِشُكْرِنَا ، وَكَلَّا أَتَمْنَاءُ لَهُمْ مِّنْ إِمهَالِنَا آمِنُوا لِمَكْرِنَا ، وَلَمْ يَخَافُوا أَن
نَأْخُذَهُمْ فِتْنَةً يَقْبَهُرُنَا .

قوله جل ذكره : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ
كَبِيرٌ ﴾ .

الإنسان في الآية السابقة اسم جنس .

وإلا للاستثناء منه ، وقيل بمعنى « لكن » ، يريد إذا أذقناهم نعمة بعد الشدة بطروا ،
إلا المؤمنين فإنهم بخلاف ذلك ، أي لكن الذين آمنوا بخلاف ذلك ، فإنهم لصبرهم على
على ما به أمروا ، وعما عنه زُجروا ، ولما اتقوا للطاعات ومفارقتهم الزلات .. فلهم مغفرة وأجر ،
مغفرة لمعصياتهم ، وأجرٌ على إحسانهم . والفريقان لا يستويان ، قال قائلهم .

أَحِبَّائُنَا شَتَّىٰ وَافٍ وَنَاقِصٌ وَلَا يَسْتَوِي قَطُّ حُبٌّ وَبَاغِضٌ

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ
إِلَيْكَ ﴾ .

اقترحوا عليه أن يأتي بكتاب ليس فيه سبُّ آلِهِمْ ، وبين الله — سبحانه — له
ألا يترك تبليغ ما أنزل عليه لأجل كراهتهم ، ولا يُبدِّل ما يُوحَىٰ إليه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا
أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ
إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
وَكِيلٌ ﴾ .

وهذا على وجه الاستبعاد ؛ أي لا يكون منك ترك ما أُوحيَ إليك ، ولا يضيق صدرك

بما يبدو من الغيب .. ومن شرح الله بالتوحيد صدره ، ونور بشهود التقدير سره — متى يلحقه ضيق صدر أو استكراه أمر ؟ ثم قال : « إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل » : أى أنت بالإرسال منصوب ، وأحكام التقدير عليك مجرأة .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

فى الآية بيان أن المكلف مزاح العلة لما أُقيم له من البرهان وأهل له من التحقيق . وأن الإيمان بالواسطة — صلى الله عليه وسلم وآله — واجب لما خص به من المعجزات التى أوضحها الكتاب المثل والقرآن المفصل الذى عجز الكفار عن معارضته .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ .

يعنى فإن لم يستجيبوا لكم يعنى إلى الإتيان بمثله — وهم أهل بلاغة — فتحققوا أنه من قبل الله ، وليس على سنة التحقيق (...) (١) إنما العى فى بصائر من ضلوا عن الحق ، وتاهوا فى سدة الخيرة .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ .

من قنع منهم بدنيا الدناءة صفها وسعنا عليه فى الاستمتاع بأيام فيها ، ولكن عقب أكتها سىرى زوالها ، ويدوق بعد عسلها حنظلها .

(١) مشقة .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة
إلا النارُ وحِيطَ ما صَنَعُوا فيها ،
وباطِلٌ ما كانوا يعملون ﴾ .

أولئك الذين خَابَتْ آمالُهُمْ ، وظهرت لهم — بخلاف ما احتسبوا — آلامُهُمْ ، حَبِطَتْ
أعمالُهُمْ ، وحقَّ بهم سوءُ حالِهِمْ .

قوله جل ذكره ﴿ أَقْنِ كَانِ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ
شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى
إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ
يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ
فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

فيه إضمار^(١) ومعناه أقمن كمن كان على بينة كمن ليس على بينة . . لا يستويان .
والبَيِّنَةُ لأقوامٍ برهانُ العلمِ ، ولآخرين بيانُ الأمرِ بالقطع والجزم ؛ يُشْهِدُهُمُ الْحَقُّ
مألا يطلع عليه غيرهم ، كما قلت :

ليلي من وجهك شمس الضحا
فالناس في الظلمة من ليلهم ونحن من وجهك في الضوء والشاهد

فالذي يتولاه فهو مشاهدٌ ، وفي الخبر « أولياء الله الذين إذا أرادوا ذكر الله »^(٢) .
قال تعالى : « وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيَماهُمْ » .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله
كذباً . . . ﴾ الآية .

(١) إضمار هنا مستعملة لما يسمى في علم البلاغة بإيجاز الحذف .
(٢) سقطت بقية الخبر من النسخ .

مَنْ ادَّعى على الله حالاً لم يكن متحققاً بها فقد افترى على الله كذباً ، واستوجب المقت ، وعقوبته ألا يرزق بركة في أحواله ، ثم إنه يكشف للشهداء عيوبه ، فيفضحه بين الخلق ، والشهداء قلوب الأولياء ، ومن شهدت القلوب عليه بالرد فهو غير مقبول عند الحق

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ... ﴾
الآية .

هذا من جملة صفات المفترين على الله الكذب ، ومن صدَّهم عن السبيل أن يظهروا من أنفسهم أحوالاً تُخلُّ بأحكام الشريعة ، ولا يروون ذلك كبيرة في الطريقة ، وبوهمون المستضعفين من أهل الاعتراض عليهم أن لهم في ذلك رخصة ، فيضلُّون ويضلُّون . ومن جملة صدَّهم عن السبيل تقريرهم بالناس ، وإيقاعهم في الغلط ، ويرتقون بشيء مما في أيديهم من حطام الدنيا ، ولا يستحيون من أخذ شيء لا يستوجبونه بأى وجه حق ، ويدأهنون في دين الله .

قوله جل ذكره : ﴿ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ... ﴾
الآية .

من هذه صفتهم لا يربحون في تجارتهم ، ولا يلحقون غاية طلبوها ، فيبقون عن الحق ، ولا يبارك لهم فيما اعتاضوا من صحبة الخلق . . خسرت صفقتهم ، وبأرت بضاعتهم ، لقوا الهوان ، وذاقوا اليأس والحرمان .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسُونَ ﴾ .

لا محالة أنهم في الآخرة أشدَّ خسراناً ، وأوفر — من الخيرات — نقصاناً .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا ﴾ .

الإخباتُ التخسُّعُ لله بالقلب بدوام الانكسار ، ومن علامته الذبول تحت جريان المقادير بدوام الاستغاثة بالسر .

قوله جل ذكره : ﴿ مثلُ الفريقين كالأعمى والأصم ...
والبصير والسميع ... ﴾ الآية

مثلُ الكافر في كفره كالأعمى والأصم ، ومثلُ المؤمن في إيمانه كالسميع والبصير
— هذا بيان التفسير .

والإشارة فيه أن الأعمى مَنْ عَمِيَ عن الإبصار بِسِرِّهِ ، والأصمُّ الذي طَرَشَ بِسَمْعِ قلبه ؛
فلا باستدلاله شَهِدَ سرَّ تقديره في أفعاله ، ولا بنور فِراسَةِ توهم ما وقف عليه من مكاشفات
الغيب لقلبه ، ولا بِسَمْعِ القبولِ استجابَ لدواعي الشريعة ، ولا بِحُكْمِ الإنصافِ انقَادَ
لما يتوجَّب عليه من مطالبات الوقت مما يلوح لِسِرِّهِ من تلويحات الحقيقة .

وأما البصير فهو الذي يشهد من الحق أفعاله بعلم اليقين ، ويشهد صفاته بعين اليقين ،
ويشهد ذاته بحق اليقين ، والغائبات له حضور ، والمستورات له كشف . فالذي يسمع فَصِيفَتَهُ
ألا يسمعَ هواجسَ النَّفْسِ ولا وساوسَ الشيطان ؛ فيسمع من دواعي العلم شرعاً ، ثم من خواطر
التعريف قدراً ، ثم يكشف بخطاب من الحق سِرّاً^(١)

فهؤلاء لا يستويان ، ولا في طريق يلتقيان :

رَاحَتٌ مُشْرِقَةٌ وَرُحْتُ مُغْرَبٌ فَنِي التَّقَاهِ مُشْرِقٌ وَمُغْرَبٌ ؟ ١

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنى
لكم نذيرٌ مبين * أن لا تعبدوا
إلا الله إنى أنذركم عذابَ
يوم أليم ﴾ .

كان نوح عليه السلام أطول الأنبياء عُمرًا وأشدَّهم بلاءً ، وسمى نوحاً لكثرة نوحه
على نفسه . . وسبب ذلك أنه مرَّ بكلِّ فقال : ما أقبحه ! فأوحى الله إليه أن اخلق أنت
أحسنَ من هذا . فأخذ يبكي وينوح على نفسه كلَّ ذلك النوح . فكيف بحالٍ مَنْ لم يذكر
يوماً مما مضى من عمره في مدة تكليفه — ولم يحصل منه لله كثير من ولاية ! ؟

(١) تفيد هذه الإشارة في بيان أحكام « السماع » عند الصوفية .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالِ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ
مَا تَرَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَكَ
اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ
الرَّأْيِ وَمَا تَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ
فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ .

أنكروا صحة كونه نبياً لمشاكلته إياهم في الصورة ، ولم يعلموا أن المباني بالسريرة
لا بالصورة .

ثم قال : « وما تراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي » : نظروا إلى أتباعه نظرة
استصغار ، وتسببوا لهم إلى قلة التحصيل .. وما استصغر أحدٌ أحداً من حيث رؤية الفضل عليه
إلا سخط الله عليه ، وأذاقه ذل صفائه ، فبالمعاني يحصل الامتياز لا بالمباني :

ترى الرجل النحيف قزدره وفي أثوابه أسد هصور
فإن ألك في شزاركم قليلا فإني في خياركم كثير

قوله جل ذكره : ﴿ قَالِ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى
بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ
عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا
وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ .

الصبح لا خلل في ضيائه لكون الناظرين عيانا ، والسيف لا خلل في مضائه
لكون الضاربين صبياناً . . . وكيف لبشر من قدرة على هداية من أضله الله —
ولو كان نبياً؟^(١) .

هيهات لا ينفع مع الجاهل نصيح ، ولا ينصح في المصير وعظ

(١) الأفضل أن تكون (ولو كان نبياً) جملة اعتراضية تلي (لبشر) حتى يستقيم التركيب ، ولكننا
أثبتنا ما جاء في (ص) .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ آمَنُوا لِمِهِمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ .

سُنَّةُ الْأَنْبِيَاءِ — عَلَيْهِمُ السَّلَامُ — أَلَا يَطْلُبُوا عَلَى رِسَالَتِهِمْ أَجْرًا ، وَأَلَا يُؤْمَلُّوْا لَأَنْفُسِهِمْ عِنْدَ الْخَلْقِ قَدْرًا ، عَمَلُهُمْ لِلَّهِ لَا يَطْلُبُونَ شَيْئًا مِنْ غَيْرِ اللَّهِ . فَتَنْ سَلَّتْ مِنَ الْعُلَمَاءِ سَيِّلَهُمْ حُسْرًا فِي زَمَرَتِهِمْ ، وَمَنْ أَخَذَ عَلَى صِلَاحِهِ مِنْ أَحَدٍ عِوَضًا ، أَوْ اكْتَسَبَ بِسُدَادِهِ جَاهًا لَمْ يَرِ مِنَ اللَّهِ إِلَّا هَوَانًا وَصَفَارًا .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

مَجَالِسَةُ الْفُقَرَاءِ الْيَوْمَ — وَهُمْ جُلُوسَاءُ الْحَقِّ غَدًا — أَجْدَى مِنْ مَجَالِسَةِ قَوْمٍ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ هُمْ مِنْ أَهْلِ الرَّدِّ .

وَمَنْ طَرَدَ مَنْ قَرَّبَهُ اللَّهُ وَأَدْنَاهُ اسْتَوْجِبَ الْخِزْيَ فِي دُنْيَاهُ ، وَالصَّغَارَ فِي عَقْبَاهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾

لَا أَنْخَطِي خَطِيٍّ عَمَّا أَبْلَغْتُ مِمَّا حَمَلْتُ مِنْ رِسَالَتِي ، وَلَا أُنْعِدِّي مَا سُلِّفْتُ بِهِ ، وَلَا أَزِيدُ عَمَّا مَرَّتْ ، وَلَنْ أَخْرَجَ عَنِ الَّذِي أَنْبَأُونِي ، بَلْ أَتَصَيَّبُ بِشَاهِدِي فَبِأَقَامُونِي .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

إِنْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ سَبْحَانَهُ فِي أَثْوَابِهِمْ وَلَا يَرَاهُمْ إِلَّا مِنْ قَارِبِهِمْ فِي مَعَاهِمِ . اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَحْوَالِهِمْ ، وَفِي الْجُمْلَةِ : طَيْرُ السَّمَاءِ عَلَى الْأَفْهَامِ تَقَعُ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ
جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ
مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

أوضح لهم من البراهين مالوا أمعنوا النظر فيه ثم لهم اليقين ، ولكنهم أصرروا على
الجهود ، ولم يقنعوا من الموعد بغير المشهود .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ
وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾

أقر بالعبودية ، وتبرأ عن الحول والقوة ، وأحال الأمر على المشيئة . ولقد أنصف من
لم يجاوز حده في الدعوى . والأنبياء عليهم السلام — وإن كانوا أصحاب التحدى للناس
بمعجزاتهم فهم معترفون بأنهم موقوفون عند حدودهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ
أَنْصَحَ لَكُمْ ، إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ
يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ
تَرْجِعُونَ ﴾

من لم يساعده تعريف الحق — بما له بحكم العناية — لم ينفعه نصح الخلق في النهاية .
ويقال من لم يوصله الحق للوصال في آزاله^(١) لم ينفعه نصح الخلق في حاله
ويقال من سبق الحكم له بالضلالة أتى ينفعه النصح وبسط الدلالة ؟
ويقال من لم تساعده قسمة السوابق لم ينفعه نصح الخلائق .
قوله : « إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ » : من المحال اجتماع الهداية والغواية ؛ فإذا أراد
الله بقوم الغواية لم يصح أن يقال إنهم من أهل الهداية .
ثم بين المعنى في ذلك بأن قال « هُوَ رَبُّكُمْ » ليعلم العالمون أن الرب تعالى له أن يفعل
بعباده ما شاء بحكم الربوبية .

(١) أى بما سبقت به القسمة — حسب تعبير القشيري في مواضع أخرى .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ
فَعَلَيَّْ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَجْرُمُونَ ﴾

ومهما وصفتموني فإني أجيبُ الله . . . وكلُّ مُطالبٍ بفعله دونِ فعلِ صاحبه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَوْحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ
قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ
بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾

عرفه الحقُّ أنه غيُّ عن إيمانهم ، فكشَفَ له أحكامهم ، وأنَّ مَنْ لم يؤمن منهم قد سبق
الحكمُ بشقائهم ، فعند ذلك دعا عليهم نوحٌ — عليه السلام — بالإهلاك .
ويقال لم يدعُ عليهم ما دام للمطعم في إيمانهم مساعً ، فلما حصل العكسُ نطق
بالتماس هلاكهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا
وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ
مُفْرَقُونَ ﴾

أى قُمْ — بشرط العبودية — بصنع السفينة بأمرنا ، وتحقق بشهودنا ، وأنتَ بمراي
منا . ومنَ عِلْمِ اطلاعه عليه لم يلاحظْ نفسه ولا غيره ، لا سببا وقد تحقق بأنَّ المُجرى
هو سبحانه .

وقال له : راعِ حدَّ الأدبِ ، فما لم يكن لك إذنٌ منا في الشفاعة لأحدٍ فلا تُخاطبنا فيهم .
ويقال سبق لهم الحكمُ بالغرقِ — وأمواج بحر التقدير تتلاطم — فكلُّ في بحار القدرة
مُفْرَقُونَ إِلَّا مَنْ أَهَّلَهُ الْحَقُّ بِحُكْمِهِ فَحَمَلَهُ فِي سَفِينَةِ الْعَنَاءَةِ .

ويقال كان قومُ نوحٍ من الغرقى في بحار القطرة ، ومن قبلُ كانوا غرقى في بحار القدرة .
قوله جل ذكره : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ وَكَلِّمَ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ
قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا
مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾

لما تحققَ بما أمر الله به لم يأبه عند إمضاء ما كُلفَ به بما سَمِعَ من القيل ، ونظر إلى الموعد بطرفِ التصديق فكان كالمُشاهد له قبلَ الوجود .

قوله جل ذكره : ﴿ فسوف تعلمون من يأتيه عذابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾

لا طاعةَ لمخلوقٍ في مقاساةِ تقديره — سبحانه — إلا من تحمل عنه بفضلِه ما يحمله بحُكمه .

قوله جل ذكره : ﴿ حنّ إذا جاء أمرٌنا وفار التنورُ قلنا احملُ فيها من كل زوجين اثنين وأهلك ﴾

طال انتظارُهم لما كان يتوَعَّدُهم به نوحٌ عليه السلام على وجه الاستبعاد ، ولم يَزِدْهم تطاولُ الأيام إلا كفرًا ، وصمّوا على عقد تكذيبهم .

ثم لما أتاهم الموعدُ إياهم بغتةً ، وظهر من الوضع الذي لم يُحِبُّوه قار الماء من التنور المسجور ، وجادت السماء بالمطر المعبور^(١) .

« قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين » : استبقاء للناسل .

ويقال : قد يؤتَى الحذرُ من مَأْمَنِهِ ، فإن إبليسَ جاء إلى نوح — عليه السلام — .

وقال : انحلني في السفينة فأبى نوحٌ عليه السلام ، فقال له إبليس : أَمَا عَلِمْتَ أَنِّي مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمٍ مَعْلُومٍ ، ولا مكانَ لي اليومَ إلا في سفينتك ؟

فأوحى الله إلى نوح أن يحمله معه .

ويقال لم يكن لابن نوح معه مكان ، وأمرَ بِحَمْلِ إبليس وهو أصعب الأعداء ؛ وفي هذا إشارة إلى أن أسرار التقدير لا تجري على قياس الخلق ؛ كأنه قيل له : يا نوح . . ابنك لا تحمله ، وعدوك فأَدْخِلْهُ ، فالله سبحانه فعّال لما يريد^(٢) .

(١) أى الجارى .

(٢) فى هذه الإشارة تسلية إلى قاعدة فى مذهب القشبرى أن أفعال الله لا تخضع لما ألف الناس من مقاييس نسبية .

قوله جل ذكره : ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ
وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾

«إلا من سبق عليه القول» بالشقاوة . وفيه تعريف بأن حكم الأزل لا يرد ، والحق
— سبحانه — لا يتأزع ، والجبار لا يخاصم ، وأن من أقصاه ربه لم يذنه تنبيه ولا ير
ولا وعظ .

«وما آمن معه إلا قليل» ولكن بآرك الحق — سبحانه — في الذين نجّاهم من نسله ،
ولم يدخل خلل في الكون بعد هلاك من أهلك من قومه .

قوله جل ذكره : ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا
وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

عرّف أن نجاته من القطرة لما تقاطرت ليست بالحيل — وإن تنوعت وكثرت ،
فباسم الله سلامته ، وبتوكيله على الله نجاته وراحته ، وبفضله — سبحانه — صلاحه وعافيته .

قوله جل ذكره : ﴿وَهُى تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ
وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ
يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ
الْكَافِرِينَ﴾

وكان في معزل بظاهره ، وكان في سرّ تقديره أيضاً بمعزل عما سبق لنوح وقومه من سابق
فضله . فحينما نطق بلسان الشفقة وقال : «يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين» — لم
يقُل له : ولا تكن من الكافرين ؛ لأن حاله كانت ملتبسة على نوح إذ كان ابنه يناقته —
فقليل له : يا نوح إنه مع الكافرين لأنه في سابق حُكْمنا من الكافرين .

قوله جل ذكره : ﴿قَالَ سَآوِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَمُوصِي مِّنَ
الْمَاءِ قَالَ لَا عَصِيمَ الْيَوْمَ مِن أَمْرِ اللَّهِ
إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ
فَكَانَ مِنَ الْمُنْفَرِقِينَ﴾

أَخْطَأَ مِنْ وَجْهَيْنِ : رَأَى الْهَلَاكَ مِنَ الْمَاءِ وَكَانَ مِنَ اللَّهِ ، وَرَأَى النِّجَاةَ وَالْعِصَّةَ مِنَ الْجَبَلِ
وَمَا مِنْ اللَّهِ ، فَقَالَ لَهُ نُوحٌ : لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ . قِيلَ أَرَادَ لَا مَعْصُومَ الْيَوْمَ مِنَ اللَّهِ .
وَقِيلَ لَا أَحَدَ يَعْصِمُ أَحَدًا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، لَكِنْ مَنْ رَحِمَهُ رَبُّهُ فَهُوَ مَعْصُومٌ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَهُ عَاصِمٌ
وَهُوَ اللَّهُ .

وَلَقَدْ كَانَ نُوحٌ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — مَعَ ابْنِهِ فِي هَذِهِ الْمَخَاطِبَاتِ فَجَاءَتْ أَمْوَاجُ الْمَاءِ وَحَالَتَ
بَيْنَهُمَا وَصَارَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ، فَلَا وَعْظُهُ وَنُصْحُهُ نَفْعًا ، وَلَا قَوْلُهُ وَتَذَكِيرُهُ نَجِيًّا وَخَلَّصًا .
وَيُقَالُ احْتَمَلَ أَنْ لَوْ قِيلَ لَهُ يَا نُوحُ عَرَّفْنَا الْعَالَمَ بِدَعَائِكَ وَلَا عَلَيْكَ إِنْ عَرَفَ .

قَوْلُهُ جَلْ ذِكْرُهُ : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ
أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ
وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا
لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

فَلَمَّا غَرِقَ ابْنُ نُوحٍ سَكَنَ الْمَوْجُ وَنَضَبَ^(١) الْمَاءُ وَأَقْلَعَتِ السَّمَاءُ ، وَكَأَنَّهُ كَانَ الْمَقْصُودُ
مِنَ الطُّوفَانِ أَنْ يَغْرِقَ ابْنُ نُوحٍ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — وَقِيلَ :
عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا فَلَمَّا انْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ

قَوْلُهُ جَلْ ذِكْرُهُ : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي
مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ
أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ
لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ
فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ
إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ
الْجَاهِلِينَ ﴾

(١) وَرَدَتْ (نَضَبَ) بِالضَّادِ ، وَهِيَ خَطَأٌ فِي النُّسخِ ، وَالْمُرَادُ (نَضَبَ) الْمَاءُ أَيْ هَارَ وَابْحَرَ ، فَهِيَ
مَلَأْمَةٌ لِإِقْلَاعِ السَّمَاءِ أَيْ لِمَسَاكِنِهَا مِنَ الْمَطَرِ .

خاطبَ الحقَّ — سبحانه — في بابِ إِبْنِهِ ، واستعطفَ في السؤال فقال :

« إن ابني من أهلي » : فقال له : إنه ليست من أهل الوصلة قِسْمَتُهُ — وإن كان من أَهْلِكَ نَسَبًا وَلَحْمَةً ، وإنَّ خطابَكَ في بابِه عملٌ غيرُ صالح ، أو إنه أيضًا عَمِلَ غيرَ صالح^(١) .
« فلا تسألن ما ليس لك به علم » : أي سَتَرْتُ غَيْبِي في حال أوليائي وأعدائي ، فلا يُعَلِّمُ سِرِّي تقديرِي .

قوله : « إني أعظك » : وذلك لِحُرْمَةِ شَيْخُوخَتِهِ وَكِبَرِهِ ، ولأنه لم يَسْتَجِبْ له في وَلَدِهِ ، فتداركهُ بِحُسْنِ الخطابِ قَلْبَهُ .

وقيل إن ابنَ نوحَ بَنَى من الزجاج بيتًا وقتَ اشتغال أبيه باتخاذ السفينة ، فلما ركب نوحُ السفينةَ دَخَلَ ابنُهُ في البيتِ الذي اتخذهُ من الزجاج ، ثم إن الله تعالى سلَّطَ عليه البولَ حتى امتلأ بيتُ الزجاج من بَوْلِهِ ؛ فَغَرِقَ السُّكُلُ في ماء البحر ، وغرق ابنُ نوحَ في بَوْلِهِ ؛ لِيُعَلِّمَ أَنَّهُ لَا مَفْرَأَ مِنَ الْقَدَرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

نَسِيَ نوحٌ — عليه السلام — حديثَ ابنِهِ في حديث نفسه ، فاستعاذَ بفضله واستجارَ بلطفه ، فوجد السلامةَ من رَبِّهِ في قوله جل ذكره :

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا
وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ
وَأُمَمٌ سَنَسْتَدِينُكَ ثُمَّ يُعَذِّبُهُم مِّنَّا
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

طَهَّرَ وَجْهَ الْأَرْضِ من أعدائه ، وحفظَ نوحًا عليه السلام من بلائه ، هو ومن معه من أصدقائه وأقربائه .

(١) وعلى هذا الرأي تكون نوح قوم نوح بسبب علمهم الصالح لا بسبب قرابتهم له .

والأُمُّ التي أَخْبِرَ أَنَّهُ سَيَمُتُّهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ الْعَذَابُ هُمُ الَّذِينَ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ، فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

أعلمناكَ بهذه الجملة ، وأنبأناكَ بهذه القصص لما خصصناكَ من غير أن تتعلمه من شخص ، أو من قراءة كتاب ؛ فَإِنْ قَابَلَكَ قَوْمُكَ بِالْكَذِيبِ فَاصْبِرْ ، فَعَنْ قَرِيبٍ تَنْقَلِبُ هَذِهِ الْأُمُورَ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾

كَفَّ الْأَنْبِيَاءُ — عَلَيْهِمُ السَّلَامُ — بِالذَّهَابِ إِلَى الْخَلْقِ لَا سِوَا وَقَدْ عَانُوا — بِالْحَقِّ — مَنْ تَقَدَّمَ مِنْهُمْ مِنْ فِتْنَةِ الْمَلَأِ ، وَلَكِنْهُمْ تَحَمَّلُوا ذَلِكَ حِينَ أَمَرَهُمُ الْحَقُّ بِالتَّوَجُّهِ إِلَيْهِمْ فَرَضُوا ، وَأُظْهِرُوا الدَّلَالََةَ ، وَأَدَّوْا الرِّسَالَةَ ، وَلَكِنْ مَا زَادَ النَّاسُ إِلَّا نَفَرَةً عَلَى نَفَرَةٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

لَمْ يَأْتِ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ — عَلَيْهِمُ السَّلَامُ — إِلَّا وَأُخْبِرَ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ أَنْ يَطْلُبَ فِي الْجَمَلَةِ أَجْرًا إِلَّا مِنْ اللَّهِ لَا مِنْ غَيْرِ اللَّهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ .

استغفروا ربكم ثم توبوا إليه بعد الاستغفار ، من توهمكم أن نجاتكم باستغفاركم .
بل تحققوا بأنكم لا تجدون نجاتكم إلا بفضل ربكم ؛ فبفضله وبتوفيقه توصلتم إلى
استغفاركم لاستغفاركم ، وصلتم إلى نجاتكم ، وبرحمته أهلكم إلى استغفاركم ، وإلا لآ وصلم
إلى توبتكم ولا إلى استغفاركم .

والاستغفار قرع باب الرزق ، فإذا رجع العبد إلى الله بحسن تضرعه ، فتح عليه أبواب
رحمته ، ويسر له أسباب نعمته .

ويقال يُنزل على ظواهركم أمطار النعمة ، وعلى ضمائركم وسرائركم يُنزل أنواع المنة ،
ويزيدكم قوة على قوة ؛ قوة تحصلون بها توسعة أنواع الرزق ، وقوة تحصلون بها تحسب
أصناف الخلق .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ
بِنَارِكِ آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ
لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

ما زادم هود عليه السلام بسطا في الآية وإيضاحا في المعجزة إلا زادم الله تعالى عني
على عني ، ولم يرزقهم بصيرة ولا هدى ، ولم يزيدوا في خطاياهم إلا بما دلوا على فرط
جهالتهم ، وشدة ضلالتهم بعد إطنابهم وانهاهم^(١) ، وقالوا :

﴿ إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا
بِسُوءٍ قَالِ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا
أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ .

وكيف ظنوا أن آلهتهم تمس أعداءهم بسوء وهي لا تضر أعداءها ولا تنفع أولياءها ؟
فهؤلاء الغواية عليهم مستولية . ثم إن هودا عليه السلام أفصح عن فضل ربه عليه ؛
وصرح بإخلاصه وحسن يقينه فقال : إني بريء مما تشركون ، ثم قال :

﴿ مِنْ دُونِهِ ، فَكَيْدُونِي جَمِيعًا
ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴾ .

(١) يقال نهب فلانا أى تناوله بلسانه وأغفل له القول .

فلم يَحْتِجْ معهم إلى تَضَرُّعٍ واستِخْداءٍ ، ولا رَاوِدُهُمْ في سَلَمٍ واستِمهالٍ ، ولم يَتَصِفْ في ذلك بِرُكُونٍ إلى حَوَالِهِ وَمُلَّتِهِ ، ولم يَسْتَبِدْ إلى جِدِّهِ وَقُوَّتِهِ بل قال :

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ
تَمَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا
إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

أخبر أنه بموَعِدِ اللَّهِ له بِنُصْرَتِهِ وَاتِّقٍ ، وأنه في خُلُوصِ طَاعَتِهِ لِرَبِّهِ وفي صِفَاءِ مَعْرِفَتِهِ (غَيْرُ مُفَارِقٍ) (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أَرْسَلْتُ
بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ
وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴾ .

أوحينا إليه أن قل لهم : إِنْ تَوَلَّوْا وَلَمْ تُؤْمِنُوا بِي فَقَدْ بَلَّغْتُ مَا حَمَلْتُ مِنْ رِسَالَتِي ،
وإني واثقٌ بأنَّ اللَّهَ إِذَا أَهْلَكَكُمْ يَأْتِ بِأَقْوَامٍ آخَرِينَ سِوَاكُمْ أَطْوَعَ لَهُ مِنْكُمْ ، وَإِنْ
أَفْنَاكُمْ مَا اخْتَلَّ مُلْكُهُ ؛ إِذْ الْحَقُّ — مَبْحَاثُهُ — بِوُجُودِ الْأَغْيَارِ لَا يُلْحَقُهُ زِينٌ
— وَإِنْ وَحَدُوا ، وَبَقْدَمُوا لَا يَمْسُهُ شَيْءٌ — وَإِنْ جَحَدُوا وَأَلْحَدُوا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ
آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ
عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ .

ولما جاء أَمْرُنَا بِإِهْلَاكِهِمْ نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا بِرَحْمَتِنَا ، وَلَمْ يَقُلْ بِاسْتِحْقَاقِهِ النِّجَاةَ
بِوَسِيلَةِ نُبُونِهِ ، أَوْ لُجْسَامَةِ طَاعَتِهِ وَرِسَالَتِهِ بل قال : « بِرَحْمَةٍ مِنَّا » ؛ لِيَعْلَمَ الْكَافَةُ أَنَّ

(١) بعد (معرفة) يوجد بياض مما يدل على سقوط خبر أن وقد أكلنا النقص بكلمة ملائمة من عندنا
تنفق مع السياق والنسق حسبما نعلم من طريقة التفسير .

الأنبياء — عليهم السلام — وَمَنْ دُونَهُمْ عَنِي رَحْمَةً ، وَغَرِيقٌ مِّنِّي ، لَا لَامِنَحِقَ أَحَدٍ
وَلَا لَوَاجِبٍ عَلَى اللَّهِ فِي شَيْءٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتِلْكَ آيَاتُ رَّبِّهِمْ
وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ
جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾

في إنزال قصصهم تسلية للرسول — صلى الله عليه وسلم وآله — فيما كان يقامى من
العناء ، وللمؤمنين فيما بذلوا من حسن البلاء ، والعدة بتبديل — ما كانوا يلقونه من
الشدة — بالرجاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ
الْقِيَامَةِ ، أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ
أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾

أخبر أنهم خسروا الدنيا والآخرة ، أما في هذه الدنيا فبالاستئصال بأليم الشدة وما تبعه
من اللعنة ، ثم ما يلقونه في الآخرة من تأبيد العقوبة . وبقاؤهم عن رحمة الله أصعب من صنوف
كل تلك المحنة^(١) ، وكما قيل :

تَبَدَّلْتُ وَتَبَدَّلْنَا وَاحْصَرْنَا لِمَنْ ابْتَغَى هَوًى لَسَلَى فَلَمْ يَجِدْ

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ
اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ
فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي
قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ قالوا يا صالح قد كنت
فينا مرجوًّا قبل هذا أتنهانا أن

(١) وردت (المحبة) وهي خطأ في النسخ كما هو واضح .

تَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ
 مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مَرِيبٌ * قَالَ يَا قَوْمِ
 أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي
 وَأَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةٌ قَمَنَ يَنْصُرُنِي مِنَ
 اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ
 تَخْسِيرٍ * وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ
 آيَةٌ قَدْ رُوحَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ
 وَلَا تَمْسُوْهُا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ
 قَرِيبٍ * فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا
 فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ
 مَكْدُوبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا تَجَيَّنَّا
 صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا
 وَمِنْ خِزْيٍ يُومِتُهُمْ إِنْ رَبُّكَ هُوَ الْقَوِيُّ
 الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ
 فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ * كَانُوا
 لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا
 رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدَ لَثَمُودٍ *

عَقِيبَ مَا مَضَى مِنْ قِصَّةِ عَادَ ذَكَرَ قِصَّةَ ثَمُودَ ، وَثَمُودُ هُمْ قَوْمُ صَالِحَ ، وَقَدْ انْخَرَطُوا
 فِي النَّارِ فِي سَبِيلِ مَنْ سَبَقَهُمْ ، فَلَحِقَتْهُمُ الْعِقَابَةُ بِجَمِيعِهِمْ . ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ قَابِلُوا نَبِيِّهِمْ — عَلَيْهِ
 السَّلَامُ — بِالتَّكْذِيبِ ، وَلَمْ يَقِفُوا عَلَى مَا نَبَّهَهُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّوْبَةِ وَالتَّصَدِيقِ ، وَأَصْرُوا عَلَى
 الْإِقْرَارِ أَنَّهُمْ فِي شَأْنِهِ لَفِي شَكٍّ مَرِيبٍ .

ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّ صَالِحًا لَمْ يُرْجَ — فِي التَّبْلِيغِ — عَلَى تَقْصِيرٍ .
 وَبَعْدَ تَمَرُّدِهِمْ وَامْتِنَاعِهِمْ عَنِ الْإِنَابَةِ ، وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى تَرْكِ الْإِجَابَةِ حَقًّا عَلَيْهِمْ

ما توعدهم به من عذاب غير مكذوب ، ونجى نبيهم — عليه السلام — ، ونجى من اتبعه من كل عقوبة .. سنة منه — سبحانه — في إنجاء أوليائه أمضاها ، وعادة في تطفه ورحمته بالمستحقين أجرها .

قوله جل ذكره ﴿ ولقد جاءت رُسُلنا إبراهيم بالبشرى
قالوا سلاماً قال سلاماً فما كِثَّ أن
جاء بمجل حنين * فلما رأى أيديهم
لا تصل إليه نكركم وأوجس
منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا
إلى قوم لوط ﴾

أخبر أن الملائكة أتوا إبراهيم — عليه السلام — بالبشارة ، وأخبر أن إبراهيم — عليه السلام — أنكروهم ، ولم يعرف أنهم ملائكة . فيُحتمل أنه — سبحانه — أراد أن تكون تلك البشارة فجأة من غير تنبيه لتكون أتم وأبلغ في إيجاد السرور ، ولا سيما وقد كانت بعد خوف لأنه قال : فأوجس منهم خيفة .

ويقال إن إبراهيم — عليه السلام — كان صاحب النبوة والخلة والرسالة فلا بد أن تكون فراسته أعلى من فراسة كل أحد ، ولكنه في هذه الحالة لم يعرف الملائكة ليعلم أن الحق — سبحانه وتعالى — إذا أراد إمضاء حكم يصد على من أراد عيون الفراسة ، وإن كان صاحب الفراسة هو (خليل)^(١) الله ، كما صد الفراسة على نبينا — صلى الله عليه وسلم — في قصة الإفك إلى الوقت الذي نزل فيه الوحي ، وكذلك التبس على لوط — عليه السلام — إلى أن تبين له الأمر .

وتكلموا في هذه « البشرى » ما كانت ؛ فقبل كانت البشارة بإسحاق ، وبأنه سيولد له ولد من نسله وسلالته ؛ قال تعالى : « ومن وراء إسحاق يعقوب » .

ويقال : لامة قومه — حيث كانوا مرسلين بإهلاك قوم لوط — عليه السلام .

(١) سقطت كلمة (خليل) فأثبتناها لحاجة السياق إليها .

ويقال بشارة بالخلة وتنام الوصلة .

ويقال إن الخلة والمحبة بناؤهما كتمان السر ؛ فَيَعْلَمُ أَنَّهُمْ أُرْسِلُوا ببشارة ما ولم يكن للغير اطلاع ، قال قائلهم :

* بين المحبين قولٌ لست أفهمه *

ويقال إن تلك البشارة هي قولهم : « سلاماً » وأن ذلك كان من الله ، وأيُّ بشارة أنتم من سلام الحبيب ؟ وأيُّ صباح يكون مُفْتَتِحًا بسلام الحبيب فصباحٌ مباركٌ ، وكذلك المبيتُ بسلام الحبيب فهو مباركٌ .

قوله : « فما لبث أن جاء بعجلٍ حنيد » : لما توهمهم أضيافاً قام بحق الضيافة ، فقدّم خيراً ما عنده مما شكره الحقُّ عليه حيث قال في موضعٍ آخر : جاء بعجلٍ سمين^(١) . والمحبةُ توجبُ استكثارَ القليلِ من الحبيبِ واستقلالَ ما منك للحبيب ، وفي هذا إشارة إلى أنه إذا نَزَلَ الضيفُ فالواجبُ المبادرةُ إلى تقديم الشُّفرة^(٢) ممّا حضر في الوقت .

قوله : « فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرمهم » تمامُ إحسانِ الضيف أن تتناولَ يدهُ ما يُقدِّمُ إليه من الطعام ، والامتناعُ عن أكل ما يُقدِّمُ إليه معدودٌ في جملة الجفاء في مذهب أهل الظُّرف^(٣) . والأكلُ في الدعوة واجبٌ على أحد الوجهين .

« وأوجس منهم خيفة » : أي خاف أنه وقع له خللٌ في حاله حيث امتنع الضيفانُ عن أكل طعامه ؛ فأوجس الخيفةَ لهم لا منهم .

وقيل إن الملائكة في ذلك الوقت ما كانوا ينزلون جبراً إلا لعقوبة ؛ فلما امتنعوا عن الأكل ، وعلم أنهم ملائكةٌ خَفَ أن يكونوا قد أُرْسِلُوا لعقوبة قومه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ ، فَضَحِكَتْ ، فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ

(١) آية ٢٦ سورة الذاريات .

(٢) الشفرة = طعام يصنع للمسافر ، أو المائدة وما عليها من طعام (الوسيط) .

(٣) الظرف : (يقال ظرف فلان ظرفاً كان كيساً حاذقاً ، والظرف في اللسان البلاهة ، وفي الوجه الحسن ، وفي القلب الذكاء) الوسيط .

اللهُ الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا
من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين
وليجةً ، والله خير بما تعملون ﴿

مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُقْتَعُ مِنْهُ بالدعوى — دون التحقق بالمعنى — فهو على غلطٍ في حسبانهِ .
والذى طالبهم به من حيث الأمرِ صدقُ المجاهدةِ في الله ، وتركُ الركونِ إلى غير الله ،
والتباعدُ عن مساكنةِ أعداءِ الله . . ثقةً بالله ، واكتفاءً بالله ، وتبرُّياً من غير الله .
وهذا الذى أمرهم به ألا يتخذوا من دون المؤمنين وليجةً فالمعنى فيه : ألا يُفشوا في الكفارِ
أسرارَ المؤمنين .

وأولُ مَنْ بهجره المسلمُ — لثلا تَطَّلَعَ على الأسرار — نفسه التى هى أعدى عدوه ،
وفى هذا للمعنى قال قائلهم :

كتابى إليكم بعد موتى بليلةٍ ولم أدرِ أنى بعد موتى أكتبُ

ويقال : إن أبا يزيد^(١) — فيما أُخبرَ عنه — أنه قال للحقِّ فى بعض أوقات مكاشفاته :
كيف أطلبك ؟ فقال له : فأرقِ نفسك .

ويقال إن ذلك لا يتمُّ ، بل لا تحصل منه شظية إلا بكى عُروقِ الأطماعِ والمطالباتِ
لياً فى الدنيا ولياً فى العقبى ولياً فى رؤية الحال والمقام — ولو بذرةً . والحريةُ عزيزةٌ^(٢) ...
قال قائلهم :

أتمنى على الزمانِ محالاً أن ترى مُقلتائى طلعةً حرَّ

قوله جل ذكره : ﴿ ما كان للمشركين أن يعمرُوا
مساجدَ اللهِ شاهدين على أنفسهم

(١) هو أبو يزيد السطامى كان جده (سروشان) مجوسياً وأسلم ، وهو أحد إخوة ثلاثة كانوا
جميعاً زهاداً وأصحاب أحوال ، مات سنة ٢٦١ ، وقيل سنة ٢٣٤ (طبقات السلى) و (رسالة القشبرى) .
(٢) (والحرية عزيزة) هنا معناها مادة الوجود .

والإشارة فيه أنه كان يقابل ما وردَ على ماله ونفسه وولده بالاحتمال ، ولما كان حقُّ الحقِّ في حديث قوم لوط أخذَ في الجدالِ إلى أن أبانَ له سلامةَ لوط — عليه السلام — وقال الله سبحانه : —

﴿ يا ابراهيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مُرْدُودٍ ﴾

يا ابراهيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا فَإِنَّ الْحُكْمَ بِعَذَابِهِمْ قَدْ نَزَلَ ، ووقتُ الانتقامِ منهم قد حصل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾

أى أنه حزن بسبب خوفه عليهم أن يَجْرِيَ عليهم من قومه ما لا يجوز في دين الله ؛ فذلك الحزنُ كان لحقَّ الله لا لنصيبٍ له أو حظٍّ لنفسه ، ولذلك حُجِدَ عليه لأنَّ مِقياسَةَ الحزنِ لحقَّ الله محمودةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾

قوله « هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ » : قيل إنه أراد به نساء أُمته ، فنبى كُلُّ أُمَةٍ مثل الوالد لأولاده في الشفقة والنصيحة .
ويقال إنه أراد بناتِه من صُلْبِه .

« أليس منكم جل رشيد » يرتدى جلباباً ليشمة ، ويؤثر حق الله على ما هو مقتضى البشرية ، ويرعى حق الضيافة ، ويترك معصية الله ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ

حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾

أصروا على عصيانهم ، وزهدوا في المآذون لهم شرعاً ، وانجروا إلى ما قادم إليه الهوى طبعاً ، وهذه صفة البهائم ؛ لا يدعها عقل ، قال تعالى : « أولئك كالأنعام بل هم أضل »

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى

رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾

لو أن لي قوةً فأمنعكم عن ارتكاب المعصية ؛ فإن أمم^(١) الأشياء على الأولياء ألا يجزى من العصاة ما ليس لله فيه رضا .

ويقال : لو كان لي قدرة لإبصال الرحمة إليكم — مع ارتكابكم للمعاصي — لرحمتكم وتجاوزت عنكم .

ويقال لو أن لي قوةً لهديتكم إلى الدين ، ولعصمتكم من ارتكاب المخالفات .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا يَا لَوِطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ

يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ

مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ

إِلَّا أَمْرًا تَكُ^(٢) إِنَّهُ مَصِيبُهُمَا أَصَابُهُمْ ﴾

لما ضاق به الأمر كشف الله عنه الضرّ فعرف إليه الملائكة وقالوا : لا عليك فإنهم

لا يصلون إليك بسوء ، وإنّا رسل ربك جئنا لإهلاكهم ، فأخرج أنت وقومك من بينهم ،

واعلم أن من شاركهم في عملهم بنوع فله من العذاب حصّة . ومن جعلهم أمراً تكتفى

كانت تدل القوم على الملك لفعله الفاحشة ، وإن العقوبة لاحقة بها ، مدركة لها .

والإشارة منه أن الجسارة على الزلّة وخيمة العاقبة — ولو بعد حين ، ولا ينفع المرء

اتصاله بالأنبياء والأولياء إذا كان في الحكم والقضاء من جملة الأشقياء .

(١) أقل التفضيل هنا مأخوذ من الهم ، أى (فإن أكثر ما يسبب الهم للأولياء) .

(٢) مستثنى من (فأسر بأهلك) منصوب .

قوله جل ذكره : ﴿إِنْ مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ
بِقَرِيبٍ﴾ .

ما هو كائنٌ فقريبٌ ، والبعيدُ ما لا يكون . وإنَّ مَنْ أَقْدَمَ على محظورٍ ثم حُوسِبَ
عليه — ولو بعد دهورٍ خاليةٍ وأعوامٍ غير محصورة ماضية — تصور له الحال كأنه وقتُ
مُبَاشَرَتِهِ لتلك الزَّلة .

قوله جل ذكره : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا تَمِينٍ سَجِيلٍ
مَنْضُودٍ﴾ .

سُنَّةُ اللَّهِ في عباده قلبُ الأحوال عليهم ، والانتقالُ مِنْ سِمَاتِ الحدوث ، أمَّا الذي
لا يزول ولا يحول فهو الذي لم يزل ولا يزال بنعوته الصمدية .

وإنَّ مَنْ عاش في السرور دهرًا ثم تبدل يُسْرُهُ عُسْرًا فَكُنَّ لَمْ يَرَ قَطُّ خَيْرًا ، والذي
قاسى طولَ عمره ثم أُعْطِيَ يُسْرًا فَكُنَّ لَمْ يَرَ عُسْرًا .

قال تعالى : « وَتُغْلَبُ أُنْفُسُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَئِكَ » (١) .

قوله جل ذكره ﴿مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنْ
الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ﴾ .

ذكر سبحانه ما نالهم من العقوبة على عصيانهم ، ثم أخبر أن تلك العقوبة لاحقةٌ بمن سَلَكَ
سبيلهم تحذيرًا لمن لم يعتبر بهم إذا عرف طريقهم ، كما قيل :

وَمَنْ يَرَكْ وَلَمْ يَتَّبِعْ بَعْدِي فَإِنَّ لِكُلِّ مَعْصِيَةٍ عِقَابًا

قوله جل ذكره : ﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ
اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ

(١) آية ١١٠ سورة الأنعام .

وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ
إِنِّي أُرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ مَّحِيطٌ * وَيَا قَوْمِ اقْنُصُوا
الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا
النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ * .

أخبر سبحانه عن قصتهم ، وما أصابهم من العذاب الأليم ، وما نالهم من البلاء العظيم .
وفي الظاهر لم كانت أجرامهم كاليسيرة ، ولعدم الفهم يعدون أمثالها صغيرة ، ولا يقولون
إنها كبيرة ، وإن ذلك تطفيف في المكيال .
وليس قَدَرُ الأجر (١) لأعيانها ، ولكن لمخالفة الجبارِ عَظَمَ شأنُها ، قال تعالى :
« وَنَحْسِبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ » (٢) .

ولما أن قال لهم شعيب :

« بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ » .
يعنى القليل من الحلالِ أجدى من الكثير المُنْعَبِ لِلْوَبَالِ لم يقابلوا نصيحته لم
إلا بالعناد والتمادى فيما هو دائم من الجحد والكنود .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ
أَنْ نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ
نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ
الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ * .

استوطنوا مركب الجهل ، واستعلبوا مشرب التقليد ، وأعفوا قلوبهم من استعمال
الفكر ، واستبصار طريق الرشدي .

(١) جمع (جرم) وهو الذنب .

(٢) آية ١٥ سورة النور .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ .

البَيِّنَةُ نورٌ قَسَتْ بَصِيرُ بِهِ مَا خَفِيَ عَلَيْكَ تَحْتَ غِطَاءِ الْغَفْلَةِ .

والرزق الحسن ما به دوام الاستقلال ، وما ذلك إلا مقتضى عنايته الأزلية ، وحسن تولى لشأنك — في جميع ما فيه صلاحك — من إتمام النعمة ودوام العصمة .

وقيل الرزق الحسن ما تعفَى صاحبه لطلبه ، ولم يصبه نصيبٌ بسببه .

وقيل الرزق الحسن ما يستوفيه بشهود الرزق ويحفظه عند التمتع بوجود الرزاق .

ويقال الرزق الحسن ما لا يُنسى الرزاق ، ويحمل صاحبه على التوسعة والإنفاق .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ مِنْكُمْ مَّوَدَّةَ بَيْنٍ وَلَا بِلَاءَ ﴾ .
ما أنهاكم عنه .

يمكن للواعظ أو الناصح أن يساهل المأمور في كل ما يأمره به ، ولكن يجب ألا يجيز له ما ينهاه عنه ؛ فإن الإتيان بجميع الطاعات غير ممكن ، ولكن التجرد عن جميع المحرمات واجب .

ويقال من لم يكن له حكمٌ على نفسه في المنع عن الهوى لم يكن له حكمٌ على غيره فيما يرشده إليه من الهدى .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾ .

مدار الأمر على الأغراض المقضية بحسن قصد الإصلاح ؛ فيقرن الله به حسن التيسير ، ومن انطوى على قصدٍ بالسوء وكل الحق بشأنه التعويق .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ .

حقيقة التوفيق ما ينفق به الشيء ، وفي الشريعة التوفيق ما تنفق به الطاعة ، وهو قدرة الطاعة ، ثم كل ما تقرب العبد به من الطاعة من توفير الدواعي وفنون المنهيات يعد من جملة التوفيق — على التوسع .

والتوفيقُ باللهِ ومن الله ، وهو — سبحانه — بإعطائه منفصلٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ .

التوكل تفويض الأمر إلى الله ، وأمارته ترك التدبير بشهود التقدير ، والثقة بالموعد عند عدم الوجود . ويتبين ذلك بانتفاء الاضطراب عند عدم الأسباب .

ويقال التوكلُ السكون ، والثقةُ بالمضمون .

ويقال التوكلُ سكون القلب بمضمون الربِّ

قوله جل ذكره : ﴿ ويا قوم لا يجرمَنَّكم شِقَاقِي أَنْ

يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ

قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ

لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ .

تودُّكمُ بخالفَتكم إياي فيما أدعوكم إليه من طاعةِ اللهِ أَنْ يلحقكم من أليم العقوبة ما أصاب مَنْ تقدَّمتكم من الذين سبَّرتُم على مناجهم ، وما عهدُكم ببعيدٍ عن تحقيقكم كيف حَلَّتْ بِهِم العقوبة ، وكيف أنهم ما زادتهم كثرةُ النصيحةِ إِلَّا غُلُوءًا في ضلالتهم ، وعُتُوًّا في جهالتهم ، وكما قيل .

وَكَمْ صُفِّتُ فِي آثَارِكُم مِّنْ نَّصِيحَةٍ وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الْبَغْضَاءُ الْمُتَنَصِّحُ

قوله جل ذكره : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ

إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ .

الاستغفار هو التوبة .

ومعنى قوله « ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ » أى توبوا ثم لا تُنْقِضُوا تَوْبَتَكُمْ ؛ فهو أمرٌ بامسئامة التوبة ؛ فإذا لم يتصل وفاء المآلِ بصفاء الحال لم يحصل قبولٌ ، وكان لم يكن لِمَا سَلَفَ حصولٌ .

« إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ » : يرحم العصاة ويودُّهم .

ويقال يرحمهم ولذلك يودونه ؛ فالودود يكون بمعنى المودود كحُلوِبٍ بمعنى محلوِبٍ . والرحمةُ

تكون للعاصي لأن المطيع بوصف استحقاقه الثواب على طاعته ، ثم ليس كل من يحب
السلطان في محل الأكابر ، فالأصغر من الجند قد يحبون ذلك ، وأشدوا :
ألا رب من يدنو ويذم أنه يودك ، والنأي أود وأقرب

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقْتَ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ
وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ، وَلَوْلَا رَهْطُكَ
لَرَبَجْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِيزٌ ﴾ .

لاحظوا شعيباً بعين الاستصغار فحرروا فهم معاني الخطاب ، وأقروا على أنفسهم
بالجهل ، وأحالوا إعفائهم إياه من الأذى على حشمتهم من رهطه وعشيرته ، فعاتبهم عليه : —

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ
وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي
بِمَا تَعْمَلُونَ مَحْبُطٌ ﴾ .

أترون من حق رهطي مالا ترؤن من حق ربي ؛ وإن ربي يكافكم على أعمالكم بما
تستوجبون في جميع أحوالكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَا قَوْمِ ائْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ
إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ يَأْتِيهِ
عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ
وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ * وَلَمَّا
جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا
مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا
الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ
جَاثِمِينَ * كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا
بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ .

أرخی لم ستر الإمهال فلما أصرُّوا على تماديهم في الغواية حلَّت بهم العقوبة ، وصاروا
وكان لم يكن بينهم نافخ نارٍ ، ولا في ديارِ الظالمين ديارٌ ، قال تعالى : ﴿ فاعتبروا
يا أولى الأبصار ﴾

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطانٍ
مبين ﴾ إلى فرعون وملئه ﴿

كغرقة موسى عليه السلام تفخياً لشأنه ، وتعظيماً لأمره ، وتنبهياً على علو قدره عند الله
وعلى مكاة الآيات التي أرسله بها ، ومعجزاته الباهرة ، وبراهينه القاهرة ..

ويقال أصعبُ عدوِّ قهره أولًا نفسه ، وقد دله — سبحانه — على ذلك لما قال : إلهي !
كيف أطلبك ؟

فقال : عند المنكسرةِ قلوبهم من أجلى .

فنبهه إلى استنصاره لنفسه ، وانكساره لله بقلبه ، فزادت صولته لما صار معصوماً عن
شهود فضل نفسه ؛ والسلطان الذي خصه به استولى على قلوب من رآه ، كما قال : ﴿ وألقيتُ
عليك محبةً مني ﴾ (١) فارآه أحدٌ إلا أحبه ، ثم إنه لم يأخذه في الله ضعفٌ ، مثلما لطم وجه
فرعون — وهو رضيع — كما في القصة ، ولطم وجه مَلِكٍ للموت لما طالبه بقبض روحه ..
كما في الخبر ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه لما رجع من سماع الخطاب عند المعاتبة ، وأقسم
بالجساسة على سؤال الرؤية ، وقتل القبطي لما استعان به من وافقه في العقيدة ، وقال الله « إن هي
إلا فتنتك » (٢) لما أخبره الحق بما عمله قومه من عبادة العجل بحكم الضلالة ... فني جميع
هذا تجاوز الله عنه لما أعطاه من السلطان والقوة .

قوله جل ذكره : ﴿ فاتَّبِعُوا أَمْرَ فرعونَ وما أَمْرُ
فرعونَ برشيدٍ ﴾ يقدِّم قومه يوم
القيامة فأوردتهم النارَ وبئسَ الوردُ
للورود ﴿

(١) آية ٣٩ سورة طه .

(٢) آية ١٥٥ سورة الأعراف .

رضوا بمتابعة فرعون ، فاستحقوا ما استحقه . لم يشعروا بخطيئهم ، وكانوا يحسبون أنهم
يُحْسِنُونَ صُنْعًا . وإذا ما أوردتهم النار فهو إمامهم ، وسيعلمون ما أصابهم من الخسران حين
لا ينفع تضرعهم وبكاؤهم ولا ينقطع عذابهم وعناؤهم ، وتغلب خسارتهم وشقاؤهم — وذلك
جزاء مَنْ كَفَرَ بِمَعْبُودِهِ ، وأسرف في مجاوزة حدوده .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ
يُثَسِّسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾

يَعُدُّوا فِي عَاجِلِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ ، وفي آجلهم من الغفران والجنان . والذي لهم في الحال من الفرقة
أعظم — في التحقيق — من الذي لهم في المآل من الحُرقة ، وهذه صفة مَنْ أَمْنَعَهُ اللَّهُ بِاللَّعْنَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقِصُهُ عَلَيْكَ
مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾

لم يكن في جملة مَنْ قَصَّ عَلَيْهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ — عليهم السلام — مَنْ أَكْثَرَ مِنْهُ تَبْجِيلًا ،
ولا فيمن ذكره من الأمم أعظم من أَمْتِهِ تَفْضِيلًا ، فكما تَقَدَّمَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ — عليهم السلام —
تَقَدَّمَتْ أَمْتُهُ عَلَى الْأُمَمِ ، قال تعالى : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » ^(١)

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ
رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾

لا يجوز الظلم في وصفه ، فَتَصَرَّفَهُ فِي مُلْكِهِ بِحَقِّ إِلَهِيَّتِهِ — مطلق — بحكم بحسب إرادته
ومشيئته ، ولا يتوجه حق عليه ، فكيف يجوز الظلم في وصفه ؟

ويقال هذا الخطاب لو كان من مخلوق مع مخلوق لأشبه العذر ، ولكن في صفته لا يجوز
العذر إذ الخلق خلقه ، وَالْمُلْكُ مُلْكُهُ ، وَالْحُكْمُ حُكْمُهُ .

(١) الآية ١١٠ سورة آل عمران .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ

وَهُي ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾

إنَّ الحقَّ — سبحانه — يهمل ولكن لا يهمل ، ويحكم ولكن لا يعجل ، وهو لا يسأل عما يفعل .

وقيل إذا أخذ النفوس بالتوفيق فلا سبيل للخذلان إليها ، وإذا أخذ القلوب بالتحقيق فلا طريق للحرمان عليها . قال تعالى : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ

الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ

وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾

مشهودٌ يشهده مَنْ حُشِرَ من جميع الخلائق في ذلك اليوم .

ويقال الأيام ثلاثة : يومٌ مفقودٌ وهو أمس ليس بيدك منه شيء ، ويومٌ مقصودٌ وهو غدٌ لا تدري أتدركه أم لا ، ويومٌ مشهودٌ وهو اليوم الذي أنت فيه ؛ فالمفقود لا يرجع ، والمقصود ربما لا تبلغ ، والمشهود وقتك وهو معرضٌ للزوال .. فاستغله فيما ينفع .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدودٍ ﴾

الأجلُ لا يتقدّم ولا يتأخر لكل (...)(٢) ، والآجالُ على ما عليها الحقُّ — سبحانه —

وأرادها جارية ؛ فلا طلبٌ بقدّم أو يؤخر وقتاً إذا جاء أجله ، وكذلك للوصول وقت ، فلا طلب مع رجاء الوصول ، ولا طلب مع خوف الزوال ، ولقد قيل :

عَيْبُ السَّلَامَةِ أَنْ صَاحِبَهَا مُتَوَقِّعٌ لِقَوَاصِمِ الظُّهْرِ

وَفَضِيلَةُ الْبُلُوَى تَرْقُبُ أَهْلِهَا عَقِيبَ الْبَلَاءِ — مَسَرَّةَ الدَّهْرِ

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ

فَمَن مِّنْهُمْ شَتَّىٰ سَعِيدٌ ﴾

(١) آية ١٢ سورة البروج .

(٢) مشبهة .

الشقي من قُسم له الحرمان في حاله ، والسعيد من رُزق الإيمان في مآله .

ويقال الشقاء على قسمين : قوم شقاؤهم غير مؤبد ، وقوم شقاؤهم على التأبید ، وكذلك القول في السعادة . الشقي من هو في أسر التدبير ولسان جريان التقدير ، والسعيد من رجع من ظلمات التدبير ، وحصل على وصف شهود التقدير .

ويقال الشقي من كان في رق المبودية ظاناً أن منه طاعاته ، والسعيد من تحرر عن رق البشرية وعلم أن الحادثات كلها لله سبحانه .

وأما الاشتياء — على التأبید — فهم أهل الخلود في مقتضى الوعيد ، والسعداء — على التأبید — من قال الله تعالى في صفتهم : « لم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد » .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا

زفير وشهيق * خالدين فيها ما دامت

السموات والأرض إلا ما شاء ربك ﴾

« إلا ما شاء ربك » أن يزيد على مدة السموات والأرض .

« إلا ما شاء ربك » أن ينقلهم إلى نوع آخر من العذاب غير الزفير والشهيق .

« إلا ما شاء ربك » ألا تلحقهم تلك العقوبة قبل أن يُدخلهم النار ، فلا استثناء لبعض أوقاتهم من العقوبة لا قبل إدخالهم فيها ولا بعده .

« إلا ما شاء ربك » من إخراج أهل التوحيد من النار فيكون شقاؤهم غير مؤبد .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَاعِلٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾

فيه إشارة إلى أن الذي يحصل لهم يحصل بمشيئته لا باستحقاق عمل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ

فيها ما دامت السموات والأرض

إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ ﴾

لهم اليوم جنات القربة ، ولهم غداً جنات اللثوبة .

والكفار اليوم في عقوبة الفرقة ، وغداً في عقوبة الحرقة .

« فَعَالٌ لِّمَا يُرِيد » فلا استثناء لبعض أوقات أهل الجنة من أول أمرهم قبل دخولهم الجنة أو بعده . أو يحتمل أنه يزيد على مدة السموات والأرض .

وفي قوله « عطاء غير مجذوذ » — أى عطاء غير مقطوع — دليل على أن تلك النعم غير مقطوعة ولا ممنوعة .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ ﴾ نصيبهم غير منقوص *
ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل وإنا لموفون نصيبهم غير منقوص *

لا يريد أنه عليه السلام في شك ، ولكنه أراد به تحقيق كونهم مضاهين لأبائهم ، كما تقول : لا شك أن هذا نهار .
ويقال الخطاب له والمراد به لأمتيه .

« وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيبِهِمْ » : نجازيهم على الخير بخير وعلى الشر بضر (١)

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكُنِي شَكٌّ مِنْهُ مُرِيبٌ ﴾

اختلفوا في الكتاب الذي أوتي ، وهو التوراة .
واختلفوا في كونه رسولا ، فَمِنْ مُصَدِّقٍ وَمِنْ مُكْتَدِبٍ .
ثم أخبر أنه — سبحانه — حَكَمَ بتأخير العقوبة ، ولولا حكمته لعجل لهم العقوبة .
وفائدة الآية من هذا التعريف التخفيف على المصطفى — صلى الله عليه وسلم — فيما كان

(١) لم يقل القشيري : وعلى الشر بضر ، وإنما استعمل (الشر) نادبا من ناحية ، ولأنه — حسب مذهبه الكلامي — لا ينسب (الشر) لله ، من ناحية أخرى ، وكما سئى بعد قليل في تفسيره للحسنة والسيئة

يلقاه من قومه من التكذيب ، ففي سماع قصة الأشكال — وبعضهم من بعض — سلوة ،
ولقد قيل :

أجارتنا إنا غريبان ها هنا وكلُّ غريبٍ للغريب نسيب
قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ كُنَّا لَمَّا لِيُؤْفِقِيَهُمْ رَبُّكَ
أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

أعاد ذكر الجزاء على الأعمال بالثواب والعقاب ، وكرر ذلك في القرآن في كثير من
المواضع إبلاغاً في التحذير ، وتنبيهاً على طريق الاعتبار بحسن التفكير .

ثم إن الجزاء على الأعمال معجلٌ ومؤجلٌ ، وكلُّ مَنْ أَعْرَضَ عن الغفلة وَجَنَحَ إلى وصف
التيقظ وَجَدَ في معاملاته — عاجلاً — الربح لا الخسران ، وآجلاً الزيادة لا النقصان ،
وما يجده المرء في نفسه أتم مما يدركه بعلمه بشواهد برهانه .

قوله جل ذكره . ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ
وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾
يحتمل أن تكون السين في الاستقامة سين الطلب ؛ أي سَلِّ من الله الإقامة لك
على الحق .

ويحتمل أن تكون الإقامة في الأمر بمعنى أقام عليه .
وحقيقة الاستقامة على الطاعة المداومة على القيام بحققها من غير إخلالٍ بها ، فلا يكون
في سلوكه نهج الوفاق انحراف عنه .
ويقال المستقيم مَنْ لَا يَنْصَرِفُ عن طريقه ، يواصل سيره بمسراه ، ووزعه بتقواه ،
ويتابع في ترك هواه .

ويقال استقامة النفوس في نفي الزلَّة ، واستقامة القلوب في نفي الغفلة ، واستقامة الأرواح
بنفي العلاقة ، واستقامة الأسرار بنفي الملاحظة^(١) .

استقامة العابدين ألا يدخروا نفوسهم عن العبادة وألا يُخَلُّوا بأدائها ، ويقضون عسيرها
ويسيرها . واستقامة الزاهدين ألا يرجوا من دنياهم قليلها ولا كثيرها . واستقامة النابيين

(١) نهنا هذه العبارة عند تحديد الآفات التي تصيب الملكات الباطنة حسب مذهب الشيعي .

أَلَا يُلِمُّوا بِعَقُوبَةِ زَلَّةٍ فَيَدْعُونَ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا . . . وعلى هذا النحو استقامة كلِّ أحدٍ .
قوله « ومن تاب معك » : أى فَلْيَسْتَقِمْ أَيْضًا مَنْ مَعَكَ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾

لا تعملوا أعمالهم ، ولا ترضوا بأعمالهم ، ولا تمدحوم على أعمالهم ، ولا تتركوا الأمور بالمعروف لهم ، ولا تأخذوا شيئًا من حرام أموالهم ، ولا تساكنوم بقلوبكم ، ولا نخالطوهم ، ولا تعاشرهم . . . كل هذا يحتمله الأمر ، ويدخل تحت الخطاب .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلَّذِينَ كَرِهُوا ﴾

أى استغفرى جميع الأوقات بالعبادات ، فإنَّ إخلالكَ لحظةً من الزمان بفرضٍ تؤديه ، أو نقلي تأتبه حسرة عظيمة وخسران مبین .

قوله « إن الحسنات يذهبن السيئات » الحسنات ما يجود بها الحق ، والسيئات ما يذنبها العبد ، فإذا دخلت حسنة على قبائح العبد محنتها وأبطلتها .

ويقال حسناتُ القرية تذهبُ سيئاتُ الزَّلةِ .

ويقال حسناتُ الندم تذهبُ سيئاتُ الجرم .

ويقال (السكاب)^(١) العبرة تذهبُ العثرة^(٢) .

ويقال حسناتُ العرفان تذهبُ سيئاتُ العصيان .

ويقال حسناتُ الاستغفار تذهبُ سيئاتُ الإصرار .

ويقال حسناتُ العناية تذهبُ سيئاتُ الجناية .

ويقال حسناتُ العفو عن الإخوان تذهبُ الحقدَ عليهم .

ويقال حسناتُ الكرم تذهبُ سيئاتُ الخدم .

(١) هكذا مصوبة في الهامش وهي أصوب مما جاء في المتن (ارتكاب) .

(٢) وردت (العثرة) بالسين والأصوب (العثرة) لأنها تلجم مع السياق .

ويقال حسنُ الظنِّ بالناسِ يُذهِبُ سَوَاتِمَهُمْ بِكُمْ^(١) .
 ويقال حسناتُ الفضلِ من الله تُذهِبُ سيئاتِ حسانِ الطاعةِ من أنفسكم .
 ويقال حسناتُ الصدقِ تُذهِبُ سيئاتِ الإعجابِ .
 ويقال حسناتُ الإخلاصِ تُذهِبُ سيئاتِ الرياءِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
 الْحَسَنِينَ ﴾

الصبرُ تَجَرُّعُ كاساتِ التقديرِ من غيرِ تمعُّبٍ .
 ويقال الصبرُ حُسْنُ الإقبالِ على معاقبةِ الأمرِ ومفارقةِ الزجرِ .
 « فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْحَسَنِينَ » الحسنُ : العاملُ الذي يعلمُ أَنَّ الأجرَ على الصبرِ
 والطاعةِ بفضلِهِ — سبحانه — لا باسْتِحْقاقِ عملٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلُوا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ
 أُولُوا بَقِيَّةً يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ
 فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ
 وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ
 وَكَانُوا بِحَرَمِينَ ﴾

معناه لم يكن فيكم من هؤلاء الذين كانوا ينهون عن القبائح إلا قليل . .
 وقيل معناه لم يكن فيمن قبلكم من الأمم من ينهى عن الفساد ، ويحفظ الدين ، ويعطيون
 أنبياءهم — إلا قليل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ
 وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴾

أى لم يهلك الله أحداً كان مصلحاً وإنما أهلك من كان ظالماً .

(١) ربما يقصد التشييد من هذه العبارة الحث على الصبر عن عثرات الناس .

ويقال معناه : لو أهلك الله أهل القرى وهم مصلحون لم يكن ذلك ظلماً من الله؛ لأن المُلْكَ مُلْكُهُ ، والخلق عبيدُهُ .

ويقال « المصلح » مَنْ قام بحق ربه دون طلب حظه .

ويقال : « المصلح » من آثر نجاته على هلاكه .

ويقال مصلحٌ تُصْلِحُ نَفْسَهُ طَاعَتُهُ ، ومصلحٌ تُصْلِحُ قَلْبَهُ مَعْرِفَةُ سَيِّدِهِ ، ومصلحٌ تُصْلِحُ بَصَرَهُ مَشَاهِدَةُ سَيِّدِهِ .

قوله جل ذكره ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾

ولا يزالون مُخْتَلِفِينَ ﴿

لو شاء لجعلهم أرباباً الوفاق ثم لا يوجبون لملكك ذيناً ، ولو شاء لجعلهم أرباب الخلاف ثم لا يوجبون لملكك شيئاً .

ثم قال : « ولا يزالون مختلفين » لأنه كذلك أراد بهم .

« إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ » في سابق حكمه فقصهم عن الخلاف في حاصل أمورهم ، وأقامهم به ، ونصبهم له ، وأثبتهم في الوفاق والمحبة والتوحيد .

قوله جل ذكره ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ

الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

أى لا تبديل لقوله ، ولا تحويل لحكمه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَأَنَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ

مَا نُنَبِّئُ بِهِ فَوَادَكَ ﴾

سكّن قلبه بما قصّ عليه من أنباء المرسلين ، وعرفه أنه لم يُرَقَّ أحداً إلى المحلّ الذي رقاها .

إليه ، ولم يُنْعِمِ على أحد بمثل ما أنعم عليه .

ويقال قصّ عليه قصص الجميع ، ولم يذكر قصته لأحد تعريفاً له وتخصيصاً . ويقال لم يكن

ثبات قلبه بما قصّ عليه ولكن لاستقلال قلبه بِمَنْ كان يقص عليه ، وفرق بين من يعقل

بما يسمع وبين مَنْ يستقل بِمَنْ منه يسمع ، وأنشدوا :

وَحَدَّثَنِي يَا سَعْدُ عَنْهَا فَرَدَّتْنِي حَظِيئًا فَرَدَّتْنِي مِنْ حَدِيثِكَ يَا سَعْدُ

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى

مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ * وَانْتَظِرُوا
إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾

إن الذين يجحدون التوحيد ، ويؤثرون على الحق غير الحق ، ولم يصدقوا الوعيد ،
يوشيك أن ينصب عليهم الانتقام فيغرقون في بحار العقوبة ، ويسقطون في وهاد الهوان ،
فلا لويلهم انتهاء ، ولا لذلهم انقضاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ غِيبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ

يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ
عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

عمى عن قلوبهم العواقب ، وأخفى دونهم السوابق ، وأزهم القيام بما كلفهم في الحال ،
فقال : « فاعبد » فإن تقسم القلب وترجم الظن وخيف سوء العاقبة .. فتوكل عليه أى
استدفع البلاء عنك بحسن الظن ، وجبل الأمل ، ودوام الرجاء .

« وما ربك بغافل عما تعملون » : أحاط بكل شيء علماً ، وأمضى فى كل أمر حكماً .

السورة التي يذكر فيها يوسف عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الاسم^(١) مِنْ وَسَمٍ ، قَمِنْ وَسَمٍ ظَاهِرَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ ، وَسِرَّائِرَهُ بِمُشَاهِدَةِ الرَّبُوبِيَّةِ فَقَدْ نَحِمَتْ
هِمَّتُهُ إِلَى الْمَرَاتِبِ الْعَلِيَّةِ ، وَأُزْلِفَتْ رَتَبَتُهُ مِنَ الْمَنَازِلِ السَّنِيَّةِ .

أو أن الاسم مشتق من السمة أو من السمو

(١) ربما كان القشيري في شرحه لمعنى (الاسم) متأثراً بالجوال عام للسورة ، وما حدث لسكل من يوسف
وإخوته من أحداث .

وقدّم الله — سبحانه — اسم الله في هذا المحل على اسميه الرحمن والرحيم على وجه البيان والحكم ، فبرحمته الدنيوية وصل العبد إلى معرفته الإلهية .

والإشارة من الباء — التي هي حرف التضمين والالتصاق — إلى أن « به » عَرَفَ مَنْ عَرَفَ ، و « به » وقف مَنْ وقف ؛ فالواصل إليه محمولٌ بإحسانه ، والواقف دونه مربوطٌ بخذلانه .

قوله جل ذكره : ﴿ الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾

التخاطبُ بالحروف المتفرقة غير المنظومة سُنةُ الأحباب في سِرِّ المحاب ؛ فالقرآن — وإن كان المقصودُ منه الإيضاح والبيان — ففيه تلويح وتصريح ، ومفصلٌ ومُجْمَلٌ ، قال قائلهم :

أبكى إلى الشرق إن كانت منازلُكم مما يلي الغربَ خوفَ القيل والقال

ويقال وقفت فهوُ المخلوق عن الوقوف على أسرارهِ فيما خاطب به حبيبه — صلى الله عليه وسلم ، فهم تعبدوا به وآمنوا به على الجملة ولكنه أفرد الحبيبَ بفهمه ، فهو سرُّ الحبيب عليه السلام بحيث لا يطلع عليه الرقيب ، يقول قائلهم :

بين المحبين سرٌّ ليس يُفْشيه قولٌ ، ولا قلمٌ للخلق يحكيه

وفي إنزال هذه الحروف المقطعة إشارة : وهي أن مَنْ كان بالعقل والصحو استنبط من اللفظ اليسير كثيراً من المعاني ، ومن كان بالغيبه والمحز يسمع الكثير فلا يفهم منه اليسير ؛ ذاك لكمال عقله وهذا تمام وصلهِ ؛ فأنزل الله هذه الحروف التي لاسبيلَ إلى الوقوف على معانيها، ليكون للأحباب فُرْجةً حيناً لا يقفون على معانيها بَعْدَم السبيل إليها فلا تتوجه عليهم مُطالِبَةٌ بالفهم ، وكان ذلك لائقاً بأحوالهم إذا كانوا مستغرقين في عين التلجّع ، ولذا قيل : استراح من العقل له (١) .

وقوله تعالى : « تلك » يحتمل أن يكون إشارة إلى أن هذا خبرُ الوعد الذي وعدناك .

(١) هكذا في (س) وزجج أنها (استراح من لا عقل له) والعقل هنا معناه الوعى .

وقيل هذا تعريفاً : إليك بالتخصيص ، وإفرادنا لك بالتقريب — قد حققناه لك ؛
فهذه الحروف بيانٌ للإنجاز وتحقيق الموعود .

والإشارة من « الكتاب المبين » هاهنا إلى حكمه السابق له بأن يُرْقِيَهُ إلى الرتبة التي
لا يبلغها غيره ، وقد قال تعالى : « وما كنت بجانب الطور إذ نادينا . . »^(١) أي حين كلمنا
موسى عليه السلام ، وأخبرناه بعلو قدرك ، ولم تكن حاضراً ، وأخبرناه بأننا نبلكك هذا
اللقام الذي أنت فيه الآن . وكذلك كل من أوحينا إليه ذكرنا له قصتك ، وشرحناً له
خلقك ، فالآن وقت تحقيق ما أخبرنا به ، وفي معناه أنشدوا :

سُقياً لمهدك الذي لو لم يكن ما كان قلبي للصباية مهدياً
قال الله تعالى : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر » يعني بعد التوراة « أن الأرض
يرثها عبادي الصالحون »^(٢) يعني أمة محمد .

قوله جل ذكره : ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم
تعقلون ﴾ .

في إنزال الكتاب عليه ، وإرسال الرسول^(٣) إليه — تحقيقاً لأحكام المحبة ، وتأكيده
لأسباب الوصلة ؛ فإن من عدم حقيقة الوصول استأس بالرسول ، ومن بقي عن شهود
الأحباب تسلى بوجود الكتاب ، قال قائمهم :

وكشبتك حولى لا تفارق مضجى فيها شفاء للذى أنا كاتم .
قوله جل ذكره : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص
بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾

« أحسن القصص » : خلوة عن الأمر والنهى الذى سماعه يوجب اشتغال القلب بما هو
يعرض لوقوع التقصير .

« أحسن القصص » : ففيه ذكر الأحباب .

(١) آية ٤٦ سورة القصص . (٢) آية ١٠٥ سورة الأنبياء .

(٣) (الرسول) هنا مقصود به القرآن الكريم أو جبريل — كما هو واضح من السياق .

« أحسن القصص » : لأن فيه عنو يوسف عن جنایات إخوته .

« أحسن القصص » : لما فيه من ذكر كبر ترك يوسف لامرأة العزيز وإعراضه عنها عندما راودته عن نفسه .

« أحسن القصص » : بالإضافة إلى ما سأله أن يتص عليهم من أحوال الناس .

« أحسن القصص » : لأنه غير مخلوق^(١) .

ويقال لما أخبره الله — سبحانه — أن هذه القصة أحسن القصص وجد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لنفسه مزايا وزوائد لتخصيصه ؛ فعلم أن الله تعالى لم يرق أحداً إلى مثل مراقاه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِّ

الغافلين ﴾

أى الذاهبين عن فهم هذه القصة . أى ما كنت إلا من جملة الغافلين عنها قبل أن أوحينا إليك بها ، أى إنك لم تصل إلى معرفتها بكذك وجهدك ، ولا بطلبك وجهدك . . . بل هذه مواهب لا مكاسب ؛ فبعطائنا وجدتها لابنائك ، وبفضلنا لا بتعلك ، وبسلطاننا لا بتكلفك ، وبنا لا بك .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّى

رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ

وَالْقَمَرَ رَايُهُمْ لى ساجدين ﴾

لما ذكر يوسف — عليه السلام — رؤياه لأبيه علم يعقوب — عليه السلام — صدق تعبیرها ، ولذلك كان دائم التذكر ليوسف مدة غيبته ، وحين تناولت كان يذكره حتى قالوا : « تالله تنأ تذكر يوسف » فقال : « إني أعلم من الله ما لا تعلمون » فهو كان على ثقة من صدق رؤياه

فإن قيل : فإذا كان الصبي لا يحكم لفعله فكيف يكون حكم لرؤياه ؟ وما الفرق ؟

(١) القرآن غير مخلوق . . هذا أصل من الأصول الكلامية الهامة عند الأشاعرة — ومنهم الشيرازي .

فيقال : إن الفعل بتعمد يحصل فيكون مفعلاً لتقصير فاعله ، أما الرؤيا فلا تكون بتعمد منه فتنسب إلى نقصان .

ويقال إن حق السر الكتمان وإن كان على من هو قريب منك ؛ فإن يوسف لما أظهر سراً رؤياه على أبيه اتصل به البلاء .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ ﴾

فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ

لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿

إذا جاء القضاء لا ينفع الوعظ والحذر ؛ فإن النصيحة والحذر لا يزيدان على ما نصح يعقوب ليوسف عليهما السلام ، ولكن لما سبق التقدير في أمر يوسف - عليه السلام - حصل ما حصل . ويقال إن يوسف خالف وصية أبيه في إظهار رؤياه إذ لو لم يُظهرها لما كادوا له ، فلا جرم بسبب مخالفته لأبيه - وإن كان صبيها صغيراً - لم يعرف من البلاء .

ويقال لما رأى يوسف في منامه ما كان تأويله سجود الإخوة له رأى ما تعبیره : وسجود أبيه وخالته حيث قال تعالى : « والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين » ؛ فدخل الإخوة الحسد^(١) أما الأب فلم يدخله إلا بنفسه لفرط شفقة الأبوة .

ويقال صدق تعبیره في الإخوة فسجدوا له حيث قال : « وخرؤ له سجد آ » ولم يسجد الأب ولا خالته حيث قال : « ورفع أبويه على العرش » فإن يوسف صأتهما عن ذلك مراعاةً لحشمة الأبوة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ ﴾

مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴿

أى كما أكرمك بهذه الرؤيا التي أراكها يجتبيك ويحسن إليك بتحقيق هذه الرؤيا ، وكما أكرمك بوعده النعمة أكرمك بتحقيقها .

ويقال الاجتناء ما ليس للمخلوق فيه أثر ، فما يحصل للعبد من الخيرات - لا بتكلفه ولا بتعمده - فهو قضية الاجتناء .

(١) وردت (الحسد) والمعواب أن تكون الحسد (انظر توضيح ذلك بعد قليل صفحة ١٧٠) ودخول الأب كان بنفسه ولم يكن بقلبه ، وكان سببه شدة الإشتاق على ولده .

ويقال من الاجتناء المذكور أن عَصِيَّةً عن ارتكاب ما رآودته امرأة العزيز عن نفسه .
 ويقال من قضية الاجتناء إسبالة الستر على فعل إخوته حيث قال : « وقد أحسن بي إذ
 أخرجني من السجن » ، ولم يذكر خلاصه من البئر . ومن قضية الاجتناء توفيقه لسرعة العفو عن
 إخوته حيث قال : « لا تثريب عليكم اليوم » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾
 أى لتعرف قدر كل أحد ، وتقف على مقدار كل قائل بما تسمع من حديثه . . لا يمن
 قوله بل لحدة كباستك وفرط فراستك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيُنِمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ بِعُوقَبَ
 كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ
 إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ
 حَكِيمٌ ﴾

من إتمام النعمة توفيق الشكر على النعمة ، ومن إتمام النعمة صونها عن السلب والتغيير ،
 ومن إتمام النعمة التحرز^(١) منها حتى تسهل عليك السماحة بها .

قوله جل ذكره : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ
 آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾

يعنى لكل ذى محنة حتى يعلم كيف يصبر ، ولكل ذى نعمة حتى يعلم كيف يشكر .
 ويقال فى قصتهم كيفية العفو عن الرزلة ، وكيفية الخجلة لأهل الجفاء عند اللقاء .
 ويقال فى قصتهم دلالات لطف الله سبحانه بأوليائه بالعصمة ، وآيات على أن المحبة
 (. . .)^(٢) من المحنة .

ويقال فيها آيات على أن من صدق فى رجائه يختص — يوماً — ببلائه .

(١) (التحرز) من النعمة التوقى منها ، وإذا افترضنا أنها قد تكون (التحرز) بالراء فمضاهما ألا يكون
 البعد أسيراً للنعمة حتى يسهل عليه أن يجود بها . . . وكلاما صحيح مقبول فى السياق .
 (٢) مشبهة

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى
أَيْنَا مِنْهُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي
ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

عُرِفُوا عَلَى مَا سَتَرُوهُ مِنَ الْحَسَدِ ، وَلَمْ يَخَالُوا فِي إِخْرَاجِ ذَلِكَ مِنْ قُلُوبِهِمْ بِالْوَقِيعَةِ فِي أَبِيهِمْ حَتَّى
قَالُوا : « إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » .

وَيَقَالُ لَمَّا اعْتَرَضُوا بِقُلُوبِهِمْ عَلَى أَبِيهِمْ فِي تَقْدِيمِ يَوْسُفَ فِي الْمَحَبَةِ عَاقِبِهِمْ بِأَنْ أَمْلَهُمْ ^(١) حَتَّى
بَسَطُوا فِي أَبِيهِمْ لِسَانَ الْوَقِيعَةِ فَوَصَفُوهُ بِلَفْظِ الضَّلَالِ ، وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ مِنْهُ الذَّهَابُ فِي حَدِيثِ
يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَلَمَّا حَسَدُوا يَوْسُفَ عَلَى تَقْدِيمِ أَبِيهِمْ لَهُ لَمْ يَرْضَ — سَبْحَانَهُ —
حَتَّى أَقَامَهُمْ بَيْنَ يَدَيْ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا لِيَعْلَمُوا أَنَّ الْحَسَدَ لَا يَسُودُ .
وَيَقَالُ أَطْوَلُ النَّاسِ جُرْئَانًا مَنْ لَاقَى النَّاسَ عَنْ مَرَارَةٍ ، وَأَرَادَ تَأْخِيرَ مَنْ قَدَّمَهُ اللَّهُ أَوْ
تَقْدِيمَ مَنْ أَخَّرَهُ اللَّهُ ؛ فَأَخُوهُ يَوْسُفَ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — أَوَادُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي أَسْفَلِ الْجُبِّ
فَرَفَعَهُ اللَّهُ فَوْقَ السَّرِيرِ

قوله جل ذكره : ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا
يَمْجُلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾

أَيُّ يَمْجُلُ لَكُمْ إِقْبَالَ أَبِيكُمْ عَلَيْكُمْ ، وَقَدِيمًا قِيلَ : مَنْ طَلَبَ الْكُلَّ فَاتَهُ الْكُلُّ ؛
فَلَمَّا أَرَادُوا أَنْ يَكُونَ إِقْبَالُ يَعْقُوبَ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — بِالْكُلِّيَّةِ — عَلَيْهِمُ قَالَ تَعَالَى :
« فَتَوَلَّى عَنْهُمْ » .

وَيَقَالُ كَانَ قَصْدُهُمْ أَلَّا يَكُونَ يَوْسُفُ أَمَامَ عَيْنِهِ فَقَالُوا : إِمَّا الْقَتْلُ وَإِمَّا النَّفْيُ ، وَلَا بَأْسَ
بِمَا يَكُونُ بَعْدَ أَلَّا يَكُونَ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾

عَبَّجُوا بِالْحَرَامِ ، وَعَلَّقُوا التَّوْبَةَ بِالتَّسْوِيفِ وَالْعَزْمِ ، فَلَمْ يَمَحْ مَا أَجَلُوا مِنَ التَّوْبَةِ مَا عَجَّلُوا
مِنَ الْحَوْبَةِ .

(١) وردت (أمهلهم) وهي خطأ في النسخ لأن الله لا يهمل ولكن يعجل ، والسياق يقتضي (الإمهال) .

ويقال لم تطب نفوسهم بأن يذهبوا عن باب الله بالكلفة فذبوا لحسن الرجوع قبل ارتكاب مادعته إليه نفوسهم ، وهذه صفة أهل العرفان بالله (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ قَاتِلْ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ
وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ
السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ .

إخوة يوسف — وإن قابلوه بالجفاء — منعته شقة النسب وحُرمة القرابة من الإقدام على قتله ؛ فقالوا لا تقتلوه وغيَّبوا شخصه .

ويقال إنما حَكَمَهم على إلقائه مرادهم أن يخلو لهم وجه أبيهم ، فلما أرادوا حصول مرادهم في تغييبه لم يبالغوا في تعذيبه .

ويقال لما كان المعلوم له — سبحانه — في أمر يوسف تبليغه إياه تلك القرية ألقى الله في قلب قائلهم حتى قال : « لا تقتلوا يوسف » .

ثم إنه — وإن أبلاه في الحال — سهل عليه ذلك في جنب ما رآه إليه في المال (٢) ، قال قائلهم :

كَمْ مَرَّةً حَفَّتْ بِكَ الْكَارِهُ خَارَ لَكَ اللَّهُ — وأنت كلوه
قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى
يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ .

كلام الحسود لا يسمع ، ووعدُه لا يقبل — وإن كانا في معرض النصيح ؛ فإنه يُطْعِمُ
الشَّهْدَ وَيَسْقِي الصَّابَ .

ويقال العَجَبُ من قبول يعقوب — عليه السلام — ما أبدى بنوه له من حفظ يوسف عليه السلام وقد تفرَّسَ فيهم قلبه فقال ليوسف : « ويكيدوا لك كيداً » ولكن إذا جاء القضاء فالبصيرةُ تصير مسدودةً .

(١) واضح من هذا ومما جاء في السياق أن القشيري — بتساعده الصوفي الأصيل — ينظر إلى إخوة يوسف نظرة خالية من التحامل عليهم .
(٢) كما ينصح القشيري أصحاب الإرادة : إن لقيتم اليوم في الله شدةً ، فليكن غداً مثوبة . وكأنما يوضح لأهل الجدل : إن مقاييس الشر والخير الإنسانية خاطئة قاصرة .

ويقال من قيلَ على محبوبه حديثَ أعدائه كَقِيَ ما لَقِيَ يعقوبُ في يوسف .
عليهما السلامُ — من بلائه .

قوله جل ذكره ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ
لِحَافِظُونَ﴾ .

يقال أطمعوا يعقوبَ عليه السلام في تمكينهم من يوسف بما فيه راحةٌ نفسٍ في اللعب ،
فطابتْ نفسُ يعقوب لإذهابهم إياه من بين يديه — وإن كان يشقُّ عليه فراقه ، ولكنَّ
الحبَّ يؤثِّرُ راحةً محبوبه على محبةِ نفسه .

ويقال لما رَكَنَ إلى قولهم : « وإِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ » — أَيْ مِنْ قِبَلِهِمْ ^(١) — حتى قالوا :
« وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب » ؛ فَمَنْ أَسْلَمَ حَبِيبَهُ إِلَى أَعْدَائِهِ غُصَّ بِتَحَسُّيْ
بِلائه .

قوله جل ذكره : ﴿وَقَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ
وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّيْبُ وَأَنْتُمْ
عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ .

يَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ لِأَنِّي لَا أَصْبِرُ عَنْ رَوْيَتِهِ ، وَلَا أَطِيقُ عَلَى فُرْقَتِهِ . . . هذا إذا كان
الحالُ سلامته .. فكيف ومع هذا أخاف أن يأكله الذئب ؟

ويقال لما خاف عليه من الذئب امتحنَ بحديث الذئب ، ففي الخبر ما معناه : إِنَّمَا يُسَلِّطُ
عَلَى ابْنِ آدَمَ مَا يَخَافُهُ . وكان من حقه أن يقول أخافُ اللهَ لا الذئب ، وإنَّ كانتْ مَحَالُُّ
الأنبياء عليهم السلام — محروسةً من الاعتراض عليها .

ويقال لما جرى على لسان يعقوب — عليه السلام — من حديث الذئب صار كالتلقين
لهم ، ولو لم يسمعه ما اهْتَدَوْا إِلَى الذَّيْبِ ^(٢) .

(١) يرجع القشيري ما أصاب يعقوب من بلاء إلى ركونه إلى حفظ يوسف من قبل الخلق ؛ وأنه إطمأن
للدعوى مع أن الحفظ لا يكون إلا بالله .

(٢) تفيد هذه النقطة في إثبات كرامة الأولياء ، وما يجري على ألسنتهم من تلبؤ بما قد يحدث في المستأنف
على وجه الإجمال .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا نَلَّاسِرُونَ ﴾ .

لحق إخوة يوسف عليه السلام ما وصفوا به أنفسهم من الخسران حيث قالوا :
« إِنَّا إِذَا نَلَّاسِرُونَ » : لَأَنَّ مَنْ بَاعَ أَخًا مِثْلَ يَوْسُفَ بِمِثْلِ ذَلِكَ الثَّمَنِ حَقِيقٌ بِأَنْ يُقَالَ
قَدْ خَسِرْتَ صَفَقَتَهُ .

ويقال لما عدوا القوة في أنفسهم حين قالوا : « وَنَحْنُ عُصْبَةٌ » خَذِرُوا حَتَّى فَعَلُوا ^(١) .
ويقال لما ركن يعقوب — عليه السلام — إلى قولهم : « وَنَحْنُ عُصْبَةٌ » لَقِيَ مَا لَقِيَ .
قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي
غِيَابَةِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ
بَأْمَرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

الجواب فيه مُقَدَّرٌ ، ومعناه فلما ذهبوا بيوسف وعزموا على أن يلقوه في البئر فعلوا
ما عزموا عليه . أو فلما ذهبوا به وألقوه في غيابة الجب أوحينا إليه ؛ فتكون الواو صلة .
والإشارة فيه أنه لما حلت به البلوى عجلنا له التعريف بما ذكرنا من البشرى ؛ ليكون
محمولاً بالتعريف فيما هو متحمل له من البلاء العنيف .

ويقال حين انقطعت على يوسف عليه السلام مراعاة أبيه حصل له الوحي من قبل مولاه ،
وكذا سُنَّتُهُ تعالى أنه لا يفتح على نفوس أوليائه باباً من البلاء إلا فَتَحَ على قلوبهم أبوابَ
الصفاء ، وفنون لطائف الولاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ .
تَمَكِّنُ الكَذَابِ مِنَ الْبُكَاءِ مِثْلَةُ خِذْلَانِ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاهُ ، وَفِي الْخَبَرِ : إِذَا كَمَلَ نِفَاقُ
المرءِ مَلَكَ عَيْنُهُ حَتَّى يَبْكِيَ مَا شَاءَ .

ويقال : لَا يَبْعُدُ أَنْ يُقَالَ إِنَّهُمْ وَإِنْ جَفَوْا عَلَى يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَدْ نَدَمُوا عَلَى
مَا فَعَلُوا ، فَعَلَاهُمُ الْبُكَاءُ لِنَدَمِهِمْ — وَإِنْ لَمْ يُظْهَرُوا لِأَبِيهِمْ — وَتَقَوُّوا عَلَى الذُّئْبِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ .

(١) فقد كانت من دهاوى النفس .

لم يُؤثِّرْ تزويرُ قَالِبِهِمْ في إيجابِ تصديقِ يعقوبَ — عليه السلام — لسكذبهم بل أخبره قلبه أنَّ الأمرَ بخلافِ ما يقولونه فقال :

﴿ بل سَوَّلْتُ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْرًا
فَصِيرُوهُ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى
مَا تَصِفُونَ ﴾ .

فَعَلِمَ عَلَى الْجُمْلَةِ وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ عَلَى التَّفْصِيلِ . . وهكذا تَقَرَّعَ قُلُوبَ الصَّادِقِينَ عَوَاقِبُ
الْأُمُورِ عَلَى وَجْهِ الْإِجْمَالِ ، إِلَى أَنْ تَتَضَحَّحَ لَمْ تَقَاصِيْلُهَا فِي الْمُسْتَأْنَفِ .

وَيَقَالُ عَوَقِبُوا عَلَى مَا فَعَلُوهُ بِأَنْ أَغْفَلُوا عَنْ تَمْزِيقِ قَبِيصِهِ حَتَّى عِلْمَ يَعْقُوبَ تَقَوُّهُمْ
فِيهَا وَصَفُوا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى
دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غَلَامٌ وَأَسْرُوهُ
بِضَاعَةٍ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ .

ليس كلُّ مَنْ طَلَبَ شَيْئًا يُعْطَى مَرَادَهُ فَقَطْ بل ربِّمَا يُعْطَى فَوْقَ مَأْمُولِهِ ؛ كَالسَّيَّارَةِ كَانُوا
يَقْنَعُونَ بِوُجُودِ الْمَاءِ فَوَجَدُوا يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وَيَقَالُ لَيْسَ كُلُّ مَنْ وَجَدَ شَيْئًا كَانَ كَمَا وَجَدَهُ السَّيَّارَةُ ؛ تَوَهَّمُوا أَنَّهُمْ وَجَدُوا عَبْدًا مَمْلُوكًا
وَكَانَ يُوسُفُ — فِي الْحَقِيقَةِ — حُرًّا (١) .

وَيَقَالُ لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى خُلَاصَ يُوسُفَ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — مِنَ الْجُبِّ أَزْعَجَ خَوَاطِرَ
السَّيَّارَةِ فِي قَصْدِ السَّفَرِ ، وَأَعْدَمَهُمُ الْمَاءُ حَتَّى احْتَاَجُوا إِلَى الْاسْتِقَاءِ لِيَصِلَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
إِلَى الْخُلَاصِ ، وَلِهَذَا قِيلَ : أَلَا رُبُّ تَشْوِيشٍ يَقَعُ فِي الْعَالَمِ وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ سَكُونٌ وَاحِدٌ .
كَأَقِيلٍ : رُبُّ سَاعٍ لَهُ قَاعِدٌ .

قوله جل ذكره ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ
وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾

لم يعرفوا خسرانهم في الحال ولكنهم وقفوا عليه في المآل .

(١) أي ربما تكون حقيقة النعمة أعظم من ظاهرها .

ويقال قد يُباعُ مثل يوسف عليه السلام بثمان بئس ، ولكن إذا وقعت الحاجةُ إليه فعند ذلك يعلم ما يلحق من الغبن .

ويقال لم يحتشموا من يوسف — عليه السلام — يوم باعوه بثمان بئس ، ولكن لما قال لهم : أنا يوسف — وقع عليهم الخجل ، ولهذا قيل : كفى للمقصّر الحياء يوم اللقاء .

ويقال لما خروا له سجدًا علموا أن ذلك جزاءُ مَنْ باع أخاه بثمان بئس .

ويقال لما وصل الناسُ إلى رفق يوسف عاشوا في نعمته ، واحتاجوا إلى أن يقفوا بين يديه في مقام الذلِّ قائلين « مَسْنَأْ وَأَهْلَكْنَا الضُّرُّ » ، وفي معناه أنشدوا :

ستسمع بي وتذكرني وتطلبني فلا تجد

ويقال ليس العجبُ ممن يبيع مثل يوسف — عليه السلام — بثمان بئس إنما العجبُ ممن (. . .)^(١) مثل يوسف — عليه السلام — بثمان بئس ، لاسيما « وكانوا فيه من الزاهدين » (انظر لا غاية له ، وكذا العجب لا نباته له)^(٢) .

ويقال ليس العجبُ ممن يبيع يوسف — عليه السلام — بثمان بئس ، إنما العجبُ ممن يبيع وقته الذي أعزُّ من الكبريت الأحمر بعرضٍ حقيرٍ من أعراض الدنيا .

ويقال إن السيارة لم يعرفوا قيمته فزهّدوا في شرائه بدراهم ، والذين وقفوا على جماله وشيء من أحواله غالوا — بمصر — في ثمنه حتى اشتروه بزنة دراهم ودنانير مرات — كما في القصة^(٣) ، وفي معناه أنشدوا :

إن كنتُ عندك يا مولاي مُطَرِّحًا فعند غيرك محمولٌ على الخدق^(٤)

قوله جل ذكره : **وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ**

(١) هنا كلمة في الكتابة هكذا (بحل) ولا ندري كيف نصرّفها إلى إنباء بخدم المني .

(٢) ما بين القوسين ورد هكذا في (ص) وفيه التباس ناشئ عن سوء النسخ .

(٣) يقال إن العزيز اشتراه بزنّته ورقاً وحريراً ومسكاً .

(٤) تفسير اللسان ج ٢ ص ٢١٦ طبعي الحلبي .

(٤) الخدق جمع خدقة وهي السواد المستدير وسط العين .

لَا مَرَأِيَهُ أَكْرَمِي مِثْوَاهُ عِصَا أَنْ
يَنْفَعَنَا أَوْ تَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴿١﴾

لَمَّا نودى على يوسف في مصر بالبيع لم يرَ ضَ الحَقُّ — سبحانه — حتى أصابهم
الضرورةُ وَمَسَّنَهُمُ الْفَاقَةُ حتى باعوا من يوسف — عليه السلام — جميعَ أملاكهم ، ثم باعوا
كلَّهم منه أَنْفُسَهُمْ — كما في القصة — وفي آخر أمرهم طلبوا الطعام ، فصاروا بأجمعهم
عبيدَه ، ثم إنه عليه السلام لَمَّا مَلَكَهم مِّنْ عَلَيْهِم فَأَعْتَقَهُمْ (١) ؛ فَلَمَّا مَرَّ عَلَيْهِ بِمِصْرَ
يَوْمَ نودى فيه عليه بالبيع ؛ فَقَدْ أَصْبَحَ بِمِصْرَ يَوْمًا آخِرَ وَقَدْ مَلَكَ جَمِيعَ أملاكهم ،
وَمَلَكَ رِقَابَ جَمِيعِهِمْ ؛ فَيَوْمَ يَوْمٍ ، قال تعالى : « فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، يَوْمَانِ
فَتَّانِ بَيْنَهُمَا ۚ »

ثم إنه أعْتَقَهُم جَمِيعًا ... وكذا الكَرِيمُ إذا قدر غفر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي
الْأَرْضِ ، وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ ﴾

أَرَادَ مَنْ حَسَدَهُ أَلَّا تَكُونَ لَهُ فَضِيلَةٌ عَلَى إِخْوَتِهِ وَذَوِيهِ ، وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ مُلْكُ
الْأَرْضِ ، وَكَانَ مَا أَرَادَ اللَّهُ لَا مَا أَرَادَ أَعْدَاؤُهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾

أَرَادُوا أَنْ يَكُونَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْجَبِّ ، وَأَرَادَ اللَّهُ — سبحانه — أَنْ يَكُونَ
يُوسُفُ عَلَى سَرِيرِ الْمُلْكِ ؛ فَكَانَ مَا أَرَادَ اللَّهُ ، وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ .

(١) في القصة « وباع من أهل مصر في سني القحط الطعام بالدرام والدنانير في السنة الأولى حتى لم يبق
معه شيء منها ثم بالحلل والجواهر في الثانية ثم بالدواب في الثالثة ثم بالمعبد والإماء في الرابعة ثم بالدور
والعقار في الخامسة ثم بأولادهم في السادسة ثم برقابهم في السابعة حتى استرقهم جميعاً ثم اعتق أهل مصر ورد
عليهم أملاكهم » السقي ج ٢ ص ٢٢٨ .

وأرادوا أن يكون يوسف عبداً لمن ابتاعوه من السيارة ، وأراد الله أن يكون عزيزاً
مصر — وكان ما أراد الله .

ويقال العبرة لا ترى من الحق في الحال ، وإنما الاعتبار بما يظهر في سير تقديره في المال .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾

من جملة الحكم الذي آتاه الله نفوذ حكمه على نفسه حتى غلب شهوته ، وامتنع عما
رأودته تلك المرأة عن نفسه ، ومن لا حكم له على نفسه فلا حكم له على غيره .

ويقال إنما قال : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ أي حين استوى شبابه واكتملت قوته ، وكان
وقت استيلاء الشهوة ، وتوفر دواعي مطالبات البشرية — آتاه الله الحكم الذي حبسه على
الحق وصبره عن الباطل ، وعلم أن ما يعقب اتباع الذات من هواجس الندم أشد مقاساة من
كلفة الصبر في حال الامتناع عن دواعي الشهوة . . فأكثر مشقة الامتناع على لذة الاتباع .
وذلك الذي أشار إليه الحق — سبحانه — من جميل الجزاء الذي أعطاه هوامداده بالتوفيق
حتى استقام في التقوى والورع على سواء الطريق ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ
سُبُلَنَا ﴾ (١) : أي الذين جاهدوا بسلوك طريق المعاملة لتهديهم سبل الصبر على الاستقامة
حتى تتبين لهم حقائق المواصلة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَرَأَوْدَتَهُ لَمَّا هَوَّيْنَا مِنْهَا نَفْسَهُ ﴾
وغلقت الأبواب وقالت هيت لك
قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي
إنه لا يفلح الظالمون ﴿

لما غلقت عليه أبواب المسكن فتح الله عليه باب العصمة (٢) ، فلم يضره ما أغلق بعد
إكرامه بما فتح .

(١) آية ٦٩ سورة العنكبوت .

(٢) نلفت النظر إلى جمال عبارة القشيري الناتج من المقابلة بين (الإخلاص) و (الفتح) .

وفي التفسير أنه حفظ حُرْمَةَ الرجل الذي اشتراه ، وهو العزيز .

وفي الحقيقة أشار بقوله : « إنه ربِّي » إلى ربِّ الحقِّ تعالى : هو مولاي الحق تعالى ، وهو الذي خلّصني من الجُبِّ ، وهو الذي جعل في قلب العزيز لي محلاً كبيراً فأكرم مشواي فلا ينبغي أن أقدم على عصيانه — سبحانه — وقد غمرني بحمائل إحسانه .

ويقال إن يوسف عليه السلام قال لما : إن العزيز أمرني أن أنفعه . « عسى أن ينفعنا » فلا أخونه في حُرْمَتِهِ بظهور الغيب .

ويقال لما حفظ حُرْمَةَ المخلوق بظهور الغيب أكرمه الحقُّ سبحانه بالإمداد بالعصمة في الحال ومكّنه من مواصلتها في المال على وجه الحلال .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد همّمتُ به وهمّ بها لولا أن رأى

برهان ربّي كذلك لنصرف عنه

السوء والفحشاء إنّهُ مِنْ عبادِنَا

المخلصين ﴾

ما ليس بفعل الإنسان مما يعتريه — بغير اختياره ولا بكسبه — كان مرفوعاً لأنه لا يدخل تحت التكليف ، فلم يكن « الهمُّ »^(١) منه ولا منها زَلَّةٌ ، وإنما الزَلَّةُ من المرأة كانت من حيث عزّمتُ على ما همّمتُ ، فأما نفسُ الهمِّ فليس مما يكسبه العبد .

ويقال اشتركا في الهمِّ وأُفرد — يوسف عليه السلام — بإشهاد البرهان .

وفي تعيين ذلك البرهان — ما الذي كان ؟ — تكلفُ غيرُ محمودٍ إذ لا سبيل إليه إلا بالتجبرِ المقطوع به .

وفي الجملة كان البرهانُ تعريفاً من الحقِّ إياه بآية من آيات صُنْعِهِ ، قال تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »^(٢) .

(١) واضح أن القشيري يهدف إلى نفي كل تهمة عن يوسف ولهذا يلجأ إلى تأويل لفظة « الهم » الذي اشترك فيه وامرأة العزيز كما يعبر طاهر اللفظ

(٢) آية ٥٣ سورة ممت .

وقوله : « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء » صرّف عنه السوء حتى لم يوجد منه العزمُ على ذلك الفعل — وإن كان منه همٌ — إلا أن ذلك لم يكن جرمًا كما ذكرنا .
والصرّفُ عن الطريق بعد حصول الهمِّ — كشفٌ ، والسوء المصروفُ عنه هو العزمُ على الزنا والفحشاء أو نفسُ الزنا ، وقد صرفها الله تعالى عنه .
قوله « إنه من عبادنا المُخلصين » : لم تكن نجاته في خلاصه ، ولكن في صرفِ السوء عنه واستخلاصه .

قوله جل ذكره : ﴿ واستبقا الباب ﴾ وقَدَّتْ قَيْصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَْا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ﴿

استبقا ، هذا ليهرّب ، وهذه للفعلة التي كانت تطلب .
ولم يضر يوسف — عليه السلام — أن قدَّتْ قَيْصَهُ وهو لِبَاسٌ دُنْيَاهُ بعد ما صحَّ عليه قَيْصُ تَقْوَاهُ .

ويقال (١) لم تَقْصِدْ قَدْ الْقَيْصِ وَإِنَّمَا تَعَلَّقْتُ بِهِ لِتَحْبِسَهُ عَلَى نَفْسِهَا ، وَكَانَ قَصْدُهَا بَقَاءَ يُوسُفَ — عليه السلام — معها ، ولكن صار فعلُها وَبَلَاءً عَلَى نَفْسِهَا ، فَكَانَ بَلَاؤُهَا مِنْ حَيْثُ طَلَبَتْ رَاحَتَهَا وَشَفَاءَهَا .

ويقال تولد انخراقُ القَيْصِ مِنْ قَبْضِهَا عَلَيْهِ وَكَانَ فِي ذَلِكَ افْتِضَاحُ أَمْرِهَا ؛ لِأَنَّ قَبْضَهَا عَلَى قَيْصِهِ كَانَ مَزْجُورًا عَنْهُ .. لِيُعْلَمَ أَنَّ الْفَاسِدَ شَجَهَ فَاسِدٌ .

ويقال لشدة استيلاء الهوى عليها لم تعلم في الحال أنها تقدتْ قَيْصَهُ مِنْ وَرَائِهِ أَوْ مِنْ قُدَّامِهِ .. كَذَلِكَ صَاحِبُ الْبَلَاءِ فِي الْهَوَى مَسْلُوبُ التَّمْيِيزِ .

ويقال لما لم تَصِلْ ولم تتمكن من مرادها من يوسف خَرَقَتْ قَيْصَهُ لِيَكُونَ لَهَا فِي إِلْقَائِهَا الذَّنْبَ عَلَى يُوسُفَ — عليه السلام — حُجَّةٌ ، فَقَلَبَ اللَّهُ الْأَمْرَ حَتَّى صَارَ ذَلِكَ عَلَيْهَا حُجَّةً ، وَلِيُوسُفَ دَلَالَةٌ صَدَقَ ، قَالَ تَعَالَى : « وَلَا يَحْبِقُ الْمَكْرُ السَّبِيْءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ » (٢)

(١) فيما يلي من إشارات نلاحظ أن القشيري قد جعل من امرأة العزيز رمزاً لطالب الدنيا وأسير الهوى ومن يوسف رمزاً مقابلاً لذلك .
(٢) آية ٤٢ سورة فاطر .

قوله تعالى : « وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ » : لَمَّا فَتَحَا الْبَابَ وَجَدَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ،
والإشارة فيه إلى أن ربك بالمرصاد ؛ إِذَا خَرَجَ الْعَبْدُ عَنِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ مِنَ التَّكْلِيفِ فِي الْحَالِ
وَقَعَ فِي ضَيْقِ السُّؤَالِ .

ويقال قال : « أَلْفَيَا سَيِّدَهَا » ولم يقل سَيِّدَهَا لِأَنَّ يَوْسُفَ فِي الْحَقِيقَةِ كَانَ حُرًّا وَلَمْ يَكُنِ
الْعَزِيزُ لَهُ سَيِّدًا .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا
إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

شَغَلَتْهُ بِإِغْرَائِهَا إِيَّاهُ بِيُوسُفَ عَنْ نَفْسِهَا بِأَنْ سَبَقَتْ إِلَى هَذَا الْكَلَامِ .
ويقال لقننه حديث السجن أو العذاب الأليم لثلاثا يقصد قننه ؛ ففى عين ما سَعَتْ بِهِ تَطَرَّتْ
لَهُ وَأَبَقَتْ عَلَيْهِ .

ويقال قالت ما جزاء من فعل هذا إلا السجن فإن لم تَرْضَ بِذَلِكَ ، وَتَزِيدَ ؛ فَالْعَذَابُ
الْأَلِيمُ يَعْنِي الضَّرْبَ الْمُبْرَحَ . . . كَأَنَّمَا ذَكَرْتَ حَدِيثَ الْعُقُوبَةِ بِالتَّدرِجِ .
ويقال أوقعت السجن الذى يبقى مؤجلاً فى مقابلة الضرب الأليم المعجل لِيُعْلَمَ أَنَّ السَّجْنَ
الطَوِيلَ — وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فِي الظَّاهِرِ أَلَمٌ — فَهُوَ فِي مَقَابِلَةِ الضَّرْبِ الشَّدِيدِ الْمَوْجِعِ ؛ لِأَنَّهُ —
وَإِنْ اشْتَدَّ فَلَا يَقَابِلُهُ .

ويقال قالت : « مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ؟ » فَذَكَرُ الْأَهْلَ هَاهُنَا غَايَةً تَهْبِيجُ الْحَمِيَّةَ
وَتَذَكِيرُ بِالْأَنْفَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ هِيَ رَأَوْدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ
شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قِيَصُهُ قَدْ
مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ
السَّكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قِيَصُهُ قَدْ
مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ
الصَّادِقِينَ * فَلَمَّا رَأَى قِيَصَهُ قَدْ مِنْ

دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنْ إِنَّ كَيْدَكُنْ
نَظِيمٌ * .

أفصح يوسف عليه السلام بِجُرْمِهَا إِذْ لَبَسَ لِلْفَاسِقِ حُرْمَةً يَجِبُ حِفْظُهَا ، فَلَمْ يُبَالِ أَنْ
هَتَكَ سِتْرَهَا فَقَالَ . « هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي » فَلَمَّا كَانَ يَوْسُفُ صَادِقًا فِي قَوْلِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ
شَاهِدٌ أَنْطَقَ اللَّهُ الصَّبِيَّ الصَّغِيرَ الَّذِي لَمْ يَبْلُغْ أَوَانَ النُّطْقِ ^(١) . وَلِهَذَا قِيلَ إِذَا كَانَ الْعَبْدُ صَادِقًا
فِي نَفْسِهِ لَمْ يُبَالِ اللَّهُ أَنْ يُنْطِقَ الْحَجَرَ لِأَجَلِهِ .

قوله : « فَلَمَّا رَأَى قَيْصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ . . . » لَمَّا اتَّضَحَ الْأَمْرُ وَاسْتَبَانَ الْحَالُ وَظَهَرَ
بِرَاءَةُ سَاحَةِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ الْمَرْيُومُ : « إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنْ » : دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الزَّانَا
كَانَ مُحَرَّمًا فِي شَرْعِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي
لَذَنْبِكِ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْغَاطِلِينَ ﴾

لَمْ يُرَدَّ أَنْ يَهْتَكِ سِتْرَ امْرَأَتِهِ فَقَالَ لِيَوْسُفَ : أَعْرِضْ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ ، ثُمَّ قَالَ لَهَا :
« وَاسْتَغْفِرِي لَذَنْبِكِ » : دَلٌّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي شَرْعِهِمْ عَلَى الزَّانَا حُدًّا — وَإِنْ كَانَ مُحَرَّمًا
حَيْثُ عَدَّهُ ذَنْبًا .

وَيُقَالُ لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ أَهْلًا لِلْبَلَاءِ ؛ لِأَنَّ الْبَلَاءَ مِنْ صِفَةِ أَرْبَابِ الْوَلَاءِ ، فَأَمَّا الْأَجَانِبُ
فَيَتَجَاوَزُ عَنْهُمْ وَيُخْلَى سَبِيلُهُمْ — لَا لِكِرَامَةٍ تَحُلُّهُمْ — وَلَكِنْ لِحَقَارَةِ قَدْرِهِمْ ، فَهَذَا يَوْسُفُ
عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ بَرِيءًا السَّاحَةِ ، وَظَهَرَ لِلْكَلِّ سَلَامَةُ جَانِبِهِ وَابْتِلَى بِالسَّجْنِ . وَامْرَأَةُ
الْعَزِيزِ فِي سُوءِ فِعْلِهَا حَيْثُ قَالَ : « إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنْ » ، وَقَالَ لَهَا : « وَاسْتَغْفِرِي لَذَنْبِكِ » . .
ثُمَّ لَمْ تَنْزِلْ بِهَا شُظْيَةً مِنَ الْبَلَاءِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ

(١) قِيلَ هُوَ صَبِيٌّ فِي الْمَهْدِ وَهُوَ ابْنُ خَالِهَا . وَاسْمُ قَوْلِهِ شَهَادَةٌ لِأَنَّهُ أَدَّى مُؤَدَى الشَّهَادَةِ فِي أَنْ تَبَيَّنَتْ
بِهِ قَوْلُ يَوْسُفَ وَبَطَلَ قَوْلُهَا (التَّلَقَّى ج ٢ ص ٢١٨) .

تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا
إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٨٢﴾

إنَّ الهوى لا ينكتم ، ولا تكون المحبة إلا وأبيع لها لسان عدول ، فلما تحققت محبتها
ليوسف بسطت النسوةُ فيها لسانَ الملامة .

ولما كانت أحسنَ منهن قِيةً — فقد كُنَّ من جملة خَدَمِهَا — كانت أسرعَ إلى الملامة .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ
إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكِنًا
وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا
وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيَّهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ
كَبِرْنَ لَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ
حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا
إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ قالت فذلِكُنَّ
الذى لُتُّنِي فِيهِ ولقد رَأَوُذُّهُ عَنْ
نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ
لَيُصْجِنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٨٣﴾

أرادت أن يغلب عليهن استحقاقُ الملامة ، وتنفِّيَ عن نفسها أن تكون لها (١) أهلاً ،
ففعلت بهن ما عَمِلَتْ ، فلَمَّا رَأَيْنَهُ تَغَيَّرْنَ وَتَحَيَّرْنَ ونطقن بخلاف التمييز ، فقلن : « ما هذا
بشراً » : وقد كان بشراً ، وقلن « إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ » : ولم يكن مَلَكًا .

قوله : « فذلِكُنَّ الذى لُتُّنِي فِيهِ » : أثَرَتْ رُؤْيَاهُنَّ لَهُ فِيهِنَّ فَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ بدل الثمار ،
ولم يشعرن ، وضعفن بذلك عندها فقالت : ألم أقل لكن ؟ أنتن لم تمالكن حتى قَطَّعْتِنَّ
أَيْدِيَكُنَّ ! فكيف أصبر وهو فى منزلى ١٩ وفى معناه أنشدوا :

(١) أى أهلاً للملامة .

(أنت عند الخصام عدوى)^(١)

ويقال^(٢) إن امرأة العزيز كانت أتم في حديث يوسف — عليه السلام — من النسوة فأثرت رؤيته فيهن ولم تؤثر فيها ، والتغير صفة أهل الابتداء في الأمر ، فإذا دام المعنى زال التغير ؛ قال أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — لمن رآه يبكي وهو قريب العهد في الإسلام : هكذا كنّا حتى قست القلوب . أى وقّرت^(٣) وصلبت . وكذا الحريق أول ما يطرح فيها الماء يُسمع له صوت فإذا تعود شرب الماء سكّن فلا يُسمع له صوت .

قوله جل ذكره : ﴿ قال رب السّجن أحبّ إلىّ مما يدعونني إليه ، وإلاّ تصرف عني كيدهنّ أصب إليهنّ وأكن من الجاهلين ﴾

الاختبار مقرون بالاختيار ؛ ولو تميّ العافية بدل ما كان يدعى إليه لعلّه كان يُعافى ، ولكنه لما قال : « السجن أحبّ إلىّ مما يدعونني إليه » طوّبَ بِصِدْقِ ما قال .

ويقال إن يوسف عليه السلام نطق من عين التوحيد حيث قال : « وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن » فقد علم أن نجاته في أن يصرف — سبحانه — البلاء عنه لا بتكليفه ولا بتجنّيه .

ويقال لما آثر يوسف — عليه السلام — لحوق المشقة في الله على لذّة نفسه آثره عصره حتى قيل له : « تالله لقد آثرك الله علينا »^(٤)

قوله جل ذكره : ﴿ فاستجاب له ربّه فصرف عنه كيدهنّ إنه هو السميع العليم ﴾

(١) بقية البيت مضطربة في الكتابة ، ومطموسة في بعض المواضع .

(٢) القشيري هنا مستفيد من رأى استاذّه أنى على الدقاق .

(٣) انظر رأى الدقاق في رسالة القشيري في مى التلوين والتكبين ص ٤٤)

(٤) وقّرت = أصابها الثقل .

(٤) آية ٩١ من سورة يوسف .

لَمَّا رَجَعَ إِلَى اللَّهِ بِصَدَقِ الْإِسْتِغَاثَةِ تَدَارَكَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِوَشْيِكِ الْإِغَاثَةِ... كَذَلِكَ
مَا غَيْرُ. لِأَحَدٍ — فِي اللَّهِ تَعَالَى — قَدَمٌ إِلَّا رَوْحَهُ بِكَرَمِهِ وَتَوَلَّاهُ بِنِعَمِهِ — إِنَّهُ هُوَ « السَّمِيعُ »
لِأَقْوَالِ السَّائِلِينَ ، « الْعَلِيمُ » بِأَحْوَالِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ
لَيَسْجُنَنَّهُ فَحَيَّ حِينَ ﴾

لَمَّا سَجَنَ يُوسُفَ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — مَعَ ظُهُورِ بَرَاءَةِ سَاحَتِهِ اتِّقَاءً عَلَى امْرَأَتِهِ أَنْ يَهْتَكَ
سِتْرُهَا حَوْلَ اللَّهِ مُلْكِهِ إِلَيْهِ ، ثُمَّ فِي آخِرِ الْأَمْرِ حَكَمَ اللَّهُ بِأَنْ صَارَتْ امْرَأَتُهُ بَعْدَ مَقَاسَمَاتِهَا
الضَّرِّ... وَهَذَا جَزَاءُ مَنْ صَبَرَ .

وَيُقَالُ لَمَّا ظَلِمَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَا نُسِبَ إِلَيْهِ أَنْطَقَ اللَّهُ تِلْكَ الْمَرْأَةَ حَتَّى قَالَتْ
فِي آخِرِ أَمْرِهَا بِمَا كَانَ فِيهِ هُنَاكَ سِتْرُهَا ، فَقَالَتْ : « الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوِدْتُهُ
عَنْ نَفْسِهِ » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانِ
قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا
وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُجْلُ فَوْقَ
رَأْسِ خُبْرَآ تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا
بِنَاوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

لِصَحْبَةِ السَّجْنِ أَثَرٌ يَظْهَرُ وَلَوْ بَعْدَ حَيٍّ ؛ فَإِنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا قَالَ لِصَاحِبِهِ
أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَبَقِيَ يُوسُفُ فِي السَّجْنِ زَمَانًا ، ثُمَّ إِنْ خَلَّصَهُ
كَانَ عَلَى لِسَانِهِ حَيْثُ قَالَ : فَأَرْسَلُوا إِلَى يُوسُفَ وَقِيلَ لَهُ : « يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا... »
الآيَةُ « فَالْصَّحْبَةُ تُعْطَى بِرَّ كِتَابَتِهَا وَإِنْ كَانَتْ تُبْطِئُ » .

قوله : « إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » : الشَّهَادَةُ بِالْإِحْسَانِ لِلْمُحْسِنِ ذَرِيعَةٌ ، بِهَا يَتَوَسَّلُ
إِلَى اسْتِجْلَابِ إِحْسَانِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمُ طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ
 إِلَّا نَبَأُ تُسْكِبْنَا وَيَلَهُ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَكُمَا
 ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ
 قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ
 هُمْ كَافِرُونَ ﴾

التَّثَبُّتُ فِي الْجَوَابِ دون التسرع من أمارات أهل المكارم ، كيوسف عليه السلام وعدما
 أن يجيبهما ولم يُسرع الإجابة في الوقت .
 ويقال لما أخر الإجابة علقَ قلوبهما بالوعد ؛ وإذا لم يكن تقدُّ فليكن وعدٌ .
 ويقال لما فاتحوه بسؤالهم قدَّم على الجواب ما اقترحه عليهما من كلمة التوحيد فقال :
 « ذلك مما علَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ . . . » ثم قال :

﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي لِإِبْرَاهِيمَ
 وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ
 نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ
 فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ
 أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

ولما فرغ من تفسير التوحيد ، والدعاء إلى الحق سبحانه أجابهما فقال :

﴿ يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرُبَّابٌ مُنْفَرِقُونَ
 خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ *
 مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ
 سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
 بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ
 أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ
 وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

هكذا كاد يوسف عليه السلام ألا يسكت . . . أخذ في شرح التوحيد وذكر المعبود ،
وفي الخبر : مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا
فَيَسْتَقِي رَبَّهُ خَيْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ
فَيُصَلِّبُ فَنَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ
قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾

اشتركا في السؤال واشتركا في الحكم وفي دخول السجن ، ولكن تباينا في المآل ؛
واحدٌ صُلبَ ، وواحدٌ قُربَ ووُهبَ . . وكذا قضايا التوحيد واختيار الحق ؛ فَمِنْ مَرْفُوعٍ :
فوق السَّالِكِ مَطْلَعُهُ ، ومن مدفونٍ : تحت التراب مضجعه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي
عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ
فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ .

يتبين أن تعبير الرؤيا — وإن كان حقا — فهو بطريق غلبة الظن دون القطع .
ثم إنه عاتب يوسف عليه السلام لأنه نسي في حديثه مَنْ يستعين به حين قال : « اذكرني
عند ربك » .

ويقال إنه طلب من بشرٍ عوضاً على ما علمه ، وفي بعض الكتب المنزلة : يا ابن آدم ،
علم مجانا كما علمت مجانا .

ولما استعان بالخلق طال مكثه في السجن ، كذلك يجازي الحق — سبحانه — مَنْ
يَعْلَنُ قَلْبَهُ بِمَخْلُوقٍ .

قوله ذكره : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ
يَمْشَيْنَ يَأْكُلْنَ سَبْعَ عِجَافٍ وَسَبْعَ
سُنْبُلَاتٍ خُضَرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ .

يا أيها الملأ أفنوني في رؤياي إن
كنتم للرؤيا تعبرون * .

كان ابتداء بلاء يوسف — عليه السلام — بسبب رؤيا رآها فَنَشَرَهَا وأظهرها ، وكان
سبب نجاته أيضا رؤيا رآها الملك فأظهرها ، لِيَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَرِيدُ ؛ فكما جعل بلاءه في
إظهار رؤيا جعل نجاته في إظهار رؤيا^(١) ؛ لِيَعْلَمَ الكافة أن الأمر بيد الله يفعل ما يشاء .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ
الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴾ .

حال الرؤيا لا يختلف بالخطأ في التعبير ، فإن القوم حكموا بأن رؤياه أضغاث أحلام فلم
يُضِرَّهُ ذلك ، ولم يؤثر في صحة تأويلها .

قوله : « وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » : مَنْ طَلَبَ الشَّيْءَ مِنْ غَيْرِ مَوْضِعِهِ لم
يَنْلُ مطلوبه ، ولم يَسْعَدَ بمقصوده .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ
أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾

لَمَّا كَانَ المَعْلُومُ لله والمحكوم أن يوسف عليه السلام يكون في ذلك الوقت هو مَنْ يُعَبِّرُ
الرؤيا — قَبَضَ القلوبَ حتى خَفِيَ عليها تعبير تلك الرؤيا ، ولم يحصل للسلك تلك الصِّدْرِ
إلا بتعبير يوسف^(٢) ، لِيَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ — سبحانه — إذا أراد أمراً سهَّلَ أسبابه .

ويقال : إن الله تعالى أفرَد يوسف عليه السلام من بين أشكاله بشيئين : بِحُسْنِ الْخُلُقَةِ
وبزيادة العلم ؛ فكان جماله سبب بلاءه ، وصار علمه سبب نجاته ، لتُعَلِّمَ مَزِيَّةُ الْعِلْمِ عَلَى
غَيْرِهِ ، لهذا قيل : العلم يُعْطَى وإن كان يُبْطَلَى .

(١) يهدف العشري إلى شيء بعيد هو أن المقاييس الإنسانية نسبية ولا تؤدي حتماً إلى الصواب ،
وبالتالي لا ينبغي تطبيقها على ما يجري في الكون من تصاريف إلهية .
(٢) يصلح هذا التصور — على نحو ما — لتفسير كرامات الأولياء .

ويقال إذا كان العلم بالرؤيا يوجب الدنيا فالعلم بالمولى أولى أن يوجب العقبى ، قال تعالى :
« وَإِذَا رَأَيْتَ نَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكًا كَبِيراً » (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا
حَصَدْتُمْ فَذَرُّوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا
مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ .

لم يقدم الدعاء إلى الله تعالى على تعبير هذه الرؤيا كما فعل في المرة الأولى ، لأن هذا السائل
هو الذى دعاه في المرة الأولى . فإمّا أنه قد قُبِلَ في المرة الثانية ، وإمّا أنه لم يقبل فَبَيَّسَ
منه فأمله .

وصاحب الرؤيا الثانية كان المَلِكَ وكان غائباً ، والوعظ والدعاء لا يكونا إلا في المشاهدة
دون المغيبة .

ويقال يحتمل أن يكون قد تفرّس في الفَتَيَانِ قبولَ التوحيد فإنَّ الشباب أَلِينُ قَلْبًا ،
أمّا في هذا الموضع فقد كان المَلِكُ أَصْلَبَ قَلْبًا وَأَفْظَ جَانِبًا ؛ فلذلك لم يَدْعُهُ إلى التوحيد لِمَا
تفرّس فيه من الغِلظة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ
الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ
مَا بَالُ النُّسُوءِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ
إِنَّ رَبِّي بَكِيدٌ هَكِيمٌ ﴾ .

أراد عليه السلام ألا يلاحظه المَلِكُ بعين الخيانة فَيُسْقِطَهُ عِيَهُ من قلبه ؛ فلا يؤثر فيه
قوله ، فلذلك تَوَقَّفَ حتى يَظْهَرَ أمرُهُ للمَلِكِ وتنكشف براءةُ ساحته .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكَ إِنَّ دِرَّاءَ دَاوُدَ بْنَ يَوْسُفَ

٤

(١) آية ٢٠ سورة الإنسان .

من نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه
من سوء ﴿١﴾

الحقائق لا تنكمم أصلاً ولا بدءاً من أن تبين... ولو بعد حين .

نسب يوسف إلى ما كان منه بريئاً ، وأنب على ذلك مدة ، وكان أمره في ذلك خفياً .
ثم إن الله تعالى دفع عنه التهمة ورفع عنه المظنة ، وأنطق عذاله ، وأظهر حاله ، عما فرق به
سرباله ^(١) ؛ فقلن : « حاش لله ما علمنا عليه من سوء » .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ
الْحَقُّ أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ
لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

لما كانت امرأة العزيز غير تامة في محبة يوسف تركت ذنبها عليه وقالت لزوجها :
« ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم » ولم يكن ليوسف عليه السلام
ذنب . ثم لما تناهت في محبته أقوت بالذنب على نفسها فقالت : « الآن حصحص الحق ... »
فالتهاى في الحب بوجوب هتك السر ، وقلة المبالاة بظهور الأمر والسر ^(٢) ، وقيل :

لَيَقُلَنَّ مَنْ شَاءَ مَا شَاءَ فَإِنِّي لَا أَبَالِي

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ
وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾

إنما أراد الله أن يظهر براءة ساحرة يوسف ، لأنه علم أنهم يستحقون العقوبة على ما يسيطون
فيه من لسان الملامة وذكر القبيح ، ولم يرذ يوسف أن يصيبهم بسببه — من قبل الله — عذاب

(١) السر قال = القبيح .

(٢) من هذه الإشارة نستطيع بطريق غير مباشر أن نعرف موقف القشيري من قضية هامة وهي :
هل يصح المحب الواله عن حبه المكتون أم يكتنم ؟ وهل تنفر له شطحاته في هذا الموقف أم لا ؟

كَفَّكَ مِنْهُ عَلَيْهِمْ ، وَهَذِهِ هِبَةُ الْأَوْلِيَاءِ : أَنْ يَكُونُوا خَصْمَ أَنْفُسِهِمْ ، وَلِهَذَا قِيلَ : الصَّوْفِيُّ دَمَهُ
هَدَرٌ وَمِلْكُهُ مُبَاحٌ^(١) — وَلِلَّذَلِكَ قَالَ :

﴿ وَمَا أُبْرئُ نَفْسِي إِنْ النَّفْسُ لَأَمَّارَةٌ
بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنْ رَبِّي غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴾

لَمَّا تَمَدَّحَ بِقَوْلِهِ : « ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » كَأَنَّهُ نُوْدِي فِي سِرِّهِ : وَلَا حِينَ هَمَمْتَ ؟
فَقَالَ : « وَمَا أُبْرئُ نَفْسِي ! »^(٢)

وَيُقَالُ : قَوْلُهُ « لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » بَيَانُ الشُّكْرِ عَلَى مَا عَصَمَهُ اللَّهُ ، وَقَوْلُهُ :
« وَمَا أُبْرئُ نَفْسِي » بَيَانُ الْعُذْرِ لَمَّا قَصُرَ فِي أَمْرِ اللَّهِ ، فَاسْتَوْجِبَ شُكْرَهُ زِيَادَةَ الْإِحْسَانِ ،
وَأَسْتَحَقَّ بِمَنْدَرِهِ الْعَفْوَ .

وَالْعَفْوُ بَادٍ مِنْ قَوْلِهِ :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ اتَّقُونِي بِهِ أَشْتَخِلُصَهُ
لِنَفْسِي فَلَمَّا سَكَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ
لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ .

لَمَّا انْضَحَتْ لِلْمَلِكِ طَهَارَةٌ فِعْلُهُ وَنَزَاهَةُ حَالِهِ اسْتَحْضَرَهُ لَاسْتَنْصِفَانَهُ لِنَفْسِهِ ، فَلَمَّا سَكَّمَهُ
وَسَمِعَ بَيَانَهُ رَفَعَ مَحَلَّهُ وَمَكَانَهُ ، وَضَمَّنَهُ بِرِّهِ وَإِحْسَانَهُ ، فَقَالَ : « إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ »
قَوْلُهُ جَلْ ذَكَرَهُ : ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي
حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾

إِنَّمَا سَأَلَ ذَلِكَ لِيَضَعَ الْحَقَّ مَوْضِعَهُ ، وَلِيَصِلَ نَصِيبُ الْقُرَاءِ إِلَيْهِمْ ، فَطَلَبَ حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى
فِي ذَلِكَ ، وَلَمْ يَطْلُبْ نَصِيبًا لِنَفْسِهِ .

وَيُقَالُ لَمْ يَقُلْ إِنِّي حَسَنٌ جَمِيلٌ بَلْ قَالَ : إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ أَيْ كَاتِبٌ حَاسِبٌ ، لِيُعْلَمَ أَنَّ
الْفَضْلَ فِي الْمَعَانِي لَا فِي الصُّورَةِ .

(١) هَذَا تَعْرِيفُ الصَّوْفِيِّ عِنْدَ سَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقُسَيْتَرِيِّ (الرِّسَالَةُ ص ١٣٩) .

(٢) هَذَا نُمُودَجٌ لِمُقَاوَمَةِ دَعْوَى النَّفْسِ وَمُحَارَبَةِ افْتِرَارِهَا عَلَى الدَّوَامِ ، وَعَدَمِ الْاطْمِئْنَانِ إِلَى مَصَالِحِهَا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ
يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ
بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ
الْحَسَنِينَ ﴾ .

لما لم تكن له دواعي الشهوات من نفسه مَكَّنَهُ اللهُ من مُلْكِهِ — قال تعالى : « وَمَنْ
يَقْتِرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا ^(١) » — فقال : « وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْحَسَنِينَ » .

ثم أخبر عن حقيقة التوحيد ، وبين أنه إنما يوفى عباده من ألطافه بفضله لا بفعلهم ،
وبرحمته لا بخدشهم ؛ فقال : « نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ » ثم يرقى همهم عما أولاهم من النعم فقال :
﴿ وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا
وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ .

لِيُعْلَمَ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ التَّقْوَى وَمُخَالَفَةِ الْهَوَى .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ
فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ .

عرَفَ يوسفُ — عليه السلام — إخوته وأنكروه ، لأنهم اعتقدوا أنه في رِقِّ العبودية
لما باعوه ، بينما يوسف — في ذلك الوقت — كان قاعداً بمكان الملك . فَمَنْ طلب الملك في
صفة العبيد متى يعرفه ؟

وكذلك مَنْ يعتقد في صفات المعبود ما هو من صفات الخلق . . . متى يكون عارفاً ؟
هيهات هيهات لما يحسبون !

ويقال لما أخفوه هُنا خفاؤه حجاباً بينهم وبين معرفتهم إياه ، كذلك العاصي .. بخطايا
وزلاته تقع غبرة على وجه معرفته .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي

(١) آية ٦٣ سورة الشورى .

بَاخِرْ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي
أَوْفَى الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿١﴾

المحب غيورٌ ؛ فلما كان يعقوب عليه السلام قد تسلى عن يوسف برؤية ابنه بنيامين غار يوسف أن ينظر إليه يعقوب (١).

ويقال تَلَطَّفَ يوسف في استحضار بنيامين بالترغيب والترهيب ، وأما الترغيب ففي ماله الذي أوصله إليهم وهو يقول : « أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفَى الْكَيْلِ » وفي إقباله عليهم وفي إكرامه لهم وهو يقول : « وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ » .
وأما الترهيب فبمنع المال وهو يقول :

﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْمِنُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ
عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُون ﴾

أى فإن لم تؤمنوني عليه فلا كيل لكم عندي ، وأمنع الإكرام والإقبال عنكم .
قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا سُرَّادُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾
لما علم يوسف من حالهم أنهم باعوه بشئ بخس عليم أنهم يأتونه بأخيهم طمعاً في إيفاء الكيل ، فلن يصعب عليهم الإتيان به .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَ لِبَتِي انْجِلُوا بِضَاعَتَهُمْ
فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّكُمْ تَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا
إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّكُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

جعل بضاعتهم في رحالهم — في باب الكرم — أتم من أن لو وهبها لهم جهراً ؛ لأنه يكون حينئذ فيه تقليد منه بالمواجهة ، وفي تملكها لهم بإشارة تجرؤ من تكلف تقليد منه بالحاضرة (٢).

ويقال عليم أنهم لا يستحلون مال الغير قدس بضاعتهم في رحالهم ، لكن إذا رأوها قالوا : هذا وقع في رحالنا منهم بغلط ، فالواجب علينا ردُّها عليهم . وكانوا يرجعون بسبب ذلك شاعوا أم أبوا .

(١) وكذلك فإن الحق غيرة على عبده المؤمن أن يساكن سواه .

(٢) وكذلك نعمة الحق تأتي في خفاء ... وقل من يفتن إليها .

قوله جل ذكره . ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا
مُنِّعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا
نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

لم يمنع يوسف منهم الكيل ، وكيف منع وقد قال : « ألا ترون أنى أوفى الكيل » ؟
ولكنهم تجاوزوا فى ذلك تفخياً للأمر حتى تسمع نفس يعقوب عليه السلام بإرسال
بنيامين معهم .

ويقال أرادوا بقولهم : « مُنِّعَ مِنَّا الْكَيْلُ » فى المستقبل إذا لم تحمله إليه .
ويقال إنهم تَلَطَّفُوا فى القول ليعقوب — عليه السلام — حيث قالوا : « أَخَانَا » إظهاراً
لشفقتهم عليه ، ثم أكَّدوا ذلك بقولهم : « وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا آمَنَ تَكُمُ
عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ؟ ﴾

مَنْ عَرَفَ الْخِيَانَةَ لَا يَلَاظُ الْأَمَانَةَ ، ولذا لم تسكن نفس يعقوب بضامنهم لِمَا سَبَقَ
إليه من شأنهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ
الرَّاحِمِينَ ﴾

« الله خير حافظاً » : يحفظ بنيامين فلا يصيبه شئ من قبلهم .
ولم يقل يعقوب فالله خير من يرده إلى ، ولو قال ذلك لعله كان يرده إليه سريعاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ
رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ
بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا
وَنَحْفِظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ
كَيْلُ بَعِيرٍ ﴾

بين يوسف — عليه السلام — أنه حين جاملهم لم يحتج إلى عوض يأخذه منهم ،

فلما باعهم وجمع لهم الكيل ما أخذ منهم ثمناً ، والإشارة من هذا إلى قوله تعالى : « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم » .

وكل من خطا للذين خطوة كافأه الله تعالى وجزاه ، فجمع له بين روح الطاعة ولذة العيش من حيث الخدمة .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ : اللَّهُ عَلَى مَا تَقُولُ وَكِيلٌ ﴾

إن الحذر لا يغني عن القدر . وقد عمل يعقوب — عليه السلام — معهم في باب بنيامين ما أمكنه من الاحتياط ، وأخذ الميثاق ولكن لم يغني عنه جهاده ، وحصل ما حكم به الله .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

يحتمل أن يكون أراد تفريقهم في الدخول لعل واحداً منهم يقع بصره على يوسف ، فإن لم يره أحدهم قد يراه الآخر^(١) .

ويقال ظن يعقوب أنهم في أمر يوسف كانوا في شدة العناية بشأنه ، ولم يعلم أنهم كارهون لمكانه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ

(١) نحسب أنه ربما كان الأمر بتفريقهم مرده إلى أنه في الجماعة تختل المسئولية الفردية إذ تذوب في الكيان الجماعي ، بينما يكبر الشعور بالمسئولية إذا كانوا آحاداً ، وقد قالوا ليعقوب من قبل (لئلا أكله الذئب ونحن عصبة) .

مَا كَانَ يُبْنَى عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ
إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ
لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠﴾

إن لم يحصل مقصود يعقوب عليه السلام في المال حصل مراده في الحال ، وفي ذلك القدر
لأرباب القلوب استقلال .
ويقال على الأصغر حفظ إشارات الأكابر ، والقول فيها يأمر به هل فيه فائدة أم لا -
ترك للأدب .

ويقال إذا كان مثل يعقوب عليه السلام يشير على أولاده ، وينبغي به حصول مراده ..
ثم لا يحصل مراده علم أنه لا ينبغي أن يعتقده في الشيوخ أن جميع ما يريدون يتحقق كونه
على ما أرادوا ؛ لأن الذي لا يكون إلا ما يريد ، واجباً وما أراداه فهو كائن . . هو الله
الواحد القهار

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ
أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ
بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

حديث المحبة وأحكامها أقسام : اشتاق يعقوب إلى لقاء يوسف عليهما السلام فبقي سنين
كثيرة ، واشتاق يوسف إلى بنيامين فرزق رؤيته في أوجز مدة .
وهكذا الأمر ؛ فمنهم موقوف به ، ومنهم صاحب بلاء .

ويقال لئن سَخَنْتُ^(١) عين يعقوب عليه السلام بفارقة بنيامين فلقد قرئت عين يوسف
بلقاءه . كذا الأمر : لا تغرب الشمس على قوم إلا وتطلع على آخرين .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ
فِي رِجْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَيْنَاهَا
الْعِيرُ لَكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾

(١) سَخَنْتُ العين أى لم تقَرَّ

احتمل بنيامين ما قيل فيه من السرقة بعدما التقى مع يوسف .
ويقال : ما سُبَّ إليه من سوء الفعل هان عليه في جنب ما وجد من الوصال .
ويقال لئن سَبَّ يوسفُ أخاه للسرقة فقد تعرَّفَ إليه بقوله : إني أنا أخوك — سرّاً ،
فكان مُحْتَمِلاً لأعباء الملامة في ظاهره ، محمّلاً بوجودان الكرامة في سرِّه ، وفي
معناه أنشدوا :

أَجِدُّ الملامةَ في هوائِكَ لذيذةً حُبّاً لذكرِكَ فَلْيَلْمُنِي اللّوْمُ
قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتُنَا لِنُفْسِدَ
فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾

يعنى حُسْنُ سيرتنا في سير المعاملة يدلّكم على حسن سيرتنا في الحالة .
ويقال لو كُنَّا لسرق متاعكم لما رددناه عليكم ولَمَّا وجدتموه في رحالنا بعد أن
غَبْنَا عنكم .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا فَمَا جزاؤه إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ؟ ﴾
تجاسر إخوة يوسف بجريان جزاء السرقة عليهم ثقة بأنفسهم أنهم لم يُباشروا الزَّلةَ ،
وكان بنيامين شريكهم في براءة السّاحة ، فلما استخرج الصّاع من وعائه بسطَ الإخوة فيه
لسانَ اللّامة ، وبقى بنيامين ^(١) فلم يكن له جوابٌ كأنه أقرَّ بالسرقة ، ولم يكن ذلك صدقاً
إذ أنه لم يسرق ، ولو قال : لم أفعلْ لأفشي سرَّ يوسف عليه السلام الذي احتال بهم ذلك
لأجله حتى يُبقيهم معه ، فسكتَ لسان بنيامين ، وتحقّق بالحالِ قلبه .

ويقال لم يستصعب الملامة — وإن كان بريئاً — مما قرّن به ، ولا يضُرُّ سوء المقالة
بالمكاشفين بعد حُسْنِ الحالة مع الأحباب .

ويقال سيء بما أظهرت عليه المقالة ، ولكن حصل له بذلك صفاء الحالة .
قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ

(١) يصلح بنيامين — كما يصوره القشيري — نموذجاً لواحد من أهل الملامة ، لو دققنا النظر
في إشارات القشيري بصدده .

مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ
وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا ،
وَاللَّهُ أَتَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿١٠﴾ .

كان بنيامين بريثا مما رُمي به من السرقة ، فأنطقهم الله تعالى حتى رموا يوسف عليه السلام بالسرقة ، واحدٌ بواحدٍ ليعلم العالمون أن الجزاء واجبٌ .
ويقال كان القُرحُ بالقَدَحِ أَوْجَعُ مَا يَجْتَمِعُ يَوْسُفُ مِنْهُمْ ^(١) ؛ حيث قالوا :
« إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ » فقد كان ذلك أشدَّ تأثيراً في قلبه من الجفاء الأول .

ويقال إِذَا حَنَقَ عَلَيْكَ الْمَلِكُ فَلَا تَأْمَنْ غِيَبَهُ — وَإِنْ طَالَتِ الْمُدَّةُ — فَإِنْ يَوْسُفَ عَلَيْهِ
السَّلامُ حَنَقَ عَلَيْهِمْ فَلَقُوا فِي الْمُسْتَأْنَفِ مِنْهُ مَا سَاءَ مِنْ حَبْسِ أَخِيهِ ، وَمَا صَاحِبِهِمْ مِنَ الْخُلُجْلِ
مِنْ أَيْيِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا
كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ — إِنَّا
نُرَاكَ مِنَ الْهُنَاقِ ﴾ .

لم تنفعهم كثرة التَّنصُّلِ ، وما راموا به من ذكر أَيْيِهِمْ ابتغاء التوسُّلِ ، ولم ينفعهم ما قيل
منهم حين عَرَضُوا عَلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَ أَحَدَهُمْ فِي الْبَدَلِ . . كذلك فكلُّ مُطَالِبٍ بفعل نفسه :
لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ؛ فَلَا الْآبُ يُؤْخَذُ بِذَلِكِ الْوَلَدِ ، وَلَا الْقَرِيبُ يُرَضَّى بِهِ عَوْضًا عَنْ
أَحَدٍ ؛ لِذَلِكَ قَالَ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلامُ :

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ
وَجَدْنَا مُتَاعِنًا عَنْدَهُ إِنَّا إِذَا
لظَالِمُونَ ﴾ .

توهموا أن الحديث معهم من حيث معاملة الأموال ، فعرضوا أنفسهم كي يؤخذَ واحدٌ
منهم بِدَلِّ أَخِيهِمْ ، ولم يعلموا أن يوسف عليه السلام كادهم في ذلك ، وأنَّ مقصوده من

(١) القُرح = الجرح ، والقَدَح = العيب في عرض غيرك .

ذلك ما استكن في قلبه من حب لأخيه ، وكلاً . . أن يكون عن المحبوب بَدَلٌ أو لقوم
مقامٌ أحدي . . وفي معناه أنشدوا :

إذا أوصلتنا الخلدَ كما تُدِيننا أبينا وقلنا : أنت أولى إلى القلب
وقيل :

أحب لي وبغضت إلي ساء ما لهن ذنوبُ

قوله جل ذكره : ﴿ فلما استياسوا منه خلصوا نجياً ﴾

قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم
قد أخذ عليكم ميثاقاً من الله
ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن
أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي
أو يحكم الله لي وهو خير
الحاكين .

لما علموا أن يوسف عليه السلام ليس يبرح عن أخيه خلا بعضهم ببعض فعملت فيهم
الخلعة ، وعلموا أن يعقوب في هذه الكثرة يتجدد له مثلاً أسلفوه من تلك القطة ، فلم يرجع ،
أكبرهم إلى أبيهم ، وتناهى إلى يعقوب خبرهم ، فاتهمهم وما صدقهم ، واستخونهم وما استوثقهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن
ابنك سرق وما شهدنا إلا بما عملنا
وما كنا للغيب حافظين ﴾

كان لهم في هذه الكثرة حجة على ما قالوه ، ولكن لم يسكن قلب يعقوب عليه السلام
إليها ، فإن تعين الجرم في المرة الأولى أوجب التهمة في الكثرة الأخرى .

قوله جل ذكره : ﴿ واسأل القرية التي كنا فيها والعير
التي أقبلنا فيها وإننا لصادقون ﴾

ما ازدادوا إقامة حجة إلا ازداد يعقوب — عليه السلام — في قولهم شبهة .

ويقال : في مُساءلة الأطلال أَخَذُ قُلُوبَ الْأَحْبَابِ ، وَسَلَوَةُ لِأَسْرَارِهِمْ .. وهذا البابُ
مما للشرح فيه مجال .

قوله جل ذكره ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا
فَصَبِرْ جَوِيلٌ عسى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي
بِهِمْ جَمِيعًا ﴾

لجأ إلى قُرْبِ خِلاصِهِ مِنَ الضَّرِّ بِالصَّبْرِ .

ويقال لما وعد من نفسه الصبر فلم يَمْسُ حتى قال : « يَا أَسْفَا عَلَى يَوْسُفَ » لِيُعْلَمَ أَنَّ عَزَمَ
الْأَحْبَابِ عَلَى الصَّبْرِ مَنْقُوضٌ غَيْرُ مَحْفُوظٍ ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَا عَلَى يَوْسُفَ
وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ
كَظِيمٍ ﴾

تَوَلَّى عَنِ الْجَمِيعِ — وَإِنْ كَانُوا أَوْلَادَهُ — لِيُعْلَمَ أَنَّ الْحُبَّ لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ .

ويقال أراد إخوة يوسف أن يكون إقبالُ يعقوب عليهم بالكَلْبَةِ فَأَعْرَضَ ، وَتَوَلَّى عَنْهُمْ ،
وَفَاتَهُمْ مَا كَانَ لَهُمْ ، وَلِهَذَا قِيلَ : مَنْ طَلَبَ الْكُلَّ فَاتَهُ الْكُلُّ .

ويقال لم يَجِدْ يَعْقُوبُ مُسَاعِدًا لِنَفْسِهِ عَلَى تَأْسِفِهِ عَلَى يَوْسُفَ فَتَوَلَّى عَنِ الْجَمِيعِ ، وَانْفَرَدَ
بِإِظْهَارِ أَسْفِهِ ، وَفِي مَعْنَاهُ أُنْشَدُوا :

فَرِيدٌ عَنِ الْخِلَائِنِ فِي كُلِّ بَلَدٍ إِذَا عَظُمَ الْمَطْلُوبُ قَلَّ الْمُسَاعِدُ

ويقال كان بكاء داود عليه السلام أكثرَ من بكاء يعقوب عليه السلام ، فلم يذهب بَصَرُ
داود وذهب بَصَرُ يعقوب ؛ لِأَنَّ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَكَى لِأَجْلِ يَوْسُفَ وَلَمْ يَكُنْ فِي قُدْرَةِ

(١) يوضح القشيري هذا المعنى في رسالته حيث يقول : [واعلم أن الصبر على ضربين : صبر العابدين
وصبر المحبين ، فصبر العابدين أحسنه أن يكون محفوظاً وصبر المحبين أحسنه أن يكون مرفوضاً ، وفي هذا
المعنى سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول : أصبح يعقوب وقد وعد من نفسه — فصبر جويل — ثم لم يمس
حتى قال . يَا أَسْفَا عَلَى يَوْسُفَ] الرسالة ص ٩٠ .

يوسف أن يحفظ بصره من البكاء لأجله ، وأما داود فقد كان يبكي لله ، وفي قدرة الله — سبحانه — ما يحفظ بصر الباكي لأجله .

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق — رحمه الله — يقول ذلك ، وقال رحمه الله : إن يعقوب بكى لأجل مخلوق فذهب بصره ، وداود بكى لأجل الله فبقى بصره .

وسمعت — رحمه الله — يقول : لم يقل الله : « عَمِيَ يَعْقوب » ولكن قال : « وَايَضَتْ عَيْنَاه » ، لأنه لم يكن في الحقيقة عَمِيَ ، وإنما كان حجاباً عن رؤية غير يوسف (١) .

ويقال كان ذهاب بصر يعقوب حتى لا يحتاج إلى أن يرى غير يوسف ، لأنه لا شيء أشد على الأحباب من رؤية غير المحبوب في حال فراقه ، وفي معناه أشدوا :

لَا تَيَقَّنْتُ أَنِّي لَسْتُ أَبْصِرْكُمْ أَغْمَضْتُ عَيْنِي فَلَمْ أَنْظُرْ إِلَى أَحَدٍ

وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول : كان يعقوب عليه السلام يتسلى برؤية بنيامين في حال غيبة يوسف ، فلما بقي عن رؤيته قال : « يَا أَسْنَا عَلَى يَوْسُفَ » أي أنه لما مُنِعَ من النظر كان يتسلى بالآخر ، فلما بقي عن النظر قال : يَا أَسْنَا عَلَى يَوْسُفَ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى

تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ

الْهَالِكِينَ ﴾

هددوه بأن يصير حرَضاً — أي مريضاً مشرفاً على الهلاك — وقد كان ، وخوفوه مما لم يبال أن يصيبه حيث قالوا « أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ » .

ويقال أطيب الأشياء في الهلاك ما كان في حكم الهوى — فكيف يُخَوَّفُ بالهلاك من كان أحب الأشياء إليه الهلاك ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي

إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

شكا إلى الله ولم يشك من الله ، ومن شكا إلى الله وصل ، ومن شكا من الله انفصل .

(١) هذا نموذج من التذوق للنس القرآن لا يظن إليه إلا أبواب الذوق الصوق .

ويقال لما شكَا إلى الله وَجَدَ الْخَلْفَ مِنْ اللَّهِ .

ويقال كان يعقوبُ — عليه السلام — مُتَحَمِّلًا بِنَفْسِهِ وَقَلْبِهِ ، وَمُسْتَرِيحًا مَحْوَلًا بِسِرِّهِ
وروحه ؛ لأنه عَلِمَ مِنْ اللَّهِ — سبحانه — صِدْقَ حَالِهِ فَقَالَ : « وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » ،
وفى معناه أَلْشَدُّوا :

إِذَا مَا نَمَتْنِي النَّاسُ رَوْحًا وَرَاحَةً تَمَنَيْتُ أَنْ أَشْكُو إِلَيْكَ فَتَسْمَعَا

قوله جل ذكره : ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يَوْسُفَ
وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ
لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ
الكَافِرُونَ ﴾

كان يعقوب عليه السلام يبعث بنيه في طلب يوسف ، وكان الإخوة يخرجون بطلب
للسيرة وفي اعتقادهم هلاك يوسف . . وكلُّ إنسانٍ وهمه .

ويقال قوله « فتحسسوا من يوسف وأخيه » أمرٌ بطلب يوسف بجميع حواسِّهم ؛
بالبَصَرِ لعلَّهم تقع عليه أعيُنهم ، وبالسَّمْعِ لعلَّهم يسمعون ذِكْرَهُ ، وبالشَّمِّ لعلَّهم يجدون
ريحته ؛ وقد توهم يعقوب أنهم مثله في إرادة الوقوف على شأنه . ثم أحاطهم على فضل الله حيث
قال : « لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

ويقال لم يكن ليعقوب أحدٌ من الأولاد بمكان يوسف ، فظهر من قَلْبِهِ الصَّبْرُ عليه
ما ظهر ، وآثَرَ غَيْبَةَ الْبَاقِينَ مِنَ الْأَوْلَادِ فِي طَلَبِ يَوْسُفَ عَلَى حُضُورِهِمْ عِنْدَهُ . . فشتان بين
حاله معهم وبين حاله مع يوسف ؛ واحدٌ لم يَرَهُ فَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ بِفِرْقَتِهِ ، وآخرون
أَمَرُهُمْ — بِاخْتِيَارِهِ — بِغَيْبَتِهِمْ عَنْهُ ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ
مَسْنَا وَأَهْلْنَا الْفُرُُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ

(١) هنا لفظة ذكيلة إلى أننا قد نحب ونهلك في حب من لا نراه أعيُننا . . فإذا صح هذا بالسبب لظروف
مثلنا فكيف بالسبب لبارئنا وخالفنا ؟ !
ثم إنه التقريب والإبعاد يرتبطان بالاجتماع الإلهي وحده .

مَرْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ
علينا إن الله يجزي للمتصدقين ﴿٢٠٢﴾

لما دخلوا على يوسف خاطبوه بذكر الضر، ومقاساة الجوع والفقر، ولم يذكروا حديث يوسف عليه السلام، وما لأجله وجههم أبوم.

ويقال استلطفوه بقولهم: «مَسْنَأَ وَأَهْلْنَا الضَّرُّ» ثم ذكروا بعد ذلك حديث قلة بضاعتهم.

ويقال لما طالعوا قهرهم نطقوا بِقَدَرِهِمْ فقالوا: وجئنا ببضاعة مزجاة — أى رديئة — ولما شاهدوا قَدَرَ يوسف سألوا على قَدَرِهِ فقالوا: أَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ.

ويقال قالوا كُنَّا كَيْلًا يَلِيقُ بِفَضْلِكَ لَا بِفَقْرِنَا، وبكرمك لا بِعَدَمِنَا، ثم تركوا هذا اللسان وقالوا: «وتصدق علينا»: نزلوا أَوْضَعَ تَمْثِيلًا؛ كأنهم قالوا: إن لم نستوجب معاملة البيع والشراء فقد استحققنا بَذْلَ العطاء، على وجه المكافأة والجزاء.

فإن قيل كيف قالوا وتصدق علينا وكانوا أنبياء — والأنبياء لا تحل لهم الصدقة؟ فيقال لم يكونوا بعد أنبياء، أو لعل في شرعهم كانت الصدقة غير مُحَرَّمَةٍ على الأنبياء.

ويقال إنما أرادوا أَنْ مِنْ رَائِنَا مَنْ نَحِلُّ لَهُ الصَّدَقَةَ.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾

افتضحوا بحضرة يوسف عليه السلام وقالوا: «فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ» فعرفهم فعلهم ووقفهم عند أحدهم فقال: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه؟ يعنى إن من عامل يوسف وأخا، بمثل معاملتكم فلا ينبغي له أن يتجاسر في الخطاب كتجاسركم.

ويقال إن يوسف عليه السلام قال لهم: أنهيتم كلامكم، وأكثرتم خطابكم، فما كان في حديثكم إلا ذكر ضرورتكم. أفلا يخطر ببالكم حديث أخيك يوسف؟ وذلك في باب العتاب أعظم من كل عقوبة

ولما أخجلهم حديث العناب لم يَرْضَ يوسفُ حتى بسطَ عندهم فقال : « إذ أنتم جاهلون » (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ :
أَنَا يوسُفُ وهذا أخى قد مَنَّ اللهُ
علينا إنه من يتَّقِ ويَصْبِرْ فإن الله
لا يُضِيعُ أَجْرَ الْحَسَنِينَ ﴾

في الابتداء حين جهلوه كانوا يقولون له في الخطاب : « يا أيها العزيز » فلما عرفوه قالوا :
« إِنَّكَ لَأَنْتَ يوسُفُ » ؛ لأنه لما ارتفعت الأجنبية سقط التكلف في المخاطبة ،
وفي معناه أُلشِدوا :

إِذَا صَفَتْ الْمَوَدَّةُ بَيْنَ قَوْمٍ وَدَادُمْ قَبِيحَ الشَّهَادَةِ

ويقال إنَّ التفاضلَ والتفارقَ بين يوسف وإخوته سَبَقَا التواصُلَ بينه وبين يعقوب
عليهما السلام ؛ فالإخوة خَبَرَهُ عرفوه قبلَ أَنْ عَرَفَهُ أبوه ليعلمَ أن الحديث بلا شك .

ويقال لم يتقدموا على أبيهم في استحقاق الخبر عن يوسف ومعرفة ، بل إنهم
- وإن عرفوه - فلم يلاحظوه بعين المحبة والخلعة ، إنما كان غرضهم حديث الميرة والطعام فقط ،
فقال : « أنا يوسف وهذا أخى » : يعنى إني لَأَخٌ لِيَشِلُّ هذا لالمتلكم ؛ ولذا قال :
« أنا يوسف وهذا أخى » ، ولم يقل وأنتم إخواني ، كأنه أشار إلى طرفٍ من العناب ،
يعنى ليس ما عاملتموني به ففعل الإخوة .

ويقال هوَّْن عليهم حالَ بَدَاهَةِ (٢) الخجلة حيث قال « أنا يوسف » بقوله : « وهذا أخى » ،
وكأنه شَغَلَهُمْ بقوله : « وهذا أخى » كما قيل في قوله تعالى : « وما تلك بيمينك يا موسى »
إنه سبحانه شَغَلَ موسى عليه السلام باستماع : « وما تلك بيمينك يا موسى » بمطالعة العصا
في عين ما كُشِفَ به من قوله : « إني أنا الله » .

(١) واضح أن التشبُّه يطبق فكرة القبض والبسط في هذه الإشارة .

(٢) بداهة الخجلة = مفاجئتها

ثم اعترف بوجدان الجزاء على الصبر في مقاساة الجهد والعناء فقال : « إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق - رحمه الله - يقول لما قال يوسف : « إنه من يتق ويصبر » أحال في استحقاق الأجر على ما عمل من الصبر . . . فأنطقهم الله حتى أجابوه بلسان التوحيد فقالوا : « تالله لقد آثر الله علينا » يعني ليس بصبرك يا يوسف ولا بتقواك ، وإنما هو بإيثار الله إياك علينا ؛ فبه تقدمت علينا بمحمدك وتقواك . فقال يوسف - على جهة الاتقياء للحق : « لا تريب عليكم اليوم » ؛ فأسقط عنهم اللوم ، لأنه لما لم يرتقوا من نفسه حيث نبهوه عليه نطق عن التوحيد ، وأخبر عن شهود التقدير^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا تالله لقد آثر الله علينا وإن كنا لخاطئين ﴾

اعترفوا بالفضل ليوسف - عليه السلام - حيث قالوا : لقد آثر الله علينا ، وأكّدوا إقرارهم بالقسم بقولهم « تالله » وذلك بعد ما جحدوا فضله بقولهم : « ليوسف وأخوه أحب إلى أينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين » ، وهكذا من جحد فلأنه ما شهد ، ومن شهد فما جحد .

ويقال لما اعترفوا بفضله وأقرّوا بما اتصفوا به من جرّهم بقولهم : « وإن كنا لخاطئين » وجدوا التجاوز عنهم حين قال يوسف :

﴿ قال لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾

أسرع يوسف في التجاوز عنهم ، ووعد يعقوب لهم بالاستغفار بقوله : « سوف أستغفر لكم ربي » لأنه كان أشدّ حباً لهم فعاتبهم ، وأما يوسف فلم يرمهم أهلاً للعتاب فتجاوز عنهم على الوهلة ، وفي معناه أنشدوا :

ترك العتاب إذا استحق أخ منك العتاب ذريعة الهجر

(١) خلاصة رأى الدقاق أنه ليس بعمل الإنسان يصل ولكن بفضل الله واختياره ، وحتى عمل الإنسان فهو أيضاً يتم بفضل الله واختياره . . . وذلك أصل من أصول المذهب الشيعي كما وضع في مواضع متفرقة.

ويقال أصابهم — في الحال — من الخجلة ما قام مقام كل عقوبة ، ولهذا قيل :
كفى للمقصر الحياه يوم اللقاء .

قوله جل ذكره : ﴿ اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾

البلاء إذا هجم هجم مرة ، وإذا زال زال بالتدريج ، حلّ البلاء بيعقوب مرة واحدة حيث قالوا : « فأكله الذئب » ولما زال البلاء .. فأولاً وجدّ ربح يوسف عليه السلام ، ثم قبض يوسف ، ثم يوم الوصول بين يدي يوسف ، ثم رؤية يوسف .
ويقال لما كان سببُ البلاء والعى قبض يوسف أراد الله أن يكون به سببُ الخلاص من البلاء^(١) .

ويقال علم أن يعقوب عليه السلام — لما يلحقه من فرط السرور — لا يطيقه عند أخذ القميص فقال : « فألقوه على وجه أبي » .

ويقال القميص لا يصلح إلا للباس إلا قبض الأحباب فإنه لا يصلح إلا لوجدان ربح الأحباب .

ويقال كان العى في العين فأمر بإلقاء القميص على الوجه ليجد الشفاء من العى .
ويقال لما كان البكاء بالعين التي في الوجه كان الشفاء في الإلقاء على العين التي في الوجه ، وفي معناه أنشدوا :

وما بات مطوياً على أريحية عُقَيْبُ النوى إلا فتى ظل مغرمًا

وقوله « وأتوني بأهلكم أجمعين » : لما علم حزن جميع الأهل عليه أراد أن يشترك في الفرح جميع من أصابهم الحزن .

(١) ويضاف إلى ذلك أن عدم تمزق قميص يوسف كان دلالة على براءة الذئب ، وأن تمزقه من دبر كان دلالة على براءة يوسف من تهمة البغاء . وهذا وذاك يمكن أن يكون قميص يوسف رمزاً لموحيات كثيرة في القصة .

ويقال عَلمَ يوسفُ أن يعقوبَ لن يطبقَ على القيام بكفاية أمور يوسف فاستحضَره ،
إبقاءً على حاله لا إخلالاً لقدره وما وَجَبَ عليه من إجلاله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَ الْمِيرُ قَالَ أَبُو مَرْيَمَ إِنِّي
لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ .

ما دام البلاء مُقْبِلًا كان أمرُ يوسفَ وحديثه — على يعقوب — مُشْكَلًا ، فلما زالت
الحنة بعثت بكل وجه حاله .

ويقال لم يكن يوسف بعيداً عن يعقوب حين ألقوه في البُلبُ ولكن اشتبه عليه خبره
وحالُه ، فلما زال البلاء وَجَدَ رِيحَهُ وبينهما مسافة ثمانين فرسخاً — من مصر إلى كنعان .

ويقال إنما انفرد يعقوبُ عليه السلام بوجودان ريح يوسف لانفرداه بالأسف عند فقدان
يوسف . وإنما يجد ريح يوسف مَنْ وَجَدَ على فراق يوسف ^(١) ؛ فلا يعرف ريح الأحباب
إلا الأحبابُ ، وأما على الأجانب فهذا حديثٌ مُشْكِلٌ . . إذ أنى يكون للإسان ريح ؟
ويقال لفظ الريح هاهنا توسع ^(٢) ، فيقال هبَّتْ رياحُ فلانٍ ، ويقال إني لأَجِدُ ريحَ الفتنة ..
وغير ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ لَوْلَا أَن تَفَنَّدُونَ ﴾

تَفَرَّسَ فِيهِمْ أَنَّهُمْ يَبْسُطُونَ لِسَانَ الْمَلَامَةِ فَلَمْ يَنْجَعْ فِيهِمْ قَوْلُهُ ، فزادوا في الملامة فقالوا : —

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾

قرنوا كلامهم بالشم ، ولم يحتشوا أباهم ، ولم يرأعوا حقَّه في المخاطبة ، فوصفوه بالضلال
في المحبة .

ويقال إن يعقوب عليه السلام قد تعرَّفَ من الريح لسيم يوسف عليه السلام ، وخبر
يوسف كثير حتى جاء الإذن للرياح ، وهذه سنَّةُ الأحباب : مساطلة الديار ومخاطبة الأطلال ،
وفي معناه أنشدوا :

(١) لاحظ الجمال في أسلوب القشيري في (يجد) ريح يوسف و (وجد) على فراقه .

(٢) كلمة (توسع) يستخدمها القشيري بمعنى (مجاز) — ذلك الاصطلاح البلاغي المعروف .

وَإِنِّي لَأَسْهَدُ الرِّيحَ نَسِيمِكُمْ إِذَا هِيَ أَقْبَلَتْ نَحْوَكُمْ يَهْبُوبُ
وَاسْأَلْهَا حَلَّ السَّلَامِ إِلَيْكُمْ فَإِنَّ هِيَ يَوْمًا بَلَّغَتْ فَأَجِيبُوا

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ
فَارْتَدَّ بِصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي
أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

لو أُلْقِيَ قَيْصُ يَوْسُفَ عَلَى وَجْهِ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْعَمِيَانِ لَمْ يَرْتَدَّ بِصَرِّهِمْ ، وَإِنَّمَا رَجَعَ
بَصَرُ يَعْقُوبَ بِقَيْصِ يَوْسُفَ عَلَى الْخُصُوصِ ؛ فَإِنَّ بَصَرَ يَعْقُوبَ ذَهَبَ لِفِرَاقِ يَوْسُفَ ، وَلَمَّا
جَاءُوا بِقَيْصِهِ أَنْطَقَ لِسَانَهُ ، وَأَوْضَحَ بَرَهَانَهُ ، فَقَالَ لَهُمْ : « أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ
مَا لَا تَعْلَمُونَ » عَنْ حَيَاةِ يَوْسُفَ ، وَفِي مَعْنَاهُ أَنْشَدُوا :

وَجْهَكَ الْمَأْمُولُ حُجَّتُنَا يَوْمَ يَأْتِي النَّاسُ بِالْحُجَجِ

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾

كُلُّ لِسَانٍ وَهْمٌ ؛ وَقَعَ يَعْقُوبُ وَيَوْسُفُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فِي السَّرُورِ وَالِاسْتِبْشَارِ ، وَأَخَذَ
إِخْوَةَ يَوْسُفَ فِي الْاعْتِدَارِ وَطَلَبِ الْاسْتِغْفَارِ .

وَيَقَالُ إِخْوَةُ يَوْسُفَ — وَإِنْ سَكَّتْ مِنْهُمْ الْجَفْوَةُ كَلَّمُوا أَبَاهُمْ بِلِسَانِ الْإِنْبِسَاطِ لِتَقْدِيمِ
شَفَقَةِ الْأَبَوَةِ عَلَى مَا سَبَقَ مِنْهُمْ مِنَ الْخَطِيئَةِ .

وَيَقَالُ يَوْمٌ يَوْمٌ ؛ الْيَوْمَ الَّذِي كَانَ يَعْقُوبُ مُحْزُونًا بِغَيْبَةِ يَوْسُفَ فَلَا جَرَمَ الْيَوْمَ كَانَ
يَعْقُوبُ مَسْرُورًا بِقَيْصِ يَوْسُفَ ، وَكَانَ الْإِخْوَةُ فِي الْخُلْجَةِ مِمَّا عَمَلُوا بِيَوْسُفَ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ
هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

وَعَدَهُمُ الْاسْتِغْفَارَ لِأَنَّهُ لَمْ يَفْرَغْ مِنْ اسْتِبْشَارِهِ إِلَى الْاسْتِغْفَارِ .
وَيَقَالُ لَمْ يُجِيبْهُمْ عَلَى الْوَهْلَةِ لِيَدْلُهُمْ عَلَى مَا قَدَّمُوا مِنْ سُوءِ الْفَعْلَةِ ؛ لِأَنَّ يَوْسُفَ كَانَ غَائِبًا

وقتشير ، فوعدم الاستغفار في المستأنف — إذا رضى عنهم يوسف حيث كان الحق أكثره له ، ونو كان كله ليعقوب لوهمهم على الفور .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مَعِيَ مِصْرَ إِنِّي شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾

اشتركوا في الدخول ولكن تباينوا في الإيواء ، فانفرد الأبوان به لبعدهما عن الجفاء ، كذلك غدا إذا وصلوا إلى الغفران يشتركون في وجود الجنان ، ولكنهم يتباينون في بساط القرية فيختص به أهل الصفاء دون من اتصف اليوم بالاستواء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾

أوقف كلاً بمحلّه ، فرفع أبويه على السرير ، وترك الإخوة نازلين بأما كنهم . قوله : « وخرّوا له سجداً » : كان ذلك سجود تحية ، فكذلك كانت عادتهم . ودخل الأبوان في السجود — في حق الظاهر — لأن قوله « خروا » إخبار عن الجميع ، ولأنه كان عن رؤياه قد قال : إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين « وقال هاهنا : « هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

شهد إحصائه فشكره . . كذلك مَنْ شهد النعمة شكراً ، وَمَنْ شهد المنعم حمداً^(١)
وذَكَرَ حديثَ السجن — دون البئر — لطول مدة السجن وقلة مدة البئر .

وقيل لأن فيه تذكيراً بِجُرْمِ الإخوة وكانوا ينجلون . وقيل لأن « السجن أحب إلى مما يدعوني إليه » . وقيل لأنه كان في البئر مرفوقاً به والمبتدئ يُرْفَقُ به وفي السجن فقد ذلك الرفق لقوة حاله ؛ فالضعيف مرفوق به والقوى مُشَدَّدٌ عليه في الحال ، وفي معناه أُنشدوا :

وأسررتني حتى إذا ما سببتني بقول يحل العضم سهل الأباطح
نجافيت عني حين لا لي حيلة وغادرت ما غادرت بين الجوانح
وفي قوله : « وجاء بكم من البدو » إشارة إلى أنه كما سرَّ برؤية أبويه سرَّ بإخوته — وإن كانوا أهل الجفاء ، لأنَّ الأخوة سبقت الجفوة^(٢) .

قوله : « من بعد أن نزع الشيطان بيني وبين إخواني » أظهر لهم أمرهم بما يشبه العذر ، فقال كان الذي جرى منهم من نزغات الشيطان ، ثم لم يرض بهذا حتى قال : « بيني وبين إخواني ، يعني إن وجدَّ الشيطان سبيلاً إليهم ، فقد وجد أيضاً إلى حيث قال : « بيني وبين إخواني » . ثم نطق عن عين التوحيد فقال : « إن ربي لطيف لما يشاء » فبلفظه عصمهم حتى لم يقتلوني .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾

من حرف تبعيض ؛ لأن الملك — بالكمال — لله وحده .

ويقال الملكُ الذي أشار إليه قسيمان : مُلْكُهُ في الظاهر من حيث الولاية ، وملكُ علي نفسه حتى لم يعمل ما هم به من الزلة .

(١) أي إن (الحمد) أعلى درجة من (الشكر) . . وهكذا تثرى البحوث الصوفية اللغة .
(٢) ربما يرى القشيري من بعيد إلى أن يشير إلى أن الحق — سبحانه — يتفضل بكرمه على عباده — حتى ولو كانت منهم جفوة — لأنهم عباده أولاً . . وإلى هذا يشير في موضع آخر من كتابه .
« عبيد . . إن لم تكن لي . فأنا لك »

ويقال ليس كلُّ مُلْكٍ المخلوقين الاستيلاء على الخلق ، إنما المُلْكُ — على الحقيقة — صفاء الخلق .

قوله : « وعلمني من تأويل الأحاديث » : التأويل للخواص ، وتفسير التنزيل للعوام ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ

وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا

وَالْحَقِّي بِالصَّالِحِينَ ﴾

« فاطر السموات والأرض » — هذا ثناء ، وقوله : « توفني » — هذا دعاء .

فقدّم الثناء على الدعاء ، كذلك صفة أهل الولاء .

ثم قال : « أنت ولي في الدنيا والآخرة » ، هذا إقرارٌ يقطع الأسرار عن الأغيار .

ويقال معناه : الذي يتولى في الدنيا والآخرة بعرفاته أنت ؛ فليس لي غيرك في الدارين .

قوله : « توفني مسلماً » : قيل علم أنه ليس بعد الكمال إلا الزوال فسأل الوفاة .

وقيل من أمارات الاشتياق تمنّي الموت على بساط العوافي ^(٢) مثل يوسف عليه السلام أُلقيَ

في الحب فلم يقل توفني مسلماً ، وأقيم فيمن يزيد ^(٣) فلم يقل توفني مسلماً ، وحُلبس في السجن

سنين فلم يقل توفني مسلماً ، ثم لما تم له المُلْكُ ، واستقام الأمر ، ولقي الإخوان سجّداً ، وألقى

أبويه معه على العرش قال :

« توفني مسلماً » ، فعلم أنه كان يشنق للقاءه (سبحانه) .

وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق — رحمه الله يقول . قال يوسف ليعقوب : عَلِمْتَ أَنَا

نلتقي فيما بعد الموت . . فلم بكيت كل هذا البكاء ؟

(١) تصلح هذه العبارة لتوضيح الفرق — في نظر القشيري — بين كلّي التأويل والتفسير .

(٢) هذه العبارة والاستشهاد عليها من قصة يوسف أوردهما القشيري منسويين لشيوخه الدقاق في الرسالة ص ١٦٣ .

(٣) (أقيم فيمن يزيد) لم ترد في النص السابق بالرسالة . ومعناها : نودي عليه ليبيع كالعبيد بعد إخراجه من البئر .

فقال يعقوب ، يا بُنَيَّ إِنَّ هَناكَ طَرُقًا ، خِفْتُ أَنْ اسلِكَ طَرِيقًا وَأَنْتَ تَسْلِكُ طَرِيقًا ،
فقال يوسف عند ذلك : « توفني مسلمًا » .

ويقال إن يوسف — عليه السلام — لما قال : توفني مسلمًا ، فلا يبعد من حال يعقوب
أن لو قال : يا بني دَعْنِي أَشْتَنِي بِلِقَائِكَ مِنَ الَّذِي مُنِيتُ بِهِ فِي طَوْلِ فِرَاقِكَ ، فلا تُسَعِّني
— بهذه السرعة — قَوْلَكَ : توفني مسلمًا .

قوله جلَّ ذكره . ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ
إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا
أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ .

تبيِّن للكافة أن مثل هذا البيان لهذه القصة على لسان رجلٍ أميٍّ لا يكون
إلا بتعريف سهاويٍّ

ويقال كونُ الرسولِ — صلى الله عليه وسلم — أميًا في أول أحواله علامةُ شَرَفِهِ وَعُلُوِّ
قُدْرِهِ في آخر أحواله ، لأنَّ صِدْقَهُ في أن هذا من قِبَلِ اللَّهِ إِنَّمَا عُرِفَ بِكَوْنِهِ أَمِيًّا ، ثم أتى
بمثل هذه القصة من غير مداورة كتاب .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ
بِمُؤْمِنِينَ ﴾

أخبر عن سابق علمه بهم ، وصادق حُكْمِهِ حَكْمَتَهُ فِيهِمْ .

ويقال معناه : أَقَمْتُكَ شَاهِدًا لِإِرَادَةِ إِيْمَانِهِمْ ، وَشِدَّةِ الْجُرْحِ عَلَى تَحْقِيقِهِمْ بِالذِّينِ ،
وإِيْقَانِهِمْ . ثم إِنِّي أعلم أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ أَكْثَرُهُمْ ، وَأَخْبَرْتُكَ بِذَلِكَ ، وَفَرَضَ عَلَيْكَ تَصْدِيقِي
بِذَلِكَ ، وَفَرَضْتُ عَلَيْكَ إِرَادَتِي كَوْنِ مَا عَلِمْتُ أَنَّهُ لَا يَكُونُ مِنْ إِيْمَانِهِمْ .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ
إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾

هذه سُنَّةُ اللَّهِ — سبحانه — مع أنبيائه حيث أَمَرَهُمْ بِالْأَلَا يَأْخُذُوا عَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ

عِوَضًا وَلَا أَجْرًا ، وكذلك أمره للعلماء — الذين هم وَرَثَةُ الأنبياء عليهم السلام — بِالْأَمْرِ
يَأْخُذُوا مِنَ الْخَلْقِ عِوَضًا عَلَى دَعَائِهِمْ إِلَى اللَّهِ ، فَمَنْ أَخَذَ مِنْهُمْ حَظًّا مِنَ النَّاسِ لَمْ يُبَارَكْ لِلْمُسْتَمِيعِ فِيهَا
يَسْمَعُ مِنْهُ ؛ فَلَا لَهُ أَيْضًا بَرَكَةٌ فِيهَا يَأْخُذُ مِنْهُمْ فَتَنْقَطِعَ بِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَأَيُّنَ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا
مُعْرِضُونَ ﴾ .

الآياتُ ظاهرة ، والبراهين باهرة ، وكلُّ جُزْءٍ مِنَ المخلوقات شاهِدٌ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ ،
ولكن كما أَنَّ مَنْ أَغْمَضَ عَيْنَهُ لَمْ يَسْمَعْ بِضَوءِ نَهَارِهِ فَكَذَلِكَ مَنْ قَصَرَ فِي نَظَرِهِ وَاعْتَبَارِهِ
لَمْ يَحْظَ بِعِرْفَانِهِ وَاسْتِبْصَارِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ
مُشْرِكُونَ ﴾ .

الشُّرْكُ الْجَلِيُّ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ دُونِهِ — سُبْحَانَهُ — مَعْبُودًا ، وَالشُّرْكُ الْخَفِيُّ أَنْ يَتَّخِذَ
بِقَلْبِهِ عِنْدَ حَوَائِجِهِ مِنْ دُونِهِ — سُبْحَانَهُ — مَقْصُودًا .

ويقال شُرْكُ الْعَارِفِينَ أَنْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ مَشْهُودًا ، أَوْ يَطَالَعُوا سِوَاهُ مَوْجُودًا^(١) .

ويقال مِنَ الشُّرْكِ الْخَفِيِّ الْإِحَالَةُ عَلَى الْأَشْكَالِ فِي تَجَنُّسِ الْأَحْوَالِ ، وَالْإِخْلَادُ إِلَى
الِاخْتِيَارِ وَالِاحْتِيَالِ^(٢) عِنْدَ تَزَاوُلِ الْأَشْغَالِ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ
اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

أَفَأَمِنَ الَّذِي اغْتَرَّ بِطُولِ الْإِمْهَالِ أَلَّا يُبْتَلَى بِالِاسْتِثْصَالِ ، أَفَأَمِنَ مَنْ اغْتَرَّ بِطُولِ
السَّلَامَةِ أَلَّا يَقُومَ الْبَلَاءُ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

(١) أَيْ (مَوْجُودًا) عَلَى الْحَقِيقَةِ .

(٢) (الِاحْتِيَالُ) مَعْنَاهَا اللُّجُوءُ إِلَى الْحِيلَةِ أَيْ التَّدْبِيرِ الْإِنْسَانِيِّ بَلْ يُلْبِغِي لِسْقَاطِ التَّدْبِيرِ وَاللُّجُوءِ
إِلَى التَّعَدُّبِ الْإِلَهِيِّ .

ويقال الغاشية حجابٌ من القسوة يحصل في القلب، لا يزول بالتضرع ولا ينقشع بالتخشع
ويقال الغاشية من العذاب أن تزول من القلب سرعة الانقلاب إلى الله تعالى ، حتى إذا
تمادى صاحب الغفلة استقبله في الطريق ما يوجب قنوطه من زواله ، وفي معناه أنشدوا :

قلتُ للنَّفْسِ إنْ أردتِ رجوعاً فارجى قَبْلَ أَنْ يُسدَّ الطريقُ

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى

بصيرةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ

وما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

« البصيرة » : اليقين الذي لا مَرِيَّةَ فيه ، والبيان الذي لا شك فيه . البصيرة يكون
صاحبها مُلَاطَفاً بالتوفيق جَهراً ، ومكاشفاً بالتحقيق سراً .

ويقال البصيرة أن تطلع شمسُ العرفانِ ؛ فتندرجُ فيها أنوارُ نجومِ العقل .

قوله « أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي » أي ذلك سبيلي، وسبيلُ مَنْ اقتدى بهدي فهو أيضاً على بصيرة

قوله جل ذكره : ﴿ وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا

نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ

يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ

كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ؟

وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

تعجبوا أن يبعث الله إلى الخلق بشراً رسولاً ، فبيّن أنه أجرى سُنَّتَه — فيمن تقدّم
من الأمم — ألا يكون الرسولُ إليهم إلا بشراً ، فإما أن جحدوا جواز بعثة الرسولِ أصلاً ،
أو أنهم استنكروا أن يبعث بشراً رسولاً .

ثم أمرهم بالاستدلال والتفكير والاعتبار والنظر فقال : « أفلم يسيرا في الأرض . . ؟ »

قوله جل ذكره : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَلُّوا أَنَّهُمْ

قَدْ كَذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّى مَنْ
تَشَاءُ وَلَا يَرُدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ
الْمُجْرِمِينَ *

حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم ، وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ كَذِبُوا — والظن ها هنا
بمعنى اليقين — فعند ذلك جاءهم نصرنا ؛ للرسل بالنجاة ولأقوامهم بالهلاك ، وَلَا مَرَدٌّ^(١) لبأسنا
ويقال حكم الله بأنه لا يفتح للمريدين^(٢) شيئاً من الأحوال إلا بعد يأسهم منها ، قال
تعالى : « وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته »^(٣) ؛ فكما أنه يُنَزَّلُ المطر
بعد اليأس فكذلك يفتح الأحوال بعد اليأس منها والرضا بالإفلاس عنها .

قوله جل ذكره : * لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي
الْأَلْبَابِ ، ما كان حديثاً يُفْتَرَى
ولكن تصديق الذى بين يديه
وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة
لقوم يؤمنون * .

عِبْرَةٌ مِمَّا لِلْعَالَمِينَ فِي بَسْطِ الْعَدْلِ كَمَا بَسَطَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَتَأْمِينِهِمْ أَحْوَالَ الرِّعْيَةِ
كَأَفْعَلِ يُوسُفَ حِينَ أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ ، وَأَعْتَقَهُمْ حِينَ مَلَكَهُمْ .
وعِبْرَةٌ فِي قَصَصِهِمْ لِأَرْبَابِ التَّقْوَى ؛ فَإِنْ يُوسُفَ لَمَّا تَرَكَ هَوَاهُ رَقَّاهُ اللَّهُ إِلَى مَا رَقَّاهُ .
وعِبْرَةٌ لِأَهْلِ الْهَوَى فِيمَا فِي اتِّبَاعِ الْهَوَى مِنْ شِدَّةِ الْبَلَاءِ ، كَامْرَأَةِ الْعَزِيزِ لَمَّا تَبِعَتْ هَوَاهَا
لَقِيتَ الْضُرَّ وَالْفَقْرَ .

وعِبْرَةٌ لِلْعَالَمِينَ فِي حَضْرَةِ السَّادَةِ ، كَيُوسُفَ لَمَّا حَفِظَ حَرَمَةَ زَلِيخَا مَلَكَ مُلْكَ الْعَزِيزِ ،
وَصَارَتْ زَلِيخَا امْرَأَتَهُ حَلَالاً .

(١) سقطت الدال من (لا مرد) فأثبتناها .

(٢) وردت (المرتدين) وهى خطأ فى النسخ فالكلام عن أحوال (المريدين) ، كذلك فإن الله لا يفتح
على (المرتدين) شيئاً فهم مفضوون عليهم .

(٣) آية ٢٨ سورة القورى .

وعبرةٌ في العفو عند المقدرة ، كيوسف عليه السلام حين تجاوز عن إخوته .
وعبرةٌ في ثمرة الصبر ، فيعقوب لما صبر على مقاساة حزنه ظفر يوماً بلبقاء يوسف عليه السلام^(١) .

السورة التي يذكر فيها « الرعد »

بسم الله الرحمن الرحيم

« بسم الله » كلمةٌ سماعها يُورِثُ لقومٍ طلباً ثم طرباً ، ولقومٍ حزنًا ثم هرباً ، فمن سمع بشاهد الرجاء طلب وجود رحمة فأذنه لها طرب ، ومن سمع بشاهد الرهبة حزن من خوف عقوبته ثم إليه هرب .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي

أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ۖ

أقسم بما تدل عليه هذه الحروف من أمثاله إن هذه آيات الكتاب الذي أخبرت أني أنزل عليك

فالآلف تشير إلى اسم « الله » ، واللام تشير إلى اسم « اللطيف » ، والميم تشير إلى اسم « المجيد » ، والراء تشير إلى اسم « الرحيم » . فقال بسم الله اللطيف المجيد الرحيم إن هذه آيات الكتاب الذي أخبرت أني أنزله على محمد — صلى الله عليه وسلم . ثم عطف عليه بالواو قوله تعالى : « والذي أنزل إليك من ربك الحق » هو حق وصدق ، لأنه أنزله على نبيه — صلى الله عليه وسلم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ

أى ولكن الأكثر من الناس من أصناف الكفار لا يؤمنون به ، فهم الأكثر عدداً ، والأقلون قدراً وخطراً

قوله جل ذكره : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ

تُرُونَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ۖ

(١) أحسن التفسيرى إذ جل خاتمة السورة بمثابة خلاصة دقيقة لها ، وأوضح العبرة المستفادة من دور كل شخصية فيها .

دَلَّ عَلَى صِفَاتِهِ وَذَاتِهِ بِمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ آيَاتِهِ ، وَمِنْ جَمَلَتِهَا رَفَعُ السَّمَوَاتِ وَلَيْسَ نَحْنُهَا عِمَادٌ
يَشُدُّهَا ، وَلَا أَوْتَادٌ تُنْمِسُهَا . وَأَخْبَرَ فِي غَيْرِ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ أَنَّهُ زَيَّنَ السَّمَاءَ بِكَوَاكِبِهَا ، وَخَصَّ
الْأَرْضَ بِحَيَوَانِهَا وَمَنَاقِبِهَا .

«أَمَّا سَتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» : أَىِ اِحْتَوَى عَلَى مُلْكِهِ اِحْتَوَاءً قُدْرَةً وَتَدْبِيرًا . وَالْعَرْشُ
هُوَ الْمُلْكُ حَيْثُ يُقَالُ : اِنَّكَ عَرْشُ فُلَانٍ إِذَا زَالَ مُلْكُهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّهُ يَجْرَى
لِأَجَلٍ مُّسَمًّى . . . ﴾

كُلُّهُ يَجْرَى فِي فَلَكَ . وَبَدَلَ كُلِّ جِزْءٍ مِنْ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ فَعِلُ مُلْكٍ فِي مُلْكِهِ غَيْرِ مُشْتَرَكٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا
رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ
جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ
النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴾

بَسَطَ الْأَرْضَ وَدَحَاها ، وَالْجِبَالَ أَرْسَاها ، وَفَجَّرَ عَيُونَهَا ، وَأَجْرَى أَنْهَارَهَا ، وَجَنَسَ
بِحَارَهَا ، وَنَوَّعَ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ مَا جَعَلَ الْبَحْرَ قَرَارَهَا ، وَأَنْبَتَ أَشْجَارَهَا ، وَصَنَّفَ أَزْهَارَهَا
وَتِمَارَهَا ، وَكَوَّرَ عَلَيْهَا لَيْلَهَا وَنَهَارَهَا . ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ
وَجَنَّاتٌ مِنْ أُعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ
صِنُوفٌ غَيْرُ صِنُوفٍ يُسْقَى بِمَاءٍ
وَاحِدٍ ، وَنُفُضٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ
فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴾

فَمِنْ سَبَخٍ^(١) وَمِنْ حَجَرٍ وَمِنْ رَمْلٍ . . . أنواع مختلفة ، وأزواج متفقة . وزروع ونبات وأشجار أشنات ، وأصل الكل واحد ، فأجزاؤها متماثلة ، وأبعضها متشاكلة ، ولكن جعل بعضها غداً^(٢) ، وبعضها قشراً ، وبعضها عُصناً ، وبعضها جذعاً ، وبعضها أزهاراً ، وبعضها أوراقاً . . . ثم الكل واحد ، وإن كان لكل واحد طبع مخصوص وشكل مخصوص ، ولون مخصوص وقشر مخصوص مع أنها تُسقى بماء واحد ؛ إذ يصل إلى كل جزء من الشجر من الماء مقدار ما يحتاج إليه ، « وَنُفِضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ » .

. قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَيْنَذَا

كُنَّا تَرَابًا أَتَيْنَا لَكَ خَلْقٌ جَدِيدٌ ،

أولئك الذين كفروا برَّبِّهم وأولئك

الأغلالُ في أعناقهم وأولئك أصحابُ

النارِ هم فيها خالدون ﴿

وإن تعجب — يا محمد — لقولهم فهذا موضعُ يتعجبُ منه الخلق ، فالتعجبُ لا يجوز

في صفة الحق^(٣) ، إذ أن التعجب الاستبعاد والحق لا يستبعد شيئاً ، وإنما أثبت موضع

التعجب للخلق ، وحسن ما قالوا : « إِنَّمَا تَعَجَّبُ مَنْ حُجِبَ » لأنَّ مَنْ يَنْلُ عَيُونَ الْبَصِيرَةِ

لَا يَتَعَجَّبُ مِنْ شَيْءٍ .

وقومٌ أطلقوا اللفظ بأن هذا من باب الموافقة أي إنك إن تعجب فهذا عجب موافقتك له .

وإطلاق هذا — وإن كان فيه إشارة إلى حالة لطيفة — لا يجوز ، والأدبُ السكوتُ

عن أمثال هذا . والقوم عبّروا عن ذلك فقالوا : أعجبُ العجيب قول ما لا يجوز في وصفه

العجب . . . وإن تعجب .

وقوله تعالى : « أَيْنَذَا كُنَّا تَرَابًا أَتَيْنَا لَكَ خَلْقٌ جَدِيدٌ » : استبعادهم النشأة الثانية

— مع إقرارهم بالتخلق الأولِ وهما في معنى واحد — موضعُ التعجب ، إذ هو صريح

(١) السبخ المكان يظهر فيه الملح وتسوخ فيه الأقدام (الوسيط) .

(٢) الغدق من العشب بلله وويه (الوسيط)

(٣) إشارة إلى ما في الآية (فعجب قولهم . .) .

في للناقضة ، وكان القوم أصحاب تمييز وتحصيل ، فقياس مثل هذا يدعو إلى العجب . ولكن
لولا أن الله — سبحانه — لبس عليهم كما قال : « فأغشيناهم فهم لا يبصرون » (١) —
وإلا ما كان ينبغي أن يخفى عليهم جواز هذا مع وضوحه (٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ
خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾

الكناية في : « له معقبات » راجعة إلى العبد ، أي أن الله وكل بكل واحد منهم
معقبات وهم الملائكة الذين يقبب بعضهم بعضاً بالليل والنهار يحفظون هذا المكلف
وذلك (٣) من أمر الله ، أي من البلاء الذي بقدرته الله . يحفظونهم بأمر الله من أمر الله ،
وذلك أن الله — سبحانه — وكل لكل واحد من الملائكة يدفعون عنهم البلاء
إذا ناموا وغفلوا ، أو إذا انتبهوا وقاموا ومشوا . . . وفي جميع أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا
مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ
سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ
مِنْ دَالٍ ﴾

إذا غيروا ما بهم إلى الطاعات غير الله ما بهم منه من الإحسان والنعمة ، وإذا كانوا
في نعمة فغيروا ما بهم من الشكر لله تغير عليهم ما من به من الإنعام فيسلبهم ما وهبهم من
ذلك ، وإذا كانوا في شدة لا يغير ما بهم من البلاء حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أخذوا
في التضرع ، وأظهروا العجز غير ما بهم من المحنة بالتبديل والتحويل .
ويقال إذا غيروا ما بأنفسهم من الذكركر غير الله ما بقلوبهم من الحفظ فابطلهم به النسيان

(١) آية ٩ سورة آيس .

(٢) هنا وضع النامخ علامة على سقوط مساحة من النص ، ومن المؤسف أنه لا يوجد استدراك
لذلك في الهامش ويقع في هذه المساحة تفسير للآيات من (٥ إلى ١٠) من السورة .

(٣) في النسخة (وهذا) ولكننا آثرنا أن نجعلها (وذاك) حتى تزيد السياق إيضاحاً ونمنع اللبس
إذ ربما يظن أن (وهذا) الثانية مبتدأ .

والغفلة ، فإذا كان العبد في بسطة وتقريب ، وكشف بالقلب وثقوب . . . فله لا يُغَيَّر ما بأنفسهم بترك أدب ، أو إخلال بحق ، أو إلام بذنب .

ويقال لا يَكُنْ ما أتاحه للعبد من النعمة الظاهرة أو الباطنة حتى يترك ويُغَيَّر ما هو به من الشكر والحمد . فإذا قابل النعمة بالكفران ، وأبدل حضور^(١) القلب بالنسيان وما يطيح به من المصيان . أبدل الله تعالى ما به من النعمة بالحرمان والخذلان ، وسلبه ما كان يعطيه من الإحسان .

ويقال إذا توالى المحن وأراد العبد زوالها فلا يصل إليه النفض^(٢) منها إلا بأن يغير ما هو به ؛ فيأخذ في السؤال بعد السكوت ، وفي إظهار الجزع بعد السكون ، فإذا أخذ في التضرع غير ما به من الصبر^(٣) .

قوله : « وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له » ، يقال إذا أراد الله بقوم بلاء وفتنة فما تعلق به المشيئة لا محالة يجرى .

ويقال إذا أراد الله بقوم سوءاً (. . .)^(٤) أعينهم حتى يعملوا ويختاروا ما فيه بلاؤهم ، فهم يمشون إلى هلاكهم بأقدامهم ، ويسعون — في الحقيقة — في دميم كما قال قائمهم :

إلى حَتَّى مَشَى قَدَمِي إِذَا قَدَمِي أَرَاكَ دَمِي

قوله جل ذكره : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾

كما يرهم البرق — في الظاهر — فيكونون بين خوف وطمع ؛ خوف من إحباس المطر وطمع في مجيئه . أو خوف للمسافر من ضرر مجيء المطر ، وطمع للمقيم في نفعه . . . كذلك يرهم البرق في أسرارهم بما يبدو فيها من اللوائح ثم اللوامع ثم كالبرق في الصفاء ، وهذه أنوار المحاضرة ثم أنوار المسكافة .

(١) وردت (حصول) وقد آثرنا أن تكون (حضور) القلب حتى تقابل (اللسان) .

(٢) يقال نفض فلان من مرضه أى برىء منه (الوسيط)

(٣) سيمود التشيرى إلى الإجابة عن سؤالين : متى يجوز للعبد أن يشكو ويتضرع ؟ وهل هذا آية نفاذ صبره أم علامة ضعفه إزاء القوة الإلهية ؟ . . . عند حديثه عن أيوب في سورة الأنبياء .

(٤) مشبهة وربما كانت لفظة بمعنى (أعمى)

« خَوْفًا » : من أن ينقطع ولا يبقى ، « وطمعًا » : في أن يدوم فيه قلُّ صاحبه من الحاضرة إلى المكاشفة ، ثم من المكاشفة إلى المشاهدة ، ثم إلى الوجود ثم دوام الوجود ثم إلى كمال الحمد .

ويقال « يريكم البرق » : من حيث البرهان ، ثم يزيد فيصير كأقمار البيان ، ثم بصير إلى نهار العرفان . فإذا طلعت شمسُ التوحيدِ فلا خفاء بعدها ولا استتار ولا غروب لتلك الشمس ، كما قيل :

هي الشمسُ إلا أن للشمس غيبةً وهذا الذي نغيبه ليس يغيب
ويقال تبدو لهم أنوار الوصال فيخافون أن تجن^(١) عليهم ليالي الفرقة ، فقلنا نخلو
فرحة الوصال من أن تعقبها موجة الفراق^(٢) ، كما قيل :

أى يوم سردتنى بوصالي لم^(٣) تدعني ثلاثة بصدود !

قوله جل ذكره : ﴿ وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾^(٤)
إذا انتاب السحابة في السماء ظلامٌ في وقتٍ فإنه يعقبه بعد ذلك ضحكُ الرياض ، فما لم
تبك السماء لا يضحكُ الروضُ ، كما قيل :

وما تمُّ فيه السماء تبكي والأرض من تحتها عروسُ
كذلك تنشأ في القلب صحابة الطلب ، فيحصل للقلب ترددُ الخاطر ، ثم يلوح وجهُ
الحقيقة ، فتضحكُ الروح لفنونِ راحتِ الأنس ، وصنوفِ أزهارِ القرب .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ
من خيفته ﴾

أى الملائكة أيضاً تسبح من خوفه تعالى .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ

(١) مصوبة مكذبا في الهامش ، والمعنى يتقبلها ويرفض (ثمن) التي في المتن .

(٢) وردت (القرآن) وهي خطأ في النسخ .

(٣) وردت (كم) (٤) وردت (الصحاب) بالصاد وهي خطأ .

يشاء ، وهم يُجَادِلُونَ في الله وهو
شديدُ الحالِ ﴿

قد يكون في القلب حنين وأنين ، وزفير وشهيق . والملازمة إذا حصل لم على قلوب
المريدين — خصوصاً — اطلاعُ يكون دماً لأجلهم ، لا سيما إذا وقعت لواحد منهم فترة ،
والفترة في هذه الطريقة الصواعقُ التي يصيب بها من يشاء ، وكما قيل :

ما كان ما أوليت من وصلنا إلا سراجاً لاح^(١) ثم انطفأ

قوله جل ذكره : ﴿ له دعوة الحق والذين يدعون من
دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا
كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه
وما هو ببالغه ﴾

دواعي الحق تصير لأثمة في القلوب من حيث البرهان فمن استمع إليها بسمع الفهم ،
استجاب لبيان العلم . وفي مقابلتها دواعي الشيطان^(٢) التي تهتف بالعبد بتزيين المعاصي ، فمن
أصغى إليها بسمع الغفلة استجاب لصوت^(٣) النقي ، وممها دواعي النفس وهي قائدة للعبد بزم
الخطيئة ، فمن ركن إليها ولا حظها وقع في هوان الحجاب .

ودواعي الحق تكون بلا واسطة ملك ، ولا بدالة عقل ، ولا بإشارة علم ، فمن أسمع
الحق ذلك استجاب لا محالة لله بالله .

قوله جل ذكره : ﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾

هواجس النفس ودواعيها تدعو — في الطريقة — إلى الشرك ، وذلك بشهود شيء
منك ، وحسبان أمر لك ، وتعريج في أوطان الفرق ، والعنى عن حقائق الجمع .

قوله جل ذكره : ﴿ والله يسجد من في السموات

(١) وردت (راح) بالراء والمعنى لا يتقلبها فاختارنا (لاح) لأنها أقرب في المعنى والخط .

(٢) وردت (السلطان) وهي خطأ في اللسخ .

(٣) وردت (لصورت) والراء زائدة كما هو واضح .

وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالِمًا
بِالْقُدُّوسِ وَالْأَصَلِ ﴿١﴾

المؤمن يسجد لله طوعاً ، وإذا نزل به ضرر أُلجأ إلى أن يتواضع ويسجد ، وذلك معنى سجوده كرهاً — وهذا قول أهل التفسير . والكافر يسجد طائعا مختاراً ، ولكن لما كان سجوده لطلب كشف الغم قال تعالى : إنه يسجد كرهاً وعلى مقتضى هذا كل من يسجد لا ابتغاء عوض أول كشف محنة .

ويقال السجود على قسمين : ساجد بنفسه وساجد بقلبه ؛ فسجود النفس معهود^(١) ، وسجود القلب من حيث الوجود . . . وفرق بين من يكون بنفسه ، وواجد بقلبه .
ويقال الكل يسجدون لله ؛ إما من حيث الأفعال بالاختيار ، أو من حيث الأحوال بنعت الافتقار والاستبشار : سجود من حيث الدلالة على الوحدةانية ؛ فكل جزء من عين أو أثر فعلي الوحدةانية شاهد ، وعلى هذا المعنى لله ساجد . وسجود من حيث الشهادة على قدرة الصانع واستحقاقه لصفات الجلال .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَاتُخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ
لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾

سَلِّمُ — يا محمد — مَنْ مَوْجِدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَقْدَرُهَا ، وَمُخْتَرِعُ مَا يَحْدُثُ فِيهَا وَمُدَبِّرُهَا ؟ فَإِنْ أَسْكَنْتَهُمْ عَنِ الْجَوَابِ مَا اسْتَكْنَى فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجَهْلِ فَقُلْ اللَّهُ مَنْشِئُهَا وَمُجَرِّبُهَا .
ثم قال : « أَفَاتُخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ » : يعنى الأصنام ، وهى جمادات لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ، ويلتحق فى المعنى بها كل من هو موسوم برقم الحدوث ، فمن علق قلبه بالحدثان ساءى — من وجه — مَنْ عَبَدَ الْأَصْنَامَ ، قال تعالى : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون »^(٢) .

(١) أى السجود فى الصلوات العادية بالنسبة للكافة ، وأما سجود القلب فللخاصة .

(٢) آية ١٠٦ سورة يوسف .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ

أَمْ هَلْ تَسَوَّى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾

الأعمى مَنْ على بصيرته غشاوة وحجبة ، والبصيرُ مَنْ كَحَلِّ الحقِّ بصيرةً سرِّه بنور

التوحيد . . لا يستويان !

ثم هل تستوى ظلمات الشرك وأنوارُ التوحيد ؟ ومن جملة النور الخروجُ إلى ضياءِ شهود

التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ

فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ

كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

أى لو كان له شريك لَوَجِبَ أن يكون له نِدْمُضَاءٍ ، وفي جميع الأحكام له موازٍ ، ولم

يُجَدِّ حينئذٍ التمييزُ بينِ فَعَلَيْهِمَا .

وكذلك لو كان له نِدْمٌ . . فَإِنَّ إثباتهما شيئين اثنين يوجب اشتراكهما في استحقاق

كل وصف ، وأن يكون أحدهما كصاحبه أيضاً مستحقاً له ، وهذا يؤدي إلى ألا يُعرَفَ

المَعْلُومُ . . وذلك محال .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ

الْقَهَّارُ ﴾

« كل شيء » تدخل فيه المخلوقات بصفات وأفعالها ، والمخاطبُ لا يدخل في الخطاب .

« وهو الواحد » : الذى لا خَلْفَ عنه ولا بَدَلٌ ^(١) ، الواحد الذى في فضله منزّه عن

فضل كل أحد ، فهو الكافي لكل أحد ، ويستعين به كل أحد .

« والقهار » : الذى لا يجرى بخلاف حكمه — فى ملكه — نَفْسٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ

(١) وردت (يدل) بالباء وهى خطأ فى النسخ .

يَقْدَرُهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِعًا
وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ
حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهَ كَذَلِكَ
يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ،
فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ
النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ
يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿٢٢٤﴾

هذه الآية تشتمل على أمثال ضربها الله لتشبيه القرآن المتزل بالماء المتزل من السماء ،
وشبهه القلوب بالأودية ، وشبهه وساوس الشيطان وهواجس النفس بالزبد الذي يعلو الماء ،
وشبهه الخلق^(١) بالجواهر الصافية من الخبث كالذهب والفضة والنحاس وغيرها ، وشبهه
الباطل بخبث هذه الجواهر . وكما أن الأودية مختلفة في صفرها وكبرها وأن بقدرها تحتل الماء
في القلة والكثرة — كذلك القلوب تختلف في الاحتمال على حسب الضعف والقوة . وكما أن
السيْلَ إذا حصل في الوادي يطهر الوادي فكذلك القرآن إذا حصل حفظه في القلوب تنفى
الوساوس والهوى عنها ، وكما أن الماء قد يصحبه ما يكرهه ، ويخلص بعضه مما يشوبه —
فكذلك الإيمان وفهم القرآن في قلوب المؤمنين حين تخلص من نزغات الشيطان ومن
الخواطر الرديئة ، فالقلوب بين صافي وكدير .

وكما أن الجواهر التي تتخذ منها الأواني إذا أذيت خلصت من الخبث كذلك الحق
يتميز من الباطل ، ويبقى الحق ويضمحل الباطل .

ويقال إن الأنوار إذا تلاأت في القلوب نقت آثار الكلفة ، ونور^(٢) اليقين ينفي ظلمة
الشك ، والعلم ينفي تهمة الجهل ، ونور المعرفة ينفي أثر النكرة ، ونور المشاهدة ينفي آثار البشرية ،

(١) هكذا في المصورة وترجع أنها (الحق) ليعايل (الباطل) كما تقابل الجواهر الصوفية الخبث —
ويزيد من قوة هذا الترجيح ما سبأني بعد قليل عند (التمييز بين الحق والباطل) .
(٢) وردت (ونور) وهي خطأ في النسخ .

وأنوار الجمع تنفي آثار التفرقة . وعند أنوار الحقائق تتلاشى آثار الحفظ ، وأنوار طلوع الشمس من حيث العرفان تنفي سَدَقَة الليل من حيث حساب أثر الأغيار .

ثم الجواهر التي تتخذ منها الأواني مختلفة فَمِنْ إناء يتخذ من الذهب وآخر من الرصاص ، إلى غيره - كذلك القلوب تختلف ، وفي الخبر : إن لله تعالى أواني وهي القلوب ، فزاهد قاصدٌ ومحِبٌ واجِدٌ ، وعابدٌ خائفٌ ومُوَحِّدٌ عارفٌ ، ومتعبدٌ متعففٌ ومنهجٌ متصوفٌ ، وأنشدوا :

ألوانها شتى الفنون وإنما تُسقى بماء واحدٍ من منهلٍ

قوله جل ذكره : ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَفِيهَا الْمِهَادُ﴾

« الحسنى » (١) : الوعد بقبول استجاباتهم ، وذلك من أجل الأشياء عندهم ، فلا شيء أعزُّ على المحبِّ من قبول محبوبه منه شيئاً .

أما الذين لم يستجيبوا له فلو أنَّ لهم جميع ما في الأرض وأنفقوه عمداً لا يقبل منهم ، ولم سوء الحساب ، وهو المناقشة في الحساب ، ثم مأواهم جهنم ودوام العذاب .

قوله جل ذكره : ﴿أَفَمَنۡ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنۢزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَشۡذَرُ أُولَٰئِكَ الْأَلْبَابُ﴾

استفهام في معنى النفي ، أى لا يستوى البصير والضرير ، ولا المقبول بالمرحود بالحجة ، ولا المؤمن بالقرآن . فالمعرض للتعذيب ، ولا الذى أقصيناه عن شهودنا بالذى هديناه

(١) يرى النسي أن (الحسنى) هنا صفة للمصدر أى استجابوا الاستجابة الحسنى .

(٢) أخطأ الناسخ إذ جعلها (أفلم) .

بوجودنا . إنما يَتَّعِظُ مَنْ عقله له تشریف ، دون مَنْ عقله له سببُ إقصاءٍ وتعنيف .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ ^(١) يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ
وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾

الوفاء بالعهد باستدامة العرفان ، والوفاء بشرط الإحسان ، والتوقُّ من ارتكاب العصيان
بذلك أُبرِمَ العقدُ يوم الميثاق والضمان .

وميثاقُ قومٍ ألا يعبدوا شيئاً سواه ، وميثاقُ قومٍ ألا يسألوا سواه

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ
يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ
الْحِسَابِ ﴾ ^(٢)

الذين يصلون الإيمان به بالإيمان بالأنبياء والرسل .

ويقال الذين يصلون أنفاسهم بعضاً ببعض ، فلا يتخلَّلها نفسٌ لغير الله ، ولا بنير الله ،
ولا في شهود غير الله .

ويقال يصلون سِرَّهم بِسِرَّهم في إقامة العبودية ، والتبرُّى من الحول والقوة .

وقوله : « وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ » : الخشية لجامٌ يُوقِفُ الْمُؤْمِنَ عَنِ الرَّكْضِ فِي مِيَادِينِ الْهَوَى ،
وَزِمَامٌ يَجْرِئُهُ إِلَى اسْتِدَامَةِ حَكْمِ التَّقَى .

وقوله : « وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ » هو أن يبدو من الله ما لم يكونوا يحتسبون

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾

الصبر يختلف باختلاف الأغراض التي لأجلها يصبر الصابر ، فالعُباد يصبرون لخوف
العقوبة ، والزهاد يصبرون طمعاً في المثوبة ، وأصحاب الإرادة هم الذين صبروا ابتغاء وجه
ربهم ، وشرطُ هذا النوع من الصبر رَفْضُ ما يجمع من الوصول ، واستدامة التوقى منه ،

(١) أخطأ الناسح إذ حملها (والذين) .

(٢) هذه الآية مستدركة في هامش الورقة بعد أن سقطت من المتن .

فيدخل فيه ترك الشهوات ، والتجردُ عن جميع الشواغل والعلاقات ، فيصبر عن العلف والزلة .
وعن كل شيء يشغل عن الله .

ومما يجب عليه الصبر الوقوفُ على حكم تعزير الحق ، فإنه - سبحانه - ينفعلُ على
الكافة من المجتهدين ، ويتعزز - خصوصاً - على المریدین ، فيمنحهم الصبر في أنام
إرادتهم ، فإذا صدّقوا في صبرهم جادَ عليهم بتحقيق ما طلبوا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا
وَعَلَانِيَةً ﴾ .

الأغنياء ينفقون أموالهم . والعُبَاد ينفقون نفوسهم ويتحملون مصروف الاجتهاد ،
ويصبرون على أداء الفرائض والأوراد . والمریدون ينفقون قلوبهم ويسرعون إلى أداء الفرائض
والأوراد ويصبرون إلى أن يسوحَ لهم من الإقبال عليهم . وأما المحبون فينفقون أرواحهم . .
وهي كما قيل :

أَلَسْتُ لِي خَلْفًا ؟ كَفَى شَرَفًا فما وراءك لي قصدٌ ومطلوبُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَبَدَرُوا لَكُمُ الْخَيْلُ بِأَلْسِنَةٍ أُولِيكَ
لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾

يعاشرهم الناس بحسن الخلق ؛ فيبدؤون بالإلصاف ولا يطلبون الانتصاف ، وإن
عامَلهم أحدٌ باللفاء قاتلوه بالوفاء ، وإن أذنب إليهم قومٌ اعتذروا . هم ، وإن مرضوا
عادوهم .

قوله جل ذكره : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ
صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَرْوَاجِهِمْ
وَذُرِّيَّتِهِمْ ، وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ
عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ
عَلَيْكُمْ بِمَا نَصَبْتُمْ ، فَنِعَمَ
عُقْبَى الدَّارِ ﴾

يتم النعمة عليهم بأن يجمع بينهم وبين مَنْ يحبون محبتهم مِنْ أقاربهم وأزواجهم ،
وقد ورد في الخبر : « المرءُ مع مَنْ أَحَبَّ » فَمَنْ كَانَ محبوبُهُ أمثاله وأقاربه حُشِرَ معهم ،
وَمَنْ كَانَ اليومَ بقلبه مع الله ، فهو غداً مع الله ، وفي الخبر : « أنا جليسُ مَنْ ذَكَرَنِي » ،
وهذا في العاجل ، وأما في الآجل ، ففي الخبر : « الفقراء الضابطون جُلسَاءُ الله
يومَ القيامة » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ
بَعْدِ مِيثَاقِهِ ، وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ
بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيُفْسِدُونَ فِي
الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ
سُوءُ الدَّارِ ﴾

مَنْ كَفَرَ بَعْدَ إِيْمَانِهِ نَقَضَ عَهْدَ الْإِسْلَامِ فِي الظَّاهِرِ ، وَمِنْ رَجَعَ إِلَى أَحْكَامِ الْعَادَةِ بَعْدَ
مَسْلُوكِهِ طَرِيقَ الْإِرَادَةِ ، فَقَدْ قَضَى عَهْدَهُ فِي السِّرِّاءِ . . . فهذا مُرْتَدٌّ جَهْرًا ، وهذا
مُرْتَدٌّ سِرًّا ، والمرتد جهرًا عقوبته قطعُ رأسه ، والمرتد سِرًّا عقوبته قَطْعُ سِرِّهِ .

وقوله : « وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ » ، هو نقض قوله : « يَصْلُونَ مَا أَمَرَ
اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ » .

ويقال نقض العهد هو الاستعانة بالأغيار ، وَتَرْكُ الْاِكْتِفَاءِ بِاللَّهِ الْجَبَّارِ .
ويقال نَقَضُ الْعَهْدِ الرَّجُوعُ إِلَى الْاِخْتِيَارِ وَالتَّدْبِيرِ بَعْدَ شُهُودِ الْأَقْدَارِ ، وملاحظة
التقدير .

ويقال نقض العهد بِتَرْكِ نَفْسِهِ ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى مَا قَالِ بِتَرْكِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ
وَيَقْدِرُ ﴾

يبسط الرزق للأغنياء وَيُطَالِيهِمْ بِالشُّكْرِ ؛ وَيُضَيِّقُ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَيَطَالِيهِمْ بِالصَّبْرِ

وَعَدَ الزَّيَادَةَ لِلشَّاكِرِينَ ، ووَعَدَ الْمَعِيَّةَ لِلصَّابِرِينَ . لِلْأَغْنِيَاءِ الْأَمْوَالُ بِمَزِيدِهَا ، وَلِلْفُقَرَاءِ التَّجَرُّدُ فِي الدَّارَيْنِ عَنْ طَرِيقَتِهَا وَتَلِيدِهَا .

قوله حل ذكره : ﴿ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾

فَرِحَ الْأَغْنِيَاءُ بِزَكَاءِ أَمْوَالِهِمْ ، وَفَرِحَ الْفُقَرَاءُ بِصَفَاءِ أَحْوَالِهِمْ .

« وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ » قَلِيلٌ بِالْإِضَافَةِ إِلَى مَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ ؛ فَأَمْوَالُ الْأَغْنِيَاءِ — وَإِنْ كَثُرَتْ — قَلِيلَةٌ بِالْإِضَافَةِ إِلَى مَا وَعَدَهُمْ مِنْ وَجُودِ أَفْضَالِهِ ، وَأَحْوَالُ الْفُقَرَاءِ — وَإِنْ صَفَتْ — قَلِيلَةٌ بِالْإِضَافَةِ إِلَى مَا وَعَدَهُمْ مِنْ شُهُودِ جِوَالِهِ وَجَلَالِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴾

« يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ » : وَهُمْ الَّذِينَ لَمْ يَشْهَدُوا مَا أُعْطِيَ نَبِينَا — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — مِنَ الشُّوَاهِدِ وَالْبُرْهَانِ حَتَّى (. . .) (١) الزَّيَادَةِ .

« وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » : وَهُمْ الَّذِينَ أَبْصَرُوا بَعْيُونَ أَسْرَارَهُمْ مَا خُصَّ بِهِ مِنَ الْأَنْوَارِ فَسَكَنُوا بِنُورِ اسْتِبْصَالِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾

قَوْمٌ اطْمَأْنَنَتْ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ، وَفِي الذِّكْرِ وَجَدُوا سَلَوَتَهُمْ ، وَبِالذِّكْرِ وَصَلُوا إِلَى صَفْوَتِهِمْ . وَقَوْمٌ اطْمَأْنَنَتْ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ فَذَكَرَهُمُ اللَّهُ — سُبْحَانَهُ — بِلُطْفِهِ ، وَأَثْبَتَ الطَّمَأْنِينَ فِي قُلُوبِهِمْ عَلَى وَجْهِ التَّخْصِصِ لَهُمْ .

(١) مشتبهة .

ويعال إذا ذكروا أن الله ذكّرهم استروحت قلوبهم ، واستبشرت أرواحهم ،
واستأنست أسرارهم ، قال تعالى : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » لما نالت بذِكْرِهِ
من الحياة ، وإذا كان العبد لا يطمئن قلبه بذكر الله ، فذلك ليحلل في قلبه ، فليس
قلبه بين القلوب الصحيحة .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَجَبْتَ ﴾

طابت أوقاتهم وطابت نفوسهم .

ويقال طوبى لمن قال له الحق : طوبى .

طوبى لهم في الحال ، وحسن المآب في المآل .

قوله جل ذكره : ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ

مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتُلَوِّعَ عَلَيْهِمُ الَّذِي

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾

لئن أرسلناك بالنسوة إليهم فلقد أرسلنا قبلك كثيراً من الرسل . لئن أصابك منهم بلاء

فلقد أصاب من قبلك كثير من البلاء ، فاصبر كما صبروا وتوَجَّر كما أُجروا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ ﴾

لئن كفرنا بنا فآمن أنت ، وإذا آمنت فلا تسأل بمن جحد ، فإنك أنت المقصود من

البرية ، والمخصوص بالرسالة والمحبة .

لو كان يجوز في وصفنا أن يكون لنا غرض في أفعالنا .

ولو كان الغرض في الخلق فانت سيد البشر ، وأنت المخصوص من بين البشرية بحسن

الإقبال^(١) ، فهذا مخلوق يقول في مخلوق :

(١) هذه أقصى دوحه في التصور الشخصية الرسول صلوات الله عليه — في نظر هذا الصوفي .. قال ذلك
مأمون ناحت آخر كتاب عمرى أو الجبلى عن « الإنسان الكامل » ، لنلاحظ الفرق الهائل بين الاتجاهين .

وكنْتُ أَخْرْتُ أَوْطَارِي لَوْ قَتَ فكَانَ الْوَفْتُ وَقَتَكَ وَالسَّلَامُ
وكنْتُ أَطَالِبُ الدُّنْيَا بِحُبٍّ فكنْتُ الْحُبَّ.. وَاتَّقَطَعَ الْكَلَامُ

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ
أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ سُكِّمَ بِهِ
الْمَوْتُ بَلَّ اللَّهُ الْأُمُورَ جَمِيعًا﴾

لو كان شيء من المخلوقات يظهر بغيرنا في الإيجاد لكان يحصل بهذا القرآن ، ولكن
المنشئ الله ، والخير والشر جملة من الله ، والأمر كله لله . فإذا لم يكن شيء من الحدثان
بالقرآن — والقرآن كلام الله العزيز — فلا تكون ذرة من النفي والإثبات لمخلوق . . فإن
ذلك محال .

قوله جل ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِنَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ
اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾

معناه أفلم يعلم الذين آمنوا ، ويقال أفلم يأسوا من إيمانهم وقد علموا أنه من يهديه الحق
فهو المهتدي ؟

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا
صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ
دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾

يعنى شؤم كفرهم لا يزال واصلاً إليهم ، ومقتص^(١) فعلهم لا يحق بهم أبداً .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُ بِرُسُلِي مِنْ قَبْلِكَ
فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ، ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ
فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِي﴾

(١) من (اقتص) والقصاص أن يوقع على الجاني مثل ما جنى .

أنزل هذه الآية على جهة التسلية للرسول --- صلى الله عليه وسلم --- عما كان يلاقه منهم .
وكما أن هؤلاء في التكذيب جرّوا على نهجهم فنحن أدمنا سُنتنا في التعذيب معهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾

الجواب فيه مضمّر ؛ أى أفمن هو مجرّى ومنشئ المخلوق والمطالع عليهم ، لا يخفى عليه منهم
شيء كمن ليس كذلك ؟ لا يستويان غداً أبداً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ مَحْذُومٌ
أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ
أَمْ بظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ ﴾

قُلْ لهم أروني أى تأثير منهم ، وأى نفع لكم فيهم ، وأى ضرر لكم منهم ؟ أقولون
ما يعلم الله بخلافه ؟ وهذا معنى قوله : « ما لا يعلم » .

قوله جل ذكره : ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ
وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ، وَمَن يُضِلِلِ
اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ .

أى قد تبين لكم أن ذلك من كيد الشيطان ، وزين للذين كفروا مكْرهم ، وصاروا
مصدودين عن الحق ، مسدودة عليهم الطُّرُقُ ، فإنَّ مَنْ أَضَلَّهُ حُكْمُهُ — سبحانه — لا يهديه
أحد قطماً .

قوله جل ذكره : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرَى
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا
تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَعُقْبَى
الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ .

المَثَلُ أى الصفة ، فصفة الجنة التى وعد المتقون هى أنها جنة تَجْرَى من تحتها الأنهار ،
وأُكُلُهَا دَائِمٌ وظِلُّهَا دَائِمٌ ، أى أن اللذات فيها متصلة . وإنما لهم جنات معجّلة ومؤجلة ، فالمؤجلة

ما ذكره الله — سبحانه — في نص القرآن ، والمعجزة جنة الوقت^(١) . . . والدرجات — من حيث البسط — فيها متصلة ، ونفحات الأنس لأربابها لا مقطوعة ولا ممنوعة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ ﴾ .

يريد بهم مؤمنى أهل الكتاب الذين كانوا يفرحون بما ينزل من القرآن لصدق يقينهم .

﴿ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ﴾

أى الأحزاب الذين قالوا كان محمد يدعو إلى إله واحد ، فالآن هو ذا يدعو إلى إلهين لما نزل : « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن »^(٢) .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ ﴾

ولا أشرك به ، إليه أدعو وإليه مآب .

قل يا محمد : « إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ » . والعبودية المبادرة إلى ما أمرت به ، والمحاذرة^(٣) مما زجرت عنه ، ثم التبرئ عن الحول والمنة ، والاعتراف بالطول والمنة .

وأصل العبودية القيام بالوظائف ، ثم الاستقامة عند رَوْح اللطائف .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾

مَالِكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ .

أى حُكْمًا ببيان العرب ؛ لأن الله تعالى أرسل الرسل في كل وقت كلاً بلسان قومه ليبتدوا إليه .

ويقال من صفات العرب الشجاعة والسخاء ومراعاة الذمام ، وهذه الأشياء مندوب إليها

في الشريعة .

(١) أى جنة أرباب الأحوال . . . هنا فى هذه الدنيا

(٢) آية ١١٠ سورة الإسراء . ومنهم كعب بن الأشرف والسيد والمقاب وأشباعهم .

(٣) وردت (المحاذرة) بالضاد وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح من السياق .

« ولئن اتبعت أهواءهم » : أى ولئن وافقتهم ، ولم تعنصم بالله ، ووَقَعْتَ على قلبك حشمةً من غير الله — فَمَالَكَ من واقٍ من الله .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أرسلنا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وجعلنا لهم أزواجًا وذريةً وما كان رسولٌ أَن يَأْتِيَ بآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

أى أرسلنا رُسُلًا من قبلك إلى قومهم ، فلم يكونوا إلا من جنسك ، وكما لكم أزواج وذرية كانت لهم أزواج وذرية ، ولم يكن ذلك قادمًا فى صحة رسالتهم ، ولا تلك العلاقات كانت شاغلة لهم .

ويقال إن من اشتغل بالله فكثرة العيال وتراكم الأشغال لا تؤثر فى حاله ، ولا يضره ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ .

أى لكل شىء أجل منبث فى كتاب الله وهو المحفوظ ، وله وقت قُسم له ، وأنه لا اطلاع لأحدٍ على علمه ، ولا اعتراض لأحدٍ على حكمه .

قوله جل ذكره : ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْثِبُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ .

المشيئة لا تتعلق بالحدوث ، والحو والإثبات متصلان بالحدوث .

فصفات ذات الحق — سبحانه — من كلامه وعلمه ، وقوله وحكمه لا تدخل تحت الحو والإثبات ، وإنما يكون الحو والإثبات من صفات فعله ؛ الحو يرجع إلى العدم ، والإثبات إلى الإحداث ، فهو يمحو من قلوب الزهاد حُب الدنيا ويُنْثِبُ بَدَلَه الزهد فيها ، كما فى خبر حارثة : « عزفت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى حَجَرُهَا وَذَهَبُهَا » (١) .

(١) سأل النبي (س) حارثة . لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسى عن الدنيا ، خرجنا هذا الحديث فى هامش سابق .

وَيَمْحُو عَنْ قُلُوبِ الْعَارِفِينَ الْخَطُوطَ ، وَيُثَبِّتُ بِدَلِّهَا حَقَّقَهُ تَعَالَى ، وَيَمْحُو عَنْ قُلُوبِ الْمُؤَحِّدِينَ شَهَادَةَ غَيْرِ الْحَقِّ وَيُثَبِّتُ بِدَلِّهِ شَهَادَةَ الْحَقِّ ، وَيَمْحُو آثَارَ الْبَشَرِيَّةِ وَيُثَبِّتُ أَنْوَارَ شَهَادَةِ الْإِحْدِيَّةِ .

وَيَقَالُ يَمْحُو الْعَارِفِينَ عَنْ شَوَاهِدِهِمْ ، وَيُثَبِّتُهُمْ بِشَاهِدِ الْحَقِّ .
وَيَقَالُ يَمْحُو الْعَبْدَ عَنْ أَوْصَافِهِ وَيُثَبِّتُهُ بِالْحَقِّ فَيَكُونُ مَحْوًّاً عَنِ الْخَلْقِ مُثَبَّتاً بِالْحَقِّ لِلْحَقِّ .
وَيَقَالُ يَمْحُو الْعَبْدَ فَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ حُكْمُ التَّعْدِيرِ ، وَيَكُونُ مَحْوًّاً بِحَسَبِ جَرَيَانِ أَحْكَامِ التَّقْدِيرِ ، وَيُثَبِّتُ سُلْطَانَ التَّصَدِيقِ وَالتَّقْلِيلِ بِإِدْخَالِ مَا لَا يَكُونُ فِيهِ اخْتِيَارٌ عَلَيْهِ عَلَى مَا يَشَاءُ .
وَيَقَالُ يَمْحُو عَنْ قُلُوبِ الْأَجَانِبِ ذِكْرَ الْحَقِّ ، وَيُثَبِّتُ بِدَلِّهِ غَلَبَاتِ الْغَفْلَةِ وَهَوَاجِمَ النِّسْيَانِ .
وَيَقَالُ يَمْحُو عَنْ قُلُوبِ أَهْلِ الْفِتْرَةِ مَا كَانَ يَلُوحُ فِيهَا مِنْ لَوَامِعِ الْإِرَادَةِ ، وَيُثَبِّتُ بِدَلِّهَا الرُّجُوعَ إِلَى مَا خَرَجُوا عَنْهُ مِنْ أَحْكَامِ الْعَادَةِ .
وَيَقَالُ يَمْحُو أَوْضَارَ الزَّلَّةِ عَنْ نَفُوسِ الْعَاصِينَ ، وَآثَارَ الْعَصْيَانِ عَنْ دِيَوَانِ الْمَذْنِبِينَ (وَيُثَبِّتُ)^(١) بِدَلِّ ذَلِكَ لَوْعَةَ النَّدَمِ ، وَانْكَسَارَ الْحُسْرَةِ ، وَالْحُمُودَ عَنْ مُتَابَعَةِ الشَّهْوَةِ .
وَيَقَالُ يَمْحُو عَنْ ذُنُوبِهِمُ السَّيِّئَةَ ، وَيُثَبِّتُ بِدَلِّهَا الْحُسَنَةَ ، قَالَ تَعَالَى : « فَأُولَئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ » .

وَيَقَالُ يَمْحُو اللَّهُ نَضَارَةَ الشَّبَابِ وَيُثَبِّتُ ضَعْفَ اللَّشِبِ .
وَيَقَالُ يَمْحُو عَنْ قُلُوبِ الرَّاعِبِينَ فِي مَرَدَةِ أَهْلِ الدُّنْيَا مَا كَانَ يَحْمِلُهُمْ عَلَى إِثَارِ مَحَبَّتِهِمْ ، وَيُثَبِّتُ بِدَلِّهِ مِنَ الزَّهْدِ فِي مَحَبَّتِهِمْ وَالِاسْتِغْنَاءِ بِعِشْرَتِهِمْ .
وَيَقَالُ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ مِنْ أَيَّامٍ صَفَّتْ مِنَ الْغَيْبِ^(٢) ، وَلَيَالٍ كَانَتْ مُضَاءَةً بِالزَّلْفَةِ وَالْقُرْبَةِ وَيُثَبِّتُ بِدَلِّهِ مِنْ ذَلِكَ أَيَّاماً هِيَ أَشَدُّ ظُلَاماً مِنَ اللَّيَالِي الْخَنَادِسِ^(٣) ، وَزَمَاناً يَجْعَلُ سَعَةَ الدُّنْيَا عَلَيْهِمْ عَجَاساً .

(٢) سَقَطَتْ هَذِهِ اللَّفْظَةُ مِنَ النَّاسِخِ .

(٢) مِنْ (الْغَيْبِ) يَكُونُ الْمَعْنَى أَنَّ الْأَيَّامَ الَّتِي كَانَتْ تَمْنَحُ لَهُمْ مِنَ الْغَيْبِ صَافِيَةً ، وَلَكِنَّا لَا نَسْتَعْبِدُ أَنَّهَا قَدْ تَسْكُونُ (الْغَيْمِ) عَلَى مَعْنَى خُلُوقِ تِلْكَ الْأَيَّامِ مِنْ كُلِّ كَدُورَةٍ بِدَلِيلِ الْمَقَابِلَةِ الَّتِي وَرَدَتْ فِيهَا بَعْدُ .
(٣) جَمْعُ خَنْدَسٍ أَيْ شَدِيدِ السَّوَادِ .

ويقال يحو العارفين بكشف جلاله ، ويثبتهم في وقت آخر بلطف جماله .
 ويقال يحوهم إذا تجلّى لهم ، ويثبتهم إذا تعوَّز عليهم .
 ويقال يحوهم إذا ردهم إلى أسباب النفرة لأنهم يبصرون بنعت الافتقار والانكسار ،
 ويثبتهم إذا تجلّى لقلوبهم فيبصرون بنعت الاستبشار ، ويشهدون بحكم الافتخار .
 قوله جل ذكره : ﴿ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾
 قيل اللوح المحفوظ الذي أثبت فيه ما سبق به علمه وحكمه مما لا تبدل ولا تغيير فيه .
 ويقال إنه إشارة إلى علمه الشامل لكل معلوم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ
 أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ
 وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾

نفى عنه الاستعجال أمراً ، و (. . .)^(١) في قلوبهم أنه يوشك أن يجعل الموعد جهرًا .
 قوله جل ذكره : ﴿ أَوْ لَمْ يَبْرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ
 نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ
 لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ
 الْحِسَابِ ﴾

في النفاسير : يموت العلماء ، وفي كلام أهل المعرفة يموت الأولياء ، الذين إذا أصاب
 الناس بلاء ومحنة فزعوا إليهم فيدعون الله ليكشف البلاء عنهم .
 ويقال هو ذهب أهل المعرفة حتى إذا جاء مسترشد في طريق الله لم يجد من يهديه إلى الله .
 ويقال : في كل زمان لسان ينطق عن الحق سبحانه^(٢) ، فإذا وقعت فترة سكن ذلك
 اللسان — وهذا هو النقصان في الأطراف الذي تشير إليه الآية ، وأنشد بعضهم :
 طوى العصران ما نشره منى وأبلى جدتي نشر وطى

(٢) يتصل ذلك بفكرة القطب والأوتاد والأبدال

(١) مشبهة .

أراني كلَّ يومٍ في انتقاصٍ ولا يبقى مع النقصان شيءٌ
ويقال ينقصها من أطرافها أي بفتح المدائن وأطراف ديار الكفار ، وانتشار الإسلام ،
قال تعالى : « ليظهره على الدين كله » (١) .

ويقال ينقصها من أطرافها بخراب البلدان ، قال تعالى : « كل شيء هالك إلا وجهه » (٢)
وقال : « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ » (٣) فوعودُ الحقِّ خرابُ العالمِ وفناءُ أهله ، ووعدهُ حقٍّ لأنَّ
كلامه صدقٌ ، واللهُ يحكم لا مُعْتَبَ لِحُكْمِهِ ، ولا نَاقِضَ لِمَا أَمَرَهُ ، ولا مُبَرِّمَ لِمَا نَقَضَهُ ،
ولا قَابِلَ لِمَنْ رَدَّه ، ولا رَاذِ لِمَنْ قَبِلَهُ ولا مُعْرِزٍ لِمَنْ أَهَانَهُ ، ولا مُذِلٍّ لِمَنْ أَعَزَّهُ .
« وهو سريع الحساب » : لأن ما هو آتٍ قريب .

ويقال « سريع الحساب » في الدنيا ؛ لأنَّ الأولياء إذا أُلُوا بشيء ، أو همُّوا بالمزجور
عوتِبُوا في الوقت ، وطولِبُوا بِحُسْنِ الرَّجْعِي .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ

الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ

نَفْسٍ وَسِعِلْمُ الْكُفَّارِ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾

مَكْرُهُمْ إظهارُ الموافقة مع إسرارهم الكُفْرَ ، ومَكْرُ اللَّهِ بِهِمْ تَوَهُُّمُهُمْ أَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ
في أعمالهم ، وحسابهم (٤) أَنَّهُمْ سَنَأَمُنُ أحوالهم ، وظَنُّهم أَنَّهُ لا يحقُّ بِهِمْ مَكْرُهُمْ ، ونُخْلِيَتُهُ
لِيَأْمُرَ — مع مَكْرِهِمْ — مِنْ أَعْظَمِ مَكْرِهِ بِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَسْتَ مُرْسَلًا

قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ

وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾

(١) آية ٢٨ سورة الفتح .

(٢) آية ٨٨ سورة القصص .

(٣) آية ٢٦ سورة الرحمن .

(٤) وردت (وحسناتهم) وهي خطأ في النسخ .

وَبِالْكَذِبِ عَائِدٌ إِلَيْهِمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ شَهِيدٌ لَكَ بِصَدْقِكَ . « ومن عنده علم الكتاب »
هو الله سبحانه وتعالى عنده علمُ جميع المؤمنين . فالمعنى كفى بالله شهيداً فعنده علم الكتاب
وكفى بالمؤمنين شهيداً ، إذ المؤمنون يعلمون ذلك .

السورة التي يذكر فيها إبراهيم عليه السلام

قوله جل ذكره : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾
بسم الله معناه بالله ؛ فقلوب العارفين بالله إشراقها ، وقلوب الواهين بالله احتراقها ،
لهؤلاء (. . .)^(١) محبته ، ولهؤلاء شوقاً إلى عزيز رؤيته .

وأصحاب الوصول قالوا : بالله . . . فوصل من الطالبين مَنْ وصل
قوله جل ذكره : ﴿ الرَّكَابُ أُنْزِلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ
النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ
رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾

أقسم بهذه الحروف : إِنَّهُ لَكِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ بِهِ مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ إِلَى
نور العلم ، وَمِنْ ظُلُمَاتِ الشُّكِّ إِلَى نور اليقين ، ومن ظلمات التدبير إلى فضاء شهود التقدير ،
ومن ظلمات الابتداء^(٢) إلى نور الاتباع ، ومن ظلمات دعاوى النفس إلى نور معارف
القلب ، ومن ظلمات التفرقة إلى نور الجمع — بإذن ربهم ، وبإرادته ومشيتته ، وسابق
حكيمه وقضائه إلى صراط رحمته ، وهو نهج التوحيد وشواهد التفريد .

قوله جل ذكره : ﴿ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ وَقِيلُ لِلْكَافِرِينَ مِنْ
عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾

عَرَفَ الْخَلْقَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .

(١) مشقبة .

(٢) وردت (الابتداء) بالهمزة وهي خطأ من الناسخ .

فَمَنْ عَرَفَ فَلَهُ الْمَأْتِ الْحَمِيدُ ، وَمَنْ جَحَدَ فَلَهُ الْعَذَابُ الشَّدِيدُ ؛ وَذَلِكَ الْعَذَابُ هُوَ
جَهَنَّمُ بِأَنَّهُ — سَبْحَانَهُ — مَنْ هُوَ .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى
الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾

ثم ذكر ذمهم أخلاقيهم ، فقال : هُمُ الَّذِينَ يُؤْثِرُونَ الْبَسِيرَ مِنَ حُطَامِ الدُّنْيَا عَلَى الْخَطِيرِ
مِنَ نِعَمِ الْآخِرَةِ ، وَذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ جُحْدِهِمْ ، وَيَبْغُونَ لِلدُّنْيَا عِوَجًا بِكَثْرَةِ جَمْعِهِمْ ، أُولَئِكَ لَمْ
فِي الدُّنْيَا الْفِرَاقُ وَهُوَ أَشَدُّ عِقَابًا ، وَفِي الْآخِرَةِ الْإِحْتِرَاقُ وَهُوَ أَجَلُ مُحَنَّةٍ وَمُصِيبَةٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ
قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴾

إِنَّمَا كَانَ كَذَلِكَ لِيَكُونَ آكَدًا فِي إِلْزَامِ الْحُجَّةِ ، وَأَتَى يَنْفَعُ ذَلِكَ إِذَا لَمْ يُؤَفَّقُوا لِسُلُوكِ
الصَّحَّةِ ؟ فَأَهْلُ الْهُدَايَةِ فَازُوا بِالْعَنَايَةِ السَّابِقَةِ ، وَأَصْحَابُ الْغَوَايَةِ وَقَعُوا فِي ذُلِّ الْعِدَاوَةِ ، فَلَا
اعْتِرَاضَ عَلَيْهِ فِيمَا يَصْنَعُ ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ أَوْ لَمْ يَفْعَلُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ
قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

أَخْرِجْ قَوْمَكَ بِدَعْوَتِكَ مِنْ ظُلُمَاتِ شُكُومِهِمْ إِلَى نُورِ الْيَقِينِ ، وَمَنْ إِشْكَالِ الْجَهْلِ إِلَى رَوْحِ
الْعِلْمِ . وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ ؛ مَا سَلَفَ لَهُمْ مِنْ وَقْتِ الْمِيثَاقِ ، وَمَا رَفَعَ عَنْهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ فِي سَابِقِ
أَحْوَالِهِمْ .

ويقال ذكّرهم بأيام الله وهي ما سبق لأرواحهم من الصفوة وتعريف التوحيد قبل حلولها في الأشباح :

سقيًا لها ولطيها ولحسنها وبهاها

أيام لم (.)^(١)

ويقال ذكّرهم بأيام الله وهي التي كان العبد فيها في كتم العدم ، والحق يتولى عباده قبل أن يكون للعباد فعل ؛ فلا جهدًا للسابقين ، ولا عناء ولا ترك للمقتصدين ، ولا وقع من الظالم لنفسه ظلم^(٢) .

إذ كان متعلق العلم متناول القدرة ، والحكم على الإرادة .. ولم يكن للعبد اختيار في تلك الأيام .

قوله : « إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » .

« صبار » : راضٍ بحكمه واقف عند كون لذيد العيش يسره .

« شكور » : محجوب^(٣) بشهود النعم عن استغراقه في ظهور حقه .. هذا واقف مع صبره وهذا واقف مع شكره ، وكلُّ مُلْزَمٌ بحده وقدره . . . والله غالب على أمره ، مقدّسٌ في نفسه مُعَزَّزٌ بجلال قدره .

قوله جل ذكره ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ

اللّٰهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ

يَسْمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ

أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ

بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

(١) بقية الكلام غامضة في الكتابة والمعنى ، وتعجز المطبعة أن تنقل حروفها .

(٢) يشير القشيري بذلك إلى الآية ٣٣ من سورة فاطر : « فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات » .

(٣) فلا يزول الحجاب إلا إذا تجرد العبد عن شهود النعمة ، وشاهد المنعم ، ومن شاهد المنعم استقبل السراء والضراء بلا تمييز .

تَذَكَّرُ مَا سَلَفَ مِنَ النِّعَمِ يُوْجِبُ تَجْدِيدَ مَا سَبَقَ مِنَ الْمَحَبَةِ ، وَفِي الْخَبَرِ :
 « جُبِلَتْ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا » ؛ فَالْحَقُّ أَمْرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .
 بِتَذَكُّرِ قَوْمِهِ مَا سَبَقَ إِلَيْهِمْ مِنْ فَنُونِ إِنْعَامِهِ ، وَلَطَائِفِ إِكْرَامِهِ . . . وَفِي بَعْضِ الْكُتُبِ الْمُنْزَلَةِ
 عَلَى الْأَنْبِيَاءِ — عَلَيْهِمُ السَّلَامُ : « عَبْدِي ، أَنَا لَكَ مُحِبٌّ فَبِحَقِّ عَلَيْكَ كُنْ لِي مُحِبًّا »
 قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَإِذَا تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ
 لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾

إِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ مِنْ إِنْعَامِي وَإِكْرَامِي ، وَإِنْ كَفَرْتُمْ بِإِحْسَانِي لَأُعَذِّبَنَّكُمْ الْيَوْمَ بِأَمْتِنِي ،
 وَغَدًا بِفِرَاقِي وَهَجْرَانِي .

لَنْ نَرْفَعَهُ وَصَالِي لَأَزِيدَنَّكُمْ مِنْ وَجُودِ نَوَالِي إِلَى شُهُودِ جَمَالِي وَجَلَالِي ^(١) .
 وَيُقَالُ لَنْ شَكَرْتُمْ وَجُوهَ تَوْفِيقِ الْعِبَادَةِ لَأَزِيدَنَّكُمْ بِتَحْقِيقِ الْإِرَادَةِ .
 وَيُقَالُ لَنْ شَكَرْتُمْ شُهُودَ الْإِسْكَانِي لَأَزِيدَنَّكُمْ بِشُهُودِ أَوْصَافِي .
 وَيُقَالُ لَنْ شَكَرْتُمْ صُنُوفَ إِنْعَامِي لَأَزِيدَنَّكُمْ بِشُهُودِ إِكْرَامِي ثُمَّ إِلَى شُهُودِ إِقْدَامِي .
 وَيُقَالُ لَنْ شَكَرْتُمْ مَخْنَصَ نِعْمَتِي لَأَزِيدَنَّكُمْ مُنْتَظَرَ آلَائِي .
 وَيُقَالُ لَنْ شَكَرْتُمْ مَخْصُوصَ نِعْمَتِي لَأَزِيدَنَّكُمْ مَأْمُولَ كَرَمِي .
 وَيُقَالُ لَنْ شَكَرْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ مِنْ عَطَائِي لَأَزِيدَنَّكُمْ مَا وَعَدْنَاكُمْ مِنْ لِقَائِي .
 وَيُقَالُ لَنْ شَكَرْتُمْ مَا لَوَّحْتُ فِي سِرَائِرِكُمْ زِدْنَاكُمْ مَا أَلْبَسْنَا مِنَ الْعَصَةِ لظُوَاهِرِكُمْ .
 وَيُقَالُ لَنْ كَفَرْتُمْ نِعْمَتِي بِأَنْ تَوْهَمْتُمْ اسْتِحْقَاقَهَا ^(٢) لَجَرَّعْنَاكُمْ مَا تَسْتَمِرُّونَ مَذَاقَهَا .
 قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَنْ
 فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفِيرٌ
 حَمِيدٌ ﴾

(١) أَيْ إِنْ الْوُجُودَ وَالشُّهُودَ . . . هَذَا الصَّوْلُ — يَرْبِطَانِ بِالْأَوْصَافِ لَا بِالذَّاتِ ، فَقَدْ جَلَّتِ
 الصِّدْقَةُ مِنْ أَنْ يَسْتَشْرِفَ الْعَبْدُ مِنَ الذَّاتِ .
 (٢) أَيْ يَلْبِغِي أَنْ تَنْظُرُوا لِأَعْمَالِكُمْ بَيْنَ الْإِسْتِغْفَارِ وَأَنْ مَا تَتَاَلَوْنَ مِنْ نِعْمَةِ فَضْلِ اللَّهِ مِنْ اللَّهِ
 وَلَيْسَ نَظِيرُ أَعْمَالِكُمْ .

إن اجتمعتم أنتم ومن عاضدكم ، وكل من غاب عنكم وحضركم ، والذين يقتفون أثركم — على أن تكفروا بالله جميعاً ، وأخذتم كل يوم شركاء قطعاً — ما أوجههم لعزنا شيناً ، كما لو شكرتم ما جعلتم يملكنا زيناً . والحق بنعوته ووصف جبروته عليّ ، وعن العالم بأسره غنى* .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ .

استفهام في معنى التقرير . أخبره أنه لما جاءتهم الرسل قابلوهم بالكنود ، وعاملوهم بالجحود وردوا أيديهم في أفواههم ، وحدّوا سبيل أمثالهم في الكفر ، وبنوا على الشك والريبة قواعدهم ، وأسسوا على الشرك والنقي مذاهبهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَيَّءٍ ﴾

استفهام والمراد منه توبيخ ونفي . سبحانه لا يتحرك نفس إلا بنصريفه .

وكيف يبصر جلال قدره إلا من كحلّه بنور برّه ؟

ثم قال : « يدعركم ليغفر لكم من ذنوبكم » : ليس العجب ممن تكلف لسيد المشاق ونصل ما لا يطاق ، وألا يهرب من خدمة أو ينجح إلى راحة .. إنما العجب من سيد عزيز كريم يدعو عبده ليغفر له وقد أخطأ ، ويعامله بالإحسان وقد جفا .

والذى لا يكف عن العناد ، ولا يؤثر رضاء سيده على راحة نفسه فلا يحمل هذا إلا على
قصة بالشقاء سابقة . . وإن أحكام الله برده صادقة . ثم أخبر أنهم قالوا لرسلهم :

﴿ قَالُوا إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا
تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ
آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾

نظروا إلى الرسل من ظواهرهم ، ولم يعرفوا سرائرهم ، ومالوا إلى تقليد أسلافهم ،
وأصروا على ما اعتادوه من شقاقهم وخلافهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ مَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ
مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ
يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ
نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

قالت لهم الرسل ما نحن إلا أمثالكم ، والفرق بيننا أنه — سبحانه — من علينا بتعريفه ،
واستخلائنا بما أفرَدنا به من تشريفه . والذى اقترحتم علينا من ظهور الآيات فليس لنا إلى
الإتيان به سبيل إلا أن يُظهره الله علينا إذا شاء بما شاء — وهو عليه قدير .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَّقِيَ اللَّهَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ
هَدَانَا سُبُلَنَا وَكَتُوبُنَا عَلَى
مَا آذَيْنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

« ما لنا ألا نتوكل على الله » : وقد رقنا من حد التكليف بالبرهان إلى وجود روح
البيان بكثرة ما أفاض علينا من جميل الإحسان ، فكفانا من مهان الشان . « وما لنا
ألا نتوكل على الله » : وقد حقق لنا ما سبق به الضمان من وجود الإحسان ، وكفاية ما أظللنا
من الامتنان . « ما لنا ألا نتوكل على الله » ولم نخرج إلى التقاضى على الله فيما وعدنا الله .

قوله : « ولنصبرن على ما آذيتونا » : والصبر على البلاء يهون إذا كان على رؤية
المُنبئ ، وفي معناه أشدوا :

يستقمون بلاياهم كأنهم لا يأسون من الدنيا إذا قبلوا
قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذين كفروا لرسولهم
لنخرجنكم من أرضنا أو لنعوذن
في مملكتنا فأوحى إليهم ربهم
لنهلكن الظالمين ﴾

لما عجز الأعداء عن معارضة الأنبياء عليهم السلام في الإتيان بمثل آياتهم أخذوا في الجفاء
مهم بأنواع الإنذار ، والتهديد بفنون البلاء من الإخراج عن الأوطان ، والتشريد في البليان .
وبسط الله على قلوبهم بوعده نصره ولقائه ما أظلمهم من الأمر ، ومكن لهم من مساكن أعدائهم
بما قوى قلوبهم على الصبر على مقاساة بلائهم فقال :
« لهلكن الظالمين » ، وقال :

﴿ وَلَنُكِنِّيَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ
بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي
وَخَافَ وَعِيدِ ﴾

« وخاف وعيد » : أي خاف مقامه في محل الحساب غداً فأناوب إلى نفسه على
وجه التخصيص .

ويقال خاف مقامى أى هاب اطلاعى عليه ، فالأول تذكير المحاسبة في الآجل ، والثانى
تحقيق المراقبة في العاجل .

قوله جل ذكره : ﴿ واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ﴾

الاستفتاح طلب الفتح ، والفتح القضاء ، واستمعجوا حلول القضاء مثل قولهم : « إن كان هذا
هو الحق من عندك فأَمْطِرْ علينا حجارة من السماء » ^(١) وغيره فلما نزل بهم البلاء ، وتحقق لهم

(١) آية ٣٢ سورة الأنفال .

الأمر لم ينفعهم تضرعهم وبكاؤهم ، ولم تقبل منهم صدقتهم وفداؤهم ، ونادوا حين لا ندامة ،
وجزعوا بعدما عذبوا السلامة .

ويقال : « واستفتحوا » : بغير الرصل ، ولما وجد الرسل إصراد قومهم سألوا النصره
عليهم من الله كقول نوح — عليه السلام : « رب أنزلني على الأرض من الكافرين
دياراً » ، وقول مريم عليه السلام : « ربنا اطمئني على آسائلي واشدد على قلبيهم » (١)
فأجابهم الله بإهلاكهم .

ويقال إذا اشتد البلاء وصدق الدعاء قرب النجاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنْ وَّرَاءِهِ جَهَنَّمُ يُسْقَىٰ مِنْ
مَائِهِ صَدِيدٌ ۖ يُجْرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ
يُسْمِقُهُ ﴾

لفظ « وراء » يقع على ما بين يديه وعلى ما خلف ، والوراء ما توارى عليك أي
استتر ، يريد هذا الكافر يأتيه العذاب فيما بين يديه من الزمان ، وعلى ما خلفه ؛ أي لأجل
ما سلف من الماضي من قبيح أفعاله ، ويسقى من النار ما يشربه جرعة بعد جرعة ،
فلصعوبته ومرارته لا يشربه مرة واحدة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ
وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ
غَلِيظٌ ﴾

يرى العذاب — من شدته — في كل عضو ، وفي كل وقت ، وفي كل مكان . وليس
ذلك الموت ؛ لأن أهل النار لا يموتون ، ولكنه في الشدة كال موت . ثم « من ورائه عذاب
غليظ » : وهو الخلود في النار ، وهذا جزاء من اغترأ بأيام قلائل ساعدته المشيئة فيها ،
وانخدع فلم يشعر بما يليها .

(١) الآية ٨٨ سورة يونس .

قوله جل ذكره : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ
كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ
عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا
عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ
الْبَعِيدُ﴾

أى وفيما يُنْتَلَى عَلَيْكَ — يا محمد — مَثَلٌ لأعمال الكفار في تلاشيتها ، وكيف أنه
لَا يُقْبَلُ شَيْءٌ مِنْهَا كَرَمَادٍ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ، فإنه لَا يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ — كذلك أعمالهم .
وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَقَدْ خَابَ فِي الدَّارَيْنِ ، وَحُلَّ عَلَيْهِ الْوَيْلُ .

قوله جل ذكره : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ
وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَكْمِ الْحَقِّ ، أَى لَهُ ذَلِكَ بِحَقِّ مُلْكِهِ ، وَخَلَقَهُمَا بِقَوْلِهِ
الْحَقِّ ، فَعَمِلَ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهُمَا عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ دَلِيلًا ، وَلَمَّا أَرَادَ الْوَصُولَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا .
ثُمَّ قَالَ : إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ بِالْإِفْنَاءِ ، وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ فِي الْإِنْشَاءِ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ عَلَيْهِ
بِعَزِيزٍ ... وَأَتَى ذَلِكَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ ١٩

قوله جل ذكره : ﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ، فَقَالَ الضُّعَفَاءُ
لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ
تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُغْنُونَ عَنَّْا مِنْ
عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾

لَمْ يَكُونُوا عَنِ الْحَقِّ — سُبْحَانَهُ — مُسْتَتْرِينَ حَتَّى يَظْهَرُوا لَهُ ، وَلَكِنْ مَعْنَاهُ صَارَتْ
مَعَارِفُهُمْ ضَرُورِيَّةَ فَحْصَلُوا فِي مَوَاطِنَ لَمْ يَكُنْ لَغَيْرِ اللَّهِ فِيهَا حَكْمٌ ، فَصَارُوا كَأَنَّهُمْ ظَهَرُوا لِلَّهِ .
فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : «إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا» تَوْهَمًا أَنْ يَرْفَعُوا عَنْهُمْ شَيْئًا مِنَ الْعَذَابِ ،
فَأَجَابَهُمُ الْمُتَكَبِّرُونَ : «إِنَّا جَمِيعًا فِي الْعَذَابِ مُشْرَكُونَ ، وَلَوْ أَمَكُنَّا أَنْ تَرْفَعَ عَنْكُمْ مِنْ

العذاب ، وقدرنا على أن نهد يكم إلى طريق النجاة لنجيناكم مما شكوتكم ، وأجيناكم إلى ما سألتكم ، ولكنكم لستم اليوم لنا بمصرخين ، ولا نحن لكم بمغيثين ، ولا لما تدهونا إليه بمستجيبين ...

فلا تلومونا ولوموا أنفسكم ، ولات حين ملام ، إنما ينفع لوم النفس فيما تنماطاه من الإساءة في زمان المهلة وأوقات التكليف ؛ فإن أبواب التوبة مفتوحة ، ولكن لمن لم يتزع روحه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحْيَتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۖ ﴾

ذلك الذى مضى ذكره صفة الكفار والأعداء . وأما المؤمنون والأولياء ، فقال : « وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا » والإيمان هو التصديق ، « وعملوا الصالحات » تحقيق التصديق . ويدخل في جملة الأعمال الصالحة ما قل أو كثر من وجوه الخيرات حتى القدر نبيطه (١) عن الطريق .

و « نحيثهم فيها سلام » — وكذلك قال تعالى : « لهم دار السلام » ، فالوصف العام والتحية لهم من الله السلام .

ويقال إن أحوالهم متفاوتة في الرتبة ، فقوم سلوا من الاحتراق ثم من الفراق ثم من العذاب ثم من الحجاب .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾

(١) أَمَاط الأذى أى نجاه وأهمده

وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ * وَمِثْلُ كَلِمَةِ خَيْثَةٍ
كَشَجَرَةٍ خَيْثَةٍ اجْتُنِثَتْ مِنْ فَوْقِ
الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ *

هذا مثل ضربه الله للإيمان والمعرفة به سبحانه ، فشبهه بشجرة طيبة ، وأصل تلك الشجرة
ثابت في الأرض وفروعها باسقة وثمراتها وافية . تؤتي أكلها كل وقت ، وينتفع بها أهلها
كل حين .

وأصل تلك الشجرة المعرفة ، والإيمان مُصَحَّحًا بِالْأَدَلَّةِ وَالْبَرَاهِينِ ، وفروعها الأعمال
الصالحة التي هي الفرائض ومجانبة المصاحي .

والواجب صيانة الشجرة مما يضرُّ بها مثل كشف القشر وقطع العرق وإملاق الغصن^(١)
وما جرى مجراه .

وأوراق تلك الشجرة القيام بأداب العبودية ، وأزهارها الأخلاق الجميلة ، وثمارها حلاوة
الطاعة ولذة الخدمة .

وكما أن الثمار تختلف في الطعم والطبع والرائحة والصورة . كذلك ثمرات الطاعات ومعاني
الأشياء التي يجدها العبد في قلبه تختلف من حلاوة الطاعة وهي صفة العابدين ، والبسط الذي
يجده العبد في وقته وهو صفة العارفين ، وراحة في الضمير وهو صفة المريدين ، وأُنْسٍ يناله
في سرِّه وهو صفة المحبين . وقلق واهتياج يجدهما ولا يعرف سببهما ، ولا يجد سبيلا إلى
سكونه وهو صفة المشتاقين . إلى ما لا يفي بشرحه نطق ، ولا يستوفيه تكلف قول . وذكر
من لوائح ولوامع ، وطوارق وشوارق ، كما قيل .

طوارق أنوار تلوح إذا بدت فتظهر كأننا ونُخْبِرُ عن جمع

ثم إن ثمرات الأشجار في السنة مرة ، وثمرات هذه الشجرة في كل لحظة كذا كذا مرة .
وكما قال الله تعالى في ثواب الجنة : « لا مقطوعة ولا ممنوعة » كذا لطائف هذه الشجرة

(١) أي لإذهاب الفاسد منه .

لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وقلوب أهل الحقائق عنها لامرودة ولا محجوبة ، وهي في كل وقت ونفس تبدو لم غير محجوبة .

وعمرات الشجرة أشرف الثمار ، وأنوارها ألطف وأظرف ، وأنوارها وإشارات أهل القصة والفاظهم في مراتبهم ومعانيهم كالرياحين والنور .

ويقال الكلمة الطيبة هي الشهادة بالإلهية ، وللرسول — صلى الله عليه وسلم — بالنبوة . وإنما تكون طيبة إذا صدرت عن سر مخلص .

والشجرة الطيبة المعرفة ، وأصلها ثابت في أرض غير صبخة ، والأرض الصبخة قلب الكافر والمنافق ، فالإيمان لا ينبت في قلبيهما كما أن الشجرة في الأرض الصبخة لا تثبت . ثم لا بد للشجرة من الماء ، وماء هذه الشجرة دوام الصيانة ، وإنما تُورق بالكفاية ، وتتورّد بالهداية .

ويقال ماء هذه الشجرة ماء الندم والحياء والتلف والحسرة والأمانة والخشوع وإسبال^(١) الدموع .

ويقال ثمرات هذه الشجرة مختلفة بحسب اختلاف أحوالهم ؛ فمنها التوكل والتفويض والتسليم ، والمحبة والشوق والرضا ، والأحوال الصافية الوافية ، والأخلاق العالية الزكية . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة هي كلمة الكفر ، وخبثها ما صحبها من نجاسة الشرك ، فخبثت الكلمة لصدورها عن قلب هو مستقر الشرك ومنبعه .

والشجرة الخبيثة هي الشرك اجنت من فوق الأرض ؛ لأن الكفر متناقض متضاد ، ليس له أصل صحيح ، ولا برهان موجب ، ولا دليل كاشف ، ولا حجة تقضية ، إنما هو شبهة وأباطيل وضلال ، تقتضي وساوس وتسويلات ماله من قرار ، لأنها حادثة من شبهة وانسية وأصول فاسدة .

قوله جل ذكره : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ

(١) أسبكت العين = سال دمعها (الوسيط ج ١ ص ٤١٧) .

الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة
ويُضِلُّ اللهُ الظالمين ويفعل اللهُ
ما يشاء ﴿

بالقول الثابت وهو البقاء على الاستقامة ، وترك العوج .

ويقال القول الثابت هو الشهادة الضرورية عن صفاء العقيدة وخلوص السريرة .

ويقال القول الثابت هو بنطق القلوب لا بذكر اللسان .

ويقال القول الثابت هو قول الله العزيز القديم الذي لا يجوز عليه الفناء والبطول^(١)
فهو بالثبوت أولى من قول العبد ؛ لأن قول العبد أثرٌ ، والآثار لا يجوز عليها الثبوت والبقاء
ولأنما يكون باقياً حُكماً ثباتُ العبد لقول الله ؛ وهو حكمه بالإيمان وإخباره أنه مؤمن
وقسمته بالإيمان . وقول الله لا يزول ؛ ففي الدنيا يثبتُه حتى لا يدعُه تغريه ، وفي الآخرة
يثبتُه برسله من الملائكة ، وفي القيامة يثبتُه عند السؤال والمحاسبة وفي الجنة يثبتُه لأنه لا يزول
حمد العبد لله ، ومعرفة به . وإذا تنوعت عليه الخواطر ورفع إليه — سبحانه — دعاءه ثبتته
حتى لا يجيد عن النهج للمستقيم والدين القويم .

ويقال إذا دَعَتْهُ الوسواسُ إلى متابعة الشيطان ، وصيرته الهواجسُ إلى موافقة النفس
ظَلَقَ يَثْبِتُهُ عَلَى موافقة رضاء .

ويقال إذا دَعَتْهُ دواعي المحبة من كل جنس كمحبة الدنيا ، أو محبة الأولاد والأقارب
والأموال والأحباب أعانهُ الحقُّ على اختيار النجاة منها ، فترك الجميع ، ولا يتَحَسَّنُ
إلا دواعي الحقِّ — سبحانه — كما قيل :

إذا ما دَعَتْنَا حاجةٌ كي نردَّنا أينما وقلنا : مطلبُ الحقِّ أولاً

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ
كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾

(١) بطل الشيء بطولا وبطلانا = ذهب ضياعاً (الوسيط ج ١ ص ٦١) .

وضعوا الكفران محل الشكر ، فاستعملوا النعمة للكفر ، بدلاً من استعمالها فيما كان ينبغي لها من الشكر . واستعمال النعمة في المعصية من هذه الجملة ، فأعضاء العبد كلها نِعَمٌ من الله على العبد ، فإذا استعمل العاصي بَدَنَهُ في الزَّلة بدلاً من أن يستعملها في الطاعة فقد بَدَّلَ النعمة كُفْراً ، وكذلك إذا أودع الغفلة قلبه مكان المعرفة ، والعلاقة فيه مكان الاقتران إليه ، وعلَّقَ قلبه بالأغيار بَدَّلَ الثقة به ، ولَطَّخَ لسانه بذكر المخلوقين ومدحهم بَدَّلَ ذكر الله واشتغل بغير الله دون العناء في ذكره . . . كل هذا تبديلُ نِعَمِ الله كُفْراً . وإذا كان العبدُ منقطعاً إلى الله ، مكفياً من قبل الله . . . وَجَدَ في فراغه مع الله راحةً عن الخلق ، ومن إقباله عليه — سبحانه — كفاية ، فإذا رجع إلى أسباب التفرقة ، ووقع في بحار الاشتغال ومعاملة الخلق ومدحهم وذمهم فقد أحلَّ قومه دار البوار ، على معنى إيقاعه قلبه ونَفْسَهُ وجوارحه في اللذلة من الخلق ، والمضرة في الحال ، وشأنه كما قيل :

ولم أرَ قبلي مَنْ يُقَارِقُ جَنَّةً وَيَقْرَعُ بالنطفيل بابَ جهنم

قوله جل ذكره : ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَلْسَنَ الْقَرَار ﴾
وهي الجحيم المَعْجَل . . . وعذابها الفُرْقَةُ لا الحُرْقَةُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾

رضوا بأن يكون مصولهم معبودهم ، ومنحوتهم مقصودهم ، فضلوا عن نهج الاستقامة ، ونأوا عن مقر الكرامة ، وسيلقون غيب^(١) ما صنعوا يوم القيامة كما قيل :

قد تركناك والذي تريد فمسي أن تملهم فتعودا
قل تمتعوا أياماً قليلة فأيام السرور قصار ، ومُتْعُ الغفلة سريعة الاقضاء .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لِّبَآدِيَ الدِّينِ آمَنُوا يُقِيمُوا

(١) وردت (هيد) وقد آثرنا أن تكون (هب) ليتوى المعنى أى عاقبة ما صنعوا .

الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سِرًّا
وعِلَانِيَةً مِمَّن قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَّ يَوْمُ
لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خِلَالُ ۝

جعل الله راحة العبد — اليوم — بكاملها في الصلاة ؛ فإنَّها محلُّ المناجاة ، قال الرسول
صلى الله عليه وسلم : « أَرِحْنَا يَا بَلالُ بالصلاة »^(١) والصلاة استفتاح باب الرزق ، قال تعالى :
« وَأَمْرُ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا »^(٢)

وفي الصلاة يبيث^(٣) العبد أسرارَه مع الحق ؛ فإذا كان لقاء الإخوان — كما قالوا —
مَسَلَّةً لهم فكيف بمناجاتك مع الله ، ونشر قصتك بين يديه ؟ كما قيل :
قُلْ لِي بِالسَّنَةِ التَّنَفُّسُ كَيْفَ أَنْتَ وَكَيْفَ حَالُكَ ؟

« وينفقوا مما رزقناهم » : أمرهم بإففاق اللسان على ذكره ، وإففاق البدن على طاعته ،
والوقت^(٤) على شكره ، والقلب على عرفانه ، والروح على حبه ، والسُرُّ على مشاهدته . .
ولا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ، وإنما يطالبك بأن تحضر إلى الباب ، وتقف على البساط
بالشاهد الذي آتاك . . يقول العبد المسكين : لو كان لي نفسٌ أطوع من هذه لأتيتُ بها ،
ولو كان لي قلبٌ أشدُّ وفاءً من هذا لجئتُ به ، وكذلك بروحي وسري ، وقيل :

يُهديك بالروح صبُّ لو أنَّ له أعز من روحه شيئاً فداك به
« من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال » : وفي هذا للمعنى أنشدوا :

قلتُ للنفسِ إنَّ أردتِ رجوعاً فارجى قبل أن يُسدَّ الطريق

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ

(١) سبق تخريج هذا الحديث الشريف .

(٢) آية ١٣٢ سورة طه .

(٣) وودت (يثبت) والمعنى يقتضى (يبيث) .

(٤) وودت (الوقت) وهى — كما هو واضح — خطأ في النسخ .

الثمراتِ رِزْقًا لكم وسخر لكم
الفلكَ لتجري في البحر بأمره
وسخر لكم الأنهار * وسخر لكم
الشمس والقمر دالِّين وسخر لكم
الليل والنهار ﴿١﴾

في الظاهر رشح السماء فأعلاها ، والأرض من تحتها حشاها ، وخلق فيها بحاراً ، وأجرى
أنهاراً ، وأنبت أشجاراً ، وأثبت لها أنواراً وأزهاراً ، وأمطر من السماء ماءً منراراً . وأخرج
من الثمرات أصنافاً ، ونوع لها أوصافاً ، وأفرد لكل منها طعاماً مخصوصاً ، ولإدراكه
وقتاً معلوماً .

وأما في الباطن فساء القلوب زينتها بمصاييح العقول ، وأطلع فيها شمس التوحيد ،
وقر العرفان . وترج في القلوب بحرى الخوف والرجاء ، وجعل بينهما برزخاً لا يبغيان ؛
فلا الخوف يقلب الرجاء ولا الرجاء يقلب الخوف ، كما جاء في الخبر : « لو وزنا لا اعتدلا »^(١)
— هذا لمرام المؤمنين ، فأما للخواص فالقبض والبسط ، ولخاص الخاص فالهبة والأنس
والإتقاد والغناء .

وسخر لهم الفلك في هذه البحار ليعبروها بالسلامة ، وهي فلك التوفيق والعصمة ،
وسفينة الأنوار والحفظ . وكذلك ليالى الطلب للمريدين ، وليالى الطرب لأهل الأنس من
المحبين ، وليالى الحرب^(٢) للتائبين ، وكذلك نهار العارفين باستغنائهم عن سراج العلم عند
متنوع نهار اليقين .

قوله جل ذكره : ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن
تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن
الإنسان لظالمٌ كفارٌ ﴾

ما سمعت إليه هممكم ، وتعلق به سؤلكم ، وخطر تحقيق ذلك ببالكم ، أنلناكم

(١) أوردته الأراج في لمة ص ٩١ (قال صلى الله عليه وسلم : لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لا اعتدلا)
(٢) ربما يقصد التشيرى بالحرب هنا جهاد التائب مع نفسه ، وإظهار الحزن والتأسف .

فوق ما تؤملون^(١) ، وأعطيناكم أكثر مما ترجون^(٢) ، قال تعالى : « ادعوني استجب لكم » .

وقرأ بعض القراء^(٣) : « من سأل ما سأله » فينون قوله : كل ، ويجعل ما سأله (ما) للنفي أى كل شيء مما لم تسأله .

كذلك جاز أن يكون المعنى ، قل يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني — وهذا لأرباب الطاعات ، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني — وهذا لأصحاب الزلات . عليم قصور لسان العاصي وما يمنعه من الخجل وما يقبض على لسانه إذا تذكر ما عمله من الزلات ، فأعطاه غفرانه ، وكفاه حشمة السؤال ، والتفضل ؛ فقال : غفرت لكم قبل أن تستغفروني .

ولكن متى يخطر على قلب العبد ما أهله الحق — سبحانه — من العرفان ؟ وكيف يكون ذلك الحديث ؟ .. قبل أن كان له إمكان ، أو معرفة وإحسان ، أو طاعة أو حصيان ، أو عبادة وعرفان ، أو كان له أعضاء وأركان ، أو كان العبد شيخاً أو عيناً أو أثراً . . لا بل :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتكنا

قوله جل ذكره : (وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفُلُولٌ كَفَّارٌ)

كيف يكون شكركم كفاه نعمة . . ؟ وشكركم نزر يسير ، وإنعامه وافر غزير .

وكيف تكون قطرة الشكر بجوار بحار الإنعام ؟

إِنَّ نِعْمَةَ عَلَومِكُمْ عَنْ تَفْصِيلِهَا مُتَقَاصِرَةٌ ، وَفُهُومُكُمْ عَنْ تَحْصِيلِهَا مُتَأَخِّرَةٌ .

(١) وردت (تؤمنون) وهي — كما هو واضح — لا يستقيم بها السياق فآثرنا تؤملون .

(٢) وردت (ترجعون) وهي — كما هو واضح — لا يستقيم بها السياق فآثرنا ترجون .

(٣) لا يهتم القشيري بالقراءات إلا نادراً ، وحيثما وجد ، ذلك مجالا للإشارة نافعة للصوفية

وإذا كان ما يدفع عن العبد من وجوه المحن^(١) وفنون البلايا من مقدوراتها لا نهاية له .
فكيف يأتي الحصر والإحصاء على مالا يتناهى ؟
وكما أن النفع من نعيمه فالدفع أيضاً من نعمه .
ويقال إن التوفيق للشكر من جملة ما ينعم به الحق على العبد فإذا أراد أن يشكره لم يمكنه
إلا بتوفيق آخر فلا يبقى من النعم إلا ما يشكر عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ^(٢) قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ
هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ
نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ لِمَنْ أَضَلَّنَا
كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي
فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾

كما سأل أن يجعل مكة بلداً آمناً طلب أن يجعل قلبه محلاً آمناً ، أى لا يكون فيه شيء
إلا بالله . « واجنبني وبني أن نعبد الأصنام » : والصنم ما يعبد من دونه ، قال تعالى :
« أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ »^(٣) فصنم كل أحد ما يشغله عن الله تعالى من ماله وولده
وجاه وطاعة وعبادة .

ويقال إنه لما بنى البيت استعان بالله أن يجرده من ملاحظة نفسه وفعله .
ويقال إنه — صلى الله عليه وسلم — كان متردداً بين شهود فضل الله وشهود رفق
نفسه ، فلما لقي من فضله وجوده قال من كمال بسطه : « واغفر لأبي إنه كان من الضالين » .
ولما نظر من حيث فقر نفسه قال : « واجنبني وبني أن نعبد الأصنام » .
ويقال شاهد غيره فقال : « واجنبني وبني أن نعبد الأصنام » ، وشاهد فضله ورحمته
ولطفه فقال : « واغفر لأبي إنه كان من الضالين » .

(١) وردت (المحسن) وهي خطأ في النسخ .
(٢) سقطت (وإذ) من النسخ .
(٣) آية ٢٣ سورة الجاثية .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

« فإنه مني » : أي موافق لي ومن أهل ملتي ، ومن عصاني خالفني وعصاك .

قوله : « فإنك ^(١) غفور رحيم » : طلب للرحمة بالإشارة ، أي فارحمهم .

وقال : « ومن عصاني » . . ولم يقل : من عصاك ، وإن كان من عصاه فقد عصى الله ،
ولكن اللفظ إنما لطلب الرحمة فيما كان نصيب من ترك حقه ، ولم ينتصر لنفسه بل
قابلهم بالرحمة .

ويقال إن قول نبينا صلى الله عليه وسلم في هذا الباب أتم في معنى العفو حيث قال :
« اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » ، وإبراهيم — عليه السلام — عرض وقال : « فإنك
غفور رحيم » .

ويقال لم يجزم السؤال لأنه بدعاء الأدب ^(٢) فقال : « ومن عصاني فإنك غفور رحيم » .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ
غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْحَرَمِ رَبَّنَا
لِقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ
النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ
الشَّرَاطِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾

أخبر عن صدق توكله وصدق تفويضه بقوله : « إني أسكنت . . . » وإنما رأى الرفق
هم في الجوار لا في المبارك فقال : « عند بيتك المحرم » ثم قال : « لقيموا الصلاة » :
أي أسكنهم لإقامة حقك لا لطلب حظوظهم .

ويقال اكتفى أن يكونوا في ظلال عنايته عن أن يكونوا في ظلال نعمته .

(١) أخطأ الناسخ إذ جعلها « فإن الله غفور رحيم » .

(٢) تفيد هذه الإشارة في النواحي البلاغية حيث استبدل التعبير بالأسلوب الإنشائي بالأسلوب الخبري .

ثم قال : « فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم » أى ليشتغلوا بعبادتك ، وأقم قومي — ما بقوا — بكفايتك ، « وارضهم من الثمرات » : فإن من قام بحق الله أقام الله بحقه قومه ، واستجاب الله دعاءه فيهم ، وصارت القلوب من كل بر وبحر كالجيوالة على محبة تلك النسبة ، وأولئك المتصلين به ، وسكان ذلك البيت .

ويقال قوله : « بوادٍ غير ذي زرع » : أى أسكنهم بهذا الوادى حتى لا تتعلق بالأغيار قلوبهم ، ولا تشتغل بشيء أفكارهم وأسرارهم ؛ فهم مطروحون ببائك ، مصونون بحضرتك ، مرتبطون بحسبك ؛ إن راعيتهم كفيتهم وكانوا أعز خلق الله ، وإن أقصيتهم ونفيتهم كانوا أضعف وأذل خلق الله .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ .

استأثرت بعلم الغيب فلا يعزبُ عن علمك معلومٌ ، وحالى لا تخفى عليك ، فهى كما عرفت ، أنت تعلم سرى وعلىي .. ومن عرف هذه الجملة استراح من طوارق الأغيار ، واستروح قلبه عن ترجم الأفكار ، والتقسيم في كون الحوادث من الأغيار .

قوله جل ذكره : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدَّعَاءِ ﴾

أسعده بمنحه الولد على الكبر ، ويلتحق ذلك بوجه من المعجزات ؛ فحمد عليه . ولما كان هذا القول عقيب سؤاله ما قدم من ذكر نعمته — سبحانه — عليه ، وإكرامه بأنواره ، وهذا يكون بمعنى الملق^(١) ، ويكون استدعاء نعمة بنعمة ، فكأنه قال : كما أكرمتني ربيبة الولد على الكبر ؛ فأكرمتني بهذه الأشياء التي سألتها .

ويقال الإشارة في هذا أنه قال : كما مَنَنْتَ عَلَى فوهبتي على الكبر هذه الأولاد

(١) الملق = الدعاء والتضرع (الوسيط) .

فَأَجْنِبْنَا أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ لَتَكُونَ النِّعْمَةُ كَامِلَةً . وفي قوله : « إِنْ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ » . .
إشارة إلى هذه الجملة .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءً *
رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ
يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾

في قوله : « رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ . . » إشارة إلى أن أفعال العباد مخلوقة ، فعنائه
اجعل صلاتي ، واجعلْ واتَّخِذْ بمعنى ، فإذا جعله مقِيمَ الصَّلَاةِ فعنائه أن يجعل له صلاة .
وقوله : « وَمِنْ ذُرِّيَّتِي » : أي اجعل منهم قوماً يُصَلُّونَ ، لأنه أخبره في موضع آخر
بقوله : « لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ » ^(١)

ثم قال : « رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ » وهذا قبل أن يعلم أنه لا يؤمن .
ويقال إن إجابة الدعاء ابتداءً فضل منه . ولا ينبغي للعبد أن يتَّكِلَ على دعاء أحد
وإن كان عليَّ الشأن ، بل يجب أن يعلق العبد قلبه بالله ، فلا دعاء أتمُّ من دعاء إبراهيم
عليه السلام ، ولا عناية أتمُّ من عنايته بشأن أبيه ، ثم لم ينفعه ولا شفع الله له .
ويقال لا ينبغي للعبد أن يترك دعاءه أو يقطع رجاءه في ألا يستجيب الله دعاءه ، فإن إبراهيم
الخليل عليه السلام دعا لأبويه فلم يُسْتَجَبْ له ، ثم إنه لم يترك الدعاء ، وسأل حيناً لم يُجَبْ فيه .
فلا غضاضة على العبد ولا تناله مذلةٌ إن لم يُجِبْهُ مولاه في شيء ؛ فإن الدعاء عبادةٌ لا بدَّ
للعبد من فعلها ، والإجابة من الحقِّ فضلٌ ، وله أن يفعل وله ألا يفعل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ
الظَّالِمُونَ ﴾

هذا وعيدٌ للظالمين ونسلية للمظلومين ؛ فالمظلوم إذا تحقق بأنه — سبحانه — عالمٌ بما
يلاقيه من البلاء هانت على قلبه مقاساته ، وحق عليه تحميله .

(١) آية ١٢٤ سورة البقرة .

والظلم على وجوه ؛ ظلم على النفس بوضع الزلّة مكان الطاعة ، وظلم على القلب بتسكين
الخواطر الرديّة منه ، وظلم على الروح بجعلها لمحبة المخلوقين .

ويقال من جملة الظالمين الشيطان ، فالعبد المؤمن مظلوم من جهته ، والحق — سبحانه —
ينتصف له منه غداً ، وذلك إن لم يتبّعهُ اليوم ، ودفعه عن نفسه بالمجاهدة وترك وساوسه .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ

الْأَبْصَارُ ﴾ مُطْعِمٌ مُقْنِي... الآية ﴿

وهذا للعوام من المؤمنين ، علّق قلوبهم بالانتقام منهم في المستأنف ، وأمّا الخواص فاذا
علموا أنه — سبحانه — عالمٌ بهم وبمحالم فإنهم يعفون ويكتفون بذلك ، وأمّا خواص
الخواص فاذا علموا أنهم عبيده فإنهم لا يرضون بالعفو عن ظلمهم حتى يستغفروهم ، كما قال النبي
— صلى الله عليه وسلم — : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » ، وفي معناه أنشدوا :

وما رضوا بالعفو عن ذى زلة حتى أنالوا كفه وازدادوا

وأما أصحاب التوحيد فاذا علموا أنه المنشيء ، وألا مخترع سواه فليس بينهم وبين أحدٍ
محاسبة ، ولا مع أحدٍ معاتبة ، ولا منه مطالبة ، لأنهم يعدّون إثبات الغير في الظن
والحسبان شيراً كراً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ

فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا

إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبُ دَعْوَتَكَ

وَنَتَّبِعِ الرَّسَلَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا

أَقْسَمْتُمْ مِن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن

زَوَالٍ ﴿

أفدوا في أول أمورهم ، وقصّروا في الواجب عليهم ، ولم يكن للخلل في أحوالهم
جبران ، ولا لعذرهم قبول لتصحّ الحجة عليهم ، فافتضح الجور منهم ، وخاب الكافر ،
وحقّ الحكم عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَسَكُنْتُمْ فِي مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا
أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ
وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴾

أحللنا بهم العقوبة ، وأشهدناكم ذلك مما اعتبرتم ، وجريتم على منهاجهم ، وفعلتم مثل
فعلهم ، وبالمهالنا لكم اغتررتم . . فانظروا منا ما عاملناكم به جزاء لكم على ما أسلفتم .
ويقال إن معاشره أهل الهوى والفسق ومجاورتهم مشاركة لهم في فعلهم ، فيستقبل
فاعل ذلك استقبالهم ، ومن سلكهم ينخرط في التردى نحو وهذه هلاكه مثلهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ كُفِلًا وَعْدِهِ رُسُلَهُ
إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ .

أى لا تحسبته يخلف رسله وعده ؛ لأنه لا يخلف الوعد لصدقه في قوله ، وله أن يعذبهم
بما وعدم لحقه في ملكه ، وهو « عزيز » لا يصل إليه أحد ، وإن كان ولياً . « ذو انتقام »
لا يفوته أحد وإن كان (.)^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ
وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ .

لا يختلف عينها وإنما تختلف صورتها ، وكذلك إذا انكدرت النجوم ، وانشت السماء
يقال ما بدّل عينها وإنما بدّل الأزمان والمكان على الناس باختلاف أحوالهم في السرور والحزن ؛
كمن صار من الرخاء إلى البلاء يقول : تغير الزمان والوقت . . وكذلك من صار من البلاء
إلى الرخاء .

ويقال إن آدم لما قتل أحد أبنيه الآخر قال :

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيح

وفي هذه القصة^(٢) من كان صاحب بسط فرد إلى حال القبض ، ومن كان صاحب أس

(١) وردت لفظتان هكذا (سهماً قوماً) .

(٢) يشير القشيري إلى (بالقصة) إلى الحياة الصوفية .

فصار صاحب حجاب — يصحُّ أن يقال بدل له الأرض ، قال بعضهم :

ما الناس بالناس الذى عهدى بهم ولا البلاد بتلك التى كنت أعرفها
وكذلك العبد للمريد إذا وقعت له وقفة أو فترة كانت الشمس له كاشفة ، وكانت الأرض
به راجفة ، وكان النهار له ليلا ، وكان الليل له ويلا ، وكما قيل :

فما كانت الدنيا بسهل ولا الضحا بِطَلْقٍ ولا ماء الحياة ببارد

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ
فِي الْأَصْفَادِ * سَرَّابِلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ
وَتَفْسٌ وُجُوهُهُمْ النَّارُ * لِيَجْزِيََ
اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ
سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ .

الأصفاد الأغلال . الأصفا تجمعهم ، والسلامل تقيدهم ، والقطران سراويلهم ، والحميم
شرابهم ، والنار محيطة بهم . . . وذلك جزاء من خالف إلهه .

قوله جل ذكره : ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ
وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ
وَلِيَذْكُرُوا أُولَ الْأَلْبَابِ ﴾ .

الحجج ظاهرة ، والأمارات لاثمة ، والدواعى واضحة ، والمهلة متسعة ، والرسول عليه
السلام مُبَلِّغٌ ، والتمكين من القيام بحق التكليف مساعد . ولكن القسمة سابقة ،
والتوفيق عن القيام ممنوع ، والربُّ — سبحانه — فعَّالٌ لما يريد ، فمن اعتبر نجا ،
ومن غفل تردى . والله الأمر من قبل ومن بعد ، والله أعلم .

السورة التي يذكر فيها الحجر

بسم الله الرحمن الرحيم

منقط ألف الوصل من كتابة بسم الله وليس لإسقاطها علة ، وزيد في شكل الباء من بسم الله وليس لزيادتها علة ، ليُعلم أن الإثبات والإسقاط بلا علة ؛ فلم يُقبل من قبل لاستحقاق علة ، ولا ردٌّ من ردٍّ لاستيجاب علة . فإن قيل العلة في إسقاط الألف من بسم الله كثرة الاستعمال في كتابتها أشكل بأن الباء من بسم الله زيد في كتابتها وكثرة الاستعمال موجودة . فإن قيل العلة في زيادة شكل الباء بركة أفضالها باسم الله أشكل بحذف ألف الوصل لأن الاتصال بها موجود ، فلم يبق إلا أن الإثبات والنفي ليس لهما علة ؛ برفع من يشاء ويمنع من يشاء .

قوله جل ذكره : ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مَبِينٍ﴾ .

أسمعهم هذه الحروف مُقَطَّعَةً على خلاف ما كانوا يسمعون الحروف المنظومة في الخطاب ، فأعرضوا عن كل شيء وسمعوا لها . ونبههم القرآن إلى أن هذه التي يسمعونها آيات الكتاب ، فقال لهم لما حضرت ألبابهم ، واسعدت لسمع ما يقول آذانهم : « تلك آيات الكتاب وقرآن مبين » .

ووصف القرآن بأنه مبين ؛ لأنه يُبين للمؤمنين ما يسكن قلوبهم ، وللمريدين ما يقوى رجاءهم ، وللمحسنين ما يهيج اشتياقهم ، وللمشتاقين ما يثير لواعج أسرارهم ، ويبين للمصطفى — صلى الله عليه وسلم — تحقيق ما منعه غيره بعد سؤاله . . ألم تر إلى ربك قال لموسى عليه السلام : « لن تراني » بعد سؤاله : « رب أرني أنظر إليك »^(١)

(١) آية ١٤٣ سورة الأعراف

قوله جل ذكره : ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا
مسلمين﴾ .

إذا عرفوا حالهم وحال المسلمين يوم القيامة لعلموا كيف شقوا ، وأى كأس رشفوا .
ويقال إذا صارت المعارف ضروريةً أحرقت نفوس أقوام العقوبة ، وقطعت
قلوبهم الحسرة .

ويقال لو عرفوا حالهم وحال المؤمنين لعلموا أن العقوبة بإهلاكهم حاصلة لقوله
تعالى بعدئذ :

﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ
الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ .

قيمة كل امرئ على حسب همته ؛ فإذا كانت الهمة مقصورة على الأكل والتمتع
بالصفة البهيمية لا يحاسب ، وعلى العقل لا يطالب ؛ فالتكليف يتبعه التشريف ؛ وغداً
سوف يعلمون .

قوله جل ذكره : ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا
كِتَابٌ مُعْلَمٌ﴾ ما تسبق من أمة
أجلها وما يستأخرون .

الآجال معلومة ، والأحوال مقسومة ؛ والمشيئة في الكائنات ماضية ، ولا تخفى على
الحق خافية

قوله جل ذكره : ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ
إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ .

الجنون معني يوجب إسناد ما ينكشف للعقلاء من التحصيل على صاحبه ، فلما كانوا
يوصف التباس الحقائق عليهم فهم أولى بما وصفوه به^(١) ، فهم كما في المثل : دمتني
بدائها وانسلت .

(١) لأنهم ليسوا عقلاء ولا تحصيل لهم .

قوله جل ذكره : ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ
مِنَ الصَّادِقِينَ * مَا نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ
إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾

اقترحوا عليه الإتيان بالملائكة بعد ما أزيحت العلة عليهم بما أيد به معجزاته ، فيتوجب
اللوم عليهم لسوء أدبهم . وأخبر الحق — سبحانه — أنه أجرى عادته أنه إذا أظهر الملائكة
لأبصار بني آدم فيكون ذلك عند استبصارهم ؛ لأنه تصير المعرفة ضرورية . وفي المعلوم
أنه لم يكن ذلك الوقت أَوَّانَ هَلَاكِهم ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّ فِي أَصْلَابِهِمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ
فِي الْمُسْتَأْنَفِ .

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ
لِحَافِظُونَ﴾ .

أنزل التوراة وقد وُكِّلَ حفظها إلى بني إسرائيل بما استحفظوا من كتاب الله ، فحرفوا
وبدّلوا ، وأنزل الفرقان وأخبر أنه حافظه ، وإنما يحفظه بقراءته ؛ فقلوبُ القُرَّاء خزائنُ كتابه ،
وهو لا يضيع كتابه .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعْرِ
الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ
إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * كَذَلِكَ
نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ *
لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ
الْأَوَّلِينَ﴾ .

أخبر أنه كانت عادتهم التكذيب ، وأنه أدام سُنَّتَهُ معهم في التعذيب . ثم قال :
« كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ » : وهم لا يؤمنون به لأنه أزاح قلوبهم عن شهود الحقيقة ،
وسدَّ — بالحرمان — عليهم سلوك الطريقة ، وبَيَّنَّ أنه لو أراهم الآيات عياناً ما ازدادوا

إلا عتواً وطنياناً ، وأن من سبق له الحكم بالشقاء فلا يزداد على ممر الأيام
إلا ما سبق به القضاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِنْ السَّمَاءِ
فَقَالُوا فِيهِ يُمْرُجُونَ ﴾ * لقالوا
إنما سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ
مَسْحُورُونَ ﴿

من عليه التقدير كان بأمر التكليف مدعوا ، وبأمر التكوين مقضياً . . فتى ينفع فيه
النصح ؟ ومتى يكون للوعظ فيه مساغ ؟ كلا . . إن البصيرة له مسدودة ، و (. . .) (١)
الخدلان بِقَدَمِهِ مَسْدُودَةٌ ، فهو يحمل النصيحة له على الواقعة ، والحقيقة على الخديعة .
قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا
لِلنَّازِلِينَ ﴾

بروجاً أى نجوماً هى لها زينة ، ثم تلك النجوم للشياطين رجوم .

﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾
إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَّ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ
مُبِينٌ ﴿

إذا رام الشياطين أن يسترقوا السمع كانت النجوم لها رجوماً

كذلك للقلوب نجومٌ وهى للعارف وهى فى الوقت ذاته رجوم على الشياطين ؛ فلو دنا إبليسُ
وجنوده من قلب ولى من الأولياء أحرقتَه بل محقته نجومٌ عقله وأقارُ عليه وشموسٌ توحيديه .
وكما أن نجومَ السماء زينةً للناظرين إذا لاحظوها فقلوبُ العارفين إذا نظر إليها ملائكة
السماء لى زينة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا
رَوَاسِيَ ﴾

(١) مثلية وهى فى الخط هكذا (متقلب) وربما كانت (متقلات) بمعنى ائفال وقبود .

النفوس أرض عبادة العابدين ، وقلوبُ العارفين أرض المعرفة وأرواح المشتاقين أرض المحبة ، والخوف والرجاء لها رواسٍ . وكذلك الرغبة والرغبة .

ويقال من الرواسى التى أثبتتها فى الأرض الأولياء فيهم يثبت الناس إذا وقع بهم الفزع . ومن الرواسى العلماء الذين بهم قوامُ الشريعة ؛ فعلماء الأصول هم قوامُ أصل الدين ، والفقهاء بهم نظامُ الشرع ، قال بعضهم :

واحسرتا من فراق قوم هم المصاييحُ والأمنُ والمزُنُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأُنَبِّتُهَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ

موزون ﴾

كما أثبت فنونا من النبات ذات أنوار^(١) أثبت فى القلوب صنوفاً من الأنوار^(٢) ، منها نور اليقين ونور العرفان ، ونور الحضور ونور الشهود ، ونور التوحيد . . إلى غير ذلك من الأنوار .

﴿ وجعلنا لكم فيها معاشاً ومن لستم له برازقين ﴾

سببُ عيش كل واحدٍ مختلفٌ ؛ فعيشُ المريد من إقباله ، وعيش العارفين التجمل بأفضاله^(٣)

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾

خزائنه فى الحقيقة مقدراته ، وهو — سبحانه — قادر على كل ما هو مرسوم بالحدوث . ويقال خزائنه فى الأرض قلوبُ العارفين بالله ، وفى الخزانة جواهر من كل صنف ؛ فحقائق العقل جواهر وضعها فى قلوب قوم ، ولطائف العلم جواهر بدائع المعرفة ، وأسرار العارفين

(١) أنوار النبات جمع نورة وهى الزهرة البيضاء .

(٢) أنوار القلوب جمع نور .

(٣) وردت (أفعاله) وقد رجحنا (أفضاله) لأنها أدق فى المعنى ، وإن كان كلاماً صحيحاً

مواضع مِرَّةً ، والنفوس خزائن توفيقه ، والقلوب خزائن تحقيقه ، واللسان خزانة ذِكْرِهِ .

ويقال من عرف أن خزائن الأشياء عند الله تقاصرت خطاه عن التردد على منازل الناس في طلب الإِرْفاق منهم ، وسعى في الآفاق في طلب الأرزاق منها ، قاطعاً أمله عن الخلق ، مفرداً قلبه لله متجرداً عن التعلق بغير الله .

قوله : « وما ننزله إلا بقدر معلوم » : عَرَفَ الْقِسْمَةَ مَنْ اسْتَرَاخَ عَنْ كَدِّ الطَّلَبِ ؛ فَإِنَّ الْمَعْلُومَ لَا يَتَغَيَّرُ ، وَالْمَقْسُومَ لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ ، وَإِذَا لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ شَيْءٌ لِأَحَدٍ فَبِقُدْرَتِهِ عَلَى إِجَابَةِ الْعَبْدِ إِلَى طَلْبَتِهِ لَا يَتَوَجَّبُ عَلَيْهِ شَيْءٌ .

ويقال أراح قلوب الفقراء مِنْ تَحْمِيلِ الْمِنَّةِ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ مِمَّا يَعْطُونَهُمْ ، وَأَرَاخَ الْأَغْنِيَاءَ مِنْ مَطَالِبَةِ الْفُقَرَاءِ مِنْهُمْ شَيْئاً ، فَلَيْسَ لِلْفَقِيرِ صَرْفُ الْقَلْبِ عَنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِلَى مَخْلُوقٍ وَاعْتِقَادُ مَنَّةٍ لِأَحَدٍ ، إِذِ الْمُلْكُ كُلُّهُ لِلَّهِ ، وَالْأَمْرُ بِيَدِ اللَّهِ ، وَلَا قَادِرَ عَلَى الْإِبْدَاعِ إِلَّا اللَّهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنْ

السَّمَاءِ مَاءً ﴾

كما أن الرياح في الآفاق مُقَدِّمَاتُ الْمَطَرِ كَذَلِكَ الْأَمَالُ فِي الْقُلُوبِ ، وَمَا يَقْرُبُ الْعَبْدَ مِمَّا يَتَوَارَدُ عَلَى قَلْبِهِ مِنْ مَبْشَرَاتِ الْخَوَاطِرِ ، وَنَسِيمِ النِّجَاةِ فِي الطَّلَبِ يَحْصُلُ ، فَيَسْتَرْوِحُ الْقَلْبُ إِلَيْهِ قَبْلَ حَصُولِ الْمَأْمُولِ مِنَ الْكَفَايَةِ وَاللَّطْفِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَسْقِينَاكُمْوه وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾

أَسْقَاهُ إِذَا جَعَلَ لَهُ الشُّقْيَا ؛ كَذَلِكَ يَجْعَلُ الْحَقُّ — سُبْحَانَهُ — لِأَوْلِيَائِهِ الطَّافِئاً مَعْلُوماً فِي أَوْقَاتٍ مَحْدُودَةٍ ؛ كَمَا قَالَ فِي وَصْفِ أَهْلِ الْجَنَّةِ : « وَلَمْ رَزَقْهُمْ فِيهَا بَكْرَةً وَعَشِيّاً » .

كذلك يجعل من شراب القلوب لكل ورداً معلوماً ، ثم قضايا ذلك تختلف :

فَمِنْ شَرَابِ يُسْكِرُ ، وَمِنْ شَرَابٍ يُخْفِضُ ، وَمِنْ شَرَابٍ يَزِيلُ الْإِحْسَاسَ ، كَمَا قِيلَ :

فَصَحْوُكَ مِنْ لَفْظِي هُوَ الصَّحْوُ كُلُّهُ وَسُكْرُكَ مِنْ لَحْظِي يَبِيحُ لَكَ الشُّرْبُ

ويقال إذا هبت رياح التوحيد على الأسرار كنست آثار البشرية ، فلا للأغيار فيها أثر ،

ولا عن الخلائق لهم خبر .

ويقال إذا هبَّت رياح القرب على قلوب العارفين عطَّرتْها بنفحات الأنس ، فيسْقُونَ
في نسيمها على الدوام ، وفي معناه أَلشدوا :

وهبَّتْ شمال آخر الليل قرَّةً^(١) ولا ثوبَ إلا برْدَةٌ وردائيا
وما زال يرْدِي لنا من ردائها إلى الحولِ حتى أصبح البرْدُ باليا

ويقال إذا هبَّت رياح العناية على أحوال عبد عادت مَساوِيه مناقِبِه ومثالبُه محاسنه .
قوله جل ذكره : ﴿ وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون ﴾ .

نحيي قلوبهم بالمشاهدة ، ونميت نفوسهم بالمجاهدة .

ويقال نحييهم بأن نفسيهم بالمشاهدة ، ونميتهم بأن نأخذهم عن شواهدهم .

ويقال يحيي المریدین بذكره ، ويميت الغافلين بهجره .

ويقال يحيي قوماً بموافقة الأمر في الطاعات ، ويميت قوماً بمتابعة الشهوات .

ويقال يحيي قوماً بأن يلاطفهم بلطف جماله ، ويميت قوماً بأن يحجبهم عن أفضاله .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد علمنا المُتَقَدِّمِينَ مِنْكُمْ
ولقد علمنا المُتَأَخِّرِينَ ﴾ .

العارفون مستقدمون بهمَّهم ، والعايدون مستقدمون بقَدَمهم ، والتائبون بندمهم .
وأقوام متأخرون بقدَمهم وهم العُصاة ، وآخرون متأخرون بهمومهم وهم الراضون
بخسائس الحالات .

ويقال المستقدمون الذين يسارعون في الخيرات ، والمتأخرون المتكاسلون عن الخيرات .

ويقال المستقدمون الذين يستجيئون خواطر الحق — من غير تعريج إلى تفكر ،
والمستأخرون الذين يرجعون^(٢) إلى الرُّخص والتأويلات .

ويقال المستقدمون الذين يأتون على مراكب التوفيق ، والمتأخرون الذين تتبطلهم
مشقة الخذلان .

(١) قرّة أى باردة .

(٢) وردت (يرجون) وهي خطأ في النسخ — حسبما نعرف من رأى التشبيهي في مثل هذا الموقف ،

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ رَبَّكَ هُوَ يُحْشِرُهُ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ .

يبعث كلاً على الوصف الذي خرجوا من الدنيا عليه : فمن منفرد القلب بربه ، ومن مُتَطَوِّحٍ في أودية التفرقة ، ثم يحاسبهم على ما يستوجبونه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُومِ ﴾ .

ذَكَرَهُمْ بِخَسِيَّتِهِمْ لِئَلَّا يُعْجَبُوا بِحَالَتِهِمْ .

ويقال القيمة في القرية لا بالثربة ؛ والنسب تربة ولكن السمّت قرية .

« وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلِ مِنْ نَارِ السُّمُومِ » . وإذا انطفأت النار صارت رماداً لا يجيء منها شيء ، والطين إذا انكسر عاد به الماء إلى ما كان عليه ، كذلك العدو^(١) لما انطلقاً ما كان يلوح عليه من سراج الطاعة لم ينجبر بعده ، وأما آدم — عليه السلام فلما اغترّ جَبَرَهُ ماء العناية ، قال تعالى : « ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ . . . »^(٢)

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رَوْحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ .

أظهرهم بهذا القول ، وفي عين ما أظهرهم سترهم .

ويقال ليست العبرة بقوالهم ، إنما الاعتبار بالمعاني التي أودعها فيهم .

(١) يقصد إبليس . (٢) آية ١٢٢ سورة طه .

ويقال الملائكة لا حظوه بعين الخلق فاستصغروا قدره وحاله ، ولهذا يحبوا من أمر الله — سبحانه — لم بالسجود له ، فكشف لهم شظية مما اختص به فسجدوا له .
قوله : « إلا إبليس أبى أن يكون من الساجدين » : وكذا أمر من حجب عن أحواله ادعى الخيرة وبقي في ظلمة الخيرة .

ويقال بخل بسجدة واحدة ، وقال : أَسْتَنْكِفُ أَنْ أَسْجُدَ لغير الله . ثم من شقاوته لا يبالى بكثرة معاصيه ، فإنه لا يعصي أحداً إلا وهو سبب وسواسه ، وداعيه إلى الزلّة . . .
وذلك هو عين الشقوة وقضية الخذلان .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ
مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ قال لم أكن لأسجد
لبشر خلقت من صلصال من حمأ
مسنون * قال فاخرج منها فإنك
رجيم * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى
يَوْمِ الدِّينِ * .

سأله ومعلوم له حاله ، ولو ساعدته المعرفة لقال : قل لي مالك ؟ وما منعك ؟ ومن
منعك حتى أقول . أنت .. حيث أشقيتني ، وبقرتك أغويتني ، ولو رحمتني ، لهديتني
وفي كنف عصمتك آويتني ... ولكن الحرمان أدركه حتى قال : « لم أكن لأسجد لبشر »
قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ
﴾ قال فإنك من المنظرين * إلى يوم
الوقت المعلوم * .

ولما أبعد الحق — سبحانه — عن معرفته ، وأفردته باللعة استنظره إلى يوم القيامة
والبعث ، فأجابه . وظنّ اللعين أنه حصل في الخير مقصوده ، ولم يعلم أنه أراد بذلك تعذيبه
عذاباً شديداً ، فكأنه كان في الحقيقة مكرراً — وإن كان في الحال في صورة إجابة السؤال
بما يشبه اللطف والبر .

وبعض أهل الرجاء يقول : إن الحق — سبحانه — حينما يهين عدوه لا يردّ دعاه

في الإهمال ولا يمنعه من الاستنظار ؛ فالتؤمن — إذ أمرُهُ الاستغفارُ والسؤالُ بوصفِ
الافتقارِ — أولى ألا يَنْتَظِرَ مِنْ رَحْمَتِهِ ، لأنَّ إِنْظَارَ الْعَيْنِ زِيَادَةُ شَقَاءٍ لَهُ لَا تَحْقِيقَ عَطَاءٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ
فِي الْأَرْضِ وَلَا أَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

الباء في : « بما أغويتني » بإه القسَم ، ولم يكن إغواؤه إياه مما يجب أن يُقسِمَ به لولا قرطُ
جَهْلِهِ . ثم هو في المعنى صحيح ، لأنَّ الإغواءَ مما يتفرَّدُ الحقُّ بالقدرة عليه ، ولا يشاركه فيه أحد ،
ولكنَّ الْعَيْنَ لَا يَعْرِفُ اللَّهَ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، إذ لو عرَفَهُ لم يدعُ إلى الضلال ، لأنه لو قدر على إضلالِ
غيره لاستبقى على الهدايةِ نَفْسَهُ . وعند أهل التحقيق إنه يقول جميع ذلك حدساً وهو لم يَعْرِفِ
الله — على الحقيقة — قط .

قوله جل ذكره : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ قال
هذا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ ﴿

الإخلاصُ هو تصفيةُ الأعمالِ عن الفَنَنِ وعن الآفاتِ المانعة من صالح الأعمال . وقد عَلِمَ
الْعَيْنُ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ لَهُ إِلَيْهِمْ بِالْإِغْوَاءِ لَمَّا تَحَقَّقَ مِنْ عُنَايَةِ الْحَقِّ بِشَأْنِهِمْ .

« قال هذا صراط على مستقيم » تهديدٌ ، كما تقول : افعل ما شئت . . وهذا طريق .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ
إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾

السلطانُ الحجة ، وهي لله على خلقه ، وليس للعدوِّ حجة على مخلوق ، إذ لا تتعدَّى
مقدرته محله ، فلا تَسْلُطُ — في الحقيقة ^(١) — لمخلوقٍ على مخلوقٍ بالتأثير فيه .

« إن عبادي ... » : إذا سمي الله واحداً عبداً فهو من جملة الخواص ، فإذا أضافه إلى
نفسه فهو خاص الخواص ، وهم الذين محام عن شواهدهم ، وحفظهم وصانهم عن أسباب التفرقة

(١) نلاحظ أن القشيري يكثر في هذا الموضوع من قوله (في الحقيقة ، وعلى الحقيقة . . ونحو ذلك)
والسبب في ذلك راجع إلى أن ظاهر النصوص أن لا بليس إرادة وفعل ، ولكن — في الحقيقة — كل شيء
مريد إلى الحق سبباً عنه .

وجردهم عن حَوْلهم وقُوَّتهم ، وكان النائب عنهم في جميع تصرفاتهم وحالاتهم ، وحفظ عليهم آداب الشرع ، وألبسهم صِدَارَ الاختيار في أوان أداء التكليف ، وأخدمهم عنهم باستهلاكهم في شهوده ، واستغراقهم في وجوده . . . فأى سبيل للشيطان إليهم؟ وأى يدٍ للعدو عليهم؟

ومن أشهد الحق حقائق التوحيد ، ورأى العالم مُصَرِّقاً في قبضة التقدير ، ولم يكن نبأً للأخبار .. فنى يكون للعين عليه تسلط ، وفي معناه قالوا :

ججودى فيك تقديسُ وعقلى فيك تهويسُ
ففس آدم إلا لك ومن في البيت إبليس^(١)

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾
لها سبعة أبواب لكل باب منهم
جزء مَقْسُومٌ .

اجتمعوا اليوم في أصل الضلالة ، ثم الكفر مِثْلُ مختلفة ، ثم يجتمعون غداً في العقوبة
ومرّهم مختلفون ، لكل دَرَكَةٌ من درجات جهنم قوم مُحْصُونَ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ .
المتقى مَنْ وقَّاه الله بفضله لا مَنْ اتَّقَى بِتَكْلُفِهِ ، بل إنه ما اتقى بتكلفه إلا بعد أن وقَّاه
الحق — سبحانه — بفضله . هم اليوم في جنات ولها دَرَجَاتٌ بعضها أرفعُ من بعض ، كما
أنهم غداً في جنات ولها درجات بعضها فوق بعض .

اليوم لقوم درجة حلاوة الخدمة وتوفيق الطاعة ، ولقوم درجة البسط والراحة ،
ولآخرين درجة الرجاء والرغبة ، ولآخرين درجة الأنس والقربة ، قد علم كل أناسٍ مشربهم
ولزم كل قومٍ مذهبهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمَنِينَ ﴾ .

(١) هذا البيتان للعلاج (الطواسين ص ٤٢) والديوان المقطعة رقم ٢٨ ومعناها : أننى لو سجدت
لفيكر — حسبما أمرتنى — فأنا جاحد ، ولكن — نظراً لمرق بك — فإن ججودى عين تقديسى ،
لأننى أعلم أنه لا يستعق السجود على الحقيقة إلا أنت ، فأنا راض باحتمال لمنتك ثمناً لخدم امتثال لإرادتك .

معناه : يقال لهم : « أدخلوها » ، وأَجَلْ ذلك ولم يقل مَنْ الذى يقول لهم . ويرى قومُ
أن الملكَ يقول لهم : أدخلوها .

ويقال إذا وافوا الجنة وقد قطبوا المسافة البعيدة ، وتأسوا الأمورَ الشديدةَ فَمِنْ حَقِّهم
أن يدخلوا الجنة ، خاصةً وقد علموا أن الجنةَ مُباحةٌ لهم ، ولملهم لا يقفون حتى يقال لهم
ويقال بمحتمل أنهم لا يدخلونها بقول الملكِ حتى يقول الحقُّ : أدخلوها ، كما قالوا :

ولا أَلْبَسُ النَّسِيَّ وَغَيْرُكَ مُلْبِسٌ ولا أَقْبِلُ الدُّنْيَا وَغَيْرُكَ وَاهِبٌ

قوله : « بسلام آمين » : بمعنى للسلامة ، وهى الأمان ، فيأمنون أنهم لا يخرجون منها
ويقال كما لا يخرجون من الجنة لا يخرجون عما هم عليه من الحال ، فالرؤيةُ لهم وما هم فيه
من الأحوال الوافية — مديدة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ ﴾ .

أمرَ الخليلَ عليه السلام ببناء الكعبة وتطهيرها فقال : « وطهر بيتي »^(١) ، وأمرَ جبريلَ
عليه السلام حتى غسَلَ قلبَ المصطفى — صلى الله عليه وسلم — فطَهَّرَهُ^(٢) . وتولَّى هو — سبحانه —
بنفسه تطهيرَ قلوبِ العاصين ، فقال : « ونزعنا ما في صدورهم من غلٍ »^(٣) وذلك رفقاً بهم ، فقد
يصنع الله بالضعيف ما يتعجبُ منه القوى ، ولو وكل تطهيرَ قلوبهم إلى الملائكة لاشتهرت
عيوبهم ، فتولَّى ذلك بنفسه رفقاً بهم .

ويقال قال : « ما في صدورهم » ولم يقل ما في قلوبهم لأن القلوب فى قبضته يقلبها ، وفى
الخبر : « قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » : يريد بذلك قدرته ، فاستعمل لفظ
الإصبع لذلك توسعاً . وقيل بين إصبعين أى نعمتين

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾

قابل بعضهم بعضاً بالوجه ، وحفظ كل واحدٍ عن صاحبه سرَّه وقلبه ، فالنفوس متقابلة

(١) آية ٢٦ سورة الحج .

(٢) أنظر كتاب (المصراع) للتصيرى ففيه تفصيل ذلك

(٣) عن علي بن الحسين أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر وعطى رضي الله عنهم وأن الفل فل الجاهلية
الذى كان بين نيم وعدة وبني هاشم فلما أسلموا تحابوا .

ولكنّ القلوبَ غيرُ متقابلةٍ ؛ إذ لا يشتغل بعضهم ببعض ، قال تعالى : « واعلموا أنّ الله يحول بين المرء وقلبه »^(١)

قوله جل ذكره : ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ .

أى لا يلحقهم تعبٌ ؛ لا بنفوسهم ولا بقلوبهم . وإذا أرادوا أمراً لا يحتاجون إلى أن ينتقلوا من مكانٍ إلى مكانٍ ، ولا تحار أبصارهم ، ولا يلحقهم دَهَشٌ ، ولا يتغير عليهم حالٌ عما هم عليه من الأمر ، ولا تشكل عليه صفة من صفات الحق .
« وما هم منها بمخرجين » أى لا يلحقهم^(٢) ذلّ الإخراج بل هم بدوام الوصال .

قوله جل ذكره : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾
لما ذكرَ حديثَ المتقين وما هم من علوِّ المنزلة انكسرت قلوب العاصين ، فتدارك الله قلوبهم ، وقال لنبيه — صلى الله عليه وسلم — أخبر عبادى العاصين أنى غفور رحيم ، وأنى إن كنتُ الشكورَ الكريمَ بالمطيعين فأنا الغفورُ الرحيمُ بالعاصين .
ويقال مَنْ سَمِعَ قوله : « أنى أنا » بسمع التحقيق لا يبقى فيه مساغٌ لسماع المغفرة والرحمة ؛ لأنه يكون عندئذٍ مُحْتَطَفًا عن شاهده ، مُسْتَهْلَكًا فى أُنْبَتِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ .
العذابُ الأليمُ هنا هو الفراق ، ولا عذابٌ فوق الفراق فى الصعوبة والألم^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ .
دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ﴾ .

ألا عرفهم . كيف كانت فتوة الخليل فى الضيافة ، وقيامه بحق الضيفان ، وكان الخليلُ

(١) آية ٢٤ سورة الأنفال .

(٢) هنا وقع التماسخ فى خطأ التكرار إذ أعاد كتابة عبارات سابقة مما ورد بعد (لا يلحقهم تعب ... إلخ) :

(٣) أى أن عذاب الفراق يفوق فى نظر الصوفية — عذاب الاحتراق .

عليه السلام يقوم بنفسه بخدمة الضيفان ، فلما سلموا من جانبهم ورد عليهم وانفضوا عن تناول طعامه :

﴿ قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ .

وجِلُونَ أى خائفون ، فإنَّ الإمساك عن تناول طعام الكرام موضعٌ للريبة . ولما علم أنهم ملائكة خاف أن يكونوا نزلوا لتعذيب قومه إذ كانوا مجرمين . ولكن سكن دعوته عندما قالوا له :

﴿ قَالُوا لَا تَوَجَّلْ إِنَّا مُبَشِّرُونَ
بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ .

فليس لك موضعٌ للوجَل لكن موضعٌ للفرَج ؛ فإننا جناتك مبشرون ، وإن كنَّا لغيرك مُعَذِّبِينَ .

نحن « نبشرك بغلام عليم » : أى يعيش حتى يعلم ، لأن الطفل ليس من أهل العلم ، وكانت بشارتهم بالولد وبقاء الولد هى المعجب فقال :

﴿ قَالَ أَبَشِّرْهُمْ عَلَى أَنْ مَسْنَى
الْكِبَرِ فَيَمُوتُ تَبَشِّرُونَ ﴾ قالوا
بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِّنَ
الْقَانِطِينَ * قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَّحْمَةِ
رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾

قال أبشِّرْهم وقد مَسْنَى الكِبَرُ ؟ وإنَّ الكِبَر قد فاته الوقت الذى يفرح فيه من الدنيا بشيء . بماذا تبشرونى وقد طَعَنْتُ فى السن ، وعن قريب أرتحل إلى الآخرة ؟ قالوا : بشرناك بالحق فلا تكن من جملة من يقنط من رحمة الله ، ولا يقنط من رحمة ربه إلا من كان ضالاً .

قال : كيف أخطأ ظنكم فى فتوهمهم أنى أقنط من رحمة ربي ؟

فلما فرغ قلبه من هذا الحديث ، وعرف أنه لن يُصِيبَهُ ضررٌ منهم سألهم عن حالهم :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ *
 قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ *
 إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجِّيُومُ أَجْمَعِينَ
 * إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ
 الْغَابِرِينَ ﴾ .

قال ما شأنكم ؟ وإلى أين قصدكم ؟

قالوا : أُرْسِلْنَا لعذاب قوم لوط ، ولننجيَ أهله إلا امرأته لمشاركتها معهم في الفساد ،
 وكانت تدل قومه على أضيافه ، فاستوجبت العقوبة .

فلما وافى المرسلون من آل لوط أنكرهم لأنه لم يجدهم على صورة البشر ، وتفرس فيهم
 على الجملة أنهم جاءوا لأمرٍ عظيم ، قالوا : بل جئناك بما كان قومك يشكون فيه من
 تعديبنا إياهم ، وآتيناك بالحق ، أي بالحكم الحق :

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ
 وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ
 أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾

فأسر بأهلك بعد ما يمضي شيء من الليل ، وامش خلفهم ، وقدّمهم عليك ، واتبع
 أدبارهم ، ولا يلتفت منكم أحد لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب ، وإنا ننقذك وأهلك
 إلا امرأتك ، فإننا نعذبها لمشاركتها مع قومك في العصيان . « وامضوا حيث تؤمرون » :
 فلكم السلامة ولقومكم العقوبة .

« وقضينا إليه ذلك الأمر » أي علمناه وعرفناه : « أن دا بر هؤلاء مقطوع » ، أي أنهم
 مهلكون ومُستأصلون بالعقوبة .

ثم لما نزل الملائكة بلوط عليه السلام قال لقومه إن هؤلاء أضيافى ، فلا تنعرضوا لهم
 فتفضحوني ، واتقوا الله ، وذروا مخالفة أمره ولا تخجلوني . فقال قومه : ألم ننهك عن أن
 تحيى أحداً ، وأمرناك ألا تمنع منّا أحداً ؟ فقال : هؤلاء بناتى يعنى نساء أمتى . وقال قوم :

أراد بناته من صلبه ، عَوَّضَهُنَّ عَلَيْهِمْ لثَلَاثِيَهُنَّ بِنَاتِكَ الْغُلَطَّةِ الْفَحْشَاءِ ، فلم تنجح فيهم نصيحة ، ولم يُقْلِعُوا عَنْ خَيْثٍ قَصْدِهِمْ .

فأخبره الملائكة ألا يخاف عليهم ، وسكنوا من رَوْعِهِ حين أخبروه بحقيقة أمرهم ، وأنهم إنما أرسلوا للعقوبة .

قوله جل ذكره : ﴿ لَعَنُوكَ إِنَّمَا لَفِيَ سَكْرَتِهِمْ يَغْمَهُونَ ﴾^(١)
أقسم بحياته تخصيصاً له في شرفه ، وتفضيلاً له على سائر البرية ، فقال وحياتك — يا محمد — إنهم لفي ضلالتهم وسكرة غفلتهم يتردُّون ، وإنهم عن شرِّكم لا يُقْلِعُونَ .
ويقال أقسم بحياته لأنه لم يكن في وقته حياة أشرف من حياته — إنهم في خمارٍ سُكْرِهِمْ ، وغفلةٍ ضلالتهم لا يترقبون عقوبةً ، ولا يخافون سوءاً .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ ﴾ فجعلنا
عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابَةً
مِنْ رَسَابِيلٍ * إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِّلْمُتَوَسِّبِينَ * وَإِنَّا لَبَسِيلٌ مُّقِيمٌ *
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

باتوا في حبور وسرور ، وأصبحوا في محنة وثبور ، وخرَّت عليهم مقوفتهم ، وجعلنا
مُدَّتَهُمْ وَمَنَازِلَهُمْ عَالِيَهَا سَافِلَهَا ، وأمطرنا عليهم من العقوبة ما لم يُبْقِ عَيْنًا وَلَا أُنْرًا ،
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَعْتَبِرُ ، ودلالة ظاهرة لمن استبصر ، « وَإِنَّا لَبَسِيلٌ مُّقِيمٌ » لِمَن شَاءَ
أَن يَعْتَبِرَ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّبِينَ ﴾^(١)
جاء في التفسير « المتوسِّبين » ، والفراصةُ خَاطِرٌ يحصل من غير أن يعارضه ما يخالفه
عند ظهور برهانٍ عليه ، فيخرج من القلب عين ما يقع لصاحب الفراسة . مشتق من فريسة

(١) آخر النسخ تفسير هذه الآية عند النقل فوضعها بعد الآية ٨٦ (إن ربك هو الخلاق العليم)
وقد صححنا هذا الوضع .

الأسد إذ لفريسته يقهر . والحق — سبحانه — يُطْلِعُ أوليائه على ما خفى على غيرهم .
 وصاحب الفراسة لا يكون بشرط التفرس في جميع الأشياء وفي جميع الأوقات ؛ بل يجوز أن
 تُسدَّ عليه عيونُ الفراسة في بعض الأوقات كالأنبياء عليهم السلام ؛ فَنبينا — صلى الله
 عليه وسلم — كان يقول لعائشة — رضى الله عنها — في زمان الإفك : « إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ
 فَتَوْنِي إِلَى اللَّهِ » . وكأبراهيم ولوط — عليهما السلام — لم يعرفا الرسل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ظَالِمِينَ ﴾

* فانتقمنا منهم وإني لبارئ مما
 مبین * ولقد كذب أصحاب الحجر
 المرسلين * وآتيناهم آياتنا فكانوا
 عنها معرضين * وكانوا ينحتون
 من الجبال بيوتاً آمنين * فأخذتهم
 الصيحة مصبحين * فما أغنى عنهم
 ما كانوا يكسبون * .

أصحاب الأيكة هم قوم شعيب ، وكان شعيب — عليه السلام — مبعوثاً لهم فكذبوه ،
 فانتقمنا منهم .

قوله : « وإني لبارئ مما » يعني مدين والأيكة . . . « لبارئ مما مبین » : أى بطريق واضح من
 قصده (. . .) (١) .

وكذلك أخبر أن أصحاب الحجر (٢) — وهم ثمود — كذبوا المرسلين إليهم ، وأنهم
 أعرضوا عن الآيات التي هي المعجزات كناقية صالح وغيرها ، وأنهم كانوا أخلدوا إلى الأرضين
 وكانوا مُفْتَرِّين بطول إهمال الله إياهم من تأخير العقوبة عنهم ، وكانوا يتخذون من الجبال
 بيوتاً ، ويظنون أنهم على أنفسهم آمِنُونَ من الموت والعذاب .

(١) مشبهة .

(٢) الحجر واد بين المدينة والنام .

ثم أخبر أنهم أخذتهم الصيحة على بغتة ، ولم تغر عنهم حيلتهم لما حلَّ حينهم .
قوله جل ذكره : ﴿ وما خلَقْنَا السموات والأرضَ
وما بينهما ﴾ .

دلَّت الآية على أن أكساب العباد مخلوقة لله لأنها بين السموات والأرض .
﴿ إلا بالحق وإن الساعة لآتية ﴾
« إلا بالحق » : أى وأنا مُحَقٌّ فيه ويقال « بالحق » : بالأمر العظيم الكائن إن
الساعة لآتية يعنى القيامة .

﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾

يقال الصفح الجميل الذى تذكر الزلَّة فيه .
ويقال الصفح الجميل سحب ذيل الكرم على ما كان من غير عقْد الزلَّة ، بلا ذِكْرٍ
لما سَلَفَ من الذنب ، كما قيل :

تعالوا نصطليح ويكون مِنَّا

(.....)^(١)

ويقال الصفح الجميل الاعتذار عن الجُرْم بلا عُدِّ الذنوب من المجرم ، والإقرار بأن
الذنب كان منك لا من العاصي ، قال قائلهم :

(وتذنبون فننسى ونعتذر)

قوله جل ذكره : ﴿ إن ربك هو الخلاق العليم ﴾ .

« هو الخلاق العليم » إذ لا يصح الفعل بوصف الانتظام والاتساق من غير عالم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني
والقرآن العظيم ﴾ .

أكثرُ المفسرين على أنها سورة الفاتحة ، وسميت مثاني لأنها نزلت مرتين : مرة بمكة

(١) الشطر الثانى مطموس غير واضح .

ومرة بالمدينة ، ولأنها شيء في كل صلاة يتكرر ، من « التثنية » وهي التكرير ، أولاً
بعضها يضاف إلى الحق وبعضها يضاف إلى الخلق . . . ومنى هذا مذكور في كتب
التفسير (١) .

ترواه جل ذكره : ﴿ لَا تَمُدَّنْ عَيْنَكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا
بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾ .

لم يُسَلِّمْ له إشباع النظر إلى زهرة الدنيا وزينتها .
ويقال غار على عينيه — صلى الله عليه وسلم — أن يستعملها في النظر إلى المخلوقات .
ويقال أدبه الله — سبحانه — بهذا التأديب حتى لا يُعِيرَ طرفه من حيث الاستئناس به .
ويقال أمره بحفظ الوفاء لأنه لما لم يكن اليوم سبيلاً لأحد إلى رؤيته (٢) ، فلا تمدن عينيك
إلى ملاحظة شيء من جملة ما خولناهم ، كما قال بعضهم :

لَمَّا تَيَقَّنْتُ أَنِّي لَسْتُ أَبْصِرْكُمْ انْغَمَضْتُ عَيْنِي فَلَمْ أَنْظُرْ إِلَى أَحَدٍ

ويقال شتانَ بينه وبين موسى — عليه السلام — قال له : لن تراني ولكن أنظر إلى
الجليل ، ونينا — صلى الله عليه وسلم — منعة من النظر إلى المخلوقات بوصفٍ هو تمام
النظر فقال : « وَلَا تَمُدَّنْ عَيْنَكَ » .

ويقال إذا لم يلم له إشباع النظر بظواهره إلى الدنيا فكيف يسلم له السكون بقلبه إلى
غير الله ؟

ويقال لما أَمَرَ بِغَضِّ بَصَرِهِ عما ينشع به الكفار في الدنيا تَأَدَّبَ — عليه السلام —
فلم ينظر ليلة المعراج إلى شيء مما رأى في الآخرة ، فأثنى عليه الحق بقوله : « مازاغ البصر .
وما طغى » وكان يقول لكل شيء رآه : « التحيات لله » أي الملك لله .

(١) ويرى بعضهم أنها سبع سور وهي الباقول ، واختلف في السابعة فقبل الأتقال وراءة لأنها في حكم
سورة بدليل عدم التسمية بهما ، وقبل سورة يوس . أو أساع القرآن .

(٢) الضمير في (رؤيته) يعود إلى الحق سبحانه ، والمقصود حفظ العين — من قبيل الوفاء —
لكن لا تنابى سواء سبحانه فيما بعد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾

أدبه حتى لا يتغير بصفة أحد ، وهذه حال التمكن .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

أى ألين لهم جانبك . وكان عليه السلام إذا امتعانت به الوليدة^(١) في الشفاعة إلى مواليها يمضي معها . إلى غير ذلك من حسن خلقه — صلوات الله عليه — وكان في الخبر : إنه كان يخدم بئته وكان في (مهنة) عمله^(٢) . وتولى خدمة الوفد ، وكان يقول : سيد القوم خادهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾

لما لم يكن بنفسه وكان قائماً بحقه — سبحانه وتعالى — سلم له أن يقول : إني وأنا . وفي الخبر : أن جابراً دق عليه الباب ، فقال : من ؟ قال : أنا . فقال النبي عليه السلام : « أنا أنا » .. كأنه كرهها^(٣)

ويقال : قل لأحد لا سهلاً لك فينا ، سلمنا أن تقول : إني أنا ، لما كنت بنا ولنا .

قوله جل ذكره : ﴿ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴾

أى قل إني أنالكم منذر بعذاب كالعذاب الذي عذبنا به المقتسمين ، وهم الذين تقاسموا بالله لنبيه في قصه صالح عليه السلام . وقيل هم من أهل الكتاب الذين اقتسموا كتاب الله ، فأمنوا ببعضه وكفروا ببعضه .

ويقال إني لكم نذير أخوفكم عقوبة المقتسمين الذين اقتسموا الجبال والطرق بمكة في الموسم ، وصدوا الناس . وكان الواحد منهم يقول لمن مر به : لا تؤمن بمحمد فإنه ساحر ، ويقول الآخر : إنه كاهن ويقول ثالث : إنه مجنون ، فهم بأقسامهم :

﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾^(٤)

(١) الوليدة = الحارية ، قال طرفة :

فذا لك كما ذالك وليدة محلس نرى دهباً أذبال سعل ممد

(٢) عن الأسود بن يزيد . قال سئلت عائشة رضى الله عنها ما كان النبي (ص) يصنع في بيته ؟ قالت : كان يكون في مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة خرج إليهما (رواه البخاري) .

(٣) الحديث جاء مضطرب الكتابة في السختين وقد صححناه كما أورد النووي في رياض الصالحين ط

سروت ص ٣٥١

(٤) عصين ج عضة وأصلها عضة أى جزء ، وعضة فعلة من عفى الشاة إذا جعلها أعضاء وأجزاء وأصناماً .

خفيروا قول فيه ، فقال بعضهم إنه شر ، وقال بعضهم إنه سحر ، وقال بعضهم إنه
كهان . . . إلى غير ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ فَوَرَبُّكَ لَتَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عما
كانوا يعملون ﴾

العوام يسألهم عن تصحيح أعمالهم ، والخواص يسألهم عن تصحيح أحوالهم .
ويقال يسأل قوماً عن حركات ظواهرهم ، ويسأل آخرين عن خطرات سرائرهم . ويسأل
الصادقين عن تصحيح المعاني بفعالهم ، ويسأل المدّعين عن تصحيح الدعاوى تعنيفاً لهم .
ويقال سماع هذه الآية يوجب لقوم أنساً وسروراً حيث علموا أنه يكلمهم ويسمعهم
خطاباً لا شتيافهم إليه ، ولا تعجب في ذلك فالخلق يقول في مخلوق :
من الخفريات البيض ودّ جليسا إذا ما انتهت أحدىثة توّ نعيدها
فلا أسعد من بشري يعرف أن مولاه غداً سيكلمه .

قوله جل ذكره : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض
عن المشركين ﴾

كنّ بنا وقلّ بنا ، وإذا كنت بنا ولنا فلا تجعل حساباً لغيرنا ، وصرّح بما خاطبك به ،
وأفصح عما نحن خصصناك به ، وأعلن محبتنا لك :
فسبح^(١) باسم من تهوى ودّعنا من الكئي فلا خير في اللذات من بعدها ستر

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ
يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ ﴾

الذين دقّعنا عنك عادية^(٢) شرهم ، ودّرأنا عنك سوء مكرهم ، ونصرناك بموجب

(١) الأصل في البيت (فصرح) والتصريح يقابل (الكناية) .

(٢) وردت (عادية) بالفن ، والملائم للسياق (عادية) بالعين . حيث يقال (دفعت عنك عادية فلان
أي ظله وشره) : الوسيط ص ٥٩٥ .

عنايتنا بشأنك . . فلا عليكَ فما يقولون أو يفعلون ، فما العقبى إلا لكَ بالنصر والظفر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ .

وقال : « يضيّق صدرك » ولم يقل يضيّق قلبك ؛ لأنه كان في محل الشهود ، ولا راحة للمؤمن دون لقاء الله ، ولا تكون مع اللقاء وحشة .

ويقال هوّن عليه ضيق الصدر بقوله : « وَلَقَدْ نَعْلَمُ » ويقال إن ضاق صدرك بسمع ما يقولون فيك من ذمّك فارتفع^(١) بلسانك في رياض تسييحنا ، والثناء علينا ، فيكون ذلك سبباً لزوال ضيق صدرك ؛ وسلوة لك بما تتذكر من جلال قدرنا وتقديسنا ، واستحقاق عزّنا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾

قف على بساط العبودية معتقاً للخدمة ، إلى أن تجلس على بساط القرية ، وتطالب بأداب الوصلة .

ويقال التزم شرائط العبودية إلى أن ترقى بل تُكفَى بصفات الحرية .

ويقال في « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين »^(٢) : إن أشرف خصالك قيامك بحق العبودية .

(١) وردت هكذا وترجيح أنها في الأصل (فارتفع) فهي أكثر ملاءمة للمعنى . جاء في رسالة القسيري ص ١١١ (وفي الخبر المشهور عن الرسول صلى الله عليه وسلم : إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا فيها ، فقيل له : وما رياض الجنة ؟ فقال : مجالس الذكر .

(٢) عن العلاقة بين العبودية واليقين ينقل القسيري عن شيخه الدقاق قوله : « المباداة لمن له علم اليقين ، والعبودية لمن له عين اليقين والعبودة لمن له حق اليقين » الرسالة ص ٩٩ .

السورة التي يذكر فيها النحل

قوله جل ذكره : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

ألف الوصل في « بسم الله » لم يكن لها في التحقيق أصل ، جُلبت للحاجة إليها للتوصل بها إلى النطق بالسأ كن ، وإذ وقع ذلك أنفا عنها أُسْقِطَتْ في الإدراج ، ولكن كان لها بقاء في الخط وإن لم يكن لها ظهور في اللفظ ، فلما صارت إلى « بسم الله » أُسْقِطَتْ من الخط كذلك .. وكذلك من ازداد صحبة استأخر ^(١) رتبة .

ويقال أي استحقاق لواو عمرو حتى ثبتت في الخط ؟ وأي استحقاق إلى الألف في قولهم قتلوا وفعلوا ؟ وأي موجب لحذف الألف من السُّوَات ؟ طاحت العِلَلُ في الفروق ، وليس إلا اتفاق الوضع .. كذلك الإشارة في أرباب الرد والقبول ، قال تعالى « إن ربك فعال لما يريد » ^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

صيغة أتى للماضي ، والمراد منه الاستقبال لأنه بشأن ما كانوا يستعجلونه من أمر الساعة ، والمعنى « سيأتي » أمر القيامة ، والكائنات كلها والحادثات بأمرها من جملة أمره ؛ أي حصل أمر تكوينه وهو أمر من أموره لأنه حاصل بتقديره وتيسيره ، وقضائه وتدبيره ؛ فما يحصل من خير وشر ، ونفع وضر ، وحلو ومر .. فذلك من جملة أمره تعالى .

« فلا تستعجلوه » وأصحاب التوحيد لا يستعجلون شيئاً باختيارهم لأنهم قد سقطت عنهم الإرادات والمطالبات ، وهم خامدون تحت جريان تصريح الأقدار ؛ فليس لهم إشار ولا اختيار فلا يستعجلون أمراً ، وإذا أمَلُوا شيئاً ، أو أُخِيرُوا بحصول شيء فلا استعجال لهم ، بل شأنهم

(١) إن صح نقل هذه الكلمة عن الأصل فربما يقصد القشيري منها استخفى عن الطهور ، وازداد ذبولا ، وبعداً عن التظاهر والدعوى .
(٢) آية ١٠٧ سورة هود .

التأني والثبات والسكون . وإذا بدأ من التقدير حكم فلا استعجال لهم لما يرد عليهم ، بل يتقبلون مفاجأة التقدير بوجه ضاحك ، ويستقبلون ما يبدو من الغيب من الرد والقبول ، والمنع والفتوح بوصف الرضاء ، ويحمدون الحق — سبحانه وتعالى — على ذلك .

« سبحانه وتعالى عما يشركون » : تعالى عما يشركون برهم ، والكفار لم يسر لهم حتى أنه لا سكن لقلوبهم من حديثه .

قوله جل ذكره : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ .

ينزل الملائكة على الأنبياء — عليهم السلام — بالوحي والرسالة ، وبالتعريف والإلهام على أسرار أرباب التوحيد وهم المحمّدون . وإنزال الملائكة على قلوبهم غير مردود لكنهم لا يؤمرون أن يتكلموا بذلك ، ولا يحملون رسالة إلى الخلق .

ويراد بالروح الوحي والقرآن ، وفي الجملة الروح ما هو سبب الحياة ، إما حياة القلب أو حياة الدنيا .

قوله جل ذكره : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

خَلَقَهَا بِالْحَقِّ ، ويحكم فيها بالحق ، فهو مُحِقٌّ في خَلْقِهَا لِأَنَّهُ ذَلِكَ ، ويدخل في ذلك أمره بتكليف الخلق ، وما يعقب ذلك التكليف من الحشر والنشر ، والثواب والعقاب .

« تعالى عما يشركون » : تقديساً وتشريفاً له عن أن يكون له شريك أو معه ملك

قوله جل ذكره : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ .

تعرّف إلى العقلاء بكمال قدرته حيث أخبر أنه قدر على تصوير الإنسان على ما فيه من التركيب العجيب ، والتأليف اللطيف ، من نطفة مناثلة الأجزاء ، متشاكلة في وقت الإنشاء ، مختلفة الأعضاء وقت الإظهار والإبداء ، والخروج من الخفاء . ثم ما ركّب فيه من تمييز وعقل ،

وَيُسِّرْ لَهُ النُّطْقَ وَالْفِعْلَ ، وَالتَّدْبِيرَ فِي الْأُمُورِ ، وَالْإِسْتِيْلَاءَ عَلَى الْحَيَوَانَاتِ عَلَى وَجْهِ التَّسْخِيرِ .
قوله جل ذكره : ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقْنَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ .

ذَكَرْهُمْ بِمَا تَفْضُلُ عَلَيْهِمْ ، وَأَخْبَرَهُمْ بِالْحَيَوَانَاتِ مِنَ النُّعَمِ ، وَمَا لَمْ فِيهَا مِنْ وَجْهِ الْإِتِّفَاعِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ، كَالْحَمْلِ وَالسَّفَرِ عَلَيْهَا وَقَطْعِ لِلْسَّافَاتِ ، وَالتَّوَصُّلِ عَلَى ظُهُورِهَا إِلَى مَآرِبِهِمْ ، وَمَا لِلتَّسْلِيهِ وَلِدَرِّهَا مِنَ الْمَنَافِعِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تُسْرَحُونَ ﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْفِئَةِ إِلَّا لِيَشِيقَ الْأَنْفُسُ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ .

الْفِئَةُ لَهُ جَمَالٌ بِمَالِهِ ، وَالْفَقِيرُ لَهُ اسْتِقْلَالٌ بِمَالِهِ . . وَشَتَانُ مَا هُمَا ! فَالْأَغْنِيَاءُ يَنْجَمُونَ بِأَنْعَامِهِمْ حِينَ يُرْجَوْنَ وَحِينَ يُسْرَحُونَ ، وَالْفُقَرَاءُ يَسْتَقِلُّونَ بِمَوْلَاهُمْ حِينَ يَصْبَحُونَ وَحِينَ يَمْسُونَ . أُولَئِكَ تَحْمِلُ أَثْقَالَهُمْ جِثَامَهُمْ ، وَهَؤُلَاءِ يَحْمِلُ الْحَقُّ عَنْ قُلُوبِهِمْ أَثْقَالَهُمْ .
« لَمْ تَكُونُوا بِالْفِئَةِ إِلَّا لِيَشِيقَ الْأَنْفُسُ » : قَوْمٌ أَحْوَالُهُمْ مِقَاسَةُ الشَّدَائِدِ ، يَصِلُونَ سِيرَهُمْ بِسُرَّامٍ ، وَقَوْمٌ فِي حَمْلِ مَوْلَاهُمْ ، بَعِيدُونَ عَنْ كَدِّ التَّدْبِيرِ ، مُسْتَرْجِعُونَ بِشُهُودِ التَّقْدِيرِ ، رَاضُونَ بِاخْتِيَارِ الْحَقِّ فِي السَّيْرِ وَالْيَسِيرِ ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

فَالنُّفُوسُ فِي حَمْلِهَا كَالنُّوَابِ ، وَالْقُلُوبُ مَعْتَقَةٌ عَنِ التَّحَقُّقِ فِي الْأَسْبَابِ . « وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » : كَمَا أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَجِدُونَ فِي الْآخِرَةِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ فَكَذَلِكَ أَرْبَابُ الْحَقَائِقِ يَجِدُونَ — الْيَوْمَ — مَا لَمْ يَخْطُرَ قَطُّ عَلَى بَالٍ ، وَلَا قَرَأُوا فِي كِتَابٍ ، وَلَا تَلَقَّنُوهُ مِنْ أَسَاذٍ ، وَلَا إِحَاطَةَ بِمَا أَخْبَرَ الْحَقُّ أَنَّهُ

(١) يُطْلَقُ التَّعْبِيرُ عَلَى الْأَوَّلِ اصِّطِلَاحَ (مُتَحَمِّلٌ) وَعَلَى الثَّانِي (مَحْمُولٌ) .

لا يعلم تفصيله^(١) سواء . . وكيف يعلم من أخبر الحق — سبحانه — أنه لا يعلم ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ
وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

قومٌ هدام السبيل ، وعرفهم الدليل ، فصرفت عن قلوبهم خواطر الشك ، وعصتهم عن
الجهل والشرك ، وأطلع في قلوبهم شمس العرفان ، وأفردهم بنور البيان . وآخرون أضلهم
وأغواهم ، وعن شهود الحجج أعماهم ، وفي سابق حكمه من غير سبب أذلهم وقمعهم^(٢) ،
ولو شاء لعرفهم وهداهم .

قوله جل ذكره : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ
تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ
وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ
وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

أنزل المطر وجعل به سقيا النبات ، وأجرى المادة بأن يديم به الحياة ، وينبت به الأشجار ،
ويخرج الثمار ، ويجري الأنهار .

ثم قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ثم قال بعده بآيات : ﴿ لقوم يعقلون ﴾ ،
ثم قال بعده : ﴿ لقوم يذكرون ﴾ . وعلى هذا الترتيب تحصل المعرفة^(٣) ، فأولاً التفكير ثم العلم
ثم التذكر ، أولاً يضع النظر موضعه فإذا لم يكن في نظره خلل وجب له العلم لا محالة ، ولا فرق
بين العلم والعقل في الحقيقة ، ثم بعده استدامة النظر وهو التذكر .

ويقال إنما قال : ﴿ آيات لقوم يعقلون ﴾ : على الجمع لأنه يحصل له كثير من العلوم حتى يصير

(١) وردت (تفصيله) وهي خطأ من الناسخ .

(٢) (قمهم) = قهرم وذلمهم . على أننا لا نستبعد — حسبنا نعرف من كتاب القشيري بالحوس على
الموسيقى اللغوية — أنها ربما كانت (أقام) أي صغرم وأذلهم (انظر آية ١، سورة القصص المجلد الثالث) .

(٣) هذه نقطة هامة إذا أردنا أن ندرس مذهب المعرفة عند الصوفية عموماً ، والقشيري بخاصة

عارفاً ، وكل جزء من العلم تحصل له آية ودليل ، فللعالم حتى يكون عارفاً بربه آياتٌ ودلائل ، لأن دليل هذه المسألة خلاف دليل تلك المسألة ؛ فبدليل واسع يعلم وجه النظر ، وبأدلة كثيرة يصير عارفاً بربه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾

الليل والنهار ظرفا الفعل ، والناس في الأفعال مختلفون : ففوقٌ ومخدول ؛ فالموثق يجري وقته في طاعة ربه ، والمخدول يجري وقته في متابعة هواه .

العابد يكون في فرض يقبضه أو نفلي يديمه ، والعارف في ذكره وتحصيل أوراده بما يعود على قلبه فيؤله ، وأما أرباب التوحيد فهم مُحْتَطِفُونَ عن الأحيان والأوقات بغلبة ما يردُّ عليهم من الأحوال كما قيل :

لستُ أدرى أطلَّ ليلي أم لا كيف يدري بذاك مَنْ يَتَقَلَّى ؟
لو تَفَرَّغْتُ لاسْتَظَلَّةَ ليلي ودرعت النجوم كنت مُخَيَّلًا

قوله جل ذكره : ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

هذا في الظاهر ، وفي الباطن نجوم العلم وأقمار المعرفة وشموس التوحيد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا ذَرَأْنَاكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾

أقوامٌ خُلِقَ لهم في الأرض الرياض والغياض^(١) ، والدور والقصور ، والمساكن والمواطن ، وفنون النعم وصنوف القسَم . . وآخرون لا يقع لهم طير على وكر ، ولا لهم في الأرض شبر ؛ لا ديار تملكهم ، ولا علاقة تُمسِكُهُمْ — أولئك ساداتُ الناس وضياء الحق .

(١) الغياض جمع غيبة وهي الموضع يكثر فيه الشجر ويلتف .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لَنَا كُلَّوْا مِنْهُ
لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً
تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ
وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴾

سخر البحر في الظاهر ، وسهل ركوبه في المُلك ، ويسر الانتفاع بما يستخرج منه من
الحلي كاللؤلؤ والدرّ ، وما يُقتات به من السمك وحيوان البحر .
ومن وجوه المعاني خلق صنوفا من البحر ، فقومٌ قَرَّقُوا في بحار الشغل وآخرون في بحار
الحزن ، وآخرون في بحار اللهو . . فالسلامة من بحر الشغل في ركوب سفينة التوكل ، والنجاة
من بحر الحزن في ركوب سفينة الرضا ، والسلامة من بحر اللهو في ركوب سفينة الذكر ،
وأشد بعضهم^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ
وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

الرواسي في الظاهر الجبال ، وفي الإشارة الأولياء الذين هم غياث الخلق ، بهم يرحمهم ،
وبهم يغيثهم . . ومنهم أبدال ومنهم أوتاد ومنهم القطب . وفي الخبر : « الشيخ في قومه كالنبي
في أمته » وقال تعالى : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم »^(٢) ، كما قال تعالى : « ولولا رجال
مؤمنون ولساء مؤنات لم تعلموهم أن تطوئهم »^(٣) ، وأشد بعضهم :

واحسرتا من فراق قوم هم المصاييح والأمن والمزن

قوله جل ذكره : ﴿ وَنَعْلَمَاتٍ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ .

الكواكب نجوم السماء ومنها رجوم للشياطين ، والأولياء نجوم في الأرض . وكذلك
العلماء وهم أئمة في التوحيد وهم رجوم للكفار والملحددين .

(٢) آية ٣٣ سورة الأنفال .

(١) سقط الشاهد الشعري من النسخ .

(٣) آية ٢٥ سورة الفتح .

ويقال فرق بين نجوم يَهْتَدَى بها في فجاج الدنيا ، ونجوم يَهْتَدَى بهم إلى الله تعالى .
قوله جل ذكره : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

تدل هذه الآية على نفي التشبيه بينه -- سبحانه -- وبين خلقه . وصفات القديم لله مُسْتَحَقَّة ، وما هو من خصائص الحدَثان وسمات الخلق يتقدَّس الحق -- سبحانه -- عن جميع ذلك . ولا تُشَبَّه ذات القديم بذوات المخلوقين ، ولا صفاته بصفاتهم ، ولا حكمه بحكمهم ، وأصل كل ضلالة التشبيه ، ومن قُبِحَ ذلك وفساده أن كلَّ أحدٍ يتبرأ منه ويستنكف من انتحاله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

للموجودات لا تحصىها لتقاصر علومكم عنها ، وما هو من نعم الدفع^(١) فلا نهاية له . وهو غفور رحيم حيث يتجاوز عنكم إذا عجزتم عن شكره ، ويرضى بمعرفتكم (. . . .)^(٢) لكم من شكره .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ .
ما تُسِرُّون من الإخلاص وملاحظة الأشخاص . . فلا يخفى عليه حسان ، وما تعلنون من الوفاق والشقاق ، والإحسان والعصيان . والآية توجب تخويف أرباب الزلاّت ، وتُشْرِيف أصحاب الطاعات .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ .
أخبر أن الأصنام لا يصحُّ منها الخلق لكونها مخلوقة ، ودلت الآية على أن من وُجِدَتْ له سمة الخلق لا يصحُّ منه الخلق ، وأُخْلِقَ هو الإيجاد ، ففي الآية دليل على خلق الأعمال .

(١) من قصور الانسان أنه لا يشمر إلا بنعم المنح ، ولكن نعم الدفع التي لا تنهى لا يكاد الانسان يشمر بها ألبتة وبالتالي لا يشكر عليها . . وما أكثرها !
(٢) مشبهة .

قوله جل ذكره : ﴿أَمْواتٌ غَيرُ أَحِياءٍ وما يَشْعُرُونَ
أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ .

لأنَّ مَنْ لَحِقَهُ وصفُ التَّكْوِينِ لا يَصِحُّ مِنْهُ الإِيجادُ . وفي التَّحْقِيقِ كُلُّ مَنْ عَلى قَلْبِهِ
بشئٍ ، وتَوَثَّعَ مِنْهُ خَيراً أو شَرّاً فقد أَشْرَكَ بالله بظَنِّهِ ، وإِثماً التَّوْحِيدُ تَجْريدُ القَلْبِ عن
حَسبانِ شُكِّيَّةٍ مِنَ النِّفى والإِثباتِ مِنْ جَمِيعِ المَخْلُوقِينَ والمَخْلُوقاتِ .

قوله جل ذكره : ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهُ واحدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُنْكَرَةٌ ومُستَكْبِرُونَ﴾ .

لا قِسِمَ لِدَلائِلِهِ جَوازاً أو جَواباً ، ولا شَبِيهَ لَهُ ولا شَرِيكَ . . وَمَنْ لم يَتَحَقَّقْ بِهذه الجُملة
قطْعاً ، وبشهادة البراهين له تفصيلاً فهو في دَرَجاتِ الشُّرْكِ واقعٌ ، وعن حقائق التَّوْحِيدِ بِعَزلٍ ،
قال تعالى في صفة الكفار : « قُلُوبُهُم مُنْكَرَةٌ ومُستَكْبِرُونَ » أى في أَشْرِ الشُّرْكِ وغطاء
الكُفْرِ ، ثم ليس فيه اتِّصافٌ لطلب العِرفانِ ؛ لأنَّ العِلَّةَ — لِمَنْ أَرادَ المَعْرِفَةَ — مُتاحةٌ ،
وأدلة الخلق لأثمة .

قوله جل ذكره : ﴿لا جَرَمَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ
وما يُعْلِنُونَ﴾ .

فيفضحهم ويبيِّنُ نفاقهم ، ويُعْلِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ كُفْرَهُمْ وشِقَاقَهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّه لا يَحبُّ المُستَكْبِرِينَ﴾ .

دليل الخطاب أَنه يَحبُّ لِلْمُتَوَاضِعِينَ الْمُتَخَشِّعِينَ ، وَيَكْفِيهِمْ فَضلاً بشارَةَ الحقِّ لَهُمْ
بمحبته لَهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمَ ما ذا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قالوا
أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ .

لِحَقِّهِمْ شُؤْمُ تَكْذِيبِهِمْ ، فَأَصْرُوا على إِعْراضِهِمْ عَنِ النَّظَرِ ، وَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ولم تَجْنَحْ

إلى الإقرار بالحق ، فَلَبَّسُوا عَلَى مَنْ يَسْأَلُهُمْ ، وَقَالُوا : هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ مِنْ أَكَاذِيبِ الْعَجَمِ ،
فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا .

قوله جل ذكره : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ
وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ
عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ .

لَمَّا سَعَوْا فِي الدُّنْيَا لِنَفْسِهِمْ لَمْ تَنْصَفْ أَعْمَالَهُمْ ، وَفِي الْآخِرَةِ حَمَلُوا بِهَا أَوْزَارَهُمْ . أُولَئِكَ
الَّذِينَ خَسِرُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ .

اتصفوا بالكر خفاق بهم مكرهم ، ووقعوا فيما حفروه لنفوسهم ، واغترخوا بطول الإمهال ،
فأنعم العذاب من مآلئهم ، واشتغلوا بملههم فنقص عليهم أطيب عيشهم :

﴿فَأَنذَرْتُ اللَّهُ نَبِيَّانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ
فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ
وَأَنذَرْتُ الْعَذَابَ مَنْ حَيْثُ
لَا يَشْعُرُونَ﴾ .

الذي وصف نفسه به في كتابه من الإتيان فتناء العقوبة ، وذلك على عادة العرب
في التوسع في الخطاب .

وهو سبحانه يكشف الليل ببدره ثم يأخذ الماكر بما يليق بمكره ، وفي معناه قالوا :

وَأَمِيتُهُ فَأَتَاكَ لِي مِنْ مَأْمَنِي مَكْرًا ، كَذَا مِنْ يَأْمَنُ الْإِيمَانِ

قوله جل ذكره : ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ
شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ ،
قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ
الْيَوْمَ وَالسَّوْءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ .

في الدنيا عاجلُ بلائهم ، وبين أيديهم آجله . وحسرة^(١) المفلس تتضاعف إذا
ما حوسب ، وشاهدَ حاصله .

« قال الذين أوتوا العلم .. » : يُسْمِعُ الكافرين قولَ المؤمنين ، ويبين للكافة صدقهم .
ويقع الندمُ على جاهلهم^(٢) . وأما اليومَ فعليهم بالصبر والتحمل ، وعن قريب ينكشف
الغطاء ، وأنشد بعضهم :

خيلِي لو دارت على رأسِي الرُّحَى من الذُّلِّ لم أَجْزَعْ ولم أَتَكَلَّمْ
وأطَرقتُ حقِي قيل لا أعرفُ الجفَا ولكنني أفصحتُ يومَ التَّكَلَّمْ

قوله جل ذكره : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكةُ ظالمِي
أنفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ
مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴾ فادخلوا أبوابَ جهنمَ
خالدين فيها فَلْيَبْشِرُوا بَشَرِ
التَّكْبِيرِينَ ﴿

« ظالمِي أنفسهم » : باوتكاب للعاصي وهم الكفار .

« فَأَلْقَوْا السَّلَمَ » : اتقادوا واستسلموا لحكم الله .

« مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ » : جحدوا وأنكروا ما عملوا من المخالفات .

« بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » : هكذا قالت لهم الملائكة ، ثم يقولون لهم :
« ادخلوا أبواب .. » : وكذلك الذين تقسو نفوسهم بإعراضهم عن الطاعات إذا نزلت
بهم الوفاة يأخذون في الجزع وفي التضرع ، ثم لا تطيب نفوسهم بأن يُقِرُّوا بتفاصيل أعمالهم عند
الناس ، فيما يتعلق بإرضاء خصومهم لما أَخْلَوْا من معاملاتهم ، ثم الله يؤاخذهم بالكبير والصغير ،
والنقيير والقطمير ، ثم يبقون أبداً في وبال ما أحقبوه ، لأن شؤم ذلك يلحقهم في أخراهم .

(١) وودت (مرة) باليم (وهي خطأ في النسخ كما هو واضح) .

(٢) وردت (جاهدم) بالذال . وربما كانت في الأصل (جاحدم) ، فالجهل والجد من صفات الكافرين .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ
قَالُوا خَيْرًا ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ
الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ
وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

أما المسلمون فإذا وردوا عليهم ، وسألوهم عن أحوال محمد — صلى الله عليه وسلم ، وعما
أنزل الله عليه ، قالوا : دينه حق ، والله أنزل عليه الحق .. والذين أحسنوا في الدنيا يجيئون
الخير في الآخرة .

ويقال في هذه الدنيا حسنة ، وهي ما لهم من حلاوة الطاعة بصفاء الوقت ويصح أن تكون
تلك الحسنة زيادةً التوفيق لهم في الأعمال ، وزيادةً التوفيق لهم في الأحوال .
ويصح أن يقال تلك الحسنة أن يُوفَّقَهُم بالاستقامة على ما هم عليه من الإحسان .
ويصح أن يقال تلك الحسنة أن يُبَلِّغَهُم منازلَ الأكابر والسادة ،
قال تعالى : « وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا »^(١)

ويصح أن تكون تلك الحسنة ما يتعدى منهم إلى غيرهم من بركات إرشادهم للمريدين ،
وما يجري على من اتبعهم مما أخذوه وتعلموه منهم ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : لأن يهتدى
بهذا رجل خير لك من حمر النعم »^(٢) .

ثم قال : « وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ » ، لأن ما فيها بقاء ، وليس فيها خطر الزوال . ولأن
في الدنيا مشاهدة وفي الآخرة معاينة^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ

(١) آية ٢٤ سورة السجدة .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث .

(٣) نفهم من هذا أن المعاينة أعلى درجة من المشاهدة ، ونفهم كذلك أن المشاهدة — وهي تتم
في هذه الدنيا — هي أقصى درجات المعراج الروحي عند أصحاب وحدة الشهود ، وكل قول بما يريد عن
ذلك خروج عن أصول هذا المذهب ، وقد نرى كثير من الباحثين على الغلاة والأدعياء والمضللين ،
في هذا الخصوص .

تخصها الأنهارُ لهم فيها ما يشاءون
كذلك يجزي الله المتقين ﴿١﴾

كما أن الإرادات والهمم تختلف في الدنيا فكذلك في الآخرة ، وفي الخبر : « مَنْ كَانَ بِحَالَةٍ لَقِيَ اللَّهَ بِهَا » فَمِنْ مَرِيدٍ يَكْتَفِي مِنَ الْجَنَّةِ بِوُجُودِهَا ، وَمِنْ مَرِيدٍ لَا يَكْتَفِي مِنَ الْجَنَّةِ دُونَ شُهُودِ رَبِّ الْجَنَّةِ .

ويقال إذا شاءوا أن يعودوا إلى ما ظاهروا من قصورهم ، وما وجدوا في ذلك من صحبة اللعين^(١) في سائر أحوالهم وأمورهم يسلم لهم ذلك ، ومن شاء أن تدوم رؤيته ، ويتأبد سماع خطابه فلهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ، وهو ما لم يخطر ببال أحد .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

يقبض أرواحهم طيبة . أو يقال « طيبين » حال .
والأسباب التي تطيب بها قلوبهم وأرواحهم مختلفة ، فمنهم مَنْ طاب وقته لأنه قد غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ ، وَسُتِرَتْ عِيُوبُهُ ، ومنهم مَنْ طاب قلبه لأنه سَلِمَ عَلَيْهِ مَحَبُوبُهُ ، ومنهم من طاب قلبه لأنه لَمْ يَفْتَهُ مَطْلُوبُهُ .

ومنهم من طاب وقته لأنه يعود إلى ثوابه ، ويصل إلى حُسْنِ مآبه .
ومنهم من يطيب قلبه لأنه آمِنٌ من زوال حاله ، وحظي بسلامة مآله^(٢) ، ومنهم من يطيب قلبه لأنه وصل إلى أفضاله ، وآخر لأنه وصل إلى لطف جماله ، وثالث لأنه خُصَّ بكشف جلاله — قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِيبَهُمْ .

ويقال « تتوفاهم الملائكة » طيبة نفوسهم أي طاهرة من التدنُس بالخالفات ، وطاهرة قلوبهم عن العلاقات ، وأسرارهم عن الالتفات إلى شيء من المخلوقات .

(١) اللعين مقصود به إبليس .

(٢) وردت (ماله) والملائم هنا أن تكون (مآله) .

قوله تعالى : « سلام عليكم » إحتظوا بالجنة ، منهم من يخاطبه بذلك الملك ، ومنهم من يكاشفه بذلك الملك .

قوله جل ذكره : ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك كذلك فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ فاصابهم سيئات ما عملوا وحق بهم ما كانوا به يستهزون ﴿

القوم يفتظرون مجيء الملك لأنهم لم يعرفوه ولم يعتقدوا كونه . ولكن لما كانوا يستعجلون معتقدين أن الرسل غير صادقين ، ولما سلكوا^(١) مسلك أضراهم من للتقدمين — عوملوا بمثل مالقى أسلافهم ، وما كان ذلك من الله ظلاماً ، لأنه يتصرف في ملكه من غير حكم حاكم عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ﴾

خبثت قصودهم فيما قالوا على وجه التكذيب والاستهزاء ، وغلبت على نطقهم ظلمات جهلهم وجحدهم ، وانكشف عدم صديقهم في أحوالهم .

وقولهم : « لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء . . . » يشبه قولهم : « أنطعم من لو يشاء الله أطعمه »^(٢) . ولا خلاف أن الله لو شاء أن يطعمهم لكان ذلك .

(١) وردت (سكنوا) وهي خطأ من الناسخ .

(٢) آية ٤٧ سورة يس .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا

أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ

فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ

عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسَبِّحُوا فِي الْأَرْضِ

فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿

لم يَحُلْ زماناً من الشرع توضيحاً لحجته ، ولكن فرقهم في سابق حكمه ؛ فريقياً هداماً ،
وفريقياً حَجَّيْهِمْ (١) وأعمام (٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ إِن تَحَرَّصَ عَلَى هُدَايَ فَإِنَّ اللَّهَ

لَا يَهْدِي مَنْ يَضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ

نَاصِرِينَ ﴿

أُلْزِمهم الوقوفَ على حدِّ العبودية في إرادة هدايتهم ومعرفة حقائق الربوبية فقال :
إِنَّكَ وَإِنْ كُنْتَ بِأَمْرِنَا لَكَ حَرِيصًا عَلَى هَدَايَتِهِمْ ؛ فَإِنْ مِنْ قَسَمْتُ لَهُ الضَّلَالُ لَا يَجْرِي عَلَيْهِ
غَيْرُ مَا قَسَمْتُ لَهُ .

ويقال من أَلْبَسَهُ صَدَارَ الضَّلَالِ لَا تَنْزِعُهُ وَسِيلَةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ

اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا

وَلَكِنُّ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿

الْقَسَمُ يُؤَكِّدُ الْخَبَرَ ، وَلَكِنُّ يَمِينُ الْكَاذِبِ تَوْجِبُ ضَعْفَ قَوْلِهِ ؛ لِأَنَّهُ كَلَّمَ زَادَ فِي جَهْدِ اللَّهِ
ازداد القلبُ نفرةً من قوله .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ

الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿

(١) وودت (حجتهم) وهي خطأ في النسخ إذ وبما كانت النقطتان فوق الباء فتحة في الأصل وتوم
الناسخ أنها نقطتان .

(٢) وودت (وأعمالهم) والمعنى والسياق يرفضانها ويتقبلان (وأعمام) .

إذا بين الله صدق ما ورد به الشرع في الآخرة بكشف الغيب زاد اقتضاح أهل
التكذيب فيكون في ذلك زيادة لهم في التعذيب .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ
نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ .

فيكون بالسمع علم تعلق قوله بما يفعله . وحمله قوم على أن معناه أنه لا يتعسر عليه
فعل شيء أراده ، فالآية على القولين جميعاً .

والذي لا يحتاج في فعله إلى مادة يخلق منها لا يفتقر إلى مدية يقع الفعل فيها .

وتدل الآية على أن قوله ليس بمخلوق ؛ إذ لو كان مخلوقاً لكان مقولاً له : كن ، وذلك
القول يجب أن يكون مقولاً له بقول آخر . . . وهذا يؤدي إلى أن يتسلسل ما يحصل إلى
مالا نهاية له^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ
مَا ظَلَمُوا لَنَبُوءَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً
وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ ﴾ .

من هاجر عن أوطان السوء — في الله — أبدل له الله في جوار أوليائه ما يكون
له في جوارهم معونة على الزيادة في صفاء وقته . ومن هجر أوطان الغفلة مكفنه الله من مشاهد
الوصلة . ومن فارق مجالسة المخلوقين ، وانقطع بقلبه إليه — سبحانه — باستدامة ذكره —
فكما في الخبر : « أنا جليس من ذكرني » . وبداية هؤلاء القوم نهاية أهل الجنة ؛ ففي الخبر
« الفقراء الصابرون جلساء الله يوم القيامة » . ويقال القلب مظلوم من جهة النفس لما تدعوه
إليه من شهواتها ، فإذا هجرها أورث الله القلب أوطان النفس حتى تنقاد لما يطالب به القلب

(١) كلام الله ليس بمخلوق — هذا أصل هام من أصول المذهب الأشعري الذي يبعد القشيري من
أعظم أنصاره . وقد ناقش هذه القضية بإسهاب في كتابه القيم : « شكايه أهل السنة بحكاية ما نالهم من
الحنة » . وانظر أيضاً كتابنا (الإمام القشيري : تصوفه وأدبه — فصل : القشيري متكلماً) :

من الطاعة ؛ فبعد ما تكون أوطان الزلة بدواعي الشهوة تصير أوطان الطاعة لسهولة أداها .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

الصبر الوقوف بحسب جريان القضاء ، والتوكل التوقي بالله بحسن الرجاء .

ويقال صبروا في الحال ، وتوكلوا على الله في تحقيق الآمال .

ويقال الصبر تحسب كائنات المقدور ، والتوكل الثقة في الله في استدفاع المحدث .

ويقال الصبر تجرع ما يسقى ، والتوكل الثقة بما يرجو .

ويقال إنما يقوون على الصبر بما حققوا من التوكل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا

نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ

إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

تعجبوا أن يكون من البشر رسلاً ، فأخبر أن الرسل كلهم كانوا من البشر ، وأن فيمن سبق من أقر بذلك . « وأهل الذكر » هم العلماء ، والعلماء مختلفون : فالعلماء بالأحكام إليهم الرجوع في الاستفتاء من قبل العوام فمن أشكل عليه شيء من أحكام الأمر والنهي يرجع إلى الفقهاء في أحكام الله ، ومن اشتبه عليه شيء من علم السلوك في طريق الله يرجع إلى العارفين بالله ، فالفقيه يوقع عن الله ، والعارف ينطق — في آداب الطلب وأحكام الإرادة وشرائط صحتها — عن الله ، فهو كما قيل : (أليس حقاً نطقت بين الوري فاشتبهت ، كاشفها يعلم ما من عليها فجرت ، فهي عناء به عينيه قد طهرت)^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ

الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ

وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

أي إن البيان إليك ، فأنت الواسطة بيننا وبينهم ، وأنت الأمين على وحيينا .

(١) ما بين القوسين نقلناه كما هو من النص ، وربما كان شاهداً شعرياً مضطرب الكتابة .

قوله جل ذكره: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ *﴾

العبد في جميع أحواله عرضةٌ لسيِّئهم التقدير، فينبغي أن يستشعر الخوف في كل نفس من الإصابة بها، وألاً يأمن مكر الله في أي وقت، وأكثر الأسنة تعمل في الموطأة نفوسهم وقلوبهم على ما عودهم الحق من عوائد المنة، ولكن كما قيل:

يا راقداً الليل سروراً بأوله إن الحوادث قد تطوَّرنَ أسحاراً^(١)

قوله جل ذكره: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتَّحُونَ ظِلَالَهُ عَنِ الْمِيقِنِ وَالشَّامِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ *﴾

كل مخلوق من عين أو أثر، من حجر أو مدبر أو غير فله — من حيث البرهان — ساجد، ومن حيث البيان على الوحدةانية شاهد.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ *﴾

ذلك سجود شهادة لا سجود عبادة، فإذا امتنعت عن إقامة الشهادة لقوم قاله، فقد شهد كل جزء منهم من حيث البرهان والدلالة.

قوله جل ذكره: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ *﴾

يخافون الله أن ينزل عليهم عذاباً من فوق رؤوسهم.

(١) كان عبد الحميد الكفوف كثيراً ما يتنزل بهذا البيت في قصصه (الحيوان ج ٦ ص ٥٠٨).

« ويضعون ما يؤمرون » لا يصونه ولا يحيدون عن طاعته .

ويقال خيرُ شيءٍ للعبد في الدنيا والآخرة الخوفُ ؛ إذ يمنعه من الزَّلَّة ويحمّله على الطاعة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهِينَ اثْنَيْنِ
إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِيَّاي فَارْهَبُونَ .
وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

الحاجة إلى إثبات صانع واحد داعية ، وما زاد على الواحد (فلا . . .)^(١) فيه متساوية .
ويقال إثبات الواحد ضرورة ، وقُدْرَةُ الاثنين محصورة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِلَّهِ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾
له الدين خالصاً وله الدين دائماً ، وله الدين ثابتاً ، فالطاعة له واجبة . فلا تتقوا غيره ، وأطيعوا
شُرْعَهُ بخلاف هواكم ، واعبدوه وحده ، واستجيبوا له في الْمَسْرَةِ وَالْمَضْرَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾
النِّعْمَةُ ما يُقَرِّبُ العبدَ من الحق ، فأما ما لا يوجب النسيانَ والطفيان ، والغفلة والعصيان
فأولى أن يكون محبة .

ويقال ما للعبد فيه فنع ، أو يحصل به للشر منع فهو على أصح القولين نعمة ؛ سواء
كان دينياً أو دنيوياً ، فالعبد مأمورٌ بالشكر على كل حال . وأكثر الناس يشكرون على نعم
الإحسان ، « وقليلٌ من عبادي الشكور »^(٢) على كل حال .

وفائدة الآية قَطْعُ الأسرارِ عن الأغيارِ في جالتي اليُسْرِ والعُسْرِ ، والثقة بأن الخير والشر ،
والنفع والضرر كلاهما من الله تعالى .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ ﴾
إذ ليس لكم سواء ؛ فإذا أَظْلَتِ العبدَ هواجمُ الاضطرابِ التجأ إلى الله في استدفاع

(١) بقية الكلمة مشتبهة .

(٢) آية ١٣ سورة سبأ .

ما مَسَّهُ من البلاء ثم إذا سَنَّ الحقُّ عليه ، وجاد عليه بكشف بلائه صار كأنَّ لم يمسه سوءٌ
أو أصابه همٌّ كما قيل :

كَأَنَّ الْفَتَى لَمْ يَعْرِ يَوْمًا إِذَا اكْتَسَى وَلَمْ يَكُ صَاحِبًا إِذَا مَا تَمَوَّلَا^(١)

وقال :

﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ
إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾

الخطاب عام ، وقوله « منكم » : لأنَّ القومَ منهم

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

في هذا تهديد أى أنهم سوف يندمون حين لا تنفع لهم ندامةٌ ، ويعتذرون حين لا يقبلُ
لهم عُذْرٌ . . . وَمَنْ زَرَعَ شَرًّا فَلَنْ يَحْصُدَ إِلَّا جَزَاءَ عَمَلِهِ .

قوله جل ذكره ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَلْعَلُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
قَالَ اللَّهُ لَأَشْلُنَّ عُمَاتٍ كَفَرْتُمْ ﴾

أى يجعلون لما لا يعلمون — وهى أصنامهم التى ليس لها استحقاق العلم — نصيباً من
أرزاقهم ؛ فيقولون هذا لهم وهذا لشركائنا .

« تَاللَّهِ » أقسم إنهم سيلقون عقوبةً فعليهم . .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ
مَا يَشْتَهُونَ ﴾

من فَرَطٍ جهلهم وصفوا المعبودَ بالولد ، ثم زاد الله فى خذلانهم حتى قالوا : لللائكة بنات
الله . وكانوا يكرهون البنات ، فرضوا لله بما لم يرضوا لأنفسهم . ويلتحق بهؤلاء فى استحقاق

(١) تمول أى نما المال له .

الذم كل من آثر حفظ نفسه على حق مولاه ، فإذا فعل ماله فيه نصيب وغرض كان مذموم الوصف ، ملوماً على ما اختاره من الفعل .

ثم إنه عابهم على قبيح ما كانوا يفعلونه ويتصفون به من كراهة أن تولد لهم الإناث فقال :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ
وَجْهُهُ سُودًا ۖ وَهُوَ كَظِيمٌ ۚ يَتَوَارَىٰ
مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ
عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ
إِلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

استولت عليهم رؤية الخلق^(١) ، وملكتهم الحيرة ، فحنقوا على البنات مما يلحقهم عند تزويجهم وتمكين البعل فيهن . . وهذه نتائج الإقامة في أوطان التفرقة ، والغيبة عن شهود الحقيقة .

ثم قال : « أيمسكه على هون » أى يحبس المولود إذا كان أنثى على مدلة ، « أم يدسه في التراب » لموت ؟ وتلك الجفوة في أحوالهم جعلت — من قساوة قلوبهم في أحوالهم — العقوبة أشد مما كانت بتعجيلها لهم . وجعلهم فرط غيظهم ، وفقد رضائهم ، وشدة خنقهم على من لا ذنب له من أولادهم — من أهل النار في دركات جهنم ، وتكدر عليهم الوقت ، واستولت الوحشة .. ونعوذ بالله من المثل السوء !

قوله جل ذكره : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ﴾

والله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم *
ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم
ما ترك عليها من دابة ولكن

(١) أى نشأت رؤيتهم حين لم ينظروا إلى الخالق واستبدلوا ذلك بأن نظروا للمخلوق . . . وهذه صفة هل التفرقة والغيبة — كما سيأتى بعد .

يؤخرهم إلى أجلٍ مُّسمى فإذا جاء
أجلهم لا يسأخرون ساعة
ولا يستقدمون ﴿٣٠﴾ .

مثلُ السوء للكفار الذين يحدوا توحيدَه فلم صفة السوء .
وقد صفات الجلال ونعوت العزِّ ، ومن عرفَه بنعت الإلهية تمت سعادته في الدارين ،
وتسجلت راحته ، وتنزه سيره على الدوام في رياض عرفانه ، وطربت روحه أبداً
في هيجان وجده .

أما الذين وسَّعوا بالشرك في عقوبة مُّسجلة وهموم مُّحصلة . « ولو يؤاخذ الله . . . »
أى لو عاملهم بما استحقوا عاجلاً لحلَّ الاستئصال بهم ، ولكن الحكم سبق بإمهالهم ،
وسيلقون غيباً أمهالهم في ما لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ويحيطون بالله ما يكرهون وتصفون ﴾
ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى
لاجرم أن لهم النار وأنهم مفرطون ﴿٣١﴾
انخدعوا لما لأن لهم العيش ، فظنوا أنهم ينجون ، وبما يؤملونه يحيطون ، فحسنت
في أعينهم نتائج صفاتهم ، ويوم يكشف القطاه عنهم يعضون بنواخذ الحسرة على أنامل
الغيبية ، فلا تسع منهم دعوة ، ولا تتعلق بأحدهم رحمة .

قوله جل ذكره : ﴿ تالله لقد أرسلنا إلى أممٍ من قبلك
فرزقنا لهم الشيطان أمهالهم فهو واثمهم
اليوم ولم عذاب أليم ﴾ .

أنزل هذه الآية على جبة التسلية للنبي — صلى الله عليه وسلم ؛ وذلك أنه أخبر أن من
تقدمه من الأمم كانوا في سلوك الضلالة ، والانخراط في سلك الجهالة كما كان من قومه ،
ولكن الله — سبحانه — لم يعجز عنهم . وكما سؤل الشيطان لأمتيه ، وكان ولياً لهم ، فهو
ولى هؤلاء وأما المؤمنون فآله ووليهم ، والكافرون لا مولى لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أنزلنا عليك الكتابَ

إلا لتبينَ لهم الذي اختلفوا فيه

وهُدًى ورحمةً لقومٍ يؤمنون ﴾ .

أنت^(١) الواسطة بيننا وبين أوليائنا ، ولك البرهان الأعلى والنور الأوفى ؛ تُبَلِّغُ هُنَا
وتؤدِّي مِنْهَا ، فأنت رحمة أرسلناك لأوليائنا . . فَمَنْ تَبِعَكَ اهتدى ، وَمَنْ عَصَاكَ
فنى هلاكه سى .

قوله جل ذكره : ﴿ والله أنزل من السماء ماء فأحيا به

الأرضَ بعد موتها إنَّ في ذلك لآيةً

لقومٍ يسمعون ﴾ .

أحيا بماء التوفيق قلوبَ العابدين فَجَنَحَتْ إلى جانب الوفاق ، وأحيا بماء التحقيق أرواح
العارفين فاستروحت على بساط الوصال ، وأحيا بماء التجريد أسرار الموحدين فتحررت
من رِقِّ الآثار ، وانفردت بحقائق الاتصال .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنَّ لكم في الأنعامَ عبرةً لُسِيعِكُمْ

مما في بُطُونِهِ من بين فرثٍ ودمٍ

لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين ﴾ .

سَخَّرَهَا لَكُمْ ، وهياها للارتفاع بلحمها وشحمها ، وجِلْدُهَا وشعرها ودرَّهَا ،
وأصلها ونسْلِهَا . ثم عجيبٌ ما أظهر من قدرته من إخراج اللبن - مع صفائه وطعمه ونفعه -
من بين الروث^(٢) والدم ، وذلك تقدير العزيز العليم . والذي يقدر على حفظ اللبن بين الروث
والدم يقدر على حفظ للمعرفة بين وحشة الرِّثَّة من وجوها المختلفة .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن ثمراتِ النخيلِ والأعنابِ

تتخذون منه سَكْرًا ورِزْقًا حَسَنًا

إنَّ في ذلك لآيةً لقومٍ يعقلون ﴾

(١) وردت (آية) وهي خطأ في النسخ .

(٢) الفرث والروث بقايا الطعام .

مَنْ عَلَى الْعِبَادِ بِمَا خَلَقَ لَهُمْ مِنْ فَنُونِ الْإِنْتِفَاعِ بِشِمَارَاتِ النَّخِيلِ كَالْتَمَرِ وَالرُّطْبِ وَالْيَابِسِ . .
وغير ذلك .

والرزق الحسن ما كان حلالاً . ويقال هو ما أتاك من حيث لا تحتسب ، ويقال هو
الذي لا مِنَّةَ لِمَخْلُوقٍ فِيهِ وَلَا تَبِعَةَ عَلَيْهِ .

ويقال هو ما لا يعصى الله مكتسبه في حال اكتسابه .

ويقال هو ما لا ينسى الله فيه مُكْتَسِبُهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَوْحِ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي

مِنَ الْجِبَالِ بَيْوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ

وَمَا يَمْشُونَ * ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ

الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا

يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ

أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ *

أوحى إلى النحل : أَرَادَ بِهِ وَحْيَ إلهَامٍ .. وَلَمَّا حَفِظَ الْأَمْرَ وَأَكَلَ حَلَالًا ، طَابَ مَا كُلُّهُ
وجعل ما يخرج منه شفاء للناس .

ثم إن الله — سبحانه — عَرَّفَ الْخَلْقَ أَنَّ التَّفْضِيلَ لَيْسَ مِنْ جِهَةِ الْقِيَاسِ وَالِاسْتِحْقَاقِ ؛
إِذْ أَنَّ النَّحْلَ لَيْسَ لَهُ خُصُوصِيَّةٌ فِي الْقَامَةِ أَوْ الصُّورَةِ أَوْ الزَّيْنَةِ ، وَمَعَ ذَلِكَ جَعَلَ مِنْهُ الْقَسْلَ
الَّذِي هُوَ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ .

والإنسان مع كمال صورته ، وتمام عقله وفطنته ، وما اختص به الأنبياء عليهم السلام
والأولياء من الخصاص جعل فيهم من الوحشة ما لا يخفى . . فأى فضيلة للنحل ؟ وأى ذنب
للإنسان ؟ ليس ذلك إلا اختياره — سبحانه .

ويقال إن الله — سبحانه — أَجْرَى سُنَّتَهُ أَنْ يُخْفِيَ كُلَّ شَيْءٍ عَزِيزٍ فِي شَيْءٍ حَقِيرٍ ؛

فجعل الإبريسم^(١) في الدود وهو أضعف الحيوانات ، وجعل العسل في النحل وهو أضعف الطيور ، وجعل الدرّ في الصدف وهو أوحش^(٢) حيوان من حيوانات البحر ، وكذلك أودع الذهب والفضة والفيروز في الحجر كذلك أودع المعرفة به والمحبة له في قلوب المؤمنين وفيهم من يعصى وفيهم من يخطئ^(٣) .

قوله جل ذكره . ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لَكُمْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْنًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾

خَلَقَ الإنسان في أحسن تركيب ، وأملح ترتيب ، في الأعضاء الظاهرة والأجزاء الباطنة ، والنور والضياء ، والفهم والذكاء . ورزقه من العقل والتفكير ، والعلم والتبصر ، وفنون للناقب التي خُصَّ بها من الرأي والتدبير ، ثم في آخر عمره يجعله إلى أَرذل العمر مردوداً ، ويرى في كل يومٍ أَلَمًا جديدًا .

ويقال « منكم من يرد إلى أَرذل العمر » : وهو أن يرد إلى الخذلان بعد التوفيق ؛ فهو يكون في أول أحوال عمره مطيعاً ثم يصير في آخر عمره عاصياً .

ويقال أَرذل العمر أن يرغب في عنفوان شبابه في الإرادة ، ويسلك طريق الله مدةً ، ثم تقع له فترةٌ ، فيفسخ عقد إرادته ، ويرجع إلى طلب الدنيا . وعند القوم هذه ردةٌ في هذا الطريق .

ويقال أَرذلُ العمر رغبةُ الشيخ في طلبِ .

ويقال أَرذلُ العمر حُبُّ المرء للرياسة .

(١) الإبريسم = أحسن الحرير (معرب) (الوسيط - ١ ص ٢) .

(٢) هنا معناها أجوع الحيوان ، من قولهم بات وحشاً أي جائعاً لم يأكل شيئاً خلا جوفه (الوسيط

ج ٢ ص ٩ ، ١٠) .

(٣) ينسجم انجاء القسيري في هذه الإشارة مع السياق القرآني . . إذ يأتي بعد قليل : « والله فضل بعضكم على بعض في الرزق » .. وفضل الله بلا علة .

ويقال أرذل العمر اجتماع المظالم على الرجل وألا يرضى خصومة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ فَضْلُ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ
فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي
رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ
فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِنْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾

أرزاق المخلوقات مختلفة ؛ فمن مضيق عليه رزقه ، ومن موسع عليه رزقه ،
ومن أرزاق هي أرزاق النفوس ، وأرزاق للقلوب وأرزاق للأرواح ، وأرزاق
للأسرار ؛ فأرزاق النفوس لقوم بتوفيق الطاعات ، ولآخرين بخذلان المعاصي . وأرزاق
القلوب لقوم بحضور القلب باستدامة الفكر ، ولآخرين باستيلاء الغفلة ودوام القسوة . وأرزاق
الأرواح لقوم صفاء المحبة ، ولآخرين اشتغال أرواحهم بالعلاقة بينهم وبين أشكالهم ، فيكون
بلاؤهم في محبتهم لأمثالهم . وأرزاق الأسرار لا تكون إلا بمشاهدة الحق ، فأما من لم
يكن من هذه الجملة فليس من أصحاب الأسرار .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ
أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ
بَنِينَ وَحَقَدَةً ﴾

شغل الخلق بالخلق لأن الجنس أولى بالجنس . ولما أراد الحق — سبحانه — بقاء
الجنس هيأ سبب التناسل والتناسل لاستيفاء مثل الأصل . ثم من على البعض بخلق البنين ،
وابتلى قوماً بالبنات — كل بتقديره على ما يشاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ
يُؤْمِنُونَ وَبِعَمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾

والرزق الطيب لعباد ما تستطيعه نفسه ، ولآخر ما يستطيعه سيرة .

فمنهم من يستطيع ما كولا ومشروباً ، ومنهم من يستطيع خلوة وصفوة . . . إلى غير
ذلك من الأرزاق .

« أفتالباطل يؤمنون » ، وهو حسابان حصول شيء من الأغيار ، وتعلق القلب بهم استكفاء منهم أو استدفاعاً لمحدور أو استجلاباً لمحبوب .

« وبنعمة الله هم يكفرون » والنعمة التي كفروا بها هي الثقة بالله ، وانتظار الفرج منه ، وحسن التوكل عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون ﴾

وَمَنْ يَتَّبِعْ بِشْخْصٍ أَوْ بِسَبَبٍ مَضَاهُ^(١) لِعُبَادِ الْأَصْنَامِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ يَضِيعُ وَقْتُهُ فِيمَا لَا يُعِينُهُ ، فَالرَّزْقُ ، مِنَ اللَّهِ — فِي التَّحْقِيقِ — مُقَدَّرٌ .

قوله جل ذكره ﴿ فلا تضربوا لله الأمثالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

كَيْفَ تُضْرَبُ الْأَمْثَالُ لِمَنْ (لَا)^(٢) يَسَاوِيهِ أَحَدٌ فِي الْذَاتِ وَالصِّفَاتِ وَأَحْكَامِ الْأَفْعَالِ ؟ وَمَنْ نَظَرَ إِلَى الْحَقِّ مِنْ حَيْثُ الْخَلْقُ^(٣) وَقَعَ فِي ظِلْمَاتِ التَّشْبِيهِ ، وَبَقِيَ عَنْ مَعْرِفَةِ الْمَعْبُودِ .

قوله جل ذكره : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْهُا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ ؟ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

شَبَّهَ الْكَافِرَ بِالْعَبْدِ الْمَمْلُوكِ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَلَا مِلْكٌ لَهُ فِي الشَّرْعِ ، وَالْمُؤْمِنَ الْخَالِصَ بِمَنْ رَزَقَهُ الْخَيْرَاتِ وَوَقَّعَهُ إِلَى الطَّاعَاتِ ثُمَّ وَعَدَهُ الثَّوَابَ وَحُسْنَ الْمَأْثَبِ عَلَى مَا أَنْفَقَهُ .

(١) في الهامش مكذا ، بينما هي في النص (مضاه) ، والصواب ما جاء في الهامش أي مماثل .

(٢) سقطت (لا) والمعنى يطلبها .

(٣) أي من حيث مضاهاته بالخلق ، ومناظرته بالحدثان .

ثم نفى عنهما المساواة إذ ليس مَنْ كان بنفسه ، ملاحظاً لأبناء جنسه ، متبادياً في حساب
مغاليلته كَمَنْ كان مُدْرِكاً بربه مصطليماً^(١) عن شاهده ، غائباً عن غيره ، والمُجْرى عليه
ربه ولا حول له إلا به .

قوله جل ذكره : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا
أَبْكُمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى
مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ
يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ
عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ؟ ﴾

هذا المثلُ أيضاً للمؤمن والكافر ؛ فالكافر كالجاهل الأبكم الذي لا يجيء منه شيء ،
ولا يحصل منه نفع ، والمؤمن على الصراط المستقيم يتبرأ عن حوله وقوته ، ولا يعترف
إلا بطوله — سبحانه — ومُنْتَهَى .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ،
وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ
أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴾

استأثر الخلق — سبحانه — بعلم الغيبات ، وسَترها على الخلق ؛ فيخرجُ قومًا في الضلالة
ثم ينقلهم إلى صفة الولاية ، ويقيم قومًا برقم العداوة ثم يردهم إلى وصف الولاية . . . فالعواقبُ
مستورة ، والخلوات مبهمة ، والخلقُ في غفلة عما يُرادُ بهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطُونٍ أَمْهَانِكُمْ
لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ
وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(١) الاضطرار : شعث غلبه الرد على القول فيستلها بقوة سلطانه وقهره (اللعن من ٤٥٠) .

خَلَقَهُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ شَاوَرَهُمْ ، وَأَثْبَتَهُمْ — عَلَى الْوَصْفِ الَّذِي أَرَادَهُ — دُونَ أَنْ تَخَيَّرَهُمْ ، وَلَمْ يَعْلَمُوا بِمَاذَا سَبَقَ مُحْكُمُهُمْ . . أَيْ لِسَعَادَةِ خَلْقِهِمْ أَمْ عَلَى الشَّقَاوَةِ مِنَ الْعَدَمِ أَخْرَجَهُمْ مِنْ مَنْ بَطُلُونَ أَمَانَتَهُمْ ؟ فَلَا صَلَاحَ أَنْفُسِهِمْ عَلِمُوا ، وَلَا صِفَةً بِهِمْ عَرَفُوا ثُمَّ بِمُحْكَمِ الْإِلَهَامِ هَدَاهُمْ حَتَّى قَبِلَ الصَّبِيُّ نَدَى أُمِّهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ تَقَدَّمَ تَعْرِيفٌ أَوْ تَخْوِيفٌ أَوْ تَكْلِيفٌ أَوْ تَعْنِيفٌ .

« وَجَلَّ لَكُمْ السَّمْعَ » : لَتَسْمَعُوا خُطَابَهُ ، « وَالْأَبْصَارَ » لَتُبْصِرُوا أَعْمَالَهُ ، « وَالْأَفْئِدَةَ » لَتَعْرِفُوا حَقَّهُ ، ثُمَّ لَتَشْكُرُوا عَظِيمَ إِعْنَامِهِ عَلَيْكُمْ بِهَذِهِ الْحَوَاسِ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْاءِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

الطَّائِرُ إِذَا خَلَقَ فِي الْهَوَاءِ يَبْقَى كَالْوَاقِفِ وَلَا يَسْقُطُ ، وَقَدْ قَامَتِ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ الْحَقَّ — سُبْحَانَهُ — مُتَفَرِّدٌ بِالْإِبْجَادِ ، وَلَا يَخْرُجُ حَادِثٌ عَنْ قُدْرَتِهِ ، وَفِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ، وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴾ .

لِلنَّفُوسِ وَطَنٌ ، وَلِلْقُلُوبِ وَطَنٌ . وَالنَّاسُ عَلَى قَسَمَيْنِ مُسْتَوِطِنٌ وَمَسَافِرٌ : فَكَمَا أَنَّ النَّاسَ بِنَفْسِهِمْ مُخْتَلِفُونَ فَكَذَلِكَ بِقُلُوبِهِمْ ؛ فَالْمُرِيدُ أَوِ الطَّالِبُ مُسَافِرٌ بِقَلْبِهِ لِأَنَّهُ يَتَسَلَّوْنُ ، وَيَرْتَقُونَ مِنْ دَرَجَةٍ إِلَى دَرَجَةٍ ، وَالْعَارِفُ مُقِيمٌ وَمُسْتَوِطِنٌ لِأَنَّهُ وَاصِلٌ مُتَمَكِّنٌ وَالطَّرِيقُ مَنَازِلٌ وَمَرَاحِلُ ، وَلَا تَقْطَعُ تِلْكَ الْمَنَازِلُ بِالنَّفُوسِ وَإِنَّمَا تَقْطَعُ بِالْقُلُوبِ ، وَالْمُرِيدُ سَالِكٌ وَالْعَارِفُ وَاصِلٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا تَخْلُقُ ظِلَالًا

وجعل لكم من الجبال أكنفاً
وجعل لكم سرايل تقيم الحر
وسرايل تقيم بأسمك كذلك يتم
نعمته عليكم لعلكم تسلمون *

في الظاهر جعل لكم من الأشجار والسقوف ومحوها ظلالاً . . كذلك جعل في ظل عنايته
لأوليائه منوى وقراراً .

وكما ستر ظواهركم بسرايل تقيم الحر وسرايل تقيم بأسم عدوكم - كذلك ألبس
سرايركم لباساً يلفكم به في السراء والضراء ، ولباس العصاة يحميكم من مخالفته ، وأظلمكم
بظلال التوفيق مما يحملكم على ملازمة عبادته ، وكساكم بحلل الوصل مما يؤهلكم
لقربه ومحبه .

قوله : « كذلك يتم نعمته عليكم . . » ، إتمام النعمة بأن تكون عاقبتهم مختومة بالخير ،
ويكفيهم أمور الدين والدنيا ، ويصونهم عن اتباع الهوى ، ويسدّ دهم حتى يؤثروا ما يوجب
من الله الرضاء .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ
الْمُبِينُ ﴾ .

إذا بكت الرسالة فما جعلنا إليك ^(١) حكم الهداية والضلالة .

قوله جل ذكره : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا
وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

يَسْتَوْفِقُونَ إِلَى الطاعة ، فإذا فعلوا أعجبوا بها ^(٢) .

(١) وردت (إليك) والخطاب موجه إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم فالصواب (إليك) .
(٢) في هذا الصدد ينقل القشيري عن شيخه الدقاق قوله (لما دخل الواسطي نيسابور سأل أصحاب أبي
هشام : بماذا كان يأمركم شيخكم ؟ .
فقالوا : كان يأمرنا بالترام الطاعات ورؤية التقصير فيها .
فقال : هلا أمركم بالغية عنها برؤية منسبها ومجرها ؟) الرسالة ص ٣٤ .

ويقال يستغيثون ، فإذا أجابهم قصّروا في شكره .

ويقال إذا وقعت لهم محنة استجاروا بربهم ، فإذا أزال عنهم تلك المحنة نسوا ما كانوا فيه من الشدة ، وعادوا إلى قبيح ما أسلفوه من أعمالهم التي أوجبت لهم تلك الحالة .
ويقال يعرفون في حال توبتهم قبيح ما كانوا فيه في حال ذلهم ، فإذا تقضوا توبتهم صاروا كأنهم لم يعرفوا تلك الحالة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَوْمَ نَبْتَلُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾
ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يُستعْتَبُونَ .

إذا كان يوم الحشر سأل الرسل عن أحوال أممهم ، فنطق بحجة أكرم ، ومن لم يدل بحجة لا تراعى له حرمة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ ﴾
فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون .

أى يشدد عليهم الأمر ولا يسهل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾
شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنّا ندعوا من دونك فآلقوا إليهم القول إنكم لكاذبون .

تمنوا أن ينجسوا من إخوانهم الذين عاشروهم ، وحلوم على الزلة ، فيتبرأون من شركائهم ، ويلعن بعضهم بعضاً ، وتضيق صدورهم من بعض .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ ﴾
وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

استسلموا لأمر الله وحكمه ، ويومئذ لا تضرع منهم يرى ، ولا يحنة — يصرخون من ويلها — عنهم تكشف

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا

عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا
على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب
تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة
وبشرى للمسلمين ﴾ .

ثانى — يوم القيامة — كل أمة مع رسولها ، فلا أمة كهذه الأمة فضلا ، ولا رسول
كرسولنا صلى الله عليه وسلم رتبة وقدرآ .

« ونزلنا عليك الكتاب » أى القرآن تبيانا لكل شيء ، فيه للمؤمنين شفاء ، وهو لهم
ضياء ، وعلى الكافرين بلاء ، وهو لهم سبب محنة وشقاء .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ

وإيتاء ذى القربى وَيَنْهَى عَنِ
الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

العدل ما هو صواب وحسن ، وهو تقيض الجور والظلم .

أمر الله الإنسان بالعدل فيما بينه وبين نفسه ، وفيما بينه وبين ربه ، وفيما بينه وبين الخلق ؛
فالعدل الذى بينه وبين نفسه تمنعها عما فيه هلاكها ، قال تعالى : « ونهى النفس عن الهوى » (١) ،
وكمال عدله مع نفسه كى عروق طبعه .

والعدل الذى بينه وبين ربه إيثار حقه تعالى على حفظ نفسه ، وتقديم رضا مولاه على
ما سواه ، والتجرد عن جميع المزاجر ، وملازمة جميع الأوامر .

والعدل الذى بينه وبين الخلق يكون ببذل النصيحة وترك الخيانة فيما قل (٢) أو كثر ،
والإنصاف بكل وجه وألا تشى إلى أحد بالقول أو بالفعل ، ولا بالهم أو العزم .

(١) آية ٤٠ سورة النازعات .

(٢) وردت ١ كل (بالكاف وهى خطأ من الناسخ .

وإذا كان نصيبُ العوامِ بذلَ الإنصافِ وكَفَّ الأذى فإنَّ صفةَ الخواصِّ تركُ
الاتصافِ ، وإسداءُ الإنعامِ ، وتركُ الانتقامِ ، والصبرُ على تحمُّلِ ما يُصيبُكَ من البلوى .

وأما الإحسان فيكون بمعنى العلم — والعلمُ مأمورٌ به — أى العلمُ بحدوثِ نفسه ، وإثباتِ
تُحدِثه بصفاتِ جلاله ، ثم العلمُ بالأمور الدينية على حسب مراتبها . وأما الإحسانُ فى الفعل
فالحسنُ منه ما أمر الله به ، وأُذِنَ لنا فيه ، وحُكِمَ بمدحِ فاعله .

ويقال الإحسانُ أن تقوم بكل حقٍّ وَجِبَ عليك حتى لو كان الطيرُ فى مِلْكِكَ ،
فلا تقصر فى شأنه .

ويقال أن تقضى ما عليك من الحقوقِ وألا تقتضى لك حقاً من أحد .

ويقال الإحسانُ أن تترك كل ما لك عند أحدٍ ، فأما غير ذلك فلا يكون إحساناً . وجاء
فى الخبر : « الإحسانُ أن تعبد الله كأنك تراه » وهذه حال المشاهدة التى أشار إليها القوم .
قوله : « وإيتاء ذى القربى » إعطاء ذى القرابة ، وهو صلةُ الرَّحِمِ ، مع مقاساة ما منهم من
الْجُورِ والجفاء والخسار .

ينهى عن الفحشاء والمنكر » : وذلك كلُّ قبيحٍ مزجورٍ عنه فى الشريعة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ
وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِدِهَا
وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ
اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾

يُفْرَضُ على كافة المسلمين الوفاء بعهد الله فى قبول الإسلام والإيمان ، فتجبُ عليهم
استدامةُ الإيمان . ثم لكلِّ قومٍ منهم عهدٌ مخصوص عاهدوا الله عليه ، فهم مُطَالِبُونَ
بالوفاء به ، فالزاهدُ عهدهُ ألا يرجعَ إلى الدنيا ، فإذا رجع إلى ما تركه منها فقد نقضَ عهده
ولم يَفِ به . والعابدُ عهده فى تركِ الهوى . والمريدُ عاهدَه فى تركِ العادة ، وآثره بكل وجه .
والعارف عهده التجرد له ، وإنكار ما سواه . والمحِبُّ عهده تركُ نفسهِ معه بكل وجه (١) .

(١) إشارة إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « المرء مع من أحب » .

والموحد عهده الامتحاء^(١) عنه ، وإفراده إياه بجميع الوجوه والعبد منهي^٢ عن تقصير عهده ،
مأموراً بالوفاء به .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَظَتْ غَزَاهُمْ مِنْ
بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَخَذُونَ آيْمَانَكُمْ
دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ
مِنْ أَرَبَى مِنْ أُمَّةٍ ﴾

من نقض عهده أفسد بآخر أمره أوله ، وهدم بفعله ما أسسه ، وقلم بيده ما غرسه ،
وكان كن نقضت غزاهم من بعد قوة أنكاثا^(٢) ، أى من بعد ما أبرمت قتله .

وإن السالك إذا وقعت له فترة ، والمريد إذا حصلت له في الطريق وقفة ، والعارف إذا
حصلت له حجة^(٣) ، والمحِب إذا استقبلته فرقة — فهذه ميحن عظيمة ومصائب فجيرة ،
فكما قيل :

فَلَا بُكَيْنٌ عَلَى الْهَلَالِ تَأْسُفًا خَوْفَ الْكُفُوفِ عَلَيْهِ قَبْلَ تَمَامِهِ

فما هو إلا أن تُكسَفَ شمسهم ، وينطفئ — في الليلة الظلماء — مِراجهم ، ويتشتت من
السماء ضياء نجومهم ، ويصيب أزهار أنفسهم وريبع إصصهم فيه بلاء شديد ، وعذاب
أليم . فإن الحق — سبحانه إذا أراد بقوم بلاء فكما يقول : « وَتَقَلَّبَ أَفْتَدَتُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ
كَأَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ »^(٤) ، فإن آثار سُخْطِ الملوك مُوجِعة ، وقصة إعراض السلطان مُوحِشة
وكما قيل :

وَالصَّبْرُ يَحْسُنُ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا إِلَّا عَلَيْكَ — فَإِنَّهُ مَذْمُومٌ

(١) القصيرى مستفيد من قول بعض الصيوخ : المحبة نحو المحب بصفاته وإثبات المحبوب بذاته .

« الرسالة ص ١٥٨ »

(٢) أنكاثا جمع نكث وهو ما ينكث قتله ، وقيل هي ربطة ، وكانت صفاء تغزل هي وجواربها من
الغداة إلى الظهر ثم تأمرهن فينتقضن غزلهن .

(٣) وردت (حجة) وهي خطأ في النسخ ، وقد اخترنا (حجة) لأنها أقرب إلى السياق ، ومشابهة
في الكتابة لكلمة (حجة) حيث يحتمل أن يحدث الالتباس في حرف الميم عند النقل .

(٤) آية ١١٠ سورة الأنعام .

هنالك تنسكب العبراتُ ، وتُشقّ الجيوبُ ، وتُلطمّ الحدودُ ، وتُعطلُّ العِشارُ ، وتُخرَّبُ
للنازلُ ، وتسودُّ الأبوابُ ، وينوح النائحُ :

وأتى الرسولُ فأخـدـرهم أنهم رحلوا قريباً
رجعوا إلى أوطانهم فجرى لهم دمعى صيبا
وتركن ناراً في الضلوع وزرعن في رأسى مشيبا

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا يَبْتَلُواكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

بلاء كل واحدٍ على ما يليق بحاله ؛ فمن كان بلاؤه بحديث النفس أو ببقائه عن هواه ،
وبجرماته لكرائمه في عُقباه فاسمُ البلاء في صفته مجازٌ ، وإنما هذا بلاء العوام . ولكن بلاء
الكرام غيرُ هذا فهو كما قيل :

مَنْ لَمْ يَبْتَئْ — وَالْحَبْثُ مِلٌّ ، فَوَادِهِ لَمْ يَذَرِ كَيْفَ تَفَقَّتْ الْأَكْبَادُ

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ،
وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ
يَشَاءُ وَلَنَسْأَلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

ليست واقعةُ القوم بخسرانٍ يُصيبهم في أموالهم ، أو من جهة تقصيرهم في أعمالهم
وليأضيّعوه من أحوالهم . . فهذه — لعمري — وجوهٌ وأسبابٌ ، ولكن سِرَّ القصةِ
كما قيل :

أَنَا صَبٌّ لِيَنْ هَوَيْتُ وَلَكِنْ مَا احْتِيَائِي بِسُوءِ رَأْيِ الْمَوَالِي ؟

قوله : « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً » : لو شاء الله سَعَادَتَهُمْ كَرَحِيمِهِمْ ، وعن المعاصي
عَصَتَهُمْ ، وبدوامِ الذِّكْرِ — بَدَلِ الْغَفْلَةِ — أَلْهَمَهُمْ . . وَلَكِنْ سَبَقَتْ الْقِسْمَةُ فِي ذَلِكَ ،
وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالُوا :

شَكَا إِلَيْكَ مَا وَجَدْتُ مِنْ خَلَاةٍ فَبِكَ الْجَلَدُ
حَيْرَانٌ . . . لَوْ شِئْتَ اهْتَدَى ظِلْمَانٌ . . . نَوْ شِئْتَ وَرَدَّ

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ
فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا
السَّوْءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

أَيْمَانُكُمْ عَدَمُ صِدْقِكُمْ فِي إِيْمَانِكُمْ مِنْ تَحْقِيقِكُمْ بِيَرِّهَانَكُمْ ، لَأَنْكُمْ وَقَعْتُمْ عَلَى حَدِّ
التردد دون القطع والتعيين ، فَأَفْضَى بِكُمْ تَرَدُّدُكُمْ إِلَى أَوْطَانِ شِرْكِكُمْ ، إِذِ الشُّكُّ فِي اللَّهِ
وَالشُّرْكُ بِهِ قَرِينَانِ فِي الْحُكْمِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَدْلِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ
كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

لَا تَخْتَارُوا عَلَى الْقِيَامِ بِحَقِّ اللَّهِ وَالْوَفَاءِ بَعْدَهُ عِوَضًا يَسِيرًا مِمَّا تَتَنَفَعُونَ بِهِ مِنْ حُطَامِ دُنْيَاكُمْ
مِنْ حِلَالِكُمْ وَحَرَامِكُمْ ، فَإِنَّ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَكُمْ فِي جَنَاتِهِ — بِشَرطِ وِفَائِكُمْ لِإِيْمَانِكُمْ —
يُوفَى وَيُرْبُو عَلَى مَا تَتَعَبَلُونَ بِهِ مِنْ حُظُوظِكُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ
وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ
بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

الَّذِي عِنْدَكُمْ عَرَضٌ حَادَثٌ فَانٍ ، وَالَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنْ ثَوَابِكُمْ فِي مَا لَكُمْ نِعَمٌ مَجْمُوعَةٌ ،
لَا مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْنُوعَةٌ .

وَيُقَالُ مَا عِنْدَكُمْ أَوْ مَا مِنْكُمْ أَوْ مَا لَكُمْ أَفْعَالٌ مَعْلُومَةٌ وَأَحْوَالٌ مَدْخُولَةٌ^(١) ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ
فَتْوَابٌ مُقِيمٌ وَنِعِيمٌ عَظِيمٌ

وَيُقَالُ مَا مِنْكُمْ مِنْ مَعَارِفِكُمْ وَمَحَابِبِكُمْ آثَارٌ مُتَعاقِبَةٌ ، وَأَصْنَافٌ مُتَنَابِئَةٌ ، أَعْيَانُهَا غَيْرُ بَاقِيَةٍ
وَإِنْ كَانَتْ أَحْكَامُهَا غَيْرَ بَاطِلَةٍ^(٢) ، وَالَّذِي يَنْصِفُ الْحَقُّ بِهِ مِنْ رَحْمَتِهِ بِكُمْ وَرَحْمَتِهِ لَكُمْ وَثَبَاتِهِ
عَلَيْكُمْ فَصَنَاتٌ أَزَلِيَّةٌ وَنِعْمَتٌ سَرْمَدِيَّةٌ .

(١) أَيُ مَعْلُومَةٌ بِالْمَعْلُومِ

(٢) لَأَنَّهَا مِنْكُمْ فَعَلًا وَمِنْ اللَّهِ مُعَكَّمَةً .

ويقال ما عندكم من اشتياقكم إلى لقائنا فمعرض للزوال ، وقابل للانقضاء ، وما وصفتنا به أنفسنا من الإقبال لا يتناهى وأفضل لا تنفى ، كما قيل :

ألا طال شوق الأبرار إلى لقائى وإنى للقائم لأشد شوقا
قوله : « ولنجزين الذين صبروا . . . » : جزاء الصبر الفوز بالطلبة ، والظفر بالبغية .
ومآلم في الطلبات يختلف : فمن صبر على مقاساة مشقة في الله . فمؤنه وثوابه عظيم من قبل الله ، قال تعالى : « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب »^(١) .

ومن صبر عن اتباع شهوة لأجل الله ، وعن ارتكاب هوى مخافة الله فجزاؤه كما قال تعالى : أولئك يُجْزَوْنَ العِرة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً »^(٢) .
ومن صبر تحت جريان حكم الله ، متحققاً بأنه بمرآة من الله فقد قال تعالى : « إن الله مع الصابرين »^(٣) .

قوله جل ذكره : « من عمل صالحاً من ذكراً أو أنثى وهو مؤمن فلننجيناه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن مما كانوا يعملون » .

الصالح ما يصلح للقبول ، والذي يصلح للقبول ما كان على الوجه الذي أمر الله به . وقوله « من عمل صالحاً » : في الحال ، « فلننجيناه حياة طيبة » : في المآل ، فصفاه الحال يستوجب وفاة المآل ، والعمل الصالح لا يكون من غير إيمان ، ولذا قال : « وهو مؤمن » .

ويقال « وهو مؤمن » أى مصدق بأن إيمانه من فضل الله لا بعمله الصالح . ويقال « وهو مؤمن » أى مصدق بأن عمله بتوفيق الله وإنشائه وإبدائه . قوله « فلننجيناه حياة طيبة »

(١) آية ١٠ سورة الزمر .

(٢) آية ٧٥ سورة الفرقان .

(٣) صبر العبد مع الله أشد أنواع الصبر ويكون — كما يقول عمرو بن عثمان : بالثبات مع الله ، وتلقى بلائه بالرحب والدهة .

وصبر الله مع العبد يصفه الشيخ الدقاق بقوله : فاز الصابرون بمن الدارين لأنهم نالوا من الله تعالى معيته . (الرسالة ص ٩٣) .

طيبة : الفاء للتعقيب ، « ولنجزينهم . . . » الواو للمطف في الأولى مُعَجَّل ، وفي الثانية مؤَجَّل ، ثم ماتلك الحياة الطيبة فإنه لا يُعرَف بالنطق ، وإنما يعرف ذلك بالذوق ؛ فقوم قالوا إنه حلاوة الطاعة ، وقوم قالوا إنه القناعة ، وقوم قالوا إنه الرضا ، وقوم قالوا إنه النجوى ، وقوم قالوا إنه نسيم القرب . . . والكل صحيحٌ ولكلٌ واحدٌ أهل .

ويقال الحياة الطيبة ما يكون مع المحبوب ، وفي معناه قالوا :

نحن في أكل السرور ولكن ليس إلا بكم ينم السرور
غيب ما نحن فيه يا أهل ودّي أنكم غيبٌ ونحن حضورٌ

ويقال الحياة الطيبة للأولياء ألا تكون لهم حاجة ولا سؤال ولا أرب ولا مُطالبَة ؛ وُفرق بين من له إرادة فترفع وبين من لا إرادة له فلا يريد شيئاً^(١) ، الأولون قائمون بشرط العبودية ، والآخرون مُعتقون بشرط الحرية .

قوله جل ذكره : ﴿ فإِذَا قرأتَ القرآنَ فاستَعِذْ بِاللّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ .

الشیطان الرجیم .

شیطانٌ كُلٌّ واحدٍ ما يشغله عن ربه ، فن تسلّطت عليه نفسه حتى شغلكته عن ربه ولو بشهود طاعة أو استحلاء عبادة أو ملاحظة حال — فذلك شیطانه . والواجب عليه أن يستعين بالله من شر نفسه ، وشر كل ذي شر .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .

وعلى ربهم يتوكلون .

أنى يكون للشیطان سلطانٌ على العبد والحق — سبحانه — متفرّد بالإبداع ، متوحدٌ بالاختراع ؟ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْهُ ﴾ .

والذين هم به مشركون .

(١) في هذا الصدد يقول القشيري في رسالته : « والمريد — على موجب الاشتقاق — من له إرادة كالعالم من له علم لأنه من الأسماء المشتقة ، ولكن المرید في عرف هذه الطائفة من لا إرادة له ؛ فن يتجرد عن إرادته لا يكون مریداً . (الرسالة ص ١٠١) .

إنما سلطانه على الذين هم في غطاء غفلهم ، وسر ظنونهم ومشتبهاتهم فأما أصحاب التوحيد فإنهم يرون الحادثات بالله ظهورها ، ومن الله ابتداءها ، وإلى الله مآلها وانهاؤها .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ

أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ
رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ
لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى
وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

ما ازدادوا في طول مدتهم إلا شكاً على شك ، وجحداً على جحد ، وجرواً على مناجهم في التكذيب ، فلم يصدّقوه صلى الله عليه وسلم ، وما زادوا في ولايته إلا شكاً ومؤبة :

وكذا للول إذا أرادَ قطيعةً مَلَّ الوصال وقال كلف وكافا

قوله : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ : ردّ على فرط جهلهم بربهم ، وبُعْدِ رتبهم عن التحصيل ، فلما كانوا متفرقين في شهود المَلِكِ رُدُّوا في حين التعريف إليهم بِذِكْرِ الْمَلِكِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ
بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ
أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ .

لم يستوحش الرسول — صلى الله عليه وسلم — من تكذيبهم ، وخفاء حاله وقدره عليهم . . . وأى ضرر يلحق مَنْ كانت مع السلطان بُجَالَسَتُهُ إذا خَفِيتَ على الأَخْسَ مِنْ الرعية حالته ؟

ثم إنه أقام الحجة في الرد عليهم حيث قال : ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ : فَمِنْ فَرَطِ جهلهم توهموا أن هذا القرآن — الذي عجز كافة الخلق

عن معارضته في فصاحته وبلاغته — مقولٌ وحاصلٌ باتصاله يَمَنُّ هو أعجبي النطق^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

إِنَّ مَنْ سَبَقَتْ بالشقاوة قسمته لم تتعلق من الحق — سبحانه — به رحمته ، ومن لم يَهْدِهِ الله في عاجله إلى معرفته لا يَهْدِيهِ الله في آجله إلى جنته .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ .

هذا من لطائف المعارض ؛ إذ لما وصفوه — عليه السلام — بالافتراء أنار الحق — سبحانه — في الجواب ، فقال : لَسْتَ أَنْتَ الْمُفْتَرِي إِنَّمَا الْمُفْتَرِي مَنْ كَذَّبَ مَعْبُودَهُ وَجَهِلَ تَوْحِيدَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقُلُوبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

إذا عَلِمَ اللهُ صِدْقَ عبده بقلبه ، وإخلاصه في عقده ، ولحقته ضرورة في حاله خَفَّتْ عنه حُكْمُهُ ، ودَفَعَ عنه عَنَاءَهُ فلا يَلْفِظُ بكلمة الكفر إلا مُكْرَهًا — وهو مُوَحَّدٌ ، وهو مستحقُّ العُذْرِ فيما بينه وبين الله تعالى^(٢) . . . وكذلك الذين عقدوا بقلوبهم ،

(١) أرادوا به غلاماً كان لحويطب اسمه عائش أو بعيش وكان صاحب كتب ، أو هو جبر غلام روى لعامر بن الحضرمي وكان يقرأ التوراة والإنجيل ، أو سلمان الفارسي . . . وكلهم أعاجم .

(٢) ومن أمثال ذلك عمار بن ياسر الذي جرت كلمة الكفر على لسانه مكرهًا وهو معتقد الإيمان ، وأتى رسول الله وهو يبكي ، لجمال الرسول بمسح عيبيه ويقول : « إِنْ عَادُوا لَكَ عَدْلَهُمْ بِمَا قُلْتَ » . وكان يقول عنه : « إِنْ عَادُوا إِلَيَّ إِيْمَانًا مِنْ قَرْنِهِ إِلَى قَدَمِهِ وَاخْتَلَطَ الْإِيْمَانُ بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ »

وتجردوا لسلوك طريق الله ثم عرّضت لهم أسباب ، وافقت لهم أعتذار ، كأن يكون لهم بعض الأسباب اشتغال أو إلى شيء من العلوم وجوع . . . لم يكن ذلك قادحاً في صحة إرادتهم ، ولا يعد ذلك فسخاً لمهودهم ، ولا ينفي بذلك عنهم صحة القصد إلى الله تعالى .

أما « مَنْ شَرَحَ بالكفر صدرأ » : فرجع باختياره ، ووضع قدماً — كان قد رفعه في طريق الله — بحكم هواه فقد نقص عهد إرادته ، وفسخ عقده ، وهو مستوجب (. . .)^(١) إلى (. . .)^(٢) تتداركه الرحمة .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

السالك إذا آثر (الخطوط)^(٣) على الحقوق بقي عن الله ، ولم يبارك له فيها آثره على حق الله ، ولقد قالوا :

قد تركناك والذي تريد فسي أن تعلمهم فتعود

قوله جل ذكره ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَتُمْتَمَّ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ .

إذا تمادى في غفلته ، ولم يتدارك حاله بملازمة حسرتيه ، ازداد قسوة على قسوة ، ولم يستمع بما هو فيه من قوة ، وكما قال جل ذكره :

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْظَالِمُونَ ﴾

هم في الآخرة محبوبون ، وبذلك البعد موسومون .

(١) مثبته

(٢) مثبته .

(٣) سقطت هذه اللفظة والسياق يتطلبها ، فأثبتناها حسباً نعرف من أسلوب الشيرازي في المقابلة بين حظوظ النفس وحقوق الحق .

قوله جل ذكره ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ
مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ
رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

وَمَنْ صَبَرَ حِينَ عَزَمَ الْأَمْرَ ، وَلَمْ يَجْنَحْ إِلَى جَانِبِ الرُّخْصِ ، وَأَخَذَ فِي الْأُمُورِ بِالْأَشَقِّ
أَكْرَمَ اللَّهُ حَقَّهُ ، وَقَرَّبَ مَكَانَهُ ، وَلَقَّاهُ فِي كُلِّ حَالَةٍ بِالزِّيَادَةِ ، وَرَبِحَتْ صَفَقَتُهُ حِينَ خَسِرَ أَشْكَالُهُ ،
وَتَقَدَّمَ عَلَى الْجَلَّةِ وَإِنْ قَلَّ احْتِيَالُهُ .

قوله جل ذكره : ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ
نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَاعْمَلَتْ
وَمَنْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ .

غَدَاً كُلُّ مُشْغُولٍ بِنَفْسِهِ ، لَيْسَ لَهُ فَرَاغٌ إِلَى غَيْرِهِ . وَعَزِيزٌ عَبْدٌ لَا يَشْتَغِلُ بِنَفْسِهِ ، قَالَ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ كَانَ بِحَالٍ لَقِيَ اللَّهَ بِهَا » . إِنَّمَا يَكُونُ الْفَرَاغُ غَدَاً مَنْ كَانَ الْيَوْمَ
فَارِغاً ، وَيُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهِ مَنْ كَانَ لَهُ الْيَوْمَ اهْتِمَامٌ بِنَفْسِهِ . وَلِلَّذِينَ لَا نَفْسَ لَهُ ، قَالَ تَعَالَى : « إِنْ
اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ » ^(١) اشْتَرَاهَا الْحَقُّ مِنْهُمْ ، وَأَوْدَعَهَا عِنْدَهُمْ ، فَلَيْسَ لِمَنْ فِيهَا
حَقٌّ ، وَإِنَّمَا يَرَاعُونَ فِيهَا أَمْرَ الْحَقِّ .

قوله جل ذكره : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً
مَطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ
مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا
اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا
يَصْنَعُونَ﴾ .

فَرَاغُ الْقَلْبِ مِنَ الْأَشْغَالِ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ ، فَإِذَا كَفَرَ عَبْدٌ بِهَذِهِ النِّعَةِ بِأَنْ فَتَحَ عَلَى نَفْسِهِ
بَابَ الْهَوَى ، وَانْجَرَفَ فِي فُسَادِ الشَّهْوَةِ ، شَوَّشَ اللَّهُ عَلَيْهِ قَلْبَهُ ، وَسَكَبَهُ مَا كَانَ يُجِدُّهُ مِنْ صَفَاوٍ
وَقَنَةٍ ، لِأَنَّ طَوَارِقَ النَّفْسِ تُوجِبُ عَزُوبَ شَوَارِقِ الْقَلْبِ ، وَفِي الْخَبَرِ : إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ

(١) آية ١١١ سورة التوبة

هاهنا أدبر النهار من هاهنا . وكذلك القلب إذا انقطع عنه سبوح ما كان الحق أتاحه له
أصابه عطش شديد ولهب عظيم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد جاءهم رسولٌ منهم فكذبوه
فأخذهم العذاب وهم ظالمون ﴾ .
كما جاءهم الرسول جبراً فإنه تنادى إليهم من قبل خواطرهم إشارات تدرى^(١) ، فمن
لم يستجيب لتلك الإشارات بالوفاء والإعتاق^(٢) أخذته العذاب من حيث لا يشعر .
قوله جل ذكره : ﴿ فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً
واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه
تعبّدون ﴾ .

الحلال الطيب ما يتناوله العبد على شريعة الإذن بشاهد الذكر على قضية الأدب في ترك
الشبهة^(٣) ، وحقيقة الشكر على النعمة الغيبة عن شهود النعمة بالاستغراق في شهود النعم .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما حرم عليكم الميتة والدم
ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به
فمن اضطرّ غير باغ ولا عاد فإن
الله غفورٌ رحيم ﴾ .

يُبَاحُ تناولُ المحرمات عند هجوم الضرورات حسب بيان الشرع ، ولا يُرَخَّصُ في ذلك
إلا على أوصاف مخصوصة ، وبِقَدَرٍ ما يَسُدُّ الرَّمقَ ، كذلك عند استهلاك العبد بغلبات
الحقيقة لابد من رجوعه إلى حال الصحو بقدر ما يؤدي الفرض الواجب عليه ، ثم لا بُدَّ
من التعرّيج في أوّلان التفرقة والتمييز بعد مضي أوقات الصحو من أجل أداء الشرع^(٤) ،
كما قيل :

(١) تدرى أى تتابع ، وربما كانت (سرا) لتعابل جبراً

(٢) أى إعتاق النفس وتحريرها من رِق الشهوات

(٣) وردت (الشدة) والصواب — حسب ما يقول القشيري في مواضع مائة — أن تكون (الشبهة)

(٤) هذه هي حالة الفرق الثاني التي تتخلل حالة جمع الجميع ، وفيها يرد العبد إلى الصحو عند أوقات
الفرائض ويكون رجوعه لله باقاً لا للعبد بالعبد

فَإِنْ تَكُ مِنْهُ غِيْبَةً بَعْدَ غِيْبَةٍ فَإِنْ إِلَيْهِ بِالْوُجُوْدِ إِيَابِي

قوله جل ذكره : ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ

الْكُذْبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ

لَتَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ

يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ

لَا يُفْلِحُونَ ﴿٢٠﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾

الصدق في كل شيء أولى ^(١) من الكذب ، وكثير من أقوالهم في الاعتراض عيَّلت ^(٢)

من الكذب .

والصدق لا يكذب صريحاً ، ولا يتداول أقوال كاذب مهين . وصاحب الكذب

تظهر عليه المذلة لما هو فيه من الزلة ، وله في الآخرة عذاب أليم ^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا

عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاكُمْ وَلَكِنْ

كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٢٢﴾

بين أنه أوضح لمن تقدَّم الحلال والحرام ، فمنهم من أتى بما أمَرَ به ومنهم من خالف ..

وكل عومل بما استوجبه ؛ فن أطلع قلبه قرَّبه ، ومن عصى رَدَّه وحجَّبه .

قوله جل ذكره : ﴿لَعْنُمْ إِنْ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ

بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ

وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا

لَنَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٣﴾

(١) وردت (أولاً) وهي خطأ في النسخ

(٢) عيَّلت جمع عيَّنة وهي نموذج من أصل الشيء ومادته (الوسيط)

(٣) قلنا هنا بعض إصلاحات طبقة نظراً لانتهاك الخط ورواياته ، ووجود بعض حروف تسجر المطبعة

من نقلها كما هي في الرسم .

إذا نَدِمُوا على قبيح ما قَدَّمُوا ، وأسَفُوا على كثير مما أسلفوا وفيه أسرفوا ، ومَحَا
صِدْقُ عَذْرِهِمْ آثارَ عَثَرِهِمْ — نظرَ اللهُ إليهم بالرحمة ، فتَابَ عليهم إذا أصلحوا ، ونَجَّاهم
إذا تضرَّعوا .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا
وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ ﴾ .

قيل آمن بالله وحده فقام مقام الأمة ، وفي التفسير : كان معلماً — للخير — لأمة .
ويقال اجتمع فيه من الخصال الحمودة ما يكون في أمة متفرقاً .

ويقال لما قال إبراهيم لكل ما رآه : « هذا ربي » ولم ينظر إلى المخلوقات من حيث
هي بل كان مُسْتَهْلِكًا في شهود الحق ، ورأى الكون كُلَّهُ بالله ، وما ذكر حين ذكر غيره
الله . . كذلك كان جزاء الحق فقال : أنت الذي تقوم مقام الكل ، ففي القيام بحق الله منك
على الدوام غنية عن الجميع .

و « الحنيف » : المستقيم في الدين ، أو المائل إلى الحق بالكلية^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ شَاكِرًا لِأَنْعَائِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ ﴾ .

الشَّاكِرُ في الحقيقة — مَنْ يرى عَجْزَهُ عن شكره ، ويرى شُكْرَهُ من الله عز وجل ،
لِيَتَحَقَّقَ أَنَّهُ هو الذي خَلَقَهُ ، وهو الذي وَفَّقَهُ لشكره ، وهو الذي رَزَقَهُ الشُّكْرَ ، وهو الذي
اجْتَبَاهُ حتى كان بالكلية له — سبحانه .

« وهداه إلى صراط مستقيم » أي تحقق بأنه عبده ، وأنه رَقَّاه إلى محل الأَكْبَرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا
فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۝ ﴾ .

الحسنة التي آتاه الله هي دوام ما آتاه حتى لم تنقطع عنه .

(١) الحنيف — في اللغة — من الأضداد = المائل والمستقيم (ابن الأنباري في كتاب الأضداد)

ويقال هي الخلة . ويقال هي النبوة والرسالة .

ويقال آتيناه في الدنيا حسنة حتى كان لنا بالكلية ، ولم تكن فيه لغير بقية .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ
إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

« ملة إبراهيم » أى الكون بالحق ، والامتحاء^(١) عن شاهد نفسه ، فكان نبينا
— صلى الله عليه وسلم — فى اتباعه إبراهيم مؤتمراً بأمر الله . وكانت ملة إبراهيم — عليه
السلام — الخلق والسخاء والإيثار والوفاء ، فاتبعه الرسول صلى الله عليه وسلم وزاد عليه ،
فقد زاد على الكافة شأنه ، وبانت مزيته .

قوله جل ذكره ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ
اختلفوا فيه وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ
بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَا كَانُوا فِيهِ
يختلفون ﴾

قومٌ حرّموا العمل فيه وقومٌ حلّوه معصيةً منهم ، وقيل جعل الجمعة لهم فقالوا : لا نريد
إلا يوم السبت . . فهذا اختلافهم فيه .

والإشارة من ذلك أنهم حادوا^(٢) عن موجب الأمر ، ومالوا إلى جانب هوام . ثم أنهم
لم يراعوها حق رعايتها فصار سبب عصيانهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ
وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالِغِي
أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ
عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

(١) وردت (الامتعان) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) وردت (جادوا) وهى خطأ فى النسخ .

الدعاء إلى سبيل الله بحسب^(١) الناس على طاعة الله ، وزجرهم عن مخالفة أمر الله .
والدعاء بالحكمة ألا يخالف بالفعل ما يأمر به الناس بالنطق .

والموعظة الحسنة ما يكون صادراً عن علم وصواب ، ولا يكون فيها تعنيف .

« وجادلهم بالتى هي أحسن » : بالحجة الأقوى : والطريقة الأوضح . قال تعالى : « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه »^(٢) : فشرط الأمر بالمعروف استعمال ما تأمر به ، والانتهاز عما تنهى عنه^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ
وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾

إذا جرى عليكم ظلم من غيركم وأردتم الانتقام . . فلا تتجاوزوا حد الإذن بما هو في حكم الشرع .

« ولئن صبرتم » : فتركتم الانتصاف لأجل مولاكم فهو خير لكم إن فعلتم ذلك .
والأسباب التى قد يترك لأجلها المرء الانتصاف مختلفة ؛ فمنهم من يترك ذلك طمعاً في الثواب غداً فإنه أوفر وأكثر ، ومنهم من يترك ذلك طمعاً في أن ينكفئ الله بخصومه ، ومنهم من يترك ذلك لأنه مكتسب بعلم الله تعالى بما يجرى عليه ، ومنهم من يترك ذلك ليكرم نفسه ، ويحرره عن الأخطار ولاستحبابه العفو عند الظفر ، ومنهم من لا يرى لنفسه حقاً ، ولا يعتد أن لأحد هذا الحق فهو على عقد إرادته بترك نفسه ؛ فليسكه مباح ودمه هدر . ومنهم من ينظر إلى خصمه — أى المتسلط عليه — على أن فعله جزاء على ما عمله هو من مخالفة أمر الله ، قال تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير »^(٤) . فاشتغاله باستغفاره عن جرمه يمنعه عن انتصافه من خصمه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾

(١) وردت (بحيث) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) آية ٨٨ سورة هود .

(٣) أى تكون أنت قدوة فيها تدعو إليه من أوامر وما تنهى عنه من ذواجر .

(٤) آية ٣٠ سورة الشورى .

« واصبر » تكليف ، « وما صبرك إلا بالله » : تعريف . « واصبر » تحقق بالعبودية
« وما صبرك إلا بالله » إخبار عن الربوبية .

« ولا تحزن عليهم.. » أى طالع التقدير ، فما لا نجعل له خطراً عندنا لا ينبغي أن يوجب
أثراً فيك ؛ فنّ أسقطنا قدره فاستصغّر أمره . وإذا عرفت انفرادنا بالايجاد فلا يضيق
قلبك بشدة عداوتهم ، فإننا ضمنّا كفايتك ، وألا نشيتهم بك ، وألا نجعل لهم سبيلاً إليك .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ
مُحْسِنُونَ ﴾

إن الله معهم بالنصرة ، ويحيطهم بالإحسان والبسطة .

« الذين اتقوا » رؤية النصر من غيره ، والذين هم أصحاب التبرى من الحول والقوة .
والحسن الذى يعبد الله كأنه يراه ، وهذه حال المشاهدة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«... أهل الجنة طابت لهم حدائقها ، وأهل النار أحاط بهم سرادقها ، والحق — سبحانه — مُنْزَعٌ عَنْ أَنْ تَعُودَ إِلَيْهِ مَنْ تَعَذَّبَ هَؤُلَاءِ عَائِدَةً ، وَلَا مَنْ تَنَعَّمَ هَؤُلَاءِ قَائِدَةً... جَلَّتْ الْأَحْدِيَّةُ ، وَتَقَدَّسَتْ الصَّمَدِيَّةُ .

وَمَنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِ غَبْرَةٌ فِي طَرِيقِنَا لَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ قَتَرَةٌ فَرَأَيْنَا ، وَمَنْ خَطَا خَطْوَةً إِلَيْنَا وَجَدَ حُظْوَةً لَدَيْنَا ، وَمَنْ نَقَلَ قَدَمَهُ نَحُونَا غُفِرْنَا لَهُ مَا قَدَّمَهَ ، وَمَنْ رَفَعَ إِلَيْنَا يَدًا أَجَزَلْنَا لَهُ رَغَدًا ، وَمَنِ اتَّجَا إِلَى سُدَّةِ كَرَمِنَا آوَيْنَاهُ فِي ظِلِّ نِعْمِنَا ، وَمَنِ اسْتَكَا فِينَا تَخَلَّلَا ، مَهْدُنَا لَهُ فِي دَارِ فَضْلِنَا مَقِيلًا ،

عبد الكريم القسيري

عند

سورة الكهف

السورة التي يذكر فيها بنو إسرائيل (١)

قوله تعالى وتقدس : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

كَلِمَةُ مَا تَعْبُدُ عَابِدٌ إِلَّا شَكَرَ عَصَمَتَهُ ، وَمَا مَعَهَا مَا لَيْكَ إِلَّا وَجَدَ رَحْمَتَهُ ، وَمَا تَحَقَّقَهَا عُلُوفٌ إِلَّا تَعَطَّرَ قَلْبُهُ بِنَسِيمِ قُرْبَتِهِ ، وَمَا شَهِدَهَا مَوْحِدٌ إِلَّا تَقَطَّرَ دَمُهُ لَخُوفِ فُرْقَتِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾

افتتح السورة بِذِكْرِ الثناء على نفسه فقال : « سُبْحَانَ الَّذِي . . . » : الحقُّ صَبَّحَ نَفْسَهُ بِعَزِيزِ خَطَايِهِ ، وَأَخْبَرَ عَنْ اسْتِحْقَاقِهِ لَجَلالِ قُدْرِهِ ، وَعَنْ تَوْحِيدِهِ بِمُلُوكِ نُفُوتِهِ .

وَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ الْعِبَادُ مَا خَصَّ بِهِ رَسُولَهُ — صلى الله عليه وسلم — لَيْلَةَ الْمَرَاجِجِ مِنْ عُلُوِّ مَا رَقَاهُ إِلَيْهِ ، وَعِظَمِ مَا لَقَاهُ بِهِ أَزَالَ الْأَعْجُوبَةَ بِقَوْلِهِ : « أَسْرَى » ، وَنَفَى عَنْ نَبِيِّهِ خَطَرَ الْإِعْجَابِ بِقَوْلِهِ : « بِعَبْدِهِ » ؛ لِأَنَّ مَنْ عَرَفَ أُلُوهِيَّتَهُ ، وَاسْتَحْقَاقَهُ لِكَمالِ الْعِزِّ فَلَا يُتَعَجَّبُ مِنْهُ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَفْعَلُ . وَمَنْ عَرَفَ عِبُودِيَّةَ نَفْسِهِ ، وَأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ فَلَا يُتَعَجَّبُ بِجَالِهِ . فَالآيَةُ أَوْضَحَتْ شَيْئَيْنِ اثْنَيْنِ : نَفَى التَّعَجُّبِ مِنْ إظهارِ فِعْلِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ ، وَنَفَى الْإِعْجَابِ فِي وَصفِ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

ويقال أخبر عن موسى عليه السلام — حين أكرمه بإسماعه كلامه من خير واسطة —

(١) يقول السيوطي في الإتيان : « وتسمى أيضاً سورة الإسراء ، وسورة سبحان وسورة بني إسرائيل » الإتيان ط الحلبي سنة ١٩٥١ م ١٠ ص ٥٤ .
أما الفاضل البضاوي (ص ٢٧٠) فيقول : سورة بني إسرائيل أو سورة « أسرى »

فقال : « ولما جاء موسى لميقاتنا » ^(١) ، وأخبر عن نبينا صلى الله عليه وسلم بأنه « أسرى بعبده »
وليس مَنْ جاء بنفسه كمن أسرى به ربه ، فهذا مُشَحَّلٌ وهذا محمول ، هذا بنعت الفرق
وهذا بوصف الجمع ، هذا مُرِيدٌ وهذا مُرَادٌ .

ويقال جعل المِراج بالليل عند غَفَلَةِ الرُّقَبَاءِ وَغَيْبَةِ الأَجَانِبِ ، ومن غير ميعاد ، ومن
غير تقديم أَهْبَةِ واستعداد ، كما قيل : ^(٢)

ويقال جعل المِراج بالليل ليُظْهَرَ تصديق مَنْ صَدَّقَ ، وتكذيب مَنْ تَعَجَّبَ وَكَذَّبَ
أو أنكر وجحد .

ويقال لما كان تعبده صلى الله عليه وسلم وتهجدُه بالليل جعلَ الحقُّ سبحانه المِراج بالليل
ويقال :

لَيْلَةُ الوَصْلِ أَصْفَى مِنْ شُهُورٍ وَدُهُورٍ سِوَاهَا

ويقال أرسله الحقُّ — سبحانه — لينعلم أهلُ الأرضِ منه العبادة ، ثم رَقَّاه إلى السماء
لينعلم الملائكةُ منه آدابَ العبادة ، قال تعالى في وصفه — صلى الله عليه وسلم — : « ما زاغ
البصر وما طمى » ^(٣) ، فما التفتَ يميناً ولا شمالاً ، وما طمع في مقامٍ ولا في إكرامٍ ، تَجَرَّدَ
عن كلِّ طلبٍ وأَرَبَ .

قوله : لنريه من آياتنا : كان تعريفه بالآيات ثم بالصفات ثم كَشَفُ بالذات .
ويقال من الآيات التي أراها له تلك الليلة أنه ليس كمثل — سبحانه — شيءٍ في جلاله
وجلاله ، وعِزُّه وكبريائه ، ومجده وسنائه

ثم أراه من آياته تلك الليلة ما عرَفَ به صلوات الله عليه — أنه ليس أحدٌ من المخلوقين
مثلَه في نبوته ورسالته وعلوِّ حالته وجلال رتبته .

(١) آية ١٤٣ سورة الأعراف .

(٢) هذا شاهد شعري مضطرب في الكتابة ، وأكثر أجوائه سلامة هو : والناس مما نحن فيه بمحزل .

(٣) آية ١٧ سورة النجم .

قوله جل ذكره : ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾

أرسل موسى عليه السلام بالكتاب كما أرسل نبينا صلى الله عليه وسلم ، ولكن نبينا — صلوات الله عليه — كان أوفى — سماعاً ، فإن الشمس في طلوعها وإشراقها تكون أقرب من طلعت له من حقائقها .

قوله جل ذكره : ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾

أى يا ذرية مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ — على النداء . . إنه كان عبداً شكوراً .

والشكور الكثير الشكر ؛ وكان نوح قد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وكان يضرب في كل (. . .)^(١) كما في القصة — سبعين مرة ، وكان يشكر . كما أنه كان يشكر الله ويصبر على قومه إلى أن أوحى الله إليه : أنه لن يؤمن إلا من قد آمن ، وأمر حين دعا عليهم فقال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً »^(٢) .

ويقال الشكور هو الذى يكون شكره على توفيق الله له لشكره ، ولا يتقاصر عن شكره لنعمة .

ويقال الشكور الذى يشكر بماله ، ينقته في سبيل الله ولا يدخره ، ويشكر بنفسه فيستعملها في طاعة الله ، ولا يُبقي شيئاً من الخدمة يدخره ، ويشكر بقلبه ربه فلا تأتى عليه ساعة إلا وهو يذكره .

قوله جل ذكره : ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ

(١) مشقة . .

(٢) آية ٢٦ سورة نوح ويكون المراد أنه لم يدع بإهلاكهم نتيجة نفاذ صبره أو عدم شكره بل حسباً أمره الله ، ولو وضعنا الفاصلة بعد (وأمر) يكون المعنى : إلا من قد آمن وأمر بالآيمان . وهذا التأويل لا يتعارض مع المذهب العام للشعبي ، فكل شيء عنده بأمر الله وتوفيقه .

لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ
عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿١٠﴾

القضاء هاهنا بمعنى الإعلام ، والإشارة في تعريفهم بما سيكون في المُستأنف منهم
وما يستقبلهم ، ليزدادوا يقيناً إذا لقوا ما أُخبروا به ، وليكون أبلغ في لزوم الحجّة عليهم ،
وليحترزوا من مخالفة الأمر بمجدهم ، وليعلموا أن ما سبق به القضاء فلا محالة يحصل وإن
ظُنَّ التباعد عنه .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهَا بِعَثْنَا عَلَيْكُمْ
عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بِأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا
خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴾

إن الله سبحانه يُعِدُّ أقواماً لأحوالٍ مخصوصةٍ حتى إذا كان وقتُ إرادته فيهم كان
هؤلاء موجودين .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ
وَأَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ
أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾

يدلُّ على أنه مُقدِّرُ أعمالِ العباد ، ومُدبِرُ أفعالهم ، فإن انتصارهم على أعدائهم من جملة
أُكسابهم ، وقد أخبر الحقُّ أنه هو الذي تولاه بقوله : « رددنا لكم الكرة عليهم ... »

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ أَحْسَنَ مَا أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ
أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ
لِيَسْئُرُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا
الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَلِيُنَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَبِيرًا ﴾

إِنْ أَحْسَنْتُمْ فَتَوَابَكُمْ كَسَبْتُمْ ، وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَعَذَابُكُمْ جَلِيَّتُمْ — وَالْحَقُّ أَعَزُّ مِنْ أَنْ يَعودَ إِلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِ عِبَادِهِ زَيْنٌ أَوْ يُلْحَقَهُ شَيْئٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ عسى ربكم أن يرحمكم ﴾

كلمة « عسى » فيها ترجية وإطمان ، فهو — سبحانه — وقفهم على حد الرجاء والأمل ، والخوف والوجل .

وقوله « عسى » : ليس فيه تصريح بغفرانهم ورحمتهم ، وإنما فيه للرجاء موجب قوياً ، فيلطفه وعد أن يرحمكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾

أى إن عُدْتُمْ إلى الزَّلَّةِ عُدْنَا إلى العقوبة ، وإن استقمتم في التوبة عدنا إلى إدامة الفضل عليكم والمثوبة .

ويقال إن عُدْتُمْ إلى نقض العهد عُدْنَا إلى تشديد العذاب .

ويقال إن عُدْتُمْ للاستجارة عدنا للإجارة .

ويقال إن عُدْتُمْ إلى الصفاء عدنا إلى الوفاء .

ويقال إن عُدْتُمْ إلى ما يليق بكم عُدْنَا إلى ما يليق بكرمنا .

« وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً » ، لأنهم (. . .)^(١) وهم ناس كثير فهذه جهنم ومن يسكنها من الكافرين .

و « حصيراً » أى محبساً ومصيراً . فاللؤم — وإن كان صاحب ذنوب وإن كانت كبيرة — فإنَّ مَنْ خرج من دنياه على إيمانه فلا محالة يصل يوماً إلى غفرانه .

(١) هنا يبايض في النسخة .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ

وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ

الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾

القرآن يدل على الحق والصواب . و « أقوم » : هنا بمعنى المستقيم الصحيح كأكبر بمعنى الكبير ؛ فالقرآن يدل على الحق والصواب ، ولكن الخلل من جهة الاستدلال لا الدليل ، إذ قد يكون الدليل ظاهراً ولكن المستدل مغرض ، وبآداب النظر مغل ، فيكون العيب في تقصيره لا في قصور الدليل (١) .

القرآن نورٌ ؛ مَنْ استضاء به خَلَصَ مِنْ ظُلُمَاتٍ جَهْلِهِ ، وخرج من غمار شكّه . وَمَنْ رَمَدَتْ عَيُونُ نَظَرِهِ التَّبَسُّ رُشْدُهُ .

ويقال الحَوْلُ ضَرَرُهُ أَشَدُّ مِنَ الْعَمَى ؛ لِأَنَّ الْأَعْمَى يَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ يُبْصِرُ فَيَتَّبِعُ قَائِدَهُ ، وَلَكِنَّ الْأَحُولَ يَتَوَكَّلُ الشَّيْءَ شَيْئِينَ ، فَهُوَ بِتَخِيلِهِ وَحِسْبَانِهِ يَمَارِي مَنْ كَانَ سَلْبًا . . . كَذَلِكَ الْمُبْتَدِعُ إِذَا سَلَكَ طَرِيقَ الْجَدَلِ ، وَلَمْ يَضَعْ النِّظَرَ مَوْضِعَهُ بَقِيَ فِي ظُلُمَاتٍ جَهْلِهِ ، وَصَالَ بِبَاطِلٍ دَعَاوَاهُ عَلَى خَصْمِهِ ، كَمَا قِيلَ :

بِأَطْرَافِ الْمَسَائِلِ كَيْفَ يَأْتِي — وَلَا أَذْرَى لَعَمْرُكَ — مُبْطِلُوهَا ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالْشَّرِّ دَعَاءَهُ بِالْخَيْرِ

وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَاجُولًا ﴾

من الأدب في الدعاء ألا يسأل العبد إلا عند الحاجة (٢) ، ثم ينظر فإن كان شيء لا يعنيه ألا يتعمد ضلّ له ؛ فإن في الخبر (٣) : « مِنْ حَسَنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ » . ثم من آداب الداعي إذا سأل من الله حاجته ورأى تأخيراً في الإجابة ألا يتهم الحق — سبحانه — ويجب أن يعلم

(١) هذا نموذج مصغر لأسلوب التفسير الجدلي .

(٢) وردت (نجاحه) وهي خطأ في النسخ .

(٣) وردت (الخير) بالياء .

أن الطير في ألا يجيبه ، والامتعال — فيما يختاره العبد — غير محمود ، وأولى الأشياء السكون والرضا بحكمه سبحانه ، إن لم يساعده الصبر وسأل فالواجب ترك الامتعال ، والثقة بأن المقسوم لا يفوته ، وأن اختيار الحق للعبد خير له من اختياره لنفسه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوِّنَا

آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً
لِنَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا
عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ
فَعَلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾

جعل الليل والنهار علامة على كمال قدرته ، ودلالة على وجوب وحدانيته ؛ في تعاقبهما وتناوبهما ، وفي زيادتهما ونقصانهما .

ثم جعلهما وقتاً صالحاً لإقامة العبادة ، والامتثال على معرفة جلال إلهيته ؛ فالعبادة شرطها الدوام والاتصال ، والوظائف حقها التوفيق والاختصاص

ولو وقع في بعض العبادات تقصير أو حصل في أداء بعضها تأخير تداركه بالقضاء حتى يتلافى التقصير .

ويقال من وجوه الآيات في الليل والنهار أفراد النهار بالضياء من غير سبب ، وتخصيص الليل بالظلام بغير أمر مكتسب (١) ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَحَوِّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ۚ ۝ وَهُوَ اخْتِلَافُ أَحْوَالِ الْقَمَرِ فِي إِشْرَاقِهِ وَمَحَاقِهِ ، فَلَا يَبْقَى لَيْلَتَيْنِ عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ ، بَلْ هُوَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ فِي مَنْزِلٍ آخَرَ ، إِمَّا بِزِيَادَةٍ أَوْ بِنَقْصَانٍ .

وأما الشمس فخالها الدوام . . . والناس كذلك أوصافهم ؛ فأرباب التمكين الدوام شرطهم ، وأصحاب التنقل (٢) حَقُّهم ، قال قائلهم :

ما زلت أنزل من ودادك منزلاً تتحير الألبابُ دون نزوله

(١) أي أن أعمال الله بمخلوقاته لا تخضع لعله أو سبب ، أو حيلة أو كسب .

(٢) يقصد بالتنقل هنا التقلب في الأحوال . . . وليس التنقل من مكان إلى مكان .

قوله جل ذكره : ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِّزَمْنَهُ طَائِرَةٌ فِي عُنُقِهِ
وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ
مَنْشُورًا﴾

ألزم كلُّ أحدٍ ما ليسَ بِجَيِّدِهِ . فالذين هم أهلُ السعادة أُسْرِجَ لهم مركبُ التوفيق ،
فيسير بهم إلى ساحات النجاة ، والذين هم أهلُ الشقاوة أُرْكِبهم مَطْبِيَّةُ الخذلان فأقْعَدَهُم عن
النهوض نحو منهج الخلاص ، فوقعوا في وَهْدَةٍ الهلاك .

قوله جل ذكره : ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ
عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾

مَنْ سَاعَدَتْهُ الْعِنَايَةُ الْأَزَلِيَّةُ حُفِظَ عِنْدَ مَعَامِلَاتِهِ مِمَّا يَكُونُ وَبَالًا عَلَيْهِ يَوْمَ حِسَابِهِ ، وَمَنْ
أَبْلَاهُ بِحُكْمِهِ رَدَّهُ وَأَهْمَلَهُ ، ثُمَّ تَرَكَهُ وَعَمَلَهُ ، فَإِذَا اسْتَوْفَى أَجَلَهُ عَرَفَ مَاضِيَّعَهُ وَأَهْمَلَهُ ، وَيَوْمَئِذٍ
يُحْكَمُ فِي حَالِ نَفْسِهِ ، وَهُوَ لَا مُحَالَةَ يَحْكُمُ بِنَفْسِهِ بِاسْتِحْقَاقِهِ لِعَذَابِهِ عِنْدَمَا يَتَحَقَّقُ مِنْ قُبْحِ أَعْمَالِهِ ..
فَكَمْ مِنْ حَسْرَةٍ يَنْجَرُّعُهَا ، وَكَمْ مِنْ خِيبَةٍ يَتَلَقَّاها !

ويقال مَنْ حَاسِبُهُ بَكْتَابِهِ فَكِتَابُهُ مُلَازِمُهُ فِي حِسَابِهِ فيقول : رَبِّ : لَا تُحَاسِبْنِي بِكِتَابِي ..
ولكن حَاسِبِي بِمَا قُلْتَ : إِنَّكَ غَافِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلُ التَّوْبِ .. لَا تَعَامِلْنِي بِمَقْتَضَى كِتَابِي ؛
ففيه بوارى وهلاكى

قوله جل ذكره : ﴿مَنْ أَهْدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْدِي لِنَفْسِهِ
وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾

قضايا أعمال العبد مقصورةٌ عليه ؛ إِنْ كَانَتْ طَاعَةٌ فُضِّياؤُهَا لِأَصْحَابِهَا ، وَإِنْ كَانَتْ
زَلَّةً فَبِلَاؤُهَا لِأَرْبَابِهَا . وَالْحَقُّ غَنَى مُقَدَّسٌ ، أَحَدِيٌّ مُنَزَّهُ .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا
مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾

كُلُّ مُطَالِبٍ بِجَرِيرَتِهِ . وَكُلُّ نَفْسٍ تَحْمِلُ أَوْزَارَهَا لَا وِزْرَ نَفْسٍ أُخْرَى .. وَمَا كُنَّا

معذبتين حتى نبعث رسولا ۝ : دل ذلك على أن الواجبات إنما تتوجه من حيث السمع^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا
مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا
الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ۝ ﴾

إذا كثرت أهل الفساد غلبوا ، وقيل أهل الصلاح وقعدوا ؛ فعند ذلك (يعمر)^(٢) الله
الخلق ببلائه ، ولا يكون للناس ملجأ من أوليائه لينكلموا في بابهم ، ولا فيهم من يتنهل
إلى الله فيسبح دعاءه ، فيختارم^(٣) أوليائه ، ويبقى أرباب الفساد ، وعند ذلك يشتد
البلاء وتكظم المحن إلى أن ينظر الله تعالى إلى الخلق نظر الرحمة والمنة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ
نُوحٍ وَكَفَىٰ لِرَبِّكِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ
خَبِيرًا بَصِيرًا ۝ ﴾

في الآية تسلية للمظلومين إذا استبطأوا هلاك الظالمين ، و (. . .)^(٤) قصر أيديهم
عنهم . فإذا فكروا فيما مضى من الأمم أمثالهم وكيف بنوا مشيداً ، وأملوا بعيداً . .
فبادوا جميعاً ، يعلمون أن الآخرين — عن قريب — سينخرطون في سلكهم ، ويستمحلون
بمثل شأنهم . وإذا أظلمت لهم سحُب الوحشة فادوا إلى ظل شهود التقدير ، فتزول عنهم الوحشة ،
وتطيب لهم الحياة ، وتحصل الهيبة .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا
مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ
يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ۝ ﴾

(١) نظن أن العشي يريد بذلك أن يرد على بعض أهل الكلام الذين يقولون إن الله يعذب الناس على
ذنوبهم حتى ولو لم يبعث لهم رسولا لأن عقل الانسان مطالب بالتكليف قبل سماع الرسل .
(٢) وردت (يعمر) بالعين والصواب أن تكون بالعين لأن السياق يتطلب ذلك .
(٣) وردت (فيحترم) بالحاء والسين يتطلب أن الله (يختارم) أوليائه أي يأخذم إليه .
(٤) مشتبه ، ورجح أنها كلمة تؤدي إلى معنى (وأحسوا) قصر أيديهم عن الظالمين .

مَنْ رَضِيَ بِالْحَظِّ الْخَسِيسِ مِنْ عَاجِلِ الدُّنْيَا بَقِيَ عَنْ نَفْسِ الْآخِرَةِ ، ثُمَّ لَا يَحْطَى إِلَّا بِقَدْرِ مَا اشْتَمَهُ ، ثُمَّ يَكُونُ آتِسَ مَا بِهِ قَلْبًا وَأَشَدُّ مَا يَكُونُ بِهِ سَكُونًا . . ثُمَّ يُخْتَلَفُ عَنْ نِعْمَتِهِ ، وَلَا يَخْصُهُ بِشَيْءٍ مِمَّا جَمَعَ مِنْ كِرَامَتِهِ ، وَيَمْنَعُهُ مِنْ قُرْبِهِ فِي الْآخِرَةِ . . وَلَقَدْ قِيلَ :

يَا غَافِلًا عَنْ سَمَاعِ الصَّوْتِ إِنْ لَمْ تَبَادِرْ فَهُوَ الْفَوْتُ
مَنْ لَمْ تَزَلْ نِعْمَتُهُ عَاجِلًا أَزَالَهُ عَنْ نِعْمَتِهِ الْمَوْتُ

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾

علامة مَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ — عَلَى الْحَقِيقَةِ — أَنْ يَسْعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ، فإِرَادَةُ الْآخِرَةِ إِذَا تَجَرَّدَتْ عَنْ الْعَمَلِ لَهَا كَانَتْ مَجْرَدَ إِرَادَةٍ ، وَلَا يَكُونُ السَّعْيُ مَشْكُورًا . قوله : « وَهُوَ مُؤْمِنٌ » : أَى فِي الْمَالِ كَمَا أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فِي الْحَالِ . وَيُقَالُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ أَنْ نَجَاتِهِ بِفَضْلِهِ لَا بِسَبَبِهِ . « فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا » أَى مُقْبُولًا ، وَمَعَ الْقَبُولِ يَكُونُ التَّضْعِيفُ وَالتَّكْثِيرُ ، فَكَمَا أَنَّ الصَّدَقَةَ يُرَبِّهَا كَذَلِكَ طَاعَةُ الْعَبْدِ يُكَثِّرُهَا وَيُنَمِّيْهَا .

قوله جل ذكره ﴿ كَلَّا نُنَادِيهِمْ هُوَ لَاءُ وَهُوَ لَاءُ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾

يَجَازِي كَلَّا بِقَدْرِهِ ، فَلِقَوْمٍ نَحَاةٍ وَلِقَوْمٍ دَرَجَاتٍ ، وَلِقَوْمٍ سَلَامَةٍ وَلِقَوْمٍ كِرَامَةٍ ، وَلِقَوْمٍ مَثُوبَةٍ ، وَلِقَوْمٍ قَرَبَةٍ .

قوله جل ذكره ﴿ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾

التَّفْضِيلُ عَلَى أَقْسَامٍ ، فَالْعُبَادُ فَضَّلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَكِنْ فِي زَكَاةِ أَعْمَالِهِمْ ، وَالْعَارِفُونَ فَضَّلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَكِنْ فِي صِفَاءِ أَحْوَالِهِمْ ، وَزَكَاةِ الْأَعْمَالِ بِالْإِخْلَاصِ ، وَصِفَاءِ الْأَحْوَالِ

بالاستخلاص ؛ فقوم تفاضلوا بصدق التقدم ، وقوم تفاضلوا بملوؤ الهيم والتفضيل في الآخرة أكبر : فالعباد تفاضلهم بالدرجات ، قال صلى الله عليه وسلم : « إنكم لترون أهل عليين كما ترون الكوكب النري في أفق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم »

وأهل الحضرة تفاضلهم بلطائفهم من الأئس بنسيم القرية بما لا بيان يصفه ولا عبارة ، ولا رمز يدركه ولا إشارة . منهم من يشهده ويراه مرة في الأسبوع ، ومنهم من لا يغييب من الحضرة لحظة ، فهم يجتمعون في الرؤية ويتفاوتون في نصيب كل أحد ، وليس كل من يراه يراه بالعين التي بها يراه صاحبه ، وأشد بعضهم^(١) :

لو يسمعون — كما سمعت حديثها خروا لرزة رُكعاً وسجوداً

قوله جل ذكره : ﴿ لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتفقد مدموماً مخدولاً ﴾

الذي أشرك بالله أصبح مدموماً من قبل الله ، ومخدولاً من قبل (من)^(٢) عبده من دون الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً ﴾

أمرَ بإفراده — سبحانه — بالعبادة ، وذلك بالإخلاص فيما يستعمله العبد منها ، وأن يكون مغلوباً باستيلاء سلطان الحقيقة عليه بما يحفظه عن شهود عبادته^(٣) وأمرَ بالإحسان إلى الوالدين ومراعاة حقهما ، والوقوف عند إشارتهما ، والقيام بخدتهما ،

(١) البيت لكثير صاحب عزة .

(٢) سقطت (من) . والسياق يتطلبها ، والمخللان ناجم من أن أى معبود غير الله لا يملك لمن يعبد نفعا ولا يدفع عنه ضرراً .

(٣) فأخلاص العبد في التحقق يحفظه من التقصير في أمور الشريعة .

وملازمة ما كان يعود إلى رضاها وحسن عشرتها ورعاية حُرْمَتَيْهَا ، وألا يبدى شواهد الكسل عند أوامرها ، وأن يَبْذُلَ المُكَنَّةَ فيها يعود إلى حفظ قلوبها . . . هذا في حال حياتها ، فأما بعد وفاتها فبِصِدْقِ الدَّعاءِ لهما ، وأداء الصَّدَقَةِ عنهما ، وحِفْظِ وصيتهما على الوجه الذي فَعَلَاهُ ، والإحسانِ إلى مَنْ كان مِنْ أَهْلِ وَدَّهما ومعارفهما .

ويقال إنَّ الحقَّ أَمَرَ العبادَ بِمِراةِ حقِّ الوالدين وهما من جنس العبد . . . فَمَنْ عَجَزَ عن القيام بحقِّ جنسه أَنَّى له أن يقوم بحقِّ ربه ؟

قوله جل ذكره : ﴿وَاخْفِضْ لَهَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾

اخفض لهما جناح الذُّلِّ بحسن المداراة ولين المنطق ، والبدار إلى الخدمة ، وسرعة الإجابة ، وترك اللَّزَمِ بمطالبهما ، والصبر على أمرهما ، وألا تَدَخِّرَ عنهما ميسوراً .

قوله جل ذكره : ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾

إذا عَلِمَ اللهُ صِدْقَ قلبِ عبْدٍ أَمَدَّهُ بِحَسَنِ الأَجَادِ ، وأكرمه بِجَمِيلِ الامْتِدَادِ^(١) ، وَيَسَّرَ عليه العسيرَ من الأمور ، وحفظه عن الشرور ، وعطف عليه قلوب الجمهور .

قوله جل ذكره : ﴿وَأَتِذَا الْقُرْآنُ يُقْرَأُ فَاسْمِعُوا بَنِيكُمْ وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الرَّسُولِ إِنَّهُ خَشِيَ الرَّحْمَنََ الرَّحِيمَ﴾
وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً
إِنَّمَا الْحَقُّ يَكُونُ مِنَ الْمَالِ وَمِنَ النَّفْسِ وَمِنَ الْقَوْلِ وَمِنَ الْفَعْلِ ، وَمَنْ نَزَلَ عَلَى اقْتِضَاءِ حَقِّهِ ، وَبَذَلَ السُّكْلَ لِأَجْلِ مَا طَالَبَهُ بِهِ مِنْ حَقِّهِ . فهو القائم بما أَلْزَمَهُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ بِأَمْرِهِ .

(١) أى الاستدامة والاستمرار دون وقفة أو فترة — وتلك من أعظم المنن في نظر القشيري ، وقد قال الرسول (ص) : « خير العمل أدومه وإن قل » .

والتبذيرُ مجاوزةُ الحدِّ عمَّا قدره الأمرُ والإذنُ . وما يكون لحظاً لنفسٍ — وإن كان
محملة — فهو تبذيرٌ ، وما كان له — وإن كان الوفاء بالنفس — فهو تقصيرٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ
وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾

إنما كانوا إخوانَ الشياطين لأنهم أنفقوا على هوائهم ، وجروا في طريقهم على دواعي
الشياطين ووساوسهم ، ولما أفضى بهم ذلك إلى المعاصي فقد دعاهم إخوانَ الشياطين .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّمَا تُعْرِضَنَ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ
رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَمْ يُولَ مَيْسُورًا ﴾

إن لم يُساعدك الإمكانُ على ما طالبوك من الإحسان فاصبرْ فهم عنك بوعده جميلٍ
إن لم تُسعِفهم بنقدٍ جزيل . وإنَّ وعدَ الكرامِ أهناً من نقدِ اللثام^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ
وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا
مَحْسُورًا ﴾

لا تُمسِكْ عن الإعطاء فتُكدي^(٢) ، ولا تُسْرِفْ في البذل بكثرة ما تُسدي ، وانسلكْ
بين الأمرين طريقاً وسطاً .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ
وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا
بَصِيرًا ﴾

إذا بسطَ لا تَبْقَى فاقة ، وإذا قبضَ استنفد كلَّ طاقة^(٣) .

(١) وردت (الأيام) وقد أثبتنا (اللثام) فيها يقوى المعنى وتستقيم المقابلة .

(٢) تكدي أى تبخل ، قال تعالى : « وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى » .

(٣) واضح أن العشيري يوجه الإشاره إلى رزق الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَكُنْ لَهُمْ نَزْوٌ كَبِيرٌ ﴾^(١)
نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان
خطئاً كبيراً

مَنْ عَرَفَ أَنَّ الرَّازِقَ هُوَ اللَّهُ خَفَّ عَنْ قَلْبِهِ هُمُ الْعِيَالُ^(١) — وَإِنْ كَثُرُوا ، وَمَنْ خَفَى
عَلَيْهِ أَنَّهُ قَسَمٌ — قَبْلَ الْخَلْقِ — أَرْزَاقُهُمْ تَطُوحُ فِي مَنَاهَاتٍ مَغَالِيطَةٍ ، فَيَقَعُ فِيهَا بِالْقَلْبِ
وَالْبَدَنِ ثُمَّ لَا يَكُونُ غَيْرَ مَا سَبَقَ بِهِ التَّقْدِيرُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِذَا كَانَ فَا حِشَةً ﴾^(٢)
وساء سيلاً .

تَرْجِيحُ^(٢) الزَّوْجِ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْفَوَاحِشِ لِأَنَّهُ فِيهِ تَضْيِيعُ حُرْمَةِ الْحَقِّ ، وَهَتْكَ حُرْمَةِ
الْخَلْقِ ، ثُمَّ لَمَّا فِيهِ مِنَ الْإِخْلَالِ بِالنَّسَبِ ، وَإِفْسَادِ ذَاتِ الْبَيْنِ^(٣) مِنْ مَقْتَضَى الْأَنْفَةِ وَالْغَضَبِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ
إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ
جَعَلْنَا لَوْلِيَهُ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي
الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾^(٤)

لَا يَجُوزُ قَتْلُ نَفْسٍ غَيْرِ بَغِيرِ الْحَقِّ ، وَلَا لِلرَّءِ أَنْ يَقْتُلَ نَفْسَهُ أَيْضًا بِغَيْرِ الْحَقِّ . وَكَأَنَّ
قَتْلَ النَّفْسِ بِالْحَدِيدِ وَمَا يَقُومُ مَقَامَهُ مِنَ الْأَلَاتِ مُحَرَّمٌ فَكَذَلِكَ الْقَصْدُ إِلَى هَلَاكِ الرَّءِ مُحَرَّمٌ .
وَمِنْ أَتَمِّهِمْ فِي مَخَالَفَةِ رَبِّهِ فَقَدْ سَعَى فِي هَلَاكِ نَفْسِهِ . « وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَهُ
سُلْطَانًا » : أَيْ تَسْلُطًا عَلَى الْقَاتِلِ فِي الْاِقْتِصَاصِ مِنْهُ ، وَعَلَى مَعْنَى الْإِشَارَةِ : إِنْ النُّصْرَةُ
مِنْ قَبْلِ اللَّهِ ؛ وَمَنْصُورُ الْحَقِّ لَا تَنْكَسِرُ سِنَانُهُ ، وَلَا تَطِيشُ سِهَامُهُ^(٤) .

(١) وردت (العيال) بالقاف وهي خطأ في النسخ .

(٢) ترجيح = زاد وثقل .

(٣) وردت (البين) وهي خطأ في النسخ

(٤) وردت (شهامه) بالشين وهي خطأ في النسخ

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالْقَىٰ هِيَ
أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا
بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾

لَمَّا لم يكن لليتيم مَنْ يهتم بشأنه أَمَرَ — سبحانه — الأجنبي الذي ليس بينه وبين اليتيم
مَسَبَّبٌ أَنْ يتولى أمره ، ويقوم بشأنه ، وأوصاه في بابه ؛ فالصبي قاعد بصفة الفراغ والهويني^(١) ،
والولي ساع بمقاساة العنا . .

فَأَمْرُ الْحَقِّ — سبحانه — للولي أَحَقُّ للصبي مِنْ شَفَقَةِ آله عَلَيْهِ فِي حَالِ حَيَاتِهِمْ^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنْتُمْ
بِالْقِسَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ
وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾

كما تدل تدان ، وكما تعامل تُجَازَى ، وكما تكيل يُكَالُ لَكَ ، وكما تكونون يكون
عليكم ، وَمَنْ وَفَى وَفَوَّاه ، وَمَنْ خَانَ خَانُوا مَعَهُ ، وَأَنشَدُوا :

أَسَانَا فَسَاعُوا .. عَدَلٌ بِالْأَحْيَاءِ وَلَوْ عَدَلْنَا لَخُلُصْنَا مِنَ الْمِحْنِ

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنْ
السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ
كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾

إِذَا غَلَبَتْ عَلَيْكَ جُحُوزَاتُ الظُّنُونِ ، وَلَمْ يُطْلِعْكَ الْحَقُّ عَلَى الْيَقِينِ فَلَا تَتَّكِلْ عَلَى الْوَقُوفِ
عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ بَرَهَانٍ ، وَإِذَا أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ أَحْكَامِ الْوَقْتِ فَارْجِعْ إِلَى اللَّهِ ؛ فَإِنْ
لَا حَاقَ لِقَلْبِكَ وَجْهٌ مِنَ الدَّلِيلِ عَلَى حَقِّ الْإِتِّبَاسِ فَكِلْ عِلْمَهُ إِلَى اللَّهِ ، وَقِفْ حَيْثُمَا وَقِفْتَ .

(١) الهويني = الخفض والدعة

(٢) ما يقوله القشيري في حالة اليتيم ينصرف — كما هو واضح — على حالة المريد بالنسبة لشيوخه ؛
فالمريد يجد من شيخه مالا يحده عند دويبه ، ذلك يربى الأرواح وهؤلاء يربون الأشباح .

ويقال الفرق بين من قام بالعلم وبين من قام بالحق أن العلماء يعرفون الشيء أولاً ثم يعلمون بعلمهم ، وأصحاب الحق يجري عليهم بحكم التصريف شيء لا علم لهم به على التفصيل ، وبعد ذلك يكشف لهم وجهه ، وربما يجري على ألسنتهم شيء لا يدرون وجهه ، ثم بعد فراغهم من النطق به يظهر لقلوبهم برهان ما قالوه ، ودليل ما نطقوا به من شواهد العلم^(١) .

قوله : « إن السمع والبصر . . . » هذه أمانة الحق — سبحانه — عند العبد ، وقد تقدم في بابها بما أوضحته ببراهين الشريعة .

ومن استعمل هذه الجوارح في الطاعات، وصاتها عن استعمالها في المخالفات فقد سلم الأمانة على وصف السلامة ، واستحق للمدح والكرامة . ومن دسّسها بالمخالفات فقد ظهرت عليه الخيانة ، واستوجب للملامة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾

الخِيَلَاءُ والتَجَبُّرُ ، وللدج والتكبر — كل ذلك نتائج الغيبة عن الذكر ، والحجة عن شهود الحق ؛ فإن الله إذا تجلّى لشئ خضع له — بذلك ورد الخبر . فأما في حال حضور القلب واستيلاء الذكر وسلطان الشهود . فالقلب مطروق ، وحكم الهيبة غالب . ونعت المدح وصفة الزهو وأسباب التفرقة — كل ذلك ساقط .

والناس — في اخلاص من صفة التكبر — أصناف : فأصحاب الاعتبار إذ عرفوا أنهم مخلوقون من نطفة أمشاج ، وما تحمله أبدانهم مما ينزح من مسامهم من بقايا طعامهم وشرابهم .. تلوهم عن التضييق والتدنيق^(٢) ، ويبعدون قلوبهم قيام أخطار الأشياء ، ولا يخطر على داخلهم إلا ما يزيل عنهم التكبر ، وينزع عنهم لباس التجبر .

(١) من هذه الوصية وما جاء بعدها يتضح رأى القشيري في التفرقة بين المعرفة عند أرباب العلوم والمعرفة عند أرباب الحقائق ، ويذهب القشيري في « رسالته » إلى أن باستطاعة كبار شيوخ أهل هذه الطريقة أن يفتنوا في مسائل الفقه إفتاءً يُعْتَدُّ به حتى لو كان أحدم أمياً (أنظر الرسالة ص ١٩٨ وقصة شيان الراعي مع الشافعي وابن حنبل) .

(٢) دتق البخيل = بالغ في التضييق في النفقة

وَأَمَّا أَرْبَابُ الْخُضُورِ فَلَيْسَ فِي طُلُوعِ الْحَقِّ إِلَّا انْخِنَاسُ النَّفْسِ ، وَفِي مَعْنَاهُ قَالُوا :

إِذَا مَا يَبْدَأُ لِي تَعَاظَمْتُ فَأُصْغِرُ فِي حَالٍ مِنْ لَمْ يَرِدْ

قوله جل ذكره : ﴿ سُبْحَانَكَ رَبُّكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ

مَكْرُوهًا ﴾ ذلك مما أَوْحَى إِلَيْكَ

رُبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ

اللَّهِ إِلَهًا . آخِرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ

مَلُومًا مَدْحُورًا ﴾

إِذَا سَعِدَتْ الْأَقْدَامُ بِخُضُورِ سَاحَاتِ الشُّهُودِ ، وَعَظِرَتْ الْأَسْرَارُ بِنَسِيمِ الْقُرْبِ تَجَرَّدَتْ

الْأَوْقَاتُ عَنِ الْحُجُبَةِ ، وَاسْتَوْلَى سُلْطَانُ الْحَقِيقَةِ ، فَيَحْصِلُ التَّنَقُّيُّ مِنْ هَذِهِ الْأَوْصَافِ الْمَذْمُومَةِ .

وَقَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ : ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾ : بِالْوَحْيِ وَالْإِعْلَامِ ،

وَالْأَوَّلِيَّاتِ تَعْرِيفَ بِحُكْمِ الْإِلَهَامِ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمُ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ

مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ

قَوْلًا عَظِيمًا ﴾

جَوِّزُوا أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ — سُبْحَانَهُ — وَلَدٌ ، وَفَكَّرُوا فِي ذَلِكَ ، ثُمَّ لَمْ يَرْضَوْا حَتَّى جَعَلُوا

لَهُ مَا اسْتَفْكَفُوا مِنْهُ لِأَنفُسِهِمْ ، فَمَا زَادُوا فِي تَعَرُّدِهِمْ إِلَّا عُتُورًا ، وَفِي طُغْيَانِهِمْ إِلَّا غُلُورًا ،

وَعَنِ الْقَبُولِ الْحَقِّ إِلَّا نُبُورًا .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ

إِذَا لَا يَشْفَعُونَ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُورًا

كَبِيرًا ﴾

بَيِّنْ أَنَّهُ لَوْ كَانَ الصَّانِعُ أَكْثَرَ مِنْ وَاحِدٍ لَجَرَى بَيْنَهُمْ تَضَادٌّ وَتَمَانُعٌ ، وَصَحَّ عِنْدَ ذَلِكَ

فِي صِفَتِهِمُ الْعَجْزُ ، وَذَلِكَ مِنْ رِيحَاتِ الْمَحْدَثَاتِ .

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ — تَنْزِيهًا لَهُ عَنِ الشَّرِّيكِ وَالظَّهِيرِ ، وَالْمَعِينِ وَالنَّظِيرِ :

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ
وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ
بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ
إِنَّه كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾

الأحياء من أهل السموات والأرض يُسَبِّحُونَ لَهُ تَسْبِيحًا قَالَهُ (١) ، وغير الأحياء يسبح
من حيث البرهان والدلالة . وما من جزء من الأعيان والآثار إلا وهو دليل على الربوبية ،
ولكنهم إذا استمعوا توحيداً للإله تعجبوا — لجهلهم وتَعَسَّرَ إدراكهم — وأنكروا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ
وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
حِجَابًا مَنُورًا ﴾ .

أى أدخلناك فى إيواء حِفْظِنَا ، وضربنا عليك سرادقات عصمتنا ، ومنعنا الأيدي
الخطائنة عنك بلطفنا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ
وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِرْتَ رَبُّكَ
فِي الْقُرْآنِ وَحَدَّثَ وَلَوْ عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ
نَفُورًا ﴾ (٢) .

صَرَّحَ بأنه خالق ضلالتهم ، وهو المُنْبِت فى قلوبهم ما استكنَّ فيها من فرط غوايتهم (٣)
« وَإِذَا ذُكِرْتَ رَبُّكَ فِى الْقُرْآنِ وَحْدَهُ . . » أحبوا أن تذكر آلهتهم ، قد ختم الله على
قلوبهم ، فلا حديث يُعْجِبُهُمْ إِلَّا مِمَّنْ لَهُمْ شَكْلٌ وَمِثْلٌ .

(١) وردت (ماله) باليم والصواب أن تكون (قاله) بمعنى أن تسبيح الأحياء بالقول والنطق .
(٢) يمكن أن تكون (نفورا) مصدرًا من تَفَرَّقَ يَتَفَرَّقُ أى ولى ، ويمكن أن تكون جمع نافر
كقواعد وقعود .

(٣) هذا رأى على جانب كبير من الخطورة يلبى على أصل لى مذهب التشيرى — نوهنا به سابقاً —
وهر أن الله خالق كل شئ ، — على الحقيقة — حتى أكساب المباد ، هى له حكما ولهم فعلا .

قوله جل ذكره : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْمَعُونَ ﴾ إِذِ يَسْتَسْمِعُونَ
إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ
إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿

لَبَسُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ — صلى الله عليه وسلم — أحوالهم ، وأظهروا الوفاق من أنفسهم ،
فَفَضَّحَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَكَشَفَ أَسْرَارَهُمْ ، وَبَيَّنَّ مَقَابِجَهُمْ ، وَهَتَكَ أَسْتَارَهُمْ ، فَمَا تَنطَوَّى عَلَيْهِ
السِّريرة لَابُدَّ أَنْ يُظْهَرَ لِأَهْلِ الْبَصِيرَةِ بِمَا يَبْدُو عَلَى الْأَسْرَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ نَظَرُوا نَظْرًا ﴾ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ
فَضَّلُوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿

عابوه بما ليس بنقيصة في نفسه حيث قالوا : « إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا »
أَيْ ذَا سِحْرِ . وَأَيُّ نَقِيسَةٍ كَانَتْ لَهُ إِذَا كَانَ — صلى الله عليه وسلم — مِنْ جَمَلَةِ الْبَشَرِ ؟
وَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَنُوبُ نَصْرَتِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ تَخْصِيصُهُ بِبَشِيَّةٍ ، وَلَا بِصُورَةٍ ، وَلَا بِجِرْفَةٍ ،
وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ شَيْءٌ بِسَبَبِهِ وَإِنَّمَا بَانَ شَرَفُهُ لَجَمَلَةٍ مَا تَعَلَّقَ بِهِ لُطْفُهُ الْقَدِيمُ — سُبْحَانَهُ — وَرَحْمَتُهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا
أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾

أَقْرَبُوا بِأَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُمْ ، ثُمَّ أَنْكَرُوا قُدْرَتَهُ عَلَى إِعَادَتِهِمْ بَعْدَ عَدَمِهِمْ ، وَلَكِنْ . . . كَمَا جَازٍ
أَنْ يُوْجِدَهُمْ أَوَّلًا وَهُمْ فِي كَيْفِ الْعَدَمِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَيْنٌ وَلَا أُنْثَرُ ، وَلَكِنْهُمْ كَانُوا فِي مَتَنَاوِلِ
الْقُدْرَةِ وَمَتَعَلَّقِ الْإِرَادَةِ ، فَمِنْ حَقِّ صَاحِبِ الْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ أَنْ يُعِيدَهُمْ إِلَى الْوُجُودِ مَرَّةً أُخْرَى . .
وَهَكَذَا إِذَا رَمَدَتْ عَيْنُ قَلْبٍ لَمْ يَسْتَبْصِرْ صَاحِبُهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ كُنُوزًا حَبْرًا أَوْ حَدِيدًا *
أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ
فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي

فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ^(١)
إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ ؟
قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿١﴾

أخبر — سبحانه وتعالى — أنه لا ينصني عليه مقدور لأنه موصوف بقدره أزلية ، وقدرته
عامة التعلق ؛ فلا المشقة تجوز في صفته ولا الرقابة . فالتعلق الأول والإعادة عليه سيان ؛
لا من هذا عائد إليه ولا من ذاك ، لأن قدمه يمنع تأثير الحدوث فيه .

قوله جل ذكره : ﴿ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ
وَتَنْظُنُونَ أَنَّ لَكُمْ بِئْسَ ثَمًّا إِلَّا قَلِيلًا ﴾

يدعوكم فتستجيبونه وأنتم حامدون . فالحمد بمعنى الشكر ، وإنما يشكر العبدُ على النعمة
والآية تدل على أنهم — وهم في قبورهم — في نعمته .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ ،
إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا
مُبِينًا ﴾

القولُ الحسنُ ما يكون للقائل أن يقوله . ويجوز أن يكون الأحسن مبالغة من الحسن ،
فعلى هذا الأحسن من القول ما لا يجوز تركه . ويقال الأحسن من القول ما بخاف قائله من
المقوبة على تركه . ويقال الأحسن من القول إقرار المحبِّ بعبودية محبوبه .

ويقال أحسن قول من المذنبين الإقرار بالجُرم ، وأحسن قول من العارفين الإقرارُ
بالمعجز عن المعرفة ، قال صلى الله عليه وسلم : سبحانه لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيتَ
على نفسك .

(١) ينغضون رؤوسهم أى يحركونها تعجباً واستهزاء .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ
أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ
عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا ﴾

سَدَّ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ طَرِيقَ مَعْرِفَتِهِ بِنَفْسِهِ لِيَتَعَلَّقَ كُلُّ قَلْبٍ بِرَبِّهِ . وَجَعَلَ الْمَوَاقِبَ عَلَى أَرْبَابِهَا
مُشْتَبِهَةً ، فَقَالَ « رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ » . ثُمَّ قَدَّمَ حَدِيثَ الرَّحْمَةِ عَلَى حَدِيثِ الْعَذَابِ ، فَقَالَ :
« إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ » ، وَفِي ذَلِكَ تَرَجُُّّ لِلْأَمَلِ أَنْ يَقْوَى .
وَيُوصَفُ الْعَبْدُ بِالْعِلْمِ وَيُوصَفُ الرَّبُّ بِالْعِلْمِ ، وَلَكِنَّ الْعَبْدَ يَعْلَمُ ظَاهِرَ حَالِهِ ، وَعِلْمُ الرَّبِّ
يَكُونُ بِحَالِهِ وَبِمَآلِهِ ، وَلِهَذَا قَالُوا جِبُّ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَقُولَ : أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَهَذَا
مَعْنَى : « إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ » بَعْدَ قَوْلِهِ : « أَعْلَمُ بِكُمْ » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى
بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾

فَضَّلَ بَعْضَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى بَعْضٍ فِي النَّبُوءَةِ وَالدرَجَةِ ، وَفِي الرِّسَالَةِ وَاللِّطَائِفِ وَالْخِصَائِصِ .
وَجَعَلَ نَبِيَّنَا — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — أَفْضَلَهُمْ ؛ فَهَمَّ كَالنَّجُومِ وَهُوَ بَيْنَهُمْ بِدَرٍّ ، وَهَمَّ كَالْبَدْوِ
وَهُوَ بَيْنَهُمْ شِمْسٌ ، وَهَمَّ شَمْسٌ وَهُوَ شَمْسُ الشَّمْسِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ
فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ
وَلَا تَحْوِيلًا ﴾

اسْتَعِينُوا فِيمَا يَسْتَقْبِلُكُمْ ^(١) بِالْأَصْنَامِ الَّتِي عِبَدْتُمُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ حَتَّى تَتَحَقَّقُوا
أَنَّهُ لَا تَنْفَعُكُمْ عِبَادَةُ شَيْءٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَلَا يَضُرُّكُمْ تَرْكُ ذَلِكَ ، وَلَقَدْ قِيلَ فِي الْخَبَرِ : « مَنْ
حَسَنَ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرَكَ مَا لَا يَعْنِيهِ » ^(٢)

(١) أَيِ مَا يَسْتَقْبِلُكُمْ مِنَ الْبَلَاءِ
(٢) رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو يَعْلَى وَالزُّمَذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَاحِدٌ مِنَ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ ، وَالسَّكْرِيُّ
عَنْ عَلِيٍّ ، وَأَوْضَعَهُ الشَّيْخَانُ فِي تَخْرِيجِ الْأَرْبَعِينَ .

قوله جل ذكره : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾

يعنى الذين يعبدونهم ويدعونهم — كالمسيح وعزير والملائكة — لا يملكون نفعا لأنفسهم ولا ضرا ، وهم يطلبون الوسيلة إلى الله أى يتقربون إلى الله بطاعتهم رجاء إحسان الله ، وطمعا في رحمته ، ويخافون العذاب من الله . . . فكيف يرفعون عنكم البلاء وهم يرجون الله ويخافونه في أحوال أنفسهم ؟

ويقال فى المثل : تَمَلَّقُ الْخَلْقُ بِالْخَلْقِ تَسْلُقُ مَسْجُونٍ بِمَسْجُونٍ .

ويقال : إذا انضمَّ الفقيرُ إلى الفقيرِ ازدادا فاقةً .

ويقال إذا قاد الضريرُ ضريراً سقطا معاً فى البئر ، وفى معناه أنشدوا :

إذا التقى فى حَدَبٍ واحدٍ سبعونُ أعمى بمقادير
وسَّيَرُوا بَعْضُهُمْ قَائِدًا فَكُلُّهُمْ يَسْقُطُ فى البير

قوله جل ذكره : ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ، كَانَ ذَلِكَ فى الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾

العذاب على أقسام : فالألم الذى يَرِدُ على النفوسِ والظواهر يتصاغر بالإضافة إلى ما يَرِدُ على القلوبِ والسرائر ، فعذابُ القلوبِ لأصحابِ الحقائقِ أَحَدٌ فى الشَّدَّةِ مِثْلًا يُصِيبُ أَصْحَابَ الْفَقْرِ وَالْقَلَّةِ .

ثم إن الحقَّ سبحانه أجري سُنَّتَهُ بأن مَنْ وصلت منه إلى غيره راحةٌ انعكست الراحةُ إلى موصلها ، وبخلاف ذلك مَنْ وصلت منه إلى غيره وَحْشَةٌ عادت الوحشةُ إلى موصلها .

ومن صام^(١) الناس ظُلماً وَخُفّاً فَبَقَدَرِ ظُلْمِهِ يَمْدُ بِهِ اللهُ — سبحانه وتعالى — في الوقت بتغيب العيش ، وامتنلاء الغضب من كل أحد عليه ، وتترجم ظنونه وتقسّم أفكاره في أحواله وأشغاله . ولو ذاق من راحة الفراغ وحلاوة الخلوة شظية لعلم ما طعم الحياة . . ولكن حرموا النعم ، وما علموا ما منوا به من النقم .

قوله جل ذكره : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا نمود الناقة مبصرة فظلموا بها ﴾^(٢)

أجرى الله سُنَّتَهُ أنه إذا أظهر آية اقترحتها أمة من الأمم ثم لم تؤمن بها بعد إظهارها أن يعجل لها العقوبة ، وكان المعلوم والمحكوم به ألا يجتاح العذاب القوم الذين كانوا في وقت الرسول — عليه السلام — لأجل من في أصلاهم من الذين علم أنهم يؤمنون ؛ فلذلك أخر عنهم العذاب الذي تعجلوه^(٣) .

﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾

التخويف بالآيات ذلك من مقتضى تجمله ؛ فإن لم يخافوا وقع عليهم العذاب . ثم إنه علم أنه لا يفوته شيء بتأخير العقوبة عنهم فأخر العذاب ، وله أن يفعل ما يشاء بمقتضى حكمه وعلمه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ﴾

(١) وردت (صام) بالصاد وهي خطأ في النسخ .

(٢) اختار من الآيات التي اقترحها الأولون ناقة صالح (عم) لأن آتاهم هلاكهم قريية من حدودهم يصرها سادرم وواردم .

(٣) عن عائشة رضي الله عنها (. . . ناداني مملك الجبال فسلم علي ثم قال : يا محمد ، إن الله قد سمع قول قومك لك ، وقد بعثنى ربي إليك لتأمرني بأمرك فما شئت ؟ إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين (جبلين يحيطان بمكة) فقال النبي (ص) : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً) .

وَنُحَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا
كَبِيرًا ﴿١﴾

الإيمانُ بما خَصَّصْنَاكَ به امتحانٌ لهم وتكليفٌ ، لِيُتَمَيَّزَ الصَّادِقُ مِنَ الْمُنَافِقِ ، وَالْمُؤْمِنُ
مِنَ الْجَاهِدِ ، فَالَّذِينَ تَدَارَكَتْهُمْ الْحِمَايَةُ وَقَفُوا وَثَبَتُوا ، وَصَدَّقُوا بِمَا قِيلَ لَهُمْ وَحَقَّقُوا . وَأَمَّا الَّذِينَ
خَامَرَ الشُّكُّ قُلُوبَهُمْ ، وَلَمْ تَبَاشِرْ خِلَاصَةُ التَّوْحِيدِ أَسْرَارَهُمْ ، فَمَا أَزْدَادُوا بِمَا ائْتَحَنُوا بِهِ
إِلَّا تَحِيرًا وَضَلَالًا وَتَبَلُّدًا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ
فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ
لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾

امتنع الشقي وقال : لا أسجد لغيرك بوجهٍ سَجَدْتُ لَكَ به ، وكان ذلك جهلاً منه ،
ولو كان بالله عارفاً لكان لأمره مؤثراً ، ولحيط نفسه تاركاً .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ
عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ
لَأَحْتَنِيَنَّكَ دُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

لو علقت به ذرةٌ من المعرفة والتوحيد لم يحطب^(٢) على نفسه بالإضلال والإغواء ، لكنه
أقامه الحق بذلك المقام ، وأنطقه بما هو لقلوب أهل التحقيق مُتَضَيِّحٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ أَذْهَبُ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ
فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا *

(١) الرؤيا المقصودة هي التي سبقت يوم بدر ، وبها بُشِّرَ بالنصرة وبأنه سيهزم الجمع ويولون الدبر ،
فسخروا منه . وربما كانت رؤيا المراح عند من قال إن المراح كان في المنام .

والشجرة الملعونة هي الرقوم حيث قالوا كيف يزعم محمد أن الجحيم تحرق الحجارة ثم يقول إن بها
تلبت شجرة ! لجعلوها سخرية .

(٢) حَطَّطَ = جَنَّى على نفسه لعدم تفقد أمره وكلامه

واستغفر من استطعت منهم بصوتك
وأجلب عليهم بخصيتك ورجلك
وشاركهم في الأموال والأولاد ،
وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً *

هذا غاية التهديد ، وفيه إشارة وبيان بالأمر ولا تفويت ، ولو آخر عقوبة قوم فإن
ذلك إهمال لا إهمال ، ومكر واستدراج لا إنعام وإكرام .

« واستغفر من استطعت منهم بصوتك » : أى إفضل ما أمكنتك ، فلا تأثير لفعلك
فى أحد ، ، فإن المنشئ والمُبدع هو الله . . وهذا غاية التهديد .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ
وَكُنْ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾

السلطان الحجة ، فالآية تدل على العموم^(١) ، ولا حجة للمذنب على أحد ، بل الحجة لله وحده .
ويقال السلطان هو التسلط ، وليس لإبليس على أحد تسلط ، إذ المقدور بالقدر الحادثة
لا يخرج عن محل القدرة الإلهية ، فالحداثات كلها تحدث بقدرة الله ، فلا لإبليس ولا لغيره
من المخلوقين تسلط من حيث التأثير فى أحد ، وعلى هذا أيضاً فالآية للعموم .

ويقال أراد بقوله : « عبادى » الخواص من المؤمنين الذين هم أهل الحفظ والرحمة
والرعاية من قبل الله ، فإن وساوس الشيطان لا تضرهم ولا تنجسهم إلى الله ، ودوام استجارتهم
بالله ، ولهذا فإن الشيطان إذا قرب من قلوب أهل المعرفة احترق بضياء معارفهم .

ويقال إن فرار^(٢) الشيطان من المؤمنين أشد من فرار المؤمنين من الشيطان .

والخواص من عباده هم الذين لا يكونون فى أسر غيره ، وأما من استعبده هواه ،

(١) العموم هنا معناها الكافة أى الخواص وغير الخواص .

(٢) وردت (قرار) بالتحاق وهو خطأ فى النسخ كما هو واضح من السياق .

واستمكننت منه الأطماع ، واسترقته^(١) كل خبيسة وتقيصة فلا يكون من جملة خواصه . .
وفي الخبر « تَمِسَ عبد الدرهم تَمِسَ عبد الدينار »^(٢)

ويقال في « عبادي » هم الْمُتَفَيِّضُونَ في ظلال عنايته ، الْمُتَبَرِّحُونَ عَنْ حَوَالِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ ،
الْمُتَفَرِّدُونَ بِاللَّهِ بِحَسَنِ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ ودوام التعلُّق به .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ
فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّه
كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾

تعرف إلى عبادته بخلقِهِ وإنعامه ، فما من حادثٍ من عينٍ أو أثرٍ أو طَلَلٍ أو غَبَرٍ
إلا وهو شاهدٌ على وحدانيته ، دالٌّ على ربوبيته .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلُّ
مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ
إِلَى الْبَرِّ اعْرِضْهُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ
كَفُورًا ﴾

جَبِلَ الْإِنْسَانُ عَلَى أَنَّهُ إِذَا أَصَابَتْهُ نَعَمَةٌ ، أَوْ مَسَّتْهُ مِحْنَةٌ فَرَجَّ^(٣) إِلَى اللَّهِ لاسْتِدْفَاعِهَا ،
وَقَدْ يُعْتَقَدُ أَنَّهُمْ لَنْ يَعُودُوا بَعْدَهَا إِلَى مَا لَيْسَ فِيهِ رِضَاءُ اللَّهِ ، فَإِذَا أزالَ اللَّهُ تِلْكَ
النَّعْمَةَ^(٤) وَكَشَفَ تِلْكَ الْمِحْنَةَ عَادُوا إِلَى مَا عَنْهُ تَابُوا ، كَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا فِي ضُرٍّ مَسَّاهُمْ ،
وفي معناه أُنْشِدُوا :

فَكَمْ قَدْ جَهِلْتُمْ ثُمَّ عُدْنَا بِجِلْمِنَا أَحِبَّاءَ نَا كَمْ نَجْهَلُونَ ! وَتَحَلَّمُوا !

(١) وردت (ويسره) ولا معنى لها هنا .

(٢) في رساله القشيري ص ٩٩ جاء هذا الخبر مضافاً إليه (. . . تَمِسَ عبد الخبيصة) .

(٣) وردت (فرغ) بالراء والأفضل أن تكون بالزاي

(٤) وردت (النعمة) وهي خطأ في النسخ .

قوله جل ذكره: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَن يُفْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ
الْبَرِّ أَوْ يُرِيَنَّ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ
لَا تَعْبُدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ۖ أَمْ أَفِنْتُمْ
أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ
عَلَيْكُمْ فَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم
بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَعْبُدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا
بِهِ تَبِيعًا ۝﴾

الخوفُ تَرْقُبُ العقوبات مع مجازي الأنفاس — كذلك قال الشيوخ^(١) . وأعرفهم بالله
أخوفهم من الله . وصنوفُ العذابِ كثيرة ؛ فكم من سرورٍ أَوَّلَ لَيْلِهِ أَصْبَحَ فِي شِدَّةٍ ؛
وكم من مهموم بات يتقلب على فراشه أَصْبَحَ وقد جاءته البشرى بكَمَالِ النِّعَمِ ؛ وفي معناه قالوا :
إِن من خاف البيات لا يأخذه الشَّبات . ووصفوا أهل المعرفة فقالوا :

مستوفزون على رَجُلٍ كأنهم يريدون أَن يعضوا ويرتحلوا

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ
وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا
تَفْضِيلًا ۝﴾

للراد من قوله : « بني آدم » هنا المؤمنون لأنه قال في صفة الكفار : « وَمَنْ يُنِ اللَّهُ
فَالَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ »^(٢) . والتكريم الكثير من الإكرام ، فإذا حوَّم الكافرَ الإكرام ..
فتى يكون له التكريم ؟ .

ويقال إنما قاله : « كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ » ولم يقل المؤمنين أو العابدين أو أصحاب الاجتهاد

(١) هذه العبارة الجعيد كما جاء في رسالة التشيرى ص ٦٥ في رواية أبي عبد الله الصوفي عن علي بن
إبراهيم العكبرى .
(٢) آية ١٨ سورة الحج .

توضيحاً بأن التكريم لا يكون مقابل فعل ، أو مُعلّلاً بعلّة ، أو مُسبباً باستحقاقٍ يوجب ذلك التكريم .

ومن التكريم أنهم متى شاعوا وقفوا معه على بساط المناجاة .

ومن التكريم أنه على أى وصف كان من الطهارة وغيرها إذا أراد أن يخاطبه مخاطبته ، وإذا أراد أن يسأل شيئاً سألته .

ومن التكريم أنه إذا تاب ثم نقض توبته ثم تاب يقبل توبته ، فلو تكرّر منه جرمه ثم توبته يضاهف له قبوله التوبة وعفوه .

ومن التكريم أنه إذا شرّع في التوبة أخذ بيده ، وإذا قال : لا أعود — يقبل قوله وإن علم أنه ينقض توبته .

ومن التكريم أنه زين ظاهرهم بتوفيق المجاهدة ، وحسن باطنهم بتحقيق المشاهدة .

ومن التكريم أنه أعطاهم قبل سؤالهم ، وغفر لهم قبل استغفارهم ، كذا في الأثر : « أعطيتكم قبل أن تسألوني ، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني » .

ومن تكريم جلتهم أنه قال لهم : « فاذكروني أذكركم »^(١) ولم يقل ذلك للملائكة ولا للجن .

وكما خصّ بنى آدم بالتكريم خصّ أمة محمد — صلى الله عليه وسلم — منهم بتكريم مخصوص ، فمن ذلك قوله تعالى : « يحبهم ويحبونه »^(٢) و « رضى الله عنهم ورضوا عنه »^(٣) وقوله « والذين آمنوا أشد حبا لله »^(٤) .

ومن التكريم قوله : « ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً »^(٥) .

(١) آية ١٥٢ ، سورة البقرة .

(٢) آية ٥٤ سورة المائدة .

(٣) آية ١١٩ سورة المائدة .

(٤) آية ١٦٥ سورة البقرة .

(٥) آية ١١٠ سورة النساء .

ومن التكريم ما ألقى عليهم من محبة الخالق حتى أحبوه .

ومن التكريم لقويم توفيقُ صدقِ القَدَم ، ولقويم تحقيقُ علوِّ الهمم . قوله : « وحملناهم في البرِّ والبحر » : سخر البحر لهم حتى ركبوا في السفن ، وسخر البرِّ لهم حتى قال : « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر » .

ويقال محمولُ الكرام لا يقع ، فإن وقع وجدَّ مَنْ يأخذ بيده .

ويقال الإشارة في حملهم في البرِّ ما أوصل إليهم جبراً^(١) ، والإشارة بحديث البحر ما أفردهم به من لطائف الأحوال سرّاً .

ويقال لما حملَ بنو آدم الأمانة^(٢) حملناهم في البرِّ ، فحملٌ هو جزاء تحملٍ ، حملٌ هو فعلٌ مَنْ لم يكن^(٣) وحملٌ هو فضلٌ من لم يزل .

قوله : « ورزقناهم من الطيبات » : الرزق الطيب ما كان على ذكر الرازق ؛ فمن لم يكن غائباً بقلبه^(٤) ولا غافلاً عن ربه استطاب كُلُّ رزقٍ ، وألشدوا :

يا عاشقي إني سَعِدْتُ شراباً لو كان حتى علقماً أو صاباً

قوله : « وفضلناهم على كثيرٍ ممن خلقا تفضيلاً » : أي الذين فضلناهم على خلقٍ كثيرٍ ، وليس يريد أن قوماً بقوا لم يفضلهم عليهم ، ولكن المعنى أنا فضلناهم على كُلِّ مَنْ خَلَقْنَا ، وذلك التفضيل في الخلقة . ثم فاضلَ بين بنى آدم في شيء آخر هو الخلق الحسن ، فجَمَعَهُم في الخلقة — التي يفضلون بها سائر المخلوقات — ومآيزَ بينهم في الخلق .

ويقال : « كَرَّمْنَا بنى آدم » : هذا اللفظ للعموم ، والمراد منه الخصوص ، وهم المؤمنون ، وبذلك يفضل قومٌ على الباقين ، ففضلُ أوليائه على كثيرٍ ممن لم يبلغوا استحقاقَ الولاية .

(١) وردت (خيراً) والصواب أن تكون (جبراً) لتقابل سرّاً) وبذلك يقوى السياق ويتناسك .
(٢) وردت (الأمانة) بإلهاء ومن المؤكد أن الميم التبت على الناسخ والمراد (الأمانة) إشارة إلى قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة . . . الآية » .
(٣) (من لم يكن) هو الإنسان و (من لم يزل) هو الرب سبحانه وتعالى .
(٤) غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق لاشتغال الحس بما ورد عليه ، ثم يغيب عن إحساسه بنفسه وغيره (الرسالة ص ٤٠) .

ويقال فضلهم بالألّ ينظروا إلى نفوسهم بعين الاستقرار ، وأن ينظروا إلى أعمالهم
بنين الاستنصار .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ
أَتَى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ
كُتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾

إمام كلّ أحدٍ مَنْ يَقْتَدِي به ، ولكن .. مِنْ إمامٍ يَهْتَدِي به مُقْتَدِيه ، ومن إمام
يتردّى به مقتديه .

« فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم » : لسكّالٍ صحوهم وقيادة عقلمهم ،
والذين لا يؤتون كتابهم بيمينهم فهم لخوفهم وتردّدهم لا يقرأون كتابهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي
الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

في الآخرة أعمى عن مآينته ببصيرته .

في الآخرة عذابه الفرقة وتضاف إليها الحرقّة — لهذا فهو « أضلُّ سبيلاً » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ مَنِ الَّذِي
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ
وَإِذَا لَا تُخْشَوُكَ خَلِيلًا ﴾

ضربنا عليك سرادقاتِ العصبة ، وأويناك في كنف الرعاية ، وحفظناك عن خطر اتباعك
هواك ، فالزّلة منك محال^(١) ، والافتراء في نعتك لا يجوز . . ولو جفحت لحظة إلى الخلاف
لتضاعفت عليك تشديداتُ البلاء ، لسكّالٍ قدرك وعلوّ شأنك ؛ فإنّ مَنْ كان أعلى درجة
فدّنبه — لو حصل — أشدّ تأثيراً .

(١) وردت (مجال) بالجيم وهي خطأ في النسخ ، ومن قول القشيري يتضح أنه يؤيد عصبة الأنبياء
من الزلات .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ لَا أَنْ تُبَتِّتَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ
إِلَيْهِمْ شِئْنَا قَلِيلًا * إِذَا لَأَذِقْنَاكَ
ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ
لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾

لو وكلناك ونفسك ، ورفنا عنك^(١) ظلّ العصاة لألمست بشيء مما لا يجوز من مخالفة
أمرنا ، ولكننا أفردناك باللفظ ، فلا تنقاصر عنك آثاره ، ولا تغرب عن ساحتك أنواره .
قوله : « إِذَا لَأَذِقْنَاكَ . . . الآية » هبوط الأكاير على حسب صعودهم ، ويحن الأحياء
وإن قلت جلّت ، وفي معناه أشدوا :

أنت عيني وليس من حق عيني غض أجناتها على الأقداء

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ
الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا
لَا يُلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

من ظنّ (أنه يستمتع بحياته بعد مضي الأعرّة)^(٢) والأكاير غلظ في حسابه ، وإن
الحسود لا يسود :

وفي تعب من يحسد الشمس ضوءها (ويجهد أن يأتى لها)^(٣) بضرب

والأرض كلها ملك لنا ، ونقلب أولياءنا في ترددهم في البلاد وتطوافهم في الأقطار ، تردداً
على بساتنا ، وتقلباً في ديارنا ، فالبقاع لهم سواء ، وأشدوا :

(فسر أو أقيم)^(٤) وقف عليك محبتي مكانك من قلبي عليك مصون

(١) وردت (عليك) والملائم للسياق أن تكون (عنك) .

(٢) ما بين القوسين مستدرك في الهامش بخط رديء .

(٣) ما بين القوسين مستدرك في الهامش بخط رديء .

(٤) ما بين القوسين مستدرك في الهامش بخط رديء .

قوله جل ذكره : ﴿سُنَّةٌ مِّن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ

رُسُلِنَا وَلَا نَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾

الحقُّ أمضى سُنَّتَه مع الأولياء بالإِنعام ، ومع أعدائه بالإِدغام^(١) ، فلا هذه

أو هذه تحويل .

قوله جل ذكره : ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِلدُّوْكِ الشَّمْسِ إِلَى

غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ

الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾

الصلاة قَرَعُ باب الرزق . والصلاة الوقوفُ في محل المناجاة .

والصلاة اعتكافُ القلب في مشاهد التقدير .

ويقال هي الوقوف على بساط النجوى . وفرَّقَ أوقات الصلاة ليكون للعبد عَوْدٌ إلى

البساط في اليوم والليلة مراتٍ .

« إن قرآن الفجر كان مشهوداً » : تشهده ملائكة الليل والنهار — على لسان العلم .

وأما على لسان القوم فإن قرآن الصبح — الذي هو وقت إتيانه — يُبْعِدُ من النوم
وكسل النفس فله هذه المزية .

قوله جل ذكره : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسُجِّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ

عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾

الليل لأحدِ أقوام : لطالبي النجاة وهم العاصون مَنْ جَنَحَ^(٢) منهم إلى التوبة ، أو لأصحاب

الدرجات وهم الذين يَجِدُّون في الطاعات ، ويسارعون في الخيرات ، أو لأصحاب المناجاة مع

المحبوب عندما يكون الناس فيما هم فيه من الغفلة والغيبة .

ويقال الليل لأحد رجلين : للطيع والعاصي : هذا في احتيال أعماله ، وهذا في اعتذاره

عن قبيح أفعاله .

(١) أدغمه الله إدغاماً أى سود وجهه وأذله (الوسيط) .

(٢) وردت (نَحَج) وهي خطأ في النسخ .

والمقام المحمود هو المخاطبة في حال الشهود ، ويقال الشهود .

ويقال هو الشفاعة لأهل الكبائر . ويقال هو انفراده يوم القيامة بما خُصَّ به — صلى الله عليه وسلم^(١) — بما لا يشاركه فيه أحد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلْ رَبُّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ
وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي
مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾

أى أدخلني إدخال صدقٍ وأخرجني إخراج صدقٍ . والصدق أن يكون دخوله في الأشياء
بالله لا لغيره ، وخروجه عن الأشياء بالله لا لغيره .

« واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً » : فلا ألاحظ دخولي ولا خروجي .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلْ بَاءَ الْحَقِّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ
الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾

أراد بالحق ما هنا الإسلام والدين ، وأراد بالباطل الكفر والشرك ، والحق المطلق هو
الموجود الحق ، والحق المقيد ما كان حسناً في الاعتقاد والفعل والنطق ، والباطل نقيض الحق .
والله حق : على معنى أنه موجود وأنه ذو الحق وأنه مُحِقُّ الحق^(٢) .

ويقال الحق ما كان لله ، والباطل ما كان لغير الله .

ويقال الحق من الخواطر ما دعا إلى الله ، والباطل ما دعا إلى غير الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ
وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ
إِلَّا خَسَارًا ﴾ .

القرآن شفاء من داء الجهل للعلماء ، وشفاء من داء الشرك للمؤمنين ، وشفاء من داء

(١) إضافة من جانبنا حتى ينضح السياق .

(٢) قارن ذلك بنظرية « وحدة الوجود » وما نراه في معنى « الوجود » و « الحق » .

النكرة للعارفين ، وشفاء من لواجب الشوق للمحبين ، وشفاء من داء الشطط للمريدين
والقاصدين ، وأنشدوا :

وَكُتِبُكَ حَوْلِي لَا تَفَارِقْ مَضْجِي وفيها شفاء للذي أنا كائِمٌ

قوله : « ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » : الخطاب خطابٌ واحد ، والكتابُ كتابٌ
واحد ، ولكنه لقومٍ رحمةٌ وشفاء ، ولقومٍ سخطٌ وشقاء . قومٌ أنار بصائرهم بنور التوحيد
فهو لهم شفاء ، وقومٌ أغشى على بصائرهم بستر الجحود فهو لهم شقاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ
وَنَأَى بِجَانِبِهِ ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ
كَانَ يَتُوسَّأُ ﴾ .

إذا نزعنا عنه موجبات الخوف ، وأرخينا له حبل الإمهال ، وهبنا له أسباب الرفاهية
اعتزته مغاليط النسيان ، واستولت عليه دواعي العصيان ، فأعرض عن الشكر ، وتباعد
عن بساط الوفاق .

ويقال إعراضه في هذا الموضوع لسيأته ، ورؤية الفضل منه لا من الحق ، وتوهمه أن
ما به من النعم فياستحقاق طاعةٍ أخلصها أو شدة قاساها . . وهذا في التحقيق شرك .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَأْنِهِ فِرْكُمْ
أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾ .

كُلٌّ يترشح بمودع باطنه ، فالأسيرة تدل على السريرة ، وما تكتنه الضمائر يلوح
على السرائر ، فمن صفا من الكدورة جوهره لا يفوح منه إلا شر مناقبه ، ومن طبعته
على الكدورة طينته فلا يشم من يحوم حوله إلا ريح مثالبه .
ويقال حركات الظواهر تدل وتخير عن بواطن السرائر .
ويقال حب (. . .)^(١) لا يُنبت غض العود .

(١) مشبهة .

ويقال من عُجِبَتْ بِمَاءِ الشَّقْوَةِ طَبِئَتْهُ ، وَطُبِعَتْ عَلَى النَّكَرَةِ جَبِئَتْهُ لَا نَسْجَ بِالتَّوْحِيدِ قَرِيبَتْهُ ، وَلَا تَنْطِقُ بِالتَّوْحِيدِ عِبَارَتُهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَبَسَّالُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

أرادوا أن يجادلوه ويُغْلَطُوا فَأَمَرَهُ أَنْ يَنْطِقَ بِلَفْظٍ يُفَصِّحُ عَنْ أَقْسَمِ الرُّوحِ ؛ لِأَنَّ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ لَفْظُ « الرُّوحِ » يَدْخُلُ تَحْتَ قَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾

ويقال إن روح العبد لطيفة أودعها الله سبحانه في القلب ، وجعلها محل الأحوال اللطيفة والأخلاق الحمودة ، (وكما يصح أن يكون البَصَرُ محلَّ الرُّؤْيَا والأَذُنُ محلَّ السَّمْعِ .. إلى آخره ، والبصير والسماع إنما هو الجملة — وهو الإنسان — فكذلك محل الأوصاف الحميدة الروح ، ومحل الأوصاف للذمومة النَّفْسُ ، والحكمُ أو الاسمُ راجعُ إلى الجملة)^(١)

وفي الجملة الروح مخلوقة ، والحق أجرى العادة بأن يخلق الحياة للعبد ما دام الروح في جسده .

والروح لطيفة تفررت للكافة طهارتها ولطافتها ، وهي مخلوقة قبل الأجساد بألوف من السنين . وقيل إنه أدركها التكليف ، وإن لها صفاء التسبيح ، وصفاء المواصلات ، والتعريف من الحق .

« وما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » : لِأَنَّ أَحَدًا لَمْ يَشَاهِدِ الرُّوحَ بِبَصَرِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾

(١) ما بين القوسين مضطرب اضطراباً شديداً في النسخ ، وقد عدنا إلى رسالة الشيرازي فاعتمدنا عليها في تنظيم السياق بقدر الإمكان . (أنظر الرسالة ص ٤٨) .

سُنة الحق — سبحانه — مع أحبائه وخواص عبادِهِ أن يُدِيمَ لهم افتقارهم إليه ، ليكونوا
في جميع الأحوال مُتقادين لجريانِ حُكمِهِ ، وألا يتحركَ فيهم عِرْقٌ بخلافِ اختيارِهِ ،
وعلى هذه الجملة خاطب حبيبَهُ — صلوات الله عليه — بقوله : « ولو شئنا لنذهبن بالذى
أوحينا إليك » : (فمن كان استقلاله بالله يقدم)^(١) مرادَ سيده — فى العزل والولاية —
على مراد نفسه .

قوله جل ذكره : ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ
كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾

والمقصودُ (من هذا إدامة تَفَرُّدِ سِرِّهِ)^(٢) صلى الله عليه وسلم به — سبحانه —
دون غيره .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ
عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ
لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ
بَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾

(سائر الأنبياء)^(٣) معجزاتهم باقيةً حُكمًا ، ونبيُّنا — صلى الله عليه وسلم — معجزته
باقيةً عينًا ، وهى القرآن (الذى نتلوه ، والذى لا يأتیه الباطل من بين يديه)^(٤) ولا من خلفه .
قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ
مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ
إِلَّا كُفُورًا ﴾

لا شئ ، أخطى عند الأحباب من كتاب الأحباب ، فهو شفاء من داء الضنى ، وضياء
لأسرارهم عند اشتداد البلاء ، وفى معناه أنشدوا :

وكتبك حولى لا تفارق مضجعى وفيها شفاء للذى أنا كاتم

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) مدونة في أعلى الورقة بعلامات مميزة لمكانها من النص ، وقد أثبتنا كلا
في موضعه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا
 مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ
 لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ
 الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ
 السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا
 أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا
 * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ
 أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ ، وَلَنْ نُؤْمِنَ
 لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا
 نَقْرؤه قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ
 إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾

اقترحوا الآيات بعد إزاحة العلة وزوال الحاجة ، فَرَكَضُوا في مضمار سوء الأدب ،
 وَحَرَمُوا الوثلة والقربة . ولو أُجِيبوا إلى ما طلبوا ما ازدادوا إلا جُحْدًا ونكرة ،
 وقد قيل :

إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا حَبَاكَ يُوَدُّ سَتَرَ الْقَبِيحَ وَأَظْهَرَ الْإِحْسَانَ
 وَكَذَا الْمَلُولُ إِذَا أَرَادَ قَطِيعَةً مَلَّ الْوَصَالَ وَقَالَ كَانَ وَكَانَا

« قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا » : قل يا محمد : سبحان ربِّي أَمِنْ أَيْنَ لِي
 الْإِتْيَانُ بِمَا سَأَلْتُمْ مِنْ جَهَنِّي ؟ فَهَلْ وَصَفِي إِلَّا الْعِبُودِيَّةُ ؟ وَهَلْ أَنَا إِلَّا بَشَرٌ ؟ قَالَ تَعَالَى :
 « لَنْ يَسْتَكْفَرَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ » ^(١)

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ
 جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبْعَثَ
 اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾

(١) آية ١٧٢ سورة النساء .

تمجّبوا^(١) مما ليس بمحلّ تمجّبه ، ولكن حمّلهم على ذلك فرطاً جهلهم ، ثم أصرّوا على تكذيبهم وجحدهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾

الجنسُ إلى الجنس أميلُ ، والشكلُ بالشكل آسُ ، فقال سبحانه لو كان سكانُ الأرضِ ملائكةً لجعلنا الرسولَ إليهم ملكاً ، فلما كانوا بشرًا فلا ينبغي أن يُستبعدَ إرسالُ البشرِ إلى البشرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾

الحقُّ — سبحانه — هو الحاكم وهو الشاهد ، ولا يُقاسُ حكمه على حكمِ الخلقِ ، ولا يجوز في صفةِ المخلوقِ أن يكونَ الحاكمُ هو الشاهد ، فكما لا تشبه ذاته ذاتُ الخلقِ لا تشبه صفته صفةُ الخلقِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَبِهِدْهُهُ وَمَنْ يَضِلْ فَلَنْ تُجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُنُقًا وَبُكْمًا وَصُفًا مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾

من أرادَه بالسعادةِ في آزاله استخلصه في آياده بأفضاله ، ومن علّمه في الأزل بالشقاء وسخّه في أبده بِسِمةِ الأعداء . فلا ليحكمه تحويل ، ولا ليقوّله تبديل .

(١) وردت (تعجلوا) والمعنى يقتضى (تمجّبوا) .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكْ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا
وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا
أَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾

لَمَّا أَصْرُوا عَلَى تَكْذِيبِهِمْ جَزَاءَهُمُ الْحَقُّ بِإِدَامَةِ تَعْدِيهِمْ ، ولو ساعدتهم التوفيقُ لَوُجِدَ
منهم التحقيق ، لكنهم عَدِمُوا التأييد فُحِرْمُوا التوحيد .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ
يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّارِيبَ
فِيهِ فَأَنَّى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾

مَهَّدَ بِهَذِهِ الْآيَةِ طَرِيقَ إِثْبَاتِ الْقِيَاسِ ^(١) ، فلم يغادر في الكتاب شيئاً من أحكام الدين
لم يؤيده بالدليل والبيان ^(٢) ، فَعَلِمَ السُّكُّلُ أَنَّ الرُّكُونَ إِلَى التَّعْلِيدِ عَيْنُ الْخَطَا وَالضَّلَالِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لَوْ أَنَّهُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ
رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ
وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾

إِذَا الْبُخْلُ غَرِيزَةُ الْإِنْسَانِ ، وَالشَّحُّ سَجِيَّتُهُ [(. . .)] ^(٣) الْمَعْرُوفُ لَا يَعْرِفُ الْخَلْقَةَ ^(٤)

(١) من هذا نعرف أن القشيري مؤمن بأهمية القياس العقلي ضمن ما هو معروف من مصادر الشريعة
وفي هذا رد على من يتهم الصوفية بالتنكر للعقل ، مع أنهم حريصون كل الحرص على تصحيح الإيمان
في مراحل البداية عن طريق الوسائل العقلية .

(٢) وبما كانت (البرهان) بدل (البيان) ، فالبرهان أقرب إلى (الدليل) وإلى (القياس) كما أن
البيان — في مذهب القشيري المعرف — مرحلة قلبية وليست عقلية .

ومع ذلك فقد يكون المقصود أن كتاب الله لم يغادر شيئاً إلا أيده (بالدليل العقلي) و (البيان) القاي .

(٣) هنا بياض في الأصل .

(٤) ما بين القوسين الكبيرين ورد هكذا وفيه غموض ناتج عن سقوط ما سبق .

قوله جل ذكره . ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى نِسْعَ ^(١) آيَاتٍ
بَيِّنَاتٍ ﴾

هي أمارات كرامته وعلامات محبته .

قوله جل ذكره : ﴿ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى
مَسْحُورًا ﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُ مَا أُنْزِلَ هَؤُلَاءِ
إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ
وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾

أنت — يا فرعون — سلكت طريق الاستدلال فَعَلِمْتَ أن مثل هذه الأشياء لا يكون
أمرها إلا مِنْ قِبَلِ اللَّهِ ، وَلَكِنَّكَ رَكَنْتَ إِلَى الْغَفْلَةِ فِي ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِيزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ
فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴾

أراد فرعونُ إهلاكَ بنى إسرائيل واستتصالحهم ، وأراد الحقُّ — سبحانه — نصرتهم
وبقاءهم ، فكان ما أراد الحقُّ لا ما كاد اللعين .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ
اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ
الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾

أورثهم منازلَ أعدائهم ، ومكَّنهم من ذخائرهم ومساكنهم ، واستوصى بهم شكرَ
نعمته ، وعرفهم أنهم إن سلكوا في العصيان مَسْلَكَ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْهُمْ ذاقوا من العقوبة
مثلَ عقوبتهم .

(١) عن ابن عباس أنها العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والحجر والبحر والطور الذي
نتقه على بنى إسرائيل . وعن الحسن أنها الطوفان والسنون وتلص الثمرات مكان الحجر والبحر والطور .

قوله جل ذكره : ﴿وبالحق أنزلناه وبحق نزل
وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً *
وقرآنًا فرقناه لتقرأه على الناس
على مكثٍ ونزلناه تنزيلاً﴾

القرآن حق ، ونزوله بحق ، ومنزله حق ، والسُّنْزَلُ عليه حق ، فالقرآن بحق نزل ومن
حق نزل وعلى حق نزل . وقد فرَّق القرآن ليهوّن عليه — صلوات الله عليه — حفظه ،
وليكثر تردد الرسول من ربه عليه ، وليكون نزوله في كل وقت وفي كل حادثة وواقعة دليلاً
على أنه ليس مما أعان عليه غيره .

قوله جل ذكره : ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ
الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا
يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ
سُجَّدًا * ويقولون سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنْ
كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ .

إِنْ آمَنْتُمْ حَصَلَ النِّفْعُ لَكُمْ ، وَإِنْ جَعَدْتُمْ فِي إِيمَانٍ مِنْ آمَنٍ مِنْ أَوْلِيَانَا عَنْكُمْ
خَلَفَ ، وَإِنَّ الضَّرَرَ عَائِدٌ عَلَيْكُمْ .

وإِنْ مَنْ أَضَانَا عَلَيْهِمْ شَمْسَ إِقْبَالِنَا لَتُشْرِقْ أَنْوَارُ مَعَارِفِهِمْ ؛ فَإِذَا تَلَيْتْ عَلَيْهِمْ
آيَاتُنَا سَجَدُوا بِذَلِكَ جُحْدِمَ ، وَاسْتَجَابُوا بِدَلِّ نَمُودِهِمْ ، وَقَابَلُوا بِالتَّصْدِيقِ مَا يُقَالُ لَهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ
خُشُوعًا﴾ .

تأثيره في قلوب قوم يختلف ؛ فتأثير السماع في قلوب العلماء بالتبصر ، وتأثير السماع

في أنوار الموحدين بالتحير^(١)؛ تبصر العلماء بصحة الاستدلال، ونحير الموحدين في شهود
الجمال والجلال .

وبكاء كل واحد على حسب حاله : فالتائب يبكي ظنوف عقوبته لما أسلفه من زلته
وحوته ، والمطيع يبكي لتقصيره في طاعته ، ولكيلا يفوته ما يأمله من مثته .
وقوم يبكون لاستيهاهم عاقبتهم وسابقتهم عليهم .

وآخرون بكاءهم بلا سبب متعين . وآخرون يكون تحسراً على ما يفوته من الحق .
والبكاء عند الأكابر معلول^(٢) ، وهو في الجملة يدل على ضعف حال الرجل ، وفي معناه أشدوا:
خُلِقْنَا رَجَالًا لِلتَّجَلُّدِ وَالْأَسَى وتلك الفواني للبكا والمآثم

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ
أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾
من عظيم نعمته — سبحانه — على أوليائه تنزههم بأسرارهم في رياض ذكره بتعداد
أسمائه الحسنى من روضة إلى روضة ، ومن مأنس إلى مأنس .

ويقال الأغنياء ترددهم في بسايتهم ، والأولياء تنزههم في مشاهد تسبيحهم ، يستروحون
إلى ما يلوح لأسرارهم من كشوفات جلاله وجماله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا
وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ .

لا تجهر بمجيئها ، ولا تخافت بكلماتها ، وارفص صوتك في بعضها دون بعض .
ويقال ولا تجهر بها جهراً يسمعه الأعداء ، ولا تخافت بها حيث لا يسمع الأولياء .
« وابتغ بين ذلك سبيلاً » : يكون للأحباب مسموعاً ، وعن الأجانب ممنوعاً .

(١) ليس (التحير) هنا ناجماً عن الشك ، وإنما ناجم عن شدة الوله وعنف الأخذ .

(٢) لأن الأكابر في حال التمكين لا التلويح .

ويقال « ولا تجهر بصلاتك » : بالنهار ، « ولا تخافت بها » : بالليل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبُرَ تَكْبِيرًا ﴾ .

اِحْمَدُهُ بذكر تقدسه عن الولد ، وأنه لا شريك له ؛ ولا ولي له من الذل ؛ إما على أنه لم يَنْدَلْ فيحتاج إلى ولي ، أو على أنه لم يوالِ أحداً من أجل منزلة به فيدفعها بموالاته . ويقال اشكره على نعمته العظيمة حيث عرفك بذلك .

ويقال له الأولياء ولكن لا يعنبرهم بِذَلِّهم ، إذ يصيرون بعبادته أَعِزَّةً .
« وكَبُرَ تَكْبِيرًا » بأن تَعْلَمَ أنك تصل إليه به لا بتكبيرك .

السورة التي يذكر فيها الكهف

قوله جل ذكره : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

ما سَعِدَتْ القلوبُ إلا بسماعِ اسمِ الله ، وما استنارت الأسرارُ إلا بوجودِ الله ، وما طَرِبَتْ الأرواحُ إلا بشهودِ جلالِ الله .

سماع « بسم الله » راحةُ القلوبِ وضيأؤها ، وشفاءُ الأرواحِ ودواؤها .

« بسم الله » قُوَّةُ العارفين ؛ بها يزول كدُّهم وعناؤهم ، وبها استقلالهم وبقاؤهم^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾

(١) لاحظ الربط بين تفسير البسمة في أول هذه السورة وبين قصة أهل الكهف ، الذين فنوا عن أنفسهم لبقائهم بالله .

إذا نُحِلَ « الحمد » هنا على معنى الشكر فانزال الكتاب من أجل نعيمه ، وكتاب الحبيب لدى الحبيب . أجل مَوْقِعٍ وأشرف محل ، وهو من كمال إنعامه عليه ، وإن سَمَاء — عليه السلام — عَبْدُهُ فهو من جلائل نعيمه عليه لأن من سَمَاء عَبْدُهُ جَعَلَهُ من جملة خواصه .

وإذا نُحِلَ « الحمد » في هذه الآية على معنى المدح كان الأمر فيه بمعنى الثناء عليه — سبحانه ، بأنه الملك الذي له الأمر والنهى والحكم بما يريد ، وأنه أعد الأحكام التى فى هذا الكتاب للعبيد ، وسَمَاء صلى الله عليه وسلم عَبْدُهُ لما كان قائماً عن حظوظه ، خالصاً لله بقيامه بحقوقه .

قوله جل ذكره : ﴿ قَيِّماً لِّئُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّنْ لَّدُنْهُ ﴾

« قَيِّماً » : أى صانه عن التعارض والتناقض ، فهو كتابٌ عزيزٌ من ربِّ عزيز .
« والبأس الشديد » : مُعْجَلُهُ الفراق ، ومَوْجَلُهُ الاحتراق .
ويقال هو البقاء عن الله تعالى ، والابتلاء بغضب الله .
ومعنى الآية لينذرهم ببأس شديد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً ﴾ .

والعملُ الصالحُ ما يصلح للقبول ، وهو ما يُؤدَّى على الوجه الذى أمر به . ويقال بالعمل الصالح ما كان بنعت الخلوص ، وصاحبه صادق فيه .
ويقال هو الذى لا يستعجل عليه صاحبه حظاً فى الدنيا من أخذ عِوَضٍ ، أو قبُولٍ جاهٍ ، أو انعقادِ رِياسة . . وما فى هذا المعنى .
وحصلت البشارة بأن لهم أجراً حسناً ، والأجرُ الحَسَنُ ما لا يجرى مع صاحبه استقصاء فى العمل .

ويقال الأجر الحَسَنُ ما يزيد على مقدار العمل .

ويقال الأجر الحَسَنُ ما لا يُدَكَّرُ صاحبه تقصيره ، ويستر عنه عيوب عمله .

قوله جل ذكره : ﴿ مَا كُنْ فِيهِ أَبَدًا ﴾

البشارة منه أَنَّ تِلْكَ النُّعْمَ عَلَى الدَّوَامِ غَيْرَ مُنْقَطِعَةٍ ، وَأَعْظَمُ مِنَ الْبَشَارَةِ بِهَا قَوْلُهُ ^(١) :

﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾

مَالَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِبَابِهِمْ كِبْرَتْ
كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ
إِلَّا كَذِبًا

قَالَهُمُ الْقَبِيحَةُ تَتَّبِعُهُ جَهْلُهُمْ بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ ، وَلَقَدْ تَوَارَثُوا ذَلِكَ الْجَهْلَ عَنْ أَسْلَافِهِمْ ؛
وَالْحَقُّ لَا تَلِدُ إِلَّا حَيَّةً ؛

كَبُرَتْ كَلِمَتُهُمْ فِي الْإِثْمِ لَمَّا خَسَّتْ فِي الْمَعْنَى . وَمَنْ نَطَقَ بِمَا لَمْ يَحْصِلْ لَهُ بِهِ إِذْنُ خَلْقِهِ هَذَا
الْوَصْفَ . وَمَنْ تَكَلَّمَ فِي هَذَا الشَّأْنِ قَبْلَ أَوَانِهِ فَقَدْ دَخَلَ فِي غَمَارِ هَؤُلَاءِ ^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ
إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾

مِنْ فَرْطِ شَفَقَتِهِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — دَاخَلَهُ الْحُزْنُ لِامْتِنَاعِهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ ،
فَهَوَّنَ اللَّهُ — سُبْحَانَهُ — عَلَيْهِ الْحَالَ ، بِمَا يَشْبَهُ الْعَنَابَ فِي الظَّاهِرِ ؛ كَأَنَّهُ قَالَ لَهُ : لِمَ كُلْ هَذَا ؟
لَيْسَ فِي امْتِنَاعِهِمْ — فِي عَدُنَا — أَثَرٌ ، وَلَا فِي الدِّينِ مِنْ ذَلِكَ ضَرَرٌ . . فَلَا عَلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ .
وَيُقَالُ أَشْهَدُهُ جَرِيَانَ التَّقْدِيرِ ، وَعَرَفَهُ أَنَّهُ — وَإِنْ كَانَ كُفْرُهُمْ مِنْهُيًّا عَنْهُ فِي الشَّرْعِ —
فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مُرَادُ الْخَلْقِ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا ﴾

(١) البشارة بالآية التالية أعظم لأن المؤمن يعلم أن الله لا ينفرك أن يشارك به ويفر ما دون ذلك
لن يشاء .

(٢) في هذه الإشارة غمزة بمن ينطقون — بدعوى الحق — بما لا يليق .

ما على الأرض زينة لها تُدْرَكُ بالأبصار ، وممن على الأرض من هو زينة لها يُعْرَفُ بالأسرار . وإنَّ قيمة الأوطانِ لقطّاتها ، وزينة المساكن في سكّاتها .

ويقال العُباد بهم زينة الدنيا ، وأهلُ المعرفة بهم زينة الجنة .

ويقال الأولياء زينةُ الأرض وم أمانٌ من في الأرض .

ويقال إذا تَلَأَت أنوار التوحيد في أسرار الموحدين أشرقت جميع الآفاق بضياءهم .

قوله جل ذكره : ﴿لَتَبْلُوهم أَيّهم أحسنُ عملاً﴾

أحسنهم عملاً أصدقهم نيةً ، وأخلصهم طويةً .

ويقال أحسنهم عملاً أكثرهم احتساباً ؛ إذ لا ثواب لمن لا حسبة له ، وأعلى من هذا بل وأولى من هذا فأحسنهم عملاً أشدّهم استصغاراً لفعله ، وأكثرهم استحقاقاً لطاعته ؛ لشدة رؤيته لتقصيره فيما يعمله ، ولانتقاصه أفعاله في جنب ما يستوجبه الحقُّ بحقِّ أمره .

ويقال أحسنُ أعمال المرء نظرُهُ إلى أعماله بعين الاستحقار والاستصغار ، لقول الشاعر :

وأَكْبَرُ من فِعْله وأعْظَمُه تصْغِيرُه فِعْله الذي فَعَلَه

معناه : أ كَبَرُ من فِعْله — الذي هو عطاؤه وبَذْلُه — تَقْلِيلُه واستصْغارُه لِمَا يُعْطِيه ويَجُود به .

قوله جل ذكره : ﴿وإنّا لَجاعلون ما عليها صعيداً جُرْزاً﴾

كَوْنُ ما على الأرض زينةً لها في الحال سُلِبَ قَدْرُه بما أخبر أنه سيُفْنِيه في المآل .

قوله جل ذكره : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَافِرِ

وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً﴾

أزال الأعجوبة عن أوصافهم بما أضافه إلى ربه بقوله : «من آياتنا» ؛ فقلبُ العادة من قِبَلِ الله غيرُ مُسْتَنَكِرٍ ولا مُبْتَدِعٍ .

ويقال مكثوا في الكهف مدةً فأضافهم إلى مُسْتَقَرِّهم فقال : « أصحاب الكهف » ،
وللنفوس مَحَالٌ ، وللقلوب مَقَارٌ ، وللهم بَحَالٌ ، وحينما يعتكف يُطْلَبُ أبداً صاحبه (١) .

ويقال الإشارة فيه ألا تَتَعَجَّبَ من قصتهم ؛ فخالِكَ أعجبُ في ذهابك إلينا في شطر من
الليل حتى قاب قوسين أو أدنى (٢) ، وهم قد بقوا في الكهف سنين .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ
فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً
وَهِيَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾

آوأم إلى الكهف بظاهرهم ، وفي الباطن فهو مُقِيلُهُمْ في ظِلِّ إقباله وعنايته ، ثم أخذهم
عنهم ، وقام عنهم فأجرى عليهم الأحوال وهم غائبون عن شواهدهم (٣) .

وأخبر عن ابتداء أمرهم بقوله . « ربنا آتينا من لدنك رحمة وهي لنا من أمرنا رشداً » :
أى أنهم أخذوا في التبرُّى من حَوْلِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ ، ورجعوا إلى الله بِصِدْقِ قَاتِهِمْ ، فاستجاب لهم
دعوتهم ، ودفع عنهم ضرورتهم (٤) ، وبوَأَمَّهم في كنف الإيواء مقيلاً حسناً .

قوله جل ذكره : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ
سِنِينَ عَدَدًا ﴾ .

أخذناهم عن إحساسهم بأنفسهم ، واختطفناهم عن شواهدهم بما استغرقناهم فيه من
حقائق ما كاشفناهم به من شهود الأحدية ، وأطلعناهم عليه من دوام نعت الصمدية .

(١) معنى العبارة يطلب صاحب المكان من حيث المكان الذي يعتكف فيه .
(٢) يشير القشيري بذلك إلى المنزلة الرفيعة التي وصل إليها المصطفى — صلوات الله عليه — ليلة الإسراء
والمعراج ، وكيف أنه انتهى في ليلة واحدة إلى ما لم يصل إليه أصحاب الكهف في سنين .
(٣) واضح أن القشيري يبالغ قصة أهل الكهف في ضوء حال الفناء وحال البقاء . . وهذا من النماذج
التي يقدمها التصوف لتفسير الظواهر العجيبة التي تتركب فيها العادة ، ويحار فيها العقل .
(٤) يقصد من الضرورة هنا ما يلزم الإنسان من طعام وشراب وتخلص من مقاياما . . ونحو ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيًّا وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْهُمْ سَاءً فَاذْكُرُونَهُمْ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ بَذَلٌ ﴾

أى رددناهم إلى حال صوم وأوصاف تمييز ، وأقنأهم بشواهد التفرقة بعد ما محو نام
عن شواهدهم بما أقنأهم بوصف الجمع .

قوله جل ذكره : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ ﴾

لما كانوا مأخوذين عنهم توكل الحق — سبحانه — أن قص عنهم ، وفرق بين من
كان عن نفسه وأوصافه قاصاً ؛ لبقائه في شاهده وكونه غير منتفٍ بجملته . . وبين من كان
موصوفاً بواسطة غيره ؛ لفناؤه عنه وامتنعائه منه وقيام غيره عنه .

ويقال لا تُسمع قصة الأحاب ألى وأجل مما تُسمع من الأحاب ، قال عز من قائل :
« نحن نقص عليك » ، وألشدوا :

وَحَدَّثَنِي يَاسَعْدُ عَنْهَا فَرَدْتَنِي حِينَمَا فَرَدْتَنِي مِنْ حَدِيثِكَ يَاسَعْدُ

قوله : « إنهم فتية آمنوا بربهم » : يقال إنهم فتية لأنهم آمنوا — على الوهلة —
بربهم ، آمنوا من غير مهلة ، لما أتتهم دواعى الوصلة^(١) .
ويقال فتية لأنهم قاموا لله ، وما استقروا حتى وصلوا إلى الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ * وَرَبَّنَا عَلَيَّ

قُلُوبِهِمْ

لاطفهم بإحضارهم ، ثم كاشفهم في أسرارهم ، بما زاد من أنوارهم ، فلقام أولاً
التبيين ، ثم رقام عن ذلك باليقين .

(١) لاحظ أهمية ذلك في فهم معنى (الفتوة) عند الصوفية .

« وربطنا على قلوبهم » : بزيادة اليقين حتى متع نهار^(١) معارفهم ، واستنضات شموس^(٢) تقديرهم ، ولم يَبْقَ للتردد مجالٌ في خواطرهم ، و (...)^(٣) في التجريد أسرارهم ، وتمت مسكنة قلوبهم .

ويقال « ربطنا على قلوبهم » : بأن أفيناهم عن الأغيار ، وأغيناهم عن التفكير بما أوليناهم من أنوار التبصّر .

ويقال ربطنا على قلوبهم بما أسكنّا فيها من شواهد الغيب ، فلم تسنح فيها هواجس التخمين ولا وساوس الشياطين .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

قاموا لله بالله ، ومن قام بالله فقد عما سوى الله .

ويقال من قام لله لم يقعد حتى يصل إلى الله .

ويقال قعدت عنهم الشهوات فصَحَّ قيامهم بالله .

قوله جل ذكره : ﴿ لَنْ نَدْعُوًا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا ، لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ .

من أحال الشيء على الحوادث فقد أشرك بالله ، ومن قال إن الحوادث من غير الله فقد اتخذ إلهاً من دون الله .

قوله جل ذكره : ﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ

إِلَهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ

بَيِّنٍ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى

الله كَذِبًا ﴾

(١) متوع النهار اصطلاح يأتي في مذهب القشيري بعد اللوائح والطوائع والوابع ، وهو يلتقي مع للمنى من حيث اللفظ (يقال متع النهار أى بلغ غاية ارتفاعه) .

(٢) مشبهة وهى قرية فى الرسم من (واتخذوا) ومصوبة فى الهامش (واتخذوا) لأجل هذا لم نستطع أن نحسم فيها برأى ، وهى على العموم كلمة تفيد خلوص أسرارهم فى التجريد وإلا لما حدثت مسكنة قلوبهم .

لما لم يكن لهم حجة اتضح فيها ادعوه كذبهم ، فمن اكتفى بِشئ القالة دون ما يشهد لقوله من أدلته فهو معلول في محله .

« فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ؟ » فمن ذَكَرَ في الدين قولاً لم يؤيد ببرهان عقلي أو تقلى فهو مفتري ، ومن أظهر من نفسه حالاً لم يوجبه صدق مجاهدته أو منازلته فهو على الله مُفْتَرٍ . والذي يصدق في قوله — في هذه الطريقة — فهو الذي يسمع من الحق بسرّه ، ثم ينطق بلفظه (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ، فَاتُّوْا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا ﴾

العزلة عن غير الله توجب الوصلة بالله . بل لا تحصل الوصلة بالله إلا بعد العزلة عن غير الله .

ويقال لما اعتزلوا ما عُيِدَ من دون الله آوام الحق إلى كنف رعايته ، ومهد لهم مشوى في كنف عنايته .

ويقال مَنْ تَبَرَّأَ مِنْ اخْتِيَارِهِ فِي احْتِيَالِهِ ، وَصَدَّقَ رَجُوعَهُ إِلَى اللَّهِ فِي أَحْوَالِهِ ، وَلَمْ يَسْتَعِنْ — بِغَيْرِ اللَّهِ — مِنْ أَشْكَالِهِ وَأَمْثَالِهِ آوَاهُ إِلَى كَنْفِ أَفْضَالِهِ ، وَكَفَاهُ جَمِيعَ أَشْغَالِهِ ، وَهَيَّأَ لَهُ مَحَلًّا يَتَفَيَّؤُ فِيهِ فِي بَرْدِ ظِلَالِهِ ، بِكَمَالِ إِقْبَالِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ (٢) عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ

(١) هذا رأى على جانب كبير من الخطورة في قضية هامة من قضايا التصوف ، كانت لها في بعض الأحيان عواقب جسيمة : وهي هل يفصح الصوفي الواله أم يَكْتُم ؟ ونلاحظ أن التشبهي ربط القضية بمنصر أساسي هو الصدق . . .

(٢) تزاور من الزور وهو الميل ، والزور المهل عن الصدق .

تقرضهم (١) ذات الشمال وهم في فجوة
منه ذلك من آيات الله *

كانوا في مُتَّسَعٍ من الكهف ، ولكن كان شعاعُ الشمس لا ينبسط عليهم مع هبوب
الرياح عليهم .

ويقال أنوار الشمس تتقاصر وتتصاغر بالإضافة إلى أنوارهم (٢) .

إن نورَ الشمس ضياء يستضيء به الخلق ، ونور معارفهم أنوار يُعرَفُ بها الحق ،
فهذا نور يظهر في الصورة ، وهذا نور يلوح في السريرة . وبنور الشمس يدرك الخلق وبنورهم
كانوا يعرفون الحق .

وفي قوله — عزَّ اسمه : « ذلك من آيات الله » فيه دلالة على أن في الأمر شيئاً بخلاف
العادة ، فيكون من جملة كرامات الأولياء ؛ ويحتمل أن يكون شعاعُ الشمس إذا انتهى إليهم
ارور عنهم ، ومضى دونهم بخلاف (٣) ما يقول أصحاب الهبة ، ليكون فعلاً ناقضاً للعادة
فلا يبعد أن يقال إن نور الشمس يُسْتَهْلَكُ في النور الذي عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَبِهْدِ اللَّهُ فَبِهِدْهُ وَمَنْ يَضِلْ
فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾

فالله يَهْدِي قوماً بالأدلة والبراهين ، وقوماً بكشف اليقين ؛ فعارفُ الأولين قضية
الاستدلال ، ومعارف الآخرين حقيقة الوصال ، فهؤلاء مع برهان ، وهؤلاء على بيان كأنهم
أصحاب عيان :

« وَمَنْ يُضِلِلْ اللَّهُ : أَي مَنْ وَسَمَهُ بِسِمَةِ الْحَرَمَانِ فَلَا عِرْفَانَ وَلَا عِلْمَ وَلَا إِيمَانَ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَحَسَّبُهُمْ أَيْقَظًا وَهُمْ رَقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ
ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ ﴾

(١) تقرضهم أي تقطعهم أي تتركهم وتعزل عنهم .

(٢) بالإضافة إلى أنوارهم أي إذا قيسوا بأنوارهم .

(٣) أي هذا على لسان أهل التفسير أما على لسان أهل الإشارة . وهذه أول مرة يطلق التشبيري

(أصحاب الهبة) هذا الوصف عليهم في « لطائفه » ، لهذا نهينا إليه .

هم مساويون عنهم ، مُخْتَلَفُونَ مِنْهُمْ ، مُسْتَهْلِكُونَ فِيهَا كُوشِفُوا بِهِ مِنْ وَجُودِ الْحَقِّ ؛
فَظَاهَرَهُمْ — فِي رَأْيِ الْخَلْقِ — أَنَّهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ ، وَفِي التَّحْقِيقِ : الْقَائِمُ عَنْهُمْ غَيْرُهُمْ . وَهُمْ مَحْوٌ
فِيهَا كُوشِفُوا بِهِ مِنَ الْخَفَائِقِ .

ثُمَّ قَالَ : « وَنَقَلَهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ » : وَهَذَا إِخْبَارٌ عَنْ حُسْنِ إِيْوَانِهِ لَهُمْ ؛
فَلَا كَشْفَقَةَ الْأَمْهَاتِ بَلْ أَنَّهُمْ ، وَلَا كَرَحَةَ الْأَبَاءِ بَلْ أَعَزُّ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ .

وَيُقَالُ إِنَّ أَهْلَ التَّوْحِيدِ صَفَتُهُمْ مَا قَالَ الْحَقُّ — سُبْحَانَهُ — فِي صِفَةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ :
« وَنَحْسِبُهُمْ أَيْقَازًا وَهُمْ رُقُودٌ » فَهُمْ بِشَوَاهِدِ الْفَرْقِ فِي ظَاهَرِهِمْ ، لَكِنَّهُمْ بَعَيْنِ الْجَمْعِ
بِمَا كُوشِفُوا بِهِ فِي سِرَائِرِهِمْ ، يُجْرَى عَلَيْهِمْ أَحْوَالُهُمْ وَهُمْ غَيْرُ مُتَسَكِّفِينَ ، بَلْ هُمْ يَثْبُتُونَ
— وَهُمْ خُودٌ عَمَّا هُمْ بِهِ — أَنْ تَصْرِفَاتِهِمُ الْقَائِمُ بِهَا عَنْهُمْ سَوَاءٌ ، وَكَذَلِكَ فِي نَقْلِهِمْ (١) .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَكَلَبُهُمْ بِاسِطًا . ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ
لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَكَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا
وَكَلَّيْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ﴾

كَمَا ذَكَرَهُمْ ذَكَرَ كَلَبِهِمْ ، وَمَنْ صَدَّقَ فِي حُبِّهِ أَحَدٍ أَحَبَّ مَنْ انْتَسَبَ إِلَيْهِ
وَمَا يُنْسَبُ إِلَيْهِ .

وَيُقَالُ كَلَبٌ خَطَاً مَعَ أَحِبَّائِهِ خَطَوَاتٍ فَإِلَى الْقِيَامَةِ يَقُولُ الصَّبِيَّانِ — بَلِ الْحَقُّ يَقُولُ بِقَوْلِهِ
الْعَزِيزِ — : « وَكَلَبُهُمْ بِاسِطًا » فَهَلْ تَرَى أَنَّ مُسْلِمًا يَصْحَبُ أَوْلِيَاءَهُ مِنْ وَقْتِ شَبَابِهِ
إِلَى وَقْتِ مَشْيِهِ بِرُؤْدهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَائِبًا . ؟ إِنَّهُ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ .

وَيُقَالُ فِي التَّفَاسِيرِ إِنَّهُمْ قَالُوا لِلرَّاعِي الَّذِي تَبِعَهُمُ وَالْكَلْبُ مَعَهُ : إِصْرِفْ هَذَا الْكَلْبَ
عَنَّا فَقَالَ الرَّاعِي : لَا يُمْكِنُنِي ، فَإِنِّي أَنَا دِينُهُ .

وَيُقَالُ أَنْطَقَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ — الْكَلْبَ فَقَالَ لَهُمْ : لِمَ تَضْرِبُونَنِي ؟
فَقَالُوا : لِتَنْصَرِفَ عَنَّا .

فَقَالَ : لَا يُمْكِنُنِي أَنْ أَنْصَرِفَ لِأَنَّهُ رَبَّنَائِي .

وَيُقَالُ كَلَبٌ بَسَطَ يَدَهُ عَلَى وَصِيدِ الْأَوْلِيَاءِ فَإِلَى الْقِيَامَةِ يَقَالُ « وَكَلَبُهُمْ بِاسِطًا ذِرَاعِيهِ

(١) فَنَطَقَ الْعَبْدُ الْوَالَهُ وَتَصَرَّفَهُ يَكُونَانِ بِاللَّهِ تَذَكَّرْ قِصَّةَ الْحَلَاكِ .

بالوصيد . . . فهل إذا رَفَعَهَا مسلمٌ إليه خمسين سنة ترى يردُّها خائبةً ؟ هذا لا يكون .

ويقال لما صحَّ بهم الكلبُ لم تضره نجاسةٌ صِفَتِهِ ، ولا خساسةٌ قِيَمَتِهِ .

ويقال قال في صفة أصحاب الكهف إن كانوا « سيقولون : ثلاثة رابعهم كلبهم » ، أو خمسة سادسهم كلبهم فقد قال في صفة هذه الأمة : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم » . .

وشتان ما هما !

ويقال كُلُّ يُعَامَلُ بما يليق به من حاله ودرجته ؛ فالأولياء قال في صفتهم : « وتقلبهم ذات اليمين وذات الشمال » ، والكلب قال في صفته : « وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد » .
ويقال كما كرَّر ذكرهم ، كرر ذِكْرَ كلبهم .

وجاء في القصة أن الكلب لما لم ينصرف عنهم قالوا : سبيلنا إذا لم يتصرف عنا أنْ نَحْمِلَهُ حتى لا يُسْتَدَلَّ علينا بأثر قَدَمِهِ فحمله ، فكانوا في الابتداء (بل إياه)^(١) وصاروا في الانتهاء مطايا . . كذا من اقتنى أثرَ الأحباب .

ويقال في القصة إن الله أنطق الكلب معهم ، وبنطقه رَبطَ على قلوبهم بأن ازدادوا يقيناً بسمع نطقه ، فقال : لم تضربوني ؟ فقالوا : لتصرف ، فقال : أنتم تخافون بلاء يصيبكم في المستقبل وأنتم بلائى في الحال :

ثم إنَّ بلاءكم الذى تخافون أن يصيبكم من الأعداء ، وبلائى منكم وأنتم الأولياء .

ويقال لما لزم الكلبُ محله ولم يجاوزْ حدَّهُ فوضع يديه على الوصيد بقى مع الأولياء . . .
كذا أدب الخدمة يوجب بقاء الوُصلة .

قوله جل ذكره : ﴿ لَوِ اِطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا ﴾

(١) وردت هكذا ونرجح أنها (بلاياه) بدليل ما سيأتى بعد ذلك :
(وأنتم بلائى في الحال) .

الخطاب له — صلى الله عليه وسلم . والمراد منه غيره .

ويقال لو اطلعت عليهم من حيث أنت لوليت منهم فراراً ، ولو شاهدتهم من حيث شهود
تولى الحق لم لبقيت على حالك .

ويقال لو اطلعت عليهم وشاهدتهم لوليت منهم فراراً من أن تُرَدَّ عن على منزلتك
إلى منزلتهم ؛ والغنى إذا رُدَّ إلى منزلة الفقير فَرَّ منه ، ولم تطب به نفسه . « وملتت منهم
رعياً » بأن يُسَلَبَ عظيم ما هو حالك ، وتُقَامَ في مثل حالهم النازلة عن حالك .
ويقال : « لوليت منهم فراراً » لأنك لا تريد أن تشهد غيرنا .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال
قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً
أو بعض يوم ﴾

استقلوا مدة لبثهم وقد كبثوا (طويلاً) ، ولكنهم كانوا مأخوذِينَ عنهم ، ولم يكن
لهم علمٌ بتفصيل أحوالهم ، قال قائلهم :

لست أدري أطلال ليلى أم لا ؟ كيف يدري بذاك من يتقل ؟
لو تفرغت لاستطالة ليلى ورعيت النجوم كنتُ مُخِلّاً

ويقال أيام الوصالِ عندهم قليلة — وإن كانت طويلة ، ولو كان الحال بالضدِّ لكان
الأمر بالعكس ، وأنشدوا :

صَبَاحُكَ مُكْرٌ والمساء خُمارٌ^(١) نَيْمٌ وأيام السرورِ قِصارٌ

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ﴾

لأنه هو الذى خَصَّكُمْ بما به أقامكم .

(١) الخمر = ماخالط الإنسان من سُكر الخمر .

قوله جل ذكره : ﴿ فَابْتَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى
الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا
فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ ﴾

ماداموا مأخوذون عنهم لم يكن لهم طلب لأكل ولا شرب ولا شيء من صفة النفس ،
فلما رُدُّوا إلى التمييز أخذوا في تدبير الأكل أول ما أحسوا بحالهم ، وفي هذا دلالة على شدة^(١)
ابتداء الخلق بالأكل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلْيَسْتَطِفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بَكُمْ
أَحَدًا ﴾

تواصوا فيما بينهم بحسن التخلق وجميل الترفق ، أى لينتطف مع من يشتري منه شيئاً .
ويقال أوصوا من يشتري لهم الطعام أن يأتيهم بالطف شيء وأطيبه ، ومن كان من
أهل المعرفة لا يوافقته الخشن من الملبوس ولا المبتذل في المطعم من المأكول .
ويقال أهل المجاهدات وأصحاب الرياضات طعامهم الخشن ولباسهم كذلك^(٢) .
والذى بلغ المعرفة لا يوافقته إلا كل لطيف ، ولا يستأنس إلا بكل مريح .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ
أَوْ يَبِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا
إِذَا أَبَدًا ﴾

تواصوا فيما بينهم بكتمان الأسرار عن الأجانب^(٣) وأخبر أنهم إن اطلعوا عليهم وعلى
أحوالهم بالغوا في مخالفتهم إما بالقتل وإما بالضرب وبما أمكنهم من وجوه الفعل ، ولا يرضون

(١) شدة هنا معناها ضرورة .

(٢) معنى هذا أن القسري يميز بين مطعم وملبس أصحاب الرياضات ومطعم وملبس أهل المعرفة ، وربما
كان سبب ذلك أن أهل المعرفة الواجب عليهم ستر أحوالهم عن الخلق ، بدليل قوله فيها بعد : « تواصوا
فيما بينهم بكتمان الأسرار عن الأجانب » .

(٣) من هنا نفهم ضرورة أن يكتم أرباب الأحوال أسرارهم ، وإلا تعرضوا لأذى الذين لا يدركون
حقائق أحوالهم ، وقد يصل الأذى إلى حد الضرب والقتل (تذكر قصة الحلاج وغيره) .

إلا برّدهم إلى ما منه تخلصوا ، فمن احترق كدسه فما لم يحترق كدس غيره لا تطيب نفسه .
ويقال من شأن الأبرار حفظ الأسرار عن الأغيار .
ويقال من أظهر لأعدائه سيرة فقد جلب باختياره ضرره ، وفقد ما سرّه (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَلِكَ أَتَيْنَاهُم لِيُعْلَمُوا
أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ
لَارِيبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ
أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا
رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمُ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى
أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَسْجِدًا ﴾

جعل أحوالهم عبرة لمن جاء بعدهم حين كشف لأهل الوقت قصتهم ، فعانهم
الناس ، وازداد يقين من كان يؤمن بالله حين شاهدوا بالعيان ما كان نقضاً للعادة
المستمرة .

ثم إن الله تعالى ردهم إلى ما كانوا عليه من الحالة ، كانوا مأخوذون عن التمييز ، متقلبين
في القبضة على ما أَرَادَهُ الْحَقُّ ، مستودعين فيما كوشفوا ، مستهلكين عنهم في وجود
الحق — سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كُتُبُهُمْ ،
وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كُتُبُهُمْ
رَجْمًا بِالْغَيْبِ ، وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ
وَتَامُّهُمْ كُتُبُهُمْ ﴾

أخبر أن علوم الناس متقاصرة عن عددهم ؛ فالأحوال التي لا يطلع عليها إلا الله
في أسرارهم وقلوبهم .. متى يكون للخلق عليها إشراف ؟
أشكل عليهم عددهم ، وعددهم يُعْلَمُ بالضرورة ، وهم لا يُدْرَكُونَ بالمشاهدة .

(١) يقول الشبلي واصفاً سبب محنة الحلاج : « كنت والحسين بن منصور شيئاً واحداً ولكنه أظهر
وأنا كتمت » .

ويقال سَعِدَ الكلبُ حيثُ كَرَّرَ الحقُّ — سبحانه — ذِكْرَهُمْ وَذَكَرَ الكلبُ معهم على وجه التكرار ، وَلَمَّا ذَكَرَهُمْ عَدَّ الكلبُ في جملتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِبَادَتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾

لما كانوا من أوليائه فلا يعلمهم إلا خواصُّ عبادِهِ ، وَمَنْ كَانَ قَرِيباً فِي الْحَالِ مِنْهُمْ ؛ فهم في كُتْمِ الْغَيْبَةِ وَإِبْوَاءِ السِّرِّ لَا يُطْلِعُ الْأَجَانِبُ عَلَيْهِمْ ؛ وَلَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ — سبحانه — يَسْتَرُ أَوْلِيَاءَهُ عَنِ الْأَجَانِبِ ، فَلَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا أَهْلُ الْحَقِيقَةِ ؛ فَلَا جَانِبَ لَا يَعْرِفُونَ الْأَقْرَابَ ، وَلَا تُشْكَلُ أَحْوَالُ الْأَقْرَابِ عَلَى الْأَقْرَابِ كَذَلِكَ قَالَ شَيْوْخُ هَذِهِ الطَّائِفَةِ : « الصُّوفِيَّةُ أَهْلُ بَيْتٍ وَاحِدٍ لَا يَدْخُلُ فِيهِمْ غَيْرُهُمْ » (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾

كما لَا يَعْرِفُهُمْ مَنْ كَانَ بِمَعزِلٍ عَنْ حَالِهِمْ ، وَلَا يَهْتَدِي إِلَى أَحْكَامِهِمْ مَنْ لَا يَعْرِفُهُمْ . . . فلا يَصِحُّ اسْتِفْتَاؤُهُ مَنْ غَابَ عَنْهُمْ عَنْهُ فِي حَالِهِمْ . وَمَنْ لَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ مُحَلًّا لِحُبَّةِ الْأَحْبَابِ لَا يَكُونُ لِسَانُهُ مَقْرَأً لَذِكْرِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾

إِذَا كَانَتْ الْحَوَادِثُ صَادِرَةً عَنْ مَشِيئَةِ اللَّهِ فَعَنْ عَرَفَ اللَّهُ لَمْ يَعُدَّ مِنْ نَفْسِهِ مَا عِلْمُ أَنَّهُ لَا يَنْبَغُ إِلَّا بِاللَّهِ .

ويقال مَنْ عَرَفَ اللَّهَ سَقَطَ اخْتِيَارُهُ عِنْدَ مَشِيئَتِهِ ، وَانْدَرَجَتْ أَحْكَامُهُ فِي شَهَادَةِ الْحُكْمِ اللَّهِ .

ويقال للمؤمن يعزم على اعتناق الطاعة في مستقبله بقلبه ، لكنه يتبرأ عن حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ

(١) هذا القول للجنيد (ص ١٣٩) الرسالة

بِسِرِّهِ ، وَالشَّرْعُ يُسْتَدْعَى مِنْهُ نَهْوضُ قَلْبِهِ فِي طَاعَتِهِ ، وَالْحَقُّ يَقِفُ سِرَّهُ عِنْدَ شُهُودِ مَا مِنْهُ
لَهْجُوبِهِ نَحْتَ جَرِيَانِ قَسْمَتِهِ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿وَإِذْ كُرِّرْتُ رَبُّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْتُ
عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ
هَذَا رَشَدًا﴾

إِنْ طَرَأَتْ عَلَيْكَ طَوَارِقُ النِّسْيَانِ — لَا بِنَعْدِكَ — فَجُرِّدْ بِذِكْرِكَ قَصْدَكَ عَنْ
أَوْطَانِ غَفْلَتِكَ .

ويقال « واذكر ربك إذا نسيت » : في الحقيقة نَفْسُكَ تَمْنَعُكَ مِنْ اسْتِفْرَاقِكَ
فِي شُهُودِ ذِكْرِكَ .

ويقال واذكر ربك إذا نسيت ذكرك لربك : فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا كَانَ مُلَاحِظًا لَذِكْرِهِ كَانَ
ذَلِكَ آفَةً فِي ذِكْرِهِ^(٢) .

ويقال واذكر ربك إذا نسيت حَقَّكَ مِنْهُ .

ويقال واذكر ربك إذا نسيت غَيْرَ رَبِّكَ .

قوله جل ذكره : ﴿وَلْيَبْشُرُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ
وَارْدَادُوا زَيْجًا﴾

كَانُوا مَأْخُودِينَ عَنْهُمْ فِي إِحْسَامِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ فَلَمْ يَقِفُوا عَلَى تَطَاوُلِ مَدَنَتِهِمْ ، وَفِي اللَّثْلِ :
« أَيَّامُ السَّرُورِ قَصَارٌ » ، وَالْدَّهْورُ فِي السَّرُورِ شُهُورٌ ، وَالشُّهُورُ فِي الْحَنِّ دُهُورٌ ، وَفِي مَعْنَاهُ :
أَعِدُّ اللَّيَالِيَ لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ وَقَدْ كُنْتَ قَبْلًا لَا أَعِدُّ اللَّيَالِيَ

قوله جل ذكره : ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ

(١) معنى هذه الفقرة أنه قد يبدو في الظاهر أن العبد إرادة في الامتناع للطاعة وفي إجراء أحكام
الشريعة ، ولكن في الحقيقة أن الحق سبحانه يتولى تربيته من حوله وإرادته ، وتهيئة سره للتجرد عن كل
غير وسوى .

(٢) لأن أعلى درجات الذكر أن يفنى التذاكر في المذكور .

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ
مَا لَمْ يَنْ دُونَهُ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ
فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾

مَنْ لَمْ يَعُدْ أَيَّامَهُ لاشتغاله بالله أَحصى اللهُ أنفاسَهُ التي لله ، قال تعالى : « أَحصى
كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ
رَبِّكَ ﴾

تَسَلُّ — حينما تتنوع عليك الأحوال — بما نُطِلُّكَ عليه من الأخبار ؛ وإن كُنْتُ
الأحبابِ فيها شفاءً لأنها خطابُ الأحبابِ للأحبابِ .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ
مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾

أى لا تغيير لحُكْمِهِ ؛ فَمَنْ أَقْصَاهُ فلا قبولَ له ، وَمَنْ أَدْنَاهُ فلا وصولَ له ، وَمَنْ قَبِيلَهُ
فلا رَدَّ له ، وَمَنْ قَرَّبَهُ فلا صَدَّ له .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ
رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾

قال : « واصبر نفسك » ولم يقل : « قلبك » لأن قلبه كان مع الحق ، فأمره بصحته
جَهْرًا بِجَهْرٍ ، واستخلص قلبه لنفسه سِرًّا بِسِرٍّ .

ويقال « يريدون وجهه » : معناها يريدون وجهه أى فى معنى الحال ، وذلك يشير
إلى دوام دُعائِهِم ربههم بالغداة والعشي وكون الإرادة على اللوام .

ويقال « يريدون وجهه » : فأويناكم فى دنياكم بفظائنا ، وفى عقباهم بكرائنا .

ويقال « يريدون وجهه » : فكشف قناعهم ، وأظهر صفاتهم ، وشهرهم بعدما كان
قد سترهم ، وأنشدوا :

وكشفنا لك القناع وقلنا نعم وهنكنا لك للسئورا
ويقال لما زالت التهم سَلَّتْ لم هذه الإرادة ، ونحروا عن إرادة كل مخلوق وعن محبة
كل مخلوق .

ويقال لما تقاصر لسانهم عن سؤال هذه الجملة مراعاةً لمهية الرسول صلى الله عليه
وسلم ، وحرمة باب الحق — سبحانه — أمره بقوله : « واصبر نفسك » وبقوله :

﴿ ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة
الحياة الدنيا ﴾

أى لا ترفع بصرك عنهم ، ولا تقلع^(١) عنهم نظرك .

ويقال لما نظروا بقلوبهم إلى الله أمر رسول الله — عليه السلام — ألا يرفع بصره عنهم ،
وهذا جزاء في العاجل .

والإشارة فيه كأنه قال: جعلنا نظرك اليوم إليهم خريعة لم إلينا ، وخلفاً عما يفتونهم اليوم
من نظرم إلينا ، فلا تقطع اليوم عنهم نظرك فإننا لا نمنع غداً نظرم عننا^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن
ذكرنا واتبع هواه وكان أمره
فُرطاً ﴾

هم الذين سألوا منه — صلى الله عليه وسلم — أن يُغلي لهم مجلسه من الفقراء ، وأن
يطردّهم يوم حضورهم من مجلسه — صلى الله عليه وسلم وعلى آله .

ومعنى قوله . « أغفلنا قلبه عن ذكرنا » : أى شغلناهم بما لا يعينهم .

ويقال « أغفلنا قلبه عن ذكرنا » أى شغلناهم حتى اشتغلوا بالنعمة عن شهود المنعم .

ويقال هم الذين طوّح قلوبهم في التفرقة ، فهم في الخواطر الرديّة مُثَبِّتُونَ ، وعن شهود
مولاهم محجوبون .

(١) لا تقلع عنهم نظرك أى لا تكف وتبعد .

(٢) هم هذه الإشارة في تقدير مدى تصور الصوفية لشخصية محمد (ص) .

ويقال أغفلنا عن ذكرنا الذين ابتلوا بنسيان الحقيقة ولا يتأسفون^(١) على ما منوا به
ولا على ما فاتهم

ويقال الغفلة نزجبة الوقت في غير قضاء فرض أو أداء نفلي .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾

قل يا محمد : ما يأتيكم من ربكم فهو حق ، وقوله صديق .. فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء
فليكفر .. هذا غاية التهديد ، أي إن آمنتم ففوائد إيمانكم عليكم مقصورة ، وإن أبييتم
فعداب الجحود موقوف عليكم ، والحق — سبحانه — عزيز لا يعود إليه بإيمان الكافة
— إذا وحدوا — زين ، ولا من كفر الجميع — إن جحدوا — شين .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ
سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ
كَالْهَلِ يَشْوَى الْوَجْوهَ يَلْسَ
الْشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَقَقًا ﴾

العقوبة الكبرى لم أن يشغلهم بالألم حتى لا ينفرخوا عنه إلى الحسرة على ما فاتهم من
الحق ، ولو علموا ذلك لعله كان يرحمهم . والحق — سبحانه — أكرم من أن يعذب أحداً
يُنْتَهَمُ لِأَجَلِهِ .

ويقال لو علموا من الذي يقول : « وساءت مرتققا » لعله كان لم نسل ساعة ، ولكهم
لا يعرفون قدر من يقول هذا ، وإلا فهذا شبه مرتبة لم ، والعبارة عن هذا تدق .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا
لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا •
أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ

(١) وردت (ولا يتأسفون) والمعنى يرفضها مما يرجع خطأ الناسخ في نقلها .

تَحْتَهُمُ الْأَنْهَارُ يُحَلُّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ
مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا
مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ
فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَعِيمَ الثَّوَابِ
وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿١٠﴾

أهل الجنة طابت لهم حدائقها ، وأهل النار أحاط بهم سرادقها .
والحق — سبحانه — منزّه عن أن يعود إليه من تعذيب هؤلاء عائدة ولا من تنعيم
هؤلاء عائدة . . . جلّت الأحديّة ، وتقدّست الصديّة !

وَمَنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِ غَبْرَةٌ فِي طَرِيقِنَا لَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ قَتَرَةٌ فَرَأَيْنَا ، وَمَنْ خَطَا خُطْوَةً إِلَيْنَا وَجَدَ
حُظْوَةً لَدَيْنَا ، وَمَنْ نَقَلَ قَدَمَهُ نَحْنَا غُفِرْنَا لَهُ مَا قَدَّمَ ، وَمَنْ رَفَعَ إِلَيْنَا يَدًا أَجَزَلْنَا لَهُ رَغَدًا ،
وَمَنْ النَجَا إِلَى سُدَّةٍ ^(١) كَرَمْنَا أَوِينَاهُ فِي ظِلِّ نَعْمِنَا ، وَمَنْ شَكَافِنَا غَلِيلًا ^(٢) مَهَّدْنَا لَهُ — فِي
دَارِ فَضْلِنَا — مَقِيلًا .

« أَجْر مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا » : الْعَمَلُ أَحْسَنُهُ مَا كَانَ مُضْبُوطًا بِشَرَائِطِ الْإِخْلَاصِ .

ويقال « مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا » بَأَن غَلِبَ عَنْ رُؤْيَاةِ إِحْسَانِهِ .

ويقال مَنْ جَرَّدَ قَصْدَهُ عَنْ كُلِّ حَظٍّ وَنَصِيبٍ .

ويقال الإحسان في العمل ألا ترى قضاء حاجتك إلا في فضله ، فإذا أخلصت في تَوَسُّلِكَ
إِلَيْهِ بِفَضْلِهِ ، وَتَوَسُّلِكَ إِلَى مَا مَوَّلَكَ مِنْ طَوْلِهِ بِتَبَرُّكَ عَنْ حَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ اسْتَوْجِبْتَ
حُسْنَ إِقْبَالِهِ ، وَجَزِيلَ نَوَالِهِ .

قوله « أَوْلَيْتُكَ لَمْ جَنَاتٍ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أَوْلَيْتُكَ هُمْ أَصْحَابُ الْجَنَانِ ،
فِي رَغَدٍ الْعَيْشِ وَسَعَادَةٍ جَدِّ ^(٣) وَكَمَالِ الرُّفْدِ ^(٤) ، يَلْبَسُونَ حُلُلَ الْوُصْلَةِ ، وَيُنَوِّجُونَ بَفَاجِ الْقُرْبَةِ ،

(٢) وردت (غليلا) بالعين .

(٤) الرد = المطاء والصلة .

(١) وردت (سيده)

(٣) الجد = الحظ .

وَيُحْمَلُونَ عَلَى الْبَاسِطِ ، وَيَتَكَبَّرُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ ، وَيَشْمُونَ رِيَّاحِينَ الْأُنْثَى ، وَيَقِيمُونَ
فِي مَجَالِ الزُّلْفَةِ ، وَيُسْقَوْنَ شَرَابَ الْمَحَبَةِ ، وَيَأْخُذُونَ بِبَيْدِ الزُّلْفَةِ مَا يَتَحَفَّهُمُ الْحَقُّ بِهِ مِنْ غَيْرِ
وَاسِطَةٍ ، وَيَسْقِيهِمْ شَرَابًا طَهُورًا يُطَهِّرُ قُلُوبَهُمْ عَنْ مَحَبَةِ كُلِّ مَخْلُوقٍ .
« نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا » : نِعْمَ الثَّوَابُ ثَوَابُهُمْ ، وَنِعْمَ الرَّبُّ رَبُّهُمْ ، وَنِعْمَ الْبَارُ
دَارُهُمْ ، وَنِعْمَ الْجَارُ جَارُهُمْ ، وَنِعْمَ الْحَالُ حَالُهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاضْرِبْ لَمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا

لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ
وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا
زُرْعًا * كَلْنَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا
وَلَمْ تَغْلَمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهَا
نَهْرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ
وَهُوَ بِجَاوِرِهِ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا
وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ
ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ
هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً
وَلَئِنْ رُودِفْتُ إِلَى رَبِّي لَأُجِدَنَّ خَيْرًا
مِنْهَا مُنْقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ
بِجَاوِرِهِ أَكْفَرْتُ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ
تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا
* لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ
بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ
جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ
إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَى أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا
وَوَلَدًا * فَغَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا

من جَنَّتِكَ وَيُرْمِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا
من السماء فَنُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا *
أو يُصْبِحَ مَأْوَاهُ غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ
لَهُ طَلَبًا *

أخبر أنه خلقَ رجلين جعل لهما جنتين على الوصف الذي ذكره ، فشكر أحدهما
لخالقه وكفر الآخر برازقه ، فأصبح الكافر وجنته أصابها جائحة ، وندم على ما ضيعه
من الشكر ، وتوجه عليه اللوم .

وفي الإشارة يخلق عبدين يطيب لهما الوقت ، ويمهد لهما بساط اللطف ، ويمكن لهما من
البسط . . فيستقيم أحدهما في الترقى إلى النهاية من مقامات البداية بحسن المنازلة وصدق
المعاملة ، فتبذل له المجاهدة ثمرات أحسن الأخلاق فيعالجها بحسن الاستقامة ، ثم ينحقق
بخصائص الأحوال الصافية ، ثم يختطف عنها بما يكشف به من حقائق التوحيد ، ويصبح
مُنتفى عن جملته باستهلاكه في وجود ما بان له من الحقائق .

والثاني لا يُقدِّر قدر ما أهل له من حسن البداية فيرجع إلى ما لوفاته ، فينتكس أمره ،
بأنحطاطه إلى ذميم عاداته ، فيرتد عن سلوك الطريقة ويرتد^(١) في ظلمة الغفلة ، فيصير وقته
ليلاً مظلماً ، وينطوح في أودية التفرقة ، ويوسم الطرد ، ويسقى شراب الإهانة ، وينخرط
في سلك الهجر . . وذلك جزاء من لم يرم الحق لو صلته أهلاً ، ولم يجعل لولائهم في التحقيق
والقبول أصلاً :

تبدلت وتبدلنا يا حسرة لمن ابتغى عوضاً لسلوى فلم يجد
قوله جل ذكره : ﴿ وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ ﴾ فأصبح يُقلب
كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية
على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك
بربي أحداً * ولم تكن له فتنة

(١) وردت (ويرتدي) وهي خطأ في النسخ كما هو واضح من السياق .

يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ
مُنتَصِراً ﴿١﴾

إذا ظهر خسران من آثار حفظه على حق الله ، قرع باب ندامته ، ثم لا ينفعه .
ولو قرع باب كرمه في الدنيا — حين وقعت له الفترة — لأشكاه (١) عند ضرورته ،
أنجاه من ورطته . . ولكنه رُبط بالخذلان ، ولُبس عليه الأمر بحكم الاستدراج .
قوله : « ولم تكن له فئة ينصرونه » : من اشتهر أمره بسخط السلطان عليه لم ينظر
إليه أحد من الجنود والرعية ، كذلك من وسمة الحق بكى الهجر لم يرث له ملك ولا نبي ،
ولم يحبه صديق ولا ولي .

قوله جل ذكره : ﴿ هنالك الولاية لله الحق هو خيرٌ
ثواباً وخيراً عقباً ﴾ .

هو الحق للتفرّد بنعت ملكوته ، لا يشرك في جلال سلطانه من الحدّثان أحداً ،
وإذا بدا من سلطان الحقيقة شظية فلا دعوى ولا معنى لبشر ، ولا وزن فيما هنالك لحدّثان
ولا خطر ، كلا . . بل هو الله الخلاق الواحد القهار .

هنالك الولاية لله أي القدرة — والواو هنا بالكسر ،
وهناك الولاية لله أي النصر — والواو هنا بالفتح (٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ واضرب لمّ ممثلاً الحياة الدنيا
كماء أنزلناه من السماء فاختلط به
نبات الأرض فأصبح هشيأ تذروه
الرياح ، وكان الله على كل شيء
مقتدراً ﴾ .

(١) أشكاه : أزال سبب شكواه ، وأعانه .
(٢) الولاية (بالكسر) بمعنى القدرة أي : السلطان والملك كله لله ، يتولى الله كل مضطر فيكون
قوله : « لم أشرك ربّي أحداً » كلمة ألجئ إليها فقهاها جزءاً من شؤم كفره — ولولا ذلك لم يقلها .
أو على الولاية (بالفتح) بمعنى النصر تقريراً لقوله : « ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله »

مَنْ وَطَّنَ النَّفْسَ عَلَى الدُّنْيَا وَبَهَجَتْهَا غَرَّتُهُ بِأَمَانِيهَا ، وَخَدَعَتْهُ بِالْأَطْمَاعِ فِيهَا . ثُمَّ إِنَّهَا
تُخْنِي الصَّابَ فِي شَرَابِهَا ، وَالْحَنْظَلَ فِي حَسَلِهَا ، وَالسَّرَابَ فِي مَآرِبِهَا ؛ تَعْدُو وَلَا تَقِي بَعْدَآرَتِهَا ،
وَتُوْفِي آفَاتُهَا عَلَى خَيْرَاتِهَا . . نَعْمُهَا مَشُوبَةٌ يَنْقَمُهَا ، وَبُؤْسُهَا مَصْحُوبٌ بِمَأْنُوسِهَا ، وَبِلَاؤُهَا
فِي ضَمَنِ عَطَائِهَا . الْمَغْرُورُ مَنْ اغْتَرَّ بِهَا ، وَالْمَغْبُورُ مَنْ انْخَدَعَ فِيهَا .

قوله جل ذكره : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

مَنْ اعْتَصَدَ بَعْتَادَهُ ، وَاغْتَرَّ بِأَوْلَادِهِ ، وَكَسَى مَوْلَاهُ فِي أَوَانِ غَفْلَاتِهِ . . خَسِرَ فِي حَالِهِ ،
وَتَدَرَّمَ عَلَى مَا فَاتَهُ فِي مَالِهِ .

وَيُقَالُ زِينَةُ أَهْلِ الْغَفْلَةِ فِي الدُّنْيَا بِالْمَالِ وَالْبَنِينَ ، وَزِينَةُ أَهْلِ الْوَصْلَةِ بِالْأَعْمَالِ وَالْيَقِينِ . .
فَهَؤُلَاءِ رُتِبُهُمْ لِفُتُوَاهِرِهِمْ . . وَهَؤُلَاءِ زِينَتُهُمْ لِعِبُودِيَّتِهِ ، وَافْتِخَارُهُمْ بِمَعْرِفَةِ رَبُّوبِيَّتِهِ .
وَيُقَالُ مَا كَانَ لِلنَّفْسِ فِيهِ جُفْظٌ فَهُوَ مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْجَاهُ وَقَبُولُ
لِلدَّحِ ، وَكَنْظُكَ تَدْخُلُ فِيهِ جَمِيعُ الْمَأْلُوفَاتِ وَالْمَعْبُودَاتِ عَلَى اخْتِلَافِهَا وَتَقَاوُفِهَا .

وَيُقَالُ مَا كَانَ لِلْإِنْسَانِ فِيهِ شِرْبٌ وَنَصِيبٌ فَهُوَ مَعْلُولٌ : إِنْ شَتَّتَ فِي عَاجِلِهِ وَإِنْ شَتَّتَ
فِي آجِلِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ
ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ .

وهي الأعمال التي بشواهد الإخلاص والصدق .

وَيُقَالُ « الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ » : مَا كَانَ خَالِصًا لِلَّهِ تَعَالَى غَيْرَ مُشَوَّبٍ بِطَمَعٍ ،
وَلَا مَصْحُوبٍ بِغَرَضٍ .

وَيُقَالُ « الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ » : مَا يُلَوِّحُ فِي السَّرَائِرِ مِنْ تَحْلِيَةِ الْعَبْدِ بِالنُّعُوتِ ، وَيَفُوحُ
تَشْرُهُ فِي سَمَاءِ اللَّكُوتِ .

وَيُقَالُ هِيَ الَّتِي سَقَتْ مِنَ الْغَيْبِ لَهُمْ بِالقُرْبَةِ وَشَرِيفِ الزَّلْفَةِ .

ويقال هي ضياء شمس التوحيد المستكين (في السرائر مما لا يتعرض لكسوف المحبة) (١)

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ
بَارِزَةً وَحَشَرْنَا أُولَئِكَ فَهُمْ يُعْرَضُونَ ﴾
أحداً

كما نُسَيِّرُ جبال الأرض (٢) يوم القيامة فإنها تُقْتَلَع بموت الأبدال الذين يديم بهم الحق
— اليوم — إمساك الأرض ، فهؤلاء السادة — في الحقيقة — أوتاد العالم .
قوله : « فلم تغادر منهم أحداً » : الإشارة منه أنه ما من أحد إلا ويُسقى كأس المنية ،
ولا يغادر الحق أحداً اليوم على البسيطة إلا وينخرط عن نظامه . وإن شرفهم في الدرجات في
توقيهم عن مساكنة الدنيا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَخَرُّوا عَلَى رُبِّكَ صَافِّينَ ﴾
يقم كل واحد يوم العرض في شاهد مخصوص ، ويلبس كلاً ما يؤهل له ؛ فمن لباس
تقوى ، ومن قيص هوى ، ومن صدأر وجدي ، ومن صدرقة محبة ، ومن رداء شوق ، ومن
حلة وصال .

ويقال يجرّد من كل صفة إلا ما عليه نظرم يوم القيامة . وينادي المنادي على أجسادهم :
هذا الذي أنى وَوَجَدَ ، وهذا الذي أبى وَجَعَدَ . وهذا الذي خالف فأَصَرَّ ، وهذا الذي
أنعمنا عليه فشَكَرَّ ، وهذا الذي أحسننا إليه فَذَكَرَ . وهذا الذي أسقيناه شرابنا ، ورزقناه
محابتنا ، وشوقناه إلى لقائنا ، ولقيناه خصائص رِعايتنا (٣) .

وهذا الذي وَسَخَّنَاهُ بِمحبتنا ، وحرمناه وَجُوهَ قربتنا . وألبسناه نطق فراقنا ، ومنعناه ،
توفيق وفاقنا ، وهذا ، وهذا . . .

(١) تكملة في أسفل الصفحة موضحة في المتن بالعلامة X .

(٢) نلاحظ كثيراً أن القشيري يتحدث عن الأوتاد والأبدال والقطب كما ورد في القرآن ذكر للجبال ،
فكما أن الله يمسك بها الأرض ويثبتها كذلك يقوم هؤلاء بحفظ الخلق ، وبكرامتهم بصدف البلاء عنهم .
(٣) الرهاء : المراماة والمحافظة .

واخجلني من وقوفي وسط دارهم^(١) وقال لي مُغَضَّباً : مَنْ أَنْتَ يَا رَجُلُ ؟
قوله جل ذكره : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ
مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ
مُؤْعِدًا ﴾

جئتمونا بلا شفيع ولا ناصر ، ولا معين ولا مظاهر .
قوم يُقال لهم : سلامٌ عليكم . . . كيف أنتم ؟ وكيف وجدتم مقيلكم ؟ وكم إلى
لقائنا اشتقم !

وقوم يُقال لهم : ما صنعتم ، وما ضيَّعتم ؟ ما قدَّمتم ، وما أخرتم ؟ ما أعلنتم ، وما أسررتم ؟
قُلْ لِي بِالسَّنَةِ التَّنَفُّسِ^(١) كيف أنت وكيف حالك ؟
ويقال يجيب بعضهم عند السؤال فيُفَصِّحون عن مكنون قلوبهم ، ويشرحون ما هم به من
أحوال مع محبوبهم وآخرون تملكهم الحيرة وتُسَكِّتُهم الدهشة ، فلا لهم بيان ، ولا ينطق
عنهم لسان . وآخرون كما قيل :

قالت سَكِينَةُ مَنْ هَذَا فَقُلْتُ لَهَا ، أَلَا الَّذِي أَنْتَ مِنْ أَعْدَائِهِ زَعَمُوا
قوله جل ذكره : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ
مُشْفِقِينَ ﴾

إنما يصيبهم ما كُتِبَ في الكتاب الأول وهو المحفوظ ، لا ما في الكتاب الذي
هو كتاب أعمالهم لِسَخَةِ ما في اللوح المحفوظ .

ويقال إنَّ عَامِلَ عَبْدًا بِمَا فِي الْكِتَابِ الَّذِي أَثْبَتَهُ الْمَلَكُ عَلَيْهِ فَكَثِيرٌ مِنْ عِبَادِهِ بِأَعْمَالِهِمْ
بِمَا فِي كِتَابِ الْمَلِكِ — سبحانه ، وفرقٌ بين مَنْ يَعْمَلُ بِمَا فِي كِتَابِ الْحَقِّ مِنْ الرَّحْمَةِ^(٢)
وَالشَّفَقَةِ وَبَيْنَ مَنْ يَحَاسِبُهُ بِمَا كُتِبَ عَلَيْهِ الْمَلَكُ مِنَ الزَّلَّةِ^(٣)

(١) التنفس : الاستراحة من الكد والتعب

(٢) يشير بذلك إلى قوله تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ ﴾ (آية ١٢ سورة الأنعام) وإلى قوله تعالى :
﴿ قُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كُتِبَ عَلَيْكُمْ عَلَيْ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ ﴾ (آية ٤٠ سورة الأنعام) .

(٣) يعبر بذلك إلى قوله تعالى : ﴿ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ (آية ٨٠ سورة الزخرف) .

ويقال إذا حاسبهم في القيامة ينصور لهم كأنهم في الحال ما فرقوا الزلّة ، وإن كانت مباشرة الزلّة قد مضت عليها سنون كثيرة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾

يملك الحزن قلبه لأنه يعلم أنه يرى في عمله سيئة فهو في موضع الخجل لتقصيره . وإن رأى حسنة فهو في موضع الخجل أيضاً لِقِلَّةِ توقيره ؛ فَخَجَلَهُ أَهْلُ الصَّدَقِ عند شهود حسناتهم توفى وتزيد على خجلة أهل الغفلة إذا عثروا على زلاتهم .

ويقال أصحابُ الطاعة إذا وجدوا ما قدّموا من العبادات فألم السرور والبهجة وحبّة القلب والراحة ، وأمّا أصحاب المخالفات فلمّا يجدون فيما قدّموا مجاوزة الحدّ وتقضّ العهد ، وما في هذا الباب من الزلّة وسوء القصد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾

أظهر للملائكة شظية مما استخلص به آدم فسجدوا بنيسير من الله — سبحانه ، وسَكَرَ بَصَرُ الْعَيْنِ فما شهد منه غير العين^(١) ففسق عن أمر ربه ، ولا صدق في قوله : « أنا خير منه » لما فسق عن الأمر ، ولكن أدركته الشقاوة الأصيلة فلم تنفعه الوسيلة بالحيلة .

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَتَتَخَذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ

(١) أى نظر إبليس إلى الجسد المذمى لآدم فقال : خلقتني من نار وخلقتهم من طين ، ولم ينظر إلى الجوهر ، والسبب في ذلك في رأى القشيري أن الله أهلك عليه .

دوني وم لكم عدو بفس للظالمين
بدلاً

في الآية إشارة إلى أن من يقرّده بالولاية فلا يقتني غيره ولا يخاف غيره .

قوله جل ذكره : ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض
ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ
المضلين عضداً ﴾

أ كذب للنجمين والأطباء الذين يتكلمون في الهيئات والطبائع بقوله : « ما أشهدتهم
خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » : وبين أن ما يقولونه من إيجاب الطبائع لهذه
الكائنات لا أصل له في التحقيق .

« وما كنت متخذ للمضلين عضداً » : أى لم أجعل للذين يضلّون الناس عن دينهم
يشبههم في القول بالطبائع حجة ، ولم أعطيهم لتصحیح ما يقولونه برهاناً .

ويقال إذا تقاصرت علوم الخلق عن العلم بأنفسهم فكيف تحيط علومهم بحقائق الصمدية ،
واستحقاقه لنعونه إلا بمقدار ما يخصهم به من التعريف على ما يليق برتبة كل أحد
بما جله له أهلاً ؟

ويقال أخيراً أن علومهم تنقصر عن الإحاطة بجميع أوصافهم وجميع أحوالهم وعن كل
ما في الكون ، ولا سبيل لهم إلى ذلك ؛ ولا حاجة بهم إلى الوقوف على ما قصرت علومهم عنه ،
إذ لا يتعلق بذلك شيء من الأمور الدينية . فالإشارة في هذا أن يصرفوا عنايتهم إلى طلب
العلم بالله وبصفاته وبأحكامه ، فإنه لا بدّ لهم — بحكم الديانة — من التحقق بها ؛ إذ الواجب
على العابد معرفة معبوده بما يزيل التردد عن قلبه في تفاصيل مسائل الصفات والأحكام^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ ويوم يقول نادوا شركائي الذين

(١) في هذا أبلغ رد على من يتهمون الصوفية بمجافاتهم للعلوم ، وكيف يجافونها وطلب العلم فريضة
على كل مسلم ومسلمة ؟

زَعَّمُوا فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿١﴾

علم الحق - سبحانه - أن الأصنام لا تغنى ولا تنفع ولا تضر ، ولكن يعرفهم
في العاقبة بما يُصير معارفهم ضرورية^(١) حسماً لأوهام القوم ؛ حيث توهموا أن عبادتهم
للأصنام فيها نوع تقرب إلى الله على وجه التعظيم له كما قالوا : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى
الله زلفى »^(٢) .

فإذا تحقروا بذلك صدقوا في الندم ، وكان استيلاء الحسرة عليهم ، وذلك من أشد
العقوبات لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم
مواقعوها ولم يجيدوا عنها مضرباً ﴾

إذا صارت الأوهام منقطعة ، والمعارف ضرورية ، والنار مُعَايَنَةً استيقنوا أنهم واقعون
في النار ، فلا يُسَمِعُ لهم عُدْرٌ ، ولا تنفع لهم حيلة ، ولا تقبل فيهم شفاعة ، ولا يؤخذ منهم
فداء ولا عدل . . لقد استمكنت الخيبة ، وغلب اليأس ، وحصل القنوط ، وهذا
هو العذاب الأكبر .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد صرَّفْنَا في هذا القرآن للناس
من كل مثل وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرُ شَيْءٍ
جَدَلًا ﴾

أوضح للكافة الحجج ، ولكن لبس على قوم النهج فوقعوا في العوج .
« وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً » الجدال في الله محمود مع أعدائه ، والجدل مع الله
شرك لأنه صرْفٌ إلى مخالفة توهم أن أحداً يعارض التقدير ، وتجويز ذلك انسلاخ

(١) المعارف إما ضرورية أو كسبية ، والضرورية من الحق ، والكسبية من الخلق .

(٢) آية ٣ سورة الزمر .

عن الدين . ومن أمارات السعادة للمؤمن فَتَحُ باب العمل عليه ، وإغلاقُ باب الجدل دونه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ
الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ
تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأُولَىٰ أَوْ يَأْتِيَهُمُ
الْعَذَابُ قُبُلًا ﴾

لا عُذْرَ لهم إذا لجأوا إلى ما تعاطوه من العصيان وتركِ المبادرة إلى المأمور ، ولا توفيقَ
يساعدكم فيخرجهم عن حوار الداعي إلى عزم الفعل ، فهم — وإن لم يكونوا بنعت الاستطاعة
على ما ليسوا يفعلونه — ليسوا عاجزين عن ذلك ؛ ولكنهم بحيث لو أن العبد منهم أراد ما أمَرَ به
كَلَّأَتِي منه ذلك ، وتَعَذَّرَ عليه ؛ ففي الحال ليس بقادرٍ على ما ليس يفعله ولا هو عاجزٌ عنه ،
وهذا يسميه القوم حال التخلية وهي واسطة بين القدرة والعجز .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا يُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مَبَشِّرِينَ
وَمُنذِرِينَ وَيَجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا
آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴾

أرسل الرسل — عليهم السلام — تترى ، وأَيَّدَهُم بِالْحُجَجِ والبراهين ، وأمرهم بالإبذار
والنخريف ، والتشريف في عين التكليف ، وتضمن ذلك بالتحقيق ، ولكن سَعِدَ قومٌ
باتباعهم ، وشَقِيَ آخرون بخلافهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ
فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَلَسِيَ مَا قَدَّمْتُ
يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً
أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا
وَأَنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ
يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾

لا أحد أظلم ممن ذكر ووُعظ بما لُوح له من الآيات ، وبما شاهده وعرفه من أمر
 إصلاح أو شغل كفى أو دعاء أجيب له ، أو سوء أدب حصل منه ، فأدب بما يكون تنبيهاً
 له ، أو حصلت منه طاعة وكوفى في العاجل إما بمعنى وجده في قلبه من بسط أو حلاوة
 أو أنس ، وإما بكفاية شغل أو إصلاح أمر .. ثم إذا استقبله أمر لئى ما عومل به ، أو أعرض
 عن تذكره ، ولئى ما قدمت يداه من خير وشر ، فوجد في الوقت موجه ..
 ومن كانت هذه صفته جل على قلبه سترًا وغفلة وقسوة حتى تنقطع عنه بركات ما وهبه .
 ويقال من أظلم ممن يستقبل أمر مجازاة لما أسلفه من ترك أره فيستهم ربه ، ويشكو
 بما يلاقه ، وينسى حرمة الذى بسبه أصابه ما أصابه ؟ وكما قيل :

وعاجزُ الرأي مِضْياعُ لِفِرْصته حتى إذا فات أمرُ غائب القَدَرَا

قوله جل ذكره : ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُكُمْ
 بِمَا كَسَبْتُمْ لَعَجَلْ لَمْ الْعَذَابَ ،
 بل لَمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ
 مَوْثِقًا ﴾

« غفور » : لأنه ذو الرحمة ، ورحمته الأزلية أوجبّت المغفرة لهم .

ويقال « الغفور » : للعاصين من عباده ، و « ذو الرحمة » بجميعهم فيُصلح أحوال كافتهم .
 « لو يؤاخذكم بما كسبوا » : لمعجل لهم العذاب ؛ أى عاملكم بما استوجبوه من عصيانهم ،
 فعجل لهم العقوبة ، لكنه يؤخرها لمقتضى حكمته ، ثم فى العاقبة يفعل ما يفعل على قضية
 إرادته وحكمه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا
 وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴾

لما لم يشكروا النعم ولم يصبروا فى الحن عجّلنا لهم العقوبة .

ويقال لما غفلوا عن شهود التقدير ، وحرّموا رّوح الرضا وكفّناهم إلى ظلمات تدبيرهم ،
 فطاحوا فى أودية غفلاتهم .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ
 حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ
 حُقُبًا * فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا
 نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ
 سَرَبًا﴾

لما فُحِّتْ صَحْبَةُ يَوْشَعَ مع موسى عليهما السلام استحقَّ اسم الفتوة ، ولذا قال :
 « وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ » وهو اسم كرامة لا اسم علامة .

جعل دخول السمك للماء علامة لوجود الخضر هناك (١) ، ثم أدخل النسيان عليهما
 ليكون أبلغ في الآية ، وأبعد من اختيار البشر .

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتَيْنَا غَدَاءَنَا
 لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا لَصَبًا﴾
 كان موسى في هذا السفر مُتَحَمِّلًا ، فقد كان سفر تأديبٍ واحتمالٍ مشقةٍ ، لأنه
 ذهب لاستكثار العلم . وحال طلب العلم حال تأديبٍ ووقت تحملٍ للمشقة ، ولهذا لحقه
 الجوع ، فقال : « لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا لَصَبًا » .

وحين صام في مدة انتظار سماع الكلام من الله صبر ثلاثين يوماً ، ولم يلحقه الجوع
 ولا المشقة ، لأن ذهابه في هذا السفر كان إلى الله ، فكان محملاً .

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ
 فَأَمْنَى لَسِيْتُ الْحُوتِ وَمَا أَنْسَانِيهِ
 إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ
 سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا * قَالَ ذَلِكَ

(١) كان الحوت سمكة مملوحة ، فتزلا ليلة على شاطئ عين الحياة ونام موسى ، فلما أصاب السمكة الماء
 عاشت ووقعت في الماء (اللسي) .

ما كنّا نَبِغُ طرقتنا على آثارها
قصصاً^(١)

طال عليهما السفر لأنها احتاجا إلى الانصراف إلى مكانهما ، ثم قال يوشع :
« وما ألسانيه إلا الشيطان أن أذكره » : الله — سبحانه — أدخل عليه النسيان ليكون
الصيّد من تكليفه ، ثم قال : « ذلك ما كنّا نبغ » : يعنى دخول السك للماء وكان
مشوياً ؛ فصار ذلك معجزة له ، فلما انتهيا إلى للوضع الذى دخل السك فيه للماء
لقياً الخضر .

قوله جل ذكره : ﴿ فوجئنا عبداً منّ عبادنا آتيناه
رحمةً منّ عندنا ، وعلمناه من
لَدُنَّا علماً ﴾

إذا سمى الله إنساناً بأنه عبده جعله من جملة الخواص ؛ فإذا قال : « عبي »
جعله من خاص الخواص .

« آتيناه رحمةً من عندنا » : أى صار مرحوماً من قبلنا بتلك الرحمة التى خصصناه بها من
عندنا ، فيكون الخضر بتلك الرحمة مرحوماً ، ويكون بهاراجاً على عبادنا .

« وعلمناه من لدنا علماً » : قيل العلم من لدن الله^(٢) ما يتحصل بطريق الإلهام دون
التكلف بالتطلب .

ويقال ما يعرف به الحق — سبحانه — الخواص من عباده .

ويقال ما يعرف به الحق أولياءه فيما فيه صلاح عباده .

(١) قال الزجاج : القصص اتباع الأثر ، فقص قصصاً : اتبع الأثر .

(٢) يتخذ الصوفية من قصة الخضر وموسى مصدراً ثرياً لاستمداد كثير من أصولهم فيما يتصل بالعلم
الذى وعلم الوراثة ، والولاية والنبوة ، والعلاقة بين المريد والشيخ ، وفكرة الظاهر والباطن ، وللإلهام
على ظاهر مستشع باطنه سليم ... ونحو ذلك .
وقد نجد خلال إشارات القشبرى شيئاً من ذلك .

وقيل هو ما لا يعود منه نفعٌ إلى صاحبه ، بل يكون نفعه لعباده مما فيه حقُّ الله — سبحانه .

ويقال هو ما لا يجدُ صاحبه سبيلاً إلى جوده ، وكان دليلاً على صحة ما يجده قطعاً ، فلو سألتَه عن برهانه لم يجد عليه دليلاً ؛ فأقوى العلوم أبعدها من الدليل (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾

تَلَطَّفَ في الخطاب حيث سَلَّكَ طريق الاستئذان ، ثم صَرَّح بمقصوده من الصَّحبة بقوله : « على أن تعلِّمني مما علِّمت رُشداً » .

ويقال إن الذي خُصَّ به الخضرُ من العلم لم يكن تعلَّمه من أستاذ ولا من شخص ، فما لم يكن بتعليم أحد إياه . . . متى كان يعلمه غيره ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ وكيف تصبرُ على ما لم تحط به خبراً ؟ قال مستجدي إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً ﴿

سؤال يذ لك العطف وجوابٌ بهذا العطف !

ثم تدارك قلبه بقوله : « وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ؟ » ، فأجابه موسى : « قال مستجدي . . . » وعد من نفس موسى بشيئين : الصبر ، وبأن لا يعصيه فيما يأمر به ، فأما الصبر ففكرته بالاستنشاء بمشيئة الله فقال : « مستجدي إن شاء الله صابراً » فصرح حقُّ وُجْدَ صابراً ، فلم يقبض على يدي الخضر فيما كان منه من الفعل ، والثاني قوله : « لا أعصى

(١) وسر قوة العلم الذي يبعد عن الدليل أنه من الحق ، وبقدر ما تختل الجوانب الإنسانية في العلم وتبرز المثلن الإلهية فيه تكون نضاعة برهانه وقوة بيانه .

لك أمراً : أطلقه ولم يُقرنه بالاستثناء ، فما استثنأ لأجله لم يخالفه فيه ، وما أطلقه وقع فيه الخلف (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾
فإنه ليس للمريد أن يقول : « لا » لشيخه ، ولا التلميذ لأستاذه ، ولا العامى للعالم المفتى فيما يفتى ويحكم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاذْكُرُونِي إِذَا رَكِبُوا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾
لماركبوا الفلک خرقها وكان ذلك إبقاء على صاحبها لئلا يرغب في السفينة المخروقة الملك الطامع في السفن .

وقوله : « لتغرق أهلها » أى لتؤدى عاقبة هذا الأمر إلى غرق أهلها ؛ لأنه علم أنه لم يكن قصد إغراق أهل السفينة .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾
أى أنت تنظر إلى هذا من حيث العلم ، وإنا نُجْزِيه من حيث الحكم .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ لَا تَأْتِنَا خِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تَرْهَقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾

طالبه بما هو شرط العلم حيث قال : « لَا تَأْتِنَا خِذْنِي بِمَا نَسِيتُ » ؛ لأن الناسى لا يدخل تحت التكليف ، وأيد ذلك بما قرّن به قوله : « وَلَا تَرْهَقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا » فالمتمسك من حقه

(٢) الخلف = الإخلاف ، فقد خالف موسى الأمر حين كان ينسى ويتساءل عقب كل حادثة في القصة ، وكان الحضر في كل مرة يقول : « أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا » .

التكليف ، ومن لا يصح منه الفعل والترك لا يتوجه . (١) والناس (٢) من جهلهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ،

قَالَ أَتَوَلَّيْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ

نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾

كان يخلق العلم واجباً على موسى — عليه السلام — قصره حيث يرى في الظاهر ظناً ،

ولكن فيما عرف من حال الخضر من حقه التوقف ريثما يعلم أنه ألم بمحظور أو مباح ،
ففي ذلك الوقت كان قلب العادة .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ

مَعِيَ صَبْرًا ﴾

كرر قوله : « إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ . . . » لأنه واقف بشرط العلم ، وأما في محل الكشف

فشرط عليه موسى عليه السلام فقال :

﴿ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا

فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي

عُذْرًا ﴾

بلغ عصبانه ثلاثاً ؛ والثلاثة آخرُ حدة القلة وأولُ حدة الكثرة ، فلم يجد المسأحة

بعد ذلك (٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ

اسْتَطَعَا أَهْلُهَا فَاَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا

فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ

فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ

أَجْرًا ﴾

(١) بياض في النسخة ، وزجج أن المفقود (عليه لوم) او مؤاخذه .

(٢) وردت (والناس) والسياق يتطلب (والناس) بالياء إذ جاء في الآية (. . . بما نسيت) .

(٣) قد تكشف هذه العبارة عن تصور التشبهي لأقصى درجات القنب القابل للتوبة .

كان واجبا في ملتهم على أهل القرية إطلاعها ، ولم يعلم موسى أنه لا جدوى من النكير عليهم ؛ بل كان أغفَى على ذلك ونهم إسكان أجسِن ؛

فلما أقام الخضر جدارهم ولم يطلب عليه أجراً لم يقل موسى إنك قُمتَ بمحذور ، ولكنه قال له : « لو شئت لتخنت عليه أجراً » ، أى إن لم تأخذ بسبيك فلو أخذت بسبينا لكان أخذك خيراً لنا من تركك ذلك ، ولئن وجبَ حقهم فلم أخلت بمقتنا ؟

ويقال إن سفره ذلك كان سفر تَأْدِيبَ فَرْدٍ إلى تَحْمِلِ المشقة ، وإلا فهو حين سقى لبنات شعيب فإن ما أصابه من التعب وما كان فيه من الجوع كان أكثر^(١) ، ولكنه كان في ذلك الوقت محولاً وفي هذا الوقت مُتَحَلِّلاً . فلما قال موسى هذا قال له الخضر :

﴿ قال هذا فراقُ بيني وبينك
سأنبئك بتأويل ما لم تستطع
عليه صبراً ﴾

أى بعد هذا فلا صحبة بيننا .

ويقال قال الخضر إنك نبي . . . وإنما أؤاخذك بما قُلتَ ، فانت شرطتَ هذا الشرط ؛ وقلتَ : إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ؛ وإنما أعاملك بقولك .

ويقال لما لم يصبر موسى معه في ترك السؤال لم يصبر الخضر أيضاً معه في إدامة الصحبة فاختار الفراق .

ويقال ما دام موسى عليه السلام سألَه لأجل الغير — في أمر السفينة التي كانت للمساكين ، وقتل النفس بغير حق — لم يفارقه الخضر ، فلما صار في الثالثة إلى القول فيها كان فيه حظٌ لنفسه من طلب الطعام ابتلي بالفرقة ، فقال الخضر : « هذا فراق بيني وبينك » .

ويقال كما أن موسى — عليه السلام — كان يحب صحبة الخضر لما له في ذلك من غرض الاستزادة من العلم فإن الخضر كان يحب ترك صحبة موسى عليه السلام إشاراً للخلو بالله عن المخلوقين .

(١) ومع ذلك لم يطلب أجراً ، ولم يفكر في ذلك البتة . . . لأنه كان بحق الله ؛ ولكنه في هذا الوقت كان متكلفاً ، فهو يفكر بحظ نفسه ، ولذا فكر في الأجر وطلب الطعام .

قوله جل ذكره : ﴿وَأَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ
يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدَتْ أَنْ أَعْيِبَهَا
وَكَانَ وِزَارُهُمْ مَلَكَ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ
غَصَبًا﴾

لما فارق الخضر موسى عليه السلام لم يُرد أن يبقى في قلب موسى شبه اعتراض ؛
فأزال عن قلبه ذلك بما أوضح له من الحال ؛ وكشف له أن السر في قصده من خرق السفينة
سلامتها وبقاؤها لأهلها حيث لن يطمع فيها الملك الغاصب ، فبقائه السفينة لأهلها — وهي
معية — كان خيراً لهم من سلامتها وهي منصوبة .

قوله جل ذكره . ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ
فَخَشِبْنَا أَنْ يَرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا *
فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ
رِزْقًا وَأَقْرَبَ رَحْمًا﴾

بين له أن قتل الغلام لما سبق به العلم مضى من الله الحكم أن في بقاءه فائدة لوالديه ،
وفي إبدال الخلف عنه سعادة لها .

قوله جل ذكره : ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ
فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ
أَبُوهُمَا صَالِحًا فَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا
أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً
مِنَ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ،
فَإِنَّكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ
صَبْرًا﴾

أما تسوية الجدار فلاستبقاء كنز الغلامين وترك طلب الرفق من الخلق .

قوله جل ذكره ﴿حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها
تطالع على قوم لم نجعل لهم من
دونها مثراً﴾ كذلك وقد أحطنا
بما لديه خيراً * ثم أتبع سيباً *

أقوام هم أهل مطلع الشمس الغالب عليهم طول نهارهم ، وآخرون كانوا من أهل
مغرب الشمس الغالب عليهم استنار شمسهم .. كذلك الناس في طلوع شمس التوحيد : منهم
الغالب عليهم طلوع شمسهم ، والحضور نعمهم والشهود وصفهم والتوحيد حقهم ، وآخرون لهم
من شمس التوحيد النصيب الأقل والقسط الأردل .

قوله جل ذكره : ﴿حتى إذا بلغ بين السدين وجد من
دونهما قوماً لا يكادون يفقهون
قولاً﴾ * قالوا ياذا القرنين إن ياجوج
وماجوج مفسدون في الأرض فهل
نجعل لك خراجاً على أن نجعل بيننا
وبينهم سداً * قال ما مكنت في
ربي خيراً فأعينوني بقوة أجعل
بينكم وبينهم ردماً *

أى ما كانوا يهتدون إلا إلى لسان أنفسهم ، وما كانوا يفقهون فقه غيرهم فلبثوا إلى
عبراتهم في شرح قصصهم ، ورفعوا إليه — في باب ياجوج وماجوج — مظلمتهم ،
وضمنوا له خراجاً يدفعونه إليه ، فأجابهم إلى سؤالهم ، وحقق لهم بغيباتهم ، ولم يأخذ منهم
ما ضمنوا له من الجباية ، لما رأى أن من الواجب عليه حق الحماية على حسب الكسنة .

قوله جل ذكره : ﴿آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى
بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا

جعله ناراً قال آتوني أفرغ عليه
فَطَرَا ﴿١﴾

استعان بهم في الذي احتاج إليه منهم من الإمداد بما قال : « آتوني زبر الحديد » فلما فعلوا ما أمرهم به ، ونفخوا فيه النار جبل السد بين الصدفين أي جانبي الجبل . ثم أخبر أنه إنما يبقى ذلك إلى أن يأذن الله له في الخروج ، وتندفع عن الناس عادية (....) (١) إلى الوقت المضروب لهم في التقدير .

وبعد ذلك يكون من شأنهم ما يريد الله . وبين — سبحانه — أن خروجهم من وراء سدّهم من أشراط الساعة .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ
عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ
سَمْعًا ﴾

نظروا بأعين رؤوسهم لأنهم فقدوا نظر القلب من حيث الاعتبار والاستدلال ، ولم يكن لهم سمع الإجابة لِمَا فقدوا من التوفيق ، فتوجه عليهم التكليف ولم يساعدهم التعريف .
قوله : « وكانوا لا يستطيعون سمعاً » : لأنهم فقدوا من قبله — سبحانه — الإسماع ؛ فلم يستطيعوا لهم القبول .

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا
عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا
جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴾

أي توهموا أنه ينفعهم ما فعلوه بحسب ظنهم ، واعتقدوا في أصنامهم استحقاق التعظيم ، وكانوا يقولون : « ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » (٢) ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون .

(١) مشتبه .

(٢) آية ٣ سورة الزمر .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ

أَعْمَالًا ﴾ الذين ضلّ سعيهم في الحياة

الدنيا ﴾

ضلّ سعيهم لأنهم عملوا لغير الله . . وما كان لغير الله فلا ينفع .

ويقال الذين ضلّ سعيهم هم الذين قرئوا أعمالهم بالرياء ، ووصفوا أحوالهم بالإعجاب ، وأبطلوا إحسانهم بالملاحظات أو بالتمنّ .

ويقال هم الذين يلاحظون أعمالهم وما منهم بعين الاستكثار (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ

صُنْعًا ﴾

لم يكونوا أصحاب التحقيق ، فعملوا من غير علم ، ولم يكونوا على وثيقة (٢)

قوله جل ذكره : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ

وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ

لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ زَنَانًا ﴾

عموا عن شهود الحقيقة فبقوا في ظلمة الجحد ، ففرقت بهم الأوهام والظنون ، ولم يكونوا

على بصيرة ، ولم تستقر قلوبهم على عقيدة مقطوعة بها ، فليس لهم في الآخرة وزن ولا خطر ، اليوم هم كالأنعام ، وغداً واقفون ساقطون (. . .) (٣) الأقدام .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا

وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوءًا ﴾

(١) ملاحظة الأعمال واستكثارها من أخطر دعاوى النفس ، كثيراً ما حذر منها أهل الملامة في نيسابور — موطن القشيري .

(٢) الوثيقة ما يضبط به الأمر ويحكم .

(٣) مشبهة ، وقد ضبطنا (الأقدام) بفتح الهمزة مراعاة للانسجام مع (الأسماء) على عادة القشيري في ضبط الموسيقى الداخلية للجمل وال فقرات ، ومع ذلك فإن صحة ضبطها تتوقف على معرفة الكلمة للمثبته .

هم اليوم في عقوبة الجحد ، وغداً في عقوبة الرد . اليوم هم في ذلّ الفراق ، وغداً في أليم الاحتراق .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾

لم جنات مُعجّلة سرّاً ، ولم جنان مؤجلة جهراً .
اليوم جنان الوصل وغداً جنان الفضل .
اليوم جنان العرفان وغداً جنان الرضوان .

قوله جل ذكره : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾

عرفنا — سبحانه — أن ما يخوّل له لم غداً يكون على الدوام ، فهم لا ينفكون عن أفضالهم ، ولا يخرجون عن أحوالهم ؛ فهم أبداً في الجنة ، ولا إخراج لهم منها . وأبداً لم الرؤية ، ولا حجاب لهم عنها (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾

أى لا تعدّ معاني كلمات الله لأنه لا نهاية لها ؛ فإنّ متعلقات الصفة القديمة لا نهاية لها ؛ كمعلومات الحق — سبحانه — ومقدوراته وسائر متعلقات صفاته .

والذى هو مخلوق (٢) لا يستوفي ما هو غير مُتناهٍ — وإن كثر ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَا إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾

(١) القشيري من الباحثين الذين يصرحون بالرؤية بالأبصار في الآخرة ، أما في الدنيا فيقول : الأقوى فيه أنه لا يجوز ، الرسالة ص ١٧٥ .

(٢) يفصد (البحر) إذا صار مداداً ؛ فالبحر يتناهى . وكلمات الله لا تنهى .

أَخْبِرْ أَنْتَ لَمْ مِنْ حَيْثُ الصُّورَةُ وَالْجَنْسِيَّةُ مُشَاكِلاً ، وَالْفَرْقُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ تَخْصِيصُ اللَّهِ
— سُبْحَانَهُ — إِيَّاكَ بِالرَّسَالَةِ ، وَتَرْكِهِ إِيَّاهُمْ فِي الْجِهَالَةِ .

ويقال : قل اختصاصي بما لي من (الاصطفاء)^(١) ، وإن كنا — أنا وأنتم —
في الصورة أكفاء .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ
عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ
رَبِّهِ أَحَدًا ﴾

حَلُّ الرِّجَاءِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى خَوْفِ الْعُقُوبَةِ وَرَجَاءِ الْمَثُوبَةِ حَسَنٌ ، وَلَكِنْ تَرَكْ هَذَا عَلَى
ظَاهِرِهِ أَوَّلَى ؛ فَالْمُؤْمِنُونَ قَاطِبَةً يَرْجُونَ لِقَاءَ اللَّهِ .

والعارف بالله — سُبْحَانَهُ — يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ وَالنَّظَرَ إِلَيْهِ

وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ الَّذِي بِوُجُودِهِ يَصِلُ إِلَى لِقَائِهِ هُوَ صَبْرُهُ عَلَى لَوَاعِجِ أَشْيَاقِهِ ، وَأَنْ يُخْلِصَ
فِي عَمَلِهِ .

« وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ » : أَيْ لَا يُلَاحِظُ عَمَلَهُ ، وَلَا يَسْتَكْبِرُ طَاعَتَهُ ، وَيَتَبَرَأُ مِنْ
حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ .

ويقال العمل الصالح هنا اعتقاد (وجود الصراط ورؤيته وانتظار وقته)^(٢)

(١) هنا كلمة منبهة في الخط ، فوضنا كلمة (الاصطفاء) من عندنا فهي أليق بالمعنى والسياق .
(٢) هكذا في م وليس واضحاً هودة الضمير في (رؤيته) هل هي على الصراط أم على الحق . فنحن
نعلم أن القشيري شافعي من حيث مذهب الفقه ، ونعلم كذلك أن الشافعي يقول : لو علم ابن إدريس
أنه لا يرى ربه يوم القيامة ما عبده .

انتهت سورة الكهف بهذا التذييل في النسخة من .

[ثم يقول الله تعالى وحسن توفيقه نصف أول از تفسير

محقق إمام أبو قاسم القشيري رحمه الله عليه بتاريخ ١٢ شهر شوال سنة ١١٣٤] .

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

سورة مريم عليها السلام

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

بسم الله ، اسم عزيز من عبده واصل جهاده ، ومن طلبه ودع سادته ، ومن عرفه
أنكر أحبابه . ومن أسر له أوقفه على محبته .

من ذكره لیسى اسمه ، ومن شهدته فقد عقله ولبّه (١) .

اسم عزيز جُبلت القلوب على محبته ، وكل قلب لبس يوقفه على محبته ، فليس
بجيلة يصل .

اسم ما اتمصت أشباح الأبرار إلا بعبادته ، وما اعتكفت أرواح الأحرار إلا
بمشاهدته .

اسم عزيز من عرفه اعترف أنه وراء ما وصفه .

قوله جل ذكره : ﴿ كَتَمَ بَیْض ﴾

تعريف للأحباب بأسرار معاني الخطاب ، حروف خص الحق المخاطب بها
بفهم معانيها ، وإذا كان للأخيار مماتها وذكرها ، فللرسول — عليه السلام —
فهمها وسيرها .

ويقال أشار بالكاف إلى أنه الكافي في الإنعام والانتقام ، والرفع والوضع على
ما سبق به القضاء والحكم .

(١) المقصود بفقد العقل واللب هنا غيبة التمييز في حال الشهود .

ويقال في الكاف تعريفٌ بكونه مع أوليائه ، ونخويفٌ بخفي مكره في بلائه .
ويقال في الكاف إشارة إلى كتابته الرحمة على نفسه قبل كتابة الملائكة الزلزلة
على عبادہ .

والهاء تشير إلى هدايته المؤمنين إلى عرفانه ، وتعريف خواصه باستحقاق بجلال سلطانه ،
وماله من الحق بحكم إحسانه .

والياء إشارة إلى يُسرِ نعمه بعد عُسْرِ محنِه . وإلى يده المبسوطة بالرحمة للمؤمنين
من عبادہ .

والعين تشير إلى علمه بأحوال عبده في سيره وجهره ، وقُله وكُثره ، وحاله ومآله ،
وقدر طاقته وحق فاقته .

وفي الصاد إلى أنه الصادق في وعده .

قوله جل ذكره : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾
تخصيصه إياه بإجابته في سؤال ولده ، وما أراد أن يتصل بأعقابه من تخصيص القربة له
ولجميع أهله .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ خَفِيًّا ﴾ .
وإنما ذلك لئلا يطلع أحدٌ على سير حاله فأخفى نداءه عن الأجانب وقد أمكنه أن يخفيه
عن نفسه بالتعamy عن شهود محاسنه ، والاعتقاد بالسوء في نفسه ، ثم أخفى سيره عن الخلق لئلا
يبيع لأحدٍ إشرافه على حاله ، ولئلا يشمت بمقالته أعداؤه .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ رَبُّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي
واشتعل الرأسُ شيبًا ﴾ .

أى لقيتُ بضعفى عن خدمتك ما لا أحبه ؛ فطعنتُ فى السنِّ ، ولا قوة بعد المشيب ؛
فهب لي ولدًا ينوب عني فى عبادتك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ .
أى إني أسألك وثاقًا بإجابتك ؛ لعلنى بأنى لا أشقى بدعائك فأنتك نجيبٌ أن تُسأل .

ويقال إنك عودتني إجابة الدعاء ، ولم تردني في سالف أيامي إذا دعوتك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي
وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ
لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ يرثني ويرث من آل
يعقوب واجعله رب رَضِيًّا ﴿ .

إني خِفْتُ أَنْ تذهب النبوة من أهل بيتي ، وتنقل إلى بني أعمامى فهب لي ولداً يعبدك ،
ويكون من نسلِي ومن أهلي .

وهو لم ير ذ الولد بشهوة الدنيا وأخذ الحظوظ منها ، وإنما طلب الولد ليقوم بحق الله ،
وفي قوله : « يرثني » دليل على أنه كما سأل الولد سأل بقاء ولده ؛ فقال : ولداً يكون وارثاً لي ؛
أى يبقى بعدي ، ويرث من آل يعقوب النبوة وتبليغ الرسالة .

واجعله رب رَضِيًّا : رَضِيََ فاعيل بمعنى مفعول أى ترضى عنه فيكون مَرْضِيًّا لك . ويحتمل
أن يكون مبالغة من الفاعل أى راضياً منك ، وراضياً بتقديره .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى
لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ .

أى استجبنا لدعائك ، ونرزقك ولداً ذَكَرَّا اسْمُهُ يَحْيَى ؛ يحيى به عُقْرَةُ أُمِّه ، ويحيى به
نَسَبُكَ ، ويحيى به ذِكْرُكَ ، وما سألت من أن يكون نائباً عنك ؛ فيحيى به محلُّ العبادة والنبوة
في بينك .

﴿ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ : انفراده — عليه السلام — بالتسمية يدل على انفراده بالفضيلة ؛
أى لم يكن له سَمِيٌّ قَبْلَهُ ؛ فلا أَحَدَ كُفُوٌ لَهُ في استجماع أوصاف فضله .

ويقال لم نجعل له من قبل نظيراً ؛ لأنه لم يكن أحد لا ذنب له قَبْلَ النبوة ولا بعدها
غيره (١)

(١) هذا رأى في مذهب القشيري الكلامي يتصل بنضية هامة ؛ هل يكون من النبي ذنب ؟

أى فلما خرج عليهم عرفهم — من طريق الإشارة^(١) — أن اللسان الذى كان يخاطبهم به ليس الآن منطلقاً .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا بَحِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيحًا * وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴾

أى قلنا له يا بحى خذ الكتاب بقوة مناً ، خَصْمُكَ بِهَا . . لا قوة يدي ولكن قوة قلب ، وذلك خيرٌ خَصَّهُ اللهُ تعالى به وهو النبوة .

ودلت الآية على أنه كان من الله له كتاب .

« وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيحًا » أى النبوة ، بَعَثَهُ اللهُ بِهَا إِلَى قَوْمِهِ ، وَأَوْحَى إِلَيْهِ وَهُوَ صَبِي .
ويقال الحكم بالصواب والحق بين الناس .

ويقال الحكم هو إحكام الفعل على وجه الأمر .

قوله « وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا . . . » أى آتيناه رحمة من عندنا ، وطهارة وتوفيقاً لمجاولات التقوى وتحقيقاً لموهوباتها ؛ فإن التقوى على قسمين : مجموع ومجلوب يتوصل إلى العبد بِتَكْلُفِهِ وَتَعَلُّفِهِ ، وموضوع من الله تعالى وموهوب منه يصل إليه العبد بِبَذْلِهِ سُبْحَانَهُ وَبِفَضْلِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَبِرَّآ يُوَالِدِيهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾

« وَبِرَّآ يُوَالِدِيهِ » كأمر الله — سبحانه — له بذلك لا لمودّة البشر وموجب عادة الإنسانية . ولم يكن متمرداً عن الحق ، جاحداً لرؤيته .

قوله جل ذكره : ﴿ وَوَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾

أى له منّا أمان يوم القيامة ، ويوم ولادته في البداية ، ويوم وفاته في النهاية ، وهو أن يصونه عن الزيف والعوج في العقيدة بما يشهده على الدوام من حقيقة الإلهية .

(١) كأنما يقصد القسبرى إلى بيان أن الإشارة تنفى عن العبارة وأنها بأمر إلهى .

وكذلك هو في القيامة له منه — سبحانه — الأمان ؛ فهو في الدنيا معصوم عن الزلة .
محفوظ عن الآفة . وفي الآخرة معصوم عن البلاء والمحنة .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ مَرِيماً إِذِ انْتَبَهَتْ
مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ
مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا
رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا *

اعتزلت عنهم لتحصيلٍ يطهرها ، فاستترت عن أبصارهم .
فلما أبصرت جبريل في صورةٍ إلهيةٍ لم تتوقعه أَحَسَّتْ في نفسها رُعباً ، ولم تكن لها
حيلةٌ إلا تخويفه بالله ، ورجوعها إلى الله .

قوله جل ذكره: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ
كُنْتُ نَقِيًّا *

قالت مريمُ لجبريل — وهي لم تعرفه — إني أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ مِمَّنْ يَجِبُ
أَنْ يُخَافَ وَيُتَّقَى مِنْهُ ؛ أَيِ إِنْ كُنْتُ تَقْصِدُ السُّوءَ . ومعنى قولها « بِالرَّحْمَنِ » ولم تقل :
« بِاللَّهِ » — أَيِ بِالَّذِي يَرْحَمُنِي فَيَحْفَظُنِي مِنْكَ .

ويقال يحتمل أن يكون معناه : إِنْ كُنْتُ تَعْرِفُ اللَّهَ وَتَكُونُ مُتَّقِيًا مُخَالَفَةً أَمْرِهِ فَأِنِّي أَعُوذُ
بِاللَّهِ مِنْكَ وَأَحْذَرُ عَقُوبَتَهُ .

قوله جل ذكره . ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ
لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا *

تعرف جبريلُ إليها بما سَكَنَ رَوْعُهَا ، وَقَرَنَ مَقَالَتَهُ بِالتَّبَشِيرِ لَهَا بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ
يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ
كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ

ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان
أمرًا مفضيا ﴿

قالت أنى يكون لى ولدٌ ولم أَلِمْ بِزَلَةٍ ولا فاحشة ؟ فقال جبريلُ — عليه السلام — :
الأمْرُ كما قلتُ لك ؛ فلا يتعصى ذلك على الله تعالى ؛ إذ هو أقدرُ أن يجعل هذا الولدَ
دلالةً على كمال قدرته ، ويكون هذا الولدُ رحمةً منه — سبحانه — لمن آمن ، وسببَ
جهلٍ للآخرين .

قوله جل ذكره : ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَهَتْ بِهِ مَكَانًا
قَصِيًّا ﴾

لما ظهر بها الحملُ ، وعلمتُ أن الناسَ يستبعدون ذلك ، ولم تَشُقْ بأحدٍ نُفْسِي
إليه سِرًّا . . مَضَتْ إلى مكانٍ بعيدٍ عن الخلق .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ
قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ
نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴾

أَلْجَأَهَا وَجَعُ الْوِلَادَةِ إلى الاعتمادِ إلى جِذْعِ النَّخْلَةِ . ولما أخذها الطَّلُقُ ، ودَاخَلَهَا
الْخَلْجُ مِنْ قَوْمِهَا نَطَقَتْ بِلِسَانِ الْعَجْزِ ، وقالت : « يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا » .
ويقال بحمل أنها قالتها إشفاقًا من قومها ، لأنها علمت أنهم سيضطرون لسانَ اللامَةِ
فيها بِلِسَانِ الْفُجْرِ ؛ وينسبونها إلى الفحشاء .

ويقال قالتها شفقةً على قومها لتلا تُصِيبَهُمْ بِسَبَبِهَا عَقُوبَةٌ .

ويقال قالت : « يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا » حتى لم أسمع من قال في الله تعالى بسببي إن عيسى
ابن الله وابن مريم ، وابن مريمَ زوجته . . . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً !

ويقال « يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا » : في الوقت الذي كنتُ مرفوقاً بى ، ولم تستقبلنى
هذه الخشونةُ في الحالةِ التى كَلِمْتُنِي .

ويقال « ياليتنى ميتٌ قبل هذا » : فى الوقت الذى لم يكن قلبى متعلقاً بسبب .

قوله جل ذكره : ﴿ فناداها من تحتها ألاَّ تَحْزَنِي قَدْ
جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝ ^(١) ﴾

فى التفسير أن المَعْنَى بقوله « من تحتها » : جبريل عليه السلام ، وقيل عيسى عليه السلام .
والمقصودُ منه تسكينُ ما كان بها من الوحشة ، والبشارة بعيسى عليه السلام ، أى برزقك
الله ولداً سرّياً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهَؤُلَاءِ إِلَيْكَ يَجِدُ النُّخْلَ تَسْاقِطُ
عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ۝ ﴾

وكان جندعاً يابساً أخرج الله تعالى منه فى الوقت الثمرة ، وهى الرطبُ الجنى ، وكان
فى ذلك آية ودلالة لها ؛ فالذى قدر على فعل مثل هذا قادر على خلق عيسى — عليه السلام —
من غير أب .

ويقال عندما كانت مُجَرَّدَةً بلا علاقة ، فقد كان زكريا — عليه السلام — يَجِدُ عندها
رزقاً من غير أن أُمِرَتْ بتكلف ، فلما جاءت علاقة الولدِ أُمِرَتْ بهزُّ النخلة اليابسة —
وهى فى أضعف حالها ؛ زمان قرب عهدها بوضع الولد ، لِيُعْلَمَ أَنَّ العلاقةَ توجبُ
العناء والمشقة .

ويقال بل أُمِرَتْ بهزُّ النخلة اليابسة ، وكان تمسكُها من ذلك أوضح دلالة على صدقها
فى حالها .

ويقال لما لم يكن لها فى هذه الحالة مَنْ يقوم بتعهدِها تولى الله تعالى كفايتها ؛ لِيُعْلَمَ
العالمون أنه لا يضيع خواصُّ عبادِهِ فى وقت حاجتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ،

- (١) السرى = السيد الكريم ، وقيل هو نهر صغير أو جدول .

فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا ،
فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا
فَلَنْ أَكَلَّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿١٠﴾

كفاها أسباب ما احتاجت إليه من أكلها وشربها ، وسكن من خوفها ،
وطيب قلبها .

« فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا » : فلا تخاطبيهم وعرفيهم - بالإشارة - أَنَّكَ نَذَرْتَ
لِلرَّحْمَنِ الصَّوْمَ مع الخلق ، وَتَرَكِ الْخَاطِبَةَ معهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا :
يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿١١﴾
يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأًا
سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَيْتًا ﴿١٢﴾

بسط قومها فيها لسان الملامة لما رأوها قد ولدت - وظاهر الحال كان معهم -
فقالوا لها على سبيل الملامة : يَا مَنْ كُنَّا نَعُدُّكَ فِي الصَّالِحِينَ بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ الْمَعْرُوفِ بِالصَّدَقِ
وَالصَّالِحِ .. مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذِهِ الْحَالَةُ الشَّعَاءُ ؟

ويقال كان أخوها اسمه هارون : ويقال كان هارون رجلاً فاسقاً في قومهم ، فقالوا :
يَا شَيْئَةً فِي الْفَسَادِ .. مَا هَذَا الْوَلَدُ ؟

ويقال كان هارون رجلاً صالحاً فيهم فقالوا : يَا أُخْتَ هَارُونَ ، وَيَا مَنْ فِي حِسَابِنَا
وَعُظْمَانَا مَا كَانَ أَبُوكَ فِيهِمَا سَوْءًا وَلَا فُسَادًا .. كَيْفَ أَتَيْتِ بِهِ هَذِهِ السَّكْبِيرَةَ الْفَظِيحَةَ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ
مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿١٣﴾

في الظاهر أشارت إلى الولد ، وفي الباطن أشارت إلى الله ، فأخذهما ما قرب وما بعد
وقالوا : كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ هُوَ أَهْلُ بَنَانٍ يُنَوَّمُ فِي الْمَهْدِ ؟

فـ « كان » هاهنا في اللفظ صلة .. وحلوا ذلك منها على الاستهانة بفعلتها .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ
وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾

لما قالوا ذلك أنطق الله عيسى حتى قال : إني عبد الله ، فظهرت براءة ساحتها بكلام
عيسى قبل أن يتكلم مثله . وجرى على لسانه حتى قال : إني عبد الله ؛ ليقال للنصارى
إن صدق عيسى أنه عبد الله بطل قولكم إنه ثالث ثلاثة ، وإن كذب فالكذب يكذب
لا يكون ابناً لله ، وإنما يكون عبداً لله ، وإذا لم يكن عبداً هوواه ، ولا في أسر شيء سواه
فمن تحرر من غيره فهو في الحقيقة عبده .

« وآتاني الكتاب » : أي سيؤتيني الكتاب أو آتاني في سابق حكمه .

« وجعلني نبياً » بفضله . وفي الآية ردٌّ على من يقول إن النبوة تستحق بكثرة
الطاعة لأنه قال ذلك في حال ولادته ؛ ولم تكن منه بعد عبادة وأخبر أن الله جعله نبياً^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَا كُنْتُ
وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ
حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي
جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾

أي نافعاً للخلق يرشدهم إلى أمور دينهم ، ويمنعهم من ارتكاب الزلة التي فيها هلاكهم ،
ومن استضاء بنوره نجا . فهذه بركاته التي كانت تصل إلى الخلق . ومن بركاته إعانة
الملهوف ، وإعانة الضعيف ، ونصرة المظلوم ، ومواساة الفقير ، وإرشاد الضال ، والنصيحة
للخلق ، وكف الأذى عنهم وحمل الأذى منهم .

« وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً » أي لم يجعلني غيراً قابلي للنصيحة .

(١) في موضع آخر حاول القشيري أن يوضح ضرورة استقلال عمل الإنسان والنظر إليه بعين الاستفاد
رغبة منه في ربط كل شيء بالفضل والاجتهاد الإلهيين ، فاستشهد بأن عيسى صار نبياً — وهو بعد لم تكن منه
طاعة ولا عمل .

ويقال « شقياً » : أى متكبراً متعجباً . ويقال مخنوماً بكُفْرٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾

قال عيسى عليه السلام : « والسلام على » ، وقال لبنينا عليه السلام ليلة للمراج : « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » . . فشتان ما هما !

والسلام بمعنى السلامة ، أى سلامة لى يوم الولادة مما نسبوا إلى من قول النصارى في مجاوزة الحد في المدح ، ومما وصفنى به اليهود من الذم^(١) ، فقلت كما قالت الطائفتان جميعاً .

وسلام على يوم أموت ؛ ففي ذلك اليوم تكون لى سلامة حتى تكون بالسعادة وفانى .
وسلام على يوم أبعث ؛ أى سلامة لى في الأحوال مما يُبْتَلَى به غير أهل الوصال .
قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾

أى الذى قال ما أخبر الله عنه هو عيسى ابن مريم . . . أيسكون بقول إله ؟
وقد شك فيه أكثر المخلوق فرده قوم وقبيلة قوم ، والفرق بينهما في استحقاقه^(٢) .
وقوله : « قول الحق » أى يكون بقوله الحق وهو :

قوله جل ذكره : ﴿ مَا كُنْ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴿

لا يجوز أن يكون له ولد على الحقيقة ؛ لأنه واحد ، والولد بعض والده .

(١) فقد اتهم اليهود أمه بالزنا .

(٢) أى في نصيبه من الحق الفارق بين الرد والقبول .

ولأنه لا داعي له إلى صحبة زوجة فيكون له ولد على الحقيقة . ولا يجوز عليه التنبؤ لأحد لعدم الجنسية بينهما .

وقوله : « وإذا قضى أمراً . . . » إذا أراد إحداث شيء خلقه بقدرته ، وخاطبته بأمر التكوين^(١) ، ولا يتعمى عليه — في التحقيق — مقدور .

« وإن الله ربى وربكم » أى أمرنى بأن تعلموا ذلك ؛ وأمرنى بتبليغ رسالتى ، واتباع ما شرع الله من العبادات .

قوله جل ذكره : ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾

فَمَنْ عُجِنَتْ بِمَاءِ السَّعَادَةِ طِينَتُهُ أُطْلِعَ فِي عَاجِلِهِ وَمَا ضَاعَ فِي آجِلِهِ ، وَمَنْ أَقْصَمَتِ الْقِسْمَةُ السَّابِقَةَ لَمْ تُدْنِهِ الْخِدْمَةُ الْلاحِقَةُ ، وَسَيَلْقَوْنَ غِيبَ هَذَا الْأَمْرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتَنَّاكَ مِنَ الظَّالِمِينَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

صير معارفهم ضرورية ، وأحوالهم كلها معكوسة ، والحجة تناكده عليهم ، والحاجة لا تُسمعُ منهم ، والرحمة لا تتعلق بهم ، فلا تُرْحَمُ شكائهم ، ولا يُسْمَعُ نِداؤهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

تقوم الساعة بغتة ، وتصادفهم القيامة وهم غير مستعدين لها فيتحسرون على ما فاتهم . ويقال يوم الحسرة يوم القسمة حين سبقت لقوم الشقاوة — وهم فى محو العدم ، ولآخرين السعادة — وهم بنعت العدم ، ولم يكن من أولئك جرّم بعد ، ولا من هؤلاء وقاق بعد .

(١) أى كن ليكود .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّا نَحْنُ ثَرِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا
وإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾

يريد به إذا قبضَ أرواحَ بنى آدم بجملتهم ، ولم يبقَ على وجه الأرض منهم واحدٌ ،
وليس يريد به استحداثُ مُلكِهِ ، وهو اليومَ مالكُ الأرضِ وَمَنْ عَلَيْهَا ، ومالكُ الكونِ
وما فيه .

ويقال إن زكريا قال — لما سأل الولد : « يرثني ويرث من آل يعقوب » وقال تعالى
في صفة بنى إسرائيل : « كُنْتُمْ وَأَوْرَثْنَاها بنى إسرائيل »^(١) وقال : « إِنْ الْأَرْضُ لِلَّهِ
يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ »^(٢) ، ولما انتهى إلى هذه الأمة^(٣) قال : « إِنَّا نَحْنُ ثَرِثُ الْأَرْضِ
وَمَنْ عَلَيْهَا » . . فشتان بين مَنْ وَاثَرُهُ الْوَلَدُ وبين مَنْ وَاثَرُهُ الْأَحَدُ !
ويقال هان على العبد للسلم إذا مات إذا كان الحقُّ وَاثَرُهُ . . وهذا مخلوق يقول
في صفة مخلوق :

فَإِنْ يَكُ عَنَابٌ مَضَى لِسَبِيلِهِ فَمَا مَاتَ مِنْ يَبْقَى لَهُ مِثْلُ خَالِدٍ

وقال تعالى : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءُ »^(٤) لماذا ؟ لأنَّ
وَاثَرَهُمُ اللَّهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ
كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾

الصِّدِّيقُ الكثير الصدق ، الذي لا يهازج صِدْقَهُ شوبٌ .

ويقال هو الصادق في أقواله وأعماله وأحواله .

ويقال الصِّدِّيقُ لا يَنَاقِضُ سِيرَهُ عِلْمُهُ .

(١) آية ٥٩ سورة الشراء .

(٢) آية ١٢٨ سورة الأعراف .

(٣) يقصد أمة المصطفى صلوات الله عليه وسلامه .

(٤) آية ١٦٨ سورة آل عمران .

ويقال هو الذي لا يشهد غير الله مثبتاً ولا نافياً .

ويقال هو المستجيب لما يطالب به جملة وتفصيلاً .

ويقال هو الواقف مع الله في عموم الأوقات على حد الصدق .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ

مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا

سَوِيًّا ﴾ .

دلَّت الآيةُ على استحقاق المعبود الوصفَ بالسمع والبصر على الكمال دون نقصان فيه ، وكذلك القول في القدرة على الضر والنفع .

وإذا رجع العبدُ إلى التحقيق عليمٌ أن كلَّ انخلق لا تصلحُ قدرةٌ واحدٍ منهم للإبداع والإحداث ، فمن علّق قلبه بمخلوق ، أو توهم شظية منه من النفي والإثبات فقد ضاها عبادة الأصنام .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ

مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا

سَوِيًّا ﴾ .

أمره باتباعه لما ترجح عليه جانبه في كونه الحق معه — وإن كان أكبر منه مينةً ، وبين أن الخلاص في اتباع أهل الحق ، وأن الهلاك في الابتداع والتطويع في مغالطة الطرق .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ

كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ .

بين أن العلة في منعه من عبادة الشيطان عصيانه للرحمن فبان أنه لا ينبغي أن تكون طاعة لمن يعصى الله بحال .

ويقال أساس الدين هجران أرباب العصيان .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ

مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ .

لم ينادِرْ الخليل شيئاً من الشقة على أبيه ، ولم ينفعه جيل وعظه ، ولم تنجع فيه كثرة نصحه ، فإن من أقصته سوابق التقدير لم تخلصه لواحق التدبير .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾
منه إبراهيم بجمل العقبي ، فقابله بنوعه العقوبة فقال :

﴿ لَنْ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجُكَ وَاهْجُرْنِي
مَلِيًّا ﴾ .

فأجابه الخليل بمقتضى سكون البصيرة فقال :

﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ
رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ .

وهذا قبل أن يئس من إيمانه ، إذ كانت لديه بقية من الرجاء في شانه ، فلما تحقق أنه مختوم له بالشقاوة قال له :

﴿ وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَلَّا
أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ .

« ما تدعون » : أي ما تعبدون ، « وأدعو ربي » : أي أعبد .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا
جَعَلْنَا نَبِيًِّّا ﴾ .

لما أيس من أصله آله الله بما أكرمه من نسله ، فأنبتهم نباتاً حسناً ، ووزقهم النبوة ،
ولسان الصدق بالذكر لم على الدوام^(١) فقال :

(١) وربما يشير القسري بذلك إلى : (الصلاة على إبراهيم وعلى آل إبراهيم) في تشهد كل صلاة .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا
لَهُم لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ
كَانَ مُخْلِصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾

مُخْلِصًا خَالصًا لِلَّهِ ، وَلَمْ يَكُنْ لغيره بوجهٍ ؛ فلم تأخذه في الله لومةُ لائمٍ ، ولم يستفزه طمع
نحو إيثار حظٍّ ، ولم يُفَضِّ في الله على شيء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ
وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ .

لِلنَّجْوَى مزية على النداء ، فجمع له الوصفين : النداء في بدايته ، والسماع والنجوى في نهايته ؛
فوقفه الحقُّ وناداه ، وفي جميع الحالين تولاه .

« من جانب الطور » : ترجع إلى موسى فموسى كان بجانب الطور^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ .

من خصائص موسى أنه وهب له أخاه هارون نبياً .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ

كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا

نَبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ

وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ .

كان صادق الوعد إذ وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه^(٢) ، وصبر على ذلك إلى أن ظهر

الفداء . وصدق الوعد لأنه حفظ العهد . وكان يأمر أهله بالصلاة — بأمر الله إياه — وبالزكاة ،

ويشتمل هذا على ما أمره إياهم بالعبادة البدنية والمالية حينما وكيفما كان .

(١) بهذا يتجنب القشيري مرقاً خطراً فلا يكون النداء الإلهي من جهة . وعلى هذا تكون (وقربناه)

تقريب مكانة لا مكان .

(٢) من هذه الإشارة نعرف أن القشيري يرى أن إسماعيل — لا إسحاق — هو مدار قصة

الذبح والفداء .

« وكان عند ربه مرضيا » وكان هذا أشرف إخصاله وأجل صفاته .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبيّاً ﴾ * ورفناه مكاناً عليّاً * .

الصديق كثير الصدق ، لا يشوب صدقه مدق^(١) ، ويكون قائماً بالحق للحق ، ولا يكون فيه نفس لغير الله .

« ورفناه مكاناً عليّاً » : درجة عظيمة في التربية لم يساوه فيها أحد .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ومن هدّينا وإجتبينا إذا تُتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سُجّداً وبُكياً ﴾

أقامهم بشواهد الجمع ، وأخبر أن منته كرامة في تخصيصهم بأحوالهم ، وتأهيلهم لِمَا رَقَّام إليه من اللآل ، وأنه بفضل اختارهم واجتباهم ، ومما أنعم به عليهم من الخصائص رِقَّة قلوبهم ؛ فهم إذا تُتلى عليهم الآيات سجدوا ، وسجود ظواهرهم يدل على سجود سرائرهم بما حقق لهم من شواهد الجمع ، وأماره صحته ما وفقهم إليه من عين الفرق ؛ فبوصف التفرقة قاموا بحق آداب العبودية ، وبنعت الجمع تحققوا بحقائق الربوبية^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا

(١) مَدَقَّ اللبن والعراب بالماء مَذَقًا أي مَزَجَهُ وَخَلَطَهُ ، ومدق الود أي شابه ولم يخالطه .

(٢) هنا من أشد البراهين نصاعة على تمسك القشيري بالشرعية ؛ فإن صدق العبد في التوجه أمارته أن يكون محفوظاً — من رقبَل الحق — كي يؤدي فرائض الشرع .

الصلاة والتبُّعوا الشهوات فسوف
يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿١﴾

الذين حادوا عن طريقهم ، وضيعوا حق الشرع ، وتخطوا واجب الأمر ، وزاغوا عن
طريق الرشد ، وأخلوا بآداب الشرع ، وانخرطوا في سلك متابعة الشهوات — سيلقون عن
قريب ما يستوجبونه ، ويُعَامَلُونَ بما يستحقونه .

قوله جل ذكره : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا
فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ
شَيْئًا ﴾ جنات عدن التي وعد الرحمن
عباده بالغيب إنه كان وعده مأتياً
﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ﴾

فأولئك الذين تداركهم الرحمة الأزلية ، وسيبقون في النعم السرمدية . يستنجز الحق
لهم عدايتهم ، ويوصلهم إلى درجاتهم ، ويحقق لهم ما وعدهم .
« إنه كان وعده مأتياً » : لأن ما أُتِيَتْه فقد أتاك أو ما أتاك فقد أُتِيَتْه ^(١) .

« لا يسمعون فيها لغواً » : فإن أسمعهم مصوتة عن سماع الأغيار ، لا يسمعون
إلا من الله وبالله ، فإن لم يكن ذلك فلا يسمعون إلا الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَمْ يَرْزُقْهُمْ فِيهَا بُكَرَةً وَعَشِيًّا ﴾
كانوا يعمدون من عنده طعام البكرة والعشية من جملة اللباس والأغنياء لكونهم
فقراء ، وإن وجدوا غداءهم ففي الغالب يعمدون عشاءهم ، وإن وجدوا عشاءهم فقلما كانوا
يوجدون غداءهم . ويقال في « لم ما يشتهون فيها » : بمقدار الغدو والعشى من الزمان في الجنة
أي كالوقت . ثم إن الأرزاق تختلف في الجنة ؛ فللأشباح رزق من مطعوم ومشروب ،
وللأرواح رزق من سماع وشهود ، ولكي — على قدر استحقاقه — قسط معلوم .

قوله جل ذكره : ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا
مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾

(١) أي أن (مأتياً) إما اسم مفعول ، أو اسم مفعول بمعنى اسم الفاعل مثل مجروح وجريح .

فَالْجَنَّةُ لِلْآتِقِيَاءِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ مُعَدَّةٌ لَهُمْ ، وَالرَّحْمَةُ لِمُصَاةِ الْمُسْلِمِينَ مُدْخَرَةٌ لَهُمْ . الْجَنَّةُ لُطْفٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالرَّحْمَةُ وَصَفُ اللَّهِ تَعَالَى . وَقَوْلُهُ : « مِنْ عِبَادِنَا » : فَعَبْدُهُ عَلَى الْخُصُوصِيَّةِ مَنْ كَانَ الْيَوْمَ فِي قَيْدِ أَمْرِهِ . وَقَوْلُهُ : « مَنْ كَانَ تَقِيًّا » : قَوْمٌ يَتَّقُونَ الْمَعَاصِيَ وَالْمُخَالَفَاتِ ، وَقَوْمٌ يَتَّقُونَ الشَّهَوَاتِ ، وَآخَرُونَ يَتَّقُونَ الْفَلَاتِ ، وَآخَرُونَ يَتَّقُونَ شَهُودَ كُلِّ غَيْرٍ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾

إِنَّ الْمَلَائِكَةَ — عَلَيْهِمُ السَّلَامُ — أَبَدًا يَنْزِلُونَ بِإِذْنِ الْحَقِّ تَعَالَى ، فبَعْضُهُمْ بِإِنْجَادِ الْمَظْلُومِينَ ، وَبَعْضُهُمْ بِإِغَاثَةِ الْمَلْهُوفِينَ ، وَبَعْضُهُمْ بِتَدْمِيرِ الْجَا حِدِينَ ، وَبَعْضُهُمْ بِنَصْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَبَعْضُهُمْ إِلَى مَا لَا يَخْصِي مِنْ أُمُورِ النَّاسِ أَجْمَعِينَ . وَاللَّهُ — مَبْحَا نُهُ — لَا يَتْرُكُ جَا حِدًا وَلَا عَابِدًا مِنْ حِفْظٍ وَإِنْعَامٍ ، أَوْ إِمْهَالٍ وَنَسْكَالٍ . . .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾

بِحَقِّ الْإِظْهَارِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ هُوَ رَبُّهَا ، وَيَكُونَ مَالِكُهَا ، وَيَكُونَ قَادِرًا عَلَيْهَا . وَإِذَا وَجَدْتَ فَهُوَ فَاعِلُهَا ، فَمَعْنَى كَوْنِ فَعْلِ الشَّيْءِ لِفَاعِلِهِ أَنَّهُ فِي مَقْدُورِهِ وَجُودِهِ . وَيُقَالُ إِذَا كَانَ رَبُّ الْأَكْبَرِ مِنَ الْأَقْوِيَاءِ فَهُوَ أَيْضًا رَبُّ الْأَصَاغِرِ مِنَ الضَّعَفَاءِ ، وَقِيَّةُ الْعَبْدِ بِمَالِكِهِ وَقَدْرِهِ^(١) ، لَا بِشَيْءٍ فِي نَفْسِهِ وَخَطَرِهِ .

قَوْلُهُ : « فَاعْبُدْهُ » أَيِ قِفْ حِينَئِذٍ أَمْرَكَ ، وَدَعْ مَا يَفْعَلُكَ ، وَخَلِّ رَأْيَكَ وَتَدْبِيرَكَ . قَوْلُهُ : « وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ » : الْإِصْطِبَارُ غَايَةُ الصَّبْرِ .

قَوْلُهُ : « هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا » : أَيِ كَفَرُوا وَنَظَرُوا . وَيُقَالُ هَلْ تَعْرِفُ أَحَدًا يُسَمَّى « اللَّهُ » غَيْرَ اللَّهِ ؟ وَيُقَالُ أَتَى بِالنَّظِيرِ . . . وَهُوَ بِالْقَدَمِ مُتَوَحِّدٌ ! وَالتَّشْبِيهُ يَقْتَضِي التَّسْوِيَةَ بَيْنَ الْمُتَشَابِهِينَ ، وَلَا مِثْلَ لَهُ . . . لَا مُوجُودًا وَلَا مُوْهُومًا .

(١) أَيِ قَدْرِ هَذَا الْمَالِكِ

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَغْنَا مَمَاتٍ لِّسَوْفٍ
أُخْرِجُ حَيًّا ۚ أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ
أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ۚ ﴾

أنكروا حديث البعث غاية الإنكار ، فأقام الحجة عليهم بالنشأة الأولى ، فقال : إن الذي
قدر على خلق الخلق في الابتداء ولم نطف ضمفاه ، وقبل كانوا في أصلاب الآباء وأرحام
الأمهات ففطرهم ، وعلى ما شاء صورهم ، وفي الوقت الذي أراد — عن (١) بطون
أمهاتهم أخرجهم .

قوله : « ولم يك شيئاً » فيه دليل على صحة أهل البصائر أن المعدوم لم يك شيئاً في حال
عدمه (٢) .

ويقال أبطل لهم كل دعوى حيث ذكرهم نسبهم وكوّنهم من العدم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَوَرَبُّكَ لَنُنْخِشُنَّهُمُ وَالشَّيَاطِينَ
ثُمَّ لَنَنْحِضَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۚ ﴾

نخشرهم جميعاً فيجتمعون في العرصة (٣) . ثم يختلف منقلبهم ، فيصير قوم إلى النار
ثم إلى دركات بعضها أسفل من بعض — واسم جهنم يجمع أماكنتهم . ويصير قوم إلى الجنة
ثم هي درجات بعضها أعلى وتبّة ودرجة من بعض — واسم الجنة يشتمل على جميع مساكنهم .
ويقال التفاوت في الجنة بين الدرجات أكثر من التفاوت بين أهل الدارين .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَهْبًا أَشَدُّ
عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ۚ ﴾

(١) الأصوب أن تكون (من) كما ورد في الآية ٧٨ سورة النحل : « والله أخرجكم من بطون
أمهاتكم لا تعلمون شيئاً » .

(٢) وفيه رد على القائلين بأن المادة لا تستحدث .

(٣) العرصة = ساحة الدار أو صفيحة من الحديد توضع في التنور لينضج عليها الخبز
وغیره (الوسيط)

مَنْ تَقَدَّمَ عَلَيْهِمْ فِي الْإِضْلَالِ، وَالضَّلَالِ ضَوْعُفَ عَلَيْهِ غَدَاً الْعَذَابِ وَالْأَغْلَالِ .

﴿ ثُمَّ كُنْخُنْ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أُولَىٰ بِهَا
صِلِيًّا ﴾

يُنْزَلُ فِي كُلِّ دَرَكَةٍ مِنْ دَرَكَاتِهَا مَنْ هُوَ أَهْلُهَا ، فَمَنْ كَانَ عَتَوْهُ الْيَوْمَ أَشَدَّ غُلُوقًا كَانَ
فِي النَّارِ أَبَدًا مِنْ اللَّهِ وَأَشَدَّ عَقُوبَةً وَإِذْلَالًا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ
حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾

كُلُّ يَرِدُ النَّارَ وَلَكِنْ لَا ضَيْرَ مِنْهَا وَلَا احْتِبَاسَ بِهَا لِأَحَدٍ إِلَّا بِمَقْدَارِ مَا عَلَيْهِ مِنْ (١) (٢) ...
وَالزَّلْزَلِ ، فَأَشَدَّهُمْ أَيْهَا كَمَا أَشَدَّهُمْ بِالنَّارِ اشْتِعَالًا وَاحْتِرَاقًا . وَقَوْمٌ يَرُدُّونَهَا — كَمَا فِي الْخَبَرِ :
« إِنْ لِلنَّارِ عِنْدَ مَرُورِهِمْ عَلَيْهَا إِذْوَابَةٌ كَالْإِذْوَابَةِ اللَّبَنِ ، فَيَدْخُلُونَهَا وَلَا يَحْسُونَهَا ، فَإِذَا عَبَرُوهَا
قَالُوا : أَوَلَيْسَ وَعَدْنَا جَهَنَّمَ عَلَىٰ طَرِيقٍ ؟ » فَيَقَالُ لَهُمْ . عَبَرْتُمْ وَمَا شَعَرْتُمْ (٣) ١

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ تُنْجَىٰ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ
فِيهَا جِثِيًّا ﴾

يُنْجَىٰ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا ، بَعْضُهُمْ قَبْلَ بَعْضٍ ، وَبَعْضُهُمْ بَعْدَ بَعْضٍ ، وَلَكِنْ لَا يَبْقَىٰ مِنْ

(١) مثلية وهي في الرسم هكذا (الالتباس) وربما كانت في الأصل (الالتباس) أي الوقوع
في (اللبس) والالتباس مناسب (للزال) .

(٢) الإذوابة : الزبد حين يوضع في البرمة لينذاب (مقاييس اللغة لابن فارس ج ٢ ص ٣٦٢) .
وعن جابر أنه عليه السلام سئل عن ذلك فقال : إذا دخل أهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض : أليس
قد وعدنا ربنا أن نرد النار ؟ فيقال لهم قد ورد تموها وهي خامدة (القاضي البيضاوي ط الجيئال
بجدة) ص ٤١٠ .

وعن جابر أيضاً ، الورود الدخول لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين يرداً وسلاماً
كما كانت على إبراهيم « [الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ١١ ص ١٣٦ سلسلة التراث] .
ومن الحسن « ليس الورود الدخول ، إنما يقول وودت البصرة ولم أدخلها ؛ فالورود أن يمروا على
الصراط » وقد استند كثير إلى رأي الحسن واحتجوا بقوله تعالى « إِنْ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنِ
أُولَٰئِكَ مِنْهَا مُبْعَدُونَ » فلا يدخل النار من ضمن الله أن يبعده عنها .

المؤمنين مَنْ لَا يَنْجِيهِمْ . وَيَتْرَكَ الْكُفَّارَ فِيهَا بِنَعْتِ الْخَلِيَّةِ عَنْ الْخُرُوجِ مِنْهَا ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَشْتَدُّ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ ، وَتُطَبِّقُ عَلَيْهِمُ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ ، وَيَنْقَطِعُ مِنْهُمْ الرَّجَاءُ وَالْأَمَلُ .

وإِنَّمَا يَنْجُو الْقَوْمُ بِحَسَبِ تَقْوَاهُمْ ؛ فزِيَادَةُ النُّقْوَى تَوْجِبُ لَهُمُ التَّعْجِيلَ فِي النِّجَاجِ ؛ فَفِي سَابِقٍ . وَمَنْ لَاحِقٍ ، وَمَنْ مَنَّقَطٌ ، وَمَنْ مَحْتَرَقٌ . . إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْأَصْنَافِ وَالْأَلْوَانِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا تُلِيَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾

يعني إِذَا قُرِئَتْ عَلَيْهِمُ آيَاتُ الْقُرْآنِ قَابَلُوهَا بِالرَّدِّ وَالْجَحْدِ وَالْعِنَادِ وَالزَّيْغِ ، وَيَدَّعَوْنَ أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ ، وَلَا يَتَعَمَّدُونَ فِي ذَلِكَ إِلَّا عَلَى الْحَدِيثِ وَالظَّنِّ .

قوله جل ذكره ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ثُمَّ أَحْسَنُ لَنَا ثَانًا وَرَثِيًّا ﴾

أَيُّ إِن هَؤُلَاءِ يَنْخَرِطُونَ فِي سَبِيلِكَ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ ، كَمَا سَلَكَوا فِي الرِّيبِ مِنْهُمْ ، وَسَيَلْقَوْنَ مَا يَسْتَوْجِبُونَهُ عَلَى سَوْءِ أَعْمَالِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ ^(١) مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴾

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُمَهِّلُ الْكُفَّارَ لِيَرَكُنُوا إِلَى أَبْطِلَ ظَنُونَهُمْ ، وَيَغْتَرُّوا بِسَلَامَةِ أَحْوَالِهِمْ ، فَيَنْسَوْنَ فِي غَفْلَةِ الْإِمْهَالِ وَالْإِغْتِرَارِ بِسَلَامَةِ أَحْوَالِهِمْ ، ثُمَّ يَفْشَاهُمُ التَّقْدِيرُ بِمَا يَسْتَوْجِبُ حَسْبَانَهُمْ قَوْلُهُ « حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ . . . » أَيُّ يَحُلُّ بِهِمْ مَوْعِدُ الْعُقُوبَةِ طَاجِلًا أَوْ قِيَامًا

(١) سقطت (قل) من النسخ فأنبتناها .

الساعة^(١) آجلاً ، فعند ذلك يتضح لهم ما تماموا عنه من شدة الانتقام ، وسيعلمون عند ذلك ما فاتهم وما أصابهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾
أى يغنيهم بنور البدر عن الاستضاءة بنور النجم ، ثم بطلوع الفجر قبل طلوع الشمس ،
فإذا منع نهار العرمان فلا ظلمة ولا ظلمة .

﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ
عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴾

« الباقيات الصالحات » : الشهادة بالربوبية خير من غيرها مما لا يوجد فيه صدق
الإخلاص .

ويقال « الباقيات الصالحات » : التي تبقى عند الله مقبولة .

قوله تعالى : « خير » لأن في استحقاق القبول زيادة للهدى ، فيصير علم اليقين عين
اليقين ، وعين يقينهم حق اليقين .

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ
لَأُوتِينَ مَالًا وَلَدًا ﴾

أخبر بقصة ذلك الكافر^(٢) الذي قال بيمين — من غير حجة — لأعطين مالا وولداً ،
ورأى أن يكون ليمينه تصديق ، فهل هو :

﴿ أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ
الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾

(١) وردت (السرة) والصواب أن تكون (الساعة) فهكذا الآية :

(٢) عن الحسن : أنها نزلت في الوليد بن المغيرة . والمشهور أنها في العاص بن وائل فقد روى أن خباب
ابن الأرت صاغ للعاص حلياً فاقترضه الأجر فقال : إنكم تزعمون إنكم تبعثون وإن في الجنة ذهباً وفضة
فأنا أقضيكم ثم فاني أوتي مالا وولداً حبيثاً !

وقد ذكر الواحدى ثلاث روايات تؤيد ذلك عن مسروق وعن السكبي وعن مقاتل . (أسباب النزول
ط مؤسسة الحلبي) ص ٢٠٤ .

ورواه البخاري عن الحميدي عن سفيان ، ورواه مسلم عن الأعمش .

هل يقول ما يقول بتعريف منا؟ أم هل اتخذ مع الله عهداً؟ ليس الأمر كذلك .
 ودليل الطلب يقتضى أن المؤمن إذا ظن بالله تعالى ظناً جليلاً ، أو أمل منه أشياء
 كثيرة فأنه تعالى يحققها له ، ويصدق ظنه لأنه على عهد مع الله تعالى ، والله تعالى
 لا يخلف وعده .

قوله جل ذكره : ﴿ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَنصُرُ
 مِنَ الْعَذَابِ مَنَّا * وَنَزِثُ مَا يَقُولُ
 وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾

كلا . . ليس الأمر على ما يقول ، وليس لقولهم تحقيق ، بل سنكتب لهم من العذاب مَنَّا
 أى سنطيل في العذاب مدتهم .

« وَنَزِثُ مَا يَقُولُ . . . » لن نُمتِّعَهُ بِأَوْلَادِهِ وَحَشَمِهِ وَخَدَمِهِ وَقَوْمِهِ ، ويعود إلينا
 منفرداً عنهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا
 لَهُم عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ
 وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾

حكوا بظنهم الفاسد أن أصنامهم تمنعهم ، وأن ما عبده من دون الله تعالى توجب عبادتهم
 لهم عند الله تعالى وسيلة . . وهيئات الهيئات أن تكون لمغالط حسابهم بتحقيق ، بل إذا
 حشروا وحشرت أصنامهم تبرأت أصنامهم منهم ، وما أملوا نفعا منها عاد ضرراً عليهم .
 ويقال طلبوا العز في أماكن التل ، فأخفقوا في الطلب ، ونفوا عن المراد .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّاطِينَ عَلَى
 الْكَافِرِينَ تَؤْزُمُهُمْ أَزًّا ﴾

تؤزم أى تزعمهم ، فخطر الشيطان يكون بإزعاج وغمّة ، وخطر الحق يكون بروح
 وسكينة ، وهذه إحدى الدلائل بينهما .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾
الأنفاس في الحكم معدودة ؛ فمن لم يستوف فلا اقتضاء لها . وإذا انتهى الأجل فلا تنفع
بعد ذلك الحيل ، وقبل اقتضائه لا يزيد ولا ينقص بالعمل .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ
وَفْدًا ﴾

قيل ركبانا على نجائب طاعاتهم ، وهم مختلفون ؛ فمن راكب على صدور طاعاته ، ومن
راكب على مراكب هممه ، ومن راكب على نجائب أنواره . ومن محمول بحمله الحق في عقباه
كما يحمله اليوم في دنياه . وليس محمول الحق كحمول الخلق !

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَسَوْقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرُودًا ﴾
فأولئك يساقون بوصف العز ، وهؤلاء يساقون بنعت الذل ، فيجمعهم في السوق ، ولكن
يُغَايِر بينهم في معانيه .. فشتان ما هما !!

قوله جل ذكره : ﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ
عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾

وذلك العهد حفظهم في دنياهم ما أخذ عليهم — يوم الميثاق — من القيام بالشهادة
بوحدةانية مولاهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ
شَيْئًا إِذَا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ
يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ
وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا * أَنْ دَعَوْا
لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾

ما أعظم بهتانهم في مقالتهن ! وما أشد جرأتهم في قبيح حالتهن ! لكن الصمدية متقدسية
عن عائدي يعود إليها من زين بتوحيد موحّد ، أو شين بإلحاد ملحد ... فما شامت لأوجوهم
عما خاضوا فيه من مقالهم ، وما صاروا إليه من ضلالهم . كما لم يتجمل بما قاله الآخرون إلا القائل ،
وما عاد إلا على القائل مقابل من عاجلي أو آجل .

قوله جل ذكره : ﴿ وما ينبغي لرحمن أن يتخذ ولداً ﴾

إن كل من في السموات والأرض

إلا آتي الرحمن عبداً * لقد

أحصاهم وعدهم عدداً * وكلهم

آتيه يوم القيامة فرداً ﴿

أني بالولد وهو واحد ١٩ وأنني بالولادة ولا جنس له وجوباً (١) ولا جوازاً ١٩

« لقد أحصاهم .. » : لا يتوَّجَّع عن عليه معلوم ، ولا ينفك عن قدرته — مما يصح

أن يقال حدوثه — موهوم .

« وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً » : لا خدَم يصحبهم ، ولا حشم يلحقهم ، كل ينفسه

مشتغل ، وعن غيره منفرد .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات

سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾

يجعل في قلوبهم وداً لله نتيجة لأعمالهم الخالصة ، وفي الخير : « لا يزال العبد يتقرب

إلى بالتواقل حتى يحبني وأحبه » (٢) .

ويقال يجعل لهم الرحمن وداً في قلوب عباده ، وفي قلوب الملائكة ، فأهل الخير والطاعة

محبوبون من كل أحد من غير استحقاق بفعل (٣) .

(١) وردت (وجوداً) والأرجح أن تكون (وجوباً) لتتلاءم مع (جوازاً) أي لا يجب عليه ولا يجوز له وصفه — لتقدسه وتزعمه — أن يكون له جلس .

(٢) ... فإذا أحببته كثرت هيته التي يبصر بها ، وسمعه الذي يسمع به ، ويده التي يبطش بها) وهو حديث قديم رواه البخاري عن أبي هريرة ، واحد من عائشة ، والطبراني في الكبير عن أبي امامة ، وابن السني عن ميسون ، وقد اخطأ من زعم أن البخاري انفرد بروايته .

(٣) أخرج مسلم والترمذي عن أبي هريرة أن النبي (ص) قال : إذا أحب الله عبداً نادى جبريل : إني قد أحببت فلاناً فأجبه ، فينادي في السماء ثم تنزل له الحبة في الأرض . . . وذلك قوله تعالى : « يجعل لهم الرحمن وداً » .

السيوطي في إتقانه ص ١٩٩ ج ٢ ط مصطفى الحلبي .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَنمَّا ^(١) يَسِّرُنَا هَٰذَا بِلِسَانِكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ
الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴾

الكلام واحد والخطاب واحد ، وهو لقوم تيسير ، ولآخرين تخويف وتحذير . فطوبى
لِمَنْ يُسِّرْ لِمَا وَفَّقْ بِهِ ، والويل لمن خُوِّفَ بِلِ خُدِّلَ فِيهِ . والقوم بين موفقٍ ومخذولٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هَلْ
يُحْسِنُ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ
لَهُمْ رِكْزًا ﴾ .

أثبتهم وأحيام ، وعلى ما شاء فطرم وأبقام ، ثم بعد ذلك — لما شاء — أماتهم وأفنام ،
فبادوا بأجمعهم ، وهلكوا عن آخرهم ، فلا كبير منهم ولا صغير ، ولا جليل ولا حقير ،
يُطَالَبُونَ — يومَ النشور — بالنقير والقطمير .

سورة طه

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

بسم الله اسم عزيز مَنْ تَحَقَّقَ بِجَلَالِ عِزَّتِهِ تَمَحُّضُ ^(٢) فِي خُلُوصِ عِبَادَتِهِ ، وَإِذَا وَصَلَ إِلَى
ضِيَاءِ صِفْوَتِهِ نَزَلَ عَنْ سِيَاءِ نَعْوَتِهِ .

اسم عزيز مَنْ عَرَفَهُ تَحَتَّ هِمَّتُهُ ، وَإِذَا سَمِعَتْ هِمَّتُهُ مَقَطْتَ عَنِ الدَّارِينَ طَلِبَتُهُ .

اسم مَنْ عَرَفَهُ زَالَ كَرْبُهُ وَطَابَ قَلْبُهُ ؛ دِينُهُ رَبُّهُ ^(٣) وَجَنَّتْهُ حُبُّهُ .

اسم عزيز مَنْ وَصَلَتْهُ بَعْبُودِيَّتُهُ حَرَّرَهُ مِنْ رِقِّ شَهْوَاتِهِ ، وَأَعْتَقَهُ مِنْ أَسْرِ مَطَالِبِهِ ؛ فَلَا لَهُ
لِحُبُوبٍ طَلَبٌ ، وَلَا يَسْتَفْرِهُ لِحُدُورٍ هَرَبٌ .

(١) أخطأ الناسخ إذ جعلها (وَأَنمَّا)

(٢) المحض = اللب الخالص ، وتمحض = خلص من الشوائب .

(٣) أى عبادته لربه لذاته ؛ لا طلباً لثواب ولا خوفاً من عقاب كما هو الشأن في العبادة التقليدية .

قوله جل ذكره : ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾

الطاء إشارة إلى قلبه — عليه السلام — من غير الله ، والهاء إشارة إلى اهتداء قلبه إلى الله .

وقيل طأً بسرّك بساط القربة فأنّت لا تهتدى إلى غيرنا .

ويقال طوينا عن سرّك ذكر غيرنا ، وهديناك إلينا .

ويقال طوي لمن اهتدى بك . ويقال طاب عيش من اهتدى بك .

« ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » : أى ليس المقصود من إيجابنا إليك تعبدك ، وإنما هذا استفتاح الوصلة ، والتمهيد لبساط القربة .

ويقال إنه لما قال له : « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم » ^(١) وقف بفرد قدم تباعدا وتنزهاً عن أن يقرب من الدنيا استمتاعاً بها بوجه قليل له : طأ الأرض بقدميك .. لم كل هذا التعب الذى تتحملة ؟ فزاد فى تعبدك ، ووقف ، حتى تقدمت قدماه ^(٢) وقال : « أفلا أكون عبداً شكوراً » أى لما أهلني من التوفيق حتى أعبدك .

قوله جل ذكره : ﴿ إِلَّا تَذَكُّرَ لِمَنْ يَخْشَى ﴾

فالقرآن تبصرةً لذوى العقول ، تذكرةً لذوى الوصول ، فهؤلاء به يستبصرون فينالون به راحة النفس فى آجلهم ، وهؤلاء به يذكرون فيجدون رَوْحَ الأنس فى عاجلهم .

قوله جل ذكره : ﴿ تَنزِيلًا مِّنْ خَلْقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ

الْعَلَى ﴾

(١) آية ٨٨ سورة الحجر .

(٢) رجح أنها (تورمت قدماء) لأن السياق يذكرنا بالحديث :

[أنه كان يصلى حتى تورمت قدماء فقبل له : يا رسول الله « أليس قد هفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً] الشبخان ، واللساني . والترمذى عن المغيرة بن شعبه . (وسيمود القشيري إلى فسكرة « طأً بقدميك الأرض » فى آخر السورة عند تفسير آية : « ولا تمدن عينيك .. آية ١٣١) .

جَمَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا لِعِبَادِهِ . وَنَفُوسُ الْعَابِدِينَ أَرْضٌ وَقَرَارٌ لَطَائِفِهِمْ ، وَقُلُوبُ الْمَارْفُوقِينَ
قَرَارٌ لِمَعْلُوقِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾
استواء عَرْشِهِ فِي السَّمَاءِ مَعْلُومٌ ، وَعَرْشُهُ فِي الْأَرْضِ قُلُوبُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ .
قَالَ تَعَالَى : ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ ثَمَانِيَةٌ﴾^(١) وَعَرْشُ الْقُلُوبِ : قَالَ تَعَالَى :
﴿وَحِجَابُهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾^(٢) . أَمَّا عَرْشُ السَّمَاءِ فَالْرَّحْمَنُ عَلَيْهِ اسْتَوَى ، وَعَرْشُ الْقُلُوبِ
الرَّحْمَنُ عَلَيْهِ اسْتَوَى . عَرْشُ السَّمَاءِ قِبْلَةُ دُعَاءِ الْخَلْقِ ، وَعَرْشُ الْقُلُوبِ يَحْمِلُ نَظَرَ الْحَقِّ .
فَشَتَانِ بَيْنَ عَرْشٍ وَعَرْشٍ !

قوله جل ذكره : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾

لَهُ الْأَشْيَاءُ عَلَى الْعُيُودِ مِلْسَكًا ، وَالْأُولِيَاءُ تَخْصِيصًا وَتَشْرِيفًا . لَهُ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
مِمَّا أَظْهَرَ مِنَ الْعَدَمِ ؛ فَالْكُلُّ لَهُ إِثْبَاتًا وَخَلْقًا .

قوله جل ذكره : ﴿وَإِنْ تَجَهَّزْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ
السِّرَّ وَأَخْفَى﴾

النَّفْسُ لَا تَقِفُ عَلَى مَا فِي الْقَلْبِ ، وَالْقَلْبُ لَا يَقِفُ عَلَى أَسْرَارِ الرُّوحِ ، وَالرُّوحُ لَا سَبِيلَ لَهُ
إِلَى حَقَائِقِ السِّرِّ . وَالَّذِي هُوَ أَخْفَى مِنَ السِّرِّ فَهُوَ مَا لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ إِلَّا الْحَقُّ^(٣) .
وَيُقَالُ الَّذِي هُوَ أَخْفَى مِنَ السِّرِّ لَا يَفْهَمُهُ الشَّيْطَانُ ، وَلَا يَكْتُبُهُ الْمَلَكَانِ ، وَيَسْتَأْذِنُ
بِعِلْمِهِ الْجَبَّارُ ، وَلَا تَقِفُ عَلَيْهِ الْأَغْيَارُ .

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ
الْحُسْنَى﴾

(١) آية ١٧ سورة الحاقة .

(٢) آية ٧٠ سورة الإسراء .

(٣) يسببه القشيري في مواضع أخرى من مصنفاته (مر السر) أو (عين السر) الرسالة ص ٤٨

نفى كل موهوم من الحدثان بأن يكون شيء منه صالحاً للإبداع ، وأثبت كل ما في الوجود له باستحقاق القِدَم .

« له الأسماء الحسنى » أى صفاته ، على اتسامها إلى صفة ذات وصفة معنى ^(١)
ويقال « له الأسماء الحسنى » : تعريفٌ للخلق بأن استحقاقَ العلو والنقد من عن
النقائص له على وصف التفرّد به .

قوله جل ذكره ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾
سؤال في صيغة الاستفهام والمراد منه التقرير ^(٢) والإثبات . وأجرى — تعالى — سُنَّتَهُ
في كتابه أن يذكر قصة موسى عليه السلام في أكثر المواقع التي يذكر فيها حديث نبينا
صلى الله عليه وسلم ، فيعقبه بذكر موسى عليه السلام .

﴿ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا
إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا
بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هَدًى ﴾

ألاح له النار حتى أخرجه من أهله يطلبها ، وكان المقصود إخراجه من بينهم ، فكان
موسى عليه السلام يدنو والنار تنأى ، وقال لأهله :

« امكثوا إني آنست نارا » فقال أهله : كيف تتركنا والوادي مسبع ؟
فقال : لأجلكم أفارقكم ؛ فلعلّي آتيكم من هذه النار بقبس .

ويقال استولى على موسى عند رؤيته النار الاتزاعج ، فلم يتالك حتى خرج . ففي القصة
أنه لما أتاها وجده شجرة تشتعل من أولها إلى آخرها ، فجمع موسى — عليه السلام —
حشائش ليأخذ من تلك النار ، فعرف أن هذه النار لا تسمع نفسها بأن تعطى إلى
أحد شعلة :

(١) الأرجح — حسب الذى ذكره القشيري في كتابه التجميع في التذكير — أنها (وصفه فعل) .
(٢) وردت (التقدير) والصواب أن تكون (التقرير) فهذا هو المصطلح البلاغي الذى يطلق على مثل
هذا الاستفهام

وَقُلْنَا لَنَا نَحْنُ الْأَهْلَةُ إِنَّمَا نَضِيءُ لِمَنْ يَسْرِى بَلِيلٌ وَلَا تُقْرِى
يَا مُوسَى هَذِهِ النَّارُ تَضِيءُ وَلَكِنْ لَا تَمْطِى لِأَحَدٍ مِنْهَا شَعْلَةً . يَا مُوسَى هَذِهِ النَّارُ تَحْرِقُ
الْقُلُوبَ لَا النُّفُوسَ .

ويقال كان موسى عليه السلام فى مزاوله قَبَسٍ من النار فكان يحتال كيف يأخذ منها
شَيْئاً ، فبينما هو فى حاله إذ سمع النداء من الحق .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى ﴾ إني أنا
ربك فاخلع نعليك إناك بالوادر
المتدس طوى

علم موسى أنه كلام الحق — سبحانه — لما سمع فيه الترتيب والتنظيم والترتيب ، فعلم
أنه خطاب الحق .

ويقال إنما عرف موسى — عليه السلام — أنه كلام الله بتعريف خصه الحق
— سبحانه — به من حيث الإلهام دون نوع من الاستدلال .

« قوله : « فاخلع نعليك . . » فَإِنْ بَسَّاطَ حَضْرَةَ الْمُلُوكِ لَا يُوطَأُ بِنَعْلِهِ .

ويقال ألق عصاك يا موسى ، واخلع نعليك ، وأقيم عندنا هذه الليلة ولا تَبْرَحْ .

ويقال الإشارة فى الأمر بخلع النعلين تفريغ القلب من حديث الدارين ، والتجرد للحق
بنعت الانفراد .

ويقال « اخلع نعليك » : تَبَرُّاً عَنْ نَوْعَى أَعْمَالِكَ^(١) ، وَاِمْتَحُ عَنْ الشُّهُودِ جَنْسَى أحوالك
من قرب وبعيد ، ووصل وفصل ، وارتياح واجتياح ، وفناء وبقاء . . وكن بوصفنا ؛ فإنما
أنت بمقنا .

أثبتته فى أحواله حتى كان كالمجرد عن جلته ، المصطلم عن شواهد .

(١) ربما حدث سقوط ، فالكلام يحتاج إلى توضيح (نوعى أفعالك) قياساً على ما ذكر فى (جلى
أحوالك) وترجح أن نوعى الفعل ما الأمر والنهى ، أو الأمور به والزجور عنه . . أو ما فى هذا المعنى .

قوله : « إنك بالوادي للقدس طوى » : أى إنك بالوادي للقدس عن الأعلام ؛
وساحات الصمدية تَجَلُّ عن كل شئ ، وإيمان وزين ؛ عن زين بإحسان وبشئ بمصيان ؛ لأن
لربوبية سَطَمَاتٍ هَزَّتْ قَهْرَ كُلِّ شَيْءٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾
وعلى علم منى بك اصطفتك ، وجردتك ونقيتكَ عن دَسِّ الأوهام وكلِّ
مَا يُكْذِرُ صَفْوَك .

ويقال بعدما اخترتك فانت لى وبى ، وأنت محو فى فنائك عنك .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾
تقدستُ عن الأعلام فى أزلى ، وتزهت (.....) (١) والأشكال باستحقاقى
لجلالى وجمالى .

ويقال « لا إله إلا أنا » : الأختيار فى وجودى فقدتُ ، والرسوم والأطلالُ عند ثبوتِ
حَقِّ محوِّ

قوله : « فاعبدنى » : أى تَذَلُّ لِحُكْمِي ، وأنفذ أمرى ، واخضع لجبروتِ سلطانى .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾

إقامتها من غير ملاحظة مجريها ومنشئها يُورث الإعجاب . وإذا أقام العبدُ صلاته على نيتِ
الشهود والتحقق بأن مجريها غيره (٢) كانت الصلاة بهذا فتحاً لباب المواصلة ، والوقوف على
محل النجوى ، والتحقق بخصائص القرب والزلفة .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا
لَتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾

الفائدة فى تعريف العبادة بترتيب الساعة أن يستفيقوا من غفلات التفرقة ، فإذا حضروا

(١) حدث منا طمس أفقدنا بقية الجلالة ، وربما كانت (عن الأمثال) .

(٢) الضمير فى (غيره) يعود على العبد والمقصود أن يتحقق العبد بأن الرب هو الذى يجرى عليه نعبه .

بقلوبهم - ففي حال استدامة الذكر - فما هو موعودٌ في الآجل أكثره للحاضرين موجودٌ في العاجل ؛ والحاضرة لهم كالآخرة . وكذلك جعلوا من أمارات الاستقامة شهوداً الوقتِ قيامة^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا
وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾

إذا أكرمه اللهُ بِحُسْنِ التَّنْبِيهِ ، وأحضره بنعت الشهود فلا ينبغي أن ينزل عن سماه صفاته إلى جحيم أهل الغفلة في تطوحيهم في أودية التفرقة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾
كرر عليه السؤال في غير آية عن عصاه لما كان المعلوم له سبحانه فيها من إظهاره فيها عظيم المعجزة .

ويقال إنما قال ذلك لأنه صَحِيحَتُهُ هَيْبَةُ الْمَقَامِ عِنْدَ فَجَاءَةِ مَمَاعِ الْخُطَابِ ؛ فَلْيُسَكِّنْ بعض ما به من بَوَادِيهِ الْإِجْلَالِ . . رَدَّهُ إِلَى مَمَاعِ حَدِيثِ الْعَصَا ، وَأَرَاهُ مَا فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ .

ويقال لو تركه على ما كان عليه من غَلَبَاتِ الْهَيْبَةِ لَعَلَّهُ كَانَ لَا يَبَى وَلَا يَطِيقُ ذَلِكَ . . فقال له : وما تلك بيمينك يا موسى ؟

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ
بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ
أُخْرَى ﴾

قال هي عصاى ، وأخذ يُعَدِّدُ مَا لَهُ فِيهَا مِنْ وَجُوهِ الْإِتِّفَاعِ فَقَالَ لَهُ :

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى ﴾

(١) فالقيامة : هــ . هؤلاء تقوم كل يوم غير مرة بالهجر والنوى والفراق) و (جهنم الفراق اشد من جهنم الاحتراق . . اللطائف في مواضع أخرى .

فإنَّكَ بنعت التوحيد^(١) ، واقفٌ على بساط التفريد ، ومتى يصحُّ ذلك ، ومتى يسلمُ لك أن يكون لك معتمدٌ تتوكأ عليه ، ومستندٌ عليه تستعين ، وبه تنتفع ؟

ثم قال : « ولي فيها مآرب أخرى » : أولُ قديم في الطريق تركُّ كلِّ سببٍ ، والتَّنَقُّ عن كلِّ طلبٍ ؛ فكيف كان يسلمُ له أن يقول : أفعلُ بها ، وأمتنع^(٢) ، ولي فيها مآرب أخرى .

ويقال ما ازداد موسى — عليه السلام — تفصيلاً في انتفاعه بعصاه إلا كان أقوى وأولى بأن يؤمن بإلقائها ، والتَّنَقُّ عن الانتفاع بها على موجب التفرد لله .

ويقال التوحيد التجريد ، وعلامة صحته سقوط الإضافات^(٣) بأسرها ؛ فلا جرَم لما ذكر موسى — عليه السلام — ذلك أَمراً بإلقائها فجعلها الله حَيَّةً تسعى ، وولى موسى هارباً ولم يُعْتَب . وقيل له يا موسى هذه صفة العلاقة ؛ إذا كوشِفَ صاحبها يسرُّها يهرب منها .

ويقال لما باسطه الحقُّ بسماح كلامه أخذته أريجية سماع الخطاب ، فأجاب عما يُسأل وعما لم يُسأل فقال : « ولي فيها مآرب أخرى » ، ودَّ كَرَّ وجوها من الانتفاع ؛ منها أنه قال تؤلِّسني^(٤) في حال وحدتي ، وتضيء لي الليل إذا أظلم ، وتحملني إذ عسييت في الطريق فأركبها ، وأهشُّ بها على غنسي ، وتدفع عني عدوِّي . وأعظم مآرب لي فيها أنْكَ قُلْتَ : « وماتلك بيمينك ؟ » وأيةُ نعمةٍ أو مآربٍ أو منفعةٍ تكون أعظمَ من أن تقول لي : وماتلك ؟ ويقال قال الحقُّ — بعد ما عدَّد موسى وجوه الآيات وصنوف انتفاعه بها — « لك يا موسى فيها أشياء أخرى أنت غافل عنها وهي انقلابها حية » ، وفي ذاك لك معجزة وبرهان صدق .

(١) إذا صحَّ نقل هذه العبارة عن الأصل فالقشيري يقصد بها (فإنك موحد) ، والموحد أعلى درجات العارفين .

(٢) أى تكون لي بها منعة وقوة ، وربما كانت (وأمتنع) وكلاماً صحيحاً في المعنى .

(٣) سقوط الإضافات أى لا يقول لي ولا بي ولا مني — وهذه آية صحة التوحيد عند (أنظر الرسالة ص ١٤٩) .

(٤) وردت (تسمى) ، وقد وجدنا (تؤلِّسني) أقرب إلى المعنى وإن كانت بعيدة في الرسم ، فأثرناها ونهنا إلى الأصل . أو ربما سقطت (مى) بعد (تسمى) ويكون السياق آنذاك منسجماً .

ويقال جميع ما عُدَّ من المنافع في العصا كان من قبيل الله . . فكيف له أن يفسبها
ويضيفها إلى نفسه ، ولهذا قالوا :

يا جنة الخلد ، والهدايا إذا نُهْدِي إليك فما منك يُهْدَى
ويقال قال موسى لما رآها حيةً تهتز : لقد عَلِمْتُ كُلَّ وصفٍ بهذه العصا ، أمّا هذه
الواحدة فلم أعرفها .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى ﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا
هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا
وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا
الْأُولَى ﴿

لا عبرة بما يورث ظاهراً الأشياء ؛ فقد يورث الظاهرُ بشيء ثم يبدو خلافه في المستقبل ؛
فعصا موسى صارت حيةً .

ثم قال المقصود بذلك أن تكون لك آيةٌ ومعجزةٌ لا بلاء وفتنة^(١) .

قوله : ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ . . . ﴾ : أشهدّه — باتقلاب العصا من حالٍ إلى حال ؛
مرةً عصا ثم ثعباناً ثم عصا مرةً أخرى — أنه يُنَبِّتُ عِبَادَه في حال التلويح مرةً ومرةً ؛
فَمِنْ أَخَذَ مِنْ رَدٍّ ، وَمِنْ جَمْعٍ وَمِنْ فَرْقٍ الْحَقَّ^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ
بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴾
لِتُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿

كما أراه آيةً من خارجٍ أراه آيةً من نفسه ، وهي قلبُ يده بيضاء ؛ إذ جعلها في جيبه
من غير البرص . قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾^(٣) .

(١) وهذا الكلام يتطبق . ذلك على الكرامة التي تظهر على يدى الولي ، وهذا فرق بين المعجزة
والكرامة من ناحية وبين السحر من ناحية أخرى .

(٢) حتى يصلوا إلى حال (التمكن) .

(٣) آية ٥٣ سورة فصلت .

وإنما قال : أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ وَلَمْ يَقُلْ كُمُكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَا عَلَيْهِ مِنَ اللَّبَاسِ كُمَانٌ .
 قوله : « لَنُرِيكَ ^(١) مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى » : الآية الكبرى هي ما كان يجده في نفسه من
 الشهود والوجود ، وما لا يكون بتكليف العبد وتصرفه من فنون الأحوال التي يدركها
 صاحبها ذوقاً .

قوله جل ذكره : ﴿ أَذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾
 بعدما أسمع كلامه من غير واسطة ، وشرف مقامه ، وأجزل إكرامه أمره بالذهاب
 ليدعو فرعون إلى الله — مع علمه بأنه لا يؤمن ولا يجيب ولا يسمع ولا يعرف — فشق على
 موسى ذهابه إلى فرعون ، وسماح جثده منه ، بعدما سمع من الله كلامه سبحانه ، ولكنه آثر
 أمر محنته على مراده نفسه .

ويقال لما أمره بالذهاب إلى فرعون سأل الله أُمِّيَّةَ النُّقْلِ وما به يتم تبليغ ما حمل من
 الرسالة ، ومن ذلك قوله :

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي *
 وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ
 لِّسَانِي * يَقْهُوا قَوْلِي ﴾

لِيُعْلَمَ أَنَّ مِنْ شَرْطِ التَّكْلِيفِ التَّسْكُنَ مِنْ أَدَاءِ الْمَأْمُورِ بِهِ .
 ويقال إن موسى لما أخذ في مخاطبة مع الله كاد لا يسكت من كثرة ما سأله فظل يدعو :
 « رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي . . . » وهكذا إلى آخر الآيات والأسئلة .
 قوله « قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي » : حتى أُطِيقَ أَنْ أَسْمَعَ كَلَامَ غَيْرِكَ
 بعدما سَجَّمتُ مِنْكَ . « وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِّسَانِي » : حتى ينطلق بمخاطبة غيرك ، وقوَّني حتى
 أَرُدُّ مَا أَرَدْتُ . . . بِكَ لَا بِي

قوله جل ذكره : ﴿ وَاجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ
 أَخِي * أَشَدُّ بِهِ أَزْوَرِي ﴾

(١) أخطأ الناسخ إذ جعلها (لنريه) .

سَأَلَ أَنْ يَصْحَبَ أَخَاهُ مَعَهُ ، وَلَمَّا ذَهَبَ لِسَمَاعٍ كَلَامَ اللَّهِ حِينَ قَالَ تَعَالَى : « وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً » (١) كَانَ بِمُفْرَدِهِ ، لِأَنَّ الذَّهَابَ إِلَى الْخَلْقِ يُوجِبُ الْوَحْشَةَ ؛ فَطَلَبَ مِنْ أَخِيهِ الصَّحْبَةَ لِيُخَفِّفَ عَلَيْهِ كَلْفَةَ الْمَشَقَّةِ .

وَيُقَالُ إِنَّ الْمَحَبَّةَ تَوْجِبُ التَّجَرُّدَ وَالْإِنْفِرَادَ وَأَلَّا يَكُونَ لِلغَيْرِ مَعَ الْحَبِّ مَسَاغٌ ؛ فَفِي ذَهَابِهِ إِلَى فِرْعَوْنَ اسْتَصْحَبَ أَخَاهُ ، وَلَمَّا كَانَ الذَّهَابُ إِلَى الْمِيقَاتِ لَمْ يَكُنْ لِلغَيْرِ سَبِيلٌ إِلَى صَحْبَتِهِ ، إِذْ كَانَ الْمَقْصُودُ مِنْ ذَهَابِهِ أَنْ يَكُونَ مَخْصُوصًا بِحَالِهِ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ كِي نُسَبِّحُكَ كَثِيرًا ۖ وَنَذْكُرُكَ كَثِيرًا ۖ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾
بَيَّنَّ أَنَّ طَلَبَهُ مُشَارَكَةَ أَخِيهِ لَهُ بِحَقِّ رَبِّهِ لَا بِحِطِّ نَفْسِهِ حَيْثُ قَالَ : « كِي نُسَبِّحُكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرُكَ كَثِيرًا » .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾
أَعْطَيْنَاكَ مَا سَأَلْتَ ، وَتَنَاسَيْتَ ابْتِدَاءَ حَالِكَ حِينَ حَفِظْنَاكَ فِي الْيَمِّ وَنَجَّيْنَا أُمَّكَ مِنْ ذَلِكَ النَّعْمِ ، وَرَبَّيْنَاكَ فِي حِجْرِ الْعَدُوِّ . . فَأَيْنَ — حِينَئِذٍ — كَانَ سُؤْلُكَ وَاخْتِيَارُكَ وَدَعَاؤُكَ (٢) ؟
وَأَثْبَتْنَا فِي قَلْبِ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ شَفَقَتَكَ ، وَأَلْقَيْنَا عَلَيْكَ الْمَحَبَّةَ حَتَّى أَحْبَبَكَ عَدُوُّكَ ، وَرَبَّاكَ حَتَّى قَتَلَ بِسَبِّبِكَ مَا لَا يُحْصَى مِنَ الْوُلَدَانِ ، وَالَّذِي بَدَأَكَ بِهِنَا إِلَهِنِ هُوَ الَّذِي آتَاكَ سُؤْلَكَ ، وَحَقَّقَ لَكَ مَأْمُولَكَ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ۖ أَنْ اقْنِصِي فِي التَّسَابُوتِ فَاقْنِصِي فِي الْيَمِّ ۖ فَانْقِلِي إِلَى الْيَمِّ بِالسَّاحِلِ ۖ يَأْخُذْكَ عَدُوُّكَ وَعَدُوُّهُ ۖ ﴾

(١) آيَةُ ١٤٣ سُورَةِ الْأَعْرَافِ .

(٢) أَيْ أَنَّ فَضْلَ اللَّهِ دَائِمٌ ، وَسَابِقٌ لِلدَّعَاءِ ، وَغَيْرُ مُرْتَبِطٍ بِالْإِخْتِيَارِ الْإِنْسَانِيِّ وَلَا بِالْعَمَلِ الْإِنْسَانِيِّ ، وَهَذِهِ نَظَرَةٌ فِي الشُّمُولِ قَلْبًا يَفْطِنُ إِلَيْهَا غَيْرُ الصُّوفِيَّةِ . فَأَيْنَ مِنْهُمْ الْمُعْتَذِرَةُ الَّذِينَ يُوجِبُونَ عَلَى اللَّهِ ؟! ذَلِكَ أَحَدُ الْمَرَامِي الْبَعِيدَةِ الَّتِي يَتَصَدَّقُ بِهَا الْقَشْبِيُّ .

كان ذلك وحى إلهام ، ألقى الله في قلبها أن نجعله في تابوت ، وتلقيه في اليم بمعنى نهر النيل ، ففعلت ، فالتقاء النهر على الساحل ، فحِيلَ إلى فرعون . فلما وَقَعَ بَصَرُ امرأة فرعون عليه باشر حبه قلبها ، وكذلك وقعت محبته في قلب فرعون ، ولكنها كانت أضعف قلباً ، فسبقت بقولها « قرة عين لي ولك لا تقتلوه . . »^(١) ، ولولا أنها علمت أنه أخذ شعبة من قلب فرعون ما أخذ من قلبها لم تقل : « قرة عين لي ولك » .

قوله : « يأخذه عدوى وعدوه » : وبأه في حجر العدو وكان قد قتل بسببه ألوفاً من الولدان . . ولكن من مأمنيه يؤتى الخَيْرُ ؛ وبلاء كل أحد كان بعده إلا بلاء موسى عليه السلام فإنه تقدم عليه بسنين ؛ ففي اليوم الذي أخذ موسى في حجره كان قد أمر بقتل كثير من الولدان ، ثم إنه رباه ليكون إهلاكه ملئك على يده . . ليعلم أن أسرار الأقدار لا يعلمها إلا الجبار .

ويقال كان فرعون يُسَمَّى والد موسى وأباه — ولم يكن . وكان يقال لأُم موسى ظئر^(٢) موسى — ولم تكن ؛ فمن حيث الدعوى بالأبوة لم يكن لها تحقيق ، ومن حيث كان المعنى والحقيقة لم يكن عند ذلك خبر ولا عند الآخر من ذلك معرفة . . هكذا الحديث والقصة^(٣) .

ولقد جاء في القصة أن موسى لما وُضِعَ في حجر فرعون لطم وجهه فقال : إن هذا من أولاد الأعداء فيجب أن يُقتل ، فقالت امرأته : إنه صبي لا تميز له ، ويشهد لهذا أنه لا يُميز بين النار وبين غيرها من الجواهر والأشياء ، وأرادت أن يصدق زوجها قالتها ، فاستحضرت شيئاً من النار و شيئاً من الجواهر ، فأراد موسى عليه السلام أن يمد يده إلى الجواهر فأخذ جبريل عليه السلام بيده وصرفها إلى النار فأخذ جرة بيده ، وقر بها من فيه فاحترق لسانه — ويقال إن العقدة التي كانت على لسانه كانت من ذلك الاحتراق — فعند ذلك قالت امرأة فرعون : ها قد تبين أن هذا لا تميز له ؛ فقد أخذ الجرة إلى فيه . وتخلص موسى بهذا مما حصل منه من لطم فرعون .

(١) آية ٩ سورة القصص . (٢) الظئر . المرضعة لغير ولدها .

(٣) يتصد بالحديث والقصة التصوف وأهله ؛ فلقب العبد مرتبط بقلبه وحقيقته باطنه لا بما يستفاد من ظاهره ورأى الناس فيه ، وهذا أصل من أصول أهل الملامة النيسابورية .

ويقال إنهم شاهدوا ولم يشعروا أنه لم يحترق من أخذ الجرة وهو صبي رضيع ، ثم احترق لسانه ، فلم الكل أن هذا الأمر ليس بالقياس . فإنه سبحانه فعال لما يريد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِي ﴾
أى أحبتك . ويقال فى لفظ الناس : فلان ألقى محبته على فلان أى أحبه . ويقال « ألقى عليك محبة منى » : أى طرحت فى قلوب الناس محبة لك ، فاللق إذا أحب عبداً فكل من شاهده أحبه . ويقال للملاح فى عينيه ؛ فكان لا يراه أحداً إلا أحبه .
ويقال « ألقى عليك محبة منى » : أى أثبت فى قلبك محبتي ؛ فإن محبة العبد لله لا تكون إلا بإثبات الحق — سبحانه — ذلك فى قلبه ، وفى معناه أنشدوا :
إن المحبة أمرها عجيبٌ تلقى عليك وما لها سببٌ

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾
أى بمراى منى . ويقال لا أمكن خبرى بأن يستبعدك عنى .
ويقال أحفظك من كل غير ، ومن كل حديث سوى حديثنا . ويقال ما وكننا حفظك إلى أحد .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخُنُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا . . ﴾

البلاء على حسب قوة صاحبه وضعفه ، فكما كان للره أقوى كان بلاؤه أوفى^(١) ، وكما كان أضعف كان بلاؤه أخف . وكانت أم موسى ضعيفة فرد إليها ولدها بعد أيام ، وكان يعقوب أقوى فى حاله فلم يعد إليه يوسف إلا بعد سنين طويلة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ ﴾

(١) قال صلى الله عليه وسلم « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمتل فالأمتل » رواه الترمذى ، وابن ماجة والحاكم من سعد بن أبى وقاص .

أجرى الله عليه ما هو في صورة كبيرة من قتل النفس بغير حق ، ثم بين الله أنه لا يضره ذلك ، فليست العبرة بفعل العبد في قلته وكثرته إنما العبرة بناية الحق ، بشأن أحد أو عداوته .

ويقال قد لا يموت كثير من الخلق بفتن من العنابر ، وكَم من أناس لا يموتون وقد ضربوا ألوفاً من الشياطين ، وصاحب موسى عليه السلام ومقتولُه مات بوكزة ! إيش^(١) الذي أوجب وفاته لولا أنه أراد به فتنة لموسى ؟ وفي بعض الكتب أنه — سبحانه — أقام موسى كذا وكذا مقاماً ، وأسمعه كلامه كل مرة بإسماع آخر ، وفي كل مرة كان يقول له : « وَقَتَلْتَ نَفْسًا » .

« فنجيناك من الغم » : أريناك عين الجمع حتى زال عنك ما دخلك من الغم بصفة مقتضى التفرقة ، فلما أريناك سير جريان التقدير نجيناك من الغم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ .

استخلصناك لنا حتى لا تكون لغيرنا . ويقال جنسنا عليك البلاء ونوعنا حتى جردناك عن كل اختيار وإرادة ، ثم حينئذ رقيناك إلى ما استوجبته من العلم الذي أهلناك له .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ .

وكنت عند الناس أنك أجير لشعيب ، ولم يظهر لهم ما أودعنا فيك ، وكان يكنى — عندهم — أن تكون ختناً^(٢) لشعيب .

﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾ .

أي عددنا أيام كونك في مدين شعيب ، وكان أهل حضرتنا من الملائكة الذين عرفوا شركك وعيبك منتظرين لك ؛ فجئت على قدر .

(١) أي (أي شيء) وهي لفظة ترد في مصنفات التشييزي من حين إلى آخر . وجاء في الوسيط ج ١

من ٣٤ أن العرب تكلمت بها .

(٢) أي زوجاً لاهلته ، وفي الحديث « سحلي ! نحن رسول الله »

ويقال إنَّ الأَجَلَ إذا جاء للأشياء فلا تأخيرَ فيه ولا تقديم ، وألشدوا في قريب من هذا المعنى :

بينما خاطرُ المنى بالتلاقى سابعُ في فؤاده وفؤادى
جمع اللهُ بيننا فالتقينا هكذا بفتةً بلا ميعادٍ
قوله جل ذكره : ﴿ واصطنعتك لنفسى ﴾ .

استخلصتُك لى حتى لا تصلحَ لأحدٍ غيرى ، ولا يتأتى شئٌ منك غير تبليغ رسالتى ، وما هو مرادى منك .

ويقال أفردتُ سيرك لى ، وجملتُ إقبالك علىّ دون غيرى ، وحلتُ بينك وبين كل أحدٍ ممن هو دونى .

ويقال « واصطنعتك لنفسى » : قطعهُ بهذا عن كل أحدٍ ، ثم قال له : « اذهب إلى فرعون » .

قوله جل ذكره : ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ * اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ .

تعلَّلَ موسى عليه السلام لما أُرسله الحقُّ إلى فرعون بوجوهٍ من العِللِ مثل قوله : « يصيق صدرى ولا ينطق لسانى » ^(١) ، « إني قتلتُ منهم نفساً فأخاف أن يقتلون » ^(٢) .. إلى غير ذلك من الوجوه ، فلم ينفعه ذلك ، وقال الله : « إني معكما أسمع وأرى » ، فاستقل ^(٣) موسى عليه السلام بذلك ، وقال : الآن لا أبالى بعد ما أنت معى .

قوله جل ذكره : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ .

(١) آية ١٣ سورة القصص

(٢) آية ٣٣ سورة القصص

(٣) الاستقلال هنا معناه الاكتفاء .

إنما أمرها بالملاينة معه في الخطاب لأنه كان أول مَنْ دَعَوَهُ إلى الدين ، وفي حال الدهوة يجب ألين ^(١) ؛ فإنه وقت المهلة ، فلا بد من الإمهال ريثما ينظر ^(٢) ؛ قال الله لنبينا صلى الله عليه وسلم : « وجادلهم بالتي هي أحسن » ^(٣) ؛ وهو الإمهال حتى ينظروا ويستدلوا ، وكذلك قال : « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تسكروا ما بصاحبكم من جنة » ^(٤) .

ثم إذا ظهر من الخصم التردد والإيهام فيثبته يُقابل بالغلظة والحنف .
ويقال علمها خطاباً الأكبر ذوى الحشمة ؛ فرعون - وإن كان كافراً - إلا أنه كان سلطاناً وقته ، والمتسلط على عباد الله .

ويقال إذا كان الأمر في مخاطبة الأعداء بالرفق والملاينة .. فكيف مع المؤمنين في السؤال ؟

ويقال في هذا إشارة إلى سهولة سؤال الملوك في القبر للمؤمن .
ويقال إذا كان رفقته بمن جحدته فكيف رفقته بمن رحمته ؟
ويقال إذا كان رفقته بالكفار فكيف رفقته بالابرار ؟
ويقال إذا كان رفقته بمن قال : أنا .. فكيف رفقته بمن قال : أنت ؟
ويقال إنه ^(٥) أحسن تربية موسى عليه السلام ؛ فأراد أن يرفق به اليوم في الدنيا على جهة المكافأة .

وقيل تفسير هذا ما قال في آية أخرى « فقل هل لك إلى أن تزكى » ^(٦) .
وقوله : « لعله يتذكر أو يخشى » : أى كونا على رجاء أن يؤمن . ولم يخبرها أنه لا يؤمن

(١) وردت (التكسين) وهي خطأ في النسخ وقد انتبه أحد القراء إلى هذا الخطأ فوضع علامة استفهام صغيرة .

(٢) النظر هنا معناها التفكير في الأمر .

(٣) آية ١٢٥ سورة النحل .

(٤) آية ٤٦ سورة سبأ .

(٥) أى فرعون .

(٦) آية ١٨ سورة النازعات .

لئلا تتداخلها فترة في تبليغ الرسالة علماً منه^(١) بأنه لا يؤمن ولا يقبل .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّغَى ﴾

في الآية دليل على أن الخوف^(٢) الذي تقتضيه جيلة الإنسان غير ملوم صاحبه عليه ، حيث قال مثل موسى ومثل هارون عليهما السلام : « إِنَّا نَخَافُ » .

ثم إنه سبحانه سَكَّنَ ما بهما من الخوف بوعده النصر لهما .

ويقال لم يخافا على نفسيهما شققة عليهما ، ولكن قالوا : إِنَّا نَخَافُ أَنْ تَحِلَّ بَنَا مَكِيدَةٌ مِنْ جِهَتِهِ ، فلا يحصل فيما تأمرنا به قيامٌ بأمرك ، فكان ذلك الخوف لأجل حق الله لا لأجل حفظ أنفسهما .

ويقال لم يخافا من فرعون ، ولكن خافا من تسليط الله إياه عليهما ، ولكنهما تأدبا في الخطاب .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾

تَلَفَّفَ في استجلاب هذا القول من الحق سبحانه ، وهو قوله : « إِنِّي مَعَكُمَا » بقولهما : « إِنَّا نَخَافُ » ، وكان المقصود لهما أن يقول الحق لهما : « إِنِّي مَعَكُمَا » وإلا فأنى بالخوف لِمَنْ هو مخصوص بالنبوة ؟

ويقال سَكَّنَ فيهما الخوف بقوله : « إِنِّي مَعَكُمَا » ، فقويا على الذهاب إليه ؛ إذ من شرط التكليف التمكين .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَتَيْنَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ ﴾

(١) وردت (منهم) وهي خطأ في النسخ لأن المقصود : مع انه سبحانه عليم بانه لن يؤمن ولن يقبل .
(٢) في هذه الإشارة توضيح هام لاصطلاح (الخوف) .

طال البلاء بيني اسرائيل من جهة فرعون ، فندراً كُهم الحق سبحانه ولو بعد حين ،
بذلك أجرى سُنتَهُ أَنَّهُ يُرْخِي عِنَانَ الظَّالِمِ ، ولكن إِذَا أَخَذَهُ فَإِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ ﴾

من شَرَطِ التَّكْلِيفِ التَّمَكِينُ بِالْبَيِّنَةِ وَالْآيَةِ لِلرَّسُولِ حَتَّى يَتَضَيَّحَ مَا يَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ
فَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنَ النَّبُوَّةِ . ثم إن تلك الآيَة وتلك البيِّنَة ما نفعتهم ، وإنما تأكدت بهما عليهم
الْحُجَّةُ ؛ فَإِذَا تَحَيَّى بَصَرُ الْقَلْبِ فَأَنَّى تنفع بصيرة الحجة ؟ وفي معناه قالوا :

وَفِي نَظَرِ الصَّادِي إِلَى الْمَاءِ حَسْرَةٌ إِذَا كَانَ مَمْنُوعًا سَبِيلَ لِلوَارِدِ

قوله جل ذكره : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾

إِنَّمَا يَتَّبِعِ الْهُدَى مَنْ كَعَلَ قَلْبَهُ بِنُورِ الْعِرْفَانِ ، فأما من كانت على قلبه غشاوة الجهل ..
فمَن يَسْتَمِعُ إِلَى الْهُدَى ؟

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ

عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾

ما بعث الله نبيّاً إلا وقد أُنذِرَ قَوْمَهُ بِالْعَذَابِ عَلَى تَرْكِ الْأَمْرِ ، وبَشَرَهُمُ بِالثَّوَابِ
عَلَى حِفْظِ الْأَمْرِ . والعَذَابُ مُعَجَّلٌ وَمُؤَجَّلٌ ؛ فَمُؤَجَّلُهُ لَا يُوقَفُ عَلَى تَفْصِيلِ الْأَعْدَاءِ وَكَذَلِكَ
مُؤَجَّلُ الثَّوَابِ ، قال تعالى : « فَلَا تَعْلَمْ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » (١) .

وأما مُعَجَّلُ الْعُقُوبَةِ فَأَنْوَاعٌ ، وعلى حسب مقام المرء تَتَوَجَّهُ عَلَيْهِ الْمَطَالِبَاتُ ، وَالزِّيَادَةُ
فِي الْعُقُوبَةِ تَدُلُّ عَلَى زِيَادَةِ اسْتِحْقَاقِ الرُّتْبَةِ ؛ كَالْحُرِّ وَالْعَبْدِ فِي الْحَدِّ . وقسوة القلب نوعُ
عُقُوبَةٍ ، وما يتداخل الطاعة نوعُ عُقُوبَةٍ ، وخسرانُ نَصِيبٍ فِي الْمَالِ وَالْأَنْفُسِ نوعُ عُقُوبَةٍ ..
إلى غير ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ قال

رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ

ثُمَّ هَدَى

(١) آية ١٧ سورة السجدة .

« فن ربكما » على التثنية ، ثم قال : « يا موسى » فأفرده بالخطاب بعدما قال : « فمن ربكما ؟ » . فيحتمل أن ذلك لمشاكلة رموز الآي ، ويحتمل أن موسى كان مُقَدِّماً على هارون فخصه بالنداء .

وإنما أجاب موسى عن هذا السؤال بالاستدلال على فعله — سبحانه — فقال : « ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه » ليعلم أن الدليل على إثباته — سبحانه — ما دلّت عليه أفعاله .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾ * قال
عليها عند ربّي في كتاب لا يضلّ
ربّي ولا ينسى *

لا يمكنني أن أخبركم إلا بما أخبرني به ربّي ، فَمَا عَرَفْتُ عَرَفْتُ ، وما ستره
عليّ وَفَّقْتُ .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا
وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ
نَّبَاتٍ شَتَّى ﴾

جَعَلَ الْأَرْضَ مَسْتَقَرًّا لِّأَبْدَانِهِمْ ، وجعل أبدانهم مستقرًّا لعبادته ، وقلوبهم مستقرًّا
لمعرفته (١) ، وأرواحهم مستقرًّا لمحبتة ، وأسرارهم مستقرًّا لمشاهدته .

قوله جل ذكره : ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ ﴾

هَيَّا لَهُمْ أَسْبَابَ الْمَعِيشَةِ ، وكما نظَرَ إليهم وَرَزَقَهُمْ رَزَقَ دَوَابِّهِمُ التي يفتنّعون بها ،

(١) وردت (وارواحهم مستقرًّا لعبادته) والصواب ان تكون (وقلوبهم مستقرًّا لمعرفته) حسبما
نُفِرَ من مذهب القشيري في ترتيب الملكات الباطنية (انظر بحثنا في الدكتوراه عن الإمام القشيري
وتصوفه) ط مؤسسة الحلبي .

وَأَمْرُهُمْ أَنْ يَتَّقُوا بِمَا تَصِلُ إِلَيْهِ أَيْدِيهِمْ ، وَأَنْ يَنْتَفِعُوا — مَا أَمَكْنَهُمْ — بِأَنْعَامِهِمْ لِيَكُنْ لَهُمْ أَنْعَامُهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾

إِذْ خَلَقْنَا آدَمَ مِنَ التُّرَابِ ، وَإِذْ أَخْرَجْنَاكُمْ مِنْ صُلْبِهِ . . فَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ مِنَ التُّرَابِ أَيْضًا .
وَالْأَجْسَادُ قَوَالِبُ وَالْأَرْوَاحُ وَدَائِعُ ، وَالْقَوَالِبُ نَسَبُهَا التُّرْبَةُ ^(١) ، وَالْوَدَائِعُ صِفَتُهَا الْقُرْبَةُ ^(٢) ،
فَالْقَوَالِبُ يَزِينُهَا بِأَفْضَالِهِ ، وَالْوَدَائِعُ يَحْيِيهَا بِكُشْفِ جَلَالِهِ وَلُطْفِ جَمَالِهِ . وَالْقَوَالِبُ الْيَوْمَ
اعْتِكَافٌ عَلَى رِسَاطِ عِبَادَتِهِ ، وَالْوَدَائِعُ اتِّصَافٌ بِدَوَامِ مَعْرِفَتِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴾

أَمْرُهُ بِجَهَنَّمَ ، وَأَعْمَاهُ عَنْ شُهُودِ ذَلِكَ بِسِرِّهِ ، فَانْجَمَ فِيهِ كَلَامُهُ ، وَمَا اتَّفَعَ بِمَا حَذَّرَهُ مِنْ
انْتِقَامِهِ ، وَبَدَّرَ لَهُ مِنْ أَنْعَامِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى • فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴾

دَعَامَ مُوسَى إِلَى اللَّهِ ، وَخَاطَبَهُمْ فِي حَدِيثِ الْآخِرَةِ مِنْ تَبْشِيرٍ بِشَوَابٍ ، وَإِنْذَارٍ بِعَذَابٍ ،
فَلَمْ يُجِيبُوا إِلَّا مِنْ حَيْثُ الدُّنْيَا ، وَمَا زَادَهُمْ تَذْكِيرًا إِلَّا ازْدَادُوا غَفْلَةً وَجَهَالَةً .

(١) ، (٢) وردتا (البرية) و (القوية) ولم نجد للجملتين معنى على ذلك — في حدود ما نعرف —
بينما لو صارت النسبة إلى (التربة) كما تشير الآية وكما يشير كلام المصنف في بداية الفقرة ، ثم لو جعلنا
(التربة) بدل (القوية) لا نسجم السياق ، ونحن في هذا لا نصدر إلا عن استخدام القشيري لهذا الأسلوب
في مواضع مماثلة — والله اعلم .

كذلك صفة مَنْ وَصَّيَ الحقُّ بالإيمان ، لم يكن له عرفان ، ولا بما يقال لإيمان ، ولا يتأسف على ما يفوته ، ولا تصديق له بحقيقة ما هو بصدده .

قوله : « فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه . . » تأهبوا لنأصيبة الحقيقة ؛ وتشرُّوا للمخالفة ، فقَصَّتهم المشيئة ؛ وكَبَّستهم القدرة ، وكما قيل :

استقبلني وسيفه مسلول وقال لي واحداً منقول
قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسَ ضُجًى ﴾

فكان في ذلك اليوم افتضاحهم^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾

كادَ فرعونَ فكيده له ، وأراد فارتدَّ إليه ، ودعا للاستعداد فأذِلَّ وأذيقَ البأس . ولم يدع موسى شيئاً من الوعد والرفق ، ولم يغادر فرعون شيئاً من البلاء والحق ، ولكن : ﴿ قَالَ لِمَ موسى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افترى ﴾ فتنازحوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى ﴿

اعلموا أنه لا طاعة لأحدٍ مع الله — سبحانه — إذا عُدَّبه ، فحملوا مقاتله على الإفك ، ورموا معجزته بالسحر فقالوا :

﴿ قَالُوا إِنَّ هَٰذَانِ لَسَاحِرَا يَرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ

(١) يشير القشيري بذلك إلى شاهد شعري سبق وروده :
من نحلى بغير ما هو فيه فضحته شواهد الامتحان
ويهدف إلى أن يثبت أن تزيين الطاهر لا جدوى منه في الحقيقة .

يَسْحَرُهَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى *
فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًا
وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى *

هما في دعوتهما كاذبان يقصدان إلى إخراجكم من بلدكم ، والتشويش عنكم
في معتقدكم .

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى بِإِيمَانٍ
نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾

أظهروا من أنفسهم التجلّد قلنا بأنّ النصره لهم ، وإخلاصاً إلى ما كان السحرة يسؤلون
لهم ، فخيروا موسى في الابتداء بناء على ما توهموا من الإلقاء ، فقال لهم موسى :

﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ، فَإِذَا حِجَابُهمْ
وَرِصْبُهُمْ يُجْعِلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ
أَنَّهُ تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ
خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ
أَنْتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ
تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ
سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ
اتَى * فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا
آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى * قَالَ
مَا كُنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ
إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحَرَ
فَلَا تَقْطَعْنَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ
خِلَافٍ وَلَا تَصْلُبْنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ
وَلْتَعْلُنَّ أَيْنَا أَشَدَّ عَذَابًا بَاقٍ ﴾

قال لم موسى بل ألقوا أنتم ، وليس ذلك إذنا لم في السحر ، ولكن أراد الحق إظهار تمويههم ، فلما خيلوا للناس بإلقاء الجبال أنها حيات ابتلعت عصا موسى جملتها ما صنعوا ، وتحقق السحرة أن ذلك أمر سماوي حيث تلاشى عين ما كان معهم من أوتار^(١) الجبال ، وصار الثعبان عصا كما كان ، فسجدوا لله مؤمنين ، واقلب فرعون وقومه خائبين ، وتوعدهم بالقتل والصلب ، وفنوني من العذاب الصعب ، وبعدما كانوا يقسمون بعزة فرعون صاروا يحلفون بالله .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْيِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾

أى بالله الذى فطرنا إننا لن نؤيرك على ما جاءنا من البينات . ولما طلعت في أسرارهم شمسُ العرفان ، وانبسطت عليهم أنوار العناية أبصروا الحق سبحانه بأسرارهم ؛ فناطقوا ببيان التصديق ، وسجدوا بقلوبهم لشهودهم ، ولم يحتشموا مما توعدهم به من العقوبة ، ورأوا ذلك من الله فاستعذبوا البلاء ، ونحملوا اللأواء^(٢) ، فكانوا في الغداة كفاراً سحرة ، وأمسوا أخياراً بررة^(٣) .

قوله « فاقض ما أنت قاضٍ . . . » علموا أن البلاء في الدنيا ينقضي — وإن تمادى ، وينتهى وإن تنامى^(٤)

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السُّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾

أهم الأشياء — على من عرفه — مغفرته لخطاياهم ؛ فهذا آدم — عليه السلام — لما

(١) الأوتار جمع وقر = الحل الثقيل .

(٢) اللأواء = ضيق المعيشة وشدة المرض (الوسيط) .

(٣) في هذه الإشارة فتح لباب الأمل أمام العصابة نظراً لقصر المسافة بين الكفر والإيمان ، في سبيلين الغداة والمساء .

(٤) أى وإن تنامى في الشدة .

استكشف^(١) من حاله ، وحل به ماحل قال : « رب إني ظلمت نفسي ... »^(٢) وقال لنبينا — صلى الله عليه وسلم — « واستغفر لذنبك »^(٣) . وقال صلى الله عليه وسلم : « إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة »^(٤) . ومن عليه بقوله : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر »^(٥)

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعَبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴾^{*}
فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَفَشَّيْتَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشَّيْتَهُمْ * وَأَضَلُّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴾^{*}

لما عبر موسى ببني إسرائيل البحر ، وقرب منه فرعون ، ورأى البحر منفلقاً والطريق فيه يَبَسًا غَيْرَ قَوْمِهِ بتليسه فقال : « إنه بحسبي انفلق ، فأنا ربكم الأعلى ! » وحصل — كما في القصة — من دخوله بسكوره البحر حتى دخل آخره ، وهم أن يخرج أولهم ، فأمر الله البحر حتى انطمت أمواجه ففرقوا بجملتهم ، وآمن فرعون لما ظهر له اليأس^(٦) ، ولم ينفعه إقراره ، وكان ينفعه لو لم يكن إصراره ، وقد أدركته الشقاوة التي سبقت له من التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَدَّعْنَاكُمْ الْغَلِيلَ أَلَيْسَ لَنَا عَلَيْكُمُ الْوَعْدُ الْأَمِينُ ﴾^{*}

(١) يقصد القشيري حين (بدت لها سواثها وانكشفت) وربما كانت في الأصل (استكشف) أي جعل مما فعل فهي قريبة في الكتابة وملائمة السياق .

(٢) آية ١٦ سورة القصص

(٣) آية ٥٥ سورة غافر .

(٤) عن اهر مزينة رضي الله عنه قال : قال رسول الله : إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله تعالى في اليوم والليلة مائة مرة . أخرجه مسلم وأبو داود .

(٥) آية ٢ سورة الفتح .

(٦) ربما كانت (اليأس) بالباء فهي ملائمة السياق .

يَذَكِّرُهُمْ آلَاءَهُ ، وَيَعِدُّ عَلَيْهِمْ نِعْمَاءَهُ ، وَيَأْمُرُهُم بِالْإِتِمَامِ الطَّاعَةِ وَالْقِيَامِ بِالشُّكْرِ لِأَنْ تُسَبِّغَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَنُونِ النُّعْمِ . ثُمَّ يَذَكِّرُهُمْ بِمَنْ بَعْدَهُ عَلَى أَسْلَافِهِمْ مِنْ إِنْزَالِ الْمُنِّ وَالسُّلُوبِ ، وَضُرُوبِ الْبَحْنِ وَفَنُونِ الْبَلَاءِ .

قوله جل ذكره : ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ ﴾ .

الطيبُ ما كان حلالاً . ويقال الطيب من الرزق ما لا يَعْصِي اللهَ مُكْتَسِبُهُ . ويقال الطيب من الرزق ما يكون على مشاهدة الرزاق . ويقال الطيب من الرزق ما حصل منه الشكرُ . ويقال الطيب من الرزق ما يأخذه العبدُ من الله ؛ فما لأهل الجنةِ مُؤَجَّلٌ في عقابهم جهراً ، معجَّلٌ لأصفيائهم سرّاً ، قال تعالى : « آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ^(١) » .

والأرزاقُ مختلفةٌ ؛ فلا أقوامَ حظوظُ النفوسِ ولآخرينَ حقوقُ القلوبِ ، ولأقوامٍ شهودُ الأسرارِ ؛ فَرَزَقَ النفوسَ التوفيقَ ، ورَزَقَ القلوبَ التصديقَ ، ورَزَقَ الأرواحَ التحقيقَ ^(٢) .

قوله : « لَا تَطْغَوْا فِيهِ » : بمجاوزة الحلال إلى الحرام .

ويقال « لَا تَطْغَوْا فِيهِ » : بالزيادة على الكفاف ^(٣) ، وما لا بُدَّ منه مما زاد على سدِّ الرمق .
ويقال « لَا تَطْغَوْا فِيهِ » : بالأكل على الغفلة والنسيان .

قوله جل ذكره : ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴾ .

فيحل عليكم غضبي بالخذلانِ لمُتَابَعَةِ الزَّوْءِ بَعْدَ الزَّوْءِ .
ويقال فيحل عليكم غضبي لِغَفْدِكُمُ التَّأْسُفَ عَلَى مَا فَاتَكُمْ .
ويقال بالرضا بما أتم فيه من نقصان الحال .

(١) آية ١٦ سورة الدَّارِيَاتِ .

(٢) نضع ذلك في اعتبارنا عند بحث المِلَكَاتِ الْبَاطِنِيَّةِ ، ووظائفها وآفاتها ... وأرزاقها .

(٣) الكفاف من الرزق ما كان على مقدار الحاجة من غير زيادة ولا نقصان .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنِّي لَنَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ .

النفَّار كثيرُ المغفرة ؛ فَمَن تَابَ التَّوْبَةُ عَنْ زَلَّةٍ وَاحِدَةٍ وَمِنهُ الْمَغْفِرَةُ لِذُنُوبٍ كَثِيرَةٍ ، وَمِنهُ الشَّرِيَّةُ الَّتِي لَا إِطْلَاعَ لِأَحَدٍ غَيْرِهِ عَلَيْهَا وَمَا لِلْمَلَائِكَةِ عَلَيْهَا إِطْلَاعٌ . وَهُوَ يَغْفِرُ لِمَن عَمِلَ مِثْلَ عَمَلِكَ ، وَهُوَ يَغْفِرُ لِمَن قَلْبُكَ مُرِيدٌ لَهُ بِالْخَيْرِ وَالنِّعْمَةِ ، وَكَمَا قَالُوا .

إِنِّي — عَلَى جَفَوَاتِهَا — فَبَرَّيْتُهَا وَبِكُلِّ مُتَّصِلٍ بِهَا مُتَوَسِّلٍ وَأَحْبَبْتُهَا وَأَحَبُّ مَنْزِلَها الَّذِي نَزَلْتُ بِهِ وَأَحَبُّ أَهْلِ الْمَنْزِلِ

قوله « وَإِنِّي لَنَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ » : فَلَا تَصِحُّ التَّوْبَةُ إِلَّا لِمَن يَكُونُ مُؤْمِنًا .

وقوله هنا : « وَآمَنَ » : أَي آمَنَ فِي الْمَالِ كَمَا هُوَ مُؤْمِنٌ فِي الْحَالِ .

ويقال آمَنَ بِأَنَّهُ لَيْسَتْ نَجَاتُهُ بِتَوْبَتِهِ وَبِإِيمَانِهِ وَطَاعَتِهِ ، إِنَّمَا نَجَاتُهُ بِرَحْمَتِهِ .

ويقال « وَإِنِّي لَنَفَّارٌ لِّمَن تَابَ » : مِنَ الزَّلَّةِ « وَآمَنَ » : فَلَمْ يَرَّ أَعْمَالَهُ مِنْ نَفْسِهِ ، وَآمَنَ بِأَن جَمِيعَ الْحَوَادِثِ مِنَ الْحَقِّ — سُبْحَانَهُ — « وَعَمِلَ صَالِحًا » : فَلَمْ يُخِلْ بِالْفَرَائِضِ ثُمَّ اهْتَدَى لِلسُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ^(١) .

ويقال « ثُمَّ » : لِلتَّرَاخِي ؛ أَي آمَنَ فِي الْحَالِ « ثُمَّ » اهْتَدَى فِي الْمَالِ .

ويقال مَنْ مَجَّعَ مِنْهُ « وَإِنِّي » لَا يَقُولُ بَعْدَ ذَلِكَ : « إِنِّي » ^(٢)

ويقال مَنْ شَغَلَهُ سَمَاعُ قَوْلِهِ : « وَإِنِّي » اسْتَهْلِكَ فِي اسْتِيلَاءِ مَا غَلَبَ عَلَيْهِ مِنْ ضِيَاءِ الْقُرْبَةِ ، فَإِذَا جَاءَتْ « لَنَفَّارٌ » صَارَ فِيهِ بَعِينُ الْحَوِّ ، وَلَمْ يَتَعَلَّقْ بِذُنُوبِ أَصْحَابِهِ وَأَقَارِبِهِ وَكُلِّ مَنْ يَعْنِي بِشَأْنِهِ .

ويقال « إِنِّي لَنَفَّارٌ » كَثِيرُ الْمَغْفِرَةِ لِمَن تَابَ مَرَّةً ؛ فَيَغْفِرُ لَهُ أَنْوَاعًا مِنْ ذُنُوبِهِ الَّتِي لَمْ يَتَّبَعْ مِنْهَا سِرَّهَا وَجَهْرَهَا ، صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ، وَمَا يَتَذَكَّرُ مِنْهَا وَمَا لَا يَتَذَكَّرُ . وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ :

(١) واضح حرم القشيري السني على التمسك بسننِهِ — وهذا أصل ثابت في مذهبه سواء في علم الكلام أو في علم التصوف .

(٢) فالتوحيد الصادق إسقاط اليباءات ونبي كل دهرى للنفس .

عملت « عملاً صالحاً » : بل يلاحظُ عمله بعين الاستصغار ، وحالته بغير الاستمرار .

وقوله « ثم اهتدى » : أى اهتدى إلينا بنا .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴾

أخرجهم مع نفسه لما استصحبهم ، ثم تقدمهم^(١) بخطوات فتأخروا عنه ، فقبل له في ذلك مراعاة لحق محبتهم .

ويقال قوم يُعَاتَبُونَ لتأخرهم وآخرون لتقدمهم . . فستان ماها !

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ

إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾

أى عجِلْتُ إليك شوقاً إليك ، فاستخرج منه هذا الخطاب ، ولولا أنه استنطقه لما أخبر به موسى^(٢) .

قوله « هم أولاء على أثرى . . » أى ما خلقتهم لتصيبى أياهم ، ولكنى عجِلْتُ إليك لترضى . قال : يا موسى إن رضائى فى أن تكون معهم وألا تسبقهم ، فكونك مع الضعفاء الذين استصحبهم — فى معانى حصول رضائى — أبلغ من تقدمك عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ ﴾

فَتَنَّا قَوْمَكَ فَضَلُّوا وَعَبَدُوا الْعِجْلَ ؛ فأخبر الحق — سبحانه — أن ذلك منه تقدير ، وفى هذا تكذيب لمن جحد القول بالقدر .

ويقال طلب موسى — عليه السلام — رضاء الحق ، وقدّر الحق — سبحانه — فتنة قومه فقال : « إنا قد فتنا قومك من بعدك » ، ثم الحكمُ لله ، ولم يكن بُدٌ لموسى عليه السلام من الرضاء بقضاء الله — فلا اعتراض على الله — ومن العلم بحق الله فى أن يفعل ما يشاء ، وأنشدوا :

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد

(١) حين ذهب لمبعات ربه .

(٢) وإلا كان دهوى من النفس . ويفيدنا هذا رأى فى قضية الإمصاح والكنهان .

قوله جل ذكره : ﴿وَأَضَلُّهُمْ السَّامِرِيُّ﴾

بدعائه إياهم إلى عبادة العجل ، وهو نوع من التفرغ ، وحصل ما حصل ، وظهر ما ظهر من (. . .) (١) .

قوله جل ذكره : ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾

ورجع نبينا — صلى الله عليه وسلم — من المعراج بنعت البسط ، وجاء بالنجوى (٢) لأصحابه فيها أوجب الله عليهم من الصلاة ، وأكرمهم به من القرية بالزلفة . . فشتان ماها !
ورجع موسى إلى قومه بوصف الغضب والأسف ، وخاطبهم ببيان العتاب :

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ
وَعَدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ ؟
أَمْ أُرِدْتُمْ أَنْ يُخِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ
مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَقْتُمْ مَوْعِدِي﴾

ظنوا بنبيهم ظنَّ السوء في خلفه الوعد ، فَلَاحِقَهُمْ شَوْمٌ فَلَاحِقَهُمْ غَضَبٌ ،
وأشركوا في العقد . . وكذلك يكون الأمر إذا لم يَفِ للرب بعقده ، فإنه ينخرط
في هذا السُّلُوكِ

قوله جل ذكره : ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِبَلِّكُنَا

وَلَكِنَّا مُكَلَّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ
الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى
السَّامِرِيُّ﴾

قَالُوا لَمْ نَكُنْ فِي ابْتِدَاءِ حَالِنَا قَاصِدِينَ إِلَى مَا حَصَلَ مِنَّا ، وَلَا عَالِمِينَ بِمَا آَلَتْ إِلَيْهِ عَاقِبَةُ

(١) - مشتبه ، وهي قرينة في الخط من (التمدية) وربما كانت صحيحة بمعنى التمدي ؛ لأنهم تركوا عبادة الله إلى عبادة العجل فظلموا أنفسهم وتجاوزوا حدودهم .

(٢) - ربما كانت (بالنجاة) حيث تتضح المقابلة بين أمة عاد إليها نبيها من عند ربه (بالنجاة) وأمة عاد إليها نبيها منذراً بالمقوبة ومع ذلك فقد قبلنا (النجوى) على أساس أنها جوهر الصلاة .

حَالَتَا ، وَإِنِّ الذِّى جَعَلَنَا مِنْ حُلِيِّ الْقَبْطِ صَاغَ السَّامِرِيِّ مِنْهُ الْعَجَل . . وَكَذَلِكَ الْحَرَامُ مِنْ حِطَامِ الدُّنْيَا لَا يَخْلُو مِنْ شُؤْمٍ أَثَرُهُ . فَلَقَدْ كَانَتْ الْقَنِيْمَةُ وَأَمْوَالُ الْمُشْرِكِينَ حَرَامًا عَلَيْهِمْ ، فَاسْتَعَارُوا الْحُلِيَّ مِنَ الْقَبْطِ ، وَآلَ إِلَهُهِمْ مَا كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ الْمَلِكِ ، فَكَانَ سَبَبَ عِبَادَتِهِمُ الْعَجَل . . كَذَلِكَ مَنْ أَتَاهُكَ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا مِنْ غَيْرِ وَجْهِ حَلَالٍ يَكُونُ عَلَى خَطَرٍ مِنْ رِقَّةٍ دِينِهِ ، قَالَ تَعَالَى : « أَفَرَأَيْتَ مَنْ آتَاهُ اللَّهُ هَوَاهُ » (١) .

قوله جل ذكره: ﴿ فَأَخْرَجَ لَمْ عِيْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ
فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى
فَنَسِيَ * أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ
قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا *

يقال إنهم لما مروا على قوم يعبدون أصناماً لهم قالوا موسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، وكان ذلك الصنم على صورة العجل فكان مَبْلُثُهُمْ إلى عبادته مُسْتَكِيناً في قلوبهم ، فصاغ السامريُّ العجل على تلك الصورة . وفي هذه إشارة إلى أن خفايا الهوى إذا استكنت في القلب فما لم يُنْقَشْ ذلك الشرك بمنقاش النازلة يُخْشَى أَنْ يَلْقَى صاحبه (. . .) (٢) .

ويقال إن موسى — عليه السلام — خرج من بين أُمته أربعين يوماً فَرَضِيَ قَوْمَهُ بِعبادة العجل ، ونيثنا — عليه السلام — خرج من بين أُمته وأتت سنون كثيرة ولو ذَكَرَ واحدٌ عند مَنْ أَخْلَصَ مِنْ أُمته في التوحيدِ حديثاً في التشبيه لعدوا ذلك منه كبيرةً لبس له منها مَخْلَصٌ^(٣) .

كذلك فإنهم استحقوا كتابهم فبدلوه تبديلاً ، بينما ضمن الحق — سبحانه — إعزاز هذا الكتاب بقوله : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنَّه لحافظون » (٤) .

(١) آية ٢٢ سورة الجاثية .

(٧) مشتبهه وهى فى الرسم تقرب من (نعيه) والتعيب صوت الدراب .. فهل يقصد القشيري — ما ذكره منذ قليل — أن صاحبه يلقى شؤم أثر ذلك ؟ أم أن اللفظة فى الأصل غير ذلك ؟ ربما كانت (نحيه) أو (نعيه) أو (مقتته) .

(٣) لأن المشقة يدنون بتصوراتهم المادية عن الألوهية من عبدة العجل .

(٤) آية • سورة الحجر .

وقال : « ليظهره على الدين كله » (١) .

قوله : « أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا . . . » بَيِّنَ أَنَّ مَنْ لَا قَوْلَ لَهُ لَا يَتَكَلَّمُ ،
ومن لَا يَمْلِكُ الضَّرَّ وَالنَّفْعَ لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ ، وفيه رَدٌّ عَلَى مَنْ لَمْ يُثَبِّتْ لَهُ فِي الْأَزَلِ الْقَوْلَ ،
وَلَمْ يَصِفْهُ بِالْقَمَرَةِ عَلَى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ :

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ
إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ
فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾

إنهم لم يحفظوا أمر موسى وهو فوق هارون ، والإشارة في هذا أن من لم يحفظ أمر مَنْ
هو أعلى رتبةً كيف يحفظ أمر من هو أدنى منزلةً ؟ فَمَنْ تَرَكَ أَمْرَ الْحَقِّ . . كيف
يُطَمَعُ فِيهِ أَنْ يَحْتَرَمَ الشُّيُوخَ وَأَكَلَ النَّاسَ ؟ لهذا قيل : لَا حُرْمَةَ لِفَاسِقٍ ، لِأَنَّهُ إِذَا تَرَكَ حَقَّ
الْحَقِّ فَتَى يَحْفَظُ حَقَّ الْخَلْقِ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ
حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴾

كَانَ ذَلِكَ تَعَلُّلاً مِنْهُمْ بِالْبَاطِلِ ، فَقَالُوا إِنَّهُمْ كَانُوا عَازِمِينَ عَلَى تَرْكِ عِبَادَةِ الْعَجَلِ ، إِذْ بِهِ
يَنْتَحِقُونَ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ دَعَاهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ وَتَرْكِ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ . . وَلَكِنْ كُلُّ
مُتَعَلِّلٍ يَسْتَنِدُّ إِلَى مَا يَحْتَجُّ بِهِ مِنَ الْبَاطِلِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ
ضَلُّوا ؟ أَلَا تَتَّبِعُنِ أَفْعَصَيْتَ
أَمْرِي ﴾

ضَاقَ قَلْبُ مُوسَى — عَلَيْهِ السَّلَامُ — لَمَّا شَاهَدَ مِنْ قَوْمِهِ بِالْمَعَانِيَةِ عِبَادَةَ الْعَجَلِ ، وَلَقَدْ كَانَ
سَمِعَ مِنَ اللَّهِ أَنَّ السَّامِرِيَّ أَضَلَّهُمْ حِينَ قَالَ : « إِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ » ، وَلَكِنْ قَدِيمًا قِيلَ : لَيْسَ
الْخَبِيرُ كَالْعَيَّانِ ، فَلَمَّا عَايَنَ ذَلِكَ ضَاقَ قَلْبُهُ ، فَكَانَ يَقُولُ لِأَخِيهِ ذَلِكَ فَظَهَرَ مِنْهُ مَا ظَهَرَ (٢) ،

(١) آية ٢٨ سورة الفتح .

(٢) إشارة إلى أنه أخذ بشعر رأسه بيمينه ، ولحيته بشماله فضرباً ، وغبرة في الله .

وقيل : مَنْ ضاق قلبه اتسع لسانه . ولما ظهر لموسى — عليه السلام — ما ظهر أخذ هارون يقابله بالرفق واللفظ وحسن المداراة . . . وكذلك الواجب فى الصحبة لئلا يرتقى الأمر إلى الوحشة ، فاستلطفه فى الخطاب واستعطفه بقوله :

﴿ قَالَ يَا ابْنَ أُمِّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي
وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ
فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ
قَوْلِي ﴾

أنت أمرتني ألا أفارقهم . وقد يقال إن هارون لو قال لموسى : فى الوقت الذى احتججت أن تمضى إلى فرعون قلت : « وأخى هارون هو أفصح منى لسانا » ، وقلت : « أرسله معي » ، وقلت حين مضيت إلى سماع كلام الحق : « اخلفنى فى قومي » فإا اكتفيت بأن لم تستصحبني . . . وخلفتني ! وقد علمت أنى برىء الساحة مما فعلوا فأخذت بلحيتى وبرأسى . . . ألم نرض بما أنا فيه حتى تزيدنى حرباً على حربى^(١) ؟ ... لو قال ذلك لكان موضعه ، ولكن لجليه ، ولجليه — بأن ذلك كله حكمهم ربهم — فقد قابل كل شئ بالرضا .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ فَاخْطُبْكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾

سأل موسى كل واحد منهم بنوع آخر ، وإن معاتبته مع قومه ، ومطالبته لأخيه ، وتغييره فى نفسه ، واستيلاء الغضب عليه — لم يغير التقدير ، ولم يؤخر المحكوم .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ
فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ
فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾

علمت ما لم يعلمه بنو إسرائيل فرأيت جبريل ، فقبضت الثراب من موضع حافر

(١) الحرى = الغضب (الوسيط ج ١ ص ١٦٩)

دابته ، وأُلقي في رَوْحِي أن ذلك سببُ حياة العجل فطرحناها في جوفه . . . هكذا زينتُ لى
نفسى فاتبعتُ هواها .

ثم كان هلاكُه . . . لئلا يَأْمَنَ أَحَدٌ حَتَّى مَكْرِ التَّقْدِيرِ ، ولا يَرَكْنَ إلى ما في الصورة
من رِفْقٍ فَلَعَلَّه — في الحقيقة — يكون مَكْرًا ، ولقد أشدوا :

فَأَمِنَتْهُ فَأَتَاكَ لى من مَأْمِنِي مَكْرًا ، كذا من يَأْمَنُ الأحبابا

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ
تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا
لَنْ تُخْلَفَهُ ﴾

لم يَخَفَ على موسى — عليه السلام — تأثيرُ التقديرِ وانفرادُ الحقِّ بالإبداع ، فلقد قال
في خطابه مع الحق : « إن هي إلا فتنتك » ، ولكنه لم يدع — مع ذلك — بإحلال العقوبة
بالسامري والأمر في بابه بما يستوجبه ؛ ليعلم أن الحكم في الإبداع والإيجاد — وإن كان لله —
فالمعاقبة والمطالبة تتوجهان على المخلوق في مقتضى التكليف ، وإجراء الحق ما يُجْزِيه ليس
حُجَّةً للعبد ولا عُدْرًا له .

قوله جل ذكره : ﴿ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ
عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ
نَسْفًا ﴾

كلُّ ما تَعَلَّقَ به القلبُ من دون الله يَنْسِفُهُ الحقُّ — سبحانه بِمُحِبَّةٍ^(١) ، ولهذا يُلقَى
الأصنامَ غداً في النار مع الكفار ، وليس لها جُرْمٌ ، ولا عليها تكليف ، ولا لها عِلْمٌ
ولا خبر . . . وإنما هي جمادات .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾

إلى إلهكم الذي يجب عليكم عبادته بحقِّ أمره هو الله الذي لا إله إلا هو ، وهو بوصف
الجلال ، والذي لا يخفى عليه شيء من المعلومات هو الله ، وليس مثل الذي هو جاد لا يعلم

(١) الباء هنا معناها (مع) .

ولا يَقْدِرُ ، ولا يحيا ولا يسمع ولا يبصر . ويمكنه أن يَسْحَقَ هذا الجَمَادَ ويحرقه .

قوله جل ذكره : ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ
مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا
ذِكْرًا ﴾

نَعْرِفُكَ أحوالَ الأولين والآخرين لثلاثين عليك شيء من طُرُقِهِمْ ؛ فتتأدب بأدابِهِمْ
وتتجمع فيكَ مُتَفَرِّقاتُ مناقِبِهِمْ ... ولكن اعلم أننا لم نُبَلِّغْ أحداً مَبْلَغَكَ ، ولم يكن لأحدٍ مِنَّا
مَالَكَ ؛ آتَيْنَاكَ مِنْ عِنْدِنَا شَرْقًا وفجرا لم يشركك فيهما أحدٌ ، وذكرناكَ ما سَلَفَ لَكَ مِنْ
العهد معنا ، وجَدَدْنَا لَكَ بَيْنَهُمْ تَخْصِيصًا لِيَاكَ ، وكَرِّمَ إقبالنا عليك .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴾

المَعْرُضُونَ عَنْهُ شركاء يحملون عذاباً وِزْرًا وثِقَلًا ، أولئك بَعُدُوا عَنْ محلِّ الخِصْصَةِ ،
ولم يكن لهم خَطَرٌ فِي التَّحْقِيقِ ؛ فعقوبتهم لا تزيد على آلام نفوسهم وإحراقِ أشباحهم ،
وأما أهل الخِصْصَةِ فلو ففلوا عنه ساعةً ونَسَوْهُ لَحْظَةً لَدَارَ — فِي الْحَالِ — على رؤوسهم
البلا بحيث تتلاشى فِي جَهَنَّمَ عقوبة كلِّ أحدٍ (بالإضافة إلى هذه العقوبة) (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ
الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ يَتَخَفَتُونَ
بَيْنَهُمْ إِنْ لَيْشُمْ إِلَّا عَشْرًا * نحن
أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ
طَرِيقَةً إِنْ لَيْشُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾

قومٌ يَوْمُ الْقِيَامَةِ لهم مُؤْجَلٌ ، وهو بعد النفخ فِي الصُّورِ على ما وَرَدَ فِي الْكِتَابِ
وَفِي الْخَبَرِ الْمَأْتُورِ .

(١) ما بين القوسين أضيفناه من عندنا لِبِتَضَاحِ الْمَعْنَى الْمَطْلُوبِ حَسْبِهَا نَعْرِفُ مِنْ مَذْهَبِ الصُّوفِيَةِ أَنَّ عَذَابَ
الْفِرَاقِ أَشَدَّ مِنْ عَذَابِ الْإِحْتِرَاقِ .

وللآخرين قيامةٌ مُعَجَّلَةٌ^(١) ؛ فيها محاسبة وعليهم فيها مطالبة ، وهوان حاضر وعذاب حاصل ، فكما تَرَدُّ على ظواهر قويم في الآخرة عقوباتٌ ، تَرَدُّ على سرائر آخرين عقوباتٌ في الحياة الحاضرة ، والمعاملة مع كلٍّ أحديهما تخالف للمعاملة مع صاحبه .

قوله « يتخافتون بينهم . . . » مَنْ تَفَرَّغَ لِعِدَّةِ الْأَوْقَاتِ والتمييز بين اختلاف الحالات فنوعٌ غيرٌ مستوفٍ في بلائه ، وأمره سهلٌ . . . وَمَنْ كَانَ يُرَادُ الْمَعْنَى من حديثه لا يتفرغ إلى نعت الحال ؛ فالأحوال تخبر عنه وهو لا يُسألُ عن الخبر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۚ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۚ ﴾

كما أَنَّ في القيامةِ الموعودةِ تُفَيِّرُ الجبالُ عن أحوالِها فهي كالِهِنَّ المنفوش فكذلك في القيامةِ الموجودةِ . . . فلا يخبرك عنها إلا الأكابر الذين هم كالرواسي ثباتاً ؛ فإنه يُدْخَلُ عليهم من الأحوال ما يحققهم عن شواهدهم ، ويأخذهم عن أقرانهم . . . كذا سُنتُهُ سبحانه .
قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۚ ﴾

تنقطع الأوهام ، وتقف الأفهام ، وتنخس العقول ، وتندرس العلوم ، وتتحير المعارف ، وينلاشي ما هو نَعْتُ الخلق ، ويستولى سلطان الحقيقة . . . فعند ذلك لا عينٌ ولا أذنٌ ، ولا رسمٌ ولا طللٌ ولا غَيْرٌ ، في الحضور خَرَسٌ ، وعلى البساط فناءٌ ، والرسوم امتحاءٌ ، وإِنَّمَا الصحة على الثبات .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ۚ ﴾

(١) أي القيامة التي تحمل بأرباب القلوب في هذه الحياة الدنيا
(٢) لأنه يكون فانياً عن نفسه ، والقائم عنه ربّه .

دليل الخطاب انَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ فِي الشَّفَاعَةِ تَنَفُّعَهُ الشَّفَاعَةُ ، وَإِذَا قُبِلَتْ شَفَاعَةُ أَحَدٍ بِإِذْنِ الرَّحْمَنِ فَمِنْ أَلْهَالٍ أَلَّا تُقْبَلَ شَفَاعَةُ الرَّسُولِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — وَهُوَ أَفْضَلُ الْكَافَةِ ، وَشَفَاعَةُ الْأَكْبَرِ مِنْ صَفْوَتِهِ مَقْبُولَةٌ فِي الْأَصَاغِرِ فِي الْمُؤَجَّلِ وَفِي الْمُعَجَّلِ . وَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ يُشَفِّعُ الشُّيُوخَ فِي مَرِيدِهِمُ الْيَوْمَ^(١)

ويقال شفاعَةُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ غَدًا لِلْمُطِيعِينَ بِزِيَادَةِ الدَّرَجَةِ ، وَالْعَاصِينَ بِغُفْرَانِ الزَّلَّةِ ، كَذَلِكَ شَفَاعَةُ الشُّيُوخِ — الْيَوْمَ — لِلْمُرِيدِينَ عَلَى قَسَمَيْنِ : لِلَّذِينَ هُمْ أَصْحَابُ السُّلُوكِ فَبِزِيَادَةِ التَّحْقِيقِ وَالتَّوْفِيقِ ، وَلِلَّذِينَ هُمْ أَصْحَابُ التَّخَبُّطِ وَالْغُرَّةِ فَبِالتَّجَاوُزِ عَنْهُمْ ، وَعَلَى هَذَا يُحْمَلُ قَوْلُ قَائِلِهِمْ :

إِذَا مَرَضْتُمْ أَتَيْنَاكُمْ نَعُودُكُمْ وَتَذَنُّبُونَ فَنَاتِيَكُمْ وَنَعْتَدِرُكُمْ

وحكاياتُ السَّلَفِ مِنَ الشُّيُوخِ مَعَ مَرِيدِهِمْ فِي أَوْقَاتِ فَتْرَتِهِمْ مَعْرُوفَةٌ ، وَهِيَ مُشَاكِلَةٌ لِهَذِهِ الْجُمْلَةِ ، وَإِنْ شَفَاعَتُهُمْ لَا تَكُونُ إِلَّا بِتَعْرِيفٍ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ فِي الْبَاطِنِ ، وَيَكُونُ ذَلِكَ أَدْبَاءً لَهُمْ فِي ذَلِكَ

قوله جل ذكره : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾

لا يَخْفَى عَلَى الْحَقِّ شَيْءٌ مِمَّا مَضَى مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَلَا مِنْ آتِيَّاهُمْ ، وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا . وَالْكُنَايَةُ^(٢) فِي قَوْلِهِ : « بِهِ » بِحَتْمِ أَنْ يَعُودَ إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَعُودَ إِلَى الْحَقِّ — سُبْحَانَهُ — ، وَهُوَ طَرِيقَةُ السَّلَفِ ؛ يَقُولُونَ . يَعْلَمُ الْخَلْقَ وَلَا يُحِيطُ بِهِ الْعِلْمُ ، كَمَا قَالُوا : إِنَّهُ يَرَى وَلَا يُدْرِكُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾

(١) بينما ينكر المعتزلة الشفاعَةَ (أنظر الملل والنحل للشهرستاني) يثبت القشيري الشفاعَةَ لا للرَّسُولِ فقط بل للأولياء في الدارين ، وللشيوخ في هذه الحياة الدنيا .. على نحو ما هو واضح من إشارته .
(٢) الكناية في تعبير القشيري منها (الضمير) ، وهو هنا الهاء في (به) .

ذَلَّتْ لَهُ الرقاب واستسلم لحكمه الخلق ، وخضعت له الجبابرة ، ومن اقترف الظلم بقي في ظلماته ، وعلى حسب ذلك في الزمادة والنقصان .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ .

العمل الصالح ما يصلح للقبول ، فاعله هو المتجرّد عن الآفات الواقعة لحقيقة الأمر .
ويقال العمل الصالح ما لم يستعجل عليه صاحبه أجراً .

قوله : « وهو مؤمن » : أى فى المآل كما هو مؤمن فى الحال .

ويقال هو مؤمن مصدّق لربه أنه لا يعطى المؤمن لأجل إيمانه شيئاً ، ولكن بفضلّه ، وإيمانه أمانة لذلك لا موجب له ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ .

أتبعنا قليلاً بعد دليل ، وبعثنا رسولا بعد رسول ، وحدّثناهم بوجود من التعريفات ، وإظهار كثير من الآيات

قوله جل ذكره : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ .

تعالى الله فى كبريائه ، وكبرياؤه : سناؤه وعلاه ومجده ورفعته وعظمته ، كل ذلك بمعنى واحد ، وهو استحقاقه لأوصاف الجلال والتعظيم .

و « الملك » : مبالغة من الملك ، وحقيقة الملك القدرة على الإيجاد ، والانفراد بذلك .

و « الحق » : فى وصفه — سبحانه — بمعنى الموجود ، ومنه قوله عليه السلام :

« العين حق » ^(٢) أى موجود .

(١) على خلاف قول المعتزلة الذين يوجبون على الله أن يثبت من أطاع ويعاقب من أذنب .

(٢) يقول القشيري فى تحبيره ص ٦٨ « الحق من أسمائه سبحانه بمعنى الموجود الكائن ، وكذا معناه

فى اللغة ، ومنه قوله عليه السلام : « السحر حق » أى كائن موجود ، وكذا يقال الجنة حق ، والنار حق .

ويكون الحق بمعنى ذى الحق ، ويكون بمعنى مُحَقِّق الحق . كل ذلك صحيح .
 قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ .

كان يتعجل بالتلقف من جبريل مخافة النسيان ، فأمره بالثبوت في التلقين ، وأمره من طوارق النسيان ، وعرفه أن الذى يحفظ عليه ذلك هو الله .
 والآية تشير إلى طَرَفٍ من الاحتياط في القضاء بالظواهر قبل عرضها على الأصول ، ثم إن لم يوجد ما يُوجِبُ بالتحقيق أجراه على مقتضى العموم بحق اللفظ ، بخلاف قول أهل التوقف .
 فالآية تشير إلى الثبوت في الأمور وضرورة التمسك واللبث قصداً للاحتياط ^(١) .
 قوله : (وقل رب زدنى علماً) : فإذا كان أعلمُ البشر ، وسيدُّ العرب والعجم ، ومن شهد له الحقُ بخصائص العلم حين قال « وعلمك ما لم تكن تعلم » ^(٢) يقال له : « وقل رب زدنى علماً » — علمٌ أن ما يخصُّ به الحقُّ أوليائه من لطائف العلوم لا حصرَ له .

ويقال أحاله على نفسه ^(٣) في استزادة العلم . وموسى عليه السلام أحاله على الخضر حتى قال له : « هل أتبعك على أن تُعلِّمَنِي مما علمت رشداً » فشتان بين عبدٍ أحيل على عبدٍ في ذلك ثم قيل له : « إنك لن تستطيع معي صبراً » ثم بعد كل ذلك التلطف قال له في آخر الأمر :
 « هذا فراق بيني وبينك » . . . وبين عبدٍ أمره عند استزادة العلم بأن يطلبه من قبل ربه فقال : قل يا محمد : « وقل رب زدنى علماً » !

ويقال لما قال عليه السلام : « أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له » ^(٤) ، قال له : « وقل رب زدنى علماً » ليُعلمَ أنَّ أشرف إخصال العبد الوقوف في محل الافتقار ، والاتصاف بنعت الدعاء دون الوقوف في معرض الدعوى ^(٥) .

(١) هذا يوضح مدى تحفظ المصنف واحتياطه في تناول النص النقلي .

(٢) آية ١١٣ سورة النساء .

(٣) (على نفسه) الضمير هنا يعود على الحق سبحانه كما سيتضح بعد قليل .

(٤) البخارى عن أنس : (والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له) .

والشبخان عن عائشة : (والله إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية) .

(٥) أى أن يكون العبد داعياً لا دعياً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ
فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾

لم نجد له قوةً بالكمال ، وانكاشاً في مراعاة الأمر حتى وقعت عليه سمةُ العصيان بقوله :
« وعصى آدم ربه » (١) .

ويقال « لم نجد له عزماً » : على الإصرار على المخالفة .

ويقال لم نجد له عزماً في القصد على الخلاف (٢) ، وإن كان .. فذلك يقتضى النسيان ، قال
تعالى « فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً » على خلاف الأمر ، وإن كان منه اتباعٌ لبعض مطالبات الأمر .
ويقال شرح قصة آدم — عليه السلام — لأولاده على حجة النساكين لقلوبهم حتى لا يفتنوا
من رحمة الله ؛ فإن آدم عليه السلام وقع عليه هذا الرقم ، واستقبلته هذه الخطيئة ، وقوله تعالى
« فنسى » من النسيان ، ولم يكن في وقته النسيان مرفوعاً عن الناس .

ويقال عاتبه بقوله : « فنسى » ثم أظهر عذره فقال : « ولم نجد له عزماً » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ
فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴾

السجود نوع من التواضع وإكبار القدر ، ولم تتقدم (٣) [من آدم عليه السلام طاعة
ولا عبادة فخلقه الحق بيده ، ورفع شأنه بعدما علمه ، وحل إلى الجنة ، وأمر الملائكة
في كل سماء أن يسجدوا له تكريماً له على الابتلاء ، واختباراً لهم . فسجدوا بأجمعهم . وامتنع
إبليس من بينهم ، فلقي من الهوان ما سبق له في حكم التقدير . والعجب ممن يحفى عليه أن
مثل هذا يجري من دون إرادة الحق ومشيبته وهو عالم بأنه كذلك يجري ، واعتبروا الحكمة
في أفعاله وأحكامه ، ويزعمون أنه علم ما سيكون من حال إبليس وذريته ، وكثرة مخالفات

(١) آية ١٢١ من السورة نفسها .

(٢) الخلاف = المخالفة .

(٣) ابتداء من هذا الموضع وحتى ينتهى الكلام بين القوسين الكبيرين وضعه الناسخ خطأ فيما بين
الورقة ٤١٨ والورقة ٤٢٢ عند تفسير سورة الفرقان أى في مكان متأخر كثيراً وقد صححنا وضعه ، ونهينا
إلى ذلك في مدخل هذا الكتاب (المجلد الأول)

أولاد آدم ، وكيف أن الشيطان يوسوس لهم . . . ثم يقولون إن الحق سبحانه أراد خلاف ما علم ، وأجرى في سلطانه ما يكرهه وهو عالم ، وكان عالماً بما سيكون ! ثم خلق إبليس ومكنه من هذه المعاصي مع إرادته ألا يكون ذلك ! ويدعون حسن ذلك في الفعل اعتباراً إنما هو الحكمة . . . فسبعان من أعمى بسائرهم ، ونعم حقيقة التوحيد عليهم !

قوله بل ذكره : ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ ﴾
 وزوجك فلا يخرجكما من الجنة
 فتشتى ﴿

وما كان ينفعهم التفتيح وقد أراد بهم ما حذرهم ، وعلم أنهم سيلقون ما خوفهم به .
 قوله : « فلا يخرجكما من الجنة فتشتى » : علم أنهم سيلقون ذلك الشقاء : وأما إنه أضاف الشقاء إلى آدم وحده — وكلاهما لحقه شقاء الدنيا — فذلك لمضارعة رهوس الآي ، أو لأن التنبؤ على الرجال دون النساء . ومن أصرى إلى قول عدوه فإنه يتجرع الندم ثم لا ينفعه .

قوله بل ذكره : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴾
 وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿

لا تصديق أتم من تصديق آدم ، ولا وعظ أشد رقة من الله ، ولا يقين أقوى من يقينه . . . ولكن ما قاسى آدم الشقاء قبل ذلك ، فلما استقبله الأمر وذاق ما خوف به من العناء والكد ندب وأطال البكاء ، ولكن بعد إبرام التقدير .

« وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى » أُوثِرَ بكل وبه ، فلم يسرف قدر العافية والسلامة ، إلى أن جرى ما هو محكوم به من سابق القسمة .

ويقال تنعم آدم في الجنة ولم يسرف قدر ذلك إلى سين استولى في الدنيا عليه الجوع والعطش ، والبلاء من كل (. . .) (١)

(١) هنا طمس أختى لفظة في نهاية السطر وهي أقرب إلى أن تكون (فن) ونحن نتقبلها ، فالفشيرة يستعملها في مواضع مماثلة (أنظر مثلاً استعماله (فنون الخذلان) عند تفسير الآية التي ستأتي بعد قليل : ومن اعرض عن ذكرى . . .) ، و (فن) تكون بمعنى (نوع) كما سيأتي في العبارة التالية .

وكان آدم عليه السلام إذا تجدد له نوع من البلاء أخذ في البكاء، وجبريل عليه السلام يأتي ويقول : « ربك يقرئك السلام ويقول : لم تبكي ؟ فكان يذكر جبريل عليه السلام وهو يقول : أهذا الذي قلت : « وأنت لا تظلم فيها ولا تضحي » . . ! وعير هذا من وجوه الضمان والأمن ؟ ١

قوله جل ذكره : ﴿ فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَذُنُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكُ لَّا يَبْلَى ﴾

وسوس إليه الشيطان وكان الحق يعلم ذلك ولم يذكر آدم في الحال أن هذا من نزغات من قال له — سبحانه : « إن هذا عدوك » .

ويقال : لو عني على إبليس تلك الشجرة حتى لم يعرفها معيها ، ولو لم يكن (. . .)^(١) حتى دله على تلك الشجرة (إيتس)^(٢) الذي كان يمنعه منه إلا أن الحكم منه بذلك سبق ، والإرادة به تعلقت ؟

ويقال إن الشيطان ظهر لآدم عليه السلام بعد ذلك فقال له : يا شقي ، فعلت وصنعت . . فقال إبليس لآدم : إن كنت شيطانك فمن كان شيطاني^(٣) ؟
ويقال سمي الشيطان شيطاناً لبعده عن طاعة الله ، فكل بعيد عن طاعة الله يبعد الناس عن طاعة الله فهو شيطان ، ولذلك يقال : شياطين الإنس ، وشياطين الإنس شر من شياطين الجن .

ويقال لما طمع آدم في البقاء خالداً وجده الشيطان سبيلاً إليه بوسوسته .
والناس تكلموا في الشجرة : ما كانت ؟ والصحيح أن يقال إنها كانت شجرة المحنة .
ويقال لو لم تخلق في الجنة تلك الشجرة لما كان في الجنة نقصان في رتبته^(٤)

(١) مشتبه .

(٢) معناها (فأى شيء ؟) وهي هنا استفهامية .

(٣) في ذلك تنصل من العين أساسه المغالطة والتليس .

(٤) أي أن الجنة في حرف هذا المتكلم (محلوقة) و (حادثة) .

ويقال لولا أنه أراد لآدم ما كان لطالت تلك الشجرة حتى ما كانت لتصل إليها يده ،
ولكنه — كما في القصة — كانت لا تصل إلى أوراقها يده — بعد ما أكل منها — حينما
أراد أن يأخذ منها لِيَسْتُرَ عورته^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لَهَا سَوْءَاتُهَا ﴾
لما ارتكبا المنهى عنه ظهر ما يُسْتَحْي من ظهوره ، ولكن الله — سبحانه — ألطف
معهما في هذه الحالة بقوله : فَبَدَّتْ لَهَا سَوْءَاتُهَا ، ولم يَقُلْ — مطلقاً — فبدت سوءتهما ؛
أي أنه لم يُطْلِعْ على سوءتهما غيرهما .

ويقال لما تَجَرَّدَا عن لباس التقوى تنائر عنهما لباسهما الظاهر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ
وَرَقِّ الْجَنَّةِ ﴾

أول الحرف والصناعات — على مقتضى هذا — الخياطة ، وخياطة الرقاع بعضها
على بعض للفقراء ميراث من أيننا آدم — عليه السلام^(٢) .

ويقال كان آدم — عليه السلام — قد أصبح وعليه من حُلل الجنة وفنون اللباس
ما الله به أعلم ، ثم لم يُمس حتى كان يَخْصِف على نفسه من ورق الجنة ، وهكذا كان
في الابتداء ما هو موروث في أولاده من هناء بعده بلاء .

قوله تعالى : « وناداهما ربهما ألم أنهما عن تلك الشجرة »^(٣) : عند ذلك وقعت عليهما
الخلجلة لما وَرَدَ عليهما خطاب الحق : « ألم أنهما عن . . . » ولهذا قيل : كفى للمُقْصِر
الحياء يوم اللقاء

قوله تعالى : « قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا . . . »^(٤) : لم يتكلم بلسان الحجة فقالا : « ربنا
ظلمنا أنفسنا » ، ولم يقولا : بظلمنا صرنا من الخاسرين ، بل قالوا : « وإن لم تغفر لنا وترحمنا

(١) ولي هذا تحذير ضمني للأكابر من الوقوع في الزلة ، وكيف أن كرامة الولي تتلشى بذلك .

(٢) لاحظ أهمية ذلك عندما نؤرخ للخرقة والمرقعة عند الصوفية .

(٣) آية ٢٢ سورة الأعراف .

(٤) آية ٢٣ سورة الأعراف .

لنكون من الخاسرين ، لِيُعْلَمَ أَنَّ المَدَارَ عَلَى حُكْمِ الرَّبِّ لَا عَلَى جُرْمِ الْخَلْقِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾

لَمَّا وَقَعَتْ عَلَيْهِ سِمَةُ الْعَصِيَانِ — وهو أولُ البشرِ — كان في ذكر هذا تنفيس لأولاده ؛ أن نجري عليهم زَلَّةً وهم بوصف الغيبة في حين الفترة .
ويقال كانت تلك الأكلة شيئاً واحداً ، ولكن قصتها يحفظها ويردها الصبيان إلى يوم القيامة .

وعصى آدم ربّه لِيُعْلَمَ أَنَّ عِظَمَ الذُّنُوبِ لِمُخَالَفَةِ الْأَمْرِ وَعِظَمَ قَدْرِهِ . . لا لكثرة المخالفة في نفسها .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾

أخبر أنه بعدما عصى ، وبعد كلِّ ما فَعَلَهُ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ ؛ فالذي اصطفاه أولاً بلا عِلَّةٍ (١)
اجْتَبَاهُ ثانياً بعد الزَّلَّةِ ، فَتَابَ عَلَيْهِ ، وَغَفَرَ ذَنْبَهُ ، « وَهَدَى » : أى هداه إليه حتى اعتذر واستغفر .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ اهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ

عَدُوٌّ فَاِمْأًا يَاتِيْنَكُمْ مِنْيْ هُدًى فَمَنْ
اتَّبَعَ هُدَايْ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾

أوقع العداوة بين آدم وإبليس والحية ، وقد توالى المحن على آدم وحواء بعد خروجهما من الجنة بسمة العصيان ، ومفارقة الجنة ، ودخول الدنيا ، وعداوة الشيطان ، والابتلاء بالشهوات . ثم قال :

« فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ . . . » وَتَرَكَ هَوَاهُ ، ولم يعمل بوسوسة العدوِّ فله كُلُّ خير ، ولا يلحقه ضير .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ

مَعِيشَةً ضَنْكاً ﴾

الكافر إذا أعرض عن ذكره بالكلية فله للمعيشة الضنك في الدنيا ، وفي القبر ،

(١) تفيد هذه العبارة في بيان أهمية الاصطفاء الإلهي ، وأن العمل الإنساني له الدرجة الثانية في الأهمية . ثم تفيد في بيان الفرق في الاصطلاح بين (الاصطفاء) و (الاجتباء) .

وفي النار ، وبالقلب من حيث وحشة الكفر ، وبالوقت من حيث انغلاق الأمور .
 ويقال مَنْ أَعْرَضَ عن الانخراط في قصايا الوفاق انثالت عليه فنونُ الخذلان ،
 ومنْ أَعْرَضَ عن استدامة ذكره — سبحانه — بالقلب توالى عليه من تفرقة القلب
 ما يسلب عنه كلَّ رَوْحٍ .

ومنْ أَعْرَضَ عن الاستئناس بذكره انفتحت عليه وساوسُ الشيطان وهو اجسُ النَّفْسِ
 بما يوجب له وحشة الضمير ، وانسداد أبواب الراحة والبسط .
 ويقال مَنْ أَعْرَضَ عن ذكرِ الله في الخلوة قَبِضَ اللهُ له في الظاهر من القرينِ السوء
 ما توجبُ رؤيته له قَبْضَ القلوبِ واستيلاء الوحشة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ * قال
 ربِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وقد كنتُ
 بصيراً * قال كذلك أَتَتْكَ آيَاتُنَا
 فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ *

في الخبر : « مَنْ كَانَ بِحَالَةٍ لَقِيَ اللَّهَ بِهَا » فَمَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا أَعْمَى الْقَلْبُ يُحْشَرُ
 عَلَى حَالَتِهِ ، وَمَنْ يَعِشْ عَلَى جَهْلٍ يُحْشَرُ عَلَى جَهْلٍ ، وَهَذَا يَقُولُونَ : « مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ؟ » (١)
 إِلَى أَنْ تُصِيرَ مَعَارِفُهُمْ ضَرُورِيَّةً .

وَمَا يَتَرُكُونَ — الْيَوْمَ — التَّدَبُّرَ فِي آيَاتِهِ يُتَرَكُونَ غَدًا فِي الْعُقُوبَةِ مِنْ غَيْرِ رَحْمَةٍ
 عَلَى ضَعْفِ حَالَتِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ
 بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ
 وَأَبْقَى ﴾ *

جَرَتْ سُنَّتُهُ بِأَنْ يُجَازِيَ كُلًّا بِمَا يَلِيْقُ بِحَالِهِ ، فَمَا أَسْلَفَهُ لِنَفْسِهِ سَيَلَقِي غِيَبَهُ ؛ عَلَى الْخَيْرِ
 خَيْرًا ، وَعَلَى الشَّرِّ شَرًّا .

(١) آية ٥٢ سورة يس .

قوله جل ذكره : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا قَوْلَهُمْ قَوْلَ الْقُرُونِ**
الضَّالَّةِ الَّذِينَ فِيهِمْ سَوَاءٌ مِمَّا كُنْتُمْ **إِنَّا فِي ذَلِكَ**

لَايَاتٍ لِأُولَى النَّهْيِ ﴿١﴾

أى أفلا ينظرون فيتفكرون^(١) ؟ ثم إذا استبصروا أفلا يعتبرون ؟ وإذا اعتبروا
أفلا يزدجرون ؟ أم على وجوههم ... في ميادين غفلاتهم يركضون ، وعن سوء معاملاتهم
لا يرجعون ؟ ألا ساء ما يعملون !

قوله جل ذكره : **وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ**

لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿٢﴾

لولا أن كلمة الله سبقت بتأخير العقوبة عن هذه الأمة ، وأنه لا يستأصلهم لأن جماعة
من الأولياء في أملاكهم لعجل عقوبتهم ، ولكن : كما ذكر من الأحوال أمهلهم مدة
معروفة ، ولكنه لم يهلهم أصلاً .

وإذا كانت الكلمة بالسعادة لقوم والشقاوة لقوم قد سبقت ، والعلم بالمحفوظ بجميع
ما هو كائن قد جرى — فالسعي والجد ، والانكماش والجد . متى تنفع ؟ لكنه
من القسمة أيضاً ما ظهر .

قوله جل ذكره : **وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ**

لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿٢﴾

غروبها ، ومن آناء الليل فسبح

وأطراف النهار لعلك ترضى ﴿٣﴾

سماع الأذى يوجب المشقة ، فأزال عنه ما كان لحقه من المشقة عند سماع ما كانوا
يقولون ، وأمره : **إِنْ كَانَ سَمَاعُ مَا يَقُولُونَ يُوحِشُكَ فَتَسِيحُنَا — الَّذِي تُثْنِي بِهِ**
عَلَيْنَا — يَرَوُّحَكَ .

« قبل طلوع الشمس » : أى فى صدر النهار ؛ ليبارك لك فى نهارك ، وينعم صباحك .

« وقبل غروبها » أى عند تقصان النهار ؛ ليطيب ليلك ، وينعم روائحك .

(١) (الفاء) هنا حرف عطف لا (فاء) سبب ، ولو اعتبرناها سببيه نقول (فيتفكروا) (لوقوعها
بعد أسلوب طلبي ، ولكننا أثبتنا ما جاء فى النص لتكرار ذلك فيما تلاه .

« ومن آتاه الليل » أى فى ساعات الليل ؛ فإن كمال الصفوة فى ذكر الله فى حال الخلوة .
« وأطراف النهار » أى استدريم ذكر الله فى جميع أحوالك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَمُدَّنْ عَيْنَكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ
أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾

فضل (١) الرؤية فيما لا يحتاج إليه معلول كفضل الكلام ، والذي له عند الله منزل
وقدر فليحقق على جميع أحواله غيرة ؛ إذ لا يرضى منه أن يبذل شيئاً من حركاته وسكناته
وجميع حالاته فيما ليس لله - سبحانه - فيه رضاء ، وفى معناه أنشدوا :

فمعنى إذا استحسنْتَ غيرَكم أمرتُ الدموعَ بتأديبها

ويقال لما أدبته فى ألا ينظرَ إلى زينة الدنيا بكمال نظره وقَفَّ على وجه الأرض بفرد
قدم تصاوناً عنها حتى قيل له : « طه » أى طأ الأرض بقدميك . . ولم كل هذه المجاهدة
وكل هذا التباعد حتى تقف بفرد قدم ؟ طأ الأرض بقدميك .

« زهرة الحياة الدنيا . . . » الفتنة ما يُشغل به عن الحق ، ويستولى حُبُّه على القلب ،
ويُجسِّر وجوده على العصيان ، ويحمل الاستمتاع به على البطر والأشر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾

القليل من الحلال - وفيه رضاء الرحمن - خيرٌ من الكثير من الحرام والحطام .
ومعه سُخطه . ويقال قليل يُشهِدُكَ رَبُّكَ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ يُنْسِيكَ رَبُّكَ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾

الصلاة استفتاح باب الرزق ، وعليها أحوال فى تبسير الفتوح عند وقوع الحاجة إليه .
ويقال الصلاة رزق القلوب ، وفيها شفاؤها ، وإذا استأخر قوت النفس قوى قوت القلب .
وأمر - الرسول - عليه السلام - بأن يأمر أهله بالصلاة ، وأن يصطبر عليها .

(١) الفضل هنا معناه الزيادة (وفضل الرؤية) زيادة التطلع إلى أكثر من المباح .

وللاصطبار مزية على الصبر ؛ وهو ألا يجِدَ صاحبه الألم بل يكون محمولا مؤثما .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا ﴾

أى لا نكلفك برزق أحد ؛ فإن الرزق الله — سبحانه — دون تأثير الخلق ، فنحن نرزقك ونرزق الجميع .

قوله جل ذكره : ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾

هاتين : وجود الأرزاق وشهود الرزاق ؛ فوجود الأرزاق يوجب قوة^(١) النفوس ، وشهود الرزاق يوجب قوة^(٢) القلوب .

ويقال استقلال^(٣) العامة بوجود الأرزاق ، واستقلال الخواص بشهود الرزاق .

ويقال نفي عن وقته الفرق بين أوصاف الرزق حين قال : « نحن نرزقك » ؛ فإن من شهد وتحقق بقوله : « نحن » سقط عنه التمييز بين رزق ورزق .

ويقال خفف على الفقراء مقاساة قلة الرزق وتأخيرها عن وقت إلى وقت بقوله : « نحن »^(٤)

قوله : « والعاقبة للتقوى » : أى العاقبة بالحسن لأهل التقوى .

ويقال المراد بالتقوى المتقى ، فقد يسمى الموصوف بما هو المصدر^(٥)

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ

أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ

الْأُولَى ﴾

تحييت بصائرهم وادّعوا أنه لا برهان معه ، ولم يكن القصور في الأدلة بل كان الخلل في بصائرهم ، ولو جمع الله لم كل آية اقترحت على رسول ثم لم يرده الله أن يؤمنوا لما

(١) ، (٢) وبما كانا (قوت النفوس ، وقوت القلوب) بالهاء المفتوحة ؛ فقد سبقا هكذا منذ قليل ، وإن كان السياق لا يمنع (قوة النفوس وقوة القلوب) .

(٣) (استقلال) هنا بمعنى اكتفاء .

(٤) لأن من عاش ؛ (نحن) اكتفى بها ولم يستعجل شيئا .

(٥) كما يقال مثلا (رجل عدل) ونحو ذلك .

ازدادوا إلا طغيانا وكفرا وخسرانا . . . وتلك سنة أسلافهم في تكذيب أنبيائهم ،
ولذا قال :

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبُّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ .

إن أرسلنا إليهم الرسل قابلوهم بفتون من الجحد ، ووجوه من العلل ، مرة يقولون فما بال هذا الرسول بشر ؟ هلا أرسله ملكا ؟ ولو أرسلنا ملكا لقالوا هلا أرسل إلينا مثلنا بشرا ؟ ولو أظهر عليهم آية لقالوا : هذا سحرٌ مُفترى ! ولو أخلصناهم من رسول وعاملناهم بما استوجبوه من نكير لقالوا :

هَلَّا بَعَثَ إِلَيْنَا رَسُولًا حَتَّىٰ كُنَّا نُوْمِنُ ؟ فليست تنقطع أعلالهم ، ولا تنفك — عما لا يُرْضَى — أحوالهم . وكذلك سبيل مَنْ لا ينجح إلى الوصال ولا يرغب في الوداد ،
رفي معناه المشدوا :

وكذا الملول إذا أراد قطيعةً مَلَّ الوصال وقال كان وكانا

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ كُلُّ مَتْرَبٍ مِّنْ مَّتْرَبٍ فَتَرَبَّصُوا فَنَعْلَمَنَّ مَا يُدْعَىٰ بِهِ الْيَوْمَ ﴾ .

الكل واقفون على التجويز غير حاصلين بوثيقة ، ينتظرون ما سيبدو في المستأنف ، إلا أن أرباب التفرقة ينتظرون ما سيبدو مما يقتضيه حكم الأفلاك ، وما الذي توجبه الطبائع والنجوم . والمسلمون ينتظرون ما يبدو من المقادير فهم في رَوْح التوحيد ، والباقون في ظلمات الشرك .

السورة التي يذكر فيها الأنبياء

قوله جل ذكره : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .

بسم الله اسم عزيز مَنْ تَهَّ سَلَّ إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ تَفْضُلٌ عَلَيْهِ بِجَمِيلِ نِعْمَتِهِ ؛ إِنْ أَطَاعَ فَضْلَهُ ، وَإِنْ أَضَاعَ أَمْرَهُ ، ثُمَّ إِنْ أَبَى وَأَقْرَبَ . . . ذَكَرَهُ ، وَإِنْ عَصَى وَعَلَبَ سِتْرَهُ ، فَإِنْ تَنَصَّلَ وَجْهَهُ ، وَإِنْ تَكَبَّرَ قَصَّةً (١) .

اسم عزيز ما استنارت الظواهر إِلَّا بِآثَارِ تَوْفِيقِهِ ، وما استضاءت السرائرُ إِلَّا بِأَنْوَارِ تَحْقِيقِهِ ؛ بِتَوْفِيقِهِ وَصَلَّ الْعَابِدُونَ إِلَى مُجَاهِدَتِهِمْ ، وَبِتَحْقِيقِهِ وَجَدَ الْعَارِفُونَ كَمَالَ مُشَاهِدَتِهِمْ ، وَبِتِمَامِ مُجَاهِدَتِهِمْ وَجَدُوا آجَلَ مَثُوبَتِهِمْ ، وَبِدَوَامِ مُشَاهِدَتِهِمْ نَالُوا عَاجِلَ قَرْبَتِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴾ .

فَالطَّاعُونَ مِنْهُمْ عَظُمَ لَدَيْنَا ثَوَابُهُمْ ، وَالْعَاصُونَ مِنْهُمْ حَقَّ مِنْهُ عِقَابُهُمْ .

« فِي غَفْلَةٍ » يُقَالُ الْغَفْلَةُ عَلَى قَسَمَيْنِ : غَافِلٌ عَنْ حِسَابِهِ بِاسْتِغْرَاقِهِ فِي دُنْيَا وَهْوَاهُ ، وَغَافِلٌ عَنْ حِسَابِهِ لِاسْتِهْلَاكِهِ فِي مَوْلَاهُ ؛ فَالْغَفْلَةُ الْأُولَى رِسْمَةُ الْهَجَرِ وَالْغَفْلَةُ الثَّانِيَةُ صِفَةُ الْوَصْلِ ؛ فَالْأُولَى لَا يَسْتَفِيقُونَ مِنْ غَفْلَتِهِمْ إِلَّا مِنْ سَكْرَةِ الْمَوْتِ ، وَهَؤُلَاءِ لَا يَرْجِعُونَ عَنْ غِيْبَتِهِمْ أَبَدَ الْأَبَدِ لِفَنَائِهِمْ فِي وَجُودِ الْحَقِّ تَعَالَى (٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ .

(١) بِمَكْنِ الْقَوْلِ أَنَّ هُنَاكَ نَوْعًا مِنَ التَّرَابُطِ وَالْإِنْجَامِ بَيْنَ إِشَارَاتِ الْبِسْمَةِ — عَلَى هَذَا النُّعْوِ — وَبَيْنَ جُزْئِيَّاتِ السُّورَةِ ، حَيْثُ انْقَسَمَ النَّاسُ لِإِذَا الْأَنْبِيَاءِ إِلَى مُصَدِّقٍ وَمُكَذِّبٍ ، وَمُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ . . . وَنَالِ كُلِّ جِزَاءٍ .

(٢) نَهْمَا هَذِهِ الْإِشَارَةُ عِنْدَ دِرَاسَةِ الْمَصْطَلَحِ الصُّوفِيِّ ؛ فَالْغَفْلَةُ نَوْعَانِ : مَذْمُومَةٌ وَمَحْمُودَةٌ ؛ غَفْلَةٌ نَاشِئَةٌ مِنَ الْهَجَرِ وَغَفْلَةٌ نَاشِئَةٌ عَنِ الْوَصْلِ .

لم يجدد إليهم رسولا إلا ازدادوا نفورا ، ولم يُنزلْ عليهم خطاباً إلا ردُّوه جحداً
وكذباً ، وما زدناهم فضلاً إلا عدَّوه هزلاً ، وما جددنا لهم نعمة إلا فعلوا ما استوجبوا
نقمة ، فكان الذي أكرمناهم به محنةً بها بلوناهم . . وهذه صفة من أساء مع الله خلقه ،
وخسر عند الله حقه .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى
الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ
أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصِرُونَ ﴾

عميت بصائرهم وغامت أفهامهم ، فهم في غباوة لا يستبصرون ، وفي أكنة عما أقيم لهم
من البرهان فهم لا يعلمون .

قوله : « وَأَسْرُوا النَّجْوَى . . . » لَمَّا عجزوا عن معارضته ، وسقطوا عند التحدى ،
وظهرت عليهم حجته رجَّحوا فيه الفكر ، وقسموا فيه الظن ؛ فرةً نسبوه إلى السحر ، ومرةً
وصفوه بقول الشعر ، ومرةً رمَّوه بالجنون وفنونٍ من العيوب . وقبل ذلك كانوا يقولون عنه :
هو محمد الأمين ، كما قيل :

أشاعوا لنا في الحى أشنعَ قصةٍ وكانوا لنا سِلماً فصاروا لنا حرباً

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ رَبِّ يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

الآقاويل التي يسميها الحق — سبحانه — مختلفة ؛ فمن خطابٍ بعضهم مع بعض ، ومن
بعضهم مع الحق . والذين يخاطبون الحق : فمن سائلٍ يسأل الدنيا ، ومن داعٍ يطلب كرائم
المُتقي ، ومن مُتني يثنى على الله لا يقصد شيئاً من الدنيا والعقبى .

ويقال بسمع أنين المذنبين سراً عن الخلق حذراً أن يفتضحوا ، ويسمع مناجاة
المابدين بنعت التسبيح إذا تهجدوا ، ويسمع شكوى المحبين إذا مسَّتْهم البرحاة^(١) فضجُّوا
من شدة الاشتياق .

(١) البرحاء : الشدة .

ويقال بسمع خطاب مَنْ ينجيه سِرًّا بسرًّا ، وكذلك تسبيح مَنْ يمدحه ويثني عليه
بلسان سِرِّه .

قوله جل ذكره : ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ
بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ
الْأُولُونَ ﴾

نَوَعُوا ما نسبوا إليه — بعدما نزلنا إليه الأمر — من حيث كانوا ، ولم يشاهدوا
همّة على الوصف الذي كانوا يصفونه به من صدق في الحال والمقال ، وكما قيل :
رمتني بدائها وأسلت .

قوله جل ذكره : ﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا
أَفْهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾

أخبر أن الله تعالى أجرى سُنَّتَهُ أَنْ يُعَذِّبَ مَنْ كَانَ الْمَعْلُومُ مِنْ شَأْنِهِ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ
لَا فِي الْحَالِ وَلَا فِي الْمَالِ . وَإِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عَصْرِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْثَلُهُمْ
فِي الْكُفْرَانِ ، وَقَدْ حَكَّمَ الْحَقُّ لَهُم بِالْحَرَمَانِ وَالْخِذْلَانِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي
إِلَيْهِمْ فَاَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ
لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

لَمَّا قَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَخْبِرَ أَنَّهُ لَمْ يُرْسَلْ إِلَى النَّاسِ رَسُولًا فِيمَا سَبَقَ مِنْ
الْأَزْمَانِ الْمَاضِيَةِ وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ إِلَّا بَشَرًا ، وَذَكَرَ أَنَّ الْخُصُوصِيَّةَ لَهُمْ كَانَتْ بِإِرْسَالِ
اللَّهِ إِلَيْهِمْ .

ثم قال : « فَاَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » : الخطاب للكل والمراد منه الأمة ،
وأهل الذكر العلماء من أكابر هذه الأمة والذين آمنوا بنبينا محمد — صلى الله عليه وسلم .
ويقال هم أهل الفهم من الله أصحاب الإلهام الذين في محل الإعلام من الحق — سبحانه — أو من
يُحَسِّنُ الْإِفْهَامَ عَنِ الْحَقِّ .

ويقال العالم يرجع إلى الله في المعاملات والعبادات ، وإذا اشتكلت الواقعة فيخبر عن اجتهاده ، وشرطه ألا يكون مقلداً ، ويكون من أهل الاجتهاد ، فإذا لم يخالف النص وأدى اجتهاده إلى شيء ولم يخالف أصلاً مقطوعاً بصحته وجب قبول فتواه ، وأما الحكيم فإذا تكلم في المعاملة فإنما يقبل منه إذا سبقت منه المنازلة لما يُفتي به فإن لم تتقدم له من قبله المنازلة فتواه في هذا الطريق كفتوى المقلد في مسائل الشرع .

فأما العارف فيجب أن يتكلم في هذا الطريق عن وجده — إن كان — وإلا فلا تقبل فتواه ولا تُسمع^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وما جعلناهم جنوداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ﴾

لما غيروا الرسول — عليه السلام — بقولهم : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ؟ . أخبر أن أكل الطعام ليس بقادح في المعنى الذي يختص به الأكبر ، فلا منافاة بين أكل الطعام وما تسكنه القلوب والسرائر من وجوه التعريف .

ويقال النفوس لا خبر لها بما به القلوب ، والقلب لا خبر له مما تتحقق به الروح وما فوق الروح والطف منه وهو السر .

قوله : ﴿ وما كانوا خالدين ﴾ : أى إنهم على ممرٍ ومعبرٍ ، ولا سبيل اليوم لخلقٍ إلى الأبد .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم صدقناهم الوعدَ فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا السُفَّرين ﴾

الحق — سبحانه — يحقق وعده وإن تباطأ بتحقيقه الوقت فيما أخبر أنه يكون . والموعد من نصرة الله لأهل الحق إنما هو بإعلاء كلمة الدين ، وإرغام من نأبذ الحق من الجاحدين ، وتحقيق ذلك بالبيان والحجة ، وإيضاح وجه الدلالة ، وبيان خطأ أهل الشبهة .

(١) هم هذه الإشارة في توصية الشيوخ إذا استفهام المريدون ، كأنهم في توضيح ما يمكن أن نسبه « أصول الفقه عند الصوفية » .

قوله جل ذكره : ﴿لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذِكْرُكُمْ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ .

يريد بالكتاب القرآن ، وقوله : « فيه ذِكْرُكُمْ » : أى شرفكم ومحضكم ، فمن استبصر
بما فيه من النور سَعِدَ في دنياه وآخرها .

قوله جل ذكره . ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظِلَالَةً
وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ .

إنَّ الله يُمَهِّلُ الظَّالِمَ حيناً لكنه يأخذه أَخَذَ قَهْرٍ وانتقام ، وقد حَكَمَ اللهُ بِخَرَابِ
مساكن الظالمين ، وقد جاء الخبر : « لو كان الظلم بيتاً في الجنة لَسُلِّطَ عليه الخراب » ؛ فإذا ظلم
العبدُ نَفْسَهُ حَرَّمَ اللهُ أَنْ يَقْطِنَهَا التَّوْفِيقُ وجعلها موطنَ الخذلان ، فإذا ظَلَمَ قَلْبَهُ الغفلة سَلَّطَ
عليه الخواطرَ الرديئة التي هي وساوس الشيطان ودواعي الفجور . وعلى هذا القياس في القلة
والكثرة ؛ إنَّ الروح إذا خربت زایلَها الحقائقُ والمُحَابُّ ، واستولت عليها العلائقُ
والمساكنات .

قوله جل ذكره : ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا
بَرَّكُضُونَ﴾

لَمَّا ذاقوا وبَالَ أفعالهم اضطربوا في أحوالهم فلم ينفعهم نَدَمُهُمْ ، ولم تَعُدْ إلى محالها أقدامهم ،
وبعد ظهور الخيانة لا تُقْبَلُ الأمانة .

قوله جل ذكره : ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِقْتُمْ
فِيهِ وَمَسَاكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾

والخيانة سرابة^(١) ، فإذا حصلت الخيانة لم تقف السراية ، وإذا فرقت السفينة فليس
بِيدِ المَلَّاحِ إلا إظهار الأسف ، وهيئات أن يُجَدِّي ذلك ؛

قوله جل ذكره : ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾

(١) سري الجرح أو السوء سراية . أى دام الألم منهما حتى حدث الموت . ويقال سري التعريم وسري
العتق أى تعدى إلى غير المحرم أو المعتق (الوسيط) .

للإقرار زمان ؛ فإذا فات وقته فسكافى المثل : يسبق الفريص الحريص . ووضع
القوس بعد إرسال السهم لا قيمة له .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاَزَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ
حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾

إنَّ مِنَ الْبَلَاءِ أَنْ يَشْكُوَ الْمُرءُ ، فَلَا يُسْمَعُ ، وَيَبْكِي فَلَا يَنْفَعُ ، وَيَدْنُو فَيُقْصَى ، وَيَعْرِضُ
فَلَا يُعَادُ ، وَيَعْتَذِرُ فَلَا يُقْبَلُ . . وغايةُ البلاءِ التَّلفُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
لَاعِبِينَ ﴾

اللَّعِبُ نَسْتُ مَنْ زَالَ عَنْ حَدِّ الصَّوَابِ ، وَاسْتَجَلِبَ بِفَعْلِهِ الْإِلْتِذَاذَ ، وَانْجَرَّ فِي حَبْلِ
السَّفْهِ . وَحَقُّ الْحَقِّ مُتَقَدِّسٌ عَنْ هَذِهِ الْجُمْلَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَا تَخَذُنَا
مَنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾

يُخَاطَبُهُمْ عَلَى حَسَبِ أَفْهَامِهِمْ ؛ وَإِلَّا . . فَالَّذِي لَا يَعْتَرِبُهُ سَهْوٌ لَا يَسْتَفِزُّهُ لَهْوٌ ، وَالْحَقُّ
لَا يَعْتَرِبُهُ وَلَا يَضَاهِيهِ كُفْوٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ
فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ
مِمَّا تَصِفُونَ ﴾

نُدْخِلُ نَهَارَ التَّحْقِيقِ عَلَى لَيَالِي الْأَوْهَامِ فَيَنْقَشِعُ سَحَابُ الْغَيْبَةِ ، وَيَنْجَلِي ضَبَابُ الْأَوْهَامِ ،
وَتَنْبُرُ شَمْسُ الْبَقِينِ ، وَتَصْحُو سَمَاءُ الْحَقَائِقِ عَنْ كُلِّ غُبَارِ التَّهَمِّ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ
عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ
وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾

الحادثات له سبحانه ملكاً والكائنات له حكماً ، وتعالى الله عن أن يشجّل برفاق
أو ينقص بخلاف ، وبالقدر ظهور الجميع ، وعلى حسب الاختيار^(١) تنصرف الكلمة .

قوله جل ذكره : ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾
الطبع المختار يُسبّحه بالقول الصدق ، والكل من المخلوقات تسبّحها بدلالة الخلق ،
وبرهان البينة^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض
هم يُنشرون ﴾

تفرّد الحق بالإبداع والإيجاد ، وتقّسّ عن الأمثال والأنداد ، فالذين يُعبّدون من دونه
أمواتٌ غيرُ أحياء . وهم^(٣) بالضرورة يعرفون . . أفلا يُعتبرون وألا يزّجروا ؟

قوله جل ذكره : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لَفَسَدَتَا
فسبحان الله ربّ العرش عَمَّا يَصِفون ﴾

أخبر أن كلَّ أمر يُنَاطُ بجماعة لا يجرى على النظام ؛ إذ ينشأ بينهم النزاع والخلاف .
ولما كانت أمرُ العالم في الترتيب مُنَسَّقَةً فقد دلّ ذلك على أنها حاصلةٌ بتقديرٍ مُدبّرٍ حكيم ؛
فالسما في علوها تدور على النظام أفلاكها ، وليس لها عُمْدٌ لإمساكها ، والأرضُ مستقرةٌ
بأقطارها على ترتيبٍ تماقِبٍ ليلها ونهارها . والشمسُ والقمرُ والنجومُ السائرةُ تدور في بروج ،
ورقعة السماء تتسع من غير فروج . . ذلك لتقدير العزيز العليم علامةً ، وعلى وحدانيته دلالة .
قوله جل ذكره : ﴿ لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ﴾
يَكُونُ الخلق له ، وهم يُسألون للزوم حقه عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا
برهانكم ، هذا ذِكْرٌ من مَعِيَ

(١) الاختيار ، لا يعود به الاختيار الإلهي .

(٢) عبر القشيري عن هذا المعنى موضع سابق حين ذكر أن كل الكائنات شاهدة على وحدانيته ؛
لأنطق منها توحيد القالة ، ولغير الناطق توحيد الدلالة .

(٣) الضمير (م) يعود على من يعبّدون من دون الله آلهة .

وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿١﴾

دلّت الآيةُ على فسادِ القولِ بالتقليد ، ووجوب إقامة الحجة والدليل .
ودلّت الآية على توحيد المعبود ، ودلّت الآية على إثبات الكسب للعبيد ؛ إذ لولا
لم ينوجه عليهم اللوم والعُتب^(١) . وكلُّ مَنْ عُلِقَ قلبه بخلقٍ ، أو توهم من غير الله حصولَ
شيءٍ فقد دَخَلَ في غمار هؤلاء لأنَّ الإلهَ مَنْ يَصْحُ منه الإيجاد .
قوله : « هذا ذكر من معي وذكر من قبلي » : الإشارة منه أن الدينَ توحيدُ الحق ،
وإفرادُ الربِّ على وصف التفرد ونعت الوجدانية .

ثم قال : « بل أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ » إنما عَدِمُوا الْعِلْمَ لإعراضهم
عن النظر ، ولو وضعوا النظرَ موضعه لَوَجَبَ لَهُمُ الْعِلْمُ لَا مُحَالَةَ ، وَالْأَمْرُ يَدُلُّ عَلَى وَجوبِ النظر ،
وَأَنَّ الْعُلُومَ الدِّينِيَّةَ كُلَّهَا كَسْبِيَّةٌ^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ
إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا
فَاعْبُدُونِ ﴾

التوحيدُ في كلِّ شريعةٍ واحدٌ ، والتعبُدُ - على من أُرسل إليه الرسول - واجبٌ ،
ولكنَّ الأفعالَ للنسخِ والتبديلِ مُعَرَّضَةٌ ، أما التوحيدُ وطريقُ الوصولِ إليه فلا يجوزُ
في ذلك النسخُ والتبديلُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَ
بَلْ عِبَادٌ مُشْكِرُونَ ﴾

في الآية رخصةٌ في ذِكْرِ أَقَاوِيلِ أَهْلِ الضلالِ والبدع على وجه الردِّ عليهم ، وكشفِ

(١) هذا رأى على جانبِ خطير من الأهمية في علم الكلام ، وسدوره من باحث صولي يعرف أن المريد
— على الحقيقة — من لا إرادة له يزيد في أهمية الأمر .
(٢) في هذا رد على من يتهنون الصوفية بإنكارهم للعلم .

عوداتهم ، والتنبيه على مواضع خطاياهم ، وأنه إن وسوس الشيطان إلى أحد بشئ منه كان في ذلك حجة للانفصال عنه .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهٖ يَعْمَلُونَ ﴾

أخبر أن الملائكة معصومون عن مخالفة أمره — سبحانه ، وأنهم لا يقصرون في واجب عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾

علمه القديم — سبحانه — لا يختص بمعلوم دون معلوم ، وإنما هو شامل لجميع المعلومات ، فلا يعزب عن علم الله معلوم .

قوله : « لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ » دل على أنهم يشفعون لقوم ، وأن الله يتقبل شفاعتهم (١) .

قوله : « وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ » : ليس لهم ذنب ثم هم خائفون ؛ ففي الآية دليل على أنه سبحانه يعذبهم وأن ذلك جائز ، فإذا لم يجز أن يعذب البريء لكانوا لا يخافونه لهم أنهم لم يرتكبوا زلة (٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهُ مِنْ دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ، كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾

أخبر أنهم معرضون عن الزلة بكل وجه . ثم قال : « وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهُ مِنْ دُونِهِ »

(١) أي أن القسري يؤمن بالشفاعة — على عكس بعض فرق المتكلمين الذين يشكرونها .
(٢) هذا رأى آخر له أهميته من الوجهة الكلامية ، حيث يرى المعتزلة — وقد سوا أنفسهم أهل العدل — أن الله لا يعذب البريء .

وقد علم أنهم لا يقولون ذلك ، ولكن علم لو كان ذلك كيف كان يكون حكمه ، فالخلق — سبحانه — يعلم ما لا يكون كيف كان يكون .

قوله جل ذكره : ﴿ أُولَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾

دَاخَلْنَهُمُ الشُّبُهَةَ فِي إِعَادَةِ الْخَلْقِ وَالْقِيَامَةِ وَالنَّشْرِ ، فَأَقَامَ اللَّهُ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ بِأَن قَال :
أَلَيْسُوا قَدْ عَلِمُوا أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، سَمَّكَ السَّمَاءَ وَبَسَطَ الْأَرْضَ . فَإِذَا قَدَّرَ
عَلَى ذَلِكَ فَكَيْفَ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْإِعَادَةِ بَعْدَ الْإِبَادَةِ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ
أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾

كُلُّ شَيْءٍ مَخْلُوقٍ حَيٍّ فَمِنْ الْمَاءِ خَلَقَهُ ، فَإِنَّ أَصْلَ الْحَيَوَانِ الَّذِي حَصَلَ بِالتَّنَاسُلِ النُّطْفَةُ ،
وَهِيَ مِنْ جَمَلَةِ الْمَاءِ .

وحياة النفوس بماء السماء من حيث الغذاء ، وحياة القلوب بماء الرحمة ، وحياة الأسرار
بماء التعظيم . وأقوام حياتهم بماء الحياء . . . وعزيزٌ هُم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ
تَمِيدَ بِهِمْ ﴾

الْأُولِيَاءُ هُمُ الرَوَاسِي فِي الْأَرْضِ وَبِهِمْ ^(١) يُرْزَقُونَ ، وَبِهِمْ يُدْفَعُ عَنْهُمْ الْبَلَاءُ ، وَبِهِمْ يُوفَى
عَلَيْهِمُ الْعَطَاءُ . وَكَأَنَّهُ لَوْلَا الْجِبَالُ الرَوَاسِي لَمْ تَكُنْ لِلْأَرْضِ أَوْتَادٌ . . . فَكَذَلِكَ الشُّيُوخُ
الَّذِينَ هُمُ أَوْتَادُ الْأَرْضِ (فَلَوْلَاهُمْ) لَنَزَلَتْ بِهِمُ الشَّدَّةُ .

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لِّعَلَّهِمْ
يَهْتَدُونَ ﴾

كَأَنَّ فِي الْأَرْضِ سُبُلًا يَسْلُكُونَهَا لِيَصِلُوا إِلَى مَقَاصِدِهِمْ كَذَلِكَ جَعَلَ السُّبُلَ إِلَيْهِ

(١) الضمير في (بهم) يعود على الخلق ، ولم يكن القشيري بحاجة إلى ذكر (الخلق) هنا لكثرة
ما أعاد في هذا الموضوع من قبل . .

مسلوكة بما بين على ألسنتهم من هداية المریدین ، وقيادة السالكین ، كما یسر بهداهم الاقتداء بهم فی سیرهم إلى الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ﴾ .

فی ظاهر الكون السماء منيرة ، والأرض مسكونة . . كذلك للنفوس أراضی هی مساكن الطاعات ، وفی سماء القلوب نجوم العقول وأقمار العلم وشموس التوحيد والعرفان . وكما جعلت النجوم رجوماً للشياطين جعلت من المعارف رجوماً للشياطين . وكما أن الناس من آياتها معرضون لا یفكرون فالعوام عن آيات القلوب مما فیها من الأنوار غافلون ، لا یكاد یعرفها إلا الخواص

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون ﴾ .

كما أن الحق - سبحانه - فی الظاهر یكور الیل علی النهار ، ویکور النهار علی الیل فكذلك یدخل فی نهار البسط لیل القبض . والبسط فی الزیادة والنقصان . فكما أن الشمس أبداً فی برجها لا تزد ولا تنقص ، والقمر مرة فی المحاق ، ومرة فی الإشراق . . . فصاحب التوحيد بنعت التمكن - یرتقی عن حد تأمل البرهان إلى روح البیان ، ثم هو متحقق بما هو كالمیان . وصاحب العلم مرة یرد إلى تجدید نظره وتذكره ، ومرة یفشاه غیر فی حال غفلته فهو صاحب تلوین^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفان میت فهم الخالدون ﴾ .

إنك فی هذه الدنيا عابر سبیل ، لكننا لم نتركك فرداً فی الدنيا ، ولذلك قال علیه السلام لصاحبه فی الغار : ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ ١٩ .

(١) ما مل التمكن كالشمس فی نباتها ، وأهل التلوین كالقمر فی تدرجه وتغیر أحواله .

قوله جل ذكره : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ .

الموتُ به آفةُ قومٍ ، وفيه راحة قومٍ ؛ لقومٍ انتهاء مدة الاشتياق ، ولآخرين افتتاح باب الفراق ، لقومٍ وقوع فتنهم ولآخرين خلاصٌ من محنتهم ، لقومٍ بلاء وقيامة ولآخرين شفاء وسلامة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ أَرْأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَخَنَوْنَكَ
إِلَٰهَؤُنَّوَأَٰهْدَا الَّذِي يَدُّكَرُ آٰلَتِكُمْ
وَمِمَّنْ يَدُّكَرُ الرَّحْمَنُ كَافِرُونَ ۝﴾ .

لو شهدوا بما هو به من أوصاف التخصيص ومارقأه إليه من المنزلة لظلوا له خاضعين ،
ولكنهم حُجِبُوا عن معانيه وسريته ، وطأينوا منه جسمه وصورته .

قوله جَلَّ ذِكْرُه : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي
فَلَا تَسْتَعْجِلُون ﴾ .

العَجَلَةُ مذمومةٌ والمُسَارَعَةُ محمودَةٌ ؛ فالمسارعةُ الـبِدَارُ إلى الشيء في أول وقته ، والعَجَلَةُ استقباله قبل وقته ، والعَجَلَةُ نتيجةٌ وسوسة الشيطان ، والمسارعةُ قضية التوفيق .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

احتادوا تكذيب الأنبياء عليهم السلام فيها وعدوهم ، فاستعجلوا حصول ما توعدوهم به .
وكونوا علموا ما ينالهم لكان السكون منهم ، فالفرع يدل على استعجالهم .

قوله جل ذكره: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ
عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ...﴾

...لأَمْسِكُوا الْيَوْمَ عَنِ الْإِفْخَاطِ فِي عَذَابِ ^(١)الظُّنُونِ، وَالْإِغْتِرَارِ بِمَوَاعِيدِ الشَّيْطَانِ.

(١) ضبطناها (عذاب) بكر العين لتسكون جمع (عذب) فقد هزم ما هبأت لهم الظنون فاستعذبوها .

قوله جل ذكره : ﴿ بَل تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾
العقوبة إذا أتت فجأة كانت أنكى وأشد . وسنة الله في الانتقام أن يُبْرِحَ رِيحَ البَغْتَةِ
في حال الانتقام في النعمة والمِنَّة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلِي مِنْ قَبْلِكَ فَخَاقَ بِالَّذِينَ سَخَّرَوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

تسليّة له ، وتعريفٌ بوشك الانتصار على الذين كانوا يؤذونه من أعداء الدين ؛ أي من قريبٍ متجدون وبآلٍ ما استوجبوه من العقوبة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ ... ﴾ .

تقرير عليهم بأن ليس بتداخل المخلوقين نجاتهم ، وقد جربوا ذلك في أحوال محنتهم ، فكيف لا يتبرءون ممن ليس لهم شيء ، وبما ليس منه نفع ولا ضرر ؟ وفي ذلك تنبيه للمؤمنين بأن مآربهم إلى الخيرات من نوعي النفع والدفع من الله عز وجل ، فالواجب دوام اعتكافهم بقلوبهم بعقوة كرمه وجوده .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا ... ﴾
بسط القول وكرره في تعريفهم استحالة حصول الضر والنفع من الجادات ؛ وأصنامهم التي عبدوها من تلك الجملة ، ولم يردّ منهم — على تكرار هذه الألفاظ — إلا عجز واقطاع قول .

قوله جل ذكره : ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَقّاً طَالاً عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ .

طول الإمتاع إذا لم يكن مقروناً بالتوفيق ، مشفوعاً بالعصاة كان مكرراً واستدراجاً ،

وزيادةً في العقوبة . والحقُّ كما يعاقبُ بالآلام والأحوال يعاقبُ بالإملاء والإمهال .
 وقال : أفلا يرون أنا نأتى الأرض . . . » تتوالى القسوة حتى لا يبقى أثرٌ للصفوة ؛
 فيتعاقبُ الخذلانُ حتى ينوتر العصيان ، ويتأدى ذلك إلى الحرمان الذى فيه ذهاب الإيمان .
 ويقال تنقص بذهاب الأكاير ويبقى الأراذل وينعرض الأفاضل . وفى هذا أيضاً إشارة
 إلى سقوط قوى العبد بمرور السنين وتطاول العمر ، فإن آخر الأمر كما قيل : (١)
 آخرُ الأمر ما نوى القبرُ واللحدُ والثرى

وكما قيل :

طوى العصران (٢) ما تشراه منى وأبلى جدتى نشرٌ وطى
 أرانى كلَّ يومٍ فى انتقاصٍ ولا يبقى — مع النقصان — شئٌ
 قوله جل ذكره : ﴿ قل إنما أنذركم بالوحي ولا يسمعُ الصمُّ الدعاء إذا ما ينذرون ﴾
 أى بأمر الله أعلمكم بموضع المخافة ، ويوحى إلى فى بابكم أن أخوفكم بأليم عقابه ،
 ولكن الذى عديم تمنع التوفيق . . أنى ينفعه تكرار الأمر بالقبول عليه ؟
 قوله جل ذكره : ﴿ ولئن مسَّتْهُمُ نَفْثَةٌ من عذابِ ربك ليقولنَّ يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴾
 أى إنهم لا يصبرون على أقلَّ شئٍ من العقوبة ؛ وإن الحقَّ إذا شاء أن يؤلم أحداً
 فلا يحتاج إلى مددٍ وعون .
 قوله جل ذكره : ﴿ ونضعُ الموازينَ القسطَ ليومِ القيامةِ ۖ ﴾

(١) هنا نهاية الجزء الذى أخطأ الناسخ فى نقله من أواخر « طه » وأوائل « الأنبياء » إلى مكان آخر من « الفرقان » .
 (٢) العصران : الفتاة والعش ، أو الليل والنهار .

فلا تظلم نفس شيئا وإن ٥٥
مثقال حبة من خردل أتينا بها
وكفى بنا حاسين ❦

توزن الأعمال بميزان الإخلاص فما ليس فيه إخلاص لا يُقبل ، وتوزن الأحوال بميزان
الصدق فما يكون فيه الإعجاب لا يُقبل ، وتوزن الأنفاس بميزان (. . .) (١) فما فيه حظوظ
ومساكنات لا يُقبل .

ويقال ينتصف المظلوم من الظالم ، وينتقم الضعيف من القوى .

ويقال ما كان لغير الله لا يصلح للقبول .

ويقال يكافئ كلاً بما يليق بعمله فمن لم يرم عباده في دنياه لا يرحمه الله ، ومن لم يحسن
إلى عباده تقاصر عنه إحسانه ، ومن ظلم غيره كفى بما يليق بسوء فعله .

قوله : « فلا تظلم نفس شيئا » : أى يجازى المظلومين وينتقم من الظالمين ، وينتصف
المظلوم من مثقال النرة ومقياس الحبة ، وإن عمل خيراً بذلك المقدار فسيلقى جزاءه ،
ويجد عوضه .

قوله جل ذكره : ❦ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان
وضياء وذكراً للمتقين ❦

ما آتاه الحق سبحانه للأنبياء عليهم السلام من الضياء والنور ، والحجة والبرهان يشاركم
المستعجبون من أعمهم في الاستبصار به . . .

فكذلك الأكاير من هذه الأمة يشاركون نبينا — صلى الله عليه وسلم — في الاستبصار
بنور اليقين .

و « المتقي » هو المجانب لما يشغله ويحجبه عن الله ، فيتقى أسباب الحجاب وموجباتها .

(١) يرى أنه قد حدث سقوط للفظ في هذا المكان ، ولابد أنها بمعنى الخلو من الله والتجرد من
كل العلائق ، وربما كانت أيضاً (الحقوق) أى حقوق الله .

قوله جل ذكره : ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾

صار لهم في استحقاق هذه البصائر والخشية بالغيب إحراق السريرة ، وفي أوان الحضور استشعار الوجع من جريان سوء الأدب ، والحذر من أن يبدو من الغيب من خفايا التقدير ما يوجب حجة العبد .

والإشفاق من الساعة على ضربين : خوف قيام الساعة الموعودة للعامة ، وخوف قيام الساعة التي هي قيامة هؤلاء القوم (١) ؛ فإن ما يستأهل الكافة في الحشر متجمل لهم في الوقت من تقريب ومن تبعيد ، ومن تحوير ومن إثبات .

قوله جل ذكره : ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾

وَصَفَّ القرآن بأنه « مبارك » ، وهو إخبار عن دوامه (٢) ، من قولهم : بَرَكَ الطائرُ على الماء أي دَامَ .

وإن هذا الكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ وما لا ابتداء له — وهو كلامه القديم — فلا انتهاء للكتاب الدال عليه .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾

أراد به ما تعرف إليه من الهداية حتى لم يقل بما يجوز عليه الزوال والأفول (٣) ، لولا أنه خصه في الابتداء بالتعريف . . وإلا متى اهتدى إلى التمييز بينه وبين خلقه لولا ما أضاء (٤) عليه من أنوار التوحيد قبلما حصل منه من النظر في المخلوق ؟ ويقال هو ما كاشف به رُوحه قبل إبداعها من تجلّي الحقيقة .

(١) أي أرباب الأحوال

(٢) وردت (بيانه) وآثرنا — طبقاً للسياق — أن نجعلها (دوامه)

(٣) إشارة إلى أن إبراهيم لما رأى أفول الشمس والقمر والنجم قال : « إني لا أحب الآفلين » .

(٤) (أضاء) مقبولة في السياق ولكتنا لا نستبعد أنها ربما كانت في الأصل (أضاء) أي (أنعم) .

قوله جل ذكره ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَائِيلُ
الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾

خاطب قومه وأباه^(١) ببيان التنبيه طمعاً في استغاثتهم من مَكْرَةِ الغفلة ، ورجوعهم من
ظلمة^(٢) الغفلة ، وخروجهم من ضيق الشبهة .

ثم سأل الله إيمانهم بطلب الهداية لهم . فلما تبين له أنهم لا يؤمنون ، وعلى كفرهم
يُصِرُّونَ تَبَرُّاً منهم أجمعين .

قوله جل ذكره : ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ قال
لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين
قالوا أحيثننا بالحق أم أنت أنت من
اللاعبين

ما استروحوا في الجواب إلا إلى التقليد ، فكان من جوابه الحكم بالتسوية بينهم وبين
آبائهم في الضلال ، والحجة المتوجهة على سلفهم لزموها وتوجهت عليهم ، فلم يرضوا منه بتخطئة
آبائهم حتى قالوا : « أحيثننا بالحق أم أنت أم أنت من اللاعبين ؟ » فطالبوه بالبرهان إلى مادامهم
إليه من الإيمان فقال :

﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنْ
الشَّاهِدِينَ﴾

فأحالم على النظر والاستدلال والتعريف^(٣) من حيث أدلة العقول^(٤) لأن إنبات الصانع

(١) وردت (وأتاه) والصواب أن تكون (أباه) كما في الآية .

(٢) وردت في (ظلمة) وفي م (ظل) والصواب أن تكون (ظلمة) فالقشيري يستعمل الظل للعناية
وما في معناها .

(٣) في م (والتعريف) وفي م (التعرف) ونحن نرجح هذه .

(٤) في م (القبول) ونحن نرجح (العقول) لتلاؤمها مع السياق .

لا يُعْرَفُ بِالْمُعْجَزَاتُ ، وإنما للمعجزاتُ علمٌ بصدق الأنبياء عليهم السلام ، وذلك فرع
لمعرفة الصانع .

ثم بينَ لهم أنَّ ما عبدوه من دون الله لا يستحق العبادة ، ثم إنه لم يحفل بما يُصيبه من
البلاء ثقةً منه بأنَّ الله هو المتفرِّد بالإبداع ، فلا أحدَ يملك له (١) ضرراً من دون الله ، فتساءلوا
فيما بينهم وقالوا :

﴿ قالوا من فعلَ هذا بآلهتنا إنه لمن
الظالمين ﴾ قالوا سمعنا فتي يذكركم
يُقالُ له إبراهيم ﴿

أى يذكركم بالسوء . ويحتمل أن يكون من فعله . . فسالوه ، فسالوه (٢) فقال : بل
فعله كبيرهم .

فقالوا كيف ندرك الذنب عليه ؟ وكيف تحيلنا فى السؤال عليه — وهو جاد ؟
فقال : وكيف تستجيزون عبادة ما هو جاد لا يدفع عن نفسه السوء ؟

قوله جل ذكره : ﴿ ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت
ما هؤلاء ينطقون ﴾

فقال : شرٌّ وأمرٌ (٣) . . كيف نستحق أمثال هذه . . العبادة ؟

فلما توجهت الحجة عليهم ولم يكن لهم جواب دأخلتهم الأتفة والحمية فقالوا : سبيلنا أن
نقتله شرًّا قتيلاً ، وأن نعامله بما يخوفنا به من النار . فقالوا : « ابنوا له بنياناً فآلقوه فى الجحيم » ،
فلما رموه فى النار :

﴿ قلنا يا نارُ كوني برّداً وسلاماً
على إبراهيم ﴾

(١) الضمير لى (فسالوه) يعود على إبراهيم عليه السلام .
(٢) أى أن لى الكلام كما يقول البلاهيون — لمجاز حذف .
(٣) أى هذا هذر أقبح من الذنب .

لو عصمه من نار^(١) نمرود ولم يمكنه من رميه في النار من المنجنيق لكان - في الظاهر - أقرب من النصر، ولكن حفظه في النار من غير أن يتسه ألم أتم في باب النصر والمعجزة والكرامة .

ويقال إن إبراهيم - عليه السلام - كان كثيراً ما يقول : أواه من النار !

قال تعالى : « إن إبراهيم لأواه حلیم »^(٢)

فلما رمي في النار، وجعل الله عليه النار برداً قيل له : لا تقل بعمد هذا . أواه من النار ! فلا استعاذه بالله من الله . . لا من غيره .

قوله : « وسلاماً » : أي وسلامة عليه وله ، فإنه إذا كان للعبد السلامة فالنار والبرد عنده سريان .

ويقال إن الذي يحرق في النار من في النار يقدر على حفظه في النار . ولما سلم قلبه من غير الله بكل وجه في الاستنصار^(٣) والاستعانة وسلم من طلب شيء بكل وجه . . . تعرض له جبريل - عليه السلام - في الهواء وقد رمى من المنجنيق وقال له :

هل من حاجة ؟

فقال : أما إليك . . فلا !

فجعل الله النار عليه برداً وسلاماً ، إذ لما كان سليم القلب من الأغيار وتجد سلامة النفس من البلاء والأعلال .

قوله جل ذكره : ﴿ وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ﴾

من حفر لأوليائه وقع فيما حفر ، ومن كان مشغولاً بالله لم يتول الانتقام منه سوى الله .

(١) في م (يد) نمرود وكلاما مقبول في السياق .

(٢) آية ١١٤ سورة التوبة .

(٣) هكذا في م وهي أصح من (الاستبصار) في م لانسجام (الاستنصار) مع (الاستعانة) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَنَجِّنَا وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي

بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾

مَضَتْ سُنَّةُ اللَّهِ فِي أَنْبِيَائِهِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - أَنَّهُ إِذَا نَجَّى مِنْهُمْ وَاحِدًا أَشْرَكَ مَعَهُ مَنْ كَانَ مُسَاهِمًا لَهُ فِي ضُرِّهِ وَمُقَاسَاةٍ مَشَقَّتِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً

وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾

مَنْ عَلَيْهِ بَأْنُ أَخْرَجٍ مِنْ صُلْبِهِ مَنْ كَانَ عَابِدًا لِلَّهِ ، ذَاكِرًا لَهُ ، فَإِنْ مَفَاخِرَ الْأَبْنَاءِ مَنَاقِبُ لِلآبَاءِ ، كَمَا أَنَّ مَنَاقِبَ الْآبَاءِ شَرَفٌ لِلأَبْنَاءِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا

وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فَعَلِ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ

الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ، وَكَانُوا لَنَا

عَابِدِينَ ﴾

الإِمَامُ مُقَدَّمُ الْقَوْمِ ، وَاسْتِحْقَاقُ رُتْبَةِ الإِمَامَةِ بِاسْتِجْمَاعِ الْخِصَالِ الْمَحْمُودَةِ الَّتِي فِي الْأَمَةِ فِيهِ ، فَحِينَ لَمْ تَجْمَعْ فِيهِ مُتَفَرِّقَاتُ الْخِصَالِ الْمَحْمُودَةِ لَمْ يَسْتَحِقْ مَنَزَلَةَ الإِمَامَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ

الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ

كَانُوا قَوْمًا سَوِيًّا فَاسِقِينَ ﴾

أَكَلَ لَهُ الْأَنْعَامُ بِمَصْمَتِهِ مِنْ مِثْلِ مَا امْتَحَنَ بِهِ قَوْمَهُ ، ثُمَّ بِخُلَاصِهِ مِنْهُمْ بِإِخْرَاجِهِ إِيَّاهُ مِنْ بَيْنِهِمْ ، فَيُزَيِّدُهُ عَنْهُمْ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنْ

الصَّالِحِينَ ﴾

بَيِّنَ أَنَّهُ أَدْخَلَهُ فِي رَحْمَتِهِ نَحْنُ قَالَ : « إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ » ؛ فَلَا عَجَالَ مَنْ أَدْخَلَهُ فِي رَحْمَتِهِ كَانَ صَالِحًا .

وقوله : « وأدخلناه في رحمتنا » إخبار عن عين الجمع ، وقوله : « إنه من الصالحين » :
إخبار عن عين الفرق (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ
فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ
وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا
بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴾

كان نوح - عليه السلام - أطولهم عمراً ، وأكثرهم بلاء . ففي القصة أنه كان يضربُ
سبعين مرةً ، وكان الرجل الهرم يحمل حفيده إليه ويقول . لا تقبل قولَ هذا الشيخ وكان
يوصيه بمخالفته . وكان نوح - عليه السلام - يصبر على مقاساة الأذى ، ويدعوهم إلى الله ،
فلما آيسَ من إيمانهم ، وأوحى إليه : « أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن » (٢)
دعا عليهم فقال : « رب لا تذرْ على الأرض من الكافرين دياراً » (٣) فقال تعالى : « ونوحاً
إذ نادى من قبل . . . » فأزهد الشُّركَ وأغرق أهلَه .

قوله جل ذكره ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ
● سورة الكهف إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمُّ الْقَوْمِ وَكُنَّا
● سورة مريم لِيُحْكِمَهُمُ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا
سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَاهُمْ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾
● سورة طه .

أشركهم في حكم النبوة وإن كان بين درجتيهما تفاوت . . ففي مسألة واحدة أثبت سليمان
- عليه السلام - بها خصوصية ؛ إذ منَّ عليه بقوله : « ففهمناها سليمان » ولم يَمُنَّ عليه
بشيء من الملك الذي أعطاه بمثل ما منَّ عليه بذلك ، وفي هذه المسألة دلالة على تصويب
المجتهدين - وإن اختلفوا - إذا كان اختلافهم في فروع الدين ؛ حيث قال : « وكلاً آتينا

(١) لأن الرحمة من صفات ذاته - سبحانه ، وصلاح المبدأ فيه شيء من كسب العبد .

(٢) آية ٣٦ سورة هود .

(٣) آية ٢٦ سورة نوح .

حكماً وعلماً ، ولمن قال بتصويب أحدهما وتخطئة الآخر فله تعلق بقوله : «فقهناها سليمان» (١)

قوله جل ذكره : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ
وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾

أمر الجبال وسخرها لتساعد داود — عليه السلام — في التسبيح ، ففي الأثر : كان
داود — عليه السلام — يمرُّ وصقَّاح (٢) الجبال نجأويه ، وكذلك الطيور كانت تساعد
عند تأويبه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ
لِيُخْفِيَكُمْ مِنَ بَأْسِكُمْ فَلَمَّا أَنْتُمُ
شَاكِرُونَ ﴾

سخر الله — سبحانه — لداود الحديد وألانه في يده ، فكان ينسج الدروع ، قال تعالى :
« وَالنَّالَةَ الْحَدِيدَ » ليتحصن من السهام في الحروب ، قال تعالى : « وَقَدَّرَ فِي السَّيِّدِ » وأحيم
الصنعة وأوثق المسامير . . ولكن لما قصده سهام التقدير ما أصابت إلا حدقته حين نظر
إلى امرأة أوريا — من غير قصد — فكان ما كان .

ولقد خلا ذلك اليوم ، وأغلق على نفسه باب البيت ، وأخذ يصلي ساعة ، وقرأ التوراة
مرة ، والزبور أخرى ، حتى يمضي وينتهي ذلك اليوم بالسلامة . وكان قد أوحى إليه أنه يوم
فتنة ، فأمر الخُجَّابَ والبواب ألا يؤذَنَ عليه أحدٌ ، فوقع من كوة البيت طيرٌ لم ير مثله

(١) هذا رأى القشيري في (الاجتهاد) ومداه ، ويجدر الاهتمام به إذا شئنا أن نبحث في « أصول
الفقه عند الصوفية » .

(٢) صفاح جمع صفح ، وصفح الشيء عرضه (مقاييس اللغة ج ٣ ص ٢٩٣) .
ويقول القرطبي (قال وهب : كان داود يمر بالجبال مسجاً ، والجبال نجأويه بالتسبيح ، وكذلك الطير)
ويضيف القرطبي شيئاً هاماً بالنسبة لتفسير الصوفي : (كان داود إذا وجد فترة أمر الجبال فصبغت حتى
يشقائق ، ولهذا قال : « وسخرنا » أي جعلناها بحيث تطيعه) .

«الجامع لأحكام القرآن ج ١١ ص ٣١٩»
وبهذه المناسبة نود أن نستدرك شيئاً لم نشر إليه في مدخل الكتاب ، وهو أن القرطبي كثيراً ما يستفيد
من آراء الصوفية ، وبصفة خاصة من القشيري ، وهو في معظم الأحيان عبد الرحمن القشيري أحد أبناء
المصنف .

في الحسن ، فهم أن يأخذه ، فتباعد ولم يطير كالطيمح له في أخذه ، فلم يزل يستأخر قليلاً قليلاً حتى طار من كوة البيت ، فتبعه داود ينظر إليه من الكوة من ورائه ، فوقع بصره على امرأة أوريا ، وكانت قد تجمّدت من ثيابها تغتسل في بستان خلف البيت الذي به داود ، فحصل في قلبه ما حصل ، وأصاب سهم التقدير خدقته ، ولم تنفعه صنعة اللبس التي كان تعلمها لتحصنه من بأسه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولسليمان الريح عاصفة نجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين ﴾

سخر الله له الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، ولو أراد أن يزيد في قدر مساقها شيئاً لما استطاع ، تعريفاً بأنه موقوف على حكم التقدير ، فشهود التقدير كان يمنعه عن الإعجاب بما أكرم به من التسخير ، ولقد نبّه — سبحانه — من حيث الإشارة أن الذي ملكه سليمان كالريح إذا مرّ وفات ، أو أنه لا يبقى باليد منه شيء (١) .

وفي القصة أنه لاحظ ذلك يوماً فالت الريح ببساطه قليلاً ، فقال سليمان للريح : استور . فقالت له الريح : استور أنت . أي إنما ميلي ببساطك لميلك بقلبك بملاحظتك ؛ فإذا استويت أنت استويت أنا (٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن الشياطين من يقوِّضون له ويعملون عملاً دون ذلك وكنا لهم حافظين ﴾

إنما كان ذلك أياماً قلائل في الحقيقة . ثم إنه أراد يوماً أن يعود إلى مكانه فجاءه ملك الموت فطالبه بروحه ، فقال : إلى حين أرجع إلى مكاني .

فقال له : لا وجه للتأخير ، وقبضه وهو قائم ينكس على عصاه وبقي بحالته ، ولم تعلم الجن ،

(١) فهو كما قيل : باطل وقبض الريح .

(٢) في ذلك إشارة إلى أصحاب الأحوال بأنه إذا تغيرت أو تعذرت الأمور فالسبب كامن في نفوسهم .

إلى أن أكلت دابة الأرض — كما في القصة — عصاه ، فلما خر سليمان هلت الشياطين بموته ، وتحققوا أن الذي بالعصا قيامه فقهر الموت يلحقه .

قوله جل ذكره : ﴿ وأيوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

أى واذكر أيوب^(١) حين نادى ربه . ومضى أيوب لكثرة إياه إلى الله في جميع أحواله في السراء والضراء ، والشدة والرخاء .

ولم يقل : ارحمنى ، بل حفظ أدب الخطاب فقال : « وأنت أرحم الراحمين » .

ومن علامات الولاية أن يكون العبد محفوظاً عليه وقته في أوان البلاء .

ويقال إخباره عنه أنه قال : « مسنى الضر » لم يسلبه اسم الصبر حيث أخبر عنه سبحانه بقوله : « إنا وجدناه صابراً » لأن الغالب كان من أحواله الصبر ، فنادرٌ قالته لم يسلب عنه الغالب من حالته . والإشارة من هذا إلى أن الغالب من حال المؤمن المعرفة ، أو الإيمان بالله فهو الذى يستغرق جميع أوقاته ، ولا يخلو منه لحظة ؛ ونادرٌ زلاته — مع دائم إيمانه — لا يزاحم الوصف الغالب .

ويقال ؛ لما لم يكن قوله : مسنى الضر على وجه الاعتراض على التقدير — بل كان على وجه إظهار المعجز — فلم يكن ذلك منافياً لصفة الصبر .

ويقال استخرج منه هذا القول ليكون فيه متنفساً للضعفاء في هذه الأمة حتى إذا ضجروا في حال البلاء لم يكن ذلك منافياً لصفة الصبر .

ويقال لم يكن هذا القول منه على جهة الشكوى ، وإنما كان من حيث الشكر « أنى مسنى الضر » الذى يخص به أوليائك ، ولولا أنك أرحم الراحمين لما خصصنى بهذا ، ولكن برحمتك أهلتنى لهذا .

(١) في تدويرها أن ما كتبه القشيري في هذا الموضع عن أيوب عليه السلام من أجل ما كتب في هذا الموضوع سواء من الناحية الأدبية أو من الناحية الإشارية .

ويقال لم يكن هذا القول من أيوب ولكنه استغاثه البلاء منه ، فلم يطق البلاء صُحبته
فضج منه البلاء لا أيوب ضج من البلاء . . . وفي معناه أنشدوا .

صَابِرَ الصَّبْرِ فَاسْتَغَاثَ بِهِ الصَّبْرُ فَصَاحَ الْحَبُّ بِالصَّبْرِ صَبْرًا

ويقال همزة الاستفهام فيه مضرة ، ومعناه : أيمسني الضر وأنت أرحم الراحمين ؟ كما قال
« وتلك نعمة تمنها علي » (١) أي أتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل ؟

ويقال إن جبريل — عليه السلام — أتى أيوب فقال : لِمَ تسكت ؟ فقال : ماذا أصنع ؟
فقال : إن الله سيان عنده بلاؤك وشفأوك . . . فاسأل الله العافية فقال أيوب : إني
مسنى الضر ، فقال تعالى : « فكشفنا ما به من ضر » والفاء تقتضي التعقيب ، فكأنه قال :
فعايناه في الوقت . وكأنه قال : يا أيوب ، لو طلبت العافية قبل هذا لاستجبتنا لك .

ويقال سقطت دودة كانت تأكل من بدنه على الأرض فرفعها أيوب ووضعها على
موضعها ، فعقرته عقرة عيل صبره فقال : مسني الضر ، فقيل له : يا أيوب : أتصبر معنا ؟
لولا أنني ضربت تحت كل شجرة من شعراتك كذاخيسة من الصبر . . . ما صبرت ساعة !
ويقال كانت الدودات التي تأكل منه أكلت ما علا بدنه ، فلم يبق منه إلا لسانه
وقلبه ، فصعدت دودة إلى لسانه ، وأخرى إلى قلبه فقال :

« مسني الضر » . . . فلم يبق لي إلا لسان به أذكرك ، أو قلب به أعرفك ، وإذا
لم يبق لي ذلك فلا يمكنني أن أعيش وأصبر !

ويقال استعجبت عليه جهة البلاء فلم يعلم أنه يصيبه بذلك تطهيراً أو تأديباً أو تعذيباً
أو تقريباً أو تخصيصاً أو تمحيصاً . . . وكذلك كانت صحبته (٢) .

ويقال قيل لأيوب عليه السلام سل العافية فقال :

عِشْتُ فِي النِّعَمِ سَبْعِينَ سَنَةً فَخَفِيَ يَأْنِي عَلَى سَبْعِينَ سَنَةً فِي الْبَلَاءِ . . . وعندئذ أسأل
الله العافية !

(١) آية ٢٢ سورة الشعراء .

(٢) أي وهكذا كانت محبة الحق لوليه دائماً .

وقيل لما كَشَفَ اللهُ عنه البلاء قيل له : ما أَشدُّ ما لقيتَ في أيام البلاء ؟ فقال
شجاعة الأعداء .

وفي القصة أن تلامذة أبوب كسروا أقلامهم ، وحرَّقوا ما كتبوه عنه وقالوا : لو كان
لكَ عند الله منزلةٌ لما ابتلاكَ بكل هذا البلاء !

وقيل لم يبقَ معه إلا زوجته ، وكانت من أولاد يوسف النبي عليه السلام ، فهي التي بقيت
معه وكانت تخدمه وتمهده .

ويقال إنما بقيت تلك المرأة معه لأنها كانت من أهل البلاء من آل يعقوب —
عليه السلام .

وقيل إنما قال : مسني الضرُّ لما نال لها الشيطان : إن أردتَ أن يَشْفَى مريضُكَ فاسجدِ
لي ، ولم تعلم أنه إبليس لأنه ظَهَرَ لها في صورة إسان ، فأخبرت أبوبَ بذلك فقال عندئذٍ :
« تَسْنِي الضرُّ » .

ويقال لما ظهر به البلاءُ اجتمع قومه وقالوا لها : أخرجي هذا المريضَ من قريتنا ، فإننا
نخاف العدوى وأن يَمَسَّنَا بلاؤه ، وأن نَعْدَى إلينا عِلَّتُهُ ، فأخرجته إلى باب القرية فقالوا :
إنا إذا أصبحنا وقمت أبصارنا عليه ، فنتشاهم به ، فأبعديه عن أبصارنا ، فحملته إلى أرض
قفري ، وكانت تدخل البلد ، وتُسْتَأْجَرُ للخَبْرِ والعمل في الدور ، فتأخذ الأجرة وتحملها إليه ،
فلما علموا أنها امرأته استقدروها ولم يستعملوها .

ويقال إنها كانت ذات ذوائب وقرون ، وكان أيوب يأخذ بذوائبها عند نهوضه ،
فباعث ذوائبها برغيفٍ أخذته لتحمله إليه ، فومس له الشيطان بأنها فعلت الفحشاء ، وأن
شعرها جزٌّ في ذلك فَحَلَفَ أيوبُ أن يَجْلِدَها إذا صحَّ حَدْسُهُ ، وكانت المحنة على قلبه
تلك المرأة أشدَّ مما على بدنِ أيوب من كل الحن .

وقيل إن امرأته غابت ودخلت البلد ، فعافى اللهُ أيوبَ عليه السلام ، وعاد شاباً طرياً
كما قال في قصته قوله : « اركض برجلِكَ هذا مُنْثَلِ بارِد وشراب »^(١) . فلما رجعت

(١) آية ٤٢ سورة ص

امراته ولم تره حسبت أنه أكله سبع أو أصابته آفة ، فأخذت تبكي وتولول ، فقال لها أيوب — وهي لم تعرفه لأنه عاد صحيحاً — ما لك يا امرأة ؟

قالت : كان لي ما هنا مريض ففقدته . فقال لها أيوب : أنا ذاك الذي تطلبينه !

وفي بعض الأخبار المروية أنه بقي في بلائه سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات .

وقيل تعرض له إبليس فقال : إن أردت العافية فاسجد لي سجدة ، فقال : « مسني الضر » .

ويقال إن أيوب — عليه السلام — كان مكاشفاً بالحقيقة ، مأخوذاً عنه ، فكان لا يحس بالبلاء ، فستر عليه مرة ، وردّه إليه ، فقال : مسني الضر^(١) .

ويقال أدخل على أيوب تلك الحالة ، واستخرج منه هذه القالة ليظهر عليه إقامة العبودية .

ويقال أوحى الله إلى أيوب — عليه السلام — أن هذا البلاء اختاره سبعون نبياً قبلك فما اخترته إلا لك ، فلما أراد كشفه عنه قال : مسني الضر !

وقيل كشف بمعنى من المعاني فلم يجد ألم البلاء فقال : مسني الضر ليفقد ألم الضر .

وقال جعفر الصادق : حبس عنه الوحي أربعين يوماً فقال : مسني الضر لما لحقه من الضعف بقيام الطاعة فاستجاب إليه بأن ردّ عليه قوته ليقوم بحق الطاعة .

ويقال طلب الزيادة في الرضا فاستجيب له بكشف ما كان به من ضعف الرضا .

ويقال إن الضر الذي شكاه أنه بقيت عليه نية ، وبلينه كانت ببنيته ، فلما أخذ عنه بالكلية زال البلاء ، ولهذا قال « فكشفنا ما به من ضر » وكانت نفسه ضرة ، وردّ عليه السلامة والعافية والأمل — في الظاهر — لما صار مأخوذاً بالكلية عنه ، منقّ عن كل بقية ، وعند ذلك يستوى البلاء والعافية ، والوجود والفقد .

(١) أي أن العبد الواله لا يحس بنفسه وهو في حال الجمع ، ويحس بها وهو في حال العرق . وقد حكى القشيري في الرسالة أن بعضهم قطعت رجله حيث كانت بها غرغرينة فلم يشعر ، بينما آلمت بعضهم قلة . وهو في الحال الفرق .

قوله جل ذكره : ﴿وَاسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ
كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾

أى واذكر هؤلاء الأنبياء ثم قال : «كل من الصابرين» ، ثم قال :

﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾

بَيِّنَ الْحُكْمَ وَالْمَعْنَى ؛ الْحُكْمُ صَبْرُهُمْ وَصَلَاةُهُمْ ، وَالْمَعْنَى إِدْخَالُهُ إِيَّاهُمْ فِي الرَّحْمَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ

أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي

الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ

سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

«مغاضبا» : على مَلِكٍ وقته حيث اختاره للنبوّة ، وسأله : لِمَ اخترتني ؟ فقال : لقد

أَوْحَى اللَّهُ إِلَى نَبِيِّي : أَن قُلْ لِفُلَانِ الْمَلِكِ حَتَّى يَخْتَارَ وَاحِدًا لِّيُرْسَلَ إِلَى نَيْنوى بِالرَّسَالَةِ .

فَثَقُلَ عَلَى ذِي النُّونِ لَمَّا اخْتَارَهُ الْمَلِكُ ؛ لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّ النُّبُوَّةَ مَقْرُونَةٌ بِالْبَلَاءِ ، فَكَانَ غَضَبُهُ

عَلَيْهِ لِذَلِكَ (١) .

ويقال مغاضباً على قومه لما امتنعوا عن الإيمان وخرج من بينهم .

ويقال مغاضباً على نفسه أى شديد المخالفة لهواه ، وشديداً على أعداء الدين من مُخَالِفِيهِ .

« فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ » أى أَن لَّنْ نَضِيقَ عَلَيْهِ (٢) بطن الحوت ، من قوله :

« وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ » (٣) أى ضَيَّقَ .

(١) عن ابن عباس : أراد شعيا النبي والملك حزقيا أن يبعثا يونس إلى ملك نينوى الذي كان قد غزا
بنى إسرائيل وسبي الكثير منهم ليحكمه حتى يرسل معه بنى إسرائيل ؛ وكان الأنبياء في ذلك الزمان يوحى إليهم ،
والأمر والسياسة إلى ملك قد اختاروه ، فيعمل على وحى ذلك النبي ، وقد أوحى لشعيا : ان قل لحزقيا الملك
أن يختار نبيا قويا من بنى إسرائيل إلى أهل نينوى .. فقال يونس لشعيا : هل أمرك الله بإخراجي ؟
قال : لا ، قال : فهاتنا أنبياء أمثاء أقوياء ، فألحوا عليه .. فخرج مغاضبا للنبي والملك وقومه ، حتى أتى بحر
الروم .. وكان من قصته ما كان ، وابتلى ببطن الحوت لتركه أمر شعيا .. قال تعالى « فالتقمه الحوت وهو مليم »

(٢) (أن لن نضيق عليه) مفقودة في ص . وموجودة في م والسياق يقتضى وجودها .

(٣) آية ١٦ سورة الفجر

ويقال فظن أن لن نقدر عليه من حبسه في بطن الحوت .

وخرج من بين قومه لما أخبر بأن الله يعذب قومه ، وخرج بأهله .

ويقال إن السبع افترس أهله في الطريق ، وأخذ النمر ابناً صغيراً له كان معه ، وجاء موج البحر فأغرق ابنه الآخر ، وركب السفينة ، واضطرب البحر ، وتلاطمت أمواجه ، وأشرفت السفينة على الفرق ، وأخذ الناس في إلقاء الأمتعة في البحر تخفيفاً عن السفينة ، وطلباً لسلامتها من الفرق ، فقال لهم يونس : لا تُلْقُوا أَمْثَلَكُمْ في البحر بل اطرحوني فيه فإنا المجرم فيما بينكم لتخلصوا . فنظروا إليه وقالوا : نرى عليك سياء الصلاح ، وليست تسمح نفوسنا بإلقاءك في البحر ، فقال تعالى مخبراً عنه : « فسام فكان من المدحضين »^(١) أي فقارعهم ، فاستهموا ، فوقعت القرعة عليه .

وفي القصة أنه أتى حرق السفينة ، وكان الحوت فاغراً فاه ، فجاء إلى الجانب الآخر فجاء الحوت إليه كذلك ، حتى جاز كل جانب . ثم لما علم أنه مرآد بالبلاء ألقى نفسه في الماء فابتلعه الحوت « وهو ملهم » : أي أتى بما يلام عليه ، قال تعالى : « فالتقمه الحوت وهو ملهم »^(٢) .

وأوحى الله إلى السمك : لا تخدش منه لحماً ولا تكسر منه عظماً ، فهو وديعة عندك وليس بطعمة لك . فبقي في بطنه - كما في القصة - أربعين يوماً .

وقيل إن السمك الذي ابتلعه أميراً بأن يطوف في البحر ، (وخلق الله له إدراك ما في البحر)^(٣) ، وكان ينظر إلى ذلك .

ويقال إن يونس عليه السلام صحب الحوت أياماً قلائل فإلى القيامة يقال له : ذا النون ، ولم تبطل عنه هذه النسبة . فما ظنك بعبد حبيده - سبحانه - سبعين سنة ، ولازم قلباً محبته ومعرفته طول عمره . . ترى أيبطل هذا ؟ لا يظن بكرمه ذلك !

« فنادى في الظلمات . . . » يقال ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت - هذا بيان

(١) آية ١٤١ سورة المافات

(٢) آية ١٤٢ سورة المافات

(٣) موجودة في م ومفتودة في ص

التفسير ، ويحتسب (١) أن تكون الظلمات ما التبس عليه من وقته واستبهم عليه من حاله .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجِّنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ﴾
وكذلك ننجي المؤمنين ﴿

استجبنا له ولم نجبر منه دعاء ، لأنه لم يصدر عنه أكثر من قوله : « لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » ، ولم يقر بالظلم إلا وهو يستغفر منه .
ثم قال : « ونجيناه من الغم » يعني : كُلُّ مَنْ قَالَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ - إِذَا أَصَابَهُ غَمٌّ ،
أو استقبله مُهِمٌّ - مثلما قال ذو النون نجيناه كما نجينا ذا النون .

قوله جل ذكره : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾

سأل الولد ، وإنما سأل له ليكون له مُعِينًا على عبادة ربّه وليقوم في النبوة مقامه ،
ولثلاث تنقطع بركة الرسالة من بيته (٢) ، ولقد قاسى زكريا من البلاء ما قاسى حتى حاولوا قطعه
بالمشار ، ولما التجأ إلى شجرة انشقت له وتوسّطها ، والنأمت الشجرة ، وفطنوا إلى ذلك
فقطعوا الشجرة بالمشار ، وصبر لله ، وسبحان الله !

كان انشقاق الشجرة له معجزة ، وفي الظاهر كان حفظاً له منهم ، ثم لو لم يطلعهم عليه
لكان في ذلك سلامته ، ولعلهم - لو قتلوه - لم يُصِيبَهُ مِنَ الْأَلَمِ الْقَدَرُ الَّذِي لَحِقَهُ مِنَ الْقَطْعِ
بالمشار طول إقامته ، وإنما المعنى فيه أن انشقاق الشجرة كان له معجزة ، فَقَوَّى بِذَلِكَ يَقِينَهُ
لما رأى عجيب الأمر فيه من نقض العادة (٣) ، ثم البلاء له بالقتل ليس ببلاء في التحقيق ،
ولقد قال قائلهم : « إنما يستعذب الأولياء البلوى للمناجاة مع المولى » .

(١) هذا النوع من الظلمات - وهو المرتبط بالنفس - متوقع صدوره عن مفسر صولى علم بأحوال النفس .

(٢) أى أنه لم يسأل الولد لحظ نفسه بل لحق ربه ، وهذه بشرى إجابة الدعاء .

(٣) أى أن المعجزة ليست فقط من أجل القوم الذين فيهم النى بل في حسابها تثبيت قلب النبي وترسيخ يقينه .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ
وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا
يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا
رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾

سمى يحيى لأنه حيّ به عقر أمه .

وقوله : « وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ » : لتكون الكرامة لهم جميعاً بالولد ، ولئلا يسبب ذكرها بفرح الولد دونها مراعاةً لحق صحبتها . . وهذه سُنةُ الله في باب إكرام أوليائه ، وفي معناه أنشدوا :

إِنَّ الْكِرَامَ إِذَا مَا أُيسِرُوا ذَكَرُوا مَنْ كَانَ يَأْلَهُمْ فِي الْمَنْزِلِ الْخَشَنَ

ثم قال : « إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا . . . » وفي هذا بشارة لجميع المؤمنين ، لأن المؤمن لا يخلو من حالة من أحوال الرغبة أو الرهبة ؛ إذ لو لم تكن رغبة لكان قنوطاً والقنوط كفر^(١) ، ولو لم تكن رهبة لكان أمناً والأمن كفر^(٢) .

قوله : « وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ » الخشوع قشعريرة القلب عند اطلاع الرب ، وكان لهم ذلك على الدوام .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالتَّى أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

يعنى مريم ، وقد نفى عنها ريحة الفحشاء وهجنة الدم .

ويقال فنفخنا فيها من روحنا ، وكان النفخ من جبريل عليه السلام ، ولكن لما كان بأمره — سبحانه — صَحَّتْ الإضافةُ إليه ، وفي هذا دليل على تأويل خبر النزول ، فإنه يكون بإِزال ملكٍ فتَصِيحُ الإضافة إلى الله إذ كان بأمره . وإضافة الروح إلى نفسه على جهة التخصيص . كقوله : (ناقة الله ، وبنيتي) . . ونحو ذلك . (وجعلنا وابنها آية للعالمين) : ولم يزل آيين

(١) قال تعالى : « وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ » ٥٦ الحجر .

(٢) قال تعالى : « فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ » ٩٩ الأعراف

لأن أمرها كان معجزة ودلالة ، ويصح أن يراد أن كل واحد منهما آية — على طريقة القرب في أمثال هذا .

وفيه نفي لتهمة مَنْ قال إنها حبلت من الله . . . تعالى الله عن قولهم !
قوله (آية للعالمين) : وإن لم يهتد بهما جميع الناس . . . لكنهما كانا آية . ومن نظرَ في أمرهما ، ووضعَ النظرَ موضِعَه لاهتدى ، وإذا أعرض ولم ينظر فالآية لا تخرج عن كونها حجةً ودلالةً بتقصير المقصر في بابها .

قوله جل ذكره : ﴿ إِن هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون ﴾ .

أى كلكم خَلَقْتُهُ ، وكلكم اتَّقِيتُمْ في الفقر ، وفي الضعف ، وفي الحاجة . « وأنا ربكم » : وخالقكم على وصف التفرُّد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَ بَيْنِهِمْ كُلُّ الْإِنْسَانِ رَاجِعُونَ ﴾ .

اختلفوا وتنازعوا ، واضطربت أمورهم ، وتفرقت أحوالهم ، فاستأصلتهم البلايا .
قوله : (كلُّ الإنساراجعون) : وكيف لا . . . وهم ما يتقلبون إلا في قبضة التقدير ؟

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴾ .

مَنْ تَعَيَّنَ لله لم يخسر على الله ، وَمَنْ تَحَمَّلَ لله مشقةً وَجَبَ حَقُّه (على) (١) الله : قوله : وهو مؤمن (بعد قوله : (يعمل من الصالحات) دليل على أن من لا يكون مؤمناً لا يكون عمله صالحاً . ففائدة قوله هاهنا : (وهو مؤمن) في المال والعاقبة ، فقد يعمل الأعمال الصالحة من لا يُخْتَمُ له بالسعادة ، فيكون في الحال مؤمناً وعمله يكون على الوجه الذي آمن ثم لا ثواب له ، فإذا كانت عاقبته على الإسلام والتوحيد فحينئذٍ لا يضيع سَعْيُهُ .

(١) ترجح أنها في الأصل (من) لأن التشديد في مواضع شتى عارض أى وجوب (على) الله . . . وطالما أوضحنا ذلك في الهوامش .

قوله جل ذكره : ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرِيبٍ أَهْلُكُنَا مَا أَنْتُمْ
لَا يَرْجِعُونَ ﴾ .

أى لا نهلك قوماً وإن تمادوا فى العصيان إلا إذا علمنا أنهم لا يؤمنون ، وأنه بالشقاوة
نُخْتَمُ أُمُورُهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَحَتَّىٰ إِذَا فَتَحْتُمَا بِأُجُوجٍ وَمَاجُوجٍ
وَهُم مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ .

أى بحق القول عليهم ، ويتم الأجل المضروب لهم ، فعند ذلك تظهر أيامهم ، وإلى
القَدَرِ للعلوم فى التقدير لا تحصل نجاة الناس من شرهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ
شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلُنَا
قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا
ظَالِمِينَ ﴾ .

تأخذهم القيامة بغتة ، وتظهر أشراط الساعة فجأة ، ويُقرُّ الكاذبون بأن الذنب عليهم ،
ولكن فى وقت لا تُقبل فيه معذرتهم ، وأوان لا ينفعهم فيه إيمانهم .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّا نَسُفُّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ
حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ .

« وما تعبدون من دون الله » : أى الأصنام التى عبدوها ، ولم تدخل فى الخطاب الملائكة
التي عبدوها قوم ، ولا عيسى وإن عبده قوم لأنه قال :

« إِنَّا نَسُفُّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ » ولم يقل « إِنَّا نَسُفُّكُمْ وَمَن تَعْبُدُونَ »^(١) . فَيُحْشَرُ الْكَافِرُونَ فِي النَّارِ ،
وَيُحْشَرُ أَصْنَامُهُمْ مَعَهُمْ . والأصنامُ جماداتٌ فلا جرم لها ، ولا احتراقها عقوبة لها ، ولكنه
على جهة براءة ساحتها ، فالذنب للكفار وما الأصنام إلا جمادات .

(١) لأن (ما) اسم موصول لغير العاقل و (من) اسم موصول للعاقل .

﴿ لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها
وكل فيها خالدون ﴾ .

القوم قالوا : « ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى »^(١) فعلموا أن الأصنام جمادات ،
ولكن توهموا أن لها عند الله خطراً ، وأن من عبدها يقربُ بعبادتها من الله ، فيبئ الله
لهم — غداً — بأنها لو كانت تستحق العباداة ، ولو كان لها عند الله خطرٌ لما أُلقيت في
النار ، ولما أُحرقت .

قوله جل ذكره : ﴿ لم فيها زفيرٌ وهم فيها لا يسمعون ﴾

« لم » : أى لِعِبَادَةِ الأصنام ، « فيها » أى فى النار ، « زفير » لحسرتهم على ما فاتهم ،
« وهم فيها لا يسمعون » من نداء يبشرهم بانقضاء عقوبتهم .
وبعكس أحوالهم عصاة المسلمين^(٢) فى النار فهم — وإن عذبوا حيناً — فإنهم يسمعون
قول من يبشرهم يوماً بانقضاء عذابهم — وإن كان بعد مدة مديدة .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى
أولئك عنها مبعدون ﴾

« سبقت لهم منا الحسنى » : أى الكلمة بالجنسى ، والمشيشة والإرادة بالحسنى ، لأن الحسنى
فعله ، وقوله : « سبقت » إخبار عن قدمه ، والذي كان لهم فى القدم هو الكلمة التى هى
صفة تعلقت بهم فى معنى الإخبار بالسعادة .

ثم قال : « أولئك عنها مبعدون » أى عن النار ، ولم يقل متباعدون ليعلم العالمون أن
المدار على التقدير ، وسابق الحكم من الله ، لا على تباعد العبد أو بتقربه .

قوله جل ذكره : ﴿ لا يسمعون حسيسها وهم فيها اشبهت
أنفسهم خالدون ﴾

(١) آية ٣ سورة (الزمر)

(٢) تسمى هذه فى علم الكلام : المنزلة بين المنزلتين وهى التى بين المؤمن والكافر ، وليست عقوبة هؤلاء
— كما هو شأن الكفار — على التأبيد .. كما يرى القشبرى .

يدل ذلك على أنهم لا يُعَذَّبُونَ فيها بكل وجوه . والمراد منه العبادُ من المؤمنين الذين لا جُرْمَ لهم .

« وهم فيها اشتبهت أنفسهم خالدون » : مقبضين لا يبرحون .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾

قيل الفزعُ الأكبرُ قولُ الملك : « لا بشرى يومئذٍ للمجرمين » (١)

ويقال إذا قيل : « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » (٢)

ويقال إذا قيل : يا أهل الجنة . . خلوداً لا موتَ فيه ، ويا أهل النار . خلوداً لا موتَ فيه !

وقيل إذا : « قال اخشوا فيها ولا تكلّمون » (٣)

وقيل الفزعُ الأكبرُ هو الفراق . وقيل هو اليأس من رحمة الله وتعريفهم ذلك .

قوله « وتتلقاهم الملائكة » يقال لهم هذا يومكم الذي كنتم وُعدتم فيه بالثواب ؛ فمنهم مَنْ يَتَلَقَّاهُ الْمَلَكُ ، ومنهم مَنْ يَرِدُّ عَلَيْهِ الْخَطَابُ والتعريف من الملك (٤) .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ

لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ

نَعِيدُهُ وَعَدْنَا عَلَيْهَا كُنَّا

فَاعِلِينَ ﴾

إنما كانت السماء مرفوعة حين كان الأولياء تحنها ، والأرض كانت فِرَاشاً إذ كانوا عليها ، فإذا ارتحل الأحبابُ عنها تخرب ديارهم . . على العادة فيها بين الخلق من خراب الديار بعد مفارقة الأحباب .

(١) آية ٢٢ سورة الفرقان

(٢) آية ٥٩ سورة يس

(٣) آية ١٠٨ سورة المؤمنون .

(٤) أى من الله سبحانه — ومؤلاهم مفعولة الأحبار .

ويقال نطوى السماء التي إليها عرجت دواوينُ العصاة من المسلمين لثلاث شهود عليهم بالإجرام ، وتبدلُ الأرضُ التي عصوا عليها غير تلك الأرض حتى لا تشهد عليهم بالإجرام .
أو نطوى السماء لنقربَ قطعَ المسافاتِ على الأحياب .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ
الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ
الصَّالِحُونَ ﴾

« الذِّكْر » هنا هو التوراة ، و « كَتَبَ » : أى أخبر وحكم ، و « الصالحون »
أمة محمد - صلى الله عليه وسلم : أن « الأرض » هم الذين يرثونها .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾
أَمْ مَنْ أَسْلَمَ فَبِكَ يَنْجُونَ ، وَأَمْ مَنْ كَفَرَ فَلَا نُنْذِرُهُمْ مَا دُمْتَ فِيهِمْ ؟ فَأَنْتَ رَحْمَةٌ مِّنَّا
عَلَى الْخَلَائِقِ أَجْمَعِينَ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ
وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾

واحدٌ في ذاته ، واحدٌ في صفاته ، واحدٌ في أفعاله . واحد بلا قسم ، واحد بلا شبيه ،
واحد بلا شريك .

« فهل أنتم مسلمون ؟ » مخلصون في عقد التوحيد بالتبرئى عن كل غير في حساب
صَلَاحِيَّتِهِ لِلْأُلُوهِيَةِ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ
وَإِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ
مَا تُوعَدُونَ ﴾

إن أعرضوا ولم يؤمنوا فَقُلْ : إني بالالتزام أعلمكم ، ولكن لإكرام ما ألهتكم ،
فَتَوَجَّهْتُ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةَ وَاسْتَبَهَمْتُ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةَ .

قوله : « وإن أدري أقرب أم بعيد ... » إن على متقاصر عن تفصيل أحوالكم في مآلكم ، ووقت ما توعدون به في القيامة من تحصيل أحوالكم ، ولكن حكم الله غير مستأخري إذا أراد شيئاً من تغيير أحوالكم .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾

لا يخفى عليه سركم ونجواكم ، وحالكم ومآلكم ، وظاهركم وباطنكم .. فعلى قدر استحقاقكم مجازيكم ، وبموجب أفعالكم بحاسبكم ويكافئكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ أَذْرَى كَلَّهْ فِتْنَةً لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾

ليس يحيط على (إلا) (١) بما يعلمني ، وإعلامه إياي ليس باختيارى ، ولا هو مقصود على حسب مرادى وإشارى .

قوله جل ذكره ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾

الرحمن كثير الرحمة عامة لكل أحد ، ومنه يوجد العون والنصر حين يوجد وكيف يوجد .

السورة التي يذكر فيها « الحج »

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

سماع « بسم الله » يوجب الهيبة والغيبة وذلك وقت محوهم . وسماع « الرحمن الرحيم » يوجب الألس والقربة ، وذلك وقت محوهم . . فعند سماع هذه الآية انتظم لهم المحو والصحو في سلك واحد .

سماع « بسم الله » يوجب انزعاج القلوب وعنده يحصل داء جنونهم (٢) ، وسماع « الرحمن

(١) سقطت (إلا) في م وموجودة في م .

(٢) ليس الجنون والفتون هنا مرتبطين بفساد العقل كما قد يقبدر للذهن إنما يرتبطان بذهاب العقل والوله في الهبوب ، وهذه هي المرة الأولى التي تصادف فيها هاتين اللفظتين في مثل هذا السياق ، وقد اعتدنا أن نسمع بدلا من (مجنون ومفتون) كلمات أخرى مثل (مهيم ومتيم) [انظر التعبير في التذكير ص ٦٢] .

الرحيم » يوجب ابتهاج القلوب وبه يحصل شفاء فتونهم ، فعودة فتونهم في لطف جماله كما أن موجب جنونهم في كشف جلاله .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ

السَّاعَةِ شَيْ عَظِيمٌ ﴾

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ » نداء علامة ، و « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » نداء كرامة ، وبكل واحد من القسمين يفتح الحق خطابه في السُّور ؛ وذلك لانتظام خطابه إلى صفة التحذير مرة ، وصفة التبصير أخرى .

والتقوى هي التحرز والالتقاء وتجنب المحظورات . وتجنب المحظورات فرض ، وتجنب الفضلات والشواغل - وإن كان من جملة المباحات - نفل ، فتواب الأول أكثر ولكنه مؤجل ، وثواب النفل أقل ولكنه مُعَجَّل^(١) .

ويقال خوفهم بقوله : « اتَّقُوا » . ثم سكن ما بهم من الخوف بقوله : « رَبَّكُم » فإن سماع الربوبية يوجب الاستدامة وجميل الكفاية .

قوله : « إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْ عَظِيمٌ » : وتسمية المعلوم « شيئاً » توسع ، بدليل أنه ليس في العدم زلزلة بالاتفاق وإن كان مُطْلَقُ اللفظ يقتضيه ، وكذلك القول في تسميته « شيئاً » هو توسع .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ تَرَوْهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ

عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ

حَلْيٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى

وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنْ عَذَابٌ

اللَّهُ شَدِيدٌ ﴾

لكل ذلك اليوم شغل يستوفيه ويستغرقه ، وترى الناس سكارى أي من هول ذلك

== ومن المفيد أن نسوق نصاً لإحدى المجانين :

معرض الناس ما جعلت ولكن أنا سكرانة وقلبي صاح

أنا مفتشونة بحب حبيب لست أبهى من بابه من براح

(الروض الفائق ص ٣٦٢) وكتابتها (نشأة النصوص الإسلامية ط المعارف ص ١٧٨ .

(١) هذا أصل يضاف إلى أصول الفقه الصوفي عند القشيري .

اليوم عقولهم ذاهبة ، والأحوال في القيامة وأحوالها غالبة . وكأنهم سكارى وما هم في الحقيقة بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد ، وليشدته يحورهم ولا يقيمهم على أحوالهم . وهم يتفقون في تشابههم بأنهم سُكَّارَى ، ولكن موجب ذلك يختلف ؛ فمنهم مَنْ سُكَّرَهُ لِمَا يُصِيبُهُ مِنَ الْأَهْوَالِ ، ومنهم مَنْ سُكَّرَهُ لاسْتِهْلَاكِهِ فِي عَيْنِ الْوَصَالِ .

كذلك فَسُكَّرُوهُمُ الْيَوْمَ مُخْتَلَفٌ ؛ فمنهم مَنْ سكره سكر الشراب ، ومنهم مَنْ سكره سكر المحاب . . . وشتان بين سُكَّرٍ وَسُكَّرٍ ، سُكَّرٌ هُوَ سُكَّرُ أَهْلِ الْغَفْلَةِ ، وَسُكَّرٌ هُوَ سُكَّرُ أَهْلِ الْوَصْلَةِ (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾

المجادلة لله — مع أعداء الحق وجاحدى الدين — من موجبات القرية ، والمجادلة في الله ، والمماراة مع أوليائه ، والإصرار على الباطل بعد ظهور الدلائل من أمارات الشقوة ، وما كان بوساوس الشيطان ونزغاته فقصاراه النار .

قوله جل ذكره : ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾

مَنْ وَافَقَ الشَّيْطَانَ بِمُتَابَعَةِ دَوَاعِيهِ لَا يَهْدِيهِ إِلَّا إِلَى الضَّلَالِ ، ثُمَّ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ يَتَبَرَأُ مِنْ مُوَافَقَتِهِ ، وَيَلْعَنُ جَهْلَهُ مُتَّبِعِهِ . فنعوذ بالله من الشيطان ونزغاته ، ومن درك الشقاء وشؤم مفاجآته .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً . . . ﴾

(١) حديث القشيري في (السكر) هنا مفيد عند دراسة هذا المصطلح .

التبس عليهم جواز (بعثه الخلق) (١) واستبعدوه غاية الاستبعاد ، فلم ينكر الحق عليهم إلا بإعراضهم عن تأمل البرهان ، واحتج عليهم في ذلك بما قطع حججهم ، فمن تبع هداية رشيد ، ومن أصر على غييه تركه في مهواة هلاكه .

واحتج عليهم في جواز البعث بما أقروا به في الابتداء أن الله خلقهم وأنه ينقلهم من حال إلى حال أخرى ؛ فبدأهم من نقطة إلى علقة ومنها ومنها . . . إلى أن نقلهم من حال شبابهم إلى زمان شبهم ، ومن ذلك الزمان إلى حين وفاتهم .

واحتج أيضاً عليهم بما أشهدهم كيف أنه يحيي الأرض — في حال الربيع — بعد موتها ، فنعود إلى ما كانت عليه في الربيع من الخضرة والحياة . والذي يقدر على هذه الأشياء يقدر على خلق الحياة في الرمة البالية والمظام النخرة .

قوله : « ومنكم من يرد إلى أرذل العمر » : زمان الفترة بعد المجاهدة ، وحال الحجة عقب المشاهدة .

ويقال أرذل العمر السعي للحفظ بعد القيام بالحقوق .

ويقال أرذل العمر الزلة في زمان للشيب .

ويقال أرذل العمر الإقامة في منازل العصيان .

ويقال أرذل العمر التعريج في (أوطان) (٢) المذلة .

ويقال أرذل العمر العشرة مع الأضداد .

ويقال أرذل العمر (عيش) (٣) المرء بحيث لا يعرف قدره .

ويقال أرذل العمر بأن يوصل إلى نفسه .

ويقال أرذل العمر التطوح في أودية الحساب أن شيئاً بغير الله .

ويقال أرذل العمر الإخلاد إلى تدبير النفس ، والعنى عن شهود تقدير الحق .

(١) هكذا في م أما في س فهي (بعثهم الحق) ورجح الأولى إذ الذي استبعدوه أن يبعث الله واحداً من الخلق .

(٢) هكذا في م وهي غير موجودة في س .

(٣) في م (عيش) المرء ولي س (حبس) المرء . وقد رجحنا (عيش) على معنى أن الله يمنحه من العمر ما لا يكون خلاله تقدير من الخلق له .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّسُ
الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

الله هو الحق ، والحق المطلق الوجود^(١) ، وهو الحق أى ذو الحق .
« وَأَنَّهُ يُخَيِّسُ الْمَوْتَى » أى الأرض التى أصابها وَحْشَةُ الشَّاءِ^(٢) بِحَيِّهَا وَقْتَ الرَّبِيعِ .
ويقال يُخَيِّسُ النَّفْسَ بِتَوْفِيقِ الْعِبَادَاتِ ، وَيُخَيِّسُ الْقُلُوبَ بِأَنْوَارِ الْمَشَاهِدَاتِ .
ويقال يُخَيِّسُ أَحْوَالَ الْمُرِيدِينَ بِحَسَنِ إِقْبَالِهِ عَلَيْهِمْ .

ويقال حياة الأوقات بموافقة الأمر ، ثم بِجَمِيلِ الرِّضَا وَسُكُونِ الْجَأَشِ عِنْدَ جَرَيَانِ التَّقْدِيرِ .
قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ
عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾

دليل الخطاب يقتضى حواز المجادلة فى الله إذا كان صاحب المجادلة على علم بالدليل والحجة
ليستطيع المناضلة عن دينه ، قال سبحانه لنبيه : « وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » وَمَنْ لَمْ يُحْسِنْ
مَذْهَبَ الْخُصْمِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَةِ لَمْ يُمْكِنْهُ الْإِنْفَصَالُ عَنْ شُبُهَتِهِ ، وَإِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ قُوَّةُ
الْإِنْفَصَالِ فَلَا يُسْتَحَبُّ لَهُ أَنْ يَجَادِلَ الْأَقْوِيَاءَ^(٣) مِنْهُمْ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى وَجُوبِ تَعَلُّمِ عِلْمِ
الْأَصُولِ^(٤) ، وَفِي هَذَا رَدٌّ عَلَى مَنْ جَعَلَ ذَلِكَ .

قوله جل ذكره ﴿ ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

(١) (الحق المطلق الوجود) هذه عبارة لم تصادفنا من قبل فى أى مصنف للشيرازى ، ونحن نعطيها
أهمية خاصة إذا تذكرنا أن هذا اصطلاح لأرباب وحدة الوجود ، فهم يعتبرون الوجود المطلق للحق
وما هذا بوجوده نفسى متكرر متعدد ، وهذا لا بأس به ، ولكن النتائج التى رتبوها عليه خطيرة . ويطن
أنها (الموجود) بدل (الوجود) بدليل ما سبق ذكره عند تفسير الآية « فتعالى الله الملك الحق »
من سورة طه وكنا قد أيدنا ذلك بما ذكره فى كتابه « التحبير فى التذكير » .
(٢) هكذا فى م ولكنها فى س (الشقاء) بالقياس ونحن نؤثر الأولى لأن المقصود المقالة بين الربيع
و (الشقاء) .

(٣) هكذا فى م ولكنها فى س (إلا قوماً) .

(٤) فى هذا وفيها بمدد رد على من يتهمون الصوفية بمخالفاتهم للعلم ، وعدم احترامهم للعقل ، كما أن فيه
رداً على قضية أنارها بعض المتكلمين حول وجوب أو عدم وجوب تعلم المسلم أصول التوحيد كى يصح
إيمانه ، ومدى ما يكون عليه إيمان العامة الذين لا تتاح لهم فرصة هذا التعلم .

له في الدنيا خزي ونُدَيْقُهُ يوم
القيامة عذاب الحريق ﴿

يريد أنه متكبر عن قبول الحق ، زاهد في التحصيل ، غير واضح نظره موضعه ؛
إذ لو فعل ذلك لكان عليه التخلص من شُبُهته .

ثم قال : « له في الدنيا خزي » أي مذلة وهوان ، وفي الآخرة عذاب الحريق .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ
فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِنْ
أَصَابَتْهُ فَتْنَةٌ أَعْلَبَ عَلَى وَجْهِ خَسِرَ
الدنيا والآخرة ذلك هو المفسران
المبين ﴿

يعنى يكون على جانبٍ ، غير مخلص . . . لاله استجابة توجب الوفاق ، ولا جَعْدًا يبين
الشقاق ؛ فَإِنْ أَصَابَهُ أَمْنٌ وَخَيْرٌ وَلِيْنٌ اطمأن به وسَكَنَ إليه ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فَتْنَةٌ أَوْ نَالَتْهُ مِحْنَةٌ
ارتدَّ على عقبيه ناكسا ، وصار لِمَا أَظْهَرَ مِنْ وفاقه عاكسا . وَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتُهُ فَقَدْ خَسِرَ
فِي الدارين ، وَأَخْفَقَ فِي الْمَتْرَلَتَيْنِ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَالًا يَضُرُّهُ
وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ
البعيد * يَدْعُو لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ
مَنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ
الْمَشِيرُ ﴿

أى يعبد مَنْ الْمَضَرَّةُ فِي عِبَادَتِهِ أَكْثَرُ مِنَ النَّفْعِ . منه ، بل ليس في عبادته النفع بحال ،
فَالضَّرُّ الْمُسَيِّقُنُ فِي عِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ هُوَ بَيَانُ رِكَازَةِ عَقُولِهِمْ ، وَرُؤْيَا النَّاسِ خَطَأَ فِعْلِهِمْ .
، النفع الذي يتوهمونه في هذه العبادة ليس له تحصيل ولا حقيقة .

ثم قال : « لبس المولى ولبس العشير » : أى لبس الناصر الصنم لهم ، ولبس القوم هم للصنم ، ولم لا . ؟ ولأجله دعوا في عقوبة الأبد .

قوله جل ذكره ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾

« الذين آمنوا » : أى صدّقوا ثم حققوا ؛ فالإيمان ظاهره التصديق وباطنه التحقيق ، ولا يصل العبد إليهما إلا بالتوفيق .

ويقال الإيمان (انتسام)^(١) الحق في السر .

ويقال الإيمان ما يوجب الأمان ، ففي الحال يجب الإيمان وفي المال يوجب الأمان ، فمُعَجَّلُ الإيمان من (. . .)^(٢) المسلمين ، ومؤجَلُهُ الخلاص من صحبة الكافرين الفاسقين .

وقوله : « وعملوا الصالحات » : العمل الصالح ما يصلح للقبول ، ويصلح للثواب ، وهو أن يكون على الوجه الذى تعلق به الإيمان .

والجنان التى يدخل المؤمنون فيها مؤجلة ومعلقة ؛ فالمؤجلة ثواب وتوبة ، والمعلقة أحوال وقربة ، قال تعالى : « وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ »^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمِذْذْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ ﴾

أى أن الحق — سبحانه — يرغم أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن لم تطب

(١) فى م (لبس) وفى ص (انتسام) ، ونحن نفضل هذه على تلك على أنها صيغة (انفعال) من (تلسم) فلا العلم أو الخبر أى تلتف فى التماسه حتى تبيته وتبعه .

(٢) فى م (سيف) وفى ص (سلف) ونحن نؤثر الأولى إذ أن الذى يؤمن يأمن — فى الحال — من بطش المسلمين الذين أمروا بقتال أعدائهم جهاداً فى سبيل إعلاء كلمة الإيمان .

(٣) آية ٤٦ سورة الرحمن .

نفسه بشهود تخصيص الله سبحانه بما أفرد به فليقتل نفسه من الغيظ خنقاً ، ثم لا ينفعه ذلك ، كما قيل :

إن كنت لا ترضى بما قد ترى فدوئك الحبل به فأنق

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك أنزلناه آياتٍ بيناتٍ وأن الله يهدي من يريد ﴾

« آيات بينات » : أى دلالات وعلامات نصّبها الحق سبحانه لعباده ، فمن الآيات ماهوقضية العقل ، ومنها ماهوقضية الخبر والنقل ، ومنها ماهو تعريفات فى أوقات المعاملات (١) فما يجده العبد فى حالاته من انغلاق ، واشتداد قبض ، وحصول خسران ، ووجوه امتحان . . لا شك ولا مرية إذا أخل بواجب أو ألت بمحذور (٢) . أو تكون زيادة بسط أو حلاوة طاعة ، أو تسير عسير من الأمور ، أو تجدد إنعام عند حصول شىء من طاعاته .
ثم قد يكون آيات فى الأسرار ، هى خطاب الحق ومحادثة معه ، كما فى الخبر :
« لقد كان فى الأمم محدثون فإن يك فى أمى فعر » (٣)
ثم يقال الآيات ظاهرة ، والحجج زاهرة ، ولكن الشأن فىمن يستبصر .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شىء شهيد ﴾

أصناف الناس على اختلاف مراتبهم : الولي والعدو ، والموحد والجاحد يجمعون يوم الحشر ، ثم الحق - سبحانه - يعامل كل بما وعدّه ؛ إما بوصول بلامدى ، أو بأحوال

(١) يمكن القول إن هذه هى المصادر الأساسية لما أطلقنا عليه من قبل (أصول الفقه الصوفي) ومنها يتضح اهتمام التشيرى بالعقل ثم النقل ثم ما يحصل من العرفان نتيجة المجاهدات .
(٢) فإن الاتم ما حاك فى صدرك . . كما قال المصطفى صلوات الله عليه وسلامه .
(٣) وهى التى يطلق عليها التشيرى (الفراسة) انظر الرسالة ص ١١٥ وما بعدها .

بلا منتهى . الوقت واحد ؛ وكل واحد لما أُعِدَّ له وافد ، وعلى ما خُلِقَ له وارد ..

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ

فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ

وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ

وَالْدَوَابُّ كَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ

حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ

مِنْ مُّكْرَمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾

أهل العرفان يسجدون له سجودَ عبادة ، وأربابُ الجحود كُلُّ جزءٍ منهم يسجد له سجودَ

دلالة وشهادة .

وفي كل شيء له آيةٌ تدلُّ على أنه واحدٌ

قوله جل ذكره : ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمَا فِي رَبِّهِمْ

فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ

نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾

أما الذين كفروا فلهم اليوم لباسُ الشرِّ وطِرازُه الحرمان ، ثم صدار الإفك وطرازُه

الخذلان . وفي الآخرة لباسهم القطران وطرازُه المجران ، قال تعالى : « اخسئوا فيها

ولا تكلمون » .

أما أصحابُ الإيمانِ فلباسُهم اليومَ التقوى ، وتنقسم إلى اجتناب الشرِّ ثم مجانبة

المخالفة ، ثم مباينة الغفلة ، ثم مجانبة السكون إلى غير الله والاستبشار إلى ماسوى الله .

وفي الآخرة لباسُهم فيها حريرٌ ، وآخرون لباسهم صدار المحبة ، وآخرون لباسهم الانفراد به ،

وآخرون هم أصحاب التجريد ؛ فلا حال ولا مقام ولا منزلة ولا محل وهم الغُرَبَاءُ (١) ، وهم

الطبقة العليا ، وهم أحرار من رِقِّ كل مالِحِقِه التكوين .

(١) يقول ابن الجلاء في تعريف الصوى : فقير محرد عن الأسباب ، كان مع الله بلا مكان . ولا يمتدُّ

الحق — سبحانه — من علم كل مكان (الرسالة ص ١١٠) ويقول الحصري : « الصوى لا تفلح أرمس

ولا تطله سماء » الرسالة (الصفحة ذاتها) .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ
ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾

التحلية بمحصنين لهم ، ومثراً لأحوالهم ؛ فهم للجنة زينة ، وليس لهم بالجنة زينة :

وَإِذَا الدَّرُّ زَانَ حُسْنَ وَجُوهٍ كَانَ لِلدَّرِّ حُسْنٌ وَجْهَكَ زَيْنًا

قوله جل ذكره : ﴿ وَهَدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ
وَهَدُّوا إِلَى صِرَاطٍ مُبِينٍ ﴾

الطيبُ من القول ما صدرَ عن قلبٍ خالٍ ، وسِرٍّ صافٍ (مما برضى به علم التوحيد ،
فهو الذى لا اعتراض عليه للأصول) (١)

ويقال الطيب من القول ما يكون وعظماً للمسترشدين ، ويقال الطيب من القول هو
إرشاد المريدين إلى الله .

ويقال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ويقال الدعاء للمسلمين .

ويقال كلمة حقٍ عند من يُخَافُ وَيُرْجَى (٢) .

ويقال الشهادتان عن قلبٍ مخلص .

ويقال ما كان قائله فيه مغفوراً (٣) وهو مُسْتَنْطَقٌ .

(١) هكذا في م ولا فرق بين العبارة في م ، م إلا أنها جاءت في الأخيرة (مما رضى به . . .)
والمقصود أن أقوال أرباب القلوب ينبغي ألا تتعارض مع أقوال أرباب أصول التوحيد؛ لأن الحقيقة لا تعارض
الشريعة في شيء . فالضمير (فهو) يعود على الطيب من القول الصادر من القلب الخالص والسر الصافي .
(٢) أى عند صاحب سلطان ، وقد عرف الصوفية بشجاعتهم الرائعة في مواجهة أصحاب الأمر والنهي
من الحكام وغيرهم .

(٣) هكذا في م أما في م فهي (مفقوداً) وعلى الأول يكون المعنى أن قوله مسحوح به — ظاهرياً —
حيث لا يستلزم في الباطن ، وعلى الثاني : أى يكون قائله في حال الفقد فهو لا ينطق بنفسه بل بآله .

ويقال هو بيان الاستغفار والعبد يرى من الذنوب .

ويقال الإقرار بقوله : « ربنا ظلمنا أنفسنا » (١) .

ويقال أن تدعو للمسلمين بما لا يكون لك فيه نصيب .

وأما « صراط الحميد » : فالإضافة فيه كالإضافة عند قولهم : مسجد الجامع (أى المسجد الجامع) والصراط الحميد : الطريق المرضى وهو ما شهدت له الشريعة بالصحة ، وليس للحقيقة عليه نكير .

ويقال الصراط الحميد : ما كان طريق الاتباع دون الابتداع .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ

سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي
جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ
وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْهَادِي بِظُلْمٍ
نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ۝ .

الصد عن المسجد الحرام بإخافة السبل ، ويفضّب المال الذى لوبقى فى يد صاحبه لوصل به إلى المسجد الحرام .

قوله : « سواء العاكف فيه والبادى » (٢) وإنما يعتبر فيه السبق والتقدم .

ومشهد الكرام يستوى فيه الإقدام ، فمن وصل إلى تلك العقوة فلا ترتيب ولا رد ، وبعد الوصول فلا زجر ولا صد ، أما فى الطريق فرما يعتبر التقدم والتأخر ، قال تعالى : « ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين » (٣) ولكن فى الوصول فلا تفاوت ولا تباین ، ثم إذا اجتمعت النفوس فلوضع الواحد بمجمعهم ، ولكن لكل حال ينفردها .

(١) آية ٢٣ سورة الأعراف .

(٢) البادى = غير المقيم .

(٣) آية ٢٤ سورة الحجر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ
الَّذِي تَشْرِكُ بِى شَيْئًا وَطَهَّرْ بَيْتِي
لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ
السُّجُودِ ﴾ .

أصلحنا له مكان البيت ومسكنه منه ، وأرشدناه له ، وهديناه إليه ، وأعناؤه عليه ،
وذلك أنه رفع البيت إلى السماء الرابعة فى زمن طوفان نوح عليه السلام ، ثم أمر إبراهيم
عليه السلام ببناء البيت على أساسه القديم . قوله « ألا تشرك بى شيئاً » ، أى لا تلاحظ
البيت ولا بناءك له .

« وطهر بيتى . . » يعنى الكعبة - وذلك على لسان العلم ، وعلى بيان الإشارة فرغ
قلبك عن الأشياء كلها سوى ذكره - سبحانه .

وفى بعض الكتب : « أوحى الله إلى بعض الأنبياء فرغ لى بيتاً أسكنه ، فقال ذلك
الرسول : إلهى . . أى بيت تشغل ؟ فأوحى الله إليه : ذلك قلب عبدى المؤمن » . والمراد
منه ذكر الله تعالى ؛ فالإشارة فيه أن يفرغ قلبه لذكر الله . وتفرغ القلب على أقسام :
أوله من الغفلة ثم من توهم شىء من الحدثنان من غير الله .

ويقال قد تكون المطالبة على قوم بصون القلب عن ملاحظة العمل ، وتكون المطالبة
على الآخرين بحراسة القلب عن المساكنة إلى الأحوال .

ويقال « وطهر بيتى » : أى قلبك عن التطمع والاختيار ؛ ألا يكون لك عند الله حظ
فى الدنيا أو فى الآخرة حتى تكون عبداً له بكامل قيامك بحقائق العبودية .

« ويقال طهر بيتى » : أى بإخراج كل نصيب لك فى الدنيا والآخرة من تطمع إكرام ،
أو تطلب إنعام ، أو إرادة مقام ، أو سبب من الاختيار والاستقبال .

ويقال طهر قلبك للطائفين فيه من موارد الأحوال على ما يختاره الحق . « والقائمين »
وهى الأشياء المقيمة من مستودعات (١) العرفان فى القلب من الأمور المغشية عن البرهان ،

(١) مكتباتى ، أمالى من فهى (مستوطنات) .

ويتعلم بما هو حقائق البيان التي هي كاليان كما في الخبر : « كأنك تراه » . (١)
« والركع السجود » : هي أركان الأحوال المتوالية من الرغبة والرغبة ، والرجاء والخافة
والقبض والبسط ، وفي معناه أشدوا :

لست من جملة المهين إن لم أجعل القلب بيتَه والمقام
وطوافي إجماله السرُّ فيه وهو ركني إذا أردتُ استلاما

قوله : « لا تشرك بي شيئا » : لا تلاحظ البيت ولا بناءك (٢) للبيت .
ويقال هو شهود البيت دون الاستغراق في شهود ربه البيت .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا
وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ
فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾

أذن إبراهيم - عليه السلام - بالحج ونادى ، وأسمع الله نداءه جميع الذرية في أصلاب
آبائهم ، فاستجاب من المعلوم من حاله أنه يحج .
وقدَّم الرجال على الركبان لأنَّ الحمل على المركوب أكثر (٣) .

ولتلك الجمال على الجمال خصوصية لأنها مركب الأحاب ، وفي قريب من معناه أشدوا :
وإنَّ جمالاً قد علاها جمالكُم — وإن قطعت أكبادنا — لحباب

ويقال « يأتين من كل فج عميق » هذا على وجه المدح وسبيل الشكر منهم .
وكم قدر مسافة الدنيا بجملة لها ؟ ولكن لأجل قدر أفعالهم وتعظيم صنيعهم يقول ذلك
إظهاراً لفضله وكرمه .

(١) إشارة إلى الحديث (أعبد الله كأنك تراه وعد نفسك من الموتى) .
الطبراني عن أبي الدرداء ، وحسن السيوطي سننه ، ورواه البيهقي عن معاذ . ولى الحلية (أعبد الله
كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك . . .) .

(٢) هكذا في م أما في ص فقد وردت (ولا تبال) ونحن نرجح ما جاء في م .

(٣) فتقديم الرجال فيه تخصيص نظراً لما يبذلونه من جهد أكبر .

قوله جل ذكره : ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ .

أرباب الأموال منافعهم أموالهم ، وأرباب الأعمال منافعهم حلاوة طاعتهم ، وللمصحاب الأحوال منافعهم صفاء أنفاسهم ، وأهل التوحيد منافعهم رضاهم باختيار الحق ما يبدو من الغيب لهم .

قوله جل ذكره : ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾^(١)

على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴿

لأقوام عند التقرب بقرايئهم وسوق هديهم^(٢) . وآخرون يذكرون اسمه عند ذبيحتهم أمانتهم واختيارهم بسكاكين اليأس . . حتى يقوموا بالله لله بمحور ما سوى الله .

قوله جل ذكره : ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْبَائِسَ

الفقير﴾ .

شَارِكُوا الْفُقَرَاءَ فِي الْأَكْلِ مِنْ ذَبِيحَتِكُمْ — الذي ليس بواجب — لتلحقكم بركات الفقراء . والإشارة فيه أن ينزلوا^(٣) ساحة الخضوع والتواضع ، ومجانبة الزهو والتكبر .

قوله جل ذكره : ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾

ليقضوا حوائجهم وليحققوا عهودهم ، وليوفوا نذورهم فيما عقدوه مع الله بقلوبهم ، فمن كان عقده التوبة فوفاءه ألا يرجع إلى العصيان . ومن كان عهده اعتناق الطاعة فشرط وفائه ترك قصيره . ومن كان عهده ألا يرجع إلى طلب مقام وتطلع لإكرام فوفاءه استقامته على الجملة في هذا الطريق ألا يرجع إلى استعجال نصيب واقتضاء حظ .

قوله جل ذكره : ﴿وَلْيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾

الإشارة في الطواف إلى أنه يطوف بنفسه حول البيت ، وبقلبه في ملكوت السماء ، وبسيره في ساحات الملكوت .

(١) أبو حنيفة : هي عشر ذي الحجة وآخرها يوم النحر . وأكثر المفسرين : هي أيام النحر .

(٢) الهدى = ما يهدي إلى الحرم من النعم ، قال تعالى : « وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ » .

(٣) هكذا في م وفي س (يتركوا) وربما كانت في الأصل ألا يتركوا فهكذا يقتضى السياق .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكُمْ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾

تعظيم الحرمات (١) بتعظيم أمره ؛ وتعظيم أمره بترك مخالفته .
ويقال من طلب الرضا بغير رضى الله لم يبارك له فيما آثره من هواه على رضى مولاه ،
ولا محالة سيلقى سريماً غيباً (٢) .

ويقال تعظيم حرمانه بالغيرة على إيمانه (وما فجرَ صاحبُ حرمةٍ قط (٣)) .
ويقال ترك الخدمة يوجب العقوبة ، وترك الحرمة يوجب الفُرقة .
ويقال كلُّ شيءٍ من المخالفات فللعفو فيه مسامح وللأمل إليه طريق ، وترك الحرمة على
خطرٍ ألا يُغْفَرَ . . . وذلك بأن يؤدى ثبوته بصاحبه إلى أن يختل دينه وتوحيده . /

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَحِلَّتْ لَكُمْ الْبَاقِيَ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ ﴾ عليكم .

فالتخفيف من جملة المحرمات ، وكذلك النطبعة والموقوذة ، وما يجيء تفصيله
فى نصِّ الشرع .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ .

« من » ها هنا للجنس لا للتبعض ، وهوى كل من اتبعه معبوده ، وصنم كل أحدٍ نفسه .
« واجتنبوا قول الزور » : ومن جملة ذلك قول اللسان بما لا يساعده قول القلب
ونطقه ، ومن عاهد الله بقلبه ثم لا يفي بذلك فهو من جملة قول الزور .

قوله جل ذكره : ﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ ومن

(١) هكذا فى م ولى س (الجهات) وزجج الأول حيث وردت فى الآية .

(٢) هكذا فى م ولى س (نجبه) وزجج (هـ) بمعنى عاقبته .

(٣) هكذا فى م ولى س (وما فجر صاحب ظلمة لفظ) والعبارة الأولى أقرب إلى المعنى .

يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَكَاثِمًا خَرًّا مِنْ
السَّمَاءِ فَتَخْطَفُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ
الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿١﴾ .

الخنيف المائلُ إلى الحق من الباطل في القلب والنفس ، في الجهر وفي السر ،
في الأفعال وفي الأحوال وفي الأقوال

« غير مشركين به » : الشُّركُ جَلِيٌّ وَخَفِيٌّ (١) .

قوله « ومن يشرك بالله فكاثمٌ ... » كيف لا .. وهو يهوى في جهنم وتنجاه به ملائكة
العذاب ؟ أو تهوى به الريح من مكان سحيق .. وكذلك غداً في صفة قوم يقول الله تعالى :
« لسوا الله فأنسبهم » (٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا
مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ .

يقف المؤمنُ على تعيين شعائر الله وتفصيلها بشهادة العلم جهراً ، وبخواطر الإلهام سرّاً .
وكما لا يجوز مخالفة شهادة الشرع لا يجوز مخالفة شهادة خواطر الحق فإنَّ خاطر الحق لا يكذبُ ،
وعزيزٌ مَنْ له عليه وقوف . وكما أنَّ النفسَ لا تصدق فالقلب لا يكذب ، وإذا خولف
القلبُ عَمِيَ في المستقبل ، وانقطعت عنه تعريفات الحقيقة ، والعبارة (٣) والشرح يتقاصران
عن ذكر هذا على التبيين والتفسير . ويقوى القلبُ بتحقيق المنازلة ؛ فإذا خرست النفوسُ ،
وزالت هواجسها ، فالقلوبُ تنطق بما تُكاشفُ به من الأمور .

ومن الفرق بين ما يكون طريقه العلم وما طريقه من الحق أن الذي طريقه العلم يعلم
صاحبه أولاً ثم يعمل مختاراً ، وما كان من الحق يجري ويحصل ثم بعده يعلم مَنْ جرى عليه

(١) الشرك الجلي معروف أما الشرك الخفي فهو أن ينازعه منازع في قلبك من هوى أو حظ أو علاقة
تنأى بك عنه .

(٢) آية ٦٧ سورة التوبة .

(٣) في م و س (والعبادة) وقد رأينا أن تكون (العبارة) بإزاء أى أن التعبير عن ذلك بالسكلام
والشرح قاصر

ذلك معناه ، ولا يكون الذي يجزى عليه ما يجزى مضطراً إلى ما يجزى . وليس يمكن أن يقال إنه ليس له اختيار^(١) ، بل يكون مختاراً ولكن سببه عليه مشكل ، والعجب من هذا أن العبارة عنه كالبعيد .

قوله جل ذكره : ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾
ثم محلها إلى البيت العتيق ﴿ ٥ ﴾ .

لكل من تلك الجملة منفعة بقدره وحده^(٢) ؛ فلا قوام بركات في دفع البلاء عن نفوسهم وعن أموالهم ، ولآخرين في لذات بسطهم ، ولآخرين في حلاوة طاعتهم ، ولآخرين في أنس أنفاسهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا ﴾
اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴿ ٦ ﴾ .

الشرائع مختلفة فيما كان من المعاملات ، متفقة فيما كان من جملة المعارف ، ثم هم فيها مختلفون : فقوم هم أصحاب التضعيف^(٣) فيما أوجب عليهم وجعل لهم ، وقوم هم أصحاب التخفيف فيما ألزموا وفيما وعد لهم . قوله « لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى . . » وذكر اسم الله على ما رزقهم على أقسام : منها معرفتهم بإنعام الله بذلك عليهم . . . وذلك من حيث الشكر ، ثم يذكرون اسمه على ما رزقهم لمعرفة أنه هو الذي يتقبل منهم وهو الذي يثيبهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ﴾
وبشر المخبتين ﴿ ٧ ﴾ .

أَي اسْتَسْلَمُوا لِحُكْمِهِ بِلَا تَعْيِيسٍ وَلَا اسْتِكْرَاهٍ مِنْ دَاخِلِ الْقَلْبِ .

—————

(١) هذه وجهة نظر باحث صوفي فيما يشغل المتكلمين عن الجبر والاختيار .

(٢) أي بحسب ماله من قدر وهمة ، وما هو واقف عنده من حد ورتبة .

(٣) أصحاب التضعيف أي أصحاب القسود الذين يأبون اتباع الرخص ، لأن الرخص لا تكون إلا لأرباب الحوائج والأشغال وهؤلاء لا حاجة ولا شغل لهم إلا بالحق .

والإسلام^(١) يكون بمعنى الإخلاص ، والإخلاص تصفية الأعمال من الآفات ، ثم تصفية الأخلاق من السكودرات ، ثم تصفية الأحوال ، ثم تصفية الأنفس . « وبشرُ المحبين » : الإخبات استدامة الطاعة بشرط الاستقامة بقدر الاستطاعة . ومن أمارات الإخبات كمالُ الخضوع بشرط دوام الخشوع ، وذلك بإطراق السريرة .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ .

الوجلُّ الخوفُ من المخافة ، والوجلُّ عند الذكر على أقسام : إما خوف عقوبة ستحصل أو لمخافة عاقبة بالسوء تنجم ، أو لخروج من الدنيا على غفلة من غير استعدادٍ للموت ، أو لإصلاح أئمة ، أو حياء من الله سبحانه في أمورٍ إذا ذكرَ اطلاعه — سبحانه — عليها لما بدرت منه تلك الأمور التي هي غير محبوبة .

ويقال الوجَلُّ على حسب تجلّى الحق للقلب ؛ فإن القلوب في حال المطالعة والتجلى تكون بوصف الوجل والهيبة .

ويقال وجَلُّ له سبب ووجل بلا سبب ؛ فالأول مخافة من تقصير ، والثاني معدود في جملة الهيبة^(٢) .

ويقال الوجَلُّ خوفُ المكْر والاستدراج ، وأقربهم من الله قلباً أكثرهم من الله — على هذا الوجه — خوفاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ ﴾ .

أى خامدين تحت جريان الحكم من غير استكراه ولا نَمَى خَرْجَةٍ ، ولا رَوْمَ فَرْجَةٍ بل يستسلم طوعاً :

(١) مكذافي م وليكنها في ص (السلام) والصواب الأولى في الآية (أسدوا) .
(٢) فالخوف إذن أدنى منزلة من الهيبة ، والترتيب هكذا : الخوف والرجاء ثم القبض والبسط ثم الهيبة والأنس (الرسالة ص ٣٥ و ص ٣٦) .

ويقال الصابرين على ما أصابهم . أى الحافظين معه أسرارهم ، لا يطلبون السلوة باطلاع الخلق^(١) على أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ والمقيى الصلاة ﴾ .

أى إذا اشتدت بهم البلوى فزهوا إلى الوقوف فى محل النجوى :
إذا ما تمنى الناس رَوْحاً وراحةً تمنيتُ أن أشكو إليك فتسماً
قوله جل ذكره : ﴿ وممارز قنّام يُنفقون ﴾

عند المعاملة من أموالهم ، وفى قضايا المنازلة بالاستسلام ، وتسليم النفس وكل ما منك وبك لطوارق التقدير ، فينفقون أبدانهم على تحمل مطالبات الشريعة ، وينفقون قلوبهم على التسليم والخود تحت جريان الأحكام بمطالبات الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ والبذنّ جمّلناها لكم من شعائر
الله لكم فيها خيرٌ فاذكروا اسم الله
عليها صوّاف فإذا وجبت جنوبها
فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتّر
كذلك سخرناها لكم لعلكم
تشكرون ﴾

أقسام الخير فيها كثيرة بالركوب والحمل عليها (وشرب ألبانها وأكل لحومها والانتفاع بوبرها ثم الاعتبار بخلقيتها كيف سُخِّرَتْ للناس على قوتها وصورتها ، ثم كيف تنقاد للصبيان فى البروك عند الحمل عليها وركوبها والنزول منها ووضع الحمل عنها)^(٢) وصبرها على العطش فى الأسفار ، وعلى قليل العلف ، ثم ما فى طبيعتها من لطف الطبع ، وحيث تستريح بالخداء مع كثافة صورتها إلى غير ذلك .

(١) هكذا فى ص ولكنها فى م (باطلاق الحق) والصواب الأول لأنهم لا يفزعون للخلق طلباً للسلوة فيما يصيبهم من الحق وفى هذا حفظ لأسرارهم .
(٢) ما بين القوسين موجود فى م وساقط من ص .

« فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا » : أى سقطت على وجه الأرض فى حال النحر فاطعموا القانع الذى ألقى جلباب الحياء وأظهر فقره للناس ، والمُعْتَرُ الذى هو فى تحمله مُتَحَمِّلٌ ، ولمواضع فاقته كاتم .

قوله جل ذكره : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِشُكْرِ اللَّهِ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْحَسَنِينَ ﴾

لإِبرة بأعيان الأفعال سواء كانت بدنية محضة ، أو مالية صرفة ، أو بما له تعلق بالوجيب ، ولكن العبرة باقترانها بالإخلاص^(١) ، فإذا انضاف إلى أكساب الجوارح إخلاصُ القصد ، وتَجَرَّدَتْ عن ملاحظة أصحابها للأغيار صَلَحَتْ للقبول^(٢) .

ويقال التقوى شهودُ الحق بِنَفْسِ التفرُّد ؛ فلا يُشَابُ تَقَرُّبُكَ بملاحظة أحدٍ ، ولا تأخذ عَوْضاً على عملٍ من بشرٍ .

« لتكبروا الله على ما هداكم » : أى هداكم وأرشدكم إلى القيام بحق العبودية على قضية الشرع .

« وبشر المحسنين » : والإحسان كما فى الخبر : « أن تعبد الله كأنك تراه . . . » .
وأمانة صحبه ستوطُ التعب بالقلب عن صاحبه ، فلا يستقل شيئاً ، ولا يتبرم بشيء .
قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ اللَّهُ يُدَافِعْ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾

(١) يقال إن سبب زول هذه الآية أن أهل الجاهلية كانوا إذا نَحَرُوا الإبل نَضَحُوا الدماء - إل البيت ولطخوه بالدم ، فلما حج المسلمون أرادوا مثل ذلك فنزلت الآية .
(٢) يرى القشيري أن هذا جوهر العبادات جميعاً ، أن تكون خالصة لله ، وقد فصلنا ذلك عند بحثنا عن القشيري المفسر .
انظر كتابنا (الإمام القشيري ومذهبه فى التصوف) ط مؤسسة الحلبي .

يدفع عن صدورهم نزغات الشيطان ، وعن قلوبهم خطرات العصيان ، وعن أرواحهم طوارق النسيان .

والخيانة على أقسام : خيانة في الأموال تفصيلها في المسائل الشرعية ، وخيانة في الأعمال ، وخيانة في الأحوال ؛ خيانة الأعمال بالرياء والتصنع ، وخيانة الأحوال بالملاحظة والإعجاب والمساكنة ، وشرها الإعجاب ، ثم المساكنة وأخفاها الملاحظة^(١) .

ويقال خيانة الزاهدين عزوفهم عن الدنيا (على)^(٢) طلب الأهواض ليجدوا في الآخرة حُسْنَ الْمَالِ . . وهذا إخلاص الصالحين . ولكنه عند خواص الزهاد خيانة ؛ لأنهم تركوا دنياهم لا لله ولكن لوجود العوض على تركهم ذلك من قبل الله .

وخيانة العابدين أن يدعوا شهواتهم ثم يرجعون إلى الرخص ، فلو صدقوا في مرام كما المحطون إلى الرخص بعد ترقبهم عنها .

وخيانة العارفين جنوحهم إلى وجود مقام ، وتطلعهم لمنال منزلة وإكرام من الحق ونوع تقريب .

وخيانة المحبين روم فرجة^(٣) مما يمسه من برحاء المواجيد ، وابتغاء خرجة مما يشتد عليهم^(٤) من استيلاء صدد ، أو غلبات شوق ، أو تهادى أيام هجر .

وخيانة أرباب التوحيد أن يتحرك لهم للاختيار عرق ، ورجوعهم — بعد امتحانهم عنهم — إلى شظية من أحكام الفرق ، اللهم إلا أن يكون ذلك منهم بجوداً ، وهم عنه مفقودون^(٥) .

(١) نلفت النظر إلى أهمية ذلك عند دراسة المصطلح الصولي ، خاصة وأن القشيري لم يتكلم عن ذلك في رسالته .

(٢) (على) طلب الأهواض منهاها لأجل طلب الأهواض .

(٣) (روم) في ص و (روح) في م ، ونظن أنها (فرجة) بالجيم كما سبق منذ قليل حين استعمل القشيري (فرجة ، وخرجة) في سياق مماثل .

(٤) هكذا في م وهي في ص مما (يشق عليهم) وكلامها مقبول في السياق .

(٥) معنى هذا أن القشيري يسلم بأنه قد يحدث من العبد الواله ما ينبغي أن يندو فيه ، لأن صحح صدقه في التوجه ، واشتد وقع الحو عليه .

قوله جل ذكره : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأْنِهِمْ ظُلُمُوا
وإنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ .

إذا أصابهم ضرٌّ أو مسَّهم — ما هو في الظاهر — ذُلٌّ من الأعداء يجرى عليهم
ضَمٌّ ، أو يلحقهم من الأجانب استيلاء وظلمٌ . . فالحقُّ — سبحانه — ينتقم من أعدائهم
لأجلهم ، فهم بنعت التسليم والسكون في أغلب الأحوال ، وتفصيل الأقدار جارية
باستئصال مَنْ يناوئهم ، وبإحالة الدائرة على أعاديهم . وفي بعض الأحيان ينصبهم الحقُّ سبحانه
بنعت الثَّغْبَةِ والتمكين من نزولهم بساحات مَنْ يناوئهم بحُسْنِ الظَّفَر ، وتتمام حصول
الدائرة على مَنْ ناصبهم ، وأخزاهم بأيديهم ، وكلُّ ذلك يتفق ، وأنواع النصر من الله
— سبحانه — حاصلة ، والله — في الجملة — غالبٌ على أمره .

قوله جل ذكره : ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بغيرِ حقٍّ
إِلَّا أَنْ يَتَوَلَّوْا رَبُّنَا اللَّهُ﴾

المظلومُ منصورٌ ولو بعد حين ، ودولة الحق تغلب دولة الباطل ، والمظلومُ حميدٌ
العقبى ، والظالمُ وشيك الانتقام منه بشديد البلوى : « فذلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » (١) .
وقد يجرى من النَّفسِ وهواجسها على القلوب لبعض الأولياء وأهل القصة — ظلمٌ ،
ويحصلُ لِسُكَّانِ القلوب من الأحوال الصافية عنها جلاء ، وتستولى غَاغَةُ النَّفسِ ، فتعمل
في القلوب بالفساد بسبب استيطان الغفلة حتى تتداعى القلوب للخراب من (٢) طوارق الحقائق
وشوارق الأحوال ، كما قال قائلهم :

أُنِى إِلَيْكَ قُلُوبًا طَالَمَا هَظَلَّتْ سَحَابُ الْجُودِ فِيهَا أَبْحُرُ الْحَكَمِ

فَيَهْزِمُ الْحَقُّ — سبحانه — بجنود الإقبالِ أَرَاذِلَ الْهَوَاجِسِ ، وينصرُ عَسْكَرَ التَّحْقِيقِ
بَأَمْدَادِ الْكَشُوفَاتِ . وَيَتَجَدَّدُ دَارِسُ الْعَهْدِ ، وتطلُعُ شَمْسُ السَّعْدِ فِي لِيَالِ السَّيْرِ ،
وَتُكْنَسُ الْقُلُوبُ وتطهر من آثارِ ظُلْمَةِ النَّفْسِ ، كما قيل :

(١) آية ٥٢ سورة النمل .

(٢) (للخراب من طوارق الحقائق) أى بسبب خلوها من طوارق الحقائق

أطلالُ سعدى باللوى تتجددُ

إذا هبتْ على تلك القلوب رياحُ العناية ، وزال عنها وهج النسيان سقاها الله صوب^(١)
التجلى ، وأنبت فيها أزهارَ البسط فينضح فيها نهارُ الوصل ، ثم يوجد فيها نسيم القرب إلى
أن تطلع شمس التوحيد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ
لَّهُدِمَتِ صَوَامِعُ وَبِيعَ وَصَلَاتُ
وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ
كثيْرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ
إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

يتجاوز عن الأصغر لِقَدْرِ الأكابر ، ويعفو عن العوام لاحترام الكرام .. وتلك
سُنَّةُ أجراها الله لاستنقاء^(٢) منازل العبادة ، واستصفاء مناهل العرفان . ولا تحويل لِسُنَّتِهِ ،
ولا تبديل لكریم عاداته .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَانُكُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا
الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا
بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ
عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ .

إذا طالت بهم المدة ، وساعدتهم العمرُ لم يستفرغوا أعمالهم في استجلاب حظوظهم ،
ولا في اقتناء محبوبهم من الدنيا أو مطلوبهم ، ولكن قاموا بأداء حقوقنا .

وقوله : « أقاموا الصلاة » : في الظاهر ، واستداموا المواصلات في الباطن .

(١) الصوب = المطر بقدر ما ينفع ولا يؤذى (الوسيط) .

(٢) هكنا في م ولكنها في س (لاستيفاء) . وقد آثرنا (استنقاء) لملاءمتها (لاستصفاء) التي بعدها
ولا نستبعد أنها قد تكون (لاستبقاء) في الأصل على معنى : ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لما بقيت
منازل العبادة ؛ لأن الكافرين إذا انتصروا لم يتركوا معابد .

ويقال إقامة الصلاة الوفاء بأدائها ؛ فتعلم — بين يدي الله — مَنْ أَنْتَ ، وَمَنْ تَنَاجِي ،
وَمَنْ الرقيب عليك ، ومن القريب منك .

وقوله : « وآتوا الزكاة » : الأغنياء منهم يوفون بزكاة أموالهم ، وقراؤهم يؤنون
زكاة أحوالهم ؛ فزكاة الأموال عن كل مائتين خمسة للفقراء والباقي لهم ، وزكاة الأحوال أن
يكون من مائتي نفس تسعة وتسعون ونصف جزء ومائة لله ، ونصف جزء من نفس — من
المائتين — لك . . . وذلك أيضاً علة^(١)

قوله « وأمرُوا بالمعروف ونهوا عن المنكر » : يبتدئون في الأمر بالمعروف والنهي عن
للمنكر بأنفسهم ثم بأعيانهم ، فإذا أخذوا في ذلك لم ينصرفوا من أنفسهم إلى غيرهم .
ويقال « الأمر بالمعروف » حفظ الحواس عن مخالفة أمره ، ومراعاة الأنفاس معه
إجلالاً لِقَدْرِهِ .

ويقال الأمر بالمعروف على نفسك ، ثم إذا قرَّغت من ذلك تأخذ في نهيا عن المنكر
ومن وجوه المنكر الرياء والإعجاب والمساكنة والملاحظة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ
قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَنَمُودٌ * وَقَوْمُ
إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ
مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ
لِلْكَافِرِينَ تَمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ
كَانَ نَكِيرٌ ﴾ .

في الآيات تسلية للنبي — صلى الله عليه وسلم ، وأمرٌ حتمٌ عليه بالصبر على مقاساة
ما كان يلقاه من قومه من فنون البلاء وصنوف الأسواء^(٢) .

(١) لأنه ينبغي ألا تكون لك في نفسك بقية على الإطلاق ، ويجب أن تكون بكلينك للحق .
(٢) أسواء = جمع سوء .

قوله جل ذكره : ﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا
وَهُى ظَالِمَةٌ فَمِنْ ذَاتِهَا عَلَى
عُرُوشِهَا ﴾ .

الظلمُ يوجبُ خرابَ أوطانِ الظالم ، فتخرب أولاً أوطان راحة الظالم وهو قلبه ،
فالوحشةُ التي هي غالبَةٌ على الظلمَةِ من ضيقِ صدورهم ، وسوء أخلاقهم ، وفُرْطِ غيظِ مَنْ
يَظْلِمُونَ عليهم . كل ذلك من خراب أوطان راحاتهم ، وهو في الحقيقة من جملة العقوبات التي
تلحقهم على ظلمهم .

ويقال خرابُ منازلِ الظَّالِمَةِ ربما يتأخر وربما يتمجل . وخرابُ نفوسهم في تعطيلها عن
العبادات لِشُؤْمِ ظُلْمِهِمْ ، وخرابُ قلوبهم باستيلاء الغفلة عليهم خصوصاً في أوقات صلواتهم
وأوان خلواتهم . . نقد^(١) غير مستأخر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَبْرُءُ مُعْظَلَهُ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴾ .

الإشارة في « بَرَّءَ مُعْظَلَهُ » : إلى العيون المتفجرة التي كانت في بواطنهم ، وكانوا يستقون
منها ، وفي ذلك الاستقاء حياة أوقاتهم من غلبات الإرادة وقوة المواجهيد ، فإذا انصفوا
بظلمهم قَلَبَ غُشَاؤُهَا^(٢) وانقطع ماؤها بانسداد عيونها .

والإشارة في « قصر مشيد » إلى تعطيل أسرارهم عن ساكنيها من الهيبة والأنس ،
وخلو أرواحهم من أنوار المحاب ، وسلطان الاشتياق ، وصنوف المواجهيد .

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ
لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ
يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ
وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي
فِي الصُّدُورِ ﴾

(١) نقد (هنا معناها 'ممجّل' ، تقابل (وعد) في التّوَجُّل .

(٢) الغُشَاءُ = الفاسد من الماء ، المثلّ . يغايا الأشياء من وجه الأرض والرفوة القدرة .

كانت لم قلوب من حيث الخلقة ، فلما زابتها صفاتها المحودة صارت كأنها لم تكن في الحقيقة . ثم إنه أخيراً أنعمى على القلب وكذلك الصمم ، وإذا صحَّ وصف القلب بالسمع والبصر صحَّ وصفه بسائر صفات الحى من وجوه الإدراكات ؛ فكما تبصر القلوب بنور اليقين يدرك لسم الإقبال بمشام السر ، وفي الخبر :

« إني لأجد نفس ربكم من قبل العين » وقال تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام : « إني لأجد ريح يوسف »^(١) وما كان ذلك إلا بإدراك السرائر دون اشتغال ريح في الظاهر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّون ﴾ .

عَدَمُ تصديقهم تحلهم على استعمال ما توعدهم به ، قال تعالى : « يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها »^(٢) ولو آمنوا لصدقوا ، ولو صدقوا لآسكنوا . « وإن يوماً عند ربك كألف سنة » : أى إن الأيام عنده تنساوى ، إذ لا استعجال له في الأمور ؛ فسواء عنده يوم واحد وألف سنة ؛ إذ من لا يجزى عليه الزمان وهو يجزى الزمان فسواء عليه وجود الزمان ، وعدم الزمان وقلة الزمان وكثرة الزمان .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴾ :

الإمهال يكون من الله — سبحانه وتعالى ، والإمهال يكون بأن يدع الظالم في ظلمه حيناً ، ويوسع له الحبل^(٣) ، ويطيبل به المهمل ، فيتوهم أنه انفلت من قبضة التقدير ، وذلك ظنه الذى

(١) آية ٩٤ سورة يوسف .

(٢) آية ١٨ سورة الشورى .

(٣) هكذا في م ولكنها في ص (الحبل) بالياء جمع حيلة ، وربما تأيد هذه بقوله فيها بعد (وكيف يستبق بالحيلة ما سبق في التقدير هدمه) .

أرادَه ، ثم يأخذه من حيث لا يَرْتَقِب ، فيعلوه نَدَمٌ ، ولات حينه ، وكيف يستبق بالحيلة ما حق في التقدير عَدَمُهُ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ :

أشابهكم في الصورة ولكنى أبأينكم من حيث السريرة ، وأنا لمُحْسِنِكُمْ بِشِيرٍ ، وَلِئُسِينِكُمْ نَذِيرٌ ، وقد أَيْدْتُ بِإِقَامَةِ الْبَرَاهِينِ مَا جِئْتُمْ بِهِ مِنْ وَجْهِ الْأَمْرِ بِالطَّاعَةِ وَالْإِحْسَانِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ تَغْفِيرٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ .

الناس — في المغفرة — حل أقسام : فمنهم من يستر^(١) عليه زُلَّتُهُ ، ومنهم من يستر عليه أعماله الصالحة صيانةً له عن الملاحظة ، ومنهم من يستر حاله لثلاث تَصِيَبَةٍ مِنَ الشُّهْرَةِ فَتْنَةٍ^(٢) ، وفي معناه قالوا :

لَا تُفَكِّرَنَّ جُحْدِي هَوَاكَ فَإِنَّمَا ذَاكَ الْجُحُودُ عَلَيْكَ سِتْرٌ مُسْبَلٌ
ومنهم مَنْ يستره بين أوليائه ، لذلك وَرَدَ فِي الْكُتُبِ : « أوليائي في قبائي ، لا يشهد أوليائي غيري » .

« والرزق الكريم » ما يكون من وجه الحلال . ويقال ما يكون من حيث لا يَحْتَسِبُ الْعَبْدُ .

ويقال هو الذي يبدو — من غير ارتقابٍ — على رِفْقٍ في وقت الحاجة إليه .

ويقال هو ما يَحْتَمِلُ الْمَرْزُوقَ عَلَى صَرْفِهِ فِي وَجْهِ الْقُرْبَةِ . ويقال مافيه البركة .

ويقال الرزق الكريم الذي يُنَالُ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ^(٣) ، ولا يَتَقَلَّدُ مِنْهُ مَخْلُوقٌ .

(١) لأن كُفِّرَ معناها في اللغة سَتَرَ .

(٢) وهذه إحدى الأفكار التي لشط أصحاب الملامة في العمل بها ، وحث أتباعهم عليها .

(٣) (الذي ينال من غير تعب) هنا معناها من غير استعجال ، ومن غير بخلٍ عن التفويض والتوكل ، ومن غير اعتماد على مخلوق . ونحو ذلك مما قد يهدم صرح الاسلام الكادل للرازق الوهاب سبحانه .

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ .

في الحال في معجزة الوحش والسادأ أبواب الرشد ، وتنفس العيش ، والابتلاء بمن
لا يعطف عليه ممن لا يخافون الله .

وفي الآخرة ما سيلقون من ألم العقوبة على حسب الاجرام ..

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ
وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ
فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي
الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ .

الشياطين يتعرضون للأنبياء عليهم السلام ولكن لا سلطان ولا تأثير في أحوالهم منهم ،
ونبينا — صلى الله عليه وسلم — أفضل الجماعة .

ولما من الشيطان تخيل وتحويل (من التضييل) ^(١) . وكان لنبينا — صلى الله عليه
وسلم — سكّات في خلال قراءة القرآن عند اقتضاء الآيات ، فيتلفظ الشيطان ببعض
الألفاظ ^(٢) ، فمن لم يكن له تحصيل توهم أنه كان من ألفاظ الرسول — عليه الصلاة والسلام
وصار فتنة لقوم .

(١) هكذا في ص ولكن لم وردت هكذا (وليس به شيء من التضييل) ونحسب ان هذا أكثر
ملاءمة للسباق حسبما يتضح من الهامش التالي .

(٢) قيل كان الرسول صلوات الله عليه وسلامه يقرأ بين قومه سورة النجم حتى إذا وصل إلى (ومناة
الثالثة الأخرى) جرى على لسانه تلك الفرائيق العلى ، وإن شفاهتهن لترنجي « فنبه جبريل لما لم يفتن له ،
وحبث إن النبي معصوم من إجراء الشيطان عليه ، ومعصوم من الغفلة . ولأنه لا يُعقل أن يجري على
لسانه مدح للأصنام — فقد جاء لتعطيلها — فيرى بعض المفسرين أن الشيطان تكلم بهذه الكلمات —
وقد وقع ذلك يوم بدر ويوم أحد — وتداخلت الكلمات في قراءة النبي (ص) أثناء سكتة من سكتاته —
كما نبّه القشيري .

أما — الذين أيدهم بقوة العصمة ، وأدركتهم العناية فقد استبصروا ولم يُضِرُّهُمْ^(١) ذلك .

قوله جل ذكرهم : ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً

لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ

قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ

بَعِيدٍ﴾ .

إذا أراد الله بِعَبْدِهِ خيراً أمدّه بنور انشقيق ، وأيّدّه بحسن العصمة ، فيميز بحسن

البصيرة بين الحق والباطل ؛ فلا يظلمه غمام الرّيب ، وينجلي عنه غطاء الغفلة ، فلا تأثير

لضباب الغداة في شعاع الشمس عند متوع النهار ، وهذا معنى قوله :

﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ

لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ آمَنُوا

إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ • وَلَا يَزَالِ

الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى

تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْثَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ

عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ .

قوله جل ذكره : ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ اللَّهُ بِحُكْمٍ يُفْهَمُ

فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ :

لم ينخصص ملكه — سبحانه — بيوم ، ولم تتحدد له وقته أمر ، ولا لجلاله

قَدْرٌ^(٢) ، ولكن الدعاوى في ذلك اليوم تنقطع ، والظنون ترتفع ، والتجويزات تلاشى^(٣) ؛

فللمؤمنين وأهل الوفاق نعيم ، وللكفار وأصحاب الشقاق نقم .

(١) ضبطناها مكلداً ولا بأس — من حيث المعنى — أن تضبط (ولم يضرهم ذلك) فإحداث من

الفتنة لم يُلحق بهم ضرراً ولا ضرراً ؛ فقد أدركتهم العناية .

(٢) أي أنه يحل عن التحديد بزمان وقدر فهو المطلق الذي لا يتناهى .

(٣) الدعاوى والظنون والتجويزات هي نهم النفس والمقل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * وَالَّذِينَ
هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا
أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا
وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خَبِيرٌ الرَّازِقِينَ ﴾

هؤلاء لهم عذاب مهين ، وهؤلاء لهم فضل مبين .
« وَالَّذِينَ هَاجَرُوا . . . » : للقلوب حلاوة العرفان ، وللأرواح حلة المحاب ، وللأسرار
دوام الشهود .

قوله جل ذكره : ﴿ لَيَدْخِلْنَهُمْ مُّدْخَلَ رَحْمَتِهِ وَإِنَّ اللَّهَ
لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ .

إدخالاً فوق ما يَتَمَنَّوْنَ ، وإبقاء على الوصف الذي يُهْدَوْنَ . . . ذلك في أوان صحوهم لينالوا
لطائف الأُنس على وصف الكمال ، ويتمكنوا من قضايا البسط على أعلى أحوال السرور .
قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوْقِبَ بِهِ
ثُمَّ بَغَىٰ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ إِنْ اللَّهُ
لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ .

نَصْرُهُ — سبحانه — للأولياء نَصْرٌ عزيز ، وانتقامه بتمام ، واستئصاله بكمال ، وإزهاقه
أعداءه بتمحيق جهلهم ، وألا يحتاج المنصور إلى الاحتيال أو الاعتصاف بأشكال^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُرِجُّ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ
وَيُرِجُّ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ
سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ .

(١) أى لا يحتاج المنصور إلى حيلة أو أي تدبير إنساني من جانبه ، بل يسقط تدبيره ، لأن النصر له من
عند الله ، ولا يحتاج المنصور إلى أن يمتضد بأمثاله من المخلوقين فسكنى الله له ناصراً ومميناً .

كما في أفقِ العالمِ لَيْلٌ ونهارٌ فكذلك للسرائرِ ليلٌ ونهارٌ ؛ فعند التجلي نهارٌ وعند
الستر ليلٌ ، والليلُ السُّرُّ ونهاره زيادةٌ ونقصانٌ ، فبمقدار القبضِ ليلٌ وبمقدار البسطِ نهارٌ ،
ويزيدُ أحدهما على الآخرِ وينقصُ . . وهذا للعارفين . فأما المحققون فلهم الأُنسُ والهبةُ
مكانَ قبضِ قومٍ وبسطِهم ، وذلك في حَالِيٍّ محوِّمٍ ومحوِّمٍ ، ويزيدُ أحدهما وينقصُ ، ومنهم
من يدومُ نهارُهُ ولا يدخلُ عليه ليلٌ . . وذلك لأهل الأُنسِ فقط^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكْ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ
مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ،
وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾

إذا بدا هِلْمٌ من الحقائق حصَّلت بمقداره شظية من الفناء لِمَنْ حَصَلَ له التجلي ، ثم يزيدُ
ظهورُ ما يبدو ويغلبُ ، وتتناقصُ آثارُ التفرقة وتتلاشى ، قال : صلى الله عليه وسلم :
« إذا أقبلَ النهارُ من هاهنا أدبرَ الليلُ من هاهنا » فإذا نأى العبدُ بالكليَّةِ عن الإحساسِ
بما دون الله فلا يشهدُ أولاً الأشياءَ إلا للحقِّ ، ثم لا يشهدُها إلا بالحقِّ ، ثم لا يشهدُ إلا الحقَّ . .
فلا إحساسَ له بغيرِ الحقِّ ، ومن جملة ما ينساه . . نفسه والكونُ كله^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ
لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾

ماء السماء يحيي الأرض بعد موتها ، وماء الرحمة يحيي أحوال أهل الزَّوَالَةِ بعد تَرْكِهَا ،
وماء العناية يحيي أحوال (. . .)^(٣) بعد زوال روتها ، وماء الوصلة يحيي أهل القربة
بعد لضوبها .

(١) كثير من المصطلحات الصوفية لا يُفهم فيها دقيقاً إلا بطريق المقارنة المعتمدة على مظاهر الطبيعة
كالليل والنهار والجبال والبحار والسحب . . . إلخ .
وقد استغل القشيري — في ظلال القرآن الكريم — هذا الجانب .
(٢) تفيد هذه الفقرة في توضيح مراتب الشهود .
(٣) في م (الناس) وفي ص مكتوبة هكذا (المقاليس) .

قوله جل ذكره : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾

المُلْكُ له ، وهو عن الجميع غنى ، فهو لا يستغنى بملكه ، بل ملكه بصير موجوداً بخلقه
إياه ؛ إذ المعدوم له مقدور والمقدور هو المملوك .
ويقال كما أنه ^(١) غنى عن الأجانب ممن أثبتهم في شواهد الأعداء فهو غنى عن الأكابر
وجميع الأولياء .

ويقال إذا كان الغنى حميداً فعنى ذلك أنه يُعْطَى حتى يُشكر .
ويقال الغنى الحميد المستحق للحمد : أعطى أو لم يُعْطَ ؛ فَإِنْ أُعْطِيَ استحق الحمد الذي
هو الشكر ، وإن لم يُعْطَ استحق الحمد الذي هو المدح ^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ
مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلُكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ
بِأَمْرِهِ وَيُسَيِّدُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَّ عَلَى
الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ
كَرِيمٌ رَحِيمٌ﴾ .

أراد به تسخير الانتفاع بها ؛ فما للخلق ^(٣) به انتفاع وميسر له في الاستمتاع به فهو
كالمُسَخَّر له على معنى تمكينه منه ، ثم يُرَاعَى فيه الإذن ؛ فَمَنْ اسْتَمْتَحَ شَيْءٌ عَلَى وَجْهِ الْإِبَاحَةِ
وَالْإِذْنِ وَالِدَعَاءِ إِلَيْهِ وَالْأَمْرِ بِهِ فَذَلِكَ إِنْعَامٌ وَإِكْرَامٌ ، وَمَنْ كَانَ بِالْعَكْسِ فَكُرٌّ وَاسْتِدْرَاجٌ .

وأما السفينة.. فاللهامُ العبد بصنعها ووجوه الانتفاع بها ؛ بالتحل فيها وركوبها فَمِنْ أَعْظَمِ إِحْسَانِ
اللَّهِ وَإِرْفَاقِهِ بِالْعَبْدِ ، ثُمَّ مَا يَحْصُلُ بِهَا مِنْ قَطْعِ الْمَسَافَاتِ الْبَعِيدَةِ ، وَالتَّوَصُّلِ بِهَا إِلَى الْمَضَارِبِ

(١) مكذا في م وهي في س (أنت) وهي خطأ في النسخ كما هو واضح .

(٢) دحجّل هذا نقول في صلاتنا : « الحمد لله رب العالمين » أي نشكره في السراء ، ونمدحك في الضراء
فالمدح اسم والشكر أو المدح أخص .

(٣) ورجت مكذا في م وهي في س (للحق) وهي خطأ في النسخ كما هو واضح .

النائمة، والتمكن من وجوه الانتفاع في ذلك أعظم نعمة، وأكل عافية .

وجعل الأرض للخلق قراراً من غير أن تميد، وجعل السماء بناء من غير وقوع، وجعل فيها من الكواكب ما يحصل به الاهتداء في الظلام، ثم هي زينة السماء — وفي ذلك من الأدلة ما يوجب تلج الصدر وبرّد اليقين .

قوله جل ذكره: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴾

إحياء النفوس وإماتتها مرات محصورة، وإحياء أوقات العباد وإماتتها لا حصر له ولا عدد، وفي معناه ألتشدوا .

أموت إذا ذكرتك ثم أحيا فكم أحيا هليك وكم أموت

ويقال يُحيي الآمال بإشهاد تفضله، ثم يميتها بالاطلاع على تعزّزه .

ويقال هذه صفة العوام منهم، فأما الأفاضل فحياتهم مسرمة وانتعاشهم مؤبد . وأتى بحيا غيره وفي وحوده — سبحانه — غنية وخلف عن كل قائم^(١) ؟

قوله جل ذكره: ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾

فلا يَنَازِعُكَ في الأمرِ وادعُ إلى

ربِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴿

جَعَلَ لِكُلِّ فِرْقٍ شَرْعَةً هُمْ وَارِدُوهَا، وَلِكُلِّ جَمَاعَةٍ طَرِيقَةً هُمْ سَالِكُوهَا .

وجعل لكل مقام سُكَّانَهُ، وَلِكُلِّ مَحَلٍّ قُطَّانَهُ، فقد ربط كلاً بما هو أهل له، وأوصل

كلّاً إلى ما جعله محلاً له، فبسط التَّعَبُّدَ موطوءاً بأقدام العابدين، ومشاهد الاجتهاد معبورة

بأصحاب التكلف من المجتهدين، ومجالس أصحاب المعارف مأنوسة بلزوم العارفين، ومنازل

المحبين مأهولة بحضور الواجدين .

(١) هكذا في اللسختين، ونحن لا نستبعد أن تكون في الأصل (فان) ؛ فسواء كان الفناء بالمعنى المعروف أو بالمعنى المصوّف فإنها منسجمة مع السياق، ولأن القشيري يستعمل هذا الأسلوب كثيراً؛ فكفى به خلفاً لك عند فنائك هناك .

قوله : « فلا يَنَازِعُكَ فِي الْأَمْرِ الْأَمْرُ ... » إَشْهَدُ تَصَارِيفَ الْأَقْدَارِ ، وَاعْمَلْ بِمَوْجِبِ
التَّكْلِيفِ ، وَانْتِهِ دُونَ مَا أُذِنَتْ لَهُ مِنَ الْمَنَاهِلِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
تَعْمَلُونَ ﴾

كَلِمَتُهُمُ إِلَيْنَا عِنْدَمَا رَامُوا مِنَ الْجِدَالِ ، وَلَا تَتَّكِلْ عَلَى مَا تَخْتَارُهُ مِنَ الْاِحْتِيَالِ ، وَاحْذَرِ جُنُوحَ
قَلْبِكَ إِلَى الْاِسْتِعَاثَةِ بِالْأَمْثَالِ وَالْأَشْكَالِ ، فَإِنَّهُمْ قَوَالِبُ خَلَوِيَّةٍ ، وَأَشْبَاحُ عَنِ الْمَعَانِي خَالِيَةٍ .
قوله جل ذكره : ﴿ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا
كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

أَمَّا الْأَجَانِبُ فَيَقُولُ لَهُمْ : « كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا » (١) ، وَأَمَّا الْأَوْلِيَاءُ فَقَوْمٌ
مِنْهُمْ يَحَاسِبُهُمْ حِسَابًا يَسِيرًا ، وَأَقْوَامٌ مَخْصُوصُونَ يَقُولُ لَهُمْ : يَبْنِي وَيَبْنِيكُمْ حَسَابٌ ، فَلَا جَبْرِيلَ
يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ وَلَا مِيكَائِيلَ ، وَلَا نَبِيَّ مُرْسَلٌ ، وَلَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ .
« اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ » بِحُكْمٍ بَيْنَهُمْ فَيَسْأَلُ عَنْ أَعْمَالِهِ جَمِيعَ خَصَمَائِهِ ، وَيَأْمُرُ بِإِرْضَاءِ جَمِيعِ
غَوَّامَاتِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنْ
ذَكَرْتَ عَلَى اللَّهِ بَسِيرًا ﴾

يَعْلَمُ السِّرَّ وَالنَّجْوَى ، وَمَا تَكُونُ حَاجَةُ الْعَبْدِ لَهُ أَمْسٌ وَأَقْوَى ، وَبِكُلِّ وَجْهٍ هُوَ بِالْعَبْدِ
أَوَّلَى ، وَلَهُ أَنْ يَحْمِلَ لَهُ التَّنْعِي ، وَيَزِيلَ عَنْهُ الْبَلَاوَى ، وَلَا يَسْمَعُ مِنْهُ الشُّكْوَى ، فَلَهُ الْحُكْمُ
تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ
سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا
لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾

(١) آيَةُ ١٤ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ .

الآية تشير إلى أن مَنْ كَانَ مِنْ جَمَلَةِ خَوَاصِّهِ أَفْرَدَهُ — سبحانه — بِبِرْهَانٍ ، وَأَيَّدَهُ بِبَيَانٍ ، وَأَعَزَّهُ بِسُلْطَانٍ . وَمَنْ لَا سُلْطَانَ لَهُ يَمْتَدُّ إِلَيْهِ قَهْرُهُ ، وَمَنْ لَا بِرْهَانَ لَهُ يَنْبَسِطُ عَنْهُ — إِلَى غَيْرِهِ — نَوْرُهُ ، فَهُوَ مَعَزَّلٌ عَنْ جَمَلَتِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونُ بِالَّذِينَ يَثْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ، قُلْ أَفَأَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

لِسَمَاعِ الْخُطَابِ أَثَرٌ فِي الْقُلُوبِ مِنَ الْإِسْتِبْشَارِ وَالْبَهْجَةِ ، أَوْ الْإِنْكَارِ^(١) وَالْوَحْشَةِ . ثُمَّ مَا تَخَامَرُهُ السَّرَائِرُ يُلَوِّحُ عَلَى الْأَسْرِ فِي الظَّاهِرِ ، فَكَانَتْ الْآيَاتُ عِنْدَ نَزْوِهَا إِذَا تُلِيَتْ عَلَى الْكَافِرِ يُلَوِّحُ عَلَى رَجْوِهِمْ دُخَانَ مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ النِّكَدِيبِ ، فَمَا كَانَ يَقَعُ عَلَيْهِمْ طَرَفٌ إِلَّا نَبَأٌ عَنْ جَنُودِهِمْ ، وَعَادَتْ إِلَى الْقُلُوبِ النُّبُوَّةُ عَنْ إِقْلَاعِهِمْ . ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ الَّذِي هُمْ بِصَدَدِهِ فِي الْآخِرَةِ مِنْ أَلِيمِ الْعُقُوبَةِ شَرٌّ بِكُلِّ وَجْهِ لَمْ يَمَّا يَعُودُ إِلَى الرَّائِينَ لَمْ عِنْدَ شُهُودِهِمْ . وَإِنَّ الْمُنَظَرَ الْوَضِئَةَ لِلرَّائِينَ مُبْهِجَةٌ ، وَالْمُنَظَرُ الْمُنْكَرَةُ لِلنَّاطِرِينَ إِلَيْهَا مَوْحِشَةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستمعوا له إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾

(١) هكذا في م ولكنها في ص (الانكسار) بالسين وهي خطأ لأن المقصود بيان المقابلة بين أثر القرآن على المؤمنين بالاستبشار والبهجة مع أثر القرآن على الكافرين (بالإنكار) والوحشة وظلمات التكذيب .

نبه الأفكار المُشتتة ، والخواطر المتفرقة على الاستجماع لِسَماع ما أراد تضمينه فيها ؛
فاستحضرها فقال : « ضَرْبٌ مَثَلٌ فاستمعوا له . . »

ثم بيّن المعنى فقال إنّ الذين تَدْعُونَ من دون الله ، وتدعونها آلهة ؛ أى وتسمونها
آلهة (وأنها للعبادة مستحقة)^(١) لن يخلقوا بأجمعهم ذبَاباً ، ولا دون ذلك . وإنّ يسلبهم
الذبَابُ شيئاً بأن يقع على طعام لهم فليس فى وسعهم استنقاذهم ذلك منه ، ومن كان بهذه
الصفة فسَاءَ المَثَلُ مَثَلُهُمْ ، وضعُفَ وصفُهُمْ ، وقلَّ خطَرُهُمْ .

ويقال إنّ الذى لا يقاوم ذبَاباً فيصير به مغلوباً فأهون بِقَدْرِهِ !

قوله جل ذكره : ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ
لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾

ما عرفوه حقَّ معرفته ، ولا وصفوه بجلال ما يستحقه من النعوت . ومن لم يكن فى عقيدته
نَقْضٌ لما يستحيل فى وصفه — سبحانه — لم تُبَاشِرْ خلاصة التوحيد سرّه ، وهو فى تَرْجُمِ
فِكْرِه ، وتجويز ظنّه ، وخطَرِ تعسّفه ، يقع فى كل وهدة من الضلال .

ويقال العوامُ اجتهدُهم فى رَفْضِهِم الأعمال الخبيثة خوفاً من الله ، والخواص جهدهم
فى نَقْضِ عقيدتهم للأوصاف التى تجلّ عنها الصمدية ، وبينهما (. . .)^(٢) بعيد .

« إنّ الله لقوى عزيز » قوى أى قادر على أن يخلق مَنْ هو فوقهم فى التحصيل وكِبَال العقول .
« عزيز » : أى لا يُقَدَّرُ أحدٌ قَدْرَهُ — إلا بما يليق بصفة البشر — يَقْدِرُ من العرفان .

ويقال مَنْ وَجَدَ السبيلَ إليه فليس النعت له إلا بوصفِ القُصور ، ولكن كلُّ بَوجَدِهِ
مربوطٌ ، وبجَدِّهِ فى همته موقوف ، والحق سبحانه عزيز^(٣) .

(١) ما بين القوسين موجود فى ص مفقود فى م

(٢) فى ص جاءت (وفاق) وفى م جاءت (فرقان) والأولى مرفوضة ، وفى مثل هذا الموضع يستعمل
النشبرى (فرق) أو (بون) بعيد .

(٣) كلام النشبرى هنا فى (قوى) وفى (عزيز) هام لأنه لم يرد فى مبحثه المستقل عن الأسماء والصفات
الإلهية الذى ضمنه كتاب (التعبير فى التذكير) الذى حققناه ونشرته دار الكتاب العربى سنة ١٩٦٩ .

قوله جل ذكره : ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ .

الاجتناب والاصطفاء من الحق سبحانه بإثبات القدر ، وتخصيص الطول ، وتقديمهم على أشكالم في المناقب والمواهب .

ثم بعضهم فوق بعض درجات ؛ فالفضيلة بحق المرسل ، لا لخصوصية في الخلقة في المرسل .

قوله جل ذكره : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ .

يعلم حالهم وما لهم ، وظاهرهم وباطنهم ، ويومهم وغدهم ، ويعلم تقضهم عهدهم ؛ فإليه منقلبهم ، وفي قبضته تقلبهم .

قوله جل ذكره : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .

الركوع والسجود والعبادة كلها بمعنى الصلاة ؛ لأن الصلاة تشمل على هذه الأفعال جميعها ، ولكن فرقها في الذكر^(١) مراعاة لقلبك من الخوف عند الأمر بالصلاة ؛ فقسمها ليكون مع كل لفظة ومعنى نوع من التخفيف والترفيه ، ولقلوب أهل المعرفة في كل لفظة راحة جديدة .

ويقال لو أن عليهم العبادة ، وأمرهم بها ، ثم جميعها عبادة واحدة ، ووعد عليها من الثواب الكثير ما تقصُر عن علمه البصائر .

ويقال عليم أن الأحباب يحبون سماع كلامه فطول عليهم القول إلى آخر الآية ؛ ليزدادوا عند سماع ذلك ألساً على أنس ، وروحاً على روح ، ومعاد خطاب الأحباب هو روح روحهم ، وكال راحتهم .

(١) ما يلي من الكلام في هذه الفقرة مفيد في المباحث البلاغية فائدة كبيرة .

ثم قال بعد هذا : « وافعلوا الخير » فادخل فيه جميع انواع القرب .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ .

(« حَقَّ جِهَادِهِ » : حق الجهاد ما وافق الأمر في القدرِ والوقتِ والنوعِ ، فإذا حصلتْ في شيء منه مخالفةٌ فليس حَقَّ جِهَادِهِ ^(١)) .

ويقال المجاهدة على أقسام : مجاهدةٌ بالنفس ، ومجاهدةٌ بالقلب ، ومجاهدةٌ بالمال . فالمجاهدةُ بالنفس ألا يدَّخِرَ العبدُ ميسوراً إلا بذَّكَه في الطاعة بتحمل المشاق ، ولا يطلب الرخص والإرفاق ^(٢) . والمجاهدةُ بالقلب صَوْنُهُ عن الخواطرِ الرديئةِ مثل الغفلة ، والعزمُ على المخالفات ، وتذكرُ ما سَلَفَ أيام الفترة والبطالات . والمجاهدةُ بالمال بالبذل والسخاء ثم بالجود والإيثار .

ويقال حق الجهاد الأخذ بالأشق ، وتقديم الأشق على الأسهل — وإن كان في الأخف أيضاً حق .

ويقال حق الجهاد ألا يفتُرَ العبدُ عن مجاهدةِ النفس لحظةً ، قال قائلهم .

يَا رَبُّ إِنِّي جَاهِدِي غَيْرُ مُنْقَطِعٍ فَسَكُلُ أَرْضِي لِي تُفَرِّطِ طَرَسُوسَ

قوله جل ذكره : ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾

يحتمل أنه يقول مِنْ حَقِّ اجْتِبَائِهِ لِيَاكُمْ أَنْ تُعْظُمُوا أَمْرَ مَوْلَاكُمْ

ويحتمل أن يقال هو الذي اجتباكم ، ولولا أنه اجتباكم لما جَاهَدْتُمْ ، فلاجتبائه لِيَاكُمْ وَفَقَّكَ حَتَّى جَاهَدْتَ .

ويقال عِلْمٌ مَا كُنْتَ تَفْعَلُهُ قَبْلَ أَنْ تُخَلِّقَكَ وَلَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ مِنْ أَنْ يَجْتَبِيَكَ ، وكذلك إِنْ رَأَى مَا فَعَلْتَ فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنْكَ وَلَا يَمَاقِبَكَ

(١) ما بين قوسين موجود في م وناقص في س .

(٢) إذا كانت (الإرفاق) فعناء السهول ، والقشيري لا يرضى به غالباً لأرباب الطريق لأنهم يباحثون عن الأشق ، وإذا كانت (الأرفاق) فهي جمع رفق وقد نهى القشيري في نهاية رسالته عن رفق اللسان والصبيان فهم الأتقان والجيف . . . إلخ . والسباق هنا بعيد عن ذلك مما يرجح أنها الإرفاق بكسر الهمزة .

قوله جل ذكره : ﴿ وما جملَ عليكم في الدين من حَرَجٍ ﴾ .

الشرع مبناه على السهولة ، والذي به تصل إلى رضوانه وتستوجب جزيلَ فضله وإحسانه ، وتخلص به من أليم عقابه وامتحانه — يسر^(١) من الأمر لا يستغرق كُنْه إمكانك ؛ بمعنى أنك إن أردتَ فعله لَقَدَرْتَ عليه ، وإن لم توصف في الحال بأنك مستطيع ما ليس بوجود فيك .

قوله جل ذكره : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ .

أَي اتَّبِعُوا وَالزَّمُوا مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْبَذْلِ وَالسَّخَاءِ وَالْجُودِ وَالْخُلَّةِ وَالْإِحْسَانِ .

قوله جل ذكره : ﴿ هُوَ نَحْمَاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ ﴾ .

اللهُ هُوَ الَّذِي اجْتَبَاكُمْ ، وَهُوَ الَّذِي بِالْإِسْلَامِ وَالْعِرْفَانِ نَحَّمَاكُمْ الْمُسْلِمِينَ . وَقِيلَ إِبْرَاهِيمَ هُوَ الَّذِي نَحَّمَاكُمْ الْمُسْلِمِينَ بِقَوْلِهِ : « وَمَنْ ذَرَيْنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ »^(٢) .

قوله : « لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ ، نَصَبَ الرَّسُولَ بِالشَّهَادَةِ عَلَيْنَا ، وَأَمَرَهُ بِالشَّفَاعَةِ لِأُمَّتِهِ ، وَإِنَّمَا يَشْهَدُ عَلَيْنَا بِعَقْدَارِ مَا يَبْقَى لِلشَّفَاعَةِ مَوْضِعًا وَمَحَلًّا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ .
وَتِلْكَ الشَّهَادَةُ إِنَّمَا تُؤَدِّيهَا اللَّهُ ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ شَهَادَةٌ عِنْدَ أَحَدٍ — وَهُوَ كَرِيمٌ — فَلَا يَجْرَحُ شَاهِدَهُ ، بَلْ يَسْعَى بِمَا يَعُودُ إِلَى تَرْكِه شُهُودَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ .

(١) يسره خبر لاسم الموصول (والذي به) (٠٠٠) (٢) آية ١٢٨ سورة البقرة .

أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة بحكم الإتمام ، ونعت الاستدامة ، وجميل الاستقامة .
والاعتصامُ بالله التبري من الحول والقوة ، والنهوض بعبادة الله بالله . ويقال الاعتصامُ
بالله التمسكُ بالكتاب والسنة . ويقال الاعتصامُ بالله حُسْنُ الاستقامة بدوام الاستعانة .
« هو مولاكم » : سيديكم وناصركم والذي لا خلف عنه .
« فنعلم المولى ونعم النصير » نِعَمَ المولى : إخبارٌ عن عظمته ، ونعم النصير : إخبارٌ
عن رحمته .

ويقال إن قال لأيوب : « نعم العبد » ^(١) ولسليمان « نعم العبد » ^(٢) فليقلنا « نعم
للمولى ونعم النصير » ، ومدحه لِنَفْسِهِ أعزُّ وأجلُّ من مدحه لك .
ويقال « نعم المولى » : بَدَأَكَ بالحبّة قبل أنْ أُحِبَّته ، وقبل أنْ عَرَفْتَهُ أو طَلَبْتَهُ
أو حَبَبْتَهُ .
« ونعم النصير » : إذا انصرف عنك جميع مَنْ لَكَ فلا يدخل القبر معك أحدٌ
كان ناصرَكَ ، ولا عند السؤال أو عند الصراط .

السورة التي يذكر فيها المؤمنون

قوله جل ذكره ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الاسم اشتقاقه من السمو ، وللمسمى بهذا الاسم استحقاقُ العلو ، فالاسم اسم لسموه من
الِقَدَم ، والحقُّ حقُّ لعلوه بحقِّ القِدَم .

ويقال مَنْ عرف « بسم الله » سمى هِيتَهُ عن المرسومات ، وَمَنْ أَحَبَّ بسم الله صَفَتْ
حالته عن مساكنة الموهومات ..

اسمٌ مَنْ طَلَبَهُ لِسَى من الدارين أَرَبَهُ ، وَمَنْ عَرَفَهُ وَجَدَ بقلبه مالا يعرف سَبِيهَهُ .

(١) « إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب » آية ٤٤ سورة ص .
(٢) « ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب » آية ٣٠ سورة ص .

قوله جل ذكره : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ الذين هم
في صلاتهم خاشعون ﴿

ظَفِرَ بِالْبُغْيَةِ وفاز بالطلبية من آمن بالله .

و « الفلاح » : الفوز بالمطلوب والظفر بالمقصود .

والإيمانُ اتسامُ الحق في السريرة ، ومخامرة التصديق خلاصة القلب ، واستمكانُ
التحقيق من تأمور الفؤاد (١) .

والخشوعُ في الصلاة إطراقُ السرُّ على بساطِ النجوى باستكمالِ نعتِ الهيبة ، والذوبانُ
تحت سلطان الكشف ، والامتحاء عند غلباتِ التجلي .

ويقال أدرك ثمراتِ القربِ وفازَ بكمالِ الأنسِ مَنْ وَقَفَ على بساطِ النجوى بنمت
الهيبة ، ومراعاة آداب الحضرة . ولا يَكْمُلُ الأنسُ ببقاء المحبوب إلا عند فَقْدِ الرقيب .
وأشدُّ الرقباء وأكثرهم تنغيصاً لأوان القرب النفسُ ؛ فلا راحة للمُصَلِّي مع حضورِ نفسه ،
(فإذا خنس عن نفسه) (٢) وشاهده عديم إحساسه بآفاتِ نفسه ، وطاب له العيشُ ، وتمت له
النعمى ، وتجلت له البُشرى ، ووَجَدَ لذة الحياة .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هم عن اللغو مُعْرِضُونَ ﴾

ما يشغلُ عن الله فهو سَهْوٌ ، وما ليس لله فهو حَشْوٌ ، وما ليس بمسموعٍ من الله أو بمقولٍ
مع الله فهو لَغْوٌ ، (وما هو غير الحق سبحانه فهو كُفْرٌ ، والتعريضُ على شيء من هذا
بُعْدٌ وهَجْرٌ) (٣) .

ويقال ما ليس بتقريظِ الله ومدِّحه من كلام خَلْقِه فكل ذلك لغو .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هم للزكاة فاعِلون ﴾

(١) يقال اجعل هذا الأمر في تأمورك أى داخل قلبك (الوسيط : مادة أ م ر) .

(٢) ما بين القوسين موجود في م وغير موجود في ص .

(٣) موجود في م وغير موجود في ص .

الزكاة النماء ، ومن عمله للنساء فأماره ذلك أن يكون بنقصانه في نفسه عن شواهد
ولا يبلغ العبد إلى كمال الوصف في العبودية إلا بذوبانه عن شاهده .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون *
إلا على أزواجهم أو ما ملكت
أيمنهم فإيئهم غير ملومين ﴾

لفروجهم حافظون ابتغاء نسلي يقوم بحق الله ، ويقال ذلك إذا كان مقصوده التعفف
والتصاون عن مخالقات الإثم .

قوله جل ذكره : ﴿ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك
هم العادون ﴾

أى من جاوز قصده إتيان الحقوق ، وجنح إلى جانب استيفاء الحظوظ . . فقد تعدى
محل الأكار ، وخالف طريقهم .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هم لإماناتهم وعهدهم
راعون ﴾

الامانات مختلفة ، وعند كل أحد أمانة أخرى ، فقوم عندهم الوظائف بظواهرهم ،
وآخرون عندهم اللطائف في سرائرهم ، ولقوم معاملاتهم ، وآخرون منازلهم ،
وآخرون موصلاتهم .

وكذلك عهودهم متفاوتة فمنهم من عاهده ألا يعبد سواه ، ومنهم من عاهده ألا يشهد
في الكونين سواه .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾

لا تصادفهم الأوقات وهم غير مستعدين ، ولا يدعهم المنادى وهم ليسوا بالباب ، فهم
في الصف الأول بظواهرهم ، وكذلك في الصف الأول بسرائرهم

قوله جل ذكره ﴿ أولئك هم الوارثون * الذين يرثون
الفردوس هم فيها خالدون ﴾

الإرث على حسب النسب ، وفي استحقاق الفردوس بوصف الإرث لنسب الإيمان في الأصل ، ثم الطاعات في الفضل .

وكما في استحقاق الإرث تفاوت في مقدار السهمان : بالفرض أو بالتعصيب - فكذلك في الطاعات ؛ فمنهم مَنْ هم في الفردوس بنفوسهم ، وفي الأحوال اللطيفة بقلوبهم ، ثم هم خالدون بنفوسهم وقلوبهم جميعاً لا يرحلون عن منال نفوسهم ولا (. . .) (١) عن حالات قلوبهم .
قوله جل ذكره ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾

هَرَفَهُمْ أَصْلَهُمْ لئلا يُعْجَبُوا بِفِعْلِهِمْ .

ويقال نَسَبَهُمْ لئلا يخرجوا عن حَدِّهم ، ولا يفلطوا في نفوسهم .

ويقال خَلَقَهُمْ مِنْ سُلَالَةٍ سُلَّتْ مِنْ كُلِّ بَقْعَةٍ ؛ فمنهم مَنْ طينته من جَرْدَةٍ (٢) أو من سَبْخَةٍ (٣) أو من سَهْلٍ ، أو من وَغْيٍ . . . ولذلك اختلفت أخلاقهم .

ويقال بَسَطَ عُذْرَهُمْ عِنْدَ السَّكَافَةِ ؛ فَإِنَّ الْخَلْقَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ . . . ما الذي يُنْتَظَرُ مِنْهُ ۝ ١٩

ويقال خلقهم من سُلالة من طين ، والقَدَرُ للتربية لا للتربة .

ويقال خلقهم من سُلالة ولكنَّ مَعْدِنَ الْمَعْرِفَةِ وَمَرْتَعِ الْحُبِّ وَمَنْعَلِ الْعَنَاءِ مِنْهُ لَمْ ؛ قال تعالى : « يَجْهَبُهُمْ وَيَجْبِرُهُ » .

ويقال خَلَقَهُمْ ، ثم من حالٍ إِلَى حَالٍ نَقَلَهُمْ ، يُغَيِّرُ بِهِمْ مَا شَاءَ تَغْيِيرَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ *

ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ

مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ،

فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ﴿

(١) مشبهة في م ، م وربما كانت (ولا ينفكون) .

(٢) الأرض الجردة التي لا نبات فيها .

(٣) السَّبْخَةُ التي فيها ملح ونزلة ولا تكاد تلبث .

قطرة أجزاءها متماثلة ، ونُظْفَةُ أبعاضها متشاككة ، ثم جعل بعضها لحماً وبعضها عظماً ، وبعضها شعراً ، وبعضها ظفراً ، وبعضها عصباً ، وبعضها جلدًا ، وبعضها مخاً ، وبعضها عرقاً . ثم خصَّ كلَّ عضوٍ بهيئةٍ مخصوصةٍ ، وكلَّ جزءٍ بكيفيةٍ معلومةٍ . ثم انصرفتُ التي للإسان خَلْقَها متفاوتةً ، من السَّمْعِ والبَصَرِ والفِكْرِ والفَضْبِ والقدرةِ والعلمِ والإرادةِ والشجاعةِ والحقدِ والجودِ والأوصافِ التي يتقاصر عنها الحصرُ والعَدُّ .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾

في التفسير أنه صورة الوجه ، ويحتمل ما تركب فيه من الحياة ، واختصَّ به من السَّمْعِ والبصرِ والعقلِ والتمييزِ ، وما نفرَّد به بعضُ منهم بمزايا في الإلهام العام للعقل وسائر الإدراكات .

ويقال « ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ » : وهو أن هَيَأَمَ لأحوالٍ عزيزةٍ يُظهرها عليهم بعد بلوغهم ، إذا حصل لهم كمال التمييز من فنون الأحوال ؛ فلقومٍ تَخْصِيصُ بزينة العبودية ، ولقومٍ تَحْرُورٌ من رِقِّ البشرية ، ولآخرين تَحَقُّقٌ بالصفاتِ الصمدية بامتحانهم عن الإحساس بما هم عليه وبه من الأحوال التي هي أوصاف البشرية .

قوله جل ذكره : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾

خلق السموات والأرضين بجملتها ، والعرش والكرسي ، مع المخلوقات من الجنة والنار بكليتها — ثم لما أخبر بذلك لم يعقبه بهذا التمدح الذي ذكره بعد نعت خَلْقِهِ بنى آدم تَخْصِيصًا لهم وتمييزاً ، وإفراداً لهم من بين المخلوقات .

وبقال إن لم يَقُلْ لك إِنَّكَ أَحْسَنُ الْمَخْلُوقَاتِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ فَلَقَدْ قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ »^(١) .

(١) الآية ٤ سورة التين .

ويقال إن لم تكن أنت أحسن المخلوقات وأحسن المخلوقين — ولم يُثنِ عليك بذلك فلقد أثنى على نفسه بقوله : « فتبارك الله أحسن الخالقين » ، وثناؤه على نفسه وتمدحه بذلك أمرٌ وأجلٌ من أن يثنى عليك .

ويقال لما ذكر نعتك ، وتاراتِ حالِك في ابتداء خَلْقِكَ ، ولم يكن منك لسانُ شكرٍ ينطق ، ولا بيانٌ مدحٍ ينطلق . . . نأبَ عنك في الثناء على نفسه ، فقال : « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾

أنشدوا :

آخر الأمر ما ترى القبر واللحد والثرى

وأنشدوا :

حياتنا عندنا قروض ونحن بعد الموت في التقاضى
لابدٌ من ردٍّ ما اقترضنا كلٌّ غريمٍ بذاك راضى

ويقال نعاك إلى نفسك بقوله : « ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ » وكلُّ ما هو آتٍ قريب .
ويقال كسر على أهل الغفلة سطوة غفلتهم ، وفلَّ دونهم سيفَ صولتهم بقوله : ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ، وللجادر مظاهون ، وعن المكنه والمقدرة والاستطاعة والقوة لُتْبَعْدُونَ ، وفي عِدَاد ما لا خَطَرَ له من الأموات معدودون .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾

فعند ذلك يتصل الحسابُ والعقابُ ، والسؤالُ والعتابُ ، ويتبين المقبولُ من المردودِ ، والموسولُ من المهجور .

ويومُ القيامة يومٌ خوَّفَ به العالمُ حتى لو قيل للقيامة : ممن تخافين ؟ ل قالت من القيامة .
وفي القيامة ترى الناسُ سُكَارَى حَيَارَى لا يعرفون أحوالهم ، ولا يتحققون بما تقول إليه أمورهم ، إلى أن يتبينَ لكلٍّ واحدٍ أمرُهُ ، خَيْرُهُ وشرُّهُ : فيثقل بالخيرات ميزانه ، أو يخف

عن الطاعات أو يخلو ديوانه . وما بين الموت والقيامة : فإِماراحاتٌ مُتَّصِلَةٌ ، أو آلام وآفاتٌ غير منفصلة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ
وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾

الحقُّ — سبحانه — لا يستتر عن رؤيته مُدْرِكٌ ، ولا تخفى عليه — من مخلوقاته — خافية . وإنما الحُجُبُ على أبصارِ الخلق وبصائرهم ؛ فالعادةُ جاريةٌ بأنه لا يخلق لنا الإدراك لِمَا وراء الحُجُبِ . وكذلك إذا حلتْ الغفلةُ القلوبَ استولى عليها الذهول ، وانسدَّتْ بصائرُها ، وانتفتت فهمُها

وفوقنا حُجُبٌ ظاهرة وباطنة ؛ ففي الظاهر السموات حجبٌ تحول بيننا وبين المنازل العالية ، وعلى القلوب أغشية وأغطية كالنسيئة والشهوة ، والإرادات الشاغلة ، والغفلات المتراكمة .
أما المريدون فإذا أظلمَّتْهم سحائب الفترة ، وسكَّنَ هيجانُ إرادتهم فذلك من الطرائق التي عليهم .

وأما الزاهدون فإذا تحرَّك بهم عِرْقُ الرغبة انفَلَّتْ^(١) قوة زهدهم ، وضعُفت دعائمُ صبرهم ، فَيَتَرَخَّصُونَ بالجنوح إلى بعضِ التأويلات ، فتعودُ رغباتهم قليلاً قليلاً ، وتختلُّ رتبةُ عزوفهم ، وتنهكُ دعائمُ زهدهم ، وبداية ذلك من الطرائق التي خَلَقَ فوقهم .
وأما العارفون فربما تظلمَّتْهم في بعض أحوالهم وقفةٌ في تصاعد سرِّهم إلى ساحاتِ الحقائق . فيصيرون مُوقِفِينَ ربِّنا يتفضلُ الحقُّ — سبحانه — عليهم بكفاية ذلك فيجدون نفاذاً ، ويرفع عنهم ماعاقهم من الطرائق .

وفي جميع هذا فإنَّ الحقَّ سبحانه غيرُ غافلٍ عن الخلق ، ولا تاركٍ للعباد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ
فَأَسْكَنَّا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ
بِهِ لِقَادِرُونَ ﴾

(١) انفلَّ السيف = انظم حده ، وانفلَّ القوم = انهزموا .

أنزل من السماء ماء المطر الذى هو سببُ حياة الأرضين ، وذلك بقدرٍ معلوم . ثم ..
البلادُ مختلفةٌ فى السقي : فبعضها خصبٌ ، وبعضها جَدْبٌ ، وسنةٌ يزيدُ سنةً ينقص ، سنةٌ
يفيض سنةً يفيض .

كذلك أنزلنا من السماء ماء الرحمة فيحيى القلوب ، وهى مختلفة فى الشرب : فمن موسعٍ
عليه رزقه منه ، ومن مضيقٍ مُقتَرٍ عليه . ومن وقتٍ هو وقت سحٍّ ، ومن وقتٍ هو
وقت حبسٍ .

ويقال ماء هو صوب الرحمة يزيل به دَرَنَ العَصاةِ وآثارَ زَلَّتِهِمْ وأوضارَ عَثَرَتِهِمْ ، وماء
هو سقى قلوبهم بزيل به عطشَ تحيرهم ، ويحيى به موات أحوالهم ؛ فَتَنَبَّتُ فى رياض قلوبهم
فنونُ أزهار البسط ، وصنوف أنوار الروح . وماء هو شراب المحبة فيخص به قلوباً بساحات
القرب ، فيزيل عنها به حشمة الوصف ، ويسكن به قلوباً فيعطلها عن التميز ، ويحملها على
التجاسر ببذل الروح ؛ فإذا شربوا طربوا ، وإذا طربوا لم يُبالوا بما وهبوا ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَالْشَّانَا لَكُمْ بِهِ جَنَاتٍ مِنْ نَخِيلٍ
وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ
وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ .

كما يحيى بماء السماء الغياضَ والرياض ، ويصنّف فيها الأزهارَ والأنوارَ ، وتثمر الأشجارُ
وتجري الأنهار .. فكذلك يسقى القلوب بماء العرفان فتورق وتثمر بعدما تزهر ، وتؤتى
أكلها : من طيب عيش ، وكالٍ بسطٍ ، ثم وفور هيبة ثم رَوْحُ أُنسٍ ، ونتاجج تجلٍّ ، وعوائد
قُرْبٍ .. إلى ما تنقاصر العبارات عن شرحه ، ولا تطمع الإشارات فى حصّره .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً
نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا
مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ .

الإشارات منه أن السكورات الهاجّة لا عبرة بها ولا مبالاة ؛ فإن اللبن الخالص السائغ
يخرج من أخلاف الأنعام من بين ما تنطوى حواياها عليه من الوحشة ، لكنه صافٍ لم يؤثر

(١) حتى لو كان ما وهبوه أرواحهم .

فيه منها بحكم الجوار ، وكذلك الصفاء يوجد أكثره من عين الكدورة ؛ إذ الحقيقة لا تتعلق بها حق ولا باطل . ومن أشرف على (سر) ^(١) التوحيد نَحَقُّ بأن ظهور جميع الحدثنان من التقدير ، فتسقط عنه كلفة التمييز ، فالأسرار عند ذلك تصفو ، والوقت لصاحبه لا يجفو .

«ولكم فيها منافع» : لازمة لكم ، ومتعدية منكم إلى كل متصل بكم :

إني — على جفواتها — برها وبكل متصل بها متوسل

قوله جل ذكره : ﴿وعليها وعلى الفلك تحلون﴾ .

يحفظهم في السفينة في بحار القطرة ، ويحفظهم في سفينة السلامة والعصمة في بحار القدرة ، وإن بحار القدرة تنالهم أمواجها ، والناس فيها غرق إلا من يحفظه الحق — سبحانه — في سفينة العناية .

وصفة أهل الفلك إذا مستهم شدة خوف الغرق ما ذكر الله في قوله : «فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين» ^(٢) كذلك من شاهد نفسه على شفا الملاك والغرق ، والتجأ إلى صديق الاستعانة ودوام الاستغاثة فعند ذلك يحميه الحق — سبحانه — من مخلوقات التقدير . ويقال إن وجه الأرض بحار الغفلة ، وما عليه الناس من أسباب التفرقة بحار مهلكة والناس فيها غرق ، وكما قال بعضهم :

الناس بحر عميق والبعء عنهم سفينة

وقد نصحتك فانظر لنفسك المسكينة

قوله جل ذكره : ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال

يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله

غيره أفلا تتقون﴾ .

(١) موجودة في م و طبر موجودة في ص .

(٢) آية ٦٥ سورة العنكبوت .

كَرَّرَ قِصَّةَ نُوحٍ لِمَا فِيهَا مِنْ عَظِيمِ الْآيَاتِ مِنْ طُولِ مَقَامِهِ فِي قَوْمِهِ ، وَشِدَّةِ مِقَاسَةِ الْبَلَاءِ مِنْهُمْ ، وَتَمَامِ صَبْرِهِ عَلَى مَا اسْتَقْبَلَهُ فِي طُولِ عَمَرِهِ ، ثُمَّ إِهْلَاكَ اللَّهِ جَمِيعَ مَنْ أَصَرَ عَلَى كُفْرَانِهِ ، ثُمَّ إِهْلَاكَ اللَّهِ جَمِيعَ مَنْ أَصَرَ عَلَى كُفْرَانِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ، وَلَمْ يَبَالِ — سُبْحَانَهُ — بِأَنَّ أَهْلَكَ جَعَلْتَهُمْ . وَلَقَدْ ذَكَرَ فِي الْقِصَصِ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ قَوْمِهِ نَا أَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ كَانَ لَهَا مَوْلُودٌ ، فَحَمَلَتْهُ وَقَامَتْ حَامِلَةً لَهُ تَرْفَعُهُ عَنِ الطُّوفَانِ ، فَلَمَّا بَلَغَ الْمَاءُ إِلَى يَدَيْهَا رَفَعَتْهُ إِلَى مَا فَوْقَ رَأْسِهَا — قَدَرًا مَا أَمَكْنَهَا — إِبْقَاءً عَلَى وَلَدِهَا ، وَإِشْفَاقًا عَلَيْهِ مِنَ الْهَلَاكِ ، إِلَى أَنْ غَلَبَهَا الْمَاءُ وَتَلَفَتْ وَوَلَدَهَا . فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى نُوحٍ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — لَوْ أَنِّي كُنْتُ أَرْحِمُ وَاحِدًا مِنْهُمْ لَرَحِمْتُ تِلْكَ الْمَرْأَةَ وَوَلَدَهَا .

وَفِي الْخَبَرِ أَنَّ نُوحًا كَانَ اسْمُهُ بِشَكْرٍ ، وَلِسَكْنَةٍ مَا كَانَ يَبْكِي أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ : يَا نُوحُ .. إِلَى كَمْ تَنُوحُ ؟ فَسَمَّاهُ نُوحًا . وَيُقَالُ إِنَّ ذَنْبَهُ أَنَّهُ مَرَّ يَوْمًا بِكَلْبٍ فَقَالَ : مَا أَوْحَشَهُ ! فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ : اخْلُقِي أَنْتِ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا ! فَكَانَ يَبْكِي مُعْتَذِرًا عَنْ قَالَتِهِ تِلْكَ . وَكَانَ قَوْمُهُ يَلَاخِظُونَهُ بَيْنَ الْجَنُونِ ، وَمَا زَادَ لَهُمْ دَعْوَةً إِلَّا ازْدَادُوا عَنْ إِجَابَتِهِ نُبُوءَةً ، وَمَا زَادَ لَهُمْ صَفْوَةً إِلَّا ازْدَادُوا عَلَى طَوْلِ الْمُدَّةِ قِسْوَةً عَلَى قِسْوَةٍ .

وَلَمَّا عَمِلَ السَّفِينَةَ ظَهَرَ الطُّوفَانُ ، وَأَدْخَلَ فِي السَّفِينَةِ أَهْلَهُ ، تَعَرَّضَ لَهُ إِبْلِيسُ — كَمَا جَاءَ فِي الْقِصَّةِ — وَقَالَ : إِحْمِلْنِي مَعَكَ فِي السَّفِينَةِ ، فَأَبَى نُوحٌ وَقَالَ : يَا شَقِيٌّ . . . تَطْمَعُ فِي حِمْلِي إِيَّاكَ وَأَنْتِ رَأْسُ الْكُفْرَةِ ؟ !

فَقَالَ إِبْلِيسُ : أَمَّا عَلِمْتُ — يَا نُوحُ — أَنَّ اللَّهَ أَنْظَرَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَلَيْسَ يَنْجُو الْيَوْمَ أَحَدٌ إِلَّا فِي هَذِهِ السَّفِينَةِ ؟

فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى نُوحٍ أَنَّ إِحْمَلْهُ فَكَانَ إِبْلِيسُ مَعَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ لِابْنِهِ مَعَهُ مَكَانٌ فِي السَّفِينَةِ . (وَفِي هَذَا ظَهُورُ عَيْنِ التَّوْحِيدِ وَأَنَّ الْحُكْمَ مِنَ اللَّهِ غَيْرَ مَعْلُولٍ) ^(١) لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ الْمَعْنَى فِي أَنَّ ابْنَهُ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ لَهُ مَكَانٌ لَكُفْرِهِ فَبِإِبْلِيسُ يُشْكَلُ . . . وَلَكِنَّهَا أَحْكَامٌ غَيْرُ مَعْلُولَةٍ ، وَجَازَ لَهُ — سُبْحَانَهُ — أَنْ يَفْعَلَ مَا يَرِيدُ : يَصِلُ ^(٢) مَنْ شَاءَ وَيَرُدُّ مَنْ شَاءَ

(١) مَا بَيْنَ التَّوَسُّبِ مَوْجُودٍ فِي م وَغَيْرِ مَوْجُودٍ فِي ص .

(٢) وَرَدَّتْ فِي م (يَضِلُّ) بِالضَّادِ وَنَحْنُ نَجِدُ (يَصِلُ) أَكْثَرَ انْسِجَامًا مَعَ الْمَعْنَى لِتَقَابُلِ (يَرُدُّ)

قوله جل ذكره : ﴿وقل رب انزلى منزلاً مباركاً
وأنت خير المنزلين﴾ .

الإنزال المبارك أن يكون بالله والله ، وعلى شهود الله من غير غفلة عن الله ، ولا مخالفاً
لأمر الله

ويقال الإنزال المبارك الاستيعاب بشهود الوصف عنك ، ثم الاستغراق باستيلاء
سلطان القرب عليك ، ثم الاستهلاك بإحداق أنوار التجلى حتى لا تبقى عين ولا أثر ،
فاذا تم هذا ودام هذا فهو نزول بساحات الحقيقة مبارك ؛ لأنك بلا أنت . . بكليتك من
غير بقية أو أثر عنك .

قوله جل ذكره ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾

تنابت القرون على طريقة واحدة في التكذيب ، وغرهم طول الأمل ، وما مكنهم
من رفاه العيش وخفض الدقة ، فلم يقيسوا إلا على أنفسهم ، ولم يسم لهم طرف إلى من
فوقهم في الحال والمنزلة ، فقالوا : أنؤمن بمن يتردد في الأسواق ، وينتفع مثلنا بوجوه الأرفاق ؟
ولئن أطينا بشراً مثلنا لسلكنا سبيل النى ، وتنكبنا سنة الرشد . فأجرام الله
في الإهانة وإحلال العقوبة بهم مجرى واحداً ، وأذاقهم عذاب الخزي . وأعظم ما داخلهم
من الشبهة والاستبعاد أمر الجبر والنشر ، ولم يرتقوا للعلم بأن الإعادة كالاتداء في الجواز
وعدم الاستحالة ، والله يهدي من يشاء ويغوي من يريد .

ثم إن الله في هذه السورة ذكر قصة موسى عليه السلام ، ثم بعده قصة عيسى عليه السلام ،
وخص كل واحد منهم بآياته الباهرة ومعجزاته الظاهرة (١) .

قوله جل ذكره : ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات
واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم﴾

كلوا من الطيبات مما أحل لكم وأباح ، وما هو محكوم بأنه طيب — على شريطة مطابقة

(١) نلاحظ هنا أن القشيري قد اختصر الكلام فقفز إلى الآية . . دون تهل أمام كل آية كما تعودنا منه

رُخْصَةُ الشريعة — مما كان حلالاً في وقتهم، مطلقاً مأذوناً لهم فيه . وكذلك أعمالهم الصالحة ما كان موافقاً لأمر الله في زمانهم بفنون طاعاتهم في أفعالهم وعقائدهم وأحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ .

معبودكم واحد ، ونبيكم واحد ، وشرعكم واحد ؛ فأنتم في الأصول شرعٌ سواء ، فلا تسلكوا ثنديات الطرق ^(١) فتطيحوا في أودية الضلالة . وعليكم باتباع سلفكم ، واحذروا موافقة ابتداع خلفكم .

« وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ » خافوا مخالفة أمرى ، واعرفوا عظيم قدرى ، واحفظوا في جريان التقدير سرى ، واستندموا بقلوبكم ذكرى ، تجدوا في مآلكم غفرى ، وتحفظوا بجبيل برى .
قوله جل ذكره : ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ .

فستقيم على تحقه ، وتائه في غيئه ، ومُصِرُّ على خصيائه وفِسْقِهِ ، ومقيمٌ على إحسانه وصِدْقِهِ ، كُلٌّ مربوطٌ بحدِّه ، موقوفٌ بما قُسمَ له في البداية من شأنه ، كُلٌّ ينتحل طريقته ويدعى بحسن طريقته حقيقة ، وعند صحو سماء قلوب أرباب التوحيد لا غبار في الطريق ؛ وهم على يقين معارفهم ؛ فلا ريبَ يتخالجهم ولا شبهة .

وأهل الباطل في عَمَى جهلهم ، وغبارِ جُحْدِهِمْ ، وظلمة تقليدهم ، ومحنة شكهم ..

قوله جل ذكره : ﴿ فَذَرْنِهِمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ .

إنَّ مدةَ أَخْذِهِمْ لِقُرْبِيَّةٍ ، والعقوبة عليهم — إذا أَخَذُوا — لشديدة ، ولسوف يتبين لهم خطؤهم من صوابهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَيْسَ لِيُذِمَّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ لسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون .

(١) ثلثة الطريق = منطقه .

هذا في شأن أصحاب الاستدراج من مَكْرِ الحقِّ بهم بتلبيس المنهاج ؛ رَأَوْ سَرَابًا فَظَنُّوهُ
شَرَابًا ، وَدَسَّ لَهُمْ فِي شَهْدِهِمْ صَابًا فَتَوَهَّمُوهُ عَذَابًا^(١) ، وَحِينَ لَقُوا عَذَابًا عَلِمُوا أَنَّهُمْ لَمْ
يَفْعَلُوا صَوَابًا .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ
تُسْتَفْقُونَ ﴾

أمازة الإشفاق من الخشية إطراق السريرة في حال الوقوف بين يدي الله بشواهد
الأدب ، ومحاذرة بَقَتَاتِ الطُّرْدِ ، لا يستقر بهم قرارٌ لِمَا دَاخَلَهُمْ مِنَ الرَّعْبِ ، واستولى
عليهم من سلطان الهيبة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يَوْمِنُونَ ﴾
تلك الآياتُ مختلفةٌ ؛ فمنها ما يُكاشِفُون به في الأقطار من اختلاف الأدوار ، وما فيه
الناس من فنون المهَمِّ وصنوف النُفَى والإرادات ، فإذا آمَنَ العبدُ بها ، واعتبر بها اقتنع بما يرى
نَفْسَهُ مطالبًا به .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾
يَذَرُونَ جَلِيَّ الشُّرْكِ وَخَفِيَّهِ ؛ وَالشُّرْكَ الْخَفِيُّ ملاحظةُ الْخَلْقِ فِي أَوَانِ الطَّاعَاتِ ،
وَالاسْتِبْشَارُ بِمَدْحِ الْخَلْقِ وَقَبُولِهِمْ ، وَالانْكَسَارُ وَالذَّبُولُ عِنْدَ انْقِطَاعِ رُؤْيَا الْخَلْقِ .
ويقال الشُّرْكَ الْخَفِيُّ إِحَالَةُ النَّادِرِ مِنَ الْحَالَاتِ — فِي الْمَسَارِّ وَالْمَضَارِّ — عَلَى الْأَسْبَابِ
كقول القائل : « لولا دعاء أبيك لهلك » و « لولا همةُ فلان لما أفلحت » . . . وأمثال
هذا ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ »^(٢) .

وكذلك تَوَهَّمُ حُصُولِ الشِّفَاءِ مِنْ شُرْبِ الدَّوَاءِ .

فإذا أيقن العبدُ بِسِرِّهِ الْأَشْيَاءِ مِنَ الْحَدَثَانِ ، وَلَمْ يَتَوَهَّمْ ذَلِكَ ، وَأَيَقِنَ الْأَشْيَاءَ إِلَّا مِنَ
التَّقديرِ فَمِنْ ذَلِكَ يَبْقَى عَنِ الشُّرْكِ^(٣) .

(١) الْعَذَابُ جَمْعُ عَذَابٍ وَهُوَ السَّائِغُ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَنَحْوِهِمَا (الوسيط) .

(٢) آيَةُ ١٠٦ سُورَةِ يُوسُفَ .

(٣) أَيُّ أَنَّ الْقَشْبِيَّ لَا يَنْكُرُ الْأَسْبَابَ وَلَكِنْ يَنْمَى عَلَى مَنْ يَتَوَهَّمُ أَنَّ مِنَ الْحَدَثَانِ شَيْئًا .

قوله جل ذكره : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ
وَجِلَةٌ أُنْهِمُ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾

يُخْلِصُونَ فِي الطَّاعَاتِ مِنْ غَيْرِ الْإِمَامِ بِتَقْصِيرٍ ، أَوْ تَرْجِيحٍ فِي أَوْطَانِ الْكُلِّ ، أَوْ جُنُوحٍ
إِلَى الْأَسْتِرْوَاكِ بِالرُّخَصِ . ثُمَّ يَخَافُونَ كَأَنَّهُمْ أَلَمُوا بِالْفَوَاحِشِ ، وَيُلَاحِظُونَ أَحْوَالَهُمْ بَعِيدَ
الْإِسْتِغْنَارِ ، وَالْإِسْتِحْقَارِ ، وَيَخَافُونَ بَغَاتِ التَّقْدِيرِ ، وَقَضَايَا السَّخَطِ ، وَكَمَا قِيلَ :
يَنْجَنِبُ الْآثَامَ ثُمَّ يَخَافُهَا فَكَأَنَّمَا حَسَنَاتُهُ آثَامٌ

قوله جل ذكره : ﴿أُولَٰئِكَ يَسَارِعُونَ﴾^(١) فِي الْخَيْرَاتِ
وَمِنْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿

مُسَارِعٌ بِقَدَمَيْهِ مِنْ حَيْثُ الطَّاعَاتِ ، وَمُسَارِعٌ بِبَهِيمِهِ مِنْ حَيْثُ الْمَوَاصِلَاتِ ، وَمُسَارِعٌ
بِنَدَمِهِ مِنْ حَيْثُ تَجَرُّعِ الْحَسَرَاتِ ، وَالسَّكَلُ مُصِيبٌ ، وَالسَّكَلُ مِنْ إِقْبَالِهِ — عَلَى مَا يَلْبِقُ
بِحَالِهِ — نَصِيبٌ .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدِينَا
كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

الْمَطَالِبَاتُ فِي الشَّرِيعَةِ مُضَمَّنَةٌ بِالسَّهُولَةِ ، وَأَمَّا مَطَالِبَاتُ الْحَقِيقَةِ فَكَمَا قَالُوا : لَيْسَ إِلَّا بِذَلِكَ
الرُّوحُ ، وَلِهَذَا فَهَمُّ لَا تَشْغَلُهُمُ التَّرَهَّاتُ^(٢) . قَالَ لِأَهْلِ الرُّخَصِ وَالْمُسْتَضْعِفِينَ فِي الْحَالِ :
« وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ »^(٣) ، وَأَمَّا أَرْبَابُ الْحَقَائِقِ ؛ فَقَالَ : « وَإِنْ تُبَدُّوا
مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تَخَفَوْهُ بِحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ »^(٤) وَقَالَ : « وَتَحْسِبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ »^(٥) ،
وَقَالَ : « وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ »^(٦) .

(١) فِي سِ أَخْطَأُ النَّاسِخَ إِذْ زَادَ (لَهُمْ) بَعْدَ يَسَارِعُونَ .

(٢) التَّرَهَّاتُ جَمْعُ تَرَهٍّ وَهِيَ الْقَوْلُ الْبَاطِلُ الَّذِي لَا نَفْعَ فِيهِ ، أَوِ الطَّرِيقُ الصَّغِيرُ الْمُنْتَشِبَةُ عَنِ
الطَّرِيقِ الْأَعْظَمِ .

(٣) آيَةُ ٧٨ سُورَةِ الْحَجِّ .

(٤) آيَةُ ٢٨٤ سُورَةِ الْبَقَرَةِ .

(٥) آيَةُ ١٥ سُورَةِ النَّوْرِ .

(٦) آيَةُ ٧٨ سُورَةِ الْحَجِّ .

قوله : « ولدينا كتابٌ ينطق بالحقٍّ وهم لا يظلمون » : لولا غفلتهم عن مواضع الحقيقة لما خوفهم بكتابة الملك ، ولكن غفلوا عن شهود الحق فخوفهم باطلاغ الملائكة ، وكتابتهم عليهم أعمالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرَةٍ مِنْ هَذَا ، وَلَمْ أَعْمَلْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ مِنْهَا عَامِلُونَ ﴾

لا يصلح لهذا الشأن^(١) إلا من كان فارغاً من جميع الأعمال ، لا شغل له في الدنيا والآخرة ، فأما من له شغلٌ بدنياء ، أو على قلبه حديثٌ عقباء ، فليس له نصيبٌ من حديث مولاه ، وفي الخبر « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ » .

ويقال أصحاب الدنيا مشغولون بدنيام ، وأرباب العقبى مشغولون بعقبام ، وأهل النار مشغولون بما ينالهم من بلوهم ؛ وإن الذي له في الدنيا والآخرة خير مولاه - حين الفراغ - عزيز ؛ قال تعالى : « إن أصحاب الجنة اليوم في شغلٍ فاكهون »^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴾

إنه - سبحانه - يُمِيلُ وَلَكِنَّهُ لَا يُهْلِلُ ؛ فَإِذَا أَخَذَ فَبَطْشُهُ شَدِيدٌ ، قال تعالى : « إن بطش ربك لشديد »^(٣) . . . فَإِذَا أَخَذَ أَصْحَابُ الْكِبَارِ - حين يحل بهم الانتقام - في الجواب رُدُّوا في الهوان ، ويقال لهم :

﴿ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ ﴾

فإِذَا انفصل من الغيبِ حُكْمٌ فَلَا مَرَدَّ لِنَتَدِيرُهُ .

(١) (هذا الشأن) يقصد به طريق رباب الأحوال

(٢) آية ٥٥ سورة يس .

(٣) آية ١٢ سورة البروج .

ويقال للجناية سرابة ؛ فإذا أمسك الجاني عن الجناية فلا ينفعه ذلك ما لم يحض
حكم السراية .

قوله جل ذكره : ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ،
فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تُكْصِرُونَ *
مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾

ذَكَرَ هَذَا مِنْ بَابِ إِمْلَاءِ الْعُذْرِ ، وَالْإِزَامِ الْحِجَةِ ، وَالْقَطْعِ بِالْأَلَا يَنْفَعُ — الْآنَ —
الْجَزْعُ وَلَا يُسْمَعُ الْعُذْرُ ؛ وَالْمُلُوكُ إِذَا أَبْرَمُوا حُكْمًا ، فَلَا سِتْفَانَةَ غَيْرَ مُؤَثَّرَةٍ فِي الْحَاصِلِ
مِنْهُمْ ، قَالَ قَائِلُهُمْ :

إِذَا انْصَرَفَتْ نَفْسِي عَنِ الشَّيْءِ لَمْ تَكُنْ إِلَيْهِ بِوَجْهِ — آخِرَ الدَّهْرِ — تُقْبِلُ
قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ
آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ .

يَعْنِي أَنَّهُمْ لَوْ أَنْصَبُوا النَّظَرَ ، وَاسْلُطُوا عَلَى أَحْوَالِهِمْ صَائِبَ الْفِكْرِ لَاسْتَبَصَرُوا فِي الْحَالِ ،
وَلَا تَنَىٰ عَنْ قُلُوبِهِمُ الِاسْتِعْجَامُ وَالْإِشْكَالُ ، وَلَسَكُنْهُمْ اسْتَوْطَنُوا مَرْكَبَ الْكُسْلِ ، وَهَرَجُوا
فِي أَوْطَانِ التَّبَاغُلِ ، فَتَعَوَّدُوا الْهَلِيلَ ، وَأَيَّسُوا مِنَ الِاسْتَبْصَارِ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ
مُنْكَرُونَ ﴾ .

ذُهِلُوا عَنِ التَّحْقِيقِ فَتَطَوَّحُوا فِي أَوْدِيَةِ الْمَغَالِيطِ ، وَزَجَّجَتْ بِهِمُ الظُّلُومُ الْخِلَاطِنَةَ ،
وَمَلَكَتْهُمْ كَوَافِبُ التَّقْدِيرَاتِ ^(١) ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ (الرَّسُولَ) ^(٢) عَنْ أَحْوَالِهِمْ ؛ فَمَرَّةً قَابَلُوهُ
بِالتَّكْذِيبِ ، وَمَرَّةً رَمَوْهُ بِالسُّحْرِ ، وَمَرَّةً عَابُوهُ بِتَعَاطِيهِ أَفْعَالِ الْعَادَةِ بِمَا عَلَيْهِ النَّاسُ مِنَ
الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ ، وَمَرَّةً قَدَّحُوا فِيهِ بِمَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْفَقْرِ وَقِلَّةِ ذَاتِ الْيَدِ . . . فَأَخْبَرَ اللَّهُ عَنْ
تَشْتَتِ أَحْوَالِهِمْ ، وَتَقَسَّمَ أَفْكَارِهِمْ .

(١) هَكَذَا لَمْ أَمَّا لِي مِنْ هِيَ (التقدير) ونحن نرجع الأول حتى يقتصر إطلاق (التقدير) بالفرد
على الفعل الإلهي أما هنا فهي (التقديرات الإنسانية) أي القنن .
(٢) السِّبَاقُ يَتَطَلَّبُ وَجُودَ كَلِمَةِ (الرَّسُولِ) وَهِيَ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ فِي النُّسَخَاتِ مَوْصُفًا مَا مِنْ عِنْدِنَا لِيَنْسَجِمَ الْأَسْلُوبُ .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ
السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ
بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ
مُعْرِضُونَ﴾

وذلك لتضاد مناهم وأهوائهم ؛ إذ هم متشاكسون في السؤال والمراد ، وتحصيل ذلك محال
تقديره في الوجود . فَيَبَيِّنُ الله — سبحانه — أنه لو أجرى حُكْمَهُ على وفق مرادهم لاختلَّ
أمر السموات والأرض ، ولَخَرَجَ عن حُدِّ الإحكام والإتقان .

قوله جل ذكره : ﴿أَمْ نَسْأَلُكُمْ خَرْجًا فَنَرَّاجُ رَبَّكَ خَيْرٌ
وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ .

أى إنَّكَ لا تطالبهم على تبليغ الرسالة بأجر ، ولا بإعطاء حِوْضٍ حتى تكون بموضع
التهمة فيما تأتيهم به من الشريعة . أم لعلَّكَ تريد أن يَعْقِدُوا لك الرياسة . ثم قال : والذي لك
من الله سبحانه من جزيل الثواب وحسن اللآب يُغْنِيكَ عن التصدَّى لنيل ما يكون في حصوله
منهم مطمع . وهذا كان سُنَّةُ الأنبياء والمرسلين ؛ عملوا لله ولم يطلبوا أجراً من غير الله .
والعلماء ورثةُ الأنبياء فسيُكَلِّمُهم التوفى عن التَّدَنُّسِ بالأطعم ، والأكل بالدين فإنه رِيَاءٌ مُضِرٌّ
بالإيمان ؛ فإذا كان العمل لله فالأجر مُنْتَظَرٌ من الله ، وهو موعودٌ من قِبَلِ الله (١) .

قوله جل ذكره : ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

الصراطُ المستقيمُ شهودُ الربِّ بنعت الانفراد في جميع الأشياء ، وفي الإيجاد ، والاستسلام
لقضايا الإلزام بمواطاة القلب من غير استكراه الحكم .

قوله جل ذكره : ﴿وَالَّذِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ
الصِّرَاطِ لَنَا كَبِيرٌ﴾ .

(١) القشيري هنا يفرز بانحراف كثير من الوعاظ المحترفين الذين امتلأ بهم عصره ، ومنذ عهد الحسن
البصري — الذي طالما نبه إلى خطورة هذا الأمر — ونحن نسمع هذه الصبغة ناعية ما آل إليه أمر المحترفين
إلى التهاون والتهاك على أطباع الدنيا الزائلة .

زاغوا عن الحجة المثلى بقلوبهم فوقعوا في جحيم الفرقة ، وستميل وتزل أقدامهم غداً
عن الصراط ، فيقعون في نار الحرقه ؛ فهم ناكبون في دنياهم وعقباهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ
لَلَجُّوا فِي طغيَانِهِمْ يَفْهَمُونَ ﴾ .

أخبر عن صادق علمه بهم ، وذلك صادر عن سابق حكمه فيهم ، فقال : لو كشفنا عنهم
في الحال لم يفوا بما يعدون من أنفسهم من الإيمان في المال ، ولقد علم أنهم سيكفرون ، وحكم
عليهم بأنهم يكفرون ؛ إذ لا يجوز أن يكون حكمه فيهم بخلاف عليه بهم^(١)

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكاثُوا
لِرَبِّهِمْ وَمَا يَنْتَصِرُونَ ﴾ .

أذقناهم مقدمات العذاب دون شدايده . . تنبيهاً لهم ، فما اتقوها وما انزعجوا ، ولو أنهم
إذ رأوا العذاب فزعوا إلى التضرع والابتهال لأسرع الله زواله عنهم ، ولكنهم أصرُّوا على
باطلهم ، ليَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا .

قوله جل ذكره : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ
شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾

لما أجلنا بهم أشدَّ العقوبات ضَعُفُوا عَنْ تَحَمُّلِهَا ، وَأَخَذُوا بِغَنَّةٍ ، ولم ينفعهم ما قدَّموا
من الابتهال ، فَيَكْسُوا عَنْ الإِجَابَةِ ، وعَرَّجُوا فِي أوطان القنوط .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ
وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ، قَلِيلًا
مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

ذكر عظيم منته عليهم بأن خلق لهم هذه الأعضاء ، وطالبهم بالشكر عليها .
وَشُكْرُهُمْ عَلَيْهَا اسْتِعْمَالُهَا فِي طَاعَتِهِ ؛ فَشُكْرُ السَّمْعِ أَلَّا تَسْمَعَ إِلَّا بِاللَّهِ وَهُوَ ، وَشُكْرُ
الْبَصَرِ أَلَّا تَنْظُرَ إِلَّا بِاللَّهِ ، وَشُكْرُ الْقَلْبِ أَلَّا تَشْهَدَ غَيْرَ اللَّهِ ، وَأَلَّا تَحِبَّ بِهِ
غَيْرَ اللَّهِ .

(١) هذا التمييز بين الحكم والعلم له أهميته الكبيرة في قضية القدر .

قوله جل ذكره : ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ﴾

الابتداء للحادثات من الله بدءاً ، والانتهاه إليه عوداً ، والتوحيد ينتظم هذه المعاني ؛
فتعرف أن الحادثات بالله ظهوراً ، والله ملكاً ، ومن الله ابتداء ، وإلى الله انتهاء .

قوله جل ذكره : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَلَهُ
اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، أَفَلَا
تَعْقِلُونَ﴾

يُحْيِي النُّفُوسَ وَيُمِيتُهَا والمعنى في ذلك معلوم ، وكذلك يحيي القلوب ويميتها ؛ فموت
القلب بالكُفْرِ والجُحْد ، وحياة القلب بالإيمان والتوحيد ، وكما أن للقلوب حياة وموتاً
فكذلك للأوقات موتٌ وحياةٌ ، لحياة الأوقات بيسن إقباله ، وموت الأوقات بمحنة
إعراضه ، وفي معناه أنشدوا :

أموت إذا ذكرتكم أميا فكم أحبا عليك وكم أموت

قوله : « وله اختلاف الليل والنهار » ؛ فليس كل اختلافها في ضيائها وظلمتها ، وطولها
وقصرها ، بل ليالى المحبين تختلف في الطول والقصر ، وفي الروح والنوح ؛ فَمِنْ اللَّيَالِي
ما هو أضوأ من اللآلي ، ومن النهار ما هو أشد من الحنادس ، يقول قائلهم : ليالى بعد
الظاعنين شكول .

ويقول قائلهم :

وَكَمْ لظلام الليل عِنْدِي مِنْ تَخَبُّرٍ أَنَّ الْمَانِيَةَ تَكْذِيبُ

وقريب من هذا المعنى قالوا :

ليالى وصالٍ قد مَضَيْنَ كَأَنَّهَا لآلى عقودٍ فى نَحْوِ الكَواعِبِ
وأيامٌ هَجَرٍ أعقبتها كَأَنَّهَا بياضٌ مشيبٌ فى سوادِ الذوائبِ

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ *
 قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا
 أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ
 وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا
 أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾

سلكوا في التكذيب مسلك سلفهم ، وأسرفوا في العناد مثل سرفهم ، فأصابهم
 ما أصاب الأولين من هلاكهم وتلفهم .

قوله : « لَقَدْ وُعِدْنَا ... » كما طال عليهم وقت الحشر ، وما توعدهم به من
 العذاب بعد البعث والنشور زاد ذلك في اذيتهم ، وجعلوا ذلك حجة في كبسهم واضطرابهم ،
 فقالوا : لَقَدْ وُعِدْنَا مثل هذا نحن وآباؤنا ، ثم لم يكن لذلك تحقيق ، فما نحن إلا أمثالهم .
 فاحتج الله عليهم في جواز الحشر بما أقروا به من ابتداء الخلق :

فقال جل ذكره : ﴿ قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ
 كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ
 قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ
 السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ
 الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا
 تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ يَمْلِكُ
 كُلَّ شَيْءٍ ، وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ
 عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ
 لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾

أمره — عليه السلام — أَنْ يُلَوَّنَ عليهم الأسئلة ، وعقب كل واحدٍ من ذلك
 — مخبراً عنهم — أنهم سيقولون : لله ، ثم لم يكشف عنهم بقالتهم تلك ، بل عاتبهم على

تَجَرُّدِ قَوْلِهِمْ عَنِ التَّنْذِيرِ وَالْفَهْمِ وَالْعِلْمِ ، تَنْبِيْهَا عَلَى أَنَّ الْقَوْلَ — وَإِنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ صِدْقًا — فَلَمْ تَكُنْ فِيهِ غَنِيَّةٌ ، إِذْ لَمْ يَصْدُرْ عَنْ عِلْمٍ وَيَقِيْنٍ .

ثُمَّ نَبِّهَهُمْ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ ، وَأَنَّ الْقُدْرَةَ الْقَدِيمَةَ إِذَا تَعَلَّقَتْ بِمَقْدُورٍ لَهُ ضِدٌّ تَعَلَّقَتْ بِضَدِّهِ ، وَيَتَعَلَّقُ بِمِثْلِ مُتَعَلِّقِهِ .

وَالْمَعْجَبُ مِنْ اعْتِرَافِهِمْ بِكَمَالِ أَوْصَافِ جَلَالِهِ ، ثُمَّ تَجْوِيزِهِمْ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ الَّتِي هِيَ جُمَادَاتٌ لَا تَحْيَا ، وَلَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ .

وَيُقَالُ أَوَّلًا قَالَ : « أَفَلَا تَذْكُرُونَ » ، ثُمَّ قَالَ بَعْدَهُ : « أَفَلَا تَتَّقُونَ » ، فَقَدَّمَ التَّنْذِيرَ عَلَى التَّقْوَى ؛ لِأَنَّهُمْ بِتَذَكُّرِهِمْ يَصِلُونَ إِلَى الْغُفْرَةِ ، ثُمَّ بَعْدَ أَنْ يَعْرِفُوهُ فَانْهَمَ يَجِبُ عَلَيْهِمْ اتِّقَاءُ مُخَالَفَتِهِ . ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ قَالَ : « فَأَنَّى تُسْحَرُونَ » ؛ أَيْ بَعْدَ وَضُوحِ الْحُجَّةِ فَأَيُّ شَكٍّ بَقِيَ حَتَّى تَنْسُبُوهُ إِلَى السَّحْرِ ؟

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

بَيَّنَّ أَنَّهُمْ أَصْرَوْا عَلَى جُحُودِهِمْ ، وَأَقَامُوا عَلَى عُتُوِّهِمْ وَنُبُوِّهِمْ ، وَبَعْدَ أَنْ أُزِيحَتْ الْعِلَلُ فَلَاتُ حِينَ عَذْرِ ، وَلَيْسَ لَتَجْوِيزِ الْمُسَاهَلَةِ مُوجِبٌ بَتًّا .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ

مِنْ إِلَهٍ ﴾

اتَّخَذَ الْأَوْلَادَ لَا يَصِحُّ كَاتِمُخَاذِ الشَّرِيكِ ، وَالْأَمْرَانِ جَمِيعًا دَاخِلَانِ فِي حَدِّ الِاسْتِحَالَةِ ، لِأَنَّ الْوَلَدَ أَوْ الشَّرِيكَ يُوجِبُ لِلْمَسَاوَاةِ فِي الْقَدْرِ ، وَالصَّدِيقَةُ تَنْقُدُّ عَنْ جَوَازِ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلٌ أَوْ جَنْسٌ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ

وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سَبِيحَانُ اللَّهِ

عَمَا يَصِفُونَ • عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ

فَنَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

شكّل أمره ربيطاً باثنين فقد اتفقت منه النظام وصحة الترتيب ، وأدلة التماثل المذكور في مسائل الأصول .

« سبحان الله » تقديساً له ، وتزجيها عما وصفوه به . « عالم الغيب والشهادة » : تنزهه عن أوهم من أشرك ، وظنون من أظن .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيْنِي مَا يُوعَدُونَ ﴾ يقول إن عجلت لهم ما تنوعدم به فلا تجعلني في جملتهم ، ولا توصل إلى سوءاً مثلما توصل إليهم من عقوبتهم . وفي هذا دليل على أن الحق أن يفعل ما يريد ، ولو عذب البريء لم يكن ذلك منه ظلماً ولا قبيحاً^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن تُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴾

تدل على صحة قدرته على خلاف ما علم ؛ فإنه أخبر أنه قادر على تعجيل عقوبتهم ثم لم يفعل ذلك ، فصحت القدرة على خلاف المعلوم^(٢)

قوله جل ذكره : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾

الهمزة في « أحسن » يجوز ألا تكون للمبالغة ؛ ويكون المعنى إدفع بالحسن السيئة . أو أن تكون للمبالغة ؛ فتكون المكافأة جائزة والعفو عنها — في الحسن — أشد مبالغة .

ويقال ادفع الجفاء بالوفاء ، وجرم أهل العصيان بحكم الإحسان .

ويقال ادفع ما هو حفظك إذا حصل بما هو جنى له .

ويقال اسلك مسلك الكرم ، ولا تنجح إلى طريق المكافأة .

(١) لأن أفعال الله تعالى لا تطل بالأفراط ، إذ لا يعود عليه سبحانه من هذا أو ذاك مصلحة .
(٢) في هذا رد على المعتزلة القائلين بإنكار الصفات ، إذ يتضح أن صفة العلم متميزة عن صفة القدرة ، فالأشاهرة — ومنهم القشيري — حين يثبتون الصفات إنما يثبتون المعاني الثلاثة بذاته ، وهي معان وإن تنوعت طواري ، على الأدوات ، وإنما الذات قائمة بها .

ويقال الأحسنُ ما أشار إليه القلبُ ، والسيئةُ ما تدعو إليه النفسُ .

ويقال الأحسنُ ما كان بإشارة الحقيقة ، والسيئةُ ما كان بوساوس الشيطان .

ويقال الأحسنُ نورُ الحقائق ، والسيئةُ ظلمةُ الخلائق .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَلَّ رَبُّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ

الشیاطین ﴾ وأعوذُ بِكَ رَبُّ أَنْ

يَحْضُرُونِ ﴿

الاستعاذة — على الحقيقة — تكون بالله من الله كما قال صلى الله عليه وسلم :
« أَعُوذُ بِكَ مِنْكَ » (١) ، ولكنه — سبحانه — أراد أن تعبده بالاستعاذة به من الشيطان ،
بل مِنْ كُلِّ ما هو مُسَلِّطٌ علينا ، والحقُّ عندئذٍ يوصل إلينا مضرتنا بجرى العادة .
والأمر . . فلو كان بالشيطان من إغواء الخلق شيء لكان يُمَسِّكُ على الهداية نَفْسَهُ ! فَمَنْ
عَجَزَ عَنْ أَنْ يَحْفَظَ نَفْسَهُ كَانَ مِنْ إغواء غيره أَشَدَّ عَجْزاً ، وأنشدوا :

جحدى فيك تلبس وعقلى فيك تهويس
فمن آدم إلّاك ومن فى (...) (٢) إبليس

قوله جل ذكره : ﴿ وَحَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ

رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً

فَمَا نَزَكْتُ كَلّاً لِمَتِهَا كَلِمَةٌ هُوَ

قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى

يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿

(١) من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَأَعُوذُ بِمَعَاذِكَ مِنْ عِقَابِكَ » .
مسلم ، ومالك ، وأبو داود ، والسنن ، والترمذى .

(٢) فى م (البين) وفى م (البين) ، والبيتان للحلاج فى الطواسين ص ٤٢ وفى ديوانه (المقطعة الثامنة
والعشرون) جاءت البين ، والمعنى أن آدم الذى خلقته من طين هو سبب هلاكي فسجودى له سجوداً لفريك .
وفى البيتين بعض الفموض والسطح ، ولهذا نمجب من استشهاد القشيري بهما . ونحن نلاحظ أنه بينما لم يكتب
القشيري فى رسالته شيئاً عن سيرة الحسين بن منصور الحلاج إلا أنه طالما يستشهد بأقواله شعراً ونثراً . .
وقد علمنا لذلك فى كتابنا « الإمام القشيري وتصوفه » ط مؤسسة الحلبي .

إذا أخذ البلاء بخناقهم ، واستمكن الضرب من أحوالهم ، وعلموا ألا يحصوا ولا يحيدوا
أخذوا في التضرع والاستكانة ، ودون ما يرومون خرط القنادل ويقال لهم هلا كان عشر
عشر هذا قبل هذا ؟ ولقد قيل :

قلت للنفس : إن أردت رجوعاً فارجى قبل أن يسد الطريق
قوله جل ذكره : ﴿ فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَمَّا أَلْسَابَ
بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَنْتَسِعُونَ ﴾ .
يومئذ لا تنفع الأنساب وتقطع الأسباب ، ولا ينفع الندم ، وسيلق كل غيب ما اجترم ؛
فمن ثقلت بالظلمات موازينه لاح عليه تزيينه . ومن ظهر ما يشينه فله من البلاء فنونه ؛
تلفح وجوههم النار ، وتلمح من شواهدم الآثار ، ويتوجه عليهم الحجاج ، فلا جواب لهم
يُسْمَع ، ولا عذر منهم يُقْبَل ، ولا عذاب عنهم يُرْفَع ، ولا عقاب عنهم يُقْطَع .
قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا
وَكَانَا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ .

نطقوا بالحق ... ولكن في يوم لا ينفع فيه الإقرار ، ولا يقبل الاحتذار ،
ثم يقولون :

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا
فَاِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ .

والحق يقول : لو رُدُّوا لمعادوا لما نُهِوا عنه . علم أن رُدُّهم إلى الدنيا لا يكون ، ولكنه
علم أنه لو كان فكيف كان يكون .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا اخْسِئْنَا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَا ﴾ .
عند ذلك يتم عليهم البلاء ، ويشند عليهم العناء ، لأنهم ماداموا يذكرون الله لم يحصل
الفراق بالكلية ، فإذا حيل بينهم وبين ذكره تم لهم المحنة ، وهو أحد ما قيل في قوله
« لا يحزنهم الفزع الأكبر » (١) .

(١) آية ١٠٣ سورة الأنبياء .

وفي الخبر : أنهم ينصرفون بعد ذلك فإذا لم عواء اللهب . وبعض الناس ثثار من أحوالهم ؛ لأن الحق يقول لم : « اخسثوا فيها » ، فيقولون : ياليتنا يقول لنا أليس هو يخاطبنا بذلك ؟ وهؤلاء يقولون : قدّم الأحاب الله من مدح الأجانب ، وينشدون في هذا المعنى :

أتأتى عنك سبك لي .. فسبى أليس جرى بفيك اسمي ؟ فحسبي

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فانخذتموم سخرياً حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون * إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون * .

الحق — سبحانه — ينتقم من أعدائه بما يطيب به قلوب أوليائه ، وتلك خصومة الحق ، فيقول : قد كان قوم من أوليائي يُفصِّحون بمدحى وثنائى ، ويتصفون بمدحى وإطرائى ، فانخذتموم سخرياً ... فأنا اليوم أجازيهم ، وأنتقم ممن كان يناوهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدُدُ سَنِينَ ﴾ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فساء العاديين * قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون * .

عددُ سنين الأشياء — وإن كانت كثيرة — فقد تقصر أو تقل بالإضافة إلى ما يوفى ويُرى عليها ، كذلك مدة مقامهم تحت الأرض ؛ إن كانوا في الراحة فقد تقل بالإضافة إلى الراحة التي يلقونها في القيامة ، وإن كانت شديدة فتتلاشى في جنب ما يرونه ذلك اليوم من أليم تلك العقوبات المتوالية .

قوله جل ذكره: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا
وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ .

العَبَثُ اللُّهُو ، واللَّعِبُ والاشتغالُ بما يُلْهِى عن الحقِّ ، والله لم يأمر العبادَ بذلك ،
ولم يَدْعُهُمْ إلى ذلك ، ولم يندبهم إليه .

والعابثُ في فعله مَنْ فَعَلَهُ على غيرِ حدٍّ الاستقامة ، ويكون هازلًا مُسْتَجَلِبًا بفعله أحكامَ
اللَّهِ إلى نفسه ، متباديًا في سهوه ، مستلذًا التفرقة في قصده . وكلُّ هذا من صفات ذوى
البشرية ، والحقُّ — سبحانه — مُنزَّهٌ النَّعْتِ عن هذه الجملة ، فلا هو بفعلٍ شيء عابث ،
ولا بشيء من العَبَثِ آمِرٌ .

قوله جل ذكره: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ .

الحقُّ — بنعوت جلاله — متوحدٌ ، وفي عزٍّ آزاله وعلوٍّ أوصافه متفرَّدٌ ، فدائه حقٌّ ،
وصفاته حقٌّ ، وقوله صِدْقٌ ، ولا يتوجهُ لخلقٍ عليه حقٌّ ، وما يفعله من إحسانٍ بعباده فليس
شيء منها بمستحقٍّ^(١) .

« لا إله إلا هو ربُّ العرش الكريم » : ما تَجَلَّى بالعرشِ ، ولكنَّ تَعَزَّزَ العرشُ
بأنه أضافه إلى نفسه إضافةً خصوصية .

والكريمُ الحَسَنُ ، والكرمُ نَفْيُ الدَّعَاةِ .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ
لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ
رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ .

حسابه على الله في آجله . وعنايه من الله له في عابله ، وهو الجهل الذى أودع قلبه
حتى رَضِيَ بِأَنْ يَعْبُدَ معه غيره . وقولهم : « ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » كلامٌ

(١) معنى هذه العبارة أنه لا يجب على الله شيء في إحسانه لعباده ، فهو إذا أحسن إليهم فهذا من فضله ،
وليس نتيجة وجوب على الله أو حق للعبد .

حاصلٌ من غير دليل عقل ، ولا شهادة خبرٍ أو قتل ، فما هو إلا إفك وبهتان ، وقولٌ ليس يساعده برهان .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

اغفرُ الذنوبَ ، واسترِ العيوبَ ، وأجزِلْ المرهوب . وارحمُ حتى لا تستولى علينا هواجمُ التفرقة ونوازل الخطوب . والرحمةُ المطلوبةُ بالدعاء من صنوف النعمة ، ويسى الحاصل بالرحمة باسم الرحمة على وجه التوسع وحكم المجاز (١) .

السورة التي يذكر فيها النور

قوله جل ذكره ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .

بسم الله اسم نذيرُ الوفاةِ فُرْقَتُهُ ، اسم بشيرُ الحياة وصلته ، اسم سببُ الروح عرقته ، اسم راحةُ الروح إحسانه ، اسم كمالُ الأنس إقباله ، اسم فتنةُ قلوبِ المهيبين جماله ، اسم مَنْ شَهِدَهُ دامت سلامته ، اسم مَنْ وَجَدَهُ قامت قيامته ، اسم لا إليه حظوة ، ولا يدونه سلوة .

قوله جل ذكره : ﴿ سُوْرَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا ﴾ .

سورة هي شَرَفٌ لك — يا محمد — أنزلناها لأن أقل ما ورد به التحدى سورة (٢) ؛ فكل سورة شَرَفٌ له عليه السلام لأنها له معجزة ، بينها وشرعنا فيها من الحلال والحرام ، وبيننا (فيها من الأحكام ما) (٣) لكم به اهتداء ، وللقلوب من غمرة الاستعجاب شفاء .

أنزلنا فيها آياتٍ بيناتٍ ، ودلائلَ واضحاتٍ ، وحُجَجًا لأصحابٍ ؛ لتتذكروا تلك الآيات ، وتعتبروا بما فيها من البراهين والبينات .

(١) لأن الرحمة — في الأصل — وصف للذات ، والنعمة من صفات الفعل .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى في سورة البقرة : « وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ » ، وإلى قوله تعالى في سورة يونس : « قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مِنْ اسْتَظْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ » .

(٣) ما بين القوسين موجود في ص وغير موجود في م .

قوله جل ذكره : ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحدٍ منهما مائة جلدة ﴾ .

والعقوبة على الزنا شديدة أكيدة ، ولكن جعل إثبات أمره وتقرير حكمه والقطع بكونه على أكثر الناس خصلة عسيرة بعيدة ؛ إذ لا تقبل الشهادة عليه حتى يقول : رأيت ذلك منه في ذلك منها ؛ وذلك أمر ليس بالهين ، فسبحان من أعظم العقوبة على تلك الفعلة الفحشاء ، ثم جعل الأمر في إثباتها بغاية الكد والعناء ؛ حين اعترف واحد له بذلك قال له صلى الله عليه وسلم : لعلك قبلت .. لعلك لا مست ، وقال لبعض أصحابه : « استنكوه » (١) وكل ذلك روماً ليدرك الحد عنه ، إلى أن ألح وأصر على الاعتراف .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾

ما يأمر به الحق فالواجب مقابلته بالسمع والطوع .

والرحمة من موجب الشرع وهو الحمود ، فأما ما يقتضيه الطبع والعادة والسوء فمذموم غير محمود . ونهى عن الرحمة على من خرق الشرع ، وترك الأمر ، وأساء الأدب ، وانتصب في مواطن المخالفة .

ويقال نهانا عن الرحمة بهم ، وهو يرحمهم بحيث لا يمحو عنهم — بتلك الفعلة الفحشاء — رقم الإيمان ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » (٢) ولولا رحمته لما استبقى عليه حلة إيمانه مع قبيح جرمه ونقصانه .

(١) وردت الإشارة إلى حادث « ماعز » في هامش سبق ، وقوله « استنكوه » أي ابجوا هل في فم الجمر ، وبعدها سأله النبي للمرة الأخيرة « أرتيت ؟ فقال نعم . فأمر به فرجم » صحيح مسلم ط أولى سنة ١٩٣٠ م المصرية بالأزهر ج ١١ ص ١٩٩ .

(٢) عن أبي سلة بن عبد الرحمن وسعيد بن المسيب أنهما قالا : عن أبي هريرة أن النبي (ص) قال (لا يزني ... ولا يبرق السارق حين يبرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن) صحيح مسلم ج ٢ ص ٤١ .

قوله جل ذكره : ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

أى لِيَكُونَ عَلَيْهِمْ أَشَدُّ ، وليكونَ تخويفاً لتعاطى ذلك الفعل ، ثم من حق الذين يشهدون ذلك الموضع أن يتذكروا عظيمَ نعمةِ الله عليهم أنهم لم يفعلوا مثله ، وكيف عصمهم من ذلك . وإن جرى منهم شيء من ذلك يذكروا عظيمَ نعمةِ الله عليهم ؛ كيف سترَ عليهم ولم يفضحهم ، ولم يُقيمهم في الموضع الذى أقام فيه هذا المبتلى به . وسبيل من يشهد ذلك الموضع ألا يُعَيَّرَ صاحبه بذلك ، وألا ينسى حُكمَ الله تعالى في إقدامه على جُرمه .

قوله جل ذكره : ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً

أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا

إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ

على المؤمنين﴾

الناسُ أشْكالٌ ؛ فكلُّ نظيرٍ^(١) مع شكله ، وكلُّ يُساكنُ شكله ، وأنشدوا :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكلُّ قرينٍ بالمُقارنِ يقتدى

فأهلُ الفسادِ الفسادُ يجمعهم - وإن تباعدَ مزارُهم (وأهل السدادِ السدادُ يجمعهم -

وإن تنامت ديارهم)^(٢)

قوله جل ذكره : ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا

بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ

جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا

وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

لثلاثا يستبيحوا أعراضَ المسلمين ، ولثلاثا يهتكوا أستارَ الناسِ أمرَ بتأديبهم ، وإقامة

الحجة عليهم إذا لم يأتوا بالشهداء .

(١) هكذا في م وهى في م (وكل طير . .) وربما كانت (وكل يطير) أو (فكل طير) ، والمثل

يقول : (الطيور على أشكالها تقع) .

(٢) ما بين القوسين موجود في م وغير موجود في س .

ثم بَالَعَ في عدد الشهود، وألَّا تُقْبَلَ تلك الشهادة إلَّا بالتضرع التام ، ثم أكمله بقوله « ولا تَقْبَلُوا أَيْدِيَكُمْ عَنْ أَنْ تَشْهَدُوا أَيْدِيَكُمْ » . وفي الخبر المسند قوله عليه السلام : « مَنْ أَتَى مِنْكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْقَاذُورَاتِ فَلْيَسْتَرْ بِسِتْرِ اللَّهِ ، فَإِنَّ مَنْ أَيْدَى لَنَا صَفْحَتَهُ ، أَقْنَا عَلَيْهِ حَدُّ اللَّهِ » (١)

قوله جل ذكره ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ﴾ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿

جعل من شرط قبول شهادته صِحَّةُ توبته ، وجعل علامة صحة توبته إصلاحه ، فقال : « وَأَصْلَحُوا » ، وهو أن تأتي على توبته مدة تنشر فيها بالصلاح صفته ، كما اشتهرت بهتكت أعراض المسلمين قائله . . كل هذا تشديداً لمن يحفظ على المسلمين ظاهر صلاحه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

لما ضاق الأمر على من رأى أهله على فاحشة ، إذ أن في ذلك قبول نسب غير صحيح — فقد نهى الشرع عن استلحاقه ولداً من غيره . وكان أمراً محظوراً هناك عرض المرأة والشهادة عليها بالفحشاء ، إذ يجوز أن يكون الأمر في المغييب ؛ أي بخلاف ما يدعيه الزوج . ولأن ذلك أمر ذو خطر شرع الله حكم اللعان (٢) ليكون للخصومة قاطعاً ، وللمقدم على

(١) رواه البيهقي والحاكم عن ابن عمر بإسناد جيد باللفظ : « اجْتَنِبُوا هَذِهِ الْقَاذُورَاتِ الَّتِي نَهَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا ، فَمَنْ أَلَمَ بِشَيْءٍ مِنْهَا فَلْيَسْتَرْ بِسِتْرِ اللَّهِ ، وَلْيَتَّبِعْ إِلَى اللَّهِ ، فَإِنَّهُ مَنْ يَبْدُ لَنَا صَفْحَتَهُ نَعَمْ عَلَيْهِ كِتَابُ اللَّهِ » (ص ١٥٥ ج ١ فيض القدير شرح الجامع الصغير للناوي الطبعة الأولى سنة ١٣٥٦ هـ) .

(٢) اللعان في التسمية أن يقسم الزوج أربع مرات على صدقه في قذف زوجته بالزنا ، والخامسة باستلحاقه لعنة الله إن كان كاذباً وبذا يبدأ من حدة القذف . ثم تقسم الزوجة أربع مرات على كذبه ، والخامسة باستلحاقها لعنة الله إن كان صادقاً فتبرأ من حد الزنا . وقد نزلت آية اللعان في هلال بن أمية أو عويمر حيث قال وجدت على بطن امرأتي خولة شريك بن سحابة فكذبته ، فلا عن النبي (ص) بينهما . فإذا قذف الزوج زوجته بالزنا — وما من أهل العهدة — صح اللعان بينهما ، واختلف الفقهاء هل تقع الفرقة بينهما بالتلاعن أم بتعريق القاضي .

الفاحشة زاجراً ، ففي مثل هذه الأحوال عنها خُرْجَةٌ^(١) . ولولا أن الله على كل شيء قدير وإلا ففي عادة الناس . من الذي يهتدى ليُثَلِّ هذا الحكم لولا تهريف سماوى وأمر نبوى ، من الوحي مُتَلَقَّاهُ^(٢) ، ومن الله مُبْتَدَاهُ وإليه منتهاه ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ .

... لبقيتم في هذه الواقعة المعضلة ، ولم تهتدوا للخروج من هذه الحالة المشككة .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا نَحْسِبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ، وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

هذه قصة عائشة رضى الله عنها ، وما كان من حديث الإفك .

بَيَّنَّ اللَّهُ — سبحانه — أنه لا يُخْلِي أحداً من المحنة والبلاء ، في المحبة والولاء ؛ فالامتحان من أقوى أركانه وأعظم برهانه وأصدق بيانه ، كذلك قال صلى الله عليه وسلم « يُشَحِّنُ الرجلُ على قدر دينه » ، وقال : « أَشَدُّ النَّاسِ بِلَاءَ الْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ »^(٣) .

ويقال إن الله — سبحانه — غيورٌ على قلوب خواص عباده ، فإذا حصلت مساكنة بعضٍ إلى بعضٍ يُجَرِّى الله ما يَرُدُّ كُلَّ واحدٍ منهم عن صاحبه ، ويردُّه إلى نفسه ، وأشدوا :

إِذَا عَلِقَتْ رُوحِي شَيْءٌ ، تَعَلَّقْتُ بِهِ غَيْرُ الْأَيَّامِ كِي تَسْلُبُنِيَا

وإن النبي — صلى الله عليه وسلم — لما قيل له : أى الناس أحب إليك ؟

(١) الخرجة هي الخروج والخلاص من أمر شديد .

(٢) هكذا في م وهي في م (مستفاد) وكلامها صحيح ، ولكن الأولى أقوى مراعاة للموسيقى اللفظية ، وربما كانت (مستفاد) .

(٣) رواه الترمذى وقال حسن صحيح . . . وقد سبق تخريج هذا الحديث .

قال : عائشة . فساكنها .

وفي بعض الأخبار أن عائشة قالت : « يا رسول الله إني أحبك وأحب قريبي » . . .
فأجبري الله حديثك إليك حتى ردَّ قلب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عنها إلى الله ،
وردَّ قلب عائشة عنه إلى الله ، حيث قال — لما ظهرت براءة ساحتها : بحمد الله لا بحمدك
كشف الله عنها به تلك الحقة ، وأزال الشك ، وأظهر صديقتها وبراءة ساحتها .

ويقال إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اتقوا فراسة المؤمن فإن المؤمن ينظر بنور
الله » (١) ، فإذا كانت الفراسة صفة المؤمن فأولى الناس بالفراسة كان رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، ثم لم تظهر له بحكم الفراسة براءة ساحتها ، حتى كان يقول : « إن فعلت فتوبني » .
والسبب فيه أنه في أوقات البلاء يسدُّ الله على أوليائه عيون الفراسة إكمالاً للبلاء .
وكذلك إبراهيم — عليه السلام — لم يميز ولم يعرف الملائكة حيث قدَّم إليهم العجل
الحنيذ ، وتوهمهم أضيافاً . ولوط عليه السلام لم يعرف أنهم ملائكة إلى أن أخبروه
أنهم ملائكة .

ويقال إنه كان — صلى الله عليه وسلم — يقول لعائشة : « يا حبيراء » .

فلما كان زمان الإفك ، وأرسلها إلى بيت أبيها ، واستوحش الأبوان معها ، ومَرَضَتْ
عائشة — رضى الله عنها — من الحزن والوجد ، كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم —
إذا رأى واحداً من دار أبي بكر يقول :

كيف بينكم ؟ لا عائشة ولا حبيراء ! فما كان يطيب بالتغافل عنها ، فتعبد به — إن
لم يفهم بالتصريح — فيفقه بالتلويح .

ثم إنه — سبحانه — قال : « لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ، لكل امرئ
منهم ما اكتسب من الأثم » : فبمقدار جرمهم احتمل كل واحد ما يخصه من الوزر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

(١) الترمذی والطبرانی ، الترمذی من حدیث ابن مسعود ، والطبرانی وأبو نعیم بسند حسن عن أنس .

والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا
هذا إفكٌ مُبينٌ .

عابهم على المبادرة إلى الاعتراضِ وبَسَطِ ألسنتهم بالسوء عنها ، وترَكهم الإعراض
عن حُرْم النبي صلى الله عليه . ثم قال : وهلاً جاموا على ما قالوا بالشهادة ؟ وإذا لم يجدوا ذلك
فَهَلَّا مَكثُوا عن بَسَطِ اللسان ؟

قوله جل ذكره : **وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ**
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ
فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

لأنه أخبر أن جرْمهم — وإن كان عظيماً — فإنه في عِلْمِ الله عنهم غير مُؤَثِّر ، ولولا
أن الله — سبحانه — ينتقم لأوليائه ما لا ينتقم لنفسه فلعله لم يذكر هذه المبالغة في أمرهم ،
فإن الذي يقوله الأجانبُ والكفارُ في وصف الحق — سبحانه — بما يستحيل وجوده
وكونه يوفى ويربى على كل سوء — ثم لا يقطع عنهم أرزاقهم ، ولا يمنع عنهم أرفاقهم ،
ولكن ما تتعلق به حقوقُ أوليائه — لا سيما حق الرسول صلى الله عليه وسلم — فذاك
عظيمٌ عند الله .

قوله جل ذكره : **وَإِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسَّبْتِ كُمْ وَتَقُولُونَ**
بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ
وَتَحْسِبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ .

بَالِغٌ في الشكاية منهم لِمَا أقدموا عليه بما تأذى به قلبُ الرسول — صلى الله عليه —
وسلم — وقلوبُ جميع المخلصين من المسلمين .

ثم قال : **« وَتَحْسِبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ »** : وسبيلُ المؤمنين ألا يستصغروا في الوفاق
طاعةً ، ولا يستصغروا في الخلافِ زَلَّةً ؛ فإنَّ تعظيمَ الأمرِ تعظيمٌ للأمر . وأهل التحقيق
لا ينظرون ما ذلك الفعل ولكن ينظرون مَنْ الأمرُ به .

ويقال : يَسِيرُ الزَّلَّةُ — يلاحظها العبدُ بعين الاستحقار — فتُحْبِطُ كثيراً من الأحوال ،
وتكدرُ كثيراً من صافي المشارب .

واليسير من الطاعة — ربما يَسْتَقِيلُهَا الْعَبْدُ — ثم فيها نجاته ونجاةُ عالمٍ معه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾

استماعُ الغيبةِ نوعٌ من الغيبة ، بل مستمعُ الغيبةِ شرٌّ للغائبين ؛ إذ بسامعةِ يَتِمُّ قَصْدُ صاحبه . وإذا تَمَّحُّمٌ لِلزُّمْنِ ما هو سوءٌ قَالَةٌ فِي الْمُسْلِمِينَ — مما لاصحَّةٌ له في التحقيق — فالواجبُ الرَّدُّ عَلَى قَائِلِهِ ، ولا يكفي في ذلك السكوتُ دون النكير ، ويجب رَدُّ قَائِلِهِ بِأَحْسَنِ نَصِيحَةٍ ، وأدقِّ مَوْعِظَةٍ ، ونوعٌ تَشَاغُلٍ مِنْ إظهارِ المِشَارَكَةِ لَهُ فِيهَا بِسُطُوبٍ مِنْ تَشْرِهٍ مِنْ إِيْجَالٍ لِقَائِهِ مَوْحِشٍ ، فَإِنْ أَبَى إِلَّا أَنَّهُمَا كَأَمَّا يَقُولُ فَيُرَدُّ عَلَيْهِ بِمَا أَمْكَنَ ؛ لِأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَسْتَعْرِ قَائِلُهُ مِنْ قَوْلِهِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَعِى لِّلْمُسْتَعْمَلِ مِنَ الرَّدِّ عَلَيْهِ (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ يَعْظُمُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

يَعْلُقُ هَذَا بِأَنَّ مَنْ بَسَطَ لِسَانَهُ فِي عَائِشَةٍ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا — بَعْدَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا لظَاهِرِ هَذِهِ الْآيَةِ ، (وَلَعَمْرِي قَائِلُ ذَلِكَ مَرْتَكِبٌ كَبِيرَةٌ وَلَكِنْ لَا يَخْرُجُ عَنِ الْإِيمَانِ بِذَلِكَ) (٢) ؛ أَيْ يَنْبَغِي لِلزُّمْنِ أَلَّا يَتَكَلَّمَ فِي هَذَا ، وَهَذَا كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ : « إِذَا كُنْتُ أَخِي فَوَاسِي عِنْدَ شِدَّتِي ؛ فَلَنْ لَمْ تَوَاسِي لَمْ تَخْرُجْ عَنِ الْأُخُوَّةِ بِذَلِكَ » . . . وَمَعْنَى هَذَا الْقَوْلِ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلأَخِ أَنْ يَوَاسِيَ أَخَاهُ فِي حَالِ عَذْرَتِهِ ، وَتَرْكُ ذَلِكَ لَا يُبْطِلُ النَّسَبَ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي

(١) فِي هَذِهِ الْوَصِيَّةِ تَتَجَلَّى نَزْعَةُ الْفُشْيِ فِيهَا بِمَكْنٍ أَنْ لَسِيهِ (آدَابُ السُّلُوكِ) وَنَزْمٌ بِعَوْنِ اللَّهِ أَنْ تَجْرَ بِمَحْنٍ شَامِلًا مِنْ « عِلْمِ الْأَخْلَاقِ عِنْدَ الصَّوْلَةِ » .

(٢) مَا بَيْنَ التَّوَسُّلِينِ مَوْجُودٌ فِي سِوَاهِ مَوْجُودٍ فِي مِ ، وَالْمُبَارَاةُ هَامَةٌ فِي تَوْضِيحِ الرَّأْيِ فِي مَرْتَكِبِ الْكَبِيرَةِ ، وَرَدُّ عَلَى مَنْ يَلْصِقُونَ وَصِيَّةَ الْكُفْرِ — دُونَ حِسَابٍ — بِالْكَثِيرِ مِنَ النَّاسِ .

الدنيا والآخرة والله يعلم وأتم

لا تعلمون ﴿١﴾

هؤلاء في استحقاق الدم أقبح منزلة ، وأشد وزراً حيث أحبوا افتضاح المسلمين ،
ومن أركان الدين مظاهر المسلمين ، وإعانة أولي الدين ، وإرادة الخير لكافة المؤمنين .
والذي يؤد فتنة للمسلمين فهو شر الخلق ، والله لا يرضى منه بحاله ، ولا يؤهله لمنال
خلاصة التوحيد .

قوله جل ذكره : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن
الله رؤوف رحيم ﴾ .

كرر قوله : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته . . » ليبين للجميع أن حسن الدفع عنهم
كان بفضل ورحمته وجميل المنح لهم ، وكل يشهد حسن المنح ويشكر عليه ، وعزيز عبد
بشهادة حسن الدفع عنه فيحمده على ذلك (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات
الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان
فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾

إذا تنقّى القلب عن الوسوس ، وصفا عن الهواجس بدت فيه أنوار الخواطر ،
فإذا سما وقت العبد عن ذلك سقطت الخواطر ، وبدت فيه أحاديث الحق — سبحانه —
كما قال في الخبر : « لقد كان في الأمم محدثون فإن يكن في أمتي فعمر » . وإذا كان الحديث
منه فذلك يكون تعريفاً يبقى مع العبد ، ولا يكون فيه احتمال ولا إشكال ولا إزعاج ،
وصاحبه يجب أن يكون أميناً ، غير مظهر لیسر ما كوشف به (٢)

قوله جل ذكره : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكن
منكم من أحد أبداً ولكن الله
يزكي من يشاء والله سمیع علیم ﴾

(١) أي يكثر في الحياة من يشكر على نعمة المنح ويقل من يشكر على نعمة الدفع لأن الأولى تجري بأثر
ملوس ، والثانية تجري ولا يكاد يشعر بها المرء .
(٢) هنا نجد القشيري يطالب بالسكتان دون الإفصاح في السكتان حفظ للأمانة .

رَدَّهم في جميع أحوالهم إلى مشاهدة ما من الحق في قسمة النفع والدفع ، وحالتى السر والبسر ، والزكى^(١) من الله ، والنعمى من الله ، والآلاء من الله ، قال تعالى : « وما بكم من نعمة فمن الله » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا يَأْتِلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ﴾

محرّك في أبى بكر عرق من البشرية في وصف الانتقام من مسطح^(٢) حين شرع وخاض في ذلك الحديث ، وكان في رفق أبى بكر فقطع عنه ذلك ، وأخبر به الرسول — صلى الله عليه وسلم — وانتظر الأمر من الله في ذلك ، فأنزل الله تعالى : « وَلَا يَأْتِلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ . . . » فلم يرض من الصديق رضى الله عنه أن يتحرك فيه عرق من الأحكام النفسية والمطالبات البشرية ، فأعاد أبو بكر له ما كان يفعله في ماضى أيامه . والإحسان إلى المحسن مكافأة ، وإلى من لا يسوء ولا يحسن فضل ، وإلى الجانى فتوة وكرم^(٣) ، وفي معناه أشدوا :

وما رضوا بالعفو عن كل زلة حتى أنالوا كفته وأفادوا

قوله : « وليعفوا وليصفحوا » : العفو والصفح بمعنى ، فكررها تأكيداً .

ويقال العفو في الأفعال ، والصفح في جنایات القلوب^(٤) .

(١) الزكى والزكاء = النماء والزيادة ، وزكى الشيء = أصلحه وظهره .
(٢) مسطح ابن خالة أبى بكر ، وكان مسكيناً ، بدرىاً مهاجراً ، كان يتفق عليه أبو بكر ، فلما قرأ الرسول عليه الآية قال : بلى : أحب أن يفر الله لى ، ورد إلى مسطح نفقته رغم ما خاض في عائشة رضى الله عنها .

(٣) يمكن أن يضاف هذا الشاهد إلى الباب الذى عقده القشبرى « للفتوة » في رسالته .
(٤) نعرف من القشبرى أنه لا يتحسس كثيراً للقول بأن القرآن تكرر ، لأجل ذلك نراه يسرع إلى التمييز بين العفو والصفح عقوب ذكره أنهما بمعنى .

قوله جل ذكره : ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

هذا من كمال تعلقه — سبحانه . وفي الخبر : أن الله لما أنزل هذه الآية قال أبو بكر — رضى الله عنه : « بلى ، أَرِحْ يارب » ، وعفا عن مسطح . وإن الله لا يغادر في قلوب أوليائه كراهة من غيرهم ، وأنى بالكراهة من أن يخلق والمتفرق بالإيجاد الله ؟! وفي معناه أنشدوا :

وَبُ رَامٍ لِي بِأَحْجَارِ الْأَذَى لَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنَ الْعُطْفِ عَلَيْهِ
فَعَسَى أَنْ يَطْلُعَ اللَّهُ عَلَى قَدَحِ الْقَوْمِ فَيُدْنِيَنِي إِلَيْهِ

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ

الْغَافِلَاتِ لِلزُّمَنِاتِ كُنُوا فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

بالغ في توعده لم حيث ذكر لفظ اللعنة في شأنهم .

وَوَصَفَ الْمُحْصَنَاتِ بِالْغَفْلَةِ : أى بالغفلة عما يُنْسَبُ إليه ، فليس الوصف على جهة الذم ، ولكن لبيان تباعدهن عما قيل فيهن .

واستحقاقُ الْقَذْفَةِ لِلْعِنَةِ — في الدنيا والآخرة — يدل على أنه لشوم زلتهم تنغير عواقبهم ، فيخرجون من الدنيا لا هلى الإسلام^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ

وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

تشهد عليهم أعضاؤهم بما عملوا من غير اختيار منهم ، ثم كما تشهد بعض أعضائهم عليهم تشهد بعض أعضائهم لهم ، فالعين كما تشهد : أنه نَظَرَوْنِي ، تشهد بأنه بكى بى .. وكذلك سائر الأعضاء .

(١) عن ابن عباس رضى الله عنه : من أذنب ذنباً ثم تاب منه قبلت توبته إلا من خاض في أمر عائشة . وهذا تعظيم ومبالغة في أمر الإفك .

ويقال شهادة الأعضاء في القيامة مؤجلة ، وشهادتها في المحبة اليوم مُعجلة ؛ من صُفوة الوجه إذا بدا المحبوب ، وشحوب اللون ، ونحافة الجسم ، والسكاب الدموع ، وخفقان القلب ، وغير ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾

يجازيهم على قدر استحقاقهم ؛ للعابدين بالجنان والثبوة على توفية أعمالهم ، وللمعارفين بالوصلة والقربة على تصفية أحوالهم ؛ فهؤلاء لم يعلو الدرجات ، وهؤلاء لم الألس بعزير للشاهدات ودوام للناجاة .

« ويعلمون أن الله هو الحق المبين » : فتصير المعرفة ضرورة ؛ فيجدون المعاناة من النظر وتذكره ، ويسريج القلب من وصفي تردده وتغيره : (لاستغناؤه ببصائر عن تبصره)^(١) .

ويقال لا يشهدون غداً إلا الحق ؛ فهم قاعون بالحق للحق مع الحق ، يبين لهم أسرار التوحيد وحقائقه ، ويكون القائم عنهم ، والآخذ لهم منهم من غير أن يردّهم إليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ﴾

« الخبيثات » : من الأعمال وهي المحظورات « للخبيثين » : من الرجال المؤثرين لهاطوعاً ، والذين ينجحون إلى مثل تلك الأعمال فهم لها ، كلٌ مربوطٌ بما يليق به ؛ فالفاعل لائقٌ بفاعله ، والفاعل بفعله في الطهارة والقنطرة ، والنفاسة والخساسة ، والشرف والسرف .

ويقال « الخبيثات » : من الأحوال ؛ وهي الحظوظ والتمني والشهوات لأصحابها والساعين لها . والساعون لمثلها لها ، غير ممنوع أحدهما من صاحبه ، فالصفة للموصوف ملزمة ، والموصوف لصفته ملزم .

(١) هكذا في اللسختين ، ويكون مراد القشيري أنه لم يد مجال للتبصر فقد أصبح اليهود عيانا ، وتحققت لهم الرؤية البصرية التي لم ينالوها في الدنيا ، ونفهم أن القشيري لا يرى الرؤية العيانية إلا في الآخرة .

ويقال « الخبيثات » : من الأشياء للخبيثين من الأشخاص ، وهم الراضون بالنازل السحيقة
... وإن طعام الكلاب الجيف .

ويقال « الخبيثات » : من الأموال — وهي التي ليست بحلال — لمن بها رتبته ، وعليها
تتكف همته ؛ فالخبيثون من الرجال لا يميلون إلا لمثل تلك الأموال ، وتلك الأموال لا تساعد
إلا مثل أولئك الرجال .

قوله جل ذكره : ﴿ والطيبات للطيبين والطيبون
للطيبات ﴾ .

« الطيبات » : من الأعمال هي الطاعات والقرب للطيبين ، والطيبون هم المؤثرون لها
والساعون في تحصيلها .

« والطيبات » : من الأحوال — وهي تحقيق المواصلات بما هو حق الحق ، بُجَرْدًا عن
الخطوط — « للطيبين » من الرجال ، وهم الذين تمت هممتهم عن كل مبتذل خسيس ، ولهم نفوس
تسوق إلى المعالي ، وهي التجلُّ بالتذلل لمن له العِزَّة .

ويقال الطيبات من الأموال — وهي التي لانكسر للشرع عليها ، ولا منة لخلق فيها —
للطيبين من الرجال ، وهم الأحرار الذين تخلصوا من رِق الكون .

ويقال « الطيبات » من الأشخاص وهن المُبَرَّات من وهج الخطر ، المتنقيات عن سفاسف
أخلاق البشرية ، وهن التعرّيج في أوطان الشهوات — « للطيبين » من الرجال الذين هم قائمون
بحق الحق ، لا يصحبون الخلق إلا للتعفُّف ، دون استجلاب الشهوات .

﴿ لهم مغفرةٌ ورزقٌ كريمٌ ﴾

لهم مغفرةٌ في المال ، ورزقٌ كريم في الحال وهو ما ينالون من غير استشرافٍ ، ولا تطلب
طعم ، ولا ذل منة^(١) ، ولا تقديم تعب^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتًا غير

(١) أي (منة) من خلق .

(٢) (التعب) الذي ينشأ عن الاستعجال وعدم التفويض ونقص الثقة .

بيوتكم حتى تسألوا وتسألوا
على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم
تذكرون ﴿

الخواص لا يرون لأنفسهم مئسكاً يتفردون به ؛ لأمين الأموال المنقولة ولا من المساكن
التي تصلح لأن تكون مدخولة ، فمن فاتهم بشيء منها فلا يكون منهم منع ولا زجر ،
ولا حجب لأحد ولا حظر . . هذا فيما نيط بهم . أما فيما ارتبط بغيرهم فلا يتعرضون لمن هم
في أيديهم ؛ لا باستشراف طمع ، ولا بطريق سؤال ، ولا على وجه انبساط^(١) . فإن كان حكم
الوقت يقتضي شيئاً من ذلك فالحق يلجئ من في يده الشيء ليحيله إليه بحكم التواضع والتقرب ،
والولي يأخذ ذلك بنعت التعزير ، ولا يليق معنى ذلك إلا بأحوال تلك القصة^(٢) ، وأنشد بعضهم
في هذا المعنى :

وإني لأستحي من الله أن أرى أسيراً بخيل ليس منه بعير
وأن أسأل المرء اللثيم بعيره وبعرات ربّي في البلاد كثير

قوله جل ذكره : ﴿ فإن لم تجدوا فيها أحداً
فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ﴾

في هذا حفظ أمر الله وحفظ حرمة صاحب الدار ؛ لأن من دخلها بغير إذن صاحبها
ربما تكون فيها عورة منكشفة ، وربما يكون لصاحب الدار أمر لا يريد أن يطلع عليه
غيره ، فلا ينبغي أن يدخل عليه من غير استئذان .

﴿ وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو
أزكى لكم والله بما تعملون عليم ﴾ .

(١) يقول السري السقطي في مثل هذا السياق : « أمرف طريقاً مختصراً قصداً إلى الجنة . فقيل له
ما هو ؟ فقال : لا تسأل من أحد شيئاً ، ولا تأخذ من أحد شيئاً ، ولا يكن معك شيء تعطى منه أحداً
« الرسالة ص ١١ » .

(٢) أي بأرباب الطريق الصوي

إن قيل لكم : ارجعوا .. فارجعوا ؛ فقد تكون الأعذار قائمة ، وصاحب الملك
بملكه أولى .

قوله جل ذكره : ﴿ ليس عليكم جناح أن تسخروا
بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم
والله يعلم ما تبدون
وما تكتمون ﴾ .

رَفَعَ اللهُ الجُنَاحَ والخُرُوجَ في الانتفاع بما لا يُسْتَضَرُّ به صاحبه بنير إذنه ؛ كدخول
أرضٍ لداخلٍ فيها أغراضٌ لقضاء حاجته — ولا يجد طريقاً غير ذلك — إذا لم يكن
في دخوله ضررٌ على صاحبها ، وجرى هذا مجرى الاستغلال بظل حائطٍ إذا لم يكن قاعداً
في ملكه ، وكانظر في المرأة المنصوبة في جدار غيره .. وكل هذا إنما يُستباح بالشرع دون
قضية العقل — على ما توهمه قوم .

قوله جل ذكره : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم
ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى
لهم إن الله خبير بما يصنعون ﴾ :

« يغضوا » : من أبصار الظواهر عن المحرمات ، ومن أبصار القلوب عن الفكر الرديّة ،
ومن تصوير الغائبات عن المعاينة^(١) ، ولقد قالوا : إن العين سبب الحزن ، وفي معناه أشدوا :
وأنت إذا أرسلت طرفك رائداً لقلبك — يوماً — أتعبت المناظر
وقالوا : مَنْ أرسل طرفه اقتضى حثفه .

وإن النظر إلى الأشياء بالبصر يوجب تفرقة القلوب .
ويقال إن العدو إبليس يقول : قوسى القديم ومنهى الذى لا يخطئ النظر . وأرباب

(١) ربما يقصد القشيري أن ينهى عن إلهام فكرة النظر بالعين في الأمور الغيبية ، وبمعنى آخر النهي
عن إخضاع كل شيء للحس ، فطبيعة الغيبات تختلف عن ذلك ؛ وإلا كنت كمن يحاول عبور الماء فوق جواد ،
أو يعبر اليابسة وهو في سفينة — على حد تعبير جلال الدين الرومي في سياق مماثل .

المجاهدات إذا أراحوا صَوْنَ قلوبهم عن الخواطر الردية لم ينظروا إلى المحصّات — وهذا أصلٌ كبيرٌ لهم في المجاهدة في أحوال الرياضة (١) .

ويقال قرَنَ اللهُ النهى عن النظر إلى المحارم بذكر حفظ الفرجِ فقال : « ويحفظوا فروجهم » تنبيهاً على عَظَمِ خطَرِ النظر ؛ فإنه يدعو إلى الإقدام على الفعل .

ويقال قومٌ لا ينظرون إلى الدنيا وهم الزُّهاد ، وقومٌ لا ينظرون إلى السكون وهم أهل العرفان ، وقومٌ هم أهل الحفاظ والهيبة كما لا ينظرون بقلوبهم إلى الأغيار لا يرون نفوسهم أهلاً للشهود ، ثم الحق — سبحانه — يكشفهم من غير اختيارٍ منهم أو تعرضٍ أو تكلف .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَنْضُبْنَ مِنْ

أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ

وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا

وَلِيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾

المطالبةُ عليهن كالمطالبة على الرجال لشمول التكليف للجنسين ، فالواجبُ عليهن تركُ المحظورات ، والندبُ والنفلُ لمن صون القلب عن الشواغل والخواطر الردية ، ثم إن ارتقين عن هذه الحالة فالتعاضد بقلوبهن عن غير المعبود ، والله يختص برحمته من يشاء .

قوله : « ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها » : ما أباح الله — سبحانه — على بيان مسائل الفقه فمستثنى من الحظر ، وما وزاء ذلك فالواجبُ عليهن حفظُ أنفسهن عن العقوبات في الآجل ، والتصاوت عن أن يكون سبباً لفتنة قلوب عباده . والله سبحانه كما يحفظ أوليائه عما يضرهم في الدين يصونهم عما يكون سبباً لفتنة غيرهم ، فإن لم يتصل منهم نفعٌ بالخلق فلا تصيبُ أحداً بهم فتنةٌ .

وفي الجملة مافيه زينة العبد لا يجوز إظهاره ؛ فكما أن للنساء عورةً ولا يجوز لهن إبداء زينتهن فكذلك من أظهر للخلق ما هو زينة سرّائه (٢) من صفاء أحواله ، وزكاه أعماله

(١) سقطت (الرياضة) من النسخة من .

(٢) هنا يجدد القشيري رأيه بدقة في قضية الإفصاح والكتمان . فالأصل عنده الكتمان ، فإذا افصح العبد فلا يكون ذلك إلا لا اضطرار ويكون عندئذ غير مؤاخذ لأنه بعيد عن التعمل والتكلف .

انقلبَ رَيْنُهُ شَيْنًا ، إلا إذا ظهر على أحدٍ شيءٌ — لا بتعمله ولا بتكلفه — فذلك مستثنى لأنه غير مؤاخذٍ بما لم يكن يتصرّفه وتكلفه ، فدوات المحارم على تفصيل بيان الشريعة يُستثنى حُكْمُهُنَّ عن الحظر (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوِ النَّاصِبِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ
الرِّجَالِ أَوِ الطُّفُلِ الَّذِينَ لَمْ يَنْظُرُوا
عَلَى حُورَاتِ الْفَسَاءِ ﴾

تُراعى في جميع ذلك آدابُ الشرع في الإباحة والحظر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّةَ الْمُؤْمِنِينَ
لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴾

التوبة الرجوعُ عن المذموماتِ من الأفعال إلى أضرارها الحمودة ، وجميع المؤمنين مأمورون بالتوبة ، فتوبةٌ عن الزَّلَّةِ وهي توبة العوام ، وتوبةٌ عن الغفلة وهي توبة الخواص .
وتوبةٌ على محاذرة العقوبة ، وتوبةٌ على ملاحظة الأمر .

ويقال أمر الكافة بالتوبة ؛ العاصين بالرجوع إلى الطاعة من المعصية ، والمطيعين من رؤية الطاعة إلى رؤية التوفيق ، وخاصّ النّخاص من رؤية التوفيق إلى مشاهدة الموفق .

ويقال أمر الكل بالتوبة لئلا ينجل العاصي من الرجوع بانفراده .

ويقال مساعدة الأقوياء مع الضعفاء — رفقا بهم — من أمارات الكرم .

ويقال في قوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴾ يتبين أنّه أمرهم بالتوبة لينتفعوا هم بذلك ، لا ليكون للحق — سبحانه — بتوبتهم وطاعتهم تجميلٌ .

ويقال أحوج الناس إلى التوبة مَنْ تَوَهَّم أَنَّهُ لَيْسَ بِحَاجٍ إِلَى التَّوْبَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ

(١) يصلح هذا نموذجاً (للقياس) إن أردنا بحث ما استنبأه (الفقه الصوفي) .

مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا
فُقَرَاءُ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ
وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾

إذا كان القصدُ في المناكحة التأديبَ بآداب الشرع يكفي الله ببركاته مطالبات النفس والطبع ، وإنما يجب أن يكون القصدُ إلى التعفُّفِ ثم رجاء نسلٍ يقوم بحقِّ الله (١) .
قوله : « إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءُ يُغْنِهِمُ اللَّهُ فِي مِنْ فَضْلِهِ : يُغْنِيهِمُ اللَّهُ فِي الْحَالِ ، أَوْلَا بِالنَفْسِ ثُمَّ غَنَى الْقَلْبُ ، وَغَنَى الْقَلْبُ غَنَى عَنِ الشَّيْءِ ، فَالْغَنَى عَنِ الدُّنْيَا أَتَمُّ مِنَ الْغَنَى بِالْدُّنْيَا .
ويقال إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءُ فِي الْحَالِ يُغْنِيهِمُ اللَّهُ فِي الْمُسْتَأْنَفِ وَالْمَالِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَيْسَتَعْتَفِفِ الدِّينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا
حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾

مَنْ تَقَاصَرَ وَسَعَهُ عَنِ الْإِنْفَاقِ عَلَى الْعِيَالِ فَلْيَصْبِرْ عَلَى مِقَاسَةِ التَّحْمِلِ فِي الْحَالِ ، فَقَدْ قَرِيبٌ نَجِيْبُهُ نَفْسُهُ إِلَى سَقُوطِ الْأَرْبِ ، أَوْ الْحَقِّ — سُبْحَانَهُ — بِجُودِ عَلَيْهِ بِتَسْهِيلِ السَّبَبِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَلَا تُخْلُو حَالُ الْمُتَعَفِّفِ عَنْ هَذِهِ الْوُجُوهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ بِمَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ
فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ
الَّذِي آتَاكُمْ ﴾

أَيُّ إِنْ تَمَكَّنَتْ نَفُوسُكُمْ بِإِزَالَةِ الرُّقِّ عَنْ الْمَالِيكَ — الَّذِينَ هُمْ فِي الدِّينِ إِخْوَانُكُمْ —
مِنْ غَيْرِ عَوَظٍ تَلَاخِظُونَ مِنْهُمْ فَلَنْ تَخْسَرُوا عَلَى اللَّهِ فِي صِفَتِكُمْ . وَإِنْ أُبَيِّتُمْ إِلَّا الْعَوَظُ
وَدَعُوا إِلَى الْكِتَابَةِ ، وَعَلِمْتُمْ بِغَالِبِ ظَنِّكُمْ صِحَّةَ الْوَفَاءِ بِمَالِ الْكِتَابَةِ مِنْ قِبَلِهِمْ فَكَاتِبُوهُمْ (٢) ،

(١) كذلك دعا الأنبياء وبيهم حين طلبوا الذرية .

(٢) المكتوبة أن يقول لملوكه : « كاتبتك على ألف درهم » مثلاً ؛ فإن أداها عتق ، ومنهاها كتبت عليك بالوفاء وكتبت على بالعتق ، ويجوز أداء المال حالا ومؤجلاً ومنجماً وغير منجم لإطلاق الأمر .

ثم تعاونوا على تحصيل المقصود بكل وجه ؛ من قدر يحط من مال الكتابة ، وإعانة لم من فروض الزكاة^(١) ، وإمهال يقدر ما يحتمل المكاتب ليكون ترفها له .

وإذا كنا في الشرع مأمورين بكل هذا الرقي حتى يصل المملوك المسكين إلى عتقه فبالحرى أن يسوِّى الرجاء إلى الله بحميل الظن أن يُعتق العبد من النار بكثرة تضرعه ، وقديم سعيه — بقدر وسعه — من عناء قاساه ، وفضل من الله — عن قديم — رجاء^(٢) .

ثم في الخبر : « إن المكاتب عبدٌ ما بقى عليه درهم » : والعبد يسعى بجهد ليصل إلى تحرر قلبه ، وما دام تبقى عليه بقية من قيام الأخطار وبقية من الاختيار وإرادة شيء من الأغيار فهو بكامل رقه وليس في الحقيقة بحرٌ .. فالمكاتب عبدٌ ما بقى عليه درهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِياتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ
إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لَتَبْتَغُوا عَرَضَ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَنْ يُكْرِهْنَّ فَإِنَّ
اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴾ .

حاملُ العاصي على زلته ، والداعي له إلى عثرته ، والمعين له على مخالفته تتضاعف عليه العقوبة ، وله من الوزر أكثر من غيره ، وبعبارة لو كان الأمر في الطاعة والإعانة على العبادة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ
وَمَثَلًا لِمَنْ الذِّينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ
وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

(١) إشارة إلى قوله تعالى في أسهم الزكاة : (وفي الرقاب) وعند الشافعي — رحمه الله — حطوا من بدل الكتابة ربما .

(٢) للسني كلام لطيف يصلح لتوضيح مقصد القشيري حيث يقول : العابد كالعبد فهو يشتري نفسه من ربه بتجوم مرتبة ليسعى في فسك رقبته خوفا من البقاء في رتبة اليهودية وطمعا في فتح باب الحرية ليسرح في رياض الجنة ، فطيه في اليوم والليلة خمس ، وفي المائتي درهم خمسة ، وفي السنة شهر ، وفي العمر زورة ؛ إشارة إلى الصلاة والزكاة والصوم والحج على الترتيب .

'لم يفادر على وجه الدليل غُبْرَةً^(١) ، ولم يترك الحق - سبحانه - للإشكال محلاً ؛ بل أوضح المنهاج وأضاء السراج ، وأثار السبيل وألاح الدليل ، فَمَنْ أراد أن يستبصر فلا يلحقه نَصَبٌ ، ولا يمسّه تعب .

قوله جل ذكره : ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾

أى هادى أهل السموات والأرض ، ومنه نورها . والذي منه الشيء يسمى باسمه الشيء . ومنه نور السموات والأرض خَلْقاً ؛ فنظام السموات والأرض وإحكامها وترتيبها بوصف إتقانها حاصل بالله تعالى .

ويقال نور السموات والأرض أى منورها وخالق ما فيها من الضياء والزينة ، وموجد ما أودعها من الأدلة اللامحة .

ويقال نور الله السماء بنجومها فقال : « وزينا السماء الدنيا بمصابيح »^(٢) فكذلك زين القلوب بأنوار هى نور العقل ونور الفهم ونور العلم ونور اليقين ونور المعرفة ونور التوحيد^(٣) ، فلكل شيء من هذه الأنوار مطرح شعاع بقدره فى الزيادة والنقصان .

قوله جل ذكره : ﴿ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾

للمصباح فى زجاجة الزجاج كأنها كوكب دريى يؤقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم .

قوله « مثل نوره كمشكاة .. » : أراد بهذا نور قلب المؤمن وهو معرفته ، فشبه صدره

(١) الغبرة = لطح الغبار . (٢) آية ١٢ سورة فصلت .

(٣) نلفت النظر إلى أهمية هذا الترتيب فى توضيح مراحل المعرفة عند الصوفية وهى تتدرج فى الضياء من السراج إلى النجم إلى القمر إلى البدر إلى الشمس إلى تحس الشمس .

بالمشكاة ، وشبه قلبه في صدره بالقنديل في المشكاة ، وشبه القنديل — الذي هو قلبه — بالكوكب الدرّي ، وشبه إمداده بالمعرفة بالزيت الصافي الذي يمدّ السراج في الاشتعال . ثم وصف الزيت بأنّه على كمال إدراك زيتونه من غير نقصان أصابه ، أو خلل مسّه . ثم وصف ذلك الزيت — في صفوته — بأنه بحيث يكاد يضيء من غير أن تمسه نار .

ويقال إن ضرب اللثل لمعرفة المؤمن بالزيت أراد به شريعة المصطفى — صلى الله عليه وسلم — ودينه الحنيفي ، فما كان يهودياً — وهم الذين قبلتهم إلى جانب المغرب ، ولا نصرانياً — وهم الذين قبلتهم في ناحية المشرق .

وقوله : « نور على نور » : نور اكتسبوه بجهدهم بنظرهم واستدلالهم ، ونور وجدوه بفضل الله فهو بيان أضافه إلى برهانهم ، أو عيان أضافه إلى بيانهم ، فهو نور على نور .

ويقال أراد به قلب محمد — صلى الله عليه وسلم — ونور معرفته موقد من شجرة هي إبراهيم عليه السلام ، فهو صلى الله عليه وسلم على دين إبراهيم .

قوله : « لاشرقية » بحيث تصيبه الشمس بالمشي دون الغداة ، ولا غربية بحيث تصيبه الشمس بالغداة دون المشي ، بل تصيبه الشمس طول النهار ليتم نضج زيتونه ، ويكمل صفاء زيتيه . والإشارة فيه أنه لا ينفرد خوف قلوبهم عن الرجاء فيقرب من اليأس ، ولا ينفرد رجائهم عن الخوف فيقرب من الأمن ، بل هما يتبدلان ؛ فلا يغلب أحدهما الآخر ؛ تقابل هيبتهم أنسهم ، وقبضهم بسطهم ، ومحوهم محوهم ، وبقاؤهم فناءهم ، وقيامهم بأداب الشريعة تحققهم بجوامع الحقيقة ^(١) .

ويقال « لاشرقية ولا غربية » : أي أن همهم لا تسكن شرقياً ولا غربياً ، ولا علوياً ولا سفلياً ، ولا جنياً ولا إنسياً ، ولا عرشاً ولا كوسياً ، سطعت ^(٢) عن الأكوان ، ولم تجد سبيلاً إلى الحقيقة ، لأن الحق منزّه عن اللحوق والدرك ، فبقيت عن الحق منفصلة ، وبالحق غير

(١) فالقلب بين أصابع الرحمن يلقبه بين طرق الأحوال حتى يصفوه .

(٢) هكذا في م وهي في م (سطعت) وربما قبلناها بالسباق لا يرفضها .

متصلة^(١) ؛ وهذه صفة الغرباء . . وإن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ .

ويقال نور القلب: ثم موجه هو دوام الانزعاج فلا يذره يعرج في أقطار الكسل ، فيصل سيرة يسراه في استعمال فكره ، والحق يمد : بنور التوفيق حتى لا يصد عنه عوارض الاجتهاد شيء من حب رياسته ، أو ميل لسوء ، أو هواة . فإذا أسفر صبح غفلته ، واستمكن النظر من موضعه حصل العلم لا محالة . ثم لا يزال يزداد يقيناً على يقين مما يراه في معاملته من القبض والبسط ، والمكافأة والمجازاة في زيادة الكشف عند زيادة الجهد ، وحصول الوجد عند أداء الورد .

ثم يمد نور المعاملة ، ثم نور المنازلة ، ثم متنوع نهار المواصلة . وشمس التوحيد مشرقة ، وليس في سماء أسرارهم سحب ولا في هوايا ضباب ، قال تعالى : « نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء » .

ويقال نور المطالبة يحصل في القلب فيحمل صاحبه على المحاسبة ، فإذا نظر في ديوانه ، وما أسلفه من عصيانه يحصل له نور المعاينة ، فيعود على نفسه باللائمة ، ويتجرع كأسات ندمه ، فيرتقى عن هذا باستدامة قصده ، والتحقق عما كان عليه في أوقات فترته . فإذا استقام في ذلك كوشف بنور المراقبة ؛ فيعلم أنه — سبحانه — مطلع عليه . وبعد هذا نور المحاضرة وهي لوائح تبدو في السرائر . ثم بعد ذلك نور المكاشفة وذلك بتجلي الصفات . ثم بعده نور المشاهدة فيصير ليلاً نهاراً ، ونجومه أقداراً ، وأقاربه يدوراً ، وبدوره شمساً . . ثم بعد هذا أنوار التوحيد ، وعند ذلك يتحقق التجريد بخصائص التفريد ، ثم مالا تتناوله عبارة ولا تتركه إشارة ، فالعبارات — عند ذلك — خرس ، والشواهد طمس ، وشهود الغير عند ذلك محال^(٢) . عند ذلك : « إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سُيِّرَت ، وإذا المشار عطلت »^(٣) ، « وإذا السماء انشقت ، وانفطرت . . »

(١) هذا نموذج للتصوف الإسلامي الحق الذي لا تشوبه شائبة حلول أو اتحاد أو امتزاج ، فالرب رب العبد عبد ، ولا تداخل بينهما .

(٢) لأنه لا وجود عندئذ للغير والسوى ، فقد فنى العبد عن نفسه وعن الغير الله تماماً فناء ذوقها شهودياً ، لا فناء طبيعياً كما هو الشأن في بعض التصوفات الأخرى .

(٣) سورة التكوير .

فهذه كلها أقسام السكون . وما من العدم لم صار إلى العدم . القائم عنهم غيرهم ، والكائن عنهم سواهم . وجلت الأحدية وعزت الصمدية ، وتقدست الديمومية ، وتنزهت الإلهية .

قوله جل ذكره : ﴿ فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ

فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ

وَالْآصَالِ ۚ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ

وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ

الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۚ

للمساجد بيوته — سبحانه — وإن الله أذن أن تُرْفَعَ الخواص في بيوتها إليه فيقضيتها ، ورَفَعَ أقدار تلك البيوت على غيرها من الأبنية والآثار . المساجد بيوت العبادة والقلوب بيوت الإرادة ؛ فالعابد يصل بمعباده إلى ثواب الله ، والقاصد يصل بأرادته إلى الله . ويقال القلوب بيوت المعرفة ، والأرواح مشاهد المحبة ، والأسرار محال المشاهدة .

قوله : « يسبح له فيها بالغدو . . . » لم يقل : لا يتجرون ولا يشترون ولا يبيعون ، بل قال : لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، فإن أمكن الجمع بينهما فلا بأس — ولكنه كالتعذر — إلا على الأكابر الذين مجرى عليهم الأمور وهم عنها مأخوذون^(١) .

ويقال هم الذين يؤثرون حقوق الحق على حظوظ النفس .

ويقال إذا سمعوا صوت المؤذن : حتى على الصلاة تركوا ما هم فيه من التجارة والبيع ، وقاموا لأداء حقه .

ويقال هم الخواص والأكابر الذين لا يشغلهم قوله : « هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم » عن التحقق بذكره من غير ملاحظة عوَضٍ أو مطالعة سبب .

قوله جل ذكره : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ

وَالْأَبْصَارُ ۚ

(١) هذا رأى حاسم في مدى وجوب السعي من أجل الرزق على طوائف أرباب الأحوال وتقدير الموقف من يعززون عن ذلك .

أقوامٌ ذلك اليومُ مؤجَّلٌ لهم ، وآخرون: ذلك لهم مُعَجَّلٌ وهو بحسب ما هم فيه من الوقت ؛
فإن حقيقة الخوف تَرَقُّبُ العقوبات مع مجارى الأنفاس .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

مَنْ رَفَعَ الْحِسَابَ مِنَ الْوَسْطِ يَرْفَعْهُ مَعَهُ الْحِسَابُ ^(١) ، وَمَنْ هُوَ فِي أَسْرِ مَطَالِبَاتِهِ فَالْوَزْنُ
يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ .

والرزقُ بغير حسابٍ في أرزاق الأرواح ، فأما أرزاقُ الأشباحِ فمحصورةٌ معدودةٌ ؛
لأن أرزاقَ الأشباحِ حظوظٌ ؛ وهى وجودُ أفضالٍ وفنونٍ نوالٍ . وما حَصَرَهُ الوجودُ مِنْ
الحوادثِ فلا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ عَلَيْهِ الْعَدَدُ ، وأما مكاشفةُ الأرواحِ بشهودِ الجمالِ والجلالِ فذلك
على الدوام .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ
بَقِيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى
إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ، وَوَجَدَ
اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابًا ، وَاللَّهُ
سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

وقال تعالى : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ ^(٢) ، وقال : ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى
شَيْءٍ ﴾ ^(٣) . وَمَنْ أَمَلَ السَّرَابَ شَرَابًا فَلَا يَلْبَثُ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّهُ كَانَ تَخْيِيلًا ؛
فَالْعَطَشُ يَزْدَادُ ، وَالرُّوحُ تَدْعُو لِلخُرُوجِ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوْ كُظُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجَىٰ يَفْشَاهُ ﴾

(١) وبما يعتمد القشيري من هذه العبارة أولئك الذين يعبثون الله لذاته دون حساب في العلاقة لثواب
أو عقاب ، ويتأيد ذلك بقوله في العبارة التالية (ومن هو في أسر مطالباته . .) أى من ابتغى العوض ؛
لأنه يكون على حد تعبير راهبة كالأجير السوء .

(٢) آية ١٠٤ سورة الكهف .

(٣) آية ١٨ سورة المجادلة .

مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ
 سَحَابٌ ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ
 بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكُنْ
 يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يُجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا
 فَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿١﴾

ظلماتُ الحسبان ، وغيومُ التفارقة ، وليالي الجحدر ، وحناسُ الشكِّ إذا اجتمعت
 فلا سراجَ لصاحبها ولا نجوم ، ولا أقارَ ولا شمسَ .. فالويلُ ثم الويلُ !

قوله : « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » : إذا لم يسبق لعبده نورُ القسمة ،
 ولم يساعده تعلقُ فجهده وكده ، وسعَّيه وجده عقيمٌ من ثمراته ، موئسٌ من نيلِ بركاته .
 والبداياتُ غالبيةٌ للنهايات ؛ فالقبولُ لأهله غيرُ مُحْتَكَبٍ ، والردُّ لأهله غيرُ مَكْتَسَبٍ .
 وسعيدٌ مَنْ سَعِدَ بالسعادة في عِلْمِهِ في آذانه ، وأراد كونه ما عِلِمَ من أفعاله يكون ، وأخبر
 أن ذلك كذلك يكون ، ثم أجرى ذلك على ما أخبر وأراد وعِلِمَ ^(١) .

وهكذا القول في الشقاوة ؛ فليس لأفعاله عِلَّةٌ ، ولا تتوجهُ عليه لأحدٍ حُجَّةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ
 فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالطَّيْرُ
 صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ
 وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾

التسبيح على قسمين : تسبيحُ قولٍ ونطقٍ ، وتسبيحُ دلالةٍ وخلقٍ ؛ فتسبيحُ
 الخلقِ عامٌ من كلِّ مخلوقٍ وعينٍ وأثرٍ ، منه تسبيحُ خاصٌ بالحيوانات ، وتسبيحُ خاصٌ
 بالمقلاء وهذا منقسم إلى قسمين : تسبيحُ صادرٌ عن بصيرة ، وتسبيحُ حاصلٌ من غير
 بصيرة ؛ فالذي قرينته البصيرة مقبولٌ ، والذي تجردَ عن العرفان مردودٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾

(١) هذا شرح جميل لفكرة التشبُّه عن : « الله خالقُ أفعال العباد » التي هي إحدى أصول عقيدته الكلامية .

الملك مبالغة من الملك ، والملك القدرة على الإيجاد ، فالقدورات — قبل وجودها —
للخالق مملوكة ، كذلك في أحوال حدوثها بعد عديمها عائدة إلى ما كانت عليه ، فملكه
لا يحدث ولا يزول ولا يؤول شيء منه إلى البطول .

قوله جل ذكره: ﴿وَالْمَنَ تَرَىٰ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَعَابًا ثُمَّ
يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكْلًا فَتَرَى
الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنْزِلُ مِنْ
السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ
بِهِ مَن يَشَاءُ وَيُضْرِقُهُ عَنْ يَشَاءٍ
يَكَادُ سَنَآ بَرَقَهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ *
يَقْلَبُ اللَّهُ الْقِيلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ۝﴾ .

تعرّف إلى قلوب العلماء بدلالات صنّعه في بديع حكمته ، وبما يدل منها على كمال قدرته ،
وشمول علمه وحكمته ، ونفوذ إرادته ومشيبته . فَمَنْ أُنِمَ النَّظَرُ وَصَلَ إِلَى بَرْدِ الْبَقِيْنِ ، وَمَنْ
أَعْرَضَ بَقِيَ فِي وَهْدَةِ الْجَحْدِ وظلمات الجهل .

ترتفع بقدرته بخارات البحر ، وتصعد بتسييره ^(١) وتقديره إلى الهواء وهو السحاب ، ثم يُديرها إلى سمت يريد أن ينزل به المطر ، ثم ينزل ما في السحاب من ماء البحر قطرة قطرة ، ويكون الماء قبل حصول بخارات البحر غير مذبذب فيقلبه عذباً ، ويسحبه السحاب سحبا ، فيوصل إلى كل موضع قدراً يكون له مراداً معلوماً ، لا بالجهد من المخلوقين بئسك أو ينزل ، ولا بالحيلة يستنزل على المكان الذي لا يُنظره ^(٢) .

« يُقْبَلُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » : وكذلك جميع الأغيار من الرسوم والآثار . . . فلك تقدير العزيز العليم .

(١) وبما كانت في الأصل (بتيسره) وكلاما مقبول في السياق .
(٢) نفي الجهد والحيلة من أمارات الاعتماد على التقدير وإسقاط التدبير

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَهُمْ
مَنْ يَمْشِي عَلَى بَاطِنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي
عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى
أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾

يريد خلق كل حيوان من ماء ، يخرج من صلب الأب وتربية (١) الأم . ثم أجزاء الماء
متساوية متماثلة ، ثم ينقسم إلى جوارح في الظاهر وجوارح في الباطن ، فيختص كل عضو
وينفرد كل شئ (٢) بنوع من الهيئة والصورة ، وضرب من الشكل والبنية . ثم اختلاف
هيئات الحيوانات في الريش والصوف والوبر والظفر والحافر والمخلب ، ثم في القامة والمنظر ،
ثم انقسام ذلك إلى لحم وشحم وجلد وعظم وسن ونخ وعصب وعروق وشعر .
فالنظر في هذا — مع العبرة به — يوجب سجود البصيرة وقوة التحصيل .

قوله جل ذكره : ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ
يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ ﴾
الآيات بيّنة ولكن الله يهدي إليها قوماً ويلبس على آخرين ، والذي سُدَّ بصره أنى
ينفعه طلوع الشمس والنجوم ؟ وكذلك الذي سُدَّتْ بصيرته أنى تنفعه شواهد العلوم
ودلائل الفهم ؟ وقالوا في معناه :

وما انتفع أخى الدنيا بمقلته إذا استوت عينه الأنوار والظلم

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا
ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾

(١) وردت (تربية) والصواب أن تكون (تربية) الأم وهي عظمة الصدر مما يلي الترقوتين والجمع
نرائب .
(٢) الشلو = العضو .

يستسلمون في الظاهر ويُقرُّون باللسان ، ، ثم المخلص يبقى على صدقه .
والذي قال تخوف سيف المسلمين ، أو لِقَرَضٍ له آخر فاسد يتولى بعد ذلك ، وينحاز
إلى جانب الكفَّة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ
بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾
علموا أن افتضاحهم في حكم نيتهم ، فمن علم أنه قاسط في خصومته لم يَطِبْ نفساً بحُكْمِهِ .
وكذلك المريبُ يَهْرَبُ من الحق ، ويجتهد في الفرار ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ يَكُنْ لِمِ الْحَقِّ يَأْتُوا إِلَيْهِ
مُذْعِرِينَ ﴾ .

منقادين يميلون مع الهوى ، ولا يقبلون حُكمه إيماناً . وكذلك شأن المريض الذي يميل
بين الصحة والسقم ؛ فأرباب النفاق مترددون بين الشك والعلم ، فليس منهم نَفْيٌ بالقطع
ولا إثباتٌ بالعلم ، فهم منطوِّحون في أودية الشك ، وهذا معنى قوله :

﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ
يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .
فلما انخرطوا في سلك التجويز ما حصلوا إلا في ظلم الشك ، ولما لم يكن لهم يقين
في القلب لم يكن معهم لأهل القلوب ذكر .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا
إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ
أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ
هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

(١) ذكر الواحدى في « أسباب النزول » ص ٢٢١ أن هذه الآية نزلت في بشر المنافق وخصمه
اليهودى حين اختصما في أرض ، فجعل اليهودى يجره إلى رسول الله (ص) ليحكم بينهما ، وجعل المنافق
يجره إلى كعب بن الأشرف ويقول : إن محمداً يحيف علينا . إلخ .

الذين إيمانهم حقيقةً بحكم التصديق شأنهم قيامهم بإظهار ماضنوه من التحقيق .
ومن يُقَابِلُ أمر الله بالطاعة ، ويستقبل حُكْمَهُ بالاستخداء .. فأولئك هم الصادقون
في الحقيقة ، السالكون في الطريقة ، الآخذون بالوثيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ كَلِمَةَ
أَمْرِهِمْ لِيَخْرُجُنَّ قُلُوبُ لَا تُقْسِمُوا
طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ
بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

أقسموا بالله غاية اليمين ، ووعدوا من أنفسهم الطاعة لو أمرهم بالخروج في المستقبل ،
فقال : لا تَعِدُوا بما هو معلوم منكم ألا تفوا به ؛ فطاعة في الوقت أولى من تسويف بالوعد .
ثم قال : قُلْ يَا مُحَمَّدُ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. فإن أجابوا سَعِدُوا في الدارين ،
وأحسنوا إلى أنفسهم . وإن تَوَلَّوْا عن الإجابة فما أضرُّوا إلا بأنفسهم ويكون الندم في المستقبل
عليهم ، وسوف يَلْقَوْنَ سوء عواقبهم ، وليس على الرُّسُلِ إلا حُسْنُ الْبَلَاغِ . ويومَ الْحَشْرِ
يُعْطَى كُلُّ أَحَدٍ كِتَابَهُ ، وَيُعَامَلُ بِمَقْتَضَى حِسَابِ نَفْسِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ
كَأَنَّهُمْ سَيُلَاحِظُونَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ قَبْلِهِمْ
وَلَيَسْكَنَنَّ لَهُمْ دِينُهُمُ الَّذِي ارْتَضَى
لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا
يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ،
وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ ﴾ .

وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَكَلَامُهُ صَدَقٌ ، والآية تدل على صحة الخلفاء الأربعة لأنه — بالإجماع —

لم يتقدمهم في الفضيلة — إلى يومنا — أحد^(١) ؛ فأولئك مقطوع بإمامتهم ، وصدق وعد الله فيهم ، وهم على الدين للرضى من قبل الله ، ولقد آمنوا بعد خوفهم ، وقاموا بسياسة المسلمين ، والذَّبُّ عن حوزة الإسلام أحسن قيام .

وفي الآية إشارة إلى أئمة الدين الذين هم أركان المِلة ودعائم الإسلام ، الناصحون لعباده ، المهادون مَنْ يسترشد في الله ؛ إذ الخلل في أمر المسلمين من الولاة الظلمة ضرره مقصور على ما يتعلق بأحكام الدنيا ، فأما حفاظ الدين فهم الأئمة من العلماء وهم أصناف :

قوم هم حفاظ أخبار الرسول عليه السلام وحفاظ القرآن وهم بمنزلة الخزانة ، وقوم هم علماء الأصول الرادون على أهل العناد وأصحاب البدع بواضح الأدلة ، وهم بطارقة الإسلام وشجعائه .

وقوم هم الفقهاء المرجوع إليهم في علوم الشريعة من العبادات وكيفية المعاملات وما يتعلق بأحكام المصاهرات وحكم الجراحات والديات ، وما في معاني الأيمان والندور والدعوى ، وفصل الحكم في المنازعات وهم في الدين بمنزلة الوكلاء والمتصرفين في الملك .

وقوم هم أهل المعرفة وأصحاب الحقائق وهم في الدين كخواص الملك وأعيان مجلس السلطان ؛ فالدين معصور بهؤلاء — على اختلافهم إلى يوم القيامة .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مَعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ .

إنَّ الباطل قد تكون له دولة ولكنها تخيل — وما لذلك بقاء — وأفلُّ لُبّاً من عارض يشأ عن الغيظ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَ أَذِنُكُمُ الدِّينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ

(١) في م بعدها (وما بعدم مختلف فيهم) .

يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَاتٍ مِنْ
قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ... ﴿١﴾

ضَيْقُ الْأَمْرِ مِنْ وَجْهٍِ وَوَسْعُهُ مِنْ وَجْهٍِ ، وَأَمْرٌ بِمِرَاعَاةِ الْإِحْتِيَاظِ وَحَسَنِ السِّيَاسَةِ لِأَحْكَامِ
الدِّينِ وَمِرَاعَاةِ أَمْرِ الْحُرْمِ ، وَالتَّحَرُّرِ مِنْ مَخَافِ الْفِتْنَةِ ، وَإِذَا كَانَتْ الْجَوَانِبُ مُحْرَسَةً صَارَتْ
الْمَخَافُ مَأْمُونَةً.

قوله جل ذكره : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ
نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ
يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ
وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

يحدث تأثيرٌ بالمضرة لبنات الصدور من دواعي الفتنة واستيلاء سلطان الشهوة ؛ فإذا
سكنت تلك الثائرة سهل الباب ، وأبيحت الرخص وأمنت الفتنة .

قوله جل ذكره : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى
الْمَرْحُومِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ
حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا
مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ ﴾ .

إذا جاءت الأعذار سهل الامتحان والاختيار ، وإذا حصلت القرابة سقطت الحشمة ،
وإذا صدقت القرابة انتفت التفرقة والأجنبية ؛ فبشهادة هذه الآية إذا انتفت هذه الشروط
صحَّت المباسطة في الارتفاق .

(١) ذكر ابن عباس أن الرسول (ص) وجَّه غلاماً من الأنصار يقال له مدلج بن عمرو إلى عمر
ابن الخطاب رضي الله عنه وقت الظهيرة ليدعوه ، فدخل فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته ذلك ، فقال :
يا رسول الله : وددت لو أن الله تعالى أمرنا ونهانا في حال الاستئذان ، فنزلت هذه الآية .
وقال مقاتل نزلت في أسماء بنت مرثد حين دخل عليها علام كبير في وقت كرهته فشكت إلى رسول الله .
فأنزل الله هذه الآية .

(٢) بنات الصدور تعبير بالكناية عن الأسرار والخواطر .

ثم قال : « أو صديقكم » : وعزيزٌ من يصدقُ في الصداقة ؛ فيكون في الباطن كما يرى في الظاهر ، ولا يكون في الوجه كالمرآة ومن وراءك كالتقراض ، وفي معناه ما قلت :

مَنْ لِي بَعْدَ يَثْقُ الْفَوَادُ بَوْدُهُ فَإِذَا تَرَحَّلَ لَمْ يَزِغْ عَنْ عَهْدِهِ
يَا بَوْسَ نَفْسِي مِنْ أَخٍ لِي بِأَذَلِّ حَسَنَ الْوَفَاءِ بَوَعْدِهِ لَا تَقْدِيهِ
يُؤَلِّي الصَّفَاءَ بِنُطْقِهِ لَا خُلُقَهُ وَيَدْسُ صَابًا فِي حَلَاوَةِ شَهْدِهِ
فَلِسَانُهُ يَبْدِي جَوَاهِرَ عَقْدِهِ وَجَنَانُهُ تَغْلِي مَرَاجِلُ حَقْدِهِ
لَا مُمَّ إِنِّي لَا أَطِيقُ مِرَاسَهُ بَكَ أَسْتَعِينُ مِنَ الْحُسُودِ وَكَيْدِهِ

(وقوله : « أو صديقكم » مَنْ تُوْمَنُ مِنْهُ هَذِهِ الْخُصَالُ وَأَمْثَالُهَا)^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

السلامُ الأمانُ ، وسبيلُ المؤمن إذا دخل بيتاً أن يُسلمَ من الله على نفسه ؛ أي يطلب الأمانَ والسلامةَ من الله لِتَسْلَمَ نفسه من الإقدام على ما لا يرضاه الله ، إذ لا يحل لمسلمٍ أنْ يفتَرَ لحظةً عن الاستجارة بالله حتى لا يرفع عنه — سبحانه — ظِلَّ عِصْيَتِهِ ؛ بإدامة حِفْظِهِ عن الاتصاف بمكروه في الشرع^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنْ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَوْمُنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ

(١) ما بين القوسين موجود في م وغير موجود في م .

(٢) في هذه الإشارة غمز بأصحاب البدع الذين يرتكبون ما يخالف الشرع بدهوى الوله والانحما

لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنُ لِمَنْ شِئْتَ
 مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
 رَحِيمٌ

شرطُ الانبعاث موافقةُ المتبوعِ ، وألا يتفرقوا فيصبروا أحزاباً كما قال : « محسبهم جميعاً وقلوبهم شتى » (١) والعلماء وِرَّةُ الأنبياء ، والمريدون لشيخوهم كالأمّةِ لنبيِّهم ؛ فشرطُ المريدِ ألا يَنفَسَ يَنفَسَ إلا بإذن شيخه ، ومن خالفَ شيخه في نفسٍ — سرّاً أو جهراً — فإنه يرى غيبه سريعاً في غير ما يُحبّه . ومخالفةُ الشيوخ فيها يستسرونه (٢) عنهم أشدّ مما يظهر بالجهر بكثير لأن هذا يلتحق بالحيّاة . ومن خالفَ شيخه لا يَشُمُّ رائحةَ الصّدقِ ، فإن بدّرَ منه شيء من ذلك فعليه بسرعة الاعتذار والإفصاح عما حصلَ منه من المخالفة والحيّاة ، ليَهْدِيَه شيخه إلى ما فيه كفارةُ جرّمه ، ويلتزم في الغرامة بما يحكم به عليه . وإذا رجع للمريدُ إلى شيخه بالصدق وجبَ على شيخه جبرانَ تقصيره بهتة ؛ وإن المريدَ ينالُ على الشيوخ ؛ فريضَ عليهم أن يُثَفِّقُوا عليهم من قوّة أحوالهم بما يكون جبراً لتقصيرهم .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّوْنَ مِنْكُمْ إِذَا ذُكِرَ ﴾

أى عَظُمُوهُ فِي الْخُطَابِ ، واحفظوا في خدمته الأدبَ ، وعانقوا طاعته على مراعاةِ الهيبة والتوقير .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ (٣)
 أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ
 عَذَابٌ أَلِيمٌ

(١) آية ١٤ سورة الحشر .

(٢) في م (يستسرونه) وفي م (يستسرونه) ونحن نؤيد هذه حتى تتلاءم مع (ما يظهر بالجهر) فيلتزم السباق بها .

(٣) يقال خالفه عن الأمر إذا صد عنه دونه .

سعادة الدارين في متابعة السنة ، وشقاوة المنزّلين في مخالفة السنة . ومن أيسر ما يُصيب
من خالف سنته حرمانُ الموافقة ، وتعدُّرُ المتابعة بعده ، وسقوطُ حشمة الدارين عن قلبه .

قوله جل ذكره : ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَالِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ^(١)

إِلَيْهِ فَيَنْتَبِهُنَّ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ

شَيْءٍ عَلِيمٌ^(٢)﴾

إنَّ لليوم غداً ، ولما يفعلُ العبدُ حساباً ، وسيُطالبُ المكلفُ بالصغيرِ والكبيرِ ،
والنقييرِ والتطهيرِ .

سورة الفرقان

قوله جل ذكره : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

بسم الله اسم جليل شهدته بجلاله أفعاله ، ونطقته بجماله أفضاله . دلّت على إثباته آياته ،
وأخبرت عن صفاته مفعولاته .

بسم الله اسم عزيز عُرِفَتْ بفعله قدرته ، اسم كريم شهِدَتْ بفضله نصرته .

بسم الله اسم عزيز عَرَفَهُ العقلاء بدلالات أفعاله ، وعَرَفَهُ الأصفياء باستحقاقه لجلاله
وجلاله ، فبلطف جماله عرفوا جودَه ، وبكشف جلاله عرفوا وجودَه .

بسم الله اسم عزيز مَنْ دَعَاهُ لِبَاءً ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ ، وَمَنْ تَوَسَّلَ إِلَيْهِ أَكْرَمَهُ
وَأَوَاهُ ، وَمَنْ تَنَصَّلَ إِلَيْهِ^(٣) رَجَّاهُ وَأَدْنَاهُ ، وَمَنْ شَكَا إِلَيْهِ أَشْكَاهُ^(٤) ، وَمَنْ سَأَلَهُ خَوَّلَهُ وَأَعْطَاهُ .

(١) وفي قراءة (يَرْجَعُونَ) بفتح الباء وكسر الجيم .

(٢) يروي أن ابن عباس رضى الله عنه قرأ سورة النور على المنبر في الموسم وفسرها على وجه لو سمعت

الروم به لأسلمت

(٣) تنصل إليه هنا معناها تبرأ من ذنبه وتاب .

(٤) أشكى أى قبل الشكاة وأعان الشاكي .

قوله جل ذكره : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ
لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾

يقال بركة الطير على الماء إذا دام وفوقه على ظهر الماء . ومبارك الإبل مواضع إقامتها
بالليل . وتبارك على وزن تفاعل تفيد دوام بقاءه ، واستحقاقه لِقَدَمِ ثبوته وبقاء وجوده
لا عن استفتاح ولا إلى انقطاع .

وفي التفاسير « تبارك » أى تعظم وتكبر . وعند قوم أنه من البركة وهى الزيادة
والنفع ، فدوامه وجوده ، وتكبره مستحق ذاته لصفاته العلية ، والبركة أو الزيادة تشير
إلى فضله وإحسانه ولطفه .

فوجوه الثناء عليه تنحصر بهذه الأوجه الثلاثة : ثناء عليه بذكر ذاته وحقه ، وثناء بذكر
وصفه وعِزِّه ، وثناء بذكر إحسانه وفضله ؛ فكلمة « تبارك » جمع الثناء عليه — سبحانه .
« الذى نزل الفرقان » وهو القرآن « على عبده » : فأكرمه بأن نبأه وفضله ،
وإلى الخلق أرسله ، وبَيَّنْ مُعْجَزَتَهُ وأماره صدقه بالقرآن الذى عليه أنزله ، وجعله بشيراً
ونذيراً ، وسراجاً منيراً .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

تَفَرَّدَ بِالْمُلْكِ فلا شريك يساهمه ، وَتَوَحَّدَ بِالْجَلَالِ فلا نظير يُقَاسِمُهُ ؛ فهو الواحد
بلا قسيم فى ذاته ، ولا شريك فى مخلوقاته ، ولا شبيه فى حقه ولا فى صفاته .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ
شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ
لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ
مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾

اتخذوا من دون الله آلهة لا يملكون قطميراً ، ولا يخلقون فقيراً ، ولا يدفعون عنهم

كثيراً ولا يسيراً ، ولا ينفعونهم ولا يُسْهَلُون عليهم عسيراً ، ولا يملكون لأحدٍ موتاً^(١)
ولا نُشوراً .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا
إفكٌ افتراه وأعاناه عليه قومٌ آخرون
فقد جاءوا ظُلماً وزوراً ﴾ * وقالوا
أساطيرُ الأولين اكتتبها فهي
تملى عليه بُكْرَةً وأصيلاً * قل
أنزله الذى يعلم السِّرَّ فى السمواتِ
والأرضِ إنه كان غفوراً رحيماً ﴾

ظنُّوه كما كانوا ، ولما كانوا بأمنائهم قد استعانوا فيما عجزوا عنه من أمورهم ، واستحدثوا
لأمنائهم واستكانوا — فقد قالوا من غير حُجَّةٍ وتَقَوُّلٍ ، ولم يكن لقولهم تحصيل ، ولأساطيرُ
الأولين تُرْهَنُهُم^(٢) التى لا يُدرى هل كانت ؟ وإن كانت فلا يُعرفُ كيف كانت
ومتى كانت ؟

ثم قال : يا محمد ، إن هذا الكتاب — الذى أنزله الذى يعلم السِّرَّ فى السموات
والأرض — لا يَقْدِرُ أحدٌ على الإتيان بمثله ولو تشاغلوا^(٣) من الوقت الذى أتى به أعداء
الدين ، وهم على كثرتهم مجتهدون فى معارضته بما يوجب مساواته ، فادَّعوا تكذيبه . وانقطعت
الأعصار وانقضت الأعمار ، ولم يأتِ أحدٌ بسورة مثله ، فانتفى الرِّيبُ عن صدِّقه ، وَوَجَبَ
الإقرارُ بحقِّه .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا ما لِهَذَا الرسولِ يأكلُ الطَّعامَ

(١) هكذا فى م وهى فى ص (حياه ولا نُشورا) والمعنى يتقبلها أيضاً .
(٢) هكذا فى م وهى فى ص (برهانهم الذى ...) ولكننا آثرنا (ترهانهم) بدليل التأنيث فى (كانت) مكرراً .
(٣) هكذا فى ص وهى فى س (ولو تشاغلوا) .

وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ
 مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى
 إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ
 يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن
 تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْخُورًا *
 انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ
 فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا *
 تَبَارَكَ الَّذِي (١) إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ
 خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ
 تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ۝

لما عجزوا عن معارضته أخذوا يعيبونه بكونه بشرًا من جنسهم يمشى في الأسواق، ويأكل الطعام، وعابوه بالفقر وقالوا: هَلَّا نَزَّلَ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ فَيُرَوْنَ حَيَاتًا؟ وهَلَّا جَعَلَ لَهُ الْكَنُوزَ فَاسْتَكْرَمَ مَالًا؟ وهَلَّا خُصَّ بِآيَاتٍ — اقترحوها — فَتَقَطَعَ الْعُدْرُ وَتُزِيلَ عَنَّا إِشْكَالًا؟ وما هذا الرجل إلا بشرٌ تعتريه من دواعي الشهوات ما يعزى غيره ١ فأى خصوصية له حتى تلزمنا متابعتة ولن يظهر لنا حجة؟ فأجاب الله عنهم وقال: إِنْ الْحَقُّ فَادِرٌ عَلَى تَمْلِيكَ مَا قَالُوا وَأَضَاعَ ذَلِكَ، وَفِي قَدْرَتِهِ إِظْهَارُ مَا اقْتَرَحُوهُ وَأَضَاعَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ لَيْسَ لَمْ هَذَا التَّخِيرُ (٢) بَعْدَ مَا أَزِيحَ الْعُدْرُ بِإِظْهَارِ مُعْجَزَةٍ وَاحِدَةٍ، وَاقْتِرَاحِ مَا يَهْوُونَ نَحْكُمُ عَلَى التَّقْدِيرِ، وَلَيْسَ لَمْ ذَلِكَ. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَوْ أَظْهَرَ تَفْصِيلَ مَا قَالُوهُ وَأَضَاعَهُ لَمْ يُؤْمِنُوا؛ لِأَنَّ حُكْمَ اللَّهِ بِالشَّقَاوَةِ سَابِقٌ لَمْ، وَقَالَ:

(١) يذكر ابن عباس أنه لما عبر المشركون محمدًا (ص) بالفاقة أقل رضوان خازن الجنة عليه وقال: يا محمد، رب العزة يقرئك السلام ويقول لك: هذه مفاتيح خزائن الدنيا مع ما لا ينتقص لك مما عنده في الآخرة مثل جناح بعوضة فقال النبي: يا رضوان لا حاجة لي فيها، لأحب إلى أن أكون عبدًا صابرًا شكورًا فقال رضوان: أصبت أصابك الله. ورفع الرسول بصره فإذا منازل فوق منازل الأنبياء وعرشهم مدعا النبي: اللهم اجعل ما أردت أن تعطيني في الدنيا ذخيرة عندك في الشفاعة يوم القيامة.

(٢) يمكن أن تكون (التعيز) لتسجم مع (ما اقترحوه) ومع (ما يهوون) ولكننا لا نستبعد أن تكون (التعيز) بالخاء لكثرة جدلهم حول ما ينبغي — في تصورهم — للرسول.

﴿بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن
كذب بالساعة سعيراً﴾ .

فهم في حكم الله من جملة الكفار ، والله أعدَّ لهم ولأمثالهم من الكفار وعيد الأبد . .
فلا محالة يُستَحْنون به .

قوله : « انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوها فلا يستطيعون سبيلاً » : دليل على جواز
التكليف بما لا يقدر عليه العبد في الحال ؛ لأنه أخبر أنهم لا يستطيعون سبيلاً ، وهم
مُعَاتَبُونَ مُكَلَّفُونَ .

قوله جل ذكره : ﴿إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَعَوْا
لَهَا تَفِيضًا وَزَفِيرًا﴾ .

فوحشة النار توجد من مسافة بعيدة قبل شهودها والامتحان بها ، ولسيم الجنة يوجد
قبل شهودها والدخول فيها ، والنار تُسَجَّرُ منذ سنين قبل المحترقين بها ، والجنة تُزَيَّنُ منذ
سنين قَبْلَ المُسْتَمْتِعِينَ بها . وكذب مَنْ أحوال^(١) وجودها قبل كون سكانها وقطانها من
المنتفعين أو المعاقبين ، لأن الصادق أخبر عن صفاتها التي لا تكون إلا بوجود حيث قال :

﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضِيقًا
نَقَرْنَ دَعْوًا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾
لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا
وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ .

راحة الجنة مقرونة بسعتها ، ووحشة النار مقرونة بضيقها ، فيُضِيقُ عليهم مكانهم ،
ويضيقُ عليهم قلوبهم ، ويضيقُ عليهم أوقاتهم . ولو كانت حياتهم تبطل وكانوا ينخلصون

(١) لهذا الرأي أهميته حيث يرى كثير من المعتزلة أن الجنة والنار لا يوجدان الآن وإنما
يوجدان في الآخرة عند الحزاء ، وأصح المعتزلة — بخلاف جهنم وحده — أنها لا تغيبان ولا يفنى
أهلها ، وم في هذا يتفقون مع الأشاعرة . أما مخالفة جهنم لذلك فقد ذكرها الشهرستاني في (الملل والنحل
ج ١ ص ١١١ ط الحانجي) بدعوى أن تلك أهل الجنة بنعيمها ونألم أهل النار بحبيسها حركات تنامي مع
أن نصوص القرآن صريحة في دوامهما . . والقشيري الأشعري يصرح بذلك في الآيات التالية .

منها لم يكن البلاء كاملاً، ولكنها آلام لا تنهى، ويحزن لا تنقضي؛ كلما راموا نرجة قيل لهم :
فلن تزيدكم إلا عذاباً .

قوله جل ذكره ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي
وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جِزَاءً وَمَصِيرًا﴾

المتقون أبداً في النعيم المقيم؛ حور وسرور وجبور، وروح وريحان، وبهجة وإحسان،
ولطف جديد وفضل مزيد، وألذ شراب وكاسات محاب، وبسط قلب وطيب حال، وكمال
أنس ودوام طرب وتعام جنك، لباسهم فيها حرير وفراشهم سندس وإستبرق، والأسماء
أسماء في الدنيا والأعيان بخلاف المعهودات فيها^(١). ثم فيها ما يشاءون، وهم أبداً مقيمون
لا يرحلون، ولا هم عنها يخرجون .

قوله جل ذكره : ﴿لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ .

ولكن لا يخلق في قلوبهم إلا إرادة ما علم أنه سيفعله، فما هو المعلوم لله أنه لا يفعله
لا تتعلق به إرادتهم، ويمنع من قلوبهم مشيئته .

قوله جل ذكره : ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُكُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي
هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ .

الله يحشر الكفار ويحشر الأصنام التي عبدوها من دون الله، فيحشيها ويقول لها :
هل أمرتم هؤلاء بعبادتكم؟ فيتبرأون . . كلاً تهويل وتعظيم للشأن، وإلا فهو عليم بما كان
وما لم يكن . فالأصنام تنبرأ منهم، وتقابلهم بالكذب، وهم ينادون على أنفسهم بالخطأ
والضلال، فيلقون في النار، ويبقون في الوعيد إلى الأبد .

قوله جل ذكره : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ
إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ
فِي الْأَسْوَاقِ﴾ :

(١) هذا تلييه هام جداً لتوضيح حقيقة النعم التي في الآخرة .

أخبر أن الدين تقدّمه من الرسل كانوا يتّراً ، ولم تكن الخصوصية لهم إلا ظهور المعجزات عليهم . وفي الجملة الفضائل بالمعاني لا بالصورة ، ثم قال :

« وجعلنا بعضكم لبعض
فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ
بَصِيرًا » .

(فُضِّلَ بعضاً على بعض ، وأمر المفضل بالصبر والرضا ، والفاضل بالشكر على العطاء) (١)
وخصّ قومًا بالبلاء وجعلهم فتنة لأهل البلاء ، وخصّ قومًا بالعوائف ، وآخرين بالأسقام والآلام ، فلا لِمَن نَمَّه مناب ، ولا لِمَن امتحنه محايب . . فبحكمه لا يجرّهم ، وبفضله لا يضلهم ، وبإرادته لا يعبأهم ، وباختياره لا بأوضاعهم ، وبأقداره لا بأوزارهم ، وبه لا بهم .

قوله : « أَتَصْبِرُونَ ؟ » استفهام في معنى الأمر ، فنحن ساعدناه التوفيق صبر وشكر ، ومن قارنه الظنلان أبي وكفر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا
أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى
رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَهَتَوْا
عُنُوقًا كَبِيرًا ﴾ .

« لا يرجون لقاءنا » : لا يؤمنون بالحشر والنشر والرجوع إلى الله في القيامة من الدنيا . وكما كانوا لا يخافون العذاب ، ولا ينتظرون الحشر كذلك كانوا لا يؤمنون لقاء الله . فَنُكِرَ الرؤية من أهل القبلة — ممن يؤمن بالقيامة والحشر — مُشَارِكٌ لهُوْلَاءِ فِي جُحْدٍ مَا وَرَدَ بِهِ الْخَبَرُ وَالنَّقْلُ ؛ لِأَنَّ النَّقْلَ نَحْمَا وَرَدَ بِكَوْنِ الْحَشْرِ وَرَدَ بِكَوْنِ الرُّؤْيَةِ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ (٢) . فالذين لم يؤمنوا قالوه على جهة رؤية المقام لأنفسهم ، وأنه مُسَلَّمٌ لهم ما اقترحوه من نزول

(١) ما بين القوسين في م وغير موجود في س .
(٢) يعود القسري بعد قليل إلى شرح موضوع الرؤية عند تفسيره الآية : « وكفى بربك هادياً ونصيراً »

الملائكة عليهم ورؤية ربهم . وذلك وإن كان في القدرة جائزاً — إلا أنه لم يكن واجباً بعد إزاحة عُدْرهم بظهور معجزات الرسول عليه السلام ، فلم يكن اقتراح ما قالوه جائزاً لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ .

اقترحوا شينين : رؤية الملائكة ورؤية الله ، فأخبر أنهم يرون الملائكة عند التوفى ، ولكن تقول الملائكة لهم : « لا بشرى لكم ! » .

« حِجْرًا مَّحْجُورًا » : أى حراماً ممنوعاً يعنى رؤية الله عنهم ، فهذا يعود إلى ما جرى ذكره ، وحمله على ذلك أولى من حمله على الجنة ، ولم يجر لها هنا ذكر . ثم فيه إشارة للمؤمنين بالرؤية لأنهم يرون للملائكة ويثرونهم بالجنة ، قال تعالى : « تنزل عليهم للملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة »^(١) فكما لا تكون للكفار بشارة بالجنة وتكون للمؤمنين لا تكون الرؤية للكفار وتكون للمؤمنين .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَدْ مَنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ .

هذه آفة الكفار ؛ ضاع سعيهم وخاب جهدهم ، وضاع عمرهم وخسرت صفتهم وانقطع رجاؤهم ، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا .

وأما أصحاب الحقائق وأرباب التوحيد فيلوح لقلوبهم من سماع هذه الآية ما يحصل به كمال رَوْحِهِمْ ، وتتأدى إلى قلوبهم من الراحة ما يضيق عن وصفه شرحهم ؛ ويتقاصر عن ثنائه نُطقهم ، حيث يسمعون قوله : « وَقَدْ مَنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا » ولقد ظهرت قيمة أعمالهم حيث قال الحق لأجله : « وَقَدْ مَنَا إِلَىٰ ... » فهم إذا سمعوا ذلك وَجَبَ لهم من الأريحية ما يشغلهم عن الاهتمام لقوله : « فَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا » ويقولون : ياليت

(١) آية ٣٠ سورة فصلت .

لنا أعمال أهل الدارين ثم لا تُقبلُ منها ذرةٌ وهو يقول بسببها : وقد منا إلى ما عملوا من عمل . . . » ١ لأنهم إذا تخلصوا من مواضع الخلل وموجبات الخجل من أعمالهم عدواً ذلك من أجل ما ينالون من الاحسان إليهم^(١) ، وفي معناه أشدوا :

سأرجع من حجٍّ طامٍ مُخْجَلًا لأنَّ الذي قد كان لا يُتَقَبَّلُ^(٢)

قوله جل ذكره : ﴿ أصحابُ الجنةِ يومئذٍ خيرٌ مستقراً وأحسنُ مقيلاً ﴾ .

أصحابُ الجنةِ هم الراضون بها ، الواصلون إليها ، والمكتفون بوجدانها ، فحسنت لهم أوطانهم ، وطاب لهم مستقرهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ويومَ تَشَقَّقُ السماءُ بالنهارِ ونُزِّلَ الملائكةُ تزيلاً ﴾ .

يريد يومَ القيامةِ إذا بدتْ أهوالُها ، وظهَرتْ للبعوثين أحوالُها عَمِلُوا وتحققوا — ذلك اليومَ — أنَّ الملكَ للرحمن ، ولم يتخصص ملكه بذلك اليوم ، وإنما علمهم ويقينهم حصل لهم ذلك الوقت .

ويقال تنقطع دواعي الأغيار ، وتنفي أوهم الخلق فلا يتجدد له — سبحانه — وصف ولكن تتلشى للخلق أوصاف ، وذلك يومٌ على الكافرين عسير ، ودليلُ الخطابِ يقتضي أنَّ ذلك اليوم على المؤمنين يسيرٌ وإلا بطل الفرق ؛ فيجب ألا يكون مؤمن إلاً وذلك اليوم يكون عليه هيناً .

قوله جل ذكره : ﴿ ويومَ يَعِضُ الظالمُ على يَدَيْهِ ﴾^(٣)

(١) هذه إشارة دقيقة غاية الدقة ، تأمل أن يظن إليها القارىء ويستمتع بها .
(٢) معنى البيت مرتبط بالفكرة الصوفية أن عمل الإنسان لا قيمة له ، والأمل كله معقود على الفضل الإلهي ، فكما استصغر العابد عبادته بجانب هذا الفضل شعر بقصوره وارتقى في التجريد والتفويض منزلة بعد منزلة . . . وفي هذا تقول رابعة بعد عبادة ليلة كاملة : إن استغفارنا في حاجة إلى استغفار .
(٣) قيل نزلت هذه الآية في أبي بن خلف ، وقد قتله الرسول (ص) يوم أحد في مبارزة ، وقيل نزلت في عقبه بن أبي معيط وكان محالفاً لأبي .

يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً * يَا وَيْلَتَا لَيتني لم ألتزم فلاتاً خليلاً * .

يندم الكافر على صحبة الكفار . ودليل الخطاب يقتضى سرور المؤمنين بمصاحبة أصدقائهم وأحبائهم في الله ، وأما الكافر فيُضِلُّ صاحبه فيقع معه في الشور ، ولكن المؤمن يهدي صاحبه إلى الرشـد فيصل به إلى السرور .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾ .

شكا إلى الله منهم ، وتلك سنة المرسلين ؛ أخبر الله عن يعقوب — عليه السلام — أنه قال : « إنما أشكو بثي وحزني إلى الله » فن شكا من الله فهو جاحد ، ومن شكا إلى الله فهو عارف واجد .

ثم إنه أخبر أنه لم يُخلِ نبياً من أنبيائه صلوات الله عليهم إلا سلط عليه عدواً في وقته ، إلا أنه لم يغادر من أعدائهم أحداً ، وأذاقهم وبال ما استوجبوه على كفرهم وغييهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾ .

كفى بربك اليوم هادياً إلى معرفته ، وغداً نصيراً على رؤيته .

ويقال آخر فتنة للمؤمنين ماورد في الخبر : أن كل أمة ترى في القيامة الصنم الذي عبدوه يتبعونه فيحشرون إلى النار ، فيُلْقَوْنَ فيها ويبقى للمؤمنون ، فيقال لهم : ماوقفكم ؟ فيقولون : إنهم رأوا معبودهم فتبعوه ونحن لم نر معبودنا ؛ فيقال لهم : ولورأيتموه . . فهل تعرفونه ؟ فيقولون : نعم . فيقال لهم : بيم تعرفونه ؟

فيقولون : بيننا وبينه علامة . فيريهم شيئاً في صورة شخص فيقول لهم : أنا معبودكم فيقولون : معاذ الله . . نعوذ بالله منك ؛ ما عبدناك . فيتجلى الحق لهم فيسجدون له .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن بُعْثَتْ جُحَّةٌ واحدةٌ كذلك رُسِّيتَ به فؤادك وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ .

أى إنما أنزلناه متفرقاً ليسهل عليك حفظه ؛ فإنه كان أمياً لا يقرأ الكتب ، ولأنه لو كان دفعة واحدة لم يتكرر نزول جبريل عليه السلام بالرسالة إليه في كل وقت وكل حين . . وكثرة نزوله كانت أوجباً لسكون قلبه وكمال رَوْحِهِ ودوام أنسه^(١) ، فجبريل كان يأتى في كل وقت بما كان يقتضيه ذلك الوقت من الكوائن والأمور الحادثة ، وذلك أبلغ في كونه معجزةً ، وأبعد عن التهمة من أن يكون من جهة غيره ، أو أن يكون بالاستعانة بمن سواه حاصلًا^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يأتونك بمثلٍ إلا جُنتَاكَ بالحقِّ وأحسنَ تفسيراً ﴾ .

كان الجواب لما يوردونه على جهة الاحتجاج لهم مفهماً ، ولفساد ما يقولونه موضحاً ، ولكن الحق — سبحانه — أجرى السُّنة بأنه لم يزد ذلك للمسلمين إلا شفاءً وبصيرةً ، ولهم إلا عَمَى وشبهة .

ثم أخبر عن حالهم في ما لهم فقال :

﴿ الذين يُحْشَرُونَ على وجوههم إلى جَهَنَّمَ أولئك شرُّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

يحشرون على وجوههم وذلك أمانة لإهانتهم ، وإن في الخبر : « الذين أمشاهم اليوم »

(١) لأنه كتاب يحمله رسول الحبيب من الحبيب إلى الحبيب .

(٢) أى أن اتصال القرآن الكريم بحياة الناس وواقع أمورهم آية كونه معجزة ؛ بعكس ما يتخرص به المضللون الملحدون الذين يدعون أن محمداً كاتب هذا القرآن ، وأنه أوتى ذكاء خارقاً كان يحمله يكتب للناس ما يلي احتياجاتهم ويحل مشاكلهم . . خرس ألسنتهم إن يقولون إلا زوراً .

على أقدامهم يُمشيهم خدّاً على وجوههم» (١)، وهو على ذلك قاهر، وذلك منه غير مستحيل.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ

وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا﴾

قلنا يجرى في القرآن لنينا — صلى الله عليه وسلم — ذِكْرٌ إلا وينذكر الله عُقْبَتَهُ موسى عليه السلام . وتكررت قصته في القرآن في غير موضع تنبيهاً على علو شأنه ، لأنه كما أن التخصيص بالذكر يدل على شرف المذكور فالتكرير في الذكر يوجب التفصيل في الوصف ؛ لأن القصة الواحدة إذا أعيدت مرات كثيرة كانت في باب البلاغة أنتم لا سببا إذا كانت في كل مرة فائدة زائدة (٢) .

ثم بين أنه قال لها :

﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ

كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَنَدْمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾

أى فَذَهَبَا فَجَحَدَ الْقَوْمُ فَدَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣) أى أهلكناهم إهلاكاً ، وفي ذلك تسلية للنبي — صلى الله عليه وسلم — فيما كان يقاسيه من قومه من فنون البلاء ، ووعد له بالجلب في أنه سيهلك أعداءه كُلَّهُمْ .

قوله جل ذكره: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَفَرُوا بِالرُّسُلِ

أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً

وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

أَحَلَلْنَا بِهِمُ الْعُقُوبَةَ كما أَحَلَلْنَا بِأَمْثَلِهِمْ ، وعاملناهم بمثل معاملتنا لقروانهم . ثم عَقَّبَ هذه الآيات بذكر عادٍ وثمود وأصحاب الرُّسُ ، ومن ذكرهم على الجملة من غير تفصيل ، وما أهلك

(١) . القسم الأول من الخبر على النحو التالي : « يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف : صنف على الدواب وصنف على أرجلهم وصنف على وجوههم » قيل يا رسول الله : كيف يحشون على وجوههم فقال عليه السلام : الذين أمصام

(٢) يضاف هذا إلى ما سبق أن نبهنا إليه عن موقف التفسيرى من التكرار .

(٣) يلتفت التفسيرى نظرنا إلى ما يعرف في البلاغة بإيجاز الحذف ، فقد اكتفى بذكر أول القصة وآخرها وقد أحسن التفسيرى حين وطأ لذلك بكلام في القصة الواحدة التي تعاد أكثر من مرة .

به قوم لوط حيث عملوا الخبائث . . . كل ذلك تطيباً لقلبه صلى الله عليه وسلم ، وتسكيناً
لِسِرِّهِ ، وإعلاماً وتعريفاً بأنه سيهلك مَنْ يُعَادِيهِ ، ويدمر مَنْ يَنَاقِيهِ ، وقد قُتِلَ مِنْ ذَلِكَ
الكثير في حال حياته ، والباقي بعد مُضِيِّهِ — عليه السلام — من الدنيا وذهابه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا
هُزُوءًا أَهْذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ
رَسُولًا ... ﴾

كانت تكون له سلوة لو ذكر حاله وشكا إليه قصته ، فإذا أخبر الله وقصَّ عليه
ما كان يلاقه كان أَوْجِبَ لِلْسَّلَوةِ وأقربَ مِنَ الْأُنْسِ ، وغايةُ سلوةِ أربابِ الحزن أن يذكرُوا
لأحبائهم ما لقوا في أيام امتحانهم كما قال قائلهم :

يودُّ بأن يمشى سقيماً كَعَلَّهَا إذا سمعت منه بشكوى ترأسله
ويهنئُ للمعروفِ في طلبِ العلي لتذكُرَ يوماً عند سلمي شمله

وأخبر أنهم كانوا ينظرون إليه — عليه السلام — بين الازدراء والتصغير لشأنه ؛
لأنهم كانوا لا يعرفون قدره ، قال تعالى : « وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون »^(١) .
قوله جل ذكره : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ
تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾

كانوا يعبدون من الأصنام ما يَهْوَوْنَ ؛ يستبدلون صنماً بصنم ، وكانوا يَجْرُونَ على مقتضى
ما يقع لهم . والمؤمنُ بِحُكْمِ اللَّهِ لا يحكم نفسه ، وبهذا يتضح الفرقان^(٢) بين رجل وبين رجل .
والذي يعيش على ما يقع له فعليه هواه ، وملتحقٌ بالذين ذكرهم الحق بالسوء في هذه الآية .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ
أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ
بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

(١) آية ١٩٨ سورة الأعراف

(٢) فرق بين الشينين فرقاً وفرقانا . والفرقان البرهان والحجة ، وكل ما فُرقَ به بين الحق والباطل

كالأنعام التي ليس لها همٌ إلا في أكلية وشرية ، ومن استجلب حظوظ نفسه
فكالبهائم . وإن الله — سبحانه — خلق الملائكة وعلى العقل جبلهم ، والبهائم
وعلى الهوى فطرهم ، وبني آدم وركب فيهم الأمرين ؛ فمن غلب هواه عقله فهو شرف
من البهائم ، ومن غلب عقله هواه فهو خير من الملائكة . . كذلك قال المشايخ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ
وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا
الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ
إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾

قيل نزل الرسول — صلى الله عليه وسلم — في بعض أسفاره وقت القيلولة في ظل شجرة
وكانوا خلقاً كثيراً فمد الله ظل تلك الشجرة حتى وسع جميعهم وكانوا كثيرين ، فأنزل الله
هذه الآية ، وكان ذلك من جملة معجزاته عليه السلام .

وقيل إن الله في ابتداء النهار قبل طلوع الشمس يجعل الأرض كلها ظلاً ، ثم إذا طلعت
الشمس ، وانبسط على وجه الأرض شعاعها فكل شخص يبسط له ظل ، ولا يصيب ذلك
الموضع شعاع الشمس ، ثم يتناقص إلى وقت الزوال ، ثم يأخذ في الزيادة وقت الزوال .
وذلك من أمارات قدرة الله تعالى ؛ لأنه أجرى المادة بخلق الظل والضوء والقيء .

قوله : « ولو شاء لجعله ساكناً » : أي دائماً . « ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً » ؛ أي حال
ارتفاع الشمس ونقصان الظل .

ويقال : ألم تر إلى ربك كيف مد ظل العنابة على أحوال أوليائه ؛ فقومهم في ظل الحماية ،
وآخرون في ظل الرعاية ، وآخرون في ظل العناية ، والفقراء في ظل الكفاية ، والأغنياء
في ظل الراحة من الشكاية .

ظل هو ظل العصمة ، وظل هو ظل الرحمة ؛ فالعصمة للأنبياء عابهم السلام ثم للأولياء ،
والرحمة للمؤمنين ، ثم في الدنيا لكافة الخلائق أجمعين . ويقال قوله للنبي صلى الله عليه وسلم :
« ألم تر إلى ربك » ثم قوله : « كيف مد الظل » سترًا لما كان كاشفة به أولاً ، إجراءً للسنّة

في إخفاء الحال عن الرقيب. قال لموسى عليه السلام : « لَنْ تَرَانِي » . وقال لنبينا عليه السلام :
« أَلَمْ تَر إِلَى رَبِّكَ » وشتان ما هما !

ويقال أحياء قلبه بقوله : « أَلَمْ تَر إِلَى رَبِّكَ » إلى أن قال : « كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ » فجعل
استقلاله بقوله : « أَلَمْ تَر إِلَى رَبِّكَ » إلى أن سمع ذكر الظل . ويقال أحياء بقوله :
« أَلَمْ تَر إِلَى رَبِّكَ » ثم أفناه بقوله : « كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ » وكذا سُنُّهُ مع عبادِهِ ؛ يُرَدُّ دُحْمُ بَيْنِ
إِفْنَاءٍ وَإِبْقَاءٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا
وَالنَّوْمَ سُبَاتًا ^(١) » وجعل النهار سُورًا ^(٢) .

جعل الليل وقتاً لسكون قومٍ ووقتاً لاتزعاج آخرين ؛ فأربابُ الغفلة يسكنون في ليلهم ،
والحبون يسهرون في ليلهم إن كانوا في رَوْحِ الوصال ، فلا يأخذهم النومُ لِكَمَالِ أُنْسِهِمْ ،
وإن كانوا في ألمِ الفراق فلا يأخذهم النومُ لِكَمَالِ قَلْقِهِمْ ، فالسَّهْرُ للأحبابِ صِفَةٌ ؛ إمَّا لِكَمَالِ
السُّرُورِ أَوْ لِهَجُومِ الِهْجُومِ . ويقال جعل النومَ للأحبابِ وقتَ النَّجْلِ بما لا سبيلَ إليه
في البقطة ، فإذا رَأَوْا رَبَّهُمْ في المنامِ يُوْثِرُونَ النومُ على السَّهْرِ ^(٣) ، قال قائلهم :
وإني لَا سَتْفِي وَمَا بِي نَعْسَةٌ لَمَلَّ خِيَالًا مِنْكَ يَلْقَى خِيَالِيَا
وقال قائلهم :

رَأَيْتُ سُرُورَ قَلْبِي فِي مَنَامِي فَأُحِبُّ التَّنَفُّسَ وَالْمَنَامَا
ويقال النوم لأهل الغفلة عقوبةٌ ولأهل الاجتهادِ رحمةٌ ؛ فإن الحقَّ — سبحانه —
يُدْخِلُ عليهم النومَ ضرورةً رحمةً منه بنفوسهم ليستريحوا من كَدِّ المِجَاهِدَةِ .
قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا
بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً طَهُورًا ^(٤) »

(١) السبب = القطع . والنائم مسبوت لأنه انقطع عمله وحركته . وقبل السبات = الموت ، والمسبوت
لميت لأنه مقطوع الحياة . وهو كقوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ » ، ويضده ذكر النشور
في مقابلته .

(٢) ذكر القشيري في باب « رؤيا القوم » برسائله أمثلة كثيرة للكرامات التي تحققت للأولياء ، أنما
نومهم ، وكان بعضها ذا تأثير عظيم في مجرى حيوانهم . (الرسالة ص ١٩٢ وما بعدها) .

يُرْسِلُ رِيَّاحَ الْكَرَمِ قَهَبَ عَلَى قُلُوبِ ذَوِي الْحَاجَاتِ قَتَرِجَهَا إِلَى طَلَبِ مَبَارَةٍ ،
وَيُرْسِلُ رِيَّاحَ الْوَلَايَةِ قَهَبَ عَلَى قُلُوبِ الْخَوَاصِّ فَتَطْهَرُهَا مِنْ جَمِيعِ الْإِرَادَاتِ فَتُسَكِّنِي بِاللَّهِ ،
وَيُرْسِلُ رِيَّاحَ الْخُوفِ عَلَى قُلُوبِ الْعُصَاةِ فَتَحْمِلُهُمْ عَلَى النَّدَمِ ، وَتَطْهَرُهَا مِنَ الْإِصْرَارِ فَتَرْجِعُ
إِلَى التَّوْبَةِ ، وَيُرْسِلُ رِيَّاحَ الْاِشْتِيَاقِ عَلَى قُلُوبِ الْأَحْبَابِ قَتَرِجَهَا مِنَ الْمَسَاكِنَاتِ ،
وَتَطْهَرُهَا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا عَنِ الْوَاوَعِجِ فَلَا تَسْتَقِرُّ إِلَّا بِالْكَشْفِ وَالتَّجَلِّيِ .

وَيَقَالُ إِذَا تَنَسَّمَ الْقَلْبُ نَسِيمَ الْقُرْبِ هَامَ فِي مَلَكُوتِ الْجَلَالِ ، وَامْتَنَحَى عَنْ كُلِّ
مَرْسُومٍ وَمَعْهُودٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ۝
لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ
مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْ آسَى كَثِيرًا
وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِيهِمْ لَآيَاتٍ كَثُرُوا
فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝ ﴾ .

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً الْمَطَرَ فَأَحْيَا بِهِ الْغِيَاضَ وَالرِّيَاضَ ، وَأَنْبَتَ بِهِ الْأَزْهَارَ وَالْأَنْوَارَ ،
وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً الرَّحْمَةَ فَفَسَلَ الْعَصَاةَ مَا تَلَطَّخُوا بِهِ مِنَ الْأَوْضَارِ ، وَمَاتَ تَدَبُّبُوا بِهِ
مِنَ الْأَوْزَارِ .

و « الطَّهُّورُ » هُوَ الطَّاهِرُ الْمُطَهَّرُ ، وَمَاءُ الْحَيَاءِ يُطَهِّرُ قُلُوبَ الْعَارِفِينَ عَنِ الْجَنُوحِ
إِلَى الْمَسَاكِنَاتِ وَمَا يَتَدَاخَلُهَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ مِنَ الْغَفَلَاتِ . وَمَاءُ الرِّعَايَةِ يُحْيِي بِهِ قُلُوبَ
الْمُشْتَاقِينَ بِمَا يَتَدَارَكُهَا مِنْ أَنْوَارِ التَّجَلِّيِ حَتَّى يَزُولَ عَنْهَا عَطَشُ الْاِشْتِيَاقِ وَيَحْصُلُ فِيهَا مِنْ
سَكِينَةِ الْاِسْتِقْلَالِ ، وَيُجِى بِهِ نَفُوسًا مَيْتَةً بِاتِّبَاعِ^(١) الشَّهَوَاتِ فَيُرْدهَا إِلَى الْقِيَامِ بِالْعِبَادَاتِ .

قوله جل ذكره ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَیَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ
نَذِيرًا ﴾

(١) الْبَاءُ فِي (بِاتِّبَاعِ) مِمَّا هِيَ (بِسَبَبِ) .

إِنَّ اللَّهَ — سبحانه — خَصَّ نَبِيَّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنْ فَضَّلَهُ عَلَى السَّكَافَةِ ، وَأَرْسَلَهُ إِلَى الْجَمَلَةِ ، وَبِأَلَّا يُنْسَخَ شَرْعُهُ إِلَى الْأَبَدِ . وَبِهَذِهِ الْآيَةِ أَذْبَهُ بِأَدَقِّ إِمَارَةٍ ، حَيْثُ قَالَ : « وَلَوْ شِئْنَا لَظَعْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا » وَهَذَا كَمَا قَالَ : « وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » (١) .

وَقَصْدُ الْحَقِّ أَنْ يَكُونَ خَوَاصُّ عِبَادِهِ أَبَدًا مَعْصُومِينَ عَنْ شَوَاهِدِهِمْ .

وَفِي الْقِصَّةِ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ تَبَرَّأَ وَقَتًا بِكَثْرَةِ مَا كَانَ يُسْأَلُ ، فَأَوْحَى اللَّهُ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ إِلَى أَلْفِ نَبِيٍّ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَصْبَحُوا رُسُلًا ، وَتَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَيْهِمْ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، فَضَاقَ قَلْبُ مُوسَى وَقَالَ : يَا رَبِّ ، إِنِّي لَا أَطِيقُ ذَلِكَ ، فَقَبِضَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ فَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾

أَيُّ كُنْ قَائِمًا بِحَقِّكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ مِنْكَ جُنُوحٌ إِلَى غَيْرِنَا أَوْ مَبَالَاةٌ بِمَنْ سِوَانَا ، فَإِنَّا نَعَصِيكَ بِكُلِّ وَجْهِ ، وَلَا نَرْفَعُ عَنْكَ ظِلًّا عَنَانَيْنَا بِحَالٍ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَّ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ .

الْبَحْرُ الْمِلْحُ لَا عَذُوبَةَ فِيهِ ، وَالْعَذْبُ لَا مِلْحَةَ فِيهِ ، وَهُمَا فِي الْجَوْهَرِيَّةِ وَاحِدٌ ، وَلَكِنَّهُ سَيِّحَانُهُ — بِقُدْرَتِهِ — غَايَرَ بَيْنَهُمَا فِي الصِّفَةِ ، كَذَلِكَ خَلَقَ الْقُلُوبَ ، بَعْضُهَا مَعْدِنُ الْبَاقِينَ وَالْعُرْفَانِ ، وَبَعْضُهَا مَحَلُّ الشُّكِّ وَالْكَفَرَانِ .

وَيُقَالُ أُثْبِتْ فِي قَلْبِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ الْخُوفَ وَالرَّجَاءَ ، فَلَا الْخُوفَ يَغْلِبُ الرَّجَاءُ ، وَلَا الرَّجَاءَ يَغْلِبُ الْخُوفُ .

(١) آيَةُ ٨٦ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ .

ويقال خَلَقَ القلوبَ على وصفين : قلب المؤمن مضيئاً (مشرقاً^(١)) وقلب الكافر
أسود مظلماً ، هذا بنور الإيمان مُزَيَّن ، وهذا بظلمة الجحود مُعَلَّم .

ويقال قلوبُ العوام في أسرِ المطالب ورغائب الحظوظ ، وقلوبُ الخواص مُعْتَقَةٌ عن
المطالب ، مُجَرَّدَةٌ عن رِقِّ الحظوظ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ
بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ
رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾

الْخَلْقُ متشاكلون في أصل الخَلْقَةِ ، متماثلون في الجوهرية ، متباينون في الصفة ، مختلفون
في الصورة ؛ فنفسُ الأعداء مطاياهم تسوقهم إلى النار ، ونفوس المؤمنين مطاياهم تحملهم
إلى الجنة . والخلقُ بَشَرٌ . . . ولكن ليس كلُّ بشرٍ كبشرٍ ؛ واحدٌ عدوٌّ لا يسقى إلا في
مخالفته ، ولا يعيش إلا بنصيبه وحظه ، ولا يحتمل الرياضة ولا يرتقى عن حدِّ الوقاحة
والخساسة ، وواحدٌ وليٌّ لا يفتقرُ عن طاعته ، ولا ينزل عن همته ، فهو في سماء
تعرزه بمعبوده .

ويبينهما للناس مناهل ومشارب ؛ فواحدٌ يكون كما قال :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ
مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ
الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾

يكتفى بالمنحوت من الخشب ، والمصنوع من الصخر ، والمُتَّخَذِ من النحاس ، وكلها
جمادات لا تعقل ولا تسمع ، ولا تضر ولا تنفع .

أما المؤمنُ فإنَّ من صفاته أَنَّهُ لا يلتفت إلى العرش — وإنَّ علا ، ولا ينقاد بقلبه
لخلقٍ — وإنَّ اتصف بمناقب لا تُحصَى

(١) وردت في م ولم ترد في س .

قوله جل ذكره : ﴿وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً﴾ .

رسولاً مبشراً ، مأموراً بالإنذار والتبشير ، واقفاً حيث وقفناك على نعت التبليغ ، غير طالب منهم أجراً ، وغير طامع في أن نَجِدَ منهم حظاً .

قوله جل ذكره : ﴿قل ما أسألكم عليه من أجرٍ

إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه

سبيلاً﴾ .

«إلا» أداة استثناء منقطع ، إذ ابتغناؤهم السبيل إلى ربهم ليس بأجر يأخذونه منهم ،

فهو لِيَنْ أَقْبَلَ بشيرٌ ، وَلِيَنْ أَعْرَضَ نذيرٌ .

قوله جل ذكره : ﴿وتوكل على الحي الذي

لا يموت﴾ .

التوكلُ تفويضُ الأمور إلى الله . وحقه وأصله عِلْمُ العبدِ بأنَّ الحادثات كلها حاصلةٌ

من الله تعالى ، وأنه لا يقدر أحدٌ على الإيجاد غيره .

فإذا عَرَفَ هذا فهو فيما يحتاج إليه — إذا عِلِمَ أن مرادَهُ لا يرتفع إلا مِنْ قِبَلِ الله —

حصل له أصل التوكل . وهذا القَدَرُ قَرَضٌ ، وهو من شرائط الإيمان ، فإن الله تعالى يقول :

«وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين»^(١) وما زاد على هذا القَدَرِ — وهو سكون القلب

وزوال الانزعاج والاضطرار — فهي أحوال تلحق بالتوكل على وجه كماله .

فإن تَقَرَّرَ هذا فالناس في الاكتفاء والسكون على أقسام ، ولكل درجة من هذه

الأقسام اسم : إما من حيث الاشتقاق ، أو من حيث الاصطلاح .

فأول رتبة فيه أن يكتفى بما في يده ، ولا يطلب زيادة عليه ، ويستريح قلبه من طلب

الزيادة . . ونسبى هذه الحالة القناعة ، وفيها يقف صاحبها حيث وقف ، ويقنع بالخاص له

(١) آية ٢٣ سورة المائدة .

والمطلوب منا أن نلاحظ دائماً ظاهرة هامة نهينا إليها في مدخل هذا الكتاب ، وهي أن التشبيري بمحاول
أولا استمداد المصطلح الصولي من كتاب الله ، (فالتوكل) الذي هو ركن هام من أركان الطريق الصولي
له أصل في القرآن . ثم تأتي من بعد ذلك مرحلة البحث في تطور هذا الأصل ونموه في بيئة المتصوفة .

فلا يستزيد . ثم اكتفاء كل واحد يختلف في القلة والكثرة ، وراحة قلوب هؤلاء في التخلص من الحرص وإرادة الزيادة .

ثم بعد هذا سكون القلب في حالة عدم وجود الأسباب ، فيكون مجرداً عن الشيء ، ويكون في إرادته متوكلاً على الله . وهؤلاء متباينون في الرتبة ، فواحد يكتفى بوعده لأنه مدّقه في ضمانه ، فيسكن — عند فقد الأسباب — بقلبه ثقةً منه بوعده ربه . . . ويسمى هذا توكلاً ، ويقال على هذا : إن التوكل سكون القلب بضمان الرب ، أو سكون الجأش في طلب المعاش ، أو الاكتفاء بوعده عند عدم نقده ، أو الاكتفاء بالوعد عند فقد النقد .

والطف من هذا أن يكتفى بعلم أنه يعلم حاله فيشتغل بما أمره الله ؛ ويعمل على طاعته ؛ ولا يراعى إنجاز ما وعده ؛ بل يكتفى بأمره إلى الله . . . وهذا هو التسليم .

وفوق هذا التفويض^(١) ، وهو أن يكتفى بأمره إلى الله ، ولا يقترح على مولاه بحال ، ولا يختار ؛ ويستوى عنده وجود الأسباب وعدمها ؛ فيشتغل بأداء ما أزمه الله ؛ ولا يفكر في حال نفسه ؛ ويعلم أنه مملوك لمولاه ؛ والسيد أولى بعبئيه من العبد بنفسه^(٢) .

فإذا ارتقى عن هذه الحالة وجدّ راحةً في المنع ؛ واستعذب ما يستقبله من الرّد . . . وتلك هي مرتبة الرضا^(٣) ؛ ويحصل له في هذه الحالة من فوائد الرضا ولطائفه مالا يحصل لمن دونه من الخلاوة في وجود المقصود .

(١) الواقع أن التشبّير هنا متأثر بالآراء الكثيرة التي أدلى بها الشيوخ في هذا الموضوع ، وعلى وجه الخصوص بشيخه الدقاق ، الذي يقول : التوكل ثلاث درجات : التوكل ثم التسليم ثم التفويض ؛ فالتوكل يسكن إلى وعده ، وصاحب التسليم يكتفى بعلمه ، وصاحب التفويض يرضى بحكمه . ويقول كذلك : التوكل بداية والتسليم واسطة ، والتفويض نهاية . ويقول كذلك : التوكل صفة المؤمنين والتسليم صفة الأولياء والتفويض صفة الموحدين . (الرسالة من ٨٥) .

(٢) يروى في هذا الباب أن جماعة سألوا الجنيد : أين نطلب الرزق ؟

فقال : إن علمتم في أي موضع هو فاطلبوه . قالوا : فنسأل الله تعالى ذلك .

فقال : إن علمتم أنه ينساكم فذكروه . فقالوا : ندخل البيت فتوكل ؟

فقال : السحرة شك قالوا : فما الحيلة ؟

فقال : ترك الحيلة (الرسالة الصفحة ذاتها) .

(٣) كذلك ربط السراج في « ليله » بين التوكل والرضا بوصفها مقامين متتاليين في مقامات الطريق

(الملح من ٧٩ من أسفل) .

وبعد هذا الموافقة ، وهي ألا يجد الراحة في المنع ، بل يجد بدل هذا عند نسيم القرب زوائد الأُتس بنسيان كلُّ أرب ، ولسيان وجود سبب أو عدم وجود سبب ؛ فكما أن حلاوة الطاعة تتصاغر عند برِّد الرضا — وأصحاب الرضا يمدون ذلك حجاباً — فكذلك أهل الأُتس بالله .. بنسيان كلِّ فقْدٍ ووجْدٍ ، وبالتغافل عن أحوالهم في الوجود والعدم يمدون النزول إلى استلذاذ المنع ، والاستقلال بلطائف الرضا نقصاناً في الحال .

ثم بعد هذا استيلاء سلطان الحقيقة فيؤخذ العبد عن جملة بالكلية ، والعبارة عن هذه الحالة أنه يحدث الخمود والاستهلاك والوجود والاصطلام والفناء .. وأمثال هذا ، وذلك هو عين التوحيد ، فعند ذلك لا أُنس ولا هيبة ، ولا لذة ولا راحة ، ولا وحشة ولا آفة .

هذا بيان ترتيبهم^(١) . فأما مادون ذلك فالتلخيص عن أحوال المتوكلين — على تباين شُرُيهم — يختلف على حسب اختلاف محالهم .

فيقال شرط التوكل أن يكون كالطفل في المهد ؛ لا شيء من قبيله إلا أن يرضعه مَنْ هو في حضاته^(٢) .

ويقال التوكل زوال الاستشراف ، وسقوط الطمع ، وفراغ القلب من تعب الانتظار .

ويقال التوكل السكون عند مجارى الأقدار على اختلافها .

ويقال إذا وثق القلب بجريان القسمة لا يضره الكسب ، ولا يقْدَح في توكله^(٣) .

ويقال عوام المتوكلين إذا أعطوا شكروا ، وإذا مُنِعُوا صبروا . وخواصهم إذا أعطوا آثروا ، وإذا مُنِعُوا شكروا .

(١) هذا الترتيب الذى ذكره القشبرى على جانب كبير من الأهمية لأنه أولاً يكشف عن التدرج في مراتب التوكل واحدة بعد الأخرى ، والدقائق النفسية المرتبطة بكل منها ، كما أنه يكشف عن مرحلة الانتقال من المقامات — التى هي جهود — إلى الأحوال التى هي من عين الخود . وواضح أن (الرضا) يحمل في طبيعته طبيعة هذه المرحلة الانتقالية ، وقد طالع القشبرى هذه الطاهرة في رسالته من ٩٧ .

(٢) القشبرى متأثر بأقوال الشيوخ في ذلك : نحو د للتوكل كالطفل لا يعرف شيئاً يأوى إليه إلا ندى أمه (الرسالة ص ٨٥ وقولهم) (الصوفية أطفال في حبر الحق) الرسالة من ١٣٩ .

(٣) هذه نقطة هامة جداً توضح أن التوكل الصوفى الحق لا يتعارض مع الكسب ، ولا يتعارض معه الكسب .. وقد كذب من ادعى التواكل وكذب من اتهم الصوفية بالتكاسل .

ويقال الحق يجود على الأولياء — إذا توكّلوا — بتيسير السبب من حيث يُحْتَسَبُ ولا يُحْتَسَبُ ، ويجود على الأصفياء بسقوط الأرب ... وإذا لم يكن الأربُ فمتى يكون الطلب ؟

ويقال التوكّل في الأسباب الدنيوية إلى حدٍّ ، فأما التوكّل على الله في إصلاحه — سبحانه — أمور آخره العبد فهذا أشدُّ غموضاً ، وأكثرُ خفاءً . فالواجبُ في الأسباب الدنيوية أن يكون الشكُّون عن طلبها غالباً ، والحركة تكون ضرورةً . فأما في أمور الآخرة وما يتعلق بالطاعة فالواجبُ البِدَارُ والجِدُّ والانكماشُ ، والخروجُ عن أوطان الكسل والجَنوحِ إلى الفشل .

والذى يَتَصِفُ بالتواني في العبادات ، ويتباطئ في تلافى ماضيه من إرضاء الخصوم والقيام بحق الواجبات ، ثم يعتقد في نفسه أنه متوَكِّلٌ على الله وأنه — سبحانه — يعفو عنه فهو مُتَّهَمٌ معلولُ الحال ، مَكْشُورٌ مُسْتَدْرَجٌ ، بل يجب أن يبذل جهده ، ويستفرغ وسعه . ثم بعد ذلك لا يعتمد على طاعته ، ولا يستند إلى سكونه وحركته ، ويتبرأ بِسِرِّهِ من حَوْلِهِ وقوَّتِهِ . ثم يكون حَسَنَ الظنِّ بربه ، ومع حُسْنِ ظنه بربه لا ينبغي أن يخلو من مخافته ، اللهم إلا أن يَغْلِبَ على قلبه ما يشغله في الحال من كشوفات الحقائق عن الفكرة في العواقب ؛ فإن ذلك — إذا حصل — فالوقتُ غَالِبٌ ، وهو أحد ما قيل في معاني قولهم : الوقت سيف^(١)

قوله جل ذكره : ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾

انتظم به الكون — والعرش من جملة الكون — ولم يتجمل الحق — سبحانه — بشيء

(١) في هذا المعنى يقول القشيري « أي كما أن السيف قاطع فالوقت بما يعضيه الحق ويجره غالب ، وكما أن السيف لين معه قاطع حده فن لاينه سلم ، ومن خاشنه اصطلم كذلك الوقت من استسلم لحكمه نجما ، ومن عارضه انتكس وتردى ، ومن ساعده الوقت فالوقت له وقت ، ومن ناكده الوقت فالوقت عليه وقت . وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول : الوقت مبرد يسحقك ولا يحققك » الرسالة ص ٣٤ .

من إظهار برِّيَّتِهِ ؛ فعلوهُ على العرش بقهره وقدرته ، واستواؤهُ بفعلٍ خص به العرش بتسوية أجزائه وصورته^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۝ ﴾ .

أقبل الحقُّ — سبحانه — بطلعه وبفضله على أقوامٍ فلذلك وجدوه ، وأعرض عن آخرين بتكبره وتعزُّزه فلذلك وجدوه ؛ فطرهم على سِمَةِ البُعْدِ ، وعَجَنَ طينتهم بماء الشقاوة والصدِّ ، فلما أظهرهم ألبسهم صدار الجهل والجحد .

قوله جل ذكره : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَرًّا مُنِيرًا ۝ ﴾ .

زَيَّنَ السماء الدنيا بمصابيح ، وخلق فيها البروج ، وبَثَّ فيها الكواكب ، وصان عن الفطور والتشويش أقطارها ومناكبها ، وأدار بقدرته أفلاكها ، وأدام على ما أراد إمساكها . وكما أثبت في السماء بروجاً (أثبت في سماء قلوب أوليائه وأصفيائه بروجاً)^(٢) ؛ فبروج السماء معدودة وبروج القلب مشهودة .

وبروجُ السماء (بيوت)^(٣) شمسها وقرها ونجومها ، وبروجُ القلوب مطالعُ أنوارها ومشارِقُ شمسها ونجومها . وتلك النجوم التي هي نجوم القلوب كالعقل والفهم والبصيرة والعلم ، وقرُّ القلوب المعرفة .

(١) كانت هذه الآية وأمثالها فرصة لأراء كلامية خطيرة سواء من ناحية استواء الله — سبحانه — على العرش ومسألة تنزهه عن السكانية ، أو من ناحية خلق الله ما بين السموات والأرض وهل المقصود بذلك خلق أفعال الإنسان . وقد ناقش الباقلاني في كتابه (التمهيد في أصول الدين) كلا الأمرين ، والواقع أن القسري — تلميذ الباقلاني — متأثر بأراء أستاذه إلى حد كبير ، وإن كان الباقلاني أقل تأويلاً للصفات الخبرية منه .

(٢) غير موجودة في م وموجودة في م .

(٣) في م (بيوت) وفي م (بيوت) وقد رجحنا هذه لأن الراجح (بيت يبنى على سور المدينة وفي أعلاها) كما جاء في المعاجم .

• قرء السماء له نقصان ومحاق ، وفي بعض الأحايين هو بدْرٌ بوصف الكمال ، وقر المعرفة
أبدًا له إشراق وليس له نقصان أو محاق ، ولذا قال قائلهم :

دع الأقارَ نخبوا أو تنير لما بدْرٌ نذلُّ له البدور

فأما شمسُ القلوب فهي التوحيد ، وشمسُ السماء تغرب ولكن شمسُ القلوب لا تغيب
ولا تغرب ، وفي معناه قالوا :

إن شمسَ النهارِ تغرب بالليل وشمسُ القلوبِ ليست تغيب

ويصحُّ أن يقال إن شمسَ النهار تغرب بالليل ، وشمسُ القلوب سلطانها في الضوء
والطلوع بالليل أتم .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خِلْفَةً
لِّمَنَ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ
شُكُورًا ﴾ .

الأوقاتُ متجاليةٌ ، وتفضيلها بعضها على بعضٍ على معنى أن الطاعة في البعض أفضل
والثوابُ عليها أكثر . والليلُ خلفُ النهار والنهارُ خلفُ الليل ، فمن وقع له في طاعة الليل
خللٌ فإذا حضر بالنهار فذلك وجودٌ جبرَّأته ، وإن حصل في طاعة النهار خللٌ فإذا حضر
بالليل ففي ذلك إتمامٌ لنقصانه .

قوله جل ذكره : ﴿ وعبادُ الرحمن الذين يمشون على
الأرضِ هَوْنًا وإذا خاطبهم الجاهلون
قالوا سلامًا ﴾ .

الذين استوجبوا رحمة الرحمن هم الذين وفقوا للطاعات ، فبرحمتِهِ وصلوا إلى التوفيق
للطاعة . وعبادُ الرحمن الذين يستحقون غداً رحمةً هم القائمون برحمتِهِ ، فبرحمتِهِ وصلوا إلى
طاعته . . هكذا بيان الحقيقة ، وبطاعتهم وصلوا إلى جنَّته . . هكذا لسان الشريعة .

ومعنى « هونا » متواضعين متخاشعين

ويقال شرطُ التواضع وحده ألا يستحسن شيئاً من أحواله ، حتى قالوا^(١) : إذا نظرَ إلى رجلٍ لا يستحسن شيئاً نعليه ، وعلى هذا القياس لا يُساكنُ أعماله ، ولا يلاحظ أحواله . قوله : « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » : قيل سداد المنطق ؛ ويقال من خاطبهم بالقدح فهم يجابونه بالمدح له .

ويقال إذا خاطبهم الجاهلون بأحوالهم ، الطاعنون فيهم ، العائبون لهم قابلوها ذلك بالرُّفق ، وحسن الخلق ، والقول الحسن والكلام الطيب . ويقال يخبرون من جفاهم أنهم في أمانٍ من المجافاة^(٢)

قوله جل ذكره ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾^(٣) يبيتون لربهم ساجدين ، ويصبحون واجدين ؛ فوجدُ صباحهم ممراتُ سجودِ أرواحهم ، كذا في الخبر : « مَنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ بِاللَّيْلِ حَسُنَ وَجْهُهُ بِالنَّهَارِ » أي عظم ماء وجهه عند الله ، وأحسنُ الأشياء ظاهراً بالسجود مُحَسَّنٌ وباطناً بالوجود مُزَيَّنٌ . ويقال متصفين بالسجود قياماً بآداب الوجود .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾^(٤) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿

يجتهدون غاية الاجتهاد ، ويستفرغون نهاية الوسع ، وعند السؤال ينزلون منزلة العصاة ، ويقفون موقف أهل الاعتذار ، ويخاطبون بلسان التَّنَصُّلِ^(٥) كما قيل :

وَمَارُمْتُ الدُّخُولَ عَلَيْهِ حَتَّى حَلَلْتُ مُحَلَّةَ الْعَبْدِ الذَّلِيلِ

(١) هذا القول سمعه القشيري من شيخه الدقاق (الرسالة ص ٧٤) .
(٢) وردت (المكافاة) والصواب أن تكون (المجافاة) بمعنى أنهم لا يقابلون الجفاء بالجفاء ، فمن عاداهم أمن من انتقامهم أو على معنى أن مجافاة الأعداء لا تصيبهم بأذى إذ ليس في مقدور أحد أن يؤذي أولياء الله .

(٣) وفي ذلك يقول الرسول صلوات الله عليه : « الذين يؤثون ما آتوا وقلوبهم وجلة » . رواه أحمد عن عائشة ، والترمذي وابن أبي حاتم ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد .

قوله جل ذكره : ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم
يقترُّوا وكان بين ذلك قواماً﴾ .

الإسرافُ أن تنفق في الهوى وفي نصيب النفس ، فأما ما كان لله فليس فيه إسراف ،
والإقتارُ ما كان ادخاراً عن الله . فأما التضييقُ على النفس منعاً لها عن اتباع الشهوات
ولتعود الاجتزاء باليسير فليس بالإقتار المذموم .

قوله جل ذكره : ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً
آخرَ ولا يقتلون النفسَ التي حَرَّمَ اللهُ
إلاً بالحق ولا يزنون﴾^(١)

« إلهاً آخر » : في الظاهر عبادة الأصنام المعبولة من الأحجار ، المنحوتة من الأشجار .

وكما تنصف بهذا النفوسُ والأبشارُ فكذلك توهمُ المبارءُ والمضارُّ من الأغيارِ شركُ .

« ولا يقتلون النفس . . . » من النفوس المُحرَّم قتلُها على العبد نفسه المسكينُ ،
قال تعالى : « ولا تقتلوا أنفسكم »^(٢) . وقتلُ النفس من غير حقٍّ تمكينك لها من اتباع ما فيه
هلاكها في الآخرة ؛ فإنَّ العبدَ إذا لم يُنهَ مأموراً .

(١) (عن ابن عباس أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا ، ثم أتوا محمداً عليه الصلاة
والسلام فقالوا : إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو نخبرنا أن لما عملنا كفارة فزت الآية : « والذين
لا يدعون مع الله إلهاً آخر . . . » إلى قوله تعالى : غفوراً رحيماً » رواه مسلم عن إبراهيم بن دينار عن
حجاج . و (عن عبد الله بن مسعود قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الذنب أعظم ؟
قال : أن نحمل لله نداً وهو خالقك . قال : قلت ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك .
قال قلت ثم أي ؟

قال : أن تزاني حيلة حارك . فأنزل الله هذه الآية وما بعدها تصديقاً لذلك) رواه البخاري ومسلم
عن عثمان بن أبي شيبة ، عن جرير .

و (عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس ، قال : أتني وحشي إلى النبي (ص) فقال : يا محمد أتيتك
مستجيراً فأجرتني حتى أسمع كلام الله ، فقال الرسول : قد كنت أحب أن أراك على غير جوار ، فأما إذ أتيتني
مستجيراً فأنت في جوارى حتى تسمع كلام الله . قال : فأني أشركت بالله وقتلت النفس التي حرم الله وزنيته ،
هل يقبل الله مني توبة ؟ فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلت الآية . . . وأسلم وحشي) .

(٢) آية ٢٩ سورة النساء .

ثم دليلُ الخطاب أن تقتلها بالحق^(١) ، وذلك بذبحها بسكين المخالقات ، فما فلاحك إلا بقتل نفسك التي بين جنبيك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ .

يضاعفُ لهم العذابُ يومَ القيامةِ بحسرات الفرقة وزفرات الحرقة . وآخرون يضاعف لهم العذابُ اليومَ بتراكم الخلدلان ووشك المجران ودوام الحرمان . بل مَنْ كان مضاعفَ العذاب في عقابه فهو الذي يكون مضاعفَ العذاب في دنياه ؛ جاء في الخبر : مَنْ كان بحالةٍ لقي الله بها .

قوله جل ذكره : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

إلا من تاب من الذنب في الحال ؛ وآمن في المال .

ويقال « وآمن » أن نجاته بفضل الله لا بتوبته ، « وعمل صالحاً » لا ينقض توبته .
ويقال إن نقض توبته عمل صالحاً أي جدّد توبته ؛ « فهو لا يبذل الله سيئاتهم حسنات » . ويخلق لهم التوفيق بدلاً من الخلدلان^(٢) .

ويقال يبذل الله سيئاتهم حسنات فيغفر لهم ويثيبهم على توبتهم .

ويقال يحو ذلّة زلّاتهم ، ويثبت بدّلها الخيرات والحسنات ، وفي معناه أشدوا :
ولما رضوا بالعفو عن ذى زلّة حتى أنالوا كفه وأطادوا

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ وَالَّذِينَ

(١) تذكر كيف يفرق القشيري بين حظ النفس وحق الله ، ولاحظ كيف أحسن استغلال الاستثناء هنا (قتل النفس إلا بالحق) أي ذبحها بسكين المجاهدات في سبيل حق الله .
(٢) واضح من هذا الرأي مدى اتساع صدور الصوئية للأمل في الأخذ بيد العصاة ، ورحمة الله — في نظرم — أكثر رجابة من أن تضيق في وجه من عثرت أقدامه .

إِذَا ذَكَرُوا بآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا
عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿١﴾ .

يستمكنون في مواطن الصدق لا يبرحون عنها ليلاً ونهاراً ، وقولاً وفعلًا . وإذا مروا
بأصحاب الزلات ومساكن المخالفات مروا متمكنين مُعْرِضِينَ لَا يَسَاكِنُونَ أَهْلَ تِلْكَ الْحَالَةِ .
ويقال نزلت الآية في أقوام مرثوا — لما دخلوا مكة بآبواب البيوت التي كانوا يعبدون
فيها الأصنام مرة — متكرمين دون أن يلاحظوها أو يلتفتوا إليها فشَكَرَ اللهُ لهم ذلك .
ثم قال في صفتهم : « والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صُمًّا وَعُمْيَانًا » :
بل تأملوها بالتفكير والتأمل ، واستعمال النظر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ
أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ
وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ .

قرة العين مَنْ به حياة الروح ، وإنما يكون كذلك إذا كان بحق الله قائماً .
ويقال قرة العين من كان لطاعة ربه معاتقاً ، ولخالفه أمره مفارقاً .
« واجعلنا للمتقين إماماً » الإمام مَنْ يُقْتَدَى بِهِ وَلَا يَبْتَدِعُ .

ويقال إن الله مدح أقواماً ذكروا رتبة الإمامة فسألوها بنوع تضرع ، ولم يدعوا فيها
اختيارهم ؛ فالإمامة بالدعاء لا بالدعوى ، فقالوا : « واجعلنا للمتقين إماماً » .

قوله جل ذكره : ﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا
وَيُلْقَوْنَ فِيهَا نَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾ .

يعطى — سبحانه — الكثير من عطائه ويعده قليلاً ، ويقبل اليسير من طاعة العبد
ويعده كثيراً عظيماً ، يعطيهم الجنة ؛ قصوراً وحوراً ثم يقول : « أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ » ،
ويقبل اليسير من العبد فيقول : « فجاء بمجل سمين » ^(١) .

(١) آية ٢٢ سورة الذاريات .

قوله : « ويلقون فيها تحية وسلاماً » : يسمعون سلامه عليهم بلا واسطة ، ويتجلى لهم لبرّوه من غير تكلف قتل ، ولا تحمل قطع مسافة (١)

ويقال « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » (٢) : اليوم يحضر العبد بيته لأداء العبادة ، وينقل أقدامه إلى المساجد ، وغداً يجازيهم بأن يكفهم قطع المسافة ، فهم على أرائكهم — في مستقر عزيم — يسمعون كلام الله ، وينظرون إلى الله .

قوله : « بما صبروا » أى صبروا عما نهوا عنه ، وصبروا على الأحكام التى أجراها عليهم بترك اختيارهم ، وحسن الرضا بتقديره .

قوله جل ذكره : ﴿ خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً ﴾
مقيمين لا يرحلون منازلهم (٣) ، وفى أحوالهم حسن مستقرهم مستقراً ، وحسن مقامهم مقاماً .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ مَا يَغْتَابُ بَكُمْ رَبِّي لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾ .
لولا عبادتكم الأصنام ودعاؤكم إياها باستحقاق العبادة وتسمينكم لها آلهة . . متى كان يخلدكم فى النار ؟ .

ويقال لولا تضرعكم ودعاؤكم بوصف الابتهاال لأدام بكم البلاء ، ولكن لما أخذتم فى الاستكاثرة والدعاء ، وتضرعتم رحمتكم وكشف الضر عنكم .

(١) يضاف هذا الكلام إلى رأى القشبرى فى موضوع الرؤية فى الآخرة

(٢) آية : ٦٠ سورة الرحمن .

(٣) يضاف هذا الكلام إلى رأى القشبرى فى تأييد نعم أهل الجنة .

تم المجلد الثاني وبلية المجلد الثالث
وأوله سورة الشعراء

فهرس

الصفحة

● سورة التوبة	٥
● سورة يونس	٧٦
● سورة هود	١٢٠
● سورة يوسف	١٦٤
● سورة الرعد	٢١٥
● سورة إبراهيم	٢٣٨
● سورة الحجر	٢٦٢
● سورة النحل	٢٨٤
● سورة بني إسرائيل	٣٣٣
● سورة الكهف	٣٧٥
● سورة مريم	٤١٨
● سورة طه	٤٤٤
● سورة الأنبياء	٤٩١
● سورة الحج	٥٢٧
● سورة المؤمنون	٥٦٦
● سورة النور	٥٩٢
● سورة الفرقان	٦٢٥

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٢٦٩ / ٢٠٠٠

I.S.B N 977 - 01 - 6599 - 9

هذا هو المجلد الثانى من (لطائف الإشارات) للإمام القشيرى
رحمه الله الذى اعتمد فيه على إبراز الجانب الإلهى فى تجليه
على أصفياه من خلقه وفى ذلك يقول: «أكرم الأصفياء من
عباده بفهم ما أودعه من لطائف أسرارهِ وأنواره لاستبصار ما
ضمنه من دقيق إشاراته وخفى رموزه، بما لَوَّحَ لأسرارهم من
مكنونات، فوقفوا بما خَصُّوا به من أنوار الغيب على ما استتر عن
أغيارهم، ثم نطقوا على مراتبهم وأقدارهم، والحق - سبحانه
وتعالى - يلهمهم بما به يكرمهم، فهم به عنه لاطقون، وعن
لطائفه مخبرون، وإليه يشيرون، وعنه يفصحون، والحكم إليه فى
جميع ما يأتون به ويدرون». فانظر عزيزى القارئ كيف خَصَّ
الله خَلَصَ عباده وأصفياه من خلقه - وإلى الجزء الثالث.

لطائف الإشارات

تفسير صوفي كامل للقرآن الكريم

للإمام القشيري

المجلد الثالث

الطبعة الثالثة

قديم له وحققه وعلق عليه

الدكتور/ إبراهيم بسيوني



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٠

الهيئة المصرية العامة للكتاب

إدارة التراث

رئيس مجلس الإدارة

د. سمير سرهان

مشرف على إدارة التراث ورئيس التحرير

سعيد عبد الفتاح

سكرتير التحرير

أميمة على أحمد

الغلاف

جمال قطب



إهداء ١٠٠٦

الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« طسّ تلك آياتُ القرآنِ وكتابٍ مبین »

... تلك دلالاتُ كَرَمِنَا ، وأماراتُ فَضْلِنَا ، وشواهدُ بَرِّنا ؛
نُبِّينُ لأوليائنا صِدْقَ وَعْدِنَا ، ونُحَقِّقُ للأُصْفِيَاءِ حِفْظَ عَهْدِنَا .
بطهارة قُدْسِي وسناء عِزِّي لا أخيب أَمَلَ مَنْ أَمَّلَ لُطْفِي ،
بوجود بَرِّي نطيب قلوبُ أوليائي ، وبشهود وجهي تغيب
أسرار أصفياي .

طَلَبُ القاصدين مُقَابِلَ بِلَافِي ، وَسَعْيُ العاملين مشكورٌ بعطفي .
هذا الكتابُ بيانٌ وشفاء ، ونور وضياء ، وبشرى ودليل
لِمَنْ حَقَّقْنَا له الإيمان ، وأَكَّدْنَا له الضمان ، وكفلنا له الإحسان »

عبد الكريم القشيري

عند سورة النمل

السورة التي يذكر فيها الشعراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله اسم عزيز يرتضى من الزاهد ترك دنياه ، ومن العابد مخالقة هواه ، ومن القاصد قطع مناه ، ولا يرتضى من العارف أن يساكن شيئاً غير مولاه . إن خرج عن كل مرسوم — بالكلية ، وانسلخ عن كل معلوم — من غير أن تبقى له منه بقية فلملح يجد شظية . وإن عرج على شيء ، ولم يصف من الكدورات — حتى عن يسيرها — وإن دق — فإنه كما في الخبر : « المَكْتَابُ عَبْدٌ ما بقي عليه درهم » .

قوله جل ذكره : « طسم » تلك آيات الكتاب المبين «
ذكرنا فيما مضى اختلاف السلف في الحروف المقطعة ؛ فعند قوم : الطاء إشارة إلى طهارة عزه وتقدس علوه ، والسين إشارة ودلالة على سناء جبروته ، والميم دلالة على مجده وجلاله في آزاله .

ويقال الطاء إشارة إلى شجرة طوبى ، والسين إلى سِدْرَةِ الْمُنتهى ، والميم إلى اسم محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أى ارتقى محمد ليلة الإسراء عن شهوده شجرة طوبى حتى بلغ سِدْرَةَ الْمُنتهى ، فلم يساكن شيئاً من المخلوقات في الدنيا والعقبى^(١) .

(١) أورد القشيري في كتابه « المعراج » طائفة كبيرة من الأخبار نفهم منها أن الرسول صلوات الله عليه وسلامه لم يتطلع إلى شيء مما رأى من عجائب المخلوقات وعظائم النعم في تلك الليلة ، بل كان خالص القصد إلى الحق ، وبمباراة صوفية دقيقة : كان فانياً بحقوق ربه عن حظوظ نفسه ، فما زاغ البصر وما طغى . وفي ذلك يقول رويم : « لما أكرم المصطفى (ص) بأعظم الشرف في المعرى علت همته عن الالتفات إلى الآيات والكرامات ، والجنة والنار ، فما زاغ البصر ؛ أى ما أثار طرفه شيئاً من الأكوان ، ومن شاهد البحر استقل الأنهار والأودية . (المعراج ص ١١٢)

ويقول القشيري في ص ١٠٢ من الكتاب نفسه : يروى في الخبر أنه « لما ركب البراق لم يعرج على شيء ، »

ويقال الطاء طَرَبُ أربابِ الوصلة على بساط القرب بوجدان كمال الروح ، والسين سرورُ
العارفين بما كوشفوا به من بقاء الأُحدية باستقلالهم بوجوده^(١) والميم إشارة إلى موافقتهم لله
بتركِ التخيُّر على الله ، وحُسنِ الرضا باختيار الحق لهم .

ويقال الطاء إشارةً إلى طيبِ قلوب الفقراء عند قُبْد الأسباب لكمال العيشِ بمعرفة وجود
الرزاق بدَل طيب قلوب العوام بوجود الأرفاق والأرزاق .

ويقال الطاء إشارةً إلى طهارة أسرار أهل التوحيد ، والسين إشارةً إلى سلامة قلوبهم عن
مساكنة كل مخلوق ، والميم إشارةً إلى مِنَّةِ الحق عليهم بذلك .

قوله جل ذكره : « لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا
مُؤْمِنِينَ » .

أى لِحَرَمِكَ على إيمانهم ولإشفاقِكَ من امتناعهم عن الإيمان فانت قريبٌ من أن
تقتلَ نَفْسَكَ من الأسفِ على تركِهم الإيمان .

فلا عليك — يا محمد — فإنه لا تبدلَ لِحُكْمِنَا ؛ فَمَنْ حَكَمْنَا له بالشقاوة لا يُؤْمِنُ .
ليس عليك إلا البلاغ ؛ فإن آمنوا فيها ، وإلَّا فَكُلُّهُمْ^(٢) سَيَرُونَ يومَ الدين ما يستحقون .

قوله جل ذكره : « إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمِ مِنَ السَّمَاءِ
آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ » .

أخبر عن قدرته على تحصيلِ مراده من عباده ، فهو قادرٌ على أن يُؤْمِنُوا كَرَهًا ؛ لأن
التقاصرَ عن تحصيلِ المرادِ يوجبُ النقصَ والقصورَ في الألوهية .

قوله جل ذكره : « وما يأتيهم مِّنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ
مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ » .

== كان يُشَادَى من يمينه ومن يساره ، ثم قال له جبريل عليه السلام : الذي ناداك من يمينك داعي اليهودية ، والذي
ناداك من يسارك داعي النصرانية ، ولو التفت يا محمد لليهود أو لنصرت أمتك .

(١) استقل الشيء رآه قليلاً واستقل بالشيء لم يشغل بسواه اكفاءً به .

(٢) السياق مقبول على هذا النحو ، ولكننا لا نستبعد أن يكون هناك شرط لـ «نأ» ، وعندئذ يكون
السياق « فكلهم لنا ؛ » .

أى ما نُجَدِّدَ لَهُمْ شَرْعًا ، وما نُرْسِلَ لَهُمْ رَسُولًا . . . إلا أَعْرَضُوا عَنْ تَأْمَلِ بَرَاهِنَهُ ،
وقابلوه بالتكذيب . فلو أنهم أَنْعَمُوا النَّظَرَ فِي آيَاتِ الرُّسُلِ لَاتَضَحَّ لَهُمْ صِدْقُهُمْ ، وَلَكِنْ
الْمَقْسُومُ لَهُمْ مِنَ الْخُذْلَانِ فِي سَابِقِ الْحُكْمِ يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْإِيْمَانِ وَالتَّصْدِيقِ . قَدْ كَذَّبُوا ، وَعَلَى
تَكْذِيبِهِمْ أَصْرُوا ، فَسَوْفَ تَأْتِيهِمْ عَاقِبَةُ أَعْمَالِهِمْ بِالْعُقُوبَةِ الشَّدِيدَةِ ، فَيَذُوقُونَ وَبَالَ شِرْكِهِمْ .
قوله جل ذكره : « أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا
فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٌ * إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ *
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » .

فَنُونَ مَا يَنْبِتُ فِي الْأَرْضِ وَقَتَ الرِّبْعِ لَا يَأْتِي عَلَيْهِ الْحَصْرُ ، ثُمَّ اخْتِصَاصُ كُلِّ شَيْءٍ
مِنْهَا بِلَوْنٍ وَطَعْمٍ وَرَائِحَةٍ مَخْصُوصَةٍ ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ وَهِيئَةٌ وَنُورٌ مَخْصُوصٌ ، وَوَرَقٌ
مَخْصُوصٌ . . . إِلَى مَا تَلَطَّفُ عَنْهُ الْعِبَارَةُ ، وَتَدْرِكُ فِيهِ الْإِشَارَةُ . وَفِي ذَلِكَ آيَاتٌ لِمَنْ
اسْتَبَصَرَ ، وَنَظَرَ وَفَكَّرَ .

« وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ » : الْقَاهِرُ الَّذِي لَا يُقَاهَرُ ، الْقَادِرُ الَّذِي لَا يُقَدَّرُ ، اللَّئِيمُ الَّذِي لَا يُجْتَبَرُ .
« الرَّحِيمُ » : الْمَحْسَنُ لِعِبَادِهِ ، الْمُرِيدُ لِسَعَادَةِ أَوْلِيَائِهِ .

قوله جل ذكره : « وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ » .

أَخْبَرَ أَنَّهُ لَمَّا أَمَرَهُ بِالذَّهَابِ إِلَى فِرْعَوْنَ لِدَعْوَتِهِ إِلَى اللَّهِ عَلِمَ أَنَّهُ شَدِيدُ الْخُصُومَةِ ، قَدْ
غَرَّبَتْهُ نَفْسُهُ فَهُوَ لَا يَبَالِي بِمَا فَعَلَ . وَأَخَذَ (مُوسَى) ^(١) يَتَعَلَّلُ — لَا عَلَى جِهَةِ الْإِبَاءِ
وَالْخَالَفَةِ — وَلَكِنْ عَلَى وَجْهِ الِاسْتِعْفَاءِ وَالْإِقَالَةِ إِلَى أَنْ عَلِمَ أَنَّ الْأَمْرَ بِهِ جَزْمٌ ، وَالْحُكْمُ
بِهِ عَلَيْهِ حَقٌّ .

قوله جل ذكره : « قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ *
وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ

(١) ليست موجودة في النص وقد وضعناها بين قوسين منمّا للبس .

إلى هارون * ولم على ذنب فأخاف
أن يقتلوني .

سأل موسى — عليه السلام — أن يشفمه بهارون ويشرّكه في الرسالة . وأخبر أنه
قتل نفسه ، وأنه في حكم فرعون عليه دم ، فقال : « فأخاف أن يقتلون » إلى أن قال
له الحق : —

« قال كلاً فاذها بآياتنا إنا معكم مستمعون . »

« كلا » حرف ردّيع ونفبيه ؛ أى كلا أن يكون ذلك كما توهمت ، فارتدّع عن
تجويز ذلك ، وانتبه لغيره . إني معكم بالنصرة والقوة والكفاية والرحمة ، واليد ستكون
لكما ، والسلطان سيكون لكما دون غيركما ، فأنا أسمع ما تقولون وما يقال لكم ، وأبصر
ما تبصرون وما تبصرون أتم .

قوله جل ذكره : « فَأْتِيََا فرعونَ قَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ
العَالَمِينَ » .

ويقال في القصة : إن موسى وهارون كانا يترددان على باب فرعون سنة كاملة ولم يجدا
طريقاً إليه . ثم بعد سنة عرّضاً الرسالة عليه ، فقابلهما بالكذيب ، وكان من القصة ما كان ..
وقال فرعون لما رأى موسى :

« قال ألم نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عَمَرِكَ
سِنِينَ » وفعلتَ فَعَلْتِكَ التي فعلتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ »

فلم يكن لموسى — عليه السلام — جوابٌ إلا الإقرار والاعتراف ، فقال :

« قال فعلتها إِذَا وأنا من الضالين * قهرتُ منكم لما
خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ »

قال : كل ذلك قد كان ، وفهرت منكم لما خفتكم ، فأكرمني الله بالنبوة ، وبعثنى
رسولاً إليكم ..

ويقال : لم يحدد حق تربيته ، والإحسان إليه في الظاهر ، ولكن بين أنه إذا أمر الله بشيء وجب اتباع أمره . ولكن إذا كانت تربية المخلوقين توجب حقاً فربية الله أولى بأن يُعظم العبد قدرهما^(١) .

قوله : « فقررت منكم لما خفتكم » : يجوز حملُه على ظاهره ، وأنه خاف منهم على نفسه . والقرارُ - عند عدم الطاقة - غير مذموم عند كل أحد^(٢) .

ويقال : فررت منكم لما خفت أن تنزل بكم عقوبة من الله لشؤم شرِككم ، أو من قول فرعون : « ما علمت لكم من آله غيري »^(٣) .

قوله جل ذكره : « وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت

بنى إسرائيل »

ذكر فرعون - من جملة ما عدَّ على موسى من وجوه الإحسان إليه - أنه استحياه بين بنى إسرائيل ، ودفع عنه القتل ، فقال موسى : أو تلك نعمة تمنها علي ؟ هل استعبادك لبنى إسرائيل بعد نعمة ؟ إن ذلك ليس بنعمة ، ولا لك فيها منة^(٤) .

قوله جل ذكره : « قال فرعون وما رب العالمين ؟ »

نظر اللعين بجهله ، وسأل على النحو الذي يليق بغيته ، فسأل بلفظ « ما » - و « ما » يستخبر بها عما لا يعقل ، فقال : « وما رب العالمين ؟ » .

ولكن موسى أعرض عن لفظه ومقتضاه ، وأخبر عما يصح في وصفه تعالى فقال :

« قال رب السموات والأرض

وما بينهما إن كنتم موقنين » .

(١) هذه إشارة إلى قيمة تربية الشيوخ بالقياس إلى تربية الوالدين ؛ فالوالدان يربيان الأشباح والشيوخ يربون الأرواح .

(٢) نذكر كيف فر القشيري نفسه من المشرق الإسلامي عندما أحدثت به الأخطار ، وهدد السلطان الجائر حياته وعقيدته ، فلم تلن قناته ، وهرب بعقيدته إلى حيث يسلم هو ورفاقه (أنظر مدخل الكتاب) .

(٣) آية ٣٨ سورة القصص .

(٤) لأن تعبيدكم وذبح أبنائهم هاسباً حصوله عنده وتربيته له ، ولو تركهم لرباه أبواه شأن أي طفل .. فليس هنا نعمة ولا منة ، لأن التصد كان إذلال أهله لا الإحسان إليهم أو إليه .

فَذَكَرَ صِفَتَهُ — سبحانه وتعالى — بأنه إلهٌ ما في السموات والأرض ، فأخذ في التعجب ، وقال :

« قال لِمَنْ حَوَّلَهُ أَلَا تَسْتَمْعُونَ ؟ * قال
رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ » .
قال موسى : « ربكم ورب آبائكم الأولين » فحاذَ فرعونُ عن سَنَنِ الاستقامة في الخطاب ،
وأخذ في السفاهة قائلاً :

« قال إِنْ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ
إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ » .

لأنه^(١) يزعم أن هناك إلهًا غيره . ولم يكن في شيء مما يجري من موسى — عليه السلام —
أو مما يتعلق به وصفُ جنونٍ . ولم يُشغَلْ بمجاوبته في السفاهة فقال :

« قال ربُّ المشرقِ والمغربِ وما بينهما
إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » .

أَي إِنْ كُنْتُمْ مِنْ جِلَّةِ مَنْ لَهُ عَقْلٌ وَتَمْيِيزٌ . فقال فرعون :

« قال لَنْ آتِخَذَ إِلَهًا غَيْرِي
لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ » .

مضى فرعونُ يقول : لأفعلنَّ ، ولأصنعنَّ ... إِنْ آتِخَذَ إِلَهًا غَيْرِي . وجرى ما جرى
ذِكْرُهُ وَشَرُّهُ فِي غير موضع .

ثم إنه أظهر معجزته بإلقاء العصا ، وقلبها — سبحانه — ثعبانًا كاد يلتهم دارفرعون بمن فيها ،
ووثبَ فرعونُ هاربًا ، واختفى تحت سريره ، وهو ينتفض من الخوف ، وتَلَطَّخَتْ بَزَّتُهُ^(٢) ،
وانتفضح في دعواه ، واتضح حاله ، فاستغاث بموسى واستجاره ، وأخذ موسى الثعبانَ فردَّه
إِلَهُ عَصَا .

(١) أي موسى عليه السلام .

(٢) البزة = الهيئة أو الشارة .

ولمَّا فَارَقَهُ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - تَدَارَكَهُ الشَّقَاوَةُ ، وَأَدْرَكَهُ شَوْمُ الْكُفْرِ ، وَاسْتَوَلَى عَلَيْهِ الْحَرَمَانُ ، فَجَمَعَ قَوْمَهُ وَكَلَّمَهُمْ فِي أَمْرِهِ ، وَأَجْمَعُوا كُلَّهُمْ عَلَى أَنَّهُ سَحَرَهُمْ . وَبَعْدَ ظَهْوَرِ تِلْكَ الْآيَةِ عَادَ إِلَى غِيَّهٍ .. كَمَا قِيلَ :

إِذَا ارْعَوْى عَادَ إِلَى جَهْلِهِ كَذَى الضَّنَى عَادَ إِلَى نُسْكِهِ

ثُمَّ إِنَّهُ جَمَعَ السَّحَرَةَ ، وَاسْتَعَانَ بِهِمْ ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا قَالُوا : « إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا » . فَطَقُوا بِحُسَّاسَةِ هِمَّتِهِمْ ، فَضَمَّنَ لَهُمْ أَجْرَهُمْ . وَإِنَّ مَنْ يَعْمَلُ لِفَيْدِهِ بِأَجْرَةٍ لَيْسَ كَمَنْ يَكُونُ عَمَلُهُ لِلَّهِ . وَمَنْ لَا يَكُونُ لَهُ نَاصِرٌ إِلَّا بِضَمَانِ الْجَمَالَةِ وَبَذْلِ الرُّشَا فَعَنْ قَرِيبٍ سَيُخَذَلُ .

قوله جل ذكره : « قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ » .

قَالَ فِرْعَوْنُ : « وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ » ، وَمَنْ طَلَبَ الْقَرَبَةَ عِنْدَ مَخْلُوقٍ فَإِنَّ مَا يَصِلُ إِلَيْهِ مِنَ الدَّلِّ يَزِيدُ عَلَى مَا أَمَّلَهُ مِنَ الْعِزِّ فِي ذَلِكَ التَّقَرُّبِ . وَالْمُقَرَّبُونَ مِنَ اللَّهِ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَهُمْ أَوَّلُ مَنْ لَمْ وَصُولُ . وَالْمُقَرَّبُونَ مِنَ اللَّهِ لَمْ عَلَى اللَّهِ دَخَلَةٌ ، وَالنَّاسُ يُوصَفُ الْغَفْلَةُ وَالْخَلْقُ فِي أَسْرِ الْحُجْبَةِ .

ثُمَّ لَمَّا اجْتَمَعَ النَّاسُ ، وَجَاءَ السَّحَرَةُ بِمَا مَوَّهُوا ، التَّقَمَّتْ عَصَا مُوسَى جَمِيعَ مَا أَتَوْا بِهِ ، وَعَادَتْ عَصَا ، وَتَلَا شَتَّ أَعْيَانُ حَبَالِهِمْ^(١) الَّتِي جَاءُوا بِهَا ، وَكَانَتْ أَوْقَارًا ، وَأُلْسِقِيَ السَّحَرَةُ سُجْدًا ، وَلَمْ يَحْتَفِلُوا^(٢) بِتَهْدِيدِ فِرْعَوْنَ إِيَّاهُمْ بِالْقَتْلِ وَالصَّلْبِ وَالْقَطْعِ ، فَاصْبَحُوا وَهُمْ يُقْسِمُونَ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ ، وَلَمْ يُنْسُوا حَتَّى كَانُوا يَقُولُونَ : « لَنْ نُوْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ^(٣) » .

ثُمَّ لَمَّا سَاعَدَهُمُ التَّوْفِيقُ ، وَآمَنُوا بِاللَّهِ كَانَ أَمْرُهُمْ أُمُورُهُمُ الْاسْتِغْفَارُ لِمَا سَلَفَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ ، وَهَذِهِ هِيَ غَايَةُ هَمِّ الْأَوْلِيَاءِ ، أَنْ يَسْتَجِيرُوا بِاللَّهِ ، وَأَنْ يَسْتَعِيزُوا مِنْ عِقَابَةِ اللَّهِ ، فَأَعْرِفُهُمُ بِاللَّهِ أَخَوْفُهُمْ مِنَ اللَّهِ .

(١) يتصل ذلك برأى القشيري في المعجزة وأنها قد تكون قلب الأعيان ، أما كرامة الولي فقد لا تكون كذلك ، وهي مع ذلك متصلة بنبي الأمة التي يتبعها هذا الولي .

(٢) وردت (يختلفوا) والسياق يرفضها ويؤيد (يحتفلوا) كما هو واضح .

(٣) آية ٧٢ سورة طه .

ويقصد القشيري إلى أن يوضح أن العبرة بالخواتيم ، وهو بهذا يبحث - بطريق غير مباشر - على التوبة ، وعدم القنوط من رحمة الله .

وَلَمَّا أَمَرَ اللَّهُ مُوسَى بِإِخْرَاجِ بْنِ إِسْرَئِيلَ ، وَتَبِعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجَمْعِهِ ، وَقَالَ أَصْحَابُ مُوسَى .

« فَلَمَّا تَرَاۤءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى
إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ : كَلَّا
إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ » .

فَكَانَ كَمَا قَالَ ، إِذْ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأَنْجَاهُمْ ، وَأَغْرَقَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ أَقْصَاهُمْ ، وَقَدْ قَالَ
مُسَبِّحَاتِهِ : « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » ^(١) : يُنَجِّيهِمْ مِنْ كُلِّ بَلَاءٍ ، وَيَخْصُصُهُمْ بِكُلِّ نِعْمَةٍ .
قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ
لَأُيَبِّهَ وَقَوْمَهُ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ
أَصْنَامًا فَتَنْظِلُ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ
يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ؟ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ
أَوْ يَضُرُّونَ ؟ * قَالُوا بَلَى وَجَدْنَا آبَاءَنَا
كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » .

عَاتِبَ ^(٢) إِبْرَاهِيمُ آبَاءَهُ وَقَوْمَهُ ، وَطَالَبَهُمْ بِالْحُجَّةِ عَلَى مَا عَابَهُمْ بِهِ وَقَالَ لِمَ تَعْبُدُونَ
مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ ؟ وَلَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ ، وَلَا يُحْسِبُ وَلَا يُشْعُرُ ؟ فَلَمْ يَرْجِعُوا فِي الْجَوَابِ
إِلَّا إِلَى تَقْلِيدِهِمْ أَسْلَافَهُمْ ، وَقَالُوا :

عَلَى هَذِهِ الْجُمْلَةِ وَجَدْنَا أَسْلَافَنَا . فَنَطَّقَ إِبْرَاهِيمُ - عَلَيْهِ السَّلَام - بَعْدَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ
وَالْإِخْبَارِ عَنْ قَبِيحِ صَنِيعِهِمْ بِمَدْحِ مَوْلَاهُ وَالْإِغْرَاقِ فِي وَصْفِهِ ، وَقَالَ :

« قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ *
أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي
إِلَّا رَبَّ السَّالِمِينَ » .

(١) آيَةُ ٣٦ سُورَةِ التَّوْبَةِ .

(٢) رُبَّمَا كَانَتْ (عَابَ) بِدَلِيلِ قَوْلِهِ بَعْدَ قَلِيلٍ (عَلَ مَا عَابَهُمْ) ، لَكِنَّ السِّيَاقَ يُلْتَمِزُ (عَاتِبَ) أَكْثَرَ ،
إِذَّ الْعَتَابُ أَلِيقٌ بِالنِّسْبَةِ لِلْأَبِ ، كَذَلِكَ فَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ يَدْرِي فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَنَّ آبَاءَهُ لَنْ يُؤْمِنُوا .

ذَكَرَهُمْ بِأَقْلٍ عِبَارَةً فَلَمْ يَقُلْ : فَإِنَّهُمْ أَعْدَاءُ لِي ، بَلْ وَصَفَهُم بِالْمَصْدَرِ الَّذِي يَصْلَحُ أَنْ يوصَفَ بِهِ الْوَاحِدُ وَالْجَمَاعَةُ فَقَالَ : « فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي » .

ثُمَّ قَالَ : « إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ » ، وَهَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ، وَكَأَنَّهُ يَضْرِبُ بِالطَّغْرِ عَنْ ذِكْرِهِمْ صَفْحًا حَتَّى يَتَوَصَّلَ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ، ثُمَّ أَخَذَ فِي شَرْحِ وَصْفِهِ كَأَنَّهُ لَا يَكَادُ يَسْكُتُ ، إِذْ مَضَى يَقُولُ : وَالَّذِي .. وَالَّذِي .. وَالَّذِي .. ، وَمِنْ أَمَارَاتِ الْحُبِّ كَثْرَةُ ذِكْرِ مَحْبُوبِكَ ، وَالْإِعْرَاضُ عَنْ ذِكْرِ غَيْرِهِ ، فَتَنَزَّهُ الْمُحِبُّ بِتَقْلُبِهِمْ فِي رِيَاضِ ذِكْرِ مَحْبُوبِهِمْ ، وَالزَّهَادُ يَعْدُدُونَ أَوْرَادَهُمْ ، وَأَرْبَابُ الْحَوَائِجِ يَعْدُدُونَ مَآرِبَهُمْ ، فَيَطْنُبُونَ فِي دَعَائِهِمْ ، وَالْمُحِبُّونَ يُسَبِّحُونَ فِي الثَّنَاءِ عَلَى مَحْبُوبِهِمْ .

قوله جل ذكره : « الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ » .

كَانَ مُهْتَدِيًا ، وَلَكِنَّهُ يَقْصِدُ بِالْمُهْدَايَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا فِيمَا يَسْتَقْبَلُهُ مِنَ الْوَقْتِ ، أَيْ : يَهْدِينِي إِلَيْهِ بِهِ ، فَإِنِّي نَحَقُّ فِي وَجُودِهِ وَلَيْسَ لِي خَيْرٌ عَنِّي أ .

وَالْقَوْمُ حِينَ يَكُونُونَ مُسْتَفْرِقِينَ فِي قَوْمِهِمْ لَا يَهْتَدُونَ مِنْ قَوْمِهِمْ إِلَى مَعْبُودِهِمْ ، فَيَهْدِيهِمْ عَنْهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ ، وَيَصِيرُونَ فِي نَهَائِهِمْ مُسْتَهْلِكِينَ فِي وَجُودِهِ ، قَانِينَ عَنْ أَوْصَافِهِمْ ، وَتَصِيرُ مَعَارِفُهُمْ - الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ - وَاهِيَةً ضَعِيفَةً ، فَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ ^(١) .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي » .

لَمْ يُشِيرْ إِلَى طَعَامٍ مَعْبُودٍ أَوْ شَرَابٍ مَأْلُوفٍ وَلَكِنْ أَشَارَ إِلَى اسْتِقْلَالِهِ بِهِ مِنْ حَيْثُ الْمَعْرِفَةُ بِدَلِّ اسْتِقْلَالِ غَيْرِهِ بِطَعَامِهِمْ ، وَإِلَى شَرَابِ مَحَبَّتِهِ الَّذِي يَقُومُ بِدَلِّ اسْتِقْلَالِ غَيْرِهِ بِشَرَابِهِمْ .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي » .

لَمْ يَقُلْ : وَإِذَا أَمْرَضَنِي لِأَنَّهُ حَفِظَ أَدَبَ الْخُطَابِ .

(١) يشرح القشيري قول الواسطي : لَا تَصِحَّ الْمَعْرِفَةُ فِي الْعَبْدِ اسْتِغْنَاءً بِاللَّهِ وَاقْتِفَارًا . فيقول : أَرَادَ الْوَاسِطِيُّ بِهَذَا أَنَّ الْاِقْتِفَارَ وَالْاِسْتِغْنَاءَ مِنْ أَمَارَاتِ صُحُوبِ الْعَبْدِ وَبَقَاءَ رُسُومِهِمَا مِنْ صِفَاتِهِ . (الرسالة ص ١٥٥) .
١٠ ، ذُو النُّونِ : عَرَفْتُ رَبِّي وَلَوْلَا رَبِّي مَا عَرَفْتُ رَبِّي (الرسالة ص ١٥٦) .

ويقال لم يكن ذلك مرضاً معلوماً ، ولكنه أراد تمارضاً ، كما تمارض الأحابيب طمعاً في العيادة ، قال بعضهم :

إِنْ كَانَ يَمْنَعُكَ الْوَشَاءُ زِيَارَتِي فَادْخُلْ عَلَيَّ بِعَلَّةِ الْمُسَوِّدِ
ويقول آخر :

يَوَدُّ بَأْنَ يَمْشِي سَقِيماً لَعَلَّهَا إِذَا مَمِيتَ مِنْهُ بِشَكْوَى تُرَاسِلُهُ
ويقال ذلك الشفاء الذي أشار إليه الخليل هو أن يبعث إليه جبريل ويقول له : يقول
لَكَ مَوْلَاكَ . . . كيف كنت البارحة ؟

قوله جل ذكره : « وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي »
أضاف الموت إلى الله ، فالموت فوق المرض ؛ لأن الموت لهم غنمة ونعمة ، إذ يصلون
إليه ^(١) بأرواحهم .

ويقال « يميتني » بإعراضه عني وقت تعزُّزه ، « ويحييني » بإقباله عليَّ حين تفضُّله . ويقال
يميتني عني ويحييني به .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي
يَوْمَ الدِّينِ »

خطيئة الأحابيب شهودهم محتهم ، وتعتيهم عند شدة البلاء عليهم ، وشكواهم مما يمسه
من برحاء الاشتياق ، قال بعضهم :

وإذا محاسني - اللاتي أدلُّ بها - كانت ذنوبي . . . فقل لي : كيف أعذر ؟

قوله جل ذكره : « رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَالْحَقْنِي
بِالصَّالِحِينَ » .

« هَبْ لِي حُكْماً » : على نفسي ، فَإِنَّ مَنْ لَا حُكْمَ لَهُ عَلَى نَفْسِهِ لَا حُكْمَ لَهُ عَلَى غَيْرِهِ .
« وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ » : فأقوم بمحنتك دون الرجوع إلى طلب الاستقلال بشيء
دون حَقِّكَ .

(١) (إليه) الضمير منا يعود إلى محبرهم - سبحانه .

قوله جل ذكره : « واجعل لى لسان صدق في الآخرين » .

في التفسير : « لسان صدق » : أى ثناء حسنًا على لسان أمة محمد صلى الله عليه وسلم .
ويقال لا أذكرك إلا بك ، ولا أعرفك إلا بك .

ويقال أن أذكرك ببيان آلائك^(١) ، وأذكرك بعد قبض رولى إلى الأبد بذكر مؤمر مد .
ويقال أذكرك على لسان الخبرين عنك .

قوله جل ذكره : « واغفر لأبى إنه كان من الضالين » .

على لسان العلماء : قاله بعد يأسه من إيمان أبيه ، وأما على لسان الإشارة فقد ذكره
في وقت غلبات البسط ، ويبتجأوز ذلك عنهم^(٢) .

وليست إجابة العبد واجباً على الله في كل شىء ، فإذا لم يجب فإن للعبد سلوة في ذكر
أمثال هذا الخطاب ، وهذا لا يهتدى إليه كل أحد .

قوله جل ذكره : « ولا تُخزني يوم يُبشرون » .

أى لا تُخزني بتذكيري خلتي ، فإن شهود ما من العبد - عند أرباب القلوب وأصحاب
الخصوص - أشد عقوبة^(٣) .

قوله جل ذكره : « يوم لا ينفع مال ولا بنون » .

إلا من أتى الله بقلب سليم .

قيل : « التاب السليم » اللديغ .

وقيل هو الذى سليم من الضلالة ثم من البدعة ثم من الغفلة ثم من الغيبة ثم من الحجة
ثم من المضاجعة ثم من المساكنة ثم من الملاحظة . هذه كلها آفات^(٤) ، والأكابرو سألوا
منها ، والأصاغرو امتحنوا بها .

(١) وردت (الآية) ونرجع أن الناسخ قد أخطأ في النقل ، فأثبتنا (آلائك) أى نعمك لأنها أقرب إلى السياق .

(٢) معنى هذا أن القشيري يرى اغتفار ما ينطق به الصوفى من أقوال وهو في حال الانمحاء .

(٣) لأن شهود ما من العبد معناه أن التوحيد مازال يشوبه كدر الغيرية .

(٤) يفيد ذكر هذه الآفات على هذا النحو من الترتيب والدقة أجل فائدة عند دراسة المصطلح الصوفى - خصوصاً

وأن هذه المصطلحات لم ترد على هذا النحو في الفصل الذى خصصه القشيري لهذا الموضوع في الرسالة .

ويقال : « القلب السليم » الذي سَلِمَ من إرادة نَفْسِهِ .

قوله جل ذكره : « وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرُزَتِ

الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ »

« أزلفت » : أى قُرِبَتْ وأُذِنَتْ فى الوقت ، فإنَّ ما هو آتٍ قريبٌ ، وبالعين أُخْصِرَتْ . وكما نُجِّرُ النارُ إلى المحشر بالسلاسل فلا يَبْعُدُ إِدْناءُ الجنة من المتقين .

« وبرزت الجحيم للغاوين » أظْهِرَتْ ؛ فتَوَكَّدُ الْحُجَّةُ على أرباب الجحود ، ويُعَرَّضُونَ على النار ، وتُعَرَّضُ عليهم منازل الأشرار ، فَيُكَبِّكُونَ فيها أجمعين ، يأخذون يُقْرَءُونَ بذنوبهم ، ومن جعلها ما أخبر أنهم يقولون : —

« تالله إني كُنَّا لفي ضلالٍ مبين * إذ نسوَّبكم ربُّ العالمين »

ولا فضيحة أقبح ولا عيبَ فيهم أشنعُ مما يعترفون به على أنفسهم بقولهم : « إذ نسوَّبكم ربُّ العالمين » فإنَّ أقبحَ أبوابِ الشُّرْكِ وأشنعَ أنواعِ الكُفْرِ وأقبحَ أحوالهم - التشبيهُ فى صفة المعبود .

قوله جل ذكره : « فما لنا من شافعين * ولا صديق

حميم »

فى بعض الأخبار^(١) : يحى - يومَ القيامة - عَبْدٌ يُحَاسَبُ فقتوى حسناته وسيئاته ويحتاج إلى حسنة واحدة يَرْضَى عنها خصومُه ، فيقول الله - سبحانه : عبدى . . بقيت لك حسنة واحدة ، إن كانت أَدْخَلْتُكَ الجنةَ . . أنظر . . وتَطَلَّبُ من الناس لعلَّ واحداً يهب لك حسنة واحدة . فيأتى العبدُ فى الصفين ، ويطلب من أبيه ثم من أمه ثم من أصحابه ، ويقول لكل واحدٍ فى بابه فلا يجيبه أحدٌ ، فالكلُّ يقول له : أنا اليومَ فقيرٌ إلى حسنةٍ واحدةٍ ، فيرجع إلى مكانه ، فيسأله الحقُّ - سبحانه : ماذا جئتَ به ؟

(١) فى م (فى بعض الأحيان) والأصوب أن تكون (فى بعض الأخبار) كما فى ص .

فيقول : يا رب . . لم يُعْطِني أحدٌ حسنةً من حسناته .

فيقول الله - سبحانه : عبدي . . ألم يكن لك صديق (في)^(١) ؟

فيتذكر العبدُ ويقول : فلان كان صديقاً لي .

فيدله الحقُّ عليه ، فيأتيه ويكلِّمه في بابه ، فيقول : بلي ، لي عباداتٌ كثيرةٌ قبلَها اليومَ
قد وهبْتُك منها ، فيسير هذا العبدُ ويحییء إلى موضعه ، ويخبر ربه بذلك ، فيقول الله -
سبحانه : قد قبِلْتُها منه ، ولن أنقص من حقِّه شيئاً ، وقد غفرت لك وله ، وهذا
معنى قوله :

« قالنا من شافعين ولا صديق حميم »

قوله جلَّ ذكره : « كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ »

ذكر قصة نوح وما لقي من قومه ، وأنهم قالوا : -

« قالوا اتُّؤْمِنُ لَكَ وَانْبَعَثَ الْأَرْذَلُونَ ؟ »

إنَّ أتباعَ كلِّ رسولٍ إنما هم الأضعفون ، لكنهم - في حكم الله - هم المتقدِّمون
الأكرمون . قال عليه السلام : « نُصِرْتُ بِضَعْفائِكَم » .
وإنَّ اللهَ أغرق قومه لما أصرُّوا واستكبروا .

وكذلك فعلَ بمن ذَكَرَهُمُ الآياتُ في هذه السورة من عادٍ وثمودٍ وقومِ لوطٍ وأصحابِ
مدین . . كلُّ منهم قابلوا رُسُلَهُم بالتكذيب ، فدَمَّرَ اللهُ عليهم أجمعين ، ونَصَرَ رُسُلَهُ
على مقتضى سُنَّتِهِ الحميدة فيهم . وقد ذَكَرَ اللهُ قصةَ كل واحدٍ منهم ثم أعقبها بقوله : -

« وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ »

« العزيز » : القادر على استئصالهم ، « الرحيم » الذي أَخَّرَ العقوبة عنهم بإمهالهم ، ولم
يقطع الرزقَ مع قُبْحِ فِعَالِهِمْ .

(١) هكذا في م و ص وهي صحيحة مقبولة في المعنى والسياق ؛ غير أننا لا نستبعد أنها ربما كانت
في الأصل (صديق وفي) حيث تقابل ما جاء في الآية (صديق حميم) فالبحث يوضحه يكون عن الصديق الوفي
الحميم .

وهو «عزيز» لم يُستفَرَّ بقيح أهالم ، ولو كانوا أجمعوا على طاعته كما تجمل بأفهام^(١).

قوله جل ذكره : « وما أسألكم عليه من أجرٍ إن أجرى إلا على رب العالمين » .

أخبر عن كل واحدٍ من الأنبياء أنه قال : « لا أسألكم عليه من أجرٍ » ليعلم الكافة أن من عمل لله فلا ينبغي أن يطلب الأجر من غير الله . وفي هذا تنبيه للعلماء — الذين هم ورثة الأنبياء — أن يتأدّبوا بأنبيائهم ، وألا يطلبوا من الناس شيئاً في بث علومهم ، ولا يرتفعون منهم بتعليمهم ، والتذكير لهم أنه من ارتقى في بث ما يذكّر به من الدين وما يعطى به المسلمين فلا يبارك الله للناس فيما منه يسمعون ، ولا للعلماء أيضاً بركة فيما من الناس يأخذون ، إنهم يبيعون دينهم بعرض يسير ، ثم لا بركة لهم فيه ، إذ لا يبتغون به الله ، وسيحصلون على سُخطِ الله .

قوله جل ذكره : « وإلهنا لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين » .

كلام الله^(٢) العزيز مُنَزَّلٌ على قلب الرسول — صلى الله عليه وسلم — في الحقيقة بسفارة جبريل عليه السلام . والكلام من الله غير منفصل ، وبغير الله غير متصل .. وهو — على الحقيقة لأعلى الجاز — مُنَزَّلٌ . ومعناه أن جبريل — عليه السلام — كان على السماء . فسمع من الرب ، وحفظ ، ونزل ، وبلغ الرسول . فمرة كان يخل عليه حالة تأخذه عنه^(٣) عند

(١) لأن الله — سبحانه — لا يلحقه زين بطاعة ولا شين بمعصية .

(٢) ينبغي الاهتمام برأى القشيري هنا عند بحث قضية «خلق القرآن» ، ومدى النظرة إلى ما بين دفتي المصحف . ومقارنة ذلك (بكلام) الله إلى موسى عند الشجرة ... موضوع هام ناقشه القشيري في كتابه (شكاية أهل السنة) .

(٣) تأمل كيف ينظر الصوفية إلى حالة المصطفى (ص) عند تلقى الوحي عام أنها حالة عرفانية ، فالعرفان لا يتم إلا عند الامتناء .

نزول الوحي عليه : ثم يُورِدُ جبريلُ ذلك على قلبه . ومرةً كان يتمثل له الملكُ فيُسمِعُهُ .
والرسولُ — صلوات الله عليه — يحفظه ويؤدِّيه . والله — سبحانه — ضَمِنَ له أنه سَيَقْرُؤُهُ حتى
لا ينساه^(١) . فكان يجمع الله الحِفْظَ في قلبه . وَيُسَهِّلُ له القراءة عند لفظه . وَلَمَّا عَجَزَ
الناسُ بأجمعهم عن معارضته مع تحدُّيه إِيَّاهم بالإتيان بمثله .. عُلِمَ صدقُه في أنه مِن قِبَلِ الله .
قوله جل ذكره : « وَإِنَّ لِي ذُرِّيًّا أُولِينَ » .

جميعُ ما في هذا الكتاب من الأخبار والقصص ، وما في صفَةِ الله من استحقاق جلاله —
موافقٌ لِمَا في الكتب المُنزَّلة من قِبَلِ الله قَبْلَه ، فهما عارضوه فإنه كما قال جل شأنه :
« لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ »^(٢) .

ثم أخبر أنه لو نَزَّلَ هذا الكتابَ بغير لسانهم وبلغه غير لغتهم لم يهتدوا إلى ذلك ،
ولقالوا : لو كان بلساننا لعرفناه ولأَمَنَّا به ، فأزاح عنهم العِلَّةَ ، وأَكَّدَ عليهم الحُجَّةَ .
ثم أخبر عن صادقِ عِلْمِهِ بهم ، وسابقِ حُكْمِهِ بالشقاوة عليهم ، وهو أنهم لا يؤمنون به
حتى يَرَوْا العذابَ في القيامة ، حين لا ينفعهم الإيمانُ ولا الندامةُ .

قوله جل ذكره : « أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ *
ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ *
مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ » .

إِنْ أَرَخِينَا لَهُمُ الْمُدَّةَ ، وأهلناهم أزماناً كثيرة — وهم بوصف الغفلة — فما الذي كان
ينفعهم إِذَا أَخَذَهُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً ؟ ١ .

ثم أخبر أنه لم يُهْلِكْ أَهْلَ قَرْيَةٍ إِلَّا بعد أن جاءهم النذيرُ وأظهر لهم البينات ، فإذا
أَصْرَوْا على كُفْرِهِمْ عَذَّبَهُمْ .

قوله جل ذكره : « إِنَّمَا هُمْ عَنْ السَّمْعِ الْمُعْزُولِ » .

(١) يُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : « سَتَقَرُّكَ فَلَا تَنْسَى » آيَةُ ٦ سورة الأعلى .

(٢) آيَةُ ٤٢ سورة فصلت .

وَجَدُوا السَّمْعَ — الذى هو الإدراك — ولكن عَدِمُوا الْفَهْمَ ، فلم يستجيبوا لِمَا دُعُوا إليه . فعند ذلك استوجبوا من الله سوء العاقبة .

قوله جل ذكره : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » .
وذلك تعريف له أنهم لا تنفعهم قرابتهم منه ، ولا تقبل شفاعته — إن لم يؤمنوا — فيهم . فليس هذا الأمر من حيث النسب ، فهذا نوح لما كفر أبوه لم تنفعه بُنوُّه ، وهذا الخليل إبراهيم عليه السلام لما كفر أبوه لم تنفعه أبُوُّه ، وهذا محمد — عليه الصلاة والسلام — كثير من أقاربه كانوا أشدَّ الناس عليه في العداوة فلم تنفعهم قرابتهم .

قوله جل ذكره : « وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » .

أَلِنْ جَانِبَكَ وَقَارِبْنِهِمْ فِي الصَّحْبَةِ ، واسحب ذيل التجاوز على ما يبدر منهم من التقصير ، واحتمل منهم سوء الأحوال ، وعائيرهم بحمل الأخلاق ، وتحمل عنهم كلهم ، وارحمهم كلهم ، فإن مرضوا فقدم ، وإن حرموك فأعطهم ، وإن ظلموك فتجاوز عنهم ، وإن قصرُوا في حق فاعف عنهم ، واشفع لهم ، واستغفر لهم^(١) .

قوله جل ذكره : « فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ » .

لا تفعل مثل فعلهم ، وكل حسابهم إلينا لإفيا أمرناك بأن تقيم فيه عليهم حداً ، فعند ذلك لا تأخذك رافة تمنعك من إقامة حدنا عليهم .

قوله جل ذكره : « وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ » .

انقطع إلينا ، واعتصم بنا ، وتوسَّل إلينا بنا ، وكن على الدوام بنا ، فإذا قلت قُلْ بنا ، وإذا صُلْتَ فَصُلْ بنا ، واشهد بقلبك — وهو في قبضتنا — بتحقيق بأنك بنا ولنا .

توَكَّلْ عَلَى « الْعَزِيزِ » تَجِدِ الْعِزَّةَ بِتَوَكُّلِكَ عَلَيْهِ فِي الدَّارَيْنِ ، فَإِنَّ الْعَزِيزَ مَنْ وَثِقَ بِالْعَزِيزِ .

(١) تصلح هذه الإشارة لتكون دستوراً في (الصَّحْبَةِ) بصفة عامة . وللتبصير فصل في الرسالة في هذا المصوص .

« الرحيم » الذي يقرب من تقرب إليه ، ويُجزل البر لمن توسل به إليه ^(١) .

قوله جل ذكره : « الذي يراك حين تقوم » .

اقتطعه بهذه الآية عن شهود الخلق ، فإن من علم أنه بمشهد من الحق راعى دقائق أحواله ، وخفايا أموره مع الحق ^(٢) .

قوله جل ذكره : « وتقلبك في الساجدين » .

هو أن عليه معاناة مشاق العبادة بإخباره برؤيته . ولا مشقة لمن يعلم أنه بمرأى من مولاه ، وإن حمل الجبال الرواسي على شفر ^(٣) جفن العين ليهون عند من يشاهد ربه ^(٤) .

ويقال « قلبك في الساجدين » بين أصحابك ، فهم نجوم وأنت بينهم بدر ، أو هم بدور وأنت بينهم شمس ، أو هم شمس وأنت بينهم شمس الشمس .

ويقال : قلبك في أصلاب آلائك من المسلمين الذين عرفوا الله ، فسجدوا له دون من لم يعرفوه .

قوله جل ذكره : « إنه هو السميع العليم » .

« السميع » لأنين الحيين ، « العليم » بخين العارفين .

« السميع » لأنين المذنبين ، « العليم » بأحوال المطيعين .

(١) هذه الإشارة نموذج طيب لعبقرية القشيري عند صياغة (وصاياه) للمريدين من الناحيتين الصوفية والأدبية .
(٢) يقال إنه لما دخل ذو النون المصري بغداد اجتمع إليه الصوفية ، ومعهم قوال ، فاستأذنوا ذا النون أن يقول بين يديه شيئاً ، فأذن له ، فابتدأ يقول ، فقام ذو النون وسقط على وجهه والدم يقطر من جبينه ولا يسقط على الأرض . ثم قام رجل من القوم يتواجد ، فقال له ذو النون : « الذي يراك حين تقوم » فجلس الرجل .
ويعلق الشيخ الدقاق على هذه القصة بأن ذا النون كان صاحب إشراف على هذا الرجل ، وكان الرجل صاحب إنصاف حين قبل منه ذلك فرجع وقعد (الرسالة ص ١٧٠) .

(٣) شفر الجفن = حرفة الذي يثبت عليه الهدب . (الوسيط) .

(٤) يربط النسق بين هذه الآية وبين الآيتين السابقتين واللاحقة ، فالمعنى عنده : أنه سبحانه (يراك حين تقوم) متهجداً ، ويرى (قلبك) في المصلين ؛ يرى ما كنت تفعل في جوف الليل من قيامك للتهجد ، وتقلبك في تصفح أحوال المتهمجين من أصحابك لتطلع عليهم من حيث لا يشعرون ، ولتعلم كيف كانوا يعملون لآخرتهم .
« هو » (سميع) لما تقوله ، (عليم) بما تنويه وبما تعمله ، وبذلك هو عليه معاناة كل مشقة حيث أخبر برؤيته له في كل ما يقوم به .

(تفسير النسق ج ٣ ص ١٩٩) ط عيسى الحلبي .

قوله جل ذكره : « هل أنبئكم على من تنزل
الشياطين » تنزل على كل أفاك
أنيم * يلقون السمع وأكذبهم
كاذبون .

بين أن الشياطين تنزل على الكفار والكهنة^(١) فتوحى إليهم بوساوسهم الباطلة .

قوله جل ذكره : « والشعراء يتبعهم الغاؤون » .
لما ذكر الوحي وما يأتي به الملائكة من قبل الله ذكر ما يوسوس به الشياطين إلى
أوليائه ، وألحق بهم الشعراء الذين في الباطل يهيمون ، وفي أعراض الناس يقعون ،
وفي التشبهات — عن حد الاستقامة — يخرجون ، ويعدون من أنفسهم بما لا يوفون ،
وسيل الكذب يسلكون .

قوله جل ذكره : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات
وذكروا الله كثيراً ، واتصروا من
بعد ما ظلموا » .

فيكون شعره خالياً عن هذه الوجوه المعلولة المذمومة^(٢) ، وهذا كما قيل : الشعر كلام
إنسان ؛ لحسنه كحسنه وقبيحه كقبيحه .

قوله جل ذكره : « وسيعلم الذين ظلموا أي مقلب
يتقلبون » .

سيعلم الذين ظلموا سوء ما عملوا ، ويندمون على ما أسلفوا ، ويصدقون بما كذبوا .

(١) من أمثال سطيح وطليحة ومسيلمة .

وإذا كان محمد (ص) يشتم الأفاكين ويلتهم .. فكيف تنزل الشياطين عليه ؟

(٢) من أمثال عبد الله بن رواحه وحسان بن ثابت وكعب بن زهير وكعب بن مالك رضي الله عنهم ، فشرهم
فلبت عليه الحكمة والموعظة والزهد ، والدعوة إلى الفضيلة ، وموازرة الدين الجديد ، ورفع آراء التوحيد .

السورة التي يذكر فيها النمل

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله اسم عزيز قصده العاصي لطلب التخفيف فصار وزره مغفوراً ، اسم كرم قصده العابد لطلب التضعيف فصار أجره موفوراً ، اسم جليل أمه الولي لطلب التشريف فصار سعيه مشكوراً ، اسم عزيز إن تعرض الفقير لوجوده بحفته العزة ، وطوحت السطوة ، فصار كأن لم يكن شيئاً مذكوراً .

جَلَّتْ الْأَحْدِيَّةُ .. فَأَتَى بِالْوَصُولِ ۖ وَتَقَدَّسَتْ الصَّمَدِيَّةُ .. فَمَنْ ذَا الَّذِي عَلَيْهَا يَقِفُ ^(١) ؟ .
« كَلَّا .. إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ » ^(٢) :

وكم باسطين إلى واصلنا أ كُفَّهُمُو .. لم ينالوا نصيبا
قوله جل ذكره : « طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين » .
بطهارة قدسي وسناء عزى لا أخيب أمل من أمل لطنى .
بوجود يرعى تطيب قلوب أوليائي ، وبشهود وجهى تغيب أسرار أصفائي .
طلب القاصدين متقابل بلطنى ، وسعى العاملين مشكور بمطنى ^(٣) .

(١) التوحيد - في نظر القشيري - هو أعلى درجات العرفان ، وهذا التوحيد العرفاني - متأثراً بالتوحيد الإسلامي الأصيل - لا يشوبه كدّر ولا تمقيد ولا تداعيل ولا حلول ولا امتزاج . عرفان الصوفي مهما منظم لا يتبدى كونه (عرفاناً) بنعت التعالى في شهود أفعال الحق ، فأما الوقوف على حقيقة الإنية فقد جلت الصمدية عن إشراف عرفان عليها (تفسير بسملة سورة الجمعة « من هذا المجلد ») .

(٢) آية ٥٤ سورة المدثر .

(٣) غير خاف على القارئ أن يلحظ نزود حرفي الطاء والسين في كلمات الأسطر الثلاثة ، كأنما القشيري يريدنا أن نتفهم دقائق (طس) من بعيد .

« تلك آيات القرآن وكتاب مبين » . . . دلالات كرمنا ، وأمارات فضلنا وشواهد برنا ، نبين لأوليائنا صدق وعدينا ، ونفخ في الأصداء حفظ عهدنا .

قوله جل ذكره : « هدى ربى للمؤمنين » .

هذه الآيات وهذا الكتاب بيان وشفاء ، ونور وضياء ، وبشرى ودليل لمن حققنا لهم الإيمان ، وأكذنا لهم الضمان ، وكفلنا لهم الإحسان .

قوله جل ذكره : « الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة

وهم بالآخرة هم يوقنون » .

يديمون المواصلات ، ويستقيمون في آداب المناجاة ويؤدون عن أموالهم وأحوالهم وحركاتهم وسكناتهم الزكاة ، بما يقومون في حقوق المسلمين أحسن مقام ، وينوبون عن ضعفائهم أحسن مناب .

قوله جل ذكره : « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زيننا لهم

أعمالهم فهم يعمهون » .

أغشيناهم فهم لا يبصرون ، وعمينا عليهم المسالك فهم عن الطريقة المثلى يعدلون ، أولئك الذين في ضلالتهم يعمهون ، وفي حيرتهم يتردون .

قوله جل ذكره : « أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم

في الآخرة هم الأخسرون » .

« سوء العذاب » أن يجد الآلام ولا يجد التسلي بمعرفة المسلي ، ويحمل البلاء ولا يحمل عنه ثقله وعذابه شهود المبلي . . . وذلك للكفار ، فأما المؤمنون فيخفف عنهم العذاب في الآخرة حسن رجائهم في الله ، ثم تضرعهم إلى الله ، ثم فضل الله معهم بالتخفيف في حال البلاء ثم ما وقع عليهم من الغشى والإفاقة — كما في الخبر — إلى وقت إخراجهم من النار .

قوله جل ذكره : « وإنك لتلقى القرآن من لدن

حكيم عليم » .

أى أن الذى أكرمك بإنزال القرآن عليك هو الذى محفوظك عن الأسواء والأعداء
وصنوف البلاء .

قوله جل ذكره : « إذ قال موسى لأهله إني آنستُ ناراً
سأتىكم منها بخير أو آتاكم بشهاب
قابسٍ لعلكم تصطلون » .

سار موسى بأهله من مدين شعيب متوجهاً إلى مصر ، ودجأ عليه الليل ، وأخذ امرأته
الطلق وهبت الرياح الباردة ، ولم يور الزند ، وضاق على موسى الأمر ، واستبهم الوقت ،
وتشتت به الهممة ، واستولى على قلبه الشغل . ثم رأى ناراً من بعيد ، فقال لأهله : امكثوا
إني أبصرتُ ناراً . وفي القصة : إنه تشتت أغنامه ، وكانت له بقور وثيران تحمل متاعه
فشردت ، فقالت امرأته :

كيف تتركنا وتمضى والوادي مسبح ١٩ .

قال : امكثوا .. فإني لأجلكم أمضى وأتعرف أمرَ هذه النار ، لعل آتاكم منها إماً بقبسٍ
أو شعله ، أو بخيرٍ عن قومٍ نزولٍ عليها تكون لنا بهم استعانة ، ومن جهتهم انتفاع . وبدت
لعيته تلك النارُ قريةً ، فكان يمشى نحوها ، وهي تتباعد حتى قُرب منها ، فرأى شجرةً رطبةً
خضراء تشتعل كلها من أولها إلى آخرها ، وهي نار مضيئة ، فجمع خشيباتٍ وأراد أن يقتبس
منها ، فعند ذلك سمع النداء من الله لا من الشجرة كما توهم المخالفون من أهل البدع . وحصل
الإجماعُ أنَّ موسى سمع تلك الليلة كلامَ الله ، ولو كان النداء في الشجرة لكان التكلم به
الشجرة ، ولأجل الإجماع قلنا : لم يكن النداء في الشجرة^(١) . وإلا فنحن نجوز أن يخلق الله نداءً
في الشجرة ويكون تعريفاً ، ولكن حينئذ يكون التكلم بذلك الشجرة .

(١) أى أنه على هذا الرأي كلام غير مخلوق ، لأن كلام الله صفته ، وصفته - سبحانه - غير مخلوقة ..
وهذا هو نفس الرأي بالنسبة للقرآن ، وهذا هو الجواب الذى دحض به السلف زعم الجهمية حينما أرادوا أن يثبتوا
أن القرآن مخلوق ، لأن القرآن شيء ، « والله خالق كل شيء » (انظر مدارج السالكين لابن القيم ج ١ ص ٢٢٢)
فيكون النداء الذى سمع من الشجرة كالكلام الذى بين دفتي المصحف .. كلاهما كلام الله - على الحقيقة ، ولكن
من حيث التجوز في التعبير يقال (في الشجرة) و (في المصحف) .

ولا يُنكر في الجواز أن يكون الله أسمع موسى كلامه بإسماع خلقه له ، وخلق كلامًا في الشجرة أيضًا ، فموسى سمع كلامه القديم وسمع كلامًا مخلوقًا في الشجرة ... وهذا من طريق العقل جائز .

قوله جل ذكره : «فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين» .

أى بورك من هو في طلب النار ومن هو حول النار^(١) .

ومعنى بورك أى لحقته البركة أو أصابته البركة .. والبركة الزيادة والنماء في الخير .

والدعاء من القديم — سبحانه — بهذا يكون تحقيقاً له وتيسيراً به .

قوله جل ذكره « يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم » .

الذى يُخاطبك أنا الله « العزيز » في استحقاق جلالى ، « الحكيم » في جميع أفعالى .

قوله جل ذكره : « وألقي عصاك فلما رآها تهتز كأنها

جان ولي مذبذب ولم يُعقب » .

في آية أخرى بين أنه سأله ، وقال له على وجه التقرير : « وما تلك يمينك يا موسى ؟ »

وأجابه بقوله : « هى عصاى » وذكر بعض ما له فيها من المآرب والمنافع ، فقال الله : « وألقي

عصاك » ، وذلك لأنه أراد أن يرى فيه من عظيم البرهان ما يجعل له كمال اليقين .

وألقاها موسى فقلبتا الله ثعباناً ، أولاً حية صغيرة ثم صارت حية كبيرة ، فأوجس في

نفسه موسى خيفةً وولّى مذبذباً هارباً ، وكان خوفه من أن يُسلطها عليه لما كان عارفاً بأن الله

يعذب من يشاء بما يشاء ، فقال له الحق :

« يا موسى لا تخف إني لا يخاف لى

المُسؤلون » .

أى لا ينبغي لم أن يخافوا .

(١) يرى النسخ أن (من) في مكان النار هم الملائكة ، و(من حولها) هو موسى . (النسخ ٣ ص ٢٠٢) .

« إِنْ آمَنَ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ »

فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ .

وهذا يدل على جواز الذنب على الأنبياء عليهم السلام فيما لا يتعلق بتبليغ الرسالة بشرط ترك الإصرار ، فأما مَنْ لَا يُجِيزُ عليهم الذنوبَ فيحمل هذا على ما قبل النبوة^(١) .

فلما رأى موسى انقلاب العصا عِلمَ أَنَّ الحقَّ هو الذي يكشفه بذلك .

ويقال : كيف عِلمَ موسى — عليه السلام — أَنَّ الذي سمعه كلامُ الله ؟ .

والجواب أنه بتعريف منه إياه ، ويجوز أن يكون ذلك العلم ضرورياً فيه ، ويجوز أن يكون كسبياً ، ويكون الدليل له الذي به عِلمَ صدقه في قوله : « إنا أنا الله » هو ما ظهر على يده — في الوقت — من المعجزة ، من قلب العصا ، وإخراج يده بيضاء^(٢) .

قوله جل ذكره : « وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضًا »

من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون

وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين .

من غير سوء أي برّص . وفي القصة أن موسى عليه السلام ذكر اشتغال قلبه بحديث امرأته ، وما أصابه تلك الليلة من الأحوال التي أوجبَتْ انزعاجه ، وقصده في طلب النار ، فقال الله تعالى : إنا قد كفيناك ذلك الأمر ، ووكنا بامرأتك وأسبابك ، فجعلنا أغناكم وثيرانك ، وسَلَّمْتُ لَكَ الْمَرْأَةَ .

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا

سِحْرٌ مُبِينٌ » .

(١) لا يستخدم فريق من الفقهاء تعبير (الذنب) بالنسبة للأنبياء عليهم السلام وإنما يطلق على ما يبدر منهم (فِعْلٌ خِلَافَ الْأَوَّلَى) تأديباً .

والنبي — على الوجوب — معصوم ، والولي محفوظ أي قد تقع منه منات أو زلات ولكنه لا يُصير على ما فعل (الرسالة ص ١٧٥) .

(٢) أي أن الأصل في المعجزة أنها دليل صدق النبي ، فقد يستطيع السحرة والكهنة عمل أشياء عجيبة ولكنها لا تخرج من كونها دليل مهارة أو ذكاء أو قدرة على الإيهام والانبهار .

والنبي مأمور بإظهار المعجزة أما الولي فمأمور بإخفاء الكرامة (الرسالة ص ١٧٤) .

لم يُظهِرِ اللهُ — سبحانه — آيةً على رسولٍ من أنبيائه — عليهم السلام — إلا كانت في الوضوح بحيث لو وَضَعُوا النظرَ فيها موضَعَهُ لتَوَسَّلُوا إلى حصول العلم وتلج الصدور ، ولكنهم قَصَّروا في بعضها بالإعراض عن النظر فيها ، وفي بعضها الآخر عرفوها وقابلوها بالجحد . قال تعالى وقوله صِدْقٌ :

« وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم
ظُلُمًا وَعُلُوءًا فانظُرْ كيف كان عاقبةُ
المُفْسِدِينَ » .

وكما يَحْصُلُ من الكافر الجحد^(١) تحصل للعاصي عند الإمام ببعض الذنوب حالة يعلم فيها — بالقطع — أن ما يفعله غير جائز ، وتتوالى على قلبه الخواطرُ الزاجرةُ الداعيةُ له عن فعلها من غير أن يكون متغافلاً عنها أو ناسياً لها ، ثم يُقَدِّمُ على ذلك غيرَ مُحْتَفِلٍ بها مُوَافَقَةً لشهوته . وهذا الجنسُ من المعاصي أكثرها شؤماً ، وأشدُّها في العقوبة ، وأبعدُها عن الفران .

قوله جل ذكره : « ولقد آتينا داوودَ وسليمانَ علماً وقالوا الحمد لله الذي فضَّلنا على كثيرٍ من عباده المؤمنين » .

يقتضى حكمُ هذا الخطاب أنه أُفْرِدَها بجنسٍ من العلم لم يشارِ كهُما فيه أحدٌ ؛ لأنه ذَكَرَهُ على وجهٍ تخصيصهما به ، ولا شك أنه كان من العلوم الدينية ؛ ويحتمل أنه كان بزيادة بيان لها أغناها عن إقامة البرهان عليه وتصحيحه بالاستدلال الذي هو مُعَرَّضٌ للشك فيه^(٢) .

(١) ليس حتماً أن يكون جحد الجاحد بعد المعرفة لأن (جحد) بمعنى أنكر ، وقد يكون الإنكار نتيجة جهل بالشئ . ولكن الواضح أن القشيري يتجه إلى توضيح أسوأ ألوان الجحود ، وهو الذي يحدث بعد المعرفة ، وقد أحسن القشيري حين قابل بين ذلك وبين أسوأ أحوال المعاصي ، وهي تلك التي يقدم فيها على المعصية وهو علم بما قبلها ، ومع ذلك يعقد النية عليها ، ويفعلها .

(٢) نعلم من مذهب القشيري أن البيان أرق في المراج العرفاني من البرهان ، ونجد هنا سبب تفرق البيان على البرهان .

ويحتمل أن يكون علمهما بأحوال أمتهم على وجه الإشراف على ما كانوا يستسرون به ،
فيكون إخبارهما عن ذلك معجزةً لهما .

ويحتمل أن يكون قوله : « عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ » .

ويحتمل أن يكون علمهما بالله على وجه زيادةٍ لهما في البيان .

وفي الآية دليل على أن التفضيل الذي يحصل بالعلم لا يحصل بغيره من الصفات ، فأخبر
بأنهما شكراً لله على عظيم ما أنعم به عليهما ^(١) .

قوله جل ذكره : « وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا

النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ

كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُ الْفَضْلُ الْمُبِينُ » .

ورث أباه في النبوة ، وورثه في أن أقامه مقامه .

قوله : « عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ » : وكان ذلك معجزةً له ، أظهرها لقومه ليعلموا بها صدقَ
إخباره عن نبوته . ومن كان صاحبَ بصيرةٍ وحضور قلبٍ بالله يشهد الأشياء كلها بالله ومن
الله . ويكون مُكاشفاً بها من حيث التفهيم ، فكأنه يسمع من كل شيء تعريفات الحقِّ
— سبحانه — للبدن مما لا نهاية له ، وذلك موجودٌ فيهم تحكي عنهم . وكأنَّ ضربَ
الطَّيْرِ مثلاً دليلٌ يُعرَّفُ — بالمواضعة — عند سماعه وقت الرحيل والنزول فالحقُّ
— سبحانه — يخصُّ أهلَ الحضورِ بفنون التعريفات ، من سماع الأصوات وشهود أحوال
المرئيات في اختلافها ، كما قيل :

إذا المرءُ كانت له فكرةٌ ففي كل شيء له عِبرةٌ

قوله جل ذكره : « وَوَحَّشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ

وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ » .

(١) قال صل الله عليه وسلم : « العلماءُ ورثة الأنبياء » والعلمُ نعمة تحتاج إلى الشكر ، ويلزم أن يعتقد العالم أنه
إن فُضِّلَ على كثير فقد فضل عليه كثير أيضاً ، وما أحسن قول عمر رضي الله عنه : كل الناس أفتة من عمر .

سَخَّرَ اللَّهُ لِسُلَيْمَانَ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — الْجِنَّ وَالطَّيْرَ ، فَكَانَ الْجِنُّ مَكْلُفِينَ ، وَالطَّيْرُ كَانَتْ مُسَخَّرَةً إِلَّا أَنَّهُ كَانَ عَلَيْهَا شَرْعٌ ، وَكَذَلِكَ الْحَيَوَانَاتُ الَّتِي كَانَتْ فِي وَقْتِهِ ، حَتَّى النَّمْلُ كَانَ سُلَيْمَانُ يَعْرِفُ : طَائِفَهُمْ وَيَنْفِذُ عَلَيْهِمْ حُكْمَهُ .

قوله جل ذكره : « حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادٍ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » .

قيل إن سليمان استحضر أمير النمل الذي قال لقومه : « ادخلوا مساكنكم » وقال له : أَمَا عَلِمْتَ أَنِّي مَعْصُومٌ ، وَأَنِّي لَنْ أُمْكِّنَ عَسْكَرِي مِنْ أَنْ يَطْشُوكُمْ ؟ فَأَخْبَرَهُ أَمِيرُ النَّمْلِ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِوَاجِبٍ أَنْ يَكُونَ النَّمْلُ عَالِمًا بِمَصْنَعَةِ سُلَيْمَانَ . وَلَوْ قَالَ : لَعَلَّكُمْ أَيْبَحُ لَكُمْ ذَلِكَ .. لَكَانَ هَذَا أَيْضًا جَائِزًا .

وقيل إن ذلك النمل قال لسليمان : إِنِّي أَهْلُ قَوْمِي عَلَى الزَّهْدِ فِي الدُّنْيَا ، وَخَشِيتُ أَنْ يَرَوْكُمْ فِي مُلْكِكُمْ أَنْ يَرْغَبُوا فِيهَا ^(١) ، فَأَمَرْتُهُمْ بِدُخُولِ مَسَاكِنِهِمْ لئَلَّا يَتَشَوَّشَ عَلَيْهِمْ زُهْدُهُمْ . وَلَئِنْ صَحَّ هَذَا فَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى وَجُوبِ سِيَاسَةِ الْكِبَارِ لِمَنْ هُوَ فِي رِعْيَتِهِمْ . وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى حَسَنِ الْإِحْتِرَازِ مِمَّا يُخْشَى وَقُوعُهُ ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِمَّا تَقْتَضِيهِ عَادَةُ النَّفْسِ وَمَا فَطَرُوا عَلَيْهِ مِنَ التَّمْيِيزِ .

ويقال إن ذلك النمل قال لسليمان : مَا الَّذِي أَعْطَاكَ اللَّهُ مِنَ الْكِرَامَةِ ؟ .

فقال : سَخَّرَ لِي الرِّيحَ .

فقال : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِشَارَةَ فِيهِ أَنَّهُ لَيْسَ بِيَدِكَ مِمَّا أُعْطِيتَ إِلَّا الرِّيحُ ؟ ^(٢) .

وهكذا يَنْبَغِي الْكَبِيرُ عَلَى لِسَانِ الصَّغِيرِ .

قوله جل ذكره : « فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا » .

(١) التفسير في (فيها) يعود على الدنيا .

(٢) أي أنه عطاء زائل لا مكث له ولا قرار .

التبسم من الملوك يندبر لمراعاتهم حكم السياسة ، وذلك يدل على رضاهم واستحسانهم لما منه يحصل التبسم ، فلقد استحسن سليمان من كبير النمل حسن سياسته لرعيته .

وفي القصة أنه استعرض جندَه ليراهم كم هم ، فعرضهم عليه ، وكانوا يأتون فوجاً فوجاً ، حتى مضى شهرٌ وسليمان واقفٌ ينظر إليهم مُعْتَبِراً فلم يفتهموا ، ومرَّ سليمان عليه السلام .

وفي القصة : أن عظيم النمل كان مثل البغل في عِظَم الجثثه ، وله خرطوم . والله أعلم .

قوله جل ذكره : « رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ

التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ

أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ » .

في ذلك دليلٌ على أن نظره إليهم كان نظراً اعتبارياً ، وأنه رأى تعريف الله إياه ذلك ، وتنبهه عليه من جملة نِعَمِهِ التي يجب عليها الشكر .

وفي قوله : « وعلى والدي » دليلٌ على أن شكر الشاكر لله لا يختص بما أنعم به عليه

على الخصوص ، بل يجب على العبد أن يشكر الله على ما خصَّ وعمَّ من نِعَمِهِ .

قوله جل ذكره : « وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ

الصالحين » .

سأل حسن العاقبة ؛ لأنَّ الصالح من عباده مَنْ هو مختوم له بالسعادة .

قوله جل ذكره : « وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ قَالَ مَا لِي لَا أَرَى

الهُدُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ » .

تطلبه فلما لم يره تعرّف ما سبب تأخره وغيبته .

وذلك ذلك على تيقظ سليمان في مملكته ، وحسن قيامه وتكفله بأمور أُمته ورعيته ، حيث

لم تخفَ عليه غيبة طيرٍ هو من أصفر الطيور لم يحضر ساعة واحدة . وهذا أحسن ما قيل .

ثم تهذّده إن لم يكن له عذرٌ بعذاب شديد ، وذلك يدل على كمال سياسته وعدله

في مملكته .

وقال قومٌ إنما عَرَفَ أن الهدهد يعرف أعماقَ الماء بإلهامٍ خُصَّ به ، وأن سليمان كان قد نزل منزلاً ليس به ماء ، فطلب الهدهد ليهديهم إلى مواضع الماء ، وهذا ممكن ؛ لأن في الهدهد كثرةً . وغيبتهُ واحدٌ منها لا يحصل منها خللٌ — اللهم إلا إن كان ذلك الواحد مخصوصاً بمعرفة مواضع وأعماق الماء .. والله أعلم .

وروى أن ابن عباس سئل عن ذلك ، وأنه قيل له : إن كان الهدهد يرى الماء تحت التراب ويعرفه فكيف لا يرى الفخ مخفياً تحت التراب ؟

فقال : إذا جاء القضاء عمى البصر .

ويقال : إن الطير كانت تقف فوق رأس سليمان مُصْطَفَّةً ، وكانت تستر انبساط الشمس وشماعها بأجنحتها ، فوق شعاع الشمس على الأرض ، فنظر سليمانُ فرأى موضع الهدهد خالياً منه ، فعرف بذلك غيبته .. وهذا أيضاً ممكن ، ويدل على كمال تفقده ، وكال تيقظه — كما ذكرنا .

قوله جل ذكره : «لَأَعَذِّبَنَّ عَذَاباً شديداً أو لَأَذِيبَنَّه أو لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ» .

في هذه الآية دليل على مقدار الجرم ، وأنه لا عبرة بصغر الجنة وعظمتها . وفيه دليل على أن الطير في زمانه كانت في جملة التكليف ، ولا يبعد الآن أن يكون عليها شرعٌ ، وأن لهم من الله إلهاماً وإعلاماً ؛ وإن كان لا يُعرف ذلك على وجه القطع .

وتعيين^(١) ذلك العذاب الشديد غير ممكن قطعاً ، إلا تجويزاً واحتمالاً .

وعلى هذه الطريقة يَحْتَمِلُ كل ما قيل فيه .

ويمكن أن يقال فإن وُجدَ في شيء نقلٌ فهو مُتَّبَعٌ .

وقد قيل هو نتف ريشه وإلقاؤه في الشمس .

(١) وانسج هنا طريقة منافسة المسيرى لشيء لم يرد به النقل . وكيف يعطى النقل أهمية وتقديراً ، فإذا لم يكن نقل فنبغي التجويز لا القطع .

ووانسج كذلك منى استغوازه لهذا الموتى في موبيد كلاء المریدين والطلاب بطريق غير مباشر .

وقيل يفرَّق بينه وبين أليفه .

وقيل يشتَّت عليه وقته .

وقيل يلزِمُه خدمة أقرانه .

والأوَّلَى في هذا أن يقال من العذاب الشديد كيت وكيت ، وألا يُقطعَ بشيء دون غيره على وجه القطع .

فَمِنْ العذاب الشديد أن يُمنَحَ حلاوة الخدمة فيجد ألمَ المشقة . ومن ذلك أن يقطع عنه حُسْنُ التولي لشأنه ويوكل إلى حَوَلِهِ ونَفْسِهِ ، ومن ذلك أن يُتَّعَنَ بالحِرْصِ في الطلب ثم يحال بينه وبين مقصوده ومطلوبه . ومن العذاب الشديد الطمع في اسم العذر ثم لا يرتفع^(١) . ومن ذلك سَلْبُ القناعة ، ومنه عَدَمُ الرضا بما يجري . ومن ذلك توهم الحدثن وحسبان شيء من الخلق .

ومن ذلك الحاجة إلى الأخِستِ من الناس . ومن ذلك ذُلُّ السؤال مع الغفلة عن شهود التقدير . ومن ذلك صحبة الأضداد والابتلاء بمعاشرتهم . ومن ذلك ضعف اليقين وقلة الصبر . ومن ذلك التباس طريق الرُّشد . ومنه حسبان الباطل بصفة الحق ، والتباس الحق في صورة الباطل . ومنه أن يطالب بما لا تقسع له ذات بده . ومنه الفقر في الغربة .

قوله جل ذكره : « فَسَكَّتْ غَيْرَ بعيدٍ قال أَحَطْتُ

بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبِيٍّ
بَنِيًّا يَقِينٌ »

فلم يلبث المدهد أن جاء ، وعِلِمَ أن سليمان قد تهذَّده ، قال : أَحَطْتُ علماً بما هو عليك خافٍ ، « وَجِئْتُكَ مِنْ سَبِيٍّ بَنِيًّا يَقِينٌ » .

ثم ذكر حديث بلقيس ، وأنها ملكتهم ، وأن لها من المال والملك والسرير العظيم

(١) عاد التثنية إلى الآية نفسها في رسالته حيث يقول : وقيل في قوله تعالى : لأعذبه عذاباً شديداً - يعني لأسلبه القناعة ولأبطلينه بالطمع يعني أسأل الله تعالى أن يفعل به ذلك (الرسالة - ص ٨٢) .

ما عَدَّه ، فلم يتغير سليمان — عليه السلام — لذلك ، ولم يستفزّه الطمع فيما سَمِعَ عن هذا كما يحدث من عادة الملوك في العلم في مُلْكٍ غيرهم ، فلما قال :

« وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَعَدَّتْهُمْ عَنْ السَّبِيلِ فَهُمْ
لَا يَهْتَدُونَ »

فبعد ذلك غَاظَ هذا سليمان ، وَغَضِبَ فِي اللَّهِ ، وَ :

« قَالَ سَتَنْظُرُونَ أَصَدَقْتُ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ »

وفي هذا دلالة على أن خير الواحد لا يوجب العلم فيجب التوقف فيه على حد التجويز ،
وفيه دلالة على أنه لا يُطْرَحُ بل يجب أن يُتَعَرَّفَ : هل هو صدق أم كذب ؟^(١)

ولمَّا عَرَفَ سليمانُ هذا العُدْرَ تَرَكَ عِقُوبَتَهُ وَمَا تَوَعَّدَهُ بِهِ .. وكذلك سبيلُ الوالي ؛
فإنَّ عَدْلَهُ يَمْنَعُهُ مِنَ الْحَيْفِ عَلَى رَعِيَّتِهِ ، وَيَقْبَلُ عُذْرَ مَنْ وَجَدَهُ فِي صُورَةِ الْجُرْمِ إِذَا
صَدَّقَ فِي اعْتِنَادِهِ .

قوله جل ذكره : « اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ
ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَأَنْظُرْ » ماذا يَرَجِعُونَ ؟

في الآية إشارة إلى أنه لا ينبغي للإنسان أن يذكر بين يدي الملوك كل كلمة ، فإنه يجرئ
العناء بذلك إلى نفسه ؛ وقد كان لسليمان من الخدم والحشم ومن ياتر بأمره الكثير ،
ولكنه لم يستعمل واحداً في هذا التكليف إلا المدهد لأنه هو الذي قال ما قال ، فلزمه
الخروج من عهده ما قال .

ويقال لما صَدَرَ : فيما أخبر لِمَالِكٍ عُوْضَ عَلَيْهِ فَأَهْلَ السَّفَارَةِ وَالرَّسَالَةِ — على
ضعف صورته^(٢) .

(١) يضاف هذا الرأي في أخبار الأحاد إلى مذهب القشيري في المسائل الحديثية والفقهية .

(٢) هنا إشارة بعيدة إلى الرسل والأولياء ، ودحض لما يقال عنهم من التهم .

ففى المدهد ، وألقى الكتاب إليها كما أمر ، وانتحى إلى جانب ينتظر ماذا يفعلون
وبماذا يجاب .

قوله جل ذكره : « قالت يا أيها الملأ إني ألقى إلى كتاب
كريم * إنه من سليمان وإنه
بسم الله الرحمن الرحيم * ألا تملأوا
على وأتوني مسلمين » .

« كتاب كريم » الكرم نسي الدناءة ، وقيل لأنه كان مختوماً^(١) ، وقيل لأن الرسول
كان طيراً ؛ فعلمت أن من تكون الطير مسخرة له لا بد أنه عظيم الشأن . وقيل :
لأنه كان مصدراً بيسم الله الرحمن الرحيم . وقيل لأنه كتب فيه اسم نفسه أولاً ولم يقل :
إنه من سليمان إلى فلاة . ويقال لم يكن في الكتاب ذكر الطمع في الملك بل كان دعاء
إلى الله : « ألا تملأوا على وأتوني مسلمين » .

ويقال أخذ الكتاب بجميع قلبها ، وقهرها ؛ فلم يكن لها جواب ، قالت : « إني ألقى
إلى كتاب كريم » فلما عرفت قدر الكتاب وصلت باحترامها إلى بقاء ملكها ، ورزقت
الإسلام وصحبة سليمان .

ويقال إذا كان الكتاب كريماً لما فيه من آية التسمية فالكريم من الصلاة مالا يتجرّد
عن التسمية ، وإذا تجرّدت كان الأمر فيها بالعكس .

قوله جل ذكره : « قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمرى
ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون^(٢) » .

(١) يقال إنه طبعه بالمسك وختمه بخاتمه . قال صلى الله عليه وسلم : « كرم الكتاب ختمه » وقيل من كتب
إلى أخيه كتاباً ولم يختمه فقد استخف به .

(٢) (حتى تشهدون) بكسر النون ، أما الفتح فلحن ؛ لأن النون إنما تفتح في موضع الرفع وهذا في موضع
النصب لأن ما سبق « حتى » أسلوب ملهى ، فالفعل ينصب بعدها بأن مضمرة . وأصله « تشهدوننى » فحذفت النون الأولى
لنصب ، والياء للدلالة الكسرة .

أَخَذَتْ فِي الْمَشَاوِرَةِ كَمَا تَقْتَضِيهِ الْحَالُ فِي الْأُمُورِ الْعِظَامِ ؛ فَإِنَّ الْمَلِكَ ^(١) لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ
مُسْتَبْدَأً بِرَأْيِهِ ، وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَهُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الرَّأْيِ وَالْبَصِيرَةِ .

قوله جل ذكره : « قَالُوا نَحْنُ أَوْلَا قُوَّةً وَأُولَا بَأْسٍ شَدِيدٍ
وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ؟ » .

أَجَابُوا عَلَى شَرْطِ الْأَدَبِ ، وَقَالُوا : لَيْسَ مِنَّا إِلَّا بِذَلِكَ الْوَسْعِ ، وَلَيْسَ لَنَا إِلَّا إِيظَاهَارُ
النَّصِيحِ ، وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا مُتَابَعَةُ الْأَمْرِ — وَتَمْشِيَةُ الْأَمْرِ وَإِمِضَاؤُهُ .. إِلَيْكِ .

قوله جل ذكره : « قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً
أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةً أَهْلِهَا أَذِلَّةً
وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » .

وَيَقَالُ إِنَّ : « وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » مِنْ قَوْلِهَا .

وَيَقَالُ : تَفْسِيرُ الْمُلُوكِ ^(٢) إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً — عَنْ صَفَتِهَا — مَعْلُومٌ ، ثُمَّ يُنْظَرُ .. فَإِنْ كَانَ
الِدَاخِلُ عَادِلًا أَزَالَ سُنَّةَ الْجَوْرِ ، وَأَثَبَتْ سُنَّةَ الْعَدْلِ ، وَإِنْ كَانَ الدَاخِلُ جَائِرًا أَزَالَ
الْحَسَنَ وَأَثَبَتْ الْبَاطِلَ . هَذَا مَعْلُومٌ ؛ فَإِنَّ خَرَابَ الْبِلَادِ بِوَلَاةِ السُّوءِ ، حَيْثُ يَسْتَوْلِي أَسَافِلُ
النَّاسِ وَأَسْقَاطُهُمْ عَلَى الْأَعِزَّةِ مِنْهُمْ ، وَكَأَقِيلٍ :

يَا دَوْلَةَ لَيْسَ فِيهَا مِنَ الْعَالِي شَيْئٌ
زُولِي فَمَا أَنْتِ إِلَّا عَلَى الْكِرَامِ بَلْسِيَّةٌ

وَعِمَارَةُ الدُّنْيَا بِوَلَاةِ الرُّشْدِ ، يَكْسِرُونَ رِقَابَ الْفَاقَةِ ، وَيُخَلِّصُونَ الْكِرَامَ مِنْ أَسْرِ
السُّفْلَةِ ، (وَيَأْخُذُ الْقَوْسَ بِأَرِيحَا) ^(٣) ، وَتَطْلُعُ شَمْسُ الْعَدْلِ مِنْ بَرَجِ شَرْفِهَا .. كَذَلِكَ لِلْعَرَفَةِ

(١) نَعْلَمُ مِنْ سِيرَةِ الْقَشِيرِيِّ أَنَّهُ كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَصْحَابِ السُّلْطَانَةِ فِي مَوْطِنِهِ خِلَافَاتٌ فِي الرَّأْيِ ، فَهِيَ هُنَا يَغْمِزُ
بِمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ مِمَّا حَبِبَ السُّلْطَانُ مِنْ آدَابٍ ، سِوَاهُ فِي اخْتِيَارِ أَعْوَانِهِ ، أَوْ فِي قَبُولِ النَّصِيحِ وَالشُّورَى .

(٢) كَأَنَّمَا الْقَشِيرِيُّ يَنْفَسُ عَنْ نَفْسِهِ مَا قَاسَاهُ فِي عَهْدِ السُّلْطَانِ طُغْرُلُ وَوَزِيرِهِ الْكَتَنْدَرِيِّ وَكَأَنَّمَا يَمَجِّدُ مَا نَالَ
مِنْ الْخَيْرِ فِي عَهْدِ السُّلْطَانِ أَلْبِ أَرْسَلَانَ . وَوَزِيرِهِ الْعَظِيمِ نِظَامِ الْمَلِكِ (انْظُرْ مَدْخَلَ هَذَا الْكِتَابِ : الْمَجْلَدُ الْأَوَّلُ)

(٣) هَكَذَا فِي مَوْصُفِيٍّ مِنْ (فَتَاخَةُ النُّفُوسِ بِأَرْمِيَّتِهَا) .

والخصال الحمودة إذا باشرت قلب عبده أخرجت عنه الشهوات والعنى ، وسفاسف الأخلاق من الحقد والحسد والشح وصفر الهمة .. وغير ذلك من الأوصاف الذميمة وتثبت بدلا من الأحوال العلية والأوصاف المرصية ما به نظام العبد وتمام سعادته . ومتى استولت على قلب غاغة النفس والخصال المذمومة أزالته عنه عمارته ، وأبطلت نضارته ، فتخرب أوطان الحقائق ، وتتداعى مساكن الأوصاف الحميدة للأفول ، وعند ذلك ، يعظم البلاء وتراكم المحن .

قوله جل ذكره : « وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ » .

جاء في القصة أنها بعثت إلى سليمان بهدايا ، ومن جملتها لبنة مصنوعة من الفضة وأخرى من الذهب . وأن الله أخبر سليمان بذلك ، وأوحى إليه في معناه . وأمر سليمان الشياطين حتى بنوا بساحة منزله ميدانا ، وأمرهم أن يفرشوا الميدان بهيئة اللبن المصنوع من الذهب والفضة من أوله إلى آخره . وأمر بأن توقف الدواب على ذلك وألا تنظف آثارها من روث وغيره ، وأن يترك موضعان للبلتتين خاليين في ممر الدخول . وأقبل رسلها ، وكانت معهم اللبنتان ملفوفتين ، فلما رأوا الأمر ، ووقعت أبصارهم على طريقهم ، صغر في أعينهم ما كان معهم ، وخجلوا من تقديم ذلك إلى سليمان ووقعوا في الفكرة .. كيف يتخلصون مما معهم ؟ فلما رأوا موضع اللبنتين فارغا ظنوا أن ذلك سرق من بينها ، فقالوا لو أظهرنا هذا نسبنا إلى أننا سرقناها من هذا الموضع ، فطرحاها في الموضع الخالي ، ودخلا على سليمان :

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّوْنَ بِمَالِىَ فَمَا آتَانِىَ اللّٰهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ » .

أتهدونى مالا ؟ وهل مثلى يستمال بمثل هذه الأفعال ؟ إنكم وأمثالكم تاملون بمثل ما عوملتكم^(١) ارجع إليهم : —

(١) أى أنتم قوم لاتعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا ، فذلك تفرحون بما تزدادون وبما يُهدى إليكم ؛ لأن ذلك يبلغ همتكم — وحالك خلاف حالكم ، فأنا — بما آتاني الله — غنى عن حظوظ الدنيا .

« ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون » .

فلما رجعوا إلى بلقيس ، وأخبروها بما شاهدوا وسمعوا علمت أنه لا وجة لها سوى الاستسلام والطاعة ، فعزمت على السير إلى خدمته ، وأوحى الله إلى سليمان بذلك ، وأنها خرجت مستسلية ، قال : أياكم يأتيني بعرشها ؟ .

قوله جل ذكره : « قال يأيها الملأ أياكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين » قال عفریت من الجن أنا آتیک به قبل أن تقوم من مقامک وإني عليه لقوی أمين .

بسط الله — سبحانه — ملك سليمان ، وكان في ملكه الجن والإنس والشیاطین ؛ الجن على جهة التسخير ، والإنس على حكم الطوع ، والشیاطین وكانوا على أقسام .

ولما قال : « أياكم يأتيني بعرشها ؟ » قال عفریت من الجن — وكان أقوام — « أنا آتیک به قبل أن تقوم من مقامک وإني عليه لقوی أمين » ، فلم يرغب سليمان في قوله لأنه بنى القول فيه على دعوى قوته^(١) .

قوله جل ذكره : « قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتیک به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر ومن شكر فإنيما يشكر لنفسه ومن كفر فإني ربي غني كريم » .

(٢) هذه نظرية ملائكية تعتمد على العود من الدنيا إلى الجنة .

« الذي عنده علم من الكتاب » (قيل هو آصف)^(١) وكان صاحب كرامة . وكراماتُ الأولياء مُلتَحِقَةٌ بمعجزات الأنبياء ، إذ لو لم يكن النبي صادقاً في نبوته لم تكن الكرامة تظهر على من يُصدِّقه ويكون من جملة أمته .

ومعلوم أنه لا يكون في وَسْعِ البَشَرِ الإيمانُ بالعرش بهذه السرعة ، وأن ذلك لا يحصل إلا بخصائص قدرة الله تعالى . وقطعُ المسافة البعيدة في لحظة لا يصح تقديره في الجواز إلا بأحد وجهين : إما بأن يُقدِّم^(٢) الله المسافة بين (العرش وبين منزل سليمان)^(٣) ، وإما بأن يقدم العرش ثم يعيده في الوقت الثاني بحضرة سليمان . وأى واحدٍ من القسمين كان — لم يكن إلا من قِبَلِ الله ، فالذي كان عنده علم من الكتاب دعا الله — سبحانه — واستجاب له في ذلك ، وأحضر العرش ، وأمر سليمان حتى غيَّرَ صورته فجعل أعلاه أسفله ، وأسفله أعلاه ، وأثبتته على تركيبٍ آخر غير ما كان عليه .

ولما رأى سليمان ذلك أخذ في الشكر لله — سبحانه — والاعتراف بِعِظَمِ نِعَمِهِ ، والاستحياء ، والتواضع له ، وقال : « هذا من فضل ربي » : لا باستحقاقٍ مني ، ولا باستطاعةٍ من غيري ، بل أحمد النعمةَ لربي حيث جعل في قومي ومن أمتي من له الجاهُ عنده فاستجاب دعاءه .

وحقيقةُ الشكرِ — على لسان العلماء — الاعترافُ بنعمة المُنِيعِ على جهة الخضوع والأحسنُ أن يقال الشكرُ هو الثناء على المُحْسِنِ بِذِكْرِ إحسانه ، فيدخل في هذا شكرُ الله للعبد لأنه ثناءٌ منه على العبد بِذِكْرِ إحسان العبد ، وشكرُ العبدِ ثناءٌ على الله بِذِكْرِ إحسانه .. إلا أنَّ إحسان الحقِّ هو إنعامه ، وإحسانُ العبد طاعته وخدمته لله ، وما هو الحميد من أفعاله .

فأمَّا على طريقِ أهل المعاملة وبيان الإشارة : فالشكرُ صَرَفُ النعمة في وجه الخدمة .

(١) ما بين القوسين موجود في م وغير موجود في ص

(٢) في م (يعدم) بالعين ، وإعدام المسافة أى جعلها في حكم العدم مقبول في المعنى . وينسجم مع جعل العرش في حكم العدم وإعادة خلقه من جديد .. وكذلك تقديم المسافة (بالتأني) مقبول حتى يصبح نقله من مكان إلى مكان قريب ميسوراً ، فالإعدام أو التقديم كلاهما مقبول لأن القدرة الإلهية تشملهما .

(٣) هكذا في م ولكنها في ص (بين القريتين) أى قرية سليمان وقرية بلقيس .

ويقال الشكر ألا تستعين بنعمته على معاصيه .

ويقال الشكر شهود النعم من غير مساكنة إلى النعمة .

ويقال الشكر رؤية العجز عن الشكر .

ويقال أعظم الشكر الشكر على توفيق الشكر .

ويقال الشكر على قسمين : شكر العوام على شهود المزيد ، قال تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم ^(١) » ، وشكر الخواص يكون مجرداً عن طلب المزيد ، غير متعرض لمنال العوض .

ويقال حقيقة الشكر قيد النعم وارتباطها ؛ لأن بالشكر بقاءها ودوامها .

قوله جل ذكره : « قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون » .

أراد سليمان أن يمتحنها وأن يختبر عقلها ، فأمر بتغيير عرشها ، فلما رآته : —
« قيل أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو »

فاستدل بذلك على كمال عقلها ، وكان ذلك أمراً ناقضاً للمادة ، فصار لها آية وعلامة على صحة نبوة سليمان — عليه السلام — وأسكت : —

« وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين » قيل لها ادخلي الصرح فلما رآته حسبت أنه ثلج وكشفت عن ساقها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب إني ظلمت نفسي وأسأت مع سليمان الله رب العالمين »

كان ذلك امتحاناً آخر لها . قد أمر سليمان الشياطين أن يصنعوا من الزجاج شبه

(١) آية ٧ سورة ابراهيم .

طبق كبير صافٍ مضيء ، ووضعه فوق بركة بها ماء كثير عميق ، يرى الماء من أسفل الزجاج ولا يميز بين الزجاج والماء ، وأمرت أن تخوض تلك البركة ، فكشفت عن ساقها ؛ لأنها وصفت لسليمان بأنها جنية النسب ، وأن رجليها كخوافر الدواب ، فتقولا عليها . ولما توهمت أنها تخوض الماء كشفت عن ساقها ، فرأى سليمان رجليها صحيحين . وقيل لها : « إنه صرح مُرد من قوارير » : فصار ذلك أيضاً سبباً وموجباً ليقينها . وآمنت وتزوج بها سليمان عليه السلام .

قوله جل ذكره : « ولقد أرسلنا إلى نود أخام صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون »

ذكر قصة نود ، وقصة نبيهم صالح عليه السلام ، وما جرى بينه وبينهم من التكذيب ، وطلبهم منه معجزة ، وحديث الناقة وعقرها ، وتبرمهم بالناقة بعد أن رأوا فيها من الفعل الذي كانت لهم فيه أعظم آية . . إلى قوله :

« ومكروا مَكْرًا وَمَكْرْنَا مَكْرًا وهم لا يشعرون »

وَمَكْرُهُمْ ما أظهروا في الظاهر من موافقة صالح ، وعقرهم الناقة خفية ، وتوريت الذنب على غير جارمه ^(١) ، والتبري من اختيارهم ذلك .

وأما مَكْرُ اللَّهِ فهو جزاؤهم على مَكْرِهِم باخفاء ما أراد بهم من العقوبة عنهم ، ثم إحلالها بهم بغتة . فالمَكْرُ من الله تخليته إياهم مع مَكْرِهِم بحيث لا يعصمهم ، وتزيين ذلك في أعينهم ، وتحبيب ذلك إليهم . . ولو شاء لعصمهم . ومن أليم مَكْرِهِ انتشار الصيت بالصلاح ، والعمل في السر بخلاف ما يتوهم بهم من الصلاح ، وفي الآخرة لا يجوز في سوقها هذا النقد ^(٢) .

(١) أي إلغاء الجرم على غير من اقترف الجرم .

(٢) جميل من التشيرى تعبيره عن أسلوب (التعامل) بين الخلق والمخلوق مكرأ بمكر بلفظة (النقد) . . وفي لآخر لا يرى هذا النقد ، فلا يجدى مكرهم فتىلاً لأن التعامل في (سوق) الآخرة يكون على نحو آخر .

قوله جل ذكره : « فأنظر كيف كان عقبة مكرهم
أنا دمرناهم وقومهم أجمعين » .

أهلكهم ولم ينادر منهم أحداً : —

« فذلك ييوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية
لقوم يعلمون » .

وفي الخبر : « لو كان الظلم بيتاً في الجنة لسلط الله عليه الخراب » ؛ فالنفوس إذا ظلمت
بزلاتها خربت بلحوقها شؤم الذلة حتى يتمود صاحبها الكسل ، ويستوطن مركب الفشل ،
ومحرم التوفيق ، ويتوالى عليه الخذلان وقسوة القلب وجحود العين^(١) وانتفاء تعظيم الشريعة
من القلب . وأصحاب القلوب إذا ظلموها بالغفلة ولم يحاولوا طردها عن قلوبهم .. خربت
قلوبهم حتى تقسو بعد الرأفة ، وتجنف بعد الصفوة .

غراب النفوس باستيلاء الشهوة والهفوة ، وخراب القلوب باستيلاء الغفلة والقسوة ،
وخراب الأرواح باستيلاء الحجة والوقفة ، وخراب الأسرار باستيلاء الغيبة والوحشة^(٢) .

قوله جل ذكره : « ولو طأ إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة
وأنتم تبصرون * أثنيكم لتأتون
الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم
قوم تجهلون » .

ذكر قصة لوط وأمه ، وما أصرّوا عليه من الفاحشة ، وما أحلّ الله بهم من العقوبة ،
وإحلال العقوبة بامرأته التي كانت تطابق القوم ، وتخلص الحق لوطاً من بينهم ، وما كان
من أمر الملائكة الذين بعثوا لإهلاكهم .

قوله جل ذكره : « قل الحمد لله وسلام على عباده .
الذين اصطفى الله خيراً أم ما يشركون » .

(١) أي لا تكون مقراً للاعتبار .

(٢) هذه إشارة هامة توضح آفات الطريق في مراحل المختلفة .

هم الذين سَلَّم عليهم في آزاله وهم في كتم العَدَم ، وفي متناول علمه وصمق قدرته ، ولم يَكُونُوا أَعْيَانًا في العَدَم ولا أَفَادُوا ^(١) ، فَلَمَّا أَظْهَرَهُمْ في الوجود سَلَّم عليهم بذلك السلام ، وَيُسَمُّهُمْ في الآخرة ذلك السلام . والذين سَلَّم عليهم هم الذين سَلِمُوا اليومَ من الشكوك والشُّبُه ، ومن فنون البِدْع ، ومن وجوه الأَلَم ، ثم من فنون الزَّلَلِ وصنوفِ الخَلَلِ ، ثم من انغيبية والحجبة وما ينافي دوام القربة .

ويقال اصطفاهم ، ثم هداهم ، ثم آواهم ، وسَلَّم عليهم قبل أنْ خَلَقَهُمْ وأبداهم ، وبعد أنْ سَلَّم عليهم بودِّه لِقَاهُمْ .

ويقال : اصطفاهم بنور اليقين وحُلَّة الوصلِ وكالِ المَيْش .

قوله جل ذكره : « أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا .. » .

فثمراتُ الظاهرِ غذاءُ النفوس ، وثمراتُ الباطنِ والأسرار ضياءُ القلوب ، وكما لا يَبْقَى في وقت الربيع من وحشة الشتاء بقيَّةٌ فلا يَبْقَى في قلوبهم وأوقاتهم من النغيبِ والحجبة والنفرة والتهمة شَطِيَّةٌ .

قوله جل ذكره : « أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خَلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي » .

نفوسُ العابدين قَرَارٌ طاعتهم ، وقلوبُ العارفين قَرَارٌ معرفتهم ، وأرواحُ الواجدين قَرَارٌ

(١) ربما يقصد القشيري أنهم - وقد كانوا في كتم العدم - لم تصدر عنهم طاعة تفيدهم في استحقاق إثابة لهم واستيجاب تسليم عليهم .. والمقصود - إن صحَّ هذا الرأي - أن عمل الإنسان لا قيمة له بجانب الفضل الإلهي والقصة السابقة .

محبتهم ، وأسرار الموحدين قرار مشاهدتهم^(١) ، في أسرارهم أنوار الوصلة وعيون القربة ،
وبها يسكن ظمأ اشتياقهم وهيجان قلبيهم واحتراسهم .

« وجعل لها رواسي » من الخوف والرجاء ، والرغبة والرغبة .

ويقال « جعل لها رواسي » اليقين والتوكل .

ويقال الرواسي في الأرض الأبدال والأولياء والأوتاد^(٢) ؛ بهم يديم إمساك الأرض ،
ويبركاتهم بدفع عن أهلها البلاء .

ويقال الرواسي هم الأئمة الذين يهتدون المسترشدين إلى الله .

قوله جل ذكره : « وجعل بين البحرين حاجزاً إله مع
الله بل أكثرهم لا يعلمون » .

« جعل بين البحرين حاجزاً » بين القلب والنفس لثلاث يغلب أحدهما صاحبه .

ويقال بين العبودية وأحكامها ، والحقيقة وأحكامها ، فلو غلبت العبودية كانت جعداً
للحقيقة ، ولو غلبت الحقيقة العبودية كانت طياً للشرية .

ويقال : أئمة المريدين مقرر ذكره ، وأسماعهم محل الإدراك الموصل إلى الفهم ، والعيون
مقر الاعتبار .

قوله جل ذكره : « آمن بحبيب المضطر إذا دعاه

ويكشف السوء . . . » .

فصل بين الإجابة وبين كشف السوء ؛ فالإجابة بالقول والكشف بالطول ، الإجابة
بالكلام والكشف بالإنعام . ودعاه المضطر لأحباب له ، وكذلك دعاء المظلوم « ولكن
لكل أجل كتاب » .

(١) هكذا في م وهي في ص (مساعدتهم) ويبدو أن الهاء التبييت على الناسخ ، فالمعروف أن الأسرار محل المشاهدة .
(٢) جاء في خلية الأولياء (٨٠ ص ٢٦٧) حديث عن النبي (ص) : « خيار أمتي في كل قرن خمسمائة
والأبدال أربعون فلا الخمسمائة ينقصون ولا الأبدال ، كلما مات رجل أبدل الله عز وجل من الخمسمائة مكانه وأدخل
من الأربعين مكانهم » .

ويرى الجرجاني : أن الأبدال سبعة (التعريفات ص ٣٧ ط مصر سنة ١٩٣٨)

ويرى ابن عساكر : أنهم ٢٢ بالشام + ١٨ بالعراق (تاريخ دمشق لابن عساكر ١٠ ص ٢٧٨) .

ويرى المجويزي : أن الأوتاد أربعة يطوفون العالم يحملونه كل ليلة (كشف المحجوب ص ٢٦٩) .

ويقال للجناية : سراية ؛ فمن كان في الجناية مختاراً فليس تسلم له دعوى الاضطراب عند سراية جرمه الذي صكف منه وهو مختار فيه ، فأكثر الناس يتوهمون أنهم مضطرون ، وذلك الاضطراب سراية ما بدّر منهم في حال اختيارهم .

وما دام العبد يتوهم من نفسه شيئاً من العجز والحيلة ، ويرى لنفسه شيئاً من الأسباب يعتمد عليه أو يستند إليه — فليس بمضطرب ، فالمضطرب يرى نفسه كالفریق في البحر ، أو الضال في المتاهة ، وهو يرى عيانه بيد سيده ، وزمامه في قبضته ، فهو كاليت بين يدي غليظه ، وهو لا يرى لنفسه استحقاقاً للنجاة ؛ لاعتقاده في نفسه أنه من أهل السخط ، ولا يقرأ اسمه إلا من ديوان الشقاوة^(١) .

ولا ينبغي للمضطرب أن يستعين بأحد في أن يدعو له ؛ لأن الله وعد الإجابة له .. لا لمن يدعو له .

ثم كما وعد المضطرب الإجابة وكشف السوء وعده بقوله : —

« ... ويمهلك خلفاء الأرض إله »
مع الله قليلاً ما تذكرون .

فإن مع العسر يسراً ، ولم يقل : للعسر إزالة ، ولكن قال : مع العسر يسر ؛ فبهار اليسر حاصل بعد ظلام العسر .

ثم قال : « إله مع الله قليلاً ما تذكرون » لأن العبد إذا زال عسره ، وكشف عنه ضره نسي ما كان فيه ، وكما قال القائل :

كان الفقى لم يعرف يوماً إذا اكتسى ولم يك صلوكا إذا ما تمولا

(١) إذا اطمأن العبد لنفسه ، ولاحظ عمله ففقد عنصر هاماً من عناصر السير في هذا الطريق ، وهو الإخلاص .. وفي ذلك يقول أبو يعقوب السوسى : متى شهدوا في إخلاصهم الإخلاص احتاج إخلاصهم إلى إخلاص . ويرى أبو عثمان المغربي : أن إخلاص الخواص : هو ما يجرى عليهم لا بهم فتبدو منهم الطاعات وهم عنها بمنزل ، ولا يقع لهم عليها رؤية ، ولا بها اعتداد .

قوله جل ذكره : « أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ »
 إذا أظلم الوقتُ على صاحبه في متعارض الخواطر عند استبهام وجه الصواب ، وضاق الأمرُ
 بسبب وحشة التدبير وظلمات أحوال التجويز ، والتعجُّر عند طلب ترجيح بعض الخواطر على
 بعضٍ بشواهد العقل .. فمن الذي يرشدكم لوجه الصواب بِتَرْكِ التدبير ، وللاستسلام لحكم
 التقدير ، وللخروج من ظلمات مجوِّزات العقول إلى قضايا شهود التقدير ، وتفويض الأمر إلى
 اختيار الحق ، والاستسلام لما جرت به الأقسام ، وسبقت به الأقدار ؟ .

« .. وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ
 يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَا اللَّهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا
 يُشْرِكُونَ » .

مَنْ الذي يُرْسِلُ رِيَّاحَ فَضْلِهِ بَيْنَ يَدَيْ أَنْوَارِ اخْتِيَارِهِ فَيَمْحُو آثَارَ اخْتِيَارِ نَفْسِكَ ،
 وَيَجْعَلُ بِحُسْنِ الْكِفَايَةِ لَكَ ؟ .

ويقال : يرسل رِيَّاحَ التَّوَكُّلِ فَيُطَهِّرُ الْقُلُوبَ مِنْ آثَارِ الْاِخْتِيَارِ وَأَوْضَارِ التَّدْبِيرِ ، ثُمَّ يُطْلِعُ
 شَمْسَ الرِّضَا فَيَحْصُلُ بَرْدُ الْكِفَايَةِ فَوْقَ الْمَأْمُولِ فِي حَالِ سَكِينَةِ الْقَلْبِ .. أَلَا اللَّهُ مَعَ اللَّهِ ؟
 « تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » : مِنْ إِحَالَةِ الْمَقَادِيرِ عَلَى الْأَسْبَابِ .

قوله جل ذكره : « أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ
 يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَا اللَّهُ مَعَ
 اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ » .

يُظْهِرُ مَا يُظْهِرُ بِقُدْرَتِهِ عَلَى مُقْتَضَى سَابِقِ حُكْمِهِ ، وَيَخْصُصُ مَا تَعَلَّقَتْ بِهِ مَشِيئَتُهُ وَحَقٌّ فِيهِ
 قَوْلُهُ ، وَسَبَقَ بِهِ قَضَاؤُهُ وَقَدَرُهُ . فَإِذَا زَالَ وَانْتَفَى وَانْعَدَمَ بَعْضُ مَا يَظْهَرُ وَيَخْصُصُ .. فَمَنْ الذي
 يَعِيدُهُ مِثْلًا بَدَأَهُ ؟ وَمَنْ الذي يَضِيقُ الرِّزْقَ وَيُوسِّعُهُ ؟ وَمَنْ الذي يَقْبِضُ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ عَلَى

بعض الأشخاص ؟ وفي وقت آخر من الذي يسط على قوم آخرين ؟ .

هل في قدرة أحدي غير الله ذلك ؟ .

إن توهمتم شيئاً من ذلك فأوضحوا عنه حُجَّتكم . وإذا قد عجزتم .. فهلاً صدقتم ؟
وبالتوحيد أقررتم ؟ .

قوله جل ذكره : « قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ
يُبْعَثُونَ » .

« الغيب » : ما لا يَطْلُغُ عليه أحدٌ ، وليس عليه للخلق دليل ، وهو الذي يستأثر بعلمه
الحق^(١) ، وعلومُ الخلق عنه متقاصرة ، ثم ما يريد الله أن يخصَّ قوماً بعلمه أفردهم به .
« وما يشعرون أيان يبعثون » : فإنه أخفى علم الساعة عن كل أحدٍ .

قوله جل ذكره : « بَلْ أَذَارُكَ^(٢) عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ
هَمٌّ فِي شَكِّ مِنْهَا بَلْ هَمٌّ مِنْهَا عَمُونَ » .
فهم في الجَلَّةِ يَشْكُونَ فيه ؛ فلا ينفقونه ولا يقطع يمحذونه .. وهكذا حُكْمُ كلِّ مريضٍ
القلب ، فلا حياة له في الحقيقة ، ولا راحة له من يأسه ؛ إذ هو من البعث في شكٍّ ، ومن الحياة
الثانية في استبعاد : —

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا سُئِلُوا تُرَابًا
وَأَبَاؤُنَا أَتَيْنَا لَمُخْرَجُونَ » لقد وَعِدْنَا
هذا نحن وآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَذَا
إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » .

(١) هكذا في م وهي في ص (الخلق) وهي غلطاً في النسخ إذ الحق هو الذي يستأثر بعلم الغيب .
(٢) يرى القرطبي أن القراءة هكذا والقراءة على (بل أذكرك) معناها واحد لأن أصل (أذكرك) تذكرك وأدغمت
الدال في التاء وجيء بألف الوصل (الجامع لأحكام القرآن ج ١٣ ص ٢٢٦) .

وَعِدَ آبَاؤُنَا بِذَلِكَ مِنْ قَبْلَ ، ثُمَّ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ تَحْقِيقٌ ، وَمَا نَحْنُ إِلَّا مِثْلُهُمْ ، وَكَانُوا يُسْأَلُونَ
مَتَى السَّاعَةُ ؟ :

« وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ؟ » .

قَالَ الْحَقُّ : إِنَّهُ عَنْ قَرِيبٍ سَيَجْعَلُ بِهِمْ مِيقَاتَهُ : —

« قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ ^(١) لَكُمْ
بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ » .

ثُمَّ قَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ :

« وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ
وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ » .

لأنهم لَا يُمَيِّزُونَ بَيْنَ بَحْتِهِمْ وَمِنْحِهِمْ . وَعَزِيزٌ مَنْ يَعْرِفُ الْفَرْقَ بَيْنَ مَا هُوَ نِعْمَةٌ مِنْ اللَّهِ
لَهُ وَبَيْنَ مَا هُوَ مُعْنَةٌ ؛ فَإِذَا تَقَاصَرَ عِلْمُ الْعَبْدِ عَمَّا فِيهِ صَلَاحُهُ ، فَعَسَى أَنْ يَحِبَّ شَيْئًا وَيُظَنُّهُ خَيْرًا
وَبَلَاؤُهُ فِيهِ ، وَرُبَّ شَيْءٍ يَظُنُّهُ الْعَبْدُ نِعْمَةً فَيُشْكِرُ عَلَيْهَا وَيَسْتَدِينُهَا ، وَهِيَ مُعْنَةٌ لَهُ يَحِبُّ الصَّبْرَ
عَلَيْهَا وَالتَّضَرُّعَ إِلَى اللَّهِ فِي صَرْفِهَا ؛ وَبِعَكْسِ هَذَا كَمَنْ شَيْءٌ يَظُنُّهُ الْإِنْسَانُ بِخِلَافِ مَا هُوَ بِهِ .
قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ
صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ » .

لَا تَلْتَمِيسُ عَلَى اللَّهِ أَحْوَالُهُمْ ؛ فَصَادِقٌ يَسْتَوِي ظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ يَعْلَمُهُ ، وَمُنَافِقٌ يَخَافُ بَاطِنُهُ
ظَاهِرَهُ يُلَبِّسُ عَلَى النَّاسِ حَالَهُ .. وَهُوَ — سُبْحَانَهُ — يَعْلَمُهُ ، وَكَافِرٌ يَسْتَوِي فِي الْجَحْدِ سِرُّهُ
وَعَلَنُهُ يَعْلَمُهُ ، وَهُوَ يَجَازِي كَلًّا عَلَى مَا عَلِمَهُ .. كَيْفَ لَا .. وَهُوَ قَدَّرَهُ ، وَعَلَى مَا عَلَيْهِ
قَضَاءُ وَقَسَمَهُ ؟ :

(١) مَنْ أَرَدَفَ أَيْ تَبَعَ ، وَقَالَ الْفَرَّاءُ : رَدَفَ لَكُمْ أَيْ دَنَا .

قوله جل ذكره : « وما مِن غائبةٍ في السماء والأرضِ .

إِلَّا في كتابٍ مبينٍ » .

ما من شيءٍ إِلَّا مُنْبِتٌ في اللوح المحفوظ حُكْمُهُ ، ماضيةٌ فيه مشيئته ، متعلِّقٌ به عِلْمُهُ

قوله جل ذكره : « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُّ عَلَى بَنِي

إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ »

وإِنَّهُ لَهْدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ » .

وهم يُخَفُّونَ بعضًا ، وبعضًا يُظْهِرُونَ ، ومع ما يَهْوُونَ يدورون .

وفي هذه الآية تخصيص هذه الأمة بأن حفظ الله كتابهم ، وعَصَمَ مِنْ التَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ

ما به يدينون . وهذه نعمةٌ عظيمةٌ قليلٌ منهم مَنْ عليها يشكرون ؛ فالقرآن هدى ورحمة

للمؤمنين ، وليس ككتابهم الذي أخبر الصادق أنهم له مُحَرَّفُونَ مُبَدَّلُونَ .

« إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ

وهو العزيز العليم » .

هو « العزيز » المعزُّ للمؤمنين ، « العليم » بما يستحقه كلُّ أحدٍ من الثواب العظيم

والعذاب الأليم .

قوله جل ذكره : « فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ

المبين » .

أى اجتهد في أداء فَرْضِهِ ، وثيقٌ بصدق وعده في نصره ورزقه ، وكفايته وعونه .

ولا يهولَنَّك ما يجرى على ظواهرهم من أذى يتصل منهم بك ، فإنما ذلك كله بتسليطنا

إن كان محذورا ، وبتقيضنا وتسهيلنا إن كان محبوبا . وإنك لَعَلَى حَقٍّ وضياء صدقٍ ،

وهم على سنن ربانيةٍ شريكٍ .

قوله جل ذكره : « إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ

الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ » .

الذين أَمَاتَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِالشَّرْكِ ، وَأَصَمَّهُمْ عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ — فَلَيْسَ فِي قُدْرَتِكَ أَنْ تَهْدِيَهُمْ لِلرُّشْدِ أَوْ تَنْقِذَهُمْ مِنْ أَمْرِ الشُّكِّ .

« وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ
إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ
مُسْلِمُونَ » .

أنت تهديهم من حيث الدعاء والدلالة ، ولكنك لا تهدي أحداً من حيث إزالة الباطل من القلب وإمالة إلى العرفان ، إذ ليست بقُدْرَتِكَ الإزالة أو الإمالة .
أنت لا تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ، فَلَا يَسْمَعُ مِنْكَ إِلَّا مَنْ أَسْعَدَنَاهُ مِنْ حَيْثُ التَّوْفِيقِ
وَالْإِرْشَادِ إِلَى الطَّرِيقِ .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ
دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ
كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ » .

إذا حقَّ الوعدُ بإقامة القيامة أوضحنا أشراطها في كلام الدابة المخرجة من الأرض^(١) .
وغير ذلك من الآيات .

قوله جل ذكره : « وَيَوْمَ نَخْشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ
يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ » .

وعند ذلك لا ينفع الإيمان ولا يقبل العذر : —

(١) في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال صل الله عليه وسلم : « ثلاث إذا خرجن نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أن ... سميت في إيمانها غيراً = زيادة من صحيح مسلم) طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض » . ومن الأقوال في هذه الدابة : أنها فصيلة ناقة صالح ، ومنها أن هذه الدابة تكون إنساناً متكلماً يأسر أهل البدع والكفر ويحادلهم لينتظموها ، ومنها أنها تخرج من جبل الصفا بمكة بعد أن يتصدع ... إلى غير ذلك من الأقوال المنسوبة للصحابه والتابعين والمفسرين .

«وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ
لَا يُنْطِقُونَ» .

ثم كرّر ذكر الليل والنهار واختلافهما : —

« أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَّوَا
فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .

أى ليكون الليل وقت سكوتهم ، والنهار وقت طلب معاشهم .

قوله جل ذكره : « وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَرْجَمَنَّ
فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ
شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ » .

أخبر أن اليوم الذى يُنْفَخُ فيه فى الصور هو يوم إزهاق الأرواح ، وإخراجها عن الأجساد ؛
فَمِنْ رُوحٍ تَرَقَّى إِلَى عِلِّيِّينَ ، وَمِنْ رُوحٍ تَذْهَبُ إِلَى سَجِّينَ . أولئك فى حواصل طير تسرح
فى الجنة تأوى بالليل إلى قناديل معلقة من تحت العرش صفتها التسبيح والروح والراحة ،
ولبعضها الشهود والرؤية ... على مقادير استحقاقهم لما كانوا عليه فى دنياهم .

وأما أرواح الكفار فى النار تُعَذَّبُ على مقادير أفعالهم .

قوله جل ذكره : « وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْتَ حِجَابٍ جَامِدَةٍ وَهِيَ
تَمُرُّ مَرًّا السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى أَتَمَّنْ
كُلُّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » .

وكثير من الناس اليوم من أصحاب التمكن ، هم ساكنون بنفوسهم^(١) سائمون فى
الملوكوت بأسرارهم .. قيل : إن الإشارة اليوم إليهم . كما قالوا : العارف كائنٌ بآئنٌ ؛ كائنٌ مع
الناس بظاهره ، بآئنٌ عن جميع الخلق بسرائره .

(١) عُرِفَ الجندُ بسكونه وقلة أسطرابه عند السماع ، فلما شل فى ذلك تلا : « وترى الجبال تحسبها جامده
وهى ... » (اللمع للسراج ص ١٢٨) ..

قوله جل ذكره : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ
مَنْ فَرَعَ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ • وَمَنْ جَاءَ
بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ
يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » .

يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ « خَيْرٌ » هَاهُنَا لِلْبَالِغَةِ ؛ لِأَنَّ الَّذِي لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الثَّوَابِ خَيْرٌ مِمَّا مِنْهُ
مِنَ الْقُرْبِ : وَيَحْتَمِلُ فَلَهُ نَصِيبٌ خَيْرٌ أَوْ عَاقِبَةُ خَيْرٌ أَوْ ثَوَابٌ خَيْرٌ مِنْهَا • وَمَنْ آمِنُونَ مِنْ فَرَغِ
الْقِيَامَةِ • وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ : فَكَمَا أَنَّ حَالَهُمُ الْيَوْمَ مِنَ الْمُطِيعِينَ بِالْعَكْسِ فَحُكْمُهُمْ غَدًا
فِي الْآخِرَةِ بِالضَّدِّ .

قوله جل ذكره : « إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ
الْبَلَدَةِ ... »

أَخْبَرَ أَنَّهُ أَمَرَهُ بِالَّذِينَ الْخَنِيفُ ، وَالتَّبَرُّيُّ مِنَ الشَّرِّ ؛ الْجَلِيُّ مِنْهُ وَالْخَفِيُّ ، وَبِمِلَازِمَةِ الطَّرِيقِ
السَّوِيِّ . وَأَخْبَرَ أَنْ مَنْ اتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ أَوْجَبَ الْحَقُّ ذِمَامَهُ وَحَقَّهُ .

قوله جل ذكره : « وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِيكُمْ آيَاتِهِ .. »

سِيرِيكُمْ — عَنْ قَرِيبٍ — آيَاتِهِ ، فَطُوبَى لِمَنْ رَجَعَ قَبْلَ وَفَاتِهِ ، وَالْوَيْلُ عَلَى مَنْ رَجَعَ بَعْدَ
ذَهَابِ الْوَقْتِ وَفَوَاتِهِ ! .

سورة القصص

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

بسم الله اسم عزيز من تعرض لجدواه يَسِّر له في دنياه وعُقباه ، اسم عزيز من اشتاق إلى لقياه استعذب فيه ما يلقاه من بلواه . وَمَنْ طَلَبَ غيره مُؤْنِسًا في دنياه أو عُقباه « ضَلَّ مَنْ تدعون إِلَّا إِيَّاهُ » .

قوله جل ذكره : « طَسَمَ * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ » .

« الطاء » تشير إلى طهارة نفوس العابدين عن عبادة غير الله ، وطهارة قلوب العارفين عن تعظيم غير الله ، وطهارة أرواح الواجدين عن محبة غير الله ، وطهارة أسرار الموحدين عن شهود غير الله . « والسين » تشير إلى سِرِّ الله مع العاصين بالنجاة ، ومع المطيعين بالدراجات ، ومع المحبين بدوام النجاة . « والميم » تشير إلى مِنته على كافة المؤمنين بكفاية الأوقات والثبات في سبيل الخيرات .

قوله جل ذكره : « تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ »

بالحق تقوم يؤمنون .

سماع قصة الحبيب من الحبيب يُوجبُ سلوة القلب ، وذهاب الكرب ، وبهجة السر ، وتلج القواد . وقد كرر الحق ذكر قصة موسى تفخيمًا لشأنه وتعظيمًا لقدره ، ثم زيادة في البيان لبلاغة القرآن ، ثم إفادة لزوائد في المذكور قوله في كل موضع يتكرر فيه .

قوله جل ذكره : « إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ

أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِفُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ

أبنائهم وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ

الْمُفْسِدِينَ » .

تَكْبَرُ فرعونُ بنيرُ حقٍّ فأقامه بحقٍّ ، وَثَجَّرَ بنيرَ استعقاقٍ فأذَّله الله باستعقاقٍ واستيعابٍ ، وجعل أهلها شيعاً يذبحُ أبناءهم^(١) بعدما استضعفهم ، ويستحي نساءهم ، وأفنى منهم من كان (...)^(٢) ، وبالفساد حَكَمَ فيهم ، واللهُ لم يَرْضَ بِتَرْكِ إِنْتِلَافِهِمْ .

قوله جل ذكره : « وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمَا مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ » .

نريد أن نَمُنَّ عَلَى الْمُسْتَضْعَفِينَ بِالْخِلَاصِ مِنْ أَيْدِيهِمْ ، وَأَنْ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ، بِهِمْ يَهْتَدَى الْخَلْقُ ، وَمِنْهُمْ يَتَعَلَّمُ النَّاسُ سُلُوكَ طَرِيقِ الصَّدَقِ ، وَنُبَارِكُ فِي أَعْمَارِهِمْ ، فَيَصِيرُونَ وَارِثِينَ لِأَعْمَارِ مَنْ يُتَاوَبُهُمْ ، وَتَصِيرُ إِلَيْهِمْ مَسَاكِنُهُمْ وَمَنَازِلُهُمْ ؛ فَهُمْ هُدَاةٌ وَأَعْلَامٌ ، وَسَادَةٌ وَقَادَةٌ ؛ بِهِمْ يُقْتَدَى وَبُنُورِهِمْ يُهْتَدَى .

« وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ » : نُزِيلُ عَنْهُمْ الْخَوْفَ ، وَنُرْزِقُهُمُ الْبَسْطَةَ وَالْاِقْتِدَارَ ، وَنَعِدُ لَهُمْ فِي الْأَجْلِ . وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَوْمَهُمَا مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ مِنْ زَوَالِ مُلْكِهِمْ عَلَى أَيْدِيهِمْ ؛ وَأَنَّ الْحَقَّ يُعْطَى — وَإِنْ كَانَ عِنْدَ الْخَلْقِ أَنَّهُ يُبْطَلُ .

قوله جل ذكره : « وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ » .

(١) كَانَ سَبَبُ سُلُوكِهِ هَذَا السَّبِيلَ مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّ الْكَهَنَةَ قَالُوا لَهُ إِنَّ مَوْلِدَهُ يُولَدُ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَنْهَبُ مُلْكَكَ عَلَى يَدَيْهِ ، أَوْ قَالَ لَهُ الْمُنْجِمُونَ ذَلِكَ ، أَوْ رَأَى رُؤْيَا فَعَبَّرَتْ كَذَلِكَ . قَالَ الزَّجَّاجُ : الْعَجَبُ مِنْ حَقِيقَةِ لَمْ يَدْرَ أَنَّ الْكَاهِنَ إِنْ صَدَّقَ فَالْقَتْلُ لَا يَنْفَعُ ، وَإِنْ كَذَبَ فَلَا مَعْنَى لِلْقَتْلِ .
(٢) مُشْتَبِهَةٌ .

أى ألقينا فى قلبها ، وأوحينا إليها وحى إلهام ، فأنخذت خاطرهما فى ذلك ، وجرى منها ذلك وهى مختارة باختيار أَدْخِلَ عليها .

لما وضعت أم موسى موسى كانت تخاف قتله ، فإن فرعون قَتَلَ فى ذلك اليوم كثيراً من الولدان المولودة لبنى إسرائيل ، رجاء أن يقتل مَنْ رأى فى النوم ما عُيِّرَ له أن ذهاب مُلكه على يدى إسرائيل .. فالتى الله فى قلبها أن تفعل ذلك .

ثم إنه رباه فى حَجَرِهِ ذلك اليوم — لِيُعْلَمَ أَنَّ الْأَهْدَارَ لَا تُغَالَبُ .

جعلت أم موسى موسى فى تابوت ، وألقته فى نيل مصر ، فجاء المساء به إلى بِرْكَةٍ كان فرعونُ جالساً على حافتها ، فأخذوه وحملوه إليه ، وفتحوا رأسَ التابوت . فلما رآه فرعون أَخَذَتْ رُوَيْتُهُ بِمَجَامِعِ قَلْبِهِ ، وكذلك تَمَكَّنَ حُبُّهُ من قلب امرأة فرعون ؛ قال تعالى : « وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي » : ^(١) حيث خَلَقَ اللهُ مَلاَحَةَ فى عَيْنِ موسى ؛ فكان من يقع عليه بَصَرُهُ لَا يَتَأَلَّكُ مِنْ حُبِّهِ .

قوله جل ذكره : « فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ » .

أخبر الله تعالى أنه كان عدواً لهم ، وقالت امرأة فرعون :

« قُرَيْتُ عَيْنَ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » .

فلم يكن لهما ولد ، وهم لا يشعرون إلى ماذا يشول أمره .

« وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » .

(١) آية ٣٩ سورة طه .

لَمَّا أَلْقَتْهُ فِي الْمَاءِ سَكَّنَ اللَّهُ قَلْبَهَا ، وَرَبَطَ عَلَيْهِ ، وَأَلْهَمَهَا الصَّبْرَ ، وَأَصْبَحَ نَوَادِمُهَا فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتَبْدَى بِهِ مِنْ حَيْثُ ضَعْفٌ ^(١) الْبَشَرِيَّةِ ، وَلَكِنْ اللَّهُ رَبَطَ عَلَى قَلْبِهَا .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « وَقَالَتْ لِأَخْتِهِ قُصِّيه فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » .

أَمَرَتْ أُمُّ مُوسَى أَخْتَ أَنْ تَتَّبِعَ أَمْرَهُ ، وَتَنْظُرَ إِلَى مَاذَا يَثُولُ أَمْرَهُ ، فَلَمَّا وَجَدُوهُ وَاسْتَمَكْنَ حُبَّهُ مِنْ قُلُوبِهِمْ طَلَبُوا مَنْ يُرَضِّعُهُ :

« وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَنَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » .

أَبَى مُوسَى قَبُولَ قُدِيِّ وَاحِدَةٍ مِنْ عُرُضَ عَلَيْهِنَ .. فَمَنْ بِالْعُدَاةِ كَانُوا فِي اهْتِمَامٍ كَيْفَ يَقْتُلُونَهُ أَمْسُوا — وَهُمْ فِي جَهْدِهِمْ — كَيْفَ يُغْذَوْنَهُ ^(٢) !

فَلَمَّا أَعْيَاهُمْ أَمْرُهُ ، قَالَتْ لَمْ أَخْتَهُ : « هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ؟ » فَتَقَبَّلُوا نَصِيحَتَهَا شَفَقَةً مِنْهُمْ عَلَيْهِ ، وَقَالُوا : نَعَمْ ، فَرَدُّوهُ إِلَى أُمِّهِ ^(٣) ، فَلَمَّا وَضَعَتْ ثَدْيَهَا فِي فَمِهِ ارْتَضَعَهَا مُوسَى فَسُرُّوا بِذَلِكَ ، وَكَانُوا يَدْعُونَ أُمَّهُ حَاضِنَةً وَمَرْضِعَةً .. وَلَمْ يُضِرَّهَا ، وَكَانُوا يَقُولُونَ عَنْ فَوْعُونَ : إِنَّهُ أَبَوْهُ .. وَلَمْ يَنْفَعَهُ ذَلِكَ ^(٤) !

(١) هكذا في م ، وقد أخطأ الناسخ في ص حين أضاف لفظة (الله) بعد (ضعف) .

(٢) هكذا في م ، وفي ص (يمذبونه) وهي خطأ في النسخ كما هو واضح .

(٣) هكذا في م ، وفي ص (أمه) وهي خطأ في النسخ كما هو واضح .

(٤) يقصد التثيير إلى شيء بعيد هو أن أحكام الناس ليست بالضرورة صائبة ، وأن للأمور حقائق وجواهر وبواطن خافية ، وأن أسماء الأشياء وظواهرها لا عبرة بها .

ولما أخذته أمه علمت بتصديق الله ظنّها ، وسكن عن الانزعاج قلبها ، وجرى من قصة فرعون ما جرى .

قوله جل ذكره : « ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حُكْمًا وَعِلْمًا وكذلك مجزى المحسنين »
لما كملت سنّه وتمّ عقله ، واستوى كمال خصاله « آتيناه حكما » : أى أتممنا له التحصيل ، ووفّرنا له العلم ، وبذلك جرت سنتنا مع الأكابر والأنبياء .

قوله جل ذكره : « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه .. الآية . »

قيل : دخل المدينة في وقت الهجرة ، وتفرّق الناس ، فوجد فيها رجلين يتخاصمان : أحدهما إسرائيلي من شيعة موسى وعلى دينه ، والآخر قبطي مغالف لهما ، فاستغاث الإسرائيلي بموسى على القبطي ، فوكّزه موسى ليدفعه عن الإسرائيلي ، فمات الرجل بذلك الوكّز ، ولم يكن موسى يقصد قتله ، قال موسى : —

« هذا من عمل الشيطان إنه عدوٌ مُضِلٌّ مبين » .

قد تمّنى موسى أن لو دفعه عنه بأيسر مما دفعه ، ولم ينسب القتل إلى الشيطان^(١) ، ولكن دفعه عنه بالغلظة نسبّه إلى الشيطان بأنّ حمّله على تلك الحدة .

وهكذا .. إذا أراد الله أمراً أجرى أسباباً ليحصل بها مراده ، ولولاه أنه أراد فتنة موسى لما قبض روح الرجل بمثل تلك الوكزة ، قد يضرب الرجل الكثير من الضرب والسياط ثم لا يموت ؛ فموت القبطي بوكزة اجراء لما قضاه وأراد .

(١) يتصل ذلك برأى التشييعي : أن الشيطان ليس بيده شيء ؛ لأنه لو كان بيده شيء لأمسك على الهداية نفسه ، وكل عمل الشيطان أنه يرسوس في صدور الناس .

قوله جل ذكره : « قال ربِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي

فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » .

تاب موسى عما جرى على يده ، واستغفر ربّه ، وأخبر الله أنه غفر له ، ولا عتاب ^(١)
بعد المغفرة .

قوله جل ذكره : « قال ربِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ

أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ » .

قال موسى ربِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ مِنْ تَوْفِيقِكَ لِي بِالتَّوْبَةِ ^(٢) فَلَنْ أَعُودَ بِكَ ذَلِكَ إِلَى مِثْلِ
مَا سَلَفَ مِنِّي .

قوله جل ذكره : « فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا

الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ

قال له موسى إِنَّكَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ *

فلما أن أراد أن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ

لِهَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي

كَأَقْتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ

تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ

أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ » .

أصبح في المدينة خائفاً على نفسه من فرعون لأنه كان يدّعي أنه يحكم بالعدل ، وخاف
موسى أن ينسبه في قتل القبطي إلى العمد والقصد . فهو « يتَرَقَّب » علم فرعون وأن يُخْبِر
بذلك في وقته .

(١) هكذا في النسختين ولا نستبعد أن تكون (عقاب) بالقاف فالسياق يحتملها أيضاً وإن كانت (عتاب)
أليق بمقام النبوة .

(٢) حقيقة التوبة أن يتوب الله عليك أولاً ، ويهيئ لك أسباب التوفيق لذلك ، فإذا شكرت فاشكر له ، فممنك
لا يكن ولا ينفي عن فضل الله .

وقيل « خائفاً » من الله مما جرى منه . ويقال « خائفاً » على قومه حلول العذاب بهم .
وقيل « يترقب » نصرة الله إياه . ويقال « يترقب » مؤنساً يأنس به .

فإذا الذي استنصره بالأمس يخاصم إنساناً آخر ، ويستعين به ليُعينه ، فهم موسى بأن
يعين صاحبه ، فقال الذي يخاصمه : « يا موسى ، أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ؟ » :
قيل لم يعلم ذلك الرجل أن موسى هو الذي قتل الرجل بالأمس ، ولكن لما قصد منه عن
صاحبه استدلل على أن موسى هو الذي قتل الرجل بالأمس ، فلما ذكر ذلك شاع في أفواه
الناس أن موسى هو الذي قتل القبطي بالأمس ، فأمسك موسى عن هذا الرجل .

قوله جل ذكره : « وجاء رجل من أقصى المدينة يسمى

قال يا موسى إن الملائكة يأتون بك
ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين »

جاء اسرائيلي من معارف موسى يسمى ، وقال إن القوم يريدون قتلك ، وأنا واقف على
تديريهم ؛ وقد أرادوا إعلام فرعون .. فاخرج من هذا البلد ، إني لك من الناصحين .

« نخرج منها خائفاً يترقب » قال رب
نجني من القوم الظالمين » .

خرج^(١) من مصر « خائفاً » أن يقتلوا أثره ، « يترقب » أن يدركه الطلب ، وقيل
« يترقب » الكفاية والنصرة من الله ، ودعا الله فقال : « نجني من القوم الظالمين » .

قوله جل ذكره « ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي
أن يهديني سواء السبيل » .

(١) ربما يذكرنا موقف موسى بقضية هامة في الطريق الصوفي هي « السفر » : وضرورته أو عدمها ،
وقد اختلف المشايخ في أمره (الرسالة ص ١٤٣) ، ويرى القشيري ضرورة السفر . إن نبا المكان واشتد البلاء .
(الرسالة ص ٢٠٢) وهو نفسه غادر بلاده عند إطباق الهمة عليه .

توجهه بنفسه لتقاء مدين من غير قصدٍ إلى مدين أو غيره ، بل خرج على الفتوح^(١) ،
وتوجه بقلبه إلى ربه ينتظر أن يهديه ربه إلى النحو الذي هو خير له ، فقال : عسى ربي
أن يهديني إلى أرشدٍ سبيلٍ لي .

قوله جل ذكره : « وَلَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدِينٍ وَجَدَ عَلَيْهِ
أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ
دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ
مَا خَطْبُكُمَا ؟ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ
الرَّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ » .

لما وافى مدين شعيب كان وقت الهاجرة ، وكانت لهم بئر يستقون منها ، فيصبون الماء
في الحياض ، ويستقون أغنامهم ، وكانوا أهل ماشية .

وكان شعيب النبي عليه السلام قد كَفَّ بَصَرُهُ لكثرة بكائه ؛ ففي القصة أنه بكى فذهب
بَصَرُهُ ، ثم رَدَّ الله عليه بَصَرَهُ فبكى ، فردَّ الله بصره فبكى حتى ذهب بَصَرُهُ ، فأوحى الله إليه :
لَمْ تَبْكِي يَا شُعَيْبُ .. ؟ إِنْ كَانَ بِكَ أَكْثَرُ نَارٍ فَقَدْ أَمْنَتْكَ ، وَإِنْ كَانَ لِأَجْلِ الْجَنَّةِ فَقَدْ
أَمْنَتْهَا لَكَ .

قال : رب .. إنما أبكى شوقاً إليك . فأوحى الله إليه لأجل ذلك أَخْدَمْتُكَ نَبِيَّ وَكَلِيمِي
عَشْرَ حَجَجٍ .

وكانت لشعيب أغنامٌ ، ولم يكن لديه أجير ، فكانت بنتاه تسوقان الغنم مكان الرعاة ،
ولم يكن لهما قدرة^(٢) على استقاء الماء من البئر ، وكان الرعاة يستقون ، فإذا انقَضُوا^(٣) فإن
بَقِيَتْ في الحوض بَقِيَّةٌ من الماء استقت بنات شعيب .

(١) وهكذا سفر الأكاير .

(٢) هكذا في م وهو في م (قوة) .

(٣) من الجائز أن تكون في الأصل (انقضوا) بالفاء فالسياق يحتملها بدليل قوله فيما بعد (فلما انصرف الرعاة)

فلما وافى موسى ذلك اليوم وشاهد ذلك ورآهما يمتعان غنمهما عن الماء رَقَّ قلبه لهما وقال :
ما خطبكما ؟ فقالتا : « لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير » وليس لدينا أجير .
فلما انصرف الرعاء سَقَى لهما ، ثم تَوَلَّى إلى ظلِّ جدارٍ بعد ذلك . كان الجوع قد أصابه
خلال سفره ، ولم يكن قد تعودَ قط الرحلة والغربة ، ولم يكن معه مالٌ ، فدعا الله :

« قال ربِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ قَئِيرٌ » .

قيل طَلَبَ قُوَّةَ تَزِيلِ جُوعِهِ ، وقيل طَلَبَ حَالًا يَسْتَقِلُّ بِهَا . والأحسن أن يقال جاع
فَطَلَبَ كِسْرَةً يَسُدُّ بِهَا رَمَقَهُ — والمعرفة توجب سؤال ما تحتاج إليه من الله قليلاً
أو كثيراً^(١) . فلما انصرفت ابنتا شعيب خَرَجَ شعيبُ إلى ظاهر الصحراء على طريق الماشية
ليَمْسُهَا بيديه فوجدَ أثرَ الزيادة في تلك الكثرة ، فسألها فذكرتا له القصة ، وما سمعتا منه حين
قال : « ربِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ قَئِيرٌ » ، فقال شعيب : إذاً هو جائع . وبعثَ
إحداهما لتدعوهُ : —

« بِنَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ
قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرٌ
مَا سَقَيْتَ لَنَا . فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ
الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ
الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ »

قيل إنما استحييت لأنها كانت تخاطبُ مَنْ لم يكن لها محرماً^(٢) .
وقيل لما دَعَتْهُ للضيافة تكلمت مستحييةً — فالكرم يستحي من الضيافة .
ويقال لم تطيب نفس شعيب لما أحسن موسى إليه وأنه^(٣) لم يكافئه — وإن كان موسى

(١) لاحظ كيف طبق القشيري (أدب الزال) ومتى يجب ؟ وكيف يجب ؟ على موقف موسى النزيه المسافر
الجالع المحتب ، وهذه الإشارة موجهة من بين إلى أرباب الطريق .
(٢) المحرم من الرجال والنساء الذي يحرم الزواج به لرحمه وقربته .
(٣) الضمير في (وأنه) يعود على شعيب كما هو واضح من الـ هـ .

لم يُردْ مكافأةً منهم « فلما جاءه وقصَّ عليه القصص » : لم يَقُلْ : فلما جاءه قدَّم السُّفرة^(١) بل قال : وقصَّ عليه القصص .. وهذا طَرَفٌ من قصته .

ويقال : وَرَدَ بظَاهِرِهِ ماءَ مَدِينٍ ، وَوَرَدَ بِقَلْبِهِ مَوَارِدَ الْإِنْسِ وَالرُّوحِ . والموارد مختلفة ؛ فواردُ القلبِ رِياضُ البَسَطِ بكشوفاتِ المحاضرة فيطربون بأنواع الملائقة ، ومواردُ الأرواحِ مشاهدُ الأرواحِ فيكاشفون بأنوار المشاهدة ، فيغيثون عن كل إحساسٍ بالنفس ، ومواردُ الأسرارِ ساحاتُ التوحيدِ .. وعند ذلك الولاية لله ؛ فلا نفسَ ولا حِسَّ ، ولا قلبَ ولا أنسَ .. استهلاكٌ في الصمدية وفناءٌ بالكلية .

ويقال كانت الأجنبية والبعد عن الحرمية يوجبان إمساكه عن مخاطبتهما ، والإعراض والسكون عن سؤالهما .. ولكن الذي بينهما من المشاكلة والمواقفة بالسِّرِّ استنطقه حتى سألها عن قصتهما ، كما قيل :

أَجَارَتْنَا إِنَّا غَرِيانَ هَاهُنَا وَكُلُّ غَرِيبٍ لِلْغَرِيبِ نَسِيبُ

ويقال : لما سألها وأخبرتنا عن ضعفهما لزمه القيام بأمرهما ؛ ليعلم أن من تفقد أمر الضعفاء ووقف على موضع فاقهم لزمه إشكاؤهم .

ويقال من كمالِ البلاء على موسى أنه وافى الناسَ وكان جائعاً ، وكان مقتضى الرِّفقِ أن يُطعموه ، ولكنه قبضَ القلوبَ عنه ، واستقبله من موجباتِ حُكمِ الوقتِ أن يعملَ عملَ أربعين رجلاً ؛ لأن الصخرة التي تحمّأها عن رأس البئر — وَحَدَه — كان ينقلها أربعون رجلاً ، فلما عملَ أربعين رجلاً ، تولى إلى الظِّلِّ ، وقال : إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُطْعِمَنِي بَعْدَ مُقَاسَاةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. فَذَلِكَ فَضْلُكَ .

قال ذلك بلسان الانبساط ، ولا لسان أحلى من ذلك . وسُنَّةُ الشكوى أن تكون إليه لَا مِنْكَ .. بل منه إليه^(٢) .

(١) السفرة طعام يصنع للمسافر ، أو مائدة وما عليها من طعام .

(٢) لأنك بلا أنت ، فبالضرورة ليس منك شكوى ، فعلى الحقيقة لا وجود إلا له ، فتركه ممسكاً بمنانك . واستسلم لما يخاف ، ولن يكون إلا الخير .

ويقال : تولى إلى ظل الأنس وروح البسط واستقلال السر بمحققة الوجود .
ويقال قال : « رب إني لما أنزلت إني من خير فقير » : فزِدْنِي قُرْأً ؛ فَإِنَّ قُرْيَ إِلَيْكَ
يُوجِبُ اسْتِمَاعِي بِكَ (١) .

قوله جل ذكره : « قالت إحداهما يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ
خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ » .
كان شعيب عليه السلام يحتاج إلى أجير ، ولكن لا يسكن قلبه إلى أحد ، فلما رأى
موسى ، وسمع من ابنته وصفه بالقوة والأمانة سأل :
عَرَفْتُ قُوَّتَهُ .. فَكَيْفَ عَرَفْتَ أَمَانَتَهُ ؟
قالت : كنتُ أمشي قدامه فأخبرني عنه في الطريق قائلاً : سيري ورائي واهدني ، لنلا
بَقَعَ بَصَرُهُ عَلَيَّ .. فقال شعيب :

« قال إني أريد بأن أنكِحك إحدى
ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمانين
حجج فإن أتممت عشرين فمن عندك ،
وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن
شاء الله من الصالحين » .

فرغب موسى وتزوجها على صداق أن يعمل عشر حجج لشعيب .
وفي القصة أن شعيباً قال لموسى : ادخل هذا البيت وأخرج مما فيه من العصي عصاً ،
وكان البيت مظلماً ، فدَخَلَ وأخرج العصا ، تلك التي أظهر الله فيها معجزاته ، ويقال : إنها
كانت لآدم عليه السلام ، ووقعت لشعيب من نبي إلى نبي . إذ يقال : إنه لما هبط آدم إلى
الأرض صال عليه ما على وجهها من السباع ، فأنزل عليه الله عصاً ، وأمره جبريل أن يرُدَّ
السباع عن نفسه بتلك العصا .

(١) إظهار الضعف آية العبودية فالدعاء هنا ليس من قبيل الشكوى ، ولكنه تعبير عن ضعف العبد أمام عظمة
الربوبية ، فكأنه نوع من التمدد (راجع قصة أيوب إذ نادى ربه)

وتوارث الأنبياء واحداً بعد الآخر تلك العصا ، فلما أخرج موسى تلك العصا ، قال شعيب :
 ردّها إلى البيت ، واطرحها فيه ، وأخرج عصاً أخرى ، ففعل غير مرة ، ولم تحصل كل مرة
 في يده إلا تلك العصا ، فلما تكرر ذلك علم شعيب أن له شأنًا فأعطاه إياها ،
 وفي القصة : أنه في اليوم الأول ساق غنمه ، وقال له شعيب : إنَّ طريقك يتشعب شعبين :
 على أحدهما كلاً كثيراً .. فلا تسلكه في الرعى فإنَّ فيه ثعباناً ، واسلك الشعب الآخر .
 فلما بلغ موسى مفرق الطريقين ، تفرقت أغنامه ولم تطاوعه ، وسامت في الشعب الكثير
 الكلاً ، فتبعها ، ووقع عليه النوم ، فلما انتبه رأى الثعبان مقتولاً ، فإنَّ العصا قتلتها ، ولما
 انصرف أخبر شعيباً بذلك فسُرَّ به . وهكذا كان يرى موسى في عصاه آيات كثيرة ،
 ولذا قال : « ولي فيها مآرب أخرى » .

قوله جل ذكره : « فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله
 آنس من جانب الطور نارا قال لأهله
 امكثوا إني آنست نارا لملى آتيكم
 منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم
 تصطلون » .

مضت عشر حجاج ، وأراد موسى الخروج إلى مصر ، فحمل ابنه شعيب ، وسار بأهله
 متوجّهاً إلى مصر . فكان أهلُه في تسييره وكان هو في تسيير الحق ، ولما ظهر ما ظهر بامرأته
 من أمر الطلق استعصب عليه الوقت ، وبيناهو كذلك إذ آنس من جانب الطور نارا
 — أي أبصر ورأى — فكأنه يشير إلى رؤية فيها نوع أنس : وإنَّ الله إذا أراد أمراً
 أجرى ما يلقى به ، ولو لم تقع تلك الحالة لم يخرج موسى عندها يأناس النار ، وقد توهم
 — أول الأمر — أن ما يستقبله في ذلك الوقت من جملة البلايا ، ولكنه كان في الحقيقة
 سبب تحقيق النبوة . فلو لا أصرار التقدير — التي لا يهتدى إليها الخلق — لما قال لأهله :
 « امكثوا إني آنست نارا لملى آتيكم منها بخبر » .

ويقال : ألاح له ناراً ثم لَوَّح له نوراً ، ثم بدا ما بدا ، ولا كان المقصودُ النَّارَ ولا النورَ
وإنما سماع نداء : « إني أنا الله ربُّ العالمين » .

قوله جل ذكره : « فلما أتاها نُودِيَ من شاطئ الوادِ

الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة
أن ... » الآية

أخفى تبيين قدم موسى على الفلنن بهذا الخطاب حيث قال : « من شاطئ الوادِ
الأيمن » ، ثم قال : « في البقعة المباركة » ثم قال « من الشجرة » .

وأخلاق بأن تكون تلك البقعة مباركة ، فعندها سمع خطاب موله بلا واسطة ؛ وأعزُّ
الأما كن في العالم مشهدُ الأحباب :

وإني لأهوى الدار ما يستعزني لها الود إلا أنها من دياركا

ويقال : كم قدم وطئت لك البقعة ، ولكن لم يسمع أصحابها بها شيئاً . وكم ليلة جئت
تلك البقعة ولم يظهر من تلك النار فيها شعلة .

ويقال : شتان بين شجرة وشجرة ؛ شجرة آدم عندها ظهور مجتبه وفتنة ، وشجرة موسى
وعندها افتتاح نبوته ورسالته .

ويقال : لم يأت بالتفصيل نوع تلك الشجرة^(١) ، ولا يُدْرَى ما الذي كانت تثمره ، بل هي
شجرة الوصلة ؛ وثمرتها القربة ، وأصلها في أرض الحبة وقرعها باسق في سماء الصفوة ، وأوراقها
الزلفة ، وأزهارها تنفتح عن نسيم الروح والبهجة :

فلما سمع^(٢) موسى تغير عليه الحال ؛ ففي القصة : أنه غشي عليه ، وأرسل الله إليه الملائكة
ليُرْوِّحوه بمراوح الأنس ، وهذا كان في ابتداء الأمر ، والمبتدئ مرفوق به . وفي المرة
الأخرى خرَّ موسى صعباً ، وكان يفيق والملائكة تقول له : يا ابن الحيف . أمثلك من
يسأل الرؤية ؟ !

(١) قيل هي شجرة العليق وقيل العوسج والعوسج إذا علم يقال له الفرقد (القرطبي) .

(٢) معروف أن السماع عند الصوفية يصحبه - وخصوصاً لدى المبتدئين - تأثيرات عضوية ونفسية حادة

وكذا الحديث والقصة^(١) ؛ في البداية كُطِفَ وفي النهاية عُنِفَ ، في الأول خَتَلَ وفي الآخر قَتَلَ ، كما قيل :

فلما دارت الصهباء^(٢) دعا بالنطع والسيف
كذا مَنْ يشرب الراح مع التَّين في الصيف^(٣)
قوله جل ذكره : « وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ » .

يا موسى .. اخْلَعْ فَمَلِكَ والْقِ عَصَاكَ ، وأَقِمْ عندنا هذه الليلة ، فلقد تَعَبْتَ في الطريق — وذلك إن لم يكن في النقل والآثار فهو مما يليق بتلك الحال .

يا موسى .. كيف كُنْتَ في الطريق ؟ كيف صَعَّدْتَ وكيف صَوَّبْتَ^(٤) وكيف شَرَقْتَ وكيف غَرَبْتَ ؟ ما كُنْتَ في الطريق وحدك يا موسى ! أَحْصَيْنَا خُطَاكَ — فقد أَحْصَيْنَا كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا . يا موسى .. تَعَبْتَ فَاسْتَرِحْ ، وبعد ما جِئْتَ فَلَا تَبْرَحْ — كذلك العبدُ غداً إذا قطع المسافة في القيامة ، وتَبَوَّأَ مَنْزِلَهُ من الجنة ؛ فأَقْوَامٌ إذا دخلوها رَجَعُوا إلى منازلهم ثم يَوْمُ الْقِيَامَةِ يستحضرون ، وآخرون يَمْضُونَ من الطريق إلى بساط الزلزلة ، وكذا العبد أو الخادم إذا دَخَلَ بَلَدَ سُلْطَانِهِ . يَتَدَيُّ أولاً بِخِدْمَةِ الشَّدَّةِ الْعَلِيَّةِ ثم بعدها ينصرف إلى منزله . وكذلك اليوم أمرنا^(٥) ؛ إذا أَصْبَحْنَا كُلُّ يَوْمٍ : لَا نَسْتَقِيلُ شَيْءَ حَتَّى نَفْتَحَ النَّهَارَ بِالْخُطَابِ مع الْحَقِّ قَبْلَ أَنْ نَخَاطِبَ الْخَلْقَ ، نحضر بساط الخدمة — أي الصلاة — بل نحضر بساط الدُّنُوِّ والقُرْبَةِ ، قَالَ تَعَالَى : « وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ »^(٦) : فَالْحَصْلُ مُنَاجَاةَ رَبِّهِ . وَلَوْ عَلِمَ الْمُصَلِّي مَنْ

(١) يقصد حديث الحب وقصته

(٢) الرواية الصحيحة «فلما دارت الكأس» .

(٣) البيهقيان من المقطعة التي أنشدتها الحلاج وهو يواجه مصرعه ، وأولها :

تَدِيمِي غَيْرَ مُنْسُوبٍ إِلَ شَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ

(طبقات الشمراني ١٨ ص ١٢٠)

(٤) هكذا في «وهي في صن (ضربت) ، وضرب في الأرض أي جال وسار ، وقد أثبتنا (صوبت) لتتلام مع الأفعال المصحفة طبقاً لما نعرف من حرص القشيري على الموسيقى اللفظية .

(٥) من هذا نفهم أن القشيري يكتب كتابه أو يعلمه من أجل الصوفية ، فمفسر المتكلمين يدل على نوع من التخصص .

(٦) آية ١٩ سورة العلق .

يناجي ما التفت ؛ أى لم يخرج عن صلاته ولم يلتفت يميناً وشمالاً في التسليم الذى هو التحليل^(١) .

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى

مُذْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَمَخَّفْ

إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ » .

عند ما انقلبت العصا حيةً وَلَّى موسى مُذْبِرًا ولم يعقب ، وكان موضع ذلك أن يقول :

حديث أوله تسليط شعوان لمن ذا يطيق أوله ؟ ١ .

ف قيل له : لَا تَمَخَّفْ يَا مُوسَى ؛ إن الذى يَقْدِرُ أَنْ يَقْلِبَ العصا حيةً يقدر أن يَخْلُقَ لك منها

السلامة : « يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَمَخَّفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ » : ليس المقصود من هذا أنت ،

إنما أثبت هذا لأسلطه على عدوك ، فهذه معجزتك إلى قومك ، وآيتك على عدوك .

ويقال : شتان بين نبيِّنا — صلى الله عليه وسلم — وبين موسى عليه السلام ؛ رجع من سماع

الخطاب وأتى بشعبان سَلَطَهُ على عدوه ، ونبيِّنا — صلى الله عليه وسلم — رجع بعد ما أُسْرِىَ

به إلى السماء ، وأوحى إليه ما أوحى — لِيُؤَافِيَ أُمَّتَهُ بالصلاة التى هى المناجاة ، وقيل له :

السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، قال : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » .

قوله جل ذكره : « اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضًا

مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ

مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ

إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا

فَاسِقِينَ » .

قيل له : اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ؛ لأنَّ المدرعة التى كانت عليه لم يكن لها كُم .

وفى هذا إشارة إلى أنه ينبغي على البرء للوصول إلى مراده ومقصوده أن يتشمر ، وأن يجِدَّ ،

(١) التحليل : الإباحة ، والمقصود هنا أنه عقيب التسليم يحل له أن يخاطب الخلق وأن يشتغل بشئ بعدما تمت

مناجاته مع الحق ، تلك المناجاة التى يؤثر التشيرى دوامها واستمرارها . ومعلوم أن الصوفية إذا أنهوا صلاتهم يستمرون فى الذكر والتأمل دون حدود .

وَأَنْ يُخْرِجَ يَدَهُ مِنْ كُفِّهِ . وَإِنِّه قَالَ لِمُوسَى : أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ ، وَالتَقِ عَصَاكَ نَجْعَلُهَا عُصَاةً ، بِلَا ضَرْبِكَ بِهَا ، وَبِلَا اسْتِعْمَالِكَ لَهَا يَا مُوسَى : الْأَمْرُ بِنَا لَا بِكَ ، وَأَنَا لَا أَنْتَ .

« واضم إليك جناحك من الرهب فذاتك برهاتان من ربك » : يا موسى ، في وصف خضوعك تجديني ، وبتبريك عن حولك وقوتك تصل إلى .

قوله جل ذكره « قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ » :

تَعَالَى بِكُلِّ وَجْهِ رَجَاءٍ أَنْ يُعَافَى مِنْ مَشَقَّةِ التَّبَايُغِ وَمَقَاسَةِ الْبَلَاءِ ؛ لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّ النُّبُوَّةَ فِيهَا مَشَقَّةٌ ، فَلَمْ يَجِدْ الرُّخْصَةَ وَالْإِعْفَاءَ مِمَّا كُفِّ ، وَأَجَابَ سُؤْلَهُ فِي أَخِيهِ حَيْثُ سَأَلَهُ أَنْ يَجْعَلَ لَهُ رِذَاءً ، وَضَمَّنَ لَهَا النُّصْرَةَ .

ثم إنهما لما أتيا فرعون قابلهما بالتكذيب والجحد^(١) ، ورماهما بالخطأ والكذب والسحر^(٢) ، وجاوباه^(٣) بالحجة ، ودعواهما إلى سواء الحجة ، فأبى إلا الجحد .

قوله جل ذكره « وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطَّيْنِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ » .

ادعى الانفراد بالإلهية فزاد في ضلاله على عبادة الأصنام الذين جعلوا أصنامهم شركاء ، ثم قال لهامان : « ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى » وكان هذا من زيادة ضلاله ،

(١) (والجحد) موجودة في م وغير موجودة في ص .

(٢) (والسحر) موجودة في ص وغير موجودة في م .

(٣) هكذا في م وهي في ص (وحارباه) .

حيث نَوَّهَم أن المعبودَ من جهة فوق ، وأنه يمكن الوصول إليه . ولغرض لو كان في جهة
لأمكن تقدير الوصول إليه وتجويزه ! .

« واستكبر هو وجنوده في الأرضِ
بغير الحقِّ وظنُّوا أنهم إلينا لا يُرجعون »
فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليمِّ فانظروا
كيف كان عاقبة الظالمين . »

أتى إلّا أن يدومَ جحوده ، وعُنوده ، فأغرقه الله في البحر ، كما أغرق قلبه في
بحر الكُفْرِ .

قوله جل ذكره : « وجعلناهم أُمَّةً يَدْعُونَ إلى النّارِ
ويومَ القيامة لا يَنْصَرُونَ » .

لا لِشَرَفِهِمْ جعلهم أُمَّة ولكن لسبب تَلَفِهِمْ قَدَمَهُمْ في الخزي والهوان على كلِّ أمة ،
ولكن لم يُرْشِدُوا إلّا إلى الضلال . ولم يَدُّوا الخلقَ إلّا على المُحَال ، وما حصلوا إلّا على
سوءِ الحال ، وما ذاقوا إلّا خِزْيَ الوبال . أفاضوا على مُتَّبِعِيهِمْ من ظلمات قلوبهم فافتضحوا
في خِيسَةٍ^(١) مطلوبهم .

قوله جل ذكره : « وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنةً ويومَ
القيامة هم من المقبوحين » .

كانوا في الدنيا مُبْعَدِينَ عن معرفته ، وفي الآخرة مُبْعَدِينَ عن مغفرته ، فانقلبوا من
طَرَفٍ إلى طَرَفٍ ، ومن هَجَرٍ إلى بُعْدٍ ، ومن فراقٍ إلى احتراقٍ .

قوله جل ذكره : « ولقد آتَيْنَا موسى الكتابَ مِنْ
بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بِصَافٍ

(١) مكلا في م وهي في ص (خبيثة)

لِلنَّاسِ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّعَلَّاهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ .

إنما تطيب النازل إذا خلت من الأجانب ، وأطيب المساكن ما كانت زينتها يفقد
الرُّقْبَاءَ وَغَيَّبَتِهِمْ ، فلما أهلك الله فرعون وقومه ، وأورث بني إسرائيل أموالهم وديارهم ،
ومحا عن جميعها آثارهم — طالب لهم العيش وطلعت عليهم شمس السعادة .

قوله جل ذكره : « وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا
إلى موسى الأمر وما كنت من
الشاهدين » .

لم تكن حاضراً فتعرف ذلك مشاهدةً ، ولكنهم رأوا أن إخبارك عنهم بحيث لا يكذبك
كتابهم . وبالضرورة عرفوا حالك ، وكيف أنك لم تعلم هذا من أحد ، ولا قرأته من
كتاب ، لأنك أمي لا تحسن القراءة ، وإذا فليس إخبارك إلا بتعريفنا إياك ، وإطلاعنا
لك على ذلك .

ويقال : « وما كنت بجانب الغربي » : وما كنت بجانب الطور إذ نادينا موسى ،
وكلمناه ، وخاطبناه في بابك وباب أممتك ، ولم تقدح غيبتكم في الحال ، وكوّن لكم
خير من كوّنكم لكم .

ويقال : لما خاطب موسى وكلمه سأل موسى : إني أرى في التوراة أمةً صفتهم كذا
وكذا .. من هم ؟ وسأل عن أوصاف كثيرة ، وعن الجميع كان يجاب بأنها أمة أحمد^(١) ،
فاشتاق موسى إلى لقائنا ، فقال له : إنه ليس اليوم وقت ظهورهم ، فإن شئت أسمعك
كلامهم ، فأراد أن يسمع كلامنا ، فنادانا وقال : يا أمة أحمد .. فأجاب الكل من أصلاب
آبائهم ، فسمع موسى كلامهم ولم يدركهم^(٢) . والغنى إذا سأل فقير وأجابه لا يرضى بأن

(١) هكذا في م وهي في م (أمة محمد) ، ونحسب أن الأرجح أن تكون أحمد طبقاً للآية «ومبشراً برسول
يأتى من بعدى اسمه أحمد»

(٢) تنسب هذه الرواية إلى وهب (القرطبي ١٣٨ ص ٢٩٢) .

يردّه من غير إحسان إليه . (وفي رواية عن ابن عباس)^(١) أن الله قال : « يا أمة محمد قد أجبتمكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني ، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني ، ورحمتكم قبل أن تسترحموني » .

قوله جل ذكره : « وما كُنتَ ثاوياً^(٢) في أهل مدين تنلوعا عليهم آياتنا ولكنا كُنَّا مُرْسِلِينَ »
وعما كان موسى عليه السلام يتلوه عليهم من الآيات ذكرُ نبينا صلى الله عليه وسلم بالجميل .
وذكر أُمته بحسن الثناء عليهم ، فنحن في الوجود مُحدثٌ مخلوقٌ وفي ذكره متعلق لا باستفتاح .
ولم نكن في العَدَمِ أعياناً ، ولا أشياء ، ولكنا كنا في متعلق القدرة ومتناول العلم والمشية .
وذكرنا في الخطاب الأزلي والكلام الصمدى والقول الأبدى .

قوله جل ذكره : « وما كُنتَ بجانبِ الطورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَنَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » .

ماطلبه موسى لأُمته جعلناه لأمتك ، وكما نادينا موسى — وهو في الوجود والظهور — ناديناكم وأتم في كتم العَدَمِ ، أنشدوا :

كُنْ لِي كَمَا كُنتَ فِي حَالٍ لَمْ أَكُنْ

قوله جل ذكره : « ولولا أن تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا

(١) أضفنا ما بين قوسين من عندنا لنكتب الرواية بكاملها فهي ناقصة في المتن .
(٢) ثاوياً «مقيماً» .. قال المعاج : فبات حيث يدخل الثوى : أى الضيف المقيم .

قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى
أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل
قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بآيات
كافرون .

تمنوا في زمان الفترة أن يبعث الله إليهم رسولا يهتدوا به ، ووعدوا من أنفسهم الإيمان
والإجابة ، فلما أتاهم الرسول كذبوه ، وقالوا : هلا خص بمثل معجزات موسى في الظهور ،
وكان ذلك منهم خطأ ، واقتراحا في غير موضع الحاجة ، وتمكنا بعد إزاحة العلة :
وكذا الملوك إذا أراد تلبية دلي الوصال وقال كان وكانا
ثم قال : أنلا تذكروا كيف كفروا بموسى وأخيه ورموها بالسر ؟ .

وقال : إن ارتبتم أن هذا الكتاب من عند الله فأثروا بكتاب مثله ، واستعينوا
بشركائكم . ومن وقته إلى يومنا هذا لم يأت أحد بسورة مثله ، وإلى القيامة لا يأتون
بكتاب مثله .

قوله جل ذكره : « ولقد وصّانا لم القول لنكلمهم
يتذكرون » .

أتبعنا رسولا بعد رسول ، وأردفنا كتابا بعد كتاب ، فما ازدادوا إلا كفرا وثبورا ،
وجحطا وعثوا .. فلا إلى الحق رجسوا ، ولا إلى الاستقامة جنحوا .

قوله جل ذكره : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم
بـ يؤمنون » .

من أكلنا بصيرتهم بنور الهداية صدّقوا بمقتضى مساعدة العناية ، ومن أعيناه عن شهود
التحقيق ولم تساعده لطائف التوفيق اتكس في غوايته ، وانهمك في ضلالته .

قوله جل ذكره : « وإذا يُنزل عليهم قالوا آمنا به إنه
الحق من ربنا إنا كنا من قديمه
مُسلمين » .

إذا سمعوا دعوتنا قابلوها بالتصديق ، واشادوا بحُجَّتِ الاسلام ، فلا جرم يُؤثرون
أجرهم مرتين بما صبروا على الأوامر وصبروا على المنكرات في عاجلهم وآجلهم ، مرة في الآخرة
وهي المثوبة وأخرى في الدنيا وهي لطائف القربة .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا تَمَمُّوا اللَّفْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا
لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ
لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ » .

« اللفو » : ما يُنهي عن الله . ويقال « اللفو » ما لا يوجب وسيلة عند الله ، ويقال
ما لا يكون بالحق للحق ، ويقال هو ما صدر عن قلب غافل ، ويقال هو ما يوجب
سماعه السهو .

قوله جل ذكره : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ
اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِينَ » (١) .

الهداية في الحقيقة إمالة القلب من الباطل إلى الحق ، وذلك من خصائص قدرة الحق
— سبحانه — ونطلق الهداية بمعنى الدعاء إلى الحق — توسعاً ، وذلك جائز بل واجب
في صفته صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : « وَإِنَّكَ تَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

ويقال : لَكَ شَرَفُ النُّبُوَّةِ ، ومنزلة الرسالة ، وجمال السفارة ، والمقام المحمود ،
والخوض للورود ، (وأنت سيد ولد آدم .. ولكنا لا تهدي من أحببت ؛ فخصائص
الربوبية لا تصلح) (٢) لِمَنْ وَصَفَهُ البشرية .

قوله جل ذكره : « وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ
نُخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ

(١) قال ابو اسحاق الزجاج : أجمع المفسرون أن هذه الآية نزلت في أبي طالب حين أبي أن ينطق بالشهادة
وقال : أنا على ملة عبد المطلب فقال الرسول (ص) : لا تستخبرن الله ما لم آتكم بذلك (أسباب النزول للواحدي ص ٢٢٨)
(٢) ما بين القوسين موجود في م وساقط في « ن » .

حرماً آميناً يُجَنَّبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

قالوا نخاف الأعرابَ على أنفسنا إن صدقناكَ ، وآمنَّا بِكَ ، (لإجماعهم على خلافنا ولا ملأنا لهم)^(١) قال الله تعالى : وكيف تخافونهم وترون اللهَ أظفركم على عدوكم ، وحَكَمنا بتعظيمِيتكم ، ونجعلنا مكةَ تُجَنَّبِي إِلَيْهَا ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ من أقطار الدنيا ؟

ويقال من قام بحقِّ الله — سبحانه — سَخَّرَ لَهُ الْكَوْنَ بِجَمَلَتِهِ ، وَمَنْ اشْتَغَلَ بِرِطَايَةِ سِرِّهِ ، وَقَامَ بِحَقِّ اللَّهِ ، وَاسْتَفْرَغَ أَوْقَاتَهُ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ مُكِّنَّ مِنَ التَّصَرُّفِ بِهَيْمَتِهِ فِي مَمْلَكَةِ اللَّهِ ؛ فَالْخَلْقُ مُسَخَّرٌ لَهُ ، وَالْوَقْتُ طَوْعُ أَمْرِهِ ، وَالْحَقُّ — سبحانه — مَتَوَلٍّ^(٢) أَيْلَامَهُ وَأَعْمَالَهُ مُحَقِّقٌ غَلَّتْهُ ، وَلَا يُضَيِّعُ حَقَّهُ .

أَمَّا الَّذِي لَا يَطِيعُهُ فِيهِلِكَ فِي أودية ضلاله ، وَيَتِيهِ^(٣) فِي مَفَازَاتِ خِزْيِهِ ، وَيَبْوءُ بِوَرِيهِ هَوَاهُ .
قوله جل ذكره : « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ » .

لم يرفوا قَدْرَ نعمتهم ، ولم يشكروا سلامة أحوالهم ، وانتظامَ أمورهم ، فهاموا في أودية الكفران على وجوههم ، فَخَرُّوا فِي أودية الصغار على أذقانهم ، وأذاقهم اللهُ من كاساتِ الهوان ما كسر خمارَ بَطَرِهِمْ ؛ فَلَمَّا كُنْهُمْ مِنْهُمْ خَالِيَةً ، وَسَقَوْفُهَا عَلَيْهِمْ خَاوِيَةً ، وَغَرِبَانُ الدَّمَارِ فِيهَا نَاعِيَةً .

(١) ما بين القوسين غير موجود في النص ، ولكنها تنتم لسبب نزول الآية كما أورده الواحدى ، حيث ذكر أن الآية نزلت في الحارث بن عَمَّان بن عبد مناف الذى قال للنبي (ص) : إنا لنعلم أن الذى تقول حق ولكن يمنعنا من اتباعك أنا نخاف ... الخ (أسباب النزول للواحدى ص ٢٢٨) .

(٢) ومن هذا المنطلق يصدر القشيري رأيه في (الولاية) وما يتصل بها من (الكرامة) .

(٣) هكذا في الأصل وهي تحمل معنيين : التكبر ، والضلال في الأرض .

قوله جل ذكره : « وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون » .

« وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا » : بالتكليف بأمرهم ، وبأمر التكوين — على ما يريد — يتفهم . وهو — سبحانه — يبعث الرسل إنذاراً ويمضي السبل عليهم اقتداراً ؛ يُوضِّحُ الحجة بحيث لا شبهة ، ولكنه لا يهدي إلا من سبقته له السعادة بحكم القسمة .

قوله جل ذكره : « وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون » .

الدنيا حلوة خضرة ، ولكنها في التحقيق مرّة مذرة^(١) ، فبشرها يوم أنها صفوة ولكن من وراء صفوها حسوة^(٢) ، وما عند الله خير وأبقى .

قوله جل ذكره : « أفمن وعدناه وعدًا حسنا فهو لآفة كمن متّعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المخفضين »^(٣) .

الدنيا سمومٌ حنظلها تتلو طعوم عسلها ، وتلف ما يحصل من شربها يغلب لطف ما يظهر

(١) ملوت البيضاء ملداً = فسدت ، فهي ملدة ، وملوت ملدته أي خبثت وفسدت (الوسيط) .

(٢) يقال يوم كحسو الطائر أي قصير جداً ، ونوم كحسو الطائر أي قليل متقطع .

(٣) عن مجاهد أن هذه الآية نزلت في حل وحبرة وأبي جهل .

وقال السدي : نزلت في عمار والوليد بن المغيرة

وقيل نزلت في النبي (ص) وأبي جهل .

من أربها ، وليس من أكرم بوجودان نعيم عقابه كمن ممي بالوقوع في جحيم دنياه
قوله جل ذكره : « ويوم يناديهم فيقول أين شركائي
الذين كنتم تزعمون ؟ » .

إنما يكون ذلك على جهة التهويل وإبطال كيد أهل التضايل .. وإلا فحين أين لهم الجواب
فضلاً عن الصواب ! والذي يسألهم هو الذي على ما شاء جعلهم ؛ فما وردَ فعلٌ إلا على فعله ،
وما صدرَ ما صدرَ إلا من أصله . وإذا تسبراً بعضهم من بعض يئن أنه لم يكن للأصنام
استحقاق العبودية ، ولا لأحد من النفي والإثبات بالإيجاد والإحداث ذرة أو منه شظية ..
كلّا بل هو الواحد القهار .

قوله جل ذكره : « ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم
المرسلين » .

يسألهم سؤال هيب ؛ فلا يبتقى لهم تمييز ، ولا قوة عقل ، ولا مكنة جواب ،
قال جل ذكره :

« فعميت عليهم الأنبياء يومئذ فهم
لا يتساءلون » .

إذ استولت عليهم الخيرة ، واستمكن منهم الدهش ؛ فلا نطق ولا عقل ولا تمييز
ولا فهم .

قوله جل ذكره : « فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً
فسى أن يكون من المفlichen *
وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان
لمن يسيرة سبحان الله وتعالى عما
يشركون » .

يختار ما يشاء ومن يشاء من جلا ما يختار . ومن ليس إليه شيء من الخلق .
فأله والاختيار ؟ !

الاختيار الحق استحقاق عِزٍّ يوجب أن يكون ذلك له ، لأنه لو لم يُنفذ مشيئته واختياره لم يكن بوصف العِزِّ ، فمن بقي عن مراده لا يكون إلا ذليلاً ؛ فالاختيار الحق نعمت عِزٍّ ، والاختيار للخلق صفة ذميمة ونعت بلاء وقصور ؛ فالاختيار العبد غير مُبارك عليه لأنه صفة هو غير مُستحق لها ، ومن اتصف بما لا يليق به افتضح في نفسه ، قال قائلهم :

ومعالي إذا ادّعاها سواه لزمته جناية الشراقي

والطينة إذا ادّعت ما هو صفة الحق أذهرت دعوتها ، فما للإنسان والاختيار ؟ !
وما للمملوك والمالك ؟ ! وما للعبد والتصدر في دست^(١) المملك ؟ !

قال تعالى : « ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون »^(٢)

قوله جل ذكره : « وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون »

ولم لا وقد قال : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ؟ فالعلم — الذي لا يعزب عنه معلوم — نعمت من لم يزل ، والإبداع من العدم إلى الوجود يتفرّد بالقدرة عليه لم يزل .

قوله جل ذكره : « وهو الله لا إله إلا هو له الحد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون »

« لا إله إلا هو » : توحد بعزّهيته ، وتفرّد بجلال ربوبيته ، لا شبيه يساويه ،

(١) هكذا في م وهي الصواب ، أما في ص فقد وردت (درس) وهي خطأ في النسخ .
(٢) واضح من مذهب القشيري شيء هام جداً أنه يقف عند (ويختار) وتكون (ما) في هذه الحالة نافية ، وهو بهذا ينسجم مع مذهب أهل السنة في أن الله خالق كل شيء حتى أكساب العباد .
أما الزغشري فيرى (ما كان لهم الخيرة) بياناً لقوله (ويختار) ولهذا لم يدخل العاطف . ويرفض الطبري أن تكون (ما) نافية لأنها لا يكون المعنى إنهم لم تكن لهم الخيرة فيما مضى وهي لهم فيما يستقبل ، ويرد عليه بأن (ما) تصلح لنفي الحال والاستقبال .

ولا نظير يُضاهيه . « له الحمد » استحقاقاً على عَطِيَّتِهِ ، وله الشكر استيجاباً على نعمته ؛ ففي الدنيا الحمدُ لله ، وفي العقبى المشكورُ الله ؛ فالإحسان من الله لأن السلطان لله ، والنعمة من الله لأن الرحمة لله ، والنصرة من الله لأن القدرة لله .

قوله جل ذكره : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَا تَسْمَعُونَ »

إِنْ دَامَتْ لَيْلَى الْفَتْرَةِ فَمَنْ الَّذِي يَأْتِي بِنَهَارِ الثَّوْبَةِ غَيْرُ اللَّهِ ؟
وإِنْ دَامَتْ لَيْلَى الطَّلَبِ فَمَنْ الَّذِي يَأْتِي بِصُبْحِ الْوُجُودِ غَيْرُ اللَّهِ ؟
وإِنْ دَامَتْ لَيْلَى الْقَبْضِ فَمَنْ الَّذِي يَأْتِي بِصَبْحِ الْبَسْطِ غَيْرُ اللَّهِ ؟
وإِنْ دَامَ لَيْلُ الْفِرَاقِ فَمَنْ الَّذِي يَأْتِي بِصَبْحِ الْوَصَالِ غَيْرُ اللَّهِ ؟

قوله جل ذكره : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَوْ لَا تَبْصُرُونَ »

إِنْ دَامَ فِي الْوَصْلَةِ نَهَارُكُمْ فَأَيُّ سَبِيلٍ لِلوَاشِينَ إِلَى تَنْغِيصِ سُرُورِكُمْ ؟
وإِنْ دَامَ نَهَارُ مَعَاشِكُمْ وَوَقْتُ اشْتِغَالِكُمْ بِمَحْظُوظِكُمْ فَمَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ إِلَّا اللَّهُ ، وَتَسْتَرِيحُونَ مِنْ أَشْغَالِكُمْ بِانْخِلَافِهِ مَعَ اللَّهِ إِلَّا اللَّهُ ^(١) .

قوله جل ذكره : « وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »

(١) منذ أشرقت على التفسيرى آية : « وهو الله لا إله إلا هو ... »
ولفظ الجلالة لا يكاد يغييب عنا في إشاراته ، بما يدل - والله أعلم - على أن الرجل ذاكر أخذته حالة انمحاء في المذكور .. وقد حرصنا أن نلفت نظر القارئ إلى هذا الملاحظ ليشرح بالفرق بين المفسر التقليدي والمفسر الإشاري .. إن الكلمات هنا أشبه بالتساويح الواقعة من عالم بعيد !

الأوقات ظروفٌ لما يحصل فيها من الأفعال والأحوال ؛ فالظروفُ من الزمان متجانسة ،
ولمّا اختلفَ راجعٌ إلى أعيان ما يحصل فيها ؛ فليالي أهل الوصال ساداتُ الليالي ، وليالي أهل
الفراق أسوأُ الليالي ؛ فأهلُ القُرْبِ لياليهم قِصَارٌ وكذلك أيامهم ، وأربابُ الفراقِ لياليهم طوال
وكذلك جميع أوقاتهم في ليالهم ونهارهم ، يقول قائلهم :

والليالي إذا نأيتِ طوالاً وأراها إذا دَنَوْتُ قِصَار

وقال آخر :

والليلُ أطولُ وقتٍ حين أقدها والليل أقصرُ وقتٍ حين ألقاها

وقال ثالث :

يطولُ اليومُ لا أَلَاكَ فيه وَحَوْلٌ نلتقي فيه - قصيرُ

قوله جل ذكره : « وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ
الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * وَزَعَنَّا مِنْ كُلِّ
أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ
فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَفْتَرُونَ »

كلا . . لا حُجَّةَ لهم ، ولا جوابَ يعذرهم ، ولا شفيعَ يرحمهم ، ولا ناصرَ يُعينهم .
اشتهرت ضلالتهم ، واتضعت للكافة جهالتهم ؛ فدامَ بهم عذابُ الأبد ، وحقَّ بهم
وبالُ السَّرمَد .

قوله جل ذكره : « إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى
فَبَغَى عَلَيْهِمْ »

جاء في القصص أنه كان ابن عمِّ موسى ، وكان من أعبد بني إسرائيل ، وكان قد اعتزل
الناس ، وانفرد في صومعته بتعبّد ، فتصوّر له إبليسُ في صورة بشرٍ ، وأخذ في الظاهر يتعبّدُ
معه في صومعته حتى تعجّب قارونُ من كثرة عبادته ، فقال له يوماً : لسا في شيء ؛ عيوننا

على أيدي الناس حتى يذهبوا إلينا شيئاً هو خير ورتنا ، ولا بُدَّ لنا من أخذه ، فقال له قارون :
وكيف يجب أن فعله ؟

فقال له : أن ندخل في الأسبوع يوماً السوق ، ونكتسب ، وننفق ذلك القدر في
الأسبوع ، فأجابه إليه . فكأننا يحضران السوق في الأسبوع يوماً ، ثم قال له : لست أنا وأنت
في شيء ، فقال : وما الذي يجب أن فعله ؟

فقال له : نكتسب في الأسبوع يوماً لأنفسنا ، ويوماً نكتسب ونصدق به ، فأجابه إليه .
ثم قال له يوماً آخر : لسا في شيء ، فقال : وما ذاك ؟

قال : إن مرضنا أو وقع لنا شغل لا نملك قوت يوم ، فقال : وما تفعل ؟
قال : نكتسب في الأسبوع ثلاثة أيام ؛ يوماً للنفقة ويوماً للصدقة ويوماً للادخار ،
فأجابه إليه . . فلما علم أن حب الدنيا استمكن من قلبه ودَّعه ، وقال :

إني مُفَارِقُكَ . . قدّم على ما أنت عليه ، فصار من أمره وماله ما صار ، وحمله حب الدنيا
على جمعها ، وحمله جمعها على حبها ، وحمله حبها على البني عليهم ، وصارت كثرة ماله سبب
هلاكه ، وكُم وعِظَ بترك الفرج بوجود الدنيا ، وبترك الاستمتاع بها ! وكان لا يَأْبَى
إلاّ ضللاً .

ويقال خَسَفَ اللهُ به الأرض ، رُبطَ موسى عليه السلام ، فقد كان موسى يقول :
يا أرض خذيه . . وبينما كانت الأرض تُخَسِفُ به كان يستعين بموسى بحق القرابة ، ولكن
موسى كان يقول : يا أرض خذيه .

وفيما أوحى الله إلى موسى : لقد ناداك بحق القرابة وأنت تقول : يا أرض خذيه !
وأنا أقول : يا عبد ، نادني فأنا أقرب منه إليك ، ولكنه لم يقل .

وفي القصة أنه كان يُخَسَفُ به كل يوم بزيادة معلومة ، فلما حبس الله يونس في بطن
الحوت أمر الحوت أن يطوف به في البحار ثلاثاً يضيق قلب يونس ، حتى انتهى إلى قارون ،
فسأله قارون عن موسى وحاله ، فأوحى الله إلى الملك :

لا تَزِدْ فِي خَسْفِهِ لِحَرْمَةِ أَنَّهُ سَأَلَ عَنْ ابْنِ عَمِّهِ ، وَوَصَلَ بِهِ رَحِمَهُ ^(١) .

قوله جل ذكره : « وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ

وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ

كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ

فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ »

وَعُظُّ مَنْ حُرِّمَ الْقَبُولُ كَثَلُ الْبَذْرِ فِي الْأَرْضِ السَّيِّئَةِ ؛ وَلِذَا لَمْ يَنْفَعَهُ نُصْحُهُمْ إِيَّاهُ ،

وَلَمْ يَكُنْ لِلْقَبُولِ فِيهِ مَسَافَةٌ .

« وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا » : لَيْسَ النَّصِيبُ مِنَ الدُّنْيَا جَمْعُهَا وَلَا مَنَعُهَا ،

إِنَّمَا النَّصِيبُ مِنْهَا مَا تَكُونُ فِيهِ فَائِدَةٌ بِحَيْثُ لَا يُعْقَبُ نَدَمًا ، وَلَا يُوجِبُ فِي الْآخِرَةِ عَقُوبَةٌ

وَيَقَالُ النَّصِيبُ مِنَ الدُّنْيَا مَا يَحْمِلُ عَلَى طَاعَتِهِ بِالنَّفْسِ ، وَعَلَى مَعْرِفَتِهِ بِالْقَلْبِ ، وَعَلَى ذِكْرِهِ

بِاللِّسَانِ ، وَعَلَى مَشَاهِدَتِهِ بِالسَّرِّ .

« وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ » : إِنَّمَا كَانَ يَكُونُ مِنْهُ حَسَنَةٌ لَوْ آمَنَ بِاللَّهِ ؛ لِأَنَّ الْكَافِرَ

لَا حَسَنَةَ لَهُ . وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَلَى الْكَافِرِ نِعَمًا دُنْيَوِيَّةً .

وَالْإِحْسَانُ الَّذِي أَمَرَ بِهِ إِنْتَافِقُ النِّعْمَةِ فِي وَجُودِ الطَّاعَةِ وَالْخِدْمَةِ ، وَمُقَابَلَتُهُ بِالشُّكْرِ

لَا بِالْكَفَرَاتِ .

وَيَقَالُ الْإِحْسَانُ رُؤْيَا الْفَضْلِ دُونَ تَوْفُّهِمِ الْإِسْتِحْقَاقِ .

قوله جل ذكره : « قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ... »

مَا لَاحَظَ أَحَدٌ نَفْسَهُ إِلَّا هَلَكَ بِإِعْجَابِهِ .

وَيَقَالُ السُّمُّ الْقَاتِلُ ، وَالَّذِي يَطْفِئُ السَّرَاجَ الْمَضِيءَ النَّظْرُ إِلَى النَّفْسِ بَيْنَ الْإِثْبَاتِ ،

(١) الواقع أن القصص والأخبار والروايات التي تدور حول موضوعات سورة القصص كثيرة جداً ،

خصوصاً عند ابن عباس ومدرسته ، ولكن الملاحظ أن القشيري يختار منها - في ظلال القرآن - عينات خاصة
تحقق مقاصده البعيدة من أجل إبراز الموضوعات الصوفية سواء من ناحية الرياضات أو المجاهدات أو من ناحية الأدواق
والأحوال .

وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَخْرُجَ مِنْكَ شَيْئًا مِنْ النَّفْسِ أَوْ الْإِثْبَاتِ (١) .

قوله جل ذكره : « فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ

يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ

مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ »

تمنى مَنْ رآه يَمَنَّ كَانَ فِي حُبِّ الدُّنْيَا سَاوَاهُ أَنْ يُعْطِيَهُ اللَّهُ مِثْلَ مَا أُعْطَاهُ .

أَمَّا مَنْ كَانَ صَاحِبًا عَنْ خَارِ غَفْلَتِهِ ، مُتَيَقِّظًا بِنُورِ بَصِيرَتِهِ فَكَانَ مَوْقِفُهُمْ : —

« وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ

ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا

وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ »

وبعد أن كان ما كان ، وخسفنا به وبداره الأرضَ قال هؤلاء :

« لَوْلَا، أَنْ مَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا نَلْسَفَ بِنَا

وَنِكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ »

مَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا فَلَمْ نَنْجَرِفْ فِي نَهْجِهِ ، وَلَمْ نَنْخَرْطْ فِي سَلِيكِهِ ، وَإِذَا لَوَقَعَ بِنَا الْمَلَاكُ .

أَمَّا الْمُتَمَنُّونُ مَكَانَهُ فَقَدْ نَدِمُوا ، وَأَمَّا الرَّاظُونَ بِقِسْمَتِهِ — سُبْحَانَهُ — فَقَدْ سَلِمُوا ؛

سَلِمُوا فِي الْعَاجِلِ إِلَى أَنْ تَظْهَرَ سَعَادَتُهُمْ فِي الْآجِلِ .

قوله جل ذكره : « تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ

لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا

وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ »

قيل « العلو في الدنيا » أَنْ تَتَوَكَّلَ أَنْ عَلَى الْبَسِيطَةِ أَحَدًا هُوَ شَرُّ مَنَّا .

و « الفساد » أَنْ تَتَحَرَّكَ لِحَظِّ نَفْسِكَ وَنَصِيْبِكَ وَلَوْ بِنَفْسٍ أَوْ خَطْوَةٍ . . . وهذا للأَكْبَرِ ،

(١) هذه نظرة عامة نجدها عند جميع الصوفية ولكنها أصل هام في تعاليم أهل الملامة تترتب عليه مناهج

في السلوك .

فَأَمَّا لِلأَصَاغِرِ وَالْعَوَامِ فَتِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ « نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ »
كَعُلُوِّ فِرْعَوْنَ « وَلَا فُسَادًا » كَفَسَادِ قَارُونَ^(١) .

ويقال الزهاد لا يريدون في الأرض عُلُوًّا ، والعارفون لا يريدون في الآخرة والجنة عُلُوًّا .
ويقال « تلك الدار الآخرة » للعباد والزهاد ، وهذه الرحمة الحاضرة لأرباب الافتقار
والانكسار .

قوله جل ذكره : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ
جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا
السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَمْلُونَ » .

نواب الحسنة في التضعيف ، وأمر السيئة بناؤه على التخفيف .
والمؤمن — وإن كان صاحبَ كِبَائِرٍ — فسيئاته تقصُرُ في جنبِ حسناته التي هي
إيمانه ومعرفته .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ
إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى
وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » .

« لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ » : في الظاهر إلى مكة . . . وكان يقول كثيراً : « الوطن الوطن »^(٢) ،
فَحَقَّقَ اللهُ سُوْلَهُ . وَأَمَّا فِي السِّرِّ وَالْإِشَارَةِ فَإِنَّهُ « فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ » أَيْ يَسَّرَ لَكَ قِرَاءَةَ
الْقُرْآنِ ، وَالْمَعَادُ هُوَ الْوَصْفُ الَّذِي كَانَتْ عَلَيْهِ رَوْحُكَ قَبْلَ حُلُولِ شَجِّكَ^(٣) مِنْ مُلَادَغَاتِ
الْقُرْبِ وَمَطَالَعَاتِ الْحَقِّ .

(١) أحسن التفسيرى إذ جعل وظيفة هذه الآية التعقيب على القصتين السابقتين فأبان تماسك الأسلوب القرآنى .

(٢) ولهذا يرى ابن عباس أن هذه الآية لا مكية ولا مدنية وإنما نزلت في الجحفة .

(٣) هكذا في النسختين ، فإن صححت في النقل من الأصل فربما كان المقصود (ما أصابك من جراحات
الحب) ، ويتأيد فهمنا بما يلي ذلك وربما كانت (شجنتك) أى لوعة حبك - والله أعلم .

وقيل الذى ينصبك بأوصاف التفرقة بالتبليغ وبسط الشريعة لرادك إلى عين الجمع بالتحقق بالحق والفناء عن الخلق .

ويقال إن الذى أقامك بشواهد المبودية فيما أثبتك به لرادك إلى الفناء عنك بمحققك في وجود الحقيقة .

قوله جل ذكره : « وما كُنتَ ترجوا أن يُلقَى إليك الكتابُ إلا رحمةً من ربِّكَ فلا تكوننَّ ظهيراً للكافرين » .

ما كنت تؤمل محل النبوة وشرف الرسالة وتأهيل مخاطبتنا إليك ، ولا ما أظهرنا عليك من أحوال الوجد وحقائق التوحيد .

قوله جل ذكره : « ولا يصدَّنكَ عن آياتِ اللَّهِ بعد إذ أنزلتْ إليك وادعُ إلى ربِّكَ ولا تكوننَّ من المشركين » .

لا يصدَّنكَ بعد إذ أنزلت إليك الآيات ما وجدته بحكم الذنوب والشهود ، والإدراك والوجود . لا تتدأخلنَّك شهمة التجويز وسؤالات العلماء بما يدعون من أحكام العقول ؛ فما يدرك في شعاع الشمس لا يحكم ببطلانه خفاؤه في نور السراج .

قوله جل ذكره : « ولا تدعُ مع اللَّهِ إلهاً آخرَ لا إله إلا هو كلُّ شيء هالكٌ إلا وجهه له الحكمُ وإليه ترجعون » .

كلُّ عمل باطل إلا ما كان لوجه الله وللتقرب به إلى الله .

كلُّ حيٍّ ميت إلا هو ، قال تعالى : « إن امرؤ هلك : أى مات ؛ فكلُّ شيء معدٌّ لجواز الهلاك والعدم ، ولا يبقى إلا « وجهه » : ووجهه صفة من صفاته لا تستقل إلا به ،

فإذا بقي وجهه كَمِنْ شرط بقاء وجهه بقاء ذاته ؛ لأن الصفة لا تقوم إلا بوجوده ، ولا يكون هو باقياً إلا بوجود أوصافه الذاتية الواجبة له ؛ ففي بقاء وجهه بقاء ذاته وبقاء صفاته .

وقائدة تخصيص الوجه بالذكر هنا أنه لا يُعرَفُ وجوبُ وجهه إلا بالخبر والنقل دون^(١) العقل ؛ فخصَّ الوجه بالذكر لأنَّ في بقاء الوجه بقاء الحقِّ بصفاته .

(١) هكذا في م أما في ص فهي (نور) ، وتأويل الوجه على أنه صفة فيه رد على المشبهة .

السورة التي يذكر فيها العنكبوت

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »
بسم الله اسم يوجب حُظوة العابدين وَعُدًّا ، وسماعه يوجب سلوة الواجدين تقدًّا ^(١) .
اسم مَنْ ذَكَرَهُ وَصَلَ إِلَى مَثَوْبَتِهِ فِي آجَلِهِ ، وَمَنْ سَمِعَهُ ^(٢) حَظَى بِقَرْبَتِهِ فِي عَاجِلِهِ .
قوله جل ذكره : « أَلَمْ نَحْشِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ »
« الألف » إشارة إلى تفرُّده عن كل غير بوجه الغنى ، وباحتياج كل شيء إليه ؛ كالألف
تتصل بها كل الحروف ولكنها لا تتصل بحرفٍ .
« واللام » تشير إلى معنى أنه ما من حرفٍ إلا وفي آخره صورة تعويجٍ ما ، واللام أقرب
الحروف شبهًا بالألف - فهي منتصبية القائمة مثلها ، والفرق بينهما أن الألف لا يتصل بها شيء .
ولكن اللام تتصل بغيرها - فلا جَرَمَ لا يكون في الحروف حرف واحد متكون من حرفين
إلا اللام والألف ويسمى لام ألف ويكتب على شكل الاقتناع مثل صورة لام .
أما « الميم » فالإشارة فيه إلى الحرف « مِمْ » ؛ فَمِنْ الرَّبِّ اتَّخَلَّقُ ، وَمِنْ الْعَبْدِ خِدْمَةُ
الْحَقِّ ، وَمِنْ الرَّبِّ الطَّوْلُ وَالْفَضْلُ . . .
« أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا . . » بمجرد الدعوى في الإيمان دون المطالبة بالبلوى ، وهذا
لا يكون ، فتيمة كلٍّ أحلِّ بِلَوَاهُ ، فَمَنْ زَادَ قَدْرُ مَعْنَاهُ زَادَ قَدْرُ بِلَوَاهُ ؛ فعلى النفوس بلأ وهو

(١) النقد مكافأة في الدنيا وهي المواصلات والمكاشفات ، والوعد مكافأة في الآخرة وهي الجنة .

(٢) المقصود بالسماع هنا ما يوجب اليقظة .

المطالبة عليها بإخراجها عن أوطان الكسل وتصريفها في أحسن العمل . وعلى القلوب بلاء وهو مطالبته بالطلب والفكر الصادق بتطالع البرهان على التوحيد والتحقق بالعلم . وعلى الأرواح بلاء وهو التجرد عن محبة كلِّ أحدٍ والتفرُّد عن كل سبب ، والتباعد عن كل المساكنة لشيء من المخلوقات . وعلى الأسرار بلاء وهو الاعتكاف بمشاهد الكشف بالصبر على آثار التجلّي إلى أن تصير مُستهلكاً فيه .

ويقال فتنة العوام في أيام النظر والاستدلال ، وفتنة الخواص في حفظ آداب الوصول في أوان المشاهدات . وأشدُّ الفتن حفظُ وجود التوحيد لئلا يجرى عليك مَكْرٌ في أوقات غَلَبَاتِ شاهد الحق فيظن أنه الحق ، ولا يدري أنه من الحق ، وأنه لا يُقال إنه الحق - وعزير مَنْ يهتدى إلى ذلك^(١) .

قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ »

لم يُخلِهِم من البلاء والمِحن ليُظهَرَ صبرهم في البلاء أو ضده من الضَجَر ، وشكرهم في الرخاء أو ضده من الكفر والبَطَر . وهم في البلاء ضروب : فمنهم مَنْ يصبر في حال البلاء ، ويشكر في حال النعماء . . . وهذه صفة الصادقين . ومنهم مَنْ يَضْجُ ولا يصبر في البلاء ، ولا يشكر في النعماء . . . فهو من الكاذبين . ومنهم مَنْ يُوَثِّرُ في حال الرخاء ألاَّ يستمتع بالطعام ، وبستروح إلى البلاء ؛ فَيَسْتَعْذِبُ مَقَاسَةَ الضَّرِّ والعناء . . . وهذا أجَلُّهم .

قوله جل ذكره : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ »

يرتكبون المخالفات ثم يحكمون لأنفسهم بالنجاة . . . ساء حُكْمُهُمْ ! فمتى ينجو من العذاب مَنْ ألقى جلبابَ التُّقَى ؟ !

ويقال توهموا أنه لا حَشَرَ ولا نَشَرَ ، ولا محاسبة ولا مطالبة .

ويقال اغتروا بإمهالنا اليوم ، وتوهموا أنهم مينا قد أفلتوا ، وظنوا أنهم قد آمنوا .

(١) يفيد هذا الكلام عند البحث في قضية الحلاج الذي قال وهو غائب في غلبات الشهود : « أنا الحق »

ويقال ظنوا أنهم باجتراحهم السيئات أن جرى التقدير لهم بالسعادة ، وأن ذلك يؤخر حُكْمَنَا . . كلا ، فلا يشقى مَنْ جَرَتْ قَسَمَاتُهُ بالسعادة ، وهيئات أن يتحول مَنْ سبق له الحُكْمُ بالشقاوة !

قوله جل ذكره : « مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .

مَنْ خَافَ عَذَابَهُ يَوْمَ الْحِسَابِ فَسَيَلْقَى يَوْمَ الْحَشْرِ الْأَمَانَ الْمَوْعُودَ مِنَّا لِأَهْلِ الْخَوْفِ الْيَوْمَ . وَمَنْ أَمَّلَ الثَّوَابَ يَوْمَ الْبَعْثِ فَسَوْفَ يَرَى ثَوَابَ مَا أَسْلَفَهُ مِنَ الْعَمَلِ . وَمَنْ زَجَّيْ عُمْرَهُ فِي رَجَاءٍ لِقَائِنَا فَسَوْفَ نُبَيِّحُ لَهُ النَّظَرَ إِلَيْنَا ، وَسَوْفَ يَتَخَلَّصُ مِنَ الْغِيْبَةِ وَالْفِرْقَةِ . . « وَهُوَ السَّمِيعُ » لِأَنِّينَ الْمُشْتَاقِينَ ، « الْعَلِيمُ » بِحَيْنِ الْحَبِيبِ الْوَاهِبِينَ .

قوله جل ذكره : « وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ » .

مَنْ أَحْسَنَ فَنَجَاةَ نَفْسِهِ طَلِبَهَا ، وَسَعَادَةَ حَالَةِ حَصَلَهَا . وَمَنْ أَسَاءَ فَعَقُوبَةُ نَفْسِهِ جَلَبَهَا ، وَشَقَاوَةُ جَدِّهِ اكْتَسَبَهَا .

ويقال ثوابُ المطيعين إليهم مصروفٌ ، وعذابُ العاصين عليهم موقوفٌ . . والحقُّ عزيزٌ لا يلحقه بالوفاق زَيْنٌ ، وَلَا يَمَسُّهُ مِنَ الشَّقَاقِ شَيْنٌ . .

قوله جل ذكره . « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

مَنْ رَفَعَ إِلَيْنَا خَطْوَةَ نَالٍ مِنَّا خَطْوَةً ، وَمَنْ تَرَكَ فِينَا شَهْوَةً وَجَدَّ مِنَّا صَفْوَةً ، فَنُصِيبُهُم مِنَ الْخَيْرَاتِ مَوْفُورٍ ، وَعَمَلُهُمْ فِي الزَّلَّاتِ مَغْفُورٌ . . بِذَلِكَ أَجْرِينَا سُنَّتَنَا ، وَهُوَ مَتَنَاوَلُ حُكْمِنَا وَقَضَيْنَا .

قوله جل ذكره : « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا » .

أَمَرَ اللهُ الْعِبَادَ بِرِعَايَةِ حَقِّ الْوَالِدَيْنِ تَنْبِيْهًا عَلَى عَظَمِ حَقِّ التَّرْيِيَةِ . وَإِذَا كَانَتْ تَرْيِيَةُ الْوَالِدَيْنِ — وَهِيَ إِنْ حَسُنَتْ — فَإِلَى حَدٍّ يُوجِبُ رِعَايَتَهُمَا فَمَا الظَّنُّ بِرِعَايَةِ حَقِّ اللهِ تَعَالَى ، وَالْإِحْسَانِ الْعَمِيمِ بِالْعَبْدِ وَالْأَمْتَانِ الْقَدِيمِ الَّذِي خَصَّهُ بِهِ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ؟ !

قوله جل ذكره : « وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

إِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ فَإِيَّاكَ أَنْ تُطِيعَهُمَا ، وَلَكِنْ رُدَّ بِلُطْفٍ ، وَخَالَفَ بِرُفْقٍ .
قوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ » .

أَيُّ لِنُدْخِلَنَّهُمْ بِالَّذِينَ أَصْلَحُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَإِنَّ الْمَعْرُوفَ مِنْ سُنَّتِنَا إِحْلَاقَ الشَّكْلِ بِشَكْلِهِ ، وَإِجْرَاءَ الْمَثَلِ عَلَى حُكْمٍ مِثْلِهِ .

قوله جل ذكره : « وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ » . . .

الْحَنُّ تُظْهِرُ جَوَاهِرَ الرِّجَالِ ، وَهِيَ تَدُلُّ عَلَى قِيَمِهِمْ وَأَقْدَارِهِمْ ؛ فَقَدَرُ كُلِّ أَحَدٍ وَقِيَمَتُهُ يَظْهَرُ عِنْدَ مُحْنَتِهِ ؛ فَمَنْ كَانَتْ مُحْنَتُهُ مِنْ فَوَاتِ الدُّنْيَا وَتَقْصَانِ نَصِيْبِهِ مِنْهَا ، أَوْ كَانَتْ مُحْنَتُهُ بِمَوْتِ قَرِيبٍ مِنَ النَّاسِ ، أَوْ فَقْدِ حَبِيبٍ مِنَ الْخَلْقِ فَخَفِيرٌ قَدْرُهُ ، وَكَثِيرٌ فِي النَّاسِ مِثْلُهُ ، وَمَنْ كَانَتْ مُحْنَتُهُ فِي اللَّهِ وَلِلَّهِ فَغَزِيرٌ قَدْرُهُ ، وَقَلِيلٌ مَنْ كَانَ مِثْلَهُ ، فَهُمْ فِي الْعَدَدِ قَلِيلٌ وَلَكِنْ فِي الْقَدْرِ وَالْخَطَرِ جَلِيلٌ ؛ وَبِقَدْرِ الْوُقُوفِ فِي الْبَلَاءِ تَظْهَرُ جَوَاهِرُ الرِّجَالِ ، وَتَتَصَفَّى عَنْ الْخَبَثِ نَفُوسُهُمْ .

وَالْمُؤْمِنُ مَنْ يَكْفُ الْأَذَى ، وَيَتَحَمَّلُ مِنَ الْخَلْقِ الْأَذَى ، وَيَتَشَرَّبُ وَلَا يَتَرَشَّحُ بِغَيْرِ

شكوى ولا إظهار ؛ كالأرض يلتقى عليها كلُّ شيء فقُنِيتُ كلُّ خضرة وكل نزهة^(١) .

قوله جل ذكره : « وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا

وليعلمَنَّ المنافقين » .

إذا اشتبكت دموعٌ في خدود تَبَيَّنَ مَنْ بَكَى مِنْ تَبَاكِي

قوله جل ذكره : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا

اتبعوا سبيلنا ولنَحْمِلْ خطاياكم وما هم

بمعلمين من خطاياهم مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ

لكاذبون »

ضمنوا بما لم يفوا به ، وأخلفوا فيما وَعَدُوا فما حملوا من خطاياهم عنهم شيئاً ، بل زادوا على
حَمْلِ نفوسهم ؛ فاحتقروا وِزْرَ ما كَمَلُوا ، وطولبوا بوزرٍ ما به أَمُرُوا^(٢) ، فضعفَ عليهم
العقوبة ، ولم يصل أحدٌ من جهنم إلى راحة ، وما مواعيدهم للمسلمين إلا مواعيد عرقوب
أخاه يثرب .

قوله جل ذكره : « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَقْثَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ

وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْهُمْ كَانُوا

يَفْتَرُونَ »

وسيلحق بهؤلاء أصحاب الدعاوى والمتشبهون بأهل الحقائق :

مَنْ تَحْمِلُ بغير ما هو فيه فَضَحَ الامتحانُ ما يدَّعيه

وقال تعالى : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »^(٣) . . وهيئات هيئات !

(١) التفسيرى هنا مستفيد من قول الجنيد : (المرقاة كالأرض عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل

مليح) الرسالة ص ١٢٩ .

(٢) رأينا بناء (أمرُوا) المعلوم حتى يتضح أن وزرهم أشد نتيجة قولهم للذين آمنوا : (اتبعوا سبيلنا) ؛
فالدامى إلى السوء يحمل وزر نفسه ووزر من يقتدى به . ومن الجائز أن تبنى للمجهول فتكون (أمرُوا) ولكن المعنى
يكون أقل تأثيراً وأداء .

(٣) آية ١١١ سورة البقرة .

قوله جل ذكره : « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه قَلْبَتْ

فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم

الطوفان وهم ظالمون » فأنجيناه ... الآية

ما زادم طول مقامه فيهم إلا شكاً في أمره ، وجهلاً بحاله ، ومُرِيَّة في صدقه ، ولم يزد
نوح - عليه السلام - لهم إلا نُصْحاً ، وفي الله إلا صبراً . ولقد عرفه الله أنه لن يؤمنَ منهم
إلا الشُّرْذِمَةُ اليسيرةُ الذين كانوا قد آمنوا ، وأمره باتخاذ السفينة ، وأغرق الكفار ولم ينادر
منهم أحداً ، وَصَدَقَ وَعْدُهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ . . فلا تبديلَ لِسُنَّتِهِ في نصرته دينه .

قوله جل ذكره : « وإبراهيمَ إذ قال لقومه اعبدوا الله

واتقوه ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم

تعلمون »

كَرَّرَ ذِكْرَ إبراهيم في هذا الموضع ، وكيف أقام على قومه الحُجَّةَ ، وأرشدهم إلى سَوَاءِ
المحجة ، ولكنهم أصروا على ما جحدوا ، وتمصبوا لِمَا من الأصنام عبدوا ، وكادوا لإبراهيم
كيداً . . ولكن انقلب ذلك عليهم من الله مكرأ بهم واستدرأجاً . ولم يَنْجَعْ فيهم نُصْحُهُ ،
ولا وَجَدَ منهم مسانغاً وَعَظُهُ .

قوله جل ذكره : « إنما تعبدون من دون اللهِ أوثاناً

وتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تعبدون

من دون الله لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً

فابتغوا عند الله الرزقَ واعبدوه واشكروا

له إليه تُرْجَعُونَ »

لا يَدْرِي أيهما أقبح . : هل أعمالكم في عبادة هذه الجمادات أم أقوالكم - فيما تزعمون
كذباً - عن هذه الجمادات ؟ وهي لا تملك لكم نفعا ولا تلغ عنكم ضرراً ، ولا تملك لكم
خيراً ولا شراً ، ولا تقدر أن تصيبكم بهذا أو ذاك .

وَيَنْ أَنَّهُمْ فِي هَذَا لَمْ يَكُونُوا خَالِينَ عَنْ مَلاحِظَةِ الْخَطْوَظِ وَطَلَبِ الْأَرْزَاقِ^(١) قَالَ :

« فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ » لِتَصِلُوا إِلَى خَيْرِ الدَّارَيْنِ .

وَابْتِغَاءُ الرِّزْقِ مِنْ اللَّهِ إِدَامَةُ الصَّلَاةِ ؛ فَإِنَّ الصَّلَاةَ اسْتِفْتَاحُ بَابِ الرِّزْقِ ، قَالَ تَعَالَى :

« وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا »^(٢)

وَيَقَالُ ابْتِغَاءُ الرِّزْقِ بِشُهُودِ مَوْضِعِ الْفَاقَةِ فَمِنْدَ ذَلِكَ تَتَوَجَّهُ الرِّغْبَةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي اسْتِجْلَابِ الرِّزْقِ .

وَفِي الْآيَةِ تَقْدِيمُ لَابْتِغَاءِ الرِّزْقِ عَلَى الْأَمْرِ بِالْعِبَادَةِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُهُ الْقِيَامُ بِالْعِبَادَةِ إِلَّا بَعْدَ كِفَايَةِ الْأَمْرِ ؛ فَبِالْقُوَّةِ يُمْكِنُهُ أَدَاءُ الْعِبَادَةِ ، وَبِالرِّزْقِ يَجِدُ الْقُوَّةَ ، قَالُوا :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَطْلُبْ مَعَاشًا لِنَفْسِهِ

فَكُرُوهُ مَا يَلْقَى يَكُونُ جَزَاؤُهُ

« وَاشْكُرُوا لَهُ » : حَيْثُ كَفَاكُمْ أَمْرَ الرِّزْقِ حَتَّى تَفْرَغَ لِعِبَادَتِهِ^(٣) .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ »

وَبِالْإِشْكَازِ عَائِدٌ عَلَى الْمُكَذِّبِ ، وَلَيْسَ عَلَى الرَّسُولِ - بَعْدَ تَبْلِيغِهِ الرِّسَالَةَ بِحَيْثُ لَا يَكُونُ فِيهِ تَقْصِيرٌ كِي يَكُونَ مُبَيَّنًا - شَيْءٌ آخَرُ . وَإِلَّا يَكُونُ قَدْ خَرَجَ عَنْ عَهْدِهِ الْإِزَامُ .

وَفِيهَا حَلٌّ بِالسَّكْذِّ بَيْنَ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عِبْرَةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « أَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ »

(١) فَالْعِبَادَةُ الْخَالِصَةُ عَلَامَتُهَا أَنْ تَكُونَ خَالِصَةً لِلْعِبَادَةِ بِلَا تَطْلُعَ لِعَوَضٍ أَوْ غَرَضٍ ؛ وَالنِّيَّةُ عَنْ أَى (وَارِدَ مِنْ تَذَكُّرِ ثَوَابٍ أَوْ تَفَكُّرِ عِقَابٍ) الرِّسَالَةُ ص ٤٠ .

(٢) آيَةُ ١٣٢ سُورَةِ طه .

(٣) عَنِ الْقَشِيرِيِّ بِتَوْضِيحِ النَّسْقِ فِي الْأَسْلُوبِ الْقُرْآنِيِّ حِينَ نَاقَشَ تَرْتِيبَ الْكَلَامِ عَلَى نَحْوِ مَقْنَعٍ أَخَذَ .

الذي دَآخَلَهُمْ فِيهِ الشُّكُّ كَانَ بَعَثَ الْخَلْقَ ، فَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِمَا أَرَامَ مِنْ إِعَادَةِ فصول السَّنَةِ
بعد تَقْضِيهَا عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي كَانَ فِي الْعَامِ الْمَاضِي . وَيَبَيِّنُ أَنَّ جَمْعَ أَجْزَاءِ الْمُكَلَّفِينَ بَعْدَ انْقِضَائِ
الْبَيْتَةِ كإِعَادَةِ فصول السنة ؛ فَكَمَا أَنَّ ذَلِكَ سَائِعٌ فِي قُدْرَتِهِ غَيْرُ مُسْتَنْكَرٍ فَكَذَلِكَ
بَعَثَ الْخَلْقَ .

وكَمَا فِي فصول السنة تَتَكَرَّرُ أحوالُ الْعِبَادَةِ فِي الْأحوالِ الْعَامَةِ الْمُشْتَرَكَةِ بَيْنَ السَّكَافَةِ ،
وَفِي خَوَاصِ أحوالِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ اسْتِيْلَاءِ شَهْوَاتِ النُّفُوسِ ، ثُمَّ زَوَالِهَا ، إِلَى مَوَالَاةِ الطَّاعَاتِ ،
ثُمَّ حَصُولِ الْفِتْرَةِ ، وَالْعَوْدِ إِلَى مِثْلِ الْحَالَةِ الْأُولَى ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ الْإِتْبَاءُ بِالتَّوْبَةِ . . . كَذَلِكَ
تَتَكَرَّرُ عَلَيْهِمُ الْأحوالُ .

وَأَرْبَابُ الْقُلُوبِ تَتَعَاقَبُ أحوالُهُمْ فِي الْقَبْضِ وَالْبَسْطِ ثُمَّ فِي الْهَيْبَةِ وَالْأُنْسِ ، ثُمَّ فِي التَّجَلَّى
وَالسُّتْرِ ، ثُمَّ فِي الْبَقَاءِ وَالْفَنَاءِ ، ثُمَّ فِي السُّكْرِ^(١) وَالصُّحُورِ . . . وَأَمْثَالُ هَذَا كَثِيرٌ . وَفِي هَذَا
الْمَعْنَى قَوْلُهُ :

« قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ
ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النُّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ »

وَفِي مَعْنَى تَكَرُّرِ الْأحوالِ مَا أَنْشَدُوا :

كُلُّ نَهْرٍ فِيهِ مَاءٌ قَدْ جَرَى

فَإِلَيْهِ الْمَاءُ يَوْمًا سَيَعُودُ

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ
وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ »

أَجْنَاسُ مَا يُعَذِّبُ بِهِ عِبَادَهُ وَأَنْوَاعُ مَا يَرْحَمُ بِهِ عِبَادَهُ . . . لَا نِهَآيَةَ لَهَا وَلَا حَصْرٌ ؛ فَمِنْ ذَلِكَ
أَنَّهُ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ بِالْخُلْدَانِ ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ بِالْإِيمَانِ . يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ بِالْجُحُودِ وَالْعِنُودِ ،

(١) وَرَدَتْ فِي ص (الشك) وَفِي م (السُّكْرِ) وَالصُّوَابُ هَذِهِ لِأَنَّهَا تَلَامُ السِّيَاقَ . فَالسُّكْرُ وَالصُّحُورُ حَالَانِ
مِنْ أحوالِ الْفَنَاءِ .

ويرحم من يشاء بالتوحيد والوجود . يعذب من يشاء بالحرم ويرحم من يشاء بالقناعة . يعذب من يشاء بفرقة الهم ويرحم من يشاء بجمع الهممة . يعذب من يشاء بإلقائه في ظلمة التدبير ، ويرحم من يشاء بإشهاده جريان التقدير . يعذب من يشاء بالاختيار من نفسه ، ويرحم من يشاء بإنهاء محكم ربه . يعذب من يشاء بإعراضه عنه ، ويرحم من يشاء بإقباله عليه . يعذب من يشاء بأن يكلفه ونفسه ، ويرحم من يشاء بأن يقوم بحسن توليه . يعذب من يشاء بحب الدنيا ويمنعها عنه ، ويرحم من يشاء بتزهيده فيها وبسطها عليه . يعذب من يشاء بأن يثبتته في أوطان العادة ، ويرحم من يشاء بأن يقيمه بأداء العبادة . . . وأمثال هذا كثير .

قوله جل ذكره : « وما أنتم بمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » .

نَقَلَبَ الْجَلَّةَ فِي الْقَبْضَةِ ، وَنُجِّرَى عَلَيْهِمْ أَحْكَامَ التَّقْدِيرِ : جَعَدُوا أَمْ وَحَدُّوا ، أَقْبَلُوا أَمْ أَعْرَضُوا .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكُونُونَ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

تَعَجَّلَتْ عِقَابُهُمْ بِأَنْ يَتَسَوَّأُوا مِنْ رَحْمَتِهِ . . . وَلَا عِقَابَ أَشَدَّ مِنْ هَذَا .

قوله جل ذكره : « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »

لَمْ أَعْجِزُوا عَنْ جَوَابِهِ وَلَمْ يَسَاعِدْهُمُ التَّوْفِيقُ بِالْإِجَابَةِ أَخَذُوا فِي مَعَارَضَتِهِ بِالْهَيْدِ وَالْوَعِيدِ ، وَالسَّفَاهَةِ وَالتَّوْبِيخِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى صَرَفَ عَنْهُمْ كَيْدَهُمْ ، وَكَفَاهُ مَكْرَهُمْ ، وَأَفْلَحَ عَلَيْهِمْ حُجَّتُهُ (١) ،

(١) أَفْلَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حُجَّتُهُ أَيِ أَظْهَرَهَا وَأَثْبَتَهَا .

وأظهر للكافة عجزهم ، وأخبر عما يلحقهم في مآلهم من استحقاق اللعن والطردي ، وفنون الهوان والخزى .

قوله جل ذكره : « فَأَمَّنْ لَهُ لوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »

لَا تَصِحُّ الهَجْرَةُ إِلَى اللَّهِ إِلَّا بِالتَّيَرُّي — بِالْكَامِلِ — بِالْقَلْبِ عَنْ غَيْرِ اللَّهِ . وَالهَجْرَةُ بِالنَّفْسِ يَسِيرَةٌ بِالإِضَافَةِ إِلَى الهَجْرَةِ بِالْقَلْبِ . وَهِيَ هَجْرَةُ الْخَوَاصِّ ؛ وَهِيَ الْخُرُوجُ عَنْ أَوْطَانِ التَّفَرُّقَةِ إِلَى سَاحَاتِ الْجَمْعِ . وَالْجَمْعُ بَيْنَ التَّعْرِيجِ فِي أَوْطَانِ التَّفَرُّقَةِ وَالْكُونِ فِي مَشَاهِدِ الْجَمْعِ مُتَنَافٍ^(١) .

قوله جل ذكره : « وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ » .

لَمَّا لَمْ يُجِبْ قَوْمُهُ ، وَبَذَلَ لَهُمُ النَّصِيحَ^(٢) ، وَلَمْ يَدَّخِرْ عَنْهُمْ شَيْئًا مِنَ الشَّفَقَةِ - حَقَّقَ اللَّهُ مُرَادَهُ فِي نَسْلِهِ ، فَوَهَبَ لَهُ أَوْلَادَهُ ، وَبَارَكَ فِيهِمْ ، وَجَعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِ الْكِتَابَ وَالنُّبُوَّةَ ، وَاسْتَخْلَصَهُمُ لِلْخَيْرَاتِ حَتَّى صَلَحَتْ أَعْمَالُهُمُ لِلْقَبُولِ ، وَأَحْوَالُهُمُ لِلْإِقْبَالِ عَلَيْهَا ، وَنَفْسُهُمُ لِلْقِيَامِ بِعِبَادَتِهِ ، وَأَسْرَارُهُمْ لِشَاهِدَتِهِ ، وَقُلُوبُهُمْ لِمَعْرِفَتِهِ .

« وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ » لِلدُّنُوِّ وَالزَّلَفَةِ وَالتَّخْصِصِ بِالتَّقَرُّبَةِ .

قوله جل ذكره : « وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَنْتَوْنَ الْفَاحِشَةُ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ » .

(١) مَا يَكُونُ كَسِبًا لِلْعَبْدِ وَمَا يَلِيْقُ بِأَحْوَالِ الْبَشَرِيَّةِ فَهُوَ فَرْقٌ وَمَا يَكُونُ مِنْ قَبْلِ الْحَقِّ مِنْ إِبْدَاءِ مَعَانٍ وَإِسْدَاءِ لُطْفٍ وَإِحْسَانٍ فَهُوَ جَمْعُ قَائِمَاتِ الْخَلْقِ مِنْ بَابِ التَّفَرُّقَةِ وَإِثْبَاتِ الْحَقِّ مِنْ نَعْتِ الْجَمْعِ (الرَّسَالَةُ ص ٣٨) .
(٢) فِي صِرَازِ النَّاسِخِ (فِي أَوْطَانٍ) وَهِيَ غَيْرُ مُوجُودَةٍ فِي مِ وَالسِّيَاقُ يَسْتَفْنِي عَنْهَا .

لأَمَهُمْ عَلَى خَصْلَتِهِمُ الشُّعَاءُ ، وَمَا كَانُوا يَتَعَاطَوْنَهُ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْاجْتِرَاءِ ، وَمَا يُضَيِّعُونَهُ مِنَ
المَعْرُوفِ وَيَأْتُونَ مِنَ الْمُنْكَرِ الَّذِي جَمَلَتْهُ تَخْلِيَتُهُ الْفُسَّاقُ مَعَ فِسْقِهِمْ ، وَتَرَكَ الْقَبْضَ عَلَى أَيْدِيهِمْ ،
وَقَلَّةَ الْاحْتِشَامِ مِنَ احْتِلَاعِ النَّاسِ عَلَى قَبَائِحِ أَعْمَالِهِمْ . وَمِنْ ذَلِكَ قَلَّةُ احْتِرَامِ الشُّيُوخِ وَالْأَكَابِرِ ،
وَمِنْهَا التَّسْوِيفُ فِي التَّوْبَةِ ، وَمِنْهَا التَّفَاخُرُ بِالزَّلَّةِ .

فَمَا كَانَ جَوَابُهُمْ إِلَّا اسْتَعْجَالَ الْعُقُوبَةِ ، فَخَلَّ بِهِمْ مِنْ ذَلِكَ مَا أَهْلَكَهُمْ وَأَهْلَكَ
مَنْ شَارَكَهُمْ .

قوله جل ذكره : « وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى
قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ
إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ » .

التَّبَسُّ عَلَى إِبْرَاهِيمَ أَمْرٌ مِمَّ فَظَنَّهُمْ أَضْيَاقًا ؛ فَتَكَلَّفَ لَمْ تَقْدِيمِ الْعَجَلِ الْحَنِيدِ جَرِيًّا عَلَى سُنَّتِهِ
فِي إِكْرَامِ الضَّيْفِ . فَلَمَّا أَخْبَرُوهُ مَقْصُودَهُمْ مِنْ إِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ تَكَلَّمَ فِي بَابِ لُوطٍ ... إِلَى أَنْ
قَالُوا : إِنَّا مُنْجُوهُ . وَكَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَوْ أَرَادَ إِهْلَاكَ لُوطٍ — وَإِنْ كَانَ
بَرِيئًا — لَمْ يَكُنْ ظَلَمًا ؛ إِذْ لَوْ كَانَ قَبِيحًا لَمَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ — مَعَ وَفَرَةٍ عَلَيْهِ —
يَشْكُلُ عَلَيْهِ حَتَّى كَانَ يَجَادِلُ عَنْهُ . بَلِ اللَّهُ أَنْ يَعْذِّبَ مَنْ يَعْذِّبُ ، وَيُعَافِي مَنْ يُعَافِي ^(١) .

قوله جل ذكره : « وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئًا بِهِمْ
وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ
وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ
إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ » .

لَمَّا أَنْ رَأَاهُ لُوطٌ ضَاقَ بِهِمْ قَلْبُهُ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُمْ مَلَائِكَةٌ ، تَخَافُ عَلَيْهِمْ مِنْ فُسَادِ قَوْمِهِ ؛
فَكَانَ ضَيْقُ قَلْبِهِ لِأَجْلِ اللَّهِ — سُبْحَانَهُ ، فَأَخْبَرُوهُ بِأَنَّهُمْ مَلَائِكَةٌ ، وَأَنَّ قَوْمَهُ لَنْ يَصِلُوا
إِلَيْهِمْ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ سَكَنَ قَلْبُهُ ، وَزَالَ ضَيْقُ صَدْرِهِ .

(١) أَيِ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْعَلَلِ وَالْبَلَايَا وَأَمْسَهُ .

ويقال أقرب ما يكون العبد في البلاء من الفرج إذا اشتد عليه البلاء ؛ فعند ذلك يكون زوال البلاء ، لأنه يصير مضطراً ، والله سبحانه وعد المضطرين وشيك الاجابة^(١) . كذلك كان لوط في تلك الليلة ، فقد ضاق بهم ذرعاً ثم لم يلبث أن وجد الخلاص من ضيقه . قوله جل ذكره : « ولقد تركنا منها آيةً بيّنةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » .

فمن أراد الاعتبار فله في قصتها عبرة .

قوله جل ذكره : « وإلى مدين أخاهم شعيباً ... » الآيات .

ذكر قصة شعيب وقصة عاد وثمود وقصة فرعون ، وقصة قارون .. وكلهم نَسَجَ بعضُهم على منوال بعض ، وسلك مسلكهم ، ولم يقبلوا النصيح ، ولم يبالوا بمخالفة رُسُلِهِمْ ، ثم إن الله تعالى أهلكهم بأجمعهم ، إمضاء لِسُنَّتِهِ في نصرته الضعفاء وقهر الظالمين .

قوله جل ذكره : « مثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِعْتَابًا وَإِنْ أُوْهِنَ الْبُيُوتُ لَبِيتُ الْعَنْكَبُوتُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » .

العنكبوت يتخذ لنفسه بيتاً ، ولكن كلما زاد نسجاً في بيته ازداد بُعْداً في الخروج منه ؛ فهو يبنى ولكن على نفسه يبنى .. كذلك الكافر يسعى ولكن على نفسه يبنى . وبيتُ العنكبوت أ كثره في الزوايا من الجدران ، كذلك الكافر أمره على التَّقِيَّةِ^(٢) والكتمان ، وأما المؤمن فظاهرُ المعاملة ، لا يستر ولا يَدْخِسُ^(٣) .

(١) يشير إلى قوله تعالى : « وأمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء » آية ٦٢ سورة النمل .

(٢) التقية عند بعض الفرق الإسلامية معناها إخفاء الحق ومصالحة الناس في غير دولتهم .

(٣) دخس عليه = لم يبين له ما يريد ، ودخس الشيء = ستره .

وبيتُ العنكبوتِ أوهنُ البيوتِ لأنه بلا أساسٍ ولا جدرانٍ ولا سقفٍ ولا يمسك على أذونٍ^(١) دَفْعٌ .. كذلك الكافر ؛ لا أصلَ لشأنه ، ولا أساسَ لبنياته ، يرى شيئاً ولكن بالتخيل ، فأما في التحقيق .. فلا .

قوله جل ذكره : « وتلك الأمثالُ نَضْرِبُهَا للناسِ وما يَظْلِمُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ » .

الكلُّ يشتركون في سماع الأمثال ، ولكن لا يصنى إليها مَنْ كان نَفْوَ القلبِ ، كنودَ الحالِ ، متعوداً الكسلِ ، مُعَرَّجاً في أوطان الفشلِ .

قوله جل ذكره : « خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ » .

« بالحق » : أى بالقول الحق والأمر الحق .

قوله جل ذكره : « أَتُلُّ مَا أَوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ » .

أى من شأن المؤمن وسبيله أن ينتهى عن الفحشاء والمنكر ، أى على معنى ينبغى للمؤمن أن ينتهى عن الفحشاء والمنكر ، كقوله : « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » أى ينبغى للمؤمن أن يتوكل على الله ، فإن قُدِّرَ أن واحداً منهم لا يتوكل فلا يخرج به ذلك عن الايمان — كذلك من لم ينته عن الفحشاء والمنكر فليست تخرج صلاته عن كونها صلاة .

ويقال بل الصلاة الحقيقية ما تكون ناهيةً لصاحبها عن الفحشاء والمنكر ؛ فإن لم يكن من العبد انتهاء فالصلاة ناهيةً على معنى ورود الزواجر على قلبه بألا يفعل ، ولكنه يُصِرُّ ولا يطيع تلك الخواطر .

(١) أى على أضعف دفع

ويقال بل الصلاة الحقيقية ما تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر . فإن كان — وإلا فصورة الصلاة لا حقيقتها

ويقال الفحشاء هي الدنيا ، والمنكر هو النفس .

ويقال الفحشاء هي المعاصي ، والمنكر هو المخطوئ .

ويقال الفحشاء الأعمال ، والمنكر حسابان النجاة بها ، وقيل ملاحظته الأعراض عليها ، والسرور والفرح بمدح الناس لها .

ويقال الفحشاء رؤيتها ، والمنكر طلب العوض عليها .

« ولذكر الله أكبر » (١) : ذكر الله أكبر من ذكر المخلوقين ؛ لأن ذكره قديم و ذكر الخلق مُحدث .

ويقال ذكر العبد لله أكبر من ذكره للأشياء الأخرى ؛ لأن ذكره لله طاعة ، وذكره لغيره لا يكون طاعة .

ويقال ولذكر الله لك أكبر من ذكرك له .

ويقال ذكره لك بالسعادة أكبر من ذكرك له بالعبادة .

ويقال ذكر الله أكبر من أن تبقى معه وحشة .

ويقال ذكر الله أكبر من أن يُبقى للذاكر معه ذكر مخلوق .

ويقال ذكر الله أكبر من أن يُبقى للزلة معلوماً أو مرسوماً .

ويقال ذكر الله أكبر من أن يعيش أحد من المخلوقين بغيره .

ويقال ولذكر الله أكبر من أن يُبقى معه للفحشاء والمنكر سلطاناً ؛ فلحرمة ذكره زلاتُ الذاكر مفعورة ، وعبوبه مستورة .

قوله جل ذكره : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي

(١) رأى القشيري في «ولذكر الله أكبر» ، ليس فيه كما يلحظ القاريء تقليل من قيمة الصلاة العادية التي وردت في الآية نفسها ، كما قد يدعى بعض من يهتمون بالصوفية بأنهم يرفعون «ذكرهم» ويخفضون قيمة «الصلاة» وبالتالي لا يباهون بها .. وهذا — كما هو واضح — اتهام باطل .

هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ
وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ
إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ
لَهُ مُسْلِمُونَ «

يُقْبَلُ أَنْ يَكُونَ مِنْكَ لِلخَصْمِ تَبْيِينٌ ، وَفِي خُطَابِكَ تَلْيِينٌ ، وَفِي قَبُولِ الْحَقِّ إِعْصَافٌ ، وَاعْتِقَادُ
النَّصْرَةِ — لَمَّا رَأَاهُ صَحِيحاً — بِالْحُجَّةِ ، وَتَرَكَ الْمِيلَ إِلَى الشَّيْءِ بِالْمُؤَيِّدِ .

قوله جل ذكره : « وكذلك أنزلنا إليك الكتابَ
فالذين آتيناكم الكتابَ يؤمنون به
ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد
بآياتنا إلا الكافرون » .

يعني أنهم على أنواع : فرحومٌ نظرنا إليه بالعناية ، ومحرومٌ وسمناء بالشقاوة .

قوله جل ذكره : « وما كنتَ تتلو من قبله من
كتابٍ ولا تحُطُّ به يمينك إذا
لارتابَ المبطلون » .

أَي نَجَرْدَ قَلْبِكَ عَنِ الْمَعْلُومَاتِ . وَتَقَدَّسَ سِرُّكَ عَنِ الْمَرْسُومَاتِ ، فَصَادَفَكَ مِنْ غَيْرِ مِمَّا رَجَا
طَبْعُ وَمِشَارَكَةُ كَسْبٍ وَتَكْلَفٍ بَشَرِيَّةٍ ^(١) ، فَلَمَّا خَلَا قَلْبُكَ وَسِرُّكَ عَنْ كُلِّ مَعْلُومٍ وَمَرْسُومٍ
وَرَدَّ عَلَيْكَ خُطَابُنَا وَقَهْمُنَا غَيْرَ مَقْرُونٍ بِهِمَا مَالِيَسَ مِنَّا .

قوله جل ذكره : « بل هو آياتٌ بيناتٌ في صدور
الذين أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا
إِلَّا الظَّالِمُونَ » .

قُلُوبُ الْخَوَاصِّ مِنَ الْعُلَمَاءِ بِاللَّهِ خَزَائِنُ الْغَيْبِ ، فِيهَا أُودِعَ بَرَاهِينُ حَقِّهِ ، وَبَيِّنَاتُ سِرِّهِ ،
وَدَلَالُ تَوْحِيدِهِ ، وَشَوَاهِدُ رَبُّوبِيَّتِهِ ؛ قَانُونُ ^(٢) الْحَقَائِقِ قُلُوبِهِمْ ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَطْلُبُ مِنْ مَوْحِنِهِ

(١) أَي أَنَّ هَذِهِ الْآفَاتِ تَلْحَقُ عِلْمَ الْإِنْسَانِ حِينَ لَا تَكُونُ خَالِصَةً .

(٢) مِنْ مَعَانِي كَلِمَةِ (الْقَانُونُ) طَرِيقُ الشَّيْءِ وَأَصْلُهُ .

ومحله ؛ فالدرُّ يُطلبُ من الصدف لأنَّ ذلك مسكه ، والشمس تطلب من البروج لأنها مطلعها ،
والشاهد يُطلبُ من التحل لأنه عشه . كذلك المعرفة^(١) تُطلبُ من قلوب خواصه لأن ذلك قانون
معرفة . ومنها (. . .)^(٢)

قوله جل ذكره : « وقالوا لولا أنزلَ عليه آياتٌ من ربِّه
قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا
نَذِيرٌ مُبِينٌ »

خَفِيتَ عَلَيْهِمْ حَالُكَ - يا محمد - فطالبوك بإقامة الشواهد ، وقالوا : « لولا أنزلَ عليه
آيات . . . » أو لم يكفهم ما أوضحنا عليك من السبيل ، وألحنا لك من الدليل ؛ يُتلى عليهم
ذلك ، ولا يمكنهم معارضته ولا الإتيان بشيء من مثله ؟! هذا هو الجحود وغاية الكنود !

قوله جل ذكره : « قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً
يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالَّذِينَ
آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ
الْخَاسِرُونَ »

أنا على حقٍّ والله - سبحانه - يعلمه ، وأنتم لستم على حقٍّ والله يعلمه .

قوله جل ذكره : « وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ
مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ »

لولا أني ضربتُ لكلَّ شيءٍ أَجَلاً لَعَجَلْتُ لَهُمْ ذَلِكَ ، وَلَيَأْتِيَنَّهُمُ الْعَذَابُ - حين
يأتيهم - بَغْةً وَفَجْأَةً .

(١) ورد في ص بعد كلمة المعرفة (وصف الحق) وربما كانت (بوصف الحق) وهي غير موجودة في م ،
ونرجح أنها موجودة في الأصل بدليل افتتان الفسير ؛ (خواصه) .

(٢) في ص (توقع نسخة توحيد) وفي م (يرفع نسخة توحيد) وكلاهما غامض في الكتابة وإن كنا نستطيع
أن نفهم أن التوحيد - هو أقصى درجات المعرفة - محله قلوب الخواص .

قوله جل ذكره . « يومَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ
وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا
مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »

وإذا أحاطت بهم في جهنم سرادقاتُ العذاب فلا صريح لهم ، كذلك - اليوم - من
أحاط به العذاب ؛ من فوقه اللعنُ ومن تحته الخسفُ ، ومن حوله الخزيُّ ، ويُلبَسُ لباسَ
الخذلان ، ويومسُم بكيِّ الحرمان ، ويُسقى شرابَ القنوط ، ويتوجُّ بتاج الخيبة ، ويُقيدُ بقيد
السُّخْط ، ويُغْلُ بِغُلِّ العداوة ، فهمُ يُسحبون في جهنم الفراق حُكماً ، إلى أن يُلقوا في جحيم
الاحتراق عيناً .

قوله جل ذكره : « يا عبادي الذين آمنوا إنِّي أَرْضِي
وَأَسَعُ فَأَيَّي فاعبدونِ »

الدنيا أوسعُ رقعةً من أن يضيق بمريدٍ مكان ، فإذا نبأ به منزلٌ - لوجهٍ من الوجوه -
إمّا لمعلومٍ حصل ، أو لقبولٍ من الناس ، أو جاء ، أو لعلاقةٍ أو لقريبٍ أو لبلاءٍ ضدٍّ ، أو لوجهٍ
من الوجوه الضارة . . . فسبيله أن يرتحل عن ذلك الموضع وينتقل إلى غيره ، كما قالوا^(١) :

وإذا ما جُفِيتُ كنتُ حَرِيّاً
أن أرى غيرَ مُصْبِحٍ حيثُ أُمِسِي

وكذلك العارف إذا لم يوافق وقته مكانً انتقل إلى غيره من الأماكن^(٢) .

قوله جل ذكره : « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا
تُرْجَعُونَ »

إذا كان الأمرُ كذلك فالراحة معطوفة على تهوين الأمور ؛ فسبيلُ المؤمن أن يوطن نفسه

(١) البحري في السينة .

(٢) تعبر هذه الفقرة عن رأى التشيرى فيما يعرف عند الصوفية (بالسفر) فهو يجيزه للعارف ، أما بالنسبة للمريد فإنه يرى عدم السفر ؛ لأن ثبات المريد في مكان به ابتلاء هروب من مواجهة الابتلاء وذلك آية ضعف في الإرادة :
(ومن آداب المريد بل من فرائض حاله أن يلزم موضع لإرادته وألا يسافر قبل أن تقبله الطريق وقبل الوصول
بالقلب إلى الرب ، ، فإن السفر للمريد في غير وقته سم قاتل) (الرسالة ص ٢٠٠) .

على الخروج مستعداً له ، ثم إذا لم يحصل الأجل فلا يستعجل ، وإذا حضر فلا يستثقل ، ويكون بحكم الوقت ، كما قالوا :

لو قال لي مُتْ مِتْ سَمْعاً وطاعةً

وقلتُ لداعى الموت : أهلاً ومرحباً

قوله جل ذكره : « والذين آمنوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

لنبوثنهم من الجنة غُرَفًا يُجْرى من

تحتها الأنهارُ خالدين فيها نِعَمَ أَجْرٍ

العامين » .

هم - اليوم - في غُرَفٍ معارفهم على أَسِرَّةٍ وَصَلِهِمْ ، مُتَوَجِّونَ بَنِيَّانَ سيادتهم ، يُسْقَوْنَ كَاسَاتِ الْوَجْدِ ، وَيَجْبُرُونَ فِي حِنَانِ الْقُرْبِ ، وعداً كما قال : -

« الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ »

والصبرُ الوقوفُ مع الله بشرط سقوط الفكرة .

الصبرُ العكوفُ في أوطان الوفاء ، الصبرُ حبسُ النَّفْسِ على فِطَامِهَا .

الصبرُ تَجَرُّعُ كَاسَاتِ التَّقْدِيرِ من غير تعيس .

الصبرُ صفة توجب معيَّةَ الْحَقِّ . . . وَأَعَزُّ بِهَا !

وأولُ الصبرِ تَصَبُّرٌ بتكليفٍ ، ثم صَبْرٌ بسهولة ، ثم اصطبارٌ وعمى ممزوج بالراحة ، ثم تَمَحُّقٌ بوصف الرضا ؛ فيصير العبدُ فيه محملاً بعد أن كان مُتَحَمِّلاً .

والتوكلُ انتظارٌ مع استبشار ، والتوكلُ سُكُونُ السَّرِّ إلى الله ، التوكلُ استقلالٌ بِحَقِيقَةِ التوكلِ ؛ فلا تشبرَّم في الخلوة بالقطاع الأغيار عنك . التوكلُ إعراضُ القلب عن غير الربِّ .

قوله جل ذكره : « وَكَأَيُّنَ مِنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ

يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .

« لا تحمل رزقها » أى لا تدخره ، فمن لم يدخر رزقه فى كيسه أو خزانته فإِنَّهُ يَرْزُقُهُ مِنْ غَيْرِ مَقَاسَاةٍ تَسْبِيهِ مِنْهُ .

ويقال « لا تحمل رزقها » المقصود بها الطيور والسباع إذ ليس لها معلوم ، وليس لها بيت تجمع فيه القوت ، وليس لها خازن ولا وكيل .. الله يرزقها وإياكم .
ويقال إِرَادَةُ اللَّهِ فِي أَنْ يَسْتَبْقِيَكَ وَلَا يَقْبِضَ رُوحَكَ أَقْوَى وَأَتَمُّ وَأَكْبَرُ مِنْ تَعْنِيكَ لِأَجْلِ بَقَائِكَ .. فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ اِعْتِمَادُكَ بِسَبَبِ عَيْشِكَ أَتَمُّ وَأَكْبَرُ مِنْ تَدِيرِ صَانِعِكَ لِأَجْلِ بَقَائِكَ .

قوله جل ذكره : « وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
لِيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ » .

إِذَا سُئِلُوا عَنْ الْخَالِقِ أَقْرُوا بِاللَّهِ ، وَإِذَا سُئِلُوا عَنْ الرَّازِقِ لَمْ يَسْتَقِرُوا مَعَ اللَّهِ .. هَذِهِ مَنَاقِضَةٌ ظَاهِرَةٌ !

قوله جل ذكره : « اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » .

الرِّزْقُ عَلَى قَسَمَيْنِ : رِزْقُ الظُّوَاهِرِ وَمِنْهُ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ ، وَرِزْقُ السَّرَاطِرِ وَمِنْهُ الْاِسْتِقْلَالُ بِالْعَاقِلِ بِمَحِثٍ لَا يَحْصِرُهُ تَكْلُفُ الْكَلَامِ ، وَالنَّاسُ فِيهِمْ مَرْزُوقٌ وَمَرْفُوعٌ عَلَيْهِ ، وَفِيهِمْ مَرْزُوقٌ وَلَكِنْ مُضَيِّقٌ عَلَيْهِ .

قوله جل ذكره : « وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » .

كما عَلِمُوا أَنَّ حَيَاةَ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا بِالْمَطَرِ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ فليعلموا أَنَّ حَيَاةَ النُّفُوسِ
بَعْدَ مَوْتِهَا — عِنْدَ النَّشْرِ وَالْبَعْثِ — بِقُدْرَةِ اللَّهِ . وكما عَلِمُوا ذَلِكَ فليعلموا أَنَّ حَيَاةَ الْأَوْقَاتِ
بَعْدَ نَفْسِهَا ، وَحَيَاةَ الْقُلُوبِ بِمَدْفَرَتِهَا ... بِمَاءِ الرَّحْمَةِ بِاللَّهِ .

قوله جل ذكره : « وما هذه الحياة الدنيا

إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ

الْحَيَوانِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » .

الدنيا كالأحلام ، وعند الخروج منها انتباهٌ من النوم . والآخرة هنالك العيش بكَماله ،
والتخلص — من الوحشة — بتمامه ودوامه .

قوله جل ذكره : « فَإِذَا رَكِبُوا فِي

الْفُلْكِ دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا

تَجَاءَمَ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ » .

الاخلاصُ تفرُّغُ القلبِ عن الكلِّ ، والثقةُ بأنَّ الاخلاصَ ليس إلا به — سبحانه ،
والتحققُ بأنه لا يستكبر حالاً في الحمودات ولا في المذمومات ، فبعد ذلك يبدونه مخلصين له
الدِّينَ . وإذا توالى عليهم الضرورات ، وانقطع عنه الرجاء أَدْعَنُوا اللَّهَ متضرعين (فإذا كشف
الضُّرَّ عنهم عادوا إلى النِّفلة ، ونَسُوا ما كانوا فيه من الحال كما قيل)^(١) :

إِذَا ارْعَوْى عَادَ إِلَى جَهْلِهِ كَذَى الضُّى عَادَ إِلَى نُكْسِهِ

قوله جل ذكره : « أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا

وَيُتَخَفُّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ

يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ » .

مَنْ عَلَيْهِمُ بَدَفَعِ الْغِنَ عَنْهُمْ وَكَوْنِ الْحَرَمِ آمِنًا . وَذَكَرَهُمْ عَظِيمَ إِحْسَانِهِ عَلَيْهِمْ ،
ثُمَّ إِعْرَاضَهُمْ عَنْ شُكْرِ ذَلِكَ .

(١) ما بين القوسين موجود في م وغير موجود في ص ، والسياق يتطلبه ؛ لأنَّ الشاهد الشعرى الموجود
في النسختين يؤيد معناه .

قوله جل ذكره : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ

كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ

فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ » .

أى لا أحد أشد ظلمًا ممن افترى على الله الكذب ، وعدّل عن الصدق ، وآثر البهتان ولم يتصرف بالتحقق ، أولئك هم الشقاق في الدنيا والآخرة .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا

وإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْحَسَنِينَ » .

الذين زَيَّنُوا ظواهرهم بالمجاهدات حَسَّنَتْ سرائرهم بالمشاهدات . الذين شغلوا ظواهرهم بالوظائف أوصلنا إلى سرائرهم اللطائف . الذين قاسوا فينا التعب من حيث الصلوات جازيناهم بالطرب من حيث المواصلات .

ويقال الجهاد فيه : أولاً بترك المحرمات ، ثم بترك الشبهات ، ثم بترك الفضلات ، ثم بقطع العلاقات ، والتنقي من الشواغل في جميع الأوقات .

ويقال بحفظ الخواص لله ، وبعد الأنفاس مع الله .

السورة التي يذكر فيها الروم

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

بسم الله اسم عزيز شفيعُ المذنبين جوؤه ، بلاءُ المتهمين قصودُه ، ضياءُ الموحدين عهدُه .
وسلوةُ المحزونين ذِكرُه ، وحِرقةُ^(١) المُمتحنين شكرُه .

اسمٌ عزيزٌ رداؤه كبرياؤه ، وجبارٌ سناؤه بهاؤه ، وبهاؤه علاؤه .
العابدون حَسْبُهُمْ عطاؤه ، والواجدون حَسْبُهُمْ بقاؤه^(٢) .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تُغْلِبِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ

وَمِنْ مَن بَعْدَ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ *
فِي بضع سنين » .

الإشارة في « الألف » إلى أنه أَلِفٌ صُحْبَتَنَا مِنْ عَرَفَ عَظَمَتَنَا ، وأنه أَلِفٌ بَلَاءُنَا مِنْ
عَرَفَ كِبَرِيَاءُنَا .

والإشارة في « اللام » إلى أنه لَزَمَ بَابُنَا مِنْ ذاقَ مَحَابِنَنَا ، ولَزَمَ بَسَاطَتَنَا مِنْ
شَهِدَ جِوَالَنَا .

والإشارة في « الميم » إلى أنه مُكِّنَ مِنْ قُرْبَانَا مَنْ قَامَ عَلَى خَلْعَتَنَا ، ومَاتَ عَلَى وَفَاتِنَا
مَنْ تَحَقَّقَ بَوْلَانُنَا .

قوله : « غُلِبَتِ الرُّومُ » : سُرَّ المسلمون بظفر الروم على العجم — وإن كان الكفر
يجمعهم — إلا أن الروم اختصوا بالإيمان ببعض الأنبياء ، فشكر الله لهم ، وأنزل فيهم الآية . .
فكيف بمن يكون سروره لدين الله ، وحُزُنُه واهتمامه لدين الله ؟

(١) الحِرقة هنا معناها دأبه وديدنه (الوسيط) .

(٢) لأن بقاءهم به خلف لهم عن كل شيء ، فكل شيء زائل .

قوله جل ذكره : « الله الأمر من قبل ومن بعد »

ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله

ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم .

« قبل » إذا أطلق انتظم الأزل ، « وبعده » إذا أطلق دل على الأبد ؛ فالمعنى الأمر الأزلي لله ، والأمر الأبدي لله ؛ لأن الرّب الأزلي والسيد الأبدي .

الله الأمر يوم العرفان^(١) ، والله الأمر يوم الفجران .

الله الأمر حين القسمة ولا حين ، والله الأمر عند النعمة وليس أي معين^(٢) .

ويقال : لي الأمر « من قبل » وقد علمت ما تفعلون ، فلا يمنعني أحد من تحقيق عرفانكم ، ولي الأمر « من بعد » وقد رأيت ما فعلتم ، فلا يمنعني أحد من غفرانكم .

وقيل « الله الأمر من قبل » بتحقيق ودكم ، والله الأمر من بعد بحفظ عهدكم :

إني — على جفواتها — وبربها

وبكل متوصل بها متوسل^(٣)

« ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » :

اليوم إرجاف السرور وإنما

يوم اللقاء حقيقة الإرجاف

اليوم ترح وغداً فرح ، اليوم عبرة وغداً حبرة ، اليوم أسف وغداً لطف ،
اليوم بكاء وغداً لقاء .

قوله جل ذكره : « وعد الله لا يخلف الله وعده »

ولكن أكثر الناس لا يعلمون »

(١) هكذا في م وهي في ص يوم (القربان) ، والمعرفة والقرب يجريان في هذه الحياة الدنيا ، أما الفجران فهو في الآخرة يوم الحساب .

(٢) هكذا في م وهي في ص : (والله الأمر عند النعمة وليس في مصر) وهي غامضة في الكتابة والمعنى ، وقد آثرنا ما جاء في م لوضوحه .

(٣) في موضع آخر من هذا المجلد نجد هذا البيت متبوعاً بالبيت التالي (الذي فيه خبر إن) :
لأحبها وأحب منزلها الذي نزلت به وأحب أهل المنزل

الكريمُ لا يُخلفُ وعده لاسيما والصدقُ نعمته .

يقول المؤمنون : مِنا يومَ الميثاقِ وعِدُّ بالطاعة ، ومنه ذلك اليومَ وعِدُّ بالجنة ، فإن وقع في وعدنا تنصيرٌ لا يقع في وعده قصورٌ .

قوله جل ذكره : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا • وهم عن الآخرة هم غافلون » .

استغراقهم في الاشتغال بالدنيا ، وانهماكهم في تعليق القلب بها . . منهم عن العلم بالآخرة . وقصة كل امرئٍ علمه بالله ؛ ففي الأثر عن عليٍّ — رضى الله عنه — أنه قال : أهل الدنيا على غفلةٍ من الآخرة ، والمشتغلون بعلم الآخرة كذلك بوجودها في غفلة عن الله .

قوله جل ذكره : « أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكَافرون » .

إنَّ مَنْ نَظَرَ حَقَّ النظر ، وَوَضَعَ النظر موضعه أثمر له العلم واجباً ، فإذا استبصر بنور اليقين أحكامَ الفاتيات ، وَعَلِمَ موعوده الصادق في المستأنف — نجا عن كدِّ التردد والتجوز^(١) . فسبيلُ مَنْ صحَّ عقله ألاَّ ينجحَ إلى التنصير فيما به كمال سكونه .

قوله جل ذكره : « أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشدَّ منهم قوةً وأنمازوا الأرض وعمرُّوها أكثرَ مما عمرُّوها ، وجاءتهم

(١) التردد والتجوز آفتان تصيبان — في نظر القشيري — العقل ، بينما القلب والروح والسر وعين السر لا تصاب بهما .

رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ
ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

سَيرُ النفوسِ في أقطار الأرض ومنا كلها لأداء العبادات، وسَيرُ القلوبِ بِمَجَولَانِ الْفِكْرِ
في جميع المخلوقات ، وغايته الظفرُ بِمَقَاتِلِ العلوم التي توجبُ تلج الصدر — ثم تلك العلوم على
درجات . وسير الأرواح في ميادين الغيب بنعت خرق سرادقات الملكوت ، وقصاراه الوصولُ
إلى محلِّ الشهود واستيلاء سلطان الحقيقة . وسير الأسرار بالترق عن الحدَّ ثَانٍ ^(١) بأسرها ،
والتحقق أولا بالصفات ، ثم بالحدود بالكلية عما سوى الحق ^(٢) .

قوله جل ذكره : « ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا
الشَّوْأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا
بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ » .

مَنْ زَرَعَ الشُّوكَ لَمْ يَحْصُدِ الْوَرْدَ ، وَمَنْ اسْتَنْبَتَ الْحَشِيشَ لَمْ يَقْطِفِ الثَّمَارَ ، وَمَنْ سَلَكَ
طَرِيقَ الْغَى لَمْ يَحْمِلْ بِسَاحَةِ الرُّشْدِ .

قوله جل ذكره : « اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ » .

يبدأ الخلق على ما يشاء ، ثم يعيده إذا ما شاء على ما يشاء .

قوله جل ذكره : « وَيَوْمَ يَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْجَحْرِمُونَ » .
شهودهم ما جحدوه في الدنيا عيانا ، ثم ما ينضاف إلى ذلك من اليأس بعد ما يعرفون
قطعا ^(٣) هو الذي يفتت أكيادهم ، وبه تتم محنتهم .

قوله جل ذكره : « وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ
وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ » .

(١) المقصود بالحدَّ ثَانٍ المخلوقات إذ لها أول وابتداء ولها آخر وانتهاء .

(٢) انظر بخصوص هذا الترق صقحة ٤٨٦ (المجلد الأول من هذا الكتاب) .

(٣) لأن معرفتهم المينية تقطع كل شك كان يراودهم في الحياة الدنيا ، فلا مجال يومئذ لأمل زائف .

تقلب العداوة من بعض على بعض .

قوله جل ذكره : « ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون » .
فريق منهم أهل الوصلة ، وفريق هم أهل الفرقة . فريق للجنة والمِنَّة ، وفريقٌ للعذاب
واللحنة . فريقٌ في السَّير ، وفريقٌ في السرور . فريقٌ في الثواب ، وفريقٌ في العذاب .
فريقٌ في الفراق ، وفريقٌ في التلاقى .

قوله جل ذكره : « فأما الذين آمنوا وعللوا الصالحاتِ
فهم في روضةٍ يُخَبَّرُونَ » .

فهم في رياضٍ وغياضٍ

« وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا
واتموا الآخرة فأولئك في العذابِ
مُخَضَّرُونَ » .

فهم في بوارٍ وهلاكٍ .

قوله جل ذكره : « فسُبْحانَ اللَّهِ حين تُشْهِونَ وحين
تُصْبِحُونَ * وله الحمدُ في السمواتِ
والأرضِ وَعَشِيًّا وحين تُظْهِرُونَ » .

مَنْ كَانَ صَبَاحُهُ لِلَّهِ بُورِكَ لَهُ فِي يَوْمِهِ ، وَمَنْ كَانَ مَسَاؤُهُ بِاللَّهِ بُورِكَ لَهُ فِي لَيْلِهِ :
وإِنَّ صَبَاحًا نَلْتَقِي فِي مَسَائِهِ صَبَاحٌ عَلَى قَلْبِ الْغَرِيبِ حَبِيبُ
شَتَانٍ بَيْنَ عَبْدٍ صَبَاحُهُ مُفْتَتِحٌ بِعِبَادَتِهِ وَمَسَاؤُهُ مُخْتَتَمٌ بِطَاعَتِهِ ، وَبَيْنَ عَبْدٍ صَبَاحُهُ مُفْتَتِحٌ
بِمَشَاهِدَتِهِ وَرَوَاحُهُ مُفْتَتِحٌ بِمَزِيدِ قُرْبَتِهِ !

ويقال الآية تتضمن الأمر بتسبيحه في هذه الأوقات ، والآية تتضمن الصلوات الخمس^(١) ،

(١) قيل لابن عباس : هل تجد الصلوات الخمس في القرآن ؟ فقال : نعم وتلا هذه الآية . ف (حين تمسرون) صلاة المغرب والعشاء ، (و حين) تصبحون صلاة الفجر ، (وعشيًا) صلاة العصر ، (و حين تظهرون) صلاة الظهر .

وإرادة الحق من أوليائه بأن يجددوا العهد في اليوم واللييلة خمس مرات ؛ فتقف على بساط
المنجاة ، وتستدرك ما فاتك فيما بين الصلاتين من طوارق الزلات .

قوله جل ذكره : « يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ
الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ
مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ » .

« يخرج الحي من الميت » : الطير من البيض ، والحيوان من النطفة .

و « يخرج الميت من الحي » : البيض من الطير ، والنطفة من الحيوان .
والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن .

ويُظهِرُ أَوْقَاتًا مِنْ بَيْنِ أَوْقَاتٍ ؛ كالتقبض من بين أوقات البسط ، والبسط من بين
أوقات التقبض .

« ويحيي الأرض بعد موتها » : يحييها بالمطر ، ويأتي بالربيع بعد وحشة الشتاء ؛ كذلك
يوم التشور يحيي الخلق بعد الموت .

قوله جل ذكره : « وَرَمِزَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ
ثُمَّ إِذَا أَنتُمْ بِشَيْءٍ تَشْكُرُونَ » .

خلق آدم من التراب ، ثم من آدم الذرية . فذكرهم نسبتهم لئلا يُعجبوا بأحوالهم .

ويقال الأصل ترربة ولكن العبرة بالترية لا بالتربة ، القيمة لما ينه لا لأعيان المخلوقات .
اصطفى واختار الكعبة فهي أفضل من الجنة ؛ الجنة جواهر ويواقيت ، والبيت حجر ! ولكن
البيت مختاره وهذا المختار حجر ! واختار الإنسان ، وهذا المختار مدر ! والفنى نسي آياته ،
غنى عن كل غير من رسم وأثر .

قوله جل ذكره : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ
أَزْوَاجًا لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ

مودعةً ورحمةً إنَّ في ذلك لآياتٍ
لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

رَدُّ المِثْلِ إِلَى المِثْلِ ، وَرَبَطَ الشَّكْلَ بِالشَّكْلِ ، وَجَلَّ سَكُونُ البَعْضِ إِلَى البَعْضِ ،
ولكنَّ ذلكَ للأشباحِ والصُّورِ ، أمَّا الأرواحُ فَصُحْبَتُهَا للأشباحِ كرهَ لا طَوْعَ^(١) .
وأمَّا الأسرارُ فمُعْتَقَةٌ لا تَسَاكِنُ الأطلالَ ولا تَتَدَنَسُ بالأعلالَ .

قوله جل ذكره : « وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَإِخْتِلَافُ أَلْوَانِكُمْ »
في ذلك لآياتٍ للعالمين .

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ فِي علُوِّهَا والأَرْضَ فِي دُنُوِّهَا ؛ هذه بنجومها وكواكبها ، وهذه بأقطارها
ومناكبها . وهذه بشمسها وقمرها ، وهذه بمائها ومدِّرها .

ومن آياته اختلافُ لغاتِ أهلِ الأرضِ ، واختلافُ نسيجاتِ الملائكةِ الذين هم سكانُ
السَّما . وإنَّ اختصاصَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا بِحُكْمٍ — شاهدٌ عدلٌ ، ودليلٌ صِدْقٍ على أنها تناجي
أفكارَ المتيقظين ، وتنادي على أنفسها . . أنها جميعها من تقدير العزيز العليم .

قوله جل ذكره : « وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
وَإِخْتِلَافُ أَلْوَانِكُمْ »
في ذلك لآياتٍ
لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ .

غَلَبَةُ النُّومِ بِغَيْرِ اخْتِيَارٍ صاحبه ثم انتباهه مِنْ غَيْرِ اكْتِسَابٍ لَهُ بِوُسْعِهِ يَدُلُّ على موته
وبَشِيرِهِ بعد ذلك وقتَ نشوره . ثم في حالِ منامه يرى ما يسره وما يضره ، وعلى أوصافِ
كثيرةٍ أمره .. كذلك الميت في قبره .. اللهُ أعلمُ كيف حاله في أمره ، وما يلقاه من خيره
وشره ، ونفعه وضره ؟

(١) فكرة اغتراب الروح عن مصدرها الأصيل ، وليتها في داخل البدن ، ذلك القفص المادي أو السجن
الترابي — تحت اهتماماً كبيراً عند شعراء الصوفية (أنظر كتابنا « نشأة التصوف الإسلامي » فصل الفطرية) .

قوله جل ذكره : « وَمِنْ آيَاتِهِ يَرْسِلُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا
وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ » .

يُلْقِي فِي الْقُلُوبِ مِنَ الرَّجَاءِ وَالتَّوَقُّعِ فِي الْأُمُورِ ، ثُمَّ يَخْتَلِفُ بِهِمُ الْحَالُ ؛ فَمِنْ عَبْدٍ يَحْصُلُ
مَقْصُودُهُ ، وَمِنْ آخَرٍ لَا يَتَّفِقُ مَرَادُهُ .

وَالْأَحْوَالُ اللَّطِيفَةُ كَالْبُرُوقِ ، وَقَالُوا : إِنَّهَا لَوَائِحُ ثُمَّ لَوَاعٍ ثُمَّ طَوَالِعٌ ثُمَّ شَوَارِقُ ثُمَّ مَتَوَعٌ
النَّهَارِ^(١) ، فَالْوَائِحُ فِي أَوَائِلِ الْعُلُومِ ، وَاللَّوَاعِ مِنْ حَيْثُ الْفُهُومِ ، وَالطَّوَالِعُ مِنْ حَيْثُ
الْمَعَارِفِ^(٢) ، وَالشَّوَارِقُ مِنْ حَيْثُ التَّوْحِيدِ .

قوله جل ذكره : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ
بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ
إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ » .

يُمْنِي هَذِهِ الْأَحْوَالُ ، وَيُغَيِّرُ هَذِهِ الْأَطْوَارَ ، وَيَبْدُلُ أَحْوَالَ غَيْرِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ ؛ إِمَاتَةً ثُمَّ
إِحْيَاءً ، وَإِعَادَةً وَقَبْلَهَا إِبْدَاءً ، وَقَبْرٌ ثُمَّ نَشْرٌ ، وَمَعَاتِبَةٌ فِي الْقَبْرِ ثُمَّ مَحَاسِبَةٌ بَعْدَ النَّشْرِ .

قوله جل ذكره : « وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٍ
قَانِتُونَ » .

لَهُ ذَلِكَ مِنْكَ ، وَمِنْهُ تِلْكَ الْأَشْيَاءُ بَدْءًا ، وَبِهِ إِجْدَادًا ، وَإِلَيْهِ رَجُوعًا .

قوله جل ذكره : « وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ
أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

(١) يَتَّفِقُ مَوْقِفُ التَّشْيِيرِ مِنْ هَذِهِ الْمَصْطَلَحَاتِ هُنَا مَعَ مَا ذَكَرَهُ فِي «الرَّسَالَةِ» وَإِنْ كَانَ قَدْ زَادَ عَلَيْهَا هُنَا
(مَتَوَعُ النَّهَارِ) .

(٢) نَفْهَمُ مِنْ هَذَا أَنَّ التَّشْيِيرَ يَرَى هَذَا التَّرْتِيبَ : الْعِلْمُ ثُمَّ الْفُهُومُ ثُمَّ الْمَعْرِفَةُ أَوِ الْمَعَارِفَانِ ، وَنَفْهَمُ أَنَّ التَّوْحِيدَ
أَعْلَى دَرَجَاتِ الْمَعَارِفَانِ .

« وهو أهون عليه » أى فى ظنكم وتقديركم^(١) .

وفى الحقيقة السهولة والوعودة على الحق لا تجوز .

« وله المثل الأعلى » : له الصفة العليا فى الوجود بمقتضى القدم ، وفى الجود بنعت الكرم ، وفى القدرة بوصف الشمول ، وفى النصرة بوصف الكمال ، وفى العلم بعموم التعلق ، وفى الحكم بوجوب التحقق ، وفى المشيئة بوصف البلوغ ، وفى القضية^(٢) بحكم النفوذ ، وفى الجبروت بعين العز والجلال ، وفى المسكوت بنعت المجد والجمال .

قوله جل ذكره : « ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل

لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء

فما رزقناكم فأنتم فيه سَوَاءٌ تخافونهم

كخيفتكم أنفسكم كذلك تفصل

الآيات لقوم يعقلون .

أى إذا كان لكم ممالك لا تَرْضُونَ بالسواة بينكم وبينهم ، وأنتم متشاكلون^(٣) بكل وجه - إلا أنكم بحكم الشرع مالكمهم - فما تقولون فى الذى لم يزل ، ولا يزال كما لم يزل ؟ .

هل يجوز أن يُقَدَّرَ فى وصفه أن يُساوِيَهُ عبيده ؟ وهل يجوز أن يكون مملوكه شريكه ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

قوله جل ذكره : « بل اتَّبِعِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أهواءهم بغیر علم

فمن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ وما لهم

من ناصرين » .

(١) معنى هذه العبارة : حسب ظنكم وتقديركم الإعادة أسهل من الإنشاء .. فكيف أنكرتم الإعادة ؟ فضلاً عن أنه ليس عند الله سهل ولا عسير .

(٢) القضية : هى قضاء الله .

(٣) متشاكلون معناها : متشابهون ومتساوون ولا فرق فى الجوهرية بينكم وبينهم .

أشدُّ الظلم متابعةُ الهوى ؛ لأنه قريبٌ من الشُّركِ ، قال تعالى : « أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ » ^(١) . فَمَنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ خَالَفَ رِضَا مَوْلَاهُ ؛ فهو بوضعه الشيءَ غيرَ موضعه صار ظالماً ، كما أن العاصيَ بوضعه المعصيةَ موضعَ الطاعةِ ظالمٌ .. كذلك هذا بمتابعة هواه بدلاً عن موافقة ومتابعة رضا مولاه صار في الظلم متآمداً .

قوله جل ذكره : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ

الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ

ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

لَا يَعْلَمُونَ » .

أَخْلَصْ قَصْدَكَ إِلَى اللَّهِ ، واحفظ عهدك مع الله ، وأفرِّدْ عملَكَ في سَكَنَاتِكَ وحرَكَاتِكَ وجميع تصرفاتِكَ لله .

« حَنِيفًا » : أى مستقيماً في دينه ، مائلاً إليه ، مُعْرِضًا عن غيره ^(٢) . والزَّمْ « فِطْرَةَ اللَّهِ

الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا » أى أُنْبِتْهُمْ عَلَيْهَا قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ مِنْهُمْ فِعْلٌ وَلَا كَسْبٌ ، وَلَا شِرْكَ

وَلَا كُفْرٌ ، وكما ليس منهم إيمان وإحسان فليس منهم كفران ولا عصيان . فاعرف بهذه الجملة ،

ثم افعل ما أُمِرْتَ بِهِ ، واحذر ما تُهَيِّبُ عَنْهُ .

فعلى هذا التأويل فإن معنى قوله : « فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا » أى إعرَفْ واعْلَمْ .

أن فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا : تَجَرُّدُهُمْ عَنْ أَفْهَامِهِمْ ، ثم اتصافهم بما يكسبون — وإن كان

هذا أيضاً بتقدير الله ^(٣) .

وعلى هذا تكون « فِطْرَةَ » الله منصوبة بإضمار اعْلَمْ — كما قلنا .

(١) آية ٢٣ سورة الجاثية .

(٢) فكلية وحنيف من الأضداد .

(٣) يذكرنا هذا بتفسير أبي طالب المكي لقول رابعة « أحبك حبين .. » فالحب الأول فطرى تفضل الله

به ، والحب الثانى عانتى هى بكسبها ولكنها حتى فى هذا الحب الكسبى لا فضل لها ، ولذلك استبركت :

فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذا كما

أنظر (قوت القلوب للمكي ص ٢٨ ص ٦٥ وماتلها) وانظر أيضاً كتابنا (نشأة التصوف الإسلامى) ط دار المعارف .

سبحانه فَطَرَ كُلَّ أَحَدٍ عَلَى مَا عَلِمَ أَنَّهُ يَكُونُ فِي السَّعَادَةِ أَوِ الشَّقَاوَةِ ، وَلَا تَبْدِيلَ لِحُكْمِهِ ،
وَلَا تَحْوِيلَ لِمَا عَلَيْهِ فَطَرَهُ . فَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ يَكُونُ سَعِيدًا أَرَادَ سَعَادَتَهُ وَأَخْبَرَ عَنْ سَعَادَتِهِ ،
وَخَلَقَهُ فِي حُكْمِهِ سَعِيدًا . وَمَنْ عَلِمَ شَقَاوَتَهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ شَقِيًّا وَأَخْبَرَ عَنْ شَقَاوَتِهِ وَخَلَقَهُ
فِي حُكْمِهِ شَقِيًّا .. وَلَا تَبْدِيلَ لِحُكْمِهِ ، هَذَا هُوَ الدِّينُ الْمُسْتَقِيمُ وَالْحَقُّ الصَّحِيحُ ^(١)

قوله جل ذكره : « مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

أَي رَاجِعِينَ إِلَى اللَّهِ بِالْكُلِّيَّةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَبْقَى بَقِيَّةٌ ، مُتَصِفِينَ بِوَفَائِهِ ، مُنَحْرِفِينَ
بِكُلِّ وَجْهِ عَنْ خِلَافِهِ ، مُتَّقِينَ صَغِيرَ الْإِثْمِ وَكَبِيرَهُ ، قَلِيلَهُ وَكَثِيرَهُ ، مُؤَثِّرِينَ بِسِرِّ
وَفَائِهِ وَعَسِيرِهِ ، مُقِيمِينَ الصَّلَاةَ بِأَرْكَانِهَا وَمُسْتَهْتِكِينَ بِأَدَائِهَا جَهْرًا ، مُتَحَقِّقِينَ بِمِرَاعَاةِ
فَضَائِلِهَا سِرًّا .

قوله جل ذكره : « مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ
وَكَانُوا شِعْمًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ
فَرِحُونَ » .

أَقَامُوا فِي دِينِهِمْ فِي خِمَارِ الْغَفْلَةِ ، وَعِنَادِ الْجَهْلِ وَالْفِتْرِ ، فَرَكَنُوا إِلَى ظُنُونِهِمْ ،
وَاسْتَوَظَنُوا مَرْكَبَ أَوْهَامِهِمْ ، وَتَمَوَّعُوا مِنْ كَيْسِ غَيْرِهِمْ ، وَظَنُوا أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ .
فَإِذَا انْكَشَفَ ضَبَابُ وَقْتِهِمْ ، وَانْقَشَعَ سَحَابُ جَحْدِهِمْ . . انْقَلَبَ فَرُوحُهُمْ تَرَحُّمًا ،
وَاسْتَقْبَلُوا أَنَّهُمْ كَانُوا فِي ضَلَالَةٍ ، وَلَمْ يَعْرِجُوا إِلَّا فِي أَوْطَانِ الْجَهَالَةِ .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا
رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ
رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ
يَشْرَكُونَ » .

(١) نَحْسِبُ أَنَّ الْقَشِيرِيَّ قَدْ حَاوَلَ لِبُضَاحِ مُشْكَلَةِ هَامَةِ مِنْ مَشَاكِلِ عِلْمِ الْكَلَامِ ، فَلَيْسَتْ الْجَبَرِيَّةُ مَعْنَاهُ بِنَاقِضَةٍ
لِحُرِّيَّةِ الْإِنْسَانِ وَاخْتِيَارِهِ ، مَا دَامَتِ الْأُمُورُ كُلُّهَا مُرْتَبِطَةً بِعِلْمِ اللَّهِ الَّذِي سَبَقَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَبِفَضْلِ اللَّهِ الَّذِي نَعْلَمُ
عَلَى مَا عَلِمَ .

إذا أظلمت المحنة ونالتهم الفتنة ؛ وَمَسَّتْهُمُ الْبَلَاءُ رَجَعُوا إِلَى اللَّهِ بِأَجْمَعِهِمْ مُسْتَعِينِينَ ،
وبلطفه مستجيبين ، وعن محنتهم مستكشفين^(١) ..

فإذا جاد عليهم بكشف ما نالهم ، ونظر إليهم باللفظ فيما أصابهم : إذا فريق
منهم — لا كلهم — بل فريق منهم برهم يشركون ؛ يعودون إلى عاداتهم المذمومة
في الكفران ، ويقابلون إحسانه بالتسيان ، هؤلاء ليس لهم عهد ولا وفاء ، ولا
في مودتهم صفاء .

قوله جل ذكره : « لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » .

أى عن قريب سيعطى بهم مثلاً أصابهم ، ثم إنهم يعودون إلى التضرع ،
ويأخذون فيما كانوا عليه بدءاً من التخنس ، فإذا أشكاهم وعاقاهم رجعوا إلى رأس
خطاياهم .

قوله جل ذكره : « أَمْ أَنْزَلْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُمْ
يَتَكَلَّمُونَ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ » .

بين أنهم بنوا على غير أصل طريقهم ، واتبعوا فيما ابتدعوه أهواءهم ، وعلى
غير شرع من الله أو حجة أو بيان أسسوا مذاهبهم .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا
بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ
إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ » .

تستميلهم طوارق أحوالهم ؛ فإن كانت نعمة فإلى فرح ، وإن كانت شدة فإلى
قنوط وترح .. وليس وصف الأكاير كذلك ؛ قال تعالى : « لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى
مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ »^(٢) .

(١) أى راجين كشف الغمة عنهم .

(٢) آية ٢٣ سورة الحديد .

قوله جل ذكره : « أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ
الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .

الإشارة فيها إلى أن العبد لا يُلْقِ قلبه إلا بالله ؛ لأن ما يسوؤهم ليس زواله
إلا بالله ، وما يسرّهم ليس وجوده إلا من الله ، فالبسطة التي يسرّهم ويؤنسهم
منه وجوده ، والقبض الذي يسوؤهم ويوحشهم منه حصوله ، فالواجب لزوم عقوبة^(١)
الأسرار ، وقطع الأفكار عن الأغيار .

قوله جل ذكره : « فَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنِ
السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ
وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

القرابة على قسمين : قرابة النسب وقرابة الدين ، وقرابة الدين أمس ، وبالمواساة أحق
وإذا كان الرجل مشتغلا بالعبادة ، غير متفرغ لطلب المعيشة فالذين لهم إيمان بحاله ،
وإشراف على وقته يجب عليهم القيام بشأنه بقدر ما يمكنهم ، مما يكون له عون على الطاعة
وفراغ القلب من كل علة ؛ فاشتغال الرجل بمراعاة القلب يجعل حقه آكدا ، وتقديره
أونجا .

« ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ » : المرید هو الذي يُؤْتِرُ حقَّ الله على حفظ
نفسه ؛ فإيثار المرید وجه الله أتم من مراعاته حال نفسه ، فهيمته في الإحسان إلى ذوى القربى
والمساكين تتقدم على نظره لنفسه وعياله وما يهيمه من خاصته .

قوله جل ذكره : « .. وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ
وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ » .

إيتاء الزكاة بأن تريد بها وجه الله ، وألا تستخدم الفقير لما تَبَرُّه به من راققة^(٢) ،

(١) العقوة الموضع المتسع أمام الدار .

(٢) الرافقة = الرفق واللفظ ، تقول : أولاه رافقة (الوسيط) .

بل أفضل الصدقة على ذي رحم كاشح^(١) ، حتى تكون إعطاؤه لله مجرداً عن كل نصيب لك فيه ، فهو لاءهم الذين يضاعف أجورهم : قهرهم لأنفسهم حيث يخالونها ، وفوزهم بالعوض من قبل الله .

ثم الزكاة هي التطهير ، وتطهير المال معلوم ببيان الشريعة في كيفية إخراج الزكاة ، وأصناف المال وأوصافه .

وزكاة البدن وزكاة القلب وزكاة السر . كل ذلك يجب القيام به .

قوله جل ذكره : « الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم »

ثم يميتكم هل من شر كائكم
من يفعل من ذلك من شيء سبحانه
وتعالى عما يشركون .

« ثم » حرف يقتضى التراخي ؛ وفي ذلك إشارة إلى أنه ليس من ضرورة خلقه إياك أن يرزقك ؛ كنت في ضعف أحوالك ابتداء ما خلقك ، فأثبتك وأحياك من غير حاجة لك إلى رزق ؛ فإلى أن خرجت من بطن أمك : إما أن كان يُغنيك عن الرزق وأنت جنين في بطن الأم ولم يكن لك أكل ولا شرب ، وإما أن كان يعطيك ما يكفيك من الرزق — إن حق ما قالوا : إن الجنين يتغذى بدم الطمث . وإذا أخرجك من بطن أمك رزقك على الوجه المهود في الوقت المعلوم ، فيسر لك أسباب الأكل والشرب من لبن الأم ، ثم من فنون الطعام ، ثم أرزاق القلوب والسرائر من الإيمان والعرفان وأرزاق التوفيق من الطاعات والعبادات ، وأرزاق اللسان من الأذكار وغير ذلك مما جرى ذكره

« ثم يميتكم » بسقوط شهواتكم ، ويميتكم عن شواهدكم .

« ثم يحييكم » بحياة قلوبكم ثم بأن يحييكم ربكم .

(١) كاشح أى مبغض . وربما كان غير مثل للتصدق على ذي رحم مبغض ، ما حدث من أبي بكر حينما امتنع عن تقديم الزكاة لمسطح على أثر قيامه بدوره المعروف في قصة الإفك ، فعوتب أبو بكر في ذلك ونزلت فيه « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أول القربى » آية ٢٢ سورة النور .

ويقال : من الأرزاق ما هو وجود الأرفاق ومنها ما هو شهود الرزاق .

ويقال : لا مُسْكَنَةَ لَكَ في تَبْدِيلِ خَلْقِكَ ، وكذلك لا قُدْرَةَ لَكَ على تَعَسُّرِ رِزْقِكَ ،
فَالْمَوْسَعُ عليه رِزْقُهُ — بِفَضْلِهِ سُبْحَانَهُ . . لا بِمَنَاقِبِ نَفْسِهِ ، وَالْمُقْتَرُّ عليه رِزْقُهُ بِحُكْمِهِ
سُبْحَانَهُ . . لا بِمَعَايِبِ نَفْسِهِ .

« هل من شركائكم مَنْ يفعل مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ ؛ هل من شركائكم الذين أثبتوهم
أى من الأصنام أو توهمتوهم من جملة الأنام . . مَنْ يفعل شيئاً من ذلك ؟ » سبحانه وتعالى «
تنزيهاً له وتقديساً .

قوله جل ذكره : « ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا
كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ
الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

الإشارة من البرِّ إلى النَّفْسِ ، ومن البحر إلى القلب .

فساد البرِّ بأَكْلِ الحرام وارتكاب المحظورات ، وفساد البحر من الغفلة والأوصاف
الذميمة مثل سوء العزم والحسد والحقد وإرادة الشرِّ والفِسْقِ . . وغير ذلك . وعَقْدُ
الإصرارِ على المخالقاتِ من أعظمِ فسادِ القلب ، كما أَنَّ العَزْمَ على الخيرات قبل فعلها من
أعظم الخيرات .

ومن جملة الفساد التأويلاتُ بغير حقٍّ ، والانحطاطُ إلى الرُّخَصِ في غير قيامٍ بِعَدَلٍ ،
والإغراق في الدعاوى من غير استحياء من الله تعالى .

« لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » : بعض الذي عملوا من سقوط تعظيم الشرع
من القلب ، وعدم التأسُّف على ما فاتته من الحقِّ .

قوله جل ذكره : « قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ » .

« سيرا » بالاعتبار ، واطلبوا الحق بنعت الأفكار .

« فأنظروا » كيف كانت حال من تقدمكم من الأشكال والأمثال ، وقيسوا عليها حكمكم في جميع الأحوال . « كان أكثرهم مشركين » كانوا أكثرهم عدداً ، ولكن كانوا في التحقيق أقلهم وزناً وقدرًا .

قوله جل ذكره : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ » .

أخلص قصدك وصدق عزمك للدين القيم بالموافقة والاتباع دون الاستبداد بالأمر على وجه الابتداع . فمن لم يتأدب بمن هو إمام وقته ولم يتلقف الأذكار ممن هو لسان وقته كان خسرانه أتم من ربحه ، ونقصانه أعم من نفعه (١) .

قوله جل ذكره : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

يرسل رياح الرجاء على قلوب العباد فتكنس عن قلوبهم غبار الخوف وغشاء اليأس ، ثم يرسل عليها أمطار التوفيق فتحملهم إلى بساط الجهد ، وتكرمهم بقوى النشاط . ويرسل رياح البسط على أرواح الأولياء فيطهرها من وحشة القبض ، وينشر فيها إرادة الوصال . ويرسل رياح التوحيد فتهب على أسرار الأصفياء فيطهرها من آثار العناء ، ويبشرها بدواء الوصال .. فذلك أرياح به ولكن بعد اجتياح عنك .

(١) يرى كبار الصوفية - والقشيري منهم - أن التأدب يشيخ أمر ضروري في الطريق الصوفي كي يكبح جماح المرید ، ويهديه إلى ربه عند رجوعه نفسه ، ويبعد به عن الزهو عندما تلوح له بوادر الكشوفات ، وبشير عليه بالسفر إن دعت الحاجة إلى ذلك ... ونحو هذا .

قوله جل ذكره : « ولقد أرسلنا من قبلك رُسُلًا إلى

قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا

من الذين أجمعوا وكان حقًا علينا

نصرُ المؤمنين » .

أرسلنا من قبلك رسلًا إلى عبادنا ، فمن قابلهم بالتصديق وصل إلى خلاصة التحقيق ،
ومن عارضهم بالجحود أذقناهم عذابَ الخلود ، فانتقمنا من الذين أجمعوا ، وأخذناهم من حيث
لم يحتسبوا ، وشوَّشنا عليهم ما أُمِّلوا ، وتقضنا عليهم ما استطابوا وتنعموا ، وأخذنا بخناقهم
فحاق بهم ما مكروا .

« وكان حقًا علينا نصرُ المؤمنين » بتوطيتهم بأعقاب أعدائهم ، ولم يلبثوا إلا يسيرًا حتى
رقيناهم فوق رقابهم ، وخرَّبنا أوطانَ أعدائهم ، وهدَّمتنا بنيانهم ، وأخذنا نيرانهم ، وعطلَّنا
عنهم ديارهم ، ونحوًا بتهرِّ التدمير آثارهم ، فظَلَّتْ شمسُهم كاسفة ، ومكيدة قهرنا لم
بأجمعهم خاسفة .

قوله جل ذكره : « الله الذي يُرْسِلُ الرِّيحَ فتثيرُ سحبًا

فيُفِطُّهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ

كَيْسًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ

فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ

إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ »

يرسل رياح عطفه وجوده مبشرات بوصله وجوده ، ثم يُنْطِرُ جودَ غيبه على
على أسرارهم بلطفه ، ويطوى بساط الحشمة عن ساحات قربه ، ويضرب قباب الهيبة بمشاهد
كشفه ، وينشر عليهم أزهار أنسه ، ثم يتجلَّى لهم بمقائق قدسه ، ويستقيهم بيده شراب حبه ،
وبعد ما محاهم عن أوصافهم أصحام — لا بهيم — ولكن بنفسه ، فالعبارات عن ذلك خُرُصٌ ،
والإشارات دونها طُمُسٌ

قوله جل ذكره : « فَاَنْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَحَيِّ الْمَوْتَى
وهو على كلِّ شيءٍ قَدِيرٌ » .

يحيي الارضَ بأزهارها وأنوارها عند مجيء الأمطار ليُخْرِجَ زَرْعَهَا ونَمَارَهَا ، ويحيي
النفوس بعد تَفَرُّتِهَا ، ويوقتها للخيرات بعد فترتها ، فيعمر أوطانَ الرِّفَاقِ بصادق إقدامهم ،
وتندفع البلايا عن الأنام ببركات أيامهم ، ويحيي القلوب بعد غفلتها بأنوار المحاضرات ، فتعود
إلى استدامة الذكر بِحُسْنِ المِرَاعَةِ ، ويهتدى بأنوار أهلها أهلُ السر من أصحاب الإرادات ،
ويحيي الأرواح بعد حَجَبَتِهَا — بأنوار المشاهدات ، فتطلع شموسها عن بُرْجِ السعادة ، ويتصل
بمشامِّ أسرار الكفاة نسيمٌ ما يفيض عليهم من الزيادات ، فلا يبقى صاحبُ نفسٍ إِلَّا حَظِيَ مِنْهُ
بِنَصِيبٍ ، وَيُحْيِي الأسرارَ — وقد تكون لها وَقْفَةٌ في بعض الحالات — فتنتفي بالكلية آثارُ
الفيرية ، ولا يَبْقَى في الدار دِيَّارٌ ولا من سكانها آثارٌ ؛ فَسَطَوَاتُ الحقائق لا تثبت لها ذَرَّةٌ
من صفات الخلائق ، هنالك الولاية لله .. سقط الماء والقطرة ، وطلحت الرسوم والجملة^(١) .

قوله جل ذكره : « وَلَنْ أَرْسِلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا
لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ » .

إذا انسَدَّتْ البصيرةُ عن الإدراك دام العمى على عموم الأوقات .. كذلك مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِمُ
الشقاوةُ جَرَّتْهُ إِلَى نَفْسِهَا — وَإِنْ تَبَوَّأَ الْجَنَّةَ مَنْزَلًا .

قوله جل ذكره : « فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ
الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ » .

مَنْ قَدَّ الْحَيَاةَ الْأَصْلِيَّةَ لَمْ يَعْشْ بِالرُّتْقَى وَالتَّمَائِمِ ، وَإِذَا كَانَ فِي السَّرِيرَةِ طَرَشٌ عَنْ سَمَاعِ
الْحَقِيقَةِ فَسَمْعُ الظَّاهِرِ لَا يَفِيدُهُ آكَدُ الْحُجَّةِ . وكما لَا يُسْمِعُ^(٢) الصُّمَّ الدُّعَاءَ فَكَذَلِكَ لَا يُمْكِنُ
أَنْ يَهْدِيَ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ .

(١) أي انتفت آثار البشرية ، وصار العبد مستهلكاً بالكلية .

(٢) الفاعل ضمير مستتر تقديره «هو» يعود على الرسول صلوات الله عليه ، فإن الخطاب في الآية الكريمة موجه إليه .

قوله جل ذكره : « الله الذى خلَقكم من ضَعْفٍ

ثم جَعَلَ من بعد ضَعْفٍ قُوَّةً ثم جَعَلَ

من بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ

مَا يَشَاءُ وهو العليمُ القديرُ » .

أظهرهم على ضعف الصغر والطفولية^(١) ثم بعده قوة الشباب ثم ضعف الشيب ثم :

آخر الأمر ما ترى القبر واللحد والثرى

كذلك فى ابتداء أمرهم يظهرهم على وصف ضعف البداية فى نمت التردد والخيرة فى الطلب ،

ثم بعد قوة الوصل فى ضعف التوحيد .

ويقال أولاً ضعف العقل لأنه بشرط البرهان وتأمله ، ثم قوة البيان فى حال العرفان ؛ لأنه

بسطوة الوجود ثم بعده ضعف الخلود ؛ لأن الخلود يتلو الوجود ولا يبقى معه أثر .

ويقال « خلَقكم من ضَعْفٍ » : أى حال ضعف من حيث الحاجة ثم بعده قوة الوجود

ثم بعده ضعف المسكنة ، قال صلى الله عليه وسلم : « أحيى مسكيناً وأمتنى مسكيناً واحشرنى

فى زمرة المساكين »^(٢) .

قوله جل ذكره : « ويومَ تقومُ الساعةُ يُقسِمُ الجرمون

ما لبثوا غيرَ ساعةٍ كذلك كانوا

يُؤفكون » .

إنما كان ذلك لأحد أمرين : إما لأنهم كانوا أمواتاً .. واليت لا إحساس له ، أو لأنهم

عدّوا ما لقوا من عذاب القبر بالإضافة إلى ما يروون ذلك اليوم يسيراً . وإن أهل التحقيق

يخبرونهم عن طول لُبثهم تحت الأرض . وإن ذلك الذى يقولونه من جملة ما كانوا يظنون

من جَحْدَم على موجب جهلهم ، ثم لا يُسمعُ عَذْرُهم ، ولا يُدفعُ ضَرْمُهم .

(١) الطفولية = الطفولة .

(٢) رواه الترمذى وابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى والحاكم ، وقال صحيح الإسناد . ورواه الطبرانى

يسند رجال ثقات عن عبادة بن الصامت . وادعى ابن الجوزى وابن تيمية أنه موضوع ، وأبطل ذلك الحافظ بن حجر .

وأخبر بمد هذا في آخر السورة عن إصرارهم وانهما كهم في غيبيهم ، وأن ذلك نصيبهم من
القسم إلى آخر أعمارهم .

ثم ختم السورة بأمر الرسول عليه الصلاة والسلام باصطباره على مقاساة مسارهم
ومضارهم .

« فاصبر إن وعد الله حق »
ولا يستخفك الذين لا يوقنون .

السورة التي يذكر فيها لقمان

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة مَنْ سمعها أقرَّ أنه لا يسمع مثلها ، وَمَنْ عَرَفَهَا أُنْفَ أَنْ يسمع غيرها . كلمة مَنْ سمعها طابت قِصَّتُهُ ، وزالت بكلِّ وجعٍ غُصَّتُهُ ، وتَمَّتْ من النِّعمِ في الدنيا والعقبى حِصَّتُهُ ، وزَهِدَ في دنياء من غير رغبةٍ في عقباء ؛ لأنها - وإنْ جَلَّتْ - غيرُ مولاة^(١)

كلمة مَنْ سمعها لم يرغب في عمارة فناءه ، ولم يتحشم^(٢) سرعة وفاته .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْكُتُبَ الْحَكِيمَ »

الألف تشير إلى آلائه ، واللام تشير إلى لطفه وعطائه ، والميم تشير إلى مجده وسنائه ؛ فبآلائه يرفع الجَحْدَ عن قلوب أوليائه ، وبلفظه وعطائه يثبت المحبة في أسرار أصفياه ، وبمجده وسنائه مستغن عن جميع خلقه بوصف كبريائه .

« تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ » : المحروس عن التفسير والتبديل .

« هُدًى وَرَحْمَةً لِلْحَسَنِينَ » الذين يقيمون

الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ

هُمْ يُوقِنُونَ «

هو هدى وبيان ، ورحمة وبرهان للمحسنين العارفين بالله ، والمقيمين عبادة الله كأنهم

(١) فالجب الخالص مستغنى عن القيرية .

(٢) لم يتحشم أى : لم يتجنب

ينظرون إلى الله . وشرطُ المُحْسِنِ أن يكون محسناً إلى عبادِ الله : دانيهم وقاصيهم ،
ومطيعيهم وعاصيهم .

« الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة » : يأتون بشرائطها في الظاهر من ستر العورة ،
وتقديم الطهارة ، واستقبال القبلة ، والعلم بدخول الوقت ، والوقوف في مكان طاهر .
وفي الباطن يأتون بشرائطها من طهارة السر عن العلائق ، وستر عورة الباطن بكنهه عن
العيوب ، لأنها مهما تكن فالله يراها ؛ فإذا أردت ألا يرى الله عيوبك فاحذر ما حتى
لا تكون . والوقوف في مكان طاهر ، وهو وقوف القلب على الحد الذي أذنت في الوقوف فيه
مما لا يكون دعوى بلا تحقيق ، ورَّحِمَ الله مَنْ وقف عند حدّه . والمعرفة بدخول الوقت
فتعلم وقت التذلل والاستكانة ، وتميز بينه وبين وقت السرور والبسط ، وتستقبل القبلة بنفسك ،
وتعلق قلبك بالله من غير تخصيص بقطر أو مكان .

قوله جل ذكره : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك

هم المفلحون »

الذين يقومون بشرط صلاحهم وحق آداب عبادتهم هم الذين اهتموا في الدنيا والعقبى
فصلحوا ونجّوا .

قوله جل ذكره : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث

ليُضِلَّ عن سبيل الله بضير علم
ويَتَّخِذَهَا هُزُوًا أولئك لهم عذاب مهين »

« لهو الحديث » : ما يشغل عن ذكر الله ^(١) ، ويَحْجُبُ عن الله سماعه . ويقال : هو لهو
الظاهر الموجب سهو الضمائر ، وهو ما يكون خوضاً في الباطل ، وأخذاً بما لا يعنيك .

(١) اعتاد كثير من المفسرين أن يفسروا الله هنا (بالغناء) ، لأجل هذا نلفت النظر إلى عدم صرف القشيري
المعنى في هذا الاتجاه ، لأننا نعلم من مذهبه أنه لا يرى أساساً في سماع الغناء ولكن بشرط أن يحرك الوجدان نحو غاية
سامية في السماع ، وألا يبعث فيها الهوى والمجون ، وألا يكون مصحوباً بشيء محرّم . (أنظر كتابنا : الإمام القشيري
ونزعة في التصوف) ط مؤسسة الحلبي .

قوله جل ذكره : « وإذا تُسلىٰ عليه آياتنا ولىٰ مستكبراً

كان لم يسمعهما كان في أذنيه وقراً

فبشره بعذاب أليم »

الْمُفْتَرِقُ بِهِمَّةً ، وَالْمُتَشَتُّ بقلبه لا تزيد كثرة الوعظ إلا نفوراً ونُبُوّاً ؛ فسماعه كلاً

سماع ، ووعظه هباءً وضياع ، كما قيل :

إذا أنا عاتبتُ الملوكَ فإنما

أخطُ بأقلامي على الماء أحرفاً

قوله جل ذكره : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم

جَنَّاتُ النعيم * خالدين فيها وَعْدَ اللَّهِ

حَقّاً وهو العزيز الحكيم »

« آمنوا » : صدّقوا « وعملوا الصالحات » : تحقّقوا ؛ فانصاف تحقيقتهم راجع إلى

تصديقهم ، فنجّوا وسلموا ؛ فهم في راحتهم مقيمون ، دائمون لا يبرّحون .

قوله جل ذكره : « خلّق السموات بغير عمدٍ ترّونها

وألقى في الأرض رواسي أن تُميّدَ بِكُمْ

وبَثَّ فيها من كلّ دابةٍ وأنزلنا من

السماء ماءً فأنبثنا فيها من كلّ زوجٍ كريم »

أمسك السموات بقدرته بغيرِ عمد ، وحفظها لا إلى سناد أو مشدودة إلى أوتاد ، بل

بحُكم الله وبتقديره ، ومشيتته وتديره .

« وألقى في الأرض رواسي . . » في الظاهر الجبال ، وفي الحقيقة الأبدال والأوتاد

الذين هم غياث الخلق ، بهم يقيم ، وبهم يصرف البلاء عن قريبهم وقاصيهم .

« وأنزلنا من السماء ماء . . » المطر من السماء الظاهر في رياض الحضرة ؛ ومن السماء الباطن

في رياض أهل الدنوّ والحضرة .

قوله جل ذكره : « هذا خَلَقُ الله فآروني ماذا خَلَقَ الذين

من دونه بل الظالمون في ضلال مبين » .

هذا خَلَقُ الله العزيز في كبريائه ، فآروني ماذا خَلَقَ الذين عَبدتم من دونه في

أرضه وسماؤه ؟

قوله جل ذكره : « ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر

الله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه

ومن كفر فإن الله غني حميد » .

« الحكمة » الإصابة في العقل والعقد والنطق . ويقال « الحكمة » متابعة الطريق من حيث

توفيق الحق لا من حيث همة النفس . ويقال « الحكمة » ألا تكون تحت سلطان الهوى .

ويقال « الحكمة » السكون بحكم من له الحكم . ويقال « الحكمة » معرفة قدر نفسك

حتى لا تمتد رجليك خارجا عن كسائك . ويقال « الحكمة » ألا تستعصى على من تعلم أنك

لا تقاومه .

« أن أشكر الله » : حقيقة الشكر انفراج عين القلب بشهود ملاحظات الرب . فهو مقلوب

قولهم : كَشَرَتْ عن أنيابها الداية ؛ فيقال شكر وكشر مثل جذب وجبذ .

ويقال الشكرُ تحقُّقك بعجزك عن شكره . ويقال الشكر ما به يحصل كمالُ استلذاذ النعمة .

ويقال الشكر فضلةٌ تظهر على اللسان من امتلاء القلب بالسرور ؛ فينطلق بمدح المشكور .

ويقال الشكر نمتُ كلَّ غنى كما أن الكفران وصفٌ كلَّ لثيم . ويقال الشكر قرع باب

الزيادة^(١) . ويقال الشكر قيد الإِنعام . ويقال الشكر قصة يملئها صميم الفؤاد بنشر صحيفة الأفضال .

« ومن شكر فإنما يشكر لنفسه »^(٢) : لأنه في صلاحها ونصيحتها يسعى .

قوله جل ذكره : « وإذا قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بُنَيَّ

لا تُشْرِكْ بالله إنَّ الشُّرْكَ لظلمٌ عظيم » .

(١) إشارة إلى قوله تعالى «لئن شكرتم لأزيدنكم» آية ٧ سورة ابراهيم .

(٢) آية ٤٠ سورة النمل .

الشُّرْكُ عَلَى ضَرِيَيْنِ : جَلِيٌّ وَخَفِيٌّ ؛ فَالْجَلِيُّ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ ، وَالْخَفِيُّ حَسْبَانُ شَيْءٍ مِنَ الْحَدَثَانِ مِنَ الْأَنْامِ . وَيُقَالُ الشُّرْكُ إِثْبَاتٌ غَيْرٌ مَعَ شَهُودِ الْغَيْبِ . وَيُقَالُ الشُّرْكُ ظَلَمَ عَلَى الْقَلْبِ ، وَالْمَعَاصِي ظَلَمَ عَلَى النَّفْسِ ، وَظَلَمَ النَّفْسُ مُعَرَّضٌ لِلْغَفْرَانِ ، وَلَكِنْ ظَلَمَ الْقُلُوبَ لِأَسْبِيلِ إِلَيْهِ لِلْغَفْرَانِ .

قوله جل ذكره : « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَالَهُ فِي كَامِنٍ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ » .

أوجب الله شكر نفسه وشكر الوالدين . ولما حصل الإجماع على أن شكر الوالدين بدوام طاعتهما ، وألا يُكْتَفَى فيه بمجرد النطق بالثناء عليهما عُلِمَ أَنَّ شُكْرَ الْحَقِّ لَا يَكْفِي فِيهِ مَجْرَدُ الْقَوْلِ مَا لَمْ تَكُنْ فِيهِ مُوَافِقَةً الْعَقْلِ ؛ وَذَلِكَ بِالتَّزَامِ الطَّاعَةِ ، وَاسْتِمَالِ النِّعْمَةِ فِي وَجْهِ الطَّاعَةِ دُونَ صَرْفِهَا فِي الزَّلَّةِ ؛ فَشُكْرُ الْحَقِّ بِالتَّعْظِيمِ وَالتَّكْبِيرِ ، وَشُكْرُ الْوَالِدَيْنِ بِالْإِنْفَاقِ وَالتَّوْفِيرِ .

قوله جل ذكره : « وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنْابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّشُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

إِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ ، أَوْ تَسْمِيَ بِمَا هُوَ زِلْفٌ فِي أَمْرِ اللَّهِ — فَلَا تُطِعْهُمَا ، وَلَكِنْ عَاشِرُهُمَا بِالْجَلِيلِ ؛ تَخْشِينَ فِي تَلْيِينِ ، فَاجْعَلْ لِهَمَا ظَاهِرَكَ فِيمَا لَيْسَ فِيهِ حَرَجٌ ، وَانْفِرْ بِسِرِّكَ لِلَّهِ ، « وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنْابَ إِلَيَّ » : وَهُوَ الْمُنِيبُ إِلَيْهِ حَقًّا مِنْ غَيْرِ أَنْ تَبْقَى بَقِيَّةٌ فِي النَّفْسِ .

قوله جل ذكره : « يَا بُنَيَّ إِنِّي أَنَا إِلَهُكَ فَخُذْ حَقَّكَ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنْ اللَّهُ لَطِيفٌ خَبِيرٌ » .

إذا كانت ذرة أو أقل من ذلك وسبقت بها القسمة فلا محالة تصل إلى المقسوم له بغير
مرية . . « إن الله لطيف خبير » : عالم بدقائق الأمور وخفاياها .

قوله جل ذكره : « يَا بَنِي آدَمُ اقِيمُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْتَ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصِرٌ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنْ
ذَلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ » .

الأمر بالمعروف يكون بالقول ، وأبلغه أن يكون بامتناعك بنفسك عما تنهى عنه ، واشتغالك
واتصافك بنفسك بما تأمر به غيرك ، ومن لا حُكْمَ له عَلَى نَفْسِهِ لا ينفذ حكمه على غيره .
والمعروف الذي يجب الأمرُ به هو ما يُوَصَّلُ العبدَ إلى الله ، والمنكرُ الذي يجب النهي
عنه هو ما يشغل العبدَ عن الله .

« وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ » تنبيهٌ عَلَى أَنَّ مَنْ قَامَ لِلَّهِ بِحَقِّ امْتَحِنٍ فِي اللَّهِ ؛ فسيُله
أَنْ يَصْبِرَ اللَّهُ — فَإِنْ مِنْ صَبْرٍ لِلَّهِ لَا يَخْسِرَ عَلَى اللَّهِ .

قوله جل ذكره : « وَلَا تَصْغُرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ
فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ
مُخْتَالٍ فَخُورٍ » .

يعنى لا تتكبر عَلَى النَّاسِ ، وطالِعُهُمْ مِنْ حَيْثُ النَّسَبِ وَالتَّحَقُّقِ بِأَنَّكَ بِمَشْهَدٍ مِنْ مَوْلَاكَ .
وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ مَوْلَاهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ لَا يَتَكَبَّرُ وَلَا يَتَطَاوَلُ بَلْ يَتَخَاضِعُ وَيَتَضَاعِلُ .

قوله جل ذكره : « وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ
صَوْتِكَ إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتُ لَصَوْتِ
الْحَبِيرِ » .

كُنْ قَانِيًا عَنْ شَوَاهِدِكَ ، مُضْطَلَمًا عَنْ صَوْتِكَ ، مَأْخُوذًا عَنْ حَوَالِكَ وَقَوَاتِكَ ،
مُنْتَشِقًا^(١) مِمَّا اسْتَوَلَى عَلَيْكَ مِنْ كَشُوفَاتِ سِرِّكَ .

(١) (انتشق) الماء وغيره : جذب منه بالنفَسِ في أنفه ، ورجل نشق إذا دخل في أمر لا يكاد يخلص منه
(الوسيط) .

وانظر من الذى يسمع صوتك حتى تستفيق من خمار غفلتك ؛ « إن أنكر الأصوات لصوت الخير » : فى الإشارة هو الذى يتكلم فى لسان المعرفة من غير إذن من الحق . وقالوا : إنه الصوفى يتكلم قبل أوانه .

ويقال إنما ينهق الحمار عند رؤية الشيطان فلذلك كان صوته أنكر الأصوات .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَافِ السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ » .

أثبت فى كل شئ منها نفعاً لكم ، فالسما لتكون لكم سقفاً ، والأرض لتكون لكم فراشاً ، والشمس لتكون لكم سراجاً ، والقمر لتعلموا به عدد السنين والحساب ، والنجوم لتتدوا بها .

« وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » : الإسباغ ما يفضل عن قدرة الحاجة ولا تحتاج معه إلى الزيادة .

قوله : « نعمه ظاهرة وباطنة » : تكلموا فيه فأكثرُوا . فالظاهرة وجودُ النعمة ، والباطنة شهودُ النعم . والظاهرة الدنيوية ، والباطنة الدينية . والظاهرة حسنُ الخلق ، والباطنة حسنُ الخلق . الظاهرة نفس بلا زلة ، والباطنة قلب بلا غفلة . الظاهرة العطاء ، والباطنة الرضاء . الظاهرة فى الأموال ونمائها ، والباطنة فى الأحوال وصفاتها . الظاهرة النعمة ، والباطنة العصمة . الظاهرة توفيقُ الطاعات ، والباطنة قبولُها . الظاهرة تسوية الخلق ، والباطنة تصفية الخلق . الظاهرة محبة الصالحين ، والباطنة حفظُ حرمتهم . الظاهرة الزهد فى الدنيا ، والباطنة الاكتفاء بالمولى من الدنيا والعقبى^(١) . الظاهرة الزهد ، والباطنة الوجد . الظاهرة توفيق

(١) هذه أعل درجات الزهد ، وهى تهنا ونحن نؤرخ للتطور التاريخى الذى حدث عندما تطور الزهد إلى تصوف (أنظر كتابنا نشأة التصوف الإسلامى (ط دار المعارف) .

المجاهدة والباطنة تحقيقُ المشاهدة . الظاهرة وظائف النفس ، والباطنة لطائف القلب . الظاهرة اشتغالك بنفسك عن الخلق ، والباطنة اشتغالك بربك عن نفسك . الظاهرة طلبه ، الباطنة وجوده^(١) . الظاهرة أن تصل إليه ، الباطنة أن تبقى معه .

قوله جل ذكره : « وإذا قيل لم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير » .

لم يتخطوا منهم ولا من أمثالهم ، ولم يهتدوا إلى تحول أحوالهم . فأما من ست نفسه ، وخلص في الله قصده فقد استمسك بالعروة الوثقى ، وسلك الحجّة الثلى : —

« ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن قد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور » .

وعلى العكس : —

« ومن كفر فلا يحزنك كفره إنا مرجعهم فننبتهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور » .

إينا إياهم ، ومينا عذابهم ، وعلينا حسابهم . ولئن سألتهم عن خالقهم لأقروا ، ولكن إذا عادوا إلى غيهم تقضوا وأصروا .

قوله جل ذكره : « لله ما في السموات والأرض إن الله هو الغنى الحميد » .

الله ما في السموات والأرض ملكاً ، ويُخرى فيهم حكمه حقاً ، وإليه مرجعهم حتماً .

(١) الوجود مرحلة تأتي بعد التواجد والوجد .

قوله جل ذكره : « وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

لو أن ما في الأرض من الأشجار أقلام والبحار كانت مداداً ، وبمقدار ما يقابله تنفق القراطيس ، ويتكلف الكتاب حتى تكسر الأقلام ، وتنفى البحار ، وتستوفى القراطيس ، وتنفى أعمار الكتاب .. ما نفذت معاني مالنا معك من الكلام ، والذي نسمعك فيما نخطبك به لأنك معنا أبد الأبد ، والأبدى من الوصف لا يتناهى .

ويقال إن كان لك معكم كلام كثير فما عندكم ينفذ وما عند الله باق :
صحائف عندى للعتاب طويئها ستُنشر يوماً والعتاب يطول
قوله جل ذكره : « مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْشَكُم إِلَّا أَلَا كُنْتُمْ وَاحِدَةً إِنْ أَلَّ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ » .

إيجاد القليل أو الكثير عليه وعنده سيان ؛ فلا من الكثير مشقة وعسر ، ولا من القليل راحة ويسر ، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : « كن فيكون » ^(١) يقوله بكلمته ولكنه يكونه بقدرته ، لا بمزاولة جهد ، ولا باستفراغ وسع ، ولا بدعاء خاطر ، ولا بطرؤه غرض .
قوله جل ذكره : « ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ » .

« الله هو الحق » : الكائن الموجود ، مُحقق الحق ^(٢) ، وما يدعون من دونه الباطل :
من العدم ظهرَ ومعه جواز العدم ^(٣) .

(١) آية ٨٢ سورة يونس .

(٢) في من جاء بعدها (وما يدمونه هو التلاوة) ويقول مجاهد ، إنه الشيطان . ويقال : ما أشركوا به الله تعالى من الأصنام والأوثان . .

(٣) شغلت قضية (الحق والباطل) أصحاب وحدة الوجود . ورأى التشيخي هنا يصلح عند المقارنة بين أرباب وحدة الشهود وأرباب وحدة الوجود في شأن هذين الاصطلاحين .

قوله جل ذكره : « إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ
الْفَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ » .

يتفرّد بِعِلْمِ الْقِيَامَةِ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ذِكْرَهَا وَإِنَائِهَا ، شَقِيهَا وَسَعِيدَهَا ، حَسَنَهَا وَقَبِيحَهَا
وَيَعْلَمُ مَتَى يُنَزِّلُ الْفَيْثَ ، وَكَمْ قَطْرَةً يُنْزِلُهَا ، وَبِأَيِّ بَقْعَةٍ يُمِطُّهَا .

« وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا
وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ
إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » ^(١) .

مَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، وَوَفَاقٍ وَشَقَاقٍ ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ
أَرْضٍ تَمُوتُ ؛ أَتَدْرِكُ مَرَادَهَا أَمْ يَفُوتُ ؟ .

(١) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هَذِهِ انْتِصَافِيَّةٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى ، وَلَا يَعْلَمُهَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ

بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي

ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » .

في الظاهر سلامتهم في السفينة ، وفي الباطن سلامتهم من حدثان الكون ، ونجاتهم في سفائن

المصمة في بحار القدرة .

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ » وَقُوفٍ لَا يَنْهَزُ مِنَ الْبَلَاءِ ، شَكُورٍ عَلَى

مَا يَصِيبُهُ مِنْ تَصَارِيفِ التَّقْدِيرِ مِنْ جَنْبِ الْبَلَاءِ وَالْعُظَايَا .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا

اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى

الْبَرِّ فَنِمُّ مُقْتَصِدِينَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا

إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ » .

إذا تلاطمت عليهم أمواجُ بحار التقدير تمنوا أن تلفظهم تلك البحارُ إلى سواحل السلامة ،

فإذا جاد الحقُّ بتحقيق مُنّاهم عادوا إلى رأس خطاياهم :

وَكَمْ قَدْ جَهِلْتُمْ ثُمَّ عُدْتُمْ بِحِلْمِنَا أَجْبَاءَنَا : كَمْ تَجْهَلُونَ وَنَحْلُمُ !

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا

يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ

هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ

فَلَا تَفْرَنْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يُغْنِيكُمْ

بِاللَّهِ الْفَرُورُ » .

يخوفهم مرةً بأفعاله فيقول : « اتَّقُوا يَوْمًا » ، ومرةً بصفاته فيقول : « أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى »

ومرةً بذاته فيقول : « وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ » .

سُورَةُ السَّجْدَةِ

قوله جل ذكره . « بسم الله الرحمن الرحيم »

كَلِمَةُ سَمَاعُهَا رِيعُ الْجَمِيعِ ، من العاصي والطيع ، والشريف والوضيع . مَنْ أَصْنَى إِلَيْهَا
بَسَمَرَ الْخَضْوَعِ تَرَكَ طَيِّبَ الْمَجْجُوعِ ، وَمَنْ أَصْنَى إِلَيْهَا بَسَمَعَ الْحَبَابَ تَرَكَ لَذِيذَ
الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ .

قوله جل ذكره . « السَّم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ
مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ »

الإشارة من الألف إلى أنه أَلِفَ الْحُبُونِ قَرِيبِي فَلَا يَصْبِرُونَ عَنِّي ، وَأَلِفَ الْعَارِفُونَ
تَمْجِيدِي فَلَا يَسْتَأْنِسُونَ بِغَيْرِي .

والإشارة في اللام إلى لِقَائِي الْمُدْخِرِ لِأَحِبَّائِي ، فَلَا أَبَالِي أَقَامُوا عَلَى وَلَائِي أَمْ قَصَّروا
فِي وِفَائِي .

والإشارة في الميم : أَيْ تَرَكَ أَوْلِيَاءِي مَرَادَهُمْ لِمَرَادِي .. فَلِذَلِكَ آتَوْهُمْ عَلَى جَمِيعِ عِبَادِي .
« تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ » : إِذَا تَعَدَّرَ لِقَاءَ الْأَحْبَابِ فَأَعَزُّ شَيْءٌ
عَلَى الْأَحْبَابِ كِتَابُ الْأَحْبَابِ ؛ أَنْزَلْتُ عَلَى أَحِبَّائِي كِتَابِي ، وَحَمَكْتُ إِلَيْهِمُ الرِّسَالَةَ خُطَابِي ،
وَلَا عَلَيْهِمْ إِنْ قَرَعَ أَسْمَاعَهُمْ عِتَابِي ، فَهُمْ فِي أَمَانٍ مِنْ عَذَابِي .

قوله جل ذكره : « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّكَ لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ
قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ »

الذي لكم من حقيقة ، وإن التبس على الأعداء فليس يضيركم ، ولا عليكم ، فإنَّ

محبة الحبيب مع الحبيب ألذها ما كان مقروناً بفقد الرقيب .

قوله جل ذكره : « الله الذي خَلَقَ السموات والأرضَ

وما بينهما في ستة أيام ثم استوى

على العرشِ مالِكُ من دونه من وَلِيٍّ

ولا شفيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ » .

وتلك الأيام خَلَقَهَا مِنْ خَلْقٍ غير الأيام ، فليس من شرط الخلق ولا من ضرورته أن

يخلقه في وقتٍ ؛ إذ الوقتُ مخلوقٌ في غير الوقت ^(١) . وكما يستغنى في كونه مخلوقاً عن الوقت استغنى

الوقتُ عن الوقت .

« ثم استوى على العرش » : ليس للعرش من هذا الحديث إلا هذا الخبر ؛ استوى على

العرش ولكن القديم ليس له حَدٌّ ، استوى على العرش لكن لا يجوز عليه القرب بالذات

ولا البعد ، استوى على العرش ولكنه أشدُّ الأشياء تَعَطُّشاً إلى شظية من الوصال لو كان

للعرش حياة ؟ ، ولكنَّ العرشَ جامداً . . . وأتَّى يكون للجماد مراد ؟! استوى على العرش

لكنه صمدٌ بلا نِدٍّ ، أحدٌ بلا حَدٍّ .

« مالِكُ من دونه من وَلِيٍّ ولا شفيعٍ » : إذا لم يُرِدْ بكم خيراً فلا سماءَ عنه تُظِلُّكم ،

ولا أرضَ بغيرِ رضاه تُظِلُّكم ، ولا بالجواهر أحدٌ ينصركم ، ولا أحدٌ — إذا لم يُعْنَ

بشأنكم في الدنيا والآخرة — ينظر إليكم .

قوله جل ذكره : « يُدَبِّرُ الأمرَ من السماء إلى الأرضِ

ثم يَعرِجُ إليه في يومٍ كان مقداره

ألف سنةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ »

خاطَبَ الخَلْقَ — على مقدار أفهامهم ويجوز لهم — عن الحقائق التي اعتادوا في مخاطبتهم

« ذلك عالمُ الغيبِ والشهادة العزيزُ الرحيمُ »

« العزيزُ » مع المطيعين « الرحيمُ » على العاصين .

« العزيزُ » للمطيعين ليكسِرَ صولتهم « الرحيمُ » للعاصين ليرفعَ زَلَّتَهُم .

(١) لأن الزمان سرمدٌ لا يرتبط بالوقت ولا يقتطع به .

قوله جل ذكره : « الذي أحسن كل شيء خلقه »

وبدأ خلق الإنسان من طين • ثم جعل

نسله من سلالة من ماء مهين •

أحسن صورة كل أحد ؛ فالعرش يا قوتة حمراء ، والملائكة أولو أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، وجبريل طاووس الملائكة ، والحور العين — كما في الخبر — في جمالها وأشكالها ، والجنان — كما في الأخبار ونص القرآن . فإذا انتهى إلى الإنسان قال : « وخلق الإنسان من طين • ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين » ^(١) . . كل هذا ولكن :

وكم أبصرت من حسن ولكن

عليك من الورى وقع اختيارى

خلق الإنسان من طين ولكن « يحبهم ويحبونه » ^(٢) ، وخلق الإنسان من طين ولكن : « فاذكرونى أذكركم » ^(٣) ، وخلق الإنسان من طين ولكن « رضى الله عنهم ورضوا عنه » !

قوله جل ذكره : « وقالوا أتثبأ أنزلنا فى الأرض أنثنا

لنى خلقى جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون »

لو كانت لهم ذرة من العرفان ، وشمة من الاشتياق ، ونسمة من المحبة لما تعصبوا كل هذا التعصب فى إنكار جواز الرجوع إلى الله ولكن قال : « بل هم بلقاء ربهم كافرون » .

قوله جل ذكره : « قل يتوفاكم ملك الموت الذى

وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون »

لولا غفلة قلوبهم وإلا لما أحال قبض أرواحهم على ملك الموت ؛ فإن ملك الموت لا أثر منه فى أحد ، ولا له تصرفات فى نفسه ، وما يحصل من التوفى فن خصائص قدوة

(١) آية ٥٤ سورة المائدة .

(٢) آية ١٥٢ سورة البقرة .

(٣) آية ٨ سورة البينة .

الحق . ولكنهم غفلوا عن شهود حقائق الربّ مخاطبهم على مقدار فهمهم ، وعلّق بالأغيار قلوبهم ، وكلّ يُخاطَبُ بما يَحْتَمِلُ على قَدْرِ قُوَّتِهِ وضعفه .

قوله جل ذكره : « ولو ترى إذ الجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وجمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون »

ملكوتهم الدهشة وغلبتهم الخجلة ، فاعتذروا حين لا عُذْرَ ، واعترفوا ولا حين اعتراف .

قوله جل ذكره : « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين »

لو^(١) شئنا لسهلنا سبيل الاستدلال ، وأدمننا التوفيق لكلّ أحدٍ ، ولكن تعلّقت المشيئة بإغواء قومٍ ، كما تعلّقت بإدناء قومٍ ، وأردنا أن يكون للنار قطآن ، كما أردنا أن يكون للجنة سُكّان ، ولأنّا علّمنا يومَ خلقنا الجنة أنه يسكنها قوم ، ويوم خلقنا النار أنه ينزلها قومٌ ، فمن المُحال أن نريد ألا يقع معلومنا ، ولو لم يحصل لم يكن علما ، ولو لم يكن ذلك علما لم نكن إلها . . . ومن المحال أن نريد ألا نكون إلها .

ويقال : مَنْ لم يتسلّط عليه من يحبه لم يجر في ملكه ما يكرهه .

ويقال : يا مسكين أفنيت ممرّك في الكدّ والعناء ، وأمضيت أيامك في الجهد والرجاء ، غيرت صفتك ، وأكثرت مجاهدتك . . . فما تفعل في قضائي كيف تبدّله ؟ وما تصنع في مشيئتي بأيّ وسع تردّها ؟ وفي معناه أنشدوا :

شكا إليك ما وجدَ من خانة فيك الجَدُّ
حيرانُ لو شئت اهتدى ظمآنُ لو شئت وَرَدُّ

(١) هذه الإشارة المستوحاة من الآية تحمل أقصى درجات الجبرية في مذهب هذا الباحث الصوفي ، ولكن القارىء لا يعزب عنه أن يجدها جبرية بمنزلة بالحب . . . ويمكن أنها مرتبطة بمشيئة الخالق .

قوله جل ذكره : « فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا
إنا نسيناكم وذكروا عذاب الخلد
بما كنتم تعملون »

قاس من الهوان ما استوجبته بمصائبك ، واخذ في دار الخزي لما أسلفته من كفرانك .

قوله جل ذكره : « إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا
ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا
بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ »

التصديق والتكذيب ضدان - والضدان لا يجتمعان ؛ التكذيب هو جحد واستكبار ،
والتصديق هو سجود وتحقيق ، فمن اتصف بأحد القسمين انحى عنه الثاني .

« خَرُّوا سُجَّدًا » : سجدوا بظواهرهم في المحراب ، وفي سرائرهم على تراب الخشوع
وبساط الخشوع بنعت الذبول وحكم الخمود .

ويقال : كيف يستكبر من لا يجد كمال راحته ولا حقيقة أنسه إلا في تدلل بين يدي
معبوده ، ولا يؤثر أجل جحيمه على نعيمه ، ولا شقاءه على شفاؤه ؟ !

قوله جل ذكره : « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ
رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
يُنْفِقُونَ »

في الظاهر : عن الفراش قياماً بحق العبادة والجهد والتهجد ، وفي الباطن : تباعد قلوبهم عن
مضاجعات الأحوال ، ورؤية قدر النفس ، وتوهم المقام — فإن ذلك بحملته حجاب عن الحقيقة ،
وهو للعبد سم قاتل — فلا يساكنون أعمالهم ولا يلاحظون أحوالهم . ويفارقون ما لفهم ،
ويهجرون في الله معارفهم .

والليل زمان الأحياب ، ، قال تعالى : « لتسكنوا فيه » : يعني عن كل شغل وحديث
سوى حديث محبوبكم . والنهار زمان أهل الدنيا ، قال تعالى : « وجعلنا النهار معاشاً » ،
أولئك قال لهم : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض » :

إذا ناجيتمونا في ركعتين في الجمعة فعودوا إلى متجركم ، واشتغلوا بحرفتكم .
وأما الأحبابُ فالليلُ لهم إما في طرب التلاقي وإما في حَرَبِ الفراقِ ، فإن كانوا في
أنسِ القربة فلَيْلُهُمْ أَقْصَرُ من لحظة ، كما قالوا :

زارني مَنْ هَوَيْتُ بِمَدِّ بَعْدِ
بوصالِ مُجَدِّدِ وودادِ
ليلة كاد يلتقي طرفاها
قِصْرًا وهي ليلة اليعبادِ

وكما قالوا :

وليلة زَيْنُ ليالى الدهر قابلتُ فيها بدرها بيدر
لم تَسْتَبِينَ عن شقي وفجرٍ حق تولّت وهي بِكْرُ الدهر
وأما إن كان الوقتُ وقتَ مقاساةِ فرقة وانفرادِ بَكْرُبة فلَيْلُهُمْ طویل ، كما قالوا :

كم ليلة فيك لا صباح لها أفنيَتْها قابضًا على كبدى
قد غُصَّتِ العينُ بالدموع وقد وضعتُ خدى على بنان يدى

قوله : يدعون ربهم خوفًا وطمعًا » : قومٌ خوفًا من العذاب وطمعًا في الثواب ، وآخرون
خوفًا من الفراقِ وطمعًا في التلاقي ، وآخرون خوفًا من المسكر وطمعًا في الوصلِ .

« وما رزقناهم ينفقون » : يأتون بالشاهد الذى خصصناهم به ؛ فإن طهرنا أحوالهم عن
السكودرات حضروا بأحوالٍ مُقدَّسة ، وإن دَسَّنا أوقاتهم بالآفاتِ شهدوا بحالاتٍ مُدَنَّسة ،
« وما رزقناهم ينفقون » ؛ فالعبدُ إنما يتجر في البضاعة التى يودعها لديه سيِّدُهُ :

يفديك بالروح صَبُّ لو يكون له

أعزَّ من روحه شيء فذاك به

قوله جل ذكره : « فلا تعلم نفسٌ ما أخفى لهم من قُرَّةِ
أعينٍ جزاء بما كانوا يعملون » .

إنما تَقَرُّ عَيْنُكَ بِرُؤْيَا مَنْ تَحِبُّهُ ، أَوْ مَا تَحِبُّهُ ؛ فَطَلِّبْ قَلْبَكَ وَرَّاعَ حَالِكَ ؛ فَيَحْصُلُ
الْيَوْمَ سُرُورُكَ ، وَكَذَلِكَ غَدًا . . . وَعَلَى ذَلِكَ تَحْشُرُ ؛ فَفِي الْخَبَرِ :
« مَنْ كَانَ بِحَالَةٍ لَقِيَ اللَّهَ بِهَا » .

نَمَّ إِنَّ وَصْفَ مَا قَالَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِنَّهُ لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ — مُجَالٌ ، اللَّهُمَّ أَنْ يُقَالَ : إِنَّهَا حَالٌ
عَزِيزَةٌ ، وَصِفَةٌ جَلِيلَةٌ .

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ : « أَفْنٌ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا
لَا يَسْتَوُونَ » ^(١) .

أَفْنٌ كَانَ فِي حَالِ الْوَصَالِ يَجْرُ أَدْيَالُهُ كَمَنْ هُوَ فِي مَذَلَّةِ الْفِرَاقِ يَقَاسِي وَبَالَهُ ؟
أَفْنٌ كَانَ فِي رَوْحِ الْقُرْبَةِ وَنَسِيمِ الزَّلْفَةِ كَمَنْ هُوَ فِي هَوْلِ الْعُقُوبَةِ يَعَافِي مَشَقَّةَ
السَّكْفَةِ ؟

أَفْنٌ هُوَ فِي رَوْحِ إِقْبَالِنَا عَلَيْهِ كَمَنْ هُوَ فِي مَحَنَةِ إِعْرَاضِنَا عَنْهُ ؟
أَفْنٌ بَقِيَ مَعْنَا كَمَنْ بَقِيَ مَعْنَا ؟
أَفْنٌ هُوَ فِي نَهَارِ الْعَرْفَانِ وَضِيَاءِ الْإِحْسَانِ كَمَنْ هُوَ فِي لَيْلَى الْكَفْرَانِ وَوَحْشَةِ
الْعَصِيَانِ ؟

أَفْنٌ أَيْدٍ بَنُورِ الْبِرْهَانِ وَطَلَعَتْ عَلَيْهِ شَمْسُ الْعَرْفَانِ كَمَنْ رِبَطَ بِالْخِذْلَانِ وَوَسَمَ
بِالْحَرَمَانِ ؟ لَا يَسْتَوِيَانِ وَلَا يَلْتَقِيَانِ !

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ : « أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ » .

« الَّذِينَ آمَنُوا » : صَدَّقُوا ، « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » : بِمَا حَقَّقُوا — فَلَهُمْ حُسْنُ
الْحَالِ ، وَحَمِيدُ الْمَالِ وَجَزِيلُ الْمَالِ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَذَّبُوا وَجَحَدُوا ، وَفِي مَعَامِلَاتِهِمْ أَسَاءُوا

(١) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ عَقْبَةَ قَالَ لِعَمَلِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ : أَنَا أَحَدٌ مِنْكَ سَنَانًا ، وَأَبْسَطُ مِنْكَ لِسَانًا ،
وَأَسْلَأُ لَلْكَتِبَةِ مِنْكَ ، فَقَالَ عَلِيٌّ : اسْكُتْ فَإِنَّمَا أَنْتَ فَاسِقٌ . . . فَنُزِلَتِ الْآيَةُ (الْوَاحِدِيُّ ص ٢٣٦) .

وأفسدوا ، قصصهم الخزي والهوان ، وفنون من المهن وألوان .. كلما راموا من محنتهم خلاصاً ازدادوا فيها اتسكاساً ، وكلما أملوا نجاة جرت عوا وزيدوا يأساً .

قوله جل ذكره : « وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَأَهُمْ بِرِجْمُونٍ » .

قوم عذابهم الأدنى يحزن الدنيا ، والعذاب الأكبر لهم عقوبة العنبر .
وقوم العذاب الأدنى لهم فترة تتدخلهم في عبادتهم ، والعذاب الأكبر لهم قسوة في قلوبهم تصيبهم .

وقوم العذاب الأدنى لهم وقفة في سلوكهم تنبيههم ، والعذاب الأكبر لهم حجة عن مشاهدتهم تنالهم ، قال قائلهم :

أدبني بانصراف قلبك عني
فانظر إلى فقد أحسنت تأديبي^(١)

ويقال العذاب الأدنى الخذلان في الزلة ، والأكبر الهجران في الوضلة .
ويقال العذاب الأدنى تكدر مشاربهم ببد صفوها ، كما قالوا :

لقد كان ما بيني زمانا وبينه كما بين ريح المسك والسبر الورد
ويقال العذاب الأكبر لهم تطاول أيام النياب من غير تبين آخر لها ، كما قيل :
تطاول نأينا يا نور حتى كأن نسجت عليه العنكبوت

قوله جل ذكره : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ »
إذا نُبِّه العبد بأنواع الزجر ، وحرك — لتركيه حدود الوقاق — بصنوف من التأديب

(١) الشطر الأول غير موزون ، والشطر الثاني من البسيط .

ثم لم يرتدع عن فعله ، واعتز بطول سلامته ، وأمن من هواجم مكره ، وخفايا سره . .
أخذه بفتة بحيث لا يجد خرجة من أخذه ، قال تعالى : « لا تجاروا اليوم إنكم منا
لا تنصرون »^(١)

قوله جل ذكره : « ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن
في مرية من لسانه وجعلناه هدى
لبنى إسرائيل » .

فلا تكن في مرية من لقائه غداً لنا ورؤيته لنا^(٢) .

« وجعلناه هدى لبني إسرائيل » :

وهذا محمد صلى الله عليه وسلم جعل رحمة للعالمين .

قوله جل ذكره : « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا
لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » .

لما صبروا على طلبنا سعدوا بوجودنا ، وتعدى مانالوا من أفضالنا إلى متبعيهم ،
وانبسط شعاع شمسهم على جميع أهلهم ؛ فهم للخلق هداة ، وفي الدين عيون ،
وللمسترشدين نجوم .

قوله جل ذكره : « إن ربك هو يفصل بينهم يوم
القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » .

يحكم بينهم ، وعند ذلك يتبين الردود من المقبول ، والمهجور من الموصول ، والرضى من

(١) آية ٦٥ سورة المؤمنون .

(٢) صرف التقدير، الرؤية واللقاء إلى موسى عليه السلام ، وأنه سيلقى ربه ويراه . بينما يرى قتادة أن المقصود :
فلا تكن في شك من لقاء موسى في القيامة وولقاءه - أى محمد - فيها ، كما لقيناه ليلة الإسراء . وعن الحسن : فلا تكن
- يا محمد - في شك من أنك ستلقى ما لقيه من التكذيب والأذى ، فالهاء عائدة على محضوف .
وقيل إن الكلام متصل بقوله تعالى : قل يتوفاكم ملك الموت ... فلا تكن في مرية من لقائه ، وجاءت « ولقد
آتينا موسى » اعتراضاً .

الفتوى ، والمسدود من الولي ... فكم من بهجة دامت هنالك ! وكم من مهجة ذابت
عند ذلك !

قوله جل ذكره : « أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ
مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ »

أو لم يعتبروا بمنازل أقوام كانوا في حبرة فصاروا عبرة ، كانوا في سرور فآلوا إلى
ثبور ؛ فجميع ديارهم ومزارعهم صارت لأغيارهم ، وصنوف أموالهم عادت إلى أشكالهم ، سكنوا
في ظلالهم ولم يعتبروا بمن مضى من أمثالهم ، وكما قيل :

نعم كانت على قوم م زمانا ثم بانت
هكذا النعمة والإله سان مذ كان وكانت

قوله جل ذكره : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ
الْجُرْزِ^(١) فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ
أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ »

الإشارة فيه : تسقى حدائق وصلبهم بعد جفاف عودها ، وزوال المأنوس من معبودها ،
فيعود عودها مورقا بعد ذبوله ، حاكيا بحاله حال حصوله .

قوله جل ذكره : « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ • قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ
كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ » .

(١) يقول الزمخشري (الجرز) الأرض التي جزر نباتها أي قطع ، إما لعدم الماء وإما لأنه رعى وأزيل ،
ولا يقال لى لا تثبت كالسباغ جزر ، ويدل عليه قوله تعالى وفنخرج به زرعاً .
وقال مكرمة : هي الأرض الظلمى .
ويحارل بمفهوم أن يطلقها على مكان بعينه (ابن عباس : أرض باليمن) ومجاهد : (أرض النيل) .

استبعلوا يومَ التلاقى وجحدوه ، فأخبرهم أنه ليس لهم إلا الحسرة والمحنة إذا
شبهوه .

قوله جل ذكره : « فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ
مُنتَظِرُونَ » .

أَعْرِضْ عَنْهُمْ بِاشْتِغَالِكَ بِنَا ، وَإِقْبَالِكَ عَلَيْنَا ، وَاقْطَاعِكَ إِلَيْنَا .

« وَانْتَظِرْ » زَوَائِدَ وَصَلَيْنَا ، وَعَوَائِدَ لَطَفْنَا .

« إِنَّهُمْ مُنتَظِرُونَ » هَوَاجِمَ مَقْتِنَا وَخَفَايَا مَكْرِنَا .. وَعَنْ قَرِيبٍ يَجِدُ كُلُّ مَنْتَظَرٍ مَحْتَضِرًا .

سورة الأحزاب

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »
 بسم الله شهود وجوده يوجبُ لكَ تلقاً في تلقٍ ، ووجودُ جوده يوجبُ لكَ شرفاً
 في شرف ، ففي تلقك يكون (هو)^(١) عنك الخلف ، وفي شرفك تصل إلى كل لطف .
 قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ
 الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً
 حَكِيماً » .

يَا أَيُّهَا الْمُشْرَفُ حَالاً ، الْمُفَخَّمُ قَدْرًا مِثْلًا ، الْمُعَلَّى رُتْبَةً مِنْ قِبَلِنَا .. يَا أَيُّهَا الْمُرَقَّى إِلَى أَعْلَى
 الرُّتَبِ بِأَسْنَى الْقُرْبِ .. يَا أَيُّهَا الْمُخْبَرُ عَنَّا ، الْمَأْمُونُ عَلَى أَسْرَارِنَا ، الْمُبْلَغُ خُطَابِنَا إِلَى أَحِبَابِنَا...
 اتَّقِ اللَّهَ أَنْ تَلَا حِظَّ غَيْرٍ مَعَنَا ، أَوْ تَسَا كُنَّ شَيْئًا مِنْ دُونِنَا ، أَوْ تُثَبِّتَ أَحَدًا سِوَانَا ، أَوْ تَقْوَمَ
 شُغْلِيَّةً مِنَ الْحِدْثَانِ مِنْ سِوَانَا . « وَلَا تَطِعِ الْكَافِرِينَ » إشفافاً منك عليهم ، وطمعاً في إيمانهم بنا
 لو دافقتهم في شيء أرادوه منك^(٢) .
 والتقوى رقيبٌ على قلوب أوليائه يمنهم في أنفاسهم ، وسكنائهم ، وحرركاتهم أن
 ينظروا إلى غيره -- أَوْ يُثَبِّتُوا مَعَهُ غَيْرَهُ -- إِلَّا مَنْصُوبًا لِقُدْرَتِهِ ، مَصْرُفًا بِمَشِيتِهِ ، نَافِذًا فِيهِ
 حُكْمُ قَضِيَّتِهِ .

(١) وضعنا (هو) من عندنا ليتفصح المعنى كما نفهم من أسلوب القشيري في مثل هذا المجال .
 (٢) يقال نزلت هذه الآية حينما دخل أبو سفيان وأبو جهل وأبو الأعور السلمي على النبي (ص) بعد
 قتال أحد ، وطلبوا الأمان ، وقالوا للرسول : « أرفض ذكر آلهتنا ، وقل إن لها شفاعاً ومنعةً وتلدك ربك »
 فشق على النبي (ص) قولهم ، فقال عمر بن الخطاب - وكان بصحبة النبي : انذن لي يا رسول الله في قتلهم ، فقال
 النبي : إني قد أعطيتهم الأمان ... وأمر بإخراجهم من المدينة . (الواحد ص ٣٦) .

التقوى لجام يكبحك عما لا يجوز ، زمام يقودك إلى ما تحب ، سوط يسوقك إلى ما أمرت به ، شاخص يملك على القيام بحق الله ، حرز يصمك من توصل أعدائك إليك ، عود تشفيك من داء الخطأ .

التقوى وسيلة إلى سلحات كرمه ، ذريعة تتوصل بها إلى عقوة جوده .

قوله جل ذكره : « وَاتَّبِعْ مَا يوحىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ

إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا » .

اتبع ولا تبتدع ، واقتدر بما تأمر به ، ولا تهتد باختيارك غير ما أختار لك ، ولا تخرج في أوطان الكسل ، ولا تبجنح إلى ناحية التواني ، وكن لنا لا لك ، وقم بنا لا بك .

قوله جل ذكره : « وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ

وَكِيلًا » .

انسلخ عن إهابك ، واصلق في إيابك إلينا ، وتشاغل عن حساباتك معنا ، واحذر ذهابك عنا ، ولا تقصّر في خطابك معنا .

ويقال التوكل تحقق ثم تخلق ثم توثق ثم تعلق ؛ تحقق في العقيدة ، وتخلق بإقامة الشريعة ، وتوثق بالقسوم من القضية ، وتعلق بين يديه بحسن العبودية .

ويقال التوكل تحقق وتعلق وتخلق ؛ تحقق بالله وتعلق بالله ثم تخلق بأوامر الله .

ويقال التوكل استواء القلب في العدم والوجود .

قوله جل ذكره : « مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ

فِي جَوْفِهِ » .

القلب إذا اشتغل بشيء مشغل عما سواه ، فالاشتغال بما من العدم منفصل عن له القيد ، وللتصل بقلبه بمن نفعه القيد مشتغل عما من العدم . . والليل والنهار لا يجتمعان ، والغيب والغير لا يلتقيان .

« وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون

منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم
أبناءكم ذلك قولكم بأفواهكم .

اللائي تظاهرن^(١) منهن لسن أمهاتكم ، والذين تبنيتن ليسوا بأبنائكم ، وإن الذي
صرتم إليه من افتراءكم ، وما نسبتم إلينا من آرائكم فذلك مردود عليكم ، غير
مقبول منكم ، وإن أمسكن عنه بعد البيان نجوتن ، وإن تماديتن بعد ما أعلمتم
أطلت المحنة عليكم .

قوله جل ذكره : « ادعوم لأبائهم هو أقسط »

عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم
في الدين ومواليكم وليس عليكم
جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت
قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً .

راعوا أنسابهم ، فإن أردتم غير النسبة فالأخوة في الدين تجمعكم ، وقراءة الدين
والشكلية أولى من قرابة النسب ، كما قالوا :

وقالوا قريب من أبي وعمومة

قلت : وإخوان الصفاء الأقارب

تناسبهم شكلاً وعِلماً وألّةً

وإن باعدتهم في الأصول المناسب

قوله جل ذكره : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم
وأزواجه أمهاتهم . وأولوا الأرحام
بعضهم أولى ببعض في كتاب الله
من المؤمنين والمهاجرين . . . »

(١) يعني أن يقول الرجل لامرأته : أنت علي كظهر أمي ، وسيأتي تفصيل ذلك في سورة المجادلة (المجلة

الثالث .

الإشارة من هذا : تقديم سُنته على هواك ، والوقوف عند إشارته دون ما يتناقض به مُنك ، وإيثار مَنْ تتوسل به سبباً ونسباً على أُمِرَّتِكَ وَمَنْ وَالَاكَ .

« وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض » :

ليكن الأجنبُ منك على جانب ، ولتكن صلتك بالأقارب . وصلةُ الرحِمِ ليست بمقاربة الديار وتساقب المزار ، ولكن بمواقفة القلوب ، والمساعدة في حالي المكروه والمحبوب :

أرواحنا في مكانٍ واحدٍ وُعدتْ

أشباحنا بشام^(٣) أو خراسان

قوله جل ذكره : « وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم

ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى

وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا

غليظاً » .

أخذَ ميثاق النبيين وقتَ استخراج النذرية من صُلب آدم — فهو الميثاق الأول ، وكذلك ميثاق الكل . ثم عند بَشْرِ كلِّ رسول ونُبُوَّة كلِّ نبيٍّ أخذَ ميثاقه ، وذلك على لسان جبريل عليه السلام ، وقد استغفلص الله سبحانه نبيَّننا عليه السلام ، فأسمعه كلامه — بلا واسطة — ليلة المعراج . وكذلك موسى عليه السلام — أخذَ الميثاق منه بلا واسطة ولكن كان لنبينا — صلى الله عليه وسلم — زيادة حال ؛ فقد كان له مع سماع الخطاب كشفُ الرؤية^(١) .

ثم أخذَ الموائيق من العُبَّاد بقلوبهم وأسرارهم بما يخصهم من خطابه ، فلكل من الأنبياء والأولياء والأكابر على ما يؤهلهم له ، قال صلى الله عليه وسلم « لقد كان في الأمم

(١) هكذا في ص وهي في (بمراق)

(٢) في كتاب الرؤية الكبير يرى الأشعري جواز ذلك ، أما القشيري : فيينا يشير هنا إلى ذلك إذ به كما سيأتي في يسطة سورة البروج يقول : « يسم الله اسم لم يره بصر إلا واحد ، وهو أيضاً مُنْطَلَفٌ فِيهِ » المجلد الثالث

مُحَذَّرُونَ فَلَا يَكُنْ فِي أَهْلِ كَثْمَرٍ ۖ وَغَيْرُهُ عَمْرٍ مُشَارِكٌ لِعَمْرٍ فِي خَوَاصِّ كَثِيرَةٍ ، وَذَلِكَ
ثَوْبٌ يَمُّ مِنْهُمْ وَبَيْنَ دُجَمٍ .

قوله -جلّ ذكره- : « لِبَسَالِ الصّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ
وَأَعْدَاءِ الْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا » .

يسألهم سؤال تشريف لا سؤال تعذيف ، وسؤال إيجاب لا سؤال عتاب . والصدق
ألا يكون في أحوالك شائب ولا في اعتقادك ريب ، ولا في أعمالك عيب . ويقال من أمارات
الصدق في المعاملة وجود الإخلاص من غير ملاحظة مخلوق . والصدق في الأحوال تصفيتها من
غير ملاحظة إعجاب .

والصدق في الأقوال سلامتها من الماريض فيما بينك وبين نفسك ، وفيما بينك وبين الناس
التباعد عن التلبيس ، وفيما بينك وبين الله بإدامة التبرّي من الحول والقوة ، ومواصلة
الاستعانة^(١) ، وحفظ الممودعة على السوام .

والصدق في التوكل عدم الانزعاج عند القدر ، وزوال الاستبشار بالوجود^(٢) .

والصدق في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من قليل المداينة وكثيرها ، وألا تترك ذلك لفزع
أو لطمع ، وأن تشربها بما تشتهي ، وتصف بما تأمر ، وتنهى (نفسك)^(٣) عما تزجر .

ويقال الصدق أن يهتدى إليك كل أحد ، ويكون عليك فيما تقول وتظهر اعتماد . ويقال
الصدق ألا تبجح إلى التأويلات^(٤) .

(١) هكذا في ص وهي في م (الاستعانة) وكلاهما مقبول في السياق .

(٢) هكذا في ص وم وربما كانت (الموجود) إذ نحسب أن مقصد القشيري أن تكون راضياً إذا فقدت
أو وجدت ، وفي ذلك يقول عبد الله بن خفيف : القناعة ترك التشوف إلى المفقود والاستغناء (بالموجود) الرسالة
ص ٨١ والشاكر الذي يشكر على (الموجود) والشكور الذي يشكر على المفقود (الرسالة ص ٨٩) . ومع ذلك
فقد وردت (الوجود) في قول النوري : السوف نعت السكون عند العدم والإينار عند الوجود ... فالوجود بهذا
المعنى ضد العدم ؛ أي وجود الأشياء وفقدانها . ولكننا نقول أن يتصرف اصطلاح (الوجود) على الدرجة القصوى بعد
التواجد والوجد ، وهو للمعنى . (الرسالة ص ٣٦ و ٣٧) وأنظر أيضاً تفسير القشيري للآية ٣٩ سورة سبأ (في هذا المجلد)

(٣) وضمننا (نفسك) من هنا كما لا يخفى المعنى .

(٤) معروف أن القشيري يكره التأويلات المأذونة إلى الاسترخاس بالنسبة للصوفية .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرًا » .

ذكرُ نعمةِ اللهِ مُقَابَلَتُهَا بالشكر ، ولو تذكرتَ ما دَفَعَ عَنْكَ فِيمَا سَلَفَ لَهَاتَ عَلَيْكَ
مِقَاسَةُ الْبَلَاءِ فِي الْحَالِ ، ولو تذكرتَ ما أَوْلَاكَ فِي الْمَاضِي لَقَرُبَتْ مِنْ قَلْبِكَ الثِّقَةُ فِي إِیْصَالِ
مَا تَوَمَّلَهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ .

ومن جملة ما ذكرهم به : ^(١) « إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ ... » كم بلاء سَرَفَهُ عَنِ الْعَبْدِ وَهُوَ لَمْ
يَشْعُرْ أَوْ كَمْ شُغْلٍ كَانَ يَقْصِدُهُ فَصَدَّهُ عَنْهُ وَلَمْ يَعْلَمْ أَوْ كَمْ أَمْرٍ عَوَّقَهُ وَالْعَبْدُ يَضِجُ وَهُوَ —
— (سَبَّحَانَهُ) — يَعْلَمُ أَنَّ فِي تَيْسِيرِهِ لَهُ هَلَاكَ الْعَبْدِ فَمَنْعَهُ مِنْهُ رَحْمَةً بِهِ ، وَالْعَبْدُ يَتَّهِمُ وَيَضِيقُ
صَدْرُهُ بِذَلِكَ !

قوله جل ذكره : « إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ
مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ
الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَنْظُرُونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَ »

أَحَاطَ بِهِمْ شُرَاقِدُ الْبَلَاءِ ، وَأَحْدَقَ بِهِمْ عَسْكَرُ الْعَدُوِّ ، وَاسْتَسْلَمُوا لِلْاجْتِيَا حَ ، وَبَلَغَتْ
الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ، وَتَقَسَّمَتِ الظَّنُونَ ، وَدَاخَلَتْهُمْ كَوَامِنُ الْارْتِيَابِ ، وَبَدَأَ فِي سَوِيدَائِهِمْ
جَوْلَانُ الشَّكِّ .

« هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا
زُلْزَالًا شَدِيدًا » .

ثم أزال عنهم جملتها ، وقشَع عنهم شدَّتها ، فأنجَاب عنهم سحابها ، وتفرَّقَتْ عَنْ قُلُوبِهِمْ
هَوْمُهَا ، وَتَفَجَّرَتْ يَنَابِيعُ سَكِينَتِهِمْ .

(١) يوضح القشيري هنا ما يسمى عنده (نَيْصَمُ الْمَنْعِ) وهي صنف آخر يختلف عن (نعم المنع) ، والعبد — لقصر
نظره — يشكر على هذه ، ويحقق عليه تلك .

قوله جل ذكره : « وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم
مرَضٌ ما وعدنا الله ورسوله
إلا غروراً » .

صرّحوا بالكذب — لما انطوت عليه قلوبهم — حين وجدوا النكال مجالاً .

قوله جل ذكره : « وإذ قالت طائفة منهم يا أهل
يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارجعوا ويستأذن
فريقٌ منهم النبيّ يقولون إن بيوتنا
عورةٌ وما هي بعورة إن يريدون
إلا فراراً » .

تواصوا فيما بينهم بالفرار عندما سَوَّلَتْ لهم شياطينهم من وشك ظفرِ الأعداء . قوله :
« ويستأذن فريق . . . » : بتعللون^(١) بانكشاف بيوتهم وضياع مخلفاتهم ، ويكذبون فيما
أظهروه عُذْراً ، وهم لم يَحْمِلْهم على فعلهم غيرُ جُبْنِهِمْ وقلة يقينهم .

قوله جل ذكره : « ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل
لا يُولُونِ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً »
ولكن لما عزم الأمر ، وظهر الجِدَّة لم يساعدهم الصدق ، ولم يذكروا أنهم سَيُسْأَلُونَ
عن عهدهم ، ويُعَاقَبُونَ على ما أسلفوه من ذنبهم .

قوله جل ذكره : « قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفَرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ
مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُنْتَعَمُونَ
إِلَّا قَلِيلاً » .

لأنَّ الْأَجَالَ لا تأخيرَ لها ولا تقديمَ عليها ، وكما قالوا : « إِنَّ الْمَارِبَ عَمَّا هُوَ
كَائِنٌ فِي كَفِّ الطَّالِبِ يَتَقَلَّبُ » .

« وَإِذَا لَا تُنْتَعَمُونَ إِلَّا قَلِيلاً » : فإنَّ ما يَدَّخِرُهُ الْعَبْدُ عَنِ اللَّهِ مِنْ مَالٍ أَوْ جَاهٍ
أَوْ نَفْسٍ أَوْ قَرِيبٍ لَا يُبَارِكُ لَهُ فِيهِ ، وَلَا يَجْدُ بِهِ مَنَعَةً ، وَلَا يُرْزَقُ مِنْهُ غَبْطَةً .

(١) يغتر القشيري هنا — من بعيد — بالمنطلي في الطريق بمثل الاسترخاء ودعوى النفس .

قوله جل ذكره : « قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَصْنَعُكُمْ مِنْ
اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ
رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا » .

من الذي يحقق لكم مَنْ دونه مَرْجُوءًا ؟ ومن الذي يصرف عنكم دونه عَدُوًّا ؟ .
قوله جل ذكره : « قد يعلم اللهُ الموقنين منكم والقاتلين
لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأسَ
إلا قليلاً » .

هم الذين كانوا يمتنعون بأنفسهم عن نصره النبي عليه السلام ، ويمتنعون غيرهم ليكون
جمعهم أكثر وكيدهم أخفى ، وهم لا يعلمون أن الله يطليحُ رسوله عليه السلام عليهم
ثم ذكر وصفهم فقال :-

« أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ
رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ
كَالَّذِي يُفْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا
ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ »

إذا جاء الخوفُ طاشت من الرعب عقولهم ، وطاحت بصائرهم ، وتعطلت عن
النصرة جميعُ أعضائهم . وإذا ذهب الخوفُ زبنوا كلامهم ، وقدموا خداعهم ،
واحتالوا في أحقاد خيبتهم ... أولئك هذه صفاتهم ؛ لم يباشر الإيمانُ قلوبهم ، ولا صدقوا
فيما أظهروا من ادعائهم واستسلامهم .

قوله جل ذكره : « يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا
وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ
بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ
وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا » .

يحسبون الأحزابَ لم يذهبوا ، ويخافون من عودهم ، ويفزعون من ظلِّ أنفسهم

إذا وقعوا على آلههم ، ولو اتفق هجوم الأعداء عليكم ما كانوا إلا في حوز مسيوقهم
ودرية^(١) رماحهم .

قوله جل ذكره : « لقد كان لكم في رسول الله
أسوة حسنة لمن كان يرجو الله
واليوم الآخر وذكر الله كثيراً » .

« كان » صلة ومعناها : لكم في رسول الله أسوة حسنة ، به قدوتكم ،
ويجب عليكم متابعتها فيما يرسمه لكم . وأقوال الرسول (ص) وأفعاله على الوجوب
إلى أن يقوم دليل التخصيص ، فأما أحواله فلا سبيل لأحد إلى الإشراف عليها ، فإن
ظهر شيء من ذلك بإخباره أو بدلالة أقواله وأفعاله عليه فإن كان ذلك مكتسباً من
قبله فيلحق في الظاهر بالوجوب بأفعاله وأقواله ، وإن كان غير مكتسب له فهي خصوصية
له لا ينبغي لأحد أن يتعرض لمقابلته لاختصاصه — صلى الله عليه وسلم — بعلو رتبة^(٢) .

قوله جل ذكره : « ولما رأى المؤمنون الأحزاب
قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق
الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً »

كما أن المناقذين اضطربت عقائدهم عند رؤية الأعداء ، فالؤمنون وأهل اليقين ازدادوا
ثقة ، وعلى الأعداء جرأة ، ولحكم الله استسلاماً ، ومن الله قوة .

قوله جل ذكره : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا
الله عليه فمنهم من قفى نجه ومنهم
من ينتظروا ما تبدلوا بتديلاً » .

شكر صنيعهم في اللباس ، ومدح يقينهم عند شهود الباس ، وسام رجالاً إيماناً

(١) الدرية ما يستتر به العائد من الصيد فيرميه إذا أمكنه .

(٢) يفيد هذا الكلام في توضيح نظرة هذا الباحث إلى السنة كصدر أساسي من مصادر التشريع ، فالمحنة
أقوال وأفعال وأحوال ، منها ما يصلح العموم ، ومنها ما يختص به الرسول نفسه .

لخصوصية رتبهم^(١) ، وتمييزاً لهم من بين أشكالهم بملأ الحالة والنزلة ، فمنهم مَنْ خرج من دنياه على صدقه^(٢) ، ومنهم مَنْ يفتنر حكم الله في الحياة والمات ، ولم يربفوا عن عهدهم ، ولم يراوغوا في مراعاة حدّهم ؛ فحققة الصدق حفظ العهد وترك مجاوزة الحدّ .
ويقال : الصدق استواء الجهر والسرّ .
ويقال : هو الثبات عندما يكون الأمر جدّاً .

قوله جل ذكره : « لِيَجْزِيََ اللَّهُ الصّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً » .
في الدنيا يجزى الصّادقين بالتمكين والنصرة على العدو وإعلاء الراية ، وفي الآخرة بجمل الثواب وجزيل المسآب والخلود في النعيم القيم والتقديم على الأمثال بالتكريم والتعظيم . . .

« ويعذب المنافقين إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ » على الوجه الذي سبق به العلم ، وتعلقت به المشيئة .
ويقال : إذا لم يحزم بعقوبة المنافق وعلق القول فيه بالرجاء فبالحرى ألا يُخَيَّبَ المؤمن في رجائه .

قوله جل ذكره : « وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغِيظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً » .
لم يُشمتْ بالسلعين عدوّاً ، ولم يُوصّلْ إليهم مَنْ كيدهم سوءاً ، ووضع كيدهم في نحورهم ، واجتثهم من أصولهم ، ويّين بذلك جواهر صدقهم وغير صدقهم ، وشكر مَنْ استوجب شكره من جهلهم ، وفضح مَنْ استحقّ الذمّ من المدلسين منهم .

(١) « من المؤمنين رجال .. » : من أنس أنها نزلت في عمه أنس بن النضير الذي أبل يوم أحد بلاء عظيماً ، حتى قتل وبه ثمانون جراحة بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح ورمية بالمهم .. رواه البخارى من بئدار ، ومسلم عن محمد بن حاتم .

(٢) « فمنهم من قضى نحبه » نزلت في طلحة بن عبيد الذي ثبت بجانب الرسول يوم أحد حتى دعا له الرسول (ص) : اللهم أوجب لطلحة الجنة . (الواسطى ص ٢٣٨) .

« وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوا مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي
قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ
فَرِيقًا » .

إنَّ الحقَّ — سبحانه — إذا أُجِلَّ أَكَلٌ ، وإذا شئى كفى ، وإذا وَفَى أَوْفَى .
فأظفر المسلمين عليهم ، وأورثهم معاقبتهم ، وأذلَّ مُتَعَزِّزَهُمْ ، وكفاهم بكلِّ وجهٍ أمرهم ،
ومكَّنهم من قتلهم وأسَرهم ونهبِ أموالهم ، وسبِّ ذرارهم .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ
كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَرِيقًا
فَتَمَّالِينَ أَمْتَعَنَّكُمْ وَأَسْرَحَنَّ لَكُمْ سَرَاحًا
جَمِيلًا * وَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَاللَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ
لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُمُ أَجْرًا عَظِيمًا » .

لم يُرِدْ أَنْ يَكُونَ قَلْبُ أَحَدٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ مِنْهُ فِي شُغْلٍ ، أَوْ يَبُودَ
إِلَى أَحَدٍ مِنْهُ أَدَى أَوْ تَعَبٌ ، فَخَيَّرَ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — نِسَاءَهُ ^(١) ، وَوَفَّقَ اللَّهُ سَبْعَانَهُ
عَاشَةً أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا — حَتَّى أَخْبَرَتْ عَنْ صِدْقِ ^(٢) قَلْبِهَا ، وَكَمَالِ دِينِهَا
وَيَقِينِهَا ، (وَبِمَا هُوَ الْمُنْتَظَرُ مِنْ أَصْلَافِهَا وَتَرْبِيَّتِهَا) ^(٣) ، وَالْبَاقِي جَرَيْنَ عَلَى مَنَاجِحِهَا ،
وَنَسَجْنَ عَلَى مَنَوَالِهَا .

قوله جل ذكره : « يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مِنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ

(١) يُقَالُ إِنَّهُ قَالَ لِعَاشَتِهِ : إِنْ ذَاكَ لَكَ أَمْرٌ وَلَا عَلَيْكَ أَنْ لَا تَسْجُلَ فِيهِ حَتَّى تَسْأَلَ أَبُوبِكَ ، ثُمَّ قَرَأَ عَلَيْهَا
الْقُرْآنَ ، فَقَالَتْ : أَيْ هَذَا أَسْتَأْذِنُ أَبُوبِي ؟ فَإِنْ أَرَادَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَاللَّارَ الْآخِرَةَ . فَرُزِيَ الْفَرْحُ فِي وَجْهِهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

(٢) هَكَذَا فِي م وَهِيَ فِي ص (كُذِبَ) وَهِيَ خَطَأٌ قَطْعًا .

(٣) مَا بَيْنَ الْقَوْسَيْنِ مَوْجُودٌ فِي م وَغَيْرِ مَوْجُودٌ فِي ص .

بفاحشة مُبِينَةٍ يُضَاعَفُ لَهَا الْعَذَابُ
خِصْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا .

زيادةُ العقوبة على الجُرْمِ من أماراتِ القسوة ، ولذا فضل على الأحرار على العبيد
وتأجيل ذلك من أماراتِ النقص ؛ فلما كانت مَرْتُونٌ في الثروة فزيد على منزلتها . نفع
النساء ضاعف عقوبتهن على أجهامهن ، وضاعف ثوابهن على طاعاتهن . وقال :

« وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا
وَيُؤْتِ مِمَّا رَزَقَهُ رِزْقًا كَرِيمًا .

ثم قال :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ كَذَّبَنَّا كَافِرًا مِنَ النِّسَاءِ
إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا يَنْخَفِضَنَّ بِالتَّوَلَّى فِيهِمَا
الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرْءٌ وَقُلْنَا قَوْلًا
مَعْرُوفًا . »

نهان عن التبذل ، وأمرهن بمراعاة حرمة الرسول (ص) : والفتاوى من قطع
الناقين في مُلأينتهن .

قوله جل ذكره : « وَتَرَى فِي يَدَيْكَنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ
تَبَرُّجَ الْبَاسِطَةِ الْأُولَى وَأَتَيْنَ الصَّلَاةَ
وَأَتَيْنَ الزَّكَاةَ وَأَطَعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ
الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ
تَطْهِيرًا . »

« الرِّجْسُ » : الأفعال الخبيثة والأخلاق الدنيئة ؛ فالأفعال الخبيثة الفواحش ، ما ظهر
منها وما بطن ، وما قل وما جل . والأخلاق الدنيئة الأهواء والبدع كالبدل والشع

وَقَطَعَ الرَّحِمَ ، ويريد بهم الأخلاق الكريمة كالجود والإيثار والسخاء وصلة الرحم ، ويدبر لهم التوفيق والمعصية والتسديد ، ويُطهرهم من الذنوب والمعيوب .

قوله جل ذكره : « واذكُرْنِ ما يُتْلَى في بيوتكن من آياتِ الله والحكمة إنَّ الله كان لطيفاً خبيراً » .

اذكُرْنِ عظيمَ النعمة وجليلَ الحالة التي تجري في بيوتكن ؛ من نزول الوحي ومجيء الملائكة ، وحُرمة الرسول — صلى الله عليه وسلم — والنور الذي يقتبس في الآفاق ، ونور الشمس الذي ينبسط على العالم ، فاعرفن^(١) هذه النعمة ، وارعين هذه الحرمة .

قوله جل ذكره : « إن المسلمين والمسلمات . . . »

الإسلام هو الاستسلام ، والإخلاص ، والمبالغة في المجاهدة والمكابدة .

« والمؤمنين والمؤمنات . . . »

الإيمان هو التصديق وهو مجمع الطاعات ، ويقال هو التصديق والتحقيق ، ويقال هو انتساب الحقيقة في القلب . ويقال هو حياة القلب أولاً بالعقل ، ولقومٍ بالعلم ، ولآخرين ، بالغهم عن الله ، ولآخرين بالتوحيد ، ولآخرين بالمعرفة ، ولآخرين بإيمانهم حياة قلوبهم بالله .

« والقانتين والقانتات . . . »

القنوت طولُ العبادة .

« والصادقين والصادقات . . . »

في عهودهم وعقودهم ورعاية حدودهم .

(١) عرف هنا بمعنى ذكر الفضل .. وهذه المناسبة أكشف للقارئ عن شيء خفي دهرأ طويلاً حيناً كنت أقرأ فائية ابن الفارض التي أولها :

قلبي يمدني بأنك متلني روحى فذاك عرفت أم لم تعرف
فطالما أزعجني الشطر الثالي من هذا البيت ؛ لأن كنت أربط بين عرف وبين علم . فكنت أسألك لعمري كيف يخاطب ابن الفارض ربه على هذا النحو ؟ حتى إعتديت إلى أن المعنى : ألى سأفتديك بروحى حتى ولو ثلثت في ذلك ، وسأنت عليه ، مواد ذكرت لي ما أضح ، وإحسبه .. أم لم تفعل .

« والصابرين والصابرات .. »

على انخصال الحميدة ، وعن الصفات الذميمة ، وعند جريان مفاجآت القضية .

« والخالشين والخالشات .. » .

الخشوعُ إطراقُ السريرة عند بوايد الحقيقة .

« والمتصدقين والمتصدقات .. »

بأموالهم وأنفسهم حتى لا يكون لهم مع أحدٍ خصومة فيما نالوا منهم ، أو قالوا فيهم^(١)

« والصائمين والصائمات .. »

المسكين عمّا لا يجوز في الشريعة والطريقة .

« والحافظين فروجهم والحافظات .. »

في الظاهر عن الحرام ، وفي الإشارة عن جميع الآثام .

« والذاكرين الله كثيراً والذاكرات .. »

بألسنتهم وقلوبهم وفي عموم أحوالهم لا يفترون ، ولا يتدأخلهم نسيان .

« أعد الله لهم مغفرةً وأجرًا عظيمًا » .

فهؤلاء لهم جميلُ الحسنَى ، وجزيلُ العقبي .

قوله جل ذكره : « وما كان لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا

قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ

الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ

وَرَسُولَهُ قَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا » .

الافتياتُ عليه في أمره والاعتراضُ عليه في حكمه وتركُ الانقيادِ لإشارته .. قرعٌ لبابِ

الشُّركِ ؛ فمن لم يُمسِكْ عنه سريعاً وقَعَ في وهدهته .

قوله جل ذكره : « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ

(١) وهذا من آمارات الفتوة (أنظر الرسالة ص ١١٣)

عليه أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ
وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى
النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى
زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لَكَ
لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ
أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ
أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا .

أنعم الله عليه بأن ذَكَرَهُ وأفرده من بين الصحابة باسمه .

ويقال : أنعم الله عليه بإقبالِكَ عليه وتَبَنِّيِكَ له . ويقال : بأن أَعْتَقْتَهُ ، ويقال : بالإيمان
والمعرفة . وَأَنْعَمْتَ عليه بالعِتْقِ وبأن تَبَنَّيْتَهُ . « أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ » إقامةٌ للشريعة مع
عِلْمِكَ بأن الأمر في العاقبة إلى ماذا يؤول ؛ فَإِنَّ اللَّهَ أَطْلَعَكَ عَلَيْهِ ، وقلت له : « اتق .. » .
قوله : « وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ » : أى لم تُظْهِرْ لَهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَرَّفَكَ مَا يَكُونُ مِنَ الْأَمْرِ
فِي الْمُسْتَأْنَفِ .

« وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ .. » مِنْ مَيْلِكَ وَمَحَبَّتِكَ لَهَا لَا عَلَى وَجْهِ لَا يَحِلُّ . « وَتُخْفَى النَّاسَ .. »
أى وَتُخْفَى عَلَيْهِمْ أَنْ يَقَعُوا فِي الْفِتْنَةِ مِنْ قِصَّةِ زَيْدٍ ، وَكَانَتْ تِلْكَ الْخُشْيَةُ إِشْفَاقًا مِنْكَ عَلَيْهِمْ ،
وَرَحْمَةً بِهِمْ .

ويقال : وَتَسْتَحْيِ مِنَ النَّاسِ — وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَسْتَحْيِيَ مِنْهُ .

ويقال : تَخْشَى النَّاسَ أَلَّا يَطْلِقُوا سَمَاعَ هَذِهِ الْحَالَةِ وَلَا يَقْرَؤُوا عَلَى تَحْمِلِهَا ، فربما يَخْطُرُ
بِأَلْمِ مَا يَنْبَغِي عَنْهُمْ وَتُسَعِّمُ ..

« فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا .. » لَكَ لَا يَكُونُ عَلَيْكَ حَرَجٌ ، وَلَكَ لَا يَكُونُ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي الْأَزْوَاجِ بِزَوَّجَاتِ أَدْعِيَائِهِمْ ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ يُحَرِّمُ فِي الْإِبْنِ إِذَا كَانَ
مِنَ الصُّلْبِ .

« وكان أمرُ اللهِ قَدَرًا مقدورًا » .

لا يُعَارَضُ ولا يُنَاقَضُ ، ولا يُرَدُّ ولا يُجَحَّد . وما كان على النبيِّ من حَرَجٍ بوجهٍ
لكونه معصومًا .

قوله جل ذكره : « الذين يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ
وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ
حَسِيبًا » .

« ويخشونه » : علمًا منهم بأنه لا يُصِيبُ أحداً ضررٌ ولا محذورٌ ولا مكروهٌ إلا بتقديره؛
فيفردونه بالخشية إذ علموا أنه لا شيء لأحدٍ من دونه .

قوله جل ذكره : « ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالِكُم
ولكن رسولَ اللَّهِ وخاتمَ النَّبِيِّينَ
وكان اللَّهُ بكلِّ شيءٍ عليمًا » .

لم يكن مضافًا إلى ولدٍ فله عليكم شفقة الآباء .. ولكن ليس بآبيكم .
ويقال نسبُه ظاهرٌ .. ولكن إنما يُعرَفُ بي لا بنسبِهِ ؛ فقلما يقال : محمدٌ بن عبد الله ،
ولكن إلى أبد الأبد يقال : محمد رسول الله . وشعارُ الإيمانِ وكلمةُ التوحيدِ — بعد لا إله إلا
الله — محمدٌ رسولُ الله .

قوله جل ذكره : « يا أيها الذين آمنوا أذكروا اللَّهَ ذِكْرًا
كثيرًا » وسَبَّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا «
الإشارة فيه أُحِبُّوا اللَّهَ ؛ لأنَّ النبيَّ — صلى الله عليه وسلم — قال : « مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا
أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ » فيجب أن تقول : الله ، ثم لا تنسَ الله بعد ذكركَ الله .

ويقال : اذكروا اللَّهَ بقلوبِكُم ؛ فإنَّ الذِّكْرَ الذي تمكَّن استدامته ذِكْرُ القلبِ ؛ فأما ذِكْرُ
اللسانِ فإدامته مُسَرَّمَدٌّ كالتعذر .

« وَسُبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً » : التسبيحُ من قبيل الذكر ، ولكنه ذِكْرُهُ بلفظين لثلاث تعتريك سامة^(١) .

قوله جل ذكره : « هو الذى بُصِّلَ عليكم وملائكته ليُخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً » .

الصلاة في الأصل الدماء^(٢) ؛ فصلاته — سبحانه — دعاؤه لنا بالتقريب ، وصلاة الملائكة دعاؤهم إليه لنا : بالفقران للعاصي ، وبالإحسان للمطيع .

ويقال الصلاة من الله بمعنى الرحمة ، ومن الملائكة بمعنى الشفاعة

« ليخرجكم من الظلمات إلى النور » : من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

ويقال ليخرجكم من الظلمات إلى النور أى يعصمكم من الضلال بَرُوح الوصال .

ويقال ليخرجكم من ظلمات التدبير إلى فضاء شهود التقدير .

ويقال ليخرجكم من ظلمات نفوسكم إلى أنوار البصائر في قلوبكم .

ويقال ليخرجكم من أسباب التفرقة إلى شهود عين التوفيق ، والتحقق بأوصاف الجمع .

ويقال بصونكم من الشرك ، ويُثَبِّتُكُمْ بشواهد الإيمان .

قوله جل ذكره : « تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ » ،

وأعدّ لهم أجراً كريماً » .

التحية إذا قرّنت بالرؤية ، واللقاء إذا قرّنت بالتحية فلا يكون ذلك إلا بمعنى رؤية البصر .

والسلام خطاب يفصح به الملوك لإخباراً عن علو شأنهم ورتبتهم ، فالقاءه حاصل وخطابه

(١) هذه لفظة هامة تهم البلاغيين .

(٢) يوضح القشيري هنا ما يسى عنه (نعم المنع) ، وهى صنف آخر يختلف عن (نعم المنع) ، والعبد -

- لقصر نظره - يشكر على هذه ، وتحقن عليه تلك .

مسموعٌ ، ولا يكون ذلك إلا برؤية البصر^(١) .

« أجرأ كريماً : الكرمُ نقيُّ الدناءة ، وكرماً أى حسناً .

وفي الإشارة أجرهم موفور على عملٍ يسير ؛ فإنَّ الكرم لا يستقصى عند البيع والشراء في الأعداد ، وذلك تعريفٌ بالإحسان السابق في وقت غيبتك^(٢) .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً

وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ

وَسَرَاجاً مَنيراً * وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ

لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً » .

يَا أَيُّهَا الْمُشْرَفُ مِنْ قَبْلِنَا إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً بوحْدانيتنا ، وشاهداً تُبَشِّرُ بِمَتَابَعَتِنَا ، وتحذِّرُ من مخالفة أمرنا ، وتُعَلِّمُ النَّاسَ مَوَاضِعَ الْخُوفِ مِنَّا ، وداعياً إلينا بنا ، وسراجاً يستضيئون به ، وشمساً ينبسط شعاعها على جميع مَنْ صَدَّقَكَ ، وآمَنَ بِكَ ، فلا يصل إلينا إلا مَنْ اتَّبَعَكَ وَخَدَمَكَ ، وَصَدَّقَكَ وَقَدَّمَكَ .

« وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » بفضلنا معهم ، ونيلهم طَوْلَنَا عليهم ، وإحساننا إليهم . وَمَنْ لَمْ تُؤَيِّرْ فِيهِ بَرَكَةً إِيْمَانَهُ بِكَ فَلَا قَدْرَ لَهُ عِنْدَنَا .

قوله جل ذكره : « وَلَا تَطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ

أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكُنْ بِاللَّهِ

وَكَيْلاً » .

لا توافق مَنْ أَعْرَضْنَا عَنْهُ ، وَأَضَلَّنَا بِهِ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ ، وَأَهْلِ الْبِدْعِ وَالشُّقَاقِ . وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ بِدَوَامِ الْإِقْطَاعِ إِلَيْهِ ، وَكُنْ بِاللَّهِ وَكَيْلاً .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمْ

(١) يضاف هذا الكلام إلى المبدأ الذي يتحسس له القشيري وهو الرؤية العيانية للحق في الآخرة .

(٢) يقصد القشيري : أولئك الذين أحسن الله إليهم في سابق علمه ، وهم مازالوا في كتم العدم - عل حد تعبيره في مواضع مناظرة .

المؤمناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ
تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ
تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا
جَمِيلًا .

. إذا آتَيْتُمُ فَرَاقَهُنَّ فَمَتَّعُوهُنَّ لِيَكُونَ لَكُمْ تَذْكُرَةٌ فِي أَيَّامِ الْفَرَقَةِ فِي أَوَائِلِهَا إِلَى أَنْ
تَتَوَحَّطَنَ نَفْسُهُنَّ عَلَى الْفَرَقَةِ .

« وسرحوهن سراحاً جميلاً » : لا تذكروهن بعد الفراق إلا بخير ، ولا تستردوا منهن
شيئاً تخلَّصنَّ به معهن ، فلا تجمعوا عليهن الفراق بالحال والإضرار من جهة المال .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ
الَّتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ
يَمِينُكَ بِمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ
وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكِ
غَفُورًا رَحِيمًا » .

وَسَعَّنا الأمرَ عليك في باب النكاح بكم شئت ؛ فإنك مأمونٌ من عيب عدم التسوية بينهن
وعدم مراعاة حقوقهن ، ومن الحيف عليهن . والتوسعة في باب النكاح تدلُّ على الفضيلة
كالحرِّ والعبد .

« تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْزِي إِلَيْكَ
مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ ابْتِغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَءَ
أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ
كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ... » .

« مَنْ تَشَاءُ » : على ما تتعلق به إرادتك ، ويقع عليه اختيارك ، فلا حرج عليك
ولا جناح .

« لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ
تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ
حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ
اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا » .

لَمَّا اخْتَرَهُنَّ أُمِّتَ اللَّهُ لهنَّ حُرْمَةٌ ، قَالَ : « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ » فَمَا اخْتَرْتَنَ
فَلَا تَخْتَرِ عَلَيْهِنَّ امْرَأَةً أُخْرَى تَطْلُبُ لِقَابَهُنَّ ، وَنَوْعًا لِلْمُعَادَلَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُنَّ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى
كَرَمِهِ — وَالْحِفَاطُ كَرَمٌ وَدَيْنٌ ^(١) .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ
النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ
غَيْرِ نَازِلٍ فَإِنْ أُنْمِيتَ وَلَسَنْ إِذَا دُعِيتُمْ
فَادْخُلُوا ... » الآية .

أَمَرَهُمْ بِحِفْظِ الْأَدَبِ فِي الْأَسْتِثْنَانِ ، وَمِرَاعَاةِ الْوَقْتِ ، وَوَجُوبِ الْاحْتِرَامِ ؛ فَإِذَا أُذِنَ لَكُمْ
فَادْخُلُوا عَلَى وَجْهِ الْأَدَبِ ، وَحِفْظِ أَحْكَامِ تِلْكَ الْحَضْرَةِ ، وَإِذَا انْتَهَتْ حَوَائِجُكُمْ فَاخْرُجُوا ،
وَلَا تَتَغَافَلُوا عَنْكُمْ ، وَلَا يَمْنَعَنَّكُمْ حُسْنُ خُلُقِهِ مِنْ حِفْظِ الْأَدَبِ ، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ فَرْطُ احْتِشَامِهِ
عَلَى إِبْرَامِهِ ^(٢) .

« فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مَسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِ مِنْكُمْ » :
حُسْنُ خُلُقِهِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — جَرَّهُمْ إِلَى الْمُبَاسَطَةِ مَعَهُ ، حَقٌّ أَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ .
« وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقَابِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ » : ثَقَلَهُمْ
عَنْ مَأْلُوفِ الْعَادَةِ إِلَى مَعْرُوفِ الشَّرِيعَةِ وَمَفْرُوضِ الْعِبَادَةِ ، وَبَيَّنَّ أَنَّ الْبَشَرَ بَشَرٌ — وَإِنْ كَانُوا
مِنَ الصَّحَابَةِ ، فَقَالَ :

« ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقَابِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ »

(١) ضَبَطْنَاهَا هَكَذَا (دِينَ) بَفَتْحِ الدَّالِ وَتَسْكِينِ الْيَاءِ فِيهَا يَسْتَقِيمُ الْمَعْنَى وَيَقْوَى السِّيَاقُ .

(٢) أَيْ لِضَجَارِهِ وَإِمْلَالِهِ .

فلا ينبغي لأحد أن يأمن نفسه — ولهذا يَشَدُّدُ الأمرُ في الشريعة ألا يخلو رجلٌ بامرأة
ليس بينهما محرمة .

« وما كان لكم أن تؤذوا رسولَ
الله ولا أن تنكحوا أزواجه من
بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله
عظيماً ^(١) » .

وهذا من خصائصه — صلى الله عليه وسلم ، وفي هذا شبه رخصة لمن يلاحظ شيئاً من هذا ،
فيهم بالاتصال مَنْ له مَيْلٌ إِلَيْهِنَّ بغيرهن بعد وفاته — وإن كان التحرُّزُ عنه — وعن أمثال
هذا مِنْ تَرْكِ المَحْظُوظِ — أتم وأعلى .

قوله جل ذكره : « إن تُبْدُوا شيئاً أو تُخْفُوهُ فإن
الله كان بكلُّ شيءٍ عليماً » .

حِفْظُ القلبِ مع الله ، ومراعاة الأمر — بينه وبين الله — على الصُّحَّةِ في دوام الأوقات
لا يَقْوَى عليه إلا الخواصُّ من أهل الحضور .

قوله جل ذكره : « لا جناحَ عليهنَّ في آبائهنَّ
ولا أبنائهنَّ ولا إخوانهنَّ ولا أبناء
إخوانهنَّ ، ولا أبناء أخواتهنَّ
ولا نسائهنَّ ... » الآية .

لما نزلت آية الحجابِ شقَّ عليهن وعلى النسوان وعلى الرجال في الاستتار ، فأنزل الله عزَّ
وجلَّ هذه الآية للرخصة في نظر هؤلاء إلى النساء ، ورؤية النساء لهم على تفصيل الشريعة .

(١) يستند القرطبي إلى رواية نقلها أبو نصر عبد الرحمن القشيري — ابن القشيري صاحب هذا الكتاب —
عن ابن عباس الذي يقول : قال رجل من سادات قريش من العشرة الذين كانوا مع الرسول على حراء — في نفسه —
لو توفي الرسول لتزوجت عائشة ، وهي بنت عسي . قال مقاتل : هو طلحة بن عبيد الله . ولكن هذا الرجل ندم
على ما حدث به نفسه ، فمشى إلى مكة على رجله وكفَّرَ بالتصدق وعق الرقيق . (القرطبي ج ١ ص ٢٢٨) .

قوله جل ذكره : « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ».

أراد الله — سبحانه — أن تكون للأمة عنده — صلى الله عليه وسلم — يدُ خدمةٍ كما له بالشفاعة عليهم يدُ نعمةٍ ، فأمرهم بالصلاة عليه ، ثم كافأ — سبحانه عنه ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : مَنْ صَلَّى عَلَىَّ مَرَّةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرَ مَرَّاتٍ . وفي هذا إشارة إلى أن العبد لا يستغنى عن الزيادة من الله في وقتٍ من الأوقات ؛ إذ لا رتبة فوق رتبة الرسول ، وقد احتاج إلى زيادة صلوات الأمة عليه .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا * وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغِيرٍ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا » .

يؤذون الله ورسوله بعمل المعاصي التي يستحقون بها العقوبة ، ويؤذون أوليائه . ولما قال : مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، فكذلك مَنْ آذَى رَسُولَهُ وَأَنْبِيََاءَهُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَالْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ آذَاهُ ، ومعناه تخصيص حالتهم وإثبات رتبهم .

ثم ذكر قوله : « وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. » وذكر عقوبتهم ، فجعل إيذاء الرسول مقروناً بما ذكر من إيذاء الله ، ثم ذكر إيذاء المؤمنين ، ويدل ذلك على أن رتبة المؤمنين دون رتبة الرسول صلى الله عليه وسلم ^(١) .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَنِسَاءُ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ

(١) في هذا رد ضمني على من يدعى الوصول ، ويجهربأن لواء الأنبياء يعقد له في معاريجهم ، وأن الأنبياء أدنى من الأولياء .

جلايين ذلك أدنى أن يُعرفن
فلا يؤذنين وكان الله غفوراً رحيماً .

هذا تنبيه لمن على حفظ الحرمه وإثبات الرتبة ، وصيانة لمن ، وأمر لمن بالتضامن
والتعفف . وقرن بذلك تهديده للمناقين في تعاملهم ما كان يشغل قلب الرسول صلى الله عليه
وسلم من الإرجاف في المدينة : —

« لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم
مرض والمرجفون في المدينة لغربناك
بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً
* ملمونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا
قتيلاً * سئنة الله في الذين خلوا من
قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً » .

إنهم إلمم بمتنعوا عن الإرجاف وأمثال ذلك لأجرينا معهم سئتنا في التدمير على من سلف
من الكفار^(١) .

ثم ذكر مسألة القوم عن قيام الساعة وتكذيبهم ذلك ، ثم استعجالهم قيامها من غير
استعداد لها ، ثم أخبر بصعوبة العقوبة التي علم أنه يُعَذِّبهم بها ، وما يقع عليهم من الندامة
على ما فرطوا .

قوله جل ذكره : « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين
آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا ، وكان
عند الله وجيهاً » .

نسبوه إلى الأذرة^(٢) ، وأن به عيباً في الخلقة ، ولكنه كان رجلاً حياً ، وكان إذا
اغتسل لا يتجرد^(٣) (من ثوبه) ، فتوهوا به ذلك . وذات يوم خلا لفسله ، ووضع ثيابه

(١) مكذبان . وهي في ص (الكبائر) .

(٢) الأذرة (على وزن الفرقة) = انتفاخ الحمية ، والآذر = المصاب بذلك .

(٣) ما بين قوسين من عندنا ليتضح السياق .

على حَجَرٍ فامشى اللهُ الحَجَرَ بَنيابه ، وموسى يعدو خَلْقَهُ حتى تَوَسَّطَ بنى إسرائيل ، وشاهدوا خَلْقَتَهُ سَلِيمَةً ، فوقف الحَجَرُ ، وأخذ موسى ثِيابه ولبسها^(١) ، وهذا معنى قوله : « فَبَرَّاهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً » فى القَدَرِ وَالْمَنْزِلَةِ . والوجهة النافعة ما كان عند الله لا عند الناس ، قَبُولُ الناسِ لا عِبْرَةٌ به ولا خَطَرٌ له ، لا سيما العوامُ فَإِنَّهُمْ يَقْبَلُونَ بِلَا شَيْءٍ ، وَيَرُدُّونَ بِلَا شَيْءٍ قال قائلهم :

إِنْ كُنْتُ عِنْدَكَ يَا مَوْلَايَ مَطْرَحًا

فَنَدَّ غَيْرَكَ مَحْمُولًا عَلَى الْحَدَقِ

وَقَالُوا : فَإِنْ أَكُ فى شِرَارِكُمْ قَلِيلًا

فَإِنِّى فى خِيَارِكُمْ كَثِيرٌ

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا

قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ

وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ

وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا » .

القول السديد كلمة الإخلاص ، وهى الشهادتان عن ضمير صادق .

ويقال سدادُ أقوالِكُم سدادُ أَعْمَالِكُم ، ولقد هَوَّنَ عَلَيْكُمُ الْأَمْرَ فَمَنْ رَضِيَ بِالْقَالَةِ —

وهى الشهادة بأن ترك الشُّركَ — وقالها بِصِدْقٍ أَصْلَحَ اللهُ لَهُ أَعْمَالَهُ الدُّنْيَوِيَّةَ مِنَ الْخَلَلِ ، وَغَفَرَ

لَهُ فى الْآخِرَةِ الزَّكْلَ ، أى حصلت له سعادة الدارين .

ويقال ذَكَرَ « أَعْمَالَكُمْ » بِالْجَمْعِ^(٢) ، وَقَدَّمَها عَلَى الْفُتْرَانِ ؛ لِأَنَّهُ ما لَمْ يُصْلِحْ لَكَ فى حَالِكَ

أَعْمَالَكَ وَإِنْ لَمْ يَكْفِكَ ما أَهْمَكَ مِنْ أَشْغَالِكَ . . . لَمْ تَتَفَرَّغْ إِلَى حَدِيثِ آخِرَتِكَ .

قوله جل ذكره : « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا

(١) هذه رواية ابن عباس .. وفى رواية أخرى : اتهم بقتل أخيه هارون .

(٢) أى أن الله بفضلَه ينظر منك إلى القليل فيعتبره كثيراً .

وَأَشْفَقْنَا مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ
ظَالِمًا جَهُولًا .

هنا إضمار أى : أهل السموات والأرض والجال .
وقيل أحيائها وأعقلها ، وهو كقوله : « إِنِّي بَطُلٌ مِّنْ أَوْ كَرَّمَا قَالَتَا أَنِّيْنَا طَائِعِينَ ^(١) » .
« فأين أن يحملها » : أى أين أن تخن فيها ، « وحملها الإنسان » : أى خان فيها .
وهم مراتب : فالكفار خانوا فى الأصل الأمانة — وهى المعرفة — فكفروا . ومن دُونهم
خانوا بالعاصى ، وبعضهم أشدّ وبعضهم أهون ، وكلّ احتجب من الوزر مقدارَه .
ويقال « أين » إباء إشفاق لا إباء استكبار ، واستغفين . . . فغفا عنهن ، وأعفاهن
مِنْ حَمَلِهَا .

« وحملها الإنسان » : قَبِلَهَا ثم ما رعوها حقّ رعايتها .. كلٌّ بقدره .
« إِنَّهُ كَانَ ظَالِمًا جَهُولًا » بصعوبة تحل الأمانة فى الحال ، والقوية التى عليها فى
المآل . وقومٌ قالوا عَرَضَ الأمانة على السموات والأرض وعَرَضَهَا على الإنسان ، فهن استغفين
وهؤلاء ^(٢) لم يستغفوا ولم يراعوا .

ويقال : الأمانة القيام بالواجبات أصولها وفروعها .
ويقال : الأمانة التوحيد عقداً وحفظ الحدود جهداً .
ويقال : لَمَّا حَمَلَ آدَمُ الأمانة وأولاده قال تعالى : « وحملناهم فى البر والبحر » ^(٣) .. وهل
جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟

ويقال حمل الإنسان بالله لا بنفسه . ويقال ظَلَمَ نَفْسَهُ حيث لم يُشْفِقْ مما أشفقت منه
السموات والأرضون . وَالظُّلْمُ وَضْعُ الشَّيْءِ فى غير موضعه .
ويقال كَاشَفَ السموات والأرض بوصف الربوبية والعظمة فأشفقوا ، وكَاشَفَ آدَمَ

(٢) الإنسان هنا اسم جنس .

(١) آية ١١ سورة فصلت .

(٣) آية ٧٠ سورة الإسراء .

وَذُرِّيَّتَهُ بِوصف اللطفِ قَبِلُوا وحلوا ، وفي حال بقاء العبد بالله يحمل السموات والأرضَ بشعرة من جَفْنِهِ . ويقال كانت السموات والأرض أصحاب الجثث والمباني فأشفقوا من حمل الأمانة . والحمل إنما تحمله القلوب . وآدم كان صاحبَ معنى فَحَمَلَ ، وأنشدوا :

حملت جبال الحكم فوقى وإنتى لَأُعْجِزُ عن حمل القميص وأضعفُ
ويقال لما عَرَضَ الحقُّ الأمانةَ على الخلقِ عُلِقَ آدمُ بها هَمَّتَهُ ، فصرف بهمته جميع المخلوقات عنها ، فلما أبوا وأشفقوا حَمَلَهَا الإنسان طوعاً لا كرهاً .

قوله جل ذكره : « لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ
وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً
رَحِيماً » .

اللام في « ليعذب » للصيرورة والعاقبة ؛ أى صارت عاقبة هذا الأمر عذاب المناقين
والمناققات والمشركين والمشركات ، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات بالمغفرة والتجاوز
(تَمَّتِ السُّورَةُ)^(١) قد يقال : المناقون والمناققات والمشركون والمشركات والعاصون من
المؤمنين والمؤمنات وَرَدَّ ذِكْرَهُمْ . . فإين العابدون وذکرهم ؟
ولكنهم في جملة مَنْ مَضَى ذِكْرُهُمْ ، وليسوا في المشركين ولا في المناقين ، فلا محالة
في جملة العاصين الذين تاب عليهم .

فبأيها العاصي ، كنت تحذر أن يُخْرِجَكَ العابدون من جلتهم ، فاشهد الجبار — في هذا
الخطاب — كيف أدرجك في جلتهم^(٢) ؟ !

(١) هكذا في الأصل ، وهذه أول مرة يستدرك بها المصنف شيئاً عقب خاتمة سورة .

(٢) هذا الاستدراك لافِت للنظر من حيث يدل على رحابة صدر الصوفية ، وشدة حرصهم على فتح أبواب
الأمل أمام العصاة الراغبين في التوبة ، « لا تقتطعوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً » .

سُورَةُ سَبَأًا

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله كلمةٌ سَلَابَةٌ غَلَابَةٌ ، نَهَابَةٌ وَهَابَةٌ ؛ تسلب القلوب .. ولكن لا كل قلب ، وتقلب الأبواب ولكن ليس كل لب ، وتنهب الأرواح ولكن من الأحباب ، وتنهب الأرياح .. ولكن لقوم مخصوصين من الطلاب .

قوله جل ذكره : « الحمد لله الذي له مافى السموات
ومافى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو
الحكيم الخبير » .

افتتح السورة بذكر الثناء على نفسه ، ومَدَحُه لنفسه إخباراً عن جلاله ، واستحقاقه لتعوت عزّه وجماله ، فهو فى الأزل حامدٌ لنفسه محمودٌ ، وواحدٌ موجودٌ ، فى الأزل معبودٌ ، وبالطلبات مقصودٌ .

« الذى له مافى السموات ومافى الأرض » : المَلِكُ لا يكون بالشركة ؛ فلا مَلِكَ إلا الله .
وإن أجرى هذا الاسم على مخلوق فالزنجى لا يتغير لونه وإن سُمِّيَ كافوراً !
« وله الحمد فى الآخرة » من الذين أعتقهم ، وفى النعمة أغرقهم .
« وهو الحكيم » بتخليد قوم فى الجنة ، وتأبيد قوم فى النار .

قوله جل ذكره : « يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور » .

« يعلم ما يلج فى الأرض » من الحب تحت الأرض ، وللماء يرسب فيها ،

والأشياء التي تُلقَى عليها ، والناس يُقْبِرُونَ في الأرض .

« وما يخرج منها » من النبات والأزهار ، وللوقى يُعْثُونَ .

« وما ينزل من السماء » من القطر والمَلَكِ ، والبركة والرزق ، والحكم .

« وما يرج فيها » من الصحف ، وحوائج الناس : وهِمَمُ الأولياء .

« وهو الرحيم » بعباده ، « الففور » لجميع المذنبين من المسلمين .

قوله جل ذكره : « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعةُ

قُلْ بلى وربيّ لتأتيننكم عليم الغيب

لا يعزبُ عنه مثقالُ ذرةٍ في السموات

ولا في الأرض ولا أصغرُ من ذلك

ولا أكبرُ إلا في كتابٍ مبين » .

كرّر في القرآن تكذيبهم بالساعة ، واستبعادهم لذلك ، والردّ عليهم . وأخبر عن سابق

علمه بهم ، وأنه لا يخرج شيء من معلوماته عن علمه ، فأثبت علمه بكل شيء وشموه لكل

شيء . . . لأنه لو لم يكن له علم لكان قصفاً ، ولأنه لو خرج معلومٌ واحدٌ عن علمه لكان

بقدرته قصصاً ، والنقص — بأي وصف كان — لا يجوز في صفته بحال .

قوله جل ذكره : « ليعزى الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ

أولئك لهم مغفرةٌ ورزقٌ كريم »

الآيات . .

الحسنون منهم يجازيهم بالخيرات المتصلة ، والكافرون منهم يكافئهم على كفرهم

بالعقوبات غير متصلة .

ويرى الذين أوتوا العلم كتابك الذي أتيت به حقاً وصدقاً . والذين كفروا قال

بعضهم لبعض : إنهم يرون أن هذا الذي تقول به من النشر والحساب والبعث كذبٌ ، أو أن

يك جنةً ، ثم أقام عليهم حجة التجويز بما أجرى به سنته في الخلق والإبداع . . فما

زادهم ذلك إلا جحوداً ، وما قابلوه إلا عنوداً .

قوله جل ذكره : « ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبالُ

أوبي معه والطيرَ وألنا له الحديد •

أن اعمل سابغاتٍ وقدرُ في السردِ

واعملوا صلحا إني بما تعملون بصير •

« داود » اسم أعجمي ، وقيل سمي داود لأنه داوى (جرحه) ، ورد في القصة

أنه قال في إحدى مناجاته : يا رب ، إني أرى في التوراة ما أعطيت لأوليائك وأنبيائك

من الرب فأعطينها ^(١) فقال : إني ابتليتهم فصبروا ، فقال : إني أصبر على بلائك ،

فأعطيت ما أعطيتهم ، فأبلاه ، فوقف ، فأعطاه ما أعطاهم .

« ولقد آتينا داود منا فضلا » : تسكلموا في هذا الفضل ؛ فمنهم من أراد ما ذكره

بعده وهو قوله للطير : « أوبي معه » ، وكذلك الجبال ، وكان في ذلك تنفيس في وقت

حزنه وبكائه . وقيل ذلك الفضل رجوعه إلى الله — في حال ما وقع له ^(٢) — بالتنصل

والاعتذار . ويقال هو شهوذه موضع ضرورته وأنه لا يصلح أمره غيره . ويقال طيب

صوته عند قراءة الزبور حتى كان يرغب في متابعتها من يسمع إليه ^(٣) . ويقال حلوة صوته

في المناجاة . ويقال حسن خلقه مع أمته الذين اتبعوه ، ويقال توفيقه للحكم بين أمته

بالعدل ...

قوله : « يا جبال أوبي معه والطير » أمر الجبال والطير بمجاوبته حتى خرج إلى

الجبال والصحارى ينوح على نفسه .

ويقال أوحى الله له : يا داود ، كانت تلك الزلة مباركة عليك ! فقال . يا رب ،

وكيف ؟ فقال : كنت تجيء قبلها (كما يجيء المطيعون والآل) ^(٤) تجيء كما يجيء

أهل الذنوب !

(١) ما بين القوسين ساقط من ص موجود في م .

(٢) يشير القشيري بذلك إلى قصة داود مع زوجة أوريا ، وكيف تاب وأناب .

(٣) يقول القرطبي : كان قد أعطى من الصوت ما يتزاحم الوحوش من الجبال على حسن صوته ، وكانت

الجبال تتجاوب صدها ، والماء الجاري ينقطع جريه . ويضيف القرطبي : « أيد بمساعدة الجبال والطير لتلايحج فترة ، فإذا دخلت الفترة احتاج أي ثار وتحرك ، وقوى بمساعدة الجبال والطير .

(٤) موجودة في ص وغير موجودة في م .

يا داود ، إن أنينَ للذَّنين أحبُّ إلى من مُصراخِ العابدين !
 ويقال ، كان داود يقول . اللهم لا تنفِرْ للخاطئين ، غيرَةً منه وصلابةً في الدين ...
 فلما وقع له ما وقع كان يقول . اللهم اغفر للمذنبين ، فسى أن تنفِرَ لداود فيما بينهم .
 ويقال لما تاب الله عليه ، واجتمع الإنسُ والجنُّ والطيرُ بمجلسه ، ورفَعَ صوته ، وأداره
 في حَنَكِهِ على حسب ما كان من عادته تفرقت الطيور وقالوا : الصوتُ صوتُ داود والحال
 ليست تلك ! فأوحى اللهُ إليه هذه وَحْشَةُ الزَّلَّةِ ، وتلك كانت أنسَ الطاعة . . فكان داودُ
 يبكي وينوح ويصيح والطير والجبالُ معه .

ويقال ليس كلُّ مَنْ صاح وراءه معنى ^(١) ، فالصاح كان مع داود لا مع الجبال
 والطير . . .

« أن أعملُ سابقاتٍ وقدَّرُ في السَّردِ وأعملوا صالحا » . ألان له الحديدُ ، وجعل
 ذلك معجزةً له ، وجعل فيه توسعةَ رزقه ، ليجدَ في ذلك مكسبا ، ليقطَعَ طَمَعَهُ عن أمته في
 ارتفاقه بهم ليبارك لهم في اتِّباعِهِ ^(٢) .

قوله جل ذكره : « ولسليمانَ الرِّيحَ تُغْدُوها شهرٌ
 ورواحها شهرٌ »

أى آتينا سليمانَ الرِّيحَ أى سَخَّرناها له ، فكانت تحملُ بساطَهُ بالغدو مسيرة شهرٍ ؛
 وبالرواح مسيرة شهر .

وفي القصة أنه لاحظ يوما مُلكَهُ ، فقال الرِّيحُ يبساطه ، فقال سليمانُ للرِّيحِ : استوِ ،
 قالت الرِّيحُ : استوِ أنت ، فسادمتَ مستويا بقلبِكَ كنتَ مستويا بك ، فلما
 مِلْتَ مِلْتُ .

« وأسلنا له عينَ القطرِ ومنَ الجنِّ
 من يعملُ بين يديه بإذنِ ربه ومن يَرِغْ
 منهم عن أمرنا نُذِقْهُ من عذابِ السعيرِ »

(١) هذه غمزة من يتظاهرون بالتواجد في مجالس السماع الصوفية ، إذ ينبغي الصديق ليتحول التواجد إلى وجد
 ثم إلى وجود .

(٢) هذا تنبيه لمن يتصدر منزلة الإمامة : ألا يرتفق ، وألا يطلب عوضاً ، وألا يطمع في الذين يتبعونه .

أى وآتيناه ذلك ، فكانت الشياطينُ مُسَخَّرَةً لَهُ ، يعملون ما يشاء من الأشياء التى ذكرها سبحانه .

قوله جل ذكره : « اعملوا آلَ داود شكراً وقليلٌ من عبادي الشكور »^(١) .

أى اعملوا يا آل داود للشكر ، قوله : « شكراً » منصوب لأنه مفعول له .
ويقال شكراً ؛ منصوب لأنه مفعول به مثل قوله تعالى : « والذين هم للزكاة فاعلون »^(٢) .
وقد مضى طرْفٌ من القول فى الشكر . والشكور كثير الشكر ، والأصل فى الشكر الزيادة ،
والشكيرة اسم لما ينبت تحت الأشجار منها ، ودابة شكور إذا أظهرت من السَّمنِ فوق ما تُعْطَى
من العلفِ ؛ فالشكور الذى يشكر على النعمة فوق ما يشكر أمثاله وأضرابه . وإذا كان الناسُ
يشكرونه على الرخاء فالشكور يشكره فى البلاء .

والشاكر يشكر على البذل ، والشكور على المنع^(٣) ... فكيف بالبذل ؟

والشكور يشكر بقلبه ولسانه وجوارحه وماله ، والشاكر ببعض هذه .

ويقال فى « وقليل من عبادى الشكور » قليلٌ مَنْ يأخذ النعمة منى ولا يحملها على الأسباب ؛
فلا يشكر الوسائطَ ويشكرنى . والأكثرُونَ يأخذون النعمة من الله ، ويحمدون الخيرة مِنْ
قَبْلِهِ ثم يتقلدون المنة من غير الله ، ويشكرون غير الله .

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى
مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ
فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانَوا
يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ
الْمُهِينِ » .

(١) يقول السهروردي فى موارفه : « فى أخبار داود عليه السلام : إلهى كيف أشكرك وأنا لا أستطيع
أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك ؟ فأوحى إليه إذا عرفت هذا فقد شكرتنى . (عوارف المعارف ص ٣٤٤)

(٢) آية ٤ سورة المؤمنین .

(٣) وردت العبارة فى الرسالة هكذا : الشاكر يشكر عند البذل والشكور عند المظل (الرسالة ص ٨٩) .

كان سليمان — عليه السلام — يتكىء على عصاه وقتما قبض ، وبقى على ذلك الوصف مدة ، والشياطين كانوا مُسَخَّرِينَ يعملون ما أمرهم به ، ويتصرفون على الوجه الذي رَسَمَ لهم ، وينتهون عما زَجَرَهُمْ ، فقد كانوا يتوهمون أنه حي . ثم إنَّ الأرضة^(١) أكلت عصاه فخرَّ سليمان فَعَلِمَ الشياطينُ عندئذ أنه مات ، فرجعوا إلى أعمالهم الخبيثة ، وانفكَّ عنهم ما كانوا عليه من التسخير ؛ وهكذا الملكُ الذي يقوم مُلكه بغيره ، ويكون استمساكه بمصا . . فإنه إذا سَقَطَ سَقَطَ بسقوطه ، ومن قام بغيره زال بزواله .

قوله جل ذكره : « لقد كان لسبأ في مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ » .

كانوا في رَغَدٍ من العيش وسلامة الحال ورفاهته ، فأَمَرُوا بالصبر على العافية والشكر على النعمة ، وهذا أمرٌ سهلٌ يسيرٌ ، ولكنهم أَعْرَضُوا عن الوفاق ، وكفروا بالنعمة ، وَضَيَّعُوا الشكر ، فَبَدَّلُوا وَبَدَّلَ بِهِمُ الْحَالُ ، كما قالوا :

تبدلت وتبدلنا يا حسرةً لَئِنْ ابْتَنَى عِوَضًا لِسَلْمَى فَلَمْ يَجِدْ

قوله جل ذكره : « فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ » .

كذلك من الناس من يكون في رَغَدٍ من الحال ، واتصالٍ من التوفيق ، وطربٍ من القلب ، ومساعدةٍ من الوقت ، فيرتكبُ زَلَّةً أو يسيء أدباً أو يتبع شهوةً ، ولا يعرف قَدْرَ ما هو به ، فيتغير عليه الحال ؛ فلا وقت ولا حال ، ولا طرب ولا وصال ؛ يُظْلِمُ عليه النهارُ وقد كانت لياليه مضيئةً ، كما قلنا^(٢) :

(١) الأرضة = دودة تأكل الخشب .

(٢) هكذا في ولكنها في ص : كما قالوا .

ما زلت أختال في زمانٍ وحالٍ حتى أمنتُ الزمانَ مَكْرَهُ
حالٍ على الصدودِ حتى لم تَبْقَ مما شهدت ذرَّة
قوله جل ذكره : « ذلك جزيناهم بما كفروا واهل نجازي
إلا الكفور » .

* وجعلنا بينهم وبين القرى التي بارَكنا
فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السِرَّ
سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين .

ما عوملوا إلا بما استوجبوا ، ولا سقوا إلا مما تَبَطُّوا^(١) ، وما وقعوا إلا في الوَهْدَةِ
التي حَفَرُوا ، وما قَتَلُوا إلا بالسيف الذي صَنَعُوا !
« وجعلنا بينهم وبين القرى . . » : ما كان من شأنهم إلا التماذي في عصيانهم ، والإصرار
على غيهم وطفيتهم .

« فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كلَّ مُمَزَّقٍ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ »
فرقناهم فريقاً حتى اتخذهم الناسُ مثلاً مضروباً ؛ يقولون . ذهبوا أيدي سبأ ، وتفرقوا أبادى
سبأ . وفي قصتهم آياتٌ لكل صَبَّارٍ على العاقبة ، شكور على النعمة .

قوله جل ذكره : « ولقد صدَّقَ عليهم إبليسُ ظَنَّهُ
فاتَّبِعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ *
وما كان له عليهم من سلطانٍ إِلَّا
لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْثِقُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ
هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ حَفِيزٌ » .

صدق عليهم إبليسُ ظَنَّهُ — وإن كان لا يملك لنفسه أمراً ، فإبليسُ مُسَلِّطٌ على أتباعه

(١) تَبَطَّ = حَقَّقَ في عمله .

من الجن والإنس ، وليس به من الإضلال شيء ، ولو أمكنه أن يضرَّ غيره لأمكنه أن يمسك على الهداية نفسه ، قال تعالى : إن عبادى ليس لك عليهم سلطان^(١) .

« وربك على كل شيء حفيظ » : يهدى من يشاء ويضل من يشاء . ثم أخبر — سبحانه وتعالى — أنه بملكه متفرد ، وفي الألوهية متوحد ، وعن الأضداد والأنداد متعزّز ، وأنهم لا يملكون مثقال ذرّة ، ولا مقياس حبة ، وليس منهم نصير ، ولا شريك ولا ظهير ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وأن الملائكة فى السماء بوصف الهيبة فزعون ، وفى الموقف الذى أثبتهم الحق واقفون ، لا يفترون عن عبادته ولا يعصون .

ثم قال جل ذكره : « قل من يرزقكم السموات والأرض قل الله وإنا أولياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » .

لم يقل أحد — مع شريكه — إنه يحيل فى الرزق على أحد غيره ، فكما لا شريك له فى الرزق ولا شريك له فى الخلق فلا شريك له فى استحقاق العبادة والتعظيم .

قوله جل ذكره : « قل لا تسألون عما أجرمتنا ولا نسأل عما تعملون » قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم .

ولا تسألون عما أجرمتنا ولا نحن نسأل عن إجرامكم . . . ويوم الجمع يحاسب الله كلاً على أعماله ، ويطلب كلاً بشأنه ، لا يؤخذ أحدٌ بعمل غيره ، وكل يعطى كتابه ، ويطلب الله من كل واحد حسابه .

وقد أجرى الله سنته بأن يجمع بين عباده ، ثم يعاملهم فى حال اجتماعهم بغير ما يعاملهم فى حال افتراقهم . فللاجتماع أثر كبير فى الشريعة ، وللصلاة بالجماعة أثر مخصوص . وقد عاتب الله — سبحانه — الذين يفترون عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ومدح من لا يفرق إلا عن استئذان .

(١) آية ٦٥ سورة الإسراء .

والشيوخُ ينتظرون في الاجتماع زوائد ، ويستروحون إلى هذه الآية :

« قل يجمع . . . »

قوله جل ذكره : « قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أُلْحَقَ بِهِ شُرَكَاءُ
كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

كانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، هو لك ، تملكه وما ملك^(١) ، لانهم اكلهم
في ضلالهم . وبعد تمحيصهم بأنها جمادات لا تفقه ولا تقدر ، ولا تسمع ولا تبصر ، وقعت لهم
شبهة استحقاقها العبادة ، فإذا طولبوا بالحجة لم يذكروا غير أنهم يُقلدون أسلافهم . . .
وهذا هو الضلال البعيد والخسران المبين .

قوله جل ذكره : « وما أرسلناك إلا كافةً للناس
بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس
لا يعلمون » .

أرسلناك مُؤيِّداً بالمعجزات ، مُشرِّفاً بجميع الصفات ، سيداً في الأرضين والسموات ،
ظاهراً لأهل الإيمان ، مستوراً عن بصائر أهل الكفران — وإن كنت ظاهراً لهم
من حيث البیان ، قال تعالى : « وتراهم ينتظرون إليك وهم لا يصرون »^(٢)

قوله جل ذكره : « ويقولون متى هذا الوعدُ إن كنتم
صادقين » قل لكم ميعادُ يوم ،
لا تتأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون

لكثرة ما يقولون هذا كرّره الله في كتابه خيراً عنهم ، والجواب إن لكم ميعاد يوم ،
وفي هذا الميعاد لا تتأخرون ساعة ولا تستقدمون .

قوله جل ذكره : « وقال الذين كفروا لن تؤمنَ بهذا

(١) وردت التلبية مضطربة الكتابة وقد صححتها طبعاً لما جاء في الخبر لابن حبيب .

(٢) آية ١٩٨ سورة الأعراف .

القرآن ولا بالذي بين يديه ولو ترى
إذ الظالمون موقوفون عند ربهم
يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول
الذين استضعفوا للذين استكبروا
لولا أنتم لكنا مؤمنين .

لو رأيتم يومذاك لرأيتَ منظراً فظيماً ؛ يرجعُ بعضهم إلى بعض القول ، ويُحيل
بعضهم على بعض الجرم ؛ يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا : أنتم أضللتُمونا ،
وإنكروا الذين استكبروا ويقولون : بل أنتم اتبعتمونا . . وهكذا أصحاب الزلاتِ
الأخلاء في الفساد ، قال تعالى : « بعضهم لبعض عدو » (١) .

وكذلك الجوارح والأعضاء غداً يشهد بعضها على بعض ؛ فاليدُ تقول للجملة أخذتُ ،
والعين تقول أبصرتُ ، والاختلاف في الجملة عقوبة ، ومن عمل بالمعاصي أخرج الله عليه كل
من هو أطوع له ، ولكنهم لا يعلمون ذلك ، ولو علموا لاعتبروا ، ولو اعتبروا لتابوا
ووقفوا . . ولكن ليقض الله أمراً كان مفعولاً .

قوله جل ذكره : « وما أرسلنا في قريةٍ من نذير إلا قال
مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون »

أى قابلوا رُسُلنا بالكذب ، وصبر رُسُلنا . . وماذا على هؤلاء الكفار لو آمنوا بهم ؟
فهم لنجاتهم أرسلوا ، ولصالحهم دعوا وبلغوا ، ولو واقفهم لسعدوا . . ولكن أقساماً
سبقت ، وأحكاماً حقت ، والله غالبٌ على أمره .

« وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً
وما نحن بمعذبين » .

ليس هذا بكثرة الأموال والأولاد ، وإنما هي بصائرُ مفتوحةٌ لقوم ، وأخرى
مسدودةٌ لقوم .

(١) آية ٦٧ سورة الزخرف .

قوله جل ذكره : « وما أموالكم ولا أولادكم بالتي
تُقربكم عندنا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ
صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جِزَاءُ الضُّعْفِ بِمَا
عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْفِرْعَاتِ آمِنُونَ » .

لا تستحق الزُلْفَى عند الله ؛ بالمال والأولاد ، ولكن بالأعمال الصالحة والأحوال الصافية
والأنفاس الزاكية ، بل بالعناية السابقة ، والهداية اللاحقة ، والرعاية الصادقة ، فأولئك لهم جزاء
الضعف « : يضاعف على ما كان لِيَمُنَّ قَدَمُهُمْ مِنَ الْأَمْرِ » وَهُمْ فِي الْفِرْعَاتِ آمِنُونَ « مِنْ
تَكْدِيرِ الصَّفْوَةِ وَالْإِخْرَاجِ مِنَ الْجَنَّةِ » .

قوله جل ذكره : « والذين يسمعون في آياتنا معاجزين
أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ » .

هم الذين لا يحترمون الأولياء ، ولا يراعون حقَّ الله في السرِّ ، فهم في عذاب الاعتراض
على أولياء الله ، وعذاب الوقوع بشؤم ذلك في ارتكاب محارم الله ، ثم في عذاب
السقوط من عين الله .

قوله جل ذكره : « قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ
يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ
مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » .

من الخَاف في الدنيا الرضا بالعدم والفقد ، وهو أتم من السرور بالموجود^(١) ؛ ومن
ذلك الأُنْسُ بالله في الخلوة ؛ ولا يكون ذلك إلا مع التجريد .

قوله جل ذكره : « ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة
أهلؤلاء إياكم كانوا يعبدون » .

قوم كانوا يعبدون الملائكة فيختبرهم عنهم ؛ فيتبرأون منهم وينزّهون الله ويسبحونه ،

(١) استعمال القشيري هنا كلمة (الموجود) بالميم وكان المفروض حسب السياق أن يستعمل (الوجود) ، وهذا
يتأيد رأينا في هامش سابق أن من الخير قصر اصطلاح (الوجود) على الوجود الحق .

يفتضح هؤلاء — والافتضاحُ عند السؤال من شديد العقوبة ، وفي بعض الأخبار :
أنَّ غداً من يسألم الحقَّ فيقع عليهم من الخجل ما يحملهم يقولون : عذِّبنا ربنا بما شئت
من ألوان العقوبة ولا تعذبنا بهذا السؤال !

قوله جل ذكره : « فالיום لا يملكُ بعضكم لبعض
نفعاً ولا ضرراً وتقول للذين ظلموا
ذوقوا عذابَ النار التي كنتم بها
تكذبون » .

الإشارة في هذا أن مَنْ علق قلبه بالأغيار ؛ وظنَّ صلاحَ حاله بالاحتيال^(١) ؛
والاستعانة بالأمثال والأشكال ينزع الله الرحمة من قلوبهم ؛ ويتركهم ، ويشوشُ
أحوالهم ، فلا لهم من الأمثال والأشكال معونة . ولا لهم من عقولهم في أمورهم استبصار ،
ولا إلى الله رجوع ، وإن رجعوا لا يرحمهم ولا يجيبهم ، ويقول لهم : ذوقوا وبال
ما به استوجبتم هذه العقوبة .

قوله جل ذكره : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا
ما هذا إلا رجلٌ يريد أن يصدكم عما
كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك
مُفترى وقال الذين كفروا للحقِّ لَمَّا
جاءهم إن هذا إلا سحرٌ مبين » .

الحكام ، والأولياء — الذين هم الأئمة في هذه الطريقة — إذا دلّوا الناس على الله .
قال بعض إخوان السوء — مثل بعض المتنصحين من أهل الغفلة وأبناء الدنيا^(٢) أريد :
ما هذا ؟ من الذي يطبق كل هذا ؟ ربما لا تتمَّ الطريق !
لا بُد من الدنيا ما دُمْتَ تعيش ! ... وأمثال ذلك ، حتّى يميل هذا المسكينُ عند قبول
النصح ، وربما كان له هذا من خواطره الدنية . . . فيهلك ويضلّ .

(١) الاحتيال هنا معناه الاعتماد على جهده الإنساني ، وتفريغ الوسع فيه دون التمويل على فضل الله ومنته ،
فالواجب إسقاط التدبير والاعتماد على التقدير .
(٢) يشبههم القشيري في موضع آخر بمن كان يهوى المجاهدين قبيل القتال .

قوله جل ذكره : « وما آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا
وما أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ » .

الإشارة من هذا إلى أهل الغفلة ؛ يارضون أصحاب القلوب فيما يجرى من الأمور ، بما
تشوش إليهم نفوسهم ، ويخطر ببالهم من هواجسهم عن مقتضى تفرقة قلوبهم — على قياس
ما يقع لهم — من غير استناد إلى الإلهام ، أو اعتماد على تدبير من الله وإفهام .

وأهل الحقائق — الذين هم لسان الوقت — إذا قالوا شيئاً أو أطلقوا حديثاً ، فلو طولوا
بإقامة البرهان عليه لم يمكنهم ؛ لأن الذي يشكك عن الفراسة أو عن الإلهام ، أو كان مُسْتَنْطَقاً
فليس يمكن لهؤلاء إقامة الحجة على أقوالهم^(١) . وأصحاب الغفلة ليس لهم إيمان بذلك ، فإذا
سمعوا شيئاً منه عارضوهم فيه لكونه فسيل هؤلاء الأَكابر عند ذلك أن يسكتوا ، ثم الأيام^(٢)
تجيب أولئك .

قوله جل ذكره : « قُلْ إِنَّمَا أُعْطِكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا
لِلَّهِ مثنًى وَفُرَادًى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ
مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ
عَذَابٍ شَدِيدٍ » .

يقول : إذا سَوَّلتَ لكم أنفسكم تكذيب الرسول فأنعموا النظر . . هل تَرَوْنَ فيه
آثار ما رميتوه به ؟ هذا محمد صلى الله عليه وسلم . . قُلْتُمْ إنه ساحر — فابن آثار السحر

(١) انظر ص ٣٤٨ من المجلد الثاني من هذا الكتاب .
وقد يظن أن هذا عمل طعن فيما يصدر عن المعارف من أقوال وأحوال ، والواقع أن مرد عجز المعارف عن إقامة
الحجة إلى أن ما يتشال عليه من كشوفات ليس من تدبيره أو احتياله ، ولا نتيجة مهارته أو ذكائه . . وإلا كان
مطلوباً منه أن يسوق حجة أو يقدم برهاناً . . إنما هي أنوار إلهية تنبجس في عالمه الباطن . . وليست تجربة الإمام
الغزالي إلا نموذجاً للمعارف الذي نهل من العلوم العقلية قدراً عظيماً ، ولكن ذلك لم يهديه سورة غليله ، ولم يقده إلى
الراحة والحكمة . . حتى قيس الله له في علوم القوم ما شفاء وكفاء (انظر الصفحات الأولى من : « المنقذ من الضلال »
للإمام الغزالي) .

(٢) هكذا في م رمي في ص (الأثام) ونحن نرجح (الأيام) على معنى أن الدهر كليل بتوسيع الحقيقة —
وإن خلقت زمناً .

على أحواله وأفعاله وأقواله ؟ قلم إنه شاعر — فمن أى قسم من أقسام الشعر كلامه ؟ قلم إنه
مجنون — فأى جنون ظهر منه ؟

وإذا قد عجزتم عن ذلك . . . فهلا عرفتم أنه صادق ؟ !

قوله جل ذكره : « قُلْ إِنْ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَآمٌ

النُّيُوبِ » .

يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى بَاطِلٍ أَهْلُ الْغَفْلَةِ فَنُزُلٌ حَيْثُ لَهُمْ ، وَيُظْهِرُ عَجْزَهُمْ . وَيَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى
أَحْوَالِ أَهْلِ الْخِلَافِ فَيُضْمَحِلُّ اجْتِرَافَهُمْ ، وَيُحَقِّقُ بِهِمْ شَوْمُ مَعَاصِيهِمْ .

ويَقْذِفُ بِالْحَقِّ — إذا حضر أصحاب المغانى — على ظُلُمَاتِ أَصْحَابِ الدَّعَاوَى فَيُخَمِّدُ
ثَأْرَتَهُمْ ، وَيُفْضِحُ عَوَارِثَهُمْ .

قوله جل ذكره : « قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ

وَمَا يُعِيدُ » .

الْبَاطِلُ عَلَى تَمَرِّ الْأَيَّامِ لَا يَزِيدُ إِلَّا زُهُوقًا ، وَالْحَقُّ عَلَى تَمَرِّ الْأَيَّامِ لَا يَزِيدُ إِلَّا قُوَّةً
وظهوراً .

قوله جل ذكره : « قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِى

وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىْ إِلَىَّ رَبِّى إِنَّهُ

سَمِيعٌ قَرِيبٌ » .

إِنْ كُنْتُ مُهْتَدِيًا فَبِرَبِّى لَا يَجْهَدِى . وَإِنْ كُنْتُ عِنْدَكُمْ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالِ فَوْبَالُ ضَلَالَتِى
عَائِدٌ عَلَىَّ ، وَلَنْ يَضُرَّكُمْ ذَلِكَ . فَانظُرُوا أَنْتُمْ إِلَى أَنْفُسِكُمْ . . . أَيْنَ وَقَعْتُمْ ؟ وَأَىْ ضَرَرِ يَعُودُ
عَلَيْكُمْ لَوْ أَطَعْتُمُونِى ؟ لَا فِى الْحَالِ تَخْسِرُونَ ، وَلَا فِى أَنْفُسِكُمْ تَعْبُونَ ، وَلَا فِى جَاهِكُمْ تَقْصُونَ .
وَمَا أَخْبِرْكُمْ بِهِ عَنْ نَقْصِ أَصْنَامِكُمْ فَبِالضَّرُورَةِ^(١) أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ! فَالَكُمْ لَا تُبْصِرُونَ ؟
وَلَا لِأَنْفُسِكُمْ تَنْظُرُونَ ؟

(١) أى لا جدال فى أنكم تجلبونها لاتنفع ولا تضر ولا تستطيع أن تدفع عنها مكررها ، فهى لاتليق بتأليه
ولا تقديس .

قوله جل ذكره : « ولو ترى إذ فرّعوا فلا فوّت وأخذوا
من مكان قريب » .

أى لورأيت ذلك رأيت منظرأ فظيماً ، وأمرأ عظيماً ؛ إذا أخذهم بعد الإمهال فليس إلا الاستئصال .
« وقالوا آمناً به وأننى لهم التناوش من
مكان بعيد » .

إذا تابوا — وقد أغلقت الأبواب ، وندموا — وقد تقطعت الأسباب . . . فليس
إلا الحسرات والندم ، ولات حين ندامة ا

كذلك من استهان بتفاصيل فترته ، ولم يستفّق من غفلته يتجاوز عنه مرة ، ويعفى عنه
كرّة ، فإذا استمكن منه القسوة وتجاوز سوء الأدب حدّ الغفلة ، وزاد على مقدار
الكثرة (١) . . . يحصل له من الحق ردّ ، ويستقبله حجاب ، وبعد ذلك لا يسمع له دعاء ،
ولا يرحم له بكاء ، كما قيل :

فخلّ سبيل العين بعدك للبكا فليس لأيام الصفاء رجوع

قوله جل ذكره : « وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما
فعل بأشياءهم من قبل لهم كانوا في
شك قريب » .

التوبة يشتهونها في آخر الأمر وقد فات الوقت ، وانخضم يريد إرضاءه فيستحي أن يذكر
في ذلك الوقت ، وينسدّ لسانه ويعقل ؛ فلا يمكنه أن يفضّح بما في قلبه ، ويودّ أن لو كان بينه
وبين ما أسلفه بُعد بعيد ، ويتمنى أن يطيع فلا تساعد القوة ، ويتمنى أن يكون له — قبل
خروجه من الدنيا — نفس . . . ثم لا يتفق .

(١) في رأى القشيري : الثلاثة — آخر حد القلة ، وأول حد الكثرة — .

سُورَةُ فَاطِر

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة سماعها يوجب رَوْحًا مَنْ كَانَ يَشَاهِدُ الْإِتْقَانَ ، وَيُوجِبُ لَوْحًا مَنْ كَانَ يَوْصِفُ الْبَيَانَ ؛ فَالرَّوْحُ مِنْ وَجُودِ الْإِحْسَانِ ، وَاللَّوْحُ مِنْ شَهُودِ السُّلْطَانِ ، وَكُلُّ مُصِيبٍ ، وَلِكُلِّ مِنَ الْحَقِّ نَصِيبٌ .

قوله جل ذكره : « الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ ... »

استحق المدح والثناء على انفراده^(١) بالقدرة على خلق السموات والأرض .

« جاعل الملائكة رسلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء » : تعرّف إلى العباد بأفعاله ، وتنبّههم إلى الاعتبار بها ، فمنها ما نعلم منه ذلك معاينة كالسموات والأرض وغيرها ، ومنها ما سبيل الإيمان به الخبر والنقل — لا بدليل العقل — والملائكة من ذلك ؛ فلا تتحقق كيفية صورهم وأجنتهم ، وكيف يطرون بأجنتهم الثلاثة أو الأربعة ، ولكن على الجملة نعلم كمال قدرته ، وصدق كلمته .

قوله : « يزيد في الخلق ما يشاء » : قيل الخلق الحسن ، وقيل الصوت الحسن ، وقيل الصوت الحسن وقيل مَلَاةُ المينين ، وقيل الكياسة في الخيرة^(٢) ، وقيل الفصاحة في المنطق ، وقيل الفهم عن الله ، ويقال السخاء والجود ، ويقال الرضا بالتقدير ، ويقال علو الهمة ، ويقال التواضع ، ويقال العفة عند الفقر ، ويقال الظرف في الشئائل ، ويقال أن تكون مُحِبًّا إلى القلوب ، ويقال خفة الروح ، ويقال سلامة الصدر من الشرور ، ويقال المعرفة بالله بلا تأمل

(١) مكلف في م . وهي في ص (إرشاده) .

(٢) اسم من الاختيار .

برهان^(١) ، ويقال الشوق إلى الله ، ويقال التعطف على الخلق يحملهم ، ويقال تحرر القلوب من رِقِّ الحدثنان بحملته ، ويقال ألا يَطْلُبَ لنفسه منزلةً في الدارين^(٢) .

قوله جل ذكره : « ما يفتح الله للناس من رحمةٍ فلا تُمسيك لها وما يُمسيك فلا تُرسل له مِنْ بَعْدِهِ وهو العزيز الحكيم » .

الموسّع عليه رِزْقُهُ لا يَضَيِّقُ عليه غيرُ الله ، والمحروم لا يُوسّعُ عليه غيرُ الله .

ويقال : ما يلج في قلوب العارفين من أنوار التحقيق لاسحابٍ يستره ، ولا ضياءٍ يقهره .
ويقال : ما يلزم قلوب أوليائه من اليقين فلا تُزِيلَ له ، وما يُفلق على قلوب الأعداء من أبواب الذكر فلا فاتحَ له غيره — سبحانه .

ويقال الذي يقرنه بقلوب أوليائه وأحوالهم من التيسير فلا تُمسيك له ، والذي يمنعه عن أعدائه — بما يُلقِيهم فيه من انغلاق الأمور واستصاهاها — فلا مُيسِّرَ له من دونه .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هل من خالقٍ غيرِ اللَّهِ يرزقكم من السماء والأرض لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا تَوْفِكَونَ » .

مَنْ ذَكَرَ النِّعْمَةَ فَصَاحِبُ عِبَادَةٍ ، وَنَائِلُ زِيَادَةٍ ، وَمَنْ ذَكَرَ الْمُنْعِمَ فَصَاحِبُ إِرَادَةٍ ، وَنَائِلُ زِيَادَةٍ .. ولكن فرقاً بين زيادة وعبادة ؛ ذلك زيادته في الدارين عطاؤه ، وهذا زيادته لقائه : اليوم سِرّاً بِسِرٍّ من حيث المشاهدة ، وغداً جَهْراً بِجَهْرٍ من حيث المعاينة .
والنعمة على قسمين^(٣) : ما دَفَعَ عنه من المِحْنِ ، وما نَفَعَ به من المِنَنِ ؛ فَذِكْرُهُ لِمَا دَفَعَ عنه يوجبُ دوامَ العصمة ، وَذِكْرُهُ لِمَا نَفَعَ به يوجبُ تمامَ النعمة .

(١) من اختاره الله لمعرفته لا يتركه يتعنى في الأدلة والبراهين بعد اجتياز مرحلة البداية المصححة بالعقل . بل يفك أسره من هذه القيود لينطلق في رحلة العرفان بالقلب ، ثم الروح ، ثم السر ، ثم عين السر .
(٢) يرى الزمخشري أن الآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق وميزة فيه .. وتلك أمور لا يحيط بها وصف .
(٣) مرة أخرى يعود التشيرى إلى ذكر نعم الدفع ، ونعم النفع ، وواضح أن الذكر والشكر لازمان على الدوام .. هذا هو المقصد الذي يطمح إليه التشيرى .

« هل من خالق غير الله ؟ » وفائدة هذا التعريف أنه إذا عرّف أنه لا رازق غيره لم يُلْقَ قلبه بأحد في طلب شيء ، ولم يتدلل في ارتفاق الخلق ، وكما لا يرى رزقه من مخلوق لا يراه من نفسه أيضاً ؛ فيتخلص من ظلمات تدبيره واحتياله ^(١) ، ومن توهم شيء من أمثاله وأشكاله ، ويستريح لشهود تقديره ، ولا محالة يُخلص في توكله وتقويضه .

قوله جل ذكره : « وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » .

هذه تسليّة للرسول صلى الله عليه وسلم ، وتسهيل للصبر عليه ؛ فلذا علّم أن الأنبياء عليهم السلام استقبلهم مثلما استقبله ، وأنهم صبروا وأن الله كفاهم ، فهو يسلك سبيلهم ويقتدى بهم ، وكما كفاهم علّم أنه أيضاً يكفيه . وفي هذا إشارة للحكام وأرباب القلوب في موقفهم من العوام والأجانب عن هذه الطريقة ، فإنهم لا يقبلون منهم إلا القليل ، بينما أهل الحقائق أبدأ منهم في مقاساة الأذى إلا بستر حالم عنهم ^(٢) .

والعوام أقرب إلى هذه الطريقة من القراء ^(٣) المتقشفين ، ومن العلماء الذين هم لهذه الأصول ينكرون .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ »

(١) فالواجب إسقاط التدبير وشهود التقدير - كما قلنا في الهامش منذ قليل .
(٢) لجأ «ملاّتيّة» نيسابور إلى هذا السر ، واكتفوا بعلم الله بأسرارهم وصلاح باطنهم ، ولم يأبهوا بالمخلوقين . بل رغبة في تأكيد علاقتهم بالله ، وإيماناً في إخفاء حقائقهم كانوا يقومون بأشياء تستوجب الملاّمة ... نقول ذلك رغبة في توضيح أن أفكار هذا المذهب كانت معروفة في مدينة نيسابور موطن القشيري ، كما كان السلمي جد أبي عبد الرحمن صديقه الحميم واحداً من رواد هذا المذهب وأئمة .
(٣) القراء جماعة من قراء القرآن ظهروا منذ عهد مبكر (ولازموا الأعمدة في الليل يتهجدون ، حتى إذا جاء النهار استقوا الماء واحتطبوا لئلا يروا في صحبته (ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ٣٦ ، ٣٧) ، ولكن اللفظة أطلقت فيما بعد بصفة عامة على (الذين يزورون عن الدنيا ويخصصون أنفسهم للعمل الصالح والزهد والتأمل) ابن سعد ج ٦ ص ٢٥٥ . (ويقال تقرى بتسهيل الهزة أي تنسك) (أمالى القائل ج ٣ ص ٤٧) .. ولقد نبه عمر بن الخطاب إلى ضرورة تنقية هذا اللون من التعبد من كل الأغراض والأمراض حيث يقول : «يأبها الناس إنه أقي على حين وأنا أحسب أنه من قرأ القرآن إنما يريد به الله وما عنده ، ألا وقد خيل إلى أن أقواماً يقرءون القرآن يريدون به ما عند الله ، ألا فأريدوا الله بقرأتكم وبأعمالكم» البيان والتبيين ج ٣ ص ١٣٨ . ولكن يبدو أن الزمن قد فعل فعله في خروج طوائف من القراء عن هذا الخط ... الأمر الذي جعل القشيري - وقد عاش في القرنين الرابع والخامس - يتحفظ في الحكم عليهم .

فَلَا تَفَرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَفَرَّكُمْ
بِاللَّهِ الْغُرُورُ .

وَعَدُ اللَّهِ حَقٌّ فِي كُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ أَنَّهُ يَكُونُ ، فَوَعْدُهُ فِي الْقِيَامَةِ حَقٌّ ، وَوَعْدُهُ لِمَنْ أَطَاعَهُ
بِكِفَايَةِ الْأُمُورِ وَالسَّلَامَةِ حَقٌّ ، وَوَعْدُهُ لِلْمُطِيعِينَ فِي الْآخِرَةِ بِوُجُودِ الْكَرَامَةِ حَقٌّ ، وَلِلْعَاصِينَ
بِالنَّدَامَةِ حَقٌّ ، فَإِذَا عَلِمَ الْعَبْدُ ذَلِكَ اسْتَعَدَّ لِلْمَوْتِ ، وَلَمْ يَهْتَمَّ بِالرِّزْقِ ، فَيَكْفِيهِ اللَّهُ شُغْلَهُ ،
فَيَنْشِطُ الْعَبْدُ فِي اسْتِكْثَارِ الطَّاعَةِ ثَقَّةً بِالْوَعْدِ ، وَلَا يُلِمُّ بِالْمُخَالَفَاتِ خَوْفًا مِنَ الْوَعِيدِ .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ
عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ
أَصْحَابِ السَّعِيرِ » .

عِدَاوَةُ الشَّيْطَانِ بِدَوَامِ مُخَالَفَتِهِ ؛ فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعَاوَنُهُ بِالْقَوْلِ وَلَكِنْ يُوَاقِقُهُ بِالْفِعْلِ ،
وَلَنْ تَقْوَى عَلَى عِدَاوَتِهِ إِلَّا بِدَوَامِ الِاسْتِغَاثَةِ بِالرَّبِّ ، وَتِلْكَ الِاسْتِغَاثَةُ تَكُونُ بِصِدْقِ
الِاسْتِعَانَةِ . وَالشَّيْطَانُ لَا يَقْتَرِ فِي عِدَاوَتِكَ ، فَلَا تَغْفَلَ أَنْتَ عَنْ مَوْلَاكَ لِحِظَةِ فَيَبْرُزَ لَكَ عَدُوُّكَ ؛
فَإِنَّهُ أَبَدًا مَتَمَكِّنٌ لَكَ .

« إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ » وَحِزْبُهُ هُمُ الْمُعْرِضُونَ عَنِ اللَّهِ ، الْمُشْتَغِلُونَ بِغَيْرِ اللَّهِ ، الْغَافِلُونَ عَنِ
لِلَّهِ . وَدَلِيلُ هَذَا الْخُطَابِ : إِنَّ الشَّيْطَانَ عَدُوُّكُمْ فَأَبْغِضُوهُ وَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، وَأَنَا وَلِيُّكُمْ
وَحَبِيبُكُمْ فَأَحِبُّونِي وَارْضَوْا بِي حَبِيبًا .

قوله جل ذكره : « الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ » .

الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ مُعَجَّلٌ وَعَذَابٌ مُؤَجَّلٌ ، فَمُعَجَّلُهُ تَفْرِقَةُ قُلُوبِهِمْ وَانْسِدَادُ بَصَائِرِهِمْ
وَوَقَاحَةُ هِمَّتِهِمْ حَتَّى أَنَّهُمْ يَرْضَوْنَ بِأَن يَكُونَ الصَّنَمُ مَعْبُودَهُمْ . وَأَمَّا عَذَابُ الْآخِرَةِ فَهُوَ مَا لَا نَخْفَى
عَلَى مُسْلِمٍ — عَلَى الْجَمَلَةِ — صَعُوبَتُهُ .

وأما « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » فلهم مغفرة أى سترٌ لذنوبهم اليوم ، ولولا ذلك لا ففضحوا ، ولولا ذلك لَهَلَكُوا .

« وأجر كبير » : والأجرُ الكبيرُ اليومَ سهولةُ العبادةِ ودوامُ المعرفة ، وما يناله في القلب من زوائد اليقين وخصائص الأحوال . وفي الآخرة : تحقيقُ السُّؤلِ ونيلُ ما فوق المأمول . قوله جل ذكره : « أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ

حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ » .

معنى الآية : أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً كمن ليس كذلك ؟ لا يستويان ! ومعنى « زين له سوء عمله » أن الكافرَ يَتَوَقَّعُ أَنَّ عملهَ حَسَنٌ ، قال تعالى : « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا »^(١) .

ثم الراغبُ في الدنيا يجمع حلالها وحرامها ، ويحوش^(٢) حُطَامها ، ولا يفكر في زوالها ، ولا في ارتحالها عنها قبل كمالها ؛ فلقد زين له سوء عمله (والذي يتبع شهواته ويبيع مؤبد راحاته في الجنة بساعةٍ فلقد زين له سوء عمله^(٣)) . وإن الذي يُؤثِرُ على ربِّه شيئاً من المخلوقات لهو من جملتهم . والذي يتوَقَّعُ أنه إذا وَجَدَ نجاته ودرجاته في الجنة — وأن هذا يكفيه ... فقد زُيِّنَ له سوء عمله حيث يتغافل عن حلاوة المناجاة . والذي هو في صحبة حظوظه ولا يُؤثِرُ حقوق الله فلقد زين له سوء عمله فرآه حسناً .

« فلا تذهب نفسك عليهم حسراتٍ » : يعنى إذا عَرَفْتَ حقَّ^(٤) التقدير ، وَعَلِمْتَ أنهم سقطوا من عين الله ، ودَعَوْتَهُمْ جَهْرًا ، وَبَذَلْتَ لَهُمْ نَصْحًا ، فاستجابتهم ليست لك ، فلا تَجَمَّلَ على قلبك من ذلك مشقة ولا غناء .

(١) آية ١٠٤ سورة الكهف .

(٢) حوش المال ونحوه = جمعه وادخره (الوسيط) .

(٣) ما بين القوسين موجود في م وغير موجود في ص .

(٤) حكنا في م وهي في ص (سر) التقدير .

قوله جل ذكره: « والله الذي أرسل الرياح فتثير

سحاباً فسقنناه إلى بلد ميت فأحيينا

به الأرض بعد موتها كذلك النشور »

أجرى سُنَّتَهُ بأنه يُظهِرُ فَضْلَهُ في إحياء الأرض بالتدريج ؛ فأولاً يرسل الرياح ثم يأتي بالسحاب ، ثم يوجه ذلك السحاب إلى الموضع الذي يريد له تخصيصاً كيف يشاء ، ويُمَطِّرُ هناك كيف يشاء . كذلك إذا أراد إحياء قلب عبدٍ بما يسقيه وينزل عليه من أمطار عنايته ، فيُرْسِلُ أولاً رياحَ الرجاء ، ويزعج بها كوامنَ الإرادة ، ثم ينشئ فيها سُحُبَ الاهتياج ، ولوعة الانزعاج ، ثم يجود بمطرٍ يُنْبِتُ في القلب أزهارَ البَسْطِ ، وأنوارَ^(١) الرُّوحِ ، فيطيب لصاحبه العيشُ إلى أن تتمَّ لطائفُ الأنسِ .

قوله جل ذكره: « مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ

جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ

الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ

السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ

أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ »

مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْعِزَّةَ بِنَفْسِهِ فَلْيَعْلَمْ أَنَّ الْعِزَّةَ بِجَمَلَتِهَا لِلَّهِ ، فَلَيْسَ لِلْمَخْلُوقِ شَيْءٌ مِنَ الْعِزَّةِ . وَيُقَالُ مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْعِزَّةَ لِنَفْسِهِ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً ، أَيْ فَلْيَطْلُبْهَا مِنَ اللَّهِ ، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى أُثْبِتَ الْعِزَّةَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وَقَالَ هَاهُنَا « فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً » ؛ وَوَجْهُ الْجَمْعِ بَيْنَهَا أَنَّ عِزَّةَ الرَّبُّوبِيَّةِ لِلَّهِ وَصِفًا ، وَعِزَّةَ الرَّسُولِ ، وَعِزَّةَ الْمُؤْمِنِينَ لَهُمْ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَلِصَاحِبِهِ : فَإِذَا الْعِزَّةُ لِلَّهِ جَمِيعاً . وَعِزُّهُ سُبْحَانَهُ — قُدْرَتُهُ . أَوْ يُقَالُ الْعَزِيزُ هُوَ الْقَاهِرُ الَّذِي لَا يُقَهَّرُ ؛ فَيَكُونُ مِنْ صِفَاتِ فِعْلِهِ عَلَى أَوَّلِ الْقَوْلِينَ . . . وَمِنْ صِفَاتِ ذَاتِهِ عَلَى الْقَوْلِ الْآخِرِ . وَيُقَالُ الْعَزِيزُ هُوَ الَّذِي لَا يُوَصَّلُ إِلَيْهِ مِنْ قَوْلِهِمْ : أَرْضٌ عَزَازٌ إِذَا لَمْ تَسْتَقِرْ عَلَيْهَا الْأَقْدَامُ ، فَيَرْجِعُ مَعْنَاهُ إِلَى جَلَالِ سُلْطَانِهِ .

وَيُقَالُ الْعَزِيزُ الَّذِي لَا مِثْلَ لَهُ ؛ مِنْ قَوْلِهِمْ : عَزَّ الطَّعَامُ فِي الْبَيْدِ ، فَيَرْجِعُ إِلَى اسْتِحْقَاقِهِ لَصِفَاتِ الْمَجْدِ وَالْعُلُوِّ .

(١) أنوار هنا جمع نورة وهي الزهرة البيضاء .

قوله : « إليه يصعد الكلم الطيب » : الكلم الطيب هو الصادر عن عقيدة طيبة —
يعنى الشهادتين — عن إخلاص . وأراد به صعود قبول ؛ لأن حقيقة الصعود فى اللغة بمعنى
الخروج — ولا يجوز فى صفة الكلام^(١) .

« والعمل الصالح يرفعه » : أى يقبله . ويقال العمل الصالح يرفع الكلم الطيب . ويقال
الكلم الطيب ما يكون مواهقا للسنة ، ويقال هو ما يشهد بصحته الإذن والتوقيف . ويقال
هو نطق القلب بالثناء على ما يستوجبه الرب . ويقال هو ما يكون دعاء للمسلمين . ويقال
ما يتجرد حقا للحق ولا يكون فيه حظ للعبد . ويقال ما هو مستخرج من العبد وهو فيه
مفقود^(٢) . ويقال هو بيان التنصل وكلمة الاستغفار .

ويقال العمل الصالح ما يصلح للقبول ، ويقال الذى ليس فيه آفة ولا يطلب عليه عوض
قوله جل ذكره : « والذين يَمَكُرُونَ السيئات لهم
عذابٌ شديدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ
يَبُورُ » .

أى يقلب عليهم مكرهم ؛ فما يتوهمونه من خير لهم يقلبُه محنة عليهم . ويقال : تحلبيته
إياهم ومكرهم^(٣) — مع قدرته على عصمتهم ، وكونه لا يعصمهم هى عذابهم الشديد .

قوله جل ذكره : « وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ
نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ
أَنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ
مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي
كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ »

ذَكَرَهُمْ نِسْبَتَهُمْ لِثَلَاثِ عَجَبٍ بِحَالَتِهِمْ ، ثُمَّ إِنَّ مَا يُتَّخَذُ مِنَ الطِّينِ سَرِيعُ التَّغْيِيرِ ، قَلِيلٌ

(١) لأن الخروج يقتضى تحلا .. والألوهية تنزه عنه .

(٢) أى ما يصدر عن العبد وهو مأخوذ مستلب عن نفسه — من المعارف .

(٣) نصبنا الراء فى (ومكرهم) لتكون مفعولا معه فهكذا نفهم السياق .

القوة في المكث ، لكنه يقبلُ الانجبار بالماء إذ تنجبر به طينته ؛ فإذا جاد الحقُّ عليه بماء الجود أعاده بعد انكساره بالذنوب^(١) .

وإذا كان لا يخفى عليه — سبحانه — شيء من أحوالهم في ابتداء خَلْقِهِمْ ، فمن يُبالِ أن يَخْلُقَ مَنْ يَعْلَمُ أنه يَعْصِي فلا يزالُ أن يفِرَ لِمَنْ رآه يعصِي^(٢) .

قوله جل ذكره : « وما يستوى البحران هذا عَذْبٌ

فَرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ

وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا

وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى

الْفُلُكَ فِيهِ مَوَاقِرَ تَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ

وَلَكُمْ تَشْكُرُونَ »

لا تستوى الحالتان : هذه إقبالٌ على الله ، واشتغالٌ بطاعته ، واستقلالٌ بمعرفته . . وهذه إغراضٌ عن الله ، وانقباضٌ عن عبادته ، واعتراضٌ — على الله — في قسمته وقبضته . هذه سببٌ وصلاته ، وهذه سببٌ هجره وانفصاله ، وفي كلٍّ واحدةٌ من الحالتين يعيش أهلها ، ويرزق أصحابها وقتها . ولا يستوى الوقتان : هذا بسطٌ وصاحبه في رَوْح ، وهذا قبضٌ وصاحبه في نَوْح . هذا خوفٌ وصاحبه في اجتياح ، وهذا رجاءٌ وصاحبه في ارتياح . هذا فرقٌ وصاحبه بوصف المبودية ، وهذا جمعٌ وصاحبه في شهود الربوبية .

« ومن كل تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا » : كذلك كُلُّ يَتَقَرَّبُ في حالته لربه ؛ ويتزَيَّنُ على بابه ، وهو حِلْيَتُهُ التي بها يتحلَّى من طَرَبٍ أو حَرَبٍ ، من شَرَفٍ أو تَلَفٍ .

(١) عرض القشيري فيما سبق لهذه النقطة عندما تحدث عن خلق آدم وإبليس ، وكيف أن ماء العناية جبر آدم حين أظهر المذنب فاجتباها ربه وتاب عليه ، وكيف أن الماء أطفأ نار إبليس فأنظره إلى يوم يبعثون ، ليبدل القشيري بذلك على أن الطين أفضل من النار ، وأن إبليس أخطأ في دعوى أفضليته على آدم .

(٢) أي أن معصية العبد من العبد عملاً — وفي هذا إثبات لحرية الإنسان واختياره — وإن كانت من الله علماً ... وهو من قبل ومن بعد غافر الذنب وقابل التوب .

قوله جل ذكره : « يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُورِجُ النَّهَارَ فِي
الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي
لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ
وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ
مِنْ قَاطِرٍ » .

تغلب النفسُ مرةً على القلب ، ويغلب القلبُ مرةً على النفس . وكذلك القبضُ والبسطُ
فقد يستويان ، ومرةً يغلب القبضُ على البسط ، ومرةً يغلب البسطُ على القبض ، وكذلك
الصحو والشُّكْرُ ، وكذلك الفناء والبقاء .

وسَخَّرَ شَمْسَ التَّوْحِيدِ وَأَقَارَ الْمَعْرِفَةِ عَلَى مَا يَرِيدُ مِنْ إظهاره على القلوب .

« ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ » : فأروني شظيةً من النفي أو الإثبات لما تدعونه من دونه !
وإِذْ لَمْ يُمَكِّنْكُمْ ذَلِكَ . . . فَهَلَّا أَقْرَرْتُمْ ، وفي عبادته أخلصتم ، وعن الأصنام تبرأتم ؟ .

قوله جل ذكره : « إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا
مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ
بِشْرِكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » .

إِنْ اسْتَعَنْتُمْ بِأَصْنَامِكُمْ لَا يُعِينُوكُمْ ، وَإِنْ دَعَوْتُمُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ، وَلَوْ سَمِعُوا —
على جهة ضَرْبِ المَثَلِ — لَا يَسْتَجِيبُونَ لَكُمْ ؛ لأنهم لَا يَمْلِكُونَ نَفْعَ أَنْفُسِهِمْ . . فكيف
يَمْلِكُونَ نَفْعَ غَيْرِهِمْ ؟ !

« وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ » : لَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، وَلَكِنْ لَا يَنْفَعُهُمُ
الْإِيمَانُ بَعْدَ زَوَالِ التَّكْلِيفِ .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ
وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ » .

الفقر على ضربين : فقر الخِلْقَةِ وفقر الصِّفَةِ ؛ فَأَمَّا فقر الخِلْقَةِ فهو عامٌّ لكلِّ أَحَدٍ ؛ فكلُّ
مَخْلُوقٍ مُفْتَقِرٌ إِلَى خَالِقِهِ ، فهو قد حَصَلَ مِنَ الْعَدَمِ ، فهو مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ لِيُؤْتِيَهُ وَيُنْشِئَهُ ، ثم بعد

ذلك مفتقرٌ — في حال بقائه إليه — لِيُدِيَمَهُ وَيَقِيَهُ . فاللهُ — سبحانه — غنيٌّ ، والعبدُ فقيرٌ ؛
العبدُ فقيرٌ بعينه واللهُ غنيٌّ بعينه (١) .

وأما فقر الصفة فهو التجردُ ؛ فققرُ العوامِ التجردُ من المال ، وققرُ الخواصِ التجردُ من
الأعلالِ لَيْسَلَمَ لهم الفقرُ .

والفقر على أقسام : فقر إلى الله ، وققر إلى شيء هو من الله ؛ معلومٌ أو مرسومٌ وغير ذلك .
ومن افتقر إلى شيء استغنى بوجود ذلك الشيء ؛ فالفقيرُ إلى الله هو الغنيُّ بالله ، والافتقار
إلى الله لا يخلو من الاستغناء بالله ، فالفتقر إلى الله مُسْتَغْنٍ بالله ، والمستغنى بالله مفتقرٌ
إلى الله (٢) .

ومن شرف الفقر اقترانه بالتواضع والخضوع ، ومن آفات الغنى امتزاجه بالتكبر .
وشرفُ العبد في فقره ، وكذلك ذُلُّه في توهه أنه غنيٌّ : —

وَإِذَا تَذَلَّلْتَ الرَّقَابُ تَقَرُّبًا مِّنَّا إِلَيْكَ فَعِزُّهَا فِي ذُلِّهَا (٣)

ومن الفقر المذموم ، أن يَسْتُرَ الحقُّ على صاحبه مواضع فقره إلى ربِّه ، ومن الفقر الحمود
أن يُشْهِدَهُ الحقُّ مواضع فقره إليه .

ومن شرط الفقير المحلص ألا يملك شيئاً ويملك كلَّ شيء .

ويقال : الفقير الصادق الذي لا يملكه شيء (٤) .

ومن آداب الفقير الصادق إظهارُ التَّشْكُرِ عند كمالِ التَّكْسَرِ . ومن آداب الفقر كمالُ
المعنى وزوالُ الدعوى . ويقال الشكر على البلوى والبعد عن الشكوى .

(١) أي أن العبد — كذات مستقلة — فقير ؛ لأنه مخلوق يحتاج إلى خالفه ، والحق — كذات مستقلة —
غني ؛ لأنه خالق فهو في غير حاجة إلى مخلوقه .

(٢) من أقوال الجنيد في هذا الصدد وقد سئل عن الافتقار إلى الله : أهو أُم أم الاستغناء بالله قال : إذا صح
الافتقار إلى الله فقد صح الاستغناء بالله ، وإذا صح الاستغناء بالله كل الغنى به ؛ فلا يقال أيهما أُم ؛ لأنهما حالتان
لا تتم إحداهما إلا بالأخرى (الرسالة ص ١٣٥) .

(٣) من أقوالهم في هذا الصدد : لو علم أبناء الملوك ما نحن فيه من عز لجالودنا عليه .

(٤) أي لا يكون أسيراً لفرض أو لعرض ، فتلك آفة الدنيا والنفس .

وحقيقة الفقر المحمود تجرّد السرّ عن العلوات وإفراد القلب بالله .

ويقال : الفقر المحمود العيش مع الله براحة الفراغ على سرمد الوقت من غير استكراه شيء منه بكل وجه .

قوله : « والله هو الغنى الحميد » : الإشارة منه أن يعطى حتى يُحمد .

ويقال الغنى إذا أظهر غناه لأحد فإما للمفاخرة أو للمكاثرة — وجلّ قدر الحق عن ذلك — وإما ليجود ويتفضل على أحد .

ويقال : لا يقول لنا أتم الفقراء للإزراء بنا — فإنّ كرمه يتقدّس عن ذلك — وإنما المقصود أنه إذا قال : والله الغنى ، وأتم الفقراء أنه يجود علينا .

ويقال إذا لم تدع ما هو صفته — من استحقاق الغنى — أولاك ما يُغنيك ، وأعطاك فوق ما يكفيك .

قوله جل ذكره : « إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ » .

عرّفك أنه غنى عنك ، وأشهدك موضع فقرك إليه ، وأنه لا بدّ لك منه ، فما القصد من هذا إلا إرادته لإكرامك وإيوائك في كنف إنعامه .

قوله جل ذكره : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

كلّ مطالب بعمله ، وكلّ محاسب عن ديوانه ، ولكلّ معه شأن ، وله مع كلّ أحد شأن . ومن العبادات ما تجرى فيه النيابة ولكن في المعارف لا تجرى النيابة ؛ فلو أن عبداً عاصياً منهمكاً في غوايته فاتته صلاة مفروضة ، فلو قضى عنه ألف ولي وألف صنيّ تلك الصلاة الواحدة عن كل ركعة ألف ركعة لم تقبل منه إلا أن يجيء هو : معاذ الله أن نأخذ إلا بمن وجدنا متاعنا عنده ! فعتابك لا يجرى مع غيرك ، والخطاب الذي معك لا يسمعه غيرك :

فَسِرْ أَوْ أَقِمْ وَقِفْ عَلَيْكَ مَحَبَّتِي مَكَانُكَ مِنْ قَلْبِي عَلَيْكَ مَصُونُ

« إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ

بالغيثِ وأقاموا الصلاةَ وَمَنْ تَزَكَّى

فإنما يتزَكَّى لِنَفْسِهِ وإلى الله المصير .

الإِنذار هو الإعلام بموضع الخفاة ، والخشية هي الخفاة ؛ فمعنى الآية ، لا ينفع التخويف إلا لمن صَاحَبَ الخوفَ — وطيرُ السماء على أشكالها تَقَعُ .

قوله جل ذكره : « وما يستوى الأعمى والبصير *

ولا الظلماتُ ولا النورُ * ولا الظلُّ

ولا الحرُّورُ * وما يستوى الأحياء

ولا الأمواتُ إِنَّ اللَّهَ يَسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ

وما أنت بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ » .

كما لا يستوى الأعمى والبصير لا تستوى الظلمات والنور ، ولا يستوى الظلُّ والحرور ، ولا الأحياء والأموات .. وكذلك لا يستوى الوصول بنا والمشغول عنا ، والمجذوبُ إلينا ، والمجذوبُ عنا ، ولا يستوى مَنْ اصطَفَيْنَاهُ فِي الْأَزَلِّ وَمَنْ أَشَقَيْنَاهُ بِحُكْمِ الْأَزَلِّ ، ولا يستوى مَنْ أَشْهَدْنَاهُ حَقَّنَا وَمَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا :

أحبابنا شتان : وافي وناقضُ ولا يستوى قطُّ مُحِبٌّ وباغِضُ

قوله جل ذكره : « إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ * إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ

بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا

خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ » .

أى وما من أمةٍ ممن كانوا من قبلك إِلَّا بعثنا فيهم نذيراً ، وفى وقتك أرسلناك إلى جميع الأمم كافةً بالحق .

« بَشِيرًا وَنَذِيرًا » : تضمنت الآية بيان أنه لم يُخَلِّ زمانًا ولا قومًا مِنْ شَرِيعٍ .

وفى وقته صلى الله عليه وسلم أفردته بأن أرسله إلى كافة الخلائق ، ثم قال على جهة التسلية والتعزية له :

« وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ

مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ
وَالزُّبُرِ وَبَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ » .

أى لو قابلوكم بالكذب فتلك سُنَّتُهُمْ مع كلِّ نبيٍّ ، وإنْ أَمَرُوا عَلَى سُنَّتِهِمْ فِي الْغَىِّ
فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا فِي الْإِتْقَامِ وَالْخِزْيِ .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ
الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا
وَعَرَابِيْبٌ سُودٌ » .

يَبَيِّنُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَأَمْثَالِهَا أَنَّ تَخْصِيصَ الْفِعْلِ بِهَيْئَاتِهِ وَأَلْوَانِهِ مِنْ أَهْلَةِ قَصْدِ الْفَاعِلِ وَبِرْهَانِهِ ،
وَفِي إِتْقَانِ الْفِعْلِ وَإِحْكَامِهِ شَهَادَةٌ عَلَى عِلْمِ الصَّانِعِ وَإِعْلَامِهِ .

وَكَذَلِكَ أَيْضًا « مِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ » : بَلْ جَمِيعُ الْخُلُوقَاتِ مُتَجَانِسُ الْأَعْيَانِ
مُخْتَلِفٌ ، وَهُوَ دَلِيلُ ثَبُوتِ مُنَشِئِهَا بِنِعْمِ الْجَلَالِ .

قوله جل ذكره : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » .

« إِنَّمَا » كَلِمَةٌ تَحْقِيقِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ وَجْهِ مَجْرَى التَّحْدِيدِ أَى التَّخْصِيصِ وَالْقَصْرِ ، فَهِيَ قَدَّ الْعِلْمُ
بِاللَّهِ فَلَا خَشْيَةَ لَهُ مِنَ اللَّهِ .

وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْخَشْيَةِ وَالرَّهْبَةِ أَنَّ الرَّهْبَةَ خَوْفٌ يُوجِبُ هَرَبَ صَاحِبِهِ فَيَجْرِي فِي هَرَبِهِ ،
وَالْخَشْيَةُ إِذَا حَصَلَتْ كَبَعَتْ جَمَاحَ صَاحِبِهَا فَيَبْقَى مَعَ اللَّهِ ، قَدِّمَتْ الْخَشْيَةُ عَلَى الرَّهْبَةِ فِي
الْجُمْلَةِ (١) .

وَالْخَوْفُ قَضِيَّةُ الْإِيمَانِ ، قَالَ تَعَالَى : « وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » (٢) فَالْخَشْيَةُ قَضِيَّةُ الْعِلْمِ ،
وَالْهَيْبَةُ تَوْجِبُ الْمَعْرِفَةَ .

(١) يَفِيدُ هَذَا الْكَلَامُ فِي التَّفَرُّقَةِ بَيْنَهُمَا عِنْدَ بَحْثِ الْمَصْطَلَحِ الصَّوْفِيِّ .

(٢) آيَةُ ١٧٥ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ .

ويقال خشية العلماء من تقصيرهم في أداء حقّه . ويقال من استحيائهم من اطلاع الحق .
ويقال حَذَرًا من أن يحصل لهم سوء أدبٍ وتركُ احترامٍ ، وانبساطٌ في غير وقته بإطلاق
لفظٍ ، أو ترخُّصٍ بِتَرْكِ الأولى .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا
الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ » .

الذين يستغرق جميع أوقاتهم قيامهم بذكر الله وبحقّه ، وإتيانهم بأنواع العبادات وصنوف
القُرْب فَلَهُمُ الْقَدَرُ الْأَجَلُّ مِنَ التَّقَرُّبِ ، والتَّصَيُّبُ الْأَوْفَرُ مِنَ التَّرْحِيبِ . وأما الذين أجوالهم
بالضدِّ فَمَنَالُهُمْ عَلَى الْعَكْسِ . أولئك هم الأولياء الْأَعِزَّةُ ، وهؤلاء هم الْأَعْدَاءُ الْأَذِلَّةُ .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ
هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ
بِعَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ » .

ما عَرَفْنَاكَ — من اختيارنا لك وتخصيصنا إياك ، وتقديعنا لك على الكفاية — فلي
ما أخبرناك ، وأنشدوا :

لَا أُبْنِي بَدَلًا سِوَاكَ خَلِيلَةً فَتَحِي بِقَوْلِي وَالْكَرَامُ ثِقَاتُ

قوله جل ذكره : « ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا
مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ
وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِنُ اللَّهُ ذَلِكَ
هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ » .

« أَوْرَثْنَا » : أى أعطينا الكتاب — أى القرآن — الذين اصطفينا من عبادنا ، وذَكَرَ
الإِعْطَاءَ بِلَفْظِ الْإِثْرِ تَوْشَعًا .

« اصطفينا » : أى اخترنا . ثم ذكر أقسامهم ، وفي الخبر أنه لما نزلت هذه الآية قال عليه
السلام : « أمتي وربُّ الكعبة » ثلاث مرات .

وفي الآية وجوه من الإشارة : فمنها أنه لما ذكر هذا بلفظ الميراث فالإيراث يقتضي صحة النسب على وجه مخصوص ، فمن لا سبب له فلا نسب له ، ولا ميراث له .

ومحل النسب ها هنا المعرفة ، ومحل السبب الطاعة . وإن قيل محل النسب فضله ، ومحل السبب فعلك^(١) . فهو وجه . ويصح أن يقال محل النسب اختياره لك بدءاً ومحل السبب إحسانه لك تالياً .

ويقال أهل النسب على أقسام : — الأقوى ، والأدنى كذلك في الاستحقاق .

ويقال جميع وجوه التملك لا بدّ فيها من فعل للعبد كالبيع ، أمّا ما يملك بالهبة فلا يحصل إلا بالقبول والقسم ، ولا يحصل الاستحقاق إلا بالحضور والمجاهدة وغير ذلك : والوصية لا تستحق إلا بالقبول ، وفي الزكاة لا بدّ من قبول أهل الشئمان ، والميراث لا يكون فيه شيء من جهة الوارث وفعله ، والنسب ليس من جملة أفعاله .

ويقال للميراث يستحق بوجهين : بالفرض والتعصيب ، والتعصيب أقوى من الفرض ؛ لأنه قد يستحق به جميع المال ، ثم الميراث يبدأ بذوى الفروض ثم ما يتبقى فللمصبة^(٢) .

« فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله » : تكلموا في الظالم ، فمنهم من قال هو الأفضل ، وأرادوا به من ظلم نفسه لكثرة ما حمله من الطاعة .

والأكثر : إن السابق هو الأفضل ، وقالوا : التقديم في الذكر لا يقتضي التقديم في الرتبة ، ولهذا نظائر كثيرة^(٣) .

ويقال قرّن باسم الظالم قرينة وهي قوله : « لنفسه » ، وقرن باسم السابق قرينة وهي قوله :

(١) فالنسب وهي والفعل كسبي كما أن المعرفة وهبة والطاعة كسبية وإن كان الصوفية يرون أن الكسب والاجتلاب والتصرف والتكليف كلها لا تتم إلا بفضل من الله (أنظر شرح المكنى لأبيات رابعة المبدوءة بـ «أحبك حين... في قوت القلوب» . وهذا المعنى واضح هنا أيضاً في تفسير القشيري .

(٢) العصبية واحدة العصب ، وعصبية الرجل (في الفرائض) من ليست له فريضة مسماة في الميراث ، وإنما يأخذ ما أبى ذوى الفروض . أنظر رأى القشيري في تفضيل التعصيب على الفرض (المجلد الأول من هذا الكتاب ص ٣١٧)

(٣) على نحو ما يذكره البلاغيون في ذكر الخامس بعد العام .

« يا ذن الله » ؛ فالظالمُ كانت له زَلَّةٌ ، والسابقُ كانت له صولةٌ ، فالظالمُ رَفَعَ زَلَّتَهُ بقوله :
لنفسه ، والسابقُ كَسَرَ صَوْلَتَهُ بقوله : يا ذن الله .

كَأَنَّهُ قَالَ : يا ظالمُ ارفعْ رأسَكَ ، ظَلَمْتُ وَلَكِنْ عَلَى نَفْسِكَ ، وَيَسَابِقُ اخْفِضْ ^(١) رَأْسَكَ ؛
سَبَقَتْ — وَلَكِنْ يَا ذن الله .

ويقال إنَّ العزيزَ إذا رأى ظالماً قَصَمَهُ ، والكرِيمَ إذا رأى مظلوماً أَخَذَ بيده ، كَأَنَّهُ قَالَ :
يا ظالمُ ، إِنْ كَانَ كَوْنُكَ ظالماً يوجبُ قَهْرَكَ ، فَكَوْنُكَ مظلوماً يوجبُ الأخذَ بيدِكَ ^(٢) .
ويقال الظالمُ مَنْ غَلَبَتْ زَلَّاتُهُ ، والمقتصدُ مَنْ استوت حالاته ، والسابقُ مَنْ زادت
حسناته .

ويقال الظالمُ مَنْ زهد في دنياه ، والمقتصدُ مَنْ رغب في عقباه ، والسابقُ مَنْ آثر على
الدارين مولاه .

ويقال الظالمُ مَنْ نَجَّمَ كوكبُ عقله ، والمقتصدُ مَنْ طَلَعَ بَدْرُ علمه ، والسابقُ مَنْ
ذَرَّتْ ^(٣) شمسُ معرفته .

ويقال الظالمُ مَنْ طَلَبَهُ ، والمقتصدُ مَنْ وَجَدَهُ ، والسابقُ مَنْ بَقِيَ معه .

ويقال الظالمُ مَنْ تَرَكَ المعصية ، والمقتصدُ مَنْ تَرَكَ الغفلة ، والسابقُ مَنْ تَرَكَ العلاقة ^(٤) .

ويقال الظالمُ مَنْ جاد بماله ، والمقتصدُ مَنْ لم يبخلْ بِنَفْسِهِ ، والسابقُ مَنْ جاد بروحه .

ويقال الظالمُ مَنْ له علم اليقين ، والمقتصدُ مَنْ له عين اليقين ، والسابقُ مَنْ له حق اليقين .

ويقال الظالمُ صاحب المودة ، والمقتصدُ صاحب الخلَّة ، والسابقُ صاحب المحبة .

ويقال الظالمُ يترك الحرام ، والمقتصدُ يترك الشبهة ، والسابقُ يترك الفضل ^(٥) في الجملة .

(١) وردت في ص (إحفظ) والسياق يتطلب (اخفض) رأسك فما سبقت إليه ليس إلا يا ذن الله .

(٢) فآية كرم المولى سبحانه أنه ينظر إلى الظالم على أنه مظلوم ؛ مظلوم من قبل نفسه التي دعت إلى أن يظلم
غيره ولعمري إنها غاية الكرم كما يتصورها هذا الصوفي الجليل .

(٣) ذرت الشمس ذرواً أى ظهرت أول شروقها (الوسيط) .

(٤) أى العلاقة بالدنيا والنفس وما يتصل بهما .

(٥) الفضل هنا معناه ما زاد عن الحاجة الضرورية اتقاء للحرام والشبهة ، يقول سهل التستري : « إذا
كان الحلال في الدين هو مالا يحصى الله فيه فإن الحلال عند الصوفي مالا ينسى الله فيه » .

ويقال الظالمُ صاحبُ سخاء ، والمقتصدُ صاحبُ جود ، والسابقُ صاحبُ إيثار^(١) .
ويقال الظالمُ صاحبُ رجاء ، والمقتصدُ صاحبُ بسْط ، والسابقُ صاحبُ أنس .
ويقال الظالمُ صاحبُ خوف ، والمقتصدُ صاحبُ خشية ، والسابقُ صاحبُ هيبة .
ويقال الظالمُ له المغفرة ، والمقتصدُ له الرحمة والرضوان ، والسابقُ له القربة والمحبة .
ويقال الظالمُ صاحبُ الدنيا ، والمقتصدُ طالبُ العُقْبى ، والسابقُ طالبُ المولى .
ويقال الظالمُ طالبُ النجاة ، والمقتصدُ طالبُ الدرجات ، والسابقُ صاحبُ المناجاة .
ويقال الظالمُ أَمِنَ من العقوبة ، والمقتصدُ فاز بالثوبة ، والسابقُ متحقق بالقربة .
ويقال الظالمُ مضروبٌ بسَوْطِ الحِرْصِ ، مقتولٌ بسيفِ الرغبة ، مضطجعٌ على بابِ الحسرة .
والمقتصدُ مضروبٌ بسوطِ الندامة ، مقتولٌ بسيفِ الأسف ، مضطجعٌ على بابِ الجود .
والسابقُ مضروبٌ بسوطِ التواجد ، مقتولٌ بسيفِ المحبة ، مُضْطَجِعٌ على بابِ الاشتياق .
ويقال الظالمُ صاحبُ التوكل ، والمقتصدُ صاحبُ التسليم ، والسابقُ صاحبُ التفويض .
ويقال الظالمُ صاحبُ تواجد ، والمقتصدُ صاحبُ وَجْد ، والسابقُ صاحبُ وجود .
ويقال الظالمُ صاحبُ المحاضرة ، والمقتصدُ صاحبُ المكاشفة ، والسابقُ صاحبُ المشاهدة .
ويقال الظالمُ يراه في الآخرة بمقدار أيام الدنيا في كل جمعة مرة ، والمقتصدُ يراه في كل يوم مرة ، والسابقُ غير محبوبٍ عنه ألبتة .
ويقال الظالمُ مجنوبٌ إلى فِعْلِهِ الذي هو فضله ، والمقتصدُ مكاشفٌ بوصفه الذي هو عِزُّهُ ،
والسابقُ المستهلكُ في حقِّه الذي هو وُجُودُهُ .
قوله : « ذلك هو الفضل الكبير » لأنه ذكر الظالم مع السابق^(٢) .

قوله جل ذكره : « جَنَّاتٌ عِدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا

(١) يفيد هذا التقسيم في بحث لغوي عن ترتيب : السخاء والجود والإيثار .
(٢) أعجب الفرطبي بمنهج الصوفية في تفسير «الظالم والمقتصد والسابق» على هذا النحو فأورد طائفة كبيرة من أقوالهم استغرقت نحو صفحة ونصف الصفحة (١٤٠ ص ٣٤٨) .

من أساور من ذهبٍ ولؤلؤاً ولِبَاسُهُمْ
فيها حريرٌ .

نبهَ على أن دخولهم الجنة لا باستحقاقٍ بل بفضله ، وليس في الفضل تمييز .
قوله جل ذكره : « وقالوا الحمد لله الذي أذهبَ عَنَّا
الحزنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ » .
تتحققوا بمحقق الرضا ، والحزنُ سُمِّيَ حَزَنًا مُخْزُونَةً^(١) الوقتِ على صاحبه وليس في الجنة
حزونة وإنما هو رضا واستبشار .
ويقال ذلك الحزن حزن خوف العاقبة . ويقال هو دوام المراعاة خشية أن يحصل سوء
الأدب . ويقال هو سياسة النفس .
« إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ » للعصاة ، « شَكُورٌ » للطيعين . قَدَّمَ ما للعاصين رِقَّةً بهم لضعف
أحوالهم^(٢) .

قوله جل ذكره : « الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ
لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا
لُغُوبٌ » .

« دار المقامة » : أى دار الإقامة ، لا يرغبون عنها حولا ، ولا يتمنون منها خروجاً .
« لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ » : إذا أرادوا أن يروا^(٣) مولاهم لا يحتاجون
إلى قطع مسافة ، بل في غُرْفِهِمْ يلقون فيها تحيةً وسلاماً ، فإذا رأوه لم يحتاجوا إلى قلب حذقةٍ
أو تحديق مقلّة في جهة^(٤) ؛ يروونه كما هم بلا كيفية .
قوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى

(١) حزن المكان حزونة أى حزن أى خشن وغلظ ، وحزن الرجل اغتم .
(٢) يتجل هنا ما يتمتع به هذا الصوفي من نزعة الأمل وفتح الباب أمام العصاة .
(٣) يضاف هذا الرأى إلى موضوع « رؤية الله في الآخرة » كما يتصوره القشيري .
(٤) هكذا في م وهي في ص (وجهة) وكلاهما صحيح إذ المقصود تنزيه من يروونه - سبحانه - عن التقيد
بالمكانية .. جلست الصمدية عن التقيد بمحل .

عليهم فيموتوا ولا يُخَفَّفُ عنهم من عذابها
كذلك نجزي كل كفور .

لا حياة يَتَمَتَّعُونَ بها ، ولا موتَ يَسْتَرِيحُونَ به ، وهم مقيمون في العذاب والحجاب ، لا يفترون
عنهم العذاب ، ولا تُرْفَعُ عنهم العقوبة .

« وهم يَصْطَرِخُونَ فيها رَبَّنَا أَخْرِجْنَا
نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ
نُعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ
النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ نصير . »

يقولون : « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ » ، فيقال لهم أَو لَمْ نَعْمَرْكُمْ ... ؟
أَمَّا جَاءَكُمْ النَّذِيرُ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغُوا زَمَانَ الشَّيْبِ ؟
ويقال : أَلَمْ تَسْتَوْفُوا مَدَّةَ الْإِمَهَالِ فِي النَّظَرِ ؟

« رَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ » : الرسل ، ويقال ضعف الشيخوخة ، ويُقال سقوط السن ، ويقال تقوُّسُ الظَّهْرِ .
قوله جل ذكره : « إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » .

أى عالمٌ بإخلاص المخلصين ، وصدق الصادقين ، ونفاق المنافقين ، وجحد الكافرين .
عالمٌ بِمَنْ يَرِيدُ بِالنَّاسِ السُّوءَ وَمَنْ يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ .

قوله جل ذكره : « هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلَافًا فِي الْأَرْضِ
فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ
الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ،
وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا » .

أهل كلِّ عصرٍ خليفٌ عَمَّنْ تَقْدَمُهُمْ ؛ فَمِنْ قَوْمٍ هُمْ لِسَلَفِهِمْ حَمَالٌ^(١) ، وَمِنْ قَوْمٍ هُمْ أَرَاذِلُ
وَأَنْذَالُ ؛ فَالْأَفْضَلُ زَمَانُهُمْ لِمَنْ مَحَنَةٌ ، وَالْأَرَاذِلُ هُمْ لَزَمَانُهُمْ مَحَنَةٌ . وقد قالوا :

(١) الحمال = الدية أو الفريضة يحملها قوم عن قوم (الوسيط) .

يَوْمَ وَحَسَبُ الدَّهْرِ مِنْ أَجَلِهِ حَيًّا غَدًّا وَالتَّقَتِ الْأَمْسُ

قوله جل ذكره : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ

مِنْ دُونِ اللَّهِ أُرَوِّى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمُ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعْذِرُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا » .

كَرَّرَ إِبْهَادَهُمْ عَجَزَ أَصْنَامِهِمْ ، وَنَقَصَ مَنْ اتَّخَذُوهُمْ آلِهَةً مِنْ أَوْثَانِهِمْ ؛ لِيُسَفَّهُ بِذَلِكَ آرَاءَهُمْ ، وَلِيُنَبِّهَهُمْ إِلَى ذَمِّمْ أَحْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ ، وَخِسَفِ هَمِّمْ ، وَنُقْصَانِ عَقُولِهِمْ .
ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَا يَأْتُونَ بِشَيْءٍ عَمَّا بِهِ يُطَالَبُونَ ، وَلَيْسَ لَهُمْ صَوَابٌ عَمَّا يُسْأَلُونَ .

قوله جل ذكره : « إِنْ اللَّهُ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أُمْسِكُهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا » .

أَمْسَكُهَا بِقُدْرَتِهِ ، وَأَتَقْنَاهَا بِحِكْمَتِهِ ، وَرَتَّبْنَاهَا بِمَشِئَتِهِ ، وَخَلَقَ أَهْلَهَا عَلَى مَوْجِبِ قَضِيَّتِهِ ، فَلَا شَيْءَ فِي إِبْقَائِهَا وَإِفْنَائِهَا يُسَاهِمُهُ ، وَلَا شَرِيكَ فِي وَجُودِهَا وَنِظَامِهَا يَقَاسِمُهُ .

قوله جل ذكره : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا * اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ... » .

لَيْسَ لِقَوْلِهِمْ تَحْقِيقٌ ، وَلَا لِعَهْدِهِمْ وَضَامَتُهُمْ تَوْثِيقٌ ، وَمَا يَعِدُّونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ فَصْرِيحٌ زُورٌ ، وَمَا يُؤْهِمُّونَ مِنْ وُقَايِهِمْ قَصْرِفٌ تَفْرِيرٌ . . . وَكَذَلِكَ الْمُرِيدُ فِي أَوَانِ نَشَاطِهِ تُعَمِّيهِ نَفْسُهُ

فتظاهر أمام مَنْ تقدّمه حالاً بأنه عاهد الله ، وأنه أكّد عقده مع الله . . فإذا عَضَّتْهُ شَهْوَتُهُ ، وأراد الشيطانُ أن يكذبه صَرَخَهُ بكيدِهِ ، وأركسه في هوة غِيَّةٍ ، ومُنِيَّةٍ نَفْسِهِ ؛ فيسودُّ وَجْهُهُ ، وتذهب عند الله وجاهته (١) .

قوله جل ذكره : « أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ
لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي
الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيرًا » .

في الجملة ما خاب له وليٌّ ، وما ربح له عدوٌّ ، ولا ينال الحقيقة مَنْ انعكس قَصْدُهُ ، بل
يرتدُّ عليه كَيْدُهُ ؛ وهو سبحانه يَدْمُرُ على أعدائه تدميرًا ، ويوسع لأوليائه فضلًا كبيرًا .

قوله جل ذكره : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا
مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ
وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى
فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ
بِعِبَادِهِ بَصِيرًا » .

لو عَجَّلَ لهم ما يستوجبونه من الثواب والعقاب لم تَفِ أعمارُهم القليلةُ به ، وما اتسعت
أيامُهم القصيرةُ له ، فأخَّرَ ذلك ليومِ الْحَشْرِ . . فَإِنَّهُ طَوِيلٌ . والله على كل شيءٍ قديرٌ ،
وبأمرٍ عباده خيرٌ بصيرٌ .

(١) هكذا في م وهي في ص (ماء وجهه) أي حياؤه ، وقد آثرنا ما جاء في م للاستبصار للسياق .

سورة يس

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »
« بسم الله » آيةٌ افصح بها خطابه ؛ فمن علمها أجزل ثوابه ، ومن عرفها أكثر إيجابه ،
ومن أكبر قدرها أكثر مآبه .

قوله جل ذكره « يس » والقرآن الحكيم
يقال معناه : يا سيد . ويقال : الياء تشير إلى يوم الميثاق ، والسين تشير إلى سرِّه مع
الأحباب ؛ فيقال بحق يوم الميثاق وسرِّي مع الأحباب ، وبالقرآن الحكيم : —

« إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »

أى إِنَّكَ — يا محمد لَمِنَ المرسلين ، وإِنَّكَ لَعَلَى صراطٍ مستقيم .

« تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ »

أى هذا الكتاب تنزيل (العزيز) : المتكبر الغنى عن طاعة المطيعين ، (الرحيم) :
المتفضل على عباده المؤمنين .

قوله جل ذكره : « لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ
غَافِلُونَ » .

أى خَصَصْنَاكَ بهذا القرآن ، وأنزلنا عليك هذا القرآن لَتُنذِرَ به قوماً حصلوا فى أيام
الفترة ، وافترض أسلافهم على هذه الصفة .

قوله جل ذكره : « لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ
فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ »

أى حق القول بالعقوبة على أكثرهم لأنهم أصرّوا على جحدهم ، وانهمكوا في جهلهم ، فالعلوم منهم والمحكوم عليهم أنهم لا يؤمنون^(١).

قوله جل ذكره : « إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ »

سَنَجْرُهُمْ إِلَى هَوَانِهِمْ وَصَفَرِهِمْ ، وسنذيقهم وبال أمرهم .

« وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ » .

أغرقناهم اليوم في بحار الضلالة ، وأحطنا بهم سرادقات الجهالة . وفي الآخرة سنغرقهم في النار والأنكال ، ونضيق عليهم الحال ، بالسلاسل والأغلال .

« فَأَغْشَيْنَاهُمْ » : أعميائهم اليوم عن شهود الحجة ، ونلبس عليهم في الآخرة سبيل المحجة ، فيتعمّثون في وهّادات جهنم داخرين ، ويعتدون في حرقاتها مهجورين ، مطرودين ملعونين ، لا تقطع عنهم ما به يعدّيون^(٢) ، ولا ترّحمهم مما منه يشكون ؛ تماذى بهم حرمان الكفر ، وأحاطت بهم سرادقات الشقاء ، ووقعت عليهم السمة بالفراق .

قوله جل ذكره : « وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ »

مهجور الحق لا يصله أحد ، ومردود الحق لا يقبله أحد . والذي قصمته المشيئة وأقمته القضية لا تنجح فيه النصيحة .

(١) أريد أن أنه دائما إلى أن الجبرية عند الشيخ لا تتعارض مع الحرية الإنسانية ، فالإنسان حرّ فيما يفعل ولكن في دائرة ما حددته له القضية السابقة التي ترتبط بالعلم الإلهي السابق للإبداع والإنشاء .. نحن نعلم ما يحدث ولكن العلم الإلهي يسجل بدءا كل ما سيحدث .

(٢) من هذا نفهم أن القشيري لا يؤمن بأبدية الجنة وحسب ، بل يؤمن بأبدية النار أيضا . . على خلاف جهنم الذي يرى أن حركاتهم تتناهي ، فهما ليستا أبديتين - كما قلنا من قبل . وعلى خلاف ابن القيم الذي يرى أبدية الجنة فقط حيث يستوقفه الاستثناء في قوله تعالى «لهم فيها زفير وشهيق» . خالد بن قيس في ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك» فيقول : إذا فعذابها ينقطع (حاشى الأرواح ص ٢٦٣ وشفاء الغليل ص ٢٦٢) ولكن يرد على ابن القيم أن المقصود في الآية هم عصاة المؤمنين وليس الكفار الذين هم - طبقا لنصوص كثيرة - خالدون فيها أبدا ولا يجدون وليا ولا نصيرا .

« إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ
فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ »

أى إنما ينتفع بإذراك من اتبع الذِّكْرَ ؛ فإنَّ إندارك — وإن كان عاماً في الكلِّ
والكلِّ — فإنَّ الذين كفروا على غيِّهم يُصِرُّون . . . ألا ساء ما يحْكُمُونَ ، وإن كانوا
لا يعلمون قُبْحَ ما يفعلون . أمَّا الذين اتبعوا الذِّكْرَ ، واستبصروا ، وانتفعوا بالذى سمعوه منك ،
وبه عملوا — فقد استوجبوا أَنْ تُبَشِّرَهم ؛ فَبَشِّرْهم ، وأخبرهم على وجهٍ يظهر السرور
بمضمون خبرك عليهم .

« وأجر كريم » : كبير وافرٍ على أعمالهم — وإن كان فيها خللٌ .
قوله جل ذكره : « إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ
مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ » .
نُحْيِي قلوباً ماتت بالقسوة بما نُظَرُّ عليها من صَوْبِ الإقبال والزلقة ، ونكتب ما قدَّموا .
« وآثارهم » : خطَّاهم إلى المساجد^(١) ، ووقوفهم على بساط المناجاة معنا ، وَتَرَقُّقِ
دموعهم على عَرَصات خدودهم ، ونصَاعِدِ أنفاسهم .

« وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ »
أثبتنا تفصيله في اللوح المحفوظ . . لا لتناسينا لها — وكيف وقد أحصينا كل شيءٍ
عدداً ؟ — ولكننا أحببنا إثبات آثار أعبائنا في السكون من كتابنا .

قوله جل ذكره : « واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية
إذ جاءها المرسلون » .

اقرض زمانهم ، ونسي أوانهم وشأنهم ! ولكننا نتذكر أحوالهم بعد فوات أوقاتهم ،
ولا نرضى بالآل يجرى بين أعبائنا وعلى ألسنة أوليائنا ذِكْرُ الغائبين والماضين ، وهذا مخلوقٌ
يقول في صفة مخلوق :

(١) قال أبو سعيد الخدري : كان بنو سلمة في ناحية من المدينة ، فأرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد ،
فأنزل الله الآية ، وقال لهم النبي (ص) : « إن آثاركم تكتب عليكم تنتقلون » أسباب النزول للواحدى ص ٢٤٥ .

إِذَا نَسِيَ النَّاسُ إِخْوَانَهُمْ وَخَانَ الْمَوْدَّةَ خِلَانُهَا

فَعِنْدِي لِإِخْوَانِيَ الْغَائِبِينَ صَحَافٌ ذِكْرُكَ عَنْوَانُهَا

قوله جل ذكره : « قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ

الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا

تَكْذِبُونَ * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ

كَاثِرُونَ » .

قال الرسل : « رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَارْسُلُونَ » وليس علمنا إلا بما أُمِرْنَا به من التبليغ

والإنذار .

« قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَكِنَّ لَمْ تَتَّهَبُوا

لَنَارِ جَهَنَّمَ وَلَيَسَّ لَكُمْ مِنْهَا عَذَابٌ

أَلِيمٌ » .

لنرجنكم ، ولنصننن ، ولنفعكن ... فأجابهم الرسل : إنكم لجهلكم ولجحدكم سوف

تلقون ما تُوعَدُونَ .

قوله جل ذكره : « وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى

قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا

مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ » .

في القصة أنه جاء من قرية فسماها مدينة ، وقال من أقصى المدينة ، ولم يكن أقصاها وأدناها

لِيَتَفَاوَتَا بِكَثِيرٍ ، ولكنه — سبحانه — أجرى سُنَّتَهُ في استكثار القليل من فعل عبده

إذا كان يرضاه ، ويستنزِرُ الكثيرَ من فضله إذا بذله وأعطاه .

« اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا .. » فَأَبْلَغَ الْوَعْظَ وَصَدَّقَ النَّصْحَ .. ولكن كما قالوا :

وَكَمْ سَقَتْ فِي آثَارِكُمْ مِنْ نَصِيحَةٍ وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الْبَغْضَاءَ الْمُنْتَصِحُ

فَلَمَّا صَدَّقَ فِي حَالِهِ ، وَصَبَرَ عَلَى مَا لَقِيَ مِنْ قَوْمِهِ ، وَرَجَعَ إِلَى التَّوْبَةِ ، لَهَّاهُ حُسْنُ أَفْضَالِهِ ،

وَأَوَاهُ إِلَى كَنْفِ إِقْبَالِهِ ، وَوَجَدَهُ مَا وَعَدَهُ رَبُّهُ مِنْ لُطْفِ أَفْضَالِهِ .

« قال يا ليت قومي يعلمون * بما غفر لي
ربي وجعلني من المُكْرَمِينَ » .

تَمَنَّى أَنْ يَعْلَمَ قَوْمُهُ حَالَهُ ، فَحَقَّقَ اللَّهُ مُنَاهُ ، وَأَخْبَرَ عَنْ حَالِهِ ، وَأَنْزَلَ بِهِ خُطَابَهُ ، وَعَرَفَ
قَوْمُهُ ذَلِكَ . وَإِنَّمَا تَمَنَّى وَأَرَادَ ذَلِكَ إِشْفَاقًا عَلَيْهِمْ ، لِيَعْمَلُوا مِثْلًا عَمِلَ لِيَجِدُوا مِثْلًا وَجَدَ .

قوله جل ذكره : « وما أنزلنا على قومي
من بعدي من جنود من السماء وما كنّا
مُنْزِلِينَ * إِنْ كَانَتْ إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً
فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ » .

مَا كَانَتْ إِلَّا قَضِيَّةٌ مِّنَّا بِمَقُورَتِهِمْ ، وَتَفْهِيمًا لِّمَا كَانُوا بِهِ مِنَ السَّلَامَةِ إِلَى وَصْفِ الْبَلَاءِ .
قوله جل ذكره : « يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ
رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » .
إِنْ لَمْ يَتَحَسَّرُوا هُمَ الْيَوْمَ فَلَهُمْ مَوْضِعُ التَّحَسُّرِ ؛ وَذَلِكَ لِانْخِرَاطِهِمْ فِي سَبِيلِكِ وَاحِدٍ مِنَ
التَّكْذِيبِ وَمُخَالَفَةِ الرِّسْلِ ، وَمَنَاوَةِ أَوْلِيَائِهِ — سُبْحَانَهُ . .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ
الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ * وَإِنْ
كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ » .

أَلَمْ يَرَوْا مَا فَعَلْنَا بِمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ ، وَمَا عَامَلْنَا بِهِ الْأُمَمَ الْخَالِيَةَ ، فَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِمْ
أَحَدٌ ، فَكُلُّهُمْ فِي قَبْضَةِ الْقُدْرَةِ ، وَلَمْ يَفُتْنَا أَحَدٌ ، وَلَمْ يَكُنْ لَوَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَيْنَا عَوْنٌ وَلَا مَدَدٌ ،
وَلَا عَنْ حَكْمِنَا مُلْتَحِدٌ

قوله جل ذكره : « وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا
وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ » .

لَمَّا كَانَ أَمْرُ الْبَعْثِ أَعْظَمَ شُبْهَةٍ ، وَكَثُرَ فِيهِ لِنَكَارِهِمْ كَانَ تَكَرُّارُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لِحَدِيثِ

البعث ، وقد ضَرَبَ — سبحانه — المَثَلَ له بإحياء الأرض بالنبات في الكثير من الآيات .
والعَجَبُ يَمُنُّ يُنْكَرُ علومَ الأصول ويقول ليس في الكتاب عليها دليل ! وكيف بشكل
ذلك وأكثَر ما في القرآن من الآيات يحث على سبيل الاستدلال ، وتحكيم أدلة العقول^(١) ؟
ولكن يَهْدِي اللهُ لنوره من يشاء . ولو أنهم أنصفوا من أنفسهم ، واشتغلوا بأهم شيء عندهم
لَمَا ضَيَّعُوا أصول الدين ، ولكنهم رضوا فيها بالتقليد ، وادَّعَوْا في الفروع رتبة الإمامة
والتصدُّر .. ويقال في معناه :

يَا مَنْ تَصَدَّرَ فِي دَسْتِ الْإِمَامَةِ فِي مَسَائِلِ الْفَقْهِ إِمْلَاءً وَتَدْرِيساً
غَفَلْتَ عَنْ حُجَجِ التَّوْحِيدِ تَحْكِيمَهَا شَيْدَتَ فِرْعَاً وَمَا مَهَّدْتَ تَأْسِيساً

قوله جل ذكره : « سبحانه الذي خَلَقَ الأزواجَ كُلَّهَا مِمَّا
تُنْبِتُ الأرضُ ومن أنفسهم ومِمَّا
لا يعلمون » .

تُنْبِتُ هذه الآية على التفكير في بديع صنعه ؛ فقال : تنزيهاً لِمَنْ خَلَقَ الأشياءَ المتشاكلة
في الأجزاء والأعضاء ، من النبات ، ومن أنفسهم ، ومن الأشياء الأخرى التي لا يعلمون
تفصيلها ، كيف جعل أوصافها في الطعوم والروائح ، في الشكل والهيئة ، في اختلاف الأشجار
في أوراقها وفنون أغصانها وجذوعها وأصناف أنوارها وأزهارها ، واختلاف أشكال ثمارها
في تفرُّقها واجتماعها ، ثم ما نيط بها من الانتفاع على مجرى العادة مما يسميه قومٌ : الطبائع ؛
في الحرارة والبرودة ، والرطوبة واليبوسة ، واختلاف الأحداث التي يخلقها الله عقيب شراب
هذه الأدوية وتناول هذه الأطعمة على مجرى العادة من التأثيرات التي تحصل في الأبدان . ثم
اختلاف صور هذه الأعضاء الظاهرة والأجزاء الباطنة ، فالأوقات متجانسة ، والأزمان متماثلة ،
والجواهر متشاكلة .. وهذه الأحكام مختلفة ، ولولا تخصيص حكمٍ لكل شيء بما يختص
به لم يكن تخصيصٌ بغير ذلك أولى منه . وإنَّ مَنْ كَحَلَّ اللهُ عِوْنَ بصيرته يَمُنُّ التعريف ،
وَقَرَنَ أوقاته بالتوفيق ، وَأَتَمَّ نظره ، ولم يصدده مانع . فما أقوى في المسائل حُجَّتَهُ ! وما أوضح
في السلوك نَهْجَهُ ! .

(١) في هذا ردُّ على من يتهم الصوفية بمخافتهم للعقل والعلم .

إِنَّهَا لِأَقْسَامٍ سَبَقَتْ عَلَى مَنْ شَاءَهُ الْحَقُّ بِمَا شَاءَ .

قوله جل ذكره : « وَآيَةٌ لَهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ
فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ » .

نُبْطِلُ ضَوْءَ النَّهَارِ بِهَجُومِ اللَّيْلِ عَلَيْهِ ، وَتَزِيلُ ظِلَامَ اللَّيْلِ بِهَجُومِ النَّهَارِ عَلَيْهِ ، كَذَلِكَ
نَهَارُ الْوُجُودِ يَدْخُلُ عَلَى لَيْلَى التَّوْقِفِ ، وَيَقُودُ يَدَ كَرَمِهِ عَصَا مَنْ عَمِيَ عَنْ سُلُوكِ رُشْدِهِ
فِيهِدِيهِ إِلَى سَوَاءِ الطَّرِيقِ .

قوله جل ذكره : « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا » .

على ترتيبٍ معلوم لا يتفاوت في فصول السنة ، وكل يومٍ لها مَشْرِقٌ جديد ولها مَغْرِبٌ
جديد . . . وكل هذا بتقدير العزيز العليم .

« وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ *
لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ
وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ
يَسْبَحُونَ » .

الإشارة منه أن العبد في أوان الطلب رقيق الحال ، ضعيفٌ ، مختصرُ الفهم . . ثم يُفَكَّرُ
حتى تزداد بصيرته . . . إنه كالقمر يصير كاملاً ، ثم يقتقصُ ، ويدنو من الشمس قليلاً قليلاً ،
وكلما ازداد من الشمس دُنُوًّا ازداد في نفسه نقصاناً حتى يتلاشى ويختفي ولا يُرَى . . .
ثم يَبْعُدُ عن الشمس فلا يزال يتباعد ويتباعد حتى يعود بدواً — مَنْ الَّذِي يُصَرِّفُهُ فِي ذَلِكَ
إِلَّا أَنَّهُ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ؟ وَشَبِيهُ الشَّمْسِ عَارِفٌ أَبْدَأَ فِي ضِيَاءِ مَعْرِفَتِهِ ، صَاحِبُ تَمَكُّنٍ غَيْرِ
مُتَلَوِّنٍ ^(١) ، يَشْرُقُ مِنْ بَرَجِ سَعَادَتِهِ دَائِماً ، لَا يَأْخُذُهُ كَسُوفٌ ، وَلَا يَسْتَرُهُ سَحَابٌ .

وشبيه القمر عبدٌ تتلون أحواله في تنقله ؛ فهو في حال من البسط يترقى إلى حَدِّ الْوَصَالِ ،
ثم يُرَدُّ إِلَى الْفَقْرَةِ ، وَيَقَعُ فِي الْقَبْضِ مِمَّا كَانَ بِهِ مِنْ صَفَاءِ الْحَالِ ، فَيَتَنَاقَصُ ، وَيَرْجِعُ إِلَى نَقْصَانِ
أَمْرِهِ إِلَى أَنْ يَرْفَعَ قَلْبَهُ عَنْ وَقْتِهِ ، ثُمَّ يَجُودُ الْحَقُّ — سُبْحَانَهُ — فَيُوقِّعُهُ لِرَجُوعِهِ عَنْ فَتْرَتِهِ ،

(١) سبق أن أوضحنا الفرق بين حال التلوين والتمكن .

وإفاقته عن سكرته ، فلا يزال يصفو حاله إلى أن يقرب من الوصال ، ويرزق صفة السكال ،
ثم بعد ذلك يأخذ في النقص والزوال . . كذلك حاله إلى أن يحق له بالقسوم ارتحالاه ،
كما قالوا :

ما كنت أشكو ما على بدني من كثرة التلون من بدني^(١)
وأنشدوا : كل يوم تلون غير هذا بك أجل

قوله جل ذكره : « وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في
الفلك المشحون * وخلقنا لهم من مثله
ما يركبون » .

الإشارة فيه إلى حمل الخلق في سفينة السلامة في بحر التقدير عند تلاطم أمواجها بفنون من
التغير والتأثير . فكأن من عبث غرق في اشتغاله في ليله ونهاره ، لا يستريح لحظة من كد أفعاله
ومقاساة التعب في أعماله ، وجمع ماله .

فجره ذلك إلى نسيان عاقبته وماله ، واستيلاء شغله بولده وعياله على فكره وباله —
وما سعيه إلا في وباله !

وكم من عبث غرق في لجة هواه ، فجرته مناه إلى تحلل بلواه ، وخسيس من أمر
مطلوبه ومبتغاه . . ثم لا يصل قط إلى منتهاه ، خسر دنياه وعقباه ، وبقي عن مولاه !
ومن أمثال هذا وذاك ما لا يحصى ، وعلى عقل من فكر واعتبر لا يحصى .

أمّا إذا حفظ عبداً في سفينة العناية أفرده — سبحانه — بالتحري من رق خناس
الأمور ، وشغله بظواهره بالقيام بحته ، وأكرمه في سرائره بفراغ القلب مع ربه ، ورقاه إلى
ما قال : « أنا جليس من ذكرني » . . وقل في علو شأن من هذه صفته . . ولا حرج !

قوله جل ذكره : « وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم
ولا هم ينقذون * إلا رحمة منا ومتاعاً
إلى حين » .

(١) البدة = النصيب والقصة (السان) .

لولا جُودُهُ وَفَضْلُهُ لَحَلَّ بِهِمْ مِنَ الْبَلَاءِ مَا حَلَّ بِأَمْثَلِهِمْ ، لَكِنَّهُ بِحُسْنِ الْأَفْضَالِ ، يَحْفَظُهُمْ
فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ
وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » الآيات
هذه صفات من سَيِّبَهُمْ^(١) في أودية الخذلان ، وَوَسَّعَهُمْ بِسِمَةِ الْحَرَمَانِ ، وَأَصَمَّهُمْ عَنْ سَمَاعِ
الرُّشْدِ ، وَصَدَّهُمْ بِالْخِذْلَانِ عَنْ سُلُوكِ الْقَصْدِ . فَلَا تَأْتِيهِمْ آيَةٌ فِي الزَّجْرِ إِلَّا قَابَلُوهَا بِإِعْرَاضِهِمْ ،
وَتَجَافَوْا عَنِ الْإِعْتِبَارِ بِهَا عَلَى دَوَامِ اقْتِبَاضِهِمْ ، وَإِذَا أُمِرُوا بِالْإِنْفَاقِ وَالْإِطْعَامِ عَارَضُوا بِأَنَّ اللَّهَ
رَازِقُ الْأَنَامِ ، وَإِنْ يَشَأْ نُنْظِرَ إِلَيْهِمْ بِالْإِنْعَامِ : —

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اقْتَرِبُوا مِنَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا
لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ نُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ »

ثم قال جل ذكره : « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ؟ » مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً
وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ
« فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ
يَرْجِعُونَ »

يَسْتَعْجِلُونَ هِجُومَ السَّاعَةِ ، وَيَسْتَبِطُونُ قِيَامَ الْقِيَامَةِ — لَا عَنْ تَصَدِيقِ بُرْهَانِهِمْ مِنْ شَكِّهِمْ ،
أَوْ عَنْ خَوْفِ يَمْنَعُهُمْ عَنْ غِيَّتِهِمْ ، وَلَكِنْ تَكْذِيبًا لِدَعْوَةِ الرُّسُلِ ، وَإِنْكَارًا لِصِحَّةِ النُّبُوَّةِ ،
وَاسْتِعَادًا لِلنَّشْرِ وَالْحُشْرِ .

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ ، وَلَا يُكْشَفُ عَنْهُمْ ، وَلَا يُنْصَرُونَ .

قوله جل ذكره : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ
الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ » قالوا

(١) سيبه = تركه وخلاه . يسبب حيث شاء (الوسيط) .

يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا
مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿١﴾

يموتون قَهْرًا ، وَيُخْشَرُونَ جَبْرًا ، ويلقون أمرًا ، ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرأ .
« قالوا يا ويلنا مَنْ بَعَثَنَا ^(١) من مرقدنا ؟ » يموتون على جهل ، لا يعرفون ربهم ،
وَيُبْعَثُونَ على مِثْلِ حَالِهِمْ ، لا يعرفون مَنْ بَعَثَهُمْ ، ويعدون ما كانوا فيه في قبورهم من العقوبة
الشديدة — بالإضافة إلى ما سَيَلْقَوْنَ من الآلام الجديدة — نومًا ورقادًا ، وسيطئون من الفراق
المبرح والاحتراق العظيم الضخم مهادًا ، لا يذوقون بَرْدًا ولا شرابًا إلا حميًّا و غَسَّاقًا ، ولقد
عوملوا بذلك استحقاقًا : فقد قال جل ذكره : —

« فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا
وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

قوله جل ذكره : « إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ
فَاكِهُونَ » .

إنما يضاف العبدُ إلى ما كان الغالب عليه ذِكْرُهُ والآخذُ بِمَجَامِعِ قَلْبِهِ ، فصاحبُ الدنيا مَنْ
في أَسْرِهَا ، وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ مَنْ هُمْ طُلَّابُهَا وَالسَّاعُونَ لَهَا وَالْعَامِلُونَ لِنَيْلِهَا ؛ قال تعالى مخبرًا عن
أَقْوَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ : « لِمِثْلِ هَذَا فليعمل العاملون » ^(٢) . وهذه الأحوال — وإن جَلَّتْ مِنْهُمْ
ولم — فهي بالإضافة إلى أحوال السادة والأكابر تتقاصر ، قال صلى الله عليه وسلم : « أَكْثَرُ
أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلَه » ^(٣) وَمَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا عَنِ الدُّنْيَا حُرًّا فَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ فِي الْجَنَّةِ عَنِ الْجَنَّةِ
حُرًّا ، والله يختص برحمته من يشاء .

وقيل إنما يقول هذا الخطاب لأقوام فارغين ، فيقول لهم : « إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ

(١) سقطت (بعثنا) من النسخ في ص .

(٢) آية ٦١ سورة الصافات .

(٣) جاء في اللسان أن الأبله من تغلب عليه سلامة الصدر ، وحب الظن بالناس ؛ لأنه يغفل أمر دنياه ، ويقبل
على آخرته ويشغل نفسه بها ، قال صلى الله عليه وسلم « أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلَه » فهم أكياس في أمر الآخرة (اللسان
١٩٥ ص ٤٧٧ ط بيروت .

فاكهون» وهم أهل الحضرة والدنو ، لا تشغلهم الجنة عن أنس القربة ، وراحات الوصلة ، والفراغ للرؤية^(١)

ويقال : لو علموا عمن شغلوا كما تهنأوا بما شغلوا .

ويقال بل إنما يقول لأهل الجنة : « إن أصحاب الجنة . . » كأنه يخاطبهم مخاطبة المعاينة إجلالاً لهم كما يقال : الشيخ يفعل كذا ، ويراد به : أنت تفعل كذا .

ويقال : إنما يقول هذا لأقوام في العرصة أصحاب ذنوب لم يدخلوا النار ، ولم يدخلوا الجنة بعد لعصيانهم ؛ فيقول الحق : عبدي . . أهل النار لا يتفرغون إليك لأهوالهم ، وما هم فيه من صعوبة أحوالهم ، وأهل الجنة وأصحابها اليوم في شغل عنك لأنهم في لذاتهم ، وما وجدوا من أفضالهم مع أهلهم وأشكالهم ؛ فليس لك اليوم إلا نحن !

وقيل شغلهم تأهبهم لرؤية مولاهم ، وذلك من أتم الأشغال ، وهي أشغال مؤنسة مريحة لا متعبة موحشة .

ويقال : الحق لا يتعلق به حق ولا باطل ؛ فلا تنافي بين اشتغالهم بأبدانهم مع أهلهم ، وشهودهم مولاهم ، كما أنهم اليوم مشغولون مستديمون لمعرفة بأي حال هم ، ولا يقدح اشتغالهم — باستيفاء حظوظهم — في معارفهم .

ويقال شغل نفوسهم بشهواتها^(٢) حتى يخلص الشهود لأسرارهم على غيبة من إحساس النفس الذي هو أصعب الرقباء ، ولا شيء أعلى من رؤية الحبيب مع فقد الرقيب .

قوله جل ذكره : « هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون » .

(١) هكذا في م وهي في ص (لله وبه) ، وقد أثرنا (الرؤية) متأثرين برواية القرطبي عن الثعلبي والقشيري - ابن المصنف - حيث تقول هذه الرواية : « فينظر إليهم الحق وينظرون إليه ، فلا يلتفتون إلى شيء من النعم ماداموا ينظرون إليه » القرطبي ١٥ ص ٤٥ .

(٢) قال ابن مسعود وابن عباس وقتادة ومجاهد : شغلهم انقضاء العذاري . وفي الخبر عن أبي سعيد الخدري قال (ص) : « إن أهل الجنة كلما جامعوا نساهم عدن أبكاراً » . ذكر ابن عباس : كلما أتى الرجل من أهل الجنة الحوراء وجدها بكرأ ، وكلما رجع إليها عادت إليه شهوته ، ولا يكون بينهما منى ، منه أو منها . (القرطبي ١٥ ص ٤٥) .

« أزواجهم » : قيل أشكلهم في الحال والمنزلة ، كقوله : « احشروا الذين ظلموا
وأزواجهم »^(١) وقيل حظاياهم^(٢) من زوجاتهم .

« لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون »

« لهم فيها فاكهة » : أى نصيب أنفسهم . ويقال الإشارة فيها إلى راحات الوقت دون
حفظ النفس .

« ولهم فيها ما يدعون » : ما يريدون ، ويقال تسلم لهم دواعيهم ، والدعوى — إذا
كانت بغير حق — معلولة .

قوله تعالى : « سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ »

يسمعون كلامه وسلامه بلا واسطة ، وأكَّدَ ذلك بقوله : « قَوْلًا » .

وبقوله : « من رب » ليعلم أنه ليس سلاماً على لسان سفير .

« من رب رحيم » . والرحمة في تلك الحالة أن يرزقهم الرؤية في حال ما يُسَلَّم عليهم
لِتَكْمُلَ لهم النعمة . ويقال الرحمة في ذلك الوقت أن يُنْقِئَهُمْ في حال سماع السلام وحال اللقاء
لئلا يصحبهم دهش ، ولا تلحقهم حيرة .

ويقال إنما قال : « من رب رحيم » ليكون للعصاة من المؤمنين فيه نفَسٌ ، ولرجائهم
مَسَاغٌ ؛ فإن الذى يحتاج إلى الرحمة العاصي .

ويقال : قال ذلك ليعلم العبد أنه لم يصل إليه بفعله واستحقاقه ، وإنما وصل إليه برحمة ربه .

قوله جل ذكره : « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » .

غيبة الرقيب أتم نعمة ، وإبعاد العدو^(٣) من أجل العوارف^(٤) ؛ فالأولياء في إيجاب
القربة ، والأعداء في العذاب والحجبة .

(١) آية ٢٢ سورة الصافات .

(٢) جمع حظية وهى المرأة التى تفضل على غيرها فى المحبة .

(٣) يقول قتادة فى « امتازوا » لأنها بمعنى عزلوا عن كل خير .

(٤) العوارف جمع عارفة وهى الفضل والإحسان .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ الْآ

تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ *

وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ » .

لو كان هذا القول من مخلوق إلى مخلوق لَكَانَ شَيْبَةً اعْتِذَارٌ ؛ أَيْ لَقَدْ نَصَحْتُكُمْ ووعظتكم ، ومن هذا حَذَرْتُكُمْ ، وكم أوصلت لكم القول ، وذَكَرْتُكُمْ فلم تقبلوا وَاغْطَى ، ولم تعملوا بِأَمْرِي ، فَأَنْتُمْ خَالَفْتُمْ ، وعلى أنفسكم ظَلَمْتُمْ ، وبذلك سَبَقَتْ الْقَضِيَةُ مِنَّا لَكُمْ .

قوله جل ذكره : « الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا

أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا

يَكْسِبُونَ » .

الْيَوْمَ سَخَّرَ اللَّهُ أَعْضَاءَ بَدَنِ الْإِنْسَانِ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ ، وَغَدَاً يَنْقُضُ هَذِهِ الْعَادَةَ ، فَتَخْرُجُ بَعْضُ الْأَعْضَاءِ عَلَى بَعْضٍ ، وَتَجْرِي بَيْنَهَا الْخُصُومَةُ وَالنِّزَاعُ ؛ فَأَمَّا الْكُفَّارُ فَشَهَادَةُ أَعْضَائِهِمْ عَلَيْهِمْ مُبِيدَةٌ ، وَأَمَّا الْعَصَاةُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بَعْضُ أَعْضَائِهِمْ بِالْعِصْيَانِ ، وَلَكِنْ تَشْهَدُ لَهُمْ بَعْضُ أَعْضَائِهِمْ أَيْضًا بِالْإِحْسَانِ ، وَكَأَقِيلٍ :

يَبْنِي وَيَبْنِيكَ يَا ظَلُومُ الْوَقِفُ وَالْحَاكِمُ الْعَدْلُ الْجَوَادُ الْمُنْصِفُ

وَفِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ الْمَرْوِيَةِ الْمُسْنَدَةِ أَنَّ عَبْدًا تَشْهَدُ عَلَيْهِ أَعْضَاؤُهُ بِالزَّلَّةِ فَيَتَطَايَرُ شَعْرُهُ مِنْ جَفْنِ عَيْنَيْهِ ، فَيَسْتَأْذِنُ بِالشَّهَادَةِ لَهُ فَيَقُولُ الْحَقُّ : تَكَلَّمِي يَا شَعْرَةُ جَفْنِ عَبْدِي وَاحْتَجِّي عَنْ عَبْدِي ، فَتَشْهَدُ لَهُ بِالْبُكَاءِ مِنْ خَوْفِهِ ، فَيَغْفِرُ لَهُ ، وَيُنَادِي مُنَادٍ : هَذَا عَتِيقُ اللَّهِ بِشَعْرَةٍ .

قوله جل ذكره : « وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا

يَعْقِلُونَ ؟ »

يَرُدُّهُ إِذَا اسْتَوَى شَبَابُهُ وَقُوَّتُهُ إِلَى الْعَكْسِ ، فَكَمَا كَانَ يَزْدَادُ فِي الْقُوَّةِ يَأْخُذُ فِي النِّقْصَانِ إِلَى أَنْ يَبْلُغَ أَرْدَلَ الْعُمُرِ فِي السَّنِ فَيَصِيرُ إِلَى مِثْلِ حَالِ الطُّفُولِيَّةِ فِي الضَّعْفِ ، ثُمَّ لَا يَبْقَى بَعْدَ النِّقْصَانِ شَيْءٌ ، كَمَا قِيلَ :

طَوَى الْعَصْرَانَ مَا نَشْرَاهُ مِنِّي وَأَيْلَى جَدِّي نَشْرُوطِي

أراني كلَّ يومٍ في انتقاصٍ ولا يَبْقَى مع النقصان شَيْءٌ

هذا في الجثث والمباني دون الأحوال والمعاني ؛ فإن الأحوال في الزيادة إلى أن يبلغ حدَّ التَّخَرُّفِ (١) فَيَخْتَلُ رَأْيُهُ وَعَقْلُهُ . وأهل الحقائق تشبَّ ذوائبهم ولكنَّ محابَّهم ومعانيهم في عنفوان شبابها ، وطراوة جدِّتها .

قوله جل ذكره : « وما عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وما يَنْبَغِي لَهُ
إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ » .

كلامه صلى الله عليه وسلم كان خارجاً عن أوزان الشُّعْر ، والذي أتاها به من القرآن لم يكن من أنواع الشعر ، ولا من طرق الخطباء .

تَحَيَّرَ القَوْمُ في بابه ؛ ولم تكتحل بصائرهم بكحل التوحيد فعموا عن شهود الحقائق .

قوله جل ذكره : « أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ
أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا
لَهُمْ فِيهَا رَاكِبِينَ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ
فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ » .

ذَكَرَ عَظِيمَ مَنِّهِ عَلَيْهِمْ ، وَجَمَلَ نِعْمَتِهِ لَدَيْهِمْ بما سَخَّرَ لَهُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ الَّتِي يَنْتَفِعُونَ بِهَا
بوجوه الانتفاع .

ولفظ « أَيْدِينَا » تَوَسَّعَ . أى مما عملنا وخلقنا ، وذلك أنهم ينتفعون بركوبها وبأكل
لحومها وشحومها ، وبشُرْبِ ألبانها ، وبالحملِ عليها ، وقَطْعِ المسافاتِ بها ، ثم بأصوافها
وأوبارها وشعرها ثم بِعَظْمِ بعضها . فطالَبَهُم بالشكر عليها ، ووصَفَهُم بالتقصير في شكرهم .
ثم أَظْهَرَ -- ما إذا كان في صفة المخلوقين لكان شكاية -- أنهم مع كل هذه الوجوه
من الإحسان : —

« وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ »

(١) الخرف فساد العقل من الكِبَر .

* لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جندٌ
مُحضرون . »

اكتفوا بأمثالهم^(١) معبوداتٍ لهم ، ثم سَلَّى نبيّه — صلى الله عليه وسلم بأن قال له : —
« فلا يحزُّنكَ قولهم إنّنا نعلمُ ما يُسرُّون وما يُعلنون »
وإذا عَلِمَ العبدُ أنّه بمراي من الحقِّ هَانَ عليه ما يقاسيه ، ولا سيما إذا كان في الله .

قوله جل ذكره : « أَوَلَمْ يَرَ الإنسانُ أنّنا خلقناه من
نُطْفَةٍ فإذا هو خصيمٌ مبين » .

أى شدّدنا أمرهم ، وجعنا نشرهم ، وسوّينا أعضائهم ، ورَكَّبنا أجزائهم ، وأودعناهم
العقل والتمييزَ . . ثم إنه « خصيم مبين » : ينازعنا في خطابه ، ويعترض علينا في أحكامنا
بِرَّعْمِهِ واستصوابه ، وكما قيل :

أَعْلَمُ الرَّمَايَةَ كُلَّ يَوْمٍ فَلَمَّا اشْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي

قوله جل ذكره : « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ

مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا
الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ
خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الشَّجَرِ
الْأَخْضَرَ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تَوْقِدُونَ » .

مهّد لهم سبيل الاستدلال ، وقال إن الإعادة في معنى الإبداء ، فأى إشكالٍ بقي في جواز
الإعادة في الانتهاء ؟ وإنّ الذي قدر على خَلْقِ النَّارِ في الأغصان الرّطبة من المرخ والعقار^(٢)
قادرٌ على خَلْقِ الْحَيَاةِ في الرّمة البالية ، ثم زاد في البيان بأن قال : إن القدرة على مثلِ الشئ

(١) أى أمثالهم من المخلوقين والمخلوقات .

(٢) نزلت حين سأل أبى بن خلف الجهمي رسول الله (ص) وقد جاءه يعظم حائل قائلا : يا محمد ، أتري
الله يحيي هذا بعدما رم ؟ فقال : نعم ، ويبعثك ويدخلك في النار . (أسباب النزول للواحدى ص ٢٤٦) .

(٣) المرخ شجر طويل ليس له ورق ولا شوك ، سريع الورى ، يقتدح به . والعقار الجوز المأكول .
وفي المثل : « في كل شجر نار واستجد المرخ والعقار » (الوسيط) .

كالقدرة عليه لاستوائهما بكل وجه ، وإنه يحيى النفوس بعد موتها في العرصة كما يحيى الإنسان من النطفة ، والطير^(١) من البيضة ، ويحيى القلوب بالعرفان لأهل الإيمان كما يميت نفوس أهل الكفر بالهوى والظلمات .

قوله جل ذكره : « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » .

« إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » بخلقه وقدرته . وأخبرنا أنه تعلق بالكون كلمته على ما يجب في صفته ، وسيان عنده خلق الكثير في كثيره والقليل في قلته .

قوله جل ذكره : « فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدَأُ الْمَكُوتَ كُلَّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » .

أى بقدرته ظهور كل شيء : فلا يحدث شيء — قل أو كثر — إلا بإبداعه وإنشائه ، ولا يبقى منها شيء إلا بإبقائه ، فنه ظهور ما يحدث ، وإليه مصير ما ^{يحدث}

(١) وردت (والطين) والصواب أن تكون (والطير) .

سورة الصّافات

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة إذا استولت على قلب أزالته عنه أولاً من الدارين أربّه ، ثم ألزمت على وجه التبعية حرّبه ، ثم شرّفت من حيث المهمة طلبه .

قوله جل ذكره : « والصّافات صفاً »

افتتح الله هذه السورة بالقسم بالصّافات ، وهم الملائكة المصطفّون في السماء وفي الهواء ، وفي أماكهم على ما أمرهم الحق — سبحانه — من المكان يلزمونه ، والأمر يعاقبون ؛ يُسَبِّحُونَهُ وَيُقَدِّسُونَهُ ، وبما يأمرهم به يطيعونه .

« فالزّاجرت زجراً »

عظّمهم على ما تقدّم بحرف الفاء وهم الملائكة الذين يزجرون السحاب . ويقال يزجرون الناس عن المعاصي . ويقال هي الخواطر الزاجرة عن المناهي .

« فالتّاليات ذكراً »

يقال « الصّافات » الطيور المصطفّون في السماء ، « والتّاليات ذكراً » الملائكة يتلون كتاب الله ، ويتلون الوحي على الأنبياء عليهم السلام .

« إنّ إلهمكم لواحد »

هذا هو المقسوم عليه .

أخبر أنه سبحانه واحد في ملكه ، وذلك لأنهم تعجّبوا أن يقوم الواحد بجميع أحوال العالم . ومعنى كونه واحداً تفرّده في حقّه عن القسمة ، وتقدّسه في وجوده عن الشبيه ، وتزّهه في

مُلْكِهِ عن الشريك ؛ واحد في جلاله ، واحد في استحقاق جماله ، واحد في أفعاله ، واحد في كبريائه بنعت علائه ، ووصف سنائه .

قوله جل ذكره : « رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
وَرَبُّ الْمَشَارِقِ »

مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَخَالِقُهُمَا ، وَأَكْسَابُ الْعِبَادِ دَاخِلَةٌ فِي هَذَا (١) .
« وَرَبُّ الْمَشَارِقِ » مشارق النجوم والشمس والقمر ، ومشارق القلوب بشموسها وأقمارها
ونجومها .

قوله جل ذكره : « إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ
الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ
شَيْطَانٍ مَارِدٍ »

زَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا بالنجوم ، وقلوب أوليائه بنجوم المعارف والأحوال ، وحفظ السموات
بأن جعل النجوم للشياطين رجوماً ، وكذلك زين القلوب بأنوار التوحيد ، فإذا قُربَ منها
الشيطان رَجَّهَها بنجوم معارفهم .

قوله جل ذكره : « إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ
ثَاقِبٌ »

كذلك إذا اغتتم الشيطان من الأولياء أن يُلقَى إليهم شيئاً من وساوسه تَذَكَّرُوا ، فإذا هم
مُبْصِرُونَ ، ورجعوا . . قال تعالى : « إِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ
تَذَكَّرُوا (٢) » .

قوله جل ذكره : « فَاسْتَفْتِهِمْ أَهْمْ أَوْ أَسَدٌ خَلَقًا أَمْ مَنْ
خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ »

(١) هذا الرأي على جانب كبير من الأهمية من الوجهة الكلامية . وخلق أكساب العباد من الله حكماً وعِلماً .
لأن الإرادة الإنسانية لا يمكن أن تخرج عن نطاق الحكم والعلم الإلهيين - هكذا أوقفنا القشيري في مواضع مختلفة .
(٢) آية ٢٠١ سورة الأعراف .

عَرَفَهُمْ عَجَزَهُمْ عَنِ الْإِثْبَاتِ ، وَضَعْفَهُمْ فِي كُلِّ حَالٍ ، ثُمَّ ذَكَرَهُمْ نَسَبَتَهُمْ أَنَّهَا إِلَى الطَّيْنِ
الْأَلْأَزْبِ (١) .

قوله جل ذكره : « بَلْ عَجَبْتَ وَيَسْخَرُونَ » .

حقيقة التعجب تغير النفس عما لم تجر العادة بمحدث مثله . وَتَقْرَأُ (٢) « عَجَبْتَ » بِالْفَتْحِ
خُطَابًا لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — وَبِالضَّمِّ فَكَأَنَّ الْحَقَّ يَقُولُ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ بَلْ
عَجَبْتُ ، وَيُقَالُ ذَلِكَ بِمَعْنَى إِكْبَارِ ذَلِكَ الشَّيْءِ ، إِمَّا فِي الْقَدْرِ ، أَوْ الْإِكْثَارِ فِي الدَّمِّ
أَوْ فِي الدَّحِ .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ »

إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِهِ يُعْرِضُونَ عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا وَالتَّفَكُّرِ فِيهَا ، وَيَقُولُونَ : لَيْسَ هَذَا الَّذِي
أَتَى بِهِ مُحَمَّدٌ إِلَّا سِحْرًا ظَاهِرًا .

قوله جل ذكره : « أَأَنْذَرْنَاكُمْ مُنَادٍ وَمُنَادٍ وَآبَاؤُنَا أَنْذَرْنَاكُمْ »

لِمَبْعُوثُونَ * أَوْ آبَاؤُنَا الْأُولُونَ »

قَالُوا : أَأَنْذَرْنَاكُمْ مُنَادٍ ، تَفَرَّقَتْ أَجْزَاؤُنَا ، وَصَرْنَا رَمِيًا . . . أَأَنْذَرْنَاكُمْ لِمَبْعُوثُونَ ؟ أَوْ آبَاؤُنَا الْأُولُونَ
يُيَعِّثُونَ كَذَلِكَ ؟ قَالُوا عَلَى جِهَةِ الْإِسْتِغْنَاءِ ؛ فَالْمَعْرِفَةُ لَهُمْ مَقْقُودَةٌ ، وَالْبَصَائِرُ لَهُمْ مَسْدُودَةٌ ،
وَقُلُوبُهُمْ عَنِ التَّوْحِيدِ مَصْدُودَةٌ .

« قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ * فَإِنَّمَا »

هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ »

قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ ؛ نَعَمْ ، وَعَلَى وَصْفِ الصَّفْرِ مَا يَبْعَثُكُمْ ، وَبَزَجْرَةٍ وَاحِدَةٍ يَحْشُرُكُمْ ، بَعْدَ أَنْ
يُقِيمَ الْقِيَامَةَ عَلَى جَمِيعِكُمْ .

(١) لَازِبٌ أَيْ لَاصِقٌ لَصِقَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ، أَوْ لَازِقٌ يَلْتَزِقُ بِمَا أَصَابَهُ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالضُّحَاكُ هُوَ الْمُنْتَنُ (الْقُرْطُبِيُّ)

ح ١٥٨ ص ٦٨ : ٦٩ .

(٢) بِالْفَتْحِ قِرَاءَةُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَأَبِي عَمْرٍو وَعَاصِمٌ . وَبِالضَّمِّ قِرَاءَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْرُودٍ ، وَالْكَوْفِيُّينَ إِلَّا عَاصِمًا .
وَالَّذِينَ يَنْكُرُونَ الضَّمَّ يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْجَبُ مِنْ شَيْءٍ ، وَلَكِنْ تَخْرِيجُ الْقَشِيرِ لِذَلِكَ يَكَادُ يَكُونُ سَائِفًا ، وَقَدْ
اخْتَارَهُ بَعْضُ الْأُئِمَّةِ كَالْبَيْهَقِيِّ .

« وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين *

هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون»

دَعُوا بِالْوَيْلِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَوْ يُقَالْ لَهُمْ : هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ بِهِ ، وَقَدْ

عَابْتُمُوهُ الْيَوْمَ .

قوله جل ذكره : « احشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ

وَمَا كَانُوا يَبْدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ

فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ *

وقفوهم إنهم مسئولون »

أراد بأزواجهم قرنائهم وأشكالهم وَمَنْ عَمِلَ مِثْلَ أَعْمَالِهِمْ ، وَمَنْ أَعَانَهُمْ عَلَى ظَلَمِهِمْ

بقليل أو كثير .. وكذلك في هذه الطريقة : مَنْ أَعَانَ صَاحِبَ فِتْرَةٍ فِي فِتْرَتِهِ ، أَوْ صَاحِبَ

زَلَّةٍ عَلَى زَلَّتِهِ — كَانَ مُشَارِكًا لَهُ فِي عِقَابَتِهِ ، وَاسْتِحْقَاقِ طَرْدِهِ وَإِهَاتِهِ .

قوله : « وقفوهم إنهم مسئولون » : مقامُ السُّؤَالِ مقامٌ صعبٌ : قوم يسألهم المَلَكُ

وقوم يسألهم المَلَكُ ؛ فالذين تسألهم الملائكةُ أقوامٌ لهم أعمالٌ صالحةٌ تصلح للعرض

والكشف ، وأقوامٌ لهم أعمالٌ لا تصلح للكشف ، وهم قسمان : الخواص يستترهم

الحق عن اطلاع الخلق عليهم في الدنيا والآخرة ، وأقوامٌ هم أربابُ الزلات يرحمهم الله

فلا يفضحهم ، ثم إنهم يكونون في بعض أحوالهم بنت الهيبة ، وفي بعض أحوالهم بنت

البسط والقربة ، وفي الخبر : « أَنْ قُومًا يَسْتَرُهُمْ يَدُهُ وَيَقُولُ تَذَكَّرْ غَدًا رَبُّكَ » وهؤلاء

أصحاب الخصوص في التحقيق : فاما الأغيار والأجانب والكفار فيقال لهم : « كفى بنفسك

اليوم عليك حبيباً »^(١) ، فإذا قرأوا كتابهم يقال لهم . مَنْ عَمِلَ هَذَا ؟ وما جزاؤه ؟

فيقولون : جزاؤه النار . فيقال لهم : أدخلوها بمحكم .

ثم يقال لهم في بعض أحوال استيلاء الفرع عليهم : —

(١) آية ١٤ سورة الإسراء .

« ما لكم لا تناصرون • بل هم
اليوم مستسلمون • وأقبل بعضهم على
بعض يتسائلون »

يُورثك بعضهم الذنب على بعض ؛ فهذا يتبرأ من صاحبه ، وصاحبه يتبرأ منه ، إلى أن
يحكم الله عليهم بالخزى والهوان ، ويجمعهم في اللعن والإبعاد .

قوله جل ذكره : « فإنهم يومئذٍ في العذاب مشتركون
• إنا كذلك نفعلُ بالجرمين »

يشتركون في العذاب ولكن تضافت أنصباؤهم ، كما أنهم يشتركون في الزلة
ولكن تختلف مقادير زلاتهم .

قوله جل ذكره : « إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إلهَ
إلا اللهُ يستكبرون »

احتجابهم بقلوبهم أوقعهم في وهدة عذابهم ؛ ذلك لأنهم استكبروا عن الإقرار بربوبيته .
ولو عرفوه لافتخروا بعبوديته ؛ قال تعالى : « إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن
عبادته »^(١) ، وقال : « لن يستنكف المسيحُ أن يكون عبداً لله ولا الملائكة
المقربون »^(٢) فإن من عرفَ اللهَ فلا لذةَ له إلا في طاعته ، قال قائلهم .

ويظهرُ في الهوى عزُّ الموالى فيلزمُنى له ذُلُّ العبيد

قوله جل ذكره : « ويقولون أننا لتاركوا آلِهتنا لشاعر
مجنون • بل جاء بالحقِّ وصدقَ
المرسلين • إنكم لذاقوا العذاب
الآليم » .

(١) آية ٢٠٦ سورة الأعراف .

(٢) آية ١٧٢ سورة النساء .

لَمْ يَمْتَشِمُوا مِنْ وَصْفِهِ — سُبْحَانَهُ — بِمَا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ لَمْ يُبَالُوا بِمَا أَطْلَقُوهُ مِنَ
الْمَثَالِبِ فِي وَصْفِ أَنْبِيَائِهِ .

قوله جل ذكره : « وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ »

الاستثناء راجع إلى قوله : * إِنْ كُنْتُمْ لِنَاقِثُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ *
ويقال الإخلاصُ إفرادُ الحقِّ — سُبْحَانَهُ — بالعبودية ، والذي يشوبُ عمله رياءٌ
فليس بمخلص .

ويقال : الإخلاصُ تصفيةُ العمل عن ملاحظة المخلوقين ، وفي الخبر : يامعاذ ، أخلص
العملَ يكفيك القليل منه .

ويقال : الإخلاصُ قَدْ رُويَ الأشخاصُ (١) .

ويقال : هو أن يلاحظ محل الاختصاص .

ويقال : هو أن تنظر إلى نفسك بعين الانتقاص .

قوله جل ذكره : * أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ * فَوَاكُهُ
وَهُمْ مُكْرَمُونَ *

لهم رزقٌ معلومٌ لأوقاتٍ مُعَيَّنة ، وفي وقت الرسول عليه السلام مَنْ كَانَ لَهُ
رِزْقٌ مَعْلُومٌ كَانَ مِنْ جَمَلَةِ الْمَيَاسِيرِ ، وَهَذِهِ صِفَةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ ؛ فَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ رِزْقٌ مَعْلُومٌ
لأبشارهم ولأسرارهم ، فالأغنياء لهم رِزْقٌ مَعْلُومٌ لأنفسهم (٢) ، والفقراء (٣) لهم رِزْقٌ مَعْلُومٌ
لقلوبهم وأسرارهم .

* فَوَاكُهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ * : مِنْ ذَلِكَ وَرُودِ الرَّسُولِ عَلَيْهِمْ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ ،
وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ الْخُطَابُ وَارِدٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى قُلُوبِ الْخَوَاصِّ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِكُلِّ أَمْرٍ .

(١) أي لا يكون هناك حساب للمخلوقين .

(٢) رِزْقُ النُّفُوسِ لِأَغْنِيَاءِ الْأَمْوَالِ .

(٣) وَرِزْقُ الْقُلُوبِ لِأَرْبَابِ الْأَحْوَالِ .

« فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ * عَلَى سُرُرٍ
مُتَقَابِلِينَ »

يَسْتَأْنِسُ بَعْضُهُمْ بِرُؤْيَا بَعْضٍ ، وَيَسْتَرْوِحُ بَعْضُهُمْ إِلَى لِقَاءِ بَعْضٍ .

« يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ *
بِضَاءٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ »

شَرَابٌ يَوْجِبُ لَهُمُ الطَّرَبَ وَلَا وَحْشَةً هُنَاكَ ، شَرَابًا يُحْضِرُهُمْ وَلَا يُسْكِرُهُمْ ،
لأنه قال :

« لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا
يُنْزَفُونَ »

فَلَا تَغْتَالُ عَقُولُهُمْ ، وَلَا تُزِيلُ حِشْمَتَهُمْ ، وَلَا تَرْفَعُ عَنْهُمْ هَيْبَتَهُمْ ؛ قَوْمٌ يَشْرَبُونَ
وَهُمْ بِوَصْفِ السَّرِّ ، وَآخَرُونَ يُسْقَوْنَ فِي الْحَضُورِ — وَهُمْ عَلَى نَمَتِ الْقُرْبِ .

« وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عَيْنٍ *
كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ »

لَا يَنْظُرْنَ إِلَى غَيْرِ الْوَلِيِّ^(١) ، ثُمَّ الْوَلِيُّ قَدْ يَنْظُرُ إِلَيْهِنَّ ، وَفِيهِمْ مَنْ لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِنَّ :
جُنُنًا بَلِيلَى وَهِيَ جُنَّتُ بَغِيرِنَا وَأُخْرَى بَنَّا بِمَجْنُونَةٍ لَا نَرِيدُهَا

قوله جل ذكره : « فَأَقْبَلِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ
يَتَسَاءَلُونَ ... »

يَتَذَاكَرُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَيَذَكَّرُونَ مِنْ مَعَارِفِهِمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ، وَمَا آمَنَ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ
فَيَخْلُقُ اللَّهُ لَهُمْ إِطْلَاعًا عَلَيْهِ وَهُمْ فِي النَّارِ يَحْتَرِقُونَ .

قوله جل ذكره : « قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرْدِينَ *

(١) المقصود به هنا الزوج ، أى نساء قد قصرتن طرفهن على أزواجهن .

ولولا نَفْسُهُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ
الْمُخْضَرِّينَ «

نطق الولي بالحق ولكنه لم يصرِّحُ بعين التوحيد ؛ إذ جعلَ الفضلَ واسطةً ، والأولى
أن يقول : ولولا ربِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ ^(١) .

قوله جل ذكره : « إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » • لِمِثْلِ
هذا فليعمل العاملون «

يقال : بل الملائكةُ يقولون لهم هذا ، ويقال : الحقُّ — سبحانه — إذا أراهم مقامهم في
الجنة يقول لهم : « لِمِثْلِ هذا فليعمل العاملون » .

ويقال إن كان العابدُ يقول هذا ، أو يقال له هذا إذا ظهرت الجنة فإنه إذا بدت شظيةٌ من
الحقائق وتباشير الوصلة ، أو ذرَّةٌ من نسيم القربة فيالحرقى أن يقول القائلون : لِمِثْلِ هذه
الحالة تُبَدِّلُ الأرواحُ .

على مِثْلِ سَلَمَى يَقْتُلُ الْمَرْءَ نَفْسَهُ
وإن بات من سَلَمَى على اليأس طاولا
وما هنا تضيق العبارات ، وتتقاصر الإشارات .

قوله جل ذكره . « أَذْكَأ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةٌ
الزَّاقُونَ »

ذَكَرَ صفة هوان الأعداء ، وما هم به من صفة اللذلة والعذاب في النار ؛ من أكلِ
الضريع ، ومن شراب الزقوم التي هي في قُبْح صورة الشياطين ، ثم إن مرجعهم لِمِثْلِ الجحيم ...
إلى آخر القصة .

قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ » •
وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ «

(١) أى نطق بعين الفرق ولو كان بعين الجمع لقال : « ولولا ربِّي . . . » .

لَمَّا أَصَابَهُ مِنَ الْأَذَى مِنْ قَوْمِهِ حِينَ كَذَّبُوهُ ، وَلَمْ يَسْمَعُوا مِنْهُ مَا كَانَ يَقُولُ مِنْ حَدِيثِنَا . .
رَجَعَ إِلَيْنَا ، نَخَاطِبُنَا وَخَاطِبُنَاهُ ، وَكَلَمْنَا وَكَلَمْنَاهُ ، وَنَادَانَا فَتَنَادَيْنَاهُ ، وَكَانَ لَنَا فَكْنًا لَهُ ،
وَأَجَابَنَا فَأَجَبْنَاهُ . . فَلَنَعْنِمَ الْمَجِيبُ كَانَ لَنَا وَلِنَعْنِمَ الْمَجِيبُونَ كُنَّا لَهُ !

« مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ » : شَتَانُ بَيْنِ كَرْبِ نُوحٍ وَبَيْنِ كَرْبِ أَهْلِهِ !

وَمَا يَبْكُونُ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ

أَعَزَّى النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأْسَى

قوله جل ذكره : « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ »

لَأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ مِنْ أَوْلَادِ نُوحٍ ، فَإِنَّ مَنْ كَانَ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ لَمْ يَنْتَاسِلُوا^(١)

« وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ »

يُرِيدُ بِهِ قَوْلَ النَّاسِ عَنْهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

قوله جل ذكره : « وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ » إذ

جاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ

يعنى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ مِنْ شِيعَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي التَّوْحِيدِ — وَإِنْ اخْتَلَفَا فِي فُرُوعِ
شَرْعِيَّهِمَا .

« قَلْبٌ سَلِيمٌ » : لَا آفَةَ فِيهِ . وَيُقَالُ لِذَيْفَرٍ مِنَ الْحَبَّةِ . وَيُقَالُ : سَلِيمٌ مِنْ مَحَبَّةِ
الْأَغْيَارِ . وَيُقَالُ سَلِيمٌ مَنْ حُظِرَظَ نَفْسُهُ وَإِرَادَتُهُ . وَيُقَالُ : مُسْتَسْلِمٌ لِلَّهِ فِي قَضَائِهِ وَاخْتِيَارِهِ .

قوله جل ذكره : « إِذْ قَالَ لِأَيُّهُ وَقَوْمُهُ مَاذَا

تَعْبُدُونَ ؟ »

سَأَلَهُمْ عَلَى جِهَةِ الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ ، وَالتَّنْبِيهِ لَهُمْ عَلَى مَوْضِعِ غَلْطِهِمْ .

« فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ؟ »

(١) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَمَّا خَرَجَ نُوحٌ مِنَ السَّفِينَةِ مَاتَ مِنْ مَعَهُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَلَدَهُ وَنِسَاءَهُ .

إذا لقيتموه — وقد عبدتم غيره . . فما الذي تقولون له ؟ وكيف بكم في مقام النجدة
بما بين أيديكم وإن كنتم اليوم — غافلين عنه ؟

قوله جلّ ذكره « فنظر نظرة في النجوم * قال إني
سقيم » .

قليل أراد « إلى » النجوم فأقام « في » مقام « إلى »^(١) .

« إني سقيم » : كانت تأتية الحمى في وقت معلوم ، فقال : قرب الوقت الذي
أسقم فيه من أخذ الحمى إياي ، فكأنه تعلل بذلك ليتأخر عنهم عند ذهابهم إلى
عيدهم لتمشية ما كان في نفسه من كسر الأصنام .

ويقال كان ذلك من جملة المعاريض . وقيل أرى من نفسه موافقة قولهم في القول
بالنجوم لأنهم كانوا يقولون بالنجوم ، فتأخر بهذا السبب عنهم^(٢) .

وكان إبراهيم في زمان النبوة فلا يبعد أن الله — عزّ وجلّ — قد عرفه بطريق
الوحي أنه يخلق — سبحانه — باختياره أفعالاً عند حركات الكواكب .

ثم لما ذهبوا إلى عيدهم كثر أصنامهم ، فلما رجعوا قالوا ما قالوا ، وأجابهم
بما أجابهم به إلى قوله :

« قالوا ابنؤا له بُنيانا فألقوه في الجحيم
* فأرادوا به كيداً فجعلناهم
الأسفلين » .

ردّ الله كيدهم إلى نحورهم . وقد تعرض له جبريل — عليه السلام — وهو في

(١) ربما نعترض على هذا . . . فمع تسليمنا بجواز نيابة حروف الجر بعضها عن بعض إلا أننا نرى أن
استعمال « في » أدق . . . فالمقصود من أن إبراهيم « نظر في » النجوم أنه تأمل وتفكر . بينما لا تؤدي « نظر إلى » أكثر
من التطلع بالعين و الفرق بين التأمل بالفكر والبصيرة وبين التطلع بالبصر — والله أعلم .

(٢) أرسل إليه ملكهم إن غداً عيدنا فاخرج معنا ، فنظر إلى نجم طالع وقال : إن هذا يطلع مع سقمي سرعان
علم النجوم مستعملاً عندهم — فأراهم من معتقدهم عنراً لنفسه . وذلك أنهم كانوا أهل رعاية وفلاحة ، وهاتان
المعيشتان يحتاج فيهما إلى نظر في النجوم (القرطبي ص ٩٢ ج ١٥) .

المهوء وقد رُمى من المنجنيق فعرَضَ عليه نفسه قائلاً : هل مِنْ حاجة ؟

فأجاب : أمّا إليك .. فلا !

قوله جل ذكره : « وقال إني ذاهبٌ إلى ربِّي »

سيهدين »

يقال إنه طلبَ هدايةَ مخصوصة ؛ لأنه كان صاحبَ هداية ، إذ لو لم تكن له هداية لما ذهبَ إلى ربِّه . ويحتمل أنه كان صاحبَ هدايةٍ في الحال وطلبَ الهداية في الاستقبال أى زيادةً في الهداية ، ويقال طلبَ الهداية على كيفية مراعاة الأدب في الحضور ، ويقال طلبَ الهداية إلى نفسه لأنه قدّ فيه قلبه ونفسه ؛ فقال سيهدينى إلىّ لأقومَ بحقِّ عبوديته ؛ فإن المسهلَك في حقائق الجمع لا يصحُّ منه أداء العبادة إلّا بأن يُردَّ إلى حالة التفرقة والتمييز .

ومعنى « إلى ربِّي » أى إلى المكان الذى يُعبَدُ فيه ربِّي .

ويقال أخبر عن إبراهيم أنه قال : « إني ذاهبٌ إلى ربِّي » : فأخبر عن قوله .

وأخبر عن موسى فقال : « ولما جاء موسى لميقاتنا » ، فأخبر عن صفته لاعتقوله . . .

وقال في صفة نبينا صلى الله عليه وسلم : « سبحانه الذى أسرى بعبده . . . »
[فأخبر عن ذاته سبحانه^(١)]

وفصلٌ بينَ هذه المقامات ؛ فإبراهيم كان بعين الفرق ، وموسى بعين الجمع ؛ ونبينا كان بعين جمع الجمع .

قوله جلّ ذكره : « ربُّ هبْ لى من الصالحين »

فبشرناه بفلاّهم حلیم »

لما قال « حلیم » نَبّه على أنه سيلقى من البلاء ما يحتاج إلى الحلم في تحمله . .

(١) ما بين القوسين من عندنا أضفناه للتوضيح .

قوله جل ذكره: « فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال : يا أبتِ افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين »

« فلما بلغ معه السعي » إشارة إلى وقت توطين القلب على الولد ، رأى إبراهيم — عليه السلام — أنه يُؤمرُ بذبح ابنه إسماعيل^(١) ليلة التروية ، وسميت كذلك لأنه كان يُروى في ذلك طولَ يومه . هل هو حق أم لا^(٢) ؟ . ثم إنه رأى في الليلة التالية مثل ذلك فعرف أن رؤياه حق ، فسعى يوم عرفة .

وكان إسماعيل ابن ثلاث عشرة سنة ، ويقال إنه رأى ذلك في النوم ثلاث مرات^(٣) : أن اذبح ابنك ، فقال لإسماعيل : « يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ » قال إسماعيل : « يا أبتِ افعل ما تؤمر » : أي لا تحكم فيه بحكم الرؤيا ، فإنها قد تصيب وقد يكون لها تأويل ، فإن كان هذا أمراً فافعل بمقتضاه ، وإن كان لها تأويل فتثبت^(٤) ، قد يمكنك ذبح ابنك كل وقت ولكن لا يمكنك تلافيه .

ويقال بل قال : أترك حديث الرؤيا واحمله على الأمر ، واحمل الأمر على الوجوب ، ثم احمله على الفور ولا تقصّر .

ويقال قال له : إن كان يطيب قلبك بأن تذبح ابنك لأجل الله فأنا بطيب قلبي أن يذبحني أبي لأجل الله .

(١) اختلف الناس في الذبيح فقال قوم إنه إسحاق وآخرون إنه إسماعيل . وفريق ثالث يقول : الله أعلم به . وعن الأصمعي أنه قال : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح ، فقال : يا أصمعي . أين عزب عنك عقلك ! ومنى كان إسحاق بمكة ؟ وإنما كان إسماعيل بمكة وهو الذي بنى البيت مع أبيه والمنحدر بمكة . اهلاًما لإسحق فكان بيت المقدس .

(٢) مع أن إبراهيم أخذ يتساءل بين وبين نفسه عن ذلك إلا أنه من الثابت أن الرسل يأتيهم الوحي أيقاظاً ورفوداً ، فلوهم لا تنام ، قال صلى الله عليه وسلم : « إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا » .

(٣) لأجل ذلك سميت الأيام الثلاثة على التوالي يوم التروية ويوم عرفة ويوم النحر .

(٤) هكذا في م وهي في ص (قبلت) ونحن نرجح (فتثبت) بدليل ما بعدها لأنه بعد الذبح يكون قد قضى الأمر . ويأسي إبراهيم إن كان ذلك غير المراد .

ويقال قال إسماعيل لأبيه : أنت خليلُ الله وتنام .. أكمْ نَعْلَمْ أن الخليلَ إذا نام عن خليله
يُؤْمَرُ بِذَبْحِ ابنه ؟ مَالِكٌ يَا أَبَتِ والنوم ؟

ويقال في القصة : إنه رآه ذات يومٍ راكبًا على فرَسٍ أشهبٍ فاستحسنه ، ونظَرَ إليه
قلبه ، فأمرَ بِذَبْحِهِ ، فلما أخرجَه عن قلبه ، واستسلمَ لذبحه ظَهَرَ الفداء ، وقيل له كان المقصودُ
من هذا فراغَ قلبك عنه .

ويقال في القصة : أمرَ إسماعيلُ أباه أن يَشُدَّ يديه ورجليه لئلا يضطربَ إذا مَسَّهُ ألمُ
الذَّبْحِ فَيَمُوتَ ، ثم لما مَّ بِذَبْحِهِ قال : افتحِ القيدَ عني حتى لا يقال لي : أُمشِدودَ اليدِ جثتي ؟
ولاني لن أتحركَ :

ولو بيدِ الحبيبِ سُقِيتُ سُمًّا لكان السُّمُّ من يديه يطيب

ويقال أيهما كان أشدَّ بلاءً ؟ قيل : إسماعيل ؛ لأنه وَجَدَ الذَّبْحَ من بدأبيه ، ولم يتعوَّد
من يده إلا التربية بالجليل ، وكان البلاءُ عليه أشدَّ لأنه لم يتوقع منه ذلك .

ويقال بل كان إبراهيم أشدَّ بلاءً لأنه كان يحتاج أن يذبح ابنه بيده ويعيش بعده .

«ستجدني إن شاء الله من الصابرين» فلم يأتِ إسماعيل بالدعوى^(١) بل تأدَّب بلفظ الاستثناء .

ويقال لو قال إسماعيل إِمَّا لَا تَقُلْ : « يَا بُنَيَّ » بهذه اللطافة ، وإِمَّا لَا تَقُلْ : « إِنِّي أَذْبَحُكَ »

فإنَّ الجمعَ بينهما عجيب !

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا أَسْلَمْنَا وَتَلَّ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ

أَنْ يَا إِبْرَاهِيمَ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا

كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ *

قيل في التفسير إنه كان يمرُّ بالسكين على حلقه والسكين لا يقطع ، فتعجَّب إبراهيمُ ،

فنودي : يا إبراهيم كان المقصودُ من هذا استسلامكما .

ويقال إن الله سترَ عليهما عِلْمَ ما أريدَ منهما في حال البلاء ، وإِنَّمَا كَشَفَ عنهما بعد مُضِيِّ

وقت الحنة لئلا يَبْطُلَ معنى الابتلاء . . . وهكذا يكون الأمر عند البلاء ؛ تَنَشَّدُ الوجوه

(١) أى دعوى النفس بالمكينة دون تقديم المشيئة الإلهية .

في الحال ؛ وكذلك كانت حالة النبي صلى الله عليه وسلم في حال حديث الإفك ، وكذلك حالة أيوب عليه السلام ؛ وإنما يتبين الأمر بعد ظهور آخر المحنة وزوالها ، وإلا لم تكن حينئذ محنة [إلا أنه يكون في حال البلاء إسبال^(١) يُولَى مع مخامرة المحنة] ولكن مع استعجام الحال واستبهامه ، إذ لو كشف الأمر على صاحبه لم يكن حينئذ بلاء ؛ قال تعالى : —

« إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ *

وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ .

قيل كان فداء الذبيح يُرَبَّى في الجنة قبله بأربعين خريفاً .

والناس في « البلاء » على أقسام : فبلاء مستعصب وذلك صفة العوام ، وبلاء مستعذب وذلك صفة من يستعذبون بلاياهم ، كأنهم لا يأسون حتى إذا قُتِلُوا .

قوله جل ذكره : « وَبَشِّرْناه بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ »

وباركنا عليه وعلى إسحاق . . .

وكل هذا بعد البلاء ؛ قال تعالى : « إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » .

قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ مَنَّنا عَلَى موسى وهارون »

مَنْ عليهما بالنبوة ، وبالنجاة من فرعون وقومه ، وبنصرته عليهم .

« وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ » .

يعنى التوراة .

« وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ »

بالتبري عن الخبائيل والقوة ، وشهود عين التوحيد .

« وَتَوَكَّلْنا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ * سلامٌ

على موسى وهارون » .

ثم قال جل ذكره : « وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » .

« إلیاس » : قيل هو إدريس ، وقيل غيره ، وكان بالشام ، واسمُ صنمهم « بعل » ،

(١) ما بين القوسين موحود في ص وساقط في م .

ومدينتهم بعلبك : . أنذر قومه فكذبوه ، ووعظهم فاصدقوه ، فأهلك قومه .

قوله جل ذكره : « وَإِنَّ لوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ »

مضت قصته وكيف نجى أهله إلا امرأته التي شاركتهم في عصيانهم ، فحق العذاب عليها مثلما عليهم ^(١) .

قوله جل ذكره : « وَإِنْ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » .

فكان في أول أمره يطلب الاستعفاء من النبوة ، ولكن لم يُعَفَّ ، ثم استقبله ما استقبله ، فلم يلبث حتى رأى نفسه في بطن الحوت في الظلمة : —

« فَالْتَقَمَهُ الْحَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ »

أى بما يُلام عليه ، والحق — سبحانه — مُنَزَّهٌ عن الحيف في حكمه ؛ إذ الخلق خلقه ، ثم الله راعى حق تعبدِهِ ، وحفظ ذِمَامَ ما سَلَفَ له في أداء حقه فقال : —

« فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ

فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ »

فإن كَرَمَ العهدِ فينا من الإيمان ، وهو مِنَّا من جملة الإحسان ، « فَاَلْمُؤْمِنُ قَدْ أَخَذَ مِنَ اللَّهِ خُلُقًا حَسَنًا » — بذلك ورد الخبر .

« فَتَبَذَنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ »

« سقيم » : في ضعفٍ من الحال لِمَا أَثَرَمِنْ كَوْنِهِ قَضَى وَقْتًا فِي بطن الحوت .

وَأُنْبِتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ »

لِتُظِلَّهُ ، فإنه كان في الصحراء وشعاعُ الشمسِ كان يضُرُّه ، وقَبِضَ له اللهُ ظِيبَةً ذاتَ وَنْدٍ كَأَنَّ تَجْمِيدَهُ فَيَرْضَعُ مِنْ لَبَنِهَا ، فكانَ الحقُّ أعاده إلى حال الطفولية . ثم إنه رَجَعَ ، ورجع إلى قومه ، فأكرموه وآمنوا به ، وكان الله قد كَشَفَ عنهم العذاب ، لأنهم حينما خَرَجَ يونس من بينهم ندموا ونَصَرَتُوا إِلَى اللَّهِ لَمَّا رَأَوْا أَوَائِلَ الْعَذَابِ قَدْ أَظْلَمَتْهُمْ ،

(١) نلاحظ أن القشيري يمر سريعاً إزاء قصص الأنبياء هنا لأنه توقف طويلاً عند كل منها في مواضع

سبقت .

فَكَشَفَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ ، وَأَمَنُوا بِاللَّهِ ، وَكَانُوا يَقُولُونَ : لَوْ رَأَيْنَا يُونُسَ لَوْكَّرْنَاهُ ، وَغَطَّمْنَاهُ ، فَرَجَعَ يُونُسُ إِلَيْهِمْ بَعْدَ نَجَاتِهِ مِنْ بطن الْحُوتِ ، فَاسْتَقْبَلَهُ قَوْمُهُ ، وَأَدْخَلُوهُ بِلَدِّهِمْ مُكْرَمًا .

ويقال : الذَّنْبُ وَالْجُرْمُ كَانَا مِنْ قَوْمِهِ ، فَهَمَّ قَدْ تَوَعَّدُوا بِالْعَذَابِ . وَأَمَّا يُونُسُ فَلَمْ يَكُنْ قَدْ أَذْنَبَ وَلَا أَلَمَ بِمَحْظُورٍ ، وَخَرَجَ مِنْ بَيْنِهِمْ ، وَكَشَفَ اللَّهُ الْعَذَابَ عَنْهُمْ ، وَسَلَّمُوا .. وَاسْتَقْبَلَ يُونُسَ مَا اسْتَقْبَلَهُ بَلْ أَنَّهُ قَامَى اللَّتِي وَالَّتِي بَعْدَ نَجَاتِهِ ؛ وَيَا عَجَبًا مِنْ مِرٍّ تَقْدِيرِهِ ! قَدْ جَاءَ فِي الْقِصَّةِ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ — أَوْحَى إِلَى يُونُسَ بَعْدَ نَجَاتِهِ أَنَّ قُلْ لِفُلَانِ الْفَخَّارِ حَتَّى يَكْسِرَ الْجِرَارَ الَّتِي عَمَلَهَا فِي هَذِهِ السَّنَةِ كُلَّهَا ! فَقَالَ يُونُسُ : يَا رَبِّ ، إِنَّهُ قَطَعَ مَدَّةً فِي إِنْجَازِ ذَلِكَ ، فَكَيْفَ آمُرُهُ بِأَنْ يَكْسِرَهَا كُلَّهَا ؟

قَالَ لَهُ : يَا يُونُسَ ، يَرِيقُ قَلْبُكَ لِيَخْزَافَ يُتْلِفُ عَمَلُ سَنَةٍ .. وَتُرِيدُنِي أَنْ أَهْلِكَ مِائَةَ أَلْفٍ مِنْ عِبَادِي ؟! يَا يُونُسَ ، إِنَّكَ لَمْ تَخْلُقْهُمْ ، وَلَوْ خَلَقْتَهُمْ لَرَحَّمْتَهُمْ ^(١) .

قوله جل ذكره : « فَاسْتَفْتِهِمُ الرَّبُّ الْبَنَاتُ وَلَمْ الْبَنُونَ ؟ »

لَمَّا قَالُوا فِي صِفَةِ الْمَلَائِكَةِ إِنَّهُمْ بَنَاتُ اللَّهِ يَبَيِّنُ اللَّهُ قُبْحَ قَوْلِهِمْ ، قَالَ : سَلِّمُوا مِنْ أَيْنَ قَالُوا ؟ وَبِأَيِّ حُجَّةٍ حَكَمُوا بِمَا زَعَمُوا ؟ وَأَيُّ شُبُهَةٍ دَاخَلْتَهُمْ . ثُمَّ إِنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَفْتِكُونَ مِنَ الْبَنَاتِ ، وَيُؤْتِرُونَ الْبَنِينَ عَلَيْهِنَ .. وَمَعَ كُفْرِهِمْ وَقُبْحِ قَوْلِهِمْ وَصَفَوْا الْقَدِيمَ — سَبَّحَانَهُ — بِمَا اسْتَفْتَوْا مِنْهُ لَأَنْفُسِهِمْ !

قوله جل ذكره : « فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ » .

(١) تتجلى براعة القُدسِرى في التقاط نماذج من القصص تخدم فكرته العامة بخصوص تأميل العصاة ، وإفصاح باب التوبة أمامهم على عكس بعض الباحثين الذين لا يهتمون إلا بالتخويف والتبشيع ، والتهويل والإقنات .

[أى ما أنتم بفاتنين من الناس إلا من أغويته بحُكْمِي ، فيه ضلُّوا لا بإضلالكم ^(١) .

قوله جل ذكره : « وما مِنَّا إِلَّا له مقامٌ معلومٌ » .

الملائكة لهم مقام معلوم لا يتخطون مقامهم ، ولا يتعدون حدَّهم ، والأولياء لهم مقام ^(٢) مستورٌ بينهم وبين الله لا يُطلِعُ عليه أحداً ، والأنبياء لهم مقام مشهورٌ مُؤَيَّدٌ بالمعجزات الظاهرة ؛ لأنهم للخلق قدوة فأمرهم على الشهير ، وأمرُ الأولياء على السَّترِ .

قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ » .

أى سبقت كلمتنا لهم بالسعادة ، وتقدَّم حُكْمُنَا لهم بالولاية والرعاية ، فهم من قبيلنا منصورون : —

« إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » .

مَنْ نَصَرَهُ لَا يُغْلَبُ ، وَمَنْ قَهَرَهُ لَا يَنْلَبُ .

وجنْدُه الذين نصبهم لنشر دينه ، وأقامهم لنصر الحق وتبيينه ... مَنْ أَرَادَ إِذْلَالَهُمْ فَعَلَى أَذْقَانِهِ يَنْزِلُ ، وفي جبل هلاكه ينجرُّ .

قوله جل ذكره : « فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ » .

تَوَلَّ عَنْهُمْ — يا محمد — إلى أن تنقضي آجالهم ، وتنتهي أحوالهم . وانتظر انقضاء أيامهم ، فإنه سينصرم حديثهم وشيكا : —

« أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ » .

(١) في هذا الرأي رد على القدرية كاهو واضح .

(٢) ما بين القوسين الكبيرين جاء في م وسقط في م .

وإنما قال ذلك فيما كانوا يتمنون قيام الساعة ، وكانوا يستعجلون ذلك لِفِرْطِ جهلهم ،
ثم لقلة تصديقهم . فلذا نزل العذابُ بساحتهم ، وأننا نحن البلاءُ بمقوتهم فساء صباحهم . فتولَّ
عنهم فَعَنَ قَرِيبٌ سِيَحْصِلُ ما منه يَحْذَرُونَ .

قوله جل ذكره : « سبحان ربُّ العِزَّةِ عما يَصِفُونَ »
وسلامٌ على المرسلين • والحمد لله ربُّ
العالمين » .

« سبحان ربك » : تَدْيِيسًا له ، وسلامٌ على أنبيائنا ، « والحمد لله » : أى هو الحمود على
ما ساءَ أم سرَّ ، نَفَعَ أم ضَرَّ .

سورة ص

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

اسم عزيز اعترفت المعارف بالقصور عن إدراكه ، اسم جليل تقنعت العلوم خجلاً من الطمع في إحاطته ، اسم كريم صغرت الحوائج عند ساحات جوده ، اسم رحيم تلاشت قطرات زلات عباده في تلاطم أمواج رحمته .

قوله جل ذكره : « ص والقرآن ذي الذكر » .

الصاد مفتاح اسمه الصادق والصبور والصد والعصا . . أقسم بهذه الأشياء وبالقرآن .
وجواب القسم : « إن ذلك لحق تخاصم أهل النار » .

ويقال : أقسم بصفاء مودة أحبائه والقرآن ذي الذكر أى : ذى الشرف .. وشرفه أنه ليس بمخلوق (١) .

قوله جل ذكره : « بل الذين كفروا في عزة وشقاق »

في صلابة ظاهرة ، وعداوة بيّنة ، وإعراض عن البحث للأدلة ، والسّر للشواهد .

قوله جل ذكره : « كم أهلكنا من قبلهم من قرن

فنادوا ولات حين مناص » .

يادوا حين هجمّ البلاء مستغيثين ، وقد فات وقت الإشكاء والإجابة .

قوله جل ذكره : « وعجبوا أن جاءهم مُنذِرٌ منهم وقال

الكافرون هذا ساحر كذاب »

عجبوا أن جاءهم مُنذِرٌ منهم ، ولم يعجبوا أن تكون المنحوتات آلهة ، وهذه مناقضة

ظاهرة . فلما تحيروا في شأن أنبيائهم رمّوهم بالسر ، وقسموا فيهم القول .

(١) وهذا رأى أهل السنة بخلاف ما يراه المعتزلة .

قوله جل ذكره : « أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَبٌ » .

لم تباشر خلاصة التوحيد قلوبهم ، وبعثوا عن ذلك تجويزاً ، فضلاً عن أن يكون إثباتاً وحكماً ، فلا عرفوا الإله ولا معنى الإلهية ؛ فإنَّ الإلهية هي القدرة على الاختراع . وتقديرُ قادرين على الاختراع غيرُ صحيحٍ لما يجب من وجود التمتع بينهما وجوازه ، ثم إنَّ ذلك يمنع من كمالهما ، ولو لم يكونا كاملي الوصف لم يكونا إلهين ، وكلُّ أمرٍ جرى ثبوتُ سقوطه فهو مطروحٌ باطل .

قوله جل ذكره : « وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُّ » .

إذا تواصى الكفار فيما بينهم بالصبر على آلهتهم ، فالؤمنون أولى بالصبر على عبادة معبودهم والاستقامة في دينهم .

قوله جل ذكره : « مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْعِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ » .

ركنوا إلى السوء والعادة ، وما وجدوا عليه أسلافهم من الضلالة ، واستناموا إلى التقليد والهوادة .

قوله جل ذكره : « أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ » .

أى لو استبصروا في دينهم لما أقدموا على ما أسرفوا فيه من جحودهم ، ولولا أنا أدمنا لهم العوائق لما تفرغوا إلى طغيانهم ^(١) .

(١) قال تعالى : الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون « وقال تعالى : » من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون » تلك هي الحكمة الإلهية في إهمالهم .

« أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ
الْوَهَّابِ » .

أى : هؤلاء الكفار الذين عارضوا أو نازعوا ، وكذبوا واحتجوا .. أَعِنْدَهُمْ شَيْءٌ مِنْ
هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ؟ أَمْ هَلْ هُمْ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فَيَفْعَلُوا مَا أَرَادُوا ، وَيُعْطُوا مِنْ
شَامُوا ، أَوْ يَرْتَقُوا إِلَى السَّمَاءِ فَيَأْتُوا بِالْوَحْيِ عَلَى مَنْ أَرَادُوا ؟

« جُنْدٌ مَا هُنَا لِكَ مَهْزُومٍ مِنَ
الْأَحْزَابِ » .

بل هم جُندٌ من الأحزاب المتحزبين . كُلُّهُمْ عَجَزَةٌ لا يَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ ، مَهْزُومُونَ .
شَبَّهَهُمْ فِي بَقَائِهِمْ عَنْ مَرَادِهِمْ بِالْمَهْزُومِينَ ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ لَيْسَ مَعَهُمْ حُجَّةٌ ، وَلَا لَهُمْ قُوَّةٌ ،
وَلَا لِأَصْنَامِهِمْ أَيْضًا مِنَ النِّفْعِ وَالضَّرِّ مُكْنَةً ، وَلَا فِي الرَّدِّ وَالدَّفْعِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ قُدْرَةً .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ
وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ .. » الآيات .

ذَكَرَ هَؤُلَاءِ الْأَقْوَامَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ عَلَى الْجَمْعِ ، وَفِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ عَلَى الْإِفْرَادِ^(١) ،
وَفِي كُلِّ مَوْضِعٍ فَائِدَةٌ زَائِدَةٌ فِي الْفَصَاحَةِ وَالْإِفَادَةِ بِكُلِّ وَجْهٍ . ثُمَّ قَالَ :

« إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ
فَاحَقَّ عِقَابٌ » .

أى ما كان منهم أحداً إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّتْ الْعُقُوبَةُ عَلَيْهِ ، وَاسْتَوْجَبَ الْعَذَابَ .
ثُمَّ قَالَ :

« وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً
مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ » .

أى ليسوا ينتظرون إِلَّا الْقِيَامَةَ ، وَمَا هِيَ إِلَّا صَيْحَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَإِذَا قَامَتْ فَإِنَّهَا لَا تَسْكُنُ .

(١) الْمُقْصُودُ بِالْجَمْعِ وَالْإِفْرَادِ هُنَا الْجُمْلَةُ وَالتَّفْصِيلُ .

قوله جل ذكره : « وقالوا ربنا عجل لنا قطنًا قبل يوم الحساب » .

اصبر — يا محمد — على ما يقولون ، فإنه لن تطول مدتهم ، ولن نمد — في مقاساتك أذاهم — لبثك ومكثك ، وعن قريب سينزل الله نصره ، ويصدق لك بالتحقيق وعده .
قوله جل ذكره : « واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب » .
« ذا الأيد » أى ذا القوة ، ولم تكن قوته قوة نفس ، وإنما كانت قوته قوة فعل ؛ كان يصوم يوماً ويفطر يوماً — وهو أشد الصوم ، وكان قوياً في دين الله بنفسه وقلبه وهمة .
« أواب » رجاع^(١) .

قوله جل ذكره : « إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالشئ والإشراق^(٢) » والطير محشورة كل له أواب » .

كان داود يسبح ، والجبال تسبح ، وكان داود يفهم تسبيح الجبال على وجه تخصيص له بالكرامة والمعجزة .

وكذلك الطير كانت تجتمع له فتسبح الله ، وداود كان يعرف تسبيح الطير ؛ وكل من تحقق بحاله ساعده كل شيء كان بشره ، ويصير غير جنبه بحكمه ، وفي معناه أنشدوا :
رُبَّ ورقاء هتوف بالضحى ذات شجر صرخت في قن
ذكرت إلهاً ودهراً صالحاً وبكت شوقاً فهاجت حزني
فبكائي ربنا أرقها وبكاهها ربما أرقني
ولقد تشكو فما أفهمها ولقد أشكو فما تفهمني
غير أنى بالجوى أعرفها وهى أيضاً بالجوى تعرفني

(١) من (آب) يشوب إذا رجع . فكان داود رجاعاً إلى طاعة الله ورضاه في كل أمر فهو أهل لأن يقضى به (القرطبي ج ١٥ ص ١٥٩) .
(٢) الإشراق من شمس أن (الإشراق) معناه صلاة الضحى إذ هي بعد طلوع الشمس .

قوله جل ذكره : « وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ
وفَصَّلَ الْخُطَابَ » .

أى قوينا مُلْكَهُ بِأَنْصَارِهِ ، وفى التفسير : كان يحفظ مُلْكَهُ كُلَّ لَيْلَةٍ ثَلَاثَةً وَثَلَاثُونَ
أَلْفَ رَجُلٍ .

قوله جل ذكره : « وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ
وفَصَّلَ الْخُطَابَ » .

أى شددنا مُلْكَهُ بِنَصْرِنَا لَهُ ^(١) وَدَفَعْنَا الْبَلَاءَ عَنْهُ .

ويقال شددنا مُلْكَهُ بِالْعَدْلِ فِي الْقَضِيَّةِ ، وَحُسْنِ السَّيْرِ فِي الرِّعْيَةِ .

ويقال شددنا ملكه بقبض أيدى الظَّالِمَةِ .

ويقال شددنا ملكه بدعاء المستضعفين .

ويقال شددنا مُلْكَهُ بِأَنْ رَأَى النُّصْرَةَ مِنَّا ، وَتَبَرَّأَ مِنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ .

ويقال بوزراء ناصحين كانوا يدئوناه على ما فيه صلاح مُلْكِهِ .

ويقال بِتَقْيِظِهِ وَحُسْنِ سِيَاسَتِهِ . ويقال بقبوله الحق من كلِّ أحد .

ويقال برجوعه إلينا فى عموم الأوقات .

« وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابَ » : أى أعطيناه الرُّشْدَ وَالصَّوَابَ ، وَالْفَهْمَ وَالْإِصَابَةَ .

ويقال العلم بنفسه وكيفية سياسة أُمته .

ويقال الثبات فى الأمور والحكمة ، وإحكام الرأى والتدبير .

ويقال صحبة الأبرار ، ومجانبة الأشرار .

وَأَمَّا « فَصَّلَ الْخُطَابَ » فَهُوَ الْحُكْمُ بِالْحَقِّ ، وَقِيلَ : الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنْ ادَّعَى وَالْيَمِينَ عَلَى مَنْ

أُنْكَرَ . وَيُقَالُ : الْقَضَاءُ بَيْنَ الْخُصُومِ .

(١) يفهم القشيري هنا بأصحاب السلطان الذين لا يحسنون سياسة الرعية ولا اختيار الوزراء والأعوان . . .

ونحن نعلم أنه ابتلى فى عهد طفول بمحنة كبرى .

قوله جل ذكره : « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا
الحراب » . . . الآيات

أرسل الله إلى داود عليه السلام مَلَكَيْنِ من السماء على صورة رجلين فتحا كما إليه
تنبيهًا له على ما كان منه من تزوجه بامرأة أوريا ، وكان ترك ذلك أولى — هذا على طريق
من رأى تنزية الأنبياء عليهم السلام من جميع الذنوب .

وأما من جَوَزَ عليهم الصفات فقال : هذا من جلته . وكفى الخصمان باسم النعمة عن
النساء .

وكان داود عليه السلام قال لله سبحانه وتعالى : إِنِّي لَأَجِدُ فِي التَّوْرَةِ أَنْتَ أَعْطَيْتَ الْأَنْبِيَاءَ
الرُّتَبَ فَأَعْطِينِيهَا ، فقال : إِنْهُمْ صَبَرُوا فِيمَا ابْتَلَيْتَهُمْ بِهِ ، فَوَعَدَ دَاوُدُ مِنْ نَفْسِهِ الصَّبْرَ إِذَا ابْتْلَاهُ
طَمَعًا فِي نَيْلِ الدَّرَجَاتِ ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ يَبْتَلِيهِ يَوْمَ كَذَا ، فَعَمِلَ دَاوُدُ ذَلِكَ الْيَوْمَ يَوْمَ
عِبَادَةٍ ، وَاخْتَلَى فِي بَيْتِهِ ، وَأَمَرَ حُرَّاسَهُ الْأَيُّوْذِيَّةَ أَحَدًا بِالدَّخُولِ عَلَيْهِ ، وَأَغْلَقَ عَلَى نَفْسِهِ الْبَابَ ،
وَأَخَذَ يُصَلِّي زَمَانًا ، وَيَقْرَأُ التَّوْرَةَ زَمَانًا يَتَعَبَّدُ . أَغْلَقَ عَلَى نَفْسِهِ الْبَابَ وَلَسَكَنَ لَمْ يُمْكِنَهُ غَلْقُ بَابِ
السَّمَاءِ . وَأَمَرَ حُرَّاسَهُ أَنْ يَدْفَعُوا عَنْهُ النَّاسَ وَكَانُوا ثَلَاثِينَ أَلْفَ رَجُلٍ — وَيَقَالُ أَرْبَعَةُ آلَافٍ —
وَلَكِنْ لَمْ يُمَكِّنْهُمْ أَنْ يَدْفَعُوا عَنْهُ حُكْمَ الْقَضَاءِ ، وَلَقَدْ قَالَ الْحُكَمَاءُ : الْهَارِبُ مِمَّا هُوَ كَاثِنٌ فِي
كَفِّ الطَّالِبِ يَتَقَلَّبُ .

وكانت في البيت كوة يدخل منها الضوء ، فَدَخَلَ طَيْرٌ صَغِيرٌ مِنَ الذَّهَبِ ، وَوَقَعَ قَرِيبًا
مِنْهُ ، وَكَانَ لِدَاوُدَ ابْنٌ صَغِيرٌ فَهَمَّ أَنْ يَأْخُذَهُ لِيَدْفَعَهُ إِلَى ابْنِهِ ^(١) ، فَتَبَاعَدَ عَنْهُ . وَجَاءَ فِي التَّفَاسِيرِ :
أَنَّهُ كَانَ إِبْلِيسَ ، قَدْ تَصَوَّرَ لَهُ فِي صُورَةِ طَيْرٍ ، فَتَبِعَهُ دَاوُدُ ، وَلَمْ يَزَلِ الطَّائِرُ يَتْبَاعِدُ قَلِيلًا قَلِيلًا ،
وَدَاوُدُ يَتْبَعُهُ حَتَّى خَرَجَ مِنَ الْكُوَّةِ ، وَنَظَرَ دَاوُدُ فِي إِثْرِهِ فَوَقَعَ بِصَرِّهِ عَلَى امْرَأَةِ أُورِيَا وَهِيَ
تَفْتَسِلُ مَتَجَرِّدَةً ، فَعَادَ إِلَى قَلْبِهِ مِنْهَا شَيْءٌ ، فَكَانَ هَذَا السَّبَبُ .

ويقال لم يَرَعِ الإِهْتِمَامَ بِسَبَبِ وَلَدِهِ حَتَّى فَعَلَ بِهِ مَا فَعَلَ ، وَفِي ذَلِكَ لِأَوَّلَى الْأَبْصَارِ عِبْرَةٌ ^(٢) .

(١) نقل القرطبي هذه الرواية منسوبة إلى القشيري ج ١٥ ص ١٨٢ .

(٢) يحاول القشيري في تلمسه لسبب محنة داود أن يرضع للمريدين أنه حتى الأكابر قد تحمل بهم البلوى نتيجة
المساكنة إلى غيرهم ، فيغار الحق عليهم ويمتزل بهم من الأمر ما يردمهم إلى الحق . . . وذلك فضل الله سبحانه .

ويقال لم يكن أوريا قد تزوجَ بها بعدُ ، وقد كان خطبها ، وأجابته في الزوج به ،
فخطب داود على خطبته . وقيل بل كانت امرأته وسأله أن ينزل عنها ، فنزل على أمره
وتزوجها . وقيل بل أرسل أوريا إلى قتال الأعداء فقتل وتزوج بها . فلما تسور الحصان
عليه ، وقيل دخلاً من سور الحراب أى أعلاه ولذلك : —

« ففزعَ منهم قالوا لا تخف خصمان
بغى بعضنا على بعضٍ فاحكم بيننا
بالحق ولا تخطأ واهدنا إلى سواء
الصراط » .

نحن خصمان ظلم بعضنا بعضاً ، فاحكم بيننا بالعدل :

إنّ هذا أخى له تسع وتسعون نعمةً
وليّ نعمةً واحدةً فقال أكرّمها
وعزّنى في الخطاب » .

« أكرّمها » أى انزل عنها حتى أكرّمها أنا ، « وعزّنى في الخطاب » . أى غلبنى ،
قال داود :

« قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك
إلى نعاجه » .

فضحك أحدهما في وجه صاحبه ، وصعد إلى السماء بين يديه ، فعلم داود عند ذلك أنّه تنبيهٌ
له وعتابٌ فيما سلف منه ، وظنّ واستيقن أنّه جاءته الفتنة الموعودة :

« فاستغفر ربّه وخزّ راكعاً وأناب » .

أخذ في التضرع ، وجاء في التفسير أنه سجد أربعين يوماً لا يرفع رأسه من السجود
إلا (للصلاة)^(١) المكتوبة عليه ، وأخذ يبكي حتى نبت العشب من دموعه ، ولم يأكل ولم

(١) (الصلاة) غير واردة في النسختين وقد استعنا بالقرطبي في هذه التكملة (ج ١ ص ١٨٥) وقد وجدناها =

يشرب في تلك المدة ، حتى أوحى الله إليه بالمغفرة ، فقال : يارب ، فكيف بمحدث الخضم ؟
فقال : إني استوهبتك^(١) منه ، وقال تعالى :

« فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنْ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى
وَحُسْن مَّآبٍ » .

إن له عندنا لقربةً وحسن رجوع ، وقيل : كان لا يشرب الماء إلا ممزوجاً بدموعه .
ويقال لما التجأ داود عليه السلام في أوائل البلاء إلى التوبة والبكاء والتضرع والاستغناء
وجَدَ المغفرة والتجاوز .. وهكذا من رجع في أوائل الشدائد إلى الله فإله يكفيه مما ينوبه ،
وكذلك من صَبَرَ إلى حين طالت عليه المحنة . ويقال إن زَلَّةً أَسَفَكَ عليها يوصلك إلى ربك أجدى
عليك من طاعة إعجابك بها يُقْصِيكَ عن ربك^(٢) .

قوله جل ذكره : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ
فَاخْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ
الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ
الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ
شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحَسَابِ » .

« جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً » أي بعد من تَقَدَّمَكَ من الأنبياء عليهم السلام . وقيل حاكماً من قبلي
لتحكم بين عبادي بالحق ، وأوصاه ألا يتبع في الحكم هواه تنبيهاً على أن أعظم جنایات العبد
وأقبح خطاياها متابعة الهوى .

ولما ذكر الله هذه القصة أعقبها بقوله :

« وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا

= ضرورة لنوضح كيف أن التمسك بالفائق الذي يمارسه الخاصة لا يمنع من رجوعهم في حال الفرق الثاني إلى أن يقوموا
بالتمسك الذي تفرضه الشريعة . وربما كان ذلك مقصد القشيري من اختيار هذه الرواية . . . والواقع أن القشيري
يحيد اختيار الشواهد من القصص والأخبار ، واضعاً في الاعتبار خدمة التصوف وأهله .

(١) أي استوهبتك منه بثواب الجنة (القرطبي ج ١٥ ص ١٨٥) .

(٢) هكذا يفتح القشيري أبواب الأمل أمام العصاة ، ويدفع عنهم القنوط من رحمة الله .

باطلاً ذلك ظنُّ الذين كفروا فويلٌ

لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ .

« باطلاً » أى وأنا مُبطلٌ فى خلقهما ، بل كان لى ما فعلتُ وأنا فيه مُحقٌّ .

ويقال ما خلقتهما للبطلان بل لأمرهما بالحق .

ثم أخبر أنه لا يحمل المفسدين كالحسنين قط ، ثم قال :

« كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا^(١)»

آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ .

« مبارك » وهو القرآن ، ومبارك أى كبيرُ النفع ، ويقال مبارك أى دائمٌ باقٍ لا ينسخه كتابٌ ؛ مِنْ قَوْلِهِمْ بَرَكَ الطَّيْرُ عَلَى الْمَاءِ . ويقال مبارك لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَ . ثم إنه بيَّن أنَّ البركةَ فى تدبُّره والتفكرِ فى معانيه .

قوله جل ذكروه : « وَوَهَبْنَا لِداوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ » .

« نِعَمَ الْعَبْدِ » لأنه كان أَوَّاباً إلى الله ، راجعاً إليه فى جميع الأحوال ؛ فى النعمة بالشكر ، وفى المحنة بالصبر .

قوله جل ذكروه : « إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ » .

« الصَّافِنَاتُ » جمع صافنة وهى القائمة ، وفى التفسير هى التى تقوم على ثلاث قوائم ؛ إِذْ تَرَفَعَ إِحْدَى الْيَدَيْنِ عَلَى سُنْبُكَيْهَا^(٢) . وجاء فى التفسير أن سليمان كان قد غَزَا أَهْلَ

(١) فى الألوسى أن علياً قرأ « ليتدبروا » بتاء بعد الباء ، وكذا فى « البحر » لأبى حيان .

(٢) السبك طرف الخافر ، والصفون فى اللغة لإدانة القيام ، قال صلى الله عليه وسلم : « من سره أن يقوم له الرجال صفونا فليتبوأ مقعده من النار » ؛ وقال الشاعر :

ألف الصفون فما يزال كأنه بما يقوم على الثلاث كسيرا

(السان : مادة صفن)

دمشق ، وأصابها منهم^(١) ، وقيل ورثها عن أبيه داود وكان قد أصابها من العاقلة^(٢) ، وقيل كانت خيلاً لما أجنحة خرجت من البحر^(٣) .

وفي بعض التفسير عُرِضَ عليه عشرون ألف فرس فشغلته عن بعض أذكاره لله .
« بالمشي » : في آخر النهار ، وقيل كان ذلك صلاة العصر^(٤) .

قوله جل ذكره : « رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَلَّقَ مَسْبَحًا بِالشُّوقِ وَالْأَعْنَقِ » .

قيل أقبل يمسح سوقها وأعناقها بيده إكراماً منه لها بعد أن فرغ من صلاته .

وقيل عَرَقَبَهَا (لِيَذْبَحَهَا فَحَبَسَهَا بِالرَّقَبَةِ عَنِ النَّفَارِ)^(٥) ، وقيل وَضَعَ عليها الكيَّ فَسَبَّلَهَا^(٦) . وإيش ما كان فكل ذلك كان جائزاً في شرعه .

قوله جل ذكره : « قَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ »^(٧) .

أى لَصَقْتُ بِالْأَرْضِ حُبَّ الْمَالِ . ويقال لَمَّا سَبَّلَ هَذِهِ الْأَفْرَاسَ عَوَّضَهُ^(٨) اللَّهُ — سبحانه — بَأَن سَخَّرَ لَهُ الرِّيحَ ، وهذا أبلغ ، وكلُّ مَنْ تَرَكَ شَيْئاً لِلَّهِ لَمْ يَخْسَرْ عَلَى اللَّهِ .
قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ » .

(١) هذه رواية الكلبي .

(٢) هذه رواية مقاتل .

(٣) هذه رواية الحسن والضحاك .

(٤) ينقل القرطبي عن أبي نصر القشيري بن عبد الكريم القشيري قوله : ما كان في ذلك الوقت صلاة ظهر ولا صلاة عصر وإنما كانت تلك الصلاة نافلة ، وشغل عنها ثم تذكرها .

(٥) ما بين القوسين زيادة أضفناها ، اقتبسناها من القرطبي من الموضع نفسه حتى يتضح المعنى الذي يتجه إليه القشيري (ج ١٥ ص ١٩٦) .

(٦) سبل الشيء أي أباحه وجعله في سبيل الله .

(٧) اختلف في التي « توارت بالحجاب » فقيل هي الشمس ، وقيل هي الخيل وقد استعرضها حتى توارت الجهاد .

(٨) هكذا في م وهي في ص (عرَّضه) بالراء والصحيح ما أثبتناه عن م .

اختلف الناس في هذه الفتنة ؛ ومنها أنه كانت له مائة امرأة قال : لأطوفنَّ على هؤلاء فيولد من كل واحدةٍ منهن غلام يقاتل في سبيل الله «^(١) ولم يقل إن شاء الله ، ولم تحمِلْ إلا امرأة واحدة جاءت بشق مولود ، فألقته على كرسيه ، فاستغفر ربه من ترك الاستنشاء ، وكان ذلك ترك ما هو الأولى .

وقيل كان له ابن ، وخافت الشياطين أن يبقى بعد موت أبيه فيرثه ، فهمَّوا بقتله ، فاستودعه الريح في الهواء لئلا تصل إليه الشياطين ، فمات الولد ، وألقته الريح على كرسيه ميتاً . فالتفتة كانت في خوفه من الشياطين وتسليمه إلى الهواء ، وكان الأولى به التوكل وترك الاستعانة بالريح .

وقيل في التفسير : إنه تزوج بامرأة^(٢) كانت زوجة ملكٍ قهره سليمان ، وسبَّاهها ، فقالت له : إن أذنت لي أن اتَّخذَ تمثالا على صورة لأبي لأتسلَّ بنظري إليه ؟ فأذن لها ، فكانت (تعظمه وتسجد له مع جواربها أربعين يوماً) ، وكانت تعبده سراً ، فعوقب عليه^(٣) .

وقيل كان سبب بلائه أن امرأة كانت من أحبِّ نسائه إليه ، وكان إذا أراد دخول الخلاء نزعَ خاتمه ودفعه إليها ، وهي على باب الخلاء ، فإذا خرجَ استردَّه . وجاء يوماً شيطانٌ يُقال له « صخر » على صورة سليمان وقال لامرأته : ادفعي إلي الخاتم فدفعته ، ولبسه ، وقعد على كرسيه ، يمشي أموره — إلا التصرف في نسائه — فقد منعه الله عن ذلك . فلما خرج سليمان طالبَ المرأة بالخاتم ، فقالت : الساعة دَفَعْتُهُ إِلَيْكَ . فظنَّ أنه فتن ، وكان إذا أخبر الناس أنه سليمان لا يُصدَّقونه ، فخرج (هارباً إلى ساحل البحر) ، وأصابته شدائد ، وحمل سمك الصيادين بأجرة حتى يجمد قوتاً .

ولما اتهم (بنو إسرائيل) الشيطانَ (واستنكروا حُكْمَهُ) نشروا التوراة بين يديه ،

(١) في صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله (ص) قال : « قال سليمان لأطوفنَّ الليلة على تسعين امرأة كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله ، فقال له صاحبه : قل إن شاء الله ، فلم يقل إن شاء الله ، فطاف عليهن جميعاً فلم تحمِلْ منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل ، وأيم الذي نفسي محمد بيدلو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون » .

(٢) هذه المرأة — كما يقول الزغشري — هي «جريدة ابنة ملك جزيرة في البحر يقال لها صيدون .

(٣) وكانت عقوبته حرمانه من ملكه أربعين يوماً — هي مدة عبادة الصنم في بيته .

فقرّ ورمى بالخاتم في البحر ، وطار في الهواء . ولما أذن الله ردّ ملك سليمان إليه ، ابتلعت سمكة خاتمة ، ووقعت في جبال الصيادين ، ودفعوها إلى سليمان في أجرته ، فلما شقّ بطنها ورأى خاتمها لبسه ، وسجد له الملاحون ، وعاد إلى سرير ملكه^(١) .

قوله جل ذكره : « قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب » .

أي ملكاً لا يسلبه أحد مني بعد هذا كما سلب مني في هذه المرة .
وقيل أراد انفراد به ليكون معجزة له على قومه .
وقيل أراد أنه لا ينبغي لأحد من بعدي أن يسأل الملك ، بل يجب أن يكل أمره إلى الله في اختياره له .

ويقال لم يقصد الأنبياء ، ولكن قال لا ينبغي من بعدي لأحد من الملوك .
وإنما سأل الملك لسياسة الناس ، وإنصاف بعضهم من بعض ، والقيام بحق الله ، ولم يسأله لأجل مآله إلى الدنيا . . . وهو كقول يوسف : « اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم »^(٢) .

ويقال لم يطلب الملك الظاهر ، وإنما أراد به أن يملك نفسه ، فإن الملك — على الحقيقة — من يملك نفسه ، ومن ملك نفسه لم يتبع هواه .
ويقال أراد به كمال حاله في شهود ربه حتى لا يركى معه غيره .

ويقال سأل القاعة التي لا يبقى معها اختيار .

ويقال علم أن سرّ نبينا — صلى الله عليه وسلم — ألا يلاحظ الدنيا ولا ملكها

(١) نلاحظ أن القشيري — وإن تجنب الوقوع في كثير من الروايات السخيفة مثل اجتماع سليمان بالنساء في حوضه ، ومثل قضائه في الناس بغير الحق ونحو ذلك — إلا أنه لم يستطع التخلص من الروايات المتأثرة بالإسرائيليات لأننا لا نستطيع أن ننصّر وقوع نبى سليمان أو كداود في مثل هذه المزالق التي لا ينحدر إليها نبى .
(٢) آية ٥٥ سورة يوسف .

قَالَ : « لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي » لِأَنَّهُ بَخِلَ بِهِ عَلَى نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَكِنْ لَعَلَّهِ أَنَّهُ لَا يَنْظُرُ إِلَى ذَلِكَ .

قوله جل ذكره : « فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ » .

شَكَرَ اللَّهُ سَعْيَهُ ، وَسَخَّرَ لَهُ الرِّيحَ بَدَلًا مِنَ الْأَفْرَاسِ ؛ فَلَا يَحْتَاجُ فِي إِمْسَاكِهَا إِلَى الْعَلْفِ وَالْمُؤْنِ .

« وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ *
وآخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا
فَاثْمَنٌ أَوْ أَمْسِكَ بَغِيرِ حِسَابٍ » .

كما سَخَّرْنَا لَهُ الشَّيَاطِينَ .

ثم قال : « هَذَا عَطَاؤُنَا . . » أَي فَاغْطِ أَوْ أَمْسِكَ ، وَاحْفَظْ وَلَيْسَ عَلَيْكَ حِسَابٌ .

وَالْمَشْيُ فِي الْهَوَاءِ لِلأَوْلِيَاءِ ، وَقَطْعُ الْمَسَافَاتِ الْبَعِيدَةِ فِي مَدَّةٍ بِسِيرَةٍ مِمَّا يَعْلَمُ وَجُودَهُ قِطْعًا فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ — وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْهُ الْأَفْرَادُ وَالْأَحَادُ عَلَى التَّعْيِينِ . وَإِظْهَارُهُ عَلَى خَدَمِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِشَرَفِهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَقَامَهُ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — أَشْرَفُ^(١) .

قوله جل ذكره : « وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ
أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُفْسٍ وَعَذَابٍ » .

أَيِّ بِمَا كَانَ يَوْسُوسُ إِلَيْهِ بِتَذْكِرِهِ إِيَّاهُ مَا كَانَ بِهِ مِنَ الْبَلِيَّةِ ، وَقِيلَ لِمَا كَانَ قَالَ (أَيُّ الشَّيْطَانِ) لَامْرَأَتِهِ : اسْجُدِي لِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْكَ مَا سَلَبْتُكَ .

وَيُقَالُ إِنْ سَبَبَ ابْتِلَاؤُهُ أَنَّهُ اسْتَعَانَ بِهِ مَظْلُومٌ فَلَمْ يَنْصُرْهُ . . فَاثْمَنٌ .

وَيُقَالُ اسْتِضَافَ النَّاسِ يَوْمًا فَلَمَّا جَاءَهُ ابْنُ فَقِيرٍ مَنَعَهُ مِنَ الدَّخُولِ .

(١) من مبادئ نظرية القشيري في الكرامة : أن كرامة الولي فرع لمعجزة النبي الذي ينتمي الولي إلى أمته ، فكل شرف للولي هو في الأصل شرف للنبي وآية حظوته ورتبته .

ويقال كان يغزو ملكاً كافراً ، وكان لأيوب غمٌّ في ولايته ، فداهته لأجل غمِّه في القتال .

ويقال حسده إبليس ، قال : كُئِن سَلَطْتَنِي عَلَيْهِ لَمْ يَشْكُرْكَ .

ويقال كان له سبع بنات وثلاثة بنين في مكتب واحد ، فَجَرَّ الشيطانُ الاسطوانة فانهدم البيت عليهم .

ويقال لبث أيوب في البلاء ثمانى عشرة سنة ، وقيل أربعين سنة ، وقيل ^(١) سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات .

قوله جل ذكره : « ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ^(٢) » هذا مُغْتَسَلٌ باردٌ وشرابٌ .

لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ كَشْفَ الْبَلَاءِ عَنْهُ قَالَ لَهُ : « ارْكُضْ بِرِجْلِكَ » ، فركض ، فظَهَرَتْ عَيْنُ مَاءٍ باردٍ فَاغْتَسَلَ بِهِ ، فَعَادَ إِلَيْهِ جَمَالُهُ وَكَمَالُهُ . وقيل الأولى كانت عينا حارةً والثانية باردة ، واغْتَسَلَ ، وَرَدَّ اللَّهُ لَحْمَهُ وَشَعْرَهُ وَبَشَرَهُ ، وَأَحْيَا أَوْلَادَهُ وَأَهْلَهُ ، وَقِيلَ بَلْ يَرُدُّهُمْ إِلَيْهِ فِي الْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ .

قوله جل ذكره : « وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا قَاضِرٍ بِهِ وَلَا تَمْنَحْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ » .

الضِغْتُ الحزمة من القضبان ، وقيل كانت مائة ، وأَمَرَ أَنْ يُضْرَبَ بِهَا دَفْعَةً عَلَى امْرَأَتِهِ لثَلَا يَمْنَحُ فِي يَمِينِهِ ، فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ حَلَفَ أَنْ يُضْرِبَهَا مِائَةَ خَشْبَةٍ إِنْ صَحَّ (أَنَّهَا أَخْطَأَتْ) . فَشَكَرَ

(١) الرواية الأخيرة منسوبة إلى ابن عباس .

(٢) رَفَضَ أَبُو الْفَرَجِ الْجَوْزِيُّ احْتِجَاجَ بَعْضِ الْمُتَصَوِّفَةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى إِبَاسَةِ الرِّقَصِ . وَالْوَاقِعُ أَنَّ ذَلِكَ يَمْنَحُ الْقَشِيرَى تَقْدِيرًا خَاصًّا ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ يُؤَيِّدُ ذَلِكَ الْإِحْتِجَاجُ لِقَالَ بِهِ ، بَلْ لَمْ يَشْرَ إِلَيْهِ ، كَمَا لَمْ يَشْرَ عِنْدَ الْآيَةِ الَّتِي سَبَقَتْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ : « رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ ... » إِلَى مَا يَحْتِجُ بِهِ بَعْضُ الْمُتَصَوِّفَةِ مِنْ تَمْزِيقِ الْحَرْقَةِ وَتَقْطِيعِ الثِّيَابِ ، فَهَلَا فِي رَأْيِهِ اسْتِدْلَالَاتٌ فَاسِدَةٌ يُلْجَأُ إِلَيْهَا الطُّغَامُ .

الله لها لبراءةٍ ساحتها ، وصبرها على خدمته . وسببُ يمينه أنه لما قال لها إبليسُ : اسجدي لي ؛ أخبرت أيوبَ بذلك ، فعاظه حيث سمعت من إبليس ذلك وظننت أنه صادق . وقيل باعت ذوائبها برغيفين حملتهما إليه فتوهم في ذلك ريةً ، وكان أيوب يتعلق بذوائبها (إذا أراد القيام) . وقيل رابه شيء منها فتحكف (أن يضربها بعد شفائه) .

« إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا .. » : والصبرُ ألا تعترضَ على التقدير .

ويقال الصبر الوقوف تحت الحكم . ويقال التلذذ بالبلاء ، واستعداد به دون استصعابه .
ويقال الصبر الوقوف مع الله بحسن الأدب .

ولم ينفِ قوله « مسنى الضر » اسمَ الصبر عنه ؛ لأنَّ ذلك لم يكن على وجه الشكوى ، ولأنه كان مرة واحدة ، وقد وقف الكثير من الوقت ولم يقل مسنى الضر ؛ فكان الحكم للغالب .

« نعم العبدُ إنه أواب » لم يشغله البلاء عن العبد . ونعم العبدُ لأنه خرج من البلاء على الوجه الذي دخل فيه .

قوله جل ذكره : « واذكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ

وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ *

إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ » .

« أُولَى الْأَيْدِي » : أى القوة^(١) . « وَالْأَبْصَارِ » أى البصائر .

« إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ » : أى بفضيلة خالصة وهى ذكر الجنة والنار ، أو بدعاء الناس إلى الجنة والهرب من النار . ويقال بسلامة القلب من ذكر الدارين ؛ فلا يكون العمل على ملاحظة جزاء . ويقال تجردوا لنا بقلوبهم عن ذكرى الدار ، « وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ » .

قوله جل ذكره : « واذكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ

وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ » .

(١) يرى الطبري أن (الأيدى هنا معناها : النعم والإحسان لأنهم قد أحسنوا وقدموا الخير) .

« وذا الكفل » : قيل كان تسكفل الله بعمل رجل صالح مات في وقته ، وقيل كفل مائة من بنى إسرائيل هربوا من أمير لهم ظالم ، فكان ينفق عليهم .
ويقال كان اليسع وذو الكفل أخوين .

قوله جل ذكره : « هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب » .

أى هذا القرآن فيه ذكر ما كان ، وذكر الأنبياء والقصص .
ويقال إنه شرف لك ؛ لأنه معجزة تدل على صدقك ، وإن للذين يتقون المعاصي لحسن المنقلب .

« جنات عدن مفتحة لهم الأبواب »
أى إذا جاءوها لا يلحقهم ذل الحجاب ، ولا كلفة الاستئذان ، تستقبلهم الملائكة بالترحاب^(١) والتبجيل . متكئين فيها على أرائكهم ، يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب على ما يشتهون ، وعندهم حور عین قاصرات الطرف عن غير أزواجهن ، « أتواب » : لِدَاتُ مُسْتَوِيَاتٍ فِي الْحُسْنِ وَالْجَمَالِ وَالشَّكْلِ .

قوله جل ذكره : « هذا وإن للطاغين لشر مآب » .
لَشَرٌّ مَرْجِعٌ وَمُنْقَلَبٌ ؛ وهى جهنم يدخلونها فيبقون معذبين فيها ، ويُنْسَ الْمَكَانُ ذَلِكَ ا

« هذا فليذوقوه حميم وغساق »
« حميم » : هو الماء الحار ، و « غساق » هو عصارة أهل النار^(٢) ، ويقال هو زمهرير جهنم^(٣) .

(١) هكذا فى م وهى فى ص (بالإيجاب) ونحن نؤثر (بالتراحاب) لتقابل ما يقال لأهل النار فيما بعد (لامرحبا بهم)
(٢) هذا قول محمد بن كعب .
(٣) هذا قول ابن عباس . وقال عبد الله بن عمرو : هو قيح غليظ نتن . وقال قتاده : هو ما يسيل من فروج الزناة ، ومن نتن لحوم الكفرة وجلودهم من الصديد والقيح . وقال آخرون إنه يحرق ببرده كما يحرق الحميم بحمّره (القرطبي ١٥٠ ص ٢٢٢) .

« وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ »

أى فنون أخرى من مثل ذلك العذاب .

قوله جل ذكره : « هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ
لَهُمْ صَالُوا النَّارَ » .

هؤلاء قومٌ يقتحمون النارَ معكم وهم أتباعكم ، ويقول الأتباع للمتبعين :

لا مرحباً بكم ؛ أنتم قدمتموه لنا بأمركم فواقفناكم ، ويقولون :

« رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا
فِي النَّارِ » .

فيقال لهم كُلُّكُمْ فِيهَا ، ولن يفتَرَ العذابُ عنكم .

قوله جل ذكره : « وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رَجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ
مِنَ الْأَشْرَارِ » ؟ .

يقول الكفار عندما يدخلون النار : ما لنا لا نرى رجالاً كُنَّا نعدُّهم في الدنيا من الأشرار
والمستضعفين . . فلَسْنَا نراهم هاهنا ؟ أم ليسوا ههنا أم زأغت عنهم أبصارُنا ؟ يقوله أبو جهلٍ
وأصحابه يعنون بلالاً والمستضعفين ، فيعرفون بأنهم في الفردوس ، فزداد حسراتهم .

(إِنَّ ذَلِكَ لَخَلْقٌ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ) .

أى إن مخاصمة أهل النار في النار خلقٌ .

قوله جل ذكره : « قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا
اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * رَبُّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ » .

قل يا محمد : إنما أنا مُنْذِرٌ مخوِّفٌ ، مُبَلِّغٌ رسالةَ ربى ، وما من إلهٍ إلا الله الواحد الذى

لا شريك له .

« قُلْ هُوَ تَبَّاءٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ »

ما كان لي من عِلْمٍ بالملأ الأعلى إذ
يختصمون * إن يوحى إليّ إلا أنا أنا
نذيرٌ مبينٌ .

أى الذى أتيتكم به من الأخبار عن القيامة والحشر ، والجنة والنار ، وما أخبركم
به عن نبوتى وصدقى هو نبأ عظيم ، وأتم عرضتم عنه .

وما كان لي من عِلْمٍ بالملأ الأعلى واختصامهم فيه لولا أن الله عرّفنى ، وإلا ما كنتُ
عَلِمْتُهُ . والملأ الأعلى قومٌ من الملائكة فى السماء العليا ، واختصامهم كان فى شأن آدم حيث
قالوا : أئبجل فيها من يفسد فيها ؟

وقد ورد فى الخبر : « أن جبريل سأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذا الاختصام
فقال : لا أدرى . فقال جبريل : فى الكفارات والدرجات ؛ قال كفارات إسباغ الوضوء
فى السّبرات^(١) ، ونقل الأقدام إلى الجماعات ، وأما الدرجات فإفشاء السلام ، وإطعام الطعام ،
والصلاة بالليل والناس نيام^(٢) . وإنما اختلفوا فى بيان الأجر وكية الفضيلة فيها — فيجتهدون
ويقولون إن هذا أفضل من هذا ، ولكنهم فى الأصل لا يجحدون .
.. وهذا إنما يوحى إليّ وأنا منذر مبين .

قوله جل ذكره : « إذ قال ربك للملائكة إني خالقٌ
بشرّاً من طين »

إخباره الملائكة بذلك إنما يدلُّ على تفخيم شأن آدم ؛ لأنه خلق ما خلق من الكونين^(٣) ،

(١) السبرات جمع سبرة بسكون الباء وهى الغداة الباردة .

(٢) روى الخبر أبو الأشهب عن الحسن هكذا : « سألنى ربى فقال : يا محمد ، فم اختصم الملأ الأعلى ؟
قلت فى الكفارات والدرجات ، قال : ما الكفارات ؟ قلت :
المشي على الأقدام إلى الجماعات » أخرجه الترمذى بمعناه عن ابن عباس ، وقال فيه حديث غريب . وعن
معاذ بن جبل أيضاً وقال : حديث حسن صحيح .
(٣) هكذا فى م وهى فى ص (المكذبين) وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح .

والجنة والنار ، والعرش والكرسى ، والملائكة ، ولم يقل فى صفة شىء منها ما قال فى صفة آدم وأولاده . ولم يأمر بالسجود لأحدٍ ولا لشيءٍ إلا لآدم ، وسبحان الله ! خلقَ أعزَّ خلقه من أذلِّ شىءٍ وأخسَّ وهو التراب والطين .

« فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوْحِي
فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » .

روحُ آدم — وإن كانت مخلوقة — فلها شَرَفٌ على الأرواح لإفرادها بالذكر ، فلما سوَّى خلقَ آدم ، ورَكَّبَ فيه الروحَ جَلَّلَهُ بأنوار التخصيص ، فوقعتْ هيئته على الملائكة ، فسجدوا لأمره ، وظهرتْ لإبليسَ شقاوته ، ووقع — بامتناعه — فى اللعنة .

« قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ
لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَتَكْبَرُ أَمْ
كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ » قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ
خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقَهُ مِنْ طِينٍ » .

من هنا وقع فى الغلط ؛ تَوَقَّعَ أَنَّ التفضيل من حيث البنية والجوهرية ، ولم يعلم أن التفضيل من حيث القسمة دون الخلق .

ويقال ما أودع الله — سبحانه — عند آدم لم يوجد عند غيره ، فقيه ظهرت الخصوصية .

قوله جل ذكروه : « قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ *
وإِنَّ عَلَيْكَ لعَنَةً إِلَى يَوْمِ الدِّينِ » .

قال فاخرج من الجنة ، ومن الصورة التى كنت فيها ، ومن الحالة التى كنت عليها ،
« فَإِنَّكَ رَجِيمٌ » مَرْمِيٌّ بِاللَّعْنِ مِنِّى ، وبالشُّهْبِ مِنَ السَّمَاءِ ، وبالرجوم من قلوب الأولياء
إِنْ تَعَرَّضْتَ لَهُمْ .

قوله جل ذكره : « قال ربّ فأَنْظِرْنِي إلى يومِ

يُبْعَثُونَ * قال فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ *

إلى يومِ الوقتِ المعلومِ » .

من كمال شقاوته أنه جرى على لسانه^(١) ، وتعلّقت إرادته بسؤال إنظاره ، فازداد إلى القيامة في سبب عقوبته ، فَأَنْظِرَهُ اللهُ ، وأجابه ، لأنه بلسانه سأل تمام شقاوته .

« قال فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمِينَ *

إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ » .

ولو عَرَفَ عِزَّتَهُ لَمَّا أَقْسَمَ بِهَا عَلَى مَخَالَفَتِهِ .

ويقال تَجَاوَزَهُ فِي مَخَاطِبَةِ الْحَقِّ — حيث أصرَّ على الخلف وأقسم عليه — أَقْبَحُ وَأَوْلَى فِي اسْتِحْقَاقِ اللَّعْنَةِ مِنْ امْتِنَاعِهِ لِلسُّجُودِ لِآدَمَ^(٢) .

قوله جل ذكره : « قال فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ *

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَتَّبِعُكَ

مِنْهُمْ أَجْمِينَ » .

وختم الله سبحانه السورة بخطابه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم :

« قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ

وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ * إِنَّهُ هُوَ

(١) في هذه الإشارة دقة تحتاج إلى تأمل ، فقول القشيري « جرى على لسانه » تفيد أن مأساة إبليس ترجع إلى مشيئة عليا ، وإن كان ظاهر اللفظ أنه بلسانه اختار طريقه ، وإرادته سعى إلى إنظاره .

وهكذا يغمز القشيري بمن يحاولون نسبة الحرية للإنسان — مع أن الحرية وبال ونكال .
ويذكرنا هذا الموقف بقولة ابن عربي في (شجرة الكون) عند شرح « كن فيكون » أن في « كن » كل شيء ؛ في الكاف كمال الدين والكفر ، وفي النون النعمة والنقمة ... فاقه خالق كل شيء حين خاطب الكون : « كن »

(٢) في هذه الإشارة لفظة إلى مقصد بعيد : أن الوقوع في الذنب أمر قبيح ولكن الإصرار على الذنب أقبح . وهذا حث للمصاة على الإقلاع عن المعاصي ، وعدم اليأس من رحمة الله . وتطالعنا ساحة القشيري في هذا الخصوص في مواضع مختلفة من هذا الكتاب ، وكذلك أنظر باب « التوبة » في الرسالة .

إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَلِتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ
بَعْدَ حِينٍ .

ما جئكم من حيث أنا^(١) ، ولا باختيارى ، وإنما أُرْسِلْتُ إليكم .

« إن هو إلا ذكر للعالمين » يعنى القرآن ، عظة لكم .

« ولتعلمن نبأه بعد حين » وَعُلِّمَ صِدْقُهُ بعد ما استمرت شريعته ، فإن مثل ذلك
إذا كان باطلاً لا يدوم^(٢) .

(١) أى من طرفى أو من جهتى .

(٢) أى أن دوام الشريعة وخلودها من آيات صحتها وصدقها .

سورة الزمر

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

بسم الله كلمةٌ سمعها يوجبُ للقلوب شفاءها ، وللأرواح ضياءها ، وللأسرار سناءها وعلاها .

كلمةٌ مَنْ سَمِعَهَا يَسْمَعُ العلم ازداد بصيرةً على بصيرة ، ثم بلطائف من التعريف غير محصورة .
وَمَنْ سَمِعَهَا يَسْمَعُ الْوَجْدَ ظَلَّتْ أَلْبَابُهُ مَبْهُورَةً ، وَأَسْرَارُهُ بِقَهْرِ الْكَشُوفَاتِ مَفْشُورَةٌ .

قوله جل ذكره : « تنزيلُ الكتابِ من الله العزيزِ

الحكيم » .

أى هذا كتابٌ عزيزٌ نزلَ من ربِّ عزيزٍ على عبدٍ عزيزٍ بلسانِ ملكٍ عزيزٍ فى شأنِ أمةٍ عزيزةٍ بأمرٍ عزيزٍ . وفى ورودِ الرسولِ به من الحبيبِ الأولِ نزهةٌ لقلوبِ الأحبابِ بعد ذبولِ غصنِ سرورها ، وارتياحٌ عند قراءةِ فصولها .

وكتابٌ موسى فى الألواحِ التى كان منها يقرأ موسى ، وكتابٌ نبينا صلى الله عليه وسلم نزلَ به الروحُ الأمينُ على قلبِ المصطفى صلوات الله عليه . . وفصلٌ بين من يكون كتابُ ربِّه مكتوباً فى ألواحِهِ ، وبين من يكون خطابُ ربِّه محفوظاً فى قلبه ، وكذلك أمتُهُ ، قال تعالى :
« بل هو آياتٌ بيناتٌ فى صدور الذين أُوتوا العلمَ ^(١) » .

قوله جل ذكره : « إنا أنزلنا إليك الكتابَ بالحقِّ

فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ » .

أى أنزلنا عليك القرآن بالدينِ الحقِّ والشرعِ الحقِّ ، وأنا مُحقِّقٌ فى إنزاله .

(١) آية ١٩ سورة المنكبوت .

والعبادة الخالصة معانقة الأمر على غاية الخشوع . وتكون بالنفس والقلب والروح ؛ فالتى بالنفس فالإخلاص فيها التباعد عن الانتقاص ، والتى بالقلب فالإخلاص فيها العى عن رؤية الأشخاص ، والتى بالروح فالإخلاص فيها التنقى عن طلب الاختصاص^(١) .

قوله جل ذكره : « أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » .

الدين الخالص ما تكون جملة لله ؛ فما للعبد فيه نصيب فهو من الإخلاص بعيد ، اللهم أن يكون بأمره ؛ فإنه إذا أمرَ العبدَ أن يحسب الأجرَ على طاعته فإطاعته لا تخرجه عن الإخلاص باحتسابه ما أمره به ، ولولا هذا لما صحَّ أن يكونَ في العالمِ مُخْلِصٌ .

« والذين اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ . . . » أى الذين عبدوا الأصنام قالوا : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ، ولم يقولوا هذا من قبل الله ولا بأمره ولا بإذنه ، وإنما حكموا بذلك من ذات أنفسهم ، فرَدَّ اللهُ عليهم . وفى هذا إشارة إلى أن ما يفعله العبد من القربِ بنشاطِ نفسه من غير أن يقتضيه حُكْمُ الوقت ، وما يعقد بينه وبين الله من عقود ثم لا ينفى بها . . . فكل ذلك اتباعُ هوًى ، قال تعالى : « وَرَهْبَانِيَ ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا^(٢) » .

قوله جل ذكره : « إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ » .

لا تهديهم اليومَ لدينه ، ولا فى الآخرة إلى ثوابه . والإشارة فيه إلى تهديد مَنْ يتعرض لغير مقامه ، ويدعى شيئاً ليس بصادقٍ فيه ، فاللهُ لا يهديه قط إلى ما فيه سدادُه ورُشدُه : وعقوبته أن يحرمه ذلك الشيء الذى تصدَّى له بدعواه قبل تحقُّقه بوجوده وذوقه .

(١) تصلح هذه الفقرة لتوضيح درجات العبادة ودرجات الإخلاص ، والآفات التى تلحق كل درجة منها ، وكيفية التنقى عن هذه الآفات -- وبمعنى آخر فإنها تهمنى عندما نبحث أصول ما أطلقنا عليه : علم النفس الصوفى .
(٢) آية ٢٧ سورة الحديد .

قوله جل ذكره : « لو أراد الله أن يتخذ ولداً لا مصطفى
مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ
الوَاحِدُ الْقَهَّارُ » .

خاطبهم على قدر عقولهم وعقائدهم حيث قالوا : المسيح ابن الله ، وعزير ولد الله ؛ فقال :
لو أراد أن يتخذ ولداً للتبني والكرامة لاختار من الملائكة الذين هم منزّهون عن الأكل
والشرب وأوصاف الخلق .

ثم أخبر عن تقدسه عن ذلك فقال : « سبحانه هو الله الواحد القهار » تنزيهاً له عن اتخاذ
الأولاد . . لا في الحقيقة لاستحالة معناه في نعتيه ، ولا بالتبني لتقدسه عن الجنسية والحالات ،
ولأنما يذكر ذلك على جهة استبعاد ؛ إذ لو كان ذلك فكيف كان يكون حكمه ؟ كقوله
تعالى : « لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا ^(١) » .

قوله جل ذكره : « خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ » .

أى خلقهما وهو مُحِقٌّ في خلقهما .

« يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ
النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى » .

يُدْخِلُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ ، ويدخل النهار على الليل في الزيادة والنقصان ، وسَخَّرَ الشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ . وقد مضى فيما تقدم اختلاف أحوال العبد في القبض والبسط ، والجمع والفرق ،
والأخذ والرد ، والصحو والشكر ، ونجوم العقل وأقمار العلم ، وشموس المعرفة ونهار
التوحيد ، وليالي الشك والجحد ونهار الوصل ، وليالي الهجر والفراق وكيفية اختلافها ، وزيادتها
ونقصانها .

« أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ » .

« العزيز » المتمرّز على المحبين ، « الغفار » للمذنبين .

(١) آية ٢٢ سورة الأنبياء .

قوله جل ذكره : « خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظِلْمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَى نُصْرَتُونَ » .

« من نفس واحدة وخلق منها زوجها » يعنى آدم وحواء .

« وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ » أى خلق لكم ، « ثمانية أزواج » فمن الإبل اثنين ، ومن البقر اثنين ، ومن الضأن اثنين ، ومن المواشى اثنين .

« يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ » : أى يصوِّرُكم ، وَيَرْكَّبُ أحوالكم .

« فِي ظِلْمَاتٍ ثَلَاثٍ » : ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة^(١) . ذَكَرَهُمْ نَسَبُهُمْ لثَلَاثٍ يُعْجَبُونَ بِأَحْوَالِهِمْ .

ويقال يَبَيِّنُ آثارَ أفعاله الحكيمه فى كيفية خَلْقَتِك — من قطرتين — أمشاجاً متشاكله الأجزاء ، مختلفه الصورِ فى الأعضاء ، سَخَّرَ بعضها تَحَالٍ للصفات الحميدة كالعلم والقدرة والحياة . . . وغير ذلك من أحوال القلوب ، وسَخَّرَ بعضها تَحَالٍ للحواس كالسمع والبصر والشَّمُّ وغيرها .

ويقال هذه كلها نِعَمٌ أَنْعَمَ اللهُ بِهَا عَلَيْنَا فَذَكَرْنَا بِهَا — والنفوسُ مُعْبَوِلَةٌ ، وكذلك القلوبُ على حُبٍّ مَنَ أَحْسَنَ إِلَيْهَا — استجلاباً لمحبتنا له .

« ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ . . . »^(٢) أى إن الذى أحسن إليكم بجميع هذه الوجوه هو ربُّكم .

(١) هكذا فى م وهى الصواب أما فى ص فهى (البشيمة)

والظلمات الثلاث التى أوردتها القشيري على هذا النحو قالها ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك .

وقال أبو عبيدة : ظلمة صلب الرجل ، وظلمة بطن المرأة ، وظلمة الرحم (القرطبي ج ١٥ ص ٢٣٦) .

(٢) يبدو أن القشيري منذ هذه اللحظة وحتى الآية الكريمة التالية انتهت حلته من حالات الذكر ، فجاءت كلماته أشبه بالتسبيح والنجوى .

أى : أنا خلقتكم وأنا رزقتكم فأحسنْتُ صُورَكُمْ ، وأنا الذى أَسْبَغْتُ عليكم
إنعامى ، وخصمتكم بجميل إكرامى ، وأغرقكم فى بحار أفضالى ، وعرفتكم استحقاق جلالى
وجلالى ، وهديتهم إلى توحيدى ، وألزمتكم رعاية حدودى . . . فما لكم لا تنقطعون بالكلية
إلى ؟ ولا تهجون ما وعدتكم لدى ؟ وما لكم فى الوقت بقلوبكم لا تنظرون إلى ؟

قوله جل ذكره : « إن تكفروا فإن الله غنى عنكم
ولا يرضى لعباده الكفروا إن تشكروا
يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر
أخرى » .

إن أعرضتم وأبیتتم ، وفى جحودكم تماديتم . . . فما نفتقر إليكم ؛ إذ نحن أغنياء عنكم ،
ولكنى لا أرضى لكم أن تبقوا عنى !

يا مسكين . . . أنت إن لم تكن لى فأنا عنك غنى ، وأنا إن لم أكن لك فمن تكون
أنت ؟ ومن يكون لك ؟ من الذى يُحسِنُ إليك ؟ من الذى ينظر إليك ؟ من الذى يرحمك ؟
من الذى ينثر التراب على جراحك ؟

من الذى يهتم بشأنك ؟ بمن نسلو إذا بقيت عنى ؟ من الذى يبيعك رغيفاً بثاقيل
ذهب ؟ .

عبدى . . . أنا لا أرضى ألا تكون لى وأنت ترضى ألا تكون لى ! يا قليل الوفاء ،
يا كثير التجنى !

إن أطمعتنى شكرتُك ، وإن ذكرتني ذكرتُك ، وإن خطوت لأجلى خطوة ملأت
السموات والأرضين من شكرك :

لو علمنا أن الزيارة حق لفرشنا الحدود أرضاً لترضى

قوله جل ذكره : « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ
مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ
مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ
لِلَّهِ أُتْدَادًا » .

إِذَا مَسَّهُ ضُرٌّ خَشَعَ وَخَضَعَ ، وَإِلَى قُرْبِهِ فَزَعَ ، وَتَمَلَّقَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَضَرَّعَ . فَإِذَا أْزَالَ عَنْهُ
ضُرَّهُ ، وَكَفَاهُ أَمْرَهُ ، وَأَصْلَحَ شَفْلَهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ ، وَجَعَلَ لِلَّهِ أُتْدَادًا ، فَيَعُودُ
إِلَى رَأْسِ كُفْرَانِهِ ، وَبَيْنَهُمْ فِي كِبَائِرِ عَصْيَانِهِ ، وَيُشْرِكُ بِمَعْبُودِهِ . هَذِهِ صِفَتُهُ . . . فَسُحْقًا لَهُ
وَبُعْدًا ، وَلَسَوْفَ يَلْقَى عَذَابًا وَخِزْيًا .

قوله جل ذكره : « أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا
وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً
رَبِّهِ ^(١) » .

« قَانِتًا » : الْقَنُوتُ هُوَ الْقِيَامُ ، وَقِيلَ طَوَّلَ الْقِيَامَ . وَالْمُرَادُ هُوَ الَّذِي يَقُومُ بِحَقُوقِ الطَّاعَةِ
أَوْقَاتَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ؛ أَيْ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ .

وَالْهَمِزَةُ لِلِاسْتِفْهَامِ أَيْ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ كَمَنْ لَيْسَ بِقَانِتٍ ؟ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ كَالْكَافِرِ الَّذِي
جَرَى ذِكْرُهُ ؟ أَيْ لَيْسَ كَذَلِكَ .

وَيُقَالُ الْقَنُوتُ الْقِيَامُ بِآدَابِ الْخِدْمَةِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا مِنْ غَيْرِ فَتُورٍ وَلَا تَقْصِيرٍ . « يَحْذَرُ »
الْعَذَابَ الْمَوْعُودَ فِي الْآخِرَةِ ، « وَيَرْجُو » الثَّوَابَ الْمَوْعُودَ . وَأَرَادَ بِالْحَذَرِ الْخَوْفَ .

« قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَؤُا
الْأَلْبَابِ » .

(١) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي رَوَايَةِ عَطَاءَ : نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : نَزَلَتْ فِي مِهْمَانَ بْنِ مَعْنَانَ .

وَقَالَ مِقَاتِلٌ : نَزَلَتْ فِي عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ .

(أسباب النزول للواحدي ص ٢٤٧)

أى هل يستويان ؟ هذا فى أعلى الفضائل وهذا فى سوء الرذائل ! « الذين يعلمون » : العلمُ فى وصف الخلق على ضربين : محبوبٌ مُكْتَسَبٌ للعبد ، وموهوبٌ مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ . ويقال مصنوع وموضوع . ويقال علمٌ برهانٍ وعلمٌ بيان ؛ فالعلوم الدينية كلها برهانية إلا ما يحصل بشرط الإلهام .

قوله جل ذكره : « قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

أطيعوه واحذروا مخالفة أمره . « للذين أحسنوا فى هذه الدنيا » بأداء الطاعات ، (والإحسان هو الإتيان بجميع وجوه الإمكان) ^(١) .

« وأرض الله واسعة » : أى لا تتعللوا بأذى الأعداء ؛ إِنْ نَبَأَ بِكُمْ مَنْزِلٌ فَتَعَلَّلْكُمْ بِمَعَادَةِ قَوْمٍ وَمَنْعِهِمْ إِيَّاكُمْ — لَا يَسْمَعُ ، فَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ، فَأَخْرَجُوا مِنْهَا إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ تَمَّ لَكُمْ فِيهِ عِبَادَتُكُمْ ^(٢) .

« إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » . والصبر حبسُ النَّفْسِ على ما تكرهه . ويقال هو تجرُّعُ كاسات التقدير من غير استكراهٍ ولا تعيس .
ويقال هو التهدُّفُ ^(٣) لسهام البلاء .

قوله جل ذكره : « قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ » .

(١) تأخر ما بين قوسين فجاء بعد (السهام البلاء) فوضعتاه فى هذا المكان لأنه يوضح المقصود بتوضيح « أحسنوا » .

(٢) يقول القشيري فى إحدى وصاياه للمريدين حاثاً على السفر : « إن ابتلى مرید بجاه أو معلوم أو صحبة حدث أو ميل إلى امرأة أو استنامة إلى معلوم وليس هناك شيخ يدلّه على ما به يتخلص من ذلك فعند ذلك حل له السفر والتحول عن ذلك الموضع ليشوش على نفسه تلك الحالة » (الرسالة ص ٢٠٢) .

(٣) التهدف = الدنو والاستقبال .

مضى القولُ في معنى الإخلاص . وفي الخبر : إن الله يقول : « الإخلاص سِرٌّ بين الله وعَبْدِهِ »^(١) .

ويقال الإخلاصُ لا يُفْسِدُهُ الشيطان ، ولا يَطْلُعُ عليه المَلَكَان .
« أَمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ .. » أَمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ فِي وَقْتِي وَفِي شَرَعِي . وَالْإِسْلَامُ
الْإِقْبَادُ لِلَّهِ بِكُلِّ وَجْهِ .

قوله جل ذكره : « قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » .

أَخَافُ أَصْنَافَ الْعَذَابِ الَّتِي تَحْصُلُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ .

قوله جل ذكره : « قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي *
فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنْ
الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ
الْمُبِينُ » .

هذا غاية الزجر والتهديد ، ثم بَيَّنَّ أَنَّ ذَلِكَ غَايَةُ الْخُسْرَانِ ، وَهُوَ الْخُرْبَى وَالْهَوَان . وَالْخَاسِرُ
— عَلَى الْحَقِيقَةِ — مَنْ خَسِرَ دُنْيَاهُ بِمُتَابَعَةِ الْهَوَى ، وَخَسِرَ عُقْبَاهُ بِارْتِكَابِهِ مَا أَرَبُ عَنْهُ نَهْيُ ،
وَوَخَسِرَ مَوْلَاهُ فَلَمْ يَسْتَجِبْ مِنْهُ فِيمَا رَأَى .

قوله جل ذكره : « لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ
تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ
يُاعْبَادُ فَاتَّقُونِ » .

أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ؛ فَهُمْ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا ، وَلَا يَفْتُرُونَ عَنْهَا . كَمَا أَنَّهُمْ الْيَوْمَ فِي جَهَنَّمَ

(١) أَخْبَأَ النَّاسِخَ فِي صَ إِذْ جَعَلَهَا (مُتَر) بِالنَّاءِ وَالصَّوَابِ هِيَ (مُر) ، وَقَدْ وَرَدَ الْخَبَرُ فِي الرِّسَالَةِ مَكْلُودًا :
أَخْبَأَ النَّبِيُّ (مُر) عَنْ جِبْرِيلَ عَنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ قَالَ : « الْإِخْلَاصُ سِرٌّ مِنْ سِرِّي اسْتَوْدَعْتَهُ قَلْبَ مَنْ أَحْبَبْتَهُ مِنْ عِبَادِي »
(الرِّسَالَةُ ص ١٠٤) .

عقائدهم ؛ يستديم حجابهم ، ولا ينقطع عنهم عقابهم^(١) .
 « ذلك يخوف الله به عباده ... » إن خِفْتَ اليومَ كُفِيتَ خوفَ ذلك اليوم وإلا فبين
 يدك عقبة كئود .

قوله جل ذكره : « والذين اجتنبوا الطاغوت أن
 يعبدوها^(٢) وأنا بوا إلى الله لهم البشري »
 طاغوت كل إنسان نفسه ؛ وإنما يجتنب الطاغوت مَنْ خالف هواه ، وعانق رضامولاه .
 وعبادة النفس بموافقة الهوى — وقليل مَنْ لا يعبد هواه ، ويجتنب حديث النفس .
 « وأنا بوا إلى الله » : أى رجعوا إليه فى كل شىء .

قوله جل ذكره : « فَبَشِّرْ عِبَادِ^(٣) * الَّذِينَ يَسْتَمْعُونَ
 الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ
 هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ » .
 « يستمعون القول » يقتضى أن يكون الاستماع لكل شىء ، ولكن الاتباع يكون
 للأحسن . « أحسنه » : وفيه قولان ؛ أحدهما أن يكون بمعنى الحسن ولا تكون الممزة للمبالغة ،
 كما يقال مَلِكٌ أَعَزُّ أى عزيز . والثانى : الأحسن على المبالغة ، والحسن ما كان مأذوناً فيه فى
 صفة الخلق ويعلم ذلك بشهادة العلم^(٤) ، والأحسن هو الأولى والأصوب . ويقال الأحسن
 ما كان لله دون غيره ، ويقال الأحسن هو ذكر الله خالصاً له . ويقال مَنْ عَرَفَ الله لا يسمع
 إلا بالله .

(١) إن استيلاء الحب على قلب الصوفى يجعله ينظر إلى العقوبة فى الآخرة على أنها أقل تعذيباً إذا قيست بمذاب
 الهجر والنأى ، أو على حد تعبيرهم جهنم الاحتراق أخف من جهنم الفراق . . . ولهم فى ذلك أقوال جريئة كثيرة
 (انظر كتابنا : نشأة الصوف الإسلامى ط دار المعارف ص ٢٤٨) .
 (٢) قال ابن زيد : نزلت هذه الآية فى ثلاثة أنفار كانوا فى الجاهلية يقولون : لا إله إلا الله ، وهم
 زيد بن عمرو وأبو ذر الغفارى وسلمان الفارسى (الواحدى ص ٢٤٧) .
 (٣) نزلت فى عثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة وسعيد بن زيد وسعد بن أبى وقاص وكان استماعهم
 لأب بكر وهو يخبرهم بإيمانه (الواحدى ص ٢٤٧، ٢٤٨) .
 (٤) استخدم القشيري هذا المفهوم فى تأييد وترخيص «السباع» بالمعنى الصوفى (الرسالة ص ١٦٦) .

ويقال إن للعبد دواعي من باطنه هي هواجس النفس ووساوس الشيطان وخواطر الملك وخطاب الحق يلتقي في الرّوع؛ فوساوس الشيطان تدعو إلى المعاصي، وهواجس النفس تدعو إلى ثبوت الأشياء من النفس وأن لها في شيء نصيباً، وخواطر الملك تدعو إلى الطاعات والقرب، وخطاب الحق في حقائق التوحيد.

« أولئك الذين هدام الله وأولئك هم أولو الألباب » : —

أولئك الذين هدام الله لتوحيده، وأولئك الذين عقولهم غير معقولة^(١).

قوله جل ذكره : « أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ » ؟

الذين حُتَّتْ عليهم كلمة العذاب فريقان : فريق حُتَّتْ عليهم كلمة بعذابهم في النار، وفريق حُتَّتْ عليهم كلمة العذاب بالحجاب اليوم، فهم اليوم لا يخرجون عن حجاب قلوبهم، ولا يكون لهم بهذه الطريقة إيمان — وإن كانوا من أهل الإيمان^(٢).

قوله جل ذكره : « لَسَكُنَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَمْ يُغْرَفْ مِنْ فَوْقِهَا غُرْفٌ مَبْنِيَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِعَادَ » .

وَعَدَ الطَّائِعِينَ بِالْجَنَّةِ — وَلَا مُحَالَةَ لَا يُخْلِفُ ، وَعَدَ التَّائِبِينَ بِالْمَغْفِرَةِ — وَلَا مُحَالَةَ يَغْفِرُ لَهُمْ ، وَعَدَ الْمُرِيدِينَ بِالْوُجُودِ وَالْوُصُولِ — وَإِذَا لَمْ تَقَعْ لَهُمْ فِتْرَةٌ فَلَا مُحَالَةَ مُصَدِّقٌ وَعَدَهُ .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

(١) (عقولهم غير معقولة) أي غير حبيسة أو ممنوعة عن الإدراك وتصحيح الإيمان : فهذه هي المهمة الأساسية للعقل في نظر المصنف — كما نوهنا بذلك . وربما كانت في الأصل (مقفولة) فيها أيضاً يستقيم المعنى .
(٢) نعلم أن كثيرين في أوساط أهل السُّنَّةِ يمارضون العديد من مسائل التصوف ، ومن أمثالهم ابن تيمية وابن الجوزي .

فَسَلَّكَ بِنَائِعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ
زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهْبِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا
ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا
لِلأُولَى الْأَلْبَابِ .

أخبر أنه يُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ الْمَطَرَ فَيُخْرِجُ بِهِ الزَّرْعَ فَيَخْضَرُّ ، ثُمَّ يَأْخُذُ فِي الْجَفَافِ ، ثُمَّ يَصِيرُ
هَشِيمًا وَالْإِشَارَةُ مِنْ هَذَا إِلَى الْإِنْسَانِ ، يَكُونُ حَقْلًا ثُمَّ شَابًا ثُمَّ كِهْلًا ثُمَّ شَيْخًا ثُمَّ يَصِيرُ
إِلَى أَرْضِ الْعَمْرِ ثُمَّ فِي آخِرِهِ يَحْتَرَمُ .

وَيَقَالُ إِنَّ الزَّرْعَ مَا لَمْ يَأْخُذْ فِي الْجَفَافِ لَا يُؤْخَذُ مِنْهُ الْحَبُّ ، فَالْحَبُّ هُوَ الْمَقْصُودُ مِنْهُ . .
كَذَلِكَ الْإِنْسَانُ مَا لَمْ يَحْصُلْ مِنْ نَفْسِهِ وَصُولٌ لَا يَكُونُ لَهُ قَدَرٌ وَلَا قِيَمَةٌ .

وَيَقَالُ إِنَّ كَوْنَ الْمُؤْمِنِ بِقُوَّةِ عَقْلِهِ يَوْجِبُ اسْتِفَادَةً لَهُ بِعِلْمِهِ إِلَى أَنْ يَبْدُوَ مِنْهُ كَلٌّ يُمْكِنُ
مِنْ أَنْوَارِ بَصِيرَتِهِ ، ثُمَّ إِذَا بَدَتْ لِأُنْمَحَةٌ مِنْ سُلْطَانِ الْمَعَارِفِ تَصِيرُ تِلْكَ الْأَنْوَارُ مَغْصُورَةً . فَإِذَا
بَدَتْ أَنْوَارُ التَّوْحِيدِ اسْتَهْلَكَتْ تِلْكَ الْجَمْلَةُ ، قَالُوا :

فَلَمَّا اسْتَبَانَ الصَّبْحُ أُدْرِجُ^(١) ضَوْؤُهُ

بِأَنْوَارِهِ أَنْوَارَ تِلْكَ السَّكَاكِبِ

قوله جل ذكره : « أَقْنِ شَرَحَ اللَّهِ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ
فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ
قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » .

جوابُ هذا الخطابِ مخوفٌ أَيُّ أَقْنِ شَرَحَ اللَّهِ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ كُنْ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟
لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ سُئِلَ الرَّسُولُ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — عَنِ الشَّرْحِ الْمَذْكُورِ فِيهَا ،
قَالَ : « ذَلِكَ نُورٌ يَقْدَفُ فِي الْقَلْبِ ، قَلِيلٌ : وَهَلْ لَكَ أَمَارَةٌ ؟ »

(١) أُدْرِجُ الشَّيْءَ أَيُّ أَفْنَاهُ (الْوَسِيطُ) . وَالْمَقْصُودُ أَنَّ أَنْوَارَ مَصَابِيحِ الْمَعْرِفَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ تَتَلَاشَى وَتَفْتَحُ عِنْدَ
سَطْوَعِ شَمْسِ الْحَقِيقَةِ . وَقَدْ وَرَدَتْ فِي ص ٤٢ مِنَ الرَّسَالَةِ (أَدْرِكُ) وَالْعَصْرَابُ فِي نَظَرِنَا (أَدْرِجُ) .

قال : نعم ؛ التجافى عن دار الفرور والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للهوت قبل نزوله^(١) .

والنور الذى مِنْ قِبَلِهِ — سبحانه — نورُ اللّوَانِحِ بنجوم العلم ، ثم نورُ اللّوَامِعِ ببيان النّهم ، ثم نورُ المحاضرة بزوائد اليقين ، ثم نورُ المكاشفة بتجلى الصفات ، ثم نورُ المشاهدة بظهور الذات ، ثم أنوار الصمدية بمقتائق التوحيد . . . وعند ذلك فلا وَجْدَ ولا قَدَّ^(٢) ، ولا قُرْبَ^(٣) ولا بُعْدَ . . . كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ^(٤) .

« فَوَيْلٌ لِلنَّاسِ قُلُوبِهِمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ »^(٥) : أى الصلبة قلوبهم ، لم تفرعها خواطر التعريف فبقيت على نكرة الجحد . . . أولئك فى الضلالة الباقية ، والجهالة النائمة . . .

قوله جل ذكره : « اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ^(٦) »

كتاباً متشابهاً مثاني تَشْمِرُهُ منه جلودُ
الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ
وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ مُهْدَى اللَّهِ

(١) أورد الفزالي هذا الخبر فى مقدمه ، وشرح مهمة هذا النور بأنه الذى يُطْلَبُ منه الكشف ؛ وأنه ينبجس من النور الإلهى (المنتقى من الضلال ط القاهرة ص ٢٥٥) .

(٢) هكذا فى م وهى فى ض (تصد) بالصاد وهى خطأ فى النسخ ، فالوجد يقابله الفقد .

(٣) فى ص (ولا فرق) والمصواب أن تكون (ولا قرب) لتقابل (ولا بُعد) لأنه لو قال (ولا فرق) لكان قد قال (ولا جمع) مع أن الموقف هنا موقف (جمع) .. والمقصود اختفاء تغليات التلوين ، والوصول إلى مرتبة التمكن ، أى الوصول إلى حال (جمع الجميع) .

(٤) تفيد هذه الفقرة فى فهم كثير من المصطلحات ، وهذه أول مرة نصادف القشيري عبارة (بظهور الذات) لأنه فى مواضع كثيرة يلح على أن المشاهدة (لصفات كالجمال أو الجلال أو ... الخ) أما (الذات) فقد جلست الصمدية — كما يقول — عن أن يستشرف منها مخلوق .

(٥) نزلت فى أبي لهب وأولاده الذين قست قلوبهم عن ذكر الله . (الواحدى ص ٢٤٨) واختار الطبرى القول بأن (مِنْ) فى الآية بمعنى (من) أى قست قلوبهم عن ذكر الله .

(٦) قال سعد بن أبي وقاص : قال أصحاب رسول الله (ص) : لو حسدَ ثَمَنًا . . . فانزل الله عز وجل « اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ » فقالوا : لو قصصت علينا .. فنزل « نحن نقص عليك أحسن القصص »

يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ
فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ .

« أحسن الحديث » لأنه غير مخلوق^(١)

« كتابا متشابها » في الإعجاز والبلاغة .

« مثاني » : يثنى فيها الحكم ولا يُملأ بتكرار القراءة ، ويشتمل على نوعين :

الثناء عليه بذكر سلطانه وإحسانه ، وصفات الجنة والنار والوعد والوعيد .

« تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم » إذا سمعوا آيات الوعيد .

« ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » إذا سمعوا آيات الوعد .

ويقال : تقشعر وتلين بالخوف والرجاء ، ويقال بالقبض والبسط ، ويقال بالهيبة والأنس ،

ويقال بالتجلى والاستتار^(٢) .

قوله جل ذكره : « أَفَمَنْ يَتَّقِ بِوَجْهِهِ سِوَى الْعَذَابِ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ

تَكْسِبُونَ » .

أى فمن يتقى بوجهه سِوَى الْعَذَابِ كَمَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟ وقيل إن الكافر يلقى

النارَ أَوَّلَ مَا يَلْقَاهَا بوجهه ؛ لأنه يُرْمَى فِيهَا مَنكُوسًا . فَأَبَا الْمُؤْمِنِ فَيُوقَى ذَلِكَ ؛ وَإِنَّمَا

يُلْقَى النُّصْرَةُ وَالسَّرُورُ وَالْكَرَامَةُ ؛ فَوَجْهُهُ ضَاحِكٌ مُسْتَبْشِرٌ .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ

الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ » .

(١) سُمِّيَ الْقُرْآنُ حَدِيثًا لِأَنَّ الرَّسُولَ (ص) كَانَ يُحَدِّثُ بِهِ أَصْحَابَهُ وَقَوْمَهُ ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ : « فَبِأَيِّ

حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ » وَقَوْلِهِ : « أَفَمَنْ هَذَا الْحَدِيثُ تَعْجِبُونَ » وَيُخَطِّئُ أَهْلَ السُّنَّةِ مَنْ يَسْتَدْفِي أَنَّ الْقُرْآنَ

مَخْلُوقٌ إِلَى أَنَّ « الْحَدِيثَ » مِنَ الْحَدُوثِ فَالْكَلَامُ مُحَدَّثٌ فَقَالُوا : الْحَدُوثُ يَرْجِعُ إِلَى التَّلَاوَةِ لَا إِلَى الْمَقْلُوبِ ، كَالذِّكْرِ

مَعَ الْمَذْكُورِ إِذَا ذَكَرْنَا أَسْمَاءَ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ الْحَسَنَى .

(٢) يَسْتَفِيدُ الصُّوفِيَّةُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ فِي تَدْعِيمِ نَظَرِيَّتِهِمْ فِي « السَّمَاعِ » وَالتَّأَثُّرَاتِ النَّفْسِيَّةِ وَالْعَضْوِيَّةِ النَّاجِمَةِ عَنْ

تَقَلُّبِ الْأَحْوَالِ .

أشدُّ العذابِ ما يكونُ بفتنةً ، كما أنَّ أتمَّ السرورِ ما يكونُ فلتنةً .
ومن المجرانِ والفراقِ ما يكونُ بفتنةٍ غيرِ متوقعٍ ، وهو أنكى للفؤادِ وأشدُّ وأوجعُ
تأثيراً في القلبِ ، وفي معناه قلنا :

فَبِتَّ بِخَيْرٍ وَالذَّنَى مَطْمَئِنَّةٌ
وَأَصْبَحْتَ يَوْمًا وَالزَّمَانُ تَقَلَّبًا

وأتمُّ السرورِ وأعظمه تأثيراً ما يكونُ فجأةً ، قال قائلهم :
بينما خاطر المني بالتلاقي سابع في فؤاده وفؤادي
جمعَ اللهُ بيننا فالتقينا هكذا صدقةً بلا ميعادِ
قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا
الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ
* قَرَأْنَا عَرِيبًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ .
لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » .

أى أوضحنا لهم الآيات ، ووقفناهم على حقائق الأشياء .
« غير ذى عوج » : فلا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه .
قوله جل ذكره : « ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ
مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ
هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » .

مَثَلُ الْكَافِرِ وَمَعْبُودِيهِ يَعْبُدُ اشْتَرَكٍ فِيهِ مُتَشَاكِعُونَ .
« فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ » : فالصنم يدعى فيه قومٌ وقوم آخرون ؛ فهذا بقول :
أَنَا صَنَعْتُهُ ، وَذَلِكَ يَقُولُ : أَنَا اسْتَعْمَلْتُهُ ، وثالث يقول : أَنَا عَبَدْتُهُ .

أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَهُوَ خَالِصٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، يُشَبَّه « عَبْدًا سَلَمًا لِرَجُلٍ » أَيْ ذَا سَلَامَةٍ
مِنَ التَّنَازُعِ وَالْإِخْتِلَافِ .

وَيُقَالُ « رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مَتَشَاكِسُونَ » تَتَجَاذِبُهُ أَشْغَالُ الدُّنْيَا ، تُشْغَلُ الْوَالِدُ وَشُغْلُ
الْعِيَالِ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَشْغَالِ الْمُخْتَلِفَةِ وَالْخَوَاطِرِ الْمُشْتَتَةِ .

أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَهُوَ خَالِصٌ لِلَّهِ لَيْسَ لِأَحَدٍ فِيهِ نَصِيبٌ ؛ وَلَا لِلدُّنْيَا مَعَهُ سَبَبٌ إِذْ لَيْسَ مِنْهَا
شَيْءٌ ، وَلَا لِلرِّضْوَانِ مَعَهُ شُغْلٌ ^(١) ، إِذْ لَيْسَ لَهُ طَاعَاتٌ يُدِلُّ بِهَا ، وَقَلَى الْجُمْلَةِ فَهُوَ
خَالِصٌ لِلَّهِ ، قَالَ تَعَالَى لِمُوسَى : « وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي » ^(٢) أَيْ أَبْقَيْتُكَ لِي حَتَّى
لَا تَصِلَاحَ لغيري .

« الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » : الثَّنَاءُ لَهُ ، وَهُوَ مُسْتَحَقٌّ لصفات الجلال .

قوله جل ذكره : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » *

نَمَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ
تَحْتَصِمُونَ .

نَعَاهُ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — إِلَيْهِ . وَنَعَى الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِمْ فَفَزِعُوا بِأَجْمَعِهِمْ مِنْ
مَآئِهِمْ ^(٣) ، وَلَا تَعْرِيزَ فِي الْعَادَةِ بَعْدَ ثَلَاثٍ . وَمَنْ لَمْ يَتَفَرَّغْ مِنْ مَآئِمِ نَفْسِهِ وَأَنْوَاعِ
هُومِهِ ، فَلَيْسَ لَهُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ ^(٤) شَيْءٌ ، فَإِذَا فَرَّغَ قَلْبُهُ مِنْ حَدِيثِ نَفْسِهِ ، وَعَنِ
الْبُكُونِ بِجَمَلَتِهِ فَيَنْشِئُ يَجِدُ الْخَيْرَ مِنْ رَبِّهِ ، وَلَيْسَ هَذَا الْحَدِيثُ إِلَّا بَعْدَ فَنَائِهِمْ عَنْهُمْ ،
وَأَنْشُدْ بَعْضَهُمْ :

(١) لَقِيَتِ الْجَنَّةُ مِنْ كِبَارِ الشُّيُوخِ مَوَاقِفَ لَا يَخْلُو التَّعْبِيرُ عَنْهَا — عِنْدَ مَنْ لَا يَفْقَهُونَهَا — الْكَثِيرَ مِنَ الْاسْتِفْرَافِ ،
مِنْ ذَلِكَ مَا يَقُولُهُ أَبُو يَزِيدَ الْبَسْطَامِيُّ : مَا الْجَنَّةُ إِلَّا لَعِبَةٌ صَبِيحَانِ ! وَيَقُولُ : الْجَنَّةُ هِيَ الْحَوَابِ الْأَكْبَرُ لِأَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ
سَكَنُوا إِلَى الْجَنَّةِ ، وَكُلُّ مَنْ سَكَنَ إِلَى الْجَنَّةِ سَكَنَ إِلَى سِوَاهُ فَهُوَ مُحِبُّوبٌ .

(٢) آيَةُ ١٤١ سُورَةِ طه .

(٣) هَكَذَا فِي ضَوْءِ هِيَ مَقْبُولَةٌ لِتَنَاسُبِ الْخَصُومَةِ الَّتِي سَيَرْتَبِ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ الْإِخْتِصَامُ .

(٤) يَقْصِدُ حَدِيثَ الْفَنَاءِ عَنْ كُلِّ أَرْبٍ وَسَبْعٍ ، أَيْ الْفَنَاءَ بِالنَّمْلِ الصَّوْقِ .

كتابي إليكم بعد موتى بليلة

ولم أدري أنى بعد موتى أكتب

قوله جل ذكره : « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى

اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصُّدُقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ

فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ » .

الإشارة فيه إلى من أشار إلى أشياء لم يَبْلُغْها ، وادَّعى وجودَ أشياء لم يَدُقْ شيئاً منها ،

قال تعالى : « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَةٌ » (١) .

ويقال : لا بل هؤلاء هم الكفار ، وأما المُدَّعى الذى لم يَبْلُغْ ما يدَّعيه فليس يكذب على

ربه إنما يكذب على نفسه ؛ حيث ادَّعى لها أحوالاً لم يَدُقْها ولم يَحْدِثْها ، فأما غيرُ المتحقق الذى

يكذب على الله فهو الجاحد والمبتدع الذى يقول فى صفة الحقِّ — سبحانه — ما يتقدَّسُ

ويتعالى عنه (٢) .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِي جَاءَ بِالصُّدُقِ وَصَدَّقَ بِهِ

أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ » لم ما يشاءون عند

ربِّهم ذلك جزاءُ المُحْسِنِينَ » .

الذى جاء بالصدق فى أفعاله من حيث الإخلاص ، وفى أحواله من حيث الصدق ،

وفى أسرارِهِ من حيث الحقيقة .

« ذلك جزاءُ المحسنين » : الإحسانُ — كما جاء فى الخبر — أن تعبد الله كأنك تراه .

فَمَنْ كَانَتْ — اليومَ — مشاهدته على الدوام كالت رؤية غداً على الدوام ، وَمَنْ لَا قَلْبَ (٣) .

(١) آية ٦٠ من هذه السورة .

(٢) وإلى أمثال هؤلاء أشار القشيري فى مسهل رسالته قائلاً : « .. ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء الأفعال ، حتى أشاروا إلى أهل الحقائق والأحوال ، وادَّعوا أنهم تحرروا من رِقَّة الإغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال ، وأنهم قائمون بالحق تجرى عليهم أحكامه وهم محو ، وأنهم كوشفوا بأسرار الأسماء وزالت عنهم أحكام البشرية ، والقائل عنهم غيرهم إذا نطقوا » الرسالة ص ٣ .

(٣) روى مسلم عن جابر «بحث كل عب على مائة عليه ٥٧/٦ ؛ فبعض التقدير للمعنى «ومن كان بحالة لى الله عليها » .

قوله جل ذكره : « لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي
عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي
كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

من لا يكون مؤمناً فليس من أهل هذه الجملة . ومن كان معه إيمان : فإذا كفر عنه
أسوأ ما عمل له فأسوأ أعماله كبائره ؛ فإن غفرت يجزى بهم بأحسن أعمالهم . وأحسن أعمال
المؤمن الإيمان والمعرفة ، فإن كان الإيمان مؤقتاً كان ثوابه مؤقتاً ، وإن كان الإيمان على
الدوام فثوابه على الدوام . ثم أحسن الأعمال عليها أحسن الثواب ، وأحسن الثواب الرؤية
فيجب أن تكون على الدوام ^(١) — وهذا استدلال قوی .

قوله جل ذكره : « أليس الله بكاف عبده . . » .

استفهام والمراد منه التقرير ؛ فالله كاف عبده اليوم في عرفانه بتصحيح إيمانه ومنع
الشرك عنه ، وغداً في غفرانه بتأخير العذاب عنه ، وما بينهما فكفايته تامة وسلامته عامة .

قوله جل ذكره : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ
مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ
بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي
بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ
حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ » .

قرّر عليهم علو صفاته ، وما هو عليه من استحقاق جلاله فأقرؤا بذلك ، ثم طالبهم بذكر
صفات الأصنام التي عبدوها من دونه ، فلم يمكنهم في وصفها إلا بالجمادية ، والبعد عن الحياة
والعالم والقدرة والتمكّن من الخلق ، فيقول : كيف أشركتم به هذه الأشياء ؟ وهلا
استحييتهم من إطلاق أمثال ذلك في صفته ؟ .

(١) « فيجب أن تكون الرؤية على الدوام » نلاحظ إلحاح القشيري على هذا الرأي في خاتمة تفسيره للآية السابقة
وفي هذه الآية ، ولهذا الرأي أهميته في مسألتين : خلود الجنة والرؤية .. مسألتان كان حولهما جدل كثير
أشرنا إلى بعضه في تعليقات سابقة .

قُلْ - يا محمد - حَسْبِيَ اللَّهُ ، عليه يتوكل المتوكلون ؛ كافيَّ الله المتفرِّدُ بالجلالِ ، القادرُ على ما يشاء ، المتفَضِّلُ علىَّ بما يشاء .

قوله جل ذكره : « قُلْ يا قومِ اعملوا على مكانتكم إني

عاملٌ فسوف تعلمون * مَنْ يَأْتِهِ عَذَابٌ

يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ »

سوف ينكشف ربُّنا وخسرانكم ، وسوف تظهر زيادتنا ونقصانكم ، وسوف نطالبكم فلا جوابَ لكم ، ونُعَذِّبُكُمْ فلا شفيعَ لكم ، ونُدَمِّرُ عليكم فلا صريحَ لكم .

قوله جل ذكره : « إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ

بِالْحَقِّ قَمِينَ اهْتَدَى فَلَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ

ضَلَّ فَإِنَّا يَظِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ

بِوَكِيلٍ » .

مَنْ أَحْسَنُ فإِحْسَانُهُ إِلَى نَفْسِهِ اكْتَسَبَهُ^(١) ، وَمَنْ أَسَاءَ فَبِلَاؤِهِ عَلَى نَفْسِهِ جَلَبَهُ - وَالْحَقُّ

غَنَى^(٢) عَنِ التَّجَلُّلِ بِطَاعَةِ مَنْ أَقْبَلَ وَالتَّنَقُّصِ بِزَلَّةٍ مَنْ أَعْرَضَ .

قوله جل ذكره : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي

لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى

عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ

مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ » .

يقبض الأرواح^(٢) حين موتها ، والتي لم تَمُتْ من النفوس في حال نومها ، فإذا نامت

(١) (اكتسبه) موجودة في م وسقطت في ص .

(٢) واضح هنا أن القشيري لا يكاد يميز بين (النفس) و (الروح) مع أنه في الرسالة ص ٤٨ يميز بينهما فيقول (يحتل أن تكون النفس لطيفة مودعة في القالب) = البدن وهي محل الأخلاق المعلولة (موجودة في الرسالة خطأ المعلومة) كما أن الروح لطيفة في القالب هي محل الأخلاق المحمودة .. والجميع إنسان واحد ، وكونهما بصفة =

فيقبض أرواحها^(١) . وقبضُ الأرواح في حال الموت بإخراج اللطيفة التي في البدن وهي الروح ، ويخلق بدَل الاستشمارِ والعِلْمِ الغفلةَ والغيبةَ في محالِّ الإحساس والإدراك . ثم إذا قبضَ الأرواح عند الموت خلقَ في الأجزاء الموت بدَل الحياة ، والموتُ بناقِ الإحساس والعلم . وإذا ردَّ الأرواح بعد النوم إلى الأجسادِ خلقَ الإدراكَ في محل الاستشمار فيصير الإنسان متيقظاً ، وقبضُ الله الأرواحَ في حال النوم ووردت به الأخبار ، وذلك على مراتب ؛ فإنَّ روحاً تُقبضُ على الطهارة تُرْفَعُ إلى العرش وتسجد لله تعالى ، وتكون لها تعريفات ، ومعها مخاطبات . « والله أعلم » .

قوله جل ذكره : « أم اتخذوا من دون الله شُفَعَاءَ قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يُنْقِلُونَ » .

أى أنهم - وإن اتخذوا على زعمهم من دون الله شفعاء بِحُكْمِهِمْ لا بتعريفٍ من قِبَلِ الله أو إخبار - فإنَّ الله تعالى لا يقبل الشفاعةَ من أحَدٍ إِلَّا إِذَا أُذِنَ بِهَا ، وإنَّ الذي يقولونه إنما هو افتراء على الله .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ »

اللطافة في الصورة ككون الملائكة والشياطين بصفة اللطافة ثم يعود بعد قليل متحدثاً عن الروح فيقول : الأرواح تختلف فيها عند أهل التحقيق من أهل السنة فمنهم من يقول إنها الحياة ، ومنهم من يقول إنها أعيان مودعة في القالب (اللطائف ص ٢٠ ص ٣٦٧) .

وفي تقديرنا أن المسألة ذات جانبين : فإذا نظرنا إلى الموضوع خارج دائرة التصوف فالروح والنفس بمعنى واحد متصل بالحياة ، وقبضهما معناه موت البدن بدليل ما ورد عن الرسول (ص) ، فهو مرة يقول (كما في حديث أم سلمة) : دخل رسول الله (ص) على أبي سلمة وقد شق (= انفتح) بصره فأغمضه ثم قال : «إن الروح إذا قبض تبعه البصر» وفي مرة أخرى يقول (ص) في حديث صحيح أخرجه ابن ماجه : «تخضر الملائكة فإذا كان الرجل صالحاً قالوا اخرجي أيها النفس الطيبة» وفي صحيح مسلم : قال «ص» : «إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها» .

أما الجانب الآخر للمسألة فهو كونهما مصطلحين صوفيين ؛ فالنفس محل المملولات والروح محل المحمودات .. وذلك ركن هام في مذهب القشيري لم يتغل عنه في كتاب من كتبه ، كما هو مذهب كثيرين من المتصوفة . (١) قبض الروح عند النوم معناه ترقيقها (الرسالة ص ٤٨) .

الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذُكِرَ
الذين من دونه إذا هم يستبشرون .
اشمأزت قلوب الذين جحدوا ولم تسكن نفوسهم إلى التوحيد ، وإذا ذُكِرَ الذين من
دونه استأنسوا إلى سماعه : —

« قل اللهم فاطر السموات والأرض
عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين
عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . »
عَلَّمَهُ — صلى الله عليه وسلم — كيف يثنى عليه — سبحانه^(١) .

وتشتمل الآية على الإشارة إلى بيان ما ينبغى من التنصّل والتذلّل ، وابتغاء العفو
والفضل ، وتحقيق الالتجاء بحسن التوكل . ثم أخبر عن أحوالهم في الآخرة فقال :

« ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً
ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب
يوم القيامة » .

لافتدوا به .. ولكن لا يُقبل منهم ، واليوم لو تصدّقوا بمثقال ذرة لقبل منهم . كما أنهم
لو بكَوْا في الآخرة بالدماء لا يُرْحَمُ بكاؤهم ، ولكنهم بدمعة واحدة -- اليوم -- يُمَحَّى
الكثير من دواوينهم .

قوله جل ذكره : « وبَدَأَ لهم من الله ما لم يكونوا
يَحْتَسِبُونَ » .

في سماع هذه الآية حَرَّاتٌ لأصحاب الانتباه .

(١) في صحيح مسلم : أن عائشة سئلت بأى شيء كان النبي صلى الله عليه وسلم يستفتح صلاته إذا قام من
الليل ؟ قالت : كان إذا قام من الليل افتتح صلاته : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ،
... يختلفون » ، إلهي لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم .
وقال سعيد بن جبير : إني لأعرف آية ما قرأها أحد قط وسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه ، قوله تعالى : « قل
اللهم فاطر يختلفون » .

وفي بعض الأخبار أن قوماً من المسلمين من أصحاب الذنوب يُؤمَرُ بهم إلى النار [فإذا وافوها بقول لهم مالكٌ : مَنْ أَنْتُمْ ؟] إن الذين جاءوا قَبْلَكُمْ من أهل النار وجوههم كانت مُسْوَدَّةً ، وعيونهم ^(١) [كانت مُزْرَقَةً . . .] وأَنْتُمْ لستم بتلك الصفة ، فيقولون : ونحن لم نتوقع أن نلقاك ، وإنما انتظرنا شيئاً آخر ! قال تعالى « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » ^(٢) .

« وبدا لهم سيئاتُ ما كَسَبُوا وحق بهم

ما كانوا به يستهزئون » .

حق بهم وبال استهزائهم وجزاء مَكْرِم .

قوله جل ذكره : « فإذا مَسَّ الإنسانَ ضرٌّ دَعَانَا

ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ

على عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّا أَكْثَرُ

لَا يَعْلَمُونَ » .

في حال الضرِّ يتبرَّءون من الاستحقاق والحوْل والقوة ، فإذا كَشَفَ عنهم البلاء وقعوا في مغاليطهم ، وقالوا : إِنَّمَا أُوتِينَا هَذَا بِاسْتِحْقَاقٍ مِنَّا ، قال تعالى : « بل هي فِتْنَةٌ وَلَكِنَّمَا لَمْ يَعْلَمُوا ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ هَذَا قَالُوا وَحَسْبُوا ، وَلَمْ يَحْصِلُوا إِلَّا عَلَى مِغَالِيطِهِمْ ، فَأَصَابَهُمْ شَوْمٌ مَا قَالُوا ، وَهَؤُلَاءِ سَيَصِيبُهُمْ أَيْضاً مِثْلُ مَا أَصَابَ أَوَّلَئِكَ .

قوله جل ذكره : « أَوْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ

لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ

لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .

(١) ما بين القوسين مستدرِك في هامش الورقة ٤٩٦ من النسخة ص

(٢) عن مجاهد قال : إنهم عملوا أعمالاً توهموا أنها حسنات فإذا هي سيئات .

وقيل عملوا أعمالاً توهموا أنهم يتوبون منها قبل الموت فأدركهم الموت قبل أن يتوبوا .

أما التفسير فيصرفها إلى المؤمنين العصاة ، وواضح أنه يميز بين حالة ورودهم إلى النار ، وورود الكفار ، فهؤلاء على التأييد وأولئك إلى حين .

أولم يروا كيف خالف بين أحوال الناس في الرزق : فَمِنْ مُوسِعٍ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ، وَمِنْ مُضَيِّقٍ عَلَيْهِ ، وليس لواحدٍ منهم شيءٌ ، مِمَّا خُصَّ بِهِ مِنَ التَّقْلِيلِ أَوِ التَّكْثِيرِ .

قوله جل ذكره : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ

لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ

الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ »^(١)

التسمية « ياباعبادي » مَذْحُ^(٢) ، والوصفُ بأنهم « أسرفوا » ذَمٌّ . قلنا قال :

« يا عبادي » طمع الطمعون في أن يكونوا هم المقصودين بالآية ، فرفضوا رموسهم ، ونكسوا

العصاة رموسهم وقالوا : مَنْ نَحْنُ . . حتى يقول لنا هذا ١٩

قال تعالى : « الَّذِينَ أَسْرَفُوا » فانقلب الحال ؛ فهؤلاء الذين نكسوا رموسهم انتعشوا

وزالت ذللتهم ، والذين رفضوا رموسهم أطرقوا وزالت صولتتهم^(٣) .

ثم أزال الأعجوبة عن القسمة بما قوَّى رجاءهم بقوله : « على أنفسهم » يعني إن أسرفت

فعلَى نَفْسِكَ أسرفت .

« لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ » : بعد ما قطعت اختلافك إلى بابنا فلا ترفع قلبك عنا .

« إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا » الألف واللام في « الذنوب » للاستغراق والعموم ،

والذنوب جمع ذنب ، وجاءت « جميعاً » للتأكيد ؛ فكأنه قال : أَعْفِرُ وَلَا أَتْرِكُ ،

وَأَعْفُو وَلَا أَبْقِي .

(١) أورد الواحدى في أسباب النزول عدة أقوال بشأن من نزلت فيه هذه الآية الكريمة ، ومن هذه الروايات :

من ابن عباس قال : نزلت في أهل مكة حين قالوا : يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس التي حرم الله لم يغفر له ، فكيف نهاجر ونسلم وقد عبدنا مع الله إلها آخر وقتلنا النفس التي حرم الله .

وقال ابن عمر : نزلت في عياش بن ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين كانوا قد أسلموا ثم فتنوا

وعذبوا فتركوا دينهم .

ويروى أنها نزلت في وحشى قاتل حمزة . (الواحدى ص ٢٤٨ ، ٢٤٩) .

(٢) يقول الدقاق : ليس شيء أشرف من العبودية ، وقد سمي بها الحق نبيه (ص) فقال : سبحان الذى أسرى

بعبيده ، وقال : فأوحى إلى عبده ما أوحى - ولو كان اسم أجل من العبودية لسماء به . (الرسالة ص ١٠٠) .

(٣) راجع ما قاله القشيري في قصة داود : (إن زلّة أسفك عليها يوصلك إلى ربك أجدى عليك من طاعة

إصياك بها يقصيك عن ربك) . ويقول حل بن أبي طالب : ما فى القرآن أوسع من هذه الآية . ويقول عبد الله

ابن عمر : هذه أرجى آية فى القرآن .

ويقال إن كانت لكم جناية كثيرة عميمة فلي بشأنكم عناية قديمة^(١).

قوله جل ذكره : « وأنبئوا إلى ربكم وأسئلوا له من قبل أن يأتكم العذاب ثم لاتنصرون » .

الإجابة الرجوع بالكلية . وقيل الفرق بين الإنابة وبين التوبة أن التائب يرجع من خوف العقوبة ، وصاحب الإنابة يرجع استحياء لكرمه^(٢) .

« وأسئلوا له » : وأخلصوا في طاعتكم ، والإسلام — الذي هو بعد الإنابة — أن يعلم أن نجاته بفضل لا بإنابته ؛ ففضله يصل إلى إنابته . لا بإنابته يصل إلى فضله .

« من قبل أن يأتكم العذاب » قبل الفراق . ويقال هو أن يفوته وقت الرجوع بشهود الناس ثم لا ينصرف عن ذلك .

قوله جل ذكره : « أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن السّافرين * أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرامة فأكون من المحسنين » .

يقال هذا في أقوام يرون أمثالهم تقدموا عليهم في أحوالهم ، فيتذكرون ما سلف من تقصيرهم ، ويرون ما وفق إليه أولئك من المراتب فيعضون بنواجذ الحسرة على أنامل الخيبة .

(١) واضح أن القشيري يحاول بطرق شتى أن يفتح كل أبواب الأمل أمام اليائسين ، فمهما كانت الذنوب كثيرة فعفو الله أكبر وأشمل ، وبدا أن النص القرآني يحتمل كل المحاولات التي يبلها القشيري بصاحته الصوفية الأصيلة .

(٢) ينقل القشيري عن شيخه الدقاق قوله في هذا الخصوص : « أرها توبة وأوسطها إنابة وآخرها أوبة » . ثم يعلق على ذلك قائلا : فكل من تاب لخوف العقوبة فهو صاحب توبة ، ومن تاب طمعا في الثواب فهو صاحب إنابة ، ومن تاب مراعاة للأمر — لا لرغبة في ثواب أو رهبة من عقاب — فهو صاحب أوبة . ويقال التوبة صفة المؤمنين (وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون) . والإنابة صفة الأولياء والمقربين (وجاء بقلب منيب) ، والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين (فعب العبد إنه أواب) الرسالة ص ٥٥ .

أو يقول : لو أن الله هداني لكنتُ كذا ، ويقول آخر : لو أن لي كرامةً فأكون
كذا ، فيقول الحق — سبحانه :

« بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها
واستكبرت وكنت من الكافرين » .

فَذُقْ مِنَ الْعَذَابِ مَا عَلَى جُرْمِكَ اسْتَوْجِبْتَ .

قوله جل ذكره : « ويوم القيامة ترى الذين كذبوا
على الله وجوههم مسودةً أليس في
جهنم مثوى للمتكبرين » .

هؤلاء الذين ادَّعوا أحوالاً ولم يَصْدُقُوا فيها ، وأظهروا الحجة لله ولم يتحققوا بها ،
وكفاهم اقتضاحاً بذلك ! وأنشدوا :

وَلَمَّا ادَّعَيْتُ الْحُبَّ قَالَتْ كَذَبَتْنِي

فإلى أرى الأعضاء منك كواسيا ١٤

فما الحبُّ حتى تنزف العين بالبا

وتخرس حتى لا تجيب المناديا^(١)

قوله جل ذكره : « وَيُعْجِبُ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ
لَا يَمَسُّهُمْ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » .

كما وقَّام — اليوم — عن المخالفات ، حمام — غداً — من العقوبات ، فالتقون فازوا
بسعادة الدارين ؛ اليوم عصمة ، وغداً نعمة . اليوم عناية وغداً حاية وكفاية .

قوله جل ذكره : « اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ » .

(١) ورد الشاهد الشعري في الرسالة ص ١٦٠ هكذا : البيت الأول مطابق ، والثاني هكذا ومتبوعاً بثالث :-
فما الحبُّ حتى يلصق القلب بالحشا وتذبل حتى لا تجيب المناديا
وتنحل حتى لا يبق لك الهوى سوى مقلة تهكي بها وتناجيا
وقد أورده صاحب المصحح على هذا النحو (المصحح ص ٢٢١) .

تدخل أ كسابُ العباد في هذه الجملة ، ولا يَدْخُلُ كلامُه فيه ؛ لأن المخاطِبَ لا يدخل تحت الخطاب ولاصفاته^(١) .

قوله جل ذكره : « له مقاليدُ السمواتِ والأرضِ والذين كفروا بآياتِ الله أولئك هم الخاسرون » .

« مقاليد » أى مفاتيح ، والمرادُ منه أنه قادر على جميع المقدورات ، فما يريد أن يُوحِده أُوْحِدَهُ .

قوله جل ذكره : « قل أفغيرَ الله تأمروني أعبدُ أيها الجاهلون » .

أى متى يكون لكم طَمَعٌ في أن أعبدَ غيره . . . وبتوحيدهِ ربَّاني ، وبتفريده غَدَّائي ، وبشِرابِ حُبِّهِ سَقَّاني ؟^(٢) .

قوله جل ذكره : « ولقد أُوحِيَ إِلَيْكَ وإلى الذين من قبلكَ لئنِ أشْرَكتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

لئنِ لاحظتَ غيري ، وأثبتتَ معي في الإبداعِ سِوَايَ أَحْبَطْتَ عَمَلَكَ ، وأبطلتَ سَمْعَكَ ، بل الله — يا محمد — فاعْبُدْ ، وكُنْ من جملة عبادي الشاكرين .

قوله جل ذكره : « وما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ والأرضُ جميعاً قبضتُهُ يومَ القيامةِ والسمواتُ مطوياتٌ بيمينه سبحانه وتعالى عما يُشْرِكُونَ » .

(١) هذه إشارة خطيرة في شأن الموضوعات الكلامية المصلة بالفعل الإنساني ، وبمسألة خلق القرآن (أنظر كتابنا : الإمام القشيري : تصوفه وأدبه ط مؤسسة الحلبي للنشر) .

(٢) هذه هي التربية التي عناها القشيري في موضع سابق حين قال : « ليس الاعتبار بالتربة بل بالتربة » .

ما عرفوه حَقَّ معرفته^(١) ، وما وصفوه حَقَّ وصفه ، وما عظموه حَقَّ تعظيمه ؛ فَمَنْ اتصف بتمثيل ، أو جَنَحَ إلى تعطيل^(٢) - حَادَّ عن السُّنَّةِ المُشَلِّ وانحرف عن الطريقة الحسنى . وصفوا الحقَّ بالأعضاء ، وتَوَهَّمُوا في نَعْتِهِ الأجزاء ، فاقدروه حَقَّ قدره ؛ فَاتَّخَذُوا في قبضة قدرته ، والسموات مطويات يمينه ، ويمينه قُدْرَتُهُ^(٣) . ولأنه أقسم أن يُفْنِيَ السمواتِ ويطويها فهو قادر على ذلك .

« سبحانه وتعالى » تنزيهاً له عما أشركوا في وصفه .

قوله جل ذكره : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَلَإِ هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ » .

في النفخة الأولى تموتون ، ثم في النفخة الثانية تُحْشَرُونَ ، والنفختان متجانستان ؛ ولكنه يخلق عند إحداها إزهاق الأرواح ، وفي الأخرى حياة النفوس ؛ لِيُعْلَمَ أَنَّ النفخة لا تعمل شيئاً لعينها^(٣) ، وإنما الجبارُ بقدرته يخلق ما يشاء .

قوله جل ذكره : « وَأُشْرِقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ

(١) أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل من أهل الكتاب فقال : يا أبا القاسم بلغك أن الله يحمل الخلائق على أصبع والأرضين على أصبع والشجرة على أصبع والثرى على أصبع ! فضحك رسول الله (ص) حتى بدت نواجذه ، فَأَنْزَلَ الله تعالى : « وما قدرُوا الله حقَّ قدره » (الواحدى ص ٢٥٠) .

(٢) التعطيل على ثلاثة أقسام : تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه ، وتعطيل الصانع - سبحانه - عن كاله المقدس بتعطيل أسمائه وصفاته وأفعاله ، وتعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد .. ومن هذا شرك طائفة أهل وحده الوجود الذين يقولون ما ثم خالق ولا مخلوق (الجواب الكافي ص ٩٠ لابن القيم ط التقدم) .

(٣) نحسب أن من دواعي التأويل أن الله سبحانه وتعالى قد يخاطبنا عن ذاته وصفاته بما نخاطب به فيما بيننا حتى نفهم ، والآية تشير إلى ذلك في وضوح فقد عبر عن قدرته مرة بالقبضة ومرة باليمين ، ومعنى هذا أن الله يقدر على قبض الأرض وجميع ما فيها قدرة أحدنا على ما يحمل بأصبعه .

(٤) كلام القشيري عن تجانس الضخمتين واختلاف تأثيريهما ، ثم كلامه بعد قليل عن تجانس السوقيين واختلاف وجهيهما .. مقصود منه - كما نظن - أن القياس الإنساني ليس دائماً على صواب ، مثال ذلك قوله تعالى : « مطويات يمينه » ، ونسبة الوجه واليد والعين .. ونحو ذلك لله سبحانه ليس بالضرورة أن يكون على نحو ما يفهم الإنسان من هذه الماديات ، فالكلمة هي الكلمة .. ولكن شتان بين الدلالة هنا والدلالة هناك .. والله أعلم بمقصود القشيري .. ولكن هكذا فظن .

الكتابُ وجيء بالنبيين والشهداء

وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون .

نور يخلقه في القيامة فتشرق القيامةُ به ، وذلك عند تكوير الشمس وانكدار النجوم ، ويستضىء بذلك النور والإشراق قومٌ دون قوم . الكفارُ يَبْقَوْنَ في الظلمات ، والمؤمنون نورٌهم يسمى بين أيديهم .

ويقال اليومَ إشراق ، وغداً إشراق ، اليومَ إشراقُ القلبِ بحضوره ، وغداً إشراقُ الأرضِ بنور ربها . ويقال غداً أنوار التوَلَّى للمؤمنين ، واليومَ أنوار التجلَّى للعارفين .

قوله جل ذكره : « وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ » .

إن كان خيراً فَخَيْرٌ ، وإن كان غير خيرٍ فغيرُ خير .

قوله جل ذكره : « وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا

حتى إذا جاءوها فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُم

خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ

عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ

يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ

العذابِ على الكافرين » .

الكفار يُسَاقُونَ إلى النار عِيقًا ، والمؤمنون يُسَاقُونَ إلى الجنة لُطْفًا ؛ فَالسُّوقُ يجمع

الجنسين . . ولكن شتان بين سوقٍ وسوقٍ ! .

فإذا جاء الكفارُ قَابِلُهُمْ خَزَنَةُ النار بالتوبيخ والعتاب والتأنيب ؛ فلا تكريم ولا تعظيم ،

ولا سؤال ولا استقبال . . بل خِزْيٌ وهوانٌ ، ومن كل جنسٍ من العذاب ألوان .

قوله جل ذكره : « وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ

زُمَرًا حتى إذا جاءوها وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا

وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ

فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ » .

سَوْتٌ وَلَكِنْ بغير نمٍ ولا نصيبٍ ، سَوْتٌ وَلَكِنْ بَرَوْحٍ وَطَرَبٍ .

« زعراً » جماعاتٍ ، وهؤلاء هم عوامُ أهل الجنة ، وفوق هؤلاء : « يومَ نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً »^(١) وفوقهم مَنْ قال فيهم : « وَأُزْلِفَتُ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ »^(٢) وفرقٌ بين مَنْ يُسَاقُ إلى الجنة ، وبين مَنْ تُقَرَّبُ منه الجنة . . هؤلاء الظالمون ، والآخرون للمتصدون ، والآخرون السابقون^(٣) .

« حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها . . . » وإذا وافوا الجنة تكون الأبوابُ مُفَتَّحَةً لثلاثيهم نصيبُ الانتظار .

ويقال إذا كان حديث الجنة فالواجب أن يبادر إليها ولا يحتاج أن يُسَاقَ ، ولعل هؤلاء لا رغبة لهم في الجنة بكثير ، فلهُم معه في الطريق قولُ « طِبِّتُمْ » ؛ أى أنهم يُسَاقون إلى الجنة بلطف دون عنف .

قوله جل ذكره : « وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرضَ نتبوا من الجنة حيث نشاء فننعم أجر العالمين » .

صدقنا وعده بإدخالنا الجنة ، وإكمال المنّة .

« وأورثنا الأرضَ » أى أرضَ الجنة ؛ تنبوا منها حيث نشاء . وهؤلاء قوم مخصوصون ، والذين هم قومُ « العُرف » أقوام آخرون .

قوله جل ذكره : « وترى الملائكة حافين من حول العرشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ مِنْهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

يُسَبِّحُونَ بحمد ربهم في عموم الأوقات . . هذا هو عملُ الملائكة الذين من حول العرش ، وقُضِيَ بين أهل الجنة وأهل النار بالحق ، هؤلاء دركات ولأولئك درجات . . إلى غير ذلك من فنون الحالات . وقُضِيَ بين الملائكة أيضاً في مقاماتهم على ما أراده الحق في عباداتهم .

(٢) آية ٣١ سورة ق .

(١) آية ٨٥ سورة مريم .

(٣) إشارة إلى الآية : « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ » (آية ٢٢ سورة فاطر) .

(١) سورة المؤمن

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة من تحقق بها شرف من الحق مناله ، وصفت عنده أحواله ، وخلع على نفسه رداء الأفضال ، وألبس قلبه جلال الإقبال ، وأفرد روحه بروح لطف الجلال ، واستخلص سره بكشف وصف الجلال .

قوله جل ذكره : « حم »

أى حم أتم كائن (٢) .

ويقال « الحاء » إشارة إلى حطيه ، « واليم » إشارة إلى مجده أى : بجلى ومجدى لا أخلد في النار من آمن بي .
ويقال هذه الحروف (مفاتيح أسمائه) (٣) .

« تنزيل الكتاب من الله العزيز
العليم » .

(١) تسمى سورة غافر ، وسورة الطول ، وسورة المؤمن لقوله تعالى فيها : « وقال رجل مؤمن » (السيوطي : الإتيان - ١ من ٥٤) .

(٢) أى قضي ووقع ، قال كعب بن مالك :

فلياً ثلاثينهم ودارت بنا الرحى وليس لأمر حب الله مدفع
أو تكون بمعنى قرّب كما قال الشاعر

قد حم يوى تسر قوم قوم بهم غفلة ونوم

(٣) ما بين القوسين سقط من ص ، وهي موجودة في م .

من أفس أن أعرابياً سأل النبي (ص) ما حم ؟ فإنا لانعرفها في لساننا ، فقال النبي (ص) : « بدء أسماء وفواتح سورة » .

« العزيز » : المُرُّ لأوليائه ، « العليم » بما كان ويكون منهم ، فلا يمنعه علمه بما سلف منهم عن قضائه .

قوله جل ذكره : « غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير » .

كتابٌ مُعْنُونٌ بقبول توبته لِعِبَادِهِ ؛ عَلِمَ أَنَّ الْعَاصِيَ مُنْكَسِرُ الْقَلْبِ فَأَزَالَ عَنْهُ الْإِنْكَسَارَ بِأَنْ قَدَّمَ نَصِيْبَهُ ، قَدَّمَ اسْمَهُ عَلَى قَبُولِ التَّوْبَةِ . فَكَفَّنَ نَفْسَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ بِاسْمَيْنِ يُوجِبَانِ الرَّجَاءَ ؛ وَهَذَا قَوْلُهُ : « غافر الذنب وقابل التوب » .

ثم عقبهما بقوله : « شديد العقاب » ثم لم يرضَ حتى قال بعدئذ « ذي الطول » .
فَيُقَابِلُ قَوْلَهُ : « شديد العقاب » قَوْلُهُ : « ذي الطول » .

(ويقال : غافرُ الذنبِ لِمَنْ أَصَرَ وَاجْتَرَمَ ، وَقَابِلُ التَّوْبِ لِمَنْ أَقَرَّ وَتَنَدَّمَ ، شَدِيدُ الْعِقَابِ لِمَنْ جَحَدَ وَعَنَدَ ، ذِي الطَّوْلِ لِمَنْ عَرَفَ وَوَحَدَ)^(١) .

ويقال غافر الذنب للظالمين ، وقابل التوب للمتصددين ، شديد العقاب للمشرِكين ، ذي الطول للسابقين .

ويقال : سُنَّةُ اللَّهِ أَنَّهُ إِذَا خَوَّفَ الْعِبَادَ بِاسْمِهِ أَوْ لَفْظٍ تَدَارَكَ قُلُوبَهُمْ بِأَنْ يُبَشِّرَهُمْ بِاسْمَيْنِ أَوْ بِوَصْفَيْنِ^(٢) .

« إليه المصير » : وَإِذَا كَانَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ قَدْ طَابَ إِلَيْهِ الْمَسِيرُ .

قوله جل ذكره : « مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَنْفِرُوكَ قُلُوبُهُمْ فِي الْبِلَادِ » .

(١) ما بين القوسين بأجمعه ساقط من ص و موجود في م .

(٢) وهذه آية كرمه سبحانه .

إذا ظهر البرهانُ واتَّضحَ البيانُ استسلمتْ الألبابُ الصاحبةُ للاستجابة والإيمان .

فأما أهلُ الكفرِ فلمْ عَلَى الجودِ إصرارٌ ، وشَوْمٌ شَرٌّ كَيْفَ يَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
الإنصافِ وكذلك مَنْ لَا يَحْتَرِمُونَ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ ، وَيُصِرُّونَ عَلَى إنكارِهِمْ ،
ويعترضونَ عَلَيْهِمْ بقلوبِهِمْ ، ويجادلونَ فِي جَعْدِ الكراماتِ ، وَمَا يَخْصُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ
مِنَ الْآيَاتِ فهؤلاءِ لَا يُمِيزُونَ بَيْنَ رَجَائِهِمْ وَنَقْصَانِهِمْ ، وَسَيَفْتَضِحُونَ كَثِيرًا .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ

وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَهَمَّتْ كُلُّ

أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ

لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ

كَانَ عِقَابُ .

كذلك مَنْ اقْرَضَ مِنَ الْكُفَّارِ كَانَ تَكْذِيبُ الرُّسُلِ دَأْبَهُمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ

— سبحانه — اتَّعَمَّ مِنْهُمْ ، وَعَلَى كُفْرِهِمْ اخْتَرَمَهُمْ .

وَالْمُنْكَرُ لِهَذَا الطَّرِيقِ^(١) يَدِينُ بِإِنْكَارِهِ ، وَيَتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ بِهِ ، وَيَعِدُ وَقِيعَتَهُ فِي

أَوْلِيَاءِ اللَّهِ مِنْ جَمَلَةِ إِحْسَانِهِ وَخَيْرَاتِهِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ — سبحانه — يَعَذِّبُهُمْ فِي الْعَاجِلِ

بِتَخْلِيَتِهِمْ فَيَأْخُذُهُمْ فِيهِ ، وَصَدَّ قُلُوبَهُمْ عَنْ هَذِهِ الْمَعَانِي ، وَحَرَمَانِهِمْ مِنْهَا .

قوله جل ذكره : « وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى

الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ » .

إذا انْخَسَمَ عَلَى عَبْدٍ حُكْمُ اللَّهِ بِشِقَاوَتِهِ فَلَا تَنْفَعُهُ كَثْرَةُ مَا يُوْرَدُ عَلَيْهِ مِنَ النَّصِيحِ . .

وَاللَّهُ عَلَى أَمْرِهِ غَالِبٌ . وَمَنْ أَمَرَتْهُ يَدُ الشَّقَاوَةِ فَلَا يُخَلِّصُهُ مِنْ مَخَالِهَا جُهْدٌ

وَلَا سَعَايَةٌ .

قوله جل ذكره : « الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ

(١) يقصد الطريق الصوفي .

حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ
بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا
وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةٌ وَعِلْمًا فَاعْفِرْ
لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ
عَذَابَ الْجَحِيمِ .

حَمَلَةُ الْعَرْشِ مَنْ حَوْلَ الْعَرْشِ مِنْ خَوَاصِّ الْمَلَائِكَةِ (١) ، مَأْمُورُونَ بِالتَّسْبِيحِ
لِلَّهِ ، ثُمَّ بِالِاسْتِغْفَارِ لِلْعَاصِينَ — لِأَنَّ الْاسْتِغْفَارَ لِلذَّنْبِ وَالتَّوْبَةَ إِنَّمَا تَحْصِلُ مِنَ الذَّنْبِ —
وَيَجْتَهِدُونَ فِي الدُّعَاءِ لَهُمْ عَلَى نَحْوِ مَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا بَعْدَهَا ؛ فَيَدْعُونَ لَهُمْ بِالنَّجَاةِ ،
ثُمَّ يَرْفَعُ الدَّرَجَاتِ ، وَيَحْمِلُونَ الْأَمْرَ فِي كُلِّ ذَلِكَ عَلَى رَحْمَةِ اللَّهِ .

قوله جل ذكره : « رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ
الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ
آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ
أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ
السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ
قَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

« وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ قَدْ رَحِمْتَهُ » : فَتَنْ سَلَطَ عَلَيْكَ أَرَادِلَ مَنْ خَلَقَهُ
— وَهُمْ الشَّيَاطِينُ — فَلَقَدْ قَيَّضَ بِالشَّفَاعَةِ أَفْضَلَ مِنْ خَلْقِهِ وَمِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَادُونَ لَمَقَاتُ
اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقَاتِكُمْ أَنْفُسُكُمْ
إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ » .

أَشَدُّ الْعُقُوبَاتِ الَّتِي يُوصِلُهَا الْحَقُّ إِلَيْهِمْ آثَارُ سُخْطِهِ وَغَضَبِهِ ، وَأَجَلُ النَّعْمِ

(١) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) : « أَدْنَى لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ
مَنْ حَمَلَةَ الْعَرْشِ مَا بَيْنَ شُعْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةَ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ » ذَكَرَهُ الْبَيْهَقِيُّ ، وَقَالَ : هُوَ أَكْثَرُ الْخَلْقِ قُرْبًا .

التي يغروهم بها آثارُ رضاء عنهم . فإذا عَرَفَ الكافرُ في الآخرة أن ربه عليه غضبانُ فلا شيء أصعبُ على قلبه من ذلك ؛ لأنه عَليمٌ أنه لا بُكاءَ ينفعه ، ولا عناءَ يزيل عنه ما هو فيه ويدفعه ، ولا يُسمعُ له تضرُّعٌ ، ولا تُرجى له حيلة .

قوله جل ذكره : « قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ » .

الإماتة الأولى إمامتهم في الدنيا ثم في القبر يحْيِيهم ، ثم يميتهم فهي الإماتة الثانية . والإحياء الأول في القبر والثاني عند النشر^(١) .

« فاعترفنا بذنوبنا » : أقروا بذنوبهم — ولكن في وقتٍ لا ينفعهم الإقرار .
« فهل إلى خروجٍ من سبيل » مما نحن فيه من العقوبة ، وإنما يقولون ذلك حين لا ينفعهم الندمُ والإقرار . فيقال لهم : —

« ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ » .

أى تُصَدِّقُوا المشركين ليُكْفَرُوا . [وهوؤلاء إمامتهم محصورة ، فأما أهلُ الحجةِ فلمهم في كلِّ وقتٍ حياةٌ وموتٌ ، قال قائلهم :

أَمُوتَ إِذَا قَدَّزْتُكَ ثُمَّ أَحْيَا فَمَكُ أَحْيَا عَلَيْكَ وَكَمْ أَمُوتُ !
فإنَّ الحقَّ — سبحانه — يُرَدِّدُ أبدأ الخواصَّ من عباده بين الفناء والبقاء ،

(١) هذا الرأي يذهب إليه السُّنِّي أيضاً ، وإنما إحيائهم في القبر للمسألة ، ومن هذا استدل العلماء على سزال القبر .

واستدل من الآية كذلك على إحياء الأجساد ، لأن الروح — عند من يقصر أحكام الآخرة على الأرواح — لا تموت ولا تتغير ولا تفسد ، فلو كان الثواب والعقاب للروح — دون الجسد — فما معنى الإحياء والإماتة ؟
ويذهب ابن عباس وابن مسعود وقاعدة والضحاك إلى أنهم كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم ، ثم أحياءهم . ثم أماتهم الموتة التي لا بد منها في الدنيا ، ثم أحياءهم للبعث والقيامة ، فهاتان حياتان وموتتان .

والحياة واللوت ، والحو والإثبات]^(١) .

قوله جل ذكره : « هو الذى يُرِيكم آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ
مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ
يُنِيبُ » .

يُرِيهم آيَاتِ فَضْلِهِ فيما يُبْلِطُهُمْ ، ويرِيهم آيَاتِ قَهْرِهِ فيما يَكْشِفُهُمْ ، ويرِيهم آيَاتِ عَفْوِهِ
إِذَا تَنَصَّلُوا^(٢) ، وآيَاتِ جُودِهِ إِذَا تَوَسَّلُوا ، وآيَاتِ جَلَالِهِ إِذَا هَابُوا فَنَابُوا ، وآيَاتِ جَمَالِهِ إِذَا
آبَوْا وَاسْتَجَابُوا . « وينزل لكم من السماء رزقاً » لأبدانكم وهو توفيق المجاهدات ، وقلوبكم
وهو تحقيق المشاهدات ، (ولأسراركم وهو فنون المواصلات والزيادات)^(٣) .

« وما يتذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ » : يرجع من العادة إلى العبادات ، ومن الشك إلى اليقين ،
ومن الخلق إلى الحق ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن النكرة إلى العرفان .

قوله جل ذكره : « فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ
ولو كره الكافرون » .

شَرَطُ الدِّعَاءِ تَقْدِيمُ الْمُرَّةِ لِمَنْزِلَةِ مَنْ الدِّعَاءِ ، ثم تدعو بما تحتاج إليه مما لا بد لك
منه ، ثم تنظر هل أعطاك ما تطلب وأنت لا تدري ؟ والواجب ألا تطلب شيئاً تكون فيه
مخالفة لأمره ، وأن تقاعد عن سؤالك الأشياء الدنيئة والدنيوية ، وأن ترضى بما يختاره لك
مولاك . ومن الإخلاص في الدعاء ألا ترى الإجابة إلا منه ، وألا ترى لنفسك استحقاقاً
إلا بفضل ، وأنت تعلم أنه إن بقيت في سؤالك عن حظورك — الذى هو حظك — لا تبق
عن عبادة ربك — التى هى حق — فإن الدعاء مع العبادة ، ومن الإخلاص في الدعاء أن

(١) فالموت بالقبض والفناء والحو ، والحياة بالبسط والبقاء والإثبات . ونحسب أن الكلام الموجود بين القوسين
الكبيرين يتصل بالآية السابقة نظراً لتلازم تقلب الأحوال مع الإمامة والإحياء وكنا نريد أن نضعه في مكانه حسبما
رأينا لولا أنه موضوع هنا في م و ص . ويبدو أن القشيري اعتبر الآيتين كياناً عضوياً واحداً ، فجاءت الإشارة
منهما جميعاً .

(٢) أى تنصلوا من ذنوبهم .

(٣) ما بين القوسين موجود في م وساقط في ص .

تكون في حال الاضطرار لما لا يكون ابتداءً جُرمًا لك ، وتكون ضرورتك لسراية جنائتك .

قوله جل ذكره : « رفيع الدرجات ذو العرش يُلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق » .

رافع الدرجات للعصاة بالنجاة^(١) ، والمطيعين بالمثوبات ، وللأصفياء والأولياء بالكرامات ، ولنوى الحاجات بالكفايات ، وللعارفين بتنقيهم عن جميع أنواع الإرادات .

ويقال درجاتُ المطيعين بظواهرهم في الجنة ، ودرجاتُ العارفين بقلوبهم في الدنيا ؛ فيرفع درجاتهم عن النظر إلى الكونين دون المساكنة إلهما . وأما المحبون فيرفع درجاتهم عن أن يطلبوا في الدنيا والعقب شيئاً غير رضا محبوبهم^(٢) .

« ذو العرش » : ذو الملك الرفيع . ويقال العرش الذي هو قبلة الدعاء ، خلقه أرفع المخلوقات وأعظمها جنة^(٣) .

« يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده » روحٌ بها ضياء أبدانهم — وهو سلطان عقولهم ، وروحٌ بهاء ضياء قلوبهم — وهو شفاء علومهم ، وروحٌ بها ضياء أرواحهم

(١) واضح أن القشيري لا يكاد يترك فرصة دون أن يفتح أبواب الأمل أمام العصاة حتى لا يقتطعوا من رحمة الله .. وهذا نابع من سماحة الصوفية الأصيلة :

(٢) هنا نلاحظ أن القشيري جعل الحب أعلى درجة من العارف — مع أن العرفان الذي غايته التوحيد — هو أعلى مراتب الطريق الصوفي . ولكن نظراً لأن الحب والفناء والمعرفة كلها من الحب وإلى الحب فكثيراً ما نجد كتاب الصوف كالقشيري والغزالي وغيرهما لا يتقيدون تقيداً حرفياً بهذا الترتيب الذي يفيد في الدراسة فقط ، وقد تناولنا هذه النقطة بالتفصيل في كتابنا «نشأة التصوف الإسلامي ط دار المعارف» في مقابلة باب «المذاقات» .

(٣) نلاحظ أن القشيري هنا يصف (العرش) مرة بأنه الملك أو قبلة الدعاء ثم يعود فيقول (.... وأعظمها جنة) بمعنى أن مجرد العرش مرة من المادية ثم يعود ليخلع عليه النسبة المادية ، فإذا كان ذلك بقصد مخاطبة الناس على قدر فهمهم — كما قلنا من قبل فهذا جائز .. ولكن الواقع أن القشيري يعبر عن شيء من الاضطراب الذي أصاب الأشاعرة إزاء التشابهات ، وهو أمر تحدثنا عنه بالتفصيل في كتابنا (للإمام القشيري — تصوفه وأدبه) ... ولعل خير ما انتهى إليه الرازي قوله «حاصل مذهب السلف أن هذه التشابهات يجب القطع فيها بأن مراد الله منها شيء غير ظواهرها ، ثم يجب تفويض معناها إلى الله ، ولا يجوز الخوض في تفسيرها» (أساس التبتيس للرازي ط الكردى ص ٢٢٣) :

— والذي هو الروح رَوْحٌ — بماؤم بالله .

ويقال : روحٌ هو روح إلهام ، وروح هو روح إعلام ، وروح هو روح إكرام .

ويقال : روح النبوة ، وروح الرسالة ، وروح الولاية ، وروح المعرفة .

ويقال : روح بها بقاء الخلق ، وروح بها ضياء الحق .

قوله جل ذكره : « يوم تُم بارزون لا يخفى على الله

منهم شيء » .

يعلم الحاصل الموجود ، ويعلم المعلوم المفقود ، والذي كان والذي يكون ، والذي لا يكون

مما عليم أنه لا يجوز أن يكون ، والذي جاز أن يكون أن لو كان كيف كان يكون .

« لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ فَهُوَ الْوَاحِدُ

الْقَهَّارُ » .

لا يتقيد ملكه بيوم ، ولا يختص ملكه بوقت ، ولكن دعاوى الخلق — اليوم —

لا أصل لها ؛ إذ غداً تنقطع تلك الدعاوى وترفع تلك الأوهام .

قوله جل ذكره : « الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ

لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ »

يمجازيهم على أعمالهم بالجنان ، وعلى أحوالهم بالرضوان ، وعلى أنفاسهم بالقربة ، وعلى

محبتهم بالرؤية .

ويمجازي المذنبين على توبتهم بالغفران ، وعلى بكائهم بالضياء والشفاء .

« لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ » : أى أنه يستحيل تقدير الظلم منه ، وكل ما يفعل فله أن يفعله . « وهو

سريع الحساب » مع عباده ؛ لا يشغله شأن عن شأن ، وسريع الحساب مع أوليائه في الحال ؛

يطلبهم بالصغير والكبير ، والنقيير والقطمير .

قوله جل ذكره : « وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى

الحنَّاجِرِ كَاطْمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ
وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ .

قيامه الكلُّ مَوْجَلَّةً ، وقيامه المحبين مَعْجَلَّةً ؛ فَلَهُمْ فِي كُلِّ نَفْسٍ قِيَامَةٌ مِنَ الْعِقَابِ
وَالْعَذَابِ وَالثَّوَابِ ، وَالبُعَادِ وَالاقْتِرَابِ ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي حِسَابٍ ^(١) ، وَتَشْهَدُ عَلَيْهِمُ الْأَعْضَاءُ ؛
فَالِدَمْعُ يَشْهَدُ ، وَخَفَقَانُ الْقَلْبِ يَنْطِقُ ، وَالنَّحْوَلُ يُخْبِرُ ، وَاللَّوْنُ يَفْصِحُ . . . وَالْعَبْدُ يَسْتُرُ
وَلَكِنَّ الْبَلَاءَ يَظْهَرُ :

يَا مَنْ تَغَيَّرَ صُورَتِي لَمَّا بَدَأَ لِجَمِيعٍ مَا ظَنُّوا بِنَا تَصْدِيقًا ^(٢)

وَأَنْشَدُوا :

لِي فِي مَحَبَّتِهِ شُهُودٌ أَرْبَعٌ وَشُهُودٌ كُلُّ قَضِيَّةٍ اثْنَانِ
ذُوبَانُ جَسْمِي وَارْتِعَادُ مَفَاصِلِي وَخَفَوقُ قَلْبِي وَاعْتِقَالُ لِسَانِي
وَقُلُوبُهُمْ — إِذَا أَزِفَ الرَّحِيلُ بَلَغَتْ الْحَنَاجِرُ ، وَعَيُونُهُمْ شَرِقَتْ بِدَمْعِهَا إِذَا نَوَدَى
بِالرَّحِيلِ وَشُدَّتِ الرُّوَاهِلُ .

قوله جل ذكره : « يَسْلُمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي
الْصُّدُورُ » .

لَخَائِنَةُ أَعْيُنِ الْمُحِبِّينَ اسْتِحْسَانَهُمْ شَيْئًا ، وَلِهَذَا قَالُوا :

يَا قُرَّةَ الْعَيْنِ : سَلْ عَيْنِي هَلْ اكْتَحَلْتُ

بِمَنْظَرٍ حَسَنٍ مُذْ غِثْتُ عَنْ بَصَرِي ؟

وَلِذَلِكَ قَالُوا :

فَعَيْنِي إِذَا اسْتَحْصَنْتَ غَيْرَكُمْ أَمَرْتُ الشَّهَادَةَ بِتَعْذِيرِهَا

(١) أى وما لم يخطر لهم ببال ،

(٢) معنى الشاهد الشمرى فيما نطق : يا أيها الذى تتغير صورتي عند تجليه على ، فيكشف أمرى رغم محاولتى
سرهالى ، وبهذا تصديق ظنون الماذلين واللاميين .

ومن خائنة أعينهم أن تأخذم السنة والشبهات في أوقات المناجاة ؛ وقد جاء في قصة داود عليه السلام : كَذَبَ مَنْ ادَّعَى محبتي ، فإذا جَنَّهُ الليلُ نام عني !

ومن خائنة أعين العارفين أن يكون لهم خَبَرٌ بقلوبهم مما تقع عليه عيونهم .

ومن خائنة أعين الموحدين أن تخرج منها قطرةٌ دمعٍ تأسفًا على مخلوقٍ يفوت في الدنيا والآخرة ، ولا على أنفسهم .

ومن خائنة أعين المحبين النظرُ إلى غير المحبوب بأي وجهٍ كان ، ففي الخبر : « حُبُّكَ الشيءَ يعنى ويضم » .

« وما تخفى الصدور » : فالحقُّ به خير^(١) .

قوله جل ذكره : « واللهُ يقضى بالحقِّ والذين يدعونون

من دونه لا يقضون بشيءٍ » إنَّ اللهَ

هو السميعُ البصيرُ .

يقضى للأجانب بالبعد ، ولأهل الوصال بالوداد ، ويقضى يومَ القدوم بمنزلةِ عمال الصدود ، وإذا ذُبِحَ الموتُ غداً بين الجنة والنار على صورة كبشٍ أملح فلا غرابة أن يذُبَحَ الفراقُ على رأسِ سِكَّةٍ^(٢) الأحياء في صورة شخصٍ منكر ويصلب على جذوع العِبرة لينظرَ إليه أهلُ الحضرة .

قوله جل ذكره : « أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف

كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم

كانوا هم أشدَّ منهم قوةً وآثاراً

(١) كان عبد الله بن أبي سرح يكتب الوحي لرسول الله (ص) ثم ارتد ولحق بالمشركين يأمر رسول الله (ص) بقتله يوم فتح مكة .

ويروى أنه لما جئ به إلى الرسول (ص) بعدما اطمأن أهل مكة ، وطلب عثمان رضي الله عنه له الأمان صمت . الرسول طويلاً ثم قال : « نعم » ، فلما انصرف قال الرسول (ص) لمن حوله : « ما صمت إلا ليقوم إليهم بعضكم فيضرب عنقه » فقال رجل من الأنصار : فهلا أومأت إلى يا رسول الله ؟ فقال : إن النبي لا تكون له خائنة أعين . . . (٢) السكة = الطريق المستوى .

في الأرض فآخذهم الله بذنوبهم
وما كان لهم من الله من واق .

أو لم يسيروا في أقطار الأرض بنفوسهم ، ويطوفوا مشارقها ومغاربها ليعتبروا بها فيزهدوا
فيها ؟ أو لم يسيروا بقلوبهم في الملكوت يحولان الفكر ليشهدوا أنوار التجلي فيستبصروا بها ؟
أو لم يسيروا بأسرارهم في ساحات الصمدية ليستهلكوا في سلطان الحقائق ، وليتخلصوا من جميع
الخلوقات قاصيها ودانيها ؟ .

قوله جل ذكره : « ذلك بأنهم كانت تأتيهم رُسُلهم
بالبينات فكفروا فآخذهم الله إنه قوي
شديد العقاب » .

إن بني من أهل السلوك قاصدٌ لم يصل إلى مقصوده فليعلم أن موجب حجة اعتراض
خامر قلبه على بعض شيوخه في بعض أوقاته ؛ فإن الشيوخ يحمل السفراء للمريدين . وفي الخبر :
« الشيخ في قومه كالنبي في أمته » ^(١) .

قوله جل ذكره : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطانٍ
مبين * إلى فرعون وهامان وقارون
فقالوا ساحرٌ كذابٌ » .

أكرم خلقه في وقته كان موسى عليه السلام ، وأحسن خلقه وأذلهم في حكمه وأشدهم
كفراً كان فرعون ؛ فما قال أحدٌ غيره : « ما علمت لكم من إله غيري » ^(٢) .
فبعث الله - - أخصَّ عبادَه إلى أخصَّ عبادَه ، فقابلَه بالكذب ، ونسبَه إلى السحر ،

(١) يقول السهروردي في عوارفه : « وأخلاق المشايخ مهذبة بحسن الاقتداء برسول الله (ص) وهم أحق الناس
بإحياء سنته في كل ما أمر وتنب وأنكر وأوجب (ص ٢٩٣) عوارف المعارف ، وفي موضع آخر يقول : « فليعلم
المريد أن الشيخ عنده تذكُّر من الله ورسوله وأن الذي يعتمدُه مع الشيخ عوض ما لو كان في زمن رسول الله
عليه الصلاة والسلام . ص ٢٨٥ .
(٢) آية ٢٨ سورة القصص .

وَأَنبَهُ بِكُلِّ أَنْوَاعِ التَّائِبِ . ثُمَّ لَمْ يُعَجِّلِ اللَّهُ عِقَابَهُ ، وَأَمَهَلَهُ إِلَى أَنْ أَوْصَلَ إِلَيْهِ شِقْوَتَهُ —
لأنه سبحانه حلِيمٌ بعباده .

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا
اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا
نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ » .

عَزَمَ عَلَى إِهْلَاكِهِ قَوْمَهُ ، وَاسْتَعَانَ عَلَى ذَلِكَ يَمْنَهُ وَخَيْلَهُ وَرَجُلَهُ ، وَلَكِنْ كَانَ
كَمَا قَالَ اللَّهُ : « وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ » ، لِأَنَّهُ إِذَا حَفَرَ أَحَدٌ لَوَلِيٍّ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ
تَعَالَى حُفْرَةً مَا وَقَعَ فِيهَا غَيْرُ حَافِرِهَا ... بِذَلِكَ أَجْرَى الْحَقُّ سُنَّتَهُ .

قوله جل ذكره : « وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى
وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ
دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ » .

« وَلْيَدْعُ رَبَّهُ » أَيْ لِيَسْتَعِزَّ بِرَبِّهِ ، وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَبْدِلَ دِينَكُمْ ، وَأَخَافُ أَنْ يُفْسِدَ
فِي الْأَرْضِ ، وَكَانَ الْمَفْسِدُ هُوَ فِرْعَوْنُ ، وَهُوَ كَمَا قِيلَ فِي الْمَثَلِ : « رَمَتْنِي بِدَائِهَا وَأَنْسَلْتُ » .
وَلَكِنْ كَادَ لَهُ الْكَيدُ ، وَالْكَائِدُ لَا يَتَخَلَّصُ مِنْ كَيْدِهِ .

فَاسْتَعَاذَ مُوسَى بِرَبِّهِ ، وَانْتَدَبَ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ مُؤْمِنٌ بِاللَّهِ وَبِمُوسَى كَانَ يَكْتُمُ إِيْمَانَهُ عَنْ
فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ : —

« وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ
يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ
اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ
وَأِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ
يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ
إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ
كَذَّابٌ » .. الْآيَاتُ

نَصَحَهُمْ وَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَنْجَعْ فِيهِمْ نَصْحٌ وَلَا قَوْلٌ . وَكَمْ كَرَّرَ ذَلِكَ الْمُؤْمِنُ مِنْ
آلِ فِرْعَوْنَ الْقَوْلَ وَأَعَادَ لَهُمُ النَّصْحَ ! فَلَمْ يَسْتَمْعُوا لَهُ ، وَكَانَ كَمَا قِيلَ :

وَكَمْ سَقَّتْ فِي آثَارِكُمْ مِنْ نَصِيحَةٍ وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الْبَغْضَةُ مِنَ النَّصْحِ
قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ
فَازِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا
هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ
رَسُولًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ
مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ » .

يَبَيِّنُ أَنَّ تَكْذِيبَهُمْ كَتَكْذِيبِ آبَائِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ مِنْ قَبْلُ ، وَكَأَنَّ أَهْلَكَ أَوْلَئِكَ قَدِيمًا كَذَلِكَ
يَفْعَلُ بِهِؤْلَاءِ .

قوله جل ذكره : « وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرْحًا
لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ
فَأُطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ
كَاذِبًا » .

السَّبَبُ مَا يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى الشَّيْءِ ؛ أَيُ لَعَلِّي أَصِلُ إِلَى السَّمَاءِ فَأُطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى . وَلَوْ لَمْ
يَكُنْ مِنَ الْمَضَاهَاةِ بَيْنَ مَنْ قَالَ إِنَّ الْمَعْبُودَ فِي السَّمَاءِ وَبَيْنَ الْكَافِرِ إِلا هَذَا لَكُنِيَ بِهِ خِزْيًا لِمَذْهَبِهِمْ (١) .
وَقَدْ غَلِطَ فِرْعَوْنُ حِينَ تَوَهَّمَ أَنَّ الْمَعْبُودَ فِي السَّمَاءِ ، وَلَوْ كَانَ فِي السَّمَاءِ لَكَانَ فِرْعَوْنُ مُصِيبًا
فِي طَلَبِهِ مِنَ السَّمَاءِ .

قوله جل ذكره : « وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ
وَصُدَّ عَنْ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ
إِلَّا فِي تَبَابٍ » .

أَخْبَرَ أَنَّ اعْتِقَادَهُ أَنَّ الْمَعْبُودَ فِي السَّمَاءِ خَطَأٌ ، وَأَنَّهُ بِذَلِكَ مُصْدُودٌ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .
قوله جل ذكره : « وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ

(١) هُنَا يَفْهَمُ الْقَشِيرِيُّ بِالشَّبْهَةِ غَمَزَةً قَاسِيَةً (انْظُرْ ص ٣٤٥ مِنْ هَذَا الْمَجْلَدِ) .

أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرِّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ
دَارُ الْقَرَارِ .

أَصْرَ عَلَى دَعَائِهِ لَهُمْ وَأَصْرُوا عَلَى جَعْدِهِمْ وَعُنُودِهِمْ .

« مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا
وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ
يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

« فلا يجزى إلا مثلها » : في القدار لا في الصفة ؛ لأن الأولى سيئة ، والمكافأة من الله
عليها حسنة وليست بسيئة .

« وهو مؤمن » يعني في الحال^(١) ، لأنَّ مَنْ لَا يَكُونُ مُؤْمِنًا فِي الْحَالِ لَا يَكُونُ مِنْهُ الْعَمَلُ
الصَّالِحُ ، « فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب » : أي رزقًا مؤبدًا مُخَلَّدًا ،
لا يخرجون من الجنة ولا يمّأهم عليه من المآل .

« وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النِّجَاةِ
وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ » .

وهذا كُلهُ مِنْ قَوْلِ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ ، يَقُولُهُ عَلَى جَهَةِ الْاِحْتِجَاجِ لِقَوْمِهِ ، وَيُلْزِمُهُمُ
الْحُجَّةَ بِهِ .

« تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ
مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعِزِّ
الْفَنَاءِ » .

تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ لِي بِصِحَّةِ قَوْلِكُمْ ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى
مَا أَوْضَحَهُ بِالْبُرْهَانِ ، وَأَقِيمْ عَلَيْهِ الْبَيَانَ .

(١) في الحال هنا معناها في هذه الحياة الدنيا .

« لَا جَرَمَ أَنْتُمْ تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ
دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدُّنَا
إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ »
لَا جَرَمَ أَنْ مَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ بَاطِلٌ ؛ فَلَيْسَ لَتِلْكَ الْأَصْنَامِ حَيَاةٌ وَلَا عِلْمٌ وَلَا قُدْرَةٌ ، وَهِيَ
لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ . وَلَقَدْ عَلِمْنَا — بِقَوْلِ الَّذِينَ ظَهَرَ صِدْقُهُمْ بِالْمُعْجَزَاتِ — كَذِبَكُمْ فِيهَا
تَقُولُونَ .

« فَسَتَذَكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوِضُ
أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ » .

أفوض أمري إلى الله ، وأتوكل عليه ، ولا أخاف منكم ، ولا من كيدكم .

قوله جل ذكره : « فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا »

وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ *
النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ،
وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ
أَشَدَّ الْعَذَابِ » .

والآية تدلُّ على عذاب القبر^(١) .

ويقال إِنَّ أَرْوَاحَ الْكَافِرِ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ سُودٍ تُعْرَضُ عَلَى النَّارِ غُدُوًّا وَعَشِيًّا إِلَى يَوْمِ
الْقِيَامَةِ . نَيْتٌ تَدْخُلُ النَّارَ^(٢) .

« أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » : أَيُّ يَا آلَ فِرْعَوْنَ أَدْخِلُوا أَشَدَّ الْعَذَابِ ، فَنَصَبَهُ
عَلَى النَّدَاءِ الْمُضَافِ . وَيَقْرَأُ « أَدْخِلُوا » عَلَى الْأَمْرِ^(٣) .

(١) بدليل قوله تعالى فيما بعد عن عذاب الآخرة : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » ومن
استنتج هذه النتيجة مجاهد وعكرمة ومقاتل ومحمد بن كعب .

(٢) أي هذا دأبها في الدنيا تذهب في الغداة أفواجاً أفواجاً بيضا صفاراً ثم تعود في العشاء سوداً قد احترقت
رياشها (الأوزاعي - والنس عند القرطبي ج ١٥ ص ٣١٩)

(٣) فيكون الأمر عندئذٍ للملائكة العذاب .

« أشد العذاب » : أى أصعبه ، وأصعبُ عذابٍ للكفار في النار يَأْمُهُم من الخروج عنها .
أَمَّا العصاةُ من المؤمنين فأشدُّ عذابهم في النار إذا علموا أن هذا يومُ لقاء المؤمنين ، فإذا عرفوا
ذلك فذلك اليومُ أشدُّ أيام عذابهم .

قوله جل ذكره : « وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ
لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا
فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ *
قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ
اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ » .

يقول الضعفاء للذين استكبروا : أنتم أضللتُمونا ، ويقول لهم المستكبرون : أنتم وافقتمونا
باختياركم^(١) ؛ فحاجةُ بعضهم لبعضٍ تزيد في غيظ قلوبهم ، فكما يُعَذِّبُونَ بنفوسهم يعذبون
بضييقِ صدورهم ويُبْغِضُ بعضهم لبعض .

قوله جل ذكره : « وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزَانَةِ جَهَنَّمَ
ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ
الْعَذَابِ * قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ
رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى ، قَالُوا :
فادْعُوا ، وما دُعاه الكافرين إلا
في ضلال » .

وهذه أيضاً من أمارات الأجنبية ، فهم يُدْخِلُونَ واسطةً بينهم وبين ربهم^(٢) . ثم إن الله
ينزع الرحمةَ عن قلوب الملائكة كي لا يستشفعوا لهم .

(١) لاحظ هنا كيف يحرص القشيري على إبراز عنصر الاختيار لدى الإنسان ، مع معرفتنا السابقة بأنه
ينادي بأن الله خالق كل شيء حتى أكساب العباد ، وقد حاول أن يوفق بين الاتجاهين فقال : يجري هذا من البد
فعلا ومن الله حكماً .

(٢) من ذلك نفهم أن القشيري لا يرى بالواسطة عند الدعاء ، بل ينبغي أن تدعو الله مباشرة .

قوله جل ذكره : « إِنَّا كَنُصِرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ » .

تنصرهم بالآياتِ وفنونِ التعريفات حتى يعرفوا ويشهدوا أن الظفرَ وضدَّه من الله، والخيرَ والشرَّ من الله .

ويقال تنصرهم على أعدائهم بكيدٍ خفيٍّ ولطفٍ غير مرئيٍّ ، من حيث يحتسبون ومن حيث لا يحتسبون ؛ تنصرهم في الدنيا بالمعرفة^(١) وباليقين بأنَّ الكائنات من الله ، وتنصرهم في الآخرة بأنَّ يشهدوا ذلك ، ويعرفوا — بالاضطرار^(٢) — أنَّ التأثيرَ من الله ، وغاية النصرَةِ أن يَمُتَلَ الناصرُ عدوَّ مَنْ ينصره ، فإذا أراد حَتَفَهُ^(٣) تَحَقَّقَ بأنَّ لا عَدُوَّ على الحقيقة ، وأنَّ الْخَلْقَ أَشْبَاحٌ تَجْرَى عَلَيْهِمْ أَحْكَامُ الْقُدْرَةِ ؛ فالوليُّ لا عدوَّ له ، ولا صديق له إلا الله ، قال تعالى : « اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا »^(٤) .

قوله جل ذكره : « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَمْ

اللَّعْنَةُ وَلَمْ سَوِّ الدَّارَ » .

دليلُ الخطابِ أن المؤمنين يَنْفَعُهُمْ تَنْصُلُهُمْ ، ولم من الله الرحمة، ولم حُسْنُ الدار ، وما بقى من هذه الدنيا إلا اليسير

قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدًى وَأَوْثَرْنَا

بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ * هُدًى

وَذِكْرًى لَأُولَى الْأَلْبَابِ » .

مضى طَرَفٌ من البيان في قصة موسى .

(١) في ص (بالمفردة) والملائم للسياق (بالمعرفة واليقين) كما جاء في م .

(٢) أي تكون معرفة ضرورية ، ونحن نعلم من مذهب القشيري أنَّ المعرفة في الابتداء كسبية (من العبد) وفي الانتهاء ضرورية (من الرب) .

(٣) في ص (حققه) والملائم للسياق أنه يريه (حتف) عدوه .

(٤) آية ٢٥٧ سورة البقرة .

قوله جل ذكره : « فَأَصْبِرْ إِنَّا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَاسْتَغْفِرْ
لذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ
وَالْإِبْكَارِ » .

الصبرُ في انتظار الموعود من الحقِّ على حسب الإيمان والتصديق ؛ فمن كان تصديقه و يقينه
أتمَّ وأقوى كان صبره أتمَّ وأوفى .

« إِنَّا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا » : وهو — سبحانه — يُعْطِي وَإِنْ تَوَهَّمَ الْعَبْدُ أَنَّهُ يُبْطِئُ .
ويقال الصبر على قسمين : صبرٌ على العافية ، وصبرٌ على البلاء ، والصبرُ على العافية أشدُّ
من الصبر على البلاء ، فصبرُ الرجال على العافية وهو أتمُّ الصبر^(١) .

« واستغفر لذنبك » . وفي هذا دليل على أنه كانت له ذنوب ، ولم يكن جميعُ استغفاره
لأتمته لأنه قال في موضع آخر « وللمؤمنين والمؤمنات »^(٢) وهنا لم يذكر ذلك . ويمكن حملُ
الذنبِ على ما كان قبل النبوة ؛ إذ يجوز أن يكون العبد قد تاب من الزَّللَةِ ثم يجب عليه
الاستغفار منها كلما ذكرها ، فإن تجديد التوبة يجب كما يجب أصلُ التوبة^(٣) .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ
سُلْطَانٍ أَتَانَهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ
مَّا هُمْ بِبَالِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ » .

« بغير سلطان » : أى بغير حجة .

« إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ » أى ليس في صدورهم إلا كِبَرٌ يمنعهم عن الاتقياء للحق ،
ويعتقون به عن الله ، ولا يصلون إلى مرادهم .

(١) لأن قوة الإنسان قد تنسبه ذكر المنعم فيصبر عنه — وهذا جفاء ، ولكن ضعف الإنسان في البلاء يدفعه
إلى الصبر في الله ، قال قائلهم :

والصبر عنك فمعلوم عواقبه والصبر في سائر الأشياء محمود

(٢) آية ١٩ سورة محمد .

(٣) تنبيه هذه الآراء عند بحث قضية كلامية هي : عصمة الأنبياء .

قوله جل ذكره : « لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ
مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » .

أى خَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ بَعْثِهِمْ وَخَلْقِهِمْ مَرَّةً أُخْرَى بَعْدَ أَنْ
صَارُوا رَمِيماً ؛ فَالْقَوْمُ كَانُوا يُقِرُّونَ بِخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَيُنْكِرُونَ أَمْرَ الْبَعْثِ .

قوله جل ذكره : « وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءَ
قَلِيلًا مِمَّا تَدَّكَّرُونَ » .

أَرَادَ بِهِ : مَا يَسْتَوِى الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ ، وَلَا الْمُرَبُّوطُ بِشَهْوَتِهِ كَالْبَسُوطِ بِصَفْوَتِهِ ،
وَلَا الْمَجْذُوبُ بِقُرْبَتِهِ كَالْمُحْجُوبِ بِعَقُوبَتِهِ ، وَلَا الْمُرْتَقِ إِلَى مَشَاهِدَتِهِ كَالْمُبْقَى فِي شَاهِدِهِ ،
وَلَا الْمَجْدُودُ^(١) بِسَعَادَتِهِ كَالْمَرْدُودِ لَشَقَاوَتِهِ .

قوله جل ذكره : « إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ
فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يُؤْمِنُونَ » .

إِنَّ مِيقَاتَ الْحِسَابِ لَكَائِنٌ وَإِنْ وَقَعَتِ الْمُدَّةُ فِي أَوَانِهِ^(٢) .

قوله جل ذكره : « وَقَالَ رَبِّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ
لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي
سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » .

معناه : ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ شَيْئاً ؛ لِأَنَّهُ قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى : « فَيَكْشِفُ
مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ »^(٣) .

(١) جُدٌّ فَهُوَ مَجْدُودٌ أَيْ كَانَ لَهُ حِظٌّ .

(٢) أَيْ إِنْ وَقَعَتِ الْحِسَابُ لَكَائِنٌ مِمَّا طَالَبَتِ الْمُدَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ وَقْتِ حُصُولِهِ .

(٣) آيَةُ ٤١ سُورَةِ الْأَنْعَامِ .

ويقال ادعوني بشرطِ الدعاء ، وشرطُ الدعاء الأكل من الحلال ؛ إذ يقال الدعاء مفتاحُ الحاجة ، وأسبابُ اللقمة الحلال .

ويقال كلُّ مَنْ دعاه استجاب له إما بما يشاء له ، أو بشيء آخر هو خيرُ له منه .

ويقال الكافر ليس يدعوه ؛ لأنه إنما يدعو مَنْ له شريك ، وهو لا شريك له .
ويقال : إذا ثبت أن هذا الخطاب للمؤمنين فما مِنْ مؤمنٍ يدعو الله ويسأله شيئاً .
إلا أعطاه في الدنيا ، فأما في الآخرة فيقول له : هذا ما طلبتَه في الدنيا ، وقد ادخرته لك لهذا اليوم حتى ليتِمنى العبدُ أنه ليتَه لم يُعطَ شيئاً في الدنيا قط .

ويقال ادعوني بالطاعات استجب لكم بالثواب والدرجات .

ويقال ادعوني بلا غفلة أستجب لكم بلا مهلة . ويقال ادعوني بالتنصل أستجب لكم بالتفضل . ويقال ادعوني بحسبِ الطاقة أستجب لكم بكشفِ الغافة .
ويقال ادعوني بالسؤال أستجب لكم بالنوال والأفضال .

« إن الذين يستكبرون عن عبادتي . . » أي يستكبرون عن دعائي ، سيدخلون جهنم صاغرين .

قوله جل ذكره : « الله الذي جعل لكم الليلَ لتسكنوا فيه ، والنهارَ مبصراً »
... الآيات

سكونُ الناس في الليل على أقسام : أهلُ الغفلة يسكنون إلى غفلتهم ، وأهلُ المحبة يسكنون بحكم وصلتهم ، وشتان بين سكونِ غفلةٍ وسكونِ وصلة !
قومٌ يسكنون إلى أمتلهم وأشكالهم ، وقومٌ يسكنون إلى حلاوة أعمالهم ؛ لبسطهم واستقلالهم ، وقومٌ يدممون القرارَ في ليلهم ونهارهم وأولئك أصحابُ الاشتقاق . . .
أبداناً في الاحتراق .

« ذلکم اللہُ ربکم » الذی جعل سکونکم معہ ، وانزعاجکم لہ ، واشتیاقکم إلیہ ،
ومحبتکم فیہ ، وانتطاعکم إلیہ .

قوله جل ذكره : « اللہُ الذی جعل لکم الأرضَ
قَرَارًا والسماءَ بِناءً وصوّرکم فأحسنَ
صوّرَکم » .

« صوّرکم فأحسن صوّرکم » : خَلَقَ العرشَ والكرسىَ والسمواتِ والأرضينَ
وجمیعَ المخلوقاتِ ولم یَقُلْ هذا الخطابُ ، وإنما قال لنا : « وصوّرکم فأحسن صوّرکم »
ولیس الحسنُ ما یستحسنه الناسُ بل الحسنُ ما یستحسنه الحبيبُ :

ما حَطَّكَ الواشون عن رتبةٍ عندی ولا ضَرَّكَ مُقْتَابُ
کأنهم أثَنُوا — ولم یعلموا — علیكَ عندی بالذی عابوا
لم یَقُلْ للشموس فی علائها ، ولا للأقمار فی ضیائها : « وصوّرکم فأحسن
صوّرکم » .

ولما انتهى إلینا قال ذلک ، وقال : « لقد خلقنا الإنسان فی أحسن تقویم »^(١)
ویقال إن الواشین قَبَّحُوا صورتکم عندنا^(٢) ، بل الملائكةُ کَتَبُوا فی صحائفکم
قبیحَ ما ارتکبتم . . . ومولاکم أحسن صوّرکم ، بأنَّ محاً من دیوانکم الزلاتِ ،
وأثبت بدلاً منها الحسناتِ ، قال تعالى : « یمحو الله ما یشاء ویثبت »^(٣) ، وقال :
« فأولئك ُیبدِّل اللهُ سیئاتهم حسنات »^(٤) .

قوله جل ذكره : « ورزقکم من الطیبات » .
لیس الطیبُ ما تستطیبه النفسُ إنما الطیبُ ما یستطیبه القلبُ ، فالخبزُ

(١) آية ٤ سورة التین .

(٢) ربما یقصد القشیری بذلك إبلیس الذی استمل بکونه مخلوقاً من نار علی آدم المخلوق من الطین .

(٣) آية ٢٩ سورة الرعد .

(٤) آية ٧٠ سورة الفرقان .

التفار أطيب للفقير الشاكر من الحلواء للغنيّ المتسخط .

ورزقُ النفوسِ الطعامُ والشرابُ ، ورزقُ القلوبِ لذاذاتِ الطاعات .

قوله جل ذكره : « هو الحيُّ لا إله إلا هو فادعوه

مُخلصين له الدينَ الحمدُ لله

ربُّ العالمين »

« هو الحيُّ » : الذي لا يموت ، ولا فضله يفوت ، فادعوه بلسانِ القوت ،

وذلك عليه لا يفوت .

قوله جل ذكره : « قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ

تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي

الْيَقِينَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ

لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »

قُلْ — يا محمد — إني نهيت عن عبادة ما تدعون من دون الله ؛ أي أمرتُ

بالتبرّي عما عبدتم ، والإعراض عما به اشتغلتُم ، والاستسلام للذي خلقني ،

وبالنبوة استخصني .

قوله جل ذكره : « هو الذي خلقكم من ترابٍ

ثم من نطفَةٍ ثم من عَلَقَةٍ ثم

يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثم لتبلغوا أَشُدَّكُمْ ثم

لتكونوا شيوخاً . . . »

فمن تُرْبَةٍ إلى قَطْرَةٍ ؛ ومن قَطْرَةٍ إلى عَلَقَةٍ .. ثم من بطون أمهاتكم إلى

ظهوركم في دنياكم .. ثم من حال كونكم طفلاً ثم شاباً ثم شيخاً ..

وهو الذي يحيي ويميت ، ثم يبعث في أُخرى الدارين .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ نَرِ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ

في آياتِ الله أنى يُضَرَفُونَ .

في آياتِ الله يَتَبَلَّدُونَ ؛ فلا حُجَّةَ يوردُونَ ، ولا عذابَ عن أنفسهم يَرُدُّون ،
سيعلمون حينَ لا ينفعهم عِلْمُهُمْ ، ويعتذرون حينَ لا يسمعُ عُدَّتُهُمْ ، وذلك
عندما :

« إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ
يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ
يُسْجَرُونَ » . . . الآيات .

يُسْحَبُونَ في النارِ والأغلالُ في أعناقهم ، ثم يُذَاقُونَ ألوانَ العذابِ . . فإذا
أُقرُّوا بكفرهم وذنوبهم يقال لهم : أدخلوا أبوابَ جهنمِ خالدين فيها ، فبئسَ مثوam
ومصيرهم ، وساءَ ذهابُهم ومصيرهم .

قوله جل ذكره : « فاضرب إن وعدَ الله حقٌّ »
فإِذَا نُزِيتَ بعضَ الذي نَعِدُهُمْ أو
تَتَوَفَيْنَا فإِذَا يُرْجَعُونَ .

كُنْ بِقَلْبِكَ فارغاً عنهم ، وانظرْ منْ بَعْدُ إلى ما يُفعلُ بهم ، واستيقنْ بأنه
لا بقاءَ لجولةِ باطلهم . . فإنْ لَقِيتَ بعضَ ما تَتَوَعَّدُهُمْ به وإِلَّا فلا تَكُ في ريبٍ من
مقاساتهم ذلكَ بَعْدُ . ثم أَكْثَرُ تَسْلِيَتِهِ إِيَّاهُ وَتَجْدِيدَ تَصْيِيرِهِ وتَعْرِيفِهِ بقوله :

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ
مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ
نَقْصُصْ عَلَيْكَ ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ
يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ
اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ
الْمُبْطِلُونَ » .

قصصنا عليك قصصَ بعضهم ، ولم نخبرك عن قصص الآخرين .

ولم يكن في وسع أحدٍ الإتيان بمعجزةٍ إلا إذا أظهرنا نحن عليه ما أردنا إذا ما أردنا . فكَذَلِكَ إِنَّ طَالِبُوكَ بآيَةٍ قَدْ أَظْهَرْنَا عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ مَا أَرْحَنَّا بِهِ الْعُذْرَ ، وَأَوْضَحْنَا صِحَّةَ الْأَمْرِ . . . وما اقترحوه ... فَإِنَّ شَيْئًا أَظْهَرْنَا ، وَإِنْ شِئْنَا تَرَ كُنَّا .

قوله جل ذكره : « اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ
لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ *
وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً
فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ
تُخَمَلُونَ * وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ
آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ »

ذَكَرَهُمْ عَظِيمَ إِعْنَامِهِ بِتَسْخِيرِ الْأَنْعَامِ ؛ فَقَالَ جَعَلَهَا لَكُمْ لِتَنْتَفِعُوا بِهَا بِالرُّكُوبِ
وَالْحَمْلِ وَالْعَمَلِ ، وَلِتَسْتَقُوا أَلْبَانَهَا ، وَلِتَأْكُلُوا لَحُومَهَا وَشُحُومَهَا ، وَلِتَنْتَفِعُوا بِأَصْوَافِهَا
وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا ، وَلِتَقْطَعُوا مَسَافَةً بَعِيدَةً عَلَيْهَا . . . فَعَلَى الْأَنْعَامِ وَفِي الْفُلْكِ تَنْتَقِلُونَ
مِنْ صُقْعٍ إِلَى صُقْعٍ . . . وَأَنَا الَّذِي يَسِّرْتُ لَكُمْ هَذَا ، وَأَنَا الَّذِي أَلْهَمْتُكُمْ الِاتِّفَاعَ
بِهِ ؛ فَتَقُولُوا فِي ذَلِكَ وَاعْرِفُوهُ .

قوله جل ذكره : « أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا
فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ » . . . الْآيَاتِ

أَمَرَهُمْ بِالْإِعْتِبَارِ بِمَنْ كَانُوا قَبْلَهُمْ ؛ كَانُوا أَشَدَّ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَطْوَلَ
أَعْمَارًا ، فَانْجَرُّوا فِي حِبَالِ آمَالِهِمْ ، فَوَقَعُوا فِي وَهْدَةِ غُرُورِهِمْ ، وَمَا بَقِيَ الْحَقُّ

عن مراده فيهم ، واغترؤا بسلامتهم في مُدَّةٍ ما أُرخينا لهم عنان إيمانهم ، ثم فاجأناهم بالمقوبة ، فلم يُعْجِزُوا اللَّهَ في مُرادِهِ منهم .

فلما رأوا شِدَّةَ البأسِ ، ووقعوا في مذلَّةِ الخيبة واليأس تمنَّوْا أن لو أُعيدُوا إلى الدنيا من الرأس . . قاتلهم الله بالخيبة^(١) ؛ وخرَّطهم في سلكٍ مَن أبادهم من أهل الشُّركِ والسَّخَطِ .

(١) لأن التوبة لا تكون بعد حصول العلم الضروري وروية العذاب ، فإن أوانها يكون قد انقضى .

سورة فصلت

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

أفلح مَنْ عرف « بسم الله » ، وما ربح مَنْ بقى عن « بسم الله » .

مَنْ أحب لسانه « بسم الله » ، وحسب جَنَانُهُ « بسم الله » كفى له شفيعاً « بسم الله » إلى مَنْ يُعِيدُنَا بِذِكْرِ « بسم الله » .

قوله جل ذكره : « حم * تنزيل من الرحمن الرحيم » .

بحقّ وحياتي ، ومجدي في صفاتي وذاتي . . . هذا تنزيل من الرحمن الرحيم .

قوله جل ذكره : « كتاب فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قرآنا عربياً لقوم يعلمون » .

بُيِّنَتْ آيَاتُهُ ودلالاته .

« قرآننا عربياً لقوم يعلمون » : الدليل منصوبٌ للكافة ولكن الاستبصار به للعالمين — دون المعرضين الجاحدين .

« بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون » .

« بشيراً » : لِمَنْ اخترناهم واصطفيناهم .

« ونذيراً » : لِمَنْ أقيناهم ، وعن شهود آياتنا أعميناهم .

« فأعرض أكثرهم . . » عند دعائنا إياهم ، فهم مُثَبِّتُونَ فيما أردناهم ، وعلى ذلك

(الوصف) (١) عَلَيْنَاكُمْ (٢)

قوله جل ذكره : « وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا

إليه وفي آذاننا وقْرٌ ومن بيننا وبينك

حجابٌ فأعملْ إِنَّا عاملون . »

قالوا ذلك على الاستهانة والاستهزاء ، ولو قالوه عن بصيرة لكان ذلك منهم توحيداً (٣) ،

فمنُوا بالمَقْتِ لِمَا قَدَّوْا من تحقيق القلب .

قوله جل ذكره : « قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ

أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ

وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ

لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ

كَافِرُونَ . »

إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ فِي الصُّورَةِ وَالْبَنِيَّةِ ، وَالذَّاتِ وَالْخَلْقَةِ . وَالْفَرْقَانُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ أَنَّهُ

يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ؛ فَالْخُصُوصِيَّةُ مِنْ قِبَلِهِ لَا مِنْ قِبَلِي ، وَلَقَدْ بَقِيتُ فِيكُمْ صِرَافاً ،

وَلَقَبْتُمُونِي دَهْرًا . . . فَمَا عَثَرْتُمْ مِنِّي عَلَى غَيْرِ صَوَابٍ ، وَلَا وَجَدْتُمْ فِي قَوْلِي شَوْبَ كَذَابٍ . وَأَمْرِي

إِلَيْكُمْ أَنْ تَسْتَقِيمُوا فِي طَاعَتِهِ ، وَاسْتَسْلِمُوا لِأَمْرِهِ . . . وَطُوبَى لِمَنْ أَجَابَ ، وَالْوَيْلُ لِمَنْ

أَصْرَهُ وَعَابَ ! .

(١) سقطت (الوصف) من ص وهي موجودة في م .

(٢) روى أن قریشاً اختارت عتبة بن ربيعة كي يعرض على النبي (ص) أن يكف من سب آلهم وتسفيه أحلامها

مقابل رياضة أو مال .. الخ ؛ وظل يتحدث ، في ذلك حتى انتهى ، وعندئذ سأله النبي (ص) : أفرغت يا أبا الوليد ؟

قال : نعم .. فقال : اسمع .. بسم الله الرحمن الرحيم . سم تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت »

إلى قوله تعالى : فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادَ وَثَمُودَ ، فوثب متبياً ، ووضع يده على فم النبي

وناشده ليسكن ... ثم مضى إلى قریش فأنبأها بما سمع ، وأقسم ألا يكلم محمداً أبداً ، لأن ما سمعه ما هو بشعر

ولا كهانة ولا سحر .. ثم أردف : ولقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لا يكذب ..

(٣) لأنه يكون حينئذ أشد أناسهم بوجود غطاء من ظلمة البشرية يحجبهم من حقيقة الأحديّة ، ويكون اعترافهم

بقصورهم بداية لاستخدامهم لفضل من الله .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » .

« آمَنُوا » : شاهدوا ، « وعملوا الصالحات » : لازموا بساط العبودية .

« آمَنُوا » : شهدوا الحضرة ، « وعملوا الصالحات » : وقفوا بالباب .

« آمَنُوا » : حضروا ، « وعملوا الصالحات » : بعد ما حضروا لم ينصرفوا .

« لم أجر غير ممنون » : غير منقوص^(١) ؛ فأجرُ النفوسِ الجنةُ ، وأجرُ القلوب الرضا بالله ، وأجرُ الأرواح الاستئناسُ بالله ، وأجرُ الأسرارِ دوام المشاهدة لله .

قوله جل ذكره : « قُلْ أَتُنتَكُم لَتَكْفُرُنَّ بِالَّذِي

خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ

أنداداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ » .

خَلَقَ الزَّمَانَ وَلَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ زَمَانٌ ، وَخَلَقَ الْمَكَانَ ، وَلَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ مَكَانٌ ؛ فَالْحَقُّ — سبحانه — كَانَ وَلَا مَكَانَ وَلَا زَمَانَ ؛ فَهُوَ عَزِيزٌ لَا يُدْرِكُهُ الْمَكَانُ ، وَلَا يَمْلِكُهُ الزَّمَانُ .

« وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَاداً » .. وكيف يكون الذي لم يكن ثم حصل^(٢) ندّاً للذي لم يزل .. ولا يزال كما لم يزل ؟ ذلك ربُّ العالمين .

قوله جل ذكره : « وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ

فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ

سِوَاءَ السَّائِلِينَ » .

الْجِبَالُ أَوْتَادُ الْأَرْضِ فِي الصُّورَةِ ، وَالْأَوَّلِيَّاهُ أَوْتَادُ وَرَوَاسٍ لِلْأَرْضِ فِي الْحَقِيقَةِ .

(١) يقال مثلث الجبل إذا قطعته ، ومنه قول ذي الإصبع :

إني لعمرك ما بابي يدي غلقت على الصديق ولا خيري بممنون

وقيل نزلت الآية في المرضى والزمنى والمرضى إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر كأصبح ما كانوا يعملون .

(٢) الذي لم يكن ثم حصل هو الحادث ، المخلوق من العدم .. كيف يكون ندّاً للقديم الأزلي سرمدي ؟ !

« وبارك فيها » : البركةُ الزيادة . . فيأتيهم المطرُ ببركاتِ الأولياء ، ويندفع عنهم البلاء ببركات الأولياء .

« وقدر فيها أقواتها » : وجعلها مختلفةً في الطَّعمِ والصورةِ والمقدار . وأرزاقُ القلوبِ والسرائرِ كما مضى ذكره فيما تقدم .

قوله جل ذكره : « ثم استوى إلى السماء وهي دخانٌ »
قال لها وللأرضِ ائتيا طَوْعاً أو كَرْها
قالتا أَتَيْنَا طَائِعِينَ

« استوى » أى قَصَدَ ، وقيل فعل فعلاً هو الذى يعلم تعيينه^(١) .

ويقال رَتَّبَ أَقْطَارَهَا ، وركَّبَ فيها نجومها وأزهارها .

« قال لها وللأرضِ ائتيا طَوْعاً أو كَرْها قالتا أَتَيْنَا طَائِعِينَ » : هذا على ضرب المَثَلِ ؛ أى لا يتعسر عليه شيء مما خلقه ، فله مِنْ خَلْقِهِ ما أَرَادَهُ . وقيل بل أحيائها وأعقلهما وأنطقهما قالتا ذلك . وجعل نفوسَ العابدين أرضاً لطاعته وعبادته ، وجعل قلوبهم فَلَكَاً لنجومِ علمه وشموسِ معرفته .

وأوتادُ النفوسِ الخُوفُ والرجاءُ ، والرغبةُ والرغبة . وفي القلوب ضياءُ العرفانِ ، وشموسُ التوحيدِ ، ونجومُ العلومِ والمقولاتِ والنفوسِ . والقلوبُ بيده يُصَرَّفُها على ما أَرَادَ مِنْ أَحْكامِهِ .

قوله جل ذكره : « بَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » .

(١) تقول العرب : فعل فلان كذا ثم استوى إلى العمل كذا ؛ يريدون أنه أكل الأول وابتدأ الثاني ، ويفهم منه أن خلق السماء كان بعد خلق الأرض (النسب ٤٣ ص ٨٩) .

ومن قال إنه صفة ذاتية زائدة تكون على معنى استوى في الأزل بصفاته (القرطبي ١٥ ص ٣٤٣) وعلى الرأى الأول يكون الاستواء من صفات الفعل وعلى الثاني يكون من صفات الذات .

زَيْنَ السماء الدنيا بِمَصَابِيحَ ، وَزَيْنَ وَجْهَ الأرضِ بِمَصَابِيحَ هِيَ قُلُوبُ الْأَحْيَابِ ؛ فَأَهْلُ السَّمَاءِ إِذَا نَظَرُوا إِلَى قُلُوبِ الْأَوْلِيَاءِ بِاللَّيْلِ فَذَلِكَ مَتْنَزُهُمْ كَمَا أَنَّ أَهْلَ الْأَرْضِ إِذَا نَظَرُوا إِلَى السَّمَاءِ اسْتَأْنَسُوا بِرُؤْيَا الْكَوَاكِبِ .

قوله جل ذكره : « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ »

أَيِ أَخْبِرِ الْمُكَذِّبِينَ لَكَ أَنَّ لَكُمْ سَلَفًا . . . فَإِنْ سَلَكَتُمْ طَرِيقَهُمْ فِي الْعِنَادِ ، وَأَيِّتُمْ إِلَّا الْإِصْرَارَ أَلْحَقْنَاكُمْ بِأَمْثَالِكُمْ .

« فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ » .

رَكَنُوا إِلَى قُوَّةِ نَفْسِهِمْ فُخَاتِهِمْ قَوَاهِمَ ، وَاسْتَمَكَّتْ مِنْهُمْ بُلُوَاهِمَ .

« فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِيسَاتٍ ^(١) لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ » .

فَلَمْ يَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا .

قوله جل ذكره : « وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ » .

(١) فِي قِرَاءَةِ أَبِي عَمْرٍو « نَحِيسَاتٍ » وَيَسْكُنُ الْهَاءُ عَلَى أَنَّهَا جَمْعُ الْمَصْدَرِ « نَحِيسَ » مُسْتَدَلًّا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : « فِي يَوْمٍ نَحِيسَ مُسْتَمِرٌّ » وَلَوْ كَانَ صِفَةً لَمْ يُضَفَّ الْيَوْمُ إِلَيْهِ .

قيل لآلهم فى الابداء آمنوا وصدقوا ، ثم ارتدوا وكذبوا ، فأجرام مجرى إخوانهم
فى الاستئصال .

« ونجينا الذين آمنوا . . » : منهم من نجا من غير أن رأوا النار ؛ فصبروا القنطرة
ولم يعلموا ، وقوم كالبرق الخاطف وهم أعلام ، وقوم كالرا كض . . وهم أيضا من الأكابر ،
وقوم على الصراط يسقطون ويردّهم الملائكة على الصراط . فبعد وبعد . . قوم بعدما دخلوا
لنار ففهم من تأخذه إلى كعبه ثم إلى ركبته ثم إلى حقويه^(١) ، فإذا ما بلغت النار القلب
قال الحق لها : (لا تحرقى قلبه)^(٢) ؛ فإنه محترق في . وقوم يخرجون من النار بعدما
امتجشوا^(٣) فصاروا حمما^(٤) :

قوله جل ذكره : « ويومَ يُجسّروا أعداء الله إلى النارِ
فهم يُوزعون * حتى إذا ما جاءوها
شهدَ عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم
بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم
لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي
أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وإليه تُرْجعون * وما كنتم تستترون
أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم
ولا جلودكم ولكنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ
لا يعلمُ كثيرا مما تعملون * وذلكم ظنكم
الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ
مِنَ الْخاسِرِينَ » .

(١) الحقو = الخصر .

(٢) ما بين القوسين موجود في ص وغير موجود في م .

(٣) أمش الحر أو النار جلده . أى أحرقه وقشره عن اللحم . ويقال هذه ستة أمش كل شيء إذا كانت جذبة .

(٤) الحمم = الفحم أو الرماد . وكل ما احترق من النار .

شهدت عليهم أجزاؤهم ، ولم يكن في حسابهم أن الله سَيُنْطِقُها وهو الذى أنطق كلَّ شىء ،
ولم يَدُرْ بخَلْدِهم ما استقبلهم من المصير الأليم .

« ذلك ظنكم ... » : وكذا مَنْ قعد في وصف الأقوال ، ووَسَمَ موضِعَه ، وحَكَمَ
لنفسه أنه مُقَدَّمٌ بِلَدِه . فلا يُسْمَعُ منه إلا بِيَرهَانٍ ودليلٍ من جالِه ، فَإِنْ خالف الحالُ قولَه فلا
يُعتمد عليه بعد ذلك ^(١) .

والظنُّ بالله إذا كان جميلاً فلعمري يُقَابَلُ بالتحقيق ، أمَّا إذا كان نتيجة الغرورِ وغيرِ
مأذونٍ به في الشرع فإنه يَرُدُّى صاحِبَه .

قوله جل ذكره : « فَإِنْ يَصْبِرُوا فالنارُ مشوىٌّ لهم وإن
يَسْتَعْتِبُوا فإهم من المُعْتَبِينَ » .

فإِنْ يَصْبِرُوا على موضع الخسف فيستقبلون إلى النار . وإن يستعتبوا — فعلى ما قال —
فإهم بمعتبين ^(٢) .

« وَقَيِّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ
فِي أَمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ
وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ » .

إذا أراد الله بعبْدٍ خيراً قَيَّضَ له قرناءً خيراً يُعينونه على الطاعات ، ويَحْمِلُونَهُ عليها ،
ويدعونه إليها . وإذا كانوا إخواناً سوءَ حاله على المخالفات ، ودَعَوُهُ إليها .. ومن ذلك
الشيطانُ ؛ فإنه مُقَيَّضٌ مُسَلِّطٌ على الإنسان يوسوس إليه بالمخالفات .. وشرٌّ من ذلك النَّفْسُ .
فإنها بئس القرين !! فهي تدعو العبدَ — اليومَ — إلى ما فيه هلاكه ، وتشهد عليه غداً بفعل
الزَّلة . فالنفسُ — وشرُّ قرينٍ للمرءِ نفسه — والشياطينُ وشياطينُ الإنسِ .. كلها تُزَيِّنُ لهم

(١) يعود التشيرى بعد قليل إلى هذا المعنى نفسه حين يتحدث عن يكلفون بالقالة دون صفاء الحالة .

(٢) أى أن النار مشوى لهم في الحالين ، ولا مهرب لهم منها ؛ فلا صبرهم بنافع ، ولا طلب الرضا عنهم بنافع ،
ولا بد لهم من النار .

« ما بين أيديهم » من طول الأمل ، « وما خلفهم » من نسيان الزلزل ، والتسوية في التوبة ،
والتقصير في الطاعة .

قوله جل ذكره : « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا

القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون »

استولى على قلوبهم الجحْدُ والإنكارُ ، ودام على العداوة فيهم الإصرارُ ؛ فاحتالوا بكل
وجهٍ ، وتواصوا فيما بينهم ألا يستمعوا لهذا القرآن لأنه يغلب القلوب ، ويسلب العقول ، وكل
من استمع إليه صَبَا إليه .

وقالوا : إذا أخذَ محمدٌ في القرآن فأكثرُوا عند قراءته اللغوَ واللفظَ حتى يقع في السهو
والغلط .

ولم يعلموا أن الذي نُورَ قلبه بالإيمان ، وأُيدَ بالهم ، وأمدَّ بالنصرة ، وكُشف بسماع
السِّرِّ من الغيب هو الذي يسمع ويؤمن . والذي هو في ظلمات جهله لا يدخل الإيمانُ قلبه ،
ولا يباشر السماعُ سِرَّهُ^(١) .

قوله جل ذكره : « فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً

ولنجزيَنَّهُمْ أسوأَ الذي كانوا يعملون »

اليومَ بإدامة الجحيم الذي هو الفراق ، وغداً بالتخليد في النار التي هي الاحتراق .

« ذلك جزاء أعداء الله النارُ لهم فيها

دارُ الخلدِ جزاء بما كانوا بآياتنا

يُحَادُّون » .

لهم فيها الخزي والهوان بلا انقطاع ولا انصرام .

« وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين

(١) إذا تذكرنا أن السر أعلى من القلب ومن الروح عرفنا أن «السمع» عند الشيخ ذو مرتبة عالية على عكس

ما يظنه المفرضون

أضلانا من الجن والإنس بجملتهما تحت
أقدامنا ليكونا من الأسفلين .

من الجن إبليس . ومن الإنس قابيل بن آدم فهو أول من سنّ العصية (حين قتل
أخاه)^(١) .

« بجملتهما تحت أقدامنا » ؛ هذه الإرادة وهذا التمني زيادة في عقوبتهم أيضاً ؛ لأنهم يتأذون
بتلك الإرادة وهذا التمني ؛ فهم يجدون أنه لا نفع لهم من ذلك إذ لن يجابوا في شيء ، ولن يمنع
صنهم العذاب .

ويفيد هذا الإخبار عنهم عن وقوع التبرّي فيما بينهم ، فبعضهم يتبرأ من بعض ، كما يفيد
بأن الندم في غير وقته لا جدوى منه .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا
تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا
وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ
تُوعَدُونَ » .

« ثم » استقاموا : ثم حرف يقتضي التراخي ، فهو لا يدل على أنهم في الحال لا يكونون
مستقيمين ، ولكن معناه استقاموا في الحال ، ثم استقاموا في المآل بأن استداموا إيمانهم إلى
وقت خروجهم من الدنيا ، وهو آخر أحوال كونهم مُكَلَّفِينَ .

ويقال : قالوا بشرط الاستجابة أولاً ، ثم استبصروا بموجب الحجة ، ولم يثبتوا على وصف
التقليد ، ولم يكتفوا بالقالة دون صفاء الحالة .

« استقاموا » : الاستقامة هي الثبات على شرائط الإيمان بجملتها من غير إخلال بشيء من
أقسامها . ويقال : هم على قسمين :

(١) زيادة من عندنا لتوضيح وليست موجودة بالمتن .

مستقيم (في أصول) (١) التوحيد والمعرفة . . وهذه صفة جميع المؤمنين (٢) .

ومستقيم في الفروع من غير عصيان . . وهؤلاء مختلفون ؛ فمنهم . . ومنهم ، ومنهم .
« وأبشروا بالجنة » : الذين لهم البشارة هم كل من استقام في التوحيد ، ولم يشرك . . فله الأمان من الخلود (٣) . ويقال : مَنْ كان له أصل الاستقامة أَمِينٌ (٤) من الخلود في النار ، ومن له كمال الاستقامة أَمِينٌ من الوعيد من غير أن يلحقه سوءٌ بحالٍ . . ثم الاستقامة لهم على حسب أحوالهم ؛ فمستقيمٌ في عهده . . ومستقيمٌ في عقده ، ومستقيمٌ في جهده ومراعاة حدّه ، ومستقيمٌ في عقده وجهده وحدّه وحبّه وودّه . . وهذا أتمهم .

ويقال : استقاموا على دوام الشهود وعلى أفراد القلب بالله .

ويقال : استقاموا في تصفية العقد ثم في توفية العهد ثم في صحة القصد بدوام الوجد .

ويقال : استقاموا بأقوالهم ثم بأعمالهم ، ثم بصفاء أحوالهم في وقتهم وفي مآلهم .

ويقال : أقاموا على طاعته ، واستقاموا في معرفته ، وهاموا في محبته ، وقاموا بشرائط خدمته .

ويقال : استقامةُ الزاهدِ ألا يرجعَ إلى الدنيا ، وألا يمنةَ الجاهِ بين الناس عن الله . واستقامةُ العارفِ ألا يشوبَ معرفته حظٌّ في الدارين فيحجبه عن مولاه . واستقامةُ العابدِ ألا يعودَ إلى فقرته واتباع شهوته ، ولا يتدخله رياء وتصنع . واستقامةُ (٥) المحبِّ ألا يكون له أَرَبٌ من محبوبه ، بل يكتفى من عطائه ببقائه ، ومن مقتضى جوده بدوام عزّه ووجوده .

« ألا تخافوا ولا تحزنوا » : إنما يكون الخوف في المستقبل من الوقت ، من حلول مكروهٍ أو فوات محبوبٍ ، فاللائكةُ يشرونهم بأن كل مطلوبٍ لهم سيكون ، وكل محذورٍ لهم لا يكون .

(١) هكذا في م وهي في ص (عل أصل) وهي مقبولة حسب قوله تعالى في موضع آخر (استقاموا على الطريقه) ولكننا آثرنا (في أصول) لتنسجم مع الفروع .

(٢) عن أنس قال : لما نزلت هذه الآية قال النبي (ص) : « هم أمتي ورب الكعبة » .

(٣) أي التخليد في النار . . ويقصد بهم أصحاب المنزلة بين المنزلتين .

(٤) لاحظ الربط بين الأمن والأمان من ناحية والإيمان من ناحية أخرى .

(٥) أي أن مجرد ذكر المحب لله (الباقي) يكفي عن تذكر أي عطاء أو منع ، فحسبه الله .

والحزن من حُزونة الوقت ، ومن كان راضياً بما يجري فلا حزن له في عيشه . والملائكة يبشرونهم بأنهم لا حُزونة في أحوالهم ، وإنما هم في الرّوح والراحة .

« وأبشروا بالجنة » : أى بحسن المآب ، وبما وَعَدَ اللهُ من جميل الثواب .

والذى هو موعودٌ للأولياء بسفارة الملكِ موجودٌ اليومَ لخلاص عبادِهِ بِعطاء الملكِ ؛ فلا يكون لأحدهم مطالعةٌ في المستقبل من حاله بل يكون بحكم الوقت ؛ فلا يكون له خوفٌ ؛ لأن الخوف — كما قلنا من قبل — ينشأ من تطلع إلى المستقبل إماماً من زوال محبوبٍ أو حصولٍ مكروه ، وإن الذى بصفة الرضا^(١) لا حُزونة في حاله ووقته .

ويمكن القول : « لا تخافوا » من العذاب ، « ولا تحزنوا » على ما خلقتُم من الأسباب ، « وأبشروا » بحسن الثواب في المآب .

ويقال : « لا تخافوا » من عزل الولاية ، « ولا تحزنوا » على ما أسلفتم من الجناية ، « وأبشروا » بحسن العناية في البداية .

ويقال : « لا تخافوا » مما أسلفتم ، « ولا تحزنوا » على ما خلقتُم ، « وأبشروا » بالجنة التى لها تكلفتُم .

ويقال : « لا تخافوا » المذلة ، « ولا تحزنوا » على ما أسلفتم من الزلة ، « وأبشروا » بدوام الوصلة .

قوله جل ذكره : « نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا
وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهى
أنفسكم ولكم فيها ما تدعون » نزلاً
من غفورٍ رحيم .

الولاية من الله بمعنى المحبة ، وتكون بمعنى النصرة .

(١) هذا من أدق الشروح لمعنى « الرضا » الذى كما نعرف من ملهيب القشيري مرحلة انتقال من المقامات إلى الأحوال .

وهذا الخطاب يحتمل أن يكون من قبيل الملائكة الذين تنزلوا عليهم ، ويحتمل أن يكون ابتداء خطاب من الله .

والنصرة تصدر من المحبة ؛ فلو لم تكن المحبة الأزلية لم تحصل النصر في الحال .

ويقال : « نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا » بتحقيق المعرفة ، « وفي الآخرة » بتحصيل المغفرة .

ويقال « نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا » بالعناية ، « وفي الآخرة » بحسن الكفاية وجميل الرعاية .

« في الحياة الدنيا » بالمشاهدة ، « وفي الآخرة » بالمعينة .

في الدنيا بالرضا بالقضاء ، وفي الآخرة باللقاء في دار البقاء .

في الدنيا بالإيمان ، وفي الآخرة بالغفران .

في الدنيا بالمحبة ، وفي الآخرة بالقربة .

« ولكم فيها » أى في الجنة « ما تشتهى أنفسكم » : الولاية قدس ، وتحصيل الشهوات وعد ، فمن يشتغل بنقده قلما يشتغل بوعده^(١) .

« ولكم فيها ما تدعون » : أى ما تريدون ، وتدعون الله ليُعطيكم .

« نزلاً » : أى فضلاً وعطاءً ، وتقدمة لما يستديم إلى الأبد من فنون الأفضال ووجوه المبار^(٢) .

(١) تفيد هذه الإشارة الممتعة حقاً في توضيح الفكرة الصوفية الشائعة التي تقول إن السبادة الحقة هي المجرى عن الطمع في الثواب والخوف من العقاب .. وهي عند القشيري من أمارات الولاية والمحبة الصافية .. ويعني بعض الصوفية في ذلك فيدفعهم طلب الله لذاته إلى القول :

أريدك لا أريدك ثواب ، ولكني أريدك للعقاب
فكل مآرب قد نلت منها ، سوى ملئود وجدى بالعذاب

(٢) فتكون (نزلاً) منصوب على المصدر أى أنزلناه نزلاً . وقيل : على الحال . وقيل هو جمع نازل أى لكم ما تدعون نازلين .

« من غفور رحيم » : وفي ذلك مساعٍ لآمال المذنبين ؛ لأنهم هم الذين يحتاجون إلى المغفرة ، ولولا رحمته لما وصلوا إلى مغفرته .

قوله جل ذكره : « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين » .

أى لا أحد أحسن قولا منه ، ويكون المراد منه النبي صلى الله عليه وسلم . ويحتمل أن يكون جميع الأنبياء عليهم السلام .

ويقال هم المؤمنون . ويقال هم الأئمة الذين يدعون الناس إلى الله .

وقيل هم المؤذنون . ويقال الداعي إلى الله هو الذى يدعو الناس إلى الاكتفاء بالله وترك طلب العوض من الله ، وبِكُلِّ أمره إلى الله ، ويرضى من الله بقسمة الله .

« وعمل صالحا » : أى كما يدعو الخلق إلى الله يأتى بما يدعوهم إليه .

ويقال هم الذين عرفوا طريق الله ، ثم سلكوا طريق الله ، ثم دعوا الناس إلى الله .

ويقال بل سلكوا طريق الله ؛ فبسلوكهم وبمنازلاتهم عرفوا الطريق إلى الله ، ثم دعوا الخلق إليه بعدما عرفوا الطريق إليه .

« وقال إنني من المسلمين » : المسلمون لحكمهم الراضون بقضائه وتقديره .

قوله جل ذكر : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة »

أدفع بالتي هي أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم .

ادفع بالصلوة التى هي أحسن السيئة يعنى بالمفو عن الكفاة ، وبالتجاوز والصفح عن الزلة ، وترك الاتصاف^(١) .

« فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » يشبه الولي الحميم — ولم يصِر ولياً مخلصاً .. وهذا من جملة حسن الأدب فى الخدمة فى حق صحبتك مع الله ؛ تحلم مع عباده لأجله .

(١) هذه الأوصاف التى ذكرها القشيري من أمارات الفتوة — كما ورد فى الفصل الذى عقده لما فى « رسالته » .

ومن جملة حُسن الخلق في الصلابة مع الخلق ألا تنتقم لنفسك ، وأن تغفوَ عن خصمك .

قوله جل ذكره : « وما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا

وما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ » .

لا يقوم بحق هذه الأخلاق إِلَّا مَنْ أَكْرَمَ بتوفيق الصبر ، ورُقِيَ عن سفاسف الشيم إلى معالي الأخلاق . ولا يصل أحسن الدرجات إِلَّا مَنْ صبر على مقاساة الشدائد .

قوله جل ذكره : « وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ

فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .

إذا اتصلت بقلبك نزغاتُ الشيطان فبادِرْ بذكر ربِّك ، وارجعْ إليه قبل أية خطوة^(١) ..

فإنك إن لم تخالف أولَ هاجسٍ من هواجس الشيطان صار فكرة ، ثم بعد ذلك يحصل العزم على ما يدعو إليه الشيطان . . فإذا لم تتدارك ذلك تجرى الزلَّة ، وإذا لم تتدارك ذلك بمُحَسِّنِ الرُّجى صار فسقاً . . وبتأدي الوقت تصبح في خطرٍ كل آفة .

ولا يتخلص العبدُ من نزغات الشيطان إِلَّا بصدق الاستعانة وصدق الاستغاثة وبذلك

ينجو من الشيطان ، وقد قال تعالى : « إِن عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ »^(٢) ؛ فكلمًا ازداد

العبدُ في تَبَرُّيه من حَوْلِهِ وقوته^(٣) ، وأخلص بين يدي الله بتضرعه واستعاثته واستعاذته زاد الله في حِفْظِهِ ، ودَفَعَ الشيطان عنه .

قوله جل ذكره : « وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ

وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ

وَاللْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ

إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » .

(١) هكذا في م وهي في ص (خطرة) بالراء ، ونحن لا نرفض ذلك إذ يقول القشيري في رسالته ص ٤٦ : «أنحوطر خطاب يرد على الضائر وقد يكون الخاطر بإلقاء مَلَكٍ ، أو بإلقاء الشيطان ، وقد يكون حديث النفس» .. ويقول في نفس الموضع : كل خاطر لا يشهد الظاهر فهو باطل .

(٢) آية ٦٥ سورة الإسراء .

(٣) لأنه كلما ازداد في ذلك ازدادت عبوديته ، فدخل في زمرة «عِبَادِي» الذين ليس للشيطان عليهم سلطان . وهذا الفهم يتأيد السياق ويتأسس في ظل الشاهد القرآني .

أَوْضَحَ الْآيَاتِ ، وَالْأَحَ الْبَيِّنَاتِ ، وَأَزَاحَ عِلَّةَ مَنْ رَامَ الْوَصُولَ . وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، وَدَوَّرَانُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ مِنْ جَمَلَةِ أَمَارَاتِ قُدْرَتِهِ ، وَدَلَالَاتِ تَوْحِيدِهِ .
« لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ » فِي عِلَالِهَا ، « وَلَا لِلْقَمَرِ » فِي ضِيَائِهِ : « وَاسْجُدُوا لِلَّهِ »
فَقَدْ غَارَ^(١) عَلَيْكَ أَنْ تَسْجُدَ لغيرِهِ .

وَالشَّمْسُ — وَإِنْ عَلَتْ ، وَالْقَمَرُ — وَإِنْ حَسُنَ . . فَلَا تُجِلِّكَ خَلْقُنَاهُمَا ، فَلَا تَسْجُدْ لَهَا ، وَاسْجُدْ لَنَا .

وَيَقَالُ : خَلَقَ الْمَلَائِكَةَ — وَمَعَ كَثْرَةِ عِبَادَتِهِمْ ، وَمَعَ تَقَدُّمِهِمْ فِي الطَّاعَةِ — قَالَ لَهُمْ : اسْجُدُوا لِآدَمَ ، وَحِينَ امْتَنَعَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ لِعَيْنِ إِلَى الْأَبَدِ . وَقَالَ لِأَوْلَادِ آدَمَ الْعَصَاةِ الْمَذْنُوبِينَ : « لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ ... » فَشَتَّانِ مَا هُمَا !!

وَالْحَقُّ — سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى — يَأْمُرُكَ بِصِيَانَةِ وَجْهِكَ عَنِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ . . وَأَنْتَ لِأَجْلِ كُلِّ حَفْظٍ خَسِيسٍ تَنْتَقِلُ قَدَمَكَ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ ؛ وَتَدْخُلُ بِمُحْيَاكَ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ !!

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ »^(٢)

أَيْ : إِنْ تَرَفَّعَ الْكَفَّارُ فَلَا خَلَلَ ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ غَنَى عَنْ كُلِّ أَحَدٍ ، ثُمَّ إِنْ الْمَلَائِكَةُ — الَّذِينَ هُمْ سُكَّانُ الْآخِرَةِ — يَسْجُدُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ مِنْ عِبَادَتِهِ .

(١) يَقُولُ الْقَشِيرِيُّ فِي رِسَالَتِهِ ص ١٢٦ « الْغِيْرَةُ كِرَاهِيَةٌ مُشَارَكَةِ الْغَيْرِ ، وَإِذَا وَصَفَ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ بِالْغِيْرَةِ فَمَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يَرْضَى بِمُشَارَكَةِ الْغَيْرِ مَعَهُ فِيمَا هُوَ حَقٌّ لَهُ مِنْ طَاعَةِ عِبْدِهِ » .

(٢) هَذِهِ آيَةُ سَجْدَةٍ ، وَاخْتَلَفَ فِي مَوْضِعِ السُّجُودِ مِنْهَا . فَقَالَ مَالِكٌ إِنْ مَوْضِعُهُ « إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » « لِأَنَّهُ مُتَّصِلٌ بِالْأَمْرِ » . . وَقَالَ الشَّافِعِيُّ إِنَّهُ : « وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ » لِأَنَّهُ تَمَامُ الْكَلَامِ وَغَايَةُ الْعِبَادَةِ وَالْإِمْتِثَالِ .
وَقَدْ تَضَمَّنَتِ الْآيَةُ صَلَاةَ الْكُسُوفِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَقُولُ : إِنْ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا يَكْسِفَانِ إِلَّا لِمَوْتِ عَظِيمٍ . . فَصَلَّى النَّبِيُّ (ص) صَلَاةَ الْكُسُوفِ (الْقُرْطُبِيُّ - ١٥ ص ٣٦٤) .

قوله جل ذكره : « ومن آياته أنك ترى الأرضَ

خاشعةً فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزتُ

ورَبَّتْ إِنَّ الذي أحيها لُمُعَى الموتى

إِنَّه عَلَى كل شيء قديرٌ »

الأرضُ تكونُ جَدْبَةً يَابِسَةً في الشتاء ، فإذا نزل عليها المطرُ اهتزت بالنبات واخضرتُ وكذلك القلوب إذا خشعت لاستشعارها بما أَلَمَّتْ به من الذنوب أقبل عليها الحق سبحانه ، فظهرت فيها بركاتُ الندم ، وعفا عن أربابها ما قصرُوا في صِدْقِ القَدَمِ . وكذلك إذا وقعت للعبد فترةٌ في معاملاته ، أو غيبةٌ عن بساط طاعته ، ثم تَعَمَّدَه الحقُّ — سبحانه — بما يدخل عليه من التذكر تظهر في القلب أنوارُ الوفاق ، فيعود إلى مألوف مقامه ، ويرجع عود سداذه غَضًّا طريًّا ، ويصير شجر وفاقه — بعدما أصابته الجدوبة — بماء العناية مستقيًّا .

وكذلك إذا بدت لأهل العرفان وقصة ، أو حدثت لهم من جرّاء سوء أدبٍ بَدَرٌ منهم حجةٌ ثم نظر الحقُّ — سبحانه — إليهم بالرعاية.. اهتزت رياضُ أنسِهِم ، واخضرتُ مشاهدُ قُرْبِهِم ، وانهزمت وفودُ وقتِهِم .

« إن الذي أحيها لحي الموتى إِنَّه على كل شيء قديرٌ » : إن الذي أحيها الأرضَ بعد موتها قادرٌ على إحياء النفوس بالحشر والنشر . وكذلك هو قادر على إحياء القلوب بنور العناية بعد الفترة والحجبة .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الذين يُبْذَرُونَ في آياتِنَا لَا يَحْقُقُونَ

علينا أَقَمَنَ يُلقَى في النارِ خَيْرٌ أَم مَّنْ

يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ القِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّه

بِمَا تَعْمَلُونَ بصيرٌ » .

سيلقون من العذاب ما يستوجبونه .. قَلِيعَمَلُوا ماشاءوا .. فليسوا يَسْعَوْنَ إِلَّا في ذَمِّهِمْ ، وليسوا يمشون إِلَّا إلى هلاكهم بِأَقْدَامِهِمْ .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ

لَكِتَابٌ عَزِيزٌ » .

الجواب محذوف ومعناه : بقوا عتًا ، ووقعوا في هوانهم وشقوا إلى الأبد .

« وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ » : كِتَابٌ عَزِيزٌ لَا مِثْلَ لَهُ حَيْثُ قَدْ عَجَزُوا عَنِ الْإِنْيَانِ بِمِثْلِهِ .

كِتَابٌ عَزِيزٌ غَالِبٌ لِسَبِّهِ الْمُبْتَدِعِينَ وَالْكَفَّارِ .

عَزِيزٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى مُعَارَضَتِهِ أَحَدٌ . . . مِنْ قَوْلِهِمْ أَرْضُ عَزَازٍ^(١) .

كِتَابٌ عَزِيزٌ لِأَنَّهُ كَلَامُ رَبِّ عَزِيزٍ إِلَى رَسُولٍ عَزِيزٍ بِسَفَارَةِ مَلَكٍ عَزِيزٍ إِلَى أُمَّةٍ

عَزِيزَةٍ .

كِتَابٌ عَزِيزٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُ كِتَابٌ حَيِّهِمْ . . . وَكِتَابٌ الْحَيِّيبِ إِلَى الْحَيِّيبِ عَزِيزٌ .

« لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ

خَلْفِهِ نَزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » .

أَيُّ لَا يَنْقُضُهُ كِتَابٌ آخَرٌ لَا مِمَّا تَقَدَّمَ مِنَ الْكُتُبِ ، وَلَا مِمَّا يَأْتِي مِنْ بَعْدِهِ . . . أَيْ

لَا كِتَابَ بَعْدَهُ ، وَلَا نَسْخَ لَهُ .

وَيُقَالُ لَا يَدْفَعُ^(٢) مَعْنَاهُ لَفْظُهُ ، وَلَا يَخَالَفُ لَفْظُهُ مَعْنَاهُ . . .

وَيُقَالُ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ .

قوله جل ذكره : « مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَد قِيلَ لِلرُّسُلِ

مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَغْفِرٌ وَذُو

عِقَابٍ أَلِيمٌ » .

أَصُولُ التَّوْحِيدِ لَا تَخْتَلِفُ بِالشَّرَائِعِ ؛ فَجَوْهَرُهَا فِي الْأَحْكَامِ وَاحِدٌ : هُوَ أَنَّهُ تَجِبُ مُوَاقِفَةُ

أَوَامِرِهِ ، وَاجْتِنَابُ مَزَاجِرِهِ . ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ فِي كُلِّ كِتَابٍ ، وَشَرَعَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَنْ يَعْرِفُوا

(١) الْأَرْضُ الْعَزَازُ = الْأَرْضُ الصَّلْبَةُ السَّرِيعَةُ السَّيْلُ (الْوَسِيطُ) .

(٢) دَفَعَ الشَّيْءَ = نَحَاهُ وَأَزَالَهُ ، قَالَ تَعَالَى : « وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ » .

أنه للمطيعين مُثيبٌ ، وللكافرين ذو عذابٍ شديد .

قوله جل ذكره : « ولو جعلناه قرآنا أعجمياً لقالوا لولا

فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ، أعجميٌّ وعربيٌّ ؟ قل هو

للذين آمنوا هُدىً وَشِفاءٌ والذين

لا يؤمنون في آذانهم وقرٌّ وهو عليهم

عمى أولئك بُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ » .

أخبر أنه أزاح العِلَّةَ لِيَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ صِدْقَ الدَّعْوَةِ ، وصحة الشريعة .

ثم وصف الكتاب بأنه شفاء للمؤمنين ، وسببُ شقاء للكافرين .

وهو شفاء للعلماء حيث استراحوا به عن كدِّ الفكر وتحيرِ الخواطر .

وهو شفاء لضيق صدور المریدين لما فيه من التَّعَمُّقِ بقراءته ، والتلذُّذ بالتفكير فيه .

وهو شفاء لقلوب المحبين من لواعيج الاشتياق لما به من لُطْفِ المواجهيد .

وهو شفاء لقلوب العارفين بما يتوالى عليها من أنوار التحقيق ، وآثار خطاب الرب العزيز .

« والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى » : هم لا يسمعون بقلوبهم من الحق ،

ولا يستجيبون . . بقوا في ظلمات الجحد والجهل .

« وهو عليهم عمى » : لا يزدادون على مر الأيام إلا ضلالا .

قوله جل ذكره : « ولقد آتينا موسى الكتابَ فاخْتُلِفَ

فيه ولولا كلمةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ

بينهم ولما نهم لى شكٍ منه مُريبٍ » .

آتينا موسى التوراة ، وأرسلناه إلى قومه ، فاختلفوا في أمره . . فَمَنْ كَحَلَّنَا سِرَّهُ بنور

التوحيد صدَّقه ، وَمَنْ أَعْمَيْنَاهُ عَنْ مَوَاقِعِ الْبَيَانِ قَابَلَهُ بِالتَّكْذِيبِ وجحدته .

« ولولا كلمةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ » وهى أن عقوبتهم فى النار بعد قيام القيامة لَعَجَّلْنَا

استنصاهم ، ولأذقناهم في الحال وبآلم^(١) .

قوله جل ذكره : « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ

فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَمِيدِ » .

« فلنفسه » لأن النفع عائدٌ إليه . وَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا سَيِّئًا فَإِنَّمَا ظَلَمَ نَفْسَهُ ، وأساءَ إليها ؛ لأنه

هو الذي يقامى ضرره ويلقى شره .

قوله جل ذكره : « إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ

ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ

وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ

شُرَكَائِيَ قَالُوا أَعْزَاكَ مَا مِنَّا مِنْ

شَهِيدٍ » .

لَمَّا استعجلوا وقالوا : متى تقوم هذه القيامة التي يتوعدنا بها ؟ قال الله تعالى : إِنْ عِلْمُ

القيامة ينفرد به الحقُّ فلا يعلمه غيره ، فكما لا يعلم أحدٌ ما الذي يخرج من الأشجار من الثمار ،

وما الذي تنطوي عليه أرحامُ النساء من أولادها ذكورا وإناثا ، وما هم عليه من أوصاف

الخلقة ، وما يحصل من الحيوانات من نتائجها — فلا يعلم هذه الأشياء إلا الله — فكذلك

لا يعلم أحدٌ متى تقوم القيامة .

« وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ » : يتبرءون من شركائهم ، ولكن في وقت لا تنفعهم

كثرةُ ندائهم وبكائهم .

قوله جل ذكره : « لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دَعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ

مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَتَوْسَّلْ قَنُوطًا » .

(١) في موضع سبق أوضح القشيري أنه ربما كان من أسباب الحكمة الإلهية في تأخير عقوبة أمة النبي «ص»

— كما حدث للأمم السابقة — هو تأخير العذاب بسبب ما يخرج من أصلابهم من المؤمنين .

لا يَمَلُّ الإنسانُ من إرادة النفع والسلامة ، وإنَّ مَسَّهُ الشرُّ فيثوس^١ لا يرجو زواله لِمَدَمَ
علمه بربه ، وانسداد الطريق على قلبه في الرجوع إليه .

« وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ
ضُرِّاءِ مَسَّئِهِ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ
السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِيتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنِّي
لِيَ عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ
غَلِيظٍ » .

لئن كَشَفْنَا عنه البلاءَ ، وأوجبنا له الرجاء لادِّعائه استحقاقاً أو اتفاقاً ، وما اعتقد أن
ذلك مِنَّا فضلٌ وإيجاب .

ويقول : لو كان لي حشرٌ ونشرٌ لكان لي من الله لطفٌ وخير ، وغداً يعلم الأمر ، وأنه
بخلاف ما تَوَهَّمُ . . . وذلك عندما نذيقه ما يستوجبه من عذاب .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ
وَنَآىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ
عَرِيضٍ » .

هو لا يميز بين البلاء والعطاء ؛ فكثيرٌ مما يتوهمه عطاء هو مكرٌ واستدراجٌ . . . وهو
يستدعيه . وكثيرٌ مما هو فضلٌ وصَرَفٌ^(١) وعطاء يظنه من البلاء فيعافه^(٢) ويكرهه .

ويقال إذا أنعمنا عليه صاحبه بالبطر ، وإذا أبليناه قابله بالضجر .

ويقال إذا أنعمنا عليه أعجب بنفسه ، وتكبر مختللاً في زهوه ، لا يشكر ربه ، ولا يذكر
فضله ، ويتباعد عن بباط طاعته .

(١) صَرَفَ الله المكاره صَرَفًا أي أبعدا .

(٢) في م (فيعافيه) وهي خطأ في النسخ .

والمستغنى عنا يهيم على وجهه ، وإذا مته الشر فذودعاء كثير ، وتضرع عريض ،
وابتهال شديد ، واستكشاف^(١) دائم .

ثم إذا كشفنا عنه ذلك فله إلى عتوه ونُبُوّه عَوْدٌ ، ولسوء طريقته في الجحود إعادة .

قوله جل ذكره : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ
كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ
بَعِيدٍ * سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ
وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ
أَوَلَمْ يَكُنْ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدٌ * أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ
رَبِّهِمْ أَلَّا يَكُونَهُ بَيْنَهُمْ أَلْفًا مِّنْ شَيْءٍ مُّحِيطٍ » :

« سنريهم » : السين للاستقبال ؛ أى سيُظهر لهم من الآيات ، ومن الأحداث التي تجري
في أحوال العالم ، وما سيحلُّ بهم من اختلاف الأمور ما يتبين لهم من خلاله أنَّ هذا الدين
حقٌّ ، وأنَّ هذا الكتاب حقٌّ ، وأنَّ محمداً — صلى الله عليه وسلم — حقٌّ ، وأنَّ المجريَّ
لهذه الآيات والأحداث والأمور والمنشئ له هو الحقُّ — سبحانه .

ومن تلك الآيات ما كان من قهر الكفار ، وعُكُوف الإسلام ، وتلاشي أعداء الدين .

ويقال من تلك الآيات في الآفاق اختلافُ أحكام الأعين مع اتفاق جواهرها في التجانس ..
وهذه آيات حدوثِ العالم ، واقتضاءُ المحدث لصفاته .

« وفي أنفسهم » : من أمارات الحدوث واختلاف الأوصاف ما يمكنهم إدراكه .

ويقال : « في الآفاق » للعلماء ، « وفي أنفسهم » لأهل المعرفة مما يجدونه من العقاب إذا
أَلَمُوا بِذَنْبٍ ، ومن الثواب إذا أخلصوا في طاعة .

وكذلك ما يحصل لهم من اختلاف الأحوال من قبضٍ وبسط ، وجمع وفرق ، وحجبٍ

(١) الاستكشاف والاستصراف طلب كشف الغُصَّةِ ومصرَّفها

وجذب . . وما يجدونه بالضرورة في معاملاتهم ومنازلاتهم^(١) .

« أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » : هو الكافي ، ولكنهم — أى الكفار —
في مِرْيَةٍ من لقاء ربهم في القيامة . والإشارة فيه : أن العوام كفى شك من تجويز ما يُكاشَفُ
به أهلُ الحضور من تعريفات السرِّ .

« ألا إنه بكل شيء محيط » : عالم لا يَخْفَى عليه شيء .

(١) يتفق هذا مع ما يذهب إليه جمهور الصوفية حين يميزون الأحوال والمقامات ، فالأحوال مواهب من الحق ،
والمقامات مكاسب للعبد — وإن كانت هذه المكاسب تتم هي الأخرى بفضل الله وعونه .

سُورَةُ الشُّورَى

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

سلوةُ العاصين في سماعِ رحمةِ الله ، وحظوةُ العابدين في رجائهم نعمةَ الله ، وراحةُ الفقراء في رضاهم بقسمةِ الله .. لكلٍّ من حاله نصيب ، وكلٌّ في مُتَنَفِّسِهِ مُصِيب .

قوله جل ذكره : « حَمْدٌ * نَسَقٌ »

الحاء مفتاح اسمه : حلیم وحافظ وحكيم ، واليم مفتاح اسمه : مَلِكٌ وماجد ومجيد ومَنَّان ومؤمن ومهيمن ، والعين مفتاح اسمه : عالم وعدل وعالٍ ، والعين مفتاح اسمه : سيِّدٌ وسميع وسريع الحساب ، والقاف مفتاح اسمه قادر وقاهر وقريب وقدير وقُدوس^(١) .

« كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ

قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

أقسم بهذه الأسماء وهذه الحروف إنه كما أوحى إلى الذين مِنْ قَبْلِكَ كذلك يوحى إليك العزيز الحكيم ، كما أوحى إليهم العزيز الحكيم .

« لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ » .

له ما في السموات وما في الأرض مُلْكاً .

« وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ » : عُلُوُّهُ وعظمته استحقاقه لأوصاف المجد ؛ أى وجوب أن يكون

بصفات المجد والجلال .

(١) ربما يتأيد اتجاه القشيري في تفسير هذه الحروف المنطقة هنا بالأسماء والأوصاف الإلهية بختام الآيات التالية بالعزيز الحكيم والعل العظيم والنفور الرحيم .. كأن هذا هو المناخ الذي توحى به افتتاحية السورة .

قوله جل ذكره : « تكاد السمواتُ
يتفطرْنَ من فوقهن والملائكةُ يُسبِّحون
بحمد ربِّهم ويستغفرون لِمَن في الأرضِ
أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » .

أى تكاد السموات تتشق من عظمة من فوقهن وهو الله تعالى ، والفوقية هنا فوقية
رتبة^(١) ؛ وذلك من شدة هيبتهن من الله .

ويقال من ثقل الملائكة الذين هم فوق السموات لكثرتهم . وفي الخبر : « أظت^(٢)
السماء أظاً وحق لها أن تثط ؛ ما من موضع قدّم في السموات إلا وعليه قائم أوراكم
أو ساجد » .

ويقال إنه على عادة العرب إذا أخبروا عن شيء قالوا كادت السموات تنشق له . . . وهنا
لقبح قول المشركين ولجراتهم على الله تعالى ، ولعظم قولهم كادت السموات تنشق . . . قال
تعالى : « لقد جئتم شيئاً إدّاً . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً .
أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلِئَا^(٣) » وعلى هذا التأويل : « يتفطرن من فوقهن » أى إلى أسفلهن ،
أى تنفطر جملتها^(٤) .

ومع أن أولاد آدم بهذه الصفة إلا أن الملائكة يسبحون بحمد ربهم لا يفترون ،
ويستغفرون لمن في الأرض . . . ثم قال : « ألا إن الله هو الغفور الرحيم » : أى يغفر لهم مع
كثرة عصيانهم . وفي الوقت الذى يرتكب فيه الكفار هذا الجرم العظيم بسبب شرّ كهف فإنه
— سبحانه — لا يقطع رزقه ونعمه عنهم — وإن كان يريد أن يذّبهم في الآخرة .

قوله جل ذكره : « والذين اتخذوا من دونه أولياء الله

(١) لجأ القشيري إلى التأويل كي يتفادى نسبة المكانية إلى الألوهية .

(٢) أظاً الظاهر = صوّت من ثقل الحمل (الوسيط) .

(٣) آيات ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ سورة مريم .

(٤) يقول النسفي : كان القياس أن يقال يتفطرن من تحت من الجهة التي جاءت منها كلمة الكفر ، ولكنه
برأى في ذلك فجعلت مؤثرة في جهة الفوق كأنه قيل : كدن يتفطرن من الجهة التي فوقهن دع الجهة التي تحتهم .
(النسفي ٤ ص ١٠٠) .

حفيظٌ عليهم وما أنتَ عليهم بوكيلٍ ،

المشركون اتخذوا الشياطينَ أولياءَ مِن دونه ، وذلك بمواقفتهم لها فيما توسوس به إليهم .
وليس يخفى على الله أمرهم ، وسيعذبهم بما يستوجبونه . ولست — يا محمد — بمُسَلِّطٍ عليهم .
وفي الإشارة : كلُّ مَنْ يعمل بمتابعة هواه ويترك الله حداثاً أو ينقض له عهداً فهو يتخذ
الشياطينَ أولياءَ ، والله يعلمه ، ولا يخفى عليه أمره ، وعلى الله حسابه . ثم إن شاء عذبه ، وإن
شاء غفر له .

قوله جل ذكره : « وكذلك أوحينا إليك قرآنًا عربياً
لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ
يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ
وفريقٌ فِي السَّعِيرِ » .

أنزلنا عليك قرآنًا يُتلى بلغة العرب لتخوِّفَ به أهلَ مكة والذين حولها . وجميعُ العالمِ
مُخَدِّقٌ بالكعبة ومكة لأنها مُرَّةُ الأرضِ .

« وتنذر يومَ الجمعِ » : تنذرهم بيوم القيامة . والإنذارُ الإعلامُ بموضع الخفاة . ويوم الجمع
— وهو اليوم الذي يُجْمَعُ فيه أَتْلَقُ كلُّهم ، ويُجْمَعُ بين المرء وعمله ، وبين الجسد وروحه ^(١) ،
وبين المرء وشكله في الخير والشرِّ — لا شكَّ في كونه . وفي ذلك اليومَ فريقٌ يُبْعَثُ إلى
الجنة وفريقٌ يحصل في السعير . وكما أنهم اليومَ فريقان ؛ فريق في راحة الطاعات وحلاوة
العبادات ، وفريق في ظلمة الشرِّ وعقوبة الجحد . فكذلك غداً ؛ فريقٌ هم أهل اللقاء ،
وفريقٌ هم أهل الشقاء والبلاء .

قوله جل ذكره : « ولو شاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
ولكن يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ
والظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » .

إنَّ أراد أن يجمعهم كلَّهم على الهدى والرشاد لم يكن مانع . . وإذا لا زَنْ لَمْ . ولو شاء

(١) من هذا نفهم أن القشيري يؤمن بالبعث الكامل أي بعودة الجسد والروح معاً إلى الحياة مرة أخرى .

أن يجمعهم كلهم على الفساد والعناد لم يكن دافع — وإذا لاشين منه . وحيث خلقهم مختلفين — على ما أراد — فلا مبالاة بهم . . إنه إله واحد جبار غير مأمور ، متول جميع الأمور ؛ من الخير والشر ، والنفع والضر . هو الذى يحيى النفوس والقلوب اليوم وغداً ، ويميت النفوس والقلوب اليوم وغداً^(١) .. وهو على كل شيء

قوله جل ذكره : « وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب » .

« فحكمه إلى الله » : أى إلى كتاب الله ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وإجماع الأمة ، وشواهد القياس . والعبرة بهذه الأشياء فهى قانون الشريعة ، وجعلتها من كتاب الله ؛ فإن الكتاب هو الذى يدل على صحة هذه الجملة^(٢) .

ويقال : إذا لم تهتدوا إلى شيء وتعارضت منكم الخواطر فدعوا تديركم ، والتجئوا إلى ظل شهود تقديره ، وانتظروا ما ينبى لكم أن تفعلوه بحكم تيسيره^(٣) .

ويقال إذا اشتغلت قلوبكم بحديث أنفسكم ؛ لا تدرون أبا لسعادة جرى حكمكم أم بالشقاوة مضى اسمكم ؟ فكلوا الأمر فيه إلى الله ، واشغلوها فى الوقت بأمر الله دون التفكير فيما ليس لكم سبيل إلى عليه عن عواقبكم .

قوله جل ذكره : « فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، ومن الأنعام أزواجاً بذروكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » .

خلق لكم من أنفسكم أزواجاً : أى أشكالاً ؛ تخلق حواء من آدم وخلق

(١) الإحياء والإماتة اليوم مرتبطان بالمعاني الصوفية من صفاء وكثورة ونحو ذلك .
(٢) هذا رد على من يتهمون الصوفية بعدم الاحتفال بالمصادر الأساسية للشريعة ، فضلاً عن أننا نشعر بامتناعهم بالجانب العقل حين يبرزون « القياس » كصدر من مصادر التشريع .
(٣) وهذا المصدر الأخير خاصة بالسادة الأولياء الأصفياء — يمتنا أمره حين ندرس مصادر الفقه الصوفى .

— بسبب بقاء التناسل — جميع الحيوانات أجناساً .

« يذروكم » : يُكثِرُ خَلْقَكُمْ . « فيه » الهاء تعود إلى البطن أى فى البطن ، وقيل : فى الرَّحِم ، وقيل : فى التزويج^(١) .

« ليس كمثل شئ » : لأنه فاطر السموات والأرض ، ولأنه لا مِثْلَ يُضَارِعُهُ ، ولا شكل يشاكله . والكاف فى ليس « كمثل » صلة أى ليس مثله شئ . ويقال : لفظ « مثل » صلة ؛ ومعناه ليس كهو شئ . ويقال معناه ليس له مثل ؛ إذ لو كان له مثل لكان كمثل شئ وهو هو ، فلما قال : « ليس كمثل شئ » فمعناه ليس له مثل ، والحق لا شبيه له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أحكامه .

وقد وقع قومٌ فى تشبيه ذاته بذات المخلوقين فوصفوه بالحدِّ والنهاية والكون فى المكان ، وأقبح قولاً منهم مَنْ وصفوه بالجوارح والآلات ؛ فظنوا أن بَصَرَهُ فى حدقة ، وسمعه فى عضو ، وقدرته فى يدٍ . . . إلى غير ذلك .

وقومٌ قاسوا حكمه على حكم عباده ؛ فقالوا : ما يكون من الخلق قبيحاً فنه قبيح ، وما يكون من الخلق حسناً فنه حسن !! وهؤلاء كلهم أصحاب التشبيه — والحق مستحقٌ للتنزيه دون التشبيه ، مستحقٌ للتوحيد دون التحديد ، مستحقٌ للتحصيل دون التعطيل والتمثيل .

قوله جل ذكره : « له مقاليد السموات والأرض يَبْسُطُ

الرزقَ لِمَن يشاء وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ

عَلِيمٌ » .

« مقاليد » أى مفاتيح ، والمفاتيح للخزائن ، وخزائنه مقدوراته . وكما أن فى الموجودات معادن مختلفة فكذلك القلوب معادن جواهر الأحوال ؛ فبعض القلوب معادن المعرفة ، وبعضها معادن المحبة ، وبعضها للشوق ، وبعضها للأنس . . . وغير ذلك من الأحوال كالتوحيد والتفريد والهيبة والرضا . وفائدة التعريف بأن المقاليد له : أن يقطع العبد أفكاره عن الخلق ، ويتوجه

(١) يقول السنى : اختير «فيه» حل «به» لأنه جمل هذا التدبير كالمنبع أو المعدن للثبات والتكثير .

في طلب ما يريد من الله الذي « ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر » ، والذي هو « بكل شيء عليم » :
يوسّع ويضيّق أرزاق النفوس وأرزاق القلوب حسب ما شاء وحاكم وعليم .

قوله جل ذكره : « شرّع لكم من الدين ما وصى به
نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصىنا
به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا
الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين
ما تدعوم إليه الله يحتبى إليه من يشاء
ويهدى إليه من ينب » .

« شرع » : أى بيّن وأظهر . « من الدين » أراد به أصول الدين ؛ فإنها لا تختلف في جميع
الشرائع ، وأما الفروع فمختلفة ، فالآية تدلّ على مسائل أحكامها في جميع الشرائع واحدة .
ثم بيّن ذلك بقوله : « أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » . . . وفي القصة أن تحرّم البنات
والأخوات إنما شرّع في زمان نوح عليه السلام .

قوله جل ذكره : « وما تفرّقوا إلا من بعد ما جاءهم
العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من
ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم »
يعنى أنهم أصرّوا على باطلهم بعد وضوح البيان وظهور البرهان حين لا عذر ولا شك
« ولولا كلمة سبقت من ربك » . . . وهو أنه حاكم بتأخير العقوبة إلى يوم القيامة لتعجل لهم
ما يتمنونه .

قوله جل ذكره : « فلذلك فادع واستقيم كما أمرت
ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما
أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل
بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا

ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم
الله يجمع بيننا وإليه المصير .

أى ادعُ إلى هذا القرآن ، وإلى الدين الحنيف ، واستقيم في الدعاء ، وفي الطلعة . أمرَ
الكلَّ من الخلق بالاستقامة ، وأفرده بذكر التزام الاستقامة .

ويقال : الألف والسين والتاء في الاستقامة للسؤال والرغبة ؛ أى سأل منى أن أقيمك ،
« ولا تتبع أهواءهم ، وقُلْ : آمَنْتُ بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم » : أمرت
بالعدل في القضية ، وبأن أعلم أن الله إله الجميع ، وأنه يحاسب غداً كلَّ ما عمله ، وبأن الحجة
لله على خلقه ، وبأن الحاجة لهم إلى مولاهم .

قوله جل ذكره : « والذين يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا
اسْتَجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ
وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ » .

يحادلون في الله من بعد ما استُجيبَ لدعاء محمد صلى الله عليه وسلم يوم بدرٍ على المشركين .
حُجَّةٌ هؤلاء الكفار داحضة عند ربهم لأنهم يحتجون بالباطل ، وهم من الله مستوجبون
للعنة والعقاب (١) .

قوله جل ذكره : « الله الذى أنزل الكتابَ بالحقِّ
والميزانَ وما يُدْرِكُ لعلَّ الساعةَ قريبٌ » .

أنزل الكتاب ، وأنزل الحكم بالميزان أى بالحق .

ويقال ألهمهم وزن الأشياء بالميزان ، ومراعاة العدل في الأحوال .

« وما يدريك لعلَّ الساعةَ قريبٌ » : يزجرهم عن طول الأمل ، وينبههم إلى انتظار
مجوم الأجل .

(١) سماها حجة حسب زعمهم - وإن كانت شبهة في حقيقة أمرها . ومن أمثلة حجج أهل الكتاب أنهم كانوا
يقولون للمؤمنين : كتابنا قبل كتابكم ، ونبينا قبل نبيكم ، فنحن خير منكم وأول بالحق . . وكل هذه الحجج
داحضة بعدما دخل الناس في الإسلام ، وتركوا الجاهلية وآثامها ، استجابة لدعاء الرسول : اللهم إن تهلك هذه
المصيبة فلن نعوذ في الأرض .

قوله جل ذكره : « يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها
والذين آمنوا مُشْفِقُونَ منها ويعلمون
أنها الحقُّ إِلَّا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي
السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ » .

المؤمنون يؤمنون بالبعث وما بعده من أحكام الآخرة ، وَيَكِلُونَ أُمُورَهُمْ إِلَى اللَّهِ ؛ فلا
يتمنون الموتَ حَذَرَ الْإِبْتِلَاءِ ، ولكن إذا وَرَدَ الموتُ لم يكرهوه ، وكانوا مستعدين له (١) .

قوله جل ذكره : « اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ
وهو القويُّ العزيزُ » .

« لَطِيفٌ » (٢) أى عالم بدقائق الأمور وغوامضها . واللطيف هو المُلَطِّفُ الحسن . .
وكلاهما فى وصفه صحيح . واللطف فى الحقيقة قدرة الطاعة ، وما يكون سبب إحسانه للعبد اليوم
هو لُطْفٌ منه به .

وأكثر ما يستعمل اللطف — فى وصفه — فى الإحسان بالأمور الدينية .

ويقال : خَاطَبَ الْعَابِدِينَ بقوله : « لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ » : أى يعلم غوامض أحوالهم من دقيق
الرياء والتصنع لئلا يُعْجَبُوا بأحوالهم وأعمالهم . وخَاطَبَ الْعَصَاةَ بقوله : « لَطِيفٌ » : لئلا
يأسوا من إحسانه .

ويقال : خَاطَبَ الْأَغْنِيَاءَ بقوله : « لَطِيفٌ » : ليعلموا أنه يعلم دقائق معاملاتهم فى جمع المال
من غير وجهه بنوع تأويل ، وخَاطَبَ الْفُقَرَاءَ . بقوله : « لَطِيفٌ » أى أنه مُحْسِنٌ يَرْزُقُ
من يشاء .

ويقال : سَمِعَ قَوْلَهُ : « اللَّهُ » يوجبُ الْهِيبَةَ وَالْقَزَعَ ، وَسَمِعَ « لَطِيفٌ » يوجبُ السَّكُونَ

(١) لأن الموت يقربهم من اللقاء .. لقاء المحبوب .

(٢) تضاف أقوال القشيري هنا فى « اللطيف » إلى ما ذكره فى كتاب التعمير فى التذكير (تحقيق بسيون)
وما ذكره فى كتاب : شرح أسماء الله الحسنى (تحقيق الحلوانى) صدر بالقاهرة سنة ١٩٦٩ من ١٧٦ وما بعدها .

والطمانينة . فسمعُ قوله : « الله » أوجب لهم تهويلاً ، وسمعُ قوله : « لطيف » أوجب لهم تأميراً .

ويقال : اللطيفُ مَنْ يعطى قَدْرَ الكفاية وفوق ما يحتاج العبدُ إليه .

ويقال : مِنْ لُطْفِهِ بالعبدِ عِلْمُهُ بأنه لطيف ، ولولا لُطْفُهُ لَمَا عَرَفَ أنه لطيف .

ويقال : مِنْ لُطْفِهِ أنه أعطاه فوق الكفاية ، وكَلَّفَهُ دون الطاقة .

ويقال : مِنْ لُطْفِهِ بالعبدِ إِبْهَامُ عَاقِبَتِهِ عَلَيْهِ ؛ لأنه لو علم سعادته لا تَكَلَّ عليه ، وأَقْلَّ عمله . ولو عِلِمَ شقاوته لَأَيِسَ وَتَرَكَ عَمَلَهُ . . فأراد أن يستكثرَ في الوقت من الطاعة .

ويقال : من لُطْفِهِ بالعبدِ إخفاءُ أَجَلِهِ عنه ؛ لئلا يستوحش إن كان قد دنا أَجَلُهُ .

ويقال : من لُطْفِهِ بالعبدِ أنه يُنْسِيَهُ ما عمله في الدنيا من الزَلَّةِ ؛ لئلا يَنْقُصَ عليه العَيْشُ في الجنة .

ويقال : اللطيفُ مَنْ نَوَّرَ الأسرارَ ^(١) ، وحفظ على عبده ما أودَعَ قلبه من الأسرار ^(٢) ، وغفر له ما عمل من ذنوبٍ في الإعلان والإسرار .

قوله جل ذكره : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ

لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ

الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ

نَصِيبٍ » .

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ » : نَزِدْهُ — اليومَ — في الطاعات توفيقاً ، وفي المعارف

وصفاء الحالات تحقيقاً . ونَزِدْهُ في الْآخِرَةِ ثَوَاباً واقترباً وفنونَ نِجَاحٍ وصنوفَ درجاتٍ .

« وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا » : مكثفياً به نُؤْتِهِ منها ما يريد ، وليس له في الْآخِرَةِ

نَصِيبٍ .

(١) هذه (الأسرار) جمع السر وهو الملكة الباطنية التي تملو الروح — كما نعرف من المذهب العرفاني

للقشيري .

(٢) وأما (الأسرار) الثانية فهي جمع السر كما نعرفه — بمعنى الشأن الخفي .

قوله جل ذكره : « أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

« ما لم يأذن به الله » : أى ليس ذلك مما أمَرَ به ، وإنما هو افتراء منهم .

« ولولا كلمة الفصل » . . أى ما سبق به الحكمُ بتأخير العقوبة إلى القيامة . .

« ترى الظالمين مُشْفِقِينَ مما كَسَبُوا وهو واقعٌ بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ في روضاتِ الجناتِ لهم ما يشاءون عند ربِّهم ذلك هو الفضلُ الكبير » .

إذا حصل الإجرام فإلى وقتٍ ما لا يُعَذِّبُهُمُ اللهُ في الغالب، ولكنه لا محالةً يعذبهم . وربما يَثْبُتُ ذلك لبعض أصحاب القلوب فيتأسفون، ويعلمون أنَّ ذلك من الله لهم مُعَجَّلٌ قد أصابهم، أمَّا الكفار . . فقد أَسْفَقُوا مما يقع بهم عند ما يقرءونه في كتابهم ، لأنَّ المذابَ — لا محالةً — واقعٌ بهم .
« والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات » : في الدنيا جنات الوصلة ، ولذاذة الطاعة والعبادة ، وطيب الأنس في أوقات الخلوة . وفي الآخرة في روضات الجنة : « لهم ما يشاءون عند ربهم » : إن أرادوا دوامَ اللطفِ دامَ لهم ، وإن أرادوا تمامَ الكشف كان لهم . . ذلك هو الفضلُ الكبير .

قوله جل ذكره : « ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » .

ذلك الذي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ قَدْ مَضَى ذِكْرُهُ فِي الْقُرْآنِ مُتَفَرِّقاً ؛ مِنْ أَوْصَافِ الْجَنَّةِ وَأَطْيَابِهَا، وَمَا وَعَدَ اللهُ مِنَ الثَّوْبَةِ . . وَنَحْوِ ذَلِكَ .

« قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى » .

قُلْ — يا محمد — لا أسألكم عليه أجراً . مَنْ بَشَّرَ أَحَدًا بِأَخْيَرِ طَلَبٍ عَلَيْهِ أَجْرًا ، وَلَكِنْ اللهُ — وَقَدْ بَشَّرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ بِمَا لَهُمْ مِنَ الْكَرَامَاتِ الْأَبَدِيَةِ — لَمْ يَطْلُبْ عَلَيْهِ أَجْرًا ؛

فَاللَّهُ — سبحانه — لا يطلب عَوْضًا ، وكذلك نبيّه — صلى الله عليه وسلم — لا يأل أجرًا ؛
فإن المؤمنَ قد أخذ من الله خُلُقًا حَسَنًا . . . فمَن يطلب الرسولُ منهم أجرًا ؟! وهو — صلوات
الله عليه — يشنع لكلِّ مَن آمن به ، والله — سبحانه — يعطي الثواب لكلِّ مَن آمن به .
« إلا المودة في القربى » : أراد أن تثبت مودتك في القربى ؛ فتودَّ مَن يتقرَّب إلى الله
في طاعته (١) .

« وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً تَزِدْ لَهُ فِيهَا
حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ » .

تضعيف الثواب في الآخرة للواحد من عشرة إلى سبعمائة . . . هذه هي الزيادة .

ويقال : الزيادة هي زيادة التوفيق في الدنيا .

ويقال : إذا أتى زيادة في المجاهدة تفضلنا بزيادة . . . وهي تحقيق المشاهدة .

ويقال مَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةَ الْوُضْأف (٢) تَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنَ الْطَائِف .

ويقال : تلك الزيادة لا يصل إليها العبدُ بوسعه ؛ فهي مما لا يدخل تحت طَوْقِ (٣) البَشَرِ .

قوله جل ذكره : « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ

يَشَأْ اللَّهُ يُخَيِّمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ

الْبَاطِلَ وَيُخَيِّقُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ

بذَاتِ الصُّدُورِ » .

أَي أَنَّا إِنْ افْتَرَيْنَاهُ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِكَ ، وَلَكِنَّكَ لَمْ تَكْذِبْ عَلَى رَبِّكَ .

ومعنى الآية أَنَّ اللَّهَ يَقْصِرُّ فِي عِبَادِهِ بِمَا يَشَاءُ : مِنْ إِعَادٍ وَتَقْرِيبٍ ، وَإِدْنَاءٍ وَتَبْعِيدٍ (٤) .

(١) استغلت هذه الآية الكريمة استغلالاً عقدياً وسياسياً في عصور متأخرة خصوصاً من جانب الملتشيعين لعل
كرم الله وجهه وبيته . . . وواضح أن القشيري أطلق القراية على كل من يتقرب إلى الله بالطاعة ؛ فهي عنده قرابة في الله ،
وربما كان ذلك نتيجة سنيته وحرصه على سنيته . (أنظر مدخل اللطائف ص ١٥ ص ٢٥) .

(٢) المقصود بالوظائف أداء العبادات والتزام آداب الشريعة .

(٣) في ص ورودت (طرق) بالراء وهي خطأ في النسخ .

(٤) يقول مجاهد : « يخيم على قلبك » أي يربط عليه بالصبر على أذاهم واتهامهم له بالافتراء والكذب لئلا تدخله
شفقة بسبب تكذيبهم .

قوله جل ذكره : « وهو الذى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ

ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون »

« ويعفو عن السيئات » الألف واللام للجنس مطلقاً ، وهى هنا للعبد ؛ أى تلك السيئات التى تكفى التوبة المذكورة فى الشريعة لقبولها ؛ فإنه يعفو عنها إذا شاء^(١) . « ويعلم ما تفعلون » : من الأعمال على اختلافها^(٢) .

وهو « الذى » .. : الذى من الأسماء الموصولة التى لا يتم معناها إلا بِصِلَةٍ ، فهو قد تعرّف إلى عباده على جهة المدح لنفسه بأنه يقبل توبة العبد ؛ فالزَّالَةُ — وإن كانت توجب للعبد ذميمة الصِّفَةِ — فإنَّ قبولها يوجب للحقَّ حمداً الاسم .

ويقال : قوله : « عباده » اسم يقتضى الخصوصية (لأنه أضافه إلى نفسه)^(٣) حتى تمنى كثير من الشيوخ أن يحاسبه حساب الأولين والآخرين لعله يقول له : عبدى . ولكن ما طلبوه فيما قالوه موجود فى « التوبة عن عباده » ؛ وإذا فلا ينبغي لهم أن يتمنوا كذلك ، وعليهم أن أن يتوبوا لكي يصلوا إلى ذلك .

ويقال لما كان حديثُ العفو عن السيئات ذكراً على الجمع والتصريح^(٤) فقال : « ويعفو عن السيئات » . ثم لما كان حديثُ التهديد قال : « ويعلم ما تفعلون » فذكره على التلويح ؛ فلم يقل : ويعلم زلتك — بل قال ويعلم « ما » تفعلون ، وتدخل فى ذلك الطاعة والزَّالَةُ جميعاً^(٥) .

قوله جل ذكره : « ويستجيب الذين آمنوا وعملوا

الصالحات ويزيدهم من فضله ..

(١) يشير القشيري إلى الآية الكريمة «إن الله لا يفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء»

(٢) ويدخل فى ذلك — كما سيأتى بعد قليل — المعاصى والطاعات .

(٣) ما بين القوسين إضافة من عندنا طبقاً لما نعرفه من أسلوب القشيري فى مثل هذا الموضع .

(٤) هكذا فى م وهى فى ص (والتضرع) وهى خطأ فى النسخ لعدم ملائمتها للسياق ؛ فالتصريح يقابل « التلويح »

المذكور فيما بعد .

(٥) فى هذه الإشارة وما تلاها يبدو انفتاح باب الأمل أمام العصاة ، وكيف يحثهم هذا الإمام الجليل على التوبة

الآلة والرجاء الوطيد فى رحمة الله .

(أى إذا دَعَوْهُ استجابَ لهم) ^(١) بعظيم الثواب فى الآخرة .

« ويزيدهم من فضله » : يقول المفسرون من أهل السُّنة فى هذه الزيادة إنها الرؤية .

ذَكَرَ التَّوْبَةَ وَأَهْلَهَا ، وذكر العاصين بوصفهم ، ثم ذكر المطيعين الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . فلما وصل إلى الزيادة — التى هى الرؤية — قال : « ويزيدهم » على الجمع ؛ والكناية ^(٢) إذا تَلَّتْ مذكورات رجعت إليها جميعاً ؛ فيكون المعنى أن الطاعات فى مقابلها الدرجات ، وتكون بمقدارها فى الزيادة والنقصان ، وأما الرؤية فسييلها الزيادة والفضل . . والفضل ليس فيه تمييز .

ويقال : لما ذكر أن التائبين تُقْبَلُ توبتهم ، وَمَنْ لَمْ يَتَّعِبْ غُفِرَ زَلَّتْهُ ^(٣) ، وأن المطيعين لهم الجنة . . فلربما خَطَرَ بِيَالٍ أَحَدٍ : وإذا فهذه النارُ لِمَنْ هِيَ ؟ ! فقال جل ذكره :

« والكافرون لهم عذابٌ شديدٌ » .

فالعصاة من المؤمنين لهم عذابٌ . . أما الكافرون فلهم عذابٌ شديدٌ ؛ لأنَّ دليلَ الخطاب يقتضى هذا وذاك ؛ يقتضى أن المؤمنين لهم عذابٌ . . ولكن ليس بشديد ، وأما عذابُ الكافرين فشديدٌ .

ويقال : إن لَمْ يَتَّعِبْ العبدُ خوفاً من النار ، ولا طمعاً فى الجنة لَكَانَ من حقِّه أن يتوبَ لِيَقْبَلَ الحقُّ — سبحانه .

ويقال إن العاصى يكون أبداً منكسراً القلب ، فإذا عَلِمَ أن الله يَقْبَلُ الطاعة من المطيعين يتعنى أن ليت له طاعةٌ مُيسَّرةٌ ليقبلها ، فيقول الحقُّ : عبدى ، إن لَمْ تَكُنْ لك طاعةٌ تصلح للقبول فَلكَ توبةٌ إنْ أَتَيْتَ بِهَا تصلح لقبولها .

قوله جل ذكره : « وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فى الأرضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ

(١) ما بين القوسين زيادة من عتدنا وجدناها ضرورية لتوضيح العبارة .

(٢) يقصد القشيري بالكناية القصير فى « ويزيدهم » .

(٣) لأنه ربط ذلك بمشيئته — سبحانه — فقال « ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ .

هذا الخطاب في الظاهر يشبه الاعتذار في مخاطب الآدميين . والمعنى : أنتى لم أبسط عليك أيها الفقير في الدنيا لِمَا كَانَ لِي مِنَ الْعِلْمِ أَنْتَى لَوْ قَسَمْتُ عَلَيْكَ الدُّنْيَا لَطَغَيْتَ ، وَلَسَعَيْتَ فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ .

ويقال : قوله : « ولكن . . » : لكن كلمة استدراك ، فالمعنى : لم أَوْسَعْ عليك الرزق بمقدار ما تريد ؛ ولم أَمْنَعْ عنك (الكُلِّ)^(١) ؛ لَأَنِّي أَنْزَلْتُ بِقَدَرٍ مَا أَشَاءُ .

قوله جل ذكره : « وهو الذى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ » .

الله — سبحانه يُحْيِي الْقُلُوبَ ؛ فكما أنه « هو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته » ، فبعدها أصابت الأرض جدوبةً ، وأبطأ نزولُ الغيثِ ، وَقَنِطَ النَّاسُ مِنْ حَيِّهِ الْمَطَرِ ، وَأَشْرَفَ الْوَقْتُ عَلَى حَدِّ الْقَوَاتِ يُنَزِّلُ اللَّهُ بِفَضْلِهِ الْغَيْثَ ، وَيَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ قَنُوطِ أَهْلِهَا . . . فكذلك العبد ؛ إِذَا ذَبَلَ غُصْنُ وَقْتِهِ ، وَتَكَدَّرَ صَفْوُ وَدَّهِ ، (وكسفت)^(٢) شَمْسُ أَنْسِهِ ، (وَبَعَدَ)^(٣) عَنْ الْحَضَرَةِ وَسَاحَاتِ الْقَرَبِ عَهْدُهُ فَلَرَبَّمَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ الْحَقُّ بِرَحْمَتِهِ ؛ فَيَنْزِلُ عَلَى سِرِّهِ أَمْطَارَ الرَّحْمَةِ ، وَيَعُودُ عَوْدُهُ طَرِيًّا ، وَيُثَبِّتُ فِي مَشَاهِدِ أَنْسِهِ وَرَدًّا جَنِيًّا . وَأَنْشَدُوا :

إِنْ رَاعَنِ مِنْكَ الصَّدُودُ فَلَعَلَّ أَيْامِي تَعُودُ
وَلَعَلَّ عَهْدَكَ بِاللَّوَى يَحْيَا قَدْ تَحْيَا الْمُهُودُ
وَالْفَصْنُ يَبِيسُ نَارَةً وَتَرَاهُ تُخْضَرُّ بِعِيدِ

قوله جل ذكره : « وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

(١) هكذا في م ، وهي في ص (الكيل) وهي خطأ في النسخ كما هو واضح من السياق .

(٢) هكذا في ص ، وهي في م (كسفت) بالشين وهي خطأ في النسخ كما هو واضح .

(٣) سقطت في ص وموجودة في م والسياق يتطلبها .

وما بَثَّ فيهما من دابةٍ وهو على جمعهم
إذا يشاء قديرٌ .

جعل الله في كلِّ شيءٍ من المخلوقات دلالةً على توحده في جلاله ، وتفرده بنعت كبريائه
وجماله (١) .

« وهو على جمعهم إذا يشاء قدير » : والإشارة منها أن الحقَّ — سبحانه — يفار على
أوليائه أن يسكنَ بعضهم بقلبه إلى بعضٍ ؛ فأبدأً يُبددُ شملهم ، ولانكساد الجماعة من أهل
القلوب تنشق في موضعٍ واحدٍ إلا نادراً ، وذلك لمدةٍ يسيرة .. كما قالوا :
رمى الدهرُ بالفتيان حتى كأنهم

بأكنافِ أطرافِ السماءِ نجومُ

وفي بعض الأحيان قد ينفصل الحقُّ عليهم فتدنو بهم الديار ، ويحصل بينهم — في الظاهر —
اجتماعٌ والتقاء ، فيكون في ذلك الوقت قد نظر الحقُّ — سبحانه — بفضله إلى أن في اجتماعهم
بركاتٍ لحياة العالم .

وهذا — وإن كان نادراً — فإنه على جمعهم — إذا يشاء — قدير .

قوله جل ذكره : « وما أصابكم من مصيبةٍ فبما كَسَبَتْ
أيديكم ويعفو عن كثير » .

إذا تحقق العبدُ بهذه الآية فإنه إذا أصابته شظيةٌ أو حالةٌ مما يسوءه ، وعلمَ أن ذلك جزاء
له ، وعقابٌ على ما بدَّرَ منه من سوء الأدب لاستحجي بنجاسته من فعله ، ولشغله ذلك عن رؤية
الناس ، فلا يحاول أن ينتقمَ منهم أو يكافئهم أو يدعو عليهم ، وإنما يشغله تلافى ما بدَّرَ منه
من سوء الفعل عن محاولة الانتصاف لنفسه ممن يتسلط عليه من المخلوق .. تاركاً الأمرَ كله لله .
ويقال : إذا كثرت الأسبابُ من البلاء على العبد ، وتوالى عليه ذلك .. فليفكرْ
في أفعاله للدمومة .. كم يحصل منه حتى يبلغَ جزاء ما يفعله — مع العفو الكثير — هذا المبلغ ؟ !
فعند ذلك يزداد حزُّه وتأسُّفه : لِعِلْمِهِ بكثرة ذنوبه ومعاصيه .

(١) سبق أن نبهنا القشيري إلى توحيد القالة وتوحيد الدلالة .

قوله جل ذكره : « ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام » .
يريد بها السفن التي تجرى في البحار ؛ يرسل الله الريح فتسيرها مرة ، ويسكنها أخرى ،
وما يريهم خلال ذلك من الهلاك أو السلامة .. وهو بهذا يحثهم على التفكير والتنبه دائماً .
والإشارة في هذا إلى إمساك الناس ^(١) في خلال فترة الوقت عن الأنواء المختلفة ،
وحفظهم في إيواء السلامة ، فالواجب الشكر في كل حالة ، وإذا خلص الشكر استوجب
جزيل المزيد .

قوله جل ذكره : « فما أوتيتُم من شيء فمتاعُ الحياةِ
الدُّنيا وما عند الله خيرٌ وأبقى للذين
آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » .
يعني أنِّ الراحة في الدنيا لا تصفو ، ومن المشائب لا تخلو . وإن اتفق وجود البعض
منها في أحيان فإنها سريعة (الزوال) ^(٢) ، (وشيكة) ^(٣) الارتفاع .
« وما عند الله » من الثواب للموعد « خيرٌ » من هذا القليل الموجود .

قوله جل ذكره : « والذين يمتنعون كِبائرَ الإثمِ
والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون »
« كِبائرَ الإثمِ » : الشِرْك . و « الفواحش » : ما دون ذلك من الزلَّات . فإذا تركوها
لا يتجرعون كأساً غضب بل تسكن لديهم سورةُ النَّفس ؛ لأنهم يتوكلون على ربهم
في عموم الأحوال .

« والذين استجابوا لربهم وأقاموا
الصلاةَ وأمرهم شورى بينهم ومما
رزقناهم يُنفقون » .

(١) المقصود بإمساك الناس هنا حفظ الله سبحانه وتعالى لهم .

(٢) وردت (المداب) في ص وهي خطأ في النسخ .

(٣) وردت (وسكية) في ص وهي خطأ في النسخ .

« استجابوا لربهم » : فيما دعاهم إليه وما أمرهم به من فنون الطاعات ؛ فهؤلاء هم الذين لهم حُسْنُ الثواب وحيدُ المآبِ .

والمستجيبُ لربه هو الذي لا يبقى له نفسٌ إلا على موافقة رضاه^(١) ، ولا تبقى منه لنفسه بقية .

« وأمرهم شورى بينهم » : لا يستبدُّ أحدهم برأيه ؛ لأنه يتَّهمُ أمره ورأيه أبداً^(٢) . ثم إذا أراد القطعَ بشيء يتوكل على الله .

قوله جل ذكره : « والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون » .

« البغي » : الظلم ، فيعلم أحدهم أن الظلم الذي أصابه هو من قبل نفسه ، فينتصر على الظالم وهو نفسه ؛ بأن يكبح عنائها عن الركض في ميدان المخالفات .

قوله جل ذكره : « وجزاء سيئة سيئةً مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين » .

(يعني لا تجاوزوا حدَّ ما جنى الجاني عليكم في المكافأة أو الانتقام)^(٣) .

« فمن عفا وأصلح فأجره على الله » : مَنْ عفا عن الجاني ، وأصلح ما بينه وبين الله — أصلح الله ما بينه وبين الناس . « فأجره على الله » : فالذي للعبد من الله وعلى الله ، وعند الله خيرٌ مما يعمل به باختياره .

قوله جل ذكره : « وَلَئِنْ أَنتَصَرْتَ بَدَّ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا أَنصِبُهُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

(١) هذا ما يعرف عند الصوفية بمراعاة الأتقاس .

(٢) هذا أصل من أصول أهل الملامة النيسابورية .

(٣) ما بين القوسين سقط في ص وموجود في م .

عَلَّمَ اللَّهُ أَنْ الْكُلَّ مِنْ عِبَادِهِ لَا يَجِدُ التَّحَرَّرَ مِنْ أَحْكَامِ النَّفْسِ ، وَلَا يَتِمَكَّنُ مِنْ مُحَاسِنِ الْخَلْقِ فَرَخَّصَ لَهُمْ فِي الْمَكَاثِفَةِ عَلَى سَبِيلِ الْعَدْلِ وَالْقِسْطِ - - وَإِنْ كَانَ الْأَوْلَى بِهِمْ الصَّفْحُ وَالْعَفْوُ .
« إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ . . » : السَّبِيلُ بِالْمَلَامَةِ لِمَنْ جَاوَزَ الْحَدَّ ، (وَعَدَا الطَّوْرَ) ^(١) ، وَأَتَى غَيْرَ الْمَأْذُونِ لَهُ مِنَ الْفِعْلِ . . فَهَؤُلَاءِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

قوله جل ذكره : « وَلَكِنْ صَبَرْ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » .

صَبَرَ عَلَى الْبَلَاءِ مِنْ غَيْرِ شَكْوَى ، وَغَفَرَ - - بِالتَّجَاوُزِ عَنْ الْخُصْمِ - - وَلَمْ تَبْقَ لِنَفْسِهِ عَلَيْهِ دَعْوَى ، بَلْ يُبْرَى خَصْمَهُ مِنْ كُلِّ دَعْوَى ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . . فَذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ .
قوله جل ذكره : « وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ » .

إِنَّ الَّذِينَ أَضَلَّهُمُ اللَّهُ ، وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ وَبَصَائِرَهُمْ ، وَأَوْقَعَهُمْ فِي كَدِّ عِقَابِهِمْ ، وَحَرَمَهُمْ بَرْدَ الرِّضَا لِحُكْمِ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ وَلِيٌّ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَلَا مَانِعَ لَهُمْ مِنْ عَذَابِهِ . وَتَرَاهُمْ إِذَا رَأَوْا الْعَذَابَ يَطْلُبُونَ مِنْهُ النِّجَاةَ فَلَا يُنَالُونَهَا .

وَتَرَاهُمْ يُعْرِضُونَ عَلَى النَّارِ وَهُمْ خَاشِعُونَ مِنَ الذَّلِّ ؛ لَا تَنْفَعُهُمْ تَدَامَةُ ، وَلَا تُسْمَعُ مِنْهُمْ دَعْوَةٌ ، وَيُعَيِّرُهُمُ الْمُؤْمِنُونَ بِمَا ذَكَّرُوهُمْ بِهِ فَلَا يَسْمَعُونَ ، فَالْيَوْمَ لَا نَاصِرَ يَنْصُرُهُمْ ، وَلَا رَاحِمَ يَرْحَمُهُمْ .

قوله جل ذكره . « اسْتَجِيبُوا لِلرَّبِّكِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّنْ مَّجَاجٍ يُومَثَذِ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّكِيرٍ » .

الاستجابة لله الوفاء بهده ، والقيام بحقه ، والرجوع عن مخالفته إلى موافقته ، والاستسلام

(١) في ص (وعد) وهي خطأ في النسخ . ويقال عدا وتعدى الطور أي جاوز حده . وقدره (الوسيط) .

في كل وقتٍ لحكمِهِ . والطريقُ اليومَ إلى الاستجابة مفتوحٌ . وعن قريبٍ سيُفلقُ البابُ على القلبِ بفتةً ، ويؤخذُ فلتةً .

قوله جل ذكره : « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا
إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ » .

فإِنْ أَعْرَضُوا عن الإجابة فليس عليك إِلَّا تبليغُ الرسالة ، ثم نحن أعلمُ بما نعاملهم به .
« وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرَحَّ
بِهَا ، وَإِن تَصِبُّهُمْ سَيِّئَةً بِمَا قَدَّمْتَ
أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ » .

إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رِفَاقِيَةً وَنَسَمَةً فَرِحَ بِتِلْكَ الْحَالَةِ ، وَقَابَلَهَا بِالْبَطْرِ ، وَتَوَصَّلَ بِتَمَامِ
عَافِيَتِهِ إِلَى الْحَالَةِ ، وَجَمَلَ السَّلَامَةَ ذَرِيعةً لِلْمَخَالَفَةِ . وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ وَبَلِيَّةٌ ، وَمَسَّتْهُ مُصِيبَةٌ
وَرَزِيَّةٌ فَإِنَّهُ كَفُورٌ بِنِعْمَاتِنَا ، جَعُودٌ لآيَاتِنَا .

قوله جل ذكره : « اللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ
مَا يَشَاءُ يُهَبِّبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُّ لِمَن
يَشَاءُ الذَّكَورَ » ^(١)

يهب لمن يشاء الذكور ، ولن يشاء الإناث ، ولن يشاء الجنين ، ويجعل من يشاء عقيماً ،
فلا اعتراض عليه في تقديره ، ولا افتيات في اختياره ، فهو أَوْلَى بعبادته من عباده .

قوله جل ذكره : « وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ
إِلَّا وَحياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ
رَسُولاً فَيُوحِي بِلَاذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَى
حَكِيمٍ » .

لِلَّهِ بِحَقِّ مُلْكِهِ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاءُ ، وَيُعْطِيَ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ مَا يَشَاءُ ، وَلَكِنْ أُجْرَى

(١) يرى النسخ أنه قدم الإناث على الذكور هنا ليوضح أنه فاعل لما يشاء لا لما يشاء الإنسان ، فكان تقديم
الإناث للذكور من جملة مالا يشاره الإنسان أهم ، والأمم واجب التقديم . ص ١١١ .

العادة وحسبكم بأنه لا يفعل إلا ما ورد في هذه الآية ؛ فلم يُكلّم أحداً إلا بالوحى ، أو من وراء حجاب ؛ يعنى وهو لا يرى الحق ، فالحجوب هو العبد لا الرب ، والحجاب أن يخلق في محل الرؤية ضد الرؤية . . تعالى الله عن أن يكون من وراء حجاب ؛ لأن ذلك صفة الأجسام المحدودة التى يُسبَلُ عليها ستر . إنه « عَلَى » : فى شأنه وقدره ، « حَكِيم » : فى أفعاله .

قوله جل ذكره : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » .

أى ذلك مثلما أوحينا إليك « روحاً » من أمرنا يعنى القرآن ؛ سمّاه روحاً لأنه من آمن به صار به قلبه حياً .

ويقال « روحاً من أمرنا » : أى جبريل عليه السلام ، ويسمى جبريل روح القدس .
« ما كنت تدري ما الكتاب . . » : ما كنت تدري قبل هذا ما القرآن ، « ولا الإيمان » :
أى تفصيل هذه الشرائع .

« ولكن جعلناه » : أى القرآن « نوراً » نهدي به من نشاء من عبادنا المؤمنين .
« ألا إلى الله تصير الأمور » : لأن منه ابتداء الأمور .

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

بسم « الله : اسمٌ عزيزٌ مَنْ وَثِقَ بِجُودِهِ وَكَرَمِهِ لَمْ يُعَلِّقْ بغيره صواعِدَ هِمَمِهِ ، وَلَمْ يَقِفْ عَلَى سُدَّةٍ مَخْلُوقٍ بِقَدَمِهِ فِي ابْتِغَاءِ كَرَمِهِ . اسمٌ عزيزٌ مَنْ عَوَّدَهُ خَفَايَا لُطْفِهِ ^(١) لَمْ يَتَذَلَّلْ ^(٢) فِي طَلَبِ شَيْءٍ مِنْ غَيْرِهِ ، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَى غَيْرِهِ فِي شَرِّهِ وَخَيْرِهِ .

قوله جل ذكره : « حم * والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون »

الحمد تدل على حياته والميم على مجده . . وهذا قسم ؛ ومعناه : وحياتي ومجدي وهذا القرآن إن الذي أخبرت عن رحمتي بعبادي المؤمنين حقٌ وصدقٌ . وجعلناه قرآنًا عربيًا ليتيسرَ عليكم فهمُ معناه .

قوله جل ذكره : « وإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدِينَا لَعَلِّيَّ حَكِيمٌ »

« فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدِينَا » : أَيْ أَنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي اللَّوْحِ الْحَفُوظِ .

« لَعَلِّيَّ حَكِيمٌ » لَعَلِّيَّ الْقَدِيرُ ، حَكِيمُ الْوَصْفِ ؛ لَا تَبْدِيلَ لَهُ وَلَا تَحْوِيلَ .

قوله جل ذكره : « أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ »

أَيْ أَتُنَالَا فَعَلَ ذَلِكَ ؛ (فَيَكُونُ مَعْنَى الْاسْتِفْهَامِ) ^(٣) أَفَنَقْطَعُ عَنْكُمْ خُطَابَنَا وَتَعْرِيفَنَا

(١) هكذا في م وهي في ص (بخفاء حكه) . وقد آثرنا الأول لأنها أكثر تسميةً لسياق .

(٢) هكذا في م وهي في ص (لم تبدل) ووافى الخطأ الناسخ .

(٣) ما بين القوسين إضافة من عندنا ليطاسك السياق . والاستفهام في الآية يفيد الإنكار .

إن أسرفتم في خلافكم ؟ لا ... إنما لا نرفع التكليف بأن خالفتم ، ولا نهجركم — يقطع الكلام عنكم — إن أسرفتم .

وفي هذا إشارة لطيفة وهو أنه لا يقطع الكلام — اليوم — عن تَمَادَى في عسيانه ، وأسرف في أكثر شانه . فأحرى أن من لم يقصّر في إيمانه — وإن تَلَطَّحَ بعسيانه ، ولم يدخل خلل في عرفاته — ألا يمنع عنه لطائف غفرانه^(١) .

قوله جل ذكره : « وكم أرسلنا من نبي في الأولين * وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون » .

ما أتاهم من رسول فقابلوه بالتصديق ، بل كذب به الأَكثَرُونَ وجحدوا ، وعلى غيهم أَصْرُوا ...

فأهلكنا أشد منهم بطشاً ،

أى لم يُعْجِزْنَا أَحَدٌ منهم ، ولم نقادر منهم أحداً ، وانتقمنا من الذين أساءوا .

قوله جل ذكره : « ولئن سألتهم من خلق السموات

والأرض ليقولنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ »

كانوا يَقِرُّونَ بأنَّ اللهَ خَلَقَهُمْ ، وأنه خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وإنما جحدوا حديثَ الأنبياء ، وحديثَ البعثِ وجوازه .

« الذي جعل لكم الأرض مهذاً وجعل

لكم فيها سُبُلًا لعلكم تهتدون »

كما جعل الأرض قراراً لأشباحهم جعل الأشباح قراراً لأرواحهم ؛ فأنخلق سُكَّانَ الأرض ، فإذا انتهت المدة — مدة كَوْنِ النفوسِ على الأرض — حَكَمَ اللهُ بخرابها . . . كذلك إذا فارقت الأرواحُ الأشباحَ بالكُلِّيَّةِ قضى اللهُ بخرابها .

(١) هكذا تتجلى نزعة الأمل والتفاؤل عند هذا الصوفى حيث يحاول في إشارته أن يبين كيف أن رحمة الله تمتد لتشمل المؤمنين العصاة حتى من أسرف منهم على نفسه .

قوله جل ذكره : « والذي نَزَّلَ من السماء ماءً يَقْدَرِ

فَأَنشُرْنَا بِهِ بَلَدَةً مَّيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ »

يعنى كما يُحْيِي الْأَرْضَ بِالْمَطَرِ يُحْيِي الْقُلُوبَ بِحُسْنِ النَّظَرِ .

قوله جل ذكره : « والذي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا »

أَي الْأَصْنَافَ مِنَ الْخَلْقِ

« وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ

مَا تَرْتَكِبُونَ »

كَذَلِكَ جَنَّاسَ عَلَيْكُمْ الْأَحْوََالَ كُلَّهَا ؛ فَمِنْ رَغْبَةٍ فِي الْخَيْرَاتِ إِلَى رَهْبَةٍ بِمَا تَوَعَّدَكُمْ بِهِ مِنْ

الْعُقُوبَاتِ . وَمِنْ خَوْفٍ يَحْمِلُكُمْ عَلَى تَرْكِ الزَّلَّاتِ إِلَى رَجَاءٍ يَبْعَثُكُمْ عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ طَمَعًا

فِي الْمَثُوبَاتِ . . . وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ فَنُونِ الصِّفَاتِ

« لَتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ » .

يعنى الْفُلُكُ وَالْأَنْعَامُ . .

« ثُمَّ تَذَكُّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ

عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا

وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ »

مُطِيعِينَ ، وَكَأَمْ سَخَّرَ لَمْ الْفُلُكُ فِي الْبَحْرِ ، وَالْأَنْعَامُ لِلرُّكُوبِ ، وَأَعْظَمَ عَلَيْهِمُ الْمَنَّةَ بِذَلِكَ

فَكَذَلِكَ (سَهَّلَ لِلْمُؤْمِنِينَ مَرْكَبَ التَّوْفِيقِ فَحَمَلَهُمْ عَلَيْهِ إِلَى بَسَاطَةِ الطَّاعَةِ ^(١)) ، وَسَهَّلَ

لِلْمُرِيدِينَ مَرْكَبَ الْإِرَادَةِ فَحَمَلَهُمْ عَلَيْهِ إِلَى عَرَصَاتِ الْجُودِ ، وَسَهَّلَ لِلْعَارِفِينَ مَرْكَبَ الْمَعْرِفَةِ

فَأَنَافَخُوا بِعَقْوَةِ الْعِزَّةِ . وَعِنْدَ ذَلِكَ تَحَطُّ الْكَافَّةُ ؛ إِذْ لَمْ تَخْرُقْ سَرَادِقَاتِ الْعِزَّةِ هِمَّةُ

مَخْلُوقٍ : سَوَاءٌ كَانَ مَلَكًا مُّقَرَّبًا أَوْ نَبِيًّا مُرْسَلًا أَوْ وَلِيًّا مُّكْرَمًا ، فَعِنْدَ سَطَوَاتِ

الْعِزَّةِ يَتَلَاشَى كُلُّ مَخْلُوقٍ ، وَيَقِفُ وَرَاءَهَا كُلُّ مُخَدَّثٍ مُسَبِّقٍ ^(٢) .

(١) مَا بَيْنَ الْقَوْسَيْنِ مَوْجُودٌ فِي صَرْفٍ وَغَيْرِ مَوْجُودٍ فِي مَفْائِذِهِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ؛ لِأَنَّ مَرْتَبَةَ الْمُؤْمِنِينَ عَامَّةٌ

تَلِيهَا مَرْتَبَةُ الْمُرِيدِينَ وَهِيَ خَاصَّةٌ ، ثُمَّ الْعَارِفِينَ وَهِيَ خَوَاصُّ الْخَوَاصِّ .

(٢) يَرْتَبِطُ ذَلِكَ بِمَذْهَبِ الْقَشِيرِيِّ فِي «الْفَنَاءِ» ، وَكَيْفَ أَنَّ الصِّدْقِيَّةَ تَجَلُّوْنَ عَنِ الْإِسْتِشْرَافِ .. نَاعِيكَ بِمَا يَزْعُمُهُ

آخَرُونَ مِنْ حُلُولِ وَاتِّحَادِ .. وَغَيْرِ ذَلِكَ .

قوله جل ذكره : « وجعلوا له من عباده جزءاً إنَّ
الإنسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ »

هم الذين قالوا : الملائكةُ بناتُ الله ؛ فجعلوا البناتِ لله جزءاً على التخصيص من جملة
مخلوقاته . . . تسكَّاهم في قولهم ذلك وخزيًا ^(١) ! ! فردَّ عليهم ذلك قائلاً :

« أم اتَّخَذَ مما يَخْلُقُ بناتٍ وأصفاكم
بالبنين »

قال لهم على جهة التوبيخ ، وعابهم بما قالوا ؛ إذ - على حدِّ قولهم - كيف يُؤْتَرُّهم
بالبنين ويَجْعَلُ لنفسه البنات ؟ ! ففي قولهم ضلالٌ ؛ إذ حكموا للقديم بالولد . وفيه جهلٌ ؛
إذ حكموا له بالبنات ولم بالبنين - وهم يستنكفون من البنات . . . ثم . . . أى عيب في البنات ؟
ثم . . . كيف يحكمون بأن الملائكة إناثٌ - وهم لم يشاهدوا خَلْقَتَهُمْ ؟
كلُّ ذلك كان منهم خطأً محظوراً .

قوله جل ذكره : « وقالوا لو شاء الرحمنُ ما عبدناهم
ما لم بذلك من علمٍ إنَّ هم
إلا يَخْرُصُونَ »

إنما قالوا ذلك استهزاء واستبعاداً لا إيماناً وإخلاصاً ، قال تعالى : « ما لم بذلك من علم »
ولو عَلِمُوا ذلك وقالوه على وجه التصديق لم يكن ذلك منهم معولاً .

ثم قال : « أم آتَيْنَاهُمْ كتاباً من قبْلِهِ فهم به
مُسْتَمْسِكُونَ »

أى ليس كذلك ، حتى أخبر أنهم ركنوا إلى تقليدٍ لا يُفْضَى إلى العلم ، قال :

« بل قالوا إِنَّا وجدنا آباءنا على أمةٍ وإِنَّا
على آثارهم مُهْتَدُونَ »

(١) في م (وخزيًا) وهي غير ملائمة - كما هو واضح .

فَنَحْنُ قَتَلْدَى بِهِمْ ، ثُمَّ قَالَ :

« وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي
قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتَرَفُّوهَا إِنَّا
وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ
مُقْتَدُونَ »

سَلَكَوا طَرِيقَ هَؤُلَاءِ فِي التَّقْلِيدِ لِأَسْلَافِهِمْ ، وَالِاسْتِنَامَةِ إِلَى مَا ابْتَدَأُوهُ مِنَ السُّبُورَةِ
وَالْعَادَةِ .

قوله جل ذكره : « قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَى
مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا
أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ »

فَلَمْ يَنْجَعْ فِيهِمْ قَوْلُهُ ، وَلَمْ يَنْفَعْتَهُمْ وَغَفْلُهُ ، وَأَصْرُهُمَا عَلَى تَكْذِيبِهِمْ ، فَاتَّقَمَ الْحَقُّ
— سُبْحَانَهُ — مِنْهُمْ كَمَا فَعَلَ بِالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ .

قوله جل ذكره : « وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ
إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ »

أَخْبَرَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمَّا دَعَا أَبَاءَهُ وَقَوْمَهُ إِلَى اللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ أَبَوْا إِلَّا تَكْذِيبَهُ ؛ فَتَبَرَّأَ
مِنْهُمْ بِأَجْمَعِهِمْ ، وَجَعَلَ اللَّهُ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ وَقَوْمِهِ .

قوله جل ذكره : « بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ
حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ » .

أَرْخَيْنَا عَنَانَ إِمَاهِلِهِمْ مُدَّةً ، ثُمَّ كَانَ أَمْرُهُمْ^(١) أَنْ يَنْتَصِرْنَا مِنْهُمْ ، وَدَمَرْنَاَهُمْ
أَجْمَعِينَ .

قوله جل ذكره : « وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ

(١) هكذا في ص وهي في م (أخبرهم) وهي مقبولة في السياق على معنى (أخبر أمرهم) أو (أخبر شأنهم) .

عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْمَرْبُوتِينَ عَظِيمٍ ،

إِنَّمَا أَبِي مَسْعُودُ الثَّقَفِيُّ^(١) أَوْ أَبِي جَهْلٍ ، وَهَذَا أَيْضًا مِنْ فَرْطِ جَهْلِهِمْ .

« أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ؟
نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ
دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ،
وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ »

أَهْمُ يَقْسِمُونَ - يَا مُحَمَّدُ - رَحْمَةَ رَبِّكَ فِي التَّخْصِيسِ بِالنَّبِوَةِ ؟ أَيْ كَوْنِ اخْتِيَارِ اللَّهِ
- سُبْحَانَهُ - عَلَى مُقْتَضَى هَوَاهُمْ ؟ بَلَسَ مَا يَحْكُمُونَ !

« نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ » فَلَمْ نَجْعَلِ الْقِسْمَةَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَهُمْ فَكَيْفَ نَجْعَلِ
قِسْمَةَ النَّبِوَةِ إِلَى هَؤُلَاءِ ؟ !

وَالْإِشَارَةُ مِنْ هَذَا : أَنَّ الْحَقَّ - سُبْحَانَهُ - لَمْ يَجْعَلِ قِسْمَةَ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ إِلَى
أَحَدٍ ، وَإِنَّمَا الْمَرْدُودُ مَنْ رَدَّ بِحُكْمِهِ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ ، وَالْمَقْبُولُ - مِنْ جِهَةِ عِبَادِهِ - مَنْ
أَرَادَهُ وَقَبِلَهُ . . . لَا لِمَلَأَةٍ أَوْ سَبَبٍ ، وَلَيْسَ الرَّدُّ أَوْ الْقَبُولُ لِأَمْرِ مُكْتَسَبٍ^(٢) . . .
ثُمَّ إِنَّهُ قَسَمَ لِبَعْضِ عِبَادِهِ النِّعْمَةَ وَالْفَنَى ، وَلِلْبَعْضِ الْقِلَّةَ وَالْفَقْرَ ، وَجَعَلَ لِكُلِّ
وَاحِدٍ مِنْهُمْ سَكَنًا يَسْكُنُونَ إِلَيْهِ يَسْتَقِلُّونَ بِهِ ؛ فَلِلْأَغْنِيَاءِ وَجُودُ الْإِنْعَامِ وَجَزِيلُ
الْأَقْسَامِ . . فَشَكَرُوا وَاسْتَبَشَرُوا ، وَلِلْفُقَرَاءِ شُهُودُ الْمُتَمِّمِ وَالْقَسَامِ . . فَحَمَدُوا وَافْتَخَرُوا .
لِلْأَغْنِيَاءِ وَحَدُوا النِّعْمَةَ فَاسْتَغْنَوْا وَانْشَغَلُوا ، وَالْفُقَرَاءُ سَمِعُوا قَوْلَهُ : « نَحْنُ » فَاسْتَغْلَوْا^(٣) .

(١) هُوَ أَبُو مَسْعُودٍ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ مِنَ الْعَلَانَةِ ، وَأَبُو جَهْلٍ مِنْ مَكَّةَ فَالْقُرَيْشِيُّانِ هُمَا الطَّائِفُ وَمَكَّةُ .
وَرَوَى أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمَغِيرَةَ - وَكَانَ يُسَمَّى رِيحًا بِقَرِيشٍ - كَانَ يَقُولُ : لَوْ كَانَ مَا يَقُولُهُ مُحَمَّدٌ حَقًّا لَنَزَلَ عَلَى
أَوْ عَلَى أَبِي مَسْعُودٍ .

(٢) مَرَّةً أُخْرَى يَنْبِهُ الْقَشِيرِيُّ إِلَى أَنَّ الْمَعُولَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَمْرِ فَضَّلَ اللَّهُ وَقَسَمَتْهُ ، وَلِهَذَا الرَّأْيُ شَأْنُهُ فِي مَسْأَلَةِ
النَّوَابِ وَالْعِقَابِ الَّتِي اتَّخَذَهَا الْمُعْتَزِلَةُ وَسِيلَةً مِنْ رِسَائِلِ تَبْرِيرِ الْحُرِّيَةِ الْإِنْسَانِيَةِ - كَمَا نَبَهْنَا إِلَى ذَلِكَ فِي هَوَاشِ كَثِيرَةٍ
مِنَ الْكِتَابِ .

(٣) أَيْ (اسْتَغْلَوْا) بِأَنَّهُ وَطَاعَتُهُ دُونَ غَايَةِ غَيْرِيهِ أَوْ مُطَاعٍ زَائِلٍ . وَنَحْنُ لَا نَسْتَجِدُّ أَنَّهَا قَدْ تَكُونُ فِي الْأَصْلِ
(فَاسْتَغْلَوْا) فَهَذَا هُوَ تَعْبِيرُ الشَّيْخِ الْمَأْلُوفِ فِي مِثْلِ هَذَا السِّيَاقِ .

وفي الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للأَنْصار : أما ترضون أن يرجع الناس بالغنّى ؛ وأنتم ترجعون بالنبي إلى أهليكم ؟

« ليتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِيًّا .. » : لو كانت المقاديرُ متساويةً لَتَعَطَّلَتِ المَعايشُ ، ولبَقِيَ كُلٌّ عِنْدَ حاله ؛ فجعل بعضهم مخصوصين بالرفق والمال ، وآخرين مخصوصين بالفقر ورقة الحال .. حتى احتاج الفقيرُ في جَسَرِ حاجته إلى أن يعملَ للغنّى كي يرتفق من جهته بأجرته فيَصْلُحُ بذلك أمرُ الغنى والفقير جميعاً .

قوله جل ذكره : « ولولا أن يكونَ الناسُ أُمَّةً واحدةً

لجعلنا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ
سُقْفًا من فضة ومعارجَ عليها يظهرون »

معنى الآية أنه ليس للدنيا عندنا خطر ؛ فالذي يبقى عَنَّا لو صَبَّحْنَا عليه الدنيا بحذاقها لم يكن ذلك جبراً لمصيبته . ولولا فتنة قلوب المؤمنين لجعلنا لبُيُوتِهِمْ سُقْفًا من فضة ومعارجَ من فضة ، وكذلك ما يكون شيئاً بهذا .

ولو فعلنا .. لم يكن لِمَا أُعْطِينَاهُ خَطَرٌ ؛ لأنَّ الدنيا بأسرها ليس لها عندنا خطر .

قوله جل ذكره : « وَمَن يَعِشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ
تُفِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ » .

مَن لم يعرف قَدْرَ الخلوة مع الله فسادَ عن ذكره ، وأُخِلَّ إلى الخلواتِ الرديئةِ قِيَضَ اللهُ لَهُ مَن يَشْغَلُهُ عَنِ اللهِ — وهذا جزاءُ مَن تركَ الأدبَ في الخلوة . وإذا اشتغل العبدُ في خلوته بربه .. فلو تعرَّضَ لَهُ مَن يَشْغَلُهُ عَنِ رَبِّهِ صَرَفَهُ الحَقُّ عَنْهُ بِأَيِّ وَجْهِ كَانَ ، وصَرَفَ دواعيه عن مفاتحه بما يشغله عَنِ اللهِ .

ويقال : أصعبُ الشياطينِ نَفْسُكَ ؛ والعبدُ إذا لم يَعْرِفْ خَطَرَ فراغ قلبه ، واتَّبَعَ شهوته ، وفتح ذلك البابَ عَلَى نَفْسِهِ بَقِيَ في يدِ هَواهِ أسيراً لا يكاد يتخلصُ عنه إلا بعد مُدَّةٍ .

قوله جل ذكره : « وَإِنَّهُمْ لَيُصْدُونَهُم عَنِ السَّبِيلِ
وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ » حتى إذا جاءنا

قال يا ليت بيني وبينك بُعد المشرقين
فبئس القرين »

الذي سوّلت له نفسه أمراً يتوّهم أنه على صواب ، ثم يحمل صاحبه على مواقفته في باطله ، ويدّعي أنه على حق . وهو بهذا يضرّ بنفسه ويضرّ بغيره . ثم إذا ما انكشف — غداً — الفطاء تبين صاحبه خيانتته ، وتندّم على صُحبته ، ويقول : « يا ويلتي ليتني لم آخذ فلاناً خليلاً »^(١) و « يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين » . ولكن هذه الندامة لا تنفع حينئذٍ ؛ لأن الوقت يكون قد فات ، لهذا قال تعالى :

« ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم
في العذاب مُشْتَرِكُونَ »

قوله جل ذكره : « أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي
الْعُمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » .

هذا الاستفهام فيه معنى النفي ؛ أي أنه ليس يمكنك هداية مَنْ سَدَدْنَا بصيرته ، ولبَّسْنَا عليه رُشدَه ، وَمَنْ صَبَّيْنَا فِي مَسَامِعِ قُلُوبِهِمْ رِصَاصَ الشَّقَاءِ وَالْحِرْمَانِ... فكيف يمكنك إسماعه؟!
قوله جل ذكره : « فَإِنَّمَا تَذَهَبُ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ
مُنتَقِمُونَ »

يعني : إن انقضى أجلك ولم يتفق لك شهود ما تتوعدّهم به فلا تتوهم أن صديق
كلامنا يشوبه مَينٌ^(٢) ، فإن ما أخبرناك عنه — لا محالة — سيكون .

قوله جل ذكره : « أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ
مُقْتَدِرُونَ »

أُثْبِتَهُ عَلَى حَدِّ الْخَوْفِ^(٣) والرجاء ، ووقفه عَلَى وصفِ التَّجْوِيزِ لاستبداده^(٤) — سبحانه

(١) آية ٢٨ سورة الفرقان .

(٢) في م (مبين) وهي خطأ في النسخ إذ الصواب (المين) أي الكذب .

(٣) في ص (الحزن) ؛ لكننا آثرنا عليها ما جاء في م فالخوف — لا الحزن — يقابل الرجاء في المصطلح

الصوفي (أنظر رسالة القشيري ص ٣٥) .

(٤) استبد بالامر — انفرد به (الوسيط) .

بعدم الغيب . والمقصود كذلك أن يكون كلُّ أحد بالنسبة لأمر الله من جملة نظارة التقدير —
فإنه يفعل ما يريد .

قوله جل ذكره : « فاستميت بالذي أوحى إليك إنك
على صراطٍ مستقيم »

اجتهد من غير تقصير وتوكل على الله من غير فتور ، وقف حيثما أمرت ، وثق بأنك
على صراطٍ مستقيم .

قوله جل ذكره : « وإنه لذكرٌ لك ولقومك وسوف
تُسألون » .

أى إن هذا القرآن لذكرٌ لك ؛ أى شرفٌ لك ، وحسنٌ صيتٍ ، واستحقاقٌ منزلةٍ .

قوله جل ذكره : « واسأل من أرسلنا من قبلك من
رُسُلنا أبعثنا من دون الرحمن آيةً
يعبدون » .

حشرَ أرواحَ الأنبياء — عليهم السلام — ليلةَ الإسراء ، وقيل له — صلى الله عليه وسلم :
سألكم : هل أمرنا أحداً بعبادة غيرنا ؟ فلم يشك النبي — صلى الله عليه وسلم — ولم يسأل^(١)
ويقال : الخطابُ له ، والمرادُ به غيره . . فمن يرتاب في ذلك ؟ (ويقال : المراد منه سلُّ
أقوامهم ، لكى إذا قالوا إن الله لم يأمر بذلك كان هذا أبلغ في إبرام الحجة عليهم)^(٢) .

قوله جل ذكره : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا
. إذا هم منها يضحكون »

كرر قصة موسى غير مرة في القرآن ، وأعادها هنا مجلَّة ؛ أرسلناه بدلائلنا ، أرسلناه بحجةٍ
ظاهرةٍ قاهرةٍ ، أرسلناه بالمعجزات إلى فرعون وقومه من القبط ، فقبل بالهزء والضحك

(١) عن ابن عباس أنه قال : « لا أسأل قد اكتفيت » وعنه أيضاً : أنه لم يسأل لأنه كان أعلم بالله منهم .
(٢) ما بين القوسين ساقط في م ، والمقصود بها : أسأل مؤمنى أهل الكتابين التوراة
والإنجيل — وعلى هذا رأى جمهور من المفسرين منهم مجاهد والضحاك وقتادة .

والتكذيب . ومع أنَّ اللهَ سبحانه لم يُجِرْ عليه من البيِّنات شيئاً إلا كان أوضحَ مما قبله إلا أنهم لم يقابلوه إلا بجفاء أو حشٍّ مما قبله . فلما عضَّهم الأمرُ قالوا : يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ، ادْعُ لَنَا رَبَّكَ لِيَكْشِفَ عَنَّا الْبَلِيَّةَ لِنُؤْمِنَ بِكَ ، فدعا موسى ... فكشف اللهُ عنهم ، فعادوا إلى كفرهم ، ونقضوا عَهْدَهُمْ .

قوله جل ذكره : « وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ : يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ » .

تعرَّزَ بِمُلْكِ مِصْرَ ، وجَرَى النِيلُ بأمره ! وكان في ذلك هلاكه ؛ لِيُعْلَمَ أَنَّ مَنْ تعرَّزَ بشيءٍ من دون الله فُتِنَهُ وهلاكه في ذلك الشيء .

« أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ » .

استصغر موسى وحديثه ، وعابه بالفقر . . فسَلَّطَه اللهُ عليه ، وكان هلاكه بيديه ، فما استصغر أحدٌ أحداً إلا سَلَّطَه اللهُ عليه^(١) .

قوله جل ذكره : « فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ »

أَطَاعُوهُ طَاعَةَ الرِّهَةِ ، وطَاعَةُ الرِّهَةِ لَا تَكُونُ مُخْلِصَةً ، وإنما تكون الطاعةُ صادقةً إذا صدرَتْ عن الرِّغْبَةِ .

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا آسَفُونَا انتقمنا منهم فَأغرقناهم أجمعين » .

« آسَفُونَا » أَغْضَبُونَا ، وإنما أراد أَغْضَبُوا أَوْلِيَاءَنَا ، فانتقمنا منهم . وهذا له أصل في باب

(١) يحاول الشقي أن يغتر بأولئك الذين يتعرضون للأولياء والعارفين ، وكيف أن الحق - سبحانه - يتولى عنهم ردَّ كيد الكائدين .

الجمع^(١) ؛ حيث أضاف إيسافهم لأوليائه إلى نفسه . . وفي الخبر : أنه يقول : « مَرَضْتُ فلم تعدني »^(٢) .

وقال في قصة إبراهيم عليه : « يأتوك رجالاً . . »^(٣)

وقال في قصة نبيينا — صلى الله عليه وسلم : « من يطع الرسول فقد أطاع الله »^(٤) .

قوله جل ذكره : وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ .

وَضَرْبُ الْمَثَلِ بعيسى هو قوله : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم »^(٥) ؛ خَلَقَ عِيسَى بِلَا أَبٍ كَمَا خَلَقَ آدَمَ بِلَا أَبٍ . فاجعلوا بهذه الآية .

وقيل هو قوله : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم »^(٦) ، فقالوا : رضينا بأن نكون في النار مع عيسى وعزير والملائكة ، وليس لهم في الآية موضع ذِكر ؛ لأنه سبحانه قال : « وما تعبدون ، ولم يقل « ومن تعبدون »^(٧) .

قوله جل ذكره : وَقَالُوا هَاهُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ .

ما ضربوه لك إلا جدلاً : وذلك أنهم قالوا : إن قال آلهتكم خيرٌ فقد أقر بأنها معبودة ، وإن قال : عيسى خيرٌ من آلهتكم فقد أقر بأن عيسى يصلح لأن يُعبد ، وإن قال : ليس واحدٌ منهم

(١) عندما يضاف الفعل إلى الحق يكون المعنى منصرفاً إلى حال الجمع ، وعندما ينسب إلى الخلق يكون منصرفاً إلى حال الفرق ، مثلما أوضح القشيري هنا ، ومثلما أوضح عند قوله تعالى : « وما ربيت إذ رميت ولكن الله رمى » .

(٢) أصل الحديث : أنه تعالى يقول : « يا ابن آدم ، مرضت فلم تعدني ، واستسقيتك فلم تسقي ، واستطعمتك فلم تطعمني » القرطبي : ج ٢٠ ، ص ٥٥ .

(٣) آية ٢٧ سورة الحج . والخطاب في الآية لإبراهيم في مقام الفرق ، والنبينا في مقام الجمع .

(٤) آية ٨٠ سورة النساء .

(٥) آية ٥٩ سورة آل عمران .

(٦) آية ٩٨ سورة الأنبياء .

(٧) لأن « من » العاقل و « ما » لغير العاقل فالمقصود الأصنام .

خيراً فقد نفى ذلك عن عيسى عليه السلام . هم راموا بهذا الكلام أن يجادلوه ، ولم يكن سؤالهم للاستفادة . فكان جواب النبي صلى الله عليه وسلم عليهم : أن عيسى عليه السلام خيرٌ من آلهتكم ولكنه لا يستحق أن يُعبد ؛ إذ ليس كلُّ ما هو خيرٌ من الأصنام يستحق أن يكون معبوداً من دون الله . وهكذا بين الله — سبحانه — لنبيه أنهم قوم جدِّلون^(١) ، وأنَّ حُجَّتَهُم راحضةٌ عند ربهم

قوله جل ذكره « إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مِثْلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ » .

فليس عيسى إلا عبدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ بالنبوة .

« وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ »

ولو شئنا لأنزلنا ملائكةً من السماء حتى يكونوا سُكَّانَ الْأَرْضِ بِدَلَّكُمْ .
ثم قال : « وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ »
« وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ » : يعنى به عيسى عليه السلام إذا أنزله من السماء فهو علامةٌ للسَّاعَةِ ، « فَلَا تَمْتَرُنَّ » بنزوله بين يدي القيامة^(٢) .

« وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ »

ولا يصدنكم الشيطان عن الإيمان بالسَّاعَةِ ، وعن اتِّبَاعِ الْإِيمَانِ بِهِدَايَ .

(١) سبب نزول هذه الآية وما سبقها تلك المناظرة التي حاول بها عبد الله بن الزبيرى المسمى أن يستهوى قريشاً بإثارة اعتراضات باطلة ، فأفحمه المتعلق القرآنى ، وأخسر لحاجه .

يقول معروف الكرخى : إذا أراد الله بعبد خيراً ففتح له باب العمل وأغلق عليه باب الجدل ، وإذا أراد الله بعبد شراً أغلق عليه باب العمل وفتح عليه باب الجدل (الروض الفائق ، ج ١ ، ص ١٣٩) .

(٢) عن أبي هريرة - كما ثبت في صحيح مسلم وابن ماجه - قال قال رسول الله (ص) : لينزلن عيسى ابن مريم حكماً عادلاً فليكفرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية ولتركن القلاص فلا يسمنن إليها ، ولتذهبن الشحنا والتياقص والتحاسد وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد .

قوله جل ذكره : « ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون » .

ذكر مجيء عيسى عليه السلام أول مرة ؛ حيث أتى قومه بالشرائع الواضحة ، ودعاهم إلى دين الله ، ولكنهم تحزّبوا عليه^(١) ، وإن الذين كفروا به لمستحقون للعقوبة .

« الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » .

ما كان لغير الله فآله إلى الضياع . والأخلاء الذين اصطحبوا على مقتضى الهوى بعضهم لبعض عدو ؛ يتبرأ بعضهم من بعض ، فلا ينفع أحداً أحداً .

وأما الأخلاء في الله فيشفع بعضهم في بعض ، ويتكلم بعضهم في شأن بعض ، أولئك هم المتقون الذين استثناهم الله بقوله : « إلا المتقين » .

وشرط الخلّة^(٢) في الله ؛ ألا يستعمل بعضهم بعضاً في الأمور الدنيوية ، ولا يرتفق بعضهم ببعض ؛ حتى تكون الصحبة خالصة لله لا لنصيب في الدنيا ، ويكون قبول بعضهم بعضاً لأجل الله ، ولا تجرى بينهم مداةنة ، وبقدّر ما يرى أحدهم في صاحبه من قبول لطريق الله يقبله ، فإن علم منه شيئاً لا يرضاه الله لا يرضى ذلك من صاحبه ، فإذا عاد إلى تركه غاد هذا إلى مودته ، وإلا فلا ينبغي أن يساعد على معصيته ، كما ينبغي أن يتقيه بقلبه ، وألا يسكن إليه لغرض دنيوى أو لطمع أو لعوض .

قوله جل ذكره : « يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون » .

يقال لهم غداً : « يا عبادى^(٣) لا خوف عليكم اليوم » مما يلقاه أهل

(١) كان تحزّبهم إلى فرق متعددة هم : اليعقوبية والنسطورية والملكانية والشمونية .

(٢) تضاف هذه الآراء إلى ما ذكره القشيري في رسالته في باب « الصحبة » .

(٣) بالياء في الوصل والوقف مدنى وشامى وأبو عمرو ، وفتح الياء أبو بكر ، والباقون بحذف الياء .

الجمع^(١) من الأهوال ، ولا أنتم تمزنون فيما قصرتُم من الأعمال ...
 أمّا الذنوب . . فقد غفرناها ، وأمّا الأهوال ... فكفيناهما ، وأمّا المظالم . . فقضيناها .
 فإذا قال المنادى : هذا الخطاب يُطعمُ الكلَّ قالوا : نحن عباده ، فإذا قال :
 « الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين »

أيس الكفارُ ، وقوى رجاء المسلمين^(٢) .

قوله جل ذكره : « أدخلوا الجنة أنتم وأزواجكم
 تحبّون^(٣) »

في رياض الجنة ، وترتعون .

ويقال : « تحبّون » من لذة السماع .

قوله جل ذكره : « يُطافُ عليهم بصحافٍ من ذهبٍ
 وأكوابٍ وفيها ما تشتهي الأنفسُ وتلذّ
 الأعينُ وأنتم فيها خالدون » .

العباد لهم فيها ما تشتهي أنفسهم لأنهم قاسوا في الدنيا — بحكم المجاهدات — الجوع
 والعطش ، وتحملوا وجوه المشاق ، فيجازون في الجنة بوجوه من الثواب .

وأما أهل المعرفة والمحبتون ، فلهم ما يلذ أعينهم من النظر إلى الله^(٤) لطول ما قاسوه من
 قُرطِ الاشتياق بقلوبهم ؛ وما عالجوه من الاحتراق لشدة غليلهم .

(١) يفسر النسب أهل الجمع بأنهم أهل مكة (آية ٤٤ سورة القمر) .

(٢) قريب مما ذكره القشيري ما أورده الحارث المحاسبى في رعايته . (ينادى المنادى يوم القيامة : يا عبادى
 لا خوف عليكم اليوم ... فيرفع الخلائق وموسمهم ، ويقولون : نحن عباد الله . ثم ينادى الثانية : « الذين آمنوا ... »
 ثم ينادى الثالثة : « الذين آمنوا وكانوا يتقون » فينكس أهل الكبائر وموسمهم ، ويبقى أهل التقوى ولمنى وموسمهم ،
 قد أزال عنهم الخوف والحزن كما وعدهم) .

(٣) تحبّون أى تسرون سروراً يظهر بهاره (= أثره) على وجوهكم .

(٤) الجنة الحقيقية عند أرباب الأحوال رؤية الله ، ورد في الخبر : أسألك لذة النظر إلى وجهك » .

قوله جل ذكره : « وتلك الجنة التي أوردتهموها بما كنتم تعملون »

أى يقال لهم — والخطاب للمطيعين غداً — : أنتم يا أصحاب الإخلاص في أعمالكم ؛ والصدق في أحوالكم :

« لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون » .

من الفاكهة الكثيرة تأكلون ، وفي الأنس تتقبلون .

قوله جل ذكره : « إنَّ المجرمين في عذاب جهنم خالدون » . هؤلاء هم الكفار المشركون ، فهم أهل الخلود^(١) ، لا يُفتر عنهم العذاب ولا يُخفف . وأمَّا أهل التوحيد : فقد يكون منهم قوم في النار . ولكن لا يخلدون فيها . ودليل الخطاب يقتضى أنه يُفتر عنهم العذاب . ورد في الخبر الصحيح : أنه يُعيتهم الحق — سبحانه — إماتة إلى أن يُخرجهم من النار — واليت لا يحس ولا يتألم^(٢) . « لا يُفتر عنهم وهم فيه مُبلسون » .

الإبلاس^(٣) من الخيبة ، ويدل ذلك على أن المؤمنين لا يأس لهم فيها ، وإن كانوا في بلائهم فهم على وصف رجائهم ؛ يعدون أيامهم إلى أن ينتهى حسابهم .

ولقد قال الشيوخ : إنَّ حال المؤمن في النار — من وجه — أروح قلبه من حاله في الدنيا ؛ فالיום — خوف الهلاك ، وغداً — يقين النجاة ، وأنشدوا :

عيب السلامة أن صاحبها متوقع لقواصم الظهور
وفضيلة البلوى ترقب أهلها — عقب الرجاء — مودة الدهر

(١) يضاف هذا الكلام إلى رأى التشيرى في أبدية النار ، على خلاف ما يذهب إليه بعض الباحثين من أن القوة الجسمانية منادية فلا به من ثباتها ، ولأن درام الإحراق مع بقاء الحياة خروج عن حكم القتل (انظر شرح المواصف ، ج ٨ ، ص ٣٠٧ وشرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢٢٨) .

(٢) روى أحمد في مسنده : « . . أماتهم إماتة حتى إذا كانوا فعلاً أذن بالشفاعة ، فجئ بهم بسائر بضائر ، فبشروا على أنهار الجنة ، ثم قبل : يا أهل الجنة . أبيضوا عليهم ملبسون لبات الحلة .. » (٣) أبلس : سكنت لممرته وانلطاع حجته .

قوله جل ذكره : « وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين »

هذا الخطاب يُشبهه كلمة العذر — وإن جل قدره — سبحانه — عن ذلك .

قوله جل ذكره : « ونادوا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رُبُّكَ »

قال إنكم ما كثون * لقد جئناكم بالحقِّ

ولكنَّ أكثركم للحقِّ كارهون .

لو قالوا : « يا مالِكُ » لعل أقوالهم ^(١) كانت أقرب إلى الإجابة ، ولكنَّ الأجنبيةَّ حالت

بينهم وبين ذلك ^(٢) ، فكان الجوابُ عليهم :

« إنكم ما كثون » فيها . . . نصحتهم فلم تنتصحوها ، ولم تقبلوا القولَ في حينه ، وكان

أكثرهم للحقِّ كارهين .

قوله جل ذكره : « أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون » ^(٣)

بل أمورهم مُنتَقِضَةٌ عليهم ؛ فلا يتمشى لهم شيء مما دبَّروه ، ولا يرتفع لهم أمرٌ على نحو

ما قدَّروه — وهذه الحالُ أوضح دليل على إثبات الصانع .

قوله جل ذكره : « أم يحسبون أننا لا نسمعُ سرَّهم »

ونجواهم بل ورسلنا لديهم يكتبون .

إنما خوفهم بسمع الملك ، وبكتاباتهم أعمالهم عليهم لغفلتهم عن الله — سبحانه ، ولو كان

لهم خبرٌ عن الله لما خوفهم بغير الله ، ومن علم أن أعماله تُكتبُ عليه ، وأنه يُطالبُ بمقتضى

ذلك — قلَّ إلأى ما يخاف أن يُسألَ عنه . .

قوله جل ذكره : « قل إن كان للرحمن ولدٌ فأنا أولُ

للعابدين » .

(١) في ص (أحوالكم) وقد آثرنا عليها (أقوالكم) التي في م كما يتضح من السياق القرآني والسياق التفسيري .

(٢) يلفت القشيري نظرنا — من بعيد — إلى أن الدعاء ينبغي أن يتجه بالكلية إلى الرب سبحانه ، وقد يكون لذلك أهميته في فكرة الاستشفاع بالوسيلة — كما يتصورها هذا الإمام .

(٣) يقال إن الآية نزلت في تدبير الكائدين المكر بالنبي (ص) في دار الندوة حين استقر أمرهم — حسب مشورة أبي جهل — على أن يبرز من كل قبيلة رجل ، ثم يشتركون في قتله فتضعف المطالبة بدمه صلوات الله عليه . وكانت النتيجة أن قتلوا جميعاً يوم بدر .

أى إن كان فى ضميركم وفى حُكمِكم وفى اعتقادكم أن للرحمن ولداً فأنا أول مَنْ
يستَكِفُ من هذه القالة .

قوله جل ذكره : « سبحان ربَّ السمواتِ والأرضِ ربَّ
العرشِ عَمَّا يَصِفُونَ » .

تنزَّه الله تنزهاً ، وتقدَّس تقدساً عما قالوه . وفى هذه الآيات وأمثالها دليلٌ على جوازِ
حكاية قول المبتدعة — فيما أخطأوا فيه من وصف المعبود — قصداً للردِّ عليهم ، وإخباراً
بتقبيح أقوالهم ، وبطلانِ مزاعمهم .

ثم قال جل ذكره : « فَذَرْنَهُمْ يَخُوضُوا ويلعبوا حتى يُبْلَقُوا
يومَهم الذى يُوعَدُونَ » .

إذ ليس يفوت أمرهم ، وهم لا محالة سيلقون صفرهم .
وفى هذا دليلٌ على أنه لا ينبغى للعبد أن يفتترَّ بطول السلامة فإنَّ المواقبَ غيرُ مأمونة .
قوله جل ذكره « وهو الذى فى السماء إلهٌ وفى الأرضِ
إلهٌ وهو الحكيمُ العليمُ » .
المعبودُ — فى السماء — الله ، والمقصودُ — فى طلب الحوائج فى الأرضِ — الله .
أهلُ السماءِ لا يعبدون غيرَ الله ، وأهلُ الأرضِ لا يَقْضِي حوائجهم غيرَ الله .
« وهو الحكيمُ » فى إِمهاله للعصاة ، « العليمُ » بأحوالِ العباد .

« وتبارك الذى له مُلْكُ السمواتِ
والأرضِ وما بينهما وعنده علمُ الساعةِ
وإليه تُرجعون » .

تعالى وتقدَّس وتنزَّه وتكَبَّرَ الذى له مُلْكُ السمواتِ والأرضِ .
السمواتُ والأرضُ بقدرته تظهر . لا هو بظهورها يتعزَّزُ^(١) .

(١) الصوفية يستدلون بالخالق على ما خلق ، لأنه حاضر ومشهود ، وهو قديم قامت به الحادثات ...
يقول ابن عطاء الله السكندرى : « متى غبت حتى تكون الأكوان شاهدة عليك ؟ »

قوله جل ذكره : « ولا يملك الذين يدعون من دونه

الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » .

أى شهد — اليوم — بالتوحيد ، فيثبت له الحق حق الشفاعة . وفى الآية دليل على أن جميع المسلمين شفاعتهم تكون غداً مقبولة^(١) .

قوله جل ذكره : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله

فأنى يؤفكون » .

فكيف لا يعتبرون ؟ وكيف يتكبرون عن طاعة الله .

« وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون *

فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون »

أى يعلم علم الساعة ويعلم^(٢) « قيله يارب »

« فاصفح عنهم . . . » أى أمهلهم ، وقل لكم منى سلام . . . ولكن سوف تعلمون عقوبة

ما تستوجبون .

(١) واضح أن الفشيرى يصرف الآية إلى المسلمين عامة ويخرج المشركين ، وتذهب بعض التفاسير إلى أن معنى « الذين من دونه » هم عيسى وعزير والملائكة ، فهم لا يملكون الشفاعة .

(٢) عاصم وحزة يجران (قيله) على الإضافة وعند عاصم علم الساعة وعلم قيله يارب ، والسبعة على النصب : ويعلم قيله . . .

سورة الدخان

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »
 « بسم الله » كلمة من ذكرها نال في الدنيا والمُقبى بهجته ، ومن عرقها بذل
 في طلبها مهجته .

كلمة إذا استولت على قلب عطلته عن كل شغل ، كلمة إذا واظب على ذكرها عبد
 أمنت من كل هول .

قوله جل ذكره : « حم * والكتاب المبين »
 الحاء تشير إلى حق ، والميم تشير إلى محبة . ومعناه : بحق وبمحبة لِعِبَادِي ، وبكتابي
 العزيز إليهم : إني لا أعذب أهل معرفتي بفرقتي (١) .

قوله جل ذكره : « إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا
 مُنذرين * فيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ »
 « في ليلة مباركة » : قيل هي ليلة القدر ، وقيل هي النصف من شعبان وهي ليلة الصلح (٢) .
 أنزل القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا كل سنة بمقدار ما كان جبريل ينزل به على
 الرسول صلى الله عليه وسلم (٣) .

وسمّاها : « ليلة مباركة » لأنها ليلة افتتاح الوصلة . وأشدُّ الليالي بركة ليلة يكون المبدؤ
 فيها حاضراً بقلبه ، مشاهداً لرَبِّه ، يتنعم فيها بأنوار الوصلة ، ويجد فيها نسيم القرية .

(١) يبدو أن القشيري لم يعتبر « إنا أنزلناه... » جواباً للقسم ، وإلّا هذا يذهب بعض النحاة الذين يعتبرون
 ذلك صفةً المُقسَم به ، ولا تكون صفة المُقسَم به جواباً للقسم (انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ١٦
 ص ١٢٥) .

(٢) من أسماء هذه الليلة : الليلة المباركة ، ليلة البراءة ، وليلة الصلح .

(٣) أي كل مدى ثلاث وعشرين سنة .

وأحوال هذه الطائفة^(١) في لياليهم مختلفة ، كما قالوا :

لا أَظْلِمُ اللَّيْلَ ولا أَدْعَى أَنَّ نَجْمَ اللَّيْلِ ليست تزولُ
لَيْلِي كما شاءت : قصيرٌ إذا جَآءَتْ ، وإنْ ضُنْتُ فَلَيْلِي طَوِيلٌ .
« فيها يفرق كل أمرٍ حكيم » يكتب من أم الكتاب في هذه الليلة ما يحصل في السنة كلها
من أقسام الحوادث في الخير والشرِّ ، في الحزن والعينِ ، في النصر والهزيمة ، في الخصب والقحط .
ولهؤلاء القوم (يعني الصوفية) أحوالٌ من الخصب والجذب ، والوصل والفصل ، والوفاق
والخلاف ، والتوفيق والخذلان ، والتبض والبسط . . فكم من عبدٍ ينزل له الحكم والقضاء
بالعُدِّ والشقاء ، وآخر ينزل حكمه بالرُّفْد والوفاء .

قوله جل ذكره : « أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين *
رحمةً من ربك إنه هو السميع العليم » .
« رحمة من ربك » : وهي الرسول — صلى الله عليه وسلم ، قال صلوات الله عليه :
« أنا رحمة مهداة »

ويقال : « إنا كنا مرسلين » رحمةً لنفوس أوليائنا بالتوفيق ، ولقلوبهم بالتحقيق .
« إنه هو السميع العليم » : « السميع » لأنين المشتاقين ، « العليم » بمخمين المحبين .
قوله جل ذكره : « ربَّ السموات والأرض وما بينهما
إن كنتم موقنين »
مالك السموات والأرضين ، ومالك ما بينهما — وتدخل في ذلك أكساب العباد .
وتسلُّكها بمعنى القدرة عليها ، وإذا حصل مقدورٌ في الوجود دلَّ على أنه مفعولُه ؛ لأن معنى
الفعل مقدورٌ وجِدَ^(٢) .

(١) يقصد طائفة الصوفية .

(٢) لاحظ كيف يحاول القشيري أن يدخل في « وما بينهما » أفعال العباد ، فتحق أكساب العباد — في نظر هذا
المفكلم داخلة — من حيث هي مقدورة — في نطاق المخلوق المنسوب إلى ات .

قوله جل ذكره « لا إله إلا هو يحيى ويميت ربكم ورب
آبائكم الأولين »

هذه الكلمة فيها نفى ما أثبتوه بجهلهم ، وإثبات ما نفوه بجهدهم .
« ربكم ورب آبائكم الأولين » : مررتي^(١) أصلكم ونسلكم .

قوله جل ذكره : « بل هم في شك يلبون »

اللَّعِبُ فعلٌ يجرى على غير ترتيبٍ تشبيهاً باللَّعَابِ الذي يسيل لا^(٢) على نظام مخصوص ؛
فَوَصَفَ المنافقَ بِاللَّعِبِ ؛ وذلك لتردُّده وتخيُّره نتيجةً شكِّه في عقيدته .

قوله جل ذكره : « فارتقب يوم تأتي السماء
بدخان مبين » .

هذا من أشراط الساعة ؛ إذ يتقدم عليها^(٣) .

وقيامة هؤلاء (يقصد الصوفية) معجَّلة (أى تتم هنا في هذه الدنيا) فيومهم الذى تأتي
السماء فيه بدخان مبين هو يومُ غيبةِ الأحياب ، وانسدادِ ما كان مفتوحاً من الأبواب ، أبوابِ
الأنسِ بالأحياب وفي معناه قالوا :

فما جانبُ الدنيا بَسْهَلٍ ولا الضُّحَى بَطَاقٍ ولا ماءُ الحياةِ يبارِدُ

قوله جل ذكره : « يَغْشَى الناسَ هذا عذابٌ أليمٌ » .

(١) لاحظ كيف يربط القشيري بين « التربية » و « الرب » .

(٢) سقطت (لا) من ص ١٠ . وهى ضرورية كما هو واضح من السياق ، وهى موجودة في م ، ولا تخفى
على القارئ . روعة الربط بين « اللعب » و « العباب » ، ومدى السخرية من دماغ المنافق وقد ماثلت فما تتحرك فيه
الشكوكُ تحركُك العباب .

(٣) هناك اتجاهاً في معنى « الدخان » في هذه الآية : أحدهما أنه - كما يذكر القشيري أنه من أشراط الساعة ،
خَرَجَ الثعلبي عن حذيفة أنه سأل النبي (ص) : « يأتى الله ، ما الدخان في هذه الآية ؟ فقال : هو دخان يملأ ما بين
المشرق والمغرب يمكث أربعين ليلة ويوماً ، فأما المؤمن فيمسيه منه شبه الزكام ، وأما الكافر فيكون بمنزلة
السكران يخرج الدخان من فمه ومنخره وعينه وأذنيه ودبره » . وأما الاتجاه الثانى فهو ما أصاب قريشاً من الجوع
بدعاء الذى عليهم ، وقد كشفه الله عنهم . ويؤيد ابن مسعود هذا القول الثانى بهذا الكشف ، لأنه لو كان قبل
يوم القيامة ما كشفه الله عن الناس .

وعذابٌ هؤلاء (يقصد الصوفية) مقيمٌ في الغالب ، وهو عذابٌ مُستَعَذَّبٌ ، أولئك يقولون :

« ربَّنَا اكشِفْ عَنَّا العذابَ إِنَّمَا مُؤْمِنُونَ »

وهؤلاء يستزيدون — على العكس من الخلق — العذابَ ، وفي ذلك يقول قائلهم :

فكلُّ مَارَبِيٍّ قَدْ نِلْتُ مِنْهَا سِوَى مَلْدُودٍ وَجَدِي بِالْعَذَابِ^(١)

فهم يسألون البلاءَ والخلقُ يستكشفونه ، ويقولون :

أنت البلاءُ فكيف أرجو كشفه

إِنَّ الْبَلَاءَ إِذَا قَدَّتْ بِلَائِي

قوله جل ذكره : « أَنِّي لَمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهم رَسُولٌ مُّبِينٌ »

إِنْ خَالَفُوا دَوَاعِيَ قُلُوبِهِمْ مِنَ الْخَوَاطِرِ^(٢) الَّتِي تَرِدُ مِنَ الْحَقِّ عَلَيْهِمْ عَاقِبُوا — فِي الْوَقْتِ بِمَا لَا يَنْقُصُ لَهُمْ وَيُسْغِفُهُمْ ، فَإِذَا أَخَذُوا فِي الْإِسْتِغَاثَةِ^(٣) يُقَالُ لَهُمْ : أَنِّي لَكُمْ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَكم الرِّسُولُ^(٤) عَلَى قُلُوبِكُمْ تَخَالَفْتُمْ ؟ !

قوله جل ذكره : « إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ » .

(١) البيت الحلاج مسبق بهذا البيت :

أريدك ، لا أريدك للشواب ولكني أريدك للعقاب

(ديوان الحلاج المقطعة السابعة)

(٢) الخواطر من الحق ، والهواجس والوسوس من الشيطان .

(٣) هكذا في م وهي في ص (الاستغاثة) وكلاهما مقبول في السياق .

(٤) الرسول هنا — لأن الحديث هنا عن الصوفية — مقصود به ما يَرِدُ عَلَى قُلُوبِهِمْ مِنْ لَدُنِ الْحَقِّ مِنَ الْكَشُوفَاتِ وَالْمُرَاصَلَاتِ

حيث نورثكم حزنا طويلا ، ولا تجدون في ظلال انتقامنا مقيلا .

قوله جل ذكره : ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم
رسول كريم * أن أدوا إلى عباد الله
إني لكم رسول أمين .

فتنهم (١) بعد ما أصرّوا على جحودهم ولم يرجعوا إلى طريق الرشيد من نفرة عنودهم (٢)
« وجاءهم رسول كريم » : يطالبهم بإزالة الظلم عن بني إسرائيل ، وأن يستبصروا ،
واستنفرهم لله ، وأظهر الحجة من قبل الله .

« فأسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون » .
أمره بأن يسري بعباده المؤمنين ، وعرفهم أنهم سينقذون ، وأن عدوهم
« جند مفرقون »

قوله جل ذكره : « كم تركوا من جنّات وعيون *
وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا
فيها فكهين » .

ما خلفوه من أحوالهم ومن رباشهم ، وما تركوه من أسباب معاشهم استلبناه عنهم .
« كذلك وأورثناها قوما آخرين » .

وأسكنّا قوما آخرين في منازلهم ودورهم .

قوله جل ذكره . « فما بكت عليهم السماء والأرضُ
وما كانوا منظرين » .

لم يكن لهم من القدر والخطر ما يتحرك في العالم بسببهم ساكن ، أو يسكن متحرك

(١) هكذا في من وهي مقبولة في السبأ إشارة إلى ما في الآية الكريمة : « ولقد فتنا . . . » أما في م فهي
(فتنهم) وواضح فيها خعاً للناسخ .
(٢) نفر الجلاء : ودّهم وتجاو عن اللعم ، وفقرت المرأة عن زوجها : أعرضت وصدّت ، وفقر من الشيء :
فزع منه وانقبض غير راض به .

فلا الخضراء بسببهم اغبرَّتْ ، ولا الغبراء لفيتهم اخضرتْ . لم يبقَ منهم عينٌ ولا أثرٌ ، ولم يظهر مِن قِبَلِهِمْ على قلبٍ أحدٌ من عبادنا أثرٌ . وكيف تبكى السماءُ لفقْدٍ من لم تستبشر به مِن قَبْلُ ؟ بعكس المؤمن الذي تُسرُّ السماءُ بصعودِ عمله إليها ، فإنها تبكى عند غيابه وفقْدِهِ (١) .

قوله جل ذكره : ولقد نجَّينا بنى إسرائيلَ من العذابِ
المُهِينِ * من فرعون إنه كان عالياً
من المُسْرِفينِ * ولقد اخترناهم على عِلْمٍ
على العالمين .

نَجَّاهُمْ ، وَأَقَمَى عَدُوَّهُمْ ، وَأَهْلَكَهُ .

« ولقد اخترناهم . . . » أى عَلِمْنَا ما يَحْتَقِبُونَ من أوزارهم (٢) ، فرفعنا — باختيارنا —
من أقدارهم ما وَضَعَهُ فِعْلُهُمْ وتدنسُهُم بأوزارهم .

ويقال : « على علم منا » بأحوالهم أنهم يُؤَثِّرُونَ أمرنا على كل شيء .

ويقال : « على علم منا » بمحبة قلوبهم لنا مع كثرة ذنوبهم فينا .

ويقال : « على علم منا » بما نودع عندهم من أسرارنا ، وما نكشفهم به من حقائق حقنا .

قوله جل ذكره : « وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ
بَلَاءٌ مُبِينٌ »

من مطالبته بالشكر عند الرخاء ، والصبر عند الكدِّ والعناء (٣) .

قوله جل ذكره : إِنْ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُنَّ * إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا

(١) عز شريح الحضرمى : قال النبي (ص) : « ألا لا غربة على مؤمن ، فإما مات مؤمن في غربة غائباً عنه
بواكيه إلا بكى عليه السماء والأرض » .

(٢) في ص (إنذارهم) والسياق يرفضها ، والصواب ما في م .

(٣) لأن البلاء يكون بالنعمة والقسمة ، قال تعالى : « ونهلوكم بالشر والخير فتنة » .

الأولى وما نحن بِمُنْشَرِينَ * فأتوا

بآبائنا إن كنتم صادقين .

اقترح أبو جهل على النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يحيى لهم نفساً^(١) :

« لتخبرنا : هل أنت صادق أم لا ؟ » فأخبر الله - سبحانه - أنهم اقترحوا هذا بعد قيام الحجّة عليهم، وإظهار ما أراح لهم من العذر : ثم قال جلّ ذكره :

أهم خيرٌ أم قومٌ تَبِعَ والذين من قبلهم

أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين * وما خلقنا

السموات والأرض وما بينهما لأعين * ما خلقناها

إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون .

« تَبِعَ » هو ملك لليمن ، وكان مسلماً ، وكان في قومه كثرة ، وأهلك الله سبحانه قومه

على كثرة عددهم ، وكان قوتهم :

قوله جلّ ذكره : « وما خلقنا السموات والأرض . »

ما خلقناها إلا بالحق ، بالحكم الحق ؛ وبالأمر الحق ... « فأنا نَحْيُ في خلقهما » : أى كان لى خلقهما .

قوله جلّ ذكره : « إنَّ يومَ الفصل ميقاتهم أجمعين * يومَ

لا يُغْنِي مولى عن مولى شيئاً ولا هم

يُنصرون * إلا من رَحِمَ الله إنه هو

العزيز الرحيم »

(١) حدّد أبو جهل ذلك حين قال النبي : إبعث لنا - إن كنت صادقاً - رجلاً مثل قصي بن كلاب لنسأله عما يكون بعد الموت .

وهذا القول من أبي جهل به ضعف ؛ لأن البعث يكون للجزاء لا للتكليف .

يَوْمَئِذٍ لَا يُفْنَى نَاصِرٌ عَنْ نَاصِرٍ وَلَا حَمِيمٌ عَنْ حَمِيمٍ ، وَلَا نَسِيبٌ عَنْ نَسِيبٍ . . شيئاً .
وَلَا يَنَالُهُمْ نَصْرٌ إِلَّا مِنْ رَحِمَةِ اللَّهِ ؛ وَبِفَضْلِهِ وَنِعْمَتِهِ .

قوله جل ذكره : « إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ
* كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ » .

« الْأَثِيمِ » مرتكبُ الذنوب . « الْمُهْلِ » : النحاس المذاب . « الْحَمِيمِ » : الماء الحار .

قوله جل ذكره : « خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ *
ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ » .

ادفعوا به إلى وسط الحميم . ويقال له :

« ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ » :

أنت كذلك عند قومك ، ولكنك عندنا ذليلٌ مهينٌ .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي
جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ » .

آمِنِينَ مِنَ الْخَوْفِ ، لِبَاسُهُمْ مِنْ حَرِيرٍ ، وَفَرَّاشُهُمْ مِنْ سُنْدُسٍ وَاسْتَبْرَقٍ ،
« مُتَقَابِلِينَ » : لا يبرحون ولا يبنون عنها حِوَالاً .

قوله جل ذكره : « كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ » .

تَبَاحَ لَهُمْ صُحْبَتُهُنَّ ، وَلَا يَكُونُ فِي الْجَنَّةِ عَقْدُ تَزْوِيجٍ وَلَا طَلَاقٌ ، وَيَمْكُنُ الْوَلِيُّ بِهِذِهِ
الْأَوْصَافِ مِنْ هَذِهِ الْأَلْطَافِ . ثُمَّ قَدْ يُخْتَلَفُ قَوْمٌ مِنْ بَيْنِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ ، فَيَتَحَرَّرُونَ عَنْ هَذِهِ
الْجَلَّةِ ؛ فَكَمَا أَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا يُخْتَلَفُونَ عَنْ كُلِّ الْعِلَاقِ فَإِنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ تَطْمَعُ الْحُورُ الْعَيْنُ
فِي صَحْبَتِهِمْ فَيَسْتَلْبِهِمُ الْحَقُّ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ .^(١)

(١) الصوفية الخُلُصَّ يعبُدون الله لا طمعاً في جنة ولا خوفاً من عذاب ، فرؤيةُ الله جنَّتَهُمْ ، واحتجابُهُ عنهم
جهنَّمَهُمُ الْكِبْرَى . ومبعضُ ذلك أنهم يحبون الله لذاته ، وفي ذلك يقول قائلهم :

إِنْ ذَا الْحُبِّ لِمَنْ يَفْنَى لَهُ لَا لِلدَّارِ ذَاتِ الْمَوْتِ وَطُرْفِ
لَا وَلَا الْفَرْدُوسِ - لَا يَأْلِفُهَا لَا وَلَا الْحُورَاءِ مِنْ فَوْقِ غُرْفِ

الزاهدُ في الدنيا يحميه منها ، والعارفُ في الجنة يحميه من الجنة .

قوله جل ذكره : « لا يذوقون فيها الموتَ إلا الموتةَ الأولى
ووقاهم عذابَ الجحيم » .

الموتة الأولى هي قبض أرواحهم في الدنيا ، وقيهم الله في الآخرة العذابَ بفضلِهِ ، وذلك
هو الظفرُ بالبغية ، ونجاح السؤل .

قوله جل ذكره : « فإِذَا يَسْرُناه بِلِسَانِكَ . . » .

يا محمد ، ليتذكر به أهلُك ، فارتقبِ العواقبَ ترَ العجائب . إنهم يرتقبون ، ولكن لا يرون
إلا ما يكرهون .

سورة الجاثية

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » باسم ملك لا يستظهر ببعثه ، أحد لا يستمسك ببعثه^(١) ، جبار ارتدى بكبريائه ، قهار اتصف بعز سنائه .

« بسم الله » باسم كريم صمد ، لا يستغرق وجوده أمد ، أبدى عظيم أحد ، لا يوجد من دونه مفرد ولا ملتحذ .

قوله جل ذكره : « حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » .

« العزيز » : في جلاله ، « الحكيم » : في أفعاله .

« العزيز » : في آزاله ، « الحكيم » : في لطفه بالعبد بوصف إقباله .

قوله جل ذكره : « إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ » .

شواهد الربوبية لا تُحصى ، وأدلة الإلهية واضحة ؛ فمن صحاح من سكرة الغفلة ، ووضع سيره في محال العبرة^(٢) حظي — لا محالة — بحقائق الوصلة .

قوله جل ذكره : « وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ » .

(١) هكذا في ص ، وفي م . . ولو صح أنها هكذا عن القشيري فربما كان قصده أن الله سبحانه — حي بدون موامل استمسك تثبت هذه الحياة .. فهو حي لا بسبب أو عارض لأنه لا يفترق إلى ذلك ، أما المحدث فإنه يعتمد في حياته على ما يحفظ حياته ، وتنزل هذه الحياة بزوال موامل هذا الحفظ .

(٢) هكذا في م وهي في ص (بغزه) ونحن نؤثر الأولى للامعة الاعتبار لسياق التدبر في المخلوقات .

إذا أنعم العبدُ نظرَه في استواءِ قدَّه وقامته ، واستكمالِ عقله وتَمَامِ تمييزه ، وما هو مخصوص به في جوارحه وحوائجه ، ثم فكَّرَ فيما عداه من الدواب ؛ في أجزائها وأعضائها . . ثم وقف على اختصاص وامتياز بني آدم من بين البرية من الحيوانات في الفهم والعقل والتمييز والعلم ، ثم في الإيمان والعرفان ووجوه خصائص أهل الصفوة من هذه الطائفة في فنون الإحسان — عَرَفَ تَخَصُّصَهُم بِمَنَاقِبِهِمْ ، وانفرادَهُم بِفَضَائِلِهِمْ ، فاستيقن أن الله كَرَّمَهُمْ ، وعلى كثيرٍ من المخلوقات قَدَّمَهم .

قوله جل ذكره : « واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آياتٌ لقوم يعقلون » .

جَعَلَ اللهُ العلومَ الدينيةَ كسبيةً مُصَحَّحةً بالدلائل ، مُحَقَّقةً بالشواهد . فمن لم يَسْتَبْصِرْ بها زَلَّتْ قَدَمُهُ عن الصراط المستقيم^(١) ، ووقع في عذاب الجحيم ؛ فالיום في ظلمة الخيرة والتقليد ، وفي الآخرة في التخليد في الوعيد .

قوله جل ذكره : « تلك آياتُ الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟ »
فَمَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا فَبَأَى حَدِيثٍ يُؤْمِنُ ؟ وَمَنْ أَى أَصْلَ يَسْتَمِدُّ بَعْدَهُ ؟ وَمَنْ أَى بَحْرٍ فِي التَّحْقِيقِ يَنْتَرِفُ ؟ هِيَاتِ ! مَا بَقِيَ لِلْإِشْكَالِ فِي هَذَا مَجَالٍ .

قوله جل ذكره : « وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمِعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُخِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

(١) في هذا ردٌّ على من يزعمون أن الصوفية يتكبرون بالعلوم الكسبية ؛ فهي كما هو واضح ذات أهمية قصوى في تثبيت الإيمان . هذا في الوقت الذي يقر القشيري بالعلوم الوهية كما يتضح من الهامش رقم (٢) في الصفحة التالية .

كل صامت ناطق ؛ بصمت عن الكلام والقول وينطق بالبرهان في الحكم^(١) .

فمن استمع بسمع الفهم ، واستبصر بنور التوحيد فاز بذخر الدارين ، وتصدى لِعِزِّ
المنزلين . ومن تصام بحكم الفعلة وقع في وهدة الجهل ، ووُسم بكى المهجر .

قوله جل ذكره : « وإذا عَلِمَ من آياتنا شيئاً اتخذها
هُزُوءاً أولئك لهم عذابٌ مُهين » .

قابه بالعداء ، وتلَّوه على ما يقع له من وجوه المراد من دون تصحيح بإسناد . . .
فهؤلاء « لهم عذاب مهين » : مُذِلٌّ .

وقد يُكاشَفُ العبدُ من بواطن القلب بتعريفات لا يتداخله فيها ريبٌ ، ولا يتخالجه منها
شكٌ فيما هو به من حاله . . . فإذا استهان بها وقع في ذُلِّ الحجة وهوانِ الفرقة^(٢) .

قوله جل ذكره : « من وراءهم جَهَنَّمُ ولا يُغْنِي عنهم
ما كَسَبُوا شيئاً ولا ما اتَّخَذُوا من دون
اللهِ أولياء ولم عذابٌ عظيم » .

فعند هذه الفترة ، وفي وقت هذه الحنة فلا عُدْرَ يُقْبَلُ منهم ، ولا خطابٌ يُسْمَعُ عنهم ،
ولهم عذابٌ متصل ، ولا يُرَدُّونَ إلى ما كانوا عليه من الكشف :

فَخَلَّ سَبِيلَ العينِ بعدك للبكا فليس لأيام الصفاء رجوعُ

قوله جل ذكره : « الله الذي سَخَّرَ لكم البحرَ لتجری
الْفُلُكُ فيه بأمرِهِ ولتبتغوا من فضله
ولعلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

عندما يركبون البحر فلربما تسلمُ السفينةُ ولربما تفرق .

(١) يشير القشيري بذلك إلى أن كل شيء ناطق بالوحدانية .. إما نطق قالة - كما في حال الإنسان ، وإما نطق
دلالة - كما في حال الجمادات .

(٢) يشير القشيري بذلك إلى العلوم الوهية ، وضرورة اعتبارها رافداً هاماً من روافد الإيمان الكشفي والتوحيد
الشهودي .

وكذلك العبد في فلك الاعتصام في بحار التقدير ، تمشى به رياح العناية ، وأشرعة التوكل مرفوعة ، والشُّبُلُ في بحر اليقين واضحة . وطالما تهب رياحُ السلامة فالسفينَةُ ناجيةٌ . أما إن هبَّتْ نكباتُ الفتنةِ فعندئذٍ لا يبقى بيد الملاحِ شيءٌ ، والمقاديرُ غالبَةٌ ، وسرعان ما تبلغ قلوبُ أهلِ السفينةِ الحناجرَ .

قوله جل ذكره : « وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون » .

« جميعاً منه » : كلُّ ما خلقَ من وجوه الانتفاع بها — كلُّه منه سبحانه ؛ فما من شيءٍ من الأعيان الظاهرة إلا — ومن وجه — للانسان به انتفاع . . وكلها منه سبحانه ؛ فالسماوات لم يبنها ، والأرضُ لم يهاد . . إلى غير ذلك . ومن الغبن أن يستسخرَكَ ما هو مُستَخَرٌ لك^(١) وليتأمل العبدُ كلَّ شيءٍ . . كيف إن كان خللٌ في شيءٍ منها ماذا يمكن أن يكون ؟ ! فلو لا الشمسُ . . كيف كان يمكن أن يتصرَّفَ في النهار ؟^(٢) ولو لم يكن الليلُ كيف كان يسكن بالليل ؟ ولو لم يكن القمر . . كيف كان يهتدى إلى الحساب والآجال ؟ . . إلى غير ذلك من جميع المخلوقات .

قوله جل ذكره : « قل للذين آمنوا يقرءوا للذين لا يقرأون أيام الله ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون »^(٣) .

نَدَبَهُم إلى حُسْنِ الخُلُقِ ، وجميلِ العِشرةِ ، والتجاوزِ عن الجهل ، والتتقى من كدورات البشرية . ومقتضياتِ الشُّحِّ .

(١) هذا الكلام ينصرف إلى الدنيا بأسرها . . فلا ينبغي أن يسترَقَكَ ما هو مَبْعُوكُكَ .

(٢) بحثاً عن معاشه .

(٣) يقال إن الآية نزلت بسبب أن رجلاً من قريش سَمَّ عمر بن الخطاب فهَمَّ أن يبطش به . ويقال نزلت في عمر حينما أراد أن يبطش بسلام عبد الله بن أبي جهن ذهب ليستقى فمنعه حتى ملئت قرب النبي وقرب أبي بكر ، فلما بلغ ذلك عبد الله قال : ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل : سمن كلبك يأكلك ، فلما بلغ عمر ذلك اشتمل سيفه وأراد التوجه لقتله ، فأنزل الله هذه الآية .

وَيَبِّنُ أَنَّ اللَّهَ — سبحانه — لا يفوته أحدٌ . فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ يَحْفَظُ أَوْلِيَاءَهُ ،
وَكَيْفَ يُدَمِّرُ أَعْدَاءَهُ . فَلْيَصْبِرْ أَيَّامًا قَلِيلًا لِيَعْلَمَ كَيْفَ صَارَتْ عَوَاقِبُهُمْ .

قوله جل ذكره : « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ
فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ »

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ مَمْنَاهُ ، وَمَنْ ارْتَكَبَ سَيِّئَةً فَأَسَىٰ بِلَوَاهِ . . . ثُمَّ مَرْجِعُهُ إِلَىٰ مَوْلَاهُ .

قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ
وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ » .

كَرَّرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ ذِكْرَ مُوسَىٰ وَذِكْرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ . . . بَعْضُهُ عَلَى الْجُمْلَةِ وَبَعْضُهُ
عَلَى التَّفْصِيلِ . وَهَذَا أَجْمَلٌ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ، ثُمَّ عَقِبَهُ حَدِيثُ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ :

« ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ
فَاتَّبِعْنَاهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ »
أَفْرَدْنَاكَ بِطَائِفٍ فَأَعْرِفْنَاهَا ، وَسَلَّمْنَا لَكَ طَرِيقًا فَاسْلُكْهَا ، وَأَثْبَتْنَا لَكَ حَقَائِقَ فَلَا تَتَجَاوَزْهَا ،
وَلَا تَجْنَحْ إِلَىٰ مِتَابَةِ غَيْرِكَ :

« إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا .. »
إِنْ أَرَادَ بِكَ نِعْمَةً فَلَا يَمْنَعُهَا أَحَدٌ ، وَإِنْ أَرَادَ بِكَ فِتْنَةً فَلَا يَصْرِفُهَا عَنْكَ أَحَدٌ .
فَلَا تُعَلِّقْ بِمَخْلُوقٍ فِكْرَكَ ، وَلَا تَتَوَجَّهْ بِضَمِيرِكَ إِلَىٰ شَيْءٍ ، وَثِقْ بِرَبِّكَ ، وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ .

قوله جل ذكره : « هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ
يُوقِنُونَ » .

أَنْوَارُ الْبَصِيرَةِ إِذَا تَلَأَلَّتْ انْكَشَفَتْ دُونَهَا تَهْمَةُ التَّجْوِيزِ .
وَنَظَرُ النَّاسِ عَلَىٰ مَرَاتِبِهِ ^(١) : فَمِنْ نَاطِلِ بْنِ نُجُومِهِ ^(٢) — وَهُوَ صَاحِبُ عَقْلِ ،

(١) مَكْدَلًا فِي م وَهِيَ فِي ص (مَرَاطِبُ) بِكَافٍ وَهِيَ غَطَا مِنْ النَّاسِخِ

(٢) « « « « « (وَمَاهُو) وَهِيَ غَطَا مِنْ النَّاسِخِ .

ومن ناظر بنور فراسته وهو صاحب ظنٍّ يُقَوِّيه لَوْحٌ — ولكنه من وراء السُّرِّ (١) ،
ومن ناظر ييقن عِلْمٍ بِحُكْمٍ بِرَهَانٍ وَشَرْطٍ فَكْرٍ ، ومن ناظر بعين إيمان بوصف اتباع ،
ومن ناظر بنور بصيرة هو على نهاري ، وشمسه طالعة وسماؤه من السحاب (٢) مصححة (٣) .

قوله جل ذكره : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ
أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » .

أَمِنْ خَفَضْنَاهُ فِي حَضِيضِ الضَّعَةِ كَمَنْ رَفَعْنَاهُ إِلَى أَعَالَى الْمَنَعَةِ ؟

أَمِنْ أَخَذْنَا بِيَدِهِ وَرَحْنَاهُ كَمَنْ دَاسَهُ الْخِذْلَانُ فَرَجْنَاهُ ؟

أَمِنْ وَهَبْنَاهُ بَسْطَ وَقْتٍ وَأَنْسَ حَالٍ وَرَوَّحَ لُطْفٍ حَتَّى خَصَصْنَاهُ وَرَقَيْنَاهُ ، ثُمَّ قَرَّبْنَاهُ
وَأَذْنَيْنَاهُ كَمَنْ تَرَكَ جُهْدَهُ وَاسْتَفْرَاغَ وَسْعِهِ وَإِسْبَالَ دَمْعِهِ وَاحْتِرَاقَ قَلْبِهِ ... فَمَا أُنْعَشْنَاهُ ؟ .

قوله جل ذكره : « أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ
اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ
عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ... » .

مَنْ لَمْ يَسْلُكْ سَبِيلَ الْإِتْبَاعِ ، وَلَمْ يَسْتَوْفِ أَحْكَامَ الرِّيَاضَةِ ، وَلَمْ يَنْسَلِخْ عَنْ هَوَاهُ
بِالْكَلْبَةِ ، وَلَمْ يُوَدِّبْهُ إِمَامٌ مُقْتَلَى فَهُوَ يَنْجَرُ فِي كُلِّ وَهْدَةٍ ، وَيَهِيمُ فِي كُلِّ ضَلَالَةٍ ، وَيَضِلُّ
فِي كُلِّ فِتْنَةٍ ، خَسِرَانُهُ أَكْثَرُ مِنْ رَنْجِهِ !! أَوْلَيْكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ؛ يَعْمَلُونَ الْقُرْبَ عَلَى مَا يَقَعُ لَهُمْ مِنْ
نَشَاطٍ نَفْسِهِمْ (٤) ، زِمَانُهُمْ بِيَدِ هَوَاهُمْ ، أَوْلَيْكَ أَهْلُ (٥) الْمَكْرِ ... أَسْتَذِرُّوْا وَمَا يَشْعُرُونَ ! .

(١) الفراسة بما يخلق الله في قلب العبد من غير كسب منه ، وهي من ثمرات الإيمان الكامل ، وما يسميه
القشيري هنا (لوحاً) يسميه في موضع آخر (سواطع) أنوار تلمع في القلب تدرك بها المعاني (الرسالة ص ١١٦) .
ولمعرفة الفرق بين اللوائح والسواطع أنظر الرسالة ص ٤٣ . ويعرف الجنيد الفراسة فيقول : هي مصادقة الإصابة ،
ثم يذكر أنها موهبة كائنة دائمة (التعرف للكلاباذي ص ١٥٧) .

(٢) هكذا في م وهي في ص (الصحاب) بالصاد وواضح في ذلك خطأ الناسخ .

(٣) هذه الدرجة الأخيرة - كما هو واضح - أعلى درجات النظر تملأها من الآفات .

(٤) لأن النفس محل المعلومات ، فعملهم مرتين بنفوسهم وأهوائهم .

(٥) هكذا في (م) وهي في م (أصل) وهي خطأ من الناسخ لأنهم «أهل» المكر إشارة إلى قوله تعالى :

«وَمَكْرُوا مَكْرَ اللَّهِ» .

قوله جل ذكره : « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموتُ

ونحيا وما يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وما لهم

بذلك من عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ » .

لم يَعْتَبِرُوا بما وجدوا عليه خَلْفَهُمْ وسَلَفَهُمْ ، وأزجوا في البهيمية عَيْشَهُمْ وعُمْرَهُمْ ، وأعفوا عن كَدِّ الفكرة قلوبهم . . . فلا بالعلم استبصروا ، ولا من التحقيق استمدوا . رأسُ مالهم الظنُّ — وهم غافلون .

قوله جل ذكره : « وإذا نُتِلَى عليهم آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ

ما كان حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّوا بِآبَائِنَا

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » .

طلبوا إحياء موتاهم ، وسوف يَرَوْنَ ما استبعدوا .

ثم أخبر أن مُلْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لِلَّهِ ، وإذا أقام القيامة يُخَشِّرُ أصحابُ البطلان ،

فإذا جاءهم يومُ الخِصامِ :

« وترى كلَّ أمةٍ جاثيةٍ كلُّ أمةٍ تُدْعَى

إلى كتابِها اليومَ تُجْزَوْنَ ما كنتم تعملون » .

كلُّ بحسابه^(١) مطالبٌ ... فأما الذين آمنوا فلقد فازوا وسادوا ، وأما الذين كفروا

فهلكوا وبادوا^(٢) .. ويقال لهم : أنتم الذين إذا قيل لكم حديثٌ عُقِبَاكم كَذَّبْتُمْ مولاكم ؟

فاليومَ — كما نسيتمونا — نَسَاكم ، والنارُ مأواكم .

قوله جل ذكره : « فَلَلهِ الْحَمْدُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ

رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

للهِ الْحَمْدُ على ما يُبْدَى وَيُنْفِى ، ويمحي ويُفْنِي ، ويُجْرِي وَيُمْضِي .. إذ الحُكْمُ لله .

والكِبَرِيَاءُ لله ، والعِظَمَةُ والسَّنَاءُ لله ، والرفعة والبهاءُ لله .

(١) هذا أيضاً رأى يحيى بن سلام ، وقيل « كتابها » السُّنَنُ عَلَيْهَا لينظر هل عللوا بما فيه . وقيل : الكتاب

هنا هو اللوح المحفوظ .

(٢) مكذبا في م ، وهي في ص (ونادوا) وهي خطأ من النسخ .

سورة الأحقاف

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمة للقلوب سالبة ، للعقول غالبة ، للطبعين واهبة ، للعارفين ناهية . . فالذين يهبهم فلهم لطفه ، والذين ينهبهم فمن مَحَقَّفه فهو عنه خَلَقُهُ (١) .

قوله جل ذكره : « حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » .

حَمَيْتُ قُلُوبَ أَهْلِ عَنَائِقِي فَصَرَفْتُ عَنْهَا خَوَاطِرَ التَّجْوِيزِ ، وَتَبَّثْتُهَا فِي مَشَاهِدِ الْيَقِينِ بِنُورِ التَّحْقِيقِ ؛ فَلَا حَتَّ فِيهَا سِوَاهُ الْبِرْهَانِ ؛ فَأَضَفْنَا إِلَيْهَا لَطَائِفَ الْإِحْسَانِ ؛ فَكَمَّلَ مِنْهَا مَنْ عَيْنِ الْوَصْلَةِ ، وَغَذَيْنَاهُمْ بِنَسِيمِ الْأَنْسِ فِي سَاحَاتِ الْقَرْبَةِ .

« العزيز » : الْمُعَزِّزُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِإِنزَالِ الْكِتَابِ عَلَيْهِمْ .

« الحكيم » ، الْمُحْكِمُ لِكِتَابِهِ عَنِ التَّبْدِيلِ وَالتَّحْوِيلِ .

قوله جل ذكره : « مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا

إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا

عَمَّا أَنْذَرُوا مُعْرِضُونَ » .

الكَافِرُونَ مُعْرِضُونَ عَنْ مَوْضِعِ الْإِنذَارِ ، مُقِيمُونَ عَلَى حَدِّ الْإِصْرَارِ

(١) وفي ذلك يقول شاعرهم :

أَلَسْتُ لِي خَلْقًا ؟ كَفَى شَرَفًا فَمَا وَرَاءَكَ لِي قَصْدٌ وَلَا أَمَلٌ

ويقول أبو حمزة موضحاً كيف أن هذا الموت في سبيل محبوبه عين الحياة :

ونحبي محباً أنت في الحب حتفه وذا عجب .. كون الحياة مع الحنف !

(اللع لسراج ص ٢٢٥) .

قوله جل ذكره : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ
شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتَتَوَكَّلُونَ بِكِتَابٍ مِنْ
قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ » .

أروني .. أى أثرٍ فيهم في الملك ، أو القدرة على النفع والضرر ؟ إن كانت لكم حُجَّةٌ
فأُظهِرُوهَا ، أو دلالة قَبِيْنُوهَا .. وإذ قد عَجَزْتُمْ عَنْ ذَلِكَ فَهَلَّا رَجَعْتُمْ عَنْ غِيَّتِكُمْ وَأَقْلَعْتُمْ ؟
قوله جل ذكره : « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ
مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ
دَعَائِهِمْ غَافِلُونَ » .

مَنْ أَشَدُّ ضَلَالًا مِمَّنْ عَبْدَ الْجَادِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ حَيَاةٌ وَلَا لَهُ فِي النِّفَعِ أَوْ الضَّرَرِ إِثْبَاتٌ ؟
قوله جل ذكره . « وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ
وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ » .
إِذَا حُشِرَ النَّاسُ لِلْحِسَابِ وَقَعَتِ الْعَدَاوَةُ بَيْنَ الْأَصْنَامِ وَعَابِدِيهَا .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ
الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا
سِحْرٌ مُبِينٌ » .

رَمَوْا رُسُلَنَا بِالسَّحَرِ ثُمَّ بِالْأَقْرَاءِ وَالْمَكْر .. قُلْ — يَا مُحَمَّد — كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
شَهِيدًا ؛ أَتُمْ أَشْرَكْتُمْ بِهِ ، وَأَنَا أَخْلَصْتُ لَهُ تَوْحِيدًا . وَمَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ ؛ فَلَسْتُ بِأَوَّلِ
رَسُولٍ أُرْسِلَ ، وَلَا بَغِيرٍ مَا جَاءُوا بِهِ مِنْ أَصُولِ التَّوْحِيدِ جِئْتُ ، إِنَّمَا أَمَرْتُكُمْ بِالْإِخْلَاصِ فِي
التَّوْحِيدِ ، وَالصِّدْقِ فِي الْعِبَادَةِ ، وَالِدَعَاءِ إِلَىٰ مُحَاسَنِ الْأَخْلَاقِ .

قوله جل ذكره : « وَمَا أَذْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ

اتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا
نَذِيرٌ مُّبِينٌ .

وهذا قبل أن نزل قوله تعالى : « لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » (١) .

وفي الآية دليلٌ على فساد قول أهل القدر والبدع حيث قالوا : « إِبْلَامُ الْبَرِيءِ قَبِيحٌ فِي الْعَقْلِ » . لأنه لو لم يَجْزُ ذلك لكان يقول : أَعْلَمُ — قطعاً — أُنِّي رَسُولُ اللَّهِ ، وَأُنِّي مُعْصُومٌ .. فلا محالة يغفر لي ، ولكنه قال : وما أدرى ما يُفَعَّلُ بي ولا بكم ؛ لِيُعْلَمَ أَنَّ الْأَمْرَ أَمْرُهُ ، وَالْحُكْمَ حُكْمُهُ ، وَلَهُ أَنْ يَفْعَلَ بِعِبَادِهِ مَا يَرِيدُ (٢) .

قوله جل ذكره : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ (٣) مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ لَا يَهْدِيَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » .

نَبِّئْ لَهُ أَنَّهُ لَا عُذْرَ لَهُمْ بِحَالٍ ، وَلَا أَمَانَ لَهُمْ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ . وما يستروحون إليهم مِنْ حُجَجِهِمْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ كُلِّهَا — فِي التَّحْقِيقِ — بَاطِلٌ . وأخبر أن الكفار قالوا : لو كان هذا الذي يقوله

(١) آية (٢) سورة الفتح وبزولها نسخت هذه الآية ، وزال فرح المشركين واليهود والمنافقين الذين كانوا يقولون : كيف نتبع نبياً لا يدرى ما يفعل به ولا بنا وأنه لا فضل له علينا ، ولولا أنه ابتدع الذي يقوله من تلقاء نفسه لأخبره الذي بعثه بما يفعل به — وبزول هذه الآية أرغم الله أنوفهم ، وقالت الصحابة : هنيئاً لك يا رسول الله ! وهنيئاً لنا !

(٢) القشيري ينكر أن يذهب البشر إلى الناس تعليقات للأفعال الإلهية ؛ لأن أفعال الله سبحانه لا تخضع للأغراض ، فهو لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، فهو يعود بالأمر كله إلى الحكمة والإرادة الإلهيتين ، وطالما هما في غير نطاق الإنسانية فلا ينبغي إخضاعهما للمفاهيم الإنسانية من حسن وقبح ، وسير وشر ؛ لأن هذه المفاهيم متأثرة بالمصلحة والقرص .. والله بمنزه عن ذلك ، فله أن يفعل بعباده ما يشاء ، وإذا كان رب الأسرة لا يقودها إلا إلى الخير فما ظنك برب البرية وخالق كل شيء ؟ !

(٣) هو عبد الله بن سلام عند الجمهور ، ولهذا قيل إن هذه الآية مدنية ؛ لأن إسلامه كان بالمدينة . وروى أنه سأل النبي عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي : ما أول أشرط الساعة وما أول طعام يأكله أهل الجنة ، وما بال الولد ينزع إل أبيه أو إلى أمه ؟ فقال الرسول (ص) : أول أشرط الساعة نار تحترق من المشرق إلى المغرب ، وأول طعام أهل الجنة زيادة كبد حوت ، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل نزجه وإن سبق ماء المرأة نزحته . فقال : أشهد أنك رسول الله حقاً . (صحيح البخاري - ٢ ص ٢٢٦) .

من الحشر والتشريعاً لم تنقص رتبنا عند الله عن رتبة أحده ، ولتقدّمنا — في الاستحقاق —
على الكل . ولما لم يجدوا لهذا القول دليلاً صرحوا :

« فيقولون هذا إفكٌ قديم » .

وقد بعث الله أنبياءه — عليهم السلام — وأنزل عليهم الكتب ، وبين في كل كتاب ،
وعلى لسان كل رسولٍ بأنه بعث محمداً رسولاً ، ولكن القوم الذين في عصر نبينا — صلى الله
عليه وسلم — كتموه ، وحسدوه .

قوله جل ذكره : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا

فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون » .

مضى تفسير الاستقامة . وإن من خرج على الإيمان والاستقامة حظي بكل كرامة ،
ووصل إلى جزيل السلامة .

وقيل : السين في « الاستقامة » سين الطلب ؛ وإن المستقيم هو الذي ينتهل إلى الله تعالى
في أن يقيته على الحق ، ويثبتته على الصدق .

قوله جل ذكره : « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا

حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا » . .

أمر الإنسان برعاية حقّ والديه على جهة الاحترام ، لما لها عليه من حق التربية والإنعام ،
وإذا لم يُحسّن الإنسان حرمة من هو من جنسه فهو عن حسن مراعاة سيّده أبعد . ولولم يكن
في هذا الباب إلا قوله — صلى الله عليه وسلم : « رضا الرب من رضا الوالدين ، وسخطه في
سخطهما » لكان ذلك كافياً . ورعاية حق الوالد من حيث الاحترام ، ورعاية حق الأم من
حيث الشفقة والإكرام . ووعد الله على برّ الوالدين قبول الطاعة بقوله جل ذكره :

« أولئك الذين نتقبلُ عنهم أحسن ما عملوا

وتتجاوزُ عن سيئاتهم في أصحاب الجنة

وَعَدَ الصديق الذي كانوا يوعدون » .

فقبول الطاعة وغفران الزّلة مشروطان ببرّ الوالدين . وقد ذمّ الله — سبحانه — الذي

يتصف في حقهما بالتأفف ، وفي ذلك تنبيهٌ على ما وراء ذلك من أى تعسف ، وعلى أن الذى يسلك ذلك يكون من أهل الخسران ، وبالتالي يكون ناقص الإيمان .

وسبيلُ العبدِ فى رعاية حق الوالدين أن يُصلِحَ ما بينه وبين الله ، فحينئذٍ يصلح ما بينه وبين غيره — على العموم ، وأهله — على الخصوص .

وشَرُّ خصال الولدِ فى رعاية حق والديه أن يتبرّم بطول حياتهما ، ويتأذى بما يحفظ من حقهما . وعن قريب يموت الأصلُ ويبقى النسلُ ، ولا بدّ من أن يتبع النسلُ الأصلَ^(١) ، وقد قالوا فى هذا المعنى .

رويدك إن الدهرَ فى كفايةٍ لتفريق ذات البين . . . فانتظر الدهر^(٢)
قوله جل ذكره : « ويوم يُعرضُ الذين كفروا على النارِ
أُذْهِبَتْ طَيِّبَاتُكُمْ فى حياتكم الدنيا
واستمتعتم بها فاليوم تُجزَوْنَ عَذَابَ
الهُونِ بما كنتم تستكبرون فى الأرضِ
بغير الحقِّ وبما كنتم تفسُقُونَ » .

سبيلُ العبدِ ألا ينسى فى كل حالٍ معبودَه ، وأن يتذكرَ أنه معه فى همه وسروره ، وفى مناجاته عند رخائه وبلائه . فإن اتفق أن حصلَ له أنسٌ ، وغلبَ عليه رجاءٌ وبسطٌ ثم هجم على قلبه قبضٌ أو مَسَةٌ خوف . . . فليخاطبُ ربّه حتى لا يكونَ من جملة من قيل له : « أُذْهِبَتْ طَيِّبَاتُكُمْ فى حياتكم الدنيا . . . »

قوله جل ذكره : « واذا كرأخا عادٍ إذ أنذر قومَه
بالأحقابِ^(٣) وقد خَلَّتِ النَّذْرُ من بين

(١) أى أن أولاده سوف يعاملونه بالكيفية التى عامل بها أبويه .

(٢) إذا لاحظنا اهتمام القشيري هنا برعاية حقوق الأبوين ، وإذا ذكرنا أنه فى موضع آخر يرى أن حقوق الشيوخ والمربين لا تقل عن ذلك ؛ « لأن الوالدين يربون الأشباح . والشيوخ يربون الأرواح » علمنا أن هذه الإشارة موجهة إلى المريدين بنفس الدرجة الموجهة إلى العموم .

(٣) الأحقاب = ج حقف . وهى رمال عظام معوجة لا تبلغ أن تكون جبالا . وقال الكلبي : أحقاب الجبل ما نصب عنه الماء زمن الفرق . وهناك اختلاف فى مكان ديار عاد يرجع إليه فى كتب التفسير .

يديه ومن خلقه ألا تعبدوا إلا الله إني
أخاف عليكم عذاب يوم عظيم .

أخبر بالشرح عن قصة هود وقومه عاد وما جرى بينهم من الخطاب ، وتوجه عليهم من
العتاب ، وأخذهم باليم العذاب .

قوله جل ذكره : « ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ... »
فلم يُغن عنهم ما آتيناهم ... وانظروا كيف أهلكناهم .

قوله جل ذكره : « وإذ صرّفنا إليك نفرًا من الجن
يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا
أنصتوا فلما قُضي ولّوا إلى قومهم
منذرين . »

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مبعوثًا إلى الجن كما كان مبعوثًا إلى الإنس : وإن قومًا
أتوه ليلة الجن^(١) وآمنوا به ، ورجعوا إلى قومهم فأخبروهم ، وآمن قوم منهم ؛ فالיום في الجن
مؤمنون ، وفيهم كفرون .

« فلما حضروه قالوا أنصتوا . . » الصيحة على الباب وفوق البساط غيبة ؛ ولهذا لما حضر
الجن بساط خدمته — صلى الله عليه وسلم — تواصلوا فيما بينهم بحفظ الأدب ، وقالوا لما حضروا
بساطه : « أنصتوا » ، فأهل الحضور صفتهم الذبول والسكون ، والهيبة والوقار . والثوران
أو الانزعاج يدل على غيبة أو قلة تيقظ أو نقصان اطلاع^(٢) . « فلما قُضي . . » يعني الوحي
« ولوا إلى قومهم منذرين » وأخبروهم بما رأوه وسمعوه .

قوله جل ذكره : « يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا

(١) حدث ابن مسعود عن هذه الليلة ، وأبان كيف سمع — وقد كان وحده بصحبة النبي وهو يقرأ القرآن —
لغَطًا وغفمة ، وشاهد أمثال النور تهوى وتمشي في رفرقها ... الخ .

(٢) هنا نجد القشيري ينصح بالكتمان ولا يرى الإفصاح ، وقد سئل الجنيد في ذلك فأجاب : « وترى الجبال
تحميها بجمادة وهي تمر مر السحاب (أنظر بحث هذه القضية في كتابنا «نشأة التصوف الإسلامي» ط المعارف ص ٢٢٩) .

به يفرُّ لكم من ذنوبكم ويَجْزِيكم
من عذاب أليم .

يقال الإجابة على ضربين : إجابة الله ، وإجابة للداعي ؛ فإجابة الداعي بشهود الواسطة — وهو الرسول صلى الله عليه وسلم . وإجابة الله بالجهر إذا بَلَّغَتْهُ الرسالةُ على لسان السفير ، وبالسِّرِّ إذا حصلت التعريفاتُ من الواردات على القلب ؛ فمستجيبٌ بنفسه ومستجيب بقلبه ومستجيبٌ بروحه ومستجيبٌ بسرِّه . ومن توقف عن دعاء الداعي إِيَّاه ، ولم يبادر بالاستجابة هَجَرَ فيما كان يُخاطب به^(١) .

قوله جل ذكره : « أَو لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزَمْ بِخَلْقِهِنَّ
بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُخَيِّقَ الْمَوْتَ ؟ بَلَى :
إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

الرؤية هنا بمعنى العلم .

« وَلَمْ يَعْزَمْ » أى ولم يعجز ولم يضعف .

قوله جل ذكره : « وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا
عَلَى النَّارِ » .

ثم يقال لم على سبيل تأكيد لإزام الحجة :

« أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ؟ قَالُوا : بَلَى وَرَبَّنَا . قَالَ : فَذُوقُوا
العَذَابَ . . . »

جزاء لكم على كُفركم .

« قَالُوا : هَذَا الَّذِي كُنَّا نَعْتَذِرُ بِهِ : فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولَؤُلَ الْعِزْمِ
مِنَ الرُّسُلِ » .

(١) هكذا في م وهي في ص (يطالب به) وكلامها مقبول في السياق فالدعاء خطاب ومطالبة للمدعو .

أولو الجد والصبر والحزم . وجاء في التفسير أنهم : نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد
صلى الله عليهم وسلم . وقيل : هود وصالح وشعيب ومحمد عليهم السلام . وقيل : منهم يعقوب
وأيوب ويونس .

والصبر هو الوقوف لحكم الله ، والثبات من غير بث ولا استكراه .

قوله جل ذكره : « كأنهم يوم يرون ما يوعدون

لم يلبثوا إلا ساعة من نهار » .

ويقال مُدَّة الخلق : من مبتدأ وقتهم إلى مُنتهى آجالهم بالإضافة إلى الأزلية^(١) كلحظة

بل هي أقل ؛ إذ الأزل لا ابتداء له ولا انتهاء . . وأى خطر لما حصل في لحظة . . خيراً كان

أو شراً ؟ !

(١) بالإضافة إلى = بالنسبة إلى .

سورة محمد " صلى الله عليه وسلم " (١)

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

مَنْ ذَكَرَ « بسم الله » جَلَّتْ رُتْبَتُهُ ، وَمَنْ عَرَفَ « بسم الله » صَفَتْ حَالَتُهُ ، وَمَنْ أَحَبَّ « بسم الله » أَشْكَلَتْ قِصَّتُهُ (٢) ، وَمَنْ صَحِبَ « بسم الله » امْتَحَنَتْ أُنْيَتُهُ (٣) ، وتلاشت بالكلية — بُجَلَّتُهُ .

قوله جل ذكره : « الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله

أضلّ أعمالهم • والذين آمنوا وعملوا

الصلح والذين آمنوا بما نُزِّلَ على محمدٍ وهو

الحقُّ من ربِّهم كفّر عنهم سيئاتهم

وأصلح بهم » .

« الذين كفروا » : امتنعوا ، وصدّوا قُصُومًا ؛ فلا تُهمّ امتنعوا عن سبيل الله استوجبوا

الحجّة والغيبة .

« أضلّ أعمالهم » : أى أخطأها .

« والذين آمنوا .. » بما نُزِّلَ على محمد ، « وهو الحق من ربهم .. »

(١) وتسمى عند بعض المفسرين « سورة القتال » .

(٢) الكلام في هذه النقطة كثير لا يتسع له هامش خفيق ، ومن أراد أن يعرف كيف أن قصة المحبين الإلهيين مشكلة فيكون أن يعلم أن قصة الوصول إلى التوحيد .. أن يختلج الموحّد في الموحّد فلا يكون هناك إلا واحد ، إن تحدث فبالله ، وإن تحرك فبالله . هو بين الناس كائن وعندهم بائن ، يقضى عمره بين وجد وفقد .. (أنظر قصة هذا الحب بتفاصيلها الدقيقة في كتابنا : نشأة التصوف الإسلامى • باب الحب والفناء والمعرفة .

(٣) تلاشت آثار بشريته لا بشريته .

أصاحح حالهم ، قال كفروا للأعمالِ مُخْبِطٌ ، والإيمانُ للتخليدِ ^(١) مُسْقِطٌ .
ويقال : الذين اشتغلوا بطاعةِ الله ، ولم يعملوا ^(٢) شيئاً مما خالفَ الله — فلا محالةً — تقوم
بكفاية اشتغالهم بالله .

قوله جل ذكره : « ذلك يَأْنُ الذين كفروا اتَّبِعُوا الباطلَ
وَأَنَّ الذين آمنوا اتَّبِعُوا الحقَّ من ربِّهم
كذلك يضربُ الله للناسِ أمثالهم » .

أى يضرب أمثال هؤلاء لحسناتهم ، وأمثال هؤلاء لسيئاتهم .
ويكون اتباعُ الحقِّ بموافقةِ السُّنَّةِ ، ورعايةِ حقوقِ الله ، وإيثارِ رضاه ، والقيامِ بطاعته .
ويكون اتباعُ الباطلِ بالابتداعِ ، والعملِ بالهوى ، وإيثارِ الحفظِ ، وارتكابِ المعصية .

قوله جل ذكره : « فإذا تَقيَّمتُ الذين كفروا فَضَرَبَ
الرَّعَابُ حتى إذا أَثْمَنَموهم فَشَدُّوا الوَاقَ
فَأَمَّا مَنْ بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حتى تَضَعَ الحربُ
أَوزَارَهَا » .

إذا حَصَلَ الظَّفَرُ بالعدوِّ فالغزوُ عنهم وتركُ المبالغةِ في التشديدِ عليهم — للتدبيرِ مُوجِبٌ ،
وللفُرصةِ تَضْيِيعٌ ؛ بل الواجبُ إِزْهَاقُ نفوسِهِم ، واستئصالُ أصولِهِم ، واقتلاعُ شَجَرِهِم
من أصلِهِ .

وكذلك العبدُ إذا ظَفَرَ بنفسِهِ فلا ينبغي أن يُبْقِيَ بعد انتفاشِ شوكتها بقيةً من الحياة ،
فَمَنْ وَضَعَ عليها إصبعاً بَدَّتْ سُمُّها فيه ^(٣) .

« فَأَمَّا مَنْ بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً » ذلك إذا رجا المسلمون في ذلك غبطةً أو فائدةً ؛ مثل إفراجِ

(١) العذاب المؤبد .

(٢) هكذا في م وهي في ص (ولم يعملوا) وهي خطأ من الناسخ .

(٣) ذلك لأن نفسك التي بين جنبيك هي أعدى أعدائك ، وجهادها هو الجهاد الأكبر . . لأنها تقودك إلى

دواعي الهوى ، وفي ذلك عند الصوفية شركٌ خفى .

الكفار عن قوم من المسلمين ، أو بسبب ما يؤخذ من الفداء .. وأمثال هذا ، فحينئذ ذلك
مُسَلَّمٌ على ما يراه الإمام (١) .

كذلك حال المجاهدة مع النفس : حيث يكون في إغفاء ساعة أو في إفطار يوم ترويح
للنفس من الكد ، وتقوية على الجهد فيما يستقبل من الأمر — فذلك مطلوبٌ حسبما يحصل به
الاستصواب من شيخ المريد ، أو فتوى لسان الوقت ، أو فراسة صاحب المجاهدة (٢) .

قوله جل ذكره : « والذين قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن

يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سيهديهم ويصلح بالهم *
ويُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَافًا لَهُمْ » .

إذا قُتِلَ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ تَوَلَّى وَرَثَةُ الْقَتُولِ بِأَحْسَنَ مِنْ تَوَلِيَةِ الْقَتُولِ .
وكذلك يَرْفَعُ دَرَجَاتِهِ ؛ فَيُعْظِمُ ثَوَابَهُ ، وَيُكْرِمُ مَا بِهِ .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصَرُوا لِلَّهِ

يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » .

نصرة الله من العبد نصرة دينه بإيضاح الدليل وتبيينه .

ونصرة الله للعبد بإعلاء كلمته ، وقمع أعداء الدين ببركات سعيه وهمته .

« وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » بإدامة التوفيق لئلا ينهزم من صولة أعداء الدين .

قوله جل ذكره : « والذين كَفَرُوا فَتَعَسَّأْ لَهُمْ وَأُضِلَّ

أَعْمَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ
فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ » .

(١) للإمام الحق في أن يقتبل أو يمن أو يفادي أو يسترى . والرسول نفسه . قتل عقبة بن معيط والنضر
ابن الحارث يوم بدر ، وفادي سائر أسارى بدر ، ومن على ثمانية الخنق وهو أسير ، ومن على سبى هوازن ، وأخذ
من سلمة بن الأكوع جارية ففدى بها أناساً من المسلمين .. هذه كلها ثابتة في الصحيح — وهذه الأربعة إليها مذنب
الشافعي .

(٢) تهتمنا هذه الفقرة إذا تذكرنا أن القشيري متشدد في الرخص ، وقياس الرخصة هنا على آية القتال وعلى
حرب المشركين وعلى تصرف الإمام .. فيها دقة تحتاج إلى تدبر . ثم تهتمنا في معرفة من الذي يمنح الرخصة للمريد ؟

تسأ لهم : لعنا وطرداً ، وقمناً وبعداً !

« أضلُّ أعمالهم » : هتَكَ أَسْتَارَهُمْ ، وأُظْهِرَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَسْرَارَهُمْ ، وَأَخْمَدَ نَارَهُمْ .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » .

وكيف أهلكهم وأبادهم وأقامهم ؟

قوله جل ذكره : « ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ
الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ » .

المولى ^(١) هنا بمعنى الناصر ^(٢) ؛ فاللهُ ناصرٌ للذين آمنوا ، وأما الكافرون فلا ناصرَ لهم .
أو المولى من الموالاة وهي ضد المعادة ، فيكون بمعنى المحب ؛ فهو مولى الذين آمنوا أى
يُحِبُّهُمْ ، وأما الكافرون فلا يحبهم الله .

ويقول تعالى في آية أخرى : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ » ^(٣) .

وبصح أن يقال إنَّ هذه أرجى ^(٤) آية في القرآن ؛ ذلك بأنه سبحانه يقول : إن الله مولى
الذين آمنوا ، ولم يقل : مولى الزهاد والعُباد وأصحاب الأوراد والاجتهاد ؛ فالؤمن — وإن كان
عاصياً — من جملة الذين آمنوا ، (لا سيما و « آمنوا » فعل ، والفعل لا عموم له) ^(٥) .

قوله جل ذكره : « إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ »

(١) تضاف أقوال القشيري هنا في (المولى) إلى حديثه عن ذلك الاسم في كتاب «التحبير في التذكير» وإلى
حديثه في (الولاية والولى) في مواضع متفرقة من مصنفاته .
(٢) جاءت (الناظر) في ص وهي خطأ في النسخ .
(٣) آية ٢٥٧ سورة البقرة .
(٤) جاءت (أوحى) في ص وهي خطأ في النسخ .
(٥) سقطت العبارة بين القوسين من ص وجاءت في م . والقشيري مستفيل من السياق القرآني إذ عبَّرَ عن
الإيمان بالفعل وهو « آمنوا » وعبر عن الكفر بالاسم فقال : « وأن الكافرين لا مولى لهم » .

مضى الكلام في هذه الآية .

«والذين كفروا يتمتعون ويأكلون

كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم» .

الأنعام تأكل من أى موضع بلا تمييز ، وكذلك الكافر لا تميز له بين الحلال والحرام .

[كذلك الأنعام ليس لها وقت لأكلها ؛ بل فى كل وقت تقتات وتأكل ، وكذلك الكافر ،

وفى الخبر : « إنه يأكل فى سبعة أمعاء » . أمّا المؤمن فيكتفى بالقليل كما فى الخبر : « إن كان

ولا بُد فثُلث للطعام وثُلث للشراب وثُلث للنفس » و« ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه »^(١) .

ويقال : الأنعام تأكل على الغفلة ؛ فمن كان فى حال أكله ناسياً ربّه فأكله كما كَلِ

الأنعام .

قوله جل ذكره : « وكأين من قرية هى أشدّ قوة

من قرينك التى أخرجتك أهلكتهم فلا

ناصر لهم »^(٢) .

« أهلكتهم » : يعنى بها مَنْ أهلكتهم من القرون الماضية فى الأعصر الخالية .

قوله جل ذكره : « أفمن كان على بينة من ربه كمن

زُيّن له سوءُ عمله واتبعوا أهواءهم » .

« البينة » : الضياء والحجّة ، والاستبصار بواضح الحجّة : فالعلماء فى ضياء برهانهم ،

والعارفون فى ضياء بيانهم^(٣) ؛ فهؤلاء بأحكام أدلة الأصول يُبصرون ، وهؤلاء بحكم الإلهام

والوصول يستبصرون .

(١) ما بين القوسين الكبيرين ساقط بتمامه من ص وثابت فى م ، وهذه الأخبار موجودة فى الجامع الصغير

ص ٢٣٠ وفى كتاب « الأطعمة » بالجزء الثالث من صحيح البخارى ، « الأذكار » للنوى ، وتكملة الخبر الأول :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله (ص) : يأكل المسلم فى موى واحد والكافر يأكل فى سبعة أمعاء ،

وروى كذلك عن ابن عمر .

(٢) عن ابن عباس قال : لما خرج النبي (ص) من مكة إلى الفار التفت إلى مكة وقال : « اللهم أنت أحب البلاد

إلى الله وأنت أحب البلاد إلى » ولولا المشركون أهلكت أخرجوني لما خرجت منك » فنزلت الآية - ذكره الثعلبى ،

وهو حديث صحيح .

(٣) هكذا فى ص وهى فى م (ثباتهم) ولكن ما فى ص هو الأصوب ؛ لأننا نعرف من مذهب القشيري أن

(البيان) للمازفين والبرهان لأرباب العلم .

قوله جل ذكره : « مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا

أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ
لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ
لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ
فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ » .

كذلك اليومَ شأنُ الأولياءِ ، فلهم شرابُ الوفاءِ ، ثم شرابُ الصفاءِ ، ثم شرابُ الولاءِ ،
ثم شرابُ حالِ اللقاءِ .

ولكلٍّ من هذه الأشربة عقلٌ ، ولصاحبه سُكْرٌ وصحو ؛ فَمَنْ تَحَسَّى شرابَ الوفاءِ
لم ينظر إلى أحدٍ في أيام غيبته عن أحبابه :

وما سرَّ صدرى مُنذ شطَّ بك النوى

أنيسٌ ولا كأسٌ ولا متصرف

وَمَنْ شَرِبَ كَأْسَ الصَّفَاءِ خُلِعَ لَهُ عَنْ كُلِّ شَوْبٍ ، فلا كدورة في عهده ، وهو في كلِّ
وقتٍ صافٍ عن نفسه ، خالٍ من مطالباته ^(١) ، قائمٌ بلا شغلٍ — في الدنيا والآخرة —
ولا أربٍ .

وَمَنْ شَرِبَ كَأْسَ الْوَلَاءِ عَدِمَ فِيهِ الْقَرَارُ ، ولم يغبْ بسره لحظةً في ليلٍ أو نهار .

وَمَنْ شَرِبَ فِي حَالِ الْلقاءِ أَنْيسَ عَلَى الدَّوامِ بيقائه ؛ فلم يطلب — مع بقائه — شيئاً
آخَرَ من عطائه ؛ لاستهلاكه في علاته عند سطوات كبريائه ^(٢) .

قوله جل ذكره : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا

خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا

(١) أى مطالبات المخلوظ ؛ حظوظ النفس .

(٢) تنبه إلى أهمية هذه الفقرة التى أطلال فيها القشيري حديثه عن الأشربة حيث لم يتناولها بتفصيلٍ في رسالته
عنه بحث مصطلح السُّكْر .

الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آيَةً أُولَئِكَ الَّذِينَ مَلَعَهُ اللَّهُ
عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ .

هم المناقضون الذين كرهوا ما أنزل الله ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ افْتِضَاحِهِمْ .

« والذين اعتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ
تَقْوَاهُمْ ،

« اعتدوا » : بأنواع الجاهلات ، « فزادهم هُدًى » : بأنوار المشاهدات .

« اعتدوا » : بتأمل البرهان ، « فزادهم هُدًى » : بروح البيان .

« اعتدوا » : بعلم اليقين ، « فزادهم هُدًى » : بحق اليقين .

[« اعتدوا » : بأداب النجاة ، « فزادهم هُدًى » : بالنجاة ورفع الدرجات .

« اعتدوا » : إلى ما فيه من الحق ولم يختلفوا في أنه الحق ، « فزادهم هُدًى » بالاستقامة

على طريق الحق]^(١) .

قوله جل ذكره : « فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم

بغتةً فقد جاء أشرافُها فأنى لهم إذا

جامعهم ذِكرهم » فاعلم أنه لا إله إلا الله

واستغفر لذنوبك وللمؤمنين والمؤمنات .

كان عالماً بأنه : « لا إله إلا الله » فأمره بالثبات عليها ؛ قال (ص) : « أنا أعلمكم

بالله ، وأخشاكم له »^(٢) .

ويقال : كيف قيل له : « فاعلم .. » ولم يقل : عَلِمْتُ ، وإبراهيم قيل له : « أُسْلِمَ »^(٣) ..

فقال : « أسلمت ... » ؟ فيُجاب بأن إبراهيم لما قال : « أسلمت » ابتغى ، ونبينا صلى الله

عليه وسلم لم يقل : علمت فعُوقِيَ .

(١) ما بين القوسين الكبيرين ساقط في ص وموجود في م .

(٢) البخاري عن أنس : (والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له)

والشيخان عن عائشة : (والله إنى لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية) .

(٣) آية ١٣١ سورة البقرة : « قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين » .

وإبراهيم عليه السلام أتى بَعْدَهُ شَرَعَ كَشَفَ سِرَّهُ ، وَنَبَّيْنَا صلي الله عليه وسلم لم يأتِ بَعْدَهُ شَرَعَ .

ويقال : نَبَّيْنَا صلي الله عليه وسلم أخبر الحقُّ عنه بقوله : « آمَنَ الرسولُ »^(١) .. « والإيمان هو العلم — وإخبارُ الحقِّ سبحانه عنه أَتَمُّ من إخباره بنفسه عن نفسه : « عَلِمْتُ » .

ويقال : فرقَ بين موسى عليه السلام لَمَّا احتاج إلى زيادة العلم فَأَحِيلَ على الخضر ، وَنَبَّيْنَا صلي الله عليه وسلم قال له : « وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا »^(٢) .. فَكَم بَيْنَ مَنْ أُحِيلَ في استزادة العلم على عَبْدٍ وَبَيْنَ مَنْ أُمِرَ باستزادة العلم من الحق !! .

ويقال لَمَّا قال له « فاعلم أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ »^(٣) كان يأمره بالانقطاع إليه عن الخلق ، ثم بالانقطاع منه — أي من الرسول — إليه .. أي إلى الحق سبحانه . والعبدُ إذا قال هذه الكلمة على سبيلِ العادةِ والغفلةِ عن الحقيقة — أي كان بصفة النسيان — فليس لقوله كثيرُ قيمة ؛ كَأَن يُقال عند التعجب من شيء .. فليس لهذا قَدْرٌ . أَمَّا إذا قالها مخلصاً فيها ، ذا كَرَأَ لمعناها ، متحققاً بحقيقتها .. فَإِنَّ كان بنفسه فهو في وطن التفرقة .. وعندهم^(٤) هذا من الشُّرْكِ الخفِيِّ ، وإن قالها بِحَقِّ فهو الإخلاص . فالعبد يعلم أولاً رَبَّهُ بِدليلٍ وَحُجَّةٍ ؛ فَعِلْمُهُ بنفسه كَسْبٌ .. وهو أصلُ الأصول ، وعليه يبنى كل علم استدلالِي^(٥) ! ثم تزداد قوةُ علمه بزيادة البيان وزيادة الحجج ، ويتناقص علمه بنفسه لَفَلَّاتِ ذِكْرِ اللَّهِ على القلب . فإذا انتهى إلى حال الشهادة ، واستيلاء سلطان الحقيقة عليه صار عِلْمُهُ في تلك الحالة ضرورياً . وَيَقُلُّ إحساسه بنفسه حتى يصير علمه بنفسه كالاستدلالِيِّ وَكَأَنَّهُ غَافِلٌ^(٦) عن نفسه أو ناس لنفسه .

(١) آية ٢٨٥ سورة البقرة : « آمَنَ الرسولُ بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون » .

(٢) آية ١١٤ سورة طه .

(٣) هنا يفرق القشيري بين التوحيد المنطوق باللسان ، والتوحيد عند أرباب الحقيقة .

(٤) أي عند أرباب الحقائق ، لأن أي شعور بالغيرية نتيجة عدم الإخلاص نقص في التوحيد .

(٥) من هذا يتضح أن الصوفية لا يميلون العقل تماماً بل يحترمون في مرحلة البداية من أجل تصحيح الإيمان ، ولكنهم لا يعولون عليه تماماً في بقية مراحليهم الروحي . وهذا رد حاسم على من ينتكرون على الصوفية علاقتهم بالعقل والعلوم العقلية .

(٦) في ص (وكأنه قال) وهي خطأ من الناسخ كما هو واضح من السياق بعده .

ويقال : الذى على البحر يغلب عليه ما يأخذه من رؤية البحر ، فإذا ركب البحر قويت هذه الحالة ، حتى إذا غرق فى البحر فلا إحساس له بشيء سوى ما هو مستغرق فيه ومستهلك^(١) .

« واستغفر لذنبك » : أى إذا علمت أنك علمت فاستغفر لذنبك من هذا ؛ فإن الحق — على جلال قدره — لا يعلمه غيره^(٢) .

فه له حل ذكره : « ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة

فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها

القتال رأيت المذنبين فى قلوبهم مرض

ينظرون إليك نظر الغشى عليه من

الموت . . .

كان المسلمون تضيق قلوبهم بتباطؤ الوحي ، وكانوا يتمنون أن ينزل الوحي بسرعة فقال تعالى : « فإذا أنزلت سورة محكمة^(٣) وذكر فيها القتال » رأيت المناهقين يكرهون ذلك لما كان يشق عليهم من القتال ، فكانوا يفتضحون عندئذ ، وكانوا ينظرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم — بغاية الكراهة .

... فأولئى لهم .

(١) القشيري هنا مستفيد من شيخه أبي علي الدقاق حين أوضح مراحل التواجد فالوجد فالوجود قائلا : « التواجد يوجب استيعاب العبد ، والوجد يوجب استغراق العبد ، والوجود يوجب استهلاك العبد ، فهو كمن شهد البحر ثم ركب البحر ثم غرق فى البحر » الرسالة ص ٢٧ .

(٢) يذكرنا هذا بقول رابعة بعد ليال قضتها فى الصلاة والاستغفار : « إن صلاتنا فى حاجة إلى صلاة ، واستغفارنا فى حاجة إلى استغفار » كما يذكرنا بقول القشيري فى موضع مماثل : « ... جلست الصمدية عن أن يستشرف من إدراكها بشر » ، وفى ذلك يقول أبو عبد الله الجلاء (ت ٣٠٦ هـ) :

كيفية المرء ليس المرء يدركها فكيف كيفية الجبار فى القيد ؟

هو الذى أحدث الأشياء مبتدعاً فكيف يدركه مستحدث النسم ؟

(شذرات الذهب ج ٢ ص ٢٤٩) .

(٣) قال قتادة : كل سورة ذكر فيها الجهاد فهى محكمة . وقيل معناها مينة غير متشابهة : لا نختل وجهاً إلا وجوب القتال .

تهديد^(١) .

قوله جل ذكره : « طاعةٌ وقولٌ معروفٌ » .

وهو قولهم : « لولا أنزلت سورة ... » .

ويقال : فأولى لهم طاعةٌ منهم لله ولرسوله . « وقول معروف » بالإجابة لما أمروا به من الجهاد .

ويقال : طاعةٌ وقولٌ معروفٌ أمثلُ بهم .

قوله جل ذكره « فإذا عزم الأمرُ فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم » .

إذا عزم الأمرُ — أى جدَّ وفُرضَ القتالُ — فالصدقُ والإجابةُ خيرٌ لهم من كذبهم وثقايقهم وتقاعدٍهم عن الجهاد .

قوله جل ذكره : « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرضِ وتقطعوا أرحامكم » .

أى فلعلمكم إن أعرضتم عن الإيمان — بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم — ورجعتم إلى ما كنتم عليه أن تفسدوا في الأرض ، وتسفكوا الدماء الحرام ، وتقطعوا أرحامكم ، وتعودوا إلى جاهليتكم .

قوله جل ذكره : « أولئك الذين كفهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » .

أصمهم عن سماع الحق وقبوله بقلوبهم ، وأعمى بصائرهم .

(١) يقول الشاعر :

وهل للدرِّ يُحالبُ من مَرَدٍّ

فأولى ثم أولى ثم أولى

وقال الأصمعي معناها : قاربه بما يهلكه وأقشد :

وأولى أن يزيد على الثلاث

فمادى بين هاديتين منها

وقال المبرد : يقال لمن هم بالمعطب : أولى لك ! أى : قاربت المعطب .

قوله جل ذكره : « أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » .

أى إن تدبروا القرآن أفضى بهم إلى العرفان ، وأراحهم من ظلمة التحير .
« أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » : أَقْفَالُ الْحَقِّ عَلَى قُلُوبِ الْكَفَّارِ فَلَا يُدَاخِلُهَا زَاجِرُ التَّنْبِيهِ ،
وَلَا يَنْبَسُطُ عَلَيْهَا شِعَاعُ الْعِلْمِ ، فَلَا يَحْصِلُ لَهُمْ فَهْمُ الْخُطَابِ ؛ فَالْبَابُ إِذَا كَانَ مُقْفَلًا .. فَكَمَا
لَا يَدْخُلُ فِيهِ شَيْءٌ لَا يَخْرُجُ مِنْهُ شَيْءٌ ؛ كَذَلِكَ قُلُوبُ الْكَفَّارِ مُقْفَلَةٌ ، فَلَا الْكُفْرُ الَّذِي فِيهَا
يَخْرُجُ ، وَلَا الْإِيمَانُ الَّذِي هُمْ يَدْعَوْنَ إِلَيْهِ يَدْخُلُ فِي قُلُوبِهِمْ .

وَأَهْلُ الشُّرْكِ وَالْكَفْرِ قَدْ سُدَّتْ بَصَائِرُهُمْ وَغُطِّيَتْ أَسْرَارُهُمْ ، وَلُبْسَ عَلَيْهِمْ وَجْهُ التَّحْقِيقِ .
قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ
بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ
لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ » .

الَّذِي يَطْلُعُ فَجْرُ قَلْبِهِ ، وَيَتَلَأَلُ نَوْرُ التَّوْحِيدِ فِيهِ ، ثُمَّ قَبْلَ مَتَوَعِّ نَهَارِ إِيْمَانِهِ انْكَسَفَتْ
شَمْسُ يَوْمِهِ ، وَأَظْلَمَ نَهَارُ عِرْفَانِهِ ، وَدَجَا لَيْلُ شَكِّهِ ، وَغَابَتْ نَجْمُ عَقْلِهِ .. فَخُذَتْ عَنْ
ظُلُمَاتِهِ ١٠٠ وَلا حَرْجَ (١)

[ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ عَلَى مِمَّا لَاهُم مَعَ الْمُنَاقِقِينَ ، وَتَظَاهَرَهُمْ .. فَإِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ تَنْصَلُ
أَلَامُهُمْ ، وَلَا تَنْقَطِعُ بَعْدَ ذَلِكَ عِقُوبَاتُهُمْ] (٢) .

قوله جل ذكره : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْفَانَهُمْ » .

لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَوَهَّمُوهُ ، بَلِ اللَّهُ يَفْضَحُهُمْ وَيَكْشِفُ تَلْيِيسَهُمْ ، وَلَقَدْ أَخْبَرَ الرَّسُولَ عَنْهُمْ ،
وَعَرَّفَهُ أَعْيَانَهُمْ .

(١) التَّشِيرُ هُنَا يَفْهَمُ مَنْ يَتَمَوَّنُ إِلَى طَرِيقَةِ الصُّوفِيَّةِ ثُمَّ يَفْسُخُونَ عَقْدَهُمْ مَعَ اللَّهِ ، وَيَتَخَلَّوْنَ عَنْ طَرِيقِ
الْإِرَادَةِ بَعْدَ قَطْعِهِمْ مَسَافَةً قَصِيرَةً .
(٢) مَا بَيْنَ الْقَوْسَيْنِ الْكَبِيرَيْنِ سَاقِطٌ فِي مِثْلِ هَذِهِ وَثَابِتٌ فِي ص .

قوله جل ذكره : « ولو نشاء لأريناكم قلعرقتهم

بسيامهم ولتعرقتهم في لحن القول » .

أى فى معنى الخطاب ، فالأسيرة تدلُّ على السريرة ، وما يخامر القلوب فعلى الوجوه
يلوح أثره :

لستُ ممن ليس يدرى ما هوان من كرامة

إنَّ للحبِّ والبغضِ على الوجه علامة

والمؤمنُ ينظر بنور الفراسة^(١) ، والعارفُ ينظر بنور التحقيق ، والموحدُ ينظر بالله
فلا يستتر عليه شيء^(٢) .

ويقال : بصائرُ الصديقين غيرُ مغطاة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سدوا كل
خوخة غير خوخة أبي بكر »^(٣) .

قوله جل ذكره : « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْجَاهِدِينَ

منكم والصابرين وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ » .

بالابتلاء والامتحان تبيين جواهر الرجال ، فيظهر الخلقُ ، ويفتضح الممازقُ ، وينكشف
للفائق ، فالذين آمنوا وأخلصوا نجوا وتخلصوا ، والذين كفروا وناقوا وقعوا^(٤) فى الهوان
وأذلُّوا ، ووسموا بالشقاوة وقُطموا .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا

الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ » .

(١) هكذا فى م وهى فى ص (بعين الفراسة) . روى الترمذى والطبرافى من حديث أبى أمامة ، والترمذى
من حديث أبى سعد ، والطبرافى وأبو نعيم والبزاز بسند صحيح عن أنس « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » .

(٢) يفيد هذا الكلام فى ترتيب القوم : مؤمن ثم عارف ثم موحد فالموحدون أهل درجات السائرين .

(٣) يقول القشيرى فى كتابه « المعراج » ص ٧٢ : « كان الصديق مخصوصاً من البصيرة بما لم يخص به غيره
قال (ص) : « سدوا كل خوخة غير خوخة أبى بكر » . وذلك لما فتحو فى المسجد من كل دار خوخة ،
والإشارة فيه أن الصديق ليس بمنع من الإبصار بحال » .

(٤) سقطت (وقعوا) فى ص ، وبوجوده فى م .

« لا تبطلوا أعمالكم » : بالرياء والإعجاب والملاحظة .

« لا تبطلوا أعمالكم » : بالمساكنة إليها . « ولا تبطلوا أعمالكم » بطلب الأعواض عليها .

« لا تبطلوا أعمالكم » : بتوهمكم أنه يجب بها شيء دون فضل الله ^(١) .

قوله جل ذكره : « فلا تهنؤا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم » .

أى لا تميلوا إلى الصلح مع الكفار وأنتم الأعلون بالحجة ^(٢) .

أنتم الأعلون بالنصرة . قوله « والله معكم » . أى بالنصرة ويقال : لا تضعفوا بقلوبكم ، وقوموا بالله ؛ لأنكم — والله معكم — لا يخفى عليه شيء منكم ، فهو على الدوام يراكم .

وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ سَيِّدَهُ يَرَاهُ يَتَحَمَّلُ كُلَّ مُشَقَّةٍ مُشْتَغَلًا بِرُؤْيَيْهِ :

« ولن يترككم أعمالكم »

أى لا ينقصكم أجر أعمالكم .

قوله جل ذكره : « إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ ولا يسألكم أموالكم »

تجنبوا الشرك والمعاصي حتى يفيكم أجوركم .

والله لا يسألكم من أموالكم إلا اليسير منها وهو مقدار الزكاة ^(٣) .

« إن يسألكوها فيخففكم تبتخلوا ويخرج أضغانكم » .

(١) هذه الإشارة موجهة إلى الذين يزعمون أن الطاعة توجب على الله الثواب . ويرى القشيري أنه لا وجوب على الله ؛ فكل شيء من فضله ؛ لأن طاعة العبد لا توجب لله زينا ، ومعصيته لا تلحق به سبحانه شيئا . « والله يفر من يشاء ويعذب من يشاء » .

(٢) عند هذا الحد انتهت النسخة م ، ولذا فإننا نعتمد على النسخة س في بقية السورة ، وهى مساحة كبيرة .

(٣) وهى على حد تعبير سفيان بن عيينه : غيظ من فيض .

« الإحفاء » الإلحاح في المسألة ... وهذا إنما يقوله لمن لم يُوقَ شُحَّ نفسه ، فأما الإخوان ومن عَلت ربتهم في باب حرية القلب فلا يُسأَحون في استيفاء ذَرَقٍ ، ويُطالبون ببذل الروح ، والتزام الغرامات .

قوله جل ذكره : « ها أنتم هؤلاء تُدْعَوْنَ لتنفقوا في سبيلِ اللهِ فمنكم من يبخلُ ومن يبخلُ فإِنما يبخلُ عن نفسه » .

البخلُ مَنعُ الواجب ، وإذا بخل فإِنما يبخل عن نفسه لأنه لو لم يفعل ذلك لحصل له الثراء — هكذا يظن .

وقوله جل ذكره : « واللهُ الغنيُّ وأنتم الفقراءُ » .

« غنيٌّ » بنفسه على قول ، وغنيٌّ بوصفه على القول الثاني^(١) . وغناه كونه لا تنقيد مراداته . أما العبدُ فهو فقيرٌ بنفسه ؛ لأنه لا يستغنى عن مولاه ؛ في الابتداء منذ خلقه إلى الانتهاء ، وهو في دوام الأوقات مفتقرٌ إلى مولاه .

والفقيرُ الصادقُ مَنْ يشهد افتقاره إلى الله . وصِدْقُ الفقير في شهود فقره إلى الله . ومن افتقر إلى الله استغنى بالله ، ومن افتقر إلى غير الله وقع في الذُلَّ والهوان .

ويقال : الله غنيٌّ عن طاعتكم ، وأنتم الفقراءُ إلى رحمته .

ويقال : الله غنيٌّ لا يحتاج إليكم ، وأنتم الفقراءُ لأنكم لا بديلَ لكم عنه .

قوله جل ذكره : « وإن تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ » .

يستبدل قوماً غيركم يكونون أشدَّ منكم طاعةً ، وأصدقَ منكم وفاءً ؛ فهو قادرٌ على خلق أمثالكم ثم لا يكونون أمثالكم في العصيان والإعراض وتركِ الشكرِ والوفاء ... بل سيكونون خيراً منكم .

(١) أي يمكن أن تكون من صفات الذات أو من صفات الفعل انظر « الغنى » في كتاب « التخيير في التذكير » للإمام القشيري تحقيق د . بسيوني .

سورة الفتح

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » تشير إلى سُموّه في أزلِهِ ، وعلوّه في أبدِهِ ؛ وُسُموّه في أزلِهِ نفى البداية عنه بحقّ القِدَم ، وعلوّه في أبدِهِ نفى الانتهاء عنه باستحالة العَدَم ؛ فعرفة سُموّه توجب للعبد سُموًا ، وعرفة علوّه توجب للعبد علوًا (١) .

قوله جل ذكره : « إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا » .

قضينا لك قضاءً مبينًا ، وحكنا لك بتقوية دين الإسلام ، والنصرة على عدوك ، وأكرمناك بفتح ما اتفق على قلب من هو غيرك — من قبلك — بتفصيل شرائع الإسلام ، وغير ذلك من فتوحات قلبه صلوات الله عليه .

نزلت الآية في فتح مكة ، ويقال في فتح الحديبية (٢) .

ويقال : هديناك إلى شرائع الإسلام ، ويسرنا لك أمور الدين .

« ليغفر الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر » .

(١) واضح أن مذهب التفسير في معرفة أسماء الله سبحانه لا يقتصر على المعرفة الكلامية النظرية بل يتجاوز ذلك إلى التأدب بها ، والتخلق بأخلاق الله . فالعمل مترتب على العلم (انظر مقدمتنا لكتاب التفسير في التذكير) .

(٢) يقال مرثع الحديبية (رواية ابن مكة والمدينة) (رواية محمد بن إسحاق عن الزهري عن عروة عن المسور ابن مخرمة ومروان بن الحكم) وأنها نزلت في سن الحديبية. (كذلك في البخاري في سماع قتادة عن أنس) . وقال الضحاك : «مبينًا» أي بغير قتال . وقال مجاهد : كان فتح الحديبية آية عظيمة إذ نزع ماؤها فميج فيها فدرت بالماء حتى شرب جميع من كان معه . وقال الشعبي : هو فتح الحديبية ؛ فقد أصاب فيها ما لم يصب في غزوة : غفر الله له ذنبه ، وبويع بيعة الرضوان ، وأطمعوا نخل خيبر ، وبلغ الهدى محله ، وظهرت الروم على الفرس .

كلا القسمين — المتقدم والمتأخر — كان قبل النبوة^(١) .

ويقال « ما تقدم » من ذنب آدم بحرمتك ، « وما تأخر » : من ذنوب أمّتك^(٢) .
وإذا أُجِّلَ على ترك الأوّل^(٣) فقد غفر له جميع ما فعل من قبيل ذلك ، قبل النبوة
وبعدها^(٤) .

ولما نزلت هذه الآية قالوا : هنيئاً لك ! فأنزل الله تعالى :

« ليدخل المؤمن والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها » . . . ويقال :
حسنات الأبرار سيئات المقربين .

« وَيُمِيتْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا
مُسْتَقِيمًا » .

يتم نعمته عليك بالنبوة ، وبوفاء العاقبة ، وببسط الشريعة ، وبشفاعته لأمته ، وبرؤية الله
غداً ، [ويأظهر دينه على الأديان ، ويأبى سيد ولد آدم ، ويأبى أقسم بحياته ، وخصه بالبيان]^(٥) .
وبسماع كلامه سبحانه ليلة المراج ، وبأن بعثه إلى سائر الأمم . . . وغير ذلك من مناقبه .
« ويهديك صراطاً مستقيماً » يثبتك على الصراط المستقيم ، ويزيدك هدايةً على هداية ،
ويهدي بك الخلق إلى الحق .

ويقال : يهديك صراطاً مستقيماً بترك حظك .

« وينصرك الله نصراً عزيزاً » .

(١) نصّ القشيري على « قبل النبوة » لأن الأنبياء معصومون من الذنب .

(٢) هذا أيضاً قول عطاء الخراساني .

(٣) ترك الأولى تعبير أدبي مهذب عن « الذنب » . ويقال : كان الذنب المتقدم على يوم بدر قوله صلى الله عليه وسلم : « اللهم إن تهلك هذه العصاة لا تعبد في الأرض » . والذنب المتأخر كان يوم حنين حيث رمى جمرات في وجوه المشركين قائلاً : « شامت الوجوه .. حم . لا ينصرون » ، فانهزم القوم عن آخرهم ، ولم يبق أحد إلا امتلأت عيناه رملاً وحصباء . وعند عودة النبي مع أصحابه قال لهم : لو لم أرمهم لم ينهزموا ! فأنزل الله عز وجل :
وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى .

(٤) روى الترمذي عن أنس أن النبي فرح بهذه الآية فرحاً شديداً وقال : لقد أنزلت على آبه أحب إلي ما على وجه الأرض .

(٥) ما بين القوسين الكبيرين موجود في س وغير موجود في م .

لا دُلَّ فيه ، وتكون غالباً لا بِغُلْبِكَ أَحَدٌ .

ويقال : ينصرك على هواكَ ونَفْسِكَ ، وينصرك بِحُسْنِ خُلُقِكَ ومقاساةِ الأذى من قومك .

ويقال نصراً عزيزاً : مُعِزّاً لَكَ ولِمَن آمَنَ بك .

وهكذا اشتملت هذه الآية على وجوهٍ من الأفضال أكرمَ بها نبيّه — صلى الله عليه وسلم — وخصّه بها من الفتح والظفرِ على النَّفْسِ والعدو ، وتيسير ما انفلق على غيره ، والمفخرة ، وإتمام النعمة والهداية والنصرة . . ولكلٍّ من هذه الأشياء خصائصٌ عظيمةٌ .

قوله جل ذكره : « هو الذى أنزل السَّكِينَةَ فى قلوبِ

المؤمنين » . .

السَّكِينَةُ ما يسكن إليه القلبُ من البصائرِ والحجَجِ ، فيرتقى القلبُ بوجودِها عن حدِّ الفكرة إلى رَوْحِ اليقين وتلجُّ الفؤاد ، فتصير العلومُ ضرورةً^(١) . . وهذا للخواصِّ .

فأما عوامُّ المسلمين فالمرادُ منها : السكونُ والطمأنينةُ واليقين .

ويقال : من أوصافِ القلبِ فى اليقين المعارفِ والبصائرِ والسَّكِينَةُ .

وفى التفسير : السَّكِينَةُ ریح هفائة . وقالوا : لها وجهٌ كوجه الإنسان . وقيل لها جناحان .

« ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم »

أى يقيناً مع يمينهم وسكوناً مع سكونهم . تطلع أقمارُ عين اليقين على نجوم علم اليقين ، ثم تطلع شمسُ حقِّ اليقين على بَدْرِ عين اليقين .

« والله جنودُ السمواتِ والأرضِ وكان

اللهُ علماً حكماً » .

« جنود السمواتِ والأرضِ » : قيل : هى جميع القلوبِ الدالةِ على وحدانية الله .

ويقال : مُلْكُ السمواتِ والأرضِ وما به من قوى تقهر أعداء الله .

(١) أى لا يعمد كسبه حيث لم يعد للإنسان من نفسه لنفسه شيء .

ويقال : هم أنصار دينه .

ويقال : ما سلَّطه الحقُّ على شيء فهو من جنوده ، سواء سلَّطه على وليِّه في الشدة والرخاء ، أو سلَّطه على عدوِّه في الراحة والبلاء .

قوله جل ذكره : « لِيَدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَبُكَرُوا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً » .

يَسْتُرُ ذُنُوبَهُمْ وَيُحِطُّهَا عَنْهُمْ . . . وذلك فوزٌ عظيم ، وهو الظَّفَرُ بالبغية^(١) .
وسؤالُ كلِّ أحدٍ ومأمولُه ، ومُبتَغاه ومقصودُه مختلفٌ . . . وقد وعدَ الجميعَ ظَفَرًا به .

قوله جل ذكره : « وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ، الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظُنُّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ » .

يعذبهم في الآجل بعذابهم وسوء عقابهم .

و« ظنُّ السَّوْءِ » : هو ما كان بغير الإذن ؛ ظنوا أَنَّ الله لا ينصر دينه ونبيِّه عليه السلام .
« عليهم دائرة السَّوْءِ » : عاقبته تدور عليهم وتحيقُ بهم .
« ولعنهم » : أبعدهم عن فضله ، وحقت فيهم كَلَّتُهُ ، وما سبقت لهم — من الله سبحانه — قِسْمَتُهُ .

قوله جل ذكره : « إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً » .
« أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً » : على أَمَّتِكَ يومَ القيامة . ويقال : شاهداً على الرُّسُلِ والكتب .
ويقال : شاهداً بوحدايتنا وربوبيتنا . ويقال : شاهداً لأَمَّتِكَ بتوحيدنا . « ومبشراً » : لهم مِنَّا بالثواب ، « ونذيراً » : للخلق ؛ زاجراً ومُحَذِّراً من المعاصي والمخالفات .

(١) هكذا في م وهي في ص بالنعمة .

ويقال : شاهداً من قَبْلِنَا ، وَمُبَشِّرًا بِأَمْرِنَا ، وَنَذِيرًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلِنَا وَمِنَا .

قوله جل ذكره : ﴿ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ .

قرى^(١) : ﴿ لَيُؤْمِنُوا ﴾ بالياء ؛ لأن ذكر المؤمنين جرى ، أى ليؤمن المؤمنون بالله ورسوله ويعزروه وينصروه أى الرسول ، ويوقروه : أى يعظموا الرسول . وتسبحوه : أى تسبحوا الله وتنزهوه بكرة وأصيلًا^(٢) .

وقرى^٣ : ﴿ لَتُؤْمِنُوا ﴾ — بالتاء — أيها المؤمنون بالله ورسوله وتعزروه — على الخطاب . وتعزروه يكون بإيثاره بكل وجه على نفسك ، وتقديم حكمه على حكمك . ونوقروه يكون باتباع سنته ، والعلم بأنه سيد بريته^(٤) .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ .

وهذه البيعة هي بيعة الرضوان بالحديبية تحت شجرة^(٥) .

وذلك أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بعث عثمان رضى الله عنه إلى قريش ليكلمهم فأرجفوا بقتله . وأتى عروة بن مسعود^(٥) إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال :

جئت بأوشاب الناس لتفض بيضتك يديك ، وقد استعدت قريش لقتالك ، وكأني بأصحابك

(١) قراءة ابن كثير وابن محيصن وأبي عمرو .. وكذلك «تسبحوه» بالياء ، والباقيون بالتاء على الخطاب
(٢) ونلاحظ أن القشيري قد توقف قبل تسبحوه فجعلها بالتاء ، وهناك من المفسرين من يرى ذلك أيضاً (انظر القرطبي ١٦٠ ص ٢٦٧) .

(٣) عزوت الرجل أى رددت عنه ونصرتة وأيدته — وهو من الأضداد — لأنه قد يأتى بمعنى أدبته ولئسته .

(٤) إشارة إلى قوله تعالى : «قد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة» والسمة : شجرة الطلع .

(٥) جاء في السيرة لابن اسحاق ٣ ص ٧٧٨ :

بعد أن خرج الرسول صلى الله عليه وسلم عام الحديبية يريد زيارة البيت ، فلما سمعت قريش بذلك استعدت لقتاله مع أنه لم يكن ينوى قتالا وتماقبت السفراء بينه وبينهم ، وكان كل سفير من قريش يذهب إلى النبي ثم يعود ليقنع قريش بحقيقة نية النبي ولكنهم كانوا لا يرضون بما جاء به ، حتى جاء دور عروة بن مسعود الثقفي — وهو عند قريش غير متهم وقال للنبي «إن قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل ، قد لبسوا جلود النمر ، يعاهدون الله لا تدخلها أبداً عليهم عشوة . وحينما قال عروة : وإيم الله لكأني بهؤلاء — يريد أصحاب الرسول — قد انكشفتوا عنك غداً . فانبرى أبو بكر قائلاً : أنحن نكشف عنه ... الخ .

قد انكشفوا! عنك إذا مسَّهم حرُّ السلاح! قال أبو بكر : أتظنُّ أننا نسلم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ؟

فبايعهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم على أن يُقاتِلُوا وألا يهربوا^(١) ، فأنزل الله تعالى :
« إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله » : أى عقدك عليهم هو عقد الله .
قوله جل ذكره : « يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » .

أى « يد الله » : فى المنة عليهم بالتوفيق والهداية^(٢) : « فوق أيديهم » بالوفاء حين بايعوك .
ويقال : قدرة الله وقوته فى نصرته دينه ونصرة نبيِّه صلى الله عليه وسلم فوق نصرهم لدين الله ورسوله .

وفى هذه الآية تصريحٌ بعين الجمع^(٣) كما قال : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى »
قوله جل ذكره : « فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ »
أى عذابُ النكثِ عائدٌ عليه .

« وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِثْرُ يَمْثِرُ لَهُ أَجْرًا كَبِيرًا » .

أى من قام بما عاهد الله عليه على التمام فمِثْرُ يَمْثِرُ لَهُ أَجْرًا كَبِيرًا .
وإذا كان العبد بوصف إخلاصه ، بعامل الله فى شىء هو به متحققٌ ، وله بقلبه شاهدٌ
فإنَّ الوسائطَ التى تُظهرُها أماراتُ التعريفاتِ تجعله محوًّا فى أسرارِهِ . . والحكم عندئذ راجعٌ
إلى الواحد — جلَّ شأنه^(٤) .

(١) قال جابر بن عبد الله بايعنا رسول الله (ص) تحت الشجرة على الموت وعلى ألا نفر فبايعنا فبايعنا البيعة .
إلا جد بن فليس وكان منافقاً اختبأ تحت بطر بغيره ولم يسر مع القوم .
(٢) نلاحظ أن القشيري هنا يؤول اليد حتى ينشئ عن الله الاتصاف بالجارية .
(٣) أنت حين بايعت أو حين رميت فأنت من حيث الظاهر تقوم بعمل وأنت فى حال الفرق ، ولكن الحقيقة
أنه لا فاعل إلا الله فمته التوفيق والسداد والإصابتة . . وهذا هو حال الجمع . وبمقدار ما يكون العبد فى منزلة
التمكين وبعيداً عن التلوين يكون دنوه من حال الجمع ، التى بعدها حال جمع الجمع . . ونبيينا صلى الله عليه وسلم
كان عندهما إذ هو صلوات الله عليه محمول لا متحمل ؛ أى بربه لا بنفسه .
(٤) أى إذا أفضى العبد بشيء من العرفان عندئذ فيكون نقطة وما يظهر عليه من الله وبالله .

قوله جل ذكره : « سيقول لك الخلقون من الأعراب
شغللتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا
يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم »

لما قصد رسول الله عليه وسلم التوجه إلى الحديبية تخلف قوم من الأعراب عنه . قيل : هم
أسلم وجهينة وغفار ومزينة وأشجع ، وقالوا : « شغللتنا أموالنا وأهلونا » وليس لنا من يقوم بشأنا
يقالوا : انتظروا ماذا يكون ؛ فما هم في قريش إلا أكلة رأس^(١) . فلما رجع رسول الله صلى الله
عليه وسلم جاءوه مُعْتَذِرِينَ بأنه لم يكن لهم أحد يقوم بأمرهم ! وقالوا : استغفر لنا .

فأطلمه الله — سبحانه — على كذبهم وفاقهم ؛ وأنهم لا يقولون ذلك اخلاصاً ، وإنما
سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، فإنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم .

« قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ
أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نِعْمًا بَلْ كَانَ
اللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا »

فضحهم . ويقال : ما شغل العبد عن الله شؤم عليه .

ويقال : عُذْرُ الْمَآذِي وَتَوْبَةُ الْمُنَافِقِ كِلَاهُمَا لَيْسَ حَقَاقًا .

قوله جل ذكره « بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ
إِلَى أَهْلِهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ
وَوَظَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا » .

حسبتم أن لن يرجع الرسول والمؤمنون من هذه السفرة إلى أهليهم أبداً ، وزَيَّنْتُ لَكُمْ
الْأَمَانِي ألا يمودوا ، وأن الله لن ينصرهم . « وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا » أي هالكين فاسدين .

(١) أي مم قليل .

ويقال : إنَّ العدوَّ إذا لم يقدر أن يكيدَ بيده يتميَّ ما تتقاصر عنه مُكْنَبُهُ ، وتلك صفةُ كلِّ عاجز ، ونعتُ كلِّ لئيم . ثم إنَّ الله — سبحانه — بعكس ذلك عليه حتى لا يرتفع مراده « ولا يحيق المكرُ السيِّء إلا بأهله »^(١) .

ويقال : من العقوبات الشديدة التي يعاقبُ اللهُ بها المُبْطِلُ أنْ يتصوَّرَ شيئاً يتمنَّاه ويوطِّن نفسه عليه لفرط جهله . ويُلقى الحقُّ في قلبه ذاك التمتي حتى تسول له نفسه أن ذلك كالكائن .. ثم يعذبه الله بامتناعه .

قوله جل ذكره : ومن لم يؤمن باللهِ ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيراً «

وما هو آت قريب . . وإنَّ الله ليرخي عنانَ الظلمةِ ثم لا يفلتون من عقابه . . وكيف — وفي الحقيقة — ما يحصل منهم هو الذي يحريه^(٢) عليهم ؟

قوله جل ذكره : « وللهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفوراً رحيماً »

يغفرُ — وليس له شريك بقول له : لا تفعل ، ويعذب من يشاء — وليس هناك مانعٌ عن فعله يقول له : لا تفعل .

قوله جل ذكره : « سيقولُ المُخَلَّفُونَ إذا انطلقتُمْ إلى مغانمٍ لتأخذوها ذرونا نتَّبِعْكُمْ يريدون أن يبدلوا كلامَ اللهِ قل لن تتبعونا »

وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لما رجعوا من الحديبية وعدهم الله خيبر ،

(١) آية ٣٠ ، سورة فاطر .

(٢) هكذا في م وهي في م (يجزيه) بالزاي وقد رجحنا (يجزيه) أولاً لاتصالها بذهب القشيري وكون الله — على الحقيقة — فاعل كل شيء حتى أكساب العباد . وثانياً لأنها لو كانت بالزاي لقال : يجزيهم عليه .

وَأَنَّ فِيهَا سِيفَةٌ بِأَعْدَائِهِ ، فَلَمَّا هَمَّ بِالْخُرُوجِ أَرَادَ مَوْلَاهُ الْخُلَفَاءُ أَنْ يَتَّبِعُوهُ لِمَا عَلَّمُوا فِي ذَلِكَ مِنَ الْفَنِيعةِ ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّمَا يُخْرَجُ مَعِيَ إِلَى خَيْرٍ مِنْ خُرُوجٍ إِلَى الْحَدِيدِيَّةِ ، وَاللَّهُ بِذَلِكَ حَكَمٌ أَلَّا يُخْرَجُوا مَعَنَا »

قَالَ الْمُتَخَلِّفُونَ : إِنَّمَا يَقُولُ الْمُؤْمِنُونَ ذَلِكَ حَسَدًا لَنَا ؛ وَلَيْسَ هَذَا مِنْ قَوْلِ اللَّهِ ! فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ لِتَكْذِيبِهِمْ ، وَلِبَيَانِ حِكْمِهِ أَلَّا يَسْتَصْحِبَهُمْ فَهَمَّ أَهْلُ طَمَعٍ ، وَكَانَتْ عَاقِبَتُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا مَرَادَهُمْ ، وَرُدُّوا بِالْمَلَّةِ وَافْتَضَحَ أَمْرُهُمْ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ

إِلَى قَوْمٍ أُولَى بِأْسٍ شَدِيدٍ تَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا »

جَاءَ فِي التَّفَاسِيرِ أَنَّهُمْ أَهْلُ الْإِمَامَةِ أَصْحَابُ مَسِيلَةٍ — وَقَدْ دَعَاهُمْ أَبُو بَكْرٍ وَحَارِبُهُمْ ، فَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى إِمَامَتِهِ . . وَقِيلَ هُمْ أَهْلُ فَارَسَ — وَقَدْ دَعَاهُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَحَارِبُهُمْ ؛ فَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ إِمَامَتِهِ . وَصِحَّةُ إِمَامَتِهِ تَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ إِمَامَةِ أَبِي بَكْرٍ . « أُولَى بِأْسٍ شَدِيدٍ » أُولَى شِدَّةً . فَإِنْ أُطِيعْتُمْ اسْتَوْجِبْتُمُ الثَّوَابَ ، وَإِنْ تَخَلَّفْتُمْ اسْتَحَقَقْتُمُ الْعِقَابَ . وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ لِلْعَبْدِ بَدَايَةُ غَيْرِ مُرْضِيَةٍ ثُمَّ يَتَغَيَّرُ بَعْدَهَا إِلَى الصَّلَاحِ — كَمَا كَانَ لِمَوْلَاهُ وَأَنْشَدُوا :

إِذَا فَسَدَ الْإِنْسَانُ بَعْدَ صَلَاحِهِ

فَرَجَّ لَهُ عَوْدَةُ الصَّلَاحِ . . لَعَلَّهُ

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

(١) الْبَيَارَاتُ الَّتِي وَرَدَتْ فِي إِثْبَاتِ صِحَّةِ الْإِمَامِينَ جَاءَتْ فِي مَوْضِعٍ وَلَمْ تَرُدَّ فِي ص .

يُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
وَمَنْ يَقُولُ يُعَذِّبُهُ عَذَابًا أَلِيمًا»

هؤلاء أصحاب الأعذار . . رفع عنهم الحرج في تخلفهم عن الوقعة في قتال المشركين .

وكذلك مَنْ كَانَ لَهُ عُذْرٌ فِي الْمَجَاهِدَةِ مَعَ النَّفْسِ . . فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخْصَتُهُ كَمَا يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى عِزَّتُهُ (١) .

قوله جل ذكره : « لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ

بَيَّاعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ
فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا » .

هذه بيعة الرضوان ، وهي البيعة تحت الشجرة بالحديبية ، وسميت بيعة الرضوان لقوله تعالى

« لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ . . . » .

وكانوا ألفاً وخمسمائة وقيل وثلاثمائة وقيل وأربعمائة . وكانوا قصدوا دخول مكة ، فلما بلغ ذلك المشركين قابلوهم صائدين لهم عن المسجد الحرام مع أنه لم يكن خارجاً لحرب ، قصده المشركون ، ثم صالحوه على أن ينصرفوا هذا العام ، ويقم بها ثلاثاً ثم يخرج ، (وأن يكون بينه وبينهم صلح عشرة أعوام يتداخل فيها الناس ويأمن بعضهم بعضاً) (٢) وكان النبي قد رأى في منامه أنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين ، فبشر بذلك أصحابه ، فلما صدهم المشركون خامر قلوبهم شيء ، وعادت إلى قلوب بعضهم تهمة حتى قال الصديق : لم يقل العام ! فسكنت قلوبهم بنزول الآية ؛ لأن الله سبحانه علم ما في قلوبهم من الاضطراب والتشكك . فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِهِمْ ،

(١) هذه لفظة هامة جداً ، حيث لم نتمود من التفسير في سائر مصنفاته أن يستجيز الرخصة . وربما هو يتحدث هنا عن عامة المسلمين ، ولكن حيناً يتحدث عن الصوفية يعتبر الجوء إلى الرخصة بمثابة فسخ عقد الإرادة (أنظر الرسالة ص ١٩٩) .

(٢) ما بين الأقواس تكملة من عندنا اعتماداً فيها على المصادر المختلفة . أوردناها ليتضح الساق

وَبَيَّنَهُم بِالْيَقِينِ . « وَأَتَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا » هو فَتْحُ خَيْرٍ بعد مدة يسيرة ، وما حصلوا عليه من مَنَامٍ كثيرةٍ من خَيْرٍ . وَقِيلَ مَا يَأْخُذُونَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ^(١) .

وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ قَدْ تَخَطَّرَ بِبَالِ الْإِنْسَانِ خَوَاطِرُ مُشْكَكَةٍ ، وَفِي الرَّيْبِ مَوْقِعَةٌ ، وَلَكِنْ لَا عِبْرَةَ بِهَا ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ إِذَا أَرَادَ بَعْدَ خَيْرٍ لَازِمَ التَّوْحِيدِ قَلْبَهُ ، وَقَارَنَ التَّحْقِيقَ مِرَّةً فَلَا يَضُرُّهُ كَيْدُ الشَّيْطَانِ ، قَالَ تَعَالَى : إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ^(٢) .

« وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَنَامٍ كَثِيرَةً نَأْخُذُونَهَا » وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ جَمِيعُ مَا يَنْعَمُهُ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْقِيَامَةِ فَجَعَلَ لَكُمْ هَذِهِ — يَعْنِي خَيْرٍ ^(٣) ، وَقِيلَ : الْحَدِيثِيَّةُ .

« وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ » لِمَا خَرَجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ حَرَسَهُمُ اللَّهُ ، وَحَفِظَ عِيَالَهُمْ ، وَحَمَى بَيْتَهُمْ حِينَ هَبَّ الْيَهُودُ ^(٤) فِي الْمَدِينَةِ بَعْدَ خُرُوجِ الْمُسْلِمِينَ ، فَنَعَّمَهُمُ اللَّهُ عَنْهُمْ .

أَوْ يُقَالُ : كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِيَّةِ .

« وَلَتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا »

لَتَكُونَ هَذِهِ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَعَلَامَةً يَسْتَدْلُونَ بِهَا عَلَى حِرَاسَةِ اللَّهِ لَهُمْ .

« وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا » : فِي التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَالثِّقَةِ بِهِ .

وَيُقَالُ : كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنِ الْعَبْدِ هُوَ أَنْ يَرْزُقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَتَكَفَّفَ النَّاسُ .

وَيُقَالُ : أَنْ يَرَقَعَ عَنْهُ أَيْدِيَ الظُّلْمَةِ .

(١) هَذَا أَيْضًا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ .

(٢) آيَةُ ٢٠١ سُورَةِ الْأَعْرَافِ .

(٣) يَرْجِعُ أَنَّهَا خَيْرٌ ، لِأَنَّ الْحَدِيثِيَّةَ كَانَ فِيهَا صَلَاحٌ .

(٤) يَرْجِعُ الطَّبْرِيُّ ذَلِكَ ، لِأَنَّ كَفَّ أَيْدِيَ الْمُشْرِكِينَ فِي الْحَدِيثِيَّةِ مَذْكُورٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :

« وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ »

ويقال : ألا تحمله المطالبة بسبب كثرة العيال ونفقتهم الكبيرة على الخطر بدينه ؛ فيأخذ من الأشياء — برخصة التأويل — ما ليس بطيب^(١) .

قوله جل ذكره : « وأخري لم تشدوا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً »

قيل : فتح الروم وفارس^(٢) . وقيل : فتح مكة^(٣) .

وكان الله على كل شيء قديراً : فلا تسلقوا بغيره قلوبكم .

قوله جل ذكره : « ولو قاتلكم الذين كفروا لَوَلَّوْا الأديبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً »

يعنى : خير وأسد وعطفان وغيرهم — لو قاتلوكم لانهمزوا ، ولا يجدون من دون الله ناصراً

قوله جل ذكره : « مُسَنَّةٌ اللهُ التي قد خَلَّتْ من قبل

وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً »

أى مُسَنَّةٌ اللهُ خذلانهم ولن تجد لسنة الله تحويلاً .

قوله جل ذكره : « وهو الذى كفَّ أيديهم عنكم

وأيديكم عنهم ببطون مكة من بعد أن

أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً »

قيل إن سبعين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من جبل

التنعيم متسلحين يريدون قتله (فأخذناهم سِلْماً فاستحييناهم) فأنزل الله هذه الآية في شأنهم^(٤) .

(١) مرة أخرى تنبه إلى إضافة هذا الكلام إلى موقف القشيري من الرخصة ومداها .

(٢) قال ابن عباس : هي أرض فارس والروم وجميع ما فتحه المسلمون . وهو قول الحسن ومقاتل وابن أبي ليلى .

(٣) عن الحسن أيضاً وقتادة ، وقال عكرمة : حنين .

(٤) في ص ، و م (فأعلمهم سليمان) ، وهما خطأ في النسخ ، فالرواية عن يزيد بن هارون قال : أخبرنا حماد ابن سلمة عن ثابت عن أنس أن (ثمانين) رجلاً من أهل مكة هبطوا على النبي (ص) من جبل التنعيم متسلحين يريدون

وقيل أخذ اثني عشر رجلاً من المشركين — بلا عهد — فمن عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم^(١) وقيل : هم أهل الحديبية كانوا قد خرجوا لمنع المسلمين ، وحصل ترامي الأحجار بينهم ؛ فاضطرب المسلمون إلى بيوتهم ، فأنزل الله هذه الآية بمن عليهم حيث كف أيدي بعضهم عن بعض عن قدرة من المسلمين لا عن عجز ؛ فأما الكفار فكفوا أيديهم رعباً وخوفاً ؛ وأما المسلمون فنهتوا من قبل الله ، لما في أصلابهم من المؤمنين — أراد الله أن يخرجوا ، أو ليأعلم أن قوماً منهم يؤمنون .

والإشارة فيه : أن من الغنيمة الباردة والنعم السنية أن يسلم الناس منك ، وتسلم منهم . وإن الله يفعل بأوليائه ذلك ، فلا من أحد عليهم حيف ، ولا منهم على أحد حيف ولا حساب ولا مطالبة ولا صلح ولا معاتبة ، ولا صداقة ولا عداوة . . وكذا من كان بالحق — وأنشدوا :

فلم يبق لي وقتٌ إذِكرُ مخالفٍ

ولم يبق لي قلبٌ لذكر موافق .

« قوله جل ذكره : » هم الذين كفروا وصدّوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله »

« كفروا » وجحدوا ، « وصدّوكم » ومنعوكم عن المسجد الحرام سنة الحديبية .

« والهدى معكوفاً^(٢) » : أي منعوا الهدى أن يبلغ منجره ، فمعكوفاً حال من الهدى أي محبوساً .

— غرة (أن يصيبوه على غفلة) رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فأخذناهم ملأً فأتيناهم . (أي أخذوا قهراً وأسلموا أنفسهم) (وقال ابن الأثير) السلم (بكسر السين وفتحها لفتان في الصلح) . وفي رواية قتادة أن النبي سألهم : « هل لكم على ذمة ؟ » (= أي عهد) قالوا : لا ، فأرسلهم فزلت .
وفي رواية الترمذي أنهم ثمانون رجلاً هبطوا عليه عند صلاة الصبح ، فأخذهم واعتقهم . وذكر ابن هشام أنهم يستعصمون العتقاء . . ومنهم معاوية وأبوه .

(١) عن قتادة : أن المشركين رموا رجلاً من أصحاب النبي يقال له زعيم بسهم فقتلوه ، فبعث النبي غيلاً فأثر بائني حشر فارساً من الكفار ، فقال لهم النبي (ص) : هل لكم على ذمة ؟ ... الخ .
(٢) في البخاري عن ابن عمر قال : خرجنا مع رسول الله (ص) معشرين فحال كفار قريش دون الهدى فحصر الرسول وحلق رأسه ، فتحروا بنجره وحلقوا ، وقد غضب الرسول من توقف عن ذلك .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد ساق تلك السِّتَّة سبعين بدنة .

قوله جل ذكره : « ولولا رجالٌ مؤمنونٌ ونساءٌ

مؤمناتٌ لم تعلموا أن تطئوهم ^(١) فتصيبكم
منهم معرفةٌ بغير علم ليُدْخِلَ اللهُ في رحمته
مَن يشاء »

لو تسلطتم عليهم لأصابتهم معرفة ومضرة منكم بغير علم لسلطناكم عليهم ولأظفرناكم بهم .
وفي هذا تعريف للعبد بأن أموراً قد تنطلق وتتسَرَّ فيضيق قلب الإنسان . . والله في ذلك
مِرٌّ ، ولا يعدم ما يجري من الأمر أن يكون خيراً للعبد وهو لا يدري . . كما قالوا :

كم مرة خُفْتُ بك المسكاره خير لك الله . . وأنت كاره

قوله جل ذكره : « إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم

الحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجاهلية فأنزل اللهُ سَكِينَتَهُ
على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم
كلمة التقوى وكانوا أحقَّ بها وأهلها
وكان اللهُ بكل شيء علماً »

يعنى الألفة ^(٢) ؛ أى دَفَعَتْهُمْ أُمَّةُ الجاهلية أن يَمْنُوكُمْ عن المسجد الحرام سنة الحديبية ،
فأنزل اللهُ سَكِينَتَهُ في قلوب المؤمنين حيث لم يقابلوهم بالخلاف والمخاربة ، ووقفوا واستقبلوا
الأمر بالحلم .

« وألزمهم كلمة التقوى » وهى كلمة التوحيد تصدُرُ عن قلب صادق : فكلمة التقوى
يكون معها الاتقاء من الشرك .

(١) أن تطئوهم : بالقتل والإيقاع بهم . يقال وطئت القوم : أى أوقعت بهم . فجواب لولا محنوف والمعنى :
ولو أن تعثوا رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموا لأذن الله لكم في دخول مكة ، ولسلطكم عليهم ، ولكننا
صنا من كان فيها يكم وإيمانه .

(٢) مكذا فى م وهى فى ص (الأنية) وقد رجحنا الأول . .

« وكانوا أحقَّ بها » حسب سابق حُكْمِهِ وقديم^(١) عِلْمِهِ... « وكان الله بكل شيء عليماً »
ويقال : الإلزامُ في الآية هو إلزامُ إكرايم ولطف ، لا إلزامُ إكراهٍ وعُتْفٍ ؛ وإلزامُ برٍّ
لا إلزام جبر . .

وكم باسطين إلى وصلنا

أكفهمو... لم ينالوا نصيباً !

ويقال كلمة التقوى : التواصي بينهم بحفظ حق الله .

ويقال : هي أن تكون لك حاجةٌ فتسأل الله ولا تمّتيها للناس .

ويقال : هي سؤالك من الله أن يحرُسَك من المطامع .

قوله جل ذكره : لقد صدّق اللهُ رسوله الرؤيا بالحقّ
لتَدْخُلَنَّ المسجدَ الحرامَ إن شاء اللهُ
آمنين مُحَلِّقِينَ رءوسَكم ومُقَصِّرِينَ
لا تخافون فَعَلِمَ ما لم تعملوا فَعَمِلَ من دون
ذلك فتَحاً قريباً . .

أى صدقه^(٢) في رؤياه ولم يكذبه ؛ صدقه فيما أراه^(٣) من دخول مكة « آمنين مُحَلِّقِينَ
رءوسهم ومُقَصِّرِينَ » كذلك أراه لما خرج إلى الحديبية وأخبر أصحابه . فوطّن أصحابه نفوسهم
على دخول مكة في تلك السنة . فلمّا كان من أمر الحديبية عاد إلى قلوب بعض المسلمين شيء ،
حتى قيل لهم لم يكن في الرؤيا دخولهم في هذا العام ، ثم أذن الله في العام القابل ، فأنزل الله :
« لقد صدّق الله رسوله الرؤيا بالحق » فكان ذلك تمحيقاً لما أراه ، فرؤياه صلوات الله عليه حق ؛
لأن رؤيا الأنبياء حق .

(١) مكذّابى صومى فى م (وقد) وقد رجعتنا الأولى .

(٢) أى على حدّ الجار كقولهم تعالى : « صدقوا ما عاهدوا الله عليه » .

(٣) إشارة إلى الرؤيا التي أراه إليها من دخوله وصحبه مكة آمنين .

وكان في ذلك نوعُ امتحانٍ لهم : « فاعلم ما لم تعلموا » أنتم من الحكمة في التأخير^(١) .
 وقوله : « إن شاء الله » معناه إذ شاء الله كقوله : « إن كنتم مؤمنين »
 وقيل . قالها على جهة تنبيههم إلى التأدب بتقديم المشيئة في خطابهم^(٢)
 وقيل يرجع تقديم المشيئة إلى : إن شاء الله آمين أو غير آمين .
 وقيل . يرجع تقديم المشيئة إلى دخول كلهم أو دخول بعضهم ؛ فإن الدخول كان بعد سنة ،
 ومات منهم قومٌ .

قوله جل ذكره . « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين
 الحق ليظهره على الدين كله وكنى بالله
 شهيداً » .

أرسل رسوله مجداً صلى الله عليه وسلم بالدين الحنفى ، وشريعة الإسلام ليظهره على كل
 ما هو دين^(٣) ؛ فما من دينٍ لقومٍ إلا ومنه في أيدي المسلمين سرٌّ ؛ وللإسلام العزة والغلبة عليه
 بالحجج والآيات .

وقيل : ليظهره وقت نزول عيسى عليه السلام^(٤) .

وقيل : في القيامة حيث يظهر الإسلام على كل الأديان .

وقيل : ليظهره على الدين كله بالحجة والدليل .

قوله جل ذكره . « محمدٌ رسولُ الله والذين معه أشدُّاءُ
 على الكفارٍ رحماءُ بينهم »

(١) قد تكون الحكمة في التأخير هو ما سيحدث لهم من الخير والصلاح والتفوق وكثرة العدد ، فإنه عليه السلام
 رجع من غزاه أربعين إلى خيبر فافتتحها ، ورجع بأموال وعدة ورجال أضعاف ما كان عليه في ذلك العام ،
 وأقبل على مكة في أهبة وعدة . يدلك على ذلك أنهم كانوا عام الحديبية سنة ست عدهم ألف وأربعمائة ، وكانوا بعده
 عشرة آلاف .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : « ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله » .

(٣) أى أن (الدين) في الآية اسم جنس ، أو اسم بمعنى المصدر ، ويستوى فيه المفرد والجمع .

(٤) أى عند نزوله لا يبقى على وجه الأرض كافر .

« أشداء » . جمع شديد ، أى فيهم صلابة مع الكفار .
« رحماء » . جمع رحيم ، وصفهم بالرحمة والتواد فيهم .
« ... تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً »
تراهم راكعين ساجدين يطلبون من الله الفضل والرضوان .
« ... سيأثمون في وجوههم من أثر السجود »

أى علامة التخشم التى على الصالحين .
ويقال : هى فى القيامة يوم تبيض وجوه ، وأنهم يكونون غداً محجلين .
وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار »^(١)
ويقال فى التفسير : « معه » أبو بكر ، و « أشداء على الكفار » عمر ؛ و « رحماء بينهم » :
عثمان ، و تراهم ركعاً سجداً « على رضى الله عنهم »^(٢)
وقيل : الآية عامة فى المؤمنين .

« ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم
فى الإنجيل كزراع أخرج شطأه فأزروه
فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب
الزراع ليفيط بهم الكفار » .

هذا مثلهم فى التوراة ، وأما مثلهم فى الإنجيل فكزراع^(٣) أخرج شطأه أى : فراخه .

(١) جاء فى سنن ابن ماجه : حدثنا اسماعيل بن محمد الطلخى قال « حدثنا ثابت بن موسى عن شريك عن الأعشى
عن أبي سفيان عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كثرت صلاته ... » وقال ابن العربى : هو
مدسوس على وجه الفلأ .

(٢) هكذا فى م أما فى ص فلم يرد ذكر للصحابة رضوان الله عليهم سوى الجزء الأخير الخاص بصل كرم الله
وجهه ، وقد يمكن لوتة كرنا ما جاء فى هامش ص ٤٢٥ - أن نستنبط أن ناسخ ص - الذى هو فارسي الأصل كما قلنا
فى مدخل الكتاب - ربما كان شيعياً .

(٣) فعل هذا يجوز الوقف على (التوراة) ثم يستأنف الكلام فيكون هناك مثلان. وقال مجاهد : هو مثل
واحد . وعند النسب : مكتوب فى الإنجيل : سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر
(ص ١٦٤) .

يقال : أشطأ الزرعُ إذا أخرج صفاره على جوانبه . « فأزره » أى عاونه . « فاستفاظ » أى غلظ واستوى على سوقه ؛ وأزرت الصغار الكبار حتى استوى بعضه مع بعض . يعجب هذا الزرعُ الزراعَ ليغيط بالمسلمين الكفار ؛ شبهَ النبي (صلى الله عليه وسلم) بالزرع حين تخرج طاقة واحدة ما ينبت ، حولها فتشتد ، كذلك كان وحده في تقوية دينه بمن حوله من المسلمين .

فمن حمل الآية على الصحابة : فمن أبغضهم دخل في الكفر ، لأنه قال : « ليغيط بهم الكفار » أى بأصحابه الكفار . ومن حمله على المسلمين ففيه حجة على الإجماع ، لأن من خالف الإجماع — فالله يغايظ به الكفار — فمخالف الإجماع كافرٌ

قوله جل ذكره : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم

مغفرةً وأجرًا عظيمًا »

وعد المؤمنين والمؤمنات مغفرة الذنوب ، وأجرًا عظيمًا في الجنة فقوله : « منهم » للجنس أو للذين ختم لهم منهم بالإيمان .

بسم الله الرحمن الرحيم

[« بسم الله » : إخبارٌ عن وجودِ الحقِّ بنعتِ
الْقِدَمِ .

« الرحمن الرحيم » : إخبارٌ عن بقاءه بوصفِ
القلاء والكُرمِ .

كاشَفَ الأرواحَ بقوله : « بسم الله » فَهَيَّمَهَا .
وكاشَفَ النفوسَ بقوله : « الرحمن الرحيم »
فَهَيَّيْمَهَا ؛ فالأرواحُ دَهَشَى في كَشَفِ جلالهِ ، والنفوسُ
عَطَشَى إلى لُطْفِ جمالهِ] .

عبد الكريم القشيري

في

بسملة « الشمس »

سُورَةُ الْجُرَات

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسم كريم من تنصل إليه من زلانه تفضل عليه بنجاته ، ومن توسل إليه بطاعته تطول عليه بدرجاته .

« بسم الله » اسم عزيز من تقرب إليه بمناجاته قابله بلطف أفضاله ، ومن تحبب إليه بإيمانه أقبل عليه بكشف جلاله وجماله .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ

يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » : شهادة للننادي بالشرف .

« لَا تَقْدُمُوا » أمر بتحمل الكلف . قدّم الإكرام بالشرف على الإلزام بالكلف أي

لا قدموا بحكم « بين يدي الله ورسوله » : أي لا تقضوا أمراً من دون الله ورسوله ، أي لا تعملوا من ذات أنفسكم شيئاً .

ويقال : قفوا حيثما وقفت ، وافعلوا ما به أمرتم ، وكونوا أصحاب الاقتداء والاتباع . .

لأرباب الابتداء والابتداع .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ

فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ

بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ

تَحْبِطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ » .

أَمَرَهُمْ بِمَحْفَظِ حَرَمَتِهِ ، وَمِرَاعَاةِ الْأَدَبِ فِي خِدْمَتِهِ وَصَحْبَتِهِ ، وَأَلَّا يَنْظُرُوا إِلَيْهِ بِالْعَيْنِ الَّتِي يَنْظُرُونَ بِهَا إِلَى أَمْثَالِهِمْ . وَأَنَّهُ إِذَا كَانَ بِمُخْلَقِهِ يُبَلِّغُهُمْ فِيهِ أَلَّا يَتَبَسَّطُوا مَعَهُ مَتَجَاسِرِينَ ، وَلَا يَكُونُوا مَعَ مَا يَعَاشِرُهُمْ بِهِ مِنْ تَخَلُّفِهِ عَنْ حُدُودِهِمْ زَائِدِينَ .

وَيَقَالُ : لَا تَبْدَأُوهُ بِحَدِيثٍ حَتَّى يُفَاتِحَكُمْ .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ يُغَضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ » .

هَمْ الَّذِينَ تَقَعُ السَّكِينَةُ عَلَيْهِمْ مِنْ هَيْبَةِ حَضْرَتِهِ ، أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى بِانْتِزَاعِ حُبِّ الشَّهَوَاتِ مِنْهَا ، فَاتَّقُوا سُوءَ الْأَخْلَاقِ ، وَرَاعُوا الْأَدَبَ .

وَيَقَالُ : هُمُ الَّذِينَ انْسَلَخُوا مِنْ عَادَاتِ الْبَشَرِيَّةِ .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ • وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

أَيُّ لَوْ عَرَفُوا قَدْرَكَ لَمَّا تَرَكَوا حُرْمَتَكَ ، وَالتَّزَمُوا هَيْبَتَكَ .

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ وَلَمْ يَسْتَعْجِلُوا ، وَلَمْ يَوْقُظُوكَ وَقْتُ الْقِيلُولَةِ بِمَنَادَاتِهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (١) .

أَمَّا أَصْحَابُهُ — صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ — الَّذِينَ يَعْرِفُونَ قَدْرَهُ فَإِنَّ أَحَدَهُمْ — كَمَا فِي الْخَبَرِ : « كَأَنَّهُ يَفْرَعُ بَابَهُ بِالْأُظْلَافِ » .

(١) يُقَالُ : نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ مِنْهُمْ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ وَسُوَيْدُ بْنُ هَاشِمٍ ، وَوَكَيْعُ بْنُ وَكَيْعٍ ، وَعَيْنَةُ ابْنُ حَصْنٍ ، وَأَنَّ الْأَقْرَعَ نَادَى النَّبِيَّ (ص) مِنْ وَرَاءِ حِجْرَتِهِ أَنْ اخْرُجْ إِلَيْنَا فَإِنَّ مَدِينَتَنَا زَيْتٌ وَذِمَّتُنَا شَيْتٌ . وَكَانَ ذَلِكَ وَقْتُ الظُّهْرِ وَالنَّبِيُّ فِي رَاحَتِهِ وَبَعْضُ شُؤْنِهِ الْخَاصَّةِ . فَاسْتَيْقِظَ وَخَرَجَ لَهُمْ .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ
بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ
فَتُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ » .

دلَّت الآية (١) على تَرْكِ السَّكُونِ إِلَى خَبَرِ الْفَاسِقِ إِلَى أَن يَظْهَرَ صِدْقُهُ .
وفي الآية إشارة إلى تَرْكِ الاسْتِمَاعِ إِلَى كَلَامِ السَّاعِي وَالْمَنَامِ وَالْمُتَنَابُّ لِلنَّاسِ .
وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى قَبُولِ خَبَرِ الْوَاحِدِ إِذَا كَانَ عَدْلًا .
وَالْفَاسِقُ هُوَ الْخَارِجُ عَنِ الطَّاعَةِ (٢) . وَيُقَالُ هُوَ الْخَارِجُ عَنْ حَدِّ الرُّوْمَةِ .
وَيُقَالُ : هُوَ الَّذِي أَلْقَى جِلْبَابَ الْحَيَاءِ .

قوله جل ذكره : « وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ
فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ
حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ
وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ
وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ » .

أَيُّ لَوْ وَاغْتَفَكُمُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي كَثِيرٍ مِمَّا تَطْلُبُونَ مِنْهُ لَوْ قَعْتُمْ فِي الْعَنَتِ
— وَهُوَ الْفَسَادُ (٣) . وَلَوْ قَبِلَ قَوْلَ وَاحِدٍ (قَبْلَ وَضُوحِ الْأَمْرِ) لَأَصَابَتْكُمْ مِنْ ذَلِكَ شِدَّةٌ .
وَالرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لَا يُطِيعُكُمْ فِي أَكْثَرِ الْأُمُورِ إِذَا لَمْ يَرَ فِي ذَلِكَ مَصْلَحَةً لَكُمْ
وَاللَّذِينَ .

(١) يُقَالُ: نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ عَقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ .. أَرْسَلَهُ النَّبِيُّ (ص) لِيَجْزِيَ الصَّدَقَاتِ مِنْ بَنِي الْمُصْطَلِقِ .
فَلَمَّا أَبْصَرُوهُ تَقَدَّمُوا نَحْوَهُ فَهَابَهُمْ ؛ فَقَدْ كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ إِحْنَةٌ .. فَعَادَ مِنْ فُورِهِ إِلَى النَّبِيِّ وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُمْ أَوْتَدُوا عَنْ
الْإِسْلَامِ ، فَلَمْ يَقْنَعِ النَّبِيُّ (ص) بِمَا سَمِعَ وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ لِيُثَبِّتَ مِنَ الْأَمْرِ فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ عَلَى إِسْلَامِهِمْ ،
وَأَنَّهُمْ كَانُوا خَارِجِينَ إِلَى سَفِيرِ النَّبِيِّ لِإِكْرَامِهِ ، وَاسْتَيْقَنَ خَالِدٌ مِنْ ذَلِكَ حِينَ سَمِعَ أَذَانَهُمْ وَصَلَاتَهُمْ .. فَعَادَ إِلَى النَّبِيِّ
وَجَلَّى حَقِيقَةَ الْأَمْرِ .

(٢) مُشْتَقٌّ مِنْ فَسَخَتْ الرُّطْبَةُ أَيْ خَرَجَتْ مِنْ قَشْرِهَا ، وَالْفَأْرَةُ مِنْ جَعْرِهَا .

(٣) لِلْعَنَتِ مَعَانٍ أُخْرَى : فَهُوَ: الْفُجُورُ وَالزُّنَا — كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ النَّسَاءِ . وَهُوَ: الْوُقُوعُ فِي أَمْرٍ شَاقٍّ كَمَا جَاءَ
فِي آخِرِ سُورَةِ بَرَاءَةِ .

« ولكن الله حَبَّبَ إليكم الإيمان » : الإسلام والطاعة والتوحيد ، وزَيَّنَهَا في قلوبكم .

« وكرَّهَ إليكم الكفر والفسق والمصيان . . » : هذا من تلوين الخطاب .

وفي الآية دليلٌ على صحة قول أهل الحقِّ في القَدَر^(١) ، وتخصيص المؤمنين بالطَّافِ لا يشترك فيها الكفارُ . ولولا أنَّه يوفَّر الدواعي للطاعات لحَصَلَ التفریط والتقصير في العبادات .

« فضلاً من الله ونعمة » : أى فَعَلَ هذا بكم فضلاً منه ورحمةً . والله عليم حكيم .

قوله جل ذكره : « وإن طائفتان^(٢) من المؤمنين اقتتلوا

فأصلِحوا بينهما فإن بَغَتْ إحداها على

الأخرى قتلتها التي تبغى حتى تقيء إلى

أمر الله فإن فاءت فأصلِحوا بينهما

بالعدل وأقسطوا ، إِنَّ الله يُحِبُّ

المُقْسِطِينَ » .

تدل الآية على أن المؤمن بفسقه — والفسق دون الكفر — لا يخرج عن الإيمان لأن

إحدى الطائفتين — لا محالة — فاسقة إذا اقتتلا .

وتدل الآية على وجوب نصرته المظلوم ؛ حيث قال : « فإن بغت إحداها على

الأخرى . . . » .

والإشارة فيه : أن النفس إذا ظَلَمَتِ القلب بدعائه إلى شهواتها ، واشتغالها في فسادها فيجب

(١) يقصد القشيري أن القائلين بأن الله سبحانه المتفرد بخلق ذوات العباد وخلق أفعالهم وصفاتهم واختلاف ألسنتهم و... على صواب لأن الآية صريحة في خلق الأفعال ؛ فهو الذي حَبَّبَ إلى الإيمان والعكس .

(٢) يقال نزلت في ابن أبي حنيفة حين وقف الرسول على مجلس به بعض الأنصار وهو على حمار فقال ابن أبي حنيفة : سبيل حمارك فقد آذانا ، فأنبرى له عبد الله بن رواحة قائلاً :
واقف إن بول حماره لأطيب من مسكك .

وبعد أن مضى الرسول (ص) طال الخوض بينهما حتى استبهما وتجادلا ، واشتبك الأوس والخزرج وتجادلوا بالعصى . وقيل بالأيدى والنعال والسفوف ، فرجع الرسول (ص) إليهم فأصلح بينهم .

أن يقاتلها حتى تشن بالجراحة بسيف المجاهدة . فإن استجابت إلى الطاعة يُغْفَر عنها لأنها هي
المطية إلى باب الله .

قوله جل ذكره : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ
أَخَوِيكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » .

إيقاع الصلح بين المتخاصمين من أوكد عزائم الدين .

وإذا كان ذلك واجباً فإنه يدل على عظيم وزر الواشى والتمام ؛ والمصدر في إفساد ذات البين .
(ويقال إنما يتم ذلك بقسوة القلب مع الله فإن الله إذا علم صدق همة عبد في إصلاح ذات
البين) (١) فإنه يرفع عنهم تلك العصبة (٢) .

فأما شرط الأخوة : فمن حق الأخوة في الدين ألا تُحَوَّجَ أخاك إلى الاستعانة بك أو التماس
النصرة عنك ، وألا تُقَصَّرَ في تَقَدُّرِ أحواله بحيث يشكل عليك موضع حاجته فيحتاج
إلى مساءلتك .

ومن حقه ألا تُلَجِّجَنَّهُ إلى الاعتذار لك بل تبسط عُذْرَهُ ؛ فإن أشكل عليك وجهه عُذَّتْ
باللائمة على نفسك في خفاء عُذْرِهِ عليك ومن حقه أن تتوب عنه إذا أذنب ، وتعوده
إذا مرض . وإذا أشار عليك بشيء فلا تطالبه بالدليل عليه وإبراز الحجة — كما قالوا :

إِذَا اسْتَنْجَدُوا لَمْ يَسْأَلُوا مَنْ دَعَاهُمْ لَأَيَّةٍ حَرْبٍ أَمْ لَأَيِّ مَكَانٍ

وَمِنْ حَقِّهِ أَنْ تَحْفَظَ عَهْدَهُ الْقَدِيمَ ، وَأَنْ تَرَاعِيَ حَقَّهُ فِي أَهْلِ الْمُتَصَلِّينَ بِهِ فِي الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ ،
وَفِي حَالِ الْحَيَاةِ وَبَعْدَ الْمَمَاتِ (٣) — كما قيل :

وخليل إن لم يكن منصفاً كنت منصفاً

(١) ما بين القوسين موجود في م وسائط في ص .

(٢) هكذا في م وهي في ص المعصية ونحن نؤثر الأولى لملائتها للسياق .

(٣) في هذه الفقرة ما يدحض مزاعم الذين يقولون بأن الصوفية قوم انزاليون ، لا يفهمون معنى العلاقات
الاجتماعية ولا يتدبرونها .

تَحَسَّى لَهُ الْأَمْرَ بَيْنَ وَكُنْ مَلَاظِفًا
إِنْ يَقُلْ لَكَ اسْتَوْاحِرْفُ تَ رَضَى لَا نَكَلَفًا

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُوا قَوْمٌ مِنْ

قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ
وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ عَسَى أَنْ يَكُنَّ
خَيْرًا مِنْهُمْ ، وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ
وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ
الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ
فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » .

نَهَى اللَّهُ — سبحانه وتعالى — عَنْ اِزْدِرَاءِ النَّاسِ ، وَعَنِ الْغَيْبَةِ ، وَعَنِ الاسْتِهَانَةِ
بِالْحَقِيقِ ، وَعَنِ تَرْكِ الاحْتِرَامِ .

« وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ » : أَيْ لَا يَعْيِّنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، كَقَوْلِهِ : « وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » (١) .
وَيُقَالُ : مَا اسْتَصْفَرَ أَحَدٌ أَحَدًا إِلَّا سُلْطًا عَلَيْهِ . وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْتَبَرَ بِظَاهِرِ أَحْوَالِ النَّاسِ
فَإِنَّ فِي الزَّوَايَا خُبَايَا . وَالْحَقُّ يَسْتُرُ أَوْلِيَاءَهُ فِي حِجَابِ الضَّعَةِ (٢) ؛ وَقَدْ جَاءَ فِي الْخَبَرِ :
« رَبِّ أَشْعَثُ أَغْبَرُ ذِي طَمَرِينَ لَا يُؤْتِيهِ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ » (٣) .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنْ
الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا
وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، أُنْجِبُ

(١) آيَةُ ٢٩ سُورَةِ النَّسَاءِ .

(٢) الضَّعَةُ هُنَا بِمَعْنَى خَوْلِ الذَّكَرِ وَانْطِلَافِ الْمَنْظَرِ .

(٣) فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ بَزِيَادَةُ : « وَإِنَّ الْبِرَاءَ مِنْهُمْ » ، وَعِنْدَ مُسْلِمٍ بَلْفِظَ « رَبِّ أَشْعَثُ أَغْبَرُ مَدْفُوعٌ إِلَى
الْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ » .

أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً
فكرهتموه واتقوا الله إن الله
نوابٌ رحيم .

النفس لاتصدق ، والقلب لا يكذب . والتمييز بين النفس والقلب مُشكِلٌ ومن
بقيت عليه من حظوظه بقيّةٌ — وإن قلّت — فليس له أن يدّعى بيان القلب بل هو بنفسه
مادام عليه شيء من نفسه ، ويجب أن يتّهم نفسه في كل مايقع له من نقصان غيره . . هذا
أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال وهو يخاطب . « كلُّ الناس أقرُّه من عمر . .
امرأته أقرُّه من عمر » .

« ولا تجسّسوا » . والعارف لا يتفرغ من شهود الحق إلى شهود الخلق . . فكيف
يتفرغ إلى تجسّس أحوالهم ؟ وهو لا يتفرغ إلى نفسه فكيف إلى غيره ؟ « ولا يغتب بعضهم
بعضاً » : لا تحصل الغيبة للخلق إلّا من الغيبة عن الحق .

« أوجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً . . » جاء في التفسير أن المقصود بذلك الغيبة ،
وعلى ذلك يدل ظاهر الآية . وأخس الكفار وأقلّهم قدراً من يأكل الميتة . . وعزير رؤية
من لا يغتاب أحداً بين يديك .

قوله جل ذكره : « يأبى الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ
وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا
إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله
عليمٌ خيرٌ » .

إنا خلقناكم أجمعكم من آدم وحواء ، ثم جعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا لا لتكاثروا
ولا لتنافسوا . فإذا كانت الأصول تربةً ونظفةً وعَلَقَةً . . فالتفاخر بماذا ؟ أبا لحا المسنون ؟ أم
بالنظفة في قرار مكين ؟ أم بما ينطوى عليه ظاهره مما تعرفه ؟ ! (١) وقد قيل :

(١) ربما نفهم من هذه العبارة ما يقصده القشيري في موضع آخر مائل من سخرية بالإنسان وتعظيم لتجبره :
كان يقول له : من أنت أيها الإنسان ؟ أنت كئيف في قميص ! ألا ترى إلى ريح إبطك إذا عرقت ، وإلى ريح
فمك إذا جمت ! ؟ ... ونحو ذلك .

إِنَّ آثَارَنَا تَدُلُّ عَلَيْنَا فَانْظُرُوا بَعْدَنَا إِلَى الْآثَارِ
أم بأفلاك التي هي بارياء مشوبة ؟ أم بأحوالك التي هي بالإعجاب مصحوبة ؟ أم بماملاتك
التي هي ملأى بالخيانة ؟

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم ؟ أتقاكم أي أبعدكم عن نفسه ، فالتقوى هي التحرر
من النفس وأطاعتها وحفظها . فأكرم العباد عند الله من كان أبعد عن نفسه وأقرب
إلى الله تعالى .

قوله جل ذكره : « قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا
ولكن قولوا أسلمنا » .

الإيمان هو حياة القلب ، والقلب لا يحيا إلا بعد ذبح النفس ، والنفوس لا تموت ولكنها
تغيب ، ومع حضورها لا يتم خير ، والاستسلام في الظاهر إسلام . وليس كل من استسلم
ظاهراً مخلص في سره .

« وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ »

في هذا دليل على أن محل الإيمان القلب . كما أنه في وصف المناقين قال تعالى :
« فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » ؛ ومرضى القلب والإيمان ضدان .

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ
ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا
بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله
أولئك هم الصادقون » .

جعل الله الإيمان مشروطاً بنحو ذكرها ، ونص عليها بلفظ « إنما » وهي لتحقيق
الذي يقتضى طرد العكس ؛ فمن خرج عن هذه الشروط التي جعلها للإيمان فردود
عليه قوله .

والإيمان يوجب للعبد الأمان ، فما لم يكن الإيمان موجباً للأمان فهو حبه بغيره أولى .

قوله جل ذكره : « قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » .

تدل الآية على أن الوقوف^(١) في المسائل الدينية يُعْتَبَرُ واجباً ؛ فالأسمى منه تَوَاضَعُ ، والأحكامُ منه تُطَلَّبُ ، وأوامره مُتَّبَعَةٌ^(٢) .

قوله جل ذكره : « يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِلَّا بِإِسْلَامِكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » .

مَنْ لَاحِظٌ شَيْئاً مِنْ أَعْمَالِهِ وَأَحْوَالِهِ فَإِنَّ رَأْيَهُ مِنْ نَفْسِهِ كَانَ شَرّاً كَأَنَّ ، وَإِنْ رَأَاهَا لِنَفْسِهِ كَانَ مَكْرَماً فَكَيْفَ يَمُنُّ الْعَبْدُ بِمَا هُوَ شَرٌّ أَوْ بِمَا هُوَ مَكْرَمٌ ؟ !

والذي يجب عليه قبول المِنَّة ... كيف يرى لنفسه على غيره مِنَّة ؟ ! هذا لعمري فضيحة ! بل المِنَّةُ لِلَّهِ ؛ فهو وليُّ النعمة . ولا تكون المِنَّةُ مَنَّةً إِلَّا إِذَا كَانَ الْعَبْدُ صَادِقاً فِي حَالِهِ ، فَأَمَّا إِذَا كَانَ مَعْلُولاً فِي صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ فَهِيَ مَحَنَةٌ لِصَاحِبِهَا لَا مِنَّةٌ .

والمِنَّةُ تُكَدَّرُ الصَّنِيعَ إِذَا كَانَتْ مِنَ الْخُلُوقِينَ ، وَلَكِنْ بِالْمِنَّةِ تَطْيِبُ النِّعْمَةُ إِذَا كَانَتْ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ .

قوله جل ذكره : « إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » .

(١) هكذا في م وهي بمعنى (التوقف) (والتوقيف) عند بعض الأصول . ولهذا فما جاء في م وهو (التوقيف) خطأ في النسخ .

(٢) فالاتباع واجب ولا بداع مرفوض - كما نهى القشيري من قبل .

وَمَنْ وَقِفْ هَاهُنَا تَكْدَّرَ عَلَيْهِ عَيْشُهُ ؛ إِذْ لَيْسَ يَدْرِي مَا غَيْبَهُ فِيهِ ، وَفِي مَعْنَى هَذَا
قَوْلُ الْقَائِلِ :

أَبْكِي .. وَهَلْ تَدْرِينَ مَا يَبْكِينِي ؟
أَبْكِي حَذَاراً أَنْ تَفَارِقَنِي
وَتَقْطَعِي وَضْئِي وَتَهْجُرَنِي^(١)

(١) فِي (الْمَع) لِلْسَرَّاجِ وَتَقْطَعِي (حَبْل) وَتَهْجُرَنِي (الْمَع ص ٣٠٥) وَكَلَاهَا صَحِيحٌ فِي الْمَعْنَى مِلَامُ الْوُزْنِ .

سُورَةُ قَت

« بسم الله » اسم جَبَرِ أحوالَ مَنْ رَحِمَهُ ، متَجَبَّرٌ بكبريائه على مَنْ أَقَامَهُ قَهْرَهُ وحرَمَهُ .

« بسم الله » لطيفٌ يعلمُ خفايا تصنعُ العابدين ، غافرٌ لجلالِ ذنوبِ العاصين .

قوله جل ذكره : « قَ وَالْقُرْآنِ الْحَمِيدِ » .

قَ مفتاحُ أسمائه : « قوى وقادر وقدير وقريب » . . . أَسْمَ بِهذه الأسماء وبالقرآن الحميد .
وجوابُ القسم محذوف ومعناه لَتُبْعَنَّ في القيامة .

ويقال جوابه : « قد علمنا ما تنقصُ الأرضُ منهم وعندنا كتاب حفيظ » أى لقد علمنا .
وحذفت اللام لأنَّ تطاول الخطاب .

ويقال : جوابه قوله : « ما يبدلُ القولُ لدى » .

قوله جل ذكره : « بل عَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ » .
فقال الكافرون هذا شئٌ عَجِيبٌ .

« منذرٌ منهم » : هو محمد صلى الله عليه وسلم

والتعجبُ نوعٌ من تعبيرِ النفسِ عن استبعادها لأمرٍ خارجِ العادة لم يقع به عِلْمٌ من قَبْلُ .
وقد مضى القولُ في إنكارهم للبعث واستبعادهم ذلك :

« أَأَنْذَرْنَاكُمْ وَأَكُنَّا تَرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ »

أى يَبْعُدُ عندنا أَنْ نُبْعَثَ بعد ما مِتْنَا . فقال جل ذكره :

« قد عَلَّمْنَا ما تنقص الأرض منهم
وعندنا كتابٌ حفيظٌ . »

في هذا تسليةٌ للعبد فإنه إذا وُسِدَ التراب ، وانصرف عنه الأصحاب ، واضطرب لوفاته
الأحباب .. فَمَنْ يَتَفَقَّدُهُ وَمَنْ يَتَعَهَّدُهُ ... وهو في شفير قبره ، وليس لهم منه شيء سوى
ذكره ، ولا أحد منهم يدري ما الذي يقاسيه المسكين في حُفْرَتِهِ ؟ فيقول الحقُّ — سبحانه :
« قد علمنا ... » ولعله يخبر الملائكة قائلاً : عبيد الذي أخرجته من دنياه — ماذا بقي بينه
من يهواه ؟ هذه أجزاؤه قد تفرقت ، وهذه عظامه بليت ، وهذه أعضاؤه قد تفتتت !

« وعندنا كتابٌ حفيظٌ » : وهو اللوحُ المحفوظ ؛ أثبتنا فيه تفصيل أحوال الخلق من
غير نسيان ، ويعتدنا فيه كل ما يحتاج العبد إلى تذكره .

قوله جل ذكره : « بل كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ
فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ . »

« مَرِيجٌ » أي مختلط ومُلتبس ؛ فهم يترددون في ظلمات تحيرهم ، ويضطربون في شكهم .

قوله جل ذكره : « أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ
بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ . »

أَوَلَمْ يَتَبَرَّأُوا ؟ أَوَلَمْ يَسْتَدْرِئُوا بما رفعنا فوقهم من السماء ، رفعنا سَمَكُهَا فسَوَّيْنَاهَا ، وأثبتنا
فيها الكواكبَ وبها زَيَّنَّاهَا ، وأدْرَنَّا فيها شَمْسَهَا وقمرَهَا ؟ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ جَلَّسْنَا عَيْنَهَا
وَنَوَّعْنَا أَثَرَهَا ؟

« والأرض مددناها وألقينا فيها رواسيَ
وأثبتنا فيها من كل زوجٍ بهيج . »

والأرض مددناها ؛ فجعلناها لمٍ مهاداً ، وجعلنا لها الجبالَ أوتاداً ، وأثبتنا فيها أشجاراً
وأزهاراً وأنواراً .. كل ذلك :

« تَبْصِرَةٌ وَذِكْرٌ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ »

علامة ودلالة لكل من أناب إلينا ، ورجع من شهود أفعالنا إلى رؤية صفاتنا ، ومن شهود صفاتنا إلى شهود حقنا وذاتنا^(١) .

قوله جل ذكره : « وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ » .

أنزلنا من السماء ماءً مباركاً كثير النفع والزيادة ، فأنبطنا به « جنات وحب الحصيد » : أى الذى يُحصَد — كما تقول : مسجد الجامع .

الأجزاء متجانسة . ولكن أوصافها فى الطعوم والروائح والألوان والهيئات والمقادير مختلفة .

قوله جل ذكره : « وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ » .

والنخلُ باسقاتٌ : طويلاتٌ ، لها طلعٌ منضود بعضه فوق بعض لكثرة الطلع أو لما فيها من الثمار . وكيف جعلنا بعض الثمار متفرقة كالنفاخ والكثرى وغيرهما ، وكيف جعلنا بعضها مجتمعة كالناب والرطب وغيرهما . . كل ذلك جعلناه رزقاً للعباد ولكي ينتفعوا به .

« . . . وَأُخْبِتْنَا بِهِ بَلَدًا مَّيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ » .

وكما سقنا هذا الماء إلى بلدةٍ جفَّ نباتُها ، وكما فعلنا كلَّ هذه الأشياء ونحن قادرون على ذلك — كذلك نجعلكم فى الحشر والنشر ، فليس بعنكم بأبعد من هذا .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ

(١) هذا الترتيب فى منازل الشهود له أهمية فى فهم المراج الروحى عند هذا الإمام ، وواضح منه أن أعلى درجات الشهود شهود الذات . . وذلك بشرائط سبقت الإشارة إليها فى غير موضع من الكتاب ، ولكننا مع ذلك لا ننسى أن القشيري — كما نعرف من منهجه — يرى الاستشراف من (الذات) من المحال ، فقد جلت الصمدية عن الدرك والحق . . مهما سما العبد فى سمرجه الروحى .

لوط * وأصحاب الأيكة وقوم نوح
كل كذب الرسل حق وعيد .

إننا لم نَعجزَ عن هؤلاء — الذين ذكر أسماءهم — وفيه تهديد لهم وتسلية للرسول .

« أفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ؟ بَلْ هُمْ فِي
لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ » .

أى إننا لم نَعجزَ عن الخلق الأول . . فكيف نَعجزُ عن الخلق الثانى — وهو الإعادة ؟ لم
يعتص علينا فعل شيء ، ولم نتعب من شيء .. فكيف يشق علينا أمر البعث ؟ أى ليس كذلك (١) .

قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ
بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبَلٍ
الوريد » .

نعلم ما توسوس به نفسه من شهواتٍ تطلب استنفاذها ، مثل التصنع مع الخلق ، وسوء الخلق ،
والخذ . . وغير ذلك من آفات النفس التى تُشَوِّش على القلب والوقت .

« وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبَلٍ الْوَرِيدِ » فَحَبَلُ الْوَرِيدِ أَقْرَبُ أَجْزَاءِ نَفْسِهِ إِلَى نَفْسِهِ ، والمرادُ
من ذلك العلم والقدرة ، وأنه يسمع قولهم ، ولا يشكل عليه شيء من أمرهم .
وفى هذه الآية هَيْبَةٌ وَفَزَعٌ وَخَوْفٌ لِقَوْمٍ ، وَرَوْحٌ وَسَكُونٌ وَأَنْسٌ لِقَلْبٍ لِقَوْمٍ .

قوله جل ذكره : « إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ
الشَّامِلِ قَعِيدٌ » .

خَوْفَهُمْ بِشُهُودِ الْمَلَائِكَةِ وَحُضُورِ الْخَفِطَةِ ، وَبِكِتَابَتِهِمْ عَلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ ، فهما قَعِيدَا (٢) كُلِّ

(١) فالاستفهام هنا للإنكار أو للنفى .

(٢) عبر عن المتنى بالمفرد للدلالة بواحد على الاثنين مثل قول الشاعر :

رمانى بأمر كنت منه ووالدى بريئاً ومن أجل الدلوى رمانى
أى رمانى بأمر كنت منه بريئاً وكان والدى منه بريئاً .

أحدٍ : ويقال : إذا كان العبدُ قاعداً فواحدٌ عن يمينه يكتب خيرا ته ، وواحدٌ على يساره يكتب معاصيه ، وإذا قام فواحدٌ عند رأسه وواحدٌ عند قدميه ، وإذا كان ماشياً فواحدٌ قائم بين يديه وآخرٌ خلفه .

ويقال : هما اثنان بالليل لكل واحدٍ ، واثنان بالنهار .

ويقال : بل الذي يكتب الخيرات اليوم يكون غيره غداً ، وأما الذي يكتب الشر والمعصية بالأمس فإنه يكون كاتباً للطاعة غداً حتى يشهد طاعتك .

ويقال : بل الذي يكتب المعصية اثنان ؛ كل يوم اثنان آخران وكل ليلة اثنان آخران لئلا يُعلمَ من مساويك إلا القليل منها ، ويكون عِلْمُ المعاصي متفرقاً فيهم^(١) .

قوله جل ذكره : « وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد » .

إذا أشرفت النفسُ على الخروج من الدنيا فأحوالهم مختلفة ؛ فمنهم من يزداد في ذلك الوقت خوفاً ولا يتبين إلا عند ذهاب الروح حاله . ومنهم من يكشف قبل خروجه فيسكن روعه ، ويُحفظُ عليه عقله^(٢) ، ويتم له حضوره وتميزه ، فيُسَلِّمُ الروحَ على مهلٍ من غير استكراه ولا عيوس . . . ومنهم ، ومنهم . . . وفي معناه يقول بعضهم :

أنا إن ميتٌ - والهوى حشو قلبي - فبدا الهوى يموت الكرامُ

ثم قال جل ذكره : « ونفخ في الصور ذلك يومُ

الوعيد * وجاءت كل نفسٌ معها سائقٌ وشهيدٌ » .

سائقٌ يسوقها إما إلى الجنة أو إلى النار ، وشهيدٌ يشهد عليها بما فعلت من الخير والشر .

(١) واضح من ذلك مقدار ما يبعث الصوفية في نفوس المعصاة من تفاؤل ورجاء أملاً في نفع باب التوبة

(٢) سقطت (عقله) من النسخة م ، وموجودة في ص .

ويقال له : « لقد كُنتَ في غفلةٍ من هذا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » .

المؤمنون — الْيَوْمَ بَصَرُهُمْ حَدِيدٌ ؛ يُبْصِرُونَ رُشْدَهُمْ وَيَحْذَرُونَ شَرَّهُمْ .
والكافر يقال له غداً : « بَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » أى : ها أنتِ عَلِمْتَ مَا كُنتَ فِيهِ مِنَ التَّكْذِيبِ ؛ فَالْيَوْمَ لَا يُسْمَعُ مِنْكَ خُطَابٌ ، وَلَا يُرْفَعُ عَنْكَ عَذَابٌ .

قوله جل ذكره : « وقال قريئنه هذا ما لدى عتيد » .
لَا يَخْفَى مِنْ أَحْوَالِهِمْ شَيْءٌ إِلَّا ذُكِرَ ، إِنْ كَانَ خَيْرًا يُجَازُونَ عَلَيْهِ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ خَيْرٍ يُحَاسِبُونَ عَلَيْهِ ؛ إِمَّا بِرَحْمَةٍ مِنْهُ فَيَغْفِرُ لَهُمْ ، وَإِمَّا عَلَى مَقْدَارِ جُرْمِهِمْ يُعَذِّبُونَ .
« أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ *
مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ » .

مَنَّاعٍ لِلزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ .
ويقال : يَمْنَعُ فَضْلَ مَائِهِ وَفَضْلَ كَلْبَتِهِ عَنِ الْمُسْلِمِينَ .
ويقال : يَمْنَعُ النَّاسَ مِنَ الْخَيْرِ وَالْإِحْسَانِ ، وَيَسِيءُ الْقَوْلَ فِيهَا حَتَّى يُزْهَدَ النَّاسُ فِيهَا .
ويقال : الْمَنَّاعُ لِلْخَيْرِ هُوَ الْمِعْوَانُ عَلَى الشَّرِّ .
ويقال : هُوَ الَّذِي قِيلَ فِيهِ : « وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ » (١) .
« مرِيبٌ » : أَيْ يُشَكِّكُ النَّاسَ فِي أَسْرِهِ لِأَنَّهُ غَيْرُ مُخْلِصٍ ، وَيُلْبِسُ عَلَى النَّاسِ حَالَهُ لِأَنَّهُ مُنَافِقٌ .

قوله جل ذكره : « قال قريئنه ربنا ما أطفئته ولكن
كان في ضلالٍ بعيدٍ » .
يقول الْمَلِكُ مِنَ الْحَفَظَةِ الْمَوْكَلُ بِهِ : مَا أَعْجَلْتُهُ عَلَى الزَّلَّةِ .

(١) آية ٧ سورة الماعون .

وإنما^(١) كَتَبْتُهَا بعد ما فَعَلَهَا — وذلك حين يقول الكافر : لم أَفْعَلْ هذا ، وإنما أُعْجِلُنِي
بالكتابة على ، فيقول الملك : ربَّنَا ما أَعْجَلْتَهُ ..

ويقال : هو الشيطانُ المقرونُ به ، وحين يلتقيان في جهنم يقول الشيطانُ : ما أكرهته
على كفره ، ولكنه فعل — باختياره — ما وسوستُ به إليه .

فيقول جل ذكره : « قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ
إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ
وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ » .

لا تختصموا لدي اليومَ وقد أترتكم بالرُّشدِ ونهيْتُكم عن الفئ .

قوله جل ذكره : يومَ تقولُ لجهنمَ هلِ امتلأتِ وتقول
هل من مزيد ^(٢) «

« تقول لجهنم ، « وتقول » : القولُ هنا على التوسُّع ؛ لأنه لو كانت جهنم ممن يجب لقات
ذلك بل يُحْيِيهَا حتى تقولَ ذلك .

« هل من مزيد » : على جهة التغليظ ، والاستزادة من الكفار .

ويقال : بل تقول « هل من مزيد » : أى ليس فى زيادة كقولهِ عليه السلام لما قيل له :

يومَ فتح مكة : هل ترجع إلى دارك ؟ قال : وهل ترك لنا عقيل داراً ؟ ! ^(٣) أى لم يترك ،
فإن الله — تعالى — يملأ جهنم من الكفار والعصاة ، فإذا ما أُخْرِجَ العصاةُ من المؤمنين ازدادَ
غِيظُ الكفارِ حتى تمتلئ بهم جهنم .

(١) مكذبا في ص وهي ق م (ما) والصواب ما أثبتنا .

(٢) عن قتادة عن أنس عن النبي (ص) قال : يلتقى في النار وتقول هل من مزيد حتى يضع قدمه فتقول
قط قط . وفي رواية أبي هريرة : يقال لجهنم هل امتلأت وتقول : هل من مزيد فيضع الرب تبارك وتعالى قدمه
عليها فتقول : قط قط (البخاري ٣ ص ٤١٢٨) .

(٣) عن الزهري عن علي بن حسين عن عمرو بن عثمان عن أسامة بن زيد أنه قال زمن الفتح : يا رسول الله ،
أين تنزل غداً ؟ قال النبي (ص) : وهل ترك لنا عقيل من منزل ؟ ثم قال : لا يرث المؤمن الكافر ولا يرث الكافر
المؤمن (البخاري ٣ ص ٤٢) .

قوله جل ذكره : « وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدَ » .

يقال : إِنَّ الْجَنَّةَ تُقَرَّبُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ، كما أَنَّ النَّارَ تُجَرَّبُ بِالسَّلاسلِ إِلَى الْمُحْشَرِ نَحْوِ الْمُجْرِمِينَ .

ويقال : بل تقرب الجنة بأن يسهل على المتقين حشرهم إليها . . . وهم خواص الخواص .

ويقال : هم ثلاثة أصناف : قوم يُحْشَرُونَ إِلَى الْجَنَّةِ مَشَاءً وهم الذين قالَ فيهم : « وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ^(١) » — وهم عوام المؤمنين ^(٢) وقوم يحشرون إلى الجنة ركباناً على طاعتهم المصوّرة لهم بصورة حيوان ، وهم الذين قالَ فيهم جَلَّ وعلا : « يَوْمَ نُحْشَرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ^(٣) » — وهؤلاء هم الخواص وأما خاص الخواص فهم الذين قالَ عنهم : « وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ » أى تُقَرَّبُ الْجَنَّةُ مِنْهُمْ

وقوله : « غير بعيد » تأكيد لقوله : « وَأُزْلِفَتِ » .

ويقال : « غير بعيد » : من العاصين تطيباً لقلوبهم .

قوله جل ذكره : « هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ » .

الأَوَّابُ : الراجعُ إِلَى اللَّهِ فِي جَمِيعِ أَحْوالِهِ .

« حَفِيفٌ » : أى محافظ على أوقاته ، (ويقال محافظ على حواسه فى الله حافظ لأنفاسه مع الله) ^(٤) .

قوله جل ذكره : « مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ وَجَاءَ

بِقَلْبٍ مُنِيبٍ » .

الخَشْيَةُ مِنَ الرَّحْمَنِ هِيَ الْخَشْيَةُ مِنَ الْفِرَاقِ . (والخشية من الرحمن تكون مقرونة بالأنس ؛ ولذلك لم يقل : من خشى الجبار ولا من خشى القهار) ^(٥) .

(١) آية ٧٣ سورة الزمر .

(٢) ما بين القوسين موجود فى م وغير موجود فى ص

(٣) آية ٨٥ سورة مريم .

(٤) ما بين القوسين موجود فى ص وساقط فى م .

(٥) ما بين القوسين موجود فى ص وساقط فى م .

ويقال : الخشية من الله تقتضى العلم بأنه يفعل ما يشاء وأنه لا يسأل عما يفعل .

ويقال : الخشية أَلُطْفُ من الخوف ، وكأنها قريبة من الهيبة^(١) .

« وجاء بقلب منيب » : لم يقل بِنَفْسٍ مطيعة بل قال : بقلبٍ منيب ليكون للعصاة في هذا أمل ؛ لأنهم — وإن قصّروا بنفوسهم وليس لهم صِدْقُ القَدَمِ — فلهم الأَسْفُ بقلوبهم وصدق الندم .

قوله جل ذكره : « ادخلوها بسلام ذلك يومُ الخلود » .

أى يقال لهم : ادخلوها بسلامٍ من كل آفةٍ ، ووجودِ رضوان ولا يستعدُّ عليكم الحقُّ أبداً .

ومنهم مَنْ يقول له المَلَكُ : ادخلوها بسلام ، ومنهم من يقول له : لكم ما تشاءون فيها — قال تعالى :

« لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد » .

لم يقل : « لهم ما يسألون » بل قال : « لهم ما يشاءون » : فكلُّ ما يخطر ببالهم فإنَّ سؤالهم يتحقق لهم في الوهلة ، وإذا كانوا اليوم يقولون : ما يشاء الله فإنَّ لهم غداً منه الإحسان . . وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟

« ولدينا مزيد » : اتفق أهل التفسير على أنه الرؤية ، والنظر إلى الله سبحانه^(٢) . وقومٌ يقولون : المزيد على الثواب في الجنة — ولا منافاة بينهما .

(١) يقول الدقاق شيخ القشيري : هي مراتب : الخوف والخشية والهيبة : فالخوف من شرط الإيمان وخافون إن كنتم مؤمنين ، والخشية من شرط العلم : « إنَّما يخشى الله من عباده العلماء » . والهيبة من شرط المعرفة : « ويحذركم الله نفسه » . وقال أبو القاسم الحكيم : الخوف على ضربين : رهبة وخشية ؛ فصاحب الرهبة يلتجئ إلى الحرب إذا خاف وصاحب الخشية يلتجئ إلى الرب (الرسالة ص ٦٥) .

(٢) أجمعوا على أن الله تعالى يرى بالأبصار في الآخرة ، وأنه يراه المؤمنون دون الكافرين ؛ لأن ذلك كرامة من الله تعالى لقوله : « الذين أحسنوا الحسنى وزيادة » . وجوزوا الرؤية بالعقل وأوجبوها بالسمع ؛ وإنما جاز في العقل لأنه موجود ، وكل موجود تجوز رؤيته إذا وضع الله سبحانه فينا الرؤية له ، ولو لم تكن الرؤية جائزة عليه لكان سؤال موسى عليه السلام : « أرني أنظر إليك » جهلاً وكفراً . وجاء السمع بوجوبه في مثل : —

قوله جل ذكره : « وكم أهلكنا قبلهم من قرنٍ هم أشدُّ

منهم بطشًا فنقبوا في البلاد . . هل

من محيص ؟ » .

أى اعتبروا بالذين تقدّمواكم ؛ انهكموا في ضلالتهم ، وأصرّوا ، ولم يُقْلِعُوا . . فاهلكناهم
وما أبقينا منهم أحداً .

قوله جل ذكره : « إن في ذلك لَذِكْرٍ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ
أَوْ أَتَى السَّمْعَ وهو شهيد » .

قيل : « لمن كان له قلب » : أى من كان له عقل . وقيل : قلب حاضر . ويقال قلبٌ على
الإحسان مُقْبِل . ويقال : قَلْبٌ غيرُ قُلْبٍ .

« أو ألقى السمع » : استمع إلى ما ينادى به ظاهره من الخلق وإلى ما يعود إلى سرّه
من الحق^(١) . ويقال : لمن كان له قلبٌ صَاحٍ لم يَسْكُر^(٢) من الغفلة . ويقال : قلبٌ يعد
أنفاسه مع الله . ويقال : قلبٌ حَيٌّ بنور الموافقة . ويقال : قلبٌ غيرُ مُعْرِضٍ عن
الاعتبار والاستبصار .

ويقال : « القلبُ — كما فى الخير — بين إصبعين من أصابع الرحمن » : أى بين نعمتين ؛
وهما ما يدفعه عنه من البلاء ، وما ينفعه به من النّماء ، فكلُّ قلبٍ مَنَعَ الحقَّ عنه الأوصافَ
الذميمةَ وألزمه النعوتَ الحميدةَ فهو الذى قال فيه : « إن فى ذلك لَذِكْرٍ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ » .
وفى الخبر : « إن لله أوانيَ أَلَا وهى القلوب ، وأقربها من الله مارقٌ وصفا » شبه القلوب
بالأواني ؛ قلبُ الكافر منكوسٌ لا يدخل فيه شيء ، وقلبُ المنافقِ إناء مكسور ، ما يُلْقَى فيه
من أوله يخرج من أسفله ، وقلبُ المؤمنِ إناءٌ صحيح غير منكوس يدخل فيه الإيمانُ ويبقى .

« كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » . « ووجوه يومئذ ناجية إلى ربها ناظرة » . . وقوله « ص » . . إنكم سترون
ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لاتضامون فى رؤيته يوم القيامة . . وأجمعوا على أنه لا يرى فى الدنيا بالأبصار ،
ولكن بالقلوب ؛ لأن الدنيا دار فناء ولا يَرَى الباقي فى الدار الفانية . . وهى على العموم رؤية بلا كيفية ولا إحاطة .

(١) هكذا فى م وهى فى ص (الخلق) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (يسكن) وهى خطأ فى النسخ .

ولكن هذه القلوب مختلفة؛ قلبٌ مُلَطَّخٌ بالانفعالات وفنون الآفات؛ فالشرابُ الذي يُلقَى فيه يصحبه أثرٌ، ويتلطخ به .

وقلبٌ صفا من الكدورات وهو أعلاها قدراً .

قوله جل ذكره : « ولقد خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ » .

وَأَنى يَمَسُّ اللُّغُوبُ . . وهو صَدَدٌ لا يحدث في ذاته حادث ؟ !

قوله جل ذكره : « فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ » .

إِنْ تَأَذَّتُمْ تَحْمُكَ بما يقولون في من الأشياء التي يتقدَّس عنها تنقَى فاصبرْ على ما يقولون ، واستروحْ عن ذلك بتسيحك لنا .

« وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ » .

فالليلُ وقتُ الخلوة — والصفا في الخلوة أتمُّ وأصفى .

قوله جل ذكره : « وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمَنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ » .

النداءُ من الحقِّ — سبحانه — واردٌ عليهم ، كما أَنَّ النجوى تحصل دائماً بينهم . والنداءُ الذي يَرُدُّ عليهم يكون بفتة ولا يكون للعبد في رِفعِ اختيارٍ .

قوله جل ذكره : « إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ » .

إِلَيْنَا مَرْجِعُ الْكُلِّ ومصيرُهم .

قوله جل ذكره : « يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا
ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ » .

هذا يسيرٌ علينا : سواء خلقناهم جملةً أو فرادى^(١) ؛ قال تعالى : « ما خلقكم ولا بشكم
إلا كنفساً واحدة »^(٢) .

قوله جل ذكره : « نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم
بجبارٍ فذَكَّرُ الْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ
وَعِيدٌ » .

ما أنت عليهم بِمُتَسَلِّطٍ تُكْرِهُهُمْ .

وإنما يُؤَثِّرُ التَّخْوِيفُ وَالْإِنذَارُ والتذكيرُ في الخلقين ، فأما مَنْ لَا يَخَافُ فلا يَنْجَحُ فِيهِ
التَّخْوِيفُ — وَطِيرُ السَّمَاءِ عَلَى الْأَفْهَامِ .

(١) هكذا في م وهي في م (فرداً)

(٢) آية ٢٨ سورة لقمان .

سُورَةُ الذَّارِيَّاتِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »
بسم الله كلمةٌ عزيزةٌ مَنْ ذَكَرَهَا عَزَّ لِسَانُهُ ، وَمَنْ عَرَفَهَا اهْتَزَّتْ بِصَحْبَتِهَا جَنَانُهُ
« بسم الله » كلمةٌ للألبابِ غَلَابَةٌ ، كلمةٌ لأرواحِ المحبِّينِ سَلَابَةٌ .

قوله جل ذكره : « والذارياتِ ذُرُوءاً * فالحاملاتِ وِقْراً *
فالجارياتِ يُسْراً * فالْمَقْسَمَاتِ أَمْراً *
إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ * وَإِنَّا
الدينَ لَوَاقِعُ » .

والذارياتُ : أى الرياح الحاملات « وِقْراً » أى السحاب « فالجاريات » أى السفن .
« المقسمات أَمْراً » أى لللائكة .. أقسم بربِّ هذه الأشياء وقدرته عليها . وجواب القسم :
« إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ .. » والإشارة فى هذه الأشياء أن من جملة الرياح . الرياح الصبيحية^(١)
تحمل أنينَ المشتاقين إلى ساحاتِ العزَّةِ فيأتى نسيمُ القربةِ إلى مَشَامٍ أسرارِ أهلِ الحبة ..
فصندئذ يجدون راحةً من غَلَبَاتِ اللوعة ، وفى معناه أنشدوا :

وإني لأستهدى الرياحَ نسيكُم إذا أقبلت من أرضكم بهبوب
وأسألها حملَ السلام إليكم فإني هى يوماً بَلَّغَتْ .. فأجيبى

ومن السحاب ما يُمطر بعتاب الغيبة ، ويؤذن بهواجم النوى والفرقة . فإذا عنَّ لهم من
ذلك شيء أبصروا ذلك بنور بصائرهم ، فيأخذون فى الابتهاال ، والتضرُّع فى السؤال استعاذةً
منها .. كما قالوا :

(١) إشارة إلى صيحاتهم عند اشتداد الوجد .

أقول — وقد رأيتُ لها سحاباً من الهجران مقبلة إلينا
وقد سَحَّتْ عزاليها^(١) بَيْنَ حوَالينا الصُدُودُ ولا علينا
وكما قد يَحْمِلُ المَلَّاحُ بعضَ الفقراء بلا أجر طمعاً في سلامة السفينة — فهو لاء^(٢) يرجون
أن يُحْمَلُوا في فُلْكَ العنابة^(٣) في بحار^(٤) القدرة عند تلاطم الأمواج حول السفينة .
ومن الملائكة مَنْ يَنْزِلُ لتفقد أهل الوصلة ، أو لتعزية أهل المصيبة ، أو لأنواع من
الأمور تتصل بأهل هذه القصة ، فهو لاء القوم يسألونهم عن أحوالهم : هل عندهم خيرٌ عن
فراقهم ووصالهم — كما قالوا :

بريِّكما يا صاحبي قِفَا يَا أسائلكم عن حالهم وآسألاننا
« إنما توعدون لصادق . وإن الدين لواقع » : الحق — سبحانه — وَعَدَ المطيعين
بالجنة ، والتائبين بالرحمة ، والأولياء بالقربة ، والعارفين بالوصلة ، وَعَدَ أرباب المصائب بقوله :
« أولئك عليهم صلواتٌ من ربهم ورحمة^(٥) » وهم يتصدون لاستبطاء حُسْنِ الميعاد — والله
رهوفٌ بالميعاد .

بقوله جل ذكره : « والسماء ذات الحُبك * إنكم لفي
قولٍ مُخْتَلَفٍ * يُؤَفِّكُ عنه مَنْ
أَفَكَ »

« ذات الحُبك » أي ذات الطرائق الحسنة — وهذا قَسَمٌ ثانٍ ، وجوابه : « إنكم لفي
قولٍ مُخْتَلَفٍ » يعني في أمر محمدٍ صلى الله عليه وسلم فأحدهم يقول : إنه ساحر ، وآخر يقول :
مجنون ، وثالث يقول : شاعر . . . وغير ذلك .

(١) الأعزل من السحاب مالا مطر فيه (الوسيط ج ٢ ص ٦٠٥) .

(٢) يقصد الصوفية .

(٣) هكذا في ص وهي في م (الكفاية) .

(٤) هكذا في ص وهي في م (محال) .

(٥) إشارة إلى الآيتين ١٥٦ ، ١٥٧ من سورة البقرة .

« الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون » : « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » .

والإشارة فيه إلى القسم بسماء التوحيد ذات الزينة بشمس العرفان ، وقر الحجة ، ونجوم القرب .. إنكم في باب هذه الطريقة لفي قولٍ مختلف ؛ كَينٍ مُنْكَرٍ يَجِدُ الطريقة ، ومن مُعْتَرِضٍ يَعْتَرِضُ على أهلها بتوهم قصاصهم في القيام بحق الشريعة^(١) ، ومن متعسفٍ^(٢) لا يخرج من ضيق حدود العبودية ولا يعرف خبراً عن تخصيص الحقّ أولياءه بالأحوال السنية ، قال قائلهم :

قَدْ سَحَبَ النَّاسُ أَذْيَالُ الظُّنُونِ بِنَا وَفَرَّقَ النَّاسُ فِينَا قَوْلَهُمْ فِرْقًا
فَكَاذِبٌ قَدْ رَمَى بِالظَّنِّ غَيْرَكُمْ وَصَادِقٌ لَيْسَ يَدْرِي أَنَّهُ صَدَقَا

قوله جل ذكره : « يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ » .

أى يُصْرَفُ عَنْهُ مَنْ صُرِفَ ، وذلك أنهم كانوا يصدّون الناسَ عنه^(٣) ويقولون :
إنه لجنون .

قوله جل ذكره : « قَتَلَ الْخَافِصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ » .

لُيِّنَ الْكَذَّابُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ الضَّلَالَةِ وَظَلَمَ الْجَهَالَةُ سَاهُونَ لَاهُونَ .

قوله جل ذكره : « يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ هُمْ
على النارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ
هذا الذي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ » .

يسألون أيان يوم القيامة ؟ ، يستعجلون بها ، فلأجل تكذيبهم بها كانت نفوسهم لاتسكن

(١) نلاحظ هنا حرص الإمام القشيري على أن أرباب الحقيقة لا ينتكرون بحال من الأحوال لأى حق من حقوق الشريعة .

(٢) هكذا في ص وهي في م (متعسف) التي هي خطأ في النسخ .

(٣) واضح أن القشيري يرى التفسير في (عنه) التي في الآية عائداً إلى الرسول (ص) . ويعيده بعض المفسرين إلى القرآن أو إلى الدين أو إلى (ما توعدون) . ومعنى عبارة القشيري أنه يصرف عنه من صرفه في سابق علمه .

إليها . ويوم هم على النار يُحَرَّقُونَ وَيُعَذَّبُونَ يقال لهم : قاسوا عقوبتكم ، هذا الذي كنتم به تَسْتَعْجِلُونَ .

والإشارة فيه إلى الذين يَكْذِبُونَ في أعمالهم لِمَا يتدخلهم من الرياء ، ويكذبون في أحوالهم لِمَا يتدخلهم من الإعجاب ، ويكذبون على الله فيما يدَّعون من الأحوال . . قَتَلُوا وَلَعَنُوا . . وسيلقون غيباً تلييهم بما يُحَرِّمُونَ من اشتام رائحة الصدق .

قوله جل ذكره : « إِنَّ لِلتَّقِيَّ فِي جَنَّتٍ وَعِيُونَ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُجْسِنِينَ » .

في عاجلهم في جناتٍ ومُصَلِّهِمْ ، وفي آجلهم في جناتٍ فضِّلهم ؛ فغداً درجات ونجاة ، واليوم قُرْبَات ومناجاة ، فما هو مؤجَّلٌ حظُّ أنفسهم ، وما هو معجَّلٌ حقُّ ربِّهم . هم آخِذِينَ اليوم ما آتاهم ربُّهم ؛ يأخذون نصيبهم منه بِيَدِ الشُّكْرِ والحمد ، وغداً يأخذون ما يعطيهم ربُّهم في الجنة من فنون العطاء والرِّفْد .

وَمَنْ كَانَ الْيَوْمَ آخِذَهُ بِلَا واسطة من حيث الإيمان والإلتقان ، وملاحظة القسمة في العطاء والحرمان . كان غداً آخِذَهُ بِلَا واسطة في الجنان عند اللقاء والعيان . « إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ » ؛ كانوا ولكنهم اليوم بانوا^(١) ولكنهم بعد ما أعدناهم حصلوا واستبانوا . . فهم كما في الخبر : « أعبد الله كأنك تراه . . . »^(٢) .

قوله جل ذكره : « كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » .

(١) العارف كائن بائن (هذا رأى يحيى بن معاذ : رسالة القشيري ص ١٥٧) والمعنى أنه وإن بدا بين الناس يشاركونهم ويعاشرهم إلا أنه مبثقل عنهم بمعرفة لا يُشغل منه طرفة عين .

(٢) جاء في الحلية عن زيد بن أرقم : « أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ، وأحسنه نفيسك في الموق ، وأتق دعوة المظلوم . كذلك رواه الطبراني والبيهقي عن معاذ بلفظ : « أعبد الله ولا تشرك به شيئاً وأعمل كأنك تراه » ، واعد نفسك في الموق .

المعنى إمّا : كانوا قليلاً وكانوا لا ينامون إلا بالليل (كقوله تعالى : « وقليلٌ من عبادى الشكور »^(١) أو : كان نومهم بالليل قليلاً ، أو :^(٢) كانوا لا ينامون بالليل قليلاً^(٣) .

« وبالأَسْحار هم يستفرون » : أخبر عنهم أنهم — مع تهجدهم ودُعائهم — يُنزِلون أنفسهم فى الأسْحار منزلةَ العاصين ، فيستفرون استصغاراً لِقُدْرِهِمْ ، واستحقاراً لِفعلهم .

والليلُ . . . للأحباب فى أنس المناجاة ، وللصّاة فى طلب النجاة . والسَّهرُ لهم فى لياليهم دائماً ؛ إمّا لقرطِ أسفٍ أو لشدّةِ لَهْفٍ ، وإمّا لاشتياقٍ أو لفراقٍ — كما قالوا :

كم ليلةٍ فيك لاصباحَ لها أفنيتها قابضاً على كبدى
قد غصّت العينُ بالدموعِ وقد وضعتُ خدى على بنان يدى

وإمّا لكمال أنسٍ وطيب روح — كما قالوا :

سقى اللهُ عيشاً قصيراً مضى زمان الهوى فى الصبا والجون
لياليه تحكى انسدادَ لحاظٍ لعيني عند ارتداد الجفون

قوله جل ذكره : « وفى أموالهم حقٌ للسائل والمحروم » .

السائلُ هو المُتَكفِّف ، والمحرومُ هو المتكفّف — ويقال هو الذى يحرم نفسه بترك السؤال .. هؤلاء هم الذين يُعطون بشرط العلم^(٤) ، فأما أصحابُ الروة : فقير المستحق للملم أوّل من المستحق^(٥) . وأما أهل الفترة فليس لهم مالٌ حتى تتوجه عليهم مطالبة ؛ لأنهم أهل الإيثار — فى الوقت — لكلِّ ما يُفتحُ عليهم به .

(١) آية ١٣ سورة سبأ .

(٢) ما بين القوسين موجود فى م وسقط فى ص .

(٣) يقول اللسان : ولا يجوز أن تكون ما نافية على معنى أنهم لا يجمعون من الليل قليلاً ويحيونه كله لأن ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها فلا تقول : زيدا ما ضربت (اللسان ٤٠ ص ١٨٤) .

(٤) أى حسب شرائط الشريعة فى الزكاة .

(٥) هكذا فى م وهى مشطوبة بخط فوقها فى ص ... والعبارة قد تبدو غامضة ، وقد يكون مراد القشيري — إن صححت عنه العبارة هكذا — أن أهل الروة لا يتقيدون فى عطايتهم بما تفرضه الشريعة للمستحقين وحسب فإن المستحق يأخذ ما هو حق له ، وإمّا يعطون دائماً ويمنحون دائماً بغض النظر عن استحقاق أو عدمه .

قوله جل ذكره : « وفي الأرض آيات للموقنين * وفي

أنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وفي السماء

رِزْقُكُمْ وما توعَدُونَ » .

كما أَنَّ الأرضَ تحمل كلَّ شيء فكذلك العارف يتحمل كلَّ أحد .

وَمَنْ استنقل أحداً أو تبرَّمَ برؤية أحدٍ فَنَقِيتَهُ عن الحقيقة ، ولطالمتَه الخلق بعين
الفرقة — وأهلُ الحقائق لا يتصفون بهذه الصفة .

ومن الآيات التي في الأرض أنها يُلقَى عليها كلُّ قذارةٍ وقسامة — ومع ذلك تُنْبِتُ
كلَّ زَهْرٍ ونَوْرٍ .. كذلك العارف يتشرب كلَّ ما يُسْقَى من الجفاء ، ولا يترشح إلاَّ بكلِّ
خَلْقٍ عَلَى شِيعَةٍ زَكِيَّةٍ ^(١) .

ومن الآيات التي في الأرض (أَنَّ ما كان منها سُبْحاً يُتْرَكُ ولا يُعَمَّرُ لأنه لا يحتمل
العارة — كذلك الذي لا إيمانَ له بهذه الطريقة يُهْمَلُ ، فقابلته بهذه الصفة) ^(٢) كاللقاء
الذي في الأرض السبخة .

« وفي أنفسكم أفلا تبصرون » : أي وفي أنفسكم أيضاً آيات ، فمنها وقاحتها في همتها ^(٣) ،
ووقاحتها في صفتها ، ومنها دعاؤها العريضة فيما ترى منها وبها ، ومنها أحوالها المريضة حين تزعم
أَنَّ ذَرَّةً أو (. . .) ^(٤) بها أو منها .

« وفي السماء رزقكم وما توعَدُونَ » : أي قسمة أرزاقكم في السماء ، فاللائكة الموكِّلون
بالأرزاق ينزلون من السماء .

ويقال : السماء هاهنا المطر ، فبالمر ينبت الحبُّ والمرعى .

(١) يقول الجنيد : « الصوفي كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل طيب » ، وقال أيضاً :
« إنه كالأرض يطؤها البر والفاجر » (الرسالة ص ١٣٩) .

(٢) ما بين القوسين موجود في م وساقط في ص .

(٣) هكذا في م وهي في ص (صمتها) ويدو أن الهاء اشتبهت على الناسخ .

(٤) مشبهة في النسختين .

ويقال : على رب السماء أرزاقكم لأنه ضَمَّنَهَا .

ويقال : قوله : « وفي السماء رزقكم » وما هنا وقف ثم تبتدىء : « وما توعدون » .

قوله جل ذكره : « قَوَّربَ السماء والأرضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلُ

ما أنكم تنطقون » .

أى : إِنَّ البعثَ والنَّشْرَ لَحَقٌّ .

ويقال : إِنَّ نصرى لمحمدٍ ولدينى ، وللذى أتاكم به من الأحكام — لَحَقٌّ مِّثْلُ ما أنكم تنطقون .

كما يقال : هذا حقٌّ مِّثْلُ ما أنك ما هنا .

ويقال : معناه : « أَنْ اللهَ رازقُكم » — هذا القولُ حقٌّ مثلما أنكم إذا سئِلْتُمْ : مَنْ رَبُّكُمْ ؟ وَمَنْ خَالِقُكُمْ ؟ قُلْتُمْ : الله . . فكما أنكم تقولون : إن الله خالق — وهذا حقٌّ . . كذلك القولُ بأنَّ اللهَ رازقٌ — هو أيضاً حقٌّ .

ويقال : كما أن نطقك لا يتكلم به غيرك فرزقك لا يأكله غيرك .

ويقال : الفائدة والإشارة في هذه الآية أنه حال برزقك على السماء ، ولا سبيل لك إلى المروج إلى السماء لتشتغل بما كلفك ولا تتعنى في طلب ما لا تصل إليه .

ويقال : في السماء رزقكم ، وإلى السماء يُرْفَعُ عَمَلُكُمْ . . فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ ينزلَ عليك رزقك فأصعدْ إلى السماء عملك — ولهذا قالوا : الصلاة قرعُ باب الرزق ، وقال تعالى : « وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً »^(١) .

قوله جل ذكره : « هل أتاك حديثُ إِبْرَاهِيمَ الْكَرَّمِينِ » .

(١) آية ١٣٢ سورة طه .

قيل في التفاسير : لم يكن قد أتاه خبرهم قبل نزول هذه الآية .
وقيل : كان عددهم اثني عشر ملكاً . وقيل : جبريل وكان معه سبعة . وقيل :
كانوا ثلاثة .

وقوله : « المكرمين » قيل لقيامه — عليه السلام — بخدمتهم . وقيل : أكرم الضيف
بطلاقة وجهه ، والاستبشار بوفودهم .

وقيل : لم يتكلف إبراهيم لهم ، وما اعتذر إليهم — وهذا هو إكرام الضيف — حتى
لا تكون من المضيف عليه منة فيحتاج الضيف إلى تحملها .

ويقال : ستمهم مكرمين لأن غير المدعو عند الكرام كريم .

ويقال : ضيف الكرام لا يكون إلا كريماً .

ويقال : المكرمين عند الله .

قوله جل ذكره : « إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال
سلام قوم منكرون » .

أى سلمنا عليك (سلاماً) فقال إبراهيم : لكم منى (سلام) .

وقولهم : « سلاماً » أى لك منا سلام ، لأن السلام : الأمان .

« قوم منكرون » : أى أنتم قوم منكرون ؛ لأنه لم يكن يعرف مثلهم في الأضياف .
ويقال : غرباء .

قوله جل ذكره : « فرأغ إلى أهله فجاء بعجل سمين *
فقربته إليهم قال ألا تأكلون » .

أى عدل إليهم من حيث لا يعلمون^(١) ، وكذلك يكون الروغان^(٢) .

(١) أى من حيث لا يعلم الأضياف .

(٢) وكذلك يكون روغان الكرام : خفية حتى لا يسبب لأضيافه الحرج .

« فجاء بمجلى سمين » فشواه ، وقربه منهم وقال : « ألا تأكلون ؟ » وحين امتنعوا
عن الأكل :

« فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا :
لَا تَخَفْ ، وَبَشِّرْهُ بِنُفْلٍ عَلِيمٍ » .

تَوَهَّمُ أَنَّهُمْ لَصُوصٌ فَقَالُوا لَهُ : « لَا تَخَفْ » .

« وبشروه بنفل عليم » : أى بشروه بالولد ، وبقاء هذا الولد إلى أن يصير علماً ؛ والعليم
مبالغة من العلم ، وإنما يصير علماً بعد كبره .

« فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ
وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ » .

« فى صرّة » أى فى صيحة شديدة ، « فصكت وجهها » أى فضربت وجهها بيدها كفعل
النساء « وقالت عجوز عقيم » : أى أنا عجوز عقيم . وقيل : إنها يومها كانت ابنة ثمان
وتسعين سنة ، وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة .

« قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ
الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ » .

أى قلنا لك كما قال ربك لنا ، وأن نُنْخِبرَكَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُحْكِمُ لِأَفْعَالِهِ ، « العليم » الذى
لا يخفى عليه شئ^(١) .

« قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ؟ » .

سألم : ما شأنكم ؟ وما أمركم ؟ وبماذا أُرْسِلْتُمْ ؟

« قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ *
لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ *

(١) روى أن جبريل قال لما حين استجدت : انظرى إلى سقف بيتك ، فنظرت فإذا جذوعه مودقة مشعة .

مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ • فَأَخْرَجْنَا
مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ • فَمَا وَجَدْنَا
فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ •

هم قوم لوط ، ولم نجد فيها غير لوط ومن آمن به .

قوله جل ذكره : « وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ
الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » .

تركنا فيها علامةً يعتبر بها الخائفون — دون القاسية قلوبهم^(١) .

قوله جل ذكره : « وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ
بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ » .

أى بحجة ظاهرة باهرة^(٢) .

.... إلى قوله : « وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَكُوسِعُونَ » : أى جعلنا بينها وبين الأرض
سعة ، « وَإِنَّا لَنَاقِدُونَ » : على أن تزيد في تلك^(٣) السعة .

« وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ » .

أى جعلناها مهاداً لكم . ثم أثنى على نفسه قائلاً : « فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ » .
دلّ بهذا كله على كمال قدرته ، وعلى تمام فضله ورحمته .

قوله جل ذكره : « وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » .

أى صنفين في الحيوان كالثور والأشئ ، وفي غير الحيوان كالحركة والسكون ، والسواد
والبياض ، وأصناف المتضادات .

(١) قيل هى ماء أسود منق .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (قاهرة) وكلاهما مقبول فى السياق .

(٣) هكذا فى م وهى فى ص (ملك) والسياق لا يقبل هذه .

قوله جل ذكره: « قَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنْ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ » .

أى قارجعوا إلى الله — والإنسان بإحدى حالتين ؛ إمّا حالة رغبة في شيء ، أو حالة رهبة من شيء ، أو حال رجاء ، أو حال خوف ، أو حال جلب نفع أو رفع ضرر . . وفي الحالتين ينبغي أن يكون فراره إلى الله ؛ فإنّ النافع والضارّ هو الله .

ويقال : مَنْ صَحَّ فِرَارُهُ إِلَى اللَّهِ صَحَّ قَرَارُهُ مَعَ اللَّهِ .

ويقال : يجب على العبد أن يفرّ من الجهل إلى العلم ، ومن الهوى إلى التقى ، ومن الشكّ إلى اليقين ، ومن الشيطان إلى الله .

ويقال : يجب على العبد أن يقرّ من فعله — الذي هو بلاؤه إلى فعله الذي هو كفايته ، ومن وصفه الذي هو سخطه إلى وصفه الذي هو رحمته ، ومن نفسه — حيث قال : « ويحذركم الله نفسه » إلى نفسه حيث قال : « قَرُّوا إِلَى اللَّهِ »^(١) .

قوله جل ذكره : « وَلَا تَجْمَعُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنْ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ » .

أخَوْفُكُمْ أَلَيْمَ عِقَابِهِ إِنْ أَشْرَكْتُمْ بِهِ — فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ .

ثم بيّن أنه على ذلك جرّت عادتهم في تكذيب الرّسل ، كأنهم قد توصوا فيما بينهم بذلك .
قوله جل ذكره : « فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ » .

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَيْسَتْ تَلَحُّقُكَ — بِسُوءِ صَنِيعِهِمْ — مَلَامَةٌ^(٢)

قوله جل ذكره : « وَذَكَرْهُمْ إِنْ الذِّكْرُ يُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ » .

ذَكَرَ الْعَاصِينَ عِقَابِي لِيَرْجِعُوا عَنْ مَخَالَفَةِ أَمْرِي ، وَذَكَرَ الْمُطِيعِينَ جَزِيلَ ثَوَابِي لِيَزِدَادُوا

(١) هنا استخدم القشيري ثقافته الكلامية فيما يتصل بصفات (الفعل) وصفات (الذات) (أنظر تقديمنا لكتاب التعبير في التذكير) .

(٢) هكذا في م وهي في ص (ملايه) وهي خطأ من الناسخ .

طاعةً وعبادةً ، وَذَكَرَ العارفينَ ما صَرَفَتْ عَنْهُمْ منِ بَلائي ، وَذَكَرَ الأَغنياءَ ما أُنْخَسَتْ (١)
لَهُم منِ إِحسانِي وعطائي ، وَذَكَرَ الفقراءَ ما أُوجِبْتُ لَهُم منِ صَرَفِ الدُّنيا عَنْهُمْ وَأَعْدَدْتُ لَهُم
منِ لِقائِي .

قوله جل ذكره : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ
إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » * مَا أريدُ مِنْهُمْ منِ رِزْقٍ
وَمَا أريدُ أَنْ يُطْعَمُوا * إِنَّ اللَّهَ هُوَ
الرَّزَاقُ ذو القُوَّةِ المَتِينِ » .

الَّذِينَ اصْطَفَيْتُهُمْ فِي آزَالِي ، وَخَصَّصْتُهُمْ — اليَوْمَ — بِحَسَنِ إِقْبَالِي ، وَوَعَدْتُهُمْ جَزِيلَ
أَفْضَالِي — مَا خَلَقْتُهُمْ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي .

وَالَّذِينَ سَخَطْتُ عَلَيْهِمْ فِي آزَالِي ، وَرَبَطْتُهُمْ — اليَوْمَ — بِالْخِذْلَانِ فِيمَا كَلَّفْتُهُمْ مِنْ أَعْمَالِي ،
وَخَلَقْتُ النَّارَ لَهُمْ — بِحُكْمِ إلهِي وَوَجوبِ حُكْمِي فِي سُلْطَانِي — مَا خَلَقْتُهُمْ إِلَّا لِعَذَابِي
وَأَنْكَالِي ، وَمَا أَعْدَدْتُ لَهُمْ مِنْ سِلَاسِي وَأَغْلَالِي .

مَا أريدُ مِنْهُمْ أَنْ يُطْعَمُوا أَوْ يَرْزُقُوا أَحَدًا مِنْ عِبَادِي فَإِنَّ الرِّزْقَ أَنَا .

وَمَا أريدُ أَنْ يُطْعَمُوا فَإِنِّي أَنَا اللَّهُ « ذُو الْقُوَّةِ » : المَتِينُ القُوِيُّ .

قوله جل ذكره : « فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ
أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ » .

لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْعَذَابِ مِثْلَ نَصِيبِ مَنْ سَلَفَ مِنْ أَصْحَابِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ فَلِمَ اسْتَعْجَلُوا
الْعَذَابَ — وَالْعَذَابُ لَنْ يَفُوتَهُمْ ؟ .

« فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي
يُوعَدُونَ » .

وهو يوم القيامة .

(١) مَكَلَّدَانِي مِثْلِي فِي صِرَ (الْحَثِّ) وَهِيَ غَيْرُ مَلَامَةٍ لِلْإِسْيَاقِ .

سُورَةُ الطُّورِ

• قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمة ما استولت على قلب عارفٍ إِلَّا تَيَمَّنَتْهُ بِكُشْفِ جلاله ، وما استولت على قلب مُتَأَنِّفٍ إِلَّا أكرمتَه بلطف أفضاله . . . فهي كلمة قَهَّارَةٌ للقلوب . . . ولكن لا لكل قلب ، مَذْهَبَةٌ للكروب . . . ولكن لا لكل كرب .

قوله جل ذكره : « والطور * وكتابٍ مبسطورٍ *
في رَقٍّ منشور » .

أقسم الله بهذه الأشياء (التي في مطلع السورة) ، وجواب القسم قوله : « إن عذاب ربك لواقع » . والطور هو الجبل الذي كُلِّمَ عليه موسى عليه السلام ؛ لأنه مَحَلٌّ قَدَمِ الْأَحْبَابِ وَقَتَ سَمَاعِ الْخُطَابِ . ولأنه الموضع الذي سَمِعَ فيه موسى ذِكْرَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذِكْرَ أُمَّتِهِ حَتَّى نَادَانَا وَنَحْنُ فِي أَصْلَابِ آبَائِنَا فَقَالَ : أعطيتكم قبل أن تسألوني « وكتابٍ مبسطور » : مكتوب في المصاحف ، وفي اللوح المحفوظ .

وقيل : كتاب الملائكة في السماء يقرءون منه ما كان وما يكون .

ويقال : ما كتب على نفسه من الرحمة لعباده .

ويقال ما كتب من قوله : سبقت رحمتي غضبي^(١) .

ويقال : هو قوله : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون »^(٢) .

(١) في الحديث أن الله كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش : « إن رحمتي سبقت غضبي » .

(٢) آية ١٠٥ سورة الأنبياء .

ويقال : الكتاب المسطور فيه أعمال العباد يُسَطَّى لعباده بأئمتهم وشماثلهم يوم القيامة .
« في رق منشور »^(١) : يرجع إلى ما ذكرنا من الكتاب .

« والبيت المعمور » .

في السماء الرابعة^(٢) . ويقال : هو قلوب العابدين العارفين المعمورة بمحبته ومعرفته . ويقال :
هي مواضع عباداتهم ومجالس خلواتهم . وقيل : الكعبة .

« والسقف المرفوع »

هي السماء . وقيل سماء هميمهم في الملكوت .

« والبحر للسجور »

البحار المملوءة .

أقسم بهذه الأشياء : إنَّ عذابه لواقع . وعذابه في الظاهر ما توعد به عباده العاصين ،
وفي الباطن الحجاب بعد الحضور ، والستر بعد الكشف ، والرد بعد القبول .

« مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ »

إذا ردَّ عبداً أبرم القضاء برده :

إذا انصرفت نفسى عن الشيء لم تكن إليه بوجه آخر - الدهر - مشيل

قوله جل ذكره : « يومَ تَمُورُ السماءُ مَوْرًا * وتسيرُ الجبالُ
سيرًا » .

« تمور » : أى تدور بما فيها ، وتسير الجبالُ عن أماكنها ، فتسير سيرا .

« فويلٌ يومئذٍ للمُكَذِّبِينَ * الذين هم في خوضٍ
يلعبون » .

(١) الرق هو الصحيفة أو الجلد الذى يكتب فيه ، منشور لا غم عليه أو لائح .

(٢) يقابل الكعبة معمور بالملائكة .

الويلُ كلمة قولها العربُ لمن وقع في الهلاك .

« في خورِض يلعبون » : في باطل التكذيب يخوضون .

« يومَ يُدْعَوْنَ إلى نارِ جهنمِ دَعَاءً * هذه النار التي كنتم
بها تُكذِّبون * أَفَسِحَرٌ هذا أم أنتم لا تُبْصرون » .

يومَ يُدْعَوْنَ إلى النارِ دَعَاءً ، ويقال لهم : هذه هي النار التي كنتم بها تُكذِّبون . .
ثم يسألون : أهذا من قبيل السحر على ما قلتم أم غُطِّيَ على أبصاركم ؟ !

قوله جل ذكره : « أَصَلَوْهَا فاصبروا أو لاتصبروا سواء »

عليكم إنما تُجْزَوْنَ ما كنتم تعملون »

والصبرُ على الجزاء في العاقبة لاقيمة له ، لأنَّ عذابهم عقوبةٌ لهم :

قوله جل ذكره : « إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَاكِهِينَ »

بما آتاهم ربُّهم ووقاهم ربُّهم عذابَ

الجحيم » .

المتقون في جنات ونعيم عاجلاً وآجلاً^(١) . « فَاكِهِينَ » أي مُعْجَبِينَ بما آتاهم ربُّهم
وما أعطاهم .

ويقال : « فَاكِهونَ » : أي ذوو فاكهة : كقولهم رجل تامر أي ذو تمر ، ولا بنُّ أي
ذو لبن .

قوله جل ذكره : « كُلُّوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون »

قوم يصير لهم ذلك هنيئاً بطعمه ولذته ، وقومٌ يصير هنيئاً لهم سماعُ قولهم

(١) يشير القشيري إلى التعميم العاجل الذي هو الوصلة والقربة . فمن المعلوم أن الصوفية يسلكون طريقهم
في حياة وسطى فيها قيامة وحشر ونشر وثواب وعذاب ، بما يشعرون ؛ من هجر ووصل ، وخوف ورجاء .
ونحو ذلك من الأحوال .

عنه — سبحانه — هنيئًا ، وقوم يصير لهم ذلك هنيئًا لينا وهم بمشهد منه :

فاشرب على وجهها كَفَرَتْهَا مُدَامَةً فِي الْكُتُوسِ كَالشَّرِّ

« مُتَّكِنِينَ عَلَى سُورٍ مَصْفُوفَةٍ

وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينِ »

يُظَلَّلُونَ فِي سُورٍ وَحُورٍ ، وَنَصِيبٌ مِنَ الْأُنْثَى مَوْفُورٍ .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ

بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ »

يُكْمَلُ عَلَيْهِمْ سُورُهُمْ بِأَنْ يُلْحَقَ بِهِمْ ذُرِّيَّتُهُمْ ؛ فَإِنَّ الْإِنْفِرَادَ بِالنِّعَةِ عَمَّنْ

الْقَلْبُ مُشْتَفِلٌ بِهِ مِنَ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ وَالذَّرِيَّةِ بِوَجِبِ تَنْفِصِ الْعِيشِ .

وكذلك كلُّ مَنْ لَبَّ الْوَلِيَّ يَلْحِظُهُ مِنْ صَدِيقٍ وَقَرِيبٍ ، وَوَلِيٍّ وَخَادِمٍ ، قَالَ تَعَالَى

فِي قِصَّةِ يُوسُفَ : « وَأَتَوْنِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ »

وَفِي هَذَا الْمَعْنَى قَالُوا :

إِنِّي عَلَى جَفَوَاتِهَا — فَبَرِّهَا وَبِكُلِّ مُتَّصِلٍ بِهَا مُتَوَسِّلٍ

لأحبها ، وأحبُّ منزلها الذي نزلت به وأحبُّ أهل المنزل

« وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ

كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ »

أَيُّ مَا أَتَقَصَّنَا مِنْ أَجُورِهِمْ مِنْ شَيْءٍ بَلْ وَفِينَا وَوَقَرْنَا . وَفِي الْإِبْتِدَاءِ نَحْنُ أَوْلَيْنَا وَزِدْنَا

عَلَى مَا أَعْطَيْنَا .

« كل امرئ بما كسب رهين » مُطَالَبٌ بعمله ، يوفى عليه أجره بلا تأخير ، وإن كان ذنباً فالكثير منه مغفور ، كما أنه اليوم مستور .

قوله جل ذكره : « وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون * يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم »

أى لا يجرى بينهم باطل ولا يؤثمهم كما يجرى بين الشرب^(١) في الدنيا ، ولا يذهب الشربُ بقولهم فيجرى بينهم ما يُخرجهم عن حدِّ الأدب والاستقامة . وكيف لا يكون مجلسهم بهذه الصفة ومن المعلوم من يستقيم ، وهم بمشهد منه وعلى رؤية منه ؟ .

قوله جل ذكره : « ويطوف عليهم غلمان لهم كأسهم أولئذٍ مكنون » .

والقومُ عن الدارِ وعَمَّنْ في الدارِ مُخْتَفِقُونَ لاستيلاء ما يستفرقهم ؛ فالشرابُ يؤنسُهم ولكن لا يَمُنُّ بجانسهم^(٢) ؛ وإذا كان — اليومَ — للعبد وهو في السجن في طول عمره ساعة^(٣) امتناع عن سماع خطاب الأغيار ، وشهود واحدٍ من المخلوقين — وإن كان ولداً عزيزاً ، أو أخاً شقيقاً — فمن الحال أن يُظنَّ أنه يُردُّ من الأعلى إلى الأدنى . . . إن كان من أهل القبول والجنة ، ومن الحال أن يُظنَّ أنه يكون غداً موسوماً بالشقاوة .

وإذا كان العبدُ في الدنيا يقاسى في غربته من مُقاساة اللثيما والتي — فماذا يجب أن يقال إذا

(١) الشرب بالفتح القوم يشربون ويحتمون على الشراب (الوسيط واللسان) .

(٢) هكذا في م وهي أقرب إلى الصواب مما جاء في ص (يجالسهم) باللام لأن السياق يتقدم بالأولى ؛ فالأنس الحاصل يومئذٍ بالحق لا بالخلق .

(٣) هذه محاولة طيبة يقدمها التفسير الإشاري عند بحث قضية التمتع في الآخرة ونفى الحسيات عن هذا التمتع ؛ لأنه إذا تصورنا أن العبد في ساعة الفناء يكون محوّاً فيما يشهد ، وأن ذلك يحدث في الدنيا .. فما بالك في الآخرة وهم ناظرون إلى ربهم ؟ !

رجع إلى منزله ؟ أيتى على ما كان عليه في سفرته ؟ أم يلقى غير ما كان يقاسى في سفرته ، ويتجرع غير ما كان يُسْتَى من كاسات كُرْبته ؟ .

قوله جل ذكره : « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون •

قالوا إنا كنا قبلُ في أهلنا مشفقين •

فَنَنْتَهِ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُومِ » .

لولا أنهم قالوا : « فَنَنْتَهِ اللهُ عَلَيْنَا » لكانوا قد لاحظوا إشفاقهم ، ولكن الحق - سبحانه -

اختطفهم عن شهود إشفاقهم ؛ حيث أشهدهم مِنْتَهُ عليهم حتى قالوا : « فَنَنْتَهِ اللهُ عَلَيْنَا ، وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُومِ ، إنا كنا مِنْ قَبْلُ ندعوه إنه هو البرُّ الرحيم » .

قوله جل ذكره : « فَذَكَّرْهُ فَاَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ

وَلَا مَجْنُونٍ » .

أى أنهم يعلمون أنك ليست بك كهانة ولا جنون ، وإنما قالوا ذلك على جهة التسخيف ؛

فالتَّخْفِيفُ يَسْطُرُ لِسَانُهُ فِيمَنْ يَسْبُتُهُ بِمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْهُ بَرِيءٌ .

« أم يقولون شاعرٌ نتربصُ به رَيْبَ

الْمُنُونِ • قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ

الْمُتَرَبِّصِينَ » .

تربص به حوادث الأيام ؛ فإنَّ مِثْلَ هذا لا يدوم ، وسيموت كما مات مِنْ قَبْلِهِ كُهَّانٌ

وشعراء .

ويقال : قالوا : إنَّ أباه مات شاباً ، ورجوا أن يموت كما مات أبوه ، فقال تعالى :

« قُلْ تَرَبَّصُوا • • • » فإننا منتظرون ، وجاء في التفسير أن جميعهم ماتوا . فلا ينبغي

لأحد أن يؤمِّلَ موتَ أحدٍ . فَقَلَّ مَنْ تَكُونُ هَذِهِ صَنَعَتُهُ إِلَّا سَبَقَتْهُ الْمَنِيَّةُ — دون أن يُدْرِكَ ما يتمناه مِنَ الأَمْنِيَّةِ .

قوله جل ذكره : « أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاعون » .

أتأمرهم عقولهم^(١) بهذا ؟ أم تحملهم مجاوزة الحد في ضلالهم وطفيانهم على هذا ؟
قوله جل ذكره : « أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون » فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين .
إذا كانوا يزعمون أنك تقول هذا القول^(٢) من ذات نفسك فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين فيما رموك به !

قوله جل ذكره ، « أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ؟ » .

كلّا ليس الأمر كذلك ، بل الله هو الخالق وهم المخلوقون .
أم هم الذين خلقوا السموات والأرض ؟ أم عندهم خزائن ربك .
— أي خزائن أرزاقه ومقدوراته ؟ أم هم المسيطرون المتسلطون على الناس ؟ .
أم لهم سُلّم يرتقون فيه فيستمعون ما يجري في السموات ؟ فليأت مستمعهم بسلطان مبین .
ثم إنه سقاه أحلامهم فقال :

« أم له البنات ولکم البنون » أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون » .

أم تسألهم على تبليغ الرسالة أجراً فهم مثقلون من الغرم والإلزام في المسال (بحيث يزهدهم ذلك في اتباعك ؟) .

(١) كانت قریش يدعون أهل الأحلام والنهى — فإسناد الأحلام إلى الكفار في الآية مجاز فيه سخرية منهم .
(٢) ما بين القوسين إضافة من جانبنا كي يتضح السياق — فالتشيرى كما هو واضح في آخر السورة لا يعنى سوى كلمات مقتضبة ، وإنما يهتم بالجانب الإشارى — إن وجد .

أم عندهم علم الغيب فهم يكتبون ذلك ؟
أم يريدون كيدا^(١) أى أن يمكروا بك مكرًا فالذين كفروا هم المكيدون .
أم لهم إله غير الله يفعل شيئًا مما يفعل الله ؟ تنزيهاً له عن ذلك ! .

قوله جل ذكره : « وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا
يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ » .

أى إن رأوا قطعة من السماء ساقطة عليهم قالوا : إنه سحبٌ مركوم^(٢) رُكْم بعضه على
بعض والمقصود أنهم مهما رأوا من الآيات لا يؤمنون . ولو فتحنا عليهم بابًا من السماء حتى
شاهدوا بالعين لقالوا : إنما سُكِرَتْ أَبْصَارُنَا ، وليس هذا عيانًا ولا مشاهدة .

قوله جل ذكره : « فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي
فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ
كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ » .
أى فأعرض عنهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يموتون ، يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئًا ،
ولا يمنعون من عذابنا .

قوله جل ذكره : « وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » .

دون يوم القيامة لهم عذاب القتل والنَّجِى ، وما نَزَلَ بِهِمُ مِنَ الْمَوَانِ وَالْخِزْيِ يَوْمَ
بَدْرٍ وَغَيْرِهِ^(٣) .

« وَلَكِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » : أَنَّ اللَّهَ نَاصِرٌ لِدِينِهِ .

قوله جل ذكره : « وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ
بِأَعْيُنِنَا » .

(١) يقال هو كيدهم للرسول والمؤمنين بدار الندوة - وقد يقصد به الكفاز أجمعين .

(٢) فى ص (مكروم) وهى خطأ فى النسخ .

(٣) ويقال عذاب القبر لأنه يسبق القيامة .

أنت بمرأى مِنَّا ، وفي نصرة مِنَّا .

« فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا »^(١) : في هذا تخفيفٌ عليه وهو يقاسى الصبر .

« وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ » .

أى تقوم للصلاة المفروضة عليك .

« وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ »

قيل : المغرب والعشاء وركعتا الفجر .

وفي الآية دليل وإشارة إلى أنه أمره أَنْ يَذْكُرَهُ في كلِّ وقت ، وألا يَحْلُوَ وقتٌ من ذِكْرِهِ .

والصبرُ لحكمِ اللهِ شديدٌ ، ولكن إذا عَرَفَ اِطِّلاعَ الربِّ عليه سهَّلَ عليه ذلك وهان .

(١) التعبير بالجمع هنا قد يفيد زيادة الرعاية في حق المصطفى صلوات الله عليه ، خصوصاً إذا تذكرنا أنه سبحانه قال في حق موسى عليه السلام «وَلَتَصْنَعَنَّ عَلَى عَيْنِي» فالتمهيز في هذه الحالة بالمفرد ، والله سبحانه أعلم .

سُورَةُ النَّجْمِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ جَلِيمٌ رَحِيمٌ ، بِحَلْمٍ ^(١) فَيَا يَعْلَمُ ، وَيَسْتَرْ مَا يَبْصُرُ وَيَغْفِرُ ^(٢) ، وَعَلَى الْعُقُوبَةِ يَقْدِرُ ، يَرَى وَيُخْفِي ، وَيَعْلَمُ وَلَا يُبْدِي .

قوله جل ذكره : « والنجم إذا هوى » ما ضلَّ صاحبكم وما غوى ^(٣) .

والثريا إذا سقط وغرب . ويقال : هو جنسُ النجوم أقسم بها .

(ويقال : هي الكواكب) ^(٤) . ويقال : أقسم بنجوم القرآن عَلَى النبي صلى الله عليه وسلم ويقال هي الكواكب التي تُرْمَى بها الشياطين .

ويقال أقسم بالنبي صلى الله عليه وسلم عند مُنْصَرَفِهِ من المراج .

ويقال : أقسم بضياء قلوب العارفين ونجوم عقول الطالبين .

وجوابُ القسم قوله : « ما ضلَّ صاحبكم وما غوى » : أى ما ضلَّ عن التوحيد قط ، « وما غوى » : النىُّ : تقيضُ الرُّشْد . . وفى هذا تخصيصٌ للنبي صلى الله عليه وسلم حيث تولى — سبحانه — الذِّبَّ عنه فيما رُمِيَ به ، بخلاف ما قال لنوح عليه السلام وأُذِنَ له حتى قال : « ليس بي ضلالة ^(٥) » ، وهود قال : « ليس بي سفاهة ^(٥) » . . وغير ذلك ، وموسى

(١) هكذا في م وهـ، في ص (يكلم) وواضح أنها خطأ من الناسخ .

(٢) هكذا في م وهـ في ص (يغفر) وهى خطأ من الناسخ .

(٣) موجود في م وساقط في ص .

(٤) آية ٦١ سورة الأعراف .

(٥) آية ٦٧ سورة الأعراف .

قال فرعون : « وإني لأظنُّكَ يا فرعونُ مُنبوراً »^(١) . وقال لنبيِّنا صلى الله عليه وسلم :
« ما ضلَّ صاحبكم وما غوى » : معناه ما ضلَّ صاحبكم ، ولا غفلَ عن الشهود طرفَةً عَيْنٍ .

قوله جل ذكره : « وما ينطقُ عن الهوى * إنَّ هو
إلاَّ وَحْيٌ يُوحَى » .

أى ما ينطقُ بالهوى ، وما هذا القرآنُ إلاَّ وَحْيٌ يُوحَى . وفي هذا أيضاً تخصيصٌ له
بالشهادة ؛ إذ قال داود : « فاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى »^(٢) .
وقال في صفة نبيِّنا صلى الله عليه وسلم : « وما ينطقُ عن الهوى » .

(ومتى ينطقُ عن الهوى وهو في محلِّ التجوى ؟ في الظاهر مزمومٌ بِزِمَامِ التقوى ، وفي
السرائر في إيواءِ الولي ، مُصَنَّفٌ عن كدورات البشرية ، مُرَقَّى إلى شهود الأَحَدِيَّة ،
مُكَاشَفٌ بِجَلالِ الصمديَّة ، مُحْتَطَفٌ عنه بالسكَّليَّة ، لم تبقَ منه إلاَّ لَحَقُّ بِالْحَقِّ بَقِيَّة . . . وَمَنْ
كان بهذا النعت . . . متى ينطقُ عن الهوى ؟)^(٣) .

قوله جل ذكره : « عِلْمُهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذَوِ مِرَّةٍ
فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى » .

أى جبريل عليه السلام . و « ذَوِ مِرَّةٍ » : أى ذو قوَّة وهو جبريل . « وهو بِالْأُفُقِ
الْأَعْلَى » أى جبريل .

« ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ
أَوْ أَدْنَى » .

دنا جبريلُ من محمَّدٍ عليه السلام ، فتَدَلَّى جبريلُ : أى نَزَلَ مِنَ الْعُلُوِّ إلى محمَّد .
وقيل : « تدلَّى » تفيد الزيادةَ في القُرْب ، وأنَّ محمَّداً عليه السلام هو الذى دنا من ربِّه
دُنُوًّا كَرَامَةً ، وَأَزَلَّ إِلَهُهُ هُنَا مَعْنَاهَا السَّجُود .

(١) آية ١٠٢ سورة الإسراء .

(٢) آية ٢٦ سورة ص .

(٣) كل ما بين القوسين موجود في مكان آخر ، وضمناه في مكانه الصحيح حتى يستقيم السياق .

ويقال : دنا محمدٌ من ربِّه بما أودعَ من لطائفِ المعرفةِ وزوائدها ، فتدلَّى بسكون قلبه إلى ما أدناه .

« فكان قاب قوسين أو أدنى » : فكان جبريل — وهو في صورته التي هو عليها — من محمد صلى الله عليه وسلم بحيث كان بينهما قدرُ قوسين أو أدنى .

ويقال : كان بينه — صلى الله عليه وسلم — وبين الله قدرُ قوسين : أراد به دُنُوَّ كرامة لا دُنُوَّ مسافة .

ويقال : كان من عاداتهم إذا أرادوا تحقيقَ الألفَةِ بينهم إلصاقُ أحدهم قوسه بقوس صاحبه عبارةً عن ^(١) عقد الموالاة بينهما ، وأنزل الله — سبحانه — هذا الخطابَ على مقتضى معهودهم . ثم رفع الله هذا فقال : « أو أدنى » أى بل أدنى .

قوله جل ذكره : « فأوحى إلى عبده ما أوحى »
أى أوحى الله إلى محمدٍ ما أوحى . ويقال : أحتمله أحمالاً ^(٢) لم يطَّلع عليها أحدٌ .
ويقال : قال له : ألم أجذك بتيماً فأويتك ؟ ألم أجذك ضالاً فهديتك ؟
ألم أجذك عائلاً فأغنيتك ؟ ألم أشرح لك صدرك ؟
ويقال : بشره بالخوض والكوثر .

ويقال : أوحى إليه أنَّ الجنةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الأنبياء حتى تدخلها ، وعلى الأمم حتى تدخلها أمَّتكَ . والأوَّلَى أن يقال : هذا الذي قالوه كله حسنٌ ، وغيره مما لم يطَّلع أحدٌ .. كله أيضاً كان له في تلك الليلة وحده ، إذ رَقَّاه إلى مارقاه ، ولَقَّاه بما لقَّاه ، وأدناه حيث لا دنوَّ قبله ولا بعده ، وأخذَه عنه حيث لا غيرٌ ، وأصحاه له في عين ما محاه عنه ، وقال له ما قال .. دون أن يطَّلع أحدٌ على ما كان بينهما من السرِّ ^(٣) .

(١) كما نقول في أسلوبنا الآن (تمبيراً عن ..)

(٢) هكذا في سر وهي أصوب مما جاء في م (أجمله إجمالاً) بالجيم فالسياق يرفضها .

(٣) هذه الفقرة الأخيرة محاولة من جانب أرباب الحقيقة لفهم بعض جوانب في قصة الإسراء والمعراج . ومضمون كلام القشيري أننا لو كنا نستطيع حدوث أحوال الكشوفات والمواصلات التي تتاح للأولياء العارفين .. فكيف لا نتقبلها بالنسبة للمصطفى عليه صلوات الله وسلامه ؟ وبمعنى آخر : نجد التفسير الصوفي يبرز نفسه في قوة ونصاعة لتوضيح قضية من قضايا التدين ، كانت موضع جدل في زمانها وبعد زمانها .

قوله جل ذكره : « ما كَذَّبَ القَوَادُ ما رَأَى » .

ما كَذَّبَ قَوَادُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما رآه يبصره من الآيات . وكذلك يقال : رأى ربه تلك الليلة على الوصف الذي علمه قبل أن يراه^(١) .

قوله جل ذكره : « أَفْتَمَّارُونَهُ عَلَى ما يَرَى » .

أَفْتَمَّادُونَهُ عَلَى ما يَرَى ؟

قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ المنتهى * عِنْدَهَا جَنَّةُ المَأْوَى » .

أى جبريلُ رأى الله مرةً أخرى حين كان محمدٌ عند سدرة المنتهى ؛ وهى شجرة فى الجنة ، وهى منتهى الملائكة ، وقيل : تنتهى إليها أرواحُ الشهداء . ويقال : تنتهى إليها أرواحُ الخلق ، ولا يَعْلَمُ ما وراءها إلا الله تعالى — وعندها « جنة المأوى » وهى جنة من الجنان .

قوله جل ذكره : « إِذْ يَفْشَى السُّدْرَةُ ما يَفْشَى » .

يفشاها ما يفسهاها من الملائكة ما الله أعلم به .

وفى خبر : يفسهاها رفرف طير خُضِر .

ويقال : يفسهاها فَرَّاشٌ من ذَهَبٍ .

(١) يقول القشيري فى كتابه المعراج ص ٩٤ : « واختلفوا فى رؤية الله سبحانه ليلة المعراج ؛ فقالت عائشة رضى الله عنها : إن النبى (ص) لم يَرِ ربه ليلة المعراج ، ومن زعم أن محمداً رأى ربه ليلة المعراج فقد أعظم على الله الفرية . وقال ابن عباس : إن نبينا (ص) رأى ربه ليلة المعراج .

ثم اختلفت الرواية عن ابن عباس ؛ فى رواية أنه رآه بعين رأسه ، وفى رواية أنه رآه بقلبه . وقال اهل التحقيق من أهل السنة : اختلافهم فى هذه المسألة دليل على إجماعهم أن الحق سبحانه يجوز أن يُرى ؛ لأنه لو لا أنهم كانوا متفقين على جواز الرؤية لم يكن لاختلافهم فى الرؤية فى تلك الليلة معنى .

وقد رويت فى هذا الباب أخبار ، والله أعلم بصحتها ، فإن صحَّ ذلك فلها وجود من التأويل ، من ذلك ما روى أنه قال : « رأيت ربي فى أحسن صورة » - فهذا الخبر يحتمل وجوهاً منها : رأيت ربي وأنا فى أحسن صورة يعنى فى أكل رتبة وأتم فضيلة ، وأقوى ما كنت ؛ لم يصحبنى دهن ، ولا رهنى حيرة .

ويمكن أن تكون الرؤية بمعنى العلم ، أى رأيت من قدرة الله تعالى ودلائل حكمته ، ولم يشغنى شهود الصور عن ذكر المصور ، بل رأيت الفاعل فى الفعل .

وقيل : الصورة بمعنى الصفة ، يقال : أرى صورة هذا الامرأى : صفته . و« فى » على معنى « على » أى رأيت ربي على أحسن صفة من جلالة وصفه وإفضاله معى

ويقال : أُعْطِيَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) عندها خواتيم البقرة ، وَغُفِرَ لِمَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِهِ لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا .

قوله جل ذكره : « مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى »

مَا مَالَ — صلوات الله عليه وسلامه — ببصره عما أُبِيحَ لَهُ مِنَ النَّظَرِ إِلَى الْآيَاتِ ، وَالْإِعْتِبَارِ بِدَلَالَتِهَا .

فَمَا جَاوَزَ حَدَّهُ ، بَلْ رَاعَى شُرُوطَ الْأَدَبِ فِي الْحَضَرَةِ (١) .

قوله جل ذكره : « لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى » .

أَي « الْآيَةِ » الْكُبْرَى ، وَحَذَفَ الْآيَةَ . . . وَهِيَ تِلْكَ الَّتِي رَأَاهَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ . وَيُقَالُ : هِيَ بِقَاوُهِ فِي حَالِ لِقَائِهِ رَبَّهُ بِوَصْفِ الصَّخْرِ ، وَحَفَظَهُ حَتَّى رَأَاهُ (٢) .

قوله جل ذكره : « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ

الْأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى ؟

* تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى * .

هَذِهِ أَصْنَامٌ كَانَتْ الْعَرَبُ تَعْبُدُهَا ؛ فَالْأَلَاتُ صُنُمٌ لَثِيفٌ ، وَالْعُزَّى شَجَرَةٌ لَعُطْفَانٌ ، وَمَنَاةُ صَخْرَةٌ لَهْذِيلٌ وَخَزْأَعَةٌ (٣) .

وَمَعْنَى الْآيَةِ : أَخْبِرُونَا ... هَلْ لِهَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الْقُدْرَةِ أَنْ تَفْعَلَ بِعَائِدٍ بِهَا مَا فَعَلْنَا بِحَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الرُّتْبِ وَالتَّخْصِصِ ؟ .

(١) قَالَ أَبُو يَزِيدَ الْبِسْطَامِيُّ : حَفِظَ النَّبِيُّ (ص) طَرَفَهُ فِي الْمَسْرِ ، فَمَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ، لَعَلَّهُ بِمَا يَقُولُ لَهُ مِنَ الْمَشَاهِدَةِ ، فَلَمْ يَشَهِدْ فِي ذَلِكَ شَيْئًا ، وَلَمْ يُسِرْ طَرَفَهُ أَحَدًا ، ثُمَّ لَمَّا رُودٌ إِلَى مَحَلِّ التَّأْدِيبِ نَظَرَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَالْأَنْبِيَاءِ وَالْمَلَائِكَةِ لِلْإِخْبَارِ عَنْهَا ، وَتَأْدِيبِ الْخَلْقِ بِهَا ؛ فَالْمَقَامُ الْأَوَّلُ مَقَامُ خُصُوصِ وَالْمَقَامُ الثَّانِي مَقَامُ عُمُومٍ . وَقَالَ رُوَيْمٌ : لَمَّا أُكْرِمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأَعْظَمِ الشُّرُوفِ فِي الْمَسْرِ عَمَلَتْ هَيْبَتُهُ عَنِ الْإِلْتِفَاتِ إِلَى الْآيَاتِ وَالْكَرَامَاتِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَمَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ؛ أَيِ مَا أَعَارَ طَرَفَهُ شَيْئًا مِنَ الْأَكْوَانِ ، وَمَنْ شَاهَدَ الْبَحْرَ اسْتَقْلَّ الْأَنْهَارَ وَالْأَوْدِيَةَ .

(٢) سَأَلَ الشَّيْلِيُّ : « كَيْفَ ثَبَتَ النَّبِيُّ (ص) فِي الْمَرَاجِ لِلْقَاءِ وَالْمُخَاطَبَةِ ؟ » فَقَالَ : إِنَّهُ عُمِيٌّ لِأَمْرِ فُسْكَتْنِ فِيهِ . وَيُقَارَنُ الْقَشِيرِيُّ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ بَيْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذْ خَرَّ صَعْقًا بِمَجْرَدِ سَمَاعِ النَّدَاءِ وَبَيْنَ نَبِيِّنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِذْ ثَبَتَ فِي مَحَلِّ الْمَشَاهِدَةِ ، وَيُضَيِّفُ : إِنَّ مُوسَى فِي حَالِ التَّلَوُّينِ ، وَنَبِيُّنَا فِي حَالِ التَّمَكُّينِ .

(٣) هَذِهِ الْأَصْنَامُ كُلُّهَا مَوْثَنَاتٌ .. وَكَانُوا يَقُولُونَ : إِنَّ الْمَلَائِكَةَ وَهَذِهِ الْأَصْنَامُ بَنَاتُ اللَّهِ !

ثم ويُنْجِهم فقال : أرايتم كيف تختارون لأنفسكم البنين وتنسبون البنات إلى الله ؟ تلك إذا
قصة ناقصة ١

قوله جل ذكره : « إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ
وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ
يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ
وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى » .

أنتم ابتدعتم هذه الأسماء من غير أن يكون الله أمركم بهذا ، أو أذن لكم به .
فأنتم تتبعون الظنَّ ، « وَإِنْ الظَّنَّ لَا يَفِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا » (١)

« وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى » : فأعرضوا عنه ، وكما أن ظنَّ الكفار أوجب لهم الجهل
والخيرة والحكم بالخطأ — فكذلك في هذه الطريقة (٢) : « نَعَرَجَ عَلَى أَوصَافِ الظَّنِّ لَا يَحْطَى » (٣)
بشيء من الحقيقة ؛ فليس في هذا الحديث إلا القطع والتحقيق ، فها هم قد متع (٤) ، وشمسهم
قد طلعت ، وعلومهم أكثرها صارت ضرورية .

أمَّا الظنُّ الجميلُ بالله فليس من هذا الباب ، والتباسُ عاقبةِ الرجلِ عليه ليس (٥) أيضاً من
هذه الجلة ذات الظن المعاول في الله ، وفي صفاته وأحكامه .

قوله جل ذكره : « أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى » .

أى ليس (٦) للإنسان ما يتمناه ؛ فإنه يتمنى طول الحياة والرفاهية وخصب العيش ..
وما لا نهاية له ، ولكنَّ أحداً لا يبلغ ذلك بتمامه .

(١) آية ٢٨ في السورة نفمها .

(٢) يقصد طريقة الصوفية .

(٣) في م (يخطئ) وهي خطأ في النسخ

(٤) في ص (منع) بالنون وهي خطأ ، فمتوع النهار من المصطلحات الصوفية التي زادها القشيري على (الوائج
والطوائج واللوائج) كما نوهنا من قبل .

(٥) هكذا في م وهي في ص (ليبين) وهي خطأ من النسخ .

(٦) هي (أم) المنقطعة ، ومعنى الهزمة فيها للإنكار ، أى للإنسان — يعنى الكافر — ما تمنى من شفاعة الأصنام ،

وغير ذلك من التمنى .

ويقال : ما يتمناه الإنسان أن يرتفع مراده واجبا في كل شيء — وأن يرتفع مراده
عبد واجبا في كل شيء ليس من صفات الخلق بل هو الله ، الذي له ما يشاء :
« فله الآخرة والأولى » .

له الآخرة والأولى خلقا وملكا ، فهو الملك المالك صاحب الملك التام . فاما الخلق
فالتقص لازم للكل .

قوله جل ذكره : « وكم من ملك في السموات لا تغني
شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن
الله لمن يشاء ويرضى » .

وهذا رد عليهم حيث قالوا : إن الملائكة شفعاؤنا عند الله (١) .

قوله جل ذكره : « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة لیسْمُونَ
الملائكة تسمية الأنثى * وما لهم به
من علم إن يتبعون إلا الظن وإن
الظن لا يغني من الحق شيئا » .

هذه التسمية من عندهم ، وهم لا يتبعون فيها علما أو تحقيقا . . بل ظنا — والظن
لا يقيد شيئا .

قوله جل ذكره : « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم
يرد إلا الحياة الدنيا * ذلك مبلغهم
من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل
عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى » .

أى أعرض عمن أعرض عن القرآن والإيمان به وتدبر معانيه ، ولم يرد إلا الحياة الدنيا .

(١) لا تنفع شفاعة أحد إلا إذا أذن الله . . فإذا كانت الملائكة مع كثرتها وقربها من الله لا تصلح للشفاعة
إلا بإذن من الله — فكيف تصلح هذه الأصنام للشفاعة ؟ !

ذلك مبلغهم من العلم ؛ وإنما رضوا بالدنيا لأنهم لم يعلموا حديث الآخرة ، وإنَّ ربَّك عليمٌ بالضالِّ ، عليمٌ بالمهتدي .. وهو يجازي كلًّا بما يستحق .

قوله جل ذكره : « ولله ما في السموات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى » .

يجزي الذين أساءوا بالمقوبات ، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى .
قوله جل ذكره : « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللّم » .

الذنوب كلها كبائر لأنها مخالفةٌ لأمر الله ، ولكن بعضها أكبر من بعض . ولا شيء أعظم من الشرك . « والفواحش المعاصي » .
« إلا اللّم » : تكلموا فيه ، وقالوا : إنه استثناء منقطع ، واللّم ليس بإثم ولا من جملة الفواحش .

ويقال : اللّم من جملة الفواحش ولكن فيها اشتباهاً — فأخير أنه يفرها .
ويقال : اللّم هو أن يأتي المرء ذلك ثم يُقْلِعَ عنه بالتوبة .
وقال بعض السلف : هو الوقعة من الزنا تحصل مرة ثم لا يعود إليها ، وكذلك شرب الخمر ، والسرقه .. وغير ذلك ، ثم لا يعود إليها .
ويقال : هو أن يهيم بالزَّلة ثم لا يفعلها .

ويقال : هو النَّظَر . ويقال : ما لاحدٌ عليه من المعاصي ، وتُكْفَر عنه الصلوات .
(والأصح أنه استثناء منقطع وأن اللّم ليس من جملة المعاصي)^(١) .

قوله جل ذكره : « إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بكم إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ

(١) ما بين القوسين موجود في م وغير موجود في ص .

أَجِنَّةٌ فِي بَطُونِ أَمْهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا
أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَتَقَى .

« إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ » : يَعْنِي خَلَقَ آدَمَ .

وَيَقَالُ : تَزَكِيَةُ النَّفْسِ مِنْ عِلَامَاتِ كَوْنِ الْمَرْءِ مُحِبِّبًا عَنِ اللَّهِ ؛ لِأَنَّ الْمَجْذُوبَ إِلَى الْغَايَةِ
وَالْمُسْتَفْرَقَ فِي شَهْوَدِيَّةٍ لَا يُزَكِّي نَفْسَهُ (١) .

« هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَتَقَى » : لِأَنَّهُ أَعْلَمُ بِكُمْ مِنْكُمْ .

وَيَقَالُ : مَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ عَلَى الْبَسِيطَةِ أَحَدًا شَرًّا مِنْهُ فَهُوَ مُتَكَبِّرٌ .

وَيَقَالُ : الْمُسْلِمُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ بِمَحِثٍ يَرَى كُلَّ مُسْلِمٍ خَيْرًا مِنْهُ ؛ فَإِنْ رَأَى شَيْخًا ، قَالَ :
هُوَ أَكْثَرُ مِنِّي طَاعَةً وَهُوَ أَفْضَلُ مِنِّي ، وَإِنْ رَأَى شَابَاً قَالَ : هُوَ أَفْضَلُ مِنِّي لِأَنَّهُ أَقْلُ
مِنِّي ذَنْبًا .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « أَفْرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلًا
وَأَكْذَبَى » .

أَعْرَضَ عَنِ الْحَقِّ ، وَتَصَدَّقَ بِالْقَلِيلِ . « وَأَكْذَبَى » أَيَّ قَطَعَ عَطَاءَهُ .

« أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى »

« فَهُوَ يَرَى » : فَهُوَ يَعْلَمُ صِحَّةَ ذَلِكَ . يُقَالُ : هُوَ الْمُنَافِقُ الَّذِي يُعِينُ عَلَى الْجِهَادِ قَلِيلًا
ثُمَّ يَقْطَعُ ذَلِكَ :

« أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ » : فَهُوَ يَرَى حَالَهُ فِي الْآخِرَةِ ؟

« أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى *
وَأَبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى » .

(١) قَارَنَ ذَلِكَ بِقَوْلِ النَّسْفِيِّ فِي ذِكْرِ الْمَرْءِ لَطَاعَتِهِ : « . . . وَهَذَا إِذَا كَانَ عَلَى سَبِيلِ الْإِعْجَابِ أَوْ الرِّيَاءِ لَا عَلَى
سَبِيلِ الْإِعْتِرَافِ بِالنِّعْمَةِ فَإِنَّهُ جَائِزٌ لِأَنَّ الْمَسْرُوعَةَ بِالطَّاعَةِ طَاهَةً وَذَكَرَهَا شُكْرًا » النَّسْفِيُّ ج ٤ ص ١٩٨ . وَنَظُنُّ أَنَّ فِي
عِبَارَةِ النَّسْفِيِّ شَيْئًا يَسْتَحِقُّ التَّصْوِيبَ : فَالْأَوَّلُ أَنَّ يُقَالُ : وَهَذَا إِذَا كَانَ عَلَى سَبِيلِ الْإِعْتِرَافِ بِالنِّعْمَةِ — لَا عَلَى سَبِيلِ
الْإِعْجَابِ أَوْ الرِّيَاءِ — فَإِنَّهُ جَائِزٌ ..

أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ هَذَا الْكَافِرُ بِمَا فِي صَاحِبِ مُوسَى ، وَصَاحِبِ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ؛ أَيْ أَتَمَّ مَا طُولِبَ بِهِ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ .

قوله جل ذكره : « أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى » .

النَّاسُ فِي سَعْيِهِمْ مُخْتَلِفُونَ ؛ فَمَنْ كَانَ سَعْيُهُ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا خَسِرَتْ صَفْقَتُهُ ، وَمَنْ كَانَ سَعْيُهُ فِي طَلَبِ الْجَنَّةِ رَجَحَتْ صَفْقَتُهُ ، وَمَنْ كَانَ سَعْيُهُ فِي رِيَاضَةِ نَفْسِهِ وَصَلَ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ ، وَمَنْ كَانَ سَعْيُهُ فِي الْإِرَادَةِ شَكَرَ اللَّهُ سَعْيَهُ ثُمَّ هَدَاهُ إِلَى نَفْسِهِ .

وَأَمَّا الْمَذْنِبُ — فَإِذَا كَانَ سَعْيُهُ فِي طَلَبِ غَفْرَانِهِ ، وَنَدَّمَ الْقَلْبَ عَلَى مَا اسْوَدَّ مِنْ دِيْوَانِهِ ، فَسَوْفَ يَجِدُ مِنَ اللَّهِ الثَّوَابَ وَالْقُرْبَةَ وَالْكَرَامَةَ وَالزَّلَّةَ .

وَمَنْ كَانَ سَعْيُهُ فِي عَدِّ أَنْفَاسِهِ مَعَ اللَّهِ ؛ لَا يَمُرُّجُ عَلَى تَقْصِيرٍ ، وَلَا يَفْرِطُ فِي مَأْمُورٍ فَسِيرَى جَزَاءُ سَعْيِهِ مُشْكُوراً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، ثُمَّ يَشْكُرُهُ بِأَنْ يُخَاطِبَهُ فِي ذَلِكَ الْمَعْنَى بِإِسْمَاعِهِ كَلَامَهُ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ : عَبْدِي ، سَعْيُكَ مُشْكُورٌ ، عَبْدِي ، ذَنْبُكَ مَغْفُورٌ .

« ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى » : هُوَ الْجَزَاءُ الْأَكْبَرُ وَالْأَجَلُّ ، جَزَاءٌ غَيْرُ مَقْطُوعٍ وَلَا مَمْنُوعٍ .
قوله جل ذكره : « وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى » .

إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَصِيرُ ، فَابْتِدَاءُ الْأَشْيَاءِ مِنَ اللَّهِ خَلْقًا ، وَانْتِهَاءُ الْأَشْيَاءِ إِلَى اللَّهِ مَصِيرًا .
وَيُقَالُ : إِذَا انْتَهَى الْكَلَامُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَاسْكُتُوا .

وَيُقَالُ : إِذَا وَصَلَ الْعَبْدُ إِلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ فَلَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ إِلَّا أَلْطَافًا مِنْ مَالٍ أَوْ مَنَالٍ أَوْ تَحْقِيقِ آمَالٍ أَوْ أَحْوَالٍ . . . يُجْزِيهَا عَلَى مَرَادِهِ — وَهِيَ حَظُوظٌ لِلْعِبَادِ .

قوله جل ذكره : « وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى » .

أَرَادَ بِهِ الضَّحْكَ وَالْبُكَاءَ الْمُتَعَارَفَ عَلَيْهِمَا بَيْنَ النَّاسِ ؛ فَهُوَ الَّذِي يُجْزِيهِ وَيَخْلُقُهُ .

ويقال : أضحك الأرض بالنبات ، وأبكى السماء بالمطر .
 ويقال : أضحك أهل الجنة بالجنة ، وأبكى أهل النار بالنار .
 ويقال : أضحك المؤمن في الآخرة وأبكاه في الدنيا ، وأضحك الكافر في الدنيا وأبكاه في الآخرة .
 ويقال : أضحكهم في الظاهر ، وأبكاهم بقلوبهم .
 ويقال : أضحك المؤمن في الآخرة بفقراته ، وأبكى الكافر بهوانه .
 ويقال : أضحك قلوب العارفين بالرضا ، وأبكى عيونهم بخوف الفراق .
 ويقال : أضحكهم برحمته ، وأبكى الأعداء بسخطه .
 قوله جل ذكره : « وأنه هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا » .
 أماته في الدنيا ، وأحياه في القبر ؛ فالتقبر إما للراحة وإما للإحساس بالعقوبة .
 ويقال : أماته في الدنيا ، وأحياه في الحشر .
 ويقال : أمات نفوس الزاهدين بالمجاهدة ، وأحيا قلوب العارفين بالمشاهدة .
 ويقال : أمات نفوسهم بالمعاملات ، وأحيا قلوبهم بالمواصلات .
 ويقال : أماتها بالهيبه ، وأحيها بالأنس .
 ويقال : بالاستتار ، والتجلى .
 ويقال : بالإعراض عنه ، والإقبال عليه .
 ويقال : بالطاعة ، والمعصية .

قوله جل ذكره : « وأنه خَلَقَ الزوجين الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى » .
 سماها زوجين لازدواجهما عند خلقهما من النُّطْفَةِ .

قوله جل ذكره : « وأنه هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى » .
 « أغنى » : أعطى الغنى ، « أقنى » : أكثر القنية أى المال . وقيل « أقنى » :
 أى أحوجه إلى المال — فعلى هذا يكون المعنى : أنه خَلَقَ الْغِنَى وَالْفَقْرَ .

ويقال : « أقي » أى أرضاه بما أعطاه^(١).

ويقال : « أغنى » أى أقنع ، « وأقي » : أى أرضى .

« وأنه هو ربُّ الشَّعْرَى »

(الشَّعْرَى : كوكبٌ يطلع بعد الجوزاء فى شدة الحر ، وكانت خِزاعة تعبدها فأَعْلَمَ اللهُ أنه ربُّ معبودهم هذا)^(٢) .

« وأنه أَهْلَكَ عاداً الأولى * وثموداً

فما أبقى * وقومَ نُوحٍ من قَبْلُ منهم
كانوا هم أَظْلَمَ وأطغى » .

عاد الأولى هم قوم هود ، وعاد الأخرى هى إرم ذات العماد ، كما أَهْلَكَ ثموداً فما أبقى منهم أحداً . وَأَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِمْ قومَ نُوحٍ الذين كانوا أَظْلَمَ من غيرهم وأغوى لِطُولِ أعمارهم ، وقوة أجسادهم .

« والمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى * فَفَشَّاهَا ما غَشَّى »

أى المُخسوف بها ، وهى قرى قوم لوط ، قَلَبَهَا جبريل عليهم ، فهى مقلوبة معكوسة .
وقوله : « أَهْوَى » أى : أسقطها اللهُ إلى الأرض بعدما اقتلعها من أصلها ، ثم عَكَّسَهَا وألقاها فى الأرض ، فَفَشَّاهَا ما غَشَّاهَا من العذاب .

قوله جل ذكره : « فَبأى آلاءِ رَبِّكَ تَمَارَى ؟ »

فَبأى آلاءِ رَبِّكَ — أيها الإنسان — تتشكك ؟ وقد ذكر هذا بعد ما عَدَّ إِنْعامَهُ عليهم وإِحسانَهُ إليهم .

قوله جل ذكره : « هذا نَذِيرٌ من النُّذُرِ الأولى » .

(١) أقي : من معانها أرضى — كما ورد فى أكثر المعاجم .

(٢) ما بين القوسين إضافة من جانبنا اعتماداً على كتب التفسير ، وهى غير موجودة فى نص القشبرى : ولكننا أردنا إضافتها لثقلت النظر إلى خاطرة تراودنا .. أليس هناك ارتباط بين افتتاحية السورة « والنجم إذا هوى » وبين هذه النهاية ؟ . عابدون ومعبودون يهودون ويتساقطون ويهلكون .. أبعد هذا أيها الإنسان تتشكك فى أن هذا النذير صاوات الله عليه لم يأتِ بدماء ؟ !

هو محمد صلى الله عليه وسلم ، أرسلناه نذيراً كما أرسلنا الرُّسُلَ الآخرين .

« أَزِفَتِ الْآزِقَةُ * ليس لها من دون
اللهِ كَاشِفَةٌ » .

أى قُرُبَتِ الْقِيَامَةِ . ولا يقدر أحدٌ على إقامتها إلا الله ، وإذا أقامها فلا يقدر أحدٌ على
ردّها وكشفها إلا الله .

ويقال : إذا قامت قيامة هذه الطائفة — اليوم — فليس لها كاشفٌ غيره . وقيامتهم تقوم
في اليوم غير مرّة . تقوم بالهَجَرِ والنَّوَى والفراق .

قوله جل ذكره : « أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ » .

« أفمن هذا القرآن تعجبون ، وتكونون في شكٍّ ، وتستهزئون ؟
« وأنتم سَامِدُونَ » : أى لاهون ..
« فاسجدوا لله واعبدوا » : فاسجدوا لله ولا تعبدوا سواه^(١) .

(١) عن الأسود بن يزيد عن عبد الله قال : « ... فسجد رسول الله (ص) وسجد من خلفه إلا رجلاً رأيته
أخذ كفا من تراب فسجد عليه فرأيتُه بعد ذلك قتل كافرأ وهو أمية بن خلف » (البيخارى ج ٣ ص ١٣٠) .

سُورَةُ الْقَمَرِ^(١)

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » : كلمة بها نور القلوب والأبصار ، وبعرفاتها يحصل مرور الأرواح والأسرار .
كلمة تدلُّ على جلاله — الذى هو استحقاقه لأوصافه . كلمة تدل على نعمته الذى هو غاية
أفضاله وألطافه .

قوله جل ذكره : « اقتربت الساعة وانشق القمر » .

أجمع أهل التفسير على أنَّ القمر قد انشق على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .
قال ابن مسعود^(٢) : « رأيت حراء بين فلقى القمر » ولم يوجد لابن مسعود مخالف فى ذلك ؛
قد روى أيضاً عن أنس وابن عمر وحذيفة وابن عباس وجبير بن مطعم . . كلهم روى
هذا الخبر .

وفيه إعجاز من وجهين : أحدهما رؤية من رأى ذلك ، والثانى خفاء مثل ذلك على من
لم يره ؛ لأنه لا ينكتم مثله فى العادة فإذا خفى كان نقض العادة .
وأهل مكة رأوا ذلك ، وقالوا : إنَّ محمداً قد سحر القمر .

ومعنى « اقتربت الساعة » : أى ما بقى من الزمان إلى القيامة إلا قليل^٣ بالإضافة إلى ماضى .
قوله جل ذكره : « وإن يروا آيةً يعرضوا ويقولوا »

(١) يسميها البخارى : سورة « اقتربت الساعة » .

(٢) عن يحيى بن شعبة وسفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن أبي معمر عن ابن مسعود قال : انشق القمر على
عهد رسول الله (ص) فرقتين : فرقة فوق الجبل ، وفرقة دونه . فقال رسول الله (ص) : اشهدوا .
وعن قتادة عن أنس قال : انشق القمر فرقتين .

وعن مجاهد عن أبي معمر عن عبد الله قال : انشق القمر ونحن مع النبى (ص) فصار فرقتين . فقال لنا : اشهدوا
اشهدوا . (البخارى ج ٣ ص ١٣٠) .

وقد جاء فى النسبى : قال ابن مسعود رضى الله عنه « رأيت حراء بين فلقى القمر » (النسبى ص ٢٠١) .

سِحْرٌ مُسْتَعْمَرٌ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا
أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ .

يعنى أن أهل مكة إذا رأوا آية من الآيات أعرضوا عن النظار فيها ، ولو نظروا لحصل لهم العلم واجباً .

« سحر مستمر » : أى دائمٌ قوىٌ شديد .. (ويقال إنهم قالوا : هذا ذاهب لا تبقى مدته)^(١) فاستمر : أى ذهب .

« وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ » : التكذيب واتباع الهوى قريبان ؛ فإذا حصل اتباع الهوى فمن شؤمه يحصل التكذيب ؛ لأن الله يُلبس على قلب صاحبه حتى لا يستبصر^(٢) الرشد . أما اتباع الرضا فقرون بالتصديق ؛ لأن الله بركات اتباع الحق يفتح عين البصيرة فيحصل التصديق .

وكل أمرى جرت له القسمة والتقدير فلا محالة يستقر له حصول ما قسم وقدّر له .
« وكل أمر مستقر » : يستقر عمل المؤمن فتوجب له الجنة ، ويستقر عمل الكافر فيجازى .

قوله جل ذكره : « ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مژد جر »
حكمة بالغة فما تغن النذر .

جاءهم من أخبار الأنبياء والأمم الذين من قبلهم والأزمنة الماضية ما يجب أن يحصل به الارتداع ، ولكن الحق — سبحانه — أسبل على بصائرهم سجوف الجهل فعموا عن مواضع الرشد .

« حكمة بالغة .. » : بدل من (ما) فيما سبق : (ما فيه مژد جر) .

والحكمة البالغة هي الصحيحة الظاهرة الواضحة لمن تفكر فيها .

« فما تغن النذر » : وأى شيء يغنى إنذار النذير وقد سبق التقدير لهم بالشقاء ؟

(١) ما بين القوسين موجود فى م وغيره . وجود فى ص .

(٢) هكذا فى ص . وهى فى م (لا يستبصر) ، والأصوب ما أثبتنا .

قوله جل ذكره : « فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ إِلَى شَيْءٍ
سُكْرٌ * خُسْفًا أَبْصَارُهُمْ » .

« فتولَّ عنهم » : هاهنا تمام الكلام — أى فأعرض عنهم . وهذا قبل الأمر بالقتال .
ثم استأنف الكلام : « يوم يدعُ الداعِ .. » والجواب : « يخرجون من الأجداث » —
أراد به يوم القيامة .

ومعنى « نُكِرَ » : أى شئ يسكرونه (يَهْوُلُهُ وَفُظَاعَتُهُ)^(١) وهو يوم البعث والحشر .
وقوله : « خُسْفًا » منصوب على الحال ، أى يخرجون من الأجداث — وهى القبور —
خاشعي الأبصار .

« ... كَانَهُمْ جُرَادٌ مُنْتَشِرٌ *
مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ
هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ » .

كانهم كالجراد لكثرتهم وتفرقهم ، « مهطعين » : أى مُدْبِئِي النظر إلى الداعي — وهو
إسرافيل .

« يقول الكافرون هذا يوم عسير » : لتوالى الشدائد التى فيه .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا

عَبْدَنَا وَقَالُوا بِجَنُونٍ وَاَزْدُجِرَ *
فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ *
فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ »

كذب قوم نوح نبيهم ، وقالوا : إنه مجنون ، وزجروه وشتموه .

وقيل : « ازدجر » : أى استطار عقله ، أى قوم نوح قالوا له ذلك .

فدعا ربه فقال : إني مغلوب ؛ أى بتسلط قومى على ؛ فلم يكن مغلوباً بالحجة لأن الحجة
كانت عليهم ، فقال نوح لله : اللهم فانتصر منهم أى انتقم .

(١) ما بين القوسين توضيح من جانبنا غير موجود في النص .

ففتحنا أبواب السماء بماء مُنْصَبٍّ ، وشَقَقْنَا عِيونًا بالماء ، فالتقى ماء السماء وماء الأرضِ
على أمرٍ قد قُدِّرَ في اللوح المحفوظ ، وَقُدِّرَ عَلَيْهِ يَاهِلَا كَهْم !

وفي التفاسير : أن الماء الذي نَبَعَ من الأرضِ نَضَبَ . والماء الذي نزل من السماء هو
البخارُ اليوم .

« وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ »

وحملنا نوحًا على « ذات ألواح » أى سفينة ، « ودسر » يعنى المسامير وهى جمع دسار
أى مسمار .

« تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرًا »

« بأعيننا » : أى بمرأى مِنَّا . وقيل : تَجْرَى بأولياننا .

ويقال : بأعين ملائكتنا الذين وكلناهم لحفظهم .

ويقال : بأعين الماء الذى أنبعناه من أوجه الأرض .

« جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرًا » : أى الذين كفروا بنوح^(١) .

قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ »

جعلنا أمرَ السفينةِ علامةً بَيِّنَةً لِمَنْ يَعتَبِرُ بِهَا .

« فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ » : فهل منكم من يعتبر ؟ . أمرهم بالاعتبار بها^(٢) .

قوله جل ذكره : « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٍ »

قالها على جهة انتعظيم لأمره .

وقد ذُكِرَ غصّة نوحٍ هنا على أفصح بيانٍ وأقصرِ كلامٍ وأتمِّ معنى^(٣) .

(١) يرى بعض المفسرين أن (الذى كُفِرَ) هو نوح عليه السلام لأنه مكفور به ، فكل نبي رحمة لأمنه ، فكان نوح رحمة مكفورة .

(٢) أى أن الاستفهام - بلغة البلاغيين - قد خرج عن معناه الأصلى إلى الأمر .

(٣) كأن التثنية يريد أن يوضح تعليلًا (لتكرار) قصة نوح . ونحن نعلم أن التثنية لا يستريح تمامًا
لمكرة القول بالتكرار في القرآن .

وكان نوح - عليه السلام - أطول الأنبياء عمراً ، وأشدّهم للبلاء مقاساةً

ثم إن الله - سبحانه - لما نجى نوحاً من بعد هلاك قومه وامتع أولاده ، فكل من على وجه الأرض من أولاد نوح عليه السلام . وفي هذا قوة لرجاء أهل الدين ، إذا لقوا في دين الله محنة ؛ فإن الله يهلك - عن قريب - عدوهم ، ويمكّنهم من ديارهم وبلادهم ، ويورثهم ما كان إليهم .

وكذلك كانت قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه ، وسنة الله في جميع أهل الضلال أن يُعزّ أوليائه بعد أن يزهد أعداءه .

قوله جل ذكره : « ولقد يسرنا القرآن للذّكر فهل من مُدّكر »

يسرنا قراءته على ألسنة الناس ، ويسرنا علمه على قلوب قويم ، ويسرنا فهمه على قلوب قويم ، ويسرنا حفظه على قلوب قويم ، وكلّهم أهل القرآن ، وكلّهم أهل الله وخاصته .

ويقال : كاشف الأرواح من قويم - بالقرآن - قبل إدخالها في الأجساد .

« فهل من مدكر » لهذا العهد الذي جرى لنا معه .

قوله جل ذكره : « كذّبت عاد فكيف كان عذابي

ونذّر » إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً

في يوم نحس مستمر * تنزعُ الناس

كلّهم أعجازُ نخلٍ منقعرٍ .

كذّبوا هوداً ، فأرسلنا عليهم « ريحاً صرصراً » أي : باردة شديدة الهبوب ، يُسمعُ

لها صوت .

« في يوم نحس مستمر » أي : في يوم شؤم استمرّ فيه العذابُ بهم ، ودام ذلك

فيهم ثمانية أيام وسبع ليال . وقيل : دأب الشؤم تنزع رياحه الناس عن حفرهم التي حفروها

حتى صاروا كأنهم أسافلُ نخلٍ مُنْقَطِعٍ . وقيل : كانت الريح تقتلع رؤوسهم عن مناكبهم
ثم تُلقِي بهم كأنهم أصولُ نخلٍ قطعت رؤوسها .

« ولقد يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ
مِنْ مُدِّكِرٍ ؟ » .

هَوَّنَا قِرَاءَتَهُ وَحَفِظَهُ ؛ فَلَيْسَ كِتَابٌ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ تَعَالَى يُقْرَأُ ظَاهِرًا إِلَّا الْقُرْآنُ .
قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * قَالُوا أَبَشَرًا
مِثَّنَا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ ؟ .. إِنَّا إِذَا لِفِي
ضَلَالٍ وَسُعُرٍ » .

هم قوم صالح . وقد مضى القولُ فيه ، وما كان من عقربهم للناقة . . إلى أن أرسل الله
عليهم صيحةً واحدةً أوجبت هذا الهلاك ، فَصَيَّرَهُمْ كَالْهَشِيمِ ، وهو اليابس من النبات ،
« المحتظر » : أى : المجمول في الحظيرة ، أو الحاصل في الحظيرة ^(١) ..

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ *
إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ
نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ * نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا
كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ » .

فأرسلنا عليهم « حاصبًا » : أى : حجارةً رُمُوا بها .
« كذلك نجزي مَنْ شَكَرَ » : أى : جعلنا لإنجائهم فى إهلاكِ أعدائهم .
وهكذا نجزي من شكر ؛ فمثل هذا تعاملٌ به مَنْ شَكَرَ نَمَتْنَا .
وَالشُّكْرُ عَلَى نِعَمِ الدِّفْعِ آتٍ مِنَ الشُّكْرِ عَلَى نِعَمِ النِّفْعِ — وَلَا يَعْرِفُ ذَلِكَ إِلَّا كُلُّ
مَوْفَّقٍ كَيْسٍ .

« فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ »

(١) يقصد القشيري أنها قد تقرأ بفتح الفاء وبكسر ها .

جاء جبريلُ ومَسَحَ بِجَنَاحِهِ عَلَى وُجُوهِهِمْ فَعَمُوا ، ولم يَهْتَدُوا^(١) للخروج — وكذلك أَجْرَى سُنَّتَهُ فِي أَوْلِيَائِهِ أَنْ يَطْمِسَ عَلَى قُلُوبِ أَعْدَائِهِمْ حَتَّى يَلْبِسَ عَلَيْهِمْ كَيْفَ يُؤْذُونَ أَوْلِيَائِهِ ثُمَّ يُخَلِّصُهُمْ مِنْ كَيْدِهِمْ .

قوله جل ذكره : « سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ » .

أخبر أنه يفعل هذا بأعداء الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحقَّق ذلك يوم بدر ، فصار ذلك من معجزاته صلوات الله عليه وسلامه^(٢) .

قوله جل ذكره : « يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ » .

سَحَبُهُمْ عَلَى الْوُجُوهِ أَمَارَةٌ لِإِذْلَالِهِمْ ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ مَرَّةً وَاحِدَةً لَكَانَتْ عَظِيمَةً — فكيف وهو التأييد والتخليد ؟ ! .

وكما أن أَمَارَةَ الذُّلِّ تَظْهَرُ عَلَى وُجُوهِهِمْ فَضْلَامَةٌ إِعْزَازٍ لِلْمُؤْمِنِينَ وَإِكْرَامُهُمْ تَظْهَرُ عَلَى وُجُوهِهِمْ ، قَالَ تَعَالَى : « وَجْوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ »^(٣) . وَقَالَ : « تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ »^(٤) .

قوله جل ذكره : « إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ »

أَيَّ بِقَدَرٍ مَكْتُوبٍ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ .

ويقال : خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ مَا عَلِمْنَا وَأَرَدْنَا وَأَخْبَرْنَا .

قوله جل ذكره : « وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ »

أَيَّ إِذَا أَرَدْنَا خَلَقَ شَيْءٌ لَا يَتَعَسَّرُ وَلَا يَتَعَذَّرُ عَلَيْنَا ، قَوْلُ لَهُ : كُنْ — فَيَكُونُ

(١) هكذا في م وهي في ص (لم يهتدوا) .

(٢) عن ابن عباس أن رسول الله (ص) قال وهو في قبة يوم بدر : اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن تشأ لا تمهد بعد اليوم — فأخذ أبو بكر يده فقال : حسبك يا رسول الله ، ألحمت على ربك فخرج وهو يقول : سيهزم الجمع ويولون الدبر (البخاري ج ٢ ص ١٢١) .

(٣) آية ٢٢ سورة القيامة .

(٤) آية ٢٤ سورة المطففين .

بقدرتنا . ولا يقتضى هذا استثناف^(١) قول^١ في ذلك الوقت ولكن استحقاق أن يقال لقوله القديم أن يكون أمراً لذلك المكون إنما يحصل في ذلك الوقت .

« كلمح بالبصر » : أى كما أن هذا القدر عندكم (أى قدر ما يلح أحدكم ببصره) لا تلحقكم به مشقة — كذلك عندنا : إذا أردنا نخلق شيئاً قل أو كثر ، صغراً أو كبيراً — لا تلحقنا فيه مشقة .

قوله جل ذكره : « ولقد أهلكنا أشياءكم فهل من مدكر » .

أى أهلكنا القرون التى كانت قبلكم فكلهم أمثالكم من بنى آدم ...
« وكل شئ فعلوه فى الزبر » .
فى اللوح المحفوظ مكتوب قبل أن يعمل^(٢) . وفى صحيفة الملائكة مكتوب . لا ينادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ..

« وكل صغير وكبير مستطر » .
كل صغير من الخلق ، وكل كبير من الخلق — تحترمه المنية .
ويقال : كل صغير من الأعمال وكبير مكتوب فى اللوح المحفوظ ، وفى ديوان الملائكة .

وتعريف الناس عما يكتبه الملائكة هو على جهة التخويف ؛ لئلا يتجاسر العبد على الزلة إذا عرف المحاسبة عليها والمطالبة بها .

قوله جل ذكره : « إن المتقين فى جنات ونهر » فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

(١) هكذا فى م — وحى — فى ص (استيفاء) وكلاهما يمكن أن يتقبله السياق . على معنى أن قوله القديم « كن » لا (يستأنف) عند خلق الحدث . وعلى معنى أنه لا يشترط أن يستوفى خلق الحدث الأمر بكن اكتفاء بقوله القديم — والله أعلم .

(٢) هكذا فى وهى من أصوب فى السياق من (يعمله) التى جاءت فى م لأن ما (فعلوه) التى فى الآية تؤدى إل ذلك .

لهم بساتين وأنهار ، والجمعُ إذا قوبل بالجمع فالأحادُ تُقابَلُ بالآحاد .
 فظاهرُ هذا الخطاب يقتضى أن يكون لكل واحدٍ من المتقين جنةٌ ونهرٌ .
 « في مقعد صدق » : أى فى مجلسِ صدقٍ .
 « عند ملكٍ مقتدر » : أراد به عِندِيَّةَ القُرْبَةِ والزَلَفَةِ .
 ويقال : مقعد الصدق أى مكان الصدق ، والصادق فى عبادته مَنْ لا يتعبدُ على ملاحظة
 الأطماع ومطالبة الأعواض .
 ويقال : مَنْ طلب الأعواض هتكتته الأطماع ، وَمَنْ صدَّق فى العبودية تحرَّرَ عن
 المقاصد الدنيئة .
 ويقال : مَنْ اشتغل بالدنيا حجبته الدنيا عن الآخرة ، وَمَنْ أَسْرَه نعيمُ الجنة حجبَ عن
 القيام بالحقيقة ، وَمَنْ قام بالحقيقة شغلَ عن الكون بجملته (١) .

(١) أرباب الحقيقة لا تشغلهم فكرة الثواب والعقاب على التحوالمألوف عند العابدين بنفوسهم . فجنَّتْهم
 الكبرى مى زوئيتهم لمحبوبهم ، ولم فى ذلك أقوال كثيرة شعراً ونثراً .. من ذلك :
 قول أبى على الروزبارى :

من لم يكن بك فانياً عن حبه	ومن الهوى والأنس بالأحباب
أو تيمة صباية جمعت له	ما كان مفترقاً من الأسباب
فكانه بين المراتب واقف	لنال حظاً أو لحسن مآب

ويقول الجنيد : كل محبة كانت لغرض إذا زال الغرض زالت تلك المحبة . ويقول يحيى بن معاذ :

إن ذا الحب لمن يفنى له	لا لدار ذات لهو وطرف
لا ولا الفردوس - لا يالفها -	لا ولا الخوراء من فوق عُرف

ويقول أسلم :

كلهم يعبدون من خوف نار	ويرون الجنان حظاً جزيلاً
ليس لى فى الجنان النار رأى	أنا لا أبتنى بهى بدىلاً

(انظر كتابنا « نشأة التصوف الإسلامى » ط المعارف ص ١٩٥ ، ص ١٩٦) .

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » : إخبارٌ عن عِزِّه وعظمته .

« الرحمن الرحيم » : إخبارٌ عن فضله ورحمته .

فبشهود عظمته يكمل سرورُ الأرواح ، وبوجود رحمته يحصل نعيمُ الأشباح . ولولا عظمته لما عبدَ الرحمنَ عابداً ولولا رحمته لما أحبَّ الرحمنَ واحداً .

قوله جل ذكره : « الرحمن * عَلَّمَ الْقُرْآنَ » .

أى الرحمن الذى عَرَفَهُ الموحِّدون وجَحَدَهُ الكافرون هو الذى عَلَّمَ الْقُرْآنَ . ويقال : الرحمن الذى رحمهم ، وعن الشُّرك عَصَمَهُم ، وبالإيمان أكرمهم ، وكلمة التقوى ألزمهم — هو الذى عَرَفَهُم بِالْقُرْآنِ وَعَلَّمَهُم .

ويقال : انفرد الحقُّ بتعليم القرآن لعباده .

ويقال : أجرى الله تعالى سُنَّتَهُ أنه إذا أعطى نبينا صلى الله عليه وسلم شيئاً^(١) أَشْرَكَ أُمَّتَهُ فيه^(٢) على ما يليق بصفاتهم ؛ فلما قال له (صلعم) : « وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ »^(٣) . قال لأُمَّتِهِ : « الرحمن * عَلَّمَ الْقُرْآنَ » .

ويقال : عَلَّمَ الله آدمَ الأسماءَ كُلَّهَا ثم أمره بِعَرْضِهَا على الملائكة وذكر آدمُ ذلك لهم — قال تعالى : « أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ » يا آدمُ ، وَعَلَّمَ (نَبِيُّنَا صلى الله عليه وسلم)^(٤)

(١) (شيئاً) غير موجودة في م . وموجودة في ص — والسياق يقوى بها .

(٢) هكذا في ص وهي في م (فيه أمته) .

(٣) « وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ » آية ١١٣ سورة النساء .

(٤) ما بين القوسين إضافة من جانبنا ليتضح السياق .

المسلمين^(١) القرآن فقال صلى الله عليه وسلم : « لا صلاة إلا بقائمة الكتاب ، والمُصَلَّى مُنَاجٍ رَبَّهُ » قال لآدم : أَذْكَرُ مَا عَلَّمْتُكَ للملائكة . وقال لنا : نَاجِي يَاعْبُدِي بِمَا عَلَّمْتُكَ^(٢) . وقد يُلاطَفُ مع أولاد الخدم بما لا يُلاطَفُ به آبائهم .

ويقال : لَمَّا عَلَّمَ آدَمَ أَسْمَاءَ المخلوقاتِ قال له : أَخْبِرِ الملائكةَ بذلك ، وَعَلَّمْنَا كَلَامَهُ وَأَسْمَاءَهُ قَالَ : إقْرَأُوا عَلَيَّ وَخَاطِبُوا بِهِ مَعِيَ .

ويقال : عَلَّمَ الأرواحَ القرآنَ — قَبْلَ تركيبها في الأجساد بلا واسطة^(٣) ، والصبيانُ إِنَّمَا يُعَلِّمُونَ القرآنَ — فِي حَالِ صِغَرِهِمْ — قَبْلَ أَنْ عَرَفَتْ أرواحُنَا أَحَدًا ، أَوْ سَمِعْنَا مِنْ أَحَدٍ شَيْئًا . . عَلَّمْنَا أَسْمَاءَهُ :

أَنَا فِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى فَصَادَفَ قَلْبِي فَارْغًا فَتَمَكَّنَا
ويقال : سَقِيًّا لِأَيَّامٍ مَضَتْ — وَهُوَ يُعَلِّمُنَا الْقُرْآنَ .

ويقال : بِرَحْمَتِهِ عَلَّمَهُمُ الْقُرْآنَ ؛ فَبَرَحْتَهُ وَصَلُوا إِلَى الْقُرْآنِ — لَا بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ يَصِلُونَ إِلَى رَحْمَتِهِ .

قوله جل ذكره : « خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ » .
« الْإِنْسَانُ » : هَاهُنَا جِنْسُ النَّاسِ ؛ عَلَّمَهُمُ الْبَيَانَ حَتَّى صَارُوا مُتَمَيِّزِينَ^(٤) — فَافْضَلُوا بِالْبَيَانِ عَنْ جَمِيعِ الْحَيَوَانِ . وَعَلَّمَ كُلَّ قَوْمٍ لِسَانَهُمُ الَّذِي يَتَكَلَّمُونَ وَيَتَخَاطَبُونَ بِهِ .
وَالْبَيَانُ مَا بِهِ تَبَيَّنَ الْمَعْنَى — وَشَرَحَهُ فِي مَسَائِلِ الْأَصُولِ .

ويقال : لَمَّا قَالَ أَهْلُ مَكَّةَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ رَدَّ اللَّهُ — سَبْحَانَهُ — عَلَيْهِمْ وَقَالَ : بَلْ عَلَّمَهُ اللَّهُ ؛ فَالْإِنْسَانُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ هُوَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَقِيلَ هُوَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ .
ويقال : الْبَيَانُ الَّذِي خُصَّ بِهِ الْإِنْسَانُ (عَمُومًا) يَعْرِفُ بِهِ كَيْفِيَّةَ مُخَاطَبَةِ الْأَغْيَارِ مِنَ الْأَمْثَالِ وَالْأَشْكَالِ . وَأَمَّا أَهْلُ الْإِيمَانِ وَالْمَعْرِفَةِ فَبَيَانُهُمْ هُوَ عِلْمُهُمْ كَيْفِيَّةَ مُخَاطَبَةِ مَوْلَاهُمْ — وَبَيَانُ

(١) هَكَذَا فِي م وَهِيَ فِي ص (الْمُسْلِمُونَ) وَهِيَ خَطَأٌ فِي النُّسخِ .

(٢) أَنْظَرْ كِتَابَنَا (الْبَسِيلَةَ بَيْنَ أَهْلِ الْعِبَادَةِ وَأَهْلِ الْإِشَارَةِ) وَرَأَيْنَا فِي مَعْنَى (الرَّحْمَنِ) .

(٣) إِشَارَةٌ إِلَى يَوْمِ الدَّرَجَةِ .

(٤) يَتَشَدَّدُ الْهَيَاءُ وَفَتْحُهَا عَلَى مَعْنَى أَنَّ الْبَيَانَ عَلَامَةٌ تُمَيِّزُهُمْ عَنْ سَائِرِ الْحَيَوَانِ ، وَبِكَمَرِهَا عَلَى مَعْنَى أَنَّ الْبَيَانَ وَسِيلَةٌ أَنْفَرَدَ بِهَا الْإِنْسَانُ لِلتَّعْبِيرِ عَمَّا تَكُنْهُ نَفْسُهُ لِتَمَيِّيزِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ .

العبيد مع الحق مختلف : قومٌ يخاطبونهُ بلسانهم ، وقومٌ بأنفاسهم ، وقومٌ بدموعهم :

دموعُ الفتي عمّا يحسُّ تترجمُ وأشواقه تبدين ما هو يكرم

وقومٌ بأنينهم وحنينهم :

قلْ لي بالسنة التنفس كيف أنت وكيف حالك ؟

قوله جل ذكره : « الشمسُ والقمرُ بحُسابٍ » .

يعنى يجرى أمرهما على حدٍّ معلومٍ من الحساب . في زيادة الليل والنهار ، وزيادة القمر ونقصانه ، وتُعرفُ بجريانهما الشهورُ والأيامُ والسنون والأعوام . وكذلك لهما حساب إذا انتهى ذلك الأجلُ . . فالشمسُ تُكَوِّرُ والقمرُ يَنكَدِرُ .

وكذلك لشمس^(١) المعارفِ وأقمارِ العلوم — في طلوعها في أوج^(٢) القلوبِ والأسرار — في حكمة الله حسابٌ معلومٌ ، يُجريها على ما سبق به الحكمُ .

قوله جل ذكره : « والنجمُ والشجرُ يسجدان » .

ويقال : النجم من الأشجار : ما ليس له ساق^(٣) ، والشجر : ماله ساق .

ويقال : النجومُ المطالعةُ والأشجارُ الثابتةُ « يسجدان » سجودَ دلالة على إثبات الصانع بنعت استحقاقه للجلال .

قوله جل ذكره : « والسماءُ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ » .

سَمَكَ السماءَ وأعلاها ، وعلى وصفِ الإِتيانِ والإحكامِ بناها ، والنجومَ فيها أجراها ، وبثَّ فيها كواكبها ، وحفظَ عن الاختلالِ مناكبها ، وأثبتَ على ما شاء مشارقها ومغاربها . . وخلقَ الميزانَ بين الناس ليعتبروا الإنصافَ في المعاملاتِ بينهم .

ويقال : الميزانُ العَدْلُ .

« أَلَا تَطْفَؤُنَا فِي الْمِيزَانِ »

(١) هكذا بالمفرد في م وهي في ص بالجمع (شموس) ونرجح أنها بالمفرد حسبما نعرف من أسلوب القشيري فشمس الحقائق واحدة إذا طلعت غطت نورها أقمار العلوم .

(٢) هكذا في ص وهي أصوب مما جاء في م (روح) فلا معنى لها هنا .

(٣) لأنه ينجم عن الأرض بلا ساق مثل البقول (النسني - ٤ ص ٢٠٧) .

احفظوا المدل في جميع الأمور؛ في حقوق الأدميين وفي حقوق الله، فيعتبر المدل، وترك الحيف ومجاوزة الحد في كل شيء؛ ففي الأعمال يُعتبر الإخلاص، وفي الأحوال الصدق، وفي الأنفاس الحقائق ومساواة الظاهر والباطن وترك المداينة والخداع والسكر ودقائق الشرك وخفايا النفاق وغوامض الجنيات .

« وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » .

(وأقيموا الوزن بالكيل الذي تحبون أن تُسكّلوا به ، وعلى الوصف الذي ترجون أن تنالوا به مطعمكم ومشربكم دون تطفيف)^(١) .

قوله جل ذكره : « والأرض وضعها للأنام * فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام * والحب ذو العصف والريحان » .

خلق الأرض وجعلها مهاداً ومشوى للأنام .

ويقال : وضعها على الماء وبسط أقطارها ، وأنبت أشجارها وأزهارها ، وأجرى أنهارها وأغطش ليلاً وأوضح نهارها .

« فيها فاكهة . . » يعني ألوان الفاكهة المختلفة في ألوانها وطعومها وروائحها ونفعها وضررها ، وحرارتها وبرودتها . . وغير ذلك من اختلاف في حبها وشجرها ، وورقها ونورها .

« والنخل ذات الأكمام » وأكمام النخل ليفها وما يُغطّيها من السعف .

« والحب » : حب الحنطة والشعير والعدس وغير ذلك من الحبوب .

« ذو العصف » : والعصف ورق الزرع^(٢)

(١) ما بين القوسين مضطرب في النص حاولنا تنظيحه ليعطى معنى .

(٢) قال الضحاك : العصف التين ، وقال بعضهم العصف هو المأكول من الحب ، والريحان النضيج الذي لم يؤكل . وقال أبو مالك : العصف أول ما ينبت تسمي النبط هبوراً . وقال بعضهم : العصف ورق الحنطة . (البخاري ٣ ص ١٣١) . وسميت الرياح حواصف لأنها تأتي بالعصف وهو ورق الزرع وحطامه .

« والريحان » الذى يُشَمُّ . . . ويقال : الرزق لأن العرب تقول : خرجنا نطلب ريحان الله ،
ذكرهم عظيم منته عليهم بما خالق من هذه الأشياء التى يفتنون بها من مأكولات
ومشروبات وغير ذلك .

قوله جل ذكره : « فبأى آلاء ربكما تكذبان »

فبأى آلاء ربكما تمجدان ؟ والآلاء النعماء .

والثنية فى الخطاب للمُسكِّفَيْن من الجن والإنس .

ويقال : هى على عادة العرب فى قولهم : خللى ، وقفا ، وأرحلها باغلام ، وأزجراها
باغلام .

قوله جل ذكره : « خلق الإنسان من صلصال كالفخار »

« الإنسان » : يعنى آدم ، والصلصال الطين اليابس الذى إذا حرك صوت كالفخار .
ويقال : طين مخلوط بالرمل .

ويقال : مُنْتَنٌ ؛ من قولهم صل وأصل إذا تغير .

« وخلق الجن من مارج من نار »

المارج : هو اللهب المختلط بواد النار

« فبأى آلاء ربكما تكذبان »

يذكر الخلق من الجن والإنس كما سبق — وكرر الله سبحانه هذه الآية فى غير موضع
على جهة التبرير بالنعمة على التفصيل ، أى نعمة بعد نعمة .

ووجه النعمة فى خلق آدم من طين أنه رقاہ إلى رتبته بعد أن خلقه من طين .

ويقال ذكر آدم نسبه وذكرنا نسبنا لثلاث نجب بأحوالنا .

ويقال عرفه قدره لثلاث عمدى ^(١) مطورة .

(١) مكداى سر وهى فى م (لا يمدو) .

قوله جل ذكره : « رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ » فَبَأَى
آلَاءَ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ .

« المشرقين » : مشرق الصيف ومشرق الشتاء وكذلك مغربيهما .

ووجه النعمة في ذلك جريانها على ترتيب واحد حتى يكمل انتفاع الخلق بهما .
ويقال : مشرق القلب ومغرب ، وشوارق القلب وغواربه إنما هي الأنوار والبصائر
التي جرى ذِكْرُ بعضها فيما مضى .

قوله جل ذكره : « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ » بينهما بَرْزَخٌ
لا يَبْغِيَانِ .

« برزخ » أى حاجز بقدرته لئلا يغلّب أحدهما الآخر ، أراد به البحر العذب والبحر
الملح . ويقال : لا يبغيان على الناس ولا يفرقانه .

« يُخْرِجُ مِنْهَا اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ »

اللؤلؤ : كبار الدرّ ، والمرجان : صغار الدرّ . ويقال : المرجان النّمل .

وفي الإشارة : خَلَقَ في القلوب بحرين : بحر الخوف وبحر الرجاء . ويقال القبض والبسط
وقيل الهيبة^(١) والأنس . يُخْرِجُ منها اللؤلؤ والجواهر وهي الأحوال الصافية واللطائف المتوالية .

ويقال : البحران . إشارة إلى النفس والقلب ، فالقلب هو البحر العذب والنفس هي البحر
الملح . . فن بحر القلب كلُّ جوهر ثمين ، وكلُّ حالة لطيفة . . ومن النفس كل خلق
ذميم^(٢) . والدرّ من أحد البحرين يخرج ، ومن الثاني لا يكون إلا التماسيح مما لا تحذر له
من سواكن القلب . « بينهما برزخ لا يبغيان » : يصون الحق هذا عن هذا ، فلا يبغي هذا
على هذا .

قوله جل ذكره : « وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ
كَالْأَعْلَامِ »

« الجوارى » : واحدها جارية ، وهي السفينة .

(١) هكذا في م وهي الصواب أمّا في ص فهي (المهيطة) وهي خطأ في النسخ .

(٢) النفس عند الصوفية محل المملولات والقلب محل المحمودات .

« الأعلام » : الجبال

(له هذه السفن التي أنشئت وخلقت في البحر كأنها الجبال العالية)^(١) .

قوله جل ذكره : « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ »

كل من على وجه الأرض في حكم الفناء من حيث الجواز . ومن حيث الخبر : ستفنى الدنيا ومن عليها و يبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام . « والوجه » : صفة لله — سبحانه — لم يدل عليه العقل قطعاً ودل عليه جوازاً ، وورد الخبر بكونه قطعاً .

ويقال : في بقاء الوجه بقاء الذات ، لأن الصفة لا تقوم بنفسها ، ولا محالة شرطها قيامها بنفسه وذاته . وفائدة تخصيص الوجه^(٢) بالذكر أن ما عداه يُعرَفُ بالعقل ، والوجه لا يُعَلَمُ بالعقل ، وإنما يُعرَفُ بالنقل والأخبار . و « يبقى » : وفي بقاءه . سبحانه . خَلَفَ عن كل تلفٍ^(٣) ، وتسليّةً للمسلمين عما يصيبهم من المصائب ، ويفوتهم من المواهب . قوله جل ذكره : يسأله مَنْ في السموات والأرض كُلٌّ يوم هو في شأن .

أهل السموات يسألون أبدأً للمفجرة ، وأهل الأرض يسألونه الرزق والمفجرة ، أى لا بُدَّ لأحدٍ منه (سبحانه) .

وفي السموات والأرض مَنْ لا يسأله : وهم مَنْ قيل فيهم : مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرُى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين^(٤) .

ويقال : ليس كلُّ مَنْ في السموات والأرض يسألونه مِمَّا في السموات والأرض ولكن :

بين المحبين سِرٌّ ليس يُفْشِيهِ قَوْلٌ وَلَا قَلَمٌ لِلخَلْقِ يَحْكِيهِ

(١) ما بين القوسين مستدرك في هامش الورقة بالنسخة ص

(٢) سقطت لفظة (الوجه) من النسخة م .

(٣) هكذا في م وهي في ص (تالف) وهي صحيحة ولكن السياق والموسيقى الداخلية تتأكد بـ (تلف) .

(٤) « من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » رواه البخارى في التاريخ ، والبراز

في المستند ، والبيهقى في الشعب من حديث عمر بن الخطاب .

« كل يوم هو في شأن » من إحياء وإماتة ، وقبض قوم وبسط قوم . . . وغير ذلك من فنون المخلوقات ، وما يُجرِّيه عليها من اختلاف الصفات .

وفي الآية ردُّ على اليهود حيث قالوا : إنَّ اللهَ يستريح يومَ السبت لا يفعل شيئاً ، فأخبر أنه كل يوم هو في شأن ، ولو أُخْلِى العالم لحظةً من حفظه لتلاشى وبطل .

(ومن شأنه أن يغفر ذنباً ، ويستتر عيباً ، ويذهب كرباً)^(١) ، ويطيِّب قلباً ، ويُقصي عبداً ويُدني عبداً ... إلى غير ذلك من فنون الأفعال . وله مع عباده كل ساعة برٌّ جديدٌ ، وسِرٌّ^(٢) بينه وبين عبده — عن الرقباء — بعيد .

ويقال : كل يوم هو في شأنٍ سَوَّقِ المقادير إلى أوقاتها .

ويقال : كل يوم هو في شأنٍ إظهارٍ مستورٍ وسرٍّ ظاهرٍ ، وإحضارٍ غائبٍ وتغييبٍ حاضرٍ .

قوله جل ذكره : « سَتَقَرُّ لَكُمْ آيَةُ الثَّقَلَانِ »^(٣) .

أى للحساب يوم القيامة — وليس به اشتغال ... تعالى اللهُ عن ذلك .

ومعنى الآية : سنقصّد لحسابكم .

قوله جل ذكره : « يَا مَعْشَرَ الْخَنِيسِ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ

أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ

إِلَّا بِسُلْطَانٍ » .

أقطارُ السمواتِ والأرضِ نواحيها . أى إن قدرتم أن تخرجوا من ملكه فخرجوا .

(١) هذا الرأي أيضاً لأبي الدرداء (البخاري ج ٣ ص ١٣١) .

(٢) هكذا في م ، أما في ص فهي (يُسْمَر) وقد رجعنا الأولى لأن (السر) يكون بعيداً عن الرقباء .

(٣) (الثقلان) = الإنس والجن سُمِّيَا بذلك لأنهما ثَقَلَا الأرض .

ثم قال : « لا تنفذون إلا بسلطان » . أى لا تصلون إلى موضع إلا وهناك سلطانى ومُنكى ولا تنفذون فى قُطرٍ إلا وهناك عليكم حجة^(١) .

قوله جل ذكره : « يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ » .

أى فلا تنتهتان . والشواظُ : اللَّهَبُ من النار لا دخانَ معه . والنحاسُ : الصُّفْرُ^(٢) المذاب قوله جل ذكره : « فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ » .

ينفك بعضها عن بعض وتصير فى لون الورد الأحمر . ويقال : بها القُرُشُ الموردة كالدهان وهو جمع دهن . أى كدهن الزيت وهو دردى الزيت .

ويقال : كما أن الوردة يتلون لونها ، إذ تكون فى الربيع إلى الصفرة ، فإذا اشتدت الوردة كانت حمراء ، وبعد ذلك إلى الغبرة — فكذلك حال السماء تتلون من وصفٍ إلى وصفٍ فى القيامة .

قوله جل ذكره : « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ » .

أراد فى بعض أحوال^(٣) القيامة لا يسألون ، ويسألون فى البعض فى يوم القيامة طويلاً .

ويقال : لما كانت لهم يومئذٍ علامات : فلكفارٍ سوادُ الوجه وزُرْقَةُ العين ، وللمسلمين بياض الوجه وغير ذلك من العلامات — فالملائكة لا يحتاجون إلى سؤالهم : من أنتم ؟ لأنهم يعرفون كُلاًّ بسيماهم .

(١) هكذا فى م وهى فى ص (وجهه) . فإذا قبلنا (حجة) فيكون المعنى أنكم أينما توجهتم فى بقاع السموات والأرض فستجدون دائماً برهاناً على وحدانية الله ، وشاهداً على ربوبيته . وإذا قبلنا (وجهه) فهى على معنى : « فأينما تواوا فثم (وجه) الله » .

(٢) الصفرة = النحاس الأصفر .

(٣) أحوال القيامة هنا بمعنى مواطن القيامة فى ذلك اليوم الطويل . وربما كانت (أحوال) .

ويقال : لا يُسألون سؤالاً يكون لهم ويُسألون^(١) سؤالاً يكون عليهم^(٢) .
قوله جل ذكره : « يُعَرِّفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيَامِهِمْ فَيُؤْخَذُ
بِالنَّوَاصِي وَالْأُقْدَامِ » .
المؤمنون غُرَّةً مُتَجَبِّلُونَ ، وَالسَّكَّارُ سُودُ الْوُجُوهِ زُرْقُ الْعَيُونِ ، فيعرف الملائكة هؤلاء
فيأخذون بنواصيهم ، ويَجْرُونَهم مرةً بها ومرةً بأقدامهم ثم يلقوهم في النار ، ويطرحونهم
في جهنم :
« هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ
• يطوفون فيها وبين حميم آن » .

يقال لهم : هذه جهنم التي كنتم بها تكذبون !
« حميم » : ماء حارٌّ . « آن » تنامي في النضج
قوله جل ذكره : « وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ »
يقال : لِمَنْ خَافَ قُرْبَ رَبِّهِ مِنْهُ واطلاعه عليه .
ويقال : لمن خاف وقوفه غداً بين يدي الله — جنتان ، ولفظة التثنية هنا على العادة في قولهم :
خليلى ونحوه .
وقيل : بل جنتان على الحقيقة ، مُعَجَّلَةٌ في الدنيا من حلاوة الطاعة وروح^(٣) الوقت ،
ومؤجَّلَةٌ في الآخرة وهي جنة الثواب . ثم هم مختلفون في جنات الدنيا على مقادير أحوالهم كما
يختلفون في الآخرة على حسب درجاتهم .

« ذَوَاتَا أَفْنَانٍ » فبأى آلاء ربكما تكذبان

فيهما غينان تجريان .

دلَّ على أن الجنتين في الآخرة . والأفنان الأغصان . وهي جمع قن .

(١) سقطت (ويسألون) هذه من م وموجودة في ص وهي ضرورية .
(٢) هذه المحاولات التي بلغها القشيري مقصود منها - حسبنا نظر - التوفيق بين هذه الآية وبين آيات أخرى
مثل : « فوريك لنساءهم أجمعين » ومثل « وقومهم إنهم يستولون » .
ومن قبيل هذه المحاولات قول قتادة : « حسب الله على أفواه القوم وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » .
(٣) هكذا في م وهي في ص (بروح) .

ويقال : ذواتنا ألوانٍ من كلِّ صنفٍ ولونٍ تشبهه النفسُ والعينُ — وتكون جمع فن .
 « فيهما عينان تجريان » إحداهما التسنيم ، والأخرى السلسيل .
 ويقال : عينان تجريان غداً لمن كان له — اليوم — عينان تجريان بالدموع .
 « فيهما من كلِّ فاكهةٍ زوجان » .
 زوجان أى صنفان وضربان ؛ كالرطب واليابس ، والعنب والزبيب .
 ويقال : إنها في نهاية الحسن والجودة .

« مُتَكئين على فُرُشٍ بطائنها من
 إستبرقٍ وجنىّ الجنتين دانٍ » .

بطائنها من استبرق فكيف بظواهرها ؟ . « والبطائن » : ما يلي الأرض . « والاستبرق » :
 الديباج الغليظ . وإنما خاطبهم على قدرِ فهمهم ؛ إذ يقال إنه ليس في الجنة شيء مما يشبه ما في
 الدنيا ، وإنما الخطاب مع الناس على قدرِ أفهامهم^(١) .

« وجنى الجنتين دان » : أى ما يجتنى من ثمرها — إذا أرادوه — دنا إلى أفواههم فتناولوه
 من غير مَشَقَّةٍ تناولهم . وفي الخبر المسند : « مَنْ قَالَ سبحانَ الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله
 أكبر غَرَسَ الله له شجرةً في الجنة أصلها الذهب وفرعها الدر وطلعها كثردى الأبيكار ألين
 من الزبد وأحلى من العسل ، كلما أخذ منها شيئاً عاد كما كان » — وذلك قوله : ودنا
 الجنتين دان .

ويقال : ينالها القائم والقاعد والنائم .

قوله جل ذكره : « فيهن قاصراتُ الطرفِ لم يطمثهنَّ
 إنسٌ قبلهنَّ ولا جانٌ » .

أى في الجنان حورٌ قَصَرْنَ عيونهن عن غير أزواجهن .
 وإذا كانت الزوجات قاصراتِ الطرفِ عن غير أزواجهن فأولى بالعبد إذ رجا لقاءه
 — سبحانه — أن يقصر طرفه ويفضّه عن غير مُباحٍ .

(١) هذا رأى على حاسب كبير من الأهمية يوضح مدى تصور القشيري لنعيم الجنة وابتعادها عن المحسات .

بل عن الكل . . إلى أن يلقاه .

ويقال : من الأولياء مَنْ لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ — وإن أُبِيحَ لَهُ ذَلِكَ لِتَحَرُّرِهِ عَنِ الشَّهَوَاتِ ، وَلَعَلَّ هِمَّتَهُ عَنِ الْمَخْلُوقَاتِ ^(١) — وَأَنْشَدُوا :

جُنُنًا بَلَيْلَى وَهِيَ جُنْتُ بَغِيرِنَا

وَأُخْرَى بِنَا مَجْنُونَةٌ لَا نُرِيدُهَا

ويقال : هُنَّ لَمَنْ قَصُرَتْ يَدُهُ عَنِ الْحَرَامِ وَالشَّبَهَةِ ، وَطَرَفُهُ عَنِ الرَّبِّ .

« لَمْ يَطْمَئِنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانُ » : لَمْ يَصْحَبْنِ غَيْرُ الْوَلِيِّ وَلَمْ يَحْزَنْ غَيْرَهُ ، وَفِي الْخَبَرِ .
اشْتَاقَتِ الْجَنَّةُ لثَلَاثَةٍ ^(٢) .

« كَانِهِنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ » .

أى : فِي صِفَاءِ الْيَاقُوتِ وَلَوْنِ الْمَرْجَانِ .

قوله جل ذكره : « هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ؟ » .

يقال : الْإِحْسَانُ الْأَوَّلُ مِنَ اللَّهِ وَالثَّانِي مِنَ الْعَبْدِ ؛ أَى : هَلْ جَزَاءُ مَنْ أَحْسَنَّا إِلَيْهِ بِالنَّصْرَةِ إِلَّا أَنْ يُحْسِنَ لَنَا بِالْخِدْمَةِ ؟ وَهَلْ جَزَاءُ مَنْ أَحْسَنَّا إِلَيْهِ بِالْوَلَاءِ إِلَّا أَنْ يُحْسِنَ لَنَا بِالْوَفَاءِ ؟ .
وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الْإِحْسَانُ الْأَوَّلُ مِنَ الْعَبْدِ وَالثَّانِي مِنَ اللَّهِ ؛ أَى : هَلْ جَزَاءُ مَنْ أَحْسَنَ مِنْ حَيْثُ الطَّاعَةِ إِلَّا أَنْ يُحْسِنَ إِلَيْهِ مِنْ حَيْثُ الْقَبُولِ وَالثَّوَابِ ؟ .

وَهَلْ جَزَاءُ مَنْ أَحْسَنَ مِنْ حَيْثُ الْخِدْمَةِ إِلَّا أَنْ يُحْسِنَ إِلَيْهِ مِنْ حَيْثُ النِّعْمَةِ ؟
وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الْإِحْسَانُ مِنَ الْحَقِّ ؛ أَى : هَلْ جَزَاءُ مَنْ أَحْسَنَّا إِلَيْهِ فِي الْإِبْتِدَاءِ إِلَّا أَنْ يُحْسِنَ إِلَيْهِ فِي الْإِتِّهَاءِ ؟ وَهَلْ جَزَاءُ مَنْ فَاتَحْنَاهُ بِاللُّطْفِ إِلَّا أَنْ تُرَبِّيَ لَهُ فِي الْفَضْلِ وَالْعَطْفِ ؟ .

(١) يضاف هذا الكلام إلى رأى القشيري في موضوع « الرخصة » .

(٢) إن الجنة تشاق إلى ثلاثة : على وعمار وسلمان .

(الترمذي عن أنس ، ورواه الطبراني ورجال رجال الصحيح غير أبي ربيعة الأيادي . وقد حسن الترمذي حديثه . قاله الحافظ الهيثمي) ورجح أن الموضع الصحيح للخبر هو بعد النص الشعري السابق ، ورجح أيضاً أن السبب في استشهاد القشيري بهذا الخبر هتا هو إثبات اشتياق الجنة لأهل الخصوص ، بينما هؤلاء الزهاد الثلاثة لا أرب لهم في الدارين ، لأنهم باقون بربهم .

ويصح أن يكون كلاهما من العبد ؛ أى : هل جزاء من آمن بنا إلا أن يثبت في المستقبل على إيمانه ؟ وهل جزاء من عقد معنا عقد الوفاء إلا أن يقوم بما يقتضيه بالتفصيل ؟ .

ويقال : هل جزاء من بعد عن نفسه إلا أن تُقرب به منّا ؟

وهل جزاء من فني عن نفسه إلا أن يبقى بنا ؟ .

وهل جزاء من رفع لنا خطوة إلا أن نكافئه بكل خطوة ألف خطوة ،

وهل جزاء من حفظ لنا طريقه إلا أن نُكرمه بلقائنا ؟ .

قوله جل ذكره : « ومن دونهما جنتان » .

هما جنتان غير هاتين اللتين ذكرنا ؛ جنتان أخريان . وليس يريد دونهما في الفضل ،

ولكن يريد « جنتان » سواهما^(١) .

« مدهامتان » .

أى : خضراوان خضرة تضرب إلى السواد . فالدهمة السواد^(٢) والفعل منه ادهام والاسم منه مدهام ، والمؤنث مدهامة ، ولشبهة المؤنث مدهامتان .

« فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَا » :

والتضخ قوران العين بالماء .

« فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ »

الأسماء متشابهة . . والعيون^(٣) فلا .

« فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ » .

(١) قارن ذلك برأى النفس الذى يقول : هما جنتان من دون تينك الجنتين الموعودتين المقربين وهما لمن دونهم من أصحاب اليمين . وفي موضع آخر من تصفحة ذاتها يقول النفس : وإنما تقاصرت صفات هاتين الجنتين عن الأوليين لأن مدهامتان دون (ذواتا أفنان) ونضاختان دون (تجريان) وفاكهة (دون كل فاكهة) (النفس ح) ص ٢١٣ .

(٢) هذا رأى الخليل أيضاً .

(٣) ربما يقصد القشيري (و الأعيان) فهذا هو الاصطلاح المؤلف استعماله في علمي الفلسفة والكلام - بل إن القشيري نفسه يستعمله في مثل هذا الموضع . والمقصود أن القرآن يتحدث عن نعم الجنة حسب أفهام الناس ، ولكن الأعيان غير الأسماء .

أى : حورٌ خَيْرَاتُ الأخلاقِ حَسَانُ الوجوه . واحدهما خَيْرَةٌ والجمع خَيْرَاتٌ وهذا هو الأصل
ثم خَفَّفَ فصارت خيرات .

« حُورٌ مقصوراتٌ في الخيام » .

محبوسات على أزواجهن . وهُنَّ لِمَنْ هو مقصورٌ الجوارح عن الزَّلَّاتِ ، مقصورٌ القلب
عن الغفلات ، مقصور السَّرُّ عن مساكنة الأشكال والأعلال والأشباه والأمثال .

وفي بعض التفاسير : أن الخيمة من دُرَّةٍ مجوفة فرسخ في فرسخ لها ألف باب^(١) .
ويقال : قصرت أنفسهن وقلوبهن وأبصارهن على أزواجهن . وفي الخبر : أنهن يلقن : نحن
الناعمات^(٢) . فلا نبؤس ، الخاللات فلا نبيد ، الراضيات فلا نسخط .

وفي خبر عن عائشة رضي الله عنها : أن المؤمناتِ أُجِبْنَهُنَّ : نحن المصلياتُ وما صَلَّيْتُنَّ ،
ونحن الصائماتُ وما صُمِّمْتُنَّ ، ونحن المتصدقاتُ وما تَصَدَّقْتُنَّ ، قالت عائشة يغلبهن قوله .
« لَمْ يَعْلَمِيَهُنَّ^(٣) إِنْ سَبَقَتْ لَهُمْ وَلَا جَانٌّ » .

قوله جل ذكره : « مُتَكِنِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ
وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ » .

قيل : رياض الجنة ، وقيل : المجالس ، وقيل : الزرابي والوسائد — وهي خُضِرٌ وعَبْقَرِيٌّ
حسان : العبقري عند العرب كلُّ ثوبٍ مُوَشَّى .

قوله جل ذكره : « تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » .

مضى تفسيره .

(١) حدثنا محمد بن المنثري قال : حدثنا عبد العزيز بن عبد الصمد : حدثنا أبو عمران الجوني عن أبي بكر بن عبد الله
ابن نيس عن أبيه : أن رسول الله (ص) قال : إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلاً في كل زاوية
منها أهل ما يرون الآخريين يطوف عليهم المؤمنون .. البخاري ٣٨ ص ١٣٢ . وذكر ابن جرير الطبري أن الخيمة
لؤلؤة أربعة فراسخ في أربعة فراسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب (٢٧٨ ص ٨٤) .

(٢) «نحن الناعمات فلا نبؤس أبداً ، نحن الخاللات فلا نموت أبداً ..» رواه الترمذي عن علي ، وقال :
حديث غريب . ورواه البيهقي . وأبو نعيم عن أبي أوفى في صفة الجنة ، وذكره الصراح في اللمع ص ٣٤٥

(٣) الطمث : الجماع بالتهمة

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بِسْمِ اللَّهِ » : اسم جبار من اعتنى بشأنه أحضره بإحسانه ، فإنَّ أُنْبِيَاءَ تَمَادِيَا فِي عَصِيَانِهِ حَالٌ يَفْنَى وَيَبِينُ اخْتِيَارُهُ ^(١) بِقَهْرِ سُلْطَانِهِ ، وإنَّ لَمْ يَلْزَمْ هَذِهِ ^(٢) الطَّاعَةُ أَتَجَاءُ بِالْبَلَاءِ فَيَأْتِيهَا بِاضْطِرَارِهِ .

اسمٌ عَزِيزٌ أَزَلِيٌّ ، جَبَّارٌ صَدِيدٌ ، قَهَّارٌ أَحَدِيٌّ ، لِلْمُؤْمِنِينَ وَلِيٌّ ، وَبِالْعَاصِينَ حَقِيٌّ ، لَيْسَ لِحَالِهِ كَفِيٌّ ، وَلَا فِي جَلَالِهِ سَمِيٌّ ، لَكِنَّهُ ^(٣) لِلْعَصَاةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيٌّ .

قوله جل ذكره : « إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لَوْقَعَتِهَا كَاذِبَةٌ » .

إِذَا قَامَتِ الْقِيَامَةُ لَا يَرُدُّهَا شَيْءٌ .

« كَاذِبَةٌ » هَاهُنَا مَصْدَرٌ : كَالْعَاقِبَةِ ، وَالْعَاقِبَةُ ، أَيْ : هِيَ حَقٌّ لَا يَرُدُّهَا شَيْءٌ ، وَلَيْسَ فِي وَقْعِهَا كَذِبٌ .

يُقَالُ : إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ قَمَنْ سَلَكَ مِنْهَا جُذُوعُ الصَّحَّةِ وَالْإِسْتِقَامَةُ وَصَلَ إِلَى السَّلَامَةِ وَلَقِيَ الْكَرَامَةَ ، وَمَنْ حَادَّ عَنْ نَهْجِ الْإِسْتِقَامَةِ وَقَعَ فِي النَّدَامَةِ وَالنَّرَامَةِ ، وَعِنْدَ وَقْعِهَا يَتَّبِعُ الصَّادِقُ مِنَ الْمَآذِقِ :

إِذَا اشْتَبَكَتْ دُمُوعٌ فِي خُدُودٍ تَبَيَّنَ مَنْ بَكَى مِنْ تَبَاكِي
« خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ »

(١) مَكْدَا فِي ص وَهِيَ فِي م (إِحْسَانُهُ) .

(٢) مَكْدَا فِي م وَهِيَ فِي ص (شِدَّةُ) الطَّاعَةِ .

(٣) مَكْدَا فِي م ، وَفِي ص تَوَجَّدَ كَلِمَةً غَيْرَ وَاضِحَةٍ الْكِتَابَةِ .

« خافضة » : لأهل الشقاوة ، « رافعة » : لأهل الوفاق .

« خافضة » : لأصحاب الدعاوى ، « رافعة » : لأرباب المعاني .

« خافضة » : للنفوس ، « رافعة » : للقلوب .

« خافضة » : لأهل الشهوة ، « رافعة » : لأهل الصفة .

« خافضة » : لمن جحد ، « رافعة » : لمن وَّحد .

قوله جل ذكره : « إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا » .

حُرِّكَتْ حَرَكَةً شَدِيدَةً .

قوله جل ذكره : « وَبُئِتِ الْجِبَالُ بَسًا » فكانت

هباءً مُنْبَثًا .

فَتَنَّتْ فكانت كالهباء الذي يقع في الكوَّة عند شعاع الشمس .

قوله جل ذكره : « وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ

الْيَمِينَةِ * مَا أَصْحَابُ الْيَمِينَةِ * وَأَصْحَابُ

الْمَشْأَمَةِ * مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ *

وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ » .

« ما أصحاب اليمين » ؟ على جهة التفضيم لشأنهم والتعظيم لقدرهم ، (وهم أصحاب اليمين

والبركة والثواب) ^(١) .

« ما أصحاب المشأمة » : على جهة التعظيم والمبالغة في ذمهم ، وهم أصحاب الشؤم على أنفسهم ويقال :

أصحاب اليمين هم الذين كانوا في جانب اليمين من آدم عليه السلام يوم النَّدَر ، وأصحاب للمشأمة

هم الذين كانوا على شماله .

(١) موجود في ص وغير موجود في م .

ويقال : الذين يُسَطَّرُونَ السَّكَّابَ بِأَيْمَانِهِمْ ، والذين يُعَلَّلُونَ السَّكَّابَ بِشَبَابِهِمْ .
 (ويقال : هم الذين يُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتُ الْيَمِينِ .. إلى الجنة ، والذين يُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتُ الشِّمَالِ ..
 إلى النار) (١)

« والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ » : وهم الصف الثالث . وهم السابقون إلى انحصال الحميدة ،
 ((والأفضال الجميلة)) (٢)

ويقال : السابقون إلى الهجرة . ويقال : إلى الإسلام . ويقال : إلى الصلوات الخمس .
 ويقال : السابقون بصدق القدم . ويقال : السابقون بعلو الهِمَم . ويقال : السابقون إلى
 كل خير . ويقال السابقون للتسارعون إلى التوبة من الذنوب فيتسارعون إلى الندم إن لم
 يتسارعوا بصدق القدم .

ويقال : الذين سبقت لهم من الله الحسنى فسبقوا إلى ما سبق إليه :
 « أولئك الْمُقَرَّبُونَ »
 ولم يقل : الْمُتَقَرَّبُونَ ، بل قال : أولئك الْمُقَرَّبُونَ — وهذا عين الجمع ، فعلم الكافة
 أنهم بتقريب ربهم سبقوا — لا يتَقَرَّبُ بهم (٣)

« في جَنَّاتِ النِّعَمِ »

أى : في الجنة (٤) . ويقال : مقربون إلا من الجنة فحال أن يكونوا في الجنة ثم يُقَرَّبُونَ
 من الجنة ، وإلما يُقَرَّبُونَ إلى غير الجنة : يُقَرَّبُونَ من بساط القربة ..
 وأنى بالبساط ولا بساط ؟ ! مقربون .. ولكن من حيث الكرامة لا من حيث المسافة ؛
 مُقَرَّبَةٌ نفوسهم من الجنة وقلوبهم إلى الحق .
 مُقَرَّبَةٌ قلوبهم من بساط المعرفة ، وأرواحهم من ساحات الشهود — فالحق عزيز ..
 لا قُرْبَ ولا بُعْدَ ، ولا فَصْلَ ولا وَصْلَ .

(١) موجودة في م وغير موجود في ص .

(٢) موجود في م وغير موجود في ص .

(٣) هذه إشارة إلى أن العمل الإنساني — وحده — لا يعول عليه إذا فُيس بالفضل الإلهي .

(٤) يتحدث القشيري هنا في ضوء حال الفرق والجمع .

ويقال : مقربون ولكن من حظوظهم ونعيمهم . وأحرأهم - وإن صفت - فالحق
وزاء الراء .

تراكيل ذكره : «ثلاثة بين الأولين » وقليل من
الآخرين» .

الثلة : الجماعة . ويقال : ثلة من الأولين الذين شاهدوا أنبياءهم وقليل من الآخرين الذين
شاهدوا نبينا على الله عليه السلام .

ويقال : ثلة من الأولين : من السلف وقليل من المتأخرين : من الأمة .

« على سرير موضوعة »^(١) .

أى منسوجة نسيج الدرع من الذهب . جاء فى التفسير : طول كل سرير ثلثائة ذراع ،
إن أراد الجلوس عليه تواضع ، وإن استوى عليه ارتفع .

« متكئين عليها متقابلين » .

أى لا يرى بعضهم قفا بعض . وصفهم بصفاء المودة وتهذب الأخلاق .

« يطوف عليهم ولان مخلدون » .

يطوف عليهم وهم مقيمون لا يرحلون ولان فى سن واحدة . لا يهرمون .

وقيل : مقرطون (الخلدلة . القرط)

« بأكواب وأباريق وكأس من

معين » لا يصدعون عنها ولا ينزفون» .

« بأكواب » جمع كوب وهى آنية بلا عروة ولا خرطوم ، « وأباريق » : جمع إبريق

وهو عكس الكوب (أى له خرطوم وعروة) .

ولا صداع لهم فى شربهم إياها ، كما لا تذهب عقولهم بسببها .

ولهم كذلك فاكهة مما يتخيرون ، ولهم طير مما يشتهون ، وحور عین ، كأمثال اللؤلؤ

المكتون ، أى : النسون ، جزاء بما كانوا يعملون .

(١) وتحسن الثوب نسجه بالجهر ، فهو واضح وهى واضحة والمفعول موضحون .

قوله **جَنِّ ذَكَرَهُ** : « لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا *
إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا » .

اللفظ : الباطل من القول ، والتأثيم : الإثم والهديان
ولا يسمعون إلا قِيلًا سَلَامًا ، وسَلَامًا : نعت للقليل .

« وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ » : لا شوك فيه ، « وَطَلْحٍ
مَنْضُودٍ » : والطلح شجر الموز ، متراكم تضيد بعضه على بعض .
« وَظِلٍّ مَمْدُودٍ » كما بين الإسفار^(١) إلى طلوع الشمس^(٢) . وقيل : ممدود أى دائم .
« وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ » : جَارٍ لا يتعبون فيه .

« وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ » : لا مقطوعة عنهم ولا ممنوعة منهم .
« وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ » لهم . وقيل : أراد بها النساء^(٣) .

« إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا » أى الحور العين .
« عُرُبًا » : جمع عَرُوبٍ^(٤) وهى الفَنَجَةُ المتحبة إلى زَوْجِهَا . ويقال عرباً : أى مُتَشَهِّيات
إلى أزواجهن .

« أَتْرَابًا » : جمع تَرَبٍّ ، أى : هُنَّ عَلَى سِنٍّ وَاحِدَةٍ .

« لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ » : أى خلقناهن لأصحاب اليمين .

« ثُلَّةٌ مِنَ الْأُولَى * وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » : أى : ثلة من أولى هذه الأمة ، وثلّة من
أُخْرَاهَا .

« وَأَصْحَابُ الشَّامِ مَا أَصْحَابُ الشَّامِ * فِي سَمُومٍ وَحِيمٍ » : والسَّمُومُ فيحُ جهنم وحرُّها .
والحيم : الماء الحار .

(١) طلوع الفجر أو الصبح .

(٢) سقطت (الشمس) من م .

(٣) لأن المرأة يكنى عنها بالفراش .

(٤) جاء عند البخارى : عروبٌ مثل : صبور يسميها أهل مكة : العَمْرِيَّة وأهل المدينة : الفَنَجَةُ ، وأهل

المراق : الشَمَكِلَةُ (البخارى ٣ ص ١٢٢) .

« وظلٌّ من يحموم » ، وهو الدخان الأسود .

« لا بارد ولا كرم » : لا بارد : أى لا راحة فيه . ولا كرم : ولا حسن لهم ؛ (حيث لا نفع فيه) .

« إنهم كانوا قبل ذلك مُتْرَفِينَ » : أى : كانوا فى الدنيا مُستَعِينِينَ .

« وكانوا يُصِرُّون على الحِنْتِ العظيم » أى الذنب العظيم .

« وكانوا يقولون أئذا متنا وكُنَّا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ؟ » أى : أنهم يكذبون بالبعث .

ثم يقال لهم : « إنكم أيها الضالون المكذَّبون » اليوم « لا تكون من شجرة من زقوم » وجاء فى التفسير : أن الزقوم شجرة فى أسفل جهنم إذا طُرِحَ الكافر فى جهنم لا يصل إليها إلا بعد أربعين خريفاً .

« فالتَّوْنُ منها البطون » فشاربون عليه من الحميم « شرابٌ لا تهأون به » فشاربون شربَ الحميم : وهى الإبل العطاش . ويقال : الحميم أى الرَّمْلُ ينضب فيه كلُّ ما يُصبُّ عليه . « هذا نُزْلُهُم يومَ الدِّينِ » : يوم القيامة .

قوله جل ذكره : « نحن خلقناكم فلو لا تُصدِّقون » . نحن خلقناكم : يا أهل مكة — فهلاً آمَنتُمْ لتخلصوا ؟ توبِّحون وتعتابون .. واليوم تَعْتَذِرُونَ ! ولكن لا ينفعكم ذلك ولا يُسمعُ منكم شيء .

وإن أشدَّ العقوبات عليهم يومئذٍ أنهم لا يتفرَّغون من آلامِ نفوسِهِم وأوجاعِ أعضائِهِم إلى التَّحَسُّرِ على ما فاتهم فى حقِّ الله .

ويقال : أشدُّ البلاء — اليوم — على قلوب هذه الطائفة (١) خوفُهُم من أنْ يَشْفَلَهم — غداً — بمقاساة آلامِهِم عن التَّحَسُّرِ على ما تكدَّرَ عليهم من المشارب فى هذا الطريق . وهذه محنةٌ لا شيء أعظمُ على الأصحاب منها . وإنَّ أصحابَ القلوب — اليوم — يبتهلون إليه ويقولون : إنَّ

(١) يتصد الصوفية .

حَرَمْتَنَا مَشَاهِدَ الْأَنْسِ فَلَا تَشْغَلْنَا بِلَذَاتِ تَشْغَلْنَا عَنْ التَّحَسُّرِ عَلَى مَا فَاتَنَا ، وَلَا بِآلَامِ تَشْغَلُنَا
عَنِ التَّأْسُفِ عَلَى مَا عَدِمْنَا مِنْكَ .

قوله جل ذكره : « أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * » أأنتم تَخْلُقُونَهُ
أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ؟ » .

يقال : مَنَى الرجلُ وأَمْنَى . والمعنى : هل إذا بَاشَرْتُمْ وَأَنْزَلْتُمْ وَانْمَقَدَ الْوَلَدَ .. أأنتم تَخْلُقُونَهُ
أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ؟ وَالْخَلْقُ هَاهُنَا : التَّصْوِيرُ ؛ أَى : أأنتم تَجْمَعُونَ صُورَ الْمَوْلُودِ وَتُرَكِّبُونَ
أَعْضَاءَهُ .. أَمْ نَحْنُ ؟ .

وهم كانوا يَقْرَءُونَ بِالنَّشْأَةِ الْأُولَى فَاحْتَجَّ بِهَذَا (عَلَى جَوَازِ النَّشْأَةِ الْآخَرَى عِنْدَ الْبَعْثِ
الَّذِي كَانُوا يَنْكُرُونَهُ . وَهَذِهِ الْآيَةُ أَصْلٌ فِي) (١) إِبْرَاهِيمَ الصَّانِعِ ؛ فَإِنَّ أَصْلَ خَلْقَةِ الْإِنْسَانِ مِنْ
قَطْرَتَيْنِ : قَطْرَةٍ مِنْ صُلْبِ الْأَبِ وَهُوَ الْمَنَى وَقَطْرَةٍ مِنْ تَرْبِيَةِ الْأُمِّ (٢) ، وَتَجْتَمِعُ الْقَطْرَتَانِ فِي
الرَّحِمِ فَيَصِيرُ الْوَلَدَ . وَيَنْقَسِمُ الْمَاءُ الْخَائِلُ إِلَى هَذِهِ الْأَجْزَاءِ الَّتِي هِيَ أَجْزَاءُ الْإِنْسَانِ مِنَ الْعَظْمِ
وَالْعَصَبِ وَالْعِرْقِ وَالْجِلْدِ وَالشَّعْرِ .. ثُمَّ يَرْكِبُهَا عَلَى هَذِهِ الصُّورِ فِي الْأَعْضَاءِ الظَّاهِرَةِ وَفِي الْأَجْزَاءِ
الْبَاطِنَةِ حَيْثُ يُشَكَّلُ كُلُّ عَضْوٍ بِشَكْلٍ خَاصٍ ، وَالْعِظَامُ بِكَيْفِيَّةٍ خَاصَةٍ .. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ .
وَلَيْسَ يَخْلُو : إِمَّا أَنْ يَكُونَ الْأَبْرَاقُ يَصْنَعَانَهُ — وَذَلِكَ التَّقْدِيرُ مُحَالٌ لِتَقَاصُرِ عِلْمِهِمَا
وَقُدْرَتِهِمَا عَنْ ذَلِكَ وَتَمَنُّهُمَا الْوَلَدَ ثُمَّ لَا يَكُونُ ، وَكَرَاهَتُهُمَا الْوَلَدَ ثُمَّ يَكُونُ !
وَالنُّطْفَةُ أَوْ الْقَطْرَةُ مُحَالٌ تَقْدِيرُ فِعْلُهَا فِي نَفْسِهَا عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ لِكُونِهَا مِنَ الْأَمْوَاتِ
بَعْدُ ، وَلَا عِلْمَ لَهَا وَلَا قُدْرَةَ .

أَوْ مِنْ غَيْرِ صَانِعٍ .. وَبِالضَّرُورَةِ يُعَلَّمُ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ .
فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ الصَّانِعَ الْقَدِيمَ الْمَلِكَ الْعَلِيمَ هُوَ الْخَالِقُ (٣) .

قوله جل ذكره : « نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ
بِمُسْبِقِينَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ
وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ » .

(١) مَا بَيْنَ الْقَوْسَيْنِ مَوْجُودٌ فِي مَوْجُودٍ غَيْرِ مَوْجُودٍ فِي ص .

(٢) تَرْبِيَةُ الْأُمِّ عِظْمَةُ الصَّدْرِ وَالْجَمِيعُ تَرَائِبُ .

(٣) هَذَا نَمُودَجٌ طَيِّبٌ يَصُورُ طَرِيقَةَ الْفَتْوَى مُتَكَلِّمًا .

يكون الموتُ في الوقت الذي يريده ؛ منكم مَنْ يموت طفلاً ومنكم من يموت شاباً ،
ومنكم من يموت كهلاً ، ويعللُ مختلفه وبأسبابٍ متفاوتةٍ وفي أوقاتٍ مختلفة .

« وما نحن بمسبوقين » في تقديرنا قيفوتنا شيء ، ولَسْنَا بملجزين عن أن نَخْلُقَ أمثالكم ،
ولا ملجزين عن تبديلِ صُوركم التي تعلمون ؛ إن أردنا مَسْخَكم وتبديلِ صُوركم فلا يمنعنا
عن ذلك أحدٌ .

ويقال : ونشئكم فيما لا تعلمون من حكم السعادة والشقاوة (١) .

قوله جل ذكره : « ولقد عَلِمْتَ النشأة الأولى فلولا
تَذَكُّرون » .

أى : أأنتم أقررتم بالنشأة الأولى .. فهلا تذكرون لتعلموا جَوَازَ الإعادة ؛ إذ هي في معناها (٢) .

قوله جل ذكره : « أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُمُونَ » أأنتم
تَزَرِّعُونَهُ أم نحن الزارعون ؟

أى : إذا أقيمت الحب في الأرض .. أأنتم تُنْبِتُونَهُ أم نحن المُنْبِتُونَ ؟ وكذلك وُجوهُ
الحكمة في إنبات الزرع ، واتقسام الحبة الواحدة على الشجرة النابتة منها (في قشرها ولحائها
وجذعها وأغصانها وأوراقها وثمارها) (٣) — كل هذا :

« لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلَمْتَ
تَفَكَّهُون » .

لو نشاء لجعلناه حطاماً يابساً بعد خضرته ، فصِرْتُمْ تتعجبون وتندمون على تعبكُم فيه ،
ولما فاقكم عليه ، ثم تقولون :

« إِنَّا لَمُعْرَمُونَ » بل نحن محرومون »

أى : لَمُزِمُونَا غرامة ما أنفقنا في الزرع ، وقد صار ذلك غُرماً علينا — فالغرم مَنْ
ذَهَبَ إِنْفاقُهُ بغيرِ عِوَضٍ .

(١) وضع هذا السطر في مكان تالي بعد (في معناها) فنقلناه إلى موضعه الصحيح .

(٢) أى أن الإعادة لا تفترق في شيء عن الخلق الأول .

(٣) ما بين القوسين موجود في م وغير موجود في س .

« بل نحن محرومون » بل نحن محرومون بعد أن ضاع مِنَّا الرزق .

قوله جل ذكره : « أفرايتُم الماء الذي تشربون * أأنتم أنزلتموه مِن المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ » .

أأنتم أنزلتموه من السحاب .. أم نحن نُنْزِلُهُ متى نشاء أننى نشاء كما نشاء على من نشاء وعلى ما نشاء ؟ ونحن الذين نجعله مختلفًا في الوقت وفي المقدار وفي الكيفية ، في القِلَّة وفي الكثرة .

ولو نشاء لجعلناه ملحًا .. أفلا تشكرون عظيمَ نعمةِ الله — سبحانه — عليكم في تمكينكم من الانتفاع بهذه الأشياء التي خلقها لكم .

قوله جل ذكره : « أفرايتُم النار التي توردون * أأنتم أنشأتم شجرتَها أم نحن المنشئون * نحن جعلناها تذكرةً ومتاعاً للمُقوين » .

وَرَى الزَّيْتُونَ يَرْبِي فَهُوَ وَارٍ .. وَأَوْرَاهُ يُوْرِيهِ أَيْ يَقْدَحُهُ .

يعنى : إذا قدحتم الزيت .. أرايتُم كيف تظهر النار — فهل أنتم تخلقون ذلك ؟

أأنتم أنشأتم شجرتَها — يعنى المَرْخ والعَفَّار^(١) — أم نحن المنشئون ؟

« نحن جعلناها تذكرة » : أى يمكن الاستدلالُ بها .

« ومتاعاً للمُقوين » : يقال : أقوى الرجلُ إذا نزل بالقواء أى : الأرض الخالية .

فاللعنى : أن هذه النار « تذكرة » يتذكَّرُ بها الإنسان ما توعد به في الآخرة من نار

جهم ، و « متاعاً » : يستمتع بها المسافر في سفره في وجوه الانتفاع المختلفة .

(١) المرخ : شجر ينفرش ويطول في السماء ليس له ورق ولا شوك ، سريع الوردى يُتقدح به .
والعفار : شجيرة من الفصيلة الأريكية لها ثمر لبيى أسمر ، ويتخذ منها الزناد فيسرع الوردى . وفي أمثال العرب : « فى كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار » .

قوله جل ذكره : « فسبح باسم ربك العظيم »
 أى : اسبح بفكرك فى بحار عقلك ، وغصن بقوة التوحيد فيها تظفر بجواهر العلم ، وإياك
 أن تقصر فى الفوص لسبب أولآخر ، وإياك أن تتداخلك الشبهة فيتلف رأس مالك
 ويخرج من يدك وهو دينك واعتقادك . . وإلا غرقت فى بحار الشبهة ، وضللت .
 وهذه الآيات^(١) التى عدّها الله — سبحانه — تمهيداً لسلوك طريق الاستدلال ، فكما
 فى الخبر « فكر ساعة خير من عبادة سنة » — وقد نبّه الله سبحانه بهذا إلى ضرورة
 التفكير .

قوله جل ذكره : « فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه
 لقسم لو تعلمون عظيم * إنه لقرآن
 كريم * فى كتاب مكنون * لا يمسه
 إلا المطهرون * تنزيل من رب
 العالمين » .

قيل : هى مواقع نجوم السماء : ويقال : مواقع نجوم القرآن على قلب الرسول صلى الله
 عليه وسلم .

« إنه لقرآن كريم » : والكرم نفى الدناءة — أى : أنه غير مخلوق^(٢) ويقال : هو « قرآن
 كريم » : لأنه يدل على مكارم الأخلاق .

ويقال هو قرآن كريم لأنه من عند رب كريم على رسول كريم ، على لسان ملك
 كريم . « فى كتاب مكنون » : يقال : فى اللوح المحفوظ . ويقال : فى المصاحف . وهو محفوظ
 عن التبديل . « لا يمسه إلا المطهرون » عن الأدناس والعيوب والمعاصى .

(١) إذا تدبرنا هذه الآيات ألفينا القرآن يخاطب العقل الإنسانى بالتدبر فى ثلاثة أشياء : الغذاء والماء والنار ،
 وبدون الثلاثة لا تقوم الحياة ولا تنتظم .

(٢) هذه إحدى الأفكار الخطيرة التى اشتجر حولها الخلاف بين الأشاعرة الذين يقولون : (القرآن غير
 مخلوق) وبين المعتزلة الذى يقولون : إنه مخلوق .

ويقال : هو خَيْرٌ فيه معنى الأمر : أى لا ينبغي أن يَمَسَّ المصحفَ إلا مَنْ كان مُتَطَهِّرًا
من الشُّرُكِ و... الأحداث (١) .

ويقال : لا يد طَعْمَهُ وَيَرَكَّهُ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِهِ .

ويقال : لا يقربه إِلَّا المَوَحِّدُونَ ، فَأَمَّا الكُفَّارُ فيَكْرَهُونَ سَمَاعَهُ فَلَا يَقْرَبُونَهُ .

وَقَرِىُّ الْمُطَهَّرُونَ : أى الذين يُطَهَّرُونَ نفوسهم عن الذنوب والخُلُقِ الذِّئى .

ويقال : لَا يَمَسُّ خَيْرُهُ إِلَّا مَنْ طَهَّرَ يَوْمَ الْقِسْمَةِ عَنِ الشَّقَاوَةِ .

ويقال : لَا يَفْهَمُ لَطَائِفَهُ إِلَّا مَنْ طَهَّرَ سِرَّهُ عَنِ الْكُوفِ (٢) .

ويقال : الْمُطَهَّرُونَ سِرَائِرَهُمْ عَنِ غَيْرِهِ .

ويقال : إِلَّا الْمُحْتَرمُونَ لَهُ الْقَائِمُونَ بِحَقِّهِ .

ويقال : إِلَّا مَنْ طَهَّرَ بِمَاءِ السَّعَادَةِ ثُمَّ بِمَاءِ الرَّحْمَةِ

« تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ » : أى مُنْزَلٌ مِنْ قِبَلِهِ — سبحانه .

قوله جل ذكره : « أَفْبَهْنَا الْحَدِيثَ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ »

وَيَجْمَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ .

أَبْهَذَا الْقُرْآنَ أَنْتُمْ تُنَاقِضُونَ ، وَبِهِ تُكَذِّبُونَ .

« وَيَجْمَلُونَ رِزْقَكُمْ ... » : كَانُوا إِذَا أَمْطَرُوا يَقُولُونَ : أَمْطَرْنَا بِنَوْءٍ كَذَا .

يقول : أَتَجْمَلُونَ بَدَلَ إِنْعَامِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِالْمَطَرِ الْكَفَرَانِ بِهِ ، وَتَتَوَهَّمُونَ أَنَّ الْمَطَرَ — الَّذِى

هُوَ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ — مِنَ الْأَنْوَاءِ وَالْكَوَاكِبِ ؟ ! .

ويقال : أَتَجْمَلُونَ حِفْظَكُمْ وَنَصِيْبَكُمْ مِنَ الْقُرْآنِ التَّكْذِيبَ ؟ .

قوله جل ذكره : « فُلُولا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ » وَأَنْتُمْ

حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ » وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ

مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ .

(١) هى هنا جمع حداث أى النجاسة التى ترتفع بالوضوء أو الغسل أو التيمم .

(٢) لتذكر أن هذا الكتاب الذى وضعه القشيري هو لفهم (لطائف الإشارات) القرآنية ، ولتدرك دأيه

فى سجات هذا اللون من التفسير وأهله .

يُخاطَبُ أولياء الميت^(١) فيقول : هَلَا إِذَا بَلَغَتْ رَوْحُهُ المَقُومَ ، وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ إِلَى هَذَا الْمَرِيضِ ، رَجَعْتُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَتَحَقَّقْتُمْ بِهِ ؟ فَتَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ بِالْعِلْمِ وَالرُّؤْيَةِ وَالْقُدْرَةِ . . وَلَكِنْ لَا تَبْصُرُونَ !

ويقال : أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنَ الْحَقِّ عِنْدَمَا يَتِمُّ اسْتِيلَاةُ ذِكْرِهِ وَشَهُودِهِ عَلَيْهِ ، فَيَنْتَفِي إِحْسَاسُ الْعَبْدِ بِغَيْرِهِ ، وَعَلَى حَسَبِ انْتِفَاءِ الْعِلْمِ وَالْإِحْسَاسِ بِالْأَغْيَارِ — حَتَّى عَنْ نَفْسِهِ — يَكُونُ تَحَقُّقُ الْعَبْدِ فِي سِرِّهِ حَتَّى لَا يَرَى غَيْرَ الْحَقِّ .

فَالْقُرْبُ وَالْبَعْدُ مَعْنَاهُمَا : أَنَّ الْعَبْدَ فِي أَوَانِ صَحْوِهِ وَأَنَّهُ لَمْ يُؤْخَذْ — بَعْدُ — عَنْ نَفْسِهِ ؛ فَإِذَا أُخِذَ عَنْهُ فَلَا يَكُونُ إِلَّا الْحَقُّ . . لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ لَا قُرْبَ وَلَا بَعْدَ .

قوله جل ذكره : « فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » .

ليس لكم من أمر الموت شيء .

« تَرْجِعُونَهَا » أَيْ : تَرُدُّونَ الرُّوحَ إِلَى الْجَسَدِ .

« إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » : فِي أَنَّهُ لَا بَعْثَ^(٢) .

قوله جل ذكره : « فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٌ » .

الْمُقَرَّبُونَ هُمُ الَّذِينَ قَرَّبَهُمُ اللَّهُ بِفَضْلِهِ ، فَلَهُمْ « رَوْحٌ وَرَيْحَانٌ » .

ويقال : الرُّوحُ الاستراحة ، وَالرَّيْحَانُ الرِّزْقُ .

وَقِيلَ : الرُّوحُ فِي الْقَبْرِ ، وَالرَّيْحَانُ : فِي الْجَنَّةِ .

(١) فِي م (الْبَيْتِ) وَفِي ص (الْمَيْتِ) وَهَذِهِ هِيَ الصَّوَابُ .

(٢) نَشْمُرُ أَنَّ تَفْسِيرَ الْقَشِيرِ هُنَا مُقْتَضِبٌ ، وَيَلْزَمُ التَّوَضُّيْحُ : تَرْتِيبُ الْآيَةِ هُوَ : فَلَوْلَا تَرْجِعُونَهَا إِذَا بَلَغْتَ المَقُومَ إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ . . أَمَّا نَحْنُ فَتَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ يَا أَهْلَ الْمَيْتِ بِقُدْرَتِنَا وَعِلْمِنَا أَوْ بِمَلَائِكَةِ الْمَوْتِ . أَمَّا أَنْتُمْ . . فَمَا لَكُمْ لَا تَرْجِعُونَ الرُّوحَ إِلَى الْبَدَنِ بَعْدَ بُلُوغِهِ المَقُومَ إِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ قَابِضٍ وَكُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي تَعْطِيلِكُمْ وَكُفْرِكُمْ بِالْحَيِّ الْمَمِيتِ وَالْمُهَيَّيِّءِ الْمَعِيدِ ؟ !

ويقال : لا يخرج مؤمنٌ من الدنيا حتى يوتى بريحانٍ من رياحين الجنة فيشبهه قبل خروج روحه ، فالرَّوح راحةٌ عند الموت ، والريحان في الآخرة .

وقيل : كانت قراءة النبي (ص) « الرُّوح » بضم الراء أى لم فيها حياة دائمة .

ويقال : الرَّوحُ لقلوبهم ، والريحان لنفوسهم ، والجنةُ لأبدانهم .

ويقال : رَوْحٌ في الدنيا ، وريحانٌ في الجنة ، وجَنَّةٌ نعيمٌ في الآخرة .

ويقال : رَوْحٌ وريحانٌ مُعَجَّلَان ، وجنة نعيم مؤجلة .

ويقال : رَوْحٌ للعابدين ، وريحان للعارفين ، وجَنَّةٌ نعيم لعوام المؤمنين .

ويقال : رَوْحٌ نسيم القرب ، وريحان كمال البسط ، وجنة نعيم في محل المناحة .

ويقال : رَوْحُ رؤية الله ، وريحانُ سماع كلامه بلا واسطة ، وجنة نعيم أن يدوم هذا ولا ينقطع .

قوله جل ذكره : « وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ »

فسلامٌ لك من أصحاب اليمين .

أن تخبرك بسلامة أحوالهم .

ويقال : سترى فيهم ما تحب من السلامة .

ويقال : أمانٌ لك في بابهم ؛ فلهم السلامة . ولا تشغل قلبك بهم

ويقال : فسلامٌ لك — أيها الإنسان — إنك من أصحاب اليمين ، أو أيها الإنسان الذي من أصحاب اليمين .

قوله جل ذكره : « وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُسْكذِبِينَ

الضَّالِّينَ » فَنُزِّلَ مِنْ جَحِيمٍ *

وتصليَةُ جَحِيمٍ .

إن كان من المكذبين لله ، الضالِّين عن دين الله فله إقامةٌ في الجحيم .

قوله جل ذكره : « إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » .

هذا هو الحق اليقين الذي لا محالة حاصلٌ .

« فسبح باسم ربك العظيم » أى قدّس الله عمّا لا يجوز فى وصفه .

ويقال : صلّ الله . ويقال : اشكر الله على عصمة أمّتك من الضلال ، وعلى توفيقهم فى اتباع سنّتك .

سُورَةُ الْحَدِيدِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

سماعُ بسم الله الرحمن الرحيم شَرَابٌ يَسْقِي به الحقُّ — سبحانه وعالي — قلوبَ أَحِبَّائِهِ ،
فَإِذَا شَرِبُوا طَرَبُوا ، وَإِذَا طَرَبُوا انبَسَطُوا ^(١) ، ثُمَّ لَشُهود حَقَّةً ^(٢) تَرْضَوْنَ ، وَبَنَسِيم قُرْبِهِ
اسْتَأْنَسُوا ^(٣) ، وَعِنْدَ الإِحْسَاسِ بِهِمْ غَابُوا . . . فَمَقُولُهُمْ تُسْتَفَرَّقُ ^(٤) فِي لُطْفِهِ ، وَقُلُوبُهُمْ تُسْتَهْلَكُ
فِي كَشْفِهِ .

قوله جل ذكره : « سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

التَّسْبِيحُ التَّقْدِيسُ وَالتَّنْزِيهِ ، وَيَكُونُ بِمَعْنَى سِبَاحَةِ الْأَسْرَارِ فِي بَحَارِ الْإِجْلَالِ ، فَيُظْفَرُونَ
بِجَوَاهِرِ التَّوْحِيدِ وَيَنْظُمُونَهَا فِي عَقُودِ الْإِيمَانِ ، وَيُرَضَّعُونَهَا فِي أَطْوَاقِ الْوَصْلَةِ :

وقوله « مَا » فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْمُرَادُ بِهِ « مَنْ » فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَسْجُدُونَ
لِلَّهِ طَوْعًا وَكَرْهًا ؛ طَوْعًا تَسْبِيحَ طَاعَةٍ وَعِبَادَةٍ ، وَكَرْهًا تَسْبِيحَ عِلَامَةٍ وَدَلَالَةٍ .

وَتُحْمَلُ « مَا » عَلَى ظَاهِرِهَا فَيَكُونُ الْمَعْنَى : مَا مِنْ مَخْلُوقٍ مِنْ عَيْنٍ أَوْ أَثَرٍ إِلَّا وَيَدُلُّ عَلَى
الصَّانِعِ ، وَعَلَى إِثْبَاتِ جَلَالِهِ ، وَعَلَى اسْتِحْقَاقِهِ لِنَعُوتِ كِبَرِيَّاتِهِ .

(١) انبسطوا أى : ذاقوا حال البسط . ويصل المعارف إلى القبض والبسط بعد حال الرجاء والخوف . والمبسوط
قد يكون فيه بسط يسع الخلق فلا يستوحش من أكثر الأشياء ، ويكون مبسوطاً لا يؤثر فيه شيء بحال من الأحوال
(الرسالة ص ٣٥) .

(٢) شهود حق الله لا يتم إلا بعد اختفاء حظوظ العبد .

(٣) من الأنس . سئل الجنيد عنه فقال : هو ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة . وسئل ذو النون عنه فقال :
هو انبساط المحب إلى المحبوب .

وسئل الشبل عنه فقال : هو حشمتك منه (التعرف للكلاباذي ص ١٢٦، ١٢٧) .

(٤) ضبطناها هكذا مبنية للمجهول لأن المفروض أن شمس الحقيقة يستغرق نورها نجوم العقل .

ويقال : يُسبح لله ما في السموات والأرض ، كلٌّ واقفٌ على الباب بشاهد الطلب ...
ولكنه — سبحانه عزيز^(١).

ويقال : ما تَقَلَّبَ أحدٌ من جاحِدٍ أو ساجِدٍ إلا في قبضة العزيز الواحد ، فما يُصَرِّفهم إلا مَنْ خَلَقَهُمْ ؛ فَمِنْ مُطِيعٍ أَلْبَسَهُ نَظَاقَ وَفَاقِهِ — وذلك فَضْلُهُ ، وَمِنْ عَاصٍ رَبطَهُ مَثْقَلَةُ الْخِذلَانِ — وذلك عَذْلُهُ .

« وهو العزيز الحكيم » : العزيز : الْمُعِزُّ لِمَنْ طَلَبَ الْوَصُولَ ، بل العزيز : الْمُتَقَدِّسُ عَنْ كُلِّ وَصُولٍ . . . فما وَصَلَ مَنْ وَصَلَ إِلَّا حَظَّهُ وَنَصِيبُهُ وَصَفَتُهُ عَلَى مَا يَلِيقُ بِهِ .

قوله جل ذكره : « لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي

وَيُمِيتُ وهو على كل شيء قدير » .

الملك مبالغة من الملك ، وهو القدرة على الإبداع ، ولا مالك إلا الله . وإذا قيل لغيره : مالك فعلى سبيل المجاز ؛ فالأحكام المتعلقة في الشريعة على ملك الناس صحيحة في الشرع ، ولكن لفظ الملك فيها توسعٌ كما أن لفظ التيمم في استعمال التراب — عند عدم الماء — في السفر مجازٌ ، فالمسائل الشرعية في التيمم صحيحة ، ولكن لفظ التيمم في ذلك مجاز .

« يُحْيِي وَيُمِيتُ » : يُحْيِي النفوسَ وَيُمِيتُها . وَيُحْيِي الْقُلُوبَ بِإِقْبَالِهِ عَلَيْهَا ، وَيُمِيتُهَا بِإِعْرَاضِهِ عَنْهَا .
ويقال : يَحْيِيهَا بِنَظَرِهِ وَتَفَضُّلِهِ ، وَيُمِيتُهَا بِقَهْرِهِ وَتَعَزُّزِهِ .

قوله جل ذكره : « هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ

وهو بكل شيء عليم » .

« الأول » : لاسْتِحْقَاقِهِ صِفَةَ الْقِدَمِ ، و « الآخر » لاسْتِحْقَاقِهِ نَفْتَ الْعَدَمِ .

و « الظاهر » بالعلو والرفعة ، و « الباطن » : بِالْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ .

ويقال : « الأول » فلا افتتاحَ لوجوده و « الآخر » فلا انقطاعَ لثبوته .

« الظاهر » فلاخفاء في جلال عِزِّهِ ، « الباطن » فلا سبيل إلى إدراك حَقِّهِ .

ويقال « الأول » بلا ابتداء ، و « الآخر » بلا انتهاء ، و « الظاهر » بلاخفاء ، و « الباطن »

بنعت العلاء وعِزِّ الكبرياء .

(١) أُمِّي حَلَّتْ الصَّمَدِيَّةُ أَنْ يَسْتَشْرِفَ مِنْ ذَاتِهَا أَحَدٌ .. فَكُلُّ وَاقِفٍ بِالْبَابِ عَلَى الْبَسَاطَةِ .

ويقال « الأول » بالناية ، و « الآخر » بالمداية ، و « الظاهر » بالرعاية ، و « الباطن » بالولاية .

ويقال : « الأول » بالخلق ، و « الآخر » بالرزق ، و « الظاهر » بالإحياء ، و « الباطن » بالإماتة والإفناء .

قال تعالى : « الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم »^(١) .

ويقال : « الأول » لا بزمان ، و « الآخر » لا بأوان ، و « الظاهر » بلا اقتراب ، و « الباطن » بلا احتجاب .

ويقال : « الأول » بالوصلة ، و « الآخر » بالخلقة ، و « الظاهر » بالأدلة ، و « الباطن » بالبعد^(٢) عن مشابهة الجملة^(٣) .

ويقال : « الأول » بالتعريف ، و « الآخر » بالتكليف ، و « الظاهر » بالتشريف ، و « الباطن » بالتخفيف^(٤) .

ويقال : « الأول » بالإعلام ، و « الآخر » بالإلزام ، و « الظاهر » بالإنعام ، و « الباطن » بالإكرام .

ويقال : « الأول » بأن اصطفاك « والآخر » بأن هداك ، و « الظاهر » بأن رعاك ، و « الباطن » بأن كفاك .

ويقال^(٥) : مَنْ كَانَ الْغَالِبُ عَلَيْهِ اسْمُهُ « الأول » كَانَتْ فِكْرَتُهُ فِي حَدِيثٍ سَابِقَتُهُ : بِمَاذَا سَمَّاهُ مَوْلَاهُ ؟ وَمَا الَّذِي أُجْرِي لَهُ فِي سَابِقِ حُكْمِهِ ؟ أَسْعَادَتُهُ أَمْ بَشَقَاتُهُ ؟ .

(١) آية ٤٠ سورة الروم .

(٢) سقط - (بالبعد) في النسخة م وموجودة في ص

(٣) المقصود (بالجملة) هنا جملة المخلوقات .

(٤) هكذا في م وهي في ص (بالتحقيق) وهذه وإن كانت - صحيحة إلا أن السياق الموسيقي الذي جرى عليه المصنف يرجح (بالتخفيف) على معنى أنه علم ضعف عباده فلم يكلفهم فوق طاقتهم .

(٥) هذه الفقرة هامة في بيان أن الصوفية حينما يتصالحون لدراسة الأسماء والصفات يهتمون بالآداب ؛ والمسلوك وكيف يتخلق الصوفي بأخلاق الله ويتأدب بأسمائه أنظر مقدمة كتاب ؛ التعبير في التذكير بتحقيق بسبوف) .

وَمَنْ كَانَ الْغَالِبُ عَلَى قَلْبِهِ اسْمُهُ «الْآخِرِ» كَانَتْ فِكْرَتُهُ فِي : بِمَاذَا يَخْتِمُ لَهُ حَالُهُ؟ وَإِلَاَمْ،
يَصِيرُ مَا لَهُ؟ أَعَلَى التَّوْحِيدِ يَخْرُجُ مِنْ دُنْيَاهُ أَوْ — وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ — فِي النَّارِ غَدَاً — مَثْوَاهُ ؟
وَمَنْ كَانَ الْغَالِبُ عَلَى قَلْبِهِ اسْمُهُ «الظَّاهِرِ» فَاشْتَغَلَهُ بِشُكْرِ مَا يَجْرِي فِي الْحَالِ مِنْ تَوْفِيقِ
الْإِحْسَانِ وَتَحْقِيقِ الْإِيمَانِ وَجَمِيلِ الْكَفَايَةِ وَحُسْنِ الرِّعَايَةِ .

وَمَنْ كَانَ الْغَالِبُ عَلَى قَلْبِهِ اسْمُهُ «الْبَاطِنِ» كَانَتْ فِكْرَتُهُ فِي اسْتِبْهَامِ أَمْرِهِ عَلَيْهِ فَيَتَعَثَّرُ
وَلَا يَدْرِي . . أَفْضَلُ مَا يَعَامَلُهُ بِهِ رَبُّهُ أَمْ مَكْرُومٌ مَا يَسْتَدْرِجُهُ بِهِ رَبُّهُ ؟

وَيَقَالُ : «الْأَوَّلُ» عِلْمٌ مَا يَفْعَلُهُ عِبَادُهُ وَلَمْ يَمْنَعْهُ عِلْمُهُ مِنْ تَعْرِيفِهِمْ ، «وَالْآخِرُ» رَأْيُ
مَا عَمِلُوا وَلَمْ يَمْنَعْهُ ذَلِكَ مِنْ غَفْرَانِهِمْ «وَالظَّاهِرُ» لَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ شَأْنِهِمْ ، وَلَيْسَ يَدَّعُ
شَيْئاً مِنْ إِحْسَانِهِمْ «وَالْبَاطِنُ» يَعْلَمُ مَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ مِنْ خُسْرَانِهِمْ وَنَقْصَانِهِمْ فَيُدْفَعُ^(١) عَنْهُمْ
فَنُونَ يَحْزَنُهُمْ وَأَحْزَانُهُمْ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : «هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» .

مَضَى الْكَلَامُ فِي ذَلِكَ .

«يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ
وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا» .

أَيُّ مَا يَدْخُلُ فِيهَا مِنَ الْقَطْرِ ، وَالْكُنُوزِ ، وَالْبُذُورِ ، وَالْأَمْوَاتِ الَّذِينَ يُدْفَنُونَ
فِيهَا ، «وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا» مِنَ النَّبَاتِ وَانْفِجَارِ الْعَيُونِ وَمَا يُسْتَخْرَجُ مِنَ الْمَعَادِنِ .
«وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ» .

مِنَ الْمَطَرِ وَالْأَرْزَاقِ . أَوْ مَا يَأْتِي بِهِ الْمَلَائِكَةُ مِنَ الْقَضَاءِ وَالْوَحْيِ .

«وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا» .

أَيُّ مَا يَصْعَدُ إِلَيْهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، وَطَاعَاتِ الْعِبَادِ ، وَدَعَوَاتِ الْخَلْقِ ، وَصَحَفِ الْمَكَلَّفِينَ ،
وَأَرْوَاحِ الْمُؤْمِنِينَ .

(١) مِمَّا إِشَارَةٌ لِنَعْمِ الدَّفْعِ أَوْ الْمَنْعِ الَّتِي لَا يَفْطَنُ إِلَيْهَا النَّاسُ .

« وهو معكم أينما كنتم والله
بما تعملون بصير » .

« وهو معكم » بالعلم والقدرة .

ويقال (١) : « يعلم ما يلج في الأرض » إذا دُفِنَ الْعَبْدُ فَاللهُ سبحانه يعلم ما الذي كان
في قلبه من إخلاص في توحيدِهِ ، ووجوه أحزانه خسرانه ، وشكّه وجحوده ، وأوصافه
المحمودة والمذمومة . . ونحو ذلك مما يخفى عليكم .

« وما ينزل من السماء » على قلوب أوليائه من الألفاظ والكشوفات وفنون الأحوال
العزيزة .

« وما يمرج فيها » من أنفاس الأولياء إذا تصاعدت ، وحسراتهم إذا علّت .

قوله جل ذكره : « يُورِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُورِجُ
النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ » .

مضى معناه .

قوله جل ذكره : « آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا
جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا
مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ » .

صَدَّقُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتَصَدَّقُوا « مما جعلكم مستخلفين فيه » بتخليكم ذلك وتصديره
إليكم . والذين آمنوا منكم وتصدقوا على الوجه الذي أمروا به لهم ثوابٌ عظيمٌ ؛ فَإِنَّ مَا تَحْوِيهِ
الْأَيْدِي مُعَرَّضٌ لِلزَّوَالِ ، فَالسَّعِيدُ مَنْ قَدَّمَ فِي دُنْيَاهُ مَالَهُ فِي الْآخِرَةِ عِمَارَةً حَالَهُ ، وَالشَّقِيُّ
مَنْ سَارَ فِيمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ وَبَالَ مَا لَهُ .

قوله جل ذكره : « وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ
يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ
مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » .

(١) هذه الفقرة استدراك أثبتته القشيري متأخراً عن موضعه الأصل قبلها .

أى شيء لكم فى تَرْكِكُمْ الإيمان بالله وبرسوله ، وما أُنَاكم به من الحشر والنشر ،
وقد أزاح العِلَّةَ بأنَّ الْآخَ لكم الْحُجَّةَ ، وقد أَخَذَ ميثاقكم وقتَ الذَّرِّ ، وأوجب عليكم
ذلك بِحُكْمِ الشَّرْعِ .

قوله جل ذكره : « هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ

بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى

النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَعَوْفٌ رَحِيمٌ » .

ليُخْرِجَكُمْ من ظلماتِ الجهلِ إلى نورِ العلمِ ، ومن ظلماتِ الشكِّ إلى نورِ اليقينِ .

وكذلك يُرِيهِم فى أنفسهم من الآياتِ بكشوفاتِ السُّرِّ وما يحصل به التعريف مما يجدون

فيه النفع والخير ؛ فيخرجهم من ظلماتِ التدبير^(١) إلى سعةِ قضاءِ التفويضِ ، وملاحظةِ فنونِ

جريانِ المقاديرِ .

وكذلك إذا أرادت النَّفْسُ الجنوحَ إلى الرُّخَصِ والأخذِ بالتخفيفِ^(٢) وما تكون عليه

المطالبةُ بالأشَقِّ — فإنَّ بَادَرَ إلى ما تدعوه الحقيقةُ إليه وَجَدَ فى قلبه من النورِ ما يَعْلَمُ به ظلمةُ

مواجهِ النَّفْسِ^(٣) .

قوله جل ذكره : « وما لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فى سَبِيلِ اللَّهِ

وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » .

ما فى أيديكم ميراثُ اللهِ ، وعن قريبٍ سَيُنْقَلُ إلى غيركم ولا تبقون بتناولِ أحمالكم . وهو

بهذا يحثهم على الصدقةِ والبدارِ إلى الطاعةِ وتركِ الإخلالِ إلى الأملِ . . ثم قال :

« لَا يَسْتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ

قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً

(١) أى ظلماتِ التدبيرِ الإنسانيِّ ، والتمويلِ على النفسِ ، فاعتمادُ الإنسانِ على تدبيره مجلبة لشقائه . . وأنَّى للعَيْنِ

أن يكون ذا تدبير ؟ !

(٢) هكذا فى م وهى الصوابُ أما (التخفيف) التى فى م فهى خطأ فى النسخ ؛ لأنَّ الاسيرَ خاصَّ جنوحٍ إلى

(التخفيف) كما نعلم

(٣) يتفق هذا مع قول الرسول الكريم «استفت قلبك ولو أفناك المغترون» .

من الذين أنفقوا من بعدُ وقَاتلوا
وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

لا يستوى منكم من أنفق قبل فتح مكة والحديبية والذين أنفقوا من بعد ذلك . بل أولئك
أعظم ثواباً وأعلى درجةً من هؤلاء ؛ لأنَّ حاجةَ الناسِ كانت أكثر إلى ذلك وكان ذلك
أشقَّ على أصحابه^(١) .

ثم قال : « وكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى » إلّا أنَّ فضيلةَ السَّبقِ لهم ، ولهذا قالوا :
السَّباقَ السَّباقَ قولاً وفعلًا حَذَّرَ النَّفْسَ حَسْرَةَ الْمَسْبُوقِ

قوله جل ذكره : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا
حَسَنًا فُضِّعَ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ » .

المراد بالقرض الصدقة ، وإنما ذكرها سبحانه كذلك تطييباً لقلوبهم ، فكان المتصدق
وهو يقرض شيئاً كالذي يقطع شيئاً من ماله ليدفعه إلى المُستقرض .

ويقال « يقرض » أى يفعل فعلاً حسناً ، وأراد بالقرض الحسن ما هنا ما يكون من وجه
حلال ثم عن طيب قلب ، وصاحبه مخلص فيه ، بلا رياء يشوبه ، وبلا من على الفقير ،
ولا يُكَدِّرُهُ تطويلُ الوعد ، ولا ينتظر عليه كثرة الأعواض .

ويقال : أن تقرضه وتقطع عن قلبك حُبَّ الدارين^(٢) ، ففي الخبر : « خير الصدقة ما كان
عن ظهر غنى »^(٣) وَمَنْ لَمْ يَتَحَرَّرْ مِنْ شَيْءٍ نَفَرَتْ عَنْهُ تَكْلَفٌ^(٤) .

(١) لأن الإسلام لم يكن بعد . قد عز واستمكن وانتشر في الأرجاء .

(٢) أى دون أن يكون قصدك على ما تفعل عوضاً أو عرضاً سواء في الدنيا أو في الآخرة إذ يكن أن تعلم
أى شرف لك أن : تُقْرِضَ اللَّهَ !!

(٣) حدث الليث عن عبد الرحمن بن خالد بن مسافر عن ابن شهاب عن ابن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله
(ص) قال : « خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وأبدأ بمن تعمل » البخاري ص ٣٠١ (كتاب النفقات) .

(٤) هكذا في ص وهي في م « تكلف » كما أثبتنا لأن السياق يقتضيه ذلك . وتوجد بعد (تكلف) عبارة منبهة
في الخط والمعنى ، تشبه أن تكون : (وهو على من يصل إليه ربي به) .

قوله جل ذكره : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى

نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم
اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار
خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم » .

وهو نور يُعطى للمؤمنين والمؤمنات بقدر أعمالهم الصالحة ، ويكون لذلك النور مطارح
شعاع يمشون فيها والنور يسعى بين أيديهم ، ويحيط جميع جهاتهم .
ويقال : « وبأيمانهم » كتبهم .

« بشراكم اليوم جنات » أى بشارتكم اليوم — من الله جنات . وكما أن لهم فى العرصة
هذا النور فالיום لهم فى قلوبهم وبواطنهم نور يمشون فيه ، ويهتدون به فى جميع أحوالهم ، قال
صلى الله عليه وسلم : « المؤمن ينظر بنور الله » وقال تعالى : « فهو على نور من ربه » (١) .
وربما ينبسط ذلك النور على من يقرب منهم . وربما يقع من ذلك على القلوب قهراً —
ولأوليائه — لا محالة — هذه الخصوصية .

قوله جل ذكره : « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين

آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم » .

انتظرونا فنلحق بكم لنقتبس من نوركم . وذلك لأن المؤمنين والمنافقين يُعطون كتبهم
وهم فى النور ، فإذا مروا . . . انطلقا النور أمام المنافقين وسبق المؤمنون ، فيقول المنافقون
للمؤمنين : انتظرونا حتى نقتبس من نوركم . فيقول المؤمنون :

« قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا »

أى إلى الدنيا وأخلصوا ! — تعريفاً لهم أنهم كانوا منافقين فى الدنيا .

ويقال : ارجعوا إلى حكم الأزل فاطلبوا (٢) هذا من القسمة ا — وهذا على جهة ضرب
المثل والاستبعاد .

(١) آية ٢٢ سورة الزمر .

(٢) هكذا فى م (فاطلبوا) وقد آثرنا الأول لأنها أكثر فى الاعتماد — وهو المقصود .

« فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ
وظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ » .

« بسور : وهو جَبَلُ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ ، يَسْتَرُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُنَافِقِينَ ، فَالْوَجْهُ الَّذِي يَلِي
الْمُؤْمِنِينَ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَفِي الْوَجْهِ الْآخَرِ الْعَذَابُ » .

قوله جل ذكره : « ينادونهم ألم نكن معكم ؟ قالوا : بلى ،
ولكنكم فتنتم أنفسكم ... » .

ألم نكن معكم في الدنيا في أحكام الإيمان في المناكحة والعاشرة ؟
قالوا : بلى ، ولكنكم فتنتم أنفسكم ..

« وَتَرَبَّصْتُمْ ، وَارْتَبْتُمْ ، وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانُ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ
وَعَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ » .

تربصتم عن الإخلاص ، وشككتم ، وغرركم الشيطان ، وركنتم إلى الدنيا .

قوله جل ذكره : « فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ
الَّذِينَ كَفَرُوا مَا أَوْأَكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ
وَبئسَ المصيرُ » .

النارُ ماؤاكم ومصيركم ومُتَقَلِّبُكُمْ .

وهي « مولاكم » أي هي أوَّلَى بكم ، وبئس المصير !

ويقال : مخالفة الضمائر والسرائر لا تنكتم بموافقة الظاهر^(١) ، والأسرار لا تنكتم عند الاختبار

قوله جل ذكره : أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ
قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ
وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

(١) السياق حديث عن المنافقين وعن الكفار .. وأراد القشيري أن ينقل هذا السياق إلى الجو الصوفي فوجه
تحذيره لأرباب الرياء والدعوى ، أولئك الذين يظنون أنهم إن تعاهدوا بالقيام بموافقة الشريعة وموافقة القوم
فإن الأسرَّة سريماً ما تكشف السريرة - على حد تعبيره - في موضع مماثل .

مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ قَسَتْ
قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ .

أَلَمْ يَحْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَتَوَاضَعَ قُلُوبُهُمْ وَتَلِينَ لِذِكْرِ اللَّهِ وَلِلْقُرْآنِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْمِيزِ ؟
وَأَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ ؟ وَأَرَادَ بِهِمُ الْيَهُودَ ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْيَهُودِ
فَاسِقُونَ كَافِرُونَ .

وَأَرَادَ بِطُولِ الْأَمَدِ الْفَتْرَةَ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ مُوسَى وَنَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَفِي الْخَبَرِ :
أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصَابَتْهُمْ مَلَالَةٌ فَقَالُوا : لَوْ حَدَّثْتَنَا .

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : « اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ .. » فَبَعْدَ مُدَّةٍ قَالُوا :

لَوْ قَصَصْتَ عَلَيْنَا !

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ... » فَبَعْدَ مُدَّةٍ قَالُوا : لَوْ ذَكَرْتَنَا
وَوَعَّظْتَنَا !

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ السُّورَةَ .

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مَا يَشْبَهُ الْأَسْتِطَاءَ .

وَإِنْ قَسْوَةُ الْقَلْبِ تَحْصُلُ مِنْ اتِّبَاعِ الشَّهْوَةِ ، وَالشَّهْوَةُ وَالصَّفْوَةُ لَا يَجْتَمِعَانِ ؛ فَإِذَا حَاصِلَتِ
الشَّهْوَةُ رَحَلَتِ الصَّفْوَةُ . وَمَوْجِبُ الْقَسْوَةِ هُوَ انْحِرَافُ الْقَلْبِ عَنْ مِرَاقَبَةِ الرَّبِّ . وَيُقَالُ : مَوْجِبُ
الْقَسْوَةِ أَوَّلُهُ خَطَرَةٌ فَإِنْ لَمْ تُتَدَارَكْ صَارَتْ فِكْرَةً وَإِنْ لَمْ تُتَدَارَكْ صَارَتْ عَزِيمَةً ، فَإِنْ لَمْ تُتَدَارَكْ
جَرَتْ الْخَالَفَةُ ، فَإِنْ لَمْ تُتَدَارَكْ بِالتَّلَافِي صَارَتْ قَسْوَةً وَبَعْدُ تَنْصِيرٌ طَبْعًا وَرَبِّيًّا^(١)

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

قَدَبَيْنَا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » .

يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا بِإِنْزَالِ الْمَطَرِ عَلَيْهَا وَإِخْرَاجِ النَّبْتِ مِنْهَا .

(١) رَأَى الثَّوْبَ ، رَيْئًا أَيْ تَطَبُّعًا وَتَدَنُّسًا ، وَرَأَتْ النَفْسُ أَيْ خَبِثَتْ وَغَشَتْ . (الْوَسِيطُ) .

وَيُحْيِي الْقُلُوبَ الْمَيِّتَةَ — بعد إعراضِ الحقِّ عنها — بحسن إقباله عليها^(١) .
قوله جل ذكره : « إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا
اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ » .

أى المتصدقين والمتصدقات .
« وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا » : يعنى فى النوافل .
« يُضَاعَفُ لَهُمْ » فى الحسنات ، الحسناتُ بعشر أمثالها . . إلى ما شاء الله
« وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ » : ثوابٌ كبيرٌ حسنٌ . والثوابُ الكريمُ أَنَّهُ لَا يَضِنُّ بِأَقْصَى الْأَجْرِ
على الطاعة — وَإِنْ قَلَّتْ .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ
الصَّدِّيقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ
أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ » .

الصَّدِّيقُونَ : مبالغة فى الصدق ، والشهداء : الذين استشهدوا فى سبيل الله ، فالْمُؤْمِنُونَ بمنزلة
الصديقين والشهداء — لهم أجورهم فى الجنة ونورهم فى القيامة .

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ » .

والصديق من استوى ظاهره وباطنه .
ويقال : هو الذى يحمل الأمر على الأستق ، ولا ينزل إلى الرخص ، ولا يمنح
للتأويلات .

والشهداء : الذين يشهدون بقرابهم مواطن الوصلة ، ويعتقون بأسرارهم فى أوطان القربة ،
« وَنُورُهُمْ » : ما كحل الحق به بصائرهم من أنوار التوحيد .

(١) كان المروءى أن تكون البارة مكلا :
(ويحيى للقلوب الميتة بعد إعراضه عنها) .
فاستعمال (الحق) فى الإضافة مسأنة لهم أرباب القلوب المتحققين الفانين عن الخلق الباقين بالحق .

قوله جل ذكره : « اعلّموا أنّما الحياةُ الدُّنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ
وزينةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ
فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ » .

الحياةُ الدُّنيا مُعَرَّضَةٌ لِلزَّوَالِ ، غيرُ لَابِثَةٍ وَلَا مَآكِثَةٍ ، وهى فى الْحَالِ شَاغِلَةٌ عَنْ اللَّهِ ،
مُطْمَئِنَّةٌ ^(١) وَغَيْرُ مُشْبِعَةٍ ، وَتَجْرَى عَلَى غَيْرِ سَنَنِ الْإِسْتِقَامَةِ كَجَرَيَانِ لَعِبٍ ^(٢) الصِّبْيَانِ ، فَهِيَ تُنْهِى
عَنِ الصَّوَابِ وَاسْتِبْصَارِ الْحَقِّ ، وَهِيَ تَفَاخُرٌ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ .

« كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ
ثُمَّ يَهْبِجُ فَتِرَاهُ مُمْصِرًا ثُمَّ يَكُونُ
حُطَامًا » .

الكفار : الزُّرَّاع .

هو فى غَايَةِ الْحُسْنِ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتِرَاهُ يَأْخُذُ فِي الْجَنَافِ ، ثُمَّ يَنْتَهَى إِلَى أَنْ يَتَحَطَّمَ وَيَتَكَسَّرَ .
« وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ » .

لأهله من الكفار .

« وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ » .

لأهله من المؤمنين .

« وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ » .

الدُّنْيَا حَقِيرَةٌ — وَأَحَقُّرُ مِنْهَا قَدْرًا طَالِبُهَا وَأَقْلُّ مِنْهُ خَطَرًا الزَّاحِمُ فِيهَا ، فَهِيَ إِلَّا جِيفَةٌ ؛
وَطَالِبُ الْجِيفَةِ لَيْسَ لَهُ خَطَرٌ . وَأَخْسَ أَهْلُ الدُّنْيَا مَنْ بَخِلَ بِهَا .
وهذه الدُّنْيَا الْمَذْمُومَةُ هِيَ الَّتِي تَشْغَلُ الْعَبْدَ عَنِ الْآخِرَةِ !

(١) رُبَّمَا كَانَتْ - (مُطْمَئِنَّةً) فِي الْأَصْلِ ؛ فَتَدْبِلُو الدُّنْيَا ذَاتَ قِيَمَةٍ وَلَكِنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ عَدِيمَةُ الْقِيَمَةِ .
(٢) فِي النُّسخَتَيْنِ (لَعَابِ) الْأَطْفَالِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ آثَرْنَا أَنْ نُنَبِّهَ هُنَا (لَعِبَ) بِالرَّغْمِ مِنْ تَحَمُّسِنَا لاسْتِعْمَالِ
(اللَّعَابِ) فِي مَوْضِعٍ سَبَقَ ؛ ذَلِكَ لِأَنَّنَا نَرَى إِضَافَةَ اللَّعَابِ إِلَى الصِّبْيَانِ لَا يَزِيدُ الْمَعْنَى تَأْكِيدًا ، فَاللَّعَابُ ظَاهِرَةٌ فِلسُوفِيَّةٌ
تَجْرَى عَلَى غَيْرِ نِظَامٍ — وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ — عِنْدَ الْكِبَارِ وَالصِّغَارِ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ ، بَيْنَمَا إِضَافَةُ اللَّعْبِ إِلَى الصِّبْيَانِ تَعْطَى
الْمَعْنَى الْمَطْلُوبَ .

قوله جل ذكره : « سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ
عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ
لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ » .

أى سارعوا إلى عملٍ يوجب لكم مغفرةً من ربكم ، وذلك العمل هو التوبة .
« وجنة عرضها . . . » ذكر عرضها ولم يذكر طولها ؛ فالطول على ما يوافيه العرض .
« أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ » : وفي هذا دليلٌ على أن الجنة مخلوقة (١) .
« ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » .

وفي ذلك ردٌّ على من يقول : « إن الجنة مُسْتَحَقَّةٌ عَلَى الطاعات ، ويجب على الله إيفالُ
العبدِ إليها » (٢) ... لأن الفضل لا يكون واجباً .

ويقال : لما سمعت أسرار المؤمنين (٣) هذا الخطاب (٤) ابتدأت الأرواحُ مُقْتَضِيَةَ المسارعة
من الجوارح ، وصارت الجوارحُ مُسْتَجِيبَةً لِلْمُطَالَبَةِ ، مُسْتَبْشِرَةً بِرعاية حقوق الله ؛ لأنها علمت
أن هذا الاستدعاء من جانب الحق سبحانه .

قوله جل ذكره : « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ
وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ
أَنْ نَبْرَأَهَا ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ » .

المصيبة حَصْلَةٌ (٥) تقع وتحصل . فيقول تعالى : لا يحصل في الأرض ولا في أنفسكم شيءٌ

(١) هكذا أيضاً يرى ابن القيم في (اجتماع الجيوش الإسلامية ص ٥٢) .

والأشاعر . والسلف يرون ذلك ويرون أن الجنة والنار مخلوقتان الآن وأنها باقيةتان .

(٢) هذا رأى المعتزلة الذين اعتبروا ذلك من مقتضيات العدل الإلهي .

(٣) هكذا في م وهي في ص (الموحدين) .

(٤) هكذا في ص وهي في م (الخطاة) وواضح فيها خطأ الناسخ لأن الأمر متعلق بالفعل (سابقوا ...)

(٥) بمعنى حادث يحصل ، وهي في (خصلة) بالحاء والصواب خصلة . (انظر ما يقوله القشيري في سورة

التغابن عند «ما أصاب من مصيبة» على معنى : (حصل المم خصلاً وخصلة) أى وقع بلزق الهدف أو أصابه .

إلا وهو مُثَبَّتٌ في اللوح المحفوظ على الوجه الذى سبق به العلم ، وحق فيه الحكم ؛ قبل أن يخلق ذلك أُنْبَتَاهُ في اللوح المحفوظ .

فكلُّ ما حصل في الأرض من خصيب أو جدير ، من سعة أو ضيق ، من فتنه أو استقامة وما حصل في النفوس من حزن أو سرور ، من حياة أو موت كلُّ ذلك مُثَبَّتٌ في اللوح المحفوظ قبل وقوعه بزمان طويل .

وفي قوله : « من قبل أن نبرأها » دليلٌ على أن أكساب العباد مخلوقة لله سبحانه . وللعبد في العلم بأن ما يصيبه : من بسط وراحة وغير ذلك من واردات القلوب من الله — أشدُّ السرور وآتمُّ الأنس ؛ حيث عِلِمَ أنه أَفْرَدَ بذلك بظهور غيبٍ منه ، بل وهو في كنز العدم ، ولهذا قالوا :

سقياً لعهدك الذى لو لم يكن ما كان قلبى للصباة مبهداً^(١)

قوله جل ذكره : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » .

عَدَمُ الفرحه بما آتاهم هو من صفات المتحررين من رِقِّ النَّفْسِ ، قِيمَةُ الرجالِ تبين بتغيرهم — فَمَنْ لم يتغير بما يَرِدُ عليه — بما لا يريد — من جفاء أو مكروه أو محنة فهو كاملٌ ، وَمَنْ لم يتغير بالمسار كما لا يتغير بالمضار ، ولا يسرُّه الوجود كما لا يحزنه العدم — فهو سَيِّدٌ وقته^(٢) .

ويقال : إذا أردت أن تعرف الرجلَ فاطلبه عند الموارد ؛ فالتغيرُ علامةُ بقاء النفسِ بأى وجهٍ كان :

« والله لا يحب كلُّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ » .

(١) وهكذا نرى أن الجبرية عند الصوفية ترتبط بالمحبة القديمة ، فالله البارئ الخالق العبد من العدم .. لن يريد به إلا الخير .. وحتى لو أصاب العبد تلف .. فمرحباً به فهو تلف في سبيل المحبوب .

(٢) التغير من علامات التلوين ، والثبات في المسار والمضار — عند تقلب الأحوال على العارف — من علامات التمكين . فسادات الوقت هم أهل التمكين .

فالاختيال من علامات بقاء النفس ورؤيتها^(١)، والفخر^(٢) (فاتح^(٣)) عن رؤية مابه يفتخر .
 قوله جل ذكره : «الذين يبخلون ويأمرون الناس
 بالبخل ، ومن يتولَّ فإنَّ الله هو
 الغنيُّ الحميدُ» .

بخلوا بكمآن صفة نبينا صلى الله عليه وسلم وأمرُوا أتباعهم بذلك ، وذلك لما خافوا
 من كسادِ سوقهم وبطلانِ رياستهم .

« ومن يتولَّ » . . عن الإيمان ، أو إعطاء الصدقة « فإن الله هو الغني الحميد » .
 والبخلُ — على لسان العلم — منَعُ الواجب^(٣) ، فأما على بيان هذه الطائفة^(٤) فقد قالوا :
 البخلُ رؤية قدرٍ للأشياء ، والبخلُ الذي يُعطى عند السؤال^(٥) ، وقيل : من كتب
 على خاتمه اسمه فهو بخيل^(٦) .

قوله جل ذكره : « لقد أرسلنا رُسُلنا بالبينات وأنزلنا
 معهم الكتابَ والميزانَ ليقومَ
 الناسُ بالقسطِ » .

أى أرسلناهم مُؤيِّدين بالحججِ اللَّامِحةِ والبراهين الواضحة ، وأزحنا العلةَ لِمَنْ أراد سلوكَ
 الحُجَّةِ المُتَلَى ، ويسرنا السبيل على مَنْ آثَرَ اتباعَ الهدى . وأنزلنا معهم الكُتُبَ المنزلةَ ،
 و « الميزانَ » : أى الحُكْمَ بالقرآن ، واعتبار العدلِ والتسويةِ بين الناس .
 « ليقومَ الناسُ بالقسطِ » : فلا يظلمُ أحدٌ أحداً .

(١) هكذا في ص وهي أصوب من (زيتها) التي في م ، فرؤية النفس آفة يحذر منها أرباب الطريق — خاصة
 أهل الملاحة .

(٢) إضافة من عندنا حتى يتضح السياق .

(٣) يقصد منع الزكاة المقروضة حسب علوم الشريعة .

(٤) يقصد طائفة الصوفية .

(٥) أى لا ينتظر حتى يسأله سائل ، وإنما هو يعطى دائماً دون انتظار لدعوة داعٍ أو سؤال سائل .

(٦) لأنه ينبغي أن يكون مستعداً لأعضائه لغيره عند أى ظرفٍ من الظروف ، والمقصود أن يكون في العبد
 لشار الفتيان (راجع فصل الفتوة في رسالة القشيري) .

قوله جل ذكره : « وأنزلنا الحديد فيه بأسٌ شديدٌ
ومنافعٌ للناسِ وليَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ
ورُسُلُهُ بالغيبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ».

« أنزلنا الحديد » : أى خلقنا الحديد .

ونصرة الله هى نصرته دينة ، ونصرة الرسول باتِّباعِ سُنَّتِهِ .

« إن الله قوى عزيز » : أقوى من أن يُنازِعَهُ شريكٌ ، أو يضارِعَهُ فى الملكِ ملكٌ ،
وأعزُّ من أن يحتاج إلى ناصر .

قوله جل ذكره : « ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيمَ وجعلنا
فى ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ »

أى : أرسلنا نوحاً ، ومن بعده إبراهيمَ ، وجعلنا فى نَسْلِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ .
« فمنهم مهتدٍ » .

أى : مستجيبٌ .

« وكثيرٌ منهم فاسقون » .

خرجوا عن الطاعة .

قوله جل ذكره : « ثم قَفَّيْنَا على آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا
بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ
وجعلنا فى قلوب الذين آتبعوه رَأْفَةً
ورَحْمَةً » .

أى : أرسلنا بعدهم عيسى ابن مريم .

« وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا
عليهم » .

بَيَّنَّ أَنَّهُ لَمْ يَأْمُرْهُم بِالرَّهْبَانِيَّةِ^(١) بل هم الذين ابتدعوها

(١) الرهبانية هى : الفعلة المنسوبة إلى الرهبان وعو الخائف - صيغة فعْلان من رهب مثل خشيان من خشى ،
وكانوا يفرون إلى الجبال والصحراوات ليخلصوا من الفتنة فى دينهم ، ويقطعون أنفسهم عن الزواج والنسل .

ثم قال :

« إِلَّا ابْتَغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ » .

هم الذين انفردوا بما عقدوه معنا (أن يقوموا بحققنا)^(١)

« فَأَتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ
وَكثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسْتَوُوا » .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَأَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ
مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ
بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

نزلت في قوم من أهل الكتاب أسلموا .

« كَفْلَيْنِ » : أى نصيبَيْن ؛ نصيباً على الإيمان بالله ، وآخر على تصديقهم
وإيمانهم بالرسول .

قوله جل ذكره : « لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ
أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ
وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ
وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » .

ومعناه : يعلم أهل الكتاب ، و « لا » صلة . أى : ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرُونَ على
شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ^(٢) ، فإن الفضل بيد الله . و « اليد » هنا بمعنى : القدرة ، فالفضلُ بقدرة الله .

(١) ما بين القوسين موجود في ص وغير موجود في م .

(٢) ونظيره قول ابن جني في « لئلا يعلم أهل الكتاب » أى ليعلموا فهي مؤكدة قائمة مقام إعادة الجملة مرة
أخرى . (الإتقان للسيوطي ١ ص ١٧١) ط الحلبي .

والإشارة في هذا : اتَّقُوا اللَّهَ بِحِفْظِ الْأَدَبِ مَعَهُ ، وَلَا تَأْمَنُوا مَكْرَهُ أَنْ يَسْلَبَكُمْ مَا وَهَبَكُمْ
مِنْ أَوْقَاتِكُمْ . وَكُونُوا عَلَى حَذَرٍ مِنْ بَغْتَاتِ تَقْدِيرِهِ فِي تَغْيِيرِ مَا أَذَاقَكُمْ مِنْ أَنْسِ حَبْثِهِ .
وَاتَّبِعُوا السُّفَرَاءَ وَالرُّسُلَ ، وَحَافِظُوا عَلَى اتِّبَاعِهِمْ حَتَّى يُؤْتِيَكُمْ نَصِيحِينَ مِنْ فَضْلِهِ :
عَصَمَةً وَنِعْمَةً ؛ فَالْعَصَمَةُ مِنَ الْبَقَاءِ عَنْهُ ، وَالنِّعْمَةُ هِيَ الْبَقَاءُ بِهِ .
وَيَقَالُ : يُؤْتِيكُمْ نَصِيحِينَ : نَصِيبًا مِنَ التَّوْفِيقِ فِي طَلَبِهِ ، وَنَصِيبًا مِنَ التَّحْقِيقِ فِي وَجُودِهِ^(١)

(١) (الوجود) هنا ليس بمعناه (نشد العدم) بل هو أعلى درجات الشهود ، فالتواجد بداية ، والوجد واسطة
والوجود نهاية (نظر الرسالة ص ٣٧) .

سُورَةُ الْمُجَادَلَةِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ مَنْ عَرَفَهَا بَدَّلَ الرُّوحَ فِي طَلِبِهَا — وإن لم يَحْفَظْ بوصولها ، كلمةٌ مَنْ طَلِبَهَا اِكْتَفَى بِالطَّلَبِ مِنْ ^(١) قَبُولِهَا .

كلمةٌ جِبَّارَةٌ لَا تَنْظُرُ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ ، كلمةٌ قَهَّارَةٌ لَا يُوجَدُ مِنْ دُونِهَا مُلْتَحِدٌ .

كلمةٌ مِنْهَا بِلَاءُ الْأَحْيَاءِ — لَكِنْ بِهَا شِفَاءُ الْأَحْيَاءِ .

قوله جل ذكره : « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ

فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ » .

لَمَّا صَدَقَتْ ^(٢) فِي شَكْوَاهَا إِلَى اللَّهِ وَأَيِسَتْ مِنْ اسْتِكْشَافِ ضُرِّهَا مِنْ غَيْرِ اللَّهِ — أَنْزَلَ اللَّهُ فِي شَأْنِهَا : « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ . . . » .

تَضَرَّعَتْ إِلَى اللَّهِ ، وَرَفَعَتْ قِصَّتَهَا إِلَى اللَّهِ ، وَنَشَرَتْ غُصَّتَهَا ^(٣) بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ — فَنَظَرَ إِلَيْهَا اللَّهُ ، وَقَالَ : « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ » .

وَيَقَالُ : صَارَتْ فَرْجَةٌ ^(٤) وَرُخْصَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ إِلَى الْقِيَامَةِ فِي مَسْأَلَةِ الظَّهَارِ ^(٥) ، وَلِيَعْلَمَ الْعَالَمُونَ أَنَّ أَحَدًا لَا يَخْسِرُ عَلَى اللَّهِ .

وَفِي الْخَبَرِ : أَنَّهَا قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ أَوْسًا تَزَوَّجَنِي شَاَبَةً غَنِيَّةً ذَاتَ أَهْلٍ ،

(١) وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ : اِكْتَفَى مِنَ الْقَبُولِ بِالطَّلَبِ ، أَيْ اِكْتَفَى أَنْ يَشْرَفَ بِطَلِبِهَا وَعَلَى اللَّهِ إِيْمَامُ الْفَضْلِ بِالْقَبُولِ — وَهَذَا أَسَاسُ هَامٍ فِي مَنْهَجِ الطَّالِبِينَ وَالسَّالِكِينَ .

(٢) هِيَ خَوْلَةٌ بَفَتْ ثَعْلَبَةَ امْرَأَةِ أَوْسِ بْنِ الصَّامِتِ أَخِي عِبَادَةَ .

(٣) هَكَذَا فِي صَوْهِهَا وَهِيَ فِي م (قِصَّتِهَا) وَقَدْ آثَرْنَا مَا جَاءَ فِي م لَتَلْوِينِ الْكَلَامِ وَخِدْمَةِ السِّيَاقِ .

(٤) فِي النُّسخَتَيْنِ (فَرْجَةٌ) وَلَا بَأْسَ بِهَا فِي الْمَعْنَى وَلَكِنَّا نَذْهَبُ أَنَّ (فَرْجَةً) تَدْعِمُ السِّيَاقَ عَلَى نَحْوِ آكِدٍ .

(٥) ظَاهِرٌ امْرَأَتُهُ ظَهَرَ أَيْ قَالَ لَهَا : أَنْتِ عَلَى كَظْهَرِ أُمِّي ؛ أَيْ أَنْتِ حَامِي .

ومالٍ كثير ، فلما كبرت سني^(١) ، وذهبَ مالي ، وتفرَّقَ أهلي جعلني عليه كظهرِ أمِّه ، وقد نديم وتديمت ، وإنَّ لي منه صبيَّةً صغاراً إنَّ ضَمَّتْهُمْ إليهِ ضاعوا ، وإنَّ ضَمَّتْهُمْ إليَّ جاعوا .

قال لها الرسول صلى الله عليه وسلم — في رواية — : ما أُمِرْتُ بشيءٍ في شأنك .

وفي رواية أخرى أنه قال لها : بَنَتْ عَنْهُ (أى حرمت عليه) .

فترددت إلى رسول الله (ص) في ذلك ، وشكت .. إلى أن أنزل الله حُكْمَ الظَّهَارِ .

قوله جل ذكره : « الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ

نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ

إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ

مُنْكَرًا مِنْ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ

لَعَفُوفٌ غَفُورٌ » .

قَوْلُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لِنِسَائِهِمْ — جرياً على عادة أهل الشُّرْكِ — أَنْتِ عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّي ..

هذا شيءٌ لم يَحْكُمِ اللهُ بِهِ ؛ ولا هذا الكلامُ في نَفْسِهِ صِدْقٌ ، ولم يثبت فيه شرعٌ ،

ولمَّا هو زورٌ مخضٌ وكذبٌ صيرفٌ .

فَعَلِمَ الْكَافَّةُ أَنَّ الْحَقَائِقَ بِالتَّلْيِيسِ لَا تَعَزَّزُ^(٢) ؛ وَالسَّبَبُ إِذَا لَمْ يَكُنْ صَحِيحاً فَبِالْمَعَاوِدَةِ

لَا يَثْبُتُ ؛ فَالْمَرَأَةُ لَمَّا سَمِعَتْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (ص) قَوْلَهُ : بَنَتْ عَنْهُ — كَانَ وَاجِباً عَلَيْهَا

السَّكُونُ وَالصَّبْرُ ؛ وَلَكِنَّ الْضَرُورَةَ أَنْطَقَتْهَا وَحَمَلَتْهَا عَلَى الْمَعَاوِدَةِ ، وَحَصَلَتْ مِنْ ذَلِكَ

مَسْأَلَةٌ : وَهِيَ أَنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَشْيَاءِ يَحْكُمُ فِيهَا ظَاهِرُ الْعِلْمِ بِشَيْءٍ ؛ ثُمَّ تُغَيَّرُ الْضَرُورَةُ ذَلِكَ

الْحُكْمَ لِصَاحِبِهَا^(٣) .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ

(١) وفي رواية : خلا سني ونثرت بطني — أى كثر ولدي .

(٢) ربما كانت في الأصل (لا تنفرد) ومع ذلك فالمعنى هكذا مقبول .

(٣) هذه غمرة رقيقة بأولئك المتشبهين بالظواهر ، ودعوة إلى التريث .

يسودون لما قالوا فتحرير رَقَبَةٍ مِنْ
قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ۖ ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . . . » .

الظَّهَار — وإن لم يكن له في الحقيقة أصل ، ولا بتصحيحه نطق أو دلالة شرع ، فإنه
بعد ما رُفِعَ أمرُه إلى الرسول (ص) ولوَّحَ بشيء ما ، وقال فيه حُكْمُهُ ، لم يُخَلِّ اللهُ ذلك من
بيانٍ ساق به شرعُه ؛ فقفى فيه بما انتظم جوانب الأمر كله .

فارتفع الأمر حتى واصله إلى مجلس النبي صلى الله عليه وسلم ، والتحاكم لديه محل
المتعدى عناء فعلته ، وأعاد للمرأة حقها ، وكان سبيلاً لتحديد المسألة برُمثها . . . وهكذا فإن
كلَّ صعبٍ إلى زوالٍ . . . وكلُّ ليلةٍ — وإن طالَّت — فإلى إسفار (١) .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ يَحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا
كَمَا كَبَتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ
أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ
عَذَابٌ مُهِينٌ » .

الذين يُخَالِفُونَ أَمْرَ اللَّهِ وَيَتْرَكُونَ طَاعَةَ رَسُولِ اللَّهِ أَذِلُّوا وَخَذِلُوا ، كما أذِلَّ
الذين من قَبْلِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْعَصَاةِ .

وقد أجرى اللهُ سُنَّتَهُ بِالْإِنْتِقَامِ مِنْ أَهْلِ الْإِجْرَامِ ؛ فَمَنْ ضَيَّعَ لِلرَّسُولِ سُنَّةً ، وَأَحْدَثَ
فِي دِينِهِ بِدْعَةً انْخَرَطَ فِي هَذَا السَّلَكِ ، وَوَقَعَ فِي هَذَا الذِّلِّ .

قوله جل ذكره : « يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا
عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » .

يقال : إِذَا حُوسِبَ أَحَدٌ فِي الْقِيَامَةِ عَلَى عَمَلِهِ تَصَوَّرَ لَهُ مَا فَعَلَهُ وَتَذَكَّرَهُ ، حَتَّى كَأَنَّهُ قَائِمٌ
فِي تِلْكَ الْحَالَةِ عَنْ بَسَاطَةِ الزَّلَّةِ ، فَيَقَعُ عَلَيْهِ مِنَ الْخَلْجَلِ وَالنَّدَمِ مَا يَنْسَى فِي جَنْبِهِ كُلَّ عَقُوبَةٍ .

(١) حدث تدخل من جانبنا في ترميم هذه الفقرة التي جاءت في النسختين منبهة الكتابة والمعنى .

فَسَبِيلُ الْمُسْلِمِ أَلَّا يَحْجُمَ حَوْلَ مَخَالَفَةِ أَمْرِ مَوْلَاهُ ، فَإِنْ جَرَى الْمَقْدُورُ وَوَقَعَ فِي هِجْةِ
التَّقْصِيرِ فَلْتَكُنْ زَلَّتْهُ عَلَى بَالٍ ، وَلِيَتَضَرَّعْ إِلَى اللَّهِ بِحُسْنِ الْإِبْتِهَالِ .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى
ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ
إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ
وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَا كَانُوا
ثُمَّ يَنْبِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ
إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » .

مَعْنَى الْحَقِّ — سبحانه — وَإِنْ كَانَتْ عَلَى الْعُمُومِ بِالْعِلْمِ وَالرَّوَايَةِ ، وَعَلَى
الْخُصُوصِ بِالْفَضْلِ وَالنَّصْرَةِ — فلهذا الخطاب في قلوب أهل المعرفة أثراً عظيماً ، ولهم
إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ الْأَمْرُ بِهِمْ إِلَى التَّوَلُّهِ ^(١) فَالْوَلَاءُ فَالْهِمَانُ فِي غَمَارِ سَمَاعِ هَذَا عَيْشٍ رَاغِدٍ .

وَيَقَالُ : أَصْحَابُ الْكَهْفِ — وَإِنْ جَلَّتْ رَتَبَتُهُمْ وَاخْتَصَتْ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ مَرْتَبَتُهُمْ —
فَالْحَقُّ سَبْحَانَهُ يَقُولُ : « سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ » ^(٢) وَلَسَا أَنْتَهَى إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ
قَالَ : « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ ... » فَشَتَّانَ بَيْنَ مَنْ رَابِعُهُ
كَلْبُهُ وَبَيْنَ مَنْ رَابِعُهُ رَبُّهُ !!

وَيَقَالُ : أَهْلُ التَّوْحِيدِ ، وَأَصْحَابُ الْعُقُولِ مِنْ أَهْلِ الْأَصُولِ يَقُولُونَ : اللَّهُ وَاحِدٌ لَا مِنْ طَرِيقِ
الْعَدَدِ ^(٣) ، وَالْحَقُّ يَقُولُ : « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ... » وَيَقَالُ : حَيْثَمَا كُنْتَ
فَأَنَا مَعَكَ ؛ إِنْ كُنْتَ فِي الْمَسْجِدِ فَأَنَا مَعَكَ ، وَإِنْ كُنْتَ فِي الْمَصْطَبَةِ فَأَنَا مَعَكَ ، إِنْ طَلَبَ الْعُلَمَاءُ

(١) وَرَدَّتِ التَّأْوِيلُ فِي صِ وَالتَّأْوِيلُ فِي م وَالصَّحِيحُ — فِي نَظَرِنَا — أَنْ تَكُونَ التَّوَلُّهُ ؛ فَهُوَ الْمَنْزِلَةُ الَّتِي تَسْبِقُ
الْوَلَاءَ وَالْهِمَانِ .

(٢) آيَةُ ٢٢ سُورَةِ الْكَهْفِ .

(٣) الْوَاحِدُ عَلَى الْحَقِيقَةِ لَيْسَ عِدْداً لِأَنَّ الْعَدَدَ هُوَ مَا بَلَغَ نِصْفَ مَجْمُوعِ حَاشِيَتَيْهِ ، وَلَيْسَ قَبْلَ الْوَاحِدِ شَيْءٌ .

التأويل^(١) وشوَّشوا قلوبَ أولى المواجهين فلا بأس — فأنا معهم .

إن حضرتَ المسجدَ فأنا معك ياسباغ النعمة ولكن وَعْدًا ، وإن أتيتَ المصطبةَ فأنا معك بالرحمة وإسبالِ سترِ المغفرة ولكن نَقْدًا .

هَبَكَ تَبَاعَدْتَ وَخَالَفْتَنِي قَدَرُ أَنْ تَخْرُجَ عَنْ لُطْفِي ١٩

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْنَا عَنْ النُّجْوَى

ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهَوَّاهُ عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ
وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ، وَإِذَا
جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ » .

آذَوْا قُلُوبَ الْمُسْلِمِينَ بِمَا كَانُوا يَتَنَاجَوْنَ بِهِ فِيمَا بَيْنَهُمْ^(٢) ، ولم تكن في تناجيهم فائدة
إلا قصدهم بذلك شغلَ قلوبِ المؤمنين ، ولم ينهوا عنه لما نهوا عنه ، وَأَصْرُوا عَلَى ذَلِكَ
وَلَمْ يَنْزَجِرُوا ، فَتَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ ، وَتَكُونُ عِقَابُهُمْ بِأَنْ تَتَغَامَزَ الْمَلَائِكَةُ فِي بَابِهِمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ ،
وَحِينَ يَشَاهِدُونَ ذَلِكَ تَرَجَّمُ ظُنُونُهُمْ ، وَيتَعَذَّبُونَ بِتَقَسُّمِ قُلُوبِهِمْ ، ثُمَّ لَا يَنْكَشِفُ الْحَالُ لَهُمْ
إِلَّا بِمَا يَزِيدُهُمْ حُزْنًا عَلَى حُزْنٍ ، وَأَسْفًا عَلَى أَسْفٍ .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ

فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ
الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا
اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » .

إِنَّمَا قَبِيحُ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَعَظُمَ الْخَطَرُ لِأَنَّهُ تَضَمَّنَ إِفْسَادَ ذَاتِ الْبَيِّنِ ، وَخَيْرُ الْأُمُورِ مَا عَادَ
بِإِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيِّنِ ، وَبِعَكْسِهِ إِذَا كَانَ الْأَمْرُ بِضَدِّهِ .

(١) «فإن حجج أهل هذه الطائفة أظهر من حجج كل أحد ، وقواعد مذهبهم أقوى من قواعد كل مذهب .
والناس : إما أصحاب النقل والأثر ، وإما أرباب العقل والفكر .. وشيوخ هذه الطائفة ارتقوا عن هذه الجملة ؛
فالذي للناس غيب فهو لهم ظهور ، والذي للخلق من المعارف مقصود فلهم من الحق سبحانه موجود ، فهم من أهل
الوصال والناس أهل الاستدلال» الرسالة التفسيرية ص ١٩٨ وانظر تذكرة الحفاظ للذهبي ج ٤ ص ١٥ .

(٢) كان اليهود والمنافقون يتغامزون فيما بينهم وبأبيهم إغاطةً للمؤمنين ، وكانوا إذا أقبلوا على الرسول
نابوا له : السام عليك يا محمد .. والسام هو الموت .

قوله جل ذكره : « إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ

الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا

بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » .

النجوى من تزيين الشيطان ليحزن الذين آمنوا . وإذا كانت المشاهدة غالباً ، والقلوب

حاضرة ، والتوكل صحيحاً ؛ والنظر من موضعه صائباً فلا تأثير لمثل هذه الحالات ، وإنما

هذا للضعفاء .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ

تَفْسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ

لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا » (١) .

لكمال رحمته بهم وتتمام رأفته عليهم ، علَّهم مراعاة حُسن الأدب بينهم فيما كان من أمور

العادة (دون أحكام العبادة) (٢) في التفسح في المجالس والنظام في حال الزحمة والكثرة . .

وأعزَّز بأقوام أمرهم بدقائق الأشياء بعد قيامهم بأصول الدين وتحققهم بأركانه !

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ

فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ

خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ

غَفُورٌ رَحِيمٌ » (٣) .

لما كان الإذن في النجوى مقروناً ببذل المال امتنعوا وتركوا ، وبذلك ظهرت جواهر

(١) (انشُرُوا) أى : انهضوا للتوسعة على المقبلين ، أو انهضوا من مجلسه صلى الله عليه وسلم إذا أُمِرتم بالهوض

عنه ، أو انهضوا إلى الصلاة ، أو إلى الجهاد ، أو إلى أعمال الخير .

(٢) هذه موجودة في م وغير موجودة في ص .

(٣) رُخص بعدئذ في المناجاة من غير صدقة . وقيل : كان ذلك عشر ليال ثم نُسخ . وقيل : ما كان إلا ساء

من نهار ثم نُسخ . . ويحكى : أن علياً كرم الله وجهه كان يتصدق بدرهم كلِّما ناجى الرسول - أى بداية الأمر - ثم توقَّف لما فسخت الآية ، وأزيلت المؤاخذه .

الأخلاق وتقاوة الرجال — ولقد قال تعالى : « ولا يسألكم أموالكم * إن يسألكوها
فيحلفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم » (١) .

قوله جل ذكره : « ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب
الله عليهم ما هم منكم ولا منهم » .

مَنْ وافقَ مغضوباً عليه أشركَ نفسه في استحقاقِ غضبِ مَنْ هو الغضبان ؛ فمن
تَوَلَّى مغضوباً عليه مِنْ قِبَلِ اللَّهِ استوجبَ غضبَ اللَّهِ وكفى بذلك هواناً وخسراناً .

« ويحلفون على الكذب وهم يعلمون *
أعدَّ الله لهم عذاباً شديداً لأنهم ساء
ما كانوا يعملون * اتخذوا أيمانهم
جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ
عَذَابٌ مُهِين »

هذا وصفٌ للمنافقين

« اتخذوا أيمانهم جُنَّةً » أى وقايةً وسترًا ؛ وَمَنْ أَسْتَرَ بِجُنَّةٍ طاعته لتَسْلَمَ له دنياه فإنَّ
سهامَ التقديرِ مِنْ ورائه تكشفه من حيث لا يشعر . . فلا دِينُهُ يَبْقَى ، ولا دنياه تَسْلَمُ ، ولقد
قال تعالى : « لن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ ولا أَوْلَادُهُمْ من اللَّهِ شيئاً » (٢) .

قوله جل ذكره : « يومَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ
كما يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى
شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هم الكاذبون » .

عقوبتهم الكبرى ظَنُّهم أَنَّ ما عَمِلُوا مع الخلقِ يَتَمَشَّى أيضاً في مُعاملةِ الحقِّ ، ففَرَطُوا الأجنبيَّةَ
وغايةَ الجهلِ أَكْبَبَتْهم على مناخرهم في هُدًى نَدَمِهِمْ .

(١) آية ٣٧ سورة محمد .

(٢) آية ١٠ سورة آل عمران .

قوله جل ذكره : « استحوذ عليهم الشيطان فأنسَاهم
ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا
إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ » .

إذا استحوذ الشيطانُ على عَبْدٍ أنساه ذِكْرَ اللَّهِ .
والنفسُ إذا استولتْ على إنسان أنسته الله .

ولقد خسرَ حزبُ الشيطان ، وأخسرُ منه مَنْ أعان نفسه — التي هي أعدى عدوه ،
إلا بأن يَسْعَى في قهرِها لعله ينجو من شرِّها .

قوله جل ذكره : « إن الذين يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ » .

مَنْ أَرَمَتْهُ شِقْوَتُهُ لَمْ تُنْمِشْهُ قُوَّتُهُ ، وَمَنْ قَصَصَهُ التَّقْدِيرُ لَمْ يَنْصِبْهُ التَّدْيِيرُ ، وَمَنْ اسْتَهَانَ
بِالَّذِينَ انْخَرَطَ فِي سَلَكِ الْأَذَلِّينَ .

قوله جل ذكره : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي
إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ » .

الذي ليس له إلا التدبير . . كيف تكون له مقاومة مع التقدير ؟ (١) .

قوله جل ذكره : « لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ » .

مَنْ جَنَحَ إِلَى مَنْحَرٍ عَنْ دِينِهِ ، أَوْ دَاهَنَ مُبْتَدِعًا فِي عَهْدِهِ نَزَعَ اللَّهُ نُورَ التَّوْحِيدِ مِنْ
قَلْبِهِ فَهُوَ فِي خِيَاتِهِ جَائِرٌ عَلَى عَقِيدَتِهِ ، وَسَيَذُوقُ قَرِيبًا وَبَالَ أَمْرِهِ .

« أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ » .

خلق الله الإيمان في قلوب أوليائه وأثبتته ، ويقال : جعل قلوبهم مُطَرِّزَةً بِاسْمِهِ .. وَأَعَزَّزُ
بِحُلَّةٍ لِأَسْرَارِ قَوْمٍ طَرَّازُهَا اسْمُ « اللَّهِ » !!

(١) التدبير للخلق والتقدير للحق .

سُورَةُ الْحَشْرِ^(١)

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ عزيزٌ — الكونُ بجملته في طلبه . . وهو عزيز .

الشموسُ والأقمارُ والنجومُ ، والليلُ والنهارُ ، وجميع ما خلقَ اللهُ من الأعيان والآثار متناديةٌ على أنفسِها : نحن عبيدُه . . نحن عبيدُ مَنْ لَمْ يَزَلْ . . نريدُ مَنْ لَمْ يَزَلْ .

قوله جل ذكره : « سَبَّحَ اللهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي

الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

قدَّسَ اللهُ وَنَزَّهَهُ كُلُّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ؛ فَكُلُّ مَا خَلَقَهُ جَعَلَهُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ دَلِيلًا ، وَلِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ إِلَهِيَّتَهُ طَرِيقًا وَسَبِيلًا .

أتقن^(٢) كلَّ شَيْءٍ وَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَيْهِ وَحِكْمَتُهُ ، وَرَتَّبَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَذَلِكَ شَاهِدٌ عَلَى مَشِيتِهِ وَإِرْدَاتِهِ .

« وهو العزيز » فلا شبيه يساويه ، ولا شريك له في الملْكِ يَنَازِعُهُ وَيُضَاهِيهِ .

« الحكيم » الحاكم الذي لَا يُوجَدُ فِي حُكْمِهِ عَيْبٌ ، وَلَا يَتَوَجَّهُ عَلَيْهِ عَتَبٌ^(٣) .

قوله جل ذكره : « هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا

مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ

الْحَشْرِ » .

هم أهل النضير ، وكانوا قد عاهدوا النبيَّ (ص) أَلَّا يَكُونُوا عَلَيْهِ ، ثُمَّ بَعْدَ أَخْذِ تَقْضُوا

(١) ويسمى ابن عباس سورة النير (البحار) ٢٠٠ ص ١٢٣ .

(٢) هكذا في ص وهي في م (أتقن) وهي خطأ في النسخ .

(٣) هكذا في ص وهي في م (عيب) وهي خطأ في النسخ .

العَهْدَ ، وبأيموا أبا سفيان وأهل مكة ، فأخبر الله تعالى رسوله بذلك ، فبث صلوات الله عليه إليهم محمد بن مسلمة ، فأوهم أنه يشكو من الرسول في أخذ الصدقة . وكان رئيسهم كعب ابن الأشرف قتل محمد بن مسلمة (غيلة) ، وغزاهم ^(١) رسول الله (ص) وأجلاهم عن حصونهم المنيعه وأخرجهم إلى الشام ، وما كان المسلمون يتوقعون الظفر عليهم لكثرتهم ، ولينعة حصونهم .

وظلوا يهدمون دورهم بأيديهم ينقبون ليخرجوا ، ويقطعون أشجارهم ليسدوا النقب ، فسموا أول الحشر ، لأنهم أول من أخرج من جزيرة العرب وحشر إلى الشام . قال حل ذكره : « فاعتبروا يا أولي الأبصار » .

كيف نصر المسلمين — مع قتلهم — عليهم — مع كثرتهم . وكيف لم تمنعهم حصونهم إذا كانت الدائرة عليهم . وإذا أراد الله قهر عدو استنوق ^(٢) أسده .

ومن مواضع العبرة في ذلك ما قاله : « ما ظننتم أن يخرجوا » بحيث داخلتكم الريبة في ذلك لقرط قوتهم — فصانهم بذلك عن الإعجاب .

ومن مواضع العبرة في ذلك أيضا ما قاله « وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله » فلم يكن كما ظنوه — ومن تقوى بخلق أسلمه ذلك إلى صفاره ^(٣) ومدلته .

ومن الدلائل الناطقة ما ألقى في قلوبهم من الخوف والرعب ، ثم تخريبهم بيوتهم بأيديهم علامة ضعف أحوالهم ، وبأيدي المؤمنين لقوة أحوالهم ، فتمت لهم الغلبة عليهم والاستيلاء على ديارهم وإجلاؤهم .

هذا كله لا بد أن يحصل به الاعتبار — والاعتبار أحد قوانين الشرع .

ومن لم يعتبر بغيره اعتبر به غيره .

(١) حاصرهم إحدى وعشرين ليلة وأمر بقطع نخيلهم وأبى عليهم إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير واحد ما شاءوا من متاعهم فجلوا إلى أريحا وأذرعاء بأرض الشام .

(٢) الألف والسين والياء فيها الصيرورة أى صار ناقة وانتصود : تحاذل المتجبر وصغر شأنه .

(٣) انصفار = الرضى بالمدله والموافق .

ويقال : يُخَرَّبُونَ بِيُوتِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ ، وَقُلُوبِهِمْ بِاتِّبَاعِ شَهَوَاتِ نَفْسِهِمْ ، وَدِينِهِمْ بِمَا يَمْزِجُونَهُ بِهِ مِنَ الْبِدْعِ .

قوله جل ذكره : « وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ » .

لولا أن قضى الله عليهم أن يخرجوا لعذبهم الله بالقتل والاستئصال (١) ، ثم في الآخرة لهم عذاب النار .

« ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » .

ذلك بأنهم خالفوا أمر الله . والمشاقة أن يتحول المرء إلى شقٍّ آخر .

فالعاصي إذا انتقل من الطيعين إلى العاصين فقد شاقَّ الله ، وَلَمَنْ شَاقَّ اللَّهَ عَذَابُ النَّارِ .
قوله جل ذكره : « مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ » .

اللين : كلُّ نوعٍ من النخيل ماعدا العجوة والبرني (٢) .

لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع بعض نخيل بني النضير قالت اليهود : ما فائدة هذا ؟

فبقي المسلمون عن الجواب ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ليوضح أن ذلك بإذن الله . . . فانقطع الكلام .

وفي هذا دليل على أن الشريعة غير مُعَلَّلَةٍ ، وأنَّ الأمر الشرعي إذا جاء بطلَّ التعليل ،

(١) هكذا في ص وهي في م (الاستبصار) وهي خطأ في النسخ .

(٢) واحده البرنيّة ، وهو نوع جيد من التمر مدور أحمر مشرب بصفرة . (الوسيط) .

وَسَكَتَتِ الْأَلْسَنَةُ عَنْ الْمَطَالِبَةِ بِـ « لِمَ ؟ » وَخُطُورُ الْإِعْتِرَاضِ أَوْ الْإِسْتِقْبَاحِ خُرُوجٌ عَنْ حَدِّ الْعِرْقَانِ ، وَالشُّيُوخِ .

قَالُوا : مَنْ قَالَ لِأُسْتَاذِهِ وَشَيْخِهِ (١) : « لِمَ ؟ » لَا يَفْلَحُ . وَكُلُّ مُرِيدٍ يَكُونُ لِأَمْتَالٍ هَذِهِ الْخَوَاطِرُ فِي قَلْبِهِ جَوَّالَانِ لَا يَجِيءُ مِنْهُ شَيْءٌ . وَمَنْ لَمْ يَتَجَرَّدْ قَلْبُهُ مِنْ طَلَبِ التَّعْلِيلِ ، وَلَمْ يَبَاشِرْ حُسْنَ الرِّضَا بِكُلِّ مَا يَجْرِي وَاسْتِحْسَانًا مَا يَبْدُو مِنَ الْغَيْبِ لِسِرِّهِ وَقَلْبِهِ — فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا

أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ
وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

يُرِيدُ بِذَلِكَ أَمْوَالَ بَنِي النَّضِيرِ (٢) ، فَقَدْ كَانَتْ مِنْ جَمَلَةِ « النَّفْيِ » لَا مِنَ الْغَنِيمَةِ ؛ فَالْفَيْءُ مَا صَارَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَمْوَالِ الْكُفَّارِ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ وَلَا إِجْبَافٍ خَيْلٍ وَرِكَابٍ ، وَتَدَخَّلَ فِي جَمَاعَتِهِ أَمْوَالُهُمْ إِذَا مَاتُوا وَصَارَتْ إِلَى يَدِ الْمَالِ . وَالْغَنِيمَةُ مَا كَانَتْ بِقِتَالٍ وَإِجْبَافٍ خَيْلٍ وَرِكَابٍ . وَقَدْ خَصَّ رَسُولُ اللَّهِ (ص) بِأَمْوَالِ هَؤُلَاءِ قُرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ ، وَاسْتَأْثَرَ لِنَفْسِهِ بِمَا شَاءَ ، فَطَابَتْ نَفُوسُ الْأَنْصَارِ بِذَلِكَ ، وَشَكَرَ اللَّهُ لَهُمْ . ذَلِكَ لِأَنَّهُ تَحَرَّرَ الْقَلْبُ مِنَ الْأَعْوَاضِ وَالْأَمْلاكَ صِفَةً السَّادَةِ (٣) وَالْأَكَابِرِ . وَمَنْ أَسْرَتَهُ الْأَخْطَارُ وَبَقِيَ فِي شُحِّ نَفْسِهِ فَهُوَ فِي تَضْيِيقِهِ وَتَدْنِيْقِهِ ، وَهُوَ فِي مَصَادَقَتِهِ وَمَعَامَلَتِهِ وَمَطَالِبَتِهِ مَعَ النَّاسِ دَائِمًا يَبْحَثُ فِي اسْتِيفَاءِ حَظْوَلِهِ — وَهَذَا لَيْسَ لَهُ مِنْ مَذَاقَاتِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ (٤) شَيْءٌ .

(١) لَاحِظْ كَيْفَ يُوْجِهُ الْقَشِيرِيُّ إِشَارَتَهُ إِلَى الْمُرِيدِينَ ، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ عِلَاقَتُهُمْ بِشُيُوخِهِمْ .

(٢) عَنِ الزَّهْرِيِّ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَوْسٍ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كَانَتْ أَمْوَالُ بَنِي النَّضِيرِ بِمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ (ص) مَا لَمْ يُوجِفِ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ، فَكَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ (ص) خَاصَّةً يَنْفَقُ عَلَى أَهْلِهِ مِنْهَا نَفَقَةً سِتَّةً ثُمَّ يَجْمَعُ مَا بَقِيَ فِي السَّلَاحِ وَالْكَرَاعِ عِدَّةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ (الْبَخَارِيُّ ٣٨ ص ١٣٣) .

(٣) هَكَذَا فِي ص وَهِيَ فِي م (السَّعَادَةُ) وَهِيَ خَطَأٌ مِنَ النَّاسِخِ .

(٤) يَقْصِدُ طَرِيقَةَ الصُّوفِيَّةِ .

وأهلُ الصفاء لم تَبَقْ عليهم من هذه الأشياء بَقِيَّةٌ ، وأَمَّا مَنْ بَقِيَ عليه منها شيءٌ ،
فَتَرَمَّ (١) سَوْقِي . . لا مَتَحَقِّقٌ صَوْفِي .

قوله جل ذكره : « وما آتاكم الرسولُ تَحْذَوْهُ ،
وما نهاكم عنه فَاتَهُوا ، واتقوا اللهَ
إنَّ اللهَ شديدُ العقابِ » .

هذا أصل من أصولِ وجوبِ متابعتِهِ ، ولزومِ طريقتِهِ وسيرتِهِ — وفي العِلْمِ تفصيلُهُ .
والواجبُ على العبدِ عَرَضُ ما وقع له من الخواطر وما يُكاشَفُ به من الأحوالِ على
العِلْمِ — فما لا يقبله الكتابُ والسُّنةُ فهو في ضلال (٢) .

قوله جل ذكره : « للفقراءِ المهاجرين الذين أُخْرِجُوا من
ديَارِهِمْ وأموالِهِمْ يَتَنَفَّسُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ
ورِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » .

يريد أن هذا النِّعْمُ لهؤلاء الفقراء الذين كانوا مَتَدَارًا مائة رجلٍ .

« يَتَنَفَّسُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ » وهو الرِّزْقُ « وِرِضْوَانًا » بالثَّوَابِ في الآخرة .

وينصرون دين الله ، « أولئك هم الصادقون » : والفقيرُ الصادقُ هو الذي يترك كلَّ سببٍ
وعلاقة ، ويفرغ أوقاته لعبادة الله ، ولا يعطف (٣) بقلبه على شيء سوى الله ، وَيَقِفُ مع الحقِّ
راضياً بِحِجْرِيَّانٍ حُكْمِهِ فِيهِ .

(١) هكذا في م وهي في ص (متروك) . وعلى الأول يكون المعنى أنه شخص تهمه الرسوم والأشكال ، أما باطنه
وحقيقته فخير رسمه ، وعلى الثاني يكون المعنى أنه يكتفى من التصوف بالسُّمة أي العلامة ؛ كالثوب مثلاً . . وباطنه
غير سليم . والربط بين الصفاء والتصوف — كما يتضح من العبارة — عنصر أساسي في مذهب القشيري . (انظر
الرسالة باب التصوف) .

(٢) نحسب أنه ليس بعد هذا مجال للتخصيص بأن الصوفية يجانبون الشريعة أو يقللون من قدرها .
فمحصل خواطرهم ، ومكاشفاتهم من خلال أسوالمهم . . كل ذلك ينبغي ألا يكون مرفوضاً من الشرع . ومحاولة
عقد لقاء بين الحقيقة والشريعة عنصر أساسي آخر في مذهب القشيري — رحمه الله .

(٣) عطف يعطف هنا بمعنى مال وانحنى تجاه ناحية تاركاً ناحية أخرى — وهذا هو أصل معنى اللفظة قبل أن
تأخذ معانيها التوسعية .

فوله جل ذكره : « والذين تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ

قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ
وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا
أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ
بِهِمْ خِصَاصَةٌ » .

نزلت هذه الآية في الأنصار . « تبوءوا الدار » أى سكنوا المدينة قبل المهاجرين ..
« يحبون من هاجر إليهم » من أهل مكة .

« ولا يجدون في صدورهم حاجة » مما خُصَّصَ به المهاجرون من النِّعَةِ ، ولا يجدونهم على
ذلك ، ولا يعترضون بقلوبهم على حُكْمِ اللَّهِ بتخصيص المهاجرين ، حتى لو كانت بهم حاجة
أو اختلالٌ أحوالٍ .

« وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ
هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

قيل نزلت الآية^(١) في رجلٍ منهم أُهْدِيَتْ لَهُ رَأْسُ شاةٍ فطاف على سبعة أبيات حتى
اتمى إلى الأول .

وقيل نزلت في رجلٍ منهم نزل به ضيفٌ فقرب منه الطعام وأطفأ السراج ليؤمَّ ضيفه
أنه يأكل ، حتى يؤثر به الضيف على نفسه وعلى عياله ، فأنزل الله الآية في شأنه^(٢) .

ويقال : الكريمُ مَنْ بَنَى الدارَ لضيفانه وإخوانه (واللَّيْمُ مَنْ بَنَاهَا لِنَفْسِهِ)^(٣) .

وقيل : لم يقل الله : وَمَنْ يَتَّقِ شُحَّ نَفْسِهِ بَلْ قَالَ : وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ^(٤) .

ويقال : صاحبُ الإيثارِ يُؤْثِرُ الشَّيْعَانَ عَلَى نَفْسِهِ — وهو جائع .

(١) حديث القشيري في الإيثار يصلح أن يكون متمماً للفصل الذي عقده في رسالته عن الفتوة

(٢) هكذا في روايه أبي هريرة (البخارى ج ٢ ص ١١٢) .

(٣) ما بين القوسين موجود في ص وغير موجود في م .

(٤) فتقاده من الله لا من نفسه .

ويقال : مَنْ مَيَّزَ بَيْنَ شَخْصٍ وَشَخْصٍ فَلَيْسَ بِصَاحِبِ إِيْشَارٍ حَتَّى يُوْثِرَ الْجَمِيعَ حُونَ تَمِيِيزٍ .

ويقال : الإِيشَارُ أَنْ تَرَى أَنْ مَا بِأَيْدِي النَّاسِ لَمْ ، وَأَنْ مَا يَحْصُلُ فِي يَدِكَ لَيْسَ إِلَّا كَالْوَدِيعَةِ وَالْأَمَانَةِ عِنْدَكَ تَنْتَظِرُ الإِذْنَ فِيهَا .

ويقال : مَنْ وَأَى لِنَفْسِهِ مِثْلَكَ فَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ الإِيشَارِ .

ويقال : الْعَابِدُ يُوْثِرُ بَدَنِيَّاهُ غَيْرَهُ ، وَالْعَارِفُ يُوْثِرُ بِالْجَنَّةِ غَيْرَهُ ^(١) .

وعَزِيزٌ مَنْ لَا يَطْلُبُ مِنَ الْحَقِّ لِنَفْسِهِ شَيْئاً : لَأَنَّهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ جَاهٍ أَوْ مَالٍ ، وَلَا فِي الْجَنَّةِ مِنَ الْأَفْضَالِ ، وَلَا مِنْهُ أَيْضاً ذَرَّةٌ مِنَ الإِقْبَالِ وَالْوَصَالِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَحْوَالِ ^(٢) .

... وَهَكَذَا وَصَفُ الْفَقِيرِ ؛ يَكُونُ بِسُقُوطِ كُلِّ أَرْبٍ .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ :

رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا

بِالْإِيمَانِ ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا

لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » .

أَيُّ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ، ثُمَّ أَجْيَالُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَعْدِ هَؤُلَاءِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . . .
كُلُّهُمْ يَتَرَحَّمُونَ عَلَى السَّلَفِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ سَبَقُوهُمْ ، وَيَسْلُكُونَ طَرِيقَ الشَّفَقَةِ عَلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ ، وَيَسْتَجِيرُونَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَجْعَلَ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي قُلُوبِهِمْ غِلًّا أَى حِقْدًا . وَمَنْ ^(٣) لَا شَفَقَةَ لَهُ عَلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ لَهُ نَصِيبٌ مِنَ الدِّينِ .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَاقَقُوا يَقُولُونَ

(١) وَمَنْ قَبِيلَ ذَلِكَ مَا يَقُولُهُ الْحَسَنِ النَّوْرِيُّ (ت ٢٩٥ هـ) :

« اللَّهُمَّ إِنْ يَكُنْ قَدْ سَبَقَ فِي مَشِيئَتِكَ الَّتِي لَا تَخْلُفُ أَنْ تَمْلَأَ النَّارَ مِنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ فَإِنَّكَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ تَمْلَأَهَا بِرِجْدٍ وَأَنْ تَذْهَبَ بِهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ » .

(٢) لِأَنَّ الْأَحْوَالَ مِنَ اللَّهِ ، فَهِيَ مِنْ عَيْنِ الْجُودِ ، كَمَا أَنَّ الْمَقَامَاتِ بِبَذْلِ الْمَجْهُودِ .

(٣) سَقَطَتْ (وَمِنْ) مِنْ م وَهِيَ مُوجُودَةٌ فِي ص ، وَهِيَ ضَرْوِيَّةٌ لِلْسِّيَاقِ .

لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ لَنْ أَخْرِجَكُمْ لَنُخْرِجَنَّ
مَعَكُمْ وَلَا نُسْطِيعَ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ،
وَإِنْ قُوَّتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ، وَاللَّهُ
يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ .

يريد بهم منافق المدينة ؛ ظاهرُوا بنى النصير وقريظة ، وعاهدوهم على المواقفة بكل وجه ،
فأخبر الله — سبحانه — أنهم ليسوا كما قالوا وعاهدوا عليه ، وأخبر أنهم لا يتناصرون ، وأنهم
يتخاذلون ، ولكن ساعدوهم في بعض الحروب فإنهم يتخاذلون إن رأوهم ينهزمون أمام
من يجاهدونهم .

قوله جل ذكره : « لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ »
ذلك بأنهم قوم لا يفقهون .

أخبر — سبحانه — أن المسلمين أشد رهبة في صدورهم من الله ^(١) ، وذلك لقلّة يقينهم ،
ولمعارض قلوبهم عن الله .

قوله جل ذكره : « لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ
أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ شَدِيدٌ » .

أخبر أنهم لا يجسرون على مقاتلة المسلمين إلا لمُحَاثَلَةٍ ، أو من وراء جدران .
ولمّا يشتد بأسهم فيما بينهم ، أى إذا حارب بعضهم بعضاً ، فأما معكم ... فلا .

« تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ » .

اجتماع النفوس — مع تنافر القلوب واختلافها — أصل كل فساد ، وموجب كل تخاذل ،
ومقتضى تجاسر العدو .

(١) والمعنى أنهم بنفاقهم يقولون : نحن نخاف الله ، ولكنهم في الحقيقة يخافون منكم خوفاً أشد من خوفهم
من الله ، وذلك لقلّة يقينهم ... الخ .

وإتفاق القلوب؛ والاشتراك في المهمة؛ والتساوى في التصدير يوجب كُلاً ظفراً وكلّ سعادة . . ولا يكون ذلك للأعداء قط؛ فليس فيهم إلا اختلال كل حال، وانتقاض كل شئيل .

قوله جل ذكره: «كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» .
مَثَلُ بَنِي قُرَيْظَةَ كَمَثَلِ بَنِي النَّضِيرِ^(١)؛ ذاق النضير وبَالَ أَمْرِهِمْ قَبْلَ قُرَيْظَةَ بِسَنَةِ^(٢)؛ وذاق قُرَيْظَةُ بِعَذَابِهِمْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ .

قوله جل ذكره: «كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ؛ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ» .
أى مَثَلُ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ مَعَ النَّضِيرِ — فِي وَعْدِهِمْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ بِالتَّنَاصُرِ — كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ «إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ . . .» .

وكذلك أربابُ الفترة وأصحابُ الزَّهَّةِ وأصحابُ الدَّعَاوَى . . هَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ فِي دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ فِي هَذَا الْبَابِ — وَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمْ تَفَاوُتٌ — لَا تَنْفَعُ صُحْبَتُهُمْ فِي اللَّهِ؛ قَالَ تَعَالَى: «الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ»^(٣) وكلُّ أَحَدٍ — الْيَوْمَ — يَأْتِي شَكْلَهُ؛ فَصَاحِبُ الدَّعْوَى إِلَى صَاحِبِ الدَّعْوَى، وَصَاحِبُ الْمَعْنَى إِلَى صَاحِبِ الْمَعْنَى .

قوله جل ذكره: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَيْرِ اللَّهِ وَآخِزُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» .

(١) يرى النسي أن: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ» (النسي ج ٤ ص ٢٤٣) .
(٢) وكان ذلك عقب عرج النبي (ص) من الأحزاب؛ ففي رواية عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما رجع النبي (ص) من ألبق، عرج النبي (ص) وأخبره أنباء حبريل فقال: قد وضعت لك الداج واة ما وندك، فأخرج إليهم فقال: مثل أبيك؟ قال: نعم . وأشار إلى يمينه بيمينه (البخاري ج ٣ ص ٢٣) .
(٣) آية ٦٧ سورة الزخرف .

التقوى الأولى على ذكر العقوبة في الحال والفكر في العمل خيره وشره (١) .

والتقوى الثانية تقوى المراقبة والمحاسبة ، ومن لا محاسبة له في أعماله ولا مراقبة له في أحواله .. فعن قريب سيفتضح (٢) .

وعلاوة من نظر لغيره أن يحسن مراعاة يومه ؛ ولا يكون كذلك إلا إذا فكر فيما عمله في أمسه والناس في هذا على أقسام : مفكر في أمسه : ما الذي قُسم له في الأزل ؟ وآخر مفكر في غده : ما الذي يلقاه ؟ وثالث مستقل بوقته فيما يلزمه في هذا الوقت فهو مضطلم عن شاهده موصول بربه ، مندرج في مذكوره (٣) ؛ لا يتطلع لماضيه ولا مستقبله ، فتوقيت الوقت يشغله عن وقته (٤) .

قوله جل ذكره : « ولا تكونوا كالذين نسوا الله

فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون » .

تركوا طاعته فتركهم في العذاب ؛ وهو الخذلان حتى لم يتوبوا .. أولئك هم الفاسقون (٥) .

قوله جل ذكره : « لا يستوى أصحاب النار وأصحاب

الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون » .

لا يستوى أهل الفلاة مع أهل الوصلة .

وأصل كل آفة نسيان الرب ، ولولا النسيان لما حصل العصيان ، والذي نسي أمر

نفسه فهو الذي لا يجتهد في تحصيل توبته ، ويسوف فيما يلزمه به الوقت من طاعته .

(١) ويكون العبد فيها في مرحلة الغيبة (أي قبل السكر) : فما دام هناك وارد لثواب أو عتاب أو فكر

في حال أو مآل - فهذه في منازل السالكين دون المرحلة التالية

(٢) تفيد هذه الإشارة في توضيح الفرق في الاصطلاح بين : المراقبة والمحاسبة .

(٣) لأن أقصو درجات الذكر أن يفنى الذاكر في المذكور ، وقد اعتبرنا الأوصاف أسماء مفعول تمير أ

عن فناء الإرادة الإنسانية ، وتجرد العبد من كل فعل في نفسه ولنفسه .

(٤) ولهذا يقولون : الصوفي ابن وقته ؛ ومعناه أنه مشغول بما هو أولى به في الحال ، قائم بما هو مطالب به

في الحين ، مستسلم لما يبدو له من الغيب من غير اختيار له . ومن ساعده الوقت فالوقت له وقت ، ومن ناكده الوقت

فالوقت عليه وقت . (الرسالة ص ٣٤) .

(٥) صيغود التفسيرى لاتمام إشارة هذه الآية بعد الآية التالية .

قوله جل ذكره : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبلٍ لرَأَيْتَهُ خاشعاً متصدّعا من خشيةِ الله وتلك الأمثالُ نضربها للناس لعلّهم يتفكرون » .

أى لو كان للجبل عقلٌ وصلاحٌ ففكرٌ وسيرٌ ، وأنزلنا عليه هذا القرآن نلضع ونخشع . ويجوز أن يكون على جهة ضرب المثل كما قال : تكاد السمواتُ يتفطرنَ منه ^(١) ويدل عليه أيضاً قوله :

« وتلك الأمثالُ نضربها للناس » : ليعقلوا ويهتدوا ، أى بذلك أمرُناهم ، والمقصود بيان قسوة قلوبهم عند سماع القرآن .

ويقال : ليس هذا الخطابُ على وجهِ العتابِ معهم ، بل هو على سبيل المدح وبيان تخصيصه إليّهم بالقوة ؛ قال : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل » لم يُطقْ . ونلضع — وهؤلاء خصصتهم بهذه القوة حتى أطاقوا سماع خطابي ^(٢) .

قوله جل ذكره : « هو الله الذى لا إله إلا هو عالمُ الغيبِ والشهادة هو الرحمن الرحيم » .

« الغيب » : ما لا يُعرَفُ بالضرورة ، ولا يُعرَفُ بالقياس من المعلومات ^(٣) . ويقال : هو ما استأثر الحق بعلمه ، ولم يجعل لأحد سبيلاً إليه .
« والشهادة » : ما يُعرَفُ الخلقُ .
وفى الجملة : لا يعزُبُ عن علمه معلومٌ .

(١) آية ٩٠ سورة مريم .

(٢) يتصل هذا بموضوع السماع عند الصوفية ، وقد عقد السراج له فصلاً متمماً فى « المص » ، ومن أقواله المتصلة بهذه النقطة إلى آثارها القشيرية يقول السراج : ألا ترى أحدهم يكون ساكناً فيتحرك ويظهر منه الزفير والشهيق ، وقد يكون من هو أقوى منه ساكناً في وجهه لا يظهر منه شيء من ذلك (المص ص ٣٧٥) ويحيب الجنيد حين سئل عن سكونه وقلة اضطرابه عند السماع : وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) .

(٣) أى لا يعرف بالضرورة العقلية ولا بالقياس العقل لأن العقل يستند أحكامه من الحسّات ، والغيب بعيد من الحسّات ، فلا سبيل الخلق إليه بوسائلهم المحدودة وحدها .

قوله جل ذكره : « هو الله الذي لا إله إلا هو الملكُ
القدوسُ السلامُ المؤمنُ المهيمنُ العزيزُ
الجبارُ المتكبرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا
يُشْرِكُونَ » .

الملكُ : ذو القدرة على الإيجاد .

القدوس : المنزه عن الآفة والنقص .

السلام : ذو السلامة من النقائص ، الذي يسلم على أوليائه ، والذي سلم المؤمنون من عذابه .

المؤمن : الذي يصدق عبده في توحيده فيقول له : صدقت يا عبدى .

والذي يصدق نفسه في إخباره أى يعلم أنه صادق .

ويكون بمعنى المصدق لوعده . ويكون بمعنى الخبر لعباده بأنه يؤمنهم من عقوبته .

المهيمن : الشاهد ، وبمعنى الأمين ، ويقال مؤمن (مُفْتَعِل) من الأمن قلبت همزته هاء

وهو من الأمان ، ويقال بمعنى المؤمن .

العزيز : الغالب الذي لا يُقَلَّب ، والذي لا مثيل له ، والمستحق لأوصاف الجلال ،

وبمعنى : المعز لعباده . والمنيع الذي لا يقدر عليه أحد .

الجبار : الذي لا تصل إليه الأيدي . أو بمعنى المصلح لأمرهم من : جَبَرَ الكسْر . أو بمعنى

القادر على تحصيل مراده ^(١) مِنْ خَلْقِهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَرِيدُهُ مِنْ : جَبَرْتُهُ عَلَى الْأَمْرِ وَأَجْبَرْتُهُ .

المتكبر : المتقدس عن الآفات .

قوله جل ذكره : « هو الله الخالقُ البارىءُ المصورُ له الأسماءُ

الحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

وهو العزيزُ الحكيمُ » .

(١) هكذا في م وهي في ص (مرات) .

هو المفتى للأعيان والآثار .

« له الأسماء الحسنی » : المسمّيات الحسان .

« وهو العزيز الحكيم » : مضى معناها ، وقد استقصينا الكلام في معاني هذه الأسماء

(في كتابنا المسمّى : « البيان والأدلة في معاني أسماء الله تعالى »)^(١) .

(١) ما بين القوسين غير موجود في م وهو موجود في ص . وهذه أول مرة نعرف للقشيري كتاباً بهذا الاسم فلم يرد ذكره في كتب الفهارس والتراجم . وكنا نعلم حتى هذه اللحظة أن القشيري قد عالج دراسة الأسماء والصفات في كتابين فقط أولهما : التعبير في التذكير بتحقيق بسيوني . والثاني : شرح أسماء الله الحسنى بتحقيق العلواني .

سُورَةُ الْمِتْحَنَةِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسم ملك لا أصل لملكه عند حدث ولا نسل له ، فَعَنَهُ يَرِث . ملك لا يَسْتَظْهِرُ بجيشٍ وعدَد ، ولا يَتَمَرَّزُ بقومٍ وعدَد . ملكٌ لِلْخَلْقِ ^(١) بأجمعهم — لكنه اختار قومًا — لا لينفَع بهم — بل لينفَعهم ، وردَّ آخرين وأذلَّم بمنعهم ووضعهم :

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي » ^(٢) .

قال صلى الله عليه وسلم : « أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك » ^(٣) وأوحى الله سبحانه إلى داود عليه السلام : « عادِ نَفْسَكَ فليس لي في الملكة مُنَازِعٌ غيرها » . فمن عادى نفسه قد قام بحق الله ، ومن لم يعاد نفسه خَلَقَتْهُ هذه الوصمة . وأصلُ الإيمانِ المِوَالاةُ والعِندَةُ في الله ومن جَنَعَ إلى الكفار أو إلى الخارجين عن دائرة الإسلام انحاز إلى جاوره .

(١) هكذا في م وهي الصواب أما في م فهي (الحق) وهي سيطا من الناسخ .

(٢) نزلت الآية في حاطب بن أبي بلتعة الذي بعث في الحرب بكتاب مع امرأة يقال في سورة البقرة : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي » . فوضعت الكتاب في عفاص شمرها . ونزل بغيره على عمر بن الخطاب ليخبره بالامر ، فأرسل في إثرها فرسانه ، فانتزعوا الكتاب منها .

وحينما هم عمر رضى الله عنه يضرب عنق حاطب قال الرسول : وما يدريك يا عمر لعن الله قد اطلع على أهل بدر فقال لم : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ؟ ففانصت عنها عمر ، ونزلت الآية .

(٣) ينظر الصوفية إلى النفس على أنها محل المعلولات (الرسالة ص ٤٨) .

قوله جل ذكره : « وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ » .

أنا أعلم « بما أخفيتم » من دقائق التصنع وخفيات الرياء .
« وما أعلنتم » من التزيين للناس .
« ما أخفيتم » من الاستسرار بالزُّلة ، « وما أعلنتم » ، من الطاعة والبرِّ .
« ما أخفيتم » من الخيانة « وما أعلنتم » من الأمانة .
« ما أخفيتم » من الغِلِّ والغشِّ للناس ، « وما أعلنتم » من الفضيحة للناس .
« ما أخفيتم » من ارتكاب المحظورات ، « وما أعلنتم » من الأمر بالمعروف .
« ما أخفيتم » من ترك الحشمة منى وقلة المبالاة باطلاعى ، وما أعلنتم من تعليم الناس ووعظهم .
« ومن يفعله منكم فقد ضلَّ سواء السبيل » ، فقد حادَّ عن طريق الدين ، ووقع في الكفر .

قوله جل ذكره : « إِنْ يَتَّقُواكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَسْثَنَهُمُ الشُّعْرُ وَوَدُّوا لَوْ تُكْفُرُونَ * لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ . إِنْ يَظْفَرُوا بِكُمْ وَصَادَفَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً ، وَلَنْ تَسْلَمُوا مِنْ أَيْدِيهِمْ بِالسُّوءِ وَلَا مِنْ أَسْثَنِهِم بِالذِّمِّ وَذَكَرِ الْقَبِيحِ . »
« وَوَدُّوا لَوْ تُكْفُرُونَ » : وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ تَوَدُّدُكُمْ وَتَقَرُّبُكُمْ إِلَيْهِمْ ، وَلَا مَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْأَرْحَامِ . ثُمَّ عَقُوبَةُ الْآخِرَةِ تُدْرِكُكُمْ ^(١) .

(١) لأنكم حينئذ تكونون قد آثرتم قرابتكم بأعدائكم على حقوق الله .

وكذلك صفة الخالف ، ولا ينبغي للمرء أن يمتطش إلى عشيرته — وإن داهنته في قالة ،
ولا أن يندفع بتفريها — وإن لا يفتته في حالة

قوله جل ذكره : « قد كانت لكم أسوة حسنة في

إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا
برءاء منكم وما بتعبدون من دون الله ،
كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم
العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا
بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه
لأستغفرن لك وما أملك لك من
الله من شيء » .

أى لكم قدوة حسنة بإبراهيم ومن قبله من الأنبياء حيث تبرءوا من الكفار من أقوامهم ؛
فأقتدوا بهم .. إلا استغفار إبراهيم لأبيه — وهو كافر — فلا تقتدوا به .
ولا تستغفروا للكفار . وكان إبراهيم قد وعده أبوه أنه يؤمن فلذلك كان يستغفر له ،
فلما تبين له أنه لن يؤمن تبرأ منه

ويقال : كان منافقاً .. ولم يعلم إبراهيم ذلك وقت استغفاره له .

ويقال : يجوز أنه لم يعلم في ذلك الوقت أن الله لا يغفر للكفار .

والفائدة في هذه الآية تخفيف الأمر على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بتعريفهم
أن من كانوا قبلهم حين كذبوا بأنبيائهم أهلهم الله ، وأنهم صبروا ، وأنه ينبغي لذلك
أن يكون بالصبر أمرهم .

قوله جل ذكره : « ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا
وإليك المصير » .

أخبر أنهم قالوا ذلك .

ويصح أن يكون معناه : قولوا : « ربنا عليك توكلنا » .

وقد مضى القول في معنى التوكل والإنابة .

قوله جل ذكره : « رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا
وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ » .

رَبَّنَا لَا تُظْفِرْهُمْ بِنَا ، وَلَا تُقَوِّمْ عَلَيْنَا .

والإشارة في الآية : إلى الأمرِ بِسُنَّةِ إِبْرَاهِيمَ فِي السَّخَاءِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ وَالْإِخْلَاصِ وَالصِّدْقِ
وَالصَّبْرِ وَكُلِّ خَصْلَةٍ لَهُ ذَكَرَهَا لَنَا .

قوله جل ذكره : « عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ
عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

وقتهم في مقتضى قوله تعالى : « عسى الله » عند حدِّ التجويز . . لا حُكْمًا بِالْقَطْعِ ،
وَلَا دَفْعَ قَلْبٍ بِالْيَأْسِ . . ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِالْاِقْتِصَادِ فِي الْعِلَاوَةِ وَالْوَلَايَةِ مَعَهُمْ بِقُلُوبِهِمْ ، وَعَرَفَهُمْ
بَوُقُوعِ الْأَمْرِ حَسَبَ تَقْدِيرِهِ وَقُدْرَتِهِ ، وَجَرَّيَانِ كُلِّ شَيْءٍ عَلَى مَا يَرِيدُهُمْ ، وَصَدَّقَ هَذِهِ التَّرْجِيَةَ
بِإِيمَانٍ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ عِنْدَ فَتْحِ مَكَّةَ ، وَكَيْفَ أَسْلَمَ كَثِيرُونَ ، وَحَصَلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ
مَوَدَّةٌ أَكِيدَةُ .

قوله جل ذكره : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ
فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ
تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُقْسِطِينَ » إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ
قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ
وظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ
تَوَلَّوْهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ » .

مُسْتَدْرَكٌ مِنْ قَوْلِهِ الْعِلَاوَةُ مَعَهُمْ بِقُلُوبِهِمْ ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ فِيهِمْ ذَا خُلُقٍ حَسَنٍ ،
مُسْتَدْرَكٌ مِنْ قَوْلِهِ الْعِلَاوَةُ مَعَهُمْ بِقُلُوبِهِمْ ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ فِيهِمْ ذَا خُلُقٍ حَسَنٍ ،
مُسْتَدْرَكٌ مِنْ قَوْلِهِ الْعِلَاوَةُ مَعَهُمْ بِقُلُوبِهِمْ ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ فِيهِمْ ذَا خُلُقٍ حَسَنٍ ،

أو كان منه للمسلمين وجهٌ نفعٍ أو رفقٍ — قد أمرهم بالملاينة معه . والمؤلفة قلوبهم شاهدٌ لهذه الجملة ، فإن الله يحب الرِّفقَ في جميع الأمور^(١) .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ

الْمُؤْمِنَاتُ مِهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ » اللهُ

أَعْلَمُ بِإِعْنَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ

فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ » .

كان النبي صلى الله عليه وسلم يمتحنهن باليمين ، فيخلفن إنهن لم يخرجن إلا الله ، ولم يخرجن مفايلةً لأزواجهن ، ولم يخرجن طمعاً في مالٍ .

وفي الجملة : الامتحان طريقٌ إلى المعرفة ، وجواهر^(٢) الناس تبيينٌ بالتجربة^(٣) . ومن أقدم على شيء من غير تجربة تحسّى كأسَ الندم .

« وَلَا تُنْسِكُوا بِعَصَمِ الْكِبَارِ »^(٤) .

لا توافقوا من تخالف الحق في قليل أو كثير .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ

يُبَايِعُنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا

وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ

أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ

أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَفْضِلْنَ فِي

مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ

إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

(١) قال عز وجل الله عليه وسلم : « إِنْ اللَّهَ رَفِيقٌ يَحِبُّ الرِّفْقَ » ، يعطى على الرِّفقِ مالا يعطى على العنف .

(٢) مخدأ في صر وهو أن م (ر) ج (أيد) وهي تعلان النفس .

(٣) حكاية في صر وهو أن م (ر) ج (أيد) وهي تعلان النفس .

(٤) الكبار : كبار السن ، والعباسيون : العباسيون ، والعباسيون : العباسيون ، والعباسيون : العباسيون .

والعباسيون : العباسيون ، والعباسيون : العباسيون ، والعباسيون : العباسيون .

إذا جاءك النساء يبأيعنك على الإسلام فطالِبِهِنَّ وشارِطِهِنَّ بهذه الأشياء :

تَرَكَ الشُّرْكَ ، وترك السرقة والزنا وقتل الأولاد والافتراء في إلحاق النسيب ،
وَأَلَا يعصينك في معروف ؛ فلا يخالفنك فيما تأمرهن به ، ويدخل في ذلك تَرَكَ النياحة وشق
الجيوب وتَقْفُ الشَّعْرَ عند المصيبة وتحميش^(١) الوجوه والتبرُّج وإظهار الزينة . . . وغير ذلك
مما هو من شعائر الدين في الجملة .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا
غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ
كَأَيُّ الْيَئِسِ الْكَفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ
الْقُبُورِ » .

الذين غضب الله عليهم هم الكفار . يئسوا من الآخرة كما يئس أصحاب القبور أن يعودوا
إلى الدنيا ويُبْعَثُوا (بعد ما تبينوا سوء منقلبهم) .

ويقال : كما يئس الكفار حين اعتقدوا أن الخلق لا يُبْعَثُونَ في القيامة^(٢) .

(١) خسر . أى جرح بشرته .

(٢) هكذا في م وهي في ص (الآخرة) وكلامها صحيح في السياق .

سُورَةُ الصَّاف

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة مَنْ وقفه الله لعرفانها لم يصبر عن ذكرها بلسانه ثم لا يفتر حتى يصل إلى المُسمى بها بِجَنَانِهِ : في البداية بتأمل برهانه لمعرفة سلطانه ، ثم لا يزال يزيده في إحسانه حتى ينتهي في شأنه بالتحقق مما هو كميانه .

قوله جل ذكره : « سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

مَنْ أراد أن يصفو له تسبيحه فليصف قلبه من آثار نفسه ، وَمَنْ أراد أن يصفو له في الجنة عيشه فليصف من أضرار ذنبيه نفسه .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ » .

جاء في التفاسير أنهم قالوا : لو علمنا ما فيه رضا الله لفعلنا ولو فيه كل جهد . . ثم لما كان يومُ أحد لم يثبتوا ، فنزات هذه الآية في العتاب ^(١) .

وفي الجملة : خلف الوعد مع كلٍّ أحدٍ قبيحٌ ، ومع الله أقبح .

ويقال إظهار التجلُّد من غير شهود مواضع الفقر إلى الحق في كلِّ نفس يؤذِنُ بالبقاء عما حصل بالدعوى ^(٢) . . . والله يحب التبرُّى من الحول والقوة .

(١) قال محمد بن كعب : لما أخبر الله تعالى نبيه (ص) بثواب شهداء بدر قال بعض الصحابة : اللهم أشهد لنا لقينا قتالاً كسُفْرٍ غنَّ فيه وسُعْنًا . . ففروا يوم أحد ، فغيرهم الله بذلك .
(٢) أي بدعوى النفس ؛ تسوّل له نفسه أن له في الأمر شيئاً ، وأن تدبيره هو الذي مكّن له .

ويقال : لم يتوَعَّد — سبحانه — زَلَّةً يَمِثِلُ ما على هذا حين قال : « كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » (١) .

قوله جل ذكره : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ » .

الحبةُ توجبُ الإثارةَ ، وتقديمُ مُرادِ حبيبك على مُرادِ نَفْسِكَ ، وتقديمُ محبوب حبيبك على محبوبِ نَفْسِكَ . فإذا كان الحقُّ تعالى يحبُّ من العبدِ أنْ يُقاتِلَ على الوجه الذي ذكره فَمَنْ لم يُؤثِرْ محبوبَ الله على محبوبِ نَفْسِهِ — أى على سلامته — انسلخ من محبته لرَبِّه ، وَمَنْ خلا من محبة الله وَقَعَ في الشَّقِّ الآخر ، في خسرانه .

قوله جل ذكره : « وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ؟ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » .

لَمَّا زَاغُوا يَتَرَكُ الحَدُّ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِنَقْضِ الْعَهْدِ .

ويقال : لَمَّا زَاغُوا عن طريق الرُّشْدِ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بالصدِّ والرَّدِّ والبُعْدِ عن الوُدِّ .

ويقال : لَمَّا زَاغُوا بظواهرهم أَزَاغَ اللَّهُ سرائرَهم .

ويقال : لَمَّا زَاغُوا عن خدمة الباب أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ عن التشوُّقِ إلى البساطِ .

ويقال : لَمَّا زَاغُوا عن العبادة أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ عن الإرادة .

قوله جل ذكره : « وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي »

(١) عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله (ص) : « أُتِيتُ لَيْلَةَ أُسْرَى . فَبَدَأَ عَلَى قَوْمٍ يُقْرَأُ شُعَاهُمْ بِشَارِيفٍ مِنْ مَارِ كَلَامِ اللَّهِ . فَقُلْتُ : (= نَمَتَ وَطَالَتْ) قُلْتُ : سَنَ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ ؟ قَالَ : « هَؤُلَاءِ خُطْبَاءُ أُمَّتِكَ الَّذِينَ يَقُولُونَ وَلَا يَفْعَلُونَ » . (ابن أبي عمير عن محمد بن مالك بن دينار عن ثمامة)

اسمُهُ أَحَدٌ ، فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا
هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ .

بَشَّرَ كُلُّ نَبِيٍّ قَوْمَهُ بِنَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَفْرَدَ اللَّهُ — سُبْحَانَهُ — عِيسَى بِالذِّكْرِ
فِي هَذَا الْمَوْضِعِ لِأَنَّهُ آخِرُ نَبِيٍّ قَبْلَ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَبَيَّنَ بِذَلِكَ أَنَّ الْبَشَارَةَ بِهِ نَعَمَتْ
جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ حَتَّى انْتَهَتْ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

قوله جل ذكره : « يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ
بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ
الْكَافِرُونَ ^(١) » .

فَمَنْ احْتَالَ لَوَهْنَهُ ، أَوْ رَامَ وَهْنَهُ انْعَكَسَ عَلَيْهِ كَيْدُهُ ، وَانْتَقَضَ عَلَيْهِ تَدْيِيرُهُ .
« وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ » : كَمَا قَالُوا :

وَلِلَّهِ سِرٌّ فِي عِلَالِهِ وَإِنَّمَا كَلَامُ الْعِدَى ضَرْبٌ مِنَ الْهَذْيَانِ
كَأَنَّهُ قَالَ : مَنْ تَمَتَّى أَنْ يُطْفِئَ نُورَ الْإِسْلَامِ بِكَيْدِهِ كَمَنْ يَحْتَالَ وَيَزَاوِلُ إِطْفَاءَ شِعَاعِ
الشَّمْسِ بِنَفْثِهِ وَنَفْثِهِ فِيهِ — وَذَلِكَ مِنَ الْمَحَالِ .

قوله جل ذكره : « هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى
وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ
وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » .

لَمَّا تَقَاعَدَ قَوْمُهُ عَنْ نَصْرَتِهِ ، وَانْبَرَى أَعْدَاؤُهُ لِتَكْذِيبِهِ ، وَجَحَدُوا مَا شَاهَدُوهُ مِنْ صِدْقِهِ
قَبِضَ اللَّهُ لَهُ أَنْصَارًا مِنْ أُمَّتِهِمْ : نَزَّاعُ الْقَبَائِلِ ، وَالْأَحَادُ الْأَفْضَلُ ، وَالسَّادَاتُ الْأُمَامِلُ ، وَأَفْرَادُ
الْمَنَاقِبِ — فَبَذَلُوا فِي إِعَانَتِهِ وَتَهْمِيرَةِ دِينِهِ مُهْجَتَهُمْ ، وَلَمْ يُؤْثِرُوا عَلَيْهِ شَيْئًا مِنْ كِرَائَتِهِمْ ، وَوَقَوْه

(١) حَكَى عَطَاءُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّ الْوَحْيَ حِينَ أَبْطَأَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ (ص) أَرْبَعِينَ يَوْمًا قَالَ كَتَبَ بِنِ الْأَشْرَفِ :
يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ : أَبْشِرُوا ! فَقَدْ أَطْفَأَ اللَّهُ نُورَ مُحَمَّدٍ فِيهَا كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ ، وَمَا كَانَ لِيَمَّ أَمْرُهُ ؛ فَحَزَنَ النَّبِيُّ (ص) —
فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ وَاتَّصَلَ الْوَحْيُ بِمَدَاهَا .

بأرواحهم ، (وأمدَّهم اللهُ سبحانه بتوفيقه كي ينصروا دينه ، أولئك أقوامٌ عَجَبَنَ اللهُ
بمَاءِ السَّعَادَةِ طينَتهم ، وخلقَ من نورِ التوحيد أرواحهم^(١)) وأهلَّهم يومَ القيامة للسيادة على
أضرابهم .

ولقد أرسل اللهُ نبيَّه لدينه مَوْضِحًا ، وبالْحَقِّ مُفْصِحًا ، ولتوحيدِهِ مُعَلِّنًا ، ولجهده
فِي الدِّعَاءِ إِلَيْهِ مُسْتَفْرِغًا . . . فَأَقْرَعَ بِنُصْحِهِ قُلُوبًا نُكْرًا ، وبصَرَ بنورِ تبليغه عِوَنًا
مُغَيًّا .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى

تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ *

تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي

سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ

ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

تَمَيَّ الْإِيمَانَ وَالْجِهَادَ تِجَارَةً لِنَا فِي التَّجَارَةِ مِنَ الرَّبْحِ وَالْخُسْرَانِ وَنَوْعِ تَكْسِبٍ مِنْ

التَّاجِرِ — وَكَذَلِكَ : فِي الْإِيمَانِ وَالْجِهَادِ رِبْحُ الْجَنَّةِ وَفِي ذَلِكَ يَجْتَهِدُ الْعَبْدُ ، وَخُسْرَانُهَا إِذَا كَانَ

الْأَمْرُ بِالضَّدِّ .

وقوله : « تَوْمِنُونَ بِاللَّهِ . . . » أَيْ فِي ذَلِكَ جِهَادُكُمْ وَإِيمَانُكُمْ وَاجْتِهَادُكُمْ ، وَهُوَ

خَيْرٌ لَكُمْ .

ثُمَّ بَيَّنَّ الرِّبْحَ عَلَى تِلْكَ التَّجَارَةِ مَا هُوَ فَقَالَ :

« يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ

جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

(١) حَا بَيْنَ الْقَوْسَيْنِ وَرَدَّ فِي م وَسَقَطَ فِي ص .

ومساكن طيبة في جنات عدن ذلّا
الفوز العظيم» .

قدّم ذكر أهمّ الأشياء — وهو المغفرة . ثم إذا فرغت القلوب عن العقوبة قال :
« ويدخلكم جنات . . . » فبعد ما ذكر الجنة ونعيمها قال : « ومساكن طيبة » ،
وبماذا تطيب تلك المساكن ؟ لا تطيب إلّا برؤية الحق سبحانه ، ولذلك قالوا :

أجبرائنا ما أوحش الدار بعدكم إذا غبثتموها ونحن حضور !
نحن في أكل السرور ولكن ليس إلّا بكم يتم السرور
عيب ما نحن فيه يا أهل ودّي أنكم غيبّ ونحن حضور

قوله جل ذكره : « وأخرى تحبونها نصر من الله
وفتح قريب وبشر المؤمنين » .

أى ولكم نعمة أخرى تحبونها: نصر من الله ؛ اليوم حفظ الإيمان وثبت الأقدام
على صراط الاستقامة ، وغداً على صراط القيامة .

« وفتح قريب » : الرؤية والزلفة . ويقال الشهود . ويقال: الوجود^(١) أبد الأبد .

« وبشر المؤمنين » : بأنهم لا يبتون عنك في هذا التواصل .

قوله جل ذكره : « يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله » .

كما قال عيسى ابن مريم للحواريين
من أنصارى إلى الله ؟ قال
الحواريون : نحن أنصار الله فأمنت

(١) لفظة (الوجود) بالمعنى الصوري مقبولة هنا ، ولكننا في ذات الوقت لا نستبعد أن تكون (الخلود)
إشارة إلى قوله تعالى : « خالدون فيها أبداً » .

طائفةً من بني إسرائيل وكفرت
طائفةً فأيدتنا الذين آمنوا على عدوهم
فأصبحوا ظاهرين» .

أى كونوا أنصاراً لدينه ورسوله كما أن عيسى لمّا استعان واستنصرَ الحواريين نصره ..
فانصروا محمداً إذا استنصركم .

ثم أخبر أن طائفةً من بني إسرائيل آمنوا بعيسى فأكرموا ، وطائفةً كفروا فأذلّوا ،
وأخفّرَ أوليائه على أعدائه ... لكي يعرف الرسولُ صلى الله عليه وسلم أن الله سبحانه يُظفِرُ
أوليائه على أعدائه .

سُورَةُ الْجُمُعَةِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسم عزيز إذا تجلّى لقلب عبّد بوصف جماله تجمعت أفكاره على بساط جوده فلم يتفرّق بسواه^(١) .

وَمَنْ تَجَلَّى لِسِرِّهِ بِنِعْتِ جَلَالِهِ اندرجت جلته ، واسْتَهْلِكَ في وجوده فلم يشمر بكرائم دُنْيَاهِ وَلَا بِعَظَائِمِ عُقُبَاهِ . .

وَكَمْ لَهُ مِنْ إِنْعَامٍ ! وَكَمْ لَهُ مِنْ إِحْسَانٍ ! وَكَمْ فِي أَمْثَالِهِمْ : « جَرَى الْوَادِي فَطَمَّ عَلَى الْقَرْيِ^(٢) »

قوله جل ذكره : « يُسَبِّحُ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » .

تَسْبِيحُ فِي بَحَارِ تَوْحِيدِ الْحَقِّ أَسْرَارُ أَهْلِ التَّحْقِيقِ ، وَبَحْرُهُمْ بِلا شاطئ ؛ فَبَعْدَ مَا حَصَلُوا فِيهَا فَلَا خُرُوجَ وَلَا بَرَاخَ ، فَخَازَتْ أَيْدِيهِمْ جَوَاهِرَ التَّفْرِيدِ فَرَّصَعُوهَا فِي تَاجِ الْعِرْقَانِ كَيْ يَلْبَسُوهُ يَوْمَ الْقَاءِ .

« الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ » .

« الْمَلِكِ » : الْمَلِكُ لِلتَّفَرُّدِ بِاسْتِحْقَاقِ الْجَبْرُوتِ .

« الْقُدُّوسِ » : الْمُتَزَعُّ عَنْ الدَّرَكِ وَالْوَصُولِ : فَلَيْسَ بِيَدِ الْخَلْقِ إِلَّا عِرْقَانِ الْحَقَائِقِ بِنِعْتِ التَّعَالَى ، وَالتَّأَمُّلِ فِي شُهُودِ أَفْصَالِهِ ، فَأَمَّا الْوُقُوفُ عَلَى حَقِيقَةِ أَنْبِئَتِهِ — فَقَدْ جَلَّتِ الصَّمَدِيَّةُ عَنْ

(١) لاحظنا دقة استعمال الاصطلاحين (الجمع والفرق) .

(٢) الْقَرْيُ = مجرى الماء في الروضة والجمع : أقرية وأقراومقريان ، ويفرب المثل عند تجاوز الشيء حده .

إشرافٍ عليه ، أو طمعٍ إدراكٍ في حالِ رؤيته ، أو جوازٍ إحاطةٍ في العلمِ به . . . فليس إلا قالةً بلسانٍ مُسْتَنْطِقٍ ، وحالةً بشهودٍ حقٍّ مُستغرقٍ (١) :

وَقُلْنَا لَنَا : نَحْنُ الْأَهْلَةُ إِنَّمَا نُفِيهِ لِمَنْ يَسْرِى بَلِيلٌ وَلَا تَقْرَى (٢)
قوله جل ذكروه : « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم

يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم
الكتاب والحكمة وإن كانوا من
قبل لئي ضلالر مبين » .

جرّده عن كلِّ تنكُّفٍ لتعلُّمٍ ، وعن الاتصافِ بتطلُّبٍ (٣) . . . ثم بعثه فيهم وأظهر
عليه من الأوصاف ما فاق الجميع .

فكما أَيْتَمَهُ في الابتداء عن أبيه وأمه ، ثم آواه بُلُطْغِهِ — وكان ذلك أبلغ وأتم — فإنه
كذلك أفرده عن تكلُّفه العلم — ولكن قال : « وعلمك ما لم تكن تعلم » (٤) .

وقال : « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا » (٥) ألبسه لباسَ
العِزَّةِ ، وتوجّه بتاج الكرامة ، وخلّصَ عليه حُسْنَ التولّي . . لتكون آثارُ البشرية عنه
مندرجة (٦) ، وأنوارُ الحقائق عليه لأمة .

وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو
العزيز الحكيم » .

(١) هذه الفقرة التي كتبها القشيري عن (القدس) على جانب كبير من الأهمية ؛ إذ هي توضح : أن الصوفي
مهما ارتفع في معراج الروح لا يستشرف من (الذات) فقد جاءت الصمدية عن ذلك ، وإنما هو يتحقق من شهود
(العمل) . . ولا شك أن أهل السنة المتشددون سيجدون في هذا النص ما يطفهم نحو التصوف وأهله .
(٢) أي ولا تستضيف . . والمقصود أن السالكين طريق الله دائماً على الدرب سائرون وأن الحق سبحانه
لا يقف على كنهه .

(٣) حتى ينتفى عنه سوء الظن في تعلُّمه شيئاً من الكتب السابقة ، وأن ما يدعو إليه ثمرة قراءته .

(٤) آية ١١٣ سورة النساء .

(٥) آية ٥٢ سورة الشورى .

(٦) هي هكذا في صوفي مشبهة ، والمقصود لتتطوى عنه آثار البشرية — لا البشرية نفسها — وتلوح
عليه أنوار الحقائق.

أى بَعَثَ فى الأميين ، وفى آخرين منهم وهم العجم ، ومن يأتى . . إلى يوم القيامة ؛ فهو صلى الله عليه وسلم مبعوث إلى الناس كافة .

قوله جل ذكره : « ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » .

يقصد به هنا النبوة ، يؤتيها « من يشاء » ؛ وفى ذلك رد على مَنْ قال : إنها تُستحق لكثرة طاعة الرسول — ورد على من قال : إنها لتخصيصهم بطيئتهم ؛ فالفضل ما لا يكون مُستحقاً ، والاستحقاق فرض^(١) لا فضل .

ويقال : « فضل الله » هنا هو التوفيق حتى يؤمنوا به .

ويقال : هو الأنس بالله ، والعبد ينسى كل شيء إذا وجد الأنس .

ويقال : قَطَعَ الأسباب ، — بالجملة — فى استحقاق الفضل ، إذا حاله على المشيئة .

قوله جل ذكره : « مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » .

« ثم لم يحملوها » : ثم لم يعملوا بها .

ويُلْحَقُ بِهِؤْلَاءُ^(٢) فى الوعيد — من حيث الإشارة — الموسومون^(٣) بالتقليد فى أى

(١) هكذا فى ص وهى فى م (فرد) وهى خطأ فى النسخ ؛ إذ المقصود أنه منحه الاستحقاق فضلاً منه لا (فضلاً) عليه ؛ فلا وجوب على الله — كما نعرف من مذهب القشيري .

(٢) أى بالعمود الذين لا فائدة لهم فيما يحملونه من الكتب ، فهى تبشر بمحمد ، وهم يحملون به .

(٣) هكذا فى ص وهى فى م (المؤمنون) .

معنى شئت : فى علم الأصول ، ومما طريقته أدلة العقول ، وفى هذه الطريقة (١) مما طريقته
النازلات .

قوله جل ذكره : « قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا (٢) إِنْ زَعَمْتُمْ
أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا
الموتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *
وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ » .

هذا من جملة معجزاته صلى الله عليه وسلم ، فَصَرَّفَ قُلُوبَهُمْ عَنْ تَمَنَّى الموتِ إِلَى هذه المدة
دَلَّ عَلَى صِدْقِهِ صلوات الله عليه (٣) .

ويقال : من علامات الحجة الاشتياقُ إِلَى المحبوب ؛ فإذا كَانَ لَا يَصِلُ إِلَى لقائه إِلَّا بالموتِ
فَتَمَنَّيْهِ — لَا محالة — شرطاً ، فأخبر أنهم لَا يَتَمَنَّوْنَ أَبَدًا . . . وَكَانَ كَمَا أَخْبَرَ .

قوله جل ذكره : « قُلْ إِنْ أَلَمْتُ الَّذِي تَقْرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ
مَلَأْتُكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمٍ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ » .

الموتُ حَتْمٌ مُقَضًى . وفى الخبر : « مَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ » . والموتُ جِسْرٌ
والمقصدُ عِنْدَ اللَّهِ . . . وَمَنْ لَمْ يَعِشْ عَفِيفًا فَلَيْمَتْ ظَرِيفًا (٤) .

(١) يقصد طريقة الصونية .

(٢) أخطأ الناسخ فى م وجعلها (آمروا) .

(٣) والآية تؤكده هذا مرتين باستعمال أسلوب إنشائي (فتمنوا) وأسلوب خبرى (ولا يتمنونه أبداً) .

(٤) سئل الجنيد عن الظرف فقال : « اجتناب كل خلق دنيى واستعمال كل خلق سننى » وأن تعمل لله ثم

لا ترى أنك عملت » (اللمع للمراج ص ٩٦٢) .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ

مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ

وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ

كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » .

أَوْجَبَ السَّعْيَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِذَا نُودِيَ لَهَا ، وَأَمَرَ بِتَرْكِ الْبَيْعِ (١) .

ومنهم من يحمله على الظاهر ؛ أي ترك المعاملة مع الخلق (٢) ، ومنهم من يحمله عليه وعلى

معنى آخر : هو ترك الاشتغال بملاحظة الأعراض (٣) ، والتناسي عن جميع الأغراض إلا معاينة

الأمر ؛ فمنهم من يسعى إلى ذكر الله ، ومنهم من يسعى إلى الله ، بل يسعون إلى ذكر الله

جَهْرًا يَجْهَرُ ، ويسعون إلى الله تعالى سِرًّا بِسِرٍّ .

قوله جل ذكره : « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْشَرُوا

فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ

وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »

إنما ينصرف مَنْ كَانَ لَهُ جَمْعٌ يَرْجِعُ إِلَيْهِ ، أَوْ شُغْلٌ يَقْصِدُهُ وَيَشْتَغِلُ بِهِ — ولكن ..

مَنْ لَا شُغْلَ لَهُ وَلَا مَأْوَى .. فَإِلَى أَيْنَ يَرْجِعُ ؟ وَإِنَّمَا يُقَالُ : « وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ » إِذَا كَانَ

لَهُ أَرَبٌ .. فَأَمَّا مَنْ سَكَنَ عَنِ الْمَطَالِبَاتِ ، وَكُفِيَ دَاءَ الطَّلَبِ .. فَمَا لَهُ وَابْتِغَاءُ مَا لَيْسَ

بِرَبِّهِ وَلَا هُوَ فِي رِقَّةٍ ؟ !

قوله جل ذكره : « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا آنَفُوا

إِلَيْهَا وَنَرَكُوكَ قَائِمًا .. قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ

(١) هكذا في م وهو الصواب حسب الآية ، ولكنها في م (الجمع) .

(٢) هكذا في م وهو في م (الحق) وهو خطأ في النسخ .

(٣) جمع (عثر) الحياة الدنيا .

خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التَّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ
الرَّازِقِينَ .

مَنْ أَمَرَتْهُ أخطارُ الأشياءِ استجاب لكلِّ داعٍ جرَّه إليه لَهْوٌ أو سَمَلَةٌ عليه سَهْوٌ
وَمَنْ مَلَكَه سلطانُ الحقيقةِ لم ينحرف عن الحضور ، ولم يلتفت في حال الشهود . « قل ما عند
الله خير من اللهو ومن التجارة » وما عند الله للعُباد والزُّهاد — غداً^(١) — خيرٌ مما^(٢) نالوه
في الدنيا نقداً . وما عند الله للعارفين — نقداً — من واردات القلوب وبواده^(٣) الحقيقة خيرٌ
مما يُؤمِّلُ المستأنف^(٤) في الدنيا والعُقبى .

(١) ويجوز أنها في الأصل « وعداً » لتقابل « نقداً » فهذا نمط في تعبير القشيري مألوف ، ومع ذلك فالوعد (غداً) .

(٢) هكذا في ص وهي في م (من) والصواب (مما)

(٣) البواده ما يفجأ قلبك من الغيب على سبيل الوهلة ، وهي إما موجبات فرح أو موجبات ترح ، وصادات الوقت لا تغيرم البواده ، لأنهم فوق ما يفجؤم حالاً وقوة (الرسالة - ص ٤٤) .

(٤) موجودة في ص وغير موجودة في م وهي ضرورية للسياق ، والمستأنف : هو المرید المجتهد الذي مازال يفكر في الثواب الآجل والثواب العاجل .

سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسم مَنْ تَحَقَّقَ بِهِ صَدَقَ فِي أَقْوَالِهِ ، ثُمَّ صَدَقَ فِي أَعْمَالِهِ ، ثُمَّ صَدَقَ فِي أَخْلَاقِهِ
ثُمَّ صَدَقَ فِي أَحْوَالِهِ ، ثُمَّ صَدَقَ فِي أَنْفَاسِهِ (١) .. فَصِدْقُهُ فِي الْقَوْلِ أَلَا يَقُولُ إِلَّا عَنِ بَرَهَانٍ ،
وَصِدْقُهُ فِي الْعَمَلِ أَلَا يَكُونُ لِلْبِدْعَةِ عَلَيْهِ سُلْطَانٌ ، وَصِدْقُهُ فِي الْأَخْلَاقِ أَلَا يُبْلِغُهُ إِحْسَانَهُ
مَعَ الْكَافَّةِ بَيْنَ النَّفْسَانِ ، وَصِدْقُهُ فِي الْأَحْوَالِ أَنْ يَكُونَ عَلَى كَشْفٍ وَبَيَانٍ ، وَصِدْقُهُ فِي الْأَنْفَاسِ
أَلَا يَنْفَسُ إِلَّا عَلَى وَجُودٍ كَالْعَيَانِ (٢) .

قوله جل ذكره : « إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا : نَشْهَدُ
إِنَّكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ
لِرَسُولِهِ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ
لَكَاذِبُونَ » .

كَذَّبَهُمْ فِيمَا قَالُوا وَأُظْهِرُوا ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَشْهَدُوا عَنْ بَصِيرَةٍ وَلَمْ يَمْتَدِّدُوا تَصْدِيقَكَ ، فَهُمْ لَمْ
يَكْذِبُوا فِي الشَّهَادَةِ (٣) وَلَكِنْ كَذَّبَهُمْ فِي قَوْلِهِمْ : إِنَّهُمْ مُخْلِصُونَ لَكَ ، مُصَدِّقُونَ لَكَ .
فَصِدْقُ الْقَالَةِ لَا يَنْفَعُ مَعَ قُبْحِ الْحَالَةِ .

(١) هكذا في م (النعامة) والصواب ما أثبتنا بدليل ما بعده .

(٢) لاحظ هنا كيف تنفق إشارة البسملة مع السياق العام للسورة .

(٣) أي تقريرهم بأن محمداً رسول الله حقيقة ليس فيها كذب ، فمن حيث الظاهر فقد نطقت ألسنتهم بالصدق ،
ولكن الكذب كامن في القلب .

ويقال : الإيمان ما يوجب الأمان ؛ فالإيمان يوجب للمؤمن إذا كان عاصياً خلاصه من العذاب أكثره وأقله . . . إلا ما ينقله من (أعلى) ^(١) جهنم إلى أسفلها .

قوله جل ذكره : « اتَّخِذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا

عن سبيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

تَسْتَرُّوا بِأَقْرَابِهِمْ ، وَتَكْشِفُوا بِنِفَاقِهِمْ عَنْ أَسْتَارِهِمْ فَاتَّضَحُّوا ، وَذَاقُوا وَبَالَ أَحْوَالِهِمْ .

قوله جل ذكره : « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ

عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ » .

استضاءوا بنور الإجابة فلم يَنْبَسِطْ عليهم شعاعُ السعادة ، فانطلقاً نورهم بقهر الحرمان ، وبقوا في ظلمات القسمة السابقة بحكم الشقاوة .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ

وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ

مُسْنَدَةٌ يَحْسِبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ

مِمَّ الْعَدُوِّ فَاحْذَرُوهُمْ ، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى

يُؤْفَكُونَ » .

أى هم أشباح وقوالب وليس وراءهم ألبابٌ وحقائق — فالجوز ^(٢) الفارغ مزينٌ بظهوره ولكنه للب الصبيان ^(٣) .

« يحسبون كل صيحة عليهم .. » وذلك لجبنهم ؛ إذ ليس لهم اتعاش برئهم ، ولا استقلال بغيرهم .

(١) سقطت (أعلى) من النسخ في م وهي موجودة في ص .

(٢) هكذا في م وهي في ص « الحوض » وقد رجعنا الأولى .

(٣) في هذه الإشارة تنبيه إلى قاعدة صوفية ؛ أن العبرة بحقائق الأرواح لا بمظاهر الأشباح (أى الأجساد) .

« هم العدو فاحذرهم » — يا محمد — فاحذرهم ، ولا يفرّئك تبسّطهم
في الكلام على وجه التودّد والتقرب .

قوله جل ذكره : « وإذا قيل لهم تعالوا يستغفِرْ لكم
رسولُ اللهِ لَوَّوا رؤوسهم ورأيتهم
يصدّون وهم مُستَكبرون » .

سمعوا إلى ما يقال لهم على وجه التكبر ، وإظهار الاستغناء عن استغفاركم لهم . . . نفل
سبيلهم ؛ فليس للنصح فيهم مسأغ ، ولن يُصَحِّبهم من سَكَرَتهم إلّا حرّ ما سيلقونه من العقوبة ،
فأدام الإصرار من جانبهم فإنهم :

« سواء عليهم أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ
تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ إِنَّ اللهَ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » .

قد سبق العلمُ بذلك :

قوله جل ذكره : « هم الذين يقولون لا تنفقوا على مَنْ
عِنْدَ رسولِ اللهِ حتى ينفَضُوا اللهُ
خزائنُ^(١) السموات والأرض ولكن
النافقين لا يفقهون » .

كانهم مربوطون بالأسباب ، محجوبون عن شهود التقدير ، غير متحقّقين بتصرف الأيام ،
فأنطقهم بما خامر قلوبهم مِنْ تَمَنَّى انطفاء نورِ رسولِ الله ، وانتكاث شملهم ، فتواصوا فيما بينهم
بقولهم : « لا تنفقوا على مَنْ عند رسولِ الله » فقال تعالى « ولله خزائن السموات . . . » .
وليس استقلالُك — يا محمد — ولا استقلالُ أصحابك بالمرزوقين . . بل بالرازق ؛ فهو
الذي يمسككم .

(١) « ولله خزائن السموات والأرض » . بهذا أجاب كثيرون من أرباب الطريق كحاتم الأصم والجنيد والشبل
عندما كانوا يسأل أحدهم : من أين تأكل ؟

قوله جل ذكره : « يقولون لئن رجعنا إلى الدين

ليُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ » والله العزُّ

ورسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين

لا يعلمون .

إنما وقع لهم التلَطُّ في تعيين الأعزِّ والأذلِّ ؛ فتَوَهَّمُوا أَنَّ الأعزَّ هم المنافقون ، والأذلَّ هم

المسلمون ، ولكن الأمر بالعكس ؛ فلا جرم غلبَ الرسولُ صلى الله عليه وسلم والمسلمون ،

وأذلَّ المنافقون بقوله : « والله العزة ورسوله وللمؤمنين » : الله عزُّ الإلهية ، والرسول عزُّ النبوة ،

وللمؤمنين عزُّ الولاية . . . وجميع ذلك الله ؛ فَمِزَّةُ القديمِ صِفَتُهُ ، وعِزُّ الرسول وعِزُّ المؤمنين

له فِعْلاً وَمِثَّةً وَفَضْلاً ، فإذا الله العِزَّةُ جميعاً .

ويقال : كما أَنَّ عِزَّةَ الله — سبحانه — لا زوالَ لها فَمِزَّةُ الأنبياء بَأَن لا عَزَلَ لهم ،

وعِزَّةُ المؤمنين بَأَن لا يَتَقَى منهم مُخَلَّدٌ في النار .

ويقال : مَنْ كان إيمانه حَقِيقاً فلا زوالَ له .

ويقال : مَنْ تَمَرَّزَ بالله لم يَلْعَضْهُ تَغْيَرٌ عن حاله بغير الله .

ويقال : لا عِزَّ إِلَّا في طاعةِ الله ، ولا أَذلَّ إِلَّا في معصيةِ الله . . وما سوى هذا

فلا أصلَ له .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ

أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ

الضَّالُّونَ » .

لا تُضَيِّعُوا أَمْوَالَ دِينِكُمْ بسببِ أَمْوَالِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ بل آثَرُوا حَقَّ الله ، واشتغلوا به

يَكْفِيكُمْ أَمْوَرَ دُنْيَاكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ ؛ فإذا كُنْتَ لله كان الله لك (١) .

(١) لتذكرك ما قلناه في مدخل هذا الكتاب بأن القشيري نفسه قد ضرب المثل على ذلك حين هاجر من بلده تاركاً أهله في رعاية الله حيناً تمرَّضت عقيدته للمحنة .

ويقال : حقُّ الله بما أُلْزِمَكَ الْقِيَامَ بِهِ ، وَحَقُّكَ ضَمَنَ لَكَ الْقِيَامَ بِهِ ؛ فَاشْتَغِلْ بِمَا كُنْتَ لَا بِمَا كُنْتَ .

قوله جل ذكره : « وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ » .

لَا تَفْتَرُوا بِسَلَامَةِ أَوْقَاتِكُمْ ، وَتَرَقَّبُوا بَفَتَاتِ آجَالِكُمْ ، وَتَاهَبُوا لِمَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ مِنَ الرِّحَالِ ، وَلَا تَعْرَجُوا فِي أَوْطَانِ الْقَسَوفِ .

سُورَةُ التَّغَابُنِ

قوله جل ذكره: « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله . . » كلمة عزيزة مَنْ ذَكَرَهَا يحتاج إلى لسانٍ عزيزٍ في الفية لا يُبْتَدَلُ ،
وفي ذِكْرِ الأغيار لا يُسْتَعْمَلُ . وَمَنْ عَرَفَهَا يحتاج إلى قلبٍ عزيزٍ ليس في كلِّ ناحية منه
خليط ، ولا في كلِّ زاوية زبيط .

قوله جل ذكره: « يُسَبِّحُ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

المخلوقات كلها بحمלתها لله سبحانه مُسَبَّحَةٌ . . ولكن لا يَسْمَعُ تسبيحها مَنْ به
طَرَشُ النكرة . .

ويقال : الذي طَرَأَ صَمُّهُ قد يُرْجَى زواله بنوع معالجة ، أمّا مَنْ يُولَدُ أَصَمَّ فلا حيلة
في تحصيل سماعه . قال تعالى : « فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى » ^(١) وقال تعالى : « وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ
خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ » ^(٢) .

قوله جل ذكره: « هو الذي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرًا
وَمِنْكُمْ مُؤْمِنًا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » .

منكم كافرٌ في سابق حُكْمِهِ سَمَاءَ كَافِرًا ، وَعَلِمَ أَنَّهُ يَكْفُرُ وَأَرَادَ بِهِ الْكَفْرَ ... وكذلك

(١) آية ٥٢ سورة الروم .

(٢) آية ٧٢ سورة الأنفال .

كانوا . ومنكم مؤمنٌ في سابق حكمه سَمَّاهُ مؤمِنًا ، وَعَلِمَ في آزاله أَنه يَؤمِنُ وخالقه مؤمنًا ، وأرادهُ مؤمنًا . . والله بما تعملون بصير .

قوله جل ذكره : « خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ » .

« خلق السموات والأرض بالحق » : أى وهو مُحِقٌّ في خَلْقِهِ .
« وصوَّرَكُمْ فأحسن صوركم » لم يَقُلْ لشيءٍ من المخلوقات هذا الذى قال لنا ، صوَّرَ الظاهرَ وصوَّرَ الباطنَ ؛ فالظاهر شاهدٌ على كمال قدرته ، والباطن شاهدٌ على جلال قربته ^(١) .

قوله جل ذكره : « يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » .

قَصَّروا حَيْلَكُمْ عن مطلوبكم ، فهو تنقاصر عنه علومكم ، وأنا أعلمُ ذلك دونكم . .
فاضْبُوا مَنِيَّ ، فأنا بذلك أعلم ، وعليه أقدر .
ويقال : « ويعلم ما تُسْرُونَ » . فاحذروا دَقِيقَ الرِّياءِ ، وَخَفِيَّ ذَاتِ الصُّدُورِ « وما تُعْلِنُونَ » :
فاحذروا أَن يَخَالَفَ ظَاهِرُكُمْ باطنكم .

في قوله « ما تُسْرُونَ » أمرٌ بالمراقبة بين العبد وربّه .
وفي قوله « ما تُعْلِنُونَ » أمرٌ بالصدق في المعاملة والمحاسبة مع الخَلْقِ ^(٢) .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ يَأْنِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهم وَلَهُم عَذَابٌ

(١) - القربة هنا إشارة إلى تميز الإنسان من بين المخلوقات بقيام المحبة بمعناها الخاص بينه وبين الحق سبحانه ، وقد سبق بيان ذلك في مواضع مختلفة .
(٢) مرة أخرى ننبه إلى ضرورة فهم الفرق بين اصطلاحى : المراقبة والمحاسبة - حسب المنهج التشيىرى .

أليم * ذلك بأنه كانت تأتيهم رُسُلهم
باليِّنَاتِ قَالُوا أَبَشِّرْ يَهُودُنَا
فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَأَسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ
غَنِيٌّ حَمِيدٌ .

المراد من ذلك هو الاعتبار بِمَنْ سَلَفَ ، وَمَنْ لم يَعْتَبِرْ عَثَرَ فِي مَهْوَاةٍ مِنَ الْأَمَلِ ،
ثم لَا يَنْتَعِشُ إِلَّا بَعْدَ فَوَاتِ الْأَمْرِ مِنْ يَدِهِ .

« ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم . . » . شاهدوا الأمر من حيث الخلق فتطوَّحوا
في متاهات الإشكال المختلفة الأحوال . ولو نظروا بعين الحقيقة لتخلصوا من تفرقة الأباطيل ،
واستراحوا بشهود^(١) التقدير من اختلاف الأحوال ذات^(٢) التغيير .

قوله جل ذكره : « زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا
قُلْ : بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيَنَّ
بِمَا عَمِلْتُمْ ، وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ » .

الموت نوعان : موتُ نَفْسٍ ، وموتُ قَلْبٍ ؛ ففي القيامة يُبْعَثُونَ من موتِ النَّفْسِ ، وأما
موتُ القَلْبِ فلا بَعَثَ منه — عند كثيرٍ من مخلصي هذه الطائفة ، قال تعالى مُخْبِرًا عَنْهُمْ : « قَالُوا
يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ؟ »^(٢) فلو عرفوه لَمَا قَالُوا ذَلِكَ ؛ فموتُ قلوبهم مُسَرَّمَدٌ إِلَى
أَنْ تُصِيرَ معارفهم ضرورةً ، فهذا الوقتُ وقتُ موتِ قلوبهم .

قوله جل ذكره : « فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي
أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » .

« النور الذي أنزلنا » : القرآن . ويجوز أَنْ يَكُونَ ما أنزل في قلوب أوليائه من السكينة
وفنون الألفاف .

(١) هكذا في ص وهي في م (من شهود) وهي خطأ من الناسخ .
(٢) في النسختين (ذوي) وقد رأينا أن تكون (ذات) أو (ذوات) .
(٣) آية ٥٢ سورة يس ، والفرق واضح بين هذه القالة وبين ما قاله أصحاب الكهف المؤمنون .

قوله جل ذكره : « يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ

يَوْمُ التَّنَابُؤِ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ

صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ

جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ

فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

المطيعُ — يومئذٍ — في غيب لأنه لم يستكثر من الطاعة ، والعاصي في غيب لأنه استكثر
من الزلة (١) .

وليس كل الغيب في تفاوت الدرجات قلة وكثرة ، فالغيب في الأحوال أكثر .

قوله جل ذكره : « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ

وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ

شَيْءٍ عَلِيمٌ » .

أَيَّ حَصْلَةٍ حَصَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ خَلْقًا ، وبعلمه وإرادته حُكْمًا .

وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ حَتَّى يَهْتَدِيَ إِلَى اللَّهِ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ — الْيَوْمَ —

وَفِي الْآخِرَةِ يَهْدِيهِ إِلَى الْجَنَّةِ .

ويقال : « يَهْدِ قَلْبَهُ » للأخلاق السنية ، والتنقي من شح النفس .

ويقال : « يَهْدِ قَلْبَهُ » لاتباع السنة واجتناب البدعة .

قوله جل ذكره : « وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ

فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا

الْبَلَاغُ الْمُبِينُ » .

(١) قال بعض الصوفية : إن الله كتب الغيب على الخلق أجمعين ، فلا يلقى أحد ربه إلا مغبوناً ؛ لأنه لا يمكنه الاستيفاء للعمل حتى يحصل له استيفاء الثواب ، وفي الأثر قال النبي (ص) : « لا يلقى الله أحد إلا نادماً إن كان مسيئاً إن لم يحسن ، وإن كان محسناً إن لم يزد » القرطبي ١٨ ص ١٣٨ .

طاعةُ الله واجبةٌ ، وطاعةُ الرُّسُلِ — الذين هم سفراءُ بينه وبين الخلقِ — واجبةٌ كذلك . والأنوار التي تظهر عليك^(١) وتطالبُ بمقتضياتها كلها حقٌ ، ومن الحقِّ . . فتعجب طاعتها أيضاً .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوا ، وَإِنْ تَغْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَتَفَرَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

إذا دَعَوَكَ لتجتمعَ لهم الدنيا فهم عدوُّكَ ، أمّا إذا أخذتم منها على وجه العفاف^(٢) فليسوا لكم أعداء .

قوله جل ذكره : « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » .

« فِتْنَةٌ » : لأنهم يشغلونكم عن أداء حقِّ الله ؛ فما تَبَيَّنَ عن الله مشغولاً يجمعه فهو غيرُ ميمونٍ عليك .

ويقال : إذا جمعتم الدنيا لغير وَجْهِه فإنكم تُشغَلُونَ بذلك عن أداء حقِّ مولاكم ، وتشغلكم أولادُكم ، فتبتغون بهم عن طاعة الله — وتلك فِتْنَةٌ لكم . . ترومون إصلاحهم . فتفسدون أنتم وهم لا يُصْلَحُونَ ! .

قوله جل ذكره : « فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْتَقُوا خَيْرًا لَأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

(١) الخطاب هنا موجّهٌ إلى صاحب الأحوال والكشوفات .

(٢) صَفَّ عَفَّةً وعَفَافاً أي كفَّ عما لا يحل ولا يجمل . ويقال : هم أَعْفَةُ الْفَقْرِ ، أي : إذا افتقروا لا يسألون . (الوسيلة) .

أى ما دمتم فى الجملة مستطيعين ويتوجه عليكم التكليف فاتقوا الله . والتقوى عن شهود
التقوى بعد ألا يكون تصير فى التقوى غاية التقوى .

« ومن يوق شح نفسه » حتى ترتفع الأخطار^(١) عن قلبه ، ويحرر من رِقِّ المكنونات ،
فأولئك هم المفلحون .

قوله جل ذكره : « إن تُقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه
لكم ويغفر لكم والله شكورٌ حلیم . »

يتوجه بهذا الخطاب إلى الأغنياء ليبدل أموالهم ، وللفقراء فى إخلاء أيامهم وأوقاتهم من
مراداتهم وإثارة مراد الحق على مراد أنفسهم .

فالفنى يُقال له : آثر حُكمى على مرادك فى مالك ، والفقير يُقال له : آثر حُكمى
فى نفسك وقلبك ووقتك وزمانك .

« عالمُ الغيب والشهادة العزيز الحكيم » .

جل شأنه .

(١) المقصود بالأخطار هنا : حسان أن لشيء أهميةً رشائناً .

سُورَةُ الطَّلَاقِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسمٌ مَنْ لاسبيلَ إلى وصاله ، ولا غُنيةَ — في غيره — عن فعاله ، اسمٌ مَنْ عَلِمَهُ وقع في كلِّ سكونٍ وراحة ، اسمٌ مَنْ عَرَفَهُ وقع في كلِّ اضطراب وإطاحة^(١) ، العلماء بسرّاب علمهم استقلوا فاستراحوا ، والعارفون بسلطان حُكْمِهِ اضطلُّوا عن شواهدهم .. فبادوا وطلّحوا .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ

فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ

وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ... » .

الطلاقُ — وإن كان فراقاً — فلم يجعله الحقُّ محظوراً ... وإن كان من وجهٍ مكروها .

والطلاق وقتية^(٢) : سُنِّيَّةٌ وبدِئِيَّةٌ ، ومباحةٌ ، لاسنية ولا بدعية ؛ فالسنية : أن تطلقَ في طهرٍ لم تباشرفيه طلاقاً واحداً ، والبدعية : في حال الحيض وطهرٍ جُمِعت فيه ، والمباحة : في طهرٍ بعد حيضٍ ثم يطلقها من قبل أن يجامعها^(٣) — والطلاق أكثر من واحدة .

(١) أطاحه إطاحةً أي أفناه وأذهب .

(٢) أي وجوه مرتبطة بأوقات خاصة . روى الدارقطني عن ابن عباس قال : الطلاق على أربعة وجوه : وجهان حلالان ووجهان حرامان : فأما الحلال فأن يطلقها طاهرًا من غير جماع ، وأن يطلقها حاملاً مستيناً حملها . وأما الحرام فأن يطلقها وهي حائض ، أو يطلقها حين يجامعها لا تدري اشتعل الرحم على ولدٍ أم لا .

(٣) قال السدّي : نزلت في عبد الله بن عمر طلق امرأته حائضاً تطلقته واحدة ، فأمره رسول الله (ص) بأن يراجعها ثم يمسكها حتى تطهر وتحيض ثم تطهر ، فإذا أراد أن يطلقها فليطلقها حين تطهر — من قبل أن يجامعها . ويقال : إنها نزلت في أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية .. فلم يكن قبلها المطلقة عدّة ، وحين طلقت على عهد النبي (ص) طلقت بالعدة (هكذا في كتاب أبي داود) .

والعِدَّةُ — وإن كانت في الشريعة لتحسين ماء الزوج (محاماة على الأنساب)^(١) لئلا يدخل على ماء الزوج ماء آخر — فالغالب والأقوى في معناها أنها للوفاء للصحبة الماضية في وصلة النكاح^(٢).

والإشارة في الآيات التالية إلى أنه بعد أن انتهت الوصلة فلا أقل من الوفاء مدة لهذه الصغيرة التي لم تحيض ، وهذه الآيسة من الحيض ، وتلك التي انقطع حيضها ، والحُبلى حتى تلد... كل ذلك مراعاة للحرمة : وعِدَّةُ الوفاة تشهد على هذه الجملة في كونها أطول؛ لأن حرمة الميت أعظم^(٣) وكذلك الإمداد في أيام العِدَّة... المعنى فيه ما ذكرنا من مراعاة الوفاء والحرمة.

قوله جل ذكره : « وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ » .

العبودية : الوقوف عند الحد ، لا بالتقصان عنه ولا بالزيادة عليه ، ومن راعى مع الله حده أخلص الله له عهده ..

« لا تدري لعلَّ الله يُخَدِّثُ بعد ذلك أمراً » .

قالوا : أراد ندماً ، وقيل : ولداً ، وقيل : مثيلاً إليها ، أولها إليه ؛ فإن القلوب تنقلب :

والإشارة في إباحة الطلاق إلى أنه إذا كان الصبر مع الأشكال حقاً للحرمة المتقدمة فالخلاص من مُسَاكِنَةِ الأمثال ، والتجرُّد لعبادة الله تعالى أولى وأحق .

قوله جل ذكره : « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » .

(١) موجودة في ص وغير موجودة في م .

(٢) القشيري يركز جهده في استخراج إشارات في الصحبة والصاحب وغير ذلك من المعاني من آيات الطلاق — غير مهم بتفاصيل هذا الموضوع الواسع الذي تعنى به كتب الفقه المتخصصة .

(٣) يقول القشيري في الصفحة ١٨٨ من المجلد الأول من هذا الكتاب : كانت عِدَّةُ الوفاة في ابتداء الإسلام سنة مستديمة كقول العرب ؛ وفعلهم ، ثم نُسخ ذلك إلى أربعة أشهر وعشرة أيام ؛ إذ لا بد من انتهاء مدة الحداد . « والمطلقات متاع بالمعروف » والإشارة فيه ألا تجتمعوا عليهن الفراق والحرمان فيتضاعف عليهن البلاء .

إذا صدَّق العبدُ في تقواه أخرجَه من بين أشغاله كالشجرة تُخَرَّجُ من بين العجيين لا يعلَقُ بها شيءٌ . ويضربُ الله تعالى على المُتَّقِي مرادقاتٍ عنايته ، ويدخلُه في كنف الإيواء ، ويصرفُ الأشغال عن قلبه ، ويخرجُه من ظلمات تديره ، ويجرِّدُه من كل أمر ، وينقله إلى شهود فضاء تقديره .

قوله جل ذكره : « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ » .
لم يقل : وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلْهُ حَسْبُهُ ، بل قال : فهو حسبه ؛ أى فاللهُ حَسْبُهُ أى كافيه .

« إِنَّ اللَّهَ بِالْعُمْرَةِ الْقُدُورِ أَعْلَمُ »
شئٌ قدراً .

إذا سبقَ له شيءٌ من التَّقدير فلا محالة يكون ، وتوَكَّلْهُ لا بتغير المقدور ولا يستأخر ، ولكنَّ التَّوَكَّلَ بنيانه على أن يكونَ العبدُ مَرْوَحَ القلب غيرَ كارِهٍ .. وهذا من أَجَلِ النِّعَمِ .
قوله : « وَاللَّائِي يَنْتَسِنَ مِنَ الْخَيْضِ » ... إلى قوله :
« يَجْعَلُ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا » .

التَّوَكَّلُ : شهودُ نَفْسِكَ خارجاً عن المُنَّة^(١) تجري عليك أحكامُ التَّقدير من غير تدبير منك ولا اطلاعٍ لك على حُكْمِهِ ، وسبيلُ العبدِ الخلودُ والرضا دونَ استعلامِ الأمر ، وفي الخبر : « أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ » : ومن العلم الذي لا ينفع — ويجب أن تستميدَ منه — أن يكونَ لك شغلٌ أو يستقبلُك مُهمٌّ من الأمر ويشتبه عليك وجهُ التَّقدير فيه ، وتكونُ مُطَالِباً بالتفويض — فطلبُك العلم وتمنيُك أن تعرف متى يصلح هذا الأمرُ ؟ ولأى سببٍ ؟ ومن أى وجهٍ ؟ وعلى يد مَنْ ؟ ... كل هذا تخطيطٌ ، وغيرُ مُسَلَّمٍ شيءٌ منه للأَكْبَرِ .

فيجب عليك السكونُ ، وحُسنُ الرضا . حتى إذا جاء وقتُ الكَشْفِ فسترى صورة الحال وتعرفه ، وربما ينتظر العبدُ في هذه الحالة تعريفاً في المنام أو ينظر في (٢) (٣) من الجامع ،

(١) المُنَّة بضم الميم هي ما في إمكان الإنسان وحيلته واستطاعته .

(٢) مشبهة في النسختين .

أو يرجو بيان حاله بأن يجرى على لسان مستطلق في الوقت . . كل هذا ترك للأدب ، والله لا يرضى بذلك من أوليائه ، بل الواجب السكون .

قوله جل ذكره : « لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ، وَمَن قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا » .

إذا اتسع رزق العبد فعلى قدر المكنة يطالب بالإعطاء والنفقة فمن قدر عليه رزقه — أى ضيق — فلينفق مما آتاه الله أى من متاع البيت ، ومن رأس المال — إن لم يكن من الربح ، ومن ثمن الضيعة — إن لم يكن من الغلة .

ومن ملك ما يكفيه للوقت ، ثم اهتم بالزيادة للغد فذلك اهتمام غير مرضى^(١) عنه ، وصاحبه غير معان . فأمّا إذا حصل العجز بكل وجه ، فإن الله تعالى : لا يكلف نفساً إلا ما آتاه ، وسيجعل الله بعد عسر يسراً . هذا من أصحاب المواعيد — وتصدقته على حسب الإيمان ، وذلك على قدر اليقين — ويقينه على حسب التهمة . وانتظار اليسر^(٢) من الله صفة المتوسطين في الأحوال ، الذين انحطوا عن حد^(٣) الرضا واستواء وجود السبب وقدره ، وارتقوا عن حدّ اليأس والتقنوط ، وعاشوا في أفياء^(٤) الرجال يعللون^(٥) بحسن المواعيد . . وأبدأ هذه حالتهم وهي كما قلنا^(٦) :

إِنْ نَابَكَ الدَّهْرُ بِمَكْرُوهِهِ فَعِشْ بِتَهْوِينِ تَصَانِفِهِ
فَعَنْ قَرِيبٍ يَنْجَلِي غَيْمُهُ وَتَنْقُضِي كُلَّ تَصَارِيفِهِ

(١) مكذا في ص وهي في م (مرحوم) .

(٢) مكذا في م وهي في ص . (البر) وقد آثرنا الأول نظراً لسياق الآية ذاتها .

(٣) مكذا في م وهي في ص (درجة) وقد آثرنا الأول بدليل ورودها فيها بعد .

(٤) مكذا في ص ولكنها في م (افناء) والصواب الأولى .

(٥) أى يُسَكِّلُون النفس .

(٦) أى أن النص الشعري للشعيرى نفسه . (انظر الشعيرى الشاعر في كتابنا : الإمام الشعيرى)

قوله جل ذكره : « وَكَأَيُّنَ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا
 وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا
 وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا * فَذَاقَتْ
 وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا
 خُسْرًا » .

مَنْ زَرَعَ الشُّوْكَ لَمْ يَجْنِ الْوَرْدَ ، وَمَنْ أَضَاعَ حَقَّ اللَّهِ لَا يُطَاعَ فِي حَقِّ نَفْسِهِ ^(١) . وَمَنْ
 اجْتَرَأَ ^(٢) بِمُخَالَفَةِ أَمْرِ اللَّهِ فَلْيَصْبِرْ عَلَى مَقَاسَةِ عِقَابِهِ اللَّهِ .

قوله جل ذكره : « قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا *
 رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ
 لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » .

إِنَّ كِتَابَ اللَّهِ فِيهِ تَبَيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ . . . فَمَنْ اسْتَضَاءَ بِنُورِهِ اهْتَدَى ، وَمَنْ لَجَأَ إِلَى سَعَةِ
 فَنَائِهِ وَصَلَ مِنْ دَاءِ الْجَهْلِ إِلَى شِفَائِهِ ^(٣) .

وَمَنْ يُوْرِنُ بِاللَّهِ ، وَيَعْمَلُ صَالِحًا لِلَّهِ ، وَفِي اللَّهِ ، فَلَهُ دَوَامُ النُّعْمِ مِنَ اللَّهِ . . . قَالَ تَعَالَى :
 « قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا » .

وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ مَا كَانَ عَلَى حَدِّ الْكَفَايَةِ ؛ لَا تَقْصَانٌ فِيهِ تَتَعَطَّلُ الْأُمُورُ بِسَبَبِهِ ، وَلَا زِيَادَةٌ
 فِيهِ تَشْغَلُهُ عَنِ الِاسْتِمْتَاعِ بِمَا رُزِقَ لِحِرْصِهِ .

كَذَلِكَ أَرْزَاقُ الْقُلُوبِ . أَحْسَنُهَا أَنْ يَكُونَ لَهُ مِنَ الْأَحْوَالِ مَا يَشْتَغِلُ بِهِ فِي الْوَقْتِ ؛ مِنْ غَيْرِ

(١) هَكَذَا فِي صِرْ وَهِيَ أَصَوْبٌ مِمَّا فِي م (حَقَّ نَفْسِهِ) فَالْحَقُّوقُ لِلَّهِ وَالْحَقْلُوظُ لِلْعَبْدِ .

(٢) هَكَذَا فِي صِرْ وَهِيَ أَصَوْبٌ مِمَّا فِي م (اجْتَرَأَ) فَيَأِىِ الْآيَةِ يُوحَى بِذَلِكَ .

(٣) أَصْلُ الْجُمْلَةِ (وَصَلَ إِلَى شِفَائِهِ مِنْ دَاءِ الْجَهْلِ) . . . وَلَكِنْ خَرَصَ الْقَشِيرِيُّ عَلَى التَّرْكِيبِ الْمَوْسِيقِيِّ دَفَعَهُ إِلَى
 هَذِهِ الصِّيَاغَةِ .

نقصان يجعله يتعذب بتعطشه ، ولا تكون فيه زيادة فيكون على خطرٍ من مغالطة لا يخرج منها
إلا بتأييد سماويٍّ من الله (١) .

قوله جل ذكره : « الله الذي خلق سبع سمواتٍ ومن
الأرضِ مثلهنَّ يتنزلُ الأمرُ بينهنَّ
لتعلموا أنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ
وأنَّ اللهَ قد أحاط بكلِّ شيءٍ علماً » .

خلق سبع سمواتٍ ، وخلق ما خلق وهو مُحققٌ فيما خلق وأمر ، حتى نعلم استحقاقَ
جلاله وكَمال صفاته ، وأنه أمضى فيما قضى حكماً ، وأنه أحاط بكلِّ شيءٍ علماً .

(١) رأى القشيري في « الرزق الحسن » مفيد في دراسة الجانب النفسي عند الصوفية ، والحدود التي يبدأ عندها
الصراع الداخلي ، وآفات ذلك ، وعلاجه .

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » . اسمٌ عزيزٌ يُعْمَلُ مَنْ عَصَاهُ ، فإذا رجع وناداه .. أجابه ولَّيَّاهُ (١) فإن لم يتوسَّلْ بِصِدْقٍ قَدَمِهِ فِي ابْتِدَاءِ أَمْرِهِ ثُمَّ تَنَصَّلَ بِصِدْقٍ نَدَمِهِ فِي آخِرِ عَمَلِهِ أَوْسَعَهُ غَفْرًا (٢) ، وقبل منه عُذْرًا ، وَأَكْمَلَ لَهُ ذُخْرًا ، وَأَجَزَلَ لَهُ بَرًّا .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

جاء في القصة : أن النبي صلى الله عليه وسلم حرَّم على نفسه مارية القبطية ، وفي الحال حَلَفَ ألاَّ يطأها شهراً مراعاةً لقلب حفصة حيث رأت النبي صلى الله عليه وسلم معها في يومها (٣) .
وقيل : حرَّم على نفسه شَرْبَ العسل لما قالت له زوجاته ، إِنَّا نَشْمُ مِنْكَ رِيحَ المَغَافِرِ ! — والمغافير صمغ في البادية كريحه الرائحة ، ويقال : بقلة كريحه الرائحة ... فعاتبه الله على ذلك .
وهي صغيرة منه على مذهب مَنْ جَوَّزَ الصِّغَارَ عَلَيْهِ ، وَتَرَكَ لِلأَوَّلَى عَلَى مذهب مَنْ لَمْ يَجُوزْ .

(١) هكذا في م وهي في ص (أبكاه) وهي خطأ في النسخ .
(٢) هكذا في م وهي في ص (عفواً) وهي وإن كانت مقبولة إلا أن التركيب الموسيقي يجعلنا نؤثر (غفرأ) .
(٣) الدارقطني عن ابن عباس عن عمر قال : دخل الرسول (ص) بأم ولده مارية في بيت حفصة وكانت حفصة غابت إلى بيت أبيها فقالت : تدخلها بي ! ما صمت في هذا من بين نسائك إلا من هوأني عليك فقال لها : لا تذكرى هذا لعائشة فهي حرام علىَّ إن قربتها .

وقيل : إنه . طَلَّقَ حفصة طَلْقاً واحدة ، فأمره الله بمراجعتها ، وقال له جبريل : إنها صَوَّامَةٌ قَوَّامَةٌ

وقيل : لم يطلقها ولكن مَمَّ بتطليقها فَمَنَعَهُ الله عن ذلك .

وقيل : لما رآته حفصة مع مارية في يومها قال لها : إِنِّي مُسِرٌّ إِلَيْكَ سِرًّا فلا تخبري أحداً : إِنَّ هذا الأمر يكون بعدى لأبي بكر ولأبيك .

ولكن حفصة ذكرت هذا لعائشة ، وأوحى الله له بذلك ، فسأل النبي حفصة : لِمَ أخبرتِ عائشة بما قلت ؟ .

فجالت له : وَمَنْ أخبرك بذلك ؟ قال أخبرني الله ، وعَرَّفَ حفصة بعض ما قالت ، ولم يصرِّح لها بجميع ما قالت ، قال تعالى : « عَرَّفَ ^(١) بعضه وأعرض عن بعض » ، فعاتبها على بعض وأعرض عن بعض — على عادة الكرام .

ويقال : إن النبي — صلى الله عليه وسلم — لما نزلت هذه الآية كان كثيراً ما يقول : « اللهم إني أعوذ بك من كل قاطع يقطعني عنك » .

وظاهر هذا الخطاب ^(٢) عتابٌ على أنه مراعاة لقلب امرأته حرَّم على نفسه ما أحلَّ الله له .

والإشارة فيه : وجوب تقديم حق الله — سبحانه — على كل شيء في كل وقت .

قوله جل ذكره : « قد فرَضَ الله لكم تحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ

والله مولاكم وهو العليم الحكيم » .

أنزل الله ذلك عنايةً بأمره عليه السلام ، وتجاوزاً عنه . وقيل : إنه كَفَّرَ بعقوبة رقية ، وعَاوَدَ مارية .

(١) وفي قراءة « عَرَّفَ » بدون التشديد : أى غضب فيه وجازى عليه ، وهو كقولك لمن أساء إليك : لأعزبن لك ما فعلت أى : لأجازينك عليه ، وجازاها النبي بأن طلقها طلقاً واحدة . وكان أبو عبد الرحمن السلمي يحصب بالحجارة من يقرأها مشددة .

(٢) أى « يأمرها النبي لم تُحرِّم ما أحلَّ الله لك .. »

والله — سبحانه — أجرى سنته بأنه إذا ساكن عبداً بقلبه إلى أحدٍ شوش على خواصه محلّ مساكنته غيرَةً على قلبه إلى أن يُعاوِدَ ربّه ، ثم يكفيه ذلك — ولكن بعد تطويل مدّة ، وأنشدوا في معناه :

إذا علّقت رُوحى حبيباً تعلّقت به غيرُ الأيام كي تسلبنيّه

وقد ألقى الله في قلبِ رسوله صلى الله عليه وسلم تناسياً بينه وبين زوجاته فاعتزلهن (١) ، وما كان من حديث طلاق حفصة ، وما عاد إلى قلب أبيها ، وحديث الكفاية ، وإمساكه عن وطء مارية تسعاً وعشرين ليلة . . . كل ذلك غيرَةً من الحق عليه ، وإرادته — سبحانه — تشويش قلوبهم حتى يكون رجوعهم كلهم إلى الله تعالى بقلوبهم .

قوله جل ذكره : « إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَفَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ » .

عاتبهما على السير من خطرات القلب ، ثم قال : « وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ . . . » .
« صالح المؤمنين » مَنْ لم يكن منهم في قلبه نفاق ، مثل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .
وجاء : أن عمر بن الخطاب لما سمع شيئاً من ذلك قال لرسول الله :
لو أمرتني لأضربن عنقها ! (٢)

(١) دخل عليه عمر في المشربة فإذا هو مضطجع على حصير قد أثر في جنبه ، وبجواره قبضة من شعير وتكاد خزانته تخلو من كل شيء فبكى عمر وقال : يا نبي الله .. أنت رسول الله .. وذاك قيصر وكمرى في النار والينهار ، فقال النبي : يا ابن الخطاب ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولم الدنيا ؟ فقال عمر : إن كان يشق عليك من أمر النساء .. فإن كنت تطلقن فإن الله معك وملائكته ، وأنا وأبو بكر والمؤمنون ! ولم يزل يحدثه حتى تهبهم صلوات الله عليه وخرجوا إلى الناس .

(٢) لما سمع عمر الناس بالمسجد يقولون : لقد طلق الرسول نساءه ! غضب وذهب إلى بيت النبي ليعلم الأمر فذهب أولاً إلى عائشة وقال : يا بنة أبي بكر أفد بلغ من شأنك أن تؤذى رسول الله ؟ فقالت : يا ابن الخطاب عليك بعيتك ، فأتجه إلى حفصة وقال : والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك ولولا أنا لطلقك .. فبكيت بكاءً شديداً . وذهب إلى رسول الله قائلاً : والله لئن أمرني رسول الله بضرب عنق ابنتي لفعلت .

والعتاب في الآية مع عائشة وحفصة رضى الله عنهما إذ تكلمتا في أمر مارية .
ثم قال تعالى زيادة في العتاب وبيان القصة :

« عسى رَبُّهُ أَنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ
مِمَّا تِلْكَ مُؤْمِنَاتٍ قَاتِلَاتٍ تَأْتِيْنَ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ
ثِيَابًا وَابْكَارًا » .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ
وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ
وَالْحِجَارَةُ » .

أى : فقهوهم ، وأدبوهم ، وادعوهم إلى طاعة الله ، وامنعوهم عن استحقاق العقوبة بإرشادهم
وتعليمهم .

ودلت الآية : على وجوب الأمر بالمعروف في الدين للأقرب فالأقرب .
وقيل : أظهروا من أنفسكم العبادات ليتعلموا منكم ، ويعتادوا كماداتكم .
ويقال : دلُّوهم على السنَّة والجماعة .
ويقال : علِّموهم الأخلاق الحسان .
ويقال : مرُّوهم بقبول النصيحة .

« وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ » : الوقود : الخطب .

ويقال : أمر الناس يصلح بحجرة أو مدرة ، فإن أصل الإنسان مدرة ، ولو أنه أقام حَجَرَةً
مقامَ مدرة فلا غرو من فضل الله .
اللهم فآلتي فيها بدَّلنا حَجَرًا وَخَلَّصْنَا مِنْهَا .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا
الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »

إذا فات الوقت استفحل الأمر ، وانلق الباب ، وسقطت الحيل . . فالواجب البدار
والفرار لتصل إلى رَوْحِ التَّوَّابِ .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً
نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ
عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ
تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ »

التوبة النصوح : هي التي لا يعقبها نقص .

ويقال : هي التي لا تراها من نفسك ، ولا ترى نجاتك بها ، وإنما تراها بربك .

ويقال : هي أن تجد المرارة في قلبك عند ذكر الزلّة كما كنت تجد الراحة لنفسك عند فعلها .

قوله جل ذكره : « يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا
مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ
يَقُولُونَ : رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ
لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

لا يخزي الله النبي بترك شفاعته ، والذين آمنوا معه بافتضاحهم بعد ما قبل فيهم شفاعته .

« نورهم يسعي بين أيديهم وبأيمنهم » عبر بذلك عن أن الإيمان من جميع جهاتهم .

ويقال : بأيمنهم كتاب نجاتهم : أراد نور توحيدهم ونور معرفتهم ونور إيمانهم ،
وما يخصهم الله به من الأنوار في ذلك اليوم .

« يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا » : يستديمون التضرع والابتهال في السؤال (١) .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ
عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبئس المصير » .

أمره بالملاينة في وقت الدعوة ، وقال : « وجادلهم بالتي هي أحسن » (٢) ثم لما أصرّوا —

بعد بيان الحجة — قال : « وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ » : لأن هذا في حال إصرارهم ، وزوال أعذارهم .

(١) هذه الإشارة موجهة إلى الصوفية من بعيد كي لا يكفوا عن التضرع والابتهال قط فإن خير العمل أدومه ؛
فلاستدامة شرط أساسي لأن الطريق الصوفي طويل وشاق .

(٢) آية ١٢٥ سورة النحل

قوله جل ذكره : « ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةً

نُوحٍ وامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ
مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَغَوَّاهُمَا فَلَمْ يَغْنِيَا
عَنَّهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، وَقِيلَ ادْخُلَا
النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ » .

لَمَّا سَبَقَتْ لهما الفُرْقَةُ يَوْمَ الْقِسْمَةِ لَمْ تنفعهما القربةُ يَوْمَ الْعُقُوبَةِ .

قوله جل ذكره : « وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا
امْرَأَةً فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي
عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ
وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » .

قالوا : صغرت هِمَّتُهَا حيث طلبت بيتًا في الجنة ، وكان من حقها أن تطلب الكثير .. ولا كما
توهموا : فإنها قالت : ربِّ ابن لي عندك ، فطلبت جوار القربة ، وليت في الجوار أفضل
من ألف قصر في غير الجوار . ومن المعلوم أن العندية هنا عندية القربة والكرامة .. ولكنه
على كل حال بيت له مزية على غيره ، وله خصوصية . وفي معناه أنشدوا :

إني لأحسد جاركم لجواركم طوبى لمن أضحي لدارك جاراً
يا ليت جارك باعني من داره شبراً لأعطيه بشبر داراً

قوله جل ذكره : « وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَخْصَلَتْ
فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ
بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِتْقَانُ الْإِسْلَامِ وَهُدًى وَرَحْمَةً مِنَّا وَلَمَّا كَثُرَ فِي هَذِهِ
السُّورَةِ ذِكْرُ النِّسَاءِ أَرَادَ اللهُ سُبْحَانَهُ أَنْ لَا يُخْلَى السُّورَةُ مِنْ ذِكْرِهَا تَخْصِيصًا لِقَدْرِهَا (١) » .

ختم السورة بذكرها بعد ما ذكر امرأة فرعون ، وهما من جملة النساء ، ولما كثر في هذه
السورة ذكر النساء أراد الله سبحانه ألا يخلو السورة من ذكرها تخصيصاً لقدرها (١)

(١) هكذا في ص وهي في م (لذكرها) والصواب ما أتينا . وجميل من القشيري أن يلفت نظرنا إلى هذا
الملحظ - الذي نظن - والله أعلم - أ : فيه تنبيهاً لنساء النبي بمرض نموذجين لامرأتين صالحين عزفتا عن الدنيا .

(١)

سُورَةُ الْمُلْكِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ مَنْ لَمْ تَتَعَطَّرْ الْقُلُوبُ إِلَّا بِنَسِيمِ إِقْبَالِهِ ، وَلَمْ تَنْقَطِرْ الدَّمُوعُ إِلَّا لِلْوَعْدِ
فِرَاقِهِ أَوْ رُوحِ وَصَالِهِ ؛ فَدَمَوْعُهُمْ فِي كُلِّهَا الْحَالَتَيْنِ مُنْسَكِبَةٌ ، وَقُلُوبُهُمْ فِي عُمُومِ أَحْوَالِهِمْ مُنْتَهَبَةٌ
وَعَقُولُهُمْ فِي غَالِبِ أَوْقَاتِهِمْ مُنْتَهَبَةٌ .

قوله جل ذكره : « تبارك الذي بيده الملك وهو على
كل شيء قدير » .

تَقَدَّسَ وَنَعَالَى ، مَنْ إِحْسَانُهُ تَوَاتَرَ وَتَوَالَى ، فَهُوَ الْمُتَكَبِّرُ فِي جَلَالِ كِبَرِيَّاتِهِ ، الْمُتَجَرِّدُ
فِي عِلَاءِ بَهَائِهِ وَدَوَامِ سَنَائِهِ .

« بيده الملك » : بقدرة إظهار ما يريد ، وهو على كل شيء قدير .

« الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم
أيكم أحسنُ عملًا وهو العزيز
الغفور » .

خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ، ابْتِلَاءً لِلخَلْقِ ، يَخْتَبِرُهُمْ لِيُظْهِرَ لَهُ شُكْرَانَهُمْ وَكُفْرَانَهُمْ ، كَيْفَ
يَكُونَانِ عِنْدَ الْحَنَةِ فِي الصَّبْرِ وَعِنْدَ النِّعَةِ فِي الشُّكْرِ — وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ .

« الذي خلق سبع سموات طباقًا
ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت
فارجع البصر هل ترى من فطور؟ »

(١) قال صلى الله عليه وسلم بشأن هذه السورة : « هي المانة هي المنجية تنجيكم من عذاب القبر » .

عرّفهم كمال قدرته بدلالات خلقه ، فسمك السماء وأمسكها بلا عمد ، وركب أجزاءها
غير مُستعين بأحدٍ في خلقها ، وبالنجوم زيّتها ، ومن استراق سمع الشياطين حصنها ،
وبغير تعليم مُعلم أحكمها وأتقنها .

« ما ترى في خلق الرحمن من تفاوتٍ ، فارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ؟ » : لا ترى
فيما خلق تفاوتًا ينافي آثار الحكمة ولا يدل على كمال القدرة .

ويقال : ما ترى فيها تفاوتًا ، في استغناؤه عن الجميع . . ما ترى فيها تفاوتًا في الخلق ؛ تخلق
الكثير واليسير عنده سيان ، فلا يسهُلُ عنده القليل ولا يشقُّ عليه الكثير ؛ لأنه مُتَنَزَّهٌ
عن السهولة عليه ولحوق المشقة به .

فأنعم النظر ، وكرّر السّبر والفكر . . فلن تجد فيها عيباً^(١) ولا في عزّه قصوراً .

قوله جل ذكره : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح
وجعلناها رُجوماً للشياطين وأعتدنا
لهم عذاب السعير » .

زَيْنَ السماء بالكواكب والنجوم ، وزَيْنَ قلوب أوليائه بأنواع من الأنوار والنجوم ؛
فالْمُؤْمِنُونَ قلوبهم مُزَيَّنَةٌ بالتصديق والإيمان ثم بالتحقيق بتأمّل البرهان ، ثم بالتوفيق لطلب
البيان . والعارفون قلوبهم مُزَيَّنَةٌ بشمس التوحيد ، وأرواحهم مُزَيَّنَةٌ بأنوار التفريد ، وأسرارهم
مُزَيَّنَةٌ بآثار التجريد^(٢) . . . وعلى القياس : لكل طائفة أنوار .

« وجعلناها رُجوماً للشياطين » : فمن النجوم ما هو للشياطين رجوم ، ومنها ما هو للاهتداء به
معلوم . . فأخبر أن هذا القدر من العقوبة بواسطة الرجوم لا يكفي ، وإنما يُعَذِّبُهُمْ مُؤَبَّدِينَ فِي السَّعِيرِ .

(١) هكذا في م وهي في ص (عيباً) .

(٢) يميز الكلاباذي بين التفريد والتجريد فيقول (ملخصاً) :

التجريد : أن يتجرد بظاهرة عن الأعراض وبباطنه عن الأعراض ، يفعل ذلك لوجوب حق الله تعالى لا لعله غيره
ولا لسبب سواه ، ويتجرد بمره عن المقامات والأحوال التي ينافرها .

والتفريد : أن ينفرد عن الأشكال ، وينفرد في الأحوال ، ويتوحد في الأفعال ويغيب عن رؤية أحواله برؤية محوّلها
ولا بأنس بأتكاله ولا يستوحش (التعرف ص ١٣٣) .

قوله جل ذكره : « وللذين كفروا بربهم عذابُ جهنم
وَبئسَ المصيرُ • إذا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا
لَهَا شَهيقًا وهي تَفُورُ • نَكَادُ نَمِيزُ من
الغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ
خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟ » .

أخبر : أنهم محتج عليهم بإرسال الرسل ، فتقول لهم الملائكة : ألم يأتكم نذير ؟
« قالوا : بلى قد جاءنا نذيرٌ فكذبنا
وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم
إلا في ضلالٍ كبير • وقالوا لو كنا
نسمعُ أو نعقلُ ما كنا في أصحاب
السَّعيرِ » .

« وقالوا لو كنا نسمعُ أو نعقلُ .. » فأخبر أنهم لم يكن لهم سمع قبول ، فاستوجبوا
العقوبة لأجله^(١) ، لم يسمعوا نصيحة الناصحين ولا وعظ الواعظين ، ولا ما فيه قلوبهم حياة .
وفي الآية للمؤمنين بشارة ؛ لأنهم يسمعون ويعقلون ما يسمعون ؛ فإنَّ مَنْ سَمِعَ بالحق
سمع كل ما يقال عن الحق مِنْ كُلِّ مَنْ يقول عن الحق ، فيحصل له الفهم لما يسمع ، لأنه إذا
كان من أهل الحقائق يكون سَمْعُهُ من الله وبالله وفي الله .

قوله جل ذكره : « فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب
السَّعيرِ » .

اعترفوا بذنبهم ولكن في غير وقت الاعتراف .. فلا جرَمَ يقال لهم : « فسحقا
لأصحاب السَّعيرِ » .

(١) من الآية ومن إشارتها يتضح : أن العقوبة لا تكون إلا بعد إرسال الرسل الذين يَهْطُلُونَ الحجة
ويسقطون العذر .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ
لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ » .

الخشية توجب عدم القرار^(١) فيكون العبدُ أبداً — لانزعاجه — كالحبِّ على القلبي ؛
لا يقرُّ إليه أو ينهاره ، يتوقع العقوبات مع مجارى الأفاضل ، وكلما ازداد في الله طاعة
ازداد لله خشية .

قوله جل ذكره : « وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ
إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » .

خوفهم بعلمه ، وتدبهم إلى مراقبته ؛ لأنه يعلم السرَّ وأخفى ، ويسمع الجهر والنجوى . .
ثم قال مبيناً :

« أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ
الْخَبِيرُ » .

وفي كل جزءٍ من خلقه — من الأعيان والآثار — أدلة على علمه وحكمه .

قوله جل ذكره : « هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا
فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ
وَلِإِلَهِ النَّشُورُ » .

أى إذا أردتم أن تضربوا في الأرض سهلاً عليكم ذلك .

كذلك جعل النفس ذلولاً ؛ فلو طألبتها بالوفاق وجَدَّتْهَا مُسَاعِدَةً مُّوَافِقَةً ، مُتَابِعَةً
مُسَابِقَةً . . وقد قيل في صفتها :

هِيَ النَّفْسُ مَاعَوَدَتْهَا تَعْمُودٌ وَلِلدَّهْرِ أَيَّامٌ تُنَدِّمُ وَمُحَمَّدٌ

قوله جل ذكره : « أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ
الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ

(١) هكذا في م وهي في م (الفراق) والصواب ما أثبتنا — بدليل ما بعدها .

في السماء أن يُرْسِلَ عليكم حاصباً
فستعلمون كيف نذير .

« من في السماء » أراد بهم الملائكة الذين يسكنون السماء ، فهم موكِّلون بالعذاب .

وخرّفهم بالملائكة أن يُنْزِلُوا عليهم العقوبة من السماء ، أو يَخْسِفُوا بهم الأرض ،
وكذلك خوّفهم أن يُرْسِلُوا عليهم حجارةً كما أرسلوا على قوم لوط . ويتنَّ أنَّ مَنْ كَذَّبَ
قَبْلَ هَؤُلَاءِ رُسُلَهُمْ كيف كانت عقوبتهم ، ثم زاد في البيان وقال :

« أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ
وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ
إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ » .

أولم يروا كيف خَلَقَ الطيور على اختلاف أجناسها ، واختصاصها بالطيران لأن لها أجنحة —
بمخلاف الأجسام^(١) الآخر . . . مَنْ الذي يمسكهن ويحفظهن وهن يقبضن ويبسطن أجنحتهن
في الفضاء ؟ وما الذي يوجه العقل حفظ هذه الطيور أم بقية الأجسام الآخر ؟ .

« أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ
يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ » .

إِنْ أَرَادَ الرَّحْمَنُ بِكَ سُوْءًا . فَمَنْ الذي يُوسِّعُ عليكم ما قَبَضَهُ ، أو يَحْجُو ما أَيْبَنَهُ ،
أو يَقْدِمُ ما أَخَّرَهُ ، أو يُؤَخِّرُ ما قَدَّمَ ؟ .

قوله جل ذكره : « أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ
أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ * قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ » .

(١) هكذا في م وهي في ص (الأصنام) والصواب ما أثبتناه ، لأن المقصود المقارنة بين الطيور وغيرها من
(الأجسام) بصفة عامة .

وخصَّكم بالسمع والبصر والأفئدة ، وأنتم لا تشكرون عظيمَ نعمة .
« ويقولون متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين ؟ » .
وأجاب عنه حيث قال : لا تستعجلوا العذاب ، ويئنُّ أنهم إذا رأوه كيف يخافون وكيف يندمون .

قوله جل ذكره : « قل أرأيتم إن أهلكني الله ومَن معي أو رحمتنا فمن يُجِيرُ الكافرين من عذابِ أليم * قل هو الرحمنُ آمناً به وعليه توكلنا »

وإليه أمورنا — جملةً — فوَضُّنا .

« قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماءٍ مَّعِين » .

مَن الذي يأتيكم بالماء إذا صار غائراً في الأرض لا تناله الأيدي .

وهذه الآيات جميعها على وجه الاحتجاج عليهم . . ولم يكن لواحدٍ عن ذلك جواب .

سُورَةُ الْقَلَمِ^(١)

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ كريمٌ مَنْ شهد لُطْفَه لم يتذللْ بعده لمخلوق ، ولم يستعن فيما نابَه مِنْ ضُرٍّ أصابه أو خيرٍ أرادَه بمُحَدَّثٍ مرزوق .

إن أعطاه قابله بالشُّكْرِ ، وإن منعه استجابَه بِجَمِيلِ الحمد^(٢) .

قوله جل ذكره : « ن والقلم وما يسطرون » .

« ن » قيل : الحوت الذى على ظهره الكون ، ويقال : هى الدواة .

ويقال : مفتاح اسمه ناصر واسمه نور .

ويقال : إنه أقسم بنُصْرَةِ الله تعالى لعباده المؤمنين .

وأقسم بالقلم — وجوابُ القسم قوله :

« ما أنت بنعمة ربك بمجنون • وإنَّ

لك لأجرًا غير ممنون » .

ما أوجب لصدرة من الوحشة من قول الأعداء عنه :

إنه مجنون ، أزاله عنه بنفيه ، ومحققًا ذلك بالقسم عليه .. وهذه سُنَّةُ الله تعالى مع رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ فما يقوله الأعداءُ فيه يردُّه — سبحانه — عليهم بخطابه وعنه ينفيه .

(١) هكذا فى ص ، وفى م سورة ن والقلم .

(٢) يمكن أن يفيد ذلك فى التمييز بين الشكر والحمد — كما يرى التشيرى .

« وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ » : أى غير منقوص .. لَمَّا سَمِعَتْ هَمَّتْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
عن طلبِ الأعواض أثبت الله له الأجر ، فقال له : إِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ — وَإِنْ
كُنْتَ لَا تَرِيدُهُ .

ومن ذلك الأجر العظيم هذا الخلق ، فأنت لست تريد الأجر — وَبِنَا لَسْتَ تَرِيدُ ؛
فلولا أَنْ خَصَصْنَاكَ بهذا التحرُّر لكنتَ كأمثالِكَ فِي أَنَّهُمْ فِي أَسْرِ الْأَعْوَاضِ .

قوله جل ذكره : « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » .

كما عرفه الله سبحانه أخبار مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَرَفَهُ أَنَّهُ اجْتَمَعَتْ فِيهِ مَتَفَرِّقَاتُ أَخْلَاقِهِمْ
فقال له : إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ .

ويقال : إِنَّهُ عَرَضَ عَلَيْهِ مِفْتَاحَ الْأَرْضِ فَلَمْ يَقْبَلْهَا ، وَرَقَاهُ لَيْلَةَ الْمَعْرَاجِ ، وَأَرَاهُ جَمِيعَ
الْمَمْلُوكَةِ وَالْجَنَّةِ فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا ، قَالَ تَعَالَى : « مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى » فَمَا التَفَتَ يَمِينًا
وَلَا شِمَالًا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » .. وَيَقَالُ : « عَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » :
لَا بِالْبَلَاءِ تَتَعَرَّفُ ، وَلَا بِالْعَطَاءِ تَنْصَرِفُ ؛ احْتَمَلَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي الْأَذَى شَجَّ رَأْسِهِ وَتَفَرَّه ،
وَكَانَ يَقُولُ :

« اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » . وَغَدَاً كُلُّهُ يَقُولُ : نَفْسِي نَفْسِي وَهُوَ صَلَوَاتُ اللَّهِ
عَلَيْهِ يَقُولُ : أُمَّتِي أُمَّتِي .

ويقال : عَلَّمَهُ مُحَاسِنَ الْأَخْلَاقِ بِقَوْلِهِ : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ
الْجَاهِلِينَ » (١) .

سَأَلَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ جَبْرِيلُ : بِمَاذَا يَأْمُرُنِي رَبِّي ؟ قَالَ : يَأْمُرُكَ بِمُحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ ؛ يَقُولُ
لَكَ : صَلِّ مَنْ قَطَعَكَ وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ وَاعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ ، فَتَادَّبَ بِهَذَا ؛ فَأَتَى عَلَيْهِ
وَقَالَ : « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » .

قوله جل ذكره : « فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّكُمْ
الْمُفْتُونُ * »

(١) آية ١٩٩ سورة الأعراف .

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ
سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .

المفترون : الجنون لأنه فِتْنٌ أَى مُحِنٌ بالجنون .

« فَلَا تُطِيعُ الْكَاذِبِينَ » .

معبودك واحدٌ فليكن مقصودك واحداً . . وإذا شهدت مقصودك واحداً فليكن
مشهودك واحداً .

« وَدُّوا لَوْ تَذَنُّهُنْ فَيُذْهِنُون » .

مَنْ أَصْبَحَ عَلِيلاً تَمَى أَنْ يَكُونَ النَّاسُ كُلُّهُمْ مَرْضَى . . وَكُنَّا مَنْ وَسَمَ بَكَى الْمَجْرَانِ
وَدَّ أَنْ يُشَارِكَ فِيهِ مَنْ عَادَاهُ .

« وَلَا تُطِيعُ كُلَّ خَلَافٍ مُهِين »

وهو الذى سقط من عيننا ، وأقْبِنَاهُ بِالْبَعْدِ عَنَا .

« هَمَّازٍ مَشَاءَ بَنِيمٍ »

محجوب عنا مُعَذِّبٌ بِخُذْلَانِ الْوَقِيعَةِ فِي أَوْلِيَانَا .

« مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ ^(١) »

مُهَانٍ بِالشُّحِّ ، مَسْلُوبِ التَّوْفِيقِ .

« مُعْتَدٍ أَثِيمٍ »

ممنوع الحياء ، مُسْتَقْتٍ فِي أَوْدِيَةِ الْحَرَمَانِ .

« عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ »

لثيم الأصل ، عديم الفضل ، شديد الخصومة يباطله ، غير راجع في شيء من الخير
إلى حاصله .

« أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ • إِذَا تُتْلَىٰ

عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالِ أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ »

(١) عند الجمهور - هو الوليد بن المغيرة ، وكان يقول لبنيه العشرة : من أسلم منكم منعتهم رفقى .

(أى : لا تطعه لأن كان ذا مالٍ وبنين.. ثم استأنف الكلام فقال) ^(١) : إذا تلى .. قابَلها بالكذيب ، وحَكَمَ أَنَّ القرآنَ مِنَ الأساطير .

« سَتَسِمْهُ عَلَى الْخُرطومِ »

أى سنجعل له فى القيامة على أنفه تشويهاً لصورته كى يُعَرَّفَ بها .

قوله جل ذكره : « إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ » .

أى امتحنناهم ^(٢) . . حين دعا عليهم النبی صلی الله علیه وسلم ، فابتلاهم الله بالجوع ، حتى أكلوا الجِيفَ — كما بلونا أصحاب الجنة ، قيل : إن رجلاً من أهل اليمين كانت له جنة مشمرة وكان له ثلاثة بنين ، وكان للمساكين كل ما تَعَدَّاهُ المِنْجَل فلم يجده من الكَرَم ، فإذا طُرِحَ على البساط فكل شئ سقط عن البساط فهو أيضاً للمساكين ، فما أخطأه القَطَافُ من نخله وكرمه يَدَّعه للمساكين . وكان يجتمع منه مال ، فلما مات هو قال وَرَثَتُهُ : إِنَّ هَذَا الْمَالَ تَفَرَّقَ فِينَا ، وليس يمكننا أن نفعل ما كان يفعله أبونا ، وأقسموا ألا يعطوا للفقراء شيئاً ، فأهلك الله جَنَّتَهُمْ ؛ فندمو وتابوا .

وقيل : أبدلهم الله جنةً حسنة ، فأقسموا ليصرمنَّ جَنَّتَهُمْ وقت الصبح قبل أن تفتنَّ المساكين ، ولم يقولوا : إن شاء الله :

« فطاف عليها طائفٌ من ربك وهم

نائمون * فأصبحت كالصريم » .

أرسل عليها من السماء آفةً فأحرقت ثمارهم . وأصبحت « كالصريم » أى كالليل المسود ، فنادى بعضهم بعضاً وقت الصبح : أن اغدوا على حرثكم إن أردتم الصرام ، فانطلقوا

(١) ما بين القوسين موجود فى ص وغير موجود فى م .. والمعنى : لا تطعه — مع هذه الصفات والمثالب — ليعاره وحظه من الدنيا وكثرة أولاده .

(٢) يقصد أهل مكة حين دعا عليهم الرسول : اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف .

لا يرفضون أصواتهم فيما بينهم لئلا يسمعهم أحدٌ . وقصدوا إلى الصرام « على حرِّدٍ » أى :
قادرين عند أنفسهم ، ويقال : على غضبٍ منهم على الساكنين .

فلما رأوا الجنة وقد استوصِيتُ قالوا : ليست هذه جنتنا ! !

ثم قالوا : بل هذه جنتنا . . . ولكننا حرِّمنا خيرها .

قال أوسطهم : أى أعدلهم طريقةً وأحسنهم قولاً :

« أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ؟ »

أى : تستنثون وتقولون : إن شاء الله^(١) .

« قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين »

ثم أقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، ويقولون :

« عسى ربنا أن يبدِّلنا خيراً منها »

« إنا إلى ربنا راغبون » .

قال تعالى : « كذلك العذاب » لأهل مكة « ولعذابُ الآخرة أكبر » :

وهكذا^(٢) تكون حالُ مَنْ له بدايةٌ حسنةٌ ويجدُ التوفيقَ على التوالى ، ويحْتَنِبُ المعاصى ،
فيعُوْضُهُ اللهُ فى الوقتِ نشاطاً ، وتلوحُ فى باطنه الأحوالُ . فإذا بدَّرَ منه سوءٌ دعوى أو تركَ
أدبٍ من آداب الخدمة تنسَّدُ عليه تلك الأحوالُ ويقع فى قرْهِهِ^(٣) من الأعمال . فإذا حصَلَ منه
بالعبادات إخلالٌ ، ولبعض الفرائض إهمالٌ — انقلب حاله ، وردَّ من الوصال إلى البعاد ،
ومن الإقتراب إلى الاغتراب عن الباب ، فصارت صفوته قسوةً . وإن كان له بعد ذلك
توبة ، وعلى ما سَلَفَ منه ندامة — فقد فات الأمرُ من يده ، وقلماً يصل إلى حاله .

(١) هذا أيضاً رأى مجاهد ، فجعل قول : إن شاء الله من التسبيح ، وهذه هى حقيقة تقديم المشيئة ، فهى
تنزيه لله بأن لا شيء إلا بمشيئته .

(٢) هذه الإشارة موجهة إلى أرباب السلوك يقصد بها إلى التوضيح أن العبرة بالخواتيم ، وينبغى الاهتمام بهذه
الفقرة كلها عند بحثنا عن « وصايا القشيري للمريدين » .

(٣) جمع أفره وهو ما اسودَّ من الجلد وتقرَّش .

ولا يبعد أن ينظر إليه الحق بأفضاله ، فيقبله بعد ذلك رعاية لما سلف في بدايته من أحواله . . . فإن الله تعالى رءوفٌ بعباده .

قوله جل ذكره : « إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ » .

الذين يتقون الشرك والكفر ، ثم المعاصي والفسق ، لهم عند الله الثواب والأجر .

قوله جل ذكره : « أَفَجَعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْجَاهِلِينَ ؟ »

ما لكم كيف تحكمون ؟ ١٩ • أم
لكم كتاب فيه تدرسون ؟

كيف تحكمون ؟ هل لديكم حجة ؟ أم لكم كتاب فيه تدرسون ؟ أم لكم مناهج
فيها تحكمون ؟ والمقصود من هذه الأسئلة نفى ذلك .

قوله جل ذكره : « يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ
إِلَى السَّجْدِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ »

« عن ساقٍ » : أى عن شِدَّةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

ويقال في التفسير : عن ساقِ العرش .

يُؤْمَرُونَ بِالسَّجْدِ ؛ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَيَسْجُدُونَ ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُشَدُّ أُصْلَابُهُمْ فَلَا تَنْحَنِي .

وقيل : يكشف المريض عن ساقه — وقت التوفى — لِيُبْصَرَ ضَعْفُهُ ، ويقول المؤذِّنُ :
حَيٌّ عَلَى الصَّلَاةِ — فلا يستطيع .

وعلى الجملة فقد خوفهم بهذه القالة : إمَّا عند انتهاءهم في الدنيا أو ابتلائهم في الآخرة .

« » وقد كانوا يُدْعَوْنَ إِلَى

السَّجْدِ وَهُمْ سَالُونَ .

يُذَكَّرُ بِهِمْ بِذَلِكَ لِيَزِدَادُوا حَسْرَةً ، وَلِتَكُونَ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ أَبْلَغَ .

قوله جل ذكره : « فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ

سَلَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ » .

سَلَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ الْقُوَّةِ بِحَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ .

والاستدراجُ : أَنْ يَرِيدَ الشَّيْءَ وَيَطْوَى عَنْ صَاحِبِهِ وَجْهَ الْقَصْدِ فِيهِ ، وَيُدْرِجُهُ إِلَيْهِ شَيْئاً
بَعْدَ شَيْءٍ ، حَتَّى يَأْخُذَهُ بَغْتَةً .

ويقال : الاستدراج : التمكن من النعم مقروناً بنسيان الشكر^(١) .

ويقال : الاستدراجُ : أنهم كلما ازدادوا محبة زادهم نعمة .

ويقال : أَلَّا يُعَاقِبَهُ فِي حَالِ الزَّلَّةِ ، وَإِنَّمَا يُؤَخِّرُ الْعُقُوبَةَ إِلَى مَا بَعْدَهَا .

ويقال : هو الاشتغال بالنعمة مع نسيان المنعم .

ويقال : الاغترارُ بطول الإسهال .

ويقال : ظاهرٌ مغبوط وباطنٌ مُشَوَّش .

قوله جل ذكره : « وَأَمْلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ »

أَمْلَيْتُهُمْ .. ثُمَّ إِذَا أَخَذْتُهُمْ فَأَخَذِي أَلِيمٌ شَدِيدٌ .

قوله جل ذكره : « أَمْ نَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ

مُسْتَقْلُونَ » .

أى : ليس عليهم كلفة مقابل ما تدعوهم إليه ، وليست عليهم غرامة إن هم اتبعوك .. فأنتم
لا تسأل أجراً .. فما موجبات التأخير وترك الاستجابة ؟

« أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ؟ » .

أَمْ عِنْدَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الْغَيْبِ أَنْفَرَدُوا بِهِ وَأَوْجِبَ لَهُمْ أَلَّا يَسْتَجِيبُوا ؟ » .

(١) في النسختين (بلسان) وهي خطأ قطعاً ، فقد انتهت على كلا النسخين . ولإيراد رأينا قول سفيان الثوري
في « استدراجهم » نسيخ عليهم النعم وننسيهم الشكر (الفرطبي ١٨٠ ص ٢٥١) .

قوله جل ذكره : « فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا نَسْكُنْ

كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم » .

صاحب الحوت : هو يونس عليه السلام ، نادى وهو مكظوم : ملوء بالقيظ على قومه .
فلا تستعجل — يا محمد — بمقربة قومك كما استعجل يونس فلقى مالم يلقى ، وتثبت عند جريان
حكمتنا ، ولا تعارض تقديرنا .

« لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ

بالمرء وهو مذموم » .

أى : لولا أن الله رحمه بفضل له لطرح بالفناء وهو مذموم ولكن :

« فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ » .

فاستغفاه واختاره ، وجعله من الصالحين بأن أرسله إلى مائة ألف أو يزيدون .

قوله جل ذكره : « وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ

بأبصارهم » .

كانوا إذا أرادوا أن يصيبوا شيئاً بأعينهم جاعوا ثلاثة أيام ، ثم جاموا ونظروا إلى ذلك
الشيء قائلين : ما أحسنه من شيء ! فكان يسقط المنظور في الوقت . وقد فعلوا ذلك بالنبي
صلوات الله عليه ، فقالوا : ما أفصحه من رجل ! ولكن الله سبحانه حفظه ، وحرر
بذكره عليه ^(١) .

(١) قلبه إلى نقطة هامة .. ورد اسم القشيري عند القرطبي لا يعنى أنه إمامنا عبد الكريم القشيري صاحب هذا
الكتاب ، بل ربما كان أحد أبنائه الستة .. فيكملهم أئمة . وربما كان ابنه أبا نصر عبد الرحمن (انظر القرطبي
الجزء العشرين ص ٥٤) وليس أدل على ذلك من المقارنة بين قول القشيري هنا وما جاء عند القرطبي في ص ١٨
ص ٢٥٥ (قال القشيري : وفي هذا نظر لأن الإصابة بالعين إنما تكون مع الاستحسان والإعجاب لا مع الكراهية
والبغض ، ولهذا قال : ويقولون إنه مجنون) أى ينسبونك إلى المجنون إذا رأوك تقرأ القرآن .

سُورَةُ الْحَاقَّةِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمة عزيزة تحتاج في سماعها إلى سميع عزيز لم يستعمل في سماع الغيبة ، وتحتاج في معرفتها إلى قلب عزيز لم يتبدل في الغفلة والغبية ، لم ينظر صاحبه بعينه إلى ما فيه رتبة ، ولم تتبع نفسه اللبس ^(١) والطبّة ^(٢) .

قوله جل ذكره : « الحاقة * ما الحاقة * وما أدراك ما الحاقة » .

« الحاقة » : اسم للقيامة لأنها تحقق ^(٣) كل إنسان بعمله خيره وشره .

« وما أدراك ما الحاقة ؟ » : استفهام يفيد التعظيم لأمرها ، والتفخيم لشأنها .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ » .

ذَكَرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ : الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ ، وَأَصْرُوا عَلَى كُفْرِهِمْ ، وَلَمْ يَقْبَلُوا النَّصِيحَةَ مِنْ أَنْبِيَائِهِمْ ، فَأَهْلَكَهُمْ ، وَاتَّقِمْ لِأَنْبِيَائِهِ مِنْهُمْ .

وَالْفَائِدَةُ فِي ذِكْرِهِمْ : الْإِعْتِبَارُ بِهِمْ ، وَالتَّحَرُّرُ عَنْمَا فَعَلُوا لِئَلَّا يُصِيبَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ .

وَعُقُوبَةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مُؤَجَّلَةٌ مُؤَخَّرَةٌ إِلَى الْقِيَامَةِ ، وَلَكِنْ خَوَّصَهُمْ عِقُوبَتُهُمْ مُعَجَّلَةً ؛ فَقَوْمٌ

(١) هكذا في ص أما في م فهي (اللهم) .

(٢) هكذا في ص وهي في م (الطبية) وقد رجحنا - وهو ترجيح بعيد - أنها قد تكون (الطببة) بمعنى الخاف والمهارة الناجمين عن الحيلة والتدبير ، وربما كانت (ولم يتبع مع نفسه المين والطبية فالنفس أعدى الأعداء) .

(٣) لأنها تحقق كل محقق في دين الله أي كل مخاصم (وهو قول الأزهري) . وساقته أي خاصمه وادعى كل واحد منهما الحق (الصحيح) .

من هذه الطائفة إذا أشاعوا سراً ، أو أضعوا أدباً يعاقبهم برياح الحجة^(١) ، فلا يبقى في قلوبهم أثرٌ من الاحتشام للدين ، ولا يَمَّا كان لهم من الأوقات ، ويصيرون على خطرٍ في أحوالهم بأن يُمتحنوا (بالاعتراض على التقدير)^(٢) والقسمة .

وأما فرعون وقومه فكان عذابهم بالفرق . . . كذلك مَنْ كان له وقتٌ فارغٌ وهو بطاعة ربه مشغولٌ ، والحق عليه مُقبِلٌ — فإذا لم يشكر النعمة ، وأساء أدبه ، ولم يعرف قدرَ ما أنعم الله به عليه رَدَّه الحقُّ إلى أسباب التفرقة ، ثم أغرقه في بحار الاشتغال فيتكدر مشربُه ، ويصير على خطرٍ بأن يذركه سُخطُ الحقِّ وغضبه .

قوله جل ذكره : « إِنَّا لَنَاطِقِي الْمَاءِ حَمُلًا كُفً فِي الْجَارِيَةِ » .

وكذلك تكون منته على خواص أوليائه حين يسلمهم في سفينة العافية ، والكون يتلاطم في أمواج بحار الاشتغال على اختلاف أوصافها ، فيكونون بوصف السلامة ، لا مُتَازَعَةً ولا محاسبة لهم مع أحد ، ولا تَوَقُّعَ شيء من أحد ؛ سالمون من الناس ، والناس منهم سالمون .

قوله جل ذكره : « فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ » .

بدأ في وصف القيامة والحساب . .

« يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ » .

وفي كلِّ نفسٍ مع هؤلاء القوم^(٣) محاسبة ومطالبة ، منهم مَنْ يستحق المعاقبة ، ومنهم من يستحق المعاقبة .

(١) في الإشارة قياس على الرياح التي أهلكت عاداً .

(٢) موجود في ص أما في م فهي (الإعراض) فقط .

(٣) يقصد أهل المجاهدات والمذاقات .

قوله جل ذكره : « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ يَمِينَهُ فَيَقُولُ
هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَّةً * إِنِّي ظَنَنْتُ
أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةً . »

يسلم له السرورُ بنعمة الله ، يأخذ في الحمد والمدح .

« فهو في عيشة راضية » .

القوم — غداً — في عيشة راضية أى مَرْضِيَّة لهم ، وهؤلاء القوم — اليوم — في عيشة
راضية ، والفرق بينهما أنهم — غداً — في عيشة راضية لأنه قد قُضِيَتْ أوطارُهم ، وارتفعت
مآربُهم ، وحصلت حاجتُهم ، وهم — اليوم — في عيشة راضية إذ كفوا مآربَهم فدفعَ
عن قلوبهم حوائجَهم ؛ فليس لهم إرادةُ شيء ، ولا تمسُّهم حاجة . وإنما هم في رَوْحِ الرضا . .
فَيَشْئُرُ أولئك في العطاء ، وعَيْشُ هؤلاء في الرضاء ؛ لأنه إذا بدا عِلْمٌ من الحقيقة أو معنى
من معانيها فلا يكون ثمة حاجة ولا سؤال . ويقال لأولئك غداً .

« كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَقْتُمْ
فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ » .

ويقال لهؤلاء : اسمعوا واشهدوا . . اسمعوا منا . . وانظروا إلينا ، واستأنسوا بقرْبنا ،
وطالعوا جمالنا وجلالنا . . فأنتم بنا ولنا .

قوله جل ذكره : « وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ شِمَالَهُ
فَيَقُولُ : يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَّةً *
وَلَمْ أُدْرِ مَا حِسَابِيَّةً * يَالَيْتَهَا كَانَتْ
الْقَاضِيَةَ » .

هناك — اليوم — أقوامٌ مهجورون تتصاعد حسراتُهم ، ويتضاعف أُنْيُنُهم — ليَلْتهم
ونهارُهم — فليَلُهم ويليَّ ونهارُهم بُعَادُ ؛ تسكَّدرت مشاربُهم ، وخربت أوطانُ أُنْسِهم ،
ولا بكائهم يُرْحَمُ ، ولا أُنْيُنُهم يُسْمَعُ . . فعندَهم أنهم مُبْعَدُونَ . . وهم في الحقيقة من الله
مرحومون ، أسبلَ عليهم الستَرَ فَصَفَّرَهم في أعينهم — وهم أكرمُ أهلِ القصة كما قالوا :

لا تُنْكِرُنْ جُحْدِي هَوَاكَ فَإِنَّمَا ذَاكَ الْجُحُودُ عَلَيْكَ سَتَرْتُ مُسَبِّلُ
قوله جل ذكره : « فلا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ *
وما لا تبصرون . » .

« لا » : صلة والمعنى : أَقْسِمُ ؛ كأنه قال : أَقْسِمُ بجميع الأشياء ، لأنه لا ثالث لما يبصرون
وما لا يبصرون . وجوابُ القسم :

« إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . »

أى وجهه عند الله . وقول الرسول الكريم هو القرآن أو قراءة القرآن .
وما هو بقول شاعر ولا بقول كاهن أى أن محمداً ليس شاعراً ولا كاهناً بل هو :
« تنزيلٌ من ربِّ العالمين » .

قوله جل ذكره : « وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ *
لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا
منه الـوَتِينَ » .

أى لو كان محمدٌ يكذب علينا لمنعناه منه وعصمناه عنه ، ولو تعمد لعدُّ بناه . والقول بعصمة
الأنبياء واجب . ثم كان لا ناصرَ له منكم ولا من غيركم ، وهذا القرآن :

« وَإِنَّهُ لَتَذَكُّرَةٌ لِلْعَمِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ
أَنَّ مِنْكُمْ مُكْذِبِينَ * وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ
على الكافرين * وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ » .

حقُّ اليقين هو اليقين فالإضافة هكذا إلى نفس الشيء^(١) .

وعلوم الناس تختلف في الطرق إلى اليقين خفاءً وجلالاً ؛ فما يقال عن الفرق بين علم اليقين
وعين اليقين وحقُّ اليقين يرجع إلى كثرة البراهين ، وخفاء الطريق وجلالته ، ثم إلى كون
بعضه ضرورياً وإلى بعضه كسبياً ، ثم ما يكون مع الإدراكات^(٢) .

(١) لو كان اليقين نعمتاً لم يجوز أن يضاف إليه كما لا تقول : هذا ورد الأحمر ، فالإضافة هنا - كما
يرى القشيري - إلى الشيء نفسه . فإن القرآن حق يقينٌ ويقينٌ حق .

(٢) انظر محاولة القشيري التفرقة بين معانيها في رسالته ص ٤٧ .

سُورَةُ الْمَعَارِجِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة من قالها وَجَدَ جمالها ، وَمَنْ شهد بها شهد جلالها .

وليس كلُّ مَنْ قالها نالها ، ولا كلُّ مَنْ احتالها^(١) عَرَفَ جلالها .

كلمة رفيعة عن إدراك الألباب منيعة ، كلمة على الحقيقة الصمدية دالة ، كلمة لا بُدَّ للعبد من ذكرها في كل حالة .

قوله جل ذكره : « سأل سائلٌ بعذابٍ واقع » .

الباء في « بعذاب » بمعنى عن ، أى سأل سائلٌ^(٢) عن هذا العذاب لِمَنْ هو ؟
قال تعالى :

« للكافرين ليس له دافعٌ * من

اللهِ ذى المَعَارِجِ » .

هذا العذاب للكافرين ليس له دافع من الله ذى المَعَارِجِ ؛ فهذا العذاب من الله .

ومعنى « ذى المَعَارِجِ » ذى الفضل ومعالي الدرجات التى يُبْلِغُ إليها أوليائه .

قوله جل ذكره : « تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ

كَانَ مِقدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » .

(١) هكذا في النسختين ، ولو صحَّ أنها هكذا في الأصل فربما كان المعنى : ليس كلُّ مَنْ ادَّعى أنه يحيلته وتدبيره ومهارته وحذقه وصل إليها قد عرف أسرارها .

(٢) هو النضر بن الحارث قال : إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . وربما تكون سأل بمعنى دعا ، ويكون السائل هو النبي (ص) .

« الروح » أى جبريل ، فى يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة من أيام الدنيا
يعنى به يوم القيامة .

ويقال : معناه يحاسبُ الخلق فى يومٍ قصيرٍ ووقتٍ يسيرٍ ما لو كان الناسُ يشتغلون به
لكان ذلك خمسين ألف سنة ، واللهُ يُجْرِى ذلك ويمضيه فى يومٍ واحد .

ويقال : من أسفلِ المخلوقاتِ إلى أعلاها مسيرة خمسين ألف سنة للناس ؛ فالثالثة
تخرج فيه من أسفلهِ إلى أعلاه فى يومٍ واحد .

قوله جل ذكره : « فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا » .

فأصبر — يا محمد ^(١) — على مقاساة أذاهم صبرًا جميلًا . والصبرُ الجميلُ ما لا شكوى فيه .

ويقال : الصبرُ الجميلُ ألا تستثقلَ الصبرَ بل تستعذبه .

ويقال : الصبرُ الجميلُ ما لا ينتظرُ العبدُ الخروجَ منه ، ويكون ساكنًا راضيًا .

ويقال : الصبرُ الجميلُ أن يكون على شهود الميلى .

ويقال : الصبرُ الجميلُ ما تجرد عن الشكوى والدعوى .

قوله جل ذكره : « إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا »

إنَّ ما هو آتٍ قريبٌ ، وما استبعدَ مَنْ يستبعد إلا لأنه مُرتابٌ ؛ فأما الواقعُ
بالشئ فهو غيرُ مُستبعدٍ له .

قوله جل ذكره : « يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ *

وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ » .

الإشارة فيه أنه فى ذلك اليوم مَنْ كان فى سُمْ نُخوته ونُبُوِّ صولته يلين ويستكين
ويضعفُ مَنْ كان يَشْرُفُ ، ويَذَلُّ مَنْ كان يَذَلُّ .

قوله جل ذكره : « وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيًّا » .

لا يتفرَّغُ قريبٌ إلى قريبٍ ؛ فلكلِّ امرئٍ منهم يومئذ شأنٌ يُغْنِيهِ .

(١) هكذا فى ص و هـ فى م (بالحمد) وواضح فيها أنها اشتبهت على الناسخ .

ولا يتعهد المساكين — في ذلك اليوم — إلا الله .

« يبصرونهم يودُّ المجرم لو يفتدى
من عذاب يومئذٍ يئنيه * وصاحبته
وأخيه * وفصيلته التي تؤويه * ومن
في الأرض جميعاً ثم يُنجيه » .

« يبصرونهم » أى يعرفون أثارهم ، ولكن لا ترقى قلوب بعضهم على بعض .
ويعتق المجرم يومئذٍ أن يفتدى من عذاب جهنم بأعز من كان عليه في الدنيا من
قريب ونسب وحميم وولد ، وبكل من في الأرض حتى يخلص من العذاب .
« كلاًّ إنَّها لظى » .

اسم من أسماء جهنم .

« نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى » (١) .

قَلَّاعَةٌ لِلْأَطْرَافِ . تَكْشِطُ الْجِلْدَ عَنِ الْوَجْهِ وَعَنِ الْعَظْمِ .

قوله جل ذكره : « تدعو من أذبر وتولى » .

قول جهنم للكافرين والمنافقين : يا فلان .. إلى .. إلى .

والإشارة فيه : أن جهنم الدنيا تعلق بقلب المرء فتدعوه بكلاب الحرص إلى نفسه وتجره
إلى جمعها حتى يؤثرها على نفسه وكل أحد له ؛ حتى لقد يبخل بذنيه على أولاده وأعزته ...
وقليل من نجا من مكر الدنيا وتسويلاتها .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً » .

(١) والشوى جمع شواة وهي جلدة الرأس ، قال الأعشى :
قالت قُتَيْلَةُ : ماله قد جُلَّتْ شيئاً شواته
وجاء في الصحاح : الشوى جمع شواة وهي جلدة الرأس . وهي اليدان والرجلان والرأس من الادميين ،
وكل ما ليس مقتلاً . يقال : رماء فأشواه أى لم يصب المقتل .
وقال الضحاك : تفرى الجلد واللحم عن العظم حتى لا تترك منه شيئاً . ونرى أن المقصود — والله أعلم .
أن العذاب لا يقضى عليهم ، حتى يستمر واقماً بهم إلى الأبد .

وتفسيره ما يتلوه :

« إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا • وَإِذَا مَسَّهُ
الْخَيْرُ مَنُوعًا » .

والهَلَكُ شِدَّةُ الْحَرِصِ مع الجزع . ويقال هُلِوعًا : متقلبًا في غمرات الشهوات .

ويقال : يُرْضِيهِ الْقَلِيلُ رُيُوسُهُ يَسِيرُ .

ويقال : عند المحنة بدعو ، وعند النعمة ينسى ويسهو .

« إِلَّا الْمُصَلِّينَ • الَّذِينَ هُمْ عَلَى
صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ » .

استثنى منهم المصلين — وهم الذين يلزمون أبدأ مواطن الافتقار ؛ مِنْ صَلَاتِهِ
بالمكان^(١) .

« وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ •
لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » .

وهو الْمُتَكَفِّفُ وَالْمُتَعَفِّفُ .

وهم على أقسام : منهم مَنْ يُؤْتَرُ بِجَمِيعِ مَالِهِ ؛ فَأَمْوَالُهُمْ لِكُلِّ مَنْ قَصَدَ ، لَا يَخْصُونُ
سَائِلًا مِنْ عَائِلٍ . ومنهم مَنْ يَعْطَى وَيُمْسِكُ — وهؤلاء^(٢) منهم — ومنهم مَنْ يَرَى يَدَهُ
يَدَ الْأَمَانَةِ فَلَا يَتَكَلَّفُ بَاخْتِيَارِهِ ، وَإِنَّمَا يَنْتَظِرُ مَا يُسَارُ عَلَيْهِ بِهِ مِنَ الْأَمْرِ ؛ إِمَّا بِالْإِمْسَاكِ فَيَقِفُ
أَوْ بِبَذْلِ الْكُلِّ أَوْ الْبَعْضِ فَيَسْتَجِيبُ عَلَى مَا يُطَالَبُ بِهِ وَمَا يَقْتَضِيهِ حُكْمُ الْوَقْتِ
وهؤلاء أَنَّهُمْ .

(١) مَكِينَتِ النَّاقَةِ أَوْ الْحَامِلِ وَنَحْوَهَا اسْتَرَخَى صَلاَهَا لِقَرَبِ نَتَاجِهَا (الوصيط) .

(٢) أَيْ الَّذِينَ تَتَحَدَّثُ عَنْهُمْ الْآيَةُ .

« وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ » .

وأما رتھم الاستعداد للوت قبل نزوله ، وأن يكونوا كاقيل :

مستوفزون على رجل كأنهمو قد يريدون أن يمضوا فيرتحلوا

قوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ هُمْ لِقُرُوبِهِمْ حَافِظُونَ »

إلا على أزواجهم أو ما ملكت

أيمانهم فإنهم غير ملومين • فمن أبتنى

وراء ذلك فأولئك هم العادون » .

وإنما تكون صحبتهم مع أزواجهم للتعفف وصون النفس ، ثم لا يتفاء أن يكون له ولد من صلبه يذكر الله . وشرط هذه الصفة : أن يعيش معها على ما يهون ، ولا يجرها إلى هوى نفسه ويحملها على مراده وهواه .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ »

يحفظون الأمانات التي عندهم للخلق ولا يخونون فيها . وأمانات الحق التي عندهم أعضاؤهم الظاهرة — فلا يدنسونها بالخطايا ؛ فالمعرفة التي في قلوبهم أمانة عندهم من الحق ، والأسرار التي بينهم وبين الله أمانات عندهم . والفرائض واللوازم والتوحيد .. كل ذلك أمانات .

ويقال : من الأمانات إقرارهم وقت الذر . ويقال : من الأمانات عند العبد تلك الحجة التي أودعها الله في قلبه .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ » .

شهادتهم لله بالوحدانية ، وفيما بينهم لبعضهم عند بعض — يقومون بحقوق ذلك كله .

قوله جل ذكره : « فَلِلَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلِكَ مُهْطِمِينَ »

عن اليمين وعن الشمال عزين » .

والإهطاع أن يقبل بصره إلى الشيء فلا يرفعه عنه ، وكذلك كانوا يفعلون عند النبي صلى الله عليه وسلم « وعزين » : أي خلقتا خلقتا ، وجاعة جماعة .

« أَطْمَعُ كُلُّ أَمْرٍ مِنْهُمْ أَنْ يَدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ؟ »

کلا .. إنك لاتدعو عن هذا ! وليس هذا بصواب ؛ فإنهم - اليوم - كفار ، وغداً يعاملون

بما يستوجبون .

« فَلَا أَقْسَمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ . . » لا — هنا صلة ، والمعنى أقسم . وقد مضى القولُ

في المشارق والمغارب - « إنا لقادرون » على ذلك .

« فَذَرْنِهِمْ يَمُوتُوا وَيَلْعَبُوا » غاية التهديد والتوبيخ لهم .

« يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا » كأنهم يسرعون إلى أصنامهم ، شبه إسرائعهم حين

قاموا من القبور بإسرائعهم إلى النُصْبِ - اليوم - كي يقوموا بعبادتهم إياها .

سُورَةُ نُوحٍ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسم لمن قامت السموات والأرض بقدرته ، واستقامت الأسرار والقلوب بنصرته .. دلت الأفعال على جلال شأنه ، ودلت الرقاب عند شهود سلطانه . أشرقت الأقطار بنوره في العقبى ، وأشرقت الأسرار بظهوره في الدنيا ، فهو المقدس بالوصف الأعلى .

قوله جل ذكره : « إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ

قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

أرسلنا نوحًا بالنبوة والرسالة . « أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ » أى بأن أنذرهم وإرسال الرسل من الله فضل^(١) ، وله بحق ملكه أن يفعل ما أراد ، ولم يجب عليه إرسال الرسل لأن حقيقته لا تقبل الوجوب .

وإرسال الرسل إلى مَنْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ جَائِزَ^(٢) ، وتكليفهم من ناحية العقل جائز^(٣) . فنوح — عَلِمَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَقْبَلُونَ .. ومع ذلك بَلَّغَ الرسالة وقال لهم : إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ :
« قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ *
أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا »

(١) في النسختين (فعل) وهى صواب بدليل قوله فيما بعد : (أَنْ يَفْعَلْ) ما أراد ولكننا رجحنا (فضل) لأن التشيرى يستحسن استعمال (الفضل) عندما يتحدث عن نفي (الوجوب) على الله .

(٢) كي يكون ذلك عليهم حجة ، قال تعالى : «رسلنا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل» .

(٣) ولكن لا عقاب إلا بعد إرسال الرسل ؛ لأن العقل وحده غير كاف في قطع المنعرة (قارن ذلك بآراء المعتزلة) .

« يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ
إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ
لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » .

يغفر لكم « من » ذنوبكم : مِنْ هُنا للجنس لا للتبويض كقوله تعالى :

« فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ » .

ويقال : ما عملوه دون ما هو معلوم أنهم سيفعلونه ؛ لأنه لو أخبرهم بأنه غفر لهم ذلك كان
إغراء لهم .. وذلك لا يجوز . فأبوا أن يقبلوا منه ، فقال :

« قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا

ونهاراً * فلم يزدني دعائي إلا فِرَاراً » .

يَبَيِّنُ أَنَّ الهداية ليست إليه ، وقال : إِنِّي أَرَدْتُ إِيمَانَهُمْ فقلوبهم بقدرتك — سبحانه .

قوله جل ذكره : « وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً »

وإِنِّي ما ازددتُ لهم دعاء إلا ازدادوا إصراراً واستكباراً .

ويقال : لَمَّا دَامَ يَنْهَمُ إِصْرَهُمْ تَوَلَّى مِنَ الْإِصْرَارِ اسْتِكْبَارُهُمْ ، قال تعالى :

« فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ » ^(١)

قوله جل ذكره : « ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَاراً * ثُمَّ إِنِّي

أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِصْرَاراً *

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ

غَفَّاراً * يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً *

وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ

جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً » .

(١) آية ١٦ سورة الحديد .

ليعلم العالمون : أَنَّ الاستغفار قرعُ أبوابِ النعمة ، فمن وقعت له إلى الله حاجةٌ فإن يصلَ إلى مراده إلا بتقديم الاستغفار .

ويقال : مَنْ أراد التَّفَضُّلَ فعليه بالمُذَرِّ والتَّعَضُّلِ .

قوله : « يرسل السماء عليكم . . . » : كان نوح عليه السلام كلما ازداد في بيان وجوه الخير والإحسان زادوا هم في الكفر والنسيان .

قوله جل ذكره : « ما لكم لا ترجون لله وقاراً ؟ »

ما لكم لا تخافون الله عظمةً ؟ وما لكم لا ترجون ولا تؤمنون على توقيركم للأمر من الله لطفاً ونعمة ؟ .

« أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ

سَمَاوَاتٍ طَبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ

نُورًا * وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا »

ثم نبههم إلى خلق السموات والأرض وما فيها من الدلالات على أنها مخلوقة ، وعلى أن خالقها يستحق صفات العلوِّ والعِزَّة .

ثم شكاه نوح إلى الله وقال :

« قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي

وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدُهُ

إِلَّا خَسَارًا * وَمَكُرُوا مَكْرًا كُبَّارًا »

يعنى كبراءهم وأغنياءهم الذين ضلُّوا في الدنيا وهلكوا في الآخرة .

« وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى

الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » .

وذلك بتعريف الله تعالى إياه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن . فاستجاب الله

فيهم دعاءه وأهلكهم .

(١) سُورَةُ الْجِنِّ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسم عزيز به أَقَرَّ مَنْ أَقَرَّ بربوبيته ، وبه أَصَرَّ مَنْ أَصَرَّ على معرفته ، وبه استقرَّ من استقرَّ من خليقته ، وبه ظَهَرَ ما ظَهَرَ من مقدوراته ، وبه بَطَّنَ ما بَطَّنَ من مخلوقاته (٢) ، فَمَنْ جَعَلَ فَبَخَلَّاهُ (٣) وحرمانه ، ومن وَحَدَ (٤) فبإحسانه وامتنانه .

قوله جل ذكره : « قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ قَالُوا : إِنَّا سَمِعْنَا قرآنًا عَجَبًا »

قيل : إن الجن كانوا يأتون السماء فيستمعون إلى قول الملائكة ، فيحفظونه ، ثم يلقونه إلى الكهنة ، فيزيدون فيه وينقصون . . . وكذلك كانوا في الفترة التي بين نبينا صلى الله عليه وسلم وبين عيسى عليه السلام . فلَمَّا بُعِثَ نبينا صلى الله عليه وسلم وَرَجُوا بالشُّبْهِ عَمَّ إبليس أنه وقع شيء (٥) فقرَّ جنوده ، فأَتَى تسعة منهم إلى بطن نخلة واستمعوا قراءته صلى الله عليه وسلم فآمنوا ، ثم آتوا قومهم وقالوا : إِنَّا سَمِعْنَا قرآنًا عَجَبًا يَهْدِي إلى الرشد فآمننا به . . . إلى آخر الآيات .

(وجاءه سبعون منهم وأسلموا وذلك قوله تعالى : « وإذا صرنا إليك نفراً من الجن .. ») (٦)

(١) أخطأ الناسخ في ص وجعلها (سورة المزمل) بينما التفسير جارٍ لسورة الجن .

(٢) إشارة إلى الجن . . . وهنا نوع من الترابط بين إحياءات البسملة والسورة .

(٣) الباء هنا معناها (بسبب) أي أن الجاحد جحد بسبب خذلان الله له في القسمة .

(٤) هكذا في ص وهي العوَاب ببناء هي في م (تصد) ونحن نعلم أن القشيري يستعمل (جحد) و (وحد)

متقابلين .

(٥) «حدث شيء في الأرض» (الترمذي) .

(٦) ما بين التوسين ورد في م ولم يرد في ص ، والآية هي رقم ٢٩ سورة الأحقاف .

قوله جل ذكره : « وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً » .

الجدُّ العظمى ، والعظمةُ استحقاقُ نعوتِ الجلال .
« وأنه كان يقول سفيهاً على الله شططاً » .

أراد بالسفيه الجاهل بالله يعنى إبليس . والشطط السرف .
« وأنا ظننا أن لن نقولَ الإنسانُ والجنُّ على الله كذباً » .
في كفرهم وكنهم بالشرك .

« وأنه كان رجالٌ من الإنس يعوذون برجالٍ من الجن فزادهم رهقاً » .
أى ذلة وصغار ؛ فالجنُّ زادوا للإنس ذلةً ورهقاً^(١) (فكانوا إذا نزلوا يقولون : نعوذ بربِّ هذا الوادى فيتوهم الجنُّ أنهم على شئ فزادهم رهقاً)^(٢) حيث استعاذوا بهم .
قوله جل ذكره : « وأنهم ظنُّوا كما ظننتم أن لن يبعثَ الله أحداً » .

أى ظنُّوا كما ظنَّ الكفارُ من الجن ألا بعثَ ولا نشور — كما ظننتم أيها الإنس .
« وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً » .
يعنى حين منعوا عن الاستماع .

« وأنا كنّا نعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجده شهداءً رصداً » .

(١) أى أن الجن زادوا الإنس رهقاً وهو الخطيئة والإثم حين استعاذوا بغير الله .
وقال مجاهد : زاد الإنس الجن رهقاً أى طغياناً بهذا التعوذ حتى قالت الجن : سدنا الإنس والجن .
(٢) ما بين الفوسين موجود فى ص وغير موجود فى م .

فَالآنَ قَدْ مُنِعْنَا .

« وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي
الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ؟ » .
« وَالَّذِينَ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ
لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا » .

الاستقامة على الطريقة تقتضي إكمال النعمة وإكثار الراحة . والإعراض عن الله
يوجب تنقص العيش ودوام العقوبة .

قوله جل ذكره : « وَأَنْ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ
اللَّهِ أَحَدًا » .

للمسجد فضيلة ، ولهذا خصه الله سبحانه وأفرده بالذكر من بين البقاع ؛ فهو محلُّ العبادة ..
وكيف يُحَلُّ العابد عنده إذا حلَّ محلَّ قدمه^(١) ؟ ! .

و يقال : أراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها ، أخبر أنها لله ، فلا تعبدوا بما لله غير الله .
قوله جل ذكره : « وَأَنْتَ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا
يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا » .

لما قام عبد الله يعني محمداً عليه السلام يدعو الخلق إلى الله كاد الجن والإنس يكونون
مجمعين عليه ، يئتمونه عن التبليغ ، قل يا محمد :

« قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا
وَلَا رَشَدًا * قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ
اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ
مُلْتَجَاً » .

لَا أَقْدِرُ أَنْ أَدْفَعَ عَنْكُمْ ضَرًّا ، وَأَسْوَاقَ لَكُمْ خَيْرًا .. فكلُّ شيءٍ من الله . ولن أجد
من دونه مُلتجأً إلا :

(١) العبارة غامضة وتحتاج إلى توضيح .. وربما قصد القشيري إلى أنه إذا كان المسجد وهو محل قدم العابد
مكرماً .. فما بالك بالعابد نفسه ، ومحله عند الله ؟ .

« إِنْ بَلَغَا مِنْ اللَّهِ رِسَالَاتِهِ »

فَلَنْ يُنَجِّيَنِي مِنَ اللَّهِ إِلَّا تَبْلِيغِي رِسَالَاتِهِ بِأَمْرِهِ .

« وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا » .

قوله جل ذكره : « قُلْ إِنْ أَذْرِي أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا »

أى : لا أذرى ما تُوعَدُونَ من العقوبة ، ومن قيام الساعة أقرب أم بعيد ؟ فكونوا على حذر . ويجب أن يتوقع العبدُ العقوبات أبداً مع مجارى الأفاضل ليسلم من العقوبة .

قوله جل ذكره : عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ »

فيطلبه بقدر ما يريد .

« لِيَعْلَمَ (١) أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا » .

أرسل مع الوحي ملائكةً قُدَّامَهُ وَخَلْفَهُ . . هم ملائكةٌ حَفَظَةُ ، يحفظون الوحي من الكهنة والشیاطين ، حتى لا يزيدوا أو ينقصوا الرسل التي يحملها . . . والله يعلم ذلك ، وأحاط علمه به .

(١) قرأ ابن عباس (لِيُعْلِمَ) أى ليعلم الناس أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم .

سُورَةُ الْمَزْمَلِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » : الحادثاتُ بالله حصَلت ، قلوبُ العارفين بالله عرَفَتْ ما عرَفَتْ وأرواحُ الصَّديقين بالله أَلِفَتْ مَنْ أَلِفَتْ وفهُمُ الموحِّدين بساحاتِ جلاله وقَفَتْ ، ونفوسُ العابدين بالمعجز عن استحقاق عبادته اتَّصَفَتْ وعقولُ الأولين والآخرين بالمعجز عن معرفة جلاله أَعترَفَتْ .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ * قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا »

أى : التزمِلِ المتلفِّفَ في نِيَابِهِ . وفي الخبر : أنه كان عند نزول هذه الآية عليه مِرْطٌ من شَعْرِ وَوْبَرٍ ، وقالت عائشة رضى الله عنها : كان نصفه علىَّ وأنا نائمة ، ونصفه على رسول الله وهو يُصَلِّي ، وطولُ المِرْطِ أربعة عشر ذراعاً^(١) .

« نِصْفَهُ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا » .

قم الليل إلا قليلاً ، نصفه بدَل منه ؛ أى : قم نصف الليل ، وأنقص من النصف إلى الثلث أو زد على الثلث ، فكان عليه الصلاة والسلام في وجوب قيام الليل مُخَيَّرًا ما بين ثلث الليل إلى النصف وما بين النصف إلى الثلث . وكان ذلك قبل فرض الصلوات الخمس ، ثم نُسِخَ بعد وجوبها على الأمة — وإن كانت بقيت واجبة على الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويقال : يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ بأعباء النبوة . . قم الليل .

(١) معنى هذا : أن السورة مدنية وليست مكية ، لأن النبي لم يبين بعائشه إلا في المدينة .

ويقال : يأيتها الذي يُخَفِّي ما خصصناه به قُمْ فَأَنْذِرْ . . فَإِنَّا نَصْرُكَ^(١) .
ويقال : قُمْ بِنَا . . يَا مَنْ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنَ فِيهِ كُلُّ النَّاسِ . . قُمْ أَنْتَ
فَلْيَسْكُنَ الْكُلُّ . . وَلْتَمَّ أَنْتَ .

ويقال : لَمَّا فَرَضَ عَلَيْهِ الْقِيَامُ بِاللَّيْلِ أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ لِأَجْلِ أُمَّتِهِ وَإِكْرَامًا لَشَأْنِهِ وَقَدَرِهِ .
وفي الخبر : « أَنَّهُ يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا . . » وَلَا يُدْرِي التَّأْوِيلُ لِلْخَبَرِ^(٢) ،
أَو أَنَّ التَّأْوِيلَ مَعْلُومٌ . . وَإِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى التَّأْوِيلِ فَلِلْأَحْبَابِ رَاحَاتٌ كَثِيرَةٌ ، وَوَجُوهٌ
مِنَ الْإِحْسَانِ مَوْفُورَةٌ .

قوله جل ذكره : « وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا »

إِذْ تَعْبَسُ بِسِرِّكَ فِي فَهْمِهِ ، وَتَأَنَّنَ بِلِسَانِكَ فِي قِرَاءَتِهِ .
« إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا » .
قيل : هو القرآن . وقيل : كلمة لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .

ويقال : الوحي ؛ وَسَمَاءٌ ثَقِيلًا أَيْ خَفِيفًا عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلًا فِي الْمِيزَانِ .
ويقال : ثَقِيلٌ أَيْ : لَهُ وَزْنٌ وَخَطَرٌ . وفي الخبر : كَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ — وَهُوَ عَلَى
نَاقَتِهِ — وَضَعَتْ جِرَانَهَا^(٣) ، وَلَا تَكَادُ تَتَحَرَّكُ حَتَّى يُسْرِّيَ عَنْهُ .
وروى ابن عباس : أَنَّ سُورَةَ الْأَنْعَامِ نَزَلَتْ مَرَّةً وَاحِدَةً فَبَرَكَتْ نَاقَةُ رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ ثَقَلِ الْقُرْآنِ وَهَيْبَتِهِ .
ويقال « ثَقِيلًا » سَمَاعُهُ عَلَى مَنْ جَعَلَهُ

(١) هَذَانِ تَحْرِيجَانِ مُجَازِيَانِ لِلْفِظَةِ (الْمَزْمَلِ) .

(٢) هَذَا الْخَبَرُ فَعَلًا كَانَ مَوْضِعُ نَظَرٍ ؛ فَقَدْ رَوَى عَنْ طَرِيقَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَلَى الشَّكِّ ، فَقَدْ صَحِّحَ مُسْلِمٌ
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) : إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ — أَوْ ثُلَاثُهُ — يَنْزِلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا
وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى : « يَنْزِلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا كُلِّ لَيْلَةٍ حِينَ يَمُضِي ثَلَاثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ فَيَقُولُ : أَنَا الْمَلِكُ ،
أَنَا الْمَلِكُ مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَاسْتَجِيبُ لَهُ ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيهِ ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرُ لَهُ ؟ فَلَا يَزَالُ
كَذَلِكَ حَتَّى يَمُضِيَ الْفَجْرُ » . وَخَرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ شَهَابٍ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ الرَّسُولَ (ص)
قَالَ : يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى حِينَ يَبْقَى ثَلَاثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ فَيَقُولُ . . « وَهَكَذَا اتَّعَظُمَ الْحَدِيثُ وَالْقُرْآنُ .
(٣) أَيْ : صَدْرُهَا .

ويقال : « قِيلًا بِعَيْنِهِ — إِلَّا عَلَى مَنْ أَبَدَ بَقْوَةً سَمَويَةً ، وَرُبِّي فِي حِجْرِ التَّقَرُّبِ »
قوله جل ذكره : « إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً
وَأَقْوَمُ قِيلًا » .

أى : ساعات الليل ، فكلُّ ساعةٍ تحدثُ فهي ناشئة^(١) ، وهي أشدُّ وطْأً أى : مُوَطَّاةٌ
أى : هي أشدُّ موافقةً للسانِ والقلبِ ، وأشدُّ نشاطًا .
ويحتمل : هي أشدُّ وأغلظُ على الإنسان من القيام بالنهار .
« وأقوم قِيلًا » أى : أبينُ قولًا .

ويقال : هي أشدُّ مواطاةً للقلبِ وأقومُ قِيلًا لأنها أبعدُ من الرياء ، ويكون فيها حضورُ
القلبِ وسكونُ السرِّ أبلغَ وأتمَّ .

قوله جل ذكره : « إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا » .
أى : سبْحًا في أعمالك ، والسبح : الذهاب والسرعة ، ومنه السباحة في الماء .
فاللغنى : مذهبُك في النهار فيما يَشْفُكُكَ كثيرةٌ — واللَّيْلُ أَخْلَى لَكَ .
قوله جل ذكره : « وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ
تَبَتُّلًا » .

أى : انقطعْ إليه انقطاعًا تامًّا .

« رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا » .

الوكيلُ مَنْ تَوَكَّلُ إِلَيْهِ الْأُمُورُ ؛ أى : تَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَكِلْ أُمُورَكَ إِلَيْهِ ، وثِقْ بِهِ ..
ويقال : إنك إذا اتَّخَذْتَ مِنَ الْخُلُوقِ وَكِيلًا اخْتَزَلُوا مَالَكَ وَطَالَبُوكَ بِالْأَجْرَةِ ،
وإذا اتَّخَذْتَنِي وَكِيلًا أُوفِّرُ عَلَيْكَ مَالَكَ وَأُعْطِيكَ الْأَجْرَ .

(١) قال ابن مسعود : الحبشة يقولون : نشأ أى قام .

فكان ناشئة الليل مصدر بمعنى قيام الليل ... مثل خاطئة وكاذبة .. فإذا افترضنا أنها كلمة شائعة الاستعمال
عند الحبشة بهذا المعنى فإنها ذات أصل عربي أيضاً .

ويقال : وكيف ينفق عليك من مالك ، وأنا أرزقك وأنفق عليك من مالي .
ويقال : وكيف من هو في القدر دونك ، وأنت ترفع أن تكلمة كثيراً . . وأنا ربك
وسيدك وأحب أن تكلمني وأكلمك .

قوله جل ذكره : « وأصبر على ما يقولون وأهجرم
هَجْرًا جِيلًا » .

الهجر الجليل : أن تعاشرهم بظاهرك وتباينهم بسرك وقلبك .
ويقال : الهجر الجليل ما يكون لحق ربك لا لحظ نفسك .
ويقال : الهجر الجليل ألا تكلمهم ، وتكلمني لأجلهم بالدعاء لهم .
وهذه الآية منسوخة بآية القتال^(١) .

قوله جل ذكره : « وذري والمكذبين أولى النعمة
ومهلهم قليلاً » .

أى : أولى التَّعَمُّ^(٢) ، وأنظرهم قليلاً ، ولا تهتم بشأنهم ، فإني أ كفيك أمرهم .
قوله جل ذكره : « إنَّ لدينا أنكلاً وجحياً * وطعاماً
ذا غصة وعذاباً ألياً » .

ثم ذكر وصف القيامة فقال :

« يومَ تَرْجُفُ الأرضُ والجبالُ
وكانتِ الجبالُ كغصاةٍ مهيلةٍ » .

(١) قال قتادة : كان هذا قبل الأمر بالقتال ، ثم أمر بعد بقتالهم وقتلهم فنسخت آية القتال ما كان قبلها
من الترك . (القرطبي) ١٩ ص ٤٥ .

(٢) هم صناديد قريش ، ورؤساء مكة من المشركين .

وقال يحيى بنى سلام : إنهم بنو المغيرة .

وقالت عائشة : لما نزلت هذه الآية لم يكن إلا يسيراً حتى وقعت وقعة بدر .

ثم قال :

« إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا
عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
رَسُولًا » .

يعنى : أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَاهِدًا عَلَيْكُمْ « كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
رَسُولًا » ، « فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخَذًا وَبِيلًا » ثَقِيلًا .

« فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا » من هَوْلِهِ يَصِيرُ الْوَلَدَانُ شَيْبًا — وهذا على
ضَرْبِ الْمَثَلِ .

« السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ » أى بذلك : اليوم لهوله ^(١) .

ويقال : مُنْفَطِرٌ بِاللَّهِ أى : بأمره .

« كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا » : فَمَا وَعَدَ اللَّهُ سَيَصْدَقُهُ .

« إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ » : يعنى : هذه السورة ، أو هذه الآيات مَوْعِظَةٌ ؛ فَمَنْ انْعَظْ
بِهَا سَعِدَ .

« إِنَّ رَبَّكَ » يا محمد « يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِّ اللَّيْلِ وَنُصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ
الَّذِينَ مَعَكَ » مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

« وَاللَّهُ يَقْدَرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » فهو خَالِقُهَا « عَلِيمٌ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ » ونطيعوه .

« فَتَأْتِيكُمْ عَلَيْهِمُ » أى : خَفَّفَ عَنْكُمْ ^(٢) ، « فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ » من خمس آيات
إلى ما زاد . ويقال : من عَشْرِ آياتٍ إلى ما يزيد ^(٣) .

(١) هكذا في م وهي في ص (لقوله) والصواب ؛ ما جاء في م كما هو واضح من السياق .

(٢) كان الرجل لا يدرى متى نصف الليل من ثلثه فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطيء فانتفخت أقدامهم ، وانتفعت ألوانهم ، فرحمهم الله وخفف عنهم (مقاتل) .

(٣) قال الحسن : من قرأ مائة آية في ليلة لم يحاجه القرآن ، وقال كعب : كُتِبَ مِنَ الْقَائِنِينَ .

وفي حديث مسند عن عبد الله بن عمرو : أن النبي (ص) قال : « من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين (= أعطى من الأجر قنطاراً) » أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده .

« عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ » يسافرون ، ويعلم
أصحاب الأعذار ، فَنَسَخَ عَنْهُمْ قِيَامَ اللَّيْلِ .
« وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ » المفروضة .
« وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا » مضي معناه .
« وَمَا تَقَدَّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ » أى : ما تقدموا من طاعة تجدوها عند الله ثواباً
هو خيرٌ لكم من كلِّ متاع الدنيا .

سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمة سماعها نزهة قلوب الفقراء ، كلمة سماعها بهجة أسرار الضعفاء ، راحة أرواح الأحباء ، قوة قلوب الأولياء ، سنوة صدور الأصفياء ، قرّة عيون أهل البلاء .
قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ • قُمْ فَأَنْذِرْ » .
يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ بشو به .

وهذه السورة من أول ما أنزل من القرآن . قيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب إلى حراء قبل النبوة ، فبدأ له جبريل في الهواء ، فرجع الرسول إلى بيت خديجة وهو يقول « دثروني دثروني » فدثر بشوب فنزل عليه جبريل وقال : « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ » ^(١) .
وقيل : أيها الطالب صرّف الأذى عنك بالدثار اطلبه بالإندار .
ويقال : قُمْ بنا ، وأسقط عنك ما سوانا ، وأنذر عبادنا ؛ فلقد أقمناك بأشرف المواقف ، ووقفناك بأعلى المقامات .
ويقال : لما سکن إلى قوله : « قُمْ » وقام قطع سرّه عن السكون إلى قيامه ، ومن الطمأنينة في قيامه .

قوله جل ذكره : « وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ » .

(١) حدّث جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله (ص) : جاورت بحراء شهراً ، فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت بطن الوادي ، فنوديت ، فنظرت أمامي رجلي وعن يميني وعن شمالي فلم أر أحداً ، ثم نوديت فنظرت فلم أر أحداً ، ثم نوديت فرفعت رأسي فإذا جبريل على عرش في الهواء فأخذتني رجفة شديدة فأقريت خديجة فقلت : دثروني . فصبوا على ماء . رواء البخاري بهذه النهاية : دثروني وصبوا على ماء بارداً فدثروني وصبوا على ماء بارداً فنزلت : يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ .

كَبَّرَهُ عَنْ كُلِّ طَلَبٍ ، وَوَصَلَ وَفَصَلَ ، وَعِلَّةٍ وَخَلَقٍ .
« وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ » .

طَهِّرْ قَلْبَكَ عَنِ الْخِلَاقِ أَجْمَعِ ، وَعَنِ كُلِّ صِفَةٍ مَذْمُومَةٍ .
وَطَهِّرْ نَفْسَكَ عَنِ الزَّلَّاتِ ، وَقَلْبَكَ عَنِ الْخَالَفَاتِ ، وَسِرِّكَ عَنِ الْإِلْتِفَاتِ .
وَيَقَالُ : أَهْلَكَ طَهَّرَهُم بِالْوَعظِ ؛ قَالَ تَعَالَى : « هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ » ^(١) ، فَيَعْبُرُ عَنْهُمْ
— أحياناً — بِالثِّيَابِ وَاللِّبَاسِ .

قوله جل ذكره : « وَالرُّجُزَ فَاهْجُرْ » .

أَيُّ : الْمَعَاصِي . وَيَقَالُ : الشَّيْطَانُ . وَيَقَالُ : طَهِّرْ قَلْبَكَ مِنَ الْخَطَايَا وَأَشْغَالِ الدُّنْيَا .
وَيَقَالُ : مَنْ لَا يَصِحُّ جِسْمُهُ لَا يَجِدُ شَهْوَةَ الطَّعَامِ كَذَلِكَ مَنْ لَا يَصِحُّ قَلْبُهُ لَا يَجِدُ
حَلَاوَةَ الطَّاعَةِ .

« وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ » .

لَا تُعْطِ عَطَاءَ تَطْلُبُ بِهِ زِيَادَةً عَلَى مَا تُعْطِيهِ .

وَيَقَالُ : لَا تَسْتَكْثِرُ الطَّاعَةَ مِنْ نَفْسِكَ .

وَيَقَالُ : لَا تَمْنُنْ بِعَمَلِكَ فَتَسْتَكْثِرَ عَمَلُكَ ، وَتُعْجَبَ بِهِ .

« وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ » .

أَيُّ : أَنْتَ تُؤَدِّي فِي اللَّهِ . فَاصْبِرْ عَلَى مَقَاسَةِ أَذَاهِ .

قوله جل ذكره : « فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ

يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ » .

يَعْنِي : إِذَا قَامَتِ الْقِيَامَةُ ، فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ هَيِّنٍ .

قوله جل ذكره : « ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً » .

(١) آية ١٨٧ سورة البقرة .

أى : لا تهتم بشأنهم ، ولا تحتفل ؛ فإننى أ كفيك أمرهم .

إننى خلقتك وحدى ؛ لم يشاركنى فى خلقى إياه أحد .

ويحتمل : خلقتك وحدك لا ناصر له .

قوله جل ذكره : « وجعلت له ملاماً ممدوداً •

وبنين شهوراً » .

حضوراً معه لا يحتاجون إلى السفر .

« ومهدت له تمهيداً » .

أراد : تسهيل التصرف ، أى : مكنته من التصرف فى الأمور ^(١) .

« ثم بطع أن أزيد » .

بطع أن أزيده فى النعمة :

« كلا ، إنه كان لآياتنا عنيداً » .

جحدوا .

« سأزهيته صموداً » .

سأحمله على مشقة من العذاب .

« إنه فكر وقدر • قتل كيف

قدر • ثم قتل كيف قدر » .

أى : لعن كيف فكر ، وكيف قدر ، ويعنى به : الوليد بن المغيرة ^(٢) الذى قال فى النبى

صلى الله عليه وسلم : إنه ليس بشاعر ولا بمجنون ولا بكذاب ، وإنه ليس إلا ساحر ، وما بآى

به ليس إلا سحر يروى :

(١) واضح من هذا أن القشيري يؤمن بحرية الإنسان ، وأن الجبرية عنده ليست مطلقة .

(٢) كان الوليد يدعى ربحانة قريش فلما سمعت منه واصفاً القرآن : والله إن له خلابة وإن عليه لطلاوة وإن أجلاء كش ، وإن أسفله لغدق ... « قالت قريش : صبا الوليد لتصبون قريش كلها ، فلما ذهب إليه أبو جهل ليتحرى . قال له بعد أن ندد مزاعمهم : ما هو إلا ساحر ! أما رأيته يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟

« ثُمَّ نَفَرْنَا * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (١) *
 ثُمَّ أَدْبَرَ * وَأَسْتَكْبَرَ * فَقَالَ :
 إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ * إِنَّ هَذَا
 إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأَصْلِيهِ سَقَرًا *
 وَمَا أَذْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ *
 لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ » .

لا تُبْقِي لَحْمًا ، وَلَا تَذَرُ عَظْمًا ، تحرق بشرة الوجه وتَسْوِدها ، من لاحتها الشمس ولوحت .
 « عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ » .

قال المشركون : نحن جَمْعٌ كثير . . فما يفعل بنا تسعة عشر ؟ ! فأنزل الله سبحانه :

« وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً
 وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ
 كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ آمَنُوا
 الْكِتَابَ وَيزدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا
 وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
 وَالْمُؤْمِنُونَ » .

فيزداد المؤمنون إيمانًا ، ويقول هؤلاء : أى فائدة فى هذا القدر ؟ فقال تعالى :

« كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ
 وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ » .

ثم قال :

« وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ
 وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ » .

أى : تقاصرت علوم الخلق فلم تتعلق إلا بمقدار دون مقدار ، والذي أحاط بكل شيء علماً .
 هو الله — سبحانه .

(١) بَسَرَ أى كَلَح وجهه وتغير لونه .

« كَلَّا وَالْقَمَرِ »

كَلَّا - حرفُ ردِّعٍ وتنبيهٍ ؛ أى : ارتدعوا عما أنتم عليه ، وانتبهوا لغيره .
وأقسم بهذه الأشياء « كَلَّا وَالْقَمَرِ » : أى بالقمر ، أو بقدرته على القمر .
وبالليل إذا أدبرَ .. وقُرِئَ « وَدَبَرَ » أى : مضى ، « والصُّبْحُ إذا أسفر » أى : تجلَّى .
« إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ » .

أى : النار لإحدى الدواهي الكبرى .

ويقال فى « كَلَّا وَالْقَمَرِ » إشارةً إلى أقمار العلوم إذا أخذ هلالها فى الزيادة بزيادة البراهين ، فإنها تزدد ، ثم إذا صارت إلى حدِّ التمام فى العلم وبلغت الغاية تبدو أعلام المعرفة ، فالعلم يأخذ فى النقصان ، وتطلع شمسُ المعرفة ، فسكاً أنه إذا قُرِبَ القمرُ من الشمس يزدد نقصانه حتى إذا قرب من الشمس تماماً صار محاقاً - كذلك إذا ظهر سلطانُ العرفان تأخذ أقمارُ العلوم فى النقصان لزيادة المعارف ؛ كالسراج فى ضوء الشمس وضياء النهار . « والليل إذا أدبر » أى إذا انكشفت ظلمُ البواطن ، « والصبح إذا أسفر » وتجلَّت أنوار الحقائق فى السرائر .. إنها لإحدى العظام ، وذلك من باب التخويف من عودة الظلم إلى القلوب^(١) .

« نَذِيرًا لِلْبَشَرِ » فى هذا تحذيرٌ من الشواغل التى هى قواطع عن الحقيقة ، فيحذروا المساكنة والملاحظة إلى الطاعات والمواقفات .. فإنها - فى الحقيقة - لا خطرَ لها^(٢) .
« لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ » عن الطاعات .. وهذا على جهة التهديد .
قوله جل ذكره : « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ » .

أى : مرتبنة بما عملت ، ثم استثنى :

« إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ » .

(١) من خصائص أسلوب القشيري - كما أوضحنا ذلك فى كتابنا عنه - أنه كثيراً ما يستعين بمظاهر الطبيعة : الليل والنهار - والقمر والشمس والجبال والمطر والبحار وغير ذلك كـ « وَدَبَرَ » عن طريق ذلك دقائق العلم الصوفى .
(٢) يقصد أن نظرة الإنسان إلى عمله ، وإعطاء هذا العمل قيمة .. من قبيل دعوى النفس .. المهم فى الطريق فضل الله واجتهاد الله .

تقال : إنهم غير مرتين بأعمالهم ، ويقال : هم الذين قال الله تعالى في شأنهم : « هؤلاء في الجنة ولا أبالي » ! .

وقيل : أطلاق للمؤمنين^(١) .

« في جنات يتساءلون * عن المجرمين *
ما سلككم في سقر ؟ * قالوا لم نك
من المصلين * ولم نك نطعم
المسكين * وكنا نخوض مع
الخائضين * وكنا نكذب يوم
الدين » .

هؤلاء يتساءلون عن المجرمين ، ويقولون لأهل النار إذا حصل لهم إشراف عليهم :
ما سلككم في سقر ؟ قالوا : ألم نك من المصلين ؟ ألم نك نطعم المسكين ؟ .
وهذا يدل على أن الكفار مخاطبون بتفصيل الشرائع .

« وكنا نخوض مع الخائضين » : نشرع في الباطل ، ونكذب يوم الدين .
« حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ » .

وهو معاينة القيامة .

« فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ » .

أى : لا تنالهم شفاعته من يشفع .

« فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ^(٢) »

والتذكرة : القرآن :

« كَانَهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ
مِنْ قَسْوَرَةٍ » .

(١) قال ابن عباس : هم الملائكة . وقال على بن أبي طالب : هم أولاد المؤمنين لم يكتسبوا فيرتبوا بكسبهم .
وقال الضحاك : الذين سبق لهم من الله الحسن . وقال مقاتل : هم الذين كانوا على يمين آدم يوم الذر . والله أعلم .
(٢) معرضين منصوب على الحال من الهاء والميم في (لهم) ، وفي اللام معنى الفعل فتتصاب الحال على معنى الفعل .

كانهم محرّ نافرة فرّت من أسد^(١)

« بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ
يُؤْتِيَ صُحُفًا مَّنشُورَةً » .

بل يريد كلُّ منهم أن يُعطى كتاباً منشوراً .

« كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ » .

أى : كَلَّا لَا يُعْطَوْنَ مَا يَتَمَنُّونَ لأنهم لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ .

« كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ * فَمَنْ شَاءَ
ذَكَرْهُ » .

إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ — لَا أَنْ تَشَاءُوا

« هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى » .

أَهْلٌ لِأَنْ يَتَّقَى .

« قَأَهْلُ الْغَفِرَةِ » .

وَأَهْلٌ لِأَنْ يَغْفِرَ لِمَنْ يَتَّقَى — إِنْ شَاءَ .

(١) القصورة بلدان العرب : الأسد ، أو أول الليل ، أو التهديد . وبلدان الحبشة : الرماة .

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة عزيزة مَنْ سَمِعَهَا بِشَاهِدِ الْعِلْمِ اسْتَبْصَرَ ، وَمَنْ سَمِعَهَا بِشَاهِدِ الْمَعْرِفَةِ تَحَيَّرَ . .
فَالْعِلْمَاءُ فِي سَكُونِ بَرَهَانِهِ ، وَالْعَارِفُونَ فِي دَهْشِ سُلْطَانِهِ . . أَوْلَئِكَ فِي نَجْمِ عُلُومِهِمْ ، فَأَحْوَالُهُمْ
صَحَوٌ فِي صَحْوٍ ، وَهَوْلَاءُ فِي شَمْسٍ مَعَارِفِهِمْ : فَأَوْقَاتُهُمْ مَحْوٌ فِي مَحْوٍ . . فَشَتَانِ مَا هُمَا ! !
قوله جل ذكره : « لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ » .

أى : أقسم بيوم القيامة

« وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ » .

أى : أقسم بالنفس اللوامة ، وهى النفس التى تلوم صاحبها ، وتعرف نقصان حالها .

ويقال : غداً . . كلُّ نفسٍ تلوم نفسها : إمّا على كفرها ، وإمّا على قصورها — وعلى هذا
فَالْقَسَمُ يَكُونُ بِإِضْمَارِ « الرَّبِّ » أى : أقسم برب النفس اللوامة . وليس للوم النفس فى القيامة
خطرٌ — وإنْ حُمِلَ عَلَى الْكُلِّ^(١) ولكنَّ الفائدة فيه بيان أنَّ كلَّ النفوس غداً — ستكون
على هذه الجملة . وجوابُ القسم قوله : بلى ...

قوله جل ذكره : « أَلَيْسَ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَهُ عِظَامُهُ ؟ »

أبظن أننا لن نبعثه بعد موته ؟

« بلى قادرين على أن نسوي بنانه »

« قادرين » نصب على الحال ؛ أى بلى ، نسوي بنانه فى الوقت قادرين ، وتقدر أى نجعل

(١) هكذا فى م وهى الصواب أما فى ص فهى (الاكل) وهى خطأ قطعاً .

أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كخُفِّ البعير وظلف الشاة .. فكيف لا تقدر على إعادته ؟ !
« بل يُريدُ الإنسانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ » .

يُقَدِّمُ الزَّلَّةَ ويؤخر التوبة . ويقول : سوف أتوب ، ثم يموت ولا يتوب . ويقال : يعزم^(١)
على ألا يستكثر من معاصيه في مستأنف^(٢) وقته ، وبهذا لا تَنْجَلُ — في الوقت — عقدة
الإصرار من قلبه ، وبذلك لا تصحُّ توبته ؛ لأن التوبة من شرطها العزم على ألا يعودَ إلى مثل
ما عَمِلَ . فإذا كان استحلاً الزَّلَّةَ في قلبه ، ويفكر في الرجوع إلى مثلها .. فلا تصح ندامته .
قوله جل ذكره : « يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ؟ »

على جهة الاستبعاد ، فقال تعالى :

« فَإِذَا بَرِقَ الْبَصْرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ *
وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ
الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ ؟ » .

« بَرِقَ بكسر الراء معناها تَحَيَّرَ ، « وَبَرِقَ » بفتح الراء شَخَصَ (فلا يَطْرِف) من البريق ،
وذلك حين يُقَاد إلى جهنم بسبعين ألف سلسلة ، كل سلسلة بيد سبعين ألف مَلَك ، لها زفير
وشهيق ، فلا يَبْقَى مَلَكٌ ولا رسولٌ إلا وهو يقول : نفسى نفسى !
« وَخَسَفَ القمر وجُمِعَ الشمس والقمر » كأنهما ثوران عقيران^(٣) .
ويقال : يجمع بينهما في ألّا نورَ لهما .

(١) هكذا في موهى الصواب أما في ص فهى (يزعم) وهى خطأ قطعاً بدليل ما بعدها ... من شرطها
(المزم) .

(٢) أى : في المستقبل .

(٣) قال ابن عباس وابن مسعود : جمع بينهما أى قرن بينهما في طلوعهما من المغرب أسودين مكورين
مظلمين مقررّين كأنهما ثوران عقيران .

وفي مستدرك أبي داود الطيالسي عن يزيد الرقاشي عن أنس يرفعه إلى النبي (ص) قال : قال رسول الله ص .
« إن الشمس والقمر ثوران عقيران في النار » .

« يقول الإنسان يومئذ أين المفر ؟ » والمفرّ موضع الفرار إليه ، فيُقال لهم :
« كلاً لا وزر »

اليوم ، ولا مهرب من قضاء الله^(١) .

« إلى ربك يومئذ المستقر » .

أى : لا تحيد عن حكمه .

« يَنْبِئُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ
وَأَخَّرَ » .

أى : يعرف ما أسلفه^(٢) من ذنوب أحصاها الله — وإن كان العبد نسيها .
« بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ *
وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ » .

للإنسان على نفسه دليل علامة وشاهد ؛ فأعضاؤه تشهد عليه بما عمله .

ويقال : هو بصيرةٌ وحُجَّةٌ على نفسه في إنكار البعث .

ويقال : إنه يعلم أنه كان جاحداً كافراً ، ولو أتى بكل حجة فلن تُسمع منه ولن تنفعه .

قوله جل ذكره : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ *

إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ

فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ » .

لا تستعجل في تلقف القرآن على جبريل ، فإن علينا جمعه في قلبك وحفظه ، وكذلك

علينا تيسير قراءته على لسانك ، فإذا قرأناه أى : جمعناه في قلبك وحفظك فاتبع بإقراءك جمعه .

« ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ » .

نُبيِّنُ لك ما فيه من أحكام الحلال والحرام وغيرها . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم

يستعجل في التلقف مخافة النسيان ، فنهى عن ذلك ، وضمن الله له التيسير والتسهيل .

(١) الوزر في اللغة ما يلجأ إليه من حصن أو جبل أو نحوهما : قال الشاعر :

لعمري ما للفتى من وزر من الموت يدركه والكبر

(٢) هكذا في م وهي في ص (أسفله) وهي خطأ من الناسخ .

قوله جل ذكره : « كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ

الْآخِرَةَ » .

أى : إنما يحملهم على التكذيب للقيامة والنشر أنهم يحبون العاجلة في الدنيا ، أى : يحبون البقاء في الدنيا .

« وتذرون الآخرة » : أى : تتركون العمل للآخرة . ويقال : تكفرون بها .

قوله جل ذكره : « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا

نَاطِرَةٌ » .

« ناضرة » : أى مشرقة حسنة ، وهى مشرقة لأنها إلى ربها « ناطرة » أى رائية لله . والنظر المقرون بـ « إلى » مضافاً إلى الوجه^(١) لا يكون إلا الرؤية ، فالله تعالى يخلق الرؤية في وجوههم في الجنة على قلب العادة ، فالوجه ناظرة إلى الله تعالى .

ويقال : العين من جملة الوجه (فاسم الوجه)^(٢) يتناولها .

ويقال : الوجه لا ينظر ولكن العين في الوجه هى التى تنظر ؛ كما أن النهر لا يجرى ولكن الماء فى النهر هو الذى يجرى ، قال تعالى : « جنات تجري من تحتها الأنهار » .

ويقال : فى قوله : « وجوه يومئذ ناضرة » دليل على أنهم بصفة الصحو ، ولا تتدخلهم حيرة ولا دهش ؛ فالنضرة من أمارات البسط لأن البقاء فى حال اللقاء أتم من اللقاء .

والرؤية عند أهل التحقيق تقتضى بقاء الرأى ، وعندهم استهلاك العبد فى وجود الحق أتم ؛ فالذين أشاروا إلى الوجود رأوا الوجود أعلى من الرؤية .

قوله جل ذكره : « وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ

يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ » .

(١) (مضافاً إلى) معانها (مستوياً إلى) .

(٢) ما بين القوسين وارد فى ص ولم يرد فى م وهو هام فى توضيح السياق .

« باسرة » : أى كالحلة عابسة . « فاقرة » أى : داعية^(١) وهى بقاؤهم فى النار قلى التأيد .
(تظن أن يخلق فى وجوههم النظر^(٢)) .

ويجتمل أن يكون معنى « تظن » : أى يخلق ظناً فى قلوبهم يظهر أثره على وجوههم .
« كلاً إذا بلغت التراقي * وقيل من راق * وظن أنه
الفراق * والتفت الساق بالساق *
إلى ربك يومئذ المساق » .

أى ليس الأمر على ما يظنون ؛ بل إذا بلغت نفوسهم التراقي^(٣) ، وقيل : من راق ؟
أى يقول من حوله : هل أحد يرقيه ؟ هل طبيب يداويه ؟ هل دواء يشفيه؟^(٤) .
ويقال : من حوله من الملائكة يقولون : من الذى يرقى بروحه ؛ أملائكة الرحمة
أو ملائكة العذاب ؟ .

« وظن أنه الفراق » : وعلم الميت أنه الموت .
« والتفت الساق بالساق » : ساقا الميت . فتتقرن شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة .
« إلى ربك يومئذ المساق » أى الملائكة يسوقون روحه إلى الله حيث يأمرهم بأن يحملوها
إليه : إما إلى عليين — ثم لها تفاوت درجات ، وإما إلى سجين — ولها تفاوت درجات .
ويقال : الناس يكفنون بدن الميت ويفسلونه ويصلون عليه .. والحق سبحانه يلبس
روحه ما تستحق من الحلل ، ويفسله بماء الرحمة ، ويصلى عليه وملائكته .
قوله جل ذكره : « فلا صدق ولا صلى * ولكن
كذب وتولى » .

(١) الفاقرة لها معان كثيرة منها : الداعية ، والأمر العظيم ، والشر ، والهلاك ، ودخول النار . وهى
فى الأصل : الوسم على أنف البعير بجديدة أو نار حتى يخلص إلى العظم .
(٢) العبارة هكذا فى م أما فى ص فهى (..... الظن) بدلا من (النظر) ، ويمكن قبول عبارة م على أساس
ن (النظر) أمر عظيم — وهو أحد معانى (الفاقرة) كما قلنا .. ولكننا نرجح — والله أعلم — أن العبارة ربما كانت
فى الأصل على هذا النحو : [تظن : (أى) يخلق فى وجوههم (الظن)] فحق هذا الظن مخلوق فى وجوههم من قبل الله ..
وربما يتأيد ما ذهبنا إليه بما جاء بعدها مباشرة .

(٣) جمع (ترقوة) : العظام التى تكتنف مقدم الخلق من أعلى الصدر ، وهى موضع الحشجة .
(٤) معروف الأرقية ولادواء للموت .. ولكنهم يتساءلون هكذا على وجه التحير عند الإشفاء على الموت .

يعنى : الكافر ما صدق الله ولا صلى له ، ولكن كذب وتولى عن الإيمان . وتدل الآية على أن الكفار مخاطبون بتفصيل الشرائع .

« ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى » .

أى : يتبختر ويمتثل .

« أَوَّلَى لَكَ فَأُوتَى » .

العرب إذا دعت على أحد بالكره قالوا : أولى لك ! وهنا أتبع اللفظ اللفظ على سبيل المبالغة .
ويقال : معناه الويل لك يوم تحيا ، والويل لك يوم تموت ، والويل لك يوم تُبعث ، والويل لك يوم تدخل النار^(١) .

« أَلَيْحَسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى » .

مُهْمَلًا لَا يُكَلِّفُ ! ؟ . ليس كذلك .

« أَلَمْ يَكْ نُطْفَعًا مِنْ مَنِيِّ يَمْنَى * ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً

فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ

الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى » .

« من منى يمنى » أى تُلقى فى الرحم ، ثم كان علقه أى : دماً عبيطاً^(٢) ، فسوى أعضائه فى بطن أمه ، ورَكَّبَ أجزائه على ما هو عليه فى الخلقة ، وجعل منه الزوجين : إن شاء خلق الذَّكَرَ ، وإن شاء خلق الأنثى ، وإن شاء كليهما .

« أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ؟ » .

أليس الذى قدر على هذا كله بقادر على إحياء الموتى ؟ فهو استفهام فى معنى التقرير^(٣) .

(١) فى معنى « الويل لك » تقول الخنساء :

هممت بنفسي كل المصوم فأول لنفسي أول لها
سأحمل نفسي على آلة فأما عليها وإما لها

ويقال : إن الرسول هدد أبا جهل بهاتين الآيتين .. حتى إذا كان يوم بدر ، ضرب الله عنقه وقتل شر قتله .

(٢) اللحم العبيط : الطرى الذى لم ينضج (الوسط) .

(٣) هكذا فى م وهى الصواب أما فى ص فهى (التقدير) بالدال وهى خطأ .

سُورَةُ الْإِنْسَانِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ جَبَّارٌ تَوَحَّدَ في آزاله بوصف جبروته ، وتَفَرَّدَ في آبادِه بنعت ملكوته ؛ فَأَزَلَهُ أَبَدُهُ ، وَأَبَدُهُ أَزَلَهُ ، وجبروته ملكوته ، وملكوته جبروته .

أحدى الوصفِ ، صَمَدِيُّ الذاتِ ، مُقَدَّسُ النِّعَتِ ، واحدُ الجلالِ ، فَرَّدُ التعالٰى ، دائمُ العِزِّ ، قديمُ البقاء .

قوله جل ذكره : « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا » .

في التفسير : قد أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لم يكن شيئاً له خَطَرٌ ومقدار . قيل : كان آدم عليه السلام أربعين سنة مطروحاً جَسَدُهُ بين مكة والطائف . ثم من صلصالٍ أربعين سنة ، ثم من حملٍ مسنون أربعين سنة ، فَمَ خَلَقَهُ بعد مائة وعشرين سنة^(١) .

ويقال : « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ . . . » : أى لم يأتِ عليه وقتٌ إلا كان مذكوراً إلى .

ويقال : هل غَفَلْتُ سَاعَةً عَنْ حِفْظِكَ ؟ هل أَقْبَيْتُ — لحظةً — حَبْلَكَ عَلَى غَارِيكِ ؟ هل أَخْلَيْتُكَ — ساعةً — من رعاية جديدة وحماية مزيّدة .

قوله جل ذكره : « إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فجعلناه سميعاً بصيراً » .

(١) وزاد ابن مسعود أربعين سنة فقال : وأقام وهو من تراب أربعين سنة فَمَ خَلَقَهُ بعد مائة وستين سنة ثم نفخ فيه الروح (حكاه الماوردي) .

« من نطفة » : أى من قطرة ماء ، « أمشاج » : أخلاط من بين الرجل والمرأة .
ويقال : طوراً نطفة ، وطوراً علقّة ، وطوراً عظماء ، وطوراً لَحْمًا .

« نبتليه » : نمتحنه ونختبره . وقد مضى معناه . « فجعلناه سمياً بصيراً » .

« إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا
وإِمَّا كَفُورًا » .

أى : عَرَّفْنَاهُ الطريقَ ؛ أى طريقَ الخيرِ والشرِّ .

وقيل : إِمَّا للشقاوة ، وإِمَّا للسعادة ، إِمَّا شَاكِرًا من أوليائنا ، وإِمَّا أن يكون كافرًا
من أعدائنا ؛ فَإِنْ شَكَرَ فبالتوفيق ، وَإِنْ كَفَرَ فبالخذلان .

قوله جل ذكره : « إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا
وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا » .

أى : هَيَّأْنَا لَهُمْ سَلَاسِلَ يُسْحَبُونَ فِيهَا ، وَأَغْلَالًا لَأَعْنَاقَهُمْ يُهَانُونَ بِهَا ، « وسعيراً » :
ناراً مستعرة .

« إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ
مِزَاجُهَا كَافُورًا » .

قيل : الْبَرُّ : الذى لَا يُضْمِرُ الشَّرَّ ، وَلَا يُؤْذِي الذَّرَّ .

وقيل : الْأَبْرَارَ : هم الذين سَمَتْ هِمَّتُهُمُ عَنِ الْمُسْتَحْقِرَاتِ ، وَظَهَرَتْ فِي قُلُوبِهِمْ بِنَايِعُ الْحِكْمَةِ
فَاتَّقُوا عَنِ مُسَاكِنَةِ الدُّنْيَا .

يشربون^(١) من كَأْسٍ رَائِحَتُهَا كَرَامَةُ الْكَافُورِ ، أَوْ مِمَّا مَزُوجَةٌ بِالْكَافُورِ .

ويقال : اختلفت مشاربُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ؛ فَكُلُّهُ يُسْقَى مَا يَلِيقُ بِمَحَالِهِ . . . وكذلك في الدنيا
مشاربُهُمْ مُخْتَلِفَةٌ ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يُسْقَى مَزْجًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُسْقَى صِرْفًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُسْقَى عَلَى

(١) يتحدث القشيري في هذه السورة عن الشراب على نحو تفصيل يستحق التأمل ، وينبغي أن يضاف إلى
حديثه عنه في رسالته عند بحث هذا الموضوع عند هذا الصوفى السقى الجليل .

النُّوب ، ومنهم من يُسقى بالنُّجُب ومنهم من يُسقى وحده ولا يُسقى مما يُسقى غيره ، ومنهم من يُسقى هو والقوم شراباً واحداً . . وقالوا :

إن كنت من تدمى فبالأ كبر اسقني ولا تسقني بالأصغر المثلم
وفائدة الشراب — اليوم — أن يشغلهم عن كل شيء فيُريحهم عن الإحساس ، ويأخذهم
عن قضايا العقل . . كذلك قضايا الشراب في الآخرة ، فيها زوال الأرب ، وسقوط الطلب ،
ودوام الطرب ، وذهاب الحرب ، والغفلة عن كل سبب .

ولقد قالوا :

عاقِرْ عقارك واضطِبحْ واقدَحْ سرورك بالقدَحِ
واخلع عذارك في الهوى وأريحْ عذولك واسترحْ
وافرحْ بوقتِك إنما عُمُرُ الفتى وقتُ الفرحِ

قوله جل ذكره : « عينا يشرب بها عبادُ الله يُفَجَّرُونَهَا
تفجييراً » .

يُشَقِّقُونَهَا تَشَقِّقاً ، ومعناه أن تلك العيون تجري في منازلهم وقصورهم على ما يريدون .
واليوم — لهم عيونٌ في أسرارهم من عين المحبة ، وعين الصفاء ، وعين الوفاء ، وعين البسط ،
وعين الروح . . وغير ذلك ، وغداً لهم عيون .

« يوفون بالنذر »

ثم ذكر أحوالهم في الدنيا فقال : يوفون بالعهد القديم الذي بينهم وبين الله على
وجهٍ مخصوص .

« وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ
مُسْتَطِيرًا » .

قاسياً ، منتشرًا ، ممتدًا .

« وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا
وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا » .

أى : على حُبِّهم للطعام لحاجتهم إليه . ويقال : على حُبِّ الله ، ولذلك يُطْعِمُونَ .
ويقال : على حُبِّ الإطعام .

وجاء فى التفسير : أن الأسير كان كافرًا — لأنَّ السلم ما كان يُستأسَرُ فى عهده — فطاف
على بيت فاطمة رضى الله عنها^(١) وقال : تأسرونا ولا تطعمونا^(٢) !

« إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ
مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا » .

إنما نطعمكم ابتغاء مرضاة الله ، لا نريد من قبلكم جزاء ولا شكرًا .

ويقال : إنهم لم يذكروا هذا بألسنتهم ، ولكن كان ذلك بضمائرهم .

« إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبُوسًا
قَمْطَرِيرًا » .

أى : يوم القيامة

« فَوَقَّاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ »

(١) هكذا فى م ، وفى ص (صلى الله عليه) .

(٢) قال الأسير وهو واقف بالباب : « السلام عليكم أهل بيت محمد ، تأسرونا وتشدرونا ولا تطعمونا !
أطعموني فإنى أسير محمد » . فأعطوه الطعام ومكثوا ثلاثة أيام ولياليها لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القراح .. حتى لصق
بطن فاطمة بظهرها وغارت عيناها من شدة الجوع » . فلما رآها النبي (ص) وعرف المجاعة فى وجهها بكى وقال :
« واغوثاه يا الله ! أهل بيت محمد يموتون جوعاً » فنزلت الآية . ولكن بعض رجال الحديث يطعنون فى هذا الخبر .
يقول الترمذى الحكيم فى نواتر الأصول : « هو حديث مزوق مزيف ؛ لأن الله تعالى يقول : يسألونك ماذا ينفقون
قل العفو » ، والنبي يقول : « خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى » .

« ولَقَّاهُمْ » أى : أعطاهم « نَصْرَةً وَسُرُوراً » .

« وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً »

كَافَّاهُمْ عَلَى مَا صَبَرُوا مِنَ الْجُوعِ وَمَقَاسَاتِهِ جَنَّةً وَحَرِيراً

« مُتَكَبِّينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ »

واحدًا أَرِيكَةً ، وهى السرير فى الحِجَال^(١) .

« لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا »

أى : لَا يَتَأَذَّونَ فِيهَا بِحَرٍّ وَلَا بَرْدٍ .

« وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ

قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا » .

يَتِمَكَّنُونَ مِنْ قِطَافِهَا عَلَى الْوَجْهِ الَّذِى هُمْ فِيهِ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ ؛ فَإِنْ كَانُوا قَعُودًا تُدَلَّى لَهُمْ ،
وإن كانوا قيامًا — وهى على الأرض — ارتقت إليهم .

« وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ »

الاسم فِضَّةٌ ، والعين لا تشبه العين^(٢)

« وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا *

قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا »

أى : فى صفاء القوارير وبياض الفضة .. قَدَّرَ ذَلِكَ عَلَى مِقْدَارِ إِرَادَتِهِمْ .

« وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا

زَنْجَبِيلًا » .

المقصود منه الطَّيِّبُ ، فقد كانوا (أى العرب) يستطيعون الزنجبيل ، ويستلذون نكهته ،

(١) جمع حجلة وهى ستر يضرب على سرير العروس كالقبة .

(٢) من هذا يتضح أن القشيري يرى أن الجنة وصفت بما يمكن أن يكون منتهى تصوراتهم الدنيوية لمجالات النعمة .. فالألفاظ هى الألفاظ ولكن الحقائق شئ آخر .

وبه يشبهون الفاكهة ، ولا يريدون به ما يقرص اللسان^(١) .

« عينا فيها تُسمى سلسيلاً » .

أى : يُسَقَوْنَ من عينٍ — أثبت المَسْقَى وأَجَلَ مَنْ يَسْقِيهِمْ ؛ لأنَّ منهم من يسقيه الحقُّ — سبحانه — بلا واسطة .

قوله جل ذكره : « ويطوفُ عليهم ولدانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا » .

أى : يخدمهم ولدان مُخَلَّدُونَ (وصفا لا يجوز واحد منهم حداً الوصاف)^(٢) .

وجاء فى التفسير : لا يَهْرَمُونَ ولا يموتون . وجاء مُقَرَّطُونَ .

إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ من صفاء ألوانهم لُؤْلُؤًا مَنثورًا^(٣) .

وفى التفسير : مامن إنسانٍ من أهل الجنة إلا ويخدمه ألف غلام .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا » .

« ثَمَّ » : أى فى الجنة .

« مُلْكًا كَبِيرًا » : فى التفسير أن الملائكة تستأذن عليهم بالدخول .

وقيل : هو قوله : « لَمْ يَشَاءُوا فِيهَا »^(٤) ويقال : أى لا زوال له .

(١) من ذلك قول المسيب بن علس يصف ثغر المرأة :

وكان طعم الزنجبيل به إذ ذقته وسلافة الحمر

وقال الأعشى :

كان القرنفل والزنجبيل سل باما بفيها وأريا مشورا

(والأرى = هو العسل) .

(٢) هكذا فى النسختين وفيها شىء من غموض .

(٣) قيل : إنما شبههم باللؤلؤ المنثور لأنهم سراع فى الخدمة ، بخلاف الحور العين إذ شبهن باللؤلؤ المكنون المخزون لأنهن لا يمتحنن بالخدمة (القرطبي ١٩٠ ص ١٤٤) .

(٤) آية ٣٥ سورة ق .

«عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ
وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ
وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا» .

يحتمل أن يكون هذا الوصف للأبرار . ويصح أن يكون للولدان وهو أولى ، والاسم يوافق الاسم دون العين^(١) .

« شَرَابًا طَهُورًا » : الشراب الطهور هو الطاهر في نفسه المُطَهَّرُ لغيره .

فالشراب يكون طهوراً في الجنة — وإن لم يحصل به التطهير لأن الجنة لا يُحتاج فيها إلى التطهير .

ولكنه — سبحانه — لما ذَكَرَ الشرابَ — وهو اليومَ في الشاهد نجسٌ — أخبر أن ذلك الشرابَ غداً طاهرٌ ، ومع ذلك مُطَهَّرٌ ؛ يُطَهَّرُهم عن محبة الأغيار ، فمن يَحْتَسِر من ذلك الشراب شيئاً طَهَّرَهُ عن محبة جميع المخلوقين والمخلوقات .

ويقال : يُطَهَّرُ صدورهم من الغِلِّ والغِشِّ ، ولا يُبْقِي لبعضهم مع بعض خصيصة (ولاعداوة)^(٢) ولا دَعْوَى ولا شيء .

ويقال : يُطَهَّرُ قلوبهم عن محبة الحور العين .

ويقال : إن اللائسكة تعرض عليهم الشرابَ فيأبون قبوله منهم ، ويقولون : لقد طال أخذنا مِنْ هؤلاء ، فإذا هم بكساتٍ تُلَاقِي أفواههم بغير أ كُفٍّ ؛ من غيب إلى عبء .

ويقال : اليومَ شرابٌ وغداً شراب .. اليومَ شرابُ الإيناس^(٣) وغداً شرابُ الكاس ، اليومَ شرابٌ من اللُّطْفِ وغداً شرابٌ يَنَادِرُ على الكف .

(١) أرايت كيف يلح التفسير على هذا المعنى ؟

(٢) غير موجودة في م وموجودة في ص .

(٣) هكذا في ص وهي في م (الأنفاس) ، والصواب ما أثبتنا كما يتضح فيما بعد (آئمه) .

ويقال : مَنْ سَقَاهُ الْيَوْمَ شَرَابَ مَحَبَّتِهِ آتَسَهُ وَشَجَعَهُ ؛ فَلَا يَسْتَوْحِشُ فِي وَقْتِهِ مِنْ شَيْءٍ ،
وَلَا يَضِنُّ بِرُوحِهِ عَنْ بَذْلِ . وَمَنْ مَقْتَضَى شُرْبَهُ بِكَأْسِ مَحَبَّتِهِ أَنْ يَجُودَ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ بِالْكُونَيْنِ
مِنْ غَيْرِ تَمْيِيزٍ ، وَلَا يَبْقَى عَلَى قَلْبِهِ أَثَرٌ لِلْأَخْطَارِ .

وَمِنْ آثَارِ شُرْبِهِ تَذَلُّهُ لِكُلِّ أَحَدٍ لِأَجْلِ مَحَبَّتِهِ ، فَيَكُونُ لِأَصْفَرِ الْخَدَمِ تُرَابَ الْقَدَمِ ،
لَا يَتَحَرَّكُ فِيهِ لِلتَّكَبُّرِ عَرَقٌ .

وَقَدْ يَكُونُ مِنْ مَقْتَضَى ذَلِكَ الشَّرَابِ أَيْضًا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ أَنْ يَنْتَبِهَ عَلَى أَهْلِ
الْدَّارَيْنِ .

وَمِنْ مَقْتَضَى ذَلِكَ الشَّرَابِ أَيْضًا أَنْ يَمْلِكَهُ سُرُورٌ وَلَا يَتَمَالَكُ مَعَهُ مِنْ خَلْعِ الْعَذَارِ
وِلِقَاءِ قَنَاعِ الْحَيَاءِ^(١) وَيُظْهِرُ مَا هُوَ بِهِ مِنَ الْمَوَاجِيدِ :

يَخْلَعُ فِيكَ الْعَذَارَ قَوْمٌ فَكَيْفَ مَنْ مَالَهُ عَذَارُ؟

وَمِنْ مَوْجِبَاتِ ذَلِكَ الشَّرَابِ سَقُوطُ الْحَشْمَةِ ، فَيَتَكَلَّمُ بِمَقْتَضَى الْبَسْطِ ، أَوْ بِمَوْجِبِ لَفْظِ
الشُّكُوفِ ، وَبِمَا لَا يَسْتَخْرِجُ مِنْهُ — فِي حَالِ صَحْوِهِ — سَفِيهٌ بِالْمُنَاقِيشِ^(٢) . . . وَعَلَى هَذَا
حَمَلُوا قَوْلَ مُوسَى : « رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ »^(٣)

فَقَالُوا : سَكِرَ مِنْ سَمَاعِ كَلَامِهِ^(٤) ، فَتَنَطَّقَ بِذَلِكَ لِسَانُهُ . وَأَمَّا مَنْ يَسْقِيهِمْ شَرَابَ التَّوْحِيدِ
فَيَنْفِي عَنْهُمْ شَهُودَ كُلِّ غَيْرٍ فَيَهَيِّمُونَ فِي أَوْدِيَةِ الْعِزِّ ، وَيَتِيهُونَ فِي مَفَاوِزِ الْكِبَرِيَاءِ ، وَتَتَلَاشَى

(١) هكذا في م وهي في ص (الحياة) ، والملائم لخلع العذار إلقاء قناع (الحياء) . والمقصود بهما تجاوز حد الصبر على المكتوم من الحب ، ونطق العبد وهو في غلبات الشهود بشخصات ظاهرها مستشنع وإن كان باطنها في غاية السلامة (انظر تعريف السراج للشطح في اللمع) .

(٢) المناقيش جمع منقاش ، ويقال في المثل : استخرجت منه حقي بالمناقيش أي تعبت كثيراً حتى استخرجت منه حقي (الوسيط) .

(٣) آية ١٤٣ سورة الأعراف .

(٤) الفصير في (كلامه) يعود على الرب ؛ سبحانه حينما قال : « إِنِّي أَنَا اللَّهُ » ، ر في موضع آخر يصف القشيري موسى عليه السلام بأنه كان في حال التلوين فظهر عليه ما ظهر ، بينما المصطفى (ص) ليلة المعراج كان في حال التمكن فما زاغ بصره وما طنى .

جملتهم في هواء الفردانية . . فلا عقل ولا تمييز ولا فهم ولا إدراك . . فكل هذه المعاني ساقطة .

فالعبد يكون في ابتداء الكشف مستوعباً ثم يصير مستغرقاً ثم يصير مستهزئاً . .
« وأن إلى ربك المنتهى »^(١) .

قوله جل ذكره : « إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جِزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا » .

يقال لهم : هذا جزاء لكم ، « مشكوراً » : وشكركم لسعيهم تكثير الثواب على القليل من العمل — هذا على طريقة العلماء ، وعند قوم شكرهم جزاؤهم على شكرهم .

ويقال : شكرهم لهم ثناؤه عليهم بذكر إحسانهم على وجه الإكرام .

قوله جل ذكره : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا »

في مدة^(٢) سنين .

« فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا » .

أى : ارض بقضائه ، واستسلم لحكمه .

« وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا » : أى : ولا كفوراً ، وهذا أمر له بإفراد ربه بطاعته .

« وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا » .

الفرض في الأول ، ثم النفل^(٣)

« إِنَّ هَؤُلَاءِ .. »

(١) آية ٤٢ سورة النجم .

(٢) هكذا في النسختين ولا نستبعد أنها في الأصل (عدة) وكلاهما صحيح في السياق .

(٣) فالصلاة جاءت في الأول (بكرة وأصيلًا) صلاة الصبح ثم الظهر والعصر (ومن الليل) المغرب والعشاء ثم من بعد ذلك النفل وهو (وسبحه ليلاً طويلاً) : لأنه تطوع ، قيل : هو منسوخ بالصلوات الخمس ، وقيل : هو خاص بالنبي (ص) وحده .

أى كفار قريش .

« يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ
يَوْمًا ثَقِيلًا » .

أى : لا يعملون ليوم القيامة .

قوله جل ذكره : « نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا
شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً » .

أعدمناهم ، وخلقنا غيرهم بدلاً عنهم . ويقال : أخذنا عنهم الميثاق^(١) .

« إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ ... »

أى : القرآن تذكرة .

« فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا » .

بطاعته .

« وما تشاءون إلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ
اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * يُدْخِلُ مَنْ
يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ
عَذَابًا أَلِيمًا » .

أى : عذاباً أليماً موجعاً يخلص وجمعه إلى قلوبهم .

(١) تأخرت هذه العبارة عن موضعها ، فأرجعناها إلى مكانها .

سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة مَنْ سَمِعَهَا بِسْمِ الْوَجْدِ وَفِي لَهُ فَلَمْ يَنْظُرْ إِلَى أَحَدٍ ، وَمَنْ سَمِعَهَا بِسْمِ الْعِلْمِ جَادَ لَهُ فَلَمْ يَبْغُلْ بِرُوحِهِ عَلَى أَحَدٍ .

ومن سَمِعَهَا بِسْمِ التَّوْحِيدِ جَرَّدَ سِرَّهُ عَنْ إِثَارِ^(١) مَا سِوَاهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عَيْنًا وَأَثَرًا فَمَا كَانَ هَذَا كُلُّهُ إِلَّا حَاصِلًا بِهِ كَائِنًا مِنْهُ .

قوله جل ذكره : « وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا » .

« المرسلات » : الملائكة ، « عُرْفًا » أى : أُرْسِلُوا بِالْعُرُوفِ مِنَ الْأَمْرِ ، أَوْ كَثِيرِينَ كَعُرْفِ الْفَرَسِ .

« فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا » .

الرياحُ الشديدة (العواصف تأتي بالمصف وهو ورق الزرع وحطامه) .

« وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا » .

الأمطار (لأنها تنشر النبات . فالنشر بمعنى الإحياء) . ويقال : السَّحْبُ تَنْشُرُ الْغَيْثَ .
ويقال : الملائكة .

« فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا » .

الملائكة ؛ تفرق بين الحلال والحرام .

« فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ
نُذْرًا » .

(١) هكذا في ص وهي في م (ثياب) وهي خطأ من النسخ .

الملائكة : تُلَقِّي الوحيَ على الأنبياء عليهم السلام ؛ إعداراً وإنداراً . .
وجوابُ القسمِ :

« إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ » .

فأقسم بهذه الأشياء : إِنَّ القيامةَ لَحَقٌّ .

قوله جل ذكره : « فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ » .

إنما تكون هذه القيامة . « وطُمِسَتْ » : ذهب ضوؤها .

« وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ » .

ذَهَبَ بِهَا كُلُّهَا بِسُرْعَةٍ ، حَتَّى لَا يَبْقَى لَهَا أَثَرٌ .

« وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتَتْ * لِأَيِّ يَوْمٍ »

أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ » .

أى : جَعَلَ لَهَا وَقْتًا وَأَجَلًا لِفَصْلِ الْقَضَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

ويقال : أُرْسِلَتْ لِأَوْقَاتٍ مَعْلُومَةٍ .

« وَمَا أَذْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ »

على جهة التعظيمِ له .

« وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ » .

مضى تفسيرُ معنى الويلِ .

ويقال في الإشارات : فَإِذَا نُجُومُ الْمَعَارِفِ طُمِسَتْ بِوُقُوعِ الْغِيْبَةِ .

وإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ : الْقُلُوبُ السَّاكِنَةُ بِبَيِّنِ الشُّهُودِ حُرِّكَتْ عِقُوبَةً عَلَى مَا هَمَّتْ بِالَّذِي

لَا يَجُوزُ . فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِأَرْبَابِ الدَّعَاوَى الْبَاطِلَةِ الْخَاصِلَةِ مِنْ ذَوِي الْقُلُوبِ الْمُطْبَقَةِ الْخَالِيَةِ

مِنَ الْمَعَانِي .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُنْبِئُهُمُ

الْآخِرِينَ » .

الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ ، وَجَعَدُوا آبَاتِنَا ؛ فَثَلَمَا أَهْلَكْنَا الْأَوَّلِينَ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ إِذَا

فَعَلُوا مِثْلَ فِعْلِهِمْ .

« ويلٌ يومئذٍ للكاذبين » الذين لا يستوى ظاهرهم وباطنهم في التصديق .
وهكذا كان المتقدمون من أهل الزَّللِ والفترة في الطريقة ، والخيانة في أحكام المحبة فعذبوا
بالحرمان في عاجلهم ، ولم يذوقوا من المعاني شيئاً .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَّهِينٍ ؟ » .

أى : حقير . وإذ قد علمت ذلك فلمَ لم تقيسوا أمر البعث عليه ؟

ويقال : ذكَّروهم أصلَ خلقتهم لئلا يُعْجَبُوا بأحوالهم ؛ فإنه لا جنسَ من المخلوقين
والخلوقاتِ أشدَّ دعوى من بنى آدم . فمن الواجب أن يتفكَّرَ الإنسانُ في أصلِهِ كان
نطفةً وفي انتهائه يكون جيفةً ، وفي وسائط حاله كنيفٌ في قيص ! ! فبالحرى ألاَّ يُدِلَّ
ولا يفتخر :

كيف يزهو من رجبِهِ أبدَ الدهرِ ضجيعُهُ

فهو منه وإليه وأخوه ورضيعُهُ

وهو يدعوهُ إلى الحُشِّ^(١) بصغر فيطيعه ! ! ؟

ويقال : بذكَّروهم أصلهم .. كيف كان كذلك .. ومع ذلك فقد نقلهم إلى أحسن صورة ،

قال تعالى :

« وصوركم فأحسن صوركم » ، والذي يفعل ذلك قادرٌ على أن يُرْقِيَك من الأحوال

الخبيسة إلى تلك المنازل الشريفة .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ نجعلِ الأرضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءَ

وأَمْواتًا » .

« كِفَاتًا » أى : ذات جَمْعٍ ؛ فالأرض تضمهم وتجمعهم أحياء وأمواتا ؛ فهم يعيشون على

ظهرها ، ويودَّعون بعد الموت في بطنها ..

« وجعلنا فيها رواسيَ شِاخَاتٍ وَأَسْقِينَاكُمْ ماءً فُرَاتًا » .

(١) الحش بفتح الحاء وضمها = الكنيف .

والمقصود : كيف ترمو أيها الإنسان ، وإن ما يعذبه جسلك من فضلات ملازم لك حياتك . ليلاك ونهارك ،
وأنت تطيعه صاغراً إذا أمرك ودعاك بالذهاب إلى الحش ؟

أى : جبالاً مرتفعات ، وجعلنا بها الماء سقياً لكم . يُذكّرهم عظيم منتهى بذلك عليهم .
والإشارة فيه إلى عظيم منتهى أنه لم يخسف بكم الأرض — وإن علمتم ما علمتم .
« انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون » .

يقال لهم : انطلقوا إلى النار التي كذبتكم بها .

« انطلقوا إلى ذل ذي ثلاث شعب * لا ظليل ولا يُنقى
من اللهب » .

كذلك إذا لم يعرف العبد قَدْرَ انفتاح طريقه إلى الله بقلبه ، وتعزّزه بتوكله .. فإذا
رجع إلى الخلق عند استيلاء الغفلة نزع الله من قلبه الرحمة ، وانسدت عليه طرق رُشده ،
فيتردد من هذا إلى هذا إلى هذا .

ويقال لهم : انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون . والاستقلال بالله جنّة المأوى ، والرجوع
إلى الخلق قرع باب جهنم .. وفي معناه أنشدوا :

ولم أرَ قبلى من يفارق جنّةً ويرع بالتطفيل باب جهنم

ثم يقال لهم إذا أخذوا في التنصّل والاعتذار :

« هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتدّون » .

فإلى أن تنتهى مدّة العقوبة حينئذ : ان استأنفت وقتاً استأنف لك وقت . فأما الآن ..
فصبراً حتى تنقضى أيام العقاب .

« هذا يوم الفصل جمعناكم
والأولين » .

فعلنا بكم ما فعلنا بهم في الدنيا من الخذلان ، كذلك اليوم سنفعل بكم ما نفعل بهم
من دخول النيران

قوله جل ذكره : « إنّ المتقين في ظلال وعيون » .

اليوم .. في ظلال العناية والحماية ، وغداً ... هم في ظلال الرحمة والكلاءة .

اليوم .. في ظلال التوحيد ، وغداً .. في ظلال حُسن المزيد .

اليوم .. في ظلال المعارف ، وغداً .. في ظلال اللطائف .

اليوم .. في ظلال التعريف ، وغداً .. في ظلال التشريف .

« كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون » .

اليوم تشربون على ذكره .. وغداً تشربون على شهوده ، اليوم تشربون بكاسات الصفاء وغداً تشربون بكاسات الولاء .

« إنا كذلك نجزي المحسنين » .

والإحسانُ من العبد تركُ الكلِّ لأجله كذلك غداً : يحازيك بترك كلِّ الحاصل عليك لأجلِك .

قوله جل ذكره : « كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم تُجرمون » .

هذا خطابٌ للكفار ، وهذا تهديدٌ ووعيد ، والويل يومئذٍ لكم .

قوله جل ذكره : « وإذا قيل لهم أركعوا لا يركعون » .

كانوا يُصرِّون على الإباء والاستكبار فسوف يقاسون البلاء العظيم^(١) .

[ذكر في التفسير : أن المتقين دائماً في ظلال الأشجار ، وقصور الدرّ مع الأبرار ، وعيون جارية وأنهار . ، وألوانٍ من الفاكهة والثمار .. من كل ما يريدون من الملك الجبار . ويقال لهم في الجنة : كلوا من ثمار الجنات ، واشربوا شراباً سليماً من الآفات . « بما كنتم تعملون » من الطاعات . « كذلك نجزي المحسنين » من الكرامات . قيل : كلوا واشربوا « هنيئاً » : لا تبعة عليكم من جهة الخصومات ، ولا أذية في المأكولات والمشروبات .

وقيل : الهنيء الذي لا تبعة فيه على صاحبه ، ولا أذية فيه من مكروهٍ لغيره .]

(١) إل هنا انتهى تفسير السورة في م النسخة ص . وكل ما بين القوسين الكبيرين موجود في النسخة م . .

(١)

سُورَةُ النَّبَاِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم ».

« بسم الله » اسمُ مَلِكٍ تَجَمَّلَ عِبَادُهُ بِطَاعَتِهِ ، وَتَزَيَّنَ خَدَمُهُ بِعِبَادَتِهِ ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ لَا يَتَجَمَّلُ بِطَاعَةِ الْمُطِيعِينَ ، وَلَا يَتَزَيَّنُ بِخِدْمَةِ الْعَابِدِينَ ؛ فزينة العابدين صُدار طاعتهم ، وزينة العارفين حُلَّةُ معرفتهم ، وزينة المحبِّين تاجُ ولايتهم .. وزينة المذنبين غَسْلُ وجوههم بِصَوْبٍ^(٢) عِبْرَتِهِمْ .

قوله جل ذكره : « عَمَّ يُتَسَاءَلُونَ » عن النبأ العظيم *
الذي هم فيه مُخْتَلِفُونَ .

مُخْتَلِفُونَ بِشِدَّةِ إنْكَارِهِمْ أَمْرَ الْبَعْثِ ، وَلِالتَّبَاسِ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ، وَكَثْرَةِ مُسَاءَلَتِهِمْ عَنْهُ ، وَكَثْرَةِ مُرَاجَعَتِهِمْ إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَعْنَاهُ .

تَكَرَّرَ مِنَ اللَّهِ إِنْزَالُ أَمْرِ الْبَعْثِ ، وَكَمْ اسْتَدَلَّ عَلَيْهِمْ فِي جَوَازِهِ بِوُجُوهٍ مِنَ الْأَمْثَلَةِ ..
فَهَذَا مِنْ ذَلِكَ ، يَقُولُ : « عَمَّ يُتَسَاءَلُونَ . عَنْ النَّبَأِ الْعَظِيمِ » : عَنْ الْخَبَرِ الْعَظِيمِ « الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ » قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى جِهَةِ الْاِحْتِجَاجِ عَلَيْهِمْ :

« أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ؟ »

ذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ حَتَّى سَكَنُوهَا

« وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ؟ » .

(١) هذا هو اسم السورة كما جاء في ص أما في م فتعنوانها (سورة عم يتساءلون) .

(٢) هي في م (بضرب) وهي في ص (بصوت) وكلاهما غير مقبول في السياق ، وقد رجحنا أن تكون في الأصل (بصوب) على أساس أن القشيري يستعمل الفعل (تنقطر) مع (العبرة) في مواضع مماثلة ، كما أنها أقرب في الرسم .

أوتاداً للأرضِ حتى نَمِيدَ بِهِمْ .

« وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا »

ذَكَرًا وَأُنْثَى ، وَحَسَنًا وَقَبِيحًا . . وَغَيْرَ ذَلِكَ

« وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا »

أَي رَاحَةً لَكُمْ ، لَتَنْقَطِعُوا عَنْ حَرِّ كَاتِبِكُمُ الَّتِي تَعْبَتُمْ بِهَا فِي نَهَارِكُمْ .

« وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا »

تُغَطِّي ظُلُمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ فَتَسْكُنُوا فِيهِ .

« وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا »

أَي وَقْتَ مَعَاشِكُمْ .

« وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا »

أَي سَبْعَ سَمَوَاتٍ .

« وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا »

أَي الشَّمْسَ ، جَعَلْنَاهَا سِرَاجًا وَقَادًا مُشْتَعِلًا .

« وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا »

« الْمُعْصِرَاتِ » الرِّيحُ الَّتِي تَعْصِرُ السَّحَابَ (١) .

« مَاءٌ ثَجَّاجًا » مَطَرًا صَبَّابًا .

« لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا *

وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا »

« حَبًّا » كَالْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ ، « وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا » بَسَاتِينَ يَلْتَفُّ بِعُضُهَا بَعْضُ .

وَإِذَا قَدْ عَلِمْتُمْ ذَلِكَ فَهَلَّا عَلِمْتُمْ أَنِّي قَادِرٌ عَلَى أَنْ أُعِيدَ الْخَلْقَ وَأُقِيمَ الْقِيَامَةَ ؟

(١) وَالْمُعْصِرَاتُ أَيْضًا السَّحَابُ تَعْصِرُ بِالْمَطَرِ ، وَأَعْصَرَ الْقَوْمُ أَي : أَمَطَرُوا ، وَمِنْهُ « وَفِيهِ يُمْصِرُونَ » وَالْمُعْصِرُ الْجَارِيَةُ أَوَّلُ مَا أُدْرِكَتِ الْحَيْضُ . فَالْمُعْصِرُ السَّحَابَةُ الَّتِي حَانَ لَهَا أَنْ تَمُطَرَ (الصَّحَاحُ) .

فبعدَ أنَ عَدَّ عليهم بعضَ وجوهِ إنعامه ، وتمكينهم من منافعهم .. قال :
« إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ كَانَ مِيقَاتًا »

مضى معناه

« يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ
أَفْوَاجًا » .

أى فى ذلك اليوم تأتون زُمرًا وجماعاتٍ .

« وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا »

أى : تَشَقَّتْ وانفطرت .

« وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا »

أى كالسراب .

« إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا » .

أى ممرًا . ويقال : ذات ارتقابٍ لأهلها .

« لِلطَّاغِيَتِينَ مَأْبَا »

أى مرجعًا .

« لَا بَشِيرَ فِيهَا أَحْقَابًا »

أى دهورًا ، والمعنى مُؤَبَّدِينَ

« لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا »

إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا »

مضى معناه . ثم يُعَذَّبُونَ بعد ذلك بأنواعٍ أُخَرَ من العذاب .

« جَزَاءُ وِفَاقًا »

أى : جُوزُوا على وفق أعمالهم . ويقال : على وفق ما سَبَقَ به التقديرُ ، وجرى

به الحُكم .

« إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا »

لا يؤمنون فيرجون الثواب ويخافون العقاب .

« وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا »^(١) .

أى : تكذيباً .

« وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا »

أى : كتبناه كتاباً ، وعلّمناه علماً .

والمسبحُ الزاهدُ يحصى تسبيحه ، والمهجورُ البائسُ يحصى أيامَ هجرانه ، والذي هو صاحب وصالٍ لا يتفرّغ من وصله إلى تذكُّرِ أيامه في العدد ، أو الطول والقصر .

والملائكةُ يحصون زلّاتِ العاصين ، ويكتبونها في صحائفهم . والحق سبحانه يقول :

« وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا » فكما أحصى زلّاتِ العاصين وطاعاتِ المطيعين فكذلك أحصى أيامَ هجرانِ المهجورين وأيامَ محنِ المتحنين ، وإنّ لهم في ذلك لَسَلْوَةً ونَفْسًا ؛ ثَمَانٍ قَدْ مَضَيْنَ بِهَا تَلَاقي وَمَا فِي الصَّبْرِ فَضْلٌ عَنْ ثَمَانٍ

وكم من أقوامٍ جاوزت أيامُ فترتهم الحدَّ ! وأرُبتْ أوقاتُ هجرانهم على الحَصْرِ !

قوله جل ذكره : « فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَ كُمْ إِلَّا عَذَابًا »

بأيها المُنْعَمُونَ في الجنة .. إفرحوا وتمتعوا فلن نزيدكم إلا ثواباً .

أيها الكافرون .. احترقوا في النار .. ولن نزيدكم إلا عذاباً^(٢)

وبأيها المطيعون .. افرحوا وارتموا فلن نزيدكم إلا فضلاً على فضل .

بأيها المساكين .. إبكوا واجزعوا فلن نزيدكم إلا عزلاً على عزل .

قوله جل ذكره : « إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا

* وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا * وَكَأْسًا دِهَاقًا *

(١) في « كذاباً » يقول الفراء : هي لغة يمانية فسيحة ؛ يقولون : كذبت به كذاباً وخرقت القميص خيراً أقام . فكل فعل في وزن (فعلّ) مصدره فعال مشددة في لغتهم .

(٢) قال أبو برزّة : سألت النبي (ص) عن أشد آية في القرآن فقال : قوله تعالى : « فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَ كُمْ إِلَّا عَذَابًا » أى : « كلما نصبت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها » و « كلما خبت زدنهم سميّاً » .

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً وَلَا كِتَابًا *
جِزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا »

مُسَلَّمٌ لِلْمُتَّقِينَ مَا وَعَدْنَاهُمْ بِهِ .. فَهَنِيئًا لَهُمْ مَا أَعَدَدْنَا لَهُمْ مِنَ الْفَوْزِ بِالْبُغْيَةِ وَالظَّفَرِ بِالسُّؤْلِ
وَالْمُنِيَةِ : مِنْ حِدَائِقِ وَأَعْنَابٍ ، وَمِنْ كَوَاعِبِ أَتْرَابٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

فَيَأْيِهَا الْمُهِيمُونَ الْمُتَيَّمُونَ هَنِيئًا لَكُمْ مَا أَتَمَّ فِيهِ الْيَوْمَ فِي سَبِيلِ مَوْلَاكُمْ مِنْ تَجَرُّدٍ وَقَرٍّ ،
وَمَا كَلَّفَكُمْ بِهِ مِنْ تَوَكُّلٍ وَصَبْرٍ ، وَمَا تَجَرَّعْتُمْ مِنْ صَدٍّ وَهَجَرٍ .

أُخْرَى الْمَلَابِسِ مَا تَلَقَّى الْحَيِّبَ بِهِ يَوْمَ التَّزَاوُرِ^(١) فِي الثَّوْبِ الَّذِي خَلَعَا
قَوْلُهُ : « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا ... » آذَانُهُمْ مَصُونَةٌ عَنْ سَمَاعِ الْأَغْيَارِ ، وَأَبْصَارُهُمْ مَحْفُوظَةٌ
عَنْ مِلَاحَظَةِ الرُّسُومِ وَالْآثَارِ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُ مِنْهُ خِطَابًا »

وَكَيْفَ نَكُونُ لِلْمُكُونِ الْخَلْقِ الْفَقِيرِ الْمُسْكِنِ مُكْنَةً أَنْ يَمْلِكَ مِنْهُ خِطَابًا ؟ أَوْ يَنْفَسَ
بِدُونِهِ نَفْسًا ؟ كَلَّا ... بَلْ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْجَبَّارُ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا
لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ
وَقَالَ صَوَابًا »

إِنَّمَا تَظْهَرُ الْهَيْبَةُ عَلَى الْعُمَمِ لِأَهْلِ الْجَمْعِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَأَمَّا الْخَوَاصُ وَأَصْحَابُ الْحَضُورِ
فَهُمْ أَبَدًا بِمَشْهَدِ الْعِزِّ بِنَعْتِ الْهَيْبَةِ ، لَا نَفْسَ^(٢) لَهُمْ وَلَا رَاحَةَ ؛ أَحَاطَ بِهِمْ سِرَادُهَا وَاسْتَوْلَتْ
عَلَيْهِمْ حَقَائِقُهَا .

(١) هَكَذَا فِي م وَهِيَ فِي ص (التَّزَاوُلِ) وَهِيَ خَطَأٌ مِنَ النَّاسِخِ ، وَالْمَقْصُودُ مِنَ النَّصِّ الشَّعْرِيِّ : أَنَّ اللَّهَ يَجِبُ
أَنْ يَرَى عَلَى الْفُقَرَاءِ ثِيَابَ التَّجَرُّدِ لِأَنَّهَا الثِّيَابُ الَّتِي خَلَعَهَا عَلَيْهِمْ بِنَفْسِهِ حِينَ آثَرُوا حَقَّهُ عَلَى حِفْظِ ظُهُمِهِ .
(٢) هَكَذَا فِي م وَهِيَ فِي م (لَا تَفْرُ لَمْ وَلَا فَرَجَةَ) وَرَبَّمَا كَانَتْ (فَرَجَةً) بِالْجِيمِ .

قوله جل ذكره : « ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ
إلى ربه مآباً » .

هم بمشهد الحق ، والحكم عليهم الحق ، حكم عليهم بالحق ، وهم مجذوبون بالحق للحق .
قوله جل ذكره : « إنا أنذرناكم عذاباً قريباً » .

وهو عند أهل الغفلة بعيد ، ولكنه في التحقيق قريب .

« يوم ينظر المرء ما قدمت يداه »
ويقول الكافر^(١) : يا ليتني
كنت تراباً .

مضوا في ذل الاختيار والتعني^(٢) ، وبُعِثوا في حسرة التمني ، ولو أنهم رضوا بالتقدير
لتخلصوا^(٣) عن التمني .

(١) قيل : يراد بالكافر هنا أبي بن خلف أو عقبة بن أبي معيط . ويرى أبو نصر عبد الرحمن بن عبد الكريم
القشيري - صاحب هذا الكتاب : هو إبليس ، يقول : يا ليتني خلقت كآدم من تراب ولم أقل أنا خير منه لأني
من نار . (القرطبي ١٩٨ ص ١٨٩) .

(٢) وردت في اللسختين (التعني) وهي مقبولة ، ولكننا نرجح أنها ربما كانت في الأصل (التعني) لأن
الاختيار كان في الدنيا ، واختيار المرء - حسب نظرية القشيري - مجلبة لعناقه وشقاؤه . هذا فضلاً عن أن إثبات
(التعني) يزيد المعنى - نظراً لتلون الفاصلة - قوة وجهاً .

(٣) هكذا في م وهي في ص (لتخلصوا) وواضح فيها خطأ الناسخ .

(١) سُورَةُ النَّازِعَاتِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ عزيزٌ لربِّ عزيز ، سماعُهُ يحتاج إلى سَمْعٍ عزيز ، وذكْرُهُ يحتاج إلى وقتٍ عزيز ، وفهمُهُ يحتاج إلى قلبٍ عزيز .

وأنتَ لصاحبِ سَمْعٍ بالغيبِ مُبتَدَل ، ووقتِ مُعْطَلٍ في الخسائسِ مُستَفْرَق ، وقلبٍ في الاشتغالِ بالأغيارِ مستعمل . . . أَنِّي لَهُ أَنَّنْ يَصْلُحُ لِسَاعِ هَذَا الْإِسْمِ ١٩ .

قوله جل ذكره : « والنَّازِعَاتِ غَرَقًا » .

أى الملائكة ؛ تنزعُ أرواحَ الكفَّارِ من أبدانهم .

« غَرَقًا » : أى إغراقًا كالمُغْرَقِ في قَوْسِهِ (٢) .

ويقال : هى النجوم تنزع من مكانٍ إلى مكان .

« والنَّاشِطَاتِ نَشْطًا » .

هى أنفُسُ المؤمنين تَنْشِطُ للخروج عند الموت .

ويقال : هى الملائكة تَنْشِطُ أرواحَ الكفَّارِ ، وتنزعها فيشتدُّ عليهم خروجُها .

ويقال : هى الوحوش تنشط من بلادٍ إلى بلادٍ .

ويقال : هى الأوهاق (٣) .

(١) هكذا فى ص وهى فى م (سورة والنَّازِعَاتِ) بإثبات الواو .

(٢) إغراق النَّازِعِ فى القوس أن يبلغ مداها ويستوفى شدتها .

(٣) هكذا فى م وهى فى (ص) الأوهاق (بالراء وهى خطأ فى النسخ ، والأوهاق جمع وهق بهركتين وقد يسكن : الحبل تشد به الإبل والخيول حتى تؤخذ وفى طرفه أنشودة . وأوهق الدابة أى طرح فى عنقها الوهق . وعن عكرمة وعطاء : الأوهاق تنشط السهام .

ويقال : هي النجوم تنشط من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق .

« وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا »

الملائكة تسبح في نزولها .

ويقال : هي النجوم تسبح في أفلاكها .

ويقال : هي السفن في البحار .

ويقال : هي أرواح المؤمنين تخرج بسهولة لشوقها إلى الله .

« فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا » .

الملائكة يسبقون إلى الخير والبركة ، أو لأنها تسبق الشياطين عند نزول الوحي ، أو لأنها تسبق بأرواح الكفار إلى النار .

ويقال : هي النجوم يسبق بعضها بعضاً في الأفول .

« فَلِلْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا » .

الملائكة تنزل بالحرام والحلال .

ويقال : جبريل بالوحي ، وميكائيل بالقطر والنبات ، وإسرافيل بالصُّور ، ومَلَكُ اللُّوت يقبض الأرواح . . عليهم السلام .

وجوابُ القسم قوله : « إِنْ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّمَن يَخْشَى » (١)

قوله جل ذكره : « يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ » .

تتحرك الأرض حركةً شديدة .

« تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ » .

النفخة الأولى في الصُّور . وقيل : الراجفة النفخة الأولى والرادفة النفخة الثانية .

(١) هذه هي الآية رقم ٢٦ بالسورة وهو اختيار الترمذي أيضاً .. وهي كما ترى متأخرة جداً . ويرى بعض المفسرين أن جواب القسم مفسر لأنه لا يخفى على السامع ، ويرى آخرون - كالقراء - أنه البعث بدليل « أنذا كنا عظاما نخرة » .

ويرى الترمذي : أنه قسم جوابه : إن القيامة حق .

« قلوبٌ يومئذٍ واجفةٌ » .

خاتمة .

« يقولون أئنا لمرءدون في
الحفرة (١) » .

أى إلى أول أمرنا وحالنا ، يعنى أئذا متنا نبعث ونُرَدُّ إلى الدنيا (ونمشى على الأرض
بأقدامنا) ؟ : قالوه على جهة الاستبعاد .

« أئذا كُنَّا عِظَامًا نَّخْرَةً » .

أى بالية .

« تلك إنا كَرَّةٌ خاسرةٌ » .

رَجَعَتْ ذات خسران (ما دام المصيرُ إلى النار) .

قوله جل ذكره : « فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا
هَمُّ السَّاهِرَةِ (٢) » .

جاء فى التفسير إنها أرض المحشر ، ويقال : إنها أرضٌ بيضاء لم يُغصَّ الله فيها (٣) .
ويقال : الساهرة نَفْخَةُ الصُّور تذهب بنومهم وتسهرهم .

قوله جل ذكره : « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى *
إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ
طُوًى » .

أى الأرض المطهرة المباركة . « طوى » اسم الوادى هناك .

« أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى *
فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى » .

(١) سميت الأرض الحفرة لأنها مستقر الخوافر .

(٢) سميت الأرض بالساهرة لأن فيها نوم الحيوان وسهره (الفراء) ، وقال أبو كبير الهذلى :
يرتدن ساهرة كأن جميعها وعينها أمداف ليل مظلم

(٣) هذا رأى ابن عباس .

قلنا له : اذهب إلى فرعون إنه طغى ، قُلْ له : هل يقع لك أن تؤمنَ وتتطهر من ذنوبك .
وفي التفسير : لو قُلْتَ لا إله إلا الله فَلكَ مُلْكٌ لا يزول ، وشبابك لا يهرم ، وتعيش
أربعمائة سنة في السرور والنعمة .. ثم لك الجنة في الآخرة .

« وأهديكَ إلى ربِّك فتخشى » .

أَقْرَرُكَ بِالآيَاتِ صِحَّةَ مَا أَقُولُ ، وأعرفك صحة الدين .. فهل لك ذلك ؟ فلم يَقْبَلْ .
ويقال : أظهر له كل هذا التلطُّفَ ولكنه في خِيفٍ سِرِّه وواجبِ مَكْرِهِ به أنه صَرَفَ
قلبه عن إرادة هذه الأشياء ، وإيثار مراده على مراد ربِّه ، وألقى في قلبه الامتناع ، وترك قبول
النصح .. وأى قلبٍ يسمع هذا الخطاب فلا ينقطع لعذوبة هذا اللفظ ؟ وأى كبدٍ تعرف هذا
فلا تَنَشَقُّ لصعوبة هذا المكر ؟

قوله جل ذكره : « فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى » .

جاء في التفسير : هي إخراجُ يده بيضاء لها شعاعٌ كشعاع الشمس . فقال فرعون : حتى
أشاورَ هامان^(١) ، فشاوَرَه ، فقال له هامان : أبعد ما كُنْتُ رُبًّا تكونُ مربوبًا ؟ ! وبعد
ما كنتَ مَلِكًا تكونُ مملوكًا ؟

فكذَّبَ فرعونُ عند ذلك ، وعَصَى ، وَجَمَعَ السَّحَرَةَ ، ونادى :

« فقال أنا ربُّكُمْ الأعلى » .

ويقال : إِنَّ إبليسَ لَمَّا سَمِعَ هذا الخطابَ فرَّ وقال : لا أطيق هذا !

ويقال قال : أنا ادَّعَيْتُ الخيريةَ على آدمَ فلقيت ما لقيت .. وهذا يقول :
أنا ربُّكُمْ الأعلى .

قوله جل ذكره : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى » .

(١) يقصد القشيري من بعيد إلى شيتين : أولهما أن فساد الملوك قد يكون بسبب وزرائهم وحاشيتهم .. ولعلنا
نذكر ما قلناه في المدخل عن أن أشدَّ الخيبة التي ألمت بالقشيري كانت بسبب الكندري وزير السلطان طغرل .
وثانيهما أن الصحبة السيئة قد تؤدي إلى هلاك الصاحب والمصحوب ، وفي هذا تحذير لأرباب الطريق (راجع
باب الصحبة في الرسالة ص ١٤٥) .

أى فى إهلا كنا فرعون كعبرة لمن يخشى .

قوله جل ذكره : « أأنتم أشد خلقاً أم السماء

بناها * رفَعَ سَمَكُها فسواها *

وأَغَطَشَ ليلها وأخرج ضُحاهَا .

« فسواها » جعلها مستوية . « وأغطش ليلها » أظلم ليلها . « ضحاهَا » ضوؤها ونهارها .

« دحاهَا » بسطها ومدَّها .

« أخرجَ منها ماءها ومرعَها » .

أخرج من الأرض العيون المتفجرة بالماء ، وأخرج النبات ..

« والجبالَ أرساها » .

أثبتَّها أوتاداً للأرض .

« متاعاً لكم ولأنعامكم » .

أى أخرجنا النبات ليكون لكم به استمتاع ، وكذلك لأنعامكم .

« فإذا جاءتِ الطامةُ الكبرى » .

الداهية العظمى .. وهى القيامة .

« يومَ يَتَذَكَّرُ الإنسانُ ماسئى » .

وبرزت الجحيم لمن يرى ، فأما من طغى وكفَرَ وآثر الحياة الدنيا فإنَّ الجحيمَ له المأوى

والمُسْتَقَرُّ والمثوى .

« وأما منْ خافَ مقامَ رَبِّه ونَهَى

النَّفْسَ عن الهوى * فإنَّ الجنةَ

هى المأوى » .

« مقام ربه » : وقوفه غداً فى محل الحساب . ويقال : إقبالُ الله عليه وأنه رآه . . . وهذا

عينُ المراقبة ، والآخر محلُّ المحاسبة .

« ونهى النفس عن الهوى » أى لم يتابع هواه .

قوله جل ذكره : « يسألونك عن الساعةِ آياتٍ
مُرْسَاهَا ؟ » .

أى متى تقوم ؟

« فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا » .

مِنْ أَيْنَ لَكَ عِلْمُهَا وَلَمْ تَمْلِكْ ذَلِكَ ^(١) .

« إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا » .

أى إنما يعلم ذلك ربُّكَ .

« إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا » .

أى تخوِّف ، فيقبل تخويفك مَنْ يَخْشَاهَا ويؤمن .

« كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِسُوا

إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا » .

كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ الْقِيَامَةَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ؛ فليشدة ما يرون تقل عندهم كثرةُ
ما لبسوا تحت الأرض .

(١) روى الإمام البخارى فى نهاية حديثه عن هذه السورة قال : حدثنا أحمد بن المقدم حدثنا الفضيل بن سليمان
حدثنا أبو حازم حدثنا سهل بن سعد رضى الله عنه قال : رأيت رسول الله (ص) قال بأصبعيه هكذا بالوسطى والى
نيل الإبهام بعثت الساعة كهاتين . (البخارى ج ٣ ص ١٤٢) .

(١)

سُورَةُ عَبَسَ

قوله جل ذكره « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » . اسم كريم بَسَطَ للمؤمنين بساطَ جوده ، اسم عزيز انسَدَّ على الأولين والآخرين طريقَ وجوده . . . وأنى بذلك ولا حَدَّ له ؟ مَنْ الذى يدركه بالزمان والزمانُ خَلْقُهُ ؟ ومن الذى يحسبه فى المكان والمكانُ فِعْلُهُ ؟ وَمَنْ الذى يعرفه — إلاً وبه يعرفه ؟ وَمَنْ الذى يَذْكُرُهُ ^(٢) — إلاً وبه يذكره ؟

قوله جل ذكره : « عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى » .

نَزَلَتْ فى ابن أمِّ مكتوم ، وكان ضريباً .. أتى النبىُّ صلى الله عليه وسلم وكان عنده العباس ابن عبد المطلب وأمية بن خلف الجُمَحِيُّ ^(٣) — يرجو الرسولُ صلى الله عليه وسلم لإيمانهما ، فَكَّرَهُ أَنْ يَقْطَعَ حَدِيثَهُ مَعَهَا ، فَأَعْرَضَ عَنْ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ ، وَعَبَسَ وَجْهَهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ .

وجاء فى التفسير : أن النبىَّ صلى الله عليه وسلم خرج على أثره ، وأمرَ بطلبه ، وكان بعد ذلك يَبْرُؤُهُ وَيُكْرِمُهُ ، فاستخلفه على المدينة مرتين .

وجاء فى التفسير : أنه صلى الله عليه وسلم لم يَعْبَسْ — بعد هذا — فى وجهٍ فقيرٍ قط ، ولم يُعْرِضْ عنه .

(١) هكذا فى م وهى فى ص (سورة الأعمى)

(٢) هكذا فى ص . هى فى نظرنا أصوب من (يدركه) التى فى م لأن السياق بعدها سيكون : (إلاً وبه يدركه) والله سبحانه منزه عن الدرك واللعوق كما نعرف من مذهب القشيري . أما الذكر فهذا مقبول على حد تعبير ذى النون المصري : (لا أعرفك إلا بك ولا أذكرك إلا بك) .

(٣) يقول ابن العربى : غير صحيح أن أمية هذا كان فى هذا المجلس ، فقد كان بمكة وابن أم مكتوم كان بالمدينة وكان موته كافراً ، ولم يقصد المدينة ، ولا اجتمع بالنبى .

ويقال : في الخطاب لُطْفٌ . . وهو أنه لم يواجهه بل قاله على الكناية^(١) ، ثم بعده قال :
« وما يذكرك لعله يزكّي » .

أى يتذكر بما يتعلم منك أو .

« أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرُ » .

قوله جل ذكره : « أَمَّا مَنْ أَسْتَفْنَى * فَأَنْتَ لَهُ

تَصَدَّقْتَ * وَمَا عَلَيْكَ أَلا يَزَّكِّيَ » .

أَمَّا مَنْ أَسْتَفْنَى عَنْ نَفْسِهِ فَإِنَّهُ أَسْتَفْنَى عَنْ اللَّهِ .

ويقال : استغنى بالله فأنت له تصدّى ، أى تقبل عليه بوجهك .

« وَمَا عَلَيْكَ . . . » فَأَنْتَ لَا تُؤَاخِذُ بَأْلاً يَزَكِّيَ هُوَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ .

« وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى » .

لَطَلَبِ الْعِلْمِ ، وَيَخْشَى اللَّهَ فَأَنْتَ عَنْهُ تَعَلَّمْتَ ، وَتَشَاغَلَ . . وهذا كله مِنْ قِبَلِ الْعِتَابِ
مَعَهُ لِأَجْلِ الْفُقَرَاءِ .

قوله جل ذكره : « كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ
ذَكَرْهُ » .

القرآن تذكرة ؛ فَمَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَذَّكَّرَهُ ذَكَرْهُ ، وَمَنْ شَاءَ اللَّهُ أَلَّا يَذَّكَّرَهُ
لَمْ يَذَّكَّرْهُ ؛ أى بذلك جرى القضاء ، فلا يكون إلا ما شاء الله .

ويقال : الكلامُ على جهة التهديد ؛ ومعناه : فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَهُ فَلْيَذَّكَّرْهُ ، وَمَنْ شَاءَ
أَلَّا يَذَّكَّرَهُ فَلَا يَذَّكَّرْهُ ! كقوله « فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ »^(٢) .

وقال سبحانه : « ذَكَرْهُ » ولم يقل « ذَكَرْهَا » لأنه أراد به القرآن .

قوله جل ذكره : « فِي مِصْحَفٍ مُكْرَمَةٍ » .

(١) أى تحدث عن عبوس الوجه بضمير الغائب ، ثم جاء العتاب بضمير الخطاب .

(٢) آية ٢٩ سورة الكهف .

أى صحف إبراهيم وموسى وما قبل ذلك ، وفى اللوح المحفوظ .

« مَرْفُوعَةٌ مُطَهَّرَةٌ » .

مرفوعة فى القَدْر والرتبة ، مطهرة من التناقض والكذب .

« بِأَيْدَى سَفَرَةٍ » .

أى : الملائكة الكَتَبَةُ .

« كِرَامٍ بِرَّةٍ » .

كرامٍ عند الله بِرَّةٍ .

قوله جل ذكره : « قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ! » .

لَعِنَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْبَرَهُ .

« مِنْ أَيْ شَيْءٍ خَلَقَهُ • مِنْ نُطْقَةٍ

خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ » .

خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ وَقَدَّرَهُ أَطْوَاراً : مِنْ نُطْقَةٍ ، ثُمَّ عَلَقَهُ ، ثُمَّ طَوَّرَهُ بَعْدَ طَوْرٍ .

قوله جل ذكره : « ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ » .

يَسَّرَ عَلَيْهِ السَّبِيلَ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَأَلْهَمَهُ كَيْفَ التَّصَرُّفِ .

ويقال : يَسَّرَ عَلَيْهِ الْخُرُوجَ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ يَخْرُجُ أَوَّلَ رَأْسِهِ مَنْكُوساً .

« ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ » .

أى : جعل له قَبْراً لثَلَاثَ تَفْتَرِسَهُ السَّبَاعُ وَالطَّيُورُ وَلَثَلَا يَفْتَضِحُ .

« ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ » .

بَعَثَهُ مِنْ قَبْرِهِ .

« كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ »

أى : عمى وخالفَ مَا أَمَرَ بِهِ .

ويقال : لم يقض الله له ما أمره به ، ولو قضى عليه وله ما أمره به لكان أعضاء (١) .

قوله جل ذكره : « فليَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ •
أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا • ثُمَّ شَقَقْنَا
الْأَرْضَ شَقًّا • فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا •
وَعِنَبًا وَقَضْبًا • وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا •
وَحَدَائِقَ غُلْبًا • » .

في الإشارة : صَبَبْنَا ماء الرحمة على القلوب القاسية فَلَانَتْ للتوبة ، وصَبَبْنَا ماء التعريف على
القلوب فنبتت فيها أزهار التوحيد وأنوار التجريد .

« وَقَضْبًا » أى القَتَّ (٢) .

« وَحَدَائِقَ غُلْبًا » متكافئة غلاظًا .

« وَفَاكِهَةً وَأَبًّا » .

الفاكهة : جميع الفواكه ، و « أَبًّا » : الرعى .

« مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ . . . » .

« فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ » أى : القيامة ؛ فيومئذ يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، ثم بين
ما سبب ذلك فقال :

« لِكُلِّ أُمْرٍءٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ
يُّغْنِيهِ » .

لا يَتَفَرَّغُ إِلَى ذَاكَ ، وَلَا ذَاكَ إِلَى هَذِهِ . كذلك قالوا : الاستقامة أَنْ تشهدَ الوقتَ

(١) أى : كلاً لم يقض الله لهذا الكافر ما أمره به من الإيمان ، بل أمره بما لم يقض له — وهذا رأى للإمام
ابن فورك شيخ القشيري .

(٢) سُمِّيَ القَتُّ قَضْبًا لأنه يقضب ، أى يقطع بعد ظهوره مرة بعد مرة (الحسن) ويرى ابن عباس أنه الرطب
لأنه يقضب من النخل ، ولأنه ذكر العنب قبله .

قيامه ، فما من وليٍّ ولا عارفٍ إلا وهو — اليوم — بقلبه يفرُّ من أخيه وأمه وأبيه ،
وصاحبه وبنيه .

فالمعارفُ مع الخلق ولكنّه يفارقهم بقلبه — قالوا :

فلقد جعلتك في الفؤادِ مُحدّثي

وأبحثُ جسي من أراد جلوسي^(١)

قوله جل ذكره : « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ » .

وسببُ استبشارهم مختلفٌ ؛ فمنهم من استبشاره لوصوله إلى جنّته ، ومنهم لوصوله إلى
الحدور العين من حظيته . . ومنهم ومنهم ، وبعضهم لأنّه نظر إلى ربّه فرآه .

« وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ *

تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أولئك هم الكَفَرَةُ

الْفَجَرَةُ » .

وهي غَبَرَةُ السُّبْقِ . « تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ » . وهي ذُلُّ الحجاب .

(١) أحد بيتين ينسبان إلى رابعة العدوية ، ، الثاني :

فالجسم مني للجليس مؤانيسٌ وحبيب قلبي في الفؤاد أنيس

(نشأة التصوف الإسلامي ص ١٩١ ط المعارف تأليف بسبوي) .

سُورَةُ التَّكْوِيْرِ

قوله جل ذكره . ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ .

« بسم الله » كلمة أثلجت من قوم قلوباً ، وأوهجت من آخرين قلوباً ؛ من اللطيعين أثلجتها ، ومن العاصين أوهجتها ، ومن المرئيين أبهجتها ، ومن العارفين أزعجتها .

قوله جل ذكره . « إذا الشمس كورت » .

ذَهَبَ ضَوْؤُهَا.

« وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ » .

تَنَازَرَتْ وَاسْتَقَطَتْ عَلَى الْأَرْضِ -

قوله جل ذكره . « وإذا الجبالُ سُيِّرَتْ » (١) .

أَزَيْلَتْ عَنْهَا مَنَاسِكُهَا .

« وَإِذَا الْمَشَارُ عَطَلَتْ » .

وهي الثوب الحواملُ التي أتى حَلُّهَا عَشْرَةَ أَشْهُرًا . . أَهَمَّتْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لَشِدَّةِ أَهْوَالِهِ ،
(وَاشْتَغَالِ النَّاسِ بِأَنْفُسِهِمْ عَنْهَا) .

« وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ » .

أُحْيِيَتْ ، وَجُعِلَتْ فِي الْقِيَامَةِ لِيُقْتَصَرَ لِبَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ ؛ فَيُقْتَصَرُ لِلْجَاءِ مِنَ الْقَرْنَاءِ (٢) — وهذا على جهة ضَرْبِ المَثَلِ ؛ إِذْ لَا تَكْلِيفَ عَلَيْهَا .

(١) تأخرت هذه الآية بعد آية (المشار) في م فرغناها في مكانها الصحيح .

(٢) هذا رأى ابن عباس كما رواه عنه عكرمة، والبراء، وماليس، لما قرئ، وفي أمثالهم «عند النطاح يغلب الكباش الأجم» .

ولا يبعد أن يكون بإيصال منافع إلى ما وصل إليه الألم — اليوم — على المَوْضِي...
جوازاً لا وجوباً على ما قاله أهل البدع.

« وإذا البعائر سُجِّرَتْ » .

أوقدت — مِنْ سَجَّرَتْ النُّورَ أَسْجُرُهُ سَجْراً ، أى : أَحْيَيْتُهُ .

« وإذا النفوسُ زُوِّجَتْ » ^(١) .

بالأزواج .

« وإذا الموءودةُ سُوِّتَتْ * بأى
ذَنْبٍ قُتِلَتْ * وإذا الصُّحُفُ
نُشِرَتْ » .

نُشِرَتْ ، أى : بُسِطَتْ .

« وإذا السماءُ كُشِطَتْ » .

أى : نُزِعَتْ وَطُوِيَتْ .

« وإذا الجحيمُ سُرَّتْ » .

أوقدت .

« وإذا الجنةُ أُرْلِفَتْ » .

أى : قُرِبَتْ مِنَ الْمُتَّقِينَ .

قوله جل ذكره : « عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ »

هو جواب "لهذه الأشياء ، وهذه الأشياء تحصل عند قيام القيامة .

وفى قيام قيامة هذه الطائفة (يقصد الصوفية) عند استيلاء هذه الأحوال عليهم ، وتجلي
هذه المعاني لقلوبهم توجد هذه الأشياء .

(١) قرئت بأشكالها فى الجنة والنار ، قال تعالى : « احشروا الذين ظلموا وأزواجهم » . وقال صلى الله عليه وسلم : « يقرن كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون كعمله » .

فمن اختلاف أحوالهم : أن لشموسهم في بعض الأحيان كسوفاً وذلك عندما يردُّون^(١) .
ونجومُ علومهم قد تنكدر لاستيلاء الهوى على المرئيين في بعض الأحوال ، فعند ذلك
« علمت نفس ما أحضرت » .

قوله جل ذكره : « فلا أقسمُ بالخنس * الجوار
الكنس » .

أى : أقسمُ ، والخنس والكنس هي النجوم إذا غربت^(٢) .

ويقال : البقر الوحش^(٣) .

قوله جل ذكره : « والليل إذا عسعس * والصبح إذا
تنفس » .

عسعس : أى جاء وأقبل . « تنفس » : خرج من جوف الليل .

أقسم بهذه الأشياء ، وجواب القسم :

« إنه لقولُ رسولٍ كريم » .

إن هذا القرآنَ قولُ رسولٍ كريم ، يعنى به جبريل عليه السلام .

« ذى قُوَّةٍ عند ذى العرشِ مكين » .

« مكين » من المكانة ، وقد بلغ من قوته أنه قلع قرية آل لوطٍ وقلبها .

« وما صاحبكم بمجنون » .

وهذا أيضاً من جواب القسم .

« ولقد رآه بالأفق المبين »

رأى محمدٌ جبريلَ عليه السلام بالأفق المبين ليلةَ المعراج .

(١) وعندما يردُّون في أحوال القبض بعد البسط والمجر بعد الوصل ، والخوف بعد الرجاء والفرق بعد
الجمع .. ونحو ذلك .

(٢) قيل هي الكواكب الخمسة الدارِي : زحل ، والمشتري ، وعطارد ، والمريخ ، والزهرة (في رواية
عن علي ابن أبي طالب) .

(٣) فسرته هكذا في رواية عن عبد الله بن مسعود ، وأخرى عن ابن عباس .

ويقال : رأى ربّه وكان صلى الله عليه وسلم بالأفق المبين .

« وما هو على الغيب بضّنين » .

بمقتهم^(١)

قوله جل ذكره : « فأين تذهبون ؟ » .

إلى متى تتطوحن في أودية الظنون والحسبان ؟

وإلى أين تذهبون عن شهود مواضع الحقيقة ؟

وهلاً رجتم إلى مولاكم فيما سرّكم أو أساءكم ؟

« إنّه هو إلّا ذِكْرٌ للعالمين » لِمَنْ

شاء منكم أن يستقيم .

ما هنا القرآن إلّا ذكرى لمن شاء منكم أن يستقيم . . . وقد مضى القولُ

في الاستقامة .

« وما تشاؤون إلّا أن يشاء الله

ربُّ العالمين » .

أَنْ يَشَاءُوا^(٢) .

(١) لا تكون بهذا المعنى إلا إذا قرئت (بظنين) بالظاء ، وهى قراءة ابن كثير ، وأبى عمرو والكشاف .
والآخرين بالضاد فيكون المعنى (ببخيل) أى لا يبخل عليكم بما يعلم من أخبار السماء .

(٢) كنا ننتظر من القشيري الذى يعادى بأن كل شيء من الله وإلى الله حتى أكساب العباد أن يفيض في توضيح
هذه الآية أكثر من ذلك ؛ لأنها ناصية صريحة في نسبة المشيئة - كل المشيئة - لله ، وأن الإنسان إذا وصف بالمشيئة
فهى مرتبطة بالمشيئة الإلهية .

سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة منيعة ليس يسمو إلى فهمها كلُّ خاطر ؛ فإذا كان الخاطر غيرَ عاقلٍ فهو عن علمِ حقيقتها مُتَقَامِرٌ .

قوله جل ذكره : « إذا السماء انفطرت »

أى : انشقت .

« وإذا الكواكبُ انثرت » .

تساقطت وتهاوت .

« وإذا البحارُ فجرت » .

أى : فُتِحَ بعضها على بعض .

« وإذا القبورُ بُعِثَت »

أى : قُلِبَ ترابُها ، وُبِعِثَ الموتى الذين فيها ، وأُخْرِجَ ما فيها من كنوزٍ وموتى .

« عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ » .

جوابٌ لهذه الأمور ؛ أى إذا كانت هذه الأشياء : عَلِمَتْ كلُّ نَفْسٍ ما قَدَّمَتْ من خيرها وشرِّها .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ

الكَرِيمِ » .

أى : ما خدعتك وما سؤل لك حتى عميت^(١) بمصايه ؟

ويقال : سألّه وكأنما فى نفس السؤال لقنّه الجواب يقول : غرّنى كرمك بى ،
ولولا كرمك لما فعلت ؛ لأنك رأيت فسرت ، وقد رت فأمهلت .

ويقال : إن المؤمن^(٢) وثق بحسن إفضاله فاغتر بطول إيماله فلم يرتكب الزلة
لاستحلاله ، ولكن طول حمله عنه حمّله على سوء خصاله ، وكما قلت^(٣) :

يقول مولاي : أما تستحي بما أرى من سوء أفعالك

قلت : يا مولاي رقاً قد جرّأنى^(٤) كثرة أفضالك

قوله جل ذكره : « الذى خلّك فسوّاك فعدّلك » فى أى

صورة ما شاء ركبك .

أى : ركب أعضاءك على الوجوه الحكمة^(٥) فى أى صورة ما شاء ، من الحسّن والتبج ،

والطول والقصر . ويصح أن تكون الصورة هنا بمعنى الصفة ، و « فى » بمعنى « على » ؛ فيكون

معناه : على أى صفة شاء ركبك ؛ من السعادة أو الشقاوة ، والإيمان أو العصية . .

قوله جل ذكره . « كلاب تكذبون بالدين »

أى : القيامة^(٦) .

« وإنّ عليكم لحافظين » كراماً

كاتبين * يملّسون ما تعملون » .

هم الملائكة الذين يكتبون الأعمال . وقد خوفهم برؤية الملائكة وكتابتهم الأعمال لتقاصر

(١) هكذا فى ص وهى فى م (علمت) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) يقصد القشيري هنا (المؤمن العاصي) .. المذلة بين المنزلتين (بين المؤمن والكافر) .

(٣) ينبغى ملاحظة ذلك إذا أردنا أن ندرس (القشيري الشاعر) : أنظر هذه الدراسة فى كتابنا عن (الإمام

القشيري) .

(٤) هكذا فى م وهى فى ص (أفسدت) وكلامها صحيح .

(٥) هكذا فى النسختين ، وقد كنا نريد أن نظن أنها ربما كانت (الحكمة) ، ولكن ارتباط السياق

بالمشيئة (.. ما شاء ركبك) جعلنا نخرج عن هذا الظن .

(٦) بدليل قوله تعالى فيها بعد (يصلونها يوم الدين) .

حشمتهم من اطلاع الحق ، ولو علموا ذلك حقَّ العلم لَكَانَ تَوْقِيَهُمْ عن المخالفات لرؤيته — سبحانه ، واستحيائهم من اطلاعه — أتمَّ من رؤية الملائكة .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ » .

« الأبرار » : هم المؤمنون ؛ اليومَ في نعمة المصمة ، وغداً هم في السكرامة والنعمة
« الفجار » : اليومَ في جهنم باستحقاق اللعنة والإصرار على الشُّركِ الموجِبِ للفرقة ، وغداً
في النارِ على وجه التخليد والتأييد .

ويقال : « إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ » . في رَوْحِ الذِّكْرِ ، وفي الأنسِ في أوانِ خَلْوَتِهِمْ .
« وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ » . في ضيقِ قلوبهم وتَسَخُّطِهِمْ على التقدير ، وفي ظُلُمَاتِ تدييرهم ،
وضيقِ اختيارهم .

« يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ » .

« يصلونها » أي النار . « يوم الدين » . يوم القيامة .

« وما هم عنها » عن النار . « وما أدراك ما يومُ الدين ؟ » قالها على جهة التهويل .

« يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ » .

الأمر لله يومئذٍ ، والله من قبله ومن بعده ، ولكن « يومئذٍ » تنقطع الدعاوى ، إذ
يتضح الأمرُ وتصير المعارفُ ضرورية .

سُورَةُ الْمُطَفِّينَ

قوله جل ذكره . « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ عزيزٌ رداؤه كبرياؤه ، وسناؤه علاؤه ، وعلاؤه بهاؤه ، وجلاله جماله ، وجماله جلالة . الوجودُ له غيرُ مُستفتح ، والوجودُ منه غيرُ مُستقبح . العبرُ منه لطفه ، المأمولُ منه لطفه . . . كيفما قسمَ للعبدِ فالعبدُ عبده ؛ إن أقصاه فالحكمُ حكمه ، وإن أدناه فالأمرُ أمره (١) .

قوله جل ذكره : « وَيَلِّ لِلْمُطَفِّينَ * الَّذِينَ إِذَا

أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ *

وَإِذَا كَالُواهُمْ أَوْ وَزَنُوا يَخْسِرُونَ » .

« وَيَلِّ » : الويلُ كلمةٌ تُذكرُ عند وقوع البلاء ، فيقال : ويلٌ لك ، وويلٌ عليك ! و « الْمُطَفِّ » : الذي يُنقصُ الكيلَ والوزنَ ، وأراد بهذا الذين يعاملون الناسَ فإذا أخذوا لأنفسهم استوفوا ، وإذا دفعوا إلى من يعاملهم نقصوا ، ويتجلى ذلك في : الوزنِ والكيلِ ، وفي إظهارِ العيبِ ، وفي القضاءِ والأداءِ والاقتضاءِ ؛ فمن لم يرضَ لأخيه المسلمَ مالا يرضاه لنفسه

(١) هذا هو نصرته بسملة كما جاء في م أسأ في من فهي على النحو التالي : -

[بسم الله : اسم جليلٌ جلالة لا بالأشكال ، وجماله لا على احتذاء أمثال ، وأفعاله لا بأغراض وأعلال ، وقدرته لا باجتلاب ولا احتيال ، وعلمه لا بضرورة ولا استدلال . فهو الذي لم يزل ولا يزال ، ولا يجوز عليه فناء ولا زوال] .

وهذا هو تفسير بسملة سورة الانشقاق كما جاء في م وكما سئري ، ومعنى هذا أن اضطراباً حدث في الأمر . وما دمتنا نعرف أنه التثنية لا يستوحى إشارته من كل بسملة بطريقة عفوية ، ولكن على أساس المنزى المأم للسورة . . فقد اخترنا أن تكون بسملة «المطففين» هي هذه على أساس أن بسملة الله للعبد قسمة عائله ليس فيها (تطفيف) ، وأن ما أرجده الله من وجود (غير مستقبح) .

فليس بمنصف . وأما الصَّدِّيقون فإنهم كما ينظرون للمسلمين فإنهم ينظرون لكلِّ مَنْ لهم معهم
معاملة — والصدقُ عزيزٌ ، وكذلك أحوالهم في الصُّحْبَةِ والمعايشة . . فالذى يرى عيبَ الناسِ
ولا يرى عيبَ نفسه فهو من هذه الجملة — جملة المطففين — كما قيل :

وَتُبْصِرُ فِي الْعَيْنِ مَنِّي الْقَلْدِي

وفي عينِكَ الجُدْعَ لَا تُبْصِرُ

وَمَنْ اقْتَضَى حَقَّ نَفْسِهِ — دُونَ أَنْ يَقْضِيَ حَقَّ غَيْرِهِ مِثْلًا يَقْتَضِيهَا لِنَفْسِهِ — فهو
من جملة المطففين .

والفقي مَنْ يَقْضِي حَقَّ النَّاسِ وَلَا يَقْضِي مِنْ أَحَدٍ لِنَفْسِهِ حَقًّا .

قوله جل ذكره : « أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ *

ليَوْمٍ عَظِيمٍ ؟ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ
لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » .

أى : ألا يستيقن هؤلاء أنهم مُحَاسَبُونَ غداً ، وأنهم مُطَالَبُونَ بحقوق الناس ؟

ويقال : مَنْ لَمْ يَذْكُرْ — في حال معاملة الناس — معاينة القيسامة ومحاسبتها فهو
في خسرانٍ في معاملته .

ويقال : مَنْ كَانَ صَاحِبَ مِرَاقِبَةٍ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ اسْتَشْعَرَ الْهَيْبَةَ فِي عَاجِلِهِ ، كما يَكُونُ حَالُ
النَّاسِ فِي الْحَشْرِ ؛ لِأَنَّ إِطْلَاعَ الْحَقِّ الْيَوْمَ كإِطْلَاعِهِ غداً .

قوله جل ذكره . « كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لِنِي

سَجِّين * وَمَا أَذْرَاكَ سَجِّين ؟ *
كِتَابٌ مَرْقُومٌ » .

« سجِّين ^(١) » قيل : هي الأرض السابعة ، وهي الأرض السفلى ، يُوضَعُ كِتَابُ أَعْمَالِ
الكفار هنالك إِذْلالاً لَهُمْ وإِهَانَةً ، ثُمَّ تُحْمَلُ أَرْوَاحُهُمْ إِلَى مَا هُنَالِكَ .

(١) في رواية عن أنس أنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : « سجِّين أسفل الأرض السابعة » .

ويقال : « السَّجِين » جُبٌ في جهنم . وقيل : صخرة في الأرض السفلى ، وفي اللغة السَّجِين : فصيلٌ من السَّجَن .

« وما أدراك ما سجين » . استفهامٌ على جهة التهويل .

« كتابٌ مرقوم » . أى مكتوب ؛ كَتَبَ اللهُ فيه ما هم عاملون ، وما هم إليه صائرون . وإنما المكتوبُ على نبي آدم في الخير والشر ، والشقاوة والسعادة فهو على ما تعلق به حله وإرادته ، وإنما أخبر على الوجه الذى علم أن يكون أو لا يكون ، وكما علم أنه يكون أو لا يكون أراد أن يكون أو لا يكون . ثم إنه سبحانه لم يُطْلِعْ أحداً على أسرار خلقه إلا مَنْ شاء من المقربين بالقدر الذى أراد ؛ فإنه يُجْرِى عليهم في دائم أوقاتهم ما سبق لهم به التقدير .

ثم قال : « وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ الْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ

يُكَذِّبُونَ يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ

بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ »

وبلَّ للذين لا يُصَدِّقُونَ بيوم الدين ، وما يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُجَاوِزٍ لِلْحَدِّ الذى وُضِعَ لَهُ ؛ إذا يُثْقَلَى عليه القرآن كَفَرًا بِهِ .

« كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا

يَكْسِبُونَ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ

يَوْمَئِذٍ لَّخَفِيُونَ »

أى : غَطَّى عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ من المعاصي . . . وكما أنهم — اليوم — ممنوعون عن معرفته فهم غداً ممنوعون عن رؤيته . ودليلُ الخطاب يوجبُ أن يكون المؤمنون يَرَوْنَهُ غداً كما يعرفونه اليوم .

قوله جل ذكره : « كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي

عَلَيْنَ » .

« عَلَيْنَ » أعلى الأمكنة ، تحمل إليه أرواح الأبرار تشریفاً لهم وإجلالاً .

ويقال : إنها سِدْرَةُ الْمُتَنَهِي . ويقال : فوق السماء السابعة . كتابٌ مرقوم فيه أعمالهم مكتوبة يشهده المقربون ^(١) من الملائكة .

« إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ » .

اليومَ وغداً : اليومَ في رَوْحِ العَرْقَانِ ، وراحةِ الطاعة والإحسان ، ونعمةِ الرضا وأنسِ القُرْبَةِ وبَسْطِ الرِّصْلَةِ . وغداً — في الجنة وما وعدوا به من فنون الزَّلَقَةِ والقربة .

قوله تعالى : « عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ » .

أُثْبِتَ النَّظَرَ ولم يَبَيِّنِ المنظور إليه لاختلافهم في أحوالهم ؛ فمنهم من ينظر إلى قُصُورِهِ . ومنهم من ينظر إلى حُورِهِ ، ومنهم ومنهم . . . ومنهم الخواصُّ فهم على دوامِ الأوقات إلى الله — سبحانه — يَنْظُرُونَ .

قوله جل ذكره : « تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ » .

مَنْ تَفَكَّرَ إِلَيْهِمْ عَلِمَ أَنَّ أَثَرَ نَظَرِهِ إِلَى مَوْلَاهُ مَا يُلَوِّحُ عَلَى وَجْهِهِ مِنَ النَّعِيمِ ؛ فَأَحْوَالُ الْحُبِّ شُهُودٌ عَلَيْهِ أَبَدًا . فَإِنْ كَانَ الْوَقْتُ وَقْتُ وَصَالٍ فَاحْتِيَالُهُ وَدَلَالُهُ ، وَسُرُورُهُ وَحُبُورُهُ ، وَنَشَاطُهُ وَانْبِساطُهُ . وَإِنْ كَانَ الْوَقْتُ وَقْتُ غَيْبَةٍ وَفِرَاقٍ فَالشُّهُودُ عَلَيْهِ نَحْوُهُ وَذُبُورُهُ ، وَحَنِينُهُ وَأَيْنُهُ ، وَدُمُوعُهُ وَهَجُوعُهُ .. وفي معناه قلت ^(٢) .

يَا مَنْ تَخَيَّرُ صُورَتِي لَمَّا بَدَأَ — لِجَمِيعِ مَا ظَنَنْتُ بَنَاءً — تَحْقِيقُ

(١) هكذا في م وفي م (يشهد) بدون فسير غائب ، وحسب النسخة الأولى تكون عودة الفسير على الكتاب المرقوم ، وحسب النسخة الثانية يكون الكلام مستمراً خصوصاً ولم يبدأ كالمادة بعلامة فشر يبدء الآية مثل : قوله تعالى أو قوله جل ذكره .. أي : يشهد المقربون أن الأبرار لفي نعيم . ويتقوى الرأي الأول بما قاله القشيري منذ قليل : إن الله يُطْلِعُ بعضَ المقربين على أسرار خلقه بالقدر الذي يريد سبحانه ، كذلك فإن السياق — على الفهم الثاني — يقتضي فتح همزة (إن الأبرار ...) ولكنها مكسورة بما يدل على أن الكلام مستأنف — اللهم إلا إذا كانت يشهد بمعنى يقسم — فالشهادة ترد بمعنى القسم — كما مر من قبل .. وهمزة إن تكسر بعد القسم .

(٢) نسيب كثيراً جداً بهذا الشعر الذي صاغه القشيري ، فهو شاعر مُقِلٌّ ، ولكنه — كما هو واضح — رقيق دقيق .

وربما كان معنى النص الأول على هذا الترتيب : يا مَنْ تَخَيَّرُ صُورَتِي لَمَّا بَدَأَ — تَحْقِيقُ — لِجَمِيعِ مَا ظَنَنْتُ بَنَاءً ؛ أي أن ما ظهر على أسرتي من أشياء حاولت كتابتها قد حقق ظنون الواشين والمأذنين .. فلا فائدة .. فالصب تقضه عيونه ! ونحسب أن ما قبل النص ، وما يقصده النص الثاني يلويان تذوقنا على هذا النحو .

وقلت :

ولما أتى الواشين أنى زُرُّها جَحَدْتُ حِذَاراً أَنْ تَشِيْعَ السرائِرُ
فقالوا : نرى فى وجهك اليومَ نَصْرَةً كَسَتْ مُحْيَاكَ^(١) . . . وهاذك ظاهرُ !
وَبُرْدُكَ لا ذاك الذى كان قبله به طيبُ نَشْرِ لم تُشِعْ الجامِرُ
فلا كان منى من يانٍ أقيم ومهيات أن يخفى مُربُّ مسائرُ !

قوله جل ذكره : « يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ * خِتَامُهُ

مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ » .

« مختوم » أى رحيقٌ لا غشٍّ فيه .

ويقال : عتيقٌ طيبٌ .

ويقال : إنهم يشربون شراباً آخره مسكٌ .

ويقال : بل هو مختومٌ قبل حضورهم .

ويقال : « ختامه مسك » . ممنوعٌ من كلِّ أحدٍ ، مُعَدُّ مَذْخَرٌ لكلِّ أحدٍ باسمه .

« وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » . وتنافسُهم فيه بالمبادرة إلى الأعمال الصالحة ، والسباق إلى القُرْب ، وتعليقُ القلبِ بالله ، والانسلاخُ عن الأخلاقِ الدُّنيَّة ، وجَوْلانُ الهِمَمِ فى المكسوتِ^(٢) ، واستدامةُ الناجاة .

قوله جل ذكره : « وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا

الْمُقَرَّبُونَ » .

« تسنيم » أى : عينٌ تَسْمُ عليهم من علوِّ .

وقيل : ميزابٌ يَنْصَبُ عليهم من فوقهم .

ويقال : سُمِّيَ تسنيمًا ؛ لأن ماءه يجرى فى الهواء مُقَسَّمًا فينصبُ فى أوانى أهل الجنة ؛

(١) كذا بالأصل ولعلها (بَدَتْ فى محياك) أى يستقيم الوزن .

(٢) هكذا فى ص وهو أصح مما فى م (المكتوب) فهو مشتبه على النسخ .

فَنهْم مَن يُسْقَى مَزْجًا ، وَمِنْهُمْ مَن يُسْقَى صِرْفًا .. الْأَوْلِيَاءُ يُسْقَوْنَ مَزْجًا ، وَالْخَوَاصُّ يُسْقَوْنَ صِرْفًا^(١) .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ » .

كَانُوا يَضْحَكُونَ اسْتِهْزَاءً بِهِمْ .. فَالْيَوْمَ .. الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ !
« فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * هَلْ تُؤِثُّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ؟ »
« هَلْ ... » اسْتِفْهَامٌ يَرَادُ مِنْهُ التَّعْظِيرُ .

وَيَقَالُ : إِذَا رَأَوْا أَهْلَ النَّارِ فِي النَّارِ يُعْذِّبُونَ لَا تَأْخُذُهُمْ بِهِمْ شَأْفَةٌ ، وَلَا تَرْقُبُ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ ، بَلْ يَضْحَكُونَ وَيَسْتِهْزِئُونَ وَيُعَيِّرُونَ .

(١) نَفْهَمُ مِنْ هَذَا أَنَّ الْخَوَاصَّ أَعْلَى دَرَجَةٍ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ .

سُورَةُ الْاِنْشِقَاقِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »^(١)

« بسم الله » : اسمٌ جليلٌ جلاله لا بالأشكال ، وجماله لا على احتذاء أمثال ، وأفعاله لا بأغراضٍ وأعمال ، وقدرته لا باجتلابٍ ولا احتيال ، وعلمه لا بضرورة ولا استدلال ، فهو الذي لم يزل ولا يزال ، ولا يجوز عليه فناء ولا زوال .

قوله جل ذكره : « إذا السماء انشقت » .

« انشقت » : انصدعت .

« وَأُذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ » .

أى قابلت أمرَ ربِّها بالسمع والطاعة .. وحقَّ لها أن تفعل ذلك .

« وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ » .

بُسِطَتْ باندكالك آكامها وجبالها حتى صارت ملساء ، وألقت ما فيها من الموتى والكنوز وتخلَّت عنها .. وقابلت أمر ربها بالسمع والطاعة .

وجواب هذه الأشياء في قوله : « فَلَاقِيهِ » أى يَلْقَى الإنسانُ ما يستحقه على أعماله .^(٢)

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى

رَبِّكَ كَدْحًا فُلاقيهِ » .

(١) نعيد إلى الذاكرة ما قلناه من قبل من حدوث افتراق بين النسختين بين تفسير بسملى « المطففين » و « الانشقاق » .

(٢) يرى الكسائى - ويوافقه أبو جعفر النحاس وغيره - أن جواب القسم هو : « فلما من أوتى كتابه يمينه » أى : إذا انشقت السماء فمن أوتى كتابه يمينه فحكمه كذا ..

« يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ » : يَا أَيُّهَا الْمُكَلَّفُ .. إِنَّكَ سَاعٍ بِمَا لَكَ سَعْيًا سَتَلْقَى جَزَاءَهُ ؛ بِالْخَيْرِ خَيْرًا وَبِالشَّرِّ شَرًّا .

« فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ » .

وهو المؤمنُ الْمُحْسِنُ .

« فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا سِيرًا » .

أى حِسَابًا لَا مَشَقَّةَ فِيهِ . وَيُقَالُ : « حِسَابًا سِيرًا » أى يُسَمِّعُهُ كَلَامَهُ — سَبَّحَانَهُ — بِلَا وَاسْطَةِ ، فَيُخَفِّفُ سَمَاعُ خُطَابِهِ مَا فِي الْحِسَابِ مِنْ عَنَاءٍ .

ويقال : « حِسَابًا سِيرًا » : لَا يُذَكَّرُهُ ذَنْبُهُ . وَيُقَالُ : يَقُولُ : أَلَمْ أَفْعَلْ كَذَا ؟ وَأَلَمْ أَفْعَلْ كَذَا ؟ يَعُدُّ عَلَيْهِ إِحْسَانَهُ .. وَلَا يَقُولُ : أَلَمْ تَفْعَلْ كَذَا ؟ لَا يُذَكَّرُهُ عَصْيَانَهُ .

« وَيُنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مُسْرورًا » .

أى بِالنَّجَاةِ وَالدرجات ، وَمَا وَجَدَ مِنَ الْمُنَاجَاةِ ، وَقَبُولِ الطَّاعَاتِ ، وَغَفْرَانِ الزَّلَّاتِ .

ويقال : بَأَن يُشَفِّعَهُ فِيمَنْ يَتَعَلَّقُ بِهِ قَلْبُهُ . وَيُقَالُ : بِأَلَا يَنْضَحُهُ .

ويقال : بَأَن يَلْقَى رَبَّهُ وَيُكَلِّمُهُ قَبْلَ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ فَيَلْقَى حَظِيَّتَهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ .

قوله جل ذكره : « وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ » .

وهو الْكَافِرُ .

« فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا » ..

أى وَبِنَلٍّ .

« وَيَصْنَلَى سَعِيرًا » .

جَهَنَّمَ .

« إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مُسْرورًا »

من البَطَر^(١) والدح .

« إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ » .

أَنَّهُ لَنْ يَرْجِعَ إِلَيْنَا ، وَلَنْ يُبْعَثَ .

قوله جل ذكره : « فَلَا أُقْسِمُ بِالشُّفُقِ » .

بِالْحُمْرَةِ الَّتِي تَعْقِبُ غُرُوبَ الشَّمْسِ .

« وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ » .

وَمَا بَجَعَ وَضَمَّ .

« وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ » .

تَمَّ وَاسْتَوَى وَاجْتَمَعَ .

ويقال : الشُّفُقُ حين غربت شمسُ وصالمُ ، وأذيقوا الفراقَ في بعض أحوالهم ، وذلك زمانُ قبضٍ بعد بَسَطٍ ، وأوانُ فَرَقٍ عَقِيبَ جَمْعٍ^(٢) . « وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ » : ليلَى غيبتهم وهم بوصف الاستيقاظ ؛ أو ليلَى وصالمهم وهم في روح التسلّاق ، أو ليلَى طَلَبِهِمْ وهم بنعتِ القَلَقِ والاحتراقِ .

« وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ » : إِذَا ظَهَرَ سُلْطَانُ الْعِرْفَانِ عَلَى الْقُلُوبِ فَلَا يَخْشَى وَلَا تُقْصَانُ .

قوله جل ذكره : « كَثُرَ كِبَنٌ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ » .

أَيُّ حَالًا بعد حال . وقيل : من أطباق السماء . ويقال : شِدَّةٌ بعد شِدَّةٍ .

ويقال : تَارَاتُ الْإِنْسَانِ طِفْلًا ثُمَّ شَابًا ثُمَّ كِهْلًا ثُمَّ شَيْخًا .

ويقال : طَالِبًا ثُمَّ وَاصِلًا ثُمَّ مُتَّصِلًا .

ويقال : حَالًا بعد حالٍ ، من الفقر والغنى ، والصحة والسَّقم .

ويقال : حَالًا بعد حالٍ في الآخرة .

(١) هكذا في ص وهي في م (النظر) والسياق يقتضى (البطر) فهو من أشد آفات الطريق خطراً - كما نعرف من مذهب القشيري .

(٢) في م (وأوان فراق بعد جمع) والاصطلاحان الصوفيّان الملازمان هما (الفرق والجمع) .

قوله جل ذكره : « فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ؟ » .

أى فا لكفارِ أمتِك لا يصدقون . . وقد ظهرت البراهين ؟

« وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ

لَا يَسْجُدُونَ * بل الذين كفروا

يُكَذِّبُونَ * والله أعلم بما يُوعُونَ » .

« يوعون » أى تنطوى عليه قلوبهم — من أَوْعَيْتُ المتاعَ فى الظَّرْفِ أى جعلته فيه .

« فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ

غَيْرُ مَمْنُونٍ » .

« إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » فإنهم ليسوا منهم ، ولهم أجرٌ غيرُ مقطوع .

سُورَةُ الْبُرُوجِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » : اسمٌ مَنْ لَا عَقْلَ يَكْتَفِيهِ ^(١) ، اسمٌ مَنْ لَا مِثْلَ يُشَبِّهُهُ ، اسمٌ مَنْ لَا فَعْمَ ^(٢) يرتقى إليه بالتصوير ، اسمٌ مَنْ لَا عِلْمَ يَنْتَهِي إِلَيْهِ بِالتَّقْدِيرِ ^(٣) ، اسمٌ مَنْ لَمْ يَرَهُ بَصَرٌ إِلَّا وَاحِدٌ — وهو أيضاً مُخْتَلَفٌ فِيهِ ^(٤) ، اسمٌ مَنْ لَا يَجْسُرُ أَحَدٌ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِغَيْرِ مَا إِذْنٍ فِيهِ ، اسمٌ مَنْ لَا قُطْرَ يَحْوِيهِ ، وَلَا سِرًّا يُخْفِيهِ ، وَلَا أَحَدٌ يَصِلُ إِلَى مَعْرِفَتِهِ إِلَّا مَنْ يَرْضِيهِ .

قوله جل ذكره : « والسماء ذات البروج » .

أراد البروج الأثني عشر ^(٥) .

« واليوم الموعود » .

يوم القيامة .

وجوابُ الْقَسَمِ قوله : « إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ » .

قوله جل ذكره : « وشاهدٍ ومشهودٍ » .

يقال : الشاهدُ اللهُ ، والمشهودُ الخَلْقُ .

(١) أى يدرك كنهه .

(٢) هكلا في النسختين ، ومع ذلك فإننا نرجح أنها ربما كانت في الأصل (من لا وهم ...) فمن أقوال ذى النون : (كلما تصور في وهمك فاته بخلاف ذلك) الرسالة ص ٤ .

(٣) نعرف في الاصطلاح أن (التقدير) لله و(التدبير) للإنسان ، ولكن (التقدير) مستعمل هنا خاصاً بالإنسان ؛ أى أن أحداً لا يستطيع أن (يقدر) الله حق قدره .

(٤) يشير بذلك إلى اختلاف الآراء حول رؤية النبی (ص) ربه ليلة المعراج رؤية بصرية (الرسالة ص ١٧٥) .

(٥) وهى التى قسیر الشمس فى كل منها شهراً ، وهى : الحمل والنور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والمقرب والقوس والجدى والدلو والحوت .

ويقال : الشاهدُ الخَلْقُ ، والمشهودُ اللهُ ؛ يشهدونه اليومَ بقلوبهم ، وغداً بأبصارهم .

ويقال : الشاهدُ محمدٌ صلى الله عليه وسلم ، والمشهودُ القيامةُ ، قال تعالى : « وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » ^(١) ، وقال في القيامة : « ذلك يومٌ مجموعٌ له الناسُ وذلك يومٌ مشهود » ^(٢) .
وقيل : الشاهد يومُ الجمعة ^(٣) ، والمشهود يومُ عرفة .

ويقال : الشاهدُ المَلَكُ الذي يكتب العمل ، والشاهدُ الإنسانُ يشهد على نفسه ، وأعضاؤه تشهد عليه ؛ فهو شاهد وهو مشهود .

ويقال : الشاهدُ يومُ القيامةُ ، والمشهودُ الناسُ .

ويقال : المشهودُ هم الأمةُ لأنه صلى الله عليه وسلم يشهد لهم وعليهم .

ويقال : الشاهدُ هذه الأمةُ ، والمشهودُ سائر الأمم .

ويقال : الشاهدُ الحجرُ الأسودُ لأنَّ فيه كتابَ العهد .

ويقال : الشاهدُ جميعُ الخَلْقِ ؛ يشهدون الله بالوحدانية ، والمشهود اللهُ .

ويقال : الشاهدُ اللهُ ؛ شهد لنفسه بالوحدانية ، والمشهودُ هو لأنه شهد لنفسه .

قوله جل ذكره : « قَتِلْ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ

الْوَقُودِ » .

أَيُ لُمِنُوا . وَالْأُخْدُودُ : الْحُفْرَةُ فِي الْأَرْضِ إِذَا كَانَتْ مُسْتَطِيلَةً ، وَقَصَّتْهُمْ فِي التَّفْسِيرِ مَعْلُومَةٌ ^(٤) .
و« الوقود » الخطب .

وهم أقوامٌ كتموا إيمانهم فلما عَلِمَ مَلِكُهُمْ بذلك أضرَمَ عليهم ناراً عظيمةً ، وألقاهم فيها .

(١) آية ٤١ سورة النساء .

(٢) آية ١٠٣ سورة هود .

(٣) خرج ابن ماجة وغيره رواية عن أبي الدرداء قوله : قال رسول الله (ص) : « أكثرُوا من الصلاة على يوم الجمعة فإنه يوم مشهود تشهد الملائكة » .

(٤) قيل هم من السجستان ، وقيل من نجران ، وقيل من القسطنطينية ، وقيل : هم من المجوس . وقيل من اليهود ، وقيل من النصارى .

وَأَخِرُ مَنْ دَخَلَهَا امْرَأَةٌ كَانَ معها رضيعٌ ، وَهَمَّتْ أَنْ تَرْجِعَ ، فَقَالَ لها الولدُ : قِنِي واصبري ..
فَأَنْتِ عَلَى الْحَقِّ .

وَأَلْقَوْهَا فِي النَّارِ ، وَاقْتَحَمَتْهَا ، وَبَيْنَمَا كَانَ أَصْحَابُ الْمَلِكِ قَعُوداً حَوْلَهُ يَشْهَدُونَ مَا يَحْدُثُ
ارْتَفَعَتِ النَّارُ مِنَ الْأَخْدُودِ وَأَحْرَقَتْهُمْ جَمِيعاً ، وَنَجَّاهُ مِنَ النَّارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَلَّمُوا .

قوله جل ذكره : « وَمَا تَقَمُّوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا
بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » .

مَا غَضِبُوا مِنْهُمْ إِلَّا لِإِيمَانِهِمْ .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ
عَذَابُ الْحَرِيقِ » .

أَيُّ أَحْرَقُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا عَنْ كُفْرِهِمْ « فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ » : نَوْعٌ
مِنَ الْعَذَابِ ، « وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ » : نَوْعٌ آخَرُ (١) .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ
الْفَوْزُ الْكَبِيرُ » .

« ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ » : النِّجَاةُ الْعَظِيمَةُ .

« إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ » .

الْبَطْشُ الْأَخْذُ بِالشَّدَةِ .

« إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ » .

يُبْدِيُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ بَعْدَ الْبَعْثِ .

(١) قد يكون العذاب الأول بالزهرير في جهنم ، والثاني بنار الحريق ؛ فكأنهم يعذبون ببردها وحرها
والله أعلم .

ويقال : يبدى بالعذاب ثم يعيد ، وبالثواب ثم يعيد .

ويقال : يبدى على حُكْمِ العداوة والشقاوة ثم يعيد عليه ، ويبدى على الضعف ويعيدهم إلى الضعف .

ويقال : يبدى الأحوال السَّنيَّة فإذا وقعت حجة يعيد ثانية .

ويقال : يبدى بالخذلان أموراً قبيحة ثم يتوب عليه ، فإذا نَقَضَ توبته فلأنه أعاد له من مقتضى الخذلان ما أجراه في أول حاله .

ويقال : يبدى لطائفَ تعريفه ثم يعيد لتبقى تلك الأنوار أبداً لائحةً ، فلا يزال يبدى ويعيد إلى آخر العمر .

قوله جل ذكره : « وهو الغفور الوَدود » .

« الغفور » كثيرُ المغفرة ، « الودود » مبالغة من الوداد ، ويكون بمعنى المودود ؛ فهو يغفر لهم كثيراً لأنه يودُّهم ، ويغفرُ لهم كثيراً لأنهم يودُّونه .

قوله جل ذكره : « ذو العرش المجيد »

ذو المُلْكِ الرفيع ، والمجد الشريف .

« فَعَالٌ لَمَّا يُرِيد » .

لأنه مالكٌ على الإطلاق ؛ فلا حَجرَ عليه ولا حَظَرَ .

قوله جل ذكره : « هل أتاك حديثُ الجنود » .

الجموع من الكفار .

« فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ »

وقد تقدم ذكر شأنهما .

« بل الذين كفروا في تكذيب »

« الذين كفروا » يعني مُشْرِكِي مكة ؛ « في تكذيب » للبعث والنشر .

« واللهُ مِن ورأهم محيط »

« بل هو قرآنٌ مجيدٌ * في لوح

محفوظ » .

« في لوح محفوظ » مكتوب فيه . وجاء في التفسير : أن اللوح المحفوظ خالق من دُرَّةٍ بيضاء ، دِفَّتَاهُ من ياقوتة حمراء عَرَضُهَا بين السماء والأرض ، وأَعْلَاهُ متعلقٌ بالعرش ، وأسفله في حِجْرِ مَلَكٍ كريم .

والقرآن كما هو محفوظ في اللوح كذلك محفوظ في قلوب المؤمنين ، قال تعالى : « بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » فهو في اللوح مكتوبٌ ، وفي القلوب محفوظٌ .

سُورَةُ الطَّارِقِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » : اسمٌ عزيزٌ إذا أراد إعزازَ عبدٍ وفقَّه لمرقانه ، ثم زينته بإحسانه ، ثم استخلصه بامتنانه ؛ فعصمه من عصيانه ، وقام بحسن التولي — في جميع أحواله — بشانه ، ثم قبضه على إيمانه ، ثم بَوَّاه في جنانه ، وأكرمهُ برضوانه ، ثم أكمل عليه نِعْمَتَهُ برويته وعيانه .

قوله جل ذكره : « والسماء والطارق »

أقسم بالسماء ، وبالنجم الذي يطرق ليلاً .

« وما أدراك ما الطارق ؟ »

استفهامٌ يراد منه تفخيم شأن هذا النجم .

« النجم الثاقب »

المضيء العالي . وقيل : الذي ترمى به الشياطين .

ويقال : هي (١) نجوم المصرفة التي تدل على التوحيد يستضيئ بنورها ويهتدى بها أولو البصائر .

« إن كلُّ نفسٍ لَمَّا عليها حافظ »

ما مِنْ نفسٍ إلا عليها حافظٌ من الملائكة ، يحفظ عليه عمله ورزقه وأجله ، ويحمله على دوام التيقظ وجميل التحفظ .

قوله جل ذكره : « فليُنظرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ

(١) هكذا في م ومي في ص (هو نجم المعرفة ... إلخ) .

من ماء دافقٍ * يخرجُ من بين
الصُّلبِ والتَّرائبِ «

يخرج من صُلْبِ الأب ، وتربيةِ الأم .
وهو بذلك يَحْتَكُ على النَّظَرِ والاستدلال حتى يعرف كمال قدرته وعلمه وإرادته —
سبحانه .

« إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ »
إنه على بَعْثِهِ ، وخلقِهِ مرةً أخرى لقادرٌ ؛ لأنه قادر على الكمال — والقدرةُ على
الشيء تفتضى القدرة على مثله ، والإعادة في معنى الابتداء .

« يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ »

يوم تُمْتَحَنُ الضَّمائر .

« فَمَالَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ »

أى ما لهذا الإنسان — يومئذٍ — من مُعينٍ يدفع عنه حُكْمَ الله .

« وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ »

أى المطر .

« وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ »

« الصَّدع » : الانشقاقُ بالنباتِ للزَّرعِ والشجر .

« إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ »

أى : إن القرآن لقولٌ جَزَمٌ .

« وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ »

الهزل ضد الجدِّ ، فليس القرآنُ بباطلٍ ولا لَعِبٍ .

قوله جل ذكره : « إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا »

أى يحتالون حيلةً .

« وأَكِيدُ كَيْدًا »

هم يحتالون حيلةً ، ونحن نُحْكِمُ فِعْلًا وَنُبْرِمُ خَلْقًا ، ونجازيهم على كيدهم ، بما نعاملهم به من الاستدراج والإمهال .

« فَمَهَّلَ الْكَافِرِينَ أَمَهُلَهُمْ رُويِدًا »

أى أنظرهم ، وأمهلهم قليلا ، وأزودهم رويداً .

سُورَةُ الْأَعْلَى

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » : اسمٌ عزيزٌ مَنْ قَصَدَهُ وَجَدَهُ ، وَمَنْ اسْتَسَعَفَهُ حَمِدَهُ . مَنْ طَلَبَهُ عَرَفَهُ ، وَمَنْ عَرَفَهُ لَاطَفَهُ ، فَإِذَا وَجَدَ لُطْفَهُ أَلْفَهُ ، وَإِذَا أَلْفَهُ أَنْفٌ أَنْ يُخَالِفَهُ .

قوله جل ذكره : « سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى »

أى سَبِّحْ رَبَّكَ بِمَعْرِفَةِ أَسْمَائِهِ ، وَاسْبَحْ بِسِرِّكَ فِي بَحَارِ عِلَالِهِ ، وَاسْتَخْرِجْ مِنْ جَوَاهِرِ عُلُوِّهِ وَسَنَائِهِ مَا تَرْضَعُ بِهِ عِقْدَ مَدِيحِهِ وَثَنَائِهِ .

« الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى »

خَلَقَ كُلَّ ذِي رَوْحٍ فَسَوَّى أَجْزَاءَهُ ، وَرَكَّبَ أَعْضَاءَهُ عَلَى مَا خَصَّهُ بِهِ مِنَ النِّظَمِ الْعَجِيبِ وَالتَّرَكِيبِ الْبَدِيعِ .

« وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى »

أى قَدَّرَ مَا خَلَقَهُ ، فَجَعَلَهُ عَلَى مَقْدَارِ مَا أَرَادَهُ ، وَهَدَى كُلَّ حَيَوَانٍ إِلَى مَا فِيهِ رَشْدُهُ مِنَ الْمَنَافِعِ ، فَيَأْخُذُ مَا يُصْلِحُهُ وَيَتْرَكُ مَا يَضُرُّهُ — بِحُكْمِ الْإِلَهَامِ .

ويقال : هَدَى قُلُوبَ الْغَافِلِينَ إِلَى طَلَبِ الدُّنْيَا فَعَمَرُوهَا ، وَهَدَى قُلُوبَ الْعَابِدِينَ إِلَى طَلَبِ الْعَقْبَى فَأَتَرُوهَا ، وَهَدَى قُلُوبَ الزَّاهِدِينَ إِلَى فَنَاءِ الدُّنْيَا فَرَفَضُوهَا ، وَهَدَى قُلُوبَ الْعُلَمَاءِ إِلَى النَّظَرِ فِي آيَاتِهِ وَالِاسْتِدْلَالِ بِمَصْنُوعَاتِهِ فَعَرَفُوا تِلْكَ الْآيَاتِ وَلاَزَمُوهَا .

(وَهَدَى قُلُوبَ الْمُرِيدِينَ إِلَى عِزِّ وَصْفِهِ فَأَتَرُوه ، وَاسْتَغْرَغُوا جُهْدَهُمْ فَطَلَبُوهُ)^(١) ، وَهَدَى

(١) مَا بَيْنَ التَّوَسُّلِ مَوْجُودٌ فِي صَرْفٍ وَغَيْرِ مَوْجُودٍ فِي م

العارفين إلى قُدُس نَفْتِه فراقبوه ثم شاهدوه ، وهدى الموحدين إلى علاء سلطانه في توحيد كبريائه فتركوا ماسواه وهجروه ، وخرجوا عن كل مألوف لم ومعهود^(١) حتى قصدوه . فلما ارتقوا عن حد البرهان ثم عن حد البيان ثم عما كالميان علموا أنه عزيز ، وأنه وراء كل فصل ووصل ، فرجعوا إلى موطن العجز فتوسدوه .

« والذي أخرج المرعى »

أى النبات .

« جعله غشاءً أحوى »

جعله شيئاً كالغشاء ، وهو الذى يقذفه السيل . و « أحوى » أسود .

« سنقرئك فلا تنسى »^(٢) .

سنجمع القرآن فى قلبك — يا محمد — حفظاً حتى لا تنسى لأننا نحفظه عليك .

« إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر »

وما يخفى .

بما لا يدخل تحت التكليف فتنسأه قبل التبليغ ولم يجب عليه أدائه .

وهو — سبحانه — يعلم السر والعلن .

قوله جل ذكره : « قد ذكر إن نفعت الذكرى »

والذكرى تنفع لا محالة^(٣) ، ولكن ليعرف الله للاعاطية بها ، أما من كان المعلوم

من حاله الكفر والإعراض فهو كما قيل :

(١) هكذا فى م وهى فى ص (معبود) وقد رجحنا (معهود) لتلاؤمها مع (مألوف) . ولكن إذا تذكرنا أن الصوفية يرون الانسياق وراء الهوى نوعاً من الشرك الخفى — قال تعالى : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » — فيمكن فى ضوء ذلك قبول (معبود) أيضاً .

(٢) يرى الجنييد أن المعنى « فلا تنسى العمل به » ، وهذا من الآراء الحسنة التى يتمشى معها رأى القشيري فى « إلا ما شاء الله » .

(٣) ولهذا تفسر (إن) فى الآية على معنى (ما) : أى فذكر ما نفعت الذكرى ، ولا يكون لها حينئذ معنى الشرط ، وتفسر على معنى (إذ) مثل : « وأنتم الأهلون إن كنتم مؤمنين » ، وعلى معنى (قد) .

وما انتفاعُ أخى الدنيا بمُقلته إذا استوت عند الأنوار والظلم
« سَيِّدُكُمْ مَنْ يَخْشَى »

الذى يخشى الله ويخشى عقوبته .

« وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِي يَصَلَّى
النَّارَ الْكَبْرَى * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا
وَلَا يَحْيَا » .

أى يتجنب الذكر الأشقى الذى يصلّى النار الكبرى ، ثم لا يموت فيها موتاً يريحه ،
ولا يحيا حياة تلد له .

قوله جل ذكره : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى » .
مَنْ تَطَهَّرَ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْعُيُوبِ ، ومشاهدة الخلق وأدى الزكاة — وَجَدَ النِّجَاةَ ،
وَالظَّفَرَ بِالْبُغْيَةِ ، وَالْفَوْزَ بِالطُّلْبَةِ .

« وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى »
ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فِي صَلَاتِهِ . ويقال : ذَكَرَهُ بِالْوَحْدَانِيَةِ وَصَلَّى لَهُ .
« بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا »

تميلون إليها ؛ فتُقدِّمون حظوظكم منها على حقوق الله تعالى .
[« وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى »
وَالْآخِرَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ خَيْرٌ وَأَبْقَى — مِنَ الدُّنْيَا — لَطُلَّابَهَا .]^(١)

قوله جل ذكره : « إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى *
صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى »
إن هذا الوعظ لفي الصحف المتقدمة ، وكذلك في صحف إبراهيم وموسى وغيرهما ؛ لأنَّ
التوحيد ، والوعد والوعيد . . لا تختلف باختلاف الشرائع .

(١) ما بين القوسين موجود فى م وغير موجود فى ص .

سُورَةُ الْفَاشِيَةِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » : كلمة من سمعها وفي قلبه عرفانه تلاّأت أنوار قلبه ، وتفرّقت أنواع كُربِه ، وتضاعفت في جماله طوارق حُبّه ، وتحيّرت في جلاله شوارق لبّه .

كلمة مَنْ عَرَفَهَا — وفي قلبه إيمانه — أَحَبَّهَا من داخل الفؤاد ، وهَجَرَ — في طلبها — الرُّقَاد ، وَتَرَكَ — لأجلها — كُلَّ هَمٍّ ومراد .

قوله جل ذكره : « هل أتاك حديثُ الفاشية ؟ » .

« الفاشية » المُجَلَّلَةُ ، يريد بها القيامة تَفْشَى الخَلْقَ ، تَفْشَى وجوه الكفّار .

« وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ

نَاصِبَةٌ * تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً » .

وجوهٌ — إذا جاءت القيامة — خاشعة أى ذليلة . عاملة ناصبة : النَّصَبُ التعب .

جاء في التفسير : أنهم يُجَرِّثُونَ على وجوههم .

« تصلى نارا حامية » تلزم نارا شديدة الحرّ .

ويقال : « عاملة » في الدنيا بالمعاصي ، « ناصبة » في الآخرة بالعذاب .

ويقال : « ناصبة » في الدنيا « عاملة » لكن من غير إخلاص كعمل الرهبان^(١) ،

وفي معناه عملُ أهل النفاق .

(١) روى الضحاك عن ابن عباس قوله : « هم الذين أنصبوا أنفسهم في الدنيا على معصية الله عز وجل ، وعلى الكفر ، مثل عبدة الأوثان ، وكفار أهل الكتاب مثل الرهبان وغيرهم ، لا يقبل الله - جل ثناؤه - منهم إلا ما كان خالصاً » .

« تُسْقَى مِنْ عَيْنِ آيَةٍ » .

تَنَاهَى حَرُّهَا .

« لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ •

لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ » .

نَبَتْ يَنْمُو بِالْحِجَازِ لَهُ شَوْكٌ ، وَهُوَ سُمٌّ لَا تَأْكُلُهُ الدَّوَابُ ، فَإِذَا أَكَلُوا ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ
يُنْفَضُونَ ، فَيُسْقَوْنَ الزَّقْوَمَ .

وإن اتصاف الأبدان - اليوم - بصورة الطاعات مع فقد الأرواح وجدان المكاشفات
(وقد^(١)) الأسرار أنوار الشهادات ، (وقد^(٢)) القلب بـ «إخلاص» والصدق في الاعتقادات
لا يجدي خيراً ، ولا ينفع شيئاً - وإنما هي كما قال: « عاملة ناصبة »

قوله جل ذكره: « وجوه يومئذ ناعمة » .

أى: مُتَنَعِّمة ، ذات نعمة وفضارة .

« لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ » .

حين وَجَدَتْ الثَّوَابَ عَلَى سَعْيِهَا ، وَالْقَبُولَ لَهَا .

« فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ » .

عالية في درجتها ومنزلتها وشرفها . هم بأبدانهم في درجاتهم ، ولكن بأرواحهم مع الله
في عزيز مناجاتهم .

« لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةٌ » .

لأنهم يسمعون بالله ؛ فليس فيها كلمة لغو .

قَوْمٌ يَسْمَعُونَ بِاللَّهِ ، وَقَوْمٌ يَسْمَعُونَ اللَّهَ ، وَقَوْمٌ يَسْمَعُونَ مِنْ اللَّهِ ، وَفِي الْخَبَرِ : « كُنْتُ
إِلَهُ سَمْعًا وَبَصَرًا فَبِي يَسْمَعُ وَبِي يَبْصُرُ »^(٣) .

(١) ما بين القوسين إضافة من جانبنا كي يكون السياق أكثر وضوحاً

(٢) « ما يزال عبي يتقرب إل بالتواقل حتى أحبه ، فإذا أحبته كنت عنه التي يبصر بها ، وسمعه التي
يسمع به ، ويده التي يبطش بها » أوردته السراج في ليله ص ٨٨ . وهو حديث قدسي رواه البخاري عن أبي هريرة
وأحمد عن عائشة ، والطبراني في الكبير عن أبي أمامة ، وابن أبي عمير عن يمين .

« فيها عينٌ جاريةٌ » .

أراد عيوناً ؛ لأن العين اسم جنس ، والعيون الجارية هنالك كثيرة ومختلفة .
ويقال : تلك العيون الجارية غداً لمن له — اليوم — عيونٌ جارية بالبكاء^(١) ، وغداً لم
عيونٍ ناظرة بحكم اللقاء .

« فيها سرُّ مرفوعةٌ * وأكوابٌ
موضوعةٌ * ونمارقٌ مصفوفةٌ * وزرايٌ
مبثوثةٌ » .

النمارق المصفوفة في التفسير : الطنافس المبسوطة .

الزراي المبثوثة في التفسير : البسط المتفرقة .

وإنما خاطبهم على مقادير فهمهم^(٢) .

قوله جل ذكره : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف
خلقت ؟ » .

لما ذكر وصف تلك السرُّ المرفوعة المشيدة قالوا : كيف يصعدونها المؤمن ؟ فقال :
أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ؟ كيف إذا أرادوا الحمل عليها أو ركوبها تنزل ؟
فكذلك تلك السرُّ تتطامن حتى يركبها الولي .

وإنما أنزلت هذه الآيات على وجه التنبيه ، والاستدلال بالخلق على كمال قدرته —
سبحانه .

فالقوم كانوا أصحاب البوادي لا يرون شيئاً إلا السماء والأرض والجبال والجمال . . .
فأمرهم بالنظر في هذه الأشياء .

(١) منذ عهد مبكر ظهرت طائفة البكتّان في صفوف الزهاد ، وإن كان بعض الصوفية لا يتحمس للبكاء
إمّا لأن الدموع علامة شكوى ، وهم لا يحبون أن يشكوا ، وإمّا لأنها تم عن ضعف الحال ، وهم يطمنون أن يكونوا
راسخين كالجبال .

(٢) يتبع هنا فكرة التشيرى الأساسية عن وصف الآخرة : الأسماء أسماء ، والأعيان بخلاف ذلك .

وفي الإبل خصائص تدل على كمال قدرته وإنعامه جل شأنه ؛ منها : ما في إمكانهم من الارتفاع بظهورها للحمل والركوب ، ثم بنسليها ، ثم بلحمها ولبنها ووبرها . . . ثم من سهولة تسخيرها لهم ، حتى يستطيع الصبي أن يأخذ بزمامها ، فتتجر وراءه . والإبل تصير على مقاساة المطش في الأسفار الطويلة ، وهي تقوى على أن تحمل فوق ظهورها الكثير من الحمولات .. ثم حرانها إذا حقدت ، واسترواحها إلى صوت من يحذوها عند الإعياء والتعب ، ثم ما يعكّل للمره بما يناط بها من برّها (١) .

« فَذَكَّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصِيطِرٍ (٢) » .

لست عليهم بمُسلّطٍ ، فَذَكَّرْ — يا محمد — بما أمرناك به ، فبذلك أمرناك (٢) .

« إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ » .

إلا من تولى عن الإيمان وكفر فيعذبه الله بالخلود في النار .

« إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ » .

إن إلينا رجوعهم ، ثم نجازيهم على الخير والشر .

(١) إشارة القشيري الخاصة بالإبل استوفت المراد ، فمن المعلوم أن ضروب الحيوان المختلفة لا تخرج عن أربعة : حنوبية ، وركوبية ، وأكولة ، وحمولة . وقد استطلع القشيري أن يقتنع أن الإبل جمعت كل هذه المنافع .
(٢) بمصيطر وبمسيطر ، أي بالصاد والسين (الصالح) .
(٣) لم يقع القشيري فيها وقع فيه بعض المفسرين حين قالوا : « إن في الآية نسخاً بآيات القتال والجهاد » .. فالعذاب الأكبر في الآخرة لا ينفي تعذيب الكفار بشئ ألوان التعذيب في الدنيا ، ومنها القتل والأسر .

سُورَةُ الْفَجْرِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

بسم الله كلمة ما استولت على قلب فقير فأفلقته ، وما تمكنت من مير متم فشنته ،
وما استولت على روح محب فرحته (١) . كلمة قهارة للقلوب .. ولكن لكل قلب ،
كلمة لا سبيل لها لكل عقل ، كلمة تكتفي من العابدين بقراءتهم لها ، ولكنها لا ترضى
من المحبين إلا ببذل أرواحهم فيها .

قوله جل ذكره : « والفجر * وليالٍ عشر » .

الفجر انفجار الصبح وهو اثنان : مستطيل وقصير (٢) ؛ ففي التفسير : إنه فجر الحرم
لأنه ابتداء السنة كلها ، وقيل : فجر ذى الحجة .

ويقال : هو الصخور ينفجر منها الماء .

ويقال : أقسم به لأنه وقت عبادة الأولياء عند افتتاحهم النهار .

« وليالٍ عشر » قيل : هي عشر ذى الحجة ، ويقال : عشر الحرم ؛ لأن آخرها عاشوراء .
ويقال : العشر الأخيرة من رمضان .

ويقال : هي العشر التي ذكرها الله في قصة موسى عليه السلام ثم به ميعاده بقوله :
وَأَتِمْنَاهَا بِعَشْرِ .

(١) هكذا في النسختين ، ولا تستبعد أنها في الأصل : (فأراحته) ذلك لأن رحمة الله عامة ، الخاصة والكافة ،
أما محبة - التي هي رحمة خاصة بالخواص - فهي المقصودة هنا (الرسالة ص ١٥٨) وهذه المحبة إذا استولت على
روح محب أزعجته وما (أراحته) لأنها تتطلب بذل الروح ، واسترخاض المهجة .
(٢) في النسختين (مستطيل ومستطير) ولم نفهم المقصود ، فوضعنا (قصير) محل مستطير كي يكون هناك
بين فجر لعام كامل - وفجر ليوم واحد - والله سبحانه وتعالى أعلم .

ويقال : هو « فجر » قلوب العارفين إذا ارتقوا عن حد العلم ، وأسفر صُبحُ معارفهم ، فاستغنوا عن ظلمة طلب البرهان^(١) بما تجلّى في قلوبهم من البيان .

« والشَّعْغُ والوترُ » .

جاء في التفسير : الشَّعْغُ يومُ النَّحْرِ ، والوتر يوم عَرَفة^(٢) .

ويقال : آدم كان وتراً فُشِّعَ بزوجه حواء .

وفي خبر : إنها الصلوات منها وتر (كصلاة المغرب) ومنها شفع كصلاة الصُّبح .

ويقال : الشَّعْغُ الزوج من العدد ، والوتر الفرد من العدد .

ويقال : الشَّعْغُ تضادُّ أوصاف الخلق : كالمعلم والجهل ، والقدرة والعجز ، والحياة والموت . والوتر أفراد صفات الله سبحانه عما يضادها ؛ علم بلا جهل ، وقدرة بلا عجز ، وحياة بلا موت .

ويقال : الشَّعْغُ الإرادة والنية ، والوتر الهمة ؛ لا نكتفي بالخلق ولا سبيل لها إلى الله — لتقدُّسه عن الوصلِ والفصل . فبقيت الهمة غريبة .

ويقال : الشَّعْغُ الزاهد والعابد ، لأن لكل منهما شكلاً وقرباً ، والوتر المريد فهو كما قيل :

فريدٌ من الخِلَافِ في كل بلدةٍ

إذا عَظُمَ المَطْلُوبُ قَلَّ المَسَاعِدُ

« والليل إذا يسر » .

« بسرى » يمضى .

قوله جل ذكره . « هل في ذلك قَسَمٌ لذي حِجْرِ ؟ » .

« حِجْرٍ » . لُبٍّ . وجوابُ القَسَمِ : « إن ربَّك بالمرصاد » .

(١) أى عن النطاق العقل .. والعقل - في نظر الصوفية - مصاب بآفات التجويز والتحيز والارتباط بالمحسّات .

(٢) يوم عرفة وتر ، لأنه تاسع الأيام العشرة ، ويوم النحر شفع لأنه عاشرها . . وقد روى حديث بهذا المعنى عن جابر بن عبد الله .

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ »

إِذْ مَنَّ ذَاتَ الْعِمَادِ ... » .

ذكر قصص هؤلاء المتقدمين .. إلى قوله : « فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ »
أى : شدة العذاب .

« إِنَّ رَبَّكَ لَبَاصِدٌ » .

لا يفوته شيء .

قوله جل ذكره : « فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ »

فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ »

وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ »

فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ » .

« فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ » : أى : شكره .

« فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ » . أى : ضيق ، « فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ » . أى : أذلنى . كلا .. ليس
الإذلالُ بالفقر إنما الإذلالُ بالخللانِ للمصيان^(١) .

قوله جل ذكره : « كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ »

أى : أنتم تستحقون الإهانة على هذه الخصال للزئومة ؛ فلا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ .

« وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ »

وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا .

لَمًّا . أى شديداً .

« وَنُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا »

جَمًّا أى كثيراً .

(١) كما نعرف من ملهيب القشيري ، أقصى درجات الغضب : الخللان للمصيان وأقصى درجات الرضا :
التوفيق للطاعة .. وكلاهما من الله .

قوله جل ذكره : « كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ
دَكًّا دَكًّا » .

أى : قامت القيامة .

« وجاء ربك والملك صفاً صفاً » .

« وجاء ربك » أى الملائكة بأمره (١) .

ويقال : يفعل فعلاً فيُسميه مجيئاً .

« وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر
الإنسان وأنى له الذكرى ؟ ! »

يقال : تقاد جهنم بسبعين ألف زمام (٢)

وفى ذلك اليوم يتذكر الإنسان .. ولا ينفعه التذكر ، ولا يقبل منه العذر .

« يقول يا ليتنى قدمت لحياتى »

أى : أظمت ربى ونظرت لنفسى .

« فيومئذ لا يعذب عذابه أحد »

أى : لا يعذب فى الدنيا أحد مثلاً يعذبه الله فى ذلك اليوم .. إذا قرئت الذال بالكسر .

أما إذا قرئت بالفتح (٣) « لا يعذب » فالغنى : لا يعذب أحد مثلاً يعذب هذا
الكافر (٤) .

قوله جل ذكره : « يأتيتها النفس المطمئنة » .

(١) أى : جاءهم ربك . أى : ظهرت آياته ، وأزيل الشك ، وصارت المعارف ضرورية ، وظهرت القدرة الإلهية . والمقصود نفى التحول من مكان إلى مكان عن الله ، فقد جلّت الصمدية عن الارتباط بالتحول الحركى والتقيد الزمانى والمكانى .

(٢) « ... كل زمام بيده سبعين ألف ملك ، لها تغيظ وزفير ، حتى تنصب عن يسار العرش » (ابن مسعود) - وفى صحيح مسلم حديث يرويه ابن مسعود بهذا المعنى .

(٣) بالفتح قراءة الكسائي « لا يعذب » « ولا يوثق » .

(٤) قيل : هو إبليس لأنه أشد المخلوقات عذاباً ، وقيل « هو أمة بن خلف لتناهى فى كفره وعناده » .

الروحُ للمطمئنةُ إلى النفس .

ويقال : المطمئنةُ بالمعرفة : ويقال : المطمئنة بذكر الله .

ويقال : بالبشارة بالجنة . ويقال : النفس المطمئنة : الروح الساكنة^(١)

« أَرْجِي إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً »

راضية^(٢) عن الله ، مَرْضِيَّةٌ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ .

« فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَأَدْخُلِي »

جَنَّتِي .

أى : فى عبادى الصالحين .

(١) تأخرت هذه العبارة الأخيرة إلى نهاية السورة فى النسختين فنقلناها إلى موضعها .

(٢) وردت (من) ولكننا وجدنا أن المعنى حينئذ لن يتغير فيما بين اسم الفاعل واسم المفعول ، فوضعنا (عن) بدلا من (من) مسترشدين بقوله تعالى : «رضى الله عنهم ورضوا عنه» . وإن كنا لا نستبعد أن (من) تؤدى معنى صوفياً : هو أنه حتى رضاهم عن الله (من) الله ، فليس للعبد حول ولا طول حتى يرضى أو يسخط .. إلا إذا كان ثمة فضل إلهي (من) الله .

سُورَةُ الْبَلَدِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »^(١)

« بسم الله » كلمة تُخبر عن جلاله أزلي ، وجمال سرمدى ، جلاله ليس له زوال ، وجمال ليس له انتقال ، جلاله لا باغيار^(٢) وأمثال ، جمال لا بصورة ومثال ، وجلاله هو استحقاقه لجبروته وجمال هو استجابته للسكوت ، جلاله مَنْ كاشفه به فأوصافه. فناء في فناء ، وجمال مَنْ لا طفه به فأحواله بقاء في بقاء .

قوله جل ذكره : « لا أقسم بهذا البلد » .

أى : أقسم بهذا البلد ، وهو مكة .

« وأنت حلٌّ بهذا البلد » .

وإنما أُحِلَّتْ له ساعة واحدة^(٣) .

« ووالد وما ولد » .

كلُّ والدٍ وكلُّ مولود . وقيل : آدم وأولاده .

وجواب القسم : « لقد خلقنا الإنسان في كبد » .

ويقال : أقسم بهذا البلد لأنك حلٌّ به .. وبكبد الحبيب حبيب .

« لقد خلقنا الإنسان في كبد »

(١) مرة أخرى حدث اضطراب .. فتفسير البسطة هنا كما جاء في م موضوع في ص في أول السورة القادمة : سورة الشبش . والعكس في م .

(٢) هكذا في م وهي في ص (باعتبار) والصحيح ما أثبتنا .

(٣) عن ابن عباس قال : « أُحِلَّتْ له ساعة من نهار ثم أُطبقت وحُرِّمَتْ إلى القيامة وذلك يوم فتح مكة . وثبت أن النبي (ص) قال : « إن الله حَرَّمَ مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهي حرامٌ إلى أن تقوم الساعة ، فلم تحل لأحدٍ قبل ، ولا تحل لأحدٍ بعدى ، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار » .

أى : فى مشقة ؛ فهو يقاسى شدائد الدنيا والآخرة .

ويقال : خلقه فى بطن أمه (متصباً رأسه) فإذا أذن الله أن يخرج من بطن أمه تنكس رأسه عند خروجه ، ثم فى القياط وشدة الرباط . . . ثم إلى الصراط هو فى الهياط والهيل^(١) .
قوله جل ذكره : « أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ »

أى : لقوته وشجاعته عند نفسه يقول :

« يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا » .

« لُبَدًا » كثيراً ، فى عداوة محمد صلى الله عليه وسلم .^(٢)

« أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ » .

أليس يعلم أن الله يراه ، وأنه مطلع عليه ؟

قوله جل ذكره : « أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ؟ »

أى : ألم نخلقه سمياً بصيراً متكلماً .

« وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » .

ألهنناه طريق الخير والشر .

« فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ »

ما العقبَةُ ؟ * فَلَكَ رَقَبَةٌ * أَوْ إِطْعَامٌ

فى يَوْمٍ ذى مَسْغَبَةٍ * يَتِيًّا ذَا مَقْرَبَةٍ *

أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ » .

أى : فهلاً اقتحم العقبه . « وما أدراك ما العقبه ؟ استفهام على التضمين لثانها .

ويقال : هى عقبه بين الجنة والنار يجاوزها من فعل ما قاله : وهو فَلَكَ رَقَبَةٌ : أى : إعتاقُ

مملوك ، والفَلَكَ الإزالة . وأطعم فى يومٍ ذى مجاعةٍ وقحطٍ وشدةٍ يَتِيًّا ذَا قرابةٍ ، أو « مسكيناً

ذا متربة » : لا شئ له حتى كأنه قد التصق بالتراب من الجوع .

(١) يقال : هم فى هياط وهياط أى فى شر وجلبية ، وقيل : فى دنو وتباعد (الوسيط) .

(٢) يقال : نزلت فى رجل من بنى جُمَحٍ كان يقال له : أبو الأشدين ، وكان من أشد أعداء النبی (ص) .

(قاله الكلبي) .

قوله جل ذكره : « ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالبرحة » .

أى : من الذين يرحم بعضهم بعضاً .

« أولئك أصحابُ التيمنة »

أى : أصحابُ التَّيْنِ والبركة .

« والذين كفروا بآياتنا هم أصحابُ
المشأمة * عليهم نارٌ مؤصدة » .

كَمْ للمشائِمُ على أنفسهم ، عليهم نارٌ مُطْبِقة ؛ يعنى أبواب النيران (عليهم مغلقة) .

والعقبة التى يجب على الإنسان اقتحامها : نَفْسُهُ وهواه ، وما لم يَجْزُ تلك العقبة لا يفلح
و « فك رقبة » هو إعتاقُ نَفْسِهِ من رِقِّ الأغراض والأشخاص .

ويكون فك الرقبة بأن يهدى مَنْ يَفْكُهُ — من رق هواه ونَفْسُهُ — إلى سلامته
من شُحِّ نَفْسِهِ ، ويرجعه إليه ، ويخرجه من ذُلِّهِ .

ويكون فك الرقبة بالتَّحرُّزِ من التدبير ، والخروج من ظلمات الاختيار إلى سعة الرضاء .

وبقال : يطعم من كان فى متربة ويكون هو فى مسغبة .

« ثم كان من الذين آمنوا ... » أى تكون خاتمته على ذلك ^(١) .

(١) أى يبقى على ذلك حتى الوفاة .

سُورَةُ الشَّمْسِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » إخبارٌ عن وجود الحق بنعت القِدَم . « الرحمن الرحيم » : إخبارٌ عن بقاءه بوصف الغلاء والكرم .

كاشَفَ الأرواحَ بقوله : « بسم الله » فهيَّما ، وكاشَفَ النفوسَ بقوله : « الرحمن الرحيم » فتَيَّما ؛ فالأرواحُ دَهَشَتْ في كَشَفِ جلاله ، والنفوسُ عَطَشَتْ إلى لُطْفِ جماله (١) .
قوله جل ذكره : « والشمس وضحاها » .

ضُحَا الشمسِ صَدْرُ وقت طلوعها .

« والقمر إذا تلاها » .

أى : تَبِعَها ؛ وذلك في النصف الأول من الشهر .

« والنَّهار إذا جَلَّأها » .

إذا جَلَّى الشَّمْسَ وكَشَفَها .

« والليل إذا يَغْشَاها » .

أى : يَغْشَى الشَّمْسَ (فيذهب بضوئها) .

« والسماء وما بناها » .

أى وبنائها . ويقال : وَمَنْ بَنَاهَا (٢)

(١) نذكر بما قلناه آنفا عن تماكس وضع تفسيري البسلة فيما بين «البلد» و«الشمس» في النسختين م ، و ص .
(٢) هذا القول الأخير اختاره الطبري ، وقاله الحسن وعجاهد . وأهل الحجاز يقولون : سبحان (ما) سبَّحت له .
أى سبحان من سبَّحت له .

« والأرض وما طحاها » .

أى : وطَّحَها . ويقال : ومَنْ طحاها (أى بسطها أو قسمها أو خلقها) .

« ونَفَسَ وما سواها » .

ومن سوَّى أجزائها وأعضائها .

« فألهمها فُجورَها وتَقواها » .

أى : بأن خَذَلَهَا وَوَقَّتَهَا .

ويقال : فُجورُها : حركتها فى طلب الرزق ، وتَقواها : سكونها بِمُحْكَمِ القدير .
وقيل : طريق الخير والشر .

قوله جل ذكره : « قد أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا » .

هَذَا جواب القسم . أى : « لقد أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا » .

ويقال : مَنْ زَكَّاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ .

« وقد خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » .

أى : دَسَّاهَا اللهُ . وقيل : دَسَّاهَا (١) فى جملة الصالحين وليس منهم .

وقيل : خَابَ مَنْ دَسَّ نَفْسَهُ بِمَعْصِيَةِ اللهِ . وقيل دَسَّاهَا : جعلها خَسِيسَةً حقيرةً .
وأصل الكلمة دَسَّاهَا (٢)

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ ثمودُ بِطَغْوَاهَا » .

« بطغواها » : لطغيانها ، وقيل : إن صالحاً قدمات ، فَكَفَرَ قَوْمُهُ ، فَأَحْيَاهُ اللهُ ،
فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ ، فَكَذَّبُوهُ ، وَسَأَلُوهُ عِلَامَةً وَهِيَ النَّاقَةُ ، فَأَتَاهُمْ صَالِحٌ بِمَا سَأَلُوا .

« إِذْ أَنْبَعَثَ أَشْقَاهَا » .

(١) أى دسَّاهَا صاحبها .

(٢) من التَّدْيسِ ، وهو إخفاء الشيء فى الشيء ، فأبدلت بينه ياءً كما يقال : قَصَّيْتُ أَظْفَارِي وَالْأَصْلُ قَصَمْتُ ، ومثله قولهم فى تَضْفِيزٍ : تَقَفَّيْتُ .

« أشقاها » عاقبها .

« فقال لهم رسول الله ناقة الله
وسقياها » .

أى : احذروا ناقة الله ، واحذروا سقياها : أى : لا تتعرضوا لها .

« فكذبوه ففقروها . . . » .

أى كذبوا صالحا ، فقرروا الناقة .

« . . . فدمدم عليهم ربهم بذنبيهم
فسواها » .

أى : أهلكهم بجرمهم ، « فسواها » : أى أطبق عليهم العذاب ^(١) .

ويقال : سوى بينهم ربهم فى العذاب لأنهم كلهم رضوا بعقر الناقة .

قوله جل ذكره : « ولا يخاف عتباها » .

أى : أن الله لا يخاف عاقبة ما فعل بهم من العقوبة .

ويقال : قد أفلح ^(٢) من دأوم على العبادة ، وخاب من قصر فيها .

وفائدة السورة : أنه أفلح من طهر نفسه عن الذنوب والعيوب ، ثم عن الأطلاع فى
الأعراض والأغراض ، ثم أبعد نفسه عن الاعتراض على الأقسام ، وعن ارتكاب الحرام .
وقد خاب من خان نفسه ، وأهملها عن المراجعة ، ودنسها بالمخالفات ؛ فلم يرض بدم المعانى
حتى ضم إلى فقرها منها الدعوى المظلمة ... ففرقت فى بحر الشقاء سفينته .

(١) بأن سوى عليهم الأرض .

(٢) هكذا فى ص وهى فى م (أصلح) وقد رجحنا ما أثبتنا ، فهكذا الآية ، ثم ما تلا هذه العبارة .

سُورَةُ اللَّيْلِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

بسم الله كلمة تُخَيِّرُ عن إلهية الله ؛ وهي استحقاقه لنعوت الجدد والتوحد ، وصفات العز والتفرد ؛ فمن تجرد في طلبه عن الكسل ، ولم يستوطن مركب العجز والفشل ، ووضع النظر موضعه وصل دليل العقل إلى عرفانه ، ومن بذل روحه ونفسه وودع في الطلب راحته وأنسه ، ولم يعرج في أوطان الوقتة ظفر بحكم الوصول إلى شهود سلطانه ، والناس فيه بين موفق ومخذول ، أو مؤيد ومردود .

قوله جل ذكره : « والليل إذا يفتى » .

يفتى الأفق ، وما بين السماء والأرض فيستره بظلمته .

والليل لأصحاب التحير يستغرق جميع أقطار أفكارهم فلا يهتدون الرشدا .

« والنهار إذا تجلى »

أنار وظهر ، ووضح وأسفر .

ونهار أهل المرفان بضياء قلوبهم وأسرارهم ، حتى لا يخفى عليهم شيء ، فسكنوا بطلوع

الشمس (١) عن تكلف إيقاد السراج (٢)

« وما خلق الذكر والأنثى » .

أى : « من » خلق الذكر والأنثى ؛ وهو الله سبحانه :

« إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى » .

هذا جواب القسم ، والمعنى : إن أعمالكم لمختلف ؛ فمن سعى في طلب دنياه ، ومنكم

من سعى في شهوات نفسه واتباع هواه ، ومنكم من في طلب جاهه ومناه ، وآخر في طلب عقباه ،

(١) يقصد شمس التوحيد .

(٢) إذا طلعت شمس التوحيد لم تغر محاولات العقل ، لأن نورها يطفى على كل الأنوار .

وآخر في تصحيح قواه ، وآخر في تصفية ذكراه ، وآخر في القيام بمُحسن رضاه ، وآخر في طلب مولاه .

ومنكم : من يجمع بين سعى النفس بالطاعة ، وسعى القلب بالإخلاص ، وسعى البدن بالقرب ، وسعى اللسان بذكر الله ، والقول الحسن للناس ، ودعاء الخلق إلى الله والنصيحة لهم . ومنهم مَنْ سعى في هلاك نفسه وما فيه هلاك دينه . . . ومنهم . . . ومنهم .

قوله جل ذكره : « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى » * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى » * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى »

« فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى » من ماله ، « وَاتَّقَى » مخالفة ربه . . .

ويقال : « أَعْطَى » الإِنصَافَ من نفسه ، « وَاتَّقَى » طَلَبَ الإِنصَافِ لنفسه^(١) . . .

ويقال : « اتَّقَى » مَخِيطَ اللَّهِ . « وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى » : بِالْجَنَّةِ ، أَوْ بِالْكَرَّةِ الْآخِرَةِ ، وَبِالْمَغْفِرَةِ لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ ، وَبِالشَّفَاعَةِ مِنْ جِهَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَبِالْخَلْفِ^(٢) مِنْ قِبَلِ اللَّهِ . . . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى : أَيْ نُسهِّلُ عَلَيْهِ الطَّاعَاتِ ، وَنُسَكِّرُهُ إِلَيْهِ الْخَالَفَاتِ ، وَنُشْهِئُ إِلَيْهِ الْقُرْبَ ، وَنُجَبِّئُ إِلَيْهِ الْإِيمَانَ ، وَنُزَيِّنُ فِي قَلْبِهِ الْإِحْسَانَ .

ويقال : الإِقامَةُ عَلَى طَاعَتِهِ وَالْعُودُ إِلَى مَا عَمِلَ مِنْ عِبَادَتِهِ .

« وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى » * وَكَذَّبَ

بِالْحُسْنَى » * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى » .

أما مَنْ مَنَعَ الْإِحْسَانَ ، وَاسْتَغْنَى فِي اعْتِقَادِهِ ، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى : أَيْ بِمَا ذَكَرْنَا ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ؛ فَيَقَعُ فِي لَمَصِيَّةٍ وَلَمْ يُدَبِّرْهَا ، وَنُوقِفَ^(٣) لَهُ أَسْبَابُ الْخَالَفَةِ .

ويقال « أَعْرَضَ » أَعْرَضَ عَنِ الدَّارَيْنِ ، « وَاتَّقَى » أَنْ يَجْعَلَ لَهَا فِي نَفْسِهِ مَقْدَاراً^(٤) .

(١) من الصِّدْقَةِ أَنْ تَتَحَلَّى بِإِصْنِافٍ وَأَنْ تَتَخَلَّى عَنِ الْإِنصَافِ . . . هكذا قال الشَّيْخُ .

(٢) (الْخَلْفُ) بِالْمَعْنَى الْعَامِ : إِنْ لَمْ يَرِثِ الْأَمْرَ مِنْ مَنْ عَلَيْهِ ، وَبِالْمَعْنَى الصَّوْفِيَّةِ : « فَالَّذِينَ يَهْتَمُّونَ - فِي حَالِ لِقَاءِ اللَّهِ - فَهُمْ عَنْهُمْ خِلَافٌ » انظر بِسْمَةِ الْأَحْقَافِ مِنْ هَذَا الْمَجْلَدِ .

(٣) هكذا في ص وهي في م (تُؤَوَّقُ) وهي مقبولة أيضاً (فالتَّوَفُّيقُ) للمعنى هو التَّيسِيرُ لَهَا كَمَا فِي الْآيَةِ . . . بل لَهَا أَقْرَبُ إِلَى السِّيَاقِ مَا خُصَّ .

(٤) حتى يَبْتَدَأَ مِنَ الْأَعْوَاضِ وَالْأَفْرَاضِ ، وَيُنْقِطَ قَلْبُهُ فِي وَحْدَةٍ .

قوله جل ذكره : « وما يُغْنِي عنه ماله إذا تَرَدَّى »

يعنى : إذا مات .. فما الذى يغنى عنه ماله بعد موته ؟

قوله جل ذكره : « إِنْ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ »

لأوليائنا ، الذين أُرشدناهم . ويقال : « إِنْ عَلَيْنَا لَلهُدَىٰ » بنصيب الدلائل .

« وَإِنْ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ »

مُنْكَأً ، نعطيه من نشاء .

« فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ »

أى : تَلَظَّى .

« لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَىٰ »

أى : لَا يُعَذِّبُ بِهَا إِلَّا الْأَشْقَى ، وهو :

« الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ »

يعنى : كَفَرَ .

« وَسَيَجْزِيهَا الْآخِرَىٰ * الَّتِي يُؤْتِي

مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ »

يُعْطَى الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ .

ويقال يَتَطَهَّرُ مِنَ الذَّنُوبِ .

ونزلت الآية في (أبي بكر) ^(١) رضى الله عنه . والآية علمة .

(١) ما بين القوسين غير موجود في م ، ويوجد فقط « رضى الله عنه » وفي م : يوجد فقط (والآية عامة) فأكلنا السياق .

ويروى : أن النبي (ص) مر ببلال وهو يعذب في الله ويقول :

أحد أحد ، فلما نقل ذلك إلى أبي بكر ، عرف أبو بكر ما يريد النبي ، فذهب إلى أمية بن خلف ، واشترى بلالا واعتقه ، فلما قال المشركون : ما أعتقه أبو بكر إلا ليدينه كانت له عنده ، نزل قوله تعالى : « وما لأحد عنده من نعمة تجزي . إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى » .

« وما لأحدٍ عنده من نعمةٍ تُجْزَى »

حتى تكون هذه مكافأةً له . ولا يفعل هذا لِيَتَّخِذَ عند أحدٍ بدءاً ، ولا يطلب منه مكافأة :

« إِلَّا أُبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى »

أى : لِيَتَقَرَّبَ بِهَا إِلَى اللَّهِ .

« وَلَسَوْفَ يَرْضَى »

يَرْضَى اللَّهُ عَنْهُ ، وَيَرْضَى هُوَ بِمَا يَعْطِيهِ .

سُورَةُ الضُّحَى

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسم لا يُشبهه كُفُو^(١) في ذاته وصفاته ، ولا يَسْتَفْزُهُ^(٢) لَهْوٌ في إثبات مصنوعاته ، ولا يعتريه سَهْوٌ في علمه وحكمته ، ولا يعترضه لَفْوٌ في قوله وكلمته .
فهو حكيم لا يلهو ، وعليم لا يسهو ، وحليم يُثَبِّتُ ويمحو ؛ فالصدق قَوْلُهُ ، والحق حُكْمُهُ ، والخلقُ خَلْقُهُ وَالْمَلِكُ مُلْكُهُ .

قوله جل ذكره : « والضُّحَى * والليل إذا سجاً »

« والضُّحَى » : ساعة من النهار . أو النهار كله يُسَمَّى ضُحَى . ويقال : أقسم بصلاة الضُّحَى .

ويقال : الضُّحَى الساعة التي كَلَّمَ فيها موسى عليه السلام .

« والليل إذا سجاً » أي : ليلة المراج ، و « سجاً » : أي سَكَنَ ، ويقال : هو عامٌ في جنس الليل .

ويقال : « الضُّحَى » وقت الشهود . « والليل إذا سجاً » الذي قال : إنه لَيَعْنَانِ على قلبي^(٣) . . . »

(١) أصلها « كُفُوٌ » أي مائل ، أو قوى قادر على تصريف العمل .

ويقرأ بضم الفاء وسكونها ، فإن كل اسم على ثلاثة أحرف أوله مضوم فإنه يجوز في عينه الغم والاسكان إلا قوله تعالى « وجعلوا له من عباده جزءاً » (آية ١٥ سورة الزخرف) .

(٢) استفزه الشيء = استففه ، واستفزه فلان = أثاره وأزعجه .

(٣) عن أغرمزينة قال : قال رسول الله (ص) : إنه ليعنان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم واليلة مائة مرة « أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي . وفي رواية لسلم : « توبوا إلى ربكم ، فواقعوا لآلئ التوب إلى ربّي تبارك وتعالى في اليوم مائة مرة » .

ويقال : « الليل إذا سجا » حين ينزل الله فيه إلى السماء الدنيا — على التأويل الذى يصح فى وصفه^(١) .

« مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ »

ما قطعَ عنك الوحيَ وما أبغضك^(٢) .

وكان ذلك حين تأخر جبريل — عليه السلام — عنه أياماً^(٣) ، فقال أهل مكة : إن محمداً قد فلاه ربه . ثم أنزل الله هذه السورة .

وقيل : احتبس عنه جبريل أربعين يوماً ، وقيل : اثني عشر يوماً ، وقيل : خمسة وعشرين يوماً .

ويقال : سبب احتباسه أن يهودياً سأله عن قصة ذى القرنين وأصحاب الكهف ، فوعده الجواب ولم يقل : إن شاء الله^(٤) .

« وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ »

أى : ما يعطيك فى الآخرة خيرٌ لك مما يعطيك فى الدنيا .

ويقال : ما أعطاك من الشفاعة والحوض ، وما يُلبسُك من لباس التوحيد — غداً — خيرٌ مما أعطاك اليوم .

« وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ »

قيل : أفترضى بالمطاء عن المعطى ؟ قال : لا .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ ؟ »

(١) تقدّم التعليق على هذا الخبر فى هامش سبق .

(٢) هكذا فى ص وهى فى م (يفضيك) .

(٣) فى البخارى عن جندب بن سفيان قال : اشتكى رسول الله (ص) فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً فجاءت امرأة (هى العوراء بنت حرب أخت أبى سفيان ، وهى حمالة الحطب ، زوج أبى هب) فقالت : يا محمد ، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك ، لم أره قريبك منذ ليلتين أو ثلاث ، فأنزل الله عز وجل «والضحى» .

(٤) يقال : إن جبراً دخل تحت السرير فى حجرته ومات ، فلما تغيب الوحي سأل خادمه نحوه : يا نحوه ما حدث فى بيتي ؟ ما لجبريل لا يأتيني ؟ فلما قامت إلى البيت فكنته وأخبرته بما وجدت .. فلما عاد الوحي سأله عن سير تأخره فقال جبريل : أما علمت أنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة ؟

قيل : إلى عمه أبي طالب .

ويقال : بل آواه إلى كنفِ ظله ، ورباه بلطف رعايته .

ويقال : فأواك إلى بساطِ القربة بحيث انردت بمقامك ، فلم يُشاركك فيه أحدٌ
« وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى »

أى : ضللت في شعاب مكة ، فهدي إليك عمك أبا طالب في حال صباك .

ويقال : « ضالًّا » فينا متحيزًا .. فهديناك بنا إلينا .

ويقال : « ضالًّا » عن تفصيل الشرائع ؛ فهديناك إليها بأن عرفناك تفصيلها .

ويقال : فيما بين الأقوام ضلالٌ فهداهم بك .

وقيل : « ضالًّا » للاستنشاء (١) فهذاك لذلك .

ويقال « ضالًّا » في محبتنا ، فهديناك بنور القربة إلينا .

ويقال : « ضالًّا » عن محبتي لك فعرفتك أني أحبك .

ويقال : جاهلاً بمحلِّ شرفك ، فعرفتك قدرَكَ .

ويقال : مستتراً في أهل مكة لا يعرفك أحدٌ فهديناهم إليك حتى عرفوك (٢)

« وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى »

في التفسير : فأغناك بمال خديجة .

ويقال : أغناك عن الإرادة والطلب بأن أرضاك بالفقد (٣)

ويقال : أغناك بالنبوة والكتاب . ويقال : أغناك بالله .

(١) الكلمة غير واضحة الرسم في النسختين ، وقد رجحنا هذه الكلمة لأنها أقرب إلى ما في م ، ولأن من القصص السابقة ما يشير إلى أنه لم يقدم المشيئة فموتب في ذلك ، ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله .
(٢) ربما تنفق هذه الإشارة مع ما جرت عليه العرب في وصف الشجرة المنفردة في الفلاة لا شجر معها بأنها ضالة يهتدى بها إلى الطريق لأنها علامة مميزة ، فهي معروفة لذاتها ، ولأنها علامة على الطريق هادية إليه .
(٣) هكذا في م ، وهي في ص (بالعقل) ، ولكننا نرجح ما جاء في م ، ولا نستبعد أنها في الأصل (الفقر) .. فالرضا في حال الفقر أو (الفقر) أتم في النعمة من الرضا في حال الغنى .. وهل أعظم من الغنى بالله ؟ !

ويقال : أغناك عن السؤال حينما أعطاك ابتداء ؛ بلا سؤال منك .

قوله جل ذكره : « فَأَمَّا الْيَقِيمَ فَلَا تَهْزَأْ »

فلا تُخَفِّهْ ، وارفقْ به ، وقربْ به

« وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ »

أى : إِمَّا أَنْ تُعْطِيَهُ .. أَوْ تَرْدَّهُ بِرِفْقٍ ، أَوْ وَعْدٍ .

ويقال : السائلُ عَنَّا ، والسائلُ المتحيرُ فينا — لا تنهرهم ، فَإِنَّا نَهْدِيهِمْ ، ونكشف

مواضع سؤالهم عليهم .. فَلَاطِفُهُمْ أَنْتَ فِي الْقَوْلِ .

« وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ »

فاشكُرْ ، وصرِّحْ بإحسانه إليك ، وإنعامه عليك .

سُورَةُ الْمَرْشَحِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسمٌ عزيزٌ عزَّزَ مَنْ التَّجَأَ إِلَيْهِ ، وَجَلَّ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ ، وَفَازَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَنْ تَوَسَّلَ بِهِ إِلَيْهِ ؛ فَمَنْ تَقَرَّبَ مِنْهُ قَرَّبَهُ وَمَنْ شَكَأَ إِلَيْهِ حَقَّقَ لَهُ مَطْلَبَهُ ، وَمَنْ رَفَعَ قَصَّتَهُ إِلَيْهِ قَضَى مَأْرَبَهُ .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ؟ »

أَلَمْ نُوسِّعْ قَلْبَكَ لِلْإِسْلَامِ ؟ أَلَمْ نُلَيِّنْهُ لِلْإِيمَانِ ؟

ويقال : أَلَمْ نُوسِّعْ صَدْرَكَ بِنُورِ الرِّسَالَةِ ؟ أَلَمْ نُوسِّعْ صَدْرَكَ لِقَبُولِ مَا نُوْرِدُ عَلَيْكَ .

« وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ • الَّذِي أَثْقَلَ

ظَهْرَكَ »

أَي : إِثْمَكَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ .

ويقال : عَصَمْنَاكَ عَنْ ارْتِكَابِ الْوِزْرِ ؛ فَوَضَعْنَاهُ عَنْهُ بِأَنَّهُ لَمْ يَسْتَوْجِبْهُ قَطْرًا .

ويقال : خَفَضْنَا عَنْكَ أَعْيَاءَ النُّبُوَّةِ وَجَعَلْنَاكَ مَحْمُولًا لَا مَتَحْمِلًا^(١) .

ويقال : قَوَيْنَاكَ عَلَى التَّحْمُلِ مِنَ الْخَلْقِ ، وَقَوَيْنَاكَ لِمَشَاهِدِنَا ، وَحَفَظْنَا عَلَيْكَ مَا

اسْتَحْفَظْتَ^(٢) ، وَحَرَسْنَاكَ عَنْ مَلَا حِظَةِ الْخَلْقِ فِيمَا شَرَّفْنَاكَ بِهِ .

(١) وهذه أسمى درجات الحب ، وقد مر بنا كيف قارن القشيري بين مواقف موسى ، ومواقف المصطفى صلوات الله عليهما ، وكيف أوضح لنا أن موسى كان متحملاً بينما كان نبياً محمولا .

(٢) إشارة إلى القرآن ، الذي حفظ من التغير والتحرير .. إلى الأبد .

« الذي أفض ظهرك » : أى : أثقله ، ولولا حملنا عنك لكسرت .

« ورفعنا لك ذكرك »

يذكرنا ؛ فكما لا نصح كلمة الشهادة إلا لى ، فإنها لا تصح إلا بك . (١)

ويقال : رفعنا لك ذكرك بقول الناس : محمد رسول الله !

ويقال : أثبتنا لك شرف الرسالة .

« فإن مع العسر يسراً * إن مع

العسر يسراً »

وفى الخبر : « لن يقلب عسر يسرين » (٢) ومعناه : أن العسر بالألف واللام فى الموضعين

للعهد — فهو واحد ، واليسر منكراً فى الموضعين فهما شيئان . والعسر الواحد : ما كان فى

الدنيا ، واليسران : أحدهما فى الدنيا من الخصب ، وزوال البلاء ، والثانى فى الآخرة من الجزاء ؛

وإذا فسر جميع المؤمنين واحد — وهو ما نابهم من شدائد الدنيا ، ويسرهم اثنان : اليوم

بالكشف والصرف (٣) ، وغداً بالجزاء .

قوله جل ذكره : « فإذا فرغت فانصب »

فإذا فرغت من الصلاة المفروضة عليك فانصب فى الدعاء .

ويقال : فإذا فرغت من العبادة فانصب فى الشفاعة .

ويقال : فإذا فرغت من عبادة نفسك فانصب بقلبك .

« وإلى ربك فارغب »

فى جميع الأحوال .

ويقال : فإذا فرغت من تبليغ الرسالة فارغب فى الشفاعة .

(١) فلا تصح الشهادة شرعاً إلا إذا قلنا : وأن محمداً رسول الله .

(٢) البخارى ص ١٤٥ - ٣ .

(٣) (الكشف) هنا ليس كما قد نفهم من قبيل المصطلح الصوفى ، بل هو كشف القبة وصرف المحنة ،
فهى لفظة عامة فى هذا السياق .

سُورَةُ التِّينِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

اسم « الله » يدلُّ على جلال مَنْ لم يَزَلْ ، ويُخْبِرُ عن جمال مَنْ لم يَزَلْ ، يَبه على إقبال مَنْ لم يَزَلْ ، يشير إلى إفضال مَنْ لم يَزَلْ ؛ فالعارف شهيد^(١) جلاله فطَّاش ، والصَّنيُّ شهيد جماله فطَّاش ، والوليُّ شهيد إقباله فارتَّاش ، والمريدُ يشهد إفضاله فلا يطلب مع كفايته المعاش .

قوله جل ذكره : « والتين والزيتون »

أقسم بالتين لما به من عظيم المنَّة على الخلق حيث لم يجعل فيه النوى ، وخلَّصه من شائب التنقيص ، وجعله على مقدار اللقمة لتكمل به اللذة . وجعل في « الزيتون » من المنافع مثل الاستصباح والتأدُّم والاصطباغ به .

« وطور سينين »

الجبل الذي كلمَّ الله موسى عليه . ولموضع قدَّم الأحباب حُرمة .

« وهذا البلد الأمين »

يعنى : مكة ، ولهذا البلد شرف كبير ، فهي بلد الحبيب ، وفيها البيت ؛ وليت الحبيب وبلد الحبيب قدرٌ ومنزلة .^(٢)

(١) من هنا يبدأ في النسخة بياض في النسخة من يتلوه . سقوط حتى بداية سورة العاديات . ولهذا نمتد فيما بين الموضعين على النسخة م وحدها .

(٢) ما ذهب المفسرون في تفسير : التين والزيتون وطور سينين ، والبلد الأمين قول بعضهم : إن التين إشارة إلى جبل دمشق وهو مأوى عيسى عليه السلام ، وباليونان جبل بيت المقدس فهو مقام الأنبياء جميعهم ، وطور سينين إشارة إلى موسى كلم الله ، والبلد الأمين إشارة إلى أن مكة بها بيت إبراهيم وبها دار محمد صلى الله عليه وسلم .. فكان مطالع السورة تشير إلى النبوات البارزة .

قوله جل ذكره : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن

تقويم » .

في اعتدال قامته ، وحسن تركيب أعضائه . وهذا يدل على أن الحق — سبحانه — ليس له صورة ولا هيئة ؛ لأن كل صفة اشترك فيها الخلق والحق فالمبالغة للحق .. كالعالم ، فالأعلم الله ، والقدرة : فالأقدر الله ، فلو اشترك الخلق والخالق في التركيب والصورة لكان الأحسن في الصورة الله ... فلما قال : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » عليم أن الحق — سبحانه — منزّه عن التقويم وعن الصورة .^(١)

قوله جل ذكره : « ثم رددناه أسفل سافلين »

أى : إلى أردل العمر وهو حال الخرف^(٢) والهَرَم .

ويقال : « أسفل سافلين » : إلى النار والهاوية في أقبح صورة ؛ فيكون أول الآية عامًّا وآخرها خاصًّا بالكفار .. كما أن التأويل الأول — الذى هو حال الهَرَم — خاصٌّ في البعض ؛ إذ ليس كل الناس يبلغون حال الهَرَم .

« إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات

فلهم أجرٌ غير ممنون »

أى : غير منقوص .

ويقال : « ثم رددناه أسفل سافلين » أى : إلى حال الشقاوة والكفر إلا المؤمنين .

قوله جل ذكره : « فما يكذبك بعد بالدين »

أيها الإنسان .. مع كل هذا البرهان والبيان ؟

« أليس الله بأحكم الحاكمين » ؟

(١) في هذا ردٌ جميل منقطع عن المشبهة ، وعلى كل فنى تصور وهمى للألوهية .

(٢) الخرف = فساد العقل بسبب كبر السن .

سُورَةُ الْعَلَقِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة سماعها يوجبُ أحدَ أمرين : « إمَّا صَحْوًا وَإِمَّا مَخَوًّا ؛ صَحْوًا لِمَنْ سَمِعَهَا بِشَاهِدِ الْعِلْمِ فَيَسْتَبْصِرُ بِوَاضِحِ بَرَاهِنِهِ ، أَوْ مَخَوًّا لِمَنْ سَمِعَهَا بِشَاهِدِ الْمَعْرِفَةِ لِأَنَّهُ يَتَحَيَّرُ فِي جَلَالِ سُلْطَانِهِ .

قوله جل ذكره : « أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ »

هذه السورة من أوَّلِ مَا نَزَلَ عَلَى الْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا تَعَرَّضَ لَهُ جِبْرِيلُ فِي الْهَوَاءِ ، وَنَزَلَ عَلَيْهِ قَالُ : « أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ » . فَالْأَناسُ كُلُّهُمْ مَرِيدُونَ — وَهُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مُرَادًّا . فَاسْتَقْبَلَ الْأَمْرَ بِقَوْلِهِ : « مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، قَالُ لَهُ : أَقْرَأْ ، قَالُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، قَالُ لَهُ : أَقْرَأْ كَمَا أَقُولُ لَكَ ؛ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . أَيْ خَلَقَهُمْ عَلَى مَا هُمْ بِهِ .

« خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ »

الْعَلَقُ جَمْعُ عَلَقَةٍ ؛ كَشَجَرٍ وَشَجَرَةٍ .. (وَالْعَلَقَةُ الدَّمُ الْجَامِدُ فَإِذَا جَرَى فَهُوَ الْمَسْفُوحُ) .

« أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ »

« الْأَكْرَمُ » : أَيْ الْكَرِيمُ .

وَيُقَالُ : الْأَكْرَمُ مِنْ كُلِّ كَرِيمٍ .

« الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »

عَلَّمَهُمْ مَا لَمْ يَعْلَمُوا : الضَّرُورِيُّ ، وَالْكَسْبِيُّ .

« كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِكَيْفَى * أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى »^(١)

أى : يتجاوز جدّه إذا رأى فى نفسه أنه استغنى ؛ لأنه يعمى عن مواضع افتقاره .

ولم يقل : إن استغنى بل قال : « أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى » فإذا لم يكن مُعْجَباً بنفسه ، وكان مشاهداً /
لحلّ افتقاره -- لم يكن طاعياً^(٢) .

قوله جل ذكره : « إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى » .

أى : الرجوع يوم القيامة .

قوله جل ذكره : « أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى »

أليس لو لم يفعل هذا كان خيراً له ؟ فى الآية هذا الإضرار .

« أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى »

لكان خيراً له ؟

« أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى »

كذّب بالدين ، وتولّى عن الهداية .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى » ؟

أى : ما الذى يستحقّه مَنْ هذه صفته ؟

والتخويفُ برؤية الله تنبيه على انراقة - وَمَنْ لَمْ يَبْلُغْ حَالَ المراقبة لم يَرْتَقِ منه إلى حال

المشاهدة .

قوله جل ذكره : « كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ *

نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ »

(١) قيل نزلت فى أبي جهل حين نهى النبى «ص» عن الصلاة : فأمر الله نبيه أن يصلّى فى المسجد ويقرأ باسم الرب ..
والذين يرون ذلك يرون أن السورة ليست من أوائل ما نزل من القرآن . أو يجوزون أن تكون أوائل السورة كذلك
وأن بقيتها فى شأن أبي جهل - أى متأخرة .

روى البخارى عن ابن عباس : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلّى عند الكعبة لأطأن على عنقه ، فبلغ النبى ذلك
فقال : لو فعل لأخذته الملائكة . (البخارى ٣ ص ١٤٦) .

(٢) من أشد آفات الطريق خطراً ملاحطة النفس ، ونهايك بدعواها .

لَنَاخُذَنَّ بِنَاصِيَتِهِ (وهي شَعْرُ مَقَدَّمِ الرَّأْسِ) أَخْذًا إِذْلالٍ . ومعناه لِنُسَوِّدَنَّ وَجْهَهُ .

وقوله : « نَاصِيَةٌ كَاذِبَةٌ خَاطِئَةٌ » بدلٌ من قوله : « لِنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ » (١)

« فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ » سَدْعُ الزَّبَانِيَةِ

فليدعُ أهلَ نادِيَةِ وأهلَ مجلسه ، وسندعو الزبانيةَ ونأمرهم بإهلاكه .

قوله جل ذكره : « كَلَّا لَا تُطِيعُنَّ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ »

أى : اقترِبْ من شهود الربوبية بقلبك ، وقِفْ على بساط العبودية بنفسك .

ويقال : فاسجدْ بنفسك ، واقترِبْ بِسِرِّكَ (٢) .

(١) نسبة الكذب والخطيئة إلى الناصية يقصد بها صاحب الناصية كقولهم : نهاره صائم وليله قائم ، أى هو صائم في نهاره وقائم في ليله .

(٢) السجود عبادة الظواهر ، ولهذا ربطها القشيري بالنفس ، فكل ما يتصل بالظاهر يرتبط - عنده - بالنفس ، وأما الاقتراب فهو عبادة الباطن المرتبطة بالسر .

سُورَةُ الْقَدْرِ

قوله جل ذكره « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة تُخَضِّرُ قلوبَ العلماء لتأمل الشواهد ، وتُسَكِّرُ قلوبَ العارفين إذا وردوا الشاهد . . فهولاء أحضرهم فَبَصَّرَهم ، وعلى استدلالهم نصرهم .

وهولاء بشرابِ محابة أسكَّرَهم ، وفي شهودِ جلاله حَيَّرَهم .

قوله جل ذكره : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » .

في ليلةٍ قَدَّرَ فيها الرحمةَ لأوليائه ، في ليلةٍ يجد فيها العابدون قَدْرَ نفوسهم ؛ ويشهد فيها العارفون قَدْرَ معبودهم . . وشتان بين وجودِ قَدْرٍ * وشهودِ قَدْرٍ ! فهولاء وجودُ قَدْرٍ ولكن قدر أنفسهم ، وهولاء شهودِ قَدْرٍ ولكن قدر معبودهم

« وما أدراك ما ليلةُ القَدْرِ » ؟

استفهامٌ على جهة التفتيح لشأن تلك الليلة .

« ليلةُ القَدْرِ خيرٌ من ألفِ شهرٍ » .

أى : هي خيرٌ من ألف شهر ليست فيها ليلةُ القدر . هي ليلةٌ قصيرةٌ على الأحباب لأنهم فيها في مسامرةٍ وخطاب . . كما قيل :

يا ليلة من ليالى الدهرِ قابلت فيها بَدْرَها بَبْدَرِ
ولم تكن عن شفقٍ وفجرٍ حتى تولت وهي بكرُ الدهرِ

قوله جل ذكره : « تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحُ فِيهَا
يُأْذَنُ رَبُّهُمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ
هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ » .

« الروح فيها » : قيل جبريل . وقيل : مَلَكٌ عَظِيمٌ

« يُأْذَنُ رَبُّهُمْ » : أى بأمر ربهم .

« مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ » : أى مع كل مأمورٍ منهم سلامى عَلَى أَوْلِيَائِهِ (١) .

« هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ » : أى هى باقية إلى أن يطلع الفجر .

(١) قد يتأيد رأى القشيري في اختيار هذا النسب الذى يتم به الكلام بما يرويه أنس — قال : قال رسول الله (ص) :
إذا كانت ليلة القدر نزل جبريل في كبكبة (جماعة) من الملائكة ، يصلون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد
يذكر الله تعالى .

سُورَةُ لَمَّيْكَن

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » : اسمٌ عزيزٌ تنصّل إليه المذنبون فغفّر لهم وجبرهم^(١) ، وتوسّل إليه المطيعون فوصلهم ونصرهم .

تعرّف إليه العالمون فبصّروهم ، وتقرّب منه العارفون فقرّبهم ... لكنه — سبحانه — في جلاله حَيَّرَهم^(٢) .

قوله جل ذكره : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة » .

« منفكين » : مُنْتَهَيْن عن كفرهم حتى تأتيهم البينة : وهي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أي لم يزالوا مجتمعين على تصديقه ؛ لما وجدوه في كسب . إلى أن بعثه الله تعالى . فلما بعثه حسدوه وكفروا .

« رسولٌ من الله يتلوا محفّا مطهرةً » فيما كُتِبَ قِيَمَةٌ .

(١) في النسخة م توجد بعد هذا الموضع . العبارة التالية «وتوكّل إليه العوفون فجبرهم» . ونستبعد . جودها في الأصل ؛ لأن ترتيب العارفين لا يأتي بين المذنبين والمطيعين ، وإنما يأتي بعد « العالمين » ، كما هو ثابت في النسخة على هذا النحو الذي أثبتناه هنا . كما أن « جبرهم » فعل يتصل بالزلات والذنوب ... فبعد أن العبارة متصلة بالمذنبين ، ويتأيد ما اخترناه بالسياق الذي نألفه في أسلوب البسلة عند الشيخ ، ونسبها عن خدمته للموسيقى والمعنى .. وهما المنصهران الأساسيان في نسيج البسلة عنده .

(٢) التحير في الجلال صفة مدح ، ولذا يقول يحيى بن معاذ : يا دليل المتحيرين زدني تحيراً .. لأنه غرق في بحر الرجود عند الشهود .

أى حتى يأتيهم رسول من الله يقرأ كُتُبًا مُطَهَّرَةً عن تبديل الكفار .

« فيها كتب قيمة » ^(١) : مستوية ليس فيها اعوجاج .

قوله جل ذكره : « وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ » .

يعنى : القرآن .

قوله جل ذكره : « وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَّةِ » .

« مخلصين له الدين » أى موحدين لا يُشركون بالله شيئاً ؛ فالإخلاصُ ألا يكون شئ من حركاتك وسكناتك إلا لله .

ويقال : الإخلاصُ تصفيةُ العمل من الخللِ .

« حنفاء » : مائلين إلى الحق ، عاقلين عن الباطل ^(٢) .

« وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ » . وذلك دينُ القِيَّةِ : أى دينُ الملةِ القِيَّةِ ، والأمةِ القِيَّةِ ، والشرِعةِ القِيَّةِ .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ » .

« خالدين فيها » : مقيمين . « البرية » : الخليفة .

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ » .

(١) يرى القرطبي : أن « كتباً » هى بمعنى الحكام ، لأن كُتِبَ بمعنى حَكَمَ ، قال تعالى : « كُتِبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ » سورة المجادلة .

(٢) كلمة « حنيف » من الأضداد . فهى تحمل معنى (الميل) عن الباطل و (الاستقامة) فى طريق الحق .

أى : خير الخلق ، وهذا يدل على أنهم أفضل من الملائكة .

قوله جل ذكره : « جزاؤهم عند ربهم جنات عدن

تجري من تحتها الأنهار خالدين

فيها أبداً » .

« جزاؤهم » : أى ثوابهم فى الآخرة على طاعتهم .

« تجري من تحتها الأنهار » أى : من تحت أشجارها الأنهار .

« رضى الله عنهم ورضوا عنه » .

فلم تنبثق لهم مطالبته إلا لحققها لهم .

« ذلك لمن خشي ربه » .

أى : خافه فى الدنيا .

والرضا سرور القلب بمر القضا .

ويقال : هو سكون القلب تحت جريان الحكم .

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

قوله جل ذكره: «بسم الله الرحمن الرحيم» .

«بسم الله» كلمةٌ مَنْ تَأَمَّلَهَا بِمَعَانِيهَا وَوَقَفَ عَلَى مَا أُودِعَ فِيهَا رَسَّعَتْ أَسْرَارُهُ فِي دِيَارِ
مِنْ الْأَنْفُسِ مَوْثِقَةً، وَأَيَّنَتْ أَفْكَارُهُ بِلَوَائِحِ مِنَ الْيَقِينِ مُشْرِقَةً، فَهِيَ عَلَى جَلَالِ الْحَقِّ شَاهِدَةٌ،
وَهِيَ عَلَى مَا يَحِيطُ بِهِ الذِّكْرُ وَيَأْتِي عَلَيْهِ الْحَصْرُ زَائِدَةٌ .

قوله جل ذكره: «إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا *
وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا» .

أى: أمواتها ، وما فيها من الكنوز والدقائق .

« وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ؟ »

يعنى الكافر الذى لا يؤمنُ بها أى بالبعث^(١) .

« يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ أَعْيُنَهَا » .

يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ الْأَرْضُ :

« بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا » .

أى : إنما تفعل ذلك بأمر الله .

(١) روى الضحاك عن ابن عباس أنه قال : «هو الأسود بن عبد الأسد» ويرى بعض المفسرين : أن الإنسان هنا هو كل إنسان من مؤمن وكافر لأن الجميع لا يعلمون أشرار الساعة في ابتداء أمرها إلى أن يتحققوا عمومها ، ولذا يسأل بعضهم بعضاً .
أما القشيري فقد نظر إليها من ناحية الاعتراف وجعل من يسأل عنها كافراً بها جاحداً لها . أما المؤمن فلا حاجة له في السؤال .

«يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا^(١)»

أَعْمَالَهُمْ .

«أَشْتَاتًا» : مَفْرُوقِينَ . «لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ» لِيُحَاسَبُوا .

قوله جل ذكره : «فَنَنْصَلِفُ نَسْفًا يَوْمَئِذٍ ذُرَّةٌ خَيْرًا يَوْمَهُ» .

وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَوْمَهُ» .

فُيْقَاضِي عَنَاءَهُ .

(١) هذه قراءة العامة . وثراً الحسن والبرخيزي وفتادة والأعرج وابن عاصم وطلحة بن يحيى : وَلِيُتَرَوْا .

سُورَةُ الْعَادِيَّاتِ

قوله جل ذكره: « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمةٌ غَيُورٌ لا يَصْلُحُ لذكرها إِلَّا لسانٌ مَصُونٌ^(١) ، عن اللغوِ والغيبةِ ، ولا يصلح لمعرفتها إِلَّا قلبٌ مُحَرَّوسٌ عن الغفلة والغيبة^(٢) ، ولا يصلح لحبِّها إِلَّا رُوحٌ مُحْفَوظَةٌ عن العِلاقة والحِجبة .

قوله جل ذكره: « والعادياتِ ضَبَحًا » .

« العاديات » : الخيلُ التي تعدو^(٣) .

« ضَبَحًا » أى إذا ضَبَحْنَ ضَبْحًا ، والضَبْحُ : هو صوتُ أجوافها إذا عَدَوْنَ . ويقال : ضَبَحَها هو شِدَّةُ نَفْسِها عند العَدْوِ .

وقيل : « العاديات » ؛ الإبل^(٤) .

وقيل : أقسم الله بأفراسِ الفِزاةِ^(٥) .

« فالمُورياتِ قَدَحًا » .

تورى بمخوافرها النار إذا عَدَتْ وَأَصَابَتْ سَنَابِكُها الحِجَارَةُ بالليل .

(١) من هذا الموضع تبدأ النسخة ص بعد البياض والسقوط اللذين أشرنا إليهما من قبل .

(٢) الغيبة المتصلة باللسان هي الكلام في حق الغائب ، والغيبة المتصلة بالقلب هي ورود واردة من أى نوع يُعْطَلُ الاتجاه الكامل نحو المحبوب ، كالتفكير في الثواب أو الخوف من العقاب ، أو الطمع في الأعواض ، أو استعجال شيء .. ونحو ذلك مما يشوب كأس المحبة من غيرية ..

(٣) المَلَوُ : هو تباعده الأرجل في سرعة المشى .

(٤) هكذا في ص وهي في م (اليل) وهي خطأ في النسخ والفعل المستعمل مع الإبل هو (ضبح) فتكون (ضبحا) هنا بجاء مبدلة عن عين (القرطبي ٢٠٥ ص ١٥٦)

(٥) في الخبر : «من لم يعرف حرمة فرس الغازي ففيه شعبة من النفاق» .

ويقال : الذين يورون النار بعد انصرافهم من الحرب .

ويقال : هي الأسنة .

« قَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا » .

تُغِيرُ عَلَى الْعَدُوِّ صَبَاحًا .

« فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا » .

أى : هَيَّجَنَ بِهِ غِبَارًا .

« فَوَسَّطُنَ بِهِ جَمًّا » .

أى : تَوَسَّطَنَ الْمَكَانَ ، أى : تَتَوَسَّطُ الْخَلِيلَ بِفَوَارِسِهَا جَمْعَ الْعَدُوِّ .

« إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ » .

هَذَا هُوَ جَوَابُ الْقَسَمِ .

« لَكَنُودٌ » : أى لَكَفُورٌ بِالنِّعْمَةِ (١) .

« وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ » .

أى : وَإِنَّهُ عَلَى كَنُودِهِ لَشَهِيدٌ

« وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ » .

أى : وَإِنَّهُ لِبَغِيلٍ لِأَجْلِ حُبِّ الْمَالِ (٢) .

قوله جل ذكره : « أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ » .

أى : بُعِثَ الْمَوْتَى .

« وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ » .

يُنَيَّنُ مَا فِي الْقُلُوبِ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ .

« إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ خَبِيرٌ » .

(١) روى عن ابن عباس : أن الكنود بلسان كندة وحضر موت : العاصى ، وبلسان ربيعة ومضر : الكفور ، بلسان كنانة : البغيل السبيء المملكة .

(٢) قال تعالى : « إِنَّ تَرَكَ خَيْرًا » آية ١٨٠ سورة البقرة .

أفلا يعلم أن الله يُجازيهم — ذلك اليوم — على ما أسلفوا، ثم قال على الاستئناف :
« إن ربهم بهم يومئذٍ خبير » .

ويقال في معنى الكنود^(١) : هو الذي يرى ما إليه من البلوى ، ولا يرى ما هو به من النعمى .

ويقال : هو الذي رأسه على وسادة النعمة ، وقلبه في ميدان الفاقة .

ويقال : الكنود : الذي ينسى النعم ويعدُّ المصائب .

وقوله : « وإنه على ذلك لشهيد » ، يحتمل : وإن الله على حاله لشهيد .

(١) لعل القشيري هنا مستفيد من قول ذي النون المصري : الكنودُ : هو الذي إذا مسه الشر جزوع ، وإذا مسه الخير منوع . يجزع من البلوى ، ويمنع الشكر على النعمى .

سُورَةُ الْقَارِعَةِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ إذا سمعها العاصون نسوا زَلَّتْهُمْ في جنب رحمة ، وإذا سمعها العابدون نسوا صولتهم في جنب إلهيته .

كلمةٌ مَنْ سمعها ما غادرت له شُغلاً إلا كَفَتْهُ ، ولا أمراً إلا أصلحتهُ ، ولا ذنباً إلا غفرتهُ ، ولا أرباباً إلا قضتُهُ .

قوله جل ذكره : « الْقَارِعَةُ » ما الْقَارِعَةُ ؟ .

الْقَارِعَةُ : اسمٌ من أسماء القيامة ، وهي صيغة « فاعلة » من الْقَرَعَ ، وهو الضربُ بشدة . سُمِّيت قارعة لأنها تقررهم .

« وما أذراك ما الْقَارِعَةُ ؟ » .

تهويلاً لها .

« يومَ يكونُ الناسُ كالفَرَاشِ
المبثوثِ » .

أى : المُتَفَرِّقِ . . . وعند إعادتهم يركب بعضهم بعضا .

« وتكونُ الجبالُ كالغيثِ المنفوشِ » .

أى : كالصوف المصبوغ .

والمعنى فيه : أن أصحابَ الدعاوى^(١) وأربابَ القوة في الدنيا يكونون — في القيامة إذا

(١) هكذا في ص وهي في م (الدواعي) وهي خطأ من الناسخ ، وقد وردت صحيحة فيما بعد ؛ فالمقصود دعوى العسر .

بُعِثُوا — أضعف من كل ضعيف ؛ لأن القوى هنالك تسقط ، والدعاوى تبطل .

قوله جل ذكره : « فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ » فهو في

عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ .

مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ بالخيرات فهو في عيشة راضية ؛ أي مَرْضِيَةٍ .

ووزن الأعمال يومئذ يكون بوزن الصحف . ويقال : يخلق بذلك كل جزء من أفعاله
جوهراً ، وتوزن الجواهر ويكون ذلك وزن الأعمال .

« وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ » فَأَمَّا
هَٰؤُلَاءِ .

مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ من الطاعات — وهم الكفار — فأواها هَٰؤُلَاءِ .

« وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ؟ » نَارٌ حَامِيَةٌ .

سؤال على جهة التهويل^(١) . ولم يرِدْ الخبرُ بأن الأحوال توزن ، ولكن يُجَازَى كلُّ
بِحَالَةٍ مما هو كَسْبٌ له ، أو وَصَلَ إلى أسبابها بكسبٍ منه .^(٢)

(١) هكذا في م وهي في ص (التحويل) وهي خطأ من النسخ .

(٢) بعد أن تحدث عن ميزان الأعمال تحدث من ميزان الأحوال .. ومن المعلوم أن الأعمال جهود كسبية ،
والأحوال مواهب فيضية .. ولكن قد يكون فيها شيء من الكسب فمثلاً : إذا رضى العبد بالقبض أنعم الحقُّ عليه
بالبسط ، وإذا راعى حدود الوقت ظفر بمقتضيات الوقت وإلا ... كان الوقت عليه مقتراً والإنسان لا يحاسب
إلا على ما كسب .

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

« بِسْمِ اللَّهِ » : اسمٌ عزيزٌ تقدَّسَ في آزاله عن كل مكان ، ولم يحتج في آباده إلى زمانٍ أو إلى مكان ؛ لا يقطعه حدٌّ فأني يجوز في وصفه المكان ؛ ولا يقطعه عدٌّ فأني تجوز في وصفه الزيادة والنقصان ؟ (١)

قوله جل ذكره : « أَلْهَاكُمْ التَّكْوِيْنُ • حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ » .

أى : شغلَّكم تفكيركم فيما بينكم إلى آخر أعماركم إلى أن تموت .
ويقال : كانوا يفتخرون بأبائهم وأسلافهم ؛ فكانوا يشيدون بذكر الأحياء ، وبمن مضى من أسلافهم .

فقال لهم : شغلَّكم تفكيركم فيما بينكم حتى عدَّدتم أموالكم مع أحيائكم . وأنساكم تكاثركم بالأموال والأولاد طاعة الله .

« كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ • ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ » .

على جهة التهويل .

« كَلَّا لو تعلمون عِلْمَ الْيَقِيْنِ » .

أى : لو علمتم حقَّ اليقين لارتدعتم عما أنتم فيه من التكذيب .

(١) واضح مدى ارتباط اتجاه التفسير في إشارة البسملة بالجوهر العام للسورة الذي ينبئ على اتخاذ الزيادة والنقصان مقياساً للتفاخر والادعاء .

« لَتَرَوُنَّ الْجَعِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ

الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النِّعَمِ ».

أراد جميع ما أعطاهم الله من النعمة ، وطالبهم بالشكر عليها .

ومن النعم الذي يُسألُ عنه العبد تخفيفُ الشرائع ؛ والرُّخصُ في العبادات .

ويقال : الماء الحار في الشتاء ، والماء البارد في الصيف .

ويقال : منه الصِّحَّةُ في الجسد ، والفراغ (١) .

ويقال : الرضا بالقضاء . ويقال : القناعة في المعيشة .

ويقال : هو المصطفى صلى الله عليه وسلم .

(١) في البخاري وفي سنن ابن ماجه : «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ» .
ومعنى الغبن : أنها نعمتان ولكن غالب الناس يصرفهما في غير محالهما .

سُورَةُ الْعَصْرِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

كَلِمَةٌ مِّنْ سَمْعِهَا لَمْ يَدَّخِرْ عَنْهَا ^(١) مَّالَهُ ؛ لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُ — سُبْحَانَهُ — يُحَسِّنُ مَالَهُ ، وَمَنْ عَرَفَهَا لَمْ يُؤْثِرْ عَلَيْهَا نَفْسَهُ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ بِدُونِهَا أَنْسَهُ .

كَلِمَةٌ مِّنْ صَحِيحِهَا لَمْ يَمْنَعْ عَنْهَا رَوْحَهُ ؛ إِذْ وَجَدَ الْحَيَاةَ الْأَبَدِيَّةَ لَهُ مَمْنُوحَةً . ^(٢)

قوله جل ذكره : « وَالْعَصْرِ » إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ »

« العصر » : الدهر — أقسم به .

ويقال : أراد به صلاة العصر . ويقال : هو العشي .

« الإنسان » : أراد به جنس الإنسان . « والخسر » : الخسران .

والمعنى : إن الإنسان لفى عقوبة من ذنوبه . ثم استثنى المؤمنين فقال :

« إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » .

الذين أخلصوا في العبادة وتواصوا بما هو حق ، وتواصوا بما هو حسن وجميل ،
وتواصوا بالصبر .

وفي بعض التفاسير : قوله : « الَّذِينَ آمَنُوا » يعني أبا بكر ، « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » : يعني عمر

(١) هكذا في ص وهي في م (عنة) .

(٢) هكذا في م وهي في ص (مفتوحة) وإن كانت هناك زيادة كالميم تملو الميم الأولى .

و « وتواصوا بالحق » يعنى عثمان ، و « وتواصوا بالصبر » يعنى علياً — رضى الله عنهم أجمعين .^(١)

والخسران الذى يلحق الإنسان على قسمين : فى الأعمال ويتبين ذلك فى المال ، وفى الأحوال ويتبين ذلك فى الوقت والحال ؛ وهو القبضُ بعد البسط ، والحجبةُ بعد القربة ، والرجوعُ إلى الرُّخصِ بعد إيثار الأَشَقِّ والأَوْلى .

« وتواصوا بالحق » : وهو الإيثارُ مع الخلق ، والصدقُ مع الحق .

« وتواصوا بالصبر » : على العافية . . . فلا صبرَ أنتم منه .

ويقال : بالصبر مع الله . . وهو أشدُّ أقسام الصبر^(٢)

(١) تنسب هذه الرواية إلى أبيّ بن كعب الذى قال : قرأت على رسول الله (ص) « والعصر » ثم قلت : ما تفسيرها يا نبي الله ؟ فقال : « والعصر » قَسَمٌ من الله ، أقسم ربكم بآخر النهار « إن الإنسان لى خمر » : أبو جهل . . إلى آخر الرواية كما نقلها القشيري .
(٢) انظر الرسالة باب الصبر ص ٩٢ .

سُورَةُ الْهُمَزَةِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » : اسمٌ مَنْ لا غَرَضَ له في أفعاله ، اسمٌ مَنْ لا عِوَضَ عنه في جلاله وجماله .
اسمٌ مَنْ لا يصيرُ العبدُ عنه مختاراً ، اسمٌ مَنْ لا يَجِدُ الفقيرُ^(١) من دونه قراراً ، اسمٌ مَنْ لا يَجِدُ أحدٌ من حُكمه فراراً .

قوله جل ذكره : « ويلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ » .

يقال : رجلٌ هُمَزَةٌ لُمَزَةٌ : أى كثيرُ الهَمْزِ واللَّمْزِ للناس وهو العيب والغيبة .

ويقال : الهُمَزَةُ الذى يقول فى الوجه ، واللُمَزَةُ الذى يقول مِنْ خَلْفِهِ .

ويقال : الهَمْزُ الإشارةُ بالرأس والجفن وغيره ، واللَّمْزُ باللسان .

ويقال : الهُمَزَةُ الذى يقول ما فى الإنسان ، واللُمَزَةُ الذى يقول ما ليس فيه .

قوله جل ذكره : « الذى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ » .

« جَمَعَ » بالتشديد^(٢) على التكثير ، وبالتخفيف .

« يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ » .

أى : يُبْقِيهِ فى الدنيا . . كَلَّا ليس كذلك :

(١) الفقير هنا المقصود به الصوفى المفتقر إلى الله ، انظر آخر السورة .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص غير موجودة ، مما قد يشعر باحتمال انصراف الكلام إلى « عدَّده » فهى أيضاً تقرأ على التشديد والتخفيف .

« كَلَّا لِيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ

مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي

تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ » .

لِيُطْرَحَنَّ فِي جَهَنَّمَ . « وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ » ؟ عَلَى جِهَةِ التَّهْوِيلِ لَهَا .

فَهُمْ فِي نَارِ اللَّهِ الْمُوقَدَةِ الَّتِي يَبْلُغُ أَلَمُهَا النَّوَادِ .

« إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ » .

مُطَبَّقَةٌ .

« فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ » .

« عَمَدٌ » : جَمْعُ عَمَادٍ . وَقِيلَ : إِنَّهَا عُمُدٌ مِنْ نَارٍ تُمَدَّدُ وَتُضْرَبُ عَلَيْهِمْ ؛ كَقَوْلِهِ :

« أَحَاطَ بِهِمْ سَرَادِقُهَا » ^(١)

وَيَقَالُ : الْغَنَى بِغَيْرِ اللَّهِ فَقْرٌ ، وَالْأَنْسُ بِغَيْرِهِ وَحُشَّةٌ ، وَالْعِزُّ بِغَيْرِهِ ذُلٌّ .

وَيَقَالُ : الْفَقِيرُ مَنْ اسْتَغْنَى بِمَالِهِ ، وَالْحَقِيرُ : مَنْ اسْتَغْنَى بِجَاهِهِ ، وَالْفُلْسُ : مَنْ اسْتَغْنَى

بِطَاعَتِهِ ، وَالذَّلِيلُ : مَنْ اسْتَغْنَى بِغَيْرِ اللَّهِ ، وَالْجَلِيلُ : مَنْ اسْتَغْنَى بِاللَّهِ .

وَيَقَالُ : بَيِّنَ أَنْ الْمَعْرِفَةَ إِذَا اتَّقَدَتْ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ أُحْرِقَتْ كُلُّ سُؤْلٍ وَأَرْبٍ فِيهِ ، وَلِذَلِكَ

تَقُولُ جَهَنَّمُ — غَدًا — لِلْمُؤْمِنِ : « جُزْءٌ ، يَا مُؤْمِنٌ . . فَإِنَّ نَوْرَكَ قَدْ أَطْفَأَ لَهَبِي » ا

(١) آيَةُ ٢٩ سُورَةِ الْكَهْفِ .

سُورَةُ الْفِيلِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » : اسمٌ غَنِيٌّ مَنْ أَطَاعَهُ أَغْنَاهُ ، وَمَنْ خَالَفَهُ أَضَلَّهُ وَأَعْمَاهُ .

اسمٌ عزيزٌ مَنْ وَاقَّه رَقَّاهُ إِلَى الرتبة العليا ، وَمَنْ خَالَفَهُ أَلْقَاهُ فِي الهِجْرة الكبرى .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ

الْفِيلِ » ؟ .

أَلَمْ يَنْتَهِرْ إِلَيْكَ فِيمَا أَنْزَلَ عَلَيْكَ مِنْ مَّاءٍ فَعَلَّ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ؟ .

وفي قصة أصحاب الفيل دلالة على تخصيص الله البيت العتيق بالحفظ والكلام .
وذلك : أن أبرهة — ملك اليمن — كان نصرانياً ، وبني يبعة لم يصنعاء ، وأراد هدم الكعبة ليصرف الحج إلى بيعتهم .

وقيل : نزل جماعة من العرب ببلاد النجاشي ، وأوقدوا ناراً لحاجة لهم ، ثم تفاقلوا عنها ولم يُطفئوها ، فهبت الريح وحملت النار إلى الكنيسة وأحرقتها ، فقصد أبرهة الكعبة ليهدمها يبيش .

فلما قرب من مكة أصاب مائتي جمل لعبد المطلب ، فلما أُخبر بذلك ركب إليهم ، ففرقه رجالان ، فقالا له :

ارجع . . فإن الملك غضبان .

فقال : واللّاتِ والعُزَّى لا أَرْجِعُ إِلَّا بِإِذْنِ .

فقبل لأبرهة : هذا سيّدُ قريشٍ ببابك ؛ فأذنَ له ، وسأله عن حاجته ؛

فأجاب أبرهة : إنها لك غداً ، إذا تقدّمتُ إلى البيت^(١) .

فعاذ عبد المطلب إلى قريش ، وأخبرهم بما حدث ، ثم قام وأخذ بحلقة باب الكعبة

وهو يقول :

لَا هُمْ إِنْ الْعَبْدَ يَمْنَعُ رَحْلَهُ فَاَمْنَعُ حِلَالَكَ

لَا يَغْلِبَنَّ صَلِيْبُهُمْ وَنَحَالُهُمْ عَدُوّاً مَحَالَكَ

إِنْ يَدْخُلُوا الْبِلْدَ الْحَرَامَ فَأَمْرٌ مَا بِدَالِكَ^(٢)

فأرسل الله عليهم طيراً أخضر^(٣) من جهة البحر طوال الأعناق ، في منقار كل

طائرٍ حَبْرٌ وفي مخالبه حجران .

وقيل : الحجرة منها فوق العدى دون الحص .

وقيل : فوق الحص دون الفستق ، مكتوب على كل واحدة اسم صاحبها .

وقيل : مُحَطَّطَةٌ بالسَّوَادِ . فَأَمْطَرَتْ عَلَيْهِمْ ، وَمَاتُوا كُلُّهُمْ .

وقيل : كان الفيلُ ثمانية ؛ وقيل : كان فيلاً واحداً .

وفي رواية : إنه كان قبل مولده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأربعين سنة .

وقيل : بثلاثة وعشرين سنة . وفي رواية « وَلِدْتُ عامَ الْفِيلِ^(٤) » .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ؟ »

أى : مَكْرَهُمْ فِي إِبْطَالِ .

(١) قيل : إن النجاشي قال له : لقد أعجبتني حين رأيته ، ولكني زهدت فيك حين كلمتني .. أتكلمتني في

التي يعير أصحابها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لخدمته ؟ فقال له عبد المطلب : أنا رب الإبل .. أما البيت فله رب سيّته .

(٢) الحلال جمع حِل . والمِحَال : القوة . والعَدُو بالعين المهملة : الاعتداء .

(٣) قال سعيده بن جبير : هي طيرٌ خُفْصِيرٌ لها مناقير صُفْرٌ .

(٤) وفي رواية : « ولدت يوم الفيل » . وقال قيس بن مخزوم : « ولدت أنا ورسول الله (ص) عام الفيل » .

« وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ » .

« أَبَابِيلَ » : مجتمعة ومتفرقة .

« تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ » .

قيل بالفارسية : سنگل أو گل — أى طين طينج بالنار كالآجر (١) .

« فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ مَّا كُولٍ » .

« كَعَصِفٍ » : كأطراف الزرع قبل أن يدرك . « مَّا كُولٍ » أى ثمره مَّا كُولٍ .

ويقال : إذا كان عبد المطلب — وهو كافر — أخلص فى التجائه إلى الله فى استدفاع البلاء عن البيت — فالله لم يُخَيِّبْ رجاءه . . . ، وسمع دُعاءه قال المؤمنين المخلص إذا دعا ربه لا يرده خائباً .

ويقال : إنما أُجيب لأنه لم يسأل الله لنفسه ، وإنما لأجل البيت . . . وما كان لله لا يضيع .

(١) أخرج القريابى عن مجاهد قال : سجيل بالفارسية أولها حجارة وآخرها طين . (نقله السيوطى فى إتقانه ص ١٣٨ فى باب ما وقع فى القرآن بغير لغة العرب .

سُورَةُ قُرَيْشٍ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم » : الباء في « بسم » تشير إلى براءة سرِّ الموحِّدين عن حسابان الحدثان ، وعن كلِّ شيءٍ مما لم يكن فكان ، وتشير إلى الإقْطاع إلى الله في السَّراء والضراء ، والشَّدَّة والرَّخاء .

والسين تشير إلى سكونهم في جميع أحوالهم تحت جريان ما يبدو من الغيب بشرط مراعاة الأدب .

والميم تشير إلى مِنَّةِ الله عليهم بالتوفيق^(١) لِمَا تَحَقَّقُوا بِهِ من معرفته ، وتخلَّقُوا بِهِ مِنْ طَاعَتِهِ^(٢) .

قوله جل ذكره : « لإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ » .

« الإِيلَاف » : مصدر آلَفَ ، إِذَا جَعَلْتَهُ يَأْلَفُ . . وهو أَلِفَ إِنْفَاءً^(٣) .

والمعنى : جعلهم كمصفٍ ما كُولٍ لإِيلَافِ قُرَيْشٍ ، أَيْ لِيَأْلَفُوا رِحْلَتَهُمْ فِي الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ .

وكانت لهم رحلتان للاختيار^(٤) : رحلةٌ إلى الشام في القيظ ، ورحلةٌ إلى اليمن في الشتاء .

(١) هكذا في م وهي في م (بالتحقيق) . .

(٢) يستطيع القارئ أن يربط بين لحيي البسمة كما يتذوقها التثنية هنا وبين الجو العام للسورة .

(٣) عند هذه النقطة تنهى النسخة (ص) ونعتمد فيما بقى من الكتاب على النسخة م .

(٤) الاختيار طلب الصيرة وجمعها . .

والمعنى : أنعم الله عليهم بإهلاكِ عدوِّهم ليؤلفهم رحلتهم .
وقيل : فليعبدوا ربَّ هذا البيتِ لإيلافِ قريشٍ ، كأنه أعظمُ المِنَّةِ عليهم . وأمرهم
بالعبادة :

« فليعبدوا ربَّ هذا البيتِ » الذى
أطعمهم من جوعٍ .

فليعبدوه لما أنعم به عليهم .
وقيل : فليعبدوا ربَّ هذا البيت الذى أطعمهم من جوعٍ بعد ما أصابهم من القحط
حينما دعا عليهم الرسولُ صلى الله عليه وسلم ^(١) .

« وآمنهم من خوفٍ » .
حين جعلَ الحرمَ آمناً ، وأجارهم من عدوِّهم .
ويقال : أنعم عليهم بأن كفاهم الرحلتين بجلبِ الناسِ الميرةَ إليهم من الشام ومن اليمن .
ووجهُ المِنَّةِ فى الإطعام والأمان هو أن يتفرَّغوا إلى عبادة الله ؛ فإنَّ مَنْ لم يكن مكفياً
الأمور لا يتفرَّغُ إلى الطاعة ، ولا تساعدُه القوة ولا القلبُ — إلا عند السلامة بكلِّ وجهٍ .
وقد قال تعالى :

« ولنبلونكم بشيءٍ من الخوفِ والجوعِ ^(٢) » قدَّم الخوف على جميع أنواع البلاء .

(١) دعا عليهم الرسول (ص) لما كذبوه وقال : « اللهم اجعلها عليهم سنين كمينين يوسف » فاشتد
القحط ، فقالوا : يا محمد ادعُ الله لنا فإننا مؤمنون ، فدعا فأخصبت الأرض ، وحملوا الطعام إلى سائر البلدان .
(٢) آية ١٥٥ سورة البقرة .

سُورَةُ الدِّينِ^(١)

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمةٌ سمّاعها غذاهُ أرواحِ الحَبَّيْنِ ، ضياءُ أسرارِ الواجدين ، شفاءُ قلوبِ الْمُتَّيِّمينِ ؛ بلاءٌ مُهْجِ المساكينِ ، دواءُ كلِّ فقيرٍ مسكينٍ^(٢) .

قوله جل ذكره : « أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ » .

نزلت الآية على جهة التوبيخ ، والتعجب من شأن تظلم اليتيم من الكفار .

قال : أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ، وبالحساب والجزاء ؟

« فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ » .

يدفعه بجنون ، ويقال : يدفعه عن حقه^(٣) .

« وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ » .

أى : لا يَحْضُ على إطعام المسكين ، وإنما يدعُ اليتيم ؛ لأنَّ الله تعالى قد نزع الرحمة من قلبه ، ولا تنزع الرحمة إلَّا من قلبٍ شقيٍّ .

وهو لا يحث على طعام المسكين ، لأنه في شحِّ نفسه وأمرٍ بخُلِّه .

قوله جل ذكره : « فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ

صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤْنَ »

(١) يقول السيوطي في إتيقانه : تسمى سورة أَرَأَيْتَ ، وسورة الدين ، وسورة الماعون (الإتيقان - ا - من ه ه)

(٢) مرة أخرى نلفت النظر إلى ما بين إشارات البسملة والجو العام للسورة .

(٣) قال ابن جريج : نزلت في أبي سفيان ، وكان ينحر في كل أسبوعٍ جَزُوراً فطَلَبَتْ منه يتيم

شيئاً ، ففَرَمَتْ بهمما .

السَّاهِي عَنْ الصَّلاةِ الَّذِي لَا يُصَلِّي . ولم يقل : الذين هم في صلاتهم ساهون . . . ولو قال ذلك لكان الأمرُ عظيماً .

« الذين هم يُراءون » : أي يصلون ويفعلون ذلك على رؤية الناس — لا إخلاصَ لهم « ويمنعون الماعُون » .

الماعون . مثل الماء ، والنار ، والكلاء ، والفأس ، والقِدْر وغير ذلك من آلة البيت ، ويدخل في هذا : البُخْلُ ، والشُّحُّ بما ينفع الخلقَ مما هو مُمكنٌ ومُسْتَطاع .

سُورَةُ الْكَوْثَرِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .
 « بسم الله » اسمٌ يُجَلُّ العبدُ بإجلاله ولا يجل هو إلا باستحقاقِ علوه في آزاله .
 اسمٌ عزيزٌ أعزَّ مَنْ شاء بأفضاله وإقباله ؛ وأذلَّ أعداءه بسلاسله وأغلاله ، والتخليد
 في جحيمه وأنكاله .

قوله جل ذكره : « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ » .

« الكوثر » : أى الخير الكثير . ويقال : هو نهرٌ في الجنة .

ويقال : النبوة والكتاب . وقيل : تخفيف الشريعة .

ويقال : كثرة أمته .

ويقال : الأصحاب والأشباع . ويقال : نورٌ في قلبه .

ويقال : معرفته بربوبيته .

« فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ » .

أى صَلِّ صلاة العيد « وانحر » النُّسُكُ (١)

ويقال : جمع له في الأمر بين : العبادة البدنية ، والمالية .

ويقال « وانحر » أى استقبل القبلة بنحرك . أو ارفع يديك في صلاتك إلى نحرك (٢)

(١) في البخارى وغيره : قال رسول الله (ص) «أول ما نبدأ به فى يومنا هذا أن نصلِّي» ، ثم فرجع
 فننحر ، مَنْ فَعَلَ فقد أصاب نُسُكَنَا ، وَمَنْ ذَبَحَ قبل فإنما هو لحمٌ قَدَّمَهُ لأهله ، ليس من
 النُّسُكِ فى شيء لأن ترتيب الآية : صلاة ثم نحر . وقال أنس : كان النبى (ص) ينحر ثم يصلى حتى نزلت .
 (٢) عن علي رضى الله عنه : لما نزلت الآية سأل النبىُّ جبريل : ما هذه التحيرة التى أمرنى الله بها ؟
 قال : ليست بنحيرة ولكنه يأمرك إذا تحرَّمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت .. فزينة الصلاة رفع اليدين
 عند كل تكبير .

ويقال : ضَعْ يَمِينَكَ عَلَى يَسَارِكَ فِي الصَّلَاةِ وَاجْعَلْهَا تَحْتَ نَحْرِكَ .
« إِنَّ شَانِيكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » .
أى : لَا يُذَكَّرُ بِخَيْرٍ ، مُنْقَطِعٌ عَنْهُ كُلُّ خَيْرٍ . (١)

(١) قيل : هُوَ الْعَاصِ ، وقيل : هُوَ أَبُو جَهْلٍ ، وقيل : هُوَ عَقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ . وَالْأَبْتَرُ مِنَ الرِّجَالِ : مَنْ لَا وَلَدَ لَهُ ، أَوْ مَاتَ أَبْنَاؤُهُ وَبَقِيَتْ بَنَاتُهُ .

سُورَةُ الْكَافِرُونَ^(١)

قوله جل ذكره « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة من آمن بها أمن من زوال النعمي ، وحظي بنعيم الدنيا والعُقبى ،
وسعد سعادة لا يشقى ، ووجد ملكاً لا يفنى ، وبقي في العز والعلو .

قوله جل ذكره : « قل يا أيها الكافرون * لا أعبدُ
ما تعبدون » .

من أصنامكم .

« ولا أنتم عابدون ما أعبدُ » .

« ما » أعبد أى « من » أعبد .

« ولا أنا عابدٌ ما عبدُتم » .

في زمانكم .

« ولا أنتم عابدون ما أعبدُ » .

كُرِّرَ اللفظ على جهة التأكيد .

« لكم دينُكم ولي دين » .

أى : لكم جزاؤكم على دينكم ، ولي الجزاءُ على ديني .

(١) من أسائها : سورة العبادة ، والمقشقة .

والعبودية^(١) القيام بأمره على الوجه الذى به أمر ، وبالقدر الذى به أمر ، وفى الوقت الذى فيه أمر .

ويقال : صدق العبودية فى ترك الاختيار ، ويظهر ذلك فى السكون تحت تصاريح الأقدار من غير انكسار .

ويقال : العبودية انتفاء الكراهية بكل وجه من القلب كيفما صرّفك مولاك

(١) واضح أن إشارة القشيري تستند إلى «العبودية» بينما آليات تتحدث عن «العبادة» ولكن الصلة وثيقة بين كليهما وبين «العبودية» : ارجع فى ذلك إلى رسالة القشيري ص ٩٩ .

سُورَةُ النَّصْرِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » : اسمٌ كريمٌ يُبْصِرُ وَيَسْتُرُ ، وَيَعْلَمُ وَيَحْلُمُ ^(١) ، ويمدح ولا يَفْضَحُ ،
ويسفو عن جميع ما يحترم العبدُ ويصفح ؛ يَعْصِي العبدُ على التوَالِي ، وَيَغْفِرُ الحقُّ ولا يُبَالِي .
قوله جل ذكره : « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ » .

النصرُ الظَّفَرُ بالعدوِّ ، و « الفتح » فتح مكة .

« وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ
أُفْوَاجًا » .

يُسْلِمُونَ جماعاتٍ جماعاتٍ .

« فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ » .

أَكْثَرَ حَمْدِ رَبِّكَ ، وَصَلِّ لَهُ ، وَقَدِّسْهُ .

ويقال : صَلِّ شُكْرًا لهذه النعمة .

« وَاسْتَغْفِرْهُ » وسَلِّ مغفرته .

« إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا » .

لَمَنْ تَابَ ؛ فَإِنَّهُ يَقْبَلُ تَوْبَتَهُ .

ويقال : نصره الله — سبحانه — له بأنْ أَفْتَاهُ عن نَفْسِهِ ، وأبعد عنه أحكامَ البشرية ،
وصَفَّاهُ من الكدورات النفسانية . وأَمَّا « الفتح » : فهو أَنْ رَقَّاهُ إِلَى محلِّ الدنوّ ، واستخلصه
بخصائص الزلفة ، وألبسه لباسَ الجمعِ ، واصطلمه عنه ، وكان له عنه ، وَلَنَفْسِهِ — سبحانه —
منه ، وأظهر عليه ما كان مستورا من قَبْلِ مِنْ أَسْرَارِ الحقِّ ، وعَرَّفَهُ — من كمال معرفته به —
ما كان جميعُ الْخَلْقِ متعطشا إليه ^(٢) .

(١) في ص (يحكم) ولكننا آثرنا أن تكون (يَحْلُمُ) مرجحين أن ذلك أقرب إلى الأصل ؛ لأن الحِلْمَ
هنا أقرب إلى السياق .

(٢) تبهر هذه الفقرة تعبيراً صادقا عن مدى نظرة الصوفية إلى المصطفى على أنه « الصوفي الأول » .

سُورَةُ أَبِي هَبٍ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمة جِبَارَةٌ للمذنبين ، تجبر أعمالهم ، وتحقق آمالهم ، وهي للعارفين تُصَغَّرُ في أعينهم أحوالهم ، ونُكَمِّلُ — عن شواهدهم — امتحانهم^(١) واستئصالهم ، وتحقق لهم — بعد فناءهم عنهم — وصالهم .

قوله جل ذكره : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » .

أى : خَسِرَتْ يَدَاهُ .

« مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ » .

ما أغنى عنه ماله ولا كسبه الخبيث — شيئاً .

وقيل : « ما كسب » : وَلَدُهُ^(٢) .

قوله جل ذكره : « سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ » وأمرأته

سَمَاءُ^(٣) الْخَطْبِ .

يلزمها إذا دخلها ؛ فلا براحَ له منها . وأمرأته أيضاً ستصلى النار معه .

« فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ » .

(١) فى ص (امتحانهم) والصواب أن تكون (امتحانهم) أى حصول « المحو » لهم .

(٢) حين قال أبو لهب : « إن كان ما يقوله ابن أخى حقاً فإنى أفدى نفسى بمالى وولدى » فنزل : « ما أغنى عنه ماله وما كسب » .

(٣) وعلى الرفع قراءة نافع . وقرأ عاصم بالنصب على الظم كأنها اشتهرت بذلك — كقوله تعالى : « ملعونين أينما ثقفوا » آية ٦١ سورة الأحزاب .

« مَسَدٌ » شئٌ مفتولٌ ، وكانت تحمل الشوك وتنقله وتبثه في طريق رسول الله عليه الصلاة والسلام .

ويقال : سُحِقًا لِمَنْ لَا يَعْرِفُ قَدْرَكَ - يا محمد . وَبُعْدًا لِمَنْ لَمْ يَشْهَدْ مَا خَصَصْنَاكَ بِهِ مِنْ رَفْعِ مَحَلِّكَ ، وَإِكْبَارِ شَأْنِكَ ... وَمَنْ نَاصَبَكَ كَيْفَ يَنْفَعُهُ مَالُهُ ؟ وَالَّذِي أَقْبَيْنَاهُ لِأَجْلِكَ وَقَدْ (أَسَاءَ) ^(١) أَعْمَالَهُ .. فَإِنَّ إِلَى الْمَوَانِ وَالْخِزْيِ مَا لَهُ ، وَإِنَّ عَلَى أَقْبَحِ حَالٍ حَالِ امْرَأَتِهِ وَحَالِهِ .

(١) ما بين القوسين من عندنا فهي في النسخة م مشبهة .

سُورَةُ الْإِخْلَاصِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة عزيزة عزَّ لسانُ ذَكَرَها ، وأعزَّ منه قلبُ عَرَفَها ، وأعزُّ من هذا رُوحُ أحبَّها ، وأعزُّ من هذا سِرُّ شَهِدَها .

ليس كلُّ مَنْ قَصَدَها وَجَدَها ، ولا كلُّ مَنْ وَجَدَها بَقِيَ معها .

قوله جل ذكره : « قُلْ هو اللهُ أَحَدٌ » .

لَمَّا قال المشركون : أَنَسِبْ لَنَا رَبَّكَ . أَنزَلَ اللهُ تَعَالَى : « قُلْ هو اللهُ أَحَدٌ » ^(١) فَعَنَى « هو » أى : الذى سَأَلْتُمْ عَنْهُ « هو » الله . ومعنى « أَحَدٌ » أى : هو أَحَدٌ .

ويقال : « هو » مبتدأ ، « والله » خبره و « أَحَدٌ » خبرٌ ثانٍ كقولهم :

هذا حلوةٌ حامضٌ .

« اللهُ الصَّمَدُ » .

« الصمد » : السَيِّدُ الذى يُصَمَّدُ إليه فى الحوائج ، وَيُقَصَّدُ إليه فى المطالب . ويقال : الكاملُ فى استحقاق صفات المدح .

ويرجَّح تحقيقُ قولِ مَنْ قال : إنه الذى لا جوفَ له إلى أنه واحدٌ لا (. . .) ^(٢) فى ذاته .

(١) روى الترمذى ذلك عن أبى العالية . وقيل : الآية جوابٌ لسؤال المشركين : صف لنا ربك ..
أمن ذهب هو أم من نحاس أم من صُفْر ؟
(٢) مشتبهة .

« لم يَلِدْ ولم يُولَدْ » .

ليس بوالدٍ ولا مولود .

« ولم يكن له كُفُواً أحد » .

تقديره . لم يكن أحدٌ كفواً له .

و« أحد » أصله وَحَدٌ ، وَوَحَدٌ ، وواحد بمعنى ، وكونه واحداً : أنه لا قسيم له ولا شبيه له ولا شريك له .

ويقال : السورة بعضها تفسيرٌ لبعض ؛ مَنْ هو الله ؟ هو الله . مَنْ الله ؟ الأحد ، مَنْ الأحد ؟ الصمد ، مَنْ الصمد ؟ الذي لم يلد ولم يولد ، مَنْ الذي لم يلد ولم يولد ؟ الذي لم يكن له كفواً أحد .
ويقال : كاشَفَ الأسرارَ بقوله : « هو » . وكاشَفَ الأرواحَ بقوله : « الله » وكاشَفَ القلوبَ بقوله : « أحد » . وكاشَفَ نفوسَ المؤمنين بباقي السورة .

ويقال : كاشَفَ الوالدينَ بقوله : « هو » ، والموحدَينَ بقوله : « الله » والعارفينَ بقوله : « أحد » والعلماءَ بقوله : « الصمد » ، والعقلاءَ بقوله : « لم يلد ولم يولد » ... إلى آخره .

ويقال : لما بسطوا لسانَ الذمِّ في الله أَمَرَ نبيُّنا بأنْ يَرُدَّ عليهم فقال : « قل هو الله أحد » : أي ذُبَّ عني ما قالوا ، فأنت أوَّلِي بذلك . وحينما بسطوا لسانَ الذمِّ في النبيِّ صلى الله عليه وسلم تولَّى الحقُّ الردَّ عليهم ، فقال : « ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربِّك بمجنون » وقال : « والنجم إذا هوى . ما ضلَّ صاحبكم وما غوى » أي أنا أذبُّ عنك ؛ فأنا أوَّلِي بذلك منك .

ويقال : خاطَبَ الذين هم خاص الخواص بقوله : « هو » فاستقلوا ، ثم زاد لمن نزل عنهم فقال : « الله » ، ثم زاد في البيان لمن نزل عنهم .

فقال : « أحدٌ » ثم لمن نزل عنهم فقال : « الصمد » .

ويقال : الصمدُ الذي ليس عند الخلقِ منه إلا الاسم والصفة

ويقال : الصمدُ الذي تقدَّسَ عن إحاطةِ عِلْمِ المخلوقِ به وعن إدراكِ بَصَرِهِمْ له، وعن إشرافِ معارفِهِمْ عليه .

ويقال : تقدَّسَ بصمديته عن وقوفِ المعارفِ عليه .

ويقال : تَنَزَّهَ عن وقوفِ العقولِ عليه .

سُورَةُ الْفَلَقِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » : اسمٌ عزيزٌ إذا تجلّى لقلبٍ فإن لطفه بجماله أحياء ، وإن كاشفه بجلاله أبادَه وأفناه ؛ فالمبدؤ في حالتي : بقاء وقناء ، ومحور وإثبات ، ووَجْدٌ وَقَدْرٌ .

قوله جل ذكره : « قل أعوذُ بربِّ الفَلَقِ » .

أى أمتنع وأعتصم بربِّ الفَلَقِ . والفَلَقُ الصُّبْحُ .

ويقال : هو الخَلْقُ كُلُّهُ (١) . وقيل الفَلَقُ وادٍ في جهنم (٢) .

« مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ » .

أى من الشرور كُلِّهَا .

« وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ » .

قيل : الليلُ إِذَا دَخَلَ . وفي خبرٍ . أنه صَلَّى اللهُ عليه وسلم أخذ بيد عائشة ونظرَ إلى القمر فقال : « يا عائشة ، تَعَوَّذِي باللهِ مِنْ شَرِّ هَذَا فَإِنَّهُ الْغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ » (٣) .

« وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ » .

وهن السَّوَاحِرُ اللُّوَاتِي يَنْفُخْنَ فِي عُقَدِ الْخَيْطِ (عند الرُّقِيَةِ) ويوهن إدخال

الضررِ بذلك .

(١) أى هو كل ما انفلق من حيوان وصيغ ونوى وحسب ونفثات وغيره ..

(٢) تأخر وضع هذه العبارة قليلاً فأثبتناه في موضعه .

(٣) رواه الترمذى . وقال أبو عيسى : هو حديث صحيح .

« ومن شرَّ حاسدٍ إذا حسدَ » .

والحسدُ شرُّ الأخلاق .

وفي السورة تعليمُ استدفاع الشرور من الله . ومنَ صَحَّ توكلُّه على الله فهو الذي صحَّ تحقُّقه بالله ، فإذا توكلَّ لم يُوفِّقه الله للتوكلِّ إلا والمعلومُ من حاله أنه يكفيه ما توكلَّ به عليه ؛ وإنَّ العبدَ به حاجةٌ إلى دفعِ البلاء عنه — فإنَّ أخذَ في التحرُّز من (١) تدييره وحَوْلِه وقُوَّتِه ، وفَهْمِه وبصيرته في كلِّ وقتٍ استراح من تعب تردُّدِ القلبِ في التدبير ، وعن قريبٍ يُرَقَّى إلى حالة الرضا . . كُنِيَ مرَّادُه أم لا . وعند ذلك الملك الأعظم ، فهو بظاهره لا يفتر عن الاستعاذة ، وبقلبه لا يخلو من التسليم والرضا . (٢)

(١) بعد (من) كلمة منبهة في الرسم أقرب ما تكون إلى (جبلته) .

(٢) معنى هذا أن تمامَ التوكلِّ على الله أعظمُ مانعٍ للعبد من أن يُكَلِّمَ به مَكْرُوهُه نتيجة سِحْرِه أو حَسَدِه ونحوهما .
فلن يصيب العبدَ إلا ما كتبَه الله له .

سُورَةُ النَّاسِ

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

بسم الله الذي قصرت عنه العقول فوققت ، وعجزت العلوم فتحيّرت ، وقاصرت
المعارف فخرجت ، وانقطعت الفهوم فدهشت .. وهو بنعت علانيته ووصف سنائه وبهائه وعِ
كبريائه يُعلم ولكن الإحاطة في العلم به مُحال ، ويرى ولكن الإدراك في وصفه مستحيل
ويُعرف ولكن الإشراف في نفعه غير صحيح .^(١)

قوله جل ذكره : « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ » .

أعتمد رب الناس خالقهم وسيدهم .

« مَلِكِ النَّاسِ » .

أى مالِكهم جميعهم .

« إِلَهِ النَّاسِ » .

القادر على إبادهم .

« مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ » .

من حديث النفس بما هو كالصوت الخفى .

ويقال : مِنْ شَرِّ ذَى الْوَسْوَاسِ .

ويقال : مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسَةِ الَّتِي تَكُونُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ .

(١) فقد جلّت الصمدية أن يستشرف منها عالم بعلومه أو راعيه بوعيه ، أو عارف بمعرفته .. وكل ما هنالك
هو شهود (التعلم) الإلهي لا (الذات) الإلهية .

« والجنّاس » الذى يغيب ويخفى عن ذكرِ الله . وهو من أوصاف الشيطان .

« الذى يوسوس فى صدورِ الناسِ »

من الجنّة والناس .

قيل : « الناس » يقع لفظها على الجنّ والانس جميعاً — كما قال تعالى :

« وإذ صرّفنا إليك نفراً من الجنّ »^(١) فسّمّاهم نفراً ، وكما قال :

« يعوذون برجالٍ من الجنّ »^(٢) فسّمّاهم رجالاً . فعلى هذا استعاذ من الشيطان الذى

يوسوس فى صدور الناس ، والشيطان الذى له تسلّط على الناس كالوسواس ؛ فللنفس من قبل العبد هواجس ، وهواجس النفس ووساوس الشيطان يتقاربان ؛ إذ أن ما يدعو إلى متابعة الشهوة أو الضلالة فى الدين أو إلى ارتكاب المعصية ، أو إلى الخصال الذميمة — فهو نتيجة الوسواس والهواجس .

وبالعلم يُسمّى^(٣) بين الإلهام وبين الخواطر الصحيحة وبين الوسواس^(٤) .

(ومما تجب معرفته)^(٥) أن الشيطان إذا دعا إلى محظور فإن خالفته يدع ذلك (ثم) يدعوك إلى معصية أخرى ؛ إذ لا غرض له إلا الإقامة على دعائك^(٦) . . .) غير مختلفة .

(١) آية ٢٩ سورة الأحقاف .

(٢) آية ٦ سورة الجن .

(٣) فى النص كلمة منهمة اخترنا (يميز) طبقاً لرأى القشيري كما سيتضح من الهامش التالى .

(٤) « الماظر خطاب يرد على الضائر ؛ وقد يكون بإلقاء الشيطان وقد يكون من أحاديث النفس أو من قبل الحق ؛ فإذا كان من المملوك فهو الإلهام ، وإذا كان من قبل النفس قبل له : الهواجس ، وإذا كان من قبل الشيطان فهو الوسواس ، وإذا كان من قبل الله — سبحانه — وإلقائه فى القلب فهو خاطر حق . . . وإذا كان من قبل الملك فإنما يعلم صدقه بموافقة العلم . . . » رساله القشيري ص ٤٦ و ٤٧ .

(٥) هذه إضافة من جاقينا ليماسك السياق ويتضح .

(٦) مشتبه .

خاتمة الكتاب

بعونه تعالى انتهى تحقيق كتاب « لطائف الإشارات » للإمام القشيري في غرة رجب من عام ١٣٩٠ هـ وقد استغرق هذا العمل نحو خمس سنوات كوامل ، قطعنا فيها رحلة أضنت الجسم والبصر والفكر ، ولكنها أمتعت القلب ، وأيقظت الروح ، وأنشت السُرور .

ولست أحب — متأثراً بالصوفية — أن أحدث القارئ عن مقدار ما لقيت من متاعب . . فهذا ضرب من دعوى النفس . . وإنما أترك ذلك للقارئ . وقبل كل شيء أضرع إلى الله — وحده — أن يحتسب هذا العمل لي ذخراً عنده ، وأن يمحوا — إن شاء — من ديواني بعض خطاياي .

كما أدعو الله أن ينفع به كافة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بمقدار ما له من قيمة علمية نادرة ، وبمقدار ما لصاحبه — رضى الله عنه — من قدر جليل في تراثنا العظيم . والواقع . . أن أعظم ما يفهمنى بالسعادة من دواعي هو هذا الاستقبال الذي حظي به الكتاب ، فقد وصلتني رسائل عديدة من أقطار شتى ، ومن علماء أجلاء من نواح نائية كلها تحث على المسير ، وتفدّي العزم ، وتلهم الصبر على إتمام هذا العمل الشاق .

ولا أحب أن أختم كلمتي قبل أن أعتذر للقارئ عما قد يكون في الكتاب من قصور أو تقصير ، ترجع أسباب بعضه لي ، وتقع تبعته علي ، ويعود بعضه إلى المطبعة — فنحن شريكان فيه كما يرجع الكثير منها إلى النساخ . .

ولا عجب في ذلك فالرحلة طويلة ، ودروبها متشعبة . ولكننا نعد — إذا شاء الله — وظهرت للكتاب طبعات أخرى — أن نتحاشى قدر الوسع كل هذه الوجوه . وأكون

سعيداً لو أشرك القراء أنفسهم معي في ذلك ؛ فبعثوا إليّ بملاحظتهم ، فلم يعد الكتابُ منذ الآن قاصراً عليّ وحدي .

كما أعد — إن شاء الله — بتدارك ما جاء في الكتاب من عيوب الشعر التي حالت الظروف القاهرة دون تداركها .

لقد كان رائدنا في هذه المرحلة من التحقيق أن يصل المتن المسموفُ للناس ، ولكننا في المراحل التالية سننهض — بحول الله وقوته — بكثيرٍ من الأعمال التي تتصل بالشروح ، وبالمصطلحات ، وبالتضام الأساسية التي نهض بها الكتاب . . فليس « لطائف الإشارات » بأقلَّ من « الرسالة » التي حظيت باهتمام الأجيال المتعاقبة .

وأخيراً ، فإنني آتمنى أن أكون بإخراج هذا الكتاب قد وُفِّيت بعض الدين الذي في عنقي للإمام الجليل عبد الكريم القشيري — رضى الله عنه وأرضاه .
وقتنا الله جميعاً إلى الخير .

دكتور إبراهيم بسيوني

أستاذ بكلية الآلسن — الزيتون — القاهرة

الفهرس

الصفحة	اسم السورة
٥	الشعراء
٢٣	النمل
٥٣	القصص
٨٦	العنكبوت
١٠٧	الروم
١٢٧	لقمان
١٣٨	السجدة
١٤٩	الأحزاب
١٧٥	سبا
١٩٠	فاطر
٢١١	يس
٢٢٧	الصافات
٢٤٥	ص
٢٦٦	الزمر
٢٩٤	المؤمن (غافر)
٣١٩	فصلت
٣٤١	الشورى
٣٦١	الزخرف
٣٧٩	الدخان
٣٨٨	الجاثية

الصفحة	اسم السورة
٣٩٥	الأحقاف
٤٠٣	محمد (صلى الله عليه وسلم)
٤١٧	الفتح
٤٣٧	الحجرات
٤٤٧	ق
٤٥٩	الذاريات
٤٧١	الطور
٤٨٠	النجم
٤٩٣	القمر
٥٠٢	الرحمن
٥١٦	الواقعة
٥٣٠	الحديد
٥٤٨	المجادلة
٥٥٦	الحشر
٥٦٩	المتحنة
٥٧٥	الصف
٥٨١	الجمعة
٥٨٧	المنافقون
٥٩٢	التغابن
٥٩٨	الطلاق
٦٠٤	التحریم
٦١٠	الملك
٦١٦	القلم
٦٢٤	الحاقة
٦٢٨	المعارج
٦٣٤	نوح
٦٣٧	الحن
٦٤١	المزمل
٦٤٧	المدثر
٦٥٤	القيامة

اسم السورة	الصفحة
الإنسان	٦٦٠
المرسلات	٦٧٠
النبأ	٦٧٥
النازعات	٦٨١
عبث	٦٨٧
التكوير	٦٩٢
الإنفطار	٦٩٦
المطففين	٦٩٩
الإنشقاق	٧٠٥
البروج	٧٠٩
الطارق	٧١٤
الأعلى	٧١٧
الغاشية	٧٢٠
الحجر	٧٢٤
البلد	٧٢٩
الشمس	٧٣٢
الليل	٧٣٥
الضحى	٧٣٩
ألم نشرح	٧٤٣
التين	٧٤٥
العنق	٧٤٧
القدر	٧٥٠
لم يكن	٧٥٢
الزلزلة	٧٥٥
العاديات	٧٥٧
القارعة	٧٦٠
التكاثف	٧٦٢
العصر	٧٦٤

الصفحة	اسم السورة
٧٦٦	الهمزة
٧٦٨	الفيل
٧٧١	قريش
٧٧٣	الدين
٧٧٥	الكوثر
٧٧٧	الكافرون
٧٧٩	النصر
٧٨٠	أبا لهب
٧٨٢	الإخلاص
٧٨٥	العلق
٧٨٧	الناس
٧٨٩	نخاعة الكتاب

انتهى

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٧٣٦ / ٢٠٠٠

I.S.B.N 977 - 01 - 6623 - 5

يقول الإمام القشيري رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى: «ملك يوم الدين»: مَلِكٌ قُلُوبَ الْعَابِدِينَ إِحْسَانَهُ فُطِمَعُوا فِي عَطَائِهِ، وَمَلِكٌ قُلُوبَ الْمُوَحِّدِينَ سُلْطَانَهُ فَقَنَعُوا بِبِقَائِهِ. عَرَفَ أَرْبَابَ التَّوْحِيدِ أَنَّهُ مَالِكُهُمْ فَسَقَطَ عَنْهُمْ اخْتِيَارُهُمْ، عَلِمُوا أَنَّ الْعَبْدَ لَا مَلِكَ لَهُ، وَمَنْ لَا مَلِكَ لَهُ لَا حُكْمَ لَهُ، وَمَنْ لَا حُكْمَ لَهُ لَا اخْتِيَارَ لَهُ، فَلَا لَهُمْ عَنْ طَاعَتِهِ إِعْرَاضٌ، وَلَا عَلَى حُكْمِهِ إِعْتِرَاضٌ، وَلَا فِي اخْتِيَارِهِ مَعَارِضَةٌ، وَلَا مُخَالَفَتُهُ تَعْرِضٌ.

و «يوم الدين» يوم الجزاء والنشر، ويوم الحساب والحشر - الحق سبحانه وتعالى يعجزى كلاً بما يريد، فمن بين مقبول يوم الحشر بفضله سبحانه وتعالى لا بفعلهم، ومن بين مردود بحكمه سبحانه وتعالى لا بجرمهم.

واعلم عزيزي القارئ أن الإمام القشيري في تفسيره للبسملة يلجأ إلى تفسير كل بسملة تتكرر على نحو مُلْفِتٍ للنظر، إذ هي تختلف وتتوَع ولا تكاد تتشابه، ويزداد إعجابنا بالقشيري كلما وجدنا تفسير البسملة يتمشى مع السياق العام للسورة كلها. فالله، والرحمن، والرحيم لها دلالات خاصة في سورة القارعة مثلاً، ولها دلالات في سورة النساء، ولها دلالات خاصة في سورة الأنفال... وهكذا.